الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

التاريخ الكبير

تصنيف

متى باريس

(١٢٣٥-١٢٧٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء أربعون

(١)

دمشق ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

التاريخ الكبير

تصنيف

متى باريس

القسم الأول

(١٢٣٥-١٢٤٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

سلفت بي الاشارة من قبل إلى متى باريس وكتابه في التاريخ الذي أوصل به كتاب «ورود التاريخ» إلى أحداث سنة ١٢٧٣، ومثلما هي معلوماتنا ضئيلة جداً كانت عن صاحب ورود التاريخ هي كذلك عن متى باريس، فهو قد كان مثل سلفه من رهبان دير القديس ألبان، وهو شهر بلقب الباريسي إما لأنه ولد في باريس، أو لأنه تعلم في باريس، ولم يشبه متى سلفه، ولامعاصريه من الرهبان حيث لم يسع لنيل المراتب الرهبانية، مع أنه امتلك المؤهلات وكان عالي الثقافة، ويبدو أنه صرف اهتمامه كله نحو التاريخ وكتابته، وقليلاً هو الوقت الذي صرفه لدراسة الكتاب المقدس وكتابة تعليقات عليه، لاهوتية أو سوى ذلك، وسعى دوماً إلى إعادة النظر بما كتبه في التاريخ تنقيحاً وتصحيحاً وإكمالاً.

ولقد صنف متى «التاريخ الكبير» الذي نقدمه اليوم إلى القارىء العربي للمرة الأولى، وهذا الكتاب جاء تكملة لعمل روجر ويندوفر، وهو معه يصوران أوضاع انكلترا وفرنسا بشكل رئيسي منذ ماقبل سنة ١٠٩٥ حتى ١٢٧٣، أي مايقارب القرنين من الزمان، أو بكلمة أخرى معظم سنوات قرني الحروب الصليبية، ولقد كانت فرنسا وانكلترا هما اللتان أسهمتا أكثر من غيرهما من بلدان أوربا في أحداث الحروب الصليبية، وطبعاً كما سوف يلاحظ القارىء ان روجر ويندوفر ثم متى باريس لم يقصرا اهتماميهما على فرنسا وانكلترا، بل شملا بذلك أوربا كلها، وأن يمتلك الانسان صورة أوربا خلال قرني الحروب الصليبية فيه فائدة جليلة، ومع صورة أوربا أحوال الأرض المقدسة ومجريات الحروب الصليبية في الشرق، فلقد تطورت فكرة حمل الصليب، وكان للبابوية ورجال اللاهوت الدوز

الأعظم في تطوير عقيدة الصليبية والضمانات الممنوحة لحملة الصليب، ولم تعد الحملات الصليبية مقتصرة ضد المسلمين، بل شملت جميع خصوم كنيسة روما، وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ظلت الروح الصليبية متوقدة ضد المسلمين في الشرق، وكان بود البابوية مواصلة إرسال الحملات، لكن أعاقتها الصراعات الداخلية التي تفجرت في كل من فرنسا وانكلترا، حيث كان النظام الاقطاعي يعاني من مشاكل كبيرة، وقد ازدادت المطالب بالمزيد من الحريات العامة وتحديد صلاحيات الملوك، وتوفر صراع مستمر بين الكنيسة وبين التاج، وكانت بذور القوميات قد بدأت تنمو، وتوفرت الأجواء نحو الاتجاه إلى إقامة الحكومات الوطنية إن لم أقل القومية، وكانت نفقات الحملات الصليبية عالية جداً وثقيلة، وفرصة دائمة للاستمرار بفرض الضرائب والمكوس، يوماً لصالح التاج، ويوماً آخر لصالح الكنيسة، ولكن أكثر شيء لصالح البابوية، هذا ويلاحظ أن النهضة الثقافية كانت ضعيفة والعقلية الغيبية هي السائدة لكن توفرت مواجهات جديدة صعبة وتمردات ضد صيغة التثليث والعلاقات بين الأقانيم، ومع ذلك ظلت سلطات البابوية مطلقة وقوية جداً، وتخيف كل انسان بفرض العقوبات الكنسية، ولذلك كانت البابوية تتدخل بالشؤون الداخلية لكل واحدة من دول أوربا، وعانت الادارة البابوية من الفوضى، ومن فعالية الرشوة، وسوء القضاء، وهذا أيضاً عانت منه العروش في فرنسا وانكلترا فالملوك منذ رتشارد الأول ومعاصره فيليب أغسطس باتوا عديمي الخبرة، لابل أحياناً عديمي الوجود، واحتكر المستشارون السلطة، ولذلك لم تتوقف الصراعات السلطوية، وظلت القلاع لها دورها، ولاشك أن الحروب الصليبية كانت لها تأثيراتها على فنون بناء القلاع وتحصيناتها، وعلى التسليح.

هذا في الغرب الأوربي، أما في بلاد الشام والجزيرة ومصر، فقد شكلت الدول الأيوبية عبئاً ثقيلاً على أهل البلاد، حيث انشغل الأيوبيون

بصراعاتهم الداخلية، وتمنوا جميعاً لو أن القدس زالت من الوجود، لذلك كانوا يعرضون تسليمها إلى كل قائد حملة صليبية صغرت أو كبرت، ودفعت دمياط الثمن الباهظ في الدفاع عن مصر وعن القدس.

ومن مزايا كتابينا توفر كميات كبيرة من الوثائق البالغة الأهمية، والتواصل برواية أخبار الأحداث بصدق ودونما تصنيع، مع شيء من العاطفة الانكليزية، هذا وكنا قد ذكرنا أننا لانعرف الكثير عن حياة متى باريس، وبالفعل لاندري بالتأكيد السنة التي توفي فيها، ولعلها كانت سنة ١٢٧٣م التي توقف فيها عن متابعة التأريخ.

هذا وكتب متى كتاباً آخر بالتاريخ حول ملكي ميرشيا Mercia الأوفيين Offas وعن حياة ثلاثة وعشرين من رعاة دير القديس ألبان، واختصر أيضاً التاريخ الكبير بكتاب عرف باسم «التاريخ الصغير»، وأضاف فيها بعد بعض الاضافات إلى هذا الكتاب، وسلف أن ذكرت الجهود الكبيرة التي بذلتها في سبيل الحصول على نسخة من كتاب متى باريس، الذي طبع منذ مائة وخمسين سنة، وبكتاب تاريخ متى باريس، أكون قد دنوت كثيراً من الفراغ من المصادر غير العربية الأساسية.

وإنني إذ أتوجه بالحمد إلى الله تعالى على عونه وتوفيقه، ألتمس منه جلّ وعلا المزيد من العون والتوفيق، والصلاة والسلام على نبيّنا المصطفى وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ/ ١٠- أيار ٢٠٠١م

سهيل زكار

وهكذا رددنا على الحسد، وفرغنا من ذلك.

«وأعدّ يابرايثي Prythee الكاتب قلمك وجهزه،

وتحرك ثانية ودر في فلكك الخاص بك»

وفي الوقت نفسه، تسلم الملك ضريبة الهايد، أي ماركين عن كل هايد hide من أجل زواج أخته ايزابل، فقد دفع الملك أثناء زواجها إلى الامبراطور، في مدة قصيرة من الزمن ثلاثين ألف مارك، إلى جانب زينة الامبراطورة، والتاج الذي كان غالي الثمن كثيراً.

الانتقام الذي أخذ من أجل موت رتشارد الايرل مارشال

وفي حوالي ذلك الوقت تبجح هنري كليمنت Clement وكان كاهناً، قدم رسولاً من النبلاء الايرلنديين، وتفاخر بشكل غير حكيم، بأنه كان السبب في وفاة الايرل رتشارد المارشال، الذي قال عنه بأنه كان خائناً، وعدواً دموياً للملك، ولجميع المملكة، فقتل الرجل بشكل مهين في لندن، حيث كان الملك، واتهم غيلبرت المارشال بموته، لكنه قدم براهين وافرة على براءته.

وكلف في الوقت نفسه الملك هنري الثالث أسقف كارآيل، واستخدمه لابرام معاهدة زواج مع ابنة ايرل ووركستر، وأن يقدم تعهده، وكذلك تعهد الملك حول هذه المسألة، لكن الملك غيّر فيما بعد رأيه، نتيجة تهديد صدر عن الملك الفرنسي، أنه إذا ما أصر، سوف يجري حرمان والدها، وقد تزوجت فيما بعد من ألفونسو، ملك قشتالة، من أجل جمالها.

الفتاوى الغريغورية الجديدة

وفي هذه الآونة أيضاً، شاهد البابا غريغوري التاسع التداخل المتعب للفتاوى والمراسيم البابوية، فأمر بهم فاختصروا، وجمعوا في إطار صغير، ومن ثم أمر بقراءتهم بشكل مهيب ودقيق مسؤول، ونشرهم في جميع أنحاء

العالم، وبدأت هذه الفتاوى المعروفة باسم الغريغورية نسبة إلى مصنفها بالجملة التالية: سلام الملك، إلخ، وقد بدل بعض خصوصياتهم، من ذلك على سبيل المثال، أن بعض الأشخاص غير المؤهلين ينبغي عدم تسلمهم موارد أسقفية ولاهوتية، من دون أن يحصلوا أولاً على ترخيص بالكفاءة من الكرسي الرسولي، ولأنه عرف أن كثيراً من المنافع تحصل لبلاط روما، من أجل الحصول على الشيء نفسه، بالطريقة نفسها كما هو الحال من قانون انوسنت، في سبيل أن يحمل ترخيصاً ما منافع أكثر من آخر.

ربا الكورسينيين

سيطر في هذه الأيام وانتشر الأذى المرعب للكورسينيين Caursines إلى درجة أنه كان من الصعب وجود أي إنسان في جميع انكلترا، خاصة بين الأساقفة الذي لم يقع في شباكهم، حتى الملك نفسه كان مداناً لهم بمبلغ من المال لايمكن تعداده، لأنهم طوقوا المحتاجين وقت عوزهم، وموهوا رباهم تحت مظهر التجارة، وتظاهروا أنهم لايعرفون أن كل ما أضيف إلى الأساس هو ربا، مهما كان الاسم الذي دعي به، لأنه كان من الواضح أن قروضهم ليست موجودة في طريق المعونات، بقدر أنهم كانوا لايقدمون يد المساعدة إلى الفقراء لاسعافهم، بل لخداعهم، وليس لمساعدة الآخرين في جوعهم، بل ليزيدوا من شراهتهم، مشاهدين أن «الدافع يدمغ عملنا نفسه».

الشكل الذي ربط فيه الكورسينيين المقترضين منهم

إلى كل من سوف يرى الكتابات الحالية —رئيس رهبان وراعي دير— صحة في الرب— ليكن معلوماً من قبلكم، بأننا قد تسلمنا قرضاً في لندن، من أجل تسوية مسائل تتعلق بنا وبكنيستنا، من فلان، ومن علان، من أجلهم أنفسهم وشركائهم، سكان وتجار مدينة— مائة وأربعة ماركات من نقود استيرلينية جيدة وقانونية، وكل مارك مقدر بحساب صرف ١٣ شلنغ

و٤ بنس استيرليني، وفيها يختص بالمائة وأربعة مـاركات، نحن نعلن باسمنا وباسم كنيستنا، أننا من دون تنازل أو اعتراض، بأنهم دفعـوا إلينا بالكامل، وننكر كليـاً وجـود أي استثناء بالمال، في أنـه لم يجر تعـداده، أو في أن المال المذكـور لم يتم تحويله لاستخـدامنـا، ولاستخـدامـات كنيستنا، وأن المائـة والأربعة مـاركات استيرلينيـات المتقدم ذكـرهـم، في الصفة والعـدد المتقدم ذكره، بأن يحسب للتجار المذكـورين، أو لواحد منهم، أو لوكيلهم المحدد، الذي سـوف يجلب معـه هذه الـرسـائل الحاليـة، في عيـد القـديس بطرس وفينكولا Vincula أي في اليـوم الأول من شهـر آب، في الهيكل الجديد، في لندن، في سنة ألف ومـائتين وخمس وثلاثين لتجسيد ربنا، ونعـد بميثاق شرعي، ونربط أنفسنا، باسمنـا، وباسم كنيستنا، بأننا سـوف ندفع ونسـدد بشكل كـامل، ونضيف زيادة على ذلك هذا الشرط، وهو أن هذا المال إذا لم يدفع ولم يسدد، في المكان والموعد المتقدم ذكرهما، كما قيل، فإننا نعد أننا منذ ذلك الوقت، وفي موعـد هو دائماً قبل انتهائه، ونربط أنفسنا بالميثـاق نفسه، بأن ندفع وأن نقدم إلى التجار المتقدم ذكرهم، أو إلى وكيلهم المحدد، في كل شهـرين، عن كل عشرة ماركـات، مـارك واحد عن المال المذكـور، وذلك تعويضاً للخسـائر، وهي الخسائر والنفقـات التي يمكن أن يتحملها هؤلاء التجـار أو يتلقـوها، وبناء عليـه من الممكن المطالبـة بالخسـائـر والنفقـات والأسـاس بشكل فعال، حسبما ورد الذكـر أعـلاه، والنفقات هي نفقـات تاجـر واحد، مع فـرس واحد، وخادم واحـد، حيثما سيكون التاجـر حتى يجري الدفع بالكامـل لجميع مـاتقـدم ذكـره، والنفقـات التي صرفت، أو سوف تصرف من أجل استرداد المال نفسه، سوف تسدد، وتعاد إلى التجار أنفسهم، أو إلى واحد منهـم، أو إلى وكيلهم المحدد، وبالنسبـة للذي سوف يعوض عن الخسـائر، والفـائدة والنفقـات، إننا نعد التجار المذكـورين أننا سوف لن نحصيه أو نحسبه بالنسبـة لأساس الدين المذكور، وأن لانحتفظ بالدين المذكـور تحت حجـة التعويضـات المتقـدم ذكرهـا، مراغمـة لإرادة التجار المتقـدم ذكرهم، تجاوزاً للشرط المتقدم ذكـره، وفي سبيل تنفيذ جميع

الشروط المتقدم ذكرها، وأننا سوف ننفذها ونفي بها بكل تأكيد، وسوف نراعيها مراعاة كاملة، ونحن نربط أنفسنا، وكنيستنا، وخلفاءنا وجميع سلعنا وسلع كنيستنا المتحركة، وغير المتحركة، اللاهوتية والدنيوية، الموجودة الآن لدينا، أو التي سوف توجد من الآن فصاعداً، أينما كانوا وحيثما وجدوا، لصالح التجار المذكورين وورثتهم حتى يجري دفع كامل لجميع المتقدم ذكره، الذي إذا كان على شكل بضائع، نحن نعترف بتسلم ذلك منهم بوساطة تأجير مشكوك فيه، ونحن نوافق على وجود المتقدم ذكره في جميع الأماكن، وأمام أي محكمة، وأن نقوم بالتخلي عن كل المتقدم ذكره، بالنسبة لأنفسنا، وبالنسبة لخلفائنا، من كل من الجانب الشرعي والمدني، امتيازات كل من الكهنوت والبلاط القضائي، ورسالة القديس أدريان Adrian وكل عرف، وقرار، وجميع الرسائل، والتعهدات، والامتيازات المحصلة أو التي سوف يتم الحصول عليها من الكرسي الرسولي، لصالح ملك انكلترا، ولجميع شعب مملكته، وقانون De du-abus dieties ومنفعة الدفع الكامل، ومنفعة استئناف المرافعة وإعادة الاتهام، ورسائل المنع الصادرة عن ملك انكلترا، وجميع الاستثناءات الأخرى، حقيقة وشخصية، التي يمكن أن تعترض ضد هذه الأداة أو الفعل، ونحن نعد بمراعاة هذه الأشياء كلها باخلاص، وشهادة على هذه القضية التي نعتقد أنها صحيحة، نقوم بتثبيت خاتمنا على الكتابة الحالية، عمل في اليوم الخامس من Elphege في سنة النعمة ١٢٣٥م».

هكذا كانت الروابط التي لايمكن الخلاص منها، التي ربط بها الكورسينيين المقترضين منهم، وهم عن جدارة حملوا اسم كورسينيين، لأننا إذا أردنا أن نتعامل مع كلمة «كوسور» Causor نجد معناها ليغش، ومعنى كلمة Gapio ليأخذ، ومعنى ursine أي فظ، فهم أولاً أثاروا المحتاجين واستدرجوهم بكلمات ناعمة ومعسولة، ولكن في النهاية طعنوهم بالصميم بما يشبه الرمح، وبناء عليه، وبسبب أن كلماتهم

المكتوبة كانت بارعة جداً، ومأخوذة من كتب القانون، وهي متصلة لها قرابة بمخادعات مرافعات الاستئناف، يعتقد كثير من الناس بأن هذه الأعمال والصفقات لم تحدث من دون موافقة بلاط روما وفقاً لكلمات الانجيلي: «أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم» [لوقا: ١٦/ ٨]، حتى اليهود عندما شاهدوا هذا النوع الجديد من الربا، وقفوا بين المسيحيين يسخرون من سبتنا، ليس من دوق استحقاق.

ايثار بلاط روما للكورسينيين

ورأى في هذا العام نفسه، روجر أسقف لندن، وكان رجلاً متعلماً وتقياً، أن الكورسينيين كانوا يقومون بشكل مكشوف، بمضاعفة أموال الربا لديهم من دون حياء أو خجل، ويمارسون أقذر حياة، ويضايقون رجال الدين بمختلف أنواع الأذى، ويكدسون أكواماً من الثروات، من الأعداد الذين أرغموا على الخضوع إلى نير ظلمهم، فثار بغضب وبإباء عنيف، وأشعل بغيرة قضية العدالة، وبناء عليه وصمهم بالهرطقة، وأنهم الذين نأوا بأنفسهم عن العدل، وهم يثمنون خلال أرواحهم، وأن عليهم القيام بالتكفير عن أفعالهم الأثيمة، ونظروا إلى هذا الانذار نظرة استخفاف وضحكوا منه وازدروه، لابل إنهم هددوا، وبناء عليه سلح الأسقف نفسه بأسلحة العدل، وشرع بحملة تكفير ضدهم جميعاً، وبإيجاز وحزم، أمرهم بأن يغادروا على الفور مدينة لندن، التي كانت حتى ذلك الحين محررة من ذلك الطاعون، ولكي لاتتلوث أسقفيته بمثل هذا الدنس، غير أنهم امتلأوا بالتشامخ، ووثقوا بالحماية البابوية، وحصلوا من بلاط روما من دون ضياع للوقت أو صعوبة على قرار، بأن الأسقف المذكور، صار الآن شيخاً كبيراً، وضعيفاً، ومخرفاً، ويتوجب نفيه بشكل قاطع إلى مناطق نائية فيما وراء البحار، وصدر قرار من قبل القضاة الذين كانوا أصدقاء للكورسينيين، ومختارين بناء على رغبتهم، بوجوب أن يمثل الأسقف أمامهم، للاجابة على مااقترفه من ذنب تجاه تجار البابا، ولكن الأسقف

اختـار أن يكون مثل سـام، في أن يغطي عورة أبيـة، وأن لايكون مثل حـام يقـوم بعرض هذه العـورة وكشفهـا، فوضع نهاية سلميـة لهذا الاضطراب الذي أثاره، وتظاهـر باخفـاء الذي وقـع، وأوكل أمـره وقضيتـه إلى حماية القديس بولص، الذي عندما كان يعظ حـول العدالة الصحيحة والشديدة كتب مايلي:

«وإذا مـابشركم مـلاك بعكس هذه الأشيـاء، فليكن آثماً» [غـلاطيـة: ١/ ٨].

وقاحة بعض الرهبان الفرنسيسكان

وفي هذه الآونة نفسهـا، دخل بعض الرهبـان الفـرنسيسكان، وكـذلك بعض الذين انتمـوا إلى طائفة المبشرين، إلى أراضي ديرة أحـد النبلاء، وهم غير مراعين لاختصاصهم، ولتعليمات نظامهم، وجـاء دخولهم تحت حجة القيام بواجبـاتهم بالوعظ، وتظاهروا بأنهم على نيـة المغادرة في اليـوم التالي بعـد الفـراغ مـن الوعظ، غير أنهم بقيـوا وأشـادوا مـذبحـاً من الخشب، ووضعوا عليه حجراً مكرساً، كـانوا قد جلبوه معهم، وأقاموا بشكل خفي تآمري، وبصوت منخفض قداساً، لابل إنهم تلقوا اعترافات كثير من أتباع الأسقفية، مما شكل تحدياً وتجاوزاً للكهنة، وقـالوا بأن لديهم التفويض من البابا بتلقـي الاعترافات من المؤمنين، الذين يستحون مـن عملها لكهنتهم، أو يأبون عملها، لأن الكهنة اقترفـوا الذنوب نفسها، أو أنهم كـانوا يخشون فعل ذلك لأن الكهنة كـانوا مخمـورين، وإلى هؤلاء أعطى الفـرنسيسكان تحليلاً، بعـدما فـرضوا تكفيراً عليهم، وأرسلوا في الـوقت نفسه مـراقباً إلى البلاط الرومـاني بكل سرعة، ليترافع من أجل قضيتهم ضـد رجال الدين، الذين كانوا مقيمين في منطقتهم، وحصلـوا على إذن بالبقاء هناك مع بعض المنافع الاضـافيـة وإذا حـدث وكـانوا غير راضين بهذا، فـإنهم انفجـروا بإهانات وتهديدات، شاتمين كل طائفـة، باستثناء طائفتهم، وأكدوا أن جميع البقيـة هم بين الذين قضي عليهم بـالادانة، وأنهم سـوف لن يوفـروا نعـال

أقدامهم حتى يبددوا ثروات خصومهم، مهما كانت ضخمة، وبناء عليه تنازل إليهم رجال الدين في كثير من النقاط، وتخلوا لتجنب مؤامرات هؤلاء وعدوانيتهم وهم في قوتهم، لأنهم كانوا المستشارين والرسل لدى النبلاء، لابل أكثر من هذا، كانوا أمناء سر لدى البابا، ولذلك حصلوا على كثير من الحظوة المدنية، ووجد بعضهم —على كل حال— أنفسهم معارضين في بلاط روما، فتراجعوا لأسباب بديهية، وغادروا مبتعدين بحالة اضطراب، لأن الحبر الأعظم قال لهم وهو ينظر إليهم نظرة غضب:

«مامعنى هذا يا إخواني؟ إلى أي مدى أنتم ذاهبون؟ أولم تتخذوا عقيدة الفقر وتتخذوها عن طواعية، وأنكم سوف تسافرون في البلدات والقلاع والمسافات البعيدة، حسبما يقتضي الحال، حفاة، غير متباهين، من أجل التبشير بكلمة الرب بكل تواضع؟ وأولم تقوموا الآن باستئناف اغتصاب هذه الممتلكات لأنفسكم، ضد رغبات أصحاب هذه الاقطاعيات؟ ويبدو أن ديانتكم قد أخذت تتلاشى إلى أبعد الحدود وهي في طريقها إلى الموت، وأن عقائدكم باتت مدحوضة»، ولدى سماعهم بهذا، غادروا وأخذوا يتصرفون بأنفسهم بلطف أكثر، مع أنهم كانوا من قبل قد تحدثوا بشموخ وغطرسة، ورفضوا أن يقادوا بموجب ارادة الآخرين، مع أنهم كانوا في بيوت ليست بيوتهم.

وجرى في هذا العام الاستيلاء على قرطبة —وهي مدينة مشهورة في اسبانيا— من قبل ملك قشتالة، وذلك بعد قتله لأخي أمير المؤمنين، وتمزيق جيشه وتفريقه.

موت روبرت فتز— وولتر وروجر دي سومريك

وفي العام نفسه، مع اقتراب ميلاد ربنا، غادر طريق الجسد روبرت فتز— وولتر، الذي كان باروناً من أصل شهير، وصاحب سمعة عالية، في البراعة في السلاح، وفي العام نفسه أيضاً، أخذ روجر دي سومريك -Su

meric وهو في زهرة الشبـــاب، من بين الناس، وكـان رجـــلاً فـريداً في فصـاحته، ومن أصل محترم، وصـاحب قوة متميـزة، وفي هذا العام أيضـاً، أرسل الامبراطور جملاً إلى الامبراطور، كعلامة على مواصلة تقديره.

زواج الملك هنري من إليانور ابنة كونت بروفانس

سنة ١٣٢٦ لتجسيـــد الرب، التي كـــانت السنة العشريـن لحكم الملك هنري الثـالث، وفيها عقـد بلاطه في وينكستر في عيـد الميلاد، وقـد احتفل بذلك العيـد بفرح، فقـد كـان في ذلك الوقت ينظر بتشوق إلى عـودة رسله الخاصين، الذين بعث بهم إلى بروفـانس، إلى ريموند كـونت تلك المقاطعـة مع رسـائل تتضمن تفكيره العميق واهتمامـه الكبير في التعاقـد زواجيـاً مع ابنته إليـانور، وكان الكـونت المذكور من أصل مشهـور، وكان شجـاعاً في المعـركـة، إنما بسبـب استمـرار الحروب، قـد بدد تقـريبـاً جميع المال الذي امتلكه، وكـان قد تزوج من ابنة تومـاس، كونت سـافوي المتـوفى، وأخت أميدوس Amadeus الكونت الحالي، وكانت سيدة ذات جمال مدهش، كـان اسمهـا بيترايس Beatrice وأنجبت هذه السيـــدة من الكونت المتقـدم الذكـر ابنتين لهما جمال عظيم، وكان اسم الكبرى مـرغـريت، وهي التي تزوجت من لويس ملك فرنسـا، حسبما حدثنا كاهن اسمـه جون دي غيت Gates وقـد طلب ملك انكلترا الآن بوسـاطة الرسل المذكـورين الزواج من الابنة الصغـرى، وكانت سيـدة شابة، ذات مظهـر رشيق، ومن أجل الحصول على هذه الحظوة، كان قد أرسل بشكل سري رتشارد، رئيس رهبـان هورل Hurle مقـدمـاً، وقـد تمكن بـاخـلاص وبمتـابعـــة بإنهاء القضيـة، وإثر عـودة رئيس الرهبان، وإخبـاره الملك بالنتيجـة، قـام الملك بمعاودة مراسلة الكونت، بوساطة بعض الرسل الآخرين، وهـم:

هيوج أسقف إيلاي، وروبرت أسقـف هيرفورد، والراهـب روبرت دي ساندفورد Sandford مقدم فرسان الداوية، واستقبل هؤلاء الرسل من قبل كونت بروفانس، لدى وصولهم بأعظم تشريف واحترام، وتسلموا من

يديه ابنته إليانور، من أجل أن تتحد مع ملك انكلترا وبه تقترن، ورافقها أيضاً «خالها» وليم الأسقف المنتخب لبلنسية Valentia وكان رجلاً متميزاً، وأيضاً من قبل كونت شامبين، وكان من أقرباء الملك الانكليزي، ولدى معرفة كونت نافار أنها سوف تسافر خلال أراضيه، خرج مسروراً لاستقبالها، ورافق الركب بمثابة دليل خلال ممالكه، أثناء رحلة استمرت خمسة أيام وزيادة، كما أنه بدافع من كرمه الطبيعي، دفع جميع النفقات لكل من الخيول والمرافقين، وضم الركب أكثر من ثلاثمائة عسكري خيال في الحاشية، دون أن نحسب العدد الكبير من الذين تبعوهم، ولدى وصولهم إلى حدود فرنسا، حصلوا، ليس فقط على أمان العبور، بل على ممر تشريفي خلال تلك البلاد، تحت رعاية الملك الفرنسي وملكته، أخت السيدة، التي كانت على وشك الزواج من الملك الانكليزي، وأيضاً من قبل بلانشي، أم الملك، وقد أقلعوا من ميناء ساندويش (الأقوم: قوانتافيك Quentavic أو ويسانت Wissant), وأخذوا الطريق بأشرعة منشورة إلى دوفر، حيث وصلوا بعد عبور سريع، وذلك قبل أن يتوقعوا ذلك، وبعدما نزلوا إلى اليابسة بسلام، انطلقوا نحو كانتربري، وقد استقبلوا من قبل الملك، الذي اندفع إلى مابين أذرعة الرسل، وبعدما رأى السيدة، واستحوذ عليها، تزوج منها في كانتربري، وعمل الاحتفال في الرابع عشر من كانون الثاني، وأقام الاحتفال ادموند رئيس أساقفة ذلك المكان، يساعده الأساقفة الذين قدموا مع السيدة، وذلك بحضور النبلاء الآخرين وأساقفة المملكة، وفي التاسع عشر من كانون الثاني، ذهب الملك إلى ويستمنستر حيث جرى احتفال مهيب غير عادي، في اليوم التالي، الذي كان يوم أحد، وفي ذلك الاحتفال كان الملك متوجاً وكانت إليانور متوجة ملكة، وعلى هذا تزوج هنري الثالث في كانتربري، أما الاحتفال بالعرس فجرى في لندن، في ويستمنستر، وكان ذلك يوم عيد القديس فابيان Fabian والقديس سيباستيان Sebastian.

الاحتفالات أثناء زواج هنري الثالث

لقد اجتمع هناك أثناء احتفالات عرس الملك حشد كبير من النبلاء من الجنسين، مع أعداد كبيرة من رجال الدين، وكذلك جمهور كبير من الناس، وأنواع كبيرة من الممثلين، إلى حد أن لندن، على الرغم من اتساعها الكبير، استوعبتهم بصعوبة، وكانت المدينة كلها مزينة بالأعلام والرايات، والأكاليل، والمعلقات، والشموع، والمصابيح، مع ابداعات رائعة، وعروض غير عادية، وكانت جميع الطرق منظفة من الوحل والأوساخ، والعصي، ومن كل شيء مؤذي.

وخرج سكان المدينة أيضاً، لاستقبال الملك والملكة، وكانوا يرتدون ثياب الزينة، وتنافسوا واحدهم مع الآخر محاولين الاسراع بخيولهم، وفي اليوم نفسه عندما غادروا المدينة قاصدين ويستمنستر، ليمارسوا واجبات الساقي للملك (وهي وظيفة قديمة عائدة إليهم بموجب امتياز قديم، أثناء التتويج)، ساروا إلى هناك وهم يرتدون ثياباً حريرية، مع أردية معمولة بالذهب، مع غيارات ثمينة، وقد امتطوا خيولاً غالية، تلمع باللجم الجديدة والسرج، وقد ركبوا على شكل عساكر، واصطفوا بأرتال، وحملوا معهم ثلاثمائة وستين قدحاً من الذهب والفضة، وكان يسير أمامهم حملة الأبواق والنفر الملكية وهم ينفخون بها، وهكذا جعلت هذه المسيرة الاحتفالية الرائعة، كل انسان يراها، يصاب بالدهشة، وقام رئيس أساقفة كانتربري، بموجب الحق الخاص به، بممارسة واجب التتويج، وسط المهابة المعتادة وتولى مساعدته أسقف لندن كعميد، وأخذ الأساقفة الآخرون أماكنهم تبعاً لمراتبهم، وبالطريقة نفسها وقف رعاة الديرة، وكان على رأسهم —بموجب امتيازه— راعي دير القديس ألبان (لأن ب. ألبان بحكم كونه رائد شهداء انكلترا، كان المقدم على جميع شهداء انكلترا، وبناء عليه كان راعي ديره المقدم على جميع رعاة الديرة في المرتبة والمقام) لأن الامتيازات الأصيلة لتلك الكنيسة قد رسمت ذلك، وأدى النبلاء أيضاً

واجباتهم التي جعلتها الامتيازات القديمة والعادات عائدة إليهم أثناء تتويج الملوك، وبالطريقة نفسها أدى بعض سكان بعض المدن بعض الواجبات العائدة إليهم بموجب امتياز أجدادهم، فقد حمل ايرل شيستر سيف القديس إدوارد، الذي اسمه Curtun أمام الملك، كعلامة على أنه كان ايرل ذلك القصر، وأن لديه حق السلطة في تقييد الملك وردعه إذا ما اقترف خطيئة، وكان مع الايرل قسطلان شيستر، وهو الذي أبقى الناس بعيداً بعصا عندما كانوا يضغطون نحو الأمام بطريقة فوضوية، وحمل المارشال الأعظم لانكلترا، الذي هو ايرل بيمبروك عصا أمام الملك، وأخلى الطريق أمامه في كل من الكنيسة، وفي قاعة الوليمة، ونظم المائدة وجلوس الضيوف حول المنضدة، وحمل حجاب الـ Cinque Ports الطيلسان فوق الملك، محمولاً فوق أربعة رماح، ولكن الادعاء بهذا الواجب لم يكن كلياً من دون خلاف، وزود ايرل ليستر الملك بطست فيه ماء ليغسل يديه قبل الطعام، وقام ايرل وارني Warrenne بواجب حامل كأس الملك، وحل بذلك محل اير آرونديل، لأن الأخير كان مايزال شاباً، ولم يعمل فارساً بحزام بعد، وكان المعلم ميكائيل بيليت الساقي ex officio وكان الايرل هيرفورد هو الذي مارس واجبات مارشال حاشية الملك، وشغل وليم بوشامب وظيفة موزع الصدقات، وأعد المسؤول عن عدالة الغابات الكؤوس على المائدة، على يمين الملك، ومع أنه قابل بعض المعارضة، فإنها سقطت إلى الأرض، ووزع سكان لندن الخمرة في جميع الاتجاهات، في كؤوس ثمينة، وتفوق الذين كانوا من وينكستر في أعمال الطبخ للاحتفال، وشغل البقية أماكنهم المتنوعة، وذلك وفقاً للقوانين القديمة، أو حاولوا فعل ذلك، ولكي لاتتعكر أجواء الاحتفالات الزفافية بأية خلافات، باستثناء امتياز أي واحد، علق البت بأشياء كثيرة آنياً، وترك ذلك إلى فرصة أكثر مواءمة، وعيّن مكتب مستشار انكلترا وجميع المكاتب المرتبطة بالملك واستحوذ عليها في الخزينة، ولذلك فإن المستشار، والحاجب، والمارشال، ومفوض الجيش، أخذوا مقاعدهم هناك

بموجب حقوق مكاتبهم، وذلك مثلما فعل البارونات، وذلك تبعاً لتاريخ خلقهم، في مدينة لندن، حيث عرف كل واحد مكانه، وكان الاحتفال رائعاً، مع ألبسة سرور ارتداها كل من رجال الدين والفرسان الذين كانوا حضوراً، ورش راعي دير ويستمنستر الماء المقدس، وتولى الخازن دور، نائب العميد، فحمل طبق القربان المقدس، ولماذا عليّ وصف جميع هؤلاء الأشخاص الذين خدموا بشكل جليل في كنيسة، وفقاً لمقتضيات واجباتهم؟ ولماذا عليّ وصف وفرة اللحوم والأطباق على المائدة، وكميات لحوم الطرائد، وأنواع السمك، والأصوات المبهجة لرجال الطرب، وسرور الخدم؟ فكل ماهو موجود في العالم، وكان بامكانه الاسهام في توفير السرور والأبهة كان هناك، قد جلب وجمع من كل جهة من الجهات.

هطول ثقيل للأمطار

وفي تلك الآونة، ولمدة شهرين وأكثر، أي في كانون الثاني، وشباط، وجزء من آذار، تساقطت أمطار ثقيلة متواصلة، لم يشاهد مثلها، ولم يسمع بمثلها في ذاكرة أي انسان، وفي حوالي أيام عيد القديس سكولاستكا Scholastica «١٠-شباط»، عندما كان القمر جديداً، ازدادت مياه البحر كثيراً بسبب أن نهر تورنتس Torrents صبّ فيه، وصارت جميع الأنهار، خاصة التي تصب في البحر، سبباً في تحويل جميع المخاضات بجعلها لايمكن عبورها، فقد تدفقت المياه وفاضت من على الطرفين، وأخفت الجسور، فلم تعد تشاهد، وحملت معها كل طاحون وسد، وغمرت الأراضي المزروعة، والمحاصيل والمروج، والسباخ، وكان بين الوقائع غير المعتادة، أن نهر التيمس، فاض فوق حدوده المعتادة، ودخل إلى قصر ويستمنستر الكبير، حيث انتشرت المياه، وغطت المساحة كلها، وصار بإمكان قوارب صغيرة أن تطفو هناك، وذهب الناس إلى بيوتهم على ظهور الخيول، وشقت المياه طريقها بالقوة إلى الأقبية التي كان من الصعب نضح

المياه منهـا وتصريفها، وأعطت علامـات هذه العاصفة التي ظهـرت قبلها براهين على تهديداتها ومخاطرهـا، لأنه في يوم عيـد القـديس دامـاسـوس Damasus «١١- كـانـون الأول» سمع رعـد، وفي يوم الجمعـة التي جاءت بعد حمل القـديسة مريم «٨- كانون الأول» شـوهدت شمس زائفة إلى جانب الشمس الحقيقية.

وصول رسول إلى انكلترا من عند الامبراطور

وعند الانتهـاء من احتفـالات الزفـاف، غـادر الملك لندن، وذهب إلى ميرتون، حيث جمع النبـلاء لسماع رسالة وصلـت مؤخـراً من الامبراطور، ولمناقشة شـؤون المملكة، لأن رسلاً قدمـوا مباشرة من عند الامبراطور إلى الملك، مع رسـائل تسأله، أن يرسـل من دون تأخير أخـاه رتشـارد ايرل كورنوول Cornwall الذي أخبار براعتـه انتشرت بالطول وبالعرض، ليشن حربـاً على ملك فرنسا، كما أنـه وعد، أن يرسل على سبيل المسـاعدة، جميع قـواته الامبراطورية، في سبيل مسـاعدة الملك الانكليـزي، ليس فقط لاسترداد ممتلكاته القـارية، بل بعد استردادهـم، لتـوسعة ممتلكاته السـالفة، وعلى هذا أجاب الملك والنبلاء الذين اجتمعوا هناك، بعد مناقشات كاملة، بأنه سـوف لن يكون سلبياً وحكيماً، إرسـال واحد مـايزال شـاباً بمثل هذا العمر إلى خـارج المملكة، وتعريضه لتقلبات الحظ المشكوك فيهـا ولمخاطر الحرب، ولاسيما هو وحده ولي العهـد الموجود للملك وللمملكة، وكـانت جميع الآمال معقـودة حوله بعد الملك، ولأن الملك، وإن كان متـزوجاً، هو ليس لديه أولاد، والملكة زوجته كـانت ماتزال صغيرة، وليس معروفـاً بعد هل ستكون منجبـة أم عقيمة، لكن إذا كـان موافقاً لسمـوه الامبراطوري، استدعاء أي رجل شجاع آخر يختاره من بين نبلاء المملكة، لهذه الغاية، فإن الملك وجميع أصدقائـه ورعيته موافقون على هذا الطلب، وسـوف يقدمون له جميع المسـاعدات التي هـي بإمكانهم، ولدى تسلم الرسل هذا الجواب، عادوا لإخبار مولاهم.

بعض القوانين الجديدة التي عملها هنري الثالث

وفي الوقت نفسه، عمل الملك هنري الثالث، بعض القوانين الجديدة، من أجل انقاذ روحه وتحسين أوضاع المملكة، وكان دافعه المؤثر عليه روح العدالة والتقوى، وقد أمر بمراعاة هذه القوانين وتطبيقها بلا استثناء في جميع أرجاء مملكته.

وتعلقت هذه القوانين بالمقام الأول، بأوضاع الأرامل، اللائي كن بعد وفاة أزواجهن، يحرمن من صداقهن، أولم يكن بامكانهن الاستحواذ على ذلك، وعلى بائنة كل واحدة منهن من مرافعة أو ادعاء، وقد رسم أن كل من يحرمهن بالقوة من صداقهن ومن منازلهن التي كانت بحوذتهن عند وفاة أزواجهن، ينبغي بعد ذلك للأرامل أن يستردن فيها بعد استرداد صداقهن بالمرافعة القضائية، ووقتها يحكم على الفئة المغتصبة بالظلم والاغتصاب وعليهم التعويض عن الخطأ والقيام بالاصلاح نحو الأرامل المذكورات، ودفع الثمن الكامل للصداق الذي هو حق كل واحدة منهن، وذلك من يوم وفاة الزوج إلى يوم استرداد الممتلكات بوساطة القضاء، ومع هذا سوف يكون المغتصبون تحت رحمة الملك، وأيضاً سوف تكون الأرامل من الآن فصاعداً يمتلكن الحرية بالحصول على جميع القمح الناتج عن أراضيهن، والصادر عن صداقهن، وكذلك من الأراضي الأخرى، والاقطاعيات المكتراة، باستثناء الخدمات المستحقة إلى مواليهن من صداقهن ومن الاقطاعيات المكتراة الأخرى، وكذلك كل من سيحرم من اقطاعيته المكتراة الحرة، وسوف يسترد الاستملاك بالاستيلاء على ملكية منتزعة جديدة أمام رجال العدالة، أو أنه قام بانتزاع الملكية بموافقتهم، وعندما يستحوذ المنتزع لملكيات من خلال العمدة، إنه إذا كان المستولي قد استولى عليهن بعد المرور بدائرة رجال العدالة، أو من خلال الدائرة نفسها، وسوف يدان بذلك، فإن المغتصبين جميعاً سوف يعتقلون، ويحبسون بسجن مولانا الملك، حتى يجري تحريرهم من قبله، إما بفدية، أو

بأي شكل آخـر، والشكل التالي للادانـة هو الذي ينبغي أن تجري مراعـاته بالنسبـة إليهـم: عندمـا يقـدم مشتكون إلى المحكمـة الملكيـة، فإنهم سـوف يحصلون على مـــذكـــرة مـن الملك ستكون حـــاوية على بـراهينهم على الاغتصاب للملكيـة التي تولاها مغتصب، وبالمذكرة سوف يؤمـر العمدة بأن يأخـذ معه مـراقبي مـرافعات التـاج، ومـوظفين قانونين آخـرين، وأن يذهـب بشخصـه إلى الملكيـــة المكتراة أو المرعى، الـذي حــولـه عملت الشكوى، وأن يقوم بحضورهم، بوساطة المحلفين أولاً، وبوساطة الجيران الآخـرين، ورجال القـانون، أن يقـوم بحضور هؤلاء وبوسـاطتهـم ببحث دقيق حول القضيـة، وإذا ماتم الاكتشاف وجود اغتصـاب كما ورد الذكر أعلاه، فـوقت ذلك يسيرون بالاجراءات، وفقاً للمواد القـانونية المعلنة من قبل، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلسوف يكون أصحاب الشكاية تحت رحمة الملك، وسوف تذهب الفئة الأخرى بدون مسـؤولية، والشيء نفسه سوف يعمل بالنسبة لقضية أولئك الذين سوف يستردون ممتلكات باستيلاء موت أسـلافهم، فإن الشيء نفسـه سوف يعمل أيضـاً في قضيـة جميع الممتلكات الاقطاعية المستردة بوساطة القضاة في بلاط الملك، وأيضاً حيث هناك لدى عدد من نبلاء انكلترا فـرسان مقطعين، واقطاعياتهم الحرة ممتلكات صغيرة في عزبهم، وقد اشتكوا أنهم لايستطيعون الإيفاء بما عليهم بالنسبة لما يتعلق بفضلة عـزبهم، مثـلاً بالنسبة للخسـارة، والغـابات، والمراعي، وبناء عليـه حتى يمكن للفـارس المقطع أن يمتلك الكفايـة، بما هو متوائم مع أراضيـه المكتراة، فقـد تقـرر ومنح أن مقطعين من هذا النوع، من أي واحـد كـان، سوف يحضرون ملكيـة منتزعـة جديدة قد استحـوذوها، ويعرضـوها أمام رجال العدالة، فلسوف تجري الموافقة عليها وأنهم صار لديهم مرعى كاف، متوافقـاً مع أراضيهم المكتراة، وذلك مع مدخل حـر، ومخرج من أراضيهم المكتراة إلى ذلك المرعى، وأن يكونوا راضين بالشيء نفسـه، وكذلك أولئك الذين جـرى تقـديم شكاويهم المماثلـة، فهـؤلاء سـوف تتـم ترضيتهم، بحصـولهم على رغبتهم بـالنسبـة لقضيـة أراضيهم الخاسرة، وللغـابات،

والمراعي، لكنهم إذا ما قالوا بأنهم لم يستحوذوا على مرعى كاف، أو مدخل ومخرج كافيين، فوقتها يجري التدقيق بالحقيقة من قبل المقومين، وإذا ماااكتشف من قبل المقومين، وجود أية عوائق كانت، كما تقدم القول، فوقتها سوف يتسلم ممتلكات بعد الفحص الذي يجريه المحلفون، وبناء عليه على إخلاصهم، وعلى أيمانهم، يمكن للمشتكين أن يحصلوا على مراعي كافية، ومدخل حر، ومخرج، على الشكل الموضح أعلاه، وسوف يبقى المغتصبون تحت رحمة الملك، وسوف يدفعون ثمن الخسائر، كما اعتادوا أن يدفعوا من قبل هذا التنظيم، ولكن إذا تبين للمقومين بأن المشتكين لديهم مراعي كافية ومداخل حرة كافية ومخارج، كما قيل من قبل، لسوف يسمح للفئة الأخرى أن تعمل ما هو صحيح بالبقية، وسوف تغادر بهدوء، ومنح أيضاً من قبل مولانا الملك، مع موافقة النبلاء، أنه منذ ذلك الحين، سوف لن تتراكم الفائدة ضد قاصر منذ وقت وفاة سلفه، الذي هو وريثه، حتى يصل إلى السن القانوني، إنما على هذا الأساس لايجوز تأخير دفع الرأسمال الأساس، وكذلك فيما يتعلق بالذين اقترفوا اعتداءات في حدائق أو حظائر، جرى نقاش حول قضيتهم، لكن لم يتخذ قرار حول الأمر، لأن النبلاء طالبوا بأن يمتلك كل واحد منهم سجنه، لسجن المتجاوزين الذين يجري اعتقالهم في حدائقهم وحظائرهم، غير أن الملك لم يمنحهم ذلك، ولذلك بقي هذا الأمر كما كان من قبل.

كتابة أرسلت إلى البابا حول أصل محمد(صلى الله عليه وسلم) وشرائعه

وفي هذا الوقت نفسه، أرسلت رسالة إلى صاحب القداسة البابا غريغوري التاسع من بلدان الشرق، من المبشرين الذين كانوا يرتحلون في تلك المناطق، وعندما نشرت للعالم، وحوت الحديث عن العقيدة الزائفة، وعن... محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الاسلام فإنها أثارت الكراهية والسخرية من قبل الجميع، وهذه الأشياء قد عولجت من قبل في مكانها

المناسب، في أخبار سنة ستمائة، عندما بدأ الوباء المحمدي.

ويصر السراسنة على أنهم عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى ساره«١»، لكن والحق يقال ينبغي أن يقال لهم الهاجريين نسبة إلى هاجر، واسماعيليين نسبة إلى اسماعيل، الذي أنجبه ابراهيم من أمته هاجر، ومن اسماعيل ولد أبناؤه:

قيذار، نابت، يشجب، يعرب، تيرح، ناحور، مقوم، أد، أدد، عدنان، معد، نزار، مضر، الياس، مدركة، خزيمة، كنانة، النضر، مالك، فهر، غالب، لؤي، كعب، مرة، كلاب، قصي، وعبد مناف، الذي كان لديه ولدين هما: هاشم، وعبد شمس، وأنجب هاشم الذي هو واحد من الاثنين: عبد المطلب، وأنجب عبد المطلب: عبد الله، الذي منه ولد محمد (صلى الله عليه وسلم)، الذي يعدّ نبي السراسنة.. وقد خلف محمد (صلى الله عليه وسلم) في مملكته وفي أوهامه الخطاب (كذا) وخلف الخطاب عمر، وهو الذي كان معاصراً لكسرى، الذي قتله هرقل، الامبراطور الروماني.

الممارسات التي نشأ فيها محمد (صلى الله عليه وسلم)

وهذا الرجل، الذي اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم)، عند موت أبيه عبد مناف، تولى العناية به رجل اسمه أبو طالب، وقد صار وصياً عليه، ورباه، وكان رجلاً يرعى الأوثان في مكان اسمه الكعبة، وأيضاً بيت الله، وعندما وصل إلى سن الشباب، أصبح يعمل لدى امرأة اسمها خديجة ابنة خويلد، التي أعطته أتاناً لخدماته، وليجلب بضائع إلى مناطق آسيا، التي كانت هي تتسلم ثمنها، وأخيراً تصادق مع هذه المرأة وتزوجها، وقد ارتفع شأنه بذلك كثيراً، وبدأ يتشامخ، وسعى لأن يجعل نفسه حاكماً على كل القبائل وعلى شعبه، وفي الحقيقة كان سيدعي لنفسه أنه الملك عليهم، لولا

١ - أصل الكلمة هو التصحيف المعتاد لدى النقل من لغة إلى أخرى، لكلمة «شركة ثمود».

أن بعضهم الذين كانوا أكثر نبالة وقوة منه شخصياً قد عارضوا هذا المغتصب، وعند ذلك أعلن عن نفسه أنه نبي بعث من عند الله، وأن على جميع الناس الإيمان بكلماته، ولم يكن العرب الجاهلين والفقراء قد رأوا من قبل نبياً، ولذلك آمنوا به، وكان هناك أيضاً واحداً مرتداً، قد وقع بالهرطقة، وكان محروماً كنسياً، وقد دعا إلى العقيدة نفسها، وكتب عقيدته، وجذب محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى صداقته جميع قطاعي الطرق واللصوص الذين أمكنه جمعهم، ومركزهم في أماكن سرية على الطرق من أجل سرقة التجار وهم على طريقهم من آسيا، وكان في أحد الأيام قادماً من مدينتي اليمن والشام، فوجد على الطريق جملاً، كان ملكاً لرجل اسمه «أبي جهل ابن هشام»، فاستولى عليه على الفور، وهرب إلى مدينة مكة، غير أن سكان ذلك المكان، لم ينظروا إليه كنبي، فأهانوه، وطردوه من مدينتهم كمدعي، وكرهوه كسارق وسالب للمسافرين، ثم إنه ذهب إلى مدينة في الصحراء، كان شطر من سكانها يهود، والشطر الآخر كفار، ووثنيين، وفقراء، وأناس جهلة، وهناك بنى مع أصحابه معبداً فيه نشر عقائده المزيفة إلى الناس البسطاء، وبعد هذا أرسل واحداً من أتباعه اسمه حمزة بن عبد المطلب Gadimelic مع أربعين جندياً، لنهب التجار الذين كانوا يرتحلون مع مبالغ كبيرة من المال، والتقى هؤلاء الرجال بأبي جهل بن هشام (الذي كان محمد «صلى الله عليه وسلم» قد استولى على جمله)، وكان برفقته ثلاثمائة رجل من مدينته، ولدى رؤية هؤلاء هرب اللصوص الذين أرسلوا من قبل محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهذا يدل على أن هذا النبي المزيف لم يستطع أن يتنبأ مسبقاً بهذه الحادثة ليحترس ضدها، لأنه لم تكن لديه روح النبوة، ولذلك فإن السراسنة يكذبون عندما يقولون بأنه كان لديه دائماً عشرة ملائكة معه، كانوا يتولون خدمته في كل شيء.

وفي مناسبة أخرى أرسل محمد (صلى الله عليه وسلم) هذا، رجلاً اسمه عبيدة Gabeit ابن الحارث Alcharith مع أربعين عسكرياً، لجمع

الأسلاب، وقد هوجم هؤلاء من قبل مكرز Abizechem ابن حفص Nubar مع أصحابه، وقد هزم هؤلاء اللصوص وفرقوهم بعدما قتلوا بعضاً منهم، ومامن واحد من ملائكة محمد (صلى الله عليه وسلم) قد ساعدهم، ومجدداً أرسل محمد(صلى الله عليه وسلم) في المناسبة الثالثة، واحداً من أتباعه اسمه عبد الله بن جحش... [إكتفيت بها تقدم كنموذج وحذفت الباقي لعدم الفائدة، وللتشويه الشديد الذي لحق بالأسماء، وللزيف الواضح].

هرطقة الباترينيين والبوغارينيين

وحصل في هذه الآونة الهراطقة الذين يعرفون باسم الباترينيين -Pat erinians والبوغارينيين Bugarians الذين يسكنون في مناطق ماوراء الألب، والذين أفضل أن أقف صامتاً تجاه آثامهم وأن لاأذكرها، حصلوا على أرضية قوية حتى أنهم تجرأوا على تهديد نقاوة الإيمان في مناطق فرنسا وفلاندرز، لكن بفضل نشاط وادارة ومتابعة الواعظين من الفرنسيسكان، والمبشرين، واللاهوتيين، وبشكل خاص واحد من المبشرين اسمه روبرت (الذي كان لقبه بوغري Bugre وكان قد تحول من ذلك الإيمان ولبس رداء المبشرين) وكان قد عرف باسم مطرقة الهراطقة، فبفضله انحسرت أوهامهم، وجرى الكشف عن اثمهم وفضحه، وقد رفض عدد من الجنسين التحول إلى الإيمان الصحيح، فأمر باحراقهم، وهكذا أحرق خلال شهرين أو ثلاثة أشهر خمسين انسانا، وهم أحياء.

نشوب خلاف بين الامبراطور وبين الرومان

واشتعل في هذه الآونة غضب الامبراطور ضد الايطاليين، إلى درجة، أنه لإزدياده وحقنه يومياً تفجر على شكل حقد شديد لايمكن اصلاحه، ولذلك تقدم بشكاوى كثيرة حول صلفهم إلى صاحب القداسة البابا،

مؤكداً ومصرّاً على أن تشامخ الذين يكرهونه هو الذي يسيطر دوماً، وسأل البابا أن يقوم مع مساعدة جميع البلاط الروماني، في أن يعطي اهتمامه كله، لإعادة إقامة سلام مشرف بينه وبينهم، أو أن يقدم إليه مساعدة فعالة، حتى يتمكن بوساطة استخدام السلاح من تدجينهم واخضاعهم، وانزالهم إلى وضعهم المعتاد بالطاعة، وكما أن البابا قد طُلب منه تقديم مساعدة إليه، وعد الامبراطور بتقديم المساعدة إلى الكنيسة الرومانية، عندما تجد نفسها في ضائقة ومحتاجة إليها، ولذلك وجدت الكنيسة نفسها في وضع حرج، ولم تعرف كيف تقرر التصرف، واشتكى الامبراطور بحدة كبيرة من مدينة ميلان التي كانت حاضنة الهراطقة وحامية المتمردين ضد الامبراطورية، ولكي يحارب ذلك المكان، حشد في المكان نفسه جيشاً كبيراً، وقد سجن ابنه هنري، الذي اتهم بالخيانة ضد أبيه، في سجن مضيق عليه.

عقد مؤتمر في لندن

اجتمع في العام نفسه، في ٢٨ نيسان نبلاء انكلترا في مؤتمر عقد في لندن، للبحث في شؤون المملكة، وكان الذي سبب دهشة كبيرة إلى الجميع أن الملك اتبع نصيحة الأسقف المنتخب لبلنسية Valentia بدلاً مما كان عليه، برفضها، فقد بدا للنبلاء أن مواضيعه العامة تستحق الازدراء، ولذلك غضبوا من الملك واتهموه بالتقلب، وقالوا فيما بينهم:

«لماذا لايحمل هذا الأسقف المنتخب نفسه، ويذهب إلى مملكة فرنسا، بما أن الملك الفرنسي قد تزوج من الأخت الكبرى لملكتنا، وذلك من أجل أن يدير المملكة الفرنسية، كما يفعل هنا، وبسبب أن ابنة أخته هي ملكة تلك البلاد؟»، وكانوا غاضبين جداً، وذهب الملك في اليوم الأول من المؤتمر إلى برج لندن، وبذلك أعطى سبباً كبيراً لعدم الرضا، لكثيرين حول هذه القضية، وقد شعروا بأحاسيس غير موائمة وليست مفيدة، ولذلك لم يذهب النبلاء لافردياً ولاجماعياً إلى برج لندن إلى الملك، خوفاً منهم من أن يقبل بالنصيحة الشريرة، وأن يثور غضبه عليهم، وقد أنذرتهم كلمات

هوراس Horace:

«لأن علامات أقدام هذه الحيوانات تشير نحو عرينك

مامن أحد منهم، بقدر مايمكنني الرؤية، قد عاد ثانية».

ومع هذا فإن الملك ضبط نفسه بعواطف الحكمة، فذهب من البرج إلى قصره، ليبحث هناك حول المسائل الملحة للمملكة، بشكل أكثر مواءمة مع نبلائه، وقد وصل إلى قرار يستحق الثناء، وهو وجوب صرف جميع عمد المناطق، و ينبغي تعيين آخرين مكانهم، لأنهم فسدوا بالرشوة، وابتعدوا عن طرق الصدق والعدل، ولذلك أحل الملك محلهم رجالاً امتلكوا المزيد من الأراضي الاقطاعية المكتراة، وكانوا أغنى، ومن أصل أكثر نبالة، ومن الذين لن تدفعهم الحاجة إلى اشتهاء الهدايا، كما أنهم لن يكونوا عرضة للفساد، كما أنه جعلهم يقسمون أنهم لن يقبلوا أية أعطية، مالم تكن على شكل طعام أو شراب، وفقط بشكل معتدل وليس متطرفاً، ولن يقبلوا هدية أية أرض بمثابة جائزة، فيها تتعرض العدالة إلى الفساد، وإلى هذا المؤتمر أرسل ملك سكوتلندا رسلاً خاصين، طلبوا من الملك بإلحاح الامتيازات العائدة إلى مولاهم، أي إلى ملك سكوتلندا المذكور، حيث قالوا بأن لديهم صكاً، وعندهم شهادات عدد كبير من النبلاء، ولكن وضع القرار حول هذه القضية في الوقت الحالي جانباً، وتأجل البت فيه، وفي الوقت نفسه، لأن الملك لم يكن بإمكانه إعادة إقامة سلام بين أخيه الايرل رتشارد، ورتشارد سيوورد، قام بنفي الأخير من المملكة، قائلاً بأنه يؤثر تحمل غضبه وليس غضب أخاه، وقام أيضاً، لدهشة الكثيرين بعزل مستشاريه من وظائفهم، وهم:

رالف فتز— نيقولا، قهرمان قصره، وعدد كبير آخر من كبار رجالات حاشيته، كما أنه طلب أيضاً على الفور استرداد خاتمه من أسقف شيستر، الذي كان مستشاره، مع أنه قام بواجبات وظيفته من دون ملامة، مبرهناً

على أنه عمـود مدهش للصدق في البـلاط، وعلى كل حال رفـض المستشار تنفيـذ ذلك، ورأى أن عنف الملك قـد تجاوز حـدود الاعتـدال، وقـال بأنه لايمكنه التنازل عنه بأي حال من الأحـوال، لأنه تولى مسؤولية هذا العمل بمـوجب مـوافقة عـامـة من المملكة، ولذلك لايمكنه الاستقـالة من دون الحصول على الموافقة نفسها.

وفي تلك الآونة نفسها أيضـاً، أرسل الامبراطور رسلاً إلى الملك، يطلب مبلغاً كبيراً من المال، كان الملك قد وعده به مع أخته.

معركة حوربت في سكوتلندا

وفي حوالي الوقت نفسـه، احتشد عدد من النبلاء ومن الرجـال الأشداء من مختلف مناطق الغـرب، وخـاصة من غـالووي Galleway وجزر الانسـان، ومن أجـزاء من ايرلندا، وجـاء احتشـادهم بناء على مبـادرة من هيوج دي لاسي، الذي كانت ابنته قد تزوجت من آلان صاحب غالووي، المتـوفى أخيراً، وقـد اتحدوا مع بعضهم من أجل هدف استرداد غـالووي واعادتها إلى الابن الشرعي لآلان المتقدم ذكـره، ولكي يزيلوا بالقوة، الخلع الذي عمله لتـوه ملك اسكـوتلندا، الذي وزع الميراث بين البنات الـثلاث لآلان، اللائي يعـود إليهن الميراث بموجب الحق الشرعي، وبناء عليـه إنه من أجل اعـادة النظر بذلك التوزيع أو إلغـائه، ولكي يعيـدوا الأراضي إلى توماس المتقـدم الذكر، أو إلى ابن تـوماس، الذي هو أخـو توماس، أو على الأقل إلى واحد مـن تلك الأسرة، هبّ أصحاب هذه الدعـوة من المقدمين إلى السـلاح، و انفجروا يمارسـون العنف، ويسعـون إلى تحرير أنفسهم من سلطة الملك، ولكي يجلبوا محاولاتهم إلى النتيجة المرجوة، دخلوا في معاهدة من نوع غريب، وذلك بوساطة عمل تقوي غريب، هو عائد إلى عادة شاذة لأجدادهم، حيث قام جميع هؤلاء البرابرة ومقدميهم ورجال العدالة لديهم بسحب الدم من العـرق القـريب من القلب، وصبـوا ذلك الدم في كأس كبير، ثم حـركوه ومـزجوه، وبعـد ذلك شرب كل واحد منهم تلو الآخـر

جرعة منه، كعهد على أنهم سوف يكونون منذ ذلك الوقت متعاهدين بعهد لايمكن فصمه، وبما أن معاهدتهم هي معاهدة قرابة في السراء والضراء، حتى لو كلفهم ذلك رؤوسهم، لذلك أثاروا الملك والمملكة للإقدام على الحرب، فأحرقوا بيوتهم وبيوت جيرانهم، حتى إذا ما وصل الملك سوف لن يجد لامأوى ولاطعاماً من أجل جيشه، وتورطوا في أعمال الاغتصاب والاحراق، وكدسوا الأذى فوق الأذى، ولدى سماع ملك الاسكوتلنديين بهذا جمع قواته من جميع الجهات، وزحف من أجل اللقاء بهم، وانقلب خط الحرب ضد الغالوويين وأرغموا على الفرار، وطاردتهم القوات الملكية بحد السيف، وقتلت عدة آلاف منهم، والذين أخذوا أسرى وهم أحياء، من قبل الملك وجنوده، واجهوا موتاً مهيناً، دون أية فرصة لفداء أنفسهم، وقد ألقى بعضهم بأنفسهم على رحمة الملك، فألقيوا بسجون ضيقة، حتى يتمكن من التشاور حول الذي ينبغي فعله بهم، وقد قام —ليس من دون مسوغ جيد— بحرمانهم وورثتهم من مواريثهم، وبعدما نال الملك هذا النصر، حمد الرب ومجده، الذي هو رب الجيوش، وأصغى إلى مشورة جيدة، فبعث رسالة إلى روجر دي كوينسي Quincy ايرل وينكستر، وجون بالأويل Baliol ووليم ابن ايرل ألبيمارك، حيث بما أنهم كانوا متزوجين من بنات آلان أوف غالووي، يمكنهم الآن، بعد القضاء على الاضطراب، الاستحواذ بسلام على الحقوق العائدة إليهم، ووقعت المعركة في شهر نيسان، وكان حظ الحرب لصالح ملك الاسكوتلنديين.

اضطراب في المملكة الفرنسية

في الربيع من العام نفسه، ثار كثير من النبلاء في عصيان، لانشاب الحرب ضد مملكة فرنسا، لأن غضبهم قد أثير بسبب أن فرنسا، التي هي ملكة الممالك، كانت تحكم بمشورة امرأة، والتحق رجال من ذوي المراتب العليا، ويتمتعون بالشهرة، وكانوا مدربين منذ صغرهم على استخدام السلاح، بالعصيان، وتحالف ملك نافار، وكونت شامبين، وكونت لي

مـارشي، وكـونت بريتـاني، وعدد كبير آخـر من النبـلاء، فيما بينهم، بعهـد ويمين ومعاهدة.

موت وليم دوبني

وفي هذه الآونة أيضـاً، في الســادس من أيار، أنهى وليم دوبني Dau-beny الأكبر حياته في سن متقدمـة، وكان فارساً شجـاعاً، وشهماً، وقد حُـبي بجميـع السمات النبيلة، وقـد خلفــه ابنه وليم، الذي كــان وريثـه الشرعي، والذي سار على نهج أبيه في كل مجال.

الاستيلاء على قرطبة وابرام سبتة هدنة

وهاجم في هـذا العـام نفســه، سكان جنوى، يســاعــدهم البيــازنة، والمرسيليين، وملك أراغون، بشكل مفاجىء مدينة فخمة في اسبانيا اسمها سبتة Cepta وكانت بيد المسلمين، وكانت تلحق منذ زمن طويل كثيراً من الأذى والضرر بالغزاة المذكورين، وبسبب الخوف من العدد الكبير من أعدائهم، وبسبب الهجوم المفـاجىء للأعداء، استسلم أهل سبتة إلى سلطة الأعـداء، وعملوا هدنة محدودة الوقت، اشترطت أنه إذا لم يقـدم مـولاهم ملك افــريقيـا الذي يعــرف عـادة باســم أمير المؤمنين، أو لم يرسل إليهم مساعدة فعالة خلال ثلاثة أعوام، هم سوف يستسلمون طواعية ومن دون أية مصـاعب ويسلمون المدينة كلهـا إليهم، كما اشترط أنه في الوقت نفســه يمكن لملك أراغـون ولحلفائـه في أية وقت خـلال الأعوام الثـلاثة أن يبني بسلام برجـاً، وأن يحصنه حسبما يريد، وذلك على جسر، كانوا قـد استولوا عليـه قبل الإعـداد لهذه الهدنة، ثم جـرى بعـد ذلك الاستيـلاء على مـدينة قـرطبـة، وبما أن سبتــة كـانت قـد احتلت منذ أمـد، فقــد ارتفعت آمـال المسيحيين، واستبد الرعب بالمسلمين، وبشكل خاص بملك افريقيا.

أعجوبة

ظهرت في تلك الآونـة، في شهر أيار، وعلى مقربة مـن دير اسمه روشي

Roche في الجزء الشمالي من انكلترا أيدي فرسان مسلحين بشكل جيد، ويمتطون خيولاً ثمينة، مع رايات، وترسة، ودروع وسوابغ، وخوذ، وكانوا مزينين بتجهيزات عسكرية أخرى، وقد خرجوا من باطن الأرض، ثم اختفوا وبعد ذلك ظهروا مجدداً، وقد استمر هذا المشهد لعدة أيام، وجذب انتباه الذين نظروا إليه وشاهدوه، ودهشوا تجاهه وتمتعوا، وركب هؤلاء الفرسان على شكل صفوف وأرتال، واشتبكوا أحياناً بالضراب، وتبارزوا أثناء المنازلات، وقصفوا رماحهم وحطموها إلى قطع صغيرة أثناء الصدام، وقد رآهم السكان وشاهدوهم، لكن ذلك كان عن بعد وليس من قربهم، لأنهم لم يتذكروا أنهم شهدوا مثل هذا المنظر من قبل، وقال كثيرون بأن الواقعة لم تكن من دون مهابة خاصة بها، وكانت هذه الواقعة أكثر وضوحاً في ايرلندا وعند حدودها، حيث ظهروا وكأنهم كانوا قادمين من المعركة، وقد جروا خيولهم خلفهم، وكانوا معقورين منهكين، ومن دون ركّاب، وكان الفرسان أنفسهم مجروحين بشدة وملوثين بالدماء، والذي كان أكثر ادهاشاً هو أن اثر سيرهم ظهر على الأرض وعلى الحشائش النامية وعلى حركاتها واهتزازاتها، وكثير من الناس عندما رأوا هذا المشهد هربوا مذعورين من أمامهم، وحملوا أنفسهم إلى الكنائس وإلى القلاع، معتقدين أن المسألة لم تكن وهماً، بل معركة حقيقية، ووصلت أخبار هذه الوقائع إلى علمنا بعد عدة سنوات من وقوعها، وذلك من خلال تقرير ورواية صحيحة عن الحادثة تم الحصول عليها من ايرل غلوستر، ومن شهادات عدد كبير من الأشخاص.

الملك يسعى إلى إلغاء بعض المنح التي عملها

وفي العام نفسه نال بطرس ريفول وستيفن سيغريف، اللذين أتينا على ذكرهما من قبل أعلاه الحظوة لدى الملك، وفي هذا العام أيضاً، في اليوم الثامن من حزيران، اجتمع نبلاء انكلترا في ويستمنستر، بحضور الملك، عندما حاول هذا الأخير، بوساطة ترخيص من البابا، إلغاء بعض المنح

التي عملها لبعض منهم قبل أن يعقد زواجـه، على أساس أنه هو نفسه غير قادر على المنح، من دون رضـا البابا، الذي إليه —كما قال— تعـود حقوق منح الامتيازات في المملكة، وقد اندهش كثيرون تجاه هذا، وقالوا بأن الملك يسعى أكثر من قـدرته، أو أكثر من واجبه، ليضع المملكة مـوضع العبودية، أو أن ينزلها إلى آخر أحوال الضعف.

بعض النبلاء الانكليز يحملون الصليب

وحمل في هذه الآونة الايرل رتشارد، أخو الملك، وايرل غ. G وجون ايرل شيستر ولنكولن، وايـرل سـالسبري، وغ. G دي لوسي، أخـــوه، ورتشـارد سيـوورد، وعـدد كبير آخـر من النبـلاء، الصليب وأمـر الايرل رتشارد، على الفور بقطع أشجار أحراشه وبيعها، وقد بذل جهده بمختلف الوسائل التي توفرت لديه لجمـع المال لدعم حجه، وليس بعد وقت طويل من هذا وبوسـاطة سيمون دي مونتفـورت ايرل ليستر، و[كما قيل] بطرس دي ريفول، نال رتشارد سيوورد بشكل غير عادل، غضب الملك، واعتقل، ووضع في السجن، لكن مـالبث بعـد ذلـك أن أطلق سراحـه بالسهـولة نفسها.

مذبحة اليهود

وفي هذه الآونة، وقعت مذبحة كبيرة لليهـود، في القارة، وبشكل خاص في اسبانيا، ونتيجة لذلك فإن اليهود الموجودين على هذا الجانب من البحر، خوفاً منهم من أن يعانوا وفق الطريقة نفسها، قاموا فقدموا إلى الملك هدايا مالية، وبناء عليه أصدر أمراً، أمر بإعلانه بوساطة المنادين، بأنه لايجوز لأي انسان عمل أي ضرر، و التسبب بأية مضايقة لأي واحد من اليهود.

هدية الامبراطور

في هذا العام، في حـوالي عيد القـديس بندكت، أرسل الامبراطور هدايا لطيفـة إلى ملك انكلترا، تضمنت ثمانيـة عشر حصـانـاً ثميناً، وثلاثة بغـال

محملة بالحرير مع هدايا غالية أخرى، كما أرسل أيضاً بعض الخيول الغالية والأشياء المرغوبة إلى الايرل رتشارد، أخي الملك.

جفاف طويل وتضرر الحاصلات الزراعية

في صيف هذا العام، وبعد شتاء ممطر إلى أبعد الحدود، كما تقدم الذكر، حدث جفاف مستمر ترافق مع حرارة لايمكن احتمالها تقريباً، وجاء ذلك بعد الأمطار، واستمر لمدة أربعة أشهر وأكثر، ولذلك جفت البحيرات والمستنقعات إلى قعرها، وانفلقت الأرض، وتشققت كثيراً، ولم يرتفع نمو القمح في كثير من الأماكن إلى أكثر من قدمين.

تهدئة النبلاء الفرنسيين

وفي العام نفسه، ومع اقتراب انتهاء الصيف، تقدم نبلاء فرنسا، الذين انشغلوا في اضطرابات تلك المملكة، ببعض العروض للسلام، واستقبلوا في حظوة الملك، وفي هذه الآونة أيضاً قام بعض النبلاء في انكلترا، من الشجعان لكن المتهورين —الذين لاندري بأية روح أغويوا— بالتآمر مع بعضهم والدخول في تحالف لعين، من أجل نهب انكلترا، مثل لصوص وعصابات ليلية، وأصبحت نواياهم —على كل حال— معروفة، وكان رئيس التآمر، واحداً اسمه بطرس بفر Buffer وكان عمله بواباً لدى الملك، وجرى اعتقاله، وبوساطته أمكن اتهام البقية، وجرى نصب آلة مرعبة اسمها المشنقة في لندن، من أجل تعليقهم عليها، وبالفعل جرى تعليق اثنين من زعماء التآمر، وكان ذلك بعدما اشتبكا بمبارزة فردية، وكان أحدهما قد قتل بالمبارزة، وقد شنق ورأسه مفلوق، وعلق الثاني وهو حي، وقد لفظ روحه التعيسة على المشنقة نفسها، وسط نحيب الجماهير التي احتشدت.

خلاف بين سكان أورلين ورجال الدين

وفي العام نفسه، في حوالي أحد الشعانين، نشب خلاف مؤسف بين

رجال الدين والسكان في مدينة أورلين Orleans كان قد تأصل وتطور بوساطة صراخ شجار امرأة، وازداد الهياج وتضاعف إلى حد أن بعض العلماء، والشباب المشهورين من أسر نبيلة قد قتلوا في المدينة، من قبل أهل البلدة، وكان بين هؤلاء حفيد كونت لي مارشي، وحفيد كونت شامبين، وملك نافار، وقريب بالدم لكونت بريتاني، وقريب بالدم للبارون النبيل ايركنوولد Erkenwuled دي بوربون، وآخرين كثر، وقد أغرق بعض هؤلاء في نهر اللوار، وقتل بعضهم الآخر، وقد نجا بعضهم بصعوبة حيث أخفوا أنفسهم في كهوف، وكروم، وأماكن سرية، وبذلك نجوا من الموت، ولدى سماع هذا من قبل أسقف المدينة، غضب كثيراً وعظمت غيرته على العدل، فخرج من المدينة، فحرم كنسياً جميع المقترفين لهذه الجريمة، وألقى قراراً بالحرمان من شراكة المؤمنين على المكان كله.

ولدى سماع النبلاء المتقدم ذكرهم —أيضاً— بمقتل أقربائهم، هاجموا المدينة، وجعلوا كثيراً من سكان المدينة طعمة للسيف، دون انتظار لإجراءات المحاكمة، كما أنهم قاموا وسيوفهم تقطر دماً بقطع رؤوس الذين كانوا على الطريق عائدين من بعض الأسواق، وسلالهم محملة بالتجارات، ولم تتوقف هذه الفتنة حتى أقامت الوصاية الملكية —بناء على طلب الطرفين— مصالحة بينهما، وبذلك هدأ الهيجان، وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، وضعت عدة مدن ومقاطعات من المملكة الفرنسية تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وكان بينهم: الرايم Rheims وإيميان Amiens وبوفيا Beauvias وأماكن أخرى، وقامت الانشقاقات الدينية بينهم، وصدرت عن أسباب مختلفة.

الخلاف الذي تفجر في اكسفورد

ونشب في العام نفسه خلاف بين رجال الدين وبين سكان اكسفورد، وبصعوبة، وبعد وقت طويل، مال ذلك الصراع نحو الهدوء بوساطة تدخل الملك، والنبلاء، والأساقفة، ورجال آخرون من ذوي المناصب

والسلطة، واستردت الجامعة وضعها السالف.

وفي شهر آب من العام نفسه، غادر جون أسقف ووركستر، وتوماس أسقف نورويك هذه الحياة، وفي حوالي الوقت نفسه مات هنري أوف كرويلاند Croyland وكان رجلاً من أسرة مشهورة، وكان معروفاً بسبب تقواه، وجاء موته بعدما أدار كنيسته كلها مع الأبنية التي أعاد عمارتها، وذلك لقرابة خمسين عاماً.

شكوى ملك اسكوتلندا

ومضى في العام نفسه الملك، بناء على نصيحة نبلائه، إلى يورك، للتشاور معهم، ولعمل ترتيبات من أجل تسوية الخلاف بينه وبين الاسكندر، ملك اسكوتلندا، الذي تطور الآن إلى كراهية، لأنه بدا للرجال العقلاء الذين عرضوا أحداث المستقبل على ميزان العقل، أنه من الحماقة بالنسبة لمملكة انكلترا، المحاطة من كل جوانبها بالأعداء في القارة، أن تقوم بتوليد الكراهية الداخلية سراً، وكان سبب هذا الخلاف —كما قيل— هو مايلي:

لقد طالب ملك اسكوتلندا بشكل متواصل بكونتية نورثأمبرلاند، التي أعطاه إياها ا الملك جون بمثابة حصة زواج، لدى اقترانه بابنته جوهانا Johanna وأعلن أنه يمتلك لتأكيد ذلك صكاً، وشهادات عدد كبير من الأساقفة، ورجال دين من ذوي المراتب، وكذلك ايرلات وبارونات، وأعلن أنه من غير اللائق، وعملاً مقيتاً إزالة الذي تفوه به الملوك، وإلغاء ميثاق عمل بين شخصين لهما مثل تلك المكانة السامية، وأضاف أيضاً أنه مالم يقم الملك الانكليزي بإعطائه بشكل سلمي، ماهو واضح أنه حقه، ومبرهن على ذلك بالمنطق، فلسوف يطلب ذلك بحد السيف، وكان يشعر بالطمأنينة، بوجود صداقة سرية —مع وجود ريبة— مع للويلين، وحلفائه، وبتحالفه ومصاهرته مع غيلبرت مارشال، الذي تزوج من أخته مرغريت، التي كانت سيدة جميلة جداً، وكانت عداوة دوله القارية أيضاً،

في حالـة تآمر ضده، وعـلاوة على ذلك، كانـت قضيته عادلة، وقـد تبرهن ذلك بصكوك الملوك الماضين.

وبعـد مناقشـات طويلة من على الطرفين، قـام ملك انكلترا، في سبيل السـلام، ومن أجل حماية مملكتـه، فبـذل كل مـافي طاقتـه، فمنح ملك الاسكوتلنديين مـورداً قـدره ثمانين مـاركـاً من بعض المناطق الأخـرى في انكلترا، وذلك من أجل أن لاتكون حـدود مملكتـه في المناطق الشمالية غير عرضـة للخرق، وأثناء انتظار الفـريقين تسوية القضيـة بما يرضي الجانبين، انتهى المؤتمر، وبقي الجميع في تلك الساعة بسلام.

وفي تلك الآونة أنهى فيليب دوبني حيـاته بمـوت حميـد، وكان فـارسـاً نبيلاً، مكـرساً للرب، وشجـاعاً في القتال، وجـاءت وفاتـه بعدما قـاتل في سبيل الرب، في عـدة حجات في الأرض المقـدسـة، وفيها مـات ونال دفناً مقدساً في الأرض المقدسة، وهو ماكان اشتاق إليه طويلاً، عندما كان حياً.

الدعوة إلى حملة صليبية

وعمل في هذا العام، بنـاء على مذكرة من البـابا، تبشير مهيب في كل من انكلترا، وفرنسا، تولاه رهبان طائفتـي المبشرين والفرنسيكسان، مع رجال دين آخرين مشهورين، ولاهوتيين، وقساوسة، وقد منحوا إلى الذين سوف يحملون الصليب تحليلاً كاملاً من الذنوب، التي تابوا منها بصدق، وعملوا اعترافاً، وتجول هؤلاء الوعاظ بين المدن، والقلاع، والقرى، واعدين الذين سيحملون الصليب الكثير من الفرج في القضايا الدنيوية والمنافع، من ذلك مثلاً:

الفـائدة سـوف لن تتراكم عليهم وضـدهم من قبل اليهـود، وحماية من قداسـة البابا لكل مواردهم وممتلكاتهم، وقدمـواعهوداً بتأمين الضروريات من أجل رحلتهم، وهكـذا أثاروا عـدداً كبيراً مـن الناس، لتقـديم العهـد بالقيام بالحج.

وأرسل البابا فيما بعد أيضاً، المعلم توماس، وكان من الداوية، وصديقاً مقرباً منه، وبعث به إلى انكلترا، مع ترخيصه للقيام بتحليل أولئك الصليبيين، الذين اختارهم، واعتقد أنهم مناسبين، وذلك من خلال عهودهم بالحج، ولدى تسلمه المال منهم، قدر أنه صار بإمكانه أن ينفق في سبيل فائدة قضية الأرض المقدسة، ورفعة شأنها، وعندما رأى الصليبيون هذا، دهشوا تجاه نهم البلاط الروماني الذي لايعرف الحدود، وشعروا بقرارة أنفسهم بالغضب، بسبب أن الرومان سعوا هكذا بوقاحة لافراغ حوافظ نقودهم بكثير من الحيل، لأن الواعظين أضافوا، أنه إذا ماقام أي واحد، سواء أحمل الصليب أم لا، وأنه سوف يكون غير قادر بشخصه على القيام بمثل هذه الرحلة المتعبة، عليه أن لاينسى الاسهام بقدر ماتسمح له امكاناته وممتلكاته، من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وهو إذا فعل ذلك سوف يتمتع بالغفران المتقدم ذكره، لكن هذه الأشياء كلها جعلت سامعيها متشككين، ذلك أنهم قالوا:

«هل سيبرهن تحليلنا بأنه صادق ووفي؟» وهذا ماحدث وكان، لأن البابا شعر بالغضب ضد الشعب، فعمل حرباً، وجمع الأموال واستخرجها، وجبى العشر من جميع البلدان، وكدس مبلغاً من المال لايحصى من أجل الدفاع عن الكنيسة، لكن السلام مالبث أن أقيم، وأصبح هو والامبراطور أصدقاء، أما المال فلم يسترد قط، وهكذا باتت التقوى لدى الكثيرين عرضة للضعف يومياً، واضمحلت ثقتهم وزالت.

استعدادات الامبراطور لقهر إيطاليا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، منع البابا، برسائله الرعوية، الامبراطور بشكل دقيق من غزو ايطاليا، لأن الامبراطور، كان قد قام في الصيف بحشد جميع القوات الامبراطورية التي أمكنه حشدها، لمقاتلة الايطاليين الصلفين، وبشكل خاص سكان ميلان، لأن تلك المدينة كانت الحاوية لجميع الهراطقة، والـ Paterines والـ Luciferians والـ Pub-

licans والألبينيين،والمرابين، وقد بدا للامبراطور أن الاشارة عليه بخطة القيام بمساعدة الأرض المقدسة بحضوره شخصياً، مع مثل جيش الرب الكبير هذا، مشورة فاسدة، لأنه لايجوز أن يترك خلفه مسيحيين مزيفين، كانوا أسوأ من المسلمين، وعلاوة على ذلك كان عجب الامبراطور بلا حدود، من أن يقوم البابا بتقديم الحظوة للميلانيين بأي شكل من الأشكال، أو أن يظهر بحال من الأحوال مقدماً الحماية إليهم، وبما أنه بدا بالنسبة إليه أنه أصبح ليس أباً للأتقياء بل عصا للأشقياء، قام الامبراطور بلطف وحكمة، وتعامل مع مثل ذلك الأب المقدس لأنه بابا فرد عليه كمايلي:

جواب الامبراطور إلى البابا

«إيطاليا هي ميراثي، وهذا معروف من قبل كل الدنيا، وأن أطمع بممتلكات الآخرين، وأن أهمل ممتلكاتي، فذلك معناه إثم وذنب عظيم من قبلي، مثلما يفعل الايطاليون بشكل خاص، ولاسيما أهل ميلان، فهؤلاء قد أثاروني، وليس لديهم احترام مناسب لي، بأي طريقة من الطرق، علاوة على ذلك أنا مسيحي، وإنني وإن كنتُ عبداً حقيراً للمسيح، انني مستعد لاخضاع أعداء الصليب، وبما أن كثيراً من الهرطقات، لم تتفجر فقط في ايطاليا، بل نمت وغلظ أمرها، وبدأ السوس يخنق القمح، في جميع مدن ايطاليا، وخاصة في ميلان، لذلك بات أن تزحف لاخضاع المسلمين وأن تبقي هؤلاء من دون عقوبة، كمن يمسح الجرح، حيث دخل الفولاذ محدثاً ضرراً بليغاً، كما أن ذلك يعني احداث ندبة بشعة، وليس المعالجة، ومجدداً إنني وحدي، وأنا بشر ولهذا لست قادراً على القيام بمثل هذه المهمة العظيمة، التي هي اخضاع أعداء الصليب وذلك من دون قوة كبيرة لتساعدني، لأن أعدادهم كبيرة جداً وهم أيضاً أقوياء، ومرة ثانية، أنا وحدي ليست لدي الكفاية للقيام بأعباء مثل هذه القضية المرهقة، من دون كميات ضخمة من المال، ولقد قررت استخدام ثروة المنطقة المذكورة من

أجل تقديم العـون إلى المصلوب، والانتقام له، لأن إيطاليـا مليئة بالسلاح، والثروات، كما يعرف جميع العالم».

الامبراطور يزحف في إيطاليا للاستيلاء على ميلان

ولدى سماع البـابا هـذه المناقشـة المنطقيـة العميقـة، ولكـي لايبـدو أنه معـارض في هذه المناقشـات الجدلية، تظاهر بإعطاء مـوافقتـه، وأن بإمكان الامبراطور عبـور الجبال والدخـول إلى إيطاليـا وفقاً لغـرضـه، وقد وعـد قداستـه —من دون تراجع، وبقدر مايستطيع أن يقدم له مسـاعدته الأبوية في كل أمـر ضروري، وتشجع الامبراطور بهذا، فجمع بمـوجب مـرسـوم امبراطوري جميع القوات التي كان يمكنه حشدها، ودخل إلى ايطاليا، تتبعه كتلة كبيرة من العساكر، وشعر الميلانيون بالخوف —وحق لهم أن يخافوا— من غضبه المرعب، فبعثوا إلى البابا يطلبون نصيحته، والمساعدة الفعالة منه، وبعدما تسلم البـابا منهم مبلغاً كبيراً من المال مع وعد بالمزيد، أرسل إليهم كثيراً من التفـريج والمساعـدة، مما شكل ايذاءاً للامبراطور، وبدا هذا أمـراً لايصدق، ومعـاكساً لموقف كل انسان، وعجبـوا أنه في وقت الحاجة تحول الأب إلى عراب، ثم خرج سكان ميلان منهـا، وزحفوا من مدينتهم في قوة كبيرة، وصل تعـدادها إلى نحو خمسين ألف رجل مسلح، وسـاروا ومعهم علمهم —الذي سمـوه Carruca أو Canochium للتصـدي للامبراطور، وأرسلوا إليه رسالة، بأنهم كـانوا جاهزين لمقاتلته، ووصل في هذه الآونة فـارس من انكلترا اسمـه بلدوين دي فيري Vere أرسله ملك انكلترا إلى الامبراطور ليعـدّ لبعض الأعمال السرية المتعلقـة بالملك المذكـور والامبراطور، وحـول هذه القضـايا أعطى فيما بعـد إلى مستمعيـه معلومات كاملة.

وعندما سمع الامبراطور بأن الميـلانيين قد خرجوا بمثل تلك الوقـاحة للقتال ضـده، قدّر على الفور بأنهم شعروا بهذه الجرأة اعتماداً على مسـاعدة آخرين، وليس اعتماداً على أنفسهـم، وبعدما جـرى تقدير القضيـة في مؤتمر

مع نبلائه، جرى الاتفاق مع التهليل من قبل الذين كانوا حضوراً من جانب الامبراطور، من العالي إلى الداني، على وجوب حمل السلاح من دون تأخير لمحاربة هؤلاء الغوغاء الميلانيين، الذين تجرأوا مثل جرذان خرجوا من جحورهم، لإثارة مولاهم ودعوته إلى الحرب مع محاولة تجريب منازلة قوتهم مع القوى الامبراطورية، وعندما علم الميلانيون بهذا القرار، توقفوا قليلاً، وقام واحد من شيوخ المدينة، الذي اعتمد على رأيه الجميع ليتكلم، فتحلق الآخرون من حوله، فخاطبهم قائلاً:

«أصغوا إليّ، ياأهل المدينة النبلاء، إن الامبراطور على مقربة منا في قوة كبيرة ومع جيش عظيم، وهو، كما هو معلوم لدى العالم أجمع، مولانا، وإنه إذا ماحدث هذا الصراع المؤلم، سوف يصدر عنه ضرر لايمكن ترميمه، لأننا إذا ما كنا المنتصرين في الصراع، فلسوف ننال الملامة مع نصر دموي على مولانا، لكن إذا ماغلبنا نحن، فلسوف يدمر اسمنا وسمعتنا، واسم شعبنا وسمعة مدينتنا إلى الأبد، ولسوف نكون مهانين بين جميع الشعوب، وبما أنه من جميع الجوانب أمر مهين وخطير أن نزحف مسافة أطول بطريقة عدوانية، أرى إنها خطة حكيمة في أن نعود إلى مدينتنا، حيث أنه إذا مااختار الهجوم علينا، فلسوف يكون أمراً شرعياً بالنسبة لنا، أن نصد القوة بالقوة، وسواء أسمح لنا باقامة سلام معه، أو أرغمنا بالخروج من ديارنا بالقوة، سوف تكون مدينتنا مصانة وسوف يبقى اسمنا الجيد وسمعتنا الطيبة دونما تشويه»، وقبل جميع البقية بهذه الخطة، وعملوا بموجبها، وكان ذلك مشهداً باعثاً على السرور للامبراطور، ودون أن يظهر من جانبه خوف أو رعب، قام بمطاردة المنسحبين، واستعد للحصار، وأثناء وقوع هذه الأحداث أثيرت خلافات في المقاطعات الرومانية، إما بوساطة تآمر الكنيسة الرومانية أو بوساطة أعداء الامبراطور، وتولى ذلك دوق النمسا، وفي سبيل القضاء على هذه الخلافات الداخلية جرى ارسال رسائل ورسل بكل سرعة إلى الامبراطور تشرح له الوضع المنذر الجديد، وتستدعيه

للعودة على الفور، ولذلك رفع الامبراطور الحصـار، الذي كان قد أعدّ له، وعاد إلى ألمانيـا، ولدى سماع سكان ميلان بهذا، استـولوا بالقوة على بعض القـلاع التي كـان الامبراطور قـد استـولى عليهـا، وأسروا حـاميـات هذه القـلاع، ثم أعدمـوا جميع الفرسـان والجنود التابعين للامبراطور، وعندمـا سمع الامبراطور بذلك، غضب غضباً عظيماً، وحق له أن يغضب، ولذلك صبّ جـام غضبـه المشروع على مقترف هذا الاثـم، وعـاقب دوق النمسـا بحرمانه من جميع مـراتبه، وأراضيه، وقلاعه، ومـدنة، وبصعوبة بالغة أبقى على حياته ومنحـه إياها، وعلى هذا بدا أن الانتقام الذي نـزل به الآن عادلاً بسبب الجريمـة التي اقترفت من قبله ضـد الملك رتشـارد أثناء عـودته من الأرض المقدسة، ومع ذلك بدت حتى في هذا الوقت غير كـافية، كما يقول النبي:

«الرب ينتقم بشدة من الأشرار وإن جاء ذلك متأخراً» و«يلاحق الأبناء بجرائم الآباء حتى الجيل الثالث، والرابع».

وفي هذا العـام، في حوالي أيـام عيد القـديس ميكائيل، عـاد بلدوين دي فيري إلى انكلترا، وكان رجلاً مستقيماً، ومخلصـاً، وفصيحاً، وجلب جواب الامبراطور إلى الملك، وقدم روايـة كاملة حول جميع هذه القضـايا، إلى كل من اختار الاصغاء إليه.

وفي تلك الآونة أيضـاً، عاد بطرس، أسقف وينكستر، من القـارة، وهو محروم من جميع قواه الجسدية بسبب المرض، وقـريباً من ذلك الوقت أيضاً، وبالتحديد في يوم الاثنين التالي لذلـك العيد، نزلت أمطار ثقيلة في الأجزاء الشمالية من انكلترا، إلى درجة أن الأنهار والبحيرات فاضت فوق حدودها المعتـادة، وسببت كثيراً من الـدمـار، بتـدمير الجسـور، والطواحين، والممتلكات الأخرى على مقربة من الشواطىء.

ومـات في العام نفسـه، في السادس عشر من آب، تومـاس دي بلندفيل

Blundeville أسقف أوف نورويك، ومات في حوالي الوقت نفسه وليم أوف بلي Bleis أسقف ووركستر، وهنري دي سانـدفورد أسقف أوف روكستر، ومـات أيضـاً تومـاس راعي دير ايفهـام Evesham في هذا العام، وخلفه رتشارد رئيس رهبان هيرل Hurle.

عواصف ريح عنيفة وفيضانات مدمرة

في اليوم التالي لعيد القديس مارتن، وفي ثمانية ذلك العيد، حدث هيجان كبير للبحـر بشكل مفاجـىء في الليل، وهبت ريح عاصفـة عنيفـة، سببت فيضـانات للأنهار، وكـذلك للبحـار، وفي بعض الأمـاكـن، خـاصـة على السـاحل، ساقـت السفن وأبعدتها عن مـوانئهـا، وفصلتهـا عن مراسيهـا، وأغرقت عـدداً كبيراً من الناس، وأهلكت قطعاناً من الأغنام، وأسراباً من الماشيـة، واقتلعـت الأشجـار من جـذورها، ورمت البيـوت وهـدمتهـا، وأفسـدت السواحل، وارتفع البحـر لمدة يومين وليلة بينهما، وهذا حـال لم يسمع بمثله من قبل، ولم يعرف البحـر المدّ والجزر كما هو معتاد، بسبب أنه أرغم «كما قيل» بقـوة الريح المعـاكسة، وشـوهدت أجسـاد الذين غرقـوا، وهي مـرمية غير مـدفونة، في كهـوف تشكلت بوساطة البحـر، وعلى طول السـاحل وعلى مقـربـة منه، وعند وسبيتش Wisbeach والقـرى المجاورة، كانت هناك أعـداد لانهاية لها من المخلوقات البشرية قد هلكت، وفي إحـدى البلدات، ولم تكن مكتظة السكان، عهد بحـوالي مـائة جثـة إلى القبور، في يوم واحد، وفي ليلة أمسية عيد الميـلاد، ثارت أيضاً عاصفة ريح قوية جداً، صـاحبتها رعود، وأمطار غزيرة جـداً، وقد هزت الأبراج وبقية الأبنيـة، وحـولت اضطرابات الأنواء الطـرقـات والبحـار، إلى مـواضع لايمكن عبـورها، وهكذا في هذا العام، في أيـام موسم الاعتـدالات تولت الرياح مـرتان متكررتان اجتياح انكلترا، محدثة أضراراً لايمكن تعـويضها، وفي الحقيقـة، يبـدو أن الرب، قـد أرسل —بسبب ذنـوب العبـاد— هذا الطوفان، كسـوط عذاب إلى الأرض، ولينفذ التهـديد الموجود في الانجيل

قوله:

«سوف يكون فوق الأرض عذاب للأمم، مع ارباك، وسوف يزمجر البحر مع الأمواج».

ملك انكلترا يستخرج ضريبة جزء من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في جميع أرجاء المملكة

في عام ١٢٣٧ لتجسيد ربنا، الذي كان هو العام العشرين لحكم الملك هنري الثالث، عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، ومن هناك بعث بمذكرات إلى جميع أرجاء المقاطعات الانكليزية، أمر فيها جميع النبلاء العائدين لمملكة انكلترا، وهم:

رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان المعينين، والايرلات، والبارونات، أمرهم جميعاً بالاجتماع من دون عذر أو تخلف، في ثمانية عيد الغطاس في لندن، لتدبير الشؤون الملكية، والقضايا المتعلقة بالمملكة كلها، ولدى سماع النبلاء هذا، أطاعوا على الفور دعوة الملك، وبناء عليه، في يوم عيد القديسة هيلاري، قدمت حشود لاعدّ لها ولاحصر، أي كل جماعة نبلاء المملكة، إلى لندن، وتوجهوا نحو القصر الملكي في ويستمنستر للاستماع إلى رغبات الملك، وبعدما أخذ الجميع مقاعدهم، وقف هناك في وسطهم واحد اسمه وليم كيل Kaele وكان مقرباً من الملك، ورجلاً مستقيماً، وبارعاً بشرائع الأرض، وقد عمل بمثابة وسيط بين الملك والنبلاء، وقد أباح لهم برغبة الملك وبنواياه، حيث قال:

«مولاي الملك يود اخباركم أنه مهما كان الذي عمله حتى الآن، إنه منذ الآن فصاعداً، سوف يقوم من دون تردد، باخضاع نفسه إلى نصيحتكم جميعاً، بحكم كونكم رعاياه الطبيعيين والمخلصين، واعلموا أن الذين تولوا حتى الآن إدارة شؤونه، وكانوا مسؤولين عن خزينته، قد قدموا إليه حسابات غير صحيحة عن الأموال التي تسلموها، ونتيجة لذلك إن الملك

لا مـال لديه الآن، ومن دون المال، في الحقيقـة الملك مهجـور كئيب، وبناء عليـه إنه بكل تواضع يطلب مسـاعدة منكم بـالمال، على أساس تفـاهم أن المال الذي يمكن أن يجمع بوساطة ارادتكم الطيبة، سوف يجري الاحتفاظ به، حتى يصرف في سبيـل الحاجـات الضرورية للمملكة، تحت الاشراف الرشيـد لأي واحـد منكـم تختـارونه لهذه الغـاية»، ولدى سماع النبـلاء المجتمعين لهذا الكلام، كـانوا جميعـاً غير متـوقعين أي شيء من هذا القبيل فتمتموا منزعجين بشكل كبير، ورددوا:

[ضاع كل مستمع في دهشة رهيبة

والتفت إلى وجه جاره محدقاً]

وقال كل واحد منهم للآخر:

[هزت الجبال في مخاضها الأرض

فولدت فأراً حقيراً].

ثم إنهم ردوا مغضبين، بأنهم ظلمـوا وضغط عليهـم من كل جـانب، وغالبـاً ماوعـدوا، وكانوا الآن جـزئاً من عشرين، ثم بعـد ذلك جزئـاً من ثلاثة عشر، وبعـد ذلك جـزئاً من خمسـة عشر، من أمـلاكهم، وأعلنوا بأنه سـوف يكـون مسيئاً إليهم، ومضراً بهم، السماح بمثل هذه السهـولة أن يضلل الملك، الذي لم يقم بصـدّ واحـد من أعـداء المملكة، أو بإخـافـة أي واحـد منهم حتى وإن كـان الأدنـى بينهم، والذي لم يستطع قـط زيادة أراضيـه، بـل إنه بالحري أنقصهـا، ووضعهـا تحت نير الحكم الأجنبي، لاستخـراج المزيد المزيـد من المال، وذلك بالغـالب، وبوسـاطة الكثير من الحجج، من رعاياه الطبيعيين، وكـأنهم عبيد، أو من أدنى الحالات، وذلك في سبيل ايذائهم، ومنفعـة الأجـانب، وعنـدمـا سمع الملك هذا، رغب في تهدئة عدم الرضـا العام ووعد مقسماً أنه سوف لن يقـوم ثانية بإثارة النبلاء أو اغضـاب أعيان المملكة، عن طريق الحاق الأذى بهم وفق هذه الطريقـة،

على شرط أن يدفعوا له جزئاً من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في انكلترا، وأن يقدم هذا الجزء الآن إليه من أجل الاستخدام الحالي، لأن المبلغ الكبير من المال الذي كان لديه قبل وقت قليل، قد أرسله إلى الامبراطور —كما ذكر— من أجل زواج أخته، وكان أيضاً الذي أنفقه أثناء زواجه هو، قد أنهك إلى حد كبير امكاناته المالية.

وعلى هذا ردوا بكل صراحة، بأن الملك قد فعل هذا كله، من دون نصيحة رعيته التابعة له، وهكذا ينبغي عدم مشاركتهم بالعقوبة، لأنهم أبرياء، ولاعلاقة لهم بالجريمة، ثم إنهم انسحبوا إلى مكان خاص للتشاور حول إطاعة طلب الملك، ولتزويده بما هو محتاج إليه، ولمناقشة نوع وكمية المساعدة التي طلبها، وفي الوقت الذي كانوا فيه منعزلين من أجل هذا الغرض، قال غيلبرت باسيت للملك على مسمع من الجميع، وبحذر أقل مما ينبغي أن يفعله في كلامه:

«مولاي الملك، أرسل واحداً من رفاقك ليكون حاضراً أثناء مؤتمر باروناتك»، وعندما قال هذا كان جالساً على الجانب الأول من الملك، مع عدد صغير من الأشخاص بينهما، وفي رد على هذا الكلام قال رتشارد بيرسي، الذي كان موجوداً في مؤتمر النبلاء، ولم يكن يفتقد إلى المسوغ لغضبه: «ماالذي قلته، ياصديق غيلبرت؟ هل نحن أيضاً أجانب، ولسنا معدودين وسط أصدقاء الملك؟» وشعر غيلبرت بالملامة بوساطة هذا الكلام غير الطيب والمفاجىء، وهكذا امتد المؤتمر بوساطة مناقشات متراكمة لمدة أربعة أيام.

الشروط التي على أساسها جرى منح الملك جزئاً من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة

وكان الملك خائفاً جداً، ورغبة منه في الحصول على المشاعر الطيبة للبارونات، وعلى المصالحة معهم أخضع نفسه منذ ذلك الوقت فصاعداً،

لنصيحة أتباعه ورعاياه الطبيعيين، وذلك على عكس ماكان قد فعل من قبل، علاوة على ذلك، بالنسبة إلى التقرير الذي أفاد، بأنه كان يسعى بوساطة ترخيص حصل عليه من البابا إلى إلغاء المنح التي أعطاهم إياها من قبل، وأكدها بوساطة صك، بالنسبة لهذا، قال الملك إنه زيف، وإذا ما كان شيئاً من هذا القبيل قد اقترح إليه، فقد أعلن أن ذلك بلا فعالية وأنه هو شخصياً قد تخلى كلياً عن مثل هذا الهدف، وإلى جانب هذا قام بملامح هادئة، وبمبادرة منه شخصياً، فوعد أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً سوف يرعى من دون عذر أو تردد امتيازات الصك العظيم، نحو جميع رعاياه التابعين له في مملكته، ولأنه بدا أنه غير متحرر تماماً من قرار الحكم الذي تفوه به رئيس الأساقفة ستيفن مع جميع أساقفة انكلترا، ضد جميع الخارقين للصك المتقدم ذكره، وهو الصك الذي قام هو شخصياً بخرقه إلى حد بعيد، لهذا كله أمر بنشر قرار الحكم المذكور، وبتجديده ضد جميع المخالفين للصك المذكور والخارقين له، ولذلك بات هو نفسه لايمكنه من خلال أي حقد أو تفكير شرير، القيام —ولو صدفة— بخرقه، لأنه لو فعل وخرقه، سوف يصبح أكثر تورطاً، وتحت طائلة ذلك القرار، ونتيجة لعمله هذا، وبوساطة كلماته تمكن من ارضاء قلوب المستمعين إليه، وتصالحهم معه شخصياً، وتقرر أيضاً أنه سيكون عملاً قاسياً جداً وخشناً، الاقدام في ذلك الحين على عزل مستشاري الملك، مهما كانوا أشراراً، ولهذا متنوا أعدادهم بإضافة بعض النبلاء الآخرين، ولذلك عينوا وأضافوا: ايرل وارني، ووليم فيرار، وجون فتز— غيوفري، وكما فعل الملك من قبل في ويندسور، جعلهم يقسمون أنهم سوف لن يحيدوا عن طريق الصدق، بأية وسيلة من الوسائل أو بالهدايا أو بأي شكل من الأشكال، بل سوف يقدمون إلى الملك نصيحة جيدة، وكل ماهو لمصلحة المملكة، وعلى أساس هذه الشروط، جرى منح جزء من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في المملكة، إلى الملك، لإعادة تزويد خزينته، باستثناء أنه أبقى —على كل حال— لكل واحد، فضته وذهبه، وخيوله وأسلحته، التي سوف تكرس في سبيل

الصالح العام، وكان سوف يجري جمع الجزء من الثلاثة عشر جزئاً، في أرجاء كل كونتية وفق الطريقة التالية، وحسب الشكل التالي:

سوف يجري اختيار أربعة فرسان موثوقين، إلى جانب كاهن واحد، سوف يجري تعيينه من قبل الملك، وسيقوم هؤلاء الفرسان مع الكاهن بتأدية قسم بالتابعية للملك، وأنهم سوف يتولون جمع المال، وسيضعون هذا المال بعد جمعه في أحد الديرة، أو في بيت مقدس، أو قلعة، وبذلك إذا ماسعى الملك إلى التراجع عن وعوده، سوف تعاد ممتلكات كل انسان إليه، وسوف يجري توزيع صحيح، وكان أول من وافق على هذا رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفته، وكهنته، وعلى شرط أن الجزء من ثلاثة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة في المملكة، قد منح إلى الملك، وأن يجمع من جميع أرجاء المملكة بشكل عام، أي من كل أسقف وفارس تبعاً لاقطاعية بارونيته، وغالباً ماأضيف إلى الشروط، شرط أن يقوم الملك وقتذاك، ومن ذلك الوقت فصاعداً، برفض نصيحة الأجانب —الذين كانوا دوماً أصدقاء لأنفسهم، وليس للمملكة، وبددوا الثروات بشكل عام بدلاً من زيادتها— وكذلك برفض النصائح غير الطبيعية، وأن يلتزم بنصائح أتباعه ورعاياه الطبيعيين، وعندها ارفض الاجتماع، وانتهى المؤتمر، ولكن ليس قبل كثير من الغضب السري، وإثارة لعدم الرضا، لأنه بصعوبة كبيرة أمكنهم تحويل عقل الملك للأخذ برأيهم السليم، واقناعه بمسايرة نصيحة الذين منهم استحوذ على جميع مراتبه الأرضية، وعاد كل واحد إلى بلده وداره.

انتصارات المسيحيين في اسبانيا

جرى في العام نفسه، تكريس الكنائس والأساقفة في قرطبة، التي هي مدينة كبيرة في اسبانيا، التي جرى الاستيلاء عليها —كما ذكرنا من قبل— يوم الثلاثاء من اسبوع الفصح، وقد ذكر لوكان Lucan بأنه قد ولد في تلك المدينة، وهو الذي قال:

«أعطتني قرطبة ميلادي»، وجرى الاستيلاء عليها من قبل ألفونسو الملك المسيحي العظيم لقشتالة، ولدى استسلامها للمسيحيين، تراكم السرور فوق السرور، وكذلك بالاستيلاء على جزيرة مايوركا الاسلامية الغنية، التي كانت مليئة بالقراصنة، وقطاع الطرق، وكانت بشكل خاص مضرة جداً إلى التجار والحجاج الذي يسافرون بحراً بين بلدان أفريقيا واسبانيا، وتحتوي هذه الجزيرة على اثنتين وثلاثين قلعة، ولزيادة سرورنا جرى الاستيلاء في السنة المنصرمة على مدينة بريانة، وعلى قلعة بنشكلة من قبل ملك أراغون، وبذلك تمكن بوساطة البراعة المتناهية من انجاز ماكان من غير الممكن انجازه بوساطة القوة، وهكذا أمكن خلال عامين الاستيلاء على مدينة قرطبة، وعلى جزيرة مايوركا، وعلى مدينة بريانة، وعلى قلعة بنشكلة، ومنحت هذه الأماكن كلها وتم التخلي عنها لصالح السلطات المسيحية في اسبانيا، ووضعت تحت سلطة الرب وتشريفاً لكنيسته المقدسة، وبناء عليه استعد شعبنا في ظل مؤشرات سعيدة لمهاجمة بلنسية، التي كانت أيضاً مدينة أخرى واسعة ومشهورة في اسبانيا، وبحكم محافظتكم على شجاعتكم وعلى آمالكم الطيبة، مع تذكر الأحداث الماضية، باتت مدينة سبته تخشى أيضاً سقوطاً مماثلاً.

للويلين يسأل ملك انكلترا تأكيد معاهدتها

أرسل في هذا العام للويلين أمير ويلز، رسالة إلى الملك، حملها رسل خاصين، جاء فيها أن وقت حياته الحالية يتطلب منذ ذلك الوقت فصاعداً، التخلي عن كل الصراعات، وخوض غمار الحروب، وأنه ينبغي من أجل المستقبل التمتع بالهدوء والسلام، ولذلك قرر وضع نفسه وجميع ممتلكاته تحت سلطاته وحمايته، أي تحت الملك الانكليزي، ولسوف يستحوذ جميع أراضيه منه بكل اخلاص وصداقة وسوف يدخل معه بمعاهدة لايمكن إلغاؤها، وإذا ماكان الملك زاحفاً في أية حملة عسكرية، هو سيبذل غاية طاقته، كتابع ورعية له، لرفع شأن الحملة، بمساعدته بالعساكر،

والأسلحة، والخيول، والمال، وفي سبيل تأكيد هـذه المعاهدة، وتصـديقها، جرى ارسـال أسقفي هيرفورد، وشيستر، بمثـابة وسيطين للعمل على إنهاء مسألة المعاهدة المذكورة.

وقد قيل بأن سبب هذه المعاهدة، قد كان بسبب الشلل الذي أصيب به، فكان شخصياً غير قـادر على التصدي للحملات الشديدة التي شنهـا عليه ابنه غريفين Griffin والحرب التي كان قد أعلنهـا عليه، ووافق كثير من نبـلاء ويلز على هذه المعـاهدة، وثبتوها في الوقت الـذي ثبتها فيـه للويلين، وعـارض بعضهم بشـدة اتفـاقـاتهم، هـذا ويحتـاج اخـلاص الويلزيين إلى اخـلاص، وهم لايظهـرون رحمة عندمـا يمتلكون الحظ بأيديهم، وعندمـا يكون السعد صديقاً لهم، يقـومون بتعذيب الذين يقعون بين أيديهم،ولكن عندما ينهـزمون، إما يفـرون، أو يذلون أنفسهم، ومثل هؤلاء الأشخاص، لايمكن مطلقاً الوثوق بهم، لأن الشاعر يقول:

«إنني أخـاف مـن الإغـريق، حتى عندمـا يجلبـون هدايا»، وقــد قـال الفيلسوف سينكا أيضاً: «لايمكنك عمل أية معاهدة مع أي عدو».

زواج رتشارد ايرل غلوستر

وفي تلك الآونة نفسهـــا، اشتعل غضب الملك مجدداً ضـــد ايرل كنت هيـوبرت دي بورغ، بسبب أن رتشارد ايـرل أوف غلوستر، وكان مـايزال صبياً، تحت رعاية الملك، قد تزوج سراً من مـرغريت ابنة الايرل هيوبرت، من دون اذن الملك، أو موافقتـه، لأنه كان قد قـرر —كما روي— أن يوحد الشاب المذكور، أي ايرل غلوستر، مع كونتيته، ومراتبه، ومع الفتاة الشابة، وبقـرابة قـريبـة، مع وليم الأسقف المنتخب لبلنسيـة، الذي كـان من أهالي بروفـانـس، وأمكن أخيراً تهدئـة غضب الملك، بوسـاطة كثير من الناس، وكذلك بناء على إعلان هيـوبرت أنه لم يكن واعياً للأمر، وأن ذلك لم يفعل من قبله، يضاف إلى هذا وعد الملك بمبلغ من المال.

وفي العام نفسه، تمّ بتدبير من الامبراطور فردريك ايجاد سيناتور [شيخ] جديد في روما، في سبيل أنه بوساطة براعة وسلطة اثنين من الشيوخ متحدين، من الممكن ضبط صلف الرومان، وبذلك تصبح المدينة أكثر سلاماً، ومن ثم يجري حكمها بأمان أعظم، وبسهولة أكبر من قبل مستشاريها.

صلف الاغريق نحو الكنيسة الرومانية ونحو امبراطورهم

وتفجر في هذه الآونة صلف الاغريق المعتاد، بالشكل المجنون، نحو الكنيسة الرومانية، ونحو مولاهم امبراطور القسطنطينية، وبذلك نالوا سخط البابا والكنيسة كلها، حتى بات الرأي، وتوفرت الرغبة في ارسال جيش الصليبيين ضدهم، لأن الامبراطور، قام حتى يتجنب غضبهم بالمغادرة إلى البلدان الغربية، ليطلب النصيحة والمساعدة من الكنيسة الرومانية.

البابا يستدعي كونت بريتاني إلى مجلسه

واستدعى البابا في هذه الآونة كونت بريتاني إلى مجلسه، مما أثار دهشة الكثيرين، حيث استغربوا اقدامه على استدعاء رجل مشهور جداً بأعماله الخيانية المزدوجة، ليتولى ادارة شؤونه الصعبة، لكن تبين أنه اختار ذلك الكونت وانتخبه دون سواه، لأنه كان رجلاً بارعاً جداً في فن الحرب، شجاعاً في القتال، ومن أسرة مشهورة، وهو انسان قد نال تجربة من خلال صراعات متوالية بالبحر والبر، ليعهد إليه بقيادة وإمرة الجيش الصليبي، وليضع تحت تصرفه المال لانفاقه في سبيل الاعدادات الضرورية من أجل زحف الصليبيين.

سقوط أمطار غزيرة وتدفقها

ومع اقتراب موعد حلول شهر آذار، وبالتحديد في يوم عيد القديس فالنتاين، عمت عواصف ثقيلة من المطر، وغمرت البلاد، وبتدميرها

لضفاف الأنهار، جعلت المخاضات والطرقات غير ممكنة العبور لمدة ثمانية أيام متوالية، ومما يماثل ماحدث، من الممكن تصور حالات أخرى مشابهة، أي أن يقوم نهر التيمس في انكلترا، والسين في فرنسا، أثناء فيضانيهما بإزالة المدن، والجسور، والطواحين، وأن تنبع البحيرات في الأماكن الجافة من قبل، وتنتشر فوق امتدادات واسعة من البلاد، وإذا حدث ذلك سيكون خلال خمسة عشر يوماً، نتيجة للطوفان، من الصعب جداً، تمييز الطرقات على الضفاف.

وليم الأسقف المنتخب لبلنسية يغادر انكلترا لكنه مالبث أن عاد

ورأى في هذه الآونة، وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي إليه عهد الملك كلية بمقاليد الحكومة ان النبلاء قد شعروا نحوه —ليس من دون سبب— بغضب عظيم ضده، ولذلك قرر المغادرة إلى بلاده، وعهد بأراضيه، وبمزارعه الغنية التي أعطاه الملك إياها، إلى هرون، ووضعها بين يديه، وكان يهودياً من يورك، على شكل رهينة، وتسلم منه، عن طريق الدين، تسعمائة مارك من النقود الاسترلينية الجديدة، وحمل ذلك بيديه، ثم إنه وجه خطاه نحو دوفر، تحت أمان الملك، وعلى ظهور دواب التحميل أوعية مليئة بالذهب والفضة، وهدايا ملكية متنوعة، إلى جانب بعض الخيول الاسبانية القصيرة المرغوبة، وخيول عليها سرج ثمينة، وهكذا تمكن هذا الرجل بمكر وببراعة من تدبر الأمور، حتى أن الملك تخلى عن المثل الذي ضرب له من قبل الامبراطور النبيل، وملك فرنسا الحريص، اللذان لم يسمحا لظهريهما بأن يداس عليهما من قبل زوجتيهما ومن قبل أقربائهما وأبناء بلديهما، فحرم من جميع أمواله، ومن كل مالديه، فأصبح رجلاً محتاجاً، وسمح لهذا الأسقف أن يمزق مملكته إلى مزق، وبما أنه كان تحت نفوذ زوجته، سمح له، وفقاً لأوهى الحجج بالتهام نتاج أراضيه الخاصة، كما أنه سمح للأجانب من: بواتيين، وألمان، وبروفانسيين، ورومان، أن يسمنوا على الأشياء الطيبة في بلاده، وبإيذاء مملكته.

وذهب آنذاك أسقف بلنسيـة المنتخب المتقدم ذكره، إلى فـرنسا، وبعـدما قـدم هناك احترامـاته إلى الملك وإلى أختـه، قـام من دون تأخير بالانطلاق مسافـراً بسلام، وسمح له بالمغـادرة من دون أية هدايا، ثم إنه أرسل الهدايا التي جلبها معه من انكلترا إلى بروفـانس، وهناك وزعهم مع بعض الخيول المحملة بمبـالغ كبيرة جداً من المال، ثم إنه عـاد خالي الوفـاض إلى انكلترا، حيث استقبل بذراعين مفتوحين، من قبل الملك.

انتخاب وولتر كانتلوب وجون رئيس رهبان نورويك

بعدمـا غادر أسقفـا ووركستر ونورويك الطيبا الذكـرى الحياة، انتخب رهبان ووركستر المعلم وولتر دي كـانتلوب Cantelupe ابن وليم دي كـانتلوب، القـوي والواسع الشهـرة، انتخبـوه ليكـون أسقفهم والراعي لأرواحهم، وقد قبله البابا من دون أية مصـاعب، وكرسه أسقفاً، وانتخب رهبـان نورويك رئيسهم، وكان رجـلاً متديناً ومستقيماً، واختـاروه ليكون رئيسهم، لكن هذا الانتخـاب مع أنه عمل بشكل صحيح، لم يرض الملك، وبسبب أعذار مضحكة، واعتراضات بعض الـذين وقفوا ضدها، بقي لمدة طويلـة محرومـاً من التكـريس، لكن ليـس من دون بعض الشكـوك التي صدرت عن أخطاء مرتاب بها.

الأوضاع التعيسة لانكلترا

أثناء هذا الـوقت كله، أخـذت بقيـة حـرارة الإيمان الصحيح بالموت والتلاشي، وتحولت بقايا نارها إلى رمـاد، وبدت وكأنها لم يعد فيها بصيص شرارة واحـدة، لأن السيمونيـة كـانت الآن تمارس من دون خجل، والربا بشكل مكشوف، واستخرجت الأموال من الشعب ومن الصغار بمختلف الحجج، وزالت الصـدقـات، وسحق كـرم الكنيسـة، وديس على الدين، وبات بدون قيمـة، وباتت ابنة صهيـون، كما كانـت دوماً، من دون حيـاء، وعـاهرة من دون خجل، وأقـدم رجـال أميـون من الطبقـة الدنيـا، وهم

مسلحون بالمراسيم من الكنيسة الرومانيـة، واندفعوا متقدمين مع التهديد، واستأنفـوا يوميـاً، على الرغم من الامتيـازات المقـدسـة، التي نلناها من أجـدادنا وأسلافنـا المقدسين، وباشروا بنهب الموارد التي خلفهـا الرجـال الأتقياء من العصـور القديمة، من أجل الانفـاق على رجال الدين، ولدعم الفقـراء، ولتقـديم الضيـافـة إلى الحجـاج، وحصلوا على الفـور على الذي طلبوه، وكان إذا مـالجأ انسان من المتضررين أو المسلوبين إلى وسيلة الترافع للقضـاء، أو الترافع باسـم الامتيـازات، قـامـوا على الفـور بتعليقهم، وحـرمانهم كنسياً، بوساطة بعض الأسـاقفة الآخـرين، وذلك استناداً إلى التخويل والترخيص الممنوح من البـابا، وبهذه الوسيلة، لكن ليس بوساطة الرجـاوات، أو الطرائق الشرعيـة، بل بوسـائل استخراج ملـوكية عنيفـة، سرقوا القوم السذج، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

«يتسول الرجل في السلطة بسيف مسلول».

ولقـد صـار الحال الآن، أنه حيث كـان فيما مضى رجـال ديـن نبـلاء وكرمـاء، وأوصياء على الكنيسـة ورعاة لها، كـانوا قد عـودوا أنفسهم على جعلهـا مشهورة خـلال جميع المناطق المجاورة، بـوساطة اكـرام المسافـرين والعناية بهم، وبانعـاش الفقراء، صـار محلهم رجال منحطين، فـارغين من الأخـلاق، مليئين بالمكر، وكـلاء للضـامنين الرومـان، وتولى هؤلاء الآن الاستيلاء على كل ماهو مفيد، وثمين، ونقلوا ذلك إلى بلدان أجنبية، أي إلى سـادتهم، الـذين كـانوا يعيشـون على الإرث اللذيذ للمسيح، ويتبـاهون باستحـواذهم على أمـلاك الآخـرين، ثم كـان أن شـوهد حـزن عميق من القلب، منه تبللـت وجنات القـديسين بالدمـوع، وسمعت التنهـدات والشكاوى، وقد انفجرت عالياً، وتضاعفت، وقال كثيرون وهم يتنهدون:

«لقـد كـان من الأفضل أن نمـوت على أن نشـاهد معـاناة وآلام شعبنا، وقـديسينا»، الويل لانكلترا، التي كـانـت من قبل رئيسـة البلدان، وسيـدة الشعوب، ومرآة الكنيسة، وأساس الدين، هي الآن ملقاة تحت الجزية، وقد

داس عليها بالأقدام أناس وضعاء، وسقطت فريسة إلى أناس أخساء، لكن الذنوب المتنوعة للانكليز هي التي جلبت أسواط العذاب هذه وأنزلتها على أنفسهم، وذلك من خلال غضبه، الذي بسبب ذنوب الشعب، مكّن المنافقين من الحكم، وجعل الطغاة يتولون السلطة.

موت جون بريين والراهب جوردان

في هذا العام انتزع من بيننا جون بريين المشهور، وصاحب الذكرى الخالدة، الذي كان من قبل ملك القدس، والذي كاد أن ينال السلطة الامبراطورية للاغريق، والذي كان من الممكن له أن ينهي حياته بشكل سعيد، وبسلام في ضوء الشمس، لولا أنه جلب على نفسه عداوة فردريك الكبير، امبراطور الألمان.

وفي هذا العام أيضاً، فيما بين الشتاء والربيع، غرق الراهب جوردان، رئيس طائفة الرهبان المبشرين، وكان رجلاً متميزاً بقداسته، وواعظاً مشهوراً، وجاء غرقة في العاصفة، عندما كان مبحراً على طول السواحل الجنوبية لبلاد المغرب، من أجل أن يربحهم للرب بوساطة وعظه، وجلب جسده إلى اليابسة، من قبل بعض الذين غرقت سفنهم، لكن الحظ انتشلهم من الموت، وجاء ذلك نتيجة جهد كبير ومخاطر، وعهدوا به إلى القبر بشكل مشرف وبطريقة معروفة، وعندما كانوا يتولون دفن جسده المقدس، شموا رائحة طيبة رائعة، صدرت عن ملابسه، وكذلك عن شخصه، واستمرت حلاوتها تطيب أيديهم لوقت طويل.

وحوالي ذلك الوقت نفسه جرى تطويب القديس دومينيك، وتسجيله في لائحة القديسين، وكان راهباً من طائفة المبشرين.

موت رتشارد ثاني أسقف لدرم يحمل ذلك الاسم

وفي تلك الآونة، وبالتحديد في الخامس عشر من نيسان، مات رتشارد، الأسقف الثاني لدرم، الذي حمل ذلك الاسم، وكان رجلاً صاحب تقوى

لا نظير لها، ومعرفة عميقة، وقد حكم بقوة ثلاث أسقفيات كنسية هي، أسقفيات: شيستر، وسالسبري، وأخيراً أسقفية درم، التي ترأس عليها بكل ازدهار، وحررها من دين ثقيل، جناه رتشارد الأول، الذي كنيته مارش، والذي كان متقدمه، وكان مبلغ المال الذي سدده الأسقف المذكور، أي رتشارد الثاني، ودفعه في سبيل تسوية الدين، قد أحصي بأنه تجاوز أربعة آلاف مارك، ومعزو أيضاً إلى الثناء الأبدي عليه، أنه حوّل كنيسة سالسبري، من مكان فارغ وجاف في جوار قلعة الايرل، إلى موقع موائم، وأرسى بمعونة بعض المهندسين المشهورين، الذين جمعهم من بلدان نائية، أساسات كبيرة، ووضع هو شخصياً الحجر الأول، لرفع شأن هذا العمل وفي سبيل تقدمه، لم ينفرد به الأسقف بل قدم له يد المساعدة عدداً كبيراً من النبلاء مع الملك أيضاً، ولهذا قال أحد الحكماء:

«قدم الملك المال، والبنّاء يديه،

والأسقف العون، وهكذا وقف البناء».

وإلى جانب هذا أوجد مؤسسة للراهبات في تارنت Tarent وأعطاها إلى الملكة، وهناك اختار مكان دفنه، وعندما اقترب موعد مغادرته، ورأى الأسقف بأن الساعة قد اقتربت بالنسبة له للعبور من هذا العالم، قدم موعظة خاصة إلى جمع من الناس، وأخبرهم بأن موته بات وشيكاً، وفي اليوم التالي اشتد مرضه، فودعهم جميعاً، وسأل المسامحة من كل من أذنب بحقه، وجمع في اليوم الثالث أسرته، والذين كان مرتبطاً بهم، ليقدم لهم بشكل خاص الحماية، ووزع فيما بينهم مارآه من الضروري توزيعه، وأعطى إلى كل واحد استحقاقاته، وبعدما رتب أموره كلها، وأكمل أعماله كلها بتوزيع موائم وصحيح، قام بتوديع رفاقه واحداً واحداً، وأخيراً قدم الصلاة التعبدية لمنتصف الليل، وأنشد البيت التالي:

«سوف أتمدد أنا بسلام وسوف أنام»، فوقع نائماً بالرب بكل سرور، ثم

قام رهبان درم، بعدما استمدوا العون من عليين، بانتخاب رئيسهم توماس، وكان رجلاً متديناً ومستقيماً، وجعلوه أسقفهم والراعي لأرواحهم.

سبب عودة الامبراطور من إيطاليا

وفي هذه الآونة، وجد الامبراطور فردريك أن مؤمرات أعدائه قد سببت عودته إلى ألمانيا، وتركه لحملته التي كان عازماً عليها، وأن ذلك كان لغير صالح سمعته، لأنه كان قد أرغم على رفع الحصار، والانسحاب من ميلان، وقام بإجراء بحث لمعرفة من الذي تسبب له بهذه الإعاقة، فوجد أن دوق النمسا قد أثار فوضى داخلية في ألمانيا، وأنه كان السبب في إعاقته عن قصده، فهاجمه، وحرمه من أراضيه، ومن مراتبه، وثرواته.

الامبراطور يستدعي للاجتماع جميع أمراء المسيحية

وفي العام نفسه، استدعى الامبراطور فردريك بوساطة مراسلين خاصين، ورسائل امبراطورية أمراء المسيحية الكبار في العالم، للاجتماع في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، في فوكولور Vaucouleurs الواقعة على حدود —أو على مقربة من حدود— الامبراطورية والمملكة الفرنسية، وهدف الاجتماع هناك كان بحث القضايا الصعبة المتعلقة بالامبراطورية، والمتعلقة أيضاً بالمملكة،وبما أن الملك الفرنسي رعى مشاعر الشكوك حول هذا المؤتمر، توجه في الوقت المحدد إلى المكان المعين، يحيط به ويرافقه جيش كبير، كان قد حشده لتلك الغاية، وبذلك ضرب مثلاً مرعباً وخبيثاً للآخرين، لأنه ذهب للبحث في مسائل السلام، وفق الطريقة نفسها التي يزحف بها عندما يريد قتال أعدائه، وقدم ملك انكلترا اعتذاراً منطقياً لعدم حضوره شخصياً، وبعث سفارة سلمية، تتألف من بعض الشخصيات الرئيسية للمملكة، فيها: رتشارد ايرل كورنوول، أخيه، مع بعض النبلاء الآخرين، الموائمين للعمل في مؤتمر تحت توجيه رئيس أساقفة

يورك المبجل، وأسقف ايـلاي، مع أشخـاص آخــرين مـوثـوقين، جـرى اختيـارهـم لهذه الغـاية، ومع أن أسقف وينكستر، قـد جـرى اختيـاره قبل الآخرين، رفض باصرار الذهاب، لكن ليس من دون تقديم سبب معقول، حيث قدم التعليل التالي لتسويغ عدم ذهابه، فقد قال:

«مولاي الملك، لقـد تقدمت مؤخراً بشكوى ثقيلة ضـدي، ورفعتها إلى الامبراطور، حيـث أخبرته، بأنني قمـت مع بعض النبـــلاء الآخـــرين، بإحـداث الاضطرابات في مملكتك، وسـواء أفعلت هذا بعـدل أو من دون عـدل، الـرب يعلم، غير انني واثق من أنني حـافظت على ضميري في كل مجال، وإذا كـانت كلماتـك قـد وضعت الآن بثقـة تفـوهت بها من فمك، وأودعتهـا في رسائلك، وأن تعلن أيضـاً أنني صديق مقـرب منك ومخلص لك، فهـذا سوف يظهـر كأمـر معاكس، وسـوف يسبب لنا معـاً، أنا وأنت بعض عـدم الاستقرار، وسيسيء إلى سمعتك إلى درجة كبيرة، وبنـاء عليه، بسبب أن ذلك ســوف يظهـــر مسيئاً لــك، أنا لن أذهب بأي حـــال من الأحـوال»، وبرأي كثيرين، أنه أعطى بهذا الـرد تعليـلاً كـافيـاً عن نفسـه، ولدى الفراغ من جميع الاستعـدادات، وعندما باتوا جـاهزين للاقلاع بهذه الرحلة، ووجهــوا برســائل من الامبراطور، قـــال فيهـا بـأنه لن يستطيع الذهـاب إلى المؤتمر، آنذاك، كما سلف ولـه واقترح، لكن الذي لـن يستطيع فعله وقتئذ، سوف —بمشيئة الرب— ينفـذه في عيد ميـلاد القديس يوحنا المعمدان، من العام المقبل، وهكذا عـاد كل واحد منهم من دون القيام بأي شيء.

وفي هذا العـام، في يوم العشـاء الأخير، تـولى أسقف هيرفـورد تكريس القربان المقدس، في كنيسة القديس ألبان، وفي هذه الآونة أيضاً، أغلق جون سكوت، ايرل شيستر حيـاته، وكـان ذلك في حوالي أحـد الشعـانين حيث دسّ له السم بوساطة زوجته، ابنة للويلين، وتعرضت حياة أسقف لنكولن للوسيلة نفسهـا، ولكنه استرد بكل صعـــوبة من بوابات الموت، وفي العـام

نفســه، في الأسبوع الذي حلّ قبل أحـد الشعـانين، كانت هناك عـواصف شـديدة، ترافقت مع سقوط برد، كان حجم البردة أكبر من التفاحة، فقتلت المواشي، وتبع ذلك تساقط الأمطار.

وصول أوتو النائب البابوي إلى انكلترا

وفي هذا العام أيضـاً، في حوالي أيام عيد القـديسين بطرس وبولص قدم المعلـم أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان Tullian بمثابة مندوب بابوي، لكن لأي مقصد، فهذا لم يكن معروفاً، وجاء قدومه بناء على استدعـاء من الملك دون معرفة النبلاء، وبناء عليـه شعروا بغضب عظيـم وسخط ضد الملك، وقالوا:

«يتولى الملك الآن منع جميع الشرائع، وقـد حنث بعهده ووعوده، وبذل كل شيء عمله وألغاه، فهـو قبل مدة وجيزة اتحد ذاتيـاً بالزواج من أجنبية، دون استشارة أصـدقائـه ورعاياه الطبيعيين، والآن استـدعى بشكل سري نائباً بـابوياً ليقـوم بتغييرات في جميع أرجاء المملكة، فهـو ما ان يفتح الطريق أمـامــه حتى سيسعى لاسترداد الذي أعطاه»، وهكذا وفقـاً لهذا الأسلوب أخذت المملكة يومـاً فيوماً، تماشيـاً مع كلمات الانجيل، تنقسم على نفسها، وتعيش في فوضى وباتت مهجورة مخربـة بشكل رهيب، ويقال بأن إدموند رئيس أساقفة كانتربري، قد وجّه اللوم إلى الملك لتصرفه وفق الطريقة التي عمل بها، وبشكل خاص لاستـدعائـه النائب البابوي، عـارفاً بأنه قـد كان قبل وقت طويل السبب في إلحاق أضرار كبيرة بالمملكة، وبإلحاق اجحـاف عظيـم بمكانته، ولكن الملك رفض نصيحته، وكـذلك نصائح الآخرين من مستشـاريـه، ولم يرض بأي شكل من الأشكال الاقـلاع عما نواه في عقله، ولذلك قـدم المندوب البـابوي المذكـور بأبهة عظيمـة، مع سلطان عظيم، وذهب الأساقفة والكهنة ذوي المكانة حتى الشاطيء لاستقباله، لابل أكثر من هذا صعد بعضهم على ظهور القـوارب لتلقيه، واستقبلوه بالهتـافات، وقـدمـوا إليــه هدايا ثمينة، لابل حتى في باريس إلتقـاه رسل عـدد من

الأساقفة، وقدموا له أقمشة أرجوانية، وكؤوساً ثمينة، ولفعلهم هذا استحقوا عقوبة جماعية، بسبب كل من الأعطيات، والطريقة التي أعطيت بها، لأنه بالأقمشة ولونها أعطى ذلك مظهراً بأن مكتب النيابة البابوية، ووصول النائب البابوي يلقيان القبول، ولدى وصوله هو لم يتسلم جميع الهدايا التي قدمت إليه، بل بعضها فقط، والذي لم يأخذه أمر بحفظه من أجله، ثم قام بكرم فوزع المناصب الشاغرة والمنافع بين أتباعه الذين جلبهم معه سواء أكانوا مستحقين لذلك أم غير مستحقين، واستقبله الملك شخصياً عند شاطىء البحر، وحنى رأسه حتى ركبتيه، وبعد ذلك استقبله وسار معه وسايره حتى داخل البلاد، وجاء الأساقفة أيضاً، وكذلك رعاة الديرة، وقساوسة الكنائس الآخرين، استقبلوه بكل تشريف واحترام، بمسيرات وموسيقى أجراس، مع هدايا ثمينة، بقدر ماتوفر لديهم، وأكثر مما توفر لديهم.

رسالة فيليب الراهب الدومينيكاني إلى البابا

وفي هذا العام، وصلت أخبار سارة من الأرض المقدسة، بأن واحداً من قادة الهراطقة في المشرق قد تخلى عن هرطقته وأوهامه، وتأثر بالروح القدس، فتحول إلى المسيحية بوساطة الوعظ المستمر والحث التبشيري للراهب فيليب، رئيس طائفة الرهبان المبشرين (الدومينيكان) في الأرض المقدسة، الذي قام من دون تأخير ببعث رسالة حول هذا إلى البابا، وإلى الراهب غودفري، متولي الاعتراف لدى البابا، ليبعث السرور في نفسيهما، بهذه الأخبار المفرحة، ثم إن الراهب غودفري، كتب إلى جميع رؤساء رهبان طائفتي المبشرين (الدومينيكان) في انكلترا وفرنسا يخبرهما بهذه الواقعة بالكلمات التالية:

«إلى الأبوين المبجلين في المسيح، رئيسي طائفتي الرهبان المبشرين في فرنسا، وانكلترا، من الراهب غودفري، متولي الاعتراف لدى صاحب القداسة البابا، أماني الصحة والبهجة في الروح القدس، ليكن معلوماً

لديكما بأنّ قداسته قد تلقى رسائل من الراهب فيليب، المسؤول الاقليمي في الأرض المقدسة، جاء بها مايلي:

إلى الأب الأعظم قداسة والمولى، وإلى غودفري، الذي هو بموجب الدعوة الربانية الحبر الأعظم، من الراهب فيليب، الرئيس الحقير للرهبان المبشرين، طاعة صحيحة وتقوية في كل شيء:

مبارك هو الرب، الأب لمولانا يسوع المسيح، الذي هو في أيامنا، أب مقدس، الذي أعاد برحمته راعي القطيع، الذي كان تائهاً منذ وقت طويل، لأنه في أيامنا قد أرانا سنة من لطفه، وبدأ يملأ الحقول بالوفرة، ومثل ذلك أعاد إلى طاعتكم، وإلى الاتحاد بالكنيسة الأم، شعوباً قد ضلت منذ زمن بعيد، وابتعدت عن تلك الجماعة، ذلك أنه في هذا العام، قام بطريرك اليعاقبة في الشرق، وهو رجل صاحب علم وصاحب أخلاق، ومحترم في سنه، قد جاء مع جماعة كبيرة، من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والرهبان من شعبه، للتعبد في القدس، وله أوضحنا قواعد الإيمان الكاثوليكي، وبالتعاون مع النعمة اللاهوتية، أحرزنا تقدماً كبيراً، حتى أنه في أحد السعف، في الوقت الذي تنزل فيه بالعادة المسيرات من جبل الزيتون إلى القدس، وعد وأقسم أنه سوف يطيع الكنيسة الرومانية المقدسة، وأنه سوف يتخلى في الوقت نفسه عن جميع الهرطقات، كما أنه قدم إلينا اعترافه مكتوباً بالكلدانية (السريانية) وبالعربية بمثابة دليل أخير، وبالاضافة إلى هذا تبنى لدى مغادرته لباسنا الكهنوتي، وهذا الرجل رئيس على الكلدانيين، وعلى الميديين، والفرس، والأرمن، التي دمّر أراضيهم التتار الآن واجتاحوها إلى حد كبير، وتمتد صلاته بعيداً حتى ممالك أخرى، إلى حد أن سبعين منطقة أخرى هي خاضعة له، فيها أعداد لاتحصى من المسيحيين يسكنون بمثابة عبيد للمسلمين ودافعين للجزية لهم، وذلك باستثناء الرهبان، الذين يعفونهم من الجزية، ووفق الطريقة نفسها فعل رئيسان للأساقفة، كان أولهما أسقف اليعاقبة في مصر، وكان الآخر أسقف

النساطرة في الشرق، وكـان لهما حقوق الرعـوية على الناس الذين سكنوا في سورية وفينيقيـة، ونحن الآن أيضاً مرسلون بكل سرعة أربعـة من الرهبان إلى أرمينيا، ليتعلموا اللغة، وذلك بناء على رجاء ملح ومستعجل من الملك والبـارونات، وفيما يتعلـق برجل آخـر، هو رأس الذيـن فصلتهم الهرطقـة النسطورية عن الكنيسة —والذي تمتد رعـويته في أرجاء الهند العظمى، أي مملكة بريستر جـون، والممالك الأخـرى التي هي أقـرب إلى الشرق— قـد تسلمنا عــدة رســائل منـه، أخبرنا بها بأنه قــد وعــد الـراهب وليم دي مونتفـرات، الذي مع راهبين آخرين، كـانوا يتعلمون تلك اللغـة، ولذلك أقاموا بعض الوقت معه، أخبرنا بأنه سوف يكون مطيعاً، وأنه سوف يعود إلى صـدر الكنيسـة المتحـدة، وأرسلنـا أيضـاً بعض الرهبـان إلى مصر، إلى بطريرك المصريين اليعاقبـة، الذين نأوا بالعادة بعيداً جـداً، وضلوا أكثر من الموجــودين في البلدان الشرقيــة، ذلك أنهم أضـافــوا الختــان إلى ذنوبهم الأخرى، أي هم مثل المسلمين، ومنه سمعنا مثل ذلـك بأنه يرغب بالعودة للاتحاد بالكنيســة، وأنه تخلى الآن عن جميع ذنوبـه المتقـدمــة، ومنع الذين خاضعين له من الختان، ويتولى هذا الرجل السيادة ويخضع له:

الهند الصغرى، واثيـوبيا، وليبيـا، ومصر، والليبيين والايثوبيين —على كل حـال— ليسـوا خـاضعين للمسلمين، أمـا بـالنسبـة للمـوارنة، الذين يسكنون في لبنان، فقـد كـانوا قـد عـادوا منذ زمن طويل، وهم مـابرحـوا محافظين في طاعتهم للكنيســة، وفي الوقت الذي نجــد فيــه أن جميع هذه الشعوب خاضعـة لعقائد التثليث وإلى ما نبشر به، فإن الاغـريق لوحدهم مثـابرون على التمسك بشرورهم، وهــم يعـارضـون في كل مكان، سراً أو علانية، الكنيسة الرومانية، وهم يـدنسون قداساتنا وقرابيننا ويطلقون على كل طائفة غريبة عنهم اسم أشرار، أو هـراطقة، وبناء عليه عندما رأينا مثل هذه البوابة العظمى مفتوحة أمامنا، وفي سبيل أن تنتشر حقائق الانجيل في الخارج، وجهنا اهتمامنا إلى تعلم لغـات تلك الشعـوب، ففـرضنا ذلك على

كل جماعة ديرية، وبذلك أضفنا جهداً جديداً إلى الجهود القديمة، وهم الآن —بفضل نعمة الرب— يتكلمون ويبشرون بلغات جديدة، وخاصة بالعربية، التي هي الأكثر انتشاراً بين الناس، لكن يا للأسف، حدث مع جميع هذا السرور، والبهجة الروحية، التي قامت بيننا، نتيجة لتحوّل الكفار، أن مزج الرب من أعماق قضائه، ذلك ببعض المرارة، بوفاة رئيس طائفتنا، إذا لم نقل بأن وفاته قد تحولت إلى حياة للكفار، لأننا سمعنا من كثيرين ممن كانوا هناك حاضرين، ورأوهم، بأن معجزات كثيرة قد شوهدت هناك، إلى حد أن الميت قد بشر بفعالية أعظم بالمعجزات، مما يستطيع الأحياء بالكلمات، مبارك الرب، من أجل جميع الأشياء، ولهذا أرسلنا ثلاثة مبشرين إلى هؤلاء المسلمين، حتى لانظهر أننا مفتقرون إلى نعمة الرب، وبناء عليه، إن عملك أيها الأب المقدس، هو التجهيز والامداد إلى الذين يجتمعون مع بعضهم، وأن تقدموا السلام إلى أولئك العائدين إلى الكنيسة، خشية أن يحدث فيسقطون من بين ذراعي الحاضنة، فيغدون عرجاناً بالقدمين، وبذلك يكون الحال أسوأ من ذي قبل، لأن بعضهم الآن يعارضون أكثر من ذي قبل الرعوية الممارسة عليهم، وأنا لاأتجرأ على حبس انتباهك بالمزيد من الكلمات، فما هو ناقص وليس فيه كفاية، سيكون بامكان الرهبان الحاملين لهذه الهدايا أن يرووه لك، هذا ومات إلى جانب الرئيس وأتباعه: الراهب جيرالد الكاهن، والراهب ايفان المتحول، وإليك يايسوع المسيح كل الحمد والمجد، وشكراً، وشرفاً، وفضائلاً، وقوة، وعالماً بلا نهاية، آمين، وداعاً»، [وفعل هذه الأشياء كلها هذا الكاثوليكي الجديد، من خلال خوفه من التتار، فقد كان مرعوباً من عنفهم، ولأنه لم يكن قادراً على الحصول على المساعدة من الذين أمل بحمايتهم، لجأ هارباً إلى قربان المسيحيين، وبذلك تلقى مساعدة فعالة وسريعة، وفي أيام الرخاء تخلى عن الإيمان نتيجة لضغط نبلائه— إقحام].

هرطقة النساطرة

وبما أنه كانت هناك اشارة إلى النساطرة أعلاه، اعتقدنا أنه من الموائم أن نقحم في هذا الكتاب رواية عن أوهامهم، ففي بلدان المشرق، هناك شعوب همجية تختلف تماماً عن الاغريق وعن اللاتين، ويعرف بعض هؤلاء باسم اليعاقبة، اشتقاقاً من اسم رئيس لهم ومعلم اسمه يعقوب، كان تلميذاً لبطريرك الاسكندرية، وكان هذان الرجلان قد تعرضا منذ زمن طويل مضى لعقوبة الحرمان الكنسي من قبل ديوسكورس Dio-scorus بطريرك القسطنطينية، وطردا من كنيسة الاغريق، وهم الآن يسكنون في الجزء الأكبر من آسيا، وجميع المناطق الشرقية، وسكن بعضهم بين المسلمين، وآخرون متحالفون مع الكفار، المحتلين لمناطقهم، أي النوبة، القائمة على حدود مصر، حيث جزء كبير من أثيوبيا وجميع البلدان بعيداً حتى الهند، تحتوي —كما يؤكدون— على أكثر من أربعين مملكة، وكانوا جميعاً من قبل مسيحيين، ذلك أنهم تحولوا إلى العقيدة المسيحية، على أيدي الرسول متى مع الرسل الآخرين، لكن فيما بعد زرع العدو بذور خلافاته بينهم، فأصبحوا لوقت طويل مظلمين بالخطيئة المحزنة والتعيسة، يختنون أولادهم، من كلا الجنسين، مثل المسلمين غير مدركين أن نعمة التعميد، قد أزالت أوهام الختان للجسد، وذلك مثلما تتساقط الأزهار، وتزول، عند التحول إلى فاكهة، الأمر الذي قال عنه بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية: «إن اختتنتم لاينفعكم المسيح شيئاً» [٥/ ٢] وقال أيضاً: «لكن أشهد أيضاً لكل انسان مختتن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس، قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس. سقطتم من النعمة» [٥/ ٣ -٥]، ومن ذنوبهم الأخرى، ذنب ليس أدنى من الذنب المذكور أعلاه، هو أنهم يعترفون بذنوبهم، ليس إلى الكاهن بل إلى الرب وحده، حيث يضعون بعض البخور المحترق إلى جانبهم، وكأن ذنوبهم سوف ترتفع إلى الرب في الدخان، وخطيئة هؤلاء الأشقياء ليس من خلال

عـدم فهم النصـوص المقـدسـة، ومن ثـم الهلاك بسبب سـوء الفهم، فهم يخفون جراحاتهم عن الطبيب الروحـاني، الذي عمله هو التمييز بين جذام انسان وجذام آخر، وبعد التفكر ملياً حـول جريمة الختان، عليه أن يفرض التوبة، وذلك وفقـاً للمفاتيح الممنوحة للكهنة والمعهـود بها إليهم، بالقدرة على الحل وعلى الربط، وبشكل خـاص الصـلاة إلى الذين اعترفـوا إليهم، وهكذا نجد في الانجيل أن الرب قـال للمجذوم: «اذهب واعرض نفسك على الكهنة» وثانيـة قال جيمس: «اعترف بذنوبك ذنبـاً تلو الآخر»، وقـال سليمان: «لاتستحي مـن الاعتراف بذنوبـك»، ومجدداً إنه وفقـاً للعهـد القـديم، يعترف الكاهن بذنوب الناس على رأس الأضحية، إنما كيف كـان بإمكانه الاعتراف بذنوبهم، مالم تكن معروفة، و قد اعترفوا بها إليه؟، ومرة أخـرى في العهد الجديد، قـال القـديس بولص في جـزء آخر إلى الرومـان: «لأن الإنسـان يعتقـد بالقلـب مـاهو صحيح، ويعترف بالفـم من أجل الخلاص»، ونقـرأ عن يوحنا المعمـدان: «لقـد عمـدوا من قبله، واعترفـوا بذنوبهم» ذلك أن الخجل، والشعـور باللطف، والتـواضع لدى الانسـان المعترف هي الأجزاء الرئيسيـة للتوبة، ويصير الأشخـاص —عرضـة أكثر لاقتراف الذنب— هم الذين لايرون أنه عملاً صحيحاً أن يبوحوا بذنوبهم إلى الناس، لأنه قـد كتب: «إن كل من يخفـي ذنوبه لن يكون مستقيماً، لكن كل من يذنب ويعترف بذنوبه سـوف ينال رحمة»، والخطيئة الثالثة لليعـاقبة المتقدمي الذكر، هي جهلهم البـدائي، مثلما ذلك دليل على سوادهم، هو أن عدداً كبيراً منهم يكوون أولادهم، ويضعون علامات عليهم قبل التعميد، وذلك بالضغط بحـديدة محماة على جبـاههم، ويرسم بعضهم على أولادهم عـلامة الصليب إمـا على خـدودهم، أو على جباههم، ذلك أنهم يعتقـدون أنهم يتطهـرون بالحديد المحمـى، لأنه كتب في انجيل القـديس متى بأن القـديس يوحنا المعمـدان قـال عن المسيـح: «هو سـوف يعمـدكم بالروح القـدس وبـالنار»، وإنه على كل حـال لأمـر واضح إلى جميع ذوي الإيمان الصحيح، أن إزالة الـذنوب تكون بالنار الـروحيـة، أي بـوسـاطة الروح

القـدس، وليس بالنار المرئيـة، لأن الـرب أثناء نبـوته، غـالبـاً مـا لام بني اسرائيل، وأنزل بهم لعنات مخيفـة، لأنهم قلدوا الكفـار، بأمـرهم أولادهم بالمرور خـلال النار، وجـاء في سفـر التثنيـة على لسان نبيـه مـوسى: «خـذ حـذرك فـلا تقلد آثام هذه الأمـم، وينبغي أن لايكون بينكم واحـد يتـولى تطهير ابنه أو ابنتــه بقيـــادتها من خـــلال النار»، ومن الـواضح إلى جميع المسيحيين، أنه لاربنا ولارسله، ولا أي واحــد من الآباء المقــدسين سمح بمـراعاة هذه العـادة في الكنيسة، كما أنهم لم يأمـروا الناس بالاحتراق وفق هذه الطريقة، ونحن قد رأينا علامات الحرق على أذرعة الذين يقطنون بين المسلمين، وكـذلك بين اليعـاقبة والسـوريين، ذلك أنهم أنفسهم عـرضـوا بالسماح لشـارة الصليب بأن تطبـع عليهم، ليميـزوا أنفسهم عن المسلمين، باحترامهم لذلك الرمـز المقـدس، وعندما بحثنـا بين الاغريق والسـوريين وسألناهم لماذا يزدرون اليعاقبة، ولماذا طردوهم من جماعتهم، أوضحوا بأن السبب الرئيسي قـد كـان لأنهم انغمسوا في هـرطقة ملعـونة، وهي الأكثـر شراً، بإعلانهم بأن هناك طبيعة واحـدة وشخص (اقنوم) واحد في المسيح، والهرطقات من هذا النوع قـد حرمت كنسياً وأدينت في مجمع خلقيـدونية، وأكــد بعضهم وأصروا بشكل شرير، على أن المسيح بعــدمــا اتخذ شكل انسان، لم يوجـد في طبيعتين، بل الذي بقي فيه هو الطبيعـة اللاهوتية فقط وكان الذي قدم هذه العقيدة الخاطئة هو يوتيخي Eutyches الذي كان راعي دير في القسطنطينيـة، هذا ويؤكــد بعضهم الآن، بأنه من الطبيعتين كانت هناك طبيعة واحـدة في المسيح، وكان هناك أسقفان من الاسكندرية، اسميهما: ثيوديوس وغـالان، كانا مبدعـي هذه الخطيئة، وإنه على كل حال لمن الواضح، أنه وفقـاً لطبيعـة الوجود الانسـاني، قـد جاع يسـوع المسيح، وعطش وتحمل الحاجـة إلى أشيــاء أخـــرى، وعــانى ألماً من الموت على الصليب، ولكن وفقـاً للطبيعة اللاهوتيـة هو جلب الموت إلى الحياة، وقـام بأعمال أخـرى جيـدة، كما قـال عن نفسـه: «كنت أنا قبل أن يكون آدم» و: «البـداية أنا الذي أتكلم إليكـم» وقـال مـرة أخـرى: «أنا والأب واحـد»،

ولكن في اشارة إلى طبيعته كإنسان قد قال: «الأب أعظم مني أنا» ومجدداً قال عندما كان الكأس يعبر بعيداً عنه: «إنها ليست إرادتي، بل إرادتك التي ستكون»، وبعدما قمت بعملية تقص كاملة تماماً حول اليعاقبة المتقدم ذكرهم، عما إذا كانوا قد أعلنوا عن وجود طبيعة واحدة فقط في المسيح، لم أعرف هل أنكروا وجود غيرها من خلال الخوف من الافحام الجدلي، أو لسبب آخر، ولدى سؤالي لماذا يعلمون أنفسهم باصبع واحد، أجابوني بأنهم فعلوا ذلك بسبب اتحاد الجوهر اللاهوتي، ومع ذلك يشيرون في ثلاثة أماكن إلى الثالوث، أي اهتماماً منهم بالثالوث المقدس واتحاده، وهم يعلمون أنفسهم في أربعة أماكن، على شكل صليب، وكان السوريون (السريان) والاغريق —على كل حال— مضادين لهذا، ولإظهار أهمية الوحدة، التي يؤمنون بها لوحدها أنها الموجودة في المسيح، يعلمون أنفسهم، ويرسمون عليها بإصبع واحد، ويستخدم بعضهم الكتابة الكلدانية (السريانية)، وآخرون العربية، التي تعرف باسم الاسلامية، ويستخدم رجالهم العلمانيون كتابات أخرى ولغات، وذلك تبعاً لاختلاف شعوبهم وبلدانهم، لكن لغة رجال دينهم، التي يستخدمونها في الكتابات اللاهوتية، لاتفهمها الطوائف الدنيا، لأنهم وإن استخدموا اللغة العربية، إنها لاتشابه العربية الدارجة، لكنها لهجة خاصة بهم أنفسهم، لايفهمها السواد الأعظم من الناس.

تواضع النائب البابوي

ولقد تمكن النائب البابوي أوتو، الذي أشرنا إليه من قبل، بالسلوك بنفسه بشكل حكيم، وبلطف وتواضع، وبرفضه إلى حد كبير، الهدايا الثمينة التي منحت إليه، وذلك على عكس العادة الجارية للرومان، تمكن بسلوكه الطيب من تهدئة مشاعر الغضب، التي تكونت ضده، وكذلك التي تكونت عند رجال الدين وعند النبلاء، وكانت مشاعر الكثيرين ضده قصيرة العمر.

تهدئة النبلاء

في المقام الأول، تولى النائب البابوي المذكور، تهدئة بعض النبلاء، الذين لسبب سري لم يحبوه، ووقفوا ضده، وبوساطة قبلة منه ثبتهم بالإيمان، وكان هؤلاء:

بطرس أسقف وينكستر، وهيوبرت ايرل كنت، وغيلبرت باسيت، وستيفن سيغريف، ورتشارد سيوورد، وعدد كبير آخر، كانوا من قبل، لوقت طويل مضى معادين له، وهذه العداوة والكراهية قد وصلت إلى نهاية محزنة في مبارزات عقدت في بليث Blith في بداية الصوم الكبير لهذا العام، فيها واجه فرسان الجنوب، فرسان الشمال، وكانت النتيجة أن فرسان الجنوب تغلبوا على خصومهم، ووقع بعض الرجال من ذوي المراتب من على الطرف الآخر بالأسر، ونجم عن ذلك قتال نظامي بدلاً عن مباراة مبارزة، وفي هذه المنازلة ميّز ايرل بيغود نفسه بين الجميع، وبعد هذا هدّأ النائب البابوي الغضب بين هؤلاء النبلاء، وكتب إلى جميع أساقفة انكلترا للالتقاء به في لندن، في ثمانية القديس مارتن في كنيسة القديس بولص، لسماع مذكرة البابا المانحة له والساندة إليه صلاحيات كاملة بالنيابة البابوية، وفي المكان نفسه للاعداد لخطط من أجل إصلاح الكنيسة الانكليزية، ولعقد مجمع بحضوره.

مقتل فرسان الداوية قرب دربساك

انتشرت في تلك الآونة أخبار محزنة، وعممت الأسى في الأرض المقدسة، فإثر وفاة سلطان حلب، انتهت الهدنة التي كانت معمولة بين فرسان الداوية والسلطان المذكور، فوقتها رغب الفرسان الداوية في توسعة أراضيهم في سبيل كرامة المسيح، لذلك أعدوا العدة للحرب، واقترحوا إلقاء الحصار على قلعة اسمها دربساك Guaseum واقعة إلى الجانب الشمالي من أنطاكية، ونصبوا مخيمهم هناك في سهل معشوشب قرب

القلعة، وعينوا وليم أوف مونتفـرات، الذي كان من أوفرين Auverone وكان الوصي على أنطاكية، قائداً لهم، وعندما اقتربوا من القلعة المذكورة في تعبئة قتـالية، شـاهد ذلك بعض الأسرى الصليبيين الذين كـانوا بين أيدي المسلمين، وكـانوا بالأغـلال، مع بعض المرتدين، ولدى اقترابهم صرخـوا لهم قائلين:

«اهربوا أيها الرجـال الأشقياء، لماذا أنتم مندفعـون نحو دمـاركم؟ إنكم جميعـاً ستمـوتون، ذلك أن أعـداءكم جـاهزون بأعـداد لاتحصى لقتلكم، وذلك بأمـر من سلطان حلب، الـذي نصب كمائن لكـم»، لكن الوصي على أنطاكية، وإن كان قد سمع ذلك، قد استخف بتحذيرهم، ودعاهم مرتدين وخونة، وقـام كثير من فرسان الداوية، فقـدروا فرص الحرب، ونظروا إلى العـدد الصغير لقـوتهم، وإلى الحشـد الكبير لأعـدائهم، فنصحـوه بتجنب كمين العدو، حتـى يتمكنوا تماماً من تقـدير قدرتهم القتاليـة، وعلى هذا ردّ عليهم الوصي، بأنه لايرغب بأن يكون معه مثل هؤلاء الناس الخنوعين، في صراع مشكوك فيـه، ولا أن يشـاركـوا في نصر عظيم هو سيناله، ودعـاهم باسم جبناء مزيفين، وبهذه الطريقة المعـاندة —مع أن عدداً قد تخلوا عنه— أثار العـدو وحرضـه على القتـال، لكن الذي حدث هو أن المسلمين كـانوا محتشدين ولـذلك انقضوا عليه قبل أن يتـوقع ذلك، ولذلك كـان غير قادر على تحمل صـدمة القتـال، وخالـف أنظمة الداوية بأن أدار ظهـره وهرب، وهرب معـه بعض الآخرين من أتبـاعه، الذين كـانوا من قبل قد شجعـوا البقية، وسقط في هذه المعـركة أكثر من مـائة من فرسـان الداوية، وثلاثمائة من رجال القسي العقـارة، دون أن نذكر المدنيين الآخـرين، وعدد كبير من الجنود الرجالـة، أما الذين قتلوا من التركمان، فكانوا حـوالي الثلاثة آلاف، وفي هذا الصراع غير السعيـد قتل فـارس داوي مـن أصل انكليـزي، كـان اسمه رينالـد دي أرغنتون Argenton وكــان هو الحامل للعلم في ذلك اليوم، لكنه لدى سقوطه، مثله مثل الآخرين الذين سقطوا، ترك نصراً كان

هو الأكثر دموية إلى أعـدائـه، لأنه دافع عن العلم بدون كلل حتى قطعت ساقـاه وذراعاه كما أرسل وصيهم وحده قبل أن يقتل حـوالي ستة عشر من الأعـداء إلى الجحيـم في الأسفل، دون أن نحسب الذين جـرحهم بشكل مميت، ووقع هذا الصراع البغيض في شهر حزيران.

إرسال ثيودوريك رئيس الاسبتارية لمساعدة الأرض المقدسة

عند سماع الداوية والاسبتارية الساكنين في البلدان الغـربية بهذه المصيبة، أعـدوا أنفسهم لـلانتقـام لدمـاء إخـوانهم التـي سفكت في سبيل المسيح، وأرسل الاسبتـارية رئيسهم ثيودوريك، وكـان ألماني المولد، وكـان فارسـاً بارعـاً جـداً، وأرسل معهم مجمـوعة من الفـرسـان مع تابعين مأجـورين، ومبلغ كبير من المال لمسـاعدة الأرض المقـدسة، وبعـدمـا فرغـوا من جميع ترتيبـاتهم، انطلقـوا من بيتهم في كـلاركنول Clerkenwell في لندن، وسـاروا بنظام جيـد، مـع حـوالي ثلاثين ترسـاً غير مغطاة، ومع رمـاح مـرفوعـة، وأمامهم علمهـم، خلال وسط المدينة، نحـو الجسر حتى ينالوا مباركة المشاهدين، وحنوا رؤوسهـم مع قلنسواتهم نحو الأسفل، وعهدوا بأنفسهم إلى صلوات الجميع.

عودة الامبراطور إلى إيطاليا مع جيش كبير

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل من العـام نفسه، قام الامبراطور بعدما قمع الاضطرابات التي تفجـرت في ألمانيـا، وتمكن من تهدئـة جميع الفئات هناك، بالدخول إلى ايطاليا مع قوة كبيرة، وقرار بأن يستخدم جميع الوسائل للانتقام للأضرار المضاعفة، التي غالباً ما أنزلها به سكان ميلان، لأنه عندما عاد قبل وقـت قصير إلى ألمانيا، أثناء حدوث الاضطرابات الـداخلية، التي أثارها دوق النمسا من أجل دمـاره، ولدى سماع أهل ميلان بخبر تراجعه، قـامـوا وكأنهم يطاردون الامبراطور بحقـد شـديد، فقتلوا بشكل وحشي أتباعه، الذين وضعهم في القـلاع التي نال تملكها في ايطاليا، وبذلك أثاروا

يومياً غضب الامبراطور، وبناء عليه، ولكي لاينال تهمة عدم الطاعة، قام بمراسلة البابا مراراً وتكراراً، برسائل تضرع، وبعدة رسل خاصين، فتوسل إلى البابا شخصياً بحكم كونه رأس الكنيسة، ليقدم له المساعدة في الحصول على ميراثه، وبانزال العقوبة بسكان ميلان، للأضرار المضاعفة التي ألحقوها به، ولاجتثاث الهرطقة من كل مدينة سيئة السمعة في إيطاليا، ولاسيما أن واجب كنيسة روما، إذا ما صمت البقية، أن تقف ضد وقاحة مثل هؤلاء الناس.

ولدى سماع البابا بهذا، تظاهر بإخفاء نفسه، وسار نحو روما، وكأنه كان هارباً من أمام الامبراطور، لأنه كان غير راغب —أو غير قادر— بمساعدته، واستقبله الرومان بسرور، متصورين أنه منذ ذلك الحين فصاعداً، لن يتخلى عنهم، ويسافر بعيداً، كما فعل من قبل، لأنهم وجدوا أنهم عانوا أثناء غيابه، الذي استمر حتى الآن عشرة أعوام، من خسارة كبيرة في المال.

الحرب بين الامبراطور وبين الميلانيين

ولدى سماع الميلانيين بقرب وصول الامبراطور، الذي أثاروه إلى غضب مسوغ، عملوا جميع الاستعدادات، التي أمكنهم عملها، من أجل الحرب، فقد زودوا أبراجهم بالمؤن، وجعبهم بالسهام، وجهزوا بالسلاح الذين ليس لديهم أسلحة، ولذلك عندما صار الامبراطور قريباً مع جيشه الكبير، الذي قيل بأن تعداده قد تجاوز مائة ألف رجل، بالاضافة إلى المرتزقة المسلمين، وبعدما سار فصار على بعد زحف يوم عن المكان، خرج سكان المدينة مع حلفائهم من دون انذار، في صفوف قتالية، للتصدي له، ونصبوا مخيمهم حتى يتقرر يوم المعركة، وكان معهم حشد عدده حوالي خمسين ألف رجل، ونصبوا رايتهم حيث بدا الجيش أنه الأقوى، ولدى رؤية الامبراطور لهذا، جمع مستشاريه، وشجعهم بالخطبة الحربية التالية:

«انظروا كيف تجرأ هؤلاء الميلانيون الوقحون على الظهور أمامنا، وشرعوا بإثارتي أنا الذي هو مولاهم وتحريضي على القتال، وهم كما ترون أعداء الاستقامة والكنيسة المقدسة، وهم يتحملون وزر ذنوبهم، اعبروا النهر —لأنه كان هناك نهر بينهما اسمه أوغليو Oglio — وانشر رايتي أيها الحامل لها، وارفعوا عالياً نسري المنتصر، واشهروا أنتم يافرساني سيوفكم المرعبة، التي غالباً ماغمستموها في دماء أعدائكم، وأنزلوا انتقامكم بهؤلاء الجرذان، الذين تجرأوا في هذا اليوم على الخروج من جحورهم ليتنازلوا مع رماح الامبراطور الروماني».

ولم ينالوا أي تأخير، لأن الميلانيين انقضوا على الفور على العساكر الامبراطورية، وقاتلوا المسلمين بحماس، ذلك أنهم كانوا أول من تصدى لهم، وفي وقت قصير قتلوهم جميعاً، وعزموا على اقتراف مذبحة مماثلة ببقية الجيش الذي تصدى لهم، ولدى رؤية الامبراطور لهذا ومعه نبلائه الشجعان الذين لايقهرون، ألقوا بأنفسهم كتلة واحدة على الأعداء، وبذلوا كل طاقتهم، فصدوا حملاتهم، وعندما رأى سكان المدينة —من الجانب الآخر— أنها مسألة حياة أو موت، تبادلوا تشجيع أحدهم الآخر، للمحافظة على شجاعتهم، وقاتلوا الأعداء بشجاعة أكبر، وغرزوا سيوفهم البراقة في أجسادهم،وحوّلوا الهجوم إلى معركة هي الأكثر دموية، فقد سقطت أعداد كبيرة من على الجانبين، وامتلأ الهواء بصراخ الجنود المتصارعين، وبأنين الذين كانوا يموتون وبتصادم الأسلحة، وبصهيل الخيول، وصراخ راكبيهم وهم يحثونهم على الاسراع، وغالباً ماعلت أصوات قرع الحديد مثل الصواعق، وأخيراً، وبعد عدة حملات دموية من على الجانبين، أصبح الميلانيون، غير قادرين في ذلك اليوم على تحمل ثقل المعركة، والاستمرار بالقتال مدة أطول، لذلك تراجعوا نحو مدينتهم، عازمين على معاودة القتال في اليوم التالي، وبعثوا برسالة إلى الامبراطور، بأنهم سوف في الصباح الباكر من اليوم التالي يجربون بكل تأكيد حظ

الحرب، وهم وقتها سينالون النصر أو عدوهم، تبعاً لإرادة رب الحشود، حتى لاتبقى عقولهم معذبة مدة أطول بسبب التعليق أو التأخير.

ولدى سماع الامبراطور بهذا عقد مؤتمراً، وكان بحكمة وحذر يرغب في قمع غضب أعدائه، مؤثراً ذلك ومفضلاً له على متابعة القتال المشكوك به بشكل غير حكيم، وعلى أن يعهد بنفسه وبأتباعه المتعبين إلى حظ الحرب غير المؤكد، لأن مذبحة كبيرة وقعت بين صفوف النبلاء من على الجانبين، ستظل موضع نواح وبكاء لأجيال مقبلة، لكن الميلانيون نالوا الحظ الأسوأ في القتال، لأن الامبراطور قد أخذ ثلاثة آلاف منهم أسرى، وذلك من مختلف مراتب أهل المدينة، وذلك إلى جانب قتل عدد لايحصى من عامة الجند بحد السيف، يضاف إلى هذا، نصب كميناً بعد ذلك، فأسر ثلاثمائة من النبلاء، واستولى على رايتهم، واعتقل عمدتهم، ابن دوج البندقية، الذي هو بالحري سقط في المعركة، وقتل أيضاً كثيراً من النبلاء الآخرين، وسقط أسقفهم أيضاً، إما أثناء القتال، أو أخذ أسيراً، والحقيقة المؤكدة، هو أنه لم يترك أحداً، ليقدم أية رواية عنه.

وأمر الامبراطور منذ ذلك الحين باغلاق جميع الطرقات والمعابر حول المدينة، وبحراستها بدقة، وباغلاق المخارج والمداخل العائدة للتجار والفلاحين، بوضع حراس هناك ليلاً ونهاراً، وبهدم الجسور، وبحراسة الطرقات، وكانت الغاية من هذه الوسائل اضعاف قوى أعدائه الثائرين وتدجين وحشيتهم، وأصبح سكان المدينة الذين رفعوا كعبهم ضد الرب يائسين، ولايثقون بالرب، فرفعوا المصلوب في الكنيسة من كعبيه، وأكلوا الجسد في اليوم السادس من الاسبوع، وفي الصيام الكبير، وانغمس كثيرون في هذه المتاهة من اليأس في جميع أرجاء ايطاليا، وكانوا يشتمون ويجدفون، ومن دون احترام لوثوا الكنائس بالقاذورات، التي هي غير جديرة بالذكر، ولوثوا المذابح، وطردوا الموظفين اللاهوتيين، واستولى وقتذاك الرعب والارتعاد على مدن ايطاليا، وجاءت أعداد من السكان إلى الامبراطور يقدمون هدايا ثمينة، لكي لايتورطوا بفاجعة مماثلة، وسلموا أنفسهم

ومـدنهم واستسلمـوا إليـه، وأعطوه أيديهم اليمنى معـاهدين، وتواضعـوا متعظين بأمثولة الآخرين الذين عانوا وتألموا، وهكذا تمكن الامبراطور قبل منتصف الصـــوم الكبير من احكام قبضتــه على جميع ايطاليـــا، وذلك إلى جانب بولونا Bologna وأربع مدن أخـــرى هي التي لم تمتلك الوسائل للمقاومة، وكان جميع رجال الدين في بولونا مرعوبين خائفين على أنفسهم، لأن الامبراطور كان قد أخبرهم في السنة الماضيـة وأمرهم بالمغادرة بسلام، وقد رفضوا طاعة أوامره.

سخط نبلاء انكلترا ضدّ الملك

في الوقت الذي كانت فيـه هذه الوقائع جـارية في مناطق ماوراء الألب، اعتمــد الملك هنري الثـــالث على نصيحـة شريـرة، ووثق بها، على عكس مـاقضى عليـــه واجبـه، أو المنفعـة لـه، فنأى بنفسـه عن نصيحـــة رعـاياه الطبيعيين، وأصبح متصلباً عنيداً ضـد الذين يرغبون به الخير، وضد الذين يتطلعون نحو منفعة المملكة، فقد أدار شؤونها، مع اصغاء قليل، أو معدوم لنصيحتهم، وكـــان في سبيل أن يمتلك بعـض الحجج الماكـــرة مـن أجل استخراج المال منهم، أعلن بناء على قسمه، في المؤتمر الذي دعـا إليه النبلاء من مسافات بعيدة، بأنه كان معدماً بلا مال، وأنه كان في وضع كبير العوز، ولذلك التمس بكل إلحاح منهم أن يمنحـوه جزئاً من ثلاثة عشر جـزئاً من أمـوالهم وأملاكهـم في جميع أرجاء انكلترا، حتى يمكن دعــم كرامتـه، أي كرامـة الملك، وكرامـة المملكة بطريقة أعظم تشريفـاً، ولكي توسع المملكة على أسس أكثر رسوخاً، وقد انزعج النبلاء كثيراً لدى سماعهم هذا، ورأوا كثيراً من الأجـــانب يسمنون على ممتلكاتهم، وقـــد ضعفت المملكة بسبب الفقر، وقد أحاقت بها مخاطر مضاعفـةمراراً، وكان بعد كثير من المناقشات فيها تواضع الملك بنفســه، ووعد أنه منذ ذلك الحين فصاعداً سـوف يلتزم بنصائحهم من دون تردد، وجرى منحه الجزء من ثلاثة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة، لكن ذلك لم يكن من دون صعوبات كبيرة.

وصـدر الأمر بعـد ذلك بجمع هذا الجزء، وبتقـدير ليس وفقاً للتقـدير الملكي، بل وفقـاً للتقـدير العـام، وأن لايوضع في الديرة والقـلاع، حسبما جـرى الاعداد من قبل وتقـرر، وأن لاينفق بناء على تصرف النبـلاء، لكن قام الملـك من دون أخذ مشورة أي واحـد من رعايـاه الطبيعيين في مملكته، فأعطى المال إلى الأجـانب لينقل إلى الخارج، وأصبح هـو مثل انسـان مسحور، إذا لم نقل إنه أصبح من دون عقل، ولذلك تفجرت الشكوى بين الناس، وازداد سخط النبلاء حماوة وشدة.

الايرل رتشارد يلوم الملك

وكـان رتشـارد، ايرل كـورنوول، وأخـو الملـك، أول من طلب الملك للاستجـواب، ولامه بحـدة للخراب الكبير الذي لحق بالمملكة، وكـان هو سببه، وأعلن أنه يقوم يومياً، بوساطة عذر جديد، بنهب نبلائه، وأتباعه من البـارونات، من ممتلكاتهم، وكل ماأخـذه منهم، وزعه بشكل غير معقـول، بين هؤلاء الذين كانوا يتـآمرون ضده، وضـد ممتلكاته، وأضاف الايرل بأن الملك قـد جمع موارد كبيرة، وجبى في أيامـه مبالغ ضخمـة من المال، وأنه لم يكن هناك لارئاسة أساقفة، أو أسقفية، باستثناء: يورك، وباث، ووينكستر، هي ليست شـاغـرة في أيامـه، وذكـر الشيء نفسـه فيما يتعلق برعـاة الديرة، والكونتيـات، والبارونيـات، والادارات، والوكالات الأخـرى، ومع ذلك فإن خزينة الملك، التي يتـوجب أن تحتوي قوة المملكة واستقـلالها، لم تشعر قط بأية زيادة.

واستمـر الملك في رفضه لنصيحتـه، وكـذلك لنصائح رعـاياه الطبيعيين الآخرين، وازداد مـن سيء إلى أسوأ في جنانه الذي شعر بـه، وألم به، وعهد بنفسـه كليـاً إلى إرادة الرومـان، وبشكل خـاص إلى النائب البـابوي، الذي أرسل خلفـه بشكل غير حكيـم، حتى أنه ظهـر وكأنه يعبـد حتى خطواته نفسها، ذلك أنه أعلن أيضاً، أنه لايستطيع بالعلن أو بالخفاء ترتيب أي شأن من شـؤون المملكة، أو إحداث أي تغيير أو تبـديل من دون مـوافقة مـولاه

البـابا، أو النائب البـابوي، ولذلك مـن الممكن القـول أنه لم يكن ملكاً، بل تابعاً للبـابا، وبهذه التصرفات وأمثالها من المساوىء، أخـرج الملك ونبذ من قلوب نبلائه، وكان لديه أيضـاً مستشارين رجالاً غير مشهورين، ولا يمكن الوثوق بهم، وقد قيل بأنهم كـانوا المحرضين له على هذه الأفـاعيل، ونتيجة لذلك كـانوا مكروهين إلى أبعـد الحدود من قبل النبـلاء الانكليـز، مع أن أصـولهم جـاءت من المملكة نفسهـا، وكـان هؤلاء: جـون ايـرل لنكـولن، وس. S ايرل ليسـتر، وغ. G وكان من رهبان الداوية.

النائب البابوي يسمّـن نفسه على الأشياء الطيبة لانكلترا

وقـدمت في الوقت نفسـه، هدايا ثمينـة إلى النائب البـابوي، من خيـول صغيرة لركـوب السيـدات، وأوعيـة جميلة، ومـلابس ناعمـة ومضـاعفـة الحيـاكـة، ومختلف أنواع جلـود الحيـوانات البريـة، وأمـوال، ولحوم، ومشروبات، وعندمـا بدا لأسقـف واحـد، هـو بطرس أسقف وينكستر، ووضح بأن النائب البـابوي مزمع على إمضـاء الشتاء في لندن، أرسل إليـه خمسين رأسـاً من الماشية، ومـائة عبـوة من القـمح، وثمانية دنان من الخمـرة الصـافية ليـدعم نفسـه بها، وقـدم له آخرون هدايا ممـاثلة، تبعاً لقـدرتهم، وللوسـائـل التي توفـرت لديهم، ولكـن النائب البـابـوي لطّـف الشره الرومـاني، ولم يقبل جميع الهدايا التي قـدمت إليـه، وقـد تقبل بعض الهدايا وتسلمها عن رضـا، وبملامح مشرقة، واضعـاً في ذهنه الملاحظة الفلسفية التي تعزى إلى افلاطون قوله:

«أن تتسلم جميـع الهدايا التي منحت إليـك، فـذاك شره، وأن لاتتسلم شيئاً، فذلك ازدراء، ولكن أن تتسلم بعض الهدايا، فتلك صداقة».

الملك يدعو كونت بروفانس إلى زيارته

وفي الوقت نفسـه توسل الملـك بحـرارة إلى كـونت بروفـانس —والد الملكة— بالرسائل، وبالرسل المتتـابعين، لكي يوافق فيقدم إلى أرض ختنه،

وليحمل وهو عائد بعض ماله معه أثناء رجعته، ومن المعتقد أن المال الذي استخرجه الملك كجزء من ثلاثة عشر جزئاً، كان من أجل التوزيع عليه وعلى آخرين من مثل هؤلاء الناس، واقتنع الكونت بحب الكسب، وجاء بناء على الدعوة، ولم يعق بأي إغراءات أو هدايا من الفرنسيين، مع أن الملك كان متزوجاً من ابنته الكبرى، لكن قبل أن يصل إلى البحر، ثارت حرب داخلية في مناطق بروفانس، ولذلك عاد مسرعاً، ولدى سماع الملك هنري بذلك أرسل إليه ألف مارك ليغطي بها نفقات سفره، وليشتري تجهيزات عسكرية من فرنسا.

لقاء في يورك بين ملكي انكلترا وسكوتلندا

وكتب في العام نفسه الملك إلى نبلائه ليجتمعوا بحضرته وبحضرة النائب البابوي في يورك، في يوم عيد تمجيد الصليب المقدس، للبحث في بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالمملكة، وتوجب على ملك سكوتلندا أيضاً القدوم إلى ذلك المكان لمقابلته، بناء على دعوة له من الملك ومن النائب البابوي، بغية الاعداد لشروط من أجل السلام بينهما، وأنه بفضل نعمة الرب يصبح من الممكن تسوية جميع الخلافات بينهما وإنهائها، وأن يكون كل واحد بينهما راضياً بتسلم ماهو حق له، وبعد وصولهما إلى هناك، تم الاتفاق على أن يتسلم ملك الاسكوتلنديين ٣٠٠ Librates [١٥,٦٠٠ acres تساوي الأكره الواحدة حوالي الأربعمائة متر] من الأرض في مملكة انكلترا، دون السماح ببناء قلعة عليها، وعليه أن يقدم الولاء إلى الملك، كما يتوجب إبرام معاهدة تحالف بينهما، وأن عليه أن يقسم على العمل باخلاص نحو ملك انكلترا، وأن يحافظ على المعاهدة، وكان المرجو أنه بهذه الوسائل إنهاء جميع الشكاوى والادعاءات من جانب ملك سكوتلندا، ولدى إلحاح النائب البابوي وتعبيره عن رغبته بالذهاب إلى مملكة سكوتلندا لفحص الشؤون اللاهوتية هناك مثلما فعل في انكلترا، أجابه ملك الاسكوتلنديين قائلاً:

«أنا لاأتذكر قط أنني رأيتُ نائباً بابوياً في بلادي، ولم تكن هناك حاجة قط لدعوة واحد إلى هناك، الحمد للرب، وليس هناك الآن أية حاجة لواحد، لأن كل شيء يسير على مايرام، كما أنه لم يسمح لأي نائب بابوي بالدخول إلى تلك المملكة في أيام أبي، أو أيام أي احد من أجدادي، وأنا لن أسمح بذلك مادمتُ قادراً على فعل ذلك، وبما أن التقارير قد تحدثت عنك بأنك رجل صاحب قداسة، إنني أحذرك، إنه إذا صدف ودخلت إلى أراضي، أن تسير بكل حذر، خشية أن يحدث لك أي حادث، لأنه يسكن هناك أناس متوحشون، ليسوا تحت السيطرة، وهم متعطشون يسعون وراء الدماء البشرية، وهؤلاء أنا لايمكنني تدجينهم، وإذا مارغبوا بمحاربتي، فسأكون غير قادر على منعهم، ولربما سمعت مؤخراً أنهم أرادوا محاربتي وطردي من مملكتي»، ولدى سماع النائب البابوي هذا، لطّف رغبته وشوقه إلى دخول اسكوتلندا، ولم يترك جانب ملكه، أي جانب ملك انكلترا، الذي أطاعه في كل شيء، لكن أحد الطليان، وكان من أقرباء النائب البابوي، بقي مع ملك اسكوتلندا، وأبقاه هذا الملك معه، وذلك حتى لايظهر أنه متمرد تماماً، وشرفه بمنحه رتبة الفروسية، ومنحه بعض الأرض، وهكذا إرفض المؤتمر، وعاد الملك مع النائب البابوي إلى الجنوب.

استعدادات النائب البابوي الكبيرة من أجل عقد مؤتمر

ومع اقتراب موعد عقد المؤتمر، أمر النائب البابوي بوضع كرسي فخم في مكان مرتفع، وأسنده فوق ألواح طويلة، وقد أمر بتشييده لنفسه في الجزء الغربي من كنيسة القديس بولص في لندن، ثم إنه أرسل رسائله إلى جميع قساوسة انكلترا، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان المعينين، يأمرهم أن يجلبوا —أو أن يرسلوا— رسائل توكيل عن ديرهم أو هيئة كهنتهم، وكذلك بأسمائهم، بأن كل شيء سوف يقرره النائب البابوي في المؤتمر، ينبغي أن يصدقوا عليه من على الجانبين، وبناء على هذه الدعوة قدم جميع قساوسة انكلترا الذين هم تحت سلطان

نيـابته البـابوية، مع أنهم تعـرضوا لكثير من الضيق والتعب في أجسـادهم، ومثل ذلك عانت خيـولهم، لأن فصل الشتاء كان قـد اقترب حلوله، ومعه أنواء عاصفة وقاسية.

عاصفة ريح ثقيلة ومدمرة

وكان من بين الذين قدموا إلى ذلك المؤتمر واحد اسمه المعلم وولتر بروز Pruz وكـان كـاهناً وقـد أعلن للجميع بأن جميع الكـواكب مقبلة على الاجتماع معاً، تحت برج واحـد من الأبراج هو برج الجدي، وسوف يسبب هذا هياجـاً عظيماً بالعناصر، ولسوف يثير عـواصف ثقيلة من الريح، وتنبأ أن دماراً هائلاً سيكون بين الحيوانات، خاصـة القرنية منها —التي ندعوها مـاشية أو قطعـان— وهذا سوف يتبع الزوابع، وأضـاف مازحـاً: «ربما لن تكون بشراً لهم قـرون»، أي «من الأسـاقفـة»، ولم تكن توقعـاته هذه كلهـا فـارغـة من الصحـة، لأنه حـدث فجـأة، عندمـا كـانوا مجتمعين في كنيسـة القديس بولص أن اهتزت بشكل مفاجـىء، بسبب تلك العاصفة الشديدة من الريح، فـاستولى رعب شـديد على الجميع، وبشكل خـاص على النائب البابوي، وفي ليلة عيد القـديسة سيشيليا Cecilia حدث أيضاً أنه عندما كان القمـر في ربعه الأول، أن انتشرت غيوم سوداء بشكل غـريب، شكلها مثل برج، وقد ظهرت في الجزء الغربي من السماء، وبدأ الرعد يزمجر، وشرع البرق يرسل ببريقـه، وثارت الريح، وخلال تلك الليلة كلهـا واليوم التـالي كـانت هناك عاصفـة ثقيلة ترافقت مع ريح هائجـة ما من أحـد يتذكـر أن مثلهـا قد وقع من قبل، واستمـرت هذه العاصفـة لمدة خمسة عشر يومـاً أو أكثـر من دون انقطاع، واقتلعت أشجـار البلوط من جـذورها، وسقطت، وسقطت الأبراج والأبنيـة أرضاً، أو أنها اهتزت، وهكذا بـدا أن الأنواء قد اتحدت في سبيل اقلاق الانسان.

الاجتماع والإعدادات للمؤتمر

مع أن رجـال دين انكلترا، قـد اجتمعـوا في كنيسـة القـديس بولص في

لندن، في اليوم الأول المحـدد من أجل عقد المؤتمر، والذي كـان اليوم الذي جـاء بعد ثمانيـة القـديس مارتن، لم يظهـر النائب البـابوي، لأن الأساقفـة سألوه أن يمنحهـم ذلك اليــوم لفحص الترتيبـــات التي اقترح عملهـــا، وللتداول حولها، حتى لاتتعرض مصالحهم لأضرار أعدت سلفاً، ووصل في اليـوم نفسه فـرسان مسلحـون مع حـوالي المائتي جندي، كان الملك قـد زوده بهم بناء على التماس عظيم منه، ووضعهم في كمين، لأنـه كـان حـذراً من جـانبـه، لأنه قـد قيل بأنه قـد حرض ضـد الذين لديهم عـدة مصـالح ومـوارد، وبشكل خـاص ضـد الـلاشرعيين، وقـد ظهـر هو شخصيـاً في الكنيسـة المذكورة في الصبـاح الباكـر، وكان ذلك في حـوالي الفجر، وكـان حشد رجـال الدين الذي كان ينتظره كبيراً جـداً، إلى حد أنه وجـد صعوبة بالغة في الدخول إلى الكنيسة، وبعدما تمكن من شق طريقه، عرض نفسه في أثوابه الحبرية، أي في المدرعـة الكهنوتيـة، والقبعة اللاهـوتية المغطاة بفـراء جلود مختلف أنواع الحيـوانات،ثم لبس تاجـه الأسقفي، وسـار بعـد ذلك بشكل مهيب مع رئيس أساقفة كانتربري ويورك، وحمل في المسيرة الوقورة الصليب وشمـوعـاً مشتعلة، وكـانوا يرددون الابتهـالات، وصعـد فـوق الدرجـات إلى مقعده، الذي —كما ذكـرنا من قبل— قد أعـدّ له وسط أبهة كبيرة، وصار الآن أكثـر أبهة بالزرابي وبالمظلات، ثم أجلس رئيس أسـاقفة كـانتربري نفسه على يمينه، ورئيس أسـاقفة يورك على يسـاره، لأن خلافـاً نشب بينهما حـول ترتيبـات الجلوس، وتقـدم رئيس أسـاقفـة يورك بطلب للحصول على اليمين، الذي ادعاه لنفسه، وبناء عليه بعدما تمت قراءة: «أنا راعي جيد» من الانجيل، وقراءة بعض المجموعـات المناسبة، وفقاً للعادة، من قبل النائب البابوي نفسه، وبعد غناء مزمور: «أقبل ياروح القدس، أيها الخالق أقبل»، تولى رئيس أساقفة يورك —كما ذكـرنا أعلاه— تقديم طلبه، ومع ذلك أخذ رئيسـا الأساقفة مقعديهما إلى جـانب النائب البابوي، حيث جلس رئيس أساقفة كانتربري على يمينه، ورئيس أساقفة يورك على يساره، ورغبة من النائب البابوي، وقتها في إنهاء الخلاف من دون إلحاق ضرر بأي

واحد من الجانبين، قـال لهما: «تظهر على مـرسوم صـاحب القداسـة البابا، اصبع القـديس بطرس على يمين الصليـب المطبـوع في وسط المرسـوم، في حين تقف إصبع القـديس بولـص على اليسـار، لكن بين هذين القـديسين العظيمين، لم ينشب قط أي خلاف، لأنهما متساويين بالشهرة، إنما بسبب أنه [بطرس] يعد في وضعه حامل المفتاح، ولأنه رئيس الرسل، وكذلك بسبب مكانته الكاتدرائيـة، وأولويته في دعـوته، يبدو أن صورته جـديرة بالوضع على يمين الصليب، لكن بما أن بولص آمن بالمسيح الذي لم يره، فإن صورته أيضـاً جديـرة بالوضع على اليمين، لأنه قـال: «بورك الذين لم يروني» الخ، وهكذا بما أن صاحب النعمـة رئيس أساقفـة كانتربري، هو الأول على كل انكلترا، وهو الرئيس على كنيسـة كـانتربري الأعظم شهـرة، وكـذلك على كنيسـة لندن، التي هي عـائدة إلى القـديس بولص، يتـوجب ليس من دون سبب في أن يوضع على الجهـة اليمنى»، وفي الأيام التـاليـة للمـؤتمر، جلس رئيس أساقفـة كانتربري على الجهة اليمنى للنـائب البابوي، وجلس رئيس أساقفة يورك على الجهة اليسرى، وفي اليوم الأول من المؤتمر، جرى ارسال: جون ايرل أوف لنكولن، وجون فتز— غيوفري، ووليم دي ريل Raele وكـاهن القديس بولـص، باسم الملك، ليمنعوا النائـب البابوي، نيـابة عن الملك المذكور والمملكة، من الوصـول إلى أي قرار في المؤتمر، يحط من مكانة التاج الملكي والمملكـة، وفي سبيل الأخذ بهذا الطلب ومراعـاته، بقي وليم دي ريل هناك، وعليه الدراعـة الكهنوتية والقبعة، وغادر الآخـران وذهبا، وفي اليـوم نفســه، وعلى مسمع من جميع الحضـور، طلـب سيمـون رئيس شمامسة كـانتربري من النائب البابوي، أن يقرأ الترخيص بنيابتـه التي عهد بها إليه صاحب القداسة البابا،على مسمع من جميع الفئات، وهذا فعل، وفي اليـوم نفسـه، جـرت أيضـاً قـراءة أحـد الامتيـازات —بناء على طلب من الملك— فيما يتعلق بأعيـاد القـديس إدوارد والاحتفـال بها في جميع أنحـاء انكلترا، وبناء على أمـر من البـابا جـرت قـراءة واحـد آخـر يتعلق بمسألة تطويب القـديسين: فرانسيس ودومينيك، وكـان النائب البابوي قـد سمع

عندمـا كان في مقـر إقامتـه، بأن عـدداً من الأشخاص، الذين في حـوذتهم منافع في عـدة كنائس، وكـانـوا نبـلاء من حيث النسب والممتلكات، وغير شرعيين، والذين كـان قـد أتـى على ذكـرهم في قـرار المؤتمر، قـد غضبـوا، وخططوا لعمل خيـاني ضده، ولذلك تمت حـراستـه، وكان قـد تولى ذلك أيضاً بعض النبلاء من المؤتمر، وهم: غ. G ايرل مارشال، وج. J ايرل لنكولن، وكذلك بعضاً من حاشيـة الملك، وقد سلحوا أنفسهم بالسيوف، وبالأسلحة الأخرى، لحمايته وحماية أتباعه.

وأثناء المؤتمر عندمـا جـرى نشر القـرار ضـد هـؤلاء الذين لديهم عـدة منافع، والـذي كـان معـاكسـاً لقــرار مجمـع اللاتيران، وقف وولتر دي كانتلوب، أسقف ووركستر، في وسطهم، وانتزع تاجه الأسقفي، وخاطب النائب البابوي على الصورة التالية:

«أبانا المقدس، مع أن عدداً مـن النبلاء لهم نسبهم مثلنا، بين أيديهم عدة منافع، هـم لم يتسلموا بعـد إعفاء، وبعضهم من الذين تقدمـوا بالسن، وقد عـاشوا حتى الآن بشكل مشرف، يظهـرون الكرم إلى غـاية قدرتهم، وقـد وزعوا الصـدقات بأبواب مفتـوحة، يبدو أنه من الصعـب جداً لمثل هؤلاء الناس، أن يحرمـوا من منافعهم، وأن يتحولوا إلى وضع فقـر مهين، وبعض الشبان، الـذين هم شجعان وجـريئين، سوف يعرضـون أنفسهم إلى أعظم المخـاطر، قبل أن يسمحـوا لأنفسهم أن تحرم مـن منافعهـا، مع الاحتفـاظ بمنفعـة واحدة، وحـول هذا أنا يمكنني أن أحكم على نفسي، فقبل دعـوتي إلى تلك المرتبـة، كنتُ قـد قــررت في قـرارة نفسي، أنني إذا كنتُ سأخسر منفعـة واحدة، تحت حجـة مثل هذا المرسـوم، إنني سـوف أخسر الجميع، وبناء عليه، نخشى أن كثيرين مازالوا حتى الوقت الحالي محتفظين بمثل هذا القرار، وبناء عليـه، بما أن عدداً كبيراً جـداً لهم علاقـة بهذه القضية نلتمس من قــداستكم، مـن أجل ســلامتكم، وكـــذلك مـن أجل ســلامتنا، أن تستشيروا البابا، قبل الوصول إلى قرار من هذا النوع، يضاف إلى هذا بما أن

مرسومكم بشأن الطائفة الدينية التابعة للقديس بندكت يمتد بسلطته لينال بالدرجة نفسها الجميع، إنه سوف يكون صعباً بالنسبة لأعداد كبيرة، بسبب فقر بيوتهم، وبشكل خاص من أجل الراهبات، لأنهن ضعيفات، وعاجزات عن مراعاة هذا المرسوم، ولذلك إنه من الضروري إظهار لين مخلص في فرض هذه الإجراءات القاسية، وبناء عليه، نحن نرجوكم فيما يتعلق بهذه القضية أن تستشيروا قداسة البابا».

وفي رد عليه، قال النائب البابوي، إنه إذا ماأراد رجال الدين، أي رئيسي الأساقفة والأساقفة الماثلون أمامه، أن يكتبوا إلى البابا حول هذه القضايا، هو عن طواعية سوف يوافق على ذلك، ويتوجب أن يكون معلوماً، أنه بسبب أن بعض الناس، قد فهموا من النائب البابوي، أن مراسيمه سوف تكون ثابتة ونافذة فقط أثناء أيام نيابته للبابا، قام المعلم أثو Atho وكان واحداً من كهنته، قام بناء على طلبه ووقف في وسط الاجتماع، وفتح كتاب التراخيص، الذي كان سجلاً لقداسة البابا، وذلك في سبيل زيادة سلطاته، ولكي يتمكن بشكل فعال أكثر من تحقيق آرائه ومشيئته، وقرأ هذا المعلم بصوت مرتفع بعض القرارات والمراسيم، التي أراد النائب البابوي أن يبرهن من خلالها بشكل واضح ومتميز صدقه، والتي أظهر من خلالها بوضوح، أنه بعد مغادرة النائب البابوي المذكور، فإن قراراته وقوانينه، سوف تكون ثابتة باستمرار، وينبغي أن لانتجاوز ذكر، أنه في اليوم الأول من المؤتمر، اتخذ رئيسا أساقفة كانتربري ويورك مقعديهما، كما ذكرنا من قبل، أولهما من على يمين النائب البابوي وثانيهما من على يساره، وبعد قراءة قوله في الانجيل «أنا الراعي الجيد»، وبعد قراءة المجموعة المتعلقة بذلك، جرى فرض الصمت على الحشد المجتمع، وطلب منه الالتزام بالنظام، فرفع النائب البابوي صوته، وكأنه كان صوت بوق، وبدأ حديثه، وافتتح ذلك بالنص التالي:

«في وسط العرش، وكان هناك من حوله أربعة حيوانات، مليئة بأعين

من الأمـام ومن الخلف»، وقلد رجل الدين ذاك أثناء قداسـه، الحيـوانات بأعين من الأمـام وأعين من الخلف، حتى يكون حـذراً أثناء إدارة الأعمال الدنيـوية، وكـان حـذراً أثناء إدارة الشـؤون الروحيـة، جـامعـاً الماضي مع المستقبل، وبعـد القـداس أمـر بقراءة مـراسيمـه بشكل متميـز، وبصـوت مرتفع، وقد أمر بمراعـاة ذلك بدقة، وقد رأينا أنه من الموائم ذكر هؤلاء في هذا الكتاب.

افتتاح المؤتمر الذي عقد من قبل النائب البابوي أوتو في كنيسة القديس بولص في لندن

«منذ أن غدت القداسة هي بيت الرب وقسيسيه، لقد قيل من قبل الرب «كنت أنت مقدس لأنني أنا الرب مولاك مقـدساً»، ويسعى مكر عدو بني البشر لإزالة القـداسة أو لتـدميرها كلياً، وبناء عليـه أعاق في أمـاكن كثيرة الكنائس من أن يجرى تكريسهـا والقسـاوسـة من تأدية واجبـاتهم بشكل صحيح، بافساد أخلاقهم وتدميرها، وكذلك حياتهم بالسلوك ضد أحكام وقوانين الآباء المقدسين، وإعاقة كل شيء فيـه فائدة لتقدم الديانة المسيحية، وبناء عليـه ينبغي أن نقـاوم بكل إخـلاص وبيـد قـويـة ذلك من قبل جميع المسيحيين، ولأن نضعف مسـاعيـه، يتـوجـب استخـدام قـوى جـديدة ومتجددة، مثلما فعل اسحق حين سعى أولاً إلى تجديـد الآبار، التي حفرها أبناء إبراهيم، وهي التي كـان رجـال فلسطين قد طمـوها بالتراب، وبعـد ذلك حفر آباراً جـديدة، وأخيراً نحن أوتو، الذي بفضل النعمـة الإلهية هو كـاردينال شماس للقـديس نيقـولا في سجن تـوليـان، ونـائب الكرسي الرسولي، قد جرى إرسـالنا من قبل الكرسي المذكور، بوظيفة نائب بابوي، إلى بلاد انكلترا، لنقوم معتمدين على العـون الرباني، وعلى الأساقفة، وعلى المجمع الحالي، بتقـوية أوضـاع كنيسـة انكلترا، وبإصـلاحهـا، باستثناء المؤسسـات الشرعية الأخـرى، التي نتمنى ونرغب، المحـافظة عليها بكل احترام، وقد رأينا بوسـاطة السلطات المعهودة إلينا، أنه من الموائم، مـراعاة

بعض المراسيم، التي أمرنا بفرزها وترتيبها تحت بعض العناوين».

تكريس الكنائس

«من المعروف أن تكريس الكنائس، قد استقى أصله من العهد القديم، وروعي هذا وطبق في العهد الجديد، من قبل الآباء المقدسين، وهذا ماتتوجب مراعاته بمزيد من التقوى والدراسة، لأنه في الماضي كان ذبح الحيوانات فقط من أجل تقديمها قرابين، لكن صار فيها بعد القربان السماوي هو الحي والصحيح، لأن الابن الوحيد للرب يقدم لنا على المذبح على أيدي الكهنة، ولهذا رسم الآباء المقدسون بحكمة أن مثل هذا الواجب، ينبغي عدم ممارسته —إلاّ في الأوضاع الضرورية— في أماكن غير مكرسة للرب، وعلاوة على ذلك، كما رأينا نحن بأنفسنا، وسمعنا من كثيرين، بأن مثل هذه الطقوس مزدراة، أو على الأقل مهملة من قبل بعضهم، ولهذا نجد كثيراً من الكنائس، لا بل حتى كاتدرائيات، قد بنيت منذ القديم، ولم يتم تكريسها بعد بزيت التقديس، ولذلك إننا نرغب في أن نضع حداً لهذا الاهمال، وإننا نرسم، ونوجب أن يجري تكريس جميع الكاتدرائيات، والكنائس الديرية والأبرشيات، التي بنيت، واكتملت، في بحر عامين من قبل الأساقفة أصحاب المناطق الأبرشية الواقعة هذه المؤسسات تحت سلطانهم، أو من قبل أشخاص آخرين مخولين من قبلهم، ووفق هذه الطريقة، وخلال الحقبة الزمنية نفسها، سوف يفعل الشيء نفسه مع الكنائس التي سوف تُبنى من جديد، ومن أجل أن لايجري إهمال هذا المرسوم الصحيح، أو أن يناله الإهمال، نحن نرسم بأن أية كنيسة لن يجري تكريسها خلال عامين من موعد انتهاء عمارتها، سوف يجري تعليقها من شراكة المؤمنين، وبالتالي تمنع من إجراء القداس حتى يجري تكريسها، مالم يتوفر سبب معقول يحول دون ذلك، وبالاضافة الى هذا، إننا نمنع بكل دقة بموجب المرسوم الحالي جميع رعاة وقساوسة الكنائس من الاقدام على تدمير الكنائس القديمة المكرسة، تحت دعوى بناء كنائس أكثر جمالاً

وسعة، من دون الحصول على إذن وموافقة أسقف الأبرشية، حيث يتوجب على أسقف الأبرشية أن يقدر بشكل دقيق، فيما إذا كان من الموائم إعطاء الاذن، أو رفض السماح، وعليه، إذا ماأعطى الاذن، أن يولي عنايته، وأن يوجه مساعيه لإكمال العمل بأقصى سرعة ممكنة، وهذا شرط نحن نرسم بأن يمتد إلى الذين قد بدأوا، أما بالنسبة للقساوسة ذوي المراتب الأدنى، رأينا أنه من غير المناسب عمل أي مرسوم جديد، تاركين الطريقة وتوقيت تكريسهم إلى قرار كهنتهم».

قداسات قرابين الكنيسة

«تكون قداسات قرابين الكنيسة كما كانت في أوعية سماوية، تحتوي على علاجات الخلاص، وكذلك الزيت المقدس، والميرون، ونحن نرسم بالنسبة لها بأن تدار من قبل رجال الكنيسة بطهارة، وبتقوى، وأن تكون محررة من كل دوافع الشره، ودون إحداث أية متاعب أثناء ادارتهم،، تحت حجة أية عادة، بموجبها يمكن أن يقال أن أي شيء سوف يدفع من قبل الذي يتلقاهم، وقد رأينا أنه من الموائم أن نذكر كم هي القداسات الرئيسية، وهذه القداسات هي:

التعميد، والتثبيت، والتوبة، والقربان المقدس، والمسح بالزيت، والزواج، والتكريس، وقد جرت معالجة كل واحد من هذه القداسات بشكل كامل ومكرس في الشرائع المقدسة، ولكن بما أنها مسألة ليست بلا قيمة أن يكون الطبيب جاهلاً بفن المعالجة، نحن نرسم بوجوب فحص المرشحين لاستقبال معالجة الأرواح والكهنة بهذه النقاط بشكل خاص، وعلى رؤساء الشمامسة أثناء مقابلة عماداتهم، أن يسعوا بشكل رئيسي إلى تعليم الكهنة وتوجيههم حول هذه القضايا، وتعليمهم كيف عليهم أن يعملوا بشأن مايتعلق بالتعميد، والتوبة، والقربان المقدس، والزواج».

التعميد

«من أجل القداس المهيب للتعميد، جرى تعيين سبتين، بموجب الشرائع المقدسة، وذلك بسبب وقاره، وهما: السبت، قبل قيامة الرب، والسبت قبل أحد الشعانين، ولكن بعضهم كما سمعنا— في هذه المناطق، قد أضلهم الشيطان بخداعه، وخافوا على الأولاد من خطر التعميد في هذين اليومين، لكن التفكير، أو أن يكون الانسان خائفاً من أي من هذين اليومين، هو تماماً ضد الإيمان الصحيح، وقد تبرهن بشكل واضح أن ذلك زائف، لأن الحبر الأعظم يقوم شخصياً بأداء هذا القداس المهيب، ويتولى بشكل وقور تعميد الأطفال في اليومين المذكورين، والكنيسة ملتزمة بمراعاة ذلك وتطبيقه في الأجزاء الأخرى من العالم، ولذلك نحن نرسم بوجوب تحويل الكنائس عن هذه الخطيئة الكبيرة، بالوعظ المتواصل، وينبغي اقناعهم بأداء قداس التعميد، وأن يعمدوا أولادهم في اليومين المتقدم ذكرهما، ونحن أيضاً نرسم وجوب أن يتعلم كهنة الأبرشيات بشكل صحيح شكل التعميد، وأن يتولوا باستمرار شرح ذلك للناس بشكل عام في أبرشياتهم في أيام الأحد، حتى إذا كان ضرورياً، إقامة واحد منهم ليتولى تعميد أي انسان، حتى يتعلموا ذلك، ويكونوا قادرين على مراقبة ذلك، ويتوجب بعد ذلك سؤالهم بتيقظ عما إذا كانوا قد راقبوا ذلك وعرفوه».

الشره الذي يتوجب على الكهنة تجنبه

«لقد سمعنا برعب بأن بعض الكهنة الأشقياء— ربما من أجل فائدة مقراتهم الكنسية أو للضمان، أو لتكوين سبب آخر للكسب، أو لتسلم دخل مجموع من المذبح، أو من توبة الذين يأتون إليهم للاعتراف، ولايقبلون أولئك الذين يعترفون للتوبة، ما لم يجري وضع بعض الهدايا أولاً في صدرهم الجشع، ومثل هذا يفعلون بالنسبة للبعض الآخر من القداسات، هذا وإن الذين يفعلون مثل هذا، ويتصرفون وفق هذه الصورة، غير جديرين بملكوت الرب، ولابالمنافع اللاهوتية، ولذلك نحن

نفرض ونحن نرسم بوجوب قيام أعمال تفتيش وبحث من قبل الأساقفة حول هذه القضية، وكل من يكتشف مذنباً مقترفاً لمثل هذه الجريمة، يصرف كلياً من عمله ويحرم من منافعه التي بين يديه، ويعلق عن مباشرة العمل في وظيفته، التي شغلها بشكل فاسد».

الذي يعين لتلقي الاعترافات

«تماشياً مع ماجرى تقريره في أحد المجامع، نحن نرسم بوجوب تعيين رجال ذوي حكمة وموضع ثقة في جميع أرجاء كل عمادة، وذلك من قبل الأسقف لتلقي الاعترافات، لهم يمكن للقساوسة والكهنة الصغار —الذين يستحون، أو ربما يخافون من تأدية الاعتراف إلى العميد— أن يؤدوا اعترافاتهم، إنما بالنسبة للكنائس الكاتدرائية، نأمر بتعيين متلقين للاعترافات بشكل عام».

سمات الذين يتلقون التكريس

«إن منح الأحكام المقدسة واضفائها على شخص جدير، هام جداً، لابل الأعظم أهمية، لأن القداسات الأخرى تمنح من قبله، بعدما يكون قد تسلم هذه الأحكام، ومثل هذا بالخطورة أن يكرس لهذا العمل أناس غير جديرين، مثل الحمقى، أو غير الشرعيين، أو أشخاص غير نظاميين وأجانب، أو أي شخص من دون إجازة أو لقب حقيقي، وبناء عليه نحن نرسم، أنه قبل اضفاء الأحكام، يتوجب إجراء فحص وبحث دقيق، يتولاه الأسقف حول مثل هذه النقاط كلها، وأن يحترز دون الأشخاص غير الجديرين في تقديم أنفسهم بشكل تآمري، عوضاً عن رفضهم كما ينبغي، وتتوجب كتابة أرقام وأسماء الذين أجيزوا، أو أن يكتبوا أثناء الامتحان، أما الذين أجيزوا، أو سوف يجازون فيما بعد، يتوجب أثناء قراءة الأسماء المكتوبة، وقبل التكريس، أن يجري فحصهم بكل دقة واخلاص، وتبقى الكتابة محفوظة من قبل الأسقف، أو في الكنيسة».

ضمان الكنائس والعمل الأسقفي فيها

«بالنسبة لضمان الكنائس، أو التعيين العام لأساقفة فيهن، نحن لانرغب بأي حال من الأحوال أن ندعم ذلك بسلطاتنا، ولكن نتيجة لضعف الأعداد المسؤولة في هذه المسألة، نحن نخشى من اصدار مرسوم منع ضد هذه الأشياء، حتى لانبدو وكأننا نرمي مصائد بدلاً من ايجاد حلول ناجعة، لكن بالنسبة لبعض العادات الناشئة عن هذه المسائل، والتي لفت انتباهنا لها، نحن مرغمون على استخدام حل ناجع، لأنه غالباً ماحدث أن هؤلاء الذين يسمون ضامنين، يرغبون بالحصول على الربح أكثر من الرغبة بالدفع، وهم يمارسون هذه الجبايات التي في بعض الأحيان تنغمس حتى في ذنب السيمونية، وبناء عليه نحرم من الآن فصاعداً وضع المراتب الكنسية والمقامات الأسقفية وعرضها على الضمان، أو استخراج الموارد من ممارسة التسلط اللاهوتي أو الروحي، ومن التوبة أو من المذبح، أو أية قداسات أخرى».

كيف يمكن عرض الكنائس للضمان

«بما أنه أمر غير صحيح كلية بالنسبة للكنائس، أن تكون مضمونة من قبل رجل علماني أو من قبل أي واحد من الكهنة لوقت طويل، لأن ذلك من الممكن أن يكون مؤذياً للكنائس بسبب طول الاستمرارية، الذي يسبب بالعادة مخاطر، لذلك نمنع منعاً باتاً ضمان الكنائس لمدة تزيد عن خمس سنوات، سواء من قبل رجال علمانيين، أو حتى من قبل أشخاص لاهوتيين، كما أنه لدى انتهاء السنوات الخمس، لايجوز تجديد الضمان إلى الأشخاص أنفسهم، ما لم يقم بعض الأشخاص الآخرون بوضع أيديهم عليهم في وقت متوسط، ولكي تكون جميع الأشياء سليمة، نحن نرسم أن تعمل الاتفاقات من أجل الضمان بحضور الأساقفة، أو رؤساء الأساقفة، وأن يعمل منهم عدة نسخ، واحدة منهن تترك في حوذتهم».

حول الموضوع نفسه

«لقد سمعنا أنه حدث في بعض الأحيان، عندما تكون كنيسة غنية شاغرة، وأن انساناً ما يرغب بالاستحواذ عليها، لكنه لايتجرأ —على كل حال— بأن يتسلمها باسمه، خشية أن يحرم من منافع أخرى هي بين يديه، فيعمل بمكر ويتدبر أن يتم ضمان الكنيسة من قبله بشكل أبدي، وذلك بأن يدفع مبلغاً صغيراً من المال من أجلها إلى آخر، تحت اسم الشخص، ويبقي كل البقية إلى نفسه، وبناء على ذلك نرسم بموجب قرار، إنه سواء أمنحت منفعة كلياً أو جزئياً إلى أي واحد، وشكل ذلك محاولة لمعاكسة مراسيمنا، فإن ذلك يعدّ ملغياً وفارغاً».

من الذي يتولى تكريس الأساقفة

«نحن نرسم بعدم قبول أي واحد أن يكون أسقفاً، مالم يكن كاهناً مكرساً، أو هو على الأقل شماساً، وهو ينبغي أن يكرس خلال أربعة فصول تالية من السنة، وعليه أن يتخلى عن المنافع الأخرى التي بين يديه، ولأنه صار مسؤولاً عن شفاء الأرواح، عليه أن يقسم أن يتخذ مقر اقامته في البقعة نفسها، وإذا كان الأمر غير ذلك نحن نرسم بأن يكون تعيينه لاغياً، وبذلك يمكن تجنب الغش، وينبغي تجنبه، وهو الذي غالباً مايحدث، نتيجة دفع مبلغ صغير، إلى أي واحد، تحت اسم شخص، كانت الكنيسة قد أعطيت إليه، تحت اسم الأسقف المختلق، الذي لخوفه من فقدان منافعه الأخرى، كان يخشى تسلمها شخصياً، أما بالنسبة للأساقفة المعينين، والشاغلين لمناصبهم، لكنهم ليسوا كهنة، ولأن عليهم كأساقفة خدمة الأشخاص والكنائس، نحن نفرض، ونرسم، بأن يؤمنوا تكريس أنفسهم ككهنة في بحر سنة على أبعد الحدود، وإلاّ عليهم تحمّل خطأهم، إذا لم يكرسوا في بحر سنة —كما ذكرنا— حيث أننا نرسم بوجوب حرمانهم من منافعهم، شروعاً من ذلك الوقت والتاريخ، وينبغي تقرير أمور سكناهم وفقاً لما قررناه أعلاه، فيما يتعلق بمؤسساتهم».

كنيسة الغائب ليس من الخطأ درس إمكانية إعطائها إلى آخر

«في سبيل تدمير خداع الأشرار، يتوجب على كل محب للاستقامة أن يستخدم المساعي الحكيمة، خشية أن تتطور براعة حكامهم وتنمو إلى بلادة، فالبساطة يمكن أن تستبدل بالمكر، وقد يعطي الصدق الطريق للزيف ليحل محله، لأننا علينا عن طريق ماصرّح به عدد كبير من الأشخاص، بأن بعض الناس قد ألقوا بعين الشهوة على منافع شخص متغيب، ونشر تقارير أعلنت بأنهم سمعوا بأن المستحوذ كان في عداد الأموات، أو أنه قد تخلى عن منفعته، وبالتالي تدبروا بوسيلة أو أخرى اقحام أنفسهم في تلك المنفعة، وإذا ماظهر الرجل الميت أنه مازال حياً،وعاد إلى كنيسته، سوف يتلقى الجواب التالي: «أنا لاأعرفك أيها الأخ»، ويغلق الباب في وجهه، وقد عمي بعضهم لشدة شرههم، إلى حد أنهم لم يترددوا في شق طريقهم بالقوة بالاستيلاء على تلك المنافع وسرقتها، وبالحري ليس سرقة الأشخاص الغائبين فقط، بل سرقة الحضور، أو القيام بالاستيلاء على أملاكهم وسرقتها عندما يستطيعون، وعندما تصبح بين أيديهم، لاقرارات الحرمان الكنسي، ولاأي شيء آخر يمكنه اخراجهم، لأنهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم بقوة السلاح، وبناء عليه، سوف نقدم العلاجات المتوفرة، والتي باستطاعتنا تطبيقها، فنحرم —في كلتا الحالتين— بكل دقة، إعطاء منفعة أي انسان غائب إلى أي انسان آخر، على أساس دعاوي الضم، أو تقارير قد يجري نشرها تتعلق بموته، أو أنه تخلى عن منفعته، لكن على الأسقف الانتظار حتى يحصل على معلومات كاملة حول صدق أي واحد من التقريرين، وإذا لم يفعل ذلك فإننا نرسم بأنه سيكون ملزماً بالتعويض عن جميع الخسائر التي عانى منها الشخص الغائب، فيما يتعلق بهذه القضية، وبالنسبة للشخص الذي اقحم وفرضها في المنفعة، سوف يواجه حقيقة تجريده من كل وظائفه ومنافعه، وذلك إلى جانب تعويض المقتنيات، وهذا نحن ننوي أيضاً أن نمده إلى قضية أي

واحد، عندما يكون هناك متملك لمنفعة لاهوتية، فيحاول بناء على سلطته، أو بالحري بالقوة، أو بوساطة السرقة، فيستولي على تلك المنفعة، أو الذي، بعد الإعلان بأنها عائدة إلى شخص آخر، يسعى للدفاع عن نفسه وعن الذي استولى عليه بقوة السلاح».

عدم جواز تقسيم كنيسة واحدة إلى عدة أسقفيات

«لما كان فن الفنون كلها —كما شهد القديس غريغوري— هو حكم الأرواح، ولم يتوقف المعطل (السوفسطائي) القديم عن استخدام فنون خداعه القديم، وعن دراسة خداع أعمال الدعاوى الزائفة، وذلك حتى يكون قادراً على التطويق بأسس فنه، وعلى العزل عن الخلاص أولئك الذين يجدهم جهلة، أو غير دارين، فهذا هو الذي يجعلهم عدوانيين تجاه أوامر الرب، ومضادين لأحكام الآباء المقدسين، في الوقت الذي لايمكن فيه للمنهج الرباني، ولاللمراسيم الشرعية، رد المذنبين، وإعادتهم من طريقهم المنحرف، ويتطلب الآن فننا الكاثوليكي، أن يكون هناك معلم واحد في كنيسة واحدة، يتوجب أن يكون كاملاً بالنظام، والسلوك، والحياة، والمعرفة، والعقيدة، وأن تكون إدارة الكنيسة صافية وبسيطة، وتسبب معارضة الشيطان —على كل حال— ضلال كثيرين وابتعادهم عن هذا المرسوم، إلى حد يكون الحال فيه في بعض الأحيان، بناء على اقتراحه، اعطاء كنيسة واحدة، ليس لواحد فقط بل لعدد، تحت حجة امتلاكها لعدد كبير من الحصص، وهكذا يكون هناك عدة رؤوس لجسد واحد، حتى تبدو وكأنها تنين، وفي بعض الأحيان يوافق الشخص، مهما كانت المناسبة على أن شيئاً ما ينبغي أن يعطى إلى آخر تحت اسم كاهن، وإلى جانب هذا، إن الذي هو أسوأ، أن الكنيسة غالباً ما تبقى شاغرة، أي ما من قسيس يبقى فيها، لابل حتى لايوجد فيها أسقف بشكل مستمر، بل الذي ربما يبقى فيها كاهن ما جاهل، الذي لا حق له فيها، لابل ولا حتى ظل حق فيها، وإذا صدف وربما أقام القسيس أو الكاهن هناك، تجده هو ليس

كاملاً مناسباً في طائفته، لأنه ليس كاهناً، وليست له سماته، لأنه إذا ما نظر إليه أي واحد، سوف يعتقد أنه ليس حتى رجل دين، بل هو بالحري جندي، وهو —ويالأسف— يعتني قليلاً بحياته، وبمعرفته، وبعقائده، كما أن ترتيبات الكنيسة أيضاً، نادراً ماعملت بالعين البسيطة كما ينبغي، ولأن مكر الفنون الزائفة للشيطان، ليست معدومة هناك، لأنه يحدث في بعض الأحيان —كما قرأنا— أن تعطى كنيسة بشكل سري إلى واحد ما، وفق شرط متفق عليه، أن الرجل الذي يقدم أو يضع، ينبغي أن يحتفظ ببعض المنافع فيها، أو وجوب أن يتسلم شخص ما آخر، حصة ما منها، وهذا ربما كان بوده الاحتفاظ بها كلها، لولا أنه تمنع عن فعل ذلك من خلال ضعف قضيته، أو من خلال الخوف من فقدان منافع أخرى، ويحدث في بعض الأحيان أيضاً أن يقدم انسان على إقالة كاهن، ثم يأخذ بعد ذلك الأسقفية من واحد جرى تعيينه فيها، وهذا أمر يمكن أن نفترض أنه لايفعل من دون غش، وبناء عليه نحن نشجب هذه الانتفاضات وأعمال التصغير، والتعيينات الخاصة والتغييرات، لأنها مخالفة لما نؤمن به، ونمنع عملهم من الآن فصاعداً، ونرسم بكل دقة، أنه لايجوز مطلقاً بالنسبة للمستقبل تقسيم كنيسة بين عدة أشخاص أو عدة كهنة، والكنائس التي مازالت مقسمة حتى الآن، ينبغي حالما تتوفر الظروف والامكانات، أن تعود موحدة، ما لم تكن الكنيسة كنيسة مؤسسة منذ العصور القديمة، بحيث يقوم الأسقف والقسيس المتوليان شؤون مواردها باقتسام هذه الموارد بينهما بالتساوي، ويتوجب على الأساقفة ترتيب أن يكون هناك دوماً شخص ما مقيم في الكنيسة عليه أن يبذل اهتمامه بكل غيرة نحو معالجة الأرواح، وسوف يشغل نفسه ويستخدم ذاته بشكل فعال وشريف في أداء القداسات الدينية، وفي إدارة قداسات القرابين».

السكنى في الكنائس

«فيما يتعلق بالقساوسة المتخذين مساكن لأنفسهم في الكنائس، يبدو لنا

أنه يتوجب علينا أن نستشير الحقيقة أكثر من استشارة مواد القانون، لأن مجامع الأحبار الرومان، كما هو واضح قد تحدثت عن هذه المسألة بجلاء مثل جلاء النور، لأن التطبيق الدقيق للمواد القانونية هو المطلوب، وليس خرقها، ونقول الشيء نفسه ونعتقده في جميع المجالات المتعلقة بشأن الذين، بدون تخويل خاص من الكرسي الرسولي، يحتفظون بعدة مراتب، أو مراتب كهنوتية، أو منافع مرتبطة بعلاج الأرواح، بشكل مضاد لقانون المجمع العام، والخطر على خلاصهم الذاتي».

ألبسة الكهنة

«وفيما يتعلق بألبسة الكهنة، التي يبدو أنها ليست كهنوتية، بل هي بالحري عسكرية، قد نشأت فضيحة بين العلمانيين، ولذلك نأمر بكل دقة، ونرسم، أن عليهم، تحت طائلة الحرمان من منافعهم، الالتزام بدقة، بوساطة الأساقفة، بشكل اللباس، الذي اتفق عليه وتقرر في المجمع العام، وذلك فيما يتعلق بلباس الكهنة، وكذلك بتزيينات خيولهم، ولذلك يمكن للذين تولوا المسؤولية عن الكنائس وعن علاج الأرواح، ارتداء ملابس أصبحت معياراً، وعليهم ارتداء أغطية رؤوس ضيقة، عندما يجري تعيينهم في طوائف مقدسة، خاصة في كنائسهم، وكذلك أمام أساقفتهم، وفي اجتماعات الكهنة، وفي كل مكان في أبرشياتهم، وعلى الأساقفة أن يكونوا أكثر قدرة على الالتزام من الآخرين بأن تكون ملابسهم ملابس محتشمة، وكذلك فيما يتعلق بقص شعورهم، ومثل ذلك فيما يتعلق بتزيين خيولهم، وعليهم مراقبة هذه الأشياء والالتزام بها، حسبما تقدم التبيان، وذلك بالنسبة لأتباعهم من الكهنة، في أن يكونوا ملتزمين بأحكام الحشمة الكهنوتية في ملابسهم، وفي مهاميزهم، ولجمهم، وسرجهم».

ضدّ إبرام عقود زواج سرية من قبل قساوسة الكنائس

«لقد لفت انتباهنا من قبل عدد من الرجال الصادقين، أن عدداً من

الكهنة، قد تولوا دون الانتباه إلى خلاصهم، إبرام عقود زواج سرية، وتجرأوا على الاحتفاظ بملكية الكنائس بعد الزواج، ليحصلوا على منافع لاهوتية، ولكي يجري ترفيعهم مجدداً إلى طوائف مقدسة، وذلك محافظة لمراسيم الشرائع المقدسة، وسيبدو فيما بعد، مع مرور الأيام، أنه مفيداً للذين ولدوا من هذا الزواج، أسواء أكانت الأطراف أنفسها على قيد الحياة أم لا، أن يبرهنوا إما بوساطة شهود، أو بوساطة أدلة مكتوبة، بأن مثل هذا الزواج قد عقد، وبسبب أن الكهنة قد انشغلوا بزواجهم، أو كانت لهم علاقة غير شرعية بالنساء، فإن المحصلة ستكون دمار الأرواح، وقد جرى إهمال خلاصهم، ونهب مقتنيات الكنيسة، وقد رسمنا في سبيل التخلص من هذا الوباء الذي استشرى وترسخ رسوخاً كبيراً مايلي:

إنه إذا ما اكتشف بأن أي واحد قد أبرم مثل هذا العقد للزواج، يتوجب عزله من كنيسته، وحرمانه من المنافع اللاهوتية، وحول هذا نحن نرسم أنهم هم أنفسهم، أو أي واحد قد تزوج، سوف يحرم حتماً وبلا تراجع، وإذا ما تم الحصول على أية ممتلكات بعد زواج من هذا النوع، مهما كانت طريقة الحصول عليها، أي من قبلهم أنفسهم، أو بوسائل أشخاص آخرين، إن هذه الممتلكات، لن يجري الإفادة منها، بأي شكل من الأشكال، أو استخدامها من قبل الزوجات، أو الأولاد من مثل هذا الزواج، بل سوف تكرس من الآن فصاعداً لصالح الكنائس التي كانت بين أيديهم، أو التي استحوذوا فيها على منافع، أما بالنسبة لهم أنفسهم أيضاً، لن يسمح لهم كأشخاص بأي شكل من الأشكال بالقبول في الكنائس، أو في المنافع اللاهوتية، أو في الطوائف المقدسة، حتى يجري منحهم استحقاقاتهم بموجب التوزيع الشرعي».

حول رجال الدين الذين لديهم خليلات

«مع أن أحكام الكنيسة قد تناولت دوماً في دراساتها قرار طرد العدوى القذرة لشرور العمل الجنسي من أمام أبوابها، حيث لوث هذا العمل جمالها

ودنسه بشكل جدي، مابرح هذا الدنس الواسع الشر والضرر مستمراً في عرض نفسه بكل وقاحة أمام الناس وعلى مشهد منهم، ولذلك رغبة منا بعدم المرور بمثل هذه الاهانة الكبيرة والاساءة إلى الكنيسة، من دون ضبط، وكأننا نشير إليها بشكل عابر فقط، ينبغي أن نلتزم بقرارات الأحبار الرومان، ولاسيما مرسوم البابا الاسكندر، الذي جرى إعلانه حول هذه القضية، نحن نرسم، أنه مالم يقم رجال الدين، خاصة الذين منهم في الطوائف المقدسة، الذين يحتفظون بشكل معلن بخليلات في بيوتهم أو في بيوت الآخرين، بصرفهن من داخل بيوتهم في بحر شهر، وبعدم الاحتفاظ بهن مطلقاً مرة جديدة، أو بأخريات مهما كان الادعاء، فإنهم سوف يعلقون عن ممارسة أي عمل أو وظيفة ومنفعة، وإلى أن يقوموا بتكفير مناسب عن هذا الذنب، لن يسمح لهم، بأي شكل من الأشكال بالدخول أو بالتقدم من أية منافع لاهوتية، وإلا فإننا سوف نرسم بحرمانهم من هذه المنافع، وتقضي إرادتنا، كما أننا نأمر بأن يقوم رؤساء الأساقفة والأساقفة بتفتيشات دقيقة حول هذه القضية في جميع أرجاء عماداتهم، وأن الذي رسمناه سوف تجري مراعاته وتنفيذه».

حول الذين خلفوا آباءهم في كنائسهم

«مع أن الآباء المقدسين قد أعلنوا بأن المنافع اللاهوتية لايجوز الاستحواذ عليها بموجب حق الوراثة، وأن خلافتهم من قبل أبنائهم الشرعيين ينبغي حرمانها من شراكة المؤمنين، ومع ذلك فإن بعض الذين ولدوا من خلال اتصال شنيع، يسيرون بخطوات الصفاقة، ويدوسون على سلطات الشريعة، والشرف، ويسعون إلى فرض أنفسهم في منافع من هذا النوع، التي استحوذ عليها آباؤهم من قبل من دون مسوغ صحيح، وقاموا بادعاء سريع وفرض واقع جديد بالاستحواذ عليهم، ولذلك، إننا نحن الذين قدمنا إلى هذه البلاد لإيجاد علاج لهذه النازلة التي ألمت بشرف الكنيسة، نمنع بكل دقة، أساقفة الكنائس من القيام من الآن فصاعداً

—تحت أية حجة، أو بوساطة أي خداع— من تعيين أو قبول أياً من أمثال هؤلاء لاستحواذ منافع من هذا النوع، أو مما استحوذ عليه آباؤهم مهما كان نوع العنوان، سواء أكان الأمر كلياً أم جزئياً، ونحن نأمر أيضاً بهذا المرسوم الحالي، أن يجري حرمان كل من بين يديه منفعة من هذا القبيل، قد استحوذ عليها بشكل غير قانوني، وانتزاعها منه».

ضدّ الذين يحمون اللصوص

«للوقوف ضد جرائم اللصوص، الذين بهم المملكة الانكليزية ممتلئة، سوف يكون ذلك بلا فعالية، مادام أناس من ذوي المراتب يحمونهم ويحتفظون بهم، ولذلك رأينا من المناسب أن نرسم، أنه لايجوز لأحد أن يخفي في بيته أو في بلدته أولئك الذين معروف أنهم اقترفوا سرقة، أو الذين هناك براهين أو أدلة ضدهم، ولايجوز حمايتهم أو إيوائهم، والذين سوف يعملون ضد هذا المرسوم، إذا لم يقوموا بعد انذارهم ثلاث مرات من قبل قاض لاهوتي عادي، بطرد اللصوص وابعادهم عنهم، نحن نعلن أنهم سوف يكونوا خاضعين للحرمان الكنسي واللاهوتي، وإنها إرادتنا ومرسومنا أن انذاراً عاماً سوف يكون كافياً، وأنه ينبغي أن يعطى دون ذكر لأسماء أي واحد، أو الاشارة إلى أي واحد، شريطة اصداره بشكل علني، وبصورة مهيبة حتى يصل إلى علمهم».

حول أكل اللحوم من قبل الرهبان

«لقد سمعنا، وسررنا، أن الرعاة الدينيين لطائفة رهبان القديس بندكت في جميع أرجاء انكلترا، قد اجتمعوا مؤخراً في هيئتهم العامة، وذلك على شكل أبناء حقيقيين للكنيسة، ووفقاً للقول النبوي قد عادوا إلى حدودهم، وقرروا بشكل حكيم، أنهم من ذلك الوقت فصاعداً، التزاماً منهم بأحكام القديس بندكت، سوف يمتنعون عن أكل اللحوم، وذلك باستثناء الضعفاء والمرضى، الذين يتوجب، وفقاً لبنود الأحكام نفسها، تزويدهم

من مصحة العجـزة، وبقدر ما نوافق على هذا نحن نرسم بوجوب مـراعاة ذلك، من دون تعطيل أو استثناء، وبالاضافة إلى ذلك نحن نرسم، أنه لدى إنهاء المنتسبون الجدد سنة اختبـارهم الأولى بعد ارتدائهم للبـاس الرهباني، يتوجب ارغامهم من قبل الرعاة، بوساطة السلطات اللاهوتية أو الشرعية، على عمل تكريسهم واعترافهم وفقـاً لمرسـوم أو قـانون البـابا أونوريوس، صاحب الذكرى الطيبة، وكل واحـد لم يعمل تكريسه واعترافه، سوف لن يقبل للترقيـة إلى مرتبـة راعي دير أو رئيس رهبان مهما كـانت المسوغـات، وهذا الذي رأينـاه مـوائماً بـالنسبـة لعمـل هذا الاعتراف عند انتهـاء سنة الاختبـار، نعتقـد أنه مـوائم أن نجعله يشمل الكهنة النظاميين والراهبـات وبالنسبـة للقضـايا الأخـرى، التي نعلم أنها عـائدة إلى تقـويم أو اصـلاح الكهنة وكذلـك الكهنةالنظاميين نحن عزمنا على تقـديم ماينبغي تقـديمه، وسـوف نرسـم بمشيئة الرب بها سيكون مفيـداً لكنائسهـم ونافعـاً لهم أنفسهم، ونحن نأمـر بتعميم نشر هذه القـرارات بشكل مهيب بين جميع هيآتهم الكهنوتية».

واجبات رؤساء الشمامسة

«فيما يتعلق برؤسـاء الشمامسـة، نحـن نرسم بوجـوب زيارتهم إلى الكنائس، والقيـام بشكل مخلص بالبحث والتقصي حول مـايتعلق بالأواني المقـدسة والملابس، وحـول الطرائق التي تدار بها الكنيسـة وتخدم بالنسبـة لقداسات النهـار والليل، وحول شؤونها الدنيوية وكـذلك الروحية بشكل عـام، والقيـام بعناية بالاصـلاحـات التي تكون ضرورية، وعليهم عـدم الضغط على الكنائس وظلمهـا بضرائب فيهـا مغـالاة وشطط، بل الذي عليهم هو المطالبـة بالحصول على ايجارات معتـدلة، ويكون ذلك فقط لدى زيارتهم لهم، وعليهم عـدم جلب أجانب معهم، وأن يرافقهم عـدد معتدل من الخدم والخيـول، وعليهم عـدم قبـول أيـة رشـوى من أي واحـد حتى لايزوروه ويقـوّمـوه، أو لكي لايعـاقبـوا المذنبين، ويتـوجب عليهم عـدم

ادخـــال أي واحـــد في الإدانـة بأحكامهم بشكــل غير عـــادل، مـن أجل استخراج المال منهم، وبما أن مثل هذه الأشياء تخدم السيمونية، نحن نرسم أن كل من يتصرف بمثل هذه الطريقة، ســوف يرغم في مكان آخر على منح الممتلكات التي حصل عليها وفق هذه الطريقة، وأن يكون مقـدار ماسوف يرغم على دفعه ضعف المبلغ، ويكـون ذلك تحت عناية واخلاص الأسقف من أجل استخدامات تقـوية، وذلك مع ابقاء العقوبة القانـونية، وممارستها ضدهم، وعليهم جعل همهم وشغلهم الشـاغل أن يكونوا بشكل متواصل حـاضرين لدى اجتماع الهيئة الكهنـوتيـة في كل عمادة، ويتـوجب عليهم في هذه الاجتماعات، صرف اهتمامهم إلى أشياء كثيرة، يتصدرها توجيه الكهنة بانتباه ودقة، بعلم صحيح، وبفهم سليم، إلى كلمات الشريعة والتعميد، أي إلى مايشكل لب التعميد وأسسه».

وجوب عدم طلب أي شيء من تسوية الخلافات

«ومجدداً نحن نمنع بكل دقة وحزم رجال دين الكنائس، وبشكل خاص رؤسـاء الشمامسـة والعمداء، أو مـوظفيهم، أو أي آخـرين جـرى تعيينهم بفضل سلطاتهم اللاهوتية، أو مناصبهم الروحية، من تقـرير أسباب عامة، أو أية مسائل لها عـلاقة بسلطات الكنيسة، من منطلق فرض إعـادة السلام والعلاقـات الطيبة بين الأطراف، وذلك فيما يتعلق بخلافـاتهم، أو بأسباب الشكوى، لكن عندمـا تختار الأطـراف، يمكنهم أن ينسحبوا من المحكمـة بتسـوية، إذا كانت القضيـة تحتمل التسوية بوسـاطة الشريعة بشكل مـؤثر، وسوف لن يكـون هناك استخراج أية مـدفوعات من الأطـراف حول هذه التسوية».

واجبات الأساقفة

«إن الواجبات المفروضة على هـؤلاء الآباء المحترمين: رؤساء الأساقفة، والأسـاقفة، الذين معنى ألقـابهم (المشرفين)، أي الذين يتـولون الاشراف

والنظارة، قد جرى تبيانها بكل وضوح، فعملهم هو القيام بالاشراف على القطعان وحراستها، وحسب كلمات الانجيل (القيام بالحراسة أثناء الليل)، وبما أنهم —بناء عليه— ينبغي أن يكونوا أمثولة طيبة للقطيع، الذي كله خاضع لهم، والذي عليه أن يتكيف ويتماثل معهم أنفسهم، وهذا ما لايمكن عمله، ما لم يضربوا بأنفسهم مثلاً للجميع، بناء على ذلك نحن نحثهم باسم الرب، ونتمنى عليهم، الإقامة بعض الشيء في كنائسهم الكاتدرائية، وأن يؤدوا هناك بطريقة صحيحة القداسات، على الأقل في أيام الأعياد الرئيسية، وفي أيام الأحد، أثنا الصوم الكبير، وأثناء الميلاد، وعلاوة على ذلك، عليهم الارتحال بين أنحاء أسقفياتهم في أيام المواسم، مصلحين، ومقومين المخالفات، ومكرسين للكنائس، وبذر كلمة الحياة في حقل الرب، وأفضل طريقة تمكنهم من أداء جميع واجباتهم، هي أن يتدبروا قراءة اعترافهم وتعهدهم الذي عملوه أثناء تكريسهم، مرتين في العام، وخلال الشطر الأكبر من الصوم الكبير».

مرسوم ضدّ القضاة غير البارعين

«بما أنه ليست السلطة فقط هي المطلوبة لوحدها في تصريف القضايا بشكل مستقيم، بل أيضاً الاستقامة والبراعة مطلوبتان بشكل خاص، يتوجب على الجميع إيلاء عناية خاصة أن لايتعين أحد للقضاء أو أن يكون ناظراً من الذين غير بارعين، أو جهلة، أو غير موائمين، أو غير عادلين، حتى لاتصدر عنهم أحكام تجري فيها تبرئة الفئة المذنبة، وإدانة الفئة البريئة، ولذلك رأينا أنه من الموائم أن نرسم بأن يعهد بالقضايا الزواجية، التي تتطلب فوق كل القضايا المعالجة ببراعة كبيرة ويقظة، إلى رجال واعين وموضع ثقة، وأن يكونوا ممتلكين لمعرفة وافية بالشريعة، أو على الأقل خبرة كافية فيها، وإذا صدف وكان أي واحد من رعاة الديرة، أو رؤساء الشمامسة، أو الشمامسة، يمتلك امتيازاً، أو عرفاً مخولاً بالقيام بالبحث في القضايا، على هؤلاء الاهتمام والاعتناء بفحص هذه القضايا بكل عناية

ودقة، وبذلك لايقومون هم أنفسهم، وكذلك وكلائهم بإصدار قرار حكم محدد، من دون القيام أولاً بعقد مداولات دقيقة، حول محاسن القضية مع أسقف الأبرشية، وذلك من دون طلب نصيحته أو الحصول عليها، ولهذه الغاية نحن نود أن يكونوا معفيين، أو محميين بوساطة امتياز خاص

يمين المطالب

«إن يمين المطالب مطلوب في القضايا اللاهوتية، وكذلك قول الصدق في الشؤون الروحية، لأن بذلك يمكن بسهولة أكبر الكشف عن الحقيقة، ومن ثم تقرير المسألة بشكل أسرع، ولذلك رسمنا أنه يتوجب العمل في جميع أرجاء انكلترا، في المستقبل وفقاً للشريعة والأوامر القانونية، وليس وفقاً للعادات الأخرى التي تؤدي إلى العكس، وإلى هذا المرسوم، نحن نضيف —من أجل منفعة الجميع— هذه الاضافة، وهي: من الممكن منح تأجيل للمحاكمة بناء على اختيار القاضي، وذلك وفقاً للأحكام القانونية والشرعية».

تعيين الناظرين

«إن عادة استخدام الوكالات، التي أدخلت إلى محاكم العدالة، أي أن قضية أي شخص لايمكنه شخصياً الحضور، من الممكن عرضها وايضاحها، من قبل آخر في أثناء غيابه، هذه العادة غالباً ما بدلها مكر العدو القديم إلى ممارسة شريرة، لأنه كما تقدم الذكر، عدّت العادة هنا أن الانسان الذي تجري دعوته للحضور في يوم محدد، من الممكن له تعيين ناظر فقط من أجل ذلك اليوم برسالة موقعة، وممهورة بختمه الأصيل، وقد حدث أنه إذا ما اختار الوكيل عدم طاعة الاستدعاء، أو اخترع أية حيلة في الرسائل، بوساطة تقديم شهود، أو وقائع أخرى معيقة، مامن شيء يمكن فعله في ذلك اليوم، وفي اليوم التالي تنتهي مهمة الناظر، وهكذا تسقط الأعمال إلى الحضيض من دون تأثير، وكذلك رغبة منا في عمل شيء لسدّ

هذا العجـز، نرسم، أنه مـن الآن فصـاعـداً، يجري تعيين الوكيل، بالنسبـة للقضـايا اللاهوتيـة في مملكة انكلترا،، ليس ليوم واحـد، بل لعـدة أيام، إذا كان ذلك ضرورياً، والاستـدعاء سوف تجري البرهنة على صحتـه بوساطة كتابات صحيحـة، ما لم يكن جرى تعيينه في تلك السـاعة، أو أن الشخص الذي عيّـنه لايمكنه إيجاد ختم أصيل».

طريقة عمل الدعوات للمثول أمام القضاء

«ببراعة متناهيـة ومكر، تهاجم الفئات المتصارعة بعضها بعضـاً، إلى حد أنه مـا من أحد، يتردد في الدوس على العـدالة، وأن يفعل كل شيء لهزيمـة خصمـه، ولقـد سمعنا من كثيرين أن الذيـن لديهم دعـوات، يرسلونها بوسـاطة ثلاثة أولاد إلى المكان الذي يُقـال بأن الفئة المستدعـاة ساكنة فيـه، وفي ذلك المكان يضع اثنـان من الرسل الدعـوات على مـذبح الكنيسـة في ذلك المكان، أو في مكان مـا آخـر هناك، ويأخـذ الثـالث على الفـور هذه الدعوات ويبعـدها، وبذلك يتوفـر شاهدان يشهـدان بأنه جرى استـدعاء صـاحب القضيـة، ونتيجـة لذلك يتعرض للحـرمـان الكنسي، تماشيـاً مع شروط ابلاغ قرار الحكم، وعادة المنطقة، أو يجري تعليقه بمثابة متمرد، مع أنه بريء تمامـاً من العصيان، وجـاهل بالدعـوة غير عارف بها، وبناء عليـه نحن في غيرتنا على العدل، ومـن أجل تقويم هذا الفساد الشنيـع، وأمثاله، نرسم، أنه من الآن فصاعـداً، بالنسبة للقضـايا اللاهوتية في مملكة انكلترا، سـوف لن يكون توجيـه الدعوات بـوساطة الذين يتقـدمـون لأجلهم، أو بوساطة رسلهم، بل يتـولى القاضي، مقابل نفقة معتـدلة يتحملها المشتكي، إرسالهم بـوساطة رسل مـوثوقين من عنده، عليهـم البحث بتيقظ عن الفئة المستدعاة، وإذا كان الرسول غير قادر على ايجاد المستدعى، عليه العمل على تدبر قـراءة رسـائل الاستـدعـاء، ونشرها في كنيسـة المكان، الذي يسكن المستـدعى بالعادة فيـه، وذلك في يوم الأحد، أو في بعض الأيام الأخـرى، أثناء أداء القداس، أو على الأقـل إرسال الدعوات إلى العميـد الذي يسكن

في عبادته الطرف المستدعى، فهـذا العميد سوف يقـوم باخلاص، بناء على أوامر القاضي بتنفيذ هذه الخدمـة شخصياً، أو بوساطة أحد الموثوقين لديه، أو برسل معتمدين، وسوف يكتب، من دون تقـاعس إلى القاضي، لإخباره بالذي عمل حول هذه القضية».

مامن أحد يضع ختمه على رسائل الاستدعاء ما لم يكن حاضراً أثناء كتابتهم

«هناك حاجة قصوى من أجل استخـدام الكتابات تحت أختام صحيحة أصيلة (وخـاصـة في مملكة انكلترا حيث لايوجـد كتاب للعـدل عـامين)، واتخاذ احتيـاطات دقيقة، حتى لايسـاء استخـدامها من قبل أي أشخـاص دون تجربة، لأننا سمعنـا، أن صكوكـاً كتبت ووقعت، ليس فقـط من قبل كهنة من المراتب الدنيا، بل أيضاً من قبل أساقفة، وأن عناية كبيرة قد بذلت نحو هذه الصكوك، لإظهار أن واحداً ما قد أحضروه ليكون موجوداً أثناء كتابة العقد، أو القضية المطروحة، أو أن انسـاناً استدعي للمحاكمة، وعليه الحضور، أو أن رسائل الاستدعاء قـد قدمت إلى واحد لم يكن قط حاضراً، أو ربما حتى لم يكن موجـوداً، أو هو ربما كان أثناء وقت الاستـدعاء يعيش في أسقفيـة أخـرى أو في منطقة ثانيـة، وأيضـاً بما أن رسـائل من هذا النوع تحتوي على الـزيف بشكل واضح، نحن نمنع بدقة هذه الرسـائل، أو عمل أي شيء مشـابه، وبعد مـداولات دقيقـة، وضعنا أسس مرسـوم قضى بأن الذين يمكن أن يدانوا بمثل هذا الذنب، أو الذين يقـدمون على الاستمرار بإصـدار مثل هذه الصكوك، سـوف يعانون من العقـوبات التي يستحقهـا المزيفون، أو الذين يستخدمون أدوات زائفة».

الأشخاص الذين يتوجب أن يكون بين أيديهم أختاماً أصيلة

«بما أنه لايوجد كتـاب عدل عـامين عاملين في انكلترا، بات لهذا السبب من الضروري منح المزيـد من الثقـة إلى الأختـام الأصيلة، ولـذلك نحن

نرسم بوجوب أن يحمل ليس فقط رؤساء الأساقفة والأساقفة، بل أيضاً موظفيهم، أختاماً، من أجل الحصول على مساعدتهم بسهولة أكبر، وكذلك يتوجب على جميع رعاة الديرة، ورؤساء الكهنة، والعمداء، ورؤساء الشامسة وموظفيهم، وعمداء الأرياف، وكذلك أعضاء هيئة الكنائس الكاتدرائية، والتجمعات الرهبانية الأخرى، مع قساوستهم، أو بشكل افرادي، وفقاً لعاداتهم، أو أحكامهم، ووفقاً لتنوع الذين تقدم ذكرهم، يتوجب أن يحمل كل منهم ختمه الخاص، عليه اسم مرتبته، ووظيفته، وكليته، وكذلك اسم الذين يتمتعون بالمكانة، أو بمرتبة دائمة، أو وظيفة، وأن يكون ذلك محفوراً عليه بخط واضح، وبذلك يحملون أختاماً صحيحة، وأما بالنسبة للذين يشغلون منصباً دنيوياً مثل العمداء الريفيين والموظفين، فسيكون لديهم أختامهم، عليها قد حفرت أسماؤهم فقط، ولدى انتهاء وقت تعيينهم وعملهم في وظائفهم، عليهم تسليم الأختام من دون تأخير، إلى الشخص أو الأشخاص الذين تسلموا منهم تعيينهم، وفيما يتعلق بالوصاية على الأختام، نحن نوصي بالعناية الفائقة بها، أي أن يتولى كل واحد شخصياً الحفاظ على ختمه، أو أن يسلمه إلى شخص واحد، فيه يضع ثقته، وذلك ليتولى حفظه، وعليه أن يقسم على أنه سوف يتولى حفظه باستقامة، وأن سوف لن يختم به أي شيء إلى أي انسان، من ختمه يمكن أن ينشأ أي ضرر، وأن يتمنع عن ختم أي شيء إلاّ بعد أن يكون مولاه قد قرأه وتفحصه بكل دقة، ثم أمر به ليختم، وفي منح استخدام الختم يتوجب مراعاة الاخلاص واتخاذ الحذر والحيطة، فالثقة يمكن أن تمنح بسهولة إلى الذين يطلبونه، أما الحذر فيوجب منعه وعدم إعطائه إلى الأشخاص الزائفين والغشاشين، ونحن أيضاً نرسم بوجوب أن يذكر في بداية كل كتابة أصيلة وفي نهايتها، اسم اليوم، والزمان، والمكان».

القسم الذي ينبغي على المحامين أدائه

«لقد سمعنا صراخ العدالة، وهي تشكو، بأنها أعيقت كثيراً، بوساطة

مراوغة ومكر المحامين، وأنها غالباً وكثيراً ماجحدت من قبل قضاة بارعين، من خلال الجهل، الذي غالباً ماخدعت به الأطراف بوساطة عصيانها، لأنه يحدث في بعض الأحيان أن شخصاً قد يوضع في ملكية من أجل الحفاظ على ممتلكات، فيسعى إلى الاحتفاظ بالملكية، مع أن الفئة المعاكسة قد عادت في بحر سنة، واستعدت لإرضاء العدالة في كل شيء، وفي بعض الأحيان أيضاً، يكون الشخص الذي أرسل للاستحواذ على الملكية غير قادر —مع أنه حكم بأنه المتملك الحقيقي— على الحصول على الملكية في بحر سنة، أو بعد ذلك، لأن الفئة المضادة تقاوم بقوة السلاح، وبناء عليه نهضنا نحن إلى مساعدة العدالة، واعتماداً منا على ما وافق عليه المجمع، نرسم بأن على كل من يرغب بالحصول على مكتب المحامي، أن يؤدي قسماً إلى الأسقفية، التي يعيش تحت سلطانها، أنه في القضايا التي تحتاج منه المرافعة، أن يترافع باخلاص، وأن لايعيق العدالة، أو أن يحرم الفئة الأخرى منها، بل أن يدافع عن موكله وفقاً للشريعة والعقل، وإلاّ فإنهم لن يسمح لهم بالترافع في القضايا الزواجية وفي الانتخابات، ما لم يؤدوا قسماً مماثلاً، ولن يسمح لهم بالمثول في قضايا أخرى أمام القاضي اللاهوتي، لأكثر من ثلاث مرات، من دون يمين من هذا النوع، ما لم يحدث صدفة أن يأتي طلب لصالح هذه الكنيسة، أو لمولاه، أو لصديق، أو من أجل رجل فقير، أو من أجل أجنبي، أو من أجل أي شخص تعيس، وعلى جميع المحامين أن يكونوا على دراية وحذر أن لايكونوا أنفسهم، أو بوساطة وسائل الآخرين، شهوداً كاذبين، أو أن يأمروا الفرقاء بتقديم شواهد مزيفة، أو أن يقمعوا الصدق، والذين سوف يفعلون مثل هذا، سوف يحرمون حتماً من وظائفهم ومن منافعهم، حتى يقوموا بتكفير مواثم عما عملوه، وإذا ما أدينوا بفعلهم كذلك، سوف يعاقبون بشكل قانوني، دون الاهتمام ببقية القضايا، وعلى القضاة، الذين يجهلون القانون، إذا ما كانوا شاكين حول إحدى النقاط التي قامت، والتي من الممكن أن يحصل منها ضرر لواحدة من الفئتين، أن يسألوا النصيحة من انسان عاقل، على نفقة

الفئتين معاً».

إحالة أعمال المحاكم إلى التدوين

«نحن فضلاً عما تقدم، نرسم أنهم بقدر ماهم مستطيعون، عليهم مراعاة مرسوم المجمع العام، وأن يبقوا بحوذتهم بشكل مخلص جميع الأوامر الأصيلة والصحيحة، وكذلك بشكل اعتيادي بمثابة محاكمات غير اعتيادية، أو أن يتدبروا شأن حفظهم من قبل كتابهم، حتى يتمكنوا ويكونوا قادرين على عمل نسخة عنهم للأطراف، كما ينبغي، ونحن نأمر ونرسم إنه بعد مايكونوا جميعاً قد نسخوا من قبل هؤلاء الكتاب، يتوجب نشرهم جميعاً من أجل أنه إذا كانت هناك أية أخطاء في الكتابة يمكن أن تصحح، وتكون الحقائق الصحيحة للقضية قد أصبحت ظاهرة».

تقديم ضمانة

«فضلاً عما تقدم على القضاة، الانتباه أنهم عندما يقررون وضع أي واحد في حالة التملك، بسبب عصيان الفئة المخاصمة بالنسبة لإعادة الممتلكات مع الانتاج، هذا إذا كانت قد تسلمت أياً منه، بعد حسم النفقات القانونية، وإذا ماعادت الفئة المخاصمة، في بحر سنة، فإنها سوف تأخذ ضمانة كافية، بناء على أوامر الشخص الذي من المفترض أنه وضع في التمليك، ونحن نرسم أيضاً، أن أي واحد أقدم على الاستحواذ على ممتلكات بالقوة، للاستيلاء على ماتركه آخر، بسبب تمرده، انه حتى وإن كان سيعين بمثابة الملاك الحقيقي بعد سنة، سوف يحرم من أي حق يمكن أن يكون له فيها».

ولدى اكتمال هذه المسائل في اليوم الثالث من المؤتمر، بدأ النائب البابوي يرتل:

(Te Deum) وعندها نهض الجميع من مقاعدهم، وبعدها جرى ترداد الترنيمة الدينية:

وغنائها، ثم أعقب ذلك غناء مزمور «مبارك هو (Viaum Pacis) الرب إله بني اسرائيل» ثم إنه غنى بعض المجموعات الخاصة، وبعد ذلك أضفى تبريكاته، وغادر الجميع بعد ذلك مسرورين كثيراً.

رسائل من الامبراطور إلى الايرل رتشارد أخبره فيها عن انتصاراته على الميلانيين

في العام نفسه، أرسل قبيل عيد الميلاد، ذلك القاهر القدير لأعدائه، الامبراطور الروماني فردريك، رسائل امبراطورية، مختومة بالذهب، كما هي عادته، إلى رتشارد ايرل كورنوول، ليخبره، وليخبر آخرين من خلاله، عن النصر الذي منحته السماء إياه على الميلانيين، حسبما ذكرنا، وجاء محتوى الرسالة ومقصدها كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى رتشارد ايرل أوف كورنوول، ابن ختنه المحبوب، الصحة، وأصدق العواطف: كم كان متهوراً ووقحاً قيام الليغوريين Ligurians [الجنويين] في ثورتهم ضد شخصنا الملكي، وقد أخبرت التجربة وقرب المكان، الناس الجيران وحملت أخبار الشرور المتأصلة إلى الناس إلى مسافات بعيدة، ونحن نعتقد أنك على دراية بما يعلمه الناس، عن تجاوزنا المستمر عن ذنوبهم لمدة طويلة، إلى حد إذا ما مضينا هكذا فإن تحملنا سوف يفقد اسم الصبر الحقيقي، وسوف ينال وصمة الجبن الشريرة، وذلك عوضاً عن الاسم الشريف ذي الفضيلة، وبعد تقدير وتأمل لبعض الوقت أن الجراحة التي لاتشعر بأي تأثير من استخدام الكمادات، ينبغي أن تقطع بالسكين، ولذلك فإن الحاجة قد أرغمتنا على اللجوء إلى السلاح، وإلى إيقاظ الامبراطورية النائمة من سباتها، هذا ولم نستطع لا في السنة الماضية، أو خلال السنة الحالية، اقناع رعايانا المتمردين باللجوء إلى مخاطرة مواجهتنا في قتال مكشوف، من أجل

أن ننال على الفور نصراً عليهم، وحدث لدى توفر فرصة سعيدة، أن الميلانيين مع حلفائهم قد احتشدوا عند حصن بريشيا Brescia وبذلك حال نهر بيننا وبينهم، وقد أحاط بهم هذا النهر، وكأن خندقاً قد أحاط بهم، وبناء عليه نصبنا معسكرنا، على الطرف الآخر من نهر أوغليو Oglio ووقتها عاد الفرسان المخلصين وسكان المدن إلى ديارهم، لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل التأخير الممل غير المتوقع، وقسوة الموسم، وقد وجهنا —على كل حال— خطانا مع كتلة منتقاة من جيشنا، فسرنا على طول شواطىء الطرف الآخر من هذا النهر، وقصدنا الجسور التي كان العائدون إلى ديارهم مرغمون على عبورهم،وبات الميلانيون وحلفائهم غير قادرين على البقاء مدة أطول في أماكن اختبائهم، وذلك بسبب قلة الحاجيات الضرورية لديهم، فعبروا نهر أوغليو، بوساطة المخاضات والجسور، ووصلوا إلى السهل المفتوح ودخلوه، ظانين أن بإمكانهم النجاة منا بالفرار سراً، ولعلهم لم يتصوروا أننا كنا على مقربة كبيرة منهم، وعندما —على كل حال— علموا بقربنا، استولى عليهم الرعب والخوف، ونزل بهم نزول صاعقة من السماء، ولدى رؤية مقدمة جيشنا الامبراطوري، وقبل تمكنهم من رؤية أعلامنا المنتصرة، والنسور الامبراطورية، نكصوا على أعقابهم، وشرعوا بالفرار من أمامنا باضطراب كبير، وفوضى عظيمة، وظلوا فارين حتى وصلوا إلى رايتهم، التي بعثوا بها أمامهم إلى نوفاكروسي -Nu ovacroce بسرعة فائقة، أي بقدر مايستطيع حصان سريع حملها، حتى أن ما من أحد من عساكرنا المطاردة لهم، استطاع أن يلمح وجوه الفارين، ولأننا اعتقدنا أنه بات من الضروري بالنسبة لنا المبادرة بالاسراع لتقديم المساعدة إلى القوات الاحتياطية، التي تقدمت وسارت أمامنا بقوة صغيرة، لذلك زحفنا خلفهم بسرعة كاملة، مع قوى جيشنا، وحيث توقعنا أن نجدهم قد صدوا بهجوم الأعداء المقاتلين، وجدنا أن تقدمنا معاق بأعداد الخيول التي كانت تركض هنا وهناك، من دون ركّاب، وكذلك بحشد الفرسان الممددين جرحى أو قتلى، في حين كان الذين بقيوا أحياء إما

واقفين أو متمــددين على الأرض، لأنهم كـانوا مــرتبطين إمـا بســادة أو بفرسان، كانوا من أتباع مـواليهم، وبعد لأي عثرنا على رايتهم قرب أسوار نوفاكـروسي، وهي محاطة بخنادق، ومحمية بمجموعة كبيرة من الفـرسان، مع جميع جنودهم الرجـالة الذين قاتلوا بشكل رائع في الدفـاع عنها، وعند ذلك صرفنا اهتمامنا نحــو الهجـوم والاستيـلاء على هـذه الراية، ورأينا أن بعض جنودنا بعدما تمكنوا من شق طريقهم بالقوة إلى ذروة الخنادق، قاموا بشجاعـة محمودة فشقوا طريقهم بالقـوة نحو عمـود الراية، وكانت ظلال الليل على كل حال تقترب، وهـو ماتشوق إليـه رجالنا بشـدة، فتوقفنا عن القتال حتى الصباح الباكر من اليوم التالي، ذلك أننا كنا قد استلقينا للراحة فقط مع سيـوف مجردة، ودون أن ننزع سوابغنـا ودروعنا، مقررين العـودة لنيل نصر غير مشكوك فيـه، ولنستـولي على الـراية، ولدى انبـلاج الفجـر، اكتشفنا على كل حـال، أنها كـانت مهجورة، وقـد تركت وسط حشـد من العـربات السيئة، غير مدافع عنهـا تمامـاً ومهجورة، ورأس القصبـة حيث كـانت عـلامة الصليـب، كان الصليب قـد فصم، لكن يبـدو أنه ظهـر إلى الفارين ثقيل جداً، لذلك ترك في منتصف الطريق، أمـا بالنسبة لحامية قلعة نوفاكروسي وسكان المدينة، الذين ظننا أنهم سوف يلجأون إلى الاحتماء بها وينجـون إليها هرباً من هجماتنا، فقـد وجـدناهما مهجورين تمامـاً، ولم ينج رئيسهم الذي هـو ابن دوج البندقيــة من الوقــوع بين أيدينـا، وهو الذي بأوامـره رفعـوا رايتهم المأسـوفــة، ولكي نقـدم رواية مختصرة حـول هذه المسألة، يقـال بأن قـرابـة العشرة آلاف رجل قـد أسروا أو قتلوا، كـان من بينهم كثير من النبلاء والقادة للفئات الميلانية، وحول هذه المسائل كلها، قد أرسلنا لكم رسالة لنقـدم إليكم السرور، ولكي تروا كيف أن امبراطوريتنا قد ابتهجت بالأخبار التي نرويها لكم الآن.

صدر في كريمونا، في هذا اليوم الرابع من كانون الأول، في الحادية عشرة من الخمسعشرية».

رسالة بعثت إلى النائب البابوي حول أوضاع الكنيسة الرومانية

وكتب في هذا العام نفسه أيضاً، في حوالي عيد الميلاد السيد الكاردينال ج. ل دي كولونا، وكان قوياً ومستشاراً خاصاً للكنيسة الرومانية، إلى النائب البابوي في انكلترا، كما يلي:

«**من الأخ إلى أخيه، ومن الكاهن إلى الكاهن، ومن المحب إلى الحبيب، تمنيات الصحة في المسيح** —لو أن هذه الرسالة، التي أنا كتبتها يمكن أن تبقى سرية عن الغرباء، ولولا أنه بحكم المسافات بين الأماكن، كثير من الأشياء يمكن أن تتعرض للخطر، لأودعت كتابة كثيراً من الأشياء، التي اللسان صامت عنها لايتحدث، ولايبيحها إلى الصديق، وهذه أمور لاينبغي لي أن أخفيها عن معاليكم، وهي أن الأم قامت بتشوق، أو بالحري بشكل غير حكيم، بتغطيس نفسها واغراقها بين الأمواج، وعن طواعية واختيار من نفسها، ألقت بذاتها بين فكي الذئب، بوساطة خطط اثنين فقط، مع أن ثالثاً قدم تعاونه، أو بالحري لنتكلم بشكل صادق أكثر كان سباقاً بهذه الخطة، وبما أن الحرية قد ألقي بها جانباً، فقد بدأت العبودية، وغاب نجم القداسة، ونزل الميراث والحظ إلى مرتبة العبودية، وشموخ العالي والقوي نال الثناء، واشتري السجن، وازدري الشرف، وتم السعي وراء الفوضى، وتسلح الاضطراب، وأرغم الهدوء على الفرار، وما من اهتمام صرف نحو ذنوب الرهبان والغرباء، وتلا ذلك وأعقبه نتائج محزنة، ولحسن حظك أنك ابتعدت عن هذه المشاكل، وأنك ذهبت إلى بلاد نائية، حتى لاترى معاناة شعبك وآلامه، ولاتشاهد القديسين وهم يتعرضون للضربات اليومية، ويمزقون بأدوات نخس متواصلة، ولقد رغبنا، وغالباً ماحاولنا أن نقوم بإصلاح أحوال الكنيسة وأوضاعها، ذلك أنها هوت وفسدت وصارت بلا شكل وفي وضع سيء متدهور ومعزول، وأديرت المؤتمرات بشكل عابث، حيث أن الأهواء لم تضبط بضوابط العقلاء، بل أثيرت بعنفها، وبالإضافة إلى كتلة أحزاننا الأخرى، إن العمود النبيل،

الذي جرت العادة أن يدعم بشكل نبيل،، ويسند آلية الكنيسة، وهو مولانا أسقف سابينا، صاحب الذكرى الطيبة، قد اختطف فجأة من بين أوساطنا، فقد أصيب أولاً بالحزن تجاه اضطرابنا، ثم إنه هوجم فيها بعد بمرض بطيء، ومات، ليدخل تحت سلطان الرب، تاركاً مشهداً محزناً من الدماء لأمه، ورجع الرهبان من بلادهم وهم على خلاف مع رئيسهم، ولم تظهر علامات خطوات نحو السلام، لأن أتباع الخلاف لم يطيعوا العاملين في سبيل السلام، وقد انسحب أسقف أنطاكية من الجماعة، ولم يتوافق مع الذين عادوا، وبودنا ياصديقي لو أن ذلك أحيط بعناية حاشية صغيرة، وأنه بذلك لم يكن عبئاً على الآخرين، وأنه لم يمزق بأسنان المستخفين، ولكن بما أن قوة غمر فيضان المذنبين والعواصف الشديدة قد ازدادت قوة، لقد أصبحت لازماً لأمك، ولذلك أعدّ نفسك للعودة. صدر في فيتربو، في يوم عيد القديسة لوسي».

الإغريق يرفضون الخضوع للكنيسة الرومانية

وعندئذ ظهر من هذا ومن علامات مماثلة، ووضح أن الكنيسة الرومانية قد حصلت على غضب الرب، لأن الرؤساء فيها والأساقفة، لم يسعوا إلى دعوة الناس إلى التقوى، بل لجمع محافظ نقود مليئة بالأموال، وليس لكسب الأرواح إلى الرب، بل للاستيلاء على الموارد، وتكديس الأموال، وللضغط على رجال الدين وظلمهم، ولمصادرة أملاك وتكريسها لاستخداماتهم بوساطة الكفارات، والربا، والسيمونية، وما من تقدير قدم للعدل أو للشرف، ومامن انتباه صرف إلى توجيه الجاهل وتعليمه، وحالما ينال أي واحد منصباً لاهوتياً له منافع، تراه يبحث على الفور ليتعرف كم من المال سوف يحصل منه، وآخر سؤال يجري طرحه —هذا إذا طرح— يتعلق بقديسه، أو باسم الذي حملت كنيسته عنوانها، ولذلك فإن اللعنات والشكوى ثارت بين الناس، وأثير غضب الرب يومياً، لسبب صحيح، ولدى مشاهدة الكنيسة الاغريقية هذه الشرور وهذا الظلم، ثارت ضد

كنيسة روما، وطردت امبراطورها، وأظهرت الطاعة نحو رئيس أساقفتها فقط في القسطنطينية الذي كان اسمه جرمان German الذي في ضلاله ابتعد عن الإيمان الكاثوليكي، ودافع بجرأة عن العقائد الخاطئة للاغريق، وعن الأخطاء القديمة وكذلك عن الأخطاء المبدعة حديثاً، وعقيدتهم الحمقاء هي كما يلي:

هم يؤكدون أن الروح القدس لم تصدر عن الابن، بل عن الأب وحده، لأنه وجد مكتوباً في الكتابات المقدسة: «روح القدس التي صدرت عن الأب»، فضلاً عن ذلك هم يكرسون القربان من الخبز المختمر، وهم يعاكسون اللاتين ويخالفونهم في عدد من النقاط، ويمقتونهم، ويدينون الكنيسة الرومانية في عدة نقاط، وهم يولون بذلك أعمالها أكثر من أقوالها، وقام بناء عليه، مثل ابليس آخر، فأسس كرسيه في الشمال، أي أن تقول في القسطنطينية، التي هي المدينة المطرانية للأغريق، وكان بذلك ابناً ممسوخاً وبابا مضاداً، وسماها كنيسته، وأعلن أنها الأكثر جدارة، وقال أيضاً بأن الكنيسة الرومانية هي أختها، وليست أمها، لأن القديس بطرس، رئيس الرسل، كان قد أسس في الأيام الخالية كرسياً كاتدرائياً في أنطاكية، التي هي مجاورة للامبراطورية الاغريقية، وتابعة لها، وكان قد فعل ذلك قبل القدوم إلى روما، وأضاف أيضاً بأن أنطاكية أبدت كل التكريم والاحترام الذي كان في طاقتها إلى رسول المسيح، وبناء عليه وبسببه تشرفت بنيلها اسم «ثيوفيلوس» (Theophilus) في حين قامت روما بعد كثيرمن الاهانات، وأعمال تمرد كبيرة، فحكمت على بطرس المذكور، وعلى تابعه الرسول بولص بالموت، وهكذا كان الذي ظهر من الجانب الاغريقي وجرى التعبير عنه هو التشريف والاحترام، في حين كان ما ظهر من الجانب الروماني وجرى تقديمه هو عدم الاحترام والاهانة، ولذلك فإن الاغريق يستحقون عن جدارة وبموجب الحق، أن يدعو باسم «الأبناء»، والرومان باسم «أبناء الزوجات»، والذي يمكن استخلاصه من محتوى

الرسائل المقبل ذكرها، أن رئيس الأساقفة جرمان المذكور قد رغب في جمع إغـريقه واللاتين —أي الرومـان— مع بعضهم، من أجل أنهم بعـد سماع الحجج المقـدمـة من الطرفين المتنازعين، يمكنهما الوصـول إلى طـريق مـا للتفكير، وفقـاً له يكون مـؤيـداً لحجج، أو يكون سلطة تثبت مـواقفهم، وبذلك يمكن للكنيسـة كلها التي تقـاتل في سبيل الرب، أن تدعى كنيسـة واحـدة ومتحـدة، وأنه وفقـاً لما رسمـه مخلصنا، يمكن أن يكون هناك راع واحـد وقطيع واحـد في جميع أرجـاء العـالم، ولهذا السبب كتب جـرمـان المذكور، إلى البابا بما يلي:

رسالة جرمان رئيس أساقفة القسطنطينية
إلى غريغوري البابا الروماني

«إلى الأعظم قـداسة، والأكثـر فخـامة، البـابا لرومـا القديمـة، وأسقف الكرسي الرسـولي، من جـرمـان، الـذي هو بنعمـة الرب رئيس أسـاقفـة القسطنطينية في روما الجديدة:

آه يامولاي يسوع المسيح، امنحني الخلاص، وآه يامولاي الرب أعطني نجـاحـاً طيبـاً، لأنني أرى فيك، وأعـدّك، الشرف، وحجـر الزاوية الثمين المنتخب بمثابة أسـاس لهذه المناقشة التي يمكن أن تجلب الخلاص إلى جميع العـالم، لأنني قـد تعلمت بوسـاطة النبي اشعيـا، بأن كل واحـد يؤمن بك بأنك هذه الحجرة، سـوف لن يرتبك بأي شكل من الأشكال، كما لايمكن تحريكه من أساس أهله، وهذا هو الصدق، وما من أحد يتجرأ على معاكسة ذلك، ما لم يكن تلميذاً لأبي الكذب، وعملك أنت الذي هو حجر الزاوية، أن تتـولى توحيـد الأشيـاء التي نأت عن بعضهـا بعضـاً، أو توحيـد الذين اختلفوا فيما بين بعضهم بعضاً، وأن تجمع الأشيـاء التي افترقت عن بعضها في وحـدة الإيمان، فأنـت الذي بشرت بإنجيل السـلام إلى هـؤلاء الذين يسكنون في القرب وفي البعـد، وأنت الذي برفع يديك فـوق الصليب، قد

جلبت نهاية طرف الأرض إلى الاستقـامة، وبعد ذلك، حسـب عادة الرب رفعتهم فـوق كتفيـك، وبناء عليـه إنني أتوسل إلى رحمتك الـواسعـة، أنت الذي هو كلمـة الأب الكلي القدرة، والذي هو من الجوهر نفسـه في حكمة الرب، عمّـر في صرح هذه المناقشة، وكن أنت أساسها وسقفها، فأنت وفقاً للقول الرباني ليوحنا، البداية والنهاية، البداية التي لايسبر غورها، والنهاية لكل شيء، فهكذا مددنا صلواتنا، وهكذا رفعنا في المقـام الأول أبصارنا إلى الجبال السماوية، التي صلينا من أجل أن تأتينا المساعدة منها، ثم نتوجه بعد هذا بحـديثنا إليك أيها البـابا الأعظم قـداسـة، الذي حصلت على رئـاسـة الكرسي الرسـولي، تلطف وانزل قليلاً من مجدك العـالي، واصغ إلى كلماتي، أنا الذي ذي قيمـة صغيرة، والتعيس في كل مـن الحيـاة والطريق، إذا كنت —كما أقول— تشابه الذي يسكن في عليين كرب، وينظر نحو الأسفل على الأشياء الموجودة هنا تحت، ومن هاهنا أنا سوف أبدأ:

· إن الحكمـة المبهمة للرب، التي عملت من لاشيء كل شيء، قـد أبقتهم دوماً داخل الحدود، وحكمتهم بشكل عقـلاني، قد عملت منذ زمن مضى عـادة في أقل المناسبات، لبناء أشيـاء عظيمـة على ذلك، وكأن الأساس قـد أرسي منذ زمن طويل مضى، فيوسف قـد بيع في مصر مقابل فضة، بعـدما ألقي في الجب، ورمي به بعد ذلك في السجـن، والأحداث التي تلت، وكـم كـانت مجيـدة ومشرفـة، وكيف تمجـد الرب في وسط ذلك، هي معـروفـة بشكل جيـد مـن قبل الفهم الحكيم لعقلكم، أيها الأب الأعظم قــداسـة، والذي يريد هذا الخطاب أن يشير إليـه، ويقصده ويستهـدفه، هو الرهبـان الذين هم مـوجودين، والذيـن عددهم يسـاوي عدد العـذارى الحكيمات، والذين اجتماعهم الخطير، وسجنهم غير العـادل قد لفت انتبـاهنا له، وهذا مـاسوف نبيّــنه إلى قداستـك، ذلك أن مصباح أعمالهم، مع النور الصـادر عنه، أشع نحـو الأمام من أجل مجد الأب السماوي، وهـم بحكمـة يزودونه دومـاً بزيـت الأعمال الطيبـة، حتى لاينطفىء نوره، ولكي لايغــرقـوا هم

أنفسهم في الكسل، وبذلك يرفض قبولهم إلى الملكوت، وهم جميعاً بلا عصي، وبلا نعال، ولكل واحد منهم ملابسه الخاصة، وأنا أعتقد الآن —وفقاً للرسل— أن أقدامهم جميلة، حيث أنهم يبشرون بانجيل السلام بين الاغريق واللاتين، وهم من الممكن باختصار دعوتهم، وكأنهم بلا أي عبء، أكثر الساعين رشاقة وأسرعهم، مبادرين بسرعة نحو الرب، الذي هو هدف جميع الرجال الصالحين، وعند وصولهم إلى الهدف، سوف يتوقفون عن الركض، ويتسلمون جائزتهم التي تشوقوا إليها كثيراً، وهؤلاء الرجال، الذين بالنسبة للرب يدعون بالفرنسيسكان، لكونهم متحدين برغبة واحدة، وبمقصد واحد، ولأنهم مثل ذلك قد امتازوا برقم خمسة، هؤلاء قد ظهروا بمثابة شارة طيبة، وأعطوا أملاً جديداً —برضا الرب— بالوحدة والوئام، لأنهم تأسسوا بين خمس بطريركيات، وهؤلاء الرهبان أنفسهم، قد التحقوا ببيتنا، كما أعتقد بموجب الحكمة الربانية، التي توزع جميع الأشياء لخير الفوائد والمنافع، وبعد مرور مناقشات من على الطرفين بيننا، اتجه الخطاب وتحوّل قبل كل شيء، نحو الشقاق القائم منذ أمد طويل، في ثوب التقوى الذي لانظير له، والذي نسج هكذا من الأعلى إلى الأسفل، وهو الثوب الذي ألبست به أيدي الرسل الكنيسة الكاثوليكية للمسيحية، ولم تكن أيدي الجنود هي التي أقدمت على تمزيقه وتقسيمه، بل خلافات اللاهوتيين هي التي فعلت ذلك، والتصدع كبير، وله سنين طويلة قائماً، وليس هناك من أحد لديه رحمة نحو قرينة المسيح، المرتدية لثوب ممزق، أو التي سوف تبكي على تعاستها، وهذا —كما أعتقد— قد رثاه داوود أيضاً في ميراثه، حيث قال في كتاب المزامير: «لقد تفرقوا دون ندامة»، وإذا ماأردنا أن نشعر بالندامة، ينبغي أن نحزن وأن نشعر بالأسف، وإذا كنا سنواجه الاضطراب والحزن، علينا أن نتوجه بالدعاء إلى اسم الرب، ومادمنا ننشد عونه، سوف يقدم إلى مساعدتنا، وكأنه وسط تلاميذه، يجلب الهدوء والسكينة إلى الذين هم على خلاف، ويقوّم عدم الوفاق في أفكارهم، أو لم تكن أحشاؤه هي التي تمزقت؟ أوليسوا هم

آسفين بسبب عدم اتفاقهم؟ نعم هم كذلك كثيراً، لأنه هو الأب، والأعظم قداسة بين جميع الآباء، ولا يمكنه تحمل رؤية أبنائه يبكون بشكل متبادل، ويدمر أحدهم الآخر، وفق هذه الطريقة العدوانية، وأن يرى أحدهم وقد إلتهم من قبل الآخر، على طريقة الأسماك، لأن العظيم قد ازتقى فوق الأدنى، والأعظم قوة يظلم الضعيف، فهل مثل هذا تعلمنا من قبل صياد السمك ذاك، الذي هو بطرس، والذي هو على عكس متقدميه، اقتاد الذين أمسكهم بشبكته من الموت إلى الحياة؟ وا أسفاه، من الذي سوف يعطي ماء إلى رأسي، ونبعاً من الدموع إلى عينيي، حتى أبكي ليل نهار على دمار القدس الجديدة، خارج أمم الكنيسة المجتمعة؟ وكيف نحن الشعب المختار من الرب قد انقسمنا إلى يهود واسرائيليين، ومدينتينا إلى القدس والسامرة؟ والحال نفسه كما وقع في قضية قابيل وهابيل، أو عيسو ويعقوب، اللذان كانا أخوين بالولادة، ولكن عدوين بالعقل، وهكذا عادى أحدهما الآخر، الحال هذا نفسه واقع الآن بيننا، وأنا حزين لإقحام هذه الأشياء في رسالتي، خشية أن أبدو وكأنني أجرح أولوية أخوتك، أو أن يظن بأنني أسعى للاستيلاء على حق الولادة للمولود الأول، وعلى كل حال، لم يصبح «أبي» مسناً، كما أن عينيه لم تغدوا غير بصيرتين، لكنه يسكن في السماء، وبوضوح يرى جميع الأشياء، وعلى الذين ظلموا بشكل غير عادل، قد أضفى تبريكاته، وهذه الأشياء في الحقيقة مؤلمة، وإلى انسان ذي فهم، هي الدودة التي تقرض عظامه، إذا ما استحضرت مراراً إلى الذهن، والذي بقي ليقال هو أكثر مرارة وحدة، وأكثر مضاء بالقطع من أي سيف ذي حدين، ضد أية طائفة من الناس جرى توجيهه، سواء أكانوا إغريقاً أم لاتيناً، وماذا هذا؟ دعونا نسمع الذي قاله بولص: «وسواء أكنا نحن، أو ملاك من السماء، يبشر بانجيل آخر إليكم، غير الانجيل الذي بشرنا نحن به، فليلعن»، ولقد ضرب بالسيف الذي هو من هذا النوع أكثر من مرة، وهو من الممكن أن يجلب علينا حزناً أعظم، للمرة الثانية أيضاً، بضربة ثانية، والذين يخافون الموت على أرواحهم، يطلبون الطبيب، وبعد هذا ماذا

يمكنني أن أقول أكثر؟ دعونا نطرد كل اهتمام آخر وقلق من عقولنا، مثلما ننفض الغبار من على أقدامنا ودعونا نستخدم كل مساعينا، لنكتشف من الذي أصابه هذا السيف المرعب، وذي الحدين، والذين فصلهم عن اتحادهم بأطراف الكنيسة، التي المسيح هو رأسها، فإذا كان قد أصابنا نحن الاغريق، أرونا الحز، وأزيلوا الدم من الجرح، واستخدموا رباطاً روحياً لربطه، واحفظوا إخوانكم الذين هم في هذا الخطر، خشية أن يهلكوا، وهكذا اتفقوا مع سليمان الذي ضرب هذا المثل «الصديق وقت الضيق»، ودعونا أولاً وبشكل رئيسي نصغي إلى الرب نفسه، الذي أعطى حكمة إلى سليمان هذا المذكور، والذي قال من خلال النبي:

«كل من يفصل الثمين عن الرخيص سوف يكون وكأنه عظمي»، ولكن إذا كنا نحن الاغريق من دون ندبة ومتحررين من الجرح بهذا السيف، سيف اللعنة الكنسية، وإذا كان قد جرد ضد الايطاليين واللاتين، وقد رفع من أجل قتل البعض ولتدميرهم، نحن نعتقد أنكم لن تسمحوا لأنفسكم بالانفصال عن جانب الرب، من خلال الجهل، أو العناد الشرير، فكل واحد منكم يؤثر عن طواعية تحمل عشرة آلاف موت، إذا كان ذلك ممكناً، على هذا الانفصال، وبما أن كل من الخلاف الكبير، والتباين بالمواقف والتضاد بالآراء، هي المدمرة للأحكام الشرعية، أو المغيّرة للعادات التي أورثنا إياها آباؤنا، وهي أيضاً مواد السياج التي فصلت هذه الأشياء، التي كانت من قبل متحدة بروابط السلام والوئام، فالعالم كله سوف يعلن بصوت واحد، وهو يدعو الرب، والسماوات والأرض لأن تشهد بأننا رجونا بأعظم إخلاص لأن نتحد يداً بيد معكم، أو أنتم معنا، بالقيام بتقص يقظ، وأن نمحص بحثاً عن الحقيقة حتى القعر، وأن نطلب مساعدة الروح القدس، حتى لانكون عرضة مدة أطول إلى شقاق مخز مماثل، وأن يتحدث بسوء عنا من قبل اللاتين، أو أنتم تشتمون من قبل الاغريق، وأن نتمكن من الوصول إلى اللب الحقيقي للصدق، فإن عدداً

كبيراً من الرجال الأقـوياء والنبلاء سـوف يطيعونكم، إذا كـانوا لايخشون الظلم غير العادل، وطلب استخـراج الأموال الذي تمارسـونه، والخدمات غير المستحقـة التي تطلبـونها من الذيـن هم خـاضعـون إليكم، ونظراً لأن الحروب الوحشية تقـوم بين واحد ضد آخر، فهي مصـدر دمار المدن، وإنه لهذا السبب وضعـت الأختـــام على أبواب الكنائـس، ونظراً لنشـــوب الانشقاقات بين الرهبان، فإن عمليات خدمات الكهنة قد توقفت، ولذلك فإن الرب لايمجد في البـلاد الاغريقية وفـق الطريقة الصحيحة المتـوجبة، وواحد من الأشيـاء —كما نعتقد— قـد منح منذ زمن طويل، ووصف إلى الاغريق من عليين، هو حتى الآن مطلـوب، وهو زمن الشهادة، وعلى هذا إن الوقت الذي قـد بات الآن وشيكاً هو وقت افتتـاح منابر القضـاء، وأن توضع أختـــام المنازلات، مـن أجل تدفق الدمـــاء، ومن أجلنـا نحن لكي نصعد إلى ميدان الشهادة، وأن نقـاتل قتالاً جيداً حتى نتسلم تاج المجد من اليد اليمنى للرب القدير، وإن جزيرة قبرص الشهيرة تعرف أن الذي أقوله هو صـدق، فهـي تعـرف، وهي قـد أنتجت شهـــداء جـدد، ورأت جنود المسيح، الذين عبروا أولاً البحـــر، وتطهـروا في حمام الدمـــوع، وبالتعـرق اجتـــازوا أخيراً، وعبروا حتى من خـــلال النار، واقتيـــدوا مـن قبل الرب —الذي أشرف على قتالهم— إلى مكان الاستراحة السماوية، أوليست هذه الأشياء جيدة أيها البابا الأعظم قداسـة، وخليفة الرسول القديس بطرس؟ وهل فـرض بطرس التلميـذ اللطيف والمتـــواضع للمسيح هذه الأشيـاء؟ وهل هكذا وجه الشيـوخ عندما كتب: «إنني أحث الشيـوخ الذين بينكم، ذلك أنني أنا شيخ، وشاهد على آلام المسيح، وكذلك شريك في المجد الذي سوف يظهر؟ أطعموا قطيع الرب الذي هو بينكم، واعتنوا به، ليس بالكره بل بالطواعية، ليس من أجل ربح قـذر، بل بعقل جاهز، وليس على شاكلة سـادة على ميراث الرب، بل بمثـابة مثل للقطيع، وعندمـا سيظهـر الراعي الرئيس، سـوف تتسلمون تاجـاً للمجد لايخبـو ولايتلاشى»، فهـذه عقيدة بطرس والذين لايطيعـونه سـوف يرونها، وقـد نلنا تهدئـة كافيـة وترضيـة

بذلك الجزء من رسـالتـه، التـي أمـر فيهـا الحزينين، لأن يكونوا مسرورين تحت مغوياتهم المتنوعة، بقوله: «بأن محنة إيماننا أغلى بكثير من الذهب الذي يتلف، علماً بأن المحنة بالنـار، يمكن أن تلقى المديح، والتشريف، والمجـد، عند ظهـور يسـوع المسيح»، وامنحني عـذراً، أيها السيد الأعظم قـداسـة، والأكثـر رحمة بين جميع أسـلافك لروما القـديمـة، وتحمل كلماتي، مع أنهن يحملن كثيراً من المرارة، لأنهن تنهـدات قلب متـألم، وقـد منح الغفـران إلى الرجـــال المستقيمين، الـذين بسبب الحزن العظيـم في القلب، انفجـــروا يتفوهون بكلمات مزيجة بالتنهدات، وبناء عليه احزم أمرك واشدد عزمك، وأضيء مصباح رشدك، وانشد الدرهـم المتعرض للتلاشي من أجل وحدة الايمان، وسـوف نكون متعاطفين مع قـداستك، وسـوف لن نوفر جسـدنا الضعيف، ولن نسامح أنفسنا من مرافعة العصر القديم ولن نعفيها، كما أننا لن نشكو من الرحلة الطـويلة، لأنه كلما كـان العمل الذي نقـوم به متعبـاً، كلما توفر هناك سبب من أجل عدة تيجـان من المجد، لأن كل واحد سوف ينال مكافأته وفقـاً لتعبـه، كما قال بـولص بأن المصارع العـام في الحلبـة مع منتصر خاص ينالان تاجاً للمجد، ونحن لسنا جاهلين، أيها الأب الأعظم قداسة، أنه كما نحن الاغريق، في الطريق نفسه، نسعى نحـو مراعاة العقائد (الأرثوذكسيـة) المستقيمـة والتقـوية في كل شيء، وكـذلك حتى لانضل فنبتعـد عن أحكام الرسل والآبـاء المقـدسين، كـذلك تفعل كنيسـة رومـا القـديمة، حسبما نعـرف بشكل جيـد، فهي تناضل من جـانبهـا حتى ترى نفسها لم تخدع في أية نقطة، وهي تؤكد أنها ليست بحـاجة لا إلى الانقاذ ولا إلى التقويم، وهذا نعرفه، لأنه قد قيل في كنيسة الاغريق، وكذلك في كنيسة اللاتين، ولأن ما من أحد يمكنه أن يرى شيئاً قبيحاً في وجهه، ما لم ينظر في المرآة، أو يجري إخبـاره من قبل شخص آخـــر، كيف يبـدو هو في وجهـه، سـواء أكـان قبيحـاً أم غير ذلك، ولدينا الكثير من المرايا الواسعـة، وأعني بذلك الانجيل الواضح للمسيح، ورسائل الرسل، وكتب الآباء المقدسين، ودعونا ننظر فيهم، فهم يظهرون كيف يشعر كل انسان، سواء أكان بشكل

غير شرعي أم شرعي، هذا وإن كل من يستدعى إلى المرآة ليقوم بمحاولة، سوف عندما يبتعد يعترف —وإن كان من غير رضى— بأن وجهه قد تشوه، وأن رب السلام، سوف يكدم الشيطان تحت قدميه بعد وقت قصير، الذي هو صانع الخلاف، والذي هو السلام، الذي هو سبب جميع المحاسن، سوف يكدم الذي يكره الصلاح، ويسبب الخزي، ولعل الذي هو رب السلام أن يرسل إلينا، الذين هم رعاة لشياهه العاقلة، وملائكة السلام لتعلن الفرح العظيم، كما فعلت من قبل لرعاة الشياه البهيمية، عند ولادة المخلص بالجسد، وأن يجعلنا جديرين بأن نغني أغنية المدح تلك، أي: «المجد للرب في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وحسن الإرادة نحو الناس»، ولأن يحيي الواحد الآخر بقبلة مقدسة، وليكن معكم مجد مولانا يسوع المسيح، وسلام الرب الأب، والصلة الحميمة للروح القدس. آمين».

رسالة منه نفسه إلى الكرادلة

«من جرمان الذي هو بنعمة الرب، رئيس أساقفة القسطنطينية، روما الجديدة، إلى الكرادلة المشهورين، والأعظم قداسة واستقامة، شرف الكرسي الرسولي:

إنه بالفعل هناك فائدة كبيرة إلى العالم، ونافع جداً إلى جميع الناس، لأن نجتمع معاً، ونعقد مجمعاً، من أجل ترتيب المسائل، لأن ماأخفاه الرب أحياناً عن انسان ما، قد أباحه وكشفه إلى آخر، وهكذا إن كل ماكشفه من صلاح إلى أي انسان، إنه عندما يجلب لمنفعة الجميع ومعرفتهم، يجري تداوله، بدرجات متزايدة لصالح الحشود التي هي رعية له، ولئن كانت هناك عدة من المختلفين بالرأي، لكنهم رجال متعلمين ومخلصين عاقلين، كم كان عظيماً الربح، وكم كانت كبيرة المنافع التي حصلت إلى جماعة الخاضعين لهم؟ لأن الانسان الذي يعمل من دون مشورة يعاكس نفسه، كما قال سليمان بصدق: وعلى هذا إنه من جهة أخرى، كل من لديه نصيحة

طيبة يجذب أصدقاءه إليه، ويدني أعداءه ويقربهم من الصداقة معه، وكون هذا هو خطة ربانية وسماوية، النبي اشعيا هو شاهد على ذلك، حيث دعا الجوهر المتجسد لكلمة الأب، والملاك العظيم للحكمة، بأنه المستشار محط الاعجاب، حتى يمكن أن نفهم حقاً وبالواقع، كم هو ضروري في مسائل تتعلق بالرب، تمييز الفوارق بين الأشخاص، لأنه تبعاً للطبيعة اللاهوتية، هناك إرادة واحدة للأب، والابن والروح القدس، ولذلك يحصل كثيراً من التشريف إلى الذين ينصحون بأشياء جيدة، لأنهم من هذا يحصلون على اسم بالاشتراك مع الرب، إذا ماأعطوا مشورة من أجل الخلاص البشري وفقاً لما هو مقبول منه، وعلى هذا، مع موافقة الحكمة في عليين، التي توزع الأشياء كلها، تبعاً لأحسن المنافع، نجد أن روما قد وضعتكم في السلطة عليها، كجديرين بعظمتها ومجدها، وقد تفوقتم على جميع الكرادلة الآخرين من أسلافكم في الحكمة والتدين، وذلك حسبما أخبرنا إخواننا رهبان الطوائف الدينية، وبتواضع كما نحن، إنني أرجوكم القيام للدخول في الصراع الروحي، والبسوا دروع وسوابغ الروح، ودمروا حاجز العداء القديم القائم بين كنيسة الاغريق وبين كنيسة اللاتين، لأن أسلحتكم قوية لتدمير أعمال من هذا النوع، وبعد إزالة هذا الحاجز طمئنوا الأطراف الممزقة، واربطوها مع بعضها في وحدة السلام، والخير، والإيمان المشترك، وتلك الأشياء التي فرقت لسنوات طوال، وكونوا أنتم أيضاً نصحاء جديرين بالثناء ومقبولين لدى الرب، أمام البابا المقدس والسامي، الذي هو رجل متوافق مع رغباتكم، معروف عنه أنه مسالم، ولطيف بالروح، وتبعاً لاسمه، هو دائماً متيقظ، ودائم الصلاة، ومداوم على خدمة مولاه، حيثما تحرك، حتى يجعله جديراً بأعلى مراتب السعادة، والذي هو في بساطة قلبه يغذي أفراد شعب المسيح، وبوساطة يديه سوف يقودهم إلى مراعي الجنة، لأنه بالأيدي كما تعلمون، وحسبما جاء في الكتابات المقدسة، صممت العملية، ونحن في الحقيقة في الآمال والوعد الصحيح للمسيح، الذي أكمل الصدق في ضعفنا، وقد شرعنا بأعمال الوحدة، ونحن مرسلون

رسائل إلى صـاحب القداسة البـابا، وانني أصلي لملك السماء، الذي ارتدى شكل العبد، لصـالحنا نحن عبيده الذين بلا فـائدة، والذي صلب، والذي رفع إلى مستواه الذيـن سقطوا في أعمال التعاسة، ليـزيل من قلوبنا كل تكبر بالتفكير، هذا التكبر الذي رفع ذاته معادياً لاتحادنا الأخوي، ونأمل أن ينير أفهامكم بنـور المعرفة، حتى نتكلـم موحدين والشيء نفسـه، وأن لايكون بعد الآن تمزق بيننا، وأن نستمر نحن فنلقى التـوجيه بعقل واحد هو العقل نفسـه، وأن لايقــال بيننا كما قيل بين المسيحيين القــدمـاء: «أنا مـن أتبـاع بولص، وأنا من أتبـاع أبولو، وأنا من أتبـاع كيفـاس Cephas وأنا من أتباع المسيح»، بل أن نكون جميعاً من أتبـاع المسيح، بحكم أننا نعرف باسم المسيحيين، لعلنا أيضاً نبقى نتلقـى التوجيه من قبل واحـد ومن قبل العقل نفسه، وأن نمارس تقديم الصدقات، التي هي تبعاً لشريعة المسيح، أن نضع في أفـواهنا كلمات الانجيل التي هي: «رب واحـد، إيمان واحـد، وتعميـد واحـد» ولعلنا نتمكن من الاعتراف بالصـدق، وأن نجعل منكم أصدقـاء لنا، حتى تتمكنوا أيضـاً من الاعتراف بها، كما كتب «إن كلمات الانســان الحكيم، الذي يقـول الصدق، ويبرهـن على الصدق مثل المسـامير تثبت في الأعلى»، وغالباً ماينجب الصـدق الأعداء، وذلك ومع أنني أخاف، ولكن سوف أعترف، بأن فصم اتحادنا قـد نشأ عن طغيانكم وعن ظلمكم، وعن الإملاء القسري للكنيسة الرومانية التي عوضاً عن كونها أماً صارت زوجة الأب، ومثل طائر جشـع جرى طرده عن فراخـه، وطرد فراخـه وأبعدهم عنه، وكلما ازدادوا تواضعاً، ونزعوا نحـو الطاعة، كلما ازداد دوساً عليهم، وزاد من معاملتهم بالشر، والنظرة إليهم نظرة سوء، دون الاصغاء إلى قول الانجيل بأن «الذي كلما زاد من تواضعه، استحق الرفعـة أكثر»، وبناء عليه دعـوا الاعتدال يضبطكم، ومع أن الشره الرومـاني قد استقـر فيكم لوقت قصير، دعونا نهبط إلى أمان الصدق، وبعد أن نقوم بفحص دقيق بالصدق، بالنسبـة لما يتعلق بطرفي المسألة، دعـونا نعـود إلى اتحاد ثابت، لأننا كنا كلنا نحن الاغــريـق واللاتين، منذ وقت مضى، نتبـع الإيمان نفســه، ونتقيـد

بالأحكام الشرعية نفسها، في فرض السلام بيننا أنفسنا، يقاتل كل منا في سبيل الآخر، ومسببين الفوضى لأعداء الكنيسة، وعندما رأت الشعوب التي قدمت أيضاً إلى مابيننا من الشرق، أنها وجدت مكاناً آمناً للالتجاء إليه، هربت بكل سرعة إلينا، وقسم منهم إليكم، أي إلى روما الكبيرة، بحكم كونها حصن حصين لايتزحزح، وتلقوا الطمأنينة من على الجانبين، وهكذا باحسان متبادل جرى تلقي الأخ في صدر الأخ، وعندما جرى الاستيلاء على روما من قبل شعوب أخرى، تولت الامبراطورية الاغريقية تحريرها من طغيانهم، وقد فرّ آغابتوس Agapetus وفيجيلوس Vigil-ius لبعض الوقت إلى القسطنطينية، بسبب الخلافات في روما، واستقبلا بحفاوة ومنحا الحماية، مع أنكم لم تقدموا لنا قط مأوى، ولم تمدونا بالمساعدة، عندما كنا في وضع صعب، وإنه —على كل حال— واجبنا أن نتصرف بشكل جيد حتى نحو الجاحدين، لأن البحار هادئة من أجل القرصان، والرب يجعل الشمس تشرق على المستقيم وغير المستقيم، وواأسفاه، وواأسفاه، بأي انفصام مرّ قد انفصلنا، فابتعد أحدنا عن الآخر، وتجنب كل واحد التحالف مع جيرانه، وكأنه معرض روحه للخطر، وماذا بعد هذا يمكن أن نقول؟ إذا سقطنا، أقيمونا وانهضوا بنا، ولاتعملوا مجرد عمل جسدي بالنهوض بنا من سقوطنا، بل اعملوا معنا أيضاً من أجل خلاصنا الروحي، ولربما سوف نعترف بأننا ندين لكم بالشكر، لكن إذا كان الاثم والشروع بالعدوان قد جاء من روما القديمة، ومن خلفاء الرسول بطرس، اقرأوا كلمات القديس بولص التي خاطب بها الغلاطيين حيث قال:

«لكن عندما قدم بطرس إلى أنطاكية واجهته وجهاً لوجه لأنه كان سيلام»، وهناك أشياء أخرى قالها بولص فيما بعد، فيما يتعلق ببطرس، لكن ينبغي أن نعتقد بشكل تقوي، أن مقاومة هذا النوع لم يكن السبب في أي خلاف، أو نزاع حاد، بل كان بالحري تفحصاً ومناقشة عميقة، أثارت

لطافـة دنيوية، ذلك أنهم كـانوا متحـدين بالمسيح بروابط عاطفيـة، وبإيمان متماثل وعقيـدة متشـابهة، ولم يبتعدوا عن بعضهم بمـوجب أي طمـوح أو شره، ونحن في هذه المجالات نشـابههم ومثلهم، ولكن ذلك بعث تفكيرنا نحو العدوانية، بأنكم فغرتم أفواهكم سعياً وراء الممتلكات الأرضية، كلما استطعتم جـرفها وجمعهـا مع بعضها، وجمعتم الذهب والفضـة، ومع ذلك أنتم تقولون بـأنكم تلاميذ الذي يقول: «أنا ليـس لدي لاذهب ولافضة»، فأنتم ترغمـون ممالك لأن تكون تابعـة لكم ودافعـة للجـزية إليكم، وأنتم تكدسون الأموال بالمقايضـات المشبوهة، ولاتعملون بأفعالكم التي بشرتـم بها بأفـواهكم، ولذلك دعـوا الاعتـدال يضبطكـم، حتى تكونوا مثـلاً لنا، وكذلك للعـالم أجمع، وأنتم تعلمون كم هو عمل صـالح أن يعان الأخ من قبل أخيه، وإنه الرب وحـده هو الذي لايحتاج إلى نصيحـة أو عون من أي واحـد، لكن الناس يتطلبـون أن يعان كل واحـد من قبل جـاره، وبما أنني أحترم بطرس الرسـول العظيم، الـذي هو رأس رسل المسيح، وصخـرة الإيمان، أود أن أعيـد إلى ذاكـرتكم كيف أن هذه الصخـرة قـد هزت إلى أساسهـا، وحركت من قبل امرأة منحطـة، وذلك بإذن المسيح، وذلك وفقاً لأحكامـه التي تنبأ بها بجميع الأشيـاء، وأحكامـه هذه عميقـة جـداً، وهو الذي بصوت الديك، أعاد إلى ذاكرة بطرس كلمات النبوءة، وأيقظه من نوم اليأس، ولدى استيقـاظه، غسل وجهـه بالدمـوع، واعترف إلى الرب، وإلى جميع العالم، وصـار مثلاً بالصبر، حـاملاً لمفـاتيح ملكوت السماء، ويركض بحضور جميع الناس وهو يقول: «أوليس الذي يسقط ينهض ثانية؟ انهضوا أنتم يـامن سقطتم، وانظروا إليّ وأطيعـوني، وأنا مبـادر مسرع إلى الجنة اللاهـوتيـة، التي امتلكـت السلطة لفتح أبـوابها»، وأنا أكتـب هكذا إلى قداستكم، وإنني أذكر هذه الأشياء لأعيدها فقط إلى ذاكرتكم، لأنني أعلم أنكم قد وهبتم الحكمة كلها والمعرفة، وتتفقون مع سليمان الذي كلماته هي هذه:

«أعط الفرصة إلى رجل حكيم، وهو سوف يكون أكثر حكمة، وعلّم رجلاً صالحاً، وهو سوف يكون متشوقاً للتلقي»، وقد بقي شيء واحد سوف أضيفه، وعندها به سوف أنهي حديثي، وهو أن هناك شعوباً كثيرة تتفق معنا بالتفكير، وتتوافق في جميع النقاط معنا نحن الاغريق، وأول هؤلاء الأثيوبيين الذين يسكنون في الأجزاء الأولى من الشرق، ثم السريان، وآخرين هم أكثر نفوذاً وفضائلاً، مثل: Hyberians واللازي Lazi واللان، والقوط، والخزر، وحشود لاتعد ولاتحصى من شعب روسيا، والمملكة المنتصرة للبلغار، وهؤلاء جميعاً مطيعين لأمنا، ومابرحوا محافظين لايتزحزحون في أورثوذكسيتهم القديمة، ونرجو الرب المقدس، الذي من أجلنا أصبح انساناً، وقد وضع على رأس الكنيسة، أن يقوم بجمع الأمم ثانية، وحشدنا في وحدة الإيمان ولمّ شملنا، وأن يجعل الكنيسة الإغريقية تتحد مع أختها في روما القديمة، لتمجيد المسيح أمير السلام، بوحدة للإيمان من أجل إعادة الأورثوذكسية، التي عليها اتفقوا منذ وقت طويل مضى، نأمل أن تعطيكم يد الرب القدير، أيها الكرادلة الأعظم قداسة، عواطف أخوية، وأن تقودكم جميعاً، حتى تصلوا ببهجة إلى ميناء السلام، ولتكن نعمة الرب معكم، آمين».

رسائل من البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أخيه جرمان المحترم، رئيس أساقفة القسطنطينية، تمنيات الصحة، والمباركات الرسولية: لقد جرى تقديم رسائلك الأخوية إلينا وإلى إخواننا، من قبل رسولك، ولقد استقبلناهم بمشاعر طيبة ومناسبة، وتم فهم مقاصدهم تماماً، وقد عملنا ترتيبات لأن نرسل إليكم بعض رجال الدين من ذوي المعارف المجربة، ليحملوا إليكم كلام الحياة، وليشرحوا لكم ببيان أوفى رغباتنا، ولكن بقدر «مايصدر عن الآكل اللحم، وعن القوي تصدر الحلاوة»، أو خشية أن يصدر عن فم الميت أسد، نحن نخجل أن نكتب بأن قرص العسل الذي

قدمه الأب قد ازدري، ولقد ارتأينا من المفيد أن نرسل بضع كلمات في جواب، خشية أننا إذا لم نفعل ذلك، قد يبدو بأن رسائلك قد ازدريت، لأنه عندما يصغي الرجل العاقل سوف يصبح أعقل، وإنه إذا مافهم، سوف يستحوذ الحكومة، ومع أن محتويات رسالتك تعيد إلى ذاكرتنا بأن المسيح هو الأول، والأساس الرئيسي للإيمان، وهذا ما نعترف به، فبدون ذلك مامن شيء من الممكن إرسائه، نحن نود أن نذكر في المقام الثاني، وذلك كأساس ثاني، الرسل، والأنبياء، وأساسات صهيون في الجبال المقدسة، وسكان القدس السماوية، التي قيل بأنها تأسست على أسس الرسل والأنبياء، والأول بين هؤلاء والرئيس هو بطرس المبارك، وذلك ليس من دون سبب، وبامتياز خاص قد سمح له بأن يسمع من الرب قوله: «أنت سوف تدعى كيفاس، الذي ترجمته: الصخرة»، وبما أن قوة المشاعر الجسدية الكاملة مركزة في الرأس، الذي منه تتدفق من خلال معابر سرية أجزاء إلى كل عضو من الأعضاء، مثلما يصدر النهر عن النبع، وكذلك الطوائف الثلاث للإيمان، وهم: نوح، ودانيال، ويعقوب، يعني أن تقول الأساقفة من كل من الرهبان، والأشخاص المتزوجين، الذين قيل بأن حزقيال، الذي قيل بأنه شوهد كأشخاص لينقذوا، فبطرس الذي جرى تعيينه الصخرة، التي عليها قد بنى الرب ليس بيتاً من الخشب من جبل لبنان، وليس رواقاً من الأعمدة، وليس بيت ابنة فرعون، بل كنيسته من أجل الناس المؤمنين، الذين وقعوا في شباكها، وكأنهم من جميع كتلة السمك، أي من جميع الأنواع، فهو قد كان فعلاً أول الأوائل، الذي شرب من أنهار من ينابيع فهم ربنا، التي لابد أن وسائل الخلاص قد صدرت عنها، وبكل الصبر، والتبشير ليس بتمرد، وليس بمقاومة متعجرفة، لابد لظلام الخطيئة أن يزول، والذي ذكرته لايتعارض مع هذا، إذا ماقمت بالتمييز بين الزمان والمكان، وأن بولص قد وقف في وجه بطرس، مادام بإمكاننا أن نقرأ بأن هذا قد عمل من قبل الآباء الأورثوذكس، فبطرس، بمعرفته بالشريعة الموسوية قد سعى لأن يربح اليهود، وأبعد بولص الختان

بكل الوسـائل التي كـانت في طاقته، وناضـل ليكسب الشعوب ويبعـدهم عن هذه العقيـدة الزائفـة، وغير ذلك يمكن المحاجـة بأن بولص عندمـا كـان مسـافـراً خـلال سـورية وكليكيـة، وصل إلى دربه ولستره، فختن تيموثاوس، الذي ولد من أب من الأميين، ومن أرملة ذات إيمان صحيح، وفي المكان الثاني والثالث، من الممكن أن نستخـرج من المناقشة، بأن بولص عندما أبحر إلى سـورية وكان بصحبته بريسيلا وأكـويلا، قد حلق شعره في قيسـارية، خوفـاً من اليهـود، ووفقاً للشريعـة هو حلق هناك الشعـر الذي أطاله بسبب نذر كـان قـد عمله، والذي يفعله النصـارى بـالعـادة، الذين عملوا نذراً، وفقـاً لأوامـر مـوسى، وإذا مـافهمت ياأخي فهماً كـامـلاً سر عظمـة ومنصب سلطـة بطرس وبولص، وإذا مـاقـدرت غيرتهما، التي التمست أرواح الناس، سـوف تجد أن هذين الرجلين الذي حـوّلهما الإيمان الواحد، والمعاناة الواحدة، إلى قـريبين —بالحقيقة— أحدهما من الآخر، لم يختلفـا في العقيدة، لا أثنـاء حياتهما، أو من بعـد مـوتهما، لأنه مع أن بطرس وبولص قـد مارسا عملهما بلغـات مختلفة، وبطقـوس مختلفة، حيث قـدما الحليب إلى الأطفـال، واللحم إلى الذين كـانوا متقدمين بـالسن أكثر، فقـد عمل الأول بين العنيدين من سكان اليهـودية، وعمل الآخر بين الشعوب، ومع ذلـك حينما حلّ الميعـاد واكتمل الـوقت، عمل الاثنـان مع بعضهما بالروح نفسهـا، وبشّـرا لرب واحـد، ولإيمان واحد، ولتعميد واحـد، مع بقية أركـان العقيدة، وفقاً للنعمـة التي أضفيت على بطرس من قبل الرب، وذلك تبعـاً لكلمات الرب، الذي تحدث إلى بطرس وإلى بقيـة الرسل قائـلاً هذه الكلمات:

«كل الذنوب التي أنت تحللها، هم يحللونهم منها، وكل ذنب أنت تبقيه، هم سوف يبقـونه»، وكان بولص مـرتبطاً مع بطرس، يتـولى ممارسة أسرار وظيفته، ووفقاً للكلمات التالية، أعطيت السلطات نفسها إلى بطرس بشكل خاص: «إن كل ماستربطه على الأرض سـوف يربط في السماء، وكل ماتحله

على الأرض، سوف يحل في السماء»، وهكذا اعترف بمقام بطرس، ولذلك قدم إليه عادّاً إياه الرئيس ونبع انجيل الرب في القدس، وبشر بعد ذلك بالاتحاد معه ومع آخرين بالانجيل وفقاً للوحي، حتى «لايكون قد ركض عبثاً»، وقد تأكد الحال نفسه بكلمات ربنا التي تحدث بها إلى بطرس وحده، والتي فيها فرض: «إذا الأخ أذنب ضده، عليه أن يغفر له، ليس فقط سبع مرات، بل سبعاً وسبعين مرة» وإليه وحده فقط، وبشكل واضح، عهد بشياهه، وقد امتلك فضيلة عظيمة في عمل المعجزات، حيث جرى وضع المرضى على أرائكهم وعلى فرشهم في الطرقات، وقد شفيوا بظله، وتثبتت سلطته أيضاً بقوة أعظم بكلمات ربنا، عندما قال له: «أبحر نحو الأعمق»، وأتبع ذلك بوضوح أكبر عندما قال له: «ألق بشباكك لرمية واحدة»، وإنه بناء عليه، وعلى أساس سمو إيمانه، الذي صدقاً اعترف بطبيعتين في مسيح واحد، عندما قال: «أنت المسيح، ابن الرب الحي»، بطرس تسلم وحده على الأرض مفاتيح ملكوت السموات، وبما أن هناك رب واحد، وإيمان واحد، وتعميد واحد، وبداية واحدة، وجسد واحد للكنيسة المحاربة، وأن جسداً برؤوس عدة، يعدّ أمراً غير عادي، وواحداً من دون رأس، هو من دون بداية، ويبقى بالنسبة لحكومة الكنيسة العالمية، التي جمعها بطرس المذكور بالاتحاد مع بولص من بين الاغريق واللاتين والبرابرة، أنه من المتوجب —كما سلف القول— أن يتولى الرب تعيين رئيس لها، وأن يوضح من الذي سيخلفه، وهو —على كل حال— رأى متنبئاً بأن الكنيسة سوف يداس عليها من قبل الطغاة، وسوف تتمزق بوساطة الهرطقات وسوف تتفرق بالانشقاقات، فقال له: «إنني صليت من أجلك يابطرس، حتى لاينهار إيمانك، فأنت عندما تحولت متنت إخوانك»، ويستخلص من هذا بكل وضوح أن جميع قضايا الإيمان ينبغي أن تحال إلى كرسي بطرس، ولكن لنستخدم كلمات رسالتك الخاصة، نحن نقول بأسف إن الثوب الطويل والذي لادرزة له ليوسف الحقيقي، قد جرى الاقدام على تمزيقه، ليس بأيدي الجنود، بل بعواطف أشخاص لاهوتيين، ولذلك دعنا نرى

من الذي مزقه، حيث أنه ما أن انفصلت الكنيسة الاغريقية عن الاتحاد والكنيسة اللاتينية، حتى بادرت على الفور إلى خسران امتيازات حريتها اللاهوتية، وهي التي كانت من قبل حرة، صارت عبدة للسلطة المدنية، وهكذا كان بقدر من الرب، أن الكنيسة التي لاتعترف لبطرس بالأولوية اللاهوتية، عليها أن تتحمل الحكم المدني، وإن كان ذلك من دون رضا، وفي ظل هذا القدر، انزلقت أشياء كثيرة مكروهة —ليست من دون أهمية— بدرجات، وآمنت واعترفت بإيمان لاقيمة له، وجمدت فيها المشاعر الأخوية، وعادت مسرعة إلى حقل الفساد والفوضى، وعلى هذا —دون أن نوجه اللوم إلى أي واحد— أخفت ماهو شرعي تحت ماكان غير شرعي، وابتعدت عن معبد بطرس، وكأنها قد طردت من قبل الرب من قاعته، التي لم يقم يوحنا —بالتوافق مع تحريم الرب— بقياسها بعصاه، لأنها أعطيت إلى الأميين، وهي كما ترى بوضوح جلبت إلى الاكتمال، وبسبب أن السامرة، أيضاً انفصلت عن معبد الرب، وعن يهوذا، وعن الاعتراف بالايمان الصحيح، وأصبحت وثنية، فقد تلاشت بسبب الحروب المتواصلة، وانحدرت وتهاوت بسبب ثقل أوزارها وذنوبها (مع أن إيليا واليشع أشرقا هناك مثل مصباحين في مكان مظلم)، وأعطيت إلى الشعوب، وطردت عقوبة لها على تمردها وعلى وثنيتها، لأنها بذلك فصلت نفسها عن الرب، هذا وإذا كانت الكنيسة الاغريقية، تعدّ نفسها بأنها تمتلك سلطة بولص، عليها إظهار ذلك، أو التعرف إليه، عندما ظهر مع بطرس، وبوساطة خليفة بطرس، ونائب يسوع المسيح، في كنيسة الرسل، التي بنيت من قبل قسطنطين، وقد أشير أيضاً إلى أسرار وظيفته، مع أنك في رسالتك قد ورد ذكر ذلك بمثابة سبب للنقد والملامة، من أن بطرس أنهض ثلاث مرات وأوقظ بصراخ الديك، وقد جعل حاجب الجنة، من أجل أنه سوف يمتلك الأمر، يمكنه أن يعرف ويعاني ويتعاطف،وبفضيلة سلطته ردد ثلاث مرات: «لاتطعم نفسك، أطعمني، وأطعم شياهي» —وليس شياه الآخرين— حتى يتمكن أن ينقل إلى خليفته ويقدم له المثل

عن الراعي الحقيقي، وروح الرفق، وتقويم إفراط الناس، وإعادة وحدة الكنيسة، وأن يعطى إلى الشيطان أولئك الضائعين، وأن يعيد الشياه، وإن كان ذلك عن غير رضا، إلى الحظيرة الحقيقية، لكن إذا ما عدت —من منطلق الرحمة— كإسرائيلي حقيقي، إلى أولوية الكرسي الرسولي، وإذا ما تحركت أحشاؤك بندم حقيقي، من أجل تقديم رداء يوسف الذي بلادرزة، ومن أجل استخراجه، نحن نتعاطف مع آلامك، ومع الرسول نشاطرك حزنك، ونحن نقف لنقدم الشكر إليه الذي فتح عيني الابن الأعمى، وتوسل بتواضع إلى الذي أعاد الرؤية إلى عيني طوبيا، وذلك بوساطة مرهم صنع من صفراء سمكة، لإضاءة قلوب أتباع الكنيسة الاغريقية، وكذلك قلبك، وأن نعود بوساطة الحكمة الربانية، في أيامنا وفي أيامك إلى حظيرة واحدة، وإلى راع واحد، وبناء عليه قم ياأخانا العزيز، فخذ الكتاب الذي تقدم ذكره، والذي عمل من قبل يوحنا في رؤاه، وانظر فيه باخلاص، ومع أن ذلك سيؤلم معدتك بأشواك الندم، التي تنفذ في البداية فيها، إنها سوف تكون حلوة مثل العسل في فمك، وفقاً لكلمات العريس في المزامير قوله: «سوف تتردد كلماتك وترن في أذني، لأنها كلمات حلوة»، وبناء عليه، استشر ماتمليه عليك حكمتك، من دون أية أوهام، وعندما تنار، سوف تجد أن الكنيسة الرومانية، هي رأس جميع الكنائس وسيدتها، وتتبين أن لاشيء في المرآة، التي أتيت على ذكرها، أي في انجيل الرسل، أو في عقائد الرجال المتعلمين الآخرين، التي لم تأخذ لاتأويلاً أو تدبيراً، غير متوافق مع أحكام الآباء المقدسين، ومع الوحدة بالروح، وعند فتحك لهذا الكتاب، سوف تجد أن الحبر الروماني قد صار كل شيء إلى جميع الناس، حتى يكون الجميع سالمين، ومدعوين إلى محطته، ليس من أجل دراهمه القذرة، أو في سبيل رغباته، بل بوساطة أخوته، من خلال إلهام رباني، ومن أجل أن يصبح على الفور عبد عبيد الرب، هو قد وضع نفسه مع اخوانه، وقدمها بمثابة سور لإخوانه الرهبان، وأتباعه الأساقفة، وإلى الذين خاضعين لهم، في تصد للهراطقة، والمنشقين، والطغاة، وفي سبيل الدفاع

عن الامتيازات اللاهوتية، ومع أنه قد يكون هناك بعض الاستثناءات، مع ذلك إن كنيسة روما تتنفس في الأيام الحالية، متحررة من جميع غارات الفرقاء وحملتهم، لكن إذا كانت كنيسة الاغريق تستطيع (وأستخدم هنا كلامك) أن تتحمل بصبر الكلمات التي تغيظها، بالاضافة إلى المخاطر على الأرواح، التي تنشأ عنها، فإن هذه الاضطرابات يتوجب أن تكون كافية لإعطائهم حكمة كافية وإعادتهم إلى رشدهم، لأنه بأيديهم، قد انقسم النظام اللاهوتي إلى عدة أجزاء لشعوب متعادية في الشرق، وضعت نتيجة ذلك في أحوال فوضوية، ظلمت فيها حرية الكنيسة، أما كرامة رجال الدين فقد ديس عليها وصارت تحت الأقدام، وليس هناك من أحد بين أبنائها الأعزاء يقوم بمواساتها، لأنها —كما هو الحال— من دون رأس، وهم يرفضون العودة إلى رأس الكنيسة: «آه، عد بناء عليه، عد ياشونامايت Shunamite حتى يمكننا أن نعتني بك، لأنه وقتها، بالفعل يمكن للأخ أن يستعين بأخيه، وللابن الذي يعيش منعزلاً، وقد استهلك كل مالديه، أن يستيقظ بإلهام من الرب، ويقول: «أبي، لقد أذنبت ضد السماء، وأمامك، وأنا لست جديراً بأن أدعى ابنك، اجعلني بمثابة واحد من خدمك المستأجرين»، ووقتها يركض الأب لاستقباله، ليس كخادم، بل كابن عائد، و«يقدم إليه أجمل ثوب، ويذبح أسمن عجل»، ويعمل احتفالاً عاماً لجميع المؤمنين من أتباع المسيح، ويعلن بكل سرور وبهجة، بأن الأخ والابن الذي كان ميتاً، قد عاد إلى الحياة، وقطعة المال التي فقدت، قد وجدت، وهكذا سوف نحن نستقبلك في صدر أمك الكنيسة، وأنت سوف ترى بوضوح الصدق في مرآة الصفاء، التي لاتتقبل الدنس أو الوسخ. صدر في ريت Reate الخ، في السنة السادسة [لحبريتنا]».

رسالة أخرى من البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى المبجل رئيس أساقفة الاغريق، تمنيات بالصحة ومباركات رسولية:

إنه لمن المقرر، أنه وفقاً لشهادة الحق، يمكن للخطيئة أن تقع، ويمكن أن يكون هناك جهل بالكتابات المقدسة، لذلك موائم للجميع أن يقرأوهم أو أن يسمعوهم، لأن كل ماأقحمته الالهامات الربانية فيهم، من أجل توجيه الأجيال المقبلة، قد رغبت بمناولته بمثابة وسيلة انذار إلى شعوب العصور الحاضرة، فانقسام القبائل في أيام يربعام —الذي كما قرأنا: «قد سبب أن تذنب اسرائيل»— يشير بوضوح إلى انشقاق الاغريق، وإلى الحشود البغيضة للسامرة، ويبين بشكل واضح حشود الهراطقة المتنوعين، الذين انفصلوا الآن عن عبادتهم وعن تبجيلهم للهيكل الصحيح، الذي هو كنيسة روما، هذا وإن وجود خريسوستوم Chrysostom ونازيانزن Nazianzen وباسيل الكبير، وسيريل Cyril الذين تميزوا في مجالس المنشقين، كان برهاناً على الحكمة الإلهية، مثل إقامة إيليا واليشع، وأبناء الأنبياء بين الكفار الوثنيين، وبما أننا أوضحنا لكم بمزيد من التفاصيل، في الرسالة التي بعثنا بها إليكم مؤخراً، حول هذه القضية وقضايا أخرى، بشأن الأسباب التي آثرت أولوية كنيسة روما، نحن نضيف الآن هذه الفكرة، وهي إنه وفقاً لقراءة الانجيل، نحن نحمل السيفين العائدين إلى الحبر الروماني، فعندما كان يسوع المسيح يتحدث إلى تلاميذه حول استحواذ السيف الروحي، أروه سيفين، كانا موضوعين هناك، وكانا عائدين إلى ربنا، وكانا يعدان كافيين لإرغام كل من العدوانين الروحي، والجسدي، وبما أنك تعترف بأن السيف المادي عائد إلى السلطة الدنيوية، أصغ إلى ماقاله مولانا بطرس في انجيل القديس متى: «ضع سيفك في مكانه»، وبقوله: «سيفك» قصد السيف المادي، الذي به ضرب بطرس خادم الكاهن الأعلى، أما بالنسبة للسيف الروحي، فما من أحد يمكنه أن يرتاب حول منحه له، وكان ذلك بوساطة السلطات ذات النوع الروحي التي عهد بها الرب إليه (أي القديس بطرس) أي سلطة الحلّ والربط، ولقد عهد بهذين السيفين إلى الكنيسة، لكنها استخدمت فقط سيفاً واحداً، أما السيف الآخر فيكون تجريده، لصالح الكنيسة من قبل السلطة المدنية، أي

واحد يستخدم من قبل الكهنة، ويستخدم الآخر بناء على إرادة الكهنة من قبل الجنود، وإنه بناء على هذه المعطيات، ومعطيات أخرى، وبعد فحص دقيق للحقيقة، ولكي يكون من الممكن أن نجلب عواطف حقيقية بدلاً من الانقسام، رأينا من الموائم أن نرسل إليكم كحاملين لهذه الهدايا، الراهبين: هيوج وبطرس، من طائفة المبشرين (الدومينيكان) والراهبين: هيمون Haymon ورالف من طائفة الفرنسيسكان، وهم رجال مشهورين بشكل رائع من أجل تدينهم وفضائلهم، وهم مشهورين باستقامة أخلاقهم، كما أنهم موهوبين بمعارف الكتابات المقدسة، وفق فحوى الرسائل التي تقدمت تسميتها أعلاه، ولذلك إذا ما ناقشتهم بجرأة، وتحادثت معهم بلطف حول جميع النقاط التي هي موضع الاهتمام والمتعلقة بالقضية موضع المناقشة، من الممكن أن تسمع صوت العاصفة في العجلة، التي ظهرت تحت عجلة حزقيال، وأن تشاهد، في البحر الزجاجي، بأن آدم واحد قد وضع في الجنة ليتمتع بها وليعتني بها، وأنه اتخذ لنفسه زوجة واحدة، وكذلك مولانا يسوع المسيح قد خلق في عدالة واحدة، واتخذ لنفسه قرينة واحدة، هي الكنيسة وكيف أن لامخ، الذي معنى اسمه «التواضع» عندما قسم زوجة واحدة إلى اثنتين، أصبح رجلاً دموياً، وقتل رجلاً لإيذائه، وكذلك عندما نقرأ عن سفينة واحدة، قد وجهت فوق الطوفان من قبل بطريرك واحد، وأبقى أحياء عدداً صغيراً، لكن منتخباً من الأرواح، وكيف أن الرب أعطى للمرة الثانية شريعة لتكون مختلفة، مع أنها هي نفسها، وكيف أن وجهي اثنين من الكروبين، اللذان يظللان عرش الرحمة، لايتزحزحان عنه، بل ينظر أحدهما إلى الآخر، وكيف أنه كان لدى يوسف ثوب واحد، واصل إلى قدميه، وكان لدى مولانا ثوباً بدون لفقة، وعلى كل حال، إذا كان اعتقادك يختلف عن اعتقادنا، وأعطيت منطقاً لازدواجية قداس القربان، قدّر بأن الاغريق واللاتين يحتفلون بأسرار خلاصنا بالطريقة نفسها، من خلال رب واحد هو يسوع المسيح، الذي خضع للآلام الانسانية، عندما اتخذ لنفسه طبيعة

انسـانية من أجلنـا، ولكن بعد مـوته تحرر من جميع الآلام، ويتبع الاغـريق مثل التلميذ الصغير، وهم غير واعين للرحمة التالية، وهي الرحمة التي تذكر يومياً برحمة الـرب، في أنه أصبح خاضعاً للآلام البشريـة، وذلك باستخدام كميات من الخبـز المختمر، في سبيل —وفقـاً للرسول— أن الخبـز المختمر يمكن أن يمثل الفسـاد الذي كـان مـولانا خاضعـاً له، قبل قيـامتـه، لكن اللاتين يتبعون أمثولة الرسول الأكبر، الذي هو القديس بطرس، الذي كان الأول في دخـول الضريح، ونظر بـالحري إلى القماش الكتـاني الذي أحـاط بجسده المقـدس، أي الكنيسة، والمنديل الـذي كان حول رأسـه، ويحتفلون بقـداس جســده الممجـد بشكـل أكثـر روعـــة، بوسـاطة خبــز فطير من الاخـلاص، وكلاهما على كل حـال خبـزان صرفان قبل القـربان، ولذلك لايمكن التفريق بينهما كفطير أو مخمـر، لكن الأول من هذين هو الذي من المعتقد أنه خبـز الحياة الذي نزل من السماء، وأعطى حيـاة إلى العالم، وهذه هي العقـائــد التي علمهـا الروح القــدس، والمنطق الصحيح إلى الكرسي المقـدس، وأنا أصلي، أنكم أنتم الذيـن تتبعـون أمثـولة التلميـذ الأصغـر، والذين رأوا واعتقـدوا، أن تتمكنوا أخيراً من الدخـول، وأن تتفهمـوا كل شيء، حتى تغنوا معنا مزمور داوود ذاك الذي جاء فيه: «قدروا كم هو أمر ممتع للإخــوان ليسكنـوا مع بعضهم في وحــدة». صـــدر في اللاتيران، في السابع عشر من أيار، إلخ، إلخ».

كيف تخلى الاغريق عن الطاعة كلها للكنيسة الرومانية

مع أن الاغريق قد سمعوا هذه التحذيرات الودية، لم يهتموا بها، كما أنهم لم يخضعـوا أنفسهم إلى الكنيسة الرومـانية، ربما بسبب الخوف من طغيـانها وشرها، أو لأمر آخر، فكانوا متمردين، وذلك تبعاً لكلمات الانجيلي، من أن الذين دعيوا إلى العشـاء لم يقدموا «لكن قدّمـوا بالإجماع الاعتذار»، فهم متواضعون في اعتذاراتهم، ولكنهم متكبرون ومتمردون في ممارسة أعمالهم، وحول هذا قـام البابا وكرادلتـه بإجراء مناقشات ومـداولات، وحول هذه

المسألة، وقرروا ارسال جيش الصليبيين كله ضدهم، وبناء عليه جرى التبشير بحملة صليبية، وحمل بعضهم الصليب للزحف ضد الاغريق، وبشكل خاص ضد القسطنطينية.

وأصل هذا الشقاق، والخلاف بين الاغريق والكنائس الرومانية كان كما يلي:

كان هناك رئيس للأساقفة قد جرى انتخابه بشكل قانوني لتولي منصب رئاسة الأساقفة السامي لدى الاغريق، أو بالحري جرت تسميته هناك، فذهب إلى روما من أجل التثبيت، لكنه لم يتمكن من الحصول على سماع هناك من دون وعد بدفع مبلغ كبير من المال، مقابل الحصول على الذي طلبه، لكنه رفض السيمونية من ذلك البلاط المرتزق، وغادر دون الحصول على ما أراده وابتغاه، وأخبر بواقع الحال جميع النبلاء الاغريق، وجرى تقديم براهين أخرى من قبل آخرين كانوا قد ذهبوا إلى روما، وتحدثوا عن حالات مماثلة، أو أكثر سوءاً، ولذلك قاموا جميعاً، في أيام غريغوري هذا، بسحب أنفسهم من كل أنواع الخضوع للكنيسة الرومانية.

وفي الأسبوع الذي تقدم على عيد الميلاد، أقلع إدموند، رئيس أساقفة كانتربري وذهب إلى روما، ولم يرغب بالعودة، مع أن النائب البابوي استدعاه، ونتيجة لهذا أصبحا منذ ذلك الحين معاديين أحدهما للآخر.

وكان المناخ، خلال هذا العام كله عاصفياً، وغير مستقر، ومؤذياً للناس، وغير صحي، ولا يوجد في ذاكرة أي انسان، أنه تألم مثل هذا العدد من الناس من الحمى الربعية.

زواج سيمون دي مونتفورت من إليانور أخت الملك

سنة ١٢٣٨، التي كانت السنة الثانية والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، وفيها عقد بلاطه في لندن، في ويستمنستر، حيث حدث أنه في اليوم التالي لعيد الغطاس، الذي كان يوم خميس، اقترن سيمون دي مونتفورت

بشكل مهيب بـإليـانور، ابنـة الملك جـون، وأخت الملك هنري الثـالث، وأرملة وليم مارشـال، ايرل بيمبروك، وجرى الاحتفال مع قـراءة القداس في بيعـة الملك الصغيرة، الموجودة في زاوية من حجـرته، وعمل ذلك وولتر قسيس البيعة الملكيـة للقديس ستيفن في ويستمنستر، وقـدم الملك شخصياً العـروس إلى سيمـون المذكـور، الذي تلقـاهـا وهو عظيم الامتنان، وذلك بسبب حبه النـزيه، ولجمالها، وللشرف العالي المرتبط بها، ولسمـو الانحدار الملكي لها كسيدة، لأنها كانت ابنة شرعية لكل من الملك والملكة، وبناء عليه إن الذين سيلـدون من هذه السيـدة النبيلـة سـوف يكونـون من الأصل الملكي، وأعطاه صاحب القداسة البابا إعفاء معها، كما ستبين الرواية المقبلة ذلك.

وفي العشرين من كـانون الثـاني من هـذه السنة، سمع رعـد مخيف، قـد ترافق مع رياح قوية، وغيوم كثيفة.

الامبراطور فردريك يكتب إلى الإيرل رتشارد بشأن قلقه حول الحملة الصليبية

وفي حـوالي الوقت نفسـه، كـان الامبراطور فردريـك قلقاً حـول تقـدم الصليبيين، وإعـداداتهم حـول الزحف، وبشكل خـاص فيما يتعلق بتقـدم الايرل رتشارد، فكتب إلى الايرل المذكور كما يلي:

«**من فـردريك، الذي هو بنعمـة الرب امبراطور الرومـان، والأغسطس الدائم، وملك القـدس وصقليـة، إلى ابـن ختنه المحبـوب، رتشـارد ايرل كورنوول، تمنيات الصحة، وعواطف خالصة:**

غالباً ماأقنعنا التقدم العام للأرض المقدسة ومنفعتها، الأمر الذي يعتمد على جهود الصليبيين، أن نقوم بوساطة الانذار لهم، وتوجيه الرجاء إليهم، وأن نحثهم على تأجيل عبور الصليبيين في مملكـة فرنسا والأجـزاء الأخرى من العالم، حتى انتهاء موعـد الهدنة المقررة من قبل، أي من شهر آب المقبل

حتى نهاية السنة التاليـة، حيث نعتقد أن ذلك سوف يكون موائماً لمسـاعدة الأرض المذكـورة، ولمنفعتها، وأيضـاً لكرامـة الذين سوف يعبرون إليهـا، ذلك أن عبور حشـد ذي أعداد كبيرة جداً ينبغـي أن يكون في وقت موائم، أي بعـد الاحتفال المقبل بعيـد القـديس يوحنا المعمـدان، يعني حتى ذلك العيد في العام المقبل، ويتوجب أن لانمر بهذا كله صامتين، بما أن ثقل أعمال تحرير الأرض المذكـورة يقع على أكتافنا، أكثـر من وقـوعه على أكتـاف أي أمـراء آخـرين في العالم، وفي سبيـل ذلك المقصد، نحـن ملتزمـون بتقـديم المساعدة، وأن نصرف أموالنا، أي بأن نأخذ النصيحة مسبقاً، عندما يكونوا أنفسهم قد استعـدوا بشكل كامل من أجل خدمـة المسيح، مقدرين بشكل كـامل جميع الظروف من دون اسقـاط أي احتمال من الاحتمالات، وهؤلاء الأشخاص الذين أوقفوا قلوبهم وأجسـادهم على خدمة الصليب، والذين يرغبـون بتقـديم مسـاعـدة مفيـدة إلى المصلوب، قـد سألناهم حـول هذه القضيـة من قبل رسلنا ورسـائلنـا، وقـد أجـابوا بحكمـة وعقـلانيـة على اقتراحاتنا، أنه حتى انتهـاء الهدنة المتقدمة الذكر، سـوف يستجيبون لطلبنا، ولذلك وافقنا مع كثير مـن الشكر على الحكمـة التي ظهـرت في جـوابهم، وبناء عليـه إنه صدوراً عن عـواطفنا الأخوية في رؤيتكم شخصيـاً، وفي أن نحصل لكم على عبـور مشرف، نحن نرغب إليكم ونرجـوكم —إذا كنتم أحيـاء— أن تعملوا عبوركم في وقت مـوائم من خلال مملكتنا في صقليـة، لأنه سوف لن يكون مـرضياً لنا، إذا ماقمـت برحلتك عبر أي طريق آخر، دون أن نراك، لاسيما وأن مملكتنا قـائمـة بشكل مـوائم جـداً، ومن السهل أكثـر، ومن المناسب فيها تأمين معـابر من خـلالها إلى بلدان ماوراء البحـر. صـدر في فيرسيلي Vercelli في ١١ شبـــاط في الحادية عشرة من الخمس عشرية».

استدعاء النائب البابوي إلى روما وعدم عودته

وفي تلك الآونة، سمع قـداسة البـابا وبلاط رومـا كله، بأن اضطرابات

كثيرة قد تفجرت في انكلترا، بسبب أعداد الأجانب الذين استدعاهم الملك، وبشكل غير حكيم أرسل خلفهم، وبسبب وصول النائب البابوي إلى هناك، الذي أيضاً جذبه الملك إلى انكلترا، من أجل إفقار رعاياه، وبسبب الرسائل الكثيرة الغاضبة ضده، لذلك جرى استدعاء النائب البابوي المذكور بسرعة كبيرة، لكنه لطف من قسوة اجرائه بالكتابة إليه كما يلي:

«من غريغوري، إلخ، إلى ابنه المحبوب أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، ونائب الكرسي الرسولي، تمنيات الصحة، والتبريكات الرسولية:

لقد فهمنا بأن هناك بعض رجال الدين في مملكة انكلترا، الذين بين أيديهم عدة منافع، والذين من غير الممكن السير ضدهم، وفقاً لمراسيم المجمع العام، من دون إثارة الاضطراب في المملكة، وتسبيب سفك الدماء، ومرد ذلك إلى قوة أقربائهم، وبما أننا نرى أنه لايجوز اقتراف الذنب حتى في سبيل تجنب الفضيحة، وأن العمل الطيب المتوجب صنعه يمكن أحياناً أن يتأخر لهذه الغاية، وإننا بهذه الرسائل الرسولية نفرض على استقامتكم، إذا كنتم لاتستطيعون السير ضد رجال الدين المذكورين من دون التسبب باقتراف الذنوب، أن تقوموا بتأجيل المسألة في الوقت الحالي»، وخشية من حدوث أي شيء سيء له، قام البابا بالرسالة نفسها، أو برسائل أخرى، باستدعائه للعودة على الفور، وكان النائب البابوي، يفضل —على كل حال— أن يطيل البقاء في انكلترا، وأن يجني مالم يكن قد زرعه، وببراعة تمكن من إعداد رسالة ومن ثم ارسالها إلى البابا، وهي تحمل أختام الملك، وأخيه الايرل رتشارد، وجميع الأساقفة، فهؤلاء جميعاً قد وضعوا أختامهم بمثابة برهان على صدق ماذكره وصرّح به، من أن إطالة إقامته في انكلترا، كان فيها فائدة عظيمة إلى الملك، وكذلك إلى المملكة، وإلى كنيسة انكلترا، وعندما أرسلت هذه الكتابة إلى البابا جعلت عقله يرتاح.

إرسال الامبراطور رسالة إلى الإيرل رتشارد حول ولادة ابنه

وقام الامبراطور رتشارد في هذه الآونة، تعبيراً عن عواطفه، فكتب الرسالة التالية إلى الايرل رتشارد، يخبره عن سروره، حيث أن ولداً قد ولد له، من قبل الامبراطورة ايزابيلا، التي كانت أخت الايرل المذكور:

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن خنته رتشارد، ايرل كورنوول، تمنيات الصحة، وكل الأماني الطيبة:

لقد حدثت حادثة بهيجة، وهي حادثة تطلع الانسان إليها مع رغبات الجميع بشكل عام، وهي أعطية، لابل هي أعظم العطايا حمداً بين الأعطيات التي تلقيناها من كرم الطبيعة وهي التي بوساطتها تباركت صولجانات الملوك، ومع رغبة الخلافة، رأينا أنه من الموائم أن يكون معلوماً لديك مبكراً، ذلك أنه بسبب جدة البهجة، لم يسمح لنا ذلك بالتأخير، لأنه توجب علينا أن نوصل إليكم أخباراً جيدة، ونحن نفعل ذلك الآن مع هذه التقدمات، وهي أنه بتقدير وعطاء من عند الملك الأعظم، الذي يعطي المزيد والصحة إلى الملوك، في اليوم الحادي عشر من شهر شباط، قد ولد لنا صبي من الرحم المثمر لقرينتنا الأوغسطة، وحفيد جديد قد أعطي لنا، ويشير ميلاده إلى مجد أبيه وخاله، ويجدد بهجة أمه، ويؤكد آمال رعايانا، وبهذا تمتنت العواطف الصحيحة المتبادلة، التي ارتبطنا بها بروابط المصاهرة، وهي تشير إلى زيادة ازدهارنا، وتحولت جودة قيصر مع الوقت إلى سرور وشرف الجماعة كلها، وحدث ميلاد هذا الطفل في وسط سرورنا، أثناء زحفنا السعيد في إيطاليا، التي تخضع الآن لسلطاتنا، وعند انتصارنا على أعدائنا المنهزمين، رافق نجم سعيد هذه الأحداث الميمونة، وبما أن هذا الولد المنتظر طويلاً قد ولد في وسط هذه الأحداث السعيدة وانتصاراتنا، ونحن نثق به، الذي بعد ولادة ابنة من قرينتنا المثمرة، أي أختك، قد منحنا ولداً ذكراً، وبذلك زاد بكرمه المجد القديم

لامبراطوريتنا، الذي كـان قـد تلاشى في الأوقات الماضيـة، وهو الآن قـد نهض متجـدداً بـولادته، في سبيل شرفنا ومجدنا، وازدهارنـا، ونحن نرغب لك، أنت الذي نعلم أنك تمنيت منـذ وقت طويل ولادة هذا الابن الأخت المتوقع، أن تشاركنا بسرورنا، وبسرور قرينتنا الأوغسطة. صدر في تورين، في اليوم الثالث من آذار، في الحادية عشرة من الخمسعشرية».

هيجان النبلاء الإنكليز ضدّ الملك

وشعـر الايرل رتشارد بسرور عظيم تجاه هـذه الأخبار، وأعطى الحمـد للرب، ذلك أنه كـان يأمل، أنـه سيحـدث له مع مـرور الأيام تقـدم عظيم شخصياً ومنفعـة كبيرة لمملكة انكلترا، من خلال هذه الحادثـة، ولكن وفقاً لتقلب الشـؤون البشرية، هـو استثير من جهـة ثانيـة، ووصل إلى حـد الغضب، لأنه سمع بأن هذا الزواج قـد جرى تثبيتـه بشكل سري، أي من دون معرفته، أو الحصول على موافقة النبلاء، وقد غضب كثيراً بشكل محق، وخـاصة وأن الملك قـد خـرق أيمانه وحنث بها، ولاسيما يمينه عندما وعـد بأنه لـن يفعل شيئاً له أهميتـه، مـن دون الحصـول على نصيحـة رعـاياه الطبيعيين ولاسيما هو نفسـه، ولذلك هاجم الملك وحمل عليـه بانذارات وتهديدات، وبذلك أعطى منفـذاً إلى رفع شكاوى كبيرة، وعدم رضـا ضد الملك، لأنه بتهـور أدار الأعمال الهامـة للمملكـة، آخـذاً بنصـائح هؤلاء الأجانب، الذين كـان قد أقسم من قبل على إبعادهم كلياً عنه، وأنه سوف يصرف الآخرين من جانبه، وهو لم يصغ فقط إلى مشورة وآراء سيمون دي مونتفورت، وج. L ايرل لنكولن، بل قام من دون تغاضي نبلائه، ففرض زواجـات غير مقبولة، فقـد عمل سيمون، كما تقـدم القول، وتدبر زواجـاً ليس شرعيـاً بينه وبين كـونتسـة بيمبروك، وأختـه، وجـون ايرل لنكولن، ورتشارد دي كلير ابن كـونت بولون، وابنته— ج. L الايرل المذكور— من دون معرفة الملك.

وعندمـا ثـار الايرل رتشـارد ضـد الملك، التحـق به الايرل غيلبرت

المارشـــال، وجميـع ايرلات وبارونات انكلترا، والمواطنـون والناس بشكل عام، وكان المأمول وقتها بثقة عظيمة أن يقوم الايرل رتشارد بتحرير البلاد من العبـودية التعيسـة، التي ظلمت بها مـن قبل الرومـان، ومن الأجـانب الآخرين، وقـام جميع الفرقاء من الرجـل الشيخ إلى الطفل بتكديس الآمال عليـه، ومـا من أحـد وقف إلى جـانب الملك، باستثناء فقط هيـوبرت ايرل كنت، ولم يتـوفر خـوف منه، وذلك بسبب أنه أقسم أنـه لن يحمل سلاحـاً قط، وكذلك بسبب تقدمه بالسن، وبسبب حذره الذي تبرهن في مناسبات متنوعة.

وعندما وجـد الملك، كيف قامت القضـايا، شعر بالذعـر وأظهر ذلك، وأرسل رسلاً إلى كل واحد من نبـلاء المملكة، وعمل بحثاً دقيقاً ليعرف إن كان بإمكانه الاعتماد عليهم من أجل المساعدة، وإليه أجابوا جميعاً، وبشكل خاص سكان لندن، بـأن الذي بدأ به الايرل رتشارد، قـد أعلن آخذاً بعين التقـدير كـرامتهم، ومنفعـة المملكة كلهـا، مع أنه، أي الملك، لم يوافق على مساعيه، وهم بناء عليه لن يقفوا ضـد نواياه، وعندما وجد النائب البابوي هذا، ورأى بـأن الخطر بات وشيكـاً، شغل نفســـه بأعظـم يقظة واهتمام لمصـالحة الملك مع رعـاياه الطبيعيين، ونصح بشكل سري الايرل رتشـارد الذي كان المحرض الرئيسي على هذا العنـف، بأن يقلع عن مقصده، واعداً بأن الملك سوف يعطيه أملاكـاً أكبر، وأن البابا سوف يثبت الذي منح إليه، مضيفـاً أيضـاً، أنه من الممكن أن تثـور المملكة كلهـا ضـد الملك، الذي هو أخوه، لكن الـذي عليه هو الوقـوف إلى جانبه من دون كلـل أو ملل، ضد جميع الناس، وعلى هذا أجابه الايرل رتشارد:

«مـولاي النائب البـابوي، إنه بالنسبـة لتثبيت أراضي العلمانيين، لاشأن لك ولا عمل، عليك الالتـزام شخصيـاً بـالمسـائل المتعلقـة بالكنيسـة، ثم لاتندهش كـون أوضاع المملكة قـد أثارتني، لأنني أنا ولي العهد الوحيـد، لأنه مع أن الملك كان مسـؤولاً عن جميع الأسقفيات تقـريباً، وعن كثير من

مـواريث الدولة، مع ذلك لم تظهـر على خزينتـه أية زيادة، في سبيل الدفـاع عن المملكة، مع أننا محاطين بمختلف الأعداء من كل جانب، بالاضافة إلى هذا إن كثيرين أصيبوا بالدهشـة، لكون الملك الذي دوماً هو بشكل رئيسي في حـالة عـوز، وحـذر، لم يتبـع آثار الرجـال الواعين، فهـو لم يتبع أثر الامبراطور، الذي إليـه أعطينا أختنا بـالزواج، مع مبلغ كبير من المال آملين بأن ذلك سوف يكون لمصلحتنا ومنفعتنا، لكنه احتفظ فقط بزوجته، وأعاد حـاشيتهـا، من دون أن يضفي على أحـد أرضـاً أو مـالاً، مع أنه كـان مليئاً بالثروة والغنى، ومثل آخـر يمكن ذكره هو في قضيـة الملك الفرنسي، الذي تزوج من الأخت الكبرى لملكتنا، غير أن ملكنا الانكليزي هو على العكس قـد سمّن جميع آل وأقربـاء زوجته، بالأراضي، والممتلكات، والمال، وعقـد نوعاً من الزواج، لايمكنه معه أن يكون أكثر ثروة، لكن بالحري أكثر فقراً، ولذلك لايمكنه الحصـول على عون قوة عسكرية، إذا كـان ذلك ضرورياً، وعـلاوة على ذلك، سمح بالاستيـلاء على الموارد وعلى المنـافع اللاهوتيـة، التي كان أجدادنا الأتقياء قد منحـوها (خاصة إلى رجال الدين) أو بسلبها، ومن ثم أن يجري توزيعهـا على الأجـانب، مع أن هذه البـلاد نفسهـا مليئة بالرجـال المناسبين لتسلمهم، وبـاتت انكلترا، وكأنها كـرم من دون سـور، منها يجمع العنب كل من يعبر الطريق».

النائب البابوي يسعى إلى إقامة سلام بين الملك وبين نبلائه

ولدى سماع النـائب البـابـوي هذه الكلمات، ذهب إلى الملك، ومعـــه بطـرس أسقف وينكستر لتشجيعه، ولنصيحته، القيام بالخضوع إلى إرادة النبـلاء وطـاعتهم، وهم الذين نهضـوا ضـده لسبب عـادل، وكـذلك يسعـون إلى تقـويمـه مـرة أولى وواحـدة بالتهـديدات، ومـرة ثـانيـة بالانذارات، ومرة ثالثة بالالتماسـات، ثم إن الملك عندما رأى أن حملاته لم تلق التأييـد، وأن جميع الفرقـاء قد مالـت نحو أخيه الايـرل رتشارد، حـاول استخـدام كـل الدهاء الذي هو ممكـن، وطلب وقتـاً للتفكير

والتداول، من أجل أن يعطي جواباً أكثر مواءمة لطلباتهم، وبناء عليه واستجابة لطلب الذين سألوا ذلك (مع أن ذلك كان بعد صعوبات جمّة) منح وقتاً، حتى اليوم الأول، بعد الأحد الأول في الصيام الكبير.

إنتهاء المشاورات كلها إلى لاشيء

ثم اجتمع النبلاء في لندن، في اليوم المحدد، بغية ترتيب هذه المسائل، وقدم كثير منهم مجهزين بالخيول والسلاح، من أجل أنه إذا مارغب الملك بالانسحاب من وعده، يمكن إرغامه على تنفيذ الشروط التي تقدم ذكرها، ثم إنه بعد كثير من المناقشات والحوارات بين عدد كبير من الحضور، أخضع الملك نفسه إلى تدبير بعض الفئات الأكثر قوة، وأقسم على الالتزام بقرارها، الأمر الذي جرت الموافقة عليه، وجرى تدوينه كتابة، ووضع عليه أختام النائب البابوي والنبلاء الآخرين، حتى تتم مشاهدته من قبل جميع الفئات بشكل عام، وقبل الفراغ من إكمال ترتيب هذه المسائل، وعندما كانوا معلقين ينتظرون، أخضع سيمون دي مونت فورت نفسه وتواضع لايرل رتشارد وبوساطة كثير من الوساطات، وبعض الهدايا، حصل على قبلة السلام من الايرل المذكور، الحال الذي أغضب كثيراً بعض النبلاء الآخرين، الذين جرت هذه المحاولة من دون رضاهم، والذين الآن بجهودهم تطورت القضية تطوراً عظيماً، وقام ايرل جون أوف لنكولن، وفق الطريقة نفسها، فأطفأ غضب الايرل رتشارد، بوساطة الالتماسات وكذلك الرشاوى، وأعطى ضمانة أنه سوف يعوض عليه من جميع الجوانب حول كل ماوقف به ضده، وبوساطة هذه الإجراءات غير النظامية، أعيقت الأعمال كلها إعاقة كبيرة، ولم تنل التنفيذ، بل زادت من تعاسات المملكة، ولطخت بالسواد، إلى درجة كبيرة سمعة الايرل رتشارد وظللتها، وبذلك صار عرضة للشك، وهو الذي كان من قبل محور قوتهم.

موت جوهانا ملكة سكوتلندا

وفي هذه الآونة، وفي الرابع من آذار، أغلقت جـوهانا Johanna ملكة سكوتلندا، وأخت ملك انكلترا، التي قـدمت إلى انكلترا لزيارة أخيها، حياتها، وقـد دفنت في تيرنت Tarenteالذي كـان ديراً للراهبات، كان المبجل رتشارد، الأسقف الثاني لدرم الذي حمل هذا الاسم، قد أسسه، وبناه، ومنحه إلى الملكة إليانور، عندما قدمت إلى انكلترا. [لحق النص الأصلي هنا بعض الاضطرابات والخطأ، ومـرد ذلك إما إلى النساخ أو إلى المؤلف نفسه].

سيمون دي مونتفورت يعبر بشكل سري من انكلترا

ورأى سيمـون دي مـونتفـورت، أن قلبي الملك والايـرل رتشارد، وكذلك قلوب جميع النبلاء قد تغربت عنه وجفته، ووجد أن الزواج الذي عقده مع أخت الملك، قد نظر إليه من قبل عدد كبير من الناس، وكأنه لم يكن موجوداً أو ملغياً، ولذلك انسحب وتوارى وهو حزين جداً، وبعدما استحوذ على سفينة، أقلع بها خلسة، بعدما استخرج كمية كبيرة من المال من كل جهة من الجهـات، ومن سكان ليسترشاير Lei-cestershire ومن سيمون دي كـورلافاش Curlevache وقد جمع مبلغ خمسمائة مـارك ثم إنه ذهب إلى بلاط رومـا، آمـلاً أن يتمكن بأموالـه، أن يقنعه، ويحصل منه على اذن يسمح له بالتمتع بزواجه غير الشرعي، وقام أولاً بالخدمة تحت ظل الامبراطور، في سبيل أن يرضيه، وحصل منه على رسائل ليأخذها إلى البـابا حول القضيـة، وجلست في الوقت نفسه كونتسـة بيمبروك مخفية نفسها، وكانت حـاملاً، وأقامت في قلعة نيلوورث Kenilworth تنتظر نتيجة الواقعة.

حكم البابا في مسألة رهبان روكستر

صـدر في هذا العام قـرار حكم من البـابا في قضية رهبـان روكستر،

وذلك فيما يتعلق بالخلاف الذي نشب بينهم وبين رئيس الأساقفة إدموند، فيما يتصل باختيار أسقفهم، وصدر قرار الحكم لصالحهم، وكذلك فيما يتعلق بمسألة الإدعاء حول الممتلكات، وفي يوم عيد القديس كوثبيرت Cuthbert جرى تثبيت انتخاب الأسقف المنتخب رتشارد أوف ويندوفر، وجمع رئيس الأساقفة هذا الرهبان، وقد أنهكهم التعب، ولم يبق معهم مال بسبب النفقات، وكانوا فضلاً عن هذا، قد عبروا الألب، حتى يمكن تسوية هذا الخلاف بشكل صحيح، حسبما يفرض القانون.

ومثل هذا، صدر في الوقت نفسه حكم ضد رئيس الأساقفة المذكور، الذي كان موجوداً آنذاك في بلاط روما، في مسألة خلافية مهمة، هي النزاع بينه وبين ايرل أوف آروندل Arundel وأدين في القضيتين معاً بالنفقات، بحوالي ألف مارك، وقرار الحكم الذي كان صادراً ضد الايرل المذكور قد سحب، لأنه كان له عدو قوي جداً، تمثل في النائب البابوي أوتو، الذي كان قد حرض بفعالية الملك على هذا.

وصول امبراطور القسطنطينية إلى انكلترا

وقدم في العام نفسه إلى انكلترا، بلدوين امبراطور القسطنطينية، والابن الشاب لبطرس كونت أوكسري Auxerre ليطلب المساعدة، بعدما خلع ونفي من امبراطوريته، لكن عند رسوه في دوفر، أخبر باسم الملك، إنه كان عملاً غير لائق، ونصيحة سيئة لمثل هذا الأمير الكبير، أن يتطفل بالدخول إلى مملكة أجنبية، دون أن يعرف رأي الملك، ومن دون إذنه، وأن هذا قد بدا أشبه بالاستخفاف والتكبر، وكان هذا الوصول أيضاً غير مرض في نظر الملك ومستشاريه، لأنهم تذكروا كم من التشريفات والمنافع قد أضفتها انكلترا على الملك جون دي بريين أثناء قدومه إلى هناك، وكيف أنه لدى عودته إلى فرنسا، تصرف تصرف رجل شرير وبلا وفاء، وخطط بشكل خياني ضد مملكة انكلترا، وكان

على كل حـال، لدى مغـادرته فـرنسا، ولاستـدعـائـه تحت طالع سيء، لاستـلام السلطة الامبراطورية للإغـريق، لم يتمكن من تنفيـذ خططه الخيانية.

وإثر إخبـار امبراطـور القسطنطينيـة بهذه المسـائل، بات آسفـاً جـداً لقـدومه إلى انكلترا، واستعـد لعـودة سريعة، واشتكى في الوقت نفسـه وعبّـر عن براءته إلى الملك، وعرض بتـواضع أسباب رحلتـه، وبعدمـا سمع الملك هذا، وبعد تشـاوره حول الموضوع، بعث برسالة إليـه، قال فيهـا بما أنه لم يقـدم كعـدو يمكنـه دخـول المملكة، والقـدوم إلى لندن، حيث هو شخصيـاً سـوف يستقبله بتكريم مناسب ولائق، وبناء عليـه، وصل الامبراطور في الثاني والعشرين من نيسان إلى لندن، والتقى بالملك في وودستـوك، ونال منه قبلـة السـلام، وشرح إلى الملك، وإلى الايرل رتشـارد سبب قدومـه، ولدى فراقـه لهما، أغني بكثير من الهدايا الثمينة، وحمل معه حوالي السبعمائة مارك.

خلاف بين النائب البابوي وبين باحثي اكسفورد

ووصل في هـذه الآونة النائب البـابـوي إلى اكسفـورد، واستقبل بتشريف هـو الأعلى، وذلك حسبما هو جـدير به، واحتفي بـه في بيت الكهنة الذي كـان في أوسني أبي Oseney Abbey إلى حيث أرسل إليـه البـاحثـون الكهنة قبل وقت الافطار، هديـة تكريميـة، على شكل لحم وشراب، وسـاروا بعـد الافطار إلى مكـان إقـامتـه ليقـدمـوا تحياتهم إليه، وليزوروه صدوراً عن الاحترام، ولدى وصولهم كان هناك بواب من بلاد ماوراء الألب، فقام بطريقة غير لائقة وبسلوك فج، فرفع صوته حسب طرائق الرومـان، وترك الباب مفتوحاً قليـلاً، وقال: «ماذا أنتم تريدون؟» وعلى هذا السؤال، رد الكهنة قـائلين: «نحن نريد سيادة النائب البابوي، حتى نستطيع تقـديم احتراماتنا له»، لأنهم اعتقدوا أنهم سـوف يتلقون تشريفـاً مقـابل تشريف، لكن البـواب رفض السماح لهم

بلغـة مهينة وبفظاظة، وأهانهم بعجـرفـة وتشـامخ، ولدى رؤية الكهنة ذلك اندفعوا نحو الأمـام بغضب وشقوا طريقهم بالقوة، في حين سعى الأتبـاع الرومـان إلى ردهم فضربوهـم بقبضـاتهم وبالعصي، وفي الوقت الذي كان فيه الطرفان مشتبكين يتبـادلان الضربات والشتائم، حدث أن كـان هناك شماس ايرلندي فقير، واقفاً عنـد باب المطبخ، وكـان يفتش بحرارة عن شيء ليعطى إليـه، باسم الرب، وفق طرائق الرجـال الفقراء والجائعين، ووقتهـا سمعه رئيس الطبـاخين لدى النائب البـابوي (الذي كان أخوه، وكان قـد وضعه على رأس تلك الوظيفة حتى لايدس السم إليـه، الأمر الذي كـان النائب البـابوي يخشاه كثيراً) لكنه لم يعبأ بطلبـه، وعندمـا صار غـاضباً من الرجل المسكين، رمى على وجهـه بعض الماء المغلي الذي نضحه من فوق مـرجل حيث كان لحم سمين يطبخ، ولدى رؤية هذا الأذى الذي لحق بالرجل الفقير، صرخ بصـوت مرتفع واحـد من الكهنة، وكـان من سكان حـدود ويلز: «عيب علينا تحمل أي شيء من هذا القبيل»، وفوّق قوساً كـان يحمله (لأنه عندما ازدادت الفوضى، حمل بعض الرهبـان ماوصل إلى أيديهم مـن سلاح)، ورمى بنشـابة منه، فخـرق جسـد الطبـاخ، (الـذي دعـاه الكهنة بطريقـة هجـائيـة باسم «نابوزردان "Nabuzardan" ومعنى ذلك رئيس الطبـاخين)، ولدى سقـوط الرجل ميتاً، ارتفع الصراخ، فأصيب النـائب البابوي بالدهشـة، وتلبسه الرعب، الذي يمكن أن يستبد بأشجع الرجال، فحمل نفسه إلى برج الكنيسـة، مـرتدياً لغطاء رأسـه الشرعي، وأغلـق الأبواب خلفـه، وعند حلول الظلام، وقيـام الليل بإنهاء الفـوضى، خلع ثيابه الشرعيـة، وبسرعـة امتطى أفضل خيـوله، وقـام تحت توجيـه وارشـاد بعض الأشخاص الذين يعرفـون أكثر المخاضات الخاصـة، فعبر النهر واجتازه من أقـرب منطقة منه، ومع أن ذلك قـد ترافق مع كثير من الخطر، فقـد كـان مقصـده الفـرار طيراناً إلى تحت حماية جناحي الملك، بأكبر سرعـة ممكنة، لأن الكهنة الـذين تعـاظم غضبهم، تابعـوا البحث عـن النائب

البابوي في أكثر المخابىء سرية، وكانوا يصرخون:

«أين ذلك السيموني المرابي، الناهب للموارد، المتعطش للمال، والذي أفسد الملك، ودمّر المملكة، وأغنى الأجانب بأسلاب أخذها منا»؟، وعندما كان النائب البابوي يسمع هذه الصرخات من مطارديه، قال في قرارة نفسه:

«عندما تركض الحماقة بسرعة كاملة

يطلب الرجل الحكيم ممراً لينأى بنفسه».

وبصبر تحمل هذه الأشياء كلها، وصار أشبه برجل لم يسمعهم، وكأنما ليست لديه قدرة على صدهم، وبعدما عبر نهر مع صعوبات جمّة (حسبما ذكرنا أعلاه)، ومعه عدد قليل من المرافقة، بسبب صعوبة المجاز، بقي الآخرون في الدير، وقد وصل إلى الملك مقطوع الأنفاس، وفي حالة ذعر، مع الدموع والتنهدات تقطع حديثه، وقد شرح للملك وكذلك إلى حاشيته سلسلة الأحداث التي وقعت، مقدماً شكوى جادةحول القضية، وحزن الملك لدى سماعه هذه الحكاية المؤسفة، وتعاطف كثيراً معه، وأرسل ايرل وارني Warrenne مع قوة مسلحة إلى أكسفورد، بكل سرعة لانقاذ الرومان الذين كانوا متخفين هناك، وللقيام باعتقال العلماء، وكان بين هؤلاء الأخيرين، واحد اسمه المعلم أودو، وكان محامياً، وقد اعتقل بخشونة، وأودع مع ثلاثين آخرين السجن بشكل مهين في قلعة وولنغفورد، على مقربة من اكسفورد، وبعدما تحرر النائب البابوي من المصيدة المحطمة، جمع إليه بعض الأساقفة ووضع أكسفورد تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وحرم كنسياً جميع المحرضين على هذا الاثم العظيم، وبات السجناء الآن تحت تصرف النائب البابوي، فجرى نقلهم بعربات مثل لصوص إلى لندن، وهناك أودعوا سجناً ضيقاً، وقد حرموا من مواردهم، وربطوا بالتكفير والحرمان.

مصالحة جامعة أكسفورد مع النائب البابوي

وكان النائب البابوي، الذي انطلق برحلة نحو شمال انكلترا، قد حوّل اتجاهه وعاد إلى لندن، وهناك نادراً ماتجرأ على الإقامة في المقر الملكي التابع لأسقف وينكستر حيث كان يقيم بالعادة، وأرسل الملك رسالة إلى مدينة لندن، بأن يقوم عمدة لندن مع جماعة سكان المدينة كلها، مع كتلة من الرجال المسلحين بحراسة متواصلة على النائب البابوي المذكور، وأن يحرسوه حراسة بؤبؤ أعينهم.

ثم استدعى النائب البابوي بفضل السلطة التي توفرت لديه، رئيس أساقفة يورك، وجميع أساقفة انكلترا، للاجتماع به في لندن، في السابع عشر من أيار للبحث هناك في أحوال الكنيسة، وفي الوضع الخطير لرجال الدين، واجتمع الأساقفة في اليوم المتقدم على التاريخ المحدد، وتباحثوا حول الوسائل التي يمكن بها انقاذ مجموع رجال الدين كلهم، وكأنهم كنيسة ثانية، وتلطف النائب البابوي نحوهم أيضاً، واستعطفهم من أجل انقاذ الكنيسة الرومانية، حتى لايقال نقداً، بأنه قدم من أجل إصلاح رجال الدين والكنيسة، لكنه بالحري أفسدهم، وأخيراً اقترح على النائب البابوي من قبل الأساقفة مع جميع رجال الدين الحضور، بأن ينطلق النقاش حول جماعته الشخصيين، ولكن لدى نهاية النقاش حصل رجال الدين على النتيجة السيئة، لأنه بناء على أوامره، ألقي شطر كبير منهم في السجن، أما البقية منهم، فكانوا على استعداد لطاعة أوامره، وكانوا جاهزين للتواضع والخضوع إليه، في مكان على سفر ثلاثة أيام من أكسفورد، فهناك —بناء على التماس عدد كبير من الرجال العظماء— يتوجب على عقله وتفكيره أن يميل نحو الرحمة، وأخيراً تمّ الاتفاق، بأن يمنح النائب البابوي رحمته، إنما على شرط، أن يقوم جميع الباحثين الذين اجتمعوا هناك بالسير على أقدامهم، بصحبة الأساقفة، أيضاً على الأقدام، من كنيسة القديس بولص، التي كانت على مسافة

تقارب الميل بعداً عن مقر إقامة النائب البابوي، وذلك حتى يصلوا إلى مقر إقامة أسقف كارآيل، وعليهم أن يذهبوا من هناك من دون أغطية رأس وأقبية، وحفاة، إلى مقر إقامة النائب البابوي، حيث سوف يلتمسون هناك العفو، الذي سوف يمنح إليهم، وسوف يصبحون متصالحين، وجرى تنفيذ هذا، ولدى رؤية النائب البابوي هذا التواضع والتذلل، استقبلهم ثانية في حظوته، وأعاد الجامعة إلى مقرها الإقليمي، وسحب برحمة منه التعليق من شراكة المؤمنين مع قرار الحرمان الكنسي، ومنحهم رسائل، أنه من جانبه من غير الممكن تلطيخ سمعتهم في أي وقت من الأوقات.

وبعد عيد الفصح مباشرة في هذا العام، أرسل ملك انكلترا قوة من الجند، تحت قيادة هنري دي تربلفيل Trubleville الذي كان عسكرياً بارعاً جداً، لمساعدة الامبراطور ضد رعاياه العصاة في المقاطعات الايطالية، وأرسل مع هذه الوحدة العسكرية ج. J مانسيل Mansel ووليم هاردل Hardel وكان محاسباً من سكان لندن، وقد بعث الملك معه مبلغاً من المال، حتى يوزعه بين المرتزقة، وبشجاعة قاتل جيش الملك هذا من أجل الامبراطور أثناء الصيف كله، حيث قهروا سكان بعض المدن التي قاومت، وأعادوا المدن إلى الامبراطور، وكان بين الذين ميزوا أنفسهم ج. مانسيل المذكور، وغضب البابا غضباً عظيماً تجاه هذا، وفي تلك الآونة أرسل ملك انكلترا رسالة إليه، رجاه فيها أن يتعامل بلطف أكبر مع الامبراطور، وجاءت ردة فعله على هذه الرسالة غاضبة بشكل جاد، وذلك بشكل غير معتاد الصدور عنه، وأثير وبلغ به الغضب إلى حد دفعه إلى الاستمرار به إلى وقت طويل، وإلى تعليق القضايا التي لها علاقة بالانكليز، وكان أسقف بلنسية عندما سمع بأن مثل هذا الجيش على وشك الإرسال إلى ايطاليا، قام بمكر وبراعة بالالتحاق باللورد هنري تربلفيل، كدليل لهم، وأبحر معه.

وعـاد في العام نفسـه بلدوين امبراطور القسطنطينيـة، الذي تقـدمت الإشـارة إليه أعـلاه، بعدمـا حصل على مبلغ خمسمائة مـارك من الملك، وعلى مبلغ كبير من الايرل رتشـارد، إلى بلاده، وفي تلك الآونة أيضـاً، وجـد الأسقف المنتخب لبلنسيـة أن إقـامتـه في انكلترا لم تعـد مـوائمـة ولامقبـولة فقام إمـا رغماً عنه، أو عن طواعية، فأقلع مسـافراً ومغـادراً البـلاد، لكـن ليس من دون حـذر مناسـب لأن خيـوله كـانت محملة، وكانت سروج دوابه مليئة بأواني ملكية من الذهب والفضة.

موت السلطان الأعظم قوة

وفي هذا العام نفسـه، عندما كان السلطان [الكامل محمـد] الذي كان السلطان الأعظم قـوة على وشك الموت، وزع بكرم أعطيـات وافـرة، ومبـالغ كبيرة من المال على المسيحيين المرضى، الذين كـانوا قد بقيـوا في دار الاسبتـارية، وأطلـق سراح عـدداً كبيراً من الأسرى المسجـونين، وعمل أعمالاً أخـرى كثيرة قـدم فيهـا الصدقـات، ثم لفظ أنفـاسـه، مما سبب الحزن إلى الكثيرين، لأنه وإن كـان وثنياً، كـان —صدقـاً نقول— رجـلاً سخياً، كما كـان (بقـدر ما سمحت لـه صرامة عقيـدته وشكوك جيرانه) رجلاً رحيماً نحو المسيحيين، وعندمـا سمع الامبراطور الروماني بهذا، بكى موته بدموع، لمدة طويلة، ذلك أنه كان يأمل —كما كان ذلك السلطان نفسـه قـد وعـد— بـأنه سـوف يتسلم العماد، وأن المسيحيـة، سوف تتلقى بوساطته في وقت أو آخر كثيراً من الزيادة في ازدهارها.

سفر سيمون دي مونت فورت
من عند الامبراطور إلى البلاط الروماني

وحمل في الوقت نفسـه سيمون دي مـونتفـورت نفسه، مع الرغبـات الطيبـة للامبراطور، ومع رسـائل توصيـة منه، وتوجّـه إلى البـلاط الروماني، وحصل هناك، بوسـاطة مبالغ لا حـد لها من المال، والوعود،

على مرسوم من البابا —مع أن تعهده المهيب أمام ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، كان ضد ذلك— أن بإمكانه التمتع بزواجه غير الشرعي، وكتب قداسته، إلى النائب البابوي أوتو، آمراً إياه أن يعطي مرسوماً خاصاً لصالح سيمون دي مونت مونتفورت، ولدى سماع الراهب وليم دي أبينغدون Abiingdon من طائفة المبشرين، بهذا مع رجال متعلمين آخرين، كانت لديهم غيرة على الرب، وكانوا واضعين لها، أمام أعينهم، رفعوا أصواتهم عالياً بلوم هذا القرار، مؤكدين بصدق، بأنه قد فرض فرضاً على قداسة البابا، وأن ذلك يعرض الأرواح للخطر، وأن هذا يثير المسيح ويدفعه للغيرة، ومع أن الفئة المعارضة قد أعلنت، بأن المرأة مثار النقاش، قد تكون لم تقدم على ارتداء الثوب والحجاب، لكنها أخذت الخاتم، الذي به تكرست، أو بالحري زوجت نفسها للمسيح، وبالتالي اتحدت اتحاداً لايمكن فصمه بالمسيح الذي هو قرينها، وذلك كما هو واضح في الكتابة الأصيلة في مراسيم المعلم بطرس، في رسالته حول «التعهدات» في الكتاب الرابع، الذي فيه بعدما قدم الأسباب وسلطات القديسين والشرائع مضى ليقول:

«يبدو من هذه الأشياء أن العذارى أو الأرامل اللائي ربطن أنفسهن بعهد منع الذات عن الشهوة الجنسية، سواء أأخذن الحجاب أم لا، لايمكنهن الزواج بأي حال من الأحوال، وهذا يتوجب فهمه وفق الطريقة نفسها، بالنسبة إلى جميع اللائي عملن عهداً بمنع الذات عن الشهوة الجنسية، والذي كان قانونياً قبل النذر، سوف يكون غير قانوني بعده»، ولعل البلاط الروماني قد امتلك —على كل حال— وجهة نظر أعمق بمعانيها مما يمكننا فهمه.

التتار يجتاحون البلدان الشمالية

وجرى في هذه الآونة، إرسال رسل خاصيين من قبل المسلمين،

وبشكل خـاص من قبل شيخ الجبل، ولصـالحه، إلى الملك الفـرنسي، لاخباره بأن جنساً مـن البشر مرعباً وغير انساني البته، أخـذ بالتدفق من المناطق الجبلية الشمالية، وقد استولى على البلدان الكثيفة السكان والغنية في الشرق، وقـد أفـرغ هـؤلاء هنغـاريا الكبرى مـن السكان، وأرسلوا رسـائل تهديد، مع سفـارات مـرعبـة، وأعلنوا بأن رئيسهم هو رسـول الرب من عليين، قـد أرسل لإخضاع جميع الشعـوب التي تمردت ضده، ولهؤلاء القـوم رؤوس كبيرة جـداً، غير متناسبـة تمامـاً مع أجسـادهم، ويعيشون على الأسماك غير المطبـوخة، لابل حتى على لحوم البشر، وهم رمـاة لايمكن مقارنتهم، ويعبرون أي نهر بقـوارب صغيرة معمـولة من الجلود، وهم رجال أقوياء البنيـة، وضخمة هي أجسادهم، وغير أتقياء، وصلبين عنيـدين، ولغتهم غير معروفـة لدى جميع من نعـرفهم، ولديهم قطعان كثيرة، ومـواشي، ويربون الخيول، وخيولهم سريعة جـداً، وقادرة على انجـاز رحلة ثلاثة أيام في يوم واحد، ويتسلح الرجـال منهم بشكل جيـد من الأمـام، وليس من الخلف، حتى لايفـرون، ورئيسهم رجل شرس جداً، اسمه خان، ويسكن هؤلاء في المناطق الشمالية، إما في جبال بحـر قـزوين، أو في المواضع المجاورة، ويعـرفـون باسم «التتـار» وذلك اشتقاقـاً من نهر «تار»، وأعدادهم كبيرة جـداً، ومن المعتقد أنهم أرسلوا بمثـابة طاعـون لبني البشر، ومع أنهم تدفقـوا مهـاجمين في المناسبـات الماضيـة، يبدون في هذا العـام في حالة هيـاج حـادة أكثر مما هو معتـاد، وسكان بلاد القـوط Gothland, والفـريزيين، مـرعـوبين من حملاتهم، لذلك لم يقدموا إلى يارماوث Yarmouth, في انكلترا، كما هي عـادتهم، في أيام صيـد سمك الرنكة (مـن أنواع السردين)، حيث كانـت سفنهم تحمل به بالعادة، ولهذا السبب، عـدّ سمك الرنكة في هذا العام بلا قيمة، نظراً لكمياته الوافرة، وقد بيعت حوالي أربعين أو خمسين سمكة، من النوع الجيـد جداً مقـابل قطعـة واحدة من الفضـة، حتى في أماكن بعيـدة جداً عن البحر، وقدم هذا الرسـول المسلم والنبيل القوي

الذي وصل إلى الملك الفرنسي، باسم جميع أفراد شعب الشرق، ولصالحهم، للإخبار بهذه الأشياء، وقد طلب المساعدة من الشعوب الغربية، من أجل صدّ هجمة المغول المرعبة، وخضد شوكتهم، وقد أرسل أيضاً رسولاً مسلماً من جماعته إلى ملك انكلترا، وهو الذي وصل إلى انكلترا وروى أخبار هذه الوقائع، وليقول بأنهم أنفسهم، إن لم يستطيعوا الصمود أمام حملات مثل هؤلاء الناس، لن يبقى شيء يمنع اجتياحهم لبلدان الغرب، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

«لأنه عندما يحترق بيت جارك،

سوف بدورها تستولي النار على دارك».

وبناء عليه طلب المساعدة في حالة الطوارىء السريعة والعامة هذه، حتى يتمكن المسلمون بمساعدة المسيحيين من مقاومة حملات هؤلاء الناس، وصدف أن كان أسقف وينكستر حاضراً آنذاك، وكان مرتدياً لعلامة الصليب، فقاطع خطابه، وأجاب مازحاً مستهزئاً قائلاً:

«دعونا نترك هؤلاء الكلاب يلتهم أحدهم الآخر، حتى يؤكلوا جميعاً، ويهلكوا، ونحن عندما سنزحف ضد أعداء المسيح الذين سيبقون، سوف نقتلهم وننظف وجه الأرض منهم، وبذلك سوف يكون العالم كله، خاضعاً لكنيسة كاثوليكية واحدة، وسوف يكون هناك راع واحد لقطيع واحد».

موت بطرس دي روشي أسقف وينكستر

وفي التاسع من حزيران من العام نفسه، مات بطرس دي روشي Roches أسقف وينكستر، وكان قد أغلق حياته، بعدما حكم كنيسة وينكستر لمدة اثنتين وثلاثين سنة، وأيضاً بعدما قام بحجه بشكل معلن، إلى الأرض المقدسة، بصحبة أسقف ايكستر Exeter وكان كذلك قد بنى عدة بيوت لأشخاص دينيين، وعمل عهداً نبيلاً، وكان

عندما مات متقدماً بالسن، وحدثت وفاته بعزبة فارنهام Farnham وقد دفن في كنيسة وينكستر، حيث كان خلال حياته، واختار قبراً متواضعاً، وبوفاته، فقد مجمع المملكة الانكليزية كله من ملكيين إلى لاهوتيين خسارة لاتعوض، وينبغي أن لانسقط من الذكر، أن جميع التشريفات والمنافع التي منحت إلى الكنيسة، سواء أثناء السلام، أو أثناء الهدنة، أو حتى أثناء الحرب في الأرض المقدسة، عندما ذهب الامبراطور فردريك إلى هناك، كله تحقق بشكل نبيل وحكيم، وجرى تنفيذه بمشورة هذا الأسقف نفسه ومعونته، وإلى جانب هذا عندما تفجر الخلاف فيما بعد بين البابا وبين الامبراطور، وهدد حظ ومصير الكنيسة كلها، أعاد هو بسعادة، وبفضل نعمة الرب، السلام بين هذين الشخصيتين المشهورتين، وأسماء البيوت الدينية التي بناها، أو منحها ممتلكات، وأبنية، وموارد هي كما يلي:

في هيل Hales, لطائفة الـ Praemonstratensians, وتيكيفورد Tykeford للطائفة نفسها، وسيلبورن Selburn لطائفة القديس أوغسطين، يعني لكهنة نظاميين، والمشفى المشهور في بورتماوث، وفي الأرض المقدسة أيضاً، حوّل كنيسة القديس توماس الشهيد، من مكان غير لائق، إلى موضع مناسب، وغيّر طائفة الرهبان في تلك الكنيسة إلى طائفة أكثر جدارة وقوة، فاعتماداً منه على مساعدة بطريرك القدس، فإن هؤلاء الذين كانوا من قبل علمانيين بالفعل واللباس، حملوا الآن الصليب على صدورهم، وهم خاضعين لطائفة الداوية، وحصّن يافا، وجدد مكان لجوء للصليبيين، وقد عمل ميثاقاً رائعاً، وقدم مبلغاً كبيراً من المال، لكل من الأماكن المتقدم ذكرها، وإلى بيت القديس توماس في عكا، الذي كان أصغر مبلغ منحه إياه هو خمسمائة مارك، وبالاضافة إلى هذا ترك إلى خليفته أسقفية غنية، وواسعة في حقولها وقطعانها، وعندما سمع الملك بوفاة بطرس أسقف وينكستر،

تدبر تعيين وليم أسقف بلنسية المنتخب ليجري تعيينه في تلك الأسقفية، لكن المستشـــار رالف دي نيفيـل، أسقف شيستر، طُـلب بشكل محق —ضـد رغبـة الملك— من قبل ديـر وينكستر، الذي إليـه يعـود حق الانتخاب، وقـام الملك بصرف هذا الذي رغبوا به من مستشـاريته ومن بلاطه، وذلك بعـدمـا أخـذ منه الختم الذي كـان معهـوداً به إلى ذلك المستشار المذكور، بموجب نصيحـة المملكة كلها، وتمكن بوساطة محاميه المستقـرين في روما، وبانفـاق مبلغ كبير من المال، من إلغـاء طلب ذلك الدير، من قبل البابا.

حصار مدينة ميلان

وفي الوقت نفسـه من العـام، تابع الامبراطور حصـار ميـلان، وأثناء ذلك أرسل إليه تقـريباً جميع أمـراء المسيحية عساكـر إضافيـة، فقد بعث إليـه ملك انكلترا —ابن ختنه— مـائـة فـارس، مجهـزين بشكل جيـد بالخيـول والســلاح، تحت إمـرة هنري دي تربلفيـل، مع مبلغ كبير من المال، وبادر أيضاً الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي أجاد معرفة الأسلحة الدنيوية، أكثر من الأسلحة الروحيـة، إلى هناك مع الفرسان الذين بعث بهما كونتا طولوز وبروفانس لمساعدة الامبراطور، ومن المدهش لكثيرين ان الامبراطور، الذي أحـاط به ذلك الحشـد الكبير من النبلاء، قـد بدّد وقتاً طويلاً في الحصار، مع خسائـر كبيرة، باستثناء أنه في معركة واحدة، استطاع فيها هنري دي تربلفيل، مع الراية المنتصرة لملك انكلترا، ويتبعه الجنود الانكليز الذين كانوا تحت إمرته، بشجاعة وتمكن من صدّ حملات الأعـداء، وأرغمهم على فرار بلا أمل، ولذلك أعـاد الامبراطور الشكر إلى الملك بوساطة رسـالة بعث بها إلى الملك، وأعلن بها بأن ذلك القتال الشجـاع، كان السبب بسـلامته وكـرامتـه، وبعد أمـد وجيز، توجّـه مع جيش كبير لإلقاء الحصـار على بريشيا Brescia فأهالي ذلك المكان كانوا يمدون الميلانيين بالمساعدات، أثناء وضعهم المتأزم آنذاك، ولم يكن

الميلانيون، في الوقت نفسه كسالى، حيث أحاطوا مدينتهم بخنادق عميقة، وتابعوا مراراً تقديم العون إلى سكان بريشيا، وهكذا جرى تبديد فصل الصيف، وعلى هذه الصورة انتهى، وبناء عليه لدى اقتراب الشتاء، تمّ الاتفاق على عقد هدنة، بموافقة كلا الطرفين، والذين جاءوا لتقديم المساعدة إلى الامبراطور، غادروا دون أن يحققوا هدفهم، وغدا الامبرطور نفسه الذي لم يتمكن من قهر مدينة بريشيا، واخضاعها لتكون تحت حكمه، مع أنها كانت مدينة صغيرة بالمقارنة مع المدن الأخرى، غدا أقل إخافة لأعدائه، وأدنى احتراماً من قبل أصدقائه.

عودة ادموند رئيس أساقفة كانتربري من بلاط روما

وعاد في حوالي ذلك الوقت نفسه، ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، من بلاط روما، ووصل إلى انكلترا، ومع أنه غادر انكلترا مع موافقة المجمع الديري، فقد حصل من البابا على مرسوم لصالحه، وضد رهبان كانتربري، وبسببه نشب خلاف متقطع وغير معلن بين الراعي وقطيعه، وعانت الكنيسة من كثير من الخسائر، وقلة الكرامة، والتعليق، ووصمة العار، وسوء السمعة، وبناء عليه جرت دعوة النائب البابوي لتصحيح هذا الشقاق، وأثناء ترؤسه هيئة الكهنة في كانتربري، وبسبب أن كتاباً كان يحتوي على الامتياز الذي تمّ الحصول عليه في أيام القديس توماس، جرى حرقه بشكل أحمق من قبل بعض الأشخاص، قام بعزل رئيس الرهبان في ذلك المكان، وبعث به إلى طائفة أكثر قسوة وخشونة، حتى يقوم بممارسة أعمال توبة مستمرة، وأبعد أحد الرهبان لأنه (كما قيل) قد أزال بشكل سري من الامتياز المتقدم ذكره، الأشياء التي ظهرت بشكل واضح أنها ضد الرهبان، وأقحم أشياء أخرى بدت بأنها تخدم مصالحهم، ولأن مثل هذا المسح في ذلك الكتاب الأصيل لم يكن لينجو من ملاحظة الأشخاص الذين فحصوه بدقة، قام أحد الرهبان بشكل أحمق بإحراق ذلك الكتاب، وذلك حتى لاينال الدير

وصمةالعار والتزييف، وبناء عليه عندما أشار رئيس الأساقفة إلى ذلك الكتاب، وطلبه، وعندما لم يتم العثور عليه، عملوا اعترافاً صحيحاً بالذي وقع، واشتعل النائب البابوي —وهو محق— غضباً، وعقوبة على مثل هذه الغلطة العظيمة (حسبما تقدمت الإشارة أعلاه) طرد رئيس الرهبان وعزله من منصبه، وأبعد بعضاً من الرهبان الذين ظهروا بأنهم مجرمين، وأمرهم بأن يعيشوا بانضباط أعظم، وبتوبة مستمرة، وبعد ذلك، لأن رئيس الرهبان دخل إلى بيت الكهنة مع بعض العلمانيين لعمل انتخاب ضد العادة المعمول بها بالبيت، انتخب مجمع الدير رئيساً عليهم من دون موافقة رئيس الأساقفة، ثم سمع رئيس الأساقفة بهذا، فلم يوافق عليه، وألغى الانتخاب، ولم يكتف بانزال عقوبة التعليق، بل إنه حرم كنسياً رئيس الرهبان المنتخب مع الناخبين، لكن مجمع الدير، ترافع بجرأة واشتكى حول هذه القضية إلى البابا ضد رئيس الأساقفة.

الملك يسعى لتثبيت انتخاب وليم الأسقف المنتخب لبلنسية ليكون أسقفاً لأسقفية وينكستر

واستخدم الملك في هذه الآونة (مع أنه غالباً ما أقسم من قبل على صرف الأجانب وعلى عدم تقديم العون لهم) كل الوسائل الممكنة، وأكثر مما ينبغي، وبالوسائط غير الصحيحة، في سبيل ترقية وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، وانتخابه (وهو الرجل الذي وصف بأنه كان دموياً) لتسلم أسقفية وينكستر، لكن هذا رفضه الرهبان بين أنفسهم، وهم الرهبان الذين إليهم يعود حق الانتخاب بشكل معلوم، وذهبوا إلى الملك —كما جرت العادة، يطلبون الاذن بانتخاب أسقفهم— وقبل أن يعطيهم الملك أي جواب، رجاهم انتخاب وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي دعاه باسم عمه، ولم يوافق الرهبان، وطلبوا منحهم وقتاً للتداول حول القضية مع بقية أعضاء المجمع الديري، الذي يعود إليهم حق الانتخاب، وشعر الملك أنه بمنحهم هذه المهلة فإن التماساته سوف

تسقط من دون تـأثير، فتحـول إلى مكره المعتـاد، وفي رد على التماس الرهبان قال:

«لقد أخبرت بأن اثنين من شمامسة أسقفيتكم في وينكستر متوجب عليهما الحضور أثناء انتخابكم، وأنا لاأرى هذين في القضية الحالية، ولذلك لايمكنني الاستجابة إلى التماسكم»، وعلى هذا رد الرهبان بأنهما «وإن كان من المتوجب حضورهما أثناء الانتخاب (الذي يبدو لنا أنه سخيف ولايتماشى مع العدالة) هما لايحتاجان للحضور أثناء التقدم بالطلب للانتخاب»، ومع أن الملك وقف عند هذا الأمر طويلاً وتفكر به، هو لم يستطع معارضة مطلبهم، لكن بعد مضي بعض الوقت، علم بشكل يقيني بأن الرهبان يرعون بشكل جاد فكرة انتخاب وليم دي ريل Raele وكان رجلاً جديراً كله بالثناء، ليكون أسقفهم، فغضب غضباً عظيماً، وأجابهم بسخرية: «أنتم رفضتم الأسقف المنتخب لبلنسية، قائلين بأنه كان رجلاً دموياً، وانتخبتم الآن وليم ريل، الذي قتل بلسانه رجالاً أكثر مما قتله أي انسان آخر بالسيف»، وبتكبر واستخفاف أقسم أنه لن يتحمل هذا بأي شكل من الأشكال، ولهذا خاف الرهبان من غضب الملك، فتخلوا عن نيتهم، ودمر الملك في الوقت نفسه ممتلكات وتحسينات الأسقفية، وغالباً ما جلس في العزب التابعة لها، مع أعداد كبيرة من الأتباع كانوا يحيطون به.

الملك يتدبر إلغاء انتخاب رالف أسقف شيستر

ولدى رؤية الرهبان وقتها التأثير المضر للتأخير، شرعوا بنشاط متواصل يفكرون حول اختيار رئيس لأنفسهم، وعندما سمع الملك بهذا، بادر مسرعاً وعلى الفور إلى هناك، ودخل إلى بيت إدارة الكهنة بنشاط وحماس أكبر مما هو معتاد، وطلب من الرهبان بالوعد والوعيد، بأن عليهم انتخاب عمه، الأسقف المنتخب لبلنسية، وقد حاولوا ببراعة، ورغبوا في ازالة غضب الملك، وسعوا لتهدئة عنفه غير المحق

بوساطة التأخير، وكانوا غير راضين بالموافقة على مطالبه غير العادلة، وقد وافقوا بالاجماع على المطالبة برالف دي نيفيل، أسقف شيستر، ومستشار الملك، ليكون أسقفهم، والمسؤول عن أرواحهم، ووجد الملك أن التماساته، قد أخفقت مجدداً في التأثير عليهم، فعارض الطلب المحق للرهبان، وكدس كثيراً من الشناعات على الأسقف المذكور، وقال عنه بأنه كان قليل الصبر، وسريع الغضب، ورجلاً فاسداً، ثم وسمهم بالحماقة لأنهم طلبوه ليكون أسقفاً لهم، وبالاضافة إلى هذا، انتزع بعنف ختمه، الذي كان الأسقف المذكور قد تسلم المسؤولية عنه، بناء على رغبة عامة من المملكة، وعهد بالعناية به إلى الراهب غيوفري الداوي مع جون لكسنغتون، وذلك مع العطاء المعدّ للمستشارية، والمورد المعين للأسقف كمستشار، وتابع إجراءاته العدوانية، كما كان بدأها، فبعث سيمون النورماندي والاسكندر، وهو علماني، وكلاهما محاميين مستأجرين، إلى بلاط روما، الذي قام بوساطة هدايا كبيرة، ووعود من المال، فحرم رجلاً مستقيماً من حقه، وألغى قراراً محقاً، وألغى بشكل فاسد، الطلب المتقدم ذكره.

الميلانيون يرغبون بالتصالح مع الامبراطور فردريك

وفي هذه الآونة خاف الميلانيون من المقدرة الامبراطورية، فبعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بكل الالتماسات الممكنة، بعدما أعلنوا أنه مولاهم الحقيقي وسيدهم الطبيعي، أن يزيل غضبه عنهم، وأن يوقف قتاله ضدهم، وأن يرعاهم، وأن يحميهم، بمثابة كونهم رعيته التابعين له، والموضوعين تحت جناحي حمايته القديرة، وأعلنوا أنهم سوف من الآن فصاعداً، كما فعلوا من قبل، يخدمونه بمثابة مولاهم وامبراطورهم، مع الاحترام كله، وكبرهان على طاعتهم، ومن أجل أن ينالوا حمايته بوساطة أسلحته وعواطفه، وفي سبيل نسيان عصيانهم السالف الذكر، ولعدم تذكره، وعدوا عن طواعية من أنفسهم أن يقدموا له جميع

المدخرات الأساسية التي يمتلكونها من ذهب وفضة، وعلاوة على ذلك، وكعلامة على خضوعهم وطاعتهم، وعلى نصره الامبراطوري، إنهم سوف يجمعون جميع راياتهم، ويحرقونها عند قدمي الامبراطور، وأنهم بالاضافة إلى هذا، عندما سيستأنف الامبراطور ثانية القتال في خدمة الصليب في الأرض المقدسة، سوف يزودونه سنوياً بعشرة آلاف جندي، في سبيل تقدم الكنيسة، وفي سبيل كرامته، شريطة أن يتولى محبة سكان المدينة من دون شوائب أو أذى، وأن تبقى حالة المدينة وسكانها كما هي محافظ عليها.

لكن الامبراطور، رفض بشموخ جميع هذه العروض، وطالب بشكل قطعي، أن يقوم السكان بشكل عام مع مدينتهم، ومع جميع ممتلكاتهم، بالتخلّي عن أنفسهم وعن إرادتهم ووضع ذلك طوع رغباته، ورد السكان بموافقة عامة على هذا السلوك الطغياني، بأنهم لن يفعلوا هذا بأي حال من الأحوال، وقالوا:

«لقد تعلمنا بالخبرة، وبالخوف من وحشيتك، أن نفضل الموت تحت ترستنا، بالسيف، أو الرمح، أو بالنشاب، على الموت بالخيانة، والجوع، واللهب»، وبدأ الامبراطور منذ ذلك الحين يفقد الحظوة لدى الكثيرين، لأنه قد أصبح طاغية، ونال الميلانيون لتواضعهم التشجيع، وحصلوا على القوة، وذلك وفقاً لكلمات الانجيل في قوله: «يقاوم الرب المتشامخ، ويعطي النعمة إلى المتواضع»، ووقتها رأى الميلانيون أن المسألة مسألة موت أو حياة، فتولوا تحصين مدينتهم بمزيد من النشاط أكثر مما هو معتاد، بالسلاح وبالخنادق، وبالدخول بتحالفات مع مدن أخرى.

واقعة الراهب جون من طائفة المبشرين

وفي هذه الآونة نفسها، نبغ واحد من طائفة المبشرين، واسمه الراهب جون، وكان رجلاً متعلماً، وفصيحاً، وممتعاً في عمله كمبشر، وقد تمتع

بسمعة عظيمة واحترام كبير في ايطاليا، إلى حد أنه أطفأ الحروب بين السكان، وقد عمل الرب معجزات له، حيث أنه عبر الأنهار حافياً، وأرغم الطيور الجارحة الطائرة في الهواء على النزول إلى الأرض، بناء على أوامره، وأخيراً أصبح على كل حال، بوساطة مكر الشيطان متشامخاً بشهرته، وضعف بالعلاقة الجسدية الشهوانية لأصدقائه، وبذلك استحق فقدان محبة الرب، والتشريف لدى البشر، والاحترام لدى رجال الدين.

محاولة أحد الأشرار قتل الملك في قاعة نومه

ووقعت في السنة نفسها، واقعة مرعبة للملك، جعلت الناس كلهم يرتعبون، ففي اليوم الذي جاء بعد ميلاد القديسة مريم، قدم واحد من السادة المتعلمين —كما قيل— إلى بلاط الملك في وودستوك، وتظاهر بأنه كان مجنوناً، وقال للملك: «استقل من الملك لصالحي، وسلمني حكم المملكة الذي اغتصبته بشكل غير عادل، والذي حرمتني منه لزمن طويل»، كما أنه أضاف بأنه يحمل شارة الملك على كتفه، ورغب رجال حاشية الملك بضربه، وبطرده من الحضرة الملكية، لكن الملك منع الذين كانوا منقضين عليه من استخدام العنف ضده قائلاً: «اتركوا الرجل المجنون يهذي كما يريد، وحسبما يأتيه، لأن كلام هؤلاء الناس ليس له تأثير الصدق»، وفي منتصف الليل —على كل حال— دخل هذا الرجل نفسه إلى قاعة نوم الملك من النافذة، حاملاً بيده مدية مفتوحة، واقترب من فراش الملك، غير أنه أصيب بالاضطراب لعدم وجوده هناك، وبدأ على الفور يبحث عنه في عدد من قاعات النوم في مسكنه، وكان الملك، بفضل الرب نائماً مع الملكة، وكان هناك بالصدفة واحدة من وصيفات الملكة مستيقظة، وكان اسمها مرغريت بيزث Bis-eth وكانت تغني ببعض المزامير على ضوء شمعة (لأنها كانت وصيفة مقدسة، وواحدة مكرسة للرب)، وعندما رأت هذا الرجل المجنون، يفتش في الأماكن الخاصة، ليقتل الملك، وهو يسأل بصوت

مـرعب عـن المكان الذي فيـه الملك، ارتعبـت كثيراً، وأخـذت تردد صراخها، ولدى سماع صراخها المرعب، استيقـظ حراس الملك، وقفزوا من أسرتهم بكل سرعـة، وركضوا نحـو المكان، وفتحـوا الباب بالقـوة، الذي كـان اللـص قـد أغلقـه بإحكام، واعتقلوا اللـص، على الرغم من مقاومته، وربطوه وغلوه بقوة، وضمنوه.

وقد اعترف هـذا الرجل بعد بعض الوقت، بأنه قـد أرسل إلى هناك، ليقتل الملك وفق طرائق الحشيشيـة، من قبل وليم مارش، ابن غيـوفري مـارش، وأفاد بأن آخـرين قـد تآمـروا لإقتراف الجريمة نفسهـا، ولدى معرفة الملك بهذا، أمر به، بحكم كونه مجرماً بمحاولة قتل جلالة الملك، بأن يمـزق طرف منه عن الطرف الآخـر بوسـاطة الخيول في كـوفنتري، وكـان بذلك مثـلاً مخيفـاً ومشهـداً مؤسفـاً لكل من يتجـرأ على التـآمـر لإقتراف مثل هذه الجرائم، وجـرى سحله أولاً وهـو ممزق إرباً إرباً، ثم جرى قطع رأسـه، وتقسيم جسده إلى ثلاثة أقسـام، ثم إنه جرى سحل كل جزء خلال إحدى المدن الرئيسية في انكلترا، وبعد هذا جرى تعليقه على المشنقة المعدة للصوص.

عاصفة من الريح ثقيلة

في حـوالي يوم عيـد القـديس متى (٢١- أيلول) ثارت عـاصفـة من الريح بعنف مـدمر، ومن دون أن أذكـر الأضرار التي تسببت بها والتي لايمكن تعويضها، غرقت أكثر من عشرين سفينة في بورتماوث.

عودة سيمون دي مونتفورت إلى إنكلترا

وفي يوم عيـد القديس كـاليكستوس Calixtus (١٤- تشرين أول) عاد سيمون دي مونتفورت من القارة، واستقبل من قبل الملك، ومن جميع الحاشية الملكية بقبلة السلام، ثم إنه انطلق بكل سرعة نحو زوجته إليانور، التي كانت مقيمة في نيلوورث Kenilworth وهي على وشك الولادة.

دعوة رعاة رهبان الطائفة السوداء للمثول أمام النائب البابوي في لندن

وفي العام نفسه، استدعى النائب البابوي أوتو، بناء على تفويض من البابا، جميع رعاة رهبان الطائفة السوداء، للمثول أمامه، في كنيسة القديس مارتن في لندن، ليتولى تقدير الدرجات التي أمر بها صاحب القداسة البابا —بعد مناقشة كافية— من أجل إصلاح الطائفة الرهبانية.

إصلاح أحكام رهبان الطائفة السوداء

وعندما اجتمع جميع رعاة طائفة الرهبان السود، نهض النائب البابوي، وحثهم ليكونوا جميعاً صبورين، ثم شرع بإلقاء خطبة منمقة كانت كما يلي:

«باسم مولانا يسوع المسيح، والأب والابن والروح القدس، آمين، إنها لمهمة عظيمة وصعبة القيام بتحصين مدينة الرب، التي هي الكنيسة، بمراسيم جديدة ومتطورة، ضد مصائد العدو الخبيث، الذي يسعى باستمرار ببدع قديمة وجديدة لإخضاعها، وقمنا نحن أوتو، الذي بفضل رحمة الرب، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، والنائب للكرسي الرسولي، صدوراً عن واجبات النيابة البابوية المفروضة علينا، وتقديراً لأنفسنا بأننا مسؤولين عن تقديم المساعدة في مثل هذا العمل المفيد، فتدبرنا جمع وتدوين بعض الأحكام من نظام الأب المقدس بندكت، وكذلك من المجامع المقدسة، والمراسيم الشرعية، وكذلك من أحكام رعاة الرهبان التابعين لطائفة بندكت المذكور، التي إذا ما تولوا رعايتها سوف تخدم في مساعدة ديانتنا المقدسة والدفاع عنها».

الذين يجري قبولهم في الطوائف الدينية

«ورسمنا في المقام الأول، أنه من الآن فصاعداً، لن يجري قبول أي واحد للقيام باحترافه وتكريس نفسه للرهبانية، قبل إكماله سن العشرين، ولا لإختبار التأهيل قبل إكماله التاسعة عشرة من عمره».

عند انتهاء سنة اختبار التأهيل يبدأ التكريس للرهبانية

وكذلك كل من جرى قبوله لاختبار التأهيل، سوف، فور انتهاء سنة اختبار التأهيل، يقوم بأعمال التكريس للرهبانية، أو سوف يغادر الدير، وخلافاً لهذا، إن كل راعي دير، أو رئيس للرهبان سوف يحتفظ بأي واحد بعد عام من دون القيام بالتكريس للرهبنة، سوف يتلقى عقوبة حادة، من قبل رؤساء الهيئة الكهنوتية، ومع هذا سوف يعدّ المترهبن مرغماً على عمل التكريس، ولسوف يعدّ وكأنه مكرس للرهبنة».

لايجوز قبول أحد شرطياً أو مقابل دفع

«وكذلك لايجوز استخراج أي مال من أي واحد يرغب بدخول الدير، والذين يقبلون سوف يجري قبولهم فقط من أجل الرب، ومن دون أي التزام، ومع ذلك، إذا ماجرى تقديم أي شيء مجاناً، من دون أي إلزام، أو استخراج، أو ضريبة، من الممكن قبول ذلك من دون ملامة».

لايجوز لأحد أن تكون لديه أية ممتلكات خاصة به أو ذاتية

«وكذلك، إنه من الآن فصاعداً، لايجوز لأي راهب أن يستحوذ أي شيء خاص به، وإذا ماكان لديه أي شيء يتوجب عليه، على الفور التخلي عنه إلى رئيسه».

لايجوز لأي واحد السكنى وحده في عزبة أو كنيسة

«وكذلك، لايجوز من الآن فصاعداً، لأي راهب الاقدام على تسلم

أية عـزبة من رئيسـه، أو أيـة ممتلكات أخـرى، للضمان، وإذا فعل ذلك سـوف يعدّ متملكاً، وبالتـالي سـوف يعاقـب، وكذلك لايجوز للرهبـان السكنى في العــزب، ولاحتى في الكنائـس، مــالم يكن هناك أكثــر من واحد، أو على الأقل اثنين».

على المطيعين تقديم حساب عن إداراتهم

«وسوف كذلك يجري تعيين المستقيمين، والرجال الموثوقين في بعض المناصب، وعلى هؤلاء أن يقدموا ثلاث مـرات في العام حساباً صحيحاً عن إداراتهم ومناصبهم، إلى رئيسهم، وذلـك بحضـور بعض الشيـوخ، وعند ذلك إن كل مايزيـد يمكنهم أخذه، مهما تضمن، سواء أكـان مالاً أو أية مقتنيــات أخـرى، إنهم ســوف يأخـذونها من دون منـاقشـة أو خلاف، وأن يضعوا جانباً كل غش، ثم أن يتخلوا عن ذلك إلى رئيسهم أو يعهــدون به إليـه، وكـل من يتصرف على عكس هذا، ســوف ينال العقوبة لكونه متملكاً».

ومثل هذا على رئيس الرهبان تقديم حساب

«وعلى راعي الرهبان أيضـاً، أو رئيس الرهبان، في حال عـدم وجود راعي، أن يقـدم حسـاباً وافياً، على الأقـل مرة واحـدة في السنة، حـول وضع ديره، وحـول إدارته للمجمع الرهبـاني، أو أن يقـوم بذلك بعض الشيـوخ الذين جـرى تفـويضهم وإنابتهم مـن قبل المجمع الديري لهذه الغاية».

من المتوجب التفوه بقرار الحرمان الكنسي ضدّ المتملكين بشكل علني

«ونحن نرسم أيضـاً، أنه يتوجب على الرؤسـاء المشرفين، أن يتفوهوا على الأقل مـرة واحـدة في العـام، بشكل علني بحكم الحرمـان الكنسي

ضد المتملكين، أو معاقبتهم بطرق أخرى إذا لم يثوبوا إلى رشدهم، وبشكل رئيسي بعار عدم الدفن».

وجوب الالتزام بالصمت وفقاً للأمر

«ونحن نرسم أيضاً، أنه وفقاً للنظام، تتوجب مراعاة الصمت، في بعض الأماكن المخصصة، والأوقات، والساعات المحددة، وعلى الجميع أن يسعوا لمعرفة الشارات الضرورية».

تحريم أكل اللحوم

«وبالاضافة، إلى هذه الأشياء، إنه فيما يتعلق بأكل اللحوم، قد جرى تحريمها على رهبان الطائفة السوداء، بموجب أحكام نظام القديس بندكت، وحكمنا، وكذلك حكم الهيئة العامة للرهبانية برئاسة رعاة الديرة في انكلترا، ونحن في سبيل إزالة جميع مناسبات وقضايا الشكوى من بين هؤلاء الرهبان الذين اعتادوا فيها على إثارة الفوضى من أجل أكل اللحم، نأمر الرعاة والرؤساء بشراء —حسب إمكانات بيتهم— وتزويد الرهبان، ببعض المواد الغذائية المناسبة عوضاً عما هو محرم عليهم».

وجوب تقديم ملابس مناسبة وكافية

«قرار بوجوب امتلاك الرهبان ملابس مناسبة وكافية، لكل من أجسادهم وأسرتهم، وأن يزودوا بذلك وفقاً لنظام البيت وإمكاناته، لكن لايجوز لهم ارتداء قمصان من الكتان، أو أغطية رأس».

على الرهبان النوم مع بعضهم

«ويتوجب كذلك نوم الرهبان مع بعضهم، وأن يمتلكوا أسرة وفقاً للنظام، ولايجوز أن يكون مهجع نومهم من دون ضوء».

وجوب مراعاة الضيافة

«نحن نأمر ونرسم، بوجوب مراعاة الضيافة، من قبل كل من الرؤساء، ومن الذين هم أدنى منهم، وفقاً لقداسة النظام ولإمكانات المكان، وأن يكون ذلك مصحوباً مع كل الإحسان والسرور، وأن يجري دوماً ندب راهب لطيف وأديب من أجل هذه الغاية، ونحن نرسم أيضاً بوجوب مراعاة الشيء نفسه نحو الرهبان المرضى».

على الرهبان جميعاً الحضور أثناء القداسات الكبرى والصغرى

«وكذلك يتوجب على الجميع أن يكونوا حضوراً في ساعات القداسات الدينية، لاسيما أثناء القداسات الصغرى والكبرى، مالم يمتلك أحدهم عذراً جيداً للتغيب، بأن يكون مشغولاً مع ضيوف، أو بموجب إذن خاص من رئيسه، حيث يعدّ ذلك سبباً موجباً للغياب».

وجوب تجنب الاسراف

«ويتوجب على الأساقفة السعي لتحديد عدد خيولهم ومرافقيهم بقدر ما يستطيعون».

وجوب تدوين الأحكام وفقاً للنظام

«ونحن نرسم أيضاً، أن يتدبر رعاة الديرة ورؤساء الرهبان يومياً تدوين —وفقاً للنظام— مراسيم الأحبار الأعظميين، ولاسيما التي تشير بشكل خاص إليهم وإلى طائفتهم، والواردة في مجموع صاحب القداسة البابا غريغوري التاسع، والتي كتبت تحت العناوين الواردة أدناه وهي: «حول المدنيين الذين على وشك الدخول إلى البيوت الدينية» الخ، «حول دورك» الخ، «خشية الدين» الخ، «حول أوضاع الرهبان» الخ، «في كل منطقة» الخ، «الأشياء التي من أجل كرامة الدين» الخ، «حول السيمونية— أي حول التلوث بالسيمونية» الخ،

«حـول قرار الحرمـان الكنسي» الخ، «الجسد كله» الخ، «حـول التحليل من هذه الأشيـاء كلها» الخ، «حـول الراهبـات» الخ، «حول الثبـات— أي التأكد» الخ، «حول المدفوعات» الخ، «حول أي شيء كان».

الأشياء التي يجري بالغالب تكرارها

«ونحن نفــرض أيضاً بكل دقــة على جميع رعـاة الديـرة، ورؤسـاء الرهبان، أن يقوموا بدراسة الأحكام المتقدم ذكرها أعلاه وتعلمها، وهي أحكام نظام القـديس بندكت، والمراسيم والنظم التي كتبت أعـلاه، وأن يحتفظوا بهم دومـاً على مقـربـة منهم، وأن يجعلوا شغلهم الشــاغل ألا تكون هذه الموضوعات غير معروفة من قبلهم».

قراءة ماورد أعلاه مرة واحدة في اليوم

«ونحن نرسم أيضاً، ونأمر بمراعاة مايلي بكل دقة، وهو قراءة النظام الذي تقـدم ذكره أعـلاه، والمراسيم، مرة واحـدة في كل يوم، في ساعـة مـوائمة، في الدير بحضـور جميع الرهبـان، وأن يجري شرحهم إلى الذين لايفهمونهم».

قانون البابا أونوريوس الثالث المتعلق بالذين يدخلون البيوت الدينية

«**لقـد تقرر من جهتكم مـايلي، الخ**: من أنوريوس الثـالث إلى أسقف أريزو Arezzo: من المعـروف ان هناك بعضـاً، مع أنهم ارتدوا منذ سنين طويلة ثيـاب الرهبان، هم لم يقـومـوا بالتكريس المطلوب ليكونوا رهباناً، ولذلك عندما يجري اتهامهم من قبلكم، أو من قبل آخرين، بأن لديهم ممتلكات، وأنهم يعيشون بشكل نظامـي، هم لايخجلون من القول بأنهم غير ملـزمين، أو غير متعهـــدين في أن يكونوا مـن دون ممتلكات خــاصـــة، وفي سبيل الامتناع عـن الشهــوات، والأحكام الانتظاميــة

الأخرى، إنه ليس الرداء الرهباني هو الذي يعمل الراهب، بل التكريس النظامي، الـخ، الخ، ولذلك إننا نـأمـر أخـوتكـم، بمـوجب الروادع الكنسيـة، أن ترغمـوا الخاضعين إليكم بمـوجب القـانون الأسقفي، والذين يتجـرأون على دخول الأرض بطريقين، وفق المنهج الذي تقـدم ذكره، أن يقوموا بتكريسهم الرهبـاني المطلوب، وأن يراعوا النظام، وفقاً لأشكال الطائفة، وذلك بعد ارتدائهم للباس الرهباني لمدة سنة واحدة».

مرسوم البابا غريغوري التاسع حول الأمر نفسه

«نحن نرسم، بأن المترهبنين في أيام اختبـارهـم، وقبل ارتدائهم لرداء الرهبنة، الذي يعطـى بالعـادة إلى الذين عملوا تكـريسهم المطلوب، هم أحرار في أن يغادروا ويعودوا إلى أوضاعهم المتقدمة، وذلك خلال سنة، اللهم مـالم يظهـر بشكل واضح بأن مثل هؤلاء الأشخـاص قـد اتخذوا قـرارهم بشكل حاسم بتغيير طـريقتهم في الحياة، وأن يخدمـوا الرب في تكريس تقوي مستمر، الذي معه يمكن أن يكون مفيداً التخلي عن ذلك الذي معـروف أنه أضيف على فضـائله الخاصـة، ومـع هذا نحن نرسم —في سبيل إزالة كل شك— بما أن أرديـة المترهبنين، في بعض البيـوت الدينيـة لايمكـن تمييـزها عن أردية المكرسين، ينبغي أن تجري مبـاركـة الملابس التي تعطى إلى المكـرسين وقت التكريس، وبذلك يمكن تمييـز ألبسة المترهبنين عن ألبسة المكرسين».

المزيد حول الموضوع نفسه

«خشيـة من أن يتعـرض بعض رجـال الدين في بعض المناسبـات إلى السفر، ومن ثم الحصول على بعض الأذى بالنسبة لصحتهم، وأن تجري المطالبـة بدمـائهم على أيدي رؤسـائهم، نحـن نرسم، بأنه يتـوجب على الرؤسـاء، أثناء شغلهم لمنصب رئيس الهيئة الرهبـانية، وذلك تماشيـاً مع قانون المجمـع العام، سواء أكـانوا آباء، أو رعاة ديرة، أو رؤسـاء كهنة،

البحث بدقة كل سنة عن الرهبان الذين هربوا، أو الذين طردوا من طائفتهم، وإذا ما أمكن فيما بعد استقبالهم وفقاً للنظام القائم، أن يجري استقبالهم في ديرتهم، وأن يتم بموجب الروادع اللاهوتية إرغام رعاة ديرهم أو رؤساء رهبانياتهم، على استقبالهم، وذلك وفقاً لنظام الطائفة، لكن إذا كانت الطائفة لاتسمح بفعل ذلك، على الرئيس المذكور، القيام بموجب سلطاتنا، تأمين عزلهم في ديرة تابعة للطائفة نفسها، وفي أماكن مناسبة، على شرط أن يعمل ذلك من دون أي فضائح، وينبغي تأمين الضرورات المعاشية، وتزويد مثل هؤلاء الأشخاص بها في البيوت الدينية الأخرى للطائفة نفسها، ليقوموا هناك بالتوبة، لكنهم إذا وجدوا عدم طاعة من أي نوع، سوف يتولون حرمانهم كنسياً، ولسوف يعلن عنهم أمام الملأ ويشهر بهم على أنهم محرومين كنسياً، من قبل رؤساء الكنائس، حتى يعودوا بكل تواضع لدى استدعائهم».

وضع الرهبان

«لن يجري قبول الرهبان في الديرة بوساطة دفع المال، كما لن يكون لديهم أية ممتلكات خاصة بهم، وسوف لن يجري توزيعهم واحداً واحداً فيما بين الكنائس في البلدان المختلفة، وفي القرى، حتى لايكونوا هم أنفسهم بين المدنيين، لانتظار الصراع من الأعداء الروحيين، لأن سليمان قد قال: «ويل له، الذي يكون وحيداً عندما يقع، لأنه ليس لديه آخر ليساعده على القيام»، وإذا ما قام أي واحد لدى سؤاله، فأعطى أي شيء في سبيل القبول، إنه سوف لن يرتفع إلى الطوائف المقدسة، وسوف يجري تعليق المتسلم وايقافه عن عمله، وكل من سوف يبقي أي شيء لنفسه، ما لم يكن قد سمح له من قبل راعي الدير، من أجل بعض الخدمات المفروضة عليه، سوف ينقل مبعداً عن المشاركة بقداس العشاء الرباني عند المذبح، وإذا ماوجد أي انسان، في لحظته الأخيرة، مع أي ممتلكات خاصة، ولم يقم بالتوبة بشكل موائم، سوف لن تعمل أية

تقـدمـة إليـه، كما أنه لن يتلقى دفناً بين جميـع الطوائف الدينيـة، وليعلم راعي الدير الذي سوف لن يحترس بعناية ضد هذه الذنوب، بأنه سوف ينال الحرمـان من منصبـه، كما أنـه لايجوز إعطاء رئـاسـات الرهبـان أو المناصب، إلى أي واحـد مقـابل الدفع، وإذا حـدث ذلك، فإن كـلا من المعطي والمتسلم سوف يجري طردهم من مناصبهم، أمـا بالنسبة لرؤساء الرهبـان، فإنهم بعـد تعيينهم بشكل قـانوني في كنـائس ديرية، بوسـاطة الانتخـاب من قبل هيئاتهم الرهبـانيـة، لن يجري تغييرهم، إلاّ لسبب واضح ومعقـول، مثـل التخـريب، أو الفسـوق أو شيئـاً من هذا القبيل يبـدو أنها تـؤهل للعـزل، أو أيضـاً إذا جـرى نقلهم بنـاء على نصيحـة رهبانهم إلى منصب أعلى».

المزيد حول الموضوع نفسه

«ونحن نمنع من الآن فصاعداً، بكل دقة، أياً من الرهبان، من ارتداء قمصان كتـانية، كما اننا نحـرم أيضاً على أي من الرهبـان، بحكم فضيلة طاعتهم، وتحت تهديد الحسـاب اللاهـوتي من امتـلاك أية مقتنيـات بأية طريقة من الطرق، وعلى الذي لـديه أي شيء خاص به، التخلي عنه على الفور، وإذا ما وجد فيها بعد، لديه أيـة ممتلكات خاصة، وكان ذلك بعد تسليمـه انذاراً نظاميـاً، سـوف يطرد من الدير، كما لن يسمـح له ثانيـة بالقبول به، مـالم يكن قد قام بالتكفير، وفقاً لأنظمة الـدير، وإذا ماجرى اكتشاف وجـود أية مقتنيات، عند مـوت أي واحد، سـوف يجري دفنها معـه، في كومـة من القاذورات، وذلك وفقـاً لما قاله المبـارك غريغـوري وفعله، وبناء عليه إن أي شيء سوف يجري إرساله إلى أي واحد، بشكل خاص، يتـوجب عليه عـدم التجرؤ على استـلامه، بل عليـه تسليمه إلى راعي ديره أو إلى رئيس رهبـانه، ويتـوجب الالتـزام بصمت مستمـر في القـلايـة، وفي المطعم، وفي مهجع النوم، وفي الدير في بعـض الأوقـات، وفي بعض الأمـاكن، وذلك وفقاً للعـادة القديمة للديـر، ولايجوز لأحد

أن يأكل لحماً في المطعم، ولا في المناسبات العـامة الوقـورة، حسبما كانت العادة أحياناً في الدير، ولكن على الراهب أن يترك قليلاً في المطعم، وأن يخرج مع الـراهب ليأكل لحماً في الخارج، لأنـه في هذه الأيام تتـوجب مراعاة نظام خاص بدقة أعظم، ومع ذلك على الرهبان أن لايعتقدوا أنه مسمـوح لهم بأكـل اللحم خـارج المطعم، مـالم يكـن ذلك في مأوى المرضى، مع أنه يمكن أحياناً لراعي الدير، عن طريق الـرعاية، أن يدعو بعض الرهبان إليه، أحياناً واحداً، وأحيـاناً واحداً آخر، ليقدم لهم وجبة خاصـة في غرفتـه، بالاضافـة إلى هذا يمكن للرهبان المرضـى والضعفاء الذين يحتاجون للتقوية، أو لبعض الأدوية، أن يتسلموا كمية مناسبة، مما هو ضروري لهم، من كل من اللحم ومن الأشيـاء الأخـرى، وإذا كـان أحـدهم ناقهـاً، أو حتى ضعيفـاً، ولايمكن أن يكتفي بالطعـام العـام، ينبغي تدبر ذلك له هكذا، مـن دون فضائح بالنسبـة للآخـرين، أي إذا مـارغب راعي الدير أو رئيس الرهبان، أن يقـدم له معروفـاً خاصـاً في المطعم، يمكنه أن يتدبر تقديم كمية كـافية من الطعام أو جلبها له، لكن ليس أمـام الناس المرضى، بل أمـامـه نفسـه، ومـن ذلك يمكن للرجل المريض أن يأخـذ كميـة صغيرة ليـدعـم الطبيعـة، ويتـوجب تعيين مثل هؤلاء الأشخـاص لتأدية واجبـات الدير بشكل مخلص وأمين، ومـا من منصب، يجوز أن يعهـد به إلى أي واحـد، ليحتفظ به إلى الأبد، أي كأنه عين له مدى الحياة، لكن عندما يتوجب عزله، هو سوف يعزل من دون أية معـارضة مهما كـان نوعها، وسـوف يكون رئيس الرهبان هو التـالي لراعي الدير، وينبغي أن يكون فـوق البقية، مؤثراً في أعماله وفي كـلامه، وبذلك يمكن بمثل حيـاته، وبكلام عقيدته، أن يكون قـادراً على توجيه رهبانه نحو ماهو خير، وأن يبعـدهم عما هو شر، وأن تتوفر لديه الغيرة على الدين، وفقاً لمعارفه، وذلك حتى يتمكن من تقديم الرعاية اللطيفة، وأن يعتني بنيل طاعة مـريحة، وراعي الدير هو الذي على الجميع إطاعته في جميع القضـايا، ويتوجب أن يكون دومـاً —بقدر مـا هو ممكن— مع

رهبانه في الدير، وأن تكون لديه رعاية يقظة، واهتمام متواصل بشأن جميع الرهبان، حتى يتمكن أن يقدم إلى الرب حساباً صحيحاً عن المنصب الذي أسند إليه، ولكن إنه إذا ما سيكون خائناً لطائفته، أو مستخفاً بها، أو مهملاً، أو مبدداً، عليه أن يعرف بشكل مؤكد، أنه لن يخلع فقط من منصبه، بل إنه سوف يعاقب بطريقة أخرى، وفقاً لذنبه، وكأن ذلك ليس ذنبه الخاص، بل ذنب الآخرين، فهو سوف يكون مطلوباً على يديه، ولايجوز لأي راعي دير أن يفكر بأن بإمكانه إعطاء أي راهب ترخيصاً بامتلاك مقتنيات، لأن التخلي عن المقتنيات، والمحافظة على الإحسان أمران مرتبطان تماماً مع الأنظمة الرهبانية، ذلك أنه حتى الحبر الأعظم لايمكنه أن يمنحه ترخيصاً في هذه القضايا».

المزيد حول الموضوع نفسه

سوف يكون في كل مملكة، أو مقاطعة —كل ثلاث سنوات— باستثناء امتياز أساقفة الأبرشيات— اجتماع عام للهيئة العامة لرعاة الديرة ولرؤساء الرهبان، الذين ليس لديهم رعاة ديرة مرتبطون بهم، والذين غير معتادين على عقد مثل هذه الهيئات، حيث يتوجب أن يجتمع فيها جميع الذين ليس لديهم معيقات قانونية، في واحد من الديرة يكون مناسباً لهذه الغاية، مع التحذير التالي الذي يقضي بأن لايجلب أي واحد منهم معه أكثر من ست عربات وثمانية أشخاص، وعليهم أيضاً لدى شروعهم بهذه المسألة الجديدة، استدعاء اثنين من رعاة الديرة المجاورين من طائفة السسترشيان، لإعطائهم فرصة للنصيحة، ومساعدة، بحكم أنهم، منذ زمن بعيد معتادين، ولديهم معارف أفضل في عقد هيئات من هذا النوع، ودعوهم يوحدوا مع أنفسهم أي اثنين يرون أنهما موائمين، وليقم هؤلاء الأربعة بالترؤس على الهيئة كلها، وبذلك لايمكن لأي واحد منهم أن يدعي لنفسه الرئاسة الأسقفية، وعندما يكون موائماً، من الممكن عمل تغيير، بعد تداول وتفكير دقيق،

ويتـوجب عقد اجتماع هذه الهيئـة الرهبانيـة يوميـاً، لمدة عدة أيام، وفقـاً لعـادة طائفـة الرهبـان السسترشيـان، ويتـوجب الدخـول في الاجتماع المذكور للهيئة الرهبانية بمناقشات دقيقة حول إصلاح الطائفة، والمراعاة المنتظمـة للنظم، وكل مـايجري تقـريره مع التعـاون مع هؤلاء الأربعـة، سـوف تجري مـراعـاته من دون أي تحفظ، أو معـارضـة، أو مـرافعـة استئناف، لكن مع تقـرير مـوعد عقـد اجتماع الهيئة الرهبـانية في الحقبـة المقبلة، والذين سـوف يجتمعـون هناك، سـوف يعيشـون مع بعضهم، وسوف يتوازعون فيما بينهم المشـاركة بالنفقات بشكل عام، ولكن إذا لم يكن بإمكان الجميع العيش في البيت نفسـه يمكن لعدد منهم العيش مع بعضهم في بيـوت متنوعة، وسـوف يجري أيضـاً في هذا الاجتماع للهيئة الرهبانية تعيين أشخاص دينيين وواعين، عوضاً عنا، ووفقاً لنظام جرى تعيينه من قبـل لهم، للقيـام بزيارات تفقـدية لكـل رعـوية في المملكة المذكورة أو في المقـاطعة، ليس فقط للرهبان، بل للراهبـات أيضاً، حيث يقـومـون بتقـويم وإصـلاح، كل مـايعتقـدون أنه يحتـاج إلى الإصـلاح والتقويم، وإذا ما وجـدوا أن القسيس في أي مكان ينبغي عزله كلياً من منصبـه، عليهم القيام على الفـور إعلام أسقفـه بقرارهم بعـزله، وبذلك يقوم هذا الأخير بادخال العزل حيز التنفيذ، وإذا ماتقاعس الأسقف ولم ينفـذ، على الزوار التفقـديين رفع القضيـة إلى الكرسي الرسـولي، ونحن نقضي ونأمر، أن على جميع الكهنة النظاميين —تبعـاً لطوائفهم— مراعاة هذا النظام نفسـه، وإذا ماانبعثت في هذه المسألة الجديدة، أية مصـاعب، من غير الممكن إزالتهـا من قبل الأشخـاص المتقـدم ذكـرهم، يتـوجب إحـالتهـا، من دون أي أذى، إلى الكرسي الـرسـولي، حتى يجري حلهـا، وبالنسبة لجميع الأشياء الأخـرى، التي من الممكن الاتفاق حولها بشكل اجماعي، من المتـوجب مـراعـاتها من دون مـواربـة، وزيادة على هذا، يتوجـب على أساقفة الأبرشيـات السعي لإصلاح الديـرة الخاضعة لهم، من أجل أنـه عندمـا يصل الزوار التفقـديون، يمكنهم أن يجدوا أنهم

يستحقــون المزيد من الثنـاء، وليس التقــويم، وعليهم أيضــاً الاحتراز بالعنـاية الأعظم، حتـى لايجري تحميل الأديـرة المذكـــورة، واثقـــالها بحمولات غير مستحقـة، لأننا نرغب بمراعـاة امتيازات الرؤسـاء بقدر عـدم رغبتنا في أن يتعـرض الأدنى مرتبـة للأذى، وبالاضـافـة إلى هذه الأشياء، تقضي إرادتنا أن يقـوم أساقفة الأبرشيات وكـذلك الأشخاص الذين يترأسـون على اجتماعات الهيئات المذكـورة، بأن يلقوا جانبـاً جميع مـرافعات الاستئناف، وأن يمنعـوا جميع المحـامين، والنصراء، والقسس من خـــارج الأبرشيـات، والكونتـــات، والنبـلاء، والفـرســـان، وجميع الآخرين، مـن الإقدام على انزال الأذى بالديرة سـواء في الأشخاص أو في المقتنيـات، وإذا صـدف وألحقوا بهم الأذى شخصيـاً، لإرغـامهم من دون تقـاعس على عمل التكفير، وذلك مـن أجل أن يتمكنوا من عبـادة الرب بحرية أكبر، وبهدوء أعظم».

المزيد حول الموضوع نفسه

«**هذه أشياء هي من أجل كـرامة الدين، الخ، الخ**: علاوة على ذلك، بعـدمـا يكون قـد جرى تعيين الزوار التفقـديين، وفقـاً لقـانون المجمع العـام، من قبل الهيئة العـامـة لرعـاة الديرة، عليهم الاقـلاع للعمل على شغل مناصبهم كزوار تفقـديين، وهنا يتوجب عليهم البحث بكل عناية في أوضـاع الرهبـــان، وفي مـدى التـزامهم بالأنظمـة، ومـن ثم تقـويم وإصـلاح كل مايعتقـدون من المتـوجب إصلاحـه وتقـويمه، سـواء في المســائل الروحيـة أو المسـائل الدنيـويـة، بشكل حكيم، بحيث يجعلون الرهبـــان المذنبين يجري تقـــويمهم من قبـل راعي المكان، وأن تفـــرض عليهم العقـوبة المدنيـة وفقـاً لنظام القـديس بندكت، وأنظمـة المؤسسـة الرسولية، وليس وفقاً لأنظمـة العادات الشريرة، التي نمت حتى عدّت بمثابة شريعة في بعض الكنائس، ويتوجب على هؤلاء الزوار التفقديين، أن يضربوا، بالنيـــابة عنا بأنظمـة المعـــاقبـات والروادع الرهبـــان الذين

يجدونهم متمردين وعصاة، وذلك وفقاً لدرجة ذنوبهم، وذلك دونما تقدير للأشخاص، وأن لايوفروا الأشخاص العصاة على أساس العلاقات والقرابات، أو قوة أصدقائهم، بل سوف «يلقون بالشاة المريضة خارج القطيع، حتى لاتعدي الشياه الصحيحة»، وإذا ماتبين أن الرعاة أثناء تنفيذهم للعقوبات، وفقاً لأوامر الزوار التفقديين، وللقوانين المرعية، مهملين، إما في أنفسهم، أو بالنسبة للرهبان، سوف يعلن عنهم، ويعتقلون ومن ثم يعاقبون لدى الاجتماع العام للهيئة، حتى تأتي عقوبتهم بمثابة مثل رادع للآخرين، وإذا ما وجد راعي دير، هو ليس معفياً، من قبل الزوار التفقديين، مهملاً، ومتغافلاً، عليهم القيام من دون تأخير، بشجبه، وإبلاغ ذلك إلى أسقف المكان نفسه، حتى يتولى تعيين معاون لذلك الراعي يكون مستقيماً وحريصاً، حتى يجري عقد اجتماع الهيئة العامة، وإذا كان مخرباً، أو يستحق العزل لسبب من الأسباب، يتوجب بعد اخبار الأسقف عنه، عزله من منصب حكم رعوية الدير، ومن الدير من دون هياج أو محاكمة، وأن يتولى في الوقت نفسه مدير موائم تسيير الشؤون الدنيوية للدير، حتى يجري تزويده براعي، لكن إذا مارفض الأسقف أو أهمل تنفيذ هذه الأوامر، يتوجب على الزوار التفقديين، أو على رئاسة الهيئة الرهبانية العامة، عدم التراخي عن الإعلان عن هذا التقاعس الذي قام به الأسقف، وإعلام الكرسي الرسولي به.

ونحن نأمر بعمل هذه الأشياء نفسها في مسألة إعفاء رعاة ديرة، بعدم عزلهم من قبل الزوار التفقديين، أو من قبل رؤساء الهيئة الرهبانية العامة، محتفظين بعزلهم، للعرض أمام الكرسي الرسولي، وبناء عليه إذا ظهر أن أي راعي دير يستحق النقل أو العزل، هو سوف يتعرض، إما من قبل الزوار التفقديين، أو من قبل رؤساء الهيئة الرهبانية العامة، إلى التعليق ومن ثم التوقف عن ممارسة الأعمال الادارية لمنصبه، ويتوجب

هنا تعيين اداري موائم لبعض الوقت لشغل ذلك المنصب، وبالنسبة لأخطائهم وللأشياء الأخرى التي تبدو مهمة، وأنها ينبغي أن تعرض على الهيئة الرهبانية العامة، سوف ترسل الرئاسة رسالة إلينا بوساطة رسل مستقيمين وحذرين وعقلاء، يتم صرف نفقات سفرهم بوساطة مبلغ كاف يجري أخذه من الاسهام العام، وذلك وفقاً لإمكانات كل فئة، ويتوجب على الزوار التفقديين الذين يقدمون فيما بعد، القيام بفحص آثار الزوار التفقديين المتقدمين بكل دقة، وأن يرفعوا تقارير حول إهمالهم وأخطائهم إلى اجتماع الهيئة الرهبانية العامة المقبل، حتى يتلقوا بشكل معلن عقوبات موائمة، وتتوافق مع أخطائهم، وهذا الشيء نفسه نحن نأمر بمراعاته من قبل رعاة الديرة المترئسين أثناء اجتماع الهيئة الرهبانية العامة، ونحن نأمر أيضاً، بأنه لايجوز لرعاة الديرة أو لرؤساء الرهبان أن يقبلوا في أي دير من الديرة كهنة علمانيين للأوقاف الكنسية، كما أنه لايجوز للذين جرى من قبل قبولهم في الديرة السعي للادعاء لأنفسهم، والحصول على مكان، أو صوت في الهيئة الرهبانية العامة، أو في مهجع النوم، أو في المطعم، أو في القلاية، كما لا يجوز لهم ممارسة اختلاط غير منطقي في تجمعات الرهبان، بل المتوجب أن يسلكوا بأنفسهم بشكل شريف، وأن يكونوا راضين بالمنافع الممنوحة إليهم، وأن يقدموا بشكل صحيح تعبداتهم الموسمية في الديرة، وعليهم أن لايطلبوا، أو أن يغتصبوا أي شيء أكثر، سواء في مجالات الأمور الروحية أو الدنيوية في الديرة، وإذا ما وجد أي من هؤلاء مذنباً أو مسيئاً من قبل الزوار التفقديين، سوف يجري حرمانهم من المنافع المذكورة،ويكون ذلك بوساطة الأسقف، في الديرة غير المعفية، وبوساطة الزوار التفقديون، أو بوساطة رؤساء الهيئة الرهبانية العامة في الديرة المعفية، ونحن نأمر أيضاً بمراعاة جميع هذه الأحكام في الديرة التي ليس لها رعاة ديرة خاصين بها، بل لها رؤساء رهبان فقط، وكذلك في ديرة الراهبات، وذلك في جميع النقاط الموائمة لراعيات الديرة وللراهبات».

حول السيمونية

«وبما أن وصمة السيمونية قد لوثت بالعدوى عدداً من الرهبانيات النسائية، إلى حد أن هذه الرهبانيات نادراً ماتقبل أي راهبة من دون دفع، وسعياً منا لتلطيف هذا الشر الذي لايحتمل، والفضيحة لكل الدين، بالدعوة من أجل الفقر، نحن نمنع كلياً من عمل هذا من الآن وصاعداً، ونرسم أنه إذا ما أقدم انسان ثانية على اقتراف مثل هذه الجريمة (سواء أكان من مرتبة عليا أو دنيا) من كل من المستقبلة والراهبة المقبولة، سوف يجري طردها من الرهبانية النسائية من دون أي أمل بأن يتم قبولها ثانية، بل سوف تحتجز في مكان له أحكام أكثر دقة وأكثر قسوة، للقيام بالتوبة، أما بالنسبة للائي جرى قبولهن من قبل على هذه الصورة، قبل هذا المرسوم الصادر عن المجمع الديني، نحن نأمر بطردهن من الرهبانيات التي جرى إدخالهن بها بشكل طائش، ومن ثم قبولهن، وأن يوضعن في بيوت أخرى تابعة للطائفة نفسها، ولكن إذا حدث أنه بسبب عددهن الكبير، من غير الممكن وضعهن بشكل موائم، في مكان آخر، من الممكن استقبالهن، ومن ثم توزيعهن في الرهبانيات النسائية نفسها، لمنعهن من الجولان ثانية في العالم ومن ثم دمارهن، وبهذا تكون أماكنهن الماضية قد تبدلت، وجرى توزيعهن وتعيينهن في أماكن أدنى منزلة، وهذا نرسم بمراعاته أيضاً بالنسبة للرهبان وللتنظيمات الأخرى، ولكي لايكون بإمكانهم تسويغ أنفسهم بإدعاء السذاجة، أو الجهل، نحن نأمر أن يقوم أساقفة الأبرشيات في كل سنة بتأمين نشر هذا بشكل مخلص وأمين، كلمة كلمة».

حول قرار الحرمان الكنسي

«في أية طريقة من الطرق يقوم فيها واحد من الرهبان، أو من الكهنة النظاميين، بضرب أحدهما الآخر في الدير، ليست هناك حاجة لهذا السبب للإرسال إلى الكرسي الرسولي، بل ينبغي اخضاع المتضاربين

للنظام تحت الاشراف العقلاني المتحفظ لراعيهم، وإذا لم تكن عقلانية الراعي غير كافية لتقرير عقوبتهم، لابد له من تلقي المساعدة من حكماء أسقفيته».

بند حول الموضوع نفسه

«لقد سمعنا السؤال الذي أثير من قبل جماعتكم، حول هل الرجل العلماني الذي يقدم على مدّ يده بالضرب بطيش لرجل دين، أو لراهب، أو لمختلس، بناء على توجيه أو أمر الرجل الذي يعمل في خدمته، هل سينال عقوبة الحرمان الكنسي، لاسيما إذا لم يكن هناك من سبب لضرب المضروب، يبدو لنا أنه —مالم يكن قد وجّه الضربة أثناء القيام ببعض التدريبات الدورية النظامية— يتوجب على الراعي شخصياً، أن يتفوه بالحكم، أو في حال الضرورات المستعجلة، عليه أن يؤمن التفوه بالحكم من قبل أحد الرهبان، أو واحد من رجال الدين ذوي المرتبة الدنيا، ويتوجب عدم نجاة الذي أمر بالضرب للذين ضربوا، وكذلك الذين مارسوا عملية الضرب (حتى لو توفر سبب لفعل ذلك) من عقوبة الحرمان الكنسي مع الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى يصلوا إلى الكرسي الرسولي نفسه».

حول الموضوع نفسه

«مع أن تحليل هؤلاء الذين مدّوا أيديهم بالعنف على رجال الدين، ونالوا مهانة عقوبة الحرمان الكنسي —باستثناء بعض القضايا من قبل أسلافنا— محفوظة للكرسي الرسولي، فإن بعض الواقعين تحت الحرمان الكنسي، يقومون من دون مبالاة بقرار الكنيسة، فلا يخافون من أخذ طوائف مقدسة، وغالباً ماجاء السؤال إلى الاستفتاء الرسولي، حول ماالذي ينبغي فعله بالنسبة إليهم، وبالنسبة إلى هؤلاء، نعتقد أن علينا القيام بعملية تمييز، لمعرفة هل مثل هؤلاء الناس يعرفون أنهم مقيدين بأغلال الحرمان الكنسي، أو أنهم لايتذكرون الحقيقة التي من أجلها

وقعـوا تحت حكم القـرار الصـادر، أو أنهم على الرغم من معـرفتهم بالحقيقـة، هم يجهلون الشريعـة، ولايعـرفـون أنهم لذلك مقيـدين بها، ونحن نقـدر أنهم إذا كـانوا أولاً علمانيين، يتـوجب عـزلهم بشكل أبدي من جميع الطوائف التـي تسلمـوها، وفي الحالات الأخـرى على رؤسـاء الأساقفـة والأساقفـة أن يعرفـوا أنهم لايمتلكون السلطة بمنح التحليل من دون وصـاية الكرسي الرسـولي، وأن منح الغفـران لمثل هؤلاء الأشخاص هو مدمر كلياً إليهم، وأن المسائل الكبرى، يتوجب أن يفهم أنها محظورة على الذين محظـور عليهم بشكل واضح المسـائـل الصغـرى فقط، وقضايا من هذا النوع من المتـوجب نقلها إلى أذني الحبر الروماني، حيث منه فقط يمكن الحصـول على جـواب، وفقـاً لصرامة القضيـة، أو عـدالتها، وذلك حسبما تراه حكمتـه مناسبـاً، لكن إذا مااقترف الرهبـان جـرائم من هذا النوع، ومع أنـه قـد رسم من قبل البـابا الاسكندر، أن الرهبان والكهنة النظاميين، أينما ضرب أحـدهم الآخر في الدير، لايجوز إرسـالهم —لهذا السبب— إلى الكرسي الرسـولي، بل ينبغي اخضـاعهم للنظام، بمـوجب حكمة الراعـي وحسن تدبره، وإذا لم يكن حسن تدبر الراعي كافياً لتقرير العقوبة، يتوجب مساعدته من قبل حكمة الأسقفية، ومع أنه قد قال في مكان آخر، بأن هؤلاء الذين فرّوا من الدنيا، ولبسوا الرداء الديني في الدير، والذين اعترفوا فيما بعد، بين أشياء أخرى، بأنهم اقترفـوا مثل هذا الذنب، وأنهم نتيجـة لمواجهـة هذه الحقيقـة قـد نالوا عقـوبة الحرمـان الكنسي، ولكـن من دون اذن الحبر الرومـاني، لايمكن للراعي ولايجوز له تحليلهـم، مع أنه يستطيع معـاقبـة المذنبين بتقـويم مـوائم، ونحن في سبيل مصلحـة الديـن، ومن أجل سحب مـادة المراوغـة،نرغب في اظهـار أكبر مـراعـاة لهم، ولذلك نمنح الإذن إلى أساقفتهم، في منـح منفعة التحليل إلى مثل هؤلاء الأشخـاص، مالم تكن ذنوبهم كبيرة، وهائلة (من ذلك مثـلاً إذا أقـدموا على مـدّ أيديهم بعنف على أسقف أو على راعي ديـر، من أجل تشـويه أطرافـه، أو من أجل

سفك دمه) فوقتها لايمكنهم المرور بمثل هذه الجرائم وتجاوزها من دون فضيحة، وإذا ما مدّ أي واحد من سكان الدير، يديه بعنف ضد أي رجل دين من دير آخر، من الممكن تحليله من قبل راعيه وراعي الشخص الذي تعرض للأذى، ولكن إذا ما ضرب علماني رجل دين، هو فقط (في سبيل تجنب الفضيحة) سيحصل على نعمة التحليل من خلال الكرسي الرسولي، لكن إذا —وفقاً للتمييز الذي تقدم ذكره— حدث بأن هؤلاء الأشخاص قد جرت ترقيتهم إلى الطوائف، فإن الذي يعرف أنه نال التكريس، على الرغم من نظام الكنيسة، نحن نرسم بوجوب إستمرار تعليقهم عن ممارسة واجبات الطائفة التي تسلموها، أما بالنسبة للآخرين الذين إما أنهم لايتذكرون الحقيقة، أو أنهم جاهلين بالشريعة، وهنا مقدرين الاستعمالات التي حدثت حتى الآن للديرة، يمكن لراعيهم، بعد فرض توبة نظامية عليهم، وبعد قيامهم بتنفيذها، أن يمنحهم تحليلاً، ما لم تكن الجريمة جادة وجريمة متميزة بضخامتها، أو أن الذي اقترفها قد تقدمت به السن، وصار في عمر مميز، وأنه بالتالي عندما اقترف الذنب، اقترفه من دون نسيان أو جهل، ونحن نفرض على جميع الرعاة الالتزام بكل دقة بهذا النظام، وإلاّ إذا ما قام أي واحد منهم بإساءة استخدام السلطة الممنوحة لهم، سوف يستحق خسارة امتيازه».

بند حول الموضوع نفسه

«وبالنسبة للراهبات، فإن اخوتكم قد سألتنا، بوساطة من تضفى عليهن منفعة التحليل، إذا ماحدث، وأقدمت إحداهن بطيش بمدّ يدها بعنف ضد واحدة أخرى، أو ضد رجل مختلس، أو ضد مختلسيهن، أو حتى ضد رجال دين، وفي ردّ على سؤالكم هذا نحن نجيب، ونرسم بشكل ثابت، ونقرر، بأنه يتوجب تحليلهن من قبل الأسقف الذي يوجد ديرهن في أسقفيته. البابا انوسنت الثالث، في المجمع العام».

حول الضمانات

«إن الذي جرى تحريمه من قبل الكرسي الرسولي بالنسبة إلى بعض البيوت الدينية، نحن نرغب ونأمر بمدّه إلى الجميع، وأن تجري مراعاته من قبل كل واحد، ومن قبل الجميع، أي أنه لايجوز لأي رجل دين، من دون إذن الأكثرية من الهيئة الرهبانية، ومن راعيه، أن يصبح ضامناً لأي واحد، أو أن يستلم مالاً كقرض من أي واحد، أكبر من المبلغ المفروض من قبل المجمع العام، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الدير لن يكون مسؤولاً بأي حال من الأحوال، أو مرغماً على التسديد عنه، مالم يكن واضحاً، أن المقصود من ذلك كان منفعة البيت نفسه ولصالحه، وكل من يحاول العمل معاكسة هذا القانون، أو أن يعمل ضده، سوف يكون خاضعاً لعقوبة نظامية قاسية».

حول المدفوعات

«إذا أي واحد، الخ: نحن نمنع بدقة أي واحد من الإقدام على تحميل الكنيسة المعهود بها إليه ديون آخرين، أو أن يعطي بذلك كتابة إلى أي واحد، أو أن يضع الأختام على أي شيء، يمكن به للكنيسة أن تثقل، ونحن نرسم بكل دقة، ونأمر، بأن أي واحد سوف يعمل العكس، سوف تكون الكنيسة غير ملزمة بدفع هذه الديون، وأي واحد، يمكن أن يقدم من الآن فصاعداً على معاكسة الأحكام المتقدم ذكرها، عليه أن يكون متأكداً من أنه سوف يعلق ويوقف عن إدارة المسائل الروحية».

قبول القوانين

بعد الفراغ من قراءة هذه القوانين، سمع رعاة الديرة ورؤساء الرهبان المجتمعين بأن الديانة المقدسة، بعد إصلاحها على هذا الشكل، سوف تتلقى زيادة سعيدة، وبناء عليه تلقوا بتشوق، وبموافقة عامة،

هذا المنهج، وكأنه منحـــة أرسلت من السماء وأمــروا بنشره في جميع هيئاتهم الرهبــانيـة، وإنزال العقــوبات النظاميــة الصـارمــة على جميع المتجـاوزين لهذا، وتـدبر كثيرون كتـابة المراسيم في كتـب الشهـداء، من أجل أن تتم تلاوتها في بيت الهيئـة الرهبـانيـة، وفقـاً لأحكـام القـديس بندكت، من أن يدخلوا إلى قلوب الذين سمعوهم.

تضييق الحصار على بلنسية المدينة الإسبانية

وشنّ في هذا العام النبيل والمسيحي الممتاز، ملك أراغون مع حلفائه، الحرب، بنشاط متميـز ضد مدينة بلنسية العظيمـة، حيث جرى تضييق الحصـار عليهـا من جميع الجهـات، حـتى أنها ضعفت وقـاربت على الهلاك.

تكريس بعض الكنائس الفخمة

وجـرى في حـوالي الوقت نفسـه تكـريس بعض الكنائس الـديرية الفخمــة من قبل روبرت أسقف لنكولن، في مــارش Marsh في أسقفية لنكولـن، وكان ذلك في: رامسي Ramesy وبورغ Burg [بيتر بورا Peter borough] وسـوتري Sautery وجـرى تكريس كنيسـة رامسي في ٢٢- أيلول، وكـان ذلـك يوم عيـد القـديس مـوريس ورفـاقـه، وكنيسـة بورغ في ٢٨- أيلول، وكنيسـة سـوتري في الأسبـوع نفسـه، وكنائس أخـرى كثيرة في جميع أرجـاء انكلترا، وفقـاً للمـؤسســات والأحكام التي نشرت في لندن من قبل النائـب البـابوي أوتو.

بلدوين امبراطور القسطنطينية يزحف في بلاد الإغريق مع قوة مسلحة

وانطلق في هذه الآونـة الامبراطور بلدوين، امبراطور القسطنطينيــة،

يريد المقاطعات الاغريقية مع قوة كبيرة، واستهدف اخضاع الذين ثاروا ضده شخصياً، وضد الكنيسة الرومانية، تحيط به قوة كبيرة، وذلك بقدر ما أمكن لحلفائه وأقربائه أن يمدّوه به، وفي سبيل تزويد خزينته بالمال، باع أكثر آثاره قيمة إلى الملك الفرنسي، ورهن بعض أكثر مقتنياته ثمناً، لأنه (كما تقدم الذكر أعلاه) قد جاء من النبالة الفرنسية، وقام البابا، في سبيل ازعاج منافسه واغضابه، أي الامبراطور فردريك، فقدم إليه يد المساعدة، بقدر ما أوتي من قوة.

ولادة ولد ذكر لسيمون دي مونتفورت

ومع مقدم العام الجديد، عندما كان أ. A أسقف شيستر يسير متوجهاً إلى لندن بناء على استدعاء من الملك، ولد الابن الأكبر لسيمون دي مونتفورت من إليانور زوجته في نيلوورث، وذلك ليزيد من قوة المملكة وسعادتها، لأنه كان يخشى بأن تكون الملكة عاقراً، وبناء عليه، ولكي يزيد الأسقف من مكانته شخصياً لدى الملك، أقام هناك بعض الوقت، وقام بتعميد الطفل، وحمل في اليوم نفسه إلى فراشه، لأنه هوجم من قبل مرض شديد، أوصله إلى حافة الموت.

رئيس أساقفة أنطاكية يدعي التفوق على الحبر الروماني

وفي العام نفسه، قام رئيس أساقفة أنطاكية (مع موافقة جرمان، رئيس أساقفة القسطنطينية، والمحامي عن الاغريق، ونائب البابا المضاد) فأقدم بطيش وعنف واندفع بوقاحة كبيرة، أوصلته إلى حد أنه أعلن من خلال سلطات فارغة عن الحرمان الكنسي للبابا، مع جميع الكنيسة الرومانية وبلاطها، وبشّر بوقار بالتجديف، ووضع نفسه وكنيسته أمام قداسة البابا والكنيسة الرومانية، في مجالي العمر والرتبة، أي أن كنيسته كانت متفوقة على الكنيسة الرومانية، لأن القديس بطرس قد تولى في المقام الأول حكم كنيسة أنطاكية لمدة سبعة أعوام مع التشريف الأعظم،

لأنه قد استقبل هناك بأعظم احترام ممكن، ومثل ذلك جرى تتويجه بشكل مشرف، لكنه تعرض في روما للمضايقة الشديدة، وأوذي مراراً، ووجّه إليه اللوم، وأخيراً بعدما عانى وتألم مع تابعه الرسول بولص، في أيام الامبراطور نيرون، أنهى تعذيبه بموت مرعب، وبناء عليه الاستحقاق جدير بالمدينة والمقاطعة مع أهلها وسكانها، الذين كانوا الأعز والأكثر محبة لدى القديس بطرس، وبالذين أظهروا نحوه الاحترام، وليس للذين أنزلوا به العذاب، وأهانوه، وهكذا كان من الواضح أنه أضفى بكرم منه سلطة الربط والحل على الكنيسة الاغريقية، وليس على كنيسة روما، التي تلطخت الآن بوصمة السيمونية، والربا، والشره، وذنوباً أخرى كثيرة.

وبوساطة هذه المناقشات الخرافية وسواها، أغلق البابا المضاد المذكور مواضع تشوهاته وأخفاها، من أجل دماره، وعمل تسويغاً لذنوبه، لكن عمود الكنيسة، وهو البابا الصحيح، والخليفة لبطرس الرباني (مع أنه غير مقلد له تماماً) قد بقي ثابتاً دون أن يتحرك، واحتفظ بجميع انتقاماته حتى يوم الحساب.

فيضان للأنهار غير اعتيادي وغير طبيعي

وفي العام نفسه، تدفقت الأنهار بشدة، وفاضت فوق عدد كبير من الحقول والأراضي المستوية، وجاء ذلك بشكل غير اعتيادي وغير طبيعي، وكانت الأماكن التي غمرتها ليس فيها ماء من قبل وجافة تماماً، وازدادت فجأة، وبشكل سريع مرعب، إلى حد أن الأسماك سبحت في أرجائها، وسببت قسوة الأنواء وأمراضها سريان كثير من الأوبئة المتنوعة، وبذلك كانت قسوة الأنواء أشبه بطاعون على الأرض، وشعر شعب المنطقة مع المزارعين، وكذلك الفرسان، والنبلاء، ورجال الدين بسوط عذاب الرب هذا.

كيف أودع روبرت بيغر

وهو راهب ومحقق مع الهراطقة السجن الدائم بسبب وحشيته

وكان هناك في هذا الوقت نفسه راهب من طائفة المبشرين (الدومنيكان) اسمه روبرت بيغر Bugre وكان رجل علم وأدب، وكان قديراً وفصيحاً في عمله بالتبشير، وقد اكتشف وجود عدد كبير من الناس في مملكة فرنسا، قد تلطخوا بشرور الهرطقة، وبشكل خاص في فلاندرز، حيث بوساطة عادة قديمة، كان السكان مشهورين دوماً بشرور الربا، أكثر من أي شعوب أخرى، ولذلك غالباً ماتولى تفحص هؤلاء الناس بكل دقة بشأن إيمانهم، فوجدهم قد ابتعدوا أو بالحري ضلوا عن الطريق الصحيح، وبالتعاون مع السلاح المدني، مع عون ملك فرنسا، تدبر الراهب روبرت المذكور احراقهم، وقد تميز هؤلاء جميعاً وعرفوا باسم عام هو «البيغريين»، سواء أكانوا: بطرسيين، أو يهويين، أو ألبينيين، أو تلوثوا بهرطقات أخرى، وكان روبرت هذا نفسه قبل أن يرتدي الرداء الرهباني من جماعة «البيغريين»، ونتيجة لهذا عرف جميع رفاقه من الطائفة نفسها، فأصبح المتهم لهم، والمطرقة، والعدو الخاص، وأساء أخيراً استخدام السلطة التي أسندت إليه، وأصبح متشامخاً، وقوياً، ومرعباً، مزج الصالح بالطالح، وعاقب الأبرياء وذوي العقول الساذجة، ولذلك مُنع من متابعة ممارسة غضبه، في ذلك المنصب الرهيب، ولكن بما أن جرائمه (التي أعتقد أنه من الأفضل السكوت عنها بدلاً من حكايتها) أصبحت فيما بعد واضحة أكثر، ومشهورة، أدين وحكم عليه بسجن أبدي.

كيف بهتت شهرة الامبراطور فردريك

وفي خلال العام نفسه، أعتمت شهرة الامبراطور فردريك وتلطخت من قبل الأعداء الحسودين والخصوم، فقد عزي إليه أنه كان متشككاً

بالعقيدة الكاثوليكية، أو بالحري قد ضلّ وابتعد عن الطريق القويم، وقد تفوه في بعض خطبه بمايمكن أن يستخرج منه ويشك، بأنه لم يكن فقط ضعيفاً بالإيمان الكاثوليكي، بل إن الجريمة التي كانت أعظم وأشد خطورة هي أنه كان فيه هرطقة كبيرة جداً، وتجديف مخيف وكفر مكروه من قبل المسيحيين كلهم وملفوظ، لأنه قد روي بأن الامبراطور فردريك قد قال (مع أنه ربما من غير الموائم ذكر ذلك) بأن ثلاثة مشعوذين، قد قادوا ببراعة متناهية، وضللوا معاصريهم ليحصلوا لأنفسهم على سيادة العالم، وكان هؤلاء هم:

موسى، ويسوع، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه قدم بشكل غير تقوي بعض الهذيان الشرير، والذي لايمكن تصديقه مع التجديف، فيما يتعلق بالقربان الأعظم قداسة، ليكن هذا بعيداً، وليكن نائياً، عن أي رجل مستقيم، على الأقل هو مسيحي، بأن يفتح فمه ويحرك لسانه للتفوه بمثل هذا الهذيان، التجديفي، ولقد قيل أيضاً من قبل منافسيه، بأن الامبراطور وافق، لابل آمن بشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) أكثر من إيمانه بشريعة يسوع المسيح، وأنه عمل بعض العاهرات المسلمات خليلات له، وسرت اشاعة بين الناس (لاسمح الرب أن تكون صحيحة بالنسبة لمثل هذا الأمير العظيم) بأنه متحالف منذ زمن طويل مضى مع المسلمين، وأن صداقته نحوهم أعظم من صداقته مع المسيحيين، وأن خصومه الذين يسعون نحو تشويه سمعته، قد حاولوا أن يؤكدوا هذا بعدة براهين، وسواء أأذنبوا أم لا، وحده الذي هو غير جاهل بشيء يعرف.

روبرت الناسك يصبح مشهوراً

وفي العام نفسه، أصبحت أيضاً شهرة روبرت الناسك معروفة في الخارج، لأن قبره في نيربورا Knaresborough أخذ —كما قيل— يرشح زيتاً دوائياً بكميات كبيرة.

-٦٩٤٦-

نهاية السنة

كان الشطر الأخير من هذا العام كثيف الغيوم وممطراً، واستمر ذلك حتى مضي الربيع، عندما تداعت كل الثقة بالموسم، وخلال شهرين أو أكثر من أشهر الصيف، كان المناخ جافاً إلى أبعد الحدود، وبشكل غير اعتيادي، وحاراً، ومع اقتراب الخريف أصبح المناخ رطباً، وممطراً، وبذلك استرد الموسم بشكل رائع، وأينعت نباتات جديدة مكان النباتات التي ذبلت، وكانت هناك كميات وافرة من القمح، وفي نهاية الخريف، حدث على كل حال، أن الذين أخروا قطافهم قد حرموا من مواسمهم، بسبب تساقط أمطار غزيرة متواصلة، حتى أن القش والقمح قد تعفن، وتسبب هذا الخريف غير الاعتيادي، الذي عدّ بشكل عام جافاً وبارداً بسريان عدة أنواع من الأمراض الخطيرة، وما من أحد قد رأى من قبل مثل كثرة الذين أصيبوا بالحمى الربعية، ويتوجب أن نوضح أيضاً، أنه في هذا العام كان حرف يوم الأحد هو ب. B وأن يوم الاستعداد كان يوم جمعة، وقد دعي يوماً مقدساً، وأن اليوم التالي قبل عيد الفصح (عند اليهود) كان يوم بشارة مولانا، وكذلك يوم آلامه، واليوم الثالث بعد الفصح الحقيقي هو يوم قيامة ربنا، لأن ربنا قام ثانية في السادس والعشرين من نيسان وتأكد في اليوم الرابع [كذا] قبل ذلك، أي في الرابع والعشرين من نيسان، وهكذا وقع كل شيء في هذا العام في وقته الصحيح.

خلاف بين الملك وبين غيلبرت الإيرل مارشال

في سنة النعمة ١٢٣٩، التي كانت السنة الثالثة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، مع وفرة عظيمة من التشريف الصحيح، والسخاء الكبير، لأن الكنيسة في ذلك المكان استمرت بالحصول على مايكفي وتزويد الملك به، لا بل بوافر الحاجيات من أجل جميع هذه النفقات الخاصة بالقصف والشرب،

وهذا لم يكن الملك آسفاً البتة من أجله، لأنه من أجل هذا العمل، لو كان لديه موبخ صادق، وله نفوذه، ودقيقاً، لاستحق عليه ملامة شديدة، ولولا أن أعطيات صدقاته، التي استمر يمنحها بشكل واسع وبكرم (التي كما ورد في كتاباتنا المقدسة تغطي ذنوبنا) أنقذت مثل هذه الأعمال، لسببت رعباً عظيماً له نفسه وللمملكة، وذلك بإثارة غضب الرب ضده، وعندما —على كل حال— أقيم القداس في يوم عيد الميلاد، وأكمل بشكل مهيب، و بصورة فخمة، ومن أجل أن لاتأتي بهجة هذا العالم من دون شوائب، إن عدم النظر إلى الحادثة أزعج تماماً جميع سرورهم وقصفهم وأفسده.

وعندما عمل الملك ظهوره في قصره الملكي ليتناول طعام افطاره، وصل غيلبرت، الايرل مارشال إلى الباب، مع أتباعه الفرسان، ليحصل على قبول، لكن عندما صعد نحو الباب، ورغب بالدخول، حرمه حفظة أبواب الملك والمارشالات بفجاجة من الدخول، وردوه بعصيهم مع حاشيته بمهانة وازعاج، وعندما رأى الايرل ذلك، شعر عن قناعة بأن بعض النمامين قد زرع بذور الخلاف بينه وبين الملك، وأن هذا الذي فعل لم يكن من دون تفويض الملك، وقام هو —على كل حال— فكبت مشاعره، وعاد إلى بيته في المدينة، ثم إنه في سبيل استمرار هدوء العيد، ولكي لايفسد وئامه، دعا بوساطة صوت البوق، ليس فقط أصدقائه، بل عدداً كبيراً من الآخرين، اختارهم للاجتماع على مائدته، من أجل تناول طعام الإفطار، وفي صباح اليوم التالي، أرسل —على كل حال— بعض الرجال من ذوي المراتب العليا إلى الملك، وطلب منه أن يعلم لماذا أنزل به من دون سبب مثل هذا الأذى العظيم، مع أنه الايرل الذي كان خاضعاً باخلاص له، وهو صاحب أصل نبيل، ولاسيما في مثل ذلك اليوم، وأعلن أنه على استعداد لتبرئة نفسه بالمحاكمة، حول جميع النقاط التي أثيرت ضده، وضد جميع الذين أثاروا العداوة بين مثل

هاتين الشخصيتين المشهورتين، وأجابهم الملك وهو غاضب:

«من أين حصل الايرل غيلبرت على قرنيه؟ وكيف حدث أنه يهدد برفع كعبه فوقي، ضدي أنا الذي من الصعب بالنسبة له أن يرطم؟ وأخوه ايرل رتشارد الذي كان خائناً دموياً، وقد ثار ضدي وضد مملكتي، أنا جعلته سجيناً، عندما اشتبك بصراع مميت ضدي في ايرلندا، وقد جرد من ممتلكاته، ووضع في السجن وهو جريح، حتى أنهى انتقام الرب، الذي استحقه، حياته، وإلى الايرل غيلبرت هذا منحته ميراثه، بناء على الالتماسات المستمرة لادموند رئيس أساقفة كانتربري، وقد منحته ذلك كمعروف، وليس لأنه استحق ذلك البتة، مع أنني أرغب بسحبها منه».

ولدى سماع الايرل هذا، ارتعب إلى درجة كبيرة جداً، وسحب نفسه إلى المقاطعات الشمالية، لأنه الآن بدأ يعاني من غضب الملك المعلن، كما أنه بعد هذا لم يحب الملك، هو أو أخوه ولتر بعاطفة صادقة، كما فعلا من قبل، كما أنهما لم يعودا يتمتعان بالازدهار.

موت إدموند أسقف شيستر

في يوم القديس اسطفان، أغلق ادموند، أسقف شيستر حياته.

الملك يمنح كونتية ليستر إلى سيمون دي مونتفورت

في يوم طهارة العذراء المباركة، منح الملك كونتية ليستر إلى سيمون دي مونتفورت، وكان قبل ذلك قد استدعى أخاه الأكبر ايرل ألماريك Almaric وطمأنه وأرضاه حتى لايثير في أي وقت أي خلاف حول هذه المسألة.

استدعاء الملك ستيفن سيغريف إلى مجالسه

وفي هذه الآونة، استدعى الملك، ستيفن سيغريف إلى مجالسه.

النائب البابوي يستدعي رعاة طوائف الرهبان السود للاجتماع في لندن

وفي الوقت نفسه، استدعى النائب البابوي جميع أساقفة انكلترا، للاجتماع في اليوم الذي يغنى فيه مزمور: «دعوا القدس تبتهج» في لندن، ليناقشوا هناك شؤون الكنيسة، وهناك أعطى بعد مداولات دقيقة، إلى رهبان الطائفة السوداء، بعض القوانين، القصيرة والمحكمة، حتى تنفذ من قبلهم من دون جدل، وقد لطف النظام الشديد لديهم، في عدد من النقاط.

إلغاء انتخابي الأسقفين المنتخبين لنورويك وشيستر

وفي الوقت نفسه جرى بتدخل من الملك (بسبب أن هدفه بانتخاب وليم الأسقف المنتخب لبلنسية لم ينجح) إلغاء انتخاب الأسقف المنتخب لنورويك، الذي كان رئيس رهبان البيت نفسه، وكان رجلاً جديراً بالاحترام، من جميع الجهات، ومستقيماً، وفعل الشيء نفسه بالنسبة لانتخاب أسقف شيستر، أي ر. R مستشار الملك، الذي طُلب ليكون أسقفاً لوينكستر، وكان رجلاً صادقاً، ومستقيماً، وكان وحده تقريباً ركيزة الصدق بين رجال البلاط.

انتخاب وليم دي ريل أسقفاً لشيستر

وفي هذه الآونة، رأى رهبان كوفنتري أن الملك استمر دوماً يعيق الكهنة النظاميين ويمنعهم من القيام بانتخابهم، وأنه لم يوافق على أي واحد جرى انتخابه من قبلهم، مالم ينل الحظوة الملكية والقبول، ولكي لاتعاني كنيستهم من خسائر لايمكن تعويضها، ومن الأذى من خلال التأخير والتأجيل المتواصل والتوقعات، قاموا في حوالي أيام عيد القديس متى، فانتخبوا بالاجماع وليم دي ريل، وكان كاهناً خاصاً لدى الملك، وكان رجلاً مستقيماً، وواحداً من البارعين في شريعة البلاد، ولقد

انتخبوه ليكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، لأنه بدا أنه كان رجلاً غير ملطخ بأي سوء، يمكن أن يثير الرفض أو الاعتراض.

استدعاء النائب البابوي للعودة إلى الوطن لكنه بقي في انكلترا بناء على طلب الملك

وفي تلك الآونة كان صاحب القداسة البابا، يسمع بشكل متواصل، لابالحري يومياً، ويتلقى اتصالات، بأن الفضائح التي تسبب بها الطمع الذي لايعرف الكفاية مع شره الرومان، قد ازدادت يومياً من سيء إلى أسوأ في انكلترا، فاستدعى نائبه أوتو، وطلب منه العودة فوراً إلى روما، وبناء عليه دعا النائب البابوي أساقفة انكلترا للاجتماع في لندن، للتباحث حول عودته، وللترتيب من أجل أمان مروره، وعندما سمع الملك بهذا، بات مرعوباً كثيراً على نفسه، من الاجتماع العام الذي كان على وشك الانعقاد في ثمانية الفصح، وذلك عندما كان متوقعاً وصول أسقف بلنسية المنتخب، ووضع ثقته كلها بالنائب البابوي، لأنه كان حاضراً، ومع ذلك كان حزيناً جداً وخائفاً، خشية أن يثور النبلاء والرجال ذوي المراتب في المملكة ضده باتفاق عام، بسبب تجاوزاته المتنوعة، وأعمال خروقاته المتكررة ضد القوانين التي طالما وعد وأقسم على مراعاتها والحفاظ عليها، ولذلك تقدم بالتماسات سريعة وملحة إلى النائب البابوي، حتى يرسل أكثر الرسل مواءمة، بكل سرعة ممكنة إلى البابا، لكي يبقى في انكلترا، حتى يمكن بوسائطه قمع الاضطراب الوشيك، وبقي النائب البابوي، لأنه لم يرغب في ازعاج الملك برفض طلبه.

بطرس المسلم يقدم إلى الامبراطور مبلغاً كبيراً من المال مقابل فديته

وعرض في هذه الآونة بطرس المسلم، الذي احتجزه الامبراطور

فردريك أسيراً لديه، دفع مبلغ عشرة آلاف باوند استيرليني فدية، ولكي يحصل على حظوة الامبرطور، وبـذلك يجري اطلاق سراحـه ويتحـرر، وكان الامبراطور قـد وافق على هذا، على شرط أن يصبح صـديقه ملك انكلترا، ضامناً من أجل دفع مثل هذا المبلغ الكبير من المال، وأن لايقوم بطرس المسلم المذكـور ولا أي من أتبـاعـه، منذ ذلك الحين فصـاعـداً، بتسبب إلحاق الضرر بـالجلالة الامبراطوريـة، بأي شكل مـن الأشكال، ثم إن بطرس المذكـور كتب إلى صاحب القـداسة البـابا، وإلى أصدقـائه الآخـرين، يرجوهـم، بما أنه كان دومـاً على استعـداد، وجاهزاً وراضيـاً بانفاق أمواله في سبيل رفع شأن الرومان ومصالحهم، لحث ملك انكلترا المذكور، بوسـاطة كل من النائب البابوي، وأصـدقائه المقـربين الآخرين ليتعهد باسمه شخصياً وباسم مملكته بالقبول بالشروط المذكورة.

وعندئذ صـار النائب البابوي وسيطاً نشيطاً، ووكيـلاً في هذا العمل، وقال بإنه لايستطيع بشرف أن يرفض تقديم المسـاعدة لرسوله السجين، لكن الملك رأى أن الفخ كـان منصـوباً له، وعـرف مقـدار الخطر الذي يمكن أن يحيق بمملكتـه، وأن ذلك ليس من شأن الرومـان، مـادامت مقتنيـاتهم محفـوظة إليهم، وانفجر متفـوهاً بكلمات غـاضبـة، وأقسم أنه آسف لأنه تخلى عن الرجال الانكليز الأمنـاء، واستدعى النائب البابوي إلى انكلترا، وهو الذي بدد ثروات البـلاد، ومـزج الصـواب مع الخطأ، وفي ظل مثـل هؤلاء الحكام أصبحت انكلترا آنئـذ —وبالفعل كـانت كذلك— كرماً، كل من يمر على الطريق يلتقط منه عناقيد، لأنه ليس له سور يحميـه ويحيط به، ولاحارس يحرسه، لأن الذي حرّمـه اللاهوتيون مرة بحرارة، سمحوا به مرة أخرى.

إعطاء سردينيا إلى الامبراطور

في هذا العام، عندما كان الامبراطور يمضي الشتاء في ايطاليا، أعطيت له الجزر الغنية، الواقعـة في البحر المتوسط، والمجـاورة لمدينة بيزا، والتي

كانت أكبرها وأعظمها قوة جزيرة سردينيا، وتمّ التخلي له عنها، وقد قيل بأن امتياز هذه الجزيرة، كان يعود بشكل خاص إلى ميراث القديس بطرس ووقفه، لكن الامبراطور أكد أنها تعود منذ زمن قديم إلى الامبراطورية، إنما بسبب انشغالات الأباطرة، ولكثرة الضغوط الأخرى والضرورات الامبراطورية قد جرت خسارتها، وأنه قام الآن باستردادها إلى جسم الامبراطورية، وقال:

«لقد أقسمت، كما يعرف العالم تمام المعرفة، بأنني سوف أسترد الأجزاء المتفرقة من الامبراطورية، وهذا لن أكون متراخياً في انجازه»، وبناء عليه هو لم يعبأ بتحريم البابا، وبعث ابنه، لتسلم حصة الجزيرة المتقدم ذكرها، التي منحت إليه، وعندما سمع البابا بهذا امتلأ بأعظم الغضب، ونهض للقيام بانتقام علني، لأنه عدّ فقدانها خسارة عظيمة، لأن جزيرة سردينيا —كما قيل— كانت في الحقيقة، مكان لجوء للتجار، وموضع راحة للناس الذين جنحت سفنهم، وملاذاً للمنفيين، وقد حكمت من قبل أربعة مقدمين، هم الذين أطلقوا عليهم اسم قضاة، وكانت الخسارة ثقيلة، لكن طريقة خسارتها كانت أثقل في تحملها، وقد بدت كإيذاء كبير، وظهر أن الكراهية التي تفجرت بين الامبراطور وبين البابا، كانت أشبه بجرح قديم، أنتج قضايا قذرة.

رئيس أساقفة كانتربري يرهق الرهبان

وفي هذه الآونة ألقى ادموند رئيس أساقفة كانتربري يده بثقل أكثر على رهبانه، وجرى وضع رهبان كانتربري تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، كما أن رئيس الرهبان الجديد الذين انتخبوه، قد وضعه أيضاً تحت الحرمان الكنسي، وكذلك وضع الذين انتخبوه.

خلاف بين أسقف لنكولن وبين كهنته

وأصبح أسقف لنكولن أيضاً مطرقة ومعذباً وحشياً للرجال الدينيين

في أسقفيته، لأنه ثار بدون تردد ضد الكهنة النظاميين العـائدين لكنيسته الكاتدرائية، الذين أوجـدوه، وطالب بكل حرارة بعـزل عميد لنكولن، وأنهم ينبغي زيارتهم زيارة تفقـدية مـن قبل الأسقف نفسـه، وذلك على عكس مـا كانـت عليه عـادة الكنيسـة منذ زمن مغـرق بالقدم، وتقـدم الكهنة على كل حال بشكوى مستعجلة، وقاموا بعد أعمال تأخير واعاقة طويلة، وخلافات كبيرة، فأحالوا القضية إلى محكمين هم: وولتر أسقف ووركستر، ورئيس شمامسـة المكان نفسـه، والمعلم أ. A أوف بكل Beccles وأنهم إذا لم يقـومـوا بالاجـراءات بشكل قـانوني، جـرى السماح لكل واحد من الطرفين بالترافع ثانية إلى البابا، وفي الوقت نفسه توقفت الفئتـان عن الزيارة، وبهذه الإضـافـة، أي «توقف الفـريقـان في الوقت نفسـه عن الزيـارة» كـان معنى هذا أن فـريق الرهبـان كـان في خطر، لأن الأسقف لم يزرهم قـط، والذي لم يبـدأ قط لايمكن إيقـافـه، لأنه كما جـاء بالأمثـال، الـذي ليس لديه قـرنين، لايمكن أن يخسر أياً منهما، ومع هذا أن يتوقف العميد عن الزيارة، الأمر الذي كان في سبيله يناضل الكهنة، قـد ظهـر بذلك أنه قـد جـرد مـن ممتلكاته، ولو للوقت الحالي، وبـذلك ازداد الخلاف، ونشـأت فضيحـة كبيرة، وهكذا ثـار الخلاف والصراع فيما بينهم، ووصـل بذلك إلى حـد إثارة مشـاعـر الغضب، فلم يسمح الكهنة للأسقف بالـدخول إلى هيئة رهبـانيتهم، أو القيـام بأية زيارة تفقـدية بينهم، وأعلنوا بوضـوح أمـام الأسقف نفسـه بأنهم كـانـوا آسفين جـداً، أنهم أوجـدوا أسقفـاً مـن مثل هذا الشخص الدنيء، ونشب خلاف كبير، وبعـد قليل من الإنفاق بلا فـائدة من على الجانبين، عملت مـرافعة لتقـديمهـا إلى البابا، وجـرى تعيين المعلم أودو دي كنكلني Kinkelny محامياً عن الهيئة الكهنوتية، وفي أحـد الأيام وقعت واقعة مدهشة:

عندمـا كان واحـد من الكهنة المؤيدين لموقف الهيئة الكهنوتيـة، يعظ

الناس في بناء كنيسة لنكولن الفخم، قدّم إليهم جميعاً شكوى جادة ضد ظلم الأسقف، وتفوه بالكلمات التالية:

«نحن وإن كنا صامتين، فإن الحجارة سوف تصرخ رافعة صوتها عالياً»، وعندما تفوه بهذه الكلمات، تحطم جزء كبير من الكنيسة وتهاوى.

عواصف جديدة من المطر

ومع اقتراب الربيع، وفي حوالي أيام عيد الفصح، توقفت عواصف الريح، والأمطار الغزيرة، وذلك بعدما استمرت بشكل متواصل لمدة أربعة أشهر، عاملة الوحل على الأرض، إلى حد أن البحيرات والمستنقعات، كادت تخنق القمح، وتفسد الأجواء.

مقتلة المسلمين في إسبانيا

وفي العام نفسه، في يوم الثلاثاء بعد الفصح، عملت مذبحة كبيرة بين المسلمين في منطقة قرطبة، من قبل ملك قشتالة، أخو بلانشي، ملكة فرنسا، وأم الملك.

وفاة وليم دي كانتلوب

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في السابع من نيسان، مات البارون الشهير، وليم دي كانتلوب Cantelupe والد أسقفووركستر، عن عمر متقدم.

الملك يسعى لإعادة مستشاره

وفي هذه الآونة، وبالتحديد، في الأسبوع الذي أعقب عيد الفصح، أصبح الملك آسفاً، بسبب عمله غير النظامي وغير المستقيم، في انتزاعه ختمه، وإبعاده عن نفسه وعن بلاطه مستشاره، أسقف شيستر، الذي شغل من قبل ولمدة طويلة منصبه بأمانة، وقد سعى الآن بوساطة

مختلف وسائل الجذب والوعود إلى إعادته، لكنه كان —على كل حال— يؤثر التقاعد والاعتزال، والهدوء للعناية بنفسه، والاستمرار بربحه ونجاته من خطر حمل الخاتم، ولذلك رفض الوقوع ثانية بالمصائد التي نجا منها مرة، وتذكر كيف أنه دعي وجرت تسميته لأسقفية وينكستر، وكيف أن انتخابه قد ألغي من قبل الملك، الذي كان قد خدمه لمدة طويلة بكل اخلاص، وهو أيضاً قد خدم والده في منصب آخر.

ملك اسكوتلندا يتزوج من ابنة اينغلرام دي كوسي

وفي هذه الآونة اقترن الاسكندر، ملك اسكوتلندا بابنة اينغلرام دي كوسي Engelram de coucy وكان باروناً نبيلاً من المملكة الفرنسية، وكانت فتاة جميلة اسمها مريم، وجرى الاحتفال بالعرس بشكل مهيب في روكسبورغ Roxburgh في يوم أحد الشعانين.

عدم مغادرة النائب البابوي بناء على طلب الملك

كان النائب البابوي، وكأنه على وشك المغادرة، والعودة إلى البلاط الروماني، ولذلك استأذن الملك بتواضع، وكذلك رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وسكان لندن، في قداس أعدّه خصيصاً لهذه الغاية، وقد باع الخيول الأصيلة التي أعطيت له، بشروط جيدة، واشترى خيولاً عادية مكانهم، وأعدّ حقائبه، وهيأ سرج ظهور المطايا، وكان الملك يعتقد أنه سوف يموت بغيابه، فبذل جميع الجهود التي كانت بطاقته، لاقناعه، بالمكوث ولو لمدة صغيرة أطول، ذلك أنه كان قد بعث إلى البلاط الروماني واحداً من محاميه، الذين احتفظ بكثيرين منهم (مثلما يحتفظ الصياد بكلاب الصيد) ليبقي منتخبي الأساقفة متفرقين، وكان هذا المحامي هو سيمون النورماني، وكانت مهمته الحصول من البابا على أمر إلى النائب البابوي ليطيل مكوثه في انكلترا، ليتحاشى كثيراً من المخاطر

هناك، ولم يكن في هذا الرأي مخدوعاً، لأنه عندما كان جميع أثاث النائب البابوي وحقائبه قد اكتمل إعداده، رجع سيمون النورماني، جالباً معه رسائل، حصل عليها بما يتوافق مع رغبة الملك، ولدى إطاعة النائب البابوي لمحتوياتهم غلب السرور على الملك، أما النبلاء الذين كانوا يعرفون تقلبات الملك مثل مراوغة الثعلب، فقد غادروا غاضبين، دون أن يحققوا هدفهم، ومقتوا كلام الملك مثل مقتهم كلام المغالطات السوفسطائية.

انتخاب وليم دي ريل إلى أسقفية نورويك

وكان رهبان كوفنتري قد فرغوا الآن من إعداد شروط مشرفة من أجل انتخاب الأسقف مع كهنة كنيسة ليشفيلد Lichfield ووافقوا —كما ذكرنا من قبل— بالاجماع، على انتخاب وليم ريل، ليكون أسقفاً لهم، وذلك من خلال الخوف، أنهم إذا ما انتخبوا أي واحد آخر، غير محظي لدى الملك، سوف يعارضهم الملك مواجهة، وسوف يسبب لهم الاضطراب، كما هي العادة، وفي الوقت الذي بقي فيه وليم المذكور في حالة تردد، وتعليق، ومثل رجل حكيم ومجرب، يزن حوادث المستقبل بميزان العقل، رأى رهبان نورويك، أنهم قد انتظروا لوقت طويل، لأنهم لم ينتخبوا وليم المذكور، أسقفاً لأنفسهم، ذلك أنهم بهذا الانتخاب سوف لن يزعجوا الملك ولا أي واحد آخر، ولذلك اجتمعوا على الفور مع بعضهم، وانتخبوا وليم دي ريل المذكور بمثابة أسقف لأنفسهم، وعند ذلك رفض وليم المذكور الأسقفية الأخرى التي حصل عليها بالحظوة وقبل أسقفية نورويك، ذلك أنه فضّل البقاء في انكلترا مع الانكليز، على الذهاب إلى ويلز، والبقاء مع الويلزيين غير المدجنين.

تحصين برج لندن

وجرى في هذا العام تحصين برج لندن، مما جعل سكان لندن يخشون

بأن يتحول هذا لإيذائهم، ولدى تقديمهم شكوى حول هذه المسألة إلى الملك، أجابهم بأن ذلك لم يكن للإضرار بهم أو لإهانتهم، وقال:

«بل إنني سوف أسعى، من الآن فصاعداً، بإعادة بناء قلاعي، لأن أقلّد إخواني، الذين أفادت عنهم التقارير، أنهم أكثر حكمة مما أنا عليه».

تزايد العدوانية والكراهية بين الامبراطور وبين البابا

وفي أيام الصوم الكبير من العام نفسه، رأى البابا المسيرة الطائشة للامبراطور، وسمع كلامه الذي سوغ به ذنوبه، حيث أنه بتقديمه الحظوة والمساعدة لبعض نبلاء سردينيا وقضاتها، استمر حتى استولى عليها، وأدخلها في حوزته، ومازال مستولياً على أرض وقلاع أسقف سردينيا، وقد أعلن باستمرار، بأنهم حصة من الامبراطورية، وأنه بيمينه الرئيسي والأول قد أعلن أنه سوف يحافظ على حقوق الامبراطورية، بقدر ماأمكنه من قوة، وأنه سوف يجمع الأجزاء المتفرقة منها، وأنه بعمله هذا قد زاد الغضب عنفاً ضده، ورفع ضده بعض الشكاوى الثقيلة والدعاوى، وغالباً ما كتب بجرأة وبدقة إليه، وكثيراً مانصحه بوساطة عدد كبير من الرسل الخاصين، الذين كانت سلطاتهم تستوجب أن ينالوا منه، أعظم الاهتمام، وأن يقلع عن حرمان الكنيسة من ممتلكاتها، التي منحت إليها بوساطة سجلات قديمة، وتعامل معه مثل الطبيب الماهر، الذي استخدم أحياناً الكمادات، ولجأ في وقت آخر إلى استخدام أداة الكي، ومزج التهديد مع الاقناع، والرسائل الصديقة مع الانتقادات المرعبة، وبقي الامبراطور —على كل حال— عاصياً رافضاً لطلبه، وعلّل أعماله وسوغها على حجج تأسست على المنطق، وبناء عليه قام صاحب القداسة البابا في أحد السعف، بحضور عدد كبير من الكرادلة، وفي حالة كان يغلي بها من الغضب في روحه، فحرم بشكل مهيب كنسياً الامبراطور فردريك المذكور، وكأنه كان يريد أن يخلعه من

منصبه الامبراطوري على الفور، وألصق به تهماً كثيرة، وأعلن أنه سيظل مملوكاً من قبل الشيطان حتى وفاته، وفي استخدامه لهذه الكلمات، التي كان وقعها مثل صواعق غضبه، أثار الرعب في قلوب جميع الذين سمعوه.

نص قرار الحرمان الكنسي الذي أعلن ضدّ الإمبراطور فردريك

«باسم الرب القدير، الأب، والابن، والروح القدس، وبوساطة سلطتي الرسولين: بطرس، وبولص، نحن نحرم كنسياً، ونحرم من شراكة المؤمنين الامبراطور فردريك المذكور، لأنه أثار عصياناً ضد الكنيسة الرومانية في المدينة، وحيث سعى لطرد الحبر الروماني وإخوانه من كرسيهم، كما قام في معاداة للإمتيازات، وللمرتبة، وللأشخاص، فداس على حرية الكرسي الرسولي، وعلى الكنيسة أيضاً، وذلك بوساطة العنف الطائش للقسم الذي ربط به هذه المسألة بالنسبة للكنيسة الرومانية، ونحن أيضاً نحرم كنسياً، ونحرم من شراكة المؤمنين الامبراطور المذكور، لأنه أمر بعضاً من رعيته، فأقدموا على حرمان أخانا المبجل أسقف برانستي Praeneste ونائب الكرسي الرسولي، من ممارسة أعمال نيابته التي عهدنا بها إليه، في مقاطعات الألبينيين، في سبيل تثبيت الإيمان الكاثوليكي، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، بسبب أنه لم يسمح لإحدى الكاتدرائيات وكنائس أخرى شاغرة لأن تملأ، وبهذه الوسائط تعرضت حرية الكنيسة للخطر، ومات الإيمان، لأنه لم يعد هناك من أحد يعرض كلمة الرب، أو يحكم أرواحهم بغياب راعي الأرواح، وأسماء الكنائس الشاغرة هي كما يلي:

كاتانا Catana, وريغيو Reggio, وأكريفيارا Accriviara, وسكويلاتا Squilata, وريسا Resa, وبوتنزا Potenza, وأوترانتو Otranto, وبوليكاسترو Policastro, وسارتينا Saretina, وأفيرسانا Aversana, وفالفا Valva,

ومـونوبولي Monopoli, وبولوغناغنو Polognagno, وملفي Melfi, ورابيلا Rappella, وكريبـوتو Cributo, وألفانا Alifana, ومـزارا Mazara, وفيجيليرا Vigiliara, وفـــريثينا Frethina, مع الديرة في فينوسيـا Venusia, والمخلص المقدس في مسينا Messina, ومجدداً نحن نحرم كنسيــاً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكـة المؤمنين، لأن الكهنة في مملكته يعتقلون، ويسجنون، ويحكم عليهم بـالموت، ويقتلون، ومن جـــديد نحن نحـــرمـه كنسيــاً، ونحرمـه من شراكة المؤمنين، لأن الكنائس المكرسة في مملكتـه للرب قد دمرت ودنست، ومجدداً إننا نحرمه كنسيـاً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه لم يسمح بترميم سـورانو Sorano, ومجدداً نحن نحـرم كنسيـــاً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكـة المؤمنين، لأنه عندما كان حفيد ملك تونس قـادماً إلى كنيسة رومـا لتلقي قداس التعميـد، احتجزه، ولم يسمح له بالـوصـول، ومجدداً إننا نحـــرم الامبراطور المذكـور كنسيــاً، ونحـــرمـــه من شراكـــة المؤمنين، لأنه اعتقل، ووضع بـالسجن بطرس المسلم، مع واحد من نبلاء سكان رومـا، عندما كانا قادمين إلى الكرسي الرسـولي لصالح ملك انكلترا، ومجدداً إننا نحـرمه كنسيـاً، ونحرمـه من شراكة المؤمنين، لأنه استولى على أراضي الكنيسة في:

فيرارا Ferrara, وبنغنوغـــومـــا Pingnogoma, وبولونا Bologna, وأسقفية فيرارا، وأسقفية بولونا، وأسقفية لوكا Lucca, وكذلك مقاطعة سردينيا، بعنف طائش وخرق لليمين الذي ارتبط به إلى الكنيســة حول هذه المسألـة، ومجدداً نحن نحرمـه كنسيـاً، ونحرمـه من شراكة المؤمنين لأنه استـولى على أراضي بعض نبلاء مملكته وعـاث فيها فسـاداً، وذلـك حيث الحكم للكنيســة، ومجدداً نحـن نحـرمـــه كنسيـاً، ونحـرمه من شراكـة المؤمنين، لأنه حرم بعض الكنائس الكاتدرائيـة من مقتنياتها، وهي:

كنيسة مونت رويال، وسيفيلادا Cephelada, وكاتانا Catana, وسكويلاتا Squilata, وأيضاً ديرة:

ميليتو Mileto, والقديسة يوفيميا Eufemia الكبير، والقديس يوحنا في لامنتانو Lamentano, ومجدداً نحن نحرم كنسياً الامبراطور المذكور، بسبب أن كثيراً من الكاتدرائيات، وكنائس أخرى، وديرة في مملكته قام بموجب تفتيش غير عادل، بحرمانهم من جميع مقتنياتهم تقريباً، ومجدداً نحن نحرمه كنسياً ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأن الداوية والاسبتارية في مملكته الذين حرموا من ممتلكاتهم المتحركة وغير المتحركة، لم يتم تعويضهم تماماً، وفقاً لشروط السلام، ومجدداً نحن نحرمه كنسياً ونحرمه من شراكة المؤمنين، بسبب أن قساوسة الكنائس، ورعاة طائفة رهبان السسترشيان والطوائف الأخرى في مملكته، مرغمين شهرياً على دفع مبلغ محدد من المال، في سبيل بناء قلاع جديدة، ومجدداً نحن نحرم كنسياً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه بمخالفته لبنود السلام، أرغم الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، على مغادرة مناطقهم، وكأنهم قوم محكوم عليهم بالإعدام، وذلك في الوقت الذي جرى فيه وضع زوجاتهم وأولادهم في السجن، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه بسببه تعطلت الحملة الصليبية، وكذلك استرداد الامبراطورية الرومانية، وبالنسبة إلى جميع الذين مرتبطين به بموجب يمينهم بالتابعية، هم محللون من مراعاة ذلك اليمين وتطبيقه، ونمنعهم بكل دقة من مراعاة مسألة تابعيتهم إليه، وذلك مادام مغلولاً بسلسلة الحرمان الكنسي، وأما بالنسبة لظلمه وأعمال الإيذاء الأخرى التي أنزلها بالنبلاء، والفقراء، والأرامل، والأيتام، والآخرين في المملكة، الذين لصالحهم كان الامبراطور فردريك المذكور، قد أقسم على الالتزام بأوامر الكنيسة، نحن ننوي أن نخلعه، وبالنسبة لهذه المسألة، سوف نسير بعون الرب،

وفقاً لما توجبه العدالة علينا أن نفعل، وإنه علاوة على ذلك، بالنسبة لجميع الذنوب المتقدم ذكرها أعلاه، جماعياً وإفرادياً، والتي من أجلها كان فردريك المذكور قد جرى تنبيهه من قبلنا بكل دقة، وغالباً ما جرى لومه، ومع ذلك هو لم يكلف نفسه القيام بطاعتنا، إنه من أجل هذا كله نحن نحرم كنسياً فردريك المذكور ونحرمه من شراكة المؤمنين، ومجدداً لأن فردريك المذكور قد ساءت سمعته بشكل جاد بأفاعيله هذه، فإن عدداً كبيراً من الناس يصرخون، في جميع أنحاء العالم، بأنه لايلتزم بالرأي الصحيح فيما يتعلق بالإيمان الكاثوليكي، وبعون الرب، سوف نسير في هذه القضية في وقتها المناسب، ومكانها الموائم، وذلك وفقاً لأحكام الشريعة».

كيف اشتعل غضب الامبراطور ضدّ البابا

ولدى سماع الامبراطور بهذا اشتعل بغضب عنيف، وغالباً ماردد اللوم، واتهم الكنيسة وحكامها بعدم الوفاء له، وأنهم أعادوا إليه الشر مقابل الخير، وذكّرهم، كيف أنه عرض نفسه وممتلكاته إلى الأمواج العاتية الكبيرة، وإلى ألف نوع من المخاطر، في سبيل تقدم الكنيسة وازدهارها، ومن أجل زيادة الإيمان الكاثوليكي، وأكد أن جميع التشريف الذي تمتلكه الكنيسة في الأرض المقدسة، قد جاء الحصول عليه بفضل جهوده وتعبه، ثم قال:

«لكن البابا غيور من مثل هذه الزيادة السعيدة، لأنه تم الحصول عليها لصالح الكنيسة بوساطة رجل علماني، والذي يرغب بالذهب والفضة أكثر من رغبته بزيادة الإيمان، كما يشهد على ذلك أعماله، والذي يستخرج المال من جميع البلدان المسيحية، باسم العشور، قد بذل كل الإمكانيات التي توفرت له، وعمل كل مايمكنه، لأن يخلعني ويحلّ آخر محلي، وحاول حرماني وسعى في سبيل ذلك عندما كنتُ أقاتل في سبيل الرب، معرضاً جسدي لأسلحة الحرب، وللأمراض، ولمصائد أعدائه،

وبعد التصـدي للأمواج العاتيـة المدمرة، انظروا أي نوع من الحماية التي قدمهـا لنا أبونا، وأية أنواع من المساعدة وقت المصـاعب، قدمت لنا من قبل نائب يسـوع المسيح! والآن لم يقنـع غضب هذا المضطهـد، بل رأى أن عليـه أن يربكني ويدمـرني، ولهذا نصب أمامي رجـلاً معـادياً لي هو جـون دي بريين، الذي كـان من قبـل ملك القـدس، والذي عـرف أنه جـريء في الحرب، وبارع في النظام العسكـري، وحـاول أن يجعل منه أكثر الأعداء مرارة لي، وذلك في وقت لم يكن لدي أي تصور لشيء من هذا النوع، كما أنه أغنى نفسـه بمبلغ كبير من المال، استخـرج بظلم من قسـاوسـة الكنيسة الفقـراء في جميع أنحـاء العـالم، وليس من السهل أن أكشف أية نحيب، وأيـة دمـوع، أنتجـه هذا الأسـى ووضعـه في قلبي، عندمـا سمعتُ بهذه الأشيـاء مـن رعيتي، وهـو لابد أنه يعـرف الذي لايجهل شيئاً، وقمتُ وقتهـا على الفور بـإخفاء هذه الآلام التي شعـرتُ بها بالقلب، وتحت ملامح هادئة، بدأت أفاوض من أجل السلام، وتمت الموافقة على هدنة، وبادرت مسرعاً بـالعودة، وذلك خشية من أن يحدث فيعلم عـدونا بهذا، فيصبح أكثر حماسـاً بنجاحـاتهم، وبذلك يغدو أكثـر عدوانيـة بالنسبة لنا، وعندمـا عدتُ إلى الوطن وجـدتُ أراضي مستولى عليـها، وهـي محتلـة من قبـل أقـربـاء البـابا وأصدقـائـه، الذين كـان قـائـدهم جون دي بريين المتقـدم الذكـر، ولقـد اعتقلت هؤلاء، ومع عـون الرب المنتقم لي، توليتُ معـاقبـة الذين أعـاقـوا شـؤون الصليب، حسب استحقـاقـاتهم، وليكـن الرب الحكـم بينـي، الـذي أنا جنديه، وبين البـابا نائبـه، والمسيح يعـرف، والعـالم يعـرف بأننـي لم أبتعـد عن جادة الصـواب، وهذا هو جذر، وأصـل كراهيته، ولقـد نشب خلاف بين الناس، وانقسمـوا، لكـن بـوجـود سيـدهـم الطبيعـي، أي الامبراطور، عـاودوا الاتحاد، وتم استرداد قـوة الامبرطـورية في وقت قصير».

كيف وصل رهبان مونت كازينو إلى البابا في روما

ووصل في العام نفسه رهبان مونت كازينو Monte Casino, (حيث غرس القديس بندكت ديراً) الذين بلغ تعدادهم ثلاثة عشر راهباً، إلى البابا، في ثياب عتيقة وممزقة، وبشعر أشعث، ولحى غير مهذبة، والدموع في أعينهم، ولدى إدخالهم إلى حضرة قداسته، سقطوا على قدميه، وقدموا شكواهم بأن الامبراطور قد طردهم من بيتهم في جبل كازينو، وكان هذا الجبل لايرام، وفي الحقيقة لايمكن لأي واحد الوصول إليه، إلاّ بموافقة الرهبان، وبموافقة الآخرين الذين يسكنون عليه، غير أن ر. R غويسكارد Guiscard استطاع الاستيلاء على قلعة الرهبان، بحيلة تظاهره بأنه كان ميتاً، وقد حمل إلى هناك على محفة، وبذلك استولى —كما قلنا— على القلعة، وعندما سمع البابا بهذا أخفى أساه، وسأل عن السبب، وعلى هذا أجابه الرهبان: «بسبب أننا في طاعة لك حرمنا كنسياً الامبراطور»، وعندها قال لهم البابا: «إن طاعتكم سوف تنقذكم»، وبعد هذا ذهب الرهبان دون أن يتلقوا أي شيء زيادة من البابا.

كتابة مدهشة

وظهرت في العام نفسه لواحد من الرهبان من طائفة السسترشيان، يد بيضاء مكتوب عليها جسدياً الكلمات التالية:

«سوف يقطع الأرز العالي للبنان، وسوف يسيطر المريخ على زحل والمشتري، وسوف يعمل زحل مصائد للمشتري في كل شيء، وسوف يكون هناك رب واحد، أي ملك، فقد جاء الرب الثاني، ولسوف يجري اطلاق سراح بني اسرائيل من السبي خلال أحد عشر عاماً، وشعب عدّ بلا قائد سوف يصل أثناء تجواله، واأسفاه على رجال الدين، إذا ماسقطوا، فإن طائفة جديدة سوف تزدهر، وواأسفاه على إيمان الكنيسة،

وعلى الشرائع، وعلى الممالك، التغيير سوف يقع، وسوف يجري دمار أمة الإسلام».

كسوف الشمس

كان في الثالث من حزيران، من هذا العام كسوف للشمس، في حوالي الساعة السادسة من النهار، وفي حوالي الوقت نفسه من العام، جرى استدعاء وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية بتدخل من البابا (الذي رغب —كما قيل— بتعيينه قائداً للجيش ضد الامبراطور)، إلى الحلف الأسقفي بشأن الاحتفاظ بالحصول على الكرسي البلنسي، وكأنه غير ملطخ بتهمة القتل، ولذلك إنه لاعجب أن الناس قد اعترتهم الدهشة لدى سماع هذا، وأنه مايزال يسعى وراء كرسي وينكستر، وقد عيّن ملك انكلترا وكيلاً متحمساً لتأمين هذا الهدف، واأسفاه، واأسفاه، كيف أن كمية من المال جعلت بلاط روما يميل إلى إعطاء موافقته وإذنه.

ولادة إدوارد الأول ابن الملك هنري الثالث

في ليلة السادس عشر من حزيران، ولد صبي في ويستمنستر للملك من زوجته اليانور، وبمناسبة هذه الحادثة قدم جميع نبلاء المملكة تهانيهم ولا سيما سكان لندن، لأن الصبي قد ولد في لندن، وتجمعوا على شكل جماعات من الراقصين مع طبول ودفوف، وأضاءوا في الليل الشوارع بمصابيح كبيرة، وقام أسقف كارلآيل بطقوس تلقين الطفل، وتولى النائب البابوي تعميده مع أنه لم يكن كاهناً، لكن ادموند رئيس أساقفة كانتربري قد سانده وثبته، وبناء على رغبة من الملك أعطي له اسم ادوارد، وجرى إرسال عدد كبير من الرسل لنقل خبر هذه الحادثة، وقد عادوا وهم محملين بهدايا ثمينة، وقد بهتت الآن بعمق سمعة الملك بسلوكه، لأنه عند عودة الرسل إلى الملك، سأل كل واحد منهم عن الذي تسلمه، والذين كانوا قد تسلموا الأقل، مع أنهم جلبوا معهم

هدايا ثمينة، أمر بإعادتهم مع غضب ولم ينطفىء غضبه، حتى أعطى كل واحد هدايا مرضية بناء على طلب الرسل، وعلى هذا علق أحد النورمان الأذكياء بقوله: «الرب أعطانا هذا الطفل، لكن الملك باعه إلينا»، ولم يعف النائب البابوي أيضاً من الحصاد الذي لم يجنه، فأعطى الشخص الذي جلب له الأنباء على حساب الآخرين، وكما قلت من قبل، جرى تعميد هذا الطفل من قبل النائب البابوي في اليوم الرابع من ميلاده، ورفع من الأمام من قبل الأسقف روجر أسقف لندن، ومن قبل وولتر أسقف كارلآيل، وكذلك من قبل وليم الأسقف المنتخب لنورويك، وأيضاً من قبل رتشارد ايرل كورنوول، أخو الملك، ومن قبل الايرلات:

سيمون ايرل مونتفورت، وايرل ليستر، وهوغ دي بوهون Bohun ايرل هارتفورد واسكس، وكذلك من قبل سيمون النورماني، رئيس شمامسة نورويك، والنبيل بطرس دي مولاك Maulac وألماريك دي سينت أماند Almaric de Amand وبحضور عدد كبير من النبلاء والسيدات.

وفي هذه الآونة، قام رالف دي ثوني، وهو بارون نبيل، بتوديع أصدقائه، وغادر في سبيل الحروب الصليبية مع عدد كبير من النبلاء، وخاصة من مملكة فرنسا، وبعد استعدادات كبيرة انطلق بجرأة في رحلته إلى القدس، من أجل أن الناس عندما يجازون في اليوم الأخير من أجل أعمالهم الصالحة، يمكن أن يتوّجوا بأكاليل الغار، ويحصلوا على مكافأتهم النهائية.

انتخاب المعلم نيقولا أوف فانهارم أسقفاً لشيستر

وفي العام نفسه، بعدما جرى استدعاء وليم دي ريل، ومن ثم انتخابه ليتولى حكومة كنيسة نورويك، بموافقة من رجال الدين

والناس، قام رهبان كوفنتري على الفور، فساروا في إجراءات قضية انتخاب أسقف موائم لأنفسهم، حتى لايتعرضوا للمزيد من الغضب بالقيام بانتخاب يكون عرضة للروادع والرفض، ولذلك انتخبوا المعلم نيقولا أوف فارنهام Farnham وكان رجلاً مزيناً بكثير من الفضائل، وصاحب قامة جميلة، وفصيحاً في خطاباته، وناضجاً ومتواضعاً في سلوكه، وتصرفاته، ولذلك كان لايمكن لحديث تجريجي أن يقف في طريق مقاصدهم، ولكن بعدما قبله الملك وكذلك رجال الدين والناس، رأى المعلم نيقولا، وكان رجلاً عميق الفهم، أن المسألة عرضة لخلاف شرعي مكشوف، وأن الأسقفية موجودة على أقصى حدود انكلترا، وقدر بمثابة رجل متواضع ومستقيم، أنه غير قادر على تحمل مثل هذا العبء الثقيل، وأنه سيكون خطيراً بالنسبة له تقديم حساب عن المسؤولية عن مثل ذلك العدد من الأرواح، لذلك رفض قبول العرض ولابشكل من الأشكال، ورفض بثبات أن يتحمل ثقل هذا المنصب، واستقال من شرفه، لأنه كانت هناك قضية خلاف بين الرهبان والكهنة، لأن فريق الكهنة قد أكد أن أفراده هم الذين ينبغي أن ينتخبوا الأسقف هذه المرة، وذلك وفقاً لشروط الاتفاقية، التي بها جرت تسوية الخلاف فيما بينهما، وهي أنه بعد عمل انتخاب أول من قبل الرهبان، فإن مسؤولية الانتخاب الثاني تقع على عاتق الكهنة، لكن عندما عرض الكهنة هذا الإدعاء، ردّ عليهم الرهبان، بأن الانتخاب قد ألغي، ولم يصل إلى أية محصلة، وأنهم لم ينالوا ماأرادوه، ومردّ ذلك إلى حادثة غير متوقعة، تسببت ليس بتصميم منهم، بل بالقضاء الرباني، الذي يقضي بجميع الأشياء حسبما يشاء، وقال الكهنة في رد على هذا:

«نحن نرغب منكم أن تعرفوا، أنه ليس أسقفكم المنتخب هو الذي لايرضينا، ذلك أنه أهل تماماً لمثل هذا الانتخاب الرفيع، بل هو شكل

انتخابكم هو الذي لم يرضينا، بما أن دور الانتخاب يقع علينا، وليس عليكم، وهذا قد برهنا عليه بشكل جيد بوساطة أعمالنا، لأننا انتخبنا عميدنا بمثابة أسقف لنا، وحارساً لأرواحنا»، ثم إنه عندما ارتفع صوت الاضطراب، الذي هدّد بأن يجلب خلافاً مدمراً، قام العميد الذي كان رجلاً تقياً، برغبة منه لوضع حد لعدم الاتفاق، فقال بصوت مرتفع أمام الناس:

«ليكن معلوماً، وليكن معلوماً، أنني لاأدري على أية أسس انتخبتموني أنا الذي تماماً لستُ أهلاً لحمل أعباء منصب الأسقفية، ولذلك إنني من صميم قلبي وعقلي أعارض مثل هذا الانتخاب، وأتنازل عنه، ولنعمل على إنهاء هذا الاضطراب، ودعونا الآن جميعاً في هذا الوقت الحالي، بموافقة عامة نقف إلى جانب ذلك الرجل الجيد، الذي أفاد التقرير عنه بشكل طيب»، وفي سبيل المحافظة على حق كنيستهم من على الجانبين، قاموا جميعاً أي الرهبان وكذلك الكهنة فاتفقوا بالاجماع، فبعثوا إلى المعلم نيقولا المتقدم الذكر، وأخبروه أن جميع الذين لم يوافقوا من قبل، قد اتخذوا الآن قرارهم بالاجماع، وقد انتخبوه، وهم بتواضع يرجونه أن يتكرم بقبول هذا الشرف، مهما كان ثقيلاً، وعرضوه عليه وقدموه إليه باسم الرب ونيابة عنه، وردّ عليهم المعلم نيقولا، وأجابهم قائلاً:

«وهو يصفق بيديه، إنني أعيد إليكم شكري أضعافاً مضاعفة، ياأصدقائي ومعلميّ من كل من الكهنة والرهبان، الذين كنت بأعينهم بالنهاية مستحقاً لأن تنتخبوني لأن أكون راعياً لكم، لكن يا أصدقائي إن وضعي الحالي يكفيني، وعبء المنصب المعهود به الآن إليّ يثقلني ويضغط عليّ بشدة، وإن العناية، والمسؤولية، وكذلك الحساب الذي ينبغي تقديمه إلى الأرواح التي عهد بها إليّ يزعجني ويخيفني، ولذلك توقفوا ياإخواني الأحباء، توقفوا عن متابعة تعذيبي وإغضابي في هذه

المسألـة، وأود أن أخبركم بوضـــوح، ســـواء أوافقتـم على ذلك أم لم توافقــوا، أنا لا أوافق على هذا الانتخـاب»، ولدى سماع هذا تشــاور الآخرون، وفقـاً للشكل الذي تقـدم ذكره، وانتخبوا ليكـون أسقفاً لهم، وحارساً لأرواحهم، المعلم هوغ دي بيتهل Pateshull (الذي كان ابناً للنبيل المشهـور سيمـون دي بيتهل، الـذي بآرائـه الحكيمـة حكمت انكلترا من قبل في بعض الوقت الماضي) وكان كـاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، ومستشـاراً للملك، وكـان هو أيضاً مثـل أبيه، ورجـلاً مستقيماً، وبعد تقليب طويل للقضيـة، وتفكير حول قـول الرسول: «كل من يريد أن يكون إدارياً جيداً، عليه أن يحصل لنفسه على مرتبة جيدة»، وقوله في مكان آخر: «إذا مارغب إنسان بمنصب الأسقف هو قد رغب بعمل جيـد»، وبعـد طويل وقت تحركت عـاطفتـه بسبب الوضع السيء للكنيســـة وبكى بـدمـــوع المتضرع، ووافق على حمل العبء، والعنـاية بنفقات المنصب، حتى يتحول أسفهم إلى بهجة.

آلام اليهود

وفي العام نفسه، في يوم عيد القـديس ألبان، رائد الشهداء في انكلترا، وفي اليوم التالي، وقعت مذبحة كبيرة، ولحق دمار كبير باليهود، بناء على أوامر من غيوفري الداوي، الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، فقد تولى ظلمهم، وسجنهم، واستخرج المال منهم، وأخيراً وبعد كثير من الآلام، قـام هؤلاء التعسـاء اليهـود، في سبيـل التمتع بالحيـاة والهدوء، وبسبب دمـارهم واضطـرابهم، فـدفعـوا إلى الملك ثلث جميـع أمـوالهم، وديونهم وكذلك أثاثهم، وكـان السبب الأساسي لهذه النازلة اقتراف جـريمة قتل مفضوحـة من قبل يهود المدينة، وماحدث ليس بعـد هذا بوقت طويل، وتعلق بالصبي الذي جـرى ختـانه من قبل اليهـود، ولقـد أدين نتيجـة ذلك أربعـة مـن أغنى أفـراد تلك الطائفـة بشكـل واضح، وشنقـوا في نورويك.

وقوع رالف بريتون بالأسر

في مجريات أحداث السنة التي منح الرب فيها ولداً ذكراً للملك، وذلك استجانة لشكاوى الملك، وكذلك لرغبات الكثيرين، جاء هذا الولد وسط كثير من التهليل، وبما أن كأس هذه الحياة لايحتوي شيئاً صرفاً بلا مرارة الصفراء، قد كان هناك واحداً من رسل الملك اسمه وليم، قد أدين بعدد كبير جداً من الجرائم المضاعفة، وحكم عليه بالموت، ولدى جلوسه في سجن مضيقاً عليه قذف عدداً من نبلاء انكلترا وجاهة بتهم زائفة هي تهم الخيانة، وكان بين الكثيرين الذين وجّه التهم ضدهم باقتراف الجرائم رالف بريتون Briton وكان رجل دين وكاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، وكان لبعض الوقت صديقاً مقرباً من الملك، لابل كان خازنه، ولدى سماع الملك بهذا، أمر به بوساطة رسالة إلى عمدة لندن وليم غرومير Gromer (أوجيرارد بات Gerad Batt) ليلقى القبض عليه، وليسجن في برج لندن، وفضل العمدة إطاعته على إطاعة الرب، وحمل أوامر الملك ووضعها قيد التنفيذ، وجرّ رالف المذكور بعنف من بيته، في جوار كنيسة القديس بولص، وسجنه في البرج، ووثقه بسلاسل تدعى الخواتم، وعند سماع عميد لندن، المعلم غ. G دي لوسي Lucy بهذا العمل، قام مع أتباعه من الكهنة (لأن الأسقف لم يكن حاضراً وقتذاك) فتفوه بقرار حكم عام بالحرمان الكنسي ضد جميع الذين مارسوا هذا الاضطهاد والتجاوزات، ووضع كنيسة القديس بولص تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وصحيح أن الملك جرى تحذيره من قبل الأسقف، غير أنه لم يصحح هذه الأخطاء، بل إنه تابع بالتهديد تكديس الشرور على الشرور، وبناء عليه كان الأسقف على وشك وضع لندن كلها، التي كانت خاضعة له، تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن عندما كان رئيس أساقفة كانتربري، وكذلك النائب البابوي،

وأسقف لندن، وعـدد كبير آخر مـن القساوسـة قـد استعدوا لإلقـاء يد ثقيلة على المدينة، أمـر الملك، وهو مكـره، بإطلاق سراح رالف المتقـدم ذكره، وسمح له بالمغـادرة بسلام، وعندما كان قد رغـب بإضافة شرط، بوجوب الاحتفاظ به، ليكون جاهزاً لتقديم توضيح، عندما يختار الملك توجيه الاتهام إليـه، ردت الكنيسة بأنها لن تقبل بأي حـال من الأحوال بإبقـائـه هكذا على هذه الصـورة وكأنه رجـل سجين، وهي تقبل فقط بتسلمـه بمثابة رجل حـرّ تماماً، مثلما كـان حاله عندمـا قام أتبـاع الملك بانتـزاعـه بالقوة من بيتـه، وعندمـا جـرى اطلاق سراح رالف على هذه الصورة، وهو الـذي تعلم بالتجربة ماذا يمكـن لتقلبات الحظ أن تلحق أتبـــاعهـــا، انسحب بعــد هذه النـازلة، من بلاط الملك، أمـــا ستيفن سيغريف، الـذي غالباً مـاعانى من مثل هـذا الظلم فقد مزج نفسـه مع شـؤون البـلاط، دون أن يقيم وزناً لعمـره، وأصبح هذه المرة المستشـار الرئيسي للملك، وتمكن بوساطة براعته الأصيلة من ممارسة قيود أكثر مما هو معتـاد على خطط الملك، وبعد ذلك بوقت قصير، جـرى شنق ذلك الشرير الذي تقدم ذكـره، والذي كما ذكرنا أعـلاه إتهم النبلاء مع رالف المتقدم ذكره، وجاء شنقه بشكل مهين خارج مدينة لندن، ووضع معلقاً على أداة التعذيـب التي اسمها المشنقة، وكـان عندما رأى أن مـوته بات حقيقيـاً ومـؤكداً، قـام —مع أن ذلك جـاء متأخـراً— فـاعترف بشكل مكشـوف أمـام الناس وأمام منفـذي العقـوبة به، بأنه عمل الاتهامـات الزائفة المتقدم ذكرها من أجل إطالة حياته.

نشر قرار الحرمان الكنسي ضدّ الإمبراطور فردريك

وفي هذه الآونة، تمّ بناء على أوامـر من البـابا، إعـلان قرار الحرمـان الكنسي ضـد الامبراطور فـردريك المذكـور، وجـاءت إدانة الامبراطور هذه في كنيسـة القـديس بولـص في لندن، وكـذلك خـلال جميع أرجـاء أسقفية لنـدن، وبعد ذلك في جميع أرجـاء المملكة كلها، ولم يتوفـر هناك

ولا واحد ليرفع ترس المعارضة ضد ذلك، مع أن الملك كانت لديه أسباب وجيهة لفعل ذلك، أمام جميع أمراء العالم، وذلك بسبب قرب العلاقات القائمة بينه وبين الامبراطور.

رسائل من الإمبراطور إلى شيوخ روما وشعبها

وفي العام نفسه، عجب صاحب الجلالة الامبراطورية من الضعف الشديد لقوة الرومان، ومن تراجعهم ونكوصهم عن ثباتهم في مراعاة خضوعهم باخلاص له، حسبما كانوا قد وعدوه من قبل، وذلك بسماحهم لقرار الحرمان الكنسي بأن يجري التفوه به ضده، وهو مولاهم، في مدينتهم، فكتب إلى كرادلة بلاط روما، وكذلك إلى شيوخ المدينة، وكذلك إلى سكانها كما يلي:

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى شيوخ المدينة وأتباعه الرومان، تحيات:

بما أن روما هي رأس امبراطوريتنا وسلطانتها، وأن الامبراطور عرف باسم الروماني من اسم مدينة روما، وبما أننا ندين لها بتقدم اسمنا وبسمعته، دهشنا دهشة عظيمة كيف أنه حدث، حيث من المتوجب رفع شأن شرفنا، وصدّ الإهانات الموجهة ضدنا، أن نواجه معاملة مضادة، بين الذين متوجب عليهم، والذين واجبهم، أن يعرضوا أنفسهم بمثابة سور للدفاع عن عرشنا الامبراطوري، والعجب أن يحدث هذا وهم أنفسهم يسمعون ويخفون الحقائق، وبناء عليه نحن في غاية الأسى، لأن الأسقف الروماني —كما روي لنا— قد تجرأ على أن يتصرف في المدينة، ضد الأمير الروماني، بطريقة ما كان له ليتجرأ على عملها في مكان آخر، وقام بشكل غير تقوي بتكفير الامبراطور الروماني، أساس المدينة، وجالب المنفعة للشعب الروماني، من دون أية مقاومة من قبلهم، وبناء

عليـه، يمكننا أن نقـول صـادقين بأن نبـلاء رومـا وكـذلك الشعب الرومـاني، الذي من أجلهم درسنا تقـديم مـايحتـاجـونه بكرم، وبجـود تطوعي، ومازلنا نكافح في سبيل استمـرار تقدمهم، إلى حد أننا بتنا غير مهتمين بمنافعنا، قـد لازمتهم بلادة النوم، ولذلـك لم يكن بينهم، ولا حتى رجل واحـد بين ذلك العدد الكبير من النبلاء، وذلـك الحشد كله من السادة، أو بين الآلاف المؤلفة من الشعب الروماني، قد نهض للدفاع عنا، أو تكلم بكلمة واحـدة لصالحنا، أو كان مواسياً لنـا ومتعاطفاً معنا أثناء تعـرضنا للأذى، مع أننـا نتـابع الاضـافـة إلى شرف المدينة، ونزيد شهرتها بالانتصارات القديمة والأمجاد، بوساطة انتصاراتنا المتوالية الآن، ومازلنا مستمـرين في توجيه اهتمامنا لتقـويم الاسم الروماني، وجعله كما كـان في العصـور القـديمـة، وأن نرفع من شأن وأوضـاع الامبراطورية الرومـانيـة، وبناء عليـه لقـد دفعتنـا الضرورة لأن نطلب منكم بتحـذير وحث لكم، إذا كنتم قـد عملتم بعض التقصير من خـلال الاهمال أو البـلادة أن تظهـروا الآن أنفسكم بأنكم جـاهزين، وبالكلمـة وضرب المثل أن تقـومـوا باقناع الآخـرين بالنهـوض فـوراً، أفـراداً وجماعـات، للانتقـام للأذى الذي أنزل بنـا، وبكم بشكل عـام، لأن المسيء إلينا مـا كـان ليتجـرأ في مكان آخـر على التشهير باسمنا وتكفيرنا، ومـا كـان له ليتفـاخـر بأنه حـرض على مثل هذه الأشيـاء ضـدنا، سـواء أرغبنا أم لم نرغب، لولا أنه عـزا إليكم نكران المعروف حـول كل مافعلتمـوه، قبل حقيقـة معـارضتـه، وبعـد حقيقـة أنكم كنتم تتجنبـون الانتقـام لأذانا وأذاكم العـام، لأننـا كنا نحن وأنتم مـرتبطون مـن الجانبين، بأن نقـوم نحن بالدفاع عن الشرف الرومـاني، ويقوم الرومـان بالدفاع عن شرفنا، وإذا ماوجـدناكم ووجدناهم معكم مهملين في هذه القضيـة، كنا سنجد أنفسنا مـرغمين، على سحب إحساننا من جميـع الذين أظهرناه نحـوهم حتى الآن، لأنه ليس الخوف من الرومـان هو الـذي أرغمنـا عـلى إضفاء المنافع عليهـم، بـل بالحـري كان لطفنا هو الذي أقنعنا أن نفعل

ذلك. صـــدر في تريفيســـو Trevisoفي اليــوم العشرين من شهـــــــر نيسان».

وكان الامبراطور قـد كتب أيضاً قبل وقت قصير مضى إلى الكرادلة، وسعى إلى إثارة الرومــان في تلك الجهــة، وقـد حثهم بعنف أكثـر في الرسالة التالية:

رسائل أخرى من الإمبراطور إلى الكرادلة

«من فـردريك الذي هو بنعمـة الرب أغسطس، وامبراطور الرومـان، وملك القـدس وصقلية، إلى أصـدقائـه الأحباء، جماعـة كرادلة الكنيسـة الرومانية المقدسة، تمنيات الصحة وعواطف خالصة:

بما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وباسم بطرس قد أسس كنيسته على صخرة، وعيّنكم بمثابة خلفاء للرسل، هكذا عمل بطرس القداس من أجل الجميع، وأنتم الذين هم شمـوع الكنيسة، قد وضعتم فـوق رابية، وليس تحت ستارة، حتى يمكن بأعمالكم الصالحة أن: «تعطوا الضوء إلى كل البيت»، وأن لاتسعـوا بمـــوافقـة عـامـة بـأن تسحبـوا أنفسكم من الصـوت العام للعـالم، بما أنه قـدر أنكم أهل لحمل حصة مسـاوية لأي واحد سـوف يترأس على كرسي بطرس، ومهما اقترح أن يعمـل، أو قرر أن يعلنه إلى العالم، مالم تكن الأوضاع المتقـدمة للكنيسة، والرغبة الجامحة بتجنب عـدوان عام، سـوف تقترح تحذيراً لكم من أجل المستقبل، لأنه من الذي لن يتسـاءل بأن الذي هو جالس على عـرش الكنيسة، والذي قـد قـوي بوسـاطة الاجتماع العـام لمثل هذا العـدد الكبير من الآباء المحترمين، (والمتـوجب أن يكـون قـاضيـاً عـادلاً) سـوف يعمل هكذا بشكل غير مستقيم؟ وليس عجباً بأنه سـوف يتخذ مـوقفـاً —بناء على مجرد انفعـال— ضد الأمير الرومـاني، مع أنه هو المحامي عن الكنيسـة، والذي واجبـه هو الحفاظ على التبشير بالانجيل، وذلك بوسـاطة تجريد

السيف الروحي بشكل غير عادل لصالح العصاة اللومبارد؟، ودون أن نعبأ بهذا، وبوساطة المعايير السلمية، فإن جميع الإساءات ضد الكنيسة التي ترافع من أجلها، مهما كانت عناوينها العامة مغيظة وتضاعفت في أعمال فردية، هي إما أنها تلقت التقويم، أو أنها بوساطة تفكيرنا جرى الإعداد لها وهي على طريق الإصلاح، لأن أوامرنا قد قضت بذلك، ولسوف يتلو ذلك تعويض كامل، لأنه بوساطة رسائل موثقة من القساوسة الذين عيّنتهم الوصاية الرسولية بمثابة مشرفين، هناك شواهد من النوع نفسه قد أعطيت، ومرسومنا الجاري فيما يتعلق بإعادة دعوة القساوسة الذين عانوا من الأذى وتقديم توزيع ثاني لهؤلاء القساوسة، يعطي برهاناً واضحاً على المصداقية وذلك بوساطة رسائل رئيس أساقفة مسينا المبجل، التي أرسلت إلى مقومنا، المعين لهذه الغاية، وبناء عليه، إنه ليس من دون سبب جيد أن نتحب لأن الأب الرسولي يسعى بشكل جاد جداً للاعتداء علينا، وعندما ينزل مثل هذا الأذى الكبير على رجل شجاع، مع أننا نرغب بتحمل ذلك بصبر، إن ضخامة الاعتداء لا تسمح لنا بأن نفعل ذلك، لابل إن عنف الفعلة يرغمنا على الانتقام، وهو مااعتاد القياصرة أن يفعلوه ويمارسوه، لكن لدى تقديرنا لإنعدام الصبر لدى الذي يسير على هذا الطريق ويمارس هذا المنهج، والوضع الصعب للمدافع، علينا تقديرها أكثر تحملاً، لو أنه سمح لنا بحيادية أن نمارس انتقاماً خاصاً على الشخص الذي تسبب بالعدوان، وبذلك نتمكن من إنزال جزاء على الذين هم من دمه، وهذه المحاولة لإيذاء الكرسي سوف ترتد عليه وعلى آله، لكن بما أنه لا هو ولا جميع آله هم الذين سيعانون لهذا السبب، لهم أهميتهم، حتى تتشوق الكرامة الامبراطورية للانتقام منهم، ولأن سلطات الكرسي، تركت أعنة سلطاتها مرخية، وعمدت أن تظهر جماعة الرهبان المحترمة كلها وكأنها تؤثر ذلك في إصرارها، آلمنا هذا الاضطراب عقلياً، لأننا أثناء الدفاع عن أنفسنا ضد المضطهدين لنا، علينا في دفاعنا عن أنفسنا أن نكون

أكثر حدة في قتال الذين يقفون ضدنا، باستثناء قداسة الكنيسة من جميع الجوانب، التي نجلّها بتعبد مقدس وباحترام جدير بها، وبناء عليه نحن نلتمس من جماعتكم الجليلة، وصدوراً عن مداولاتكم اللطيفة أن توقفوا إجراءات الحبر الأعظم، التي من الواضح أنها كما يعرف العالم، هي غير عادلة، وبلا مسوغ، وأن تهيئوا الأوضاع من أجل تقديم سلام لعقولنا، لأننا وإن كنا مرتبطين بإيثار رفع شأن أعمالكم الصالحة جميعاً، نحن لايمكننا أن نفعل ذلك بتوازن في التفكير متمنع عن العدوان تجاه الأذى الذي يعمل ضدنا، كما أننا لن نكون قادرين على إيقاف البدايات، كما أن الأذى الذي لايمكن رده وإرجاعه، يمكن بتسويغ صده بأذى آخر. صدر في بادوا Padua في العاشر من آذار من الإحدى عشرية الأولى من الخمسعشرية.

كتابات تكهنية

وفي هذه الآونة، استدعيت بعض الكتابات التي ظهر أنها تتكهن بالمستقبل، إلى الذاكرة، وغالباً ماذكرت، وذلك بسبب المخاطر العظيمة للوقت، والخلاف الذي تفجر بين مثل هذه الشخصيات القوية، والتي لم يكن يعادلها بالقوة أي واحد، وكانت إحدى هذه الكتابات كما يلي:

«سوف تثار روما ضد الرومان، وبديل روماني سوف يفرغ روما من الرومان، وستصبح عصي الرعاة مضيئة، وسوف تكون راحتهم في اطمئنان، والحريص سوف يضطرب، وسوف يصلي، ودموع الحشود سوف ترتاح هناك، وسوف يلعب الرجل الضعيف مع المجنون، والجنون سوف يكون منطفئاً، وسوف يصبح لطيفاً، وسوف يزحف قطيع جديد إلى الرابية، والذين كانوا يستحقون منذ القدم، سوف يعلفون على طعام خفيف، والمستثنون من الثقة قد دمروا، والطمأنينة التي تنتج راحة هي مستقرة، والذين ساروا في الظلام سوف يعودون إلى الضوء، والأشياء التي كانت منفصلة وموزعة في الخارج سوف تتمتن،

وغيمة كبيرة سوف تبدأ بالامطار، لأن مغيّراً للعالم قد ولد، والحمل سوف يحل محل الأسد، وسوف تفترس الحملان الأسود، وسيثور الجنون ضد ذوي العقول الساذجة، وسوف تتنفس السذاجة وهناً، وسوف يتحول الشرف إلى عار، وسرور الكثيرين سيصبح حزناً»، وجرى التفوه بهذه الكلمات في سنة النعمة ١١١٩، وقد فهمت لتعني بأن التهديدات المذكورة كانت بالفعل قد وقعت.

وهناك كتابة أخرى، يبدو أن الامبراطور قد حصل عليها، قد قيل بأنها ذكرت الصدق، فقد قيل بأن أبيات الشعر التالية قد وجدت مكتوبة في غرفة نوم البابا، لكن كيف حصل هذا ومن الذي كتبهم؟ أمر غير معروف:

تقضي النجوم والمنايا وطيران الطيور

بأن عالمنا هذا سوف يضرب

روما تقاد مترنجة وسط أكوام من الآثام

وفي العالم سوف تتوقف أن تكون الرئيسة

وبما أن الامبراطور مع كثير آخرين قد فسروا هذه الأبيات على أنها تبشر بدمار البابا وعزلته مع البلاط الروماني، ردّ قداسته بالأبيات التالية ضد الامبراطور:

الشهر، والكتابات المقدسة، وذنوبك تخبر بصوت مرتفع

أنك بعد الموت سوف تلقى العذاب مؤبداً في جهنم

الامبراطور يبرىء نفسه بوساطة مرشدين

ولدى رؤية الامبراطور في هذه الآونة أن سمعته الآن عرضة للخطر، وفي سبيل البرهنة على براءته، جعل بعض الرسل الذين كانوا

ذوي مكانة عظيمة، ولهم سلطان خاص يكتبون إلى البابا عارضين براءتهم مع براءة الامبرطور، وعدالتهم وعدله.

رسائل الرسل

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، غريغوري، الذي هو بنعمة الرب، الحبر الأعظم، يرسل إليكم عبيدكم المخلصون، أساقفة ويتزبورغ Wirtzburg ووورمز Worms وفيرسلي Vercelli وبارما Parma تحياتهم بتواضع، وبجميع احتراماتهم المخلصة:

مع جميع الاحترام المستحق والاخلاص قد تسلمنا رسائل قداستكم الرسولية، التي أرسلت لتقريع صاحب السمو الأمير الروماني حول بعض النقاط، التي ورد ذكرها في الرسائل المذكورة، وقمنا نحن كما يفرض علينا الواجب —ومع ذلك شاكين فيما إذا كان سيتلقى تحذيراتنا بصبر— وذهبنا إليه باحترام وتقوى، وبعد شرح كل نقطة وردت في هذه الفقرات، وبعدما أعطيناه نسخة عن رسائلنا، وبنعمة من الرب، الذي يحكم قلوب الملوك ويوجهها بإرادته، أظهر نفسه بتقوى رائعة، وبتواضع غير متوقع جاهزاً لأن يصغي لانتقاداتنا، ومالت أذنا سيادته الامبراطورية نحونا، وعندما مثلنا أمامه كان هناك أيضاً موجوداً رئيس أساقفة بلرم «باليرمو» ومسينا، وأساقفة:

كريمونا، ولودي Lodi ونوفارا Novara, ومودينا Modena, وراعي دير القديس فينسنت Vincent إلى جانب عدد من الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، الذين جمعوا من قبله، وقد ردّ على اقتراحاتنا واحداً تلو آخر، حسبما هو وارد بشكل كامل ومتميز في السطور المقبلة، ووفقاً للوصاية الرسولية، نحن نخبركم في الرسائل الحالية، ونحن على استعداد للبرهنة على صحة ذلك».

«*قضية الكنيسة:* إن كنائس مونت رويال، وسيفيلدي Cephaledi,

وكاتـانيا Catania, وسكويلاتا Squillata, وأديرة مـايليتو Mileto, والقـديسـة يوفيميـا Euphemia, وتيرا— مـاجـوري Terra- Maggiore والقـديس يوحنا في لامـا Lama, قـد جــردت من جميع مقتنياتها تقـريباً، وكذلك تقـريباً جميع الكاتدرائيـات والكنائس الأخرى والأديرة، قد حرمت بتفتيش غير عادل، من جميع متعلقاتها.

جواب الامبراطور: فيما يتعلق بالأذى الذي لحق بالكنائس، اللائي ورد ذكرهن بدون تحديد، فإن بعض ذلك قـد اقترف من خلال الجهل، وقد صدر الأمر بانقاذهن من دون تأخير، وبعضهن قد جرى إصلاحه، كما هو واضح من تقــرير رسـولنا المخلص والعـامـل وليم دي توكتـو Tocto, الذي أنيب مـن أجل الغـايـة الخاصـة، والـذي أمـر أيضـاً بالذهاب إلى البلاط الروماني، وبعدما حصل على نصيحة المحترم رئيس أساقفة مسينا، في أن يسير وفقاً لنصـائحه، في إصلاح تلك الأشياء التي من الممكن أن يجدها بشكل مكشـوف خـاطئة، وبعـد دخـوله المملكة، وجد في تلك المناطق بعض الأشياء التـي كانت بين أيدي بعض الأتباع الامبراطوريين، وإلى هؤلاء لم يظهر رحمة، بل جـردهم على الفور، وأعاد الذين قـد جردوا من قبلهم، علماً بأنه كـان قد أمربأن يأخـذ من الخزينة الامبراطورية كل الذي يجده قـد تم الحصـول عليـه بشكل غير شرعي، وهكذا عندما وصل التقـرير عما فعله إلى بلاط روما، يقال بأن البـابا قد وافق على بصيرة المرسـل، وعلى يقظة الشخـص الذي أرسـل، ولكن بما أن المملكة مقسمة إلى مقاطعات، لم يكن بـإمكانه الترحال خلالهم جميعاً لإصلاح الذي اعتقد أنه بحاجة إلى الإصلاح.

ومجدداً، في إجابة إلى التهمـة المتعلقة بكنيسـة مونت رويال، لقـد أفاد أنها لم تتلق أي ضرر على أيدي الامبراطور، مـالم يرغب بالاشـارة إلى المسلمين الذين استـولوا على مقتنيـات الكنيسـة أثناء الحرب، وأنهم لم يعترفـوا لا بالامبراطور، ولا بالكنيسـة، وأنهم لم يوفـروا شيئاً وصل إلى

أيديهم ووقع تحت سلطانهم، حتى أنهم دمروا تلك الكنيسة ونهبوها إلى حد أنهم تركوها مجرد جدران عارية، وهم أيضاً لم يوفروا أحداً في صقلية، ولذلك كان الذين بقيوا من المسيحيين في تلك الجزيرة عددهم قليل، هذا إن بقي أحد.

واعترف الامبراطور بالواقع، بأنه محق هؤلاء الناس وأزالهم كلية من صقلية، وذلك بعد كثير من الاضطراب والنفقات، وإذا عدّوا ذلك إلحاق ضرر بالكنيسة، فإنه لايعرف قط أنه آذاها بأية طريقة من الطرق، كما أنه لم يرغب بإيذائها، ولقد قال الشيء نفسه فيما يتعلق بكنيسة سيفيلدي التي هي أفضل قلعة محصنة على ساحل البحر، وقائمة على حدود سردينيا، وهذه تملكها دوماً ملك صقلية، وكان البابا انوسنت —صاحب الذكرى الطيبة— قد أعطى أوامر إلى نائبه الذي كان آنذاك في صقلية، في خدمتنا، بأن يتسلمها من الأسقف، الذي وهي بين يديه أصابها الاضطراب، وليس بموجب الحق، وتدبر ذلك النائب، أثناء طفولتنا الاستحواذ عليها، والحفاظ عليها من أجلنا، وهي لم ترد إلى ذلك الأسقف، أو إلى الأسقف الحالي، كما أنه لاينبغي أن تعاد، لأنهما لا حق لهما فيها، وإلى جانب هذا، لقد أدين بوساطة بينات واضحة بأنه رجل زائف، ولوطي، وخائن، ومنشق، ولهذا إذا كان لديه أي ادعاء في القضية، (لاسمح الرب بذلك) ليس من الضروري بأن تعطى إليه، وكذلك بالنسبة لكنيسة كاتانا، لقد قال الشيء نفسه، وأنه مالم يكن رجال حاشية الملك هم المشار إليهم، هم الذين ذهبوا في أيام الحرب إلى كاتانا، بسبب حصانة المكان وخصبه، وأعلن الامبراطور بأنه قد استدعاهم إلى عزبته الخاصة، فوفقاً لبنود القانون العام للمملكة، يتوجب على الإيرلات، والبارونات وجميع رعايا المملكة، استدعاء رجال عزبهم، حيثما وجدوهم، سواء على أراضي الكنائس أو في مدن الامبراطور، ومع ذلك لقد صدرت صيغة مرسوم حول هذه القضية،

وجـرى تحديـد وقت وتثبيتـه وقبـولـه بناء على طلب الحبر الأعظم، كما ظهر من الرسـائل الوصائية لبطـريرك أنطاكية، ورئيسي أساقفـة باليرمو (بلرم) ومسينا، ومجدداً إنه بالنسبـة لقضية كنيستـي مايليتـو، والقديسـة يوفيميـا، مع أنه كان تغيير مـوائم، وتبديل جـرى تنفيذه مع رعـاة ديرة ورهبان تيرا— مـاجوري، وذلك بناء على رغبـة القساوسـة أنفسهم مع الجماعـات الديرية، وفقـاً لصيغـة الشريعـة، وهم أنفسهم حتى الآن بين أيديهم الممتلكات البـديلة ومستحـوذون عليهـا، وفيما يتعلق بقـرية القديس سيفريوس Severius, التي هي ليست بشكل مطلق تابعة لراعي دير تيرا— ماجوري صاحب أنكونا Ancona, بل هناك فيها بعض الحقوق الموجـودة في اقطاعية الامبراطور، وقد كانت بعـد محاكمة قـد دمـرت لسبـب صحيح، لأن سكان ذلك المكان، قـد قتلوا أثناء الاضطرابات رجـلاً اسمـة بولص أوف لـونغـوثان Longothan, وكـان حامـلاً لعلم الامبراطور ونهبـوا مـواشي الامبراطور، ومع ذلك، وحسبما تقدم الذكر، أعطي بديل إلى راعي الدير والجماعة الديرية، وكان البديل لصـالحهم، وهم مايزالون يحتفظون به حتى هذا اليـوم، وموضع «لامـا» هو مغلق وفقاً لقـرار صـدر عن راعي دير القـديس يوحنا المستـدير، وقـد يكون من العـدل الدعـوة إلى اجتماع من أجلـه وفقـاً للشريعـة المدنيـة واللاهـوتيـة، وذلك حسبما يكـون من أجل ممتلكات اقطاعية جيدة، في البلاط الامبراطوري.

قضية الكنيسة: لقد حرم الداوية والاسبتارية من ممتلكاتهم المتحركة وكـذلك من مقتنيـاتهم الثـابتة، ولم يعـوض عليهم بشكل كـامل، وفقـاً لشروط السلام.

جواب الامبراطور: صحيح أنه بموجب قرار الأنظمة القديمة لمملكة صقليـة أن بعض الأراضي الاقطاعيـة والمدنيـة قـد سحبت من الداوية والاسبتارية، وهي قـد كانت بين أيديهم بمثابة منحـة من غزاة المملكة،

الذين إليهم قدموا الخيول، والسلاح، والميرة، والخمرة، والأشياء الأخرى الضرورية بكميات وافرة، عندما كانوا يغيرون على الامبراطور، وقد رفضوا تمام الرفض تقديم جميع أنواع المساعدات إلى الامبراطور، الذي كان آنذاك مجرد ملك في أيام التلمذة والعطالة، وقد سمح لهم بالاحتفاظ ببعض الأراضي الاقطاعية والمدنية التي كانوا قد حصلوا عليها، وكانت بين أيديهم قبل وفاة الملك وليم الثاني، أو التي كانت بين أيديهم كمنحة من قبل أي واحد من أسلافه، ولكن بعض الأراضي المدنية، التي كانوا قد اشتروها، قد سحبت منهم، وفقاً للقانون القديم لمملكة صقلية، لأنه من غير الممكن عمل أية منحة أرض مدنية بين الأحياء، من دون موافقة أميرهم، كما لايمكن توريثهم بموجب وصية دائمة، دون أن يكون مشروطاً أن يباعوا أو يمنحوا إلى مدني علماني آخر، إلاّ بعد مرور سنة، وشهر، واسبوع ويوم، وهذا القانون قد عمل من قبل القدماء للسبب التالي، وهو أنه لو سمح لهم من دون قيود وبشكل دائم بشراء أو بتسلم أراضي مدنية، لأمكنهم في وقت قصير شراء مملكة صقلية كلها، التي كما يبدو هي بموجب جميع قوانين الدنيا ومفاهيمها مناسبة لهم كأحسن ما يكون، وهذا القانون نفسه قيد التنفيذ فيما وراء البحار.

قضية الكنيسة: وكذلك هو لم يسمح للكاتدرائية وللكنائس الأخرى الشاغرة بأن تملأ، وبهذا تعرضت حرية الكنيسة للخطر، ومات الإيمان، وبغياب الراعي، ليس هناك من أحد يتولى عرض كلمة الرب، ويتولى حكم أرواحهم:

جواب الامبراطور: وفي جوابه قال الامبراطور بأنه يتمنى ويرغب، بأن يجري تكريس الكاتدرائية والكنائس الأخرى، مع شرط المحافظة على الامتيازات والمراتب التي تمتع بها الملوك من أسلافه حتى وقته هذا، الأمر الذي استخدمه بكثير من الاعتدال، فاق به أسلافه، وهو لم

يعارض قط ملأ الكنائس.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق بالضرائب والمكوس التي تستخرج من الكنائس والديرة، بشكل معاكس لما قضت به بنود السلام.

جواب الامبراطور: إن العشور والضرائب التي تجمع من الأشخاص اللاهوتيين، هـي ليست مفـروضـة على المقتنيـات الكنسيـة، بل على الممتلكات الاقطاعية والوقفية، وفقاً للقانون العام، وهذا مطبق في جميع أنحاء العالم.

قضية الكنيسة: لايتجرأ القساوسة على الترافع بالشكوى ضد المرابين، لوجود مرسوم امبراطوري.

جواب الامبراطور: لقد صدر مرسـوم عام من قبل الامبراطور ضد المرابين، به أدينوا بشكل علنـي مع جميع سلعهم، وقـد جـرت قـراءته بحضـور القسـاوسـة، وبناء عليـه إنهم غير معـاقين ويمكنهم الشكوى بفعالية.

قضية الكنيسة: إن رجال الدين عرضـة للاعتقال، والسجن، والقضاء عليهم بالاعدام،والاعدام.

جواب الامبراطور: إنه لايعرف شئيـاً عن رجال دين قد اعتقلـــوا، وسجنوا، مـا لم يكـن بعضهم قـد جـرى اعتقـالـه من قبل الموظفين الامبراطوريين، وسـوف يسلمون للمحـاكمـة من قبل الأسـاقفة، وفقـاً لطبيعـة جـرائمهم، أمـا بالنسبـة للذيـن قتلوا، إنه بسبب استثناء رجـال الدين والرهبان من العقوبة، فإن كنيسـة فنيوسيوم Venusium, قد بكت لوفـاة قسيسها، الذي قتل من قبل واحـد من رهبانه، وفي كنيسـة القـديس فينسنـت قتل راهب راهبـاً آخـر، ولم يتبـع ذلك لا إنتقـام ولاعقوبة قانونية على الجريمة.

قضية الكنيسة: ما يتعلق بتدنيس الكنائس المكرسة للرب وتهديمها.

جواب الامبراطور: أوضح أنه لايعرف شيئاً مطلقاً، مالم تكن الإشارة قد عملت هنا إلى كنيسة لوسيريا Luceria, التي قال بأنها انهارت من نفسها، بسبب العمر، وهي التي لن يسمح الامبراطور فقط بإعادة عمارتها، بل كان أيضاً جاهزاً، من أجل شرف الرب، والكنيسة، شخصياً، لتقديم مساعدة مناسبة للأسقف، من أجل إعادة بنائها.

قضية الكنيسة: إنه لم يسمح بترميم كنيسة سورانو Sorano.

جواب الامبراطور: إنه قد سمح فقط لكنيسة سورانو بالترميم، وليس المدينة، وذلك على الأقل في أيامه، لأنها قد دمرت بموجب حكم قانوني.

قضية الكنيسة: إنه مراغمة لبنود السلام، جرى تجريد الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة في أيام الخلاف، من مقتنياتهم، وطردوا إلى المنفى.

جواب الامبراطور: إن الذين وقفوا إلى جانب البابا ضد الامبراطور، أثناء الخلاف، يسكنون في المملكة بأمان، ربما باستثناء الذين كانوا متسلمين لمناصب، أو كانوا من مسؤولي القضاء، فإنهم لخوفهم من تقديم حساب، قد بقيوا خارج المملكة، أو من الآخرين الذين مكثوا في الخارج حتى لايدعون للمثول أمام القضاء من أجل أسباب إجرامية، وبالنسبة إلى هؤلاء إن الامبراطور على استعداد لقبول عودتهم آمنين، إذا ماقدموا حساباً إليه، وإلى الآخرين الذين اشتكوا ضدهم (ليس —على كل حال— لوقوفهم إلى جانب قضية الكنيسة)، وينبغي —على كل حال— التذكر، أنه عندما جرى إعداد بنود السلام، قام البابا مراغمة لهذه البنود، وفي موقف معارض لآراء جميع الرهبان تقريباً، فاحتفظ بمدينة كاستيلانا Castellana,ولاحتفاظه بها، ولإيذاء الامبراطورية، تسلم مالاً، وذلك في الوقت الذي كان فيه الامبراطور

يعمل في خدمته ضد الرومان، ففي هـذا المجال أنفق أكثر من مائة ألف مارك من الفضة، وحصلت الكنيسة على منافع كبيرة، وكذلك أيضاً من الأراضي التي أخـذت من الرومـان، أعيدت إلى الكنيسـة، وكـذلك من استرداد امتياز الكنيسـة في المدينة، على أسـاس مرافعـة الخدمة المتقـدمة الذكر.

قضية الكنيسة: فيما يتعلـق بحفيد ملك تونس، من أنه لم يسمـــح لـه بالوصـول إلى الكرسي الرسولي، لحضـور قداس التعميـد، بل احتفظ به سجيناً.

جواب الامبراطور: لقد هرب حفيد ملك تونس من بلاد المغرب إلى صقلية، ليس من أجل التعميـد، بل للنجاة من الموت، الذي هدد به من قبل عمه (خاله)، وهو لم يحتفظ بـه أسيراً، بل ذهب بموجب خياره من خلال أبوليا، ولدى سؤاله عما إذا كان يرغب بالتعميد، أنكر قبول ذلك كليـاً، وإنه إذا كـان —على كل حـال— لديه رغبـة بالتعميـد، فإن الامبراطور قد سمح بذلك بكـل سرور، وهذا ماكان قـد ذكره من قبل حول هذه المسألة إلى رئيسي أساقفة باليرمو (بلرم)، ومسينا.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق ببطـرس المسلم، الـذي هو خـادم مخلـص للكنيســة والذي احتفظ به سجينـاً، وهو في رحلة لصـالح الكنيسـة، وكذلك فيما يتعلق بالراهب جوردان، الذي احتفظ به أيضاً سجيناً.

جواب الامبراطور: إن بطـرس المسلـم قد اتخـذ سجيناً من قبله، لأنه عدو، ومفتري ضـده في المدينة وفي كل مكان آخر، وهو لم يقـدم بمهمة عمل لصالح الملك الانكليزي، بل جلب فقط رسائل منه، يتوسل إلينا، أنه إذا ماحدث وأخـذ أسيراً، أن يبدي الرحمة نحو الأسير، لكننا لم نول الاهتمام لهما، لأن ذلك الملك لم يعـرف أية خيـانة قـد تـآمـر بها بطرس المذكور ضـدي، وفيما يتعلق بالراهب جوردان، أوضح الامبراطور أنه لم

يعتقله، أو أمر باعتقاله، مع أنه قد أساء إليه في قداساته، لكن بما أنه ظهر لبعض رعيته، أن وضعه وإقامته في تخوم تريفيسو ولومبارديا سوف يكون مؤذياً للامبراطور، وبعدما قدم ضمانه بأنه لن يبقى في التخوم أو في لومبارديا، أمر هو —الامبراطور— بإطلاق سراحه، وتسليمه إلى رئيس أساقفة مسينا، إذا كان على استعداد لتسلمه، بناء على الشروط الذي ورد هنا ذكرها.

قضية الكنيسة: إنه أثار اضطراباً في المدينة ضد الكنيسة، كان بوساطته يسعى لطرد الحبر الروماني وإخوانه من كرسيهم، وحاول بشكل مضاد لامتيازات، وكرامة، وشرف الكرسي الرسولي، أن يدوس على حرية الكنيسة.

جواب الامبراطور: أنكر أن أي اضطراب قد أثير في المدينة ضد الكنيسة من قبله، ذلك أنه واحد من الرعايا الصالحين في المدينة، مثلما كان أسلافه، كل من الأمراء الرومان وملوك صقلية، ومثلما اعتادوا أن يعملوا، لأنه يحدث في بعض الأحيان أن بعض الشيوخ الذين انتخبوا من قبل أعدائهم، بذلوا جهودهم لمعاداتهم، لذلك وقف دفاعاً عنهم، كما يتوجب عليه أن يفعل في قضايا مماثلة، وذلك حسبما يكون في الغالب مناسباً، ولكن عندما ينتهي السبب، أي عندما يجري انتخاب شيخ آخر بموافقة عامة، يتوقف الاضطراب المذكور أعلاه، حسبما ظهر من القضية نفسها، وفقاً لشهادة رئيسي أساقفة باليرمو (بلرم)، ومسينا.

قضية الكنيسة: إنه أعطى أوامر إلى بعض رعيته من أجل حبس أسقف برانستي Praeneste, الذي كان نائب الكرسي الرسولي.

جواب الامبراطور: إنه بالنسبة لإعطاء أمر باعتقال أسقف برانستي، هو لم يأمر قط بذلك، ولاحتى حلم بفعل شيء من هذا القبيل، مع أنه يمتلك التسويغ لفعل مثل ذلك له، لأنه عدوه، فهو مع أنه أرسل بمثابة

رجل دين من قبل البـابا، قام على الرغم من ذلك بناء على أوامـر البابا، كما قـال، بشكل مضر، فأثار جميع لومبـارديا إلى حـد كبير ضـده —أي الامبراطور— وشجع اللومبارد على الوقـوف ضده، بقـدر ماامتلك من قوة.

قضية الكنيسـة: أعيقت الحملة الصليبيـة من قبله، بسبب الخلاف الذي وجد مع بعض اللومبـارد، مع أن الكنيسة كانت مستعـدة لتقديم عونها، وكانت تسعى بشكل فعال لإرضائه شخصياً ولكي ترضي كرامة الامبرطورية بشكل فعـال، بسبـب الاعتـداءات التي اقترفت ضـده من قبل اللومبارد، لابل حتى اللومبارد أنفسهم، كانوا مستعدين لفعل هذا، ومن المتوجب سؤاله حول هذه النقاط ومن ثم إعلامنا بجوابه.

جواب الامبراطور: قال الامبراطور: إنه بالنسبة لقضية لومبارديا، بأنه قد أحـالها مراراً إلى الكنيسـة، غير أنه لم يحصل على أية فائـدة من ذلك، اللهم مـالم يكن أنه في المناسبـة الأولى قضي على اللومبـارد، أن يقـدمـوا أربعمائة فـارس، أمر البابا بأن يـزود بهم، بطريقة أنه أرسلهم إلى المملكة ضد الامبراطور نفسه، وفي المناسبة الثانية، أغرموا بخمسمائة جندي، هو لم يأمـر بإرسـالهم إلى الامبراطور، الذي ضده اقترف العـدوان، بل أمـر بإرسالهم إلى ماوراء البحر، تحت حماية البابا والكنيسة، وبناء على أمرهما، مع أن البـابـا لم يكن معـرضـاً للعــدوان، ومع ذلك هذا لم يحدث، وفي المناسبة الثـالثة، وبناء على طلب من الكاردينـالين وهما: الأسقف المتقدم لسابينوم Sabinum, والمعلم بطرس أوف كابوا، اللذان منحهما البابا سلطات كاملة، فقد أحيل العمل المذكور إلى الكنيسة، ولم يقل بعد ذلك ولا كلمـة واحـدة حـول القضيـة، باستثناء أنه عنـدمـا علم البـابا، بأن الامبراطور —الذي غـالباً ماخـدع من قبله— كان مستعـداً للنزول مع جيشه من ألمانيا إلى ايطاليا، عندها رجـاه بحرارة بأن يعهد بالقضية ثانية إليه، ومع أن الامبراطور، غـالباً ما عـانى من جنوح السفينة، في اسناد

المسألة المذكورة إلى الشخص نفسه، كان مع ذلك على استعداد لإحالتها له في يوم محدد، على شرط أن تتثبت لصالح شرفه، ولصالح منفعة الامبراطورية،وهذا الشرط، كما ظهر من رسائل البابا، قد رفض أن يقبله، مع أنه يقول الآن في رسائله، بأن الكنيسة كانت مستعدة لتقرير القضية، أي بأن تحافظ على حق الامبراطورية وعلى شرفها، ويظهر من هذا بأن البابا ورسائله يعارض أحدهما الآخر بشكل مكشوف تماماً، ولكي لايدعى بأن الامبراطور يرغب في تجديد إدعاءاته بايطاليا، من أجل إلحاق الضرر بالأرض المقدسة، كيف إذا حمل صاحب السيادة الامبراطور الصليب، وبعد ذلك لم يهمل الذي تولاه، وهذا واضح برسائله الجوابية التي كتبت إلى مختلف الملوك في جميع أرجاء العالم، وإلى الصليبيين الذين اختاروه سيداً لهم وقائداً، وفي هذه الرسائل هو أيضاً ردّ عليهم حول المسألة المذكورة، بأنه يرغب بإدارة ذلك العمل وتدبره وفقاً لنصيحة الكنيسة، وعلاوة على هذا أضاف الامبراطور في ردّه، بأن الذي هو أكثر فوضوية، وأكثر إثارة للعجب والدهشة لكل من سمع بها، هو أنه بعد مغادرة رئيسي الأساقفة المتقدمي الذكر، أي رئيس أساقفة باليرمو (بلرم) ومسينا، اللذين إليهما كان البابا قد وعد بأن يمدّ حظوة الكنيسة لصالح الامبراطور، وأنه ذكر بأنه يرغب أن تكون له منافع مشتركة، أما الامبراطور، فمن جهته لم يقم بنشاط كبير لتنفيذ هذا، بعد إعطاء جواب فيه كفاية لرئيسي الأساقفة المذكورين فيما يتعلق ببعض النقاط التي عرضت عليه، كما هو واضح بافادتيهما، جرى إرسال هذه الرسائل وأبلغت هذه العناوين إلى القساوسة، من وراء ظهري رئيسي الأساقفة المذكورين، ولتسبيب الارباك لهما، بحكم أنهما كانا جاهلين تماماً بالذي صنع، ومع أن هذه الرسائل تحتوي نوعاً من التحذير، هي تحتوي على براهين فيها تشهير بسمعة الامبراطور، وأخيراً ادعى الامبراطور في جواب عام، بأنه وإن كان غائباً عن المملكة، وكان جاهلاً بأحوالها، هو سوف يصدر أوامر، بأن أية أضرار قد ألحقت

بالكنيسة (بقيت لكي يجري اظهارها) يتوجب إصلاحها تماماً من دون أي خلاف، وعلاوة على ذلك، إنه في سبيل المنفعة العامة، التي تنتج من الاتحاد بينه وبين الكنيسة، هو على استعداد لإعطاء الكنيسة كل الحماية، التي تجعل من الكنيسة والامبراطورية واحداً، وذلك في سبيل شرف ورفعة شأن الإيمان المسيحي، ولحفظ شرف الكنيسة وحريتها سوف يبذل غاية جهده حتى يكون هو وهي واحداً. صدر، إلخ».

شكاوى الإمبراطور من الأضرار التي ألحقت به من الحبر الأعظم

عندما جلبت هذه الأجوبة إلى البابا، اشتعل غضبه، وفي تسويغ لنفسه، عدّ جميع المناظرات المتقدمة عبثية، ومراوغة عقيمة، واستخف بها ورفضها كأنها مجرد حكاية، ثم إنه كتب إلى أمراء المسيحية وإلى نبلاء العالم المسيحي، من علمانيين ولاهوتيين، وحلّل جميع الذين كانوا مرتبطين بالولاء مع الامبراطور فردريك، من إطاعته على أنه مولاهم، كما أنه تدبر نشر القرار الذي صدر ضد الامبراطور المذكور، بشكل مهيب في جميع البلدان التي كانت مطيعة له، ولاسيما في جميع أرجاء انكلترا، وأساء إليه وشوّه سمعته بشكل جاد، حيث أعلن عنه أنه عدو مكشوف للرب وللكنيسة، ووصلت بالحال أخبار عن هذا إلى الامبراطور وبناء عليه حزن كثيراً، وكتب إلى أصدقائه كما يلي، مقدماً شكاوى ثقيلة ضد البابا.

رسالة الامبراطور

«من **فردريك، إلخ، إلخ**:نحن نتحدث من دون رغبة، غير أننا لانستطيع المحافظة على سلامنا، لأن الفأس قد وضع الآن على جذر الشجرة، والسيف قد خرق الروح تقريباً، ففتح شفاهنا وأطلقها، وعلينا أن نكتب كيف أن الشرور قد كسبت حق القانون، ونحن نشعر بالحزن

لأن الأناس المتمردين قد رفعوا أيديهم اليمنى ضد أحشائهم، والخطأ مفضل على الصواب، والإرادة قد انتصرت على العدالة، لأن الشعوب تسعى الآن لطرد حاكم إيطاليا، والصولجان الامبراطوري، وهم غير واعين لمنافعهم فرضوا الحرية غير المسوغة وغير المحدودة على هدوء السلام، وفضلوا ذلك على الانصاف والعدل، ولاتظنن على كل حال بأن هذا التمرد نحن من تسبب به أولاً، لأننا نحن نقوم بالانتقام للأذى الذي لحق بأجدادنا وبآبائنا، ونسعى لقمع مجمل هذه الحرية المقيتة، التي امتدت إلى مناطق أخرى، ولاتظنن، أننا تمكنا بأية وسائل حتى الآن، من اخفاء هذه الأشياء، كما أننا لم نتجاوزهم بأعين القناعة، لأننا ما ان بلغنا مبلغ الرجال، وبدأت فضائل العقل والجسد تتوهج في داخلنا، حتى جرى ترفيعنا إلى المرتبة الامبراطورية، فوق جميع آمال البشر، وبإرادة من الحكمة الربانية وحدها، ووقعت مملكة صقلية، الميراث الطيب من أمنا في حوذتنا، ووجهنا بصيرة عقلنا إلى المسائل المتقدم ذكرها، وبعد أمد، وفي سبيل تحقيق هدفنا، وبسبب المأساة المروعة بفقدان دمياط في ذلك الحين، وبعد التشاور مع الأب المبجل أونوريوس، الحبر الأعظم في فيرولي، وبموافقة عامة، رأينا أنه من الموافق من أجل رفع شأن أحوال الأرض المقدسة، وفي سبيل إصلاح الامبراطورية، أن نعقد بلاطاً خاصاً في فيرونا، على أن نكون نحن وكذلك البابا المتقدم الذكر حضوراً، وتغيرت هذه النية، نظراً لتقلبات المجلس، والحالة المستمرة لاضطراب الأوضاع في ذلك الوقت، ولكن بما أننا لم نكن نرغب في التخلي عن مثل هذه النية الطيبة، وبعد عقد اجتماع آخر مع البابا في فيرينتينو Ferentino, حددنا موعداً لعقد بلاط في كريمونا، إليه دعونا ابننا، وعدداً كبيراً من مقدمي امبراطوريتنا، مع حاشية موائمة من الفرسان، ومع ذلك فقد جلبنا معنا رتلاً كبيراً من الفرسان من المقاطعات الإيطالية، وذلك حسبما هو لائق بشرف المكانة الامبراطورية، وبمثل هذه القضية العظيمة، ومنذ ذلك الحين، بدأ

اللومبارد بالتمرد ضدنا، وضد شرفنا، بروح مضـادة، وبمشاعر شاجبة، وقـد تظاهروا بالخوف، لأننا كنا محاطين برجـال مسلحين، وقد رفضـوا طاعتنا، بحكم أننا مولاهم الشرعي، وبإغلاق الطرق أعاقوا دخولنا إلى ايطاليـا، وأزاحوا ولدنا والمقـدمين من أمـام أنظارنا، ولزيادة شرورهم، مع أنها خفية وخيـانية، أضافوا الاستهزاء، والإهانـة المفتوحة، لأنهم في مـؤامراتهم ضـدنا وضـد الامبراطورية، شكلوا —على الرغم من كـوننا موجـودين بينهم— مؤامـرات شائنة، وهكذا أحبطت توقعـاتنا في رؤية ولدنا، فعـدنا في هذا الحال إلى أبوليـا، لأن الوقت قـد ضغط آنذاك من أجل عمل استعـداداتنا للجـواز عبر البحـر، الأمـر الذي كنا ملزمين به بعهدنا، وعهـدنا بهذه القضية، استناداً إلى الترضيـة التي عملت لنا وإلى الامبراطورية، لأن يجري تقـريرها بمـوجب قـرار من الحبر الأعظم، الذين بقرار منـه قد فرض عليهم تزويدنـا على نفقتهم بخمسمائة جندي من أجل الخدمـة في الأرض المقـدسـة، وبذروا في البـداية الخلاف بين الكنيسـة وبين الامبراطورية، فأرسلوهم إلى داخل أبوليا ضـدنا، وهكذا بحركـة ارتدادية بالترضيـة ضاعفوا ضررهم المتقـدم، وعندما عـدنا من مناطق مـاوراء البحـر، وبعـد تسـوية الخلاف بيننا وبين الكنيسـة، بقينا ملتزمين بغايتنا في إصلاح أوضـاع الامبراطورية، وبموجب نصيحة من أبينا الأعظم قداسة، الحبر الأعظم غريغوري، حددنا لعقد بلاط عام في رافينا، وسرنا إلى هنالك مع حاشيتنا المنزليـة فقط، ومن دون سلاح، في سبيل إزالة جميع أسبـاب الخوف الطائشـة، من وجود رجـال مسلحين، وهناك لم يقتصر عمل اللومبارد المتقدم ذكرهم على عدم تقديم علامات الاخـلاص والطاعـة، بل ألقـوا أمـام أعيننا جـانبـاً الاحترام الجدير بشخصنا، ونشروا رايتهم وسعوا بعنف لإهانـة مدينة فيرونا، واكسيلينو Eccelino, اللتان انضمتا مؤخراً إلينا، خروجاً عن طاعة الرومان، ومنعـوا أيضاً ولدنا مـن القدوم إلينا، وكـذلك نحن من الذهاب إليـه، وذلك خلال مناطق الامبراطورية، وبوساطة طرقها (والتي مع أنها لهم،

كانت عامة لاستخدام الجميع)، وهكذا لم تتمكن عين الأب من رؤية الابن، وبتحريض من العاطفة الأبوية، التي لايمكن كبحها، عهدنا بأنفسنا إلى الحظوظ المريبة لعبور البحر، وذهبنا إلى أكويليا، بغرض رؤية ولدنا الحبيب والمقدمين، وباخلاص منهم قدموا إلينا، ولم نتخل حتى في ذلك الوقت عن رحمتنا الثابتة، بل وضعنا جانباً كل غضب، بسبب هجمات أعدائنا ومجدداً عهدنا بإقرار هذه القضية إلى الكنيسة، وقد رفعنا بينهم أبواق عدم الطاعة عوضاً عن الخطبة فيهم، كما كنا ننوي، لإعطاء مثل عن تواضعنا، ولقد أعطونا تمرداً عوضاً عن الطاعة المستحقة لنا، وعدم إخلاص عوضاً عن الاخلاص، كما أن ما من غضب حول القضايا المتقدم ذكرها أعطاهم فهماً.

ظهور مذنب

وفي العام نفسه، وفي عشية عيد القديس جيمس، ومع حلول الظلام، وقبل ظهور النجوم، شوهد في السماء الزرقاء الصافية، نجم كبير مشتعل، نهض من الجنوب، وطار بشكل مستقيم، لكن ليس نحو الأعلى، ومر خارقاً الهواء، شاقاً طريقه نحو الشمال، ليس بشكل سريع، بل مثلما يطير العقاب، وعندما وصل إلى منتصف قبة السماء، الذي هو نصفنا، اختفى، مخلفاً وراءه دخاناً وشرراً في الهواء، وكان هذا النجم إما مذنباً أو «دراغون» أكبر بالنسبة للعين من الزّهرة، وله شكل سمكة من سمك البوري، مشع كثيراً من معظم أجزائه الأمامية، غير أنه في الجزء الخلفي دخاني وله شرر، وأصيب جميع الذين شاهدوا هذه العلامة الرائعة بالدهشة، ولم يعرفوا بما هي منذرة أو مبشرة، وشيء واحد هو مؤكد، هو أن الموسم بعدما كان على وشك الاختناق بسبب الأمطار المتوالية، تغير هذا الموسم في هذه الساعة بالذات إلى واحد من أكثر المواسم خصباً، وحفظ الموسم الناضج، الذي كان فقط ينتظر المنجل، والقيام بجني المحصول وجمعه.

-٦٩٩٢-

مغادرة سيمون إيرل ليستر إنكلترا لأنه جنى غضب الملك

وفي حوالي ذلك الوقت، وبالتحديد في اليوم التاسع من آب، وصل إلى لندن بعض السيدات النبيلات لمرافقة الملكة إلى الدير من أجل طهارتها، حسبما كانت هي العادة، وعندما وصل سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر مع زوجته، دعاه الملك باسم رجل محروم كنسياً، ومنعه وكذلك منع زوجته، التي لوثها بشكل دنيء وفاضح، قبل عقد الزواج بينهما، منعه من الحضور أثناء الاحتفالات الوقورة، وبعدما منعه من الاقتراب منه، غادر الايرل مهاناً ومعه زوجته، وبادر مسرعاً عبر الماء إلى بيته (الذي كان قصر أسقف وينكستر المتوفى، والذي بكرم أعاره الملك إياه ليعيش فيه)، وأمر الملك بطردهما على الفور بالقوة، ومع أنهما عادا إلى الملك يرجوان عفوه بدموع ونحيب، لم يتمكنا من إطفاء غضبه، لأنه قال له:

«أنت أغويت أختي قبل الزواج، وعندما اكتشفت ذلك، أعطيتها لك بالزواج، مع أن ذلك كان ضد إرادتي، حتى أتجنب الفضيحة ولكي لايعيق نذرها الزواج، ذهبت إلى روما، ورشوت البلاط الروماني بهدايا ثمينة وبوعود كبيرة، حتى يمنحك الإذن لفعل ما هو غير شرعي، ورئيس أساقفة كانتربري حاضر هنا، ويعرف هذا، وقد أبلغ بحقيقة القضية إلى البابا، ولكن الحقيقة غلبت بالرشوات المتوالية، وهزمت أمام الشره الروماني، وبسبب إخفاقك في دفع الأموال التي وعدت بها، حرمت كنسياً، ولكي تزيد حجم شرورك، قمت بوساطة بينة مزيفة، فسميتني الضامن لك، من دون استشارتي ودون أن أعرف شيئاً حول القضية»، ولدى سماع الايرل هذه الكلمات قهره الخجل، ومع نهاية النهار، ركب في قارب صغير فوق التيمس مع زوجته وحاشية صغيرة، وسار بكل سرعة إلى شاطىء البحر، وأبحر من هناك على الفور من انكلترا.

عقد مؤتمر في لندن بين أساقفة انكلترا وبين النائب البابوي

وفي هذه الآونة نفسهـا، وفي التحـديد في الحادي والثـلاثين من تموز، اجتمع جميع الأسـاقفـة في لندن، للبحث في مظالم الكنيسـة، لأن النائب البـابوي بعد جبـايات يوميـة، كـان الآن يطالب بوكـالات، وبعد عقـد المؤتمر، أجـاب الأساقفـة برأي واحد بأن المطالب الملحّـة للرومان قـد أنهكت ممتلكات الكنيسـة، ولم يعـد بإمكانهم التحمل أكثـر مثل هذه المطالب، وقالوا:

«ليقم بإمـدادك الذي دعـاك مـن دون استشـارة أي واحـد حـول القضية»، وهكذا تركوا المؤتمر، لكن ليس من دون تمتمة بعدم الرضا.

ذهاب النائب البابوي إلى سكوتلندا

وعمل في هذه الآونة النائب البابوي الاستعدادات، من أجل مغادرة سريعة إلى سكوتلندا، وبعـدما قام بالترتيبات الضرورية، وبعـدما أرسل أدلاء انكليـز، للكشف عما إذا كـانت هناك أية مـؤامـرة خيانيـة مـدبرة ضـده، شرع برحلتـه إلى هناك، مختـاراً إقـامـات منظمـة في الرعـويات الديـرية، وفي الكنـائس الكـاتدرائيـــة، وقبل أن يـدخل إلى الأراضي السكوتلندية، قـوبل من قبل ملك تلك المنطقـة، الذي لم يكن مسروراً لدخـوله إلى مملكتـه، لأنه قـال بأن مـامن نائب بابوي قـد دخل قط إلى سكوتلندا باستثنائه هو وحده، كما أنـه أعلن، أنه ليست هناك من حاجة لفعله هكذا، لأن المسيحيـة قـد ازدهـرت هناك، وكـانت الكنيسـة في أوضاع متنامية، وأخيراً وبعد تضـاعف المناقشات، وبعدما أثير الملك إلى حد منعه من الدخول إلى مملكته، تم الوصـول إلى اتفاقية مكتوبة، جرى إعدادها بوساطة بعض النبلاء بينهما من كلا المملكتين، كان فحواها بأن مثل هذه العادة لن تصبح مسألة جارية بسبب قدومه إلى هناك، وعلاوة على ذلك يتوجب عليه توقيع هذه الكتـابة عند مغادرته، وجرى ترتيب

هذا حتى لايعـود إلى انكلترا بحـال مضطرب، وكأنه رجل مطرود، ولم يقم —على كل حـال— بعبور البحـر، بل بقي في المدن الغنيـة على هذا الجانب من البحـر، حيث رتب جميع القضـايا اللاهوتيـة حسب رغبتـه، وجمع مبلغـاً كبيراً من المال، وبعـد ذلك، وعندما كـان الملك في المنطقـة الداخليـــة، قـام بالمغـــادرة بشكل سري، ومن دون إذن الملك، وأخـــذ الاتفاقية المكتوبة، المتقدم ذكرها، معه.

قراءة قرار الحرمان الكنسي الصادر ضدّ الامبراطور في إنكلترا

وعندمـا كان النـائب البابوي على طريقـه نحـو سكوتلندا، ذهب إلى بيت هيئة الرهبـان في سينت ألبـان، وبعـدما قـام أولاً بالوعظ بقـداس بمناسبة صعود العذراء المباركة (لأن هذا وقع خلال ثمانية ذلك العيد)، تولى حـرمـان الامبراطور كنسيـاً، لأن الـرهبـان كـانوا قـد حصلوا على رسـائل تعفيهم من أداء هذا الواجب، وجرى في الوقت نفسـه حرمـان الامبراطور المذكور كنسياً بشكل مهيب، ولعدة مرات في كنيسة القديس بولص في لندن، وذلك بوساطة إجـازة معتمدة من البابا، جـرى إرسالها إلى النائب البابوي.

رسالة حادة من البابا ضدّ الإمبراطور أرسلت إلى النائب البابوي

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى ولده المحبوب أوتو، الكاردينال الشماس لسينت نيقـولا في كارسير Carcere, توليانو Tulliano, نائب الكرسي الرسولي، صحة ومباركات رسولية:

الكرسي الرسـولي، مثله مثل بقية العـالم كله تقـريباً، قـد علم ببينات الحقيقـة، أن الكنيسـة منذ أن تسلمتـه من رحم أمـه، على ركبتيهـا، قـد أرضعت بعـواطفهـا الأبوية الامبراطور فردريـك، وحملته بين ذراعيهـا، وتلقتـه ليتربـى تحت حمايتهـا، وهو الذي كـــان من قبل بلا أمـل تمامـاً، ومهمـلاً، ومـوكـلاً إلى مستقبل مشكوك به، ووقفت بكل قـدرتها ضـد

جميع غزاة مملكته، الذي ألقوا بأعين الشره على أراضيه، والذين كانوا قد دخلوا إلى داخل حدود أراضيـه، وكانوا يقدمـون إدعاءات بها من دون معارضة، وحميناه مـن الذين تآمروا ضد حياته، لأنهم حسـدوا خلاصه، وكـانوا يسعــون لوضع حـدّاً لحيـاته، وليجتثـوا ذكــراه من على وجـه الأرض.

وعندما وصل الامبراطور المذكـور إلى عمر أكثر نضوجـاً، مدافع عنه بوسـاطة ترس الحماية اللاهوتية لكل من شخصـه وللمملكة، وكان قـد جـرى ندب غ. G, دي غـولغـانم Gualganem, صــــاحب الذكـــرى الطيبـــة، والكاهن في هيئـة كهنة القــديس أناستـــاسيــوس، والكاردينال، فقـد بقي مناباً لعدة سنوات، ليكون مسـؤولاً عنه، وذلك من قبل الكرسي الرسولي، ورفع أخيراً بوساطة الكرسي المذكور إلى قمة المناصب، ولكـن يبــدو أنه قــد فقــد منافع العنايـة التي أضفيت على شخصه، ونسي المتاعب التي عانت منها الكنيسة لصالحه، وذلك منذ أن أصبح ناسيــاً لمثل تلك المنافع، وغير ممتن لمثل ذلـك المعـروف العظيم، وكنا نرغب أنه لم يتجــاوز حـدود النكران للمعـروف بشكل متـوازن، الذي يكون به مكتفياً بنكران أن تلقى مثل تلك المنافع جانبـاً، بالاضافة إلى هذا إن كل ذنب يجعل الإنسان يشعـر باللدغة المريرة للأسف، وهذا —على كل حـال— كيف حل النكران محل الإحسان، وعـاد الشر بدلاً من الصلاح، ضـارباً بسلاح ثقيل، ومع أن الكرسي الرسولي يحبـه، وقد رفعـه إلى قمة السلطة المدنيـة، مع هذا فإنه نظراً لذنوبه الملحـة، التي مع أننا في الغـالب، حللناه منهـا، قـد رفض التكفير عنهـا، وهكذا أرغمنا، فأقدمنا ونحن غير راضين على توبيخـه، لأنه مع أن الحكمة الربانيـة قد رفعت آدم إلى أعلى المراتب والسلطة، ووضعت جميع الأشيـاء المخلوقـة تحت سلطانه، مع ذلـك لأنه تجاوز أوامـر صــانعـه، لم توفـر خطيئتـه، والتعويضات التي تسلمتها الكنيسة من فردريك المتقدم الذكر على جميع

المنافع التي أضفيت عليه، لانرغب أن تكون جاهلاً بها، وسوف نعرض في هذه الرسالة أمثلة قليلة من بين الكثير.

فقد أثار في المدينة اضطراباً شديداً، وسعى بكل الوسائل التي توفرت لديه وفي قدرته، لمنعنا مع إخواننا واخراجنا من هناك، وبهذا جلب الإهانة إلى الكرسي الرسولي، وداس على حرية الكنيسة نفسها، وخرق بطيش الأيمان التي كان قد قطعها على نفسه، وقد تسبب بإعاقة أخينا المحترم أسقف برانستي، وإيقاف رحلته بوساطة بعض رعيته، وكان ذلك أثناء ارسال ذلك الأسقف إلى مناطق الألبينيين من أجل تقوية الإيمان الكاثوليكي، كما أنه لم يسمح ولا بأي شكل من الأشكال بملأ الكاتدرائيات والكنائس الشاغرة في مملكته، مسبباً بذلك الرعب والأذى الشديد لأرواح المؤمنين، ولم يكتف بهذا بل نهبهم وجردهم وجرد كنائس أخرى من جميع مقتنياتها، وفرض ضرائب واستخرج مكوساً ثقيلة من القساوسة، والرهبان، ومن رجال الدين العلمانيين الآخرين، وجرى انزال النبلاء، والقوم الفقراء، واليتامى، والأرامل إلى أقصى درجات الدمار، ولم تمنحهم قسوة وشدة جباياته ولا حتى فرصة للتنفس، وهكذا أنزل —بقدر ماستطاع— مملكته كلها إلى رماد وخبث، التي هي الوقف الروحي للقديس بطرس، والتي من أجلها هو مرتبط بيمين التابعية للكرسي الرسولي، وهو من مقطعيه، وبما أنه، بعد تلقيه التحذيرات من قبلنا، لم ير أن عليه أن يقوّم سلوكه، فإننا سوف نقوم بعون الرب، بالتعامل مع القضية، حسبما نرى ذلك مناسباً، وبالاضافة إلى هذا لقد أعاق قضية الأرض المقدسة والامبراطورية الرومانية، ومع أنه، في الأيام التي كان السلام قد أعيد تأسيسه بينه وبين الكنيسة، قد أقسم على يدي نواب الكرسي الرسولي في أن يطيع أوامر الوصاية التي تلقاها منهم، قد رفض تنفيذ الوصاية التي تسلمها منهم، ولا بأي شكل من الأشكال، أو السماح لهم بشغل الأراضي المصادرة

والتابعة للكنيسة، أو أراضيهم التي استولى عليها ووضعها بين يديه، لابل استولى عل أراضي الكنائس، وخاصة أراضي فيرارا Ferrara, وبولونا Bologna, وفوسينانو Fusignano, في لومبارديا، ومنطقة سردينيا، ومسينا، ولوكا، ولقد استولى على الأسقفيات، وخلع الأساقفة، واستبقى الكنائس لنفسه، ونهب أراضيهم وعاث فيها فساداً على الرغم من أن النواب البابويين قد تفوهوا بقرار الحرمان الكنسي ضده، وفي حضوره، وذلك إذا لم يعمل في هذه القضية وفق أوامرهم.

ومجدداً يحتجز هذا الامبراطور سجيناً لديه حفيد ملك تونس، الذي كان قادماً إلى بلاط كنيسة روما، ليتلقى طقوس التعميد، كما أنه فعل الشيء نفسه مع ابننا المحبوب، بطرس المسلم، والمواطن الروماني النبيل، اللذين قد أرسلا إلينا من قبل ولدنا المحبوب بالمسيح، الملك المشهور لانكلترا، ولقد كانا قادمين إلى الكرسي الرسولي، ومثل ذلك فعل بابن بطرس المذكور، ومع أنه تلقى التنبيه مراراً من قبلنا، لم يشعر بوجوب القيام بالإصلاح المخلص، وبما أن قروح ذنوبه أصبحت أشد قسوة، وصار يقدم يومياً على اقتراف المزيد من الجرائم الأسوأ، وبما أننا لم يعد بإمكاننا التحمل مدة أطول —دون أن نذنب بحق المسيح— ولا أن نمر مرور الكرام بهذه الأشياء ونحن صامتين، وبوساطة نصيحة إخواننا، وباسم الرب القدير (الذي نحن نائبه على الأرض)، وبوساطة سلطتي المباركين: بطرس وبولص، وبموجب سلطاتنا —ومهما كنا غير راغبين— لقد رأينا من المناسب إعلان قرار الحرمان الكنسي، وقرار الحرمان من شراكة المؤمنين والتكفير ضد الامبراطور فردريك المذكور، والعهدة به إلى الشيطان، حتى لايمكن تخليص روحه في يوم الرب، بعد وفاة جسده، وبالنسبة إلى جميع المرتبطين به بيمين الولاء، نحن نرسم بتحليلهم من مراعاة هذا اليمين، مادام مغلولاً بسلسلة الحرمان الكنسي، وطوال بقائه كذلك، وبناء عليه نحن ننذركم، ونحثكم بناء

على اخلاصكم، ونأمركم بوساطة هذه الرسائل الرسولية، أن تتدبروا نشر قرار الحرمان الكنسي والتكفير المتقدم الذكر، بشكل مهيب، في كل يوم أحد، وفي كل يوم عيد، والأجراس تقرع، والشموع مشتعلة، وأن تتدبروا نشر التحليل المذكور مع الحظر، والتفوه بها في جميع أنحاء نيابتك الرسولية، وحين تنفذ أوامرنا وفق هده الطريقة، فإن اخلاصكم يستحق المكافأة من قبلنا، ومجدداً بما أن فردريك المتقدم الذكر أصبح مشهوراً بسبب جرائم أخرى عظيمة وثقيلة، نحن سوف نتابع السير في هذه المسائل، في وقتهم المحدد ومكانهم المعين، وذلك حسبما تتطلبه طبيعة القضية، وبما أن صوت الرعب يصرخ دوماً في أذني الشرير، والأشرار دوماً يتوجسون من الخيانة حتى عندما يكونون في أوضاع سلام، لأن الضمير المضطرب يتوقع دوماً الشر، نجد أن فردريك المذكور، حتى قبل إعلان قرار الحرمان الكنسي ضده، قرر أن يرسل بعض الرسائل إلى إخواننا، وهي الرسائل التي أشير جزئياً إليها من قبل، والتي وصلت إلى علمنا وإلى علمهم، بعد صدور القرار المذكور، وبما أن الرب يتولى دوماً كشف الأشياء المخفية والمخبأة في الظلام، وإباحة أسرار جميع القلوب، قد رغب في كشف الأفكار الخفية لقلبه، ذلك أننا استنتجنا من محتويات تلك الرسائل أية تقوى يشعر بها نحو الكنيسة الرومانية التي هي أمه، وأي احترام أو تقدير متوفر لديه للحبر الأعظم ولإخوانه وللكرسي الرسولي، الذي هو من أتباعه الاقطاعيين بالنسبة لمملكته، لأنه كما يبدو قد تآمر ضدنا وضدهم، وظهر من ذلك بما فيه الكفاية أية نوع من الجرائم، وكم هي كبيرة الجريمة التي اقترفها، وكان بين كثير من الأشياء الواردة في رسالته هذه الكلمات المقحمة:

«وبناء عليه نحن ننتحب، ليس من دون سبب مسوغ، لأن الأب الرسولي يسعى بشكل جاد لإلحاق الضرر بنا، لأنه عندما ينزل مثل هذا الأذى على إنسان ثابت، ومع أننا نرغب بتحمل ذلك بصبر، إن

ضخامة الذنب لاتسمح لنا بفعل ذلك، بل إن عنف الواقعة يرغمنا على أخذ الانتقام، الأمر الذي اعتاد القياصرة أن يمارسوه»، وإننا —على كل حال— عندما نقدر انعدام صبر المهاجم، والوضع الصعب للمدافع، وإذا سمح لنا بحياد، أن نضع بالممارسة الانتقام الخاص الذي يمكن أن نمارسه على الرجل الذي كان أصل هذا العدوان وحلفائه بالدم، علينا أن نعتقد أنها أكثر احتمالاً، وأن محاولة إلحاق الأذى بكرسينا سوف تطاله وتنزل به وبالذي له، لكن بما أنه لاهو ولاجميع بني قومه، هم الذين سوف يعانون من أجل هذا، سوف يكون عظيم الأهمية بأن تكون جلالة الامبراطورية متشوقة جداً من أجل معاقبتهم، وبما أن سلطات الوضع قد سحبت كل الموانع من الوقاحة، ويبدو أن وزن العدد الكبير للإخوان المحترمين يدعمه على الثبات في العناد الذي تصوره مسبباً للغضب الذي مايزال يزعج عقلنا بعمق أكبر، ذلك أننا مادمنا نسعى لحماية أنفسنا من أي مهاجم، نحن قد أرغمنا في الدفاع عن أنفسنا، بأن نعطي هجوماً أعظم بوساطة مقاومتنا. صدر في اللاتيران، في الحادي عشر من نيسان، في السنة الثالثة عشرة لحبريتنا».

الغضب العظيم للإمبراطور ضدّ البابا وشكاياته الثقيلة ضدّه

وعندما أخبر الامبراطور بهذا التشويه لأخلاقه، وفي أنه طاغية وليس ملكاً، ثار غضبه —ليس من دون سبب— أكثر فأكثر ضد الميلانيين، وضد الخونة الآخرين له، الذين ساعدهم البابا بشكل مؤثر، وشجعهم ضده، وأصبح الميلانيون أكثر جرأة، بسبب المساعدة التي قدمها لهم البابا، ووجدوا أن المسألة هي مسألة حياة أو موت، فأقلعوا بهجمات شديدة جداً، يرافقهم نائب بابوي، كان قد أرسل من قبل البابا لمساعدتهم، وعندما كان الامبراطور قد ذهب إلى مناطق نائية، استولوا بالقوة على فيرارا، ومدن أخرى، وقلاع تابعة للامبراطور، ونهبوا المناطق المجاورة ونشروا الدمار والموت، والذين تعرضوا للحصار، قوبلوا من

دون رحمة، ومع أنهم توسلوا إلى النائب البابوي بدموع، في أنهم إذا ماسلموه مدنهم ومقتنياتهم كلها، ووضعوها بين يديه، أن تستثنى أشخاصهم وحدها باسم الرب، ولم يصغ إليهم، مالم يخضعوا أنفسهم وممتلكاتهم إليه بشكل كامل ومن دون شروط، واعترت الدهشة العظيمة رجال الدين المقدسين والرهبان، الذين سكنوا في المقاطعات المسيحية تجاه انعدام الانسانية والوحشية الدموية التي توفرت في نائب بابوي للكنيسة، وتفوهوا باللعنات ضده، لأنه باستخدامه السيف المادي فقط على هذه الصورة، هو تذكّر فقط عدم إبداء الرحمة، وقد استبد الخوف والرعب بقلوبهم، خشية أن يصب المولى رب الحشود غضبه على هؤلاء المخلوقات القساة، وأن تعاني الكنيسة من سقوط كبير، خاصة وأن حزب البابا لم يهتم بالصلوات، أو بالصوم، أو بالمسيرات، كما أنه لم يفرض على الجماعة العمل على تجنب غضب الرب، بتقديم الصلوات إليه، فبوساطة الصلوات تسترد الكنيسة بالعادة أنفاسها في أوقاتها العصيبة، وغالباً ما تحصل على الانتصارات على الظالمين لها، لكن بوضعها جميع ثقتها في ثرواتها، وفي السلب جعلها تندفع بدون توقف إلى السيف ولأن تقوم بانتقامها، ومن هذا قام حزن ودمار للمسيحيين، وتهديد للنبلاء، وغضب، وحقد، وكراهية، وعداء بين الكنيسة والامبراطورية، وهددت بدايات هذه الوقائع المحزنة بنهايات أكثر حزناً، وهكذا طُعن الامبراطور بآلام حزنه، ولذلك سعى لتسويغ نفسه، ولإتهام البابا، ولهذا كتب الرسالة التالية إلى عدد من الملوك والأمراء، وخاصة إلى ملك انكلترا، وإلى أخيه رتشارد ايرل أوف كورنوول، بحكم أنه ابن خَتنه المحبوب، والذي فيه وضع ثقة خاصة:

رسالة الإمبراطور إلى رتشارد إيرل أوف كورنوول

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم وملك القدس وصقلية، إلى رتشارد ايرل كورنوول، وابن ختنه

العزيز، صحة وكل المباركات:

ألق عيناك من حولك، وانظر إلى أبناء الناس، وابك على فضائح الدنيا، والصراع بين الشعوب، والإقصاء العام للعدالة، بما أن شرور بابل قد صدرت عن شيوخ الناس، الذين ظهروا بأنهم حكامها، وفي ذلك حولوا القضاء إلى مرارة، وثمار العدل إلى دود الخشب، قف حيث أنت، أيها الأمير، ويا أيتها الشعوب افهمي قضيتك، واتركي أحكامك تصدر تحت نظر الرب، واجعلي عيونك تشاهد الانصاف لأننا نعرف، ونثق في فضيلة القاضي الأعلى، وحيث لايوجد معك أوزاناً مختلفة، ولامقاييس مختلفة أيضاً، فإنك بكل تأكيد سوف ترى تسامحنا، والبراءة الموزونة في ميزان حكمك، وكلمات الافتراء صادرة من شفاه المنتقصين لنا، واختراعاتهم السامة وزيفهم، ولكن نحن نعلم إنها ليست الآن المرة الأولى أن عدالة قضيتنا، وشرور الذي هو جالس على كرسي الرب، قد جلبت للعرض أمام معرفة العالم، وإلى جانب بدايات الشهرة السريعة التي غالباً ماتأخذ بريق الجدة من آذاننا، في جميع الحالات الهامة، ونحن أنفسنا نستطيع أن نؤكد بعروضنا التالية، أن الذي هو إشاعة، قد أعلن في الفرصة الأولى، أي كيف جرى تعيين هذا المقاتل الجديد رئيساً لكهنتنا تحت رعاية شريرة، فهو صديقنا الخاص مادام في مرتبة دنيا، لكن فور ترقيته، نسي أعمال المعروف التي أغنت بها امبراطوريتنا الكنيسة المقدسة، وغيّر الإخلاص مع تغيّر الظروف، وبدّل أخلاقه مع كرامته، وهو متأثر من بعض الجوانب برغبة شهوانية في إحداث اضطراب عام، فقد شحذ حد خبثه ضدنا، مع أنه هو رئيس الكنيسة وابنها الخاص، وقد اقتنص فرصته، عندما —حتى يتجنب فضيحة كبيرة— تفوه بالحرمان الكنسي ضدنا، وكان ذلك بعدما أخذنا يميناً، وربطنا أنفسنا بالعبور في وقت محدد إلى الأرض المقدسة، ثم إنه بسبب أننا تأخرنا لسوء الصحة (مضيفاً كثيراً من التهم الأخرى، نحن فيما يتعلق بها لم يتقدم قط بتحذيرنا أو بتذكيرنا) قام على الرغم من رغبة

الرب والعدل، فرفض كلياً تسويغنا، واتخذ ذلك سبباً للحرمان الكنسي، ولهذا خضعنا بكل تواضع وكأن الحرمان جرى التفوه به في المقام الأول بناء على رغبتنا، وصليّنا من أجل التحليل، ووعدنا أنه عندما تعود إلينا صحتنا الجسدية، سوف نستعد على الفور لعمل عبورنا، ومع أن شكوانا التي قدمناها بتواضع قد رفضت بشكل مهين، فقد عبرنا لانقاذها، بتنفيذ تقوي لتعهدنا، معتقدين أن نائب يسوع المسيح قد استهدف تنفيذ هذه المسألة، وليس زيادة كراهيته ضدنا، لكن الذي أملنا أن يكون منقذاً فقط للأشياء التي هي بالأعلى، والذي افترضنا أنه يتأمل الأشياء السماوية بعينيه، والذي يركز عليهم في تفكيره، وجدناه كلياً على الفور ليس فقط رجلاً فارغاً من الصدق، بأعماله الوحشية، لابل حتى منفصلاً عن جميع مشاعر الانسانية، لأنه إلى جانب المعيقات التي رماها في طريقنا في سورية، بوساطة رسله، ونوابه، ومثل ذلك برسائل منه —الحاملين لهم قد ألقينا القبض عليهم، ونحتفظ بالرسائل بمثابة بينات— فقد حذروا السلطان من التخلي لنا عن الأرض، التي أوقفت للعبادة اللاهوتية، ولشرائع مملكة القدس، وعمل دخولاً بالقوة إلى مملكتنا في صقلية، مقدماً سبباً مسوغاً لهذا الصنيع هو أن ر. R, ابن الدوق الماضي لسبوليتو Spoleto, كان يعدّ العدة لدخول أراضي الكنيسة، مع أن ذلك كان من دون موافقتنا، ومن دون معرفتنا، وقدمنا فيما بعد برهاناً على ذلك بمعاقبته،كما أنهم لم يزحفوا إلى هناك كما يفعل الرجال المقدسين، ومن ثم الاستيلاء على الممالك بالإيمان، بل زحفوا بالغدر والحنث باليمين للجميع، وإذا لم يكن من السهولة إيجاد أحد يمكن إغوائه بسهولة بالحنث باليمين بوساطة تأكيد بسيط، لقد كان هناك أولئك، حيث أغويوا على الفور، عندما قام قادة القوات البابوية أنفسهم، في سبيل الحصول بسهولة على أراضينا، فأكدوا باليمين، بأننا كنا أسرى في سورية، ومجدداً بعد عودتنا مما وراء البحار، قمنا ببساطة برد الخطأ الذي وضع علينا، وتمنعنا عن جميع المحاولات

للانتقام لأنفسنا، وفقاً لعادة كرامة وسمعة امبراطوريتنا، ثم قمنا عن طواعية بالاصغاء إلى كلام السلام، الذي دفع به الوسطاء.

ونحن نعلم من اعترافنا بالإيمان الكاثوليكي، أننا قد وجدنا أمّاً حقيقية في الكنيسة، لكن أبانا وجدناه دوماً زائفاً، لأنه في اليوم نفسه لصلحنا، اخترع خطة لتدميرنا، حيث نصحنا بكل حرارة بالعودة إلى ايطاليا مع حاشية غير مسلحة وخاصة، محدداً سبباً لذلك الخوف من أننا قد نقدم فرصة لخوف رعيتنا المخلصة، إذا ما قدمنا وبصحبتنا —كما كان الأمر من قبل— مرافقة مسلحة، وبالاضافة إلى هذا، لقد أعلن بأنه سوف يعمل كل شيء لتأمين الحماية لنا، وسعى في الوقت نفسه لفعل كل ماهو معاكس لهذا، برسائله وبرسله، كما هو واضح من شهادة عدد كبير من رعيتنا المخلصين، الذين كانوا في ذلك الحين مطلعين على كل شيء، وكأنهم كانوا مشاركين في هذه المؤامرات، وكذلك من مقدمين آخرين من ذلك الحزب.

وبناء عليه، بما أن جميع الطرق العامة كانت مغلقة في كل مكان من قبل رعايانا المتمردين ضد ابننا وبعض مقدمينا، الذين كانوا قادمين إلينا من ألمانيا، علاوة على ذلك، عندما كان ابننا المذكور في أكويليا، ويريد الذهاب من هناك إلى ألمانيا، استرد بصعوبة الحماية لسفنه، ونحن أرغمنا على العودة إلى مملكتنا، بسبب النصيحة —أو بالحري المؤامرة الماكرة— الصادرة عن أبينا، التي قد جاءت إلينا، أنه على غير استعداد لضبط تمرد رعيتنا، وهنا مجدداً، عندما كنا إلى بعض الحدود نتنفس بحرية أكبر، وآخذين راحة بعدما أنهكتنا متاعبنا، هاجم أبونا المقدس راحتنا، حيث اتخذ لنفسه سمة المستشار، وحرضنا بحرارة ملتهبة بأن نزحف بكل نشاط ضد الرومان، الذين كانوا مخلصين لنا، وضد رعايا متمردين آخرين تابعين لنا في توسكانيا، كانوا ممسكين بحقوق الكنيسة والامبراطورية، وكنا واثقين من ضمان معروفه، لأنه رغب في مشاركتنا

بما لدينا وبأعباء الامبراطورية، وبناء عليه قمنا تماشياً مع نصيحته المخلصة، بما هو متوجب علينا، فأعلنا الحرب لصالح الكنيسة، ضد الرومان، الذين كانوا في ذلك الوقت يهاجمون فيتربو، وكان هو في الوقت نفسه يرسل رسائل سرية إلى المدينة، بهدف القول، بأننا كنا نعمل على هذه الصورة صدوراً عن كراهيتنا للرومان، وبناء على رغبتنا وإرادتنا، من دون معرفته أو تعليماته، وقام في الوقت نفسه اضطراب في صقلية، وبذلك أرغمنا على زيارة مسينا، حتى نتمكن من مواجهة ذلك، في المراحل الأولى، وكان حزب يتشكل هناك، مقدماً لنا سبباً وحيداً، هو أننا كنا غير راغبين بالتخلي عن جزيرتنا الفخمة صقلية، وحدث في تلك المناسبة، من دون طلب رأينا، لابل في الحقيقة بإخفاء الحقيقة كلها وإبعادها عن معرفتنا، مع أن ذلك كان مضاداً لشريعة الشعوب، التي تقضي، بأن المتحالفين، والمتشاركين في مهمة واحدة وعمل عسكري هو نفسه، عليهم عدم التخلي أحدهم عن الآخر، حدث أنه عمل معاهدة مع الرومان، الذين أعلنا ضدهم الحرب، بناء على طلبه، كما ذكرنا أعلاه، وكان هذا أيضاً من دون الاهتمام بحقيقة، أننا بقينا ليس من دون مخاطرة، ورعب على كرامتنا، بقينا بلا دفاع بين الرعايا العصاة والمنشقين، وأننا كنا قد أرسلنا عدداً كبيراً من الجنود الأقوياء لمساعدته، مع أننا لم نكن قادرين على الحضور شخصياً.

بالاضافة إلى هذا، بما أن استقامة ضميرنا، واخلاصنا النقي الذي شعرنا به نحو الكنيسة، التي هي أمنا، لم يسمح للابن بملاحظة الحماقات غير الطبيعية لأبيه، فعزونا ما حدث إلى الحظ الذي هو عائد إلى المهارة، وكنا باستمرار على استعداد للاشارة إلى تسوية للإعادة المستحقة لنا على تحكيم زوج الأم هذا، الذي تولى في كل مناسبة خداعنا بخشونة أعظم، وسخر منا بمرارة أكبر، وفق نسبة كأن وعوده بتحكيم كامل كانت أكثر حسماً، وفي الوقت نفسه، عندما حكمنا من خلال

خلافاتنا الماضية، وجدنا أنه لم يبق أمل، أو الذي بقي هو شيء قليل لنا من أجل تسوية شؤون ايطاليا، بما يتوافق مع شرف الامبراطور، بوسائط البابا، وعندما كنا متوقعين الاضطهاد نفسه، وفي وقت كنا فيه ننتظر هكذا، اعتقد الجميع بأن الحظ قد ابتسم لنا، لأن الخصام بين الكنيسة والرومان بدأ مجدداً، وفي هذا الخصام كان تصرفنا نبيل جداً، فبإخلاص قدمنا أموالنا، وعرضنا شخصنا، لأننا اعتقدنا بأننا أزلنا تماماً صدأ المشاعر الشريرة من قلب رغباتنا السيئة، ولم نكن قانعين بهذا كله، بل رغبنا بأن نمنح الكنيسة أماناً لاجدل حوله، لأن مشاعرنا اشتعلت بأكثر العواطف حرارة نحوها مع الاخلاص، وكذلك ببواعث الاحسان بالرب، وهكذا ذهبنا شخصياً للمثول أمام هذا الحبر الأعظم، حتى من دون استدعاء، وأخذنا معنا ولدنا العزيز كونراد، المنتخب الآن ملكاً للرومان، والذي هو ولي العهد لمملكة القدس، وهو قد كان في ذلك الوقت الابن الوحيد الذي ترك لنا ليتمتع بعواطفنا الأبوية، وذلك بعد الاعتداءات الساطعة لأخيه علينا.

وبعدما قدمنا شخصنا إلى الكنيسة، لم نكن نظن أنه مخبأ لنا القيام بتقديم ولدنا هذا، ليكون رهينة كاملة إلى الحبر الأعظم، ونسأل بكل تواضع، وندعو الرب ليكون شاهداً على اخلاصنا، أننا كنا نريد اتحاداً كاملاً بيننا أنفسنا وبين الكنيسة، لأن هذا الأسقف على الكنيسة كلها، عندما كان منذ زمن طويل مضى، أسقفاً لأوستيا، قد أقنعنا بأن هذا هو واجبنا الذي علينا أن نطلب، وبناء على ذلك كله، وحيث أن العرض الذي تقدم ذكره لاقى تأييداً طيباً من جانب البلاط كله، وبما أن الخطابات الشاكرة ظهرت أنها تبدي نوايا مخلصة، وذلك من قبل الحبر الأعظم وبالقدر نفسه من الذين هم في بلاطه، وظناً منا بأننا تدبرنا كل شيء معهم بوساطة اقتراح نوايانا المخلصة، وليس أقل اعتماداً على خضوعنا، اعتقدنا أنه من الموائم، أن نشرح —بتقوى عالية— سبب

الخلافـات بيننا أنفسنا وبين اللومبـارد، الذي غـالباً مـا سبب الحشرجـة لصـدر قـاض فاسـد، وتسـوية الخلاف بيننا أنفسنا وبين سكان ونبـلاء أنكونا، ونظراً لأننا كنا نشعـر بشكل أكيد بتفهم لصالحنا لكـل قضايانا، سرنا شخصياً، بنية صالحة لخدمـة الكنيسة، مع جيش كبير، كنا بوساطة انفاق ثقيل من خـزانتنا قد تدبرنا جمعـه من جميع أرجاء ألمانيـا، وكذلك من ايطاليـا، كما أننـا لم نتمنع عن مـواصلة تنفيـذ هـدفنا، قبل أن تكون قوتنا قـد أعادت إلى وضعهـا السالف والصحيح، حـرية الكنيسة، التي ديس عليهـا بالأقدام في المدينة وفي مناطقهـا، التي جرى الاستيـلاء على خارجهـا، معتقدين بدون أدنى شـك أن خضوعنا التقوي سـوف يجني لصالحنا الحظوة المستحقة لاستقامتنا، والتي لم نكن قادرين على نيلها.

لكن استمعـوا لتعـرفـوا الربح الـذي أعيـد إلينا بشكل رائع، وذلك مقابل إخـلاصنا العظيم، ومقابل المنافع الكبيرة التي أسـديناها، وتثبيتنا لمثل ذلك الإخـلاص الذي لاشك فيـه، الذي أعيـد إلينا في كل قضيـة سعيـــــاً مـن قبل نـائـب المسيح هـذا، هـذا الذي هـو راعي كنيستنـا الكاثوليكية، وهذا المبشر بالإيمان.

ولنبدأ أولاً حول مسألة ماوراء البحر:

إن جميع الذي جـرى ترتيبـه بشكل منطقي من خـلال وكـالة رئيس أساقفـة رافينا، وأميرنا المحبوب، والنائب الرسولي، وفقاً للصيغـة المعبّـر عنها التي أعطيت إليه من قبل الكنيسة بشأن إعادتنا نحن أنفسنا، وابننا كـونـراد المتقـدم ذكـره، إلى التملك الكامل، كما كـان من قبل، لجميع حقوقنا في المملكة، وفقـاً للمعاهدة، وذلك فور وصول رئيس الأسـاقفة إلى قيسـارية، من دون انتظار النائـب البـابوي المتقـدم الذكـر، أو رسلنا الذين كـانوا قادمين إلى البـلاط، ومن دون المزيد من التأخير، أكثـر من ذلك الذي يمكن أن يعتمـد فيه على وصـول البيـزنطات (نقود ذهبيـة) صار العمل كله المتعلق قد تحول إلى غير منتظم كلياً، هذا دون أن نقول

شيئاً عن ترتيب الأمور، كما كان قد وعد، لصالح كرامتنا، وكرامة الامبراطورية، أو أيضاً عن إهماله عندما رجونا وكنا ملحين معه من أجل إعادة استدعاء أعدائنا، كما أنه لم يسمح لنا بالذهاب مع الجنود، الذين —كما قلنا— كانوا معسكرين في تلك النواحي، من أجل الدفاع عن مناطق الكنيسة، كما أنه لم يرغب بإرسال أي رسول أو رسائل، مما نجم عن ذلك سقوط أعداد كبيرة من الرجال قتلى في المعارك التي وقعت، وإحراق الكنائس.

ومجدداً أيضاً، هو لم يكتف بمثل تلك الدناءة غير الاعتيادية، فعندما كنا مقيمين معه في ريت Reate, ونحن ننفق آلافاً من الماركات في سبيله، رفض أن يتنازل لنا عن مدينة كاستيلانا Castellana, التي كان قد استولى عليها في بداية خصومتنا، وذلك حسبما كان ملزماً بموجب بنود السلام، وحسبما تلقى النصيحة من إخوانه، لأنه كان قد استلم مبلغ خمسين ألف مارك من ذلك المال فقط، فانظر كيف أحبنا أبانا هذا الأعظم قداسة!

وبعد هذا، وفي منفعتنا جميعاً، ومن أجل تهدئة ايطاليا (خاصة وأننا كنا قد أجبرنا على التخلي عن جميع الآمال بإبداء نوايا طيبة نحونا من قبل أبينا، أو بالحري زوج الأم) حملنا سلاحنا وترسنا، وجمعنا قواتنا من مقاطعات ألمانيا (التي إليها كنا قد دعينا في ذلك الوقت بحكم الضرورات، نتيجة للعب القذر لولدنا)، من أجل غزو ايطاليا وتمتين قضيتنا العادلة بجنود شجعان، لأننا كنا غير قادرين على الوصول إلى غاياتنا بالالتماسات، وعندما وصل هذا إلى علم الحبر الأعظم، قام هو، بناء على التماس الهدنة التي وافق عليها جميع الناس المؤمنين وأمراء الأرض، وفي سبيل مساعدة الأرض المقدسة، قام برسائل رسولية، فمنع دخولنا إلى ايطاليا، مع قوة مسلحة، ثم إنه نسي هذا، في اليوم نفسه الذي أعلن فيه الهدنة المتقدم ذكرها، وطلب منا بحكم كوننا المدافع عن

الكنيسة والمحامي عنها، بالزحف بقوة ضد الرومان، الذين —كما قال— قد استولوا على بعض مقتنيات الكنيسة، ومع أنه عدّ أمراً ليس شرعياً بالنسبة لنا، أن نسعى لشق طريقنا بالقوة لندخل إلى بيتنا، وإلى ممتلكاتنا التي أعطيت إلينا من قبل آبائنا، والتي أغلقها دوننا بعض العصاة الحمقى من رعايانا المخلصين، مع ذلك اعتقد أنه عدل بالنسبة له أن يعمل وفق هذا المنهج مع الرومان، الذين لم يكونوا مرتبطين بأي شكل من الأشكال بأبيه، أو بجده، أو بأي واحد من أسلافه.

وأضاف أيضاً بالرسائل المتقدم ذكرها، أنه بالنسبة لمسألة لومبارديا، يتوجب علينا من دون تأخير، ومن دون شروط، ومن دون التقيد بكرامة أو إدعاء إلى الامبراطورية، عمل تسوية معه، بها يستطيع أن يمنعنا إلى الأبد من المطالبة بأي إدعاء لنا، أو أنه يستطيع، إذا ما رغب، خنق حقوق وكرامة الامبراطورية، لكن بما أنه لانصيحة مقدمينا، ولاذكرى الخسائر الماضية، أوصتنا بفعل هذا، قام آنذاك باللجوء إلى بدع أخرى، فأرسل ذئباً مفترساً، يلبس ثوب حمل لمقابلتنا، والمعني بذلك هو أسقف برانستي، وقد أوصى به إلينا برسائل رسولية واصفاً إياه كرجل صاحب حياة هي الأكثر قداسة، الذي بوسائله، سحب لصالح حزب الميلانيين الناقضين للعهد مدينة بلاسنتيا Placentia التي كانت خاضعة لنا، وصديقة، معتقداً بثبات أنه بهذه الوسائل يستطيع بث الاضطراب بشكل عام بين رعايانا المخلصين، وذلك إلى درجة يستطيع بها أن يوهن هدفنا في الزحف إلى إيطاليا، وكان —على كل حال— في هذا الأمل، بفضل الرب، الذي يحمي امبراطوريته، مخدوعاً تماماً، والنار التي انتشرت بين رعايانا المتمردين، ونقص السكان وافراغ المدن الذي تسبب به المجرمون، نادى فوق رأسه بصوت مرتفع، موجهاً اللوم إليه، لأنه بث فيهم روح الثقة في عصيانهم، ولخرقه للصدق، لأنه كان قد وعدهم بأن يساعدهم ضدنا، وضد

الامبراطورية، ولأنه لم يستطع، تجاوباً مع طلبهم، انـزال عقوبة الحرمـان الكنسي بشكل مسوغ، أثناء الفـرصة المتقـدمة الذكـر، فقام بشكل سري برمي المعيقـات في طريق زحـوفنا في جميع الاتجاهات، بارسـال رسـائل ورسلاً إلى جميع أنحاء الامبراطورية، وإلى جميع أنحاء العالم، ليضلل كل من يستطيع تضليله عن متـابعـة الاخـلاص لنا، وللتـوقف عن إعـلان الولاء لنا، لكـن بما أن الوفـاء الطيب لرعـايانا، والعـواطف الجيـدة لأصدقائنا لم تسمح ببقاء أخبار هذه الأوضاع بعيدة عن علمنا، ولأننا لم نختر أن نغلب بالشر، ولأننا رغبنا بقهـر الشر بالصـلاح، قررنا ارسـال رسل خـاصين إلى الكـرسي الرسـولي، وبناء عليـه بعثنا إلى هناك رئيس أساقفـة بلرم المحترم، وأسقفي فلورسنا وراتسبون، والمعلم ثاديوس دي سيسـا Thaddeus de Sessa, الذي هو القـاضي لمحكمتنا العليـا، والمعلم ر. R أسقف بـورتاستيـلانا Portastellana, وهو واحـد من رعـايانا المقـربين لنـا والمخلصين، وبما أننا منحناهم كل الثقـة من قبلنا ولصالحنا، جـرت النقـاشات لنقض اتهام الهرطقـة الذي عمل ضدنا، وكـذلك ماتعلق بامتياز الكنيسة، وإعـادة تأسيس امتيازات الكنيسة والامبراطورية (وهـو أمر مرغـوب به منذ زمن طويل ومتطلع إليـه بيننا وبين الكنيسـة)، وكـان الحبر الأعظم آنذاك حـاضراً بناء على نصيحـة جميع إخوانـه، وقد وافق على طلب سفـارتنا، في جميع النقـاط، ومن خلالهم وبوسـاطة رئيس أساقفة مسينـا، الذي بعث به رسولاً إلينا ليحصل على سلامـه، وعدنا بأنه سـوف يأمر بإيقـاف جميع المعيقات في جميع الأنحاء، وهي المعيقـات التي ألقاها في طرق زحفنا، وذلك حسبما اعترف بشكل مكشـوف بحضـور إخوانه ورسلنا، وهـذه الأشياء كلهـا مبرهن عليها بوضوح بشهادات رسائل جميع الأساقفة المتقدم ذكرهم.

وبهذا الجواب عـاد رسلنا إلينا، لكن قبـل أن يكونوا على بعـد سفـر ثلاثة أيام مـن البـلاط، ومن دون معـرفتهم، وفي سبيل إربـاكهم، منح

منصب نائب بابوي في لومبارديا إلى غ. G دي مونت لونغو Monte Longo, الذي كان قد أرسله في المقام الأول بمثابة رسول إلينا، وجرى تعيينه فيما بعد لاخضاع مانتوا Mantua, ولتضليل رعايانا المخلصين، معتقداً أنه كلما ازدادت الصلاحيات المعطاة له، سوف يكون أكثر قدرة على رمي المعيقات في طريقنا وطريق أتباعنا، وإلى مقدمينا وإلى القساوسة في ايطاليا وألمانيا، الذين كانوا مقيمين معنا في بلاطنا، أرسل رسائل ليس فيها القليل من التشهير بسمعتنا، مع تضمين بعض الفقرات، التي تعلقت بشكل خاص بالظلم الذي قيل بأننا مارسناه ضد بعض الكنائس في مملكتنا، والتي بشأنها قد أمرنا بإزالتها بوساطة المقدمين المذكورين، وحول جميع هذه القضايا للشكوى، وردودنا حول كل منها، قد بعثنا إليكم برواية عنه، تحت التوثيق العام، من أجل تفحصكم، وجرى ايضاح هذه الأشياء كلها إلى الأمراء والقساوسة، وإلى عدد من رجال الدين من كل طائفة، واحداً بعد الآخر (مع ان الأبناء شعروا بالخجل في أنفسهم من التقلبات الكبيرة للأب، وصدوراً عن الاحترام له، غطى الخجل وجوههم) ومع ذلك أعدنا بناء على نصيحتهم الى الكرسي الرسولي رئيس أساقفة بلرم المتقدم الذكر، والمعلم ت.T, والمعلم ر. R, أوف بورتاستيلانا، الذين هم رسلنا، مع رسل مدننا المخلصة، الذين من خلالهم أعلنا أننا أنفسنا جاهزين من دون أي تأخير، أو صعوبة، لتقديم كل ترضية، لكن حتى بوساطة هذا كله، لم يمكن إزاحة غضبه عنا، لكن هذا الذي يدعى باسم نائب المسيح، والمبشر بالسلام، والذي هو بالحقيقة المحرك للانشقاقات وصديق الخلافات، قام بمعارضة من قبله لنصائح الآباء المقدسين، عندما سمع بأن رسلنا كانوا يحملون إليه عرضنا بالطاعة في جميع القضايا، وخشية منه أنهم إذا ماوصلوه سوف يحجز بحواجز العدل وسيكون ربما غير قادر على السير أكثر من دون إثارة فضيحة عامة بادر مسرعاً بشكل كبير، فأبدع خطة مجهضدة، وتصرف على

عكس العـادة الخاصة للكنيسـة المقـدسـة الأم، فقذف في أحـد السعف بقـرار ضدنا، نحن الأمير الأعلى للمسيحيـة، ثم كـرر بعد ذلك القـرار نفسه، في يوم عشاء ربنا بموجبـه (كما سمعنا من خلال تقرير، ينبغي أن نضع قليـلاً من الثقــة به) قـام —كما قيل— بغلنا بســلاسل الحرمـان الكنسي، وذلك بناء على نصيحة بعض الكرادلة اللومبارد، مع أن الشطر الأعقل من إخوانه قـد عارضوه، كما أنه قام أيضاً بـوسائط محرضيه على الشر، والذيـن يدورون بفلكه، والذيـن يعيشــون على أوقـــاف الناس الفقراء، فمنع رسلنا الذين كانوا الآن قد وصلوا، من المثول في حضرته، ومن الظهور أمـام الناس، للبرهنة على عدالة قضيتنا، وعلى براءتنا، وفي الحقيقـة لتقديم ترضيـة تصل إلى حد تقـديم ضمانة، وإنه فيما يتعلق بها، كان ذلك لسببين إفـرادي وخاص، ونظراً لعدالة قضيتنا، ولسـوء سمعة دعـواه وإجراءاته، توجب، بشكـل مسوغ أن نكون فضّــلنا ذلك، ومع ذلك استمـر بإجـراءاته بطيش وبشكل غير نظامي، لنيل مخرج لشروره، ما كان —ربما من قبل— سيصبح معروفاً، ونحن نحزن ونشعر بالأسى في قلوبنا، بسبب العار الذي تسبب للكنيسة الأم المقـدسة، التي عهد بها ربنا يسوع المسيح —تحت ظهور العذراء المباركة— إلى تلاميذه، بميثاق آلامه، وعدا عن ذلك، ولولا ذلك نحن ما كان من الممكن أن نعتقد أن أي أذى كـان من الممكن أن يلحق بنا من قبل هذا الرجل، الذي نعتقـد —لسبب صحيح— أنه ليس قـاضينا، لأنه كـان قـد أعلن من قبل عن نفسـه أنه عــدونا الرئيسي، وكـذلك قـاضينا، بـالقـول والعمل، ورعى بشكل مكشوف العصاة ضدنا وضد الامبراطورية، علاوة على ذلك لقد حـوّل نفسه بجعلهـا غير جـديرة بأن يخضع لها مثل هذا الأمير العظيم، وفي الحقيقـة هو غير جديـر بالسلطات الحبرية بشكل مطلق، لأنه وقف ضدنا وضد الامبراطـورية، وقدم برعايته المكشوفـة الحماية لمدينة ميلان، التي هي —وفقــاً لشهـادة عـــدد كبير من الناس الموثوقين من رجـــال الدين— مسكونة في الجزء الأكبر منها من قبل الهراطقة، وكذلك عندما

أصدر أسقف فلورنسا —وهو رجل صاحب حياة مستقيمة، وأخلاق حميدة— عدة أحكام هرطقية ضد ر. R دي مانديلو Mandello, وهو رجل من أهل ميلان، وكان من قبل عمدة ميلان وكليرنتيا Clarentia, لم يصغ إليه وذلك صدوراً عن كراهيتنا ومحاباة للميلانيين، وعلاوة على ذلك نحن نعتقد أنه غير جدير بأن يعدّ نائباً للمسيح، وخليفة لبطرس، ومحللاً لأرواح المسيحيين، ليس بسبب الأضرار التي ألحقها بكرامتنا، بل للأخطاء الشخصية، وبسبب أعمال التحليل، المتوجب عدم منحها إلاّ فقط بعد مداولات كبيرة مع إخوانه، فهو يزن بميزان المقايضة، مثله مثل تاجر، ويمنحها في غرفته، مخفياً آرائه عن إخوانه (الذين متوجب عليه التشاور معهم، وفقاً للنظام اللاهوتي) وبذلك جعل من نفسه الذي يتولى الختم لنفسه، والكاتب، وربما أيضاً المحاسب، ومثل هذا هناك مسائل لانرغب نحن بالمرور بها صامتين، مثل التحليل المدهش، الذي عمله بناء على تسلم مبلغ صغير من المال، وسمح به لسيفا Sipha, ابنة المفوض المتوفى لمملكة قبرص، بأن تصبح زوجة لبالين دي جوسلين، وذلك مراغمة لقرار التفريق الذي تفوه به أسقف نيقوسيا في تلك المسألة، واليمين الذي أقسمه في الوقت نفسه بأنه لن يراجعها ثانية، وسمح كذلك لأخت جون صاحب قيسارية بالزواج من جيمس أوف أميندوليا Amendolia, الذي كان قد تزوج أختها من قبل، وذلك لأن كلاهما خائنين لنا، والامرأتين قريبتين له من الدرجة الثالثة، وكل ماهو معيب، رتق بمبلغ المال الذي دفع إليه، لأن هذا قد عمل بموجب درجة كراهيته لنا.

ونحن أيضاً نحزن لذنبه ولمراوغته حول حقيقته أن لم يرض بإنفاق المال في سبيل كسب نبلاء ومقدمي الرومان إلى جانبه، ولأن يصبحوا أتباعه ومرتبطين به، لقد بدّد مقتنيات الكنيسة الرومانية، التي عهد إلينا بالحماية الخاصة لها، عوضاً عن أن يمنح الرومان القلاع والمقتنيات التي

أعطيت إلى الآباء المقـــــدسين من قبل المؤمنين المسيحيين المخلصين الأتقياء، وبناء عليه يتوجب على الكنيسة العالمية، أو الشعب المسيحي، أن لايعجب، من أننا لانخاف من قرار مثل هذا القاضي، ليس تحدياً للمنصب البابوي، أو للمكانة الرسولية (التي يتوجب على جميع ذوي الإيمان المستقيم الخضـوع إليها، ونحن أكثر من غيرنا نفعل ذلك)، ونحن نلوم مراوغة هذا الشخص، الذي برهن عن نفسه أنه غير جدير بعرش مثل هذه الحكومة الكبيرة، ويتوجب على جميع النبلاء والأمراء الذين يحملون اسم مسيحيين، أن يعرفوا نيتي المقدسة، والغيرة والتقوى المخلصة المتوفرة فيّ، وأنه ليس من الكراهية القذرة، بل انطلاقاً من سبب هو الأكثر عدالة، استثير الأمير الروماني ضد الكاهن الأعلى الروماني، لأنه يخشى أن يقاد قطيع الرب، من قبل مثل هذا الراعي، فيقوده خلال ممرات مغلقة، انتبهوا، أننا ندعو برسائلنا ورسلنا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، وبحق دم المسيح، وتحت شهادة الحكم اللاهوتي، أن يقوموا بالدعوة لاجتماع مجمع مسكوني للأساقفة ولآخرين من أتباع المسيح المخلصين، ونبعث نحن أيضاً لرسلنا، ولبقية الأمراء، الذين نحن على استعداد أن نقف أمامهم، وأن نشرح، وأن نبرهن كل الذي قلناه، لابل حتى مسائل أسوأ منهم، ولسنا نحن الأقل انزعاجاً، بالسبب المحتمل، لأن حاكم الكنيسة هذا، الذي ينبغي أن يتملك جميع أنواع الفضائل، وأن يكون الأعظم مثابرة، وأن يكون تابعاً منتخباً، من دون وصمة الشره، خشية أن أخطاء الزعماء، تتوالد وتزداد بين الذين هم رعية لهم، سعى لأن يدوس على حقوق الامبراطورية، وذلك على عكس وعده الذي أعطاه بناء على نصيحة إخوانه، وعبّر عنه برسائله، حيث وعـدنا بأن لايتخلى عنا، بل أن يقـدم لنا النصيحة برأيه، ومساعدته، ورعايته، في استعادة قوة الامبراطورية المذكورة، وهو زيادة على ذلك يكدس التشهير بنا، إن لم نقل يتولى تكفيرنا، وقذف شخصنا، ولاسيما عندما نوازن الأمور في ضميرنا، فلا نجد في أنفسنا لامناسبة

ولاسبب يدفع هذا الإنسان غير الودود، لأن يكون مشاراً إلى هذه الدرجة من الحقد المرير علينا، ما لم يكن أن جلالتنا قد رأى أنه من غير اللائق، وعدّه أنه لايناسبنا، لأن ندخل معه باتفاقية من أجل زواج حفيدته بابننا الطبيعي هنري، الذي هو الآن ملك توري Torres وغالوريGalluri.

شاركنا بالعزاء —بناء عليه— أيها الصديق العزيز، وكذلك الذين هم أحباء لديكم، ذلك أنك أمير سيفيد العالم، ليس معنا فقط، بل مع الكنيسة أيضاً، التي هي مجمع المؤمنين المسيحيين، لأن رأس الكنيسة مريض، وأميرها في الوسط مثل أسد جوال، ونبيّها مجنون، ورجل بلا إيمان، وكاهنها يتولى تلويث معبدها، ويتصرف بشكل ظالم ضد الشريعة، وهنا أن تكون ذنوب هذا الحبر موضع شجب من قبلنا أكثر من قبل بقية أمراء الدنيا، فهذا أمر مسوغ، لأننا الأقرب إليه من حيث مكان الإقامة،والأكثر تحالفاً معه في منصبنا، ولذلك كنا نزيد من تشريفنا له، ونشعر بأعبائه.

هذا وينبغي أن لاننسى أن نذكر هنا، صدوراً عن قرابتكم لنا، أننا نرجوكم أن تقدروا وأن تعدوا الازدراء التي تكدس علينا هو أذى لكم، وأن تبادر مسرعاً نحو بيتكم مع الماء، عندما تكون النيران مستعرة في بيوت الجيران، وانتبه إلى أن سبب إجراءات الحبر ضدنا، لأنه يقدم الرعاية والمحاباة للمتمردين علينا، وهذه مسألة، مع أنها غير مذكورة الآن، من الممكن أن نستنتج بسهولة، أن عليكم أن تخافوا، أن مثل هذه الإجراءات من الممكن أن تقام ضدكم في أعمالكم، لأن المعتقد أن إذلال الآخرين والأمراء سيكون أمراً هيناً، إذا ما أمكن أولاً الاطاحة بقدرة قيصر الرومان، لأن ترسه يتحمل هزات رمايات نشاب العدو، هذا وإن السبب الحقيقي الذي أثار قلب البابا وجعله يتحرق في داخله، هو مشكلة اللومبارد، وهو لم يتجرأ على جلب القضية إلى العلن، خوفاً

من إثارة فضيحـــة بيننـا وبين جميع الذين سمعـــوا بها، ومــن أجل هذه القضيـة، بعث إلينا برسول خـاص مـوثوق من قبله (من الممكن جلب شهادة لتكون برهاناً على مصـداقية هذا) قد وعد أننا إذا مـا تركنا قضية اللومبـــارد تحل وفق إرادتـه، هو لن يتـــوقف فقـط عن إلحاق الضرر بجلالتنا في أي شيء، بـل إنه سوف يضع تحت استخداماـتنا عشر جميع العالم، المكرس لتقديم المعونة الضرورية إلى الأرض المقدسة، ولا عجب حـول هذا، لأنه كـان مخروقـاً بسفسطـائيـة اللومبـارد المتعجلة والحادة، وإليهم قـد وعد —كما علمـت من اعترافات بعض القسـاوسـة— بأنه أعطاهم يمينه شخصياً بالعمل ضدنـا وضد الامبراطورية، وعندمـا كنا في الحج في سـورية، في خدمـة يسـوع المسيح، أرسلهم إلى المملكة، لكن عندمـا جـاء وقت الوفـاء بوعـده المذكـور أعـلاه، أمكنه بشكل قـانوني الحنث بوعـده، وتغيير المرسوم الذي كـان قد أصـدره، ومحاباة منه لهم، هو لم يتردد أيضاً عن اقتراف عمل مـرعب أن تسمع به، ومفرغ من كل منطق وحكمة، لأنه تولى من خلال غ. G أسقف بريشيا، وهـ. H أسقف كوما Cuma, وآخرين، تقـديم النصيحة لنا: إمـــا أن نتلقى ترضية من اللومبارد من خـلاله، أو أن نعمل معهم —كما قال— هدنة لمدة أربع سنوات، في سبيل رفع شأن قضيـة الأرض المقدسـة، علماً بأن خمس سنوات كانـت قد انقضت منذ عقد الهدنة المذكـورة، وأجلنا نحن —على كل حـــــال— البت في المسألـة، واحتفظنا بها للـوقت الحالي، لنتداول حـولها مع مستشارينا المخلصين، في حين كـانت أعمال التحذير المتعلقة بموافقة النائب البابوي المتقدم ذكره غ. G دي مونت لونغو (الذي كـــان في الوقت ذاته مقيماً بين الميـلانيين) قـد وافقت على الهدنة المتقـدمة الذكـر، وهذه المسائل مبرهن عليهـا بوضوح بشهـادات هؤلاء الأسـاقفـة وقـام في الوقت نفسـه، مـن دون انتظار لقـرارنا، أو لقيـامنا بالتشـاور مع مستشارينا، فتقيأ ولفظ ضـدنا السم الذي كان محقـوناً به، كما أوضح أقـرباء بعض الأشخـــاص، وأخيراً، إنه من أجلنا نناشـدك

ونسأل مساعدتك، ومساعدة جميع آلك وذويك، وأعيان وأمراء جميع العالم، ليس بسبب أن قوتنا غير كافية لإبعاد هذا الضرر عن أنفسنا، بل ليعلم العالم كله بأن مكانة جميع الأمراء العلمانيين عرضة للخطر، عندما يتعرض أمير واحد للخطر. صدر في تريفيسو في اليوم العشرين من نيسان، في العلامة التاسعة [الثانية عشرة].

حول الفضيحة المؤسفة التي تفجرت من الأعلى

وكان الامبراطور قد بعث بهذه الرسالة مع شيء طفيف من تغيير العبارات، وبعض الكلمات القليلة في النهاية، إلى ملك انكلترا، وإلى أمراء آخرين في جميع أرجاء العالم، من أجل أن يبرهن على براءته، وليظهر خداع البابا، وبدأت الفضيحة تنتشر في جميع أرجاء العالم، وقام البابا الذي عرف بالحقائق التالية من بعض الأشخاص الموثوقين، فشهر بالامبراطور أكثر فأكثر، وكدس الملامات عليه، وأعلن عنه مجرماً بهرطقة فوضوية، وفي سبيل إدانته، وجعله سيء السمعة في أعين العالم كله، بعث برسالة تنديدية إلى جميع أمراء وأساقفة العالم، هي كما يلي:

رسالة البابا

«من غريغوري، الأسقف وعبد عبيد الرب، إلى أخيه المحترم، رئيس أساقفة كانتربري وإلى أساقفته المساعدين، صحة ومباركات رسولية:

لقد قام من البحر وحش مليء بكلام الكفر، قد صيغ بقدمي دب، وبفم أسد هائج، وكان مثله مثل نمر في بقية أعضائه الأخرى، وقد فتح فمه بالتجديف ضد اسم الرب، وهو مستمر بالمهاجمة بأسلحة مماثلة خيمة عهده، والقديسين المقيمين في السماء، ويسعى هذا الوحش إلى تمزيق كل شيء إلى قطع بفكيه وبأسنانه المعمولة من حديد، ولأن يدوس بقدميه على العالم كله، حيث أعدّ من قبل بشكل سري آلات قذف ضد الإيمان، وهو الآن قد صفّ بشكل مكشوف آلات قذف

الاسماعيليين، صارفاً الأرواح عن الطريق المستقيم، وثائراً ضد المسيح، مخلص العالم، (الذي أفادت تقارير بأنه يسعى إلى تدمير سجلات انجيله بقلم هرطقة شريرة).

وبناء عليه توقفوا، لتعجبوا أنتم جميعاً، ولتسمعوا القذف والتجديف ضدنا، الذي صدر عن هذا الوحش، وإلى أي حد وصل ذلك، وإذا كنا نحن، الذين عبيد للرب في جميع أشكال العبودية، قد هوجمنا بنشاب مغتاب، لاعجب في ذلك، فالرب نفسه ليس بمنجاة من هذه الإهانات، وقفوا واعجبوا، إذا ما كان قد جرد سيف الأذى ضدنا، لأنه يستهدف الآن اجتثاث اسم الرب من على الأرض تماماً، هذا ويمكنكم أن تكونوا أفضل قدرة على التصدي لكذبه بصدق مكشوف، ودحض خداعه بحجج الصفاء، وقوموا بالتفحص بكل دقة، لرأس، ولوسط، وللأجزاء المنخفضة من هذا الوحش فردريك، المدعو باسم امبراطور، وبما أنكم سوف تجدون في كلامه البغضاء فقط والشرور، سلحوا قلوبكم المخلصة بترس الصدق، وقدروا كيف أن فردريك المذكور، قد سعى من خلال رسائله التي بعث بها إلى مختلف أنحاء العالم وبلدانه، أن يلطخ وأن يشوه اخلاص الكرسي الرسولي، وشخصنا بوساطة تصاريحه الملوثة، وهو الذي يعدّ مقترفاً للزيف، وجاهلاً بكل تسامح، ولايستحي من العار، قد قام بشكل زائف بالتأكيد على أننا بعدما ارتقينا إلى منصب الرسولية، قد تخلينا عنه، وهو الذي كان صديقاً لنا منذ القدم، منذ أن كنا في مرتبة أدنى، وأننا خرقنا عهودنا، وغيّرنا سلوكنا، وأنه عندما كان مقيداً بيمين، وبقرار الحرمان الكنسي الذي كان سيصدر ضده، إذا لم يسر لمساعدة الأرض المقدسة والدفاع عنها، في الوقت الذي جرى إعداده، وأنه كان غير قادر على الذهاب بسبب المرض، وأننا حاولنا أن نفرض عليه الحرمان الكنسي ونوجب تنفيذه ضده، وأننا رفضنا منحه منفعة التحليل لدى استرداده لصحته، وأنه عندما

كان متـوجهاً لانقـاذ الأرض المذكورة، أعقناه في أهدافه بـوسائط رسلنا والنواب البابـويين، وبارسالنا رسـائل إلى السلطان، ليقف ضد تقـدمه، حتى يمكن بذلـك اعـاقتـه في آمـاله التي تصـورها في استرداد مملكة القدس، وعمل أيضاً شكوى زائفـة، بأننا قمنا بشكل غير عادل وبالقوة فهـاجمنا مملكـة صقلية وغـزوناها، وحـرضنا الناس على اقتراف حنث اليمين بسبب أن رينالد ابن الدوق السـالف لسبـوليتـو قـد غـزا أراضي الكنيسـة، وأن ذلك عمل من دون علمه، وتفـاخـر بأنه عندما عـاد من سـورية إلى أبوليـا، قـد تمنع عن الانتقـام لـلأذى الذي ألحق به، وقبل بعـرضنا بالسـلام والنوايا الطيبـة، وعـاد إلى الكنيسـة الأم، لكن مع أن المعـرفـة العـامـة بالحقـائق ترفض هذا الزيف وتنقضـه، نجـد في بعض الأحيان أن الكذب الخفي يستولي على مقعد الصدق في أذن الاخلاص، وذلك عندمـا لايجد الصـدق محامياً عنه هنـاك، ولكي لايتسلل الزيف، ويجد سبيله بوسـائل الغش إلى قلـوبكم، من المتـوجب عـدم ترككم جاهلين لخواصنا ولطريقة سلوكنا، وكنـا قبل، وبعد أن حملنا على أكتافنا أعبـاء المنصب الرسولي قـد حبينا هذا المذكـور فـردريك بعناية خاصـة، الذي هو مثل ذئب، في ثيـاب شاة، حتى تدمرت فينـا جميع الآمال التي يتصـورها ويتأملهـا أب في ابنه، لأن فردريك المذكـور يتبجح بعظمتـه، وثمل سكران بالسلطة التي حصل عليهـا، وقـد أعاد الشر مقـابل الخير إلى أمه الكنيسة، وبدأ مثل ثعبـان، واللدغة في ذيله، بنشر السم فيها، في الوقت الذي كـان فيـه يسعى إلى تخديرها بكلامـه الملوث بالزيف، فهـو كان منذ بعض الوقت الذي مضى، عندمـا استدعت ضرورات الأرض المقدسة، والقرار المتقدم الذكر، ويمينه، والوقت الذي جرى تحديده من أجل مغادرته حيث تطلب ذلك اقلاعه، فقد كانت هناك عدة آلاف من الصليبيين تنتظره في برنديزي، وقـد طالبتـه بإلحاح أن يفعل ذلك، وقـد حبس الصليبيين المذكـورين هناك، حتى ولـت مـواسم أنواء كـانوا غير معتادين عليها، فهلكوا بشكل مؤسف وتعيس بسبب مختلف الأمراض،

وبذلك نال متطوعاً تهمة الحنث باليمين، وقرار الحرمان الكنسي، فقد أهمل هذا الرجل صاحب الإيمان غير السليم، لكن السليم بالجسد، العبور الذي كان قد وعد به، حتى يتمكن، وهو آمن، من نشر الأكاذيب ضد الرب، وخداع الكنيسة، وقد تمدد، لبضعة أيام، على فراش المرض، متظاهراً بالضعف، ولم يتردد في ترك الأرض المقدسة معرضة لغارات أعداء المسيح، كما أنه لم يحزن البتة لموت النبيل لانغريف أوف ثورنجيا، صاحب الذكرى الطيبة، الذي واجه الموت هناك، ولا سمح الرب بأن كان ذلك قد تسبب بوساطة السم، حسبما راجت الأخبار في الدنيا، وعندما أخبرنا برسائل من الأساقفة الساكنين هناك، بمرضه الذي تظاهر به، وبالمسائل الأخرى المتقدم ذكرها، وخفنا نحن مع أسفنا، وخشينا من أن نصبح مع الكرسي الرسولي مفضوحين بسبب الاخفاق في استخدام عصا النظام ضد مثل هذه الجريمة الثقيلة، ولقد أسفنا لموت الصليبيين، والمخاطر التي تعرضت لها الأرض المقدسة، ورغبنا على الأقل في مسألة واحدة، هي أن نمسح دموع أسف الكنيسة باليد اليمنى بوساطة مواساة صحيحة، ولذلك قررنا بأنه خاضع لقرار الحرمان الكنسي، الذي صدر ضده وأجيز من قبله وبموافقته، بوساطة سلطات سلفنا، صاحب الذكرى الطيبة، البابا أونوريوس، ورعينا باخلاص فكرة إمكانية أن نسمع بأنه قوّم طرائقه، مع الاعتراف بأخطائه الكبيرة، وأن ذلك سوف يعطينا أملاً لتقديم العون، فعرضنا عليه برسائلنا بأننا سوف نمنحه منفعة التحليل بصيغة صحيحة، فور قيامه بالانطلاق للمشاركة بالصليبية المتقدمة الذكر، لكنه وهو الذي كان في صدره قليلاً من الاهتمام حول هذه المسائل، قدم قليلاً من الاهتمام لمفاتيح الكنيسة، وعبر إلى سورية دون الحصول على التحليل، ودخل هناك بمعاهدة لمدة ست سنوات مع السلطان، على شرط واحد هو فقط أن تعاد إليه أسوار القدس، وقد أرسل إليه عدداً كبيراً من الخيول والرجال المسلحين لمهاجمة المسيحيين، وترك هيكل الرب لجماعة

المسلمين، الذين أنشدوا هناك مدائح محمد (ﷺ) وقد تحوّل إلى مدافع عن العدو، وهاجم بكل امكاناته أخانا المحترم بطريرك القدس والداوية، وينبغي على كل حال أن لايعتقد من قبل أي إنسان صاحب عقل سليم، أننا نحن، أو نوابنا قد سعينا إلى إعاقته ومنعه من استرداد مملكة القدس، لأن الكنيسة قد حثت نفسها كثيراً لتحقيق هذا الهدف، وقد تحملت كثيراً من أعباء النفقات العظيمة، إنما من المعروف بشكل جيد بالنسبة للعالم أجمع، بأن فردريك المذكور، كان بالطريق نفسه مضطهداً لكنيسة الرب في سورية، وكذلك فعل من خلال وكالة رينالد المذكور، الذي —على الرغم من نصيحتنا— تركه بمثابة وكيله في مملكته، فقام بالتضييق على الكنيسة على هذا الجانب من البحر، لأن رينالد المذكور غزا أراضي الكنيسة، محمياً برسائل مختومة بالختم الذهبي، ومدعوماً بالمال، ومحاطاً بإقطاعي فردريك المذكور، وأقدم على تعليق، وتشويه وقتل بعض الكهنة ورجال الدين، وسعى أيضاً —بحكم أننا كنا في وضع مضطرب— إلى الاستيلاء على مقاطعة بيريوسيوم Perusium, العائدة إلى أراضي الكنيسة المذكورة، ومع أن رعايانا الأوفياء والمخلصين، الذين لم يعد بإمكانهم تحمل مثل هذا الزحف، قد طردوه من ذلك الجزء من البلاد، فإن المسيح قد أعطى النصر إلى قرينته، ومع ذلك وبسبب أن رينالد المذكور لم يكن ليقلع عن اضطهاده ولا بوسيلة من الوسائل، رأوا أنه من الحكمة قطع عروق أصل الشر، بدلاً من انتظار عنف السيل الذي قام بالازعاج، والذي كان يزداد ضخامة بوساطة بعض الجداول الجديدة، ولذلك دخلوا إلى مملكة صقلية، التي هي الوقف الروحي للكنيسة، حتى لايطلبوا منا نشاباً من تلك الجهة، التي منها ينبغي توقع وصول المساعدة، ومع أن كثيراً من سكان تلك المملكة صاروا مطيعين للكرسي الرسولي، ينبغي عدم عدّهم —لهذا السبب— من أي جانب من الجوانب مجرمين بالحنث باليمين، لأنهم قد حرروا من يمين الولاء الذي كانوا قد أعطوه إلى فردريك

المذكور بوساطة قرار الحرمان الكنسي الذي كان قد صدر ضده.

وعندما عاد فردريك المذكور من مناطق ماوراء البحر، ورجع إلى صدر الكنيسة الأم، فتحنا له صدر العاطفة الرسولية، وأعرناه أذناً صاغية، واستجبنا لطلبه بالسلم، ومنحناه منفعة التحليل، وبالاضافة إلى هذه الأشياء، فإن ابن الكذب هذا، تولى تكديس الزيف فوق الزيف، من أجل أنه كلما زاد تعثره في شباك الزيف، كلما كان الرعب الذي نصبه أعظم، هذا الرجل أعلن الآن بكتابة كاذبة، أننا في سبيل تدميره، وعدناه أنه إن كان سيذهب إلى لومبارديا بسلام، ومن دون جيش سوف نلطف جميع الصعوبات، وأننا من خلال المعارضة التي عملت برسائلنا وبمراسلينا أعقناه ومنعناه من الوصول إلى هدف نواياه، وأنه بسبب أنه لم يكن مدعوماً بالسلاح، قد أرغم على العودة إلى مملكته، وقد أكد بشكل زائف أنه بموجب مبادرتنا قد تحدى الرومان الذين كانوا آنذاك يهاجمون فيتربو، وأرسل كتلة كبيرة من الرجال لمساعدة شعب تلك البلدة، وقد اشتكى بأننا قد كتبنا إلى الرومان، قائلين بأن هذا قد عمل من دون معرفتنا، ومن دون استشارته، عُمل سلام معهم مرة ثانية، مطرياً نفسه بزيف جديد، بأن الرومان قد أبعدوا ثانية عن سلام الكنيسة، وجاء هذا الرجل نفسه، من دون دعوة، مع ابنه كونراد، الذي منحه لنا ليكون رهينة، ومثل أمامنا، وأخضع لتحكيمنا مسألة الخلاف الذي نشب بينه وبين اللومبارد، وأعاد إلى امتيازات الكرسي الرسولي، الأرض التي جرى احتلالها، وأعاد حرية الكنيسة إلى وضعها السالف والصحيح، فهل من الممكن أن يكون هذا الرجل الذي يتكلم الزيف، رجلاً يمتلك روحاً؟، وهل من الممكن أن يتملك رجل الدولة هذا نتيجة صحيحة؟ وبالنسبة لقضية الإعادة إليه وإلى كونراد المذكور امتيازاتهما في مدينة القدس، التي حرما منها، وهي القضية التي جرى ترتيبها من قبل أخينا المحترم أسقف رافينا، اشتكى، من دون تقدير

للصدق، بأنه ما أن جُلب المال ودفع، حتى قمنا بتوزيعه بين المسيحيين (الذين كانوا متضررين بهجمات معادية، مترافقة باحراق الكنائس وقتل الرجال) وأننا حرمنا جميع المساعدات عنه، وأنه لهذا السبب لم يقم بإرسال رسول أو رسائل، وكذلك هو لم يستح أن يكتب بقلمه الكاذب رسائل ذكر فيها، أنه على الرغم من شروط السلام، ومن نصيحة إخواننا، جرى الاحتفاظ بمدينة كاستيلانا من قبلنا، لإلحاق الأذى بحقوقه، هذا ومع أنه لاتوجد حتى ذرة واحدة من الصدق ممزوجة مع هذا الزيف، على الأقل لإعطائهم شيئاً من التلوين، من أجل أن تكون أكثر قدرة على الفهم بوضوح أنه ولا نقطة من الزيف لم تلون هذه الافادات كلها، نحن نرغب منكم أن تعرفوا بشكل مؤكد، أنه كما هو معلوم من خلال مجرى الأحداث، يبدو من الموائم لعقل مستقيم أنه كان يمكنه بشكل أفضل الحصول على غاياته بالنسبة للومبارد، لو أنه أظهر نفسه أباً عاطفياً، وسيداً رحيماً لهم، بحكم أنهم كانوا أقوياء بعدد شعبهم، وبسماكة شرافات أسوارهم، وبعظم جيشهم وسعته، وبعلو أسوارهم، وذلك بدلاً من إقدامه على تجريد سيف الانتقام ضد رعيته، التي كانت ترتجف، بسبب الذنب المعزو إليهم، وأن يبث الرعب بينهم بالزحف ضدهم مع فيالق جنوده، أما نحن الذين كنا ملزمين برفع شأن منافع السلام، فقد نصحناه بكل اخلاص، بأن يتخلى عن فكرة الاستحواذ عليهم بوساطة عساكره، وأن يعيدهم إلى جادة الاخلاص المتوجب للامبراطورية بإلغاء التهديدات بالعقوبة، وبأن يظهر نحوهم العطف، ومع أنه سار إلى لومبارديا، محاطاً بحاشية غير مسلحة، ومع ذلك لتخليه عن نصيحتنا الودية، شارك في مذبحة الكريمونيين، وصار وكيلاً للانشقاق، وسعى للتسبب في فتق أوسع في لومبارديا، التي كانت ممزقة بالخلافات، وقام بوساطة الرعب والتهديد بابعاد الميلانيين عنه، وذلك على عكس ما كان عليه أن يفعل بجذبهم إليه برباط العاطفة، ونحن، في براءتنا، ينبغي أن لانلام لأنه عاد إلى أبوليا، محبطاً في آماله،

ذلك أنه هو شخصياً جلب الموت وأنزله على آماله.

وبعد هذا، إنه بالنسبة لقضية حماية حرية الكنيسة، ولمحق الهرطقة، هو أعلن عن نفسه بأنه مستعد لإطاعة رغباتنا، وفي رد على ذلك أجبنا برسالة جاء فيها، بأنه طالما أن الوضع في مملكته هو أن ما من أحد حرك يداً أو قدماً من دون أوامره، وبناء عليه تنشر الهرطقة سمومها بالطول وبالعرض فوق الإيمان الكاثوليكي، وحيث أن حرية الكنيسة قد ديس عليها تماماً تحت الأقدام حيث كانت، ولذلك من المعتقد أنه ليس مناسباً استخدام الدواء للرأس حيث أن القدم نقلت المرض بوساطة الاتصال، وخلال مدة قصيرة من الزمن تبرهنت صحة هذا الجواب، لأنه لدى سماعه بأن بعض الأشخاص، الذين ضللوا من قبل رأي شرير، كانوا يرغبون بدخول أراضي الكنيسة، فما كان منه إلاّ أن ذهب بعيداً إلى صقلية، وكأنه منهزم، وذلك بغية أن لايسبب له وعده المخروق تهمة الزيف، وهو لم يسر ضدهم بأية طريقة من الطرق، سواء بالقول أو بالعمل، موجهاً الملامة إلينا، بسبب أننا برعاية أبوية سعينا إلى أن نعيد إلى إخلاصهم ونرجع إلى الكنيسة الرومانية الأم، الابن الخاص بالكنيسة، الذي عاد إلى المدينة، وقد فهم أيضاً أن بعض أبناء الفساد كانوا يبذلون جهودهم في سبيل إبعادهم عن التعاطف نحو الكنيسة، والاعتقاد أنه بسهولة أكبر يستطيع أن يقمعها ويقمعهم، إذا تمكن، بوساطة خداعه المعتاد، وأن يؤذي مشاعرهم وعواطفهم بعمق أكبر، فأسرع —مع أنه لم يكن مدعواً— إلى الكرسي الرسولي، حيث كنا آنذاك في رياتي Riati, وهناك وعد —مع كثير من التواضع— بأنه سوف يعيد المناطق المفقودة من الكنيسة إلى أحوالها الماضية، وسوف يدافع عنها بأقصى ما يمتلك من قوة، ومع ذلك فإنه أعاق في توسكانيا —التي قدّم إليها مساعدته— ووقف ضد استرداد إحدى القلاع التي كان من السهل إعادتها إلى حكم الكنيسة بقليل من الجهد، وفي الوقت

الذي كانت فيه يد الخائن معنا على المنضدة، كان نائبه —بناء على إشارة معطاة منه، حسبما تبرهن ذلك بشكل مكشوف ضده، من خلال نتائج عمله، وبوساطة رسائله، التي احتفظ بها بمثابة برهان على خيانته الكبرى— قد عقد اجتماعاً مع أعداء الكنيسة، حول موضوع تلك القلعة، التي كان من المتوجب تسليمها في يوم محدد، وبذلك أعطاهم مسوغاً للبقاء تحت السلاح، فانظر أية خدمة قدمها هذا العدو السري، إلى الكنيسة، الذي لم يستح من تحويل نفسه إلى خادم لها نفسها، من أجل أن يمتلك وسائل أكثر تأثيراً في سبيل إلحاق الأضرار بنا، وعلى كل حال، نحن نرغب أن تكون متأكداً أننا مررنا بهذه القضايا المتعلقة به، صامتين، ولم نسمح للصفاء الرسولي أن يتعرض لأي تغيير، بل أمرنا بإعادة الحقوق، التي انتزعت منه ومن كونراد المتقدم الذكر، في مملكة القدس، إليهما بوساطة رئيس الأساقفة المذكور، الذي إليه كانت واجبات النيابة البابوية قد أسندت، والذي فعل ذلك، ومع ذلك تجاوز الترخيص الذي أعطي له، بسبب التماس رفع إلينا من قبله، وبعد التماس رفع ضد هذا القرار، وضعت الأرض المقدسة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وهو إجراء لم يسمع بمثيل له من قبل في أي وقت مضى، وبناء عليه، وتقديراً منا أنه نتيجة لهذا الإجراء، وبسبب الخطر العظيم الذي تعرضت له الأرض المذكورة، وكذلك الحجاج الذين كانوا يرغبون بمغادرتها، وكذلك أن الآخرين سوف يؤجلون عبورهم إليها، وبعدما تسلمنا ضماناً من البارونات، والنبلاء، ومن مناطق المملكة المذكورة، رأينا بكل اخلاص، وبناء على نصيحة إخواننا، أنه من الموائم سحب القرار المذكور، الذي جرى التفوه به بعد عمل التماس قانوني صار Ipso Jure, وملغياً وفارغاً، وجرى اتخاذ عناية خاصة بعدم خرق إجراءات رئيس الأساقفة المذكور في جميع النقاط الأخرى، وبناء عليه يتوجب أن لاينزعج تفكيركم، لأنه بسبب هذا، قد انتقدنا بشفتيه الملوثتين، لأنه مع أن الإناء مليء بخبث الشر، يظن بأن

لدغات الجريمة التي أصابت عقله، قد انتشرت إلى الآخرين، وبناء عليه بما أن التجريح الصادر عن الرجال الأشرار يتردد صداه ويعود مديحاً، ومديحهم تجريح، نحن نفضل كثيراً، أن نهاجم بافتراءات هذا الرجل، الذي كل كلمة من كلامه تعج بسوء السمعة، على المديح من قبله، ولعله يظن أنه يستطيع أن يغسل دنس آرائه بوساطة هذه الانتقادات، لأنه عندما كان مقيماً في فيتربو، ملوثاً ذلك المكان ومفسداً إياه، هرب بشكل مشين من أمام أعداء الكنيسة، وجاد بشرف الامبراطورية، وتراجع ووقف حيث هو خائفاً، ولم يذهب للدفاع عن رعاياه المخلصين، الذين كان أعداؤه يحاصرونهم أمام ناظريه، والذين لم يجدوا أحداً يمنعهم من العيث فساداً في المنطقة، وقد ادعى وأعلن أن زحفه لمساعدتهم قد منع من قبلنا، واتهمنا —ونحن أبرياء— لعدم إرسالنا رسولاً alatere لمنع الخسائر التي جنيت بوساطة هذه الحرب، وينبغي عدم التعجب تجاه هذا، لأن الكنيسة كانت آنذاك مرهقة بضغوط شديدة من قبل مضطهديها، ووصلنا إلى مدينة كاستيلانا، التي خرق سكانها يمينهم بالتابعية، وخانوا تلك الكنيسة من دون معرفة الكنيسة، وتخلوا عن أنفسهم واستسلموا إليه، لكنهم لم يتمكنوا بوساطة هذا الإجراء من نيل أي حق لأنفسهم، كما أنهم لم يستطيعوا إلحاق أي ضرر بنا، سواء بالنسبة لامتلاك المدينة، وكذلك بالقدر نفسه لما تعلق بامتلاكنا الإشراف القضائي، سواء ماتعلق بالمدينة وبسكانها، لأن الناس إذا ما تملكوا لمنفعة الآخرين، وليس لمنفعة أنفسهم، إنه من العبث أن نعمل مطالبات منهم، فبداية التملك لايمكن أن تدمر شرائع التملك، أو أن تضفي على غرباء حقوق المتملكين الحقيقيين، وكذلك أيضاً، بما أنه غالباً ما أعطى يمينه بأن يسترد الممتلكات العائدة إليه وبالنسبة للكنيسة، لقد بدا أنه يعمل بشكل غير حكيم في طلبه منا الذي لم يستطع الاحتفاظ بتملكه من دون أن يكون مداناً بالحنث باليمين، هذا ولايجوز أن يعتقد في هذا المقام وبالنسبة لهذه القضية أننا نزدري مشورة

إخواننا، لأننا على استعـداد لأن نقدم له كل نوع من أنواع العـدالة وفقاً لقـرار محكمين، أو وفق أية طريقـة أخـرى، ولكن بما أن رسله رفضـوا متابعة إجراءات المحـاكمة، التي كانت قد بدأت، وهي لم تطلب منا، بل كـان بالحري تصميمـه متابعـة السير بإجـراءات تلك الشكوى، فقط في سبيل مقصد مخادع، بأنه بذلـك قد نال فرصـة لإلحاق الشرور بالكنيسة وشتمها، ولتدمير السلام الذي كان قد عمل بيننا وبينه.

والأوضـاع التي أشارت إليهـا رسـالته الممقـوتة، فيما يتعلق بمصير الامبراطورية، وذلك بين أشيـاء أخرى، قـد تولى قلمنا وصفهـا في هذه الرسـالة الحالية، من أجل أنها كلها صـارت معـروفة أكثـر لدى الناس، الأكثر يمكن أن يضع الاضطراب فيما قاله، وقد اشتكى منا، بأننا عندما سمعنا بأنه كان زاحفاً في لومبارديا مع آلاف كثيرة من الجنود، لاسترداد حقوق الامبراطورية، قـد أمرناه بوساطة كتـابة رسولية، بعـدم الدخول إلى ايطاليـا بقوة السـلاح، وأن يوسطنا في قضيـة اللومبـارد من أجل أن نتمكن من تعليق ذلك فوقـه أبدياً، أو خنق الحق الامبراطوري من دون إعاقـة، وإرسالنا ضده، أخـانا المحترم أسقف برانستي، الذي يمكننا من خلال نيـابته، إلغاء نواياه، وأن نثير ضده عـدداً غير محدود من المعيقات السرية، بوساطة نوابنا، والرسائل من كل جهـة من جهات العالم، وهذا الذي حرم —ربما— بـإرادة ربانية، القدرة على الاعتراف بـالصدق، أو التفوه بالعـدل، ولذلك هو لم يخجل —على أسس زائفة— من النيل من شخصنا، ومثل ذلك هو لم يخش من عمل اعتذاره وتسـويغه وفق تأكيد مماثل، وأعلن من خـلال رسله الذين هـم أخـونا المحترم رئيس أساقفـة بلرم، وبعض الآخرين، الذين كانوا قـد أرسلوا إلى المقام الرسولي، بأنه قـد عـرض إظهار إخـلاصـه في جميع القضـايا المتعلقـة بإعـادة تأسيس الكنيسة، واسترداد حقوقها وحقوق الامبراطورية، وقد أكد، أنه عندما كان رسله عـائدين إليه، قمنا نحن —مع أننا كنا قـد وعدناه بأن نسعى

لأن نبتعد عن إعاقته بأي طريق من الطرق— فعهدنا بواجبات النيابة البابوية، إلى ولدنا المحبوب كثيراً غ. G دي مونت لونغو، الموثق لدينا، من أجل تدمير رعيته، وختم بأن أفاد بشكل زائف بأنه لم يعبأ بهذا ولم يقف عنده، فأرجع رئيس الأساقفة المذكور مع رسله الآخرين، إلى المقام الرسولي، وأنه عرض من خلالهم تقديم كل نوع من أنواع الترضيات، وأننا قمنا على الرغم من الوصايا التي ورثناها عن الآباء المقدسين، ومن العادة الخاصة للكنيسة، فحرمناه كنسياً بشكل غير عادل، مع أننا كنا معارضين من قبل الشطر الأكبر من إخواننا، وأضاف لعاره، بأننا نحن، النائب للقديس بطرس ليس لدينا سلطة الربط والحل، وكأنه أراد أن يعلن بأننا قد كنا من دون سلطة المفاتيح التي أعطيت إلى رئيس الرسل، واحمل بناء عليه —نحن نرجوكم— ميزان العقل، وزن به فردريك المتقدم الذكر، مقابل الكنيسة، وزن أخطائه مقابل المنافع التي تسلمها منها، ولسوف ترى بوضوح، أن هذا التنين وإن كان قد صيغ لخداعنا، وأنه قد أعطي بمثابة طعام للشعب الاثيوبي، قد لفظ من فمه مياه الاضطهاد مثل نهر، في سبيل اخضاع الكنيسة، ومع ذلك تغلب المقام الرسولي على دناءاته، بالرحمة التي لايمكن تقديرها لمنافعه، لأنه منذ أن كان في سنين الضعف، عندما كان معرضاً —بشكل كامل ويعيش في بحيرة من الفوضى— لهجمات الذين تشوقوا بنهم للاستيلاء على أرضه، والذين استهدفوا حياته، وذلك عندما كان محروماً كلياً من مواساة أقربائه وأصدقائه، وعرياناً تقريباً، ووقتها رأت الكنيسة الأم أحواله هذه، فرعته واحتضنته، وقامت بواجباتها كحاضنة وغطته برداء المقام الرسولي، وانتزعته من شباك الصيادين، ومع كثير من الجهد والنفقات رفعته إلى عرش الامبراطورية وتاجها، وعلاوة على ذلك، إنها تقدر أنها بعملها هذا قد قدمت إليه القليل فقط، ذلك أنها ضمنت له حكومة مملكة القدس، ورفعت من شأنه في جميع أنحاء العالم، ومع ذلك ولحزنها، ومع شعورها بنفسها أنها جرحت من قبله،

وتأذت أضعـافاً مضـاعفة بطـرق مختلفة، قـامت قبل وقت قصير مضى بمسـاعـدته بقـوة ضـد ابنه هنري، الذي أغـوى شطراً كبيراً من ألمانيـا، حيث تم التخلي عن الـولاء له، ونسيت الجراحـات التي لحقت بها من قبله، فرفعته مجدداً إلى المقام الامبراطوري، كما أنها قامت بناء على طلبه، باصـلاح ألمانيا، بوسـاطة رسائل رسـولية، وبهذا وبمنافع أخـرى، نحن لايمكننا تذكـرها، نهضت بالدفاع عن شرفـه، ولكن عصا عـدم التقوى هذا، وهذا الذي هو مطرقـة الأرض، لديه رغبة في خلق الاضطراب في جميع العـالم، وأن يسحق الممالك، وأن يجعل العـالم صحـراء، وأن ينزل حـرية الكنيسة في مملكة صقليـة المذكورة إلى حـالة من المهانة هي حـالة أخفض أحـوال العبـودية، وأن يقهـرها بالقـذارة، والأعبـاء، والمظالم الأخرى، والكنائس التي أراد أن يملأ كرشه من وهنها، قد جردها تماماً حتى العظم، وكما كـانت، جـردهـا من مقتنيـاتها المقـدسـة، التي عينت لاستخـدامـات الرجـال المقدسين، وقضى بـوضع اللاهوتيين بالسجن، وأرغمهم على التعـرض للاتهامـات، وأن يدفعـوا الضرائب والمكوس، وأن ينهكوا ممتلكات الكنيسة، حتى يتمكنوا من انقاذ أنفسهم وتخليصها من مظالمه، وقـام أخيراً بطردهم، وأبعـدهم إلى المنفى، فقـد حـرمت الكنائس الأرامل من رعـاتها، ولم يسمح لها بأن تتـولى كل منهـا اختيـار قرين لها، وأن تلقي جـانباً ملابس الترمل، حتى تدع نفسها مـرغمة بأن ترتمي بالـزنا في حضن أي واحـد، وقـد بنى خـارج أمـاكن سكنى المسيحيين أسوار بابـل، ونقل الأبنية التي يعبد فيهـا اسم الرب إلى ذلك المكان الذي فيـه محمـد (ﷺ) محل تبجيل، ومنع التبشير المعلن بعقيـدة واسم الـذي صلب، في مملكتـه المذكـورة، وذلك إلى الحشـود التي اجتمعت من جميع الجهـات، وقـد أحبط استرداد الأرض المقـدسـة، وأحبط الحملة الصليبيـة، بمنعه إعطاء أي من ممتلكات رعيتـه في سبيل انجاز هذا الهدف، ومـراغمة ليمينه الذي تعهـد به، ولبنود السلام الذي أقيم بينه وبين الكنيسـة، جـرد النبـلاء من قـلاعهـم، ومن ممتلكاتهم

الأخرى، وسجن أزواجهم وأطفالهم، وأرغمهم على مغادرة أماكنهم الخاصة، وعلى نقل أماكن سكناهم إلى أماكن سكنى الآخرين، وقد أرغم الذين نشأوا في الأجواء الأرجوانية على التمدد فوق الوحل، وأنزلهم إلى أدنى درجات الشقاء، وكما أنه قام في الوقت نفسه بظلم الفقراء بوسائل أذى مماثلة، ونحن نعتقد أنه كلما زاد أكثر فأكثر من عدم إرضاء الرب، كلما زاد اعتقادنا أنهم أبرياء، وماذا يمكن أن أقول أكثر؟ فقد قام بوحشية لم يشهد بمثلها بانزال بارونات، وفرسان، وأناس آخرين من مملكة صقلية المذكورة، إلى أوضاع العبودية، والآن لايمتلك معظم سكان تلك المملكة، إمكانات الاستراحة على فراش هو ملكهم، وكم هو شرير أنهم يغطون عوراتهم بمسوح خشنة، ويستطيعون بصعوبة ملء أمعائهم بخبز جاف، وبما أن بكاء وشكاوى الكنائس المذكورة والناس قد أقلقت مسامع الكنيسة بشكل مستمر، وذلك منذ أيام سلفنا أونوريوس المذكور، وبما أنه كان من الصعب المرور بهم صامتين من دون التألم في ضميرنا، قمنا بوساطة الرسل والرسائل، ليس مرة واحدة، بل عدة مرات، بانذاره بوجوب تصحيح أخطائه، وانتظرنا بصبر عظيم لبعض الوقت الذي مضى، لنرى أنه ربما سيصدف أن يرفع عينيه نحو السماء، وأن يخلع إنسانه القديم وأن يرتدي إنساناً جديداً، وأن يوقف يديه عن اقتراف مثل هذه الجرائم الكبرى، وعلاوة على ذلك مع أننا ظللنا شاكين حول الإصلاح المطلوب، لقد رغبنا بتقديم التهنئة إليه على تقدمه في إصلاح وضعه، وعندما دخل إلى لومبارديا بقوة السلاح، بعثنا أوامر، أنه في الأماكن الواقعة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، ومهما كان سبب ذلك، ينبغي التوقف عن مراعاة الحرمان من شراكة المؤمنين، حيثما كان موجوداً، وحذرنا برسائلنا فردريك المذكور، بأن يعطينا وعداً دقيقاً، بعدم إعاقة قضية الصليب، التي تولاها في سبيل منفعة الكنيسة، والامبراطورية وجميع الجماعة المسيحية، وأن لايزحف بقوة السلاح ضد اللومبارد، حتى لايضرب

مثلاً فاسداً، سوف يعطي سبباً إلى كثير من الناس ليفترضوا بأن الكنيسة سوف تخدع البقية، ومجدداً إنه كما هو مفروض علينا في منصبنا، وهو منصب عبد عبيد الرب، في أن نرمم الرتوق التي تسببت بالانشقاق وفي سبيل أن ننهي جميع الخلافات القائمة بين الامبراطورية واللومبارد، رأينا من الموائم إرسال أسقف برانستي، المكلف بمنصب النيابة البابوية، ليعمل في سبيل اللومبارد وجميع المتخاصمين الآخرين، ولأن يكون في وضع غير مرتاب به في ا لتوزيع والانصاف وكذلك في أعماله، وأن لايتسبب حتى ولو قليلاً في الكراهية والمحاباة، لأنه هو الذي انسحب من العالم ومن الجسد، في سبيل العمل للدين المقدس، وارتقى إلى أعالي الحب اللاهوتي، ودعوا المنتقص يجيب نفسه، أية تهم يمكنه أن يجلب ضدنا على هذه الأرضيات، وضد الأسقف نفسه، لو أن الوئام تحقق في بليسنتيا بين الآباء والأبناء، وذوي القربى والأعمام، وهو نفسه حاضراً، ومحتجاً بأن هذا قد أنجز دون إلحاق أذى بمراتب الامبراطور وامتيازاته، وبالامبراطورية، وأية آخرين من الممكن أن تكون لهم علاقة، وعلاوة على ذلك، على هذا المجدف المذكور أن يفهم، أنه بالفعل يعد أمراً مهيناً بالنسبة له، أننا وإن قمنا بناء على طلبه وعلى طلب رسله، فبعثنا بأخينا المحترم أسقف أوستيا، وبولدنا ت. T الكاهن الكاردينال للقديسة سابينا، إلى تلك المناطق، لهدف إعادة تأسيس السلام بين الامبراطورية واللومبارد، وفقاً للبنود التي قدمت من رسله المذكورين، ومع أن النائب البابوي المذكور كان مستعداً لتنفيذ البنود المطلوبة، لابل حتى لمنح المزيد، قد وجدنا أنفسنا قد خدعنا، عندما رفض الموافقة على إعادة تأسيس السلام بناء على البنود الممنوحة من قبلهم.

وافهم الآن كيف أننا دسنا على امتيازات الامبراطورية، وافهم من المسائل المتقدمة كيف أنه كان معاقاً من قبلنا، لأنه قد قرر وجوب كدم

كتفيه، وأكتاف أولئك الذين هم أتباعه بوساطة جهد طويل وبلا فائدة، بدلاً من السماح لأن يعـــاد تأسيس امتيــازات الامبراطوريـة من قبلنا، فضلاً عن هذا، لم يكن الرجل نفسه قانعاً ولامكتفياً بالأذى الذي ألحقه بالكنيسـة، وذلك بوسائط مبلـغ كبير من المال لبعض المتمردين ضـدنا، وسعى مـراراً لإثارة عصيان ضـدنا في المدينة، من أجل أنه بطردنا نحن مع اخواننا من مقامنا، وأنه بعدما يجري ترنح الرأس الذي وضعه الرب فوق الإيمان، البناء نفسه يصبح من السهل تدبر انهيـاره بأقل جهد يبذل من جهته، كما أنه جاء، وهو خـارق لقسمه، إلى لومبارديا، واستولى على فيرارا مع أراضي أخرى من أراضي الكنيسـة، وفيما يتعلق بهذا الإجراء، وكذلك بـأمور أخرى، أرسل إلينا أسقـف بلرم المتقدم ذكره مـع رسالة اعتماد، ظاناً أنه يمكنه خـداعنا بخطابات فارغـة، وبينما كانوا يعـرضون علينا تقديـم ترضية محترمة، ويحاولـون إصلاح الأخطاء المتقدم ذكـرها، قام قبل مغـادرتهم من بلاطنا، وبعد مغادرتهم، فشغل نفســه بالاستيلاء على بلاد سردينيــــا، وعلى أسقفيـــة مسينا لـــونينسيس Lunensis وكلاهما عـائدتين إلى الكنيسـة الرومانيـة، وقد علمنـا بهذا الإجراء، أن لانتـوقع منه أبداً أي إصـلاح، وبرهن ببينة أعماله، أنه لايجوز وضع أية ثقة به أو برسله، وبناء عليه ومع هذا المقصد في فكره، كـان قلبه موجهاً نحـو تـدمير الكنائس والإيمان الكاثوليكي، ولذلـك لسبب صحيح هو مشكوك بـه من قبلنـا، من قبلنا نحـن الذين لايمكـن له الاستمــــرار بالتخفي أمـامهم تحت رداء الزيف، لأننا نحن قـد صرنا شاكين بقـوته، وذلك صـدوراً عن التقـدير للعـدل، ولأنه من الأفضل منـع الإصـابة بالجراح على إيجاد العـلاج بعد الاصـابات بهم، عهـدنا بمنصب النائب البابوي إلى الموثق المذكور، من أجل ايقـاف تقدمه، الأمر الذي لم نعمله إلاّ بوسـائل الشك به، وكنا نأمل بوسـائل النائب البـابوي المذكـور، أن نكون قادرين على منع مذابـح الحرب، وعلى تفادي الرعب الذي أحاق بالأرواح والأجســـاد، وبحكم أننا كنا غير قـــادرين، بناء عليـــه على

الانطلاق من الظروف المتقدم ذكـرها، ومن ظروف أخرى إلى جـانبها، رعاية لآمال تقـويمه، وحزناً منا أننا غالباً مـاجرى تضليلنا بوعوده التي غالبـاً ما عملهـا، قمنا بناء على نصيحة إخـواننا، فتفوهنا بقـرار الحرمان الكنسي ضـد فردريك المتقـدم ذكـره، ومع أنه وفقـاً لهذا، كان عليـه أن يسترد مداركه الضائعة، وأن يتـواضع بنفسه أكثر أمام الرب، كان الذي عمله هو فقط الهذيان أكثـر بغضب، وبناء عليـه لأنه اكتشف اضطرابه، ولأنه خاف بشـدة، من أن ذنب الأفعى لن يفتح بوساطـة اليد الوسيطة للكنيسـة، أعلن أننا غير جـديرين بفضـائلنا الشخصيـة بتسلم سلطات المنصب البـابوي، وأعلن برسائله أنـه لايمكنه أن يرتبط بالقرار المتقـدم الذكر، الصـادر عنا، وكذلك نحن الذين ضـاعفنا في أيامنا —بنعمة من الرب— أوقـاف الكنيسة بـدرجة كبيرة، نحن متهمـون من قبله بتبـديد ممتلكات الكنيســـة، وبالقيـــام بأعمال تـوزيع وتحليل، وبتسلم هـدايا، ووسمنا بجريمـة الشره الشريرة، وأكد أيضاً بشكل زائـف، بأننا ثائرين ضده، لأنه رفض منح مـوافقته على عقـد زواج بين حفيدة لنا وبين ابنه الطبيعي، وأعلـن بشكل مكشـــــوف بـأننا أعطينـا يميننا الشخصي إلى اللومبارد للعمـل ضده وضد الامبراطوريـة، وأننا قد وعدنـا بأن نحول لاستخدامه عشر جميع العالم، الذي كـان محفوظاً لمنفعة الأرض المقدسة، إذا مـا أخضع شؤون اللومبـارد إلى قرارنا، ونحن نعترف بأننا مفتقـرين إلى الفضيلة حتى نكون نائب المسيح، وأعترف أيضـاً أنه ليس فينا كفاية لمثل هذا العبء الثقيل، الذي لايمكن لأي إنسان حي، مهما كان حاله، أن يتحمله من دون عـون الرب، ومع هذا إننا نمارس واجبـات المنصب الذي عهد به إلينا بشكل جيد، وبقـدر ما يسمح لنا ضعفنا، ونسعى إلى تقـرير الأمـور، حسبما تتطلب طبيعـة المكان، والوقت، والأشخـاص والظروف، وعندمـا تتطلـب الضرورات، نحن نمنح التحليل إلى أقصى درجات قدرتنا، بشكل حر، ووفقاً لواجبنا نحو الرب، وذلك إلى الذين يستحقونه، ومع هذا، إنه ليس سبباً للأسف أنه جرح الكنيسة بمثل هذا

العمق، مثلما أنه أيضاً لدى تجاوزه حدود المنصب الملكي، كان غير قادر على الإغارة على واجبات الكهنة، وبحكم الظروف، فإن هذا الرجل لتعطشه للذهب، قد أنزل مملكة صقلية المذكورة إلى درجة الرماد، وهو الذي لم يقدم طوال حياته شيئاً من العدالة النقية إلاّ لقليلين، وفي الوقت الذي باعها فيه بشكل فاسد إلى كثيرين، أحيا في شخصه سيمون الكبير، وقد يكون قادراً على تلويث الكنيسة بتهمة الربح الدنيوي، إنه يفعل ذلك حتى يُسمح له بالاغارة على المسائل الروحية، ولكي يبقى في دنسه الخاص، قد حاول بشتى السبل، بأن يخرق ويمر من خلال سور نقاء الكنيسة، وخاصة بمنح القلاع، وبرعاية مشاعر القرابة بين شعبه وشعبنا، وهو غالباً ما طلبه منا من خلال بعض كبار الأساقفة وبوساطة رسله كذلك، ولكن بما أنه لم يستطع الحصول على ذلك بوساطة أية التماسات، أو بوساطة أية نصيحة (كما هو معروف بشكل جيد في بلاطنا) ووجد نفسه ومعه أعوانه قد تركوا الآن إلى خداع نصائحهم، ويظل الأسوأ، هو أنه، طالما لم يعد يعرف الذي يمكن أن يفعله أكثر، أهان نفسه بالحط من شأن الآخرين بأقواله الزائفة، مثل العاهرة المصرية التي دعت يوسف لينام معها، ولأنه رفض ذلك، اتهمته، أمام زوجها وشكته إليه، وهناك شيء واحد، مع أننا ينبغي أن ننتحب من أجل رجل ضائع، عليكم الابتهاج كثيراً، لابل عليكم أن ترجعوا الشكر إلى الرب وتعيدوه، لأن هذا الرجل الذي يعتليه السرور لدعوته باسم الممهد للمسيح الدجال، إنه بإرادة الرب، لم يكن بإمكانه تحمل الاستتار بالظلام، وهو غير متوقع بأن إهانته ومحاكمته صارت قريبة، فهو بيديه ذاته، قد لغم سور بغضائه، وقد قام برسائله بجلب أعماله الظلامية إلى النور، حيث ذكر بهم بكل وقاحة أنه لايمكن حرمانه كنسياً من قبلنا، مع أنني نائب المسيح، وبذلك أكد بأن الكنيسة لاتمتلك سلطة الربط والحل، التي أعطيت إلى مولانا القديس بطرس، وإلى خلفائه،وبهذا أكد الهرطقة، وختم بمناقشة ناسبته، حيث برهن بأنه ينظر نظرة سيئة إلى

بقية بنـود الإيمان المستقيم، وذلك بقدر مـا يسعى إليه لحرمـان الكنيسة، التي عليهــا تأسس الإيمان ودعم، هذا وليس من السهل الاعتقــاد من قبل بعض الناس، بأنـه ألقى بنفسـه بالشراك بكلام فمـه، الـذي برهانه جاهز لنصرة الإيمان، لأن ملك الوباء هذا قـد أكد بشكل مكشوف بأن العالم كله قـد خدع من قبل ثلاثـة، هم يسوع المسيح، ومـوسى، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وأن اثنين منهما قـد ماتا بشكل مجيد، أمـا يسوع المذكــور فجـرى تعليقــه على الصليب، كما أنه أقـدم على التأكيــد (أو بالحري على الكذب) بـأن الحمقى هم الذيـن يؤمنون، بأن الـرب الذي خلق الطبيعـة، ويمكنه أن يفعل كل شيء، قـد ولد من العـذراء، وأكـد هذه الهرطقـة بعقيـدة زائفـة بأن مـا من واحـد يمكن أن يلد مـالم يكن الحمل به قد جرى من خلال الاتصـال بين رجل وامرأة، وما من انسان ينبغي أن يعتقـد بأي شيء لايمكن البرهنة عليـه بقـوة ومنطق الطبيعـة، وهذه الأشيـاء وكـلام كثير آخـر، وكـذلك أفعـال، التي بمـوجبهـا قـد هاجم، ومازال يهاجم الإيمان الكاثوليكي، يمكن بوضـوح البرهنة عليه في الوقت المناسب وكـذلك في الـوقت الموائم، وذلك حسبما نراه لائقاً ومـوافقــاً، وبناء عليـه نحن نسأل، ونحــذر، وبإلحاح نحث جماعتكم، ونأمركم بكل دقـة بوساطة هذه الرسائل الرسـولية، وبفضيلة طاعتكم، أن لاتسمحـوا لفـردريك المذكـور بأية وسيلة من الوسـائل بلغم قلوب المسيحيين المؤمنين بوسـاطة كـلامــه المخـادع، أو أن يلوث قطيع الرب بعـدواه، وأن تقومـوا أيضاً بنشر المسـائل المذكـورة أعلاه بشكل كـامل ومخلص إلى رجال الدين والناس الخاضعين لكم. صدر في اللاتيران، في الحادي والعشرين من أيار، في السنة الثالثة عشرة من حبريتنا».

وقــد أرسلت الفقـرة الأخيرة المدونة أعــلاه إلى سيــد المملكة، مع الرسالة المتقدمة، على هذا الشكل:

«ولهذا رأينا أنـه من المنـاسب أن ننصحكـم، وأن نحث سمـــوكم

الملكي، بأن تتسبوا بشرح الذي تقدم بكل يقظة، حتى لايتعرض نقاء البراءة الملكية إلى التلوث بكلامه المخادع. صدر في اللاتيران، إلخ، كما تقدم أعلاه».

نهم الرومان يرفع ثقتهم

وجرى نشر هذه الرسالة وإرسالها إلى عدد كبير من الملوك، والأمراء، والنبلاء في جميع أرجاء العالم، مع تغيير فقط بالعنوان، وقد ألقت بالخوف والرعب، وكذلك بالدهشة في قلوب الذين يمتلكون إيماناً صحيحاً، وحولت رسالة الامبراطور لتكون موضع الشك، مع أنها تحتوي على حقائق ممكنة، وأعادت أيضاً تثبيت عقول كثيرين ممن كانوا من قبل في حالة شك وعدم يقين، ولولا أن شره الرومان قد أبعد اخلاص الناس عن البابا، أكثر مما هو موائم، ومما ينبغي، لكان العالم أجمع قد سخط بهذه الرسالة، ولكان ثار بالاجماع ضد الامبراطور، على أساس أنه عدو مكشوف للمسيح وللكنيسة، ولكن ياللأسف، الذي حدث هو أن كثيراً من الأبناء صاروا غرباء عن أبيهم، ووقفوا إلى جانب قضية الامبراطور، وأكدوا أن الكراهية التي لم يمكن اخمادها قد صارت الآن أشد فيما بينهم، وأثارت الصراع المتقدم ذكره، وأعمال التشهير، فقد ذكر البابا بشكل غير صحيح بأنه قد أحب فردريك المذكور، وارتقى بمصالحه في بداية ارتقائه، لأن هذا كله فعل صدوراً عن الكراهية لأوثو، الذي قامت الكنيسة، بمساعدة فردريك، بتعذيبه حتى الموت، وكان ذلك بسبب أنه سعى —تماشياً مع يمينه— أن يجمع بالقوة الأجزاء المتفرقة من الامبراطورية، مثلما يسعى الامبراطور الحالي فردريك، وأيضاً يفعل، وبناء عليه، إنه بفعله هذا، نجد أن فردريك قاتل من أجل الكنيسة، وأن كنيسة روما كانت ملزمة أكثر بربط الطاعة إليه أكثر مما كانه الامبراطور للكنيسة الرومانية، وشعرت الكنيسة في الغرب، وبشكل خاص طوائف الرهبان، وكنيسة انكلترا، التي كانت

من بين الكنائس الأخرى الأكثر اخلاصاً وتقوى للرب، يومياً بمظالم الرومان، ولكنها لم تشعر بأي شيء من هذا القبيل بعد من قبل الامبراطور، وأضاف الشعب أيضاً قائلاً:

«ماهو معنى هذا، في الماضي اتهم البابا الامبراطور أنه يؤمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبالشريعة الاسلامية، أكثر من إيمانه بالمسيح وبالعقيدة المسيحية، لكنه الآن في رسالة التجريح هذه اتهمه (بما هو مرعب أن تذكره) بأنه سمى محمداً (ﷺ) وكذلك عيسى وموسى بأنهم أدعياء، وفي رسائله هذه، كتب الامبراطور بتواضع، وبطريقة كاثوليكية عن الرب، باستثناء أنه في رسالته الأخيرة هذه حطّ من شأن شخص البابا، وليس من المنصب، كما أنه لم يتفوه بأي شيء هرطقي أو مدنث أو أيده، والذي نعرفه أنه لم يرسل مرابين أو نهابين لمواردنا إلى بيننا»، وبهذه الطريقة ازداد التمزق وصار أكثر رعباً في نشوبه بين الناس.

ذهاب الفارس روبرت دي توينغ إلى روما

وفي هذه الآونة رفض فارس من أهالي المقاطعات الشمالية في انكلترا، باذلاً جهوده لعدم ربط رقبته إلى نير هؤلاء الرومان، وذهب إلى روما، بشأن وقف إحدى الكنائس الذي كان عائداً إليه، وعليه وضع الرومان أيدي الشره من خلال رئيس أساقفة يورك، وقد تقدم بشكوى ثقيلة أمام البابا، حول هذه القضية، وحصل على رسائل، وبهذا يمكن أن نستخلص أية تقوى أمسكت بها الكنيسة الرومانية، وكيف أنها كانت دوماً ملحاحة، وكيف أنها أحبت اللاهوتيين، الذين منهم أخذت دوماً ممتلكاتهم الكنسية، التي تقدم أن أضفيت عليهم من قبل الآباء بنوايا تقوية، وفي سبيل دعم الفقير.

غضب نبلاء انكلترا لحرمانهم من حق رعاية الكنائس

وأصبح في هذه الآونة، إيرلات، وبارونات وباقي نبلاء انكلترا،

الذين إليهم كان معروفاً منذ قديم الزمان يعود حق رعاية الكنائس، أصبحوا غاضبين لأنهم جردوا من حريتهم ومن حق الكنائس المطعمة، وذلك بوساطة شره الكنيسة الرومانية، وذلك في الوقت الذي استغنى الأجانب بهم بناء على أوامر البابا، وكتب هؤلاء الناس الذين شخصياتهم غير معروفة ولا أوضاعهم، وكانوا مجهولين تماماً، إلى البابا مؤخراً، وبعثوا برسالتهم بوساطة روبرت دي توينغ Twenge المذكور، الذي كان قد جرد بوسائل العنف ذاتها من حق رعاية كنيسة لوتون Lutton في أسقفية يورك، وعمل شكوى ثقيلة إلى نبلاء المملكة، وبما أن رئيس الأساقفة قد أكد له أنه ليس لديه سلطة، أو أنه لايرغب بالتحرك ضد الكنيسة الرومانية، ذهب روبرت المذكور بكل سرعة ممكنة إلى البلاط الروماني، وقدم الرسالة التالية نيابة عن نبلاء انكلترا.

رسالة النبلاء الانكليز إلى البابا

«إلى الأب الأكثر سمواً، اللورد غ. G، الذي هو بنعمة الرب، الحبر الأعظم، من عبيده المخلصين في شيستر وينكستر، تمنيات الصحة، والاحترام، وإذا كان يرتضي، اخلاص جاهز:

بما أن سفينة حريتنا آخذة بالغرق، وهي التي حصلنا عليها بدماء أجدادنا، وبسبب عواصف أعدائنا التي ثارت ضدنا واندفعت أكثر مما هو معتاد، نحن أرغمنا على ايقاظ مولانا، الذي هو نائم في سفينة بطرس، ونحن نصرخ بدون توقف، وبصوت واحد: «أنقذنا يامولانا، أو أننا سنهلك»، وبما أن الحكم والعدل هما وسيلة الاصلاح لذلك المقام، من الممكن أن تسمح لكل واحد منا بحقوقه، وأن تحفظه له غير فاسد، خشية أنه إذا حدث غير ذلك، فإن الإحسان سوف يتساقط إلى قطع، وسوف يجري دمار التقوى والاخلاص، ومن الممكن أن يثور الأبناء ضد أحشاء الأب، وأن تتلاشى مشاعر العواطف المتبادلة، وبناء

عليه أيها الأب الأعظم قداسة، اعلم أن أجدادنا قاموا منذ أول تأسيس للمسيحية في انكلترا حتى الآن، بالتمتع بامتياز، أن يكونوا بمثابة رعاة للكنائس، وبتعيين أشخاص مناسبين لهن، ولدى وفاة قساوستهن المتقدمين، وبتقديمهم إلى الأساقفة حتى يجرى من قبلهم تثبيتهم في حكومة تلك الكنائس، ولكن في أيامكم، سواء برضاكم وبناء على رغباتكم، نحن لانعرف، فإن معارضة قد كسبت أرضية ضدنا، حيث أنه عندما يموت قساوسة الكنائس، يجري تعيين بعضاً من وكلائكم لهذا الغرض، وهم يقومون في كل مكان بمنح الكنائس التي هي تحت رعايتنا من أجل الاضرار بامتيازنا، ولإلحاق خطر كبير بحق الرعاية، مع أنكم أعطيتمونا منذ زمن طويل مضى، وعداً حول هذه القضية بضمانة رسائل رسولية، تحتوي أنه عند وفاة لاهوتيين سواء أكانوا روماناً أو طليانا، كانت قد جرت ترقيتهم إلى الكنائس، بوساطة سلطات حكمتكم، من الممكن أن نمتلك الحق القانوني لتقديم أشخاص مناسبين لخلافتهم، ولكن الذي هو عكس هذا مانراه يومياً يجري الإصرار عليه، الأمر الذي أدهشنا كثيراً، لأن الماء العذب والماء المالح لايمكن أن ينبعا من نبع واحد هو النبع نفسه، وبما أن هذا الازعاج يمارس ضدنا جميعاً بشكل عام، ومنه قد يتفجر جدال، ونزاع، وغضب، وصراع، وكذلك مذابح بشرية، قررنا أن نعرض القضية أمامكم، وفي سبيل تقديم مثل، نعرض الأذى الذي أنزل على واحد من رفاقنا، وهو الذي عمل بشكل غير حكيم ضده، والخطر الذي تعرض له حقه بالرعاية، وفي سبيل أن تتفضلوا بسلطاتكم، إذا رغبتم بإزالته، وهو أن روبرت دي توينغ، راعي كنيسة لوتون، قام إثر وفاة ن. N, الذي كان قسيساً لتلك الكنيسة، فقدم شخصاً مناسباً لها، لكن بسبب أمر معاكس صادر عنكم، رفض رئيس أساقفة يورك أن يقبله، مع أنه لم يكتشف شيئاً ضد الشخص المقدم، بل عرض فقط تحريمكم، ومثلما عندما «يكون البيت المجاور يحترق، بيتنا عرضة لخطر قريب»، نحن

نرجوكم بحكم كونكم أبانا، بأن تسمحوا لروبرت المذكور، وكذلك لكل واحد منا، ولنا جميعاً، بأن نتمتع بالامتياز المتقدم الذكر، بتقديم كهنتنا إلى كنائسنا الشاغرة، وأن لايجري تطبيق أمركم المتقدم، بأمر رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، بقبول ج. J كلارك Clerk الذي من أجله صببنا صلواتاً تقية، وهو الذي جرى تقديمه إلى الكنيسة المتقدمة الذكر، من قبل روبرت المذكور، خاصة وأنه ضروري من أجل تدبير أعمال الملك، وكذلك أعمال مملكتنا، ما لم يكن هناك أي اعتراض قانوني عليه، وإنكم بفعلكم هكذا، ترفعوننا إلى اخلاص موجود أكثر، وإلى خدمة الكنيسة، خشية، بما أن امتياز ابن الواقف المتقدم الذكر، هو واحد من الاقطاعيين، الذي من أجله نحن نخدم مولانا، سوف نكون مرغمين على طلب المساعدة منه الذي هو ملزم بحماية الامتيازات ورعايتها، وكذلك امتيازت الرجال العلمانيين».

رسالة البابا الجوابية إلى نبلاء انكلترا

«من غريغوري الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أولاده المحبوبين، والنبلاء، ورتشارد ايرل أوف كورنوول، وبارونات انكلترا، الذين سوف إليهم تصل هذه التقدمات، الصحة والمباركات الرسولية:

بما أنه واضح من أعمالنا التي توفر برهان كامل على صدقها، أننا، من بين جميع الملوك الأرثوذكس، والأمراء، والممالك التي فيها اسم المسيحيين موضع احترام، نحمل احتراماً خاصاً في أعماق العواطف، إلى شخص ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح الملك المشهور لانكلترا، وملكته، وأعظم الرغبات اخلاصاً تتمنى سلامهم وهدوئهم، ولايمكن الافتراض، كما لاينبغي الاعتقاد، أننا بقدر مانستطيع بعون الرب، منعها، أو أن نرغب، أن نعمل، أو أن نسمح بأي شيء يمكن مع العدل أن يضر بكرامة جلالته الصافية، أو يتسبب بفضيحة في المملكة، بما أنه لم يكن بنيتنا، ولن يكون، السماح بتبيير قواعد ادارة المنافع في انكلترا،

والمتعلقة بتقديم الرعايات المدنيـة، ولا الرضا بأن تضفى على أي واحد، بموجب سلطاتنـا، لأنه قد فهم بشكل واضح بموجب بعـض الرسائل التي أرسلت مـن قبل إلى انكلترا، والتي رأينا أنـه من المفيـد إرســال محتواها إلى جلالته تحت ختمنا، ولقد اكتشفنا من رسائل الملك المذكور، وكـذلك من رسـائلك، بأن أحد الفـرسـان من المملكة المتقـدمة الذكـر مستحوذ على رعـاية كنيسة لوتون، في أسقفيـة يورك، التي قيل من قبل بأننا منحناها لواحد من بلادنا، حيث كنا جاهلين آنذاك بأن التقديم هو عـائـد إلى رجل علماني، واستجابة منـا لإلتماسات الملك المتقـدم الذكـر، ولالتماسـاتكم، فإننا نقـوم بمـوجب السلطات الرسـولية بإلغـاء المنحـة نفسهـا، ولقد أمـرنا برسـائلنا أخانـا المحترم، رئيس أساقفـة يورك، بأن يقبل الكنيسة المتقدمة الذكر، وأن يضع فيها الشخص الذي رآه الفارس المذكـور مناسباً بأن يقـدم إليهـا، بحكم أنها عائـدة للفـارس المذكـور، وبالنسبـة لمرور الوقت، لاقيمـة لـه، بما أنه لم ينشأ عن أي خطأ صـادر عنه، على شرط واحــد فقط هو أن لاتكون هناك أيـة أرضيـة معقــولة معـارضة لـه، وبموجب هذه التقـدمـات نحن نعلن أنه غير قـانوني من الآن فصاعداً، بمـوجب سلطات المقام الرسولي، منح كنائس في المملكة المتقـدم ذكرها، التـي فيها الرجـال العلمانيين رعـاة، وذلك من دون نيل موافقة الرعاة المذكورين. صدر، إلخ، إلخ».

رسالة أخرى منه هو نفسه إلى النائب البابوي

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى النائب البابوي، تحيات:

نحن نرغب أن تنتبهوا أنه لم يكن بنيتنا ولن يدور بخلدنا منح المنافع الموجودة في مملكة انكلترا العائدة إلى تقدمـات رعاة مدنيين، أو إضفائها على أي واحـد بمـوجب سلطاتنا، فلقد اكتشفنـا حديثـاً من معلومـات ولدنـا المحبــوب كثيراً في المسيح، ملـك انكلترا اللامع، ومـن إيرلات وبارونات المملكة، بأن واحــداً من فـرسـان انكلترا مستحـوذ على حق

الرعاية في كنيسة لوتون، في أسقفية يورك، التي قيل بأننا كنا قد منحاه من قبل وأضفيناه على واحد من الكهنة من بلادنا، ذلك أننا كنا جاهلين بأن حق التقديم عائد إلى رجل علماني، ولقد أصغينا إلى توسلات الملك والنبلاء المذكورين، وبموجب السلطات الرسولية قد ألغينا المنحة المذكورة، وقمنا برسائلنا، فأمرنا أخانا المحترم رئيس أساقفة يورك، بأن يقبل، وبأن يقيم في الكنيسة المذكورة، الشخص الذي رأى الفارس المذكور أنه مناسب لتقديمه لها، لأنها عائدة إليه، وبالنسبة للوقت الذي انقضى، بما أنه غير ناجم عن غلطته، لايقام له تقدير، شرط أن لايكون هناك اعتراض آخر معقول على الشخص المقدم، ونحن نعلم بكل دقة، أنه غير قانوني من الآن فصاعداً، منح كنائس —بموجب سلطات المقام الرسولي— في المملكة المذكورة، التي الرعاة فيها رجال علمانيين، من دون موافقة هؤلاء الرعا ة المذكورين. صدر، إلخ، إلخ».

ومن هذه الأمثلة وأمثالها، من الممكن بوضوح أن نزن بميزان المنطق، كيف كانت شدة القانون في ذلك الحين مسترخية نائمة، وكذلك احترام الكنيسة، والتقوى الدينية، لأن ممتلكات اللاهوتيين والرهبان المسالمين قد أعطيت لتكون فقط نهباً وأسلاباً، والعالم الآن مهدد بالسقوط في حالة الفوضى القديمة.

اجتماع الصليبيين في ليون

وفي هذه الآونة اجتمع النبلاء الذين حملوا لصليب في فرنسا وفي المناطق المجاورة، في مدينة مشهورة واقعة على الرون اسمها أغانو Agauno أو لوغدونوم Lugdunum أو بشكل عام ليون، وجاء احتشادهم هناك لعمل الترتيبات من أجل الانطلاق برحلتهم، وأثناء عقدهم لمؤتمر للتداول، وصل رسول قدم بكل سرعة من عند البابا، الذي كان قد حثهم من قبل بشدة وأقنعهم بالانطلاق في حملتهم، لكنه أراد الآن أن يثنيهم عن الانطلاق وحثهم بحرارة بعدم الاقلاع في

رحلتهم، وقام الرسل باسم المولى البابا بأمر كل واحد منهم بالعودة إلى موطنه على الفور، وعرض عليهم جميع المذكرات البابوية من أجل هذا العمل، وعلى هذا ردوا بالاجماع قائلين:

«من أين انبعث هذا التقلب في البلاط الروماني ولدى البابا؟ أوليس هذا هو الزمان والمكان اللذين جرى ترتيبهما منذ زمن طويل من قبل النواب البابويين والمبشرين المرسلين من قبل البابا، من أجل جوازنا عبر البحر؟ فوفقاً لكلام المبشرين ووعودهم، اشترينا المؤن، والسلاح، وجميع الأشياء الضرورية من أجل الانطلاق، فلقد رهنّا أو بعنا أراضينا مع بيوتنا وجميع أثاثنا، وقمنا بوداع أصدقائنا، ولقد أرسلنا جميع أموالنا قبلنا إلى الأرض المقدسة، وأرسلنا رسالة عن موعد وصولنا، وقدمنا إلى الميناء، والآن تعاق الحملة الصليبية وتمنع من الذهاب والمتابعة، فلقد غير رعاتنا لهجتهم ووقفوا ضدنا»، وقد غضبوا غضباً عظيماً وكادوا أن يقاتلوا رسل البابا، وأرادوا فعل ذلك، لولا أن حكمة الأساقفة ضبطت غضب الناس.

ووصل فوراً بعد هذا، رسل من عند الامبراطور، ونصحوهم بعدم الاقلاع من دون تروي، وأن لايتسرعوا، من دون توجيه الامبراطور نفسه وحضوره شخصياً، وقد جلبوا معهم رسائل منه لهذه الغاية، فيها قدم ببراعة، مايكفي من معاذير لاخفاقه في القيام بالجواز، وبناء على هذا أصبحت أوضاع الصليبيين بالفعل محزنة، لأن مؤتمرهم ارفض، وهم أصبحوا مثل رمل من دون ممسك، أو مثل جدار بلا ملاط، وعاد كثيرون إلى مواطنهم وهم يبكون، وقد أعطوا أنفسهم متنفساً للنقد ولمقت وازدراء التأكيدات الزائفة لبعض القساوسة، وذهب بعضهم إلى ميناء مرسيليا، وعهدوا بأنفسهم لحظوظ البحر، وأبحروا وهم يائسين نحو الأرض المقدسة، وانتظر عدد كبير منهم في صقلية حتى الربيع، متوقعين وصول مقدميهم، في حين سار بعضهم، من خلال نوع من

الاذن من الامبراطور، على شاطىء البحـر، وتركوا الخليج الايطالي على اليسار، ومضوا إلى أحواز برنديزي.

اجتماع الأساقفة في لندن

اجتمع جميع الأسـاقفـة في الحادي والثـلاثين من تموز، في لندن، مفكرين بعمل بعض الترتيبات مع النائب البابوي، حول مايتعلق بمظالم الكنيسـة الانكليزية، لكنه لم يكن مهتماً حـول هذه القضية، فقـد حصل منهم على بعض الوكـالات، وبعـدما عقـد الأسـاقفة مـؤتمراً أخبروه في إجابة، بأن القبضات الملحـة لرومان، بمختلف أنواع الحجج قد أنهكت هكذا بالغـالب ممتلكات الكنيسـة، إلى حد أن جميع ثرواتهم قـد ابتلعت تقـريبـاً، وهـم يستطيعـون بصعـوبة بالغـة التنفس لبعض الوقت،وهم مـاعـادوا يحتملـون هـذه الجبـايـات أي وقـت أطـول، وأضـافـوا قائلين:

«أية منفعـة قـد أضفيت على المملكة حتى الآن، أو على الكنيسـة بوسـاطة سلطته الأسطورية، الذي هو الشريك الوحيـد للملك، والذي ظلم الكنائس بمختلـف أنواع الجبـايـات، التي منهـا نـأمل الآن ببعض الراحـة والمواسـاة؟ دعـوا الملك، الذي استـدعـاه إلى المملكة من دون نصيحـة رعـاياه الطبيعيين يزوده»، وعندمـا رأى النائب البـابوي هذا الثبات بين الشطر الرئيسي منهم، توجه بخطابه إلى الفئات الدينية الأكثر تواضعـاً، واستخـرج منها مبلغـاً كبيراً من المال، تحت اسم الوكـالات، وارفض الاجتماع وسط الشكاوى، وتمتمة وانزعاج الأساقفة.

وصول كونت فلاندرز إلى انكلترا

وفي حوالي عيد صعـود مريم المباركة، وصل تومـاس كونت فلاندرز —عم الملكـة— إلى انكلترا، ونزل في دوفـر، وعنـدمـا أخبر الملك بوصـوله، قـام بطريقـة غير معتـادة من قبلـه، فـذهب وهو مسرور إلى

استقباله، وأمر سكان لندن، عند اقتراب وصوله، بإزالة جميع الأعشاب، والأوساخ، والأوحال، وكل شيء معيق من الشوارع، وأن يقوم هؤلاء السكان أنفسهم بالخروج إلى استقباله وهم يرتدون ثياب الأفراح، ومعهم خيولهم وقد أعدت بشكل جميل، وبعمل الملك هكذا، أثار ضحك كثير من الناس وسخريتهم، وبعد مضي عدة أيام، غادر الكونت انكلترا، لأن إذنه بالغياب من ملك فرنسا، لم يكن لمدة طويلة، وقد حمل —على كل حال— معه خمسمائة مارك، كان قد تسلمها من الملك، وهذا هو المورد نفسه، الذي قال بأنه عائد إليه بموجب حق قديم، وكان يتسلمه سنوياً من الخزانة الملكية، وذلك مقابل ولائه، من دون أية مصاعب أو تأخير.

البابا يمنع الصليبيين من الاقلاع

وفي هذه الآونة أعطى البابا أوامر إلى النائب البابوي بمنع الصليبيين من الاقلاع بحملتهم إلى الأرض المقدسة حتى الربيع المقبل، وذلك دون أن يعبأ بحلول الموعد الذي كان قد تقرر من قبل بوساطة المبشرين، وعلى عكس نواياهم، والآمال التي تصوروها بناء على وعود المبشرين المذكورين، وقضى البابا بأن يكون الجواز في آذار، وأنهم إذا مافعلوا غير ذلك سوف لن يتمتعوا بالتحليل من ذنوبهم الذي سلف أن منح إليهم.

تكريس وليم دي ريل أسقفاً لنورويك

تسلم في هذا العام، وليم دي ريل، الأسقف المنتخب لنورويك شرف التكريس أسقفاً لذلك المقام من إدموند رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك في كنيسة القديس بولص في لندن، بحضور عدد كبير جداً من الأساقفة والنبلاء، وبما أن البشارة التكهنية لهذا الرجل قد كانت: «وكان هناك سرور بين ملائكة الرب من أجل توبة مذنب من ذنوبه»،

إلخ، فقد تصور الجميع آمالاً جيدة منه، بأن يكون مثل متّى آخر، الذي ارتفع من كونه متسلماً للعشور إلى مقـام الرسالة، وسلطة الانجيل، وأنه هو سوف ينهض من العمل في البلاط إلى سمو القداسة نفسها.

إدعاءات الملك ضدّ هـ إيرل كنت

وشـاهد الملك في هذه الآونة أن الايرل المحترم لكنت قد صـار الآن عجوزاً وضعيفاً، فوجّـه ضده شكاوى جدية، واستخرج منه مبلغاً كبيراً من المال، واتهمه بشكواه بعـدة جرائم عظيمة، مع نية مـاكرة استهدفت أنه إذا ما مات الايرل أثناء قيام هذه الشكايات، وتعليقها فوقه، يستطيع الملك وقتها مصـادرة جميع ممتلكاته ومقتنياته، وقد اتهمـه أنه قام في زمن الملك —والده— فأغـوى بشكل خيـاني، فتـاة نبيلة، كـانت ابنة ملك سكوتلندا، التي إليـه عهـد بأمـر العناية بها، كما أنـه أكـد بأنه أضـاع روشيل، وبواتو كلها، كما أنـه قام بشكل دنيء، وسري، بمنع المال الذي أرسل لمسـاعـدة المدينـة والمنطقـة، وأرسل سـلالاً مليئة بـالرمل إلى المحاصرين، وأعاق جنود الملك الذين كـانوا ينتظرون مساعدة فقط من انكلترا، وكـذلك أنه من خـلال خيـانتـه، جـرى تدمير قلعـة بدفـورد، وخسرها —أي الملك— وأنه أيضـاً عنـدمـا كـان —أي الملك— تحت وصـايتـه، قـام بشكل خيـاني بتـدبير أمـوره، وتبـديد أمـواله، وحـوّلها لاستخداماته الشخصية، وقد حصـل لنفسه على موارد، وأراض شاسعة وغنية، وحـول أمواله —أي الملك— طالب الآن بتقديم حسـاب إليه، كما أنه أثناء الحرب في بريتـاني ضـد ملك فـرنسـا، قـد خسر، بشكل لايعـوض، شرفـاً كبيراً، وشطراً كبيراً مـن الجيش، كما يشهـد على ذلك كـونت بريتاني، كما أنه اخترع خيـانة كبيرة ضد الملك الذي هو مـولاه، فيما يتعلق بالزواج السري الذي عقد، أو كان سيعقد، بين رتشارد كلير، وم. M, ابنتـه، ومجدداً لقـد أعـاق بدنائـة زواج الملك بسيـدة نبيلة، بإخبـار السيدة المذكـورة، وإخبار أسرتها، بشكل سري، بأن الملك كـان

أحـولاً، وسخيفـاً، وعاجـزاً، وأن فيـه نوع من أنواع الجذام، وأنه كـان مخادعاً، حـانثاً باليمين، وضعيفاً، وهو امـرأة أكثر مما هو رجل، وأنه يجد متنفسـاً لغضبه فقط في صبـه على أتباعـه، وأنه كـان غير قادر تمامـاً على التمتع باحتضـــان أي امـرأة نبيلة، ومجدداً اتهمـــه بأنه قطع الأحـــراش الملكية، والغابات التي عهد إليـه بأمور العناية بها، وبناء عليه هو يطالبه بتقديم حسـاباً جديداً عن المال الـذي تسلمه منهم، وكذلك، أنـه عندما كانوا مقيمين في وودستـوك، منذ بعض الوقت الذي مضى، وصدف أن كـان هو —الملك— وحـده في حجـرة، فـاندفع —الايرل المذكـور— بعنف، وانقض عليه مغضباً، وسعى بدنـاءة وخيانة إلى قطع عنقه، وهو سيـده ومولاه، بسكين مجردة، وكـان أنه لولا أن رفع صـوته بصعـوبة، وصرخ طالباً المسـاعدة، لما كان قـد تخلص من بين يديه، ولهذه الجريمة، هو أعلن أنه لم يستحق فقط تعليقه بحبل المشنقة، بل أن يمزق إلى قطع، وعند نهاية هذا الخطاب، الـذي آلمه كثيراً وأحـزنه، رد الايرل هيـوبرت بتواضع، وتذلـل بنفسه إلى الملك، وقال: «إنني لم أكن قـط خائناً لك أو لأبيك، وبفضل الرب، هذه هي بينة بك» وكأنه أراد أن يقول: «لو أنني رغبت أن أعمل خـــائناً لك، لما كنت قـــد تمكنت من الاستحـــواذ على المملكة»، وبالنسبة إلى جميع التهم المذكـورة، أعلاه، ردّ بوسائل صـادقة، وبتمثيل صحيح، بوساطة واحـد اسمه لورانس، وكان كـاهناً من كنيسة القديس ألبـان، وكان قد بقي مـرتبطاً دونما انفصال بالايرل طوال جميع اضطرابه، وقـــد نقض جميع التهم وردها، وعـرض براهين كـــافيـة على براءته، ممـا أرضى جميع الذيـن احتشـــدوا هناك، مع أن الملـك حـــاول بوساطة الادعاء من وراء منصة القضاء أن يبرهن العكس.

وفي سبيل اطفـاء حنق الملك وغضبه، تقـرر أنه على الايرل، في سبيل استرداد المشاعـر الطيبة السـالفة والسـلام، أن يتخلى للملك عن الأربع قلاع التي كانت غالية جداً لديه، وهي قلاع:

بلانش Blanch, وغـروسمـــوند Grosmond في ويلز، وسكنفريث Skenefrith, وهاتفيلد Hatfield, وتحمل الايرل الذي بسنه، وطول تجربته الاقطاعية، تـمّ بالغالب الاحتفاظ بانكلترا إلى الانكليز، كل جحود الملك، ولومه، وإهاناته، وجميع حملات سوء الحظ، بهدوء وصبر، وإذا مـارغب أحـد في أن يعـرف بشكل كـامل أخبـار الخلاف الذي وقع بين الذيـن اتهمـوا هيـوبرت المذكـور، ايرل كنت، والمعلم لـورانس من سينت ألبـــان، يمكـن أن يجدوا ذلك في كتـــاب Additamenta.

الإيرل رتشارد وعدد من نبلاء انكلترا يقسمون على الشروع معاً بحملتهم المقترحة

وفي حـوالي الوقـت نفســه، وفي التحـديد في اليـوم التـالي لعيـد القـديس مـارتن، التقى النبـلاء الصليبيـون الانكليـز في نورث أمبتـون لإعـداد خطط للشروع بحملتهم إلى الأرض المقـدسـة، وفي سبيل أن لايعـاق يمينهـم الشريف بوسـاطـة الاعتراضـات التـافهـة للكنيسـة الرومـانيـة، ولا أن تصرف جهـودهم جـانبـاً —في سبيل سفك دمـاء المسيحيين— إلى بلاد اليـونان أو إلى إيطاليـا، حسبما ألمح إليهم بأن ذلك كـان منوياً، أقسمـوا جميعـاً على الانطلاق في ذلك العـام إلى الأرض المقـدسـة، لتحـرير الكنيسـة المقـدسة لـلرب، وكـان الأول الـذي أقســم بينهم جميعـاً الايـرل رتشـارد، الذي أدى القسم على المذبـح الكبـير في كنيسـة جميـع القديسـين، في وسـط المدينـة وردد بعـده الايرل غ. G مـارشـال القسم نفسـه، عـلى شرط أن يصبـح متصالحاً أولاً مع الملك، ولكن الايرل رتشارد قال له: «لاتخفق في سبيل تلك المسألـة يابن ختني العـزيز، لأن ثقل ذلـك العمل أنا آخـذه على نفسي»، وجـاء بعـد ذلك رتشـارد سيـوورد Seward,ومن بعـــده هنري تربلفيل Trubeville, وعـدد كبير من النبلاء، كثير عـددهم

حتى نذكرهم، هم جميعاً بإرادة واحدة، وفكر واحد، أعدوا أنفسهم لخدمة الصليب.

الامبراطور والبابا يرهق أحدهما الآخر بشكل متبادل

وعندما رأى البابا في هذه الآونة، أن قوة الامبراطور وجرأته لم تضعف كما أنه لم يرضخ لإرادته أو لإرادة الكنيسة الرومانية، أرسل رسائل تحذير إلى جميع القساوسة والنبلاء المقيمين في ألمانيا والأجزاء الأخرى من الامبراطورية، وأمرهم بشكل بات بالثورة ضد امبراطورهم الذي كان عاصياً ضد الرب، وضد الكنيسة الرومانية، وأساء إلى سمعته بوساطة الكثير من التهم الجادة الأخرى، كما أنه حلل الذين كانوا مرتبطين بيمين الولاء إليه، وأقنعهم أنهم كانوا مخلصين في عدم اخلاص، ومطيعين في عدم طاعة، ولكن وضاعة الكنيسة الرومانية كانت مشجوبة من قبل الجميع إلى أبعد الحدود، حتى وصل الحد أن سلطات البابا كانت محترمة من قبل قلة، هذا إن احترمت من قبل أحد.

خذلان البولونيين والمشايعين الآخرين للبابا

في صيف هذا العام، وقبل وقت قصير من بداية الخريف، رغب الامبراطور منع البولونيين من تقديم المساعدة إلى رعاياه الخونة من الميلانيين، وقام بهجوم مرعب عليهم، لأنهم كانوا يسعون، محاباة منهم للبابا ولجيرانهم الميلانيين، أن يزحفوا ومن ثم ينقضوا بهجوم على جيش الامبراطور لكن في أثناء زحفهم، انقض الامبراطور بشكل مفاجىء عليهم، ووضع عساكره بين المدينة وبين سكانها، ومزق فيالقهم، وأوقعهم في حالة من الفوضى مرعبة، وحاول الفارون التراجع عبر الطرق الجانبية، وعرضوا أنفسهم لجروف النهر الذي كان من الضروري عبوره للوصول إلى المدينة، وبناء عليه كان الذين هلكوا منهم

بالموت بتعاسة غرقاً، أكثر من الذين هلكوا بالسيف.

ثم إن الامبراطور، بعدما قدم البولونيون إليه أيديهم اليمنى كعلامة على الصداقة، قاد جيشه ضد ميلان، ولأنه كان قد بنى آلاته، وشيد الجسور، تمكن في وقت قصير، مع جيشه الكبير، من عبور الخنادق، التي كان الميلانيون قد أحاطوا بها أنفسهم من جميع الجهات، ثم استولى الخوف والارتجاف على سكان المدينة، لدى وصول أخبار مانزل بالبولونيين من مصائب، وتكدس الويل على الويل، وكان هذا العمل سينتهي في وقت قصير، ما لم يتفجر اضطراب خطير، أثاره البابا، واستدعى الامبراطور إلى أماكن نائية، ولدى معرفة سكان المدينة بهذه الظروف المستجدة، أصبحوا أكثر جرأة، ورفعوا رؤوسهم من جديد، فعاثوا فساداً في المناطق المجاورة، وألقوا الحصار على قلاع الامبراطور، ولكونهم أيضاً تقووا وتشجعوا بالنائب البابوي الذي أرسله البابا إلى هناك لطمأنتهم ولمواساتهم، طوقوا فيرارا، وألقوا الحصار عليها وبنصيحة النائب البابوي، الذي كان بلا رحمة، أرغموهم على الاستسلام، ذلك أنهم رفضوا جميع العروض لرفع الحصار، ما لم يستسلموا من دون شرط.

وفي هذه الآونة تم العثور أيضاً على واحد من رفاق القديس أوسوين Oswin.

الملك يفرض بريتانيا ليكون رئيساً للرهبان في دير وينكستر

وفي هذه الآونة مارس الملك ظلماً كبيراً على كنيسة وينكستر، فعلى الرغم من رغبات المجمع الديري، فرض بالقوة رجلاً أجنبياً وأدخله إلى الدير، ليتسلم إدارة الدير، وكان رجلاً صرف نفسه إلى السلوك الشائن، حيث ألقى جانباً الخوف من الرب، فاستولى على الأشياء كلها، وأضلّ عقول جميع الرهبان، وبدّد أموال الكنيسة، وكان كل ماسعى إليه هو أن

يرضي الملك، وتمكن رئيس الرهبان هذا الزائف نفسه، على الرغم من حق حرية الانتخاب الممنوح إلى الرهبان، من جر قرابة نصف النجوم إلى قطاره، وأفسد قلوب العديد منهم، وجعلهم يميلون إلى انتخاب وليم، عم الملكة، لأن الملك كان منصرفاً كلياً من أجل تمرير هذه المسألة.

موت وليم الأسقف المنتخب لليبج

مع اقتراب حلول عيد جميع القديسين، ختم وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي أتينا على ذكره أعلاه، وأنه حصل على إذن من البابا حتى ينتخب أسقفاً لليبج Liege, وأن يستلم أسقفية وينكستر، ختم حياته في فيتربو، حيث قيل بأن السم قد دس له بإيعاز من المعلم لورانس، الذي كان رجلاً انكليزياً، وقد تمكن فيما بعد من تبرئة نفسه تماماً من التهمة، وعندما سمع البابا بهذه الحادثة، حزن كثيراً، لأنه كان بنيته أن يجعل منه قائداً لجيشه في حربه ضد الامبراطور، وبذلك صنع منه تنيناً ووحشاً بعدة رؤوس، لأنه عرف بأنه كان متحمساً في القتل، نزاعاً إلى سفك الدماء، ومتشوقاً إلى الإحراق، كما أنه كان سيداً للملك الانكليزي وصديقاً للملك الفرنسي، وابن ختن لكل منهما، وعمّاً لملكتيهما، وأخاً لكونت سافوي، وحليفاً لكثيرين آخرين بالقرابة أو بالدم، وجاء موته غير المتوقع محبطاً لخطته كلها.

حزن الملك لموت وليم المتقدم الذكر

وعندما سمع الملك بهذه الأخبار المبكية، لم يستطع منع نفسه عن الحزن، فقد مزق ثيابه وألقى بهم بالنار، وأفسح المجال للبكاء بصوت مرتفع، ورفض قبول المواساة من أي واحد كان، والملكة أيضاً، التي استثيرت، انخرطت في حزن أكبر من المعتاد، وقد بكت موته لمدة طويلة.

وفي هذه الآونة أيضاً ماتت ايفيلين كونتسه ألبمارل، وكانت سيدة ذات جمال عظيم، ومات أيضاً في الحادي والعشرين من كانون الأول، هنري دي تربلفيل، وكان فارساً شجاعاً جداً، وكان صاحب خبرة كبيرة في الحملات الحربية.

البابا وبلاط روما ينتخبان روبرت أخا الملك الفرنسي امبراطوراً لهما لكنه رفض على الفور قبول هذا المنصب.

وفي هذه الآونة كتب البابا إلى الملك الفرنسي، وبعث رسلاً خاصين إليه مع رسالة أمر بأن تقرأ بكل وقار ودقة بحضوره هو، مع جميع بارونات فرنسا وكان موضوع هذه الرسالة ومحتواها كما يلي:

«ليكن معلوماً من الولد المحبوب للكنيسة الروحية الملك المشهور لفرنسا، وكذلك من قبل جميع جماعة بارونات تلك المملكة، بأننا، بعد مناقشة دقيقة، ومداولات مع اخواننا، قررنا، وفصلنا، الذي هو مدعو باسم الامبراطور فردريك، عن المنصب الامبراطوري، وقد انتخبنا الكونت روبرت، أخا الملك الفرنسي عوضاً عنه، الذي، ليس فقط كنيسة روما، بل الكنيسة العالمية، رأته مناسباً ومتوافقاً مع جهودها القصوى في السعي لمساعدة ذلك المقام ورفعه، ولاتكن بناء عليه متباطئاً، ولابأي شكل من الأشكال، في استلام مثل هذا المقام العالي بذراعين مفتوحين، الذي جاء منحه بشكل تطوعي، ولكي يستحوذ عليه، سوف نمنح المساعدات بكرم، في كل من الجهد والمال، فقد جرت إدانة فردريك المتقدم الذكر إدانة قطعية، وذلك بسبب الجرائم المضاعفة التي اقترفها، والتي العالم كله على دراية تامة بها».

ورداً على هذه المنحة اقترح الملك الفرنسي، العظيم الحذر، الجواب التالي: «بأية روح أو بأي طيش أقدم البابا على حرمان مثل هذا الأمير العظيم، وطرده من مقامه الامبراطوري، ذلك أن هذا الأمير العظيم

لايوجد نظير له، لابل إن المثيل له ليس موجوداً بين المسيحيين، وكيف يتم هذا وهو لم يُدن بعد، كما أنه لم يعترف بالتهم التي أثيرت ضده؟ وهو إذا ما كان قد استحق العزل، بسبب ذنوبه الكبيرة، لايجوز حرمانه من تاجه، مالم يكن ذلك بموجب قرار من مجمع عام، وبالنسبة لتهم تجاوزاته، لايجوز لنا أن نضع ثقة بأعدائنا، الذين من المعروف بشكل جيد أن البابا هو الرئيس، وهو بالنسبة لنا مايزال بريئاً، لابل أكثر من هذا، هو جار جيد، ثم إننا لم نشهد أي شيء شائن في سلوكه العلماني، أو في إيمانه الكاثوليكي، والذي نعرفه هو أنه قاتل باخلاص من أجل مولانا يسوع، وعرض نفسه إلى مخاطر البحر، والحرب لصالحه، ومثل هذا التدين لم نكتشفه لدى البابا، وهو الشخص المتوجب عليه رفع شؤونه ومصالحه، وأن يحميه أثناء قتاله في سبيل الرب، لا أن يسعى إلى تدميره، واستبداله، ونحن لانرغب في أن نلقي بأنفسنا في مثل هذه المخاطر العظيمة، من أمثال الاقدام على قتال أمير عظيم وقوي مثل فردريك هذا المذكور، الذي هناك ممالك كثيرة سوف تساعده ضدنا، ممن يرغبون في تقديم تأييدهم لقضية عادلة، وهل سوف يكون الجود بسفك دمائنا، مسألة لها أهميتها لدى الرومان، طالما أرضينا غضبهم؟ وإذا ما كان البابا سيقوم بالتغلب عليه بوسائلنا، أو بمساعدة الآخرين، فإنه سوف يدوس على جميع أمراء الدنيا، مدعياً لنفسه التبجح والفخار، بما أنه قهر أميراً عظيماً مثل فردريك، ولكي لانبدو بأننا تلقينا الوصاية البابوية، بمثابة رسالة فارغة، مع أن هذا واضح أنه صادر عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بسبب كراهية الامبراطور، وليس بسبب محبتنا، إننا سوف نرسل رسلاً حكماء من عندنا إلى الامبراطور، للقيام بعمل بحث دقيق، حول مواقفه من العقيدة الكاثوليكية، ومن ثم لنحصل على المعلومات من قبلهم، وإذا لم يكتشفوا شيئاً غير صحيح، لماذا بناء عليه تعريضه للانتقاص؟ لكن إذا ما اكتشفوا غير ذلك، إننا سوف نطارده ونعذبه ونعاديه حتى الموت، لابل إننا نفعل هذا مع البابا نفسه، أو مع

أي مخلوق يفكر بشكل شرير نحـو الرب»، ولدى سماع رسل البـابا هذا الجواب غـادروا باضطراب، وعند ذلـك جـرى ارسـال رسل فـرنسيين خـاصين إلى الامبراطور ليخبروه بشـذوذ الرسـالة التي تسلمـوها من البابا، وعندمـا سمعهم الامبراطور، اعترته الدهشة تمامـاً نحو ضخـامة كراهيـة البابـا له، وأجاب بأنه كـاثوليكي، ومسيحي، ويرعى مواقـف وآراء صحيحـة نحـو جميـع أركـان الإيمـان القـويـم، وأضـاف قائـلاً:

«إنه مما يرضي الـرب أنني لـن أتخلى عن خطـوات آبائي النبـلاء وأسلافي، ولن أتبع خطوات هؤلاء المحكوم عليهم بالدمار، ليقم الرب بالحكم بيني وبينه الذي نـال مني بدناءة وشـوّه سمعتي في جميع أنحـاء العالم»، ثم إنه رفع يديه نحو السماء، وهو يتنهد ويبكي ودموعه تتساقط وهو يدعو قـائلاً: «لينتقم المولى، رب الانتقـام، منه، انتقامـاً عادلاً»، ثم إنه التفت نحو الرسل قائلاً:

«أصدقائي، وجيراني الأحباء، إنه مهما قال عدوي هذا، هذا المتعطش السـاعي وراء دمي، إنني أعتقـد الشيء نفسـه الذي يعتقـده المسيحيـون الآخـرون، وإذا مـاأردتم شن الحرب ضـدي، لاتندهشـوا بأنني سـوف أقـاتل ضـد الذيـن يهاجمونني، لأنني واثق من أن الـرب، الذي يحمي البريء سوف يحررني بقدرته من أعـدائي، لأنه يعرف أن البابا في وضع المحاباة لأعدائي المتمردين، وبشكـل خاص الميلانيين الهراطقة، ذلك أنه رفع، في غضبـه، كعبـه ضـدي، وحـاربني، وبـالنسبـة لكـم أنا أدين بالامتنان، لأنكم قررتم قبل الاستجابـة لطلبه، أن تتأكدوا بأنفسكم من حقـائق القضيـة الحاليـة بوسـاطة أجـوبتي، وعلى هذا أجـاب الرسل: «ليمنحنا الرب أن لايدخل إلى قلوبنا قط التفكير بقتال أي مسيحي، من دون سبب واضح، وأن لاتثيرنا المطـامح، لأننا نؤمن بأن مـولانا ملك فرنسا الذي خـط نسبه الملكي قد دفعه لتسلم صـولجان فرنسا، هو أعلى

من أي امبراطور، لأنه الامبراطور يرفعه إلى منصب الامبراطورية مجرد انتخاب حر، وأنه يكفي الكونت روبرت أن يكون أخاً لمثل هذا الملك العظيم»، وبهذه الكلمات غادر الرسل، مع تمنيات طيبة، وشكر للامبراطور. وهكذا أخفق البابا الذي حاول أن يدفع بقضيته اخفاقاً كلياً.

البابا يستخدم كلّ مساعيه لجمع مال للدفاع عن نفسه

وسعى البابا بوسائل الاكراه والإثارة للناس بوساطة حجج مضاعفة، وعن طريق الدومينيكان والفرنسيسكان، الحصول على المال لنفسه، من أي مكان كان من الممكن الحصول عليه، وذلك في سبيل الحاق الأضرار بالامبراطور، وكان الدومينيكان والفرنسيسكان قد أصبحوا في هذه الآونة المستشارين الخاصين ومراسلي الملوك، فمثلما كان الذين يرتدون الثياب الناعمة من قبل في بيوت الملوك، هكذا صار هؤلاء الذين كانوا حينذاك يرتدون ثياباً خسيسة، في بيوت الأمراء، وغرفهم، وقصورهم، واستدعى الملك في هذا الوقت أخاه جون دي سينت جايلز (صنجيل) للاجتماع به للتشاور معه، واعترت الدهشة كثيراً من الناس، لأن البابا لم يحضر صلوات عيد الميلاد، حسبما قرأنا عن القديس بطرس عندما كان مودعاً في السجن.

الامبراطور يثني الصليبيين عن الإقلاع

وقام الامبراطور الآن، بوساطة رسالة، بنصيحة جماعة الصليبيين كلهم —مع أنهم كانوا مستعدين ووضح أنه تسبب بغضب شديد لهم— بأن ينتظروا بصبر، وأن لايقوموا بالمغادرة نحو القدس، حتى يكون انفجار غضب البابا قد سكن، فوقتها سوف يتمكن بسرور من مرافقتهم، لأن هناك حشداً لايحصى من الشعوب الشرقية، مستعدين بالسلاح للاصطدام بهم، وقد رفض البقية على كل حال الاصغاء

لنصيحته، فقام بناء على ذلك، الامبراطور، وهو مغضب، فمنع تزويد أية مواد غذائية، أو إيصالها إلى الجيش الفرنسي، مهما كانت الشروط، وذلك من مناطقه الحدودية المثمرة، أي من أبوليا وقبرص، وعندما سمع المسلمون بهذا، رفعوا رؤوسهم، و أصبحوا أكثر جرأة وأنزلوا أذى كبيراً بالصليبين، بكل من أشخاصهم وممتلكاتهم، وبجرأة نشروا بينهم النار والقتل، وبالاضافة إلى رماياتهم الكثيفة، أقام الاغريق باباهم المضاد، في وجه الكنيسة الرومانية، وأقام الامبراطور أيضاً، في وجه البابا وضده، الراهب الياس، الذي كان لبعض الوقت رئيس رجال الدين، وواعظاً مشهوراً لدى طائفة الفرنسيسكان، وهكذا بدأت الشرور تتضاعف على وجه الأرض، لأنه حلل جميع الذين حرمهم البابا، وأثارت الكنيسة فضيحة كبيرة، لأنه بدسائس هذا الوكيل، باتت كنيسة روما مشهورة بتهم: الربا، والسيمونية، والسرقة، وتحول الأبناء ضد أزواج أمهاتهم، وأكد الراهب الياس المتقدم الذكر بأن البابا كان يصب غضبه ضد حقوق الامبراطورية، وأنه كان متعطشاً من أجل المال، وكان يستخرج المال بمختلف الحجج، وأنه كان لايحضر الصلوات، والقداسات، والمسيرات، والصيام، التي من خلالها يتحرر المظلومون من مضطهديهم»، كما كتب: «حفظ، بناء عليه بطرس في السجن، لكن صلواتاً عملت من قبل الكنيسة من أجله من دون توقف، إلى الرب»، وأنه كان يمارس الغش بالنسبة للمال الذي جمع من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وأنه كان يقوم بشكل سري بختم مواد مكتوبة في غرفته، من دون الحصول على موافقة اخوانه، حتى أنه أعطى إلى رسله كثيراً جداً من البرامج الفارغة، وهي مختومة بختمه، أعطاها لهم على هذه الصورة، ليكتبوا عليها مايرضي رغباتهم، وهي رغبات كانت مرعبة، وقد وجهت إلى البابا وعملت ضده كثيراً من التهم الأخرى، رفعت صوته إلى السماء، ولذلك قام البابا بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بالياس المذكور.

صرف سيمون النورماني والراهب غيوفري من مجلس الملك

وفي العام نفسه، وفي أثناء الاحتفال بعيد الفصح وسط كثير من البهجة، تحول غناء المعلم سيمون النورماندي إلى نحيب، واحتفاله إلى بكاء، لأن هذا الرجل قد كان قبل وقت طويل مضى، سيداً، ليس فقط للمملكة، وللختم الملكي، بل أيضاً الحاكم على الملك نفسه، ومدبر الشؤون في البلاط، حيث كانت جميع القضايا تدار حسب ارادته، وكان رجلاً صارماً، يحصد حيث لم يزرع، ولم يحصل على حظوة بسبب فضائله، بل كان يحمل نفسه فوق نفسه، وكان يوماً إثر يوم يثير غضب وكراهية النبلاء ضده، وعندما لم يعد الملك قادراً على تحمل خساسته أي وقت أطول وعجرفته، أمر به بأن يطرد من بلاطه، وأن يلقى بأمتعته وخزائن ثيابه، وكتبه، وأرديته الثمينة، خارج بيت الملك، وبالاضافة إلى هذا، انتزع منه ختم الملك، وعهد به إلى رتشارد، راعي دير ايفهام Evesham, وكان رجلاً مستقيماً وبارعاً، وحذراً في ادارة الأعمال، وعندما كان الملك مثاراً بروح مشابهة، أمر بالراهب غيوفري، الداوي، بأن يصرف من بلاطه، وهي حادثة، كان كثيرون متشوقين إليها، وأصل غضب الملك هذا وسببه الرئيسي هو أن سيمون المذكور قد رفض التصديق على إجازة بغيضة، مضادة لكرامة تاج الملك، وكان القصد من الاجازة، هو أن توماس كونت أوف فلاندرز ينبغي أن يتسلم ضريبة عشر، قدرها أربعة بنسات مقابل كل جوالق من الصوف يجري حمله من انكلترا، خلال مناطقه، ولم يرض غيوفري الداوي بالموافقة عليها، مع أن الملك رغب بها وتشوق إليها.

رهبان وينكستر يحصلون على انتخاب حر من البابا

وفي هذا الوقت نفسه، حصل رهبان وينكستر، لدى رجوعهم من البلاط الروماني، من البابا، على أمر، بعدم انتخاب أي واحد أجنبي ليكون وصياً على أرواحهم، أو أي واحد يكون ممقوتاً من جماعة

المملكة، وذلك بناء على مبادرة قاسية من الملك، أو بناء على التماس ملكي، بل وفقاً لما هو عادل، وقانوني، وأن يعملوا انتخاباً —من دن فرض— لأي واحد يرونه مناسباً لأن يكون أسقفهم وراعيهم، وبناء على هذا اشتعل غضب الملك ثانية إلى درجة عالية، وكأنه لم يكن بإمكانه أن يعثر على أي واحد انكليزي مناسب لتلك الأسقفية، ومنذ ذلك الحين سعى رئيس الرهبان، الذي فرضه الملك عليهم، وشغل نفسه بكل يقظة لاضعاف ثبات الرهبان وليمزق الاتحاد السلمي لأولئك الذين وقفوا برجولة منذ ذلك الحين، إلى جانب مصلحة الكنيسة.

الامبراطور يوجّه زحفه نحو المدينة

وعندما وجد الامبراطور في هذه الآونة أن البابا ليس فقط متعطشاً كثيراً يريد سفك دمه، بل يقف موقف المحاباة تجاه العصاة الميلانيين الهراطقة، لأنه كان متشوقاً لتنفيذ اسقاطه المهين، لذلك أجّل لبعض الوقت خطته المرسومة للحرب، وبجرأة اقترب من المدينة حتى يمكن أن يظهر بشكل مرعب أكثر، إلى رعيته، ولدى وصوله، خرج سكان فيتربو مع النبلاء ومع سكان المدن الأخرى المتميزة، ومع عدد كبير من الرومان، خرجوا إلى استقباله، مع كل احترام وتشريف، بحكم أنه مولاهم، ومن الممكن البرهنة على هذه الحقيقة من خلال رسالة بعث بها الامبراطور إلى ملك انكلترا.

رسالة الامبراطور إلى ملك انكلترا

«من فردريك، الذي هو بفضل الرب، أغسطس دائم، وامبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية، إلى الملك المشهور لانكلترا، ابن ختنه المحبوب، تحيات وعواطف مخلصة:

إن اللدغات المضاعفة ثلاث مرات من الحزن التي تخرق قلوبنا

وتثيره، لاتسمح لنا الآن بالبكاء أكثر من دون انفجار حزننا الداخلي، على شكل آهات، وبعد ذلك انفجار آهاتنا على شكل عويل، وبالقدر نفسه بوساطة مواد خلافات جديدة، التي إليها دفعنا البابا حاكم الكنيسة العالمية، بوساطة بعض وسائل الارغام العنيفة، ولقد اكتشفنا المضار التي لحقت بالإيمان الكاثوليكي، ذلك أننا شاهدنا بوضوح ونحن نتألم الظلال التي سوف تلقى على عدالتنا، وتألمنا وأسفنا للخسارة التي سوف تعاني منها الأرض المقدسة، لكن نحن لسنا أقل تأثراً وتضرراً بهذا الحزن، حتى أن عيني الراهب ايلي صارتا لاتبصران، ولم يعد يعي أياً من هذه المخاطر، لأنه أثير بغضب شديد نحونا، وصار مربوطاً بمشاعر كبيرة من التعاطف مع الميلانيين ومع محرضيهم، الذين ثاروا ضد الامبراطور، ذلك أنه مع أن العالم كله بات عرضة لوقائع متوالية مشكوك بها، أو بالحري إلى مخاوف الحظ، نهض ليدوس على عدالة الامبراطورية المقدسة، وليقدم المساعدة إلى رعايانا الميلانيين المتمردين، غير أننا لم نطعن بلدغة صاحب ضمير مجرم في هذه القضية، كما أننا لانتوقع الحكم المضر لسمعتنا، لأننا منذ وقت طويل تمكنا بوساطة الالهام الرباني لضغوط هذه المخاطر، وبشكل دائم، من تجنب السبب الحالي للفضيحة، وقد سعينا بوساطة جميع الامكانات التي توفرت لقدرتنا، أن نحصل على حظوة هذا الحبر الأعظم، لكن عبثاً كان ذلك، حتى أنه لم يوفر تعبنا الشخصي، ولم يهتم بخسائرنا لممتلكاتنا، وغالباً كثيراً ما عرضنا حياة رعايانا المخلصين، بحرية، في سبيل مسـ ـدته، ومساعدة الكنيسة الرومانية، لكن [ونحن نحكي هذا بأسـ ـى] أثناء الوقت كله لصراعاتنا، لم نتلق أي شيء منه، ولاحتى علامة من علامات العاطفة، قد دفعت لنا من أجل طاعتنا، بل إنه عارض دوماً بنفسه تقدم الامبراطورية المقدسة، وأعاقها، هذا والذي ينبغي ويتوجب عدّه أكثر وحشية لكل واحد، هو أننا عندما كنا مشغولين بخدمة الكنيسة المقدسة، كما هو مبرهن بوضوح من خلال

رسائله، قام بانتزاع مدينة كاستيلانا وسلبها من الامبراطورية، وكانت كاستيلانا هذه قد حولت إلينا مؤخراً، ولم نتمكن في ذلك الحين —على الرغم من جميع شكاياتنا— من الحصول على أي شيء لصالحنا، أو لصالح الامبراطورية، وقام بعد ذلك بوساطة رسائل سرية معارضة بتجريد النائب البابوي من جميع الصلاحيات، وهو النائب، الذي قال، بإنه أرسله إلى سورية، للحصول على ترضية تجاه المضار التي أنزلت بنا، وبابننا، من قبل سكان عكا، ومن قبل بعض نبلاء مملكة القدس، كما أننا لم نستطع في الوقت نفسه بالذات، الحصول على أية رسائل منه لمنع الميلانيين، من مهاجمة سكان كريمونا، الذين كانوا مخلصين للامبراطورية، ولامنع الفلورنسيين من إلحاق الأذى برعايانا البنادقة المخلصين، علماً بأنه لم يمنحنا الإذن بالذهاب لمساعدتهم، الأمر الذي رغبنا به، وكان ذلك حتى لانترك الكنيسة من دون دفاع، ومجدداً عندما كنا سائرين نحو ألمانيا، لضبط شرور ابننا الكبير، وعدنا بشكل مؤكد بأن يقدم لنا المحاباة في كل مجال، ومع ذلك قام بوساطة رسول من لدنه، يحمل رسائل اعتماد، بالفرض —بوساطة كل وسيلة وقدرة امتلكها— على المقدمين الذين كانوا موجودين معنا في البلاط في مينسي Mayence, بأن لايوافقوا ولابأي شكل من الأشكال، على انتخاب ولدنا الأصغر، أو أي واحد من بيتنا ودمنا، ثم بذل بعد ذلك كل براعته وقدرته، في سبيل إعاقة تقدمنا في إيطاليا، من أجل اصلاح أوضاع الامبراطورية وكان ذلك بوساطة رسائله ورسله، وبشكل خاص بوساطة أسقف برانستي، الذي تمكن بكل براعة ومكر، من أن يكسب إلى جانبه بياسينزا Pierenza, ومانتوا Mantua, وأخيراً عندما تمكنا بفضل نعمة الرب من الحصول على نصر على الميلانيين، بوساطة قتلهم، ولدى رؤيته أن رسائله السرية، مع نوابه البابويين، كانوا بلا فائدة بالنسبة له، وذلك بعد أن حقق سيف عدالتنا النصر على شروره المخادعة، بدأ بشكل أكثر علانية، بإلقاء المعيقات في

طريق تقــدمنا، ومنع بوضــوح مكشــوف سكان ونبــلاء تخوم أنكونا Ancona, ووادي سبـوليتـو Spoleto من مسـاعـــدتنا، مع أن واجبهم كان مساعدة الامبراطورية وليس إلحاق الأذى بها، وأن يحاولوا القـدوم إلى لومبـارديا، أو أن يرسلوا عسـاكرهم إليهـا، كما أنه قـام على الرغـم من أمـــرنا وتحريمنـا، ففـــرض على سكان أنكونـا، والبلدات الساحليـة الأخرى، وذلك تحت تهديد عقـوبة الحرمان الكنسي وغـرامة عشرة آلاف مـارك، بأن يقدمـوا كل الأشيـاء اللازمة إلى البنادقـة الذين كانوا ثائرين ضد جلالتنا، وهذا كله مبرهن عليه بوضوح برسائله، وإلى بعض نبـلاء تخوم تـريفيسـو Treviso, الذي حــوّلهم إلى ضعفــــاء ومتقلبين بولائهم إلينا، فبعث برسائل، وأمرهم بشكل مكشوف بالتخلي عن ولائهم، معطيـاً إليهم فهماً، أننا إذا لم نختر اسناد شـؤون لومبـارديا تماماً إليه، ووضعها تحت تصرفه، وسلطته، سوف يتفوه بشكل عاصف، بقرار حرمان كنسي ضدنا.

وبعد عقدنا مؤتمراً للتداول حـول هذه القضايا مع مقدمينا المحبوبين تمامـاً لدينا، ومع آخـرين كـانوا آنذاك يسـاعـدوننا أثناء حصـار بريشيـا Brescia, ورغبـة منا (كما ذكرنا مـن قبل) بعدم قيـام أية أسباب للخـلاف بيننا وبين الكنيسة، أرسلنا سفـراء خاصين من قبلنا إلى المقـام الرسـولي، وعرضنا من خـلالهم تقـديم ترضيات أيضـاً من أجل بعض الذنوب التـافهـة، التي كما قـال، قد اقترفـت في مملكة صقلية مـراغمـة لحقـوق ولامتيـاز الكنيسة، وطـالبنا مجدداً بوسـاطة الرسل أنفسهم، بأن يتم الاتحاد المرغـوب بيننا وبين الكنيسـة، وهـو الاتحاد الذي غـالبـاً مـا حـاولنا إقامتـه بوسـاطة عدد لايحصى من الرسـل، وقد طالبنا بتأكيـده بوساطة الرسل، وبوسـاطة ضمانات متبادلة، وقد قـال بأنه على استعداد للموافقة على هذا، وعهد بشكل الضمانات وصياغتها إلى حكمنا، ولكن عندما كان رسلنا ورسله، قد وثقوا تماماً بأن السلام والاتحاد قد تأسسا،

وكـانوا عـائـدين بنشـاط وبهجـة، إلينا، وصـاروا جميعـاً بعيـدين عن مشاهدته، عهـد بمنصب النيابة البـابوية في لومبارديا إلى غـريغوري دي مـونت لونغـو، الذي كان من قبل مـوضع ريبـة لدينا ولدى أصحـابنا، عندمـا تلقيناه بمثـابة مجرد سفير بابوي بسيط في تلك المقـاطعـة، وهو —أي البابا— قد وعد باستـدعائه من هناك، ولكي يضيف إلى شروره، أقـدم عندمـا اكتشف أننا كنا بلا حـرس، بحكم وثوقنا بوعـود الاتحاد، فأمـر باهـلاكنا، من قبل بعض مقـدمينا ورعـايـانا، وذلك بسبب بعض الذنوب، التـي قـال بأنها اقترفت مـن قبل مـوظفينـا ورسلنا في مملكة صقلية، ومدينة روما، ضده وضد الكنيسة.

وبعـــدمـــا أرسلنا إلى سيـــد هؤلاء المشرفين، بدلاً من أجـل حكم أشخاص دينيين آخرين، جواباً كـاملاً عن جميع هذه الأشياء، وحيث أننا كنا غير راضين بكل جواب من أجـوبتنا عن كل عنوان، أضفنا ملاحظة عـامة، بـأننا نترك رغباتنا والجواب في كل شيء إلى حكمـه، حسبما تأكـد وأجيز بوساطة الرسائل والبراهين العائدة إلى القساوسة، الذين هم جميعاً أهلاً للثقة، وعندما أرسلنا رسلنا حول جميع هذه النقاط، لحمل أجوبتنا، وللقيام بترضيـة كاملة، مدعمين بسلطاتنا، لوضع حد لإجـراءاته الماكرة ضـدنـا، قـام في يوم أحـد السعـف، وهو يوم ليس بالعـادة كليـاً اتخاذه لإجراءات العقوبات، وعلى الرغم من ممارسـات الكنيسة، قام بإجراءات حملة ضـدنا ولإلحاق الأذى بنا، وبما أننا عـددنا مثل هذا الإجـراء مليئاً بالطيش، وليس فيـه عـدالة، بعثنا برسـائل إلى إخـوانه، وإلى النواب البـابويين، نطالب بعقـد مجمع عام، نشترك فيـه للبرهنة، بوسـاطة حجج واضحة وضوح النور، على انحطاط وفسـاد القاضي، وعلى براءتنا، وبناء عليـه لن نقـول فقط كيف ازدريت براهين بـراءتنا، بل سنذكـر كيف أنه مراغمـة لشريعة الشعـوب، التي لاتسمح بإهانة السفراء أو الـرسل، قام هذا الرجل، الذي يقـدم نفسـه على أنه «عبـد عبيـد الرب» فأمـر برسلنا

المتقدم ذكرهم، الذين هم أساقفتنا، بإلقائهم بالسجن بشكل مهين جداً.

ثم، ليكن موضع انتباهك، فيما إذا كانت هذه الإجراءات جديرة ببابا، وفيما إذا كانت أعمالاً موائمة وفيما إذا كان يليق بواعظ أن يجر العدالة نحو الدمار، وأن يدوس عليها بقدمه، وأن يتجاهل حكم جميع العيون المؤمنة، حكماً لصالح شعب ميلان غير المخلص، لكن ومع جميع هذه الأضرار وعلى الرغم من أنه كان يتحرك ضدنا بطيش، في ظل روحه الغاضبة، لم نتعرض للإثارة حتى نتولى زيارته بالانتقام الامبراطوري، حتى أظهر نفسه، أنه كان مندفعاً نحو الأمام في سبيل تدميرنا دماراً كلياً وتجريدنا من ميراثنا الامبراطوري، ومثل هذا، وبالقدر نفسه، عندما كنا مقيمين في تخوم تريفيسو، من أجل تهدئة تلك المنطقة (التي وجدناها بسبب تمزقات قديمة مستمرة، ملطخة في كل مكان بالدم والقتل) قام بوساطة تقديم مبلغ كبير من المال، بإثارة مركيز دي ايستي Este وكونت أوف سينت بونيفاسيو Bonifacio (الذي قام بالتآمر ضد حياتنا بناء على اقتراح الحبر الأعظم) وكذلك مدينة تريفيسو، للثورة ضدنا وضد الامبراطورية، كما أنه قام بوسائط بولص ترافيرساري Traversari —الذي كان من قبل واحداً من أكثر رعايانا اخلاصاً لنا، ولكنه فسد فيما بعد بوساطة البابا— وعن طريق وكالة الكاردينال النائب البابوي، فانتزع منا مدينة رافينا، وأخذها من التخوم، ومن الامبراطورية، ومع أن أميراً وحبراً، قد تسلم منهم يمينهم بالولاء له وللكنيسة، أمر أيضاً بالطرق العامة التي تمر خلال التخوم والدوقية، التي استولى عليها وانتزعها من الامبراطورية، بأن تغلق ضد الرسل الذين كانوا قادمين إلينا، وجالبين الأشياء الضرورية إلينا وإلى جيشنا، وقام بعضهم بممارسة أعمال اللصوص وقطاع الطرق، فانتزعوا منهم جميع مقتنياتهم، وبإلقائهم بالسجن فيما بعد، وقد فعل هذه الأشياء كلها، إما ليجيعنا ويجيع جنودنا، من الايطاليين والألمان، أو

ليرغمنا على رفع حصـــارنا عن ميــلان، وعن نهب منطقــة رعـــايانا المتمردين، ولم يكتف بهذا كله، بل أعلن صراحة عن نفسه قائداً للحرب ومقدمها ضدنا وضـد الامبراطورية، متخذاً قضية الميلانيين والخونة غير المخلصين، قضيته، وحوّل بشكل مكشوف شـؤونهم نحو مايتناسب مع فـوائـده، وعلاوة على ذلـك عيّـن قـائـداً على الميـلانيين أو بالحري على الجيش البـابوي، رجله المتقـدم الذكـر، غـريغـوري دي مـونت لونغـو، والراهب ليـو، الذي هو كـاهن طائفـة الفـرنسيسكان، اللذان لم يكتفيـا بتقلد السيـوف، وإلبـاس نفسيهما السـوابغ والدروع، واظهـار نفسيهما، وكأنهما جنديـان مـزيفين، بل استمـــرا في ممارســة وظيفــة منصبيهما في الوعظ، وفي تحليل الميـلانيين وسواهم من ذنوبهم، أثناء قيـامهما بتوجيـه الاهانات إلى شخصنا، أو الذين هم أتباعنا، وفي هذا الوقت أيضـاً، قام النائب البـــابوي، والـراهب الفـــرنسيسكاني المتقـــدم الذكـــر، بتنصيب نفسيهما، حكاماً وسـادة، ضدنا وضد الامبراطـورية، وقد فهمنا من هذا بشكل واضح، بأن البـابا ليس فقط صـديقاً للكفـار، الذين أعلن عنهم صـوت العـالم أنهم هراطقـة، بـل أيضـاً المؤذي للامبراطورية، والهادف لحرمـاننا من ميراثنا، والرجـل الذي اغتصب الحكم الدنيـوي والسيـادة على ميلان، وبناء عليـه، لقد أثرنا إلى أبعد الحدود بهذه الخسـائر الهائلة، وكنا مـزعـــوجين جـداً من هذا الأذى الكبير، ولذلك لم يعـــد بإمكاننا حبس أيـدينا، بـل حملنا السيـف والترس بشكل معلـن، في سبيل دعـم قضيتنا وقضية الامبراطـورية، ضد عدونـا المعلن، مواجهين قوة دنيـوية بقـوة دنيوية، كما أنه لم يعـد بإمكاننا الاستمـرار بإبداء العاطفـة البنوية نحوه، لأنـه ليس فقط لم يبد نحـونا العاطفـة الأبوية، بل سعى لإيذائنا، ولحرماننا من ميراثنا، وهو متعطش بشكل وحشي يريد حياتنا ودمنا.

وبعـدما أخضعنا بمسـاعدة الفـرسـان، ورماة القسي العقـارة، جميع مقـاطعـــة ليغـوريا Liguria التي استسلمت لنا، وقمنـا أيضـــــاً أثناء

زحفنا خلال توسكانيا، بإصلاح الكثير من قوانين الامبراطورية، وبعثنا بولدنا المحبوب هـ. H. الذي هو الملك اللامع لتوري Torrees وغالبوري، سفيراً للامبراطورية المقدسة في ايطاليا، ليعيد تخوم أنكونا إلى ولائه، وقمنا نحن أنفسنا برفع نسورنا المنتصرة، ووجهنا زحفنا شخصياً نحو دوقية سبوليتو، والمناطق الملاصقة للمدينة، وباستثناء مدن قليلة، أعدنا المنطقة كلها التي عبرناها أثناء تقدمنا، والممتدة حتى فيتربو، إلى طاعتها الصحيحة للامبراطورية، وقد استقبلنا من قبل سكان فيتربو، ومن قبل سكان المدن والمناطق التي من حولها، والقائمة في أحوازها بأعظم اخلاص، وبذلك عندما أرينا عدونا قوتنا، استولى عليه الرعب، وخاف كثيراً من اقترابنا منه، ولم يصدق أنه يستطيع أن يخلص نفسه بوساطة توبة متأخرة، ووقع في أعماق اليأس، وفقد الثقة بقوته، عندما كان الشعب الروماني يصرخ فرحاً أثناء اقترابنا من المدينة، وقد تمكن بوساطة دموع حقيقية غزيرة جداً بشكل غير اعتيادي بالسيطرة على بعض الصبيان والنساء العجائز، ومعهم عدد صغير من الجنود المرتزقة، فحمل الصليب ضدنا، مؤكداً كذباً بمواعظه لهم بأننا كنا نسعى للقيام باجتثاث الكنيسة الرومانية، وخرق حرمة الآثار المقدسة لكل من الرسولين المباركين جداً: بطرس، وبولص.

وبناء عليه، فإن جلالتك، سوف —بفضل تقديركم الصحيح— تتفهمون زحفنا وتعذروننا، فالذي دفعنا إليه هو القذف الخبيث لعدونا، والذي حثنا عليه العدل وعلى تبنيه من أجل شرفنا وشرف الامبراطور، وبالقدر نفسه شرف ومكانة ملوك وأمراء الأرض، وأنت فوق غيرك من الملوك الآخرين، ينبغي أن تقف إلى جانب قضيتنا بمحاباة أكبر، وأن تحافظ عليها بثقة أعظم، ولكونك شريكاً لنا في العبء كله والمكانة، قد جرى بثقة منا اختيارك —إذا كنت تتذكر، بشكل صحيح— لتكون حكماً في هذه القضايا، ولأنك أبعدت من قبل الحزب

المعـادي، وذلك حتى تتمكن من حماية بـراءتنا، وعـدالتنا الامبراطورية، بغيرة صافية، وبضمير أكثر اخلاصاً. صدر في فيتربو».

ذعر العالم وتكريس بعض الكنائس

ولدى تداول أخبار هذه الأشياء، وانتشارها ومعرفتها في جميع أرجاء العـالم تلقت سمعـة البـابا وسلطتـه صـدمـة، وتناقصت كثيراً، ونشأت فضيحـة كبيرة، وبدأ رجال حكماء ومقـدسـون يشعرون بذعـر كبير من أجل شرف الكنيسة، والبـابا، ورجال الدين كلهم، وصـاروا يخافون أن ينزل الرب في حالة غضبه العظيم بالناس جرحاً لايمكن شفائه.

وفي هذه الآونة، في التـاسع من آب، الـذي كـان يوم عيـد القـديس رومـانوس، جـرى تكريـس كنيسـة ديرية في أبنغـدون Abingdon, من قبل روبرت أسقف أوف سالسبري، أسقف ذلك المكان، وجرى في حوالي الوقت نفسه أيضاً، تكريس كنيسة في ويلز، وجرى في العام نفسه تكـريس كنـائس: ايفهـام، وغلوستر، وتـويكبري Tewkebury, وويكمبري Wicumbery, وبيرشـور Pershore, وألدكستر، ومعهن جرى تكريس كنائس أخرى في جميع أنحاء انكلترا.

وفي حوالي أيام عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، مات في البحر، روبرت دي ثوني، وكان رجلاً من أسرة نبيلـة، وفي حوالي الوقت نفسه، عندمـا كان أسقف لنكولن يتـولى تعـذيب كهنته، اشتكى واحـد منهم، أثناء وعظه بقداس إلى الناس، من الأسقف المذكور، وقال:

«ومع أننا يتوجـب علينا التمسك بسلامنا، فإن الحجـارة سوف ترفع صـوتها صـارخـة من أجلنـا»، وحـدث وقتهـا أن البناء الحجـري لبرج الكنيسـة الجديدة في لنكولن قد انهار، وسحق النـاس الذين كانوا تحتـه، وبسقوطه اهتزت الكنيسة كلها، وتضررت، ونظر إلى هذا، على أنه نذير سوء، ومع ذلك شرعوا بإعادة بنائه بشكل أفضل.

مذبحة التتار

وفي هذه الآونة، تعرض التتار، الذين هم عرق همجي من الناس، والذين هاجموا البلدان المسيحية، واقترفوا مذابح كبيرة، وكانوا يتجولون هنا وهناك في هنغاريا العظمى، للهزيمة، وأرغموا على التراجع، وقد قتل الشطر الأكبر من هؤلاء بحد السيف، وسقطوا أمام يد القدرة، لأنهم هوجموا من قبل خمسة ملوك مسيحيين ومسلمين اتحدوا لهذا الغرض، بفضل نعمة الروح القدس للرب، وبعد مقتل هؤلاء الهمج، أرسل ملكا داشيا Dacia, وهنغاريا بعض المسيحيين لسكنى البلدان، التي كانت قد تحولت إلى صحراء، من قبل التتار المذكورين، وذهب من داشيا وحدها أكثر من أربعين سفينة مليئة بهم.

وفي هذا العام نفسه، جرى الاستيلاء على مونت كازينو، وكان مكاناً لايرام، من قبل جيش الامبراطور، كما روينا بشكل أوفى من قبل.

خسارة ملك قشتالة الكبيرة

وجرى في العام نفسه، الاستيلاء على مدينة بلنسية، التي هي مدينة كبيرة في اسبانيا، من قبل ملك قشتالة، وبعد ذلك تابع الملك المذكور تقدمه ليلقي الحصار على اشبيلية، بحكم أنه حصل على ثقة كبيرة بنجاح مستقبلي من النصر الماضي، وبناء عليه ألقى الحصار على تلك المدينة، وهاجم سكانها بشدة، وفي أحد الأيام، بعدما رتب صفوف سراياه، وقام ببعض الحملات المميتة على سكان المدينة، خرج إليه مقدم المدينة، وكأنه يحمل نوايا مسالمة، ووعد بتسليم المدينة إلى الملك، على شرط توفير حياة السكان، لكن هذا كله عمل عن طريق الخيانة، ذلك أنه ألح على الملك وحثه على دخول المدينة شخصياً، لتسلم الولاء من الذين قرر سموه الملكي توفير حياتهم، ووضع الملك الثقة بكلامه وتنهداته، ودخل المدينة، لكنه ما ان أصبح داخل المدينة حتى أغلق

سكانها الأبواب، ورفعوا الجسور، وأحاطوا بالملك بسيوف مجردة، بالملك الذي كان محاطاً بعدد قليل فقط من الأتباع، حيث كان لايخشى شيئاً من هذا القبيل، وعندما رأى الملك نفسه وأصحابه أنفسهم مطوقين من قبل الأعداء، وعرفوا أن القضية باتت قضية حياة أو موت، أوقعوا قتلاً كثيراً، وبقدر مااستطاعوا، رداً على أعدائهم المتفاخرين، وبعد بعض الوقت ولأن أعداد أعدائهم تزايدت، لم يعودوا قادرين على متابعة تحمل ثقل القتال، وركزوا تفكيرهم فقط على كلمات النبي وصلواته: «يارب أنقذ الملك»، فقاموا بإبعاد ملكهم، وتمكنوا بشيء من الصعوبة من اخراجه من إحدى البوابات الخلفية، وبعد صعوبات جمة نجا هو وعاد إلى جيشه، الذي وجده ممزقاً إلى أبعد الحدود على أيدي الأعداء الذين هاجموه، وذلك وفق ماكان قد جرى إعداده من قبل، من قبل هؤلاء الخونة، وعلى كل حال، لدى رؤيتهم للملك، وهو سليم في بدنه، استردوا شجاعتهم، وهزموا أعداءهم، أما الذين كانوا محاصرين، وهم ملطخين بدماء أعدائهم، فقتلوا واتخذوا أسرى، وعاد الملك مع الذي بقي له من جيشه بشكل مضطرب إلى بلاده، وظل في الوقت نفسه أكثر استنفاراً وعزيمة في سبيل الصراع.

الملك يمنح نطاق الفروسية لبلدوين دي رايفر ويعطيه مرتبة الإيرلية على جزيرة وايت

سنة ١٢٤٠، وهي السنة الثالثة والعشرين من سني حكم الملك هنري الثالث، وفيها عقد بلاطه في عيد الميلاد في ويستمنستر، حيث منح في يوم الميلاد نطاق الفروسية إلى بلدوين دي رايفر Rivers وكان شاباً لامعاً، وأعطاه مرتبة الايرلية على جزيرة وايت Wight, وكان ذلك بحضور الايرل رتشارد وبمبادرة منه، حيث كان بلدوين المذكور تحت عهدته منذ سنوات طوال، وكان قد تزوج من أليس Alice ابنة زوجته ايزابيلا، التي كانت كونتسة غلوستر من قبل.

انتخاب هيوج دي بيتهل أسقفاً لكوفنتري

وتأكـد في هذه الآونة انتخـاب هيـوج دي بيتهل Pateshull, الأسقف المنتخب لكوفنتري، وقـد كـان في بعض السنين الماضية خـازناً للملك، وقـد سلك في عمله بشكل غير قابل للنقـد، وكان عندمـا اتخذ كـرسيـه وجلس في الخزينة الملكيـة، قـد ذهب إلى جميـع بارونات ذلك المكتب، بطريقتـه المعتـادة، ولدى قيـام الجميع كي يدفعـوا له الماركـات المعتادة للتشريف، كان قد قال لهم:

«أصـدقـائي الأعـزاء ورفـاقي، وداعـاً، إنني لن أتخلى عنكم قط، بل تخليت عن الخزينة فقط، فلقـد استـدعـاني الرب، مع أنني غير جـدير، لأتولى حكم الأرواح»، وقـد خـرقت كلماته تنهـداتهم، فقـام بتقبيلهم واحـداً واحـداً، حيث كانـوا في الوقت نفسه يبكـون بانفعال وعـاطفـة بسبب مغادرته.

موت إيزابيلا زوجة الإيرل رتشارد

وفي هذه الآونة حملـت السيـدة النبيلة ايزابيـلا كـونتسـة غلوستر وكـورنوول مـريضـة بشكل خطير لاصـابتهـا باليرقـان الأصفـر، وقـد وصلت إلى حافة الموت، ولدى اقتراب وقت تمددها (لأنها كانت حاملاً وقـريبة الولادة) أصبحت بلاشعـور، وبعـدما عـانت من ضغط شـديد جرى قص شعرها، وقـامت باعتراف كامل بذنوبها، وغادرت إلى الرب مع ولدها الذي ولدته، فهـو عندما وضح أنه لن يعيش، جـرى تعميده ومنحـه اسم نيقـولا، وكان الايرل رتشـارد قـد ذهب في ذلك الحين إلى كورنوول، وعندما سمع بهذه الحادثة، شرع يبكي وينتحب بمرارة، وقد حزن عليهـا حزناً عظيماً، وعاد بكل سرعـة، وتدبر دفن جسدها المحترم بكل تشريف في بيوليو Beaulieu, وهو بيت كان الملك جـون قد أسسه وبناه، ومنحه إلى طائفة رهبان السسترشيان.

سماع صراخ مدهش في كثير من أجزاء انكلترا

وسمع في هذه الآونة، صوتاً مخيفاً، وكأن جبلاً ضخماً قد رمي بعنف عظيم وسقط وفي وسط البحر، وقد سمع هذا في أماكن كثيرة، كل واحد منها بعيد عن الآخر، مما أرعب كثيراً الحشود التي سمعته.

شكاوى الأساقفة حول الظلم الذي لحق بالكنيسة

في ثمانية عيد الغطاس، اجتمع في لندن رؤساء الأساقفة، والأساقفة مع عدد كبير آخر من النبلاء، وكان النائب البابوي أيضاً حاضراً، وقد قدموا للملك شكاوى جادة عرضوها في بلاطه، حول المضار والمظالم، والأذى اليومي الذي ينزل بالكنيسة ويمارس ضدها، بوساطة آراء الملك غير العادلة، وأن ذلك جاء بمثابة معارضة طائشة لصكوك امتيازاته ويمينه، وأنه لم يسمح للكنائس المحرومة من رعاتها باستردادهم، وباستعادة أنفاسها، وسبب ذلك هو استخراج مقتنيات الكنائس منهم، حيث أنه احتفظ بهم بين يديه لعدة سنوات، مستخدماً حججاً متنوعة، وهو لم يسمح بإجراء انتخابات قانونية، وقد أعلنوا جميعاً أنهم مندهشين كثيراً تجاه هذه الأضرار، التي تتضاعف يومياً، وقد نزل ذلك بهم عندما —الملك— أقسم مراراً على المحافظة على امتيازات الكنائس من دون خرق، وقد فعل ذلك، أثناء السماع، عندما كان شخصياً يحمل شمعداناً، فوقتها تفوه جميع الأساقفة بقرار الحرمان الكنسي ضد الذي يخرق الامتيازات اللاهوتية، وفي أثناء إكمال إلقاء ذلك القرار، قام الملك مثل الآخرين فأدار الشمعدان نحو الأسفل وأطفأه، وكان هناك ثلاثين عنواناً في شكاوى الأساقفة ضد الملك، وذهبوا بعيداً إلى حد إعلان القرار المرعب والتفوه به ضد جميع مستشاري الملك، الذين كانوا يسعون إلى تحويل عقل الملك وإدارته نحو التجاوزات المتقدمة الذكر.

الحزن المضاعف لـ غ. G الإيرل مارشال

وجّه الملك في هذه الآونة اتهاماً إجرامياً ضد الايرل مارشال، حول بعض الأمور الشاذة التي أعتقد أنه من الأفضل السكوت عنها، وعدم ذكرها، وبسبب هذه التهم أثير حزن المارشال إلى درجة مضاعفة، لأنه من الجانب الأول حزن لإعادة ذكرى وفاة أخته اللامعة، أي إيزابيلا المتقدم ذكرها، والآن بسبب إحياء اضطهاد الملك ضده، وجرى على كل حال تعيين يوم يقوم فيه بالإجابة على بنود الاتهام ضده، وكان ذلك في ثمانية الفصح، التي تدعى عادة بشكل عام باسم Pasucha. Clausum

مذنب

وأثناء هذه الأيام، وبشكل محدد، خلال شهر شباط كله، ظهر نوع من النجوم كان مظلماً، في المساء، في الجزء الغربي من السماء، وكان يرسل أشعة نحو الشرق، وقد أعلن كثيرون بدون تردد أنه مذنب.

الامبراطور ينتقد الملك لسماحه بنقل مال من أراضيه من أجل إلحاق الأذى بهما معاً

وقبل انتهاء أعمال المؤتمرالمتقدم الذكر، قدم رسولان من عند الامبراطور إلى الملك، أرسل الامبراطور بوساطتهما رسالة إلى الملك مكتوبة، بأنه مندهش جداً لأنه سمح هكذا بشكل مهين للامبراطور للتعرض بصورة غير معقولة لعقوبة الحرمان الكنسي، في بلد هو أكثر البلدان تمسكاً بالمسيحية، وأن ذلك تمّ من دون أية معارضة من جانبه، ودون أن يتذكر المعاهدة والتحالف الذي دخلا به أثناء زواج ايزابيلا، التي هي الآن امبراطورة، وبذلك سمح لوضعه ولاسمه الجيد، كأمير أعلى، بالتعرض للذم، وبناء عليه طالب بطرد الذي ساعد على هذا العمل، أي النائب البابوي، الذي استدعاه الملك بشكل غير حكيم إلى

ممكلتـه، بطرده من المناطق الانكليـزية لأنه أعلن عنه عـدواً له وكـذلك لمملكة انكلترا، ذلك أنه جـرف بشكل وقح جميع الأمـوال التي وصل إليها ومن كل واحد وصل إليه، وذلك من أجل إشباع نهم البابا، ولكي يلحق الأذى بالمقام الامبراطوري.

وإلى هذين الرسولين أجاب الملك، بأن واجبه كان إطاعة أوامر البابا والكنيسـة، وأن يبادر إلى ذلك ويفعله، أكثـر من طاعة أي أمير آخـر في العـالم، وبـذلك يستطيع أن يبرهن بأنه تابـع اقطاعي للبـابا يـؤدي إليـه الجزية بموجب الامتيـاز، وهكذا بقيامه بهذا الاعتـذار، قد جلب الاتهام ضـد نفســه، وأمل بأن يحصل على رضـا الامبراطور، فكتـب إلى البـابا يرجوه بحـرارة، بسبب عواطف الامبراطور نحـوه وقرابتـه، أن يتعامل معه باللطف، وعنـدما وصل هذا إلى البابا، انفجـر غاضبـاً بعنف وتفوه بكلمات الملامة التالية:

«في الحقيقـة لايمكـن العثـور على رجل صــادق واحـد في انكلترا»، وكـان رجـلاً واقفـاً هناك، فعقب على كـلامـه وكأنـه يدافع عن الملك، حيث قال:

«أيها الأب المقــدس، حـول هذا لاتعجـب، إذا لم يضع ملك انكلترا الثقـة في رعـاياه الانكليـز، بل وضعهـا في الأجـانب، لأنه لايوجـد بين الانكليز واحد أهل للثقة»، ويقال بأن الرجل الذي تفوه بهذه الكلمات، هو سيمـون النورماني، واستثير المعلـم روبرت دي سمركـوت Smer Cote وغضب غضبـاً عظيماً بسبب الكلمات التي جـرى تبـادلها من على الطرفين، لكنه —بحكم كـونه رجـلاً حكيماً— ضبط نفسه، خشيـة أن يتـولى النقد، لأنه كـان رجلاً انكليـزياً من حيث المولد، لكنه مـرتبط باخــلاص إلى البـابا، الذي عمـل منه كـاردينالاً، على الـرغم من جميع الاعتراضات عليه.

النائب البابوي يرفض العودة إلى وطنه على الرغم من انذاره بفعل ذلك

وصار الملك، يتوقع، نتيجة لما حصل، وقوع شيء في المستقبل له، لأنه اتخذ صديقاً مقرباً إليه من مثل هذا العدو السري للمملكة، أي النائب البابوي، لذلك نصحه بإخلاص، بعدم إثارة غضب الجلالة الامبراطورية بالاقامة مدة أطول في المملكة، بل عليه عبور الألب في أقصى سرعة ممكنة وفي أقرب وقت، والقيام بالتشاور مع البابا، وعلى هذا ردّ عليه النائب البابوي قائلاً:

«إنك أنت الذي دعوتني من بلاطي، وأنا أطالبك بأمان، حتى أتمكن من العودة سالماً»، أما بالنسبة لرسولي الامبراطور، اللذين أشرنا إليهما من قبل، فإنهما عندما علما بجميع هذه الأشياء، عادا إلى مولاهما لإخباره، بجميع مارأياه وماسمعاه، لأنهما كانا أشبه بجاسوسين عاقلين.

النائب البابوي يظهر نفسه جامعاً للمال لايتعب

ولم ينس النائب البابوي، في الوقت نفسه، عمله الخاص، بالاستيلاء على الأموال وعلى الموارد لصالحه الشخصي، مرغماً الناس على أن يدفعوا ضرائبه الاضطهادية، وفي حوالي أيام عيد بشارة القديسة مريم، أرسل أوامر دقيقة إلى الأساقفة، ورؤساء الشمامسة، كان نصها هو التالي:

رسالة النائب البابوي

«من أوتو، الذي هو برحمة الرب، إلخ، إلخ، إلى الرجل المستقيم، كذا وكذا أسقف، أو رئيس شمامسة، تحيات:

تقديراً لحكم الضرورات، ولرسالة أرسلت من الحبر الأعظم، نحن سنطيل إقامتنا هنا، وبما أننا لانستطيع القتال على نفقتنا الذاتية، نحن نأمركم ونطلب منكم، بموجب سلطات المنصب الذي نشغله،

وباسمنا، أن تتدبروا جمع أموال الوكالات التي هي حق لنا في أسقفيتك، أو رئاسة أسقفيتك، وأن ترسل إلينا بأسرع وقت ممكن، وضبط جميع المعترضين بوساطة الروادع الكنسية، شريطة أن لاتتجاوز كل وكالة، في أي حال من الأحوال، مبلغ أربعة ماركات، وإذا لم تتمكن كنيسة واحدة من تقديم مبلغ وكالة، يتوجب اتحاد كنيستين مع بعضهما بوكالة واحدة.

صدر في لندن، في هذا اليوم الخامس عشر من شباط، في العام الثالث عشر من حبرية صاحب القداسة، البابا غريغوري».

في سبيل استخراج المال الرومان يعفون الصليبيين من عهدهم

تلقى في هذه الآونة، النائب البابوي أوامر من البابا، بموجب خطة ماكرة أخرى، لاستخراج المال من أتباع الكنيسة، وهذا ماتوضحه محتويات الرسالة التالية، إلى القارىء الحريص:

«إلى الأسقف كذا وكذا، وإلى جميع أولاده المحبوبين، وإلى رؤساء الشامسة في أسقفيته، تحيات:

لقد تلقينا رسالة من صاحب السمو النائب البابوي، مقصدها ومحتواها هو مايلي: من أوتو، إلخ: لقد عرفنا بأن بعض الصليبيين من مملكة انكلترا، الذين هم غير لائقين للقتال، قد ساروا إلى المقام الرسولي، حتى يجري هناك تحليلهم من عهدهم للصليب، وبما أننا تلقينا مؤخراً رسالة من البابا، بأنه يتوجب علينا ليس فقط تحليل هؤلاء الأشخاص، بل أن نرغمهم على انقاذ عهودهم، ونحن نرغب أن نوفر عليهم الاضطراب والنفقات، بموجب فضيلة المنصب الذي نشغله، ولذلك نطلب منكم، ونأمركم أيها الأب المقدس، بأن تتولوا الإعلان عن السلطة التي منحت إلينا من قبل الحبر الأعظم، من دون تأثير في أسقفيتكم، حتى يتمكن الصليبيون المتقدم ذكرهم من نيل

الفرصــة المتوفرة، وأن يقـدموا إلينا لتسلم المنفعة في هذه القضيـة، وفقاً للصيغــة التــي أرسلـت إليـــنا. صــدر في لندن في الخامس عشر من شباط، في العــام الثالـث عـشر مـن حبريــة صاحـب القداســة البابـا غريغوري».

الإيرل سيمون يحضر نفسه من أجل رحلته إلى القدس

في الأول من نيســان لهذا العـام، وصل سيمون دي مـونت فـورت، إيرل ليستر، واستقبل بتشريف كبير من قبل الملـك، ومن قبل بلاطه، ثم إنه ذهب نحـــو ممتلكاته، وبـاع غـاباتـه وأراضيــه، وجمع المال لشراء الضروريات من أجل رحلتـه، لأنه كان على وشك المغـادرة إلى القدس، في العبور المقبل، أما زوجته التي كانـت حاملاً، فقد بقيت في القارة، ثم باع الايرل الغـابات الفخمـة العـائـدة لليستر إلى الاسبتـارية، وإلى كهنة ذلك المكان، وتسلم حوالي الألف باوند من أجلهم.

خلاف بين سكان أوكسفورد والباحثين فيها

وفي تلك الآونة نفسها، نشب خلاف جـاد بين الباحثين في أكسفورد وبين سكان المدينة، وبناء عليه، غادر عدد كبير من الباحثين تلك المدينة وذهبوا إلى كليات كمبردج، حيث حصلـوا على منحة بعض الامتيازات ضد البورجوازية، وحصلوا على صك الملك من أجلهم.

منع بعض القرصان من الدخول إلى انكلترا

وفي هذه الآونة أيضــاً، كـان الملك متيقظـاً، فقـد فتح عينيـــه، ومنع القـرصان من الـدخول ثانيـة إلى ممتلكاته، وبشكل خـاص شعب السين Sens, الذين لوثوا بلاده الجميلة، بوساطة مصـادراتهم غير العادلة، ورباهم السري، ولقـد غضبوا وحـزنوا لمجرد التفكير بفقـدان مثل هذه البلاد المغذية الجيدة فقاموا عن طريق تقديم الأموال، الأمر الذي يرضي بالعــادة الرجـال الأشرار وغير العــادلين، فبقيــوا هناك بشكل سري،

وبأعداد كبيرة.

وفاة للويلين ونشوب خلاف بين أولاده

في الحادي عشر من نيسان من هذا العام، الذي وافق عيد القديس غوثلاك Guthlac, غادر الجسد للويلين، أمير شمالي ويلز، وكان ذلك بعدما أخضع غريفين Griffin, الذي رفع كعبة وشن الحرب ضده، وبعدما نشر السلام في المناطق الويلزية العائدة له، وإثر وفاته، قام ابنه داوود الذي إليه عيّن والده امتلاك ويلز، ولتكون ميراثه، وذلك مع موافقة أخيه الأسن غريفين، قام بنوايا خيانية، فاستدعى أخاه —غريفين المذكور— للاجتماع به، وبناء عليه، قدم بشكل مسالم، تحت جوار أسقف بنغور Bangor وبعض النبلاء الآخرين، ولكن داوود على الرغم من علاقة الأخوة، ومن الثقة الحسنة، أمر به فاعتقل، وأودعه السجن على الرغم من اعتراضات الذين منحوه الجوار.

الملك يتدبر تدشين ولاية ابنه ادوارد

وفي هذه الآونة جعل الملك سكان لندن، والمتولين للموانىء الخمسة، مع عدد كبير آخر، يقسمون يمين الولاء إلى ابنه الأسن ادوارد، وكانت في هذه الآونة أيضاً قد راجت تقارير أفادت بأن الداشيين Dacians يعدّون العدة لغزو انكلترا، لكن هذه الأخبار صدرت عن شيء لم يتجاوز أنهم كانوا، يستعدون في سفن محملة بالناس من كلا الجنسين، لسكنى المنطقة التي تعرضت للدمار على أيدي التتار، وزراعتها، وإعادتها للاستخدام من قبل المخلوقات البشرية.

تحليل بعض الصليبيين من عهودهم بدفع مبلغ من المال

بدأ الآن رهبان ووعاظ الفرنسيسكان، ورجال دين آخرون، ولاسيما اللاهوتيون، بتحليل الصليبيين من عهودهم، مقابل تسلم مبلغ من المال

من كل واحد منهم، بدا أنـه كان معادلاً لما كـان سينفقه الصليبي لشراء الحاجـات الضرورية لـرحلتـه، ونتج عن ذلك قيـام فضـائح كبيرة وانشقـاقـات كثـيرة بـين الناس، لأنه بـدا أنه مـن غـير المعقـول، حتـى بالنسبة لأبسط النـاس عقـولاً، المصـائـد المتنوعـة التي سعى البـلاط الروماني بوسـاطتها لتجـريد شعب الرب السـاذج من حاجـاته الأسـاسـية، حيث كـان يسعى وراء شيء واحـد فقط هـو الذهب والفضة.

البابا يستخرج جزء الخمس من ممتلكات المنتفعين الأجانب في انكلترا

واقترح البابا الآن، وقرر استخراج جزء الخمس من ممتلكات وموارد منافع الأجانب ورجال الدين في انكلترا، في سبيل اغضاب الامبراطور، الذي كـان محاطاً بالمخـاطر من جميـع الجهـات من قبل أعـدائـه، الذين دعمهم البابا بالمال الذي جمعـه عن طريق الاستخراج في انكلترا، كما أنه تابع العمل في تحليلهم جميعاً من التابعيـة التي كانوا مربوطين بها بالولاء للامبراطور المذكـور، وبذلك ثبتت هذه العداوة المرعبـة، وازدادت يوماً إثر يوم، وأيضاً قال المستشارون المخلصون للملك:

«مـولانا الأكثـر شهـرة وسيـدنا، لماذا سمحت لانكلترا لأن تكون مسلوبة ومنهوبة من قبل هؤلاء الذين قدموا إلى هنا، وجعلتها مثل كرم بلا سـور، نهباً لكل عـابر، وأن يتعـرض للاجتثـاث من قبل الأرانب البرية، مع أنك تمتلك امتيـازاً فعـالاً بمنع مثل هذه الاستخـراجـات في هذه المملكة، والـذي هو غير جـدير بذلـك الامتيـاز، هو الذي يسيء استخدامه، بعدما منح إليه»، وعلى هؤلاء الذين نصحوه هكذا ردّ الملك قائـلاً: «إنني لاأرغب كما أنني لاأتجرأ على معارضـة البابا في أي شيء»، وبذلك استولى على الناس يأس محزن جداً.

قسوة الأنواء

في اليــوم الذي أعقـب عيــد القــديسين بيربتـــوا Perpetua وفيليسيتاس Felicitas (٧- آذار) هبت عواصف من الـريح قوية إلى أبعد الحدود وعنيفـة، أحدثت الاضطـراب في الأجواء كلهـا، وكان من بين نوادر عجـائب الوقـائع، أنها حملت حجـرة، من الصعب على رجل قوي رفعها من على الأرض، حملتهـا من رأس الكنيسة إلى مسافة بعيدة جداً عنها.

النائب البابوي يسعى إلى إرغام الأساقفة على دفع جزء الخمس من مقتنياتهم

اجتمع في هذا العـام رؤساء الأسـاقفـة، والأساقفـة، ورؤساء رعـاة الديرة مع بعض نبلاء المملكة، في ردنغ، لسماع رسـالة من البابا، أعلنها النائب البابوي، وعندما اجتمعوا كلهم هناك، قام النائب البابوي بعمل قـداس طويل، حـاول فيه استمالة قلـوب الذين استمعوا إليـه، ثم قـام أخيراً فبين لهم جميع أنواع المصـاعب التـي يعـاني منهـا البـابا، في سبيل الحصول على العـدالة للكنيسة، فطالبهم بإلحاح بدفع جـزء الخمس من جميع مقتنياتهم، فبـذلك يستطيع أن يصدّ الأذى الصـادر عن مثل ذلك العدو القوي، وعلى هذا ردّ الأساقفة —بعـد عقدهم مؤتمراً للتشاور— بأنهم لن يستطيعــوا مطلقـاً تحمل مثل هذا العبء الثقيـل جـداً، الذي يتعلق بالكنيســة كلهـا أيضـاً، من دون حـوار دقيـق، وتقليب لأوجـه الأمور طويل، وبناء عليه جـرى تحديد يوم لهم، في تاريخ بعيد، للحوار حول هذه الرسالة الهامة.

قيام الإيرل رتشارد بوداع الأساقفة الذين اجتمعوا في ردنغ

وقام الايرل رتشـارد، والفرسـان الصليبيون الآخرون، الـذين كانوا حضوراً في هذا المكان، فقالوا وداعاً لجميع الذين اجتمعوا هناك، لأنهم

كانوا جاهزين للشروع برحلتهم إلى القدس، وعندما رأى الأساقفة هذا، انفجروا كلهم يبكون، وقالوا للايرل رتشارد:

«لماذا أيها الايرل، ياأملنا الوحيد تتخلى عنا؟ أو بسبب من أنت تهجرنا؟ سوف نكون معزولين من دونك، ففي أثناء غيابك سوف يغزونا الأجانب الطامعين»، ثم إن الايرل، ردّ وهو يبكي على واحد منهم، وهو رئيس أساقفة كانتربري ممثلاً للجميع قائلاً:

«أبانا ومولانا، تريد الصدق، إنني حتى وإن لم أحمل الصليب سوف أذهب، وأغيب نفسي، حتى لاأرى الشرور التي لحقت بشعبنا، ولا الدمار الذي ألمّ بالمملكة، الذي من المعتقد أنني قادر على منعه، مع أنني في الحقيقة، أنا غير قادر على فعل ذلك».

تكريس الهيكل الجديد

وجرى في هذه الآونة تكريس كنيسة الهيكل الجديد في لندن، وكانت مبنى مشيداً بطريقة رشيقة، وجرى التكريس بحضور الملك مع كثير من نبلاء المملكة، وفي اليوم نفسه، الذي كان يوم الصعود، وبعد الفراغ من الأعمال الوقورة للتكريس، جرت حفلة ووليمة كبيرة على نفقة الاسبتارية.

إعدام عدد من قطاع الطرق

وفي اليوم الذي أعقب هذا الاحتفال المهيب، جلبت رؤوس عشرة من قطاع الطرق، كانوا قد اعدموا في المناطق الشمالية من انكلترا، إلى لندن، وكان واحد منهم اسمه جون أوف أكتون Acton, قد قيل بأنه كان مقدمهم وقائدهم.

وفاة إيرل وارني

ووقع في هذا العام وليم ايرل وارني Warrenne مريضاً في

لندن، وقد مات في السابع والعشرين من أيار.

جواب المحكمة حول الميراث الذي ينتقل إلى الأخوات

أرسل في هذا العام موريس فتزجيرالد، المسؤول عن العدالة في ايرلندا، أربعة فرسان إلى بلاط الملك وطالب بمعلومات حول القضية المذكورة أعلاه [فتلقى الجواب التالي]:

«من هـ . H بفضل نعمة الرب، إلخ، إلى المسؤول عن العدالة في ايرلندا، تحيات:

قدم إلينا مؤخراً بعض الفرسان من مقاطعة ايرلندا، وأوضحوا لنا بأن رجال عدالتنا، الذين يتجولون في تلك المناطق، هم غير متأكدين في القضية المتعلقة بالميراث الذي ينتقل إلى الأخوات في مملكتنا في ايرلندا، حيث توجب على الأخوات الأصغر أن يستحوذن على ممتلكاتهن من الأخت الأسن، وأن يقدمن الولاء من أجل حصصهن، أو من سيدهن الرئيسي، وأن يقدمن الولاء له، وبما أن الفرسان المتقدم ذكرهم قد سألوا عن العادة الجارية في مملكتنا في انكلترا في القضايا المماثلة، رأينا —بناء على طلبهم— أن نخبركم، بأن القانون في مملكتنا هو كما يلي:

إنه إذا ما كان هناك مستحوذ منا بشكل رئيس وكانت له بنات ورثة، سوف تكون إجراءاتنا عند وفاة الأب، هو أننا سوف نتسلم بشكل دائم الولاء من جميع البنات، وهن في هذه الحالة إفرادياً وجماعياً يستحوذن منا بشكل رئيسي، وإذا ما كن تحت السن، علينا تقع المسؤولية عنهن وكذلك تزويجهن، وإذا ما كن مستحوذات من أي شخص غيرنا، وكانت الأخوات تحت السن، فإن مولاهن يمتلك الوصاية وتزويج كل واحدة منهن، وسوف تقدم الأخت الكبرى فقط الولاء لمولاهن عنهن جميعاً وبالنسبة للأخريات، فعندما يبلغن السن، فسوف يقدمن خدماتهن إلى السادة أصحاب الاقطاع، بوساطة يد أختهن الكبرى، وسوف لهذا

السبب لن تفـرض الابنة الكبرى الولاء، أو الوصـاية، أو أي نوع من أنواع الطاعة الأخرى، على الأخـوات الأصغر، لأن جميع الأخوات هن ورثة متحديـن لملكية واحدة، وإنه إذا مـاسمح للأخوات الكبـار بتسلم الولاء، أو الوصاية من الأخـوات الأخريات، فإن الملكية نفسهـا سوف تتقسم، وبناء عليــه فإن الأخت الكبرى سـوف تكون فـوراً وبالوقت نفسـه السيـدة والوارثة لإقطاعيـة واحـدة، أو على الأقل الوارثة لحصتنا وسيــدة لأخــواتها، وهذا أمــر في هذه الحالـة لايمكن أن يكون، لأن الأخـت الكبرى لايمكن أن تطـالب بـأي شيء أكثـــــر من الأخـت الصغرى، ما لم تكن الدار الكبرى تحت عنوان الأسن، وإلى جانب هذا، إذا كـانت الأخت الكبرى ستكون الوارثة لجميع الأخوات الأخـريات، إذا ما متن مـن دون ورثة خاصين بهن، وإذا كانت تمتلك الـوصاية على أخــواتها، أو على أولادهن، فإن ذلك ســوف يكون مثـل إعطاء حمل ليجـري افتراسـه من قبل الذئب، وبناء عليـه إننا نأمـرك في هذه الحالة، بأن تأمر بمراعاة هذه العادة المتقدم ذكرها كما نراعيها نحن في مملكتنا في انكلترا، وأن يجري الإعلان عنهـا، وتطبيقها بدقـة، كما ذكرنـا أعلاه، في مملكتنا في ايرلندا. شهدت بنفسي في نورويك، في هذا اليوم الثالث عشر من آب، في السنة الرابعة والعشرين من حكمنا».

إلغاء إدعاءات رئيس الأساقفة من قبل الملك

كان في هـذه الآونة، إدموند رئيس أسـاقفة كـانتربري آملاً، ومتـوقعاً بثقـة، أن ينال المسـاعـدة نفسها أو مـايماثلهـا، كما نالها الشهيـد المبـارك تومـــاس —الذي هو سلف رئيس الأســاقفــة المذكـور— من البـــابا الاسكندر، صـاحب الذكرى الطيبـة، فقد بـدأ برسائل حـزينة، وبرسل خـاصين، بعمل شكـاوى محزنة، بما كـان واثقـاً مـن التمكن من تحويل القلب الحجـري للبابا إلى قلب حي، وقـد رجـاه وحثه على إلغـاء تلك العادة المرفـوضة والمدمـرة للكنيسة، التي بوسـاطتها يقـوم الملوك، لابل

الطغـاة، ومن خلال أعـداء الكنيسـة والمتمرديـن ضدها، بعـدم السماح للكنائس الكاتدرائيـة والديرية، المحـرومة من رعـاتها، بالتنفس، ولا أن تزود أنفسهـا بشكل حـر وقـانوني برعـاة مـوائمين، وأن لايقـوم الملك، بإتباعـه لرغباته بدلاً من إتباع عقله، بإعـاقة انتخابهن، بوساطة وكـلائه الماكرين الذيـن احتفظ بهم من أجل هذه الغاية، وأنه إذا مـا كانت هناك أية كنيسة بين الكنائـس قد حرمت من راعيهـا وبقيت شاغـرة لمدة ستة أشهـر، يتوجب تزويدها براعي صـاحب كفـاءة من قبل رئيس أساقفـة المكان، ولكن عندما كـان إدموند المذكور كبير التـوقع والثقة بأن يصبح —من خلال الوعود المخادعة للبـلاط الروماني— توماساً جديداً، ومن خلال جهـوده المجيدة، سـوف يجري تدمير العادات الشريرة في انكلترا، وأن البـابا غــريغـوري سـوف يتقمص شخصيـة الاسكنـدر، بالنسبـة لتوماس المبـارك، الذي كان رفيقه بالمنفى ومساعـده، فلقد تبين أن البابا غـريغوري المذكـور هو رجل جبـان، فبناء على رسالة وصلتـه من ملك انكلترا، أعلن فيهـا أن هذا كان معـارضاً لكرامتـه الملكية، وقـام بنقض جميع المقـاصـد التقوية لذلك الـرجل وألغاها، وهو المقصـد الذي كـان رئيس الأساقفة المذكور، قد حصل من أجله على رسائل من البابا مقابل انفـاق كبير من المال، ولدى اكتشاف الملك لهذا، أصبـح طاغية أكثـر مما هو معتاد، ففرض انتخاب بونيفيس Boniface, وذلك على الرغم من امتيـازات كنيســة وستمنستر، وأعـاق الانتخـابـات الأخـرى التي عملت بشكل محق وبتقوى مهيبة.

رئيس الأساقفة يمنح جزء الخمس من جميع الموارد إلى البابا

وعندمــا كـان في هـذه الآونة عقل رئيس أسـاقفة كـانتربري، الذي هو رئيس جميع الأسـاقفة، في حـالـة شـك وأمـل، بالنسبـة للحصـول على غـاياتـه، أي الحصـول على النصر في قضيتـه ضـد الـرهبـان، وافق —وإن كـان بغير رضـاه — على طلـب منـح جـزء الخمــس مــن

مـــوارده، وقام بمبـادرة طيبـة، فـدفع إلى وكلاء الجبـاية البـابوية، مبلغ ثـمانمائـــة مـارك، قبـــل استخـــراجهـــم منـه بالقـــوة، وعنـدما رأى الأسـاقفـة الآخـرون لانكلترا هذا، كـانوا مرغمين على تحمل خسـارة مماثلة.

غاسكوني في خطر

وفي هذه الآونة، بعـدمـا جرى طرد كـافل المملكة في غـاسكوني من تلك المقـاطعـة، قـدم وهو يبكي ويشتكي إلى الملك، مخبراً إياه أنه مـا لم يتخذ إجراءات فعالة سريعة، في سبيل الحفاظ على تلك المنطقة، وإبقائها بين يديه، إنه بـلا شك سـوف يخسر جميع ممتلكـاته هناك في وقت قصير جداً.

الامبراطور يستولي أثناء زحفه إلى المدينة على عدة مدن أخرى

وكـان الامبراطور قد عمل في هذه الآونة هدنة، أو على الأقل نوعـاً من أنواع إيقـاف القتـال، مـع الميـلانيين والبـولونيين، فعـاث فسـاداً في المقـاطعـات الواقعـة في أحـواز المدينة، وكـان محاطاً بجيش كبير، وأنزل المدن والبلدات إلى طاعته، وأخذ السكـان مثلاً لهم بسكان فيتربو، وفقد البابا آنذاك كل أمل ووقع في متاهة اليأس، وكثير من الكرادلة تخلوا عنه وهجروه، وفي الحقيقة لم يبق بينهم ولا واحد تابع اتباعه، باستثناء المعلم روبرت سمـركـوت Summercote, الذي لم يكن بإمكانه التخلي عنه خجـلاً، لأنه هو الذي صنعـه كـاردينالاً، وجـاء تخلي الكرادلة عنه، لأنه كـان قـد تطرف كثيراً بعنفـه لوحـده، بدلاً من ضبط نفسـه بالعقل والحكمة.

الامبراطور يوجّه اللوم إلى ملك إنكلترا لأنه سمح بنشر القرار ضده وبجمع الأموال في أراضيه

وفي هذه الآونة نفسها، أرسل الامبراطور رسالة إلى ملك انكلترا بأنه

مندهش إلى أبعد الحدود، لأنه قام هكـذا بشكل غير حكيم فوزع أمواله بين الأجـانب، لإلحاق الأذى به، وهو الامبراطـور، وكتب إليـه رسـالة جاء محتواها كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى الـلامع ملك انكلترا، تمنيات الصحة وعواطف صادقة:

بما أن التحـالف والزواج يعقد التحـالفـات أحياناً بين ملوك وأمـراء العـالم، فإن العـواطف، أو الاتحاد، بناء عليـه، ينبغي أن يكون قـائماً فيما بينهم، وذلك بنسبــة تصــاعــدية، بما أنهم أعظم من الآخــرين، وكلما ازدادت علواً المكانة التي وضعـوا فيهــا، كلما توجب عليهم أن يضربوا مثلاً بالفضـائل للذين هم دونهم، وعندما يشـاهدون إجماعهم وإرادتهم الطيبة، فإن السـلام والوئام يزداد قـوة بين الناس، وبذلك يزداد الحفاظ على مكانتهم المحترمـة وتزداد حقـوق ممـالكهم قـوة من أجل المستقبل، ونحن نعتقد حتى الآن، أنه من خلال قرابتنا سوف تقوم المنافع من هذا النوع لكل منا ولكم، (ولاسيما وأن الأطفــال، وهم الروابط المقـدسـة، سـوف يرعون ويجري بهم تثبيت رباط قـرابتنا) غير أننا وجـدنا العكس تمامـاً لنوايانا، ولذلك إننـا نكتب إليكم مكرهين، ونحن آسفين، عـلاوة على ذلك لقد وجدنا بأنكم عبرتم بعين الرضا واجتزتم بالأذى الواضح الذي أنزل بنا من قبـل الحبر الرومـاني، والذي اعتقـدناه أنـه غير مـؤيد تمامـاً، بالنسبـة لنا نحن الذين فـوق جميع أمـراء الأرض الآخـرين، هو أنكم سمحتم لقـراره غير العادل والكريـه ضدنا، أن يجري بمعـرفتكم، وعلى مسمع منكـم، نشره في جميع أرجـــاء مملكتكم، ممـا سبب ضرراً كبيراً، وإهانة، وحطـاً من شأن الامبراطورية، والآن قـــد علمنا مــاهو حقيقة مؤكدة، أنك في طاعتك المفتونة، لهذا العدو المميت لنا، والمتشوق لتـدمير شرفنا، والمتعطش لدمنا، قـد سمحت بمـوارد المال، من مكوس

وتبرعــات، أن يزود بها، في سبيـل القتــال ضــدنا، وذلك مـن كنائس مملكتك، ومن أسلافـك (الذين تجبرنا مصاهرتنا على عـدّهم أسلاف لنا أيضـاً) التي أصبحت غنيـة من عطايـاهم التقـوية، وبناء عليـه، دع حكمتك الملكية، عندما لاتكون منحرفة بـوساطة النصائح الماكرة، تقدر فيما إذا كـان لائقاً بكم تعـريض ابن ختن لكم، وأخ لكم، أو على الأقل حليف، أو في جميـع الأحـوال ملـك أو أمير، ضـــده لم تعلن الحرب، تعريضه للهجوم، والحرب ضده بوساطة المساعدة بمالك، علماً بأن ذلك مخالف لشريعة وعادات الممالك، ومـاهي الفوارق فيما إذا كنت قد متنت دفاعـات عدونا بالذهب والفضـة أو بالسلاح من خـلال وساطتك، أو أنك توليت الاضرار بنا؟ وخــاصـة كما نعلم من خـلال التجـربة أنك لاتستطيع ايقاف يد المساعـدة له بشكل فعال عن طريق السماح بتزويده بالمال من مملكتك، الذي وعـد بأن يجند به مرتزقـة للميلانيين وللخـونة الآخرين ضـدنا، والذين يسعى بوساطتهم لاغـواء أعواننا المخلصين لنا بالتخلي عن ولائهم لنا، وهكذا تمكن بالبرطلة والرشوى من شراء ولاء بعض ضعفاء الرجال، مما سبب الحطّ من سمعتهم واظهار ذلك، وليس أقل من هذا هلاكهم الأبدي.

وباسم الرب، لاتدع أيها الأخ العزيـز، أن يتأسس بوساطتك —على أقل ليس ضدنا— قيام الملوك بشكل جائر بالقتال من قبل الملوك، كما عليك أن لاتدع نير الحكم البابوي يضغـط بمثل هذه الشدة على عنقك الملكي، إلى حـــد يجعلك ترى أنـه مما يبعث السرور العظيـم في نفسك الاسـاءة إلى عقائـد الانجيل، وقـوانين الطبيعة، وإلحاق الأذى بجـارك، بابن ختنك، لابل بأخيك، وبشكل خاص في الحالة الحاضرة، فأنت إذا قمـت بتقـدير المسألة بشكـل حكيم وعن قـرب، فإنـك سـوف تجد القضـة ليست لصـالحنا وليست لصـالحكم أنتم أنفسكم، ولا لصـالح الملوك والأمراء الآخرين العرضة للخطر نفسه.

وبناء عليه، إننا بهذا الغرض، نسألك بعاطفة صادقة، ونرجو جلالتك المخلصة، بحكم تقديرك لعواطفنا ولشرفنا، أن تقوم بشجاعة وبثبات، بأن تعارض ببراعتك وقوتك، تلك الإجراءات التي نخشى أنها سوف تلحق ضرراً كبيراً بقضيتنا، وأن لاتسمح بحمل أية أموال إلى البلاط الروماني، جبيت من الموارد، والضرائب، والتقدمات، أو من المصادر الأخرى لمملكتك، وإنك لست أنت ولا هو لائق بك، أن تتغاضى أو أن تخدع، أو أن تمر عبر هذا دونما اهتمام، مثلما هو غير لائق بنا أن نقبل تقديم أية مساعدة يمكن أن تطلب منا، أو بوساطتنا لتستخدم ضدك، أو أن نسمح بتقديمها بأية طريقة من الطرق، وغير هذا، من الممكن في حالة مشابهة أو قضية أكثر عدلاً، أن نحتذي بمثلكم، فنقدم المساعدة ضدكم وضد مملكتكم، وهو مارفضناه حتى الآن، وتمنعنا عن تقديمه للذين لهم مشاكل معكم، وإلى الذين هم مرتبطين معنا بروابط عاطفية قديمة، وانظر إلى البابا، في متابعة الدفاع عن قضيتنا العادلة، قد وجد الحظوة لنفسه لديكم، في حين هو لم يقدم إليكم شيئاً ولاعلاقة له البتة معكم، سوى أنه يتبجح —وهذا مانقوله ونحن نشعر بالخجل— بأن له سلطة السيد الاقطاعي عليكم.

وفيما يتعلق بجميع القضايا التي جرى ذكرها أعلاه، وكذلك في سبيل تأدية خدمات أخرى لنا في أراضيك، قد أرسلنا هـ . H شالبوست Chalbost, وهو فارس، وتابع مخلص لنا، فهو الحامل لهذه العروض إليكم، ونحن نرجوكم بكل اخلاص، ونسأل عاطفتكم، أن تصدقوا من دون تردد كل مايمكن أن يقوله لكم باسمنا وبالنيابة عنا، كما لو كنا نحن أنفسنا موجودين، وأن تنفذوا مطالبنا، وأن تعطوه جواباً دقيقاً، ونهائياً، حول الذي قررتموه، وجرى ترتيبه من قبلكم بشأن القضايا المتقدم ذكرها، لأننا نرغب في حالات الطوارىء أن نكون على

دراية، وأن نعـرف من الذي يمكن أن نتـوقع منه النصيحـة، ومن الذي ينبغي أن نكون حذرين منه».

وعلى كل حـال جـرى تشـويه الرسـالة الشفـوية التي عهـد بها الامبراطور إلى الرسـول المذكـور هـ . شـالبـوست، مع الرسـالة ذات اللهجـة الصديقـة، التي أوردناها أعـلاه، وكثير من الأشياء حـذفت ولم تذكـر من قبله، ومهما يكن من أمر، كتب الملك له جـواباً، بيّـن فيـه أنه لايتجـرأ على معـارضة البـابا، وأنه مندهش إلى أبعـد الحدود، أن أختـه الامبراطورة، لم يجر تتـويجهـا بعـد بأبهة في الأمـاكن والمدن المعتـادة للامبراطورية.

وصول كونت فلاندرز إلى انكلترا

قـدم في خـلال هذا العـام، تومـاس كـونت فـلاندرز، الذي هو عم الملكة، إلى انكلترا بأبهة عظيمـة، وكـان ذلك بعـد حصـوله على إذن من الملك الفرنسي، ولدى وصوله، استقبل ليس فقط من قبل الملك ورجال بلاطه، بل من قبـل حشـد كبير جـداً من سكان لندن، وهم على ظهـور خيـول مـزينة بشكل فخم، مـع الأبواق وكل مظاهر السرور والبهجـة، وقـد استقبل في لندن بكثير من التشريف، وأثقـل بالهدايا، وأعطاه الملك على الفـور خمسمائـة (أو كما قـال بعضهم ثلاثمائـة) مـارك من الأمـوال الاستيرلينيـة الجديدة، وعمل له منحة بالمبلغ نفسـه سنوياً للعشرين سنة المقبلة، وذلك تقـديـراً للولاء الذي قـدمـه له الكونـت المذكـور، وبعـد الفـراغ من تسـوية هذه القضيـة، توجـه الكونت إلى ويندسـور، ليـزور حفيده الطفل ادوارد، ابن الملك، وعاد بعـد هذا على الفور إلى فلاندرز، لأن الإذن بغيـابه كـان محدوداً بـوقت قصير من قبل الملك الفـرنسي، وعيّـن قبل مغـادرته المعلم هنري الفـلاندري، وكيـلاً له ليتسلم الهدايا التي منحت إليـه، وقام الملك على الفـور بمنح بعض الموارد اللاهوتيـة، فصارت فجأة من نصيب الكاهن هنري المذكور، ولدى تحميل الكونت

المذكور بالهدايا الثمينة من الملك، بدأ بإثارة الحرب في مقاطعاته، وحشد بعض الجنود المرتزقة والأتباع التي استأجرهم مقابل أجرة، وبعد حشده هكذا لجيش كبير، في وقت قصير من الزمن، هاجم الأسقف المنتخب لليبج، الذي كان من حزب الامبراطور، ومن أقربائه، وهاجم أيضاً بعض الآخرين التابعين للامبراطورية، الذين كانوا —بناء على أوامر الامبراطور— قد بقيوا مع الأسقف المنتخب المذكور.

كونت فلاندرز يشنّ الحرب على الامبراطور

وعندما سمع صاحب الجلالة الامبراطور بإجراءات الكونت، أرسل إلى المذكور رسالة تهديدات مرعبة، ليتوقف عن إجراءاته الطائشة والجريئة، وإذا لم يتوقف —وذلك على عكس ما يستحقه الامبراطور منه— وتابع مضايقته، وهو المنزعج بسبب كثير من القضايا القاسية، وباغضاب البابا له، وكذلك إذا لم يتوقف عن مضايقة حلفائه، وبشكل خاص الأسقف المنتخب لليبج، الذي هو صديقه وقريبه، والذي دعي إلى مقامه بشكل محق، وإذا لم يتوقف عن إثارة الاضطراب للامبراطورية، هو قد أمر أيضاً دوقي لوفيان Louvain وبرابانت وآخرين من الجيران الأقوياء، بالقيام بالتصدي لحملات كونت فلاندرز واضعافها، ثم إنه كتب أيضاً إلى كونت بروفانس، الذي كان من المعروف أنه من حزب الامبراطور، يأمره بحكم كونه حليفه المخلص بأن يتصدى لخطط كونت فلاندرز وأن يحبط محاولاته، وهي الخطط والمحاولات التي حرض عليها الكونت المذكور برعونة،ولكن بما أن هذين النبيلين: كونت بروفانس وكونت فلاندرز رفضا إطاعة أوامره، كتب الامبراطور إلى كونت طولوز، يأمره تحت طائلة آلام العقوبة المحقة، بأن يشن الحرب ضد كونت بروفانس، الذي تاه عجباً وصار عاصياً بسبب ابنتيه الملكتين، ورفض معاقبة كونت فلاندرز، وقام الامبراطور نفسه بإرسال مساعدة مؤثرة إلى كونت طولوز، من أجل

مضايقة كونت بروفانس، وقام النبيل المتقدم ذكره على الفور بإطاعة أوامره.

إخفاق محاولات كونت فلاندرز

ثم وجد كونت فلاندرز أن حملاته الطائشة والجريئة قد أخفقت في تحقيق الآمال الفعالة التي بنيت عليها، وأن قوة الامبراطور كانت أكثر ثباتاً ضده، وأصبح أكثر خوفاً من تهديداته، وقد أخبر بطرق عديدة بوفاة أخيه وليم، الذي جرى انتخابه من قبل حزب البابا، فأوقف بمهانة الحرب التي دخلها بشكل غير حكيم، وذلك بعد انفاقه مبلغاً كبيراً جداً، وبعدما أثار كثيراً من الأعداء ضده نفسه، ولأن الكونت المذكور كان عائداً لمملكة فرنسا، التي تدخلت وقدمت الحماية له، فقد أخفى مشاعره بالانتقام لبعض الوقت، مقرراً —على كل حال— أن يسدد له في بعض الوقت المستقبلي.

الحرب بين كونتي طولوز وبروفانس

وكان كونت طولوز على استعداد أكبر لإطاعة أوامر الامبراطور، ومرد ذلك إلى الأذى الذي غالباً ما لحق به على أيدي الفرنسيين، وقد نهض وانبعث شخصياً بناء على استدعاء الامبراطور وزحف برغبة ونشاط ضد كونت بروفانس، الذي أنزل به أضراراً لاتعوض، وقام كونت بروفانس على كل حال بالفرار، ووضع نفسه تحت حماية الملك الفرنسي، ورجاه بتواضع، بسبب مكانة واحترام الملكة الفرنسية التي هي ابنته، بأن يعطيه مساعدة فعالة، لأنه يوجد في أفينون وبشكل خاص في المقاطعات الواقعة على الرون، بعض النبلاء الفرنسيين، الذين قدموا إلى هناك مع لويس الملك الفرنسي، والذين كانوا قد استولوا بالقوة، على بعض القلاع، والبلدات، والمدن، وانتزعوها من لويس المذكور، وذلك بناء على تحريض من البابا وبمساعدة منه، ومايزالون يحتفظون بهم بالقوة، وهم منتزعين منه، وعندما سمع هؤلاء الرجال

بأن أبا الملكة قد نال السوء في الصراع، وأنه كان يستجدي المساعدة بسبب محبة الملكة، ولكي يتمكن من استرداد أنفاسه احتشدوا، وطاروا إلى السلاح، لمساعدة كونت فلاندرز، وكان كونت طولوز —على كل حال— على دراية بخططهم، فنصب كميناً لهم، وواجههم بقوة عظيمة، وقتل عدداً منهم بحد السيف، وصدّ محاولاتهم حسبما رغب وأراد، ونجحت الحملة على يديه نجاحاً كبيراً، حيث تمكن في وقت قصير من الاستيلاء على حوالي عشرين قلعة، وانتزاعها من الفرنسيين ومن كونت بروفانس، وبعد طرده للعصاة المتملكين لهم، أعادهم إلى حكمهم السالف.

ملك انكلترا يكتب إلى الامبراطور لصالح كونت بروفانس

وعندما سمع ملك انكلترا بأن كونت بروفانس قد عانى من خسارة كبيرة في هذا الصراع المدمر، قام بناء على ضغط ومبادرة من الملكة، فكتب إلى الامبراطور، بطريقة صديقة، ورجاه من أجل خاطر القرابة، التي هي بالعادة توحد الأمراء، وبحكم رحمته الامبراطورية، أن يقوم بتوفير كونت بروفانس والحفاظ عليه، لأنه والد زوجته.

الملك الفرنسي يشنّ الحرب على كونت طولوز

وعندما سمع الملك الفرنسي، القوي جداً، بالأضرار الكبيرة التي أنزلت برعيته، ولأنه اعتقد بأن هذه الأضرار قد نزلت به ولحقت من قبل الامبراطور، انفجر غاضباً بعنف، ضد الامبراطور، وكذلك ضد كونت طولوز، ورغب باستخدام كل الوسائل لترميم خسائره وأضراره، وأن يعاقب هذه الأعمال الطائشة، فقام بوساطة تراخيص ملكية، وبسرعة رهيبة، بحشد جيش كبير من نبلاء فرنسا، وذلك بقدر مااستطاع، ولكي لايندفع هؤلاء النبلاء، وينزلقوا في صراع طائش متسرع، قاموا بتواضع مناسب، فسألوا الامبراطور نفسه، عما إذا كانت

الحرب قـد تأصلت من قبله، وفي الوقت نفسـه، وبسبب خسائـر جيش الملك في الأرض المقـدسـة، ولكي لايخسر البقيـة بالتعرض للجـراحـة، أرسل ملك فرنسـا سبعمائة من الفرسان مع عـدد أكبر من الأتباع لصدّ حملات الأعداء في بروفانس.

تبرئة الامبراطور

وهكـذا وجّهـت الملامـة إلى الامبراطـور، ووصل الأمـر إلى حـد اتهامـه بالاجـرام، فأنكر ذلك كله بشـدة، وقـال بأنه لم يخطر بذهنه قط، تعـريض أي واحد من المملكة الفـرنسية للأذى من قبله، لابل كـان هو بالحري على استعـداد للوقـوف ضد أعـداء تلك المملكة، وعن طواعيـة وبرجـولة للقتال ضـدهم، لأنه يعـرف أنهم لايستحقون شيئاً آخـر منه، وقـال بأنه «بعيـد عن تعـويـض الخير بالشر، لكن إذا كـان هناك بعض الأشخـاص الفـرنسيين المجاوريـن لأراضي كونت طولـوز، قد قـامـوا إرضـاء منهم للملكـة بمهـاجمة عـدو أبيهـا، وذلك بشكل متسرع وبلا حكمة، وأقدموا من دون أمر من مولاهم الملك بشن الحرب علينا، فقام شعبنا الذي تعـرض للأذى، بصدّ هذه الحمـلات، وانتقم للأضرار التي كـانت غير متوقعـة، فلا عجب في ذلك، يضـاف إلى هذا أنه ليس هناك من شـك، بأن الذيـن عملوا الشر أولاً قـد أثاروا المخـاطر الأولى، والأضرار الأولى،وبناء عليـه يتـوجب عليهم بقـدر مـاتوفـر لديهم من قدرة، إعادة الممتلكات التي جـرى الاستيلاء عليها من الجانبين، وعمل ترضيـة مـن أجل جميع الأضرار، حتـى لاتتمكن بـذور الخلاف التي زرعهـا عـدو الجنس البشري من النمـو والتكاثر بين مثـل هذه الشخصيـات المتميـزة، ولكي لايمتلك أعـداؤنا المسـوغ لتهنئة أنفسهم بسبب خـلافـاتنا»، وعـلاوة على ذلك صرح كـونـت طولوز إلى ملك فـرنسـا، بأن الامـبراطـور كـان على غـير دراية بما حـدث، وبـذلك برأه.

ولادة ابنة إلى الملك الفرنسي

ومنح الرب في هذه الآونة ابنة إلى الملك الفرنسي، من زوجته م. M, ليزيد من قوة مملكته وهنائها.

مذبحة مريعة للصليبيين في منطقة دمشق

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث في فرنسا، عانى قومنا —تحت طالع غير سعيد— من خسارة محزنة لجيشهم في دمشق، وشملت الخسارة الرجال، والخيول، والسلاح، والكرامة، وهو ماسنرويه بأسف، وكنا قد علمنا به من رسالة هي التالية:

«من الصديق كذا إلى الصديق كذا، تحيات: ليكن معلوماً من قبلكم بأن كونت بريتاني قد قام بغارة بوساطة الفرسان، أمام دمشق، وحصل على أسلاب كثيرة، جلبها سليمة إلى الجيش، وغار منه ايرلا: بار، ومونتفورت، ودوق بيرغندي، فقاموا بعد مضي ثمانية أيام بغارة أخرى، مراغمة لنصيحة كونت بريتاني، وفي هذه الغارة تعرض للقتل ايرل بار، واللورد سيمون دي كليرمونت، واللورد جون دي باري Barre, وروبرت ماليت، ورتشارد دي بيومونت Beaumont, وعدد كبير آخر، ووقع ايرل أماريك دي مونتفورت بالأسر، واقتيد بعيداً، وحمل إلى القاهرة، كماحدث أيضاً بالنسبة لدوق بيرغندي».

وفي الوقت نفسه، وصلت الرسالة التالية من ايرل أوف مونتفورت إلى زوجته الكونتسة وقامت هي بتحويلها إلى الايرل رتشارد:

«ليكن معلوماً لديكم، أن دمشق لم يتم الاستيلاء عليها، كما ذكر من قبل، بل عاد الجميع إلى عكا، وإلى جانب هذا عليّ إخباركم بأن الملك الفرنسي قد نقل جميع أمواله من الهيكل، لأن الداوية والاسبتارية قد رفضوا مساعدة الفرنسيين في هذه الأزمة، وينبغي أيضاً أن تعلموا بأن

ستين قد أسروا وهم أحياء، ثم بعد ذلك أثناء عودتهم، وقع عشرة نبلاء وفرسان واعدين في الأسر.

الامبراطور يحزن لسوء حظ الصليبيين

وعندما سمع الامبراطور بهذا، حزن كثيراً من أجل الصليبيين، مع أنهم رفضوا نصيحته الصحيحة بعدم الابحار من دونه، وكتب على الفور رسائل تهديد مرعبة إلى المسلمين في دمشق وكذلك في القاهرة، يمنعهم —إذا كانوا يقدرون حياتهم— من الإقدام على إساءة معاملة النبلاء الصليبيين، العبيد المحبوبين من الرب، الذين يحتفظون بهم أسرى، خشية أنه عندما سينقض عليهم ويهاجمهم بقواته المرعبة، وبنسوره المخيفة والمنتصرة، وقتها سوف يشعرون بالانتقام الامبراطوري، وبغضب الرومان وامبراطورهم، الذي غالباً ماتلطخت سيوفه بالدماء الشرقية.

رسالة الامبراطور حول القضية المذكورة

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى هنري اللامع، ملك انكلترا، وابن ختنه المحبوب، تمنيات الصحة والعواطف الصادقة:

إن الكارثة العامة، وسوء الحظ المبكي للصليبيين، في مقتل الجيش النبيل للصليبيين، الذي وقع مؤخراً في بلدان ماوراء البحر، بانقلاب للحظ غير متوقع، نحن نبكي بحزن داخلي، وبإخلاص وباستحقاق أعظم، لأننا كنا نرى ذلك ونخشاه قبل مغادرتهم، وكان عقلنا يتوجس من المخاطر التي كانوا سيواجهونها، وكان حدسنا القائم على المواسم والأحداث، يقودنا، حتى عندما كانت أحوالهم متقدمة، لأن نرى سلفاً بمشاعر قلقة مصيرهم الحالي، ونحن نعتقد أنه ليس سراً بالنسبة لسموكم المخلص، كيف أننا حصلنا على خبرة حول مكر المسلمين، في

تلك البلدان في هذه الأيام، وكنا نرغب بتوقعات قلقة أن نكون مستعدين للمستقبل، خشية أن يكون الحظ قد أعدّ لهم شيئاً ليس لصالحهم، وهم الذين كانوا جاهلين بالأعمال، ويقومون بالوفاء بعهودهم من دون التقصي المستحق والمتوجب، ولذلك قمنا بوساطة رسائل متوالية، ومبعوثين خاصين من قبلنا، فحثثنا مقدمي الصليبيين، وبعد ذلك جماعتهم كلها، ليقوموا بتأخير موعد جوازهم، لأنه عندما تتهيأ الفرصة المناسبة وتقوم، إما أن نكون نحن شخصياً، مستعدين لمرافقتهم وقيادتهم، أو اننا كنا سنرسل ولدنا معهم للانقاذ، وذلك فور تمكننا بأية طريقة من الطرق من تسوية الأعمال الصعبة، التي كانت آنذاك تتطلب اهتمامنا الطارىء في ايطاليا، لأنه ليس بإمكاننا توريط أنفسنا بشكل مفيد باهتمامات أخرى، حتى نتمكن من تحرير أنفسنا من الأعمال التي كنا متولين القيام بها، لأننا عندما نكون متحررين من المسألة الأولى، يمكننا بسهولة معالجة الثانية.

ومع أن الصليبيين أفراداً وجميعاً، قد قبلوا بنصائحنا الصحيحة، والتزموا بخطتنا، التي لم يكن لها غايات ماكرة أو سرية، حمّل الحبر الروماني الحالي كلامنا وأعمالنا تفسيراً شريراً، وكأن الخطر سوف يحيق بديانتنا وبالإيمان الكاثوليكي، بتأخير القضية حتى وقت موائم، فحرض الصليبيين وحثهم بوساطة إنذارات متوالية، وأوامر وتهديدات حتى يقوموا بالعبور، وذلك وفقاً لكلمات الكتابات المقدسة: «وضع أعباء ثقيلة على الآخرين، وهي التي لايمكنه أن يحركها باصبعه».

وعندما علمنا بهذا وعرفناه، قمنا بالتماسات متوالية، ورجونا الحبر المذكور أن لايثق بالتقلبات وأن لايعهد لمخاطرات الحظ مثل هذه المهمة العظيمة، التي تتطلب آراء محكمة، ووقتاً موائماً، واستعدادات عظيمة بالرجال والأشياء، وليس تسرعاً ليس حميداً، بتعريض خدمة يسوع المسيح للخطر، وكذلك مساعدة الأرض المقدسة، التي ألهبت قلوبنا،

وكــذلك قلوب كثيريـن، ومثل هذا العــدد العظيم مـن الناس، ولفتنا انتباهه وذكرناه أن ترميم مثل تلك الخسـارة الكبيرة وتداركها ليس أمراً هيناً، ورجوناه أيضـاً أن لاينظر إلى وعدنا بتقديم مسـاعدة كبيرة في هذه المسألة، على أنه كـلام عابث، لأننا أملنا، بوسـاطة شخص ولدنا، الذي هو رعيـة لنا أن نتابع بكل جهـودنا خدمـة يسوع المسيح، والدفـاع عن الأرض المقـدسـة، وتولينا تذكيره بحقيقـة أن السفـك الهائل لدمـاء الصليبيين، في كثير من المعارك المتعـاقبة في الماضي، قـد حقق قليلاً —أو لم يحقق شيئاً— من المنـافع في هذه القضـايا، لأنها غـالبـاً مـا أعيقت بوساطة نقص الرجـال والأشياء، وكانت الحشـود في بعض الأحيان من دون قـائد حـريص وصـاحب نفـوذ، فبـوساطتـه من الممكن أثناء قيـام الخلافات بين عـدة مقدمين، أو أن تقـاعس واحد منهم قـد يمنعهم من اغتنام منفعة الفرص الموائمة، أو توفر الحاجة لضبط سفاهة كثيرين، هو يمكنه أن يخدم مصـالح كل من الحملة والأفـراد، إذا مـا احتفظ بالآراء الصحيحـة من أجل لحظة منـاسبـة أكثـر، ووقتهـا مـن الممكن عمل استعدادات وافرة، وتحت قيادة قائد واحد شديد، هو ضروري للحشد، يمكن وقتها للـديانة المسيحية أن تتقدم أولاً بـالوقت نفسه، نحـو الغاية المرجوة، وأن تستقر واثقة بنصر مضمون.

وقد عدّ هذا الحبر الروماني جميع هذه الأشياء، بلا قيمة كبيرة، ونظراً لكراهيتــــه لنا، ولكي يتمكـن من تـدمير العمل كلـه، أصر بعناد على الصليبيين بوجـوب الاقلاع، من دون أن يعطي تقـدير إلى ان الصليبيين الذين بقيوا في المناطق الأجنبيـة، كانوا مع أعـداء الصليب المانح للحياة مستقرين بسلام تبعاً لشروط الهدنة التي عملت معنا، وأنه إذا ما خرقت المعاهدة بوسـاطة أية حركـة من قبل الصليبيين، فإنهم سوف يتعـرضون لمخـاطر السيف والجوع، لأنه من غير الممكن ارسـال مسـاعـدة سريعـة إليهم، أو تأمين المؤن إليهم.

وعلمنا أخيراً بأن البابا قد بعث ثانية رسائل إلى الصليبيين، يأمرهم بالقيام بالعبور، فكتبنا رسالة إليهم، بأن يقوموا بالزحف خلال مملكتنا إلى مكان ابحارهم، وأننا كنا مستعدين بسرور وبكرم لمساعدتهم إلى أقصى مانمتلكه من قدرة، وقد عبر بعضهم من خلال مملكتنا في صقلية، ومن هناك أبحروا، بينما اختار آخرون العبور بوساطة طريق مرسيليا، ولهذا انتصرت الآن يد عدونا العام على مثل تلك الآلاف المؤلفة من الفرسان، الذين كرسوا أنفسهم لخدمة الأرض المقدسة، مع أننا ينبغي أن نبكي في مقتلهم من الإهانة التي أنزلت بيسوع المسيح شفيع البشرية، وأن نبكي على المسيحية كلها، ونحن نشعر في قرارة أنفسنا ونتعاطف مع ما عانوا منه، وللأذى الذي لحقهم، وبشكل خاص بسبب خسارة أولئك الجنود الشجعان من مملكة فرنسا، فهذه المملكة قد عانت من خسائر قاسية أكثر من البلدان الأخرى.

ونحن على كل حال لانسمح للخسارة أن تكون بلا وسائل تعويض، ولا للحزن أن يكون بلا مواساة، لأننا سوف نسهم بسرور وبكرم من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وسنقدم كل ماتسمح به عظمة الامبراطورية، وبقدر ما تأذن لنا الحالة العاصفة للأحوال في الوقت الحالي، التي تسببت بالنصيحة الفاسدة للحبر الروماني، وكذلك غضبه، ونحن نعتقد، لو أن سلطان مصر، والد السلطان الحالي، مازال حياً، لقام إنطلاقاً من عواطفه الطيبة التي اعتاد أن يبديها نحو شخصنا الملكي، فتولى تلبية طلبنا بالنسبة لمسألة الفرسان النبلاء، الذي وقعوا أسرى أثناء الحروب، ونحن على كل حال سوف نستخدم اهتمامنا الخاص ووسائلنا مع السلطان الحالي، في سبيل اطلاق سراح هؤلاء الأسرى النبلاء، علاوة على ذلك نحن نرغب إليكم أن تضعوا ثقتكم الدقيقة وأن تعتمدوا على كل ما سوف يخبركم به عنا وليم دي كومبيسا Compesa, وهو فارس، ومن رعيتنا المخلصين لنا، حيث أننا

اعتدنا أن نرسله في خدمتنا بمثابة رسول إليكم. صدر في فوجيا Foggia, في هذا اليوم الخامس والعشرين من نيسان، في العلامة الثالثة عشرة».

الامبراطور يسترد عواطف كثير من الناس وعقد مجمع عام

وعندما باتت محتويات هذه الرسالة معروفة، استرد الامبراطور قلوب كثير من الناس، مع أعداد كانوا من قبل متقلبين بعواطفهم واحترامهم له، وقد بدأوا بالوقوف إلى جانبه، وبدأ رجال الشعب الروماني —على الرغم من وعود البابا— يقفون بثبات إلى جانب جلالته الامبراطورية، وأعطاه الشيوخ ذوي الأصول النبيلة المشهورة عهودهم، واجتمع بناء على ذلك شيخ كان قد أوجده الامبراطور في روما في السنة الثالثة قبل هذه، والكرادلة، وأعلنوا أنهم ما عاد بإمكانهم تحمل عنف البابا، مما ألحق الخطر بالمسيحية كلها، ولذلك بيّنوا إلى البابا، بناء على طلب الامبراطور، وموافقته، أنهم استجابة لطلبه، يرغبون بعقد مجمع عام بشكل موائم في أسرع وقت ممكن، وتقرر أن يكون يوم الفصح المقبل الموعد لعقد المجمع، حيث بما أن الرب قد قام ثانية في ذلك اليوم، يمكن للكنيسة أيضاً أن تقوم ثانية في ذلك اليوم، وتتنفس بحرية، وبسعادة.

ختان صبي في نورويك من قبل اليهود

وفي هذه الآونة ختن اليهود طفلاً مسيحياً في نورويك، وبعدما ختنوه أطلقوا عليه اسم يورنين Jurnin, ثم إنهم احتفظوا به ليصلبوه، في محاكاة تأملية لصلب يسوع المسيح، وتمكن والد الطفل —على كل حال— الذي منه سرق اليهود الطفل، بعد بحث متواصل، وبعد طويل وقت من اكتشافه، حيث كان مسجوناً لدى اليهود، فصرخ بصوت مرتفع وأشار إلى ابنه، الذي اعتقد بأنه قد ضاع، لكنه كان محبوساً في

غرفة واحد من بيوت اليهود، وعندما وصلت أخبار هذه الجريمة غير الاعتيادية إلى علم وليم دي ريلي Rele, وكان أسقفاً، ورجل دين حكيم ويقظ، وإلى مسامع بعض النبلاء الآخرين، قام باعتقال جميع اليهود في تلك المدينة وسجنهم، حتى لايتم اهمال هذه الإهانة الموجهة إلى المسيح من دون عقوبة من خلال اهمال المسيحيين، وعندما رغب اليهود في وضع أنفسهم تحت حماية السلطات الملكية قال الأسقف: «هذه قضايا عائدة إلى الكنيسة، وعندما تقوم قضية تتعلق بالختان وبإهانة الدين، فهي لاتقرر من قبل بلاط الملك»، وبناء عليه تبين أن أربعة من اليهود كانوا مجرمين باقتراف الجريمة المتقدم ذكرها، فجرى أولاً سحلهم بعد ربطهم إلى ذيول الخيول، ثم جرى تعليقهم على المشانق، حيث لفظوا مابقي من حياتهم التعيسة.

تكريس هـ . H بيتهول واستخراج الموارد

في الأول من تموز في هذا العام جرى تكريس هيوج دي بيتهول Pateshull, الأسقف المنتخب لكوفنتري وليشفيلد، وتولى التكريس إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، في رئاسة الرهبانية الجديدة قرب غولدفورد Guildford, وجرى تعيين وليم دي هيفرهل Haverhull, وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، خازناً في محل هيوج المذكور، وفي هذه الآونة أيضاً جرى عقد أكثر الاتفاقيات ظلماً بين البابا وبين الرومان (كما روي) وكان الإتفاق، أنه حيثما كانت هناك منافع في انكلترا، يمكن للبابا أن يوزعها، ولاسيما منافع رجال الدين، ينبغي توزيعها بين أبناء الرومان وأقربائهم، وفق رغباتهم، على شرط أن يقوموا برأي واحد ضد الامبراطور، وأن يسعوا لخلعه من العرش الامبراطوري، وهكذا استحوذوا لأنفسهم، السمعة المحترمة لجرأتهم القديمة، وبناء عليه، أرسل البابا، بعد مضي عدة أيام، تراخيصه المقدسة إلى إدموند رئيس

أساقفـة كانتربري، وإلى أسقفي لنكولن وسالسـبري، يأمــرهـم الإعداد لثـلاثمائـة رومـاني لشغل المنافـع الأولى التي سـوف تشـغر، وجعلـهم يفهمـون أنهم معطلون عن إعطاء أية منفعـة حتى يتم الإعـداد بشــكل مـوائم للعـــدد المطلـوب، وتجاه هذا الأمـر تملكت الـدهشــة قلـوب الجميـع، وخافــوا من أن الـذي تجرأ على فعل مثل هذه الأشياء، سوف يغرق في أعماق اليأس.

رئيس أساقفة كانتربري ينفي نفسه

ورأى إدموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان قد خضع —بإرادة أو بدون إرادة— إلى الاستخـراجـات البغيضـة، المتقـدم ذكـرها، ودفع ثمانمائة مارك إلى البابا، رأى الآن أن الكنيسة الانكليزية يداس عليها كل يوم أكثر فأكثر، وأنها كانت تحرم من ممتلكاتها، وتجرد من امتيازاتها، لهذا بات قلقـــاً من أن يعيش ليرى مثل هـذه الشرور على الأرض، ولذلك بعدما طلب الإذن مـن الملك، وبعدما حصل على أجوبة غـامضة، غادر البلاد، محرضـاً من قبل هذه الأضرار المتنوعة، وأبحر إلى فـرنسا، حيث اتخذ مقـراً له مع حاشيـة صغيرة في بونتني Pontigny, وهو مكان كان سلفه القديس توماس قد عاش به في منفاه، وشغل نفسه في الصلاة والصوم.

إصرار أحد الهراطقة

وفي هذه الآونـة كـــان هناك رجل، قـــد تظاهـر بأنه رجـل شريف وصاحب حيـاة متشددة، وكان يرتدي ثياب طائفـة رهبان الكارثوشيين Carthusian, وقـد جـرى اعتقاله في كمبردج، لرفضـه دخـول أية كنيسـة، وعندمـا سئل عن هذا الجنون، أجـاب بطريقة ملتـوية، فجـرى حبسه والتضييق عليـه، وبعد مضي عدة أيام أرسـل إلى النائب البابوي، مـــن أجـــــل سجـــنه في بـرج لنـدن، لأنـه أعلـــن صراحـــة التصريح

التالي:

«غريغوري ليس هو البـابا، وهو ليس رأس الكنيسة، بل هناك رأس آخـر للكنيسة، والكنيسـة قد تـدنست، والخدمات اللاهوتيـة لايجوز أن تعمل بها، مـالم يتم تكريسهـا من جـديد، وكـذلك أوعيتها ومـلابسهـا يتـوجب إعادة تكريسهـا، فالشيطان قـد أطلق سراحه، والبـابا هرطقي، لابل إن غريغـوري هذا الذي يدعى البـابا، قد دنس الكنيسـة والعالم»، وسمع النائب البـابوي هذا، وكـان ذلك بحضـور ر. R راعي دير إيفهـام، والمعلم ن. N دي فينهـام Finham, مع المعلمين ب. P أوف بوردو، وهـ . H أوف سوسـا Susa, وعدد كبير آخـر، وقـد قالـوا لهذا الرجل المجنون: «أولم تمنح السلطة من عليين إلى البابا بـربط الأرواح وحلها، وأيضاً بشغل منصب القـديس بطرس على الأرض»؟ وبينما كان الحضور ينتظرون جـوابه، معتقدين أن الحكم عليه يتـوقف على جـوابه لهذا السـؤال، عمـل تأكيـداً لكن على شكل سـؤال حيث قال:

«كيف يمكنني أن أعتقـد هذا برجل هو مجرم بالسيمـونيـة، والربا، وربما متورط بجرائم أكبر، وقـد منحت السلطة نفسها عندما منحت إلى القـديس بطرس، عندمـا أصبح رسـولاً للرب، وتبعــه، ليس فقط في رحـلاته وأسفاره، بل أيضـاً في اشراقه وفضـائله»؟، ولدى سماع النائب البـابوي لهذه الكلمات أظهر عـلامات الخجل، وعمل واحـد من الذين كانوا جالسين من حوله التعليق التالي:

الذي يتصارع مع الحمقى هو مطلقاً غير حكيم

فهو مثل الذي ينظر في الفرن حيث يجرح عينيه

وفتح هذا الرجل شفتيه الملـوثتين بتجديفات أخـرى، لأنه قال للذين استجوبوه:

«إنني أقر بجميع مبادىء الإيمان، ومع هذا أؤكد بأن المسيح أخذ شكل الجسد في العذراء»، وعندما سألوه عما إذا كان يعتقد أنه اتخذ شكل الجسد من العذراء، أجاب بعد بعض التردد: «هذا مالا أقوله»، ذلك أنه لو عمل ذلك التأكيد، لبرهن بشكل واضح على أنه هرطقي، وذلك كما قال الرسول: «ابنه عمل من امرأة»، وحول هذا النص قال الكاهن بيد المبجل:

«عليهم عدم الاصغاء إلى الذي يعد التفسير هو أنه: ولد من امرأة عملت في ظل الشريعة، بل عمل من امرأة، وهو الذي استمد الجسد في رحم عذراء، ليس من لاشيء، وليس من مصدر آخر، إلاّ من جسد أمه، وإذا كان الأمر غير ذلك لما كان قد دعي باسم ابن الانسان، بكل صدق، وذلك إذا لم يكن قد استقى أصله من انسان، وبناء عليه إننا نقف ضد ماقاله يوتيخيا Eutyches, وجميع الأشخاص المفتونين على هذه الشاكلة، الذين أكدوا أنه لم يأخذ الجسد فقط في امرأة، بل من امرأة، هي العذراء مريم، ولو كان الأمر غير ذلك لما كان رحمها قد بورك، ولاثدييها اللذين رضع منهما».

موت ج إيرل لنكولن

وفي الثاني والعشرين من تموز لهذا العام، الذي وافق عيد القديسة مريم المجدلية، غادر ج. J ايرل لنكولن طريق الجسد، بعدما عانى من مرض طويل.

الملك يرسل قضاة ليقوموا بجولة في إنكلترا

وفي هذه الآونة، أرسل الملك قضاة ليقوموا بجولة في جميع انكلترا، وقد ارتحلوا وسافروا في جميع المناطق العائدة إلى الملك، مصححين تجاوزات الكثيرين، وتحت حجة إدارة العدالة، جمعوا مبالغ ضخمة من المال، من أجل استخدام الملك، الذي بدّد كل شيء، وقد عهد بالأجزاء

الشمالية من انكلترا إلى كفالة وليم أوف يورك، رئيس كنيسة بيفيرلي Beverley وأتباعه، كما أنه عهد بالمقاطعات الشمالية إلى روبرت أوف ليكسينغتون Lexington وزملائه، وفي هذه الآونة أيضاً، أرسل النائب البابوي مبلغاً كبيراً من المال مع كاهن من عنده اسمه مومل Mumel, إلى البابا، الذي تسلمه بسرور، ثم أعاد الرسول ليتسلم المزيد.

استخراج بغيض للمال من قبل البابا

انبعثت الآن في انكلترا طرائق جديدة، ولم يسمع بمثلها حتى الآن، لاستخراج المال، لأن أبانا المقدس البابا أرسل مستخرجاً للمال اسمه بطرس لي روج Rouge, إلى انكلترا، وكان بارعاً في استخراج المال، بطرائق لايمكن تصورها، من الانكليز التعساء، فقد ذهب إلى مقار هيئات رجال الدين، وأرغمهم أو أكرههم على الوعد بالمال، وعلى دفع المال عندما وعدوا، وذلك مثل بقية القساوسة، حيث أكد كاذباً بأنهم دفعوا المال برضاهم، ذلك أنه قال:

«إن الأسقف كذا والأسقف كذا، وكذلك راعي الدير كذا وكذا، قد لبوا طلباتي بإرادتهم، فلماذا أنتم هكذا متقاعسين كسالى، وكأنكم تريدون فقدان شكركم ومثوبتكم»؟ وجعلهم هذا الأفّاق أيضاً يقسمون أنهم سوف لن يعلموا أي شخص خلال مدة نصف عام، بطرائق استخراج المال التي مارسها، وبتصرفه هكذا تبع خطة لصوص البيوت الذين يستخرجون الوعود من الفئة المنهوبة، بعدم الكشف عن أسماء الذين سرقوهم إلى أي واحد، لكن صحيح أن الرجال سوف يلتزمون بالصمت، إن حجارة الكنائس سوف تصرخ عالياً ضد الذين يسرقونها، كما أنه من غير الممكن ابقاء هذا العمل الشرير في الظلام، لأنه إلى متى يستطيع القساوسة استخراج المال من الذين هم رعية لهم، مالم يخبروهم بأسباب المطالبات؟

-٧١٠٢-

شكوى رعاة الديرة إلى الملك حول عملية الاستخراج المتقدمة الذكر

وبناء عليه ذهب رعـاة الديرة إلى الملك وهم يتشكون بوجوه عـابسة قائلين:

«ياصاحب الجلالة لقد ضربنا ولم يسمح لنا بالتشكي ضد ذلك، وقد قطعت أعناقنـا، فنحن لانستطيع أن نصرخ، وعــدم الامكان والعجــز فرض علينا من قبل البابا، وجرت ممارسة عمليات الاستخراج البغيضة في جميع أجــزاء العــالم، وبـارونيــاتنا التي بين أيدينا هــي منك، ونحن لايمكننا افقـارهن من دون إلحاق الأذى بك،وبالتالي لايمكننا اجـابتك بالنسبة للعجز الذي لحقنا بهن، وفي الوقت نفسه ارضاء الاستخراج غير المتـوقف للبابا، لأنه بهذه الوسيلة جـرى اختراع أساليب جـديدة للظلـم من قبل الرومان، وهذه الأسـاليب تقوم دوماً بشكل غير متـوقع ضدنا، وبذلك لاتسمـح لنا بالتنفس بحـــرية، ولاحتى لوقـت قصير، ولذلك ركضنا للالتجاء إلى مشـورتك، وإلى صدرك الواقي، ونطلب نصيحتك ومسـاعـدتك في حالة الـدمار هذه»، وكـان الذين خـاطبـوا الملك بهذه الكلمات: راعي دير القـديس إدمونـد، وراعي دير بيوليـو Beaulieu, وعندمـا سمع الملك شكاويهما، نظر إليهما نظرةعـابسـة، ولإرعابهما دعـا بصـوت مـرتفع النائب البـابوي، الذي صــدف أن كان حـاضراً، وقـال مخاطباً له:

«انظر يامولاي النائب البابوي إلى هذين المغويين، إنهما يتوليان كشف أسرار البابا، مقدمين منفذاً للنقد واللوم، وليسا مذعنين لرغباتك، افعل معهما الذي يرضيك، ولقـد منحتك واحدة من أحسن قـلاعي لسجنهما فيها»، وعندما سمع الراعيان هذه الكلمات أصيبا بقرف لايمكن وصفه وبرعب، وقـد غادرا بعدمـا وعدا بإرضـاء النائب البابوي وبتلبيـة جميع

رغباته، وبعض رجال الدين —على كل حال— مع أنهم كانوا قلة رفضوا الاستمرار بالتردد، ورفضوا حني رقابهم لعبودية مثل هذه الحالة المزرية، ووقفوا صامدين في رفضهم الذي كان مطلوباً منهم، وبصعوبة جنبوا أنفسهم الخضوع بذريعة طلب وقت حتى يمنح لهم.

اجتماع للأساقفة في نورثأمبتون حول القضية نفسها

عندما فكر النائب البابوي، مع حليفة بطرس لي روج، بالتصرف وفق الطريقة نفسها مع الأساقفة الذين استدعيوا للاجتماع في نورثأمبتون لهذه الغاية، وجدوا هؤلاء قد تعلموا من قضية الراعيين فأجاباهما قائلين:

«لدينا رؤساء شمامسة خاضعين لنا، وهم الذين على دراية بمنافع رجال الدين الخاضعين إليهم، الأمر الذي نحن جاهلين به، وهذه القضية تخص جميع الفرقاء، ولذلك يتوجب اجتماعهم جميعاً مع بعضهم، وإنه ليس لائقاً ولا موائماً إعطاء جواب من دونهم»، وبناء عليه جرى تعيين يوم من أجلهم لإعطاء جوابهم، وأن يكون يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، أي أن يكون ذلك في يوم عيد ميلاده، وبناء عليه، اجتمعوا كلهم بحضور النائب البابوي وأصحابه، وكانوا على غير استعداد للاستجابة للاستخراجات المتقدم ذكرها، وكانوا متصلبين وبدون خجل، ومصرين على رفضها وعلى عدم الموافقة عليها، ومع ذلك عارضوهم بطريقة لطيفة وحذرة، وترافعوا في ردهم بالاعتراضات المنطقية التالية:

اعتراضات الأساقفة على مطالب النائب البابوي

«لقد أفادوا أن عليهم عدم الاسهام، لسببين، أولهما لأن الاسهام سوف يكون ضد واحد قد عمل تحالفاً مع أميرهم، ولأن هذا الاسهام قد عمل من أجل سفك الدم المسيحي، الأمر الذي هو واضح من كلام

مذكرات التراخيص الرسولية التي ورد فيها كلمات: «لشن الحرب على الامبراطور»، وكذلك لأن الاسهام سوف يكون مضاداً لحرية الكنيسة، وهذا أيضاً واضح من مغزى المذكرة نفسها، التي جاء فيها قوله: «ضبط جميع المعترضين بموجب الروادع الكنسية»، وهذه عبودية وإكراه، وعلاوة على ذلك، لأنهم كانوا قد أعطوا في وقت آخر عشر ممتلكاتهم إلى البابا، مع اعتراض ضد استخراج مماثل قد عمل فيما بعد، وبمنطق أدنى عمل الآن طلب أوجب دفع الخمس، وأيضاً لوجود سبب للخوف من أن يصبح ذلك عادة لأن العمل إذا ما عمل مرتين يصبح عادة كما جاء في القانون قوله: «فيما يتعلق بالاجتماعات الأسقفية: ما من رجل بالقانون، إلخ، إلخ»، وكذلك بسبب أنهم يرون من الضروري تسوية الأعمال في البلاط الروماني، الذي لايمكن الوصول إليه، ولايوجد ممر مفتوح إليه إلاّ من خلال الأراضي الامبراطورية، وهم على هذا يخشون من اعتقال الامبراطور لهم، وايداعهم في السجن، ووقتها هم متأكدون من توفر عقوبة شديدة.

ومرة أخرى، بسبب أن الملك له أعداء كثيرون، يتوجب عليه تحمل أعباء الحرب ضدهم، وخشية من وقوع الأسوأ، لن يكون عملاً سليماً متابعة افقار البلاد، خاصة وأنها الآن قد أفرغت إلى حد كبير من ثرواتها، وذلك لأن النبلاء قد انطلقوا في حملة صليبية، وقد حملوا معهم كميات ضخمة من المال، من أجل الانفاق على رحلتهم.

ومجدداً إن هذا سوف يتحول إلى ضرر رعاة الكنائس، ولاسيما أنه ليس من الواضح أنهم قد وافقوا على التقديمات المتقدم ذكرها، ومرة أخرى بسبب أن أوضاع الكنيسة بشكل عام كانت خطيرة، وبناء عليه ينبغي عقد مشاورات عامة، حتى يمكن عمل تقدمة عامة، إذا كان ضرورياً في تلك الحالة، وهي ليست الحالة الآن، لأن الأخبار قد تأكدت بأن مجمعاً عاماً سوف يجري عقده، فيه سوف يجري تقرير مثل

هذه القضايا، وإنه لمن الضروري أن يتقرر إزالة السبب العام للعدوان».

وعندما سمع النائب البابوي ورفاقه هذه الاعتراضات، أخفوا بصمت اضطرابهم، لكنهم قرروا أنه عندما تتوفر الفرصة، سيعيدون محاولة هذا ثانية، أو تدبر استخراجات أخرى من نوع مماثل.

النائب البابوي يجمع القساوسة في بيركشاير

وكان قد بقي لدى النائب البابوي وأصحابه بعض الأمل في تطويع آخرين للاستجابة لإرادتهم، ومن ثم اقناعهم بالمساهمة، فجمعوا قساوسة الكنائس في بيركشاير Berkshire وجمعوا آخرين، حثوهم بكثير من الحجج، وأضافوا التهديدات إلى التهديدات، والوعود إلى الوعود، وقد أجاب هؤلاء أيضاً بثبات، أنهم سوف لن يتخلون عن بنود جوابهم، واعتماداً على حججهم، التي مع أنها كافية، سوف نضيف هنا أجوبة أخرى.

أجوبة القساوسة المتقدم ذكرهم فيما يتعلق بالتقديات

قال كل واحد من القساوسة، وقال جميع قساوسة الكنائس في بيركشاير، بأن عليهم عدم الاسهام ضد الامبراطور مثل اسهامهم ضد هرطقي، لأنه لم يدن بوساطة قضاء الكنيسة، ولم يتبين أنه مجرم، مع أنه محروم كنسياً، ولكن ليس بسبب قيامه بالاستيلاء على ممتلكات الكنيسة، أو أنه هاجم ميراث الكنيسة الرومانية، لأن الكنيسة لاتستخدم السلاح الدنيوي ضد الهرطقة.

ومجدداً، وفي الطريقة نفسها للكنيسة الرومانية ميراثها الخاص، الذي إدارته عائدة إلى البابا، وللكنائس الأخرى أيضاً مواريثها، التي منحت إليها وأعطيت من قبل الملوك والأمراء، والنبلاء المسيحيين الآخرين، والتي هي غير خاضعة لفرض الضرائب عليها، ولا بأي شكل من الأشكال، ولادفع الجزية إلى الكنيسة الرومانية، ولذلك لايجوز ارغام

القساوسة على المساهمة من ميراث كنائسهم.

ومن جديد، ومع أنه بحرفية الشريعة، قد قيل بأن كل شيء هو عائد إلى الأمير، لكن ليس بالتملك والتسلط والتصرف بالتوزيع، بل الأمور متعلقة بعنايته وحمايته، ومثل هذا، إن الكنائس عائدة إلى البابا، فقط فيما يتعلق بالعناية والحماية، وليس فيما يتعلق بالتملك والسيادة، وبناء عليه، قالوا ينبغي عدم ارغامهم على الاسهام.

ومجدداً كما تقول الحقيقة: «أنت بطرس (الصخرة) وعلى هذه الصخرة سوف أنا أبني كنيستي»، فهو بهذا قد احتفظ لنفسه بالتملك، وعهد إلى بطرس بالعناية، كما هو ظاهر من كلام الانجيل الذي تبع ذلك في قوله: «وإن كل ماسوف تربطه على الأرض سوف يربط في السماء»، إلخ، إلخ، وهو لم يقل: «وإن كل ما سوف تفرضه على الأرض سوف أيضاً يفرض في السماء»، وبناء عليه لقد قالوا بأنهم لايستطيعون، ولاينبغي لهم، تماشياً مع كلام الرب والعدل، أن يرغموا على الاسهام.

ومرة أخرى، إنه اعتماداً على سلطات الآباء المقدسين، نجد أن منتجات الكنيسة مكرسة لبعض الاستخدامات المحددة، وهي استعمالات الكنيسة، ورجال الدين العاملين بها، والفقراء، ولايجوز تحويلها إلى استخدامات أخرى، مالم يكن ذلك بوساطة الكنيسة الأممية، وبناء عليه، ينبغي عدم إعطاء أية مساهمات من مقتنيات الكنيسة، من أجل شن الحرب، مالم يكن ذلك ضد المسيحيين.

ومجدداً، بما أن موارد كنائسهم هي بالكاد كافية لتأمين الطعام اليومي لرجال الدين، بسبب نقص حجمها وصغره، وبسبب أن المجاعة تهاجم في بعض الأحيان البلاد لدى سوء مواسم الحبوب، وأيضاً بسبب وجود عدد كبير من فقراء الناس والفقراء الذين يأتون إليهم، والذين رأينا بعضهم يموتون بسبب الحاجة إلى التغذية، ولأنه ما من أحد يمكنه أن

يستحـوذ أكثـر من منفعة واحـدة، وبسبب ذلك هم الأفقـر، وبصعـوبة بالغــة يمكنهم تـزويد أنفسهم وتزويد الفقــراء، ولـذلك ينبغي عــدم ارغامهم على الاسهام في مثل هذه الحالة.

ومن جـديد، إنه مهما كان مفيـداً بالنسبة لهم أن يسهمـوا، ومع ذلك يتــوجب، لابل ســوف يكون مفيــداً أن ندع القضيــة تسقط، بسبب الفضـائح التي قـامت، وانتشرت في الخارج في جميع أرجـاء العـالم ضـد الكنيسة الرومانية، فلقد جرى الاعلان على الملأ بأن الاستخراجات من هذا النوع قـد عملت في أوقات مضت، وأفقـرت رجال الدين بطريقـة غير صحيحـة البتـة، ومـا أن جـرى استخـراج المال منهم، حتى توصل الامبراطور والبـابا إلى التصالح، ومـن ثم لم تجر إعادة ولافلس واحـد، لابل أكثر من هذا، لو أن أية بقية كانـت قد تركت من دون جباية، لقد جرى استخراجها بخشونة، حتى بعد ابرام الاتفاق بين الاثنين.

وتقول الأحكام القـانونية، إنه مع أن الذنب العظيـم لايجوز قبوله في سبيل تجنب فضيحـة، وإنه بناء على ذلك، ولهذه الغـاية يتـوجب أحيـاناً اسقـاط ماهو صـالح وحذفـه، وعلى هذا الأسـاس يتوجب علينا عـدم الاسهام.

ومجدداً، إنهم إذا مـا توجب اسهـامهـم ضـد الامبراطور، فإن المقـام الرسـولي سوف يحيـق به خطر الموت، في سبيل احراز العـدل، وكـذلك سـوف يحيق خطر الموت بالذين يقـومـون بالحج إلى الأرض المقـدسـة، ومن أجل تحرير تلك البلاد، وبناء عليه، إلخ، إلخ.

ومن جديـد، ينجم عن العمل المزدوج عادة، لأنه بما أن اسهـاماً من هذا النوع قـد عمل في وقت آخـر، إنه إذا مـا عمل الآن سـوف يصبح عادة، وبناء عليه، إلخ، إلخ.

ومجدداً، إنه من اسهـــام من هذا النوع، مقـدريـن قـدرة الامبراطور،

وضعف مملكة انكلترا وفقـرها، مـن الواضح أن ملك انكلترا ونبـلاء البـلاد سوف يكونون عـرضـة لخطر عظيم بفقدان ميراثهم، وبناء عليـه ليس من الموائم الاسهام، كما أنه لايجوز.

ومجدداً، إنه بالنسبـة لملك انكلترا والنبـلاء يمتلكون بمـوجب حق الوراثة، وكـذلك بمـوجب العـادات الصالحة المصـدق عليهـا، الحق في تقـديم الاعطيـات إلى كنائس انكلترا، والقسـاوسـة، المعينين بناء على أعطيـاتهم، لايرغبـون، كما أنه لايجوز لهم، ولايستطيعـون، الموافقـة على تقديـم أية منحة من دون التشـاور مع رعاتهم، لأنهم إذا مـا وافقوا على المنح من الممكن أن ينالوا الضرر من كنائسهم الخاصة، وبما أن الكنائس المذكـورة، قـد أعطيت وأغنيت من قبـل رعـاتها المذكـورين، بالأراضي والموارد، في سبيل مقاصد خاصة، هي أن يتمكن قساوستها من استقبال الضيوف سواء منهـم الأغنياء وكذلك الفقراء، وأن يظهـروا الضيافة إلى العلمانيين وكـذلك إلى رجـال الدين، وذلك وفقاً لإمكاناتهم، وكـذلك حسبما تتطلب عـادة المكان، وإنه إذا ما تـم استخراج مثل هذه المسـاهمة منهم، فـذلك يوجب عدم استمـرارها، لأنه بهذه الطريقة سـوف يجري خداع الرعـاة وغشهم، في امتيازاتهم وفي نواياهم التي من أجلهـا منحوا الأعطيات، ولسوف يعيدون النظـر في أعطياتهم، أو أنهم سوف يبحثون ويفتشون عن أسـى آخر، ولن يؤسسـوا كنائس مرة أخـرى، أو يضفون عليهن منافع من ممتلكاتهم.

ومجدداً، بما أن هذا الطلب قد عمل ضد واحد هو داخل بتحالف مع أميرنا، خاصة بالزواج، لايجوز لنا الاسهام ضده من دون التشاور معه.

ومن جديد، بسبب أن العلمانيين، لدى اسهامهم فيما مضى، في قضية مماثلة، قد نالوا وعداً من الذين أعطوهـم، بناء على تفويض من هذا البابا الحالي نفسـه، أنه لن تكون هناك عمليـة استخـراج ثانيـة من هذا النوع، ولأنهم أنفسهم مايزالون يشعـرون بالظلم بسبب العبء المذكور، ينبغي

أن لايسهموا، لأنهم يخافون من أنهم بمساهمات متوالية سوف يجرّون إلى العبودية وإلى عادات غير اعتيادية، ولاسيما أن كثيراً من البلدان، من بينهم فرنسا لم يوافق سكانها على هذا الاسهام، كما أنه واضح ومعروف بشكل جيد، أنه ما من مربح قد حصلت عليه الكنيسة من أي استخراج من هذا النوع، ليوفق الرب أن لاتكون لاعاقتها، ولقد قوي أعداء الكنيسة وأصبحوا أغنياء بوساطة ذلك، ومن كونهم أقوياء صاروا أقوى، وإنه لمن الصعب علينا أن نموت بأسلحتنا، ولذلك يتوجب علينا عدم الاسهام.

ومجدداً، بما أن الجميع، أو لنقل تقريباً الجميع، قد ارتبطوا بعهد خدمة الصليب، ولكي يفوا بأنفسهم، أو بوساطة أشخاص آخرين أكفاء، تسلموا أوامر من البابا، وإنهم لايمكنهم في آن، هو الوقت نفسه تلبية وتنفيذ هذا الواجب الصعب والمفيد، وأن يدفعوا أيضاً هذا الاسهام.

ومن جديد، بما أنهم محميين بامتياز أولئك الذين حملوا الصليب، والذين إليهم جرى منح إنتاج ودخول مواردهم جميعاً لمدة ثلاث سنوات، لايتوجب عليهم لهذا الاسهام في هذه القضية.

ومجدداً، بما أن كثيرين مرتبطين برسائل البابا، لأن يدفعوا إلى رهبان كلوني Clugny, في يوم محدد، من عشور كنائسهم، الذي من المعروف أن الرهبان المذكورين لهم حق الرعاية، أو التي ليس لهم فيها أي ادعاء دنيوي أو روحي، ولهذا ينبغي أن لايدفعوا.

ومن جديد، بما أن مولانا ملك انكلترا، له اعداء ألداء من جميع الجوانب، والذين هم مستعدون —كما أفيد— لإلحاق الأذى به، وبحكم أن المملكة محرومة من نصيحة ومن عون الرجال الشرفاء الذين يقومون باعداد الترتيبات للانطلاق إلى المناطق الأجنبية، والذين بذلك

سوف يأخذون معهم مبلغاً كبيراً من المال، سوف لن يكون سلبياً إفقار الكنائس والمملكة إلى درجة لايمتلكون فيها امكانات كافية لحماية الدولة، ولسوف يكون هناك بلا شك سبب لدمار المملكة لايمكن اصلاحه.

علاوة على ذلك، بما أن رجال دين الشعب الانكليزي، كانوا من قبل أغنى منهم الآن، أي عندما استحوذوا جميعاً، أو على الأقل الشطر الأعظم منهم، عدة منافع من دون توزيع، ومن دون عمل أي استخراج من هذا النوع، مع أنه جرى في ذلك الوقت إرسال عدد من الآباء المقدسين إلى المنفى من قبل الأباطرة الطغاة، وعانوا في أنفسهم كثيراً من المصاعب في أشخاصهم وفي ممتلكات الكنيسة، لايتوجب علينا —لذلك السبب— أن نسهم.

وأخيراً، جرى منح كثير من العشور من قبل الآباء الرسوليين إلى فرسان المملكة الفرنسية، لحماية الكنيسة الرومانية، وبما أنه واضح أن مساعدتهم المتوجبة لم ترفض من قبلهم، كما أنها لم تقدم بعد، يتوجب علينا —بناء عليه— أن لانسهم.

النائب البابوي يثير خلافات بين القساوسة المتقدم ذكرهم

وعندما وجد النائب البابوي وأعوانه أن ثباتهم مدعوم بمثل هذه الحجج الصحيحة، وأنهم لايستطيعون تحطيمهم ماداموا هكذا متحدين مع بعضهم، لذلك قرروا إحداث شقاق وخلاف فيما بينهم، ولذلك ذهب النائب البابوي إلى الملك، وكسب على الفور ذلك الرجل الضعيف إلى جانبه لتلبية رغباته، ومضى معاونوه أيضاً إلى الأساقفة، وكذلك إلى رؤساء شمامستهم، وبشكل خاص المعلم آلان أوف بيكلي Beccles, رئيس شمامسة سدبري Sudbury, الذي كان من قبل أكثر اصراراً من جميع البقية، وإلى بعض الأشخاص الآخرين

الطموحين الذين كانوا يتطلعون إلى مناصب أعلى، ووعدوهم بمساعدة فعالة إذا لم يوافقوا على اصرار جماعة القساوسة المذكورة وقرارها، وبذلك أغووا بعضهم، لمعارضة الفئة المسيطرة.

إقلاع الإيرل رتشارد مع النبلاء الآخرين

بعدما أكمل في هذا العام، الايرل رتشارد، جميع الاستعدادات الضرورية من أجل رحلته إلى القدس، ذهب إلى دير القديس ألبان، ودخل إلى بيت هيئة الرهبان، ورجاهم تقديم المساعدة بصلوات الرهبان، وذهب من هنا إلى لندن، وكان ذلك فيما بين يوم الصعود، وأحد الشعانين، وقال وداعاً لأخيه الملك، وإلى النائب البابوي، وإلى بقية النبلاء، وأسرع بعد ذلك الخطى نحو دوفر، ووضع الملك تحت رعايته هنري ابن الايرل وكذلك ممتلكاته، ورافقه النائب البابوي مع عدد كبير من النبلاء، والأساقفة ورجال الدين في رحلته إلى شاطىء البحر، حيث عهدوا به بتقوى إلى التوجيه اللاهوتي، وبقي الراهب ثيودوريك، رئيس الاسبتارية ملازماً له، وكأنه مرافقه غير المفصول عنه، ودليله، وأقلع في الوقت نفسه عدد كبير من نبلاء انكلترا وكان من بينهم وليم لونغيوسبي Longuespee, ايرل أوف سالسبري، وعدد كبير من البارونات والفرسان، الذين ارتبطوا بهم بحكم أنهم قادتهم ومقدميهم.

ملك فرنسا يستقبل الايرل رتشارد بتشريف عظيم

ووصل الايرل رتشارد إلى شواطىء القارة، فدخل إلى الأراضي الفرنسية، وأخذ طريقه نحو الملك، وعندما بات قريباً، وصل الملك مع أمه ب. B, وكثير من نبلائه لاستقباله بسرور وبهجة، واستضافه في قصره، واحتفل معه، وكأنه قريب محبوب له، وأثقله بالهدايا الملكية، كما أنه، لدى مغادرة الايرل أرسل رئيس خيالته ليكون حامياً له ودليلاً،

خــلال أراضيــه كلهــا، وقــد زوده بشكــل وافــر، وبتشريف بجميع الضروريات للرحلة، وقدم له المأوى ولأتباعه حتى عبر الرون بسلام.

وخـــرج سكان أفينون أيضـــاً إلى استقبـــاله، بمسيرات سرور كبيرة، وبكرم ودون مقابل عـرضوا عليه تقديم الضيافـة له في مدينتهم، وذلك على نفقتهم، ثم أخـذ بعـد ذلك مـراكب في فيين Vienne, مقـــــرراً الابحـار نزولاً على الـرون إلى مـدينة آرل Arles, لكن سكان فيين والمدن الأخـرى المجاورة، طلبـوا من الايرل رتشارد أن يبيعهم قـوارب عبـوره، وأنهم سـوف يدفعـون له ثلاثة أضعـاف قيمتهم، ولدى رفض الايرل أن يفعل ذلك، أعلنوا أنه ليس تاجـراً، فاستـولوا على القوارب، واحتفظوا بهم بالقوة، وغضب الايرل لذلك كثيراً ومع ذلك تابع رحلته بقدر ما أمكنه ووصل إلى مـدينة آرل، وندم سكان فيين فيما بعد —مع أن ذلك جاء متأخـراً —لذنبهم العظيم الذي اقترفوه، وأرسلوا المراكب التي انتـزعــوها من الايرل، وأعـادوها إليــه في بيــوكير Beawaire, لكن الايرل، قام وهو مغضب فـدمرهم جميعـاً، وغضب كونت طولوز كثيراً لإلحاق هذا الأذى بالايرل رتشارد، في ممتلكاته، لأنهما كانا أقرباء.

كونت بروفانس يستقبل الإيرل رتشارد

وعندمـا علم كونت بروفـانس، والد ملكة انكلترا، باقتراب وصـول الايرل رتشــارد، خـــرج مـن تاراسكون Tarasconلاستقبـــــــــاله بسرور وبهجة، وكان مستعداً لخدمتـه، وليقدم له كل لطف ممكن، وكان يأمل أن يتلقى مساعـدة منه ضد كـونت طولوز، الذي كان معـه بحالة حرب، ولأنه تعرض بسببه إلى مخاطر كثيرة.

زيارة الإيرل رتشارد لسينت جايل

وبعدما قطع الايـرل رتشارد هذه المسافات، وعرف أنـه لم يعد بعيداً عن مدينة سينت جايل (صنجيل)، بادر مسرعاً إلى هناك ليقدم تعبداته،

ووفق الطريقـة نفسها، عندمـا وجـد نفسـه لديه وقت قصير، حضر الاجتماع العام للرهبان السسترشيان، وصرف نفسه بكل تواضع لسماع صلواتهم وحضورها، ولتقـواه وتعاطفـه منحهم دخلاً سنوياً مقـداره عشرين ماركـاً لتحسين أوضاع الطائفة، وذلك حتى يتمكن بفضل القديس جايل أن يعبر بسلام ويمر خلال مخاطر البحر.

البابا يمنع الإيرل رتشارد من الإقلاع

عندما وصل الايـرل رتشارد إلى سينت جايل، تقـابل مع ناب بابوي ورئيس أساقفة آرل، اللذان منعاه بموجب سلطات البـابا من الاقلاع، وأصيب الايرل تجاه ذلك بدهشة عظيمة، وأجابهما أنه فيما مضى آمن بوجود صدق في كلام المقام الرسولي، وبالمبشرين الذين أرسلهم، وهو الآن غاضب كثيراً تجاه هذا المنع وقـال: «لقد عملت جميع الاستعدادات الضرورية من أجل عبوري، ولقد ودعت أصدقائي، وأرسلت أموالي وأسلحتي أمامي، وجعلت سفني جاهزة ومحملة بالمؤن، والآن تغيرت اللهجة، حيث ما أن وصلت إلى شاطىء وأنا على وشك الاقـلاع، قام البابا، الـذي يدعى خليفة يسوع المسيح ونائبه، فخرق وعده، ومنعني من الاستمـرار في خـدمـة المسيح، مع أنني الآن مستعـد لجميع الطوارىء».

وعندما رأى النواب البابويون أنهم لايستطيعـون منعه من الاقـلاع، نصحوه بأن يترك ميناء مرسيليا، وأن يقلع بحـرياً من ميناء أيغيو مورتي Aigues Mortes, وكـان هذا المكان الأخير ممقـوتاً من الجيش كله، بسبب قـذارته وأحـوالـه غير الصحيـة، ولذلك أقنعـوا الايرل بالاقلاع عن فعـل ذلك، وبناء عليه، قام على الرغم مـن الحجج الزائفة والمتناقضـة للنواب البابـويين، وبمقت منه وازدراء لازدواجية الكنيسـة الرومانيـة، بالتمسك بروح متألمة كثيراً بنيـة الابحار من مرسيليا، وبناء عليه ذهـب في المقام الأول إلى روشي Roche, حيث استعد وحمّل

سفنه، كما أنه أرسل رسالة إلى الامبراطور بوساطة رسل خاصين، هم الفارس روبرت دي تويني Twenge, وآخرين، حيث أخبره عن أحواله، وعن بدع البابا الماكرة، وفي الأسبوع الذي تقدم على ثمانية ميلاد القديسة مريم، ركب متن البحر مقلعاً.

حرب بين ولدي للويلين

في يوم عيد القديس غوثلاك Guthlac, [١١- نيسان] في هذا العام، تفجرت حرب في ويلز بين ولدي للويليين، واستمرت من دون توقف، من اليوم المتقدم ذكره أعلاه، الذي قيل فيه غادر الأمير المذكور الحياة، حتى نهاية يوم عيد القديس ميكائيل، أي حتى تمّ أخيراً وضع واحد من الأخوين في السجن، وعند ذلك أوقف الويلزيون عنفهم، لأن داوود، الذي كان حفيد الملك، استدعى خيانياً أخاه الأسن منه للتشاور معه، من أجل التوصل إلى بعض الشروط المناسبة للسلام، ولدى قدومه للتفاوض تحت كفالة أسقف بانغور، أمر به أخوه داوود فاعتقل وسجن.

انتخاب بطرس دي ايغيو بلانشي أسقفاً لهيرفورد

وفي يوم عيد القديس بارثولوميو جرى انتخاب المعلم بطرس دي ايغيو بلانشي Aigueblanche, أسقفاً لهيرفورد Hereford, وكان من بروفانس من حيث المولد، وكاهناً مقرباً من وليم الأسقف المنتخب لبلنسية وقهرماناً لديه، وبعد مضي بعض الوقت استقبل بتشريف عظيم من قبل الملك، وجرى تثبيته في كرسيه من دون أية مشاكل أو معارضة، وكان هناك كاهن من ليشفيلد Lichfield, وكان رجلاً جديراً بالثناء، وقد جرى انتخابه من قبل، وقد رأى بأن الأوقات السيئة هي المقبلة، وأن الملك لايقدر أحداً سوى الأجانب، لذلك تخلى عن دعواه، وعهد بإدارة كنيسته إلى الرب، وإلى إخوانه الرهبان.

ولادة ابنة الملك

بعد انتهاء أيام الاحتفال المهيبة بعيد الملائكة المقدسين [٢- تشرين أول] ولدت الملكة إليانور ابنة إلى الملك، أعطيت اسم مرغريت، الذي كان اسم خالتها، ملكة فرنسا، ولأن الملكة دعت أثناء آلام الولادة القديسة مرغريت.

تكريس آندلم رئيساً لأساقفة أرماغ

وفي العام نفسه، وفي يوم عيد القديس جيروم [٣٠- أيلول] جرى تكريس المعلم آندلم Andelm, وكان من أهل كولون، وكان أيضاً رجلاً متميزاً بأخلاقه وثقافته، تكريسه في ويستمنستر، بشكل مهيب رئيساً لأساقفة أرماغ Armagh, (الكنيسة المطرانية لايرلندا كلها)، وكان ذلك بحضور الملك، والنائب البابوي، وعدة أساقفة، وكان أسقف ووركستر متولياً للأعمال الرسمية.

تكريس معبد القديس بولص في لندن

وجرى في يوم عيد القديس ريميغوس [١٢- أيار] تكريس كنيسة القديس بولص في لندن من قبل روجر أسقف المدينة، وكان ذلك بحضور الملك، وعدد كبير من الأساقفة والنبلاء الذين شاركوا جميعاً في ذلك اليوم بمأدبة احتفالية مع الأسقف والكهنة، وجرى منح جميع الذين قدموا وصلّوا بتقوى غفراناً لمدة أربعة عشر عاماً، وجرى تأكيد هذه الأشياء كلها وتثبيتها من قبل النائب البابوي، والأساقفة الذين كانوا حضوراً.

وفاة توماس دي ميولتون

وفي صيف هذا العام، غادر توماس دي ميولتون Muleton هذه الحياة، وكان فارساً مجرباً في البراعة الحربية، عندما ابتسم له سن

الشباب، وعندما صار متقدماً أكثر بالعمر، بات رجلاً لديه وفرة كبيرة من الممتلكات، وبارعاً كثيراً في القانون المدني، وأثناء رغبة هذا الفارس في توسيع أراضيه، غالباً ما تسبب بأضرار كبيرة، وخسائر لدير القديس ألبان، الذي جاورت مزارعه مزراعه.

نشوب خلاف بين دير القديس ألبان وبعض الفرسان

وكان في هذا العام هناك بعض الفرسان مع آخرين، كان دير القديس ألبان بلطف منه قد منحهم الإذن للصيد لبعض الوقت في مطردة حرة تابعة للقديس ألبان، وكانت قد منحت إلى الكنيسة منذ وقت طويل مضى، وجرى تثبيت ذلك من قبل الملوك، ومن قبل مؤسسيها، وذلك كما تبرهن على ذلك الكتابات النبيلة للكنيسة، ولقد أساء هؤلاء استخدام المعروف الذي منح إليهم، وقاموا وهم مصابون بعدوى الشر ونكران المعروف، فادعوا بأن هذا المعروف صار عادة، وحقاً دائماً، وسعوا لحرمان الكنيسة من حقوقها، أو بالحري لحرمانها من ميراثها، وقام الراعي جون، الذي كان آنذاك متسلماً للدير، والذي كان ملتزماً بموجب حق التكريس باسترداد الامتيازات المتضررة، والممتلكات الموزعة للكنيسة، بتقديم شكوى جادة حول هذه القضية إلى الملك، وحصل منه على المصدقة التالية ضدهم.

إجراءات محاكمة مطردة القديس ألبان

«من هنري، بنعمة الرب، إلخ، إلى عمدة هارتفورد Hertford, تحيات:

إذا قام راعي دير القديس ألبان فعهد إليك بمتابعة دعواه، قم عندئذ باستدعاء، بوساطة استدعاء صالح وقانوني غيوفري دي تشايلدويك Childwick, وأولاده: وليم، وجون، ورتشارد، ووليم دي غورهام Gorham, وتوماس دي ووز Wauz, وولديه: وولتر،

وهنري، وآدم دي سومري Sumery, وداوود دي غـــريبنفيل Grapenville, للظهور أمام رجال عدالتنا، في أول تبليغ، عندما يأتون إلى هذه المناطق، ليظهروا السبب لماذا اصطادوا، وأمسكوا أرانب من دون إذنه (الراعي المذكور) في المطردة الحرة التابعة لكنيسة القديس ألبان، ولتكن معك هذه الاستدعاءات وهذه المذكرة. شهدت بنفسي في ويستمنستر، في هذا اليوم السادس والعشرين من حزيران، في السنة الرابعة والعشرين من حكمنا. عمل في هارتفورد، أثناء شهر واحد من عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، أمام وليم أوف يورك، عمدة بيفرلي وهنري أوف باث، وروجـــر دي تيركبي Turkby, وغيلبيرت بريستون Preston, مسؤول عدالتنا، في دائرة تلك الكونتية، في السنة الرابعة والعشرين من حكم الملك هنري، ابن الملك جون».

دعوة للمثول أمام العدالة

جرى استدعاء غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده: وليم، ورتشارد، وغيوفري، ووليم دي غورهام، وتوماس دي ووز، وولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سومري، وداوود دي غريبنفيل، بموجب مذكرة مولانا الملك، للاجابة على شكوى راعي دير القديس ألبان، لقيامهم بالصيد، وإمساك أرانب في مطردته الحرة التابعة لدير القديس ألبان من دون إذنه، وكانت شكوى راعي الدير هي، أنه في يوم الأربعاء التالي قبل عيد القديس توماس الرسول، لقد جاءوا مع كلاب، وأمسكوا أرانب في مطرده، ومثل هذا لقد اصطادوا في الحقول الوارد ذكرها أدناه التابعة له، في المطردة وهي: في حقل القديس ألبان، وفي حقل كنغبري Kingsbury, وفي حقـــل بـــارك Park, ولانغلي Langley, وكاشيوبري Cashiobury, وركمانوورث Rickmansworth, وكوديكوت Cuddicote, ووولدن Waldon, وســـاندردج Sandridge, وبـارنــت Barnetوردبــــــورن Redburn,

وأراضي ممتلكاته وممتلكات أتباعـه، وذلك على الرغم من امتيازه، الذي تمتع به من أيام الملـك هنري الأكبر، والذي من أجله قـد دفع غـرامـة قـدرها أربعين مـاركـاً، وجـاء غيوفـري وأولاده، وآدم دي سـومـري، ودافعوا عن هذا الاعتداء والأذى، وقـالوا بأنهم هـم وأسلافهم منذ أيام الاستيلاء قـد اصطادوا في الأماكن المتقـدم ذكرها بمـوجب امتياز، وفي أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، وفي أيـام الملك جون وفي أيام الملك الحالي هنري، وهـم مستحـوذون على هذا الصيـد كـامتيـاز لهم، وأنهم يقدمون خمسة مـاركات إلى مولاهم الملك، هنا، حتى يمكن عمل إجراء بحث فيها إذا كـان غيوفـري المتقدم ذكره، وأسـلافه وتـوماس دي ووز وأسلافه، وآدم دي سـومري وأسلافه، قـد استحوذوا على هذه المصيدة كامتياز في أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، ومنذ ذلك الحين، أو أنهم استحـوذوا على امتيـاز الصيـد هذا بالقـوة، أو بإذن من أسـلاف راعي الدير المقـدم ذكـره، أو بوسـاطـة البحث، وقـد جـرى تسلم ادعـائهم، وأعطى راعي الدير المذكـور خمسـة مـاركـات أيضـاً، للقيـام بالبحث المذكـور، وجـرى تعيين يـوم هو في ثمانيـة عيـد القـديس ميكائيل، من أجلهم للظهور أمام مسؤولي العدالة المذكورين في كمبردج.

الإجراءات في كمبردج في ثمانية عيد القديس ميكائيل أمام مسؤولي العدالة المتقدم ذكرهم

وكان المحلفون الذين جلسوا للبت في القضيـة، بموافقة الفرقاء هم: بطـرس دي ثـالي Thaly, ووليـم ريفيـل Revel,ووليـــم دي ثورليغ Thorleigh, وسيمـون دي فـورنل Fornell, وهنري دي هولول Holwell, ورالف فتزفـولك Fitzfulk, ووليم دي سينت ليغـــر Leger, وبطرس دي ول Wells,ورتشـــارد موسكت Muschet, ووليم دي هولول، ولمعرفـة فيها إذا غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده غيوفري، ووليم، ورتشارد وتوماس دي ووز

مع ولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سـومري، وأسلافهـم، قد امتلكوا امتيـاز الصيد منذ أيام الملك هنري، جـد الملك الحالي، ومنذ ذلك الحين فصـاعـداً، في بلدة القـديس ألبـان، وكنغبري، وسـاندردج، وتايدنهنغـر Tidenhanger, وبارك، وكـاشيـــوبري، ولانغلي، وركمانوورث، وكـــوديكوت، ووولدن، وبـارنت، وردبورن، وهـل ذلك بمـــوجب امتيازهم، كما ذكر غيوفـري المذكور مع البقية، أو هل هم يمتلكون حق الصيـد هذا بالقـوة، أو بمـوجب إذن مـن أسـلاف راعي دير القـديس ألبان، أو بموجب حق التوريث كما أفاد الراعي المذكور.

ولقـد قـالـوا —بناء على يمينهم— بأنهم قـد فهمـوا بـأن رعـاة دير القديس ألبـان قد احتفظوا بمطردهم حـراً في المدينة المتقدمـة الذكر، في أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، بسبب أنهم —كما قـالوا— قد تولوا فحص أحد الصكوك، كـان قد منحـه الملك هنري المذكور، جـد مولانا الملك الحالي إلى بيت رهبان القديس ألبان، والذي ذكر فيه الملك المذكور امتلاك المطردة المذكـورة في البلدة المتقدمة الذكر، والتي استحـوذ عليها رعاة البيت المذكور في أيام الملك هنري الأكبر، جد الملك الحالي.

وقـالوا أيضاً بأن غيـوفري المذكـور، أو الآخـرين، أو أسلافهم، قـد قاموا بأعمال مطاردة في البلدات المتقدم ذكـرها، وكان ذلك يجري أحياناً ولبعض الوقت بمـــوجب اذن من الرعـــاة، وأحيـانـاً على الرغم منهم، ولذلك كان الرعـاة المذكورون يقومون أحياناً، وبشكل مـؤقت باعتقال كلابهم وخـدمهم، ولقد ضربوا وأسـاءوا معاملة أتبـاعهم، مما تسبب في بعض الأحيان بنشوب معارك ووقوعها في تلك الكونتية، ثم كان يجري استرداد الكلاب المحجوزة، ويعاد السلام فيما بينهم بعد ذلك.

ولقد قالوا بشكل واضح بأنهم —الفرقاء المتقدم ذكرهم— لم يقوموا قط بأعمال مطاردة في المطردة المتقدم ذكـرها، بموجب أي حق امتلكوه، أو يمكن أن يمتلكوه، ولذلك تقـرر بـأن راعي الدير وخلفـائـه سـوف

يتملكون من الآن فصاعداً المطردة في القرى المتقدمة الذكر، بلا نزاع وإلى الأبد، وهي متحررة من أي ادعاء من غيوفري المذكور مع الآخرين، أو ورثتهم، إلى الأبد.

وسوف يقوم غيوفري وجميع الآخرين بالتعويض بشكل خلقي على الراعي المذكور مقابل خسائره وذلك بدفع مبلغ أربعين ماركاً، ويتوجب على عمدة هارتفورد، بموجب مذكرة مولانا الملك أن يتدبر جباية المال المذكور من أراضيهم وقطعانهم، ومن ثم أن يجري دفعه من دون تأخير إلى الراعي المتقدم الذكر.

انتخاب فرسان محلفين

جرى انتخاب اثني عشر فارساً بحزام، لدى اجتماع الهيئة القضائية، وبموافقة الفرقاء، ووافق الفرقاء على الالتزام بقرار عشرة منهم، لأن اثنين لم يظهرا، وهما رتشارد بوكس Box, ورتشارد بوتيل Butell صاحب مالدون Maldon في اسكس.

مذكرة المطردة

«من جون أوف وادنغتون Waddington عمدة هارتفورد واسكس إلى المحبوب منه جون دي بيفوري Beyforey, نائبه، تحيات: لقد تلقيت الترخيص التالي من مولانا الملك، ومحتواه، ومقاصده هي كما يلي:

من هنري، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، إلى عمدة هارتفورد واسكس، تحيات: نحن نأمركم أن تتدبروا تحصيل مبلغ أربعين مارك من أراضي وقطعان غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده: وليم، وغيوفري، ورتشارد، وتوماس دي ووز، وولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سومري، وداوود دي كاربنفيل، في نيابتك، ومن ثم دفع ذلك —من دون تأخير— إلى راعي دير القديس ألبان، مقابل الخسائر التي

عـاني منهـا الراعي المذكـور بسبب الخلاف الـذي نشب بينه، أي بين الراعي المذكور، وبين غيـوفري المتقـدم الذكر، ومعـه: وليم، ورتشارد، وتومـاس، وهنري، وآدم، وداوود، فيما يتعلق بمطردة الراعي المذكـور. شهـدت بنفسي، إلخ. وإنني بناء عليـه آمـرك بتنفيـذ أوامـر مـولانا الملك»إلخ، وجرى التفـوه بالحكم في يوم عيد القـديس ديونيسيوس، في حوالي الساعة التاسعة.

وضع امبراطور القسطنطينية

أرسل في هـذا العـام امبراطور القسطنطينيـة رسـالـة إلى الملك الانكليزي، بحكم أنه صديقه الخاص، وقـريبه، بأنه وصل بنجاح وبقوة كبيرة إلى المناطق الاغـريقيـة، يحيط به جيش قـوي من الفـرنسيين، وان اسمه، أي اسم بلـدوين، أصبح مرعبـاً إلى جميع أعدائه، وذكـر أنه ألقى الحصار على مدينة كبيرة جداً، ليست بعيدة عن القسطنطينية، وأنه إذا ما تمكن من اخضـاعهـا لحكمه، فإن جميع المنطقـة المحيطة لسفـر ثلاثة أيام سـوف تسقط بين يـديه، وأن طريق الوصـول إلى القسطنطينيـة سـوف يصبح مفتوحاً وخالياً من الخطر، وأن الحرب تتقدم بين يديه.

استدعاء النائب البابوي إلى البلاط الروماني

وفي هذه الآونة، جرى استدعاء النائب البـابوي، بوساطة مذكرة من البـابا، بأن يأخذ الطريق إلى بلاط رومـا، حالما يتمكن من انجـاز العمل الذي هو بين يديه، لأن ذلك البـلاط كـان ينتظر عقـد مجمع عـام، وأن عليه الاسراع بقـدومه بقـدر ما يستطيع، لعقد مبـاحثات حـول القضايا الصعبـة، مع إخـوانه، الذي يحتـاجـون كثيراً لرأيه الحكيم، ولأن يكون بينهم، مظهـراً نفسـه في وسطهم قبل وصـول الآخـرين، وقـام النائب البـابوي، بناء على ذلك، وفي إطاعـة منه لهذا الاستـدعـاء، بدون توقف فجمع كميـات كبيرة مـن القش، وأكـوام من الحطب، وأشيـاء أخـرى

ضرورية من أجل تمضيـــة الشتـاء، ولم يتـــوقف عن استخـــراج أمـوال الوكالات من كثيرين، الذين كـانت مقتنياتهم قد أنهكت تقـريباً، مما زاد أحزانهم ودهشتهم.

وصول بطرس لى روج من سكوتلندا

في حـــوالي يوم عيـــد جميع القـــديسين، قـدم مـن سكوتلندا لي روج Rouge, وروفينوس Ruffinus, جالبين معهما ثلاثة آلاف باوند من أجل استخـــدام البـــابا، وقـــدم من جهـــة أخـــرى مـــوميلينوس Mumelinus, جالباً معه أربعـة وعشرين رومانياً ليتسلموا منافع في انكلترا، وبهذه الحوادث صـــار الانكليـــز في أســـوأ وضع، وتـورطوا وسحقـوا، وباتـوا كأنهم بين حجـري طاحـــون من الجهـة الأولى، وبين حجرين آخرين من الجهة الأخرى، لأن من الجهة الأولى كان بطرس لى روج، وكان مـن الجهة الآخرى مـوميلينوس، ومن جهة أخـرى الملك، ومن جهـة آخرى النائب البـابوي الذي استمر في مضـايقة القسـاوسة، ورجال الدين، والرهبان، وقد سمح ملك سكوتلندا لهذه المضار بالجواز بصمت، مع أن ما من واحد من أسلافه قد تحملها قط.

الإيرل غ. G يتصالح مع الملك

في صيف هذا العـــام، عندمـا كـان الأيرل رتشـــارد في لندن، وكـان يتبـاحـث مع أخيـه الملك، حـــول هل عليـه أن يسـافـر عبر ايطاليـا، أو مرسيليا، وتمّ أخيراً بناء على ترتيبـات الراهب ثيودوريك، رئيس رهبان اسبتـارية القـديس يوحنا، وتقـرر القيـام بالعبـور، مع الراهب المذكـور كدليل له، وأن يقلع على ظهـر سفينة، لعبور البحر المتـوسط، وبينما كان هذا يدور بذهنه، قدم غ. G مارشـال إلى الايرل المذكـــور، وعرض أن يقوم بحضـور الايرل بتبرئة نفسه من جميـع التهم التي عملت ضده، من قبل أي كان، وأن يقدم ترضية للملك قانونية أمام البلاط كله، وفقاً

لقراره، حول القضية التي اشتكى منها، وبناء على ذلك، توسط الايرل رتشارد من أجله لدى الملك، الذي وضع جانباً حقده وغضبه ضده، وإنه على كل حال من المعتقد أن الايرل مارشال، قد نال هذه الحظوة، بوساطة الهدايا، إلى كل من الملك، والايرل رتشارد، وفقاً لما قاله الشاعر:

«إن أفضل الطرق، عليك أن تؤمن

لنيل الحظوة، هي أن تدفع»

موريس مسؤول العدالة يتدبر مصالحة مع الإيرل غ مارشال

وعلم موريس، مسؤول العدالة في ايرلندا، بشكل صادق بجميع هذا، فقدم بكل سرعة إلى الملك، الذي كان مقيماً آنذاك في لندن، وكان راغباً في تهدئة مشاعر الايرل غ مارشال، الذي كان يعلم بأنها مثارة ضده، بسبب موت أخية الايرل ر. R, الذي قتل في ايرلندا، وقبل كل شيء جاء مستعداً لتبرئة نفسه بكل طريقة بالمحاكمة أمام الملك، وأمام بلاطه، من قتل الايرل المذكور، وذلك وفقاً لقرار النبلاء، وأن يقوم بشكل قانوني بنفي ذلك العار عن نفسه، لأنه يعرف نفسه غير ملطخ بها، وإلى جانب هذا، ومع أنه يعلم بأن ضميره كان نقياً، وعد، أنه في سبيل السلام، ومن أجل إعادة تأسيس صداقتهم الماضية، سوف يؤسس ديراً فخماً، لصالح روح الايرل المذكور، من دون أية اضاعة للوقت، وأنه بكرم سوف يضفي عليه ممتلكات ثمينة، ويجهزه بجمع من الرهبان.

وعندما وجد الملك الثبات في كلامه، وعلم بنواياه التقية، أرسل خلف الايرل غ. مارشال، وتعهد أن يتولى بنفسه أعمال الشفيع والوسيط من أجل إقامة السلام، وادعى بأن النص الذي ورد في الانجيل، حيث أعطي قرار مولانا في قضية الخادم وأتباعه الخدام، كان

صحيحاً تماماً، وينطبق على هذه الحالة، وأعلن بإصرار —وفقاً للقرار اللاهوتي— بأنه هو —أي المارشال— كان غير جدير بعفوه، مالم يقم بمنح الشيء نفسه، بمشاعر طيبة، إلى جاره، عندما يطلب ذلك منه كتوسل، وهو الذي كان راغباً في تبرئة نفسه من الجريمة التي ألصقت به، لأنه أكد أمام الرب، بأنه لم يكن ملطخاً بذلك القتل الذي اتهم بأنه اقترفه، فبتلك الفرية قد أسيء إلى سمعته بدرجة كبيرة، وهكذا أمكن بوساطة الملك والنبلاء، بأن مال الايرل غ إلى الاصغاء إلى التوسلات وإلى صوت العقل، وبحكم أن موريس، تواضع بحكمة بنفسه، تمت إعادة تأسيس السلام والوئام بين الاثنين.

أمير كونوت يشتكي إلى الملك

وفي هذه الآونة نفسها، قدم أمير صغير من منطقة ايرلندا التي اسمها كونوت Connaught, إلى الملك في لندن، وتقدم بشكوى ثقيلة أمام الملك وأمام بلاطه، حول الأضرار الذي أنزلت به من قبل جون دي بورغ Bourg, الذي عاث بدون توقف فساداً بأراضيه بالنار والسيف، ومن أجل جميع هذه الأضرار، طالب الآن بتقديم العدل، وذلك بضبط العدوان الجريء لذلك النبيل، بواسطة السلطات الامبراطورية، والتمس من الملك أن لايسمح لرجل من رعيته المخلصين، الذي تولى دفع جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف مارك إلى مملكته، وذلك منذ أن سمح له بالاستحواذ على أراضيه بسلام، وتثبيت ذلك من قبل الملك جون، الذي أخضعه بالقوة هو ومملكته، وجعله من رعاياه، أن يسمح بشكل غير عادل بأن يحرم من ميراثه بوساطة (حسبما دعاه) مغامر وضيع.

وأصغى الملك باهتمام إلى مطالبه العادلة، وأمر موريس المذكور، الذي كان آنذاك بحضرته، باقتلاع نباتات شجر الجميز غير المثمرة، التي زرعها هيوبرت، ايرل كنت —في الاستخدام المفرط لقوته— في تلك

المناطق، وأن لايسمح لهم بمتابعة النمو، كما أنه كتب أوامر إلى نبلاء ايرلندا، بطرد جون دي بورغ من أراضيهم، وأن يعينوا ملكاً، ويقيموه في مملكتهم على أسس من السلام، وبهذه الطريقة، وبوساطة آراء الملك، ارتفعت آمال الأمير المتقدم الذكر، وقد عاد إلى ممتلكاته.

البابا يسعى للانسحاب من هدنته مع الامبراطور

علم في نهاية هذا الصيف النائب البابوي، بأن البابا قد وافق على هدنة مع الامبراطور تستمر حتى المجمع العام، الذي كان سينعقد في الفصح المقبل، فغضب غضباً كبيراً، وأرسل رسالة إلى قداسته، بأنه قد بات مشوشاً في تفكيره، وجباناً، حتى أن معنوياته قد تحطمت، وأنه غرق في حالة من اليأس، ولم يكن هذا من دون سبب، لأنه قد جمع الآن من فرنسا وحدها من المال مايكفيه ويمكنه من دون خوف أن يتابع الحرب ضد الامبراطور لمدة سنة كاملة، ولدى سماع البابا هذا ندم، وبات آسفاً لأنه وافق على الهدنة، واستدعى المعلم جون دي كولونا Colonna, والمعلم ريموند، رئيس كرادلته، الذي كان الوسيط في ترتيب الهدنة، وهو الذي تدخل مع الامبراطور، وخاطب الأول بينهما، وهو جون وقال:

«إنني خجل من نفسي لأنني منحت هدنة إلى عدو الكنيسة هذا، فردريك، وبناء عليه، بما أنك كنت المترجم بيننا في هذه القضية، عليك الذهاب بكل سرعة إليه، وأخبره، بأنني لم أختر الموافقة على الهدنة، وتحداه بجرأة، وأعلن بأنني سوف أكون عدوه من الآن فصاعداً، كما أنا الآن، وكما كنت من قبل»، وعلى هذا ردّ جون قائلاً:

«بعيداً عن التصديق سماع مثل هذا الكلام المتقلب من فم رجل عظيم مثلك، وأن يرسل هذا إلى مثل ذلك الأمير العظيم، خاصة من قبلنا نحن الذين لانعد أشخاصاً عاديين، وعلى هذا التقلب، وهذه

الخطة الخيانية أنا لن أقدم موافقتي بأية طريقة من الطرق، بل إنني أعارضها بثبات»، وعند ذلك قال له البابا: «إنني لاأعدك بعد الآن بمثابة كردينال لدي»، وعلى هذا رد جون قائلاً: «وأنا لن أستمر بالنظر إليك على أنك بابا»، وبهذه الصورة غادر وذهب بعيداً، وتحول من صديق إلى عدو، وعلى هذه الصورة نفسها حدث عندما قال أحد الأباطرة غير العادلين إلى واحد من شيوخه: «اخرج، إنك لم تعد شيخاً لدي» وعلى هذا رد الشيخ بجرأة: «وأنت أيضاً لم تعد امبراطوري»، لأنه كما أن عضو الرعية مرتبط بمولاه، كذلك المولى مرتبط بالرعية.

كيف جمع النائب البابوي مبلغاً كبيراً من المال في فرنسا

وعندما بات هذا معروفاً من قبل الملك الفرنسي، أمر بجميع المال الذي كان النائب البابوي قد جمعه من أراضيه، بناء على إذن منه، واستخرجه من جماعة رجال الدين، بكلمات معسولة، وبتهديدات قاسية، أمر بالاحتفاظ به، حتى يرى نتيجة الأحداث، ولكي يقوم البابا، الذي كان يدعى بنائب المسيح على الأرض، على الأقل بالبرهنة بالصدق في كلامه بهذه القضية، ولذلك استمرت الهدنة غير مخروقة بينهم، باستثناء ماتعلق بأعداء الامبراطور، أي الميلانيين، وبعض الناس من الايطاليين الآخرين، الذين حولهم لم يكن من شأن البابا أن يقلق، لأن شؤونهم كانت قد سويت في البداية، لدى كتابة المعاهدة.

براعة البابا ومكره في جباية المال في انكلترا

وكان البابا يرقب بدقة كل فرصة من أجل جمع المال، ولأنه كان يتوقع غنيمة كبيرة من انكلترا، وكان ينتظر ذلك، أرسل رسالة إلى النائب البابوي، بأن لايحاول حشد جميع كل رجال الدين مع بعضهم، كما فعل من قبل، فبذلك لن يتمكنوا من تشجيع أحدهم الآخر، أو

الاعتماد على أسبابهم المتقدمة واعتراضاتهم، ومحاولة ذلك ثانية لمعارضة خططه، بل الذي عليه جمع كل منهم واحداً واحداً والسعي هكذا لتطويعهم للقبول بإرادته، والقيام أولاً بإضعاف ثبات الملك، ذلك لأنه هو الذي وقف من قبل إلى جانب رجال الدين وأعطاهم الدعم، وبذلك يصبح ضعيفاً إلى درجة الدمار.

يقظة النائب البابوي في جمع المال

ولدى تسلم النائب البابوي لهذه الرسالة، تحول من بارع بالأذى إلى أكثر براعة، وقام بموجب سلطات البابا، فجمع كتلة رجال الدين كلهم، الذين بانكلترا، وأمرهم بالظهور أمامه في لندن، في يوم عيد جميع القديسين، وبناء عليه، اجتمع في اليوم المحدد جميع رجال الدين والرهبان، ووقتها وجدوا الملك مضاداً لهم، وظهر بمظهر عدو مكشوف بالنسبة إليهم، ذلك أنه أصبح بالنسبة لهم —وهذا كان حاله— ساق قصبة، من يتكىء عليها وهو واثق، يتعرض للجراحة من شظاياها، وبناء عليه، فإن الرهبان، وكذلك رؤساء الشمامسة، ورجال الدين الذين لديهم منافع، الذين جاءوا إلى هناك للوقوف في وجه النائب البابوي ومعارضته، والذين كانوا معادين له بروح عالية على أساس الترافع إلى المجمع القريب الانعقاد، عندما رأوا أنهم أصبحوا بمثابة شياه سوف يلقى بها بين الأنياب الدموية للذئاب، تنازلوا وقدموا موافقاتهم للكلام المعسول والمغوي للنائب البابوي، الذي حوله فيما بعد إلى رماح عدوانية.

موت رهبان درم في روما

وحدث في تلك الآونة، أن رهبان درم، الذين كانوا مقيمين في روما، للحصول على تثبيت لانتخابهم، قد عانوا كثيراً من الأذى، وذلك بسبب المعيقات التي ألقيت في سبيل اكمال أعمالهم من قبل الملك،

وبذلك باتوا مرهقين من التأخير، حيث كانوا ينصرفون وقد تملكهم الأسى، لذلك سقطوا مرضى، والتزموا بمضاجعهم، حيث انطبق عليهم كلام سليمان في قوله: «الروح المحطمة تجفف العظام»، ولذلك مات أربعة من الذين كانوا مقيمين هناك، وهم كان قد جرى اختيارهم من قبل اخوانهم، لأنهم كانوا يعدون أكثر حكمة من البقية، ولحق الموت أيضاً بعض رجال الدين والمرافقين الذين كانوا بارعين في القانون، والذين أنيبوا لمساعدتهم وخدمتهم ومواساتهم، وهكذا هلك الفريق الأكثر نفوذاً في الدير، وكان ذلك لاصابتهم بمرض عادي أو لحزنهم وأساهم الروحي، أو لاصابتهم بوباء، أو أنهم سمموا، فهذا كله غير معروف.

وعندما سمع رئيس رهبان درم بهذه الحالة وكذلك الأسقف المنتخب، قهرهما الحزن، وأصيبا بالرعب، بسبب أن الملك المسبب الرئيسي لها، لأنه لم يسمح للكنائس الشاغرة بالتكريس ومع أنه فعل ذلك، يبدو أنه كان وراء هذه المأساة الكبيرة ومدبرها، لذلك تخلى الأسقف المنتخب على الفور، واستقال عن طواعية من منصبه، وأعلن أنه لن يعرف السرور ثانية ولا البهجة، وهكذا عندما وجد الرهبان أنفسهم يمتلكون الحرية لانتخاب أسقف آخر، ذهبوا إلى الملك بالطريقة المعتادة، ورجوه أن يزودهم بالوسائل المناسبة، لانتخاب أسقف، ومنحهم الملك هذا المطلب، لكن في الوقت نفسه كما قال الشاعر:

بأوامر مزيجة، ووعود، وصلوات،

على الفور سوف يظهر المولى وتظهر الابتهالات.

ذلك أنه رجاهم بحرارة كبيرة وتوسل إليهم بتسمية، وانتخاب المعلم بطرس دي أيغيوبلانشي الذي هو الأسقف المنتخب لهارتفورد، والذي كان من مقاطعة بروفنسال من حيث المولد، أو انتخاب بونيفيشس

Bonifacius خـال (عـم) الملكة، وهم لم يكونوا يعرفـون شيئاً عن أخلاق ومعارف الرجلين، حيث كانا مجهـولين بالنسبة لهم تماماً، والذين عـرفـوه أنهما كـانا من طينة أجنبيـة، وليس لديهما كفـاءة لتبـوأ مثل هذا المنصب، ولم تكن هناك حـاجـة لهما في انكلترا، لأن انكلترا غـالبـاً مـا قدمت رجالاً أكفاء ومناسبين لإدارة الكنائس حتى في البلدان الأخرى، ولم تكن بحاجة لاستجـداء مثل هؤلاء الناس من خارج حدودها، ومن بلدان نائية.

المسلمون يستطلعون الغيب عن طريق القرعة

وفي العـام نفسـه، وفي وقت مناسب لممارسـة العقـائـد المدنسـة لعلم تحضير الأرواح، أو فن الحسـاب، كـان المسلمـون في الشرق يـرغبـون بالحصـول على معلومـات تتعلق بالأحـداث المستقبليـة المرتبطة بالجيش الصليبي، الذي كان يزحف ضدهم في ذلك الحين، وقد اقترب وصوله، فعملوا تضحية، ووجهوا دعوة مرعبة إلى الشياطين، وألقوا قرعة، وبعد اكمال هذا العمل الواهم، قـام كـاهنهم الأعلى، بنظرة كئيبـة، وبصـوت حزين متهـدج، فخاطب مقدميهم هكـذا: «ليكن معلوماً من قبلكم أيها السادة الأقوياء، أن الأقدار معاكسة لنا»، ثم إنه بعدما قام بحركة رمزية وطلب الالهام من الروح القذرة، تابع الحديث الذي كان قد بدأه قائلاً: «لاتدعـو النصر الذي نلتموه مـؤخراً، وأعطي إليكم من الرب، يغـركم كثيراً، ويفرحكم، لأن هناك هؤلاء القادمون، سوف يطلبون بجرأة دماء الذين قهروا على أيديكم مؤخـراً، مع كثير من ردات الفعل الانتقامية»، ولدى سماع الحاضرين لهذا اعترتهم الـدهشـة، وسأل واحـد من كبـار مقدميهم، محضر الأرواح المتقدم ذكـره، من كان مقدم الجيش الصليبي، وعلى سـؤاله تلقى الجواب التـالي: «إنه واحـد من الشبـاب، قـد اقترب وصوله وبات وشيكاً»، ثم قال المقـدم للساحر: «هل هو من أسرة ذلك الملك الشهير الذي ألقى بالرعب بالشرق كله، في وقت مضى»؟ وأجابه

الساحــر: «إنه حفيـد ذلك الملك، ويحمل اسمــه» «وكيف هي سماته؟ وماهي قدرته»؟ «إن حكمته أكبر، لكن قوته أقل، ومع ذلك تزداد قوته يوماً إثـر يوم»، وبهذا استولى الخوف واليأس على الجميع، لكن السـاحر عندمـا رآهـم يبكون بشكل وافـر، وآسفين من دون ضـوابـط تابع يتنبأ قائلاً: «لاتبكوا، فـالذي علينا هو بالحري أن نصلي وأن نأمل، بأن يعاق بشباك ذنوبهم، ومن الممكن للصليبيين، مثمـلا فعلوا مؤخـراً في دمياط، أن يفقدوا حظوة المسيح، ربهم، الذي يحب نقاء الشرف»، وبهذه الطريقة ضعف خوفهم إلى درجة ما.

الميلانيون يحرقون الهراطقة بينهم

وقام الميلانيـون في هذه الآونة، من خلال الخوف من العقوبة، وليس من خـلال حب الفضيلة، ولكي ينقذوا اسمهم الصـالح، ومن أجل أن يكونوا متحررين أكثر في الاجابة على التهم التي عملت ضدهم من قبل الامبراطور، فأحـرقـوا الهراطقـة الذيـن سكنوا مـدينتهم بأعـداد كبيرة، وبهذه العمليـة نقص عدد سكان المدينة كثيراً، وذلك بسبب أنهم كـانوا خــائفين على أنفسهم، لأنهم كــانوا مثـل بقيــة الايطاليين من أعــداء الامبراطور، من الحرمان مـن التمتع بالهدنة، وكانوا واثقين تمامـاً بالبابا، الذي وعـدهم أنه لن يبرم أي صلـح —ولا بأي شكل من الأشكال— مـع الامبراطور، مـن دون أن يخبرهم، ومـع ذلك وجـــــدوا أنفسهـم مرعوبين من صدور قـرار قضائي ضدهم، وتدمير شامل لهم في المجمع العام ا لمزمع عقده.

حرمان سيمون النورماني من جميع منافعه إلاّ واحدة

في هذه الآونة، وبسبب الغضب الانتقـامي للملك، جـرى حـرمـان سيمـــون النورمـاني، الذي كـــان لبعض السنين التي خلت، المستشــار الرئيسي للملك، والحافـظ للختم الملكي، وجــاء حــرمــانه بمــوجب

سلطات البابا، من جميع منافعه باستثناء منفعـة واحدة، وطرد بالقوة من رئاسـة شمامسة نورويـك، وبما أنه كان مستحـوذاً على حصة مؤلفـة من عدة منافع، ولكي لايبـدو البابا أنه قد وضع يده عليـه ثقيلة جداً، ومع أنه لم يظهـر هناك أي واحـد قد تدخل من أجـل سيمون المذكـور، فإن البابا حـدّد كمية دخل سيمون المذكـور بمبلغ مائـة ألف مارك، وبذلك صار علامة للنقد لدى معارفه، وهكذا جمع ثمار طرقه، كما قال الشاعر:

إنه إذا ما نهض الرجال الأشرار، إنني لن أشكو الآن،

فهم يمكنهم الصعـود فقط حتى السماء، لكنهم سـوف يسقطون من جديد.

ولقـد كـان هـذا هو الرجل الذي قـدم المشـورة الشريرة، والمؤذية للمملكة، وهو الذي تسبب ببقاء النائب البـابوي في انكلترا، عندما كان مستعداً للسفر للشطر الآخر من الألب، وهو الذي بحضورالبابا، عندما سئل مـن قبله، لماذا لم يحب ملك انكلترا رعـايـاه الطبيعيين، بـل جلب الأجانب ليكونوا مستشاريه، أجاب: «لايوجد في هذه الآونة ولا واحد انكليـزي بـرهن على الاخـلاص في انكلترا، يمكن للملـك أن يثق به وباخـلاصـه»، وهوالكلام الـذي أغضب المعلم روبرت سمـركـوت، الكاردينال، والذي كان انكليـزياً من حيث المولد، حيث قاطعـه، ووجه اللوم بحدة إليه.

أخبار سارة من الأرض المقدسة

أثناء هذا العـام، وبعد جميع الآلام والمعيقـات التي عـانى منها عبـاد خطوات المسيح، من الفرسان الصليبيين جداً في الأرض المقدسة، أعطى الرب مواساة عظيمة إلى شعبه، حسبما ورد خبر ذلك في الرسالة التالية:

«مـن الـراهـب هـيـرمـان أوف بـيـريـغـورد Hermann of Perigord, الذي هو بنعمـة الرب المعلم

المتواضع لفرسان الداوية المساكين، إلى أخيه المحبوب بالمسيح، المعلم روبرت ساندفور رئيس بيت الفرسان المذكورين في انكلترا، تحيات في الرب:

إننا نرغب في أن نعلم جماعتكم، انه بعدما أقام الجيش الصليبي لوقت طويل فوق الرمال، وهو منهك لايعمل شيئاً، ولايستطيع اتخاذ قرار حول الطريق الذي سوف يتبناه، أو ما الذي سوف يعمله، حتى قام الرب أخيراً فزاره وهو الرب القائم في عليين، وذلك ليس بفضل محاسنه، بل بفضل رحمته المعتادة، لأن سلطان دمشق، قد قام ليس لخوفه من الصليبيين، بل لتدخل اعجازي من الرب، فأعاد إلى السلطة الصليبية المنطقة كلها، الممتدة بأكملها من نهر الأردن، ومع هذا ميثاق واتفاقية بين الفريقين، قضت بأن الفريق الأول سوف يساعد الفريق الآخر إلى أقصى طاقته، في الدفاع عن بلاده ضد سلطان مصر، وأن لايعمل أي واحد من الفريقين مصالحة مع السلطان المذكور، من دون موافقة الفريق الآخر، وجرى استقبال هذه الاتفاقية بموافقة عامة، مبارك الرب من أجل كل شيء، الذي أمن هذا»، وقد قيل بأن هذا كله قد عمل نتيجة للنبوءة التي لم تكن لصالحهم، وهي النبوءة التي أتينا على ذكرها في الصفحة المتقدمة.

وكان الرسول الذي حمل هذه الأخبار من الأرض المقدسة، قد التقى باسطول الايرل رتشارد وهو مسافر بشكل موفق، كما أنه أعلن، أن سلطان دمشق، قد اقترح بشكل مؤكد تماماً بأنه سوف يتلقى طقوس التعميد».

رسالة الامبراطور إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة، كتب الامبراطور، الرسالة التالية إلى ملك انكلترا:

«من الامبراطور إلى الملك، تحيات:

إنظر إلى أي مدى عمل ضدنا في حالة الضغوط الحالية، اللومبارد،

والكاهن الأعلى للرومان، وذلك بمشورته المريضة الغاضبة، فهذا ما أفادتكم به التقارير العامة، بما فيه الكفاية، وتبصر كيف أنه قبل أن يحمل السلاح، قد ألقى جانباً جميع الاحترام للديانة، ولكرامة منصبه الحبري، وعيّن نفسه قائداً، ومقدماً لرعايانا العصاة، ولذلك نطالب بعقد مجمع عام، وبشكل خاص حضور رسل من عندكم، ولاأعتقد أن هذا سر لجلالتكم المخلصة، وثانية، إنكم فيما أعتقد قد علمتم كيف أنه بمبادرة من قبل بعض إخوانه، الذين كانوا يصممون خطة للتخلص من مثل هذا الخطر، وكيف أن جلالتنا تلطفت بالموافقة أكثر مما توقعوه وسألونا إياه، واستبعدنا اللومبارد فقط، فلم نسمح، باسترداد أنفاسهم، بوساطة الهدنة، وبعيداً عن الغضب، وهو أمر غير معتاد بالنسبة للكهنة، وقد ابتغينا تجنب فضيحة عامة، وأن نعثر على وسائل لإعادة تأسيس السلام، كي لانؤخر تحرير الأرض المقدسة.

وهو على كل حال، لم يسمح للومبارد، الذين كان متعاهداً معهم، باستبعادهم من هدنتنا، عادّاً معاناة الميلانيين والمرتبطين بهم أكثر أهمية من الانشطار، الذي انقسم به العالم كله، وعندما لم نوافق على هذا بأية وسيلة من الوسائل، ولم نسمح للذين هم مجرمون بالخيانة ضدنا، بأن يكونوا مشمولين بهدنتنا، أو أن نسمح لهم بأن يزدادوا قوة بوساطة الحماية البابوية، بأي شكل من الأشكال، وأخيراً عندما رأى بأن المتمردين المذكورين ضدنا، كانوا ضعفاء بالشجاعة بأنفسهم، وأنه لايمكنه أن يمنحهم الخلاص بوساطة السلام ولو لبعض الوقت، قام بعد ذلك بتحويل عقله لإبداع خطط أخرى، وسعى بوسائط الأسقف المحترم لبريشيا، الذي كان قادماً إلينا، ليتولى اقناعنا، بحكم أنه كان شاغلاً نفسه (كما ذكر) في استدعاء الرسل من لدن عدة ملوك وبعض الأمراء، والأساقفة من البلدان الغربية إلى المجمع، في سبيل إعادة تأسيس السلام بيننا وبين الكنيسة، بأن ندخل العصاة اللومبارد المتقدم

ذكـرهم بالهدنة معـه، وهي الهدنة التي سوف تستمـر حتى العيـد المقبل لقيامة ربنا، معطيـاً سبباً لذلك، أنه من خلال هدنة عـامة، سوف يجري تقديم الأمن للذين جرى استدعاءهم إلى المجمع.

أصغ إلى طريقته العجيبة هذه بالتلاعب علينا، وتصاميمه الماكرة جداً في سبيل القضـاء على قضيتنا العـادلة، حيث تراه أحيـاناً يتظاهـر بأنه يرغب بأن يحتفظ بالسـلام معنا، فيقدم مظهراً للـوئام معنا، في سبيل أن يتمكن هؤلاء اللومبارد في تأسيس عصيانهم، بأن يكسبوا بوساطة الهدنة فـرصة لاسترداد أنفـاسهم، ومن ثم التمكن في الوقـت نفسه بالحصـول بحرية أكبر على مساعدة الأساقفة، القادمين للالتحاق بالخصام ضدنا.

وهكذا يمكنك أن ترى بـوضـوح بأنـه يريد من عقـد هذا المجمع، زيادة الخلاف وليس صنع السـلام، وانتبـه إلى شكل الدعـوات، التي لم يرد فيهـا ذكر قيـامه بإعـدادات من أجل السلام المقبل، باستثناء تأكيـده بأن الدعـوات الحاليـة هي ضروريـة لتسـوية القضـايا الكبيرة والصعبـة للكنيسـة الرومـانيـة، وانظر إلى الوقت، عندمـا سعى إلى فـرض النائب البـابوي علينا، قبل المجمع، وبعـدمـا قـاتلنا بطريقـة عـدوانيـة، وقـدّر الأشخـاص الذين دعـاهم، ورفضـه رسـل جـلالتك، الـذين غـالبـاً مـاعرضت مـن خلالهم العمل على ترتيب هـذا السلام معـه، وهو على سبيل المثـال وجّـه الدعـوة بإلحاح لحضـور هذا المجمع إلى كـونت بروفانس، الذي هو متمرد مكشـوف ضد جلالتكم، وإلى دوج البندقية، وإلى مـركيـز أوستيـا، وإلى كـونت القـديس بونيفـاشيـو Bonifacio, وإلى ألماريك دي رومـانديولا Almeric de Romandiola, وبياكـوين Biaquin, وغـوستينو دي كـامينو Giustino de Camino, وبولص ترافيرساري Traversari, فهؤلاء بعـدما قدم لهم هدايا مالية، حثهم —كما هـو واضح من التقارير العامة— على إلحاق الضرر بنا.

وعلى الرغم من هذا كله، واحتراماً منا للملك الذي هو في عليين، رأينا من المناسب الاجابة على هذا المدعو أسقفاً، لأنه ليس لدينا أية خلافات مع الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمنا، بل إننا ندافع عن القضية العادلة ضد عدوان هذا الحبر الروماني، ونبعد المضار التي عملت من قبله..

ومع هذا، لقد رغبنا دوماً، ومازلنا نرغب، في أن نكون بسلام، في سبيل أن نتجنب شقاق عام في العالم، ولكي لاتكون الترتيبات من أجل السلام آتية من أطراف نائية، قمنا من خلال هذا الأسقف المذكور، ومن خلال أشخاص صالحين آخرين، كانوا على دراية بعدالة قضيتنا، وكانوا راغبين ومتطلعين لترتيب السلام وإعداده فوراً، في سبيل التمكن من إزالة هذه الشرور على الفور من بيننا، كما أننا وافقنا على الدخول بهدنة مع الحبر المذكور، مع أن ذلك ليس لصالحنا، ومع الذين كانوا مستعدين لجميع فرص الحرب ضدنا، آملين بالهدنة، مثل الأمل بمرقاة حفظ الحياة، بأن نصعد إلى الأماكن العالية للسلام بسهولة أكثر.

أما بالنسبة إلى اللومبارد المتمردين ضد مقامنا الملكي، سوف نظل على الدوام، وكما فعلنا دوماً، متمسكين بإقصائهم عن جميع العلاقات والارتباطات بهذه الهدنة، كما أننا، في الحالة الحالية الحرجة للأمور بيننا وبينه، لن نسمح بعقد المجمع من قبله، الذي هو مكشوف للامبراطورية، لأنه يتوجب أن نعده غير موائم البتة لنا وللامبراطورية، كما لن نسمح لجميع نبلاء البلاد بعرض قضيتنا على محكمة مشكوك بها، أو لأن يتخذ قرار بشأنها من قبل المجمع الكنسي، ونرفض منح أي أمان بالمرور للأشخاص أو المقتنيات، للعبور خلال الأراضي الخاضعة لحكمنا، وذلك يشمل جميع المدعوين إلى المجمع.

وبناء عليه، إننا بهذه العروض نحث جلالتكم على نشر إعلاننا الملكي هذا، بوساطة كل واحد من أساقفة مملكتكم، وأن تنشروا ذلك في الخارج، حتى لايأتي أحد إلى هذا المجمع، ولديه أية ثقة بتسلم أمان عبور منا، لأننا مهما كنا راغبين في اظهار الاحترام لرعايا مملكتكم، على أساس العواطف الخاصة التي نحملها نحوكم، مع ذلك لايجوز لنا أن نكون متسامحين تجاه الوقاحة الموجهة ضدنا من قبل الذين سوف يأتون بناء على دعوة من عدونا. صدر من معسكرنا، لدى محاصرة فيانزا Faenza, في هذا اليوم الثالث عشر من أيلول، في العلامة الثالثة عشرة».

البواعث التي أقنعت الامبراطور بالسعي للوقوف في وجه المجمع

كان الامبراطور مثاراً لأسباب باطنية، ولأسباب أخرى، وخشية منه، أن الخيانة قد خططت ضده في عقد هذا المجمع، لذلك اتخذ اجراءات للوقوف ضده، كما أنه كان منذراً جزئياً بالأسباب التي ورد ذكرها أعلاه.

وبناء عليه، اشتكى الامبراطور في المقام الأول من الموعد غير الموائم والمفاجىء للتسوية، الأمر الذي لم يكن موافقاً عليه البتة.

ومجدداً لأنه كان قد ترتب من قبل، وتقرر بموجب موافقة متبادلة من البابا وكذلك من الامبراطور، بأن لايقوم البابا بدعوة المدعوين لحضور المجمع، عندما سيجري عرض قضية الفريقين بشكل خاص للمناقشة.

ومن جديد، صحيح أن المجمع كان سيدعى إليه من أجل إعادة السلام وتثبيته بقوة، بينهما، وليس من أجل سبب آخر، لم يذكر البابا هذا السبب في مذكرة الدعوات، بل الذي ذكره كان فقط: «تسوية

المشاكل الصعبة للكنيسة»، وبذلك طمس كلياً القضية التي من أجلها بشكل رئيسي توجب الاستدعاء، وبذلك خرق وعوده التي عملها، وكانت قد تأكدت من على الطرفين.

ومجدداً، قال الامبراطور بأن البابا قد دعا إلى المجمع أعداء الامبراطورية المعلنين والمكشوفين (الذين ذكر الامبراطور أسماءهم في رسالته)، وقد رشاهم بهدايا فخمة، حتى يستجيبوا للنية الفاسدة، ولكي يوصموا باسم خونة إلى الأبد، هم وذريتهم، فإلى مثل هؤلاء الناس كان سيعهد بمهمة ترتيب الأمور الصعبة للامبراطورية.

ومن جديد قال الامبراطور:

«إنه سعياً من أوتو، النائب البابوي في انكلترا، ومن ملك انكلترا للحطّ من شأني، قد سحبا تقريباً جميع أموال تلك البلاد، وتسببا بالتفوه بتكفيري، وبإعلان ذلك ضدي في تلك المملكة، مما ألحق إهانة كبيرة بالامبراطورية، ولوث كرامتنا كثيراً، ولذلك يتوجب علينا لسبب جيد أن نعدهما مع جميع أساقفة انكلترا، بمثابة أعداء لنا، وكذلك بقدر ما صبا أموالهما من أجل ايذائنا، وتلويث شرفنا ومحقه، إلى أقصى درجات قوتهما، ولم يتأثرا بحال أنني حليف للملك الانكليزي، ومرتبط به بروابط القرابة، وأنني لم أؤذيهما قط، ولذلك سوف يكون أمراً غير طبيعي، ومتناقضاً تماماً مع العقل بالنسبة لي، بأن أحاكم من قبلهما».

وقال الامبراطور مجدداً بأنه «بوساطة التأخير الذي نجم عن الهدنة التي تمّ الاتفاق عليها، والتي هي مشكوك بها من قبلنا، لابل مؤذية لنا، ففي أثناء البحث بشؤون المجمع (التي ربما لن يجري على الفور تقرير تسويتها) سوف يكون بإمكان أعدائنا استرداد أنفاسهم، وبموافقة البابا وتشجيعه، وهو الذي عيّن نفسه مقدمهم، والمدافع عنهم، وبطلهم، سوف ينهضون بقوة جديدة لمهاجمتنا».

ومجدداً قال الامبراطور بأن «البابا كان ينتظر مبلغاً كبيراً من المال، يجري استخراجه من أساقفة فرنسا وانكلترا بشكل خاص، وهو المبلغ الذي وعد بإعطائه إلى أعداء الامبراطورية، ومن هذا المبلغ يستمد البابا وهم معه ثقتهم، وفخارهم، وأن الامبراطور، بناء على ذلك، لديه سبب مسوغ بأن يخاف من النتيجة على نفسه»، وتستمد هذه العادة المقيتة أصلها من سلفه أنوسنت، الذي قام أثناء المجمع الأخير، لابل بالحري بعد انهاء المجمع، بعدم السماح للأساقفة بالمغادرة، حتى استخرج البابا المال منهم، واحداً واحداً، دون إعطاء تقدير إلى متاعب ونفقات، واضطرابات الأساقفة أثناء سفرهم.

ومجدداً قال الامبراطور بأن جميع الأساقفة، وبشكل خاص أساقفة انكلترا، يعدّون أنفسهم مرتبطين باختصاصهم ويمينهم بالبابا الذي هو مولاهم الاقطاعي، وليسوا مرتبطين بالامبراطور أو بالامبراطورية، ولذلك عدّ الامبراطور، بأن قرارهم، سوف يكون لسبب جيد، مسألة مشكوك بها، ومخشي منها من قبله، خاصة وأن البابا معروف بأنه عدوه الخاص والمميت، ويمكنه بسهولة أن يحطّ من شأن قرار كهنته، وهو أيضاً يسعى، و يستغل كل معارفه وفنونه لتدمير الامبراطور وكذلك الامبراطورية، ولكن وفقاً لما قاله أوفيد:

«المسافر الحكيم مثله مثل اللص

بالسيف يسلح نفسه،

ليس مثله، لقتال الآخرين

بل ليحفظ نفسه من الأذى».

وبناء عليه، بعدما وزن الامبراطور هذه النقاط، مع نقاط أخرى غير معروفة من قبل الناس، في ميزان البراعة العقلية، ولمعرفته بأن كثيرين كانوا يتآمرون من أجل إلحاق الأذى به، بدأ بشكل حضاري بالرسالة

المتقدم ذكرها، بإنذار جميع الذين استدعيوا وكانوا قادمين إلى المجمع، وتحذيرهم من المخاطر المحيقة بهم، و أنه سوف لن يقدم الحماية إلى الذين شقوا طريقهم خلال ممتلكاته.

وصول الإيرل رتشارد إلى الأرض المقدسة بعد رحلة موفقة

في هذه الآونة، كان الايرل رتشارد، الذي كان مسافراً في رحلته إلى الأرض المقدسة قد وصل أخيراً سالماً إلى الأرض المقدسة، وكان وصوله بعد عشرين يوماً من عيد القديس ميكائيل، إلى ميناء عكا، ووصل معه أيضاً الاسطول الأجنبي الذي التحق به، ولدى نزوله إلى اليابسة استقبل بسرور عارم من قبل الأساقفة، ورجال الدين في مسيرة، وهم يرتدون ملابسهم المقدسة، وأيضاً من قبل مقدمي الفرسان، الذين قدموا لمقابلته باحترام وافر، وذلك وسط هتافات الناس، وقرع الأجراس، وغناء رجال الدين، وموسيقى الصنوج والزمامير، بحضور مجموعة من الراقصين، وهكذا بدا وصوله أنه متحد مع سكان السماء، حيث تجددوا مع سرور لايمكن وصفه وفرح، ولذلك رفعوا أيديهم نحو السماء، وصرخوا قائلين: «مبارك القادم باسم الرب»، وفي اليوم الثالث بعد وصوله، أمر بالإعلان بوساطة صوت المنادي في عكا، بأنه ما من واحد من الحجاج الصليبيين عليه المغادرة، بسبب الحاجة إلى المال، بل عليهم جميعاً البقاء، والقتال بجرأة من أجل المسيح، وهم سوف يعيشون بوساطة الدفع من قبله.

موت إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وبينما كان دولاب الحظ يتغير هكذا، مبدلاً مجرى الأحداث العالمية، تهاوى بالعقل وبالجسد، ادموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان قد ذهب متطوعاً إلى المنفى في القارة، وكان يقول متعجباً مع تنهدات متواصلة: «آه، كم هو أفضل للإنسان أن يموت، على أن يرى معاناة

الناس والقــديسين على الأرض»، وبالنسبــة للذين ربطهم بالحرمــان، والنائب البابـوي، قام بدون اهتمام بكرامته، ولابعـدم حظوته، فحللهم، والعكس صحيح، وبناء عليـه، كان في رغبتـه بالتفـاني، ولأن يكون مع المسيح، كـان يصلي كما يلي: «الويل لي، لقـد طـال أمـد نفيي، لقـد بات كـافياً، لابل أكثـر مما هو كـاف، ذلك أنني رأيت جميع الأشيـاء المرتبطة بالتدمير والخراب، خـذ حياتي، يامـولاي وربي»، وكان رئيس الأسـاقفة المذكـور مقيماً منذ أيـام في بونتني، حيث سكن سلفـه الشهيـد المبـارك تومـــاس، في وقت مضى، أثناء نفيـــه، وفي هذا المكان، مع الـدمـــوع والصـــوم، كـان يقـــدم الصلوات إلى الـرب ليـلاً ونهاراً، وإلى المبــارك تومـاس، حــول وضع الكنيسـة الانكليـزية، التي كـانـت في حـالة من الرعب هائلـة، وأخيراً أصـابه الإعيــاء بسبب التقشف، وتهاوى بسبب الحزن، ولأن جسـده بات فارغـاً، فقـد تقلص وضعف، فسقط مريضـاً مرضـاً شديداً، وبنـاء على نصيحة أطبائـه سمح بنقل نفسـه إلى سويسي Soissy في سبيل الاستشفـاء بهواء أفضل، وبعـدمـا عـاني لبعض الوقت من الذرب الشديد، تحرر من روابط الجسد، وقال وداعاً إلى هذا العالم الشرير، وغادر طريق الجسد، وهكـذا فإن روحه استبدلت بسعادة النفي في هذه الحيــاة بالعيش في الديـار السماوية، وبالفعل كــان هو في منفى، وجسده فقط عمل حجـاً في هذه الحياة، وقد أنهك تحت كثير من أسبـاب الغضب، فقد حلل العصـاة ضـد الكنيسـة من عقوبة الحرمـان الكنسي المحقة، وكذلك النائب البابوي المتمرد والذي هو بدون احترام، فقـد قـام هذا بناء على مـوافقـة الملك، فـاستأنف بطيش القيـام بأعمال أخرى، ليس لها علاقة بمنصبـه، من أجل إلحاق الضرر برئيس الأساقفة المذكـور، الذي هو الأول في جميع انكلترا، وقـام مصـدر الازعـاج هذا، بإثارة أساقفة انكلترا بالقوة، وكان هنـاك واحد من الهجائين عندما كان الملك والنائب البـابوي، يتمازحـان بالحديث مع بعضهما، ويعد أحـدهما الآخـر بالتعـاون معـاً ضد كل واحـد في كل شيء، وقتهـا تولى الهجـاء

لومهما بما فيه الكفاية بقوله الكلمات التالية:

«امض، امض، الآن سوف أعرف أنه عندما يدخل الراعي والذئب في معاهدة سلام، سوف تقع مذبحة دموية بين الأغنام».

دفن إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وبهذه الطريقة، غادر بناء عليه، في السادس عشر من تشرين الثاني، في ثمانية القديس مارتن، إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، من هذا العالم، وهو معترف، ومشابه بكثير من النقاط ذلك القديس والمعترف، وحدثت وفاته في بيت للكهنة النظاميين في سويسي، وأثناء إقامته هناك، خلال حياته، اعتقد الكهنة مرة بأنه مغادرهم وذاهب من عندهم، وبناء على ذلك قال له رئيس ذلك المكان: «لماذا أنت مغادرنا، ومبتعد عنها، يامولاي؟ لماذا سوف تهجرنا، إنك سوف تتضايق أثناء السفر، استرح بسلام معنا»، وعلى هذا ردّ رئيس الأساقفة قائلاً: «إن قلبي سوف يبقى معكم»، غير أنهم لم يفهموا كلامه، فهو على كل حال وقع مريضاً، ومات هناك، وبعد موته جرى فتح جسده، وتم دفن أحشائه وقلبه هناك، وكان ذلك المكان على بعد عشرين فرسخاً، أي أن تقول سفر يومين عن بونتني، وهكذا انفتحت أعينهم أخيراً، وفهموا معاني الكلمات التي تفوه بها رئيس الأساقفة.

وعند ذلك قام كهنته وخدمه، بلف جسده المقدس (كما كانت العادة) في ثيابه الحبرية، وحملوه إلى بونتني، على محفة خشبية، ليدفن هناك، لأنه في أثناء حياته، عندما رأى أنه لابد مغادر لهذا العالم بالحال، عهد بقضيته إلى الرب وإلى القديس توماس (الذي عندما نفي من انكلترا للسبب نفسه، مثله هو، وجد ملجأ هناك) ومنح جسده إلى كنيسة بونتني.

وعندما كانوا مسافرين، حاملين لجسده المقدس، من أجل دفنه، تدفق

المرضى عليه بسبب شهرة قداسته، وبثقة سألوه راجين أن يعودوا إلى الصحة بوساطة المسيح، ومن خلال صلواته، وفي أحد الأيام، وبسبب فضائله الكبرى، تنازل الرب ثلاث مرات فأشار بوضوح إلى هذا الرجل المقدس، وبسبب فضائله الكبرى، ومع معجزات كبيرة، وعنوان القداسة، من أجل ذلك جرى غناء ترنيمة الملائكة: «نحن نثني عليك، يارب» ثلاث مرات بشكل مهيب وتقوي.

وبناء عليه، فإن بونتني، التي كانت في وقت مضى مكان التجاء ومأوى لتوماس المبارك، تسلمت باستحقاق جسد المعترف، الذي عندما جرى دفنه، اكتشف أن الدود قد أكله، وتلاشى بوساطة المسوح، وأن ركبتيه، بسبب الانحناء المتواصل في الصلاة، قد ظهرت عليهما علامة وتجملتا بصلابة مقدسة، وهذا كله قد تحدث عنه بشكل مكشوف القديس توماس المذكور.

انطلاق أساقفة إنكلترا نحو روما

أثناء هذه التبدلات المتنوعة للأحداث، تراجع الامبراطور عن مراعاة الهدنة المتفق عليها من قبل، وذلك مثلما كان البابا قد فعل من قبل، ثم إنه قام بوحشية بالتضييق على المدينة التي كان يحاصرها، وقام الأساقفة الانكليز —على كل حال— والنائب البابوي، في طاعة منهم لأوامر البابا، بالاستعداد بجرأة، مع أن ذلك شكّل مخاطرة كبيرة لأنفسهم، لعبور الألب أثناء عيد الميلاد المقبل.

تكريس بطرس دي ايغيوبلانشي أسقفاً على هارتفورد

في هذه الآونة، وفي يوم الأحد التالي قبل عيد الميلاد جرى تكريس المعلم بطرس دي ايغيوبلانشي Aigueblanche أسقفاً على هارتفورد، وكان ذلك في كنيسة القديس بولص في لندن، وذلك بحضور الملك، والنبلاء، ووسط هتافات الجماهير، وفي الوقت نفسه

حـرك رهبــان كـانتربري بنشــاط دعـواهم ومطلبهم بممارسـة امتيـاز كنيستهم، وعرضوا ذلك على النائب البابوي وعلى رئيس أساقفة يورك، وكذلك على الأساقفة الآخرين، والنبلاء الذين كانوا حاضرين.

جلب تاج الشوك العائد للرب إلى فرنسا

ازدهرت فرنسا في هذا العام، وفـرحت، بنيلها المنح من مولانا يسوع المسيح، لأنها إلى جـانب المكافأة التي نالتهـا مع جسد ادمـوند المعترف، الذي نقل نفسه من انكلترا، لقد فرحت بالحصول على تاج ربنا المصنوع من شـوك، وجاء الحصول عليـه من القسطنطينية، لأنه في أيـام الحاجة، وعندمـا كـانت الأمـوال غير كافيـة (وهو الحال المعتـاد بشكل عـام مع الذين يتابعون الحرب)، بعث بلـدوين، امبراطور القسطنطينية رسالة إلى الملك الفرنسي يقول فيها، بما أنه لامال لديه، إذا ماأعطاه الملك الفرنسي مسـاعـدة مـاليـة فعـالة، سـوف هو يعطيـه —أي الامبراطور— التـاج الحقيقي لربنا، الذي نسجه اليهود ووضعوه على رأسه عندما كان سيتألم على الصليب من أجل تخليص الجنس البشري، وأنه سـوف يفعل ذلك تقديراً منه لروابط الصداقة القديمة بينهما، ولقرابتهما.

وقام الملك الفرنسي بناء على نصيحة مستشاريه الطبيعيين، فوافق عن طواعية على هذا، وبالوفـاق مع أمه، بعث بكرم بمبلغ كبير من المال إلى الامبراطور بلدوين، الذي لحق الإنهاك أمـواله بسبب الحروب المستمرة، وهكذا أعاد تجهيـز خزينته، فشجع ذلك أعوانه، وجيشـه وشعر بلدوين بالثقــة والأمل بالحصــول على نصر على الإغــريـق، ومقـابـل هذا تمّ الحصـول على منفعة كبيرة من الملك، وقـام الامبراطور، تنفيذاً لوعـوده ولاتفـاقـاته، فـأرسل بوفـاء إليـه تاج المسيح، الـذي هو أعلى قيمـة من الذهب ومن الأحجـار الكريمـة، وبناء عليـه جـرى استقبـاله بمهـابة وتقـوى، وذلك لصـالح المملكة الفـرنسيـة، وفي الحقيقـة لصـالح جميع اللاتين، واحتفي به بمسيرة وسط قـرع الأجراس، والصلوات المخلصـة

للمؤمنين أتباع المسيح، ووضع باحترام لائق في بيعة الملك في باريس.

الاجتياح التتاري

في هذا العـام، حتى لايستمـر السرور البشري طويلاً، وكي لايطول أمد شعـور العالم بالبهجة، من دون أن تمتـزج بالنحيب، قام قطيع هائل من عـرق أبناء الشيطان المقيت، أي التتـار، فتـدفق أفـراده من مناطقهم ذات الحدود الجبليـة، وشقـوا طريقهـم بين الصخـور التي بدت وكأنها لايمكن خـرقهـا، واندفعـوا وكـأنهم شيـاطين قـد تحرروا من ترتاروس Tartarus (ولهذا السبب يعـرفـون باسم تتـار، لأنهم كـانوا سكان ترتاروس) واجتـاحـوا المنطقـة، حيث غطوا وجـه الأرض مثل الجراد، وعاثوا في البلدان الشرقية ودمّـروها تدميراً مريعاً، ونشروا النار والقتل حيثما ذهبوا، وجـالوا خلال البلـدان الاسلامية، حيـث اجتثوا المدن إلى الأرض، وأحـرقوا الغـابات، وهدموا القـلاع، وقطعوا أشجـار العنب، ودمروا الحدائق، وذبحوا السكان والفلاحين، وكـانوا إذا ما أبقوا بعض الناس أحيـاء، ممن رجوهم الحفـاظ على حياتهم، أرغموهم، كعبيـد من أدنى الدرجات، على القتال أمامهم ضد أقربائهم، وإذا ما تظاهروا فقط بالقتال تظاهراً، أو قاموا ربما بإنـذار أبناء وطنهم حتى يفروا، كان التتار الذين يسيرون خلفهم في الساقة يتولون قتلهم، وإذا مـا قاتلوا بشجاعة، فإنهم مـا كـانوا يحصلون على شكر عن طريق التعـويض، وهكذا أسـاء هؤلاء المتوحشون معـاملة أسراهم، وكأنهم كانوا من الدواب، والرجال لديهم ليسـوا مـن البشر، ولهم طبـائع الحيـوانات، أو بـالحري تتـوجب تسميتهم بالتنينات وليس البشر، متعطشين وراء شرب الـدمـاء، وتمزيق أجسـاد الكلاب وبنـي البشر والتهـامهـا، وهم يلبســون أنفسهم جلود الثيران، ويتسلحـون برماح حـديدية، وهم قصـار القـامة، وأجسـادهـم شديدة الكثافة، وقوية جـداً، لايشاهدون في المعركة، ولايمكن هزيمتهم في العمل، وهم لايرتدون دروعاً على الأجزاء الخلفية من أجسادهم، بل

يدافعون عنها ويحمونها من الأمام، وهم يشربون الدماء التي تتدفق من القطعان، ويرونها شهية ولذيذة، ولديهم خيول عريضة وقوية جداً، تأكل أوراق الأشجار، لابل الأشجار نفسها، وبسبب قصر قوائمهم، من الممكن الاعتلاء على ظهورهم ثلاث خطوات، بدلاً من الركابات، وليس لديهم شرائع بشرية، ولايعرفون الرحمة، وأكثر وحشية وشراسة من الأسود أو الدببة، ولديهم قوارب مصنوعة من جلود الثيران، ولكل عشرة أو اثني عشر رجلاً منهم واحد يتشاركونه فيما بينهم، وهم بارعون بالتجذيف وبالسباحة، ولذلك تراهم قادرين على عبور أسرع الأنهار، من دون أي تأخير أو اضطراب، وعندما لاتكون لديهم دماء، هم يشربون بنهم المياه العكرة لابل حتى المياه الموحلة.

ولديهم سيوف وخناجر بحد واحد، وهم رماة ماهرون، لايوفرون جنساً، ولاعمراً، ولارتبة، ولايعرفون لغة أية بلد من البلدان، باستثناء لغتهم، التي يجهلها جميع الناس والشعوب، لأنه حتى الآن لم يجرب أحد الوصول إليهم، أو هم أنفسهم قاموا بالاتصال بسواهم، بحيث يمكن الحصول على أية معرفة بعاداتهم أو أشخاصهم، من خلال التواصل العام مع الناس الآخرين، وهم يأخذون قطعانهم معهم، وكذلك يفعلون بالنسبة لزوجاتهم المدربات على القتال، مثل تدريب الرجال، وهم يدخلون إلى أراضي المسيحيين بقوة سريعة كالبرق، فيعيثون فساداً في البلاد، ويقترفون مذابح كبيرة، ويحدثون رعباً لانظير له، وخوفاً في كل انسان.

ولهذا رغب المسلمون، والتمسوا السماح لهم بالدخول بتحالف مع المسيحيين، في سبيل زيادة قوتهم، حتى يتمكنوا من مقاومة هذه الوحوش البشرية، ويعتقد المسلمون هؤلاء ذوي الذكرى المقيتة، أنهم من الأسباط العشرة التي تخلت عن شريعة موسى، واتبعوا عبادة العجول الذهبية، وأن الاسكندر حاول أن يحبسهم خلف شعاب جبال

قزوين، بوساطة أسوار بنيت بملاط من القار، ولكن بما أن هذا العمل فوق طاقة البشر، ومن غير الممكن انجازه، طلب العون من رب بني اسرائيل، وبناء على ذلك اتحدت شعاب الجبال أحدها مع الآخر، وصار المكان لايمكن الوصول إليه، كما لايمكن عبوره، وحول هذا المكان يقول يوسفيوس: «كم من الممكن أن يفعل الرب لعبيده المخلصين، عندما فعل هذا كله للكفار، ومن هذا واضح بأن الرب لم يكن راغباً بخروجهم، ولكن كما هو مكتوب في التاريخ اللاهوتي، هم سوف يخرجون في نهاية الدنيا، وسوف يقترفون مذبحة كبيرة بين البشر»، وانه لأمر مشكوك فيه، فيما إذا كان هؤلاء التتار، الذين ظهروا في هذه الآونة، هم الناس المقصودين بالذكر، لأنهم لايتكلمون اللغة العبرية، كما أنهم لايعرفون شريعة موسى، كما أنهم لايتمتعون، ولايدارون أو يحكمون، من قبل مؤسسات قانونية، ويردون على هذا، إنهم مع ذلك، من الممكن أنهم هم أنفسهم بعضاً من الذين حبسوا في الجبال، والذين تقدمت الاشارة إليهم من قبل، وبما أنه كان هناك في أيام حكومة موسى عصاة في قلوبهم، ضلوا فاتبعوا طريق الشيطان في التفكير، وبذلك اتبعوا الأرباب الأجانب، والعادات غير المعروفة، ومثل هذا هم اليوم، وبطريقة أكثر إدهاشاً، وبسبب انتقام الرب، كانوا غير معروفين لدى جميع الأمم الأخرى، وكانت قلوبهم ولغاتهم قد تمازجت، وعاداتهم قد تغيرت إلى الطبائع الوحشية والتصرفات الحيوانية غير العقلانية، وهم الآن يعرفون باسم التتار، ونالوا هذا الاسم من نهر اسمة تتار، يجري خلال جبالهم، فمن خلاله اتخذوا طريقهم، وذلك مثلما يطلق على نهر دمشق اسم فرفر.

آلام الأسرى الصليبيين في الأرض المقدسة

وطوال هذه المدة كلها، كان النبلاء الفرنسيون الذين أسرهم سلطاني: دمشق ومصر، محبوسين في سجن ضيق، وفي أحد الأيام أمر سلطان

مصر ببعض الأسرى من النبلاء الفرنسيين بجلبهم إلى أمامه، وكان من بينهم الكونت أَلميرك Almeric دي مونت فورت، حيث أمر به للمثول بحضرته، لأن السلطان قد عرف بأنه كان من أكثر النبلاء مكانة بين أسراه، وكان جاهلاً بمراتب جميع الآخرين، ووقتها خاطب السلطان الكونت قائلاً:

«هل هناك أي نبيل آخر من الجنس الفرنسي، أسيراً غيرك»؟ وعلى هذا ردّ الايرل بأنه لايوجد، فهو كان يؤثر بقاء السلطان جاهلاً بدلاً من أن يعرف هذا، لأن اطلاق سراحه سوف يكون وقتها الحصول عليه أيسر بكثير، وبناء عليه عمل السلطان بحثاً أكثر يقظة، فاكتشف رتشارد عمدة بومونت، وبعض النبلاء الفرنسيين الآخرين من ذوي المراتب، وعلم بوجودهم بين أسراه، ولذلك بات غاضباً جداً من الكونت لأنه كذب عليه، مع أنها كانت كذبة تقية، تلك التي أخبره بها، وأمر به فوضع في سجن مضيق عليه في قلعة إسمها المرقب، ومقت الأمراء المسلمون خداع وزيف الفرنسي، وسلطان دمشق الذي كان في حالةحرب ضد أمير مسلم آخر، كان من أقربائه، واسمه أيوب، والذي ضده طلب مساعدتنا، ودخل في معاهدة معنا، بات الآن على الرغم من شروط المعاهدة التي دخل بها مع الصليبيين —كما ذكرنا من قبل— مرتبط بصنع سلام بشكل سري مع الأمير المذكور، وذلك بسبب أنه لم تكن لديه ثقة بكلام أو بمواثيق الصليبيين، ولهذا لحق الخزي بالصليبيين، وتلاشت آمالهم.

ملك أراغون وكونت بريتاني يعقدان سلاماً مع حاكم الناصرة

وعندما غدت هذه الأشياء معلومة، وفي حوالي نهاية السنة، انحدر الشعور الفطري بالنبالة في عقول الفرنسيين وتدهور، لأن ملك أراغون، وكونت بريتاني، وبعض الآخرين من النبلاء الفرنسيين في الأرض المقدسة، كانوا غاضبين من ازدياد شهرة الايرل رتشارد، في

حين كـانوا هم أنفسهم، بالفعل، جيشاً محطماً، وبقـايا حشـد قد أصـابه التمـزق، وقد أثيروا بلدغـات الحسـد، وقد كـرهوا شبـاب الإيرل مثلما كرهوا أصله الانكليزي، وانعدام خبرته، وكفاءته، ولذلك مضوا بشكل سري إلى الزعماء المسلمين، من دون معـرفـة الجيش بشكل عـام، ولدى تسلمهم مبلغـاً كبيراً من المال منهم، منحـوهم هدنة لمدة عشر سنوات، ثم إنهم حزموا سراً أمتعتهم، وقاموا وأثقالهم مليئة بالذهب، فمضوا إلى ميناء يافا، وهكذا غادروا الأرض المقدسة بشكل غير مشرف.

موت جون فتز روبرت

ومـات في هذا العام جـون فتـزروبرت، وكان رجـلاً من أصل نبيل، وواحـداً من البـارونـات الرئيسـيـين في المقـاطعـات الشـمـاليـة لانكلـترا.

سقوط بناء جديد

وحـدث في العـام نفسه، في ليلة عيـد القـديس جـورج أن انهار بناء عمل من الحجـر، مع بوابـة رشيقـة، وسقط إلى الأرض، وذلـك مع الأعمال الخارجية والناتئة، وكأنه تعرض لهزة أرضية، وكان هذا البناء قد شيده الملك مقـابل نفقات وجهـد كبير، ولدى سماع الملك بهذه الواقعة، أمر بإعادة البناء المنهار، وأن تكون عمارته أكثر أماناً.

الوقائع المتنوعة للعام كله

وكـانت مجريـات أحـداث هذا العـام، غير مـوائمـة لمملكة انكلترا، ومعـاكسة للكنيسـة المقـدسة، وكـانت مـؤذية للبـلاد الشرقية وكـذلك للبلدان الغربية، وكان الفصل لمدة ثلاثة أشهر متوالية، هي شهر آذار مع الشهرين اللذين تليـاه، جاف ممطر، وكذلك في بقيـة الأشهر، ومع ذلك أنتج كميـات وافرة مـن القمح والفواكـه، لكن الخريف الممطر إلى حـد كبير خنق المحاصيل الوافرة، وكان هناك فيـاضانات في المناطق الايطالية

تسببت من الأمطار، التي انصبت مياهها وتدفقت من الجبال إلى السهول، وكان ذلك في نهاية هذا العام، ونادراً ما تركت جسراً واحداً سليماً.

معركة مدهشة بين الأسماك في البحر

ومع أنه وقعت حوادث مدهشة لم يسمع بمثلها في هذا العام، رأينا من المفيد والمناسب أن نذكر في هذا الكتاب حادثة أكثر عجباً من البقية، وبما أنه من طبيعة البحر أن يلفظ على اليابسة الأجساد الميتة الملقاة به، فقد جرى قذف حوالي أحد عشر حوتاً إلى جانب مخلوقات بحرية مخيفة على شاطىء البحر في انكلترا، وهم أموات، وكأنهم قد جرحوا في بعض أنواع الصراع، لكن ليس —على كل حال— بهجمات من الانسان أو ببراعة منه، وأعلن البحارة، والناس الشيوخ، الذين كانوا يسكنون قرب الساحل، والذين كانوا قد شاهدوا عجائب الأعماق عندما كانوا يتابعون أعمالهم في المياه الواسعة، ويرتحلون إلى البلدان النائية، أعلنوا أنه كانت هناك معركة غير اعتيادية بين الأسماك، والوحوش والتنينات في الأعماق، وقد تسببت جراحات بعضها بعضاً، وعض بعضها بعضاً بموت العديد منها، والذين قتلوا منها قد رميوا على الشاطىء، وقامت إحدى الأسماك، وكان لها حجم كبير مرعب، فشقت طريقها إلى نهر التيمز، وتمكنت بصعوبة، ودون أن تصاب بجراح من المرور بين أعمدة النهر، وقد تابعت سيرها حتى عزبة للملك اسمها مورتليك Mortlake, حيث لحق بها عدد من البحارة، وأخيراً تمكنوا من قتلها بعد كثير من المتاعب، وذلك بوساطة ضربات لاتحصى من الرماح، وعلى هذه الواقعة عقب واحد من الشعراء مازحاً:

إلى جنازتها قدمت سمكة عملاقة

قد أرسلت من نبتون لعمل صحن فاخر

النائب البابوي يسعى إلى استخراج المال من الرهبان السسترشيان

وفي هذا العام أيضاً، قام النائب البابوي، في سبيل استخراج المزيد من المال، ولاشباع نهمه، فطالب بوقاحة بوكالات من رهبان طائفة السسترشيان، وقاومه هؤلاء بتصميم ورفضوا هذا الطلب، معتمدين على امتيازاتهم، وذهبوا إلى بلاط روما للحصول على مرسوم ضد هذا الاستخراج الشرير، وجلبوا معهم رسائل إلى النائب البابوي، كان محتواها هو التالي:

رسالة البابا

«من غريغوري، أسقف، إلخ، إلى النائب البابوي أوتو، إلخ:

لو أنك تذكرت بشكل صحيح، لقد أرسلنا مؤخراً رسائل بتكليفك باستخراج وكالات من رهبان طائفة السسترشيان إذا كان الغفران الممنوح إلى تلك الطائفة، لايعترض على ذلك، ثم إنه ليس في نيتنا —وكما نعتقد ليس في نيتك أيضاً— استخراج وكالات مالية منهم، غير متوافقة أو متعارضة مع غفرانهم، وإننا بناء عليه نأمرك بالاكتفاء بالطعام العادي، من دون أكل سمك، عندما تذهب إليهم —وذلك حسبما تحتويه الغفرانات المتقدمة الذكر— وأن لاتسمح باستخراج وكالات مالية منهم، اعتماداً على سلطات هذه الرسائل».

القديسة اليزابث والقديسة هيلدغاري

تصبحان مشهورتين في ألمانيا

وفي هذه الآونة أصبحت القديسة اليزابث Elizabeth مشهورة ومتميزة في ألمانيا بوساطة عدد كبير من المعجزات، وتدفقت حشود من

الحجاج المسيحيين، من أمم بعيدة وأجنبية، على قبرها، لنيل الاحسان، وكانت هذه القديسة أثناء حياتها، زوجة لواحد من النبلاء، يدعى لاندغريف، ولدى موته كانت ثرية جداً، ذلك أنها كانت منحدرة من أسرة نبيلة، حيث أنها كانت ابنة ملك وملكة هنغاريا، لذلك تخلت عن أبهة، وترف، ومباهج العالم، ولهذا أصيب الأساقفة ورجال الدين بالدهشة والاعجاب، تجاه القداسة الكاملة في امرأة.

أما بالنسبة للقديسة هيلدغاري Hildegaris, فقد كانت أولاً ناسكة، ثم بعد ذلك راعية دير، وكانت سيدة ذات قداسة مدهشة، فيها، في أثناء حياتها، وخلال نوم استمر لمدة أربعة أيام متواصلة، غرس الرب روح التنبؤ، ومعرفة كاملة بالحروف، أثناء حبرية البابا الاسكندر، وقد أصبحت الآن مشهورة جداً، وحيث أنها تنبأت بشكل مكشوف، وأخبرت بشكل مسبق بظهور بعض الرهبان الجدد، وبأحوالهم، ومواعظهم وبتقدمهم المفاجيء وغير المتوقع وبسبب صدق نبوءاتها، حيث يشهد على ذلك الوقت الحالي، غدت أقوالها مشهورة جداً في جميع أرجاء مختلف بلدان العالم، وقد تبرهن أنها كلمات نبيلة جداً.

حمل الامبراطورة

وفي هذه الآونة بدأ الامبراطور يشعر بتقدير خاص تجاه الانكليز، رفعهم به فوق الشعوب الأخرى، وذلك من أجل الامبرطورة ايزابيلا، أخت ملك انكلترا، التي لجمالها المتفوق ولأخلاقها نالت الحظوة لدى الجميع، علاوة على ذلك كانت الآن حاملاً، ومجدداً أعطت آمالاً جيدة إلى قرينها الأغسطس، بزيادة أخرى في أسرته، لكن في ظل طالع غير سعيد، سارت الأحداث متحولة باتجاه معاكس لم يكن متوقعاً، حسبما سنحكي ذلك بالتفاصيل.

-٧١٥٢-

عام واحد وأربعين ومائتين وألف

كيف وضع الملك النائب البابوي في المقعد الملكي

عام واحـد وأربعين ومائتين وألف لتجسيـد الرب، الذي كـان العام الخامس والعشرين لحكم الملك هنري الثـالث، وفيه عقـد الملك المذكور بلاطه في عيد الميـلاد، في ويستمنستر، في لندن،، حيث احتفل عدد كبير من النبـلاء بعيد ميـلاد الرب معه، وقـام الملك في يوم عيد الميـلاد، بناء على مبـادرة من النائب البـابـوي، الذي اعتـاد الملك على بذل قصـارى جهـده لإرضائـه، فأضفى مرتبـة الفروسيـة، على حفيد النائب البـابوي المذكور، الذي كان اسمه أدفوكيت Advocate, وأعطاه على الفور دخلاً مقـداره ثلاثين باونداً، حيث تولى هذا الفارس المعين حديثـاً بيعه، لأنه كان يعلم أن عليـه مغادرة المملكة فـوراً مع سيده،وفي اليـوم نفسه شرّف الملك واحـداً من أهالي بروفـانس بحـزام فـارس، وأغناه بمـورد كبير.

وبعد الفـراغ من القداس في الكنيسة، وعندمـا كان الملك على وشك تناول طعـــام الافطار في قصر ويستمنستر الكبير، قــام دون المبـــالاة بنظرات الشجب لكثير من الحضـور، بإجـلاس النائب البـابوي، الذي دعـاه لتناول طعـام الافطار معـه، في أعلى المقاعـد وراء المائـدة أي على مقعـــده الملكي، الخاص به، الذي كـــان في الوسط وراء المائـــدة، واتخذ لنفسـه مقعداً على يمين النـائب البابوي، في حين جلس رئيـس أساقفـة يورك على يسـاره، وأخـذ كل واحـد من الأسـاقفـة والنبـلاء الآخـرين مقـاعـــدهم بانتظام، وفقـاً لمراتبتهم وحسـب سلطاتهم، وذلك بناء على رغبة الملك الذي تولى هكذا ترتيب نظام العيد.

وفي اليوم الرابع بعـد عيد الميلاد، قام النائب البـابوي، المستدعى من قبل البابـا للتوجه إلى البـلاط الروماني، من دون تقـاعس، فأرسل وراء

جميع الأساقفة الانكليز، وقال لهم وداعاً، وبعد ذلك شرع برحلته لعبور الألب، وجرى تشييعه حتى ساحل البحر من قبل الملك، وسط أبهة عظيمة، وذلك مع أصوات الأبواق، وقد رافقه حشد كبير من النبلاء، وعندما كانوا مرغمين على الافتراق، افترق الملك والنائب البابوي بتعابير عن الحزن المتبادل، لانفصالهما هكذا، مع أن النائب البابوي المذكور كان الآن قد مدّد إقامته في انكلترا لمدة ثلاثة أعوام، ليلحق ضرراً بالكنيسة لايمكن ترميمه.

سفر النائب البابوي أوتو من إنكلترا

في اليوم الذي جاء عقب عيد الغطاس، بعدما تلقى النائب البابوي العناق والقبلة من الملك، أخذ سفينة من دوفر، وبعدما خلع شارات نيابته البابوية أدار ظهره لانكلترا، ولم يترك أحداً حزيناً عليه سوى الملك، والذين كان قد أمنهم على ممتلكات المملكة، ولم يكن قد بقي في انكلترا في ذلك الحين —حسبما أفيد بشكل صحيح— كثيراً من المال، وذلك باستثناء أواني وتزيينات الكنيسة المقدسة، لأن النائب البابوي المذكور، كان قد استصفى أموال المملكة كلها، وهو فضلاً عن ذلك كان قد منح بناء على إرادته الشخصية، أو بناء على إرادة البابا، أوقافاً، وكنائس، وأكثر من ثلاثمائة مورد غني، ونتيجة لذلك صارت المملكة مثل كرم عنب، عرضة لكل عابر، وهو الذي شعثته الخنازير البرية للغابات، وتركته في حالة مزرية من الدمار.

وقد ترك كنيسة كانتربري، التي كانت أكثر الكنائس الانكليزية فخامة في حالة من الاضطراب، وآلام الترمل، ومثلها في ذلك كان مثل الكاتدرائيات الأخرى، والكنائس الديرية مجردة من كل راحة ومواساة، وهو لم يمتن أي جزء من الأجزاء الضعيفة للبلاد، كما هو مبرهن على ذلك بشواهد واضحة، لأنه كان قد أرسل ليس لحماية الشياه التي تشردت، بل لجمع محاصيل المال التي وجدها، وبناء عليه، بما أنه كان

مجرداً من الفضـــائـل، وبوســـاطـة الخطط الحسنة الإعـــداد مـن قبل الامبراطور، استحق التجـريد من جميع منهـوبـاته، وبعـدمـا كـان هو الناهب، صار هو المنهوب، وذلـك وفقاً لكلمات النبي الذي قال: «ويل لك أيها السالب، أتظن أنك لن تكون المسلوب؟»، وتحتـاج هذه الوقائع لأن تروى أخبارها بشكل أوفى، فيما بعد، في الأماكن المناسبة.

قدوم بطرس أوف سافوي إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة، قدم إلى انكلترا بطرس أوف سافوي، الذي كان عم الملكة، والذي كان الملك قد منحه ايرلية رتشموند، لأنه تصور أنها بلاد أكثر نفعـاً له، وخرج الملك إلى استقبـاله لدى وصـوله، وتلقـاه بسرور لايمكن وصفه، وعهد بنفسه وبممتلكاتـه لآرائه، وكذلك وسع أراضيه عدة مرات بوساطة العطايا.

عواصف ريح متواصلة

وفي هذه الآونة نفسهــا، ولاسيما في يوم ختـــان الرب، ولعـــدة أيام متواصلة، سبب ريح من الشمال، عنيف إلى أبعد الحدود، تهديداً لايمكن ترميمه، في كل من البر والبحـر، جالبـاً دماراً للأبنية وللقـلاع، ومهدداً بمخاطر كبيرة جداً، للذين كانـوا مبحرين فوق البحر، وعلى هذا بدت الأحوال المضطربة للأنواء متوائمة تماماً مع أحوال الجنس البشري.

تنصيب بطرس سافوي فارساً

في يوم عيـد القـديس ادوارد، الذي تولى فيـه الملك ممارسة مـراعـاته بتبجيل غير اعتيـادي وبتشريـف، وفي سبيل أن يعطي لليــوم المزيد من السمات الدينيـة، أضفى مـرتبة الفـروسيـة على بطرس سـافوي المتقـدم ذكره، وعلى خمسة عشر شـاباً لامعاً آخر، وكان ذلك في كنيسـة القديس بطرس في ويستمنستر، وفي اليـوم التالي، الذي كـان يوم عيـد الغطاس، وتشريفاً لبطرس المذكـور، احتفل مع عدد كبير من الضيـوف، بتنصيبه،

بوليمة غنية ومكلفة، وجرى أيضاً استدعاء بعض سكان لندن، بموجب مـذكرة ملكيـة قضت بحضـورهم، وكـان من بين الذين وجهت إليهم الدعـوة، عمـداء المدينة، فهؤلاء قـد أرغمـوا على الحضـور، تحت طائلة التغـريم بمائـة شلنغ، وأن يأتوا إلى هناك وهـم يرتدون ثيـاب العيـد، أو كأنهم سيحتفلون بعرس.

انتخاب نيقولا أوف فارنهام إلى كرسي درم

وقام في هذه الآونـة، رهبان درم، بعد كثير من الاضطـراب، وانفاق كبير للمال، وبعد استقـالة رئيس رهبان درم، الذي سلف أن انتخب من قبلهم، والذي بموجب ذلك ألغي انتخابه، قاموا بدعوة الروح القدس، وانتخبـوا بالاجماع المعلم نيقـولا دي فـارنهام Farnham,وكـــان رجـلاً صـاحب أخـلاق رفيعة ومعـارف، واتخذوه أسقفاً لهم، وراعيـاً لأرواحهم، وكـان معلماً للآداب في باريس لعـدة سنوات، ومارس بعـد ذلك فن الطبـابة في بولونا Bologna, حيث غـدا مشهـوراً جـداً، وحصل على مكانة كبيرة لبراعته، وبعدمـا أصبح معلماً كاملاً في المنطق، وطبيبـاً، وعـالماً طبيعيـاً، حـوّل اهتمامـه إلى الطبـابـة الروحيـة، أي إلى اللاهوت، وبذلك أسس نفسـه في ذلـك العلم بالتعلم وبقـراءة الكتب، وبهذا تأهل للجلوس في كرسي الأستاذية الرهبانية.

وعندما صـار هكذا خبيراً، وبعدمـا ميّـز نفسه بشكل كبير بمعـارفه، وبطريقته المحمـودة في الحياة، قام الملـك والملكة، بناء على نصيحة بعض الناس المتعلمين، وبشكل خـاص بناء على مبـادرة من النائـب البـابوي أوتو، وأسقف كارآيل، وبعض الآخـرين من مستشاري الملك السريين، بتوجيه الدعوة إليه، ليتولى المسؤولية عن أرواحهم وأجسادهم، وليكون مستشـاراً مقـربـاً، حيث تصرف بذاته في ذلك المنصـب بشكل جيـد وبحكمة، حتى جرى انتخابه إلى ذلك المنصب الكهنوتي، غير أنه —على كل حال— لم يوافق على ذلك الانتخاب، لأن الأمر بدا له غير مشرف،

في أن يوافق على الانتخـاب، بما أنه كان قبل وقت قصير مضى، عندمـا جرى انتخابه لأسقفية كوفنتري، قد احتج ضد ذلك الانتخاب، ورفض الموافقـة عليـه، ولابأي حـال من الأحـوال، وفي سبيل اسكات الأفـواه المتكلمـة بالشرور، التي كـان من الممكن أن تقـول: «انظروا، أي نفـاق هذا، لقـد رفض الأسقفيـة الفقيرة، لأنه توقع أسقفيـة أغنى»، في سبيل ذلك قـاوم العرض بأقصى جهـوده، حتى أخيراً تولى ر. R أسقف لنكولن توجيـه الملامـة إليه بقسـوة، لتصرفـه على هذه الشـاكلة، وتمكن بفاعلية من اقناعـه بالموافقة بوساطة الحجج التاليـة: «اعرف، بأن رهبان درم وكنيستهم قد حـرموا من الراعي، وقاموا بدمـوع منهمرة، بالتماس المواسـاة، فلماذا —بناء عليـه— لاتوافق طالما جـرى انتخـابك بشكل قانوني؟ وإنني أستحلفك بسفك دم يسـوع المسيح، بأن تقوم بحمل هذا العبء، وأن تتقبل شرف هذا المنصب، لأن الملك سـوف لن يوافق على انتخـابك ولا بـأي شكل من الأشكال، مـالم يكن مجنـوناً تمامـاً، وإذا لم توافق على الانتخاب سوف يتـولى الملك بدسائسه تنصيب رجل أجنبي، وغير جــدير، وجـاهل أيضــاً، في هذا الكرسي في سبيل القضــاء على الكرامـة اللاهوتيـة، وتعـريض المملكة كلهـا للخطر، لأن أسقفيـة درم قـائمة على التخـوم بين مملكتي انكلترا.وسكوتلندا، والقـلاع القائمـة في أسقفيـة درم، أي قلعتي نورهام Norham ودرم، مـوجــودتان في ذلك الجزء من انكلترا، وهما الأسـاس المعتمـد عليه ضـد هجمات جميع أعـدائنا»، وبعـدمـا سمع المعلم نيقـولا هذا، قـال متنهـداً: «إنني أحب فضيلة الطاعـة، وفي أسقفيتك أنا مستحــوذ على منافعي، التي حصلت عليهـا من خـلال إحسـانك، ولذلك إنني أطيع أوامـرك الأبوية»، وإثر ذلك قام رهبـان درم وهم مسرورين بتقديمـه إلى الملك على أنه أسقفهم المنتخب، وقـد قبل بانتخابهم بسرور، لأنه لم يجد أية غلطة منطقيـة لافي الشخص المنتخب، ولافي الانتخــاب، واستقبل الأسقف المنتخـب من دون تأخير، وعلى الفور، تثبت فيها بعد كرسيه.

تغريم اليهود بمبلغ من المال

وفي العام نفسه، أرغم اليهود على دفع مبلغ ثقيل، بمثابة مال فداء، وكان المبلغ حوالي عشرين ألف مارك، يجري دفعه على مرحلتين خلال العام، تحت طائلة النفي، أو السجن المؤبد.

استعدادات من أجل مبارزات

عقد في هذا العام بطرس أوف سافوي، ايرل رتشموند مباريات مبارزات aloutrance ضد ايرل بيغود، في سبيل أن يتمكن الأجانب من تجريب قوتهم مع الانكليز، لرؤية أيهم هو المتفوق في مباريات المبارزات، وعندما سمع الملك بهذا، بدأ بوساطة الرشاوى والتهديدات في افساد قلوب كثير من الأكثر نبالة وقوة بين الانكليز، والتأثير عليهم، وذلك من الفئة التي تؤيد ايرل بيغود، وذلك من أجل أن يتمكن فريق الأجانب من الانتصار، وكان بين هؤلاء المقدمين جون بيست Bisett المسؤول الأعلى عن الغابات في انكلترا، وعدد كبير من مشاركيه، وغيلبرت باسيت، وكان فارساً هو الأكثر شجاعة، مع أتباعه، وعدد كبير آخر، تعدادهم كبير جداً حتى يمكن ذكرهم، وكانت النتيجة، أنه بسبب دسائس الملك، عندما اقترب موعد عقد المبارزات، وعلى الرغم من ذلك قام غ. G ايرل مارشال وفئة قوية من النبلاء بتوحيد أنفسهم مع بعضهم بعضاً، ومع ذلك ظهر حزب الأجانب هو الأقوى والأكثر عدداً، وتجاه ذلك شعر الانكليز بغضب شديد، وحملوا حقداً عظيماً ضد الذين اقترفوا هذه الدناءات، ومقتوا وسائل دسائس أبناء وطنهم، ثم إن الملك أصغى إلى مشورة حكيمة، وندم لأنه رغب في أن ينتصر الأجانب في مباراة مادية بدلاً من انتصار رعيته، فبعث رسولاً، هو الراهب جون، وكان داوياً، ووكيل الصدقات، وأمره أن يمضي بكل سرعة إلى الفريقين، مع مذكرة ملكية بمنع المبارزات ذات الطالع السيء، والتي كانت على وشك الابتداء.

وفاة غيلبرت باسيت وابنه

وفي خريف العام نفسه، عندما كان غيلبرت باسيت، يصطاد في الغابة سقط فوق جذع شجرة كانت ملقاة في طريقه، فتكسرت عظامه، وأصيبت أعصابه بصدمة، فتسبب ذلك بموته بعد عدة أيام، وإثر ذلك على الفور فارق أيضاً الابن الوحيد والوريث لغيلبرت المذكور، هذه الحياة، في ثمانية عيد صعود القديسة مريم، مما سبب الحزن والأسى لأسرته كلها، وانتقل الميراث إثر ذلك إلى فولك باسيت، عميد يورك، وأخي غيلبرت المذكور.

وفاة جون بيست

وفي تلك الآونة أيضاً، أي في ثمانية صعود العذراء المباركة، فارق هذه الحياة جون بيست Bisett الذي كان المسؤول الأعلى عن الغابات في انكلترا.

انطلاق بعض نبلاء إنكلترا نحو القدس

ولما كان الموسم وقتاً موائماً، قام وليم دي فورتيبص Fortibus, وكان ايرل ألبيمارل Albemarle وفارساً جريئاً، وبطرس دي مولاك Maulac, وكان بواتياً من حيث المولد، ولقد تعلم لمدة طويلة واستغنى تحت حماية الملك جون، وايفيلين دي روتشفورت Rochfort, وكان بواتياً أيضاً، وجون أنسارد Ansard, و الاسكندر هلتون Hilton, وغيوفري تشانديلر Chandelers, وعدد كبير آخر من نبلاء انكلترا، كلهم قاموا بتوديع أصدقائهم، وعهدوا بأنفسهم إلى صلوات رجال الدين، وانطلقوا بأبهة كبيرة نحو القدس، وركبوا ظهر البحر المتوسط في الخريف، وأقلعوا في رحلتهم عبر البحر.

ملك فرنسا يعرض صليب ربنا وتاجه على الناس

في هذا العـام حدث أن صليب ربنا، الـذي بقي في دمياط، بعـد أيام صـلاح الدين، حتى المعـركـة غير السعيـدة، التي جـرى في بدايتهـا الاستيلاء على تلك المدينة، ثم جـرت خسارتها فيها بعـد، عندما سقطت في أيدي المسلمين، حـدث أن جلب إلى مملكة فرنسـا بتـدخل من الملك الفـرنسي وأمه بـلانشي، وبنعمة المسيح الذي دعـم رغبتيهما التقية، فقـد دفعا مبلغاً كبيراً من المال ليتمكنا من الاستحواذ عليه، ففي البداية ابتيع هذا الصليب —بعد جلبه— من قبل البنادقة مقابل عشرين ألف باوند، وكـانوا قد حصلوا عليـه من ابني ج. ل ملك القدس، الـــذي كان بحـاجـة إلى المال لشنّ الحرب ضـد الاغـريق، وفيما بعـد ارتهنه بلدوين مقابل مبلغ كان أيضاً أكبر، وباعه أخيراً إلى الملك الفرنسي لويس.

وفي يوم الجمعـة التاليـة قبل يوم عيد الفصح، وهو اليـوم الذي علق فيه المولى يسـوع المسيح بالمسامير، على الصليب المانح للحيـاة، من أجل انقـاذ العالم، حمل هذا الصليـب المذكور إلى باريس من كنيسـة القـديس أنطوني Antoine, حيث كان قد وضع على عـربة من نوع خاص، عليها ركب الملك مع الملكتين، أي الملكة بلانشي أمـه، والملكة مرغريت زوجته، وبحضـور رؤساء الأساقفـة، والأساقفة ورعـاة الديرة، ورجال الدين الآخـرين، وكذلك النبـلاء الفرنسيين، وأحيطوا بحشـد لايحصى تعـداده من الفرنسيين، الذين كـانوا ينتظرون هذا المشهد المجيـد بسرور عظيم في القلب، ورفع الملك الصليب فـوق رأسـه وهو يبكي، ووقتهـا صرخ الأسـاقفة الذين كـانوا حضـوراً بصوت مـرتفع: «انظروا صليب ربنا».

وبعـدما تعبـده الجميع بتبجيل لائق وتقوى، قـام الملك نفسه، وكـان حـافياً، ومن دون حـزام، وعاري الـرأس، وذلك بعد صـوم ثلاثة أيام، مقلداً مثل المنتصر النبيل، الأغسطـس هرقل، فحمله داخل صـــوف إلى الكنيسة الكاتدرائية للعذراء المباركة في باريس، وبالنسبة لأخوي الملك،

فإنهما أيضاً بعدما طهرا نفسيهما، بأعمال تقوية مماثلة، بوساطة الاعتراف، والصوم، والصلاة، فقد سارا خلفه مع الملكتين، وقد حملوا أيضاً تاج الشوك (الذي منحته الرحمة الربانية، كما ذكرنا من قبل، إلى مملكة فرنسا،، في العام الفائت) ورفعوه أيضاً عالياً، فوق عربة مماثلة للأخرى، وعرضوه حتى يراه الناس.

وسند بعض النبلاء ذراعي الملك، وأذرعة أخويه، أثناء حملهم لهذا الحمل الثمين، خشية أن يصبحوا متعبين بالاستمرار برفع أذرعتهم، وأن يقعوا تحت هذا الكنز، الذي لايمكن تقدير قيمته، وتم فعل هذا بكل حذر، بناء على رغبات الأساقفة، من أجل أن يتم تناول هذا الشيء المقدس، باحترام من قبل ذوي السلوك الحكيم، والذين نالوا مجداً عظيماً، محتذين لمثل هرقل، الذي ذكرناه من قبل.

وعندما وصلوا إلى الكنيسة الكاتدرائية كانت جميع أجراس المدينة تقرع، وبعد تلاوة صلوات خاصة بشكل مهيب، عاد الملك إلى قصره الكبير، الذي هو في وسط المدينة، حاملاً صليبه، وأخويه يحملان التاج، والكهنة يتبعونهم بمسيرة نظامية (وهو مشهد كان الأكثر مهابة وسروراً بين جميع ماشاهدته مملكة فرنسا قط) وكان كل واحد منهم، لابل جميعاً، يصفقون آنذاك بأيديهم، ويمجدون الرب، الذي أظهر هكذا محبته الخاصة للمملكة الفرنسية، مؤثراً إياها ومفضلها على الآخرين، ومن أجل منحها مواساته الخاصة وحمايته.

وهكذا بناء عليه، فإن ربنا يسوع المسيح، ملك الملوك، ومولى الموالي، الذي أحكامه ذات عمق عظيم، والذي بين يديه قلوب الملوك، حيث يعطي الصحة لكل من أراد، أعطى في وقت قصير مملكة فرنسا، وأغناها، بهذه الهدايا الثلاثة الثمينة، وهي التاج المتقدم ذكره، وصليب ربنا الذي عنه قد تحدثنا الآن، وجسد إدموند المبارك رئيس أساقفة كانتربري، والمعترف، الذي يشع الآن بمعجزات غير عادية، ولذلك أمر

الملك ببناء بيعة جميلة، تكون لائقة لاستقبال كنزه المذكور، وأن يكون البناء قرب قصره، وبها وضع بعد ذلك الآثار المقدسة المذكورة بكل احترام، وإلى جانب ذلك امتلك الملك الفرنسي، في بيعته الجميلة في باريس الثوب العائد للمسيح، والرمح، أو بالحري سنان الرمح، والاسفنجة، وإلى جانبها آثار أخرى مقدسة، وبناء على ذلك منح البابا غفراناً مقداره أربعين يوماً إلى جميع الذين ذهبوا إليهم في البيعة في باريس، من أجل الصلاة والتعبد هناك.

موت ملك الدانمارك وابنه

وفي هذا العام أيضاً، حمل من بين الناس وأخذ بعيداً وولدمار Waldemar, ملك داشيا، الذي تظاهر بالتجرؤ على التهديد بغزو انكلترا، وتورط بكلام متعجرف حول ذلك، وجاء موته بعدما حكم لمدة أربعين سنة، ولكي يشعر بتأثيرات صلوات القديس إدوارد، ذلك القديس الذي توجه بأدعيته إلى الرب ليحمي الرب الانكليز ضد طغيان الدانيين، فإن ابنه الوحيد، ووريثه في كل ممتلكاته، قد غادر طريق الجسد، وبذلك صارت مملكة داشيا كلها بائسة، وكان هذا الملك الداني وولدمار، في سن المائة عندما مات، وقد حكم على الدانيين لمدة أربعين سنة، وطوال حياته كلها، منذ أن كان قادراً على حمل السلاح، استمر في ملاحقة الكفار في سكيزيا، وفريزلاند، وروسيا، وكسب خلال حياته ست أسقفيات كبار، وتدبر العدد نفسه من الأساقفة حتى يجري تكريسهم لهذه الأسقفيات، وبعد وفاته، ووفاة ابنه الأسن، أثار اثنان من أولاده الأصغر سناً ثورة، وهما هنري، والدوق آبل Abel, وشرعا بحرب دموية أحدهما ضد الآخر، وبذلك أصبحت المملكة مقسمة وفي حالة بائسة.

موت وولتر دي لاسي

وفي هذا العام أيضاً، غادر هذه الحياة وولتر دي لاسي Lacy,

وكان رجلاً هو الأكثر تميزاً بين نبلاء ايرلندا، وجاءت وفاته بعدما فقد بصره، وبعدما عانى من كثير من الأمراض الجسدية.

رؤيا ليلية رائعة

وفي هذه الآونة، ظهرت رؤيا ليلية، إلى أحد الكهنة، وكان حكيماً، ورجلاً مقدساً، وقد شاهد فيها رئيساً للأساقفة، مرتدياً أثواباً حبرية، وحاملاً صليباً بيده، فوصل إلى الأسوار التي كان الملك قد بناها في تلك الأيام قرب برج لندن، وبعد فحصه لهم بنظرة غاضبة، ضربهم بالصليب بقوة وبعنف، وهو يقول: «لماذا أعدت عمارتهم»؟، وبناء على ذلك تهاوت الأسوار التي بنيت حديثاً بشكل مفاجىء، إلى الأرض، وكأنها دمرت بوساطة هزة أرضية، وخاف الكاهن من رؤية هذا المشهد، فقال لرجل دين ظهر وهو يتبع رئيس الأساقفة: «من رئيس الأساقفة هذا»؟، وأجابه رجل الدين قائلاً: «إنه القديس توماس الشهيد، الذي هو لندني من حيث المولد، والذي قدّر أن هذه الأسوار قد بنيت لإهانة اللندنيين ولإلحاق الأذى بهم، ولهذا دمرهم، بشكل لايمكن فيه إعادة ترميمهم»، وعند ذلك قال الكاهن: «أية نفقات وجهود بناء قد كلفوا»، ورد عليه رجل الدين قائلاً: «لو أن فقراء الصناع، الذين يسعون وراء الدفع لأنهم يحتاجون إلى ذلك، قد حصلوا على الطعام لأنفسهم بوساطة العمل، لصار من الممكن بقاء ذلك العمل لكن بما أنهم لم يعمروا من أجل الدفاع عن المملكة، بل فقط لظلم السكان الذين لايؤذون، ولو أن القديس توماس لم يقم بتدميرهم لقام القديس ادموند المعترف، خلفه، باصرار أكبر فدمرهم واجتثهم من أساساتهم»..

وبعدما شاهد الكاهن هذه الأشياء، أفاق من نومه، ونهض من فراشه، وفي ظلام الليل وسكونه، أخبر برؤياه، جميع الذين كانوا في البيت، وفي الصباح الباكر، انتشر تقرير في جميع أرجاء مدينة لندن، أفاد

بأن الأسوار التي بنيت حول البرج، والتي على عمارتها، أنفق الملك أكثر من اثني عشر ألف مارك، قد تهاوت الى قطع، مما سبب الدهشة الى كثيرين، قد عدّوها نذير شؤم، لأنه حدث في السنة المتقدمة وفي الليلة نفسها، التي كانت ليلة يوم عيد القديس جورج، وفي الساعة نفسها من الليل، أن سقطت الأسوار مع الأجزاء الناتئة منها، ومع ان سكان لندن دهشوا تجاه هذه الواقعة، لم يحزنوا لوقوعها لأن تلك الأسوار كانت بالنسبة لهم مثل أشواك في عيونهم، وقد سمعوا استهزاء الناس وسخريتهم، الذين قالوا بأن هذه الأسوار قد بنيت لإهانتهم وأنه اذا ماحاول واحد وتجرأ، واحتج من أجل حرية المدينة، كان سيسجن في داخلهم ويلقى به السجن، وفي سبيل أنه إذا كان عدد منهم سوف يسجنون، ولكي يسجنوا في عدة سجون مختلفة، جرى بناء عدد كبير من الزنزانات فيهم، كل واحدة منفصلة عن الأخرى.

وفي هذه الآونة أيضاً، أخذ الملك بالقوة من عمدة لندن مورداً سنوياً مقداره أربعين باونداً، وهو المبلغ الذي اعتاد كل عمدة، على استلامه سنوياً، أثناء أيامه، من أجل دعم مكانته، وذلك من المصالح العامة للمدينة، وكأنه كان يأخذه من جمهورية، لأنه ألح إليه، أي إلى الملك، بأن عمدة المدينة، كان يقوم بالتظاهر بالقيام بجباية ذلك المبلغ، الذي كان محدوداً ببعض الشروط، فيلقي بيديه بقسوة على المواطنين الفقراء، وذلك أكثر مما هو مسموح له أن يعمل، وبذلك جمع لنفسه المال وأودعه في حافظة نقوده،ولهذا أرغم جيرالد بات Bat, الذي كان العمدة وقتذاك، على أداء يمين انه نفسه لن يجمع ثانية، ولن يتسلم تلك الضريبة، كما انه لن يسمح لأي شخص آخر بقدر مايستطيع أن يمنع، أن يجبيها له، وقد وقع هذا في بيعة القديس اسطفان في ويستمنستر.

وليس بعد أمد طويل من هذا، تمّ ارغام سكان لندن على دفع مبلغ من المال إلى الملك، وذلك مراغمة لعرف وامتياز المدينة، وعوملوا

وكأنهم عبيد مـن أدنى الدرجات، ودفعوا من دون رضـاهم ومكرهين، ولم يكن ذلك تحت عنوان مساعدة طوعيـة، بل بمثـابة مكس، وأثقلهم هذا كثيراً جداً.

الإمبراطور يمنع الأساقفة من الاجتماع في المجمع

وقـدر الامبراطور في هذه الآونة، بما فيـه الكفـاية مـن الدهاء، أن المجمع العام إذا مـاجرى عقـده، وعلى رأسه عدوه المميـت البابا، الذي سـوف يترأس جميع الأسـاقفة الذين كـانوا ملزمين بطاعتـه، مثل طاعـة الأطراف لرأسهـا، سيكون في خطر عظيم، ولذلك أخـذ يتأمل ويفكر بابداع إجراءات وقائية لنفسه، ولهذا قـال لنبلائه: «إنني قلق ومهدد من كل جـانب، ومطوق بمختلف المشـاكل، وذلك بسبب المخـاطر التي ستحيق الآن بالامبراطورية، لأنه إذا ماجـرى عقد المجمع العام، حسبما يجري الإعداد له، وترأسـه عدوي المميت، الذي رؤساء الأساقفـة رعية له، وما من واحـد منهم يتجرأ على الاعتراض على رئاستـه، فإنه سوف يدمـرني دماراً لايمكن ترميمـه، ومثل ذلك سوف يدمـر الامبراطورية، لأن البـابا عـدو نهم وشره، ومعلن ضدي، وقـادر على خلع أي واحـد يقف ضد إرادته، من مـرتبته، لابل بعد خلعـه له التفوه بحكم التكفير، والحرمان الكنسي ضده، وإهانته بعقـوبات أشد سوءاً، وعلاوة على هذا أيضاً وأشـد خطراً هو أن قضيتنا، وأوضاع الامبراطورية في حـالة خطر شـديد، وكـذلك جميع الأمـراء، الذين أنا وحـدي ملزم بالدفـاع عنهم، وملوك وأمـراء العـالم الذين أنـا المناصر لقضيتهم، لأنني صرت المتكلم بلسانهم، هؤلاء سـوف لن يقدموا إذا ما دعيتهم، أو سـوف يطيعونني، وهم غير خـاضعين لي، لـذلك لايمكنني ارغـامهم على القـدوم، ولامعاقبتهم إذا ماتمردوا، ومادمت يائساً —بناء عليه— من حضورهم ومسـاعـدتهم، هل سـوف أعهـد بامتيـازات الامبراطورية وقضيتهـا إلى بلاط مشكوك به، وأن يكون أعـداءها هم قضـاتها؟ لا لن يكون ذلك،

مـادمت حيـاً»، واتفق معـه نبـلاؤه في هذا العـرض المنطقي والحجج، وقرروا وجـوب تغيير الخطة الأجنبية، مع أن ذلك قد يبـدو سوف يرتد بالضرر على سمعتهم، وبسبب الخطر الذي سوف يحدق بالامبراطورية، وهو الذي جرى الحديث عنه، ينبغي منع المجمع الذي كـان موافقاً على عقـده من قبل، ولذلك قـام الامبراطـور على الفـور بوسـاطة رسـائله، بتحـذير الأساقفـة بعـدم القـدوم، ولابأي شكل من الأشكال، ومن ثم الحضور إلى المجمع العام، بناء على استدعاءات البابا، ومنذ ذلك الحين، إذا كان هناك أية أسـاقفة ذاهبين إلى البلاط الروماني، وكانـوا قد رفضوا إطاعة أوامره، ومروا بأراضيه هم شخصياً، أو كانوا قد بعثوا مندوبيهم، فقد تابع اعاقة تقدمهم، وهاجمهم، واعتقلهم، وعذبهم، وعاقب بعضهم بعقوبات مميتة مخيفة، وقد وصلت أخبار هذه الأحوال إلى مسامع البابا، فضاعف مـن لعناته له، وشتائمـه ضد الامبراطور، وكـدس الحرمانات الكنسية ضده، كما جدد تكفيره له.

وبناء عليـه فإن النواب البـابويين، الذين كـان البـابا والدهم في جميع المسائل الروحية، والذين كـان قد أمرهم بناء على طاعتهم له، بالاجتماع في الفصح المقبل، الذي هو عيـد قيامـة ربنا، لحضور المجمع الذي كـان قد أعـدّ له، وهيأ، بناء عليه قد منع هؤلاء من الحضـور بشكل أو آخر، وقـد خـافـوا من معيقـات الامبراطـور، ومن أوامـر المنع الصـادرة عن المراسيم الامبراطورية، هذا من جـانب، وكـان هناك من الجانب الآخـر سيلا Scylla (صخـرة خطيرة من الجانب الإيطالي لمضيق مسينا) ومخاوف التيـارات البحـرية للكاريبي، التي كـانت تهددهم، وقـد طمأن البابا القلوب المرتجفـة للأساقفـة، ومنحهم قليلاً من المواساة والتهـدئة، وردت في كلمات الرسالة التالية:

رسالة البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى الأسقف كذا وكذا،

صحة ومباركات رسولية:

إن قارب بطرس، هو الآن مقهور بثقل أمواج الأشياء الدنيوية، ويتأرجح بعواصف المسائل الملحة للشك والمصاعب، التي تحتاج إلى اليد اليمنى لمخلصنا يسوع، لأنه في الوقت الذي هو مدفوع فيه نحو الأمام بهبات الريح الشمالية العاصفة، يبدو أن الرب نائم، وتلاميذه هم في حال شك، ويخاف البحارة من الريح، ومما سيتمخض عنها، الذي هو غرق القارب، الواقع الآن، والناس خائفون، وبطرس يصرخ منادياً: هل من الممكن لأولادي —مع أن الآخرين صاروا باردين— تقديم العون على الأقل، ومنفعة نصيحتهم السليمة، حتى لاتتمكن الزوابع من قهره، ولا أن يستولي القراصنة المتوحشون عليه، وعلاوة على ذلك، إنه بوساطة تمزق الميثاق الطبيعي، اهتزت الثقة، وازداد الاحسان برودة، وتجمدت أسباب التقوى، وتضاعف الظلم، وكسب قوة ضد الرب، وضد جيران المرء، ومن هذه الأسباب واضح إلقاء معيق في طريق رفع شأن الإيمان المسيحي، وتبع ذلك الخسارة، وتمّ حرمان حشد تقي من المسيحيين الحقيقيين وإبعادهم عن منافع السلام، وأرهقوا بمختلف أنواع الاضطرابات.

ولذلك فإن المقام الرسولي، في إطار سلطته ومكانته، وبعدما وزن جميع هذه الأمور بميزان الرأي العام، وبعدما بحثهم وتفحصهم، وفي سبيل أن تتمكن الكنيسة التي هي الأم العامة والوحيدة، أن تسهم في سعادة الجميع، قد تقرر، مع سبب صالح، التوجه بالدعوة لطلب العون من أيدي جميع المسيحيين الأقوياء، مثل الملوك، والأساقفة، والمقدمين، وآخرين من ذوي الإيمان الصحيح، من أجل أنها بتكرار الصراخ، يمكنها إيقاظ الرب النائم، ولكي يمكنها بمعونة نصيحة أعداد كبيرة، جعل أعباء الظلم أخف، وأن تتمكن بسعادة من الوصول إلى المرسى المرغوب به.

وبين أشياء كثيرة نود أن نعيدها إلى ذاكرتكم أيها الأخ الأسقف، أننا قمنا بوساطة رسائل رسولية، بتوجيه الدعوة إليكم، بحكم كونكم ابن تقي، وعضو نبيل من أعضاء الكنيسة، بالقدوم إلى صدر أمك، الكنيسة المذكورة، في العيد المقبل لقيامة ربنا، لكن كما علمنا، أن الذي كان مرة الابن الخاص للكنيسة، وذلك منذ أن كان طفلاً، عندما كان في حالة ضعف مطلق، فحمته، ورفعته بوساطة عون الكرسي الرسولي، ونهضت به على كتفي أمه، إلى المقام الامبراطوري، والذي لم يقنع بالمضار التي ألحقها بنا، تعويضاً على إحساننا، والتي بها قاتل عرش أبيه، وسعى لإلحاق العار بأمه، ومن دون أي شعور بالتقوى أراد أن ينتحل لنفسه الامتيازات الأسقفية، وهو الآن يسلح نفسه بدهاء، ليمنع بالرعب الأساقفة الذين دعيوا مؤخراً من قبلنا، من الاجتماع بنا، وبذلك لن تكون هناك حاجة لمطلب اتهام ضدنا، كما أنه لن يسمح للكنيسة بالحصول على المواساة من أبنائها، لتتخلص من الأمراض التي تعاني منها.

وبما أنه بناء عليه، هذه النية هي من أجل المنفعة العامة، التي تولينا حملها بثقة، متوكلين على العناية الربانية، يتوجب عدم اعاقتها من قبل رجل ماكر، نحن نتمنى عليكم بحرارة، وبوساطة هذه الرسائل الرسولية، نأمركم بكل دقة، أن تفضلوا الرب على الانسان، وأن تنظروا إليه أكثر من نظرتكم إلى جميع المصاعب المتوجب مواجهتها، وأن لاتتقاعسوا عن القدوم في الموعد الذي سلف تحديده، إلى الكرسي الرسولي، من أجل أن تستمد الأم القوة بحضور أولادها، بحيث يمكن أن يرمى جانباً بكل معارضة قدمها العدو، وذلك بوساطة الحكمة الربانية، وأن تكون هناك بداية لنواياها التقوية للوصول إلى نهاية سعيدة، ونحن برضا الرب، سوف يكون شاغلنا تقديم التسهيلات إلى جميع الأشياء المفيدة لمثل هذه المسائل الكبيرة، حسبما سوف يجري شرح

ذلك لكم من قبلنا. صدر في اللاتيران، في هذا الخامس عشر من تشرين أول، في السنة الرابعة عشرة من حبريتنا».

وبناء عليه أصبح الأساقفة أكثر هدوءاً في عقولهم، واستعداداً من دون خوف من أجل رحلتهم، وهم متوقعون واثقين، بأن البابا، سوف يؤمن لهم بعون الرب، عبوراً آمناً بوساطة البحر، وأما الانكليز، وهم أسقف نورويك وبعض الآخرين، فقد قبلوا بخطط الفرنسيين ورضخوا لها، فذهبوا إلى أماكن آمنة على طريق رحلتهم، وتطلعوا بصمت وحذر نحو نتائج الحوادث.

آلام مدينة فيانزا

وفي هذه الآونة، تمكن الامبراطور، الذي كان يحاصر مدينة فيانزا Faenza منذ وقت، من انزالها إلى حالة من الضيق، أصبح فيها الذين كانوا من قبل هم الأقوى والأغنى من البقية، فقراء وضعفاء، وأرغم الآن عامة الناس من قبلهم على مغادرة المدينة من الأبواب والأبواب الفرعية، حتى لايتمكن هؤلاء العامة من أكل قمحهم، الذي تناقص كثيراً لديهم، ثم إنهم كانوا يتسللون ويهربون من قبل أنفسهم بسبب الجوع، والحاجة المضاعفة لأشياء كثيرة أخرى، وفيها بعد وجدوا أنفسهم يعانون أكثر من الجوع، لذلك قاموا وهم يتألمون في أفكارهم، فأرغموا زوجاتهم وأولادهم وامائهم بالقوة على مغادرة المدينة، وخيّل للنساء أنهن سوف يحصلن على الرحمة من الامبراطور، فذهبن إليه، ومثلن أمامه وشعورهن منشورة، وسجدن أمام معسكره، وهن يبكين، ويولولن، ورجوه بموجب رحمته الامبراطورية، أن يظهر الرحمة نحو نسائهن، لكن مع أن الامبراطور قد سمعهن، لم يوافق على التماسهن، بل أجابهن بغضب شديد: «دعوهن يذهبن إلى أزواجهن، وإلى أسيادهن الذين تولوا الحكم علي، بأنني خائن أمام الرب وأمام الانسان، وبما أنهم قبل بعض الوقت لم يظهروا نحوي رحمة، إنه من غير العدل بالنسبة لي

تلقيهم رحمة مني، لأنه منذ بعض الوقت، عندما كنت محاصراً في مدينتهم، والأبواب مغلقة من أمامي ومن خلفي، دخلوا فجأة في مؤامرة ضدي، وعزموا على قتلي، وبانحطاط قتلوا رجلاً آخر مثلي، كان مرتدياً دروعاً امبراطورية، كما أنهم قدموا عدم تشريف لأمي، وإهانات مضاعفة لها، وذلك عندما كانت عابرة خلال مدينتهم، وبعدم احترام شوهوا المطية التي كانت راكبة عليها، وبذلك أنزلوا انتقامهم بحيوان، ولم يظهروا التقدير لمرتبتها الامبراطورية، ولا حتى لكونها امرأة، وإنه بناء عليه من العدل مواجهتهم بالانتقام».

وبعدما صرخ مزمجراً بقراره هذا ضدهم، أمر بتلك النسوة الضعفاء، واللائي كن يتهاوين من الجوع والحاجة، بأن يسقن عائدات إلى المدينة التي غادرنها، وعندما علم المواطنون بهذه النتيجة، باتوا متأكدين من دمارهم، ولذلك بعثوا بعض الرجال المحترمين بمثابة رسل خاصين، وقد عرض هؤلاء وهم يبكون طاعتهم للامبراطور، ورجوه أن يسمح لهم فقط بمغادرة المدينة، التي تخلوا عنها إلى صاحب الجلالة الامبرطورية مولاهم، وهم فقط أحياء يرتدون من الثياب مايغطي عوراتهم، ليتجولوا مثل المتشردين والمنفيين، في فقر دائم، وأن يذهبوا إلى أي مكان من العالم يختار أن يرسلهم إليه، ورد الامبراطور على هذا العرض قائلاً: «بما أنهم في أحوالهم المزدهرة رفضوا العودة إلى ولائهم، وإلى الاعتراف بي سيداً لهم، إنني لن أصغي إليهم وهم يصرخون في أيام اضطرابهم، لأن كل من كان بإمكانه الاعتداء وفعل ذلك بقدر مااستطاع، يتوجب بشكل عادل أن يعاقب بأقسى عقوبة ممكنة»، وعندما سمع المواطنون بهذا غرقوا في أعماق اليأس، وصاروا الآن تحت وطأة أسف أكثر شدة، ومن دون أي أمل في الحالة البائسة آنذاك لمدينتهم.

البلاط الروماني يرتبط بعاهرة

وفي هذه الآونة، ازداد النهم غير المستقر للبلاط الروماني، إلى درجة أنه مزج فيها بين الصواب والخطأ، وجاء ذلك إما بناء على إذن من البابا غريغوري، أو بتدبير منه، وألقى هذا البلاط كل حياء جانباً، وصار مثل الوجه البرونزي للبوق، معروضاً للاستئجار من قبل أي انسان، وقد عدّ الربا ذنباً تافهاً، والسيمونية ليست ذنباً على الاطلاق، وبهذا عدت الدول الأخرى المجاورة، حتى طهارة انكلترا أصيبت بهذه العدوى، ومع أن الأمثلة التي تعرض نفسها على صحة هذا وافرة، لقد رأيت من المناسب، أن أحكي باختصار خبر مثل واحد، لأظهر بعدل، مع أن ذلك جاء متأخراً، أن غضب الرب قد اشتعل ضد البلاط المذكور.

البابا يطالب بمورد مقداره مائة مارك من رهبان بيتربورا

ورغب البابا غريغوري في تقديم العون إلى واحد من المتحزبين له، فبعث برسائل إلى انكلترا، كانت وطأتها شديدة على بعض الكنائس، وجرى في هذه الآونة، بعث رسول بابوي مرافق بعدة توسلات وتهديدات، وجاء بعثه إلى راعي دير بيتربورا Peterborough وإلى رهبان الدير، آمراً إياهم بإعطاء البابا مورداً سنوياً يصل إلى قيمة لاتقل عن مائة مارك عن كل كنيسة ورعوية تابعة لهم، وإذا كان المبلغ مضاعفاً، فذلك سوف يزيد سروره، والبابا وقتها سوف يمنح الكنيسة إليهم، للاحتفاظ بها مقابل ضمانة لها، وهي شريطة أن يدفعوا له كل سنة مائة مارك مقابلها، وكل ماتبقى من الممكن تحويله لاستخداماتهم، وفي سبيل أن يجعل الراعي المذكور والرهبان ميالين بسهولة أكثر إلى الموافقة على هذه الاتفاقية، (أو بالحري على هذا الميثاق السيموني الخبيث، والغش السري)، وكأنها ضرورية لمنفعتهم، كتب قداسته إلى بعض الكهنة، الذين كانوا من جانبه من الألب، والذين كان بين أيديهم منافع جيدة في انكلترا، يأمرهم، بموجب السلطة الممنوحة إليهم، بتقديم النصيحة بشكل فعال إلى الراعي المذكور وإلى الرهبان للموافقة

على هذا، وإذا مااستدعى الأمر إرغامهم على ذلك.

وبناء عليه، قاموا في طاعة منهم لأوامر البابا، فذهبوا إلى بيتربورا، واستدعوا الرهبان وقالوا لهم: «انتبهوا أيها الأصدقاء والإخوان، أن هناك منفعة سوف تضفى عليكم، من قبل اليدين القادرتين للبابا، لأنه قد سألكم الآن، الذي كان ينبغي أن تسألوه إياه، وترجونه من أجله بركب جاثية، وبأيد مصفقة، وبتواضع كبير».

وبعدما أوضحوا للرهبان جميع الذي طلبه البابا، قدموا وعداً، وكأنهم ضامنين ووكلاء مخلصين للبابا، وباسمه، بأنهم سوف يفون بجميع وعوده، شريطة أن يوافقوا —الرهبان— على الذي سأله بشكل سري، وإبقاء الأمر كما هو، من دون فضيحة، ذلك أنهم قدموا فضيلة الحاجة الضرورية، وأجابهم الرهبان، أنه ليس بإمكانهم فعل هذا، من دون إذن الملك، الذي كان راعيهم، والمؤسس لكنيستهم، وكذلك لكنائس أخرى في هذه المنطقة، ومع ذلك رجاهم الكهنة بحرارة في سبيل فعل هذا بسرية، آملين بفعل الشيء نفسه في كنائس أخرى، وأن يجعلوا هذا سابقة، ولكن الرهبان لم يرغبوا في أن ينصاعوا لحججهم المخادعة، وطلبوا منحهم وقتاً حتى يعود راعيهم إلى الوطن، لأنه كان غائباً، لكي يعطي موافقته على رضاهم بهذا الطلب، إذا ما رآه موائماً، ولذلك بعثوا رسالة إلى راعيهم، يوضحون له بها اشكاليات هذا العمل.

وعند ذلك أرسل الراعي، بوساطة كاهن مخلص وحكيم تابع له، اسمه وليم دي بورغ Bourg, رسالة إلى الملك، وطلب نصيحته حول المسألة، وأخبره بالمخاطر التي من الممكن أن تنجم عن هذه القضية، ورأى الملك أن عملاً من هذا النوع من الممكن أن يكون مصيرياً بالنسبة إلى تلك الكنيسة، ومثل ذلك إلى الكنائس الأخرى، وذلك بحكم أنه كان راعيهم، وحاميهم، وحاكمهم ولأنه أبعد الدسائس الخفية، وشره البلاط الروماني، منع بحزم ودقة الاقدام على

مثل هذه السابقـة غير النظامية، حتى لايجري تلويث الهواء أكثـر مما هو ملوث.

القديس إدموند يصبح متميزاً بالمعجزات

وملأت في هذه الآونة أخبار الاسم المقدس، والذكرى المشهورة لإدموند المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، ومعجزات قداسته، بلدان هذا الجانب من الألب، وذلك مع سمعته المجيدة، وبلغ الأمر حداً، أنه بوساطة المعجزات غير الاعتيادية، التي تلطف الرب فعملها من أجله، أن أيام الرسل بدا أنها قد تجددت، وانجذب رؤساء أساقفة، وأساقفة، ونبلاء مع حشود لاتحصى من الناس، من كلا الجنسين، برائحة العطر الطيبة، التي صدرت بالفعل من مناطق نائية عن ضريحه في بونتني، لذلك أخذ هؤلاء يسألون مساعدة ادموند المذكور.

وفي انكلترا أيضاً، في دير للنساء في كيتباي Catesby, حيث كان رئيس الأساقفة المذكور قد ترك اثنتين من أخواته بمثابة راهبات، وكان قد أعطى إلى إحداهن هبة تعبّر عن العاطفة، تمثلت بطيلسانه، وقد تلطف فعمل بشكل مدهش عدداً من المعجزات هناك، الحديث عنها ووصفها سوف يتطلب رسائل طويلة خاصة.

رهبان كانتربري يحصلون على تحليل من البابا وينتخبون بونيفيس رئيساً لأساقفتهم

في هذه الآونة، في شهر نيسان، تمكن رهبان كانتربري، الذين أرسلوا إلى روما، لصالح التجمع الديري، للحصول على تحليل من القرار الذي تفوه به رئيس الأساقفة ضدهم، من الرجوع من البلاط الروماني، بعدما حصلوا على وجوب تسلمهم تحليلاً بوساطة طريق التحذير، حيث جرى ندب راعي دير القديس ألبان مع رئيس الشمامسة هناك، مع رئيس رهبان دنستيبل Dunstable, من أجل تسوية القضية، لكن

لايرفض البابا الأسقف المنتخب لعدم الكفاءة، أو بالحري حتى يبدو جديراً بمثل هذا المقام الرفيع، سعى الملك، مستخدماً جميع الوسائل التي تحت سلطانه، لرفع شأن بونيفيس المذكور، وزيادة شهرته، وهو الذي انتخب الآن، أو أنه سوف ينتخب، فأمر بكتابة ورقة، أثنى فيها على بونيفيس المذكور إلى أبعد الحدود، وكشاهد على صدقها، وضع خاتمه على تلك الكتابة المذكورة، ثم إنه أرسلها إلى الأساقفة، وإلى رعاة الديرة، آمراً إياهم، أو بالحري رجاهم بشكل ملكي بأن يضعوا أيضاً أختامهم عليها، وأن يكونوا شهوداً على ما أكده، وقد رفض عدد منهم —على كل حال— خرق تماسك ضميرهم، وخافوا من مخالفة أمر الرب في قوله: «أنت لن تكون شاهد زور»، ولذلك رفضوا بإصرار طاعته، وكان هناك على كل حال، بعضاً من رجال الدين من ذوي المراتب العالية، أي بعض الأساقفة ورعاة الديرة، قد خافوا، وضعفوا أمام تهديدات الملك، فوضعوا جانباً خوفهم من الرب، وأظهروا احتراماً نحو الإنسان، أكثر من الاحترام نحو الرب، فوضعوا أختامهم عليها كضمانة، وشهادة على إيمانهم، ورضاهم بقبول بونيفيس ليكون رئيسهم.

ومع أنه كان من أصل نبيل، وصديقاً مقرباً من أمراء المملكتين، وهو شخصياً مكون بشكل جيد، ومؤهل بما فيه الكفاية، فقد كان رهبان كانتربري آسفين إلى أقصى الحدود، لأنهم غلبوا من قبل توسلات الملك، فوافقوا على طلبه في هذه القضية، وبعدما تفكر بعضهم في أنفسهم، وعرفوا الشقاء المخبأ لهم، انسحبوا من كنيستهم، ولكي يقوموا بتوبة دائمة، حملوا أنفسهم وانتقلوا إلى طائفة الرهبان الكارثوشيان Carthusian.

اضطهاد كونت بروفانس

أرسل في هذه الآونة، ريموند كونت بروفانس، والد ملكتي

الفرنسيين والانكليز، عدة رسل خاصين، إلى صهره ملك فرنسا، مع توسلات مستعجلة، حتى يمنحه مساعدة فعالة بحكم كونه ختنه وحليفه، لأن كونت طولوز، قد شنّ الحرب ضده، بناء على أمر من الامبراطور، وضيق عليه حتى أوصله إلى الدمار الشامل، وهو الآن مجرد تماماً من امكانات المقاومة، حيث أنفق المال الذي أرسل إليه من ملك انكلترا، وبناء على هذا، كتب الملك الفرنسي بلطف ظاهري إلى الامبراطور، وكذلك، إلى كونت طولوز، رجاهما، صدوراً عن احترامهما له وعاطفتهما نحوه، اظهار الرحمة نحو ختنه، وكتب ملك انكلترا، وأخوه رتشارد، ايرل كورنوول رسائل إلى الاثنين نفسيهما من أجل هذه الغاية نفسها، وبهذه الوسائط نال كونت بروفانس، بعد وقت طويل، الهدوء، وسمح له بالتمتع به.

كيف ضايق البنادقة الإمبراطور

أصر البنادقة خلال هذا الوقت كله بعناد على إلحاق كل أذى ممكن لهم، وبكل وسيلة، يمكنهم ابداعها بالبر وبالبحر، للانتقام لرئيسهم عمدة ميلان، الذي كما ذكرنا من قبل، قد أسره الامبراطور، أثناء قتاله ضد ميلان، والذي بعدما أودع السجن، أدين، وأعدم بناء على أوامر الامبراطور.

يقظة الإمبراطور في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه المتنوعين

واستولى في هذه الآونة الامبراطور فردريك بالقوة على مدينة فيانزا، وهي التي وقعت تحت الحصار لمدة طويلة، والتي باتت الآن غير قادرة على متابعة الصمود، واستمر الحصار لحوالي السنة، وقد أنفق الامبراطور مبلغاً كبيراً من المال عليه، آه، أي قلق، وأية اضطرابات مضاعفة أثرت على دماء قلب الامبراطور، في الدفاع عن امبراطوريته لأنه امتلك ستة جيوش كبيرة وكثيرة التعداد ومرعبة، وقد قاد هو أولها،

وكان الثـاني جيشاً مزدوجـاً، موجوداً في الأراضي الجنوية، أي كـان قوة بحـرية، لتعترض بالقـوة في البحـر طريـق عبـور النواب البـابويين والأساقفـة، الذي استخفوا بنصائحـه، وقوة أخـرى عملت بالبر، قرب سـاحل البحـر، تحت قيـادة ابنه هنري ملـك غـالوري Gallury, وتوري Torres, التي تابعـت باستمـرار نهب الحقـول والكروم التـابعة للجنويين، وكـان هناك جيش ثالث تحت قيادة ابنه كـونراد، ولي عهـد مملكة القـدس، الذي كـان قد حشـد تحت قيـادته جيشـاً لايمكن تعـداده، من ألمانيـا ومن المناطق المجـاورة لها والخاضعـة للحكم الامبراطوري، وقـد أرسله ضـد التتار، على أسـاس أن ابنه كـونراد هو القائد الأعلى، غير أنه كان مرافقاً بدوقات النمسا، وسكسوني، وبافاريا، مع نبـلاء آخـرين، وأسـاقفـة، وآخـرين عـددهـم كبير جـداً لايمكن تعـدادهم، وقـد تبعهم حشـد كبير من الناس تطوعـوا لهدف واحـد، وبتشوق حملوا الصليب، وكانوا مستعدين للقتال حتى الموت ضد التتار المذكورين، لصـالح الكنيسة العالمية، وجـرى استخدام الجيش الرابع في تخوم تريفيسو Treviso, وكان تحت قيـادة ثيوبولد، الذي قيل بأنه من أصل فـرنسي، وكان حليفاً خـاصاً للامبراطور، وكـان عمل الجيش الخامس في تخوم أنكونا ووادي سبـوليتـو، وكـان الجيـش السـادس في الأرض المقـدسـة، تحت إمـرة مـارشـاله رالف، الذي إليـه أسند الايرل رتشارد المسـؤولية عن الأرض المقدسة، التي استحـوذ عليها، أو تهدنت من قبله، وبشكل خـاص قلعـة عسقـلان، التي تولى الايرل رتشـارد المذكـور تقـويتهـا بشكل فخم على حسـابه، وذلك في سبيل تقـوية المسيحية ورفع مكانتها بشكل عام.

ثبات رهبان وينكستر والظلم الذي مورس ضدهم

وفي هذه الآونة كـان هناك بعض الـذين يدورون بفلك البـلاط، والواثقين بأوامـر الملك، والذين اعتـادوا على أن يعملوا من الأشيـاء

التـافهة أشيـاء عظيمة، وقـد ذهب هؤلاء إلى وينكستر، وبرعونة طلبـوا الرهبان الذين رفضـوا اطاعة أوامر الملك في قضية الانتخـاب أو طالبوا بانتخـــاب أسقف وينكستر، والذيـن كـانوا بشكـل وقح غير مطيعين للملـك، وعملوا ذلـك الطلب إلى وليـم دي ريلي Rele, أسقف نـورويك، ولم يتنـازلوا بـالتخلي عن مقصــــدهـم لابالتهــــديـدات ولابالالتماسات، فهكذا كـان فخارهم الرهبـاني، وهكذا كانت وضـاعة هؤلاء الناس الجبناء، وبناء عليـه جـرى بحـث بالقضيـة من قبل رئيس الرهبان، الذي أرغم من قبلهم، والذي كان أصل هذا الاضطراب كله، والرهبان الذين وجـدوهم قد تصرفوا على هذه الصـورة، جرى طردهم من الدير، من قبل هـؤلاء الرسل، من دون اعطاء تقـدير إلى العمـر، أو الجنس، أو الطائفـة، أو للاحترام المتـوجب للكنيسـة أو للدير، وسجنوا فيها بعـد، وأجيعـوا، وتعـرضـوا لكل نوع مـن أنواع الملامـة، والإهانة، والإذلال، مما سبب إلحاق الإهانة بالنظام الرهباني كله.

استيلاء الإمبراطور على مدينة فيانزا وإظهاره الرحمة نحو السكان

وفي هذه الآونة خضعت أخيراً مـدينة فيـانزا الملكيـة، التي كما ذكـرنا كانت مطـوقة ومحاصرة من قبل الامبراطور فردريـك، واستسلمت إليه بتحفظ، فقـد أنهكت المجـاعـة السكان، ورافقهـا كثير من الاضطرابات المضـاعفـة، فجـاءوا محتشـدين، وسقطوا عنـد قـدمي الامبراطور، وهم يتنهـدون ويبكون، ورجـوه من أجل الرحمة، وليس من أجل الحسـاب، وبينما كـان هؤلاء الناس الذين أثـاروا لمدة طويلة غضب الامبراطور إلى أعلى الدرجـات، يتـوقعـون الموت بأقسى أنواع العـذاب، وذلك بسبب مااقترفـوه من ذنوب، تمت الاشارة إليها مـن قبل، وبسبب نفقات طول حصـار مـدينتهم من قبل الامبراطور، الذي تكبـد إنفـاق مبلغ كبير من المال، ومع ذلك قـام المنتصر، برحمته الكـريمة، بالحفـاظ عليهم، وبفعله ذلك كسب عواطف الكثيرين، لأنه عندما رأى أنه حقق أخيراً الانتصار

على رعاياه العصاة، مال بدمه الكريم إلى الرحمة، وذلك تبعاً لكلمات الشاعر:

العدو جرى تدميره، والأسد النبيل استراح راضياً،

والمعركة انتهت، وغضبه الناري قد تلاشى.

والذئاب، والدببة، والوحوش الأصغر، اقتادتهم مشاعرهم المتدنية.

بالانتقام فظلوا غير مشبعين لنهمهم من ضحاياهم الميتة.

الانتقام المخيف الذي اقترف من قبل التتار

أثناء هذه الآونة نزل أولئك الناس الذين هم من غير البشر، والمتوحشين، والخارجين على القانون،وغير المدجنين، من التتار، في اندفاعهم وعنفهم الرهيب، على المقاطعات الشمالية للمسيحية، واجتاحوها بشكل مرعب ومدمّر، وأوقعوا الخوف والرعب بين جميع المسيحيين، وكانوا قد تمكنوا بطغيان لم يسمع بمثله، من تحويل بلدان كثيرة إلى صحراء مثل فريزلاند، وغوثلاند، وبولاندا، وبوهيميا، وشطري هنغاريا معاً حيث قتلوا الأمراء والأساقفة، وسكان المدن والفلاحين، أو أرغموهم على الفرار، وقد أكدت وقوع هذه الوقائع وشهدت عليها الرسالة التالية، التي أرسلت إلى هذه المناطق.

رسالة كتبت إلى دوق برابانت حول القوم أنفسهم

«من هنري، الذي هو بفضل الرب كونت اللورين، والأمير الملكي لسكسوني إلى مولاه المحبوب جداً، والذي سيظل دوماً محبوباً، وختنه، الدوق المشهور لبرابانت، الذي نحن على استعداد لخدمته متى طلب ذلك: إن المخاطر التي تقدم الحديث عنها في الكتابات المقدسة في العصور القديمة، آخذة الآن بالتفجر والتدفق بسبب ذنوبنا، لأن قطيعاً من الناس المتوحشين، الذين لاعدّ لهم ولاحصر، ومن المتمردين،

والهمج، يقومون الآن بغزو المناطق المجاورة لمناطقنا، والاستيلاء عليها، وقامـوا الآن بعدمـا عاثوا فسـاداً في كثير من البلدان الأخرى، وبعـدما أهلكوا سكانها، فمدوا غزواتهم حتى الأراضي البولندية.

وحصلنا حول هذه القضايا على أخبار كاملة من رسلنا، ومن رسائل من ابن عمنا المحبـوب ملك بوهيميا، وقد طلب منـا إعداد أنفسنا بكل سرعـة للسير إلى مسـاعـدته، وللدفـاع عـن المسيحيـة، ذلك أننا أخبرنا بصدق وبوضوح من قبله، بأن هذا الجنس من الناس، أي التتار، سوف يتولى في حوالي ثمانية الفصح بوحشية وهمجية، غزو الأراضي البوهيمية، وإذا لم تقـدم مساعـدة في وقتهـا إلى البـوهيميين، سوف تقـع مذبحـة لم يسمع بمثلهـــا، وبما أن البيت المجــاور لبيتنـا يحترق الآن، وبحكم أن المنطقة المجـاورة عرضـة للاجتياح، وفي الوقت الذي فيـه بعض المناطق هي الآن تحت الاجتياح، إننا نيابة عـن الكنيسة المسكونية، نطلب بقلق، ونرجو المساعدة، والتسديد من الرب، ومن جيراننا الأخوة الأمراء، وبما أن التأخير يولـد الخطر نرجـوكـم القيــام بكل يقظـة ممكنة، أن تحملوا السلاح، وأن تسرعـوا إلى نجدتنا، وكذلك في سبيـل حريتنا ومثل ذلك في سبيل حريتكم، وأن تستخـدموا مسعى قـوياً لإعداد قـوة قوية، وأن تثيروا النبلاء الأقوياء والشجعان مع الناس الخاضعين لهم، وأن تحتفظوا بهم مستعدين وجاهزين حتى نرسل إليكم رسلنا ثانية.

ونحن الآن نثير بوساطـة جهود أساقفتنا، والمبشرين لدينـا، والرهبان الفـرنسيسكان الدعــوة إلى حملة صليبيـة عـامـة (لأن القضيــة مـرتبطة بالمسيح)، ونبشر، ونصلي، ونصوم من أجل فـرضها، وبلادنا بشكل عام قد نهضت وثارت للحرب في سبيل يسوع المسيح.

وإلى هذا يمكن أن نضيف بأن قطيعاً كبيراً من هذا الجنس المقيت من الناس، يقـوم الآن بالتعـاون مع جيـش آخـر متحـالف معـه، باجتيـاح هنغاريا بوحشيـة لم يسمع بمثلها، إلى حد قيل فيـه بأن الملك قد احتفظ

فقط بقطعة صغيرة من البلاد لنفسه، ولنجمل القضية في كلمات قليلة فقط:

إن الكنيسة والناس في البلدان الشمالية، قد قمعوا وقهروا بكثير من أمثال هذه الاضطرابات الكبيرة والمصاعب إلى حد أنهم لم يعانوا قط بشدة من مثل هذا العذاب منذ بداية الدنيا. صدر في سنة النعمة ١٢٤١، في اليوم الذي يرتل فيه بـ «دعوا القدس تبتهج».

وأرسلت رسائل أخرى، لها المحتوى نفسه، من قبل دوق برابانت إلى أسقف باريس، وكتب أيضاً رئيس أساقفة كولون إلى ملك انكلترا حول المقصد نفسه.

وبناء عليه، ومن أجل معالجة هذا المرض الخطير، ولتسوية الخلافات التي قامت بين البابا والامبراطور، جرى فرض الصيام، والصلاة، ومنح الصدقات، على الناس في مختلف البلدان، حتى يصبح الرب القدير المخضع لأعدائه، والذي يقاتل مع قلة أو كثرة، راضياً نحو عباده، وأن يسحق شموخ هؤلاء التتار وجبروتهم.

وعندما أخبرت بلانشي المحترمة، وأمة الرب المحبوبة، وأم الملك الفرنسي بهذا العذاب الرباني، الذي نزل على الشعوب وأحاق بها، دعت ابنها قائلة: «الملك لويس، أين أنت ياولدي»؟ وبناء على ذلك اقترب منها ابنها وقال: «ماالذي تريدينه ياأماه؟»، ثم إنها تنهدت بعمق، وانفجرت باكية، ومع أنها كانت امرأة، فقد انكبت على هذه المخاطر العظيمة، ليس كإمرأة، وقالت له:

«ماالذي ينبغي صنعه ياولدي الحزين تجاه هذه الأحداث المؤلمة، والتي تطايرت عنها تقارير مرعبة وتدفقت على أراضينا؟، وإن دماراً عاماً لنا كلنا وللكنيسة المقدسة، بات الآن وشيكاً في أيامنا بسبب الغزوات الرهيبة للتتار بيننا»، ولدى سماع الملك لهذا، أجاب بصوت

حـزين، لكنه تكلم وكأنـه تلقى إلهامـاً ربانيـاً: «لعل المواسـاة من السماء تنهض بنا ياأماه، وإذا ماقدم هؤلاء الناس الذين نسميهم التتار، وجاءوا مغيرين علينا، إمـا سنردهم إلى بلاد التتـار التي صـدروا منهـا، أو أنهم سوف يرسلون بنا جميعـاً إلى السماء»، وهكذا فإنه كان يريد القـول: «إما أننا سـوف نصـدهم، أو أننا إذا مـا غلبنا، فإننا سـوف نغـادر إلى الرب كمعترفين للمسيح، أو شهـــداء»، وألهم هذا الكلام المدهـش والجدير بالثناء، الناس وأثار شجـاعتهم، ولم يقتصر هذا على النبلاء الفـرنسيين، بل تعداهم أيضاً إلى سكان البلـدان المجاورة، ثم إن الامبراطور، عندما سمع بهذه الأشياء، كتب إلى الأمراء المسيحيين، وبشكل خاص إلى ملك انكلترا كما يلي:

رسالة الإمبراطور فيما يتعلق باقتراب المغول

«من فردريك، إمبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

نحن لايمكننـا الالتـــزام بالصمـت حيـــال قضيـــة لاتخصّ فقط الامبراطورية الرومـانية لوحدها، التي وظيفتهـا نشر الانجيل، بل تخصّ أيضـاً ممالك العالم كله، التي تمارس العبـادة المسيحية، لأنها تهدد بدمـار كـامل لجميـع المسيحيـة، ولذلك بادرنا مسرعين بنقل أخبـارها إليكم، وإعلامكم بها، علماً بأن الحقائق الصادقة حول الموضوع قد وصلت إلينا مؤخراً.

منذ وقت قصير مضى ظهـر عرق شعب متـوحش بطبائعه وبطـريقة حياته (من أي مكان أو أصل أنا لاأدري) اسمه التتـار، ظهر مؤخراً من مناطق الجنوب، حيث كـان مختبئاً منذ وقت طويل، قـد أحرقتـه شمس الإقليم الحار، وزحف من هناك نحـو المناطق الشماليـة، واستولى بالقـوة على المنطقـة هناك، وبقي لبعض الوقت، وتكاثر مثل الجراد، وقـد جـاء الآن متقدماً، ليس من دون قضاء مضى من الرب —لكن ليس كما آمل

مؤجلاً حتى أيام هذه الرسالة— لتدمير المسيحية كلها، وقد تبع وصول هؤلاء الناس، مذبحة عامة، ودمار شامل وبأساء لجميع الممالك، مع تخريب كامل للمناطق الخصبة، التي عاث فيها هذا القطيع من الناس فساداً، دون إبقاء لجنس، أو عمر، أو مرتبة، وهم مايزالون يأملون وهم واثقين، من تدمير بقية الجنس البشري، وهم يسعون إلى حكم البشرية والسيادة عليها لوحدهم، واثقين بقوتهم الهائلة، وبأعدادهم غير المحدودة، فبعدما قتلوا كل من وقع نظرهم عليه، ونهبوا كل مكان وخلفوا وراءهم انعدام كامل للسكان، وصل هؤلاء التتار (أو بالحري سكان تارتاروس) إلى مستعمرة الكومان الكثيفة السكان، ولأنهم لم يهتموا بالحياة، ولأن القوس هو السلاح المعتادين عليه كثيراً، أكثر من غيرهم من الشعوب، وبسهامهم، وبأسلحتهم المقذوفة الأخرى، التي يستخدمونها باستمرار، والتي أذرعتهم مدربة عليها وممارسة أكثر من سواهم، والتي باتت أقوى من الشعوب الأخرى مزقوا ذلك الشعب وأخضعوه، والذين لم يستطيعوا النجاة قد ذبحوا بسيوفهم الدموية.

وجعل اقتراب هؤلاء الهمج، مع شيء من الصعوبة الروثينيين Ruthenians, الذين يسكنون على مقربة منهم، يأخذون حذرهم ويستنفرون، ولأنهم كانوا غير معتادين على قتال هذا الشعب غير المعروف، فإنهم تشاوروا حول سلامتهم، وخافوا من غضبهم مثل خوفهم من النار، واتخذوا لأنفسهم احتياطات ضد هجماتهم، وبالهجمات المفاجئة، وحملات ذلك العرق الهمجي، الذي ينقض مثل غضب الرب، أو مثل البرق، فإن كييف المدينة الرئيسية لتلك المملكة قد هوجمت وتم الاستيلاء عليها، وجميع تلك المملكة الفخمة، التي كان من المتوجب توحيد نفسها مع مملكة هنغاريا، من أجل الدفاع عن نفسها، وحمايتها، والتي أهملت ذلك ولم تفعله، تحولت بعدما جرى قتل سكانها، إلى وضع من الدمار الكامل والبأساء.

وكـان ملكهم رجـلاً كسـولاً ومهمـلاً، وقـد أمـر بوسـاطة الرسل والرسـائل من هؤلاء التتار، أنه إذا أراد الحفـاظ على حياته، وعلى حيـاة رعيته، فما عليه سوى الاستسلام على الفور حتى ينال حظوتهم، غير أنه لم يخف من هـذا، ولم يأخـــذ حـــذره، وبـذلك أعطى بـرهاناً لشعبـــه وللآخرين، أنه يتـوجب عليه وعلى شعبه، القيام عل الفـور بالاستعداد من أجل حماية أنفسهم، والدفـاع ضـد غـاراتهم، ولكن في الوقت الذي كـان فيـه هؤلاء الناس المغـرورين، أو الجاهلين مستخفين بـأعـدائهم، وبكسل نائمين والعـــدو في جـوارهم المبــاشر، ومعتمـديـن على القـوة الطبيعية للمكان وعلى منعته، شق التتـار طريقهم إلى المملكة مثل زوبعة ريح، وفجأة طوقوهم من كل جانب.

وعندما وجد الهنغار أنفسهم تحت الحصـار، قبل أن يتوقعوا الهجوم، وقد فـوجئوا عندما لم يكونوا مستعدين، حـاولوا الدفاع عن معسكرهم ضـدهم، وعندما بات الجيشـان المتصـارعان، أي جيش التتـار، وجيش الهنغار، على مسـافة خمسة أميال عن بعضهما بعضـاً، اندفع الجزء المتقدم من التتار فجأة نحو الأمام عند فجر النهار، وطوّق رجاله فجأة معسكر الهنغـار، فقتلوا الأسـاقفـة ونبـلاء المملكـة الذين تصـدوا لهم، وذبحـوا حشـداً من الهنغار في مـذبحة مـا من أحـد يتذكـر أن مثلها قـد وقع في معركة واحدة، منذ زمن طويل جداً.

أمـا الملك نفســه، فقد نجـا بصعـوبة، حيث ركب على فـرس سريع، وهرب تحيط به حـاشيـة صغيرة، ليشارك في حصـة أخيـه ملك ايلليريا Illyria, ولكي يحصل هناك على الحماية على الأقل، وفـرح المنتصرون بأســلابهم وغنائمهم، ثم إنهم استقــروا في معسكر الهنغــار المغلوبين، وكـانوا في تلك السـاعة ينهبـون الجزء الأكبر والأجمل من هنغـاريا، فيما وراء نهر الدانوب، ويلحقـون الأذى بالنـاس بالنار وبالسيف، ويهددون بإشراك البقيـــة في الدمــار نفســه، وذلك كما أخبرنا مـن قبل الأسقف

المحترم لفاتزن Vatzen, الذي كان سفير ملك هنغاريا المذكور، إلى بلاطنا، والذي أرسل بعد ذلك الى بلاط روما، وبما أنه كان مجتازاً خلال أراضينا أولاً، فقد قدم شهادة على مارآه، وبيناته صحيحة جداً.

وحصلنا أيضاً على معلومات وافية حول هذه الحوادث، بوساطة رسائل من ولدنا المحبوب كونراد، الملك المنتخب للرومان، وولي عهد مملكة القدس، وملك بوهيميا، ومن دوقي النمسا وبوهيميا، ومن كلام أفواه رسل، أكدوا فعلياً اقتراب وصول العدو، وقد سمعنا بهذا كله، ونحن نشعر بتشوش كبير في عقلنا، ولقد سمعنا —وبحكم أن الإشاعة، عن سيرهم، تسير أمامهم— بأن جيشهم الذي لايمكن تعداده، مقسم إلى ثلاثة أقسام سيئة الطالع، وبسبب تساهل الرب تجاه خططهم الملعونة، قد زحفوا هكذا مقسمين، فواحد من هذه الأقسام قد أرسل خلال أراضي البروكتينيين Pructenian, ودخل إلى بولاندا، حيث سقط أمير تلك البلاد ودوقها ضحيتين لأعمال المطاردة المبيدة، وبعد ذلك استبيحت تلك المنطقة ودمرت من قبلهم، ودخل الشطر الثاني إلى الأراضي البوهيمية، حيث أوقف هناك، لأنه حورب من قبل ملك تلك البلاد، الذي تصدى له بشجاعة بوساطة جميع القوات التي كانت تحت إمرته، وأما الشطر الثالث فهو الذي يعيث فساداً في هنغاريا المجاورة للمناطق النمساوية.

وبما أن الخوف والرعب قد قام بيننا، بسبب شدة هؤلاء الغزاة الجريئين، الأمر الذي نبهنا ودعانا إلى السلاح، والضرورة هي أكثر إلحاحاً، كلما عظم الخطر وازداد، وهي تحثنا على التصدي لهم، وإن التأكد من الدمار الشامل للعالم كله، خاصة للعالم المسيحي، تدعو إلى تقديم مساعدة سريعة ونجدة، لأن هذا العرق من الناس متوحش، وخارج على القانون، وجاهل بالشرائع البشرية، وهم يتبعون سيداً واحداً، ويعدونه مولاهم، وهم يعبدونه ويبجلونه مع طاعة كاملة، وهم

يطلقـون عليـه اسم رب الأرض، ورجـالهم أنفسهم صغـار، وقصـار القامة، هذا بالنسبـة للطول، لكنهم مندمجون، وأقوياء، وكتلهم ضخمة، ومصممون، وأقوياء، وشجعـان، وجاهزون بإشارة واحدة مـن قائدهم للاندفـاع للقيـام بأي واجـب صعب، أو مهمـة قـاسيـة، ولهم وجـوه واسعـة، ونظرات قـاسيـة، ويتفـوهون بصرخـات مـرعبـة، تتـواءم مع قلوبهم، وهـم يلبسـون جلوداً غير مدبوغـة، من جلود الثيران، والحمير، والخيـول، وبالنسبـة للدروع هم يحمـون أنفسهم وأجسـادهم بقطع من الحديد مخاطة إليهم، وقد استمروا باستخدامها حتى الآن.

لكن لايمكننا أن نقـول من دون أسف، إنهم الآن، جهـزوا أنفسهم، من أسـلاب المسيحيين المغلوبين، بأسلحـة أكثـر مـواءمـة، حتى يمكن —من خـلال غضب الرب— أن نتعـرض للقتل بدناءة أكبر، بوسـاطة أسلحتنا، وبالاضـافـة إلى ذلك لقـد تزودوا بخيـول أفضل، وهـم الآن يعيشون على أطعمة أغنى، ويزينون أنفسهم بملابس أكثر جمالاً مما كانوا يرتدونه من قبل، وهم رماة نبالة لايجارون، ويحملون جلوداً مصنعة، بها يعبرون البحيرات والأنهار الأكثر سرعـة من دون خطر، وعندمـا تنعدم الأعلاف لديهم، لقـد قيل بأن خيولهم تكتفي بلحـاء الشجر وبالأوراق وبجـذور الأعشاب، التي يجلبهـا الناس إليهم، ومع ذلك يجدونهم دائماً سريعين جداً، وأقوياء في حال الحاجة.

وكنا على كل حال بوسيلة أو أخرى قـد حذرنا سلفاً، ورأينا من قبل متـوقعين جميع هذه الأحداث، وطلبنا دومـاً بوسـاطة رسائل ومبعـوثين من جـلالتكم، وكـذلك مـن الأمـراء المسيحيين الآخـرين، ونصحناكم باخـلاص، والتمسنا منكـم، بالسماح لعـدم العـدوان، والعـواطف، والسـلام بالازدهار بين هؤلاء الـذين بين أيديهم السلطات العليـا، وأن يقومـوا بتسوية جميع خلافـاتهم، التي غالباً مـا تجلب الأذى إلى المصالح العـامة للمسيح، وأن ننهـض برشاقـة وبإجماع للتصـدي لأولئك الهمج

الذين ظهـروا مؤخراً، فلقـد تبين أن الأسلحة الماضيـة غير كافيـة لشفاء الجرح، أي أن لانسمح لعـدونا العـام بسبب لـلابتهـاج، ولابمـزيد من التقدم، بسبب الخلافات المنبعثة بين رؤساء المسيحيين.

يارب كم مـرة، وكم غـالبـاً مـا كنا على استعـداد للتـواضع بأنفسنا، واعطاء منفـذ لكل نوع من المشـاعر الطيبـة، في سبيل التمكن من الحبر الرومـاني، حتى يقلع عن إعطاء سبب للفضـائح في جميع أرجاء الدنيـا، وذلك بوسـاطة عـداوته لنا، وأن يضع روابط التسـامح فـوق النصـائح العـدوانيـة المريضـة ضـدنا، وذلك في سبيل التمكن من تهدئـة رعـايانا الشرعيين، وأن نحكمهم في حـالة من السلم، وأن لايحمي هؤلاء الذين يتحركون ضد سلطتنا، حيث أن شطراً كبيراً منهم يلقى الرعاية والمعونة منه.

وهكذا بالتمكن من تسـوية المسـائل بشكل سلمي، وبإعادة إصـلاح رعايانا العصاة، الذين ضدهم أنفقنا مبلغاً كبيراً من المال، وأنهكنا قوانا، إن قدرتنا سوف تتضاعف، وسوف ترتفع بقوة أعظم ضد عدونا العام، لكن بما أن الإرادة هي الشريعـــة بالنسبـــة له، وهـو لم يستطع التحكم بمسـار لسانه المخـادع، وقـد رفض التمنع عن كثير من النزاعـات التي حـركها ضـدنا، وقد أمـر بنشر حملة صليبيـة ضدنا، ضـدي أنا الذي أنا سـلاح ومـدافع عن الكنيسـة، ولقـد كـان من واجبـه، والأفضل له أن يمارس العمل ضد طغيان التتـار، أو ضد المسلمين الذي يغزون الأرض المقدسة ويحتلونها، وهو يشجع العصاة من رعـايانا، الذين يتآمرون ضد شرفنا وشهرتنـا، ولما كان واجبنا الأكثر إلحاحـاً العمل على تحرير أنفسنا من الأعـداء في الداخل، كيف ستمكن من صـدّ هؤلاء الهمج أيضـاً؟، لأنهم اكتشفوا بوساطة جواسيسهم، الذين أرسلوهم في جميع الاتجاهات هذا الخلاف العام، ذلـك أن هؤلاء القوم، وإن كانـوا يحكمون من دون إعطاء أي تقدير للشريعـة اللاهوتية، هم بارعـون جداً، في بدع الحرب،

ولقد اكتشفوا الأماكن غير المحمية والضعيفة في البلاد، ولسماعهم بأخبار العداوات بين الملوك، وبصراعات الممالك، لقد تشجعوا، ونهضوا ضدنا بنشاط أعظم، فكم تضيف الشجاعة العالية إلى القوة وتزيدها، وبناء عليه لقد صرفنا اهتمامنا نحو القضيتين معاً، وبعون الحكمة الربانية، سوف نستخدم قوتنا وقدرتنا لتجنيب الكنيسة الفضائح، الناجمة من الجانب الأول عن أعدائنا في الداخل، وأن نحميها من الجهة الأخرى من هؤلاء الهمج، ولهذا قمنا بشكل فعال بإرسال ابننا المحبوب كونراد ومقدمين آخرين من إمبراطوريتنا، مع قوة كبيرة للتصدي لحملات ولعنف هؤلاء الهمج ولصدهم، ونحن نناشد باخلاص عظيم جلالتكم باسم الرب يسوع المسيح، الصانع لعقيدتنا المسيحية، مع التوسل الأعظم دقة، وبوساطة التدبر الحكيم، بأن تتخذوا الاحتياطات من أجل وقاية أنفسكم ومملكتكم، التي أدعو الرب أن يبقيها مزدهرة، وأن تعدوا بأسرع وقت ممكن قوة كاملة من الفرسان الشجعان والجنود، مع تجهيزات جيدة من السلاح، وهذا ما نرجوكم من أجله، بحق دم المسيح الذي سفك من أجلنا، وبحق روابط القرابة التي تربطنا.

وعليهم أن يعدوا أنفسهم للقتال بشجاعة وبحكمة، بالاتحاد معنا، في سبيل حرية المسيحية، وهكذا إنه باتحاد قواتنا ضد هؤلاء الأعداء، الذين ينوون الآن دخول حدود ألمانيا، التي هي الباب إلى العالم المسيحي، من الممكن الحصول على النصر من أجل كرامة وشهرة رب الحشود، ولعله يرضي جلالتكم، أن لاتمروا بهذه القضايا، من دون تقدير، أو تأخير منحها اهتمامكم، لأنهم —لاسمح الرب— إذا ماغزوا الأراضي الألمانية، ولم يواجهوا اعتراض، فإن بقية العالم سوف يشعر بصوت العاصفة، التي هي مقبلة على الهبوب، والتي نعتقد أنها قامت بقضاء من الرب، لأن العالم ملوث بعدوى مختلف الذنوب، بحكم أن الإحسان قد بدأ يصبح أكثر برودة في كثير ممن ينبغي أن يبشروا بالإيمان وأن يرفعوا

شأنه، وسيرتهم الفاسدة قد لوثت العالم بالربا، وبمختلف أنواع السيمونية والطموح.

ولعله يرضي —بناء عليه— جلالتكم، أن تتجهزوا لهذه الطوارىء، وفي الوقت الذي يقوم فيه هؤلاء الأعداء لنا جميعاً في صبّ جام غضبهم في البلدان المجاورة، قم بموجب نصائحكم الحكيمة، فاعملوا الاستعدادات لمقاومتهم، لأنهم غادروا بلادهم، دون الاهتمام بأية مخاطر على حياتهم، مع النية (لاسمح الرب بتنفيذها) باخضاع جميع الغرب، وتدمير الإيمان بالمسيح واجتثاث اسمه، وبسبب الانتصارات غير المتوقعة، التي حصلوا عليها حتى الآن —بإذن من الرب— وصلوا إلى حالة من الخيلاء والجنون، أنهم باتوا يعدون أنفسهم قد حصلوا على ملكية جميع ممالك العالم، ويمكنهم اخضاع، وربط الملوك والأمراء الساجدين لهم كما يريدون، وحسبما يشاءون في خدمتهم الشريرة.

هذا ونحن نأمل بمولانا يسوع المسيح، الذي تحت قيادته وتوجيهه، حررنا حتى الآن أنفسنا من أعدائنا، وانتصرنا عليهم، بأن هؤلاء الذين تدفقوا من مناطق تارتاروس، سوف يجدون فخارهم قد أذل، بعد تجريب قوة الغرب، ومن ثم أن يجري صدّهم عائدين إلى بلادهم في تارتاروس، وأن لايعودوا قادرين على التبجح بأنهم جالوا بكل وقاحة خلال عدد كبير من البلدان، وأخضعوا كثيراً من الأمم، واقترفوا كثيراً جداً من الشرور، وذلك عندما اقتادهم قدرهم الذين لم يحتاطوا له، أو بالحري عندما استدرجهم الشيطان نفسه للموت، أمام النسور المنتصرة لإمبراطوريتنا الأوروبية القوية.

وعندما تنهض ألمانيا بغضب وحماسة إلى القتال، وكذلك فرنسا، التي هي أم الفروسية وحاضنتها، وكذلك اسبانيا المقاتلة والشجاعة، مع انكلترا الخصبة ورجالها البواسل، وهي محمية بأسطولها، وألمانيا المليئة بالمحاربين الشجعان، وداشيا البحرية، وإيطاليا الشرسة غير المدجنة،

وبيرغندي التي لم تعرف السلام قط، وأبوليا التي لاتعرف الراحة والاستقرار، مع جزر القرصان والتي لم تقهر، مثل جزر الإغريق،والبحر الأدرياتيكي، وبحر تيرين Tyrrhene, وكريت، وقبرص، وصقلية، مع الجزر والمناطق المجاورة للمحيط، وكذلك عندما تنهض ايرلندا الدموية، مع ويلز النشيطة، وسكوتلندا المحاطة بالبحيرات، والنروج الثلجية، وكل منطقة فخمة ومشهورة، قائمة تحت النجم الملكي للغرب، فعندما يرسل هؤلاء نخبهم مزينين بشعار الصليب المانح للحياة، الذي يسير أمامهم، وقتها لن يصاب بالرعب والقنوط فقط الرعايا المتمردين، بل أيضاً الشياطين المعارضين. صدر أثناء تراجعنا، بعد استسلام فيانزا وإخلائها من السكان، في اليوم الثالث من تموز.

نشر الرسالة المتقدمة

وجرت كتابة رسائل لها المحتوى نفسه، مع تغيير بالعناوين الرئيسية فقط، وقليل من الكلمات في داخلها، من قبل الامبراطور المدافع المواظب عن الصالح العام، لأنه أضاف الكلمات التالية في رسالته إلى الملك الفرنسي، حيث أثار عواطفه بشكل مؤثر حيث قال: «نحن علاوة على ذلك مندهشون —عارفون بحكمة الفرنسيين— كيف أنكم لم تتنبهوا بدقة أكبر لملاحظة الدهاء البابوي، ونهمه أكثر من الآخرين، ذلك أنه بمطامحه التي لاتعرف الحدود، هو عازم الآن على اخضاع جميع الممالك المسيحية إليه، منطلقاً من بادرة وضعه تحت قدميه تاج انكلترا، وقد تجرأ الآن بطيش كبير، وبوقاحة يفكر باخضاع جلالة الامبراطور وجعله رهن شارته».

انتشار الشكوك ورعايتها

ملأت الطبيعة المدهشة لهذه الظروف أوروبا كلها، بالعجب

والتسـاؤل، وانتشر ذلك إلى البلدان الاسلاميـة وانبعثت مواقف مختلفـة بين كثيرين، ورعت مختلف الشعـوب آراء متبـاينة حـول هذه القضـايا، فقد كان هناك بعض من قال بأن الامبراطور، اخترع على عهدته، وتآمر ضـاغطاً بحكاية التتـار هذه، وأنه بهذه الرسالـة البارعـة أراد أن يغلف جرائمـه الشائنة ويغطيها، وأنه كـان بمطامحه الجشعة مثله مثل الشيطان، أو المسيح الدجال، يقوم بالتآمـر ضد ملكيات العالم كله، في سبيل تدمير الإيمان المسيحي تدميراً كاملاً.

وقد تبرهن أيضـاً أن الرسالة تحتـوي على أكاذيب، لأنه قـد ورد فيها بأن هذا العـرق التتـاري غير المعـروف، قـد تدفـق من المناطق الجنوبيـة للعـالم، الواقعة في الإقليـم الحار، وهذا زيف واضح لأننا لم نسمع بأنهم عبروا خلال البلدان الجنوبية، لابل ولاحتى من خلال البلدان الشرقية، إضـافـة إلى هذا لقـد تشككوا بأن الخطط السرية، والإجـراءات التي لاأسـاس لها، وكثير من مـؤامـرات هؤلاء التتـار كـانت تمامـاً من الاقتراحـات الامبراطورية، لأنهم يخفـون طـريقتـه بالكلام، وتفـاوت تجهيـزاتهم، وأنه إذا مـا اتخذ أحـدهم أسيراً، لايمكن ولابطريقـة من الطرق استخراج معلومات عن خططهم من الأسير، ولا حتى بأي نوع من أنواع العذاب تعرض لها، وبما أنه هناك سبعـة أقاليم في الدنيا كلها، وهي: إقليم الهنـود، وإقليم الأثيـوبيين أو المغـاربة، وإقليم المصريين، وإقليم المقادسـة، وإقليم اليونانيين، وإقليم الرومـان، وإقليم الفرنسيين، وليس هناك من مكان بعيـد في جميـع أرجـاء المسكونة من العـالم،لم يجد التجّار طريقاً إليه، كما قال الشاعر:

إلى الهند النائية يجد التاجر طريقه

فـأين مثـل هؤلاء النـاس، الذيـن أعـــدادهم كبيرة إلى هـذا الحد، ومـابرحوا حتى الآن جـالسين مخفيين؟ ولماذا هناك الآن مثل هذا المكر، والتـآمـر السري فيما بينهم؟ وهناك —كما قـالـوا— الهيركـانيين -Hyr

canians والسكيـزيين، المتعطشين دوماً إلى الدمـاء البشرية، والذين يسكنون المناطق الجبليــة والوعــرة في الشمال، والذين يمارسـون حيــاة حيـوانات متوحشـة، ويعبدون آلهة الجبـال في أيام معينة، وهؤلاء الناس قاموا بوسـاطة دسائس الامبراطور، مع جيرانهم الكومان، الذين دخلوا معهم بتحـالف، فشنوا الحرب على ملـك هنغـاريا، وعلى بعض النبـلاء الآخـرين، في سبيل أنهم بإزعـاج ذلك الملك ومضايقتـه، يمكن أن يفـر ليضع نفسه تحت جناحي الامبراطور من أجل الحماية، ويقدم له الولاء، لأنه قـدم إليـه المساعـدة، وبما أن هذه الأشيـاء قد نفـذت، فإنها مـا أن عملت حتى تراجعت قوى الأعـداء، لكن لاسمح الرب أن تكون مثل هذه الشرور الكثيرة قد تآمر على صنعها إنسان واحد. »

البابا يحض الأساقفة على ازدراء نصيحة الإمبراطور ومن ثم القدوم إلى المجمع

أعيق في هذه الآونة، بسبب حوادث غير موائمة، السيد جيمس أوف برانستي Praeneste, الذي كــان لبعض الوقت نـائبـاً بــابوياً في فـرنســا والسيـد أوتو كــاردينال وشماس في Carcere Tulliano, وبعد ذلك نائباً بابوياً في الدانمارك ومن بعد هذا في انكلترا، وغريغوري أوف رومانا Romagna, الذي كان قـد أرسل لتوه بمثــابة نائب بابوي إلى الجنويين ليحللهـم من ذنوبهم إذا مــا أطاعـوه، وتأخــروا في جنوى، وكانـوا يتطلعون إلى أسطول لأنفسهم، وكان هنـاك أيضاً معهم عدد كبير من رؤساء الأسـاقفة، والأساقفة، ورعـاة الديرة، الذين كانوا يخافـون من الإبحـار، بسبب تهديـدات الامبراطور، وقـد تلقـوا بشكل متـواصل رسـائل مـواساة ورسـلاً من البـابا، وجـرى في الوقت نفسـه تحريضهم على الابحـار، وأن يسيروا من دون إعـاقـة من أجل حضـور المجمع، لابـل جــــرى حثهـم بإصرار على ازدراء تهديـدات السلطات العلمانية، وأن يكون استعدادهم أكبر لإطاعة والدهم الروحي.

ثم إنه تقـديراً لمبلغ كبير من المال دفعـه هؤلاء الأسـاقفـة، بناء على اتفاقيـة عقدت بينهم وبين الجنويين، يتوجب على أسـاسها على الجنويين اقتيـادهم جميعـاً، أي النواب البـابويين والأسـاقفـة، وحـواشيهم، وهم متحـررين من الخسارة ومن الأذى إلى البـلاط الروماني، حتى ولو كـان ذلك ضد مـوافقة الامبراطور، وعندمـا كانوا عـاقدين لمناقشـات طويلة ودقيقة، حـول هذه القضايا، وعندمـا كان بعضهم في وضع غير المتـأكد حول ماهو الأسلم والأعقل لفعله، أرسل البابا رسالة إليهم، أنه سوف —من دون تلكؤ— يرسـل إليهم مسـاعـدة قـوية وفعـالة على شكل أسطول ليلتقي بهم في البحـر، لدى مغـادرتهم الميناء، وذلـك ليتـولى قيادتهم وحمايتهم، بشكل لاتكون فيه قوى الأعداء قادرة على اعتراضهم بأي شكـل من الأشكال، ولاحتى الامبراطـور نفسـه، الذي أوكـل به صـاحب القـداسة وعهـد إلى جهنم وإلى الشيطان، بحكم أنه مـوضـوع تحت حـرمـانات وتكفيرات مضـاعفـة، وبرسـالة البـابا المقـدسـة هذه وبمـواساته، تحمسـوا وصاروا على استعـداد لتحمل أي خطر، حتى لو كان الموت نفسه.

الامبراطور يسأل الأساقفة الارتحال إلى المجمع من خلال أراضيه

وعندما علم الامبراطور بهذه الرسالة، تفهم بشكل واضح وأدرك أن البـابا مصرّ تمام الإصرار على السعي لإذلالـه، وأنه كـان يعمل على جمع الأسـاقفـة الذين لن يقفـوا بأي حـال من الأحـوال ضـد إرادته، ولهذا السبب، ولأنه أخـذ يشعـر بمخـاوف كبيرة على نفسـه أخبرهم بأنهم يستطيعـون السفـر مـن خـلال أراضيـه، من أجـل أن يعلمـوا تمامـاً بالامتيازات التي وضع فيها ثقته، ولكي لايجري فرضهم، أو أن تفرض عليهم تقارير زائفـة، رجاهم بعدم الابحار بشكل مفـاجىء نحو البلاط الرومـاني من دون التأكـد من وجهـات نظره، وبناء عليـه أرسل إليهم سفـراء خاصين، عندمـا كانوا قـد استعدوا للابحـار، وبلطف وتواضع

أخبرهم أن بإمكانهم الجواز خلال جميع الأراضي التي هي تحت حكمه، بسلام كامل، وأمان تام، شريطة أن لايسافروا بالبحر، أو على طول شاطىء، وطلب منهم التيقن بأن ما من واحد من رعيته سوف يزعجهم أثناء رحلتهم، وقال لهم، بأنهم إذا كانوا غير واثقين بوعوده الامبراطورية، ماعليهم سوى إعداد شكل من أشكال الضمانة، ووعدهم بالالتزام بشروطها بكل تأكيد، والالتزام بجميع الشروط، من جميع الجوانب، وذلك وفقاً لما سوف يكتبونه، كما أنه أعلن أيضاً، أنه بعد قيامه بشرح قضيته شرحاً وافياً إليهم بكلمات الفم، وبعد اخبارهم بجميع خصوصياتها بالتفصيل، سوف يعهد بكل ثقة واخلاص بأن يحكم عليها بعد فحصها، ومن ثم تسويتها من قبل المجمع، ووعد بالخضوع إلى القرار المستقيم لمثل هذا العدد الكبير من الآباء المقدسين، وهكذا قام بوسائل الاقناع، وبالتوسلات، وبالأوامر، ورجاهم بوساطة جميع الالتماسات الممكنة لأن يكونوا نوابه، والمحامين عنه، والقضاة في هذه القضية، وجاء ذلك متوافقاً مع قول الشاعر:

بمزيج من الأوامر، والوعود، والأدعية

ظهر المولى على الفور وظهرت التضرعات

وعلاوة على ذلك اشتكى بمرارة حول العنف غير المحدود لاضطهاد البابا له، إلى حد أنه أثار الذين استمعوا إليه إلى درجة البكاء، ذاكراً بأن البابا قد عمل منه بوسائطه أكثر الهراطقة شروراً وأنه عدو حاد ومكشوف للإيمان المسيحي، مع أنه لم يدن بأنه كذلك، كما أنه لم يعترف بنفسه بذلك، كما أنه تسبب بحرمانه كنسياً في بلدان متنوعة، وشوّه سمعته بمختلف الوسائل التي كان بإمكانه ابداعها، وقد شوّه اسمه وسمعته بشكل لايمكن إصلاحه، وهذا أمر ما من شيء يمكن أن يكون أكثر ضرراً منه، وكان يبذل قصارى جهده ليتولى إذلاله، وقال: «فلقد قام مؤخراً بعدما جرت تسوية، واتفاق بشكل عام من طرفه ومن

جـانبـه، بوجوب عقـد مجمع، فيـه كنا مستعـدين لشرح قضيتنا من على الجانبين، ومن ثم الالتـزام بالقرار العـام للمجمع، غير أنه غيّــر بطيش صيغة الاتفاق المتقدم الذكـر والاجتماع، ووجّه الدعوة إلى جميع الأعداء المكشـوفين لـلامبراطورية، الذين كـانـوا مستعـدين للحـرب أكثـر من استعـدادهم للسلم، وجرى إرسـال رجال دين ورجـال علمانيين —كما هو واضـح من فحـوى رسـائلي— إلى ملك انكلترا، وإلى الأمـراء الآخرين، التي فيهـا كشفت بكل تأكيد الشرور الخفية، والمصائـد الخبيثة للبـابـا، وفي تلك الرسـائل حـذرتهم أنهم إذا كـانوا يقـدرون أنفسهم وممتلكاتهم، أن لايسمحوا لأساقفتهم بـالجواز خلال ممتلكاتي»، وأضاف الامبراطور أيضـاً، كما قال في أمـاكن أخـرى، وكما ذكر في رسـائله، أنه سوف يكون خطراً، ومضاداً للمنطق العهـدة بمثل هذه القضايا الصعبة للبـابا الذي هو عدوه المكشـوف، وكان الذين اتفقـوا بآرائهم معه، قـد بدوا أنهم بالحري متآمـرين يستهدفون اخضاع الامبرطورية المقـدسة، لا أن يكونوا حكامـاً بالعـدل، وهكذا عهـد بالقضية إلى محكمـة منحـازة، القضاة فيها جاهلون بالسبب الأساسي للخلاف، وبظروف القضية.

الأسباب التي قدّمها الإمبراطور إلى الأساقفة حول عدم حضوره

وبناء عليه التمس الامبراطور بحـرارة من الأساقفة للقـدوم والعبور بسلام خـلال أراضيه حتى يكونوا متعرفين تمامـاً بقضيته، ولكي يتمكن من إخبـارهم بجميع الظروف الخفية للقضيـة، لأنه أعلن أنه لايستطيع —بأي حال من الأحـوال— القدوم إليهم منه شخصياً، بسبب حـاجته إلى المال، الذي أنفق مبـالغ كبيرة/أثناء الحصـار الطويل لفيـانزا، وأيضـاً بسبب قضايا أخرى، القضية الأساسية بينها مرتبطة بالجيش الذي يقوده ابنه، والذي كان مشغولاً آنذاك ضد التتـار، وقضايا أخرى، لابدّ له من إبقـائها سراً، وكـذلك بسبب العصـاة الجنويين، الذين لم يختر الوصـول إليهم إلا بقوة كبيرة.

النواب البابويون يرفضون الذهاب إلى المجمع من خلال أراضيه

وتشجع الأساقفة —على كل حال— بوعود النواب البابويين، وبرسائل المواساة البابوية المتوالية، التي وعد فيها بإرسال مساعدة سريعة ومؤثرة تلقاهم في البحر، ولذلك رفضوا أن يتخلوا، ولابأي شكل من الأشكال، عن نيتهم المقترحة، ذلك أنهم قالوا: «لايمكن الاعتماد ولا الوثوق بالكلام التافه لرجل محروم كنسياً»، وبناء عليه رفض الأساقفة نصيحة الامبراطور، ومطالبه، ووضعوا ثقتهم بتعداد الجنويين، الذين كانوا مجربين في فن القتال البحري، واستخفوا بتهديدات الامبراطور وبقدراته، وأقلعوا على ظهور سفنهم وسار الجنويون أمامهم، وانخرطوا بتفاخرات كبيرة، وتبجحوا قائلين بأن قوى الذين من الممكن أن يتصدوا لهم، لم تكن مرعبة لهم، ولا بأي حال من الأحوال، وقالوا عن الأساقفة وعن الناس المتعلمين، بأنهم جبناء، ورعاديد، لأن تفاخرهم كان أكبر من قوتهم، وعندما كانت غلايينهم وسفنهم مصفوفة بشكل نظامي، شقوا طريقهم خلال البحر التيراني Tyrrhene, وذلك في رحلتهم نحو الشرق، وسط صراخ وضجيج البحارة، وأصوات الأبواق.

الإمبراطور يأمر باعتقال الأساقفة

وعندما علم الامبراطور بهذه القضية، غضب لأنه وجد أنه قد استخف به، وأن انذاراته والتماساته قد رفضت سواء،وبناء عليه بعث إلى ابنه هنري، الذي اعتاد على أن يدعوه بابنه الطبيعي، والذي إليه عهد بمهمة حراسة البحر، و السواحل البحرية، مع قوة بحرية، وأمره باعتراض جواز الأساقفة، وأن يعتقلهم من دون خوف وهم مسافرون، أو أن يغرقهم، أو أن يقتلهم.

اعتقال النواب البابويين والأساقفة

ثم إن هنري المذكور، أرسل في طاعة لأوامر أبيه، عشرين غليوناً جدداً، وقد بنيوا بقوة، وكانوا مجهزين بشكل جيد برجال مسلحين، تحت إمرة ستولليوس Stollius, وكان ملاحاً بارعاً جداً، وكلفه باعتراض الجنويين، الذين كانوا يقودون الأساقفة بثقة واطمئنان، ثم أعقب ذلك نشوب قتال عنيف ودموي في البحر، بين البيازنه الذين كان يقودهم هنري شخصياً مع ستولليوس المتقدم الذكر، الذي انقض كشهاب عاصف وانخرط بالقتال، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر الجنويين، وقد لحقت الهزيمة بالجنويين، ووقع الأساقفة والنواب البابويون بالأسر، باستثناء بعضهم الذين قتلوا أو غرقوا، وكان من بين الجميع رئيس أساقفة فايسنزا Vicenza وكثيرين، عددهم كبير حتى نذكرهم، وكان من بين رعاة الديرة راعي دير سافيني Savigny, فقد نجا مع شيء من الصعوبة حراً، ودون أن يصاب بأذى، بوساطة مساعدة جون أوف لكسنغتون Lexington, وهو أخوه، وكان فارساً شجاعاً جداً، وكان أيضاً رسولاً من ملك انكلترا، وقد حصلنا على معلومات واضحة عن هذه الحادثة التعيسة من خلال الرسالة التالية، ومن خلال تقرير عام يحمل بينة على صدقها.

رسالة الإمبراطور حول الاستيلاء على مدينة فيانزا وحول أسر الأساقفة في البحر

وإثر وقوع الأساقفة، والنواب البابويين بالأسر ومعهم أدلائهم الجنويين، حملوا وأحضروا أمام الامبراطور الذي قام على الفور فكتب إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين كما يلي:

من فردريك، الامبراطور، إلى ملك انكلترا، صحة وعواطف مخلصة:

بمشاعر سارة وعواطف مبتهجة تسلمنا رسائلكم ورسلكم الذين بعثت بهم إلينا، وبعناية سمعناهم وفهمنا منهم، وكذلك بالنسبة

للرسائل، والشي نفسه بالنسبة لما أوصله الرسل إلينا بشكل شفوي، من قبلكم، والآن إنه بالنسبة لكل واحد من الرسل، ولهم جميعاً، وللرسائل كلها التي بعثت بها بوساطتهم، سوف نقدم إليكم أجوبة كاملة عبر موثقنا الأمين والمحبوب كثيراً لدينا المعلم وولتر دي أوكرا Ocra, الذي إليه يمكنكم أن تعطوا ثقة كاملة، مثل الذي تعطونا إياه شخصياً، في كل شيء هو سوف يخبركم به شفوياً بإسمنا، وإليه قد أعطينا سلطات كاملة للتباحث في القضية، التي من أجلها جاء الرسل الذين تقدم ذكرهم، إلينا، وأن يعمل على إنهائها، وفقاً للصيغة التي أعطيت إليه من قبلنا.

بالاضافة إلى هذا، إنك في الوقت الذي تبتهج فيه معنا بسبب نجاحاتنا، وفي إذلالنا لرعايانا المتمردين، عسى أن يكون ذلك مرعباً ومنذراً للآخرين، نحن نبيح إليكم أخباراً مرضية، بأن مَدينة فيانزا، التي لم تضع ثقتها باستحقاقاتها، بل في أسوارها، وبمواءمة فصل الشتاء لها، فتجرأت على الثورة علينا، وأظهرت معارضة لقواتنا، إنما مع عودة الربيع، كانت تلك المدينة قد تعرضت إلى كثير من الأذى بوساطة حملات وقذائف مجانيقنا، وقد تساقطت الأسوار، ودخل لاغومونا بوساطة أنفاق وممرات إلى داخل المدينة، وأعقب ذلك قتالاً يداً بيد بين سكان المدينة وجنودنا، وعندما وجدوا الآن أنفسهم مضطرين —بسبب ماتعرضوا له من تهديدات— لتعريض أجسادهم لسيوفنا، تشاوروا بعقلانية حول سلامتهم لأن هزيمتهم هددتهم بدمار محيق، لذلك شرعوا بحكم الضرورة يطلبون رحمتنا، وفي يوم الأحد الخامس عشر من نيسان استسلموا بأنفسهم لإرادتنا، وألقوا بأنفسهم وبمدينتهم تحت رحمتنا، وأقسموا يمين الولاء إلينا، وتخلوا عن جميع الأيمان غير القانونية التي كانوا قد أقسموها.

ولدى خضوعهم لرحمتنا، التي هي رفيق دائم للامبراطورية، وحكم،

صاحب حكم عادل، قهرنا مشاعر المنتصر، وأقنعنا أنفسنا بالتعامل برحمة مع المغلوبين، كما أننا فكرنا أن نصرنا سوف يكون نصراً أكثر مجداً، بالعطف على هؤلاء الذي عادوا إلينا ثانية، بدلاً من الانتقام منهم في وضعهم الكئيب، وعددنا أنه نوع من أنواع الانتقام، أن نعفو عن المضار، وذلك في الوقت الذي كان في مقدورنا الانتقام لهم بقسوة، وهكذا قمنا بكرم بالعفو عن جرائمهم، مع أنهم كانوا لايستحقون ذلك، وحللنا جميع الذين كانوا مدانين بالخيانة ضدنا، وبعدما أصلحنا أوضاع المواطنين وأوضاع مدينتهم، تحت سلطتنا، وسلطة الامبراطورية (أكثر من ذلك ما من شيء أعظم سروراً، أو يستحق أكثر) وفقاً لما تسمح به أوضاع الأمور وتتطلبه، صرفنا انتباهنا نحو إفراغ منطقة بولونا Bologna من السكان، ووقتها حدث لسوء حظهم، أن حشداً من الأساقفة مع أسقف برانستي، وأوتو أوف ثورونجيا، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان، والذين احتشدوا من مختلف البلدان، وقد قدموا إلى جنوى لمعارضة إجراءاتنا، وقد التحق بهم في هذا المكان غريغوري أوف رومانا، الذي أرسل لمرافقتهم، ولكي يكونوا مرتبطين ببعضهم بعضاً بقوة أكبر، وعقدوا اتفاقاً مع الجنويين العصاة علينا، ومع بعض الناس من المملكة الفرنسية، و قد حشدوا قوة بحرية كبيرة، وجعلوا رجال عصاباتهم يسلحون أنفسهم، واتفقوا معهم على الذهاب إلى البابا، من أجل زيادة الخلاف.

وفي سبيل أن نعيق تقدمهم، وأن نمنع وصولهم، تدبرنا احتشاد أسطولنا في بيزا، ذلك أنه كان قد استعد قبل بعض الوقت في الماضي، ووضعناه تحت إمرة ستولليوس المنتصر، وكان اسطولنا هذا مشحوناً من قبل رعايانا المخلصين، وقد علم مسبقاً بأخبار تحركاتهم، فجرى إرساله إلى الأماكن والموانىء التي كان لابد لهم من المرور بها، حتى في أعماق البحار، لأنها قائمة على طريقهم وكانوا مرغمين على الابحار

والمرور بها في طريقهم، وكانت الأوامر الصادرة لأسطولنا هي اعتراضهم بالقوة، وعند ذلك هاجم قائدنا المذكور غلايينهم بغلايينا، وبالرب ذي القدرات الكلية، الذي رأى وقاتل من عليين، والذي يقضي بين الصح والخطأ، فهو قد رأى طرائقهم الشريرة، وفساد قلوبهم وبفضله الرباني سلمنا هؤلاء النواب البابويين والأساقفة، وأوقعهم مكتوفين في قبضتنا، فبعدما جرى اغراق ثلاثة من غلايينهم، مع كل شيء كان على ظهورهم، وبعدما خسروا حوالي الألفين من الرجال من دون أمل بالعودة، جرى قهر اثنين وعشرين غليوناً —بعون الرب وحكمته— بوساطة غلايينا، وبعد ايقاع مذبحة كبيرة بين بحارتهم، جرى أسر الجميع، مع ممتلكات كل واحد على ظهور السفن، وكان في هذه الغلايين النواب البابويين الثلاثة المتقدم ذكرهم، مع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الديرة، وعدد كبير آخر من القساوسة، وذلك إلى جانب رسل، ونواب أساقفة، حيث وصل عددهم إلى حوالي المائة، مع سفارات من المدن اللومباردية العاصية، وتألف الذين كانوا ذاهبين إلى المجمع المذكور من أربعة آلاف جنوي، إلى جانب الأشخاص الخاصين والمنتخبين من جنوى، والذين تولوا قيادة الغلايين، ومرافقة الأساقفة، بقصد أخذهم من جنوى وإعادتهم إليها، كما جرى لسوء الحظ الاتفاق بينهم، ووقع هؤلاء جميعاً أسرى بين أيدينا، مع أسقف برانستي، الذي غالباً ما أثار كراهية الرئيس ضدنا.

ويتوجب على هذا الرجل، الذي يحمل شكل ذئب، تحت المظهر الخارجي لشاة، التوقف عن الاعتقاد بأنه يحمل الرب في قلبه، لأننا نعتقد أن قضاء الرب الخاص هو الذي وقع عليه، وعليه أن يعرف بأن الرب معنا، وهو جالس على عرشه ليحكم بين الخير والشر، فهو قد قضى بأن لاتحكم آلية العالم من قبل رجال الدين فقط، بل من قبل الحكام ورجال الدين معاً، وعلينا —بناء عليه— بما أن الرب قد كشف

خططه لنا من السماء، وحوّل كثيراً من الأماكن الوعرة إلى أماكن سهلة، أن نحـاول تجنب عـرق الحرب، وغبـار الصيف، وأن نوجـه خطانا، وتفكيرنا، واهتمامـاتنا نحـوه، وهو الـذي منحنا المزيد من زيادة السرور والمجـد، لنا وللحكام الآخرين، ونحـن نهنىء الأمراء الآخـرين، وأنت بشكل خاص، لأنك كنت مسهماً في نجاحاتنا هذه المتقدمة الذكر، والتي نرغب بوحـدة المشاعـر التي تجمعنا، في أن تشـارك في واقعة أية حـادثة حسن حظ في المستقبل. صدر في فيانزا» إلخ، إلخ.

كيف جرى حمل الأساقفة إلى نابل للسجن فيها

وأرسلت رسـائل بهذا المحتـوى إلى الأمـراء الآخـرين، بغيـة منحهم السرور، لكنهم لم يكونوا جميعاً مسرورين بالذي حوته، كما قـال الشاعر الحكيم:

مامن أحد سوف يمتلك

الفخار الذي نما من الجريمة

وبناء عليـه، جـرى —بناء على أوامـر الامبراطور— حمل الأسـاقفـة وإبعادهـم بالبحـر، وبعد رحلة لمدة ثلاثة أسـابيع تقريبـاً، جلبوا إلى نابل Naples في أبوليـا، حيث أودعـوا في سجن أمين، في قلعـة كـانت محاطة بالمياه، قرب تلك البلدة، هذا ولم يشعـروا جميعاً بمصائب السجن في الدرجـة نفسها،وكـانت أحـوال أسقف برانستي تعيسة جـداً، مع أن المرض، أو الضعف الشـديد قـد استبـد بهم جميعـاً، لأنهم أثناء الرحلة جلسـوا مصفدين، ومضغـوطين مع بعضهم في أكـوام، وترافق هذا مع حر شديد لايحتمل نزل بهم، وكان الذباب يتطاير من حولهم، ويلدغهم مثل لدغات العقارب، فلقـد سحلوا على طريق للشهادة طويل، وجرى تعـذيبهم بالجوع والعطش، وكانوا عـرضة للإهانات والازعـاج حسب رغبات ملّاحي القرصان المعادين، وقد تحملوا هذا كله بحكم طاعتهم،

ولذلك بدا السجن بالنسبة لهم مكاناً للراحة، مع أنه لم يقدم لهم أي نوع منها، ونتيجة لـذلك أخذوا يتلاشون، ولاسيما الأكثر ضعفاً بينهم، فقد هلكوا تحت مختلف الأمـراض، ولفظ بعـض رجـال الدين، وعـدد كبير آخر أرواحهم التعيسـة، وغادروا تعاسـات هذه الحياة إلى الرب بعـدما حصلوا على رمــز الشهـادة، وبعـد وقت قصير أيضــاً، عبر أسقف برانستي،في طاعـة منه إلى البـابـا حتى الموت، من هذا العـالم الشرير إلى مكان للراحة.

إرسال هنري لمساعدة أخيه كونراد ضدّ التتار

وبعدما توصل الامبراطور —بعون الرب وإذنه— إلى تحقيق غرضه، أرسل ابنه هنري، الذي كما ذكـرنا قد تغلب على الأسـاقفة ومـرافقيهم، للالتحـاق بأخيـه كـونراد، الذي كـان قـد استعــد مع جيش لايحصى تعـداده، قـد حشـد من مختلف مقـاطعـات الامبراطورية، ليضبط عنف التتار والكومـان، وفي سبيل أن يواسي الأخوان كل واحـد منهما الآخر، ويسـاعـده، ولكي يحاطا بقوة أكبر، فقـد أخـذ هنري المذكـور، بناء على أوامـر والده، معـه أربعـة آلاف من الفــرسـان، وكتلة كبيرة من الجنود الرجـالة، الذين عندمـا اتحدوا مع الآخـرين الذين أرسلوا لمسـاعـدتهم، شكلوا جيشـاً عملاقـاً، ولدى اكتشـاف الأعداء لهذا هدأت رعـونتهم، وأمكن ضبط شططهم، وأصبحـوا أكثر بـرودة، ذلك أنه وقعت معركـة دمـوية قـرب ضفاف نهر دلفيـوس Delpheos, ليس بعيــــداً عن الدانوب، وبعـدما سقط عـدد كبير من على الجانبين، أمكن صـدّ جيش العـدو، مع أن تعـــداده كـان كبيراً جـداً، لكـن قبل أن يتراجع، وقعت حـادثة، نجمت عن خـداع اليهـود، الذين اعتقـدوا أن أعـداءنا هؤلاء، كـانوا شطراً من الجنس اليهودي، ممن كـان محبـوساً في جبـال القوقـاز، وأنهم على هذا قـدمـوا لمساعـدتهم، في سبيل اخضـاع المسيحيين، ولقـد رأينا أن هذه الشرور العظيمة جديرة بأن نقحم أخبارها في هذا الكتاب.

الشرور الهائلة لليهود

في هذه الآونة، اعتقدت أعداد من اليهود، في القارة، خاصة في المناطق العائدة للامبراطورية بأن هؤلاء التتار والكومان، كانوا شطراً من جنسهم، وهم الذين حبسهم الرب في جبال القوقاز، بناء على أدعية الاسكندر الكبير، وقداجتمعوا بناء على دعوة عامة، في مكان سري، حيث قام واحد منهم، بدا أنه الأكثر حكمة والأعظم نفوذاً بينهم، فخاطبهم كما يلي:

«إخواني، نسل إبراهيم الشهير، وكرم رب السبت، الذين سمح ربنا أدوناي، لأن يعيشوا طويلاً مظلومين تحت حكم المسيحيين، لقد حان الآن الوقت كي نحرر أنفسنا، وأن نقوم بقضاء من الرب بظلمهم بدورنا، في سبيل أن يجري انقاذ بقية بني اسرائيل، لأن إخواننا من أسباط بني اسرائيل، الذين كانوا من قبل محبوسين، قد انطلقوا الآن وتدفقوا لإخضاع العالم كله، ووضعه تحت حكمهم وحكمنا، وبقدر ما كانت معاناتنا الماضية حادة وطويلة، سوف يكون مجدنا أعظم، وهو المجد الذي سوف يصير إلينا، ولذلك دعونا نذهب إلى استقبالهم مع هدايا ثمينة، وأن نتلقاهم بتكريم هو الأعظم، فهم يحتاجون إلى القمح، والخمر، والسلاح».

وسمع الحشد كله كلامه بسرور، وجلبوا على الفور جميع السيوف، والخناجر، والدروع، التي وجدوها معروضة للبيع في أي مكان، وفي سبيل إخفاء خيانتهم، وضعوهم في براميل، ثم إنهم أخبروا المقدمين المسيحيين، الذين كانوا تحت حكمهم، بأن هؤلاء القوم الذين يدعون بشكل عام باسم تتار، كانوا يهوداً، وأنهم لن يشربوا خمرة، ما لم تكن معمولة من قبل يهود، فهذا ما أخبروننا به، ورجونا بحرارة أن نزودهم ببعض الخمرة المعمولة من قبلنا، نحن إخوانهم.

ونحن رغبة منا، في إزالة هؤلاء الأعداء غير البشريين العامين من بيننا، وأن نحرر المسيحيين من طغيان الدماء المحيق بهم، أعددنا حوالي الثلاثين برميلاً مليئين بخمور مسمومة مميتة، حتى تحمل إليهم في أسرع وقت ممكن، ولذلك سمح المسيحيون إلى هؤلاء اليهود الأشرار، بتقديم هذه الهدية الشريرة إلى أعدائهم الأشرار، وحدث أنه بعدما قطع هؤلاء اليهود مسافة طويلة من ألمانيا، وكانوا على وشك عبور أحد الجسور مع براميلهم، طالبهم صاحب الجسر —تبعاً للعادة— بدفع الضريبة مقابل جوازهم، ورد عليه اليهود بصلف، ورفضوا تلبية مطالبه، وقالوا بأنهم كانوا مستخدمين في هذا العمل لصالح الامبراطورية، لابل في الحقيقة لصالح المسيحية كلها، حيث أنهم كانوا مرسلين إلى التتار، بشكل سري لتسميمهم بخمرتهم،وتشكك الحافظ للجسر بتأكيدات اليهود، فأحدث فتحة في أحد البراميل، لكن ما من سائل تدفق منه، وهنا أصبح متأكداً من خيانتهم، فخلع غطاء البرميل، وفتحه بالقوة، فاكتشف أنه كان مملوءاً بالسلاح.

ولدى رؤيته لهذا المشهد، صرخ بصوت مرتفع «عجباً، ماهذه الخيانة التي لم يسمع بمثلها لماذا نسمح لمثل هؤلاء الناس بالعيش بيننا؟»،وعلى الفور قام مع آخرين، جمعتهم دهشتهم من حوله، فكسروا بقية البراميل، وما ان أنجزوا ذلك، حتى وجدوهم مملوئين بسيوف كولونية Cologne, وبخناجر من دون أغمدة، قد صفت وجمعت بشكل مندمج، وهكذا قاموا على الفور بإظهار الخيانة الخفية، والخداع غير الاعتيادي لليهود، الذين اختاروا مساعدة هؤلاء الذين هم أعداء مكشوفين للعالم، والذين كما قيل، كانوا بحاجة ماسة إلى السلاح، أكثر من مساعدة المسيحيين الذين سمحوا لهم بالعيش بينهم، واتصلوا بهم بكل وسيلة من وسائل الاتصال، ولذلك جرى تسليمهم على الفور إلى منفذي العقوبات، من أجل إما أن يوضعوا بسجن أبدي، أو أن يجري

إعدامهم بسيوفهم.

كيف جرى تحليل الناس من عهودهم بحمل الصليب مقابل دفع مبلغ من المال

وجرى في هذه الآونة، في سبيل سلب بلاد انكلترا التعيسة، ونهب ثرواتها، ابداع ألف طريقة، وذلك من قبل الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، الذين كانوا مدعومين بترخيص من قبل البابا، حيث تولوا أثناء وعظهم منح تحليل كامل من جميع الذنوب إلى جميع الذين سوف يحملون الصليب، في سبيل تحرير الأرض المقدسة، وإثر ذلك، وبعد يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، وبعدما أقنعوا كثيرين بحمل الصليب، قاموا بتحليل هؤلاء من تعهدهم، على شرط الاسهام بدفع مبلغ كبير من المال من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وأن يدفع كل واحد، بقدر ماتسمح له إمكاناته، ولكي يجعلوا الانكليز أكثر جاهزية، وأكثر قبولاً بمطالبهم أعلنوا بأن المال سوف يجري إرساله إلى الإيرل رتشارد، وعلاوة على ذلك أروهم رسالة منه، وذلك لكي يقدموا ضمانة أفضل، كما أنهم منحوا بعض الغفرانات إلى رجال مسنين، ومرضى، ونساء، ومعتوهين، وأطفال، ممن حملوا الصليب، أو اقترحوا حمله، وتسلموا المال منهم مسبقاً من أجل هذا الغفران، وعرضوا رسائل توثيقية من الايرل رتشارد تتعلق بهذه القضية، وقد جرى الحصول على هذه الرسائل من البلاط الروماني، وبهذه الطريقة أفرغوا محافظ نقود الانكليز، وجرى الحصول على مبلغ كبير من المال، نظراً للحظوة التي تمتع بها الايرل رتشارد، إنما علينا هنا أن نسأل: من الذي سيكون الحافظ الأمين والموزع لهذا المال؟ ذلك أننا لانعرف.

تثبيت المعلم نيقولا أوف فارنهام في أسقفية درم

وفي التاسع من حزيران، في هذا العام، جرى تثبيت المعلم نيقولا

أوف فـارنهام Farnham الأسقف المنتخب لدرم، وتكريسـه أسقفاً لذلـك الكرسي، في كنيسة القديـس أوسوولد Oswald في غلوستر، وقـد تولى تكريسه وولتر رئيس أساقفة يورك بحضـور الملك والملكة، مع عـدد كبير من الأسـاقفـة ورعـاة الـديرة، لكن فيما يتعلق بالقضية التـي نظر إليها والمتعلقة بتكـريسه للرهبانيـة، والتي أثيرت بين بعض الذين رغبوا في إثارة الخلاف، رفض نيقـولا المذكور المطالبة بأي امتيـاز ليس له حق فيـه، كما أنـه لم يظهـر نفسـه متعجـرفـاً أو متمـرداً، ولذلك جرى أثناء تكريسـه، بمشهد عـام أمام جميع الأساقفـة والنبلاء، وبحضـور مطرانيتـه، أن قـام وولتر رئيس الأسـاقفـة المذكـور، بمهـابة ووضوح بتكريسـه رهبانياً بصـوت مرتفع، وفقاً للعـادة، وكان ذلك كما يلي:

«أنا نيقولا، الأسقف المنتخب لكنيسة درم أعترف بالطاعـة القانونية، والاحترام، والخضـوع لكنيسـة يـورك، وإليك أيها الأب وولتر رئيس أساقفتهـا، وأنا أدون هذا بيدي»، ثـم إنه قام على الفور، بحضـور جميع المحتشدين، فوضع عـلامة الصليب بالحبر على رأس الوثيقة، وناولها إلى رئيس الأساقفة كي يجري حفظها لديه في خزانته.

الموت التعيس للإيرل غيلبرت مارشال

في الوقت الذي كانت فيـه الأيام تتضاعف، وتتـلاعب، وتخدع العالم بوقائع متنوعة، أعدّ الايرل غيلبرت مارشال مع بعض النبلاء الآخرين، نوعـاً من أنواع مبـاريات المبـارزات، مما كـان بعضهم يدعـوه باسم «مغامـرة»، لابل بالحري ينبغي دعوته «سـوء مغامرة»، فقـد جربوا أولاً قـوتهم على رمـايـات قـوس زيار من هارتفـورد، حيث تمكـن بوسـاطة براعتـه في تكتيكات الفروسيـة، من الحصول لنفسـه على الثناء في العلم العسكري، وأعلن الجميع، أنه على الرغم مـن صغر حجم جسـده، قـد نال باستحقاق التميز لنفسه نظراً لشجاعته، وهذا ما كان الايرل المذكور

يهدف نحوه بشكل رئيسي، لأنه كان في المقـام الأول، قد أعدّ للالتحاق بطوائف الكهنـة، حيث قيل بأنه كـــان ضعيفـــاً، وغير بارع في التمارين الحربيـــة، وامتطى أثناء هـذه المبـــارزة على فـــرس أصيل، من الخيـــول الإيطاليـة لم يكن معتـاداً عليـه، وكـان مجهـزاً بدرع جميل، ومحاطاً بكتلة كثيفـة من الجنود، الذين مالبثـوا أن تركوه بعـد ذلك، وتفرقـوا، ينوون الحصول على الربح.

وعندمـا كـان الايرل يسلي نفسـه بتفقـد فـرسـه أثناء عـدوه بسرعـة قصوى، ومن دون التـوقف عن لكز طرفيه بركابيـه الحادين، ليحثه على سرعـة أكبر، ولأن الوضع اقتضى شـد المقود، انقطع المقـود من طرفيـه بشكل مفاجىء مـن عند عقدة الاتصال، وأخـذ الفرس يهز رأسـه نحو الأعلى، فأصابه بضربة قاسية على صـدره، وأكد بعض الذين كانوا هناك من دون تردد، بأن اللجام قـد جرى قطعـه بشكل خياني من قبل بعض الأشخـــاص الحسـودين، من أجـل أن يترك هكذا تحت رحمة فـرســـه، فيمـزق إلى قطع ويقتل، أو على الأقل يمكن أسره من قبل خصومـه كما يرغبون، وعلاوة على ذلك كان قد أصابه الصمم بسبب الضجة، وصار أعمى تقريبـاً، بسبب الحرّ، والغبار، والتعرق، وبات رأسـه مثقلاً بسبب وزن خوذته الثقيلة، ولم يعد من الممكن له السيطرة على حصانه وكبحه، لامن قبله ولا من قبل أي واحد آخر، وبعـد بعض الوقت أغمي عليه، وبدأ يتأرجح في سرجـه، ثم مالبث أن سقط شبـه ميت، وجاء سقـوطه من على ظهـر فرسـه، وإحـدى قدميـه معلقـة بالركاب، وبهذه الطريقـة جرى جره لمسافة ما فوق الحقل، حيث أصيب ببعض الجروح الداخلية، التي سببت موته.

ولقـد هلك في مسـاء السـابع والعشريـن من حـزيران، وسط حـزن عميق وصراخ مرتفع من قبل الذين رأوه في بيت الرهبان في هارتفورد، وقبل أن يلفظ نفسـه الأخير، حيث كـان قـد تلقى قـربان الموت، عمل

طلباً إلى الكنيسة، كنيسة العذراء المباركةفي هارتفورد في سبيل إنقاذ روحه، وجرى بعد ذلك فتح جسده، فوجدوا أن كبده كان أسود وممزقاً من قوة الضربات التي تلقاها، وقد جرى دفن أحشائه في الكنيسة المذكورة، أمام مذبح القديسة مريم، التي إليها عهد بروحه أثناء موته.

وجرى في اليوم التالي حمل جسده —حيث تقدم عليه أخوه، ورروفق من قبل أسرته كلها— إلى لندن ليدفن قرب أبيه، وقتل أثناء المبارزة نفسها أيضاً، واحد من حاشية الايرل اسمه روبرت دي سي Saye, وأيضاً دفنت أحشاؤه مع أحشاء الايرل، وأصيب أيضاً كثير من الفرسان والرجال المسلحين بجراحات قاسية بالرماح أثناء المبارزة نفسها، لأن حسد وغيرة العديد من الأطراف المسؤولة قد حولت الرياضة إلى معركة.

وعانت شؤون الصليب، ومصالح الأرض المقدسة من خسارة كبيرة، بموت الايرل المذكور، لأنه كان قد نوى الانطلاق نحو القدس في الشهر المقبل من دون تقاعس، حيث كان قد جمع مالاً من جميع الذين حملوا الصليب في البلاد، فقد دفع مائتي مارك إلى البابا للحصول على إذنه، وبهذا قلّد التصرف الحكيم للايرل رتشارد.

كيف جبا إثنان من كهنة البابا مالاً من جميع أرجاء انكلترا من أجل استخدامات قداسته

أثناء هذا الوقت كله عندما كان الحظ يلعب بشؤون حشود البشر، استمر شره الرومان ونهمهم ولم يشبع، لأنه بعد مغادرة النائب البابوي، بقي اثنان من كهنة البابا في انكلترا، من أجل القيام بواجبات النائب البابوي، وكان هذان الاثنان هما بطرس الذي كنيته لى روج، وبطرس دي سوبينو Supino, وكانا اثنان لايعرفان التعب في الجباية، وكانا يحملان ترخيصاً بابوياً من أجل استخراج وكالات، وفرض حرمانات

من شراكة المؤمنين، وحرمانات كنسية، ولقد جبيا الأموال بمختلف الطرائق من الكنيسة الانكليزية التعيسة، من أجل —كما قالا— أن تتمكن الكنيسة الرومانية، التي أصيبت إصابات مضاعفة بمختلف الطرق، من استرداد أنفاسها، وأن تتنفس مجدداً بشكل حر، وتصرف بطرس لى روج، المتقدم الذكر، الذي وضع نفسه في مقام فوق الرجل الآخر، وفق طرائق النائب البابوي، وكتب رسائل إلى راعي الدير هذا، وإلى رئيس الرهبان ذاك، وتوجه بالخطاب برسائله دوماً هكذا: «من المعلم بطرس لى روج، الصديق المقرب، والقريب لقداسة البابا، تحيات، إلخ،- إلخ»، واستمر استناداً على هذه الصلاحيات في فرض الوكالات واستخراج الأموال بمختلف طرائق الجباية، وذهب زميله بطرس دي سوبينو إلى ايرلندا، بموجب إذن من الملك، وذلك لصالح البابا، حيث كان يحمل ترخيصاً منه، وبما أنه حصل على المساعدة من السلطة المدنية، قام بطغيان عظيم باستخراج المال من أساقفة تلك الكنيسة، وقدم بعض الذين كانوا معلقين وممنوعين من ممارسة وظائفهم، إلى بطرس المذكور في لندن، لإرضائه بكل ما اختار أن يطلبه، وعاد بطرس سوبينو من ايرلندا في الخريف التالي، وأخذ طريقه إلى روما حاملاً معه ألفاً وخمسمائة مارك، وحقائب سرجه كانت مليئة تماماً.

الملك الفرنسي يعطي مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس

في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، في هذا العام، أعطى الملك الفرنسي، بناء على نصيحة الذين يكرهون مملكة انكلترا، مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس Amphulsus وأضفى في الوقت نفسه، وسط أبهة عظيمة، نطاق الفروسية على أمفولسوس المذكور، كما منحه مرتبة كونتية بواتو، التي كانت كما هو معلوم بموجب الحق هدية الملك الفرنسي الخاصة إلى ملك انكلترا، أو إلى أخيه، كما أنه أوجد في الوقت نفسه عدداً من الفرسان النبلاء لتكريم تنصيب أمفولسوس

المذكور، وبذلك هو قدم قليلاً من التقدير، أو بالحري لاشيء من التقدير إلى إدعاء أو لقب الايرل رتشارد، الذي قاتل باخلاص في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وحرر الأسرى الفرنسيين، ودهش كثيرون إلى حد كبير تجاه أفراد النبالة الفرنسية، التي سمحت بهذا، وبذلك كانوا غير أوفياء، وأعادوا من دون حياء الشر مقابل الخير.

رسالة الإيرل رتشارد الحاوية لرواية عن حجه

وكان في هذه الآونة أصدقاء الايرل رتشارد قلقين حول شؤونه، وقد حصلوا على معلومات وافية عن ذلك في الرسالة التالية التي أرسلت من قبله:

من رتشارد ايرل كورنوول وكونت بواتو إلى النبلاء، وإلى المبجلين والسادة المحبوبين في المسيح ب. B دي ريفر Rivers, وايرل أوف ديفون Devon, وراعي دير بيوليو Beaulieu وروبرت الكاهن، صحة وكل الرغبات الطيبة، مع عواطف مخلصة:

إنه بالنسبة للشدة العظيمة والأسى الذي تعيشه الأرض المقدسة، وبشأن المشكلة الصعبة المتعلقة بإعادتها وتخليصها منذ الفاجعة عند غزة، لقد وصل رجال عقلاء ومجربين وعارفين بالصدق إلى قرب هذه المواضع، ووصلت أخبار من بعيد، إنما يمكن لرسالتنا الحالية أن تكشف سرنا، وبما أن الطريق مفتوح إليكم، فإنها قد تعطي الفرصة لتفاسير خبيثة، لذلك فإن كثيراً من الأشياء سوف يجري إيضاحها فيها، هي الآن نائمة، والكذب يغطي قعر قلبنا.

فمنذ الوقت الذي ابتعد فيه الملوك والممالك عن القدس، ولأنها كانت مقسمة وهي بأيدي متملكين ظالمين وغير عادلين، لقد شعرنا بحزن كبير، ولايمكننا أن نلتزم بالصمت، ولابد لنا من أن نطلق ألسنتنا بشكاوي مريرة، حيث ليس هناك قضية طيبة نشغلهم بها، لأن سيف

الرحمة قــد خـرق روحنا، إلى درجــة أن روحنا لم تعـد قــادرة على أن تستـوعـب ذاتها، لأنه بالفعل منذ بعض الـوقت تحكم الخلاف بالأرض المقدسـة بدلاً من السلام، وحلّ الشقاق مكان الوحـدة، والكراهية محل المحبـة، والعــدل قـد أقصي نهائيـاً، ومن هذه البــذور هناك الكثير من النبـاتات في تلك الأرض، وصـار كثيرون جـامعـون للثمار التي نتجت عنها، وأنا آمـل بأنهم الآن قد اجتثوا، هذا وليس هنـاك بين جميع محبيها واحد يتولى مواساتها، لأن الأخوين التوأمين غير متفقين وهما على صدر أمهما، والذين كان عملهم الدفاع عنها، أصبحوا متشامخين بوفرتهم، وقد أكلوا وتقيأوا هذه المكونات حتى الجذور، وتسببوا بجعل أغصانهم تمتد بالطول وبالعرض، لأن كميات وافـرة من الأشياء الجيدة تنتج مثل هذه الأشيـاء المزعجـة بعد خـلاف متبـادل، ذلك أن تأنيبـات الأب المترأس لكرسي بطرس، نظر إليهـا بعـدم تقدير مطلق، مـع أن الفئة الأقوى قـد بهرت العـالم بشهـرتها، وفي سبيل تهدئـة هذه الفئات المتنازعـة قـد بذلنا جهداً كبيراً، لكن مـازالت خطوات السلام لم تترك أي أثر، بقـدر ما أن أتبـاع الخلاف لم يصبحـوا معتـاديـن على كلمات السـلام، وتمكن الذين لديهم أمـوال بسهــولة من جـذب الآخـرين إليهم مــادامت الأمـوال مـوجودة، لكن عندمـا حلّ وقت صـون اعتـدال أمهم، تركوا صـانعي السلام، واختلقوا مشاغل سرية، ولم يظهروا الاهتمام بجلب المواساة إلى أمهم، ولهذا السبب فإن العــدد الأكبر من الفـرسـان الغــاليين، الذين تعـدادهم تقـريبـاً ضعـف تعـداد المسلمين، قـد انغمسـوا كليـاً وهلكوا بالعادات الشريرة، وتشجع أعـداء الصليب بشكل غير متوقع، حتى أن كتلة صغــيرة منهــم لم تعبأ سوى قليـلاً، أو لاتعبأ بالمرة بالعـدد الكبير منا.

وبسبب هذا الوضع، وجـدنا عندمـا وصلنا أولاً إلى هنا، أن النبـلاء الذين يمكن أن يقـدموا العـون لنا، قد شرعـوا بالمغادرة، وبدا أن انقـاذ

تجعل الجراحات مـن دون وسائل علاجهم، والأسف مـن دون وسائل المواساة، لأننا عندمـا كنا متوقعين لدى وصولنا إلى هنا، القيـام بالتعاون مع بقيـة الصليبيين، ببـذل قصارى جهـدنا، حسبما هو مفـروض علينا، بموجب عهدنا، بالانتقام للاهانات التي لحقت بالصليب من قبل أعداء ذلك الصليب، وبمهاجمة أراضيهم، واحتـلالها بعد ذلك، وإعـادتها بعد ذلك إلى وضع صالـح، رأينا ملك نافار، الذي كـان آنذاك مقدم الجيش ورئيسه، وكـونت بريتاني، ووجدناهما على الـرغم من أنهما كانا على علم مسبق بمـوعد وصـولنا قبل خمسة عشر يومـاً من وصولنا إلى عكا، قـد غادرا مع حشد كبير جداً، وقبـل أن يغادرا، وفي سبيل أن يبدوا أنهما قد عملا شيئاً مـا، عقدا نوعاً من أنواع الهدنـة مع الناصر، صاحب الكرك، وتم الاتفـاق بمــوجب ذلك بوجـوب تخليـه عـن جميع الأسرى الذين أسروا عند غـزة، الذين كـانوا مسجـونين لديه، أو تحت سلطانه، وذلك مع بعض الأراضي المشمـولـة بشروط الهدنة، وكضمانة على ذلك أعطى ابنه وإخوانه رهائن، وأثبت شرطاً هو مهلة أربعين يومـاً من أجل تنفيذ شروط الهدنة، والذي حــدث أنه قبل انقضــاء تلك المدة غــادر الملك المذكور والكونت، دون الاهتمام بالموعـد المتفق عليه، أو بشروط الهدنة، وخــلال تلك المدة، وبالتحــديد عشيــة عيـد القــديس ديونيسيــوس Dionysius، وصلنا إلى عكا، كما كنا قد أخبرناكم من قبل، وقمنا على الفور، بناء على نصيحةعـامة من الجميع، فبعثنا إلى الناصر المذكور، نسأله عما إذا كان سيستطيع مراعـاة الهدنة معنا، وهي الهدنة التي عملها مع الملك المذكـور، وتلقينا جـواباً منه، بأنه على استعـداد لفعل ذلك إذا كان ممكناً، وذلك بسبب احترامه لملك نافار المذكور، مع أنه سوف يربح قليـلاً منهـا، وعلى هذا قمنا بناء على نصيحـة النبــلاء بانتظار استكمال الموعـد المتفق عليـه، لنرى النتيجـة، وعند انتهـاء الموعـد، تلقينا رسـالة أخـرى منه، بأنه لايستطيع بأي شكل من الأشكال الالتـزام بالاتفـاقيـة المتقـدمـة الذكـر، وعند سماعنا بهذا، قمنـا بمـوافقـة من الجميع، بحمل

المتقدمة الذكر، وعند سماعنا بهذا، قمنا بموافقة من الجميع، بحمل أنفسنا إلى يافا، لنتولى، مع جميع الحيطة الممكنة، تحسين أوضاع الأرض المقدسة، التي تدهورت كثيراً للأسباب المتقدمة الذكر.

وقدم إلينا إلى هذا المكان رجل صاحب رتبة وسلطة، من قبل سلطان مصر، وأخبرنا بأن مولاه كان راغباً بالدخول في هدنة معنا، إذا أردنا ذلك، وبعد سماع ماتولى عرضه علينا وفهمنا تماماً لذلك، وإثر طلبنا بكل اخلاص نعمة الرب، قمنا بناء على نصيحة دوق بيرغندي، والكونت ولتر دي بريين، ومقدم الاسبتارية، والنبلاء الآخرين، لابل في الحقيقة الجزء الرئيسي من الجيش، بالموافقة على شروط الهدنة المتقدم ذكرها، مع أنها بدت عند وصولنا قضية صعبة الانجاز، علماً بأنها هدنة تستحق الثناء، وتقدم منافع إلى الأرض المقدسة، لأنها مصدر للبهجة والأمان للناس الفقراء، وللمسافرين، ومفيدة ومقبولة من قبل الطبقة الوسطى من السكان، وصالحة ومشرفة للأغنياء ولرجال الدين.

كما أنه لم يظهر لنا لدى نظرنا إلى الأوضاع المتدهورة للأحداث المحيطة، أننا لايمكننا آنذاك أن نستخدم أنفسنا بشكل نافع أكثر من العمل على تخليص الأسرى التعساء من الأسر، لأنه كان هناك نقص بالرجال والأشياء (مع أننا وحدنا بقينا ومعنا مال من حولنا) وكان من الممكن الإفادة من أيام الهدنة، بتقوية وتحصين المدن والقلاع التي أصبحت مدمرة، في وجه المسلمين وضدهم، ولقد رأينا من الموائم أن نذكر أسماء الأماكن والمناطق التي أعطيت إلينا، بموجب شروط الهدنة، مع أن ذلك قد يكون متعباً لكم، ونحن نفعل ذلك خشية أن يقوم بعضهم بموجب تفسير شرير، فيعزو أعمالنا المجيدة إلى غيرنا، أو أن يقوم بفساد وتآمر بتشويه سماتهم، لأن هناك بعضاً —مع أنهم قلة— قد رفضوا الموافقة على شروط الهدنة، وهذه الشروط هي كما يلي:

إن الأراضي التي أعطيت بناء على شروط الهدنة مع الايرل رتشارد

هي هذه: المنطقة الجبلية لبيروت، مع الأراضي والأجزاء المفصولة العائدة لها، وجميع منطقة السعيد Said مع متعلقاتها، وقلاع: الشقيف، والقرين، والقلعة الجديدة مع متعلقاتهن، واللقية Lekayt واسكندرون، ولبوة Lebet, وبشيت Becheet(?) واللدّ مع متعلقاتهن، وأراضي كل من الجبال والسهول، وقد تخلوا أيضاً عن أراضي بلدة تورون مع متعلقاتها، وطابار Tabar(?)ومتعلقاتها، وقلعة Benaer, وقلاع Amabel, وراما Rama, و Amost, وكذلك قلعة Hybile, الواقعة فيما وراء النهر باتجاه الشرق، مع جميع متعلقاتهم، كما استسلمت قلعتا صفد والناصرة وكذلك جبل الطور، واللجون و Aschalis, وقلعة بيت جبرين مع متعلقاتهم، ومع جميع القرى العائدة إلى بيت اسبتارية القديس يوحنا، وكذلك ماهو معروف أنه عائد إليهم، أي المتعلقات بالقدس وببيت لحم، وكذلك جميع الأرض القائمة على الطريق التي تقود من القدس إلى بيت لحم، ومن القدس إلى لدّ راما، ومن اللد إلى يافا، مع جميع القرى التي توجب أن تكون في أيدي الصليبيين، وجرى أيضاً تسليم مدينة القدس إلى الصليبيين، ومثل ذلك بيت لحم أيضاً، وجميع الأرض التي من حول القدس وجميع القرى، التي جرت تسميتها في شروط الهدنة، وهي القديس لعازر، بيت عنيا، بيت صيدا، و Wissewurch, و Derphat, وبيت عاموس Bethamus, و Bechele, وبيتك Bethic, وعنون Anon,وكوكبي Kokabi, وبيرسامول Bersamul, و Bebrit, و Kikai, وبيت أمي Bethuame, و Bebe, و Kipsa, و Bethit, وحوريب Horeb, و Athacana, و Clepsta, و Tolma, و Argahoga, و Bertapsa, و Bethsaphau, و Tabli, و Sorobooz,(1)

١- لقد تعذر ضبط أسماء هذه المواقع، ولم تذكر المصادر العربية المتوفرة هذه الهدنة بالتفصيل.

وجميع متعلقاتهم، والأرض المسماة في تقسيمات القدس، وما هو معتمد على الطريق الذي هو هناك، حسبما هو موجود ومشروح في الهدنة الكبرى.

وجميع هذه المناطق،والقلاع الموجودة فيها، التي تقدم ذكرها، مسموح للصليبيين القيام بتحصينها أثناء الهدنة، إذا ما رغبوا، ولسوف تجري إعادة النبلاء الأسرى أيضاً مع جميع الأسرى والفرنسيين فهؤلاء سوف يجري إطلاق سراحهم من على الجانبين، وفور الفراغ من إعداد الهدنة المتقدمة الذكر، أخذنا طريقنا إلى عسقلان، ولكي لاتمر الأيام من دون عمل، قمنا بناء على نصيحة جميع مقدمي الصليبيين بالشروع بتحصين قلعة كبيرة هناك، وأرسلنا من ذلك المكان، رسلاً إلى سلطان مصر، لإقناعه باقسام يمين بالتعهد بمراعاة الهدنة المذكورة، إذا مارغب بفعل ذلك، ولكي يرسل في الوقت ذاته الأسرى الذين تقدم ذكرهم، ولقد قام لسبب لانعرفه بحبس رسلنا لديه، دون إعطاء أي جواب، من عيد القديس أندرو حتى يوم الخميس بعد عيد تطهير مريم العذراء (٢-شباط)، غير أنه خلال هذا الوقت، حسبما وجدنا في رسائله قام بناء على نصيحة أعيانه، فأقسم بالمحافظة على الهدنة المذكورة، ولقد بقينا خلال هذا الوقت كله في عسقلان مواظبين على نيتنا في بناء القلعة المتقدمة الذكر، حيث تقدم العمل فيها كثيراً، وذلك بفضل الرب، إلى حد أنه في الوقت الذي نرسل فيه هذه العروض، قد جرى تزيينها، وقد أحيطت كلياً بسور مزدوج، وبأسوار عالية وشرافات، مع أربع أحجار مربعة وأعمدة منحوتة من الرخام، وكل شيء عائد إلى قلعة، ما عدا خندق من حولها، سوف ينتهي بمشيئة الرب، من دون احباط، خلال شهر من عيد الفصح، وهذا لم يعمل لسبب جيد، هو بما أننا لم نكن متأكدين بأن الهدنة سوف تتثبت، رأينا أنه من الأفضل شغل وقتنا في البناء وفي تحصين هذه القلعة، حتى إذا ما خرقت الهدنة بموجب أي

حادث، يمكننا أن نمتلك في التخوم وعند المدخل نفسه لأراضيهم، هذا المكان، الذي كان من قبل تحت حكمهم، ويكون لنا مكاناً حصيناً للالتجاء إليه، إذا ما دعتنا الضرورة إلى التراجع هناك، وكذلك الذين سوف يبقون هناك، لن يكون لديهم مسوغ للخوف من نتيجة الحصار، لأنه صحيح أن المحاصرين يمكنهم أن يقطعوا جميع المساعدات والمؤن ويحولوا دون وصولها إليهم، مع ذلك يمكن لجميع الحاجات الضرورية أن تصل إليهم بالبحر، وفي أيام السلم أيضاً، نحن نعتقد أن هذه القلعة لن تكون من دون فوائدها، بما أنها المفتاح والملجأ في البر والبحر لمملكة القدس، وهي ستكون في الوقت نفسه تخريب وتدمير لمصر وللمناطق الجنوبية من البلاد.

وقمنا بعد هذا في يوم عيد القديس جرجس، بعدما جرى الحلف على مراعاة السلام من الجهتين، وبعدما جرى تثبيت الهدنة، فاستقبلنا —وفقاً لشروط الهدنة— جميع الأسرى الصليبيين، الذين كنا نتوقع وصولهم وننتظرهم منذ وقت طويل، وبعد إكمال جميع هذه المسائل، قمنا بتوديع الأرض المقدسة بسلام، وفي يوم عيد العثور على الصليب المقدس، أقلعنا من عكا للعودة إلى الوطن، لكن لعدم توفر ريح طيبة أثناء الرحلة، ولأننا كنا متعبين كثيراً نزلنا في تربيني Trapani في صقلية، وكان ذلك في ثمانية عيد القديس يوحنا المعمدان، وسمعنا ونحن في ذلك المكان نبأ اعتقال وسجن بعض الأساقفة، وبالآلام المحزنة الأخرى التي عانت منها الكنيسة، وبناء عليه، وفي سبيل استرداد السلام، ببذل كل ما نملكه من قوة، بين هؤلاء المتخاصمين، ولكي نبذل قصارى جهودنا من أجل اطلاق سراح الأسرى، وفي سبيل تقديم المواساة إلى أمنا، صرفنا وجهة سفرنا، وتحولنا للذهاب إلى بلاط روما، وحالما يسمح لنا الرب، المقدر لكل شيء ولكل حدث، ننوي العودة إلى انكلترا، بكل سرعة ممكنة».

كان مشتاقاً كثيراً لرؤيته، وذلك بوساطة القيادة والتوجيه المريح لمثل هذا الرجل، الذي كانت تعلوه بحكمة ابتسامة مُرضية، وبذلك اكتشف التأثير القوي، للأدعية المتواصلة، للرجال المستقيمين، الذين عهد بنفسه بتقوى إليهم، عندما كان على وشك الشروع بحجه، لأنه عندما كان على وشك القيام برحلته، جاء إلى كنيسة القديس ألبان، الشهيد الرائد لانكلترا، ودخل إلى بيت هيئة الكهنة، وتوسل إلى رهبان الدير، بأن يسمح له بمشاركة خاصة في منافع صلواتهم، والشيء نفسه قد فعله أيضاً في بعض البيوت الأخرى العائدة لرجال الدين، حيث كان من المعتقد أن القداسة مع نظام الطائفة لهما مكانة عليّة وتقدير كبير، وللعار ولأسف أولئك من طلاب الكنيسة الرومانية، أن الأساقفة والنواب البابويين، الذين أرسلتهم الكنيسة إلى مابيننا، لجمع المال، والذين انطلقوا بمثابة مرآة ومثل للرجال العلمانيين، أنهم لم يعملوا وفق الطريقة نفسها، عندما كانوا يقلعون للقيام برحلاتهم، في سبيل أن يكونوا مؤيدين في مخاطرهم بصلوات القديسين، لأننا هكذا أمرنا أن نعمل في الكتابات المقدسة، فعندما وضع القديس بطرس الرسول في السجن، عملت له صلوات بلا انقطاع من قبل الناس، وقد أطلق سراحه من قبل الملاك الذي أرسل إليه من قبل الرب.

الإمبراطور يستقبل الإيرل رتشارد ببهجة

وفي الوقت نفسه، عندما كان الايرل رتشارد على طريقه للالتحاق بالامبراطور، استقبل في مختلف المدن التي اجتاز بها بسرور كبير، وبتشريف، فقد خرج المواطنون مع زوجاتهم لاستقباله مع الموسيقى والغناء، وهم يحملون أغصان الأشجار والورود، وهم أيضاً يرتدون ثياب العيد وزينته، وكان بعض الفرسان يمتطون على خيول ثمينة، وكان ذلك من صنع دليله، الذي كان قد تلقى أوامر من الامبراطور ليتصرف هكذا، وعندما وصل أخيراً إلى عند الامبراطور، استقبل من

قبله مع التكريم كله، وبعدما تعـانقاً، وسط صرخات الترحيب من قبل جميع أتباع الامبراطـور، انخرطا في حديث طـويل، كان مرغـوباً به منذ زمن طويل، وذلك مع مختلف أنـواع التهاني، ومتعـا نفسيهما كأصـدقـاء لعـدة أيام، وأمـر الامبراطور بمعـاملتــه بلطف ونعـومـة، مع الفصـد، والحمامات، ومختلف أنواع الكمادات الطبية حتـى يسترد قوته بعد مخاطر البحر، وامتلك بعد عدة أيام، بمـوجب إذن من الامبراطور، حديثاً حراً وطويلاً مع أخته الامبراطورة، وبموجب أوامر الامبراطور أيضاً، جرى عـرض مختلف أنواع الألعـاب وآلات الموسيقى، التي شريت لتسليـة الامبراطورة، عـرضهـا عليـه لرؤيتهـا ولتفحصهـا، ومنحـه هذا سروراً عظيماً وفرحاً.

وكان بين الأشياء المبدعة التي أدهشته، كان هناك لعبة خاصة أثارت اعجابه وثناءه، فقد كانت هناك فتاتان مسلمتان رشيقتان، قد ركبتا فوق أربع كـرات مستـديرة، قـد وضعت فـوق الأرض، حيث وقفت الأولى فوق كرتين، والأخـرى فوق الاثنتين الأخريتين وقد سـارتا نحو الخلف ونحـو الأمـام، وهما تصفقـان بأيـديهن، وتتحـركـان بسرور فـوق هذه الكرات المتحـركة، وتحركان أذرعتهـن بحركات معبرة، وتغنيـان مختلف الألحان، وتتمايلان بجســـديهما وفقــاً للحن، وتضربان بـالصنوج أو بالكوسات بأيديهن معـاً، ويضعن جسديهما في مختلف الأوضـاع المسلية، وقد قدمن مع البهلوانات الآخرين، مشهداً ممتعاً أن تنظر إليه.

وبعد مـرور عدة أيام استراحا فيهـا من متاعبهما، أرسل الامبراطور، الايرل رتشـارد الذي وثق باخلاصـه وحكمته، إلى بلاط رومـا (حسبما وردت الاشـارة الموجـزة إلى ذلك في الرســالة التي بعث بها الايرل إلى انكلترا) في سبيل إعــادة الســلام بينه وبين البـابـا، وأعطى الامبراطور أيضاً، بالإضـافة إلى التشريفات التي أضفاها على الايرل المذكـور، ورقة مختـومـة بالختم الامبراطوري، تعهـد فيهـا بالالتـزام بقـراره، حـول أية

انكلترا، وقدم إليه شكوى جديدة حول هذه الجريمة المنحطة، والتمس من الملك بحرارة العمل على اطلاق سراح غريفين، الذي حبس هكذا سجيناً بشكل غير عادل من قبل حفيده داوود، ليمنع خبر وصمة هذا العدوان الظالم من الوصول إلى البلدان النائية، وإلى بلاط روما، مما سيسبب الأذى إلى كرامته الملكية، وبناء عليه لام الملك بحدة حفيده داوود بسبب خيانته، وقام بنصيحته وبأمره بتحرير أخيه، وبذلك يسترد السمعة الجيدة لاسمه، والتحليل من قرار الحرمان الكنسي، وهذا —على كل حال— مارفض داوود بإصرار أن يفعله، وأخبر الملك مؤكداً، أنه إذا ما أطلق سراح غريفين، فإن ويلز لن تتمتع بعد هذا بالأمان والسلام.

وكان غريفين قد علم بهذا، فأرسل بشكل سري رسالة إلى الملك، أنه إذا ما أطلق سراحه وأخرجه من السجن، سوف يستحوذ في المستقبل على أرضه منه، أي من الملك، وسوف يدفع له بإخلاص مائتي مارك سنوياً مقابلها، مع كثير من الشكر لخدماته اللطيفة، وربط نفسه بيمين بتنفيذ هذا، وأن يعطيه في الوقت نفسه رهينة خاصة، وبالاضافة إلى هذا، هو سوف يساعده بنشاط على اخضاع ويلز والويلزيين حتى الأخير، وهم الذين متمردون ضده، ومازالوا غير خاضعين، وقام مقدم ويلزي آخر قوي جداً، اسمه غريفين بن مادوك Madoch, فوعد الملك أيضاً بتقديم مساعدة موثوقة ومتينة إذا ما قام بغزو ويلز، وشن الحرب ضد داوود، الذي كان رجلاً زائفاً، ويتصرف بشكل غير عادل نحو كثير منهم.

ملك إنكلترا يزحف إلى ويلز مع جيشه

وأثارت هذه الوعود الملك وشجعته، فعمل ترتيباته للدخول إلى ويلز، وبناء عليه أصدر رسائل ملكية، أمر بها الجميع في جميع أرجاء

انكلترا، المتوجب عليهم أداء الخدمة العسكرية له، بالاجتماع في غلوستر في بداية الخريف، مجهزين بالخيول والسلاح، للانطلاق في حملة، قرر القيام بها، ثم إنه عقد اجتماعاً في شروبري Chrewbury في اليوم التالي لعيد القديس بطرس في الأغلال، وخلال أربعة عشر يوماً رفع رايته، ووجّه سلاحه ضد حفيده داوود، حيث اكتشف أنه خائن وعاصي في كل مجال، ولأنه رفض الحضور في أي وقت من الأوقات، إلى مؤتمره السلمي الذي دعاه الملك إليه، حتى مع وعد أمان بالمرور، ولأنه بعناد وبإصرار أجاب بأنه لن يطلق سراح أخيه غريفين ولابأي شكل من الأشكال.

ثم قاد الملك جيشه، الذي كان كبيراً، وقوياً جداً، بنظام حسن نحو شيستر، وكأنه يريد أن يشن الحرب مباشرة، وخاف داوود على كل حال من مواجهة عنفه، بسبب الحرارة التي استمرت عالية لمدة أربعة أشهر، والتي جففت جميع البحيرات، وأماكن المستنقعات في ويلز، وبسبب تأييد الملك من قبل كثير من النبلاء الويلزيين، ولاسيما غريفين القوي والعاقل، ابن مادوك، الذي صار حليفاً كبيراً للملك، وأحب غريفين أكثر منه، أي داوود، ولأنه كان تحت عقوبة الحرمان الكنسي، قد بات خائفاً من أن تتدهور أحواله أكثر، ولذلك بعث رسالة إلى الملك، أخبره فيها، بكثير من المنطق، أنه إذا ما أطلق سراحه، فإنه سوف يثير الحرب ويجددها ضده، وفرض داوود على الملك أيضاً شرطاً، أنه إذا ما استقبله بسلام، فسوف يربط نفسه بيمين، وسوف يقدم له رهائن، على أن لايحرمه من ميراثه، وعلى هذا وافق الملك بلطف، وبناء عليه أطلق داوود سراح أخيه غريفين، وبعث به إلى الملك، الذي اعتمد على المشورة الحكيمة، فأرسله لدى وصوله إلى لندن، تحت حماية وكفالة جون أوف لكسنغتون Lexington, ليحفظ هناك في البرج، مع بعض النبلاء الويلزيين الآخرين، ورهائن داوود، وأمراء ويلزيين

آخريـن، ووقعت هذه الحوادث كلها فيما بين يومي عيـد ميلاد القـديسة مريم، وعيد القديس ميكائيل.

اخضاع ويلز وطاعتها للملك هنري الثالث من دون حرب

وأقسم داوود —كما ذكرنا من قبل— على المثول شخصياً أمام الملك، وبذلك حفظ شخصـه وشرفه، وأشخـاص وكـرامة رعـاياه، وأن يكون مثوله في لندن، أو في أي مكان آخـر، حسبما سيقرره الملك، وعلاوة على ذلك أعطى رهائن من أجل الوفـاء بوعده، وبناء عليـه، قدم على الملك، إلى لندن، في اليوم الثـامن بعد عيد القديس ميكائيل، وبعـدما أدى يمين الولاء والتـابعيـة، وقـدم جميع الضمانات والمواثيق، سمح لـه بالمغـادرة بسلام، لأنه كـان صاحب قـرابة وشيجة بالملك، وسمح لـه بالعودة إلى وطنه، وهكذا بفضل الرب انتصر هنري على أعـدائه، وأخضع ويلز من دون سفك للـدمـــاء، ومن دون محاولة تجريـب الحظ المشكوك فيـــه للحـرب، واكتشفت ويلز في هذه الحالة كلمات ربنا التي ورد ذكـرها في الانجيل، ذلك أنها لم تكن خالية من الصدق، وهي قوله:

«كل مملكة منقسمة على نفسها تنتهي إلى دمار».

اكتشاف القصدير في ألمانيا

وتمّ العثور في هذا العـام، على نوع نقي جداً من القصـدير، في ألمانيا للمـرة الأولى، وبكميات أكبر مما هو مـوجود في انكلترا، ولقـد قيل بأن هذا المعدن لم يتم العثور عليه من قبل منذ خلق الدنيا، في أي مكان، إلاّ في كـــورنوول، وقـــد تدهورت الآن أسعـــاره كثيراً وتنـاقصت بسبب الكميات التي أرسلت من ألمانيا إلى انكلترا.

خلاف بين أسقف لنكولن وراعي دير ويستمنستر

وتفجــر في هذه الآونة خــلاف بين روبرت، أسقـف لنكولن، وبين

راعي دير ويستمنستر، وقد نجم عنه نفقات كبيرة، وتسبب بأضرار عظيمة لكل من الفريقين، وازداد يومياً، ذلك أن الأسقف المذكور كان يسعى، مستخدماً كل الوسائط والإمكانات التي قدر على استخدامها لإضعاف الامتيازات الصحيحة لراعي الدير، بتحويله كنيسة هسول Heswell لاستخداماته الخاصة، واستحوذ على تلك الكنيسة بالقوة، وعندما تهيأت له أول فرصة أخذها من الرهبان، ومنحها إلى شخص آخر، اسمه المعلم نيقولا، الذي كان بإذلال قد حرمه من منافعه، وكان راعي الدير، واثقاً من حقه ومن امتيازاته، فقاوم بشجاعة ووقف في وجهه.

الخلاف بين الملك وبين أسقف لنكولن

ونشب في هذه الآونة خلاف شديد بين الملك وبين أسقف لنكولن، وكان ذلك بسبب واحد من الكهنة التابعين للملك،واسمه جون مانسيل Mansel, كان قد جُعل متملكاً لكنيسة التيم Thame, من خلال فضل الملك ومساعدته، وكذلك بفضل مرسوم تمّ الحصول عليه من البابا، وكانت هذه الكنيسة عندما غدت شاغرة، أعطاها الأسقف المذكور، من قبل، إلى كاهن اسمه المعلم سيمون اللندني، وكان كاهناً مكلفاً بالخطايا تابعاً لأسقف درم، ولقد غضب الملك من الأسقف كثيراً جداً بسبب هذا التصرف، ولذلك أرسل هذا الأسقف إلى الملك رسالة بوساطة رئيس شمامسة هنتغدون Huntingdon وليستر عندما كان مايزال في ويلز، وعاتبه ووجّه اللوم إليه، لأنه لم يكن حامداً للرب، وغير مقدر للنصر الذي أعطي إليه، وأن عليه التكفير على الفور عن هذا الذنب العظيم، خشية أن يقوم الرب أثناء غضبه بتحويل ابتساماته إلى دموع، وعلى هذه الرسالة ردّ الملك: «إنني أرد بأمان، لأن دعوى استئناف قد عملت، وما من شيء ينبغي أن يتعرض للتغيير، أثناء إجراءات الاستئناف، وأنا لم أحاول شيئاً سوى

أنني تصرفت وفقاً لنصيحة العلماء بالشريعة، مع تأييد من السلطات الرسولية»، وعند ذلك قال واحد من رؤساء الأساقفة: «مولاي الملك، لدى سيدنا، أسقف لنكولن امتياز منح له من قبل البابا، فيه إعفاء له من الاستجابة لأي واحد، وذلك بناء على أمر المقام الرسولي، مالم تتوفر هناك إشارة خاصة إلى ذلك الامتياز، وبالنسبة لهذا الأمر، الذي قيل بأن جون المذكور قد حصل عليه من البابا، والذي بفضله فرض نفسه على هذه الكنيسة، معتمداً على مساعدتكم، لم يرد فيه ذكر لذلك الامتياز، وبناء عليه فإن أسقف لنكولن ليس مجبراً على الإجابة عليه في هذه القضية، ولاسيما فيما يتعلق بالتنازل عن كنيسة التيم، التي كانت من قبل، وبشكل عادل، قد أعطيت إلى آخر، ولنفترض أنه لم يكن مثل هذا الامتياز، إنه أمر غير منطقي بالنسبة إلى أي واحد لأن يدفع بنفسه لتملك أية كنيسة من دون استشارة —إن لم نقل ضد إرادة— أسقف المنطقة، حتى وإن كان معتمداً على تفويض بابوي، ذلك أن البابا يرغب أن تعمل جميع الأشياء، وفق نظام صحيح، وماهو السبب الداعي الآن للتسبب بالخلاف، أو بإيذاء أي من الفريقين؟ لأننا إذا قدرنا فضائل جون المذكور، الذي هو رجل حذر، ومتعلم بما فيه الكفاية، ومن الممكن لصاحب الغبطة أسقف لنكولن أن يستجيب بسهولة لطلبك، أو لطلبه شخصياً، فيجهزه بمنفعة مماثلة بالجودة إن لم تكن أغنى، والمنحة سوف تكون قانونية ومشرفة لكلا الطرفين، ويرجو الأسقف بكل تواضع واخلاص، أن لاتكون الأمور غير ذلك، لأنه على استعداد لإعلان الحرمان الكنسي ضد جميع الذين يسببون الأذى للكنيسة أو يضغطون عليها، ويعتدون على كرامتها».

وعندما سمع جون المذكور، وكذلك الملك ومستشاريه —هذه الرسالة— قال جون:

«ليكن بعيداً عني يامولاي الملك، أن أكون سبباً لأي خلاف، أو

نشــوب أي نزاع بين مثل هذه الشخصيــات المشهــورة، وإنني أتنازل بصبر، والرب سوف يزودني عندما يكون راغباً، مادمت حياً».

وعند ذلك وافـق الملك على إنهاء القضيـة، وبعــدمــا أكمـل جميع الترتيبـات الضرورية في ويلز، ترك هنـاك وولتر الألماني، مع بعض آخـر من الرجال ذوي الحكمة والنفوذ لبناء القلاع، ولتقوية الأماكن الضعيفة من المنطقـة، وأن يشحنها بالسـلاح والرجـال للدفاع عنهـا، وذهب هو نفسـه مسروراً إلى لندن، وإلى ذلك المكان ذهب الأسقف المذكـور، وهو مستعـد تماماً للتفـوه بقرار الحرمـان الكنسي ضـد جون المذكـور بشكل خـاص وضـد جميع المؤذين لكنيسته ولكرامتهـا، وعندمـا باتت هذه الظروف معلومـة لدى جـون المذكـور، ذهب متـذللاً إلى الملك وقـال: «مولاي الملك إن أسقف لنكـولن منزعج جداً، ولكي لاأكـون أنا سبباً لقيام المزيد من الخلافات، أو فضائح تنتشر في الخارج، إنني أستقيل من هذه الكنيسـة، ولدى سماع الملك لهذا، كـان منزعجاً، خشيـة أن يقـوم الأسقف، الذي كان عنيفاً جداً، بشكل غير اعتيادي، فيذهب إلى المنفى، حيث رآه مستعداً تماماً لفعل ذلك، ومن ثم يضع أسقفيته تحت الحرمان من شراكـة المؤمنين، ولذلك لطف الإجـراءات القاسيـة التي خطط لها، وتوقف عن مساندة جـون في معارضته، لأنه رآه قـد رفض العمل ضد الأسقف.

ثم إنه بناء على ذلك، استحق جون المذكـور نيل جائزة، حيث أضفي عليـه بمنفعـة أغنى، كـانت هي كنيسـة ميـدستــون Maidstone, وذلك كهـدية من الملك، وأغني في العام نفسـه بالاستحواذ على كنيسـة هوفدن Hoveden, الغنية، وهكذا هدأ الأسقف، وبناء على طلب الملك وعظ بشكل علني، وكأنه واحد صدره مشحـون بمفاتيح المعرفة، وعهد بهذا التواضع إلى الفئتين، وبين أشياء كثيرة عمل مقارنة بين أشعة الشمس التي هـي مستقيمـة، وبين عـدالة الملك، التـي ينبغي أن تكون

مستقيمة ودائمـة، والآن وقد رأى أن خاطر الأسقـف بات هادئاً، بات راغبـاً في تسوية الخلاف المدمـر والمهين بينه وبين راعي دير ويستمنستر، حـول مـايتعلـق بكنيسـة هسـول Heswell, وبناء عليـــــه لم يترك الأسقف ولم يسمح له بالمغـادرة، حتى كـان كل شيء قـد تمت تسـويتـه بسلام وسعـادة، وقام راعي الدير نفسـه بتقديم جميع التسهيـلات حتى تتم التســوية، وبناء عليـه وقعـت كنيسـة هســول في نصيب راعي دير ويستمنستر، حيث استحوذ عليها، مع الاحتفاظ بـالتقدمة طوال الحياة، إلى أسقف لنكولن، وحصلت كنيسة ويستمنستر بموجب هذه الترتيبات على زيادة كبيرة في منافعهـا وكـرامتهــا، لأن الراعي رتشــارد، كـان، بالاضافـة إلى هذه المنفعة التي لم تكـن صغيرة، قد زاد من ثروة رعـويته بمورد قدره ثلاثمائة مارك، سنوياً وبشكل دائم، بوساطة خدماته.

خلاف بين أسقف لنكولن وهيئة كهنته

ولقد استمـر على كل حال هنـاك خلاف كان مـؤذياً جداً، ونـزاعاً لم يكن اعتيــادياً بين أسقف لنكولن وهيئة كهنـة لنكولن، ولقـد تعــرض بعض الكهنة الذين كـانوا موجـودين في لندن إلى سوء المعـاملة والأذى من قبل الأسقف إلى حـد أنهم كـانوا مـرغمين على اظهـار ورقـة، وأن يجعلوا محتويـاتها معروفة بشكل علني، وذلك خشيـة أن تخضع كنيستهم إلى بعض الظلم الجديد، وذريعة ذلك أنا سأحكيها الآن.

استرداد كنيسة لنكولن وكرسيها

بما أنه، قبل الاستيـلاء على انكلترا، كــان الكرسي الأسقفي الموجـود الآن في لنكولن، مــوجــوداً في دورشستر Dorchester, وبسبب أخطاء الذي كـان وقتذاك مترأساً على الأسقفيـة وضع ذلك المكان تحت التكفير من قبل البــابـا، وجــرى خلع الأسقف، ولم يبق مـن آثار هذه القضية الكبيرة أي شيء بعد مـرور سنين كثيرة، وكذلك الكرسي وأيضاً

عناية أسقف وولايته بعد نهاية وقت طويل، وحدث بعد ذلك في أيام وليم روفوس Rufus ابن وليم الأول، أن جرى تدمير كنائس كثيرة في الغابة الجديدة، بناء على أوامر الملك، لكنه ندم بعد ذلك كثيراً على مااقترفه من ذنب، وتلقى نصيحة صحيحة، وقام تكفيراً عن ذنبه، فأعاد تلك الأسقفية الفخمة وأغناها، وحسّن المكان نفسه، حيث أنه اشترى، أو أخذ بالتبادل أرضاً من م. M دي غونت Gaunt وهو نبيل كان قد قدم إلى انكلترا أثناء الاستيلاء عليها، وكان قد تسلم تلك الأرض كنوع من المكافأة بعد الانتصار، وقام الملك وليم الثاني المذكور بتأسيس كنيسة، هي الآن كنيسة لنكولن، وعند اكتمال هذا استدعى كاردينالين نائبين للبابا، كانا قد تسلما سلطة كاملة، للقيام بتكريس أسقف، وقد قدما إلى كنيسته من لدن قداسة البابا، ثم إنه دعا ثمانية رؤساء أساقفة، وستة عشر أسقفاً، وتدبر تكريس تلك الكنيسة بشكل مهيب، وأمر بتعيين رهبان علمانيين فيها، كما أمر بتعيين موردهم المنفرد، وحصصهم الخاصة بهم، وذلك في سبيل أن يتمكنوا تحت سلطة أسقف وعميد، من القيام بواجباتهم بشكل نظامي وشريف، وذلك وفقاً لبعض الأحكام والصيغ، ولكي يبقى هذا التكريس الهام، الذي تمتن بوساطة سلطة مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، وكذلك بوساطة رسائل من الكرسي الرسولي، ولكي يستمر دون أن يخرق إلى الأبد، كان التكريس قد عمل وفق صيغة أنه عندما يجري تكريس أسقف، وبعدما يجري وضع الكهنة في ممتلكاتهم، يمكنهم من ذلك الوقت فصاعداً، القيام بأداء الصلوات إلى الرب، وإلى أمه المقدسة ليلاً ونهاراً، وفق نظام صحيح ووقار، وعندما يحيد واحد من هؤلاء الكهنة عن طريق نظامهم، وبعدما يتلقى اللوم لذلك، ولايقلع ويقوّم طرائقه، يتوجب أن يتلقى زيارة تفقدية وعقوبة من العميد، لكن من دون الخوف بحمل أي شيء مسبق ضد هيئة الكهنة، ويتوجب عمل الشكوى ضده وحده بسبب مااقترفه، لكنه إذا لم يقوّم نفسه بطريقة أو أخرى، يتوجب

حرمانه من منفعته لمدة سنة واحـدة أو سنتين، تبعاً لدرجة خطيئته، وإذا ما ثابر على عصيانه، ينبغي طلب مساعدة الأسقف لاستخدام إجراءات تقـويميـة، لكن مع ذلك إذا مـا استمـر غير مقـوم وفي حـالة المعـاندة، وتحدى سلطتـه، يتـوجب تجريده من جميع منافعـه، وانزال عقـوبة أكثـر قسوة به من قبل الملك، وأعطت هـذه الأحكام الرضا إلى جميع الفئات، ولذلك جرى تدوينهـا كتابة، ومن ثم تثبيتهـا من قبل الكرسي الرسولي، وكتـابتهـا وعند ذلك جـرى تكريس الكنيسـة، وقـام جميع الذين كـانوا حـاضريـن بإصـدار عقــوبة الحرمـان الكنسي بحـق كل من يخرق هذه الأحكام.

وبناء عليـه قال الكهنة بما أن العميـد ليس مهملاً أو جـاهلاً، وليس ضعيفاً للقيام بزيارة تفقـدية للمقصرين، وحيث أن الأسقف قد تصرف بذاته بشكل غير عـادل و شـائـن في استخـراج الزيارات، ولم يظهـر أنه بريء تماماً من وصمـة العقوبة التي صـدرت بشكل مهيب من قبل مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، ولدى سماع الملك بهذا، ادعى أنه طرف في هذه القضيـة، وبالمحصلة فإن فئة الأسقف وهيئة الكهنة قـد ضعفت كثيراً، وبسبب مثل هذه المعيقـات والاحبـاطات، كـان من غير الممكن جلب القضية إلى النهـاية السلمية المرغوبة، لكنها تأخـرت، مسببة كثيراً من النفقات وضياع الوقت.

ملك إنكلترا يتدبر عمل مزار ذهبي لعظام القديس إدوارد

تدبر في هذا العام الملك هنري الثالث، على نفقته الخاصة، صنع مزار من الذهب الخالص والجواهر الثمينة، وأن يجري تشييده بشكل محكم في لندن من قبل عمال منتخبين، من أجل الآثار المقـدسة للقـديس ادوارد، حتى توضع فيـه، وفي تشييد هذا المزار، مع أن المواد كانت بـاهظة جداً، لكن ذلك كان وفقاً لقول الشاعر:

فعل العمال في الحقيقة بتفوق كبير

من المادة الخام شيئاً استثنائياً.

كيف رفض الملك إعطاء ميراث إلى و. W مارشال

أظهر الملك في هذه الآونة نفسه بموقف عدائي نحو وولتر مارشال، أخي غيلبرت الذي مات دون أن يخلّف أولاداً، يتناولون منه الميراث العائد إليه بموجب حق التوريث، وقال الملك له وهومغضب:

«لأن والدك وليم، قد وصم بالخيانة، لأنه قد قيل بأنه أنقذ لويس من أن يقع بالأسر عندما كان في انكلترا، وجرى اعتقال أخاك رتشارد، وقتله وهو حامل للسلاح ضدي، وكعدو مكشوف ومميت لي، وأما أخوك غيلبرت، الذي توفي مؤخراً، والذي منحته ميراثه بناء على مبادرة وساطة من إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، وذلك كعطاء وليس كحق، قد قام مؤخراً لسوء الحظ، فعقد مبارزات في هارتفورد، على الرغم من حظري، وفي هذه المبارزات واجه موتاً مأساوياً، وأنت ياوولتر أيضاً قد كنت موجوداً في تلك المبارزات، ضد إرادتي، ودون أن تعبأ بحظري، وتحدياً لي، وأنت الذي بشكل سفسطائي سميتها مغامرة، فعلى أي أساس أنت تطالب بميراثك، فكيف امتلكت الوقاحة بفعل ذلك؟»، وفي ردّ على هذه التهم خاطب وولتر الملك كما يلي:

«مع أنني يامولاي الملك، أستطيع أن أقدم جواباً مرضياً على كل تهمة من هذه التهم، وعليها جميعاً، إنني أنحني خضوعاً لجلالتك، وأنت قد قمت حتى الآن برعايتي في صدر رحمتك، وعددتني واحداً من أصدقائك المقربين، وليس على الاطلاق واحداً من ضيوف مائدتك، وأنا لم أستحق قط أن أفقد حظوتك إلاّ في قضية واحدة، أنا لايمكنني التنصل منها، وهي أنني كنت موجوداً في تلك المبارزات مع أخي، الذي لم يكن بإمكاني تركه، لكن إذ ما قررت حـ ـان جميع الذين كانوا

حضوراً هناك، فإنك بذلك لن تثير اضطراباً قليلاً في المملكة، وبعيد جداً عنك، بحكم كونك أمير عادل، أن تجعلني وحدي أكفر عن أخطاء الجميع، وبعيد عنك يامولاي أن تجعلني الأول في نيل العقوبة بين مثل ذلك العدد الكبير»، ولم يعبأ الملك بهذا، واستمر غضبه، ولذلك حافظ وولترعلى الصمت، لأنه رأى بأنه قد فقد حظوة الملك، وذلك وفقاً لنصيحة الشاعر:

عندما تكون الزوابع الثائرة سائرة بسرعة

أذعن لقوة الزوابع الغاضبة

وهكذا غادر على هذه الصورة، و هو يائس.

الملك يعمل من وولتر مارشالاً

وقدم إلى لندن في هذه الآونة نفسها أسقف درم، الذي كان منذ زمن بعيد صديقاً مقرباً من الملك، لأنه كان الوصي على الجسد الملكي، وطبيباً ووصياً على الملكة، ومشرفاً مراقباً لخرق الأخلاق، وقد قام بناء على طلب وولتر المتقدم الذكر، بالتعاون مع نبلاء آخرين، ومع الملكة نفسها، ومع جميع الذين عرف بأنهم مقربين من الملك ولهم مكانتهم لديه، فاستخدم محاججة لطيفة، والتماسات عرضت بصورة حكيمة، فتمكن من تلطيف غضب الملك، وجعله يتصالح مع وولتر، وبعدما هدأ الملك، ورضي على هذه الصورة،، أضفى في يوم الأحد، قبل عيد جميع القديسين على وولتر المذكور مرتبة الإيرلية، ووظيفة المارشال، وجعله يحتفظ بين يديه بقلعتين هما: كارديف، وكارديغان Cardigan في ويلز، وهما اللتين كان الملك قد عهد بهما من قبل، ووضعهما تحت إدارة وليم مارشال، ثم أعطاهما بعد ذلك إلى هيوبرت، مسؤول العدالة، لأنه قدر أنه من الضروري الاحتفاظ بهما، من أجل تقوية المناطق الضعيفة في ويلز،التي استحوذ عليها مؤخراً، في سبيل تمتينهم بالقلاع والحصون.

الملك يثور غضبه ضدّ أسقف نورويك

إزداد في هذه الآونة غضب الملـك ضـد أسقف نـورويك، بسبب أن ذلك الأسقف وافق على تسميتـه لكرسي وينكستر، ولأنه رفض، وأصرّ على الرفض، بالتخلي عن حقه، ومع أن الملك طلب منه اتفـاقية مكتوبة بالتخلي عن إدعــائـه، لكن الأسقف رفض بثبـات فعـل ذلك، ونتيجـة لذلك حدث شقـاق كبير في أسقفيته، ترافق أحياناً بالكتـابة إلى البلاط، الذي أصيب أخيراً، نتيجة لاغتصابه الطائش بالجراحة، وعانى كثير آخر من الأذى، وفي محصلة ذلك جـرى ضرب كثير مـن رجـال الدين ومن العلمانيين بشكل فاجر، وجـرحوا، وعانوا من كثير من الضرر على أيدي السلطات المدنية، وأعلن الملك، مرفقاً إعلانه باليمين، أنه لن يتوقف قط عن ممارسة مثل هذا الظلـم، حتى يقوم الأسقف المذكور بتـوقيع ورقة، يذكر فيها أنه لن يسمح قط لنفسه بالنقل إلى كرسي وينكستر، لكن هذا كان سبباً متنافراً مع المنطق، ومعـاكساً للتكريس الأسقفـي، لأنه إذا ما أمـره صـاحب القـداسـة البابـا، بحكم فضيلة طاعتـه، بأن يفعل ذلك، لايمكنه، بأية طريقة من الطرق، لأن ذلك يتناقض مع كونه ابناً للطاعة.

تعذيب رهبان وينكستر

وفي هذه الآونة نفسها، شرع البريتاني، الذي وضعه الملك بالقوة على رأس دير وينكستر، وجعله رئيساً للرهبـان، في إغضاب المجمع الديري بمختلـف الطرق، لأنـه بدســـــائـس هذا المغتصـب الزائـف، أثيرت الخلافـات، حتى توفرت أسبـاب جيـدة لإنزال عقوبة الحرمـان الكنسي بالرهبـان الذين عـارضـوه، وبعد مـرور مـدة أربعين يومـاً، جمع بعض وكـلاء الملك وقـال لهم: «اذهبـوا وانتقمـوا لـلاهانات التي وجهت إلى الملك وإلينا من قبل هؤلاء العصـاة علينا، ذلك أنهم مجروسين كنسيـاً، و إنه لن يكون ذنباً إذا ما ألقيتم بأيدي العنف عليهم»، واندفع أتباع الملك وخدمـه وزحفوا نحو الأمـام على شكل عساكـر، وبعنف ألقوا بأيديهم

الآثمة على الرهبان الذين هربوا إلى المذبح الكبير يطلبون الحماية هناك، وقد دفعوا بهم وسحلوهم بعنف شديد، حتى أنهم لطخوا الأرض بالدم، ثم أخرجوهم مطرودين من الكنيسة، وكان ذلك على مشهد من المواطنين، الذين أبدوا دهشتهم، وعجبهم، وحزنهم، وقد دفعوا بهم وسط الشتائم والضربات إلى قلعة الملك في هسفيتري Husvetrey, حيث صفدوهم بالأغلال كل اثنين معاً، وألقوا بهم في سجن مضيقاً عليهم، وهكذا فعل هؤلاء الحراس التابعين للملك،الذين ألقوا جانباً كل خوف من الرب، واحترام للزي الديني، وأنزلوا الظلم بالرهبان وعسفوا بهم، واحتفظوا بهم مسجونين في الظلام، وعذبوهم بالجوع وبالبرد، وعرضوهم لإهاناتهم، مع أنهم حصلوا هكذا على سعفة الشهادة، لمعرفتهم بأن جميع هذه الآلام التي أنزلت بهم، كانت لوفائهم بالعدل، وتحملوها كلها بصبر، لابل حتى بسرور، وذلك بقدرما كانوا مستحقين تحمل التمرد، في سبيل المسيح.

إثنان من وكلاء البابا يستخرجان مالاً من إنكلترا وسكوتلندا وإيرلندا

أمضى بطرس دي سوبينو Supino, الذي كان كاهناً تابعاً للبابا وقته كله بمواظبة كبيرة في جمع المال، باستخراج عشرين جزئاً من الممتلكات من جميع ايرلندا، مدعوماً بترخيص من البابا، وقد أخرج من تلك المنطقة مبلغ ألف وخمسمائة مارك، إلى جانب مختلف الهدايا، وكان بطرس لي روج، الذي جعل من نفسه قريباً للبابا، وصديقاً مقرباً منه، أيضاً محمياً بإجازة من البابا، وشغل نفسه بيقظة في جمع الأموال وتكديسها من المناطق الشمالية من انكلترا، وبوساطة ارسال الرسل إلى مناطق سكوتلندا، وأخيراً سارا وحقائب سروج خيولهما مليئة تماماً، تحت كفالة رهبان كانتربري إلى دوفر، ثم أبحرا فجأة وبشكل سري، لأنهما سمعا من رسل أرسلوا بكل سرعة، بأن البابا مايزال من دون

أمل بالشفاء، أو بالحقيقة هو إما قد مات أو على وشك الموت بالحال، ولذلك قاما بفرار سري ومفاجىء بالبر وبالبحر مع غنيمتيهما، لأنهما كانا يخشيان أنه إذا ما علم الملك بوفاة البابا، سوف يقوم بحكمة باستبقاء جميع الأموال التي جمعاها، ومن ثم يقدر كيف سيتصرف بها لدى استخلاف بابا آخر.

وماكادا يدخلان إلى فرنسا، حتى —عجبا— وصل المعلم وولتر دي أوكرا، وهو رسول من الامبراطور، وصل بكل سرعة، مع أن ذلك جاء متأخراً، حاملاً رسائل اعتماد من الامبراطور وكذلك رسولاً إلى الملك، لإخباره بأحوال الأوضاع في البلاط الروماني، وينصحه إذا ما تم العثور على مثل هؤلاء الناس في انكلترا، بأن يتم الاحتفاظ بالأسلاب، وحبس اللصوص أيضاً، ولكن عندما علم الرسول بأن الاثنين قد نجوا، وجّه اللوم إلى تقاعس الملك و اهماله، وغادر على الفور وهو غاضب وآسف، لأنه قام برحلته من دون فائدة، وتبع خطواتهما بيقظة، وراقب بدقة تسكع هذين الثعلبين حتى يخبر الامبراطور بنتيجة رحلته.

كيف جرى تحويل المال الذي جمع من قبل وكيلي البابا إلى الخزانة الإمبراطورية

وعلم المندوبان البابويان الآن بوفاة البابا، مع أن الخبر ظلّ مكتوماً عن الناس لعدة أيام، وقد علما أيضاً بأن وولتر المذكور كان يسير خلفهما، فأسرعا بسفريهما، ولم يوفرا فرسيهما، وبعد عبورهما للألب، أخذا نفسيهما إلى مدن وبيوت أقربائهما، وأودعا المال الذي قدماه وهما محملان به في أماكن سرية، ولم يجعلا حضورهما معروفاً لدى الجميع، وبما أن وولتر المذكور لم يستطع العثور على أي منهما، أو على المال، سوى سماعه بعض الاشاعات الهامسة، بعث برسالة إلى الامبراطور حول كل شيء، وحول تفتيشه غير المثمر، وعند ذلك أمر صاحب

الجلالة الامبراطورية القيام ببحث دقيق في جميع المدن الايطالية الخاضعة لحكمه، لاكتشاف من هما هذين الرسولين البابويين، وأي تاجرين كانا هما، اللذان كانا يسعيان إلى اخضاع الامبراطورية، وإلحاق الأذى بالمصالح العامة، وإثارة الحرب، وقد جمعا المال بخداع من مختلف البلدان، ولا سيما من انكلترا، لمنحه إلى البابا، وكانا بذلك يرفعان من جبروته، ويدفعان به لدمار سلام الامبراطورية، ثم أمر بسجنهما بعد اعتقالهما، على أساس أنهما من الأعداء الألداء، ودعوتهما للظهور، ومصادرة أملاكهما وبيوتهما، ومثل ذلك ممتلكات وبيوت أقربائهما.

وهكذا بعدما جرى سجن الرجال الرئيسيين من هؤلاء القوم مع زوجاتهم وأولادهم، أمر باجراء بحث دقيق حول المبلغ المالي الذي جرى جمعه من أجل استخدامات البابا، وأمر بتعداده وكتابة ذلك، ووضعه في أيدي تجار المدن، والذين يفهمون بالأعمال، ومن ثم يجري إيداعه كله، وهكذا فإن هذين اللاهوتيين، اللذين كان من المتوجب حمايتهما تحت جناح البابا، قد جرى تجريديهما تماماً، وتولى أعداء الكنيسة بجرأة تعذيبهما.

موت البابا غريغوري

وفي الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يدور هكذا بشؤون العالم، تأكد التقرير الذي طار في جميع أنحاء العالم المسيحي، والذي ادعى بأن البابا غريغوري، لم يعد بإمكانه تحمل الأحزان التي شعر بها —والتي هو نفسه قد تسبب بها— وقد غادر طريق الجسد في الثاني والعشرين من آب، ليتلقى المكافأة من القاضي في عليين، وفقاً لاستحقاقه، وكان في وقت موته قد بلغ من العمر حوالي المائة سنة، في حين اعتقد عدوه الامبراطور، أنه كان في ذلك الحين ليس أكبر من خمسين سنة، فقد روي بأنه ولد في السنة التي كان فيها رتشارد ملك انكلترا سجيناً في ألمانيا.

السبب الذي عجل بموته

وكان الأسى الرئيسي الذي خرق قلب البابا، والذي أوصله إلى حافة الموت، هو أن الامبراطور، كان قد استولى إثر عيد الصعود على قلعة قرب مو نت فورت في كامبانا Campagna كانت عائدة إلى أحفاد البابا وإلى أقرباء آخرين له، وكانت قد بنيت حديثاً بأموال الصليبيين من أجل حماية أقربائه، لأن البابا غريغوري كان يعرف تمام المعرفة بأن الامبراطور يكره جميع أقربائه، ورغب أنه إذا ما قام الامبراطور بغزو كامبانا، أن يحال دون الحاجة لأن يكون معرضاً لحملاته، وكان الامبراطور قد علم بهذه الأوضاع، فقام فجأة بحصار هذه القلعة وبتدميرها وبشنق جميع الذين وجدهم فيها، وكرمز على تدميره لها ترك نوعاً من أنواع الأبراج نصف مدمر، بمثابة ذكرى على اعتدائه، وعلى انتقامه أيضاً، ذكرى لن تموت أبداً، وبالاضافة إلى هذا كان البابا مصاباً بالحمى، كما كان قد تقدم بالسن كثيراً،، وقد حرم من استخدام الحمام الذي اعتاد أن يقوي فيه نفسه في فيتربو.

موت إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني

وماتت في هذه الآونة إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني، التي كانت موضوعة منذ زمن طويل في سجن ضيق.

كيف التحق بعض الرهبان بطوائف أخرى

وفي هذه الآونة كان هناك بعض الرهبان، الذين عانوا من التقلبات في عقولهم ومن عدم الاستقرار، فقلدوا مثل أسقف هيرفورد، دون أن يعرفوا السبب (لأنه كان مرتبطاً بنذر)، فتحولوا إلى طائفة غير معروفة، و التحقوا بالدومينيكان وبالفرنسيسكان، ناسين قول النبي: «لقد حدد له الطريق الذي اختاره»، فقد قام راعي دير أوسني Osney بعقله الجبان، فتخلى عن طائفة أوغسطين المعلم الكبير، وانتقل إلى طائفة

الفرنسيسكان، راغباً بتجريب الجديد، وقام راعي دير وولدن Wal-den أيضاً، الذي حمل صليب ربنا بألم تحت حكم نظام طائفة القديس بندكت، عندما رأى ديره مثقلاً بالدين، وقد غرق في أعماق اليأس، قام من دون أن يعرف ديره أو رهبانه، فجأة وبلا حياء بالالتحاق بطائفة الدومينيكان، غير أنه ندم على هذا فيما بعد.

الإعاقة التي عملت ضدّ انتخاب البابا

في الوقت الذي مات فيه البابا غريغوري، الذي ذكرناه أعلاه، كان هناك عشرة كرادلة موجودين في البلاط الروماني، وكان هناك اثنان مايزالان في سجن الامبراطور، وبعدما قام هؤلاء العشرة ببعض المداولات —كما هي العادة— حول انتخاب بابا جديد، لم يتمكنوا من الوصول إلى قرار مقنع، لأن عددهم قد انقسم على نفسه، وبناء عليه بعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بتواضع أن يرسل أخويهم، الكاردياليين، إلى البلاط، حسب مايختاره من شروط ويفرضه، وذلك في سبيل رفع شأن الكنيسة ولصالحها، التي تعتمد اعتماداً أساسياً على انتخابهم بابا، وأن لايعاق هذا الانتخاب من قبله، وبلطف منحهم الامبراطور هذا المطلب، لأنه كان قد لان أمام التماسات الايرل رتشارد، على شرط أنهم إذا انتخبوا أوتو بابا، عليهم العودة إلى وضعهم المتقدم، وإلى حالهم في السجن.

وبناء عليه، عندما اجتمعوا كلهم في قصر كان اسمه «قصر الشمس»، وقد انتخب خمسة من الكرادلة سادسهم، الذي كان غيوفري الميلاني، أرضى هذا الانتخاب الامبراطور، الذي قام بتهنئته على ذلك، وانتخب الثلاثة المتبقين رابعهم، الذي اسمه رومانوس، وقد عارض الامبراطور هذا الانتخاب، عاداً إياه رجلاً بلا أخلاق حميدة، وذلك بسبب اضطهاده لجامعة باريس، ولأنه قد قيل بأنه في وقت من الأوقات قد فسق ببلانشي، ملكة فرنسا، وأيضاً بسبب اتهامه بابقائه الخلاف

مشتعلاً بين غريغوري البابا المتوفى مؤخراً، وبينه، أي الامبراطور، وكانت أسماء الذين انتخبوا الأول: جايل أسبان Giles Aspan, وستيفن فتزكونت Fitzkonte أسقف بورتوا Portua, ورينرر أوف فيتربو، وجون دي كولونا Colonna, وروبرت سمركوت وكان انكليزياً، والذين انتخبوا الآخر كانوا: رتشارد هانيبال Hannibal, أسقف أوستيا، الذي كان له تبعاً للعادات، الصوت الأول في انتخاب البابا، وسينبولد Sinibald, أسقف أوف سابينا Sabina, ونشب خلاف حاد بين الكرادلة، بسبب هذا الانتخاب، لأن الذي يتوجب انتخابه بابا، هو الذي يجري انتخابه من مجموعتي المنتخبين، ويوافقان عليه، وذلك وفقاً لمرسوم الاسكندر، الذي يبدأ بالكلمات التالية: «على كل حال، لتجنب الخلاف، إلخ»،، وهكذا فإن القضية التي تهم الكنيسة بعمق تركت من دون انهاء، وكانوا منقسمين، أو بالحري متفرقين بالتفكير والجسد.

ومات في هذه الآونة جيمس أسقف برانستي، الذي كان واحداً من طائفة السسترشيان وكان عدواً عنيداً جداً للامبراطور.

عودة الفرنسيين الذين أطلق سراحهم من أسر المسلمين إلى الوطن

وكان الايرل رتشارد قد بقي حتى الآن حوالي أربعة أشهر مع الامبراطور، ولذلك استأذنه وانطلق عائداً نحو الوطن، وكان الفرنسيون، الذين أطلق سراحهم بموجب الهدنة التي عقدها الايرل، قد عبروا البحر الآن، بعدما تأخروا كثيراً بوساطته، ليعيدوا إليه الشكر، وليتسلموا المزيد من الاحسان منه، لأنه كان صديقاً جداً للامبراطور، وكان كأنه امبراطور آخر تقريباً، وكان وافر الثروات، وكان أولئك الفرنسيون في حالة فقر مدقع ويحتاجون إلى المساعدة، وزودهم الايرل رتشارد بكرم بالملابس، وبنفقات السفر وبوسائل مناسبة، كما أنه حصل

من الامبراطور على وعد منه، قبل أن يتركه، بوجوب منح السلام إلى الكنيسة، تحت طائلة عقوبة الموت القاسية جداً، لأي واحد سوف يخرقه، ووجوب الاعلان بصوت المنادي في جميع أنحاء الممالك الامبراطورية، بوجوب عدم اعتداء أي انسان على شخص لاهوتي أو ازعاجه، أو على حاج، ولاسيما على الفرنسيين العائدين إلى بلادهم، وذلك نتيجة لحالة ترمل الكنيسة الرومانية، بسبب موت عدوه البابا غريغوري، وأمر الامبراطور بوكيل حكيم وصاحب نفوذ بمرافقة الايرل رتشارد، ليزوده بجميع الحاجات الضرورية، وليخدمه بشكل لطيف حتى حدود الامبراطورية، ونتيجة لذلك عندما اجتاز خلال مدن ودول ايطاليا والمناطق الأخرى الخاضعة للحكم الامبراطوري، استقبل بسرور عظيم وبتكريم، وبناء على أوامر الامبراطور استقبل وهو على الطريق من قبل سكان المدن، وهم على ظهور خيول أصيلة، وهم مجهزين بشكل غني، وهم يرتدون الحرير والملابس الثمينة الأخرى، ترافقهم موسيقى آلية وصوتية، وذلك وفق طرائق رفيعة، ولسوف أحذف ذكر جميع الأحداث، وسأتولى ذكر حادثة سارة خاصة في مكان واحد.

فلدى اقترابه من كريمونا، خرج أهل المدينة مسرورين لاستقباله، مع فيل الامبراطور وهو يسير أمامهم، وهو مزين بشكل جميل، وكان يحمل برجاً من الأبراج الخشبية، فيه جلس ساسة الحيوان، وهم يلعبون بالبوق، ويصفقون بأيديهم وهم مسرورين، وكان مع الايرل عدد كبير من النبلاء الفرنسيين، وقد شاركوا في سرور تكريمه، وعند الوصول إلى حدود الامبراطورية، عاد وكيل الامبراطور، وترك بعض الفرنسيون الايرل، بعدما كرروا تحيات الوداع، ورجعوا مسرورين إلى بلادهم، حيث استقبلوا بالمعانقة من قبل زوجاتهم وأولادهم، وآخرين أعزاء عليهم، ونقهوا أنفسهم باستخدام مختلف وسائل النقاهة، والراحة الممتعة، ثم إن كل واحد منهم حكى وهو مسرور ذكريات المخاطر

العظيمة التي تحملها في خدمة المسيح، وكيف أنهم هجروا بشكل خياني من الذين كانوا ملزمين بتقديم المساعدة إليهم، وكيف جرى بعد ذلك تحريرهم وتزويدهم بحكمة وبكرم الايرل رتشارد وحده:

وأصغت أذن كل ربة بيت

باهتمام، لسماع حكاية زوجها.

نشوب خلاف بين الداوية والاسبتارية

وبعد مغادرة الايرل رتشارد، غادر عدد كبير من الحجاج الأرض المقدسة في هذه الآونة، وكان الداوية هم الوحيدين الذين لم يوافقوا على تصرفات الايرل رتشارد، وقد أثارتهم لدغات الحسد، فتورطوا في ذمه، وبالنميمة ضده، وبالسخرية منه، وبلاحياء خرقوا الهدنة التي أبرمها، وضايقوا الاسبتارية بشدة وآذوهم، لأنهم قبلوا الهدنة، وتولوا مراعاتها تماماً وقد حبسوهم في عكا وكأنهم محاصرين، ولم يسمحوا لهم بالحصول على المؤن، ولا حتى بجلب موتاهم واخراجهم من بيوتهم، التي كانوا فيها محاصرين، وذلك من أجل القيام بدفنهم، وقام الداوية أيضاً نكاية بالامبراطور، فطردوا جميع رهبان كنيسة القديسة مريم الألمانية، وأخرجوهم من المدينة، وتركوا عدداً قليلاً منهم، هم الذين كانوا أصدقاءهم، وخدم الكنيسة، وهرب الرهبان الذين بقيوا إلى الامبراطور وإلى الأعيان المسيحيين الآخرين، وتقدموا بشكوى ثقيلة حول هذه القضية، ولذلك ثارت فضيحة كبيرة، قامت على أساس فكرة أن هؤلاء الذين سمنوا بوساطة عدد كبير من الموارد من أجل محاربة المسلمين بكل قواهم، قد حولوا الآن قوتهم بشكل فاجر، ووجهوا حقدهم ضد المسيحيين، لابل ضد اخوانهم، وبذلك أثاروا غضب الرب بشكل ثقيل أكثر، ولهذا السبب، فإن الايرل عند مغادرته الأرض المقدسة، وكأنه كان متوقعاً مثل هذه الأشياء، لم يعهد بمدينة عسقلان، أو بالمال الذي تركه هناك، من أجل إكمال بعض أجزاء القلعة، إلى الداوية المتعجرفين،

وفي الحقيقة اختار هو أن يعهد بذلك إلى وكيل الامبراطور، لأن الداوية حملوا مشاعر حقد كبيرة ضد الايرل.

وفاة الكاردينال روبرت سمركوت

وفي تلك الآونة نفسها، غادر طريق الجسد المعلم روبرت سمركوت، الذي كان كاردينالاً من أصل انكليزي، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، محبوباً من قبل الجميع، ومحسناً إليهم، وكان في تلك الأثناء محبوساً في قصر اسمه «قصر الشمس»، يتداول مع الكرادلة الآخرين حول انتخاب بابا، وهناك —كما قيل— جرى دس السم له، من قبل منافسيه الذين كانوا من أصل روماني، والذين كرهوه، لأنه بدا رجلاً مناسباً، وأهلاً لشغل الكرسي البابوي، ومات كاردينال آخر بطريقة مماثلة، وكان ضحية لتآمر أشخاص حسودين له، وأما جون أوف كولونا، وكان واحداً آخر، فهو بعدما جرى هدم قلاعه وقصره من قبل الرومان، اعتقل وألقي به في السجن، بسبب أنه بدا محبذاً وميالاً نحو الامبراطور.

موت ستيفن سيغريف

في التاسع من تشرين أول من العام نفسه، مات ستيفن سيغريف Segrave في رعوية دير ليستر، حيث كان قد تمدد متخفياً، لبعض الوقت أثناء اضطهاده، وكان ستيفن هذا أثناء شبابه قد تحوّل من كاهن إلى جندي، ومع أنه كان من أصل متواضع، فقد تمكن بوساطة شجاعته، في أيامه الأخيرة، من الحصول على الثروة، ومن الترقية إلى منصب، حيث عدّ بين أوائل الرجال في المملكة، وجرى تعيينه مسؤولاً عن العدالة، وقد أدار جميع شؤون المملكة حسب رغبته، وقد نظر دوماً نحو منفعته وتطلع نحو تقدمه، أكثر من تطلعه نحو المنفعة العامة، ونظراً لبعض أعمال العدل التي عملها في حياته، والتي أرضى بها

الرب، استحق السماح له بعمل وصيته وبتقوى تلقى القربان، ليواجه نهاية محمودة ومرضية.

كسوف الشمس

في السادس من تشرين أول من هذا العام، الذي كان يوم عيد القديس إيمان Faith, تعرضت الشمس للكسوف، من الساعة الثالثة حتى السادسة، وبدت السماء وكأن لها شكل الأرض نفسها وكان هذا هو الكسوف الثاني للشمس، الذي حدث خلال ثلاثة أعوام، وهو حادث لم يسمع بمثله حتى الآن.

موت روجر أسقف لندن

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، مات المعلم روجر، أسقف لندن، وكان رجلاً صاحب حياة تستحق الثناء، وقداسة مدهشة، ومعارف متميزة، وكان فهيماً في وعظه، وصاحب حديث مشرق، مرح عند المائدة، وصاحب ملامح هادئة، وقد وقع مريضاً في ستوبنهام Stupenham, وهي عزبة كانت له قرب لندن، وهناك قال وداعاً لهذا العالم، وغادر إلى الرب، وجلب جسده إلى لندن، ودفن في كنيسته الكاتدرائية.

وفاة غيوفري دي لوسي

ومات في الشهر نفسه المعلم غيوفري دي لوسي Lucy, صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان عميد الكنيسة نفسها، وبوفاته رميت كنيسة لندن في لجّة فوضى عظيمة لأن الملك لم يسمح بملء أي كنيسة، قبل أن تصبح مدمرة، ولأن الكرسي البابوي كان شاغراً، وكان الكرادلة في حالة اضطراب جسدي وعقلي، ولأنه لم يكن لديهم رئيس أساقفة، الذي من المعروف أن عميده هو أسقف لندن، ولأنها كانت الآن من دون عميد.

عودة أوتو إلى الإمبراطور حتى يسجن

وكان الكرادلة في هذه الآونة في حالة عدم اتحاد تقريباً، وفي حالة خلاف، وجرى تأجيل انتخاب البابا، وكأنهم كانوا يائسين، ولذلك عاد أوتو إلى الامبراطور، إلى سجنه، من أجل اطلاق سراح الرهائن الذين قدمهم، وليحفظ سمعته من التلطيخ، بأنه خرق وعده، وكان الامبراطور مسروراً جداً بهذا التصرف الذي تصرفه، ومع ذلك أبقاه في السجن، لأنه كان غاضباً عليه، بسبب أنه عندما كان نائباً بابوياً في انكلترا، قد تولى حرمانه كنسياً، وسمح بإعلان حرمانه كنسياً، وبالتشهير به إلى درجة عالية، لكنه عامله بلطف أكبر، لأنه كان قد فعل ذلك من دون إرادته، بل بالاكراه، بحكم طاعته للبابا.

انتخاب فولك باسيت إلى كرسي لندن

ومع اقتراب عيد الميلاد، انتخب كهنة لندن، اسقفاً لهم وراعياً لأرواحهم هو المعلم فولك، عميد يورك، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، وصاحب أخلاق حميدة، ومن أسرة مشهورة، وجاء هذا على كل حال ضد رغبة الملك، الذي آثر المعلم بطرس دي أوغوويلانشي Aigueblanche، أسقف هارتفورد، ودخل بسرعة إلى بيت هيئة كهنة القديس بولص حتى تجري تسميته أسقفاً لهم، وقد عيّنوا أيضاً في الوقت نفسه واحداً اسمه وليم، ليكون عميداً لهم، وكان كاهناً ومستشاراً لكنيسة القديسة مريم، وكان رجلاً صاحب حياة جديرة بالثناء.

وفاة هوغ دي بيتهل

ومع مرور الأيام، وفي حوالي السابع من كانون الأول مات هوغ دي بيتهل Pateshull أسقف سيشتر، وكان رجلاً مايزال في نشاط الحياة وقوتها، وهو بعدما كان قد أمضى حياته بطريقة تستحق الثناء،

انحـرف بوسـاطة مشـورة شريرة، وتحوّل إلى الطـرق الشريرة، وصـار مطرقة للرهبان، ولاسيما إلى أولئك الذين أوجـدوه، وقد مات مع حزن قليل عليـه، مع أنه جلس في كـرسي الأسقفيـة لمدة تزيد قليـلاً عن سنة واحدة.

وعندمـا سمع رئيس رهبان كـوفنتري والرهبان بهذه الحادثة، جمعـوا كهنة ليشفيلد Lichfield وانتخبوا راهباً من كنيسـة كوفنتري، كان مـدرسهم، أسقفـاً لهم وراعيـاً لأرواحهم، مـع أن بعض الكهنة قـد عـارضـوا انتخابه، واختـاروا رتشـارد راعي دير ايفهـام Evesham, الذي كـان آنذاك حامل أختـام الملك، وكان يمارس واجبـات المستشار، ولصـالحه كـان الملك قـد توسط لديهم، ونتيجـة لهذا الانتخـاب، صـار الملك عـدواً لكنيسـة كـوفنتري، وألحق برئيس الرهبـان وبالرهبـان كل ضرر كان يمكنه فعله في كثير من المناسبـات، ولأن الرهبان كانوا هكذا معارضين للملك ولرجـاله، وكذلك بعض كهنة ليشفيلد، ولذلك ارتمى دير كوفنتري في حالة من الفوضى، ونال كثيراً من الأذى، بلغ حداً، أن التجمع الديري تفـرق ينشـد المسـاعـدة من الديرة الأخـرى، وقـام دير القـديس ألبـان انطلاقـاً من عـواطف خيرة، وتكريميـة، ففتح صـدره الرحيم، واستقبل رئيس الرهبـان وبعض رهبـانه، وخدمهم وخيـولهم، بأعظم احترام، وعـاملهم بمنتهى الكرم لمدة سنة انضـاف إليهـا عـدة أشهر.

انتخاب غيوفري أوف ميلان بابا وموته إثر ذلك

وفي هذا العام انتخب الكرادلة بابا المعلم غيوفري أوف ميلان، وجاء ذلك بعد نقـاشات كثيرة، وبعـد التعرض لمختلف أنواع الأذى، ولخطر الانقسـام بين الكـرادلة، وهو انقسـام زرعت بـذوره من قبل الشيطان، وأيضـاً بعـدمـا تناقص عـدد الكرادلة إلى عـدد صغير بوسـاطة البـلايا والأسى، وكان الذي انتخبوه متميزاً بأخلاقه، ومتعلماً، ولكنه كان مسناً

وقد مال نحو الضعف، وما كاد يشغل الكرسي البابوي لمدة ستة عشر يوماً، عندما قطع بموت قبل أوانه، ودفع دين الطبيعة، وقد قيل بأن السم قد دسّ له، وهكذا ترك الكرسي البابوي، لابل بالفعل الكنيسة كلها في حالة بائسة، وفي تلك الآونة نفسها، مات واحد من الكرادلة، واسمه رتشارد هانيبال.

مؤتمر أساقفة انكلترا

التقى في هذه الآونة رئيس أساقفة يورك، وأساقفة لنكولن، ونورويك، وكارآيل، واجتمعوا مع عدد كبير آخر من رجال الدين واللاهوتيين المتنفذين والمستقيمين، للتداول حول كثير من مصائب الكنيسة المضاعفة، وليلتمسوا المواساة الربانية، ثم انهم أمروا بعمل صلوات خاصة وبصوم، وأن يراعى ذلك بشكل عام في جميع أرجاء انكلترا، حتى يقتنع الرب بتحرير الكنيسة الرومانية وبردها إلى العافية، حيث كانت الآن محرومة من راع لها وبابا ليحكمها، وبهذا أخذوا مثلهم من أعمال الرسل، حيث ورد فيها، أنه عندما جرى سجن بطرس، صلّت الكنيسة من أجله من دون انقطاع.

وتوصلوا أيضاً إلى قرار جماعي، بإرسال رسل إلى الامبراطور، لحثه بالتماسات باكية، بما أنه يهتم بخلاص روحه، أن يتخلى بقلب مخلص عن جميع مشاعر الغضب والحقد، وأن يهجر جميع أنواع الطغيان، وأن لايعيق تقدم مصالح الكنيسة ومنافعها، لابل أن يكون بالحري رحيماً بالسماح لها بالتنفس بحرية، مع أنه أثير لدراسة رفع شأنها وتقدمها، لأنهم قالوا بأن الذين أثاروا غضبه، هم الآن أموات، ومن الواضح أنه تصرف طغياني وعمل معارض للمنطق، أن يجعل الأبرياء يدفعون من أجل أخطاء الأموات.

وعندما —على كل حال— شرعوا بالتباحث حول انتخاب الرسل،

الذين كان عليهم السفر من خلال فرنسا والبلدان المجاورة، وأن يسعوا إلى استنهاض أساقفة تلك البلاد، لقد انتقلوا إلى العمل بطريقة متشابهة، وبدأ كل واحد يحتج بمسوغات تافهة، ورفض أن يأخذ على عاتقه أعباء مثل هذا العمل الكبير والمقلق، ومثل هذه المتاعب الخطرة، حتى وإن كان ذلك لصالح المسيح وكنيسته، وأخيراً كما قال الشاعر:

بحضور اللص يبتهج

المسافر الذي لايحمل ذهباً.

وبما أنهم لم يجدوا أحداً جاهزاً من بينهم، ليقوم بأعباء الرحلة، اختاروا الدومينيكان والفرنسيسكان لهذا الغرض، لأنهم كانوا جوالين، وكانوا عارفين معرفة جيدة بجميع البلدان، وعندما —بناء عليه— حصل هؤلاء الرسل على مقابلة مع الامبراطور، وقدموا إليه رسالتهم، أجابهم كما يلي قائلاً:

«ومن الذي يعيق تقدم أحوال الكنيسة؟ لست أنا، إنه بالحري التعالي المجنون، والنهم غير المستقر للكنيسة الرومانية.. ومن الذي يمكنه أن يندهش إذا ما كنتُ أنا المعيق لتقدم الكنيسة الانكليزية والرومانية؟ لأنها تسعى باذلة كل جهودها لخلعي من عرشي الامبراطوري، ولقد حرمتني كنسياً، وأساءت إلى سمعتي بدرجة عالية جداً، وبالضرورة صبت الأموال لتلحق الضرر بي»، وهكذا أخفقت خطة الأساقفة الانكليز في إحداث أي تأثير في هذه القضية، وبرهنت أحداث هذا العام أنها كانت غير مواتية تماماً للبلاط الروماني، وذلك جزاء —كما هو واضح— على ذنوبه، وأيضاً غير نافعة للأرض المقدسة، بسبب تصرفات الداوية، ومؤسفة وغير سعيدة للنبلاء الانكليز، لأنه بالاضافة إلى الذين هلكوا في البحر، مات في هذه السنة بعض الأساقفة المتميزين، وهما الحبران الرومانيان، مع بعض الكرادلة، وآخرين، قد تقدم ذكرهم أعلاه.

ذكر مختصر للذين ماتوا في هذا العام

وكان بين النبلاء الانكليز الذين ماتوا في هذا العام: وليم دي فوربس Forbes, ايرل أوف ألبمارل، الذي وهو مسافر لحجه، وقع مريضاً في البحر المتوسط، وبات غير قادر على الأكل، وقد تحمل آلاماً طويلة لمدة ثمانية أيام، وفي يوم الجمعة التالية قبل عيد الفصح، وهو اليوم الذي أسلم فيه المسيح الروح وهو على الصليب إلى أبيه، هو وفق الطريقة نفسها أسلم روحه إلى المسيح، ومات أيضاً النبيل والقوي وولتر دي لاسي Lacy, الذي قد ذكرناه من قبل، وحدثت وفاته أيضاً في حوالي عيد الفصح، تاركاً ميراثه المبدد إلى بناته، وستيفن سيغريف، الذي ورد ذكره في مكانه من قبل، وهو الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، وكانت مستشاريته صالحة وعادلة لانكلترا، وغيلبرت باسيت، قد غادر هذه الحياة، وقد أتينا على ذكر سوء حظه أعلاه، ومات كذلك جون بيسيت المسؤول الرئيس عن إدارة عدالة الغابات، وغادر هناك إلى الرب بطرس مولاك Maulac, وهوغ ويك Wake, وروبرت مارميون Marmion, وبطرس دي بروس Brus, وغويسكارد Gusicard, وليديت Laidet, ويوستاس دي ستوتفيل Stutevill, (الذي خلفه في ميراثه زوجة هوغ ويك)، ويودو Eudo, وهامو Hamo, الذي كنيته سن Sin, وبلدوين دي بثيون Bethune, وجون فتز-جون (قهرمان الايرل رتشارد) وغ. G, أخو الايرل المذكور، وجون دي بيوليو Beaulieu, وجيرالد دي فورنيفال Furnival, وعدد كبير آخر من النبلاء الانكليز من كونتية الايرل رتشارد، الذين تسابقوا بشكل مجيد فراراً من هذه الحياة إلى السماء، وذلك تحت حماية المسيح، عندما كانوا يقاتلون في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وماتت في هذا العام، كما ذكرنا من قبل إليانور ابنة غ. G, كونت بريتاني، وكانت

وفاتها في بريستول Bristol, وكذلك الأسقفـان المشهوران: روجر أسقف لندن، وهوغ أسقف شيستر، فهما أيضاً ماتا في هذه السنة، وعدد كبير آخـر من الـلاهوتيين المشهـورين، ومن الرجـال العلمانيين، الذين أسماؤهم كثيرة جداً حتى نأتي على ذكرهم.

موت الإمبراطورة إيزابيلا

وفي هذا العـام مـاتت أيضـاً الامبراطـورة ايزابيـلا، التي كـانت مجد انكلترا وأملهـا، وجـاء مـوتها أثناء الولادة، وقـد علمنا بمـوتها المحـزن كثيراً، بشكل كـامل في الـرسـالة الكئيبـة التـاليـة لزوجهـا الامبراطور فردريك.

رسالة الإمبراطور حول موتها:

من فردريك الامبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

لقد اعتـدنا مؤخـراً في رسائلنا، وبوساطـة رسلنا على أن نقدم إليكم أخبـاراً طيبـة، غير أننا بسبب سـوء الحظ، ولأننا أصبحنا محسـودين بنجـاحـاتنا، قـد أرغمنا بـالحزن على أن نبـوح إليكم مكرهين خبراً مكروهاً، وذلك بقـدر مـا نحن نعـاني من خسارة لاتعـوض، هي وفـاة قرينتنا الأوغسطـة المحبوبة، وهكذا، أرغمنا بوسـاطة الموت القاسي على تحمل الانفصام المحـزن للروابط الاجتماعية، ووقعت هـذه الواقعة ذات الذكـرى المرعبـة لدينا، في اليـوم الأول من الشهـر المنصرم، وهو شهـر كـانون الأول، وذلك عندمـا استجـابت قـرينتنا المذكـورة الامبراطورة وأختك، إلى الطبيعة، أثناء نداء الرب، الـذي يأخذ بعيداً حيـاة الأمراء، والذي لديه لايوجـد استثناء، أو قبـول لأشخاص، لأنه في سبيل شفـاء الذين، لو أن المنيـة رضيت وراعتنا، وأوقفت الطبيعـة دفع دين الموت الذي لابد منه، لما سمح لنا حبنا الثمين وعنايتنا وقرينتنا، بعدم بذل كل نفقـة بالمال، والجهـد، أو الممتلكات، لكن عنـدمـا أخـذها ملك الملوك،

ومولى الموالي، الذي يحكم بقدره من فوق قبة السماء، والذي لايمكن لأحد أن يقاوم إرادته، وأبعدها عن الوحدة مع جسدنا، وعن روابط الأخوة التي كنت بها متحداً معها، لقد قرر بآرائه في عليين، بوساطة ترتيب، أو بالحري بتدبيره، أن تعيش لنا ولكم في ذكرى ولديها، لأنه بمنحة الرب القدير، يعيش أولاد ملكيون، منهما نهض ملك وملكة معاً تحت عيني والدهما، ليحلا محل أمهما ويقفا في مكانها، فبعطائها الخصب تلقينا عهوداً نبيلة، هي التي تمتن روابطنا العامة بالمصاهرة، وتربط برباط وشيج كرسي قيصر وكرسي جلالتكم، بامتياز خاص، بدماء البنوة والحفادة، وعلى هذا إن حبي لكم قائم على ذريتها، التي بها بدأت، وارتفعت إلى الوجوب، وسمات حلف سوف يدوم طويلاً، ومع أنه بناء عليه إن خسارة قرينتنا الأوغسطة، التي هي أختك، لايمكن أن تذكر من قبلي، أو تسمع من قبلك، من دون حزن كبير في القلب، وأسى لموتها لايمكن فصله عن عميق مشاعرنا، ومع ذلك إن ذكرى الأبوين المحبوبين مزدهرة في الولدين، وقد تثبتت علائقنا بشكل لايمكن فصمه بهذين الحفيدين، الذين حملت بهما أختك الأوغسطة وولدتهما طفلين لنا. صدر في هذا اليوم الثلاثين من كانون الثاني، إلخ».

حول أوضاع الأنواء خلال هذا العام كله

وكان هذا العام على العموم وافراً بمحاصيل القمح، لكن من عيد البشارة للعذراء المباركة حتى عيد الرسولين سمعان وجود، استمر جفاف وحرارة لاتحتمل جففت البحيرات العميقة والسباخ الواسعة، وجففت كثيراً من الأنهار، كما جففت المطارد، وأوقفت أعمال الطواحين، وبما أن المراعي قد جفت، فقد ماتت الأعشاب، وبالتالي أخذت الأسراب والقطعان بالهلاك بسبب الجوع والعطش، وفي الشتاء أيضاً، ومنذ ميلاد ربنا، كان هناك جليد وثلج، ترافق مع برد حاد لايحتمل، وقد غطى وجه الأرض، وجعله قاسياً إلى درجة عالية، وجمّد

في الوقت نفسه الأنهار، حتى ماتت أعداد كبيرة من الطيور، ومثل هذا لم يتذكر الناس أنه وقع من قبل.

بطرس أوف سافوي يعمل استعداداته للعودة إلى الوطن

عام ١٢٤٢، الذي كان العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد بلاطه كما جرت العادة، في عيد الميلاد في لندن، في حال من السلام، وأطال الاحتفالات في الدير لقرابة خمسة عشر يوماً، وخلال ذلك، وبالتحديد في يوم ختان ربنا انتشرت تقارير حول وصول الايرل رتشارد، وعمت جميع أرجاء انكلترا، وفي هذا الموعد أيضاً، قام بطرس أوف سافوي، إيرل أوف رتشموند، الذي كان رجلاً مستقيماً ومحترماً، بتسليم الملك ووضع بين يديه القلاع المتميزة والفخمة للمملكة، التي كان قد تسلم المسؤولية عنهن، لأنه كان يخشى من أن ترقيته المفاجئة، سوف تغضب كثيراً نبلاء انكلترا، وأنه أخذ على عاتقه عبئاً فوق طاقته، في قيامه بوضعه هذه القلاع تحت عهدته، بينما الانكليز مهملين ومعطلين، ولكي لايحدث اضطراب في انكلترا، من خلاله لدى وصول الايرل رتشارد، الذي ربما سوف يستمع إلى شكاوى ثقيلة حول هذه القضية، وبعدما قدر الأمور بعقله بحكمة، ورأى الخطر الكبير والقريب عليه شخصياً، تخلى عنهن جميعاً، وعمل ترتيباته —بعد الحصول على إذن الملك— للعودة إلى الوطن، وبهذا العمل الحكيم الذي يدّل على حكمة وحسن سلوك، به سكّن مشاعر كثيرين، ولكن بالوسائل نفسها التي حصل بها على إذن بالمغادرة، استدعي على سرعة من قبل الملك، قبل أن يركب السفينة، وبناء على طلبه الملح، حصل —مع أنه لم يرغب— على قلعة دوفر، وتسلم المسؤولية عنها.

رعونة كونت دي لى مارشي

في هذا العام، قام كونت دي لى مارشي، وهو أكثر الكونتات البواتيين

قـوة، بتقـديم الطاعـة وتأدية الولاء إلى أمفـولسي [أمفولسـوس]، أخـو الملك الفرنسي، الذي بموجب تقدمـة أخيه غير العادلة، اغتصب ملكية كـونتية بواتو، وبـدأ ينشط ضد سلطة النبـلاء، وبدأ يتمـدد بمقاصـده، وبعـد مضي بعض الوقت؛ جرت دعـوة كـونت دي لى مارشي المذكـور للقـدوم مسـالماً لتناول طعـام الإفطار مع أمفـولسي كـونـت بواتو المذكور،وذلك أثناء الاحتفالات بعيد الميلاد، لكن في إحدى الليالي، بعد مضي أربعـة أيام تقريبـاً على عيـد الميلاد، وكـان على وشك الاستجـابة للدعـوة، وفقـاً للوعـد، لكنـه في الصبـاح تشـاور مع زوجتـه إيزابيـلا، فتوصل إلى قرار بتغيير نيته، وبمعارضة أمفولسي المذكور بالقوة، ولذلك ذهب إلى ذلك النبيل، وقـال له برعـونـة: «لقـد نويت، عندمـا غششت وفرض علي، أن أقدم الولاء لك، لكن الآن غيرت نيتي، حيث أنني لن أرتبط قط بكم بأية روابط طاعـة ولن أعترف بأي ولاء لكم، ذلك أنك رجل عـدواني، لأنـك استـوليت من دون خجل على كـونتيــة صهـري الايرل رتشارد، عندمـا كان يقاتل بإخلاص من أجل الأرض المقـدسة، وبرحمة يقـوم بتحـرير الأسرى من أبناء بـلادنا، وهكذا رددنا بالشر على الخير»، وهكذا قام وهو محقون بالغضب، وبالتهـديد بصوت مرتفع، مع زوجتـه، وهو محاط بكتلة من الجنـود، في حين أعـدّ رمـاة القسي الزيارة من البـواتيين قسيهم للرمي، فـاندفـع إلى وسطهم، فألقى النار في البيت الذي كـان ساكنـاً فيـه، ثم امتطى فجأة فـرساً، وأخـذ بالفرار، الإجـراء الذي أدهش أمفــولسي وأغضبـه، مع جميع الـذين رأوا ذلك، وجعلهم يشتعلون بالرغبة للانتقام.

تقديم شكوى إلى الملك الفرنسي حول هذا الإجراء

ثم تقـدم أمفولسي المذكور بشكوى ثقيلـة، ووضعها أمام الملـك ضد هذا العدوان، حـول كل من هذا الفرار غير المتـوقع، وإحراق البيت من قبل الكونت المذكـور، الذي كـان مثل فأر في كيس طحين، أو أفعى في

صدر انسان، وهكذا ردّ بشكل فاسد على استضافته له، وأثار هذه الشكوى بسبب مسوغ جيد، الملك وكذلك نبلاء فرنسا، لأخذ انتقام عادل.

كونت دي لى مارشي يطلب المساعدة من ملك إنكلترا

وبات كونت دي لى مارشي خائفاً كثيراً من غضب الملك الفرنسي، فحصن قلاعه وشحنها بالسلاح وبالرجال المسلحين، وكذلك بكميات وافرة من المؤن، وأمر بتحويل سكك المحاريث إلى رماح، والمناجل إلى سهام، وقدر الشرور التي يمكن أن تقع، ولشعوره أنه لايستطيع طويلاً مقاومة مثل ذلك الأمير الكبير، ألح بالرجاء إلى ملك انكلترا، للقدوم إلى بواتو، مع مبلغ كبير من المال، ذلك أنه يستطيع بمساعدة البواتيين والغسكونيين في قوة كبيرة، من استرداد جميع الأراضي التي استولى عليها الملك الفرنسي من دون حق، ووعده بالمشورة الفعالة، ومساعدته الشخصية، مع مساعدة الأعيان الآخرين، وخاصة ملك أراغون، وكونت طولوز، مع آخرين عددهم كبير حتى نذكرهم هنا، ووقتها قدّر الملك الانكليزي هذه الأمور كلها وتفحصها بعقله، ووثق بالكلام المخادع لكونت دي لى مارشي والبواتيين الآخرين، الذين ينبغي أن لايثق بهم.

عقد بارلمان كبير في لندن

وبناء عليه، كتب الملك هنري، إلى جميع نبلائه الانكليز، وإلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والإيرلات، والبارونات، وأعطاهم أوامر دقيقة للاجتماع في لندن يوم الثلاثاء التالي، قبل عيد طهارة العذراء المباركة، للتداول بعناية كبرى حول بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالمملكة، والتي لاتحتمل التأخير.

كيف ذهب الملك إلى استقبال الإيرل رتشارد لدى عودته من الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة نفسها، كـان الملك متـوقعاً وصـول أخيـه الايرل رتشارد من القارة، وكذلك النبلاء الذين كانوا قادمين من مسافات نائية لحضـور المؤتمر، فأطال إقـامتـه في لندن حتى الأول من شبـاط، أي يوم عيد القديسة هيلاري، لكنه سمع آنذاك بأن الايرل قد نزل في دوفر، في اليـوم التالي لعيـد الغطاس، وبناء عليـه قام ومعـه ملكتـه، يحيط به كتلة كبيرة من النبلاء، فذهب مسروراً لاستقبـاله، ولدى رؤيته له، اندفع إلى مابين ذراعيه، واستقبله بكل علامة مـن علامات البهجة، فقد أثار الدم الأخـوي العـواطف من على الجهتين، وقـد أثقله الملك، وجميع النبـلاء تقـريباً بمختلف الهدايا، وفي اليـوم الثـاني لعيـد القديسـة اغنس، وصل الايرل إلى لندن، وعند وصـوله تزينت المدينـة بالأعـلام وبالمعلقـات، وكأن ذلك كـان من أجل العيـد، وأقـام الأخـوان وليمـة مع عـدد من الضيوف الخاصين الذين دعاهم الملك.

البواتيون يحثون الملك مع أخيه لعبور البحر لمساعدتهم

وعلم البواتيون بوصول الايـرل رتشارد إلى انكلترا، فتابعوا من دون توقف العمل على حث الملك، وكذلك الايرل المذكـور، ليقدما من دون تأخير، وليحصـلا على امتيازاتها، وبشكل خاص كـونتيه بواتـو، وحول ذلك تصوّر الملك خطة ثابتة بالعبور إلى فرنسا، حتى أنه لم يمكن اقناعه بالتخلي عن نيته بوساطة منطق أصدقائه، ولابوساطة أصحاب الرغبات الطيبة.

تفرق البارلمان الإنكليزي في حالة غضب

ومع اقتراب حلول مـوعـد عيد طهـارة العـذارء المباركـة، اجتمعت النبـالة الانكليـزية في لندن وكـانت هـذه النبـالة مكونة من الأسـاقفـة،

والإيرلات، والبـارونات، وجـاء الاجتماع بناء على طلب الملك وأمـره، ولأنهم كـانوا يعـرفـون بأن الملك، قـد قـام غـالبـاً وفق هذه الطريقـة، بإزعاجهـم وفق هذه الحجة الزائفـة، وباستدعائهم بكـل سرعة، فعملوا يميناً مع بعضهم، وتوصلوا إلى قـرار ثابت، تحت طائلة عقـوبة التكفير، أن لايوافق أحـد منهم في هـذا المؤتمر، ولابشكل من الأشكال، على أية جباية للأمـوال سوف يحاولها الملك، وكان الآن قد بات معـروفاً بشكل جيد لدى الجميع بأن كونت دي لى مـارشي، قد دعا بإلحاح الملك وحثه على العبـور إلى القـارة، آخـذاً معـه من المال كـل مـايمكنه استخـراجـه وجمعـه، دون الاهتمام بأي شيء حـول قـوة الجيش الانكليـزي، وبذلك أعطوا قيمة صغيرة للجندية، أو للقوة الاقطاعية للمملكة، عادين الملك بمثابة بائع متجول، الذي همّه هو الحصول على المال، يضاف إلى هذا أن الانكليز كانوا مثارين —بشكل محق— ضـد الكونت وضد جميع أتباعه من البواتيين، ولم ينظروا نظرة رضا نحو الملك الذي وافق على مثل هذه الأشيـاء، من دون مشـاورة نبـلائـه، وبناء عليـه، عندمـا جعلهم الملك يعرفون قراره في قلبه الذي لاعـودة عنه، أي العبور إلى القارة، استجابة لدعـوة كونت دي لى مـارشي، ومع مناقشات متنوعـة طالب بمساعـدة ماليـة منهم، أجابه النبلاء بحدة كبيرة في نفـوسهم، بأنه عمل خطته من دون استشـارتهم، وأنه كان خـالياً من الحيـاء بتقدمـه بمثل هذا الطلب، ذلك أنه ضيق مـراراً على رعايـاه المخلصين وأفقرهم، بطلبـه المال منهم وكأن المسألة صارت عـادة، وكأنهم كانوا أحط أنواع العبيد، وأنه غـالباً ما استخرج منهم مبالغ ضخمة من المال، جـرى انفاقها من دون فائدة، ولذلك قـاموا الآن بمعارضتـه في وجهه، ورفضـوا أن يتم تجريدهـم من أموالهم بعد الآن، من دون غاية ولا هدف.

وبناء على ذلك لجأ الملـك إلى طرائق الرومـان ومكـرهم، وأمــرهم بالانتظار حتى اليـوم التـالي لسماع رغبـاته حـول مـايتعلق بهذه القضيـة

وبقضايا أخرى، وجمعهم في اليوم التالي واحداً، واحداً، وفي أوقات مختلفة، في غرفته الخاصة، مثل دعوة الكاهن المرضى للاعتراف، ولأنه لم يستطع اضعاف تصميمهم عندما كانوا مجتمعين، سعى بدهاء إلى اضعافهم واحداً تلو الآخر، بحججه، ورجاهم القيام بتقديم مساعدة مالية، قائلاً لكل منهم: «إنظر إلى الذي قدمه راعي الدير فلان، ودفعه لمساعدتي، وإلى الذي قدمه فلان الآخر إليّ» حاملاً بيده في الوقت نفسه قائمة، أظهر عليها اتفاقية مكتوبة، بأن راعي الدير فلان، أو رئيس الرهبان قد دفع كذا وكذا، أو أنه على الأقل قد وعد بدفع كذا، وكل هذا مع أن ما من واحد منهم قد أعطى موافقته على شيء من هذا القبيل، أو أنه عرف أي شيء عن ذلك.

فبمثل هذه التصرفات الزائفة، والكلمات المعسولة، تمكن الملك بدهاء من ايقاع عدد كبير منهم بشباكه، ووقف آخرون —على كل حال— صامدين، ورفضوا بتاتاً التزحزح عن الجواب الذي اتفقوا عليه بشكل عام، وأقسموا على الالتزام به، وإلى هؤلاء قال الملك وهو مغضب:

«هل سأكون أنا على هذا رجلاً حانثاً بيميني؟ لقد أقسمت يميناً لاعودة عنه، بأنني سوف أعبر البحر، وأطالب باسترداد حقوقي من الملك الفرنسي بذراع ممدودة، وهذا مالا يمكنني القيام به من دون مبلغ كبير من المال، عليكم تزويدي به بكرم منكم»، وعلى الرغم من لجوئه إلى وسائل الاقناع هذه وسواها، لم يتمكن من ايقاع بعضهم في شباكه، مع أنه —كما ذكرنا من قبل— دعا كل واحد منهم إليه بشكل خاص.

ثم إنه بعث —على كل حال— في المرة الثانية، إلى أصدقائه المقربين وخاطبهم كما يلي:

«أي مثل مهلك ضربتموه إلى الآخرين، أنتم الذين ايرلات شجعان، وبارونات، وفرسان، عليكم أن لاتكونوا خائفين، مع أن آخرين، أي

أساقفة الكنائس، قد أظهروا خوفاً، عليكم أن تكونوا، متشوقين أكثر من الآخرين، لاسترداد حقوق المملكة، ولتجريب حظ الحرب ضد أولئك الذين ألحقوا الضرر بنا، وأن نقوم بتقوية قدرتنا ودعم سلطتنا، هو واجب واضح، بموجب الحقوق التي نمتلكها، وأيضاً بموجب الدعوة والوعود التي تلقيناها من النبلاء، وكذلك بموجب مثل ما حدث في ويلز، حيث تمكنا مؤخراً من الانتصار بسعادة، وميول النجاحات الماضية، سوف تقود الطريق إلى نجاحات أخرى، فكيف لديكم قدرة على تركي، وأنا مولاكم، فقيراً، ومهجوراً، في الوقت الذي أنا فيه على استعداد للقيام بهذه المهمة الصعبة، في سبيل الصالح العام، وبما أنني مترابط بكل دقة بيمين لأداء وعدي والوفاء به، بالعبور إلى القارة؟»، وعندما سمع النبلاء بهذا أجابوه قائلين:

«إن الكلمات لايمكنها التعبير عن حيرتنا حول المتاهات التي أغرقت فيها مبالغ لاتحصى من المال، التي جبتها جلالتك من الوصايات المتنوعة على النبلاء، ومن مختلف المواريث، واستخراجات متوالية، من كل من الكنائس الشاغرة، ومن أراضي النبلاء، ومن الأعطيات التي قدمت سلفاً، إنها مبالغ كافية لإحداث الدهشة لدى كل من يسمعهم، ومع ذلك فإن هذه المبالغ المالية، لم تجلب قط أية زيادة، أو منفعة للمملكة، يضاف إلى هذا لقد دعوت مؤخراً إلى المملكة بعض النواب البابويين، أو أشخاص مارسوا واجبات النواب البابويين، وهؤلاء عندما كانوا يجمعون عناقيد العنب التي بقيت، جمعوا لأنفسهم المال الذي كان قد بقي، ومجدداً إن جميع نبلاء انكلترا مندهشين كثيراً تجاه توليكم القيام بمثل هذا العمل الصعب والمرعب، من دون أخذ رأيهم وموافقتهم، حيث أنك وضعت ثقتك في أولئك الذين هم بلا ثقة، وأنك على الرغم من الارادة الطيبة لرعاياك الطبيعيين، معرض نفسك إلى نصيب مشكوك فيه، ثم إنك أيضاً قمت تعريضاً لنفسك للخطر،

السمعة فخرقت من دون كرامة الهدنة المعمولة بين الملك الفرنسي وبينك شخصياً، وهي التي أقسمت عليها بحق روحك، بمراعاتها دونما احباط، وذلك حتى التاريخ الذي كان قد أعده من قبل الايرل رتشارد المشهور، الذي هو أخوك، والايرل ر. R بيغود».

وأضاف الذين هم أكبر سناً، والذين أكثر نفوذاً بينهم قائلين:

«وأنت أيضاً، لخطرك، قد وضعت كثيراً من الثقة، ووعدت بالحضور شخصياً، هؤلاء النبلاء القاريين المشاهير بسوء السمعة، الذين هم قائمين بالتمرد، ورفع أعقابهم، ضد مولاهم، الملك الفرنسي، والذين بناء على هذا بالذات، ينبغي عدم الوثوق بهم، لشهرتهم باقتراف خيانات مضاعفة، وأنت تعرف أيضاً بأن ملك نافار، الذي وعدوك بمساعدته، قد اقترف مؤخراً جريمة في الأرض المقدسة، ندبة جرحها لم تزل بعد، ولتكن مثل أجدادك المشهورين، وليكن واعظاً لك، وناهياً لك ومعيداً عن الذي نويته، أنهم يمتلكون في تلك الأرجاء قلاعاً لاترام، وكثيراً من الأراضي، وجيشاً كبيراً، ومبالغ لاتحصى من الأموال، ومع ذلك كانوا غير قادرين على صد القوات الفرنسية الثابتة والتي لايمكن قهرها، ولا حتى القدرة على الاحتفاظ بممتلكاتهم»، ولدى سماع الملك لهذا الكلام انفجر غاضباً بعنف، ودعا القديسين أن يكونوا شهوداً، وأقسم أنه لن يتراجع عن مقصده، بالخوف، أو أنه سيتوقف عند أية خطابات غامضة، ولن يتوقف عما عزم عليه، وأنه سوف يقلع في ثمانية عيد الفصح، وسوف يجرب من دون خوف حظ الحرب في القارة ضد الفرنسيين، وبهذا ارفض المؤتمر بغضب مغروس بثبات، ولكن بشكل سري في عقول الطائفتين.

ردّ بارونات إنكلترا

وبعد مضي بعض الوقت، ولكي لايضيع مغزى جواب البارونات

ويصبح منسياً، تمّ وضع هذه الأشياء كلها كتابة، وتدوينها كما يلي:

«بما أن السيد رئيس أساقفة يورك، وجميع أساقفة انكلترا، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وكذلك الايرلات، وتقريباً جميع بارونات انكلترا، إما قد حضروا شخصياً، أو جرى تمثيلهم بنوابهم، واجتمعوا بناء على دعوة من السيد الملك، في ويستمنستر، في يوم الثلاثاء التالي قبل طهارة العذارء المباركة، في عام ألف ومائتين واثنين وأربعين لتجسيد ربنا، أي في العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وذلك بغية سماع رغبة الملك وارادته، والأعمال التي من أجلها دعاهم.

وبما أن مولانا الملك قد أرسل إليهم السيد رئيس أساقفة يورك، والنبيل الايرل رتشارد، وولتر أوف يورك، وعمدة بيفرلي Beverley, بمثابة رسل خاصين، ليتولوا تبيان رغبته وإرادته وعمله، وقد سأل جميع نبلاء المملكة أن يقدموا مشورتهم ومساعدتهم ليحصل على ملكية ميراثه وحقوقه في القارة، التي هي عائدة إلى مملكته، مملكة انكلترا، وأخيراً بعدما عقد الأساقفة المذكورون، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، مناقشات طويلة، نصحوا الملك في المقام الأول —من خلال النبلاء المتقدم ذكرهم— أن ينتظر حتى انتهاء الهدنة المعقودة بينه وبين ملك فرنسا، لكن إذا صدف وقام الملك الفرنسي بأية مغامرة، متعارضة مع بنود الهدنة، وقتها على ملك انكلترا المذكور ارسال رسل خاصين له لإقناعه بالإعذار وبالانذار، بمراعاة الهدنة، وأن يعيد التفكير في مغامرته، إذا ما كان هو شخصياً أو أحد من نبلائه قد فعل ذلك، وإذا ما رفض الملك الفرنسي أن يفعل ذلك، وقتها سيقومون رغبة منهم بإلحاق أنفسهم برأيه، في سبيل تقديم العون إليه، بقدر ما يملكوه من قوة».

ووافقوا جميعاً على هذا الجواب، وبطريقة مشابهة لهذه، ومنذ أن صار حاكمهم لقد قاموا مراراً، بناء على مطالبه الضاغطة، فأعطوه

مساعـدات، منها الجزء الثالث عشر من ممتلكاتهم المتحركـة،-وبعد ذلك الجزء الخامس عشر، ثم الجزء السـادس عشر، وبعد ذلك الجزء أربعين، وأعطوه ضرائب الأرض، وضرائب التخـوم، وعـدة بدائل عن الخدمـة العسكرية، كـان آخـرها بدل عظيم من أجل زواج أختـه الامبراطورة، ومـا كـادت تمر أربعـة أعـوام بعـد ذلـك التـاريخ، عندمـا طلب مجدداً المساعـدة منهم، وحصل أخيراً بعد التماسات مكثفـة وشديدة على الجزء الثـالث عشر، وقـد منحـوه ذلك على شرط،أنـه لاهذه الجبـاية، ولا أية جبـاية متقدمـة ينبغي أن تعـدّ في المستقبل عـادة منتظمة، وقـد أعطاهم صكاً حـول هذا الموضـوع، يضاف إلى هذا، أنه قـام بوعـدهم بأن جميع الامتيــازات الواردة في الصك، ينبغـي من ذلك الحين، كما كــان فيما مضى، أن تراعى تماماً في جميع أرجاء مملكتـه، وحول هذا أعطاهم صكاً صغيراً، احتوى الأشياء نفسها، وهذا الصك هو الآن بين أيديهم.

وبالاضافة إلى هذا، قام الملك عن طواعية من ذاته، وبوساطة نصيحة باروناته، فـوعـدهم بأن المال كلـه الذي سـوف يجبى من الجزء الثـالث عشر المذكور، يتـوجب أن يوضع في حـرز أمين في قلاعـه الملكية، تحت رعـاية أربعة من نبـلاء انكلترا، هم: ايرل وارني مع آخرين، وبمـوجب اختيـاره، ووفقـاً لمشــورته، الشيء نفسـه ينبغي انفـاقـه عندمــا تتـوفـر الضرورة، في سبيل منفعة الملـك المذكور والمملكة، وبالنسبـة للبارونات هم لم يعرفوا، ولم يسمعوا، بأن أياً مـن المال المتقدم الذكر،قد صرف بناء على اختيار أو مشورة أي واحد من النبلاء الأربعة المتقدمي الذكر، وهم يعتقدون بشكل ثابت —وفي الحقيقة، إنه لمن المعروف تماماً— بأن الملك مازال لديه ذلك المبلغ كله دون أن يلمس، ومن ذلك المبلغ، يمكنه الآن أن يزود نفسه بمعـونة كبيرة، وإلى جانب هذا، هم يعرفـون بشكل جيد أنه منذ ذلك الحين جمع كثيراً مـن أمـوال المواريث، بشكل خــاص من رئـاسة أسقفيـة كانتربـري، ومن عدد من أغنى الأسقفيـات في انكلترا،

ومن أراضي الايرلات، والبـارونات، والفـرسـان الموتى، الذيـن كـانوا متملكين من قبله، فمـن هذه المواريث لوحـدهـا، لو أنهم اهتمـوا بها واعتنوا، لتـوجب جمع مبلغ كبير مـن المال، عـلاوة على ذلـك، إنه من وقت إعطائهم الجزء الثالث عشر المذكـور، كان رجـال العدالة يرتحلون بشكل متـواصل ويدورون خـلال جميع أجـزاء انكلترا، وهم يجمعـون ضرائب الغـابات، وجميع الضرائـب الأخـرى، وعلى ذلك فـإن جميع الكونتيات، والمئويات من أجـزاء الكونتيات، والمدن، والمناطق، وتقـريباً جميع القـرى، حتى قرى انكلترا قـد غرمت بشكل ثقيل، وبناء عليـه إنه من هذه الجولات من المتـوجب أن يكون صـار لدى الملك مبلغـاً كبيراً من المال، إذا مـا دفع، وجمع بشكل صحيح، وبناء عليـه يمكنهم القـول بشكل صحيح بأن جميع انكلترا قـد سيمت ظلماً شديداً، وتعـرضت إلى فقر شديد بوساطة هذه الغرامات، وبوساطة المعونات التي أعطوه إياها من قبل، إلى حـد أنهم الآن قـد بقي لـديهم القليل من الممتلكات أو لا شيء البته.

ولأن الملك بعـد منح هذا الجزء الثـالث عشر، لم يلتـزم قط بصكه المتعلق بالامتيـازت، لابل ظلمهـم أكثـر منـذ ذلك الحين، مع أنه قـد منحهم بصك آخر، ووعـدهم بأن استخراجـات من هذا النوع يتوجب أن لاتصبح عـادة، لهذا كله أخبروا الملك الآن بشكل واضح ومـؤكـد أنهم لن يمنحـوه الآن أية مساعـدة في المناسبة الحاليـة، ولكن بحكم أنه مـولاهم، عليـه أن يتصرف نحـوهم وفق مـايلي، بأن يصبر حتى تنتهي الهدنة المتقـدمة الذكـر، وإثر ذلك سوف يقـدمون له النصيحـة بقدر مـا يستطيعون.

وعندمـا أخبر النبـلاء المذكـورون، الذين عملوا بمثـابة رسل، هذا الجواب إلى الملك، عادوا إلى البـارونات، وقالوا بأنهم جـزئياً قد قـدموا الرد المناسب إلى الملك، لكنه أراد أن يعـرف ماالذي سـوف يفعلونه إذا

ما خرق ملك فرنسا الهدنة، قبل انتهاء الموعد، ولقد وعدوا أيضاً باسم الملك بأنه إذا مااقترف أي أذى ضد أي من نبلاء انكلترا، فالذي عليه هو أن يعمل تكفيراً عن ذلك، وفقاً لتحكيم بطرس أوف سافوي مع آخرين من مجلسه.

وعلى هذه الأسئلة أجاب النبلاء، إنه إذا ما خرق ملك فرنسا الهدنة، فإنهم سوف يشغلون أنفسهم، لايجاد خطط، حسبما قالوا من قبل إنهم سيفعلون، عند انتهاء الهدنة، شريطة —على كل حال— أن يكونوا متأكدين من أن ملك فرنسا قد فعل كذلك، وبالنسبة للتهمة أنهم من جهة الملك قد وعدوا بالتكفير عن الأذى الذي نزل بهم، وقال الرسل بأنهم في الوقت الحالي لن يتجادلوا مع الملك، وكان في أيام منح الجزء الثالث عشر، و. W دي ريلي قد وعدهم باسم الملك، وعداً مؤكداً وصادقاً، كما يفعلون هم الآن، لكن كيف حفظ الملك وعوده، هو نفسه أحسن من يعرف، وأخيراً كان الملك —على كل حال— قد تباحث معهم جميعاً واحداً، واحداً، بشكل أن كل واحد من الجماعة كان جاهلاً بالذي أعطاه إياه الآخر.

عودة إيرل أوف سالسبري من الأرض المقدسة

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه هكذا، ويسير على سياقه، عاد ايرل أوف سالسبري، من الأرض المقدسة، ونزل في انكلترا، سالماً وصحيحاً، وكان ذلك في بداية شهر آذار.

اعتقال رئيس أساقفة كولون وسجنه

اعتقل في هذه الآونة رعايا الامبراطور رئيس أساقفة كولون، الذي كان عائداً من روما إلى ألمانيا متنكراً، وكان رئيس الأساقفة هذا قد تآمر مع أساقفة آخرين، من الذين قدموا إلى المجمع العام، من أجل اسقاط الامبراطور، وكان قد سمع بمصير الذين سافروا خلال المناطق

الامبراطورية، ولذلك غيّر طريقه، وعاد عبر طريق جانبي، ذلك أن الكمائن قد نصبت في جميع الاتجاهات، ولذلك وقع بالأسر، ووضع بالسجن، والشخص الذي اعتقله، كان —على كل حال— ألمانياً، ومعروفاً بشكل جيد من قبل رئيس الأساقفة، ولذلك سمح لأسيره بالنجاة، بعدما وعده وعداً صادقاً، وأقسم أنه لن يتآمر ثانية ضد الامبراطور، ولن يؤذيه، وحفظ رئيس الأساقفة —على كل حال— وعده بشكل سيء، كما سنحكي في التاريخ المقبل.

الملك الفرنسي يجهز أسطولاً ضدّ الإنكليز

وما لبثت أخبار هذه الأحداث قد انتشرت في مختلف أجزاء العالم، وفي فرنسا، وعلم الملك الفرنسي باقتراب وصول ملك انكلترا بطريقة عدوانية ضده، وعلم بتآمر الذين استدعوه لمساعدتهم، فمركز ثمانين غليوناً مسلحين بشكل جيد، أمام روشيل Rochelle لحراسة تلك الأجزاء من بواتو ضد كل من يسعى للدخول إليهم، كما تدبر أيضاً حشد قوة عسكرية، بقدر ما يستطيع الفرنسيون أن يحشدوا، وأن تجتمع مع بعضها بموجب مذكرة ملكية، جرى توزيعها في مختلف المقاطعات الخاضعة له، وأمر عصابات الجماعات المدنية بأن تستنفر أنفسها، استعداداً لدعوته الملكية.

كيف جمع ملك إنكلترا كميات كبيرة من المال

وتسلم الملك الانكليزي في الوقت نفسه، بشكل متواصل، أكثر الرسائل إلحاحاً من كونت دي لى مارشي، ومن النبلاء الآخرين لبواتو، فصار بذلك ثابتاً على قراره من دون تعديل، معتقداً أنه سوف يتسلم، بدون أدنى شك، جميع الذي وعده الكونت به، وحسبما كانوا قد نصحوه أن يفعل، جمع مبلغاً كبيراً من المال، أما بالنسبة للذين رفضوا تقديم المساعدة المالية إليه، فقد عدّهم إما أعداء مكشوفين له، أو

ضايقهم بكل وسيلة من الوسائل بوساطة أذنابه، وقام أثناء الصوم الكبير بصرف انتباهه من دون كلل إلى هذا العمل، لأننا كما ذكرنا من قبل، أرسل كونت دي لى مارشي رسالة إليه، بأن يجمع فقط المال، ويجلبه معه، لأنه هو سوف يزوده بقوة عسكرية كافية، وبهذا القول الذي قاله الكونت من دون حياء، قد تجاوز حدود الصدق، حسبما ستبرهن نتائج الأحداث فيما يلي.

ملك إنكلترا يحث كثيرين على الالتحاق بالحملة معه

وحاول الملك بدهاء، أن يستميل قلوب الذين كانوا محتارين برغباتهم، بوساطة هدايا ثمينة أضعفت ثبات كثير من النبلاء، ولقد تمكن بوساطة الوعود المغرية، أن يربح إلى جانبه أخيه الايرل رتشارد، حتى يرافقه في حملته، تحت أمل مكافأة وافرة، وتوصل إلى غرضه هذا بسبب أن الملك الفرنسي، قام بعمل طائش، قبل وقت قصير، وحسبما ذكرنا من قبل، فمنح كونتية بواتو إلى أمفولسي، أخيه، وبذلك حرم بشكل غير عادل الايرل رتشارد من ممتلكاته، وقد وعد البواتيون بشكل أكيد بعودتهم جميعاً إليه، لدى وصوله إلى هناك.

إرسال سفراء بشكل مسبق للإعلام بوصول الملك

وجرى الآن ارسال بطرس أوف سافوي، ايرل ريشموند، وبطرس أوغويبلانشي، أسقف أوف هيرفورد، اللذان كانا المستشارين الخاصين للملك، إلى القارة لطمأنة أصدقاء الملك في بواتو بأخبار، بأن وصول الملك بات وشيكاً، وبهذا ارتفعت آمالهم، وشرعوا على الفور بالحرب، وطالبوا بإعادة الحقوق لصالح ملك انكلترا، وألحقوا أضراراً كبيرة بالملك الفرنسي، وبعد ايصال الرسائل، نجا بطرس أوف سافوي بصعوبة من كمين نصب له، وعاد إلى الملك في لندن، قبل وقت قصير من عيد الفصح، وهو صحيح الجسم، لكن ليس من دون خسائر، أما

بطرس، أسقف هيرفورد، فقـد أخذ طريقاً جانبيـاً غير الطريق المعتاد إلى الوطن، حتى يصل سالماً، وبذلك نجا من كمائن الذين استهدفوا حياته، وذهب وهو على طريقه إلى بروفانس، وطلب من كونت بروفانس، والد الملكتين: الفرنسية والانكليزية، ابنتـه الثالثة سينشيا Cincia للزواج من الايرل رتشـارد، وتجاه هذا استثيرت الجماعة الانكليـزية كثيراً، وبدأ أفـرادهـا يخشـون من أن تصبح جميع شـؤون المملكة تحت إرادة الملكة واختهـا سينشيا المذكـورة، عندمـا ستصبح زوجة الايرل رتشـارد، التي سوف تكون بالفعل ملكة ثانية.

ملك إنكلترا يعمل استعداداته من أجل عبوره

في هذه الآونـة كـان الملـك قـد أكمل جـولة على بعض كنـائس القديسين، وعهد بنفسـه إلى صلوات رجال الدين، وودع المواطنين، وفي اليـوم التـالي لعيـد الفصح أخـذ الطريق إلى بورتماوث، ليركب السفينة من هناك،وقـد أسرع إلى اتخاذ هذا الإجـراء بـوسـاطة الرسـائل الملحة والمتواصلة التي أرسلت إليه من القـارة، وأثارت محتويات هذه الرسائل غضب وخجل بعض الانكليـز، الذين يتعلقـون بالكرامـة، ذلك أنها هدفت إلى القول بأنهم قد بدأوا الحرب بشكل مـوائم، وأن عليه القدوم مسرعـاً، ودونما خـوف، إلى مسـاعـدتهم، مع مبلغ كبير من المال، وأن لايهتم بجلب حشـد كبير من الجنود، وكـأن ملك انكلترا قـد كـان مصرفياً، أو صرافـاً، أو بائعاً بالمفرق، وليـس ملكاً، وقائداً نبيـلاً، وآمراً للفرسـان، حيث أنهم وضعوا ثقتهم بـالمال أكثر من وضعهـا في القتال، وليس من المعتـاد إثارة ملك ودعـوته إلى الحرب بهذه الطريقـة، وأظهـر البواتيـون بهذه الطريقة خيانتهم المعتـادة، لأنهم آثروا إنهاك أموال الملك وفضلوا ذلك على وجوب تشجيعـه بالتكريم المناسب، وأن يكون محاطاً بنبـلائه، وفقـاً لكلمات الفيلسـوف سينكا Seneca, عندما تحدث عن زيف النساء بقوله:

عندما يتبدد غضب المرأة المكشوف

وقتها تكون ممتازة جداً

وفي هذا برهنوا —على كل حال— عن أنفسهم أنهم خونة غير بارعين، لأنه عندما:

شبكة الطائر تواجه العين

الطائر الحذر يحتاط لأن يطير

تعيين رئيس أساقفة يورك نائباً للملك

عندما بات الأسطو ل الحربي جاهزاً ومستعداً، عهد بشؤون المملكة إلى رئيس أساقفة يورك، وأعاد رتشارد راعي دير ايفهام، والأسقف المنتخب لشيستر، الختم الملكي، الذي حمله لمدة ثلاثة أعوام بطريقة مرضية، وعاد الملك إلى صداقة أسقف شيستر، الذي لم يستحق مطلقاً فقدانها، وكذلك أصغى ر. R مستشاره، ورالف فتز— نيقولا، وغودفري كروكومب Crowcombe وبعض الآخرين المعزولين إلى إطراءات المداهنة.

إقلاع الملك ووصوله إلى روان

ثم إنه في الخامس عشر من أيار، أقلعت العساكر، ومعها ثلاثين صندوقاً مليئة بالمال المتشوق إليه كثيراً، وركب الملك في سفينة تصاحبه زوجتة الملكة ويصاحبه أيضاً أخوه الايرل رتشارد، مع سبعة ايرلات آخرين، وحوالي ثلاثمائة فارس، وأبحر مع ريح طيبة نحو بوردو، لكن قبل أن يبتعد كثيراً عن الساحل، توقفت الريح، فعاد إلى بورتماوث، وفي اليوم التالي، بما أن الريح هبّت بشكل موائم، أقلع ثانية، ووصل إلى القديس متى دي فينيستير Finisterre في بريتاني، ومكث هناك يوم الأحد لسماع الصلوات المقدسة، وأقلع في يوم الاثنين ثانية، وأبحر في

المياه العميقة فوصل في يوم الثلاثاء إلى رويان Royan, عند مصب غيروند Gironde, وذلك حيث يصب في البحر مقابل القديسة ماري دي سولاك Soulac في غساكوني، ونزل هناك، ومكث لعدة أيام، ومن هناك مضى إلى مدينة بونز Pons الفخمة، حيث تقابل مع رينالد دي بونز، صاحب ذلك المكان، وبعض نبلاء آخرين من سانتاغيو.

الترتيبات الأولية للزواج فيما بين ملك سكوتلندا وابنة ملك إنكلترا

أثناء وقوع الحوادث التي تقدم ذكرها أعلاه، تمّ عقد القران بين الاسكندر الابن الأكبر لملك اسكوتلندا، ومرغريت ابنة ملك انكلترا، من خلال وساطة أسقف درم، وذلك في سبيل أن تكون المملكة أثناء غياب الملك أكثر سلاماً بشكل مؤكد، وكان هذا قد جرت الموافقة عليه من قبل، بناء على رغبة كل من ملكي انكلترا واسكوتلندا، وقد عهد بالجزء الانكليزي المحازي لسكوتلندا إلى عناية ملك الاسكوتلنديين، أثناء بقاء الملك الانكليزي في القارة.

كيف نهب وليم مارش جزيرة لوندي

وفي أثناء وقوع هذه الأحداث، عسكر وليم مارش، ابن غيوفري مارش، فوق جزيرة قريبةِ من بريستول اسمها لوندي Lundy, وكان مكاناً حصيناً لايرام بسبب وضعه الطبيعي، وقد عاش هناك مثل قرصان مع عدد من الرجال المنفيين والأشرار، وقد تورط في أعمال النهب والسلب، وقام بمرافقة أصحابه بالعيث فساداً بالشاطىء المجاور، وسلبوا من السكان ممتلكاتهم، لاسيما الخمرة والامدادات الأخرى، وبوساطة غارات مفاجئة حملوا كميات كبيرة من الأسلاب، من المنطقة الواقعة قرب الجزيرة، وألحقوا أضراراً بالغة بطرق مختلفة،

بمملكة انكلترا في كل من البر والبحر، وسببوا خسائر كبيرة إلى كل من التجّار الوطنيين والأجانب.

وذهب بعض نبلاء انكلترا وايرلندا، الذين لم يكن بإمكانهم البقاء بشكل مشرف في بلادهم، أثناء غياب الملك، وتعرضه لمخاطر الحرب في القارة، ذهبوا في جولة إلى قرب الجزيرة المتقدمة الذكر، فاكتشفوا بأن وليم المذكور وأتباعه لايمكن اعتقالهم من دون خيانة، فأخبروا الملك، بأنهم ينبغي أن لا يعملوا بالقوة، بل بشكل حكيم، في سبيل اعتقال هذا اللص، وعند ذلك أمر الملك رعاياه —مع وعود بجوائز كبيرة— بأن يسعوا بكل يقظة لاعتقاله، وتحرير البلاد منه، لأن وليم هذا كان مكروهاً جداً من قبل الملك، حيث قيل بأنه قام، بتحريض من أبيه غيوفري، بالتآمر على حياته، ولذلك بعث بذلك المجرم، الذي قدم ليلاً، ليقوم بقطع عنقه، عندما كان في وودستوك، وبذلك استحق الإدانة بالخيانة، وبعد ذلك قتل واحداً من الكهنة، وكان رسولاً من نبيل ايرلندي، كان في حضرة الملك في لندن، وبجرأة أنكر وليم المذكور جميع هذه التهم، ومع ذلك لم يحصل على أي تصديق، كما أنه لم يلق أذناً صاغية، ولذلك قام —على كل حال— بحمل نفسه إلى أماكن بعيدة عن الطريق، وصار هارباً وخارجاً على القانون.

وفاة بعض النبلاء

وفي حوالي هذا الوقت نفسه من العام، مات النبلاء: غيلبرت دي غونت، وبلدوين واك Wac، وفيليب دي كايم Kime، وكان ذلك في المناطق الشمالية، وروجر بيرترام Bertram، وبعض النبلاء الآخرين، الذين غادروا هذه الحياة، ومات أيضاً ايرل أوف ورويك Warwick، وفي هذا العام أيضاً، مات هنري، الذي كان واحداً من أبناء الامبراطور، والذي لذنوبه قد أودع لوقت طويل في السجن بناء على أوامر أبيه، وهناك أنهى حياته البائسة، ولقد قيل بأنه مات بيديه نفسه.

الأوضاع البائسة للكنيسة الرومانية

وكـان البلاط الـروماني في هذه الآونة في وضـع فوضـوي كبير، وفي حالة بائسـة ومتهاوية، حيث كان قد بقي هناك ستـة أو سبعة كرادلة في روما، وقد بقي الكرسي البابوي شاغراً، وكان بعض الكرادلة قد انتقلوا من هذا العالم، وبعضهم مـازال مريضـاً، وكان آخرون قـابعون متخفين مع أصدقـائهم وأقربائهم في مناطق نائية حيث كـانوا قد ولدوا، وبذلك كانوا متفرقين في أماكن مختلفة، وكانوا يعانون من اضطراب في عقولهم، وقـد انطفأ شعـاع العـاطفـة فيما بينهـم، وأصبحـوا كأنهم رمل من دون كلس، وعلى هذا فإن بيت الرب الذي احتاج إلى الوحدة ليضمن القوة، لم يعد قادراً على تلقي الدعم بشكل صحيح منهم.

استعدادات الملك الفرنسي للتصدي إلى ملك إنكلترا

وعلم الملك الفـرنسي في الوقت نفسـه، بأن ملك انكلترا قـد نزل إلى اليابسة لشـن الحرب عليه، معتمداً على مساعـدة البواتيين، وعلى وعود من الغسكونيين، ولمعـرفتـه بأن كونت دي لى مـارشي قـد شرع بالحرب ضده، استـدعى بوساطة إعـلان ملكي جميع القوة العسكرية الفـرنسية، وأمر بتزويد قطار العصابات بالسـلاح والإمدادات، من أجل أنه عندما تستـدعي المناسبـة لدعـوتهم، يمكن أن يجدهم جـاهـزين، وتوفـر لديه حـوالي ألف عـربة، فأمـر بأن تكـون جـاهزة لحمل الخيـام، والمجـانيق، والإمدادات، والسلاح، والأشياء الضرورية الأخرى، ثم إنه أعدّ قواته، التي كانت أفضل مـا يمكن لفرنسا أن تنتجـه، ووضعها في نظام حسن، وانطلق زاحفـاً نحو بواتو، ليصـد بالقوة هجمات ملك انكلترا وأعـدائه الآخرين، وكـان هناك حوالي أربعـة آلاف فارس مسلحين تمام التسليح وبشكل فخم، وذلك إلى جـانب أعـداد من الآخرين الـذين قدمـوا من جميع الاتجاهات، وتدفقـوا نحـو الجيش، مثل تدفق الأنهار، حين تصبّ في البحار، وقيل بأن عـدد الأتباع ورماة القسي الزيارة قـد بلغ نحواً من عشرين ألفاً.

اعتقال وليم مارش ومعاقبته في لندن

وفي هذه الآونة، حدث للفارس وليم مارش، الذي أتينا على ذكره، أنه بعدما أمضى بعض الوقت، في الجزيرة المتقدمة الذكر، متورطاً بأعمال السلب والنهب، أنه فوجىء من قبل بعض عملاء الملك، وجرى اعتقاله، وحمله إلى لندن، حيث سجن مضيقاً عليه في البرج، وفي يوم عيد القديس جيمس، وبناء على أمر من الملك، جرت محاكمة وليم المذكور مع ستة عشر من أصحابه كانوا قد اعتقلوا معه، وقد أدين وأدينوا، وقضي عليه بموجب أوامر الملك بموت مهين، وبناء عليه جرى سحله أولاً من ويستمنستر إلى برج لندن، ومن هناك حمل إلى آلة العقوبة التي اسمها المشنقة، وبعدما جرى تعليقه عليها لفظ أنفاس حياته الشقية، وبعدما صار جسده متيبساً قاسياً بعد الموت، أنزل هذا الجسد وجرى تجويفه، وجرى على الفور احراق أحشائه في البقعة نفسها، ثم جرى تقسيم جسده الشقي إلى أربعة أقسام، أرسلت إلى المدن الأربعة الرئيسية في المملكة، حتى يمكن أن يدخل رؤيتهم الرعب إلى الذين سيشاهدونهم، أما بالنسبة لأصحابه الستة عشر، فقد سحلوا في أرجاء لندن، بعد ربطهم إلى ذيول الخيول، وبعد ذلك جرى تعليقهم على المشانق.

وبعدما أدين وليم المذكور، وعندما كان على وشك سماع قرار الإدانة، دعا العدالة الربانية لتكون شاهدة عليه، وأعلن بجرأة بأنه كان بريئاً تماماً وليس مجرماً ولامقترفاً لجريمة الخيانة التي ألصقت به، وكذلك بالنسبة لمقتل الكاهن كليمنت المتقدم ذكره، وأكد أيضاً بأنه حمل نفسه إلى الجزيرة المتقدمة الذكر، ليس إلاّ لسبب واحد هو أن يتجنب غضب الملك، وهو الغضب الذي حاول دوماً، وفوق كل شيء، أن يهدئه بالخضوع إلى أي نوع من المحاكمة، أو إلى أي نوع آخر من التذلل، لكنه بعدما التجأ إلى الجزيرة المذكورة، وعاش هناك لاجئاً، كان

مرغماً على إطالة أمد حياته التعيسة بالاستيلاء على الامدادات، حيثما استطاع أن يجدهم، ثم إنه لفظ روحه بالاعتراف أمام الرب، إلى ج. ل دي سينت جايلز، الذي كان واحداً من رهبان طائفة الدومينيكان، واعترف بذنوبه وهو شديد الندم، دون أن يسوّغ نفسه، أو التفوه بكلمات شريرة، بل بالحري اتهم نفسه، ثم قام عندها هذا الدومينيكاني المستقيم والمتلقي للاعتراف، فأعطاه شيئاً من الترضية اللطيفة، وصرفه بسلام، وأقنعه بأنه ذاهب إلى الموت الذي قضي به عليه بمثابة تكفير، وهكذا عانى كما ذكرنا من قبل، وهو أمر فظيع أن تحكيه، ليس من موت واحد، بل من عدة ميتات مخيفة.

نصر الداوية في الأرض المقدسة

وحصل الداوية في هذا العام في الأرض المقدسة —بوساطة معجزة أكثر منه بوساطة القوة الإنسانية— على نصر مجيد، وغير متوقع، على آلاف كثيرة من المسلمين، كانوا قد قدموا من مناطق قريبة من مصر.

البواتيون والغسكونيون يحصنون أنفسهم ضدّ الفرنسيين

في ذروة الصيف، عندما جففت حرارة الشمس كل شيء، وكل شيء ذبل وتلاشى، قام البواتيون، وهم في حالة خوف عظيم من هجوم الفرنسيين، الذين كانوا الآن يزحفون مسرعين ضدهم، قاموا بتحصين قلاعهم، ومدنهم، وأغلقوا ممرات الجبال، التي كان من الممكن للعدو أن يمر من خلالها إلى بلادهم لإلحاق الأذى بهم، واستخدموا كتلاً ضخمة من الحجارة مع جذوع الأشجار الساقطة، وحولوا الطرقات والممرات إلى أماكن يتعذر عبورها، وسدّوها بكل نوع من المعيقات، وقطعوا أشجار التفاح والعنب التي اعتقدوا أنها سوف تفيد الأعداء، وطمّوا الآبار، وأفسدوا الينابيع والأنهار التي تسيل منهم، لابل إنهم سمموا بعضها، واجتثوا النباتات التي كانت مفتوحة أمام أعدائهم،

ودمروا تدميراً كـاملاً كل نوع من الإمـدادات، وكذلك خـربوا الأماكن التي كـان من الممكن أن يحصلـوا فيهـا على الراحــة، آملين بذلك أن يكونوا قادرين على الحيلولة دون وصول الفرنسيين إلى أراضيهم، لأنهم سوف يعانون من الحاجة إلى كل شيء ضروري، وبالفعل لم يكونوا كلياً مغشوشين في توقعاتهم، لأنه في أيـام الشعرى [مابين أوائل تموز وأوائل أيلول] هوجم الفـرنسيـون بموت خطير، إلى حـد أن الملك فقـد ثمانين نبيلاً، كـانوا يحملون أعلامه، حيث أنهم هلكوا في أوضـاع بائسة هناك، أو أنهم نقلوا وهم يتـلاشـون، على محفـات إلى بيـوتهم، وعلى العمـوم، سقط الجنود الرجالة، وكـانت أعدادهم كبيرة، ضحـايا للأمراض، حتى أن الأحيـاء بـاتوا في خطر عظيم على أنفسهم، وبصعـوبة بالغــة كـان بإمكانهم دفن الموتى، كما سوف نرى في سياق الرواية.

كيف جرى اعتقال التجّـار وتجريدهم من مقتنياتهم في كلّ من فرنسا وإنكلترا

وفي تلك الآونة نفسهـا، ومع اقتراب حلـول فصل الخريف المجهـد، أقـدم الملك الفـرنسي على إجـراء غير معتـاد، فأمـر باعتقـال أشخـاص التجّـار الانكليـز، الـذين كـانوا يتنقلون مع بضـائعهم في جميع أرجـاء مملكته، وبذلك أنزل أذى عظيماً على الكرامة القديمة لغاليا، التي وفرت مـن قبـل ملجـأ أمينــاً وحمايـة إلى جميـع المنفيين والمحكـومين، ولاسيما المسـالمين منهم، فمن هذه الظروف كسبت بالأصل اسم فـرنسـا بلغتهـا خاصة، ووصلت بالحال أخبار هذا الإجراء غير الشريف والوحشي إلى مسـامع ملك انكلترا، وإلى مشاعـره، وبناء عليـه أعطى هو أيضاً أوامـر قضت بأن أي تجار فـرنسيين وجـدوا في أي جـزء مـن أجـزاء انكلترا، يتـوجب تعريضهـم إلى انتقام عـادل مماثل، وأرسل في الوقت نفسـه إلى الأوصيـاء على مملكتـه، أي إلى رئيس أسـاقفـة يورك وزمـلائـه، يطلب إمدادات من المال ونجدات من العساكر، وبناء عليه وفي طاعة منهم إلى

أوامـر الملك، أرسلوا من دون تـأخير خمسين من رمـاة القسي الزيارة، ومبلغاً كبيراً من المال، مع كميات جيـدة من الإمدادات، وبعض الجنود مع أسلحة تحت توجيـه الموانىء الخمسة ولدى رؤية هذا من قبل بعض النبـلاء الانكليز، رأوا أنه عمـلاً غير مشرّف الانخراط في الراحـة، بينما كـان ملكهم منشغـلاً بـالحرب فـوق القـارة، ولذلك أعـدوا أنفسهم للالتحاق بالحملة وبرجالها، وقد تجهـزوا بشكل جيد بالخيول والسلاح، وقـام بعض النبلاء الايرلنديـون، وبالتحديد رتشـارد دي بيرغ، وبعض الآخرين، بناء عل اقناعهم من قبل المستقيم موريس، مسؤول العدالة في ايرلندا، فجهـزوا أنفسهم بالسـلاح، وشحنوا كميـات من الإمـدادات، وأسرعوا متشوقين إلى مساعدة الملك، وتكوّن من هؤلاء أسطولاً كبيراً، وشكلوا قوة بحرية مرعبة، وعندمـا علم بهذا البحارة والقرصان، الذين أقـاموا حـراسـة يقظة على الشـاطىء الفرنسي المقـابل، أعـدوا، بناء على أوامر الملك الفـرنسي، قوة بحـرية، وسلحوا أنفسهم. وأقلعـوا في البحر على ظهـور سفنهم، وكـانت غـلايينهم مشحـونة بأعـداد كبيرة من المجـذفين، وكـانوا يريدون مهـاجمة القوة البحـرية المقبلة، في البحـر، أو إخافـة رجالها حتى يتراجعوا إلى شـواطئهم، وعندما اقترب الأسطولان من بعضهما، هبت فجأة عـاصفة قـوية، ولذلك تفرقـوا، بعضهم باتجاه، وبعضهم الآخر بـاتجاه آخر، ونشد قـادة السفن سلامتهم فقط، وكـانوا محمولين تحت رحمة الرياح، وعـرفوا أخيراً بصعوبة أصحـابهم، أو ميزوا سفن أسطولهم على حده، والفـرنسيون الذين كانوا أقـرب إلى ساحلهم، أكثـر من الانكليـز أو الايرلنديين إلى سـواحلهم، أخـذوا طريقهم بكل سرعـة إلى الجزء الأقـرب من السـاحل، ولأن الريح لم تكن قـوية جـداً ضـدهم، وصلـوا إلى مكان سليم وملجأ، لابـل إن بعضهم وصلوا إلى مـوانئهم الخاصـة بهم، بينما شعبنا الذي خاف خـوفـاً عظيماً من غضب الرياح ومـن غضب الفـرنسيين، فقـد شتتـوا أنفسهم وهـم هاربون، وملاحقـون بالخوف، والعار، والحزن في القلب، ودفعـوا إلى الشاطىء،

إلى أجزاء بعيـدة، وغير معروفـة من الساحل، وبسبب هذه الانتكـاسة، فإن راعي دير ايفهام، ورتشارد دي بيرغ، وكثيراً آخرين، الذين كانوا في مـوقـع القيادة للحملة، لم يتعـافـوا بعـد هذا، ولم يعـودوا إلى الوضع الصحي السليم، لابل إنهم تلاشـوا رويـداً رويداً، حتى باتوا أخيراً غير قـادرين على استرادد قـوتهم، بعـد كثير من العناء والانهاك في أرض أجنبيـة، وفي ظل مناخ غريب، ولذلك لفظوا أنفـاس حيواتهم المرهقـة، وبهذه الانتكاسـة نـال الملك خسـارة كبيرة لايمكن تعـويضهـا، تمثلت بفقدان رجـال حكماء وأقوياء، وأسلحـة وعتاد، وبشكل خـاص القمح الذي كـان قـد جمعـه من رئاسـة أسقفيـة كـانتربري، ومن الأسقفيـات الأخرى، والمال الذي كان قد جمعه من جميع الجهات.

موت مرغريت بيسيت

ماتت في هذا العام، في هذه المناطق، واحدة اسمها مرغريت بيسيت، وكانت امـرأة من أسرة مشهورة، ومتميزة بأخـلاقها، حيث أنها رفضت تماماً معـانقة الرجال، وأسسـت على حسابها، الذي لم يكن صغيراً، ديراً جيـداً للراهبـات، وذلـك على الرغم من رغبـات جميع أصـدقـائهـا الدنيويين، وأصبحـت المنفقة عليه والراعيـة، ونالت هذه السيـدة شهرة عظيمة، لأنها في إحـدى الليالي، في وودستوك، عندمـا كانت تمضي الليل في غناء الترانيم الدينية، وفي السهر وفي الصلاة، أنقذت الملك، من أيدي القاتل، بصراخها، وقد جرى من قبل شرح ظروف هذه الحادثة.

الجريمة المرعبة لوولتر بيسيت

وفي تلك الآونة، عقدت مبارزات سيئة الحظ في المقـاطعات الشمالية، وفي إحـداها التي عقـدت على حـدود انكلترا وسكوتلندا، أبدع واحـد اسمـه وولتر بيسيت، وكان شجـاعاً وفـارسـاً بارعاً، وقـد هزم من قبل خصمـه، وهو واحـد اسمــه باتريـك فتـزــ تومــاس أوف غــالوي

ولذلك أبدع جـريمة لم يسمع بمثلهـا، من أجل أن ينتقم Calway, انتقاماً غير عادل من المتغلب عليـه، فبينما كان باتريك المذكور، مقيماً مع بعض النبلاء الآخـرين الذين كانوا برفقته في ادمـونتون Edmonton, اتخذ مكاناً لنفسـه لإمضـاء الليل في نوع من أنواع الهري، وعندمـا كـان غارقاً في نوم عميق، قام وولتر بيسيت المذكور، فأغلق الباب من الخارج ببعض جــذوع الأشجـار، وإثر ذلك دس النـار من عـدة أمـاكن في الجدران، بوسـاطة بعض العصي المحترقـة، وأحـرق بذلك تقـريبـاً جميع الذين كـانوا في الداخل، وهكذا مـات لذلك باتريك المذكـور مع بعض رفاقـه الشجعان والمشهورين، ولكن عندمـا وصل خبر هذا العدوان إلى مسـامع الايرل باتريك والنبلاء الآخـرين لسكوتلندا، استعدوا للانتقـام لهذه الجريمة الكبيرة، وهاجموا وولتر المذكـور، وهم راغبين في تمزيقه إلى قطع، وقــد هرب —على كل حــال— إلى ملك اسكوتلنـدا، وطلب العدالة والرحمة منه، ذلك أنه أنكر الشر الذي اقترفه، وعرض أنْ يبرهن على براءته أمـام الملك وأمام بلاطه كله، بعـرض جسده ضـد أي واحد مهما كان قـديراً في السلاح وقوياً، ورفض خصومـه —على كل حال— هذا، حيث أعلنوا أن الجريمة الكبرى لاتحتـاج إلى برهان إيجابي، ولذلك طلبـوا من الملك، بحدة وبسرعـة كبيرة، وبمشـاعـر الكراهية، عـدوهم المعلن، الذي كان مـايزال ملطخاً بجريمة القتل الحالية، وملـوثاً بجريمة غير اعتيـادية تمامـاً، واستطاع الملك بشيء من الصعـوبة تهدئـة غضبهم، ولطف انتقـامهم، بأن وعـد بوجـوب حـرمـان وولتر المذكـور، وأيضـاً بوجـوب مغادرته سكوتلندا، وأن يرسل إلى منفى دائم، وبعـد شيء من الصعوبة وافقوا على اقتراح الملك، وكانوا واثقين بأنهم سوف يصطادونه عندما ينتقل من حماية الملك، وأن يعاقبوه بموت عادل، ووصلت أخبار هذه الخطة إلى علم الملك —الذي كـان رجلاً رحيماً وعـادلاً— فأخفى بعناية وولتر المذكـور لمدة ثلاثة أشهـر، في أمـاكن لايستطيع أعـداؤه الوصـول إليـه فيهـا، وعند انتهـاء هـذه المدة، هرب من البـلاط بشكل

سري، في إحدى الليالي المظلمة، وهو محكوم بالنفي ورجل محروم من ميراثه، ولم يعد ثانية، وكان النبلاء السكوتلنديون، الذين كان كثير جداً منهم يطلبون حياته، كانوا جاهلين تماماً بنجاته، أما بالنسبة لوولتر، فإنه مع أنه أقسم بالمضي إلى الأرض المقدسة، وأن لايعود ثانية، وذلك في سبيل خلاص روحه وأرواح الذين هلكوا بالحريق، مع أنه قال بأن ذلك لم يكن من خلال وسائله، إنه مع ذلك غيّر اتجاهه، وبادر مسرعاً ليتقدم بشكوى أمام ملك انكلترا، حول الأذى الكبير الذي لحق به، وبناء عليه أعلن بأن ملك سكوتلندا، قد حرمه بشكل غير عادل من ميراثه، لأنه لم يستطع بأي طريقة أخرى تهدئة غضب الذين كانوا ثائرين ضده وغاضبين، مع أنه، أي وولتر، كان جاهزاً لتبرئة نفسه، والبرهنة على أنه كان بريئاً من الجريمة التي ألصقت به، بوساطة محنة مبارزة واحدة، وقد أضاف علاوة على ذلك، أنه بما أن ملك سكوتلندا كان تابعاً إقطاعياً لملك انكلترا، لايمكنه من دون موافقة ملك انكلترا، حرمان رجل نبيل من ميراثه، ونفيه من بلاده بشكل أبدي، خاصة إذا لم يكن قد أدين بجريمة، وبالإضافة إلى هذا، قال بأن ملك سكوتلندا، قام إيذاء منه لولائه ولتابعيته التي هو مرتبط بها إلى ملك انكلترا، فاستقبل في أراضيه وقدم الحماية، فهو في هذا الوقت بالذات يقدم الحماية إلى غيوفري مارش، الملتجيء من ايرلندا، والمتورط بالجرائم الخيانية لابنه وليم، الذي حكم عليه مؤخراً بالموت، وشنق في لندن، وبهذا ثار غضب ملك انكلترا إلى درجة عالية ضد ملك اسكوتلندا، لكنه احتفظ بغضبه حتى حلول وقت مناسب للانتقام، كما ستظهر ذلك الرواية المقبلة.

ملك انكلترا يلغي الهدنة ويعلن الحرب ضدّ ملك فرنسا

خلال هذه الآونة، أرسل ملك انكلترا رالف فتز— نيقولا، ونيقولا دي مولي Molis كرسولين خاصين إلى الملك الفرنسي، ليعلنا قراره

—إذا لم يوافق الملك الفرنسي على طلبه— بإلغاء الهدنة، والشروع بالحرب ضده، وعند وصول الرسولين، وجدا الملك الفرنسي يحاصر قلعة فرونتني Frontenaye, التي كانت عائدة إلى كونت دي لى مارشي، والتي قاتلها من دون كلل نهاراً وليلاً، وذلك بحملات عساكره، وبقصف الأسوار بالقذائف من أدوات رمي الحجارة، وبوساطة رمايات متواصلة بالنشاب، كما أنه أخاف المحاصرين وضيق عليهم، حتى أنهكوا تقريباً، ولم يعد بإمكانهم تحمل شدته وحملاته غير المنقطعة، وكان في هذه القلعة واحداً من أبناء كونت دي لى مارشي من زوجته الماضية، وكان فارساً شجاعاً، ومعه أكثر الأصدقاء قرباً من الكونت المذكور، الذين وضعهم هناك للدفاع عن هذه القلعة القوية والجيدة التحصين، وكان الملك متشوقاً كثيراً لاعتقالهم، حتى يلقي الرعب في قلوب الآخرين.

ولدى وصول رسولي ملك انكلترا، استقبلهما الملك الفرنسي بالتشريف والاحترام، وبأدب دعاهما لتناول طعام الافطار على مائدته، وبناء عليه، قدما في الصباح التالي نفسيهما ومثلا أمامه، وببراعة وبنظام، كشفا عن الرسالة التي فرضت عليهما بالكلمات التالية:

«لقد بعث ملك انكلترا، الذي هو قريبك، رسالة إليك، بأنه مندهش إلى أبعد الحدود لأنك من دون حياء خرقت الهدنة المبرمة بينك وبينه، والمثبتة بيمين من على الجانبين، والتي من المتوجب أن تظل سارية لمدة ثلاثة أعوام أخرى، وبهذا العمل ظهر غير ماهو متوقع منك، فقد هززت أركان استقرار الثقة الملكية»، وعلى هذا ردّ الملك بنظرة هادئة:

«الهدنة أنا لم أخرقها قط، كما أنني لاأرغب بأن أفعل ذلك، وفي الحقيقة إنني محافظ عليها دون أن تخرق، وإذا مارغب ملك انكلترا فإنني سوف أطيل مدتها، من دون أي تعويض، وهو أمر أنا لاأفعله، لأنه بعيد عني، كملك لفرنسا، أن أخرق بأي طريقة من الطرق هدنة،

أو أي معاهدة دخلت فيها بيني وبينه، لأني بذلك ألقي جانباً كل تبجيل للرب، واحترام للانسـان، ولاأظهـر احتراماً لروابـط القـرابة، وأخبرا مولاكما بأنني سـوف ألتزم بالهدنة خلال هذه الأعوام الثـلاثة، ولسوف أمـددها، إذا ما رضي، لمدة ثلاثة أعـوام أخـرى، أي أن تقول لمدة ستـة أعوام من الآن من دون أي تعويـض يقدم إليّ، علاوة على ذلك أنا على استعداد للتخلي عن مقاطعـة بواتو، والجزء الأكبر من نورماندي، الذي هو ليس مصـدراً للشـك أو الخوف من قبلي، ففي هذين البلـدين، هو يقـول بأنه يمتلك حقـاً وتوقعـات، تماشيـاً مع اليمين الذي أداه والدي لويس، عندمـا كـان في انكلترا، وبمـوجب منحـة قـديمـة وإذن من أجـدادي، على شرط، أن يكون مسموحـاً لي، من دون أية معارضـة من جـانبـه، وذلك كمطالب عـادلـة، بأن أعـاقب أي ضرر ألحق بي أو بمملكتي، من قبل أعـدائي، والخونة لي، مهما كـانـت ثقتهم به من أجل مسـاعـدتهم، إلى جـانب هذا، عليّ أن أخبر ملك انكلترا، بـأنها مسألة مـدهشـة بالنسبـة لي، وأسأله: بأي روح اقتنـع، أو على أي أسـاس أنا لاأعرف، قد قال بأنني خـرقت الهدنة بيني وبينه، إذا ما هاجمت أنا قوماً يسكنون قربي أو بجـوار مملكتي، وهم ليسوا عـائدين إليـه بحق الولاء، وذلك إذا مـا آذوني، أو تمردوا علي، دون أن أقول: الذين هم خـونة لي، مـاهو شأنه بالنسبـة لشؤون كـونت دي لى مـارشي؟ لابل بأي حق قـد تدخل في مسألة كونت طولوز؟ إنني لم أعمل هدنة معهما، كما أنه لم يرد ذكـرهما في الهدنة، وعـلاوة على ذلك إنـه بالحقيقـة ذاتها وهي حمايتـه، ودفـاعـه عن أعـدائي، قـد برهـن بالحري بأنه قـد خـرق شروط الهدنة المذكورة، وكذلك لما يتعلق بالعواطف التي ينبغي أن تتوفر بين الأقرباء، وإنني قـد اقترحت —على كل حـال— بـأن أتصرف بشكل أحسن، وبلطف أكبر مع الاحترام نحوه، ومازلت معطيـاً له العرض الذي تقدم ذكره أعلاه، حول شروط الهدنة».

وقـال الملك الفرنسي هذا كله بـأعظم اعتدال، ومن دون أي خـداع، لأنه كان خائفاً كثيراً من خيانة ملك أراغون، وملك قشتالة، اللذان كانا من أقرباء ملك انكلترا، كما أنه كان يخاف من كونت طولوز، الذي كان منذ زمن طويل يكره الفـرنسيين، الذين نكلوا به، وكان يخاف أيضـاً من كونت دي لى مارشي، الذي كان محمياً بقلاعه التي لاترام، والذي سمن بأمـوال ملك انكلترا، ويخاف أيضـاً من تقلبـات النورمـان الذين كـانوا جيراناً لانكلترا، ومـرتبطين بها بنوع من النسب، وخاف فـوق كل شيء من خرق يمين أبيـه لويس، الذي أداه قبل مغادرته انكلترا، والذي ربط به نفسه بأن يعيد إلى ملك انكلترا حقوقه، إذا ما عاش بعد والده، وكان أبوه، عندما كان على وشك الموت في أفينون قد أوجب عليه، بحكم أنه أبيه، أن يفي بذلك اليمين، وهو لذلك عدّ الأمر مسألة عادلة وتقوية أن يقوم بتحرير روح والده من مثل هذا الرباط.

تسليم رسالة الملك الفرنسي إلى ملك إنكلترا

ومـــا أن تســـلم الرســـولان جـــوابها، حتى عـــادا على الفـــور، وباخـــلاص رويا لمـلك انكـلترا كل الذي رأياه وسمعـــاه، لكنهُ —على كل حـــــال— لم يكن على استعـــداد، ولابشكل مـن الأشكـال، أن يصـــغي بإيجابية إلى الرغبـات المسالمة لملـك فرنسـا، أو أن يقبل عرضـه النبيل، الذي عـرض عليـه بكل ميـول مسـالمة، لأنه كـان قـد تشجع، وتغيرت مشاعره، بمهارة الخونة البـواتيين، الذين أغلقوا عينيه عن رؤية عظمة المنـافع المعروضـة عليه،وقد وعـدوه، أنه بمساعـدتهم، فإن جميع تلك المناطق، وأكثـر بالاضـافـة إليها، يمكـن الاستيلاء عليهـا بالقـوة، وانتـزاعهـا من يدي الملك الفـرنسي، وبناء عليـه قـام من خـلال بعض الاسبتـارية بتهور بتحـدي الملك الفرنسي، لأنه شن الحرب على كـونت دي لى مـارشي، الذي بحكم العـادة كان يدعـوه بأبي، مع أنه كـان زوج أمه فقط.

بداية الحرب بين الفرنسيين والإنكليز

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا، ندم لأنه عرض مثل تلك الشروط المذلة للسلام على ملك انكلترا، وقال لنبلائه:

«أنا آسف أن ملك انكلترا، الذي هو قريبي، والذي رغبت في أن يكون أعظم صديق لي، هو مفتون، ذلك أنه يصغي أكثر إلى الإثارة الخادعة لكونت دي لى مارشي، ولكونت طولوز، ولأعوانهما، فالأول بينهما مشهور بخيانته، والثاني مشهور بهرطقته، فقد أصغى إليهما أكثر من اصغائه إلى رسائلي الصديقة، وأنا آسف لأنني أهملت، لكنني غير خائف منه، ولست خائفاً من قواته، بل خوفي على اليمين المؤكد لأبي الذي عمله في انكلترا»، ثم إنه تابع نحيبه من دون مواساة حول هذا، وقام واحد من نبلائه بتهدئته قائلاً ببراعة: «مولاي الملك، إنك لاتحتاج أن تكون خائفاً حول هذا الأمر، لأنه عند مغادرة أبيك من انكلترا، عمل يميناً غير قابل للخرق من على الجانبين، بأن لايقوم أي منكما في حالة نشوب حرب، بتسبيب أي أذى إلى مغامراتكما على الجانب الأول أو الجانب الثاني، وهذا يمين قد خرقه ملك انكلترا من دون حياء، عندما شنق ظلماً، وبوحشية قسطنطين فتز— ألوف Aluph, الذي كان مواطناً لندياً، وذلك لمجرد أنه تحدث عن شرف والدك، وهكذا اقترف الملك الانكليزي اثم الحنث باليمين، في حين انك بريء من ذلك».

الاستيلاء على قلعة فرونتني

شعر الملك الفرنسي بوساطة هذه المناقشات على ثقة أكبر، وبناء عليه ضغط بشدة على قلعة فرونتني وضيق الحصار عليها، وجمع بالوقت نفسه جيشاً أكبر عدداً، ووزع المدفوعات على جنوده، وبناء عليه هاجموا القلعة بشدة أعظم من المعتاد، ورموها من دون توقف بالقذائف من

مجانيقهم ومن الآلات الأخرى، وفي الوقت ذاته أصيب عدد كبير من المحاصرين بالجراحة من نشابهم، حتى أن هذه القلعة التي كانت واحدة من أقوى القلاع قد جرى الاستيلاء عليها خلال خمسة عشر يوماً، وذلك على عكس توقعات البواتيين، ووقع ولد كونت دي لى مارشي مع حلفائه بالأسر، وجرى احضار ابن الكونت وأتباعه الأسرى، على الفور، حيث مثلوا في حضرة الملك، والتمس عدد من الفرنسيين، بإلحاح، وجوب شنقهم، في سبيل رمي الرعب في قلوب الآخرين، غير أن الملك صار بالفعل محامياً مخلصاً عن أسراه حيث قال:

«إنه لايستحق الموت، إذا كان قد أطاع أوامر والده حتى الموت، وكذلك المشاركين له، الذين أطاعوا سيدهم وخدموه باخلاص، ولنرسلهم على كل حال إلى باريس ليسجنوا هناك»، وهذا ماحدث.

استيلاء الملك الفرنسي على عدة قلاع أخرى

ونزل الآن خوف عظيم من الملك الفرنسي على سكان المناطق المجاورة، وصاروا مرعوبين من أنهم إذا ما ثاروا ضده، فإنهم سوف يتورطون بمصيبة مماثلة، لابل حتى أسوأ منها، لأن القلعة التي رست عليها آمال الجميع، قد جرى الاستيلاء الآن عليها بالقوة، وكان ذلك في وقت قصير، وذهب الذين كانوا مسؤولين عن القلاع العائدة إلى كونت دي لى مارشي من حوله، إلى الملك وسلموا مفاتيحهم إليه، في سبيل التوصل إلى شروط للمصالحة أفضل، وقام الملك في الوقت نفسه باستباحة المناطق المجاورة، واستولى على عدد كبير من القلاع والبلدات، وأخضعهم لسلطانه من دون أية صعوبة، وهدم القلاع الضعيفة وسواها بالأرض، والقلاع التي كانت قوية في وضعها وفي بنائها، زادها تحصيناً، ووضع بعضاً من أتباعه الفرنسيين المخلصين بها، ثم تابع من هناك زحفه نحو الأمام، فاستولى بطريقة مماثلة على قلعة فخمة، هي قلعة فونتني.

استسلام قلعة فوفانت إلى الملك الفرنسي

ووصل الملك الفرنسي الآن إلى قلعة فوفانت Vouvant الفخمة، والتي كانت عائدة إلى كونت دي لى مارشي، وعندما كان يقوم بعمل الاستعدادات لحصارها، عقد القسطلان الذي كان مسؤولاً عنها مؤتمراً مع أصحابه، وبعد ذلك أرسل بعضاً منهم مع رسالة سلام إلى الملك، لأنه كان خائفاً أنه إذا ما أسر بالقوة، لن تظهر العدالة الفرنسية نحوه أية رحمة، وقام بناء عليه بسرعة وبشكل سري، فتشاور مع الكونت مولاه حول هذه المسألة، وأرسل في الوقت نفسه رسالة إلى الملك الفرنسي، أنه إذا ما منحه سلاماً غير مبطن، نال هو —القسطلان— بموجبه والذين معه الحفاظ على حياتهم وعلى سلاحهم، هو سوف يسلم القلعة إليه، على شرط، أنه —على كل حال— إذا ما أعيد السلام بين ملك فرنسا، وكونت دي لى مارشي، في خلال ثلاثة أعوام يتوجب على الملك الفرنسي أن يعيد القلعة إلى مولاهم، كونت دي لى مارشي، من دون خلاف، وبناء عليه فضّل الملك الاستحواذ على القلعة سالمة من دون أي تأخير، على أن يتسلمها في حالة تخريب من رمايات قذائف المنجنيقات، أثناء حصار طويل، ولذلك منحه مطالبه، وهكذا خضعت القلعة على الفور، ومن دون أية مشاكل، إلى سلطانه.

كونت دي لى مارشي يندم على إقدامه على هذه العملية

ومع انتشار هذه الأخبار، استولى الخوف واليأس على كونت دي لى مارشي، وعلى جميع البواتيين، وكذلك على جميع سكان غاسكوني، وعلى الذين انشغل ملك انكلترا في الدفاع عنهم، وندم الكونت بمرارة لأنه اندفع بطيش، فثار ضد مولاه، الملك الفرنسي.

لكن عندما على الرأس وضع الخوذة البراقة

بات وقتها متأخراً جداً حتى ينسحب من القتال.

سادة الموانىء الخمسة يتحولون إلى القرصنة

عندما سمع ملك انكلترا بنجاحات الملك الفرنسي، أرسل أوامر إلى سادة الموانىء الخمسة للقيام بإلحاق الأذى، بكل طريقة من الطرق، بالتجار وبالآخرين العائدين إلى المملكة الفرنسية الذين يتولون السفر بالبحر، وقام هؤلاء الرجال على الفور بتنفيذ أوامر الملك، وانخرطوا مثل قراصنة، بأعمال السلب والنهب، بوحشية تجاوزوا فيها الحدود التي وضعها الملك، وذلك شرهاً منهم للكسب، ذلك أنهم سلبوا حتى مقتنيات الانكليز، وجيرانهم، والذين كانوا معروفين من قبلهم، عندما كانوا عائدين من حجهم، دون إعطاء أي اهتمام إلى الصداقة أو القرابة، وقتلوا بعض الفرنسيين بشكل وحشي، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذه الإجراءات، كتب إلى كونت بريتاني، وإلى سكان ساحل البحر من تلك المقاطعة، وإلى والي روشيل وتلك المناطق، وأيضاً إلى البحارة في ويسانت Wissant, وكالي، وإلى الذين كانوا يتولون حراسة سواحل نورماندي، يأمرهم بصد هجمات الانكليز، وبذلك أعطاهم منفذاً للتنفيس عن غضبهم في البحر، وأمرهم أن لايوفروا أشخاصهم أو بضائعهم، ونتيجة لهذا الأمر، وبسبب القوات التي أرسلت بدون توقف، ضد الانكليز، عانى سادة الموانىء الخمسة من خسائر كبيرة، وغالباً ما هزموا بشكل مشين، ونتيجة لذلك أرغموا على طلب المساعدة من رئيس أساقفة يورك.

وصول الملك الإنكليزي إلى مدينة تيلبيرغ

وكان الملك الانكليزي في هذه الآونة مع جيشه قرب قلعة توني Tonnaye, في السهول القريبة من نهر تشارنتي Charente, وفي ذلك المكان منح مرتبة الفروسية إلى أخويه، أولاد كونت دي لى

مـارشي، وعيّـن لهم مبلغـاً من المال، يتسلمـونه سنوياً من الخزينة، وقـد أعطى إلى الأول منهما خمسمائة مارك، وإلى الثاني ستمائة مارك، وذلك إلى أن يتمكن من تـزويدهما بمبلغ ثابت ومتســاوي بالقيمــة، في الأراضي والموارد، ثم إنه غادر ذلك المكان مع جيشه، وسار إلى حقول قائمة أمام مدينـة تيليبورغ Tailleburg, على نهر تشارنتي نفســه، وبقي هناك لمدة ستة أيام.

فرار الملك الإنكليزي

وكان الملك الفرنسي قد تلقى في الوقت نفسه خضوع عدة اقطاعيات مع قلاعهم، فأصبح أكثر وثوقاً في رفع رايتـه، ووجّـه زحفه نحو مدينة تيليبـورغ، وكانت هذه مـدينة جميلة، غنيـة بكرومهـا الخصبة العظيمـة، وكان لديها نهر جميـل على مقربة منها، وهو نهر تشـارنتي العميق والذي بلامخاضات، وكـان محاطاً بمروج غنيـة، وكان يعبر عليـه بوساطة جسر قـوي، وعند اقتراب الملك الفـرنسي مـن هذه المدينة، كـان السكان غير راغبين بمعارضته، كما أنهم كانوا أيضاً غير قادرين على مواجهته بالقوة، فتبنوا خطة حكيمة، حيث خرجـوا إلى استقباله بسلام، وسلموا أنفسهم ووضعوا مـدينتهم تحت سلطانه، وذلك مع جميع مقتنيـاتهم وامتيازاتهم، وعند ذلك استقبلهم الملك بـالترحـاب، ووضعهم تحت حمايتـه، ودخل إلى المدينة على الفور، واتخذ مقـامه فيها مع بعض نبلائـه، ونصب البقية خيامهـم في الحقل قرب المدينة، وفي اليـوم التالي، الذي كان يـوم الأحد التـالي قبل عيد القـديسة مـريم المجـدلية، عبر الجسر، وعمل الترتيبـات للزحف مع جيشـه إلى أقصى مناطق بواتو، ووصلت أخبار عن زحفـه المنوي وحملت إلى ملك انكلترا، وإلى نبـلائه، الـذين كان كـونت دي لي مـارشي هو الرئيس بينهم، وقام ذلك الملك، بناء على نصيحـة الكونت، فسحب قـواته أثناء الليل، ووصل فجأة مـع جيشـه إلى حقل مـرتبط بالجسر، ونصب خيـامــه هناك، وعمل مقـراً لنفسـه في مقــابل المدينة،

وبذلك صار من الممكن لكل واحد من الجيشين أن يراقب الآخر، وتألف جيش الملك الانكليزي من ألف وستمائة فارس، وعشرين ألف جندي من الرجالة، وسبعمائة من رماة القسي الزيارة، وكان هناك ملك على هذا الطرف من النهر، وملك آخر على الطرف الثاني مثله قريباً من النهر، وشاهد الملك الانكليزي في الصباح الباكر العلم الحريري الأحمر للملك الفرنسي، وخيام ورايات جيشه، وكان الطرف الآخر من النهر مغطى بحشود من الخيم، بدت وكأنها مدينة واسعة ومكتظة بالسكان، ولدى رؤية ملك انكلترا لهذا المشهد، ولأنه كان يتوقع لاشيء سوى القتال، وأنه سوف يفاجىء الفرنسيين بحد السيف، حتى أنه مركز بعض الانكليز ليتولوا حراسة عبور الجسر، عند هذا قال لكونت دي لي مارشي: «أين هي الآن وعودك، يا مولاي وأبي؟ فعندما كنا في انكلترا، أنت وعدتنا، مراراً عدة، بوساطة عدد من الرسل، وأكدت لنا برسائلك الموثقة، أنك وقت الضرورة سوف تعدّ قوة من أجلنا تكون كافية من دون خوف، للتصدي للملك الفرنسي، وأخبرتنا بأن نهتم فقط من ناحيتنا حول المال»، وعلى هذا أجابه الكونت: «إنني لم أفعل ذلك مطلقاً»، فتدخل الايرل رتشارد مقاطعاً إياه قائلاً: «لابل فعلت، وأنا معي الآن رسائل معتمدة حول هذه القضية»، ثم أجابه الكونت: «إنها لم تكتب من قبلي، أو وقعت مني»، وعند ذلك قال له الملك وهو مندهش: «وما هذا الذي أنا أسمعه منك، يا أبي؟ أولم ترسل مراراً إليّ، لابل رجوتني بإلحاح لأن أقدم إلى هنا، بوساطة رسلك، ورسائلك المعتمدة، وكنت تشكو في الوقت نفسه من التأخير؟ أين هي الآن وعودك؟» وعند ذلك قال الكونت، مع يمين مخيف: «إن هذا لم يفعل قط من قبلي، وجّه اللوم لا لأحد، إلا لأمك، زوجتي»، ثم إنه أضاف بعد أداء يمين آخر: «بحق عنق الرب، هي التي دبرت هذا كله دون معرفتي»، وعند سماع الايرل رتشارد لهذا الكلام، جرد نفسه من السلاح، وحمل عصا في يده، وعبر الجسر، للترتيب لهدنة، لأن ملك

انكلترا كـان في خطر عظيم، وقـد بات أسيراً، وقـد حـدث هذا في يوم أحـد، ولدى وصـــول الايرل إلى الجيش الفـرنسي، استقبـل من قبل الفرنسيين بتشريف عظيم، وعدد كبير منهم دعـونه باسم منقذهم، لأنه بوسـاطة السلم الذي عمله في الأرض المقـدسـة، كان قـد حـررهم من الأسر، ثم إنه استدعي باحترام إلى حضرة الملك، وعندمـا أعلمه برغبته في الحصول على هدنة، منحت إليـه، بعد شيء من الصعـوبة حتى الغد، وقـد حصل على هذا لعـدة أسباب، لأنه كـان انسـاناً لديه حظوة كبيرة لدى الفرنسيين، لقيامه بتحرير نبـلائهم في الأرض المقدسة، الأمر الذي ذكـرناه من قبل، وثانيـة لأنه كان قـريبـاً للملك الفرنسي، وكـذلك لأن اليوم كـان يوم الأحد، ولـدى قيام الملك الفرنسي بـوداعه، عندمـا كان مغادراً قال له: «مـولاي الايرل، مولاي الايرل، لقد منحتك هذه الهدنة طوال هذا اليوم والليلة، في سبيل التداول حول الذي هو أفضل لصنعه في المستقبل، لأن الليل يجلب المشـورة معـه»، وعلى هذا أجـاب الايرل: «لهذا السبب طلبت الهدنة التي حصلت عليهـا»، ثم إنه عاد على الفـور إلى ملـك انكلترا، وهمس في أذنـه بهدوء: «أسرع، أسرع، دعنـا ننقـل أنفسنا مـن هذا المكان، لأننا في خطـر عظيم، حيث أننا وقعنـا بالأسر»، ثم إنهما تناولا وجبـة سريعـة(لأن الوقت كـان ظهـراً) وعنـد غـروب الشمس، شغل كل انسـان نفسه في جمع أثقاله مع بعضهـا، وعند حلول الظلام، قـام الملك الذي جـرب الآن اخـلاص، أو بالحري، انعـدام اخـلاص البواتيين، فـانسحب بشكل مهين، ولم يتهـاون بالسرعة، وقـد تبعـ جيشـه كله، لكن ليس من دون خطر على الخيـول وعلى الرجـال، لأن كثيراً منهم كانوا لم يتناولوا الطعام، كما كانت خيولهم مرهقة، وكان الملك ممتطياً فرساً سريعاً، لذلك لم يرخ عنانه حتى وصل إلى سانتاغيو.

المعركة التي نشبت بين الفرنسيين والإنكليز عند سانتاغيو

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا الخبر، كـاد أن لايصدقه، ومع ذلك

قام في الليلة نفسها بعبور الجسر بكل هدوء، وقام الفرنسيون في الصباح الباكر من اليوم التالي بنصب خيامهم فوق البقعة نفسها التي كانت القوات الانكليزية مقيمة فيها، وقد ازداد الآن جيشهم بوصول قوات جديدة، وعربات وشاحنات تحمل آلات الحرب والامدادات، وكان عددهم حوالي ألف وستمائة، وقد امتد قطارهم حوالي ثلاثة أميال على الطريق، وفي يوم الثلاثاء التالي انطلق الملك الفرنسي مع قواته ليتولى مطاردة ملك انكلترا، وعند الوصول إلى سانتاغيو، كان بعض الفرنسيون يتجولون، عازمين على جمع المؤن (وهو مايسمى عادة الاحتشاش) فتواجهوا مع كونت دي لى مارشي وهوجموا من قبله، من دون استشاره ملك انكلترا، أو جيشه، وهاجمت كل فئة الفئة الأخرى، وارتفعت صرخات عالية «رجال الملك، رجال الملك» من الجهة الأولى، ومن الجهة الثانية «جبل البهجة، جبل البهجة»، وكانت هذه صرخة جميع الجنود لدى الملكين، ووصلت أصوات الصراخ وقعقعة القتال إلى الملك الانكليزي في سانتاغيو، وقد أخبر بأن كونت دي لى مارشي، بشروعه بالقتال، هو قد رغب إما أن يفقد حياته، أو أن ينقذ سمعته، ونهض الجيشان من على الجانبين، وأعقب ذلك قتال عنيف، وقع خارج بلدة سانتاغيو، في الطرقات الضيقة بين كروم العنب، وقاتل الانكليز وهم على حنق، وحاربوا الفرنسيين بحد السيف، وقاتلوا وهم يائسين جداً، حتى أنهم لو عادلوا أعداءهم بالعدد، لنالوا بنجاح نصراً مبيناً على الفرنسيين، الذين هم أنفسهم كانوا شهوداً على ذلك بعد المعركة، وفي هذه المعركة نال: سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، مع ايرلي: سالسبري، ونورفولك، وروجر بيغود، ووارن دي مونتشسنيل Montchesnil, وهيوبرت فتز— ماثيو، ورالف فتز— نيقولا، وعدد كبير آخر من الشجعان الانكليز، وحصلوا على شهرة سرمدية، وذلك حسبما تحدث خصومهم، ومن الجانب الفرنسي، وقع جون دي باري Barres, مع ستة فرسان أسرى، بيد وليم دي سي، لكن

جرى فيما بعد مبادلتهم بعدد مساوي من الأسرى الانكليز، وكان هناك عدد كبير آخر من الفرنسيين قد أخذوا أسرى، وكان من بينهم بيتر أورغي Orige, قهرمان كونت بولون، وكان آسرهم جون مانسيل Mansell, وكان محاسباً ومستشاراً خاصاً لملك انكلترا، وقد عدّ هذا بين الرجال الشجعان، ومن جيش ملك انكلترا وقع هنري هيستنغ Hastings بالأسر، مع حوالي عشرين فارساً، ومجموعة كبيرة من الرجالة، وقد قدموا هؤلاء جميعاً بدلاً عن جون دي باري، والذين أخذوا أسرى معه.

كونت دي لى مارشي يسعى للتصالح بشكل سري مع الملك الفرنسي

وبما أن جيش الملك الفرنسي قد ازداد يومياً مثل بحيرة تضخمت بمياه سيول الأمطار، بدأ كونت دي لى مارشي يشعر بالخوف بشكل جدي أكثر من ذي قبل، لأن التقارير الشريرة المتأخرة جرحت قلبه يومياً، وكان أولها الاستيلاء على قلعة فرونتني، التي فيها وقع ابنه مع أربعين فارساً وذلك إلى جانب عدد كبير آخر من الأتباع قد وقعوا بالأسر، وجرى أيضاً الاستيلاء على كميات كبيرة من السلاح، ففي تلك القلعة كان قد مركز جميع آماله وثقته، ثم إنه فقد بعد ذلك قلعة فوفانت، التي كانت مشحونة بمائة وأربعين فارساً مع حوالي ستمائة من رماة القسي الزيارة المسلحين، ثم أعقب ذلك سقوط قلعة فيلير Vilers مع عدد آخر من القلاع والبلدات مع اقطاعياتهم وحصونهم، وأخيراً جرى الاستيلاء على فونتني مع المناطق المجاورة لها، ولذلك قام وهو محرض من الألم الداخلي في قلبه، ومدفوع بالخوف واليأس، مع أنه أخفى اضطراب تفكيره، تحت ملامح هادئة، قام الكونت المذكور فشرع بالتقلب، وبتقدير من الذي يمكنه بوساطته أن يقبل ثانية في حظوة الملك الفرنسي الذي هو مولاه، والذي نال باستحقاق غضبه، وبعد

بعض التقدير للأمور، بعث بشكل سري إلى كونت بريتاني، وكان صديقاً قديماً له —وكان هو نفسه خائناً يراسل خائناً— ورجاه أن يعمل بالتعاون مع أسقف سانتاغيو، بكل يقظة ممكنة، بشكل سري وحذر، وأن يسعى إلى إعادته إلى حظوة الملك الفرنسي، وبناء عليه ذهب كونت بريتاني مع أسقف سانتاغيو إلى الملك، وقالا له وهما يبتسمان: «لقد توقفت الحرب لأنها انقطعت بوساطة واحد متقلب»، وبعد التفوه بخطاب أكثر نعومة وفيه المزيد من الإطراء والإثارة، تابع الكونت حديثه، وذلك على مسمع من الأسقف المتقدم ذكره، وعدد قليل آخر من النبلاء الفرنسيين، الذي كان قد بعث خلفهم للاجتماع به والتشاور معه، وقال: «مولاي الملك، إن رعيتك، كونت دي لى مارشي، الذي اعترف بأنه أذنب بشكل خطير نحوك ونحو تاجك، لايسأل الآن العدالة بل الرحمة، كما يقول المثل العام: «إلى الشقي الرحمة ضرورية، وإلى المذنب علينا منح الشفقة»، وهو قد أرسل بي إليكم، بحكم أن روحه يمكن أن تثق بي، ولهذا أتوجه بالالتماس إليكم بكل اخلاص، وإلى لطفكم الأصيل، وإلى جلالتكم، وأرجوكم تقبله بصدركم الرحيم المفتوح، فهو رعيتكم، وقد أصبح الآن مخلصاً إلينا من دون أي من تعليلاته المعتادة»، ثم إنه غمز بعينه نحو الملك، وقال بصوت خافت: «إنني أنصحك بعدم رفض طلبه، لأنك تستطيع أن تضعه وسيلة ضغط لصالحك حسبما تشاء في المستقبل».

كونت دي لى مارشي يصبح متصالحاً مع الملك الفرنسي

وجرى بناء عليه استقبال كونت دي لى مارشي بالحظوة من قبل الملك الفرنسي، على شرط أن يتنازل —أي الكونت— له عن ملكية جميع القلاع التي استولى عليهن الملك مؤخراً بالقوة، وأن يكون ذلك حق دائم، وفي سبيل منفعة المملكة، جرى تجريد الكونت مع ورثته منها بموجب قرار قضائي، وأضاف الاشتراط أيضاً بأن جميع قلاع الكونت

المذكــــور، وهي كــــوغناك Cognac, ولوزغنان Lusignan, وميربن Merpins, والقـلاع التي يظن أنها عائـدة إليه، سـواء التي هي ملكه، أو التي هي ملـك لأصـدقـائـه الذين يستطيع أن يسـوغهم، ينبغي أن توضع تحت سلطـات الملك، وبناء عليـــه ينبغي أن تبقى تحت سلطانه، في سبيل إبقـاء الملـك تحت المراقبـة، وأن يرغم، وإن كـان بغير رضـاه، بأن يكون مخلصـاً إلى الملك، والمسألة سوف تتـوقف بعـد مضي ثلاثة أعوام على إنعام الملك، وذلك إذا ما خدمه باخلاص، فمن الممكن إعادة القـلاع المذكورة إلى الكونت، وعلاوة على ذلك، يتـوجب، خلال الأعوام الثلاثة، أن يخدم الملك الفـرنسي، إذا ما دعاه بمائتي رجل مسلح على حســابه، وأن يقاتل باخـلاص لصالح الملك المذكـور، ضد كـونت طولوز، أو أي ثائـر آخـر ضـده، أو ضـد الكنيسـة، وعـلاوة على ذلك أضاف الملك الفرنسي: «إن الصك الذي ناله آباءه من أجدادي منذ زمن طويل مضـى، والذي مــازال حتى الآن يمتلكه، وينال عنه ألـف باوند سنوياً من خـزينتي، في سبيـل حـراسـة هذا الجانب من حـدود مملكتي، والذي غـالباً مـا أسيء القيام به، لاسيما الآن، إن هذا الصك، أنا أقـول عليه التخلي عنه لي مـن دون أية معارضة، والتخلي في الوقـت نفسه عن الدخل السنوي المتقـدم الذكـر»، ولهذا ابتسم كـونت بـريتـاني، وكشر مقطبـاً، وهمس في أذن الملك قـائـلاً: «أنا أنصحك بالاحتفـاظ بالقـلاع والمورد، وأن تستحـوذ من الآن فصـاعـداً شخصيـاً المسؤوليـة عن التخوم»، ثم إنه غـادر آخذاً بيد الأسقف حيث قـال: «لقد استكملت»، وعندها سأله الأسقف: «ماالذي استكمل؟» فأجابه: «العمل الذي جئنا من أجله وعند ذلـك قـال الأسقف: «أنت تتــولى رعـايـة ذلك، فأنا لم أسمع همساتك السرية».

كونت دي لى مارشي يوافق على الشروط مع أنها شروط قاسية

وعندمـا بـاتت هذه الشروط والمفـروضـات مـن أجل الحصـول على

حظوة الملك معـروفـة من قبل الكونت المذكـور، أي كـونت دي لى مارشي، حيث حملها إليه كونت بريتـاني، حزن حزناً عميقاً، وظل لوقت طويل رافضـاً الموافقة عليهم، لكنه وافق أخيراً عليهم، بناء على نصيحة كـونت بريتاني المذكـور، وأصدقـائـه السريين الآخرين، الذين كـان يثق بهم، لكن مـوافقتـه لم تكن من دون ألم بالقلب، وفعل ذلـك للحيلولة دون وقوع أي شيء أسـوأ إليه، وبناء عليـه ترك ابنه ملك انكلترا، الذي كـانت أمـواله قـد استهلكت الآن إلى أبعـد الحدود، وهرب إلى الجيش الفرنسي، حيث رمى بنفسه على ركبتيه أمام الملك، فحصل على حظوته، التي لم يستحقها، ثم جرى ارساله على الفـور مع كونت بريتـاني نفسه، لشن الحرب على كـونت طولـوز، لأنه كـان متحـداً مع ملك انكلترا بروابط القـرابة، كما أنه كان حليفـاً، بناء على قسم، وكان متـابعاً الحرب ضـد الملك الفـرنسي، ولهذا السبب، شغل كـونت طولـوز، منذ ذلك الحين، نفسه بالنظر إلى أمـور دفاعه، وبات غير قادر على مسـاعدة ملك انكلترا، الذي إليـه وعـد بتقـديم مسـاعدة فعـالة، لدى تسلمـه المال سلفاً.

وبالطريقة نفسها، لم يعد بـإمكان ملك انكلترا الحصول على المساعدة من ملك أراغـون، لأن الطرق كـانت مغلقة ضـده، ولا كـذلك من أي واحد آخر، كان قد وضع فيه ثقته، وقدم في الوقت نفسه كونت طولوز سراً إلى ملك انكلترا، وبعـدمـا سـوغ نفسـه واعتـذر قـال: «لاتيأس يامـولاي الملـك، وابن عمي، لاتيأس أيها الأمير الأعظـم قـوة من أن لاتكون قادراً على صدّ الملك الفرنسي، بما أنـك تتذكر أنني وحدي، مع مساعـدة البابا، قد صددتـه، وحالما أتمكن من طرد هذين الخائنين لي من أراضي التي هي الآن تحت احتـلالهم، سـوف أقـدم إليك بكل سرعـة، لتقـديم المسـاعـدة»، وبعـد قليل من المحـادثات الأخـرى، غـادر ذلك الكونت، وهو محمل بالهدايا.

سبب فقدان الملك لسانتاغيو

وبينما كان كـونت دي لى مارشي يتابع تنفيـذ خططه الخيانية المتقـدمة الذكـر، مـن دون معـرفـة ملك انكلترا، كـان آنذاك ملك انكلترا مقيماً لبضعة أيام في سانتـاغيو (التي كانت معروفة بموجب الحقـوق القديمة ملكاً خاصـاً، ومسكناً لملك انكلترا) وقد قام فيها بعـد من دون مشاورة المواطنين، لابل ضد رغبـاتهم، فأعطى تلك المدينة، وثبت منحتـه بوثيقة إلى هوغ برن Brun, ابن كـونت دي لى مـارشي، وأخـاً أصغـر له شخصيـاً، وقـد كره المواطنـون هوغ هذا المذكور، لأنـه كان متعجـرفـاً، ورجـلاً شريراً، وغالبـاً مـاقام بتهـديدهم بالضغط عليهم، ونتيجـة لهذه المنحـة، لم يعـد المواطنون ينظـرون بعين الحظوة نحـو ملك انكلترا، كما أنهم لم يعودوا يوافقون على سلوكه وأعماله.

فرار الملك الإنكليزي إلى بلي

ومع اقتراب حلول شهر آب المجهد، وفي الوقت الذي كان فيه ملك انكلترا يظن أنه آمن، ولديه مكان التجـاء مضمون في سـانتاغيـو، وكان يفكر بالبقـاء هناك لعـدة أيام قليلة، حتى يحصـل على وقت يسترد فيـه أنفاسه، أرسل فارس فـرنسي، كان واحداً من الذين حررهم في الأرض المقـدسـة الإيرل رتشـارد، وكـان مطلعـاً بشكل سري على خطط الملك الفـرنسي، أرسل رسـالة سرية مستعجلـة إلى الايرل المذكـور، بأن ملك فـرنسـا قـد أبدع خطة سرية واستقـر رأيه عليهـا، حيث سيقـوم فجأة بتطويق ملك انكلترا في مـدينة سـانتـاغيـو، مع حفـر خنادق من جميع الجهات، ومن ثم حصـاره هناك، فهو ما أن يكمل حشد قـواته بقدر ما تستطيع فرنسـا تقديمه كما هو معلوم، سوف يتـابع الحصار، ولن يتخلى عنه حتى يأسر جميع الانكليـز الذين هم هناك، مع ملكهم، وأن يحملهم أسرى مغلولين إلى باريس، وأضـاف الرسول نفسـه على سرعة، أو وهو مقطوع الأنفاس تقـريباً، بأن كونت دي لى مـارشي قد تحول، أو بالحري

تبدل وانقلب من كـونه صديقـاً الى أنه بات العدو الأعظم لملك إنكلترا —ومن كونه أبا زائفـاً الى صيرورته زوج الأم— وأنه لايمكنه أن يتأمل أي شيء آخـر من نبـلاء بواتـو الآخـريـن، ومـا كـاد يتـوقف عن الحديث،حتى وصل رسـول آخـر الى الملك،من أخيـه الأصغـر هـ . H المتقدم ذكره، ومن غي دي لوزغنان —أخيه الأكبر— يعلن أن الانكليز إذا مـابقيـوا في البلدة تلك الليلة، هم سـوف يقعـون جميعـاً بالأسر مع ملكهم ومـع السكان، أو أنهم سـوف يحاصرون حتى يمكـن أسرهـم، وحـدث هذا في اليـوم التـالي لعيـد القـديس بانتـاليـون Pantaleon, عندما جاء الملك من بونز Pons خلال آركياك Archiac, ثم إلى هيربيزي، ثم وصل إلى سـانتاغيو، داره كما كانت، لكن عندمـا كانوا على وشك اتخاذ مقرات لهم هناك، وكـان وكلاؤهم قد تقـدموا عليهم، وكان المراقبون والمارشالات قد أعدوا جميعاً طعام افطارهم، وكان الملك نفسه على وشك تناول طعام افطاره، وصل رسول ثان أكد بينة الرسول الأول، وبذلك لم يترك أي مجال للشك في هذه القضيـة، وبناء على ذلك غادر الملك المدينة على الفور، معطياً أوامر بـاحراقها، لأنه كان قد سمع من الرسـول المتقدم الذكر، بـأن المواطنين قد أعدوا شروطاً للسـلام مع الملك الفـرنسي، وأباحـوا بشكل خيـاني أسرار خططه إلى ذلك الملك، وعند ذلك لم يوفر هنري مهمازه، أو لكز جانبي فرسه، بل إنه هرب من دون توقف حتى مدينة بلي Blaye, وكان صـائماً وجائعـاً، ولم يهتم سوى قليـلاً بقواته التي تبعته، وعندمـا علم نبلاؤه بفـراره، تركوا فجأة طعامهم نصف المطبوخ، وركبوا خيـولهم السريعة، ولحقوا ملكهم، وهـم يرجون ايجاد ملجأ لأنفسهم معه في مدينة بلي.

وسار خلفهم حشد كبير من الانكليز، على أقـدامهم، وهم في حاجة شديدة، وكـانوا يتساقطون من الجوع والضعف، وقد فقـدوا عدداً كبيراً من الرجال المرضى، والخيول المحملـة، والعربات والشاحنات، حتى أن

الدموع عطفاً عليهم تدفقت من أعين جميع الذين شاهدوا أوضاعهم، لأنها كانت رحلة عشرين ميلاً، وفقاً لتقديرات تلك المنطقة، لكنها كانت حوالي الأربعين أو قريباً من الخمسين وفقاً للحسابات الانكليزية، ولولا أنهم قووا أنفسهم، وهم على الطريق، بأكل التفاح البري والتوت، لتخلت قواهم عنهم نهائياً، ووصل الملك الفرنسي في الوقت نفسه إلى سانتاغيو، حيث جرى استقباله باحترام من قبل رجال الدين والمواطنين، واسترد سلطاته من دون صعوبة على تلك المدينة النبيلة، وبعد فرار مهين ومدمر، وصل الانكليز المنهكون وغير القادرين على التنفس إلاّ بصعوبة، إلى مدينة بلي، وبعدما مكث الملك هناك لبضعة أيام للراحة ولاسترداد قواه (لأنه كان لم يأكل أية وجبة ولم ينم منذ يومين وليلتين)، قرر أن يغادر ذلك المكان أيضاً، بحثاً عن مكان أكثر أمناً للالتجاء إليه، ولذلك عقد مؤتمراً مع نبلائه، ثم إنه قرر الانطلاق نحو الأمام إلى بوردو، وفي هذا الفرار فقد ملك انكلترا بيعته مع جميع تزييناته المقدسة بالاضافة إلى الآثار وأشياء أخرى كثيرة، عددها كبير جداً حتى نتولى ذكره، وأثناء فرار الملك الانكليزي إلى بلي طارده الملك الفرنسي بحرارة حتى وصل إلى مكان اسمه كارتليو Cartelegue, حيث أرغم على التوقف بسبب المرض.

استسلام مدينة بونز إلى الملك الفرنسي

وعند سماع رينالد دي بونز بهذه الأخبار، طار على الفور نحو جناحي الملك الفرنسي، ونشد السلام من خلال وساطة بعض الأصدقاء، وقد حصل عليه مع بعض الصعوبة، و سلم نفسه والمدينة إلى سلطات الملك الفرنسي.

الملك الفرنسي يشحن بالجند مدينة بونز وبعض القلاع

وبعدما أعيدت مدينة بونز على هذه الصورة إلى الطاعة، وكذلك

بعض القلاع من حولها، قام الملك الفرنسي على الفور بطرد البواتيين، ووضع بعضاً من الفرنسيين المخلصين هناك.

رئيس الأساقفة وليم يلتحق بالملك الفرنسي

وعندما وصلت أخبار هذه الحوادث إلى الذي يدعى برئيس الأساقفة وليم، قرر هو العمل بطريقة مماثلة، لكنه عزم أولاً أن يسمن نفسه على مقتنيات ملك انكلترا، ولذلك قام بشكل مخادع فأرسل رسالة سلام ومواساة إلى الملك المذكور، معلناً وداعياً القضاء الرباني أن يكون شاهداً، —مع أن جميع البواتيين ينبغي عليهم الانحناء، وإبعادهم من دون كرامة عنه، هو، أي رئيس الأساقفة— أنه طالما نفس الحياة موجود في صدره، لن يتخلى عن ملك انكلترا، الذي أضفى عليه ثروات عظيمة، ولن يفر إلى الملك الفرنسي، الذي داس بعجرفته التي لاتحتمل —والتي جاءت بعدما ربحوا القدرة— على جميع رعيته، وكأنهم كانوا وحلاً في الشوارع، وبناء عليه التمس من ملك انكلترا، أن يرسل إليه من دون تأخير، بحكم كونه مولاه الطبيعي، الذي عنه لايمكن أن ينفصل بنفسه، بعض الفرسان الشجعان، المجهزين بجميع الحاجيات الضرورية إلى مدينة بارثني Parthenaye التي كانت مدينته، وذلك مع المال لتحصينها، وإلى هذه الكلمات الناعمة والمعسولة أصغى الملك برغبة كبيرة، وتصرف وفقاً لطلبه، لكن لدى وصول الفرسان الذين أرسلوا من قبل ملك انكلترا إلى مساعدته، طردهم بالقوة من المدينة، واحتفظ لنفسه بالمال الذي أرسل إليه للدفع إلى عساكره، ثم إنه طار مع جميع أعوانه والمواطنين للجوء تحت جناحي الملك الفرنسي، لعمل سلام معه، لكن الملك الفرنسي ضايقه ووجّه الملامة إليه، وقطع لسانه، وأشار إليه باصبعه، موجهاً الملامة إليه بسبب سلوكه، ووبخه ووسمه بأنه خائن، وانسان موسوم بعلامة قابيل.

عمدة طولوز يتحول عن جانب الملك الإنكليزي

وبات في هذه الأثناء، عمدة طولوز أيضاً على بينة بأوضاع القضايا، وكان رجلاً كدس عليه ملك انكلترا أكواماً هائلة من المنافع، وقد رفع من شأنه في كثير من الطرق، لكنه عندما وجد جيوب سرج خيوله مليئة بأموال استيرلينية جيدة، جاء رده على ذلك خيانته، وبوساطة أصدقائه عمل سلمه مع الملك الفرنسي، وأعيدت مدينته إليه مع البلدات المجاورة، والتحق هو بالجيش الفرنسي، مظهراً بذلك أي نوع من الثقة ينبغي أن توضع في البواتيين.

البواتيون جميعاً يتحولون إلى الملك الفرنسي

ثم إن المواطنين وحراس البلدات، رأوا هؤلاء الأعلى مرتبة منهم أنفسهم قد تحولوا، وأن ملك انكلترا، الذي كان من المتوجب أن يقدم الحماية إليهم، قد هرب، مثل ملاح يهجر سفينة غارقة، تبارى أحدهم مع الآخر في الفرار إلى الحكم الفرنسي المعروف جيداً، وقام أتباعهم في المقاطعات أيضاً، بالتخلي فوراً عن أنفسهم وعن ممتلكاتهم إليه.

إخلاص هارتأولد قسطلان قلعة ميربو

وعندما كانت أخبار هذه الأحداث ومايماثلها تنتشر لتعم مناطق بواتو، كان هناك واحد اسمه هارتأولد Hertold, كان القسطلان المخلص لقلعة ميربو التي لاترام، وقد شعر بحزن عميق، وكان يشعر بشكل مؤكد أنه عندما يحرم من مساعدة ملك انكلترا، هو لم يرغب —على كل حال— بذلك، بل رغب بالتصدي للهجمات الصادرة عن الملك الفرنسي، وقد قال لرفاقه في السلاح: «أصدقائي، ورفاقي الحقيقيين، إن جميع منطقتنا هذه، وياللأسف، عرضة للخراب والدمار، فما الذي ينبغي فعله؟ إن بني قومنا مختلفون فيما بينهم أنفسهم، وهم منقسمون، وهم بالتالي في حالة اضطراب، وإننا سوف نتحول إلى درجة

العبـودية من قبل أعدائنا»، وقـرر أخيراً، بعد كثير من البكاء، في قـرارة نفسـه، أن يذهب إلى ملك انكلترا، الـذي هو مـولاه الطبيعي، ليتشـاور معه حول هذه القضية، وعندما وصل إليه، كانت الدموع مبللة وجنتيه، والتنهدات قطعت كلامه، حيث قال: «مولاي الملك، إن جلالتكم ترى بأن الحظ مضـاد لنا في كل شيء، وأنا رجل تعيس إلى حـد أنني لاأدري ماالذي عليّ أن أفعله؟ هل يمكنك مساعدتي في هذا الخطر العظيم، وإذا ما كان عليّ صد المحاصرين بـالقوة إذا حدث وحوصرت؟ وهل سوف أنا أتورط مثل جيراني، في المأسـاة العامـة، وأن أرغم بالأخير على تحمل النير الفرنسي، الذي رفضه آبائي دوماً حتى الآن، وصدوه، وقذفوا به»، وعلى هذا رد عليـه الملك وهـو مكتئب قـائـلاً: «أنت ترى يـاهارتأولد، مقدار قـوتي، التي هي بالكاد كـافية لتأمين نجاتي، وإن مـولانا ومخلصنا يسـوع المسيح، قد جـرت خيانتـه من قبل تلميذه يهوذا، وبناء عليـه من الذي يمكنه أن يتوقع أن يكون آمناً؟ لقـد تركني كونت دي لى مارشي، الذي عـددته وأحببته بمثـابة أب، وقد ضرب مثـلاً مدمراً لكـم جميعاً، فلقد اعتمـدت على قصبة وجعلتها بمثابة عصـاي، فجرحتني شظاياها، وأنت وحـدك عملت بطريقـة محمـودة، بقيـامك بمشـاورتي في هذه القضـايا، وبناء عليـه إن جميع مـاتمتلكه باسمي، أنا أمنحك إياه بحـرية، بمثابة هدية مني، وبناء عليه، افعل الذي تراه أكثر مواءمة لك ولحقك»، ثم إن هـارتأولد غـــادر حضرة ملك انكلترا وهو آسـف، وذهب على الفـور بشعـــر مشعث، وعينان حمراوتان من البكاء إلى الملـك، الفـرنسي الذي إليه توجه بالخطاب قائلاً كما يلي: «مولاي الملك، لقد كدس الرب الغاضب أكوامـاً هائلة من الشرور عليّ، حتى بت مرغماً —مع أنني غير راغب— بأن أطير إلى رحمتك حتى أنـال الحماية والملجأ، لقـد تركت إلى نفسي، ولذلك طرت إلى جـلالتك، وبناء عليه تسلم قـلاعي، وتقبل في الوقت نفســه خـــدمتي»، وعلى هذا رد الملك الفـــرنسي بنظرة هادئـــة: «ياصديقي لقـد عرفت معـرفة جيدة بأنـك قد ذهبت إلى ملك انكلترا،

وأنا أعلم الذي قلته له، فأنت وحدك قد عملت باخلاص، وأنا على هذا عن رضا أتقبل القيام بحمايتك أنت والذين أتباع لك، وكما أنت، أنا أتقبلك، ولذلك فإن صدر الرحمة هو مفتوح لك دوماً»، ولذلك تخلى هارتأولد عن قلعة ميربو الفخمة، ووضعها بين يدي الملك الفرنسي مع جميع متعلقاتها، لكن ذلك الملك قام على الفور، إثر تلقيه يمينه بالتابعية، بإعطائه المسؤولية عنها ثانية، وكذلك معها جميع جزء تلك البلاد، باستثناء مونتوبان Montouban, وعدد قليل من الأماكن، فهذه جرى تسليمها إلى سلطات الملك الفرنسي.

ولادة ملكة إنكلترا لطفلة في بوردو

وبقي ملك انكلترا في بلي حتى عيد صعود العذراء المباركة، عندما جاء المخاض ملكته التي كانت مقيمة في بوردو —وكانت خيامه منصوبة في حقول جميلة قرب تلك المدينة— وكان مستعداً لأن يطير على الفور، إذا ماسمع من جواسيسه بأن الملك الفرنسي قد اقترب من بلي، وفي يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ولدت زوجته، الملكة إليانور —كما ذكرنا من قبل— بنتاً في بوردو، وقد منحت اسم بيترايس Beatrice, الذي كان اسم أم الملكة.

قدوم كونتسة بيرني إلى ملك إنكلترا في بلي

وفي الوقت نفسه، قدمت كونتسة بيرني Biarne, التي كانت بمفردها ذات حجم كبير إلى الملك مع ابنها غاستون Gaston, وكان برفقتها ستين فارساً، وقد اقتنعت بفعل ذلك برغبتها بالحصول على بعض المال، حيث كانت تعرف بأن ملك انكلترا كانت لديه كميات وافرة منه، وبعدما دخلت معه في اتفاقية من أجل الدفع، بقيت مع الملك، وهي تتسلم منه يومياً مبلغ ثلاثين باونداً استيرلينياً، ولكنها كانت ذات موقف معادي منه، وقد تخلت بالنهاية عنه كلية، أو بالحري خانته وأفقرته.

انتشار وباء بين الفرنسيين

ورأى الملك الفرنسي في الوقت ذاته أن الحرب متطورة لصالحه بين يديه، فعقد مؤتمراً مع نبلائه، وقرر أن يلاحق الملك الانكليزي بعدوانية إلى بلي، لأنه كان يعرف بأن هذا الملك كان قد حرم من مساعدة البواتيين، وكان الآن غارقاً في وضع ميؤوس منه، وقرر أيضاً أن يطارده من بلي إلى بوردو إذا ما تراجع إلى هناك، وهكذا تصور أنه يمكنه بيقظة غير متوانية، أن يجلب الحرب إلى نهاية، غير أن الرب «الذي يمنح الخلاص إلى الملك كما يريد» امتلك رحمة نحو الملك ونحو مملكة الانكليز، ففرق بين قلوب الفرنسيين المتعجرفين الذين لايعرفون التهاون، بإثارة الشقاق والخلاف فيما بينهم، وعلاوة على ذلك، فإن جيشهم الذي كان كبيراً جداً، كان مرهقاً يعيش تحت نقص الامدادات، ولذلك فإن الجوع والعطش قد استبد بهم، وأخذ الناس يتلاشون بوساطة الأمراض، ولإصابتهم بمختلف الآلام، لفظوا حيواتهم الضعيفة، لأن السكان المحليين كانوا قد أغلقوا أفواه الآبار، وسمموا وأفسدوا الأنهار والينابيع، وفلحوا المروج، ونقلوا القمح، ونتيجة لذلك هلكت الخيول لحاجتها إلى الماء، وفي أيام الشعرى (مابين أوائل تموز وأوائل أيلول) التي كانت آنذاك في ذروتها، التزم الناس بمضاجعهم وهم مرضى، ولأنهم كانوا غير قادرين على الحصول على الراحة وعلى الدواء ماتوا، ومات من الجيش الفرنسي، ثمانون نبيلاً ممن كانوا يحملون الرايات، ومن الجنود الرجالة وقع حوالي العشرين ألفاً ضحايا، وفي هذه الآونة، وقع الملك نفسه مريضاً مرضاً خطيراً، ووقع على الفرنسيين خوف عظيم وقنوط كبير، ذلك أنهم خافوا أن يفقدوا ملكهم بين يدي الموت، الموت الذي لم يوفر أحداً، وذلك وفق الطريقة نفسها التي فقدوا فيها والده الملك لويس فجأة، ومات بسبب المرض نفسه كثير من الفرسان الشجعان الذين لامثيل لهم، وكان من بينهم روبرت مالت

وكـان نورمانـدياً، ورجلاً استحق التميـز بالثناء، ورتشـارد Malet, بيومـونت Beaumont, وكـان رجلاً من أصل نبيل، ومتميــزاً بين الفـرنسيين لأعماله النبيلة، وكـان واحـداً ممن حـرره الايرل رتشـارد في الأرض المقـــدســـة، ولذلك أرغم الملـك الفـرنسي، بسبـب الظروف المعـاكسـة، على الموافقـة على هدنة لمدة خمسـة أعـوام، وهي التي طلبهـا الملك الانكليزي، ثم إنـه عاد إلى فرنسـا إلى مناخه المعتـاد عليه، ولذلك منحت الهدنة إلى الملك الانكليزي عن رضا، لابل مع سرور عظيم.

الملك الفرنسي الذي وقع مريضاً يبرم هدنة مع ملك إنكلترا ويعود إلى فرنسا

وبناء عليه، قام الملك الفرنسي، فجـأة بتغيير خططه، وعاد إلى فرنسا، من أجل أن يمتلـك وقتـاً للتنفس، ولأن ملك انكلترا كـان مستعـداً للانتقـال إلى أقصى منطقـة من البـلاد، وكـان من الصعب مطاردته في أراضيه، ولأن فصل الشتـاء الممطر بات قريباً جداً، وهكذا أخـذ طريقه مروراً بمدينة سانتاغيو، التي كان قد استرد ملكيتها، فأمر بتحصينها، في سبيل تقـدم المملكة الفرنسيـة، بأسوار جـديدة، وبتحصينات خارجيـة، وبترميم الأسـوار القـديمـة، وأعطـى الأوامـر نفسهـا فيما يتعلق بالمدن الأخرى، وتلقى يمين الاخلاص، والرهائن، من الذين تركهم مسؤولين عنهم، وقام بشحن القـلاع بشحن فرنسيين، وبالذين كـانوا مخلصين له، وتراجـع ملك انكلترا في الـوقت نفســـه، مـن دون خطة بـذهنه، إلى غسكوني، حيث أمضى أيـامـه من دون نشـاط مع ملكتــه، وأثناء ذلك أظهـر الغسكونيون مـع (الكونتسة، دي بيـارد) Biard قليلاً من الرحمة نحــو أمـواله، وفي ثمانيـة القــديس متى الرســول، وصل الملك الفرنسي إلى فرنسـا، والذين زرعوا بذور الفوضى في المقاطعـات البواتية قد اعتقلوا مع الاهانة، بعدما عادوا إلى فرنسا، وبعد آلام طويلة غادروا جميعاً طريق الجسد.

الملك الفرنسي يطلب الحصول على مساعدة مالية من اللاهوتيين

وبعد مضي وقت قصير دعا الملك الفرنسي وأمر أساقفة المملكة الفرنسية بالاجتماع بباريس، وهم:

رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان السود من طوائف السسترشيان والبرامونستريت، ورؤساء هيئات الكهنة الكاتدرائية، وطلب مساعدة مالية منهم، ولكي لايعطي فرصة يمكن أن تتخذ ذريعة لرفض طلبه، أعطى سبباً بأنه يرغب في مهاجمة الهراطقة الألبينيين، لأنه اتهم كونت طولوز بجريمة الهرطقة القديمة، وكبرهان على ذلك قال بأن ذلك الكونت قد قتل مؤخراً، بشكل دنيء، بعض الرهبان الدومينيكان، ونظراً لإدراك الأساقفة أنهم كانوا محرومين من حكومة البابا، ومع أنهم لم يكونوا ملزمين بحق الاسهام بأي شيء، بناء على أمر أي علماني، حتى لاتظلم الكنيسة، ومع ذلك مقدرين أن الزمان كان زماناً سيئاً، وبما أنه كان هناك عدداً داخلين في اطار الخطر، كان لابد من إعطاء بعض المرونة للأحكام القاسية، ووافقوا بالاجماع على عمل تسوية للقضية، بمنح جزء من عشرين من مواردهم لذلك العام، وأن يجري دفع ذلك في وقت قصير.

تكريس الكنيسة في وولتهام

وفي اليوم التالي لعيد القديس ميكائيل في هذا العام، جرى تكريس كنيسة ديرية تابعة إلى كهنة وولتهام Waltham, بشكل مهيب من قبل وليم أسقف أوف نورويك، وقد ساعده في ذلك عدد كبير آخر من الأساقفة المحترمين والنبلاء، وقد حدث هذا فوراً، إثر تكريس كنيسة القديس بولص في لندن في سبيل أن يعبر الحجاج ثم يعاودوا العبور من الأولى إلى الثانية من دون زيادة تأخير.

استخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من قبل الملك

في هذا الوقت نفسه أمر الملك باستخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من جميع أرجاء انكلترا. وفي هذا العام جرى تثبيت آدم راعي دير ويردون Waredon, أسقفاً على كونور Connor, وهو كرسي موجود في انكلترا، خاضع إلى المطرانية الأسقفية العائدة لرئيس أساقفة أرماغ Armagh.

بعض نبلاء إنكلترا يطلبون الإذن بالعودة إلى الوطن

وفي الوقت نفسه، جاء إلى الملك ايرل بيغود، وايرل روجر أوف وينشستر، وعدد آخر من النبلاء، واشتكوا إليه بمرارة، بأنه جرهم بشكل غير معقول من بيوتهم إلى المقاطعات النائية لهؤلاء الخونة له، من دون أن يقدموا إليهم أية مواساة أو مساعدة، ولذلك عندما تراجع الملك الفرنسي مع جيشه إلى داخل فرنسا، من أجل تجنيد قواهم، هم سألوه أيضاً الإذن بالمغادرة والعودة إلى انكلترا من أجل الغرض نفسه، فسألهم الملك: «هل الطريق آمن؟» وعلى ذلك أجابوا: «إننا سوف نسأل»، ثم إنهم طلبوا ممراً حراً خلال فرنسا من الملك الفرنسي، فمنحهم إياه قائلاً: «دعوهم يغادرون بحرية، ويسافرون من دون اعتراض خلال أراضيّ، وأنا آمل أنهم لن يعودوا مطلقاً، وعندما ليم على هذا من قبل نبلائه، قال: «بودي لو أن جميع أعدائي يرتحلون بعيداً عني، وأن لايعودوا مطلقاً»، وبناء عليه أخذ الانكليز طريقهم بسلام خلال فرنسا —ليس على كل حال من دون نيل الأذى من السكان— وعادوا إلى انكلترا، وقد حدث في حوالي الوقت نفسه، أن واحداً من النبلاء الانكليز، واسمه وليم دي روز Roos, وكان قد جاء من المناطق الشمالية لانكلترا، لم تتوفر لديه الامكانات للمكوث أية مدة أطول مع الملك في القارة، ولذلك أمر الملك بتهور أن تنتزع منه أراضيه من دون حكم صادر عن نظرائه، وقد بدا هذا إلى الجميع أنه عمل غير

عـادل، وتصرف طغيـاني، لأنه بسبب أن وليم دي روز المذكـور كـان رجـلاً فقيراً، قـال للملك: «تقبل أراضي تحت اسم تعهـد، وامنحني الوسائل لكي أخدم بشكل موائم كفارس، ومن ثم سوف أقيم»، ولدى سماع الايرل رتشارد بهذا الإجراء وبإجـراءات أخرى مماثلة، وجّه اللوم إلى أخيه بحـدة، ونشب خلاف بينهما نتيجة لذلك، وقـد ترك أخاه وهو متألم بروحـه كثيراً، وقـرر العـودة إلى الوطن، ولذلك استـدعى بعض النبلاء، وعمل الاستعدادات من أجل الابحار.

ثم إن الملك، تصرف فجأة بشكل غير حكيم، فـانفجر غاضبـاً مهدداً ضـد الايرل، ولكي يخفي الايرل عنف أخيـه وغضبه، كظـم مشاعـره، وبقي معـه، ولكن عندما رآه قـد تصرف بشكل مضاد مبـاشرة لنصيحة شعبه، قام مع وليم، الايرل مارشـال، وايرل هارتفورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، وتـرك الملك، الذي كان قـد أسلم نفسه تماماً لـرغبات أهل بوردو، مع الغسكونيين، وازدرى نصيحة رعيته الطبيعيين، ولذلك أخذ سفينة وعاد على الفور إلى الوطن، وشغل الملـك نفسه وتمتع بالراحة مع ملكتـه إليـانور، التي جلبت له بنتـاً، فأطال إقـامتـه في بوردو من دون عمل، وبدد أمواله في مختلف الطرق غير النافعة.

المخاطر التي واجهها الايرل رتشارد ورفاقه في البحر

أقلع النبلاء الذين تقـدم ذكرهم في البحر في يوم عيد القـديس لوقا، وبعـدمـا عـانوا من كثير من المخـاطر والعـديـد من الاضطرابات أثناء رحلتهم، وصلوا مع كثير من الصعوبة إلى كورنوول، وبعدما عمل ايرل رتشـارد نذراً بزيارة أحد الديرة من أجل الحفـاظ على حياته، تمّ انقـاذه بعـد صعوبات جمّة من فكي الموت، ونزل على جـزيرة قرب كـورنوول، أما السفن الأخرى، التي كانت قد غادرت الساحل الفرنسي، في الوقت نفسـه الذي غـادرت فيـه سفينة الايرل رتشـارد، فقـد تفـرقت بعنف العاصفة، وحملت إلى شواطىء أخرى.

عاصفة وأمطار غزيرة

في يوم عيد القديس إدموند، من العام نفسه، كان هناك رعد متميز مترافق ببرق، مع نذير شؤم عن وصول عاصفة طويلة، مخيفة للقلوب والآذان للأحياء، ولم يكن الانذار زائفاً، لأنه تبعه أنواء متواصلة في غير وقتها، وبأوضاع للرياح مزعجة ومضطربة، استمرت لعدة أيام، وتساقطت آنذاك أمطار غزيرة جداً، حتى أن نهر التيمز فاض عن حدوده المعتادة، وعن شواطئه القديمة، وأظهر نفسه فوق المنطقة الممتدة نحو لامبث امتداداً حتى ستة أميال، وغمر المنطقة بالطول وبالعرض، واستحوذ على البيوت وعلى الحقول في تلك المنطقة، ونظراً لفيضان المياه، ركب الناس في القاعة الكبرى في ويستمنستر على ظهور الخيول.

إرسال مؤن من إنكلترا إلى الملك

وأرسل الملك في تلك الآونة رسالة إلى رئيس أساقفة يورك، الذي كان وصياً على المملكة، آمراً إياه بارسال القمح الذي نما في أسقفية كانتربري، وفي العزب الأخرى التابعة للأسقفية نفسها، وكانت آنذاك فارغة، إليه إلى بوردو من دون تأخير، ومع القمح لحم خنزير وملح والأشياء الأخرى اللازمة والامدادات من أجل الشتاء، وكذلك أقمشة من أجل صنع ملابس، ونتيجة لذلك جرى ارسال عشرة آلاف عبوة من القمح وكثيراً من لحم الخنزير، إنما وهي مرافقة بمبلغ كبير من المال، وكأن انكلترا كانت بئراً لاينضب.

أوامر غير صحيحة لملك إنكلترا

وأرسل الملك أوامر دقيقة إلى رئيس الأساقفة المذكور، كي يصادر أراضي وممتلكات الذين هجروه على القارة، وتركوه بلادفاع وعرضة لتقلبات الأحداث، وعدهم خونة، وبشكل خاص ممتلكات وليم دي روز، وبعض النبلاء الآخرين، العائدين إلى المناطق الشمالية من انكلترا،

وقـد عـانى هؤلاء، نتيجـة لهذا الأمـر من خسـارة كبيرة، وكـان رئيس الأساقفة على كل حال، رجلاً حكيماً، ومقدراً للأمور، وكان يعرف أنهم ينبغي عدم لومهم، إذا كـانوا قد تركوا الملك لبعض الوقت، بعـد ابرامه لهدنة، وقد تركوه بسبب الفقـر الذي استبد بهم، أو تركوه لكي يستردوا صحتهم، ولذلك لم يرغـب، لدى صـدور هذه الأوامـر الطغيـانيـة، أن يلطخ أخلاقه وسمعته، من أجل رسالة ليست ذات قيمة، بل فضّـل أن يتركها تمر بصمت، لاسيما وأن الملك كان مرغماً على الموافقة على المشورة الحكيمة لكل من أخيه الايرل رتشارد، ولرعاياه الآخرين الموثوقين، بأن عليــه والأفضـل له العــودة إلى مملكتـــه، لكنه اختــار الكـلام الناعم للغسكونيين، وبقـي في بوردو مع ملكتـــه وسط سخـــريـة ومـــزاح الفـــرنسيين، الأمـر الذي لم يكن لمصلحتــه تمامـاً، هـذا وبقي مع الملك سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، وايرل وليم أوف سالسبري، وعـدد كبير آخـر من النبـلاء الانكليـز، لكن ليس من دون المعـاناة من خسائر كبيرة، مع تعريض أنفسهم للأذى، حيث أثقلوا بالديون، وعانوا من جميع أنواع الشدائد، وكـانوا يقضون أوقاتهم من دون عمل ونائمين بشكل مهين.

تزايد خزي ملك انكلترا وعاره

وفي الوقت نفســه وصم الملك نفسه بوصمة مـن غير الممكن إزالتها، بسبب أنه رفـض نصيحـــة مستشـاريـه الطبيعيين، حيث أذعن مـــراراً، وبطريقـة صـديقـة تماماً واستجـاب لرغبـات كـونت طولوز، وكـذلك لرغبـات ملـك أراغـون، وكـانا صـــديقين هشين من القصب، حيث لم يقدمـا له في وقت الحاجة أي عمل جيـد، لابل بالحري عارضـاه ووقفا ضده، فقـد كان أولهما هرطقي، وكان الثـاني ملطخاً بعار عـدم المحافظة على معـاهداته وخرقهـا، لابل إنهما حـاولا زرع بذور الخلاف بينه وبين رعاياه الاقطاعيين، لاسيما الايرل سيمـون دي مونتفـورت، على أساس

الكراهية السالفة لأبيه، الذي كان من قبل قد ألحق هزيمة شديدة، بملك أراغون والألبينين، ولم يقم الغسكونيون لا الآن، ولا من قبل،لابتدليل ملك انكلترا، ولا بإطرائه، الأمر الذي عندما أخبروا به ملك فرنسا، من أجل أن يفرح لدى سماعه له، قال: «كونوا هادئين، كونوا هادئين، ولاتسخروا منه، أو أن تحاولوا جعلي أكرهه، لأنكم تكرهونه، إن صدقاته وقداساته، سوف تنقذه من جميع المصائب والمخاطر»، ولقد سمعت أيضاً أن رأياً مماثلاً صدر بشأنه عن للويلين، أمير شمالي ويلز، الذي كان عدواً له.

وفاة رتشارد دي بورغ

وفي هذه الآونة نفسها، مات رجل نبيل، هو رتشارد دي بورغ، وكانت لديه أراضي كثيرة وممتلكات في ايرلندا، كان قد ورثها من أعمال التوسع لأبيه المشهور.

موت هيوج دي لاسي

وفي هذا العام نفسه، غادر هيوج دي لاسي هذه الحياة، وكان مقاتلاً صاحب شهرة كبيرة، وحاكماً مشهوراً لشطر كبير من ايرلندا.

روبرت أسقف لنكولن يترجم أناجيل البطاركة الاثني عشر

وفي هذه الآونة أيضاً، ترجم روبرت، أسقف لنكولن، وكان رجلاً بارعاً جداً، إلى اللاتينية، من الاغريقية، ترجمة صحيحة جداً أناجيل البطاركة الاثني عشر، وكانت هذه الأناجيل غير معروفة منذ سنين طويلة، ومخفية من خلال حسد اليهود، لأن النبوءة المتعلقة بمخلصنا موجودة فيهم، لكن الاغريق الذين هم أكثر المتقصين بحثاً من دون ملل عن جميع الكتابات، كانوا أول من علم حول هذا الموضوع، فترجموهم عن العبرية إلى الاغريقية، ولم يكونوا معروفين في أيام القديس جيروم، أو من قبل أي مترجم آخر للكتابات المقدسة، ولم

يصلوا إلى معــرفـة المسيحيين، بأي شكل مـن الأشكال، بسبب الخطط التـآمرية لليهـود، وبناء عليـه، قـام الأسقف المذكور بـالترجمة، يساعـده نيقولا، وكان اغـريقياً، وكاهناً في دير القديـس ألبان، وجاءت الترجمةإلى اللاتينية، واضحة، وكلمة مقابل كلمة، لتلك الرسائل المجيدة، في سبيل تمتين الإيمان المسيحي، ولتسبيب الإرباك الكبير لليهود.

وفاة راعي دير إيفهام

وفي هذه الآونة، أنهى أيامه، راعي دير ايفهـام، وأسقف كوفنتري، في غسكوني، بعـدمـا شغل دوراً كبيراً أسـاسياً في انكلترا، وبعـدمـا أمضى كثيراً من الأيام المجهدة في خدمة الملك، وحدثت وفاته في منطقة اسمها ريغيـولا Regula أو لى ريولي Reole, في اليـوم الثـــامن من كانون أول، وتولى أسقف تلك المنطقة دفنه بكل احترام.

وفي هذا العـام نفسـه، في التاسع والعشرين من تشريـن الثاني، مـات جـوسلين، أسقف باث، عن عمـر مديـد، وكان متميـزاً لحيـاته الجديرة بالثناء وأخلاقه.

إنهاك خزينة ملك انكلترا وطلبه المال

وفي هذه الآونة أيضـاً ضلل ملك انكلترا من كل جـانب، أو بالحري خدع من قبل البـواتيين والغسكونيين، وبات فقيراً، وسيء السمعة، لأن بدلات الخدمة، والاستخراجات، وجميع الخزائن والهدايا التي جمعت من أجله، جـرى تبديدها مـن دون فائـدة، فضـلاً عن هذا عاد إلى ممارسـة الاستخـراجـات، وفرض الضرائـب، والطرائق الأخـرى، فبعدمـا فقـد أراضيه وكـرامته في بواتو، وجـد الآن نفسه في غسكوني مثقـلاً بالدين، مع أنه ببدل الخدمة استخرج —لكن ليس من دون مصاعب جمة سببها للانكليـز— ثلاثة ماركـات عن كل بدل، وقال بعضهم لابل استخـرج عشرين شلناً.

الملك يطلب العون من السسترشيان

وفي ذلك الوقت، طلب ملك انكلترا بشكل رسمي، وتقدم بالرجاء بشكل حبي إلى رئيس أساقفة يورك، بأن يقوم رئيس الأساقفة بتوجيه الدعوة إلى جميع رعاة دير طائفة السسترشيان إلى الاجتماع وأن يلقاهم بكلمات لطيفة، وأن يحرضهم وأن يثيرهم للاهتمام بمولاهم وملكهم، الذي كان يحارب في مناطق أجنبية، في سبيل رفع شأن المملكة ومن أجل مصالحها، إلى حد تعريض شخصه إلى حظوظ الحرب المشكوك فيها، ولذلك يتوجب عليهم أن يقدموا إليه خدمة فعالة، بتقديم المال إليه، وبذلك يقدمون إليه معروفاً، ومساعدة قيّمة، وبناء عليه اجتمعوا، وردوا عليه في الاجتماع الأول قائلين: «كم تريد يامولاي»؟ فأجابهم رئيس الأساقفة قائلاً: «قليلاً»، وعندما سأله السسترشيان: «وكم هذا القليل»؟ قال لهم رئيس الأساقفة: «بقدر مايمكن أن تحصلوا عليه من أصوافكم لعام واحد»، مما كان مساوياً إلى قول:

حياتك كلها هي كل ما أطلبه،

والبقية أتركها بين يديك.

لأنه من الذي يمكنه أن يعاني من الحاجة إلى ضروريات الحياة لأيام قليلة، وقد حرم من الضروريات التي تتطلبها الحياة، من الذي يمكنه أن يفعل ذلك دون أن يلفظ أنفاسه؟ لكنها كانت كلمة الملك في فم رئيس الأساقفة.

جواب السسترشيان

وشعر هؤلاء السسترشيان بأن مصيدة قد نصبت إليهم، وأن خسارة وشيكة الوقوع، لذلك أجابوا بحكمة كما يلي:

«مولانا رئيس الأساقفة، نعمتك وحسن تقديرك على دراية بأننا جميعاً

جسد واحد، وأننا لايمكننا الموافقة على الذي طلبته لصالح مولانا الملك من دون إذن الهيئة الرهبانية العامة، علاوة على ذلك، لنفترض أنه جرى الآن عقد اجتماع للهيئة الكهنوتية العامة، نحن نعلم،وأنتم بحكم تقديركم تعلمون، أنه غير مسموح لنا تقديم المساعدة إلى أي انسان، يباشر أعمال الحرب، التي فيها سفك للدماء، لاسيما الدماء المسيحية، خشية أننا بتقديم مثل هذه المساعدة، سوف ننأى عن أحكام نظام طائفتنا، التي تخاف خوفاً عظيماً من الدماء، لكننا على استعداد لتقديم العون إلى مولانا وولي نعمتنا بصلوات مفيدة ومستمرة، وبالصدقات وبأعمال أخرى من التقوى، وإنه بدون شك علينا الاعتقاد، أنه بهذا سوف يفوز، وذلك مما لاشك فيه، كما أنه سوف ينتصر بشكل مجيد أكثر، ولسوف يشعر بأن العون اللاهوتي سوف يمد قضيته بالتقدم، إذا ما تابع —كما هو الآن— وظل ثابتاً بإيمانه»، وعلى هذا رد رئيس الأساقفة، وهو منزعج، وملامحه مضطربة متبدلة قائلاً: «بأي وجه سوف تطلبون أي شيء من الملك وقت الحاجة، وهو الذي أجبتموه بهذه الطريقة الجافية، ورددتم على رجائه في هذه الأزمة الهامة»؟، فقال واحد من الرعاة السسترشيان: «مولانا نحن نتذكر، أنه عندما توج ملكاً، أقسم أنه سوف يظهر العدل نحو كل انسان، ونحن سوف لن نسأله أي شيء خارج الطريق العام، كما أنه لايمكنه، ولايجوز له، أن يحرمنا الذي أقسم على منحه لنا، وعليه أن يحكمنا بعدل، دون أن ينزل بنا أي ضرر غير قانوني، لكنه إذا أراد، في سبيل صالح روحه، أو أرواح أجداده، ولفائدة مملكته، أن يضفي أية منفعة خاصة علينا، سوف نفتح له صدورنا شاكرين لاستلامها».

الرعاة السسترشيان لايعبرون البحر إلى الهيئة الرهبانية العامة

وكذلك في ذلك العام، لم يسمح لرعاة الديرة السسترشيان، بعبور البحر، كما أنهم أنفسهم لم يرغبوا أن يفعلوا ذلك، لأنهم خافوا خوفاً

عظيماً من أن تكون هناك مكيدة منصوبة لهم من رجال الملك في البحر، وكأن ذلك بدون معرفة الملك، وذلك بسبب أنهم رفضوا منحه صوف سنتهم، ولذلك اعتذروا عن أنفسهم بأدب، بوساطة أساقفتهم، حتى لايظهروا أنهم كانوا هم السبب.

أوضاع الهواء خلال السنة كلها

وانقضى هذا العام، بعدما وفر كميات كبيرة من الفواكه والخضراوات، وذلك على الرغم من أنه كان جافاً وحاراً، وكان هناك قرب نهايته وباء عام، وحميات ربعية.

ملك انكلترا يبدد وقته في بوردو

في سنة النعمة هذه التي هي السنة ١٢٤٣، والتي هي السنة السابعة والعشرين لحكم الملك هنري، كان الملك نفسه يمضي الشتاء في بوردو، ومكث هناك في حالة بهجة، واستخرجت كونتسة بيارد منه مع ابنها غاستون الغسكونيين المال يومياً، وذلك إلى جانب راتب مفروض، لم يكن تافهاً بالمرة، ولقد استخرجا هذا كله من الملك، الذي كان تحت سلطانهم.

حصار دير فيرني

بينما كانت الأمور تسير على هذا المنوال، ولكي لايكون رجال الملك من دون عمل، جرى اخضاع بلدة لبعض العصاة الغسكونيين في أراضي بوردو، وجاء اخضاعها بالقوة وجعلها تحت سلطان الذين ظلوا مخلصين للملك، وكان هناك دير اسمه دير فيرني Verine, فيه اعتصم العصاة على الملك، حيث حولوا الكنيسة إلى قلعة، أو بالحري إلى كهف لصوص، وجرى حصار هذا الحصن بشدة، وهوجم من قبل خدم الملك المخلصين، لكن من دون نجاح، ووقتها قام واحد من كتّاب الملك، وكان مستشاراً خاصاً لديه، واسمه جون مانسيل، وكان رجلاً

شجاعاً بالحرب، وصاحب روح عالية، قام بتوجيه اللوم إلى المهاجمين، واتهمهم بالتقاعس وإضاعة الوقت، وفي الوقت الذي كان يريد أن يضرب فيه مثلاً للآخرين بالنهوض بشكل أكثر فعالية ضد الأعداء، وكان يرغب في إعداد طريق، قام واحد من المحاصرين، وكان متمركزاً في الجزء الأعلى من الكنيسة، باطلاق حجرة ذات وزن ثقيل نحو الكاتب المذكور، فسحق ساقه مع المفاصل والنخاع في عظامه، وعندما كان الرجل نفسه يعدّ العدة لتحطيم بقية جسده بالحجارة، قام رفاقه والمرتبطين به بإخلاص، فغطوه بأجسادهم، وبترسة كبيرة، اسمها الدرابيء، وهكذا حرروه بصعوبة من خطر الموت، وظل جون هذا نفسه الذي أصيب بجراحة حادة في جسده، لمدة طويلة فاتر الهمة وضعيفاً، غير أنه تعافى بوساطة براعة الجراحين، وبدأ يتنفس، وعندما رأى الملك هذه الشجاعة الكبيرة، وشاهد إخلاصه حوّله من كونه مستشاراً خاصاً له، وعمل من جون المذكور مستشاراً أكثر خصوصية، ذلك أنه استحق بفضائله المبرهن عليها أن يكون صاحب مرتبة بين الأعلين في انكلترا.

رهبان كوفنتري ينتخبون قائد جوقة المرتلين لديهم أسقفاً

وحوالي هذا الوقت نفسه، سمع رهبان كوفنتري رواية مؤكدة عن وفاة راعي دير ايفهام، الذي كان قد عمل بوسائط الملك أسقفاً لشيستر، فانتخبوا وأعلنوا بموافقة عامة، وبوساطة موافقة بعض كهنة لشفيلد، أسقفاً لهم، رئيس جوقة المرتلين لديهم، الذي هو وليم أوف مونتبلر Montpellier,   غير أن الملك، الذي كان ناوياً وضع إنسان آخر في ذلك الكرسي، لم يقبل لابالانتخاب ولابالأسقف، ووقف بعض كهنة لشفيلد إلى جانب الملك، وقد أثار هؤلاء على الجانبين خلافاً مرهقاً ونكداً.

ملك انكلترا يشكو من فقره

وفي حوالي الوقت نفسه، ومع اقتراب شهر آذار، قدمت رسائل من ملك انكلترا من المناطق الأجنبية، إلى رئيس أساقفة يورك (الذي مارس في مملكة انكلترا أعمال الحاكم الرئيسي) تحتوي على شكاوى تعيسة، لأن ما من سفينة قدمت إليه، تحمل مساعدات عسكرية أو مساعدات مالية، منذ تاريخ وصول راعي دير ايفهام، الذي تأرجح بوساطة الأمواج العاتية، وبعدما أرهق لعدة أيام فارق هذا العالم، لكن رئيس الأساقفة كان مندهشاً كثيراً تجاه هذا، لأنه كان قد أرسل إليه مالاً، مع كميات كبيرة من الإمدادات والمؤن، ولذلك بات يعتقد بثبات، ويخشى من أن الغضب المنتقم للرب الخالق قد دمرهم وأغرقهم في أعماق البحر، ولذلك أعدّ مؤناً حتى ترسل إلى الملك، مع مال، كان الآن مبلغاً صغيراً جداً.

ولاة الموانىء الخمسة يطلبون المساعدة من رئيس أساقفة يورك

وقدم أيضاً ولاة الموانىء الخمسة إلى رئيس أساقفة يورك، يشكون إليه بشدة، بأنهم قد صدوا الآن ثلاث مرات، ليس من دون خسائر لاتعوض بالرجال، وبالسفن والأشياء الأخرى، وذلك من قبل الناس الذين يواجهون شواطئهم، وبشكل خاص سكان كالي Calais الذين هاجموهم في سبيل النهب، وعلاوة على ذلك أكدوا بشكل يقيني، أنه لا هم أنفسهم، لابل ولا حتى الأسطول الانكليزي كله، يستطيع أن يصمد في وجه الأسطول الذي جرى إعداده من قبل هذا العدو، وأضافوا قائلين: «يتوجب على مجلس الملك الاستعداد والتجهز ضد الخونة الخفيين، وضد الغارات المكشوفة، التي أعدت، وسوف تعدّ ضد أنفسهم، وضدنا نحن، والتي تهدد بأن تصبح كل وقت أكثر إخافة، وأكثر شدة، لأن كونت بريتاني، مع جميع سفن بريتاني وبواتو، قاموا وهم مجهزون بشكل جيد بالرجال والسلاح، بمهاجمة جميع الذاهبين من

جهتنا، ومن عندنا إلى الملك، وكـذلـك جميع المسـافـرين من عند الملك، إلينا، بطريقة عدوانيـة، وحيث أننا بتنا محرومين من جميع المساعدات من الملك، وكذلك من المساعدات الماليـة والعسكرية، فررنا إلى طلب العون من نصيحتكم، لأننا بتنا أنفسنا عاجـزين عن تشكيل رأي، وعلاوة على هذا، وتتـويجاً لاضطراباتنا، نادراً مـايسمـح لنا سكان تخوم نورمـاندي، والذين يحرسون السواحل الأكثر بعـداً، مع قرصان ويزانت Wissant وكـالي، ولو حتى إلى مسـافـة صغيرة، بـالقيـام بأعمال صيـدنا للسمك، والقراصنـة أيضاً الذين يحرسـون أعماق البحار في غـلايين، لايسمحون حتى للمسافـرين بالعودة إلى بلادهـم، كما أن ملك انكلترا محصور الآن في بوردو، وكأنه في سجن، مالم تزودنا حكمتكم بحملة عسكرية بحرية وبكثير من المال».

وعندمـا وصلت هذه الأشيـاء إلى مسـامع رئيس الأسـاقفـة، لم يعـد يتجـــرأ الآن على أن يرسل إلى الملـك السفن المحملة، التـي أصبحت جاهزة، وذكـر للملك بشكل رسمي أنه إذا كان يقـدر نفسه، وممتلكاته، عليـه أن يبـادر بسرعـة إلى تصحيح أخطائـه التي وقع فيهـا، وأن يخرج ناجيـاً من المصائـد التي وقع فيهـا بشكل خياني، وأن يعجل عـودته إلى انكلترا، وقال ممازحاً الملك، عن طريق الاشارة:

السلاح على الأرض، والسفن عند البحر، ونحن نخاف

فبين الاثنين، عليك أن تدير الدفة بحذر

إعاقة انتخاب بابا بسبب الخلافات بين الكرادلة وبقاء الكرسي البابوي شاغراً

وفي الوقت نفســه أبلغ الامبراطور فردريك الكرادلة، الذين كـانوا في مناطق مختلفة، ولكل منهم موقفه، برغبته بضرورة وجوب اجتماعهم مع بعضهم، والقيـــام بشكل اجماعي بـانتخـاب بـابا، وأكـــد لهم أنه بسبب

غلطتهم قد عـانى شخصياً من ضرر كبير لحق سمعتـه، لأن كثيرين يعتقدون ويؤكدون، من خلال جهلهم بحقيقة الوقائع، بأنه هو كان المعيق الرئيسي لتقدم كنيسة روما، ولمنافعها، وأنه كان السبب في بقاء الكرسي الرسولي شاغراً، لكن الكرادلة الذين لم يروا أدنى بارقة أمل، ولا حتى بصيص نار تحت الرماد، وذلك من خلال مكائد الشيطان، العدو القديم للجنس البشري، لم يكونوا مجمعين في رغباتهم، كما أنهم لم يكونوا راغبين بالاجتماع من أجل انتخاب حبر روماني، وقاموا على كل حال بتقديم الرجاء على الفور إلى مولاهم الامبراطور فردريك، أنه إذا ما رغب في أن يعدّ المحامي عن سلام الكنيسة وحريتها، أن يسمح لأساقفة الكنيسة، الذين مايزال يحتجزهم، بأن يغادروا محررين، تحت أمل أكيد جداً بسلام سعيد.

إطلاق الإمبراطور فردريك سراح النواب البابويين والأساقفة

وبناء عليه، وضع الامبراطور ثقة مطلقة بكلام الكرادلة، ولاعتقاده بثبات بأن بابا سوف يجري اختياره، وأن الكرادلة سوف يكونوا متأكدين بأنه سيكون مـوائماً لصنع سلام مشرف بين الامبراطورية والبابوية، ولذلك سمح من دون مقابل، للنواب البابويين والأساقفة الذين كانوا مسجونين لديه بالمغادرة أحراراً من دون أية معيقات أو فدية.

بقاء الكرادلة غير قادرين على الإتفاق لانتخاب بابا

لكن الكرادلة بقيوا متصلبين، ومكثوا مختلفين مع وجود كراهية متبادلة، وكأنهم كانوا يتملقون للامبراطور، أو كأن الشيطان قد زرع الخلاف فيما بينهم، لذلك ما برحوا غير راغبين بالاجتماع مع بعضهم، ولهذا توجهوا جميعاً بالدعاء والصلاة إلى نعمة الروح القدس، وأن يزودهم بسعادة وبشكل موائم في سبيل صالح الكنيسة العالمية، وكذلك

الكرسي البـابوي، علماً بأنهم عندما أطلـق مؤخـراً سراحهم من السجن الامبراطوري، قـــد وعـــدوا الامبراطور، الذي أطلـق سراحهم، أنهم بوسـاطة البحـث الدقيق عن الحق، وبكلمـة الصـدق، التـي هي كلمـة الرب، سـوف يبذلون غـاية جهدهم، للحصـول على السلام للكنيسـة، وأن يكون ذلك موائماً للامبراطورية، ولمكانة ورفعة الكرسي البابوي.

الإمبراطور يمنح جنوده ممتلكات الكرادلة

وعندما وجـد الامبراطور فردريك وعودهم فارغـة من التنفيذ، وأنه قد خـدع بآماله، شعر بغضـب عظيم، ولأنه كان قد حشـد جيشاً كبيراً تألف مـن تسع وحـدات، تحتـوي كل واحـدة على خمسـة آلاف من الفـرسـان، قـام بحصـار الشطر الأكبر من رومـا، لمعـاقبـة المواطنين والكرادلة الذين وضح أنهم فعلة هذا الشقـاق وموسعيـه إلى حد مـدمر للكنيسة وللامبراطورية.

ولكن سكان المدينة الـذين بسببهم قـرر الامبراطور مهـاجمة المدينة، سـوغـوا أنفسهم بشكل قـانوني، وبـرهنوا بما فيـه الكفـاية على براءتهم، وأكـدوا بأن الكـرادلة كـانوا منقسمين في أرواحهم أكثر منـه بالجسـد، وكانوا مـوزعين ومتخفين في بلدات مختلفة، وبناء عليه أمر الامبراطور برفع الحصـار، وأن يجري نشر المرسـوم والأمـر التـالي في جميع أرجـاء الجيش: «تتـوجب استبـاحـة جميع ممتلكات وكنائس الكرادلة، وكـذلك الممتلكات العائدة للكنيسة، من قبل الجيش».

اجتماع الكرادلة لخوفهم لانتخاب بابا

ثم قام بعض من المسلمين، ولصـوص آخرين، مع مقترفين للشرور، كـانوا يقاتلون مأجـورين لدى الامبراطور بهجـوم مفاجىء على مـدينة ألبـانو المشهورة، واستبـاحـوها بشكل وحشي، وهكذا حدث أنه مـابين مائة وخمسين كنيسة، ما من واحدة وفرت، أو تركت من دون استباحة،

وقد سلبوا الأثواب، وكؤوس القربان، والكتب، وفي الحقيقة استولوا على كل شيء ظهر أنه كان ثميناً، أو أن له أية فائدة ومربح، وكان ذلك بعدما نهبوا الناس ومحقوهم بشكل رهيب، وعندما بات الجيش مستعداً للقيام بسلب مشابه للممتلكات الأخرى للكنائس، راسل الكرادلة مولاهم الامبراطور، وتوسلوا إليه بتواضع كي يوقف غضبه، وأن يأمر بايقاف أعمال الاستباحة، حتى يتمكنوا على الفور، تماشياً مع تصوره ورغبته، فيمضون وهم واضعين الرب نصب أعينهم، فيختارون حبراً رومانياً، موائماً للكنيسة وللامبراطورية، وبناء عليه هدأ غضب الامبراطور، وأوقف بموجب مرسوم امبراطوري أعمال السلب والنهب.

استخراج المال من مواطني لندن

وتعرض سكان لندن في هذا الوقت نفسه إلى ضيق شديد، بسبب فرض ضريبة ثقيلة عليهم، أطلق عليها اسم المكس الاقطاعي، وجرت جبايتها على الشكل التالي: قدم الجباة الملكيون والموظفون إلى كذا وكذا من المواطنين، قائلين: «ينبغي أن تقرضوننا كذا وكذا مبلغاً من المال إلى مولانا الملك، الذي يحارب في مناطق أجنبية في سبيل مصالح المملكة، وذلك إلى أن يعود إلى الوطن»، ووفقاً لإرادة هؤلاء الجباة وتقديراتهم، جرد السكان من أموالهم، علماً بأن جميع هذه الأشياء، وأكثر، كان السكان مستعدين عن طواعية لتحمل دفعها لو أنهم رأوا أنها سوف تفيد الملك أو المملكة، ولكن:

عندما يتوقف الجهد والعمل،

تزداد بالفعل مطالبنا.

عقد هدنة بين ملكي إنكلترا وفرنسا

في يوم عيد القديس جورج، جرى تثبيت الهدنة التي كانت قد

أعـدت، وجرت الموافقـة عليهـا بين ملك فـرنسا وملك انكلترا، وجـاء التثبيت من على الجانبين، لمدة خمسـة أعوام، وكان ذلك بوسـاطة تدخل رجال حكماء ومخلصين، كانوا أصدقاء لكلا الطائفتين، وتم الاتفاق على إبقاء كل ما استولى عليه الملك الفرنسي في تلك الحملة، بين يديه، علاوة على ذلك أعيـدت بعض البلدات إلى حكـم الملك الفـرنسي، وهي التي بعـدما عـاد ملك فـرنسا من كـونتيـة بواتو، كـان الملك الانكليزي قـد استـولى عليهن بمسـاعـدة الغسكونيين، ولكي يتم ضمان تنفيـذ هذه المعـاهدة الصعبة في البر وفي البحـر، خـلال ذلك الوقت المحدد، تعهـد ملك انكلترا بأن يدفع باخلاص إلى ملك فـرنسا مبلغ خمسة آلاف باوند استرليني، أي ألف باوند عن كل سنة، غير أن كونت بريتاني، الذي كان رجلاً ماكراً وداهية، تظاهر بأنه كان جاهلاً بجميع هذه الأشياء، وشغل نفسـه بيقظة وفق طرائق القـرصان بالسلب والنهـب فوق سطح البحـر بغـلايينه وسفنه الأخـرى، ولم يرغب بالقدوم إلى الشـاطىء، خشيـة أن تكبح الارادة الملكيـة حملاته الشريرة والمفسـدة، وكـان من الأعمال التي اقترفها بشر كـونت بريتاني المذكـور، الاستيلاء على، ونهب سفينة تجارية كبيرة جـداً تابعة لبيـوني Bayonne, وكانت محملة بالتين واللوز، ومختلف أنواع التوابل، وكـانت متوجهة ومبحرة نحـو انكلترا، وحدث هذا قرب أيام الصوم الكبير، ثم إن ملك فرنسا، كبح —بناء على طلب ملك انكلترا— وأوقف الهجمات الشريرة للكونت المذكور، وذلك تحت تهديد الحرمان من الميراث.

وفاة هوغ دي ألبينت إيرل أرونديل

وفي السابع من أيار، من العام نفسه مات هوغ دي ألبينت Albinet ايرل أرونديل Arundel, وهو في زهرة شبـابـه، حيث أنه كـان بالكـاد قـد اجتـاز حـدود الشبـاب، وقـد دفن في ويمـونـدهام Wymonham, في كنيسة القديسة مريم، وهي رئاسة رهبان عائدة

إلى دير القديس ألبان، وجاء دفنه إلى جـانب أبيه، الذي كان راعي تلك الكنيسـة ومؤسسهـا، وإثر موتـه جرى تقسيم ميراثه النبيل بين أخـواته الأربعة.

وفاة هيوبرت دي بيرغ إيرل كنت

وفي الوقت نفســه، في الثـاني عشر من أيار، أنهى أيامــه ايرل كنت، يعني هيوبرت دي بيرغ، وجـاءت وفاته عن عمـر طويل، ووفق طريقة تستحق أعظم الثناء، وكــان ذلك في عـزبتــه في بانستـد Banstead, وذلك بعدما تحمل عدداً من الحمـلات غير المسوغة والاضطهادات من الملك مع كثير من تقلبات الحظ، وجرى حمل جسده المحترم بكل تقدير إلى لندن لإدخــاله إلى بيت الرهبــان الدومينيكان، الذيـن منحهم أثناء حياته كثيراً من الأعطيـات، وأشياء أخرى كـان من بينها قصره الفخم، الذي لم يكن بعيداً جداً عن قصر الايرل رتشارد في ويستمنستر، والذي اشتراه فيما بعد رئيس أساقفة يورك.

رغبة ملك إنكلترا بالعودة إلى الوطن لكنه منع بسبب ظروف متنوعة

وفي هذه الآونة، رأى مولانا الملك أن الحظ معارض له في كل شيء، واكتشف بأن أتبـاعه الانكليـز المخلصين قـد أخبروه الصدق، فعـاد إلى نفسـه ثـانيـة، مع أن ذلك جـاء متأخـراً، وندم أنـه لم يذعن إلى آرائهم الصحيحة، ولذلـك أشار إلى رئيس أساقفـة يورك أن يحضر له اسطولاً، عندمـا يستطيع، وأن يـرسله حتى يقـابله، لكي يتمكن أثنـاء سفـره من تجنب مصائد أعدائه بشكل فعـال، إذا ما صدف وكان أي شيء من هذا القبيل قد أعدّ له، كما أنه أعطى أوامـر بوجوب استقباله بسرور من قبل جميع نبـلاء انكلترا، على الشـاطىء، عنـدمـا ينزل إلى اليـابسـة، وجـرى ارسال اسطول كبير لمقابلته، وكانـت نتيجة هذا الأمر إفقار نبلاء انكلترا

بشكل تعيس جداً، الذين كانوا ينتظرونه يومياً على شاطىء بورتماوث، ليس من دون تحمل نفقات عالية، والمعاناة من الارهاق والانهاك، لأنه أخر عودته حتى عيد القديس ميكائيل، لأن الملكة كانت مرهقة بالحمل أو بمتاعب أخرى، وعلاوة على ذلك، وجد شعب بوردو، لابل بالحري جميع الغسكونيين، بأن تأخر الملك كان عظيم المنافع لهم، ولذلك كانوا يسعون بكل وسيلة ممكنة، لاقناع الملك لإمضاء الشتاء معهم، وأن يبدد ماله من دون فائدة له شخصياً، سواء المال الذي استخرجه أو سوف يستخرجه من مملكته، المهم أن ذلك مفيد لهم، ولقد حدث على الفور، بعدما كان الملك على وشك مغادرة بوردو، وبعدما كان قد عيّن نيقولا دي مولي Molis, كشخص مناسب ليعمل بمثابة حاكم، وهو الذي يدعونه القهرمان، وبعدما اتخذ جميع الإجراءات الاحترازية من أجل سلامة الأرض، وبعدما أقلع بسفينته، وكان مبحراً في أعماق البحار، متوجهاً نحو انكلترا، نشب خلاف حاد بين الغسكونيين، فجرى استدعاء الملك على وجه السرعة، بوساطة غليون أرسل خلفه، وقد أرغم على العودة، من أجل أن يخمد النزاع الكبير الذي نشب، وهكذا أعيقت رحلته إلى انكلترا بكثير من المعيقات.

نشوب خلاف بين دير كانتربري وأسقف لنكولن

وأثناء مرور هذه الأيام، وبينما كان الملك، كما تقدم وقلنا، كان مايزال في الخارج، نشب خلاف ساخن بين دير كانتربري، وأسقف لنكولن، وقد نشب بسبب مايلي: طالب أحد الكهنة بشكل غير لائق راعي دير بارديني Bardeney بسداد دين، وكان واحد من هؤلاء قد تعاقد عليه مع سلف الراعي نفسه، وعندما نشب خلاف حول هذا، كان هناك رئيس شمامسة لنكولن، وكان يرغب في الحط من مكانة الراعي المذكور الذي كان مرشحاً لمرتبة أسقفية، وكذلك أن ينال من مكانة ديره، المكانة التي تمتع بها رهبان الدير دون أن يؤذيهم

أحداً، ولذلك قال للكاهن المذكور، عندما كان يطالب بسداد الدين المذكور: «تقدم بشكوى إليّ بطريقة جادة وموائمة فيما يتعلق بهذا الضرر الذي عانيت منه، وأنا سوف أتولى اخضاع وتطويع هؤلاء الذين لم يعرفوا الخضوع حتى الآن، أعني خصومك الرهبان، وسوف أسترد جميع الدين إليك، وأستخرجه منهم بالقوة، إذا كان ذلك ضرورياً».

وبناء عليه تبع نصيحة هذا الأرعن المختال، فتقدم بشكوى قاسية ضد راعي الدير ورهبانه بشكل معلن، أمام رئيس الشمامسة، الذي استدعى راعي الدير للظهور أمامه، حتى ضمن امتيازاته، للاستجابة للقانون حول هذا العنوان، وعندما أدرك راعي الدير أن ذلك كان ضد قانون الكنيسة، وضد العرف، تقدم بشكوى استئناف مضادة، ثم إن رئيس الشمامسة عندما وجد نفسه معارض بشكل غير قانوني، استدعى راعي الدير للظهور في مكان آخر، لكن راعي الدير قال: «لا»، مستنداً على شكواه الاستئنافية المتقدمة، لأنه كان عارفاً بأنه كان يتآمر ضده، وكان لايطلب شيئاً سوى حجة من أجل مسخ امتيازه، وتحويله إلى لاشيء، وكانت عدة محاولات قد جرت من قبل، أكدتها هذه المحاولة الأخيرة، جعلته يتأكد أن ذلك كان مقصد عدوه، وقد عرف علاوة على ذلك، أنه إذا ما جرى تقديم هذه الشكوى أمام الأسقف، (وهو ماكان رئيس الشمامسة يسعى بدهاء أن يفعله) فإن الأسقف سوف يكون مؤثراً اخضاع الرهبان، لأنه كان يعدّ مضطهداً عاماً لطوائف النساك، ومعادياً بشكل خاص للامتيازات الممنوحة للرهبان، ولهذا استهدف رئيس الشمامسة الحصول على سبب لتفجير خلاف وصراع، وصنع مصاعب لايمكن لأحد التخلص منها، لذلك تقدم بشكوى حول هذه المعارضة إلى الأسقف، وبناء عليه استدعى الأسقف راعي الدير للاجابة على هذه الشكاوى المضاعفة، لكن راعي الدير ظل ثابتاً باعتماده

على استئنافه المتقـدم، فرفض الاستجابة إلى هذا الاستدعـاء، ولأنه كان يعـرف أن الأسقـف سهل الإثارة إلى حـد الغضـب، وأنه في هذه الحالة سوف يظهر المحاباة لرئيس الشمامسة، وبناء عليه غضب الأسقف غضباً شديداً، وامتلأ حقداً أكثر مما ينبغي، فقام بانزال عقوبة الحرمان الكنسي ضد راعي الدير، في تلك البقعة، وعدّه متمرداً، الأمر الذي تحمله راعي الدير بصبر، حتى لايتعرض في النهاية للعقوبة من أجل العصيان، وبعد مضي عـدة أيـام أرسل الأسقف مفتشين إلى بارديني، وكـانـوا مـدنيين، وكان الهدف توجيه الاهانة إلى الرهبـان، وليس تقويم الذنوب، إذا كان أياً منهـا مـوجوداً، ولذلك رفضـوا منحهم القبـول، لأنهم جـاءوا باسم الأسقف، الذي كـان عدوهم المكشـوف، ولأنهم كانوا مـرسلين بشكل شرير، يضـاف إلى هذا، لأنهم كـانوا مـدنيين، وجاهلين تمامـاً بالأنظمـة الديرية، ثم بسبب أن راعيهم، الذي كان رئيسهم وقـائدهم، والذي من دونه لايمكنهم اتخاذ أية إجـراءات، كـان مغلولاً بسـلاسل الحرمـان الكنسي، بموجب قـرار صادر عن الأسقف المذكـور، وبناء عليه أصبح المفتشون عرضة للإهانة، لابل حتى عـرضة للتهديد، وصاروا معرضين أنفسهم للعنف من قبل الذيـن أثاروهم، وصـدهم البـوابون، وبعـدمـا أغلقوا الأبواب قالوا لهم: «نحن نرجوكم بتواضع بالمغادرة بسرعة، قبل أن تتعرضوا للهجوم عليكم من قبل عدد كبير من الساخطين من الناس في هذه المنطقـة، فنحن لايمكننا ضبط عنفهم»، ثم إنهم غـادروا بعـدمـا عملوا تهديدات وتقدموا بشكاوى حول هذه الأشياء إلى الأسقف، لكن مع مبالغـات كبيرة جداً، وقـالوا بأنه كان لدى الرهبـان رجال مسلحين لمهـاجمتهم، وأن خدم الرهبـان قد ضربوهم بالهراوات، وبذلك أسرفـوا بشكل وقح بتجـاوز حـدود الصـدق، ولذلك أثير غضب الأسقف إلى أبعـد الحدود، فهـدد بانزال الدمـار والفـوضى على راعي الدير، وعلى الرهبـان، وذلك بقدر مـا يمتلك من قـدرة، ولذلك أصيب راعي الدير بالحزن، وأخذ يفكر بالذي يمكنـه أن يعمل، وبعد التقصي علم بأن دير

كـانتربري يمتلك امتيــاز تلقي وسماع شكاوى الاستئناف أثناء فــراغ الكرسي البابوي، لذلك لجأ إلى هذا العلاج، وتقدم بشكوى حادة حول الأذى الذي تحمله.

وبناء عليـه، قام الأسقف وهو حـانق جداً، فجمع في هارتفـورد آدم أسقف كونور Connor وبعض رعاة الديرة من الطائفــة السوداء، الذين كـانوا في أسقفيتــه، مثل رعـاة رمـزي Ramsey وبيتربورا، وخلع بشكل شائن راعي دير باردني المذكـور، أثناء غيابه، ولأنه لم يكن هناك انسـان آخـر يجيب عنه، وعـدّه مـداناً ومتمـرداً، وادعى بأن راعي الدير لم يسر بشكل نظامي باستئنـافه، ولم يبـدأ بالتقـدم بالشكوى إليـه، فهـو كان أسقفـه، كما أنه أعلم رهبـان باردني بأنهم غير ملزمين بطاعتـه بأي شيء، بل يمكن عدّه وكأنه وضع جانباً وخلع، وذلك بالاضافة إلى كونه محروم كنسياً.

وعندمـا علم دير كـانتربري بأن أسقف لنكولن قـد خـرق امتيـازاته واعتدى عليها بهذه الطـريقة الفاجرة، جمعوا خمسين كـاهناً من الأسقفية المذكورة، وقاموا مع جمع كامل فيـه خمسين راهباً— كاهناً، أو حتى أكثر من ذلك، والشمـوع مشتعلة، والأجراس تقـرع، فحرموا كنسيـاً بشكل مهيب، الأسقف المذكـور، أسقف لنكولن، على أسـاس أنه عـاق، لابل هو متمرد نحو الكنيسة، التي من الواضح هو أسقف فيها، ولكن عندما تسلم الأسقف رسائل هذا الحكم، ألقى بها وهو غـاضب أرضاً، وداس عليها، مما أدهش كثيراً الذين رأوه، لأن صـورة القديس تومـاس كانت مطبوعة على الشمع، وقد وصل غضبه إلى حد الجنون، حتى أنه قال إلى جميع الذين سمعـوه: «أنا لاأريد ولاأطلب بأن يقـوم الرهبـان بالصـلاة بشكل معـاكس مـن أجل نفسي، إلى السرمـدية كلهـا»، وبعــدمـا أثقل الرسـول بكثير من الشتـائم والاهانـات، أمـر باعتقـاله، وكـان خـدمـه مكرهين، وخائفين من فعل هذا، بسبب احترامهم للكهانة (لأن المرسل

كـان كـاهناً) فأمـر بالكاهن نفسه بأن يطرد من البيت، مثل عبـد شرير، أو بالحري لـص من اللصـوص، الأمـر الـذي زاد من دهشـة واستغراب جميع الرجال المستقيمين، والأشخاص المتعلمين، الذين كانوا في الديـر، وبات الحال، إنه لو لم يكـن هناك من سبب، سـوى قيـام الكاهن المذكـور بشكل منطقي بـاتهام الأسـقف بوضـع أيدي العنف عليـه، لكفى، لكن الأسقف المذكـور أعطى قليلاً من الاهتمام إلى قـرار الرهبـان، لابل استخف به، فلـم يتـوقف عن ممارسـة أعماله الأسقفيـة، وبالقيـام بتكريـس الكنائس، وبالاستمـرار بالقيـام بوظـائفـه وواجبـاته الأسقفيـة، ومن الممكـن أن يكـون القـرار غـير عـادل، لكن رفضـه للبـلاط واستخفافـه بالمحكمـة، كان من الممكن أن يصبح ضـده خطيراً جداً.

الفرنسيون يطالبون بوجوب انتخاب بابا

وأرسل الفرنسيون في الوقت نفسـه رسائل رسمية إلى مجلس الشيوخ الرومان، يـرجونهم بطريقة مقنعـة ولطيفة ويخبرونهم برغبتهم بكـل دقة وفعالية بأن يقوم الكرادلة بشكل نظامي بانتخاب بابا، وأن يتم تجهيزهم بامكانية المداولات من أجل الكنيسـة الكاثوليكية، في سبيل أن يكون لها راعياً يقـدم لها العزاء، وإذا ما ثابروا على إهمالهم، فإنهم سوف يقـومون من دون تأخير بـانتخـاب، وبتأمين حبر حـاكم من هـذا الجانب من الجبـال، وهم سيقومـون بأداء اليمين على طاعتـه، وقـد أعلنوا عن هذا بحـرية، معتمـدين على امتيـاز قـديم، تمثـل بإذعـان القـديس كليمنت، وتسليمه إلى دنس Denis المقـدس رسـولية الشعب الغـربي إليـه، وبناء عليـه نهض الكرادلة، وكأن الإثارة والتشجيع جـاءت من الجانب الأول من قبل السيد الامبراطور، ومن الجهة الثـانية من قبل الفرنسيين، فاجتمعوا مع بعضهم، وقدموا إلى روما، وهناك عقدوا مؤتمراً، وانتخبوا بابا.

رؤية نجوم تساقطت من السماء

وفي العام نفسه، في ٢٦- تموز، كانت السماء صافية تماماً، وكان المناخ نقياً جداً، ولذلك ظهر درب التبانة واضحاً، حسبما اعتاد أن يفعل في أكثر ليالي الشتاء الهادئة، وكان القمر في اليوم الثامن، وفجأة رؤيت نجوم تتساقط من السماء مسرعة، وتنقذف نحو الأمام ونحو الخلف، ولكن على عكس ما يحدث عادة، لم يكن هناك أي شرر اندفع بعدها، حسب عادات النجوم (الأمر الذي ذكر على أنه ظاهرة طبيعية في كتاب أرسطو «الظواهر الجوية»)، أي مثل البرق الذي ينتج بوساطة الرعود، وشوهد في حالة واحدة ثلاثين أو أربعين قد انقذفت أو تساقطت، كما ظهرت نجمتان أو ثلاثة نجوم وهي تطير فوراً في قطار واحد، وعلى هذا إنهم إذا كانوا نجوماً حقيقية (الأمر الذي لايعتقده انسان عاقل) ما من نجم قد بقي في السماء، ما لم يعلن الفلكيون عن ماهية هذا النوع من الأشياء، وعما تنذر به، الأمر الذي يبدو غريباً وإعجازياً لكل من رأوه.

صيرورة السلطة البابوية وانتقالها إلى جماعة الكرادلة أثناء شغور الكرسي البابوي

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه، ولأن كثيرين اعتراهم الشك ولم يكونوا متيقنين إلى من صارت السلطات البابوية، أثناء شغور الكرسي البابوي، وهل آلت إلى جماعة الكرادلة، أم لا، نحن نمتلك رواية مؤكدة حول هذه القضية، من الرسالة التالية، التي رأينا أنه من المناسب ادراجها في هذا العمل:

«بوساطة الرحمة الربانية، من كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة: رومانوس أسقف أوستيا، وفيليتري Velleti الأول، الذي له لقب القديس براكسس Praxes, وسينبولد Sinibald الذي له

لقب القديس لورانس في لوسينو Lucino, وستيفن، الذي له لقب القديسة مريم فيما وراء التيبر، والكهنة: رينير Reynier, الذي له لقب القديسة مريم في كوسمدين Cosmedin, وجايلز الذي له لقب القديس كوسماس والقديس دوميان Domian, وأوتو، الذي له لقب القديس نيقولا في سجن توليان، والشمامسة، إلى الرجل المقدس راعي دير ويردون Waredon, صحة بالرب:

بالنيابة عن المعلم بطرس، كاهن كنيسة رئيس الرسل، وقسيس كنيسة موردون Mordon, ابن جيمس جون كابوت Capot, المواطن الروماني، لقد أعلن أمامنا، أنه منذ وقت طويل، منذ أيام مولانا البابا غريغوري، صاحب الذكرى المباركة، قد أثير بوساطة اقتراحات باطلة، فوجّه رسائله إلى أسقف إيلاي، ذاكراً إلى ذلك السيد أو إلى شخص آخر باسمه، بأن عليه عدم تقديم أي حساب عن موارد الكنيسة المتقدمة الذكر، وأن لايسمح بتقديم أي حساب، بل أن يحتفظ بتلك الكنيسة بين يديه، وأن يجمع مواردها ويتمتع بها، وأن يصرفها لصالحه ولسروره، وأن يضبط جميع المعترضين بانزال العقوبات اللاهوتية بحقهم، من دون استئناف.

ولقد قرر البابا المتقدم الذكر، بأنه ينبغي عدّ جميع الرسائل ملغية وفارغة، سواء أتمّ الحصول عليها من الكرسي المقدس، باسم السيد المتقدم الذكر، أو سوف يتم الحصول عليها من الآن فصاعداً، وبذلك ما من واحد ينبغي دعوته لتقديم حساب بموجب قوتهم، وما من واحد أيضاً يمكن أن يعاني من أية إجراءات قضائية بموجب سلطانهم، وإذا كانت أية إجراءات قد بدأت من خلالهم، ينبغي عدها لاغية وفارغة، مالم يعملوا ذكراً كاملاً للمتقدم الذكر، وجرت إنابة عمدة يورك، ورئيس شمامسة ريتشموند للقيام بأداء هذه الأشياء كلها، ولقد قيل بأن الأسقف نفسه، السائر في تنفيذ هذه الوصاية، قد فرض عليك

بوساطة رسـالة، بأنه إذا كان ضمان الكنيسة المتقدمـة الذكر، أو أي جزء منها، صدف ووقع بين يديك، عليك أن تؤمن التخلي عنها وايداعها في بارنول Barnwell, ووضعها تحت وصاية رئيس الرهبان، والحافظ للذخائر للمكـان نفسه، ومنذ ذلك الحين فلاحقاً، عـدم تقديم حساب، ولابشكل من الأشكال إلى السيـد المذكـور، أو إلى أي شخص باسمـه، وذلك فيما يتعلق بمـوارد الكنيسة المتقدمـة الذكر، بل يتـوجب أن تودع هناك، وأن أي حساب يقـدم حول الأمر نفسه، يتـوجب أن يكون وفقاً لرغبات الحبر الأعظم.

وبناء عليـه لقد طلـب منا السيد بطرس المتقـدم الأكبر بتـواضع، أنه يرى أنه غير جـدير، وضـد المنطق، إنزال عقوبة بـواحد بريء كليـاً من التهم التي قدمت ضده،إننا سنتلطف برحمة منا بتقديم حل موائم حول هذه القضيـة، ونحن الآن، الذين بين أيدينا راسية السلطة، أثناء شغـور الكرسي الرسـولي، نرغب في تقـديم رعـاية وإحسان خـاص إلى السيـد المتقـدم الذكر من أجل استقـامته، ونأمـركم بدقة، بمـوجب سلطة هذه التقدمـات بأن تقدمـوا ترضية كـاملة إلى السيد المذكـور أو إلى نائبه، أو رسـوله، فيما يتعلق بضمان الكنيسـة المتقـدمـة الذكـر، وأن تأخـذوا منه سلطات الوصاية المتقـدم ذكرها، وأن تقدموا الآن حسـاباً كاملاً، حسبما أنتم ملزمـون، دون الاهتمام بالرسـائل المتقـدم ذكـرها، أو بالاجـراءات القضائيـة التي بدأت حول الموضوع، ولكي لاتعود إلينا وصـايتنا ملغاة وفارغة، ليكن معلومـاً من قبلكم، بأننا أعطينا رسائل إلى رئيس الرهبان الدومينيكان في نـورويك، وإلى بطرس دي آرشي Arche, كـــاهن كنيســة القــديس أنجليـوس Angelus أوف فيرينتينيـــــــوم Ferentinum, لضبطكم بوسـاطة العقـوبـات اللاهوتيـة، من أجل الغاية أعلاه، فيما إذا كـان ضرورياً، انه سيفعل ذلك. صدر إلخ، في سنة ألف ومـائتين وثلاث وأربعين لتجسيـد الرب، حيث الكرسي الرسـولي شاغراً».

تحدي إيرل التخوم للمبارزة

وفي هذه الآونة، وجـد إيرل التخوم، أن الحظ معاكس له من كل جانب، حيث تم هجرانه كلياً من قبل ملك انكلترا، الذي كان قد تخلى عنه بشكل شرير، كما كان قد استحق أن يكون مهجوراً من قبل ملك فرنسا، ولذلك تعرض للاتهام بشكل علني، وجرى تحديه من قبل فارس فرنسي جريء، وكان ذلك بحضور ملك فرنسا وأخيه ألفونسو، كونت بواتو، ولهذا السبب جرى حجز الايرل المذكور، وكأنه قد وضع في سجن، ومع أن الايرل المذكور أنكر بثبات التهمة، فإن الجندي المتقدم الذكر، أقدم على الفور، وفي الطريقة الفرنسية المعتادة، فسلمه قفازه، عارضاً عليه البرهنة على ذلك بجسده أمام البلاط، وذلك وفق رغبة البلاط الملكي، طالباً تقديم العدالة إليه عن طريق المبارزة، تماشياً مع شريعة الفرنسيين، الموافق عليها منذ القديم، والتي أقسم الآن قضائياً عليها من قبل الملك الفرنسي.

وأخذ الايرل القفاز، بمثابة تعهد بالقتال، واعداً بالدفاع عن نفسه بالقتال ضد الرجل الذي ألصق تلك التهمة به، وعندما أطلق سراح الابن الأكبر، لايرل التخوم، من سجن الملك، وسمع بهذا، ثارت عاطفته، وقال على الفور متعجباً: «إذا كان يرضيك، فإنني سوف أقاتل من أجل أبي، وأبين براءته، ضد أي انسان في العالم، لأنه سوف يكون عملاً وحشياً، أن يقوم انسان صاحب سلطة كبيرة، وسن متقدم بالقتال مبارزة»، لكن الفونسو، كونت بواتو أجاب: «ليس كذلك، هو سوف يقاتل من أجل نفسه، ويظهر نفسه بشكل واضح أنه عجوز مسن، ملطخ بعدد مضاعف من الجرائم».

ثم جرى تحديد يوم، ومكان للقتال، وبعد ذلك غادروا، وبناء عليه، عندما سمعت الكونتسة بهذه الأخبار المحزنة، وهي التي كانت من قبل ملكة انكلترا، واسمها ايزابلا، وكانت مدركة

لكثير من الأعمال السيئة التجأت إلى دير للراهبات في فونتيفرولت Fontevrault, ولكن حتى هناك، في قلايتها السرية، تحت الرداء الديني، لم تكن بالفعل سالمة، لأن عدداً كبيراً من الفرنسيين والبواتيين طاردوها بكراهية لاهوادة فيها، قائلين بأنها يتوجب تسميتها بـ «يزبل» Jezebel الشريرة، وليس بـ «ايزابلا»،لأنها زرعت بذور كثير من الجرائم.

انقاذ الإيرل نفسه من خطر الموت من قبل أصدقائه

وانتشرت الآن الأخبار بسرعة، بأن ايرل التخوم، سوف يقاتل في مبارزة مفردة ضد مبارز جريء، وهو إما سوف ينظف سمعته، أو سوف يعاقب قضائياً، وعندما بدأ الخبر ينتشر بين الأوساط العليا الفرنسية، بأنه سوف يهلك في المبارزة، وسوف يجري اعدامه بموجب القانون الفرنسي، وأنه بالتالي سوف يقوم أولاده، وأقرباؤه بالثورة، ولسوف ينتقمون من مثل هذه الوحشية، ويشكلون مؤامرة لقتل الملك الفرنسي، إما بالسم أو بالتآمر، أو باغتيال مكشوف، أو في جميع الأحوال، الذين سوف يتولون بواتو ويستحوذون عليها سوف يثورون بموجب مثل هذا السبب، من أجل تجديد الحرب، وستتم خسارة الحرب، من دون حذر، مثلما ربحوها تحت حكم ملك ضعيف ولين، ورأوا أن البواتيين متقلبون مثل ديك الأنواء، لذلك حزن أصدقاء الفريقين، وكذلك فعل الرجال المخلصون، ولهذا بذلوا غاية جهودهم للتدخل، وهكذا تمكنوا من تهدئة غضب الملك مع أخيه، بحيث أعطيا التشريف المستحق، وجرى انقاذ القانون، وأظهرت الرحمة، وقاموا بإرضاء المتحدي، وتمكنوا بحسن تصرفهم من تحرير ايرل التخوم من امكانية الوفاة بشكل مهين، وبناء عليه غادر البلاط، وهو مغلول بروابط أقوى مما ارتبط به قط بالسلطات الفرنسية السامية.

الملك الإنكليزي يوقف نفقاته التي بلافائدة

وصار الآن ملك انكلترا، وإن جاء ذلك متأخراً، متأكداً بوساطة كثير من المؤشرات الواضحة، كما أنه تعلم بالتجربة، بأن عليه تجنب دهاء ومكر البواتيين، ولذلك استهدف منذ ذلك الحين فصاعداً، أن يضع في خزانته الخاصة الأموال التي أنفقها بشكل مجنون عليهم في كل عام، لأنه كان قد أعطى سنوياً إلى هؤلاء الذين ضحكوا عليه، لابل ضحكوا عليه واستخفوا به، سبعة آلاف استيرلينية من خزائنه المنهكة، التي زودته بها انكلترا، وتفصيل ذلك: خمسمائة إلى رينالد دي بونز، والمبلغ نفسه إلى وليم رئيس الأساقفة، وأيضاً المبلغ نفسه إلى فيزكونت دي ثوارث Thouars, وإلى عدد كبير آخر من نبلاء بواتو، الذين لاتستحق أسماؤهم الذكر، لابل ولاحتى الكتابة، حتى وصل المبلغ إلى العدد الذي ذكرناه من قبل، وذلك إلى جانب الأعطيات التي منحها إلى كونت دي لى مارشي (الذي دعاه الملك بأبي الأكثر محبة)، والذي نال بالحصص أكثر من جميع البواتيين الآخرين، وبالحصة نفسها تلقى النسبة الأعلى، أما بالنسبة لزوجة الكونت، فقد اعتاد الملك، بسبب الأمومة، أن يقدم إليها أعطيات استثنائية مسرفة بقدر الإمكان، وكانت كل هذه الفوائد التي حصل عليها الملك.

عودة الملك إلى إنكلترا

وفي هذا الوقت أيضاً، وبالتحديد في حوالي عيد القديس رمي Remy, كان ملك انكلترا قد قام بتسوية الذي توجب عليه تسويته في غسكوني، وعهد بحكومة البلاد إلى نيقولا دي مولي، الذي كان جندياً شجاعاً جداً وحكيماً، وذلك بعدما عمل منه قهرمان غسكوني، وبعد هذا أخذ سفينة، وتمتع برحلة جميلة عبر القنال، وعاد إلى انكلترا، فنزل في بورتماوث في الخامس والعشرين من أيلول، وبناء عليه أعلن على الفور إلى رعاة الديرة، وإلى رؤساء الرهبان، بأن عليهم شراء

خيـول، وعـربـات تجر بوسـاطة فـرسين، وخيـالة يسيرون في الأمـام، للإعلان عنه بموجب حقهم الضروري بالمرور، لأنه كان تماماً مجرداً من مثل هذه الأشيـاء، و ذلك من أجل أن يتمكن الانكليـز من أن يعلمـوا مبـاشرة، بوصـول ملكهم، وعندمـا وصل إلى وينكستر، جـاء إلى هناك تقريباً جميع نبلاء انكلترا لاستقبـاله وتحيته، فأعطى أوامر بوجوب تزيين المدينة أثناء دخوله، بالمعلقات، والستائر، والأكاليل، والشموع المشتعلة، وأن على المواطنين استقباله في ثياب العيد، ويتوجب كذلك قرع أجراس المكان بسرور، وعلاوة على ذلك، تدبر الإعلان بوساطة صوت المنادي، وبوساطة أسرع الرسل، بوجوب خـروج أربعة من أكثر المواطنين أهمية، أو البـورجـوازيين من كل مدينة أو منطقـة، لاستقبـاله، وكل منهـم قـد ارتدى ملابس ثمينة، وامتطى على مطية غـالية، وهكذا بناء على أوامره، ومـرسومـه، الذي فرض طاعتـه، أرغم كثيرون على الاسراع من أقصى المناطق الانكليـزيـة لاستقبـاله، ولم يكن ذلك من دون نفقـات عـاليـة ومتـاعب جمة، ولدى وصوله إلى لنـدن، خرج الناس إلى استقبـاله وهـم يرتدون ثيـاب العيـد، ويمتطون خيـولاً هي الأغلى ثمنـاً، وهي مجهـزة حديثاً، ومشوا لاستقباله في مسيرة، وكل واحد منهم يتبارى مع الآخر، ليكون الأول في استقبال الملك آنذاك، الـذي حيوه باحترام، وربح كثيراً بوساطة هداياهم المتنوعة والثمينة، ولدى حلول الاحتفال بعيد القديس إدوارد، أي في الثـالـث عشر من تشرين الأول، أمـر الملـك، بأن يرتدي الرهبـان ثيـابهم اللاهوتيـة، وأن يمشـوا أمـام المسيرة لاستقبـاله، وهـم يحملون كميـات كبيرة جـداً من الشمعـدانـات، وهكذا استقبل بشكل اسطوري وبفخار، وبأبهة كانت مترفة.

انتخاب انوسنت الرابع بابا

وجـرى في هذا العـام أيضـاً، في يوم عيد ميـلاد القـديس يوحنا المعمدان، انتخاب اللورد كـاردينال سينيبولد Sinibald بابا، بعدما

ظل كرسي البابوية شاغراً لمدة سنة وتسعة أشهر، وجرى تكريسه في يوم عيد الرسولين بطرس، وبولص، ومنح اسم انوسنت الرابع، وبعد التكريس قام مباشرة بتثبيت القرار الذي كان قد صدر ضد الامبراطور فردريك، من قبل سلفه غريغوري، وقد عمل بابا في أناغني Anagni، ولذلك انزعج الرومان وامبراطورهم، وكأنهم أصيبوا بجراحة مضاعفة، فاستعدوا لاضطهاد البابا الجديد، والتآمر لنصب المصائد ضده، وصاروا أكثر استعداداً لأن الامبراطور قد اعتمد على انتخاب بابا يكون موائماً له، ولذلك وضع الامبراطور حراسات يقظة على الطرقات والموانىء، ووزع كذلك الغلايين في البحر، حتى لايتمكن الحاملين للمراسيم الابحار والذهاب مسرورين بالسفر من دون إعاقة، وليس بعد مضي وقت طويل من هذا اعتقل الامبراطور اثنين من رهبان طائفة الفرنسيسكان، وكانا يحملان بشكل سري خبيث —بناء على أوامر من سادتهم— رسائل موجهة لإثارة الحرب بين بعض النبلاء، وبشكل رئيسي ضد الامبراطور، فأمر بشنقهما على الفور.

أعمال عدوانية من الداوية ضدّ الاسبتارية

وفي هذه الأثناء، اضطهد الداوية بحدة الاسبتارية في الأرض المقدسة، إلى حد عدم السماح لهم بحمل موتاهم إلى خارج بيتهم (الذي كان في عكا) من أجل دفنهم، وعلاوة على ذلك، قام الداوية أنفسهم، كراهية منهم للامبراطور، بطرد الرهبان التيوتون التابعين لكنيسة القديسة مريم، ونفيهم من مناطقهم، وبذلك أنزلوا على رؤوسهم غضب الرب، ورفعوا من شأن آراء أعداء الصليب.

ارفضاض اجتماع الهيئة الكهنوتية العامة للسسترشيان

وفي هذه الآونة، وفي التحديد بعد ارفضاض اجتماع الهيئة الكهنوتية للسسترشيان، قدم إلينا رعاة الديرة من اجتماع الهيئة الكهنوتية،

وأخبرونا بشكل صادق بالأخبار التاليـة، التي أفادت بقدوم ملك فرنسا إليهم، وأنه على عكس عـادات الرومـان، كتب إليهم —أي إلى الهيئة الكهنوتية— مـولاهم البابا، يلتمس منهم بعبـارات لطيفة، بأن يقـوموا من ذلك الوقت فصـاعداً، بتقديم صلواتهم لصـالح الكنيسة المتـداعية، ومثل هـذا أيضـاً طلب منهم بعـض الكرادلة وبعـض الشخصيـات الأخرى، الأعطية الثمينة نفسها، أنهم في قتالهم من أجل الرب، يمكنهم خدمة الكنيسة، وبشكل مؤكد أكثر يمتنون وضعهم، ولأنهم يعلمون أن رعاة ديرة تلك الطائفة، قـد أعيقوا في العام المنصرم، بسبب الحرب، من القدوم إلى اجتماع الهيئة الكهنوتية، يمكنهـم الآن القدوم بأعداد أكبر إلى الاجتماع العـام للهيئة الكهنوتية، وقـد طلب ملك فـرنسـا مساعـدتهم، وصلواتهم بشكل أكثر اخلاصاً من الآخرين، لأنه تصور، أنه منذ ذهابه إلى الحرب في بواتو، قد ضعفت صحته كثيراً، وأنه فقد كثيراً من نشاطه الجسـدي، هذا وأرسل ملك انكلترا لوحـده، رسـلاً خـاصين إلى هناك، طالبـاً على الفور مسـاعدات مـالية منهم، وكـان الرهبان الذي وجـدوا هناك من كل طائفة سسترشيان شعب من الشعوب تحت الشمس، فمن هؤلاء جميعـاً الذين كـانـوا حضـوراً، استحق الملك الانكليـزي لوحـده الرفض دون نيل فـائـدة، لكـن مع اضطراب كبير ومضـايقـة للانكليـز الذين كانـوا حضوراً، لأنه طلب صوفهم من جميـع رعاة الديرة المقيمين في انكلترا.

أسقف لنكولن ورهبان دير كانتربري يرفعون شكواهم إلى البابا

رسالة البابا

أثناء هيجـان تلـك الأيام، قـام أسقف لنكولـن من الجانب الأول، ورهبان دير كـانتربري من الجانب الآخر، بإرسال رسل خـاصين، كانوا كهنة مخلصين، إلى البـلاط الروماني، من أجل تسـوية النزاع الذي نشب بينهم، وكان القرار الذي جلبوه معهم حول هذا الموضوع هوالتالي:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أبنائه المحبوبين رهبان ورئيس كنيسة كانتربري المسيحية، تحيات ومباركات رسولية:

ذكرت الشكوى التي تقدم بها إلينا أخونا المحترم أسقف لنكولن، بأنكم ادعيتم ممارسة السلطة عليه وعلى الذين تحته، بالدفاع عن قضاياهم وعن استئنافاتهم، وأنكم أيدتم هذا الإدعاء بالمحاججة بأن الادارة القضائية للمطرانية هو عائد إليكم، أثناء شغور كرسي كانتربري، في منطقة كانتربري، وذلك بمثابة امتياز من الكرسي الرسولي، وكذلك من الامتياز العام، وهو الامتياز الذي لم تمارسونه حتى الآن، ونظراً لتصوره لحاق ضرر به، وقيام مصاعب ضده شخصياً، أحال القضية إلى الكرسي الرسولي، حيث من الصعب تقرير إلى من تعود المقاطعة، أثناء شغور الكرسي المطراني، ولقد أمسكتم بهذه الفرصة، واستخدمتموها حسب رغباتكم، فأنزلتم به وبالذين تحته قرارات التعليق والحرمان الكنسي، وبناء عليه التمس منا بتواضع، أن نزوده في هذه القضية بمواساة أبوية، واستجابة، ورغبة منا في منصبنا بتقديم النجدة إلى الأسقف المذكور، وإلى الذين تحته، ولكي لانخرق امتياز انسان آخر، نحن نأمر جماعتكم بموجب الكتابات الرسولية، أن تقوموا خلال ثمانية أيام بعد استلام هذه الرسائل، من دون تسبيب الأذى إلى أي من الطرفين، بسحب القرارات المتقدمة الذكر، في ظل ضمانة مناسبة، وعلاوة على ذلك أعطينا أوامر برسائلنا إلى أخوينا: رئيس أساقفة يورك، وأسقف درم، بأن يقوما على الفور، ومن دون تسبيب الأذى إلى أي من الطائفتين، بحل القرارات المذكورة، وكذلك فيما يتعلق بقضايا الإدعاء، وأيضاً قضايا التملك، وضبط جميع الاستنكارات بوساطة العقوبات اللاهوتية، من دون استئناف. صدر في أناغني في اليوم الثالث والعشرين من آب، في السنة الأولى من بابويتنا».

تثبيت أسقف نورويك أسقفاً لوينكستر

وفي الوقت نفسـه جـرت تسميـة أسقف نورويك لتسلم أسقفيـة وينكستر، وقام دون المبالاة بمعارضة الملك ومقاومته بالانتقال إلى ذلك الكرسي، وكـان ذلك بوسـاطة البـابا، الذي آثره ووجـد الحظوة نحـوه لديه.

تثبيت بونيفيس في رئاسة أساقفة كانتربري

وفي هذا الوقت بـالذات جـرى تثبيت بونيفيس، خـال الملكة، الذي كـان منتخبـاً لبلي Bellay, ومن شعب بروفـانس، تثبيتـه من قبل البابا، في رئاسـة أساقفة كانتربري، وذلك من خـلال الضغوط الشديدة للملك، مما أدهش الكثيرين، وفي الحقيقـة قـام الملك في سبيل أن يجعل رفع بونيفيس إلى رئـاسة أساقفـة كانتربري أكثـر سهولة، بكتـابة كتاب، بناء على تحريـض من الملكة، حيـث أسرف كثيراً في إطرائـه ومـدح أخلاقه، وعلمـه، وكرم بونيفيس المذكور، مع أنه كان غـريباً بالنسبة له، ووضع خاتمه عليه، وجعل تقريباً جميع الأساقفة الانكليز يفعلون الشيء نفسه، وكان راعي دير القديس ألبـان الوحيد الذي مال الى تجنب تقديم مثل هذه الشهـادة الزائفـة، ذلك أنه عنـدمـا شـاهد ختـم راعي دير ويستمنستر مثبتاً، قـال بأنه لم يكن من المتصرفين بشكل جيـد نحوه،لأنه من المؤكـد أن راعي دير القديس ألبـان هو الأجـدر،وذكر امتيـازه«على أساس أن القـديس ألبان كان أول شهيـد في انكلترا، ولذلك فإن راعي ديره هـو الأول في الطوائف وفي المرتبـة بين جميـع رعـاة الـديرة في انكلترا»ولذلك يتـوجب أن يظهـر خـاتمه أولاً،ولذلـك ترك المسألة تمر حتى جـرى بحث حـولها،وأرسلت هذه الكتـابة الى البـابا،من أجل أن يكون كامل المعرفة حول فضائل بونيفيس.

استخراج ذهب وفضة من اليهود

وفي حـوالي الوقت نفسـه استخرج الملك مـن اليهود التعسـاء كثيراً،

فـديةكبيرة من الذهب والفضـة، ودون أن نتحـدث عن الآخـرين، استخـرج من يهودي واحـد، هو هرون اليـوركي أربعـة ماركـات من الذهب، وأربعـة آلاف مـارك من الفضـة،وتسلم الملك من كل يهودي سـواء أكان رجـلاً أو امـرأة، الذهب الذي كـان بين يديه، وأصبح هذا من الملك بمثابـة نوع من جمع الضرائب، لكن الفضة جـرى تسلمها من قبل آخـرين لصـالـح الملك،وقـد تسلم هـدايا ثمينة مـن رعـاة الديرة،ورؤساء الرهبـان وفق هذه الطريقة، وكـان إذا لم يعجبه شيئاً ولم يرضـه، يرفضهم، ويستخرج أعطيـات أكثر ثمناً، وأكثـر إرضاء للمقـام الملكي، وكل من رفض، كان لايجده ملكاً، بل طاغية.

انتخاب وولتر أوف سفيلد أسقفاً لنورويك

هذا وعلم رهبان نورويك بتثبيت اللورد دي ريل Raele, الذي كان مرشحاً لأسقفية وينكستر، والذي كان أسقفهم، فاستمطروا النعمة من الروح القـدس، وانتخبـوا بـالاجماع ليكون أسقفـاً لهم، وراعيـاً لأرواحهم المعلـم وولتر أوف سفيلد Suffield, وكـان رجـلاً صـاحب علم كبير، ومتميـزاً في أخـلاقـه، وبسمعتـه، وبأصله وجـرى تقديمه أصـولياً إلى الملك، وكما جرت العادة أعطى الملك مـوافقته لكل من المنتخب والانتخـاب، لأنه لم يكن هنـاك من سبب للاعتراض، ومع ذلك أجـل لبعض الـوقت منـح خطواتـه الكاملـة، وذلك حتـى يصبح متأكداً بمعلوماته حول تثبيت أسقف وينكستر.

وصول رائع لبيترايس كونتسة بروفانس

وفي حـوالي الوقت نفسـه، أي في الأول من كـانون الثـاني، نزلت في دوفر بيترايس كـونتسة بروفـانس، وأم ملكتي انكلترا، وفرنسـا، وكانت امرأة ذات طلعة بهية، وحكيمة ومتحضرة، وجاء قدومها بناء على دعوة من الملك، الذي دفع نفقـات رحلتهـا، وقدمت في أبهة عظيمـة مع كثير

من الاحتفالات الفاخرة، ومضى كثير من النبلاء الانكليز لاستقبالها وذلك بموجب أوامر الملك، وجاء ذلك على شاطىء البحر، من أجل تجنب كل تأخر مختلف عليه، وفي ثمانية عيد القديس-مارتن، وهو التاريخ الذي كان من المتوقع وقتها لوصول الكونتسة المذكورة إلى لندن، أمر الملك بوجوب تزيين مدينة لندن بالمعلقات، والستائر، وبمختلف أنواع التزيينات الأخرى، وذلك شروعاً من الجسر إلى ويستمنستر، وأن يزال من أمام ناظري العابرين خلال المدينة المعيقات من الأخشاب، والطين، والأوساخ، وجميع أنواع المعيقات، وقد جلبت معها ابنتها سينشيا، حتى تتحد بالزواج بالايرل رتشارد، وجرى ارغام كثير من النبلاء من قبل الملك، على القدوم من المناطق النائية للمملكة، لابل حتى من الأجزاء القائمة على حدود سكوتلندا، لاستقبالها وهي على طريقها.

موت رالف تشينديوت

ولفظ في اليوم نفسه روحه رادولف تشينديوت Cheinduit الذي كان المضطهد القاسي والذي لايعرف الملل، لكنيسة القديس ألبان، والمغتصب الوقح لامتيازاتها لمدة ثلاثة أعوام، وأنا أقول هذا لأن جميع الأتباع المؤمنين بالمسيح تمكنوا أن يروا بينة المعجزة، والانتقام العادل، الذي أنزل به ألبان الشهيد الرائد لانكلترا، وفي الحقيقة، بعد بقائه لمدة ثلاثة أعوام تحت العقوبة، ولأنه بوقاحة استخف بمفاتيح الكنيسة، وقام وهو في قصر ويستمنستر، وهو يهز رأسه بطراً، فقال لكثيرين كانوا قد اجتمعوا هناك: «ها، ماالذي تقولونه حول رهبان القديس ألبان؟ إيه، ماالذي تقولونه حولهم؟ لقد حرموني كنسياً منذ وقت طويل، مراراً وبشكل فعال، إلى حد أنني الآن أفضل حالاً بسبب ذلك، ووضعي جيد،وقوي وثابت، حتى أنه يصعب عليّ القعود في سرج فرسي، عندما أركب على ظهره»،وما أن كاد ينهي كلامه حتى

أصيب فجأة بالضعف وبفقدان القوة، وصار في وضع ميئوس منه، ولايكاد يستطيع التنفس، وقد حمل إلى البيت، وهو على وشك لفظ أنفاسه وأظهرت الحشرجة التي تقدم على الموت نفسها، وقتها أظهر اللطف العظيم للشهيد القديس ألبان نفسه، ففرض بمشيئة الرب، الذي لايرغب بهلاك أي انسان، قبل أن يهتدي، أن تمكن رالف من التنهد بعمق، وأمر بأن يدعى بسرعة كبيرة بعض الرهبان، الذين كان يعرفهم أكثر من الآخرين، حتى يخضع لإرادتهم، وليقدم لهم ترضية كاملة عن الاعتداءات التي هو مجرم بها نحوهم، الأمر الذي تقبلوه بكل صلاح، من أجل أنه إذا مات، لايسقط في متاهة اليأس ولكي لايهلك بذلك وهو مدان وملعون، بسبب جرائمه، وقد منحوه منفعة التحليل، عندما وعد بعمل تكفير عن الأذى وعن الشرور التي اقترفت من قبله، ومثل هذا أيضاً عانى قليلاً أيضاً عدد من الآخرين، كان من بينهم فرسان أقوياء، ومغتصبين، ومزعجين، معتدين على امتيازات كنيسة الشهيد المذكور، كما عانى آخرون من عقوبات أكثر شدة بوساطة حكم الانتقام الاعجازي،ويمكنني أن أضرب مثلاً بألان دي بيكل Alan de Beccles رئيس شمامسة نورويك، وآدم بن وليم المسؤول عن مقعد العدالة الذي أصيب بموت مفاجيء.

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس كليمنت، اقترن الايرل رتشارد بزوجته سينشيا، ابنه ريموند كونت بروفانس، وأخت الملكة، وكان ذلك في ويستمنستر، وكان هناك احتفال عرس بهيج، واحتفال عظيم بين الضيوف من النبلاء، حيث مامن شيء كان من الممكن مقارنته بفخامة العناية بالضيوف، وسوف يحتاج ذلك إلى رسالة طويلة وشاقة لوصف ذلك، ومن الممكن لي تلخيص الكثير من الأقوال ببضع كلمات، فقد كان في مكان الطبخ ثلاثين ألف صحن كانوا جاهزين لتقديمهم إلى الذين جلسوا وراء الموائد للطعام، وجرى عرض أكثر العروض روعة

بحضـــور الملك، والايـرل العـــريس الجديد، والملكـة واختهــا سينثيــا Cynthia, التي كـانت عروسـة شابة، وقـد جرى تغيير اسمهـا إلى سينشيـا، وبيترايس كونتسـة بروفانس، وشخصيـات نبيلة أخرى،كـانت أكثـر من أن تعـدّ، وكـانت في الوقت نفسـه أعين المشـاهدين وعقـولهم مفتـونة بسرور أمـام أبهة دنيـوية لم يسمع بمثلهـا من قبل، فقـد جـرى عــرض كل نوع من أنـواع المبــاهج والمجــد، في أشكال الناس المغنين المرحين، وأنواع ملابسهم المتنوعة، وعدد الصحون، وحشود المحتفلين، ولكن هذه كلها جاءت برهاناً كيف أن مثل هذه المسرات زائلة وعبثية، وكم هو غير مشرق ومخادع في هذا العــالم، وذلك عندمـا ينقشـع فجـر اليوم التالي، وتكون هذه الأعمال المتنوعة مثل سحابة عابرة.

منع أسقف وينكستر من الدخول إلى مدينته

وفي هذه الأيام كانت عـلاقات الملك سيئة مع وليم دي ريل، أسقف وينكستر، لأنه تصرف بذاته، وكأنه كان أسقفـاً حقيقياً، ونظر إليه وكأنه كـــان كـذلك، وهكـذا دعي، إلاّ من قبل بعض الرهبــان في وينكستر، ولذلك رفض الملك قبوله لنيل القبلة، أو لاستقباله بأية تحيـات صديقة، ومع ذلك فإن هذا الـرجل بعـد وصـوله من المناطـق الأجنبيـة، جـرى الاحتفاء به بالتهـاني المدنية، وبالتحيات، وسلم عليـه جميع نبلاء انكلترا تقريبـاً، وخاصة الأسـاقفة بقبلة، وأقـاموا محادثات مقبولة معـه، وشعر الأسقف بنذير سوء من هذا العمل، ورأى الأسقف بوضوح مثل ضوء النهـار، بأن غضب الملك المتجذر، قـد ازداد قسـوة، وتحول إلى كراهيـة دائمة، فأخفى نفسه بين أصدقـائه، الذين اعتقد بأنهم يميلون لأن ينالوا حظوة البـلاط، وذلك حتى يـزوره اليـوم الذي سـوف ينبع من عليين، وغضب الملك قـد تلاشى، لكن الملك ثابـر على غضبه، وأقـام مـراقبـة دقيقـة على عزب الأسقف، وبذلك بوسـاطة مـوظفيه، الذين كما كـانت عادتهم، تجاوزوا كثيراً أوامر الملك في إلحاق الأضرار وسوء معاملة أهل

الأسقفية، بكل نوع من أنواع الإذلال، وكانوا فقط متشوقين لنيل الربح لأنفسهم، وعندما قدم الأسقف المتقدم الذكر لزيارة الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، ورغب بدخول تلك المدينة، أمر الملك بحراسة الأبواب بدقة، وقام رئيس رهبان وينكستر —لو أنه استحق أن ينظر إليه على أنه رئيس رهبان، أو أن يدعى بمثل هذا الاسم— بصحبة شطر كبير من الرهبان بعمل تآمري، ورفعوا كعبهم ضد أسقفهم، حيث أكدوا بشكل معلن، أن كل من يقدم له عوناً أو نصيحة، سوف يعدّ عدواً مكشوفاً لمولانا الملك، ولسوف ينال عقوبة حادة لقيامه بذلك، ولذلك كان هناك انشقاق بين كل من الرهبان، ورجال الدين العلمانيين، ونشب صراع شديد، وصل إلى حد سفك الدماء،

موت رئيس رهبان وينكستر

لفظ هذا الرجل التعيس، الذي حمل المظهر الخارجي لرجل دين، وصار يدعى رئيس رهبان بناء على أوامر الملك، وذلك بهدف الاشراف على عدد كبير جداً من الرهبان، الآن أنفاسه، في وسط هذه الاضطرابات التي أثارها.

زيادة الملك يومياً من اضطهاد أسقف وينكستر

ولم يكن من الممكن ضبط الملك بأي تقدير مهما كان نوعه، بل تابع مساقاً بإرادته، واستمر في إلقاء يده أثقل فأثقل على الأسقف، وعلى ممتلكات كرسيه، وأعلن علانية بأنه لايجوز لانسان تقديم الرعاية لبيت وليم دي ريل، الذي ادعى بشكل زائف (هكذا قال) فجعل الناس تحييه بمثابة أسقف لوينكستر، كما منع الناس من التعامل معه، أو تزويده حتى بالضرورات الحياتية من أطعمة، وأعلن أن أي انسان سوف يساعده بمثل هذه الطريقة، سوف يعدّ بمثابة عدو للملك وللبلاد، كما أرسل الملك رسائل إلى أكسفورد، لتشويه سمعة الأسقف

نفسه في أعين الجامعـة، وأكد أنه حصل على موافقـة بوساطة تصريحات زائفة من مـولانا البابا، بوجوب تسميته لأسقفيـة وينكستر ونقله إليها، وأن الملك سوف يكشف، وسوف يبرهن بوضوح، ويعرض جميع أعمال الخداع التي مـارسها أمام البـلاط الروماني، وأمـام مملكة انكلترا، وكي يثبت هذا، أحضر بعض المستدربين الرومـان ليكونوا مراسلين له لحمل رسـالته هـذه، كما أمر بمصـادرة أسقفيـة نورويك، حتى يحرم الأسقف المتقـدم الذكر من جميع سبل المواسـاة، ويصبح محاصراً من كل جـانب، وعـلاوة على ذلك، أرسل مـولانا الملك إلى البـلاط الرومـاني ضـد الأسقف المتقدم الذكـر: ثيوبولد، وكـان راهباً من ويستمنستر، ورئيس رهبان هيرلي Hurley, وأيضاً المعلم الاسكندر، وكـان محامياً كنيته المدني، بقصـد أن يقـوم هذان الاثنان، بوسـاطـة التـوسل، أو بوسـاطة الرشوة، أو بأي طريقة أخـرى بقدرتهما، حتى يتمكنا من خلع الأسقف من وظائفه ومناصبه.

وضع مدينة وينكستر تحت الحرمان من شراكة المؤمنين

ووصل في الوقت نفسـه الأسقف وهو حـافي القـدمين، وبلبـاس متـواضع إلى واحـد من أبواب المدينـة، ثم انتقل بعـد ذلك إلى الأبواب الأخرى في خـارج المدينة، وطلب السماح له بالدخـول إلى كنيسته، لأنه وجد لـدى وصوله أن جميع الأبواب قـد أغلقت ضده، وواجهـه عمدة المدينة وتصـدى له مع ضبـاط الملك، وبوقـاحـة رفضـوا السماح له بالدخـول، وعلاوة على ذلك أضـافوا إهانة إلى إهانة، وعند ذلك تفـوه الأسقف بقـرار الحرمان مـن شراكة المؤمنين على المدينة، وعلى الكنيسـة الكاتدرائية، وعلى الكنائس الأخرى، وغلّ بالوقت نفسه بأغلال عقوبة التكفير المرعبـة جميع الرهبـان الذين يتبعون رئيس الـرهبان المذكـور أو يؤيدونه، وطعنهم بذلك ومعهم الملك.

خسارة الامبراطور مدينة فيتربو وأماكن أخرى في الأحواز

جعلت أعمال الظلم، التي مورست في ذلك الحين، من قبل رجال الملك، على سكان فيتربو، تلك المدينة مع المنطقة المحيطة بها، تقرر التحول إلى الرومان الذين أيدوا البابا، وتحت ثقل الظلم، ونير عبودية غير معتادة،وشدة المعاناة تحولوا بأنفسهم وبمدينتهم، وانتقلوا إلى الحزب الآخر، ولجأوا إلى الكاردينال رينير دي فيتربو، حتى يقدم إليهم العون والمشورة من أجل أن يتمكنوا من الدخول بتحالف مع الرومان، ونسوا جميع الخلافات القديمة، وصاروا شعباً واحداً، حتى يكونوا أقوى للثورة ضد أعدائهم، وحولوا أنفسهم بشكل أكثر ضماناً وانتقلوا من الأسى الامبراطوري، بوساطة تجنبه على هذه الصورة، وحدث بناء عليه من خلال عمل متواصل وجهد كبير قام به رينير المذكور، فحاك مؤامرة يجري تنفيذها فوراً وبشكل سري، وبموجبها وصل الرومان بأعداد كبيرة، واعتقلوا بحسن تدبر جميع الحرس الامبراطوري، واقتادوهم، بعدما اتخذوهم أسرى، عائدين إلى روما، حتى يسجنوا هناك، وأبرمت معاهدة بين الرومان، وبين شعب فيتربو، وأحلوا محل الاداريين القضائيين الامبراطوريين أناساً من قومهم، أي من الرومان ومن أهل فيتربو، وكذلك فعلوا بالنسبة للأبراج والقلاع والأماكن الحصينة، وهكذا بات الرومان في عدائهم للامبراطور فيتربويين، والفيتربويين روماناً.

وعندما سمع الامبراطور بهذا اغتاظ كثيراً، ومضى مسرعاً مع قوة مسلحة كبيرة، وحاول طم الخنادق بالبراميل، والأعشاب، وقطع الأخشاب، وأكوام التراب، وأراد شق طريقه بالقوة، حتى يتمكن على الفور من قتل جميع السكان، وشاهد السكان من الأعلى ما كان يقوم به، وماهو عازم عليه، فصدوه بفعالية، ومنعوا من الداخل أعداءهم وأحبطوا محاولاتهم، هذا من الداخل، أما من الخارج، فقد وصل الرومان بأعداد كبيرة، وتمكنوا بقوة من إحباط محاولات الامبراطور،

وكانت هناك معركة، سقط فيها كثيرون من جانب الامبراطور، وكان هناك عسكري مشهور من جانب الامبراطور، كان مزيناً بدروع خاصة، فهلك بشكل تعيس، مما سبب حزناً كبيراً للامبراطور، ذلك أنه أصيب برمية قوس زيار، وارتفع تهليل وصراخ أعدائه لسقوطه، وصرخوا بسرور، ظانين أنهم قتلوا الامبراطور نفسه، لكن الامبراطور زحف تتقدمه أبواقه، وتمكن بصعوبة من تخليص جيشه من أيدي أعدائه الغاضبين، الذين كانوا قد زحفوا ضده، بشكل غير متوقع، ثم إنه انكفأ، وتراجع نحو بيزا، ليجند قواته، علّه يصبح أقوى، من أجل مهاجمة العصاة، لكن الذين سكنوا في تلك الأحواز والمناطق، عندما شاهدوا التراجع المهين للامبراطور، مع الخسائر الكبيرة، بالرجال وبالأملاك، ومع العار، تخلى كثير منهم عن ولائهم له، وتحالفوا مع الرومان والفيتربويين، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

الرعاع المتقلّبون يتبدلون دوماً مع الأمير

اظلام شهرة الامبراطور

ولهذا تناقصت شهرة الامبراطور بسبب هذه الحادثة كثيراً، لأن كونت سيمون أوف توسكانيا، الذي إليه كان قد أسند المسؤولية عن فيتربو مع ثقة كاملة، قد حمل مع رفاقه، كما ذكرنا من قبل، واقتيد أسيراً إلى روما، وتمّ فقدان مدينة فيتربو نفسها بالاضافة إلى بعض البلدات والقلاع في الجوار، والامبراطور نفسه أرغم تقريباً على الفرار، فكان أن تلطخت سمعته، وقد أشيع من حوله أنه لم يتنازل بعد ذلك لحضور القداسات، وأنه لم يعد يصلي، أو يعامل اللاهوتين باحترام، ولم يعد يراعي الإيمان الكاثوليكي بشكل صحيح سواء في الممارسة، أو بكلماته، وأن له علاقات حميمة وجنسية مع امرأة مسلمة، وأنه قد دعا مسلمين، وكذلك كفاراً آخرين إلى امبراطوريته، وسمح لهم ببناء مدن محصنة.

كثير من النبلاء يتخلون عن الامبراطور

ولذلك تخلى عن الامبراطور عدد كبير من النبلاء الحكماء والأقوياء، مثل: مركيز دي مونتفرات، ومركيز مالاسبينا Malaspina, وفيرسيلي Vercelli, وألسسندريا Alessandria, وعدد كبير من نبلاء المدن، وعلى هذا تضاعف أعداؤه، لأن الناس اعتادوا فقط على اتباع أصحاب الحظ، وفي ألمانيا أيضاً، تخلى كثيرون عن قضيته، ولم يرغبوا بالاستمرار بأن يكونوا من رعاياه المخلصين، فاختاروا لأنفسهم ملكاً آخر، أو امبراطوراً، هو اللاندغريف، وكان رجلاً شجاعاً وصاحب مكانة عالية، وإليه وعدت ألمانيا والشطر الأكبر والأعظم الأقوى من إيطاليا، بتقديم العون والرأي، من دون كلل أو ملل، إلى حد عرض حياتهم وتقديمها في خدمته.

تصرف الامبراطور في أزمته

وتصرف الامبراطور نحو هذه المخاطر بعقل عميق التفكير، وعهد بقيادة جيشه إلى واحد من أقرب أصدقائه إليه، ولم يخبر أحداً بالضرورات التي دعت لاتخاذ مثل هذه الخطوة المفاجئة، وبسرعة أدار توجهه إلى هناك، وكان على ثقة كبيرة، لأن اللاندغريف المذكور لم يكن قد وافق تماماً على الانتخاب المتقدم الذكر، لابل إنه لم يعطهم حتى موافقته، وأكثر من هذا هو لم يعطهم حتى جوابه، لأنه كان مرتبطاً بالامبراطور، ويمقت مغالطات البلاط الروماني، ولذلك وصل الامبراطور إليه، واستدعاه بشكل حبي وسري إلى مكان آمن، ودخلا في نقاش متبادل، وبحوار صديق، وتصافحا قبل أن يفترقا، ودخلا في تحالف، وبذلك صار اللاندغريف وتحول من كونه مشكوكاً به إلى الصديق الأعظم ثقة، وأعلن بشكل مكشوف إلى جميع الذين انتخبوه، أنه لايمكنه ولابأي شكل من الأشكال الموافقة على مثل هذا العمل السريع والطائش، وبعدما أنهى الامبراطور هذه القضية وسواها بما

يرضيه تماماً عاد إلى جيشه، بالحكمة نفسها، التي غادره بها.

إذلال الامبراطور

وارتفع شأن الذين كرهوا الامبراطور، وفرحوا، واعتلاهم السرور كثيراً تجاه الخسائر التي عانى منها، وهي الخسائر التي أتينا أعلاه على ذكر تفاصيلها وتعدادها، ولذلك تعرض الامبراطور في تلك الأثناء إلى قليل من الإذلال، وذلك وفقاً لقول النبي: «املأ وجوههم بالعار حتى يمكن أن يلتمسوا اسمك يارب»، ولذلك تدخل رجال نبلاء على درجة عالية من الحكمة، وعملوا بيقظة وبشكل متواصل، وشغلوا أنفسهم في سبيل إعادة تأسيس السلام بين الكنيسة وبين الامبراطور، لكن الامبراطور رفض ولم يقبل بأي شكل من الأشكال أن يقسم على اخضاع نفسه تماماً للعقوبات اللاهوتية، مالم يجري الاصغاء إلى مناقشاته، ويتم ايضاح الطريق أمامه، مع شرح جميع الشروط، أو التخلي عن الذي استحوذ عليه، كيفما كانت طريقة الاستحواذ، وذلك فيما يتعلق بالامتيازات القديمة للامبراطورية، وهكذا تجدد الخلاف ثانية بوساطة بدع عدو الجنس البشري، وفي تلك الآونة، عمل أوتو، الذي كان كاردينالاً بلقب القديس نيقولا في سجن توليان، والذي كان نائباً بابوياً في انكلترا، عمل أسقفاً لبورتو Porto.

رسالة مرعبة حول وحشية التتار

وفي الوقت نفسه، جرى ارسال الرسالة التالية، إلى رئيس أساقفة بوردو، وهي مرعبة كثيراً حتى إلى أكثر الناس شجاعة، وتتوافق الرسالة في كثير من الأمور مع الرسالة الامبراطورية التي جرى إرسالها إلى كثير من الملوك المسيحيين، فيما يتعلق بالدمار المريع الذي أحدثه القوم غير الانسانيين، الذين يدعون باسم التتار، وقد ورد اسمهم في هذه الرسالة باسم التاتار أو التتر.

«إلى جيرالد، الذي هو بنعمة الرب رئيس أساقفة بوردو، لقد جرت تسميتك من قبل نربوني Narbonnes كان من قبل أدنى كهنتك، صحة وقوة تتحول إلى مواهب الذين عهد بهم إليه:

إن أرواح غير العابئين المشغولين بالشؤون الأرضية، غير مهتمة بتهديدات العدالة الربانية، ولم يدخل الرعب إلى قلوبها العنيدة، حتى تطعن بوساطة قرار بالإدانة المرعبة، لأنني أعجب عندما يجري تهديد المسيحيين بمثل هذا الافناء والمحق، والعناد مسيطر بشكل عام على الملوك وعلى بقية رجال السلطة على الأرض، وكيف أنت الذي قيل بأن لديك غيرة من أجل الرب، لم تحاول تحريك القلوب المتصلبة بموجب ثقل نفوذك، وأنت ترى كثيراً من الناس العقلاء سوف يلتزمون بسلطتك ويؤمنون بكلامك، والخبرة وحدها تظهر مدى عظم المخاطر التي تهدد المسيحيين من خلال غزو التتار، لأن وصف وحشية ودهاء ذلك الشعب هي حقيقة غير مشوهة بذاتها ولايمكن أن تكون كذباً، ولسوف نخبركم باختصار عن عاداتهم الشريرة، ولسوف لن أذكر شيئاً هو مشكوك به، أو مجرد رأي، بل الذي سأذكره هو المبرهن عليه بكل تأكيد، وهو الذي أنا أعرفه.

وسلف من قبل أن اتهمتُ —كما تعلم— من قبل منافسي، بتهمة هرطقة الفسوق، بحضور روبرت كورزون Curzun, النائب البابوي للبلاط الروماني، من دون تمحيص بالضمير، ولقد انزعجت كثيراً بسبب دناءة التهمة، ورفضتُ هذا الحكم، وغدوتُ لهذا السبب هدفاً للمزيد من الريبة، ولذلك عندما سمعتُ بتهديدات ذلك الرجل صاحب السلطة، هربت من وجه المضطهد، وأرغمتُ على الارتحال والسفر إلى كثير من البلدان، وتفوهت بشكايتي إلى البيترنيين Peterinians, الذين سكنوا في مدينة كوما، وكيف أنني بسبب عقيدتهم التي —يشهد الرب— أنني لم أتعلمها قط، أو اتبعتها، إنني

الآن في المنفى، بسبب قرار حكم صدر ضدي، ولقد فرحوا لسماعهم هذا، وقالوا بأنني أستحق الحسد، لأنني عانيتُ من الاضطهاد في سبيل الاستقامة، وجرت استضافتي بينهم هناك لمدة ثلاثة أشهر في شهوانية وفخامة، وأصغيتُ في كل يوم بصمت إلى كثير من الأخطاء، أو بالحري الآثام المرعبة، التي تفوهوا بها ضد الايمان الرسولي، وقد ربطوني إليهم بإحسانهم ولطفهم حتى أنني وعدت من ذلك الحين، بأنني سوف أسعى لاقناع المسيحيين، الذين سوف تكون لي أحاديث جدية معهم، بأن ما من أحد يمكن انقاذه بإيمان بطرس، وبأنني سوف أثابر بجرأة بالتبشير بهذه العقيدة، وعندما وعدتهم بكلمتي متعهداً بشرفي، بأن أفعل هذا، بدأوا يكشفون لي أسرارهم وأخبروني بأنهم أرسلوا من جميع مدن لومبارديا تقريباً مع بعض من توسكانيا، طلاباً باحثين أكفاء إلى باريس، بعضهم لدراسة المسائل المعقدة للمنطق، وآخرين لدراسة المقالات اللاهوتية، من أجل الحفاظ على أخطائهم، ونقض قواعد الإيمان الرسولي، وللغاية نفسها أرسلوا كثيراً من التجار إلى الأسواق، لحرف الأغنياء من العلمانيين، وكذلك رفاقهم على الموائد، ومضيفيهم الذين امتلكوا فرصة للحديث معهم بود، وبذلك قاموا بمقايضات مضاعفة، فحصلوا من هذا على أموال الآخرين، ووضعوها بين أيديهم، وجمعوا في الوقت نفسه أنفساً لصالح المسيح الدجال، وحصلت أخيراً على إذن بالمغادرة من عند هؤلاء الرهبان المرتدين، وأرسلت من قبلهم إلى ميلان، حتى تجري استضافتي من قبل أتباعهم الدينيين، وبهذه الطريقة اجتزت خلال جميع مدن لومبارديا على شواطىء نهر البو Po, وكنتُ أقيم دوماً بين البيترنيين، وكنت دوماً عند مغادرتي أتسلم تقديماً إلى آخرين من الطائفة نفسها، ووصلت أخيراً إلى كريمونا Cremona, وإلى بلدة مشهورة في فريولي Frioli, حيث شربتُ أفضل خمرة للبيترنيين، وأكلت من زبيبهم المحفوظ، وتوتهم، ومن لحوم أخرى مثيرة، وخدعت المخادعين، وأعلنت عن نفسي أنني من

البيترنيين، مع أنني مازلت مستمراً، بعون الرب، مؤمناً بالمسيحية، على الرغم من أنني لستُ تماماً كذلك من حيث الأعمال، ووقفتُ لمدة ثلاثة أيام في كريمونا، وتسلمت أماناً من الرهبان، لكن اللعنة من واحد من أساقفتهم اسمه بطرس غلّو Gallo, الذي نظر إليّ نظرة ريبة، وقد سمعتُ —على كل حال— فيما بعد، أن هذا الرجل قد خلع من قبلهم بسبب الفسوق، ثم إنني انطلقتُ مع راهب علماني، ووصلتُ أثناء سفري إلى أقنية أكويليا Aquileia, وتابعنا من هناك سفرنا، واتخذنا لأنفسنا مقراً مع بعض الرهبان في بلدة صغيرة في فريساك Frisac, وفي اليوم التالي تركني الراهب العلماني، وبقيتُ لوحدي، وعبرتُ لوحدي خلال كارينثيا Carinthia, وتابعت السير على طريقي في النمسا، وتوقفتُ في بلدة اسمها باللغة الألمانية نوستادت Neustadt, أي المدينة الجديدة، حيث أكرمت وفادتي من قبل رهبان في طائفة جديدة اسمهم البيغونيين Beguins, ثم أخفيتُ نفسي لبضع سنوات في جوار مدينة فينا وفي المناطق المجاورة، مازجاً —يؤسفني القول— الخير مع الشر، لأنني عشت عاجزاً ملطخاً بإثم الشيطان، وكنت عدواً قاتلاً لنفسي، مع أنني تمكنت من تخليص عدد كبير من إثم البيترنيين، الذين كنتُ قد تحدثتُ عنهم.

ونتيجة لهرطقتهم، ولأشياء من الذنوب كثيرة قامت بين المسيحيين، استثير غضب الرب، وأصبح غاضباً مدمراً، ومنتقماً مرعباً جداً، وأنا أقول هذا، بسبب عرق حاد من المخلوقات غير البشرية، والذي شريعته هي اللاشريعة، والذي غضبه حنق، وهو عصا غضب الرب، وهو الآن يقوم بعبور منطقة واسعة من البلاد، ويقوم بالعيث فيها فساداً بشكل مميت، ويتولى محق كل شيء بشكل مخيف بالنار والسيف، يعترض سبيلهم، ففي خلال هذا الصيف بالذات، غادر هؤلاء القوم، الذين اسمهم التاتار بانونيا، التي استحوذوا عليها بالاستسلام، وقاموا

بوساطة آلاف لاتحصى، بحصار البلدة المذكورة أعلاه بشدة، والتي صدف أنني كنتُ آنذاك مقيماً فيها، ولم يكن في البلدة عساكر من جانبنا للتصدي لهم، سوى خمسين فارساً، وعشرين من رماة القسي الزيارة، كان الدوق قد تركهم في الحصن، ولدى صعود هؤلاء فوق مكان مرتفع في الجوار، شاهدوا الجيش العملاق معسكراً من حولهم، وارتعدوا بسبب شدة هؤلاء الذين هم من أتباع المسيح الدجال، وسمعت الآن آهات صاعدة نحو رب المسيحيين، من الذين دهشوا في المنطقة المجاورة، وقد هلكوا جميعاً سواء من دون تمييز بالمرتبة، أو المكانة، أو الجنس، أو العمر، وجاء هلاكهم بمختلف أنواع الموت، وتغذى أتباع المقدمين الذين كانوا مثل كلاب آكلة للحوم البشر، من لحوم أجساد الموتى، وكأنها كانت خبزاً، ولم يتركوا شيئاً سوى العظام للوحوش، لكن مدهش أن نقول بأن الوحوش والطيور الجارحة، مع أنها كانت جائعة، لم تقبل بأكل بقايا اللحوم، إذا صدف وكان قد بقي شيء منها، وأعطيت النساء العجائز والقبيحات إلى المسؤولين عن الكلاب الآكلة للحوم البشر —كما كانوا يسمون— ليكونوا طعامهم اليومي، لكن اللائي كن جميلات احتفظ بهن أحياء، ليخنقن وليقهرن من قبل عدد من مغتصبيهن، على الرغم من صراخهن وبكائهن، فقد جرى اغتصاب العذراوات حتى متن من الإنهاك، ووقتها كانوا يقطعون أثدائهن ليجري الاحتفاظ بهن بمثابة طعام لذيذ لمقدميهم، أما أجسادهن فاتخذن لوجبة طعام سارة للمتوحشين.

وشاهد في الوقت نفسه، الذين كانوا ينظرون من أعلى مكان مرتفع، وصول دوق النمسا، وملك بوهيميا، وبطريرك أكويليا Aquileia, ودوق كارينثيا Carinthia, ومركيز بيد Bade, كما قيل، مع عدد كبير من أمراء الدول المجاورة، وكانوا على تعبئة جاهزين للقتال، وفي لحظة واحدة اختفى ذلك العرق اللعين، وعاد الخيالة إلى هنغاريا

التعيسة، ومثلما وصلوا فجأة، كذلك اختفوا بشكل مفاجيء، وهذه واقعة خلقت رعباً عظيماً في عقول الذين شاهدوها، وأسر أمير دلماشيا ثمانية من الفارين، وكان واحداً منهم معروفاً من قبل دوق النمسا، على أنه رجل انكليزي، كان قد نفي بشكل أبدي من مملكة انكلترا، بسبب إحدى الجرائم التي كان قد اقترفها، وكان هذا الرجل قد قدم مرتين كرسول وترجمان من ملك التاتار إلى ملك هنغاريا، وبشكل مكشوف هدد الهنغار وأنذرهم بالشرور التي وقعت فيما بعد، إذا لم يذعن ملكهم ويتنازل هو ومملكته ليكونوا خاضعين للتاتار.

وأقنعه الأمراء ليقول الحقيقة حول التاتار، وقام هو من دون تردد، بعد أن أدى كل نوع من أنواع الأيمان، وقدم إفادات قاسية جداً، حتى أنه من الصعب على الشيطان نفسه أن يصدقها، وتحدث أولاً عن نفسه، أنه بعد نفيه، وقبل أن يكون في الثلاثين من عمره، خسر كل شيء كان لديه بالميسر في مدينة عكا، وأنه لم يمتلك في أيام الشتاء سوى قميص من المسوح، وحذاء من جلد الثور، وقبعة مصنوعة من شعر الحصان، وتمكن بهذه الحالة من العوز، وإظهار حالة من الضعف بالجسد، وبشعر مشعث كأنه شعر مهرج، وباطلاق صرخات جمجمة كأنه رجل أخرس، فعبر كثيراً من البلدان، ولاقى لطفاً كبيراً من الذين قدموا له الضيافة والإحسان، متصرفاً بحياته بشكل أو آخر، مع أنه رغب يومياً في طيش لسانه والجنون في قلبه، ورغب في قرارة نفسه أن يكون لدى الشيطان، وأخيراً بعد طويل أمد أصيب بمرض شديد، بسبب الإنهاك الشديد الذي عانى منه، وبسبب تغير الأنواء والأطعمة، بين الكلدانيين، وصار مالاً من حياته، ولم يعد قادراً على متابعة السفر نحو الأمام، أو العودة، فوقف حيث كان، وكان يتنفس بصعوبة، ولأنه كان معتاداً بعض الشيء على الكتابة، بدأ يدون كتابة الكلمات التي جرى الكلام بها هناك، ثم شرع يتفوه بهن بشكل صحيح، إلى حد أنه عدّ من السكان المحليين،

وقد تعلم عدة لغات ببراعة، وسمع التاتار عنه من خلال جواسيسهم، وتمكنوا من جره إلى جانبهم، وعندما شرعوا يسعون بتطبيق دعواهم باخضاع العالم كله، ربطوه بهم، ولكي يكون مخلصاً في خدمتهم، منحوه كثيراً من الأعطيات، لأنهم كانوا بحاجة ماسة لأشخاص، يكونوا تراجمة لهم.

وفيما يتعلق بأخلاقهم وسماتهم، وأوهامهم التي يؤمنون بها، وأمزجة وآفاق ذواتهم، وبلادهم وطرائق قتالهم، أقسم أنهم كانوا جشعين، وانفعاليين، ومخادعين، وبدون رحمة بشكل فاقوا به الناس الآخرين، وشدة وقسوة العقوبات التي تنزل بهم من قبل مقدميهم، تمنعهم من النزاعات، أو بالحري من خداع بعضهم بعضاً، أو إلحاق الضرر ببعضهم بعضاً، ويدعون الذين أسسوا قبائلهم الأرباب، ويقيمون تعبدات في بعض المواسم، ولديهم احتفالات خاصة كثيرة، وأربعة أعياد نظامية فقط، ويعتقدون بأن كل شيء قد عمل من أجلهم، ويؤمنون أنه لاتوجد وحشية في ممارسة كل نوع من أنواع القسوة، ضد الذين يثورون ضدهم، ولهم صدور ثابتة وقوية، ووجوه مائلة وشاحبة، وكتفين قاسيين وعاليين، وآناف قصيرة ومشوهة، وذقونهم حادة وعالية، وفكهم العلوي منخفض وعميق، وأسنانهم طويلة وقليلة، وتمتد حواجبهم من الشعر إلى الأنف، وعيونهم سوداء وغير مستقرة، وملامحهم طويلة وقاسية، ومظهرهم الخارجي عظمي وانفعالي، وأ .جلهم غليظة لكنها قصيرة تحت الركبة، والبناء الجسدي مساو لنا، لأن الذي خسروه تحت الركبة جرى تعويضه بطول أكبر لأجزائهم العلوية.

وبلادهم الأصيلة هي مساحات واسعة، وكانت من قبل صحراء، واقعة خلف الكلدانيين، قد طردوا منها الأسود والدببة، والوحوش الأخرى، وكان ذلك بوساطة قسيهم وأسلحة الحرب الأخرى، وقد

صنعوا من الجلود المدبوغة لهذه الحيوانات لأنفسهم دروعاً هي خفيفة المظهر، لكن لايمكن خرقها، ولديهم خيول ليست ضخمة، لكنها قوية جداً، وتتطلب قليلاً من الطعام، وهم يربطون أنفسهم بثبات على ظهورها، ويستخدمون النشاب، والهراوات، وبلطات القتال، والسيوف في الحرب، ويقاتلون بشجاعة وثبات، وميزتهم الأساسية هي في استخدامهم القوس، وفي براعتهم في القتال، ودروعهم الواقية لظهورهم رقيقة، حتى لايحاولوا الفرار، وهم لايتراجعون عن القتال حتى يرون العلم الرئيس لمقدمهم يتراجع، وعندما يسقطون لايطلبون الرحمة أبداً، وهم أنفسهم لايوفرون واحداً قد سقط، وفي غايتهم الثابتة في اخضاع العالم كله ووضعه تحت سيطرتهم، يصرون على ذلك كأنهم رجل واحد، كما أنه من غير الممكن عدّ الألف منهم مثل ألف من الآخرين، وعدد أتباعهم، الذين يدورون في فلكهم ستمائة ألف، وهم يرسلون هؤلاء أمامهم لإعداد أماكن من أجل الجيش، ويستطيعون على ظهور خيولهم السريعة قطع مسافة سفر ثلاثة أيام في ليلة واحدة، ويقومون فجأة بنشر أنفسهم فوق منطقة واحدة، وينقضون على السكان غير المسلحين، والذين بلا دفاعات، والمتفرقين، محدثين فوضى ودماراً عظيماً، إلى حد أنه لو حاول أمير أو ملك البلاد المحاصرة حشد جيش ليحضره إلى ساحة القتال ضدهم يعجز عن ذلك، وفي أيام السلم يخدعون الناس وأمراء البلدان بأسباب هي غير منطقية، فهم يقولون أحياناً بأنهم تركوا بلادهم لاسترداد الأجساد المقدسة لملوك المجوس، الذين يزينون مدينة كولون Cologne, ويقولون في أحيان أخرى، إنها في سبيل ضبط شره وتفاخر الرومان، الذين ظلموهم في القديم، وهناك سبب آخر، هو أن يخضعوا تحت سلطانهم شعوب وقبائل الهيبربوريان Hyberborean البربرية، ثم إنهم قالوا بأن غايتهم هي إطفاء غضب التيوتون بوساطة تسامحهم ولطفهم، وأحياناً لتعلم فن الحرب من الفرنسيين، وأحياناً أخرى للحصول على أرض خصبة كافية

للقيـام بأود حشـودهم، وقـالوا أخيراً بـأن الغـاية هي القيـام بالحج إلى القـديس جيمس في غاليشيـا Gallicia, وتمكنوا بهذه الحكايات من السيطرة على بعض الملوك البسطاء،لأن يبرمـوا معـاهدات معهم، ولكي يمنحوهم مجازات حرة خـلال أراضيهم، ولايحافظ التاتار على المعاهدة، ويتعرض هؤلاء الأمراء للهلاك سواء.

ولدى رؤيتنا مثل هذه المخـاطر العظيمـة، وهي قـائمـة مهـددة جميع العـالم المسيحي، ماالذي يعمله هؤلاء الرهبـان المقدسين، مع طقـوسهم الدينيـة الجديدة، وصدوراً عن نار الفـرن الجديد التي صيغوا منهـا، من الذي يرغب أن يعتقـد بأنهم وحـدهم قد عثـروا على طريق الكمال دون الآخرين؟ وبوساطة الاعتراف ووسـائل الإلفة الأخرى سوف يتمكنون من الحصول على الحظـوة لدى الملوك والأمراء، وهم يصرخـون بحرارة وإلحاح في آذانهم ضـد التـاتار، وهم يسيئون، إذا لم يصرخـوا، ويفعلون الأسـوأ إذا اكتفـوا بالتظاهر بذلك، والأسـوأ من هذا كله إذا مـاقـامـوا بمسـاعـدة العـدو، فما الذي يفعله الرهبـان السـود والبيض؟ ومـاالذي يفعله الكهنة النربونيين الذين يرغبـون بالتفكير لو أن العـالم ميت؟ لماذا لايبشرون بصليبية ضـد التتار لدى رؤيتهم اقتراب جميع هـذه المخاطر؟ وعجباً للاستشارات الحمقى للملوك! وللصمت الفاتر للأساقفة ورعاة الديرة! ولشـدة التـاتار ولوحشيتهم التي لم يسمع بمثلهـا! فلقـد جـرى حتى الآن تدمير ست ممالك مسيحيـــة، والمصير نفســه معلق فـــوق الآخرين، في حين إن مثل الـذين هلكوا لايفيد كوسيلة انـذار للأحياء، فنحن قد أهملنا أسـوأ أعدائنا في داخل البـلاد، وقاتلنا الذين بدون أذى فيما وراء البحر.

وهذه هي الأسبـاب التي اقتادتنـي، أنا الذي أدين بالفضل لعنايتكم الأبوية، فأنا كما أنا، أتقدم بالنصيحـة إليكم في الرب، بأن تقوموا بإقناع ملوك: فرنسا، وانكلترا، واسبانيا، الذين بينهم تحتلون مكاناً وسطاً، وأن

تستخدموا كل الوسائل التي باستطاعتكم استخدامها، لكي يضعوا جانباً خصوماتهم الخاصة، إلى الأبد، أو على الأقل لبعض الوقت، وأن يعقدوا بسرعة وعقلانية مؤتمراً فيما بينهم، حول كيف يمكنهم بأمان التغلب على مثل هؤلاء الآلاف من هذه النوعية من المتوحشين، وأدعو أنا الإيمان بالمسيح، الذي به آمل بالانقاذ أن يكون شاهداً، أنهم لو توحدوا جميعاً، فلسوف يسحقون هؤلاء التنينات، أو سوف يسحقون إفرادياً من قبلهم. وداعاً».

الصراع بين الامبراطور وبين البابا يثير اضطراب كل شيء

كان مقدراً لهذه الرسالة المرعبة أن تثير كثيراً قلوب الملوك والنبلاء، الذين وصلت إليهم، ولكانت أثارتهم بشكل فعال للانتقام للأذى الذي ألحق بالمسيح، وبالكنيسة الكاثوليكية، وبالمسيحية كلها، لولا قيام النزاعات المتبادلة بين البابا وبين الامبراطور، ومن ثم نشرها الاضطراب فوق العالم كله، ولذلك فإن هذا الصراع قد تفجر في الخارج خلال جميع المناطق، في الطول وفي العرض، لأنه لم يكن في كل المسيحية أحداً أعلى مرتبة، لابل ما من أحد في مثل تلك المرتبة العالية، مما أنعش قلوب التاتار، وأبهجها، لابل جميع الكفار، وعلاوة على ذلك جميع أعداء المسيح، وجعلهم يضاعفون آمالهم، ولذلك قالوا وهم يتفاخرون ويتقيئون أنفسهم، بأن الرب منزعج وضد المسيحيين، الذين قاتلوا ومزقوا بعضهم بعضاً، وأنه بات أكثر راضياً عنهم ولصالحهم. وزاد من تعدادهم، وضاعف قوتهم.

تشديد الحراسة على الطرق في روما

ورأى الامبراطور في الوقت نفسه، أن البابا المنتخب حديثاً، قد قام بتأكيد قرار سلفه، وأنه لايرغب بتقديره بأية طريقة من الطرق، ولذلك رفض من جانبه الخضوع تمام الخضوع إلى وصايات الكنيسة، وأعطى

أوامر بتشديد الحراسة على جميع الطرقات، والموانىء، والجسور، وأن لايكون هناك انسان يقوم بالعبور وهو يحمل مالاً، لأنه كان يعرف بأن في البلاط الروماني عطش بشكل غير متناهي، وصرف ابنه كونراد نفسه بيقظة لهذا العمل، ووقف بتيقظ في الطرقات وسدها، في كل من البحر والبر، ولم يوفر أحداً من المسافرين، حتى الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، أو أي واحد متخفي، وكل من اعتقله عذبه حتى الموت.

تزايد أعداد البيغونيين

وفي الوقت نفسه، وبشكل خاص في ألمانيا، أعلن كثير من بعض الأشخاص من كلا الجنسين، لكن بشكل رئيسي من النساء، أنهم صاروا رهباناً، وارتدوا اللباس الديني، ولم يكن هذا اللباس ثقيلاً جداً، وعملوا تعهداً بعفة الحياة وبساطتها، بوساطة تعهد خاص، وذلك من دون الالتزام بأحكام أي قديس، كما أنهم لم يحبسوا أنفسهم داخل إطار أي دير، وباختصار تزايدت أعدادهم إلى درجة أنه وجد في مدينة كولون وجوارها، ألفين منهم.

خلاف بين الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان

ولكي لايظهر العالم أنه شاغر من تزايد الاضطرابات من كل جانب، نشب صراع بين الرهبان الفرنسيسكان والرهبان الدومينيكان، مما سبب الدهشة لكثيرين، لأنهم بدوا بأنهم اختاروا الطريق السليم، أي طريق الفقر والصبر، فمن الجانب الأول ادعى الدومينيكان وأعلنوا أنهم هم الذين تأسسوا أولاً، ولذلك السبب هم أعلى مقاماً، وأنهم أكثر عقلانية في مظهرهم الخارجي، وعن جدارة استحقوا نيل اسمهم ومقامهم من أعمالهم التبشيرية، وأنهم كانوا بالفعل والحقيقة حصلوا على تميز بوساطة المقام الرسولي، وقدم الفرنسيسكان من الجانب الآخر جواباً، بأنهم اختاروا في سبيل الرب طريقاً للحياة أكثر قسوة وتواضعاً، ولذلك فهم

أكثر جدارة، لأنهم أكثر قداسة، وأن الرهبان يمكنهم، وينبغي بشكل مؤكد أن ينتقلوا من طائفة الدومينيكان إلى طائفتهم، على أساس الانتقال من جماعة أدنى إلى جماعة أكثر تفوقاً وتشدداً، ونقض الدومينيكان مقالتهم مواجهة، قائلين صحيح أن الفرنسيسكان يسيرون وهم حفاة، ويلبسون ألبسة خشنة، وهم متحزمون بحبل، وهم يتمتعون بامتياز أكل اللحوم، أو أطعمة أكثر لطفاً ولذة، وأن هذا ليس محظوراً عليهم حتى أمام الناس، وهو أمر محظور بالنسبة لجماعة الدومينيكان. ولذلك لايمكن القول بأن الدومينيكان يمكنهم الدخول إلى طائفة الفرنسيسكان لأنها طائفة أكثر تشدداً وأكثر جدارة، بل إن العكس هو الصحيح، ولذلك نشب نزاع بين هؤلاء، مثلما نشب أيضاً بين الداوية والاسبتارية، في الأرض المقدسة، من خلال بذور الخلاف التي زرعها عدو الجنس البشري، صراع تآمري عنيف، وكان مثله مثل الصراع بين الرجال المتعلمين والجامعيين، لابل أشد خطورة بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، وكان علامة على غضب عظيم سوف يحل بساحتها، والذي هو مزعج، ونذير سوء هو أنه لمدة ثلاثمائة سنة أو أربعمائة أو أكثر، لم تسرع الطوائف الرهبانية نحو الدمار مثل اسراعها الآن، كما تفعل طائفتيهما، ذلك أن رهبانهما لم يمض الآن على وجودهم في انكلترا بالكاد عشرين عاماً، حتى بنوا لأنفسهم مساكن نافسوا فيها القصور الملكية، وهؤلاء هم الذين يعرضون للمشاهدة كنوزهم التي لاتقدر ولاتحصى، ويوسعون مبانيهم الفخمة، ويشيدون الأسوار العالية، ولذلك خرقوا بحماقة حدود فقرهم الأصيل، واعتدوا على قواعد دينهم، وذلك وفقاً لنبوءة الألماني هايلد غريد Hildegrade, فعندما يكون الرجال النبلاء والأغنياء على حافة الموت، يقومون بحثّ الذين الذين يعرفون أنهم مستحوذين على ثروات كبيرة، وفي حبهم للربح يحثونهم بإلحاح لإلحاق الأذى والخسارة بالأساقفة العاديين، وأن يستخرجوا اعترافات ووصايا خفية، رافعين أنفسهم، وطائفتهم فقط،

وواضعين أنفسهم أمام جميع الآخرين، و هكذا فإن الرجل المؤمن الآن يعتقد أنه يمكن أن يحفظ، فقط إذا ما جرى توجيهه بمشورات الدومينيكان والفرنسيسكان، ورغبة من هؤلاء في الحصول على الامتيازات في بلاطات الملوك والأعيان، أخذوا يشغلون أدوار المستشارين، والحجاب، والساسة رجال الأعراس، والمتوسطين من أجل الزيجات، وهم الذين يتولون تنفيذ الاستخراجات البابوية، وهم في قداساتهم إما يتولون الإطراء أو النقد الحاد، ويكشفون الاعترافات، أو يقومون بأعمال الاتهام بوقاحة، ويزدرون أيضاً الطوائف التي تولى وضعها الآباء المقدسون، أي التي أسسها القديس بندكت، والقديس أوغسطين، ويستخفون أيضاً بأتباعهم (وظهر هذا الشيء بوضوح في قضية كنيسة سكاربورا Scarborough، عندما انسحب الفرنسيسكان بشكل مهين) وهم يضعون جماعتهم أمام الآخرين، وهم ينظرون إلى الرهبان السسترشيان على أنهم أجلاف، لايؤذون، شبه أصلاء، أو بالحري ذوي أصل رديء، ويعدون كهنة ورهبان الطائفة السوداء متكبرين ومنغمسين بالملذات الحسية.

جامعة باريس تتراجع عن أخطائها وتستنكرها

وكذلك في ذلك الوقت، وبالتحديد بعد عيد القديس ميكائيل، تمت عملية إعادة اجتماع المدارس والدارسين، وبدأ معلمو اللاهوت، خاصة كبار المحاضرين من الدومينيكان والفرنسيسكان المناظرة والمناقشة بدقة تفصيلية أكبر، وبعمق أعظم مما ينبغي، أو مما هو مفيد، ولم يترددوا في وزن الجبال، حيث يمكن لمجد الرب أن يخزيهم، وغامروا بطيش في تفحص أسرار الرب القدير التي لايجوز البحث بها، وأقدموا على البحث في أحكامه التي هي عميقة جداً، وكانوا بالنتيجة غير أكفاء بالنسبة للمهمة، وتفحصوا هكذا بعمق، وتجولوا حيث ليس هناك ممر، بسبب انتقام الرب، الذي يكون أكثر رضا بالبساطة الصحيحة للإيمان

الثـابت، أكثر من رضـاه بالبراعـة الأكثر ظهـوراً في اللاهوت، ومع أنه أسلم وأكثـر فضيلة أن نتقبل ببساطة وأن نعتقـد في الآثار التي تلقيناها من الآباء، من أن نحـاول البرهنة عليهـم، بهذه الوسـائل التي يقـدمهـا العقل البشري، لقـد اختـاروا أن يغـرروا بـأنفسهم وأن يرتفعـوا فـوق المستوى الصحيح.

هذا وعندما علم أسـاقفة الكنائس بهذه الأشيـاء، وكانوا متيقظين من أجل مصلحـــــة الكنيســــة والإيمان المسيحي، واستنـدوا على سلطة الانجيليين والأنبياء في لجم وقاحتهم الطـائشة، ودعوا إلى اجتماع للناس ذوي الإيمان المستقيم، وأعلنوا بحكمـــة عـن حقيقـــة الإيمان، وكـــانت غلطتهم الأولى: هي أن الجوهر الـلاهوتي لم يشـاهد، ولن يشـــاهد، من قبل إنســـان في حـــال الطهـــارة أو من قبل مـــلاك، وعلى هذا أجـــاب الأســـاقفـــة: نحن ندين هذه الخطيئـة، ونحـرم كنسيـــاً الذيـن أعلنوها ويتمسكون بها، لأننا نـؤمن بثبـــات، ونؤكـــد، بأن الـرب في جـــوهره، وتكوينه، أو طبيعتـه، سـوف يشاهد من قبل الملائكـة المقدسين، عندمـا يكون في حـــال التجلي، وكـانت الخطيئة الأخـــرى هي: مع أن الجوهر اللاهوتي هو نفسه في الأب والابن، والروح القـدس، ومع ذلك بالنسبة للشكل، إنـه ليس نفســـه في الروح القـــدس كما هـو في الأب والابن مأخـوذين مع بعضهما، ومع ذلك إن الشكل هو الشيء نفسـه، كجـوهر لاهوتي، وعلى هذا قـــدم الأســـاقفـــة الجواب التـــالي: نحن نـدين هذه الخطيئة، إلـخ، لأننا نـؤكـــــد بشكل ثـابت بـأن هناك اتحاد بـالجوهر، والتكوين، أو الطبيعـة، في الأب والابن، والروح القـدس، وأن الجوهر هو نفسه بالنسبة للشكل، وهو نفسه في الأب، والابن، والروح القدس، وخطيئة أخرى هي: أن الروح القدس، لكونه نوعاً من الحب، أو رباطاً من التعـاطف، لم يصدر عن الابـن، بل عن الأب فقط، نحن ندين هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نعتقـد بثبات ونعلن بأن الروح القدس، لكـونه نوعاً

من الحب، أو رباطاً من التعاطف، قد صدر عن الاثنين، وخطيئة أخرى هي: أنه لا الأرواح الطاهرة، ولا الأجساد الطاهرة سوف تكون مع الملائكة في السماء العليا، بل في السماء المائية، أو الشفافة، الموجودة فوق قبة السماء، حيث أنهم افترضوا، ووضعوا العذراء المقدسة، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونعلن، بأن المكان الجسدي نفسه، أي السماء العليا، سوف تكون مشاعاً للملائكة، ولأرواح القديسين، وللرجال الممجدين، ومثل هذا المكان الروحي نفسه مشاعاً للرجال وللملائكة، وخطيئة أخرى: هي أن الملاك كان شريراً من اللحظة الأولى لخلقه، ولم يكن قط غير ذلك، أي غير شرير، إننا ندين هذه الخطيئة ونمنعها، وأولئك الذين يعلنونها ويتمسكون بها، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونؤكد بأنه كان فيما مضى صالحاً وليس شريراً، وقد صار فيما بعد سيئاً باقتراف الذنب، وخطيئة أخرى: هي أنه كان هناك من الأزلية حقائق كثيرة، وهي لم تكن رباً، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن، بأنه كانت هناك حقيقة واحدة من الأزلية كلها، التي هي الرب، وأنه كان هناك باطل، هو لم يكن رباً، وخطيئة أخرى، هي أنه يمكن لملاك أن يكون في أماكن مختلفة في الوقت نفسه، لابل حتى في كل مكان إذا ما اختار، نحن ندين، إلخ، لأننا نؤمن بثبات ونؤكد هو أن ملاكاً موجوداً في مكان واحد مؤكد، وبناء على ذلك إنه إذا كان هنا، لايمكنه في الوقت نفسه واللحظة ذاتها أن يكون في مكان آخر، لأنه من الممكن لواحد أن يكون كلي الوجود، لأن ذلك معزو إلى الرب وحده،وخطيئة أخرى: هي أن البداية، والوقت الحالي، والخليقة، والآلام هي كلها ليست خالقاً ولامخلوقاً، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن بأنهم جميعاً قد جرى خلقهم، وخطيئة أخرى: هي أن الملاك الشرير، لم يمتلك قط أرضاً يمكنه الوقوف عليها، ولا حتى آدم عندما كان مايزال في مرحلة البراءة، نحن ندين إلخ، لأننا نؤمن بثبات، ونعلن أنهما امتلكا مكاناً ليقفا عليه، لكن —على كل حال— لم يربحا من ذلك، وخطيئة أخرى:

هي أن الذي لديه ونال المنحة الأحسن بشكل طبيعي، سوف يكون بالضرورة لديه المزيد من النعمة والمجد، ونحن نستنكر هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن بأن النعمة والمجد سوف تمنحان حسبما يراه الرب مناسباً. وهذا مقدر من ذي قبل.

خلاصة أحداث هذا العام

وعلى هذا عبر هذا العام، مع وجود مخاطر مهددة واضطرابات للكنيسة، وكان عاماً وافراً بما فيه الكفاية في الخضار والفواكه، وقد جلب الموت والازعاج لعدد كبير من النبلاء في العالم المسيحي، وجلب الملامة والأذى إلى مملكة انكلترا وإلى ملكها، وأحضر معارك وعداوات إلى الايطاليين، وانعدام ثقة بالنسبة إلى الأرض المقدسة، وحدوث انشقاق ومؤامرات بين الداوية والاسبتارية.

الوليمة السخية للإيرل رتشارد في وولنغفورد

في سنة النعمة ١٢٤٤، التي هي السنة الثامنة والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، كان الملك نفسه في عيد الميلاد، ضيف أخيه، الايرل رتشارد، في وولنغفورد Wallingford, حيث أقيمت وليمة سخية، قد دعي إليها جميع النبالة الانكليزية تقريباً، وكانت هذه الوليمة آخر الحفلات التي شرع بها في لندن، وكل مايمكن أن يفكر به قد أحضر لجعل احتفالات الزواج فخمة، وكان بين الحضور بيترايس، كونتسة أوف بروفانس، وابنتها سينشيا، المتزوجة حديثاً، وكانت جميلة المظهر، وقد بذل الملك جهوده كلها حتى يظهر لطيفاً وكريماً.

مغادرة كونتسة بروفانس لإنكلترا

وبعد الفراغ من هذه الاحتفالات، بادر الملك، ترافقه بيترايس، الكونتسة المذكورة، مع عدد كبير من النبلاء من الجنسين، ومن العائدين إلى كل من انكلترا، وبروفانس، بادروا مسرعين إلى لندن، في أيام عيد

الختانة، للاحتفال هناك، بأعظم أبهة، بعيد القديس ادوارد، بحضور الضيوف من بروفانس، وأمام أعينهم، وتوجهت بعد ذلك الكونتسة المذكورة نحو البحر، وعادت إلى موطنها وجرت مرافقتها بشكل رسمي حتى البحر من قبل الملك مع حشد كبير، لكن حتى لايمر سرور في هذا العالم من دون انتكاسات، حدث أنه قبل أن تغادر الكونتسة وتركب السفينة في دوفر، وصلها حملة لأخبار محزنة، حيث أعلنوا لها بأن زوجها ريموند كونت بروفانس قد أصيب بمرض عضال، وهو على حافة قبره، وهو الرجل الذي قدم مساعدات فعالة إلى الكنيسة الرومانية، في جميع أزماتها، بإلحاقه الأذى بالامبراطور، وعندما جرى إعلام الملك بهذا، أصيب بحزن عميق، وطلب رحمة الرب للكونت، بالصلوات، وبتقديم الصدقات، إلى غاية ما كان بإمكانه.

إرسال البابا الجديد رجلاً جديداً إلى انكلترا لاستخراج المال

وأرسل في تلك الآونة نفسها البابا المنتخب حديثاً، مستخرجاً جديداً للمال إلى انكلترا، اسمه المعلم مارتن، وهو يحمل رسالة اعتماد من البابا، ومفوضاً بسلطة فرض عقوبة الحرمان الكنسي، والتعليق وبانزال العقوبات بطرق كثيرة، بالذين يعارضون رغباته، وقام وهو متسلح بمثل هذه السلطات، فعلق الأساقفة الانكليز، حتى لايعود بامكانهم جباية أية منفعة من منافعهم حتى يكونوا قد أرضوا نهم البابا، الذي جبا جميع مواردهم لصالح كهنته أو أقربائه، وقد أرتأى أنه ليس بذي قيمة أن يتسلم أي مبلغ ما لم يصل إلى ثلاثين ماركاً، أو أكثر، خشية أن يبدو ذلك الرجل العظيم حريصاً على التوافه، ولذلك شرع المعلم مارتن المذكور بغطرسة بمطالبتهم والاستخراج من الأساقفة وخاصة من الرهبان، الهدايا، وخاصة الخيول الفخمة، فقد فرض في رسائله مثل هذا على رعاة الديرة، أو رؤساء الرهبان، أن يرسلوا إليه خيولاً تكون موائمة لكاهن خاص للبابا، ليمتطيها، والذين عارضوا، وتقدموا

بتسويغات، وعرضوا أسباباً لعدم الطاعة، حتى وإن كانت أسباباً منطقية (من ذلك على سبيل المثال راعي دير مالمسبري Malmesbury, ورئيس رهبان ميرتون Merton) جرى تعليقهم، ومعاقبتهم بقسوة إلى أقصى حد يرضيه، لأن هذا المنقب الحريص تجول بعينيه وتطلع نحو جميع الكنائس الشاغرة، وجميع الأوقاف، حتى يتمكن بوساطتهم من سداد جميع المطالب المكشوفة للبابا مع حاجاته، وكان من بين أوقاف الكنائس الغنية، أوقاف كنيسة سالسبري، التي كانت مرتبطة بقائد جوقة المرتلين، التي غدت شاغرة، فوضع يديه على هذا الوقف، على الرغم من معارضة الأسقف، وجميع أعضاء الهيئة الكهنوتية، وقام بناء على أوامر البابا، بإعطاء هذا الوقف إلى واحد من أحفاده، وكان مجرد طفل، مما أدهش كثيرين وآلمهم، لأن كثيرين اعتقدوا وأملوا بأن نهم البلاط الروماني، سوف يعتدل بوساطة شيء من العقلانية، وذلك بعد العقوبات التي نزلت به حتى الآن مراراً بوساطة غضب الرب.

تصرف غير عادل من الملك نحو أسقف وينكستر

وحدث كذلك في الوقت نفسه، أن قام الملك بشكل غير صحيح بظلم أسقف وينكستر، بوضع يد ثقيلة عليه، ولم يتنازل مطلقاً بقبوله في مؤتمر مصالحة، أو لنيل قبلة سلام وصداقة، وذلك أثناء عودته من مناطق عبر البحر، حيث قدم الأسقف نفسه بكل تقوى، وقد لاحقه بكراهية شديدة، ولم يسمح لأي رجل علماني بأن يعيش معه، أو يتولى خدمته، ولم يأذن له بتلقي الضيافة في أي من الديرة، بل إنه نظر إلى الذين استقبلوه وواسوه، على أنهم أعداء معلنون، وأعاق أيضاً بوحشية ومنع أن يصل إلى الأسقف سفينة وعربات محملة بالمؤن والإمدادات القادمة من نورويك، ولدى سفر الأسقف إلى لندن، لم يتجرأ على الدخول إلى قصره في ساوثوورك Southwark بسبب خجله من

الظلم الذي تلقــاه من أتبــاع الملك، واستضيف وهـو متخفي في بيت رهبـان سـاوثوورك، الذي هو قـرب قصره، وواقع في أسقفيتـه، وانتظر هناك بتواضع تبـدل الأوقات المعارضة، وإلى أن يزوره التـوفيق والرضا من عليين، لكن الملك الذي كـان يتصرف بناء على نصيحة قـوم ظالمين، منع كل واحـد في مـدينة لندن من بيعه حتـى ضروريات الحياة، الأمـر الذي لانتـذكر أن مثله قـد أوقع حتى بالقديس تومـاس رئيس أساقفـة كـانتربري، ثم إن الأسقف قـام وهـو حـزين يعـاني من كثير من الأذى والاضطراب، فـاشتكى —مع سبب صحيح— إلى زمـلائـه الأساقفـة، وعندمـا علمـوا بذلك قـام أسـاقفـة لنكولن، وووركستر، وهيرفـورد، تحركهم العاطفة، وغاضبين غيرة على العدل، فبادروا مسرعين إلى ردنغ، حتى يتمكنوا من توبيخ الملك، ونصيحته حتى يقوّم أخطائه، لكن الملك أعلم بقـدومهم، فهـرب رافضاً نصيحتهـم المسالمة، إنما عندمـا وجـدوه أخيراً، انفجر غاضباً وتفوه بكلمات تسويغ لنفسه وكراهية، ولم يكن من الممكن تسكينه بتحريضاتهم، بل إنه تصرف على العكس بشكل واضح، فبعث لإلحاق الأذى بالأسقف، بثيبولد دي هيرلي Hurley, والمعلم هنري دي سـوسـا Susa إلى البـلاط الرومـاني، مع مبلغ كبير، استخـرجه لهما حتى ينفقـاه، ولكي يعدا بمبلغ أكبر بكثير إلى البـابا وإلى البـلاط الرومـاني، على شرط أن يقـومـا بخلع الأسقف المذكـور بشكل مهين، لكن بما أن ذلك سوف يكون غير مستقيم بشكل مكشوف، وغير عادل، وسـوف يسبب فضيحة عامة ضـد الكنيسة، لم يتمكنا بأية وسيلة من الوسـائل من إكماله، ولأن رئيس الرهبان المتقـدم ذكره أعـلاه، كان يعرف هذا بشكـل مؤكد، عـاد بشكل عقلاني، لكن رفيقـه هنري هرب بشكل شرير ودنيء، وأخــذ مـال الملك وهرب به، وسـافـر إلى مناطق مـوطنه، حـاذياً حـذو الغـراب الذي لم يعـد إلى سفينة نوح، ولم يعـاود الظهور في انكلترا.

موت الكاردينال جون أوف كولونا

وفي ذلك الوقت نفسه من السنة، أي في ثمانية عيد طهارة العذراء المباركة، مات جون أوف كولونا Colona, وكان كاردينالاً رومانياً، ووعاءً لكل أنواع العجرفة والوقاحة، وكان الأكثر شهرة، والأعظم قوة في الممتلكات المدنية بين جميع الكرادلة، وكان الفاعل الأكبر والراعي المغذي للخلاف بين الامبراطور والبابا.

تثبيت المعلم روجر أسقفاً لباث

وجرى في الوقت نفسه تثبيت المعلم روجر، رئيس جوقة سالسبري في أسقفية باث، حيث شاهد بسرعة أن وقفه في سالسبري، سوف يعطى إلى حفيد البابا، وفي الوقت نفسه كان هناك راهب اسمه توماس أوف غلوستر، جرى انتخابه بشكل نظامي من صدر الكنيسة، ومن ثم تمّ تنصيبه بصورة شرعية راعياً لدير ايفهام.

موت رالف نيفيل أسقف شيستر

وأيضاً مات في العام نفسه الأب المبجل رالف نيفيل، أسقف شيستر، ومستشار انكلترا، وكان رجلاً يستحق الثناء بكليته، وكان عموداً لايمكن زحزحته بالاخلاص لشؤون الدولة، وقد أنهى مهمته الحياتية ليدخل في الحياة السرمدية، في الأول من شباط، وكان ذلك في لندن، في قصره الفخم، الذي بناه من الأساسات على مسافة عظيمة عن الهيكل الجديد.

حرمان النورمان من ممتلكاتهم الانكليزية

وفي مجريات هذه الأيام، قام ملك فرنسا، فجمع في باريس، جميع الناس من عبر البحر الذين لديهم ممتلكات في انكلترا، وخاطبهم على هذه الصورة:

«بما أنه من غير الممكن لأي رجل، يعيش في مملكتي، ولديه ممتلكات في انكلترا، أن يخدم بشكل كامل سيدين، لذلك عليه إما أن يربط نفسه بي بشكل لايمكن فصمه، أو بملك انكلترا»، وبناء عليه توجب على الذين لديهم ممتلكات وموارد في انكلترا، أن يتخلوا عنها، وأن يحتفظوا فقط بالممتلكات التي لديهم في فرنسا، والعكس صحيح، وعندما وصل هذا إلى علم ملك انكلترا، أمر بوجوب انتزاع ممتلكات جميع الناس الذين هم من الشعب الفرنسي وخاصة النورمان، ومن ذلك بدا الأمر بالنسبة لملك فرنسا أن ملك انكلترا قد خرق المعاهدات التي أبرمت بينهما، بسبب أنه لم يفعل كما فعل ملك فرنسا، بإعطاء خيار للذين سيخسرون أملاكهم، بأن يكون ذلك في المملكة الأولى، أو في المملكة الثانية، وبذلك يمكنهم أن يختاروا لأنفسهم أي المملكتين يمكنهم أن يبقوا فيها، لكن بما أنه كان ضعيفاً جداً بجسده منذ عودته من بواتو، لم يرغب في تجديد الحرب، وفضل أن يلتزم بالصمت، لابل إنه استهدف اسكات الشكاوي الملحة للنورمان، وكذلك الرغبات النهمة والغاضبة التي أظهروها، للثورة ضد ملك انكلترا.

رسالة حول أحوال الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه في الأجواء المسيحية أخباراً مرضية، تأكدت بوساطة الرسالة التالية:

«من الراهب هيرمان أوف بيريغورد Perigord، القسيس المتواضع لفقراء جنود الهيكل، إلى أخيه العزيز في المسيح، روبرت أوف ساندفورد، المدرس في انكلترا، تحيات في الرب:

بما أننا ملتزمون بإخبار اخوتكم برسائل أو برسل حول ما يتعلق بأحوال الأرض المقدسة، كلما تهيأت الفرصة وقدمت نفسها، والذي ينبغي أن تعرفه أن سلطان مصر، بعد الأضرار التي تلقاها منا، وأن

الناصر، الذي كـان آنـذاك يتـوسع بمشـاريعـه، والذي هـو مسـاعـده، والمضطهد للصليبيين، والـذي لم يتوقف، قد أرغـم مؤخراً وذلـك وفقاً لقواتنا، على التفـاوض معنا، وإن كان مكرهاً، وعلى إعـادة عقد الهدنة، وقد وعد بأن يعيد إلى الصليبيين جميع الأراضي الواقعة على هذا الجانب من الأردن، وبناء عليـه رأينا أنه من المناسب أن نرسل في هذه المناسبـة، إلى حضرة السلطان المذكور في مصر، مندوبين، رجـالاً نبلاء ومستقيمين من إخواننا الرهبـان، وقد تحفظ عليهم وأبقـاهم لمدة نصف سنة وأكثر، وقد اقتطع مما كـان وعدنا به من قبل: غـزة، والقديس ابراهيم (الخليل) ونابلس، وبيسان، وأماكن أخرى، وكان هذا الإجراء مؤذياً لنا، ثم إنه لم يعطنا شيئاً سـوى كلام مخادع وفـارغ، لكننا نحن أدركنا بفضل النعمـة الربانيــة مكره وغــدره، لأنه أراد الحصـول على الهدنـة منا فقط، حتى يتمكن بسهــولة أكبر أن يضع تحت سيطرتـه سلطاني: دمشق، وحمص، والناصر صــاحب الكرك مع أراضيهم، حتى عندمــا يتمكن أخيراً من وضع الأراضي الاسلامية بين يديه، التي هي مجاورة لأراضي الصليبيين، هو لن يحافظ ولابشكـل من الأشكال على أي من عهــوده معنا، وذلك مثلما خرق وعوده مع قومه، ووقتها سوف لن يتمكن الصليبيون، الذين هم على هذا الجانب من البحــر، والذين هم ضعفـاء جــداً، وعـددهم صغير من الصمود، ووقتهـا لن يكونوا قـادرين على المقاومة، وقـد قمنا بحكمة بالتـداول حول هذه المسألة، وكنا بحـاجة إلى نصيحة الأسـاقفة وبعض بـارونات البـــلاد، وبعـــد ذلك رفضنـا بشكل صحيح هـدنة السلطان المذكـور، ورأينا من الأفضل التعـامل مع سلطان دمشق، ومع الناصر صـاحب الكرك، وبنـاء عليـه تخليـا للصليبيين عن جميع الأرض الواقعـة على هذا الجانب من الأردن، وذلك بـاستثناء القـديس ابراهيم، ونابلس، وبيسان.

ولهذا يتوجب على الملائكة والرجـال أن يبتهجوا، لأن مـدينة القدس

المقـدسـة مسكونة الآن من قبل الصليبيين فقط، لأن جميع المسلمين قـد جرى طردهم منها، وجميع الأماكن التي منذ ست وخمسين سنة لم تشهد دعاء لاسم الرب، يقـوم أساقفة الكنيسة باصـلاحها وتطهيرها، ويحتفل بالقـداسات الآن فيهـا يومياً، ولذلك الحمـد للرب وله الشكر، ولزيارة هذه الأماكن الطـريق هو مفتوح وحر، وآمن للجميـع، وهذا ليس أمراً مشكوكـاً به، بل من الممكن بقـاء ذلك بسعـادة، وبوضع مـزدهر لوقت طويل من الزمـن، إذا مـا كـان المسيحيين وحـدهم على هذا الجانب من البحـر، شروعـاً من هذه اللحظة بعقل واحـد، وبقلـب واحـد، ولكن ياللأسف، كـم عـددهم كبير الـذين مـوجـودين، والذين من خـلال الكراهيـة والحسد هم مضـادين لنا، ويسببـون الاضطرابات لنا، في هذه القضايا وسواها، التي توسع الأرض المقدسة.

وبناء عليه إننا وحدنا، مع رهبانـنـا، وأساقفة الكنائس، مع عدد قليل من بارونات الأرض، الـذين قـدمـوا إلينا كل مسـاعـدة ممكنة لديهم، نحمل على أكتافنا عبء الدفاع عن الأرض، وقـد رغبنا بامتلاك مدخل إلى المنطقـة، التي تلامس أرض مصر، وممراً أيضاً في أرض القـدس، أي أن تقـول نحو غـزة، وبهذا نلنا العـون من سلطان دمشق، وكـذلك من الناصر، صـاحب الكرك، لكن ليـس من دون خطر عظيم، ومتـاعب وانهاك لأشخاصنا، ونفقـات كبيرة في المال، مع تفكير حكيم وطويل قد أعطي إلى هذه الأعمال، ومع ذلك نحـن نخشى بأن يقـوم الرب بأخـذ انتقـام ثقيل، بمعـاقبـة العـاقين الذين كـانوا متراخين وعصـاة في هذه القضية، علاوة على ذلك، إننا نقترح، في سبيل حـراسة وسلامة أرضنا، أن نبني قرب القـدس، فوق جبل الطور، قلعة قوية جـداً (إذا ما نجحنا بالحصـول على عون رجال شجعـان) بها نأمل بأن تكون عمليـة الحفاظ على الأرض أكثر سهولة، ومدافع عنها إلى الأبد، ضد الأعداء، ذلك أن الأشيـاء التي نمتلكها، إننا ولابحـال من الأحوال في وضع يمكننا فيـه

تملكها والدفاع عنها بقوة لوقت طويل ضد السلطان، الذي هو قوي جداً، ورجل بارع، وذلك إلاّ إذا قام المسيح وأتباعه المخلصين بتقديم مساندة فعالة لنا.

مصداقية الرسالة المتقدمة مدعاة للتساؤل

عندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامع كثير من المسيحيين، لم يتمكنوا من منح الثقة لا إلى الكلام ولا إلى الكتابة، ومرد ذلك وسببه سوء سمعة الداوية، ومثلهم أيضاً سمعة الاسبتارية، لأنهم قالوا بأنهم دوماً يثيرون الصراع بين الصليبيين والمسلمين، حيث يمكنهم أثناء الحرب الحصول على المال من الحجاج القادمين من جميع البلدان، وكذلك بسبب خلافاتها المتبادلة، وكذلك بسبب أن لديهم نية باعتقال شخص الامبراطور، علاوة على ذلك، يمتلك الداوية في العالم المسيحي تسعة آلاف عزبة، ويمتلك الاسبتارية تسعة عشر ألفاً إلى جانب التعويضات ومختلف الموارد التي تأتي من رهبانهم، ومن المقتنيات، التي كلها تزداد بامتيازاتهم، ويمكن لكل عزبة من هذه العزب، أن تجهز من دون صعوبة جندياً واحداً، مسلحاً بشكل جيد وأن يكون شاكي السلاح، من أجل نجدة الأرض المقدسة، وأن يكون أيضاً مزوداً بجميع الأشياء التي لها علاقة بالتسليح الكامل للجندي، وعندما يتأمل المسيحيون بهذه الأشياء، ويتفكرون حولها، يفترضون دوماً أنهم يخفون بعض الغش، وأن لديهم بعض الخيانات الذئبية تحت رداء الشياه، لأنه لو لم يكن هناك بعض الخيانة والغش، لأمكن لأعداد كبيرة جداً من الفرسان الغربيين الشجعان، أن يخرقوا جميع صفوف المشارقة وأن يلحقوا بهم هزيمة ماحقة.

إصلاح طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان وفق نظام البندكتيين

وفي الوقت نفسه، كان الرهبان، وبشكل رئيسي رهبان الدومينيكان،

جـاهلين بأحكام طائفتهـم، وقــد أدينوا بشكل غير حكيم تمامـاً، على أسـاس تجاوزهم لأنظمة القـديس بندكت، الأمر الذي أظهـرناه في هذا الكتاب، قبل عدة فصول، وقد عـوقبوا بممارسة القسوة البابوية عليهم، وجرى توجيههم نحو طريق أفضل بموجب سلطات الرسالة التالية:

«مـن أوتـو الـذي هـو بـالاذن الـرباني، أسقـف بـورتـو Porto, للقديس روفين Rufin وغودفـرد Godfred, وبالرحمة الربانية كـاردينال شماس للقـديس أدريان Adrian, إلى جميع الذين سـوف يحترمون هذه الرسائل، تحيات الرب:

اعلموا بأننا رأينا، وبيقظة تفحصنا الرسائل الرسولية، التي لم تمح، أو تمسح، أو تتشـوه، في أي جـزء، بل هـي في شكلهـا الأصيل، فـوجـدنا مرسوماً صحيحاً، لم تتعرض خياطته أو كتابته، ولاورقه للتلف، والذي محتواه هو التالي:

من انوسنـت، إلخ، إلى معلم ورهبـان طائفــة الدومينيكان، صحـة ومباركـات رسوليـة: إنه ليس فقط لصـالح الرهبان، بل أيضـاً لصالح الدير، أنه جرى منح وقت للامتحان وسمح به من قبل الآباء المقدسين، في أن يتمكن أحدهم في الحصـول على نموذج عن صرامـة طريق الحياة ذاك، وأن يتمكن الآخـر من الحصـول على الـوقت لكي يتعلم مبـادىء مثل الدير والرهبـان، وفي أحكام القديس بندكت جـاء الأمر أيضـاً، أن الذين هم على نقطة التحول، سـوف لن يجدوا دخولهم إليـه سهل جداً، بل حسب تعاليم الرسول، ينبغي فحصه لتبيان فيها إذا كانت الروح من الرب، وأن المصاعب والمخـاطر القائمـة على الطريق إلى السماء، يتوجب إيضاحهـا تماماً، وأضيف فيها بعد في الأحكام نفسهـا، ينبغي إخباره، أن هناك شريعـة، في ظلها عليك أن تتابـع الأعمال الروحية المفيدة، فـإذا ما كنت قادراً على الالتزام بها، ادخل إلى الرهبنة، لكن إذا لم يكن بإمكانك ارجع حـراً كما أتيت، وعـلاوة على ذلك، فإن سلفنا البابـا غريغـوري،

صاحب الـذكرى السعيدة، قـد وضع شريعة قضت بإعطـاء المستجدين الذين هم تحت الامتحـان، قبل ارتداء الـزي الديني، إلى الذين يعملون النذور الرهبـانيـة، أو قبل أن يعملوا نذورهم، يمكنهم —إذا أرادوا— خلال عام، العودة إلى طريقتهم الماضية في الحياة، ومرة ثانية، حتى نزيل كل شـك حــول هذا الموضــوع، بما أنـه هناك في بعض الـديرة، زي المستجدين فيهـا ليس متميزاً عن زي المحترفين، لأن الثيـاب التي تعطى إلى الذين عملوا نـذورهم تجري مبـاركتهـا أثناء الاحتراف، من الممكن عمل تمييـز بين أزياء المستجـدين وأزياء المحترفين، ومع أنك بحماسك، لديك رغبـة عظيمـة لكسب الأرواح إلى الرب، مـع ذلك إنه بسبب أنه من المطلوب ومـن الموائم، أن لايكون حكم العقل بحـاجـة إلى نقـاء الضمير، خشيــة أن يحصل أذى إلى الخلاص من ذلـك المصــدر، الذي صمم فقط لمنح المنفعـة الروحيـة، قمنا نحن بناء على نصيحـة إخـواننا، وبمـوجب سلطات هذه العروض، بمنعكـم بكل دقة، بمـوجب فضيلة طاعتكم، وتحت طائلة آلام عقــوبة الحرمـان الكنسي، من الإقـدام على قبول أي واحد سوف يعمل النذر في طائفتكم، أو أن يتخلى عن الدنيا، قبل انقضـاء سنة امتحـان، تؤسس بشكل نظامي بمثـابة عـون للضعف البشري، ولمنع أي إنســان، بكل طريقـة من الطرق، إذا كـان في وضع المستجـد أو الامتحـان، من العبور، أثناء سنة الامتحـان نفسهـا، إلى أي طائفـة رهبانية أخـرى، سوف يظن أنها أفضل، أو يعتقـد أنه أحسن إلى حـريتـه الانتقال حسـب إرادته، دون أن يعبأ بأي نظام يمكن أن يكون معـاكساً، وإذا كنا قـد أمـرنا قط بشيء من هذا، نحن نعلم هنا أن ذلك ملغى وفارغ، أو أية رسائل تمّ الحصـول عليها، أو سيتم الحصول عليها من الآن فصــاعــداً، من الكرسي الرســولي، لاتقــدم ذكـراً واضحــاً للمقـدمـات، وإذا صدف بشكـل ما وأقـدمتم على استقبـال أي واحـد بشكل معاكس لهذه المحظورات، نحن نرسم، بأن الذي جـرى استقباله على هذه الصــورة، هو ليـس مــرتبط بطائفتك، وأنك منـذ وقت تقبله

للاحتراف في الطائفة نفسها، سوف تكون بالفعل معلقاً، وأكثر من هذا عرضة للعقوبة التي يجري انزالها برهبان الطائفة، بسبب جرائم أعظم، لاتدع أحداً، بناء عليه إلخ. صدر في مدينة كاستيلانا Castellana, في السابع عشر من حزيران، وفي السنة الأولى من حبريتنا».

«وقمنا بناء على شكوى الرهبان الفرنسيسكان، بنسخ محتويات هذه الرسائل كلمة كلمة، وأن يجري تثبيتها بأختامنا. صدر في سوتري Su-tri في اليوم الثالث من حزيران».

وجرى نشر هذه الرسائل، التي تمّ الحصول عليها، في هذه الآونة من السنة وتعميمها، مع الأمر بالالتزام بها كما تقدم.

ملك إنكلترا يتولى تعيين بعض المستشارين الجدد

وفي هذه الآونة عيّن السيد الملك اللورد بوينتز بيبر Poyntz, Piper فارساً، يقوم بأعمال القهرمان لقصره، وكذلك بوينتز نفسه، وجون مانسيل Mansel, مستشار كنيسة القديس بولص في لندن، وكانا معاً شخصين حكيمين ومجربين، ليكونا مستشاريه الرئيسيين وكذلك المعلم لورانس من كنيسة القديس مارتن، الذي كان فيما مضى مقيماً كمرافق مقرب لوليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، ولييج، والذي هو مدير لجميع مجالس الملك، ولجميع القضايا المتعلقة بالكنيسة، فقد جرت ترقيته الآن ليكون قسيسه وكاهنه الخاص، لأنه كان رجلاً صاحب حكمة كبيرة وخبرة.

فرار أسقف وينكستر إلى فرنسا

وفي تلك الآونة، لاحق أساقفة: لنكولن، وووركستر، وهيرفورد، الملك، الذي وضح أنه كان يتجنبهم، ووجدوه، أخيراً في ويستمنستر، فوجهوا الملامة إليه بحدة، من أجل اضطهاده وطغيانه، الذي لم يتوقف عن ممارسته يومياً نحو أخيهم وزميلهم، أسقف وينكستر، وفي الوقت

الذي قـدموا فيه الالتماس بعـد الالتماس، أضافـوا التهديد إلى التهـديد، وكـانوا جاهـزين لوضع بيعته تحت الحرمـان من شراكـة المؤمنين، طلب الملك بعض التأخير، حتى يمكنه إجـابتهـم حـول الموضـوع بدقـة أكبر، وذلك حتى يعود رسـوليه، اللذان كانا قـد عبرا الألب، لأنه كان يأمل، من دون أدنى شك، بأنهما سوف يرشوان البلاط البابوي، وأن ينفذا كل شيء وضعـاه بذهنيهما، وتولى الأسـاقفـة الذين تقـدم ذكـرهم أعـلاه الاستجابة لطلب الملك، ولكن عندمـا شاهد أسقف وينكستر انخفاض حرارة اندفاعهم، هرب بشكل سري، في العشرين من آذار، حيث ركب ظهـر سفينة في لندن، في سبيل أن يعبر إلى فـرنسـا، وقـد أبحـر عبر نهر التيمز، وقطع مسافة قصيرة إلى البحر، ووصل إلى ميناء القديس فاليري Valerie, قبل حمل أخبـاره إلى الملك، أو إلى أي واحـد من أعـوانه، ثم أنـه انتقل مـن هناك إلى أبيفيـل Abbeville, وهناك استقبـل بشكل رسمي من قبـل مبعـوث من ملـك فـرنسـا، فقـد استقبله هذا المبعوث نيابة عن سيده، بسرور وبهجة، وبأسارير فرحة، ووعده بجميع الأشيـاء التي نصح بها الملـك، وبالمسـاعـدة، مع كل مـواسـاة وحماية، وأعطى أيضاً أوامـر، صادرة عن سيـده، بأن يقوم عمـدة أبيفيل بإعداد جميع سكان أبيفيل، وأن يجعلهم جاهزين للدفـاع عن الأسقف المذكور، إذا صدف وأمـر ملك انكلترا بملاحقتـه وإلحاق الأذى به، وأن يطيروا وقت تطلب الحاجـة إلى السـلاح، وأن يقـاتلوا برجـولة ضـد جميع المهاجرين دفاعاً عنه.

مقتل غريفن بن للويلين أثناء محاولته الفرار من برج لندن

أثناء موت الحظ، وتأثيره هكذا على شؤون العـالم، كان غريفين الابن الأكبر لـ «للويلين» أمير شمالي ويلز، مـايزال محبـوسـاً سجيناً في برج لندن، وكـان يتسلم كـل يوم من خـزينة الملك، نصف مـارك لتـزويده بالطعـام وإلخ، وبسبب مكانتـه، ومع أن زوجتـه تسلمـت إذناً بزيارته،

كـان متأثراً بعمق بمشـاق السجن الطويل التي كـان غير معتاد عليهـا، وفكر كثيراً حـول كيف يمكنه الفـرار مـن مـوضع سجنه، وفي إحـدى الليالي، قـام بعدما خـدع سجانيه، فعمـل حبلاً من أغطية فـراشة، ومن ستائره وأغطية مـائدته، قام بتدلية نفسه عامـودياً، بوساطة الحبل نفسه، وذلك من أعلى البرج، وبعـدما نزل بعض المسافـة، انقطع الحبل، بسبب وزن جسده، وسقط مـن علو كبير، لأنه كان رجلاً كبيراً، وبـدين جداً، وبهذه الطريقـة دق رقبتـه ومـات، وتـم العثـور على جسـده المحـزن في الصباح قرب سور البرج، وقـدم مشهداً مؤسفاً لجميع الذين رأوه، لأن رأسه مع رقبته كـانا مدفونين تقريباً في صـدره، بين كتفيه، وعندما سمع الملك بهذا، وبخ الحراس وعـاقبهم بسبـب إهمالهم، وأمـر بابن غـريفين المذكـور، الذي كـان مسجـوناً مع أبيـه، فشـدد الحراسـة عليـه، ومـات غـريفين المذكـور، الذي سقط من البرج كما ذكـرنا، في اليـوم الأول من آذار.

تناقص شعبية ملك إنكلترا بسبب نفي أسقف وينكستر

عندمـا نفي أسقف وينكستر، تناقصت سمعـة ملك انكلترا كثيراً، في جميع أرجـــاء البلـدان الواقعـــة على هـذا الجانب مـن الألب، واتخذ الفـرنسيون، الذين كـانوا دوماً خصـوم الانكليز، ذلك حجـة من أجل فضحهم، قائلين:

«انظروا إلى هناك، نحـو ملك انكلترا، الكسـول والمهمل بالنسبـة إلى جميع أعداء المملكة، لكـن المضطهد والمعذب لأسـاقفته المقـدسين، ولقد كان هناك مـن قبل القديس أنسلم رئيس أسـاقفة كانتربـري، ومن بعده القـديس تومـــاس الشهيـد، والآن في السنوات الأخيرة المعترف المجيـد ادمـــوند، ومثـل ذلك هناك الآن الرجل التقـي أسقف وينكستر، الذي خـدمـه لوقت طويل بإخـلاص، وكـان صـديقـاً مقـرباً منه، لكنه الآن يرفض أن يسمح له أن يكون في أمان السـلام، والذي طرده، بلا حياء،

إلى خارج حـدود مملكته، ثم هو يطارده بطريقـة عدوانيـة»، الأمر الذي عندما بات معروفـاً من قبل بونيفيس الأسقف المنتخب لكانتربري، قام صدوراً عن عـاطفته ولطفه الفطري، ولحزنـه على تناقص شعبية الملك، فكتب بطريقة حبية كثيراً إلى أسقف وينكستر كلمات مواساة، وإلى ملك انكلترا كلام تقريع، وفق الصيغة التالية:

رسالة بونيفيس المنتخب لكانتربري إلى أسقف وينكستر

«من بونيفيس، الذي هو بنعمـة الرب، المنتخب الحقير لكانتربري، إلى الأب المبجل في المسيح وليـم، الذي هو بنعمـــة الرب أسقف وينكستر، تحيات في الرب:

بما أنك قـدمت في رسـائلك طاعتـك إلينا، وللمنصب الذي نشغله، نشكرك في المسيح من أجل تقواك، وحسبما قضيت أنه مناسبـاً أن تتقدم بطلب إلينا بوسـاطة المعلم وليم، الذي هو كـاهنك، إعلم بأننا تعـاطفنا مع شكواك، بقدر أن لانغضب الرب، أو نخرق القانون، وسوف تسمع المزيد حـول هذا من وليم المذكـور، واعلم واسترح متأكـداً، أنه قبل قـدومنا إلى انكلترا، إذا لم يكن السـلام بينك وبين الملك لم يسترد، بإننا سوف نصرف أنفسنا بكل فعالية لذلك، ولسوف نستخدم وسائل أقوى للحصول على محصلة عادلة لهذه القضية، وبما أنه ليس لدينا ختم خاص بنا، استخدمنا هذا الختم العائد لهيئة كهنة بيلي Bellay, وداعاً».

رسالته إلى ملك إنكلترا

«من بونيفيس، إلخ، إلى الملك، إلخ:

لقـد تلقينا رسـائل من بعـض الأسـاقفـة المسـاعـدين في كـانتربري، يلتمسـون فيهـا بكل اخـلاص إقـامـة سـلام بينكم وبين الأب المبجل المسمى لكنيســة وينكستر، والذي تسميتـه قـد جـرى قبـولها من قبل الكرسي المقـدس، ولذلـك يتـوجب تثبيتـه، وإننا بناء عليـه، رغبـة منا

بالهدوء للمملكة، وبالحفاظ على سلام الكنيسة، التي هي عرضة للخطر في هذه المناسبة، ولأن الذي يصغي، كما يليق إلى شكوى الأب المذكور، يجد من المعروف أنه مفيد ونافع لكل من الكنيسة وللمملكة، نرجو سموكم بتقوى بأن تتلطفوا بأن تعيدوا الأب المذكور إلى حظوتكم، بحكم أنكم ملك صالح، وأمير يخاف الرب، وهكذا ينبغي أن يفعل، وبما أنه ليس لدينا ختم خاص بنا» إلخ (كما من قبل).

كما أنه كتب أيضاً إلى أسقف هيرفورد، ليشغل نفسه بيقظة وبفعالية، بما يتعلق بهذه القضية، أي قضية أسقف وينكستر بالإقناع بالالتماسات وبالتهديد.

ملك هنغاريا يطلب المساعدة من الامبراطور فردريك

وكان ملك هنغاريا في هذه الآونة قد طرد من مملكته من قبل التتار، لذلك تقدم بطلب إلى بلاط الامبراطور، وطلب نصيحة فعالة ومساعدة ضد العدو المشترك، وجرت مداولات سرية وطويلة، إثر ذلك، وقد تقرر بأن يقوم الامبراطور بيد قوية بالعمل على تحرير مملكة هنغاريا من نير الاحتلال البربري على شرط قضى أنه عندما سيسترد الملك مملكته، وعندما تعود إلى الحرية والسلام بوساطة الامبراطور سوف يعدّ الامبراطور سيداً سامياً له.

وبناء عليه جرى إرسال جيش كبير، وتمكن الامبراطور من تحرير المملكة المتقدم ذكرها أعلاه من التتار المتوحشين، لكن ذلك لم يكن من دون بذل كثير من المال، والتعرض لمخاطر عظيمة ولقد طردهم بقوة وبقدرة إلى ماوراء حدود المملكة، وكان هناك بعض الذين قالوا بأن هؤلاء التتار المقوتين، قد جاءوا أولاً بموجب دسائس الامبراطور ومؤامراته، وكانوا بانتظار مطالبه، ومرتبطين بتنفيذ أوامره، وقد تصرفوا بطريقة تمكن الامبراطور من اخضاع ذلك الملك ووضعه مع مملكته

تحت سلطانه، لكن هذا ما كـان قد تهامس به الذين كـانوا غيورين منه، ومثل هذا الافتراء ينبغي عدم تصـديقه، وعندمـا على هذا صارت مملكة هنغـاريا محررة، وعـاد ملكهـا بسـلام، صـارت هنغـاريا خـاضعـة إلى الامبراطورية، وصارت ملزمة بتقديم ثلاثمائة فارس مع أتباعهم، للقتال على الحدود لصالح الامبراطور، باخلاص واستقامة.

هزيمة امبراطور القسطنطينية والتجائه إلى الامبراطور فردريك

وفي ذلك الوقت نفســه هرب امبراطور القسطنطينيـة مـن اضطهـاد الاغريق، وبما أنه لم يكن لديه شيئاً في خزينتـه يمكنه من متابعة الحرب، أو الوقـوف ضد الهجمات المتتـابعة لـلاغريق، هرب إلى بلاط فـردريك الامبراطور الرومـاني من أجل النصيحـة والمساعـدة، وقـام الامبراطور أولاً بتقديم تهديد مـرعب ضد الاغريق، ثم إنه قام بشكل أكثـر حكمة بالمنـاقشـــات معهـم، وحصل له أخيراً على هـدنة لمدة عـــام، ووافق الامبراطور فـــردريك نفســه على زواج بين ابنتــه وبين المقــدم الكبير للاغـريق واسمـه بتّاكيـوس Battacius, وسبب هذا غضباً عظيماً وازعـاجاً لمولانا البـابا وإلى البـلاط الروماني كله، بسبب الشقـاق الذي أثير بوسـاطة بتّـاكيوس، وقـامت منذ ذلك الحين كـراهيـة قـاسية جـداً ومستمرة بين مولانا البابا، وبين الامبراطور فردريك.

التتار يتفرقون باتجاه الشرق

وفي الوقت نفســه، كـان التتـــار يتربصـون هناك، غير قـــادرين على الصمود أية مـدة أطول ضد هجمات الامبراطور، لذلك غـادروا المناطق الشمالية، وارتحلوا مسرعين نحـو الشرق، وعندما كانوا يجتـاحون بشكل وحشي بعض مناطق ايران، كـــان هناك بعض الناس المتـوحشين جـداً، والذين سكنوا على تخوم البحـر الأحمر، وكـانوا إلى حـد بعيد خـاضعين لسلطان مصر، وكانـوا يعرفون باسم الخورازميـة، وكانوا قـد هربوا من

أمام تهديدات العاصفة الهوجاء، محاولين تجنب الاجتياح التتري، وقد ذهبوا إلى سلطان مصر، وطلبوا بسرعة وبوقاحة وصلف مكاناً يسكنون به، وعندما وجد السلطان أنه إذا مارفض برعونة مطالبهم سوف يستولون بالقوة على ماطلبوه وسيحصلون عليه بحد السيف، قال لهم:

«هناك على مسافة ليست بعيدة عن هذا المكان، يوجد بعض الناس، الذين يدعون باسم الصليبيين، وهم يسكنون في الأماكن الساحلية، وهم يزدرون شريعتنا، وهم مثيرين للمتاعب لنا، ويسببون الأضرار لنا، ويهددون بالبقاء هكذا والاستمرار، ومركزهم المهم ومقرهم الرئيسي هو مدينة القدس، اذهبوا بناء عليه، واطردوهم وعيشوا حيث يعيشون الآن، وهذا عندما تحصلون عليه، سوف تصبحون أثرياء بالأسلاب الثمينة، وسوف تمتلكون أراضي خصبة، وستبتهجون بالقلاع والمدن التي تتمناها قلوبكم، وسوف تكونون من ذلك الوقت سعداء في ظل حمايتي، وظل حماية جميع شعبي»، وبناء عليه فرحوا كثيراً بهذا الكلام، وهاجموا أولاً القدس وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين، حسبما حصلنا على معلومات وافية عن ذلك في رسالة من نبلاء تلك البلاد.

رسالة الامبراطور حول إفراغ الأرض المقدسة من السكان

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنه المحبوب، رتشارد، ايرل أوف كورنوول، تحيات، وعواطف خالصة أكيدة:

في راما سمع صوت بكاء ونحيب، وعويل، وحزن عظيم، وهو صوت، انتشر، كما أفادت الأخبار، مثل انتشار أخبار حزننا، وهو صوت، كما يبدو يدفعه تيار الحظ المعاكس إلى آذاننا، ليوضح أن الشرور لاتأتي لوحدها، فهناك أخبار تجلجل مثل أصوات الرعد ويتردد صداها حول القدس، وتعلن عن العاصفة المقبلة، التي فيها إفناء دموي لأتباع

المسيح، وعن الخسارة المؤلمة لضريح الرب، ثم عن التدمير المريع للمدينة المقدسة، وهذا في أيامنا! وفتحت هذه البروق سحب السماء، ليس من أجل تساقط الندى، أو زخات مطر خفيفة، بل لتهطل علينا بفيض من المصائب، ولبعض الوقت أنعش الحب، والإيمان الصحيح، المسيحيين الذين نجوا من المذبحة التي عملها الخوارزمية، ليقوموا بالانتقام لذلك الدمار، ولتلك الفاجعة الكبرى، ففي اللحظة نفسها لمؤتمرات القادة، ومع رغبة كل عسكري خاص ألهم لأن يفعل شيئاً ما رداً على تلك الانتكاسة، كان بطريرك القدس، يأمل بأن يحصل لنفسه على مجد النصر كله، وكان يبحث عن كل أمير آخر، وشريك هناك غير جدير ليكون شريكاً معه، وهنا بدأ يبشر بصليبية الرب، ورفع من معنويات الذين سمعوه، وألهبهم بشجاعة وصلت إلى حد الطيش، وبناء عليه قام الجيش الصليبي، من دون انتظار للساعة الموائمة، وهي القاعدة الأكثر أهمية في الحرب، في يوم الاثنين قبل عيد القديس لوقا الإنجيلي، وهو مكوّن من جميع أنواع الفرسان الأجانب، قام أفراده بإلقاء أنفسهم على الخوارزمية المتقدم ذكرهم، الذين كانوا متوقعين للهجوم، وكانوا مستعدين للمقاومة، وهكذا حدث في هذه المعركة السيئة الطالع، أنه لم ينج أحد من جميع الصليبيين، من القتل، أو من الوقوع بالأسر، ونجا آخرون —وكانوا قلة قليلة— بفضل وسائل التفريج التي واجهوها أثناء فرارهم، وكان معظم هؤلاء من الذين لم يندفعوا بطيش إلى وسط حومة القتال، حيث كان هناك قرع للسلاح، وزمجرة ضربات المتنازلين، وكان الذين نجوا من بين جميع بارونات الأرض المقدسة، ومن عساكر مملكة القدس، ومن بين جميع عسكريي رهبان الداوية، الذين بعثوا بثلاثمائة، ومن اسبتارية القديس يوحنا، الذين كانوا قد أرسلوا مائتين، ومن بين جميع الذين حشدهم فرسان رهبان القديسة مريم للتيوتون، كان الذين نجوا من هؤلاء ليس أحداً، إلاّ البطريرك المتقدم الذكر، واللورد سيمون دي مونتفورت (الذي كان

حامل علم المملكة، وقائد المقدمة) وأربعة فرسان، وعدد ضئيل جداً من خدم الداوية، وتسعة عشر من الاسبتارية، وثلاثة خدم فقط من خدم الفرسان التيوتون، فهؤلاء فقط الذين عادوا، ولقد عادوا إما لحسن حظهم، أو بوساطة الفرار، وكان هناك رجال من ذوي الشهرة مثل أسقف اللد، وصاحب حيفا، قد سقطا على أرض المعركة، وقد أصيبا بجراحة مميتة، وقد أصيب وولتر أسقف يافا بجراحة قاتلة، أما رئيس أساقفة صور الذي لم يمت من جراحاته، فقد ألقي به في السجن، وقد علم سمونا بهذه الأشياء كلها، من الرسائل التي أرسلت إلينا من بيت رهبان القديسة مريم للتيوتون.

وتسبب هذه المحصلة المحزنة للأشياء، وتقدم في ذاتها سبباً للأسى، وتسحب المرارة من قلوبنا، ومن قلوب جميع أمراء الإيمان المسيحي، وهي تستحق انهمار فيض من الدموع من أعيننا، بسبب طبيعة الفاجعة، لأنه تقدم عليها خطأ كبير، وتبعها كثير من الإهمال، لأنه بالاضافة إلى إثارة هياج الفخار الديني للداوية، الذين عاشوا على موارد بارونات الأرض، لقد أرغموا بحرب غير عادلة وغير حكيمة سلطان مصر على طلب مساعدة الخوارزمية، وذلك في ازدراء كامل لمعاهدتنا الملكية التي عقدناها مع ذلك السلطان، ومعنا بيتي رهبان القديس يوحنا، والفرسان التيوتون للقديسة مريم، وقد أظهر هؤلاء الذين تقدم ذكرهم سذاجة طفولية، ودليل على الحماقة وذلك عندما وضعوا ثقتهم في البرابرة المتذبذبين، متوقعين أن يجدوا الوفاء لدى الخونة، فباستخدامهم لوسائل غير أمينة، اتحدوا مع سلطاني دمشق، والكرك، اللذان لم يختلفا عنهم بالعقيدة فقط، لابل تفاوتا معهم بالمصالح، وكان الهدف من ذلك تقديم العون ضد الخوارزمية والسلطان، وكانوا بهذا كمن أرسل بكميات من الزيت لصبها فوق النار الملتهبة.

وبناء عليه، حسبما سمعنا بشكل واضح، وروي لنا، من بعض

الرهبان الذين قدموا من المناطق الأجنبية، استقبل الداوية السلطانيين المتقدمي الذكر، مع أتباعهما في أرباض بيوتهم، أي بيوت الداوية مع الفرح و الاحتفالات، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الوهمية، وأبهتهم المدنية، مع الدعاء باسم محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولم يعد من الممكن إبعاد هؤلاء الذين وجهت إليهم الدعوة، ولابأي شكل من الأشكال، ولاباللطف من طبيعتهم، كما أنهم لم يتثنوا عن البقاء بوساطة وعد التحالف، الذي أقسموا عليه، وذلك عن متابعة ميولهم العدوانية، لابل أظهروا بشكل واضح جداً أن الحنث باليمين وليس بالحري الوفاء به، هو الذي قائمين به، أما سلطان حمص، الذي أرسله سلطان دمشق، لمساعدة الذين عملوا تحالفاً للقتال ضد سلطان مصر، والذي لم تكن لديه آمال بنيل الخير على يدي سلطان مصر، فقد هرب، ونجا من المعركة مع خمسة فقط من رجاله، أما بالنسبة للبقية، فإنهم بعد صراع قصير، تظاهروا فيه بالقتال، ذهبوا سالمين مع رجالهم كلهم إلى سلطان الكرك، من دون قتال، ولاحتى مايشبه القتال، وهكذا صفوا أنفسهم على جانب الذين اقترنوا بهم في قلوبهم، وعلاوة على ذلك إن الإهمال الشديد الذي هو الخطوة الأخيرة نحو الدمار، عندما تكون سلامة واحد معلقة على عصا، ويلفظ كل خطر، ويهددنا بدمار سريع، وبالنسبة لزعماء الشريعة الأرثوذكسية —وهو أمر نحن جميعاً أرثوذكس— لايمكننا أن نكتب عنهم من دون ألم كبير، هم بعيدين عن التفكير حول ترميم مثل هذه المأساة المحزنة، باستثناء التنهدات، وفق طريقة أجدادنا، من أجل مثل هذه الأحداث المؤسفة، ولكن وكأن الشؤون لم تكن شؤون المسيحيين، أو الإيمان المسيحي، لم نهتم بجراحاتنا، ولم نهتم حول أوجه المعالجات، فالرب قد طاردنا، ونحن لم نتشكى، فنحن محاطون من كل جانب بأسقفنا المحترقة، ومع ذلك لم نركض من أجل احضار الماء، لابل كل واحد متمجد مسرور في سوء حظ الآخر، ففي المكان الأول الوحشية الجديدة للتتار قد أذهلتنا، وفي

المكان الآخر هناك النكد القديم للشعوب البربرية يحرقنا ويعذبنا.

ثم هناك في الأمـاكن الأخـرى الخيـانة المخجلـة للبيترنيين التي قـد أغضبتنا، وفوق كل شيء، خيـانة الذين يضعفون الامبراطورية المقـدسة في إيطاليـا بوسـاطة أعمال عصيـانهم، حيث أنهم بذلك يعيقـوننا عن اخضـاع الشعـوب البربرية إلى الامبراطـورية المسيحيـة، وفقـاً لما تطلبـه الكنيسة الكاثوليكية في طقوسهـا المقدسة، وهكذا دفعنا في كل اتجاه من قبل الأعـداء المعلنين، أو من قبـل عـذاب الأعـداء المتخفين، والشيطان يعمل بشكل متـواصل، وهو متيقـظ، بينما سمعـان نائـم، ونحن غير مُـتسامـح معنا هناك، حيث يمكن للنوم أن ينعش أعيننا، وللـرقـاد أن ينعش قلوبنـا، وانهضـوا بناء عليـه، أيها الرجـال الشجعـان، واحملوا سـلاحكم وترستكـم للانتقـام لأذى أيامنا، فهي مـدونـة بشكل أننا لايمكن أن نتجنبهـا، والرب هو الشـاهد علينا، بأننا قـدمنا دومـاً بكرم زائـد العـون لمسـاعدة الأرض المقـدسـة، أكثـر مما طلبتـه من عـون من الآخـرين، لأننا نعتقـد أنك لست جـاهلاً بالعسكريين من وراء الألب، الذين هم قـوم يحبون القتـال، وكيف أنهم حملوا شـارة الصليب الرائع، وعهـدوا بأنفسهم لخدمة الأرض المقـدسـة، ثم كيف دعوا بوجـوب أن يعهـد بها إلى مقـدم مشهـور، وأن يجري توجيههـا من قبل الذين كـانوا يعبرون البحر، فلم يرفض سمونا منحها التأييد بموافقتنا.

علاوة على ذلك، لقـد عرضنا شخصنا، أو شخص ابننا، أو أي قـائد آخـر، يراه هؤلاء القـوم أنه شخص مناسب، واعـدين بوجـوب أن يصاحب الجيش ألف فـارس مأجورين، نحن سـوف نتولى الدفع إليهم باستمـرار، للمسـاعـدة في مثل هذا الشيء الجيـد، وبناء على هذا أرسلنا بيرارد Berard, رئيس أساقفـة بلرم، وأسقفي ريغيو Reggio, وفلورانسا، وكـذلك غ. G أسقف سـوسة، المحببين منا والمقـربين إلينا، إلى غـريغـوري، الـذي كـان آنذاك الحبر الأعظـم الحاكم، وذلك

ليكونوا بمثابة نواب خاصين من سمونا، ليسألوه لاشيء أكثر من الحماية —بوساطة حارس أمين ومناسب— لنا، ولأولادنا، ولامبراطوريتنا، ولممالكنا، ولكي يمكن أخيراً إرجاع اللومبارد المعاندين الوقحين والعصاة علينا، إلى معاودة الاعتراف —حسبما متوجب عليهم أن يفعلوا— بالحقوق وبالسيادة العائدة إلى الامبراطورية الرومانية، ومن أجل أنه عندما يشاهد العصاة المتقدم ذكرهم أعلاه، أن إتحادهم، أو بالحري، تآمرهم قد جرى تدميره، وقتها يمكن أن يدفعوا من أجل أن يسددوا لنا مواردنا، مثلما يفعل رعايانا الآخرون، وكما تدفع الدول الأخرى إلى ملوكها وسادتها الشرعيين.

ثم إننا بعدما قدرنا الظروف، وأحوال الزمان، رأينا مسبقاً ماوقع حالياً، وارتعبنا منه، (مع أن معرفة الذي سيكون هو أمر مرفوض ولايمكن معرفته من قبل إنسان فاني) لأن شرور الأيام قد اتسعت بشكل كبير، وأنه في سبيل دمار ايطاليا سمح البابا الحاكم للكنيسة، بموافقة مع البابوية وتنسيق بزيادة عدد أعدائنا، وغريغوري البابا الحاكم قد مات، وقد ضعفت السلطة البابوية بخلافات هذا الوقت وتمزقاته، والذي يحكم الكنيسة الآن، والموضوع على رأس البابوية، قد قدمنا له، بوساطة مندوبينا مقترحات أكبر بكثير، مما كان من قبل، وهي مقترحات ما من أحد فكر مصيباً قط، أن من الحق جواز رفضها، وعدم قبولها، وهذه المقترحات، هي أننا بعد اعتمادنا على مولانا الجبار يسوع المسيح، الملك المنتصر، صرفنا أنفسنا لأن نحمل على أكتافنا حملاً ثقيلاً، وأن نثقل أنفسنا بجميع شؤون ماوراء البحر، وعلاوةعلى ذلك فيما يتعلق بالعاصفة المهددة للتتار، وبالمخاوف من جهة امبراطورية القسطنطينية، فذلك سيكون وفقاً لما قدمه الرسول المتقدم لسمونا من تعليمات إليكم وإلى الملوك الآخرين والأمراء.

آه، كم كانت الفوائد كبيرة، التي كانت ستكون بعد حين، لفائدة

الصالح العام، من الترياق الذي تم عرضه من قبل اخلاصنا، في الوقت الذي كان من الممكن فيه معالجة الضعف، وذلك قبل وقوع الضربة الثانية من الحظ المعاكس، وتوجيهها ضد الجرح، ومضاعفة آلام الندبة الأولى، ونحن لانعتقد أن الأمور ينبغي أن تترك هكذا لليأس أو للموت من دون التفكير بعلاجات هي ممكنة وينبغي العودة إليها، وبالنسبة إلينا، إن جبروتنا لايمانع في المساهمة في خطة مفيدة من هذا النوع، لابل إننا نعد بتقديم مكاتبنا الجيدة برغبة أعظم، ولأننا نشاهد بأن الفأس قد وضع عند جذر الشجرة، نقدر أنه بات من الضروري بالنسبة لنا ولجميع أمراء الإيمان الصحيح، أن يقدموا بناء عليه المساعدة، حيث مادامت إيطاليا على كل حال بسلام معنا، وممتلكاتنا وحقوقنا التي تمتع بها أبوينا الأقربين بسلام في كل من الامبراطورية والمملكة، حيث عادت إلينا ومعنا بسلام، فإنه بذلك استرد جناحانا نشاطهما، وتماسك ريشهما، فبهما يمكن أن نحلّق عالياً بأمان أعظم. صدر في فوجيا Foggia, في السابع والعشرين من شباط، في العلامة الثالثة».

رواية موجزة حول الفاجعة المذكورة أعلاه

وكان سبب هذه الفاجعة المحزنة، التي ورد ذكرها أعلاه، والتي وقعت أولاً في مدينة القدس هو مايلي: عندما قام الخوارزمية بهجومهم المفاجيء على البطريرك، وعلى سكان المدينة، هرب البطريرك المذكور، مع أسر أهل المدينة بكل سرعة إلى يافا، للالتجاء هناك، وقام الخوارزمية المكرة، في سبيل إعادة الفارين، واصطيادهم لقتلهم، برفع أعلام الصليبيين —الذين كانوا قد هربوا فجأة— فوق شرافات أسوار المدينة، ونتيجة لهذا، فإن بعض الصليبيين الذين كانوا متخفين خارج المدينة، تركوا أماكن تخفيهم، وامتطوا خيولاً سريعة، ولحقوا ببني جلدتهم الصليبيين، بموجب عواطف روح الأخوة، ودعوهم للعودة، وأعلنوا

بأن رفاقهم الذين بقيوا في المدينة، قد انتصروا بسعادة على أعدائهم، ورفعوا أعلامهم بسرور فوق الأسوار، وبناء عليه عادوا، لكن عندما حملوا أنفسهم مع شعور بالأمان، ودخلوا إلى المدينة، أو إلى أحوازها، كان القوم المتقدم ذكرهم مسلحين حتى أسنانهم، وكانوا مستعدين من قبل، ولذلك انقضوا على الصليبيين الفارين، وقتلوهم جميعاً بحد السيف، ثم قام قومنا الذي بقيوا سالمين ولم يتعرضوا للأذى في المدن والقلاع الأخرى، فحشدوا جيشاً كبيراً، وقرروا بالاجماع طلب الانتقام لدماء إخوانهم، وأن يكون انتقامهم من أعدائهم دموياً وبأيدي ثقيلة، وأنشبوا معهم القتال، لكنهم سحقوا، كما هو واضح من رسالة الامبراطور المكتوبة أعلاه، وهكذا كان نصيب الأكثرية القتل، وكانوا قلة الذين جرحوا والذين نجوا بالفرار، بعدما تركوا أعداءهم يتفاخرون بالنصر الدموي الذي نالوه عليهم، وذلك حسبما اعترف الأعداء أنفسهم بأفواههم، بعد المعركة، التي استمرت من الصباح الباكر حتى وضع حلول ظلام الليل نهاية لها، لأنه لم يعد بمقدور أي من الفئتين تمييز الأخرى.

رسالة أخرى أكثر تفصيلاً من مقدم الاسبتارية في القدس

«إلى اللورد م. M دي ميرلي Merlaye الأعظم قوة، يرسل تحياته غ. G من القلعة الجديدة (نيوكاسل) الذي هو بنعمة الرب المقدم المتواضع للدير المقدس في القدس، والوصي على الأتباع الفقراء للمسيح:

من المعلومات الواردة في رسائلنا التي أرسلناها لكم في كل عبور يمكنكم أن تروا بها فيه الكفاية من الوضوح، كيف سارت شؤون الأرض المقدسة بشكل سيء، وذلك بسبب النزاعات التي كانت قائمة منذ زمن طويل، وذلك في وقت عمل الهدنة، وفيما يتعلق بالارتباط بموقف الدمشقيين ضد سلطان مصر، ونحن نرغب أن يعلم معاليكم

بالأحداث الأخرى بعد انقضاء الهدنة، حيث اعتقدنا أنه من المفيد أن نخبركم أنه في حوالي بداية الصيف الذي انصرم أخيراً، تصالح سلطان دمشق مع السلطان الناصر، صاحب الكرك، بعدما كانا من قبل متعادلين، فقد أقاما سلاماً فيما بينهما، ودخلا بمعاهدة مع الصليبيين، على شرط أن يعيدا إلى الصليبيين جميع مملكة القدس، والأراضي التي كانت بحوزة الصليبيين قرب نهر الأردن، إلى جانب بعض القرى، التي احتفظوا بملكيتها في الجبال، ومقابل ذلك توجب على الصليبيين أن يعطوهم كل المساعدات التي بإمكانهم في قتال سلطان مصر، وتمت الموافقة على شروط هذه المعاهدة من قبل الفريقين، وشرع الصليبيون يتخذون أماكن استقرارهم في المدينة المقدسة، بينما بقي جيشهم في غزة، برفقة جيش السلطانين المتقدمي الذكر، لمناوشة سلطان مصر ومضايقته، وبعدما انخرطوا في هذا العمل لبعض الوقت، وصل بطريرك القدس من بلاد ماوراء البحر، وبعد استراحته جسدياً لبعض الوقت، حرّكه الشوق لزيارة ضريح ربنا، وانطلق ليقوم بذلك الحج، حيث كنا أيضاً برفقته، وبعدما وفينا بنذر حجنا، سمعنا في المدينة المقدسة، بأن حشداً لاعدد له، من الجنس المتوحش والعنيد، والذين يعرفون باسم الخوارزمية، قد قام بناء على استدعاء سلطان مصر وأوامره، باحتلال جميع المنطقة الموجودة في الجزء الأقصى من أراضينا المجاورة للقدس، وتغطية وجهها، وقد جعلوا كل نفس حية طعماً للموت، بالنار وبالسيف.

وجرى عقد مؤتمر حول هذه المسألة، من قبل الصليبيين، الذين كانوا يعيشون في القدس، وبما أنه لم يكن بمقدورهم مقاومة هؤلاء الناس، ترتب بشكل عقلاني، بأن يقوم جميع سكان القدس من كلا الجنسين، ومن كل عمر، بالزحف تحت حراسة كوكبة من الفرسان إلى يافا، بحكم أنها كانت مكاناً أميناً للالتجاء إليه، وفي تلك الليلة نفسها،

وبعـدما أنهينا مـداولاتنا، اقتـدنا قومنـا بحذر إلى خـارج المدينة، وسرنا ونحن مطمئنين، نصف المسـافـة، حيث أظهــر المعيق الأكثـر تدميراً لنا نفسه، وذلك بسبب تدخل الشيطان الذي هو عدونا الماكـر القديم، وقد رفع القوم المتقـدم ذكرهم على أسـوار المدينة بعض الأعلام التي تـركها الفارون خلفهم، حتـى يمكنهم بهذه الوساطة إعـادة الغافلين، بمنحهم الاعتقـاد بأن الصليبيين الذين بقيوا، قـد هزموا أعـداءهم، وبادر بعض أتبــاعنا من الصليبيين بالإسراع خلفنـا، لإرجــاعنا، وبعثـوا الطمأنينة بنفـوسنا بملامح مشرقـة، وأعلنوا بأن أعـلام الصليبيين، التي يعرفـونها معرفـة جيدة، قد رفعت فوق أسـوار القدس، وذلك بمثابة عـلامة على أنهم هزموا الأعداء، وهم بهذا قد خدعـوا، وخدعونا معهم أيضاً، وبناء عليه عدنا ونحن مسرورين واثقين إلى المدينة المقـدسة، ظانين أننا سوف نسكن هناك بأمان، وقام كثيرون انطلاقاً من مشـاعر التقوى، وآخرون بأمل الاستحواذ على مواريثهم والاحتفاظ بها، بالاندفاع من دون حذر، فعــادوا إلى المدينـة نفسهــا أو إلى أرباضهـــا، وسعينـا نحن —على كل حـــال— لثنيهم عن هذا كلـه، خـائفين مـن خيـــانة من هؤلاء القـــوم الغادرين، ولذلك تخلينا عنهم وغـادرناهم، وحدث بعد أمـد وجيز من مغـادرتنا، أن قـــدم هؤلاء الخوارزميـة الخونة بقـــوات كبيرة، وطوقـوا الصليبيين في المدينة المقـدسـة، وحملوا عليهـم حملات عنيفـة يوميـاً، مع الحيلولة بينهم وبين الدخول إلى المدينـة أو الخروج منها بكل وسيلة من الوسـائل، وأنزلوا بهم البـــلاء بمختلف الطرق، وبسبب هذه الهجمات، والجوع، والأسى، وصلوا إلى حـالة اليأس، واتفقـوا جميعاً على تعـريض أنفسهم لحظوظ مخاطر الموت على أيدي العدو، وبناء عليه غادروا المدينة أثناء الليل، وارتحلوا وسـاروا فـوق الطـرقـات في المناطق المهجـورة من الجبال، حتى وصلوا أخيراً إلى ممر ضيق، وهناك وقعـوا في كمين للعدو، الذي طوقهـم من جميع الجهـــات، وهاجمهم بالسيـــوف، والنشـــاب، والحجارة، وغير ذلك من الأسلحة، وقتلهم، ومزقهم، وقطع إلى أشلاء

حـــوالي سبعــة آلاف من الـرجــال والنســـاء، وذلك وفقـــاً لأصح الاحصائيات، حتى أن دم هؤلاء المؤمنين، قد جرى على جوانب الجبال مثل الماء، وذلك كما رأيتـه وأنا حـزين، وأخـذوا الشباب والعـذراوات معهم إلى الأسر، وعــادوا إلى المدينة المقــدســـة، حيث قطعــوا أعناق الراهبات والرجال المسنين الضعفـاء، الذين كانوا غير قادرين على تحمل متاعب الرحلة والفرار، وذبحوهم وكأنهم أغنام كان من المقرر ذبحهم، وجـاء ذلك بعـدما هربـوا إلى كنيسة الضريح المقـدس، وإلى الجمجمـة، وهوالمكان الذي تكرس بدم ربنا، وهكذا اقترفوا في هذا المعبـد المقدس، جريمة، لم تشهد أعين الناس مثيلاً لها منذ بداية الدنيا.

وبعد مرور بعض الوقت، وبما أن وحشية هذه الجريمة الكبرى، التي لايمكن التهـاون نحوها، أثارت المشـاعر الدينيـة لدى جميع الصليبيين، ودفعتهم إلى الانتقام من الإهانات التي ألحقت بخـالقهم، ولذلك جرى الاتفـاق الاجماعي بأنه يتوجب علينا جميعـاً —بعـد طلب المساعـدة من السماء— إعـداد أنفسنا وتنظيمها، للاشتبـاك بمعـركة مع هؤلاء القـوم الخونة، وبناء عليه هـاجمناهم، وقاتلناهم من دون استراحـة من الصباح الباكر حتى انتهاء النهار، عندما حال الظلام بيننا وبين التمييز بين قومنا وبين أعدائنا، وقد سقطت أعداد كبيرة من جانبنا، كانت أربعة أضعاف ماقتل من أعدائنا، فهذا ما أمكن معرفته بعد القتال.

وفي اليـوم التالي (عيـد القديس لوقـا الانجيلي) كـان فرسـان الداوية والاسبتارية قد وجدوا أنفسهم، قـد استردوا شيئاً من قوتهم، فاستمدوا العون من عليين، مع جميع الرهبان الآخـرين الذين كرسوا أنفسهم لهذه الحرب، وأوقفـوا طاقـاتهم عليهـا، واحتشـد جميع الصليبيين في الأرض المقدسة، بناء على دعـوة وإعلان من البطريرك، وتحت قيادته، واشتبكوا بمعركـة هي الأكثر دموية مـع الخوارزمية المتقدم ذكـرهم، وخمسة آلاف فارس مسلم آخرين كانوا الآن يقاتلون تحت قيادة سلطان مصر، وذلك

بعد انضمامهم مـؤخراً إلى هؤلاء الخوارزمية، وجرى قتـال حاد من على الطرفين، ولم يكن بإمكاننا تجنبهم، لأنه كان هناك جيشاً قوياً وكبيراً على جانبينا، وكنا أخيراً غير قادرين على الصمود في وجه مثل تلك الحشود، لأن قواتاً جديدة غير متعبة من الأعداء، تابعت التدفق علينا، ذلك أنهم كانوا عشرة أضعـاف تعدادنا، وكنا منهكين وجـرحى، ومابرحنـا نشعر بتأثير المعـركـة التي وقعت مـؤخـراً، ولذلك كنا مـرغمين على الفـرار، تاركين لهم ساحة المعركة، مع نصر دموي وغالي جداً، لأن أعداداً كبيرة سقطت من على جـانبهـم كـانت أكثـر مما سقط من على جـانبنا، وقـد سوعـدنا كثيراً من قبله، الذي هو حافظ للأرواح، حتى أنه لم ينج مـائة بالفرار، لكن طوال ما كنا قـادرين على الصمود، شجعنا بعضنا وواسينا بعضنا بعضـاً في المسيح، وقـاتلنا بدون تعب وبشجـاعـة، مما أدهش أعداءنا، حتى وقعنا أخيراً بالأسر، وهو ما حاولنا أن نتجنبه، بأن نقتل، ولذلك قال العدو، فيما بعد، وهو مندهش، إلى أسراه: «أنتم عن طواعية ألقيتم بأنفسكم في طـريق الموت، فلماذا كـان ذلك»؟ وعلى هـذا أجـاب الأسرى قـائلين: «كنا نفضل بالحري أن نمـوت في المعـركـة، ذلك أننا بموت أجسادنا، نحصل على التمجيد لأرواحنا، وذلك بدلاً من أن نفر بـدناءة، فمثـل هؤلاء النـاس، هم بـالحقيقـة، يُخاف منهـم كثيراً»، وسحقت في المعـركـة المذكورة، قـدرة الصليبيين، وكـانت أعـداد الذين قتلوا مـن على الجانبين لاتحصى، وجـرى قتـل مقـدمي الـداوية والاسبتارية، وكذلك مقدمي الطوائف الأخرى، مع فرسانهم وأتباعهم، أمـا وولتر كـونت بريين Brienne, واللورد فيليب دي مـونت فـورت، والـذين قـاتلوا تحت لـواء البطريرك، فقـد جـرى تمزيقهم إلى أشـلاء، ونجا من الداوية ثمانيـة عشر فقط، وستة عشر من الاسبتـارية، وكانوا فيما بعد آسفين، لأنهم أنقذوا أنفسهم. وداعاً».

كيف استهدف الانكليز رمي نير العبودية البابوية

بينما كان الجنس البشري هكذا مضطرباً كثيراً، بوساطة عدد كبير من العواصف، في سورية، وفي انكلترا أيضاً، والبلدان المجاورة لها:

لعبت القدرة اللاهوتية بالأشياء الإنسانية

لأن البلاط الروماني، الآن في أيام بابانا الجديد، انوسنت الرابع، قد ألقى جانباً جميع مشاعر الحياء، وتابع دون توقف —على عكس جميع آمالنا— استخراج مواردنا بوساطة مراسيم يومية وقحة، وتفجر الآن عدم الرضا الذي شعر به الانكليز طويلاً، واعتمل في قلوبهم، نتيجة لذلك، على شكل شكايات مكشوفة، وذلك بعدما تمخض طويلاً، وتكلموا بشكل مكشوف، لأنه لم يعد بإمكانهم حبس أنفسهم، ولأن صبرهم صار إهمالاً وتراخياً، وصار تواضعهم غير مفيد أبداً، لابل بالحري مؤذياً، وفي مؤتمر جرى عقده، جرى التصريح بالاعتبارات التالية لصالح الملك والمملكة:

إذا ماقام البابا بالنظر بعين عقله إلى أوضاع الكنيسة الأولى في انكلترا، وكيف كانت في عمرها الوسيط، وكيف هي الآن، هو لن يهز أساسات الكنائس، واللاهوتيين، ولن يقوم بظلمهم والضغط عليهم على هذه الصورة، أو أن يدعي، أو أن يستخرج من الكنائس، التي ليست كنائسه، لأنه بموجب تبشير القديس أوغسطين، الذي هو رسول الانكليز، جرى تحويل الملك ايثلبيرت Ethelbert إلى الإيمان بالمسيح، وأسس كنائس: لندن، وروكستر، وكانتربري، ووضع رجال دين وكهنة في مكان أول، ورهبان في مكان آخر، وعيّن إليهم مايكفي من الأراضي والممتلكات من أجل عيشهم، وأوكل إليهم وظيفة واحدة هي أداء القداسات في الأماكن المعينة إليهم، وصب الحمد والشكر إلى الرب في الليل والنهار، ومنح الصدقات، وممارسة أعمال التقوى الأخرى، وتقديم الضيافة إلى الفقراء، وفقاً لطاقة إمكاناتهم، ووفق الطريقة نفسها أيضاً، قدم الملوك الآخرون الهبات إلى الكاتدرائيات

الأخـرى، وإلى الكنائس الكهنوتيـة والرهبـانيـة، وهو مـايمكن رؤيتـه لـدى تفحص تعليماتهم وقوائم أعطيـاتهم، وهم على كل حال، لم يعطوا هـذه المقتنيـات بكرم مطلق، بل كـانت مقـرونة بثلاثة شروط دائمـة، فـالأشيـاء الممنوحـة إليهم هي من أجل الفـائـدة العامـة للمملكـة، أي مـن أجل الحملات العسكرية، ومن أجل تـرميم وإصلاح الجسـور والقـلاع، لأنـه بهذه الوسائط يمكن صـد هجمات الأعداء، وإذا كـانت هذه الأشيـاء —بنـاء عليه— قد أعطيت مـن الأوقاف، ومن الايجارات المدنيـة للمـلك والأمـراء، إلى الأمـاكن الروحيـة فأي حق —نحن نسأل— يمكـن لأسـاقفـة هذه الأمـاكن، كأنـاس مثبتين في الكنائس الكاتدرائية، وكذلك رعاة الديرة والراعيات، يمكنهم —من دون إلحاق الأذى بحق الآخـريـن— تحويلهم إلى استخـدامـات واحـد آخـر، أو استخـدامـات أخـرى؟ خـاصة إلى الاستخـدامـات التي منهـا صـدر الذبـح، والنـار، وسفك الدمـاء، لأنه عندمـا سـأل بطـرس قـائـلاً: «مـولانـا، إذا ضربنـا بالسيف»؟ أجابه الرب: «ضع سيفك في الغمـد»، ومجـدداً إذا ما جـرى إرسـال الموارد الأسـاسية لرجال الدين في انكلترا إلى إيطاليـا، من أين يمكنهم تأمين الوسـائل لترميم الجسـور والقـلاع، ومن أجل الحمـلات العسـكرية إذا كـان ضرورياً؟ ومن أين يمكنهم الحصـول على الوسائل لإبداء الضيـافة؟ وكيف سيكونـون قـادرين على البقاء في الأمـاكن المعينـة إليهـم؟ ومجـدداً، هناك شرور أخـرى، فالذين سيـذهبـون من انكلترا إلى البـلاط الرومـاني، يمكن أن يتعـرضـوا إلى الأذى على أيدي عمال الامبراطور، فـالذي هو واضح وملموس بما فيـه الكفاية، أن أراضي الامبراطـور مفصولة فقط عن انكلترا ببحـر ضيـق، من الممكن عبـوره بتيـار مدّ أو جـزر واحـد، وبما أن الامبراطور ذاهب الآن إلى تلك الجهـات، يخشى أنه إذا مـااسـتثير الامبراطور على هذه الصـورة، أن يقـوم بغـزو المملكـة كعـدو، وذلك حسبما قـال المعلم وولتر دي أوكرا Ocra بحضرة الملك أثناء مؤتمر عـام للبارونات

في لندن، عندما رجا الملك بحرارة عظيمة، باسم الامبراطور، بأن لايسمح بجمع المكوس من المملكة، سواء من الكهنة أو من العلمانيين، في سبيل مساعدة البابا ضد الامبراطور، وأعطاهم بالوقت نفسه أن يفهموا بشكل مكرر، أنهم إذا فعلوا كذلك، سوف تثور حروب لاتحصى في المملكة، وأن الملك ونبلاء المملكة سوف يكشطون أنفسهم إلى العظام.

ومجدداً قام الملك بناء على نصيحة الكنيسة ورغبتها وطلبها، فأعطى اخته بالزواج إلى الامبراطور، وهي التي إليه أعطت أولاداً، هم بشكل واضح من جنسنا، ومن الدم الانكليزي، فما الذي يكونه، إذا ما أسهمنا بالمال ضد الامبراطور، غير تدمير هؤلاء الأولاد الذين نبعوا من أمتنا؟ لاسمح الرب بذلك، وماذا أيضاً سوف تكون النتيجة سوى منع الامبراطور من مساعدة ملكنا في استرداد أراضيه؟ ومجدداً لو أن البابا قام بتقدير النوازل والخسائر، التي لحقت بانكلترا، على يدي الملك الفرنسي لويس، الذي غزاها، و الذي لم يوفر لاكنائس ولا لاهوتيين، بل إنه نهب كل شيء إلى درجة أن أساقفة انكلترا بات من الصعب عليهم التنفس بحرية منذ ذلك الحين فصاعداً، إن البابا لو قدّر ذلك لما أقدم على تكديس النوازل فوق النوازل ثم فوق النوازل، بل لاتخذ خطة أفضل، بالقيام بتقدير للخسائر التي لحقت بالكنيسة، ومن ثم إرسال جيوشه وبعثها ضد العدو، وهو أمر كان قادراً على أن يفعله —على الرغم من أن ملك انكلترا عارض ذلك— دون أن يطلب من الامبراطور المساعدة، ضد الملك والمملكة.

ومجدداً لدى الكنيسة ذهباً، ولديها ميراثها، وعندها مدن، وحصون وقلاع، ومع أنهم قد يكونوا غير كافين للتصدي لمثل هذا الأمير القوي، يمكنها أن تستدعي إلى بين يديها منافع الايطاليين والرومان التي منحتهم إياها، وهم ليس عددهم صغيراً، وكذلك في انكلترا، وفي

بلدان أخـــرى، ومن منتجـــات أولئـك الذين أفـــادتهم كثيراً، حيث يمكنهـــا بذلك صنع ترتيبات عـدوانية، ولكن ليس بمواردنا، التي هي لم تمنحنا إياها، والتي ندين نحن بها إلى أولياء نعمتنا فقط، الذين أعطونا كل ما يستطيعون، وهم الذين علينا دعمهم في كل حـاجة، إذا ماحدث وطلبـوهـا، وعلى البابا أيضـاً أن يتذكـر أنه أثناء عـذاب الاسـرائيليين وضـائقتهم، أطلق فرعـون سـراح الكهنة واللاويين وحـررهم من دفع أي مكس مهما كان نوعه.

ملك إنكلترا يكتب إلى البابا يشكو من مكوسه

وبنـاء عليـه، ثار الملك، بسـبب هـذه المضـار، وغضب من الشـره المضاعف للرومان، فكتب إلى البابا كما يلي:

«إلى الأب الأعظم قـداسـة في المسـيح مـولانا إنـوسنت، الذي هو بنعمـة الرب الحبر الأعظم، إليكم من هنـري الذي هو بالنعمـة نفسهـا ملك انكلترا، إلخ، صحة وقبلات إلى قدميه المباركتين:

كلما أخضع الابن نفسـه أكثـر إلى رغبـات أبيه، وأظهـر نفسـه أكثـر استعداداً واخلاصاً لإطاعة أوامره، كلما استحق الحصول على حماية أبيه، وقطف منافع إخلاصه وخدمتـه، وفي هذا المقام، أظهرنا —بناء عليه— أنفسنا، خـلال حكمنا كله مع مملكتنا، طائعين لرغباتكم ولأوامـركم في كل شيء وخلال كل شيء، ومع أننا وجدنا في بعض القضايا المتعلقة بنا أنفسنا وبمملكتنـا، بشكل عـــام الاهتمام واللطـف الأبوي، مـع ذلك وجـدنـا في بعض مـراسيمكم، التي منحـت من قبلكم إلى كهنة انكلترا وبلدان أخـرى، أنـه جـرى إثقـالنا نحن أنفسنـا ومملكتنا، وظلمنا ليس بدرجـة خفيفـة، وفي الحقيقـة أثقلت الكنائس الانكليـزية بكثير من مثل هذه الاثقـالات، ومن هذه النوعيـة، إلى حد أنه ليـس فقط أولياء نعمـة الكنائس وحماتها، والذين واجبهم هو هبـة المنافع اللاهوتيـة، قد سلبـوا

من حقـوقهم، بل إلى جـانب هذا قـد جـرى التخلي عن كثير من أعمال الإحســان، لأن المنافـــع التي منحـــت بالعـــادة من أجل أعمـــال الإحسـان، إلى البيـوت الدينيـة من أجـل عيشهـــا، هي وجميع الآخرين تقريباً، قـد أنهكت بوسـاطة مراسيمكم، وبما أن الكرسي الرسولي عليه أن يظهـر الحظوة نحو المشتكين إليه، وأن يزود الآخرين بحقوقهم لا أن يتـولى إضرارهـــا، رأينـا من واجبنا أن نتضرع إلى قداستكم أن تتـوقفوا عن منح مــوارد من هذا النـوع، على الأقل لبعض الوقت، وأيضـــاً في الوقت نفســه نلتمس من قداستكـم، أن تقـومـوا بمواساتكم الأبويــة بحمايــة حقـوقنا وامتيـازاتنـا، التي يمكنكــم عـدها عـائـدة لنا بشكل صحيـح، وليسـت مرتبطــة بالآخــرين، وأن تحفظــوهم غير مخروقـين وسـالمين، وأن لا تسمحوا لهم بالتعـرض للأذى في بلاطكم بأية طريقـة من الطــرق، أو بناء على اقتراحـــات أية أشخـــاص، وأنا واثـق بأن قداستكم سوف لن تثارون فتغضبــون ضـدنا، إذا ما كنا قد قمنا في أية نقطة بمعـارضـة فحـوى أوامـركم، بما أن صراخ الفئات الشـاكيـة قـد حـرضتنـا على هذا، على أسـاس اعتقــادنا أنه لايجوز لنا أن نخفــق في الدفاع عن حقــوق أي انسـان، بل يتوجب، بمـوجب فضيـلة المنصب الملكي الـذي منح إلينـا من قبل الــرب، علينـــا أن نـؤمّن العــــدالة الكاملة، في القضايا المدنية».

وبطريقــة المحاججــة البارعـة نفسـها، قـام المـلك الضعيـف جـداً، والمهمـل، مـن قبل بالتوجـه بالرجاء إلى سلفـه البابا غريغــوري، حتى يتـوقف عن ظلـم مملكـة انكلـترا، بمثل هذه الاستخـراجـات، لكن لا الأول ولا الثـاني تنازل ليـوقـف ميـوله في هـذه القضيــة، ونتيجـــة لــذلك، نحن نعتقـــد بأن الـــرب، ورســوله بطرس (الذي لم يتبعـا خطواته) قــد أثير مع سبب صحيـــح، لأن يغضـب ضـد الكنيســـة الرومانيــة، فأعدّ، ولوى ذراعيهما.

كيف سعى البابا إلى جلب ويلز إلى طاعته

أعتقد أنه لـن يكون غريباً عـن موضوعنا، أو غير مـرتبط به، أو غير مفيـد لتـاريخ انكلترا، أن نوضح إلى أجيـالنـا المقبلة، كيف سعى البـابا انوسنت الرابع المذكـور، إلى إعفاء داوود أمير شمالي ويلز من ولائـه إلى ملك انكلترا، الذي كـان به مـرتبطاً بطرق مضـاعفـة، وأن يحوله ليكون من رعايـا دولته، بتسلم خمسمائة مـارك منه سنوياً مقـابل استئجار شمالي ويلز ومتعلقـاتها، وكانت الـروابط والأدوات التي كان داوود المذكـور، ونبلاء ويلز مرتبطين بالملك هنري الثالث، هي كما يلي:

الشروط التي ربطت بها سينينا زوجة غريفين نفسها باسم زوجها بملك انكلترا

«جـرى الاتفـاق بين مـولانا الملك هنري الثـالث، الملـك اللامع لانكلترا، من جهـة، وبين سينينا Senena زوجـة غـــريفين بن للويلين، الأمير الأخير لشمالي ويلز (وغـريفين المذكـور هو الآن معتقل بالسجن من قبل أخيه داود مع ابنه أوين Owen)، وباسم غريفين المذكـور ونيابة عنه: لقـد تعهدت سينينا المتقـدمـة الذكر، باسم زوجهـا غريفين المتقدم الذكر، بدفع ستمائة مارك إلى مولانا الملك، على شرط أن يتدبر اطلاق سراح غـريفين المتقدم الذكر، وابنه أوين المتقـدم ذكره، من السجن المذكور، وأنه سـوف يلتزم بقرار محكمـة بلاطه، فيما إذا توجب حبسـه بالسجن، وأن مـولانا الملك سـوف يسمح له ولورثتـه فيما بعـد بالمحاكمة في محكمة بلاطه، وفقاً للقانون الويلزي، وذلك حول مايتعلق بحصـة الوراثة لأبيه للويلين الأخير، وهي الحصـة العـائدة إليـه، والتي داود قـائم الآن باستجـازها بـالقـوة ومغتصـب، لها من غـريفين المتقـدم الذكر، وإذا ماحصل غريفين المذكور، أو وررثته، بموجب حكم محكمة بلاط مولانا الملك، على الحصـة التي قالوا بأنها عـائدة إليهم من الميراث المذكور، وقتهـا تتعهد سينينا عن غريفين المذكور وورثتـه، بأن يقوم هو

وورثته المذكورين من قبل بالدفع إلى الملك ثلاثمائة مارك سنوياً، وذلك بشكل دائم، وبالنسبة لدفع هذا المبلغ، فإن ثلثه يجري دفعه نقداً، والثلث الثاني على شكل ثيران وعجول، وأما الثلث الثالث فعلى شكل خيول، وذلك بناء على تقدير محكمين اقطاعيين، ويتم دفع المبلغ المذكور إلى عمدة شروبري، ويجري حمله بيدي العمدة المذكور إلى خزينة الملك، حيث يجري إيداعه هناك، ويكون دفع القسط الأول في يوم عيد القديس ميكائيل، والقسط الثاني في الفصح، وتعهدت سينينا المذكورة أيضاً باسم زوجها غريفين المذكور وورثته، بأنهم سوف يحافظون على السلام مع أخيهم داود المتقدم ذكره، وذلك فيما يتعلق بحصة الميراث المتقدم ذكره، التي سوف تبقى لداود المذكور، وتعهدت سينينا المذكورة، نيابة عن زوجها، غريفين المتقدم ذكره، الذي هو زوجها، وباسم ورثته، أنه إذا ماقام أي نبيل ويلزي في أي وقت من الأوقات بالثورة ضد مولانا الملك وورثته، فإن غريفين المذكور وورثته، سوف يقوم على حسابه بإرغامه على تقديم الترضية للملك وورثته، وفي سبيل مراعاة جميع الشروط المتقدم ذكرها بإخلاص، سوف تعطى سينينا المذكورة ولديها: داود، وروثر Rother إلى الملك بمثابة رهائن، مع تفاهم أنه في حال اطلاق سراح زوجها غريفين المتقدم ذكره، وابنه أوين المسجون معه، لأسباب انسانية، فإن واحداً من الولدين المذكورين سوف يجرى رده إلى سينينا المذكورة، ويكون ذلك قبل اطلاق سراح غريفين المذكور وابنه، واخراجهما من السجن، ولسوف يبقى الابن الآخر كرهينة، علاوة على ذلك أقسمت سينينا المذكورة على الانجيل المقدس، نيابة عن نفسها، وعن زوجها غريفين وورثته، بأنها سوف تراعي باخلاص جميع هذه الشروط، وتعهدت بأن زوجها غريفين المذكور سوف يؤدي القسم نفسه عندما يطلق سراحه من السجن، وتنفيذاً لكل ماتقدم ذكره، قامت باخضاع نفسها باسم زوجها غريفين المذكور لحكم الأبوين المبجلين: أسقفي هيرفورد وليشفيلد، وبذلك

يمكن للأسقفين المذكورين، أو لواحـد منهما، يختاره الملك، أن يقوم بناء على طلب من الملك، بإنزال عقـوبة الحرمـان الكنسي ضد أشخـاصهم، وعقـوبة الحرمـان من شراكـة المؤمنين على أراضيهم، لإرغـامهم على مـراعـاة جميع الشروط المتقـدمـة الذكـر شرطاً شرطاً، وتعهـدت سينينا المذكـورة عن طيب خـاطر وبـاخـلاص بتنفيـذ جميع هذه الشروط التي تقدم ذكرها، وبمتابعة تنفيذهـم جميعاً، وأن زوجها غريفين المتقدم ذكره عندمـا سيطلق سراحـه من السجن سوف يقـوم مع ورثتـه بحمل هذه التعهدات وإكمالها، وسوف يعطي إلى الملك تعهداً مكتوباً باسمهم بأنهم سوف يفعلون ذلك، وفق الطريقة والشكل حسبما تقدم ذكره.

ومن أجل ضمانة أكبر حـول هذه القضيـة كُتبت ودُونت بين مـولانا الملك وبين سينينا المذكـورة، باسم زوجهـا غـريفين،وبالنسبـة لنسخـة الوثيقة التي تركت عنـد الملك، أثبت عليها ختم غريفين المذكـور بيدي سينينا زوجتـه المذكورة، وذلك بالإضـافـة إلى ختم سينينا المذكورة، أمـا بالنسبة لنسخـة الوثيقة التي تركت بحـوزة سينينا المتقدمـة الذكر، باسم زوجها غـريفين المتقدم ذكـره، فقد أثبت عليها ختـم مولانا الملك، وفي سبيل التنفيذ، والمراعاة المخلصـة لجميع الشروط المذكورة أعلاه، أعطت سينينا المتقدمـة الذكر باسم زوجهـا، غريفين المتقدم الذكـر، الأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه، بمثابة كفلاء لصالح مولانا الملك، وهـم: رالف دي مـورتيمير Mortimer, وولتر دي كلف فـــورد Clifford, وروجر دي مونتهوت Monthaut, قهرمان أوف شيستر، وميلغون فتـز— ميلغـون Mailgun, ومـوردوك Murdoch فتــــز— روبرت، وغريفين بن مدّوك Maddoc دي برونفيلد Brunfield, وهويل Howal ومـــوردوك أخيـــه، وغيريفين بن غـــويـــن أنوين Gwenunwin, وذلك باسم سينينا المتقدم ذكـرها ومن طرفها، وقد تعهدوا بمـراقبة تنفيذ الشروط المتقـدم ذكرها، وقدمـوا أيضاً صكوكهم

إلى الملك مـن أجل الشيء نفســـه. أبـرم في شروبري Shrewbury يوم الاثنين التالي لما قبل صعود القديسة مريم العذراء، في السنة الخامسة والعشرين من سني حكم مولانا الملك المذكور».

صك تعهد روجر دي مونتهونت

«إلى كل من تصله هذه الكتـابة، تحيـات من روجـر دي مونتهـونت، قهرمان أوف شيستر:

ليعلم جميع الناس بأنني أعطيت نفسي كفيـلاً لسينينا، زوجة غـريفين ابن للويلين، أمير شمالي ويلز المتـوفى، وارتبطـت لصـالحهـا مع مـولاي هنري، الملك المشهـور لانكلترا، بأنها سوف تنفـذ باخلاص نحـوه جميع الذي وعدت به الملك المذكور، نيابة عن زوجها المذكور، للحصول على اطلاق سراحه مع ابنه أوين، من السجن الذي وضعه فيه أخوه، وأيضاً للحصول على الحصـة العائدة لغريفين المذكـور من ميراث أبيه، للويلين المتقدم ذكره، وهي الحصة التي اغتصبهـا داود المتقدم ذكره منه، وبمثابة شهـــادة، وضعت على هذه المدونـة ختمي. صنع في شروبـري في يوم الاثنين قبل صعـود العـذراء المباركـة، في السنة الخامسـة والعشرين من حكم الملك المذكور».

ووفق الشكل نفسـه لصك التعهـد المتقـدم ذكـره، أعطى البـارونات الانكليـز والويلزيون صكوكهم إلى الملـك، وربطوا أنفسهم بالطريقـة نفسها.

صيغة صكوك تعهد لوردات كيفي في ويلز

«ليعلم جميع الحضور والذين سيأتون، بأنني أنا مردوك فتز— هويل، قد أقسمت على الانجيل المقدس، أنني من هذا التـاريخ فصاعداً، أثناء حيـاتي، بأنني سـوف أكـون خـاضعـاً باخـلاص لمولاي ملك انكلترا، ولسوف أخـدمه باخـلاص .أمانة مع جميع قـواتي، وسوف أبذل أقصى

طاقتي، في أي مكان يمكن أن يحتاج فيه إلى خدماتي، وسوف أراعي باخلاص من جانبي الهدنة التي أبرمت بين اللورد رالف دي مورتيمير وبيني، حتى عيد القديس ميكائيل، في السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، وبمراعاة ولائي إلى مولانا الملك بشكل دائم، وكذلك من أجل المحافظة على الهدنة المتقدمة الذكر، حتى الموعد المذكور أعلاه، وقد وضعت نفسي تحت حكم السيد أسقف هيرفورد، وأسقف كوفنتري، وأسقف للانداف Llandaff, أو واحداً منهم، سوف يتولى الملك اختياره للغرض، وذلك من أجل أنه إذا كان أياً من أعمالي مخالفاً بأي شكل من الأشكال لولائي للملك المذكور، أو سوف يحول دون مراعاة الهدنة المتقدمة الذكر، فوقتها يكون مشروعاً لهم حرماني كنسياً وجميع قومي، وأن يضعوا أرضي تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى أقدم جميع التكفيرات عن الذي اقترفته من ذنب، وإذا حدث عدم إعادة إقامة السلام بيني وبين رالف مورتيمير، المتقدم ذكره، قبل موعد عيد القديس ميكائيل، ومع أنني قد أشن الحرب بعد ذلك العيد ضد رالف مورتيمير المذكور، فإن يميني المتقدم ذكره سوف لن يعيقني عن فعل ذلك، مادمت ملتزماً بشكل مستمر بولائي نحو الملك حسبما تقدم الذكر، وإذا مانشبت الحرب بيننا بعد المدة المتقدم ذكرها، فإن الملك مع ذلك سوف يسمح لي ولأتباعي بأن نستقبل في أراضيه بمثابة رعية مخلصة له، وبالنسبة لمراعاة الشروط المتقدم ذكرها نحو مولاي الملك ونحو ورثته، أربط نفسي باليمين المتقدم ذكره، وبتثبيت ختمي على هذه المدونة من أجل ضمان أبعد للقضية المتقدم ذكرها. أبرم في اليوم التالي لعيد صعود مريم المباركة، في السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث».

وأعطى الكلمات نفسها أيضاً أوين فتز— هويل، وميلغون فتز— ميلغون، ومردوك فتز— مردوك، وهويل ابن كادوول لون Cadwal,

lon وكادوول لون فتز— هويل، في صكوك تعهدهم إلى الملك.

صك تعهد داود بن للويلين أمير شمالي ويلز

«إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح، وإلى جميع الذين سوف يصلهم هذا العرض، تحيات من داود بن للويلين:

اعلموا بأنني قد أعطيت موافقتي إلى مولاي هنري المشهور، ملك انكلترا، ابن الملك جون، بأنني سوف أطلق سراح أخي غريفين، الذي أنا محتجزه بالسجن مع ابنه الأكبر وآخرين، وبسبب أن غريفين المتقدم ذكره محتجز بالسجن من قبلي، فأنا سوف أسلمه إلى مولاي الملك، ولسوف ألتزم بعد ذلك بقرار محكمة بلاطه، وذلك فيما يتعلق بوجوب إبقاء غريفين المذكور محتجزاً بالسجن، وفيما يتعلق أيضاً بالحصة من أراضي والدي المتوفى، للويلين المتقدم ذكره، وتبيان فيما إذا كان أي منها عائد إلى غريفين المذكور، وذلك وفقاً للعادات الويلزية، وذلك في سبيل امكانية تأسيس السلام وحفظه بيني وبين غريفين المتقدم الذكر، وقد أعطيت ضمانات من أجل تمسكي بذلك وفقاً لحكم بلاط الملك المذكور، وأنني أنا، وكذلك غريفين المتقدم الذكر، سوف نستحوذ على الحصص العائدة لنا، من الأرض المتقدم ذكرها، من مولانا الملك بشكل رئيس، وكذلك سوف أعيد إلى روجر دي مونتهوت، قهرمان شيستر أراضيه في مونتهوت مع متعلقاتها، وسوف أعيد إليه وإلى البارونات الآخرين والرعايا المخلصين الملكية المطلقة للأراضي التي جرى احتلالها، منذ ابتداء قيام الحرب بين صاحب الجلالة الملك جون وبين والدي، للويلين المتقدم الذكر، باستثناء حق الملكية، لأي عقد من العقود، والمواثيق، وفيما يتعلق بهذا سوف نلتزم على الجانبين بقرار بلاط الملك المذكور، وسوف أسدد إلى مولاي الملك جميع النفقات التي تحملها هو شخصياً أو أتباعه بسبب تلك الحرب، وسوف أقوم، وفقاً لقرار البلاط المذكور بعمل ترضية له ولأتباعه عن الخسائر وعن

الأضرار التي عانوا منها، أو أنني سوف أتخلى عن جميع الجناة نحو الملك، ولسوف أقدم إلى مولاي الملك جميع أنواع الولاء، التي كان والده الملك جون قد تلقاها، والتي ينبغي أن يتلقاها الملك المذكور، ولاسيما ولاء جميع النبلاء الانكليز، وكذلك سوف لن يطلق الملك المذكور سراح أي من مساجينه من دون أن يتركوا ممتلكاتهم في حوزة الملك ووكلائه، وكذلك إن أراضي انغلمير Englesmere مع متعلقاتها سوف تبقى إلى الأبد ملكاً للملك المذكور ولورثته، وكذلك سوف لن أستقبل منذ الآن فصاعداً خارجين على القانون أو قراصنة ضد مولاي الملك وباروناته من الحدود في أراضي، ولن أسمح لهم بالاستقبال هناك، ومن أجل المراعاة المخلصة الأبدية للشروط كلها المذكورة أعلاه، للملك ولورثته، سوف أقدم ضمانة عن نفسي وعن ورثتي بوساطة الرهائن، أو بوساطة الأيمان، أو بوساطة أية طريقة أخرى يمكن للملك أن يختارها ليمليها، وفي هذه الحالة والحالات الأخرى سوف ألتزم بإرادة الملك وبأوامر مولاي الملك، ولسوف أطيع قرار بلاطه في كل شيء، وكشهادة على هذا العرض، وعلى العمل الحالي المدون كتابة وضعت ختمي. صنع في ألنت Alnet قرب نهر ايلفي Elvey في أسقفية القديس آساف Asaph, في عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، في السنة الخامسة والعشرين من حكم مولانا الملك المذكور».

«وكذلك ليكن معلوماً أيضاً أن الذين محبوسين في السجن مع غريفين المتقدم الذكر، سوف يجري تسليمهم إلى مولانا الملك، بالطريقة نفسها، حتى يصدر قرار عن بلاطه حول فيما إذا كان ينبغي اطلاق سراحهم، وكيفية ذلك، وأنا داود المذكور، قد أقسمت على الصليب المقدس، الذي أمرت بجلبه إلى أمامي، أن أقوم باخلاص بمراعاة جميع هذه الشروط، وقد وعد الأب المبجل هويل أيضاً، أسقف القديس

آساف، بناء على طلبي، باسم طائفته المقدسة أن يفي بجميع الشروط المتقدمة الذكر، وسوف يبذل كل طاقاته في سبيل الوفاء بهم، وعمل ايدنفت وانغان Edenevet Wangan أيضاً، وأدى بناء على طلبي اليمين نفسه، على الصليب المتقدم ذكره. عمل، إلخ، كما ورد أعلاه».

«بالاضافة إلى هذا، لقد التزمت أنا عن نفسي وعن ورثتي، أنني إذا ما حاولت أنا أو هم أي شيء مضاد لسلام مولانا الملك، أو ورثته، بشكل معارض للشروط المتقدم ذكرها، سوف تتم مصادرة ميراثنا لصالح الملك وورثته، وفي سبيل تنفيذ جميع الشروط المتقدم ذكرها شرطاً شرطاً، وضعت نفسي وورثتي تحت حكم رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفة: لندن، وهيرفورد، وكوفنتري، للوقت الحالي، وبناء عليه يمكنهم جميعاً أو واحداً منهم، يمكن أن يختاره الملك للغاية والغرض، امتلاك اصدار حكم الحرمان الكنسي لنا، ووضع أراضينا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، إذا ما حاولنا صنع أي شيء مضاد للشروط المتقدم ذكرها، ولقد أقنعت كل من أسقفي بانغور Bangor والقديس آساف، بإعطاء صكوك تعهد إلى الملك، تعهدا بها القيام بتنفيذ إصدار قرارات الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، والتفوه بها من قبل رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، والأساقفة، أو أي واحد منهم، بناء على تلقي الأوامر من أجل هذه الغاية».

كيف سعى داود إلى رمي النير الانكليزي

ولقد قلت ماتقدم من التفاصيل، في سبيل أن أظهر إلى العالم طبيعة الالتزامات العظيمة والكثيرة التي التزم بها داود المذكور، الذي كان حفيداً للملك، حيث كان خائناً، وقاتلاً لأخيه، وكذلك بالنسبة للنبلاء الآخرين (مع أنهم وضيعي العادات) لويلز، و تعهد وتعهدوا بها بأنفسهم إلى مولاهم الملك، لكن الآن مزقوا جميع روابط القرابة،

وحنثوا بعهـودهم وخرقوا جميع شروط الاتفـاقية، فبـدون حياء ركلوها ضـد سلطة مـــولاهم الملك، وشنوا عليـه الحرب وألحقـــوا به كثيراً من الأضرار على الحدود.

عـلاوة على ذلـك وفي سبيل أن يحرر داود المتقـدم ذكـره عنقـــه من الولاء إلى الملك، انضـوى تحت جناحي البابوية من أجل الحماية، واعـداً بأن يستحوذ على ذلك الجزء من ويلز العائد إليه من البابا نفسه، ونتيجة لذلك آثر البابا قضيته، والذي أعدّه حالة يتوجب أن يندهش المرء كثيراً نحوها، هـو أنه فتح له صدره، وأعطاه الملجأ إليـه، مع أنه كان عـاصياً ضد الملك، مـالم يكن —ربما— قد حـدث وحصل على مساعـدة البابا، بوساطة قمع الحقيقة، وبإفادات زائفة، لأنه مَـن من المسيحيين يمكنه أن ينكر بأن أمير ويلز كان من الاقطاعيين الصغار لملك انكلترا؟.

الملك يمنع بيع صوف السسترشيان

وفي السنة نفسها، منع ملك انكلترا نقل صـوف الرهبان السسترشيان إلى القارة لبيعه من أجل منفعتهم، وقد سعى بهذه الوسائط للعسف بهم وإلحاق الأذى بهم، لأنهم لم يرغبـوا —في الحقيقة كـانوا غير قـادرين— بإعطائه مساعدة مالية، عندما كان في غسكوني.

عمل ميرون مقدس في دير القديس ألبان

وعمل في هذا العام أيضاً ميرون مقـدس في الكنيسة الديرية للقديس ألبان، من قبل المبجل جون أسقف هارتفورد.

شهادة عن معجزات القديس إدموند المعترف

وعمل في هذا العام أيضـاً معجزات من قبل القـديس ادموند، رئيس أساقفـة كانتربري والمعترف، وغدت متـوالية الحدوث في بونتغني، حتى بدا وكأن أيام الرسل قـد تجددت، ولم تحدث هذه المعجـزات في فـرنسـا

فقط، بل في انكلترا أيضاً، خاصة في كيتباي Cateby, وهو المكان الذي كان فيه طيلسان القديس وبعض الصور المرسومة، التي اعتاد أن يحملها، فهناك كانت محفوظة، وأصبحت عدة أماكن أخرى مشهورة، وجرت زيارتها بمباركات معجزات واضحة، وبناء عليه، حتى لايتهم راعي دير بونتغني مع الجماعة الديرية بالجمود، شرع في الثناء عليه، ورغب لسبب جيد، في أن يجري تطويبه، وأن يدرج اسمه ويوضع في لائحة قديسي الكنيسة، ولذلك كتب إلى البابا كما يلي:

«إلى الأب الأعظم قداسة، والمولى انوسنت الرابع، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، يقوم خدمه المخلصون ج ل, المسمى راعياً لدير بونتغني، وجماعة الدير في ذلك المكان، الذين هم من طائفة السسترشيان، بكل اخلاص، وخضوع، وتبجيل، بتقبيل قدميه المباركتين:

إن أعمال الخالق، التي تحمل برهاناً للمجد، وتشريفاً لكهنته، ينبغي أن لاتبقى سراً، وإذا كان من غير الممكن، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل القيام بإحصاء الوقائع التي حدثت عند ضريح ادموند، مع هذا يتوجب أن لا —كما لايمكننا— أن نبقى صامتين تماماً، تجاه مايحدث ليس فقط عند ضريح ادموند، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة كانتربري، والذي جسده، تلك الكومة المشهورة من الأرض، والذي هو راقد في كنيستنا، التي اختارها بتقوى عالية جداً لتكون مكان دفنه، أن لانبقى صامتين، لأن ذلك قد انتشر الآن في جميع أرجاء العالم، بوساطة معجزات متميزة وواضحة، لأنه حدث في أماكن متنوعة ونائية، لدى التوجه بالدعاء إلى اسمه، أن عملت معجزات، ليست معجزات من نوع واحد، بل سلاسل من المعجزات واحدة بعد الأخرى، ولسوف نستعرض أخبار هذه المعجزات باختصار وبسرعة، وذلك حسبما شاهدناها بأعيننا وسمعناها بآذاننا، فقد جرى رد البصر إلى أطفال عميان، والذين كانوا عرجاناً منذ ولادتهم، استردوا القدرة

على المشي، وعاد المصابون بالاستسقاء إلى الحجم الطبيعي، والذين كانوا طرشاناً منذ الولادة، قد استردوا السمع، والخرسان منذ الولادة تكلموا بوضوح، واسترد الأشخاص المشلولين قوتهم، والذين كانوا مسكونين من قبل الشياطين تحرروا منهم، وفتحت السجون، وحلّت الأغلال، ونجا من الموت المصابون بالحمى الربعية وبحميات أخرى، وكان هناك بعض الذين يعانون من الصرع، ومن أوجاع أخرى متنوعة، ومصابين بأمراض خفية حادة، كما كان بعضهم محرومين من استخدام أطرافهم، والتي أصبحت من دون حركة، وكأنها قطعة من الخشب، وآخرون كانوا قد أصبحوا فجأة من دون عقل، وكان بعضهم قد أصيب بمرض الناسور، وآخرون أصيبوا بعلل التورم، هؤلاء جميعاً عادوا بفضائله إلى أوضاعهم الصحية السالفة، وتمّ إيقاف نزيف الدم في النساء وشفي أحدهم من اليرقان، وانتهت أوجاع الأسنان عند آخر، وزالت البقع الخبيثة من أحدهم، دون أن تترك أثراً أبداً، وجرى شفاء المصابون بالفتق، والمحدودبة ظهورهم، والمصابون بالحصا، وبالبواسير، أو بأمراض أخرى حادة، وآخرون قد سقطوا في حفر، أو في أنهار وفي مياه عميقة، وآخرون قد قذف بهم من أماكن مرتفعة، ما أن قام هؤلاء بالدعاء إلى اسمه، لم يصابوا بأي أذى جسدي، أو بشيء بسيط جداً وخفيف، وكان بعضهم قد وقع في مصائد الردة المنهكة، وجرح آخرون من قبل الأفاعي، وكاد آخرون أن يصابوا بالاختناق، وكسب آخرون القنوط، وقد حصل هؤلاء جميعاً على النعمة الرائعة لهذا الأسقف، وانتزعوا من موت كان محيقاً بهم، وتحرر آخرون —مجدداً— من ورم الفكين بفضائله وصلواته، وآخرون من ربط الحلقوم، وآخرون من نزيف الدماء، والذين تحطمت نفوسهم في أوقات الأزمات، والذين غرقوا تقريباً في أعماق اليأس، تمت مواجهتهم —لسرورهم— بالمواساة والشفاء، لدى إعادتهم لاسم هذا الأب إلى ذاكرتهم، وكان هناك بعضهم الذين تغلبت عليهم معيقات كثيرة متنوعة، وكانوا في حالات

الخطر، لكن عندما دعوا اسم هذا العابد للرب، والمحبوب من الملائكة، مع أن ذلك مـزعج ومكروه من قبـل الشيـاطين، قـد تحرروا من جميع شيـاطينهم، وشعـروا بحضـور فضـائل مـولانـا يسـوع المسيح، وهذه ومعجـزات أخـرى عملت من قبل الرب فقط، الذي هو مبـارك فـوق الأشياء كلها دائماً أبداً.

ومن الوقـائع المثيرة للدهشـة أيضاً، هو أن الحيـوانات المتـوحشة قـد شعرت بالمنافع مـن خلاله،وبناء عليه، إنه بالتقـدير الرائع للرب، الذي أوجـد كل شيء بشكل حكيم وصحيـح تمامـاً، حـدثت في المكان الذي يرقـد فيه جسـده، معجزات مجيـدة كثيرة، وكـانت سمعة أعمال الشفـاء عظيمـة جـداً، وحشود الناس المجتمعين كثيفـة جـداً، وهـم على درجـة عالية من التقوى، ولذلك فإن الكنيسة تغني للرب وفق الطريقة نفسها، ومثل ذلك يمكن أن يغنـوا عن عبـده ويقـولون: «الذيـن ضلوا عنك، سـوف يعـودون إليك، وسـوف يعبـدون آثـار قـدميك»، ذلك أن جميع أعـداء هذا الأب المذكـور، قد اجتمعـوا مع بعضهم وتعبـدوا في المكان الذي وقفت فيـه قـدمـاه،لابل حتـى بعض أتبـاع الكفـر، وأهل العناد، الذين أقـدمـوا على الاستخفـاف بفضـائل الـرحمة اللاهوتيـة، وكـذلك فضائل الأب المذكور قد أصيبوا فجأة بالقناعة، وأرغموا،حتى وهم غير راضين على نشر أخبـار هـذه الأشيـاء، وهناك واقعـة يعجـب الإنسـان نحـوها أكثر من الوقـائع الأخـرى، وهي واقعة لم يسمع بمثلهـا في أي وقت من الأوقـات، وقعت في قضية أحـد الأطفال، وكان قـد ولد من دون قـدمين، واستمر هكذا لمدة ثمانيـة أعـوام، عندما فجأة بدأ ينمـو له قدمـان جديدان، وكـان أمراً غير اعتيـادي البته إحلال أطـراف جديدة حيث لايوجد أطراف، وهذا أصعب من شفاء أطراف مـريضة وإعادتها صحيحـة وقـوية! آه أيها الكاهن صـاحب الفضـائل العظيمـة، آه أيتهـا الفضـائل لمثل هذا الكاهن! مـن الذي فكر قط بمثل هذه الجوائـز، أو

بمثل هذا الامتياز لفضائله، أو مثل هذه الجدارة العظيمة لكاهن، فمثلما أضفى المسيح الحياة السرمدية على الروح التي استعيدت من الموت الأبدي، مثل هذا فعل الأسقف التقي المحب للمسيح، فبوساطة عملية الرحمة اللاهوتية، استرد الحياة الآنية إلى الأطفال الضعفاء، وإلى الذين غرقوا، وإلى عدد كبير آخر كانوا بالفعل أمواتاً في الجسد، لأن أية معجزة يمكن أن تكون أعظم روعة من إحلال فائدة الصحة محل شر الموت؟ وعلى هذا يبدو أن الأمر لم يكن بلا فائدة عندما تعرضت بشكل مختصر لأخبار مثل هذه المعجزات الرائعة.

«لأن المعجزات الحالية سوف تؤكد المعجزات الماضية، والمعجزات المتوقعة في المستقبل، حيث أن هذه ستكون ثابتة ولايمكن قلقلتها، وفي الحقيقة يبدو أن احتشاد الناس في المكان المذكور، جدير بالاعجاب أكثر من المعجزات نفسها، وهذه الحالة نفسها هي معجزة، لأنه ماالذي يمكن أن يكون أكثر اعجازاً، وأكثر إدهاشاً، من قيام الناس في عالم اليوم بعبادة إنسان، كانوا في البارحة يكرهونه؟ أي قيام الذين هربوا منه بالأمس بالفرار إليه اليوم، وأن يقوم بالصلاة اليوم إلى الرب من أجل الوقاية الكاملة لنا، رجل تجنبنا بالأمس كل علاقات معه، إما خوفاً من سلطة أرضية، أو من خلال سلطاتنا الشخصية الشريرة، وهذا في الحقيقة بدا لكثير من الرجال العقلاء هو الأعظم بين هذه المعجزات، وبالقدر نفسه حتى لاتندرس ذكرى هذا الرجل العظيم، وتهمل في قبره، وأن لايعهد بها إلى النسيان مع ضريحه، ألقينا بأنفسنا عند قدمي قداستكم، ونرجوكم بتواضع وباخلاص، أن تقوموا بعد فحص مناسب وصحيح لهذه المعجزات، بادراج اسم الأب المذكور في قائمة القديسين، ونحن نعمل في هذه القضية بأعظم ثقة، بسبب أن توماس المبارك من المعروف أنه قد أعطى شهادة، وأنه كان متنبئاً مخبراً بهذه الأحداث وواعداً بها، لأن توماس المذكور، بعدما أقام مدة طويلة أثناء

نفيه في ديرنا، بناء على أمر من البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، أظهرت له العلامات من السماء، بأنه سوف يعود إلى كنيسته، ومن هناك سوف يغادر إلى الرب، مع سعفة الشهادة، وبما أنه لم يمتلك الوسائل ليكافئنا، بوساطة هدايا كريمة، ومنافع، من أجل المعروف الذي أبدي نحوه من قبل سلفنا، وخوفاً منه أن يكون قد أثقلنا، مع أنه لم يفعل ذلك ولابشكل من الأشكال، وعد بأن خليفة له، سوف يأتي من بعده، وسوف يرضينا عوضاً عنه ولصالحه، ونحن نعلم بأن هذا جرى الوفاء به من دون إحباط، ولكي تبقى ذكرى القديس توماس الشهيد محفوظة بالفكر، كان الرجل الأول الذي شفي بفضله في كنيستنا اسمه توماس، وعلمنا من هذه الحقيقة أن علينا أن نؤمن بجميع الأعمال الجيدة المتعلقة به، في سبيل تشريف وتمجيد مولانا يسوع المسيح، الذي، إلخ».

براهين حول قداسة القديس إدموند المعترف

وبشأن مايشبه العباءة التي اعتاد الرجل الأكثر قداسة على ارتدائها، لايصح ولابشكل من الأشكال أن نقف صامتين، لأننا نعتقد بأنها كانت نوعاً لم يجرب من قبل الرجال المقدسين في العصور الماضية، ولم يسمع بمثلها في هذه العصور الحالية، فعباءته لم تكن مصنوعة آنذاك بوساطة فن الحياكة، من خيوط رفيعة، بل كانت معمولة من قبل حبال صغيرة شبكت مع بعضها مثل شبكة كثيفة جداً، فالوصلات الحاوية للعقد، عديدة مثل القصاص، في نظام كثيف، ولكي تكون العقد أكثر ضغطاً على جسد المرتدي، لم تكن العباءة سليمة في الجزء الخلفي منها، بل كانت مفتوحة من الأعلى نحو الأسفل، بفتحات صغيرة هنا وهناك، فبهذه العقد المنسوجة بشدة وإحكام، حارب نفسه،في سبيل أنه بالتعذيب الداخلي، سيتمكن من قهر الجسد، وذلك حتى يصبح شهيداً، ويحصل على النصر على نفسه، ولم يكن هو قانعاً مكتفياً بصلب الجسد بالتعذيب بوساطة العباءة، بل أراد أكثر من ذلك، وكان الذي أوقعه

زيادة على نفسه، قد ضاعف من دهشتنا أكثر من أي شيء آخر، ففي سبيل أن يربط هذه العباءة ويشدها أكثر قرباً على جسده، ولكي يمكن تمزيقه بحدة أكبر، بوساطة الحك والكشط، ربطها على نفسه، بحبل أغلظ، ومرره مرتين حول نفسه من عند الجزء الأعلى من جسده، ومرّ هذا الحبل نازلاً من صدره حتى حقويه بوساطة عدة لفات متداخلة، قد جرى ربطها، والتقت النهايتان مع بعضهما في الأسفل، وبذلك التصق الحبل بالعباءة باستخدامه، وبذلك صار من المادة نفسها.

وبناء عليه حزم نفسه بحبل من شعر، ولم يحزم حقوي جسده حسبما تطلبت الشريعة، بحبلٍ من كتان مجدول، بل عمل مثل ابن الرب، فحزم نفسه بحزام كان عالياً حتى صدره.

وباختصار، نجد أن أجزاء جسده، التي لم يتمكن من تعذيبها بالنهار، أي بيديه، وكذلك الأجزاء العارية من رقبته، قد غطاها بقماش من الشعر أثناء الليل، حتى يتمكن بذلك من جعل جسده كله قربان حرق ذي نكهة طيبة، إلى الرب، فلماذا أنا بحاجة لقول أي شيء عن صومه الذي لم يتعب منه وعن صلواته؟ ومع أنه سمح لطعام قليل جداً بالدخول إلى فمه، كان دوماً يتفوه بالحمد والشكر إلى الرب، وكان دوماً يتلفظ بكلمات مهذبة، وكانت هذه الكلمات كأنها صادرة من نبع صدر مولانا، وكانت خطاباته عميقة ومهذبة حول اللاهوت، الذي كان به متميزاً كثيراً، حيث كان مثل أوغسطين آخر، وكان يلقي خطاباته وسط التنهدات والأنين، مع يديه وعينيه مرفوعتان دوماً —مثل القديس مارتن— نحو السماء، وبذلك أثار تقوى الجميع وجذبهم أثناء كلامه.

الشفاء الرائع لأسقف درم

ووصلت هذه البراهين وبراهين أخرى عن قداسة هذا الرجل المقدس إلى علم نيقولا أسقف درم، الذي كان مصاباً باستسقاء لايمكن

شفائـه، حتى أن لونه تغيّـر بـوساطة يرقـان أصفر، وقد تلاشـى جسده حتى أصبح هيكلاً، وفقد جميع الـرطوبة العائدة لجسـده، وجف جسده بالسعـال والربو، وصـار لونه حالك السـواد، حتى ظهـر بأنه بات على حـافـة الموت، ولم يترك له، كما ظهـر سـوى القبر، وفي هذه الحالة من اليأس والقنوط من أي علاج إنسـاني، وضع ثقة كـاملة بالرجل المقدس المذكور، وبنـاء عليه نذر، أنه إذا مـاعادت إليـه صحته الجسديـة، وصار بإمكانه، سـوف يزور بتقـوى واخلاص ضريح ادمـوند المبـارك، رئيس أساقفـة كانتربري، وعلى هذا جـرى نقله بعربة إلى الأجـزاء الجنوبية من انكلترا، لكي يستفيـد من استنشـاق هواء مـوطنه المحلي، وليكون أيضـاً أقـرب إلى بونتغني، ليفي بنذر حجه، وبعـد إقامتـه هناك لبعض الوقت صـار ضعيفاً إلى حـد بدا فيـه أنه بات صورة أكثر منه إنسـاناً، ولذلك عمل وصيته، وقال وداعاً إلى جميع أصدقائه، وتلقى قربان الموت كاملاً، والمسح الأقصى، لكن عندما كان متمـدداً وهو في نفسه الأخير، جاء و.

W وكان واحـداً من خدمـه، كان من قبل حـلاق، وبواب القديس ادموند، عنـدما كان رئيسـاً لأساقفـة كانتربري، وكـان متصوراً في ذهنه —لسبب صحيح— أن الرب سـوف يجعل ذلك الأسقف بين قديسيـه، لذلك احتفظ ببعض شعر لحيته، التي كان من واجبه حلاقتها، آملاً بأن هذا الشعـر سـوف يكون مفيـداً للمـرضى، في مستقبل الأيام، وعندمـا اقترب هذا من الأسقف نيقـولا، الذي كـان نصـف ميت، لكن محتفظاً بنشـاط ذاكـرته، أمـر الخادم المذكـور، أن يضع الشعـر في بعض الماء المقـدس، وإعطائـه إياه للشرب، وجـرى عمل ذلك، وبعـدمـا شرب الأسقف ذلك، أعقب ذلك غثيان، ثم خمود تورمـه وآلامه، وانتعش هو كلياً، وعاد في وقت قصير إلى الصحة تماماً.

الإمبراطور يتعهد شخصياً بالحفاظ على السلام مع الكنيسة

وفي الوقت الذي كان فيـه خادع العالم يزعج النفـوس بهذه المقلقات

المزعجة، وقع الامبراطور فردريك تحت تأثير نصيحة حكيمة، ومع أنه تظاهر بالتواضع، وعد بتقديم ترضية إلى الكنيسة وإلى الكنائس الأسقفية، وفقاً للشروط التالية: فيما يتعلق بالضمانات التي يتوجب تقديمها، نقول كما يلي: سيقدم الامبراطور ضمانة قائمة على يمين، ومكتوبة، وبكفالة من قبل الملوك، والأمراء، والنبلاء والايرلات، والكونتات، من مختلف البلدان، وعلاوة على ذلك، إنه فيما يتعلق بالضمانات المتقدمة الذكر، هو سيضع نفسه تحت إملاء صاحب القداسة البابا والوسطاء:

«فردريك الأغسطس الدائم، الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية:

إننا نعلن بوساطة هذه الأداة الحالية إلى الجميع، بأننا منحنا إلى ر. R, الذي هو الكونت المشهور لطولوز، وقريبنا المحبوب، والذي هو من رعايانا المخلصين، وإلى المعلم بيتر دي فينيا Vinea, وثاديوس Thaddeus دي سيسا Sessa, القاضيين في محكمتنا العليا، واللذين من رعايانا المخلصين، منحناهم سلطة كاملة وخاصة بأن يقسموا بأرواحهم، نيابة عنا ولصالحنا، بأننا سوف نلتزم بأوامر البابا والكنيسة، فيما يتعلق بمسائل الأذى، والخسارة، والاعتداءات، التي تعرضت لها الكنيسة والأشخاص اللاهوتيين، قبل صدور قرار الحرمان الكنسي وبعده، والأسباب التي من أجلها جرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي المذكور ضدنا بشكل رسمي من قبل غريغوري، الحبر الأعظم، والتصديق على، وتأكيد وتثبيت كل الذي سيقرر رعايانا المخلصين المتقدم ذكرهم، أنه ينبغي أن يفعل في هذه القضية، وللتذكير بها وتأكيدها، أمرنا بتنفيذ هذه الكتابة الحالية، وختمناها بختمنا الامبراطوري الذهبي والتوبازيTopaz ».

رسالة الإمبراطور فردريك إلى ملك إنكلترا

«من فردريك، إلخ، إلخ:

فيما يتعلق بمحادثات شروط السلام بيننا وبين الكنيسة، تم وضع الترتيبات الأولية، كما نعتقد من قبل قريبنا المحبوب، وحليفنا المخلص، كونت طولوز، لذلك يتوجب أن يكون رسلك حضوراً، فهذه هي رغبتنا، ونحن نرجو جلالتكم باخلاص، أن ترسل رسلاً خاصين، من أجل توجيه هذه القضية، وأن يكونوا ممن تثق بهم، وأن يكونوا أكفاء في كل من البراعة، والاخلاص الجيد، لترتيب هذه القضية. صدر، إلخ، إلخ».

بنود الإتفاقية التي وعد الإمبراطور بموجبها بتقديم ترضية إلى الحبر الروماني

فيما يخص قضية الأراضي، جرى إعداد شروط أعطت الرضا إلى الطائفتين معاً، وهي، إن جميع الأراضي التي امتلكتها الكنيسة في أيام الحرمان الكنسي، سوف يجري التخلي عنها، وأيضاً فيما يتعلق بالذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، أما فيما يتعلق بازدراء المفاتيح، يتوجب على الامبراطور أن يكتب في جميع أرجاء العالم بشكل عام، أنه باستخفافه بالكنيسة، وبسلطة الكنيسة، هو لم يعامل بازدراء الحكم الذي تفوه به سلف البابا، وبما أن القرار المتقدم الذكر لم يجر التفوه به إليه، هو تابع السير بموجب نصيحة الأساقفة وبقية النبلاء في ألمانيا وإيطاليا، لأنه لم يكن ملزماً بمراعاته، قبل أن يجري التفوه به إليه، ومع ذلك هو يعترف ويقرّ، بأنه أخفق، وتصرف بشكل سيء بالنسبة لهذه القضية، بعدم مراعاته له، لأنه كما هو معروف بشكل جيد، وحسبما يعتقد بشكل ثابت، بأن للحبر الأعظم سلطة كاملة في القضايا الروحية، وكذلك عليه وعلى جميع المسيحيين من ملوك، أو أمراء، أو رجال دين، أو علمانيين، حتى لو كان هو نفسه مذنباً، لاسمح الرب بذلك، وعلى

الرغم من كل ذلك، سوف يقدم الامبراطور المذكور، بسبب خطيئته، كذا وكذا مساعدة، عسكرية ومالية، إلى أي أمير في العالم المسيحي، حسبما يبدو موائماً إلى صاحب القداسة البابا، ولسوف يقدم الصدقات، ويحافظ على الصوم، وفق مايرسم به البابا، ولسوف يلتزم باخلاص وتواضع بقرار الحرمان الكنسي المذكور حتى وقت تحليله، وفيما يتعلق بالأساقفة المعتقلين، في المقام الأول: إن جميع المقتنيات التي جرى الاستيلاء عليها في غلايينهم، والتي وقعت بين يدي الامبراطور، أو التي يمكن العثور عليها بحوزته هو سيعيدها وسيتدبر إعادتها كاملة، وفيما يتعلق بالبقية، إذا كان الذين عانوا من الأذى، يودون وعلى استعداد، هو سوف يقدم ترضية لهم، وذلك وفق مايأمر به البابا، الذي يثق بلطفه، وهو أيضاً تكفيراً عن الذنب المذكور، وفي سبيل تمجيد الرب، سوف يبني مشافي وكنائس،حسبما سوف يقرر البابا، وذلك بالنسبة للعدد والمكان، ووفق الطريقة التي يراها موائمة، ولسوف يمنحهم حسبما سيأمر البابا، وبالنسبة لما تقدم ذكره، وبالنسبة إلى جميع الأضرار والخسائر والاعتداءات التي تسبب بها إلى الكنائس وإلى اللاهوتيين منذ بداية الخصومة، ومنذ صدور القرار، ومن أجل الأضرار التي حرم بسببها كنسياً، هو —الامبراطور— سوف يقسم بدقة على الالتزام بأوامر البابا، شريطة الحفاظ على امتيازاته ومراتبه كما هي تماماً، ومن دون أي انتقاص لامبراطوريته ولممالكه، ومع أننا نعتقد بأن ترضية كافية قد قدمت مقابل الأضرار المتقدم ذكرها، مع ذلك إنه في سبيل تقديم ترضية، وفي سبيل ضمان تنفيذ القضايا المتقدم ذكرها، وأيضاً في سبيل هذه المنافع المذكورة، سوف يلتزم الامبراطور بخطط وبقرارات الوسطاء، الذين هم: ستيفن أسقف أوستيا، والكاردنالين: جايلز، وأوتو، الذين سوف —باستثناء شخص البابا— يقدمون مايرون أنه ضروري أن يقدم، على شرط، أن لايعمل الوسطاء المتقدم ذكرهم أي شيء، من دون نصيحة البابا وأمره، باستثناء أنه بالنسبة للنقاط المتقدم

ذكرها، في قضية الترضية والضمانة، سوف يفعلون كل الذي يقرره البابا المتقدم الذكر، بوساطة نصيحة إخوانه، وكذلك فيما يتعلق بالذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، نحن نقول إنه من هذا التاريخ، جميع الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، بعد بداية الخصام، مهما كانت الجهة التي جاءوا منها، سوف يعفى عنهم فيما يتعلق بجميع الأضرار التي عملت من قبلهم، قبل النزاع وبعده، سواء أكان ذلك لحساب الكنيسة أو لحساب أي جهة أخرى، وسوف يجري إلغاء جميع الحرمانات والقرارات التي صدرت ضدهم، وهو سوف يحررهم من الأعطيات، ومن الاتفاقيات، ومن الروابط، التي عملوها له، بعد صدور القرار، أو بعد وقوفهم إلى جانب الكنيسة، وسيعيد إليهم جميع ممتلكاتهم، وحقوقهم، ومراتبهم كاملة، مع أنها قد تكون قد أعطيت إلى آخرين، وفيما يتعلق بالآخرين، الذين كانوا قبل نشوب الخلاف ثائرين ضد الامبراطور، وكانوا آنذاك في حرب معه، نحن نقول بأن جميع ذنوبهم سوف يجري غفرانها كلها، والتي اقترفوها فيما بعد ضده، وضد الامبراطورية، وبالنسبة للاعتداءات والذنوب التي اقترفت قبل نشوب النزاع، سوف يلتزم الامبراطور بشروط البابا وبمراسيمه مع اخوانه، التي سوف يجري إقرارها، قبل التاريخ الذي سلف وأعده البابا، وهو سوف يمنح سلاماً كاملاً إليهم، منذ ذلك التاريخ، وبالنسبة للضمانات إلى الرومان، الذين ارتبطوا بالكنيسة بعد نشوب الخلاف، وكذلك بالنسبة لنبلاء منطقة تريفيسو Treviso, وإلى مركيز مونتسرات Montserrat, وللنبلاء الآخرين في جميع المناطق، وافق الامبراطور على أنه ينبغي عدم ربط النبلاء المتقدم ذكرهم —مالم يكن بناء على أوامر البابا— بتقديم الخدمة شخصياً إلى الامبراطور،بل بوساطة بدلاء، وأنهم سوف يدعون إلى الالتزام بقرار أتباعهم النبلاء ونظرائهم في المقاطعة نفسها، والذين ارتبطوا بالكنيسة ليسوا مستثنين، أما فيما يتعلق بالذين هم بالاعتقال، بسبب أعمال حقيقية أو شخصية، أو حتى إن كانوا متهمين بإعتداءات

جرمية، خاصة بالنسبة لحالة الرومان، سوف يقوم الامبراطور، من أجل تقديم الضمانة الأعظم إلى الذين ارتبطوا بالكنيسة، بتعيين واحد من مقدمي الأساقفة في إيطاليا، أمامه فقط يمكنهم الترافع بقضاياهم، وذلك في سبيل تقديم الترضية لصاحب القداسة البابا، وكذلك فيما يتعلق بالقضايا المدنية والجرمية، وسيجري اختيار هذا الأسقف بموافقة من البابا، ويبقى للمدة الزمنية التي يمكن أن يختارها، وأماكنهم الخاصة للدفاع، سوف يضعها الامبراطور في عهدة الذين يعتقد أنهم موائمين،، وهو لن يلمس أماكن الدفاع للمتقدم ذكره، أو يؤذيها من دون موافقة الأسقف الذي انتدب لهذه القضايا، وبالنسبة إلى الذين هم عائدين إلى منطقة تريفيسو، سوف يتعاون الامبراطور مع واحد من الرهبان يعتقد أنه موائماً للاختيار لهذا العرض، وتقديم مقدم إليه وحده سوف يرتبط الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، لتقديم تقدير حول أراضي تريفيسو المذكورة، وهو أيضاً سوف يطلق سراح جميع الأسرى الذي اعتقلوا في الغلايين، والذين اطلاق سراحهم الآن هو مطلوب، وكذلك التوسكانيين، والرومان والأسرى الآخرين، الذين اعتقلوا منذ صدور قرار الحرمان الكنسي، وسوف يحررهم من جميع الأيمان، ومن جميع المتوجبات التي ربطوا أنفسهم بها، منذ وقوعهم بالأسر، وكذلك جميع الذين أطلق سراحهم، ومثلهم الذين سوف يطلق سراحهم بعد الآن، ومن أجل هذا سوف يعطي رسائل معتمدة إلى رعاياه المخلصين، بأن جميع الذين هم سجناء، سوف يطلق سراحهم في كل مكان من قبل سجانيهم، وسوف يسمح للذين طردوا من البلاد بسبب الخلاف الأول أو الخلاف الثاني، من رجال دين أو علمانيين، بالعودة إلى مواطنهم، ليمكثوا هناك بأمان، وأن يعيد إليهم ممتلكاتهم وبضائعهم كلها.

وبالنسبة لخلافه مع الرومان، سوف يلتزم الامبراطور بالترتيبات التي سوف يعدها البابا واخوانه، وكذلك فيما يتعلق بعمل تعويضات عن

الخسائر التي عانوا منها على كلا الجانبين في تلك الحرب، وكذلك فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، على شرط أن ذلك —على كل حال— سوف يجري ترتيبه حول مايتعلق بالخلاف حول ممتلكاته وتحديدها، باستثناء قلعة أنتكولي Anticoli, التي حولها لايقبل التسوية، وفيما يتعلق بالمضار التي عملت من قبل الامبراطور، أو موظفيه ونوابه، بناء على أمره، إلى كنائس رجال الدين، وكذلك بالنسبة للعلمانيين والكنائس الأخرى، وذلك منذ صدور القرار ضده، سوف يقدم الامبراطور ترضية، حسبما يمكن أن ترى حكمة الكرسي الرسولي ولطفه أنه من المناسب تقريره، وكذلك حيث لايعلم الامبراطور بأن الأذى قد عمل من قبله، أو من قبل جيوشه.

وقد منح إلى غريغوري دي مونت لونغو وإلى أقربائه، سلاماً كاملاً وأماناً، وأرض الكونت وليم التي استحوذ عليها من قبل الكنيسة سوف تعاد، وبالنسبة للأراضي الأخرى، سوف يجري تحكيم حولها بين الامبراطور، وبين الكاردينال أوتو، رئيس أساقفة روان، وهكذا فإنهما هما نفسيهما يمكن أن يقررا الشريعة التي ينبغي أن يقرراها.

وتفوه رسل الامبراطور وأعطوا وعدهم، بأنهم سوف يعملون تسوية حول مايتعلق بالممتلكات والمقتنيات، وفي الوقت نفسه سوف يعترفون، ويحددون، ويقسمون، أنهم سوف يسعون مخلصين تماماً ومن دون خداع، إلى اقناع مولاهم الامبراطور، بأن يسمح للأساقفة المتقدم ذكرهم، بالترافع قضائياً بشكل جماعي أو بشكل فردي حول قضية الممتلكات وحقوق الملكية، ولسوف يطلب الأساقفة الثلاثة من الامبراطور أن يفعلوا ذلك، وتعهدوا بالنسبة لأنفسهم، بأنهم سوف يتصرفون في هذه القضية باخلاص وصلاح نحو الامبراطور، شريطة أن يسمح لهم بالترافع قضائياً، حسبما يعتقدون أنه عمل موائم، في الاستماع لهذه القضية وفي تقريرها، وذلك حول المقتنيات، وحقوق الملكية، جماعياً

أو فــردياً، وأنه إذا لم يستطيعــوا جميعــاً أن يكونوا حــاضرين، وأعيق أحدهم بأي معيق معقول، يمكن لاثنين منهم الترافع بالقضية.

حول معيق تطويب القديس إدموند المعترف

وما ان جرت تسوية هذه القضيــة الصعبة، حتى اعتقد البابا بأنه حلّ جميع القضــايا بسعــادة، فـردد الشكر إلى الرب، وإلى القـديس ادمـوند، الذي طلب عونه في وقت متاعبه، وبناء عليه وعد وقرر، أن يقوم تماشياً مع طلب راعي ديـر ورهبـان بونتغني، بشكل مهيب بتطويـب ادمـوند المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، الذي عـرفه من التقرير العام بأنه أشع بكثير من المعجــزات التي تمت الاشــارة إليهـــا أعــلاه، وأرسل أندلم Andelm, رئيس أساقفـة أرماغ مع رجـال آخرين مستقيمين وذوي نفـوذ، للقيـام بفحص مناسب وتقصي حـول هذه المعجـزات، وعندمـا سمع المضطهـدون القـدامى والمتجـذرون للقــديس المذكـور قـالوا بين بعضهم: «إنه إذا مـاجـرى تطويب هذا الرجل، وتمت ترقيتـه إلى مرتبـة القـدسية المتميـزة سوف نكون في وضع مـربك مهين»، ولذلك قامــوا مـن أجل خـراب أرواحهم، فعملوا مؤامرة مـع النائب البابـوي أوتـو، لمنـع هذا الـقديس من التطـويب مع أن الـرب قـد أظهـر للنـاس كثيراً مـن معجزاته.

تراجع الإمبراطور عن شروط السلام التي رتبها

وأبعـد الامبراطور وتغـرب بوسـاطة بعض المزعجـات، والإثارة له، حيث أظهر أولاً شمـوخاً، ثم أسف لوعـوده، وتراجع بشكل محزن عن الشروط التي أقسم بمـراعـاتها، وعن التـواضع، وعن تقـديم الترضيـة المـوعودة، وفي الـوقت نفسـه، حتى تزداد أحزاننا، كتب الأساقفة الذين يسكنــون في الأرض المقـدســة، إلى الأســاقفــة الـذين يسكنـون على هـذا الجانب من البحر، مايلي:

رسالة مبكية

«إلى الآباء المبجلين في المسيح، وإلى جميع أصدقائنا: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، والأساقفة الآخرين في انكلترا وفرنسا، وإلى الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، يتمنى لكم روبرت، الذي هو بنعمة الرب بطريرك الكنيسة المقدسة في القدس، والنائب للكرسي الرسولي، وهنري رئيس أساقفة الناصرة، وج. **J,** الأسقف المنتخب لقيسارية، ور. **R** أسقف عكا، وأسقف صيدا، والراهب وليم أوف روكفورت **Rochefort,** نائب مقدم بيت فرسان الداوية، ورهبان البيت نفسه، وهـ. **H** رئيس رهبان ضريح ربنا، وراعي دير القديس صموئيل لطائفة رهبان البريمونستريت **Premonstrate,** ورعاة الديرة: ب. **B** راعي دير جبل الزيتون، وج. **J** راعي دير هيكل ربنا، وب. **P** راعي دير جبل الطور،و ر. **R** راعي دير جبل صهيون، الصحة والنجاح وفقاً لرغباتكم:

قدمت حدة الحيوانات الشرسة من مناطق الشرق، ووجهت مسارها نحو منطقة القدس، التي مع أنها اعتادت في أوقات كثيرة أن تتعرض للمضايقات بطرق متنوعة من قبل المسلمين المحيطين بها قد تمتعت بالآونة الأخيرة بشيء من التنفس بحرية، لأن أعداءها القريبين قد أخلدوا إلى الراحة، ومع ذلك فإن ذنوب المسيحيين قد أثارت شعباً غير معروف، حتى يقدم على تدميرهم، وقد جلب السيف المنتقم وسلّطه عليهم، من بعيد، نعم لقد هزّ غضب التتار ورعبهم جميع منطقة الشرق، بوساطة المصائب المضاعفة والمرعبة، فقد اضطهدوا الناس سواء، ولم يميزوا بين مسيحي وغير مسيحي، بل أخذوا أسلابهم من أقصى البقاع، حتى من الذين هم أنفسهم، قد عاشوا على افتراس الشعب المسيحي، فبعدما نهب ودمّر هؤلاء التتار المذكورين جميع بلاد فارس، وشنّوا حرباً بروح فاسدة، واصطادوا أولئك الخوارزمية

المتوحشين، وسحبوهم من جحورهم، طردوهم من مقاطعاتهم، ولم يمتلك هؤلاء الخوارزمية مكاناً يسكنون به، ولم يتمكنوا من الحصول على ملاذ آمن بين أي من المسلمين، بسبب شرورهم، وقد تلقوا العون فقط من سلطان مصر، ذلك المتعقب للإيمان المسيحي، وهو وإن رفض منحهم مكاناً يلتجئون إليه في أراضيه، عرض عليهم، وقدم إليهم، ماهو ملك للآخرين، واستدعاهم ووجّه الدعوة إليهم ذلك المسلم، للسكنى في أرض الميعاد، التي وعد بها الذي هو في عليين، وأعطاها إلى الذين آمنوا به، وبناء عليه، قدموا، وهم معتمدين على عون السلطان المذكور، مع زوجاتهم وأسرهم، وعدة آلاف من الفرسان المسلحين، ودخلوا إلى ميراث الرب، الذي قالوا بأن سلطان مصر قد منحهم إياه، وكان وصولهم مفاجئاً، ولم يكن متوقعاً لا من قبلنا، أو من قبل الناس المجاورين لنا، لذلك لم يتمكنوا من انذارنا للاحتراز ضدهم، وقد دخلوا إلى منطقة القدس من خلال مقاطعتي صفد وطبرية، ومع أننا استخدمنا كل حيطة، ويقظة لابداع وسائل من أجل ارجاع الأرض المقدسة، إلى سالف عهدها من السلام والهدوء، الذي اضطرب بقدوم هؤلاء الأعداء الجدد، مع ذلك لم تكن إمكانات الصليبيين كافية للقيام بواجب طردهم، وإثر هذا استحوذ الخوارزمية الذين تقدم ذكرهم، على المنطقة كلها الممتدة من طور الفرسان على مقربة من القدس، حتى غزة، وقمنا بناء عليه، واعتماداً على نصيحة الجميع ورغبتهم، بالتعاون مع مقدمي بيتي الرهبان، أي فرسان الداوية، وفرسان اسبتارية القديس يوحنا، ومدير فرسان التيوتون للقديسة مريم، ومدير المملكة، فتوجهنا بالدعاء إلى مساعدة جميع الصليبيين، وسلطاني دمشق، وحمص، اللذان كانا آنذاك يربطهما معنا معاهدة سلام، واللذان كانا معاديين ومبغضين للخوارزمية، واللذان كانا ملتزمين، وفقاً لشروط المعاهدة، بالدفاع عن الأراضي التي هي بين أيدي الصليبيين، ضد المسلمين الآخرين، لأننا اعتقدنا أنهم أنذروا بوصول أولئك الخوارزمية المذكورين، وهم وإن

وعـدونا باخلاص وأقسمـوا على أن يقدمـوا العون إلينا، تأخـروا كثيراً بتقـديم أية نجـدة إلينا، وفي الوقت الذي كـان فيه الصليبيـون مترددون حول القتـال ضد هؤلاء الخوارزميـة، لأن أعدادهم كـانت قليلة، جداً، مقارنة بأعدائهـم، غالباً ما هاجم هؤلاء الخوارزمية مـدينة القدس، التي لم تكن محميـة بحواجـز دفـاعيةعلى الاطلاق، وبناء عليـه فإن الصليبيين الذين كـانوا في المدينة، وكـانوا يخافـون من وحشيـة هؤلاء «الكفـار»، احتشـدوا حتى بلغ عـددهم أكثـر من ستـة آلاف رجل، ووثوقـاً منهم بالهدنة التي كانت معمـولة بينهم وبين سلطان الكرك، ومسلمي المناطق الجبلية، تركـوا عدداً قليلاً في المدينة وانطلقوا خـلال هذه المناطق الجبلية مع أسرهـم، وجميـع مقتنيـاتهم، للدخـول إلى أراضي الصليبيين، لكن المسلمين في تلك المناطق انقضـوا عليهم، وهاجموهم، ووضعـوا بعضهم طعمة للسيف من دون رحمة، واعتقلوا آخـرين، وعهدوا بهم إلى أسر لا أمل فيـه، وعـرضـوا الصليبيين من الجنسين حتى الـراهبـات للبيع إلى المسلمين الآخـرين، وتمكن بعضهـم —على كل حـال— من النجـاة بالنزول إلى سهل الـرملة، ووقتهـا انقض الخوارزميـة عليهم، واقترفـوا مـذبحة هائلة بينهم، إلى حـد أن الذين نجوا من ذلك الحشـد الكبير، لم يتجاوز عددهم الثلاثمائة، وكـان هؤلاء بلا حياة تقريباً، ثم دخل أولئك المتوحشون التعسـاء المتقدم ذكرهم إلى مدينة القـدس، وكانت الآن شبه خـالية من الناس، وقتلوا جميع الصليبيين الـذين بقيوا هناك، حتى أمـام ضريح ربنا نفسـه، وفي الكنيسـة التي هربوا إليهـا للالتجـاء، لابل حتى أنهم قطعـوا رؤوس الكهنة الذين كانـوا يؤدون القداسـات عند المذبح، وكـانوا يرددون بين أنفسهم: «دعـونا هنـا نصب دمـاء هؤلاء الناس الصليبيين، وذلك حيث شربوا الخمرة تشريفـاً لربهم، الذي يقولون بأنه علق هنا على الصليب»، وبالاضـافـة إلى هذا نحن نخبركم بما هو أكثـر إيلاماً وحزناً، حيث أنهم وضعـوا أيديهم الملوثة، على ضريح قيامة ربنا، ولوثوه بطرق كثيرة، ولقـد انتـزعـوا تقـريبـاً ألواح الرخـام التي كـانت

موضوعة من حوله، ولطخوا بكل وسيلة من الإهانات كانت بإمكانهم، جبل [أكـرا] الجمجمـة، حيث جـرى صلب المسيح، والذي فعلوه بالمدينة، هو مـا لستُ بقـادر على التعبير عنه، وانتزعـوا أعمـدة الضريح المقـدس، التي وضعت أمام ضريح ربنا بمثـابة زينة، وتحدياً للمسيحيين أرسلوهم إلى ضريح محمـد (صلى الله عليـه وسلم) بمثابـة علامـة على النصر، ولكي يزيدوا من إهـانة الصليبيين خـرقـوا حـرمـة قبـور الملوك السعداء [للصليبيين] التي كـانت موضوعـة في الكنيسة نفسها، وفـرقوا عظامهم وبعثـروها في كل اتجاه، وبالنسبـة لجبل صهيـون المبجل، فقـد خـرقوا حـرمتـه، ولطخوا بأشيـاء غير معقولـة، وغير مناسبة لذكـرها، هيكل الرب، وكنيسـة وادي شعفـاط، حيـث يوجـد ضريح العـذراء المبـاركـة، وفعلوا مثل ذلك بكنيسـة بيت لحم، ومـوضع ولادة ربنا، وبذلك فاقوا بشرورهم جميع المسلمين الآخرين، الذين مع أنهم غالباً ما هاجموا الأراضي الصليبيـة، دوماً أبدوا بعض الاحترام إلى هذه الأمـاكن المقـدسة، هذا ولم يكـن هؤلاء الخوارزمية المذكـورين قـانعين بكل هذا، وكـانـوا يستهـدفـون الاستيـلاء على جميع المنطقـة التـابعـة للصليبيين وتدميرها كليـاً، وقـد استثير الصليبيـون بسبب هذه التجـاوزات والأضرار، وباتوا غير قـادرين على تحمل مثل هذه الشرور مـدة أطول، التي هي شرور كـافيـة، لإثارة كل حـزن وأسى في قلب كل تابع غيـور للإيمان الكاثوليكي، لذلك قرروا بموافقة عامة، العمل على توحيد قوى السلطانين المتقدمـي الذكر مع قوات الصليبيين، وبناء عليـه، بدأ الجيش الصليبي في اليوم الرابع من تشرين أول بالزحف ضدهم من ميناء عكا، وسار خلال قيسارية والمناطق الساحلية الأخرى.

وعلم الخوارزميـة وقتهـا باقترابنا، ولذلك تراجعـوا خـلال مناطق متعددة، ونصبوا معسكرهم أخيراً أمـام عكا، وانتظروا هناك النجدات، التي كـان سلطان مصر —الذي هو رأس ومقـدم الدنس— على وشك

إرسالها إليهم، وعندما التحق بهم حشد كبير أرسله السلطان المذكور، وصل إليهم الجيش الصليبي مع السلطانين المتقدمي الذكر، وكان ذلك عشية عيد القديس لوقا، فيومها وجدناهم أمام غزة مع حشد لايحصى، وكانت فرقهم معبأة للقتال، وبناء عليه جرى ترتيب جيشنا من قبل المقدمين وفق النظام الموائم لمهاجمة الأعداء وقتالهم، ثم قام البطاركة والأساقفة الآخرين بتحليلهم من ذنوبهم بموجب سلطان الرب القدير، والكرسي الرسولي، وأعطى الجميع شارات، وأظهروا علامات على ندم مخلص بوساطة تدفق الدموع، فهم عدّوا موت الجسد أمراً لاقيمة له، وكانوا يأملون بنيل الجزاء الأبدي، واعتقدوا جميعاً أن تموت من أجل المسيح هو أن تعيش، لأنه لابد من حدوث مصيبة جسدية لنا بسبب ذنوبنا، يتوجب أن نعتقد أن الذي هو في عليين، الذي يبحث في القلوب، ويعرف جميع الأسرار، سوف يكون مسروراً بالحصول على الأرواح بدلاً من نيل الأجساد.

ثم إننا اشتبكنا بعد ذلك مع العدو، ووقتها لحقت الغلبة بالمسلمين الذين كانوا معنا من قبل العدو، وهربوا جميعاً، وكانت أعداد منهم قد قتلت أو وقعت بالأسر، وهكذا تُرك الصليبيون لوحدهم في ميدان المعركة، ومع أن الخوارزمية والمصريين انقضوا عليهم مع بعضهم، صمد الصليبيون بحكم كونهم أبطال الرب، والمدافعين عن الإيمان الكاثوليكي، والذين جعل منهم الإيمان نفسه والآلام، إخواناً، وأظهروا مقاومة شجاعة لهم، ولكن أخيراً، بما أنهم كانوا قليلاً جداً، بالمقارنة مع أعدائهم، تحول تيار المعركة ضدهم، وانصاعوا —وأنا أكتبُ ذلك بأسف— أمام النصر الذي ناله أعداؤهم، والذين نجوا من بين جميع فرسان الداوية، ومن فرسان اسبتارية القديس يوحنا، ومن فرسان التيوتون للقديسة مريم: فقط ثلاثة وثلاثين من الداوية، وستة وعشرين من الاسبتارية، وثلاثة فقط من رهبان فرسان التيوتون، هؤلاء فقط

الذين نجوا، أما البقية فهم إما قد قتلوا، أو جعلوا أسرى، وذلك بالاضافة إلى مذبحة هائلة ألمت برماة القسي العقارة، وكذلك بالنسبة للجنود الرجالة.

وفيما يتعلق برئيس أساقفة صور، وأسقف اللد، وراعي دير القديسة مريم في شعفاط، ومقدم الداوية، ومدير التيوتون للقديسة مريم، وعدد آخر من الرهبان والكهنة، بما أنهم لم يظهروا بيننا، نحن في شكوك عظيمة حولهم، لاندري أسقطوا في المعركة، أم أنهم مازالوا قيد الأسر، فنحن غير قادرين على تأكيد الحقيقة حولهم، أما مقدم الاسبتارية، والكونت وولتر دي بريين، فقد حملا مع عدد كبير آخر أسرى إلى القاهرة، وأما بالنسبة لي أنا البطريرك، الذي بسبب ذنوبي، وقعت جميع هذه المصائب، فقد عُددت من قبل الرب، أنني غير جدير بالشهادة، ولذلك نجوتُ، وأنا نصف ميت، وتمكنتُ من اللجوء إلى عسقلان، مع النبلاء، وقسطلان عكا فيليب دي مونتفورت، والفرسان، والعساكر الرجالة، الذين نجوا من المعركة، ومع أنه ليس هناك راحة بين مثل هذا العدد الكبير من المصائب، والخسائر التي ألمت بنا، ذلك أننا خسرنا كل شيء في المعركة المتقدمة الذكر، مع ذلك إن الذي كان بإمكاننا فعله في حالة الطوارىء الحالية فعلناه، فقد قمنا بارسال رسائل ورسلاً إلى الملك المشهور لقبرص، وإلى أمير أنطاكية، ورجوناهما بحرارة وحثثناهما في حالة الضرورة الملحة هذه، أن يرسلا فرساناً وعساكر من أجل حماية الأرض المقدسة، لكننا لانعرف بعد ماالذي عازمان على فعله في هذه القضية.

ثم إننا عدنا إلى عكا، واتخذنا مقامنا في تلك المدينة، التي وجدناها، وكذلك وجدنا جميع المنطقة على طول الساحل، مليئة بالحزن، والنحيب، وبمختلف أنواع التعاسات التي لانهاية لها، ولم يكن هناك بيت أو روح حية لم تكن تبكي واحداً من الموتى قريب لها، ومع أن

الحزن من أجل الماضي كـان كبيراً وقـاسيـاً، إن الخوف من المستقبل قـد استولى على الجميع، لأن جميـع المنطقة التي تم نيلهـا بسيوف الصليبيين، هي الآن خـالية مـن جميع بني البشر، ومن جميع المسـاعدات الأرضيـة، والحماية، وقـوة المدافعين قد نزلت إلى لاشيء، ودمـرت، لأن هناك فقط عدد قليل من الأحيـاء، ومع أن هؤلاء قد انحدروا إلى حافـة الموت، ما من شيء كما يبـدو قـد بقي، بل يتـوجـب أن يسقط كل المتبقي في أيدي أعـداء الصليب، وفق رغباتهم، ذلك أنهم تقـدموا إلى درجـة عاليـة من الصلف والوقـاحة، حتى أنهم زحفـوا فنصبوا مخيمهم، الذي امتـد فوق مساحة ميلين في السهل القـريب من مدينة عكا، ثم إنهم الآن يركضون بشكل وحشي، وهم أحرار، حيث ليـس هناك من يعترضهم أو يتصدى لهم، في جميع المنطقـة بالطول والعـرض، وذلـك حتى منطقتي الناصرة وصفد، وهم قد استحوذوا على المنطقة، وشرعوا يتقاسمونها فيما بينهم، وكأنها كانت منطقتهم، وقد عيّـنوا رسلاً ووكلاء في جميع قرى وبلدات الصليبيين، ويتسلمـون الموارد والجزية من رجـال المقاطعـات ومن بقيـة السكان، وهو مـا كـانوا من قبل يدفعـونـه إلى الصليبيين، وقـد أصبح رجـال المقـاطعـات هؤلاء الآن أعـداء للصليبيين وعصـاة ضـدهم، ومرتبطين متحالفين مع الخوارزمية.

وهكذا فإن جميع كنائس القـدس، وكـذلك جميع الأراضي الصليبيـة، ليس لديها الآن أراضي تتجـاوز بعض الأمـاكـن الحصينة القليلة، التي يجدون مصاعب جمة ومتاعب كبيرة في الدفاع عنها، ولقد قيل أيضاً بأن المصريين الذين هم الآن عند غزة سوف يقدمون قريباً بأعداد كبيرة جداً إلى عكا، للاتحاد مع الخوارزمية في حصـار المدينة، وتلقينا أيضاً في الثاني والعشرين مـن تشرين الثـاني رسـائل مـع رسل من القسطـلان مع الاسبتـارية الـذين يشكلون الحاميـة في قلعـة عسقـلان، يعلنون لنا بأن الجيش الاسـلامي القـادم من مصر قد ألقى الحصـار على تلك القلعـة،

وأن المسلمين قد طوقوها، ولقد التمسوا منا أن نرسل إليهم مساعدات سريعة ومؤناً، وأن يكون ذلك منا ومن الجماعة الصليبية.

وفي سبيل أن تثيرك تقواك للاشفاق على دمار الأرض المقدسة، لأن هذا العبء يقع على أكتاف الجميع بشكل عام، رأينا من الصواب إخباركم عن أوضاع قضية المسيح، وبتواضع نرجوكم وبالصلوات والتقوى الخالصة نلتمس منكم، أن تطلبوا الرحمة من العلي الأعلى لصالح تلك الأرض، في سبيل أن الذي كرّس تلك الأرض بدمه، في سبيل خلاص جميع الناس، أن يتطلع إلى تلك الأرض برحمته، وأن يمدّ يده لمساعدتها وحمايتها، وقدم أيضاً أيها الأب الأعظم محبة، ما تمتلك من نصيحة ومساعدة في هذه القضية، حتى تحصل من ذلك لنفسك على المكافأة في السماء، وبالنسبة إليكم يمكنكم أن تكونوا متأكدين تماماً، أنه ما لم تقدم مساعدة إلى الأرض المقدسة في العبور المقبل لشهر آذار، من يد العلي الأعلى، وبوساطة نجدات من القوات الصليبية، إن الدمار والتخريب المحيق بها الآن، لايمكن النجاة منه، وبما أننا نحتاج إلى وقت طويل حتى نبين الضروريات الأخرى التي نحتاجها، وأوضاع الأرض المقدسة بشكل عام في رسالة، أرسلنا إليكم الأب المبجل أسقف بيروت، وآرنولف Arnulph, وهو راهب من طائفة رهبان الدومينيكان، وهما سوف يحكيا إلى جماعتكم الحقيقة كلها كاملة وبصدق، ونحن بتواضع نرجوكم جميعاً الإصغاء إلى الرسولين المتقدم ذكرهما، وأن تعاملاهما بكرم، لأنهما عرضا نفسيهما لمخاطر عظيمة، لصالح كنيسة الرب، بقيامهما برحلتهما في الشتاء. صدر في عكا في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني، من عام ألف ومائتين وأربع وأربعين لتجسيد ربنا».

ووضع على النسخة الأصلية من هذه الرسالة البليغة اثني عشر ختماً.

تأثير الرسالة المتقدمة

وعُهد بحمل هذه الرسالة الحزينة والمبكية، التي بعث بها آنذاك أساقفة الأرض المقدسة ونبلائها، الذين لم يكن بإمكانهم تحمل توقعات الشتاء المقبل، وتهديدات البحر المضطرب والهائج، عهد بها إلى وولران Waleran, أسقف بيروت، والراهب آرنولف الذي هو من طائفة الدومينيكان، ليحملاها بكل سرعة ممكنة إلى الذين هم على طرفنا من الماء، وليرياها بشكل خاص إلى ملكي فرنسا وانكلترا، وقام الأسقف المتقدم الذكر مع الراهب، نظراً لتوفر الحاجة القصوى، فتحملا، في سبيل غفران ذنوبهما، القيام بنقل هذه الرسالة، لصالح المسيح، وذلك بناء على طلب الأساقفة، ولم يهتما بجميع المخاطر الشخصية، فقاما في اليوم الأول من ميلاد ربنا بجرأة بالاقلاع، لكن مع التواضع المطلوب، وكانا يستهدفان استنهاض قلوب المسيحيين، وإعداد طرق الولد الوحيد للرب، الذين تحت وقايته سوف يستحقون الخلاص من المخاطرة المحيقة بهم، ونتيجة لذنوبهم، لقد مكثوا في البحر لمدة ستة أشهر، تعرضوا خلالها لخطر الموت من كل نوع وفي كل سبيل، وكما سمعنا من الأسقف المحترم نفسه، لقد عانى من عدد كبير جداً من المخاطر، حتى أنه أمر مبكي الإصغاء إلى رواية حولهم، كما أنه متعب روايتهم، وأخيراً —على كل حال— وصلا بتوجيه من الرب، وبمساعدة صلوات جميع الأساقفة الذين تقدم ذكرهم، الذين كانوا قد أوكلوا أنفسهم إليهما، وصلا إلى ميناء البندقية، وكان ذلك في حوالي عيد صعود ربنا.

بعض الإنذارات المسبقة حول الحساب المستقبلي

إنه لمن المعلوم بشكل جيد أن تهديد الرب، لم يكن نافذاً من قبل مثله الآن حول مدينة القدس المقدسة، وذلك حين قال: «ما من حجرة من أحجارك سوف تبقى فوق أخرى» إلخ، إلخ، ومن المتوجب أن نعرف أنه قبل عدة سنوات مضت سقط تمثال محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة (كذا)، وفي سبيل إنزال أعظم انتقام لهذا الحدث، ومن أجل إيذاء

المسيح، والمسيحيين الذين فـرحـوا لسقـوط هذا التمثـال، إزداد الآن غضب هؤلاء الخوارزمية المذكـوريـن، وتعـاظم ضـد المسيحيين وضـد أماكنهم المقـدسة، وقـالوا بأنهم حصلوا على هذا النصر من خـلال رضا الله، وبوساطة شفاعة محمد (صلى الله عليه وسلم).

ومضى صـوتهم بعيـداً (ومن الممكن القول «سـوف يمضي بعـد هذا أبعـد» واضعاً الماضي من أجل المستقبـل) «في جميع أنحاء العـالم»، وبناء عليـه انتشر تبشير الدومينيكان والفـرنسيسكان، وعـمّ ليصل إلى جميع أنحـاء العـالم، وذلك وفقـاً لكلمات المخلص: «أنتم سـوف تكونون شهـودي في اليهودية كلهـا والسامـرة حتى إلى » إلخ، إلخ، وكأنه كـان يريد أن يقول: «عندما ترون هذه الأشياء، حكم عام محيق»، ولم تجاوب لا الأرض ولاالبحر، وفقاً لعادتيهما عموماً، على توقعات الناس، بل إن الماء وكـذلك الأرض أصيبتـا بضرب مـن ضروب الصمت والتعطيل، وكسفت الشمس مـرتان في السنوات الثـلاث المنصرمة، وهو حـدث لم يتذكـر مثيله بأنه وقع قط من قبل، وشوهدت النجـوم تتساقط مـؤخراً، ونبعت الطوائف نظراً لتقلبات العقيدة، ونشبت خلافات لم يعرف مثيل لها من قبل بين الكنيسـة وبين الامبراطور، وسيطرت المجـاعـة وانتشر الطاعون في جيش الملك الفرنسي، وقبل عدة سنوات مضت لحق الدمار الكلي بمـدينة بافـوس Paphos وبعـدة مـدن أخـرى تابعـة للامبراطورية، وبجزر البحر المتوسط، بوساطة زلازل.

مواظبة البابا العمل على مصالحة أسقف وينكستر مع الملك

وأثناء تقلب العـالم هكـذا مع أمـواج الهمـوم، وبينما كـانـت سـورية مهـزوره بعـواصف الحوادث الأخيرة، كـانت انكلترا مستثـارة من دون توقف بالهمـوم والقلق، لأن الملك كـان قـد تلقى دونها مبـالاة طلبـات متـوالية وملحـة، ومـذكرات من البـابا لصـالح أسقف وينكستر، الذي مازال منفياً في فرنسا، معتمداً على نصائح كهنة بلاطه، الذين كان همّهم

الوحيد الحصول على المرابح، ولذلك أثاروا اتهامات جادة ضد الأسقف المذكور، وقام البابا —على كل حال— الذي قيل بأن الأسقف قد دفع له ثمانية آلاف مارك، صدوراً عن عاطفته تجاه الأسقف المذكور، وكذلك بسبب مبلغ المال الذي دفع له، بالاستمرار بالاهتمام بالموضوع بنفسه، وكتب إلى ملك انكلترا لصالحه كما يلي:

رسالة البابا إلى ملك إنكلترا لصالح أسقف وينكستر

«من انوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب في المسيح، ملك انكلترا، صحة ومباركات رسولية:

بعدما رفع فضل الرب، شخصنا المتواضع إلى المنصب الرفيع للكرسي الرسولي، شعرنا بكثير من الثقة بسموكم، حتى تصورنا أنكم سوف تظهرون أنفسكم مندفعين ويقظين نحو القضايا التي هي مرتبطة بكرامة الكنيسة ورفعتها، وبما أننا كنا قد وافقنا، بناء على نصيحة إخواننا، على انتخاب أخينا المحترم، الذي كان من قبل أسقف نورويك، ليكون أسقفاً لكنيسة وينكستر، أرسلنا التماساً خاصاً إليكم، أن تظهروا أنفسكم بمشاعر طيبة، ولطف في تصرفاتكم نحوه، وذلك صدوراً عن احترامكم للذات اللاهوتية، والاحترام لنا شخصياً، وأن تقوموا بسرعة وبلطف فتعينوا له القلاع والعزب العائدة إلى تلك الكنيسة، ولقد سمعنا، ماأدهشنا وأحزننا، هو أنكم ليس فقط لم تسمحوا بتنفيذ طلبنا، لابل ماهو إثم أعظم، أنكم انفجرتم وتفوهتم بكلام فارغ من كل لطف، ومن الاحترام الأبوي، معلناً أنه لايمكن السماح لأي انتخاب في مملكة انكلترا، أو يمكن أن يكون من قبل الكرسي الرسولي، ضد رغبتكم، أي مثلما نحن نمتلك سلطة في القضايا الروحية، تمتلكون أنتم سلطة في المسائل المدنية، وأنه لايمكن لأي واحد جرى انتخابه الاستحواذ على الممتلكات الدنيوية من دون موافقتكم، وعلاوة على ذلك أضفت بأنك تعد نقل الأسقف المذكور غير فعال،

لأنه تمّ الحصول عليه مننا بالزيف، وبوسائل خفية غير مستقيمة، وهذه الإجراءات ياولدنا المحبوب لاتعزز كرامة الرب، ولا كرامة الكنيسة، أو كرامتكم أنفسكم، وليس لهم طعم العدل، ومذاقهم ليس مذاق الانصاف، لاسيما وأن الاعتقاد التقوي لجميع المسيحيين، أنه بموجب الحكمة الربانية، يتمتع الكرسي الرسولي بسلطة كاملة، وسلطاته نافذة في جميع قضايا الكنيسة، وأن هذه السلطات ليست ملزمة بالخضوع إلى قرار الأمراء، أو طلب الحصول على موافقتهم في مسائل الانتخابات والاعتراضات، ففي هذه المسائل يقوم الكرسي الرسولي بإجراءاته بشكل مدروس وحكيم، حتى لاتتعرض الكرامة إلى المعاناة من أي انحراف، وما من شيء يمكن أن يحدث وفيه إيذاء للعدل، وهكذا أيضاً كانت إجراءات الكرسي الرسولي في نقل الأسقف المذكور، وبالتقدم به، رفعت رجلاً متميزاً تماماً في علمه، وفي أخلاقه، وفي استقامته، وفي حكمته، في الشؤون الروحية والدنيوية سواء، وهو رجل كان من قبل محبوباً من قبلكم، ومحبوباً جداً لديكم، وهو رجل قد سعى بكل قواه لتلبية رغباتكم، وذلك بقدر مايسمح له واجبه نحو الرب، وهو رجل حاول أن يجعلكم تكسبون المزيد من الكرامة والمنافع.

وبناء عليه لاتسمحوا لأنفسكم أن تفرض عليها النصائح الماكرة للمستشارين الخادعين، الذين يسعون لإلحاق الأذى بالناس ذوي الفضائل، في سبيل أشخاص لامبالين، همّهم فقط الحصول على منافع خاصة لأنفسهم، ولتلبية رغباتهم الذاتية، وبناء عليه نحث جلالتكم بكل العواطف الممكنة، ونلتمس منكم باسم مولانا يسوع المسيح، ابعاد آذانكم عن الاصغاء إلى الاقتراحات غير التقية لمثل هؤلاء الناس، وأن تتابعوا باستمرار استهداف رفعة كرامة كنيسة الرب، وامتيازات الحرية الممنوحة لها من عليين، مع السعي للحفاظ على هذه الامتيازات غير مخروقة.

والآن اسمح للأساقفة في مملكتك، ودعهم من الآن فصاعداً، يأخذون بحرية وبسلام الممتلكات مهما كان نوعها، التي هي عائدة إلى كنائسهم، في كل من المسائل الروحية والدنيوية، وبالاضافة إلى هذا تمعن بعمق وتفكر حول حقائق أننا بممارستنا لواجبات منصبنا الرسولي، نحن خاضعين لشرف الاسم اللاهوتي، ولذلك ينبغي أن لايرد بخاطرك، ولا تنزعج من تطبيق أي من الإجراءات التي قمنا باتخاذها، بعد بحث وتداول خاص، بشأن قضية الأسقف المتقدم الذكر، وبما أننا قررنا في قرارة أنفسنا، أن ننظر إليك بنظرة خاصة، فوق جميع أمراء الأرض الآخرين، إنك بالضرورة سوف تتصرف نحوه بشكل مشرف، وعليك أن تضع جانباً جميع المصاعب، وأن تتخلى له بإرادة طيبة وتمنحه جميع القلاع والعزب والانتاج الذي جاء منهم منذ تاريخ نقله، في سبيل أن يتمكن، تحت حظوتك الخاصة، من القيام بواجب العناية بالمنصب الذي أسند إليه، وأن تكون المحصلة من ذلك نتائج طيبة، وغير هذا، بما أننا لانختار انقاص امتيازات الكنيسة في أيامنا، بل نرغب بوجوب زيادتها، إننا لن نستطيع هكذا ظلماً تحمل أية أذية تمارس بحق الأسقف المذكور. صدر في اللاتيران، في هذا اليوم السابع والعشرين من شباط، في السنة الأولى من بابويتنا».

كيف كتب البابا أيضاً إلى ملكة انكلترا وإلى بعض الأساقفة لصالح أسقف وينكستر

وكتب البابا رسالة بليغة، وفق اللهجة نفسها لصالح أسقف وينكستر، إلى ملكة انكلترا، وقد أعلن في بدايتها، بأنها —أي الملكة— كانت من أقربائه، أما كيف كان ذلك، فنحن لاندري على أي أساس، ما لم يكن قد أراد أن يجعلها متماشية أكثر مع أعماله، وأكثر تعاطفاً مع طلباته، ثم إنه طلب منها، وحثها (عالماً بأن المرأة حملت هذا الاسم لأنها تخفض غضب الرجل وتقلل من شروره) على السعي في سبيل تلطيف

حدة غضب الملك زوجها، الذي يشعر به ضد أسقف وينكستر.

كما أنه كتب إلى رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وإلى أسقفي ووركستر، وهيرفورد، وحثهم على الاهتمام شخصياً بكل يقظة بهذه القضية المذكورة، آمراً إياهم في نهاية رسالته أن يرسلوا إليه في رسائلهم الجوابية أسماء المستشارين السيئين الذين تولوا حرف عقل الملك.

رسالة أسقف وينكستر إلى الملك

«**إلى الأعظم سمواً، إلخ، إلخ:** بما أن رغبتنا —بقدر ماهي متوافقة مع احترامنا للرب— بذل جهودنا القصوى لتثمير رغباتكم الصالحة، استقبلنا بكل احترام لائق الراهب هوغ التابع لدير القديس تودور Tudor, الذي أرسل إلينا من قبل جلالتكم، وبعدما عرض علينا بعض الأسئلة باسمكم، أجبنا عليهم واحداً واحداً، متبعين —كما نعتقد— طريق العدل والانصاف، وذلك حسبما سيخبر الراهب هوغ المتقدم الذكر (كما سمعنا منه) جلالتكم بشكل كامل في رسائله، وبما أننا نود من صميم قلبنا أن ننفذ —بقدر مانستطيع مع الاحترام اللائق للرب— رغباتكم بشأن القضايا المذكورة، نرجوكم بكل تواضع، في تقديركم واحترامكم للكرسي الرسولي، أن ترحموا آلام كنيسة وينكستر، وأن تتقبلوني بحظوتكم ونعمتكم، وباحترام للاسم اللاهوتي، أن تستخدموا الرحمة لإلغاء الغضب الذي ربما شعرت به ضدنا، بناء على إثارة بعض النمامين،

اعتراضات الملك على أسقف وينكستر

وطالما تمت الاشارة إلى النقاط التي من أجلها أراد الملك مقاضاة أسقف وينكستر، ينبغي أن يكون معلوماً كيف وبأية حجج أجاب عليهم، ففي المقام الأول: بما أنه تم الحصول قديماً على مرسوم من أجل مايتعلق بامتيازات الملك، وكذلك مايتعلق بحق المملكة وعادتها، أي أن

الذين جرت تسميتهم وانتخابهم، عليهم بعد تسميتهم وانتخابهم من قبل الذين سموهم وانتخبوهم، أن يجري تقديمهم إلى الملك، وعليهم بعد تثبيتهم، وقبل قبولهم للإدارة في الشؤون الروحية أو الدنيوية، تأدية قسم بالولاء إليه، وهذه قضايا قد حذفت من قبل شخصية الأسقف المذكور، وقد حاول الملك وسعى للحصول على مرسوم من البابا، الذي لم يعبأ بأن ماتقدم، أي من أجل المستقبل وفي حالة قضايا مشابهة، يتوجب بقاء هذه الامتيازات، والحقوق، والعادات، نافذة، ويتوجب أيضاً تأكيدها من قبله، أي من قبل البابا.

ثانياً: يتوجب على الأسقف المذكور تحليل مدينة و ينكستر من قرار الحرمان من شراكة المؤمنين الذي أعلن ضدها.

ثالثاً: إنه لدى تسلمه ضمانة، أن يقوم بتحليل رجال الدين والعلمانيين، والآخرين، وبشكل خاص شعب وينكستر، من قرار الحرمان الكنسي، الذي أعلنه ضدهم، بسبب الخلاف الذي نشب بين الملك وبينه شخصياً.

رابعاً: إن عليه عدم خلع رئيس رهبان وينكستر، الذي وضعه الملك هناك، بل عليه إبقاءه في حظوته.

خامساً: عليه التصديق على جميع المنافع اللاهوتية في التماس عرضه، التي هي موجودة في أسقفية وينكستر، أو في أي مكان آخر، التي جرى منحها من قبل الملك منذ بداية الخلاف، وأن يسمح للمستحوذين عليهم التمتع بتملكهم بسلام.

سادساً: عليه عدم القيام بأية إجراءات قضائية ضد المعلم هنري دي سوسا، أو أي رجل دين آخر أو راهب جرت تسميته، بسبب هذا الخلاف، بل عليه العفو عن جميع الذنوب والأضرار، وأن يتخلى عن جميع مشاعر الغضب والحقد.

سابعاً: إذا توفر أي إدعاء أو سبب للعمل لديه، فيما يتعلق بنتاج وينكستر، في الزمن المنصرم، عليه التخلي عنهم له، أي للملك، صدوراً عن احترامه له، وأخذاً بمشاعر الكرم.

ثامناً: على الأسقف المذكور التخلي عن جميع مشاعر الغضب ضد الذين جرى نقلهم من قبل الملك، أو بناء على أوامره، أو نقلوا إليه من قبل أسقفي ووركستر وهيرفورد، ورئيس شمامسة كانتربري، وأن يتقبلهم برضاه الكامل، وبذلك يبقون محفوظين دون التعرض إلى أي أذى، وذلك فيما يتعلق بصلاح أسمائهم، ومنافعهم، وأحوالهم.

جواب أسقف وينكستر

ورد أسقف وينكستر على بند المطلب الأول الذي عمله الملك، بأن الذين تولوا تسميته، بعدما طلبوا الإذن من الملك، قدموه إلى الملك، وفقاً لعادة المملكة، وأنه عندما تمّ السماح بالتسمية، وجرى تثبيتها من قبل البابا، تدبر الأسقف المذكور، أمر رسائل البابا الموجهة إلى الملك حول هذه المسألة، بأن يجري تسليمها إليه، بوساطة كل من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، وكذلك بوساطة بعض رجال الدين، والفرسان، الذين قاموا بناء على أوامره، بالتقدم بالرجاء الحار إلى الملك، حتى يسمح له —أي الأسقف المذكور— بأن يقدم نفسه إليه، ليقوم بعمل الذي تتطلبه عادات المملكة وتأمر به، ولكن بما أنهم لم يتمكنوا من الحصول على هذا باستخدام جميع وسائل التوسل الملحة، ما من شيء يمكن أن يعدّ قد أهمل من قبله، أي من جانب الأسقف، وليس عائداً إليه عدم تنفيذ كل شيء، ورد وتمّ طلبه في بند طلب الملك.

وعلى البندين الثاني والثالث، أجاب الأسقف، بأنه إذا ما حصل على حظوة الملك (وهو مايرغب به من كل قلبه)، وأمكنه بسلام الحصول على ممتلكات أسقفيته، هو سيقوم صدوراً عن اللطف بسحب قرارات

الحرمـان الكنسي، والحرمان من شراكـة المؤمنين بشكلٍ قـانوني، غير أنه لايمكنه، بحكم تبجيله للرب كما هـو لائق، واحتراماً منه للعـدالة، أن يربط نفسـه بهذا بأي رباط اتفـاقيـة، ولكن بتجاوب لطيف مع طلب الملك، لقـد نوى أن يمنح جميع التحليـلات من الحرمـان الكنسي، التي يمكنه منحها من دون تعارض مع واجبه نحو الرب.

وبالنسبة للبنود الأربعـة التاليـة، أجاب، بما أنهم قـد أشاروا فقط إلى القضايا الروحيـة، أو إلى الأشياء المتعلقة بهم، والتـي بالتالي لاتسمح له بعمل عهد واتفاق، هو لايمكنه تنفيذ هذه البنود، وفق الطريقة المطلوبة من الملك، ومع ذلـك فإنه عندمـا سيجـري استقبـاله بـالحظوة من قبل الملك، ويحصل على تملك سلمي لممتلكات أسقفيتـه، هو سـوف يعمل، مع مسـاعـدة نصيحة الملك، ومستشـاريه المخلصين، ويتصرف بتسـامح كبير، ولسـوف يكون نفسه راغبـاً بتنفيـذ طلب الملك بقدر مـا يستطيع، وذلك بما يتوافق مع واجبه نحو الرب.

وبالنسبة للانتـاج المتقدم للأسقفية، أجـاب بأنه عندما سيحصل على حظوة الملك، وعلى تملك سلمي لأسقفيتـه، وعندما سيكون راضيـاً تجاه هذه الإجراءات، سوف يطيع رغبـة الملك، حتى ينال فضيلة التوصية به من قبله.

خديعة المعلم هنري دي سوسا

وعمل الملـك منذ ذلك الحين بلطـف أكبر نحـــو أسقف وينكستر، بسبب كل من التـوسـلات الملحـة للبـابا، ونظراً للتـذلل، وللجـواب اللطيف للأسقف، ولكن عندما ظهر السلام أنه على وشك الدخول إلى عتبـة البـاب، بدأ المعلم هنري دي سـوسـا، الـذي كـان السبب والمثير للخلاف نفسـه، والذي إليه منح الملك منفعـة غنية، هي المسـؤولية عن مشفى الصليب المقدس، خارج مـدينة وينكستر، بدأ وقد انزعج بضمير

مـذنب، يتفكر، ويقدر في قـرارة نفسه، أنه إذا مـا أعيد تأسيس السـلام بشكل كامل ومعلن، بين الأطراف المعنيـة، سوف يعدّ الأسقف صـديقاً خاصاً للملك، هو الأول، وليس الثاني لأحد، ولسوف يجري إطراءه في مجالس الملك، على أنه رجل مستقيم، وحـذر، ولسوف يسبب لسبب مـا الإزعـاج، ويضعـه —أي هنري المذكـور— في أحـوال مضطربة، وأن الملك سـوف يرفض نصـائحه، بالسهـولة نفسهـا، كما كـان قد اتبعهـا، ولدى تقديرة لجميـع هذه المسائل، اتخذ بوساطـة المال الذي حصل عليه من الملـك، ولم يكن مبلغـاً صغيراً، بعـض الأصـدقــاء الجشعين غير المستقيمين، واشترى لنفسـه (وليتـه لم يفعل ذلك) أسقفيـة في منطقتـه الذاتية، وأصبح كـرسول لذاته، مثل الغـراب الذي خدع صـاحبه نوح، وبانحطاط ترك نائبـاً غير بارع، ليحمل العبء، الذي كـان قـد تعهـد بحمله على كتفيه، واختفى من المملكة، وهو مليء بالأشيـاء الجيدة منها، ولم يظهر نفسه ثانية فيها.

كيف هرب البابا بشكل سري

بينما كان مـدار السنة يسير هكذا متقلباً وسط التغييرات العـالمية، بدأ الامبراطور فردريك وقد أثاره محرض الكرامـة، يندم لقيامه —كما تقدم الذكر أعلاه— بإذلال نفسه وربطها بالخضوع إلى الكنيسة، ونصب الآن شركـاً لقـدمي البـابا، وخطط لخيـانة سرية، غـدت فيها بعـد مكشـوفـة واضحة بما فيـه الكفاية، وتم من جهة أخـرى انذار البابا بشكل مسبق، فحاول أن يتجنب بقدر الإمكان التعـرجات الثعلبية للامبراطور، وبقي متيقظاً ضـدهم، كما أنـه لم يضع أية ثقـة به، أو بأصـدقـائـه، لأنه كـان يعرفهم بشكل جيد، وفكر بالمستقبل مقارنة بالماضي.

ورغب البابا، في يوم الثالوث المقدس، أن يقوي حزبه، لأنه كان لديه في جهـوده عـدد قليل من الأصحاب، والمشـاركين له في قلقـه، فعيّـن عشرة كرادلة هم: المعلم جون الطليطلي، وكان رجلاً انكليزياً من حيث

المولد، وبعض الآخرين من أسر متميزة وأصحاب أخلاق معروفة، وذهب في اليوم الثامن قبل عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، مع جميع الكرادلة إلى مدينة كاستيلانا Castellana, ومنها إلى مكان يبعد ثمانية عشر ميلاً عنها، من أجل أن يكون قريباً من الامبراطور، لتسوية قضية السلام، التي غدت الآن قضية مشكوكاً بها، لابل في الحقيقة قضية لاأمل فيها، ووصل عشية يوم الرسولين بطرس وبولص إلى مدينة سوتري Sutri, وتحرك الامبراطور ضده، وأرسل رسالة إليه، بأنه لن يفعل شيئاً بشأن القضايا المتفق عليها، مالم يتسلم أولاً رسائل تحليل، وبما أن البابا قد رفض فعل هذا، وردّ بأن هذا مناقض للمنطق، نشب خلاف بينهما، وبناء عليه، تصور البابا مسبقاً ورأى نتائج غضبه، ولذلك قرر القيام بقرار مفاجىء وخفي، ومن دون أن يعرف أحد بخططه السرية، خشية أن يكتشفهم الامبراطور، ويلقي معيقات في طريق تراجعه، وهناك —على كل حال— بعض من يؤكد بأنه فعل هذا، صدوراً عن حبه للهدايا، التي كان الناس، من هذا الجانب من الألب، على وشك إحضارها له، لكنهم كانوا لايتجرأون على العبور خلال أراضي الامبراطور، وأنه هرب لاخوفاً، وإنما بقصد مقابلتهم واستقبالهم في صدره المفتوح دائماً، وليس خشية من أي واحد يقوم بمطاردته، وهو لهذا عمل حجة أو أخرى، ووجّه خطاه بيقظة نحو جنوى، التي كانت منطقة متحالفة معه، وذلك كما سوف تبين الرواية التالية:

وبناء عليه، في ذلك اليوم، أي عشية يوم عيد الرسولين، وصل خبر سري إلى البابا (وهذا ما أكده هو فيما بعد) بأن هناك ثلاثمائة فارس توسكاني قادمين في تلك الليلة لاعتقاله، ولدى وصول هذه الأخبار إليه دهش، وظهرت عليه آثار الخوف العظيم، ومع الهزيع الأول من الليل، تخلى عن مظاهر الزينة البابوية، وعاد ثانية ليكون سينبولد

ولبس درعاً خفيفاً، وامتطى فرساً سريعاً، وحمل Senebald, حافظة نقود مليئة، وقام تقريباً دون معرفة خدمه، بشكل مفاجىء، بعملية مغادرته، ولم يوفر جوانب حصانه، قبل الساعة الأولى من النهار، وقد سافر لمسافة أربعة وثلاثين ميلاً، دون أن يرافقه أحد، لأنه ما من أحد كان قادراً على اللحاق به، وارتفع في منتصف الليل صوت نادى لقد غادر البابا، ذلك أنه ما من أحد كان على معرفة بمغادرته، إلاّ بعضهم، وكان عدد هؤلاء قليلاً، من الكرادلة، وقد تبعه في سفره هذا فقط بطرس أوف كابوا Capua, وكان معه خادم واحد، وقد لحقه بمغامرة كبيرة، ووجده في اليوم نفسه في قلعة عند الساحل اسمها سيفيتا فكشيا Civita Vecchia, وتقابل البابا في ذلك المكان مع ثلاثة وعشرين غليوناً وست عشرة بارجة، وكان في كل واحد من المراكب المذكورة ستين رجلاً مسلحين بشكل جيد، ومائة وأربعة مجذفين، وذلك إلى جانب البحارة، ولهذا ذهب بعض المتشككين من الناس إلى القول بأن البابا كان قبل وقت متوقعاً وصولهم وراغباً به، وكانت جميع المراكب مشحونة برجال مسلحين، وكانوا تحت إمرة حاكم جنوى، الذي يدعونه الأدميرال، ومعه أعيان أهل المدينة، الذين تفاخروا جميعاً بأنهم ارتبطوا بقرابة ما، أو بالدم، مع البابا، وكذلك في سبيل الحصول على مكافأة، وصعد البابا الآن في وقت متأخر من النهار، على ظهر واحد من تلك الغلايين، وكان برفقة سبعة كرادلة، وعدد قليل من الخدم، وأقلعوا نحو وسط البحر، وما كادوا يصبحون في البحر المكشوف، حتى هوجموا من قبل عاصفة ثقيلة من الريح، ومع ذلك لم تكن ضدهم، وقاموا بأشرعة مفتوحة —إنما ليس من دون خوف، ومن دون خطر عظيم— بالابحار وقد حملتهم قوى العاصفة مسافة مائة ميل، على المسار نفسه الذي كان الأساقفة قد أبحروا عليه، حيث جرى اعتقالهم من قبل الامبراطور، ووصلوا يوم الجمعة التالي إلى مرسى في جزيرة عائدة إلى البيازنة، حيث أمضوا الليل، وفي اليوم التالي،

تم تحليلهم من ذنوبهم، واستمعوا إلى قداس مريم العذراء، ذلك أنهم كانوا خائفين خوفاً عظيماً من البيازنة، ثم إنهم أقلعوا فوصلوا إلى جزيرة للجنويين، بعدما قطعوا مسافة مائة وأربعة أميال في ذلك اليوم، وقد نجوا من مخاطر البحر، مع كثير من المصاعب، وذلك نتيجة للعاصفة، وأخذوا طريقهم إلى ميناء فينوس Venus, وأقاموا هناك يومي الأحد والاثنين، وفي يوم الأربعاء، وصلوا وهم مسرورين، إلى جنوى، وصار البابا على مسافة سفر خمسة عشر يوماً عن المدينة، وفي هذه المدينة التي كان قد ولد فيها، استقبل من قبل أبناء بلدته، وآله وأقربائه، والأجراس تقرع، مع الأغاني وعزف الآلات الموسيقية، وهي جميعاً تصرخ بصوت مرتفع «مبارك الذي جاء باسم الرب»، وعليه ردوا ثانية: «روحنا مثل عصفور نجا من المتاعب» إلخ، إلخ، إلخ.

غضب الإمبراطورمن فرار البابا

وعندما أصبحت حقيقة فرار البابا معروفة لدى الامبراطور، عضّ على أسنانه مثل ساطير (إله اسطوري) وقال: «لقد كتب: يهرب الشرير عندما لايطارده أحداً»، واستولت عليه الدهشة والحزن، واتهم حراس الموانىء والسكان بالإهمال والكسل، لأنهم سمحوا لعدوه بالنجاة هكذا بسهولة من بينهم، ثم إنه أمر بإقامة حراسة دقيقة ومشددة على جميع الطرق من حول جنوى، خاصة نحو فرنسا، في سبيل عدم حمل أية أموال إلى البابا، وأعلن الامبراطور الآن عن نفسه عدواً مكشوفاً للبابا، وقام البابا أيضاً بدوره الآن بعدم عدّ جنوى ملجأ أميناً لنفسه، لأنه كان عارفاً تماماً بقوة الامبراطور، ومتذكراً كلمات الشاعر:

ألا تعلم بأن أيدي الملوك

قادرة على الوصول إلى كل شيء؟

الإمبراطور يربح صداقة عدد من الأمراء والنبلاء

وفي حوالي الوقت نفسه، بينما كان البابا مقيماً في جنوى، تآمر الميلانيون والليغوريون وكذلك بعض الايطاليين والرومان، وكثير من نبلاء ألمانيا، مع بعضهم، بناء على تحريض من البابا، وواحد من أعظم المقدمين قوة في بلاد ألمانيا، الذين يطلقون عليه اسم «اللاندغريف»، الذي تشجع ليدعي لنفسه المقام الامبراطوري، حتى يجري انتخابه بشكل نظامي، وقد اعتمدوا على المساعدات الكثيرة من الأساقفة والنبلاء، لشن الحرب ضد الطاغية فردريك، بحكم أنه المضطهد العام والمعلن للكنيسة، وقد أظلم اسمه إلى درجة عالية وتمّ التأكيد بأنه لايسير بخطا ثابتة في شريعة الرب، ولأنه كان متحالفاً مع المسلمين، فهو يحتفظ بعاهرات وخليلات مسلمات، ويفعل أشياء أخرى غير لائقة، وكثيرة جداً حتى يمكن ذكرها.

غير أنه عندما كان اللاندغريف المذكور على وشك القيام بمحاولته، وكان يتداول مع أتباعه من النبلاء وأصحابه، الذين اجتمعوا لهذه الغاية، ويتذاكرون حول الذي ينبغي أن يعملوه، أخبره أصدقاؤه أنه من الطيش محاولة فعل ذلك، وأن يعهد بنفسه إلى تقلبات الحظ، في الوقت الذي ينعم فيه بالهدوء والسلام، مع عدم الاعتماد على أي شيء وعده به حزب البابا، وبينما كانت آراؤهم معلقة هكذا في ميزان الشكوك، قام الامبراطور برحلة سريعة،وظهر فجأة فيما بينهم، مع عدد قليل من الأتباع، الذين عرفوا بهذه الوقائع، وتمكن بمناقشاته من تحويل عقل اللاندغريف المخنث المذكور، عن نواياه، وقبل أن يفترقا، أصبح هو واللاندغريف أصدقاء حميمين ومتحالفين، وقاما بتبادل الهدايا، وبعد الفراغ من هذه القضية غادر الامبراطور سراً وبشكل مفاجيء مثلما جاء.

وأثناء وقوع هذه الأشياء، قام الامبراطور في سبيل تقوية حزبه، الذي اعتقد أعداؤه أنه قد ضعف كثيراً في هذه الآونة، فأعطى ابنته بالزواج إلى واحد من أعظم مقدمي الاغريق قوة، وكان اسمه بتّاكيوس

Battacius, وكان انساناً مكروهـاً من الكنيسة وغير مطيع لها، ومنشقاً عنهـا، ولدى سماع أعـداء الامبراطور بهذا حـاروا واضطربوا ولم يعـودوا يعرفون مايقولون.

عصيان الويلزيين وخيانتهم الدنيئة

وفي حـوالي هذا الوقـت من السنة، قـام الويلـزيون الأجـلاف، وهم لايعـرفـون كيف، لأنهم كـانوا غير راغبين باخضـاع رقـابهم للشرائع غير المعـروفـة لمملكة انكلترا، قـامـوا فعينـوا داود بن للويلين وبعض الأمـراء الآخرين لويلز، قـادة لهم، وشنوا حرباً هي الأكثر دمـوية ضد ملك انكلترا وأعوانه، ناسين صكوك تعهداتهم، وأيمانهم، وجرت مقاومتهم —على كل حـال— بشجـاعـة، بناء على أوامـر الملك، من قبـل ايرل كلير، وايرل هيرفـورد، وتومـاس أوف مـونماوث Monmouth,وروجـــر دي ميكوت Michaut مع بعض القـادة الأقـوياء الآخـرين والمشهـورين، وذلك في سبيـل الحفـاظ على أراضيهم، مـع أنهم نالوا أثناء بـداية الصراع الحظ الأسـوأ من القتـال، لكن أخيراً، كما هـي الحالة المعتـادة للحـرب، حصلوا على نصر على أعدائهم، وسقط في هذه المعركـة مائة رجل أو أكثر، من على الجانبين.

وصول شائعات متنوعة إلى الملك وهو في سينت ألبان

كـان الملك أيام عيـد القـديس برنابا في سينت ألبـان، حيث مكـث مـدة ثلاثة أيام، وأثناء وجـوده هناك، وصلـت شـائعـات عن صلف الويلزيين، وصارت متوالية إلى بعض المعـايير، وقد وصل إليه بعض الرسل مع بعض الأخبـار التي أزعجته كثيراً وأحـزنتـه، وقالـت هذه الأخبار بأن انتخـاب كـاهنـه روبرت باسلو Passlow, الذي جـرى انتخـابه إلى أسقفيـــة شيستر، قـد ألغي، وأن شخصـاً آخر، اسمـه رتشـارد دي ويك Wiche, قد جرى بشكل مفاجىء تعيينه في محله، لأن المعلم مارتن، الذي كان كاهناً

بارزاً لدى البابا، قد كـان هناك ليلقي بأصابعه الناشلة على الموارد من أجل استخدامات البـابا ومنافعه، وبالإضافة إلى التقارير المتقـدمة، سمع تقارير أخرى، ذكرت بـأن ملك سكوتلندا قد أرسل إليه بوقاحـة رسالة بأنه ليس متملكـاً لأي شيء من مملكـة سكـوتلندا منـه، أي مـن ملك انكلترا، وأنـه ينبغي ألا يفعل ذلك، ولن يفعله، وقد تناقصت صداقة هذين الملكين كثيراً جداً، منذ أن أقام ملك سكوتلندا تحالفـاً زواجياً مع ابنة انغلرام دي كوسي Engelram De Coucy, الذي كـان مثل جميع الفرنسيين، مشهـوراً بأنه واحداً مـن مقدمي —إن لم يكن مقدم— أعـداء ملك انكلترا، ولذلك قرر ملك انكلترا وعزم على الانتقام للأضرار التي ألحقت به، فقام بتشجيع الذين كانوا يتـولون الحرب ضد الويلزيين، ومساعدتهم، ووعـدهم بمزيد من المسـاعـدة الفعـالة، بالعسـاكر والمال، وبعـدمـا رتب الأعمال المتعلقـة بشـؤون الأحوال في سكوتلندا، استـولى على أسقفية شيستر ووضعهـا بين يديه، ولم يسمح للأسقف المنتخب حـديثاً بممارسة أيـة سلطة، كما أنه شعر بغضب شـديد ضد الذين تسببـوا بحدوث هذه القضيـة، ووافقوا عليهـا، وكـان غضبه هو الأشـد ضد رئيـس الأساقفـة المنتخب لكانتربري، الذي اتهمه بكل مرارة بالعقـوق، وأنه كان متآمراً بشكل خيـاني منذ بداية ترقيته، ولكي لايبدو متراخياً في جوابه على رسـالة ملك سكوتلندا، وعلى وقاحته، بعث برسـالة مكتومة إلى كـونت فلاندرز (بحكـم كونه حليفاً مخلصـاً له، ومرتبطاً به بكثير من الواجبات) ليقدم إليه مع قوة من الجند، لمساعدته ضد ملك سكوتلندا، وهو طلب استجاب له الكونت على الفور.

استدعاء أسقف وينكستر وتصالحه مع ملك إنكلترا

وعقد الملك في الوقت نفسـه مجلساً استشارياً حكيماً، فـاستدعى أسقف وينكستر بطريقة تصالحيـة، وجاء الاستدعاء له من القـارة، بناء على مبادرة من البابا ومن بعض نبـلائه الخاصين، الذين التمسوا باخـلاص رضاه عن الأسقف، وقـد وعده برضـاه، وأن يعيـد إليه الممتلكات التي أخـذت منه،

وعندها قام الأسقف وفق تصرف لائق متوقع منه، فحصل على إذن الملك الفرنسي، وقدم الشكر إليه على المنافع التي أضفيت عليه من قبل الملك، لإستقباله له، وتقديم الحماية له عندما كان منفياً في مملكته، وعاد من ثم إلى انكلترا، حيث نزل في دوفر بعد رحلة مريحة، وكان ذلك في الخامس من نيسان، ولدى وصوله، قدم له جميع الانكليز —باستثناء أولئك الكهنة ورجال بلاط الملك الذين بذروا بذور الخلاف، والذين جرحوا بضمائرهم— تهانيهم، قائلين: «مبارك الذي قدم باسم الرب»، لأن الآمال كانت راسخة بأنه سوف يقوي بحكمته الوافرة، وبمشاعره الطيبة، الملك، ويمتن المملكة، ويجلب أسقفيته إلى أفضل الأحوال، ومثل بنفسه، وهو مسرور تمام السرور، أمام الملك، وقد استقبله وهو يبتسم، وبنظرة راضية، وكأنه قد كان دوماً متحرراً من جميع الذنوب ضد الملك، وقد ازدادت عواطفهما وسرورهما بطريقة غير اعتيادية، وذلك من يوم إلى يوم، وفقاً لكلمات الشاعر:

عندما تختفي غيوم الخلاف

تصبح شمس العواطف أكثر وضوحاً

وبدأ في هذه الآونة ب. B, الأسقف المنتخب لكانتربري، على عكس توقعات جميع الذين أوجدوه، بالعسف برهبان كانتربري، بحدة كبيرة، وبطريقة كانت غير متوقعة منه، متصرفاً بكل شيء بالدرجة الأولى لبهجته، دون أن يقيم أي تقدير لأي منطق.

الموت التعيس لإنغلرام دي كوسي

وفي الوقت نفسه، ومع اقتراب شهر آب، واجه إنغلرام دي كوسي، والد ملكة سكوتلندا منيته بطريقة مدهشة، وبناء عليه أرسل ولده جون قوة من الجند بوساطة البحر، لمساعدة ملك سكوتلندا، غير أن ملك انكلترا طرد بالقوة، وأبعد جميع الذين أرسلهم، ولقد قلت بأن انغلرام المذكور الذي هو

مضطهد قديم للكنيسة، وخاصة كنيسة كليرفو، التي أوجدها أجداده بشكل فخم، وبنوها فوق اقطاعيته، قد مات بطريقة مدهشة، ذلك أنه مات —كما حدث فعلاً— بطريقة مزدوجة، وعندما كان حياً كان معمارياً متحمساً بالمواد المادية، لكنه كان بالمواد الروحية مبدداً سيئاً، وفي أحد الأيام، عندما كان مسافراً، توجب عليه عبور إحدى المخاضات، وعندما وضع حصانه حافريه ليعبر، انزلق بسبب إحدى المعيقات، وسقط على ظهره في الماء العميق، حيث جرى —لسوء الحظ— جرّه بوساطة ركاباته، ولدى سقوطه على رأسه، خرج سيفه من غمده، وخرق جسده، وهكذا غرق وطعن بسيفه، ففارق هذه الحياة، ليجني ثمار طرقه.

وكما ذكرنا من قبل، أعطى ابنه جون، ووريثه لكل ممتلكاته، صدوراً عن عواطفه لأخته، ملكة سكوتلندا، نصيحته ومساعدته، إلى زوجها الملك، وقام هذا الملك بتحصين القلاع على حدود انكلترا، وتوسل طالباً المساعدة من النبلاء من أقربائه، ومن جيرانه، ضد ملك انكلترا، الذي كان يتآمر ضده، ومنحت المساعدة، التي طلبها هكذا في وقت الحاجة، برغبة قلبية من قبل بعض النبلاء، أما القوات الموعودة فقد أرسلت إليه بأعداد كبيرة.

الملك يطلب مساعدة مالية

وجرى في العام نفسه عقد اجتماع، بناء على استدعاء من الملك، ضم نبلاء المملكة كلها، وحوى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، فقد اجتمع هؤلاء كلهم في لندن، في حجرة الطعام في ويستمنستر، وطلب الملك، بحضور النبلاء، بفمه مساعدات مالية، وقد عبر بصمت ولم يذكر خطته بشن الحرب على ملك سكوتلندا، وكان السبب المكشوف الذي أعطاه إليهم من أجل مطلبه، هو أنه قد ذهب في السنة الماضية إلى غسكوني، بناء على نصيحتهم —كما قال— حيث صار مديوناً بمبلغ كبير من المال، وأنه لن يتمكن من تحرير نفسه من ذلك الدين، مالم يتم بشكل فعال جداً مساعدته من قبلهم،

وعلى هذا أجابه النبلاء، بأنهم سوف يتشاورون حول هذه القضية، وعندما غادر النبـلاء حجرة الطعام، اجتمع رؤسـاء الأساقفة، والأساقفـة، ورعاة الديرة، ورؤسـاء الرهبان مع بعضهـم في مكان خاص منفـردين بأنفسهم، للتداول حول القضية، وبعد طويل وقت سألوا الايرلات والبارونات، عما إذا كانوا سيوافقون على نصيحتهم، في تقديم الجواب، وفي إعطاء حل لهذه القضيـة، وعلى هذا أجـاب هؤلاء النبـلاء بأنهم لـن يفعلوا شيئاً، من دون موافقـة عامـة للجماعة كلهـا، وبناء عليه جـرى باتفاق من الجميـع اختيار ممثلين لفئة رجـال الدين هـم: رئيس الأسـاقفـة المنتخب لكـانتربري، وأسـاقفـة: وينكستر، ولنكولن، وووركستر، وجـرى اختيـار ممثلين لفئة العلمانيين هم: الايرل رتشـارد —أخو الملك— وايرل بيغـود، سيمون دي مونتفـورت، وايرل ليستر، وايرل و W مـارشال، وعن فئة البـارونات: رتشـارد دي مـونتفكيت Montficet, وجـون بالأويل Baliol مع راعيي ديري القـديـس ادمـوند، ورامسي Ramsey,وتقـرر أن جميع الذي سيقرره هؤلاء الاثنا عشر، سوف يجري نشره إلى الجميع بشكل عام، وبناء عليه ما من بند سوف يجري تقديمه إلى الملك إلاّ بموافقة الجميع، وبما أن صك وثيقـة الامتيازات التـي كان الملك قـد منحهـا من قبل، والتي من أجل تنفيـذهـا، قـدم ادمـوند، رئيس أسـاقفـة كـانتربـري يمينه، فغـدت مضمـونة، ووعد صـادقاً بأن الملك سـوف ينفذها ويرعـاها، هي لم توضع بعد قيد التنفيذ، وبما أن المساعـدات التي غالباً ما أعطوها إلى الملك، لم تكن منتجـة أيـة منافع له أو إلى المملكـة، وبسبب أنه من خـلال الحاجـة إلى مستشار، فإن المذكرات غالباً ما أعطيت مضادة للعدالة، وعندما سألوا بأن يأتي تعيين المسـؤول عن العـدالة والمستشـار، بناء على انتخـابهم، حيث به يمكن للمملكة أن تتدعـم، حسبما كانت هي العادة، قام الملك، حتى لايظهر أنه مقبل على تبني أية خطة جـديدة للإجـراءات القضائيـة بالقوة، فـرفض الموافقة على التماسهم، غير أنه وعـد بأنه سوف يصلح الأشيـاء التي جرت الشكاية منهـا مـن جهتهم، ولذلك أمـروا بالاجتماع ثانيـة عند نهاية ثلاثة

أسابيع بعد عيد طهارة العذراء المباركة، وقد أعلنوا —النبلاء— الآن، أنه إذا ما سيقوم الملك بإرادته وحريته، بانتخاب مثل هؤلاء المستشارين، وسوف هكذا يدير قوانين المملكة، سوف يكونوا راضين، وسوف يعطونه بالوقت المذكور جواباً، وسوف يزودونه بالمساعدة، على شرط هو أنه، مهما كانت الأموال التي سوف تمنح له، فإنها سوف تنفق من قبل الاثني عشر نبيلاً المذكورين أعلاه لصالح الملك، وبعدما وضعهم الملك جانباً لبضعة أيام، سعى إلى إنهاكهم حتى يعطوه مساعدتهم من دون تأجيل ذلك حتى وقت مستقبلي، واستدعاهم للاجتماع به مراراً، غير أنه لم يستطع غلبتهم واقناعهم، لأن النبلاء وزنوا المسألة بعقولهم بشكل حكيم، فبقيوا ثابتين على قرارهم لايمكن تحريكهم، وبات الملك أخيراً ميالاً لاستمالة رجال الدين على الأقل للموافقة على رغباته، لذلك وجّه الدعوة إلى الأساقفة، وعرض عليهم جهاراً رسائل من البابا، استهدفت مايلي:

رسالة البابا إلى أساقفة إنكلترا

«من انوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، و إلى أبنائه المحبوبين رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورؤساء الشمامسة، والأساقفة الآخرين للكنائس، والكهنة في انكلترا، صحة، ومباركات رسولية:

على أمنا الكنيسة أن تسمح بإعطاء امتيازات إلى الذين رفعوا فوق أتباعهم بالمراتب الملكية، وعليها التوجه لربط الأهمية بهم، بقدر ما سلطتهم متحمسة دوماً في إخلاصها لها، أي الكنيسة، وبقدر ما هي ساهرة على خدمتها، وبناء عليه، وقياساً على ذلك، إنه بالنسبة لجميع أمراء الأرض، نضم بين ذراعينا، ولدنا المحبوب جداً في المسيح، الملك المشهور لانكلترا، ونمنحه عاطفة خاصة، لأنه واحداً —بحكم كونه أمير كاثوليكي مخلص— قد أظهر دوماً احتراماً إلى الكنيسة الرومانية، التي هي أمه، وذلك بوساطة خضوعه الابنوي، وأدائه لواجبه، بطريقة أنه لم

ينحرف قط جانباً عن عمل مايرضيها، لابل، أكثر من هذا، قام دوماً بعناية فائقة، ففعل الأشياء التي عرف بأنها ترضينا، وموافقة لنا، وبناء عليه إنها ليست قضية عجيبة، لابل إنها أصبحت مسألة عادية بالنسبة لنا، لذلك سوف نستجيب بسهولة أكبر لإلتماساته، وسوف ننشد مجده، وزيادة كرامته وأحواله، وذلك عندما ستوافقون بكرمكم مع الذين يرغب به شخصياً، وبما أن الملك المذكور قد شرح لنا من جانبه، بأنه تحمل عبء بعض النفقات الثقيلة، بسبب بعض مصاعب القضايا الكبيرة والصعبة، التي ضغطت عليه، وهو مايزال تحت حاجة تحمل المزيد من النفقات، ولذلك هو بحاجة إلى مساعدتكم، ولذلك نحن نرجوكم، ونحذركم، ونلتمس باخلاص من جماعتكم، ونأمركم بوساطة هذه الكتابات الرسولية، وذلك بقدر ماتستطيعون وبقدر ما هو موائم لكم، أن تدعموا الملك المذكور في جهوده، وأن تخففوا حمله، وأن تمنحوه مساعدة مشرفة وكريمة، من مواردكم، وذلك حتى يتمكن من دون أي ضرر لكرامتكم، وأوضاعكم، ومن دون أية خسارة، أو إرباك إلى أي منكم، من تجنب العسف به بحمل عبء ثقيل جداً، وأنه بتقديم المساعدة له بأيديكم اليمنى، يمكنه بسهولة أكبر تحمل عبء نفقاته، وأنكم بفعلكم ذلك، يمكنكم أن تكونوا قادرين في مستقبل الأيام المطالبة بحظوة وشكر الملك المذكور (وهو الذي، أنتم بلاشك بحاجة إليه) في أموره الصالحة، التي أنتم شركاء بها، وفي كرامته ومجده أيضاً، سوف تكونون كذلك، لستم من دون حصة ونصيب، ولكي نمتلك نحن الذين نرغب من هذا الوقت في أن نظهر أنفسنا ميالين أكثر لزيادة منافعكم ومنافع كنائسكم، سبباً صالحاً للاعتماد على ثبات اخلاصكم. صدر في جنوى في التاسع والعشرين من تموز، في السنة الثانية من بابويتنا».

وكتب أيضاً بالأسلوب نفسه إلى كل واحد من الأساقفة على انفراد، وكان ذلك —على كل حال— ليس من دون انفاق مبلغ كبير من المال،

كان قد أُرسل إليه من أجل متاعب الكتابة.

وتقرر — على كل حال— بشكل جماعي، قراراً لن ينزاح عنه النبلاء، بأن الإجابة على رسالة التماس البابا، لصالح الملك، تؤجل حتى قبيل المدة المحددة من قبل، وبناء عليه عندما كانوا مغادرين في اليوم الأخير من المؤتمر، الذي استمر ستة أيام، وكل يوم حتى الليل منه، توجه الملك بالرجاء إلى جميع الأساقفة، بالاجتماع ثانية في اليوم التالي، واجتمعوا بناء على طلبه في حجرة مصح بيعة القديس يوحنا الإنجيلي، ووقتها أرسل الملك سيمون، ايرل ليستر، وب .P ايرل أوف سافوي، ورالف فتز— نيقولا، ووليم كانتيلوب Cantelupe, وجون فتز— غ .G, وقام هؤلاء نيابة عن الملك، فشرحوا رغباته إليهم، ورجوهم بإلحاح بإطاعة إرادته، على أساس طلب قداسة البابا، حتى وإن لم يأخذوا طلب الملك بالتقدير، كما أنهم شرحوا لهم مدى الحاجة الكبرى للملك، والمخاطر المحيقة به وبالمملكة، وهي أن الحرب تفجرت في غسكوني، وأنه لابدّ من قمع وقاحة الويلزيين، وعند ذلك طلب الأساقفة نسخة عن رسالة البابا، حتى يتمكنوا من التداول حولها، وأثناء قيام هذه المناقشات، وصل الملك مسرعاً، وظهر بينهم، واحتج بيمينه المعتاد، بأن كرامتهم سوف تكون عزيزة عليه مثل كرامته، وبالمقابل ينبغي أن يكون هو عزيزاً عليهم بالدرجة نفسها، وكدس الالتماس فوق الالتماس في مجال القضية المذكورة أعلاه، ولكن بما أنهم أصروا على جوابهم، من أنهم سوف يقدرون القضية، غادر وهو في حالة اضطراب.

وبعد مداولات طويلة، رغبت بعض الفئات بأن يعطي الأساقفة والعلمانيين جواباً لطيفاً إلى الملك، وردّ عليهم أسقف وينكستر بهذه الكلمات القائمة على أساس لاهوتي بقوله: «دعونا أن لانبعد أنفسنا عن الرغبة العامة، لأنه قد كتب: إننا إذا ما انقسمنا، فسوف نموت على الفور»، وبناء عليه جرى تأجيل كافة الترتيبات، حتى الموعد الذي تقدمت تسميته،

وذلك فيما يتعلق بطلب البابا لصالح الملك، وكذلك بالنسبة للملك نفسه،

وبناء عليه عندما وجد أنه لن يستطيع اضعاف تصميمهم عندما يكونوا متحدين مع بعضهم، لجأ إلى خطة دهاء الرومان، وقرر —مثلما فعل في حالة أخرى— أن يحاول معهم واحداً واحداً بشكل إفرادي، وأن يفرض عليهم حججاً زائفة، من أجل إخضاعهم لإرادته، ولذلك عاد وسألهم الانتظار يوماً آخر، غير أن بعض الأساقفة رأوا خديعة هذا الانتظار، فرغبوا أن لايقعوا بالشراك، فغادروا في الصباح الباكر، وهكذا نجوا بشكل حكيم من المصائد التي وقعوا بها من قبل، وعلى هذا ارفض المؤتمر، مع كثير من عدم الرضا للملك.

الشروط التي عملها النبلاءمع موافقة الملك

«إنه فيما يتعلق بالامتيازات التي تمّ الحصول عليها، والتي منحت، وتثبتت بصك من الملك في وقت متقدم، إنهم من الآن فصاعداً، سوف تجري مراعاتهم، ومن أجل ضمانة لهم، سوف يجري عمل صك جديد، فيه سيكون هناك ذكر خاص لهذه المسائل، ولسوف يجري حرمان جميع الأشخاص كنسياً من قبل جميع الأساقفة، الذين يعرفون، ومع ذلك يقدمون عن عمد على خرق الامتيازات التي جرى منحها من قبل جلالة الملك، أو يعملون على منع مراعاتهم، ولسوف يجري اصلاح وضع الذين، عانوا منذ الإعطاء الأخير، من أي أذى لحق امتيازاتهم، وبما أن الوعد الذي قطع في ذلك الحين، ولم يتم تنفيذه من قبل الملك، الذي بذلك لم يعط أي اهتمام أو تقدير إلى فضيلة اليمين الذي أقسمه، ولم يظهر أي خوف من القرار الذي تفوه به الرجل المقدس ادموند، ولكي لايقع خطر من هذا النوع في المستقبل، وبذلك تقوم مخاطر جديدة أسوأ من المخاطر القديمة، تمّ الاتفاق، على وجوب اختيار أربعة أشخاص من أعلى الناس استقامة، ومرتبة، ومقدرة، بموافقة عامة، ليكونوا مستشاري الملك، وسوف يقسمون مخلصين بالعمل على تقرير جميع القضايا المتعلقة بالملك وبالمملكة،

وأن يظهروا العدالة إلى الجميع، دون تقدير للأشخاص، وسوف يبقى هؤلاء مع الملك، وإذا لم يكونوا جميعاً، على الأقل سوف يبقى اثنان دائماً حاضرين لسماع شكاوى كل واحد من الناس لابل جميع الناس، وأن يقدموا، بأقصى سرعة ممكنة التفريج إلى الذين يعانون من الأذى، وبأعمال تفتيشهم وبناء على بيناتهم، سوف تتم إدارة خزينة الملك، والأموال التي منحت إليه من قبل المجتمع بشكل عام، وسوف يجري صرفها لصالح الملك والمملكة، وفقاً لما سيرونه أكثر مواءمة ونفعاً، وهم سوف يكونوا الحافظين للامتيازات المذكورة، وبحكم أنه جرى انتخابهم بموافقة عامة من الجميع، لذلك ما من واحد منهم سوف يجري نقله أو حرمانه من وظيفته من دون موافقة عامة، وإذا ما انتزع واحد من بينهم بوساطة الموت، وقتها سوف يحل رجل آخر محله بوساطة انتخاب وموافقة الثلاثة الآخرين، خلال مدة شهرين، وسوف لن تجتمع الجماعة كلها ثانية من دون هؤلاء الأربعة المذكورين، مالم تستدعي الضرورة، أو بناء على طلبهم، والمذكرات التي جرى الحصول عليها معارضة للملك، وضد عادة المملكة، سوف تزال وتلغى، ويتوجب أيضاً عمل إشارة إلى الحكم الذي سوف يصدر ضد المخالفين، وكذلك وجوب أداء يمين بين الفئات، وكذلك فيما يتعلق بحلقة العدالة، سوف يجرى انتخاب مسؤول عن العدالة ومستشار من قبل الجميع،وبما أنهم سوف يكونون دوماً مع الملك، سوف يكونون أيضاً بين عدد المحافظين على الامتيازات، وإذا ما حدث في أية مناسبة، سوف ينتزع الملك فيها ختمه من المستشار، إن كل ماسوف يجري ختمه خلال المدة الفاصلة، سوف يعدّ لاغياً وفارغاً، وبعد ذلك سوف يعاد الختم إلى المستشار، وما من مستشار أو مسؤول عدالة سوف يجري تعيينه في مكان آخر، مالم يكن من خلال مؤتمر خاص وعام، وبالموافقة الحرة للجميع، ولسوف يجري انتخاب اثنين من مسؤولي العدالة لمنصة الحكم، وسوف يجري تعيين بارونين في الخزينة، وسوف يجري تعيين واحد على الأقل ليكون مسؤولاً عن العدالة لليهود، وفي هذه المناسبة

ســوف يجري إعـداد جميع الموظفين الرسميين المقــدم ذكــرهم وتعيينهم بمـوجب انتخاب الجميع الحر والعـام، وبناء عليـه بها أنهم سوف يتـولون تسـوية قضـايا الجميع، لذلك مـوافقة كل واحـد سـوف تكون مطلوبة في انتخابهم، وفيما بعـد، وعندما يكون ضرورياً لأي واحد آخـر استبداله، أو تعيينه في محل أي واحد مـن الموظفين الرسميين المتقدم ذكرهـم، إن التبديل أو التعيين ســوف يجرى من قبل، أو بمـوجب سلطة هؤلاء المستشــارين الأربعـة الذين تقـدم ذكـرهم، والذيـن توفـرت حـولهم شكوك، أو الذين ليست إليهم حاجة، سوف يجري عزلهم من جانب الملك.

البابا يرسل المعلم مارتن إلى إنكلترا مزوداً بسلطات جديدة غير اعتيادية

وفي الوقت الذي كـان فيـه النبلاء مشغـولين بشكل متـواصل لمدة ثلاثة أسـابيع في ترتيب هذه المسائل في سبيل تقـدم الصالح العـام، أعاق العـدو القـديم، ذاك العدو المسبب الاضطراب للسـلام، والمؤصل للانشقاقـات، أي الشيطان، أعـاق جميع القضـايا التي تقـدم ذكـرها، بوسـاطة نهم البـابا وشرهه، لأن الحبر الأعظم اعتقــد بأن الانكليـز المرنين، ســوف —وفقـاً لعادتهم الجارية— يخضعـون رقابهم، ويستجيبـون للاسهام بناء على إلحاح الملك، وكذلك على أساس طلبـه المستعجل، فأرسل رجل دين من المقربين إليـه، اسمـه المعلـم مـارتن، الذي جـرى تزويـده بسلطات جـديدة وغير اعتيادية، أعظم مما منح إلى أي نائـب بابوي نتذكره قـد وجد من قبل، لأنه مدّ يـديه لفرض المكوس، ولفـرض الأتاوات لأسباب غير معروفـة، فقط تبعـاً لما يهواه عقله، من دون أي تقدير للمنطـق، ولأنه كان مسلحـاً بسلطة متـوحشـة من قبل البابـا، الذي منه أظهر كل يـوم صكوكاً جـديدة، وفقـاً لرغبـاته، أو لتبني أية قضيـة مفاجئة، من القضـايا الاضطرارية، استخـرج بالقـوة الموارد، حتى يجري منحهـا إلى أقرباء البـابا، ولهذا قـال كثيرون بأنه كـان لديه كثيراً من أوراق الرق غير المكتـوبة، والمختومـة بالختم البـابوي،

بحيث كـــان بإمكانه أن يكتـب في هذه الأوراق الذي رغب بـه، لاسمح الرب بذلك.

وجـرى ارسال هذا النائب البـابوي المخادع، في المقـام الأول إلى الملك، فقد ابتـدأ به ليرد المعروف إلى البابا، وليستخـدم جهوده القـو ية بمثابرة في سبيل اقناع أساقفة انكلترا، ليقدموا موافقـة عامة بأن يمنحوا هذا الإسهام إلى البـابا، أو الوعد على الأقل بدفعـة سريعـة مقدارها عشرة آلاف مـارك، وعلى هذا الطلب رد الملك بأن نبلاءه، والأساقفـة، ورجال الدين، وكذلك الايرلات، والبـارونات والفـرسـان، غـالبـاً مـاانتـزعت منهم مقتنيـاتهم، بمختلـف الطرق المخترعـــــة، حتـى أنهم بـاتوا الآن ولم يترك لهم شيئـاً لأنفسهم، وقال أيضاً:

«إنهم الآن ســوف لـن يدفعــوا شيئاً، ولايمكنهـم دفع أي شيء لي أنا ملكهم، ولا كذلك إلى البابا، وقد قمت على كل حال بالتذلل إليهم بنفسي، وتماشيت مع رغبـاتهم، فأجابوني بلطف أكبر، ووعـدوني بمساعـدة، وفقاً لإمكاناتهم»، وعنـدمـا سمع المعلـم مـارتـن هذا، غـادر وذهـب مع نظرة سلبيـة، ليس في ذهنه توقع أية مسـاعـدة مـن الملك، ومع ذلك قـام بجمع الأساقفة، وأراهم الرسائل الرسولية، وفق الشكل الوارد في الفصل المقبل، وهي موجهـة أولاً إلى رؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفة، وبعـد ذلك إلى رعاة الديرة، سواء المعفيين منهم وغير المعفيين.

رسالة البابا إلى أساقفة إنكلترا مطالباً بالإسهام

«من أنوسنت، الأسقف، وعبـد عبيد الرب، إلخ، إلخ، إلى رعـاة الديرة المعفيين منهم وغير المعفيين وإلى إخـوانهم الرهبــان في أسقفيـة كـانتربري، صحة ومباركات رسولية:

لنا آمال كبيرة في عواطفكم الصادقـة، ونشعر بثقة كبيرة، أنه عندما تحيق أحوال الحاجـة بالكرسي الرسولي، أي بأمكم الكنيسـة، يمكننا بكل ثقة أن

نلجأ إليكم، بحكم أنكم أولادها المحبوبين والمخلصين، الذين هم دوماً متلهفين ومستعدين لتخليصها من أحمالها، وبما أن الكرسي الرسولي المتقدم ذكره غير قادر حتى الآن على تخليص نفسه من وطئة تلك الديون التي تعاقد عليها من أجل الدفاع عن الإيمان الكاثوليكي، وعن حرية الكنيسة، وعن ميراثها الذاتي، باستخدامه للمبالغ التي جمعت ومنحت لمساعدتها في انكلترا وفي الممالك المسيحية الأخرى، بموجب سلطات سلفنا البابا غريغوري صاحب الذكرى الطيبة، لذلك نحن الآن مضطرين بسبب الحاجة إلى اللجوء بثقة إلى عواطفكم الخالصة، ونقوم بموجب نصيحة إخواننا بسؤالكم وانذاركم، وبموجب هذه الرسائل الرسولية نأمر جماعتكم، أن تقوموا بموجب مشاعركم البنوية بالتقدير، كما هو مؤمل منكم، والنظر إلى الحاجة الملحة، وإلى ثقل العبء الذي عسف بشدة بالكنيسة الرومانية، التي هي أمكم الروحية، فهي مقهورة، وتقريباً مغلوبة، لذلك قدموا إليها الرحمة المستحقة في هذه القضية، وفي سبيل دفع الديون التي تقدم ذكرها، ولتقديم العون لنا وللكرسي المذكور بمبلغ من المال فيه كفاية، ووفقاً للطريقة التي يراها صحيحة ابننا المحبوب المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، الحامل لهذه المطالب، وكل الذي يعبّر عنه ويعلنه هو باسمنا ولصالحنا.

ونحن نأمركم أيضاً بإعطاء المال الذي أسهمتم به إلى المعلم مارتن المذكور، أو إلى رسله، خلال المدة التي سوف يحددها لكم لفعل ذلك، وعليكم هكذا تنفيذ أوامرنا، حتى لانمتلك سبباً صالحاً لنأمر تقواكم، ولكي لانكون مرغمين على اللجوء إلى وسائل أخرى في هذه القضية. صدر في اللاتيران، في اليوم السابع من كانون الثاني، في السنة الأولى من حبريتنا».

وعندما جرى نشر هذا في لندن، وبات مفهوماً بشكل جيد من قبل جميع الأساقفة ورعاة الديرة بشكل خاص، رفض رعاة الديرة إعطاء جواب من

قبل أنفسهم وحـدهم، وآثروا أن يفعلوا ذلك مع آخـرين، لأن رسـالة قـد كتبت إليهم وفق الأسلوب نفسـه، ولذلك عقدوا مـداولات دقيقة حـول القضية، وأعطوا منفذاً لشكاياتهم بين أنفسهم وقالوا:

«لقد وضعنا في موقف صعب، فملكنا وحامينا الذي أسس وجدّد كثيراً من كنائسنا، غير قـادر على فعل شيء، وقـد طلـب المسـاعـدة منا من أجل الدفاع عن مملكته وفي سبيل حمايتها، أي في سبيل الصالح العام، وقد طلب البابا الشيء نفسه لصالح الملك، فهذه شكـاية مزدوجة، وهي قائمة بشكل متـوازن وفعـال من على الجهتين، وجـاءنا الآن طلب آخـر غير متـوقع من جـانب البابا، والطلب الأول، بما أنه مـؤيد بشكل مضـاعف، فهو مـرجح أكثر، وهو جدير أكثر بالموافقة عليه، فمن كرم الملك يمكن أن نتوقع بعض المكافأة، أمـا من البـابا فـلا شيء، فلقـد هوجمنا وتضررنا من على الجانبين، فمن الجانب الأول عسف بنا، ومن الجانب الثـاني غللنا وتأذينا، وكأننا بين المطرقة والسندان، ولقد سحقنا بين حجري الرحا».

رسل من الإمبراطور يمنعون الإنكليز إعطاء أية مساهمات إلى البابا

عندما كانت مثل هذه الأحداث قيد الوقوع، ليس من دون تسبيب قلق حاد في قلوب كثيريـن الملطخة بالدم، وصلت أخبار إلى علـم جميع النبلاء، وقد انتشرت بين الناس، ووقتهـا لم يعرفـوا الذي سيفعلونه، ولذلك لجأوا إلى الأسـاقفــة، في سبيل أن يتبنوا الخطة نفسهـا في جميـع الأشيـاء، وذلك بالنسبـة لهذه المسألة المتعلقة بالصـالح العام للمملكة، وحـدث —على كل حال— فجأة أن وصل إلى لندن المعلم وولتر دي أوكرا Ocra, وبعض الآخـرين، كـرسل خـاصين من الامبراطور، وذهبـوا فـور وصـولهم إلى المستشـارين، وقـدمـوا رسـالة من مـولاهم، جـرت قـراءتها بشكل علني بحضرة الملك وجميع المستشـارين، على الرغم من اعتراض المعلم مـارتن وانزعاجـه، وفي هذه الرسالة برأ الامبراطور نفسه من تهمـة العصيان، التي

شوه بها البابا سمعته وأخلاقه، وأعلن بأنه سوف يطيع العدالة بكل تواضع، وسوف يلتزم بأوامر الكنيسة، ويقدم الترضيات إليها، ولتأكيد مصداقية هذا، قدم كل من امبراطور القسطنطينية، وكونت طولوز شهادتيهما بوساطة رسالتين ممهورتين بختميهما، وقد نشرتا هناك على الناس، وفي تسويغ لنفسه أيضاً، أعلن الامبراطور فردريك، في كل من هاتين الرسالتين، وبفهم رسله الذين رددوا الشيء نفسه، من أن البابا قد طلب بشكل مهيب أن يكون متملكاً لبعض المدن، والقلاع والأراضي، وفيما يتعلق بهم ليس واضحاً بعد، فيما إذا كانوا عائدين بملكيتهم إلى الامبراطورية، أو إلى الكنيسة، كما طالب أيضاً بإطلاق سراح بعض الأشخاص، الموضوعين في سجن الامبراطور، بحكم أنهم خونة له شخصياً، وطالب بهذا أيضاً حتى قبل أن يكون هو شخصياً، قد جرى تحليله من الحرمان الكنسي، وبناء عليه، إنه خشية منه —كما قال— من أن يقع في أحابيل البابا، أخضع نفسه إلى رأي وقرار، ملكي فرنسا وانكلترا، وبارونات المملكتين، لأنه أفاد بأن تواضعه الأصيل لم تتم رعايته كما ينبغي، أو تقديره بشكل لائق من قبل البابا، ومن أجل هذا اشتكى بمرارة إلى الجميع، وأضاف الامبراطور في نهاية المكتوب رسالة مع شيء مما يشبه التهديد، من أن جميع المال المرسل إلى البابا لمساعدته، سوف يضاف إلى الخزينة الامبراطورية، ولذلك ترجى بكل وسيلة توفرت لديه بأن لايسهم الانكليز بأي شيء إلى خصمه البابا، للإضرار به، وأضاف أيضاً، بأنه إذا مارغب ملك انكلترا الالتزام بنصائحه، يتوجب بالقوة والعدالة تحرير انكلترا من الضرائب التي فرضها البابا انوسنت الثالث، وكذلك عليه أن ينقذها من الأعباء الأخرى، التي كانت تعسف بها يومياً من قبل البابا، وبهذا استرد الامبراطور عواطف الكثيرين، لأنه أقحم في الرسالة المذكورة، بأن الملك إذا لم يقم بإطاعة أوامره —أي الامبراطور— هو سوف ينزل انتقاماً ثقيلاً، بأي واحد من رعاياه سوف يتم العثور عليه في ممتلكاته الامبراطورية.

كيف وافق نبلاء إنكلترا على إعطاء مساعدة مالية

عقد نبلاء انكلترا وأساقفتها مؤتمراً في لندن، في اليوم المحدد، أي بعد ثلاثة أسابيع من يوم عيد طهارة القديسة مريم، وعقدوا مداولات دقيقة، حول القضايا التي تقدم ذكرها أعلاه، وكان موجوداً هناك نواب الأساقفة الغياب، وهم عن رئيسي أساقفة كانتربري ويورك وثلاثة أسقفيات شاغرة، وممثلين عن هيئة كهنة كوفنتري، وشيستر، ونورويك، وجرى آنذاك تجديد طلب الملك لمساعدة مالية، وفيما يتعلق بهذه المسألة، استدعاهم الملك من يوم إلى آخر، وذلك بوساطة دعوات منه شخصياً، وكذلك بوساطة رسل خاصين، تقدم من خلالهم بالوعد بأنه سوف يحافظ، تحت سلطانهم الكامل، على الامتيازات، التي كان قد أقسم على منحها عند تتويجه، ومن أجلها منح صكاً، وفي سبيل الحفاظ على هذه الامتيازات، طالب بأن يقوم كل واحد من الأساقفة في أسقفيته، بإصدار قرار بالحرمان الكنسي ضده، وضد جميع الأشخاص الذين سوف يقفون ضد أية نقطة من نقاط الامتيازات المذكورة، وأخيراً لما أنه لم يعد ممكناً انحناءهم إلى أي شرط آخر، وافقوا على منح الملك، من أجل تزويج كبيرة بناته، منحة مقدارها عشرين شلناً من إقطاعية كل واحد من الفرسان، الذي بحوذته ممتلكات من الملك بشكل رئيسي، وكانت الحصة الأولى سوف يجري دفعها في عيد الفصح، والأخرى في عيد القديس ميكائيل.

وعندما طلب من الملك أن يتذكر هذه الأشياء، وكذلك الوقائع الماضية، تذكّر كَمْ هي كثيرة التي عمل بها بقسوة استخراجات مماثلة من رعاياه المخلصين، الذين كان واجبه نحوهم هو أن يرعاهم، وليس افقارهم، وجاء ذلك من دون الوفاء بأي وعد من الوعود قطعه لهم، فبعد الاستيلاء على بدفورد، جرى منحه على الفور ضريبة عن أرض كل محراث من انكلترا كلها، وكان ذلك شلنين لكل محراث، وفي السنة التالية جرى منحه جزءاً من خمسة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة، ومجدداً عندما كان على

وشك الذهاب إلى بريتاني تلقى مبلغاً كبيراً من الأساقفة، ومن الرهبان، ومن البورجوازية واليهود، ولدى عودته من بريتاني، أخذ منحة مقدارها ثلاثة ماركات عن كل فدان، وأعطي بعد هذا جزءاً من أربعين جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة، ثم من جديد بعد ذلك جزئاً من ثلاثين جزئاً، وثانية عندما أعطى أخته لتكون زوجة للامبراطور، تسلم بمثابة حصة زواج لها، منحة مقدارها ماركين عن كل محراث، وعند ولادة ابنه، قام، مع عار كبير لحق به، ومن دون خجل، فاستخرج بالقوة كثيراً من الهدايا، التي عملت مع بعضها مبلغاً كبيراً من المال، ومجدداً عندما كان ذاهباً إلى غسكوني، استلم مبلغاً كبيراً من المال، لابالحقيقة مبالغ لانهاية لها تقريباً، من الأساقفة، ومن رجال الدين، والبورجوازية، واليهود، ومن كل واحد كان بامكانه أن يكشط منه، وعندما عاد من غسكوني بشكل باهت، وكان رجلاً مخدوعاً، أمر الأساقفة والنبلاء باستقباله عند شاطىء البحر، وبعد انتظاره هناك عبثاً لوقت طويل، استقبلوه عندما وصل، بهدايا كبيرة لاتقدر بثمن، وعمل الشيء نفسه من قبل سكان لندن، وآخرين، وكل من تم العثور عليه وعرف بأنه لم يقدم هدية لها قيمتها، اتهم بحجة أو بأخرى، وعوقب، فكيف يمكن للملك أن يقوم بالوفاء بجميع وعوده وباتفاقاته، مقابل الإسهامات الحالية، ومن أجل الإسهامات الأخرى، وحده يعرف الذي هو ليس بجاهل بأي شيء.

جواب الأساقفة على مطالب المعلم مارتن

عندما علم المعلم مارتن، الذي كان رسول البابا، بأن نبلاء انكلترا قد أعطوا موافقة عامة بمنح الملك، أصبح متلهفاً أكثر لإنجاز المهمة التي من أجلها قد أرسل، والتي كانت ماتزال في حالة من عدم التأكد، أي الحصول على المساعدة للبابا، وبناء عليه دعا إلى الاجتماع جميعهم مع بعضهم وعندما تحقق له ذلك قال لهم:

«أيها الناس، أيها الرهبان، ويا أيها السادة، المحبوبين تماماً من الكنيسة

الرومانية، التي في صدرها ترقد جميع الآمال البابوية، ما هو الجواب الذي أعطيتموه إلى أبيكم الروحي بالنسبة لقضايا الكنيسة الرومانية، التي هي أمكم،والمعسوف بها حسبما جاءكم العلم بوساطة الرسالة البابوية؟ لقد أقدمتم طائعين على الاستجابة لأبيكم الدنيوي، أي مولاكم الملك، فلاسمح الرب أن لاتقدموا على مدّ يد المساعدة إلى أبيكم الروحي، أي البابا، الذي يضع ثقته بكم، ذلك أنه يقاتل لصالح الكنيسة المسكونية ضد أولاده العصاة»، وقدّر الأساقفة بحكمة بأن كلامه، وإن كان حلواً وناعماً فهو بسبب المناسبة، ولذلك هو أحلى من قرص العسل وأنعم من الزيت، ولكنه كان في النهاية أمرّ من الصبر،وأحدّ من السهم الخارق، ولهذا لم يتزحزحوا عن مواقفهم، وبعد مداولات كافية، عيّنوا عميد كنيسة القديس بولص في لندن، وكان رجلاً مستقيماً وفصيحاً، لإعطاء الجواب الذي وافقوا عليه بالإجماع، ومن خلاله أعادوا الجواب التالي إلى المعلم مارتن المتقدم ذكره قائلين:

«ياصاحب النعمة، إن جماعة الأساقفة الانكليز يرجون التقدم إليكم بالجواب حول كل من قضية تقديم المساعدة المالية إلى البابا، وأيضاً حول الموارد التي يطلبها صاحب القداسة من خلالكم، من كل كنيسة من الكنائس، وإن القضايا التي عرضتها علينا، فيما يتعلق بمولانا ملك انكلترا بشكل خاص، والمتعلقة بجميع أولياء نعمة الكنائس بشكل عام، وهم أيضاً يتعلقون برؤساء الأساقفة ونوابهم من الأساقفة، وكذلك جميع أساقفة انكلترا، وبناء عليه، بما أن الملك قد اضطر إلى الغياب بسبب المرض، وكذلك بما أن رؤساء الأساقفة والأساقفة، والأساقفة الآخرين للكنائس، هم أيضاً غياب، يتوجب علينا عدم إعطاء جواب، حيث لايمكننا فعل ذلك، لأننا إذا ما أقدمنا على فعل ذلك، فيكون هذا مضراً بالنسبة للأساقفة الذين هم غياب»، وبعدما قالوا هذا، ذهب جون مارشال وبقية رسل الملك، إلى الأساقفة الذين بأيديهم بارونيات من الملك

بشكل رئيسي، ومنعوهم بكل دقة من رهن إقطاعياتهم المدنية عند الكنيسة الرومانية، لأنه —أي الملك— سوف يكون محروماً بذلك من الخدمات المتوجبة إليه، وعندما سمع المعلم مارتن هذا، عيّن يوماً في وسط الصوم الكبير للذين كانوا آنذاك حضوراً، للاجتماع به، وهو في الوقت نفسه سوف يحصل على حضور الملك وعلى حضور الأساقفة الغياب، وذلك في سبيل إنهاء هذه القضية والوصول بها إلى نهاية، غير أنهم رفضوا الموافقة على الموعد المقرر، وذلك دون الحصول على موافقة الملك، والأساقفة الآخرين الذين كانوا غياباً، وعادوا جميعاً إلى مواطنهم» ومجدداً قام المعلم مارتن، اعتماداً على سلطات رسائل جديدة، التي كان لديه كميات وافرة منها يستخدمها حسب رغباته، فدعا إلى الاجتماع بعض الأساقفة، لكنهم رفضوا الموافقة على الإسهام وزادوا بأنهم عارضوا بشدة أكثر من ذي قبل، وقدموا الجواب نفسه، كما تقدم من قبل قائلين:

«إنه في المقام الأول، بسبب فقر ملك انكلترا، المحدقة به مخاطر الحرب، لايسمح ذلك لنا بالموافقة على هذا الاستخراج لأن المخاطر تهدد المملكة كلها، وبسبب هذا الفقر، أثقلت عدة كنائس، وبشكل خاص الديرة، بديون كبيرة مرهقة، ومجدداً عندما تم الاسهام مؤخراً بناء على طلب الكاردينال الذي كان النائب البابوي، بسبب أعباء الكنيسة الرومانية كما قيل آنذاك، لقد فرض وقتها علينا عبئاً ثقيلاً، ومع ذلك فإن تلك الاسهامات لم تكن لمنفعة الكنيسة،والآن عندما عمل رسول بسيط المطلب، هناك سبب أكثر قوة للخوف من أن نتيجة مماثلة، إن لم تكن أسوأ، سوف تحصل بهذه المناسبة أيضاً، إذا ماتم الاسهام الآن من جديد، كما أن هناك أسساً قوية للخوف من أن يصبح ذلك عادة، وذلك بناء على أساس أن الشيء إذا ما تكرر، يغدو قاعدة، ومجدداً، إنه حسبما نعتقد، أو في جميع الأحوال حسبما روي، بأن البابا مقبل خلال وقت قصير، على عقد مجمع، فيه سوف —بدون شكل— يجري إثقال الأساقفة، جميعاً وبدون استثناء،

بأعبـاء النفقات، ومثل ذلك بالرحلـة الطويلة وكذلك بنفقـاتها ومتاعبهـا، وأيضاً بالقيام بزيارات فيهـا تقدمات إلى البابا، سواء أكـانت موافقة أم غير موافقـة، أو بزيارات إلى بعض الآخرين، الذين لم نجـدهم قط يرفضون أية هدايا، ويمكـن أن يحدث، أنه نتيجـة للاضطرابات التـي تكدست فـوق الاضطرابـات، سـوف يكون هناك قلة فقـط، يمكن لهم تحمل ثقـل هذه الأعبـاء التي لايمكن تحملها، ومجدداً، بما أن أمنا الكنيسـة المقـدسة لرومـا مثقلة بالديون، سيكـون عـدلاً ومشرفـاً، بما أنها غير قـادرة على تحمل هذا العبء، أن تقـدم المسـاعدة إليهـا من قبل أولادها المخلصين بشكل عـام، الذين سـوف —كما نعتقد— يلتقـون في مجمع خـلال وقت قصير، والذي يهم الجميع بشكل رئيسي، ينبغي أن تتم الموافقـة عليـه من قبل الجميع، في سبيل أنه بذلك يمكن تحرير الكنيسة بشكـل أحسن، وبذلك كل واحد منا يكون أقل إثقـالاً»، وعندمـا سمع المعلم مـارتن هذه الحجج المؤثرة، ضـد استخـراج أية معـونات مـاليـة من الكنائس ومـن رجـال الدين بمثل هذا الإصرار المعلن، يقـال بأنه انفجـر بتهـديدات عنيفـة ضـدهم، وتحمل الأسـاقفـة —على كل حـال— هذا بصبر، وارفض الاجتماع، فتفـرقـوا مبتعـدين، وقد أضـافوا في عـروضهم، أنهم إذا مـا أسهموا، فإنهم سـوف يخشون تهديدات الامبراطور أكثر.

وعند ذلك ألقى مـارتن الخائن بيديه الجشعتين بشكل سري على مـوارد الكنائس الفـارغـة، وقـام بين أشيـاء كثيرة فتـدبر إعطاء خـزينة كنيسـة سالسبري إلى حفيـد البابا، واستولى أيضاً على عـدد من الكنائس الأخرى، غير أن أعمال الأخذ والرد هذه، من الأفضل أن نظل صامتين حولها، وعدم حكايتهـا، وذلك صدوراً عن الاحترام للكنيسـة الرومانيـة، وبقصد عـدم إثارة فضيحة.

العثور على جثة ولد ميت في لندن

في الأول من شهـر آب من هذا العـام، تمّ العثور في مقبرة القـديس

بندكت، في مدينة لندن، على جسد طفل غير مدفون، قد كتب على ساقيه، وعلى ذراعيه، وتحت صدره بخط عبري منظم واجتمع كثيرون، وهم يتساءلون حول هذا المشهد، غير قادرين على قراءة الكتابة، لكنهم عرفوا بأن الكتابة والأحرف عبرية، فبعثوا خلف بعض المتحولين اليهود، الذين كانوا يسكنون في البيت الذي أقامه الملك في لندن، وأمروهم، صدوراً عن تقديرهم لحياتهم ولأطرافهم، وتقديراً لشرفهم، وعواطفهم، وخوفهم من الملك، أن يبيحوا معنى الكتابات، من دون أي تحوير، لأنه كان موجوداً هناك بعض وكلاء الملك، الذين كانوا يتولون الحفاظ على السلام، وقد اعتقدوا —لسبب صحيح— أن اليهود الذين تولوا تعذيب يسوع المسيح وأهانوه، إما قد قاموا بصلب هذا الطفل (وهذه واقعة تكرر ذكر وقوعها)، أو أنهم عذبوه بطرق مختلفة قبل قيامهم بصلبه، ولأنه مات تحت التعذيب، اعتقدوا أنه غير جدير بالصلب، ومن ثم ألقوا بجسده حيث تمّ العثور عليه، وبالاضافة إلى هذا ظهرت هناك علامات باقية على جسد الطفل، وأن التعذيب تمّ بوساطة العصي، وقد ظهرت هنا وهناك علامات وآثار بعض أنواع أعمال التعذيب الأخرى، وبعدما جرى جلب المتحولين، من أجل قراءة الكتابات، قاموا بفحصها، وسعوا إلى قراءتها وبذلوا جهودهم لبعض الوقت من دون محصلة، لأنه بسبب تمدد الجلد، وتغير الجسد، انتشرت الأحرف فوق الجسد هنا وهناك، وتغير شكلها كثيراً وتشوهت، وبات بعضها غير مفهوم، وتمكنوا أخيراً، بعد طول معاناة من اكتشاف اسم والد الطفل وأمه مكتوبين، لكن من دون الكنية، وكانت هناك كلمة قد أفادت بأنه قد بيع إلى اليهود، لكن من قبل من، ولأي غاية؟ هذا ما لم يستطيعوا كشفه، وجرى اكتشاف أن بعض اليهود من لندن، الذين كانوا موضع ريبة، ومشكوك بهم في هذه القضية، قد هربوا آنذاك بشكل سري ولم يعودوا، وأكد بعضهم أيضاً، بأن الرب قد عمل معجزات لصالح الصبي، وجرى اكتشاف بأن اليهود قد اقترفوا في بعض الأحيان مثل هذه الجرائم، وأن الأجساد المقدسة، عندما صلبت قد استقبلت في كنائسها،

وأصبحت أيضاً مشهورة بالمعجزات، وبناء عليه، وعلى الرغم من أن العلامات كانت خمسة جروح، على الطرف، واليدين، والقدمين، وهي لم تكن مرئية على جسد الطفل المذكور، قام كهنة القديس بولص مسرعين بأخذ الجسد والفرار به، ودفنه، وسط طقوس مناسبة، وكان دفنه قرب المذبح الكبير في كنيستهم.

ظهور قديسين جدد في انكلترا

في تلك الآونة نفسها، قيل بأن معجزات أظهرت أنفسها، وأن منفعة الصحة قد أعيدت إلى المرضى، في سبيل مدح المسيح، وكان ذلك عند ضريح روجر، أسقف لندن، صاحب الذكرى التقية، وضريح المعلم جون فوكستون Foxtone, الوصي على كنيسة تلك المدينة، وكذلك عند قبري: المعلم روبرت، الذي كان أخاً لإدموند رئيس أساقفة كانتربري، والقديس روبرت أوف كاريبراغ Karrebrag (ربما: Carisbrake).

وصول كونت فلاندرز لمساعدة ملك إنكلترا

ونزل في حوالي الوقت نفسه، كونت فلاندرز في دوفر، حيث قدم لمساعدة ملك انكلترا في نيته شن الحرب على سكوتلندا، وقد أثار وصوله غضباً عظيماً وأنفة في قلوب النبلاء الانكليز، لأنهم قالوا بأن انكلترا قادرة على اجتثاث سكوتلندا، اجتثاثاً كاملاً من دونه، وجلب الكونت المذكور معه ستيناً من الفرسان، ومائة من الأتباع، جميعهم مسلحين بشكل جيد، وكل واحد منهم متشوق إلى السعي وراء نيل أموال الملك.

وسار الكونت مع أخيه رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري إلى القديس ألبان حيث التقوا بالمعلم وولتر دي سفيلد Suffield, الأسقف المنتخب لنورويك، وقد جرى تثبيته على الفور في ذلك الكرسي، من قبل رئيس الأساقفة المنتخب المذكور.

وفي هذا العام نفسه تدبرت السيدة بلانشي، تكريس الكنيسة التي

أسستها في بونتوي Pontoise.

وفي تلك الآونة نفسها، جرى انتخاب المعلم وليم دي بيرغ Burg, أسقفاً لـ: للانداف Llandaff, وكان رجلاً محباً للخير، وغير عدواني، وسمعته غير ملطخة.

حول الاستخراجات غير العادية للمعلم مارتن

مورست في هذه الآونة استخراجات غير عادية للمال والموارد من قبل المعلم مارتن، الذي كان مقيماً في الهيكل الجديد في لندن، عاداً نفسه بمثابة نائب بابوي (مع أنه لم تخلع عليه ألبسة النائب البابوي، وكانت هذه بدعة ماكرة للحفاظ على امتيازات الملك)، وقد أرسل رسالة في جميع الاتجاهات إلى كذا وكذا راعي دير، وإلى كذا وكذا رئيس رهبان، يأمرهم بأن يرسلوا إليه هدايا ثمينة، من بعض الخيول الرشيقة، واللحوم، والأشربة، والثياب المطرزة، وعندما فعلوا ذلك، أعاد المعلم مارتن إليهم الذي بعثوه إليه، معلناً بأنهم كانوا غير كافين، وأمرهم بإرسال هدايا أعظم قيمة، تحت طائلة عقوبة التعليق والتكفير، كما أنه علق الجميع وأوقفهم عن منح منافع تساوي ثلاثين ماركاً، فما فوق، حتى يشبعون نهمه، وبناء عليه عانى الانكليز التعساء أسوأ مما عاناه بنو اسرائيل القدماء، وحزنوا لأنهم أرغموا على تحمل العبودية المصرية في بريطانيا.

الخلاف بين ملكي إنكلترا وسكوتلندا

وأثناء العام نفسه، أصدر الملك إعلاناً عاماً، وبوساطة استدعاء عام تدبر أن يعرف الجميع في جميع أرجاء انكلترا، بأن على كل بارون اقطاعي مقطع بشكل رئيسي من الملك، أن يجعل قواته العسكرية جاهزة لإرسالها للخدمة تحت لواء الملك، وأن هذا متوجب على الأساقفة، ورعاة الديرة، وعلى البارونات العلمانيين أيضاً، ثم إنه انطلق على رأس جيش كبير تعداده نحو نيوكاسل على التين، معلناً بأن محرضه الرئيسي ماقترفه وولتر كمنغ

وكـان باروناً مشهـوراً وقـوياً جـداً في سكوتلندا، وبعض Cumming, الآخـرين من تلك المملكة، الذين تولوا تحصين قلعتين مـريبتين في غـالوي Galway, ولوثيـان Lothian, في سبيل إيذاء ملك انكلترا، وعلى عكس تصرفـات أجدادهم، بالإضـافـة إلى ذلك، دخل النبلاء المذكـورين أعلاه في تحالف مع الفرنسيين، واستقبلوا بعض الرجال المنفيين واللاجئين من أعدائه —ملك انكلترا— من ذلك على سبيل المثـال غيوفري مارش في هذه الأيام، وبعض الآخرين من قبل، وكـانوا بذلك —كما هو معروف— يسعون لسحب ولائهم من هذا الملك، مع أن ذلك حق له وحـده، وبعدما حشد الملك جميع جماعة النبلاء في انكلترا قرب القلعة المتقدمة الذكر، جرى عقـد اجتماع في حـوالي أيام عيـد صعـود مـريم المبـاركـة، وكـانت هناك مداولات متقنة قـد دخلوا فيها حول القضيـة، وفي هذا المؤتمر، تم التوصل إلى بنود مصـالحة بين الملكين، وكـان ذلك بتـدبير من الايرل رتشـارد وبوسـاطة حكيمـة قام بها بعض النبـلاء الآخـرين من الجانبين، لأن ملك سكوتلندا، كـان رجـلاً مستقيماً، وتقيـاً، وصـاحب عقل متحـرر، ولذلك حظي بحب جميع الانكليـز، وبحب شعبه أيضـاً، وكـان لديه أيضاً جيشـاً كبيراً جداً، وقـوياً، مؤلفاً من ألف فـارس مسلحين مع أن مطاياهم لم تكن اسبانية، أو ايطالية، أو من خيول أخرى ثمينة وثمنها مرتفع، وكانت محمية بشكل جيد بدروع من الفولاذ أو من الكتان، ومع هؤلاء حوالي المائة ألف من الجنود الرجّـالة، كلهم كانوا على رأي واحـد، وكانوا جميعـاً قد عملوا الاعتراف وجـرى تشجيعهم، وتثبيتهم بكلمات مـن وعـاظهم، من أنهم كانوا سيقـاتلون في سبيل قضية عادلة لصـالح بلادهم، ولذلك كان لديهم القليل من الخوف، وفي سبيل منـع سفك دمـاء مثل هذا العـدد الكبير من المسيحيين، والدعـاء إلى الرب بالانتقـام، ومن ثم الاسـاءة إليـه، الذي بين يديه من المرعب وقـوع الانتقـام، أعيـد تأسيس السـلام بسعـادة، وجـرى تدوين ذلك في الصك التالي الشاهد على ذلك.

وفي هذه الآونة، أي في اليـوم الذي جـاء عقب عيـد القـديس لورانس، مات البارون المشهور رتشارد دي ستوتفيل Stuteville.

صك ملك سكوتلندا

«من الاسكندر، الذي هو بنعمة الرب، ملك سكوتلندا، إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح الذين سـوف يـرون أو يسمعـون محتـويات هذه الأداة، تحيات:

بودنا أن تعلمـوا، أننا من جـانبنا، وبـاسمنا، وباسم ورثتنا، قـد وافقنا، وأعطينا وعـدنا، إلى مـولانا الاقطاعي المحبـوب منا كثيراً، هنري الثـالث، الذي هو بنعمــة الرب، الملك المشهــور لانكلترا، وسيـــد ايرلندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجـو، وإلى ورثته، بأننا سوف نحافظ بشكل أبدي على الاخـلاص الصالح معـه، وسوف نتملك مشـاعر طيبـة نحوه، وإننا أيضاً سـوف لن ندخل مطلقاً، بأنفسنا، أو بوساطة أشخـاص آخرين من طرفنا، في أي تحالف مع أعداء مولانا المذكور، ملك انكلترا، أو ورثته، سـواء بتسبيب نشـوب حــرب، أو شنّـها، بحيث يمكن أن تحدث مضـار بوساطة ذلك، أو يمكن أن تحدث لهم أو لمملكتهم، مملكة انكلترا وايرلندا، أو أية مناطـق تابعــة لهم، وذلك مــالم يقـــومـوا بـإيذائنا، ولســـوف تظل الاتفـاقيات السـالفة قـائمة تمامـاً بيننا وبين مولانا المذكـور، ملك انكلترا، وهي الاتفاقيات التي دخلنا بها مؤخراً في يورك، بحضور أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، والذي كان آنذاك نائب الكرسي الرسولي، مع الحفـاظ أيضاً على ميثاق الـزواج الذي عقد بين ابننا وبين ابنة مـولانا المذكــور، ملك انكلترا، وفي سبيل تمتين مـوافقتنا هـذه، ووعـودنا باسمنا وباســم ورثتنا، وتثبيتهـا، أمــرنا حــاجبنا ألان Alan, وهنري بيلأويل Baliol, وديفد لندسي Lindsay, ووليم غيفارد Giffard, أن يقسموا بروحنـا، بأننا سوف نلتـزم باخلاص بالشروط المتقـدم ذكرها، ونطبقهـا تمامــاً، وتدبرنا أيضـ اداء يمين مشـابـه، من قبل الآباء المد ـاين:

ديفـد، ووليم، وغيوفـري، وكليمنت، الذين هـم أسـاقفـة سينت أندروز، وغـلاسكو، ودنكالد Dunkald, ودمبلين Dumblane, كما تدبرنا أداء يمين من قبل النبلاء التـالين، وهم من رعايانا المخلصين: باتريك ايرل أوف دنبر Dunbar ومالكولم ايرل أوف فيف Fife, وماليس -Mal ise ايرل أوف ستراثيرن Strathearn, ووولتر كـــومن Comyn أوف مونتإيث Monteith, ووليم ايرل مار Mar, والاسكندر ايرل أوف بوشان Buchan, وديفد هيستنغ Hastings إيرل أوف أثول Athol, وروبرت بروس Bruce, وآلان حـاجبنا، وهنري بيـلأويل، وروجر دي مـاوبري Mowbray, ولورانس دي أبرنثيـا Abrinthia, ورتشـارد كـومين Comyn, وديفـد لندسي Lindsay, ورتشـــارد سيـوورد Seward, ووليم لندسي، ووولتر أوف مـــوري Moray, ووليم غيفـــارد Giffard, ونيقـــولا دي سلّـي، ووليم أولــــد بردج Oldbridge, ووليم بيفير Bevire, وأليــــوم Aleome دي ميسوك Mesuc, وديفد غـراهام Graham, ورتشارد سمنغهـــام Smingham, فهؤلاء جميعاً أدوا اليمين للغاية التـالية وهي: إذا ما قمنا نحن أو ورثتنا بالعمل بشكـل مضـاد للاتفـاقيـة المتقـدم ذكـرها وللوعـد —لاسمح الرب بـذلك— سـوف لـن يقـدمـــوا لا هم ولا ورثتهم لا النصيحـة أو المساعـدة إلينا ولا إلى ورثتنا بشكـل مضـاد للمـوافقة المتقـدم ذكرهـا وللوعد، وبقـدر مايمكنهم منعها، وعـدم السماح بتقديمهـا لنا من قبل الآخــريـن، بل الذي ســوف يفعلـونه هم وورثتهم —بـالنسبــة لنا ولورثتنا— ويجعلـونه شغلهم الشـاغل، هو رؤية أن الشروط التي تقـدم ذكرها قد جرى تطبيقها بكل دقـة واخلاص، ومراعاتها من قبلنا ومن قبل ورثتنا، وأيضاً من قبلهم ومن قبل ورثتهم، وشهـادة على ماتقدم قمنا نحن وكـذلك الايرلات، والأسـاقفـة، والبارونـات، بتثبيت هذه المدونة بوضع أختـامنا عليها. وشهـد: الأسـاقفة، والايرلات، والبـارونات الذين تقـدم ذكرهم أعلاه، في سنة حكمنا، إلخ، إلخ».

وعلى هذه الوثيقـة جـرى على الفـور وضع أختـام: الاسكندر ملك اسكوتلنـدا، ووليم دي بيفـــري Bevire, ووليم أولـــــد بردج Oldbridge, ووليم لندسي، وستيفن سمنغهـام، وبعـد ذلك ختمت بأختـام الآخرين، وقـد جرى إرسـال هذه الوثيقة إلى ملك انكلترا في عيـد الميـلاد التالي، وحملهـا إليـه بيديه رئيس رهبـان التينماوث Tynemouth, الذي حرص على بذل أفضل مسـاعيه، للوصول إلى هذه الاتفاقيـة لصالح كرامة الفئتين.

وأرسلت هذه المدونة، مع الآخـرين المذكورين أدناه إلى البـابا، في سبيل أن تكون ثابتة بشكل دائم بشكل أفضل إلى الأبد، في الرسالة التالية:

التثبيت البابوي لما تقدم أعلاه

«إلى الأب الأعظم قـداسـة في المسيح، انوسنـت، الذي هو بنعمـة الرب الحبر الأعظم، إننا الاسكندر الـذي هو بالنعمـة نفسهـا، ملك سكوتلندا، وايـرل باتـريك، وإيـرل أوف ستراثيرن Strathearn وإيرل ليفنـــات Levenath, وإيـرل أوف أنيغــريـا Anegria, وإيرل أوف ميرا Mera, وإيـرل أثـول Athol, وإيـرل أوف روس Ross وإيـــرل أوف كيثنس Cathness, وإيرل أوف بوت Bute, وروجـــر دي مـــاوبـري Mowbray ولورانــــس أوف ألبيرينث Alberinth, وبطرس دي ماوفير Mouvere, ورتشارد كومين Comyn, ووليم أولد بـردج، وروبرت بـروس Bruce, وروجـــر أفنـــل Avenel, ونيقولا سللنغ Sulling, ووليم مورري Murray, و.... أوف دنفلد Dunfeld, ووليم مــوريف Muref, و.... أوف بيتين Petene, وجون بيست Bissett الأصغر، ووليم لنـدسي، وجـون دي فـوكس Vaux, وديفد لندسي، ووليم غيفارد Giffard, ودنكان دي ايرغاتيلا Ergatila, وجـون دي مـــاترفيل Matervalle, وإيلنر Aylnne وابنه روجـر إيرل أوف وينكستر، وهـ .H ايرل أوف أكسفــــورد، و و

W. دي فسي Vescy, ورتشارد سيوورد Seward, ووليم دي روس Roos, وروجر دي كلير Clare, وهنري ابن كونت دي بريتر Britter, ويوستاس دي ستوتفيل Stuteville, ومالكولم ايرل أوف فيف Fife, وإيرل أوف مينيثشاير Menethshire, ووولتر فتز— ألان، ووولتر أوليفارد Oliphard, وبرنارد فريسر Fraser, وهنري بالأويل، وديفد كومين Comyn, وديفد مارشال، وديفد فتز— رالف، ووليم دي فورثير Forthere, وجون بالأويل، وروبرت دي روس Roos, الصحة، ونقدم جميع الاحترام المستحق والتشريف:

إننا نرجو أن نخبر قداستكم، بأننا أدينا يميناً، أقسمناه بأرواحنا وأجسادنا، أمام الأب المحترم أوتو، الذي هو الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان، والنائب في الوقت الحاضر، للكرسي الرسولي في انكلترا، وسكوتلندا، وايرلندا، وعملنا أيضاً صكاً، بدايته كانت كما يلي:

ليعلم كل من يصل إليه، أنه جرى الاتفاق بحضور صاحب النعمة أوتو، إلخ، إلخ، وقد شهدنا على هذا الصك ووثقناه بأيدينا، وتركناه في حوزة صاحب الجلالة ملك انكلترا، وهناك صك آخر، بدايته:

نحن بودنا أن تعلموا جميعاً، إلخ، إلخ، وبناء على الشروط المتوجبة علينا المتقدمة الذكر، والتي نحن مرتبطون بها، قد أخضعنا أنفسنا لسلطان إدارتكم، بسبب أنكم تمتلكون السلطة على ضبطنا وضبط ورثتنا بوساطة الروادع الكنسية، إذا ما حاولنا في أي وقت من الأوقات العمل ضد شروط السلام المتقدم ذكرها، وإذا ما حدث في أي وقت من الأوقات أن حاول بعض رعايانا، أو أي واحد منهم، ونوى باستخفاف العمل ضدهم، أو أية محاولة من هذا النوع، أو فكر أن يفعل مثل ذلك، الأمر الذي سينجم عنه قيام مخاطر ضد أنفسنا وأنفس ورثتنا، وسوف يكون من جراء ذلك حصولنا على أضرار جسيمة لنا شخصياً ولممتلكاتنا، ولذلك نرجوكم، أيها الأب المقدس، اصدار أوامر إلى واحد من الأساقفة المساعدين لرئيس

أساقفة كانتربري، أن يتولى ارغامنا على مراعاة شروط السلام المتقدم ذكرها، بشكل كامل حسبما جاء في أدوات التنفيذ المتعلقة بهذه القضية، وأيضاً القيام بضبط المتقولين والمتذمرين ضد شروط السلام المذكورة، وفقاً للأحكام الشرعية، إلخ، وفي سبيل الوفاء بالتماسنا وضعنا أختامنا على المدونة الحالية».

وبعد الفراغ من هذه الترتيبات، أصبح ملك انكلترا صديقاً لملك سكوتلندا،وكان الأمل أن تكون هذه الصداقة صداقة لايمكن فصمها، وذلك من دون أي تظاهر، أو خطابات مراوغة ومشاكسة، وعند ذلك ترك الملك هنري ملك سكوتلندا، وذهب إلى المناطق الجنوبية من انكلترا، وهناك على الفور جرى التفكير بأن يزحف هذا الجيش ضد الويلزيين، وكان ملك سكوتلندا قد حمل نفسه إلى المناطق الداخلية من بلاده، ولدى مغادرة ملك انكلترا لنيو— كاسل على التين، جرى تقدير تعداد جيشه، بأنه تألف من حوالي خمسة آلاف فارس مسلحين بشكل جيد، وذلك بالاضافة إلى كتلة كبيرة العدد كثيراً والقوة، من الجنود الرجالة.

غارات الويلزيين

وخلال هذا الوقت كله، كان الويلزيون يخرجون من مخابئهم، وينتشرون مثل النحل، وكانوا ينشرون النار والقتل، ولم يتوقفوا عن نهب المناطق المجاورة لبلدانهم، وكان الملك مسرعاً على طريق عودته إلى لندن، ولم يرغب بمتابعة سيره نحوهم، مع أنه سمع بتجاوزاتهم، وكان عليه أن يقود جيشه نحوهم، حيث كان جاهزاً ومستعداً تماماً، وآثر أن يتبع الخطة النسائية، فبادر مسرعاً إلى ويستمنستر، أي إلى ملاذ متعته المعتادة، وأرسل ثلاثمائة فارس، تحت قيادة هيوبرت فتز— متى، مع الأموال المحتاجة، والمؤن من أجل الطريق، ليتولى ضبط الاعتداءات الويلزية، وحدث على كل حال، أنه قبل أن يصل إلى لندن، تجرأ الويلزيون، لأن الملك سرّح جيشه، ولأنه انخرط في الاستراحة، ولن يقدم —حسبما كانوا خائفين—

على الاتحاد مع الجيش السكوتلندي، ولن يقوم الجيشان بالهجوم عليهم، وقاموا بجرأة بالهجوم على جيش النبلاء الانكليز، على الحدود، أي على حدود الأراضي التي كانت عائدة إلى ايرل هيرفورد، الذي كان سبب الكراهية ومصدر الخلاف، لأنه رفض أن يعطي إلى أخته الثالثة، التي تزوجت من داود، حصتها الثالثة، وهاجموا أيضاً الجيش العائد إلى رالف ومورتيمير Mortimer, وبعدما مزقوا فارسين اثنين شجاعين، وفارس نبيل إلى قطع، قطعوا رأس الثالث، وقتلوا حوالي المائة من الجنود الرجالة، ووضعوا الجيش الانكليزي كله في حالة من الاضطراب العظيمة، تراجعوا ثانية إلى مواضع اختبائهم، وهم مسرورين بانتصارهم، ولدى سماع روبرت المذكور بهذا زحف في اليوم التالي ضدهم، وكان برفقته ثلاثمائة فارس، كان يدفع لهم، وكان متخيلاً أنه سوف يطوق الويلزيين، ويحاربهم وهم في هذا الوضع، لكنه فوجىء من قبل العدو، ولذلك هزم، وتراجع نحو بلداته، لكن ليس من دون المعاناة من خسارة كبيرة بالرجالة والخيول، وحتى في بلداته لم يكن سالماً تماماً من أعدائه.

كيف لحقت الهزيمة ببطرس رئيس أساقفة روسيا من قبل التتار

وفي الوقت الذي كان الموت فيه يحيط بمشاكل الدنيا، حدث لواحد اسمه بطرس، كان رئيس أساقفة روسيا، وكان رجلاً مستقيماً، وتقياً، وموثوقاً، وذلك بقدر مايمكن الحكم عليه، أن هزم من أراضيه، ومن رئاسة أسقفيته، من قبل التتار، وقدم إلى مقاطعات شيسالباين Ci-salpine للحصول على النصيحة والمساعدة، والمواساة في وضعه المضطرب، وذلك إذا أمكن بعون الرب الحصول على ذلك من الكنيسة الرومانية، وأن ينال معروف أمراء تلك المناطق الذين يمكنهم مساعدته.

ولدى سؤاله عن سلوك التتار وتصرفاتهم حسبما خبرها، أعطى الرد التالي:

«إنني أعتقد أنهم بقايا المدينيين، الذين هربوا من أمام جدعون، إلى أقصى مناطق الشرق والشمال، والتجأوا إلى ذلك المكان المرعب وتلك الفيافي الشاسعة، التي اسمها ايترين Etren, ولديهم اثني عشر قائداً، يدعى رئيسهم باسم خان التتار، ومنه صدر اسم التتار، مع أن بعضهم يقول بأنهم عرفوا هكذا من تارّاكونتا Tarrachonta, الذي منه انحدر كيارثان Chiarthan, الذي كان لديه ثلاثة أولاد، كان اسم الأسن منهم جنكيز Thesir خان، والثاني غوري Churi خان، والثالث باثاتار Bathatar خان، ولدوا، ونشأوا بين أعلى الجبال، التي لايمكن خرقها، فكانوا متوحشين، وبلا قانون، وغير انسانيين، وقد تربوا في الكهوف والمغائر، وذلك بعد أن طردوا الأسود والثعابين منها، هؤلاء على الرغم من هذا كله ارتقوا إلى أكثر أماكن العالم إغراءً، وبناء عليه قدم الأب والأبناء، وانطلقوا من أماكنهم المنعزلة، وهم مسلحين وفق طرائقهم، وكان برفقتهم حشود لاتحصى عدداً من المقاتلين، وألقوا الحصار على مدينة اسمها إرناك Ernac, واستولوا عليها، واعتقلوا حاكم المدينة، الذي قتلوه على الفور، وطاردوا حفيده قطز Cutzeusa الذي هرب، خلال عدة مناطق، وقد نهبوا جميع الأراضي التي آوته، وكان من بين البلدان التي عاثوا فيها ونهبوها قبل ستة وعشرين عاماً شطراً كبيراً من روسيا، حيث صاروا لوقت طويل رعاة للقطعان التي سلبوها، وبعدما قهروا الرعاة المجاورين لهم، تولوا قتلهم، أو جعلوهم رعاة خاضعين لهم أنفسهم، وبذلك زاد عددهم، وأصبحوا أكثر قوة، وعينوا قادة فيما بينهم، وتطلعوا نحو الأشياء الأكثر علواً واستولوا على مدن وأخضعوها لأنفسهم، وذلك بعدما تغلبوا على السكان، وزحف جنكيز خان ضد البابليين، وغوري خان ضد الأتراك، وبقي باثاتار خان في إرناك، وأرسل قادته ضد روسيا، وبولندا، وهنغاريا، وضد عدة ممالك أخرى، ويقوم الآن ثلاثة مع جيوشهم الكبيرة بتهديد البلدان المجاورة لسورية، وقد مضت الآن خمسة وعشرين عاماً على انطلاقهم أولاً من صحراء ايترين».

ولدى سؤال رئيس الأساقفة عن شكل عقيدتهم، أجاب بأنهم يعتقدون بأن هناك حاكم واحد للعالم، وعندما بعثوا رسولاً إلى سكان موسكو، بدأوا رسالتهم بهذه الكلمات: «الرب وابنه في السماء وجنكيز خان في الأرض»، وبالنسبة لطرائق حياتهم قال:

«إنهم يأكلون لحوم الخيول، والكلاب، وأية لحوم دنسة أخرى، ويأكلون في أوقات الحاجة لحوم البشر، ليست من دون طبخ، بل مطبوخة، ويشربون الدم، والماء، والحليب،ويعاقبون الجرائم بقسوة ويعاقبون كذلك الزنا، والسرقة، والكذب، والقتل، بالإعدام، وهم لايمقتون تعدد الزوجات، وكل واحد منهم لديه زوجة، أو أكثر من واحدة من الزوجات، وهم لايقبلون أناساً من شعوب أخرى للزواج من بينهم، أو لإقامة علاقات وطيدة معهم، أو للبحث في قضايا الأعمال، أو الاطلاع على اجتماعاتهم السرية، وهم ينصبون معسكرهم منعزلين بأنفسهم، وإذا ما تجرأ أجنبي على القدوم، هم يقتلونه على الفور».

وفيما يتعلق بطقوسهم، وغيبياتهم قال:

«إنهم يرفعون في كل صباح أيديهم نحو السماء يتعبدون خالقهم، وعندما يتناولون أطعمتهم يلقون بأول لقمة في الهواء، وعندما يكونون على وشك الشرب، يصبون بعضاً من السائل على الأرض، في تعبد للخالق، وهم يقولون أيضاً بأنهم يتخذون من يوحنا المعمدان قائداً لهم، وهم يفرحون، ويقومون بطقوس مهيبة في أيام القمر الجديد، وهم أقوى وأكثر رشاقة مما نحن عليه، وهم أفضل قدرة في تحمل المصاعب، ومثل ذلك خيولهم، وقطعانهم ومواشيهم، والنساء مقاتلات، وفوق كل شيء بارعات جداً في استخدام القوس والنشاب، وهم يرتدون دروعاً مصنوعة من الجلود، من أجل حمايتهم، وهي دروع من النادر خرقها، وهم يستخدمون أسلحة مسممة في هجماتهم، ولديهم أنواع كثيرة جداً من الآلات الحربية، التي تقذف الرمايات بقوة شديدة، وبشكل

مباشـــر نحـو الهدف، وهم يأخـذون راحتهم في الهواء الطلق، ولايعبأون مطلقـاً بالأنواء العـاصفـة، وقـد أغـروا عـدداً مـن الشعـوب والفـرق للالتحـاق بهم، وهم عازمـون على اخضـاع العالم كلـه، ولقد قـالوا بأنهم أوحي إليهم من السماء بأنهم سـوف ينهبـون العـالم كله لمدة تسعـة وثلاثين عـامـاً، مـؤكدين بـأن الانتقام الربـاني قد طهّـر العـالم بوسـاطة الطوفـان، ولسوف يتطهـر الآن بوساطة اخلاء عـام له من السكان، وبدمار كلي، هم أنفسهم سـوف يتولـون تنفيذه، وهم يعتقـدون، لابل إنهم يقـولون، بأنهم سيكون لهم صراع حـاد مع الرومـان، وهم يدعـون جميع اللاتين باسم رومـان، وهم يخافـون من صنع معجـزات من قبل الكنيسـة، وأن من الممكن أن يصـدر ضدهم قـرار بالإدانة في المستقبل، وهم يعلنون، أنهم إذا ما تمكنوا من غلبتهم، فلسوف يصبحـون على الفور سادة العالم كله، وهم يقدمون احترامـاً صحيحاً للمعاهـدات، في حالة الـذين قـدموا أنفسـهم عن طواعيـة لهـم، وتولـوا خدمتهـم، باختيـارهم أفضـل الجنـود من بينهم، الذين عندمـا يقـاتلـون، يضعوهم دومـاً أمامهم، وبالطريقـة نفسها يبقـون فيما بينهم مختلف أنواع الحرفيين، وهم لايظهـرون رحمة نحـو الذين يثـورون ضـدهم، ويرفضـون نير حكمهم، أو يقفـون ضـدهم في أرض المعـركـة، وهم يستقبلـون الرسـل بلـطف، ويسهلون أعمالهم، ويرسلونهم عائدين».

وأخيراً سئـل رئيس الأسـاقفـة المذكـور عن طرائقهـم في عبـور البحـار والأنهار، وعلى ذلك أجـاب بأنهم يعبرون الأنهار على ظهـور الخيـول، أو على جلود صنعـت لهذه الغـاية، وأنهـم بنوا سفنـاً في ثلاثة أمـاكن على شـاطىء البحـر، وقـال أيضـاً بأن واحـداً مـن أولئك التتـار المذكـورين، وكـان اسمـه جـلال الدين Kalaladin, وكـان صهـراً لجنكيـز خـان، قـد اكتشف بأنه تحدث كـذباً، وقـد نفـوه إلى روسيـا، ووفـرت حيـاته من قبل مقدمي التتار، مراعاة ولطفاً نحو زوجته.

رسالة مرعبة من التتار

وفي العام نفسه، ومع نهاية الصيف، أرسل الملك الرئيسي للتتار، مرتين رسائل إلى أمير أنطاكية، بوساطة رسل متنوعين، حيث أمره بإطاعة رغباته، في ثلاثة أشياء، وإلاّ فإن سيفاً دموياً سوف ينزل به انتقامه منه، وكان الأمر الأول، هو وجوب قيامه بتدمير أسوار جميع مدنه وقلاعه، وكان الثاني أن يرسل إليه جميع الموارد الناتجة من إمارته بالذهب والفضة، وكان الثالث هو أن يرسل إليه ثلاثة آلاف عذراء، وعندما سمع الأمير بهذه الرسالة استولى عليه الأسى وقال:

«مادام الرب موجوداً، ومادام قديسيه موجودين، أنا لن أستجيب لأي من هذه المطالب الثلاثة، وأفضل بالحري أن نتحارب من أجل حياتنا، وأن يتقرر هذا الخصام فيما بيننا أمام الرب»، وبعد هذا، عندما وجد الرسل منفذاً للتهديد عادوا إلى ملكهم، وجرى حمل رسالة مشابهة، من قبل الرسل التتار المتقدم ذكرهم، إلى ملك أرمينيا، وإلى بعض السلاطين المسلمين الأقوياء، غير أننا لانعرف أية رسائل أرسلت جواباً على مطالبهم.

المصالحة بين كنيسة وينكستر وبين أسقفها

وفي هذه الآونة، استأذن أسقف وينكستر الملك الفرنسي، والذين فتحوا له صدر الرحمة أثناء عيشه في المنفى، وبعد تقديمه الشكر لهم، ولكونه كان متأكداً من حظوة ملك انكلترا، بادر مسرعاً إلى وينكستر، ليكرس نفسه إلى الأعمال الأسقفية العائدة لكنيسته البائسة، وليصلح أوضاعها الفوضوية، ولدى سماع رئيس الرهبان في ذلك المكان باقترابه، عمل الضروريات اللائقة المحتاجة، مع أن ذلك جاء متأخراً، وتواضع بنفسه أمامه لدى وصوله، وبالطريقة نفسها تصرف الآخرون، سواء من العلمانيين والرهبان، والذين كانوا واثقين كثيراً جداً بحماية الملك، أي الذين كانوا

المثيريـن للفتن، والمتسببين بـالخلاف، عملوا الآن تكفيرات، وحـــولـوا عـواطفهـم نحـو أسقفهم، ومـا لبث بعـد ذلك، في يوم عيـد قطع رأس القديس يوحنا المعمـدان، أن جرى سحب القـرار الذي تفوه به الأسقف، والذي قضى بحرمان مدينـة وينكستر وكنيستها، والذي كانوا واقعين تحته منذ وقت طويل، وجـرى بذلك تحليل السكان بشكل حـر بوساطة صيغـة الشريعة.

ومع أن رئيس الرهبـان المتقـدم الذكـر جـون دي كـوز Cauz, قد جرى تحليله مع رفاقه بالطريقة نفسها، قد جرى خلعه مع آخرين معه، كان رئيس الرهبــان المذكــور قـد تجرأ على تعيينهم مــوظفين لديه، ووكــلاء علمانيين، وخضع عمـــدة المدينة، الذي اقترف الذنـب الأعظم، إلى تكفير أثقل، وعقوبات أشد.

وفي الســابع من تشرين الثــاني، مـات آدم أسقف كــونور Connor, وحدثت وفاته في ويردون Waredon, حيث كان لبعض الوقت راعياً للدير، وفي ثمانيـة عيد القديس مـارتن أبحر أسقف لنكولن مـن أجل عقد محادثات سرية دقيقة مع البابا، من أجل تقرير مسألة العلاقة الضرورية بينه وبين رهبانه، ومالبث بعد ذلك أن قـام عميد تلك الكنيسة، وبرفقته بعض الرهبان، بالابحار، في سبيل الدفاع عن قضيته ضد الأسقف.

تكريس روجر إلى كرسي باث

في الحادي عشر من أيلول، في هذا العـام، جرى تكريس المعلم روجـر، رئيس جوقة المغنين في كنيسة سالسبري، والذي كان رجلاً صاحب أخلاق أدبية، ومتمتعاً بمعرفـة كبيرة في مواضيع اللاهوت، جرى تكريسه في ردنغ لكرسي باث، وعندمـا كان هذا الكرسي شـاغراً، اعتمد على مـوارده المعلم مـارتن، فبـاعتماده على سلطات قـداسـة البابـا، ألقى هذا باسم البـابا يديه الجشعتين، من أجل منحهم لواحد من أقرباء البابا المذكور.

وصول ملك فرنسا إلى الهيئة الكهنوتية للسسترشيان

ومع اقتراب عيد القديس ميكائيل، اجتمع رعاة طائفة ديرة السسترشيان، من مختلف البلدان والمناطق، لعقد اجتماع الهيئة الكهنوتية العامة لديهم، حسب عادتهم، وذهب الملك الفرنسي بشكل تقوي إلى هناك، ليسأل مساعدة صلوات جميع الرهبان، الذين اجتمعوا هناك، وكان برفقته النبيلة السيدة بلانشي أمه، التي كانت قد حصلت من البابا على امتياز السماح لها بالدخول إلى البيوت الدينية لطائفة الرهبان السسترشيان، وكان برفقتها اثنتي عشرة امرأة، لتقدم صلواتها، وكان هناك أيضاً مع الملك المذكور، وأمه، ومن أجل الغاية نفسها، أخوي الملك، كونتي أرتو وبواتو، ودوق بيرغندي، وذلك بالاضافة إلى ستة كونتات فرنسيين آخرين، ولدى وصولهم إلى شيستر، ترجلوا عن خيولهم، احتراماً للكنيسة، وساروا بشكل منتظم، وكانوا يصلون بتقى، وذلك من تلك البقعة إلى الكنيسة، وهي مسافة تعادل رمية قوس زيار، ولدى وصولهم إلى الكنيسة، خرج جميع رعاة الديرة، مع أعضاء ديرتهم، الذين بلغ تعدادهم حوالي الخمسمائة، وجاءوا بمسيرة لاستقبالهم، صدوراً عن الاحترام للملك الفرنسي، لأنها كانت المرة الأولى والوحيدة التي قدم فيها إلى ديرهم، وكان البابا على معرفة مسبقة بقدومه، فأرسل رسالة إلى الهيئة الرهبانية، التمس فيها بكل حرارة من الرعاة ومن الرهبان، أنه عندما سيكون الملك بينهم، لطلب صلواتهم، أن يتقدموا بالرجاء له، وهم جاثين على ركبهم مع أيد متشابكة، حتى يقدم مساعدته القوية وحمايته، حسب القاعدة الفرنسية القديمة، إلى أبيه، أي الراعي الأعظم، والحاكم الرئيسي للكنيسة، يعني الحبر الأعظم، ضد الإهانات التي كان يسعى لتجنبها، والمقدمة له من الامبراطور فردريك، الذي سماه برسالته بابن الشيطان، وإذا ما تطلبت الحاجة، أن يفتح صدر رعايته، وأن يستقبله بلطف في مملكته، مثلما كان قد فعل من قبل إلى البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، عندما كان في المنفى، هارباً من اضطهاد الامبراطور فردريك المذكور، ومثلما فعل، كما هو

معروف، أيضاً إلى توماس المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، الذي هو الآن شهيد مجيد، حين قدم له المواساة، ومكانا للالتجاء، عندما نجا من غضب هنري، ملك انكلترا.

وعندما، بناء عليه، وصل الملك المذكور، تتقدمه أمه، وأخذ مقعده في قاعة هيئة الرهبان، في وسط النبلاء والرعاة، قام الرعاة مع رهبان الديرة، وهم جاثين على ركبهم مع أيد متشابكة، ودموع متدفقة، فتقدموا بتواضع بالطلب المذكور أعلاه إليه، ثم إن الملك، لدى رؤيته لهم على هذه الحالة، ولدى سماعه بطلبهم، جثا هو على ركبته نحوهم، ومنحهم المعروف المطلوب، وأعلن أنه بقدر مايسمح الشرف، سوف يصد عن الكنيسة الإيذاء المقدم إليها من الامبراطور فردريك، وإذا ما كان رأي نبلائه موافقاً، الأمر الذي لايمكن لملك فرنسا أن يرفضه، هو على استعداد لاستقبال البابا شخصياً، إذا ما أرغم على نفي نفسه.

وعند ذلك رد الرعاة بالشكر على معروفه هذا، ومنحوا الملك حصة خاصة في جهود أعمالهم الصالحة، هذا وكان للامبراطور أيضاً رسلاً خاصين هناك للحيلولة دون حصول مطالب البابا على أية نتيجة جيدة.

تكريس فولك باسيت أسقفاً للندن

وفي يوم عيد القديس دايونيسيوس Dionysius جرى تكريس فولك باسيت Bassett، عمدة يورك، أسقفاً للندن، وكان مشهور الأصل، ومشهوراً أيضاً بنقاوة أخلاقه، وتم التكريس في كنيسة الثالوث المقدس، في تلك المدينة.

ذهاب أوتو وبعض الكرادلة الآخرين بشكل سري إلى البابا في جنوى

وفي حوالي الوقت نفسه، تلقى أوتو أسقف بورتو، وبعض الكرادلة

الآخـريـن، على الرغـم الشـديد مـن حـراس الامبراطور فـردريك، ومع التسبيب لهم باضطراب عظيم، وهم الحراس الذين مـركـزهم الامبراطور لحراسة الطرقات، تلقوا أماناً من الميلانيين، ومن دول أخرى كانت مساندة للبـابا، ومن مـركيـز مـونتسرّات Montserrat وشخصيـات تســـاند الكنيسة، وذهبوا دون أن يصابوا بالأذى، أو التعرض للخسائر إلى البابا في جنوى، وذلك على الـرغم من الحرس الذين وضعهـم الامبراطور لمراقبـة الطرقات، ولدى وصولهم فرح البـابا كثيراً وابتهج، وشعر بآمال بالتحسن في أوضـاعه التي كـانت مضطربة آنذاك، ومنذ ذلك الحين تدفق عليـه، من جميع منطقة جنوى، أعـداد كبيرة من أقربائه، وآله، وأصدقـائه، وكل الذين كانت لهم أية عـلاقة به، ومع أنه كان بالمنفى، فقد تطلب الأمـر، إما بسبب القـرابة أو الصداقـة منحهم موارد، لإستخـدامات أولادهم وأحفـادهم، وبشكل خاص أن تكون هذه الموارد، من مملكة انكلترا.

وصول حملة الصليب إلى إنكلترا

في يوم الاثنين، قبل عيــد جميع القـديسين، وصل إلى مجمع الأســـاقفـة لروكستر، بعض الأشخـاص، مظهرين نـوعاً جـديداً من الرهبـانية، وقـد عـرفـوا باسم رهبـان حملة الصليب، من حملهم صلبـاناً على عصي، وطلب هؤلاء الرجـال من النبلاء مكاناً للإقـامـة، مظهرين امتيـازاً لم يسمع به من قبل، منح إليهم من البابا، من أنه لايجوز أن يسمح لأحد بنقد طائفتهم، أو إهانتها، أو توجيه الأوامر إليهم، وقـد منحوا سلطة التفوه بأحكام الحرمان الكنسي ضـد الأشخاص الذين يفعلون مثل هذا الشيء، وعجب الرجـال الحكماء والمستقيمون كثيراً، وأصيبوا بالدهشة من ظهور مثل هذه الطوائف الجديدة يومياً، وتكاثرها ونمـوها من دون نهاية، وبناء عليه حدث أن كثيراً من الرجـال المتعلمين، قد تخلوا عن نظـام بندكت الأعظم مباركـة، والذي تمثلت فيه روح جميع القـديسين، وعن نظام أوغسطين النبيل، وعملوا ضد مبادىء ومقـررات المجمع العام الذي عقـد في أيام البابا إنوسنـت الثالث،

صاحب الذكرى المجيدة، وهربوا فجأة إلى هذه الطوائف التي لم يسمع بها من قبل، والمخترعة حديثاً، ففي ذلك المجمع كان قد تأكد بشكل ثابت، وتقرر أنه بعد القبول، ومنح الشرعية لكل من الدومينيكان والفرنسيسكان، وجوب عدم قبول أية طوائف جديدة من ذلك الوقت فصاعداً، أو إذا جرى قبولها، عدم منحها الشرعية، حتى لاتتضرر الطوائف المقبولة والشرعية، وتصبح أقل تقديراً، ويتم التخلي عنها، وعلى هذا المرسوم أعطى جميع الكرادلة، وكل جماعة المؤتمر موافقتهم.

كيف حمل البابا نفسه إلى مدينة أستي

وفي حوالي الوقت نفسه، ذهب البابا إلى مدينة أستي Asti, بناء على مبادرة أقربائه في جنوى، الذين كانوا عطاشى يسعون متشوقين وراء المال، والذين أقنعوه بالذهاب على الفور، واستقبال الانكليز والفرنسيين، وجيرانهم، الذين كانوا جالبين الهدايا إليه، وأن لايغلق يده ويرفض الهدية المقدمة إليه من قبل أي انسان، وأن يدعو أيضاً في الوقت نفسه إلى مجمع عام، لإعلان قرار ضد الامبراطور فردريك، الذي كرهوه، ولكي يشبعوا رغباتهم بالانتقام، وكذلك في سبيل نيل الثروة، وبناء عليه انطلق البابا، يحيط به حشد من الجنويين المسلحين، وركب الطريق بشكل مفاجىء وسري إلى المناطق الأكثر قرباً من الأراضي الفرنسية، وحيث قامت الآن مدينتا أستي، وأليساندريا Alessandria,وعدة مدن أخرى. فانسحبوا من كل ولاء وطاعة إلى الامبراطور فردريك، وتحولوا إلى البابا، وبذلك نفذوا قول الشاعر:

يتقلب العامة دوماً مع أميرهم

البابا يسير إلى ليون

وبعد إقامة قصيرة في أستي، قام البابا الذي شعر بالاستراحة وجدّد نشاط نفسه، فغرر بحرس الامبراطور الذين كانوا متمركزين باتجاهات

مختلفـة، لإعـاقـة رحلتـه، ومع بـداية نهاية الصيف، حمل نفسـه إلى ليـون، ليمضي هناك الشتـاء، حيث ارتحل مسرعـاً، مع محطات مفـاجئة في كل من الليل والنهار، لكن ليس من دون مخاطرة كبيرة.

رفض منح ملك إنكلترا مساعدات مالية

في اليوم التـالي لعيد جميع الأرواح، اجتمع نبـلاء انكلترا، ووقتها طالب الملك بإلحاح شديد، إن لم نقل من دون حياء، مجدداً بالمسـاعدة المالية منهم، ولكن بما أن الضرر قد لحق بهم مراراً وخدعوا قاموا بالاجماع، وأعلنوا بفم واحد، رفض طلبـه في وجهه، وكـان الملك مصمماً آنذاك على إرسال جيش كبير العدد ضد الويلزيين، وبالإضافـة إلى ذلك كان مداناً ديناً كبيراً إلى تجّار القـارة، وإلى تجّار الخمـور وسـواهم، من أجل الجعـة وحـاجيـات أخـرى للحيـاة، حتـى أنه كـان نادراً مـــايري نفسـه بين الناس، بسبـب الطلبـات الصاخبة للأشخاص الذين كانوا يطالبون بما هو حق لهم، ومن ذلك الحين بات واضحاً أنه هوجم بشكل مهين ووقع في المصائـد المخادعة للأجانب: الذين كانوا ينشدون فقط مرابحهم.

كيف جرى استخراج المال من سكان لندن

وبناء عليـــه بات الملك يسعى لاهثـاً وراء المال، ولذلك قـام من دون استشارة جماعـة المملكة بشكل عام، أو على الأقل من دون مشورة نبـلائه، من دون حيـاء، فاستخـرج بالقـوة ألفـاً وخمسمائة مـاركـاً من سكان لندن، مقدمـاً تعليلاً منطقياً، أو جعلهم يفهمون ذلك من قبله ومن قبل وكـلائه، ذلك أن فـريق الملك قـد أكـد، بأن اللندنيين قـد استقبلوا منذ عشرين سنة خلت واحـداً من أبناء مدينتهـم واسمه وولتر دي بوكـريل Buckerell, الذي نفي بشكـل عـادل من المدينة، ومكث وقتـاً طويـلاً في المنفى، لكن سكان لندن نقضـوا هذا، وأعلنوا بأنه قـد عمل من الرعيـة بشكل شرعي، بوسـاطة الالتماسات، والهدايا التي قـدمت من قبل أخيـه أندرو إلى الملك،

وبناء عليه عفي عنه بموافقة الملك وأمره، وصار بذلك واحداً من أهل المدينة، ويشهد على ذلك ملفات الملك، وعلى هذا رد المعترضون على الفور بتفاهة باسم الملك، بأن الملك كان في ذلك الوقت صغيراً، وضعيفاً، ومن السهل قيادته والتغرير به، ولذلك فإن الذي وافق عليه بات فارغاً ولا قيمة قانونية له، ولاشك أن هذا جاء لصالح إهانة الأوصياء عليه، لأن القرار لم يكن مؤيداً بالمنطق، بل بالإرادة فقط، والذي حدث أخيراً أن السكان أرغموا على دفع المبلغ المالي المذكور، ليرمى به للأجانب.

حول النصر الذي ناله نيقولا دي مولي قهرمان غسكوني

وحوالي هذا الوقت من العام، حدث أن نيقولادي مولي Molis, قهرمان غسكوني، الذي كان الملك قد تركه في تلك البلاد، وعيّنه حاكماً على تلك المقاطعة، والذي كان مشغولاً بحرب ضارية ضد ملك نافار، حدث أن واتاه الحظ في إحدى المعارك، ونال نصراً عليه.

موت مرغريت أخت ملك سكوتلندا

وفي يوم عيد القديس هوغ، ماتت مرغريت أخت ملك سكوتلندا، وأرملة غيلبرت ايرل مارشال في لندن، ودفنت بطقوس موائمة واحترام بين رهبان الدومينيكان.

موت وليم أسقف وينكستر

وبعد ذلك بوقت قصير، دفع دين الطبيعة وليم دي برويير Bruyere, أسقف وينكستر، وكان رجلاً مايزال في أول حياته، ومن أسرة جيدة، ومتميزاً بأخلاقه وعلومه.

كيف استرد ملك فرنسا صحته بطريقة رائعة وحمل شارة الصليب

في هذا العام، ومع ميلاد مولانا، وقع الملك لويس، ملك فرنسا،الذي

كان مـايزال يعاني من بقـايا المرض الذي أصيب به، عندما كـان منشغلاً في بواتو، وقع في حـالة سبات تشبـه الموت، وتمدد لعـدة أيام وكأنه كان ميتـاً، ووفقـاً لما ذكره عـدد من الذين جلسوا من حـوله، كان قـد حرم تمامـاً من التنفس، وأعتقـدت أمه مع أخيـه وبعض الآخرين من أصـدقائـه المقربين، الذين وقفوا هناك، بأن الملك صار متيبساً بسبب الموت، وتفوهت أمه التي كانت متـأثرة بالحزن أكثر من الآخـرين، تفوهت والآهات تقطع كـلامها، بالكلمات التالية:

«ليس لنا يارب، يارب ليس لنا، بل أعط لإسمك المجد، واحفظ في هذا اليـوم مملكة فـرنسـا، كما فعلت دومـاً حتى الآن بشكل مشرف»، ثم إنها وضعت على جسد ولدها الصليب المقـدس، وتاج المسيح، والرمح، وهي الأشياء التي جرى تملكها في أيامه، وعملت تعهداً باسمه، أنه إذا ما تلطف المسيح بزيارته، وقام بحفظه، ورده إلى الصحة سوف يحمل —أي الملك— الصليب، وسوف يزور ضريحه المقدس، الذي كان قد كرّسه بدمه، وبعدما قامت أمـه، وجميع الآخرين الذين كـانوا حضوراً، بمتابعـة الصلاة لبعض الوقت من أجله، بكل اخـلاص للقلب، قام الملك، الذي اعتقـدوا أنه كان ميتـاً بالتنهد فجأة، ومـدّ ذراعيه وسـاقيـه، مع صوت عميق، كأنه صـوت واحد قد قام من القبر، وقال:

«لقد قام الذي نبع من عليين —بنعمـة الرب— بزيارتي، واستعادني من الموت»، ومـا لبث بعـد ذلك أن استرد صحتـه، وحمل بشكل مهيب شـارة الصليب على كتفيـه، مقـدمـاً نفسـه، بشكل تطوعي قـربان محرقـة للرب، وعمل نذراً، أنه إذا مـا سمح له مجلس المملكة، الذي كـان قد تولى شـؤون الحكومة، وسمح له، سوف يزور بشخصه الأرض المقدسة.

مساعي داود أمير شمالي ويلز لتحرير نفسه من النير الإنكليزي

وفي هذه الآونة، أرسل داود أمير شمالي ويلـز، وابن أخت ملك انكلترا،

وكان خائفاً كثيراً من غضب الملك المذكور، الذي أثير ضده بشكل عادل، أرسل رسلاً خاصين إلى البابا، مخبراً إياه بوساطتهم، بأنه قد عهد بنفسه وبجميع أراضيه إلى كنيسة روما، لكي يحمى من قبلها ضد إدعاء ملك انكلترا، وليعد نفسه، أي داود وورثته، اقطاعياً مستأجراً منها مقابل خمسمائة مارك سنوياً، وبعدما ترافع بطلب العدالة، حصل على رسائل حول هذه القضية، لكن ليس من دون انفاق كبير للمال، و كانت صيغة ما حصل عليه كما يلي:

الكتابات التي حصل عليها الأمير المذكور ضد ملك إنكلترا

«إلى هنري اللامع، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وإلى راعيي ديري أبركونوي Aberconway وكمير Kemereمن طائفة السسترشيان، المفتشان المعينان من قبل قداسة البابا، صحة في الرب: لقد تسلمنا وصاية من البابا، فيما يلي نصها»:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى ولديه المحبوبين كثيراً، راعيي ديري أبيركونوي وكمير من طائفة السسترشيان، المقيمين في أسقفية بانغور Bangor, صحة ومباركات رسولية:

'لقد عرض علينا، باسم النبيل داود، أمير شمالي ويلز ولصالحه، أنه بما أن الحروب، قد دامت قائمة بينه —أي داود المذكور— الذي كان والداه قد قدماه ولد رعاية إلى كنيسة روما، وبين ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك المشهور لانكلترا، وأن ذلك قد استمر حتى بعد الوصول إلى تسوية، بوساطة رجال صالحين، حيث عملت من قبل أخينا المبجل أسقف القديس أساف مع رفاقه، من أن كلا الفريقين سوف يلتزم بقرارهم في جميع قضايا الشكايات، لابل إن يميناً جرت تأديته من قبل الفريقين لهذا الغرض، لكن الملك المذكور لم يقم تقديراً لذلك، وقد خرق قرارهم، حيث لم يكن قانونياً بالنسبة له فعل أي شيء في القضية، وقام بشكل غير متوقع

فعمل حرباً ضـد الأمير المتقدم الذكـر، وبوساطة القوة وبـوساطة الرعب، الذي يستولي في بعض الأحيان، على أشجع الرجال، تمّ إرغامه على التخلي عما كان قد أقسم عليه، ومثل فعل الملك مع آخرين من رعيته بشأن القضايا المذكورة أعلاه، التي من أجلها عملـت التسوية، وبناء عليه، بما أن الأشياء التي عملت من خلال الخوف، أو بوسـاطة القوة، ينبغي أن تعد فـارغة من التأثير، إننا بوسـاطة هذه الوثائق الرسوليـة، نأمركما، بنـاء على إخلاصكما، أن تقـومـا بـالتقصي في هذه القضيـة بكل يقظة، بحثـاً عن الحق في هذه المشكلة، وإذا ما وجدتما القضية، حسبما تقدم الـذكر أعلاه، حررا بموجب سلطاتنا الأمير المتقدم ذكره، من أية مراعاة أو تقيد باليمين، الذي استخرج هكذا منه، وكذلك قـوما من دون أية صعـوبات بتحليله، لأن ذلك عدل، بموجب صيغ الكنيسـة، أي تحليله من أي حكم صدف وصـدر ضده، من قبل أي واحد، فيما يتعلق بهذه المسألة، سواء ضـد شخصه أو ضد أراضيه. شهد، إلخ، صدر في جنوى في اليـوم السادس والعشرين من تموز، في السنة الثانية من بابويتنا». «وإننا بناء على قوة هذه السلطة، نأمركم بالظهور أمامنا في كيروس Keyrus في كنيسة غستفند Gustefend, في عشية عيد القـديسة العـذراء أغنس Agnes, للإجـابة هناك عن الأمير المذكـــور، حول القضايا الواردة في الوثيقة المذكورة، حسبما ترياه مناسباً».

وعندما وصلت هذه الوثيقة إلى علم الملك وعلم نبلائه، وبعدما طارت بعـد ذلك على أجنحـة الشهرة إلى بقيـة المقـدمين، غضبوا غضبـاً شـديداً، وأقنعـوا الملك بعـدم الانصيـاع إلى أية أوامـــر من هذا النوع، وحثـوه على الحرب، ومهاجمة داود المذكور من دون أي تأخير، وعندما سمع البابا بهذا، تغاضى عما حـدث، وأخفاه كلياً، لكنه على كل حـال لم يُعد إلى داود الهدايا التي كان قد تسلمها منه.

حول رعد سمع في الشتاء

في شهـر تشرين الثاني من هذا العـام، والحوادث الحزينة تقوم بالعبـور،

جرى سماع رعود بشكل واضح، ورؤية بروق، استمرت لمدة خمسة عشر يوماً متوالية، وتبع ذلك حالة من الأنواء مزعجة.

حول التفتيش الذي جرى بشأن احتلال الغابة الملكية

وفي هذه الآونة، نصح روبرت باسلو Passlow, وكان كاهناً لدى الملك، بأن يتبنى سلوكاً قاسياً، يكون في الوقت نفسه مفيداً له، وكان هذا بأن يقوم بتفتيش دقيق حول احتلال الغابات الملكية، أو الأراضي التي ليست بغابات، التي هي بين الناس القاطنين على مقربة منها، في سبيل تحميل الذين أقدموا على مثل هذه الاحتلالات، عقوبات قاسية، وقام هو، بناء على أمر الملك، بجمع كل رفاقه من أجل هذه الغاية، وهم: لورانس، الكاهن في كنيسة القديس ألبان، وغيوفري دي لانغلي Langley, وكان فارساً، وذهب روبرت المذكور إلى دوائر مختلف الكونتيات، وفرض على كثيرين، بوساطة حجج مضاعفة، وقام في سبيل إغناء الملك، بإفقار الجميع بشكل لايمكن الخلاص منه، وكان الذين أفقرهم: رهبان، ورجال علمانيين، ونبلاء، وعاديين، وجاء افقارهم إلى درجة أن كثيرين منهم باتوا من دون بيوت، ومتجولين، وقد أرغموا على التسول، وألقى بآخرين في السجن، أو جردهم من ممتلكاتهم كلها، فعاشوا حالة مزرية طويلة من الحاجة والشقاء، وكان من بين هؤلاء: جون دي نيفيل Nevill, الذي كان مسؤولاً أعلى عن الغابات، وكان أبوه هوغ قد شغل الوظيفة نفسها قبله، والذي لم يكن الأقل بين نبلاء انكلترا، وقد جرم وأهين بشكل عميق إلى حد أنه ألقي به في السجن، وكان من المتوقع حرمانه من ميراثه، أو إرغامه على دفع فدية مذلة، أو المعاناة من عقوبة أخرى قاسية، ما لم تقم الرحمة الملكية بالتخفيف من قسوة العقوبة، بناء على وساطة قوية، أو وساطة بعض النبلاء الآخرين، وهو على كل حال لم يستحق الرحمة من أناس رحماء، لأنه عندما كان مزدهراً، لم يعرف كيف يرحم الذين كانوا خاضعين له، في مثل هذه المصيبة.

انتخاب روبرت باسلو إلى كرسي شيستر وهو الانتخاب الذي ألغي بعد ذلك على الفور

وبإضافة هذا المذكور روبرت باسلو، بضعة آلاف من الماركات إلى الخزينة الملكية، حصل على حظوة الملك إلى درجة مدهشة، ولدى رؤية كهنة شيستر هذا، اعتقدوا أنه شخص مناسب، ومفيد كثيراً، ليتولى حكم كنيستهم، بحكم كونه عاقلاً، ورجلاً بارعاً، وقد أملوا بذلك إرضاء الرب وإرضاء الملك والحصول بالوقت نفسه على حظوة الملك وحمايته، وتقدم كنيستهم بذلك، ولذلك انتخبوا روبرت باسلو المذكور أسقفاً لهم، لكن غضب من ذلك غضباً شديداً الرئيس المنتخب لأساقفة كانتربري مع عدد كبير من الأساقفة، وجاء ذلك عندما عرفوا به، واكتشفوا ذلك، وألقى جانباً كل خوف من الملك ومن تعاطفه، وتولى فحص روبرت المذكور، ببعض الأسئلة الصعبة جداً، وجاء ذلك من خلال أسقف لنكولن، ورفض أخيراً انتخاب الأسقف، وألغى انتخابه على الفور، ومن دون أن يطلب موافقة الملك، وعيّن المعلم رتشارد دي ويتز Witz, واشتعل غضب الملك لهذا، وكان ذلك ضد الأسقف المنتخب، وضد الأساقفة الآخرين، وأعطيت موارد المعلم رتشارد المذكور، حتى بعد انتخابه، إلى أشخاص موائمين ويستحقون، لأن المعلم مارتن، كاهن البابا، والذي كان حاضراً وجاهزاً، وكان قد عيّن من قبل البابا لهذه الغاية، غاية السعي بلهفة وراء الموارد الشاغرة، وعندما سمع الملك بهذه الإجراءات، غضب غضباً شديداً، ومنع الأسقف المنتخب حديثاً، والذي جرى اختياره من دون أخذ رأيه، مما سبب إساءة كبيرة له شخصياً وللمملكة، منعه ولم يسمح له بالقبول في أية بارونية تابعة لكنيسته، أو إلى أية ملكية علمانية، وهذا قد جرى ذكره من قبل.

منح الملك لبعض الهدايا الثمينة في كنيسة القديس ألبان

في يوم عيد القديس توما الرسول، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، ليقيم هناك، وعندما ذهب صاعداً —حسبما جرت العادة— إلى المذبح الكبير، ليقدم هناك صلواته، قدم رداء ثميناً، وثلاثة أطواق ذهبية، ليجري تعليقها في المعبد، بمثابة ذكرى له، وتشريفاً للشهيد، مع أنه كان قد قدم سبعة من قبل.

وأقام الملك لمدة ثلاثة أيام في ذلك المكان، وعندما كان هناك، وصله تقرير بأن كونتسة فلاندرز، قد دفعت دين الطبيعة، وبناء على هذه الأخبار، أمر —حسبما جرت العادة مع الملوك المسيحيين— بتقديم صدقات كبيرة إلى الفقراء، لصالح روحها، وبإقامة جناز مهيب، يعمل بشكل تقي في سدة جوقة القديس ألبان.

عرض مختصر لأحداث هذا العام

وهكذا انتهى هذا العام، الذي كان خلاله كله وافراً بانتاج الفواكه والقمح، وكان ذلك بالفعل كثيراً جداً، إلى حد أن سعر مقياس القمح نزل إلى شلنين، وكانت حوادثه ضارية جداً بالنسبة إلى الأرض المقدسة، وقد تميز بالاضطراب في انكلترا، وكان مشحوناً بالرعب بالنسبة للمملكة الفرنسية، وقد أثار الشكوك في الكنيسة، والشغب بين الايطاليين.

احتفال الملك بعيد الميلاد في لندن
ومنحه شرف الفروسية لجون دي غيتدن

سنة ١٢٤٥، التي هي السنة التاسعة والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، فيها أمضى عيد الميلاد في لندن، واحتفل بمهابة بذلك العيد، برفقة كثير من نبلائه، وفي ذلك المكان، منح في يوم الميلاد شرف الفروسية لجون دي غيتدن Gatesden, الذي كان كاهناً قد تمتع بكثير من المنافع

الغنية، لكنه قام الآن، كما ينبغي، بالتخلي عنها كلها، وكان جون هذا رجلاً حكيماً، ومواظباً، قد قام بوساطة صناعته بإغناء نفسه بكثير من الممتلكات العلمانية، ولدى زواجه من ابنة سيدة نبيلة، اسمها روشيا Roisia دي بروس، تخلى عن المعالجة الخطيرة للأرواح، وتقدم ليصل إلى مكانة أعلى النبالة، ونتيجة لذلك، فإن كثيراً من الذين كانوا نبلاء من حيث المولد، مع أنهم كانوا وضعاء من حيث العقل، أصبحوا حاسدين له، وأقاموا المصائد لإيذائه، لكن جون المذكور، الذي كان حكيماً نجا من محاولاتهم، لكن ذلك لم يكن من دون مصاعب.

كيف قام رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري مع أسقفي ووركستر وهيرفورد بالعبور إلى القارة

بينما كانت هذه الحوادث في سياق الوقوع، قام بونيفيس رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري مع أسقفي هيرفورد وووركستر، الذين كانوا من بين جميع أساقفة انكلترا الأصدقاء المقربين جداً من البابا، وكانوا المشكوكين بهم الأكثر من قبل الانكليز، قاموا فجأة بالإبحار للذهاب إلى البابا، في سبيل القيام ببعض الأعمال السرية (التي لم تكن معروفة لدى الجماعة بشكل عام)، وكانت جميع القضايا قد جرى توزيعها في دير كانتربري، أو كل ماتعلق بالتجمع الديري، وحسبما هو معتاد في بلاطه، كانت الوظائف مع الموظفين تحت تصرفه، أكثر من أي واحد من سلفه قد سمح له أن يفعل، وكان بونيفيس، بعدما قام أيضاً بفحص دقيق، قد أعلن بأن كنيسة كانتربري، كانت مكبلة بديون لايمكن جبرها، وذلك لصالح رئاسة الأسقفية، وقد بلغت الديون إلى مبلغ خمسة عشر ألف مارك، وبناء عليه عندما كان على وشك المغادرة والاقلاع من دوفر، أمر بجميع الأشجار الحراجية العائدة إلى رئاسة الأساقفة، بأن تقطع وتباع، وأن تجري جباية ثقيلة وفرض ضرائب أيضاً بين رجال الدين، وكذلك بين الناس، وقال بعض الناس، بأن هذه الجبايات قد عملت بقصد القيام بحرب ضد واحد

من فرسان بروفانس، الذي كان عندما سمع بمحتويات وصية ريموند، كونت بروفانس، أبدع خطة للتآمر، يخطف بموجبها الابنة الصغرى للكونت، لأن الكونت عندما وجد نفسه على حافة الموت، وعلى وشك توزيع ممتلكاته، وعمل وصيته، دعا إليه ابنته الصغرى، وخاطبها بهذه الكلمات:

«ابنتي العزيزة، المحبوبة لدي أكثر من جميع أخواتك، أنا مدرك أنه بقدر من الرب، تمتعت بناتي كلهن، باستثنائك وحدك، بزواج مغبوط إلى أعلى الدرجات، وكان ذلك موضع اعجاب جميع المسيحيين، وإليك بناء عليه سوف أعطيك وأهبك عند زواجك —بإرادتي ووصيتي— جميع أراضي، مع أموالي، وقلاعي، وجميع ممتلكاتي الأخرى، لأن أخواتك لسن بحاجة إلى تقسيم الميراث، في سبيل إعطاء حصة لكل واحدة منهن»، ونتيجة لذلك، وكما ذكرنا من قبل، فإن أحد الفرسان الذي كان صاحب ملكية صغيرة، لكن كان جريئاً وشجاعاً في الحرب، انجذب بجمال السيدة، وكذلك بالميراث الغني العائد إليها، فقام باختطافها بشكل سري، ووضعها في مكان آمن، في قلعة قريبة، كانت عائدة إليه، عاداً ما عمله ذنباً مغفوراً تماماً، تبعاً لقول الشاعر:

المرأة جائزة مفرحة

وغضب جميع أقرباء الكونت وأصدقاؤه من هذا العمل المتهور لهذا الفارس، وشنوا الحرب ضده، وكان الفارس —على كل حال— واثقاً من كونه كان متملكاً للجائزة، ومعتمداً على حقه، زاد يومياً من تعداد أصدقائه، ودافع عن نفسه بشجاعة، وعن هذا، صدر لذلك، في تلك المناطق صراع كبير، وكانت هناك اضطرابات مؤذية بين الفئتين، بسبب هذه السيدة، ثم إن الملك الفرنسي، بحكم وجود الابنة الكبرى، التي كان متزوجاً منها، ادعى بجرأة وطالب بالحق العائد إليه بشكل خاص، وبهذا ازداد الصراع عنفاً يومياً، لأن البروفانسيين كانوا يشعرون بكراهية عظيمة

ضد الفرنسيين، وأعار بونيفيس، الرئيس المنتخب لأساقفة كانتربري مع أخيه فيليب بال Bal اهتمامهما لهذه الحرب، لأنهما كانا خالا الفتاة، مما سبب نفقات كبيرة وأذى عظيماً للكنيسة الانكليزية، ففي سبيل تقوية الحرب، اخترعا كثيراً من الأعذار من أجل جمع المال، وكدسا معاً الكنز فوق الكنز، ووزعا هذه الأموال بين الفرسان المدفوع إليهم مع رجال آخرين من أقربائهما، وأكدا —في سبيل إعطاء لون ما لشرورهما— أنهما بحاجة كبيرة لهذا المال في سبيل تحرير كنيسة كانتربري، التي قالا: (كثيراً في سبيل إيذاء أسلافهما، الذين كانوا على رأس تلك الكنيسة، وحكموها دوماً من دون ملامة) بأن رؤساء الأساقفة المتقدمين، قد أثقلا الكنيسة بأعباء من الديون قد يكون من غير الممكن الوفاء بها وسدادها، وحصل بونيفيس من البابا على امتياز غير اعتيادي، لم نسمع قط، ولانذكر بأنه قد منح مثله من قبل إلى أي إنسان، وحصل أخوه فيليب أيضاً —الذي كرس نفسه إلى السلاح في هذه القضية— على امتياز من البلاط الروماني، مقابل نفقات عالية، حيث أعطي إذناً بالاحتفاظ بالموارد، التي قد حصل عليها في انكلترا، وكذلك انتاج أسقفية بلنسية، وكذلك بعض الموارد الأخرى الكبيرة، التي كانت مستفيدة آنذاك، وحول هذا سوف تحكي الرواية التالية التفاصيل وتوضحها.

ولادة ملكة إنكلترا لصبي

في يوم عيد القديس مرسيلوس Marcellus, ولدت الملكة إليانور صبياً، منح —بناء على أمر الملك— اسم إدموند.

موت كونتسة أكسفورد

في يوم عيد طهارة القديسة مريم، غادرت كونتسة أكسفورد، التي عرفت رسمياً باسم ايزابيلا دي بيلبك Belbec, هذه الحياة، وقد دفنت في كنيسة الرهبان الدومينيكان، في اكسفورد، التي كانت هي المؤسسة لها.

موت بلدوين إيرل أوف ديفون

في اليوم التـالي لعيد القـديس فالنتـاين، مات بلدوين ايـرل أوف ديفون Devon, وكان في مطلع شبابه، وكان يعرف بشكل عام بـ «دي لى آيل» L'Isle وكان مـوته مناسبة للبكاء، حتى مـن قبل أعدائه، إن كـان له أياً منهم.

حرمان الإمبراطور كنسياً ثانية في فرنسا

ومع بداية الصـوم الكبير، أمر البابا بأن يحرم الامبراطـور كنسياً في جميع أرجاء فرنسا، وذلك بسبب بعض الأذى الجديد الذي اقترف من قبله، ضد أقربائه —أي البابا— وضد بعض اللاهوتيين، ولدى ارسال هذا الأمر من قبل واحد من موظفيه إلى واحد من الكهنة كان يعيش في باريس، شعر هذا الكاهن بحزن عظيم، لأنه غدا من نصيبه القيام بحرمان الامبراطور كنسياً، ونحن لانعرف لماذا كـان لديه تقديراً له، ولقد لعن البـلاط الروماني، الذي كانت له تجربتـه معه، وبناء عليـه قال في يوم العيـد، بشكل علني إلى أعيان الباريسيين الذين كانوا حضوراً بأعداد كبيرة:

«أصغوا إليّ أنتم جميعـاً، لقد تسلمت أوامر، بأن أقـوم والشموع مشتعلة والأجراس تقـرع، بإصدار قرار مهيب بالحرمـان الكنسي ضد الامبراطور فـــردريك، وأنا جاهـل بسبب هذا، لكنني لست جـاهلاً بالصراع الجاد، والكراهيــة التي لايمكن اخمادها، والتي نشأت بينه وبين البــابا، وأنا على دراية بأن أحـدهما اقترف أذى ضد الآخـر، لكن من الذي هو المذنب ضـد الآخـر، أنا لاأعـرفـه، وإنه بالنسبـــة لسلطاتي، على كل حـال، التي تشمل الحرمـــان الكنسي، فـإنني أعلن أنه محروم كنسيـــاً الذي اقترف أذى بحق الآخـر، وليكن أي واحد من الاثنين، وإنني أحلل الذي عـانى من الأذى، الأمر الذي هو مضر بالنسبة لقضية المسيحية».

وقـــد تفـــوه بهذه الكلمات الخفيفـــة، على شكل مـــزاح، وفـق طرائق

الفرنسيين، وقد صارت على الفور في أفواه الكثيرين، وقد انتشرت بالطول وبالعرض، حتى وصلوا مؤخراً إلى علم الامبراطور، الذي قام بعدما قدر معانيهم ومراميهم، فأبدى سروره من الكاهن المذكور، وأرسل إليه بعض الهدايا اللطيفة، لكن البابا اتهمه بالاستخفاف، وبالكلام الطائش، وعاقبه.

الاستيلاء على ثلاثمائة ويلزي

وأثناء الصوم الكبير نفسه، جرى مقتل ثلاثمائة ويلزي، وأكثر في مونتغومري Montgomery, وجاء مقتلهم على أيدي الانكليز تحت قيادة قسطلان قلعة ذلك المكان، الذي وضع ببراعة كميناً خلفهم، ثم إنه أظهر مايشبه الذعر، فتراجع أمام الويلزيين، وعندها هاجمهم الانكليز الذين كانوا متخفين من الخلف، وجعلوهم جميعاً طعمة للسيف.

اعتقال مونثونت من قبل الويلزيين

ورغب في الأسبوع نفسه داود بأن يعوض خسائره، فناوش الانكليز وضايقهم بوساطة غارات ليلية مستمرة، وشغل نفسه من دون توقف بالقتل والنهب والاغتصاب، لكن عندما قدم بعض الفرسان الانكليز الشجعان من الحدود للتصدي للويلزيين مع الحدوديين الخاضعين لهم، وقام الويلزيون، حسب عادتهم بالفرار إلى الأماكن الوعرة، والتي لايمكن الوصول إليها في الجبال لنصب الكمائن لأعدائهم العابرين، قذفوا من رؤوس الجبال بالحجارة والأسلحة، حيث جرحوا عدداً كبيراً من الانكليز، كان من بينهم نبيل انكليزي اسمه هيربرت فتز— متى، الذي قهر بوساطة كتلة من الصخر، حطمت رقبته، وسحقته حتى الموت، وإلى هيربرت هذا نفسه، حدث له حادث مدهش، يستحق الرواية، وتدوينه كتابه، فبعدما كان قد تمّ الاتفاق، وتقرر من قبل الانكليز في اليوم المتقدم، بأنهم ينبغي الزحف في اليوم التالي على تعبئة ضد داود وعساكره الويلزية، انزعج هيربرت المذكور في منامه بوساطة حلم، أو بالحري بوساطة رؤيا،

حتى أنه أفاق وهو في حالة خوف عظيم وهو يرتجف، وبقي غير قادر على الاستراحة وعلى النوم طوال بقية الليلة، وأرسل في الصباح الباكر خلف كاهن، وعمل له اعترافاً كاملاً، وحصن نفسه بأخذه أيضاً قرباناً صحيحاً، وعندما سئل عن السبب لفعله هذا، خاطب رفاقه وهو يتنهد، وكأنه يتحدث بوساطة روح منذرة سلفاً، وحدثهم عن غرائب حلمه المرعب، وقال بالوقت نفسه:

«مراراً كثيرة انشغلتُ أنا كثيراً في استخدام السلاح، وعرضتُ نفسي لمخاطر الحرب، لكن اليوم أنا أعتقد باخلاص أن براعتي المتوالية باستخدام السلاح، سوف تصل إلى خاتمة نهائية»، ولدى سماع رفاقه بالسلاح لهذه الكلمات، والذين كانوا يقدمون تأويلاً صالحاً لكل شيء، أعلنوا أنه يتوجب وضع ثقة قليلة بالأحلام، وأخذوه بعيداً معهم، في سبيل أنه، وهو الذي غالباً ما هزم أعداءه، ينبغي عدم اتهامه بالخوف، ولكن في اليوم نفسه، عندما كانوا يعبرون خلال مكان ضيق، يدعى بشكل عام باسم الممر، حدثت المأساة التي تقدم ذكرها، وسقط مقهوراً بكتلة من الصخر، وحزن الانكليز كثيراً لوقوع هذا الحادث، وتوقف جميع الجنود، ودفنوا جسده، بمراسيم مهيبة، وحدثت وفاته في اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم.

الموت المأساوي لهيربرت فتز— متى

وذكر أشخاص آخرون بأن هيربرت فتز— متى، سقط من على حصانه، وعندما كان ما يزال حياً، جاء ويلزي، وتصارع الرجلان مع بعضهما بعضاً، حول من سيكون الآسر للآخر، من أجل الحصول على الفدية، وأراد أحدهما أن يضع نهاية للصراع، فطعن هيربرت بطعنة مرت من الخلف خلال جسده قائلاً: «الآن يمكن أن يختار أن يأخذه»، وجرى العثور عليه في اليوم التالي، ويده موضوعة على جرحه، وكان عارياً، وأمكن فقط التعرف عليه بين الموتى من خلال خاتم زمرد، وتشجع

الويلزيون كثيراً بهذه الحادثة، وانشغلوا بجرأة أعظم مما هو معتاد في تدمير أعدائهم، وكثيراً ما حققوا النصر في غاراتهم، وحدث على كل حال، بوساطة حادثة غير متوقعة، أن جرى مقتل ثلاثمائة من الويلزيين في مونتغومري، نتيجة لكمين وضع في ساقتهم، لكن داود، وبعض مرافقيه نجوا، وألقى الحصار على قلعة مونتهوت، التي استولى عليها في وقت قصير، وكان ذلك بعدما قتل جميع الذين وجدهم هناك، أو جلبهم إلى جانبه، وقد تمتع بنصره حسبما رغب، لكن صاحب القلعة،وهو روجر دي مونتهوت، لم يعثروا عليه هناك، لأنه كان قد حمل نفسه إلى مكان آمن، وغدت الحرب منذ ذلك الحين حرباً هي الأكثر دموية، ولم تظهر أية فئة أي احترام للجنس، أو العمر، أو المرتبة، بل تورطوا مثل بعضهم في دمار عام.

عقد مؤتمر خياني من قبل بعض الكرادلة

وفي تلك الآونة، وبمبادرة من البابا، إنما بشكل سري، قام بعض الكرادلة، الذين أحبوا المال فقط، مع مايشبه صداقة كبيرة، فأرسلوا رسالة إلى الملك، كان محتواها ومقصدها هو مايلي:

«نحن نرجوك، بطريقة صديقة، بأن نوصي لك بخطة، سوف تكون مفيدة ومشرفة لك شخصياً، ومجيدة وذات منافع كبيرة للمملكة، وذلك بأن تقوم بوساطة رسل خاصين، أنت تتولى ارسالهم بطلب إلى البابا بأن يتطلف، ويشرف بحضوره مملكة انكلترا، التي كما هو معروف له فيها حق خاص، ونحن من جانبنا سوف نبذل كل ما لدينا من قدرة لدعم التماساتك. بجعله متعاطفاً مع طلبك، لأننا راغبين في زيادة فوائد مملكتك، لأنه سوف يكون تشريف عظيم جداً وتمييز لك، ولمجدك الأزلي، أن يظهر البابا، الذي هو أبو الآباء، شخصياً، في أيامك، في الأراضي الانكليزية وهي واقعة، ليس من المتذكر أنها وقعت في أي وقت مضى، ونحن نتذكر بأننا سمعناه يقول بأنه سوف يكون مسروراً، بأن يرى بهجة ويستمنستر، وثراء لندن»، وعندما علم الملك بهذا، بات مسروراً جداً، وكان على

استعداد للاستجابة لهذه الخطة الخيانية، لو لم يكن تلقى التشجيع لمعارضتها ولعدم الموافقة عليها، بوساطة نصيحة مستشارين عقلاء، الذين قالوا بأن طهارة انكلترا كانت كافية، وأنها تلوثت كثيراً بربا القرصان، وبالسرقات وبالسيمونية الممارسة من قبل الرومان والايطاليين، مع أنه شخصياً لم يبدد ممتلكات الكنيسة، ولم يسع لالتهام الأشياء الجيدة العائدة للمملكة، وهو في الوقت نفسه لم يسمح له بالدخول إلى مملكتي فرنسا وأرغون، وهو ما بعث يطلبه بوساطة رسل خاصين، لأن الاسم الشرير للبلاط البابوي، والرائحة النتنة له التي وصلت بدخانها الملوث القذر حتى السحب، تستحق الوصول إلى مثل هذه المحصلة.

البابا يدعو إلى عقد مجمع عام في ليون

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير من العام نفسه، وصل رسل البابا إلى انكلترا، بقصد الدعوة إلى عقد مجمع عام، وكانوا يحملون الرسالة التالية من البابا:

«من انوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أولاده المحبوبين كثيراً رعاة الديرة ورؤساء الرهبان في جميع أرجاء انكلترا، صحة ومباركات رسولية:

إن فضيلة الرب وحكمته التي هي خاضعة لجلالتها —التي لايمكن وصفها— جميع الأشياء، وهي من بداية الدنيا قد ميزت كنيسته بالعظيم من أعماله الصالحة، وهذا الامتياز المنفرد من السلطة، قد جعلها هكذا متميزة، حيث من خلالها يمكن تحقيق العدالة، ومن الممكن إطفاء لهيب الحرب، وتحقيق الهدوء في جميع أرجاء العالم، وفي الوقت الذي جرى فيه تعييننا —مع أننا لانستحق— بوساطة الحكمة الربانية لنتولى الرئاسة على حكومة الكنيسة بشكل عام، ولذلك سوف ندفع كل الاحترام المستحق إلى عظمة ومجد ذلك المنصب، ومع ذلك صرنا قلقين في قلوبنا من أن شدة العاصفة التي اضطربت منها الكنيسة، واهتزت الديانة المسيحية إلى

أسسها، ولكي يمكن برضا السماء وعطفها تجنب ذلك بمساعدة ترتيباتنا، وبناء عليه قررنا دعوة ملوك الأرض، وأساقفة الكنيسة، والأعيان الآخرين للعالم بشكل عام، في سبيل أن تتلقى الكنيسة نفسها المشورة الصحيحة، والعون المفيد لجميع المسيحيين الحقيقيين، ولكي تتلقى جميع التشريف الذي تستحقه، ومن أجل توفير المساعدة المستعجلة للأرض المقدسة، في وضعها المأساوي المفزع، ولمعالجة بلوى الامبراطورية الرومانية، ولكي نحصل على وسيلة للتخلص من التتار وضدهم، ومن خصوم الإيمان الآخرين والمضطهدين للشعب المسيحي، وكذلك كي يجري تقدير قضايا الخلاف بين الكنيسة وبين الامبراطور، ونحن أيضاً نرجوكم، ونحثكم في تقواكم، وبوساطة هذه الرسائل الرسولية نأمركم، بأن تضعوا جانباً كل الحجج والمعاذير، حتى تظهروا شخصياً في حضرتنا في العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان، في سبيل أن تشعر الكنيسة ببهجة روحية، بتشريفها بزيارتكم، وبمشوركم النافعة في أعمالنا، وعلينا أن نخبركم أيضاً، أننا في موعظتنا قد دعونا الامبراطور المتقدم الذكر، للظهور شخصياً، أو بوساطة رسالة، في المجمع الذي سوف يجري عقده، وليكون هناك حتى يجيبنا ويجيب الآخرين، الذين من الممكن أن يتقدموا بأية شكوى ضده، وليقدم ترضية مناسبة حول المسائل المعروضة، وبالنسبة للعدد المتواضع من المرافقين، ومن أجل التسهيل عليك عندما تأتي إلى هاهنا، مارس ماينبغي من حكمة، في سبيل الحيلولة دون تحمل كنائسكم الكثير من الأعباء مع النفقات. صدر في ليون، في هذا اليوم الثالث عشر من كانون الثاني، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف أرسل ملك إنكلترا وكيلاً إلى البلاط الروماني

وعاني الملك في هذه الآونة مما بدا له ولأصدقائه، أذى عظيماً، بما أن عدداً كبيراً من الأساقفة جرى تعيينهم من دون موافقته، وقام بناء عليه، في سبيل الشكاية من هذا، و لكي ينجح دعواه ومطلبه الذي حصل عليه،

والذي تقرر في الأيام الخالية، أرسل المعلم لورانس من كنيسة القديس مارتن، وكان كاهنه، ورجلاً قديراً، وبارعاً في القانون، أرسله ليكون وكيلاً له في بلاط روما، من أجل تلك الغاية، وفي الوقت نفسه لمعالجة بعض القضايا الأخرى الصعبة، المتعلقة بالملك وبالمملكة، وكان عمله الرئيسي مرتبطاً على كل حال بأعمال روبرت باسلو، الأسقف المنتخب لشيستر، الذي كان انتخابه من دون استشارة الملك حول المسألة، والذي ألغي فجأة في بيت كهنة شيستر، في وسط المملكة بالذات، وخلع روبرت المذكور من قبل بونيفيس، رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، الذي كان الملك قد استدعاه مؤخراً إلى مملكته، ورقاه إلى تلك المرتبة العالية، ليس من دون شكايات وعدم رضا توفر بين عدد كبير من الناس.

وكان الملك جديراً بأن لاينال، ولاأدنى حظوة حول هذا الجانب من القضية، ولكن لأنه غالباً ما استخدم محاججات بارعة، ومعاذير متنوعة متقلبة، قد تمكن من رفض عدد من الرجال الموائمين، خاصة من الرهبان، الذين كان مرتبطاً نحوهم بترقيتهم وبحمايتهم، مثلما فعل الملوك المقدسين للعصور الخالية، وتم الحصول على علاج للخلاص من مثل هذا الشر العظيم، تسبب من دون أن يعرف هو الذي صممه بشرور عظيمة، أو أنه حتى لو عارضه، كان يتوجب تقديم ما تحتاجه الكنائس المترملة، التي كانت بحاجة لأن يعيّن فيها بالسرعة الممكنة أشخاصاً مناسبين وموائمين، وذلك في سبيل أن لاتستمر رعية الرب عرضة للأذى، وهو أمر يبدو أنه منسجم مع المنطق، وحزن النبلاء تجاه هذه الاضطرابات، وتجاه دمار المملكة، أكثر من انزعاجهم تجاه اضطرابات الملك.

أعذار عملت من قبل الملك من أجل بعض الأساقفة الذين كانوا غير ذاهبين إلى المجمع

وعندما وصلت الدعوة العامة للحضور والمشاركة في المجمع إلى مسامع الأساقفة، عمل عدد منهم الاستعدادات للسفر، وآخرون كانوا

مرتبطين بأعمال الملك، أو كانوا مرضى أو مسنين، تقدموا باعتذاراتهم عن المشاركة والحضور، إما من خلال الملك، أو بإرسال نواب أساقفة أكفاء، وبالنسبة للملك، الذي التمس بكل تواضع الحصول على إذن لغياب بعضهم من البابا، ردّ عليه قداسته بالايجاب كما يلي:

رسالة البابا

من انوسنت، الأسقف، إلخ، إلخ، إلى ابنه المحبوب في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، صحة، ومباركات رسولية:

نحن نشعر تجاه شخصكم، بحكم كونكم ولداً مخلصاً للكرسي الرسولي، بتقدير أبوي خاص، وبالنسبة إلى التماساتكم، نحن نمنحها أذناً صاغية، بقدر ما يتماشى ذلك مع احترامنا للرب، ولذلك نحن نمنحكم موافقة راضية، وبما أنكم رجوتمونا بتواضع بوساطة رسولكم المعين، المعلم لورانس، المحبوب لدينا كثيراً، وكذلك بوساطة رسائلكم، بأن نيتكم في الصيف المقبل الزحف مع جيش لمعاقبة وقاحة بعض المتمردين من رعيتكم، فإننا سوف نعدّ ذلك اعتذاراً عن حضور المجمع، الذي سوف نعقده —بإذن الرب— في العيد المقبل لميلاد القديس يوحنا المعمدان، وفيما يتعلق بأخينا المبجل أسقف أوف كارآيل، وابننا المحبوب راعي دير ويستمنستر، اللذين بحكمة عينتهما، ليتوليا المسؤولية عن مملكتك أثناء غيابك في تلك الحملة، وكذلك بالنسبة لأخينا المبجل أسقف للانداف، الذي حرم من جميع ثروة أسقفيته بوساطة أعداء جلالتك، وكذلك بالنسبة لولدينا المحبوبين: راعي دير القديس ادموند، الذي يعاني من النقرس، وراعي دير والتهام الذي عجز وأقعد بسبب السن، إننا في رغبتنا المخلصة في زيادة تقدم مملكتكم، وفي سبيل ترسيخ السلام فيها، على استعداد لإظهار جميع الحظوة والنعمة لكم ولصالحكم، لرفاقكم، وذلك بقدر ما نستطيع فعل ذلك تماشياً مع واجبنا إلى الرب، وبناء عليه إننا بوساطة هذه المعروض، نمنح طلبك، ونلتمس بحرارة، في الوقت نفسه، من جلالتكم

عدم الغضب تجاه رؤيتنا أنه من غير المناسب، الاستجابة لكم بقبول العذر لصالح أخينا المبجل، رئيس أساقفة يورك، وذلك حسبما أشير إليه في رسائلكم المتقدم ذكرها، وكذلك حسبما حثنا على ذلك المعلم المتقدم ذكره باسمكم، لأنه، بحكم كونه عضو شريف في كنيسة الرب، نحن نعدّ حضوره ضرورياً بالنسبة للمجمع المتقدم ذكره. صدر في ليون، في هذا اليوم العشرين من أيار، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف بقي بعض الأساقفة الإنكليز معذورين وكيف جرى اتهام راعي دير بيتربورا الذي أرغم على الذهاب إلى البلاط الروماني وأسيئت معاملته

وفي الطريقة نفسها جرى أيضاً منع بعض رجال الكنيسة الانكليز، والأساقفة وكذلك رعاة الديرة (وكان من بين هؤلاء أسقف إيلاي وراعي دير القديس ألبان) من حضور المجمع بوساطة أسباب كثيرة جرى التعبير عنها، وأرسلوا اعتذارات معقولة، إما أنهم كانوا غير أصحاء، أو مسنين، أو ضعفاء، وكان ذلك من خلال وكلائهم، الذين أرسلوا بوساطتهم تحياتهم إلى البابا والكرادلة، وكذلك بعض الهدايا الجميلة، وبحصولهم منهم على قبول الشكاوى بهذه الوسائط، سمح لهم بالبقاء في الوطن، وكان راعي دير بيتربورا —على كل حال— رجلاً غير مؤذ، وكان قد تلقى من البابا أمراً خاصاً، أكثر من سواه حول هذه القضية، فذهب إلى البلاط الروماني، ولدى وصوله إلى هناك تلقى اتهاماً ثقيلاً، وقد وجّه هذا الاتهام ضده من قبل المعلم مارتن، كاهن البابا، الذي كان مقيماً في انكلترا، بأنه قد رفض أن يتخلى عنه (وهذا بالفعل ماتوجب عليه أن يفعله) —أي إلى المعلم مارتن— من أجل استخدامات واحد من أقرباء البابا، عن احدى الكنائس، التي كان راعي الدير قد أعطاها إلى شخص صاحب كفاءة وكان موائماً، وعلى هذا عندما ظهر راعي الدير في البلاط الروماني، قام البابا، أو أصدقاء البابا، من خلاله، بإهانته وتوبيخه، وأمروه في سبيل الحط من شأنه

وعـدم احترامه، بالتخلي عن قصره، ونتيجـة لذلك هو لم يعرف بعـد ذلك الهناء، بل وقع، من خـلال الحزن، بمـرض لايمكن الشفاء منه، وغـادر في العام نفســه طريق الجسد، مما شكل خسـارة عظيمة لكنيسته، التي سـاسها بحكمة عظيمة وبعقلانية.

موت غيلبرت دي هنفرنفيل

وفي الوقت نفســه، أي في أسبوع آلام ربنا، مات غيلبرت دي هنفـرنفيل Hunfrunville وكـان باروناً مشهـوراً، وحـاكماً وزهرة للمقـاطعـات الشمالية من انكلترا، تاركـاً ولداً طفـلاً بمثـابـة وريث لمتلكاته، ومنحت حكومتـه على الفـور إلى سيمـون، إيرل أوف ليستر، مما أغضب كثيراً ايرل رتشارد، الذي كان متطلعاً إلى الوظيفة نفسها.

موت كاردينال دي تيرن

ومـات في العـام نفســه أيضـاً الكاردينال غيـوفـري دي تيرن Turne, وكان خصيصـاً بالبابا وصديقـاً نافعاً له، ولم يكن هناك من هو أكثـر شهرة منه لعلمه وأخلاقه.

كيف أرسل الإيرل رتشارد والملك الفرنسي وبعض آخر نجدات إلى الأرض المقدسة

وفي الوقت نفسه وردت تقارير متواليـة من الأرض المقدسة، كانت غير مـواتية كثيراً، إلى حـد أنه خيف من أن البـلاد كلها بـاتت عرضـة للخطر، وبناء عليـه أرسل الايرل رتشارد مع بعـض الأصدقـاء المقربين إليـه، ألف باوند إلى هناك، على سبيل المساعدة للبـلاد، من خلال الاسبتارية، وكذلك في سبيل تجفيف الدموع من على وجنتي أمنا الكنيسة، التي كانت تبكي على أولادها الذين قتلوا مؤخراً، أرسـل الملك الفرنسي، والداوية والاسبتارية، إلى هناك بكل سرعة، عشرين فارساً جديداً، وكتلة من الجنود مع مبلغ كبير من المال من أجل عون ومساعدة الذين كانوا يسكنون هناك، والذين كانوا

يتحملون هجمات يومية من الخوارزمية ومن المسلمين الآخرين، وحصل الملك الفرنسي أيضاً، واستفاد من حضور نائب بابوي لسن، وواعظ مستقيم، في فرنسا، ليتولى التبشير بحملة صليبية هناك.

مثابرة المعلم مارتن على جمع الموارد

وكان في الوقت نفسه المعلم مارتن، الذي وردت الإشارة إليه مراراً، والذي هو كاهن البابا، مثابراً جداً، وشاغلاً من دون توقف، نفسه، في جمع الموارد، بأية طريقة رغب بها، من أجل استخدام البابا، وفي منحهم إلى أقرباء البابا، وبشأن جرأته، وشرهه المؤذي، أنا أعتقد أنه أشرف وآمن —صدوراً عن الاحترام لكنيسة روما المقدسة— أن أكون صامتاً، فذلك أفضل من أن أؤذي مسامع جمهوري، ومن ازعاج عقول المسيحيين بالقيام بحكاية مثل هذه الأشياء، فلقد جرى الاستيلاء على خزينة سالسبري مع خزائن كثيرة أخرى، وحسبما ذكرنا من قبل أعلاه، جرى الاستيلاء عليهم بالقوة، وأخذوا بشكل خاص من الرهبان، وجرى طلب ارسال الأموال والهدايا إليه على الفور، والذين رفضوا الاستجابة جرت معاقبتهم بشدة، وآثر الملك قضيته أيضاً، وحماها ضد جميع الفئات ربما صدوراً عن أمل التعويض، وهكذا صارت أحوال المملكة الأكثر تعاسة.

كيف جرى وضع الحرس على المرافئ لمنع رسل البابا من دخول المملكة

في هذه الحالة الحرجة جداً التي عاشتها مملكة انكلترا، صدرت أوامر من بعض النبلاء، الذين بكوا، وتأثروا كثيراً من المظالم الكثيرة والتي لم تتوقف، ومن نهب المملكة، بوجوب مراقبة جميع الموانيء البحرية للمملكة بيقظة وعن قرب، في سبيل أن رسائل البابا، التي كانت تجلب يومياً إلى انكلترا، لاستخراج المال، يتم القبض عليها، وحدث في هذا الوقت، وصول واحد من رسل البابا، وقد نزل في دوفر، وهو محمل

بالرسائل من أجل هذه الغاية، وكلها مختومة بالخاتم البابوي، وقام حاكم ذلك الميناء ووالي البلدة، باعتقاله على الفور، حسبما كانوا قد أمروا، وبعدما أخذوا منه جميع الرسائل المختومة، والرسائل الأخرى، التي كانت تحتوي على كثير من الأمور البغيضة، على شكل حجج متنوعة من أجل استخراج المال، سجنوا الرسول نفسه، في قلعة دوفر، وعندما سمع المعلم مارتن بهذا، ذهب إلى عند الملك، ليتقدم بشكوى إليه حول هذا الإجراء، وأنكر الملك على الفور بأنه كان المحرض على ذلك، وقام في سبيل إيذاء المملكة، والحط من كرامته، فأمر باطلاق سراح الرسول، وبانتزاع الرسائل بالقوة من عمدة دوفر، وبتقديمها إلى المعلم مارتن، الذي فرح كثيراً من خلال تأثير تقديم بعضهم.

حريق حجرة البابا

في أسبوع الابتهالات (الأيام الثلاثة قبل عيد الصعود) حدث حادث محزن، فقد تعرضت حجرة البابا في بيته في ليون للحريق، وكانت حجرته الخاصة، أي خزانة ملابسه، فقد احترق كل شيء كان فيها، وأعلن بعض من المسؤولين الأشرار للأشياء، بأنها أحرقت عن عمد، في سبيل أن يمتلك البابا الحجة من أجل طلب المال واستخراجه من الأساقفة، الذين كانوا قادمين إلى المجمع، وقد استعرت النار —على كل حال— بشدة أكبر مما هو متوقع، وأحرقت بعض الأشياء التي نظر إليها نظرة تقدير خاصة، وانتشرت أخبار بين كثير من الناس، بأن الصك المقوت، فيما يتعلق بالضريبة الانكليزية، وهو الذي عمل في أيام الملك جون —صاحب الذكرى الحزينة— قد تحول إلى رماد، بوساطة النار نفسها.

كيف جرت معارضة البابا من قبل كهنة ليون في مسعاه لغزو بعض الأوقاف الشاغرة

وفي حوالي الوقت نفسه، رغب البابا، من دون التشاور مع الهيئة

الكهنوتيـة، في تعيين بعض الأجانب، أو الأقـرباء، أو بعض أصـدقائـه في بعض الأوقاف الكنسية الشاغرة في ليـون، وقد عارضه كهنة تلك الكنيسة مجابهة، وهـددوا معلنين ومقسمين، أنه إذا مـــاظهــر أي مـن مثل هـؤلاء الأشخـاص في ليـون، فإنه لارئيس الأسـاقفة، ولا الكهنة سـوف يكونـوا قادريـن على حمايتهم، من إلقائهم في نهر الـرون، ولذلك فإن الذين كـانـوا على وشك قبول المنافع، لم يظهروا هناك مطلقاً.

وفي حـوالي الوقت نفســه، تصرف واحـد من بوابي البـابا بشكل أشـــد خشـونة ووقـاحة مما ينبغي، فـرفض السماح بالدخـول لواحـد من سكـان ليـون، الذي طلب السماح له بتواضع وأدب، ونتيجـة لذلك صار الليـوني غـاضبـاً، وحانقـاً، فبتر يد البـواب بشكل كـامل، وتقـدم الرجل الجريـح بشكوى جـادة أمـام البـابا، وأراه في الوقت نفســه ذراعـــه المبتــور، وبناء عليـــه طالب صـاحب القداسة بالانتقام، وفقاً لقـانون المدينة، الأمر الذي تدبـره بطـرس الوصي على سـلام الكنيســة، بطريقــة أو أخــرى، أمكن بوساطتهـا الحفاظ على شرفه، وعلى الأقل ظاهرياً رممت كرامته.

وفي حوالي هذا الوقت، أيضاً، مات المعلـم إيليا أوف درم، وكان كاهـن سالسبري، وقام المعلـم مـارتن بوضع يديه الجشعتين على الفور على موارده الشاغرة، من أجل استخدام البابا.

كيف منح الملك مرتبة الفروسية إلى رتشارد دي كلير في لندن

في أحـد الشعانين، أقـام الملك احتفـال هذا العيـد بأبهة كبيرة في لنـدن، حيـــث منـح مرتبــة الفـروسـية إلى رتشـارد دي كلير Clare, الذي كـان الآن يحمل مـرتبة ايرل، وحـدث ذلك بحضور حـوالي الأربعين نبيلاً شـابـاً، وبناء عليـه احتفل الفـارس الجديد، وأكمل تنصيبـه بسرور عظيم وســط أتباعـه الفرسـان، وأقام الملك في الوقت نفســه بحثاً دقيقـاً في جميع الكونتيـــات، لمعرفـة كمية الموارد التي تسلمهـا الرومان، وكـذلك لمعرفـة

عـدد الايطاليين الذين أغناهم البلاط الروماني بالخداع وبالقوة في انكلترا، وقـد تبين أن هذه الموارد تصل سنوياً إلى مبلغ ستين ألف مارك، وهو مبـلغ أكـــبر من المورد السنـوي لانكلترا كلهـــا، ولذلـك ثارت دهشـــة الملك —وإن جاء ذلك متأخراً— وأثير —ليس من دون سبب جيد— غضبه.

وفي حـوالي الـوقت نفسـه، منح راعي ديـر كلوني البـابا، ثـلاثين مهـراً جيـديـــن ورشيقـــين، حسبـــوا بشكل مناســـب مع العـــدد نفســـه من حيـوانات التحميـــل الذين ندعوهـم باسـم «خيـول التحميـــل»، وجرى تجهيـز هـؤلاء ليكونوا منهم.

كيف جرى إرسال رسل من قبل جماعة إنكلترا إلى المجمع

ثم إن الملك شرع —وإن كان ذلك قد جاء متأخراً— يتأمل وهو يشعـر بالتقزز تجاه الجشع اللامحدود للبلاط الروماني، وحول الاستيـلاء المـؤذي، والسرقـات اللاقـانونيـــة، التي عـانت منهـا الكنيســة، لابل في الحقيقـــة المملكة كلهـــا، وبنـاء عليـه جـــرى إعـداد رسـالة مـؤثرة من قبل جمـاعة المملكة بشكل عـام، في محتـوياتها جـرى تقـديم عـرض —حسبما ســـوف تظهـر الرواية التـالية— حول الاستخـراجات اللامحـدودة للبـابا وحـول المكوس المتنـــوعة والمضاعفـة التي فرضهـا نوابـه، وبعض الكهنـة الذيـن جرى تزويدهم بسلطات لم يسمع بمثلهـا، ومع هذه الرسـالة، جرى آنذاك ارســـال بعض النبـلاء والرجال الأكـفاء، إلى المجمع، ليتقدمـوا بشـكوى ثقيـلة حول هـذه القضايا، وخاصـة حول فرض المكـوس، التي لم تـوافـق الجمـاعة الانكليزيـة عليها مطلقـاً، وليلتمســوا انقـاذاً لمملكة انكـلترا من مثـــل هذه الأعبـاء التي لايمكن تحملهـا، ومـن أجـــل هذه الغـاية جـرى الاختيـار باســـم الجماعـة في مملكـة انكلـترا كلهـا، وإرســـال التـالين إلى مجمـــع ليـــون: الايـرل روجـر بيغـــود، وجـون فتز— غيوفـري، ووليـم دي كينتلـوب Cantelupe, وفيليب باسيـــت، ورالــف فتـــز— نيقولا، والمعـلم وليـم دي باوريـك Poweric, وكان كاهناً.

مغادرة المعلم مارتن لإنكلترا خائفاً

وفي هذه الآونة كان الملك قد منع عقد بعض المبارزات من قبل بعض الأشخاص كانوا قد اجتمعوا في ليوتون Luton, وفي دنستيبل Dunstable, لأنه نية هؤلاء كانت شريرة، بسبب —كما قال— خطرهم، وقد جرى ارسال فولك فتز— وارن، باسم جماعة المملكة بشكل عام، في اليوم التالي لعيد الرسولين بطرس وبولص، إلى المعلم مارتن، كاهن البابا، الذي تردد ذكره مراراً، ولدى مثوله في حضرته، نظر فولك المذكور إلى الكاهن بحاجبين مقطبين، وخاطبه كما يلي: «غادر، واترك انكلترا على الفور»، فسأله المعلم مارتن: «من الذي أمرك لتفعل هذا؟ هل تفعل هذا بناء على سلطتك الخاصة؟» وعلى هذا رد فولك: «لقد أُمرت أن تفعل ذلك، بوساطتي، باسم جماعة الفرسان المسلحة، التي اجتمعت مؤخراً في ليوتون ودنستيبل، وإذا ما أصغيت إلى مشورة حكيمة، عليك عدم البقاء هنا حتى اليوم الثالث من هذا الموعد، خشية أن يجري تمزيقك وجميع رفاقك الذين معك إلى قطع»، ولدى مغادرة فولك المذكور مغضباً، وبعدما كدس التهديد فوق التهديد، مع أيمان مرعبة، ذهب المعلم مارتن على الفور إلى الملك، وهو منقطع الأنفاس رعباً، وقال للملك: «مولاي لقد سمعت كذا وكذا من أشياء، هل تم فعل ذلك بناء على تفويضك، أوأن ذلك بناء على وقاحة رعيتك»؟، وعلى هذا أجاب الملك: «إنني أعلن أنني لستُ الفاعل لهذا الإجراء، لكن من الصعوبة بمكان، أن يتمكن باروناتي من ضبط أنفسهم ومنعها من الثورة ضدي، لأنني قمت حتى الآن بالتساهل تجاه الانتهاكات والأذى، الذي اقترف من قبلك في هذه المملكة، وممارسته ضدهم، والذي تجاوز جميع حدود العدالة، وبصعوبة تمكنتُ حتى الآن من منعهم وهم في حالة غضبهم، من مهاجمتك، وتمزيق أطرافك طرفاً عن طرف»، وعند ذلك قال المعلم مارتن، وهو يرتجف وبصوت منخفض: «إنني بناء على هذا، أسأل جلالتك، صدوراً عن

حبـك للرب، واحترامك للبـابا، أن تمنحني خـروجـاً حـراً، وأن تأذن لي بالمغـادرة سـالماً تحت ضمانتـك»، وعلى هذا أجـابه الملك، وهـو شـديد الانفعال، ومستشـار إلى حد الغضب قائـلاً: «ليأخذك الشيطان، وليحملك إلى جهنم، وخلالها»، وعندما قام النبلاء الذين كانوا جالسين هناك، بتهدئة غضب الملك، أمر روبرت نورس Norris, قهرمـان القصر الملكي بأن يرافق المعلم مـارتن بـأمـان إلى شـاطىء البحـر، وبناء عليـه، انطلق المعلم مارتن برحلتـه، وأدام الالتصاق بجانـب دليله روبرت، وكان كلما رأى أية أشخاص راكبين،. أو مارين بهما، كان يستولي عليه خوف شديد، ويرتجف، حتى أنه كـان يتمنى لـو أن الأرض انفتحت لأخفى نفسـه، تحت غطائهـا، ولدى متـابعتهما سفـرهما على طريقهما، وصـلا إلى حـدود أحـراش، كـان رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، قـد عرضها للبيع، وحيث كان بعض رجـال الريف قد تجمعـوا لاختيار الأشجـار، التي رغبوا بشرائهـا، ولدى رؤيتهم، قـال المعلم مـارتن وهو مـرعـوب لروبرت دليلـه: «واأسفـاه، واأسفـاه، إن الذي قد خفت منه، هو على وشك الوقـوع، إنظر إليهم، إنهم مقبلون على مهـاجمتنا، يامولاي وصـديقي روبرت، هل لديك أي ولد، أو حفيد، أو قريب، أو صـديق، أنت ترغب بأن ينتفع بمورد لاهوتي؟ أنا على استعـداد لمنحك أي طلب، يمكن أن تعملـه، إنظر إنهم جـالسين ينتظرون أخـذ حيـاتي، احميني في ظل جناحيك»، فـأجـابه روبرت: «الرب يمنع أي واحد من أقـربائي، أن يتم قبوله هكذا من خلال وسـائطي، لنيل أية منفعة لاهوتيـة: أنا لاأعـرف من هؤلاء، أنت تريث هنا وانتظـرني، وأنا سـوف أذهب سريعاً إليهم، حتى إذا عـرفت أنهم أشخاص يريدون اقتراف الشر، أنـا سـوف أضبط تهورهـم، وأوقفهم، بجعلهـم يرون التفـويـض الملكي»،وعندما —بناء عليه— وصل إلى عندهم، وعلم الحقيقة، عاد على الفور إلى المعلم مارتن، لكن حتى يضغط عليه ويؤثر به قال:

«لقد تمكنت بصعـوبة من ضبط غضبهم، ومنعتهم من تمزيقك إلى قطع،

ودعنا الآن نسير خلسة وبحذر، خشية أن يحدث أي شيء مكروه لك، وعندما تقلع مسافراً، عليك —إذا ما كنت عاقلاً— ألا تعود قط، خشية أن تقع في أيدي الذين يطلبون حياتك»، ومن ذلك الوقت لم يوفر المعلم مارتن جنبي فرسه، بل عمل كل سرعة ممكنة حتى يصل إلى ساحل البحر، موجهاً النقد لدليله لتأخره، ولدى وصوله إلى دوفر، أقلع على الفور، وبمغادرته أبهج قلوب الكثيرين، غير أن تأثير قوة ذلك الوباء المعدي، لم يتوقف تماماً، ذلك أنه أعطى السلطة إلى واحد، اسمه المعلم فيليب، ليبقى كي يمارس جميع السلطات التي منحت إليه شخصياً في أعمال استخراج الموارد، وبذلك ترك آثاره الملوثة خلفه، وهكذا قلت كثيراً، حتى يعرف كل واحد كم هؤلاء الساعين وراء المال هم جبناء، عندما تتعرض ضمائرهم للأذى.

ومالبثت هذه الأشياء أن وصلت إلى مسامع عدد من الايطاليين، الذين كانوا يسمنون على ثروات الموارد في انكلترا، وبناء على ذلك اختفوا على الفور، وبحثوا عن مخابىء بعيداً عن الأماكن المطروقة، وقام كثير من القراصنة أيضاً، الذين كانوا حتى الآن ينشرون سمومهم القاتلة، بوساطة الربا الذي كانوا يمارسونه بين المقاطعات الغربية، والذين كانوا جاهلين بهذه الإجراءات، قاموا الآن بالمغادرة بشكل سري.

كيف مات غيوفري مارش في المنفى والفقر كرجل منفي

وحدث في هذه الآونة، أن غيوفري مارش، الذي كان من قبل نبيلاً، هو ليس الأدنى بين أعيان ايرلاندا، والذي نال وصمة لايمكن زوالها بالقتل الخياني للايرل رتشارد مارشال، والذي كان الآن منفياً، ورجلاً تعيساً، ومحروماً، حيث قد جرى نفيه من سكوتلندا، وطرده من انكلترا، وقد حرم من ميراثه في ايرلاندا، بعد الموت الشائن لابنه، وبعد فقدانه لجميع أصدقائه، حدث أنه هو نفسه أخذ من بيننا، وبذلك أنهى أخيراً كثيراً من الميتات، بموته هو.

شكوى المعلم مارتن إلى البابا

وقدم في الوقت نفسه المعلم مارتن إلى البـابا، وقدّم إليه رواية كاملة عن الأحداث التي جـرى وصفها أعلاه، ولدى سماع البـابا ذلك صرّ بأسنانه، وانفجر بغضب شـديد، وأعاد إلى الذاكـرة بأن ملكي فرنسا وأراغـون، قد رفضـا منحه مـدخلاً إلى أراضيهما، وأن ملك انكلترا، سـوف لن يسمح له بالذهاب إلى انكلترا، وما هو أسوأ إنه لعن رسوله، وطرده بشكل مهين من انكلترا، ثم قال بصوت متهدج فيه علامات الغضب، وكان مقطباً، وشامخاً بأنفه:

«إنه من الموائم بـالنسبـة لنا أن نعقـد شروط صلح مع أميرك، في سبيل سحق هؤلاء الأمراء الصغار الذين يتحركون ضدنا، لأنه عندما يتم سحق التنين أو تهدئتـه، من السهل وضع الأفـاعي الصغيرة تحت الأقـدام»، ومـا لبث هذا القول أن انتشر في الخارج، وسبب غضباً في قلوب كثيرين.

استعدادات ملك إنكلترا لحملة إلى ويلز

قبل بداية شهـر تموز، استـدعى الملك في رسـائله الملكيـة، وحشـد جميع الايرلات، والبـارونات، والفـرسـان، والنبـلاء الآخـرين لانكلترا، الذين يدينون له بـالخدمـة العسكرية، للحـاق به إلى ويلز، إلى حيث كـان ناوياً الانطلاق، حيث أنه لم يعد قـادراً، ولم يعد راغبـاً أن يصبر أية مدة أطول في تحمل الهجمات المفاجئـة والغارات التي كان يقـوم بها الويلزيون، وعمل في الوقت نفسـه استعداداته الشخصيـة للالتحاق بالحملة، ولغـزو أراضيهم، تحيط به كتلة كبيرة من الفرسان، وبناء عليـه قدم إلى كنيسة القديس بولص في لندن، ليقـوم بوداع أهل لندن، الذين كان من الممكن أن يجتمعـوا كلهـم هناك.

كيف تخلى وليم الأسقف المنتخب لكوفنتري عن إدعائه

في هذه الأيام، عندما كـانت ثورة الوقت تجر معها ثورة الأحـداث، قام

وليم دي مونتبلر Montpellier, وكان راهباً ورئيســاً لجوقة المنشدين في كــوفنتري، وكــان رجــلاً بلا خطيئة أو مطمح، الذي انتخب إلى كــرسي كــوفنتري، وكــان المعلــم وليم أوف دروهيــدالي Drouhedale الذي كان محاميــه الغيور في انكلترا، الآن يمــوت، وكان الملــك على غير استعداد لقبول تعيينه، والمعلم لورانس الذي كنا قــد تحدثنا عنه من قبل، معارضاً له باستمــرار، ومــداوماً على اتهامــه، وكــان كهنة ليشفيلد Lichfield قد اتخذوا أيضاً موقفاً مضاداً له، وقــد شعر هو شخصياً بأن دير كوفنتري كان يعاني بسبب انتخابه، وكان يشعر بانزعاج شديد بسبب انتخابه، وقد ذهب وهو في هذه الضائقة، إلى البابا، ومزج كلماته بالآهات وقال:

«إنني أيها الأب المقــدس، قــد هوجمت من جميع الجهات، وأنــا مزعــوج تماماً، فقــد قام ملك انكلترا مع مستشــاريه بتلطيخ براءتي إلى درجة عــالية، والرب يعـــرف أنني لم أستحــق مطلقــاً هــذا الاضطهـــاد، وإنني إذا كنت سأحتفظ بالمنصب الرفيع الذي انتخبتُ إليه بشكل صحيح، فإنني لن أتمتع بالسلام قط في انكلترا، ولذلك إنــني أتخلى عن كل شيء وأضعه بين يديك، وليمنع الرب أن أبقى أيــة مــدة أطول مصــدراً للخســـارة، أو للاضطراب لكنيستي، ولابد لعنايتك الأبوية أن ترعى شؤون تلك الكنيسة، في الوقت الذي هي فيــه محرومة من أسقفهــا»، ووافق البابا على هذا، وقــام الأسقف المنتخب بالمغـــادرة، وكأنه قــد تحرر مــن حمل ثقيل، وحــزن الذيــن رغبــوا باخــلاص في انقــاذ روح ملك انكلترا، لرؤية هذا، وخــافــوا كثيراً، من أن رعبــاً عظيماً سوف يحيق بهم قــريباً، بهــم أنفسهم، وكــذلك بالمملكة، بسبب هذه القضية، وقضايا أخرى مماثلة، ولأنه اتخذ موقفاً متحزباً شديداً في هذه القضية.

انتخاب روبرت دي ويزهام عميد لنكولن لكرسي شيستر

وعندمــا أصبـــح هذا معــروفــاً جــرى انتخـــاب المعـــلم روبرت دي ويزهــام، عمــدة لنكولن، والذي كــان رجــلاً متميــزاً لأخلاقــه ولعلمـــه،

وذلك بشكل رئيسي بناء على مبادرة أسقف أوف لنكـولن، انتخابه وتعيينه أسقفاً لشيستر أوكوفنتري، عوضاً عن وليم مونتبلر المذكور، (الذي —كما تقـدم الذكـر— تخلى متطوعـاً عن إدعـائـه)، وتمّ فعل هذا من دون طلب مـوافقـة الملك، من أجل أن لايقـوم بوسـاطة حجج سخيفـة أو تعليـلات —حسبما كانت عادته— بالطعن بهذا الانتخاب أو بإعاقته، في سبيل إيذاء روحه والإساءة إلى اسمه الصالح.

ثم إن أسقف لنكولن رغب في الحصول على انجاز لرغباته فيما يلي، وهو الفصل الكلي والإبعـاد التـام لكنيسـة آيلسبري Aylesbury —الأمر الذي رغب أن يفعله منذ زمن طويل— عن عمادة لنكولن (لأنه اعتقـد بأن العميـد سـوف يقـوم، بسبب الحالة الغنيـة لتلك الكنيسـة، بتملك الجرأة، ويعمل ضـده، أي ضـد الأسقف)، وأعطاها على الفـور إلى المعلم روبرت مـارش —ليس من دون ضرر عظيـم وأذى لكنيستـه— حسبما هو واضح لكثيرين، لأن من المعروف اتحادها بعمادة لنكولن منذ زمن أزلي.

التكريس في ليون لبونيفيس البروفانسي لرئاسة أساقفة كانتربري

ور. R دي ويتـز إلى أسقفيـة شيكستر ور. R دي ويزهام إلى أسقفية شيستر

وأثناء هذا العام جرى تكريس بونيفيس الذي كان من أصل بروفانسي، رئيسـاً لأسـاقفـة كـانتربري، وكـان ذلك من قبل البـابا، في ليـون، وكـان بونيفيس هذا رجلاً متميزاً بأسرته أكثـر من تميزه بعمله، وكان انساناً يخشى منه في الأمور الدنيوية أكثر من الأمـور الروحية، وقد جرت ترقيته إلى هذه المرتبة (لو أنها كانت ترقية سعيـدة) بوساطة نفوذ ملك انكلترا، وبنفوذ ابنة أخيـه الملكة، وفي الوقت نفسـه جـرت تـرقيـة أخيـه فيليب بال، الأسقف المنتخب لبلنسيـة، لأن يتملك رئـاسـة أسـاقفـة ليـون، وقـد أذعن رئيس الرهبان إلى هذا لأسبـاب سوف نذكرها، ولقـد حصل على هذه الحصة من

البابا حسب الشروط التالية: التي هي:

إنه سوف يحتفظ بسلطات رئاسة الأساقفة هذه مع كل فوائدها، وسوف يتسلم البابا موارد أسقفية بلنسية، وكذلك أيضاً بعض الأسقفيات الأخرى الغنية، التي كانت بحوزته في انكلترا، وفلاندرز (وكان هذا واضحاً، بأنه قد عمل في سبيل أسباب دنيوية أكثر منها أسباباً روحية) وأنه يتوجب أن يحولهم بحرية إلى استخداماته الخاصة، وأنه ينبغي أيضاً أن يستحوذ على الأسقفية في بروغس Bruges, وكان هذا الرجل، ذي المظهر الرشيق، كان بارعاً جداً في استخدام السلاح، وقد سمن على موارد وافرة، وقد كان موجوداً في المجمع الذي عقد في ليون، وقد عمل منه بالفعل، مقدماً للفرسان البابويين، وحارساً قوياً للسلام، وكان السبب الرئيسي لهذا، أنه كان متميزاً بأصله النبيل.

وكان هناك أسقفين آخرين جرى تكريسهما من قبل البابا في ليون، وهما: المعلم رتشارد دي ويتز لكرسي شيكستر، والمعلم روبرت دي ويزهام، عميد لنكولن إلى كرسي شيستر، وكانا كلاهما رجلان متعلمان، وأصحاب أخلاق جيدة، وما من شيء حذف من طريق الترافع بوساطة وكيل الملك، الذي أبدى دهشته واعتراضه ضد هذا الإجراء، لأن موافقة الملك لم تطلب في قضية ترقياتهم، ولقد أخبر —على كل حال في وجهه— أنه بما أن الملك أساء استخدام المنصب الرفيع الذي منح له وكذلك الامتياز، جعل نفسه غير جدير بالتمتع بهذا الشرف، وهكذا فإنه بسبب ذنوب الملك، فإن كرامته وكذلك كرامة المملكة كانت تتداعى، لكن عندما وصلت هذه الأشياء إلى علمه، أمر بمصادرة الممتلكات العائدة إلى كل من أسقفيتي شيكستر وشيستر.

حول الإضافات إلى خزانة الملك بوساطة التفتيش في الغابات

وفي الوقت نفسه، كان كاهن الملك روبرت باسلو مع رفاقه شاغلاً نفسه من دون توقف من أجل تعويض الملك، منتزعاً الأرزاق القليلة للفقير، وزائداً أموال الملك، ساحباً الموارد القليلة لدى المحتاجين بوساطة آلة سحبه الشرهة، من أجل أنه بوساطة نقاط الذين هم محتاجين، يمكن أن يزيد بحار الذين يعيشون بوفرة، ومن دون توقف ذهب إلى دوائر مختلف مقاطعات انكلترا، منفذاً واجباته بإقامة العدالة، خاصة حيث الغابات كثيرة جداً، وحيث سكن الناس على حدودهم، وبتيقظ ودقة قام بفحص أعمال الإسكان الجديدة التي عملت في الغابات، وأي واحد وجده مقترفاً لذلك، أثقله بغرامة مالية كبيرة، وبذلك طرد كثيرين من بيوتهم، وحولهم إلى قوم بلا سكن ومتسولين، وكان من بين هؤلاء —كما ذكرنا من قبل— جون دي نيفيل، الذي كان خاضعاً لكثير من المخالفات، وقد أدين بشكل مهين، فتحول من الغنى إلى الفقر، وهو على كل حال لم يتلق لا العطف ولا الرحمة من أي واحد، لأنه عندما عاد من الأرض المقدسة قبل عدة سنوات مضت، قام بوساطة طرائق بارعة وحجج واهية، فحرم جميع الذين كانوا خاضعين له من أرزاقهم وممتلكاتهم، وهكذا وقع الآن مستحقاً في المصائد نفسها، وبنود المصادرات سوف تكون مكتوبة على شكل ملحق يضاف إلى هذا الكتاب.

كيف أمر الملك بتوسعة كنيسة ويستمنستر على حسابه

وفي العام نفسه، قام الملك، وقد شعر بالتقوى نحو القديس ادوارد، فأمر بتوسعة كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وبناء على ذلك تدبر هدم الأسوار القديمة مع البرج على الجهة الشرقية، وجرت إشادة أسوار وبرج أكثر رشاقة، وتمت أعمال البناء الجديدة من قبل مهندسين بارعين على حسابه، وأمر بتغيير باقي البناء على الجانب الغربي بما يتناسب مع البناء الآخر.

البابا يتلقى هدايا ثمينة من عدد من الأساقفة

وتابع البابا الآن التشكي بمرارة إلى أصدقائه، بأن الكنيسة الرومانية معسوف بها إلى حد يكاد يصعب فيه نجاتها، ومرهقة بالدين، وعلى الفور انتشرت هذه الشكاوى بالخارج بوسائطهم، وجعل في هذه المناسبة من المفهوم، أنه في أقصى حالات الحاجة إلى مساعدة مالية، وكانت هناك أعداد من الأساقفة الذين لديهم وفرة من الأشياء الجيدة لهذا العالم، وكانوا متلهفين ساعين وراء المزيد من المقتنيات، وهؤلاء قد جاءوا إليه طالبين حظوته، بمثابة أب، وقد أبدوا أسفهم لما عاناه ولمخاوفه، وبما أنه الآن قد نجا من متاعب الامبراطور، قد وصل إلى بين أولاده المخلصين، فإنهم قد قدموا مسرعين لتهنئته، وقدموا إليه أكثر الهدايا قيمة على شكل: خيول، وآنية، وملابس، وذهب وفضة، وجميع أنواع الأثاث المفيد، وكان من بين هؤلاء، راعي دير كلوني، الذي لم يرغب بأن يعدّ متخلفاً، حتى لاينظر إليه أنه كان خاملاً، فقام بافقار كنيسته، وتجريد رؤساء الرهبان لديه، فقدم إلى البابا مبلغاً كبيراً من المال، مما أثار بحجمه الدهشة، والاستغراب المستحق، بين جميع الذين سمعوا به، ولهذا كوفىء بترقيته إلى مرتبة أسقف لـ: لانغري Langres, وفي الحقيقة علمت من رواية رئيس رهبان ويستأكري Westacre, الذي كان من قبل واحداً من رهبان كلوني، بأن راعي الدير المذكور، قد أعطى إلى البابا ثمانين مهراً رشيقاً، كانوا الأجمل والأبدع تجهيزاً، وأعطى إلى كل واحد من الكرادلة، الذين كان موجوداً منهم هناك حوالي الاثني عشر كاردينالاً، مهراً، وفرس حمولة من النخبة، وآثر البابا أن يكون راعي الدير هذا المتولي لاسطبله، بدلاً من أي انسان آخر، فأمره أن يتولى العناية —من أجل استخدامه— بالخيول التي كان قد أعطاها له، وأعطى راعي الدير المذكور إلى البابا كميات كبيرة من الثروات، على شكل أموال جاهزة وآنية ثمينة، ولقد قيل أيضاً بأن راعي دير سيتو Citeaux, قلد مثاله واتبعه، وكان محرضاً باخلاص الابن، وبالرغبة أن لايعدّ ثانياً إلى

أي واحـد، فقـدم هذه الهدايا حتى تكون ليست أقل قيمـة إلى أبيـه المتضرر والمحتاج، أي البـابا، ورغب رئيس أساقفـة روان أيضاً في إرضاء قـداسته، ولكي لايتهم بأنه الأكثر تخلفـاً، ورط نفسه وكـذلك كنيستـه في بعض من الديون الثقيلة، لهذه الغـايـة، وزاد الخزانة البـابوية بمبلـغ من المال لم يكن صغيراً، ولدى سماع راعي دير القديس دينس بهذه الإجراءات، وهو الذي كان متشوقاً، بالعمل بشكل مفيد، ليصل إلى منصب رئيس أساقفة، وذلك من خـلال الاستخراجـات، وبوساطة خـداع كنيسته، جمع آلافـاً كثيرة من البـاوندات منحهـا على شكل صـدقـات إلى البـابا، فكـان أن نال مكافأته برتقيته إلى كـرسي رئاسة الأساقفـة في روان، وكان ذلك من خلال الفـائدة المؤثرة لسلفـه، الـذي هو الآن كـارديناﻻً، ولـدى سماع الملك الفـرنسي —الذي كان المدير الخاص والحامي لكنيسة القديس دنس— بالإجراءات التي قـام بها راعـي الدير المذكـور، أرغمـه على أن يستجـدي هذا المال في منطقـة أخـرى، وهكـذا فإن هذيـن الشخصين: راعي الديـر، ورئيس الأساقفـة، قد تركا أثراً قـذراً خلفهما، ليطير إلى محطات أعلى، وذلك بإفقار الكنائس التي توليا الحكم فيها، مما أصل فضائح في أرجاء كثير من الممالك، وبعد وقت قصير من هذا، قام رئيس أساقفة ليون، وكان رجلاً بلا عيوب، لكنه الآن بات متقدماً بالسن، وضعيفاً، فتخلى عن جميع مناصبه، ووضعها بين يدي البابا.

وتدفق الآن يومـاً إثر يوم، أساقفـة آخرون على البلاط الـروماني، حيث تنافس أحدهم مع الآخر في تقديم الهدايـا الأكثر قيمة إلى البابا، وهي هدايا أثارت بحق دهشـة جميـع الذين رأوهم، وهكـذا بات واضحـاً لكثيرين، وأمراً مؤكـداً لديهم، بأن البابا جاء إلى ليون عن رغبـة، وليس بقصد الفرار من أي واحـد، وإلى جميع هذه الهدايا فتح البـابا صـدره المتسلم، حتى أنه لم يُـظهر أية عـلامـة على الرفض، أو الإباء لديه، وقـد أعلن بأنه بحـاجـة إلى كميـة كبيرة أخرى من المال، واستمـر في تقديم أسبـاباً جيدة لحاجتـه، لأنه

وفقـاً لتأكيـداته (التي لانـدري فيها إذا كـانت صحيحـة) كـانت الكنيسـة الرومانيـة المقدسـة مدانة بمبلغ يزيد على مـائة وخمسين ألفـاً من الباوندات الاستيرلينيـة، وذلك إلى جـانب الفـائـدة التي تصـل إلى قـرابة مبلغ الدين الأساسي.

وفي سنة النعمـــة ألف ومـــائتين وخمس عشرة، في أيام البـــابـا انوسنت الثالث، جـرى عقد مجمع عام، فيه رسم، وأودع كتـابة، بأن المجمع العام، يتوجب حقاً أن يعقـد مرة كل خمسين سنة، التي هي حقبة يوبيل، ففي سنة اليوبيل، أو خـلال إطارها، يتوجب عقـد مجمع عام، فيـه يتم إصلاح جميع المخالفات، وأن يجري إعادة كل شيء وتثبيته في نظام جيد.

بداية إجراءات المؤتمر في ليون

عندما سارت الشمس في مـدارها، ووصلت إلى أقصى ارتفاعها، أي في حـوالي منتصف الصيف اجتمع في ليـون —من أجل عقـد هذا المجمع— جميع الأسـاقفة المحترمين تقـريبـاً من جميع أرجاء العـالم المسيحي، أو جميع نوابهم الكفـاة، وكـذلك نواب الامبراطور، وعدد كبير آخـر من الأمـراء، الآخرين، وقد اجتمعوا بناء على ولاية خـاصة من البابا، وأعطى كثير من الأسـاقفـة الذين لم يحضروا، أسبـاباً شرعيـة لتسـويغ أنفسهم، من خـلال وكلائهم الذين أرسلوهم محلهم، وكـان بعضهم —على سبيل المثال— من مملكة انكلترا، كما ذكـرنا بشكل مفصل أعـــلاه، وكـان من بينهم راعي دير القديس ألبان، الذي كان رجلاً بديناً، وقد تقدمت به السن، ولذلك أرسل عـذراً معقولاً عـن غيابه بوسـاطة راهب من ديره اسمـه جـون دي بولوم Bulum, والمعلم روجر هولدن Holden, وكان كاهناً، وفي الحقيقة بالنسبة لهذه القضيـة، أعطى المعلم مارتن، الذي كـان لبعض الوقت ساكناً في انكلترا، هذه الشهادة، وبناء عليه بقي غير عرضة للنقد وبسلام، مرسلاً رسالة لطيفة إلى البـابا، بوساطة رسوليه المذكـورين، أما من مملكة هنغاريا، التي تعـرضت لدمـار كبير من قبل التتـار، لم يقدم أحـداً، ومن ألمانيـا التي

كـانت مضطربة بالحرب مع الامبراطور، جاء عـدد قليل من الأساقفـة إلى الاجتماع، ومن الأرض المقدسة، التي كـانت عرضة لخطر عظيم، لم يستطع أحداً القدوم إلى المجمع، كما أنه لم توجه إليهم الدعوة.

وبالصدفة، قدم إلى هاهنا، من الأرض المقدسة، واحد فقط، هو أسقف بيروت، وكان الرسـول العام لكل سـورية، وللتجمع المسيحي في الأرض المقـدسة، وقـد جلب معـه تقريراً مبكيـاً، حـول الدمار الذي أحـاق بتلك البلاد، بإذن من الرب.

كيف أعطى البابا في اليوم الأول تعليمات إلى المجمع

عندما رأى البابا أن عدداً كبيراً من الأسـاقفة —مع أنهم ليسوا جميعاً— قد اجتمعوا، قام في يوم الاثنين، بعد عيـد ميلاد يوحنا المعمدان، بالدخول إلى غرفـة طعام رهبـان القديس جست Just في ليون، يحيط بـــه إخوانه الكرادلة، والبطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأسـاقفة، والقساوسة الآخرين الذين وجهت إليهم الدعـوة إلى المؤتمر، وكـذلك نواب الأسـاقفة الغيـاب والأمراء، وكان هناك حـاضراً إلى جانب الكرادلة، اثنان من البطاركة، هما: بطريرك القسطنطينيـة، الذي هو بالوقت نفسه بطريرك أنطاكيـة، وبطريرك أقـويليـا Aquileia, الذي كـان أيضـاً بطـريرك البندقيـــــة، وامبراطور القسطنطينية وكـونت طولوز، والنواب من انكلترا، وايرل بيغود مع بعض من أتباعه النبلاء، ومائة وأربعين رئيس أساقفة، وأسقف.

ثم عـــرض بطريرك القسطنطينيـــة الشروط والحاجيـــات الضرورية لكنيسته، وأعلن بأنه كـان لديه من قبل أكثر من ثلاثين أسقفـاً تحت إمرته، وقد بقي منهم الآن ثـلاثة فقط، وعلاوة على ذلك أضاف بـأن الإغريق مع أعداء آخرين للكنيسة الرومانية، قد استولوا بالقوة على جميع الامبراطورية البيـزنطية (رومـانيـا) حتى أبواب القسطنطينيـة تقـريباً، وأنهم لايطيعـون الكنيسة الرومـانية في شيء، لكن بتخليهم عنها، يعارضـونها بكل الوسائل

العـدوانيـة التي بقـدرتهم، وأنه بسبـب الأسى والفـوضى المحيقـة بجميع المسيحيـة، فإن كنيستـه المذكـورة كـانت الكنيسـة ذات الامتيـاز الأول، وتستحق التكريم أكثـر من الكنائس الأخرى، لأنه في المقـام الأول، حسبما هو معروف حقيقة، بأن القديس بطرس، قد قام في الأيام الخالية، بالسكنى في أنطاكيـة (وهـي المدينة التي كـانـت خـاضعـة للإغــريق) وسبب الاضطـراب، والفرار من هناك لسمعان مـاغوس ولآخرين من الهراطقـة، وعند سماع هذا حافظ البابا على الصمت.

وفيما بعـد تمّ الوعظ بقـداس، جـدير بالقبـول كله، فيما يتعلق بتطويب القديس ادمـوند، الذي كان من قبل رئيس أساقفـة كانتربري، الذي جعله الرب مشهـوراً بإظهـار أعظـم المعجـزات، وفي الحقيقـة المؤكـدة أن ثمانيـة رؤسـاء أسـاقفـة، وحـوالي العشريـن أسقفـاً، قـدمـوا براهين، وتوسلوا باخـلاص بوجوب أن يجري تطويبـه بوقار عظيم في هذا المجمـع، وعلى هذا كـان البابـا معارضـاً، ليس بميـوله الشخصيـة، بـل جـرى تحريضـه هنـاك بوساطة روح الحسد لدى الآخرين، وأجاب:

«هناك بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالكنيسة تضغط علينا الآن، وهي لاتسمح بالتأخير، لذلك ينبغي أن تبقى هذه المسألة معلقـة لبعض الوقت، وعلى كل حال، إننا ما دمنا أحياء لن ندع قضيته تعاني من الإهمال، ونـحن مسرورين بالـرب، ونقـدم شكراً وافـراً له، مـن أن الرب، والعـالم أجمع يقدمون الشهادة على قداسته وفضائله».

وكان هناك أيضاً موجـوداً في المؤتمر، نائباً عن الامبراطور فردريـك، هو ثاديوس دي سيسا Thaddeus de Sessa, وكان رجلاً صـاحب حكمة، ووحيداً بفصاحته، وفارساً، ودكتوراً في القانون، وقاضيـاً للقصـر الامبراطوري، وقد قدم ليجيب بجرأة وكذلك بحذر، ودقة، عن مـولاه، وليقيم سـلاماً مع البـابا، وليعيد تأسيس صـداقتها الماضية، وبثقـة عرض اسـترداد جميع رومانيـا —أي امبراطورية الإغـريق— وإرجاعهـا للاتحاد

مـع الكنيسـة الرومانية، وأن يتصدى بشخصـه، كجندي مخلص للمسيـح إلى التتـار، والخوارزميـة، والمسلميـن والأعـداء الآخـرين وخصـوم الكنيسـة، وسـوف يقـوم كـذلك بقـدر مـاباستطاعتـه، بـإعـادة تأسيس الأوضاع في الأرض المقـدسة، التي هـي الآن عرضـة لمخاطر عظيمـة جداً وقريبة، وأن يعيـد بالوقت نفسه إلى الكنيسة الرومانيـة الممتلكات التي كان قـد أخـذها منهـا،وأن يعطيهـا ترضيـة كـاملة، وفي جـواب على جميع هذه العروض قال البـابا متسائلاً: «آه، كم هي وعود عظيمـة وكثيرة، ما من أي واحد منها جرى تنفيذه بأي شكل من الأشكال، أو سوف يجري الوفاء به، ومن الواضح الآن أن هذه الوعـود قـد قطعـت بغـاية أنه بالخداع وبالخرق يمكن إلغاء المؤتمر وتشتيته، ذلك أن الفأس قد وضع الآن على الجذر، ومن الممكن وضعـه جـانباً بـوساطة التـأخير، المتوجب عليـه هو مـراعـاة بنود السلام، التي أقسم عليهـا مؤخراً بروحه، وذلك وفقـاً للمقصد الذي أدى من أجله اليمين، ووقتها أنا سوف أوافق على عرضه، لكن إذا ما أقدمت أنا الآن على الموافقـة على طلبـه، ومن ثم اختـار هـو التراجع عن اتفـاقـه، من الذي سيكون ضامناً له لإرغامه، إذا ما نأى عن تنفيذ عقده؟»، ولدى وعد ثاديوس بأن يكون كل من ملكي فرنسا وانكلترا، الكفيلين في هذه القضية، أجاب البابا: «نحن لانختار قبولهما، لأنه إذا ما أراد في أي وقت في المستقبل أن يعدل الصفقة، أو أراد أن يلغيها كلية، (ونحن لانتوقع أية نتيجة أخرى، مما فعله مـراراً)، إننا سوف نرغـم على الدخول في مـواجهة معهما، ووقتهـا سـوف يكون للكنيسـة ثلاثة أعـداء، مـا من أحـد أقـوى منهم، لابل في الحقيقة، ليس هناك من يوازيهم في القـوة العلمانية»، وبما أن حجج ثاديوس لم تكن كـافيـة لـلاجـابة على هـذا، وبما أنه لم يكن هناك وقت كـاف، لزم الصمت وهو كئيب.

حول الأخبار السيئة من الأرض المقدسة التي نشرت في المؤتمر

وقـام وولران Walleran, أسقف بيروت، الذي تحمل مصـاعب

الرحلة لمدة ستة أشهر وسط مخاطر البحار، وشهراً على البر، في سبيل —كما ذكرنا أعلاه— أن يجلب رسالة حول مصائب الأرض المقدسة، وليطلب المشورة والمساعدة، قام بتوجيه الأمر إلى الراهب الدومينيكاني آرنولف Arnulph, أن يقرأ بشكل علني الرسائل التي كان النبلاء الذين بقيوا في الأرض المقدسة قد أرسلوها إلى جميع مسيحي الغرب، وقد أقحمت هذه الرسائل في جزء متقدم من هذا العمل، وأثارت الآن محتوياتهم المبكية جميع الذين سمعوهم، وجعلتهم يبكون، ولم يكن ذلك من دون سبب حسن.

إجراءات اليوم الرابع من الأسبوع

وفي يوم الأربعاء التالي، دخل البابا، وكان مرتدياً لثيابه الحبرية، إلى كنيسة القديس يوحنا، وهو محاط بجميع الأساقفة الآخرين الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وهم يرتدون أيضاً ثياباً إحتفالية، كل حسب ماهو عائد إليه، وبعد التوجه بالدعوة إلى الروح القدس، حيث أعقب ذلك ابتهال، وصلوات أخرى قرئت بشكل موائم، وعظ البابا بقداس مهّد له بالنص التالي: «آه، أنتم الذين تمرون بالطريق، قفوا وتمعنوا هل ترون حزناً مثل حزني»، ثم إنه تابع بتلاوة قداس فصيح، فيه عقد مقارنة بين أحزانه الخمسة الرئيسية وبين الجروح الخمسة للمصلوب، وكان أول هذه الأحزان وحشية التتار اللاانسانية، الذين كانوا يعيثون فساداً في البلدان المسيحية، وكان الآخر هو انشقاق كنيسة رومانيا، أي الكنيسة الإغريقية، التي انفصلت قبل عدة سنين خلت —في أيامنا هذه— عن صدر أمها، التي غدت وكأنها زوجة أبيها، والأمر المحزن الآخر كان تسلل هرطقات جديدة، التي هي هرطقات البيترينيين، والبوغارينيين، والجوفينيين، ومنشقين آخرين، وعدد لايحصى من الفرق، التي لوثت إلى درجات عالية كثيراً من مدن المسيحية، ولاسيما مدن لومبارديا، وكان الأمر المحزن الآخر متأصلاً مع الأرض المقدسة، حيث قام الخوارزمية الممقوتين بتسوية بيوت

الداوية والاسبتارية بالأرض، بعد تدميرها كلياً، وتدمير مدينة القدس، ومدناً مسيحية أخرى، وسببت سفكاً عظيماً للدماء المسيحية، لابل اقترفت مذبحة عامة، وأمر محزن آخر تسبب به أمير، يعني الامبراطور، الذي كان من المفترض ارتباطه في أن يكون المدير الرئيسي للشؤون الدنيوية، والحامي للكنيسة، قد أصبح الآن العدو الفعّال والقوي لكنيسة المسيح، لابل في الحقيقة العدو الرئيسي، والظالم المعلن لرجال الدين فيها.

ثم إن البابا تابع التعامل مع هذه المواضيع، بقدر ما بدا موائماً، وتمكن تماماً من ملامسة جميع سامعيه والتأثير عليهم بالحزن، لأن عيونهم سالت بدموع وافرة، وتقاطعت تنهداتهم مع خطابه، وفي نهاية قداسه، عرض عدوانيات الامبراطور فردريك، بالهرطقة، والدنس، وذكر من بين ذنوبه، أنه عمّر مدينة واسعة وقوية، في الديار المسيحية، وأسكنها بالمسلمين، مستخدماً، أو بالحري مسيئاً استخدام عاداتهم، وأوهامهم، مع الرفض لجميع الآراء المسيحية والديانة المسيحية، وأنه قد عقد —كما أكد قداسته— صداقة حميمة مع سلطان مصر، ومع بعض الأمراء المسلمين الآخرين، وأنه انحرف بعيداً، وضل بصلات زنا وفحش، وبلا حياء لطخ بالعلاقة مع نساء مسلمات، أو بالحري مع عاهرات، من دون تمييز، وعزا إليه كثيراً من أعمال الحنث باليمين، وكان ذلك من دون أي اهتمام بالصدق، مع أنه لم يحافظ قط على اتفاقاته، كما أنه لم ينفذ وعوده ولم يحافظ بأي شكل من الأشكال على عهوده، وفيما يتعلق بهذه التهم، ولكي يكون أكثر اقناعاً لسامعيه، أراهم كثيراً من الرسائل كلها تحت ختمه الذهبي الامبراطوري، وبرهن بذلك بوضوح أنه مجرم بالحنث باليمين، ثم ان ثاديوس نهض غير هياب أمام المجمع كله، واعترض على كلام البابا هذا، وعرض رسائل كثيرة جوابية مختومة بختم البابا، ظهر فيها ما يناقض بوضوح ما عرضه البابا قبل قليل، وعلى كل حال إنه لدى الفحص الدقيق لمحتويات هذه الرسائل من على الجانبين، الذي سوف يكون متعباً القيام

بشرحهم وعرضهم كاملين في هذا الفصل، سوف لايظهر بشكل ايجابي وجود تعارض أو تناقض بين أحدهم والآخر، فقد كانت رسائل البابا رسائل شرطية، وكانت رسائل الامبراطور رسائل ايجابية، وظهر أن خرق الصدق هو من جانب الامبراطور، الذي مع أنه قد وعد ايجابياً بكل شيء، هو مع ذلك لم يف بأي شيء وفقاً لوعوده، وعلى هذا سعى ثاديوس بكل قوة إلى الرد بحجج متنوعة، بدت على الأقل قائمة على أسس قوية، في سبيل أن يبرىء مولاه الامبراطور من التهم، وعرض رسائل أخرى من البابا، كانت جوابية، معلناً أنه ورد في محتوياتهن، ما لم تجر رعايته، وبناء عليه لم يكن الامبراطور ملزماً بالارتباط بوعوده، أما بالنسبة لتهمة الهرطقة، الصادرة ضد الامبراطور، أجاب كما يلي، بعدما نظر من حوله إلى جميع الحضور، وكأنه كان سيخاطبهم جميعاً:

«سادتي، إنه بالنسبة لقضية التهمة هذه، التي هي التهمة الأكثر جدية، ما من أحد يمكن أن يكون مقنعاً تماماً، ما لم يكن الامبراطور حاضراً، حتى يمكن للذي هو مغلق عليه في قرارة نفسه بشكل سري، يمكن استخراجه وسماعه من فمه، ولكن كونه غير هرطقي، من الممكن البرهنة عليه وضرب أمثلة عليه، فهو لم يسمح لأي مرابي بالسكنى في امبراطوريته أو ممالكه»، وبذلك ألقى بالتهمة بين أسنان البلاط الروماني، الذي كان من الواضح معسوفاً به بهذا الشر، وجواباً على التهمة التي عملت ضد الامبراطور، من أنه كانت له علاقة مريبة وحميمة مع سلطان مصر، ومع بعض المسلمين الآخرين، الذين سمح لهم بالسكنى في أراضيه، فقد أوضح بأن «هذا قد عمل بشكل تطوعي، وبدوافع من الحكمة، لضبط بعض أعمال العصيان والتمرد لبعض الخاضعين بموجب الحق إليه، ولقمع أعمال الشقاق، وفي استخدامه لهم في حملاته، هو يعتقد أن أية مصيبة سوف تقع لهم، لن يكون محزوناً عليها من قبل أي مسيحي، وبعمله هكذا وفرّ سفك الدم المسيحي من دون فائدة، وهو لم يتورط بعلاقة مع عاهرات،

ومن يمكنه أن يبرهن ذلك، لكنه كان يسلي نفسه ببعض الحركات، وببعض الأداءات لبعض النساء، اللائي قد صرفهن الآن، وهن لن يرجعن، لأنهن غدون مصدراً للشكوك»،وعندما أنهى ثاديوس كلامه، ترجى بأن يمنح مهلة قصيرة من الوقت، حتى يكون قادراً على بعث رسالة إلى الامبراطور، وأن يستخدم وسائل مؤثرة لإقناعه بالقدوم شخصياً إلى المجمع، الأمر المتوقع منه، أو أن يمنحه المزيد من الصلاحيات، وعلى هذا أجاب البابا:

«لاسمح الرب بهذا، إنني أخشى من المصائد التي وجدت بعض الصعوبات حتى نجوت منها، وإنه إذا ما جاء، أنا سأغادر، لأنني لاأرغب بالدم، ولاأشعر أنني شخصياً موائماً للشهادة، أو مستعداً لها، أو للسجن».

وحدث في اليوم التالي، أنه بناءعلى مبادرة نواب الملكين الفرنسي والانكليزي، الذين تضايقوا كثيراً من خطر توجيه الاهانة إلى مثل ذلك الأمير العظيم، وتضايق بشكل خاص نواب الملك الانكليزي بسبب العلاقة والتحالف المعقود بين مولاهم وبين الامبراطور، جرى منح مهلة أربعة عشر يوماً إلى ثاديوس، وكان ذلك مؤذ لكثيرين ممن كانوا مقيمين في ليون، وعندما جرى إخبار هذه الأشياء إلى الامبراطور، قيل بأنه قد قال وهو مضطرب نفسياً كثيراً:

«إنني أرى بوضوح مثل الضوء، بأن البابا قاصداً بجميع جهوده للحط من شأني، وهو مثار برغبة وبشعور بالانتقام لنفسه، لأنني تدبرت اعتقال أقربائه في البحر، وهم القرصان الجنويين، الأعداء القدماء المعلنين للامبراطورية، وسجنهم مع الأساقفة، الذين كانوا قادتهم وحماتهم، لأنه من الواضح أنه دعا إلى عقد هذا المجمع، لغاية واحدة لاغير، ومن غير الممكن للامبراطورية المقدسة أن تلتزم بقرار مجمع، هو مجمع معاد لها بشكل خاص»، وعندما وصل إلى علم البابا، والجماعة المجتمعة بأن الامبراطور قد قال هكذا، وأنه رفض الحضور، أو الالتزام بقرارهم،

سحب كثيرون تعاطفهم معه، وهم الذين كانوا حتى الآن متفقين فيما بينهم على تأييده، ووجّه اللوم بشكل كبير إلى الانكليز، لانحيازهم له، وبناء عليه جرى اتهام الامبراطور فردريك بقسوة متناهية وبحدة شديدة، في مجمع عام، وصدرت ملامته عن سكان أربعة أطراف الدنيا، على أنه متمرد وعاص ضد الكنيسة كلها، وقام واحد من رؤساء الأساقفة، ووجّه اللوم إليه بحرارة أكثر من البقية، واتهمه بجريمة الخيانة العظمى، في قضية اعتقال الأساقفة الذين تقدم ذكرهم، وبتهم أخرى ثقيلة.

وعلى هذا كله، وقف ثاديوس تقريباً لوحده، ورد لصالح الامبراطور، ونظر إلى متهمه وقال:

«ما من ثقة يمكن أن توضع بك، ومع ذلك لايجوز لكلامك أن يمر وأن يقابل بالصمت، لأنك ابن خائن، قد جرت ادانته بشكل قانوني في محكمة مولاي الامبراطور، وقد جرى شنقه، وأنت تتبع خطواته، وتسعى لأن تسير خلف أبيك في كل شيء»، وعند هذا كان المتهم صامتاً، ولم يتجرأ على التفوه بأية كلمة أخرى، كما أنه لم يسمح له بذلك، وبالطريقة نفسها أيضاً، قام المعلم ثاديوس بعقلانية، لكن بجرأة، بالرد على اتهامات بعض الآخرين ونقضها، وتجددت المناقشات مع روح جديدة بوساطة عدد كبير من أقرباء وأصدقاء الذين ألقيوا بالسجن أو غرقوا، وقد وجهوا الملامة إلى الامبراطور، من أجل عملية الاعتقال التي تقدم ذكرها، وجاء ذلك بحدة أكثر، وبجرأة أعظم، حيث أنهم رأوا نقصان التعاطف معه، وعليهم رد ثاديوس قائلاً:

«إن مولاي بالحقيقة آسف لتلك الواقعة التي حدثت صدفة، وعلى عكس رغباته، ولم يكن باستطاعته، كما هو معروف بشكل جيد، أثناء معركة مفاجئة وقتال عنيف في البحر، أن يفرق بين هؤلاء الأساقفة وبين أعدائه، حتى يحول دون عدم تمييزهم واشراكهم مع أعدائه، لكن لو كان مولاي الامبراطور هناك، لبذل أقصى جهوده في سبيل الحفاظ عليهم»،

وعلى هذا رد البابا قـائلاً: «بعد إلقـاء القبض عليهم، لماذا لم يسمح للأبرياء —مع أنهم عسف بهم وتعـرضـوا لجراحات مضـاعفـة— بالمغـادرة وهم أحـرار، واحتفظ بالآخـرين فقط؟»، وعلى هذا رد ثاديـوس: «لابد من التذكر أن صيغة الدعوة إلى الاجتماع قـد تغيرت، وكذلك اجتماع الأساقفة الذين دعيوا إلى المؤتمر الذي عقد في أيام البابا غريغوري، وجاء هذا التغيير من أجل الأسوأ، وعـدم تغيير الامبراطور لمشاعره، كان أمـراً مسوغاً، لأن البـابا مع أنه توجب عليه أن يجمع فقـط الذين وجهت إليهم الدعوة، دعـا معهم الذين هم أعـداء معلنين لـلامبراطورية، من علمانيين، ومشعـوذين، مؤيدين بعصـابات مسلحة، وكان بينهم كونت بروفـانس وآخرين، حسبما جاء واضحاً في الرسائل إلى ملك انكلترا، التي قدمت أعلاه، ومن الواضح أنهم دعيوا ليس بسبب حكمتهم، أو من أجـل الترتيب لسلام، بل بالحري لزيادة الشقاق، ولهذا السبب أرسل مولاي الامبراطور رسائل إلى انكلترا، وكذلك إلى مناطق أخرى، راجيـاً الأساقفة بطريقة صديقـه، بأن لايقدموا إلى مثل هذا المجمع الخياني، وأنذرهم مسبقـاً، أنهم إذا ما قدموا مع أعـدائه شخصيـاً، وأعـداء الامبراطورية، فـإنهم سـوف يهاجمون، كما أنه رفض منحهم جواز مرور آمن خلال ممالكه، وبشكل مهذب أنذرهم من المخاطر التي تحيق بهم، ولذلك فإن الرب أرسل بهم بشكل عـادل إلى بين يديه، بين يديه هو الذين استخفـوا به، ومع ذلك فإنه وإن كان مغضبـاً، تذكر الرحمة، ولان بوسـاطة نصائح مستشـاريه المخلصين، وقـد رغب في اطلاق سراح هؤلاء الأساقفة، والأناس غير المحاربين بشكل سلمي، عندما حدث فجأة أن أسقف برنستي وآخرين من الأساقفـة الوقحين، قاموا بتكديس التهديد فـوق التهديد، ومع أنهم كـانوا مسجـونين لم يترددوا بحرمـان الامبراطور كنسيـاً في وجهـه، دون رعايـة لذلك الرأي الصحيح الذي قـال: «تواضع بنفسك أمام يد القـوة، وهكذا بعدما كانوا عصـاة، أصبحوا بلا أذى، لابل معتـوهين، ومن كـونهم أصدقـاء أصبحـوا أعداء، وقـد استحقـوا الايداع بالسجن»، وقـد أجاب البـابا قـائلاً: «ينبغي أن يكون مـولاك الامبراطور

مقتنعاً، مالم يكن غير واثق بقضيته، ذلك أن مثل ذلك الجمع الواسع لمثل أولئك الرجال الصالحين، كان بالحري سوف يحرره بدلاً من أن يكبله، لو أنه استحق أن يتحرر، لكن من سلوكه كان من الواضح بأن ضميره كان يضايقه، وأن الإثم الذي اقترفه، وصار مجرماً به، قد جرحه»، وعلى هذا رد ثاديوس قائلاً: «كيف كان لمولاي أن يتوقع، في مؤتمر يرأسه البابا غريغوري، الذي هو عدوه الرئيسي، أن يجد الذين يؤثرونه، وهم الذين تحالفوا مع أعدائه، وذلك عندما رآهم يتحركون ضده، ويهددونه وهم سجناء؟»، وعلى هذا أجاب البابا: «صحيح أن واحداً بنقده له، قد فقد حظوته، لماذا جرى توريط الأبرياء الآخرين في المصيبة العامة؟، إنه من مخالفاته المضاعفة، لابد أن إهانته وطرده الكامل أن يكون قريباً»، وعندما سمع الانكليز هذا صرخوا لصالح أولاده، وأبدوا اعتراضهم على أن يتعرض الابن للمعاناة بسبب مخالفات الأب، وأن يتم ازدراء النهر كله بسبب نبعه.

وفي الجلسة الثالثة للمجمع ظهر ثاديوس أمامه للاجابة، وللتقدم بالتماس لصالح الامبراطور لأنه كان حزيناً وشاعراً بالخطر، خاصة بسبب أن ابنة دوق النمسا إما قد تزوجت، أو على وشك الزواج من الامبراطور، وكان خطر الخلع بالاضافة إلى الحرمان الكنسي محيقاً به، فهي سوف تبتعد عن عناق واحد ممقوت، هذا وعندما بدأ بتقديم الالتماس بوساطة أعذار كثيرة لصالح الامبراطور، ولكن لم يصغ إليه، تقدم بالتماس لعقد المجمع العام التالي، لأنه لاجميع الأساقفة ولا نوابهم، ولانواب الأمراء، قد ظهروا في هذا المؤتمر، وعلى هذا الالتماس، رد البابا قائلاً: «إن المجمع العام لكثير من البطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، والنبلاء الآخرين من مختلف بقاع العالم، كانوا جميعاً ينتظرون مولاك الامبراطور أن يتواضع بنفسه، وبذلك كان سيكون راضياً تماماً، وبالنسبة للذين هم غياب، إن الذي منعهم من الحضور والمشاركة، هو أنهم بالشراك الت نصبها مولاك، لذلك

إنه من غير الموائم لقـرار الخلع، الذي سيصـدر بحقـه، أن يجري تأجيله أية مدة أخرى، خشية أن يستفيد من مكره، لأن المخادع ينبغي أن لايستفيد من أي واحد».

الشكوى التي عملها وكلاء جماعة إنكلترا في مؤتمر ليون

عندما أخذ وكلاء الجماعة الانكليـزية، الذين تقدم ذكرهم، مقاعدهم في المؤتمر، نهض المعلم وليم دي بـاوريك، المتحـدث باسمهم، وعمـل باسم الجماعـة الانكليزية كلهـا شكوى جـادة، حول الظلم الذي كـان يمارس في تلك المملكة، عــارضـاً ذلك بخطبــة فصيحـة، وبيّـــن أنه في أيام الحرب استخـرجت ضريبـة مـؤذية من قبل البـلاط الرومـاني، عليهـا لم يوافق قط أسلاف نبـلاء المملكة، كما أنهم لايوافقون عليها اليـوم، كما أنهم لن يوافقوا عليهـــا بالنسبـة للمستقبـل، ولهذا هم يطلبـون العــدالة وأن يقـــدم إليهم الخلاص، وعلى هذا الطلب لم يجب البـابا ولابكلمة واحـدة، كما أنه لم يرفع عينيـه، وبعد صمت قصير أعطى وليم المذكـور تفصيـلاً بالاستخراجـات المضـاعفـة للمـوارد التي مـورسـت في انكلترا من قبل البـلاط الرومـاني، وأراهم بالوقت نفسه الرسالة التالية:

رسالة من جماعة إنكلترا حول استخراجات البلاط الروماني

«إلى الأب المبجل في المسيـح، انوسنـت، الذي هو بنعمـــــة الرب الحبر الأعظـم، يبعث إليـه نبلاء انكلترا والجماعة بشكل عـام، بإطرائهم، ويقبلون قدميه المباركتين:

إننا نحب أمنا الكنيسـة الرومانيـة ونقـدرها من كل قلوبنا، كما ينبغي أن نفعل، ونهدف بكل عواطفنا الممكنة لزيادة كرامتهـا وتقدمها، ومعها ينبغي أن نمتلك مـلاذاً في الأوقـات المناسبـة، في سبيـل إزالة أسف الابن المظلوم ورفعه بمـواساة الأم، وهذه المواساة على الأم تقديمهـا إلى الابن بمزيد من اللطف والسهولة، وفي مقابل تغـذيتها له بلطف الأم، إنها تطلب من الابن الامتنان والاخـلاص، والأم، بالفعل، لايمكن أن تكون جـاهلة بالامتنان

الذي أظهرته لسنوات كثيرة، مملكة انكلترا نحوها، فقد منحتها ثماراً وافرة من التمجيد وفي سبيل أمنها الأعظم، في سبيل أنه بهذه الوسائط، من الممكن تأسيس تحالف من التعاطف يكون أكثر ثباتاً بين الكنيسة والمملكة المذكورة، وهذا المورد قد عرف مع مرور الأيام، باسم «بنس بطرس»، ولم تكن الكنيسة على كل حال مكتفية بمعونة من هذا النوع، وفي الأوقات المتأخرة طالبت بالمساعدات بوساطة النواب البابويين، وبرسل آخرين متكررين، وجاء ذلك بطرق مختلفة، اتبعت في المملكة المتقدم ذكرها، وهذه المساعدات جرى تقديمها من قبل أولادها المخلصين بكرم، وكأنهم كانوا يحتضنون أمهم بأذرعة عواطف مختلفة، ونحن نعتقد أيضاً، أن قداستكم غير جاهلين بأن أجدادنا بحكم أنهم كانوا كاثوليكاً حقيقيين، كانوا جميعاً يحبون الرب ويخافونه، ويرغبون بضمان خلاص أرواحهم وأرواح أجدادهم، وكذلك أرواح أولادهم، وأنهم قد أسسوا ديرة، وأغنوها من ممتلكاتهم بكل من الممتلكات الأرضية والرعاية من قبل الكنائس في سبيل أن يتمكن الرهبان من تأدية واجباتهم الدينية بشكل جدير بالثناء في تلك الديرة، وأن يخدموا العلي الأعلى بيقظة، ولكي يتمكنوا من التمتع بالسلام والأمان، ولمواجهة ما يحتاجونه في خدمة الدين، تسلموا الوسائل الضرورية للعيش، وذلك بما يتواءم مع واجباتهم الدينية، من أصحاب الممتلكات المذكورة، ولكي يتمكن كهنتهم من وضع كنائسهم تحت حمايتهم، ولكي يؤدوا الأعمال في الخارج، ويلتزموا بالفرع الثاني للدين، وليتمكنوا من حمايتهم من غارات الآخرين، وبناء عليه، لن يمر الأمر من دون اغضاب شديد لنا، وأنه سيكون أذى شديداً لنا لايمكن تحمله، عندما يحدث ويجري تضليل الرهبان المذكورين وابعادهم عن امتيازات حماتهم، وعن الارتباط بكنائسهم، لكن الآن، حدث من قبلكم، ومن قبل أسلافكم، الذين ليس لديهم تقدير، فبالاضافة إلى الموارد المتقدم ذكرها، استغنى الايطاليون الآن (الذين يوجد منهم أعداد بلا نهاية تقريباً) على حساب الكنائس العائدة إلى حماة هؤلاء الرهبان أنفسهم، وهم الذين

يدعون باسم قساوسة الكنائس، وهكذا تركوا هؤلاء الذين توجب عليهم الدفاع عنهم، وقد اجتثوا تماماً، ولم يعودوا يعطون الاهتمام لأرواح الناس، بل تركوا هؤلاء الذئاب الأكثر جشعاً ليتولوا تمزيق القطيع، ولاختطاف الشياه، وعلى هذا يمكنهم القول صادقين، بأن هؤلاء الأشخاص ليسوا رعاة جيدين، لأنهم لايعرفون شياههم، كما أن الشياه لاتعرف شيئاً عن الرعاة، فهم لايمارسون أعمال الضيافة، أو تقديم الصدقات المتوجبة على الكنيسة، بل إنهم يتسلمون الثمار فقط لحملها إلى خارج المملكة، مفقرينها إلى درجة كبيرة، باستحواذهم أنفسهم على مواردها، وبذلك فإن إخواننا، وأحفادنا وأقربائنا الآخرين، الذين هم أشخاص جديرون بالعناية من قبل المملكة المذكورة، ينبغي أن ينتفعوا، لكنهم لايستطيعون، ولايمكنهم برحمة وتقوى أن يكونوا قادرين على ممارسة أعمال الاحسان المذكورة وأعمالاً أخرى، وهم يرغبون شخصياً أن يخدموا الكنائس المذكورة، وذلك وفقاً لكلمات بطرس، بأن الذين يخدمون المذبح، يمكنهم العيش مع المذبح، غير أنهم اضطروا الآن بحكم الضرورات لأن يصبحوا رجالاً علمانيين ومنفيين، وفي سبيل أن تكون الحقيقة معروفة لديكم، فإن هؤلاء الايطاليين يتسلمون ستين ألف مارك، لابل أكثر سنوياً من انكلترا، وذلك بالاضافة إلى جبايات أخرى متنوعة، وهم ينقلون منها ربحاً صافياً على شكل موارد من المملكة أكثر من الملك نفسه، الذي هو حامي الكنيسة، والممسك بمقاليد السلطة في تلك المملكة، علاوة على هذا لقد أملنا بعد تنصيبكم (ومازلنا نأمل بالشيء نفسه، لأننا واضعين ثقتنا بكم) أنه بتدخل من عاطفتكم الأبوية، سوف ننال البهجة، ونعيد في أيامكم تأسيس إعطاء الصدقات المتقدم ذكرها إلى وضعها السالف الصحيح.

ونحن —على كل حال— لايمكننا أن نمر صامتين بمظالمنا، لأننا نحن لم نتضرر فقط، بل عسف بنا إلى أبعد الحدود، ففي المقام الأول، قام المعلم مارتن، الذي دخل مؤخراً إلى المملكة، من دون إذن الملك، وهو مفوض

بسلطات أكبر من أي سلطات نذكر أنها منحت إلى أي نائب بابوي، وطلبت من الملك من قبل (ومع أنه لم يمتلك شارة النيابة البابوية، مارس الواجبات المتنوعة لمنصبه)، فقد كان يمارس يومياً، ويعرض سلطات جديدة، لم يسمع بها من قبل، وخلال ممارسته للسلطة كان يقوم باستمرار بتجاوزات وخروقات، فقد منح بعض المنافع الشاغرة بمبلغ ثلاثين ماركاً أو أكثر سنوياً، إلى بعض الايطاليين، وعندما يموتون سوف يتولى آخرون ويتعينون مكانهم، من دون معرفة الحماة، وهكذا نجد أن هؤلاء الحماة قد تعرضوا للغش في امتياز عطيتهم، لابل أكثر من هذا، لقد حاول المعلم مارتن المذكور أن يعين منافع مشابهة، عندما صدف وكانوا شاغرين، إلى أشخاص متنوعين، واحتفظ للكرسي المقدس بحق منح بعض المنافع، وعلاوة على ذلك استخرج جبايات قاسية جداً من الرهبان، وكان يتفوه بأحكام الحرمان الكنسي، والتعليق مع الحرمان من شراكة المؤمنين، في جميع الإتجاهات ضد المتقولين، المتململين، وكان المعارضون عرضة لخطر عظيم، وللرعب على أرواحهم، وبناء عليه، إنه بالنسبة للمعلم مارتن المذكور، وبالنسبة للاضطراب العظيم الذي عانت منه المملكة كلها، فقد مارس المذكور أعمالاً قضائية، نحن لايمكننا أن نصدق أنها صدرت عن علمكم، لأنه مارس واجبات عالية، كانت بالحقيقة أعلى مما نتذكر قط أنه قد مورس من قبل، من قبل أي نائب بابوي، حيث انحرف كثيراً عن الامتياز، الذي جرى منحه من قبل إلى صاحب الجلالة الملك، من قبل الكرسي الرسولي، الذي رسم من قبله، أن ما من واحد سوف يملأ منصب النائب البابوي في انكلترا، ما لم يكن جرى طلبه بشكل خاص من قبل الملك، وبناء عليه، إننا مع كل التذلل الممكن والاخلاص، نرجو قداستكم، وبالنـدر نفسه نلتمس العاطفة الأبوية لأن تمدّ يد الرحمة لإنقاذ الأولاد المظلومين، بوساطة مساعدة مؤثرة ومعقولة، من المضار التي تقدم ذكرها أعلاه، ومن المظالم، لأ‌نه مع أن ملكنا، الذي هو كاثوليكي صحيح، وغيورعلى تأدية واجباته الدينية، دون الاهتمام بتبديد جسده، هو ير غب في

تأديته لواجبه نحو يسوع المسيح، وفي احترامه للكرسي الرسولي، ويود أن يرفع من شأن الكنيسة الرومانية، ويزيد من كرامتها ومنافعها، وذلك كما ينبغي على ولد محب كثيراً أن يفعل، بيد أنه في الوقت نفسه أن يكون ذلك مع الحفاظ على الامتيازات الملكية، وعلى الكرامات، ومع ذلك إننا نحن الذين نتحمل متاعب وحرارة اليوم في خدمته، والذي واجبه يقتضي ذلك، مع الملك المذكور، حتى نرى الحفاظ على المملكة، نحن لايمكننا أن نتحمل بصبر هذه المظالم المذكورة، والتي هي ممقوتة للرب وللانسان مع مثل هذه الأعباء التي لايمكن تحملها، وبحق نعمة الرب لن نتحملهم أية مدة أطول، من خلال تدخل مساعدتكم الفعالة التي نأمل ونثق بأن نتلقاها سريعاً، وأثناء المناسبة، ولعله بناء عليه، يرضي قداستكم إعطاء إذن مصغية متعاطفة إلى التماساتنا، حتى تنال باستحقاق شكراً خاصاً من نبلاء انكلترا، ومن الجمع العام للجماعة في انكلترا، وذلك بحكم كونهم أكثر الأبناء حباً في المسيح».

البابا يؤجل إعطاء جواب للرسل من إنكلترا

ومع أن الرسالة قرئت، ونشرت بشكل مكشوف، وسط صمت عام، لم يقدم البابا جواباً، لأنه أكد أن مثل هذه القضية الصعبة تتطلب مداولات طويلة، ولهذا أخّر إعطاء جوابه لبعض الوقت، ومع أن النبلاء المتقدم ذكرهم، والرسل الخاصين شددوا على حثه على إعطاء الجواب على الفور، هو لم يقبل، بل وعد أنه سيفعل ذلك بعد مدة ليست طويلة، وبالاضافة إلى الشكاوي التي تقدم ذكرها، أضاف الرسل المذكورون أيضاً شكوى أخرى ثقيلة، وكانت حول المظالم الخبيثة، والأذى الذي لايمكن تحمله، والمكوس اللاأخلاقية التي مورست، بسبب تلك الإضافة المقيتة للفقرة التي غالباً ما أقحمت في الرسائل البابوية، وهي «دون تقدير» إلخ، إلخ.

غير أن البابا كان منصرفاً نحو قضايا أعظم أهمية، ومع أن المعلم ثاديوس، وكيل الامبراطور ترافع ضدها بفصاحة، قام البابا الآن من دون

أي تردد، أو خـداع، أوتأخير، فتفـوه مـزمجراً بقرار الحرمـان الكنسي ضـد الامبراطور فـــردريك، أمـام المجمـع كله، مما أدهش جميع الذين سمعـــوه وأرعبهم.

كيف حرم البابا كنسياً الإمبراطور فردريك في مجمع ليون

«أنوسنْت، الأسقف، عبد عبيد الرب، إلخ:

بحضور المجمع المقـدس، وفي تذكر دائم للحـادثة، وفي تمجيد للكرسي الرســـولي، قمنا نحن الذيـن —وإن كنا لانستحق— جـــرت ترقيتنا إلى المنصب البابوي بتقدير من الجلالة اللاهوتية، والذي علينا أن نعطي عنايتنا المتـواصلة واليقظة إلى جميع المسيحيين، فمنحنا عين التقدير العميق، لنميـز الأعمال والأقـوال لكل واحــد من الناس، ولكي نزنهم بميـــزان التقـدير الحكيم، في سبيل أن نتمكن من مكافأة الذين يستحقون المكافأة، الذين بعد فحص دقيق تبرهن أنهم جـديرين بـذلك، ولنوقع العقـوبة المستحقـة على الذين نجدهم مجرمين أو ملومين بأي طريق من الطرق، وذلك وفقاً لطبيعة ذنوبهم، ولسـوف نزن دومـــاً فضـائلهم وجـوائـزهـم في ميـزان متعـادل، معاودين الدفع إلى كل واحد كمية الجائـزة أو العقوبة، وفقاً لطبيعة أعماله، سواء أكانت جيدة أم سيئة.

وبالنسبـة للحـــروب المستعـرة المديدة، التي أزعجت منـذ وقت طويل بعض المقاطعات والمناطق التي تؤمن بـالمسيحية، رغبنا من قلبنا كله بإعادة الهدوء والسلام إلى كنيسة الرب المقـدسة، وإلى جميع المسيحيين بشكل عام، وقدرنا أنه مفيد لنا القيام بإرسال رسل خاصين إلى الأمير الرئيسي العلماني، الذي كـــان هـو المقترف لهذه التمـــزقـــات والاضطرابـات، والذي كـــان لتجاوزاته محروماً كنسياً من قبل سلفنا، البـابا غريغوري، صاحب الذكرى السعيـدة، لقد قمنا بناء عليـه، بإرسال رجـال رفيعين بالمسؤوليـة ممثلين لنا ولصالحنا، وهم: أخينا المبجل ب. P راعي دير ألبـــانو في ذلك الوقت،

ورئيس أساقفة روان الآن، وو. W أسقف سابينا الآن، ومن قبل أسقف مودينا Modena,وابننا المحبوب كثيراً وليم، الكاهن الكاردينال لكنيسة الاثني عشر رسولاً، والذي كان في ذلك الحين راعي دير القديس فاكندوس Facundus, وكلهم كان مشحوناً بالرغبة لخلاص ذلك الأمير المذكور.

وأوضحنا من خلالهم بأننا مع إخواننا، نسعى، بقدر ما نمتلك من قوة، لأن نكون في سلام معه في كل جانب، وذلك حسبما كنا جاهزين لأن نكون مع جميع الناس، ونحن نرغب في أن نمنح له السلام والهدوء وإلى جميع العالم، أما مايتعلق بإعادة الأساقفة، والكهنة وجميع الآخرين الذين في حبسه سجناء، وكذلك بالنسبة لجميع الكهنة، وكذلك العلمانيين، الذين أسرهم في الغلايين، إن ذلك سوف يكون مساعداً على صنع السلام والمصالحة، وسألناه بوساطة الرسل أنفسهم وطلبنا منه، أن يعيدهم إلى الحرية، (وذلك حسبما كان هو وكذلك رسله قد وعدوا سلفنا المذكور، وذلك قبل دعوتنا إلى المنصب الرسولي)، وأعلنا علاوة على ذلك، بأن الرسل المذكورين، كانوا مستعدين، باسمنا لإستماع مقترحاته من أجل، وفي سبيل ترتيب بنود للسلام، وللإصغاء إلى أية تقديمات واقتراحات للترضية، يمكنه —أي الأمير المذكور— أن يختار عرضها في المسألة المتعلقة بكل قضية حرمانه الكنسي، وبالاضافة إلى هذا، إذا كانت الكنيسة قد آذته بطريقة غير صحيحة (التي لاتعتقد بأنها فعلت ذلك) هي على استعداد للقيام بالإصلاحات، ولأن تعيده إلى وضعه الطبيعي، وإنه إذا ما قال بأن الكنيسة أو نحن شخصياً قد ألحقنا به الضرر في أية طريقة من الطرق مضادة للعدالة، إننا على استعداد لأن ندعو الملوك، والأساقفة، والمقدمين، ورجال اللاهوت، وكذلك العلمانيين، إلى الاجتماع إما شخصياً، أو من قبل رسلهم الخاصين، في مكان ما آمن، وإن الكنيسة مستعدة، وفقاً لقرار المؤتمر، لأن تقدم إليه الترضية، إذا ما كانت قد آذته بأية طريقة من الطرق، وأن تلغي أي قرار بالحرمان الكنسي، كانت قد أصدرته ضده بشكل غير

عـادل، وأن تعـاملـه بكل لطف ومـرحمة، بقـدر مـا يمكنهـا أن تمنح، مع احترامهـا للرب، ولكـرامتهـا الذاتيـة، وأن تتسلم ترضيــة منه عن الأذى والمضار التي اقترفت ضد الكنيسة المذكـورة من قبله، أو من قبل أتباعه من خلالـه، وإن الكنيسة ترغب أيضـاً في السماح إلى جميع أصدقـائه والمرتبطين به، أن يكونـوا في سـلام، وأن يتمتعــوا بأمن كـــامل، وبـذلك لايمكن في المستقبل بشكل مطلق، تعرضهم للخطر أو للرعب حول هذا الشأن.

ولكن مع أننا سعينا بوساطة عتابنا الأبوي، وبوساطة الالتماسات العامة أن نحـرضه على السـلام، قلّد الأمير المذكور بعناده فـرعون، وأغلق أذنيـه مثل ثعبـان، في ذروة عنـاده، وتبنى حـالة العجـرفـة والتشـامخ، وازدرى ورفض التماساتنا وتحذيراتنا حـول هذه القضية، ومع أنه حـدث من خلال مرور الوقت، في السنة التـالية، في يوم عيد العشاء لربنا، والذي كـان العيد الأخير، بحضـــور إخـواننـا الكرادلة، وكـــذلك ولدنا المحبـــوب كثيراً في المسيح، امبراطور القسطنطينية المشهور، وحشد كبير من الأساقفة وشيوخ وحكماء شعب رومـا ومجلس شيـوخهـا، وجمع كبير مـن الآخـرين، الذين كـانوا قـد اجتمعوا لـدى الكرسي الرسولي في ذلـك اليوم، بسبب مهـابتـه ومكانتـه، من جميع أرجاء الدنيـا، أن قـام الأمير المذكور من خـلال النبيل كونت طولوز، والمعلم بطرس دي فينيا، وثاديوس دي سيسا، القاضيان في بلاطه، ووكلائه، في ظل أوامر منه حـول هذه القضية، فأعطى يمينا مهيبا، بأنه سوف يلتـزم بأوامرنا وبأوامر الكنيسـة، ومع ذلك هو لم يف بعد ذلك بالذي أقسم عليه، وفي الحقيقة، إنه من المعتقد بشكل صحيح، ومن الممكن استخراج الأمـر واستنتاجـه من الإجراءات التي عملهـا فيما بعد، أنه أدى ذلك اليمين لغـاية الخداع وليس لغاية طـاعة الكنيسـة، لأنه على الرغم من مضي سنة حتى الآن، هو لم يقم بالعودة إلى صـدر الكنيسة، كما أنه لم يكلف نفسه ولم يزعجها بتقديم ترضية حول الأذى والخسائر التي عانت منها من قبله، مع أنـه طلب منه مـراراً أن يفعل ذلك، وبناء عليــه، بما أننا لم نعـد

راغبين، ولسنا قـادرين —دون أن نذنب ذنباً عظيماً بحق يسـوع المسيح— أن نتساهل تجاه عدوانيته وذنوبه، ولقد أرغمنا بضميرنا على اتخاذ إجراءات ضده.

وإذا مـا التـزمنا بالصمت الآن حـول جرائمـه الأخـرى ومظالمه، لقـد اقترف أربعة آثام ثقيلة جداً، لايمكن تسويغها بأية وسيلة تلطيف، ذلك أنه غالبـاً ما أقسم يميناً تعهـد به بمراعاة السـلام الذي أعيد تثبيتـه رسمياً بين الكنيسـة والامبرطوريـة، ثم قـام بطيش بخـرقـه، كما أنه اقترف إثماً كبيراً بتسببـه باعتقـال كـرادلة الكنيسـة الرومـانيـة المقـدسـة، وكهنة الكنائس الأخرى، والرهبان، والعلمانيين، الذين كـانوا قادمين إلى المجمع الذي رأى سلفنا المذكور أنه من المناسب الـدعوة إليه، وهو أيضـاً متهم بالهرطقة ليس على أسس مشكوك بها أو أرضيـة ضعيفـة، بل على أسـاس بينات مبرهن عليها، وأنه اقترف كثيراً مـن أعمال الحنث باليمين واضحة بما فيـه الكفاية، لأنه عنـدمـا كـان فيما مضى مقيماً في صقليـة، قبـل انتخـابه للمقـام الامبراطوري، قام بحضور غ. G الكادرينال الشماس للقديس ثيودور، وصـاحب الذكـرى الطيبة نائب الكرسي الـرسولي، فقـدم يمين الولاء إلى سلفنا البـابا انوسنت، صـاحب الذكـرى الطيبـة، وإلى خلفائـه من بعـده، وكذلك إلى كنيسـة روما، مقابل تقـدير التنازل عن مملكة صقلية له من قبل الكنيسـة المذكـورة، وحسبما روي، إنه بعد انتخـابه لذلك المقـام المذكـور، وبعد وصـوله إلى المدينة جدد ذلك اليمين أمام انوسنت المذكـور، وإخوته الكرادلة، وبحضور عدد كبير آخر، وقدم ولاءً قـانونياً إلى البابا المذكور مع يدين مرفوعتين.

وبعـد هذا، عندمـا كـان بألمانيا، عمـل يميناً بحضور الأمـراء والنبـلاء العائـدين للامبراطورية، قضى بالحفاظ على البـابا انوسنت المذكور، ولدى وفـاته، على البـابـا هونوريوس سلفنا، وعلى خلفـائـه، وأن يحمي بإيمان صالح، وبقدر ماهو متوفـر في قدرته، شرف، وحقوق، وممتلكات الكنيسة

الرومانيـة، وأن كل ماسـوف يأتي إلى بين يديه، سوف يعيـده إليها من دون أية معـارضـة، وقد ورد ذكـر الممتلكات المذكـورة بوضـوح في بنود يمينه، الذي أكده فيما بعـد، فوز حصوله على تـاج الامبراطورية، لكن بالنسبة إلى هذه الأيمان الثلاثة، لقد برهن عن نفسه، أنه غير ملتزم جريء، وخارق لها، وبهذا نال وصمـة الخيـانة وتهمـة الخيـانة، لأنه أرسل إلى الإخـوة الكرادلة رسـائل تهديد ضد سلفنـا غريغـوري، وضد إخـوانه المذكـورين، وكما هو ظاهر من الرسائل التي أرسلت من قبله، أقدم على تشويه سمعة غريغوري المذكور بين إخـوانه المذكوريـن، وحسبما ورد في رسائل لها المحتـوي نفسه للتشهير بطرائق مضـاعفة في جميع أرجـاء العالم، كما أنه أمـر أيضاً باعتقـال شخصي لأخـــــوينـا المحترمين: أوتو، أسقـف بـورتو، في ذلـك الحين، وكـاردينال شماس للقـديس نيقـولا، في سجن توليـان، وج. L أسقف برينستي، صاحب الذكرى الطيبـة، والنائب البابوي للكرسي الرسولي، مع أعضاء بارزين من الكنيسة الرومانية، وانتزع من آخرين مقتنياتهم، وحملهم بشكل مهين عدة مـرات وطاف بهم حول وخلال أمـاكن متنوعة، ثم ألقى بهم في السجن، وعـلاوة على ذلك، سعى بكل مـا أوتيه مـن قوة لانقـاص امتيازات الكنيسـة، أوبالحري، لانتزاع هذه الامتيازات كلهـا، التي منحها مولانا يسوع المسيح إلى القديس بطرس وخلفائه، والتي تمثلت بقوله:

«إن كل الذي سـوف تربطـه على الأرض، سـوف يربط في السماء، وكل شيء سـوف تحله على الأرض، ســوف يجري أيضـاً حله في السماء»، (ففي هذا الامتياز ترسو قـوة وسلطة الكنيسة الرومانية)، ولقـد كتب رسالة بأنه لايقيم تقديراً لقرار الحرمان الكنسي الذي صـدر ضده من قبل سلفنا البابا غريغوري، وبذلك استخف بمفاتيح الكنيسـة، بعدم رعايتها بشخصه، ولم يكتف بهذا بنفسه، بل أيضـاً بوساطة وسـائل موظفيه، فـأرغم آخرين على عـدم مراعـاة قرار الحكم هذا، أو قـرارات الحرمان الكنسي الأخـرى، مع قرارات الحرمـان من شراكة المؤمنين، فهذا كله لم يعبأ به، أما بالنسبـة أيضاً

لممتلكات الكنيسة الرومانية، وهي تخوم ودوقية بينيفنتو، (التي أمر بتدمير أسوارها وأبراجها) وممتلكات أخرى كانت بحوزتها في أجزاء من توسكانيا ولومبارديا، وفي بعض الأماكن الأخرى، مع بعض من الاستثناءات القليلة، فقد تجرأ على الاستحواذ عليهم، وكأن هذا لم يكن فيه كفاية، وذلك حين أقدم على هذا العمل، لقد قام بشكل واضح ومكشوف بخرق الأيمان المتقدم ذكرها، وأقدم شخصياً أو بوساطة موظفيه على إرغام السكان في هذه الممتلكات، على إقسام يمين، حللهم فيه —مع أنه لايمتلك السلطة بموجب الامتيازات أن يفعل ذلك— من يمين الولاء الذي كانوا مرتبطين به بموجب الأمر الواقع، إلى الكنيسة، وبعدما أرغمهم على الحنث بيمين الولاء المذكور، أرغمهم على أداء أيمان ولاء له شخصياً.

وكونه قد برهن عن نفسه، أنه خارق للسلام، فهذا واضح تماماً، لأنه من قبل، أثناء السلام، الذي أعيد تأسيسه بين الكنيسة وبينه، أدى يميناً أمام جون دي أبيفيل، صاحب الذكرى الطيبة، أسقف سالسبري، والمعلم نوماسيوس، الذي كان آنذاك كاردينال —كاهن للقديس سابينا— وبحضور عدد كبير من الأساقفة، والأمراء، والبارونات، بأنه سوف يلتزم تماماً ومن دون شروط بأوامر الكنيسة، وسوف يكون مطيعاً لها في القضايا التي من أجلها جرى حرمانه كنسياً، ذلك أن أسباب ذلك الحرمان قد جرى شرحها له تماماً، كما أنه قام في الوقت نفسه، من خلال كونت أسيرا Acerra, فأدى يميناً بروحه، بأنه سوف يعفو عن جميع الجرائم ويلغي كل العقوبات، بالنسبة لسكان ألمانيا، ومملكة صقلية، وجميع الآخرين، مهما كانت أحوالهم أو مراتبهم، من الذين كانوا واقفين إلى جانب الكنيسة، وأنه سوف لن يؤذيهم في أي وقت من الأوقات، أو أن يتسبب لهم بأي أذى، بسبب وقوفهم إلى جانب الكنيسة، ومع ذلك فإنه فيما بعد لم يشعر بأي حياء بسبب تورطه بحنث كبير، وذلك أنه أخفق في رعاية هذا السلام

وأيمانه هذه، لأن هؤلاء الناس أنفسهم الذين تقـدم ذكرهم من نبـلاء ومن آخرين، أمـر بهم، فيما بعد، فجرى اعتقـالهم وسجنهم، وبعدمـا أفسد جميع مقتنياتهم، قام أيضاً بسجن زوجاتهم وأولادهم، وبالاضافة إلى هذا، وعلى عكس الوعـود التـي أعطاها إلى ج. ل أسقف سـابينـا، والكاردينال توماسيوس، قام بدون وقـار فغزا أراضي الكنيسة، مع أن الأسقفين المتقدم ذكرهما، قد أعلنـا بحضوره عن قرار الحرمان الكنسي ضـده، إذا ما أقدم في مستقبل الأيام على نقض الشروط المتقدمة والبنود، وقام الأسقفان نفساهما بمـوجب السلطات التي كانت ممنوحـة لهما من الكرسي الرسـولي، فحرمـا عليـه أن يقـدم شخصياً، أو بوسـائـل أي واحـد آخـر، بمنع التسميـات، والانتخابات، والتثبيتات في الكنائس والديرة، وأن يحول دون عملها حرة، في المملكة المتقدمـة الذكر بالنسبة للمستقبـل، تماشياً مع مرسـوم صدر عن مجمع عام، كما أمـرا أنه ما من واحـد، يحق له من ذلك الحين فرض ضرائب أو اسهامات على اللاهوتيين في تلك المملكة، أو على بضائعهم ومقتنياتهم، وأنه مـا مـن كـاهن أو لاهوتي في تلك المملكة يجوز أن يستـدعى من الآن فصاعداً، للمثول أمام قاض مدني، في أية قضية مدنية أو سبب جرمي، ما لم تكن قضية الخلاف قضية مدنية تتعلـق بالايجارات، وقد فرض عليه أيضاً، أن يقدم ترضيـة مناسبة إلى الداوية والاسبتـارية، وإلى اللاهوتيين الآخرين عن الأضرار، والخسـائر التي لحقت بهم، ومـع ذلك قد رفض تنفيـذ جميع هذه الأوامر.

ومن الواضح أيضاً، أن هناك إحدى عشر رئاسـة أساقفة، مع عدد كبير جداً من الكراسي الأسقفية، وكذلك من رعويات الديرة، وكنائس أخرى، هي في الوقت الحاضر شـاغرة في المملكة المتقـدمة الذكر، وأنهم مـن خلال وسـائله —كما هو واضح تماماً— قـد حرمـوا، منذ وقت طويل، من إدارة الأسـاقفـة، مما يسبب ضرراً عظيماً للكنائـس نفسهـا، ورعب لكثير من الأرواح، مع أنـه، ربما قـد جـرت في بعض الكنائس، في تلـك المملكة

انتخـابات بوساطة هيئات الكهنة، إنـه بسبب الكهنة الذين جرى انتخـاب أصـدقـائهـم، من الممكن أن نستخلص، أنهم لم يمتلكوا وسـائل القيـام بانتخابات حـرة، وهو لم يتسبب فقط بالاستيلاء على أساسيـات ومقتنيات كنائس المملكة المذكورة، ومن ثم الاستحواذ عليها لتكون تحت تصرفه، بل إنه نهب الصلبان، وكؤوس القربان، والشمعـدانات، وبقية الكنوز المقدسة الأخـرى، والأقمشـة الحريرية العـائـدة إليهن، وكأن ذلـك جـاء ازدراءً للعبادات المقدسـة، وإنه على كل حال، قد ذكر بأن بعضهم قد أعيـد جزئياً إلى الكنائس المذكـورة، لكـن هناك كميـة قـد جـرت المطـالبـة لها من قبل، وعسف بالكهنة بطـرق مضـاعفـة كثيرة، بالجبـايـات وبالمكوس، وهـم لم .يجرجروا فقط ليقفوا أمام محكمين مـدنيين، لابل —كما روي— قد أرغموا على المعـاناة من محنة المبـارزة الفـردية، وقـد سجنوا، وقتلوا، وعـذبوا على المشانق، مما شكل ازعـاجاً وإهانة إلى النظام الكهنوتي كله، ولم تتـوفر هناك أعمال تعويض إلى الداوية والاسبتارية، ولـلأشخاص اللاهوتيين الآخرين مقابل الخسائر والأضرار التي أنزلت بهم.

وأمـا أن يكون مجرماً بتـدنيس الأمور المقـدسـة، فهذا أمـر مؤكـد، لأنه عندمـا كـان أسقفـا بورتوا، وبرنيستـي مع آخـرين من الأسـاقفـة، وكهنة الكنائـس، وكــذلك الـرهبــان والعلمانيين قــادمين عبر الماء إلى الكرسي الرسولي، من أجل غاية حضور المجمع، (الذي طلب هو، أي الامبراطور، بأن يعقد) كـانت جميع الطرق في أراضيه مغلقـة بناء على أوامره، وكـان قد أرسل ابنه هنـري مع عــدد من الغــلايين، حيث كمن بـانتظارهم قــرب شاطيء البحر، مع بعض الآخرين الذين كـان قد استأجرهم في توسكانيا، من أجل القيـام بانقضـاض عليهم بكامل القوات، وبغضـب شديد، وقـد تجرأ أن يضع يديه المدنستين عليهم، وقد جـرى إغراق بعض الأسـاقفة مع أشخـاص آخرين، وقت الاستيـلاء، وبعضهم جرى قتله، وأرغم آخـرون على الفـرار، وقد طوردوا من قبل أعـدائهم، وجرى تجريد البقيـة من جميع

مقتنياتهم، وحملوا بشكل مهين من مكان إلى آخـر في مملكة صقلية، ثم عهد بهم بعد ذلك إلى السجن هناك، حيث تلاشى بعضهم بالأمراض، وعسف بهم بالحاجة، وآل بهم المآل إلى أوضاع تعيسة.

وعلاوة على ذلك، هناك سبب جيد، لاتهامه بالهرطقة، وهو ناشىء عنه، فبعـدمـا نال حكم الحرمان الكنسي، الذي أصـدره ضـده ج. L المتقدم الذكـر، أسقف سابينا، والكاردينال تومـاسيوس، وقيـام البابا غـريغوري المتقدم ذكـره بإصدار حكم التكفير، ضده، وبعد اعتقـال الكرادلة الرومان والأساقفة، وكهنة الكنائس، عندما كـانوا مسافرين من مختلف الأرجاء إلى الكرسي الرسولي، ازدرى ومـازال يزدري مفاتيح الكنيسـة، وتسبب، بقدر ما هو قادر على التأثير عليها، بممارسة الطقوس الدينية، أو بالحري بتدنيس الطقوس الدينيـة أمامـه، مؤكـداً بجرأة، كما ذكرنا أعـلاه، بأنه لايخاف من قرار الحرمان الكنسي، الذي تفوه به ضده، البـابا غريغوري، وبالاضافة إلى ذلك، لقـد تحالف بحلف مقيت مع المسلمين، فهـو غالبـاً مـاأرسل الرسل والهدايا إليهم، وفي المقـابل تلقى بعض الهدايا منهم مع الاحترام والبهجـة، وقـد تبنى عـاداتهم، محتفظاً بهم بشكل معلن في خـدماته اليـوميـة، وبدون حياء، عيّـن حرساً على زوجاته، اللاتي تسلمهن من المنحدرات من أصول ملكية، بعض الخصيان، بشكل خـاص أولئك الذين تدبر مؤخراً خصيهم، والذي هو إثم أعظم، أنه عندمـا كان من قبل في بلاد مـاوراء البحر، عمل نوعـاً من الترتيبـات، أو بالحري من التحـالف مع السلطان، وسمح لاسم محمد (صلى الله عليـه وسلم) أن يجري إعلانه بشكل عـام في هيكل الرب، نهاراً وليلاً، وقـام مؤخـراً، بالنسبة لقضية سلطان مصر، الـذي صنع بيديه ومن خـلال وكـلائـه أضراراً وأذى لايمكـن التخلص منه، إلى الأرض المقدسـة، وإلى سكانها المسيحيين، وجعل سفراء ذلك السلطـان، في تقدير منه لسيدهم، أن يجري —كما قيل— استقبالهم بشكل مشرف، وأن يعاملوا بشكل كريم، في مملكته في صقلية.

كما أنه في معارضة للمسيحيين أساء باستخدام الطقوس الخبيثة والمرعبة للكفار الآخرين، وذلك في تحالف صداقة مع الذين يدفعون بشكل شرير قليلاً من الاحترام إلى الكرسي الرسولي، لابل هم يزدرونه، وانفصم عن الوحدة مع الكنيسة، وألقى جانباً بكل احترام للديانة المسيحية، وتسبب —كما هو مؤكد تماماً— بمقتل دوق بافاريا، صاحب الذكرى اللامعة، على أيدي الحشيشية، كما أنه أيضاً أعطى ابنته بالزواج إلى بتاكيوس، الذي هو عدو للرب وللكنيسة، وهو الذي قد طرد مع معاونيه ومستشاريه، ومحرضيه، بشكل مطلق من الجماعة المسيحية، بوساطة قرار بالحرمان الكنسي، ولقد رفض إجراءات وعادات الأمراء الكاثوليك، وأهمل مسألة خلاصه الذاتي، وطهارة سمعته، ذلك أنه لايستخدم نفسه ولايشغلها في أعمال التقوى، والذي هو أكثر (إذا ما سكتنا عن ممارساته الشريرة والمقيتة) هو أنه وإن كان قد تعلم ممارسة الظلم إلى درجة عالية جداً، هو لم يتعب نفسه، ولم يكلفها بالتفريج عن المظلومين بالأذى، بمدّ يده —كما ينبغي أن يفعل كأمير مسيحي— لتقديم الصدقات، علماً بأنه قصد بتشوق أن يدمر الكنائس، وقد سحق الرهبان، والأشخاص اللاهوتيين الآخرين، بالأعباء، وباضطهاد نيره، ولم يكتشف بأنه قد بنى قط، أو أسس، لاكنائس، ولاديرة، ولامشافي، أو أية أماكن تقوية أخرى، وهؤلاء على هذا ليسوا أرضيات خفيفة، بل مقنعة، للتشكك والاقتناع برميه بالهرطقة، وبما أن القانون المدني يرى بأن هؤلاء موجودين في لائحة الهرطقات، وينبغي خضوعهم للأحكام الصادرة ضدهم، أي ضد الذين انحرفوا ولو بدرجات خفيفة، عن قضاء وحكم الديانة الكاثوليكية.

وبالاضافة إلى هذا، إن جزيرة صقلية، التي هي النصير الروحي للقديس بطرس، والتي هي بين يدي الأمير المذكور، بمثابة إيجار من الكرسي الرسولي، هذه الكنيسة، قد تدنت من قبله إلى حالة من الفراغ والعبودية، أما ما يتعلق بكل من الكهنة والعلمانيين، فإنهم قد طردوا من

بيـوتهم وأخرجـوا من البلاد مع الإهانات،وذلك بعـدما جـردوا من جميع ممتلكاتهم، والذين قد بقيـوا هناك، قد أرغموا على العيش في حـالة عبودية، حسبما هو الحال، وأن يهينوا، ويهاجموا الكنيسـة الرومانيـة بكثير من الطرق المضاعفة، وهم الذين بالفعل رعاياها وأتباعها في الجزء الأكبر.

وهو ينبغي أيضـاً لسبب جيـد أن يلام، لأنه أوقف لمدة تسعـة أعـوام وأكثر، دفع الجعالة السنوية، التي مقدارهـا ألف قطعة، التي مرتبط بدفعها إلى الكنيسـة الرومـانيـة، مقـابل ايجار المملكة المذكـورة، ونحن بناء عليـه، بعدمـا تداولنا بنضج وبدقة مـع إخواننا الكرادلة، والمجمع المقـدس حول الأفاعيل التي تقدمت تسميتها أعلاه، وأفاعيل أخرى شائنة اقترفها، ورأينا —مع أننا لانستحـق— أننا على الأرض نمتلك سلطات مـولانا يسـوع المسيح، الذي قال إلينـا بشخص القديس بطرس: (إن كل مـا سوف تربطه على الأرض، سوف يكون مربوطاً في السماء، و، إلخ)، ولذلك نحن نعلن، أن الأمير الذي تقـدمت تسميته أعـلاه، والذي حول نفسـه لأن يكون غير جدير، بمراتب السلطة، وأنه بالنظر لجرائمه، قد جرى خلعه من عرشه من قبل الرب، وليكون مربوطاً بذنوبه، وملقى به منبوذاً من قبل الرب، ومجرداً من جميع مراتبه الشرفية، ونحن هنا نحكـم عليه ونجرده، ومعه جميع الذين هم مـرتبطون به بأية طريقـة من الطرق، بيمين الولاء، ونحن نحلل هؤلاء بشكل دائم، ونلغي التـزامهم بذلك اليمين، ونمنع بكل دقـة، بمـوجب السلطات الرسـوليـة، أي واحـد من إطاعتـه، أو أن يحاول بأية طريقـة من الطرق اطاعتـه كـامبراطور أو ملك، ونحن نرسم، بأن أي واحـد، سـوف يقدم إليـه، من الآن فصاعـداً، مساعـدة أو نصيحة، أو أن يظهـر نحوه أي تعـاطف، كامبراطـور أو ملك، سوف يكون بحكم الأمـر الواقع، محرومـاً كنسيـاً، ويمكن للذيـن في الامبراطورية، الذيـن إليهم آل شأن انتخـاب امبراطور، أن ينتخبوا بحرية خلفـاً يحل محله، أما فيما يتعلق بمملكة صقلية المتقدمة الذكـر، سوف نقوم، مع نصيحة إخـواننا الكرادلة، بتقديم حل لها

حسبما يكون مناسباً لنا. صدر في ليون، في السادس عشر من تموز، في السنة الثالثة من حبريتنا».

مغادرة وكلاء الإمبراطور في حالة اضطراب

وعندما جرى نشر هذه الرسالة في المؤتمر المعلن، أصابت بالرعب جميع الذين سمعوها، وكأنها كانت تنشر بريقاً، أما المعلم ثاديوس دي سوسا، وولتر دي أوكرا Ocra, ومعه الوكلاء الآخرين للامبراطور، وخدمهم، فقد تلقوا ذلك بدهشة وأسف، حيث كانوا يضربون أطرافهم وصدورهم، ولم يتمكنوا من حبس أنفسهم عن البكاء وذرف الدموع، وقال المعلم ثاديوس صارخاً وقد علته الدهشة: «آه، إنه يوم مخيف، إنه يوم غضب، يوم مصيبة، وشقاء»، وفي تلك الأثناء، كان البابا وقد جلس من حوله الأساقفة في المجمع، قد تفوهوا مزمجرين، والشموع مشتعلة، بقرارات الحرمان الكنسي ضد الامبراطور فردريك، ووقتها قام وكلاؤه بالانسحاب وهم في حالة اضطراب.

مراسيم من أجل التفريج عن الأرض المقدسة وحول شؤون الصليب

وكان البابا مليئاً بالقلق من أجل التفريج عن الأرض المقدسة، وحول مايتعلق بشؤون الصليب، ولذلك عمل الخطابات التالية، حول هاتين القضيتين: «مطعونين في القلب، ذلك أننا نعاني من رعب محزن حول الأرض المقدسة، وبشكل خاص حول ماحدث مؤخراً إلى المسيحيين الذين يعيشون هناك، ونحن نمتلك الرغبة من قلبنا كله، لأن نفرج عنها، ولقد قررنا بالتداول مع المجمع المقدس، أن نقوم بوساطة الدومينيكان ورسلنا الخاصين، بدعوة جميع المسيحيين الحقيقيين، الذين عملوا ترتيبات لعبور البحر، في أن يستعدوا لحمل الصليب، وأن يجتمعوا في وقت موائم من أجل هذه الغاية، وأن يكون ذلك في مكان مناسب، منه يمكنهم السير

إلى مساعدة الأرض المقدسة، محاطين بالمباركة اللاهوتية، وكذلك بمباركة الكرسي المقدس، ويتوجب على الكهنة، وعلى رجال الدين الآخرين، الذين من الممكن أن يكونوا مع الجيش الصليبي، سواء أكانوا من المراتب الدنيا، أم كانوا أساقفة، أن يشغلوا أنفسهم، بإثارة الناس وتحريضهم بشكل متواصل، وبالصلاة وبالتعليم لهم، بالكلمة وبالفعل، وأن يضعوا دوماً أمام أعينهم الخوف من الرب، وحبه، وأن لايقولوا أي شيء، أو يفعلوه، يمكن أن يغضب جلالة الملك السرمدي، وإذا ما حدث في أي وقت من الأوقات وسقطوا في الذنب، عليهم أن ينهضوا سريعاً من جديد، مع توبة صحيحة، وأن يقودوا أنفسهم بكل تواضع، في كل من القلب والجسد، وأن يتمسكوا بالاعتدال بطعامهم وكذلك بلباسهم، وأن يتجنبوا تماماً الخلافات والمنازعات، وأن يزيلوا من أنفسهم كل حقد وكل حسد، وبذلك فإنهم عندما سيكونون محميين بالأسلحة الروحية وكذلك الأسلحة الدنيوية، يمكنهم القتال بأمان أكثر ضد أعداء الإيمان، غير معتمدين —على كل حال— على قوتهم أنفسهم، بل يثقون بالفضيلة اللاهوتية، و يتوجب على نبلاء الجيش ومقدميه، وعلى كل الذين يمتلكون وفرة من الأموال والثروات، أن يجري تحريضهم بوساطة التحذيرات ومحرضات الأساقفة، أن يتمنعوا —احتراماً منهم للمسيح، الذي من أجله حملوا شارة الصليب— عن جميع النفقات الفارغة والتي هي بلا فائدة، وبشكل خاص عن الذين يقومون بكثير من الاحتفالات، ويكثرون من الانفاق على الطعام الباهظ الثمن، وأن يحولوا أموالهم لاستخدامات أولئك الأشخاص الذين يمكن لشؤون الرب، أن تتقدم بوساطتهم، وإلى هؤلاء، بناء على هذا، سوف يجري منحهم عفواً عن ذنوبهم، وفقاً لحسن تصرف الأساقفة المذكورين، وإلى الكهنة المتقدم ذكرهم قد منحنا مهلة الاحتفاظ بمنافعهم لمدة ثلاثة أعوام، وذلك بأن تكون كاملة، وكأنهم مقيمون في الكنائس، وإذا كان ضرورياً يمكنهم وضعهم تحت الوصاية خلال تلك الآونة، وفي سبيل —بناء عليه— أن لايتراجع هذا التصميم

المقـدس، أو أن يعـاق بأي شكل من الأشكال، نحـن نأمـر بكل دقـة جميع الأساقفة، كل جماعة منهم في أمـاكنهم، أن يقوموا بكل نشاط بانذار واقناع الذين وضعـوا الصليب جـانبـاً، بأن يعيـدوا حمله، وأن يرسمـوهم هم مع الآخـرين بتلك الاشـارة المقدسـة، وأن يقـوم الذين مـازالوا يرتدون تلك الشارة، بالوفاء بنذورهم إلى الرب، وإذا كان من الضروري، بإرغامهم على فعل ذلك، بوسـاطة قـرارات الحرمـان الكنسي، والحرمـان مـن شراكـة المؤمنين، واضعين جانباً كل الأعذار.

وبالنسبـة إلى هذا المقصد، مـن غير الممكن حذف أي احتمال في شـؤون مولانا يسـوع المسيح، وإنها ارادتنا وأوامرنـا، بأن يقوم البطاركـة، ورؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفـة، ورعاة الـديرة، والآخرين الذيـن يتولون معـالجة الأرواح، بالتبشير بحماس بكلمـة الصليب، إلى الشعـب الذي عهـد به إلى عنايتهـم، وباسم الأب، والابن، والـروح القـدس، وهم الـرب الحقيقي الواحـد، والواحـد فقط، وأن يلتمسـوا بحـرارة من الملـوك، والأمـراء، والدوقات، والمركيزات، والايرلات، والبارونات، والنبلاء الآخرين، ومن الفئات التي تكونـت في المدن، والبلدات، والقـرى، ومن الذين لم يـذهبـوا بأشخـاصهم إلى الأرض المقـدسة، لتقـديم عـدد كاف مـن العساكـر، مع النفقـات الضرورية، لمدة ثلاثة أعـوام، وفقـاً لإمكـاناتهم، من أجل محي ذنوبهم، حسبما جرى التعبير عنه في الرسائل العـامة، التي أرسلناها مؤخراً إلى جميع أنحـاء العـالم، والتي —من أجل ضمان أعظم— سـوف يجري التعبير عنها أدناه».

ملاحظة تتعلق بالرسالة

«وهذه الأشيـاء كلهـا قـد كتبت في سنـة النعمـة ألف واحـدة ومـائتين وثلاث وأربعين، قبل أي قداس بليغ»، انظر بعد موت رتشارد مارشال.

«وفي محي الذنوب هـذا، نحن نرغب بأن نكـون شركـاء ليس فقط مع

الذين يقدمون سفنهم، بل مع الذين يشغلون أنفسهم في بناء سفن من أجل المناسبة، إنما بالنسبة للذين يرفضون إنه إذا ما صدف وكان هناك عدم عرفان إلى مولانا الرب، عليهم أن يحتجوا لصالح الكرسي المقدس، حتى يمكن أن يعرفوا أنه في يوم الحساب الأخير الدقيق، عليهم أن يجيبونا عن هذا أمام قاض مرعب، وقبل ذلك —على كل حال— طلب منهم أن يقدروا بأي ضمير، أو بأي أمل بالسلامة سوف يكونوا قادرين على الظهور أمام الابن المنجب الوحيد للرب، الذي أودع الرب بين يديه جميع الأشياء، فإذا ما رفضوا في هذه القضية —بشكل شاذ جداً لذاتهم— أن يخدموه، وهو الذي كان قد صلب من أجل ذنوبهم، والذي بعطيته هم يعيشون، وأنهم بلطفه هم مدعومون، وأنهم بدمه قد جرى انقاذهم.

وبموافقة المجمع كله بشكل عام، نحن نرسم، أنه يتوجب على جميع الكهنة، سواء من المراتب الدنيا، وكذلك من الأساقفة، أن يسهموا بجزء من عشرين من جميع موارد الكنيسة، من أجل مساعدة الأرض المقدسة، لمدة ثلاثة أعوام كاملة، بأيدي أشخاص، سوف يكونوا متسمين بحكمة الكرسي المقدس من أجل هذه الغاية، متوقعين —على كل حال— أن يكون هناك بعض الرهبان، الذي يمكن أن يكونوا معفيين من مثل هذا الاسهام، على أرضية صحيحة، وكذلك أولئك الذين حملوا الصليب، أو أنهم على وشك حمل الصليب، وهم سوف يسيرون إلى الأرض المقدسة، شخصياً، أما نحن مع إخواننا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، فلسوف ندفع عشراً كاملاً، ونحن نود أن يعلم جميع الناس، أن عليهم فعل هذا، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وبناء عليه فإن الذين سيعرفون بممارسة الغش في هذه القضية، سوف ينالون عقوبة الحرمان الكنسي.

وإنه بموجب التقدير العادل، حقيق بالذين يعملون بخدمة الحكم الرباني، أن يتمتعوا بجزاء خاص، فالذين سوف يحملون الصليب سوف يعفون من الاسهام ومن الضرائب، ومن التكاليف الأخرى، وبعد حملهم

للصليب سوف نتسلم أشخاصهم وممتلكاتهم تحت حماية القديس بطرس، وحمايتنا، وقد رسمنا أيضاً، بأن تظل ممتلكاتهم تحت حماية رؤساء الأساقفة، والأساقفة وقساوسة كنيسة الرب، ومع هذا فلسوف يجري تعيين حماة موائمين لهذا الغرض الخاص من قبل أنفسنا، وبذلك يمكن لممتلكاتنا أن تبقى دون إزعاج وكاملة، حتى يمكن الحصول على خبر مؤكد حول عودتهم، أو موتهم، وإذا ما أقدم إنسان على أن يعمل عكس هذا، سوف يجري ضبطه بوساطة الروادع الكنسية.

وإذا ما كان أي واحد من هؤلاء الذين سوف ينطلقون بهذه الحملة، مرتبطاً بيمين بأن يدفع فائدة، نحن نأمر الذين هم مقرضين لهم، تحت طائلة العقوبة المتقدمة ذكرها، أن يقوموا باعفائهم من اليمين الذي عملوه، وأن يتوقفوا عن مطالبتهم بالفائدة، وإذا ما حاول أي واحد من مقرضيهم ارغامهم على دفع الفائدة، نحن نأمر بارغامهم على إعادة المبلغ نفسه، تحت طائلة عقوبة الحكم نفسه، ونحن نأمر، بأن يجري إرغام اليهود بوساطة السلطات العلمانية على إلغاء الفائدة، وإلى أن يقوموا بإلغائها، سوف يكونوا ممنوعين من الاتصال مع المسيحيين، بوساطة استخدام حكم الحرمان الكنسي، أما فيما يتعلق بالذين لايمكنهم في الوقت الحاضر أن يدفعوا ديونهم إلى اليهود، على رجال السلطات العلمانية، أن يقوموا بوساطة تأخير مفيد، عمل ترتيبات تقضي، أنه من الوقت الذي سوف ينطلقون به بالحملة، حتى يمكن الحصول على خبر، إما عن عودتهم، أو عن موتهم، وإلى ذلك الوقت لن يتعرضوا لمضايقات دفع فائدة، وبالنسبة لليهود المرغمين —إنهم بعد حذفهم جميع النفقات الضرورية— سوف يحسبون عائدات المال المتعهد به، التي تسلموها في الوقت ذاته كجزء من الدين، لأن فائدة من هذا النوع لايبدو أنها تسبب خسارة كبيرة بالالتزام بها، ثم إنه بتأخير الدفع، لايعني ذلك إلغاء الدين، وبالإضافة إلى هذا، فإن أساقفة الكنائس الذين سوف يظهرون أنفسهم مهملين في تقديم العدالة

إلى الذين حملوا الصليب، أو إلى أسرهم، عليهم أن يكونوا متأكدين بأنهم سوف ينالون عقوبات قاسية.

ومجدداً إنه بالنسبة للقراصنة ولصوص البحر، الذين يعيقونا كثيراً عن إرسال المؤن والإمدادات إلى الأرض المقدسة، بالاستيلاء على الذاهبين إلى تلك البلاد والآيبين منها، ونهبهم، إننا نحرمهم كنسياً، ونحرم معهم مساعديهم الرئيسيين ومحرضيهم، ونمنع كل واحد إذا كان مدركاً لها، تحت طائلة عقوبة التكفير، من القيام بالاتصال بهم، في أية قضية من البيع أو الشراء، ونحن نفرض على حكام المدن والأماكن الأخرى، بأن يوقفوا وأن يحبسوا القراصنة المذكورين، ومنعهم عن ممارسة هذه الآثام، ومن جهة أخرى، بما أن رفض ازعاج الأشرار، ليس أقل من رعايتهم، فكل من يتمنع عن معارضة الجريمة الظاهرة، ليس معفياً من الشك فيه أن له تنسيق سري مع المقترفين للجريمة، وبناء عليه، إن إرادتنا وأمرنا، يقضيان باتخاذ إجراءات لاهوتية قاسية ضدهم، ووضع ذلك قيد الممارسة من قبل أساقفة الكنائس.

ونحن علاوة على ماتقدم نحرم كنسياً ونكفر المسيحيين الزائفين والأشرار، الذين في معاداة منهم للمسيح، ولشعب المسيح، يحملون السلاح إلى المسلمين، والحديد، والخشب من أجل غلايينهم، والذين يبيعونهم غلايين أو سفناً، وكذلك الذين يشغلون مناصب قباطنة في السفن الاسلامية، وكذلك الذين يقدمون إليهم أية نصيحة أو مساعدة في آلاتهم الحربية، أو في أية قضية أخرى، تؤدي إلى الاضرار بالأرض المقدسة، ونحن نرسم بأن مثل هؤلاء سوف يغرمون بمصادرة جميع ممتلكاتهم، وسوف يكونون خدماً للذين سوف يلقون القبض عليهم، ونحن نأمر أن يعاد نشر مثل هذا القرار ضدهم، في كل يوم أحد، وكل يوم عيد، خلال جميع المدن على شاطىء البحر، وأن صدر الكنيسة سوف لن يكون مفتوحاً لمثل هؤلاء الأشخاص، ما لم يقوموا بتحويل كل ما تلقوه

من هذه التجارة الملعونة، ومثل ذلك أرباح ممتلكاتهم، إلى مساعدة الأرض المقدسة، وبذلك يمكن أن يعاقبوا بقضاء غير منحاز، وفقاً لأخطائهم، ولكن إذا صدف أنهم لم يستطيعوا دفع هذا، إن كل من هو مجرم باقتراف مثل هذه الأعمال، سوف يعاقب بطريقة أخرى ما، في سبيل منع أي واحد آخر عن الإقدام على اقتراف مثل الإجراءات الآثمة.

وعلاوة على ذلك إننا نمنع جميع المسيحيين، ونوقفهم تحت طائلة التكفير، عن نقل سفنهم إلى أراضي المسلمين الذين يسكنون في الشرق، خلال مدة مقدارها أربع سنوات، لأنه بهذه الوسائط سوف تتوفر كميات عظيمة من السفن، من الممكن الحصول عليها لصالح الذين يرغبون بالذهاب إلى مساعدة الأرض المقدسة، وإنه بذلك يمكن حرمان المسلمين من المساعدة، والتي كانوا بهذه الوسائط يحصلون على فوائد كبيرة.

ومع أنه في كثير من المجامع العامة جرى تحريم المبارزات، تحت طائلة عقوبة محددة، وبما أن الحملة الصليبية الآن معاقة كثيراً بهذه المبارزات، نحن نحرم بكل دقة عقدها لمدة ثلاثة أعوام، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وفي سبيل تنفيذ هذه القضايا، من الضرورة بمكان، وفوق كل شيء، أن يكون أمراء المسيحية وشعوبها بسلام فيما بينهم أنفسهم، ونحن على هذا نرسم بناء على نصيحة المجمع العام، أن تجرى مراعاة السلام بشكل عام في جميع أرجاء العالم المسيحي، لمدة لاتقل عن أربع سنوات، وأنه بوساطة تدخل أساقفة الكنائس، من الممكن إقناع الذين هم على خلاف بأن يقوموا من دون تقصير بمراعاة سلام كامل، أو على الأقل أن يرتبطوا بهدنة، وإذا ما رفض أي واحد التماشي مع هذا سوف يرغمون على مجاراة ذلك وتطبيقه، بإصدار عقوبة الحرمان الكنسي ضد أشخاصهم، والحرمان من شراكة المؤمنين ضد أراضيهم، ما لم تكن أضرار أذاهم، قد بلغت إلى درجة، تحول دون تمتعهم بمثل هذا السلام وإذا ما دفعوا قليلاً من التقدير، أو لاشيء إلى الروادع الكنسية، سوف يمتلكون سبباً جيداً،

لأن يخافوا، بأن نفوذ الكنيسة، سوف يجلب بالضغط عليهم من قبل السلطات العلمانية، بحكم أنهم مفسدون لشؤون المصلوب.

وإننا بناء عليه، نمنح بوساطة رحمة الرب القدير، واعتماداً على سلطة الرسولين المباركين: بطرس، وبولص، وعلى السلطة التي منحنا الرب إياها —مع أننا غير جديرين— وهي الحل والربط، إلى جميع الذين سوف يدخلون لأداء هذا الواجب بأشخاصهم، وعلى حسابهم ونفقتهم، عفواً كاملاً عن ذنوبهم، التي سوف يتوبون منها، ويعملون اعترافاً حقيقياً، مع قلوب نادمة، وكجائزة إلى المستقيمين، نحن نعد بزيادة هي خلاص سرمدي، إلى الذين لايذهبون إلى هناك بأشخاصهم، بل إنهم —مع ذلك— سوف يرسلون أشخاصاً موائمين إلى هناك على حسابهم الخاص، وذلك وفقاً لإمكاناتهم ومراتبهم، ونحن أيضاً نمنح إعفاءً تاماً من الذنوب، كذلك إلى الذين سوف يذهبون إلى هناك بأشخاصهم، مع أن ذلك على حساب واحد آخر، وبالنسبة إلى هذا الإعفاء نحن نرغب، ونسمح بالمشاركة (وفقاً لمقدار مساعدتهم ولطبيعة اخلاصهم) إلى جميع الذين سوف يقدمون مساعدة كافية إلى الأرض المقدسة، من ممتلكاتهم، أو أنهم سوف يقدمون عوناً مفيداً ونصيحة حول المسائل المتقدم ذكرها، وإلى جميع الذين يقدمون بتقوى العون في هذا العمل، سوف يخصه المجمع المسكوني المقدس بمساعدة أدعيته، ورغباته الطيبة، فذلك يمكن أن يكون له وزن مفيد نحو ضمان خلاصهم. آمين».

مايتعلق بقرار الحرمان الكنسي

«يتسبب القضاة بالأذى، عندما يسيئون استخدام الروادع الكنسية، وقت سعيهم باخلاص لفصل البريء عن صدر أمه الكنيسة، وذلك بسبب خطيئة فئة أخرى، التي نجد بسببها أن الشخص الذي وسم بشكل غير صحيح، هو لم يتضرر، لكنه أصبح جانبياً متهماً، وإنه بناء عليه، وفي سبيل تجنب هذه الرعونة، أو بالحري انعدام البراعة، لمثل هؤلاء

الأشخاص، إننا بهذه العروض نرسي مرسوماً، يقضي أنه لايجوز لأي قاض، قبل اتصاله مع رجال القانون، الاقدام على الحرمان الكنسي بوساطة أي حرمان كنسي صغير، ضد الذين أصبحوا شركاء مع شخص محروم كنسياً من قبلهم، لعقده محادثات معه، أو أي شيء آخر بوساطته تحولا إلى شركاء، باستثناء —على كل حال— الأحكام القانونية التي أذيعت ضد الذين تجرأوا على المساهمة في جريمة أخرى، قد أدين بموجبها.

لكن إذا ماسقط شخص بوساطة المحادثة، أو الاستخفاف بالأشياء المقدسة، أو بأية وسائط التي بموجبها، المشاركة مع انسان محروم، تحت حكم صغير، إنه سوف ينال عقوبة الحرمان الكنسي الأعظم، من أجل أن يتمكن بسهولة أكبر أن يعود بوساطة تكفير سالف، للحصول على التحليل، ويمكن للقاضي بعد الاتصال القانوني، أن يزور المتشاركين مع ذلك الشخصي نفسه، مع عقوبة مشابهة، وإلاّ فإن عقوبة الحرمان لن تكون جيدة ضد المشاركين، والذين يتفوهون بالحكم، سوف يكون لديهم سبباً للخوف من عقوبة شرعية».

العقوبة من أجل تمرد عدواني على شخص غائب

«إذا ما تخاصم أي شخص مع متملك آخر، حول مايتعلق بأية منفعة مرتبطة بمرتبة، أو شخص، أو أية منفعة لاهوتية، على أساس اعتداء فئة مخاصمة في سبيل الحفاظ على تملك الشي نفسه، نحن نرسم بأن لايوضع بالتملك، خشية أن قبوله بهذه الوسائط يمكن أن يظهر أنه خطأ، ومن الممكن —على كل حال— أن يكون قانونياً في هذه القضية، حسبما يفعل الحضور اللاهوتي من أجل غياب الفئة المتمردة، مع أن القضية لم تجلب للمحاكمة، للقيام بفحص دقيق، ومن أجل القرار الصحيح حول الشيء نفسه».

وجوب عدم وضع أي معيق لمحاكمة أية قضية خلافية

«إن التدخل، قبل عرض القضية على المحاكمة، مثل الاستثناءات الوقفية، أو أي اعتداء رئيسي عائد للاعتراف بالقضية، أو وارد فيها، مالم يعمل المتقاضي استثناءً في قضية المسألة قيد المحاكمة، أو الصفقة أو اتخاذ قرار، لن يعيق أو يوقف محاكمة القضية، مع أن المعترض قد يقول بأن جواباً قد تم الحصول عليه، في القضية، حيث أسس الاعتراض للمدعي قد عملت معروفة للادعاء».

لايعهد بالقضايا إلى وكيل قضاة ما لم يكن ذلك في أماكن معروفة جيداً

«في الحلول والتسويات النهائية لأعمال القضايا، الغموض مكروه، وينبغي تجنبه، وإذا لم يوجد أي شيء حول الأشخاص والأماكن فهذا موائم كثيراً ويوصى به، وفي هذه القضية، فكرنا لذلك أنه من الموائم أن نرسم، وأن نأمر بكل دقة، بأن ما من قضايا سوف يعهد بها من قبل الكرسي الرسولي أو وكلائه، إلى أي فريق، ما لم يكن ذلك إلى أشخاص موهوبين بمؤهلات موائمة، أو معينين في كنائس كاتدرائية، أو في تجمعات أخرى محترمة، وأن مثل هذه القضايا لن تجري مناقشتها في أية أماكن، بل في المدن، أو في الأماكن الواسعة المتميزة، حيث يمكن توفر عدد من البارعين في القانون، وأية قضاة هم معارضون لهذا المرسوم، وسوف يستدعون واحداً من الفريقين، أو كلاهما، إلى أية أماكن أخرى، يمكن عدم طاعتهم مع افلات من العقاب، مالم يكن الاستدعاء قد صدر بموافقة الطرفين».

لن يسمح بالاستدعاء إلى مستدعي متمرد

«إذاً ما أهمل أي مستدعي الظهور في التاريخ المحدد الذي استدعى إليه خصمه، سوف يحكم عليه قانونياً، إلى الشخص المتهم— إذا ماظهر—

بالنفقات التي تحملها في القضية، ولن يسمح له القيام باستدعاءات أخرى، مالم يقدم ضمانات كافية بأنه سوف يظهر في الموعد الذي تقرر».

لايجوز إرغا م أي واحد على الظهور أمام قضاة مختلفين من أجل أعمال شخصية مختلفة

«نحن نرغب بكل الوسائط الممكنة بأن نزيل، وأن نبقي في حدود العدالة، نفقات القضايا التي هي موضع خلاف، ونحن نوسع مرسوم البابا انوسنت الثالث، صاحب الذكرى الطيبة، الذي أعلن حول هذه القضية، وهو مرسوم قضى وأمر، أنه إذا ما اختار أي واحد أن يحضر عدة أعمال شخصية ضد آخر، عليه أن يسعى للحصول على تراخيص تتعلق بجميع القضايا، ليس من عدة قضاة، بل من واحد فقط، وإذا ماسيقدم أي واحد على العمل بشكل معاكس لهذا المرسوم، فلسوف يحرم من جميع منافع التصاريح وفوائدها، والإجراءات القضائية التي تمّ الحصول عليها، بناء على قوتها، سوف تصبح لاغية، وعلاوة على هذا سوف يقضى عليه بأن يدفع جميع النفقات القانونية إلى المدعى عليه، إذا ما تعرض للأذى بوسائطهم، وكذلك إنه إذا ما أقدم المدعى عليه أثناء المحاكمة فبيّن بأن المستدعي مرتبط به بتعويض أو ميثاق، فإنه إذا مارغب بالحصول على ترخيص ضد المدعى عليه، فإن عليه أن يطالب بحقه أمام بعض القضاة، مالم يستطع أن يرفضهم على أساس أنهم موضع ريبة، وكل من سوف يقف ضد هذه الإجراءات سوف يعاقب مثل ذلك».

حول الأشخاص الذين سوف يرغمون على الظهور أمام القضاء

«لايبدو أنها نقطة في القانون، إذا ماقام قاض مناسب، لم يتسلم أمراً خاصاً من الكرسي الرسولي من أجل ذلك، أنه لايستطيع أن يأمر أياً من الفريقين على الظهور شخصياً أمامه للمحاكمة، مالم تكن القضية قضية إجرامية، أو أنه سوف يأمر الفريقين على الظهور شخصياً أمامه، بقصد ذكر

الحقيقة، أو أداء يمين حول مايدعيانه».

مايتعلق باقتراحات سلبية

«نحن نرسم ونأمر بوجوب عدم قبول القضاة بشهادات سلبية، لايمكن برهنتها، مالم يكن ذلك من الفئة المضادة، عندما يرون في العدالة الموائم».

حول الانتخاب

«إنه بالنسبة للأيام والظروف الأخرى من أجل الإجراءات القضائية، ليست هناك حاجة إلى إقرار قانوني، وبين الإجراءات القانونية، يعدّ إقامة الانتخاب من أجل حبر أعظم، هو الأعظم أهمية، وهو يماثل ببعض الروابط زواجاً روحياً، يجري عقده بين المنتخبين والمنتخب، ونحن نشجب ونحرم في الانتخابات، التسميات والتدقيقات، التي منها صدرت حقوق الانتخاب، وكل الأصوات التي هي شرطية، ومتغيرة، وغير مؤكدة، ونحن نرسم بأن جميع الأصوات التي هي من هذا النوع أن تعدّ وكأنها لم تعط مطلقاً، فكل الانتخابات ينبغي أن تصدر عن موافقة حرة للجميع».

استطراد يتعلق بأمراء ألمانيا

«إن نبلاء ألمانيا، الذين لاينتخبون الامبراطور هم:

— ملك بوهيميا.

— دوق اللورين.

— دوق برونزويك Brunswick.

— دوق سوابيا.

— اللاندغريف أوف ثورنجيا.

— دوق أوف ليمبورغ Lemburg.

— دوق أوف كارينثيا Carinthia.

— دوق سكسوني.

— كونت غويلدرس Gueldres.

والمنتخبون للامبراطور هم كما يلي:

العلمانيون

— دوق النمسا.

— دوق بافاريا.

— دوق سكسوني.

— دوق برابانت (الذي هو دوق لوفين Louvain).

الأساقفة

— رئيس أساقفة كولون.

— رئيسا أساقفة: مينس Mayence وسالزبورغ Salzburg.

وهم الرئيسيون.

ويجري نقل هؤلاء الذين يحق لهم الانتخاب، إلى جزيرة في نهر الراين، ويتركون هناك لأنفسهم، فجميع القوارب سوف يجري نقلها، وهناك يناقشون انتخاب الامبراطور، وما من أحد سوف يذهب إليهم، حتى يتفقوا في اختيارهم، وتكون الرئاسة في هذه القضية إلى رئيس أساقفة كولون، ورئيس أساقفة مينس هو الثاني بعده، ورئيس أساقفة سالزبورغ هو الثالث».

وإلى هؤلاء المنتخبين جرى ارسال انذارات عـاجلة جداً والتماسات من قبل البابا، بأن عليهم انتخـاب امبراطور آخر عليهم، وقد وعـد بالنصيحة والمساعدة منه شخصياً، ومن الكنيسة كلها، وقد وعدهم بالمقام الأول، مع أمل النجـاح بخمسة عشر ألف باوند مـن الفضة، وقـد مُـنع هؤلاء بقـوة حجج الامبراطور فـردريك، الذي كـان متحـداً معهم بروابط القـرابة، وخـاصـة مع دوق النمسا، ولـذلك أظهر المنتخبـون قليـلاً من الطاعـة إلى انذارات البابا والتماساته.

لايجوز جلب الناس من مسافة أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة لحضور محاكمة

«في العـديد من نقـاط القـانـون، كثيرها وقليلهـا، مـايستحق الشجب، ولذلك فكرنـا أن من الموائم بشكل حكيم أن نرسـم: إنه بالنسبـة للفقـرة العامة التي تبدأ بـ (بعض آخرين، إلـخ) التي غالباً ما أقحمت في رسائلنا، الناس سـوف لن يجلبون من مسـافة سفر ثـلاثة أيام أو أربعة للمحـاكمة، ورسمنا أيضـاً أن الحماة —الذين منحناهم إلى عـدة فئات— يمكنهم أن يدافعوا عن الذين عهدنـا بهم إلى حمايتهم، ضد العنف والايذاء المكشوف، لكن ليس لديهم السلطة لمدّ حمايتهم إلى أشياء أخرى تتطلب حـرماناً كنسياً قضائياً».

لايجوز لأحد إعاقة الانتخابات أو التسميات

«نحن نرسم إنه إذا ما أقدم أي واحد على إعاقة انتخابات، أو تسميات، أو عمل تجهيـزات، بالقيـام بأي اعتراض على صيغ أو أفـراد، وتمّ عمل التماس إلينا نتيجـة لذلك، على الفئتين: الفئة المعـارضة والفئة المدافعـة عن الالتماس، مع جميع الذين لهم عـلاقـة بشكل عـام بالقضيـة، الانطلاق إلى الكرسي المقـدس، خـلال شهـر من وقـت عمل الاعتراض، إمـا بأنفسهـم شخصياً، أو بإرسالهم وكلاء، قد عهد إليهم بالقضية، لكن أية فئة منتظرة لم

تظهر خلال عشرين يوماً بعد وصول الفئة الأخرى، إن مسألة الانتخاب سوف تجري وفقاً للقانون، دون الاهتمام بغياب أي واحد، وإن ارادتنا تقضي وكذلك أوامرنا بمراعاة هذه الأحكام، في الأسقفيات، ومن قبل الأشخاص، والكهنة».

العقوبة التي توقع على الذين يخفقون في براهينهم

«وعلينا أن نضيف أنه إذا ما أخفقت أية فئة في تقديم برهان كامل على الذي عرضته في الصيغة، هي سوف يحكم عليها بأداء النفقات، التي سوف تبرهن الفئة الثانية بأنها قد دفعتها وتكبدتها في هذه المسألة، وليتأكد كل واحد سوف يخفق في البرهنة على الاعتراض الذي عمله ضد أي شخص مهما كان، بأنه سوف يعلق من الإفادة من المنافع اللاهوتية لمدة ثلاثة أعوام، وإذا ما أقحم نفسه أثناء ذلك وورطها بطيشه سوف يحرم بشكل عادل من منافعه إلى الأبد، من دون أي أمل بالحصول على الرحمة في هذا المجال، مالم يظهر ببراهين واضحة تماماً ومنطقية، وبما يكفي من تعليل بأنه قد تبرأ من الخطيئة التي اقترفها».

واجبات النائب البابوي

«إن واجب منصبنا هو التجهيز والاسهام للتفريج عن رعيتنا، فلبعض الوقت رفعنا عنهم أعباءهم، وأزلنا أسبابهم للذنوب، وها نحن الآن نتمتع بالراحة في هدوئهم، ونرعى سلامهم، ولذلك إنه بناء على هذه المعطيات، نحن نرسم بأن النواب البابويين للكنيسة الرومانية، عندما يشغلون منصب النيابة البابوية تماماً، سواء أجرى إرسالهم من قبلنا، أو كانوا في أعمال لصالح كنائسهم، سوف يمارسون بأنفسهم الواجبات الكاملة للنيابة البابوية، ولن يكون لهم، بمزية منصب النيابة البابوية هذا، أية سلطة بمنح منافع، مالم نكن قد رأينا أنه من الموائم بشكل خاص منح هذه السلطة إليهم، وهذا —على كل حال— لانعني مراعاته في قضية إخواننا، أثناء

ممارستهم لواجبات النيابة البابوية، لأنهم يتمتعون بإمتياز شرف، لذلك نحن نخول إليهم بأن يمتلكوا سلطات كاملة».

حول إعادة البضائع المسروقة

«لقد سمعنا بآذاننا شكاوى متوالية ومستعجلة، لأن الالتماسات والمرافعات حول السلب قد جرى تقديمها بشكل زائف، في عملية ملاحقة إدعاء ما، الأمر الذي يعيق كثيراً، ويسبب الاضطراب للقضايا اللاهوتية، وتأتي الالتماسات في بعض الأحيان مستعجلة، ويحدث في بعض الأوقات أن الالتماسات يجري التدخل بشأنها، وبذلك يجري اعتراض سماع القضايا الأساسية، وفي بعض الأحيان يلقى بها جانباً، وعلاوة على ذلك بما أننا نستخدم جهودنا متطوعين للحصول على الهدوء للآخرين، ورغبة منا بوضع حد للتخاصم، وقطع مواد جميع مثل هذه الادعاءات، نحن نرسم أنه بالنسبة للقضايا المدنية، على القاضي أن لايقوم بتأجيل الإجراءات في القضايا الرئيسية، بسبب التماس دعوى سلب يتقدم بها أي انسان، باستثناء المستدعي، لكن في القضايا المدنية، إنه إذا ما تم تقدم الالتماس من قبل المستدعي في قضايا إجرامية، إنه إذا ما أعلن المتهم بأنه قد تعرض للسلب والضرر من قبل أي واحد، عليه أن يبرهن هذا الأمر خلال خمسة عشر يوماً شروعاً من اليوم الذي كان به الادعاء، وإلا فإنه سوف يحكم بدفع النفقات التي تحملها المستدعي، وفي الوقت نفسه، وبسبب ذلك، جرى من قبل فرض ضريبة قضائية، وهو سوف يعاقب أيضاً، بطريقة أخرى ما، إذا بدا ذلك عادلاً بالنسبة للقاضي، وفيما يتعلق بالشخص المتأذي في هذه القضية، إنه عندما يكون الاتهام إتهاماً جرمياً، نحن نرغب إليه أن يتولى تأكيد فيما إذا كان قد تعرض لسلب جميع ما لديه بالقوة، أو لبعض ذلك، ووفقاً لهذا، لابد من الاعتقاد بأن القانونين قالوا بشكل حكيم، بأنه إذا كان عارياً، علينا عدم منافسته، وإذا كان مجرداً من السلاح، ينبغي عدم عمل معارضة في قضية الخطيئة، لأن الطرف المجرد

ن كل شيء، لديه المزية التـالية، وهي بما أن عـار: لايمكن تجريده، وهناك
لك عـام وعدم اتفاق بين العلماء، حـول فيما إذا كان الطرف الذي عـانى،
انى من سلب من الدرجة الثالثة، وتقدم بالتماس سلب ضد المتهم، إنه في
ض الأوقات ينبغـي أن يسمح من قبل القاضي، وفي خلال ذلـك بإدعاء
تعـويض، خشيـة حـدوث أنه بذلك يرغـب بتملص كل متهم، وهذا مـا
تقـد بأنه متـوافـق مع العـدل، وإذا لم يقم أثناء الوقـت الممنوح بطلب
تعـويض، ولم يجلب القضية إلى نهاية في الوقت الذي كـان يستطيع به فعل
لك، من الممكن منذ ذلك الحين فصـاعـداً أن يتهم بإعماله الاعتراض على
لبه، وبالاضافة إلى هذا، نحن نرسم بأن سلب الممتلكات الخاصة، سوف
ن يجري الترافع من أجله في القضايا اللاهوتية، أو العكس».

حول الاتهامات

«مع التعـاطف التقـديري، رسمـت الكنيسـة الأم، بأن الترافع من أجل
لحرمان الكنسي الأعظم، في أي جزء من المحاكمـة قد وضع، سوف يؤخر
قضيـة، ويحجـز الفـرقـاء، وبأنه من هذا من الممكـن أن تكون الروادع
كنسيـة أكثـر إخـافـة، وأن مخاطرة الحرمـان الكنسي يمكن تجنبهـا، ومن
مكن ضبط التمـرد، والأشخاص المحرومين كنسياً، أثناء حرمـانهم من
إجـراءات العـامـة، يكونون مقهـورين بالعـار والاضطراب، ووقتهـا
كونون ميـالين بسهولة نحـو التواضع والتصـالح، ولكن بما أن شرور بني
لانسـان قـد ازدادت، والذي جـرى تجهيـزه بمثـابة عـلاج قـد تحول إلى
ررهم، لأنه غـالبـاً عندمـا التقـدم بهذا الالتماس في قضـايا لاهوتيـة من
ـلال الشرور، يجري تأخير العمـل، وتتعـرض الأطراف لـلأذى
لاضطراب والنفقات، وبناء عليـه، بما أن هذا قد تسلل إلى مـا بيننا بمثابة
رض عـام، رأينا من المناسب استخدام عـلاج عام، وإنه بناء عليـه، إذا ما
مل أي واحـد اعتراض على أسـاس الحرمـان الكنسي، عليـه أن يبين نوع
لحرمـان الكنسي واسمـه، وعليـه أن يعلم أن عليـه جلب الأوضـاع إلى

الملاحظة العامة، وأن عليـه أن يبرهن عليها بأكثر الوثائق وضـوحاً، خلال مدة مقدارها ثمانية أيام دون حسـاب اليوم الذي تقدم به بالاعتراض، وإذا لم يتمكن من البرهنة على صحـة اعتراضــه، على القـاضي الاستمــرار في القضيـة من دون تـردد، والحكم على المتهم بالنفقـات التـي سـوف يبرهن المستدعي بأنه قد تحملها أثناء تلـك الأيام، بسبب ذلك الأمر، بالاضافة إلى الضريبـة التـي جـرى أخـذهـا من قبل، ولكن إذا حـدث فيما بعــد، أثناء المقـاضاة، وحل مـوعد تقـديم البرهان، وتم وضع الاعتراض ثانية حـول مــايتعلق بالحرمـان الكنسي نفســه، أو واحــد مختلف، وتمت البرهنة على القضية، فإنـه سوف يجرى حجز المتهم في الاجـراءات المقبلة، حتى يحصل على تحليل، ومن المتوجب ابقاء الاجراءات السالفة قائمة بسلطة كاملة.

شرط: إن الاعتراض لايجوز تقـديمه أكثـر من مـرتين، إلاّ عندما يقـوم حرمـان كنسي جديد، أو استخلاص برهان واضح وجاهز حـول الحرمان الكنسي السالف، لكن بعـدما يكون قد قضي بالمسألة، وجـرى عرض مثل هذا الاعتراض وتقديمـه، إنه سوف يؤخـذ بمثابة عـذر، ولسوف لن ينال الحكم الذي صدر، قوة أقل، باستثناء حدوث تعـرض المستدعي للحرمان الكنسي، وقـد علم القــاضي بذلك أثناء أي وقت مـن الأوقـات، ومع أن المدافع ســوف لن يـدخل هذا الاعتراض، على القــاضي القيــام من دون تأخير، بطرد المستدعي من مكتبه».

حول الحكم والمسألة المتعلقة به

«بما أن قضاء القـاضي صاحب الحكـم السرمدي لم تجعل مجرمـاً القاضي الذي أدان بشكل غير عـادل، ويشهد على ذلك قـول النبي «ليس هو الذي أدانه، عندما صدر الحكم بالإدانة ضده»، ويتوجب على القضاة اللاهوتيين أن يكونوا واعين، وأن يتخذوا احتياطات حكيمة، بعدم السماح بوجود أي تقدير غير صحيح، سـواء من كراهيـة أو حظوة، وعليهم إزالة كل خوف، وعليهم أ لا يسمحوا بقلب العدالة لابوساطة جائزة أو الأمل بنيل جائزة،

بل ليحملوا بالميـزان بأيديهم، وأن يزنوا بالتسـاوي بين الفـرقـاء، وذلك في جميع المسـائل التي أمـامهم على شكـل قضـايا، ولاسيما في تقـرير الأحكام والتفــوه بها، فهنا عليهم أن يضعــوا الرب نصب أعينهم، مقلـدين الذي عندما دخل إلى خيمة العهد، أحال جميع شكايات الناس إلى الرب، له حتى يقـررها بحكمـه وقضـائه، ولكن إذا مـا أقـدم أي قـاض لاهوتي، أو حتى قاض مناب، لايعبأ باسمـه الطيب، وهو مدمـر لشرفه الخاص، فعمل على عكس مايمليـه عليه ضميره، والعدالة، فتـوصل إلى أي قرار لإيذاء أي من الفريقين، من خلال حظوة أو في سبيل ربح قـذر، فسوف يعلق عن ممارسة واجبات وظيفتـه لمدة سنة، وإذا لم يرتدع بهذا، سوف يحكم عليـه بأن يدفع إلى الفريق المتضرر، وفقـاً لحجم الأضرار، ونحن نريد منه أن يعـرف أيضاً أنه إذا ما أقحـم نفسه في أيام تعليقه، في الخدمـات الدينية، هو سـوف ينال عقوبة عـدم الالتزام بالنظام، وفقاً لأحكام القـانون، وهي عقوبة يمكنه أن يتحلل منهـا فقط بوساطة الكـرسي الرسولي، باستثناء —على كل حـال— المراسيم التي توجه وتنزل العقوبات على القضاة الذين يعطون أحكاماً غير عادلة، لأنه موائم أن يتلقى أي واحـد يقوم باقتراف مثل هذه الآثام، بمثل هذه الطرق الكثيرة، عقوبات مضاعفة».

مايتعلق بالتماسات التمييز

«إن رغبــة قلبنـا هي إزالة الخصـــومـــات، وأن نحــرر رعــايـانا من اضطرابـاتهم، وبناء عليـــه رسمنا، إنه إذا ارتأى أي واحـــد كـــان تحت المحـاكمة، أو خـارج المحكمة، أن من الموائم رفع التماس تمييـز إلينا، بشأن إجراءات متشابكة، أو أي أذى ألحق به، وأن يكتب في التماسه اسم القاضي وأن يعبّـر عن سبب التماسه، وعندما لايجري قبول الالتماس، أو حدث أي تأخير بالقضيـة، خـروجـاً عـن الاحترام للرئيس الأعلى، بعـد هذا سـوف يجري منح وقت إلى الملتمس لتقـديم التماس استئنافه، وذلك وفقـاً لمسافـة المكان، ولطبيعة العمل، إذا ما رغب الملتمس بذلك، وإذا مـا طلب الفرقاء

الرئيسيون أوامر موائمة للاجراءات، وجاء الطلب من قبلهم أنفسهم، أو بوساطة الوكلاء، وطالبوا بأسس ووثائق تتعلق بالقضية، على هذا ليذهبوا هكذا مستعدين إلى الكرسي الرسولي، وبذلك إذا بدا موائماً لنا، عندما يجري تقرير مسألة الالتماس، أو يجري اسقاطها بموافقة الفريقين، عليهم السير بالقضية الرئيسية بقدر ما يستطيعون، ويتوجب عليهم بموجب الحق، دون —على كل حال— أن يغيروا المراسيم، التي عملت في القديم حول مايتعلق بالالتماسات المعمولة من قرارات حكم محددة، لكن إذا لم يراع الملتمس المراسيم المتقدم ذكرها، سوف يُعدّ وكأنه غير ملتمس، وسوف يعود إلى قرار القاضي السالف، وأن يحكم عليه بالوقت نفسه بأداء جميع النفقات القانونية، لكن إذا ماقام الشخص المترافع ضده بإهمال هذا البند، فإن الإجراءات سوف تتخذ ضده وكأنه شخص متمرد —وذلك بقدر ما هو مسموح بالقانون— ويدان بسداد كل من النفقات، وماتعلق بالقضية نفسها، لأنه من العدالة بمكان أن تثور القوانين ضد الذي يغش الشريعة والقاضي والخصم».

قرار الحرمان الكنسي

«بما أن المقصود من الحرمان الكنسي هو الشفاء وليس القتل، والتقويم وليس التدمير، شريطة أن لايقوم الذي صدر القرار ضده بالاستخفاف به، ينبغي على القاضي اللاهوتي أن يأخذ حذراً كبيراً، بالتفوه بهذا القرار، ليظهر أنه يتبع طريق المصحح والمعالج، وبناء عليه عندما يريد واحد حرمان أي واحد كنسياً، عليه أن يدون ذلك كتابة، وينبغي أن يضيف بشكل واضح كتابة السبب الذي من أجله جرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي، وعليه أن يربط نسخة من هذا المكتوب —إذا تطلب الأمر ذلك— ليرسلها إلى الشخص المحروم، خلال شهر، من يوم إصدار القرار، وحول مايتعلق بقرار الإدانة هذا، تقضي إرادتنا بوجوب تدوين أداة عامة، أو رسائل توثيق تتم كتابتها، وتختم بختم رسمي، وإذا ما أقدم

أي قاضي بطيش على خرق هذا المرسوم، هو سوف يعلق ويمنع من دخول الكنيسة، ومن سماع القداسات، لمدة شهر، وسوف يقوم الرئيس الذي تتم العودة إليه، من دون معارضة، بسحب القرار، وسيقوم بإدانة المذيع له، بأن يدفع جميع النفقات، وأن ينزل به بطرق أخرى عقوبة مناسبة، في سبيل، أننا من عقوبة القضاة، يمكن أن نعلم كم هو أمر جاد الزمجرة بقرار الحرمان الكنسي ضد أي واحد من دون مداولات ناضجة، وإن إرادتنا تقضي أيضاً بأن تتم مراعاة هذه الأحكام نفسها في قرارات التعليق والحرمان من شراكة المؤمنين،لأنهم إذا ما قاموا بأداء القداسات —كما من قبل— عندما يكونوا هكذا معلقين، سوف لن ينجون من عقوبة مخالفة النظام، وفقاً للأحكام القانونية، وفي هذه الحالة، سوف لن يكونوا قادرين على الحصول على التحليل، إلاّ من خلال الحبر الأعظم».

حول المسألة نفسها

«إنها مسألة مشكوك بها بشكل عام عند بعضهم، حول عندما يطلب أي واحد أن يتحلل بوساطة أي رئيس على أساس تقديم كفالة، وعلى أن يعلن في الوقت نفسه، بأن قرار الحرمان الكنسي ضده هو ساري المفعول، إن منفعة التحليل سوف تمنح له، من دون أي اعتراض، وإذا ماقام أي واحد قبل هذا التحليل، فعرض، على شرط المحاكمة، بأن يبرهن بأنه قد حرم كنسياً بعد استئناف قانوني، وأن خطيئة ملموسة قد اقترفت بشكل واضح في القرار، وينبغي تجنبها في قضايا أخرى، باستثناء ذلك البرهان المذكور، وإنه بالنسبة لمسألة الشك الأولى، نحن نرسم بأن التحليل لايجوز منع اعطائه إلى أي واحد يسأله، مع أن المصدر للحرمان الكنسي أو الخصم سوف يعارض ذلك، وفي مثل هذه الحالة سوف يجري السماح بثلاث تأخيرات لمدة ثمانية أيام، للذي يعمل هذه الإفادة، مالم يبرهن على صحة الذي التمس استئنافه في الاعتراض، كما أن القرار لن يجري سحبه، ما لم تكن ترضية كافية قد أعطيت من قبل، أو ضمانة للالتزام بالحق، إذا ما

جرى عرض شك حول الذنب، وبالنسبة للمسألة الثانية، نحن نرسم، بأن أي واحد جرى قبـوله للبرهنة، عليه أن يتجنب، أثناء البرهنة المذكورة، في المسائل الأخرى، التي من الممكن أنه جـرى قبولها كطرف في القضية، لكن بعد المحاكمة سـوف يجري قبوله —على الرغم من ذلك— لأداء واجباته، إلى أعمال التسمية والانتخابات، والاجراءات القانونية الأخرى»(★).

مايتعلق بالحملة الصليبية

عندمـا غـدت هذه المقررات معـروفـة لدى الجميع، أعطوا القناعـة إلى جميع الجزء العاقل من الجماعة، وفي الحقيقـة، استحق البابا ونال عن جدارة شكر وامتنان الجميع بشكل عـام، هذا وكانت بعض المقـررات قد عملت قبل عقـد المجمع، وبعضها أثناء عقـد المجمع، وبعضها الآخـر بعد عقـد المجمع، وكـانت بعض المراسيم قـد عملت بشكل حكيم وعقـلاني أثناء المجمع، تتعلق بمسألـة الحملة الصليبيـة، ولكن عندمـا تمت الإشـارة إلى الاسهام بالمال، ووجـه البابا بالرفض علانية، بشكل خـاص بسبب الفقرة المكروهة بشكل عام، والتي نصهـا: «إنهم سوف يقدمون مسـاعداتهم على أيدي الذين جـرى تعيينهم لتلك الغاية، بوسـاطة بصيرة الرسل»، لأنه في كثير من المرات، وبطرق مضـاعفـة كثيرة، اشتكى المؤمنون مـن أتبـاع الكنيسة، بـأنهم قد خدعـوا من قبل الكنيسة الـرومانية، حـول المال الذي كانوا قـد أسهموا به من أجل مسـاعدة الأرض المقدسـة، هذا وإنه بالنسبة للمـراسيم الأخـرى التي صدرت بشكل حكيم، فقـد أعطت القبـول إلى قـول ومسامع المسيحيين، وكـانت قـد جرت كتـابتهم كلمـة كلمة، وفقـاً للكلمات التي كان قـد عملها البابا غـريغوري في عام مـولانا ألف واحد، ومـائتين وثلاث وأربعين، وتحت هذا التـاريـخ تمّ العثـور أيضـاً على نص

(★)- وردت مقـررات هـذا المجمع بالأصل مشـوهة، ولـذلك بذلتُ غـاية الجهـد في ترجمتهـا لتأتي مفهـومـة ولاأعتقـد أن مختصـاً بالقـانون أو باللاهوت يمكنه أن يفعل أحسن مما فعلته، والله الموفق إلى السداد.

قداس فصيح جـداً، كان قد جرى نظمـه من قبل البابا غريغـوري، وجرى الآن ترديد هذا القـــداس نفسـه، في هـذا المجمع، من قبل البـــابا انوسنت الرابع، وكأنه قداس جـديد، وقد أعلن قـداسته أيضاً، بأنه سـوف ينفذ بلا تردد، جميع هذه المراسيم، خاصة المراسيم المتعلقة بالامبراطور.

ولدى سماع المعلـم ثاديوس، هـذا قـــال وهو يتـأوه: «لاأرى أن هناك عـلاجاً مكشـوفاً لهذا الرعب»، ثم إنه أضـاف مع البكاء والنحيب: «الحق أقـول إن هذا اليوم، كـان يوم غضب»، ومثل ذلك كـان قد قـاله من قبل، عندما قلب جميع الأساقفة حـاملات شموعهم المشتعلة، وأطفأوهم عندما كانوا يخلعون الامبراطور فردريك المحـروم كنسياً، وقال المعلم ثاديوس في نهاية خطابه:

«من هذا اليوم فصاعداً سوف يغني الهراطقة، وسوف يحكم الخوارزمية بشكل مطلق، وسينهض التتـار بقـواهم، وسـوف يسيطرون»، ثم إنه عـاد ليروي أخبـار هذه الوقـائع كلهـا إلى الامبراطور، ثم إن البـابا قـال بشكل معلن إلى الجميع: «لقـد قمتُ بواجبـي، والآن ليفعل الرب الذي يرضيـه، وليقض بالذي يريده في هذه المسائل».

كيف قام فردريك بعد خلعه من قبل البابا بتتويج نفسه

عندمـا سمع فـردريك، وبات عـارفاً تمامـاً بهذه الاجـراءات، لم يستطع ضبط نفســه، بل انفجر غـاضبـاً بعنف، وبات يمتلك منظراً مـرعباً، وقـد انتفخ، فهكذا رآه الذين كانوا من حـوله، ثم زمجر قائلاً: «لقـد أهانني البابا في مجمعه، وانتزع مني تاجي، فمن أين جـاءت كل هذه الوقاحة؟ ومن أين صـدرت مثل هـذه الإجـراءات الطائشـة؟ أين هـي صناديقي الحاوية على ثرواتي الجاهزة»؟ ولدى جلبهـم، وفتحهم أمـامـه، بناء على أوامــره قـال: «ابحثوا عن تيجاني، هل فقدت الآن»؟ ثم إنهم وجدوا واحداً منها، فتناوله ووضعه على رأســه، وبعدما تتوج هكذا، انتصب قـائماً، وبعينين مهددتان،

وبصوت مرعب، وبهياج وانفعـال غير منضبط، قال بصوت مرتفع: «أنا لم أفقد تاجي بعد، كما أنني لن أحرم منـه بوساطة أي قتال للبابا، أو للمجمع المسكوني، من دون صراع دموي، فهل دفع به تشـامخه المبتذل، وأوصله إلى هذه الدرجة، حتى يتمكن من قـذفي من المنصب الامبراطوري، فأنا الأمير الأعظم في العـالم، ولايوجـد من هو أعظم مني، فهـا أنـذا ليس هناك من يساويني، ففي هذه المسألة كان وضعي الإحسان، ففي بعض الأشياء كنت مرتبطاً بالطاعة، على الأقل صدوراً عن الاحترام له، لكنني الآن قد تحررت من جميع روابط العـاطفـة والاحترام، وكـذلك من الالتـزام بأي نوع من السلام معـه»، وبناء عليه، أمر من ذلك الوقت فصاعـداً بإيذاء البابا بشكل أكثر تأثيراً وفعـالية، وفعل كل أنواع الضرر لقـداسته، في أمـواله، وكذلك أصدقائه وأقربائه.

وقام بناء عليـه، حتى يزيد من قوة حـزبه، فلجأ إلى خطة الزواج من ابنة دوق النمسـا، ولكي يحقـق هذا، أرسل رسـلاً خـاصين، بكل سرعـة، إلى الدوق المذكور، لكن عندما وصل علـم هذا إلى السيدة، رفضت بثبات كل ارتبـاط أو زواج مع الامبراطور فـردريـك، حتى يجري تحليله، وقـد وافق والدها على ذلك، وقد بعث إلى الامبراطور يخبره بهذا الموقف، فشعـر بعار كبير، لأن رفضـه جاء منهما معـاً، وقـد أصبح —على كل حـال— قاسيـاً، وسعى إلى تحويل قلوب الملوك والأمـراء عن تقديم الاحترام إلى الكنيسـة، وكذلك إلى الأساقفة، وبشكل خاص إلى البابا، ولكي يتوصل إلى مقصده، كتب رسـالة بليغة جـداً، فيها أخـرج من جـوفه النوايا السـامة لقلبـه التي أخفاها لمدة طويلة.

رسالة الإمبراطور فردريك

«**من فـردريـك، إلخ، إلى ملك انكلترا، إلخ**: هناك قـول قـديم يصف بالمحظوظين الذيـن تعلمـوا الحذر من مصـائب الآخـريـن، لأن أوضـاع الخليفة تتمتـن بأسس السلف، ومثلما يتلقى الشمع الضغط من الختم، مثل

ذلك تشكلت نهاية الحيـاة البشرية بالشكل نفسـه، لقـد رغبت بأن تكون جـلالتـك قـد تقـدمت علي، أو جئـت قبلي لنيل هذا الحظ الطيب، وخبرة الحذر التي ندعهـا الآن لك، أيها الملك المسيحـي، من الأذى الكبير الذي عمل لأنفسنا، أو بالحري ترك لنا من قبل الملوك والأمـراء، الذين تعرضـوا للأذى مثلنا، وعلاوة على ذلك، إن هؤلاء الذين يعدون الآن كهنة، والذين سمنوا على صدقات آبائنا، يتولون الآن ظلم أبناء الذين هم أولياء نعمتهم، وأبناء هؤلاء الـرعيـة لنـا، الناسين لأحـوال آبـائهم، لايتنازلون لإظهـار الاحترام المتوجب لا إلى الامبراطور، أو الملك، فور تكريسهم لحمل ألقاب الآباء الرسـوليين، وحقيقـة ما هو مـوجـود هنا، والتي أشير إليهـا بكلامنا باسهاب قد تبرهنت الآن تمامـا، بإقدام البابا انوسنت الرابع، التي تولى جمع مجمع عـام ——حسبما سماه—— وتجرأ على اصـدار قـرار بالخلع ضـدنا، نحن الذين لم توجـه إلينا الدعـوة لحضـور المجمع المذكـور، كما لم يتبرهن أننا مدانون باقتراف أي خداع، أو شرور، وهو قـرار لايمكن تأسيسه من دون ضرر عظيم لجميع الملوك، لأنه مـا الذي سـوف يبقى هناك إلى أي واحـد منكم أيها الملوك من كل مملكة، إلاّ أن تخافوا من وجه مثل أمير الكهنة هذا، إذا ما أقـدم على خلعنا، نحن الذين جرى تشريفنا حقيقـة من السماء بالتاج الامبراطوري، بوساطة انتخـاب مهيب من الأمراء مع استحسـان الكنيسة كلها، عندمـا كان رجال الدين مزدهـرين بإيمان وتدين، ونحن الذين نتولى حكم كثير من الممالك الفخمـة الأخـرى، لأنه ليس من شأنه أن يمارس أية سلطة ضـدنا، وذلـك بقـدر مـا يتعلق الأمـر بالضرر الـدنيـوي، لابل من الممكن استخلاص قضايا قـانونية من ذلك، لكن لست أنا الأول، كما أنني لن أكون الأخير، الذي يتعرض لأذى سـوء الاستخدام الكهنوتي للسلطة، هذه السلطة التـي تسعى لاسقـاطنا من الـذروة نحـو الأسفل، وإن هذا بالحقيقـة الذي تفعله، تفعله باظهـارك الطاعـة إلى الذين يدعـون القداسـة ويتظاهرون بها، والذيـن آمـالهم وطمـوحـاتهم (أن يصب الأردن كله في أفواههم)، آه، حبـذا لو أنك تقوم وفقـاً لكلمات مخلصنا بتحويل ثقتك عن

لطف الكتّـاب والفـريسيين، الذي هـو رياء، وأن تصغي إلى نفسك، وأن تتـذكر كم هي دنـاءات ذلك البلاط، التي كنت تتمنـى أنه كان بمقـدرتك شجبها، مع الاقتباسات التي هـي محرمة بالشرف والحياء، والموارد الوافرة، التي استغنوا بها، في سبيل إفقـار عدة ممالك، كما تعـرف أنت شخصياً، قـد منحتهم الفجـور والشمـوخ، والمسيحيـون والحجـاج يرجـونك بأن يأكل البـاتـرانيين بيننا، فأنت هناك تدمـر بيـوت شعبك، حتـى تتمكن من بناء بلدات إلى أعدائك، وهكذا إنه بوساطة عشـورك وصدقاتك، تمكن هؤلاء الفقراء من أتباع المسيح من العيش، لكن دون مقابل أي تعويض، لابل أي امتنان أظهروه أنفسهم، أنه صادر عن الضمير وعن اللطف؟ فكلما مددت يديك عن طواعيـة، كلما ازدادوا شوقـاً للامساك، ليس فقط اليـدين، لابل الذراعين، حـابسينـا في شبـاكهم مثل طيـور صغيرة، كلما زدنا من محاولة الفرار، كلما زادوا من ربطنا بشدة أكبر.

وللوقت الحاضر، جعلنا شغلنا أن نكتب بعيـداً —مع أن ذلك ليس فيه كفاية— نشرح رغبـاتنا ولسوف نعطيك معلـومات أكثر، هي أكثـر سرية، حـول الاستخـدامـات التي لجأ إليهـا هؤلاء الناس المبـدعين الشرهين الطامعين بأموال الفقراء، وحول التصاميم التي تصورناها أنفسنا، وأرغمنا على عملها، فيما يتعلق بالسلطة الامبراطورية، وكيف توفرت النية، بجهود الوسطاء، لإعـادة تأسيس السـلام —على الأقل ظاهـرياً— بيننا وبين الكنيسة، وكيف اقترحنا لنرتب حـول مايتعلق بشـؤون الملوك بشكل عام، وكل واحـد منهم بشكل خـاص، والترتيبات التي عملت حـول مـايتعلق بالجزر في المحيط، وكيف أن ذلك البـلاط كـان يتـآمـر ضـد جميع الأمـراء بشكل عـام، بمـوجب بعض الخطـط، ومع أن هذه الترتيبـات قـد عملت بشكل سري، مـا كـان لها أن تنجـو من مـلاحظتنا، أو مـلاحظة بعض الأشخاص الخاضعين إلينا، وأصـدقائنا، الموجـودون هناك، وكيف أننا مع عسـاكرنا كلهم مستعـدون للحـرب، وباستخدام جميع مسـاعينا، نحن مع حلول الربيع القـريب، أن نكون قـادرين على الضغط على الذين يضغطون

الآن علينا، وسوف نفعل ذلك حتى ولو وقف العالم كله ضدنا، هذا وإن كل ماسوف يبلغك إياه أفراد رعيتنا المخلصين، الحاملين لهذه الرسالة، ويذكروه لك، يمكنك أن تصدقه تماماً، وأن تضع فيه ثقة ثابتة جداً، وفيهم، وكأن القديس بطرس قد أخذ العهد عليهم.

ونحن نرجوك —على كل حال— أن لاتقدر، أن جلالة مقامنا العالي قد انزعجت بالقرار الذي جرى التفوه به ضدنا من قبل البابا، لأن ضميرنا نقي، وبالتالي الرب معنا، الذي إليه ندعو، ليكون شاهداً على صدق كلامنا، ولقد كان اهتمامنا دوماً ورغبتنا إقناع رجال الدين من كل طائفة، وبشكل خاص ذوي المراتب العليا، بأن يسلكوا طريقاً يستهدفوا من ورائه غاية العيش في حالة الكنيسة الأولى، بممارسة حياة رسولية، وبتقليد تواضع مولانا، لأنهم اعتادوا على رؤية الملائكة، وهي تشع بالمعجزات وهي أيضاً تشفي المرضى، وتعيد الموتى إلى الحياة، وأن تنزل الملوك والأمراء إلى الخضوع إليهم، ليس بوساطة السلاح، بل بوساطة القداسة، لكن هؤلاء القوم، كرسوا أنفسهم للدنيا، وأن يسكروا في متعها، واضعين الرب جانباً، وبثرواتهم الوافرة، ومقتنياتهم الغنية جرى طبخ الديانة كلها، وأن يجري انتزاع الثروة المؤذية من مثل هؤلاء الأشخاص، المثقلين الآن بها حتى حد لعنتهم، هو من أعمال الإحسان، ولهذه الغاية، عليك على هذا، وعلى جميع الأمراء الاتحاد معنا، وأن نستخدم كل الجهود المتواصلة لجعلهم يضعون جانباً جميع الثروات الفائضة، وأن يعبدوا الرب، وهم قانعين بممتلكات متواضعة».

كيف تناقصت سمعة فردريك يومياً

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الملكين المسيحيين لفرنسا وانكلترا، بات واضحاً لهما مثل وضوح الضوء، وكذلك لنبلائهما، بأن فردريك كان يسعى بوساطة جميع الامكانات المتوفرة لديه، إلى تدمير حرية الكنيسة وكرامتها، وهي الكنيسة التي لم يزد قط لاحريتها ولاكرامتها، مع أن أسلافه النبلاء، قد بذلوا غاية جهدهم لتأسيسها، وبهذه الحقيقة بالذات حوّل

نفسه إلى متهم بالهرطقة، قـد قام بوقاحته وقلة حيائـه، فأطفأ ودمّر كل شعاع حسن رأي بحكمتـه، واحترام لحكمته، وهو مـاكان موجـوداً حتى الآن بين الناس، غير أن هذين الملكين، حتى لايظهـرا وكأنها يتصرفـان وفق أخـلاق النساء، وبشكل غير مشرف، بالقيـام على الفور بمهاجمة واحد، كانـا قد حمياه من قبل، لذلك قـاما لبعض الـوقت بإخفاء غضبهما، وحـافظا على الصمت، لكن ليس من دون تذمـر، وبناء عليـه، اتمد تحسنـت بهذه الاجراءات أحـوال البابا، وبدأ يسترد أنفاسه.

وكان هناك —على كل حال— جرحـاً كبيراً، ضغط على الأمراء، وكذلك على الأسـاقفـة، بـدرجـة أثقل من كل شيء، وكـان هـذا، هو أنه صحيح أن الامبراطور فـردريك قـد استحق، بسبـب عـدد كبير جـداً من القضـايا، أن يتعرض للإذلال، وأن يجرد من جميع مراتبه، وأنه بعون الرب، يحق للسلطات البـابوية خلعه من دون تـردد، إنما هنا تكون الكنيسة الرومـانيـة قد أسـاءت استخـدام حظوة الرب، وسـوف تنتفخ في المستقبل إلى درجـة من العجـرفـة والتكبر غير المحتمل، مما سيـدفعها أمام سبب بسيط مـن الأسباب، إلى خلع المقدمين الكاثوليك —وبشكل خاص الأسـاقفة— مع أنهم عادلين وأبرياء، أو أن تقـوم بتهـديدهم بشكل مشين بالخلع، والرومـان، وإن ولدوا من دم جلف، سوف يتحدثون بتشامخ، ويتبجحون قائلين: «نحن قد وطئنا بأقدامنا أعظم السـادة وأقـواهم، وهو الامبراطور فـردريك، فمن أنتم حتى تفكرون بطيش بمقـاومتنا؟»، وإذا ما حـدث وأثير الأمـراء على هذه الصورة، سـوف يثـورون عليهم، وبانتقام الـرب، سوف تكون السلطات الرومـانيـة عرضـة للدمار.

كيف أن محاولات وكلاء الجماعة الإنكليزية قد حرمت من تأثيرها

بالنسبة لوكلاء الجماعة الانكليزية، أي الايرل بيغود، ورفاقه الذين تقدم

ذكرهم وتسميتهم، الذين كانوا ينتظرون جواباً مفيداً من البابا، حسبما كان قد وعد، لقد جعلوا أخيراً يفهمون أنهم لن يحصلوا على مطالبهم، ولذلك غادروا وهم مغضبين كثيراً، وأعطوا مجالاً للتهديد، وأقسموا بيمين رهيب، بأنهم سوف لن يشبعوا النهم المقيت للرومان مطلقاً، بدفع الضرائب، كما أنهم لن يسمحوا بدفعها، ولن يقبلوا بعد الآن بإعطاء موارد الكنائس (وبشكل خاص الموارد التي من المعروف أن نبلاء المملكة هم أولياء نعمتها) واستغلالها منذ الآن فصاعداً، ومع ذلك مرّ البابا بهذه الأشياء كلها متظاهراً بعقل صابر، وبعينين قانعتين، وانتظر بهدوء الوقت لاتخاذ اجراءات هي الأكثر قسوة، عندما يبتسم الحظ له.

ولذلك أرسل إلى جميع أساقفة انكلترا يأمرهم بكل دقة، بأن يقوم كل واحد منهم بوضع ختمه على صك الضريبة المقيت، الذي عمله الملك جون، صاحب الذكرى غير السعيدة، دون أن يعبأ بمعارضة ستيفن، رئيس أساقفة كانتربري، في سبيل أنهم عندما يفعلون ذلك، يمكنه تثبيت هذا الصك وجعله أبدياً، وهذا، ياللأسف ماقد فعله الأساقفة من خلال الخوف، بعدما صاروا ضعفاء كثيراً، مما سبب ضرراً هائلاً للملك وللمملكة، ولدى سماع الملك بهذا، ثارت ثائرته، وغضب غضباً شديداً، وأقسم أنه، مع أن الأساقفة قد خضعوا بشكل مهين، إنه سوف يقف بشجاعة للدفاع عن امتيازات المملكة، وأنه مادام على قيد الحياة، لن يدفع أية ضريبة للبلاط الروماني، تحت اسم جزية، وكان فولك أسقف لندن، آخرواحد أعار نفسه لهذه الخطة الشريرة، فوضع ختمه على هذا الصك، ولذلك استحق ملامة أقل من الآخرين.

وبالطريقة نفسها، ومن أجل تثبيت أفضل لقرار الخلع، الذي صدر ضد الامبراطور فردريك، وفي سبيل إقامة ذكرى دائمة للواقعة، قام جميع الأساقفة بوضع أختامهم على صك كبير متعلقاً بالأمر نفسه، كان قد جرى نسخه كلمة كلمة من الصك المختوم بالختم البابوي.

ثم إن المجمع ارفض، وعـاد الذين كانوا قـد اجتمعوا هناك مع المبـاركة إلى أوطانهم، باستثناء الذين احتجـزوا بسبب عمل خـاص، كـان البابا قـد أخره حتى مابعد انتهاء المجمع.

الوصاية البابوية على هيئة رهبان السسترشيان

بينما كان جيشـان العالم يحدث هذه الوقائع معـه ويستدرجها، قـام رعاة دير السسترشيـان من مختلف البلـدان، كما هي عـادتهم، لدى اقتراب عيـد تمجيـد الصليب، بالقـدوم على شكـل حشـود لحضـور اجتماع هيئتهم الرهبانية، وعندما التقوا جميعاً، تلقوا رسالة من البابا، كان محتواها كما يلي:

«نحن نود أن نعلم أخـوتكم، بـأن الكنيسـة هي في وضع مـرعب كثيراً وهي بحـاجة إلى صلواتكم المستعجلة بشكل أكثـر ديمومـة، لوجود أزمـة حالية تهدد جميع المسيحية بطريقة مخيفة، ولذلك لن نزعج أنفسنا باستخدام السيف الفولاذي ضـد الامبراطور الروماني فردريك، ذلك العـدو القوي والعنيد لكنيسـة المسيح، بل سوف نستخدم السيـف الروحي فقط، وأفواه الذين يتكلمـون بالشر قـد أغلقت، ونحـن نرجـوكم، أن لاتدعـوا الجهلة النقـاد، والرجـال الذين بلاصـدق، يقنعـونكم بالظن أن هذا الحكم الذي صـدر من قبلنا ضـد فـردريك المذكـور كـردة فعل، ومن دون مـداولات ومشاورات طويلة مع إخواننا، ومع كثير آخر من الرجال المتعلمين، لأنني لاأتذكـر وجـود أية قضيـة أخـرى مثلهـا قـد نوقشت بمثل هذا الاتسـاع والمواظبة، أو وزنت بدقة في عقول النـاس البارعين والمقدسين، وبلغ الأمر حداً أننا أثناء مـؤتمراتنا السرية تولى واحد من اخواننا وظيفـة المحامي عنه، وقام آخرون من جهـة أخرى بالإدعاء ضده، في سبيل أنه بـوساطة الإدعاء والردود الصادرة عن الإدعاء وعن الدفاع —كما هي العادة في المدارس— يمكن لحقيقـة القضيـة أن تظهـر من على الجانبين من الأعماق، غير أننا لم نستطع، مـن دون إيذاء للرب، واغضـاب له بشكل جـاد، ومن دون الاضرار بالكنيسة، أو من دون جـرح ضمائرنا، أن نجـد أية وسيلة أخرى،

غير الإجـراءات التي اتخذناها، وإن كنا مكرهين، وقـد أسفنا كثيراً لشقـاء المذنب المذكـور، وإننا بناء عليـه، قد استعـدينا، من أجل هذه القضيـة، أن نقف ثابتين حتى الموت، وفيهـا ومن أجلها جميـع إخواننا، ونحن كـذلك، على استعـداد للمـوت، وأن نقـاتل من دون وهن لصـالح الرب ولصـالح كنيسته».

وقـد جـرى نشر هذه الرسـالة كـاملة بين الهيئة الرهبـانيـة كلهـا، وبين الرهبـان بشكل عـام، حيث تخلوا عن الوقـوف إلى جـانب الامبراطور، ومالوا بشكل رائع إلى جـانب البابا، وصلّوا إلى الرب أن لايعـرض كنيسته للمعـاناة بأية طريقـة من الطرق، وهي الكنيسـة التي أسسهـا على صخـرة ثابتـــة، ولكي لاتسقط بشكل أبدي، مـع أنها كـانت تترنـح آنذاك بعض الشيء.

حول الإجراءات التي تمت في غانوك أثناء إقامة الملك هناك

وفي الوقت نفسه، كـان قد مضى الآن على إقامة الملك، قـرابة الشهرين، على الحدود الدنيا لويلز، قـرب نهر يجري بين جبال سنودون Snowdon, حيث انشغل في بناء قلعـة، كـانت لاترام بأسـوارها ومـوقعهـا، وفي ٢٤- ايلول، رغب واحـد من نبـلاء الجيش، أن يخبر رفـاقـه، الذين كـانوا قلقين حول هذه القضية، فكتب إليهم كما يلي:

«**صحة**: صاحب الجلالة الملك مقيم مع جيشــه في غانوك Gannock, من أجل تحصين القلعـة التي بناها الآن، في مـوقع قوي جـداً هناك، ونحن مقيمون هناك في الخيـام، منشغلون بالحراسة والسهر، والصـوم، والصلاة، ووسط برد، وعـري، وأثناء الحراسة نفعل ذلك خـلال الخوف من أن يقوم الويلزيون بمهـاجمتنا فجأة أثناء الليل، وأما الصوم فنقـوم به بسبب النقص بالمؤن، لأن ربع الرغيف يكلف الآن خمسة بنسات، وأما الصلوات فنؤديها من أجل أن نعـود إلى الوطـن فـوراً ومن دون أذى، ونحن مضغـوط علينا

بالبرد وبالعـري، لأن بيـوتنا من الخيش، ونحن من دون مـلابس للشتـاء، وهناك ذراع قصير للبحـر، فيـه تيـار للمـد والجزر تحت القلعـة المذكـورة، حيث نحن مقيمون، ويشكل ذلك نوعاً من الموانىء، إليه تقدم أثناء إقامتنا سفن من ايرلاندا، وشيستر جالبـة الامدادات، وذراع البحـر هذا قائم بيننا وبين سنودون، حيث معسكر الويلـزيين أنفسهم، وهو لدى ارتفـاع التيـار حـوالي رميـة سهـم بالعـرض، وفي يوم الاثنين التـالي قبل عيـد القـديس ميكائيل، جـاءت سفينة من ايرلنـدا، تحمل مـؤناً للبيع لنا، وعندمـا كـانت قادمة نحو مدخل الميناء، جرى توجيهها من دون حذر، أثناء تراجع البحر، فبقيت على القـاع تحت قلعتنـا المذكـورة، لكن على الطرف المقـابل، نحـو الويلزيين، الذين اندفعوا على الفـور، وقاموا بالهجوم عليهـا بحكم وقوفها على أرض جافة، وبناء عليـه، لدى رؤيتنا لهذا الإجراء من الطرف على هذا الجانب، أرسلنا ثلاثمائـة ويلزي مـن رجـال حـدودنا من شيشـاير Che-shire ومن شروبشاير Shropshire, وذلك عبر الماء في قوارب، ومعهم بعض رمـاة القسي الزيارة، من أجل حماية السفينة المذكـورة، ولدى رؤية الويلزيين لذلك، تراجعوا مسرعين إلى مخابئهم المعتادة والمعروفة جيداً في الجبال والغـابات، وطاردهم فرساننـا ومعهم أتباعهم لمسافـة فرسخين، ومع أنهم كانوا على أقـدامهم (لأنهم لم يجلبوا خيـولهم عبر الماء معهم) فقد جرحـوا وقتلوا كثيراً من الويلزيين، ثم عاد شعبنا بعدما هزمـوا أعداءهم، ومثلهم مثـل أناس جشعين ومحتـــاجين، انشغلـوا بالنهـب ونشروا النار والسلب، خلال المنطقة، على الجانب الآخر من الماء، وكان من بين الأعمال الدنســـة التي اقترفـوهـا، قيـامهم مـن دون احترام بنهب دير لطائفـــة السسترشيـان اسمــه أبيركـونوي Aberconway, وسلبــــوه من كل مقتنياتـه حتى كؤوس القـربان والكتب، وأحرقـوا الأبنية العائـدة له، وفي الوقت نفسـه، حشـد الويلزيون حشـداً كبيراً من أبناء جلدتهم، واندفعـوا بشكل مفاجىء، وبأصوات مرتفعـة على رجالنا المحملين بالأسلاب، التي حصلوا عليهـا بأكثر الأسـاليب شراً، وكانوا محاقين بذنوبهم، وأرغمـوهـم

على الفـرار، وجـــرحـوا وقتلوا الكثيرين وهـم يتراجعـــون نحـو السفينة، واختار بعض رجالنا الوثوق بالأمـواج، ومن ثم الموت غرقاً، وآثر وا ذلك على أن يقتلوا وفقـاً لإرادة أعدائهم، فألقـوا بأنفسهـم طوعـاً وبإرادتهم بين الأمـواج، وهناك هلكوا، وأسروابعض فرسـاننا وهـم أحيـاء، فسجنوهـم، لكن عندما سمعوا بأننا قتلنا بعض نبلائهم، وفوق الجميع نافث Naveth ابن أودو، وكان شاباً وسيماً وشجاعـاً، ولذلك شنقوا هناك بعض فرساننا، وقطعـوا بعـد ذلك رؤوسهم، وشـوهـوهم بشكل مخيف، ومـزقـوا أخيراً أجسادهـم التعيسة، وقطعـوا أطرافهم طرفاً طرفاً، ورمـوهـم في الماء، انتقاماً من جشعهم الشرير، حيث أنهم لم يوفـروا الكنيسة، ولاسيما واحـدة كانت عائدة إلى الرهبان.

وسقط هناك في هذا الصراع من جـانبنا بعض الفـرسـان مـن حـاشيـة رتشارد ايرل أوف كـورنوول، وهـم: ألان بوسسل Buscel, وآدم دي مـويا Moia, واللورد غيـوفـري ستـورمي Sturmy ورابع هو ريمـوند، وكان غسكونيـاً من رمـاة القوس الزيار، وكـان الملك غـالبـاً مـا يستخـدمه في المبـاريات الرياضيـة، وجرى مقتل حـوالي المائة من الأتبـاع، وذلك إلى جـانب الذي غرقـوا، والعـدد نفسه من الويلزيين أو أكثـر، وفي الوقت نفسه تولى وولتر بيست Bissett, الذي كان على ظهـــر السفينة مع أتباعه، الدفاع عنها بشجاعة، وانخرط بقتال مستمر مع الويلزيين حتى منتصف الليل، الذيـن هاجموه بشـدة من جميع الجوانب، ولـولا أن رجـالنا اتخذوا من أطراف السفينة جـداراً، لسقطوا جميعـاً في أيدي العـدو، وأخيراً عندمـا بدأت ميـاه البحـر بالارتفـاع، شرعت السفينة بالتحـرك، وعندمـا صارت الآن بعيدة المنال، انسحب الويلزيون، وهـم آسفـون لأن رجالنا قد جرى انتزاعهـم من بين أيديهم وكان على ظهر هذه السفنية ستين برميلاً من الخمر، بالاضـافة إلى مـؤن كثيرة متشوق إليها وكـان بعضها مـوسمياً، كنا منهـا محرومين منذ وقت، وعنـدمـا جـاء الصبـاح، وتراجـع التيـار، رجع

الويلزيون مع البهجة، ظانين أنهم سوف يعتقلون رجالنا في السفينة، لكن بعون من الرب وتدبير، كانوا قد تمكنوا أثناء الليل، عندما كان التيار عالياً، من النجاة إلينا بوساطة قواربنا، وكان ذلك قبل وصول الويلزيين، تاركين السفينة لوحدها، ووصل الويلزيون على كل حال، ونقلوا منها كل الخمور تقريباً، والأشياء الأخرى التي كانت على ظهرها، وتركوها لدى ارتفاع التيار، وقد ألقوا النار بالسفينة، التي أهلكت شطراً منها، وجرى على كل حال انقاذ الشطر الآخر، الذي كان فيه سبعة براميل، وقد تمكنوا من سحبها إلى الشاطىء القريب.

ومع استمرارنا بالبقاء هناك مع الجيش، كنا في حاجة كبيرة لكثير من الأشياء، ولذلك غالباً ما قمنا بغارات مسلحة، وعرضنا أنفسنا لكثير من المخاطر العظيمة، من أجل أن نحصل لأنفسنا على الضروريات، وكنا نواجه كثيراً من الكمائن المتنوعة، ونتصدى لحملات من الويلزيين، وغالباً ما عانينا من تقلبات حظ الحرب، وألحقنا أضراراً بهم، فبعد احدى المناوشات، أحضرنا معنا، ونحن منتصرون، إلى معسكرنا حوالي مائة رأس مقطوعة من الويلزيين، وفي ذلك الوقت كانت هناك ندرة في المؤن، وحاجة كبيرة إلى جميع الضروريات، ولذلك عانينا من خسائر لاتعوض في كل من الرجال والخيول، وجاء وقت في الحقيقة لم يوجد فيه خمرة في بيت الملك، لابل في الحقيقة في الجيش كله، باستثناء برميل واحد فقط، وصار المقياس الواحد من القمح يكلف عشرين شلناً، وثور مرعى ثلاثة ماركات أو أربعة، وبيعت الدجاجة بثمانية بنسات، ونتيجة لذلك تلاشى الرجال وتلاشت الخيول، وهلك كثيرون من الحاجة».

قدوم البابا للاجتماع مع الملك الفرنسي في كلوني

وفي تلك الآونة نفسها من العام، ذهب البابا إلى كلوني، بناء على دعوة من الملك الفرنسي، الذي رغب بالاجتماع والتحادث معه، ولم يسمح لقداسته بالتوغل أكثر في فرنسا، وفي حوالي عيد القديس أندرو، قدم الملك

الفرنسي إليه ليلتقيه هناك، وكان ذلك بعـدما انتظره، لمدة خمسة عشر يوماً، وعقدا هناك اجتماعاً سرياً لمدة سبعـة أيام، ولم يطلع أحد على أسرار القضايا إلاّ هم: أي البابا، والملك الفـرنسي، وأمه السيـدة بلانشي، ومن المعتقد من دون شك أنهم تداولوا حـول تـرتيب سـلام بين الكنيسـة والامبراطورية، وحول الطريقـة التي يمكن بوساطتها تحقيق مصالحة مشرفـة، وكان الملك الفـرنسي قـد تـوصل إلى قـرار ثابت، بالانطلاق إلى القــدس مع كثير من النبـلاء الفرنسيين والمقـدمين، الذين حملوا الآن الصليب، لصـالح كل من الرب والملك، وكـــان لايمكنهم الارتحال بالبحـــر —مـــالم تتـم تهدئـة الامبراطور، ومصـالحتـه تماماً مع الكنيسـة— أو خـلال أراضيـه، دون التعرض لمخـاطر عظيمة، تلحق بالمسيحيـة كلها، لابل حتى إذا استطـاعوا فعل ذلـك، إنه لن يكـون من الموائم القتـــال في سبيـل المسيح في الأرض المقـدسة، في حين تركـوا خلفهم، في بلد مسيحي مثل ذلك الصراع المؤذي والمضر بين شخصين لهما مثل هاتين المرتبتين العاليتين، ومرة أخرى كان من المعتقد أنهم كـانوا يعالجون مسألة إعـادة تأسيس السلام بين ملكي فـرنسا وانكلترا، أو على الأقل إطالة الهدنة، في سبيل أن يتمكن الملك الفرنسي من المضي في حجـه في ظل أمـان أعظم، وفي نهاية هذا الاجتماع، وعندمـا كـان الملك الفرنسي على وشك المغـادرة، عيّـن يومـاً هو في اسبوعي الفصح من أجل مؤتمر مع قداسته، ينبغي أن يضمن حضور الامبراطور فردريك فيه.

وذهب الملك الفـــرنسي من هذا المكان، إلى مـدينة مـــاكـــون Macon, وهي مدينة سقطت هذا العـام مع المقاطعة كلها تحت سلطتـه وحكمه وفق الطريقة التاليـة: عندما آل ذلك الميراث لأن تتملكه كونتسه مـاكون، قامت على الفـور بإرسـال رسـالة إلى الملك، بأن لديها الرغبـة في بيعـه جميع الحق الذي لها في المدينة المذكـــورة والمقـاطعـة، في سبيل ارتداء الـزي الرهبـاني، ووافق الملك الفـرنسي على هذا العرض، واشترى المنطقة مقـابل مبلغ كبير من المال، أنفقتـه الكونتسه كله لصـالح الفقراء، وعلى أعمال تقويـة أخرى،

ومالبثت أن لبست الزي الرهباني، في دير للسيدات كانت السيدة بلانشي قد أسسته في بونتوي Pontoise, وبذلك خلفت وراءها ذكرى كانت مثلاً في التواضع إلى جميع الأجيال، ولكل النبلاء، وبشكل خاص إلى النساء.

موت ريموند كونت بروفانس

وسدّد في قرابة الوقت نفسه، ريموند كونت بروفانس دين الطبيعة، وكان رجلاً مشهوراً ومتميزاً، ذلك أنه تقلب على دولاب الحظ بشكل مدهش، وهو الذي كان مصدراً غير اعتيادي مدهشاً إلى جميع الأجيال في الجمال الفائق لبناته، التي إلى الصغرى منهن، ترك في كلماته الأخيرة، كونتيته، أي كونتية بروفانس بمثابة أعطية، لكن عندما سمع الملك الفرنسي بهذا أرسل خمسمائة من الفرسان النخبة، مزودين بالأسلحة وبالحاجات الضرورية الأخرى، ليتولوا الاستيلاء على كونتية بروفانس المتقدمة الذكر، بسبب أن الابنة الكبرى للكونت المتوفى أخيراً، كانت زوجته، كما تقدم ذكر ذلك، ذلك أنه عدّ الوصية المتقدم ذكرها للكونت ريموند باطلة وفارغة لأنها غير قانونية، ولدى سماع ملك انكلترا بوفاة الكونت، حركته مشاعر عواطفه لعمل مأتم جنائزي بأبهة عظيمة، وسط صدقات وافرة، وصلوات مخلصة، وشموع مضاءة، وأجراس تقرع، وبكل دقة منع في الوقت نفسه كل واحد من إعلان خبر هذا الحادث إلى زوجته الملكة، خشية أن يقهرها الأسى.

استيلاء المصريين على مدينة دمشق

في هذا العام، وفي الآونة التي تلت حلول عيد القديس ميكائيل، جرى الاستيلاء على مدينة دمشق، التي —كما قيل— كانت المدينة الرئيسية في سورية في العصور القديمة، وانتزاعها من الصليبيين، مما ألحق بهم أضراراً جسيمة واضطراباً عظيماً، وجاء الاستيلاء عليها من قبل المصريين الكفار

الخونة، وأعوانهم الخوارزمية، الذين كانوا الأعظم عداوة للاسم المسيحي، لأن هذه المدينة، وإن كانت مصبوغة بعقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم)، كانت متحالفة مع الصليبيين، ولم تكن تؤذي أحداً منهم، وكانت نافعة جداً لهم وموائمة، من خلال التجارات المتبادلة والعلاقات القائمة فيما بينهم، لكن الآن، بعدما كانت مدينة صديقة، تحولت إلى مدينة غير صديقة تماماً، والأكثر عدوانية لهم، فقد جرى طرد سلطانها منها، وبصعوبة وجد مكاناً آمناً يتخبأ فيه في الأجزاء الشرقية من البلاد، وفي الوقت نفسه، أصبحت المدينة مع كل ما أحاط بها من جميع الأطراف خاضعة للمصريين وللخوارزمية.

عزم الملك الإنكليزي على العودة إلى إنكلترا بعد نهبه للمنطقة المعروفة بإسم أنغليزيا في ويلز

وفي اليوم التالي لعيد الرسولين: سمعان، وجود، كان الملك غير قادر، وغير راغب بالإقامة مدة أطول في غانوك، بسبب نقص المؤن، واقتراب حلول الشتاء، وجاء ذلك بعد إقامته هناك لمدة تقارب العشرة أسابيع، حيث قام بتحصين قلعته غانوك التي تقدم ذكرها، والتي كان قد بناها، وبعدما شحنها، أعدّ العدة للعودة إلى انكلترا، في سبيل أن يسترد هو صحته وكذلك جيشه، وكان الآن قانعاً تماماً بأن أعداءه الويلزيين قد لحقهم دمار لايمكن تعويضه، لأنه لدى وصوله قام الايرلنديون باجتياح أنغليزيا Anglezea كلها وهي المنطقة التي كانت المأوى ومكان الالتجاء للويلزيين، وقام قبل مغادرته بوضع السيف فيما بقي هناك بشكل وحشي، وحول إلى رماد كل انسان وكل شيء، إلى حد أن المنطقة كلها، بدت وكأنها منطقة واسعة مهجورة، وصحراء غير مزروعة، كما أنه أمر بملأ آبار الملح في ويتز Witz وتدميرها، وفي سبيل أن لايحصل الويلزيون على المؤن من المقاطعات المجاورة، كما اعتادوا أن يفعلوا، حتى في أيام الحرب، إما عن طريق الشراء، أو النهب، أو من خلال الصداقات،

أو القـرابات، أو العلاقـات، وتسبب بجعل سكان تلك المنطقـة مع الذين خـاضعين لهم يعانون من الفقـر، ومحرومين بشكل خاص من الطعـام، إلى حـد أن المجاعـة سيطرت على شيشـاير Cheshire والمناطق المجاورة لها، حتى وصلت إلى درجـة أن السكان لم يبق لديهم مايكفي لإطالة البقـاء التعيس، كما أنه منع تحت طائلة عقوبة الموت وفقدان الممتلكات، جلب أي مـؤن إليهم، أو السماح بجلبهـا من أجل البيع، من قبـل الانكليـز، أو من المناطق الايرلندية، وكـانت قلعـة غـانوك هذه، مشحونة أيضـاً بالرجـال، وبالمؤن، وبآلات الحرب والأسلحة، وصارت بالفعل بمثابة شوكة في أعين الأشقياء الويلزيين، لابل أكثـر الناس شقاء، حيث لم يعـد بامكانهم العبور إلى انكلترا، من دون اعتراض من قبل رجـال القلعة، الذي كـانوا، بناء على أوامـر الملك، مطاعين من قبل جميع المنطقـة، ولم يعـد بـإمكان الويلزيين الإقامة في منطقتهم بسبب الحاجة.

مغادرة الملك غانوك بعد تحصين القلعة هناك

وبعـدمـا تمكن الملك من حلّ جميع القضـايا بشكـل حكيم، رجع إلى انكلترا بأمـان، وهو متـوج بحسن الحظ، باستثناء أن سمعـة أخيـه، الايرل رتشارد، قـد أظلمت إلى درجات عظيمة في هذه الحملة، وأخـذت التقارير السيئة تنتشر حـوله، فلقد ذكـر في كل مكان، وفي كل من الجيش، وفي جميع أرجاء المملكة، بأن الايرل المذكور، قام بسبب استجابته العاطفية، وبسبب القـرابة، لكن لإهانة الملك، وخسـارته وضرره، فأعطى ابن اختـه داود النصيحة، وأبدى نحـوه كثيراً من الصداقة، أكثـر مما ينبغي، ومما هو لائق، وتولى في احـدى المرات بشكـل سري رعـاية داود المذكـور، عندمـا كـان مـرهقـاً، متأذياً، وفي وضـع صحي سيء، في قلعتـه تينتـايول Tintaiol, حتى يتمكن من استرداد صحته، وعندما شفي، قام بقوة أعظم ضد الملك، كما أنه رفع من شأن قضية المذكـور بمشورته ومسـاعدته، لأن الملك رفض بمبادرة من الملكة، أن يمنحه شيستر مع المراتب الشرفية المرتبطة بها، وكان

ذلك عندما طلبها منه، ولقد قيل أيضـاً، أن ذلك كان عندما قوبل بالرفض من الملك، من خـلال تدخل الملكة عندما سأل منحـه غسكوني، وغادر من عند الملك وهو مغضب، مع تهديدات غير معتادة في بوردو.

وينبغي —على كل حـال— عـدم تصـديق هذه التأكيـدات، لأن الملك عندما كان في حاجة إلى المال من أجل بناء القلعة في غانوك، وفي سبيل دعم الجيش، تحرك الايرل المذكور بعـاطفته الأخـوية، وأقرضه بكـل كرم ثلاثة آلاف مـارك، بضمانة مجوهراته، وبذلـك أغلق فم المتكلمين بالشر، ثم عـاد الملك من ويلز مع اقتراب حلول الشتـاء، وبدأ زحفـه في اليـوم التالي لعيـد القديسين سمعـان وجود، في سبيل أن يتمكن —كما ذكـرنا من قبل— هو وكذلـك جيشه المنهك كثيراً، من استرداد أنفـاسه، لكن مع نيـة العودة إلى العمل نفسه، بعد عبور حدة الشتاء.

وعلى هذا فإن الويلزيين التعسـاء، كانـوا عنـدما حلت مصائب الشتاء عليهم، قـد عسفت الحاجة بهم في جميع الأشـكال، فقـد كانوا بلا بيـوت، ومحرومين مـن جميـع أنـواع المؤن، ولم يكـن لـديهم أدنـى أمـل في تحسـن أوضـاعهم، لأن أراضيهم بقيـت غير مـزروعـة، ومتعفنـة بإرادتهـم، وهكـذا كـانوا مقهـورين بالجوع وبالبرد، وبيأس عقلي وجسـدي، ولذلك أخذوا يتلاشون ويموتون.

خلع موريس من الاشراف على القضاء في إيرلندا

وقام الملك بخلع موريس —الذي كان مشرفاً على القضاء في ايرلندا— من منصبـه، لأنـه كـان غـاضبـاً عليـه كثيراً، ومنزعجـاً منـه، لأنه كـان بطيئـاً جـداً في القـدوم إلى مسـاعـدته، لدى توفـر رياح طيبـة لديه حسبما رغب، وعيّـن في مكانه وفوّض جـون فتز— غيـوفري، وتحمل مـوريس بصبر هذا كله، بسبب أنه منذ أن مات ابنه، ازدرى جميع أمجاد ومراتب هذا العالم.

إرسال نائب بابوي إلى فرنسا لرفع شأن القضية الصليبية

وفي العام نفسه، وبناء على طلب ملك فرنسا، الذي أعاده الرب إلى الصحة، وكأنها كانت مع روح جديدة، وبعدما كان قد حمل شارة الصليب، جرى ارسال نائب بابوي إلى فرنسا من قبل البابا، من أجل العمل بشكل مؤثر أكثر، على رفع شأن القضية الصليبية بتبشيره.

وفي حوالي الوقت نفسه، قدم أسقف بيروت، الذي تقدم ذكره مع أ. A, الذي كان واحداً من الرهبان الدومينيكان، من الأرض المقدسة، إلى انكلترا، وبعد إخبار الملك بالأحوال ا لمأساوية في الأرض المقدسة ومعاناتها، رجاه إذا كان من الممكن أن يسمح له، برفع شأن القضية الصليبية في انكلترا عن طريق التبشير، ولدى تقدمهما بهذا الطلب إلى الملك، وتثبيتاً لمصداقيتهما، أرياه صكاً كانا قد جلباه معهما من الأرض المقدسة، وغفراناً كانا قد جلباه من بلاط روما، ولدى عرض هذا الغفران، قال الملك:

«مع أنكما قد تكونا صادقين، ورسولين قادرين، مع ذلك، لقد خدعنا مراراً من قبل البلاط الروماني، من خلال نوابه البابويين وقساوسته، الذين أرسلوا لمثل هذا العمل نفسه، والذين شغلوا أنفسهم فقط في استخراج المال، لذلك سوف من النادر أن تجدا من يضع ثقته بكما»، وفي سبيل أن ينالا حظوة الملك، ذهبا إلى القول، بأن جميع نبلاء فرنسا تقريباً قد حملوا الصليب، فقال الملك:

«لقد حمل ملك فرنسا الصليب، وإذا كانت رعيته قد تبعته، ما هو العجب في ذلك؟ إنني محاط بأعدائي، وملك فرنسا موضع ريبة لدي، وملك سكوتلندا أكثر منه، وأمير ويلز في وضع عدائي مكشوف ضدي، والبابا يحمي الذين يثورون ضدي، ولذلك إنني لا أرغب في إفراغ أراضي من جنودها، ومن أموالها، حتى لاتكون مجردة من

قوتها»، وعند ذلك فقـد الأسقف والراهب جميع آمالهما، وغادرا.

راعي دير كلوني يستخرج العشور من رئاسات رهبانه

وفي تلك الآونة، عندما كان البابا ضيفاً في دير كلوني، وقبل مغادرته من ذلك المكان، ليطلـب اللجـوء في ليـون، حصل منه راعـي دير كلوني على إجازة وتصريح، باستخـراج العشر لعام واحد، مـن جميع الرهبان، في ذلك المكان، وجرى منح هذا لسببين، هما: أن الراعي المذكور كـان قد قدم هدايا فخمة إلى البـابا عندما كان في المنفى وقادمـاً إلى مناطق ماوراء الألب (لأنه كان قـد أعطاه ثلاثين مهـراً مجهزين بشكل جيـد، والعدد نفسه مـن خيول التحميل)، ولأنه استقبله بشكل فخم وكـريم، واستضـافـه ورعاه لقـرابة العـام، وكـان هذا العشر سوف يتسلمـه من جميع الأعضـاء، دون الاهتمام باعتراض أي شخص عادل، ومن هذا المال كـان البابا سيتسلم ثلاثة آلاف مـارك، وسيعطي البقية لسـداد دين كنيسـة كلوني، المعروف أنها تحملتـه في سبيل تقدم قضية الكنيسـة الرومانية، وقد عمل البـابا هذه المنحة إلى راعي الدير، حتى يتمكن من أن يتخذ نفسه رباطاً عريضاً من جلده.

كيف حمل عدد من النبلاء شارة الصليب

ومباشرة شق الملك الفرنسي الطريق، وضرب المثل، وكأنه حامل الراية، ولذلك حمل عـدد من النبـلاء الفـرنسيين الصليب، وكـان من بين هؤلاء روبرت، وكـونت أرتوي Artois, ودوق بيرغندي، ودوق برابانت، وكـونتسـة فـلاندرز مع ولـديها، وبطرس كـونت بريتـاني، وابنه ج. J, كـونت بريتـاني، وكونت بار، وكـونتـات: سواسـون، والقـديس بولص، ودروكس، وريثيل، وفيليب دي كـورتني، وولتر دي جـويني Joigny, وجـايلز دي ميلي Mailly, ومحامي بيثيـون Bethune, وعدد كبير آخر من النبـلاء، الذين تزايد تعـدادهم يومياً، بحمل الملك شخصيـاً أعباء التبشير، ودعـوتهم إلى ذلك، ونهض بعض الأسـاقفـة بالحماس نفسه في

سبيل أن يضربوا مثـــلاً تقــوياً للعلمانيين، فحملوا شــــارة الصليب على أكتـافهم، للانتقــام لقضيــة المسيح، وكـان من بين هؤلاء رئيـس أسـاقفـة الريمـز، ورئيـس أسـاقفـة السين، ورئيس أسـاقفـــة بورجي Bourges, وأسقف لون Laon, وأسقف بوفوا Beauvais, وعدد كبير آخر، دعاهم المسيح يومياً، وأغراهم بالدخول في خدمته.

رواية بأن المسلمين قد سمموا الورق

ولدى سماع المسلمين بهذه الإجـراءات قـامـوا بكثير من الترتيبـات من أجل الدفـاع، وأبدعـوا خططاً شريـرة، فقـد قـامـوا بتسميم الورق، الذي عرفوا أنه سوف يرسل إلى البلدان المسيحية، ونتيجة لذلك، فإن عدداً كبيراً من الناس في فـرنسـا —وكـانوا على غير دراية بهذا الفعـل الشرير— قـد قتلوا، لكن مالبث أن تمّ اكتشـاف ذلك، فجرى الإعـلان بوساطة المنادين في المدن الرئيسيـة في فـرنسـا وانكلترا، من أجل تجنب هـذا الخطر بحـذر وعناية، وقـال أشخـاص آخرون، بأن التجـار قـد فعلوا ذلك من أجل بيع الورق القديم، والمخزون منذ زمن طويل، بشكل أحسن، وسعر أعلى.

تكريس رتشارد مستشار كنيسة إكستير لكرسي ذلك المكان

في حـوالي هذا الوقت، أي في حوالي أول كـانون الأول، جـرى تكريس المعلم رتشارد، مستشار كنيسة إكستير Exeter, وكان رجلاً بلا ملامة، وصـاحـب أخـلاق حميـدة، وكـان متعلماً، وجـاء تكريسـه أسقفـاً لكنيسـة إكستير، وكان ذلك في ردنغ.

وفاة وولتر إيرل مارشال

في الرابع من كانون الأول، في هذا العـام، أوكما يقول آخرون، في الرابع والعشرين من تشرين الثـاني، ذهب وولتر إيرل مـارشال من طريق الجسـد كله في لندن، وكـــان قـد دفن في تينتيرن Tintern قـرب ستريغـــــويل Strigoil, حيث جرى دفن عدد من أجداده النبلاء.

موت أنسلم أخو المذكور أعلاه

وبعد ذلك بـوقت قصير، وفي اليوم الثالـث، قبل يوم عيد الميـلاد، مات أنسلم، الأخ الأصغر التالي، المذكور أعـلاه، وبما أنهما معاً توفيا من دون أي أولاد، فإن ذلك الميراث الفخـم قـد توزع بطـرق مختلفـة، وآل إلى ملكيـة كثيرين، بسبب أخواتهما، اللتان إليهن آلت بشكل حاد.

شعارات النبالة التي ويا للأسف انخفضت في إنكلترا وهؤلاء هم

— المارشال

— ايرل شيستر

— ايرل آروندل

— ايرل مانديفيل

— ايرل هنتنغدون

— دوبني Daubney

— هوغ دي لاسي (في ايرلاندا)

— كونت ريموند (في بروفانس)

— وليم أوف لانكستر

— أوسبرت غيفارد

— وولتر بن غيلبرت دي بوهون مع أخيه

— الاسكندر آرسيك Arsic

— روبرت أوف روبسلي Ropesly

— روبرت دي بورغيت Burgate

— روبرت دي تيرنهام Turnham

— وليم
— نيقولا ⎫ دي ستوتفيل Stuteville
— يوستاس

— روجر دي مونتبيغنت Montbegunt

— فيليب دي أولكوت Ulecote

— فولكس دي بروت Breute

— رتشارد بيرسي Percy

— هنري دي تربلفيل Trubleville

— فيليب دوبني Daubeney

— رالف دي تربلفيل Trubleville

— رتشارد دي رفرز Rivers

— رتشارد بن روبرت تشيلشام وابنه رتشارد أوف دوفر

— ايرل أوف ووروويك Warwick

واقعة مدهشة تتعلق بـ و. W مارشال الكبير وأبنائه الخمسة

أصاب سوء حظ محزن ومبكي، لم يسمع بمثله من قبل، الأبناء الخمسة لـ و. W مارشال الكبير، الذين انتزعوا من بيننا — وفقاً لتسلسل تواريخ ميلادهم — من دون أولاد، في حين كان الازدهار مبتسماً لهم في وسط ممتلكاتهم، وفي بداية الحياة، وذلك تماشياً مع نبوءة أمهم، التي قالت

بأن: «كل واحد منهم سوف يكون ايرلاً لايرلية واحدة»، وصحيح أن أنسلم لم يكن ممنوحاً ايرلية، لكنها آلت إليه، وهكذا برهنت أمهم على أنها كاهنة متنبئة، وأنا لاأعتقد على كل حال، بأن ذلك قد وقع من دون إلهام لاهوتي، وبما أن هذه الواقعة جديرة بالذكر، رأينا أن من المناسب اقحام رواية عنها في هذا الكتاب، فعندما كان وليم المتقدم ذكره —والذي كان محارباً وشجاعاً، ولقبه الـ Moreschal (أي قهرمان المريخ)— مشغولاً بالقتل والنهب في ايرلندا، وكان يحصل على أراض واسعة، استولى بالاغتصاب والقوة، وانتزع من أسقف مقدس عزبتين، كانتا عائدتين إلى كنيسته، واستحوذ عليهما، وكأنهما ملك له بإدعاء عادل، لأنه حصل عليهما في الحرب، وقام الأسقف، بعد اصداره تحذيرات كثيرة له، التي ردّ عليها الايرل بعجرفة، واستمر في استحواذه على العزبتين المذكورتين، كما أنه تمسك بذنبه وأصر عليه بتمرد، قام منفجراً باصدار قرار الحرمان الكنسي ضده، وكان ذلك لسبب صحيح، لكن الايرل استخف بهذا، وادعى أن القرار صدر في أيام الحرب، ولذلك كدّس الأذى فوق الأذى، وبسبب هذه الإجراءات، قام واحد اسمه المعلم غيرفاس Gervase دي ميلكيلي Melkeley بنظم شعر حوله، وتحدث وكأنه شخص الايرل قائلاً:

أنا في ايرلندا زحل، وفي انكلترا أشعة الشمس تحيط بي

وفي نورماندي أنا عطارد، لكن في فرنسا، المريخ إلى الأبد قد وجدني

ثم إن الايرل المذكور، احتفظ بهاتين العزبتين تحت سلطته طوال حياته، وقد مات بعد عدة سنوات، ودفن في المعبد الجديد في لندن، ووصلت أخبار هذه الواقعة إلى علم الأسقف المذكور (الذي كان أسقف فيرني Fernes, وكان راهباً من طائفة السسترشيان، كما أنه كان ايرلندياً من حيث المولد، وكان رجلاً صاحب قداسة مدهشة) فقام بعد بذل جهد شخصي كبير، فذهب إلى الملك، الذي كان في ذلك الوقت مقيماً في لندن،

وتقــدم بشكوى ثقيلة حـول الأذى المتقــدم ذكـره، الذي اقترف بحقــه، وأوضح أنه قـام بحـرمـان الايرل المذكـور كنسيـاً لهذا السبب، وهو سبب صحيح، ثم إنه توجّـه بالرجاء إلى الملك، أن يستخـدم سلطاته الملكية، وفي سبيل تحرير روح الايرل وليم المذكور، فيعيـد العزبتين إليـه، فبذلك يمكن للميت أن يحصل على منفعة التحليل، وأسف الملك وتأثر كثيراً لدى سماعه هذا، وطلـب من الأسقف الذهـاب إلى قبر الايرل وتحليله، واعــداً بـأنه شخصيـاً سـوف ينظر في ترضيـة تقـدم لـه، وبناء عليـه ذهب الأسقف إلى القبر، وقـام بحضـور الملك مع أشخـاص آخـرين كثـر، وتوجّـه بالحديث وكأنه يخاطب واحداً حياً في القبر، حيث قال:

«وليم، أنت الذي مدفون هنا، ومغلول بأغلال الحرمان الكنسي، إنه إذا ماجرت إعادة الممتلكات التي انتزعتهـا ظلماً من كنيستي مع ترضية كافية، بوساطة وكـالة الملك، أو بوساطة وريثك، أو أي واحـد من ورثتك، فإنني أحللك، وإذا كان الأمـر غير ذلك، إنني أقوم بتأكيد القـرار المذكور، حتى إذا ما ظللت متورطاً بذنوبك، فإنك سـوف تبقى في جهنم، رجلاً مداناً إلى الأبد»، ولدى سماع الملك هذا بات غـاضبـاً، وانتقد قسـوة وعدم اعتـدال الأسقف، وعلى هذا ردّ عليه الأسقف قـائلاً: «لاتندهش يامـولاي، إذا ما كنت منفعـلاً، لأنـه جـرد كنيستي من أعظم منافعهــا»، ثم إن الملك تكلم بشكل سري مع وليم الابـن الأكبر للايرل، ووريثـه في كـل ممتلكاته، وهو الذي تولى الآن الايرليــة، وكـذلك إلى بعض اخــوته، ورجـاهم بـإعـادة العـزبتين المتقدم ذكـرهما، اللتـان انتزعتـا منه بشكل غير عـادل، وذلك في سبيل تحرير روح والدهم، وعلى هذا رد وليم قائلاً:

«إنني غير مصـدق، كما ينبغي عليّ أن لاأصدق، بـأن والدي قد استـولى عليهن خطأ، لأن الذي أخــذ في وقت الحرب، أصبح ملكاً شرعيــاً، وإذا كان ذلك الأسقف العجوز والأحمق قد تفوه بالحكم بشكل غير عادل، من الممكن أن يقـذف عائـداً على رأسـه، وإنني لاأختار انقـاص الميراث الذي

عهد به إلي وتوليته، وقد مات والدي، وهو متملك لهاتين العزبتين، وقمت أنا، بموجب حق صحيح، بتملك الذي وجدته»، وعلى هذا القرار وافق جميع الإخوة، ولأن الملك كان في ذلك الوقت رجلاً صغير السن، ولأنه كان تحت الوصاية، ما كان له بأي حال من الأحوال أن يغضب مثل ذلك النبيل القوي، وعندما أصبح هذا معروفاً فيما بعد لدى الأسقف، ازداد حزنه بسبب تمرد الأولاد، وكان ذلك أكثر من الأذى الذي لحقه في المقام الأول من قبل الأب، ثم إنه ذهب إلى أمام الملك وقال له:

«إن الذي قد قلته، قد قلته، والذي قد كتبته كتبته بدون تراجع، وقرار العقوبة قد ثبت، والعقوبة نزلت من الرب على الفاعلين المجرمين، والجريمة التي جرى وصفها في المزمور قد فرضت بدرجة عالية على الايرل وليم الذي منه اشتكيت، ففي جيل واحد سوف يتم تدمير اسمه، وسوف يكون أولاده من دون نصيب في مباركة الرب، وسوف ذلك يزداد ويتضاعف، وسيموت بعضهم بوساطة ميتة محزنة، وسيجري توزيع ميراثهم، وكل هذا يامولاي الملك سوف تراه أثناء حياتك، لابل في مطلع حياتك»، وبعد فراغه من هذا الخطاب بشكل مؤلم صادر عن القلب، وكأنه ألهم بروح نبوءة، غادر الأسقف وانصرف في اليوم التالي، وهكذا كان ذلك النبيل وليم مارشال الذي وضع ثقته واعتمد على الذراع الجسدي، قد ترك مغلولاً بأغلال التكفير، وكبرهان شاهد على هذه الواقعة، حدث فيما بعد، بعد وفاة أولاده، عندما جرى تكريس كنيسة المعبد الجديد، في سنة ١٢٠٠، تمّ العثور على جسد الايرل المذكور على حاله، مخاط عليه بجلد ثور، وكان مهترئاً بشكل بشع أن تراه، ومقززاً للنفس، وتبع آخر الإخوة خطاه، وهو وولتر مارشال الذي بقي وحيداً، لأنه مع أنه كـ ر قد وعد بشكل مؤكد بقوة، بتقديم مورد مقداره ستة شلنات إلى دير القديسة مريم العائد إلى رهبان هارتفورد Hertford, وأعطى وعداً مكتوباً حول الموضوع نفسه، بسبب أن أخاه الايرل غيلبرت

قد توفي هناك، وماتزال أمعاؤه مدفـونة هناك، قد نسي عهده ووعده، الذي عمله من أجل انقـاذ أخيه، وبعـدمـا تسبب بكثير من الازعاجـات لرئيس رهبـان الدير المذكـــور، برهن على نفســه بأنه مخادع ظـاهر ومكشـــوف وعدواني.

كيف زحف الإمبراطور فردريك ضد الميلانيين

وكـان البابا في هذه الآونة قـد أقنع نبـلاء ألمانيا، الذين إليهم يعـود حق الانتخاب، ليقوموا بانتخـاب امبراطور جديد عليهم، ووافق المقدم بينهـم، وهو كـونراد، رئيس أساقفـة ثورنجيـا، في التركيز على اللاندغـريف أوف ثورنجيـا، الـذي رفض على كل حـال، الاستجـابة، أو القبـــول بمثل هذا العمل من التهور، حيث أنه كان راضيـاً بدوقيته، وفضّل أن يتمتع بالسلام والأمان، على أن يثق بالمخاطرات والمغـامرات، واحتمالات الحرب، خاصة ضد الامبراطور فردريـك، الذي غالباً ماجرب قـدراته، والذي وجده مثل ثعلب مليئاً بالمكر، وقـام البـابا، على كل حـال بتشجيعـه، وحثـه، ووعـده بالحماية، وبحماية الكنيسـة العالميـة، وأرسل الميلانيـون أيضاً، والايطاليـون المتحالفون معهم، رسلهم الخاصين، وتوجهـوا بالدعاء إلى حكمته الرزينة، ووعـدوه بمساعـدتهم الفعالـة والمشورة في كل شيء، إذا مـا وافق على هذا الانتخاب ليكون في مكان فردريك المذكور، الذي هو رجل مرتد، ومحروم كنسياً، ومخلوع، وواحد ممقوت من الرب ومن الكنيسة.

وعندما سمع الامبراطور فردريك بهذه الاجراءات، صرّ بأسنانه غضباً، وحـزن لأنه رأى أعداءه يرفعـون رؤوسهم معاداة له، ويكدسـون الإهانة فوق الإهانة، والتهـديد فوق التهديـد ضده، وأملاً منه بأن يقـوم بالانتقام كلياً، قام بتعبئة قواته، ولأنه كان عارفاً بتحركات أعدائه من قبل، قام بمكر بوضع كمين خلف عدوه، تحت قيادة ابنه هنري، ملك سردينيا، واستدرج الميلانيين إلى القتـال، عندما كانوا على شك الانقضـاض بطريقتهم المعتادة، وحمل الميلانيـون متقدمين على شكل حشـود غير عارفين بـوجود الكمين،

واندفعوا غير هيابين، وبجرأة نحو الامبراطور فردريك، وتمركز ملك سردينيا بين الميلانيين وبين مدينتهم، وقاتلهم بحد السيف، حيث اقترف بينهم مذبحة كبيرة ومؤلمة، وعندما نظر سكان ميلانو نحو الخلف، وشاهدوا طرق التراجع مقطوعة، والمنافذ إلى مدينتهم مغلقة، أصيبوا باليأس، وسقط عدد منهم قتلى، حيث أنهم تركوا —على كل حال— نصراً دموياً إلى الامبراطور، وسقط من على الطرفين عدد لايحصى، ولدى سماع الناس بما حدث، بكوا بحزن عميق مثل هذا العدد الكبير من المسيحيين.

مقتل رئيس شمامسة يورك في ردهة الكنيسة

وأثار في هذه الآونة واحد من كهنة يورك بالإهانة والملامة، غضب واحد من الفرسان فأقدم على قتله في ردهة الكنيسة، ولم يكن الفارس من أصل متواضع، وقد اعتقل وألقى به في السجن، حيث انتظر انزال العقوبة لجريمته.

سوء معاملة الفرنسيين للبواتيين

وأثناء هذا الوقت كله، أصبح البواتيون التعساء، الذي لايستحقون الرحمة، لأن الخيانة مغروسة فيهم، ممقوتين في أعين الفرنسيين، إلى حد أنهم لم يتجرأوا، لابل لم يسمح لهم بإعطاء بناتهم بالزواج من دون إذن الفرنسيين، وبما أن السيادة عليهم كانت الآن بأيدي قوم يكرهونهم، سقطوا في أدنى الأوضاع وأسوأها، وعن استحقاق قطفوا ثمار طرائقهم، تحت نير العبودية المضاعف للمصريين، وقد أسفوا الآن لتسلمهم خيانياً تلك المبالغ الضخمة من الملكين، ولأنهم خدعوا وطردوا من أراضي سيدهم الطبيعي، الذي لأنه وجد اخلاصاً في أناس غير مخلصين، الذين في عطشهم للربح، سقطوا في المصيدة، أما قلاعهم التي كان من المفترض تدميرها بناء على إرادة أعدائهم، سمح لها مع صعوبات بالبقاء، بعد دفع مبلغ كبير، على شكل مال فدية، وجرى وضع حاميات فرنسية فيهن، لأنه:

سوف يبقى عبداً أبداً

الذي عقله للغنى يظل تواقاً

الإمتياز الذي حصل عليه أسقف لنكولن من البابا

وفي هذه الآونة، مع اقتراب الشتاء، كان روبرت أسقف لنكولن، مثل اسماعيل لايعرف الراحة، معارضاً لكثيرين، وهو نفسه معارضاً من قبل كثيرين جداً، فبعد كثير من النفقات والاضطراب، حصل على طلبه ضد الكهنة، حسبما ورد ذكر ذلك، في الرسالة التالية من البابا، الذي كافأه ببعض الهدايا الثمينة:

«**من أنوسنت، إلخ، إلى أخيه المحترم أسقف لنكولن، صحة ومباركات رسولية:** بين أشياء كثيرة غالباً ما تهاجم عقلنا —الذي هو غير جدير كما نحن، الذين بقدر من الرب نرأس على إدارة وتدبير الكنيسة العالمية— هذه الظروف التي تضغط علينا أثناء تأملاتنا المتوالية، وهي أن الكنائس التي هي مضطربة بالخلافات، ينبغي أن لاتنهار تحت النفقات التي جنتها منهن، وأن نهاية موائمة ينبغي أن توضع لذلك، وذلك وفقاً لجهود الفرقاء، تكون دائمة، ومن ذلك مسألة الخلاف الذي نشب بينك أنت شخصياً من جانب وبين عميد وهيئة الكهنوت في لنكولن من الجانب الآخر، وذلك فيما يتعلق بمراتبهم والامتياز العام العائد لهم ولأتباعهم ولبقية الكنائس، وكذلك فيما يتعلق بالزيارات التفتيشية، وتقويم واصلاح الأخلاق، وكذلك بالنسبة للعمداء، والكهنة ورجال الدين في جوقة المنشدين، وكذلك بالنسبة للقساوسة، والوكلاء والخوارنة وكهنوت الكنائس المذكورة، وأيضاً مايتعلق بالاحترام، والطاعة القانونية، التي ينبغي أن تقدم إليك من قبلهم، وأيضاً مايتعلق ببعض المراتب الأخرى، وقضايا عائدة إلى المكتب الأسقفي، وقمنا نحن بعد إرسال بعثات مختلفة إلى الجانب الأول ثم إلى الجانب الآخر، فحصلنا من الكرسي الرسولي أمام القضاة، ونتيجة لإجراءات تمت من قبلهم، على الرغبة بوضع نهاية لتلك القضية، ولقد

إرتأينا أن من المناسب وضعها تحت إشرافنا، وبما أنك قد ظهرت أمامنا مع قسيس الفئة الأخرى، وجرى العرض من قبلك، أنه بموجب منقبة منصبك الأسقفي، متوجب عليك القيام —بحكم الامتياز العام— بزيارات تفتيشية للهيئة الكهنوتية لكنيسة لنكولن، مع جميع الكنائس المرتبطة بها، مع التقدير لمراتبهم ولامتيازاتهم العامة، وعليك تأدية هذه الواجبات العائدة إلى مكتب الزيارات التفتيشية، وفقاً لصيغة القانون، وبما أن الهيئة الكهنوتية وكذلك الكنائس هم بموجب الامتياز العام خاضعين لك، فأنت ملزم بتقويم أخطاء العميد، وكذلك الكهنة جميعاً، ورجال الدين في جوقة المنشدين، وأيضاً القساوسة، والنواب والحجاب، وكهنة الكنائس المتقدمة الذكر، وأن تقوّم أخلاقهم، حتى لايجري طلب دمهم على يديك، وأن تقوم أيضاً بفحص جميع قضايا الأشخاص المتقدم ذكرهم وتقريرها، وذلك عندما ينشب خلاف فيما بينهم أنفسهم، أو ضد أي واحد يتولى معارضة عملك الأسقفي، أو آخرين ضدهم، سواء أكانت القضايا مدنية أو جرمية، عائدة إليك بشكل صحيح وعادي، وعائدة بالوقت نفسه إلى القضاء اللاهوتي، ولقد قام العميد والهيئة الكهنوتية —على عكس ماتقتضيه العدالة— بمعارضتك في هذه القضايا، وهكذا لم يعد بامكانك القيام بحرية، بتنفيذ الواجبات التي يتطلبها منصبك.

وعلاوة على ذلك، قد أضفت، أنه بحكم كونك رئيس كنيسة لنكولن، من المتوجب طلب موافقتك، قبل القيام بانتخاب العميد لكنيسة لنكولن، ومع ذلك فقد أكدوا من جانبهم أنهم يمتلكون الحرية، للقيام بإجراءات انتخاب العميد من دون طلب إذنك، وأنت طلبت اظهار العدالة بالنسبة لك حول هذه المسألة، ولقد قلت أيضاً أنه مع أن العميد لدى تثبيته، وكذلك الكهنة عندما تضفى الكهنوتية عليهم، عليهم بموجب الحق، تأدية قسم قانوني بالطاعة إليك، هم لم يقوموا بهذا الاحترام المتوجب، ولم يزعجوا أنفسهم حتى الآن للقيام بذلك، وعلاوة على ذلك لقد ادعيت، أنه

بموجب قانون الأسقفية، فإن عائـدية العمادة، ومراتب الأوقاف الشاغرة، راجعـة إليك بموجـب الحق، ومع ذلك فإن العميد المتقـدم ذكـره، والهيئة الكهنوتيـة، قامـوا معارضـة منهم للعـدالة، بمعارضتك في هذه القضـايا، وبناء عليه طـالبت بايضاح حقـوقك في المسائل المتقـدم ذكرها، وأن يجري تقـويـم ذلك بمـوجب قـرار محدد، وأن يجري قبـولـك لمنصب الزيارات التفتيشية في الهيئة الكهنوتية في لنكولن، وفي الكنائس المرتبطة بها، مع تقدير للمـراتب وللحقوق العـامة، وأن يسمـح لك باصلاح الأخطاء، وتقـويم أخـلاق جميـع الفئات المتقـدم ذكـرها، دون الاهتمام بمعـارضـة العميـد والكهنة، وأن يجري التفوه بقـرار حول هذه القضـايا، وأن يفرض الصمت عليهم إلى الأبد، مالم يكـن بإمكانهم بموجب امتياز مـن الكرسي الرسولي، أو بموجب حق خاص الدفاع عن أنفسهم ضد الاعتراض المتقدم ذكره.

وقـد سألت أيضـاً بأن يدفع لك قـدر كـاف من المال، يجري منحـه لك بموجب الزيارة التفتيشية للهيئة الكهنوتية، وكذلك النفقات التي تتحملها في هذه الزيارات ينبغي أن تسدد إليك، وأنه كلما قدمت إلى كنيسة لنكولن، عليهم قرع أجراس الكنائس لك، وأن يظهروا الاحترام لك، بحكم كونك أبيهم، وكذلك لاينبغي من الآن فصاعداً للعميد أن يرغم أي كاهن على أن يقسم يمين الطاعـة الكهنوتيـة له، مـالم تكن المكانة الأسقفيـة وسلطاتها متوقعـة، وأن لايرغم أي كاهن أن يقسم على مراعـاة أي من العادات التي هي مناقضـة للمـراسيم الكهنوتيـة، وأن لايجوز له من الآن فصـاعـداً، أن يصدر في تلك الهيئة، أيـة مراسيم يمكن أن تكون متعارضـة مع الأحكام، وضد السلطات الأسقفية ومرتبتها.

ولقد طالبت أيضـاً أنه بالنسبة للزيارات التفتيشيـة للأوقاف وللكنائس —مع التقدير لمراتبهم ولحقوقهم العامة— هي عائدة بموجب الحق إليك، وينبغي إرغـام العميـد بمـوجب قـرار، على الاقـلاع عن القيـام بزيارات تفتيشية لهم، ولقـد فند القسيس مع الآخرين من الفئـة —على كل حال—

المسألة، وأجـابوا بأن الافـادة التي عملت لم تكن صحيحـة، حسبما جـرى عرضها، وأن هذه المطالب لاينبغي الاستجابة لها، وبناء عليه جرت مناقشة القضية قانونيـاً، وبعد الإصغاء بعناية إلى مرافعـات كل من الطرفين، وبعد مداولات، وبناء على نصيحة إخواننا، إننا في نهايتهـا نصدر مرسوماً، بأنك مقبول بكل حـرية للقيام بالـزيارات التفتيشية للعميد، وللهيئـة الكهنوتية، وكذلك إلى الكهنة، وإلى رجـال الدين في جوقة المنشدين، وإلى القسـاوسة، وحجـاب الكنائس، والكهنة العائـدين إلى الكنائس المتقـدمة الذكـر، وأن تقوّم أيضـاً أغلاطهم، وأن تصلح عاداتهم، وعلى كل حال سـوف لن تقدم نفقـات مـاليـة من قبل الهيئة الكهنوتيـة في الكنيسـة الكاتدرائيـة، من أجل الزيارات التفتيشية، وأخطاء كهنة الكنيسـة الكاتدرائية، التي جـرت العادة بتقويمهـا من قبل الهيئة الكهنوتيـة، سوف يجري تقـويمها من قبلهـا، وفقاً لعرف الكنيسـة، الذي جرت مـراعاته حتـى الآن بسلام، وأن يجري تعيين ذلك لهم بناء على دعـوتك وأوامـرك، وأن يكون ذلـك من قبلك ومن قبل خلفـائك في مـدد مناسبـة، وإنه منذ ذلك الـوقت سـوف تقـوم أنت أو خلفـاؤك، وقـد وضعتم الرب القـدير أمـام أعينكم، بتقـويمهم بالروادع الكنسية، وذلك حسب ما تتطلبه معالجة النفوس.

ونحن نأمر أيضاً الكهنة المتقدم ذكرهـم بمراعاة الطاعة الكهنوتية، وأن يقدمـوا الاحترام لك، وهم ليسوا على كل حـال مرغمين على ربط أنفسهم لهذا بيمين، أو بإعطاء أيديهم، أو بالوعـد، حيث لست مخولاً بهذا العـرف، وبالنسبـة لقضـايا ما طلبتـه بإلتماسك، نحـن نحلل العميد المتقـدم الذكـر والهيئة الكهنوتية، وبناء عليـه، ما من أحد سـوف يسمح له بالاعتداء على هذا،أو أن يقاومـه بطيش، أي ما جاء في كتابتنا المحـددة، وإذا ما حاول أي واحـد الاقـدام على فعل من هـذا القبيل، هو سـوف يجني غضب الرب القـدير، والرسـولين المبـاركين: بطرس، وبولص. صـدر في ليـون، في هذا اليوم الخامس والعشرين من آب، في السنة الثالة من بابويتنا».

موت جون أسقف هارتفورد

في الرابع عشر من تشرين الأول من هذا العام، دفع جون أسقف هارتفورد دين الطبيعة ذلك أنه عاش ثلاثين سنة، منذ أن حرم من أسقفيته بناء على أمر من البابا، إنما احتفظ —على كل حال— بمرتبته الأسقفية، ولدى اغلاقه لحياته السعيدة الفانية، لم ينس إضفاء بعض المنافع على كنيسة القديس ألبان، فترك في وصيته إلى تلك الكنيسة كتبه، وبعض الزينة الكنسية، ولذلك كوفىء بنيل حصة في جميع الأعمال الجيدة التي عملت فيها، وكأنه كان راعي دير آخر، وقد دفن هناك فيها، أمام مذبح القديس أمفيبالوس Amphibalus مع كل المهابة المستحقة.

موت وولتر راعي دير بورغ

في الثاني والعشرين من كانون الأول من هذا العام، وبعد كثير من الارهاق غير المستحق والاضطراب ومرض ثقيل، حصل في بلاط روما بسبب تلك القضية، غادر وولتر، راعي دير بورغ Bourg طريق الجسد ، مما سبب خسارة كبيرة واضطراباً لكنيسته.

الخديعة اللطيفة والتقوية للملك الفرنسي

مع اقتراب حلول عيد ميلاد مولانا، وهو الوقت الذي اعتاد فيه النبلاء على توزيع ألبسة وغيارات جديدة من البقايا —وهو ما ندعوه بالعادة بشكل عام، الثياب الجديدة— على آل بيوتهم، كان الملك الفرنسي، هو الذي تولى حمل عمل الصليب، وجعل من نفسه المسؤول عن التبشير، والوكيل المسؤول عن قضية الصليبية في شكل جديد، لأنه أمر بصنع أردية مع ملحقاتها، بأعداد كبيرة، أكثر مما هو معتاد، بأن تصنع من أغلى الأقمشة، مع جلود مختلفة فيهم، وصلبان تعمل من أفضل أعمال الذهب، حتى تخاط على جزء الكتف من الأردية، وأمر بصنع هذا كله بسرية فاعلة، وفي الليل، والصباح الباكر، أمر الفرسان بارتداء أرديتهم الملكية، ليظهروا معه في الكنيسة لسماع القداس،

الأمـر الذي فعلوه في الصبـاح البـاكـر، حتى لايتعـرضـوا للنقـد بالكسل أو التراخي، وفيما هم على نية القداس:

وعبر العالم الشمس المرحة

بدأت ثانية تسير في مسارها

ووفقاً لمثل بيرسيوس Persius:

كل واحد يرى المخلاة على ظهر جاره.

فقد حمل كل فـارس شارة الصليب، وهي معمولة على كتفي جـاره، وبعـد لأي اكتشفوا بأن الملك مارس هذه الخديعـة التقوية عليهم، وقد دخلـوا الآن على طريقة جـديدة، لم يسمع بها من قبل حول التبشير بالصليبيـة، وأصبحوا مبشرين بالأفعـال أكثـر منهم بالأقـوال، وبما أنه بدا أنـه غير لائـق ومهين، وكذلك غير جـدير بهم، أن يضعوا جانباً هـذه الصلبان، قاموا مع ابتسـامة، لم تكن —على كل حـال— مـن دون رغبـة، ومع فيـض من دمـوع الفـرح، فأطلقـوا على الملك الفرنسي —بسبب هذه الواقعـة— اسم «صياد الحجـاج» و«صياد سمك جديد».

مختصر أخبار السنة كلها

كانت هذه السنة مـدهشـة ووافرة بالقمـح، وزادت بخصبهـا العـظيم عن السنة المتقدمة كثيراً حتى أن مقياس القمح هبط سعره إلى شلنين فقـط، ولكن بسبب اضطراب الفصـول وسـوء أحـوال المناخ في الصيف لم تنتـج أشجـار الفواكـه أية ثمار، وكانت أحـداث السنة منتجة للازدهار وللزيـادة خـاصة في فرنسـا، وكان هناك اضطراب وخسارة بالنسبة لانكلترا، وللأرض المقـدسة، عدوانية وخطر، وبالنسبة للايرلنديين متاعب وإنهـاك، وبالنسبة للويلزيين دم وسوء حظ، وللبواتيين سـوء معامـلة، وكأنهـم أولاد جاءوا من زوجة الأب، وجعلت هذه السنـة الامبراطوريـة كلها وبلاط روما يرتجفان.

عام ألف ومائتين وستة وأربعين
غضب البابا ضدّ الإنكليز بسبب أنهم تجرأوا على الشكوى في المجمع

عـام١٢٤٦، الذي هو العام الثـلاثين من حكم الملك هنري الثـالث، وفي عيد الميلاد لهذا العام كـان الملك المذكور في لندن، بصحبة عدد كبير من نبـلاء المملكة، ومع أخيه الايرل رتشـارد، والملكة، وأختها كـونتسة كـورنوول، الذين جميعـاً، بعـدما عـانوا من إرهاق اليـوم وحـرارته مع الملك، في ويلز، احتفلوا بعيـد الميـلاد مـع كثير من البهجـة، وهكذا فإن هؤلاء الذين كـانوا رفقاء في الاضطراب، كـانوا الآن شركاء في السرور والبهجـة، لكن حـدث في هذه الآونة، في سبيل أن لايبتسم السرور على الفانين من دون أن يمتزج بالحزن، أن راجت شائعـة مريبة، وصدر عن هذه كثيراً مـن الشكوك، حيث تحدثت عـن أن البـابـا مـايـزال يحتفظ بمشـاعـر الحقد في قلبـه، مع أنه لم يبـق هناك سبب منطقي لفعله ذلك، وفي الحقيقـة كـان هو غـاضبـاً كثيراً، وشرع بتهـديـد الملك والمملكة الانكليـزية بكثير مـن الطرق المتنوعـة، وأعلن أنـه إذا استطاع اخضـاع الامبراطور فردريك، فلسـوف يطأ بعد ذلك الشموخ المتمـرد للانكليز، الذين كانوا يتحركون ضـده، لأنهم قاموا بالشكاية في المجمع ضد مظالم البـلاط الروماني، وبشكـل خاص حـول الجزية، لأنه بدا بالنسبـة له أن الانكليـز التعسـاء، ينبغي عـدم السماح لهم بالبكاء أو التنهـد تحت تأثير المضار المضاعفـة التي أنزلت بهم، فخلال المؤتمر السري والطويل، الذي عقده مع الملك الفرنسي في كلوني، سعـى لاقناع ذلك الملك، ولتحريضه للقيـام بانتقـام كـاف بسبـب هذا الأذى، ويكون بالهجـوم على الملك الانكليزي الضعيف، وبتجريده من ميراثه، أو على الأقل معاقبته بطريقة تجعله ينحني، شـاء أم يشأ، أمام إرادة البلاط الـروماني، وفي هذا المؤتمر قـال قداستـه بأن السلطات البـابوية سـوف تساعـده بأقصى جهـودها،

وهذا كما يقـال بأن الملك الفـرنسي قـد رفـض بكل إصرار فعله، لأن الملكين كـانا أقرباء، وملكاتهما أختين، ولأن الملك الفـرنسي لم يكن لديه إدعاء واضح في مملكة انكلترا، ومجدداً لأنه كانت هناك هدنة بينهما، وأن هذه الهدنة كـان المطلوب إطالتها بسبـب حجه، بدلاً من نقضهـا بشكل خياني، وبسبب أنه كـان هناك عدو أكثر قـوة، ينبغي تدجينه، وهو عدو أكثر إيذاء للكنيسة الرومانية، وكان ذلك العدو هو فردريك، كما أنه لن تكون الدمـاء المسيحيـة قليلـة هي التي سـوف تسفـك، قبل أن تذعن المملكة الانكليزية للفرنسيين، ولأن الصليبيين في الأرض المقـدسة كانوا عـرضـة للعسف وللتنكيل من قبل المسلمين، ويتـوقعون قـدومـه، مثل أناس سفينتهم عرضة للغرق، وينتظرون ريحاً أكثر لطفاً ومواءمة.

غضب ملك إنكلترا من الأذى الذي لحق به من كونتسه بروفانس

قبل عيـد الغطاس ومع الفـراغ من الاحتفـالات المهيبة لعيـد ميـلاد الرب، وصلت تقـارير من بروفـانس أزعجت الملك وأقلقتـه إلى درجـة عالية، ذلك أن بيترايس كونتسه بروفانس، وأم الملكة، التي كانت تتسلم منذ خمس سنوات مبلغـاً سنوياً مقـداره أربعـة آلاف مـارك، من أجل تحصين ست عشرة قلعـة في بروفـانس، كـانت عـائـدة إلى الملك بحكم زواجه، قـد قامت دون تذكر للعـدل، ولاخلاصها ولاتفاقيتهـا، وناسية للتشريفـات، وللكرم الذي أضفـي عليهـا عندمـا ذهبت إلى انكلترا، فتخلت عن بروفـانس وتنازلت عن قلاعهـا إلى الملك الفرنسي، دون أن تذكر حقـوق ملك انكلترا، أو اتفاقيـاتها معه، وأعطت ابنتهـا الصغرى، التي هي الآن حـرة وآمنة من المؤامـرات ضـدها، إلى الملك الفـرنسي لتتزوج من ابنه شـارل، وبهذا خرقت الكونتسه المذكورة عهـدها بدرجة سيئة، وذلك بقـدر ما كانت قـد وعدت الملك الانكليـزي بشكل ثابت ومخلص، بأنها سـوف لن تسلم القلاع المذكـورة إلى أي كان، ولا بشكل

من الأشكال، إلاّ له، ولم يقابل الملك —على كل حال— بالتعاطف أو بالمواساة من قبل أي واحد من أجل خسارته واهانته، لأن الكونتسه بيترايس عندما قدمت منذ بعض الوقت إلى انكلترا في أبهة عظيمة، قام الملك من دون تقدير لما ينبغي ولما هو موائم، وبطريقة غير اعتيادية وغير مستقيمة، باخضاع نفسه وأتباعه وممتلكاتهم إلى انفاق كبير جداً، حسبما ذكرنا من قبل في المكان المناسب، وبناء عليه، يقال أن الكونتسه المذكورة، بعدما وزنت بمكر أعمال الملك وكلامه، قالت: «أنا آسفة لأنني أعطيت ابنتي (اللتين دعتهما حسب التعابير العامية في بروفانس: ولديها) بالزواج لهذا الملك ولأخيه».

الملك الفرنسي يطلب تمديد الهدنة

ومع اقتراب حلول عيد القديسة هيلاري، كان الملك الفرنسي مشغولاً في التحضير لحجه، ولذلك كان قلقاً بأن جميع القضايا ينبغي تمتينها، وترتيبها سلمياً في مملكته، حتى أنه عندما سينطلق في حملته لن يترك أي مشكلة معلقة خلف ظهره، ولذلك سأل من أجل تمديد الهدنة التي كان قد عملها في بواتو بينه وبين ملك انكلترا، كما قيل بأنه عرض أيضاً بشكل سري، بعض العروض للسلام، وهي عروض، تردد ملك انكلترا، على كل حال، في قبولها، وكانت هذه العروض، تتضمن إعادة جميع الأراضي الموجودة في القارة، والتي كانت من قبل ملكاً للملك الانكليزي، وذلك باستثناء نورماندي، تعاد بشكل حر إلى ملك انكلترا المذكور، على أساس أن يتخلى عن نورماندي، التي اعتقد أن للمملكة الفرنسية حق كامل بتملكها بشكل أبدي، وردّ الملك الانكليزي على الجزء الأول من هذه الرسالة، لكنه ترك الجزء الآخر من أجل مداولات أكثر نضوجاً، فعلى الجزء الأول أعلن بأنه سوف يكون راغباً وعلى استعداد لمنح هدنة أطول إلى الملك الفرنسي، وذلك حسب رغبة هذا الملك، وذلك حتى لايظهر هو، أي الملك الانكليزي، معيقاً لمسألة

الحملة الصليبية، إنما على شرط أن لايقوم الملك الفرنسي بإيذائه، بل عليه أن يتخلى له بسلام عن ذلك الجزء من بروفانس، مع القلاع الست عشرة، التي تقدم ذكرها، والتي هي عائدة له بسبب الزواج المعقود بينه وبين إليانور ابنة ريموند، كونت بروفانس، المتوفى أخيراً.

إعفاء تمّ الحصول عليه من قبل رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الوقت نفسه، صدرت الرسالة التالية عن أسقف لنكولن، من أجل إخبار أفضل إلى الناس حول المسائل المتقدمة: «**إلى جميع أبناء الكنيسة الأم، الذين إليهم سوف تصل هذه العروض، من روبرت، الذي هو بفضل الرحمة الربانية، أسقف لنكولن، صحة دائمة بالرب:** ليكن معلوماً إليكم بشكل عام، أننا قمنا بفحص أمر وصاية من البابا، ليست عرضة للإزالة أو للإلغاء أو إبطال بأي حال من الأحوال، وصيغتها هي كما يلي»: «**من أنوسنت الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى إخوانه المبجلين: الأساقفة، وإلى أبنائه المحبوبين كثيراً، رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والشمامسة، والعمداء، والحجاب، والقساوسة الآخرين، ورجال دين الكنائس في جميع أرجاء المدينة، والأسقفية، ومنطقة كانتربري، صحة ومباركات:** إن عمق الخطط اللاهوتية، هي التي رتبت كل شيء بشكل دقيق ومحكم وحكيم، وهي ليست من دون أساسات مؤكدة وربانية، حيث تتولى تغيير مظاهر الأعمال، مثل أنها قد تقدم في وقت من الأوقات العون الضروري من الأدنى مرتبة إلى الأعلى مرتبة، وتقدم في وقت آخر العون الضروري من الأعلى مرتبة إلى الأدنى مرتبة، في سبيل أنه بهذه التغييرات يمكن لبني البشر أن يروا عدم الاستقرار في أوضاعهم، وأنهم بتعاطفهم، وبمساعدة أحدهم الآخر، من الممكن تنفيذ قانون المسيح وتطبيقه، الذي به قد أمر كل واحد بمحبة جاره، وأن يحمل أثقال أتباعه، وبما أنه بناء عليه، قد عرض علينا أخونا المحترم، رئيس أساقفة كانتربري بأن كنيسة كانتربري الآن،

وكذلـك كانت فيما مضى في أيام أسـلافه، الذين عـانوا من اضطرابات لاتحصى، وأزعجـوا بعدم تحسن عـدد كبير من الضروريات، ومثل هذا أيضاً خلال الفـراغ الطويل الذي عاشتـه تلك الكنيسة، والذي خـلاله خـرج كل من الأصـدقاء والغـرباء سـواء عن طريقهم، لنهب ممتلكاتها وتجريدها منهـم، ولذلك ضغط عليهـاكثيراً بـدين كبير وثقيل جـداً لم تتمكن إلاّ بصعوبة بالغة من تحرير نفسهـا منه، وبعد الاستعانة بالحكمة المتوفرة في الكرسي الرسولي، و قـد توجهت الآن بتواضع بالرجاء إلينا، بأن نتلطف بلطفنا المعتاد فنقدم المساعدة إلى الكنيسة المذكورة، خشية أنه من خلال تضاعف الفائدة، سوف تصبح خسائرها أكثر قسوة، وتصبح في وضع لايمكن انقـاذها منه، هذا وإن كنيسة كانتربـري المذكورة، هي فـوق جميع الكنائس الأخـرى في العـالم، وهي بحكم احتـلالها لمثل هذه المكانة، ينظر إليهـا بنظرة عـاطفـة مخلصـة، بمثـابـة أنها الابنة المحبـوبة والمتميزة بعـلامات الحظوة المنفردة، من قبـل الكنيسة الرومانيـة، برائحة طيبـة منعشة، تعيـدها إلى حالة الهدوء، والتقـدم بازدهار، ودعونا أيضـاً نعـامل كنيسـة كـانتربري المذكـورة، بذلك الامتيـاز الخاص من الحظوة والنعمـــة، وبناء عليـــه، إننا بتجـاوب مع الطلب المستعجل للكنيســة المذكورة، وبشكل رئيسي بتقدير لرئيس الأسـاقفة المذكور، الذي هو ابن مخلص، وطرف نبيل للكنيسـة متحمس في تقـواه، وفي سلوكـه بالحيـاة، ومتميز بنبالته، ويحتل لدينا التقـدير الأعلى والتعاطف، وكذلك من قبل إخـواننا، وإننا بناء على نصيحة إخـواننا نعطي موافقـة طيبة لالتماسـاته، ونعطي برســائلنا هذه، أوامـر إلى أخينا المبجل، أسقـف هيرفـورد، بأن يقوم لمدةسبعة أعـوام، وليس أكثر، فيجمع موارد السنة الأولى من جميع المنافع اللاهوتية، التي سـوف تصبح من هذا الوقت شاغـرة: في مدينة، وفي أسقفيـة، ومقـاطعـة كـانتربري، إلى أن يصل المبلغ إلى عشرة آلاف مارك، لكن إذا جرى جمع المبلغ قبل انتهـاء الأعوام السبعة، ما من شيء يجري طلبـه بعد، وكـذلك عليه أن يجمـع ألفي مارك سنوياً من مـوارد

رئيس الأساقفة المذكور، وعليه أن يستخدم تلك المبالغ المتقدم ذكرها باخلاص، من أجل دفع ديون الكنيسة المذكورة، شريطة أن يخصص ذلك الأسقف المذكور حصة كافية من تلك الموارد، ليجري تعيينها إلى الأشخاص الذين يقومون بواجبات المنافع المذكورة، للانفاق عليهم، حتى لايجري حرمانهم من المنافع المستحقة لهم، إذا ما حدث وكانت موارد المنافع المذكورة للسنة الأولى عائدة —وفقاً لعادات البلاد— إلى أشخاص يموتون، سوف يقوم الأسقف المذكور بجمع محصلات هذه المنافع في السنة التالية، وأن يضبط جميع ألسنة السوء بسلطتنا، وبناء عليه، إننا نرجو، ونحذر، ونحث، وبهذه الرسائل الرسولية نأمر جماعتكم كلها، بإيلاء الانتباه إلى حقيقة أن من الموائم لحالة الضرورة للأم، أن تلقى التفريج بوساطة ثروات أولادها، حيث عليهم باخلاص، وبلطف دعمها في أعبائها، وأن يظهروا أنفسهم متحمسين وجاهزين بالكلمة وبالفعل لجمع الموارد المذكورة، ودفعها إلى الأسقف المذكور، حتى تتمكنوا هكذا في مستقبل الأيام، أن يكون لديكم ادعاء لنيل الحظوة والارادة الطيبة من رئيس الأساقفة المذكور، وأن تجدوه على أساس هذه المسألة أكثر استعداداً، لرفع شأن منافعكم، ومنافع كنائسكم. صدر في ليون، في اليوم السابع والعشرين من آب، في السنة الثالثة من حبريتنا، وكشاهد على هذا، جعلنا خاتمنا يجري وضعه وتثبيته على هذه العروض».

غضب الملك ثم هدوئه فوراً

عندماوصلت هذه الأشياء إلى علم الملك، أصيب بالدهشة أولاً، ولأنه أثير كثيراً وغضب، عبّر عن مشاعره بصوت مرتفع قائلاً: «أنا مستغرب أن بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي أنا رقيته ورفعته إلى هذا المقام، قد تسبب بهذا القدر من النفقات إلى مملكتي، ولم يقنع بأنه قام بشكل وقح، فاقتلع من الأسقفية في شيكستر روبرت باسلو،

الذي أنا اخترته، والذي توليت ترقيته، بل إنه منخرط بالحرب يومياً، مثل قاطع طريق، وهو يعمل الآن على ابداع خطط ضدي، في سبيل إلحاق الخسارة بي، والحط من كرامتي في بروفانس، وكذلك في انكلترا، فها هنا الآن استخراج للمال لم يسمع بمثله حتى الآن من قبل، ما أكثر المصائد العائدة للصيادين، التي نصبت لخداع البسطاء من رعاياهم، فبهذه الآلية، جرى خداع نبلائي الذين إلى رعايتهم تعود الكنائس، فقد جردت الأرض من مواردها، ويخشى من تكرار وقوع مثل هذه الاستخراجات»، وعندما أخيراً، وبعد لأي همس إلى الملك أن لديه سبب صغير للغضب من رئيس الأساقفة من أجل إلغائه انتخاب روبرت المذكور، بسبب حرمانه الكنسي، حيث وجد ضعيفاً، وأيضاً بسبب أن إلغاء انتخابه كان مفيداً ومربحاً له، أي الملك، لأن روبرت كان الآن مستخدماً نفسه بنشاط يومي من أجل تعويض ملكي، مثل امرأة، وأن قراره بمعارضة هذا الإجراء قد دمر، وكما قيل هو كان ضعيفاً بكل مهانة بالاتصال الجنسي مع النساء، وهو لذلك يدعى امرأة، لأنه جلب الويل والضعف إلى الرجل.

كما أن الملك (وياللعار أقول ذلك) لم يقف بشجاعة، كما ينبغي من أجل حماية الكنيسة لأنه كان من الواضح أن كنيسة كانتربري كانت مظلومة إلى درجة عالية من قبل رئيس الأساقفة ادموند بشكل خاص فيما يتعلق بالفائدة، كما أنه لم يقف بشجاعة من أجل حماية مملكته، أو في سبيل صون كرامة الأحبار المقدسين لكانتربري، بل إنه أعطى الاذن لبونيفيس رئيس الأساقفة المذكور لكي يتسلم الاسهام المذكور من قبل في جميع أرجاء انكلترا، وأصدر على كل حال، في الوقت نفسه أمراً منع فيه أي واحد قدم من البلاط الروماني، بناء على أمر البابا، ويحمل رسائل عليها ختمه، من اصدار مراسيم بقصد استخراج مال من الكنيسة الانكليزية، ومن إفقار مملكته، وبعدم السماح لهم بالتجول في

البلاد على الأساقفة، وأن أي واحد سوف يمسك وهو يفعل ذلك، ينبغي أن يعتقل، ويحبس في سجنه الملكي، كما أنه أمر بحراسة الموانىء، وبفرض هذا الأمر على مدرائهم، وشجع هذا بعض الشيء قلوب الانكليز التعساء، الذين عرفوا عدم استقرار الملك، وعلموا بالتجارب المتوالية بأنه كان يقلع عن أي قرار، بالسهولة نفسها التي أقنع بها لعمل القرار.

كيف فرضت غرامة على اللندنيين

وحوالي هذا الوقت نفسه، مع أن المناخ الربيعي الهادىء قد ابتسم لبعض الناس، مع ذلك فإن العالم المعارض قد أزعج أوضاعهم، لأن سكان لندن، الذين كانت الرحمة الملكية ملزمة بحفظهم تحت جناحيها، في حمايتها السليمة، قد أرغموا، مع مرارة بالقلب، ومع تعرضهم لأذى كبيراً لأنفسهم ولانقاص لممتلكاتهم، أرغموا على انقاذ أنفسهم، بدفع ألف مارك، تحت عنوان «حساب»، ووافق كثير من الناس تماشياً مع نبوءة ميرلين Merlin، وكانوا شهوداً على صدقها، وأعلنوا بأن الملك هنري كان حقاً: «وشقا (حيوان) يخرق كل شيء بعينيه»، أي أن تقول يبصبص في حافظات نقود الجميع ويخرقها.

اجتماع جميع نبلاء إنكلترا

وفي الوقت الذي كان فيه نهر الزمان يقيس عمر الانسان، أصدر الملك رسائل، استدعى فيها جميع نبلاء المملكة إلى الاجتماع في لندن، في اليوم الذي يغنى به «لتبتهج القدس»، أي في منتصف الصوم الكبير، لترتيب شؤون المملكة بشكل عام.

طموح رهبان دومينيكان

وحوالي الوقت نفسه تجاوز الرهبان الدومينيكان حدود الفقر، الذي أقروه، وآمنوا به مؤخراً، وشرعوا بالصعود إلى مراتب أعلى، وشجعهم

على ذلك كونهم كانوا محترمين، ويخشى جانبهم من قبل القساوسة اللاهوتيين، وتطلعوا نحو أن لايكونوا واعظين فقط، بل معترفين كذلك، واغتصبوا لأنفسهم واجبات المعمدين، الذين جعلوهم ينظر إليهم نظرة ازدراء، وكأنهم كانوا ضعفاء وغير أكفاء بالعلم والقدرة على حكم شعب الرب، ومن ثم الامساك بأزمة الكنيسة، وبهذه الاجراءات، ظهروا لكثيرين على أنهم رجال مستقيمين، ليتولوا بشكل كبير احداث الاضطراب في ترتيبات الكنيسة العالمية، حسبما كانت قد تأسست من قبل القديسين الرسل والعلماء اللاهوتيين المقدسين، من أسلافنا، الذين كانت قداستهم ظاهرة إلى جميع العالم، ولقد وضح أنه لاطائفة القديس بندكت، ولا طائفة القديس أوغسطين قد تدمرتا بوساطة هذه التجاوزات خلال سياق سنوات كثيرة، لأن طائفة هؤلاء الدومينيكان، قد زرعت أغصانها في انكلترا خلال هذه السنوات الثلاثين، وبعد مضي سنوات قليلة، حصلوا على امتياز لم يسمع بمثله، من البابا غريغوري، الذي كان معتنياً بهم بشكل خاص، وحصلوا الآن، في الأيام الحاضرة على امتياز آخر من البابا، وجاء هذا الامتياز الجديد لتمتين الأول، مما ألحق خسارة كبيرة وأذى بالمعمدين.

إمتياز الدومينيكان الأول

«من غريغوري، الأسقف، وعبدعبيد الرب، إلى إخوانه المبجلين: **رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأبناء الأحباء رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والقساوسة، والعمداء، ورؤساء الشمامسة، ورؤساء الكهنة، ورجال الدين الآخرين للكنيسة، الذين إليهم سوف تصل هذه الرسائل، صحة، ومباركات رسولية:** بما أن الظلم بات كثيراً، والاحسان الصادر عن كثير من الناس بات بارداً، إنظر إن الرب جلب إلى الحياة، طائفة رهبان الدومينيكان المحبوبين كثيراً من قبلنا، الذين لايطلبون ماليس لهم، بل الذي هو عائد إلى المسيح، في سبيل وضع نهاية للهرطقات،

ومحق الأوبئة الأخرى المميتة، وأن يكرسوا أنفسهم بالتبشير بكلمة الرب، في فقر تطوعي شديد، وإننا بناء عليه، في سبيل معاونة قصدهم المقدس، وإحاطة قداساتهم الضرورية برعايتنا، نعهد بهم باخلاص إلى جماعتكم، ونرجو ونصلي باسم الرب في سبيل احسانكم إليهم، وبموجب هذه الرسائل الرسولية نأمركم، بحكم تبجيلكم للرب، أن تقبلوا بلطف أولادنا المحبوبين، رهبان هذه الطائفة، لأداء واجبات الوعظ، التي من أجلها أنيبوا، وأن تسمحوا للناس المعهود بهم إلى تقواك، أن يتلقوا بذور كلمة الرب من أفواههم، وأن يعترفوا إليهم، بحكم أنه مسموح لهم بموجب سلطاتنا أن يسمعوا الاعترافات، وأن يفرضوا العقوبات، ونحن نحثكم أن تقوموا بشكل مواظب، بموجب احترامكم لنا، وللكرسي الرسولي، أن تساعدوهم بكرم في ضرورياتهم، وأن يكون الناس مستعدين، بموجب حثكم، على استقبال المتقدم ذكرهم، علهم يكونوا مثل أرض خصبة، بدأت لتقدم حصاد الفضائل عوضاً عن الأشواك وعليق الشرور، وأن يتمكن الرهبان المذكورين بالتعاون معكم من إكمال عمل الخدمات الدينية، الذي تعهدوا به، وأن يجنوا الثمار المرجوة والمنتظرة، لجهودهم، أي جهود انقاذ النفوس، هذا وبالنسبة للشرور التي غالباً ما تدخل بشكل سري تحت قناع يشبه الفضائل، فغالباً ما يبدل الملاك الشيطان شكله إلى شكل ملاك الضياء، ولذلك إننا بموجب سلطات هذه العروض نعطي أمراً، أي أن أي واحد يقول بأنه من طائفة المبشرين، سوف يتولى التبشير في مقاطعاتكم، مغيراً منهجهم إلى طلب الحصول على المال، الذي بموجبه سوف تتعرض عقيدة الذين آمنوا بالفقر إلى الإهانة، عليك على الفور إلقاء القبض على مثل هؤلاء، ومعاقبتهم بحكم كونهم مبشرين زائفين. صدر في أناني Anagni في الثامن والعشرين من أيلول، في العام الأول من حبريتنا.

الإمتياز الثاني تثبيتاً للأول

«من أنوسنت الرابع، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى الإخوة المبجلين أساقفة: وينكستر، وووركستر، ونورويك، صحة ومباركات رسولية: بما أن بعض الناس يتمتعــون بالشرور، أي بكسرهم لأغــلال التقشف، حيث أنهم يمنحون حرية الحركة للأعمال اللاقانونية، ويضعون جانباً كل خــوف من الرب، ويقدمــون على إهانة الرهبان بطرق متنوعة ومضاعفة، ولذلك عملت الكنيسة الأم المتعاطفة ممارسة للاحسان، لمساعدة هؤلاء الأشخاص ضد مثل هذه الشرور، بمنحهم وسائل الدفاع، بحيث يمكن بذلك ضبط طيش هؤلاء المفسدين، وينبغي أن يبقى هؤلاء الأشخاص بسلام، كما ينبغي حرمان الآخرين من وسائل اقتراف اعتداءات مماثلة، وبناء عليه، بما أن رؤساء الرهبان الاقليميين، ورهبان طائفة الدومينيكان في انكلترا (حسبما ذكر لنا باسمهم) يعانون من أضرار مضاعفــة من بعض الذين لايخافـون مـن تناول اسم الرب عبثــاً، نحن نرغب بحماية هؤلاء ضــد المحــاولات الوقحــة لهؤلاء الأشخاص ذوي العقول الشريرة، فبوساطة هذه الكتابات الرسولية نأمر إخــوتكم، بموجب حماية حظوظكم، أن تقومــوا بشكل فعال بمساعدة رئيس الرهبان المذكور والرهبان، ضد جرأة الناس الأشرار، وبأن لاتسمحوا لهم بتعذيبهم بشكل غير جائز، بوساطة أية معارضة للامتيازات الممنوحة لهم من قبل الكرسي الرسولي، وايقاف جميع مثل هذه الاضطهادات لهم، دون الاهتمام بمرســوم رحلة اليـومين، الذي صدر في المجمع العام، فهو لم يعد له فعالية بعد مدة عشرة أعـوام، وإذا لم تتمكنوا جميعاً أن تكونوا حاضرين أثناء وضع هذه القضايا موضــع التنفيذ، يتــوجب على اثنين منكم مع هذا، أن يشرفــا على تنفيــذهم. صــدر في اللاتيران، في اليوم السابع عشر من أيار، في السنة الأولى من حبريتنا».

جواب رئيس شمامسة كنيسة القديس ألبان

وفرح الدومينيكان وتشامخوا بوساطة هذا الامتياز، فقدموا بصلف أنفسهم إلى مختلف أساقفة الكنائس، ورؤساء الشمامسة، أثناء الترؤس لمؤتمراتهم، حيث توفر كثير من الرجال ذوي النفوذ، مثل العمداء، والكهنة، والنواب، وقساوسة الكنائس في الاجتماع، وأروهم بشكل معلن هذين الامتيازين اللذين منحا لهم، وطلبوا بوقاحة وعناد أنه تتوجب دعوتهم، وأن يستقبلوا باحترام، وأن يوصى بهم في كنائسهم، وأنه يتوجب قبول الرهبان الدومينيكان أنفسهم من دون أي اعتراض، ليقوموا بالوعظ بين الناس في المجامع المقدسة، وفي الكنائس الأسقفية، وكأنهم نواب بابويين، لابل كأنهم ملائكة للرب. وبتصرفات وقحة، كانوا يسألون باستمرار كل واحد، حتى شمل رجال الدين: «هل اعترفت؟»، وإذا جاء الجواب بالتأكيد، كان الدومينيكان يسألونهم: «من قبل من»؟ وإذا جاء الجواب: «من قبل كاهني»، كانوا يضيفون: «من هو ذلك الأحمق، هو لم يصغ قط إلى اللاهوت، وهو لم يدرس قط المراسيم، وهو لم يتعلم قط حل أي سؤال، إنه من قوم عميان، وقادة عميان، تعالوا إلينا، نحن الذين نستطيع أن نميز مجذوم عن آخر، والذين إلينا جرى منح التعب، والمصاعب وأبيحت الأسرار الخفية للرب، اعترفوا من دون خوف إلينا، نحن الذين كما سترى وتسمع، قد منحت إلينا سلطات كبيرة».

وبناء عليه، فإن كثيراً من الناس، ولاسيما النبلاء، وزوجاتهم، استخفوا بكهنتهم وقساوستهم وعملوا اعترافاتهم إلى الدومينيكان، وبذلك غدت مكانة وأحوال المعمدين، ذات تقدير صغير، وفي وضع سيء جداً ومضطرب، وقد انزعجوا كثيراً لأنهم باتوا في حالة الرفض هذه، ولم يكن ذلك من دون سبب واضح، لأنهم شاهدوا بأن التنظيم اللاهوتي قد اضطرب كثيراً، وهو النظام الذي كان يسير منذ زمن

طويل في الماضي، في طريق الرب ببساطة هادئة، قدمت كما هو واضح إلى الرب كثيراً من القديسين لدى مغادرتهم هذا العالم، والذين كما أعتقد، أنه من العيب الشك بقداستهم، ولقد نظروا أيضاً إلى ذنوبهم الكنسية بجرأة ووقاحة، لأنهم عرفوا أنهم سوف لن يتعرضوا للإهانة أمام كاهنهم، عندما يعترفون بذنوبهم، التي عدت ذات خطر كبير، ومهينة بالقدر نفسه، ومسببة قدراً من الاضطراب أثناء الاعتراف بشكل رئيسي، وفي الجزء الأكبر من التوبة، ولذلك عندما كانوا على وشك اقتراف أي ذنب، كان أحدهم يقول همساً إلى الآخر: «دعونا نفعل أي شيء يبدو إلينا ممتعاً وشهوانياً، وبعد فعلنا لما رغبنا به، سوف نعترف من دون أي ازعاج إلى بعض الدومينيكان أو الفرنسيسكان، عندما يعبرون من قربنا، وهم الذين لم نرهم قط بعد، وسوف لن نراهم ثانية»، وهكذا، بما أن المعمدين وتلاميذهم قد أهملوا، تراكمت الذنوب، وبينما كان العالم آنذاك، مثل البحر هائجاً ومضطرباً بمثل هذه الحركات، امتلك بعض الدومينيكان الجرأة، وهم مزودون بامتيازاتهم، فدخلوا إلى كنيسة القديس ألبان (حيث كان رئيس شمامسة تلك الكنيسة —كما كانت العادة— عاقداً اجتماعاً كما هو متوجب)، وعرضوا امتيازاتهم، التي زودوا بها بسلطات جديدة، لم يسمع بمثلها، وكذلك بمراتب، وطالب أحدهم، الذي بدا أنه صاحب سلطات أكبر من الآخرين، بالتزام الصمت، لأنه مقبل على الوعظ، وبناء عليه رد رئيس الشمامسة قائلاً: «تصرف بنفسك بلطف أيها الراهب، وانتظر قليلاً ريثما أشرح لك، وجهة نظري: نحن أناس بسطاء، قد اعتدنا على العادات القديمة المصادق عليها، ونصاب بالدهشة أمام هذه البدع المفاجئة، وليس عجباً أن تنتج مثل هذه البدع الجديدة التي لم يسمع بها العجب والخوف، فلماذا أنت تعدّنا هكذا بعناد أننا غير جديرين، أو غير أكفاء للقيام بواجبات المنصب الذي جرى تعيينه لنا؟ وهل تعتقد أنك وحدك من بين هذه الأعداد، الذي سوف تنجو؟ لأن الرسول يقول: «ما من انسان

يعــرف هل هو يستحق الكـراهيــة أم المحبــة»، وأنتم الآن مقحمين أنفسكم، ليس للتبشير فقط، وفقـاً لاسمكم «المبشرين»، لكنكم تتلقـون الاعترافـات أيضاً، أو بالحري تستخـرجـونها، أي أنه بإمكانكم إضافـة لقب جديد لأنفسكم وهو «الرهبان المعترفين»، ياإخواني، أنا لاأعتقد أنه من الحكمة ترك مـاهو مؤكـد من أجل ماليس مـؤكداً، وأن تتراجع عما اعتدت أن تفعله، لتتبنى مالم تعتـد أن تفعله، من دون المزيد من التداول والمشاورات مع رئيسكم، وأنا سـوف لن أسمح لكم بالتبشير، أو بتلقي الاعترافات، من الذيـن أنا معين عليه بموجب أوامـر راعي الدير، لأنه واضح إلى جميع الكنيسة، بـأن المراسيم التالية، التي سـوف أريك إياها، وأريها إلى جميع الذين من حـولك، قد عملت وتأكـدت من قبل المجمع العام، الذي عقـد في أيام انوسنت الثالث، في سنة النعمـة ألف ومائتين وخمس عشرة، الذي كان حاضراً فيه أوائل الجماعة المسيحية كلها: واحد وستون رئيس أسـاقفة، وأربعمائة واثني عشر أسقفـاً، وثمانمائة راعي دير ورئيس رهبان، وكـانت هذه المراسيم أوامـر تتوجب مراعـاتها من دون تردد في جميع الأوقـات»، ثم إنه فتح الكتاب، وأشـار إلى مارسم حـول هذه القضية وقرأه.

المراسيم حول القضايا المتقدم ذكرها

«على جميع المسيحيين من الجنسين، عندما يصلون إلى سنوات الرشد، الاعتراف بشكل سري بذنوبهم، على الأقل مـرة و احـدة في السنة، إلى كـاهنهم الخاص، وعليهم، بقدر مـايمتلكون من قدرة السعي إلى تنفيـذ العقوبة التـي فرضت عليهم، ولسـوف يتلقون باحترام قداس القـربان، على الأقل في الفصح، مـالم —بناء على نصيحة كـاهنهم— ربما يرون أن من الموائم التمنع عن استلامه لبعض الوقت، لسبب ما معقول، وإذا ما رفضـوا فإنهم سـوف يمنعـون —طالما هم أحيـاء— مـن الدخـول إلى الكنيسة، وعندمـا يموتون لايسمح لهم بدفن مسيحي، ولقـد رسم هذا

بشكل صحيح، لذلك يتوجب نشره تكراراً في الكنائس، خشية أن يقوم أي واحد، صدوراً عن العمى، أو عن الجهل، فيتخذ لنفسه حجاباً بعض الأعذار، وإذا ما رغب أي واحد —لسبب ما صحيح— أن يعترف بذنوبه إلى كاهن غريب، لابد له من أن يسأل أولاً الحصول على إذن من كاهنه، لأنه إذا ما لم يفعل هذا، لايمكن للكاهن الغريب تحليل المغلول، ويتوجب أن يكون الكاهن مستقيماً وحذراً، أي أن يكون مثل طبيب بارع، يمكنه أن يصب الزيت والخمرة في جروح الرجل المصاب، ويبحث بعناية في ظروف المذنبين، والذنب، وبذلك يستطيع أن يفهم كيف يمكنه اعطاء الرأي المفيد إلى الشخص المعترف، وحسبما ينبغي أن يتسلم، وأن يستخدم نوعاً من العلاج، وأن يقوم بتجارب متنوعة لشفاء الرجل المريض، وعليه أن يتخذ كل الاحتياطات الممكنة والعناية الفائقة، بأن لايخون المذنب، لابالكلمة أو بالاشارة، أو بأي شكل من الأشكال مهما كان نوعها، وإذا ما احتاج الكاهن النصيحة من أي شخص أكثر حكمة، ليقم بالسؤال بحذر، من دون أن يذكر اسم الشخص، وكل شخص سوف يقدم على كشف أي ذنب أبيح إليه، عند منصة الاعتراف، هو لن يخلع فقط من وظيفته اللاهوتية، بل سوف يلقى به أيضاً في واحد من الديرة القاسية، ليعاني من عقوبة دائمة.

موت داود أمير شمالي ويلز

وفي حوالي بداية الربيع من هذا العام، عندما كان هؤلاء (الانكليز مع الويلزيين) على وشك الاشتباك بالحرب، التي كانت بالعادة أكثر عجلة، وفي أثناء العمل على صنع الترتيبات الضرورية، مات داود، أمير شمالي ويلز، وحفيد الملك، من جهة الأخت، وكان رجلاً حانثاً لليمين وقاتلاً لأخيه، وكان قد تلاشى تعباً بسبب مختلف الاضطرابات، فلقد غادر وادي الفانين إلى وادي الموت، بعد معاناة لما لايحصى من الأحزان بالعقل، وبعد رؤيته لدمار أراضيه، وشهوده لمختلف المذابح،

وآلام رعيته من الجوع، وهو الآن قد ترك ويلز في حالة اضطراب، وفي أوضاع مأساوية مزعجة، وفي محله انتخب الويلزيون ابن غريفين ليكون مقدماً لهم، الذي عندما سمع بهذا، ترك على الفور ملك انكلترا، وهرب بشكل مفاجىء مثل أرنب بري، إلى أوكار اختباء الويلزيين. مع أن الملك المذكور، كان قد تلقاه في صدر رحمته، ورباه بشكل مشرف لمدة طويلة من الوقت الذي مضى، وارتقى به إلى المراتب.

عقد بارلمان في لندن

في هذا العام، عملت بعض القوانين، مع زيادة بالقسوة ضد جميع الذين اقترفوا بشكل سري أعمالاً آذوا بها الحدائق أو المطارد التابعة للآخرين، وقد أعطي وصف كامل لهم في كتاب الرسائل، بعد عملية التفتيش المتعلقة بالتجاوزات المرتبطة بالغابات.

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير، وفي التحديد في اليوم الذي يغنى به: «لتبتهج القدس»، اجتمع جميع النبلاء من كل أرجاء انكلترا، بما في ذلك الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والقساوسة، وكذلك الايرلات، والبارونات، في بارلمان عام في لندن، بناء على دعوة ملكية، لعمل ترتيبات فعالة، حسبما تقتضي الحاجة، لشؤون المملكة، التي كانت الآن في أوضاع متأرجحة، لأن الشعب كان متأذياً من الظلم الذي لايحتمل، والذي مورس ضدهم بدون انقطاع من قبل البلاط الروماني، والذي لم يعد بإمكانه تحمله أية مدة أطول، من دون نيل تهمة الجبن، ومن دون جلب الدمار على أنفسهم، وقد أصيبوا بقسوة أكبر في نفوسهم، لأن البابا حنث بوعوده، وعسف بهم وظلمهم يومياً، بشدة أعظم مما كان من قبل عملهم شكواهم، وفيما يلي الوعود التي كان قطعها البابا في مجمع ليون:

إمتياز آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى جميع الأساقفة بشكل عام، وإلى كل من الكنائس الكاتدرائية والكنائس الأخرى، وإلى رعاة الكنائس من رجال الدين والعلمانيين في جميع أرجاء انكلترا، صحة ومباركات رسولية: إنه بالنسبة لبعض الأضرار التي لحقت بكم من قبلنا من دون إرادتنا، أي من قبلنا أنفسنا، أو من قبل الآخرين بموجب سلطاتنا، مع أن المتوجب علينا هو أن نسعى —حسبما هو واجبنا— لحمايتكم من ازعاجات بعض الناس، لذلك ليكن معلوماً لديكم بموجب فحوى هذه العروض، أنه إذا كان ولدنا المحبوب كثيراً، المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، قد تولى بموجب أمرنا تعليق أي واحد منكم عن تناول المنافع أو امتلاكها، لقد قررنا سحب مثل هذه التعليقات، ما لم يكن قد جرى فرضها من أجل بعض الأشخاص، الذين قررنا —على كل حال— أن يقتصر عددهم على اثني عشر، شريطة أن لايعدّ بينهم أياً من المنافع المتقدمة الذكر التي منحت، أو الذين لديهم رسائل تتعلق باستحواذهم من أولياء نعمتهم، أو من الذين الممتلكات عائدة إليهم».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى الإخوة المبجلين، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، في جميع مملكة انكلترا، صحة ومباركات رسولية: بما أن الكرسي الرسولي متأثر بعاطفة كبيرة نحو الانكليز، إلى حد أنه ينوي أن يرفعهم فوق إخوانهم بعطايا مضاعفة، وأن يشرفهم بعلامة خاصة ذات إرادة طيبة، وإن رغبتنا العظيمة والمخلصة، هي أن يستمر الانكليز المذكورين بشكل متواصل في الاستمرار بتقواهم، وأن يرفعوا عالياً ممارسة أعمال الرب الصالحة، حتى يحتلوا بذلك بين البقية الجدارة والقبول، وبناء عليه نحن نرجوكم، ونحثكم، وبهذه الكتابات الرسولية نأمر جماعتكم، بتحريض سريع ومستمر، بأن تقنعوا رجال الدين في

مدنكم، وأسقفيـاتكم، والذين يمكن أن يعدّوا بين الفـرسان الكهنوت، وبشكل خاص أبناء النبلاء، والرجـال ذوي المراتب، بأن يمارسوا بشكل ظاهر، الأمانة بالسلـوك، وأن يستثمروا معارف الكتـابة والفضائل، وأن يدرسوا بكل يقظة حتى يجعلوا من أنفسهم شاكرين، وموائمين للمطالبة بنيل حظوة الكرسي المتقـدم ذكره، والرغبات الطيبـة للآخرين، وجـائزة لاستقـامتهم، لأننـا على استعـداد بكرم لفتح يد العناية الـلاهوتيـة، إلى رجـال الدين الانكليـز المستحقين لذلـك عن جـدارة، وأن نوزع منافع ذاتيـة، على الذين أكثــر نبـلاً وأفضل أخـلاقـاً، مـن الذين نعـرف أنهم يستحقون حصة أكبر من حظوتنا».

آخر

«**من أنوسنت، إلخ، إلى جميع رؤسـاء الأسـاقفة، والأسـاقفـة في جميع أرجاء مملكة انكلترا، صحـة ومباركات رسـولية**: إن اخلاصكم يستحق عن جدارة، أن يقوم الكرسي الرسـولي بتقويتكم بمعروف مناسب، وأن يرفع من شأنكم بامتيـاز نعمة خاصـة، ولذلك نحن نميل إلى تزويدكم، ونرغب بـالحفــاظ على حقــوقكم دون تعـــرض للأذى، وننصحكم، ونحـذركم، ونحثكم، وبوسـاطة السلطـات الرسـوليـة نأمـر جماعتكم، وبوســاطة السلطات نفسهـا، نمنحكـم الإذن —بقـدر مـا هو متعلق بكم— حــراً، ومن دون معـارضـة، بـأن تمنحـوا المنافع اللاهـوتيـة في عطاياكم، عندمــا يصبحـون شـاغـريـن، وأن تعطوهم إلى الأشخـاص المناسبين، الذين يمتلكون الرغبـة وكـذلك القـدرة على القيام بواجبـات تقدمهم. ولذلك لاتدعوا أحداً، إلخ».

آخر

«**من أنوسنت، إلـخ، إلى أبنائـه رعـاة جميع الكنائـس في جميع أرجـاء مملكة انكلترا، صحة ومباركـات رسولية**: إن الاخلاص الحار للانكليز،

يتوجب أن يقوم الكرسي الرسولي باحتضانهم بذراعي عاطفة الأمومة لديه على أنهم أولاده المحظيين، وأن يرفع من شأنهم بامتياز النعمة الخاصة، ولهذا نحن نميل نحو التماساتكم، ونرغب بالحفاظ على حقوقكم دونما خرق، وبناء عليه نمنحكم إذناً —بقدر ما هو متعلق بكم— حراً ومن دون اعتراض، بأن تقدموا إلى المنافع اللاهوتية التي لكم حق الرعاية عليها، أينما صارت شاغرة، الأشخاص المناسبين، الذين سوف يمتلكون الرغبة وكذلك الإرادة، والقدرة على أداء واجب ازدهارهم، ولاتدعوا أحداً، إلخ».

آخر

«**من أنوسنت، إلخ، إلى ملك انكلترا اللامع، إلخ، إلخ،** نحن نرجو أن نخبر معاليكم، بفحوى هذه العروض، وهي مع أن الذين تولوا حمل الصليب من أجل مساعدة الأرض المقدسة قد أعفيوا من أشياء كثيرة، نحن لانرغب في أن يكون الذين في مملكتكم، الذين حملوا شارة الصليب من أجل تلك الغاية، أن يكونوا معفيين من مراعاة العادات المرعية للمملكة المذكورة، بل أن يكونوا ملزمين مثل الآخرين بمراعاتها».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى الملك المشهور لانكلترا، إلخ، إلخ: نحن نرجو بفحوى هذه العروض أن نخبر معاليكم، بأننا رسمنا مؤخراً، تمايشاً مع المجمع المقدس، بوجوب تعيين الجزء العشرين من جميع الموارد اللاهوتية لمساعدة الأرض المقدسة، وأن شطراً مساوياً من وارد بعض الكنائس —حصة الثلث من بعض الأشخاص، وحصة العشر من بعضهم الآخر— ينبغي أن يعطى لانقاذ الامبراطورية الرومانية (حسبما جرى تبيان ذلك بشكل كامل في القرارات التي نشرت حول

هذه القضية)، ولقد كان رسلك، الذين بعثتهم إلى المجمع المذكور باسمك، وباسم المملكة كلها، قد عارضوا بشدة جميع المراسيم من هذا النوع في ذلك المجمع».

وكان سبب هذه المعارضة، هو أن البابا قد رسم بأن يعطى منصب جباية هذه الضريبة لأي واحد سوف يختاره، وهذه حالة أصبحت موضع شك.

آخر

وكتب مرة أخرى إلى الملك، بادئاً رسالته بقوله: «بموجب فحوى هذه العروض نرغب بأن يكون معلوماً لديكم، بأنه مع أن الإذن قد منح حتى الآن، من قبل الكرسي الرسولي إلى بعض أساقفة الكنائس، بحرية الاحتفاظ لبعض الوقت بالمنافع اللاهوتية التي كانت بحوذتهم قبل ترقيتهم، إننا لاننوي من الآن فصاعداً القيام بمنح مثل هذه المنافع».

وإضافة إلى ذلك منح امتياز واحد هو: «ينبغي أن يخلف إيطاليا ايطالي على الفور»، وقد جرى منح هذا بسبب غش الذين قاموا إثر موت أشخاص منتفعين، بشكل سري، بتعيين آخرين مكانهم، لكن جميع هذه المراسيم ومراسيم أخرى قد جرى اضعافها بسبب العثرات المعيقة، بعبارة «دون الاهتمام»، إلخ. «فأين هو الصدق؟ وأين هي الحقوق التي جرت العادة بتأكيدها بالكتابات»؟ لقد نفيت.

كيف سعى الملك الفرنسي إلى مصالحة الإمبراطور مع البابا

في هذه الآونة عندما كان بحر الدنيا هائجاً بهذه العواصف، أخذ فردريك، ربما بعد قليل من ردات الفعل والتأمل، وربما لشعوره بالانذار، ولخوفه من حملات من الألمان، وكذلك من الايطاليين، ومن رعاياه أيضاً، ومن جيرانه، وربما لرعايته عقيدة الخوف من غضب

الرب، تغيرت مشاعره نحو الأحسن، وقد منح روح التواضع من قبل الذي قال من خلال نبيه داود: «املأ وجوههم بالحياء، وهم سوف يطلبون اسمك، أيها المولى»، ولذلك عرض بعمل استغفار لذنوبه إلى البابا، وفي هذه المسألة عيّن الملك الفرنسي ليكون وكيله ووسيطاً، وقد بذل هذا الملك جهوده، وذهب إلى البابا الذي كان مقيماً في ليون، والذي قدم إلى كلوني لدى قدومه، للقائه، ولعمل ترتيبات في سبيل إقامة سلام، إذا ما جرى تقديم أية عروض له، وقد عرض الامبراطور فردريك بأن يغادر إلى الأرض المقدسة، وأن لا يعود أبداً، أي أنه سوف يمضي حياته هناك في سبيل القتال من أجل المسيح، و سوف يبذل جهوده كلها في سبيل إعادة المملكة كلها إلى العبادة المسيحية، على شرط أن يوضع ابنه مكانه في المنصب الامبراطوري، وأن يجري منحه غفراناً وتحليلاً، أي إلى فردريك المذكور، مع مسامحة كاملة عن ذنوبه التي اقترفها، وبذلك يتم استرداد اسمه للسمعة الطيبة تماماً، وبذلك أيضاً يمكنه التحول من كونه خائناً إلى ابن للمصالحة، وعلى هذا العرض ردّ البابا قائلاً: «كم من مرة عمل الشيء نفسه، لابل إنه تقدم بوعود أعظم، فكل ذلك عمل من قبله، وجرى تثبيته بالأيمان من قبله، وهي أيمان لم يكتف بخرقها فقط، ورفض أن ينفذها، لكنه أضاف إليها ذنوباً لاتعد ولاتحصى»، ثم إنه نظر بتواضع نحو الملك، وقال: «مولاي ملك الفرنسيين، والابن المحبوب كثيراً، إنها ليست قضيتي التي هي موضع البحث، بل إنها أيضاً قضية جميع المسيحيين أيضاً، وليقم جلالتك بتقدير كم من مرة جرت دعوته وكيف كان ذلك بتواضع، في سبيل تحقيق مقصد المصالحة، في حين كان المجمع كله منتظراً، لكنه لم يقدم، مع أنه دعي من أجل الالتزام بالقرار الصحيح للمجمع، وليس للمحاكمة من قبل حكام، وكيف أنه رفض الوفاء بما كان قد وعد به من قبل، وأقسم عليه بنفسه، مقابل المخاطرة بروحه، ومن خلال وسطائه، الذين أيضاً أقسموا بروحه، ولذلك تعرضوا جميعاً للعار، وهي وعود —علاوة على

ذلك— أودعها كتابة، وصدّق عليها بختمه الامبراطوري اللازوردي.

فكيف لي أن أتمكن من ربط بروتوس هذا المتقلب دوماً؟

لقد جعل نفسه غير جديرة بالثقة في كل شيء».

وعلى هذا رد الملك الفرنسي التقي قائلاً: «أوليس مكتوباً في الانجيل، ياصاحب القداسة: (سبعون مرة سبع مرات) ينبغي فتح صدر الرحمة إلى الذي يطلب المسامحة؟ قدّر كم هي هذه الأوقات شريرة، الأرض المقدسة في خطر، وليست هناك من سبل لتحريرها مفتوحة أمامنا، مالم يقم هو —بعد الرب— بمساعدتنا، فهو الذي يمتلك السلطات على الموانىء، والجزر، وعلى الأرض الواسعة قرب شواطىء البحر، وهو الذي يعرف جميع الأشياء، التي سوف تكون مفيدة لنا، نحن الذين على و شك الانطلاق في حجنا، وقد عمل وعوداً كبيرة، وإنني أطلب منك وأنصحك، باسمي، ونيابة عن الآلاف الكثيرة من الآخرين الذين على وشك القيام بالحج، والذين ينتظرون الفرصة المواتمة لعبور البحر، أو بالحري نيابة عن الكنيسة العالمية، وعن المسيحية كلها، في أن تقبل مثل هذا التواضع من جانب مثل هذا الأمير العظيم، متبعاً خطوات المسيح الذي أنت نائبه على الأرض، والذي —كما قيل— تواضع بنفسه حتى الخضوع للموت على الصليب»، لكن بما أن البابا كان عنيداً، فقد رفض، ولم يقبل الاستجابة لهذا الطلب، وغادر الملك الفرنسي غاضباً، ومنزعجاً، لأنه وجد فقط قليلاً من التواضع، عند الذي أمل بأن يكون «عبد عبيد الرب».

كيف سعى الداوية والاسبتارية لفداء إخوانهم الذين كانوا بالأسر

في الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يدور وسط مسيرة الشعب في هذا الجانب من الألب، وصل بدورانه أيضاً مسبباً تقلبات كثيرة إلى

الصليبيين في مقاطعات ماوراء البحر، وحيث أن الداوية والاسبتارية شعروا بتعاستهم، فتفكروا حول ذلك فيما بينهم، مع أن ذلك جاء متأخراً، فقرروا تنفيذ صلوات خاصة، والتزموا بصيام أكثر من المعتاد من أجل انقاذ الأرض المقدسة، مدركين —علاوة على ذلك— بأن مقدميهم مع بعض فرسان الداوية وآخرين كانوا محبوسين وهم أحياء بمثابة أسرى، في ظل سلطة سلطان مصر، ولهذا أرسلوا بعضاً من فرسانهم الرهبان الذين عرفوا أنهم أكثر حكمة من البقية إلى السلطان المذكور للتباحث معه بشكل فعال، من أجل اطلاق سراح الأسرى المذكورين مقابل فدية، مهما كان المبلغ المطلوب كبيراً، وأمروهم أن لايوفروا ذهباً أو فضة في الوصول إلى هدفهم، وكان هؤلاء الرهبان المبعوثين قد حصلوا على هدنة وأمان، وقد قدموا في المقام الأول هدايا ثمينة إلى أعيان رجال السلطان، ورجوهم بحرارة للتدخل بشكل فعال لصالحهم لدى السلطان، لإقناعه، لقبول مبلغ من المال، بقدر ما سيختار.ويطلب، يكون بمثابة فدية مقابل اطلاق سراح مقدميهم مع بعض إخوانهم، وعندما سمع السلطان بهذا وجّه اللوم إلى هؤلاء المتوسطين، وانتقد الداوية والاسبتارية المذكورين قائلاً: «كم هم تعساء هؤلاء المسيحيين الذين ندعوهم داوية، واسبتارية، ذلك أنهم خارقين بالفعل لقانونهم ولنظامهم، ذلك أنهم رغبوا في المقام الأول، قبل عدة سنوات مضت، أن يقوموا بشكل خياني، بخيانة امبراطورهم فردريك، عندما كان في حجه في خدمة المسيح، لكن بفضل تقديرنا للعدل قمنا بحمايته، ولذلك لم ينجحوا في محاولاتهم، ومجدداً، إن هؤلاء الناس الملزمين بشكل متبادل بحب إخوانهم مثل حبهم لأنفسهم، وأن يساعدونهم في وقت الحاجة، قاموا الآن، ولمدة خمس سنوات، بشن الحرب فيما بينهم، ورعوا مشاعر للبغضاء الشديدة، أحدهم ضد الآخر، كما أن الايرل رتشارد أخو ملك انكلترا، الذي عدّ الأكثر تميزاً بين جميع المسيحيين، لم يستطع تهدئتهم، ولقد قام هؤلاء الداوية بشكل وقح

بخــرق الهدنة التي أبـرمت بحكمــة من قبله، نظراً لكـراهيتهم له، أي للايرل رتشـارد المذكور، الذين سموه صبياً، وجاء ذلك بمثـابة ازدراء لإخـوانهم الاسبتـارية، وكــذلك في الآونة الأخيرة، في المعـركـة التي حـوربت بيننـا وبينهم، كـان مقـدمهـم وحـامل الراية (الذي يـدعـونه Balcanifer) قـد تصرفا بشكل معـاكس لنظام طائفتهم، فقد كـانا أول من انسحبـا هاربين من المعــركـة، وأضـافـوا الآن شراً إلى شرور، وكـدســوا خـرقــاً على خـرق لأنظمـة طـائفتهم، بسعيهم لشراء تحرير مقدميهما، واخـوانهما الذين هم أسرى، بدفع مبلغ كبير من المال، وذلك في الوقت الذي نعلـم فيـه، أنه وفقــاً لأنظمـة طـائفتهم، يمكنهم فقط اطلاق سراحهم بوساطة حزام محدد أو غطاء رأس، وبالنظر لانتهاكاتهم المضـاعفـة، هكذا ألقى الله بهم أسرى بين أيدي الـذين يكرهونهم»، ثم إنه مع نظرة حادة عابسة أمـر أولئك الوسطاء بالمغادرة معلناً أن أوضاع الأسرى سوف تكون أسوأ بالنسبة للمستقبل، وعندما أبلغت نتيجة هذا الطلب إلى الرسل، قالوا بأسف إلى الـذين توسطوا من أجلهم: «ماالذي علينا فعله في حالة الطوارىء هذه؟ هل أعطيناكم الهدايا من دون غاية، مشـاهدين كـم كـانت الثقـة التي وضعناها بكم؟ انصحـونا وبينوا لنا بشكل فعـال، الوسـائل التـي يمكن بها اطلاق سراح إخـواننا الأسرى، الذين نحـن نطلبهم»، وقــد أجــابهم المترجم قــائــلاً: «صحيح أنكم أعطيتمونا هدايا فاخرة، لسوف نعيدها إليكم، مع نصيحة صادقة، فكل الذي يمكنكم فعله هو التـالي: أقنعـوا الامبراطور فردريك، الذي يحبـه مولانا، ويحترمه فوق جميع الناس، بأن يـرسل رسالة شفوية مع رسول، أو رسـالة مكتــوبة بأكثـر عبـارات الالتماس لطفــاً، وكل هؤلاء الذين تطلبونهم سوف يطلق سراحهم بامتنان»، فرد الرسل قائلين: «لن نوافق مطلقـاً مادمنا أحيـاء على خطة من هذا النوع»، وهكذا بعدمـا تعرضـوا لنقد حـاد، غادروا وهـم مضطربين، من دون أي أمل في تحرير أسراهم، ومن هذه الواقعة يمكن استنتاج كم كانت الصداقة عظيمة، التي جمعت

بين الامبراطور فردريك والسلطان المذكور.

اجتماع جميع نبلاء إنكلترا

فيما يتعلق باجتماع النبلاء في بارلمان سلف ذكره، في اليوم الذي ينشد فيه «لتبتهج القدس»، قام الملك في المقام الأول بمخاطبة الأساقفة، بفمه، منفردين، ثم خاطب بعد ذلك الايرلات والبارونات، وأخيراً رعاة الديرة ورؤساء الرهبان، حول القضايا التي من أجلها بعث برسله الخاصين إلى المجمع في ليون، وأراهم بعض الغفرانات، والرسائل البابوية التي تقدم ذكرها في هذا الكتاب، وهي الرسائل التي جلبها الرسل معهم لدى عودتهم، وأخبرهم كيف أن البابا قد عمل كثيراً من الوعود الجيدة للرسل المذكورين لصالحه ولصالح المملكة، ولكن لأن الملك قد شعر، حسبما سمع فيما بعد واكتشف، أنه حتى بعد الغفرانات المذكورة والوعود، ألقى البابا يده بثقل أكثر، وعمل، وكأنه متحدياً، مزيداً من المطالب، أكثر مما هو معتاد، تقدم بها نحو المملكة بوساطة ظلمه للكنيسة، وأراهم بنوداً تتعلق بالمظالم والأذى الذي مورس ضد الكنيسة وضد مملكته، وكان فحواهم هو كما يلي:

الأذى الذي لحق بمملكة إنكلترا

«ظلمت المملكة بسبب أن البابا لم يقتنع بالمورد الذي أطلق عليه اسم «بنس القديس بطرس»، بل استخرج اسهامات ثقيلة من جميع رجال الدين في انكلترا، ومازال يسعى لممارسة استخراجات أعظم، وقد عمل هذا من دون رضى أو موافقة الملك، بشكل معاكس للعادات القديمة، والامتيازات والحقوق الخاصة بالمملكة، وذلك على الرغم من المرافعات والالتماسات من قبل قساوسة الملك والمملكة في المجمع العام.

بند: إن الكنيسة وكذلك المملكة قد تعرضتا للظلم، بسبب أن رعاة الكنائس لم يمتلكوا السلطة لتقديم رجال دين موائمين لهن، عندما

يشغرن، وهو ما منحه البابا لهم في رسائله، بل إن الكنائس قد أعطيت إلى الرومان، الذين هم جاهلين تماماً باللغة الصحيحة للمملكة، مما يعرض أرواح الناس إلى الخطر، وهؤلاء الرومان يحملون المال إلى خارج المملكة، وبذلك يفقرونها إلى أبعد الحدود.

بند: إنها مظلومة بموجب القرارات المعمولة من قبل البابا لاستخراج أموال بشكل معاكس لفحوى رسائله، التي أفاد فيها، أنه من دون الأخذ بجميع الإجراءات التي عملت في انكلترا، إنه ينوي منح اثنتي عشرة منفعة، ونعتقد أنه بعد كتابة تلك الرسائل المذكورة، قد جرى منح كثيراً جداً من المنافع، وكثيراً من العطاءات عملت بعد ذلك من قبله.

بند: إنها مظلومة، لأن إيطاليا خلف إيطاليا، وبسبب أن الانكليز، قد سحبوا إلى خارج المملكة، بموجب السلطات الرسولية، وانتزعوا من بين قضاياهم، على الرغم مما قضت به أعراف المملكة، وعلى عكس الشرائع المكتوبة، لأنه لايجوز أن يحشروا بين خصومهم، وعلى عكس الغفرانات التي منحت إلى ملك انكلترا، من قبل البابوات المتقدمين.

بند: إنها مظلومة بموجب إعادة تكرار، وظهور تلك العبارة غير الشهيرة في الرسائل وهي «دون المبالاة»، التي بموجبها أضعفت روابط الإيمان ودمرته، مع العادات القديمة، وقوة الكتابات المقدسة، والسلطة بمنح استثناءات وتأسيس قوانين وامتيازات، وبذلك فإن أعداد كبيرة من الناس في انكلترا، قد عسف بهم بحدة، وتضرروا، كما أن البابا نفسه، في إعادته النظر بسلطاته، قد ألزم نفسه بالتعامل مع مملكة انكلترا بشكل معتدل ولطيف، كما أنه قد وعد بشكل مؤكد بحماية مملكة انكلترا.

بند: إنها مظلومة بموجب الضرائب العامة التي جرت جبايتها

وأخـذها، حيث أن ذلك جـاء من دون مـوافقـة الملك ورغبتـه، وعلى الرغم من مرافعة ومعارضة قساوسة الملك وجماعة انكلترا.

بند: إنها مظلومـة، بسبب أنه في منافع الايطاليين، انعـدمت مـراعـاة الشرائع، ورعـاية الفقراء، وتقـديم الضيـافة، كما أن التبشير بكلمـة غير حاضرة، ومثل ذلك انعدام استخـدام زينة الكنائس، ومثل ذلك أيضاً لم تعد معـالجة النفوس، والقـداسات، تمارس بالكنائس، كما ينبغـي ووفقاً لعـادات البـلاد، بل في أبنيتهم، انهارت الجدران مع السقف، وتدمـرت نهائياً».

وبعد إيلاء هذه البنود العناية، وافق الجميع، أنه صدوراً عن الاحترام للكرسي الرسولي، عليهم أن يحاولوا ثانيـة بالرسائل وبالرسل الخاصين، التوجـه بالرجاء إلى البابا، ليضـع حداً لمثل هذه الأضرار التي لاتحتمل، وأن يرفع هذا النير الذي لايحتمل عنهم، وبناء عليـه كتبوا إلى البـابا كما يلي:

شكوى جميع الإنكليز من المظالم المذكورة

«**إلى أبينا المبجـل في المسيح، انوسنت الـذي هو بنعمـــة الرب، الحبر الأعظم، من نواب الأسـاقفـة في منطقة كـانتربري، مع التـوصيـة بتقبيل قـدميكما المبـاركتين:** إن لطف الكرسي الرسـولي الذي وضعنا في صـدر إكرامه، مع عاطفة خاصـة، عندما كنا مؤخراً في مجمع ليون، وسمو هذا الكرسي الـذي أظهــر نحـــونا في كثير من الجوانب عطفـــاً كبيراً على تواضعنا، قـد دفع عقولنـا في حماسها الطفـولي، في أن تتحمس من أجل كرامـة وازدهار أمنا الكنيسة المقدسـة، مظهرين بأننا راغبين بالعمل من أجلهـا، ومن أجل كرامتهـا، وللحفـاظ عليهـا بسلام، كما هو متـوجب علينا أن نفعل، وكلما ازددنا حماسـة بالحصول على نتائـج اخلاصنا، كلما وجدنا أن علينا أن نزيد بقـوة من الاحسان إلى شعبنا، ولمملكتنا بالاتحاد

مع الكنيسة الأم، لكن هذا لايمكن أن تكون له فعالية من قبلنا، من دون مساعدة خاصة من الكرسي المذكور، وكنا في المؤتمر الذي عقد مؤخراً في منتصف الصوم الكبير من قبل رئيسنا وملكنا، والذي كنا فيه حضوراً، قد سمعنا بعض الأشياء، نحن نقوم بتكرارها لقداستكم مع الأسف: وكانت هذه الأشياء هي أن الملك والنبلاء، وبالفعل الشعب بشكل عام، كانوا غير راضين، ويكررون الشكاوي، أنه بالنسبة لتوزيع المنافع، التي عملت بالفعل من قبل أصحاب العقود في انكلترا، أنهم هم والمملكة، وكذلك الشعب بشكل عام قد عوملوا باستخفاف، وبظلم لايحتمل من قبل النبلاء ومن قبل آخرين، قد استدعيوا للمحاكمة خارج المملكة، بشكل مضاد لإمتيازاتهم ولإمتيازات المملكة، وأيضاً بوساطة أشياء أخرى مغضبة عديدة، نحن نعتقد أنهم ينوون إخبار قداستكم بتفصيل أكبر، ولدى إدانة هذه الأشياء بشكل مكشوف أعلنوا، وكأن ذلك كان صادراً عن قلوبهم، بأنهم بالحري يفضلون الموت على تحملهم أية مدة أطول، حيث يبدو أنهم يزدادون كل يوم أكثر فأكثر، وبشكل خاص لأن هذه المظالم المذكورة تعسف بهم، حسبما أكدوا، بثقل أعظم، وبشدة أكبر، غير عابئة بوعد تخفيفهم، الذي قيل بأنه قطع لقساوستهم من قبل قداستك، في المجمع المذكور أعلاه، وعلاوة على ذلك إن الشكاوى الصاخبة والهائجة لعدد كبير من الأشخاص الأقوياء جداً، هي خطيرة، وثقيلة لايمكن تحملها بالنسبة لنا، ولايمكن لنا تهدأتها بأية وسيلة من الوسائل، مع أننا نعمل بكل مثابرة ونستخدم كل الوسائل التي نعرفها للوصول إلى هذا المقصد، وإذا مااستمرت الأمور تسير هكذا، نحن نعتقد ونخشى، سوف يشكلوا بداية لمآسي، ومصدراً لكثير من الشرور في انكلترا، ولذلك نلقي بأنفسنا عند قدمي قداستكم، وبدموع نلتمس منكم ونرجوكم بمنح الانتباه إلى الإيمان المتوقد لدى الانكليز، وأن تقدروا بأن مملكة انكلترا قد برهنت عن نفسها بأنها مخلصة بشكل خاص إلى الكنيسة

الرومانية المقـدسة، وأن تنظروا بحق تبجيلكم للرب إلى الشعب المذكور بروح مواساتكم الأبوية في هذه القضايا التي تفضي إلى سلامته وأمنه.

ونحن أيضاً، بما أننا نرغب بحرارة بخلاصهم وأمنهم، سوف نبذل مساعينا للمحافظة عليهم معاً، في وحدة إيمان واخلاص للكنيسة، في سبيل —مع عون المسيح— أن تتحول لتشريف الرب، والكنيسة، وأنتم أيضاً شخصياً، أيها الأب المقدس، وبالاضافة إلى هذا، لعله يرضي قداستكم تهدئة عقلي أميرنا المذكور مع أخيه رتشارد، ايرل كورنوول، بموجب بنود مشرفة، ذلك أنهما قد أكدا قد أوذيا بشكل متبادل، وأعلنا أن الايذاء المذكور هو حظوة غير صحيحة أظهرتها الكنيسة الرومانية إلى الفئة المضادة».

رسائل رعاة ديرة إنكلترا إلى البابا

«**إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، والمولى المحبوب كثيراً، انوسنت، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم للكنيسة العالمية، من أبنائه المخلصين: رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان والرهبان في ديرهم في مقاطعتي كانتربري، ويورك، صحة وقبلات لقدميه المقدستين**: إن حكمة الجلالة اللاهوتية، قد وزعت كل الأشياء، بالعدد، والوزن، والمقياس، وأرست قواعد الكنيسة، وقرينها على صخرة قاسية، أي على بناء أساس ثابت، تقوى كثيراً بملاط دم ابنه، حتى يتمكن من أن يرتفع البناء بسهولة أعظم، وبازدهار أكبر، فالكنيسة العالمية قد نبعت من دم المسيح، الذي صرخ عالياً من أجل المسامحة وليس من أجل الانتقام، وهي بتدبير من قرينها، قد حكمت من قبل أب واحد وراع واحد في الوقت نفسه، وفق طريقة سفينة نوح، التي انتهت إلى ذراع، واقتيدت فوق مياه الفيضان، والمسيح —أنا أقول— الذي هو فضيلة الرب وحكمته، قد وجد نفسه مع الكنيسة العالمية، على أنها قرينته الوحيدة، بسبب أنها حمامته الوحيدة، والمختارة الوحيدة من قبله، والتي مع أنها مقسمة إلى أجزاء خاصة،

يتوجب عدم فصلها عن العبادة اللاهوتية، وقد أظهرت كنيسة انكلترا نفسها بدون توقف مجيدة إلى قرينها، الذي دخل معها في اتفاق في الرحم العذراوي، من دون تلطيخ أو وصمة، وإلى الأوقات المتأخرة قد قيلت أشياء مجيدة كثيرة عن مدينة الرب، أي الكنيسة الانكليزية، التي بحكم كونها عضواً من الكنيسة الرومانية المقدسة، فإن جبال لبنان، والكرمل، وصهيون، يقومون دوماً برعاية واجباتها اللاهوتية، ومع نقاء الطهارة يتدفق قلبها مثل الماء، وهي ترفع يديها النقيتين إلى الرب، وتوجه بشكل مستمر أريج صلواتها إلى كرسي الحكم للثليث، ومع أنها لم تمل بأدنى الدرجات ولم تقصر في تأدية واجباتها، هي حزينة، وتبكي، ومضطربة بشأن الاستخراجات، والمظالم، والضرائب المضاعفة، التي وقعت ثقيلة عليها، لأننا كما علمنا من تأكيد النبلاء، وكذلك من صرخات الناس، فإن الريح المندفعة من الصحراء، قد هاجمت بعنف، وهزت الأركان الأربعة للكنيسة المذكورة، مثل بيت أيوب، ولذلك غيرت بهجتها إلى نحيب، وسرورها إلى بكاء، لأن روحها في وضع مرير، مالم يحصل بفضل من جلالتكم، بعث الرأس الواهن الآن، ورفعه ثانية، وإليكم —بناء عليه— أيها الأب المبجل، تلجأ الكنيسة الانكليزية، بحكم كونكم بمثابة عمود قد ثبته الرب، وليس الانسان، وهي آملة بثقة بالرب، الذي أعماله هي الخير، بأنك سوف تستخدم علاجاً صحيحاً ضد مظالمها، وأنك سوف تعطي بحق العدالة التي تتجلى من السماء، وتتطلع نحو الأسفل من خلال وحدة الرب مع الانسان، إلى كل واحد حقوقه، وأن تحفظ الجميع في عدالتهم، وبناء عليه، بما أننا أبناء مؤمنين ومخلصين للكنيسة الرومانية المقدسة، قد رأينا بشكل صحيح، أنه حتى يكون الأذى الصادر عن السهم الذي سلفت رؤيته أدنى درجة، إحالة القضايا المتقدم ذكرها إلى الكرسي الرسولي، مشاهدين أن مخاطر مضاعفة محيقة بها، وأنه في كثير من النقاط، مالم يتم تقديم العلاج الناجع من قبلكم، سوف يكون هناك سبب للخوف من

وقـوع اضطراب بين الناس، سـوف تنجم عنه فضـائح، ولسـوف ينتج كثيراً من الانشقـاقـات، لأن الناس مثارين ضـد الملك، وعلى استعـداد للتخلي عن ولائهم، مـالم تتم مـواجهـة المرض المحيق بسرعـة من قبل السلطة الملكيـة، لأن النبـلاء والرجـال ذوي المناصب قـد أعلنوا بأن الكنائـس المعطاة من قبلهم إلى ديـرة، سـوف تعطى إلى رجـال دين ايطاليين، إنهم يمتلكون الحق لاسترداد هذه الكنائس والمنافع الأخـرى، ووضعها بين أيديهم، لأن الموارد الناتجة عنهم، يتوجب حقاً استخدامها لصالح الأشخاص الفقراء والحجـاج، لأن هذه كانت نية المانح، وسبب المنح، فهل —بناء عليـه— يرضي قـداستك عمل تـرتيب يقضي بعـدم الفصل بين المملكة والكهانة، ولابأي نوع من الأنواع، لأنه إذا ما حدث للكنيسـة —التي عـدّت فيما مضى، فخـار جميع العصور، ووفقـاً لقـول النبي أرض عمالقـة— وقـام انفصـال هكذا بين المملكة والكهـانة، فإنها سـوف تجر إلى الدمـار، كما أن الشعـب سـوف يكون غير راض، ومثل ذلك الكهـانة، ولسـوف يتبع ذلك من دون شك مقتل كثير من الناس، وفيما يتعلق بالأضرار التي يتشكى منها النبـلاء والرجال ذوي المناصب، فإن الرسل الحاملين لهذه العـروض سـوف عنهـا يخبرونكـم، ذلك أنه بتقويم يأتي مباشرة إثر شعـورهم بالأسى، من الممكن تحويل أساهم إلى سرور».

رسالة من الجماعة العامة لإنكلترا إلى البابا

«إلى الأعظم قـداسـة، إلخ، إلخ، من أبنائـه المخلصين: رتشـارد ايرل كـورنوول، وسيمـون دي مـونت فـورت ايرل ليستر، ودي بوهون ايرل هيرفورد وايسكس، ور. R لي بيغود ايرل أوف نـورفولك، ور. R ايرل أوف غلوستر وهيرفـورد، ور. R ايرل أوف وينكستر، و.و. W ايـرل ألبميرل Abemarle, وهـ. H ايـرل أوف اكسفـورد، ومن آخـرين في جميع أرجـاء انكلترا كلهـا، مـن بارونات

ونبلاء، وكذلك نبلاء الموانىء الساكنين قرب شاطىء البحر، ومثل ذلك أيضاً من رجال الدين والناس بشكل عام، صحة، وتبجيل جدير بجميع احترامات مثل هذا الحبر العظيم: إن الكنيسة الأم ملزمة تمام الالزام برعاية أبنائها، وأن تجمعهم تحت جناحيها، حتى لايقصروا في واجباتهم نحو أمهم، بل أن يبذلوا جهوداً كبيرة وقوية لصالحها، إذا كان ذلك ضرورياً، وأن يشهروا السيف، ويحملوا الترس، فإنهم قد يعرضون أنفسهم إلى كل خطر في الدفاع عنها، وهي التي من حليبها استمدوا المواساة، أثناء تعلقهم على صدرها ذي العواطف المليئة بالأمومة، ثم إن على الأم أن تتذكر أولاد رحمها، خشية أن يتصرفوا بشكل معاكس، وينسحبوا من التغذي بحليبها، وبذلك تظهر وكأنها قد غدت زوجة الأب، والأب الذي يسحب عواطفه عن أبنائه، ليس بأب، بل ينبغي دعوته —لسبب صحيح— الأب زوج الأم، لأنه يعدّ أولاده الطبيعيين، أولاداً غير شرعيين، أو أولاد الزوجة، وعلى هذا الأساس أيها الأب المحترم، يامن أنت «عربة بني اسرائيل وقائدها»، نحن نلوذ بثقة إلى ملجأ عاطفتكم، ونحن نصرخ بصوت مرتفع خلفك، وندعو باخلاص لك، على أمل نيل تعويض رباني، فقم بالاصغاء برحمة إلى أصوات الذين يصرخون من خلفك، وقدم لهم علاجاً ناجعاً لأثقالهم وأضرارهم، ومظالمهم المتوالية التي فرضت على مملكة انكلترا، ومورست عليها، وإذا كان الأمر عكس ذلك فإن مولانا الملك، سوف تدفعه الفضيحة التي ستقوم، وسوف تحرضه، مثلما حرضتنا نحن أنفسنا، بوساطة صراخ الناس، وعلى هذا إنه لمن الضروري بالنسبة لنا —أنه مالم يتم تحرير الملك والمملكة على الفور من المظالم التي مورست عليه وعلى المملكة— أن نعرض أنفسنا بمثابة سور لبيت الرب، ومن أجل حرية المملكة، وهذا بالفعل قد أجّلنا عمله حتى الآن، وذلك صدوراً عن الاحترام للكرسي الرسولي، لكننا لن نتمكن من الإخفاء بعد عودة رسلنا الذين أرسلوا حول هذه القضية إلى الكرسي الرسولي،

ولا التمنع عن تقديم نجدة —بقدر ما نمتلك من قوة— إلى رجال الدين، وكذلك إلى شعب مملكة انكلترا، الذي لن يستطيع بأي حال من الأحوال تحمل مثل هذه الإجراءات، ويتوجب على قداستك أن تتأكد تماماً، أنه مالم يتم اصلاح القضايا المتقدم ذكرها، بكل سرعة من قبلك، سوف تكون هناك أساسات منطقية للخوف، بأن مخاطر كبيرة سوف تحيق بالكنيسة الرومانية، وكما بين مولانا الملك إنه لن يكون من السهل تقديم علاج لهذه القضايا، لاسمح الرب».

رسالة الملك إلى البابا من أجل تحرير إنكلترا من المظالم البابوية

«**إلى الأعظم قداسة، إلخ**: يعلم الذي ليس بجاهل بأي شيء، أننا دوماً نحتفظ بمشاعر صادقة نحو أمنا، الكنيسة الرومانية المقدسة، وذلك بقدر ما هو متوجب علينا أن نحبها، فهي التي نطير إليها ونحن واثقين في أوقات الحاجة الملحة، مثلما يفعل الولد حين يطير إلى أمه، التي أرضعته من صدرها، والتي عليها أن ترعاه عندما يقاتل تحت حمايتها الخاصة، غير أننا لايمكننا عدم سماع صرخات الشكوى غير الاعتيادية لنبلاء انكلترا، ولرجال الدين فيها، ومثل ذلك إلى الشعب، وذلك مهما كانت عظيمة المشاعر التي نحملها نحو أمنا المذكورة، وهو ما ننوي —بعون الرب ورعايته— بالاستمرار باظهاره نحوها، ذلك أن النبلاء قد أصبحوا، أكثر مما هو معتاد، رافعين لأصواتهم في شكاويهم، متوجهين بالدعاء إلينا من أجل استرداد حقوقهم وامتيازاتهم من المظالم، التي جرى حتى الآن لفت انتباهكم إليها بوساطة رسل خاصين، لكن هذه المظالم ما انفكت سيئة كما كانت تشكل الآن عبئاً أعظم ثقلاً عليهم، وبناء على ذلك أرسل النبلاء المذكورين —محقين— رسولهم الخاص إلينا، ولذلك نلتمس بحرارة من قداستكم، الاستجابة إلى التماساتهم بطريقة يمكن بها أن تحولنا نحن الأبناء، إلى راغبين كثيراً ومخلصين لأمنا ولك، ونخشى،

إذا فعلت غير ذلك، أن نوضع نحن، وكـذلك الكنيسـة الرومانيـة في أخطار كبيرة (نرجو الرب برحمته منعها) إلى حد أننا لن نكون قادرين أبداً على تحرير أنفسنا منها».

رسالة أخرى منه نفسه إلى الكرادلة حول القضية نفسها

إلى الآباء المحترمين أفـراداً وكلية في المسيح، الذين هم بنعمـة الرب كرادلة الكنيسة الرومانية المقـدسة، من هنري، الذي هو بالنعمة نفسها ملك انكلترا، إلخ، صحة، وعـواطف خالصة: مهما كانت درجة حبنا للكنيسـة الرومانيـة، ورغبتنا بازدهارها ورفعـة شأنها، نحن لانستطيع المرور متعـامين بصرخات الشكوى الصـادرة عن نبـلاء انكلترا، وعن رجال الديـن، وكذلك عن الشعب، فهـؤلاء أصبحوا أكثر إلحاحـاً مما هو معتاد في رفع أصواتهم عاليـاً ضد المظالم، التي جرى من قبل لفت انتبـاه البـابا إليها، ولفـت انتباهكم أيضـاً، في وقت متقـدم، بوسـاطة رسلهم الخاصين، ولذلك إنهم يلتمســون بتــواضع وبإخــلاص بأن يتنازل بالإصغاء إلى التماساتهم المنطقية التي قـدمت إليه بوساطة رسل متــوالين، لأنه بذلك ســوف يحولهم إلى أكثـر محبــذين ومخلصين إلى الكنيسة المذكورة، وإلينا، وسـوف نمنعهم من أن يصبحوا بعيدين عن ولائهم، ونحن نرجـوكم أيضـاً باخـلاص، بحكم عـاطفتكم الأبوية، ببـذل جهـودكم، في سبيل أن رسل النبـلاء المذكـورين الذين أرسلوا ثانية، يمكن أن يصغى إليهم بعناية من قبل البـابا، وكذلك من قبلكم أنفسكم، حتـى لايسقط الخطـر الهائل الـذي هو الآن معلـق فـــوق الكنيسـة المذكــورة —التي نحن مـرتبطون بإظهــار الخضـوع لها إلى الأبد— علينا وعليها، مع أن هذا مخشي منه بدرجة كبيرة من قبل كل واحـــــد، لابــل من قبـل الجميع في مملكتنـا. شهـــــدت بنفسي في ويستمنستر، في اليوم الثـامن والعشرين من أيار، في السنة الثلاثين من حكمنا».

كيف تكدست الشكاوي فوق الشكاوي

تواصل الآن، قدوم كثير من الناس الذين تضرروا من قبل البلاط الروماني، بالقدوم إلى الملك، مع روايات عن الوقائع اليومية للمظالم التي تقدم ذكرها أعلاه، (ولذلك تضاعفت الشكاوي في جميع الاتجاهات) آملين أن يبقى الملك ووكلائه ثابتين في توجهاتهم، وبشكاويهم أعادوا إلى ذاكرته وقائع كثير من المضار التي لحقت بهم، وإلى ذاكرة مستشاريه، والأضرار التي لم تكن قد ذكرت من قبل، أضيفت الآن إلى قائمة شكاويهم المتقدمة، والتي لم يكن ضررها قليلاً بالنسبة إلى الملك والمملكة، مثل مايلي:

شكاوي ضدّ البلاط الروماني

«صدرت مؤخراً رسائل عن الكرسي الرسولي، تتضمن قضايا على درجة عالية من الأذى إلى الملك وإلى المملكة، وهي أن على بعض الأساقفة تزويد قداسة البابا، بعدد محدد من الفرسان، بعضهم بعشرة، وبعضهم الآخر بخمسة، وبعض الآخرين بخمسة عشر، وعلى هؤلاء الفرسان الاستمرار في خدمة الكنيسة الرومانية لمدة سنة كاملة، وأثناء قيامهم بالخدمة، من المتوجب أن يكونوا تحت الدفع من قبل هؤلاء الأساقفة، كما أنه من المتوجب تزويد هؤلاء الفرسان بشكل جيد، وبما فيه الكفاية من الخيول والسلاح، وأن يكونوا حيث يرى البابا أنه موائم، لكن مثل هذه الخدمات العسكرية لاتجوز تأديتها إلى أي انسان، باستثناء إلى الملك فقط، وإلى أمراء أصحاب مملكة، وليس من المتذكر قط، حتى وقتنا الحالي، أنها فرضت من قبل أي واحد، ولاحتى إنه إذا ما رغب البابا في فرض أي شيء من هذا النوع من دون موافقة الملك، أو إذا أراد تسلم مبلغ كبير من المال، مقابل الاعفاء من هذه الخدمة، فإن هذا لايحق له، ولا بأي شكل من الأشكال، يضاف إلى هذا، ولكي لايمتلك الملك وسائل احترازية ضد هذا العمل، جرى تدبر ذلك

بشكل مخادع من قبل بعض رسل الكنيسة، وصدر أمر من قبلهم إلى كل واحد من الأساقفة، أنه لايجوز لهم الإباحة بخبر هذا الإلزام، إلى أي واحد تحت طائلة التعرض إلى عقوبة الحرمان الكنسي، أو دفع فدية ثقيلة عوضاً عنها، وذلك في اطار مدة نصف سنة، ومجدداً، مما أحدث أضراراً كبيرة وأذى عظيماً إلى جميع رعاة الكنائس الانكليزية، جرى في هذه الآونة، عمل منحة إلى رئيس أساقفة كانتربري، بوجوب إعطائه جميع موارد ومنتجات المنافع التي من الممكن أن تصبح شاغرة في مقاطعة كانتربري، أي إلى رئيس أساقفة كانتربري المذكور، لمدة سنة».

كيف تعافت الأرض المقدسة قليلاً من مظالم المصريين

وفي هذه الآونة، كان الخوارزمية الممقوتين قد أكملوا أعمالهم الشريرة في الأرض المقدسة، ولذلك طالبوا بصلف وبإلحاح أن يقوم سلطان مصر بالوفاء بالوعود المحددة والاتفاقات التي عقدها معهم مقابل خدماتهم بالحرب، وذلك من دون تأخير أو معارضة، غير أن السلطان المذكور رفض بقسوة الاستجابة إلى مطالبهم والإذعان لهم، وأوضح أنهم استغنوا بما فيه الكفاية وصاروا أثرياء من أسلاب المهزومين، وقالت الخوارزمية، صحيح أنهم نالوا بعض الغنائم، لكن مع ذلك قد سلموا إلى السلطان أشخاص النبلاء الأسرى، الذين سوف يفادى بهم بأسعار عالية، ومن هنا نشبت خلافات تبادل للملامة، وتخلوا عن السلطان وتركوه وهم مغضبين، مع تهديدات غاضبة، وعملوا على الفور اتفاقاً مع سلطان دمشق، ودخلوا في حلف معه ودعموه، وقام هذا السلطان، في سبيل ايذاء المصريين وتدميرهم، فأعطى ابنته بالزواج إلى مقدم الخوارزمية، ومنذ ذلك الوقت استردت دمشق أنفاسها، واعتماداً منها على مساعدة الخوارزمية المذكورين، قامت بهجوم حاد على المصريين، الذين هم أعظم أعداء الصليبيين، ولدى سماع الصليبيين بهذه الظروف المستجدة، شعروا بنوع من الآمال والمواساة من الخلاف فيما

بين المسلمين، ولاسيما من الانقسام فيما بين أعدائهم.

كيف برأ الإمبراطور فردريك نفسه من تهمة الهرطقة

وفي حوالي الوقت نفسه، قام الامبراطور فردريك الذي لم تسمح الكنيسة له بأن يعدّ امبراطوراً، وفي سبيل استرداد سمعته، التي شعر بأنها تضررت كثيراً بتهمة الهرطقة، بإرسال الرسالة التالية إلى نبلاء انكلترا، الذين أمل بأن يقفوا جميعاً مع الملك، بجرأة ضد إلحاف البلاط الروماني.

رسالة الإمبراطور

«**من فردريك، إلخ، إلخ، إلى أساقفة الكنيسة، وإلى الايرلات، والبارونات، والنبلاء بشكل عام، في جميع أرجاء انكلترا، وإلى جميع الذين سوف تصل إليهم هذه العروض، بحكم أنهم أصدقاءه المخلصين، صحة مع كل التمنيات الطيبة**: مع أننا نعتقد أنه قبل التفوه بالاعلان عن السمعة العامة، وقبل حمل الشهادة الصادقة لرسل مختلف البلدان إلى علم جماعتكم، عن عدالة قضيتنا، بسبب —مع أن الأذى الذي يصل إلى الأذن أبطأ في إثارة العقل، من الذي يصل إلى أعين المسيحيين— أننا نحن نضع أمامكم الحقيقة النقية والمجردة، حول الاجراءات، التي قام بها حتى الآن، الحبر الأعظم، ضدنا، لأن بحثاً كاملاً ودقيقاً لها —مع أن أشخاصاً قد جرى تعيينهم في كثير من الأوقات، للبحث والتقصي في شؤوننا— نحن نثق بأن عواطفكم يمكن أن تعطي وقتاً ثابتاً وكافياً، يمكنكم خلاله أن تقدروا بآرائكم، فيما إذا كان لدى حبرنا تقدير صحيح للنزاهة الحبرية، وفيما إذا كان يجوز حرماننا من دفاع محق عن أنفسنا، نحن الذين أثرنا من قبل كثير من الأذى الكبير كثيراً، وفي الحقيقة فيما إذا كان نائب المسيح قد قام حقاً بواجبات المسيح، وفيما إذا كان هؤلاء الخلفاء لسلفهم بطرس، قد اتبعوا

المثل الذي ضربـه، وعليكم أيضـاً أن تقـدروا تحت أي عنوان، ينبغي وضع هذا النوع من الاجراءات ضدنا، أو بأي اسم يمكن تسمية القرار —إذا كـان من الممكـن تسميتـه كـذلك— الذي سـوف يعلن من قبل قـاض غير كـفء، لأنه مع أننا —على الرغـم من تقـديرنا الصحيح للإيمان الكاثوليكي— نقترح ونعترف بشكـل واضح تماماً ونعتقـد بأن سلطة كـاملة في القضـايا الروحيـة قـد منحت مـن قبل الرب للكاهن الأعلى للكرسي الرومـاني المقـدس، فمهما كان هذا الكاهـن مذنبـاً كبيراً (لاسمح الرب) يمكن لما سـوف يـربطه على الأرض أن يربط أيضـاً في السماء، ولكل مـايحله أيضـاً سـوف يحل، ومع هذا نحن لم نقـرأ في أي مكان بأن السلطة قـد منحت لـه، في القـانون اللاهوتي أو البشري، لأن يقوم بتحويل الامبراطوريات كما يشاء، أو أن يقرر إلقاء عقوبات دنيوية على الملوك أو الأمـراء، بتجـريدهم من ممـالكهم أو أراضيهم، ومع أن واجب تكريسنا عائد إليه بعرف وعـادات أجدادنا، فإن واجب حرماننا من الشيء نفسـه، أو خلعنا ليس عائـد إليـه، أكثر من عـودته إلى بعض أسـاقفة الممالك، الذين وفقـاً للعـادات يكرسون ملوكهم ويمسحـونهم، ولنفترض أنه من دون موقف عدواني مسبق، هو مستحوذ على مثل هذه السلطة، فهل انطلاقاً من تمام سلطتـه، يمكنه أن يعاقب كل الذين يعلن أنهم خـاضعين لسلطتـه، من دون مـراعـاة أو تقـدير مطلق للقـانون والنظام؟، لأنه قـام مؤخـراً، كما ذكر، بإجـراءات ضدنا، ليس بوسـاطة وسـائل نظاميـة بتـوجيـه الاتهام، لأن مـا من اتهام أو متهم صحيح قـد ظهر، ومـا من إجراء كتـابي تقدم على ذلك، كما لم تكن هنـاك إجراءات استـدعـاء وفقـاً للقـانون، ولابوسـاطة طريق الاستجـواب، ولابوضع الإدعاءات وعـرضها مسبقاً، وبما أنه لم تكن هناك نسخـة عن إجراءات الاستجـواب قد عملت لنا وقـدمت، وبما أنه لم يكن هناك شيئاً من هذا القبيل قد عيّـن للاستجـواب من قبل قاض مثل هذا، فقد أعلن أن كل شيء كـان واضحاً، وهو مـاننكر بشكل معلن أنه كـذلك، كما لم يتبرهن

أنه واضح من قبل أي عــدد قـانوني من الشهـود، لأنـه بمـوجب هذه الطريقـة أي قاض يمكنه —بـوضعه جـانبـاً كل المراعاة للقـانون— أن يدين بنفسه أي واحـد بموجب إعـلانه فقط أن الجريمة واضحـة، وقد قام هناك ضدنا (كما أخبرنا) في المجمـع بعض العدد القليل من الشهود غير المستقيمين، كان واحداً منهم أسقف كالفي Calvi, الذي كان لديه سبب مســوغ لشعوره بالكراهيـة ضدنا، بسبب بعض قـراباته، أي بسبب أخيه وحفيـده، اللذان أدينا بشكل قانوني، وقضي عليهما من قبلنا بالشنق، بسبب جـريمة الخيانة، والذي شهـادته ينبغي أن ترفض بشكل صحيح، بناء على هذا الأساس، وآخرين قدما من أقصى مناطق اسبانيا، وهما أسقفي تاراغونا Taragona, وكومبـــوستيلا Compostella, اللذان هما معـــاديان لقضيتنا بسبب بعــــد بلدهما المحلي، وهو ايطاليـــا، وبسبب التأثير المسم الذي مـــورس عليهما، وعلى أتباعهما، وعـلاوة على ذلك، إذا كان المدعي والقاضي قـد تصرفا بشكل قانوني بالنسبـة لما أدلى به الشهود، هناك فريق ثالث مـازال مطلوباً، كان من الممكن أن يدان لو أنه كـان موجـوداً، وأن يدان إذا كـان غائبـاً من خـلال التمـرد، لأنـه مع أننا قـد استـدعينا أثنـاء وعظه في ليـون —كما سمعنا— مع أن ذلك كـان بشكل غير رسمي، أي كان علينا أن نظهـر إما بشخصنا، أو من خـلال آخرين أكفاء للاجابة عنا، ولتقـديم العدالة للذي استدعانا، أو لآخرين لم تكن هناك عبارة واضحة حول الشخص أو القضية، وحـاضرين لم نكن هناك بشكل مؤكد، لكن غيـابنا قام على أسس جيدة، ولنبرهن أياً كان وكـلاء القانونيين، لم يسمح لنا بذلك، كما أننا لم نكن غـائبين صدوراً عـن التمرد، بقـدر مـا كان هناك إلى جـانب ذلك، أي استـــدعـــاء إلى أي واحـــد، لأنه كما ذكـرنـا من قبل، لم يحدد الاستدعـاء أي وقت محدد، حسبما تتطلب الاجراءات القـانونية، كما أن صيغ الاستدعـاءات التي ترسل إلى الأمراء والأساقفة،، تظهـر بوضوح الذي يتكون منه تمردنا، بالاضافة إلى هذا كنا بريئين تماماً بوساطة رسالة

المعلم ثاديوس دي سوسا، الذي هو من رعيتنا المحبوبين، كما أنه القاضي المخلص في محكمتنا العليا، والذي لم تضعف سلطاته بأي حال من الأحوال بوساطة الاجراءات ضدنا، لأنها لم تكن مدنية، بل ذات صفة إجرامية، وفي هذا النوع الأخير لايمكن لوكيل أن يعمل، بما أن فحوى الاستدعاءات التي وجهت إلينا أو إلى وكيلنا سوف تبرهن العكس، أي كان من المتوجب القيام بالاجراءات ضدنا ليس بطريقة تجريمية، بل في قضية مدنية، محدودة بكل الخصوصيات المتقدمة الذكر، من دون مواقف عدوانية مسبقة لحقنا العادل، وعلى افتراض أننا كنا متمردين بشكل مكشوف، إنه لايجوز قانونياً إصدار عقوبة بالتمرد، على شخص أخبر أنه متمرد، أو اتهم بالتمرد، وادانته بحكم محدد، قبل محاكمته بشكل إجرائي صحيح، ومن دون البحث في قضيته في محاكمة خاصة أو عامة، لأن لمثل هذه القضايا هناك عقوبات أخرى، تصدر بحق الأشخاص المتمردين، حسبما جاء في الأحكام المدنية والقانونية، وأخيراً لنفترض أن جميع الاحتياطات العدلية المتقدم ذكرها قد اتخذت، فذلك بلا جدوى، مع أنهم قد يكونوا قد استخرجوا من قضيتنا، ذلك أن فحوى ذلك الاعلان، بأن الحكم لم يصدر ضد وكيلنا الذي كان حاضراً، بل صدرت الإدانة ضدنا مع أننا كنا غياباً، وهو حكم تعلن بعض القوانين والحقوق أنه باطل وفارغ، والدليل على الظلم في جميع مسار الإجراءات قد ظهر أيضاً، في الأسباب التي أدخلت في قرار الحكم، والتي ضدها قد جرى الدفاع عنا بموجب حقيقة نقية، وبموجب وثائق معلنة، مثل الرواية الصحيحة لحملة هذه العروض، ومثل ذلك ماتظهره بكل وضوح محتويات تلك الوثائق، علماً بأن جميع القضايا المتقدم ذكرها، غير كافية لإصدار قرار حكم ضدنا بمثل هذه العقوبة القاسية (وذلك إذا كان من الممكن تسميته قرار حكم) وهو القرار الذي قد قذف ضدنا، نحن الامبراطور الروماني، ومن الواضح تهوره، ومن عقله المليء بمشاعر الكراهية أظهر أنه عمل وفقاً لذلك في

القضايا المتقدمة الذكر، لأنه لم ينتظر حتى لمدة ثلاثة أيام لوصول أسقفنا المحبوب كثيراً، المبجل أسقف فريزنغيو Frisingue, وهـ . H رئيس دير اسبتارية التيوتون، والمعلم ب. P دي فينيا، قاضي المحكمة العليا، وهم من رعايانا المحبوبين كثيراً لدينا، كنا قد أرسلناهم مؤخراً إلى المجمع لإكمال بنود مفاوضات السلام، كما أنه لم ينتظر وصول المعلم ولتر دي أوكرا، الذي هو قسيسنا، والكاتب بالعدل لدينا، ومن رعايانا المخلصين، وكان قد أرسل من قبلنا، وذلك بمعرفة من الحبر الأعظم ومن بعض الكرادلة، وكان من المتوجب انتظار وصوله لمدة عشرين يومياً، أي إلى ماقبل يومين فقط، قبل أن تأخذ الإجراءات المتقدم ذكرها مكانها وتحدث في ليون، مع أن النبلاء والأساقفة كانوا يتطلعون إلى وصوله وينتظرونه، هذا وهناك عدوانية كبيرة واضحة في شدة القرار الذي أنزل على غلطتنا، والذي بموجبه تمت إدانة الامبراطور الروماني، الحاكم الامبراطوري، والسيد المعلن لها، بجريمة الخيانة، وبذلك جعل بشكل مضحك خاضعاً للقانون، وهو الذي بموجب مرتبته الامبراطورية متحرر من القانون كله، ذلك أن العقوبات الدنيوية لايجوز أن تنزل عليه من قبل الانسان، بل من قبل الرب، لأنه لايوجد رئيس له بين البشر، ثم إن العقوبات الروحية التي نحكم بها، ينبغي أن تكون بمثابة أعمال توبة يتم تحديدها لنا من قبل الكهنة، ونحن بالنسبة لرفض المفاتيح، ومثل ذلك التجاوزات البشرية الأخرى، سوف نستقبل باحترام، وسنطبق باخلاص العقوبات التي ليس فقط يجري فرضها من قبل الحبر الأعظم (الذي بالنسبة للقضايا الروحية نحن نعترف به على أنه أبانا ومولانا، وذلك مادام راعياً لرأي تجاهنا بمثابة ابنه)، لابل حتى من قبل كاهن من الكهنة، ومن هذه الأشياء كلها، إنه واضح تماماً، أنه قال بأننا ينبغي أن نكون موضع شك في ابتعادنا عن الإيمان الكاثوليكي، منطلقاً من رغبة في توجيه الإهانة، وليس انطلاقاً من أرضيات عادلة، وفي هذا الشأن، نحن نؤمن بأن

الذي هو في عليين هو قاضينا، ونحن بفكر واحد نطبق معتقدين كل قراراته، وفقاً للنظام العام، وللأعراف المقررة للكنيسة الرومانية، ونحن نترك إلى حكمتكم حتى تقرروا فيما إذا كان الحكم المتقدم الذكر —الذي هو ملغى في ذاته— وفيما إذا كانت الإجراءات —التي هي من وجهة نظر القانون لاغية— من المتوجب رعايتها، ليس فقط لزيادة إلحاق الضرر بنا، بل وبجميع الملوك، والأمراء، وبجميع الأعيان الدنيويين، والذي هو قرار حكم، ما من واحد من أمرائنا في ألمانيا، الذين عليهم يعتمد حملنا لمرتبتنا، ووظيفتنا نفسها، والذي عليهم يعتمد خلعنا، قد قام بتثبيته بحضوره أو برأيه، وقدروا أيضاً أمراً آخر، وهو ماهي النتيجة المتوقعة من مثل هذه البدايات، إنها بدأت بالفعل معنا، لكن البقية من المؤكد أنها سوف تنتهي مع بعض الملوك والأمراء الآخرين، حيث أنهم يتفاخرون أنهم لايخشون منهم أية مقاومة، وذلك إذا (لاسمح الرب) ماتمكنوا من وضع سلطتنا تحت أقدامهم ووطئوها في المقام الأول، وبناء عليه، أيها الملوك، دافعوا عن عدالة قضاياكم من خلال الدفاع عن قضيتنا، وتزودوا وأعدوا من أجل شعوبكم ومن أجل ورثتكم، ونحن لن نتردد، بكل ثقة، اعتماداً على رابط علاقتنا، في أن نطلب دعم تماسككم الملكي، بداية بعدم الإصغاء إلى أي شيء يمكن أن يكون مفيداً إلى خصمنا، من الممكن أن يذكره بوساطة رسله أو نوابه البابويين، سواء بشكل معلن، أو بشكل سري، بل الذي عليكم بالحري هو أن تقوموا، بكل جرأة وقوة، مستخدمين كل الوسائل المتوفرة لديكم، بتقديم المساعدة لنا، وبعدم قبول أي رسول أو نائب بابوي يمكن أن يحاول نشر أي شيء لإلحاق الضرر بنا بين الناس، الموضوعين تحت إدارته، وكونوا متأكدين، أنه بموجب الشروع بمثل هذا العمل الطائش ضدنا، تستهدف السلطات البابوية من ذلك حرماننا، لتمد آفاق عملها، ومع ذلك إذا كانت اليد اليمنى لملك الملوك، التي تعين دوماً العدالة، سوف تقدم العون لنا، إننا سوف نواجه

هذه البـدايات، شرط أن لايقـوم الملوك والأمـراء المهتمين بقضيتنا، بمعارضتنا، لأنكـم أنتم مع أشخاص كبار آخـرين على الأرض، يمكن أن يشعـروا محقين بالخوف من مثل هذه المحـاولات المتخـذة ضـدنا، ونحن نفعل هذا غير راغبين، والرب هو شاهدنا، غير أننا مكرهين على ذلك، عندما نرى بأن المسيحية مداس عليها في أيامنا هذه، ونحن نأمل، حسبما كتبنا مـؤخـراً إلى جـلالة الملك، بالتعـاون معكم في الحفـاظ على قضيتها، نـرجو أن يقوم الرب فيقضي بيـده على هذا الذي يقدم الـوقود إلى دمار المنفعـة المسيحية العامة، وعـلاوة على ذلك إن كل الذي سوف يقـوله لكم هوغ كـابوشي Cabuche فـارسنا المحبـوب كثيراً ورسـولنا المخلص، يقوله لكم باسمنا حـول مايتعلق بالقضـايا المتقدمـة الذكر، يمكنكم عدّه أصيلاً. صدر في تورين Turin في اليوم قبل... من آب، في الاشارة الثالثة.

كيف نأت عواطف مختلف الأمراء وابتعدت عن البابا

وعندمـا وصلت هذه الرسـالة إلى علم كثير من الأمـراء، نأت تمامـاً بعواطفهم عن البابا، فهم قـد خافوا من تشامخ البـلاط الروماني، إذا ما رضخ فردريك له.

البابا يتدبر انتخاب لاندغريف أوف ثورونجيا إلى المنصب الإمبراطوري

ثم إن البابـا في جهوده المتواصلة ومسـاعيه المستمـرة للرفع من شأن قضيتـه، سوغ مـوقفـه من القضيـة، ورغبته في سحق فـردريك المذكـور بشكل ماحق، فحصل على انتخاب لاندغريف أوف ثورونجيا إلى المرتبة الامبراطورية، والاعتراف بانتخابه من جميع الكنائس، ولهذه الغاية وعد اللاندغريـف المذكور بمساعـدة وافرة في كل من المال والعسـاكر، وبناء عليه كتـب رسالة إلى رئيس أسـاقفة كولـون، وإلى الأساقفة الآخـرين،

وإلى نبلاء ألمانيـا، لجلب هذا العمل إلى نهاية سريعـة، وإلى هذا استجاب كثيرون، وبشكل خـاص رئيس الأسـاقفـة، كما أنه أرسل إلى امبراطوره —اللاندغـريف— مبلغاً كبيراً من المال ليمكنه من شن الحرب بنشـاط وفعاليـة ضد فردريك، وقـام الأخير بنصب كمين إلى الأشخاص الذين كـانوا جالبين لذلك المال مع بعض الهدايا الملكيـة، في سبيل تحويل ذلك لصـالح استخدامـاته، وإلحاق الأذى باللاندغـريف، الذي هو منافسـه، وكذلك بالبابا.

كيف أرسل الإمبراطور كونراد ضدّ الإمبراطور المنتخب حديثاً

ثم وجـد الامبراطور، أن خصمه، اللاندغـريف المذكـور، قد جـرى الاعـلان عنه في ألمانيـا، بفضل امكانات البـابا، وذلـك للحط من شأنه ولتدميره، وأنـه قد سمن تماماً اعتماداً على أموال البابـا، وأيضاً أن كثيراً من نبـلاء ألمانيا قـد ارتبطوا به بقـوة، ولذلك أصيب بالدهشـة والحزن، وبناء عليه أرسل ابنه كونراد مع قـوة كبيرة للقتال ضده، لكن حدث في يوم القتـال، أن الذين كـانوا ملتـزمين بمسـاعـدة كـونراد المذكـور، قـد انتشرت الأخبار، بأنهم أفسـدوا بوساطة أموال البـابا، وبدناءة تخلوا عن سيـدهم في ميــدان القتـال، وانهزمـوا، أو بالحري انضمــوا إلى جـانب أعدائهم، ونتيجة لذلك عاد كونراد المذكور إلى أبيه مهزوماً يحمل العار.

زواج شارل الأخ الأصغر لملك فرنسا من الابنة الصغرى لكونت بروفانس

وفي هذا العام، جرى تحرير الابنة الصغرى لريمـوند كونت بروفانس المتوفى، من وصاية الملك الفرنسي، بوساطة تدخل أمها بيترايس، وبإرادة من الملك المذكـور وترتيب، جـرى إعطاء كـونتيـه بروفـانس إلى أخيـه الأصغـر شـارل، واقترنت الابنة المذكـورة للكونت به بالزواج، لكن في هذا لم يكن هناك كثيراً من السرور قـد ظهـر بين النبـلاء، ولذلك بات

شارل المذكور غاضباً ويقال بأنه قال لأمه وهو غاضب ومنزعج: «لماذا لم يكن في هذا الاحتفال العام كثيراً من مظاهر الفرح بين النبلاء، مثلما كان أثناء زواج أخي الملك، وذلك في حين انني ابن ملك وملكة، بينما هو لم يكن كذلك؟»، وقد قال هذا لأن شارل المذكور، قد ولد بعد وفاة فيليب الملك الفرنسي الأخير، وتتويج لويس ملكاً، وغدوه ملكاً على الفرنسيين، في حين كان فيليب حياً قبل زواج لويس، ويتوافق هذا الكلام مع ماقاله هنري الأصغر، ملك انكلترا، وذلك عندما قام والده هنري الثاني بخدمته، أي بخدمة هنري الأصغر، حيث قال له: «إنك لست مهاناً بخدمتك لي، لأنك أنت ابن ايرل، بينما أنا ابن ملك وملكة»، لكن دعونا ننتقل من هذا الاستطراد، ونكمل حكايتنا، فقد قام الملك الفرنسي، في سبيل أن لايمتلك فردريك القدرة على إلحاق أي ضرر به، أثناء غيابه في حجه، وأن لايمنعه من الوصول الحر إلى مينائها، قام ببناء ميناء موافق جداً في بروفانس، مقابل نفقات كبيرة، على البحر المتوسط، وبحكمة بنى من حوله قلاعاً قوية.

البابا يأمر بصنع شراريب ذهبية مثل الشراريب التي يرتديها الإنكليز حتى ترسل إليه

وحدث في هذه الآونة أن رأى البابا الشراريب الذهبية الجميلة بين الزينة اللاهوتية التي ارتداها بعض الأشخاص الانكليز فوق أرديتهم وفوق ألبسة الرأس، فسأل عن مكان صنعها، ولدى اجابته: «في انكلترا» قال متعجباً: «حقاً إن انكلترا هي حديقة بهجتنا، وصدقاً هي بئر لاينضب، فيها أشياء كثيرة وافرة، ومن أشيائها الكثيرة، كثير هو الذي يمكن استخراجه»، وبناء عليه أرسل على الفور رسائله المقدسة المختومة بختمه إلى جميع ديرة طائفة السسترشيان المقيمين في انكلترا، الذين إلى صلواتهم عهد بنفسه مؤخراً، في الهيئة الرهبانية للسسترشيان، آمراً إياهم، أن يقوموا من دون تأخير —وكأنهم سوف يحصلون

عليهم مقابل لاشيء— بارسال بعض الشراريب الذهبيـة المنتقاة ليزين بها ثيابه وأرديته للقداسات ولجوقـة الانشاد، وهو أمر لم يرض المرتزقة اللندنيين، لأنهم قـد أعـدوهم للبيع، وقـد باعـوهم بالأسعـار التي ارتضـوها، غير أنها أصـابت كثيرين بالقـرف، بمثـابة بينة على شره الكنيسة الرومانية.

الحملات التي قام بها التتار على المسيحيين

قام في هذا العام التتار، ذوي الذكرى المقيتة جداً بحملة مرعبة داخل المناطق المسيحيـة، فبعـدما أخضعـوا كثيراً من الأمـراء المسلمين —لأن الرب كـان معـادياً لبني البشر— جعلـوا ملك أرمينيـا، وأمير انطاكيـة، وعـدداً كبيراً آخـر من النبـلاء المسيحيين، يدفعـون الجزية إليهم، وبعـد ذلك باتوا يـأملون بمـزيـد من حسن الحظ، فتجـرأوا مجدداً على غـزو مقاطعـات هنغاريا، وقد بدت إليهم، وكـأنهم لم يخضعوها من قبل، مع أنها كانت قد هجرت بشكل مشين من قبل سكانها، وارتعب ملك تلك البـلاد لدى وصولهم، فـانسحب مع السكان من الأماكن الضعيفـة من أراضيه، وهرب إلى الأمـاكن الأكثر حصانـة (وهذه الأماكن بدت حتى بالنسبـة له غير آمنة تماماً)، وانتظر هناك نشـوب معـركة دمـوية، كما أنه أرسل رسـالة إلى البابا كـي يستخدم غـاية مسـاعيه لحمايتـه وحماية جميع المسيحيين، من مثل هذا الوباء الجارف، لكن حتى بهذا لم ينصرف البـابا عن إدمـانه وتشـوقـه واستخـدام كل جهـوده لجمع المال، كما سنرى في الصفحات التالية.

تعيين روجر بيغود مارشالاً

في هذا العام، وبعد وساطات متوالية، جرى منح مرتبة المارشال، مع المنصب والتشريفـات العائـدة إليـه، إلى الايرل روجر بيغـود، بسبب أن الكونتسة زوجته، كانت الابنة الكبرى لوليم الكبير، ايرل مارشال.

كيف تفجرت حروب متنوعة في جميع أرجاء ألمانيا

وفي العام نفسه أيضاً تفجرت الحرب في كثير من الأماكن من ألمانيا، وفي كثير من المناطق المجاورة لها، لأن كثيراً من النبلاء، ولاسيما من العلمانيين، تبنوا قضية فردريك، في حين وقف إلى جانب البابا، رئيس أساقفة كولون مع كثير من الأساقفة، ومثل ذلك بعض العلمانيين، الذين نعموا، أو بالحري أتخموا بأعطيات الكنيسة، وبالاضافة إلى هذا، نشب خلاف بين أبناء كونتسة فلاندرز، قاد إلى حرب مدمرة، تفجرت فيما بينهم، وذلك بسبب الابن الأكبر لـ «بوكارد Buchard, الذي لم يكن شرعياً، ولكن منح الشرعية من قبل البابا، فطالب بتملك بعض الميراث، غير أن الابن الثاني، الذي كان شرعياً، أعلن عن نفسه بحق أنه الوريث، وأعلن أن كل شيء هو عائد له، بموجب حق الوراثة، لذلك تورط في أعمال سلب ونهب واغتصاب، واكتسب الآن عرفاً جديداً أرضيته لدى البلاط الروماني، قضى أنه عندما تنشب الحرب بين أي نبلاء، يتبنى البلاط الروماني قضية الطرف الذي التجأ إليه طالباً المساعدة، محللاً هذا الطرف، ومصدراً حكم الحرمان الكنسي على الطرف الآخر، وعلى هذا فإن الطرف الذي استعان بوسائله، عدّ في جميع مستقبل الأيام مرتبطاً به، وقد تبرهن هذا بوضوح في قضية داود أمير شمالي ويلز، كما أدخلت عادة أخرى مقيتة، وهي أن أي كاهن كانت لديه وفرة من الموارد الغنية، وانتخب أسقفاً، قد سمح له بحرية —بموجب غفران بابوي جاء الحصول عليه عن طريق الوساطات والهدايا— بممارسة نهمه للاحتفاظ بالموارد التي.كانت من قبل بين يديه، وكذلك بالأسقفية، وهذا واضح وقد تمثل بقضية وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، كما أن هناك أعرافاً أخرى شقت طريقها إلى البلاط المذكور، بذكرها شعرت قلوب رجال مقدسين بالحزن العميق.

كونت سافوي يقدم الولاء إلى ملك إنكلترا

وفي حوالي الـوقت نفسه، قام أمـاديوس Amadeus, كونت سافوي، الذي شعر عن حـق بتقدير كبير نحو ملك انكلترا، بحضور بونيفيس رئيس أسـاقفة كـانتربري، وبطرس أسقف هيرفورد، ونبـلاء آخـرين، وأصدقـاء وأقرباء الكونت المذكـور، وكذلك الملك، بتقـديم الولاء إلى الملك المذكور، على يدي رئيس الأساقفة، الذي شغل مكان الملك أثناء غيابه، وقام الكونت عن طواعية من ذاته، وبارادة شخصية فتـولى تثبيت الـولاء الذي عمله فيما يتعلق بورثـة الطرفين، بتعهـده بإيمانه وباليمين الذي لارجعة فيه، بمـراعاة الشيء نفسه، ثم إنه تسلم اقطاعاً من الملك تعلق بسوزا Suza مع قصرها، وفيلانا Veil-lana والقديس مـوريس دي شابلي Chablis, وقلعة باردو Bardo, وكـان بالامكان عمل هذا الولاء بشكـل آمن من دون خـرق لمصداقيتـه، أو تسبيب الأذى إلى الامبراطور، أو الامبراطورية، لأنه لم يكن بين يديه شيئاً من الامبراطورية إلاّ الماء، وحق عبورها.

كيف أن الاستخراجات المعتادة قد خففت شدتها

وفي هذه الآونة، تمّ بوساطة وكلاء ملك انكلترا في البلاط الروماني عمل ترتيبـات قضت أنه مع أن البـابا يتـولى حسب رغبتـه ومن دون تمييز في كل مكـان إعطاء المنافع الكنسية لفائـدة الايطاليين، حتى وإن أدى ذلك إلى إلحاق الضرر الذي لايحتمل بمملكـة انكلترا، ومع ذلك هدأت —بنعمـة الرب— العـاصفـة في ذلك الطـرف، لأنه ترتب انه كلما رغب بإعطاء منفعــة هناك إلى أي إنسـان، أو إلى أي واحــد من أقربائـه، أو إلى أقرباء الكرادلة، يتوجب عليه —أي البـابا— وكذلك على الكرادلة، أن يطلبـوا إذن الملك، وبنـاء عليـه إن كـان مـا يرضيـه سوف يجري تنفيذه.

كيف أصبح الدومينيكان والفرنسيسكان رسل البابا

ووجد فردريك في هذه الآونة أن البابا لديه كميات وافرة من المال الانكليزي، ولذلك مركز حرساً وكمائن، على الطرقات، وعلى الجسور، وفي الموانىء، لمنع أي واحد من جلب المساعدة من البابا إلى خصمه اللاندغريف، وبناء عليه أرسل البابا رسائل مواساة ومساعدات أخرى إليه بوساطة الدومينيكان والفرنسسيكان وهم متخفين، ومن جانب آخر تدبر فردريك إرسال مؤن إلى الأرض المقدسة.

ملك مان يتسلم مرتبة الفروسية

احتفل الملك في هذا العام بعيد الفصح بأبهة عظيمة في لندن، وفي يوم الفصح منح شرف مرتبة الفروسية إلى هارولد Harold ملك مان Man.

وفي تلك الآونة أيضاً، رغب بعض مقدمي النبلاء الويلزيين، بإقامة سلام مع الملك، فأرسلوا سفارة إليه، ورجوه بأكثر الالتماسات تواضعاً، أن يمنحهم بنود سلام.

مغادرة رسل الجماعة في إنكلترا إلى روما

وفي اليوم التالي لعيد الفصح، انطلق النبيلان اللذان عهد إليهما بواجب حمل الرسالة المهمة المتقدم ذكرها إلى البابا، وهما: المعلم وليم دي بوويرك Poweric, وكان رجلاً بارعاً في القانون، وهنري دي لى مير Mare, وكان فارساً، انطلقا برحلتهما إلى روما، يحملان الرسائل التي تقدم ذكرها من قبل، وقد ألقي ثقل الأعمال —على كل حال— على كتفي رئيس رهبان وينلوك Wenlock, الذي كان قد ذهب إلى البلاط الروماني ضد أسقف روكستر، بسبب بعض الأذى الذي لحق به من قبل ذلك الأسقف.

حول الأضرار التي تسبب بها الصقيع والثلج

في نهار وخلال ليلة عيد القديس مرقص الانجيلي، غطى الصقيع والثلج الأرض وربطها ببرد ثقيل جداً، وبذلك أضعف نمو أغصان الأشجار مع أوراقها، ولهذا زوت الأوراق وكذلك النباتات بشكل لايمكن تعويضه.

إعادة بارونيته إلى أسقف شيستر

وفي تلك الآونة لان جانب الملك بوساطة توسلات الأصدقاء، وبلطف أعاد بسلام إلى روجر أسقف شيستر تملك بارونيته، لأنه كان رجلاً لطيفاً في مسلكه، وكان يحظى برعاية جميع الأطراف.

مرسوم جديد وغير اعتيادي للبابا

وسمع البابا في هذه الآونة بأن بعض الكهنة في انكلترا، قد ماتوا أغنياء ومن دون وصية، وكان من بينهم المعلم روبرت هيل Hales, رئيس شمامسة لنكولن، الذي مات قبل عدة سنوات مضت، من دون وصية، وخلّف عدة آلاف من الماركات، وبعض الكؤوس من الفضة، آلت إلى ملكية علمانيين، وكذلك ألماريك Almaric, رئيس شمامسة بدفورد، الذي مات مخلفاً مبلغاً كبيراً من المال، بطريقة غير معتادة، وأخيراً المعلم جون دي هوتوفب Hotofp رئيس شمامسة نورثأمبتون، الذي أصيب بمرض مفاجىء، وبشكل غير حكيم، وغير معتاد، مات من دون وصية، مخلفاً حوالي خمسة آلاف مارك، وثلاثين كأساً من الذهب والفضة، وكميات ضخمة جداً من الجواهر، ولذلك أصدر قداسته مرسوماً جديداً، لم يسمع بمثله في انكلترا، إنما ليس من دون نيل تهمة الشره، وقضى هذا المرسوم، أنه من ذلك الوقت فصاعداً، إذا مات أي كاهن من دون وصية، فإن ممتلكاته ينبغي تحويلها إلى استخدامات البابا، وأصدر أوامر إلى رهبان

الـــدومينيكـــان والفرنسيسكان بتنفيذ هذا المرسوم، لكن عندما سمع الملك بهذا، وفي مقتـه لمضاعفـة شره البلاط الرومـاني، منع من تطبيق المرسوم، مشاهداً أنه يزيد من أذى المملكة، وذلك إضافة إلى الاضرار به.

وفي هـذه الآونـة تحرر المعلـم روبـرت أوف آرونـدل Arundel, الذي كان رجـلاً بارعاً تماماً باللغة العبرية، والذي قـام بصدق بترجمة كثير من الكتـابات من اللغـة العبريـة إلى اللاتينيـة، تحرر من المشـاكل البشرية، وقام بوداع العالم.

إصابة معلم أبناء الملك بالسكتة الدماغية

في أسبوع الابتهالات أمر الملك باتخاذ المزيد من الإجراءات الأمنية بشأن شعب المقـاطعات القـائمـة على ساحل البحـر، وفي سبيل ذلك ذهب إلى دوفـر، ومـن هناك إلى كـانتربري، ولدى عــودته من هناك، أصيب نبيل من حاشيـة بيته اسمـه هوغ غيفارد Giffard, وكان معلماً لأبناء جلالته، فجأة بسكتـة دماغية، وسقط على الأرض، ولفظ أنفـاسـه، وفي حـالة ألم كبير، وقـد قـال بعضهـم بأن هذه الحادثة قـد وقعت انتقامـاً من القديس ادموند المعترف، الذي كان رئيس أسـاقفة كانتربري، ذلك أنـه بالموت المفاجىء لواحد من جـانب الملك، يمكن أن ينذره، ويدفـع به للقيـام بعمـل ترضيـة لكثير الأذى الـذي أنزل بكنيســة كـانتربـري، وبشكل رئيسي بسبب أنه أسرع بشكـل طائش بترقيـة بونيفيس إلى مـرتبـة رئيس الأسـاقفـة، دون أن يسمح لرهبـان كـانتربري —بموجـب حقهم— بامتلاك سلطة حـرة بانتخـاب الذي يختارونه، لأن بونيفيس المذكور، بتوريطه نفسه بطرق غير معتادة وغير مـوائمــة في الحروب في القـارة، دونما ضبط، بل القيـام فقـط بافقـار كنيسته، قد تولى بشكل مهين الانحراف عن طرق أسلافه.

كيف منع ملك إنكلترا دفع الضريبة إلى البابا

وفي هذه الآونة أيضاً، أصدر الملك رسائله الملكية، محظراً على الأساقفة دفع الضريبة إلى البابا.

وكتب إلى السيد راعي دير القديس ألبان، وإلى الآخرين كذلك، الرسائل التالية: «من هنري، الذي هو بفضل الرب ملك انكلترا، إلى المحبوب لديه كثيراً في المسيح راعي دير القديس ألبان، تحيات: لقد سمعنا بأن الأب المبجل فولك Fulk, أسقف لندن، يرغمكم على دفع ضرائب من أجل استخدام البابا، وقد دهشنا لذلك كثيراً وانزعجنا، لأنه كان قد تقرر بشكل جماعي أثناء الاجتماع المتقدم ذكره، من قبل الأساقفة المذكورين، والنبلاء، عدم فعل أي شيء يتعلق بتلك الضريبة، قبل عودة الرسل من البلاط الروماني، الذين إليه قد أرسلوا، كما تعلمون، بمهمة خاصة تتعلق بمملكتنا كلها، وبناء عليه نحن نأمركم، وبكل دقة نمنعكم من محاولة القيام بأي شيء معاكس لما تقدم الأمر به، أي بناء على أمر الأسقف المذكور، أو أي واحد آخر، مادمتم تؤثرون المحافظة بسلام على امتلاككم لبارونيتكم، التي هي بحوزتكم منا، لأننا لن ولايمكننا أن نتحمل أية محاولة من هذا النوع. شهدت بنفسي في ويستمنستر، في هذا اليوم الأول من نيسان، في السنة الثلاثين من حكمنا».

رسائل بابوية لاستخراج الأموال أرسلت إلى أساقفة إنكلترا

وحوالي الوقت نفسه، ولكي لاتتوقف جباية الضرائب المزعجة من الانكليز، عمل البابا أكثر الطلبات سرعة وإلحاحاً، من أجل مبلغ كبير جداً، واضعاً ثقته في الذهب والفضة، معاملاً بازدراء كل محاولات التذمر والشكوى الصادرة عن ملك انكلترا والجماعة كلها في تلك المملكة، والذين كانوا يكتبون ويتشكون، ولم يصغ إلى القول الصحيح

والسليم: «بورك الرجل الـذي لم يخرج عن طريقـه سعيـاً وراء الذهب، والذي لم يضع ثقته في مخازن المال»، وقد عيّـن بمثابة وكلاء لاستخراج هذه الضريبـة وجمعها، وولتر أسقف نورويـك، مع بعض الآخرين، قـد أنابهم ليكونـوا رسـلاً خـاصين لهذه الغـاية، وبناء عليـه كتب أسقف نورويك إلى راعي دير القـديس ألبـان، ومثل ذلك فعل أيضـاً بالنسبـة لبعض الآخرين بالعبارات التالية الحاوية لما جاء في رسالة البابا:

«**من وولتر، الذي هـو بنعمـة الرب أسقف نورويك إلى راعـي الدير المبجل والمجمع الرهبـاني لدير القـديس ألبـان، صحة دائمـة:** لقد تلقينا وصاية من مولانا البابا محتواها هو كما يلي»:

«**من أنوسنـت، الأسقف، وعبـد عبيـد الرب، إلى أخـويه المبجلين أسقفي وينكستر ونورويك، صحة ومباركـات رسولية:** كنا من قبل، كما نذكر جيـداً، قد كتبنا إلى إخواننا المبجلين، أسـاقفة لنكولن، ووركستر، ولندن، وكـوفنتري، بما يلي: بما أنه تم مـؤخراً، قبل عـودتكم إلى انكلترا من عند حضرتنا، قـد رتبنا معكم، أنه بالنسبة لتقـديم مبلغ الستة آلاف مـارك، الذي هو مطلوب من الكنائس الانكليـزية، لصـالح الكرسي الرسـولي، يتـوجب جمعـه، تحت توجيهكم، من بين أسقفيـات انكلترا، ونحن في هذه الكتـابات الرسـوليـة نأمـر اخـوتكم، أن تخبروننا بأقصى سرعة ممكنة في رسـائلكم، حتى نعهد إلى حـاملي هذه العروض، بالذي من الممكن أن تفعلوه، أو ربما بالذي قـد فعلتمـوه، حول هذه القضيـة، وأن تذكروا لنا أيضـاً، وقت ومكان الدفع، وإذا كان من غير الممكن أن لاتكونوا جميعاً حاضرين أثناء تنفيـذ هذه القضايا، ليقم على الأقل ثلاثة أو اثنين منكم، بدون تقـاعس، بالاشراف على تنفيذ هذه القضـايا، وبما أنه لم يصـل إلينا منـذ ذلك الحين أي شيء حـــول هـذه المسألـة، نحن نحذركـم باخلاص، وبهذه الكتابـات الرسولية نـأمر اخوتكم، أنـه فور تسلم هذه الرسائل، بإعطاء انذار إلى الأساقفـة المذكورين، الذين سوف

يكونوا موجودين في انكلترا، وأن تأمروهم بموجب سلطاتنا، بالالتقاء بكم في اليوم العشرين بعد استلام هذه العروض، في أي مكان محدد، ترون من المناسب إقراره، من أجل ترتيب قضية ذلك الاسهام، وعليكم في ذلك اليوم، وقبل مغادرتكم من هناك، أن تعدوا خطة تقسيم مع الأساقفة الذين يحدث أن يكونوا موجودين هناك، وإذا حدث على كل حال أنه لم يكن أي واحد منهم حاضراً، وحول تلك القضية ما من إجراء تمّ اتخاذه، يتوجب عليكم خلال إطار شهر واحد من ذلك الوقت، أن تتدبروا أن يدفع إليكم شخصياً، أو إلى رسلكم، في أي مكان ترونه مناسباً لاختياره لتلك الغاية، دفع مبلغ المال الذي تقدم ذكره، من أجل استخدامات الكرسي الرسولي، وفقاً للترتيبات التي عملت من قبل في تلك البلاد، اعتماداً على سلطة ولدنا المحبوب كثيراً، المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، وهو الأمر الذي أرسلناه الآن إليكم تحت ختمنا، واضبطوا جميع المعارضين بوساطة الروادع الكنسية، وضعوا جانباً كل التماس، وأي غفران، وأي امتياز، أو المرسوم المتعلق برحلة اليومين، الذي صدر في المجمع العام، فهذا لاتولوه الاهتمام، وعليكم أن ترسلوا إيصالاً إلينا من دون تأخير، وأن تخبرونا بالذي عمل، أو الذي من الممكن عمله حول هذه القضية، وليكن ذلك بوساطة ولدنا المحبوب كثيراً ليناسيوس Linasius, كاتبنا والحامل لهذه العروض، وأظهروا أنفسكم بالنسبة للقضايا المتقدم ذكرها، أنكم على درجة عالية من اليقظة، حتى لاتتهموا بالاهمال بالنسبة لها، لابل بالحري أن يثنى عليكم بالنسبة ليقظتكم، وإذا لم يكن من الممكن حضور اثنين أثناء هذا العمل، واحد منكم، مع هذا يمكنه القيام به».

«وعلى هذا إنه بموجب سلطة هذه الوصاية، نحن ننذركم ونحثكم، باسم المولى، ونفرض عليكم بكل دقة، وبموجب فضيلة الطاعة التي أنتم مرتبطون بها إلى الكرسي الرسولي، وأنه بالنسبة لما يتعلق بحصة

البابا المحددة لكم، فإن رسلنا سيجلبون إليكم رسائل موثقة تتعلق بدفع هذه الحصة، ولسوف يتلقون ترضية منكم خلال ثلاثة أسابيع، تحسب من بعد عيد الفصح، وعليكم إظهار كل يقظة حول هذه القضية الحالية، حتى نمتلك سبباً بأن نثني على اخلاصكم إلى الحبر الأعظم، وحصتكم هي ثمانية ماركات استيرلينية، وداعاً في الرب. صدر في لندن في الرابع والعشرين من آذار سنة ألف ومائتين وخمس وأربعين، ونحن قد كتبنا إليكم وحدكم، لأن أخينا المبجل وزميلنا أسقف وينكستر، قد اعتذر لبعض الوقت».

الملك يمنع دفع الضريبة إلى البابا

ولدى وصول خبر هذه الوصاية إلى مسامع الأساقفة والنبلاء، سببت إثارة كبيرة، وقلقاً في قلوب الذين سمعوا بها، وبشكل خاص أن رسل الجماعة الانكليزية قد اشتكوا من مثل هذه المظالم في مجمع ليون، وبعد ذلك في البرلمان الذي عقده من قبل ملك انكلترا، الذي اجتمعت فيه كل جماعة رجال الدين، ومثل ذلك كتلة الفرسان، حيث تقرر آنذاك —بصرف النظر عن احترام البابا— وجوب بعث رسل آخرين من الجماعة إليه، لإقناعه باستخدام يد التصحيح لمثل هذه المضار، وليس اليد المثقلة بالمظالم، ولذلك غلبتهم الدهشة، ففي الوقت الذي كانوا فيه متوقعين إنهاءً لاضطراباتهم، أعيقت آمالهم، ونالوا المزيد من الظلم، ولذلك عندما وصل خبر الرسالة المتقدم ذكرها إلى علم الملك، انفجر غاضباً بعنف، وكان مندهشاً، فكتب إلى أساقفة انكلترا بما يلي: «**من هنري الذي بنعمة الرب، إلخ، إلى الأب المبجل بالمسيح، الأسقف كذا وكذا، تحيات:** مع أننا كنا قد كتبنا إليكم في أوقات متقدمة، مرة أولى، ثم مرة ثانية، ومرة ثالثة، بوساطة رسائل خاصة، وكذلك بوساطة رسائل موثقة، نأمركم بعدم الاستخراج، لاستخدام البابا، أو أي انسان آخر، أية ضرائب أو أموال مساعدة من

الرهبان، أو الكهنة أو الرجـال العلمانيين، لأنه ما من ضريبة أو فـريضة من هذا النوع، قـد كـانت عادة قط، كما أنها لايمكـن فرضهـا من دون إلحاق أضرار كبيرة بكرامتنا الملكيـة، الأمـر الـذي لايمكن احتماله ولن نتحمله، ومع ذلك لقـد استخفيت بأمرنا في هذه القضيـة، وعمـلت بشكل معـاكس للمـرسـوم الذي عمل في مـؤتمرنـا في لندن، ومن قبل نبـلائنا، وأسـاقفتنـا، وكـذلك من قبل ايرلاتنا، وبارونـاتنا، وتابعت مع ذلك تقوم بمثل هذه الجبـايات، كما تقدم الذكـر، وبشـأن هذا التصرف نحن مندهشـون كثيراً، وغـاضبـون، خـاصـة بما أنـك لم تخجـل من الاقـدام على الوقـوف ضد عملك، حيث أنـك بالموافقة مع الأسـاقفـة الآخـرين، قد وافقت في المؤتمر الأخير، بأنك لن تعمل شيئاً في مسـألة هذه الضرائب، حتـى يتمكن رسلنا، الذيـن هـم رسلك، وأيضـاً رسل النبـلاء الآخـرين، وجماعة المملكة كلهـا، من العـودة من البـلاط الرومـاني، إلى حيث كـانوا قـد أرسلوا بشكل خـاص، كما تعـرف، لتخليصنـا مـن مظالمنـا، ولذلـك نحن نفـرض عليـكم أوامـرنا، ونمنعـكم بكل دقـة من السير في أية طريق من أجل استخـراج الضريبة المذكـورة، أو فـرضهـا، طالما أنك ترغـب بالتمتع بتملكك لبـارونيتك، والممتلكات الأخـرى التي هي بين يـديك في مملكتنا، وإذا كنت قـد تسلمت أي شيء هنا، إنه غير مسموح لك، ولابأي شكل من الأشكال بحمل ذلك إلى خـارج المملكة، بل الذي عليك حفـظ ذلك في مكان أمين حتى عـودة الرسـل المذكـورين، ونودك أن تعـرف بشكل مؤكـد، أنك إذا تصرفت بشـكل معـاكس، لسـوف نلقي بيـدنا الثقيلة على ممتلكاتك، إلى مدى أبعد مما تتصوره، ونحن نفرض عليك أن تتولى نشر هذا الحظـر على رؤسـاء شمامستك والموظفين الآخـريـن، وإن هذا الحظـر، الرب يعلم، أننا عملناه لضمان حـرية رجـال الدين، ومثل ذلك الناس، إلخ».

المصاعب والاضطرابات التي نجمت عن الخلاف بين الملك والبابا

وبناء عليه وضعت الكنيسة الانكليزية في وضع حرج، وقد سحقت بشكل مخيف، لأنها وقعت بين حجري رحا، دار كل منهما بالاتجاه المعاكس للآخر، فقد كان على الجانب الأول صخرة سيلا Scylla المخافة، وعلى الجانب الآخر دوامات الماء المرعبة، فقد كان الملك في هذه القضية مدعوماً ومؤيداً من قبل الرأي العام، الذي ناضل في سبيل الحفاظ على المملكة وعلى اصلاحها، في حين استهدف البابا إفقارها، وكانت الفئتان متواجهة إحداهن مع الأخرى عن بعد، وخاف كثير من الأساقفة من عدم استقرار الملك في هذا الشأن، فيما يتعلق بنواياه المتصورة، ومن جبن المستشارين الملكيين، المرتبطين بقضية البابا، مع أنهم ربما قد رأوا بأن الكنيسة لن تتلقى المزيد من التقدم بوساطة انفاق مثل هذه الأموال، بل لربما سوف تجني الأذى والمعاداة.

الأخبار المحزنة التي جلبت من الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه أخبار محزنة من الأرض المقدسة، في البلدان المسيحية، وتحدثت عن أن الأرض المقدسة المذكورة باتت كلها تقريباً محتلة من قبل الخوارزمية والمصريين، وبات سكان عكا أيضاً، الآن إما خائفين، أو لاخيارات أمامهم، أو غير قادرين على مغادرة مدينتهم، وكانوا متوقعين إما بأن يحاصروا، أو أن يرغموا على تسليم مدينتهم، لأنهم عانوا من نقص كبير في المؤن، إلى حد أنهم أخذوا يتلاشون بين أنفسهم، كما أنه لم تبق لديهم أية آمال بالخلاص، وكان فردريك قد أصبح الآن مطرقة رعب للكنيسة، ولم يعد يسمح بأية مؤن أو مساعدات على شكل عساكر، بأن تنقل إلى أهل عكا، معلناً بأن الكنيسة الرومانية لم تمتلك قط مثل هذه الأرضيات الفعالة لاستخراج

المال من المسيحيين، التي عليها استغنت وغـدت متشامخة، وفعلت ذلك اعتماداً على الاستجداء من أجل الأرض المقـدسة، وعلى التبشير المجرب من أجل حملة صليبية، في سبيل تحريـرها، وعسقلان التي أنفق في سبيل تحصينهـا الايرل شـارل أمـوالاً كثيرة، وجهـوداً عظيمـة، خـلال وقت طويل، وعمل متـواصل ومخلـص، وذلك بالتعـاون مع كثير من النبـلاء الآخـرين، عسقلان هذه كـانت الآن تعـاني من أقسى الحملات ضـدها وأشـدها، من قبـل الأعـداء، وبصعـوبة متناهيـة كـان بـإمكانها الدفـاع ضدهم، وبدت قلاع أخرى، كـانت قد ظهرت من قبل أنها لاترام، من ذلك على سبيل المثـال الكرك وعثليـت، وبعض المدن والحصـون، بدت لخوف السكان بهم، وقد انعـدمت لديهم آمال النجـدات، أنها أصبحت سجـوناً لهم، ولم تعـد أمـاكن للحماية، وكـان هذا مصـدراً للخـوف ولانعـدام الثقـة، وكـان الصليبيـون من كـل جـانب محاصرون من قبل أعدائهم، الذين تجولوا مـن حولهم حسبما رغبوا وشـاءوا، وانخرطوا في النهب، وتمتعـوا بالنصر بسرور، حتى أنهم اعتقدوا أنه سـوف يكون من الأفضل لهم الموت بدلاً من الاستمـرار في هذا الوجود التعيس أية مـدة أطول، ولذلك تذبذبـوا في إيمانهم، لابل بالحري باتوا محبطين كليـاً فيـه، وهجـروا القـداسـات المسيحيـة، وأصبحـوا مـرتـدين، وهكذا أصبح أصدقاؤنا أعداء لنا، مؤذين لنا أكثر من الآخرين.

حول البارلمان الذي عقد في وينكستر

في يوم مـوت القـديس تومـاس الشهيد، عقـد مـؤتمر كبير بين الملك وبين نبـلاء المملكة في وينكستر، حـول الوضع التعيس للمملكة كلهـا، وخاصة الكنيسة، لأن الرسل الذي كانوا قد أرسلوا إلى البلاط الروماني قـد عـادوا، وهما المعلمان: وليم دي باوريك، وهنري دي لى مير، اللذان جلبا رسالة من البابا، تضمنت لاشيء حول الرفع، بل تضمنت بالحري كلمات غضب، وأعلنا أنهما لم يستطيعـا أن يريا في سلوك (البـابا) أو

كلامه أية علامة على التواضع أو الاعتدال، بالنسبة لقضية المظالم، التي أغرقت بها مملكة انكلترا وكذلك الكنيسة، والتي من أجلها عملت الشكوى، لأن البابا كان قد قال لهما، وهو يبحث عن جواب ما مرضياً لهما: «إن ملك انكلترا، الذي يتحرك الآن ضدي، وحاذياً حذو فردريك، لديه خططه، وأنا لدي خططي التي سوف أتبعها»، وبات من ذلك الوقت من الصعب جداً أن يستطيع الانكليزي ترتيب أي عمل في ذلك البلاط، بل طرد الانكليز جميعاً وعوملوا كمنشقين، وأثيروا بوساطة الاهانات، وأثارت هذه الأخبار، مع سبب جيد، غضب الملك، وغضب نبلائه، وأمر الملك على الفور الإعلان العام بوساطة المنادين، في جميع الكونتيات، وفي جميع أرجاء القرى، وكذلك خلال الأسواق، وأماكن تجمعات الناس، أنه لايجوز لأي واحد الموافقة على أية اسهامات مالية لصالح البابا، أو تحويل أية أموال لمساعدته، وقد وضع هذا موضع التنفيذ، ولدى سماع البابا بهذا، أثير بوساطة غضب عنيف، وكتب مجدداً بطريقة أكثر حدة إلى الأساقفة الانكليز، آمراً إياهم، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي والتعليق، بإرضاء رسوله، الذي كان مقيماً آنذاك في المعبد الجديد في لندن، حول قضية المساعدة المالية المتقدم ذكرها قبل عيد الصعود، ومع أن الملك كان قد استعد من قبل للصمود في سبيل حرية المملكة والكنيسة، غير أنه أذعن الآن، وخرق قراره، وأصبح خائفاً من التهديدات الصادرة عن أخيه رتشارد، وعن بعض الأساقفة، الذين كان المقدم بينهم أسقف ووركستر، الذي إليه —كما يقال— عهد البابا بسلطات إلقاء عقوبة التعليق من شراكة المؤمنين على البلاد جميعاً، وبذلك باتت مساعي جميع النبلاء، ومثل ذلك الأساقفة، بلا فائدة، وقد تلاشت جميع الآمال بتخليص المملكة الانكليزية والكنيسة، وماتت، مما سبب المرارة وشعور الأسى في القلب إلى كثيرين، وأرضى لهاث النهم الروماني، مع تهمة الشره حول مسألة الاسهامات المالية المذكورة.

كيف استخرج الملك الفرنسي والبابا العشر مع جزء من عشرين من جميع ممتلكات المملكة الفرنسية

وفي سبيل أن لاتظهر هذه الفريضة فريدة بين المسيحيين، ولكي لاتظهر يد الرب أنها توفر أحداً، أو بطيئة في معاقبة ذنوب شعبه، أفقرت المملكة الفرنسية الآن بشكل مدهش ومؤلم بوساطة استخراجات بارعة الاختراع من قبل البابا، لأن الملك الفرنسي، الذي كما تقدم ذكره، قد أعاده الرب إلى الحياة، أو على الأقل أعاده من بوابات الموت بشكل اعجازي، قام الآن بناء على إذن من البابا، ومبادرة منه، بظلم مملكته بعدة طرق مضاعفة باستخراج مبالغ كبيرة من المال، بحجة الوفاء بحجه بطريقة توائم مرتبته، فقد أخذ عشر موارد جميع كنائس مملكته، وبالإضافة إلى هذا، أخذ البابا جزئاً من عشرين، وكأن ذلك قام بناء على اتفاق بينهما، أخذه من أجل مساعدة الأرض المقدسة، ولكل واحد منهما لمدة ثلاث سنوات، وطلب البابا اسهاماً آخر من أجل الامبراطور الجديد، الذي عرف من قبل باسم اللاندغريف، وهو الذي أوجده البابا لاخضاع فردريك، وقد بدا هذا الأخير لكثيرين غير ممكن قهره، ولقد قيل بأنه كان عبثاً محاولات البابا خلع فردريك المذكور من منصبه الامبراطوري، ذلك أنه ربح طريقاً مدهشاً، ووعد بكل نوع من أنواع الترضيات، في حين لم يتنازل البابا بقبول التواضع، ونال مشاعر الكراهية ضده من كثيرين، ونصب فردريك المذكور في الوقت نفسه كمائن، للاستيلاء على الأموال، التي جمعها البابا بنشاط من جميع الجهات، ولإضافتها إلى خزائن أمواله.

تكريس الدير الذي اسمه بوليو

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، جرى تكريس كنيسة تابعة لطائفة رهبان السسترشيان، اسمها بوليو Beaulieu, وذلك في الدير الرعوي الذي كان الملك جون قد

أسســه، وجـــرت عمليــة التكـريس بشكل مهيب منـاسب، وفي أثناء الاحتفـال، كـان الملك حـاضراً والملكة، والايـرل رتشـارد، أخـو الملك، وأساقفة المملكة ونبلائها، وبعد اكتمال أعمال التكريس المهيبة، أخذ الايرل رتشارد من صدر تلك الكنيسـة، حـوالي الثلاين راهبـاً، ليسكنـوا في بيت ديني تابعـاً لطائفـة السسترشيـان، كان هو —أي الايـرل المذكـور— قـد أسسه وبناه على حسـابه، في سبيل تخليص روحه، في مكان منـاسب قرب دير وايشيكومب Wychecombe, والذي منحـه منحـاً وافــرة وأغناه، تمايشاً مع العهد الذي كان قد قطعه عندما كان في خطر في البحر.

موت إيزابيلا أم ملك إنكلترا

من المعتقد أن الحادثة التـي تقدم ذكرها أعـلاه، لم تقع من دون تدخل الحكمـة الإلهيـة، لأن كـونتسـة التخـوم، أم ملك انكلترا، والايـرل الذي تقـدم الآن ذكره، والتي اسمهـا ايزابيلا، أذعنت في هذه الآونة للمـوت، وهي في حـاجـة مـاسـة للمنفعـة الروحيـة الصـادرة عن أعمال إحسـان الأتقياء.

موت كونتسة ألبيميرل

وفي حـــوالي الوقـت نفســـه أيضـــاً، تحررت كـــونتســـة ألبيميرل Albemarle, وابنة ألان أوف غـالوي Galway, وأخـــت كـونتسة وينكستر، تحررت من جميع الاضطرابات الدنيـوية، وبهذا المـوت فإن شـطراً كبيراً من غـالـوي، الذي كان عائـداً إليهـا، آل الآن، بسـبب موتها من دون أطفال، إلى روجر دي قوينسي Quincy, الذي كان ايرل وينكستر، وكان متزوجاً من اختها الكبرى.

موت جون دي نيفيل

وفي السنة نفسها، وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، غادر جون دي نيفيل Neville طريق الجسـد المطروق كله كثيراً، وكـان هذا النبيل من قبل

له أهميـة كبيرة بين نبـلاء انكلترا، وباتباعـه لخط سير أبيـه خطوة خطوة، وصل إلى ذروة الكرامة الأرضيـة، وقد ترك الآن مثـلاً واضحاً إلى سكان هذا العالم، بعدم الثقة بحظوة الملوك، وأن يتجنب تقلبات البلاط، لأنه في مطلع رجولتـه، عندما كان المسـؤول الأعلى عن الغابات في جميع انكلترا، تم تقديم عـدد كبير من التهم الثقيلة ضده، تولى تقـديمها روبرت باسلو Passlow, باحتـلالات غير شرعيـة للغـابات، وتجاوزات أخـرى، ولأنه أخفق في أجوبته، وفي تبرئة نفسه، أدين بناء على شهادة أبناء منطقته وتقـدير المحكمين، وسقط إلى وضع مهين كثيراً، حيث غـدت حيـاته من ذلك الوقت قطعة من الموت، لأنه أدين قضـائياً بدفع ألفي مارك، وذلك بالاضافـة للدين الكبير لأبيه الذي سقط فـوق كتفه، وبالاضـافة إلى هذا جـرى تجريده بشكل مـذل ولاعـودة فيـه، مـن بارونيتـه، ولذلك أنهك، وتلاشى خـلال الحزن، وفي حـوالي منتصف الصيف لفظ أنفـاس روحـه التعيسـة، في عـزبتـه في ويلبيرفيلد Welperfield, وقـــد دفن بشكل محترم إلى جانب ضريح أبيه في الكنيسة الديرية لوولتهام Waltham.

كيف لبس أسقف كارآيل رداء رهبان الدومينيكان

في يوم عيـد القـديسين بطرس وبولص، قـام وولتر أسقـف كـارآيل، بالتخلي عن العـالم الذي تعلق به طويلاً، كما تخلى عن الشـؤون الدنيـوية، ولبس في اكسفـورد رداء طائفـة رهبـان الدومينيكان، لأنه خـاف من أن قبوله في تلـك الأسقفية لم يكن قانـونياً، وقد هرب تـاركاً رداءه بين يدي امرأة مصرية.

رسائل بابوية أرسلت إلى الرهبان الفرنسيسكان

وفي العام نفسـه، بعدمـا أصدر البـابا المرسوم الذي سلـف ذكره، أي المرسـوم حـول ممتلكات الذين مـاتوا من دون وصيـة، بأنها يتـوجب أن تؤول إلى استخـدامه، وكان قـد عيّـن رهبـاناً دومينيكان لوضعه مـوضع

التنفيذ، وقد صار قلقاً حول امبراطورية القسطنطينية، وانزعج بسبب صلف الاغريق في انشقاقاتهم، وبناء على ذلك أرسل رسائل تحتوي على وصاية بابوية مع بنود أخرى، إلى الرئيس الاقليمي للفرنسيسكان في انكلترا، جاعلاً بشكل قانوني الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان نوابه، وبذلك نأى بهم عن طريق التواضع والفقر التطوعي، وهو ماكانوا قد اتخذوه عقيدة لأنفسهم ولأتباعهم، وكان فحوى هذه الرسائل: «هو أنه هو أو رهبانه عليهم البحث فيما يتعلق بممارسي الربا، الذين كانوا يعيشون، وحول مرابحهم بوساطة ذنب الربا، وأن يجمعهم من أجل منفعة امبراطورية القسطنطينية، وأن يضبط جميع المتذمرين بوساطة الروادع الكنسية»، وحول مقصد آخر، كان أن كتب بأن «الذين سوف يحملون عن طواعية الصليب من أجل تحرير تلك الامبراطورية، أو سوف يرسلون كمية كافية من ممتلكاتهم، سوف يكون هناك تحليل من ذنوبهم»، وأمر آخر هو «أن عليهم أن يجمعوا وصايا الأشخاص الموتى، والتي حصلوا عليها بوساطة الربا، وأن يضبط جميع المتذمرين بوساطة الروادع الكنسية»، وكان فحوى واحد آخر هو «أن عليهم أن يجمعوا من أجل مساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، الممتلكات التي تركت بموجب وصية من الأشخاص الموتى، أو الذين سوف يتركون لمدة ثلاثة أعوام من أجل استرداد ممتلكاتهم، وهي التي استحوذ عليها الأشخاص الموتى بوساطة الآثام أو سوء التصرف، وضبط جميع المتذمرين والمعارضين»، وكان آخر من أجل أن «الممتلكات التي تركت حتى يجري توزيعها في سبيل مقاصد خيرية، وفقاً لقرار أوصياء الميت، وهي لم يجر تحديدها من قبل الأوصياء أنفسهم لأشخاص محددين أو أماكن، أو أشياء مثل التي هي حق متوجب لآخرين، أو جرى تحويلها من قبل الأوصياء إلى مثل هذه الاستخدامات، يتوجب جمعها من أجل مساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، ووجوب اعطاء ملاحظة حول كمية المبالغ، وضبط» إلخ، إلخ، وأمر آخر استهدف أن «عليهم القيام بالبحث في

ممتلكات الأحياء، التي تم الحصول عليها بشكل شرير، ومن ثم عليهم جمعها من أجل مساعدة الامبراطورية المذكورة، شرط عدم وجود أشخاص يمكن أن تقدم إليهم ترضيات من أجل مثل هذه الممتلكات التي تم الحصول عليها بشكل شرير، وعليهم ارسال إيصال إلى البابا، وضبط»، إلخ، إلخ، وأوردت محتويات آخر أن «الرئيس المذكور لديه سلطة تحليل أشخاص من الحرمان الكنسي، لأنه معروف ممارستهم الغش في مسألة الممتلكات، التي سوف تجمع لمساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، شرط تقديمهم ترضية موائمة إلى الرئيس المذكور، أو إلى رهبانه، الذين يتوجب إنابتهم لهذا الغرض».

كيف سأل البابا إقامة سلام بين الصليبيين والمسلمين

وفي حوالي الوقت نفسه سأل البابا سلطان مصر أن يمنح سلماً (أو على الأقل هدنة) بين الصليبيين والمسلمين، حتى يتحقق أمل أن يبتسم الحظ ثانية ويحل على الصليبيين بوساطة عون المملكة الفرنسية، وعلى هذا الطلب كتب رداً بما يلي:

الرسالة التي أرسلت من سلطان مصر إلى البابا وترجمت من قبل كاردينال من العربية إلى اللاتينية

«إلى حضرة البابا» —عنوان الرسالة— «النبيل، العظيم، الروحاني، الكريم، المقدس، الثلاثين بين الرسل، المتحدث العالمي باسم المسيحية، المحافظ على عبّاد الصليب، القاضي للمسيحيين، قائد أبناء العماد، الحبر الأعظم للمسيحيين، منحه ربي القوة وأعطاه السعادة.

من السلطان الأعظم، المتسلط على رقاب الشعوب، المتملك للفضيلتين: فضيلة السيف، وفضيلة القلم، ولميزتي العلم والقضاء، ملك البحرين، وسيد الشمال والجنوب، ملك بلدان مصر والشام، والجزيرة، وميديا، وأدوم، وأوفير، الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان

الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبو بكر ابن أيوب، حفظ الله مملكته.

بسم الله الرحمن الرحيم: لقد قدمت إلينا رسائل من البابا، النبيل، والعظيم، والروحاني،والكريم، الثلاثين بين الرسل، المتحدث العالمي باسم المسيحية، المحافظ على عبّاد الصليب، القاضي للشعوب المسيحية، قائد أبناء العماد، الحبر الأعظم للمسيحيين، جعله الرب واحداً من الذين يرغبون بالخير، ويعملون به، ومن الذين يريدون السلام، واتباع طريقه، أعانه الله، في هذه المسائل التي هي نافعة للذين يعبدونه ومن أهل دينه، وللآخرين.

ولقد رأينا الرسائل المذكورة، وفهمنا البنود التي أدخلت فيها، ومحتوياتها، ولقد فرحنا، وابتهجت آذاننا بسماعهم، ووصل إلينا رسول أرسل من قبل قداسة البابا، ولقد استقبلناه بالتشريف، والتقدير، والاحترام، واستدعيناه للمثول بحضرتنا، وأصغينا لسماع كلامه، ووثقنا بما قاله، عندما حدثنا عن المسيح، عليه السلام، وبالنسبة للمسيح المذكور، نحن نعرف عنه أكثر مما تعرفون، ونحن نمجده أكثر مما تفعلون، وفيما يتعلق بالذي قلته، من أنك ترغب بالسكون والسلام والهدوء، وأن تمتلك الوسائل لدعوة الناس إلى السلام، نحن مثل هذا نرغب بالشيء نفسه، كما أننا لانرغب في معارضة رغبتك، لأن تلك دوماً رغبتنا ومبتغانا، وليعلم البابا، حفظه الله ووقاه، بأن صداقة وتقديراً متبادلاً، وحسن نوايا، قد تأسس منذ زمن طويل، فيما بيننا وبين الامبراطور، وذلك منذ أيام أبينا السلطان، الذي يحيطه الله برحمته في كنفه، وبينك وبين الامبراطور، أنت تعلم كيف هي الأحوال قائمة، وبناء عليه نحن لانمتلك الحرية في عمل أية اتفاقيات مع الصليبيين من دون أن نعرف رأيه أولاً ونأخذ موافقته حول المسألة، وقد كتبنا إلى مبعوثنا، الموجود الآن في بلاط الامبراطور، من أجل الأسباب التي

ذكرت إلى رسل البابا، ومبعوثنا هذا سوف يأتي إليكم، وسوف يتكلم معكم، ويجلب الجواب إلينا، وعندما يفعل هذا، سوف نتصرف بناء على فحوى ذلك الجواب، ولسوف لن نتمنع عن الموافقة لما سوف يبدو أنه لمصلحة الجميع بشكل عام، حتى نتلقى الثواب من الله،ورسولنا هذا إليكم، بإذن الله، سوف يكون صالحاً للجانبين. وكتب هذا في اليوم السابع من شهر محرم، الموافق لليوم السابع من شهر آب، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وعسى أن يكون (صلى الله عليه وسلم) شفيعنا».

شكوك حامت حول وثائقية الرسالة المتقدم ذكرها

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى البابا، أعلن أن كثيراً من أشكال الخداع، قد تدبرها فردريك بمكره في أن تفعل، في سبيل أن يجري اقناع البابا بسهولة أكبر، حتى يعيد تأسيس السلام معه، لكن كما يبدو هذا غير صحيح، لأن البابا كان قد أرسل رسوله، وكان رجلاً موثوقاً، ومعروفاً تماماً من قبله، ليحمل رسالته، ليجلب إليه الجواب، وقد عاد مخلصاً إليه سليماً ومعافى.

عواصف رعدية غير معتادة

وفي سبيل أن تكون العناصر متوائمة مع أحداث العالم، حدث في هذه الأيام، أي في اليوم الذي تقدم على عيد القديسة مرغريت، أن ثارت عاصفة هوجاء مخيفة، ترافقت مع رعد وبرق، وبسقوط برد، كانت حباته ذوات زوايا حادة، وكل منها أكبر من حبة اللوز، وقد دمرت الطيور، لابل حتى بعض الحيوانات، وأزعجت المنطقة كلها في جميع الأرجاء، وأتلفت أشجار السنديان، وأطاحت بالأبنية، وأحرقت الناس، ودمرت المواشي والسائمة، وحطمت الجسور بالمياه المتدفقة وقد استمر هذا كله لمدة ست عشرة ساعة، أي طوال الليل وبعض النهار.

ولادة صبي للإيرل رتشارد توفي بعد ذلك فوراً وأيضاً ادخال مجموعة من الرهبان إلى بيت طائفة السسترشيان في وايشيكومب

في الوقت الذي كانت أحداث العالم هكذا عاصفة متنوعة بالنسبة للفانين، قام فردريك الذي خلعه البلاط الروماني من منصبه الامبراطوري، فأرسل الرسالة التالية إلى ملك انكلترا، وإلى أخيه الايرل رتشارد اللذين عدّهما بين أصدقائه المقربين:

«**من فردريك، إلى ملك انكلترا، إلخ، تحيات**: خشية من أن تبتعد السمعة —التي هي متنوعة مختلفة باختلاف آراء الناس الكثيرين، والمتأثرة بميولهم المتنوعة— أحياناً بكثرة عن الحقيقة، وأن تؤذي أذنيك، وتزعج قلوب الأصدقاء، وتدغدغ مسامع ومشاعر أعدائنا، إننا سوف نخبركم باختصار في هذه العروض بالحقيقة النقية والمجردة، حول الأحداث التي وقعت مؤخراً، فلقد جرى التخطيط لمؤامرة ضد حياتنا من قبل بعض رعايا جلالتنا، أو بالحري من قبل بعض حاشيتنا، والمعتمدين لدينا، وهم: ثيوبولد فرانسيس، وجيمس دي مورا Morra, وباندولف Pan-dulph دي فاسانيلا Fasanella, ووليم دي سينت سيفيرينو Severino, وبعض أتباعهم، وقد كشفت المؤامرة الشريرة إلينا، من قبل بعض المتآمرين من ذلك الحزب، وهكذا أنقذنا الرب من بين أيديهم وحفظ حياتنا من دون أذى بشكل مدهش، لكن مع أننا عددنا مثل هذه الجريمة جريمة لاتصدق، كانت هي بالفعل غير جائزة قمنا بإجراءات فحص أبعد حول حقيقة القضية، وبناء عليه تبين أن باندولف دي فاسانيلا، وجيمس دي مورا، اللذان تقدم ذكرهما، كانا الرئيسين في جريمة هذه المؤامرة العميقة، وحرضا على ذلك من قبل ضمير مجرم، مع عدد آخر من المشاركين، والمشايعين في جريمتهم، الذين كانوا حاضرين في بلاطنا، ثم إنهم هربوا بشكل مفاجىء، وعلى كل حال، بقي ثيوبولد، ووليم دي سينت سيفيرينو في المملكة، وقد انتظرا هناك موتنا كواقعة

مؤكدة، لكنهما سمعا العكس بشكل غير متوقع، وقد استولى عليهما رعب مخيف، وكأنهما ضربا بصاعقة من السماء، فارتديا ثياب خدامنا المخلصين، وكانا قد حصلا عليها خلسة، وهربا بشكل خياني، إلى اثنتين من قلاعنا، هما قلعتا: كاباكيو Capaccio, وسكالا Scala, وكان ذلك قبل أن يتمكنا من الحصول على المؤن الضرورية، وقبل تحصينهما بالرجال، وقد هوجما من قبل السكان البارعين والمخلصين للمملكة، وطوقا من قبل القوات التي تجمعت من جميع الجهات، وكنا نحن أيضاً في ذلك الوقت في غروسيتو Grosseto, في مملكة صقلية التي هي ميراثنا، وقبل ذلك لم نكن قد اتخذنا أية احتياطات ضد المخاطر التي كان شخصنا عرضة لها، لكن بما أننا لانسمح لنفسنا بأي حال من الأحوال أن تكون عرضة للعدوان، وحيث أن الأمور كانت وكأنها أمام ناظرينا، اتخذنا الإجراءات للذهاب بكل سرعة، ومع قوة زاحفة، إلى مملكتنا، وبعد دخولنا السعيد إليها، كان عدد من رعايانا المخلصين، قد قاموا بناء على مبادرة، واقتراحات زائفة من هؤلاء الخونة ضدنا، قد انضموا إلى المتآمرين، حيث كان قد انتشر تقرير زائف عن موتنا، لكن ما ان انتشر ضوء الحقيقة، وشاهدوا أن القضية، كانت على العكس لما كانوا قد توقعوه، حتى رفضوا أن يكون لهم أية شراكة في خططهم الماكرة، وتخلوا عنهم، وبما أنهم وجدوا فقط ملجئاً في قلعتين، كما ذكرنا من قبل، وهما قلعتا سكالا، وكاباكيو، وفي سبيل تمتين اخلاص رعايانا المخلصين، بوساطة هجوم فعال ومباشر، استرجعنا واحدة من هاتين القلعتين، وهي قلعة سكالا، إلى سلطتنا، وأودع توماس دي سينت سيفيرينو، وابنه، الخائنين والمتآمرين ضدنا، في السجن، وهكذا بقيت قلعة واحدة من القلعتين المتقدمتي الذكر، وهي قلعة كاباكيو، للقيام بانتقام ضدها، وتدبرنا وضع تلك القلعة تحت الحصار من قبل رعايانا المخلصين، وهكذا فإن الخونة المتقدم ذكرهم، الذين من الواضح أن لامورد لديهم، والذين كانت الآن إحدى قلعتيهما قد جرى الاستيلاء عليها، ومن غير الممكن لهم تحصين واحدة

أخـرى، كما لم يعـد بإمكانهم النجـاة منا في أي سبيل، وهكذا جـرى، بوساطة القضـاء، وبكل سرعة بقـدر ما كان الأمـر عادلاً، ايقـاع الانتقام ضـد الخونة المتقدم ذكـرهم، وضـد مشاركيهـم، ونحن نشعر الآن بالثقـة بترتيب الأمور في وقت قصير، لضمان الأمن المستمـر لمملكتنا، وبذلك لن يبقى بالنسبـة للمستقبل أية شكوك في أذهاننا، أو في أذهان خلفـائنا، أو وكـلائنا خـارج المملكة، وعليك —على كل حـال— أن لاتظن أننا تخلينا عن مقصـدنا في متـابعـة الثـوار اللومبـارد، ولاحتى تـركنا ذلك لبعض الوقت، بل بـوسـاطة ولدينا المحبـوبين: هنري، الملك اللامـع لسردينيـا، والنائب العام للامبراطورية المقدسة لايطاليـا، وفردريك صاحب أنطاكية، الذي يرأس مقـاطعـة ايتروريا Etruria, وذلك إلى أن نتمكن من العـودة إلى إيطاليـا، بعـد صنع ترتيبـات مـوائمـة لقضـايا مملكتنا، أقـول بوساطتيهما سحقنا آثار الثوار المتقدم ذكرهـم، بمطرقة قدرتنا غير المتوقفة، إلى حـد أنهم لم يحصلوا على أدنى منفعـة من غيـابنا، الأمـر الذي اكتشفنا بشكل مـؤكـد أنهم حـاولوا الحصـول عليـه بوسـاطـة خطة طويلة سرية وخيـانيـة، وهم الآن حـزينون بسبب قوتنـا الحالية، أكثـر من تفـاخـرهم بغيابنا، لأن ما من واحدة من الحوادث التي وقعت مؤخراً، قد سببت أي نقص لعظمتنا، كما أن أمـوالنا لم تتنـاقص بها حـدث، بل ازدادت سلطتنا، وأصبحت أعظم، فسبب ضخـامـة هذه الجريمـة العميقـة التخطيط، التي هددت برعب الحرب بين الشعوب، بعـدما ذاقت حـلاوة السلام، أصبح وفـاء رعايانا المخلصين، لاسيما من الطبقـات الدنيا، أكثـر حرارة نحـونا، وثقتهم أكثر قوة، وأيضاً من اضـافة موارد تمرد هؤلاء الخونة، التي جردوا منها طواعية بسبـب عدوانهم، وهي موارد قد نالوا الثـروة منها من خلال كرمنا بالطول وبالعرض، إنها الآن كونـت زيادة أساسية لثروتنا، مع أننا لم نرغب بذلك، ومن هذا يمكن الاستخلاص بوضوح، بأن الوعود الكبيرة التي عملت من قبل عدونا المعلن إلى الخونة المتقدم ذكرهم كان لها تأثيرها —مع أن ذلـك كـان من دون محصلـة— بإثارتهم لاقتراف هـذا الإثم،

وبالنسبة لاسم هذا العدو، وللقبه، كنا نرغب تماماً بالمرور به صامتين، لولا أن الصوت العام قد كشفه، مع أننا نرغب بإخفائه بصمتنا، أو تقديم العذر له بوساطة لغة غامضة، لأن المحرضين على الجريمة المتقدم ذكرها، من الذين هربوا، والذين تحت الحصار، كانوا مرافقين ببعض الرهبان الفرنسيسكان الذين منهم تسلموا الصليب، وقد تظاهروا بأن لديهم تفويضاً من الحبر الأعظم، على شكل رسائل رسولية، وذلك من أجل العمل ضدنا، وأعلنوا بشكل مكشوف بأنهم كانوا يعملون في القضية، لصالح الكنيسة الرومانية، التي هي أمهم، وهكذا أعلنوا أن الحبر الأعظم، كان هو المحرض على المحاولة المتقدم ذكرها ضد حياتنا، ومثل ذلك ضد ميراثنا، وبهذه الحقيقة اعترف الأسرى، الذين جرى أسرهم في قلعة سكالا، بفضل مبادرة رعايانا المخلصين، وجعلهم سجناء، فهذا مابينوه بشكل تلقائي، وباعتراف حر، عندما كانوا يموتون بحضرتنا، ذلك أنهم اعتقدوا أن عدم الاعتراف سوف يكون كذباً شريراً، وكذلك فإن أسقف بامبيرغ Bamberg, عندما صدف أنه بعد حصوله على التكريس والمباركة، أو بالحري على اللعنة، كان عائداً وقد لبس التاج الأسقفي من البلاط الروماني، وذلك قبل اعتقاله من قبل رعايانا في ألمانيا، إنه قد أعلن بشكل مكشوف أنه لابد من حدوث اعتقالنا خلال وقت قصير، وموتنا بشكل مهين جداً، على أيدي أصدقائنا المقربين وحاشيتنا، ونحن نتحدث عن هذه الأشياء بحياء، بحكم أن القاضي الأعلى هو شاهدنا، لأننا نعتقد بأننا لم نسمع قط أو رأينا مثل هذه الجريمة أثناء حياتنا، وذلك بأن يقوم قومنا وحبرنا الأعظم، بالرغبة بدناءة بالقضاء على أي انسان بمثل هذه الميتة الشنيعة، لأن العلي الأعلى يعلم بأن العقيدة القبيحة كانت دوماً نائية عن تفكيرنا، حتى بعد الإجراءات التلقائية الذاتية، وغير العادلة، التي قام بها البابا ضدنا في مجمع ليون، وما كنا لنوافق قط على أية محاولة على حياته، أو على حياة أي واحد من إخوانه، مع أنه غالباً ما طلب منا حول القضية من قبل بعض الأشخاص

المخلصين والغيـورين بشكل سري، لكننـا تابعنا دومـاً قـانعين بتحمل أضرارنا، وعـددنـا أنه يكفي أن ندافع عن أنفسنا بشكـل عـادل، من دون القيام بالانتقـام، لأنه من الواضح تماماً بأن الرب يقـاتل من أجلنا، لأنه لم يكتف بانقـاذ حيـاتنا من أيدي أعـدائنا، بل ناولنـا قـوتهم وأشخـاصهم ووضعهم بين أيدينا، لأنه عندما قام مؤخراً الكاردينال رينيير Regnier, العـدو لاسمنـا ولكرامتنا، بـالالتحـاق بـالـ Perusies, وبالـ Assisemates, من رعـايانا العصـاة، بنـاء على إثارة جيمس دي مـورا، الخائن المتقـدم ذكـره، من أجل ايذاء رعـايانا المخلصين، وذلك في اليوم الأخير من آذار الأخير، قرب قلعة أسكـولي، وقد قام مارينوس دي إيبـولي Marinus de Eboli, الذي هو من رعـايا الامبراطورية المقـدسة، والقـائد الأعلى لدينا، بمسـاعدة قـوات مأجورة مع آخـرين من رعـايانا المخلصين، الـذين أمكن جمعهم في تلك السـاعـة، وكـان مـؤيداً بفضيلة اسمنا، وحظنا الجيـد المعتاد، قـام بنشاط بمهاجمة أعـداءها هؤلاء، وبالثقة أكثـر من الاعتماد على عدد عسـاكره، فهـزمهم جميعاً، مع خسـائر كبيرة أيضـاً، ذلك أنه بالإضافـة إلى الذين سقطوا بوسـاطة سيوف قـومنا المخلصين، جـرى أسر أكثـر من خمسة آلاف من الثـوار من قبل رجـالنا، ومن ثم أودعـوا في سجننا، ونحن نخبرك بهذه الأشيـاء جميعـاً، لمنحك السرور، كما نعتقـد، لابل، نحـن نعلم أنـك متعـاطف معنـا أثناء الاضطرابات، وأنك تفـرح معنا أثناء تقـدم النجـاح، كما أن وافـر حظنا الجيد، والعـدل الذي نستحقه لم يسمح لسرورنا ولفـرحكم بالانغلاق مع هذه الأحداث، لأنه حدث في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر، الذي هو شهر نيسان، أن مـدينة كاباكيو، التي على هذا الطرف نحـو اليابسة، والتي كانت محاصرة، قد خرقت بسرعة من قبل رعايانا المخلصين، الذين التهبوا بنوع من أنـواع الجنون لقتل الخونة، وللانتقـام لأنفسهم، وليـس أقل من ذلك لما لحقنا من أذى، والذي حدث هو أن المحاصرين قد شعروا بقدرتنا في كل من القريب والبعيـد، وعندما أصبحوا غير قـادرين على النجاة من

انزال انتقامنا العادل بهم، قاموا بقتل أنفسهم بسيوفهم، أو برمي أنفسهم من أعالي الصخور على جانب البحر في ذلك المكان. صدر في ساليرنو في اليوم الخامس عشر [اقرأ: ٢٥] من نيسان، في العلامة الرابعة».

وولتر دي أوكرا يكتب إلى ملك إنكلترا حول الموضوع نفسه

وكان وولتر دي أوكرا Ocra, الذي كان كاهن فردريك، يعتقد، مثلما فعل سيده بأن ملك انكلترا سوف يبقى ثابتاً على موقفه، يقاوم بجرأة وقاحة البلاط الروماني، فبعث بالرسالة التالية إليه، لمواساته، ولإزالة جميع أسباب الخوف:

«**إلى الملك اللامع لانكلترا، تحيات من المعلم وولتر**: لأنني أعلم أنك تبتهج في ازدهار مولاي، يطيب لي أن أخبر جلالتكم، بأنَّ مولانا المذكور، قد قام قبل حوالي ثمانية أيام، قبل نهاية تموز الأخير، بإلقاء الحصار على قلعة كاباكيو، التي كان فيها ثيوبولد فرنسيس، ووليم دي مان Mann, ووليم دي سينت سيفيرينو Severino, وغيوفري دي مورا Morra, وروبرت، ورتشارد دي فاسانيلا Fasanella, الخونة له، والذين حاولوا قتله، مع مائة وخمسين آخرين، بما في ذلك فرسان، ورماة قسي زيارة، مع أصدقاء آخرين لهم، وكان بينهم أربعين من الرهائن اللومبارد، قد قام باطلاق سراحهم، ثيوبولد المذكور، في أيام المؤامرة، وقام مولانا المذكور برماية هؤلاء بالقذائف ليلاً ونهاراً من دون انقطاع، من سبعة مجانيق أعدت بشكل جيد، وبوساطة حملات متتابعة أيضاً عملت ليلاً ونهاراً، تحولوا إلى حالة ميئوس منها، وبلا قدرة، إلى حد أنهم لم يعودوا قادرين على مساعدة بعضهم بعضاً، سواء في قضايا أشخاصهم أو أطرافهم، وتم أخيراً، بوساطة الحملات المذكورة، الاستيلاء على القلعة، مع الأشخاص الذين تقدم ذكرهم، فهؤلاء قبل أخذهم إلى ربنا —باستثناء وصاية البابا— كانوا قد حرموا من عيونهم، وكل واحد منهم أيضاً، من يد، وأنف،

ورجل، ثم قرر مولانا إرسال ثيوبولد المتقدم ذكره، والخمسة الآخرين الذين حاولوا قتله إلى جميع الملوك والأمراء في أرجاء مختلف البلدان في العالم، مع طبعة ختم البابا —التي وجدت هناك— مختومة على جبين كل واحد منهم، لجعل الجمهور يدركون خيانتهم، وتمّ العثور في هذه القلعة على احدى وعشرين سيدة نبيلة —متزوجات، وأرامل، وفتيات— وقد وضعوا بناء على أمر من مولانا تحت وصاية آمنة، أما القلعة نفسها، فجرى تدميرها إلى حجر الأساس، وكل الذي وجد فيها —باستثناء الكائنات الحية— جرى تحويله إلى رماد في البقعة نفسها، ثم قام مولانا المذكور بترتيب جميع القضايا، وأقام سلاماً مع الرومان، والبنادقة، وبعد الفراغ من ذلك أقسم أنه سوف يسير من دون شك مع كتلة كبيرة من الفرسان إلى ألمانيا، وعمل الاستعدادات للقيام بمثل هذا العمل، ففي تلك البلاد كان الملك ابنه قد اشتبك من دون حذر بمعركة مع أعدائه، يوم عيد القديس جيمس الماضي، وقد أخفق بسبب خيانة اثنين من الكونتات السوابيين، واسمهما: ويرتمبيرغ Wirtemberg, وغرووننغهن Grninghen, اللذان تلقيا من الحبر الأعظم سبعة آلاف مارك من الفضة، بالاضافة إلى وعد —وعمل وتأكد ذلك بوساطة رسائل رسولية— بحصة من دوقية سافوي Savoy, على أن يقوما باستدراج الملك إلى ساحة المعركة والتخلي عنه هناك في ساعة المعركة، أي أن يتخليا عن الجيش من دون قتال، وبناء على ما توافقا عليه، قاما مع أول حملة بانزال علميهما، وخاضا نهراً هناك، وهربا وتخليا عن الجيش، مع حوالي ألفي فارس ورماة قسي زيارة، وصار الملك نفسه في خطر عظيم، وبقي في وسط الأعداء مع حوالي ألف فقط من الفرسان، غير أنه تابع مع الذين بقيوا معه القتال بشجاعة، لكنه أخيراً بعدما فقد مائتين من أتباعه، التجأ إلى مدينة فرانكفورت، وحدث على كل حال، بعد عدة أيام أن جرى اطلاق سراح الأسرى الذين تقدم ذكرهم، بضمانة، أو برهائن، أو بفدية، فاسترد شجاعته، وتابع بنشاط القتال ضد

أعـدائـه، وإلى هناك سـوف يذهب إليــه من مملكة فـرنسـا، ومن منطقـة بيرغندي، على هذا الجانب من السون Saone, خمسمائة فـارس من بين أقـربـاء وأصـدقـاء مـولانا الامبراطور، ومعهم أيضـاً زحـف دوقـا بيرغندي واللـورين، وكـونتـا: شـالون Chalon وباررميـا Barremia.

الملك يسمح مجدداً إلى الرومان بجمع المال من إنكلترا كما يريدون

وفي هذه الآونة، أصبح الموقف الصلب، الذي اتخذه الملك بشجـاعة، في ضبط توجهـات البلاط الرومـاني بالقوة، هذا الموقف الذي كـان من المأمول والمعتقـد أنه سيحافظ عليه، صـار أضعف، وحدث هذا، حسبما ذكر حقيقـة، قد جـاء نتيجة تأثره بآراء الذين كـانوا خائفين كثيراً، بأنهم سـوف يخسرون مـواردهم من خـلال غضب البـابا، لأن الأشيـاء التي أحبوها في قلوبهم، خافـوا من أنها ستضيع من بين أيديهم، وفقاً لكلمات الشاعر:

الحب مع الخوف دوماً مليء

ثم إن الملك مـع عينين مغمضتين، واذنين مغلقتين، وفي سبيل افقـار بلادنا كلها، سمح بأن تُسلـب الكنيسة الانكليزية، وأن يسرق منهـا ستة آلاف مـارك، وذلك حسب ارادة الرومـان ورغبتهم، وهم أعداء مملكتـه وأعـداء المصلحـة العامـة، وهو مبلغ حمله رسـل البابا وتجاره لمسـاعـدة اللاندغريف، لكنهم لم يتمكنوا تماماً من النجاة من مصائد فردريك، وقد انتقـد هذا الأخير بحدة الانكليـز الضعفـاء، من أجل سماحهم لكل نوع من الناس بالاثراء على حسـاب فقرهم، كما أنه تقدم بشكـوى ثقيلة أمام رفاقه بالسلاح، بشأن ضعف الايرل رتشارد، وتراخيه، في اعطائه الموافقة على هذا، لأنه ظهر وكـأنه مترابط مع حزب البابا مـن أجل دمار المملكة

الانكليـزية، وانحـدار الامبراطوريـة، لأنه من خـلال الثـروات الصغيرة للصليبيين، زاد ثرواته كثيراً، وجـاء ذلك بوسـاطة إذن البـابا، وعلى هذا ازدادت مطالب الرومـان جـرأة، ذلك أنهم لم يواجهـوا أحـداً اعترض سبيلهم في أعمال سلبهم، فـاللاجئون أرغمـوا على الفـرار، والـذين أرغمـوهم على الفـرار، هربوا بـدورهم، وآمـال الانكليـز، الذين اتخذوا أعداءهم قضاتهم، قد ديس عليها تحت الأقدام.

كيف قطع ملك أراغون لسان أحد الأساقفة

في الوقت الذي كـان الحظ فيـه، يتلاعب هكذا مـع العالم، قـام ملك أراغـون بشكل وحشي بقطع لسان واحـد من الأسـاقفة، لأنه ربما نقـده بشكل محق، لهذا السبب، أو لأنه كان هنـاك عدداً مسؤولين عن جـريمة قتل، ويتـوجب التساهل بعض الشيء في حـدة معاقبتهم، ولقـد استحق الملك المذكـور أن يعـاقب بشـدة، وأن توضع مملكتـه تحت الحرمـان من شراكـة المؤمنين، لكن بإرسـاله بعض رسله الخاصين الذين استحقـوا الرعاية، حصل على مصـالحة مع الكنيسة، لأنه قـاتل بإخلاص في سبيل الرب ضد الاسبان والمسلمين، وانتصر بشكل مجيد عليهم.

توجيه اللوم إلى البابا من قبل جون الذي هو كاردينال من أصل إنكليزي

في الوقت الذي كـانت فيه عواصـف بحر هذا العالم هـائجة على هذه الصـورة،سمـع البـابا بأن ملـك انكلترا قـد استعـد بجـرأة لمعـارضـة استخراجـاته (لأن الرسل لم يكونوا قـد وصلوا بعد لإخبـاره عن خوف الملك وتراخيه ومرونتـه)، فعند ذلك انفجر بانفعـال شديد، وعـزم على الانتقـام بـوضع مملكة انكلترا تحت الحرمـان من شراكـة المؤمنين، لكن عندمـا كان بـانفعالاته المجنونة يعـد هذا القـرار، عـارضه المعلم جـون، وكان انكليزياً من حيث الأصل، كما كـان راهبـاً من طائفة السسترشيان،

وكـاردينالاً، وقـال له: «مـولاي، من أجل خـاطر الرب، وفـر غضبك، الذي هو —إذا أمكنني القــول— غير مستقيم، واضبط هذه الضغــوط التطوعيــة، باللجــوء إلى الاعتـدال، مقــدراً كم هي سيئة هذه الأيام، فالأرض المقدسـة عرضة للخطر، وقد انفصلت الكنيسـة الاغريقية عَنا، وفردريـك معادي لنا، وهو الذي ليس هناك من هو أقـوى منه، لابل في الحقيقة ليس هناك من يوازيـه بين الأمراء المسيحيين، وأنت ونحن الذين نشكل رأس الكنيسـة، قد طردنا مـن الكرسي الرسولي، لابل في الحقيقـة من المدينة، ونحن نعيش في المنفى، فهنغاريا مع أراضيها الحدودية، تتوقع شيئاً ليس أقل من الدمـار من قَبَل التتـار، وألمانيا ترتجف بسبب حـروبها الداخلية، وأظهرت اسبانيا الجنون، إلى حد قطع ألسنة الأساقفة، وفرنسا التي هي أيضـاً قد تآمـرت ضدنا، قـد غدت فقيرة من خـلالنا، وانكلترا أيضاً التي أوذيت مراراً بالأضرار التي صدرت عنا، هي مثل أتان بلعام، قـد جـرحت بالنخس، وبضربات العصـا، وقـد تكلمت أخيراً، ولامتنا، واشتكت أنها أنهكـت بشكل لايمكن الخلاص منه، وجـــرحـت بشكل لايمكن الشفاء منه، وباتت على هذا مثل الاسماعيليين، مكروهة من قبل الجميع، ونحن قد أثرنا الجميع لكراهيتنا»، ولم يتحـرك عقل البابا —على كل حـال— نحو الرحمة، أو التـواضع، بوسـاطة هذه الكلمات، بل ظل يتحرق للانتقـام وانزال العقوبات، وبينما هو في هذه الحالة، وصل رسل من انكلترا، قاموا بتليين عقل البابا المتيبـس، بتوقعات الربح، وأكدوا أنه من خلال أصدقائه الخاصين في انكلترا (أنا المعد لهذا العمل غير مسموح لي بذكـر أسمائهم) قـد لوي قـرار الملك، وبناء عليـه فإن رغبـاته سـوف يجري بسرعة تنفيذها، ولدى سماعه هذا هدأ السرور عقله وملامحه.

الملك يمنع التفتيش الذي أقامه أسقف وينكستر

وفي هذه الآونة، كـان أسقف وينكستر، قـد مـارس، بناء على اقتراح الدومينيكان والفرنسيسكان —كما ذكرنـا— المظالم على الرعايا التابعين

له، وكـان ذلك أكثـر مما هو معتـاد أو موائـم، إلى حد أنه أقـام تفتيشـاً دقيقاً، يجري في أسقفيتـه من قبل رؤساء شمامسته وعمـدائه، وذلك فيما يتعلق بكبح النفس والأخـلاق لـدى النبـلاء، وكـذلك غير النبـلاء، مما سبب ضرراً عظيماً للسمعة الصـالحة، وفضائح لكثيرين، لأن مثل هذا لم تجر العـادة بـه من قبل، وبناء عليـه، لـدى سماع الملك الشكاوي الثقيلة للناس، وبناء على نصيحة بلاطه، كتب إلى عمدة هيرفورد كما يلي:

«**من هنري، الذي هو بنعمـة الرب ملك انكلترا، إلخ**: نحن نأمـرك، حيث أنـك تقـــدر نفسك وجميـع ممتلكاتك، أن لاتسمـح إلى أي رجل علماني من وكلائك، بناء على رغبة أسقـف لنكولن، ورؤساء الشمامسة، والرسميين الآخريـن، أو العمداء الريفيين، منذ الآن فصاعـداً، بالتجمع في أي مكان، للقيام بإعـادة تقدير في اليمين، أو في أية شهـادة، مالم يكن في شـؤون الـزواج أو شهـادات القضـــايا»، ولدى سماع الأسقف بهذا، أعلن بأن الملك مقبل على اتباع خطوات بعض المتآمـرين، الذين خرجوا بوقـاحة مشـابهة في فـرنسا (الذين أعطـي عنهم بيان مفصل في صفحـة مقبلة من هذا العمل).

طغيان البابا في استخراج المال

وازدادت جـرأة البـــابا، من النجـاح في اخضـاع الانكليـــز التعسـاء وإفقـارهـم، فقـام الآن بشكل متغطرس، لا بـل أكثـر غطرســـة مما هو معتـــاد، فطالب جميـع الأشخـــاص المنتفعين في انكلترا، القـــاطنين في منافعهم، بوجوب اعطاء حصـة ثلث من ممتلكاتهم إلى البابا، وأن يعطي الذين غير قـاطنين، النصف، مع إضـافـة شروط أخـرى قـاسيـة جـداً، رابطـاً الوصـــاية المتقـدم ذكـرها، بتلك العبـــارة المقيتـة: «دون الاهتمام والتقـدير»، وهي الاضـافـة التي أخمدت جميع العـدالة، التي مضت من قبل، ولكي يضع هذا المرسوم مـوضع التنفيذ، عيّـــن على الفور أسقف لندن.

الملك يمنع الاستخراج المتقدم ذكره

ثم إن الأسقف المذكور أعلاه، قام بعدما جعل هذه القضية معلنة ومعلومة في كنيسة القديس بولص في لندن، برفقة بعض الآخرين الذين كان قد جمعهم مع بعضهم لهذا الغرض، فقرر أن يبحث في مسألة هذا الاسهام المرعب، في يوم عيد القديس أندرو، وبينما كانوا متأملين من أنه أمر بها بدا —لابل بالحقية كان— غير ممكن، وصل إلى مابينهم جون أوف ليكسنغتون Lexington, وهو فارس، والمعلم لورانس دي سينت مارتن،وكان واحداً من كهنة الملك، وكانا قد أرسلا إليهم من قبل الملك، حيث منعاهم بكل دقة، بعدم الموافقة، ولابشكل من الأشكال من الاسهام المتقدم ذكره، الذي جرت المطالبة به، لاضراره بالمملكة كلها، ثم بعد عدد من الالتماسات من جميع الذين احتشدوا، أنهوا المؤتمر وهم مسرورين، ولكي لانمر صامتين بالكلمات المؤثرة للذين عارضوا هذا المرسوم، رأينا أنه من المناسب إقحامهم في هذا العمل، ومع أنهم لم يجيبوا بجرأة، لعله كان بإمكانهم أن يكونوا أكثر جرأة، وأكثر فعالية، لو توفرت لديهم أية ثقة في الكلام المتقلب للملك وبأفعاله.

رد رجال الدين بشأن استخراجات البابا غير المعقولة

«لو أن أحوال وأوضاع مملكة انكلترا، كانت معروفة من قبل البابا وإخوانه في أيام المجمع، لما أقدم بأي حال من الأحوال على إعلان ذلك القانون، ولو أن المخاطر والأضرار التي كان من الممكن أن تحيق بالكنيسة الانكليزية بسبب ذلك القانون، قد شرحت له، لما أمكن بأي حال من الأحوال، اقناعه بعمل ذلك المرسوم، لأنه كانت هناك عادة قائمة في الكنائس الكاتدرائية ومرعية، قضت بأن يدفع للكهنة المقيمين فيهن، والذين هناك عدد صغير منهم في بعض الكنائس وكهنة صغار، وقساوسة للكنيسة، من موارد المنافع اللاهوتية، التي هي بأيدي الكهنة

المذكورين في مناطق مختلفة، وإذا كانت حصتهم غير كافية، وصلت إلى نصف المبلغ، فإن خدمات الكنيسة سوف تهجر، بسبب أن الكهنة غير قادرين على الدفع لهم، ولأن الكهنة أنفسهم يعانون من نقص كبير، هم لن يكونوا قادرين على الإقامة في الكنائس، وإذا رأوا أن من الموائم الإقامة بهن، فإنهم لن يتمكنوا من الإنفاق على الآخرين، لابل حتى الانفاق على أنفسهم، من خلال الحصة المتبقية من منافعهم، وخاصة بما أن البابا يقصد أخذ نصيب من حصص المتوفين من دون وصية، حتى يجري استخدامها في أراضي رومانيا (بيزنطة)، وبما أن حصة غير المقيم، قد عدت وكأنه لم يقم شخصياً، ولا حتى اقتطاع التكاليف أو النفقات التي وقعت على جمع الأرباح، ومسائل أخرى كثيرة، وإذا لم تقتطع، من الصعب بقاء جزء من أربعة في حوزة الرهبان».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً بما أن الأماكن الدينية قد أسست في جميع أرجاء انكلترا، وتأسست بناء على إجراءات الكنائس الأبرشية، وفي هذه الحالة، فإن المنافع التي منحت هكذا مع الممتلكات الأخرى بالكاد تكون كافية لهم، وإذا ما جرى أخذ جزء من منافعهم، فإن القسم الأول سوف يكون مرغماً على العيش على الصدقات، أو أن الضيافة، ربما سيجري التخلي عنها، أو أن الأمرين سوف من الممكن حدوثها في بعض الأماكن، وهذا من غير الممكن حدوثه من دون فضيحة كبيرة، وخطر على الأرواح، قد يبلغ حداً أن بعضهم سوف يأخذ بالتجول في أنحاء العالم، وبسبب حالة التشرد هذه، سوف يسقطون في كثير من الذنوب المضاعفة، بعدم مراعاتهم لأحكام الآباء المقدسين، التي هم مرتبطون بها».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن عادة كانت قد سيطرت، وقد جرت مراعاتها في

انكلترا، بأن قساوسة الكنائس الأبرشية، كانوا دوماً مشهورين بضيافتهم، وأقاموا ممارسة تقديم الطعام إلى المحتاجين من أهل أبرشياتهم، وبهذه الوسائل، سعوا ليس فقط لإرضاء الخالق الأعظم، بل الناس العلمانيين من كل نوع، والذين بوساطتهم اضطرب كهنة البلدة، وإذا ما جرى انتزاع حصة من منافعهم منهم، فإنهم سوف يكونون تحت ضرورة رفض ضيافتهم والتخلي عن وظائفهم المعتادة بالتقوى، وإذا ماانسحب هؤلاء، فإنهم سوف يحصلون على كراهية أولئك الرعايا التابعين لهم، وسوف يفقدون عرفان العابرين مع جيرانهم، ولسوف يجري حرمان قساوسة الكنائس من حقوقهم، بحيث يصبحون غير قادرين على الدفاع عنهم، وبسبب فقرهم سوف يظلمون من قبل هؤلاء العلمانيين أنفسهم، مما سوف يجلب العار والخسارة على الكنيسة العالمية، وبعضهم الذين منافعهم غير كافية لإقامة مدة ستة أشهر، والذين نادراً مايجدون طعاماً في الأماكن الأخرى، إن هؤلاء إذا ما جرى اقتطاع جزء من منافعهم منهم، سوف يرغمون على التسول، ولسوف تتوقف القداسات في كنائسهم، وإذا ماتوقفوا، فإن أهل أبرشياتهم سوف يعجزون عن دفع عشورهم، ومواردهم، ولن يكون هناك أحد يتولى متابعة مطالب تلك الكنيسة، بسبب الحاجة، وسوف تصبح كرامة الكنيسة منحطة، وستسقط جماعة الكهنة في حالة الإزدراء، وسوف يتوقف الوعظ، وسيترك علاج الأرواح من دون من يقوم به، وبذلك سوف يكون الإيمان في خطر، بمعاملة الناس للعقائد، وسيقابل إصلاح الأساقفة بالإزدراء».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن الفقراء، الذين هناك أعداد منهم بلا نهاية، يعيشون أثناء السنة على ممتلكات الأشخاص اللاهوتيين، ويتسلم عدد كبير من السادة، وأقربائهم مع آخرين يقيمون في خدمتهم الطعام والدفع المالي

من ممتلكاتهم، فإذا مـا جـرى أخـذ حصـة من مـرابحهم منهم، فإن الصدقات سوف تتوقف عن المنـح، ولسوف تصبح أسر فاسقة، وإذا ما حدثت هذه الأمور، فلسوف يموت الفقير من الجوع، وبعضهم بما أنهم لايستطيعـون الحفـر، وأن يتسـولوا عـارعليهم، لسـوف يجدون أنه من الضروري —بدلاً مـن الهلاك جـوعـاً— الانخـراط في السرقـة، والاغتصاب، والسلب، وعن ذلك سوف ينجم قتل الكثيرين، ولسوف تثـور الفـوضـى بين الناس، ولاشك ان اضطراب مملكة انكلترا كلهـا سوف يتلو ذلك بالضرورة».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن هنـاك كثيراً مـن الكهنـة في انكلترا مثقلين بحمـل الديون، إذا لم يجرِ اقتطاع الدين والنفقـات، التي قـدرها يفوق السـدس من مـواردهم، فإن ذلك الاقتطاع لن تجري بـالنادر معـارضتـه في أية قضية، ولكن إذا كان من دون اقتطاع، فإن الأثقال على الكنيسة، المؤلفة من المعـاشـات التقـاعـدية، ووكـالات الأسـاقفـة، واصـلاح الكنائس وترميمها، وتزيينهـا، سوف تستهلك حصة أرباحهم وستنتـزعها منهم، وبما أنهم لايمكنم العيش على مـا ترك لهم، سـوف يتحـولون إلى حـالة العـوز، ثم إنه في حال الاعتناء بمثل هؤلاء الأشخـاص، وأن لايكونوا في عـوز، خـاصـة حيث من المتـوقع التقـول على الكنيسـة العـالميـة، والفضيحة من الممكن أن تنتج».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، إنه بالإضـافـة لما جرى جمعـه تحت اسم جـزء من عشرين، جرى مؤخـراً دفع ستة آلاف مارك إلى البابا، ولدى مقـارنة كمية الجزء من عشرين مع المبلغ المطلوب، سوف يتجاوز المبلغ المطلوب ستين ألف مارك، بما في ذلك الجزء مـن ستة من الموارد، الذي يعـاد دفعه لدى جمع

المرابح، وبما أنه لم ينقص ذلك الجزء، وبما أنه —بالإضـافة إلى هؤلاء— يسعى للحصـول من الأشخـاص المتــوقعين في الوصـاية الأولى، ومن الذين يتسلمـون مـوارد مـائـة مـارك، والجزء مـن عشرين، ومن الذين لديهم مـوارد أكبر، جزء الثلث، سـوف يكون محتماً أن يجمع من مـوارد الكهنة، مبلغ ثمانين ألف مــارك، وهو مبلغ ســوف يكون من الصعب كثيراً على مملكة انكلترا أن تقـــدر على دفعــــه، فكم على هذا، عنـدها ستكون خســائــر الكهنة، الذين تتألف ممتلكـاتهم في المرابح فقط، التي —مع أنها معروضة بشكل عـام سنوياً للبيع— تقود إلى كثير من أعمال الشراء المعمـولـة من المبلغ المذكـور، وبما أن المال ينتقـل من يد إلى يد، ويبقى في المملكة؟ وإذا مـا حــذف المال من كل بيع، وحمل إلى خـارج المملكة، سـوف تكون عمليات الشراء عـاجـزة، ومن الممكن أن يحدث أن مثل ذلك المبلغ من المال، من الممكن عـدم توفـره في المملكة، الأمـر الذي تبرهن في حــالة طوراىء ضــاغطة، في زمن مضى، أي عندمــا حدث أن كـان رتشارد، ملك انكلترا، صاحب الذكـرى اللامعة، أسيراً ومحبـوسـاً في بلد أجنبي، فـوقتهـا تم طلب ستين ألف مـارك من أجل اطلاق سراحه، ومع أن المملكة كلها أسهمت، لم يكن بإمكانها أن تدفع المبلغ جميعه، لولا أنه عدّ صلبان وأواني الكنائس جزئاً من المبلغ المسدد، وهكذا إن إمكانية جمع مثل هذا المبلغ الكبير الآن ضئيلة، وإلى أن يجمع هذا من مقتنيـات الكهنة فقط سوف يحتاج إلى ثـلاثة أضعاف المدة، أي سوف يحتاج إلى مدة ثلاث سنوات، وبما أنه، على هذا، تعارض الكنيسة الانكليزية بوساطة حماتها هذا الاستخراج، سوف يكون من المفيد إعلام البابا بهذه المعارضـة العامة باسم الكنيسة كلهـا، وهي تدعو إلى حضور يسوع المسيح، وأن يجري عقد مجمع عام، في أي وقت، بنعمة الرب».

كيف جرى إرسال اثنين من القتلة إلى روما

وفي هذه الآونة جــــرى ارســـال اثنين من القتلـة الجريئين، من قبل

الامبراطور فـردريك إلى البلاط الرومـاني، بقصد قتل البـابا في مؤامـرة سرية، حسب طريقة الحشيشية، وقد جرى اعتقالهما بحادثة غير متوقعة، وأودعا السجن، لانتظار صدور حكم على جـريمة تآمرهما، وكان هناك بعض من قـال، بأن هذا الخبر قد جـرى اختراعـه بدهاء، ورتب بشكل زائف، في سبيل أن فردريك الذي كان قد أعلن، أنه قد تعرض لمحاولة مشابهة بتـآمر من البـابا، منذ وقت ليس ببعيد، يمكـن أن يتعرض الآن للاساءة إلى سمعته، باتهامه بجريمة مماثلة.

موت أسقف سالسبري

وفي حـوالي الوقت نفسـه من العـام، أي في اليـوم التـالي لعيـد جميع الأرواح، مـات المعلم روبـرت رنغهـام Ringham,صـــــاحب الذكرى التقيـة، وأسقف سالسبري، وكان رجـلاً أحيط بالفضائل، مليئاً بالسنوات، وكـان مليئاً بالانجـاز الأدبي، وقـد ترك —على كل حـال— بيته الرهباني مداناً بألف وسبعمائة مارك.

وفاة راعي دير ويستمنستر

وفي حـوالي الوقت نفسـه أيضـاً، أي أن تقـول في الأول من كـانون الأول، مات رتشارد دي بيركنغ Berking راعي دير ويستمنستر، وكان رجـلاً حكيماً، ومتعلماً، ومتديناً، وهو الذي زاد أثناء حيـاته موارد بيته الرهباني، بحوالي ثلاثمائة مارك.

تطويب إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الـوقت نفسه، أي في يوم الأحـد، التالي قبل عيـد الميلاد، عندمـا يغنى بمزمـور «ابتهج بالرب»، قـام البـابا بشكل مهيب بتطويب إدموند، رئيس أساقفة كـانتربري، وأدرج اسمه في لائحة القديسين لأنه خشي من أن يقـوم القـديس المذكور بمعـاقبتـه من أجل إهمال تطويبـه، ذلك أنه أجّل ذلك يومـاً بعد يوم، بسبب النمائم وأعمال التآمـر، وعندما

سمع الملك بهذا، سرّ سروراً كبيراً، ومـــا أن أعلم بذلـك، حتى أعطى أوامر بأن يقـوم جميع كهنة البيعة الملكية، بارتداء ثيابهم الاحتفـالية، وأن يتـولوا، مع عـدد من حـوامل الشمـوع المضـاءة، أداء قـداس، يبـدأونه بمـزمـور «دعــونا نبتهج» إلخ، إلخ، ولسـوف تكـون الوثيقـة الأصيلة لتطويبه في نهاية الكتاب.

كيف توقف البحر عن المدّ والتدفق لمدة ثلاثة أشهر (أيام؟)

لقد روي من قبل أشخاص موثوقين، أن البحر لم يتدفق على شاطىء البحر، كما هي العادة، وذلك لمدة أربعة أيام أو خمسة، وهي واقعة، شهد الذين يسكنون على الســاحل، والبحـارة الذين يسـافـرون فـوق الميـاه العظيمة، أنهم لم يروا مثلها من قبل بشكل مطلق.

انتخاب وليم أوف يورك أسقفاً لسالسبري

وفي حـوالي الـوقت نفسـه، أيضــاً، وجـد كهنة ســالسبري، أنه من الصعب جـداً إيجاد واحـد يكون مقبـولاً من الملك، مـالم يكن شخصـاً عائداً إلى بلاطه، وفي سبيل الاحتراز ضد تعريض كنيستهم إلى المخاطر، ولكي يربحـوا رضـا الملك، انتخبــوا بالاجماع وليم أوف يورك، وكـان كـاهناً مقـرباً كثيراً من الملك، وقسيس بيفيرلي Beverley, وكـــان رجـــلاً بارعـــاً تمامـــاً في القـــانون، انتخبــوه ليكون أسقفهـم والراعي لأرواحهم، وكما كان معتقداً، كان هذا الانتخاب مرضياً للرب، وموافقاً للملك، وقد جـرى تثبيته من دون تأخير، وجرى أيضـاً، انتخاب المعلم سيلفستر Sylvester لكرسي كـارآيل، لأنه مـع أنه قـــد فكر من قبل، بنفســه، أنه غير أهل بهذا المنصب، ونتيجة لذلك لم يرض بالقبـول به، وبما أن الرب قـد دعـاه لتسلم رداء الأسقفيـة، استـولى عليـه رعب مقدس، وقبل بكل تواضع بالانتخاب المذكـور، خشية من التحرك ضد الرب، ولكي لايعد خارجياً.

موت بعض النبلاء الإنكليز

مـات في هذا العام بعض النبـلاء الانكليز، الذي عـدّ موتهم خسـارة كبيرة للمملكة، وكان من بين هؤلاء رتشارد دي أرغنتان Argentan, وكان فارساً شجاعاً، قاتل مخلصاً لمدة طويلة في سبيل الرب، في الأرض المقـــدســـة، وفي المنـاطق الشماليـــة، وهنري دي بـالأويل Baliol, ولامبرت دي ميـولتـون Lambert de Muleton, وكـذلك الاسكندر سويـرفورد Sewerford, وكان خـازن كنيسة القـــديس بولص في لندن، وقد دفن بشكل مشرف في كنيسة القديس بولص، وهو لم يترك مثيـلاً له في انكلترا، ذلك أنه كـان شخصـاً بهيـاً، جميل الوجـه، ومـوهوباً في المعـرفة في كثير من الفـروع، وكـان لامبرت دي ميولتـون المذكور أعلاه فارساً، وقد حـاز مؤخراً، بوساطة هدايا كبيرة، على امتياز مدهش من البابا، وهو أن ما من واحـد يحق له حرمانه كنسياً لأي ذنب من الذنوب، مـالم يكن ذلك بوصـاية خاصـة من البـابا، وكأن ذلك أنه كـان مسموحـاً له باقتراف الذنـوب مع حصانة، وبعـدمـا آذى كثيرين، وظلم أكثـر، استحق أخيراً ضربة تفقـدية مـن الرب، لأنه عندمـا كـان عائداً، بعد حضوره احدى الدعـاوى، وكان لابساً بشكل متشامخ، وقد ترجل، أو بالحري لدى ترجله من على ظهر حصانه، اشتكى بأنه أصيب بمرض خطير، وبادر مسرعاً إلى مضجعـه، وقبل أن يخلع مهمازيه، صار لونه شـاحباً بسبب الموت، وكـذلك رالف بريتـون Briton, الذي كان من قبل صديقاً مقرباً جداً من الملك والملكة، ومفضلاً على كثير من النبـلاء، كما كـان مستشـارالملـك، وقـد سقط على الأرض، وعـاش مع ضربة غير متـوقعة لسكتـة دمـاغية، وجـاء ذلك أثناء مشـاهدته لبعض اللاعبين بالنرد، أثناء لعبهم، وجـاء ذلك بعـد مشـاركته بـوجبة طعـام، وهكذا فإن الذي أفقـر كثيراً من الأشخـاص، وخـاصـة كهنة مسيـديا Messedia, في سبيل أن يجمع ثروة كبيرة، ويتملكهـا لنفسه، فقـد

فجأة حياته وما حصل عليه أيضاً، وكذلك نيقولا دين Danne, (عليه اللعنة)، وكان كاهناً، وخازناً، ومستشاراً خاصاً للايرل رتشارد، فهو كان مع صديقه وشريكه جون بريتاشي Bretasche, الذي كان فارساً، (والذي أصيب بانتقام مماثل) قد مارس أعمال الاستيلاء على المال من كل الاتجاهات، وتكديسه من أجل استخدام الايرل، ففي إحدى الليالي المظلمة، عندما كان مخموراً، ومتخماً من إحدى الحفلات، وكان ممتطياً من دون حذر لحصان حرون، سقط على الأرض سكراناً، فاصطدم بجذع شجرة على الطريق، فدق عنقه، وتمدد على ظهره، ولفظ أنفاسه، وتقيأ الخمرة التي كان قد شرب منها كثيراً، ولقد كتبت هذه الأشياء، من أجل أي واحد، قد يعهد الرب إليه بمقاليد أية سلطة مدنية، أن يقوم، بوساطة وضع قدميه في مكان واسع، وبتذكره قول النبي: «إنه أمر مرعب أن تقع بين يدي الرب»، يمكنه بذلك أن يخاف من العقاب في النهاية، إذا ما خان قضيته.

انتخاب رتشارد دي كروكسل راعياً لدير ويستمنستر

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى بالاجماع انتخاب المعلم رتشارد دي كروكسل Crokesle, رئيس شمامسة ويستمنستر، والذي كان رجلاً فصيحاً، وعالماً بالقانون، وصديقاً قريباً جداً من الملك، انتخابه راعياً لدير تلك الكنيسة من قبل جميع الرهبان، لأن الرهبان خافوا أنهم إذا تصرفوا بشكل معاكس، من أن يقوم الملك، الذي كان حاميهم الخاص، بترك نصف الكنيسة التي شرع ببنائها بشكل جميل، غير مكتملة العمارة، وقد جرى على هذا انتخاب رتشارد المتقدم ذكره، وقد كان دوماً معجباً بالقديس ادموند المعترف، ورئيس الأساقفة، لأنه في يوم تطويب ذلك القديس، أي في يوم الأحد ماقبل عيد الميلاد، كما تقدم الذكر أعلاه، استدعي إلى الاحتفال التكريمي لهذا التجمع الأسقفي السامي، وأمر على الفور ببناء بيعة تشريفاً للقديس المذكور،

حيث تقـام فيهـا صلوات فخمــة، حسبما هو لائق، وتقـدم في مستقبل الأيام إلى الرب، وإلى المعترف المذكور، وبمبادرة من الملك أيضاً، عملت إضافـة لتكريم راعي الدير المذكور، سمح له بموجبهـا بأداء القداس في أثواب حبرية، وأن يقـدم مبـاركـات مهيبـة إلى الناس أثناء انشـاد «حمل الرب».

خاتمة أحداث السنة كلها

كانـت هذه السنة خلالها كلهـا منتجة للشكوك إلى الأرض المقـدسة، والأذى للكنيســة بشكل عــام، والعــدوانيـة للامبراطـورية، والسلب لمملكتي فرنسا وانكلترا، والعار والاضطراب للبلاط الروماني.

احتفال الملك بعيد الميلاد في وينكستر

كــان عـام ١٢٤٧، هو العــام الحادي والثـلايـن لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد بلاطه في وينكستر، بحضـور عدد كبير من نخبة نبلاء المملكة، ولـدى وصــوله إلى هناك، استقبـل بالسرور من قبـل أسقف وينكستر، الذي رجاه بحرارة بأن يتناول طعـام الافطار معه، في الصباح التـالي الذي هو صباح يوم عيـد الميـلاد، فقد اعتقـد الأسقف أنه بعمله هذا، يمكن أن يعطي برهاناً إلى الجميع بأن مولاه الملك، قـد نسي تماماً، جميع ذنوبه السالفة، ولكي يتمكن من أن يظهـر أمام جميع الضيوف بأنه —أي الملك— أعـاده —أي الأسقف— إلى صداقتـه الماضية، ولسرور الأسقف، تمت الموافقة على طلبه، وتمت تلبية رغباته.

عقد مؤتمر في لندن

وفي هذه الآونـة، وبناء على وصــاية مستعجلـة من البــابـا، تتعلق بالمســاهمة التي تقـدم ذكـرهـا والتي لايمكن التسـاهل نحــوها، وهي المسـاهمة التي قـام الأساقفـة بالمؤتمر العـام، لسوء الحظ فـربطوا رجـال الدين بها، بناء على ذلك قـام الملـك بمـوجب أمـره الملكي، باستـدعـاء

نبـلائه، وكـذلك رؤسـاء الشمامسة في انكلترا، للقـدوم إلى لندن، ولدى وصولهم إلى هنـاك، قاموا جميعـاً، أي الأساقفـة، قبل اليوم المتفـق عليه، فغيبـوا أنفسهم عن عمـد، في سبيـل أن يظهـروا أنهم كـانوا معـارضين لأعمالهم، لأنهم كانوا يعـرفون بأن قلوب الجميع كـانت مليئة بالألم، ولم يكن هذا من دون سبب مسوغ.

حول مؤامرة بعض نبلاء فرنسا ضد البابا

في الوقت الذي كان فيه نهر الوقت يتدفق هكذا نحو الأمام، ضعفت التقوى لدى المسيحيين، وكذلك عـواطف البنوة، التي من المتوجب على كل مسيحي أن يرعـاها نحـوأبينا الروحي، البـابا، ذلك أنها كـانت قـد أصيبت بجراحة وماتت، ولم يكن هذا بلاتعريض أرواحنا للخطر، لابل في الحقيقـة، تحولت هذه العواطف إلى كـراهيـة شديدة، ولعنات خفيـة، لأن الجميع قد شاهدوا، ومع المشاهدة شعـروا بأن البابا المذكور، استمر عـازمـاً، على إلحاق الضرر والفقـر بكثيريـن، وعلى نهب المال، واعتقـد كثيرون الآن، أنه بإمساكه للسلطات التي منحت من السماء إلى القديس بطرس، أي سلطة الحل والـربط، قـد برهن عن نفســه، بأنه لايشبــه القديس بطرس بشكل مطلق، وانفتـح فم المتحدثين بالشر والذم في كل مكان، وبشكل خاص في فـرنسا، البـلاد التي تآمر فيهـا كثير من النبلاء ضد البـابا والكنيسة، وهي حالة لاتتـذكر قط أنها وقعت من قبل، ومن الممكن مشاهدة خصـائص هذه المؤامرة في العـرض الكتابي التـالي، وقد وصلني باللغة الفرنسية، وفيه جاء:

«إلى جميع الذين سوف يرون هذه الكتابات، نحن الذين أختامنا مثبتة على الرسـالة الحاليـة نعلن أننا نقسم بحـق أجسـادنا، بأننا قـد تعهـدنا، وتعاهدنا مع بعضنا، وذلك بالنسبة لأنفسنا، ولورثتنا بشكل أبدي، بأننا ســوف نسـاعــد أحـدنا الآخــر، وجميع الذيـن في بلادنا، وفي البلدان الأخرى، الذين يودون أن يكونوا في هذه الجماعة، وذلك في أن نستحوذ

على حقوقنا، وأن نحصل عليها، وندافع عنها، وعن ماهو خاص بهم، باخلاص صالح، ضد رجال الدين، وحيث أننا رأينا أنه سوف يكون عبئاً ثقيلاً علينا، أن نواجه هذا، اخترنا نيابة عنا ولصالحنا، بموافقة عامة، وبرضا منا جميعاً: دوق بيرغندي، وكونت بيريوم Perrum أوف بريتاني، وكونت أنغوليم، وكونت القديس بولص، وذلك من أجل أنه إذا ما أقدم أي واحد من جماعتهم على تقديم شيء إلى رجال الدين، مثل أية مساعدة، يقوم الرجال الأربعة المتقدم ذكرهم بتقدير الذي ينبغي أن ينزل به، ونحن علينا أن نفعل ذلك وننزل به، ونود أن يعلم الجميع، أننا في سبيل الدفاع والاستحواذ، والحصول على ماتقدم ذكره أعلاه، إن كل واحد من هذه الجماعة سوف يخصص مائة بالمائة، بموجب يمينه، مما يكسبه لمدة سنة، من الأراضي التي يمتلكها آنذاك، وسوف يقوم كل رجل غني من هذه الجماعة بجباية المفروض لكل سنة حسب أقصى قدرته، في عيد طهارة سيدتنا، وسوف يرسل هذا المال إلى أي مكان يحدد له بوساطة رسائل تحمل أختام الأربعة الذين تقدم ذكرهم، أو تواقيع اثنين منهم، وإذا مااقترف أي واحد خطيئة، ولم يكن من الممكن جعله يتخلى عن ذلك من قبل هؤلاء الأربعة الذين وردت أسماؤهم أعلاه، هو سوف لن ينال المساعدة من الجماعة، وإذا تعرض واحد من هذه الجماعة إلى الحرمان الكنسي، بوساطة ذنب معروف لدى هؤلاء الأربعة، وكان هذا الحرمان قد أنزل به من قبل رجال الدين، هو لن يتنازل عن حقه، وصراعه من أجل الحرمان الكنسي، ومن أجل أي شيء آخر من الممكن أن يعملوه له، ما لم يكن ذلك بموافقة هؤلاء الأربعة، أو اثنين منهم، وهو سوف يتابع العمل في سبيل حقوقه، وإذا ما مات اثنان من هؤلاء الأربعة، أو سافرا إلى خارج البلاد، على الاثنين اللذين بقيا، وضع اثنين آخرين، وتعيينهما مكان هذين الاثنين، ولسوف يكون لهذين السلطة نفسها، حسبما كان قد تقرر أعلاه، وإذا ما حدث أن ثلاثة، أو الأربعة غادروا البلاد، أو ماتوا، يتوجب على عشرة أو اثني

عشر من أغنياء هذه الجماعة، انتخاب أربعة آخرين، وسيكون لهؤلاء السلطات نفسها، مثلما كانت للأربعة الذين ذكرت أسماؤهم أعلاه، وإذا ماقام هؤلاء الأربعة، أو أي واحد من الجماعة، بأي عمل، بناء على أوامر هؤلاء الأربعة، وكان ذلك مما يخص هذه الجماعة، سوف تقوم الجماعة بتخليصهم منه».

كتابة أخرى ضد رجال الدين

«بما أن أوهام رجال الدين، غير متنبهة إلى أنه بوساطة الحروب وسفك دماء بعض الناس في أيام شارلمان وآخرين، جرى تحويل مملكة فرنسا من آثام الأمم إلى الإيمان الكاثوليكي، وأنه بوساطة نوع من التذلل ضللنا رجال الدين، ونأوا بنا، ورجال الدين هؤلاء يقفون ضدنا مثل ثعالب، فمن خارج بقايا هذه القلاع نفسها التي تعود بتأسيسها ووجودها إلينا، قاموا بخرق سلطات أحكام الأمراء العلمانيين، حتى صار أولاد الأرقاء، يقضون على الرجال الأحرار، وعلى أبناء الرجال الأحرار، تبعاً لشرائعهم، مع أنهم ينبغي بالحري، أن يحكموا من قبلنا وفقاً لشرائع المتغلبين الماضين عليهم، ولايجوز الانحراف عن ذلك، بوساطة مراسيم جديدة، ولا عن أعراف وعادات أجدادنا، ذلك أنهم يريدون أن يضعونا في حال أسوأ، مما أراده الرب، حتى بالنسبة للأمم، عندما قال: «أعط لقيصر ما لقيصر، وأعط للرب ما للرب»، ونرى نحن، أعيان الناس في هذه المملكة، ونقدر بتيقظ، بأن المملكة، لم يتم الحصول عليها بالشريعة المكتوبة، ولابرعونة رجال الدين، بل بجهود الحرب وعرقها، وبهذا المرسوم الحالي، الذي أصدرناه بناء على قسم من الجميع نقضي ونقرر، بأنه لن يقوم من الآن فصاعداً أي رجل دين أو أي علماني، بسحب شخص آخر إلى أمام قاض عادي أو قاض مناب، مالم يكن ذلك في قضية هرطقة، أو زواج، أو ربا، وفقدان جميع مناصبهم الشرفية، والحرمان من واحد من أعضائهم، ينتظر جميع

المعتدين، ولقد جرى تعيين بعض الناس ليكونوا وكلاء لنا، لمتابعة تنفيذ هذه القضية، وذلك في سبيل استرداد سلطاتنا القضائية، ولكي نتمكن من التنفس بحرية، ومن أجل أن هؤلاء الذين صاروا أغنياء على حساب افقارنا، والذين اختار الرب كشف نواياهم الخبيثة، بسبب عجرفتهم، من أجل أن يعادوا إلى أوضاعهم كما كانت في الكنيسة الأولى، ولكي يصبح ممكناً بعيشهم حياة تأمل، أن نشاهد نحن الذين نمارس الحياة الفعلية، من خلالهم، المعجزات التي غادرت هذا العالم، منذ زمن طويل».

وعندما سمع البابا بهذا، تنهد بروح قلقة، وبما أنه كان راغباً في ترضية نفوسهم، واضعاف ثبات مقاصدهم، قام أولاً بانذارهم، وسعى إلى تحذيرهم بالتهديدات، لكنه وجد أن هذا كان بلا فعالية، لذلك قام باضفاء عدد من المنافع اللاهوتية على عدد من أقربائهم، ومنحهم إذناً بالاستحواذ على عدد من المنافع، مع كثير من الأعمال الأخرى، كما قدم كثيراً من الهدايا إلى النبلاء أنفسهم وتمكن بهذه الوسائط من استرداد بعض الذين تقدم ذكرهم، ومن ثم اقلاعهم عن اجراءات مطالباتهم، وخاف —على كل حال— كثيرون من محتويات الرسالة، حيث ساد اعتقاد بأنها صدرت عن واحد ما، بموافقة فردريك، لاسيما وأن الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة تتوافق مع الرسالة التي كان قد أرسلها إلى كثير من الأمراء، وهي الرسالة التي قال في نهايتها: «لقد كانت نوايانا دوماً ورغباتنا، في أن نقنع الكهنة من كل طائفة، وبشكل خاص أصحاب المراتب العليا منهم، في أن يستهدفوا الوصول إلى غاية، تتماثل مع الذي كانوا عليه في الكنيسة في أحوالها الأولى، وأن يمارسوا حياة رسولية، وأن يقلدوا الرب في تواضعه، لأنه كان من عادة أولئك الكهنة ممارسة النظر إلى الملائكة، وأن يشعوا بالمعجزات»، إلخ، إلخ، وعد إلى الرسالة التي كان الامبراطور قد أرسلها إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين في عام١٢٤٥.

حول البارلمان الذي عقد في لندن وفيه تكدست الشكايات فوق الشكايات حول استخراجات البابا

وفي اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم، عقد الملك محادثات دقيقة مع نبلائـه، ومدد المؤتمر لعـدة أيام، لأنه كانت هناك مسـائل مستعجلة، حيث كـان هناك خـوف كبير، مـن أن يقـوم الملك الفـرنسي بجعل غسكوني خاضعة له، فهذا ما روي إلى الملك على أنه أمراً حقيقياً، وكان فقدان تلك المقاطعة كما هو ظاهر بشكل واضح، فيه إهانة كبيرة للملك الانكليـزي، كما يشكل خسارة كبيرة له، لأنه يتلقى بالعـادة سنوياً ألف مـارك من بوردو وحدها، وكـان قـد اجتمع هناك أيضاً، كما ذكـرنا من قبل رؤسـاء شمامسـة انكلترا، وذلك إلى جـانب شطـر كبير من رجـال الدين والنبـلاء، وهؤلاء اشتكـوا بشكل جماعي من الاستخـراجـات البـابوية التـي لايمكن تحملهـا، وقـد تعـاطف الملـك معهم حـول هذه الشكايات وشـارك في أسـاهم، لأن الدولة كلها كـانت في حـالة خطر، وكانت القضيـة تهم المملكة كلها، وكـان لهذا هناك يأس وأسى لم يسمع بمثله من قبل، واضحـاً بين رجال الديـن، ولذلك جرى عـرض شكاية مبكية أمام الملك، الذي كان واجبـه حماية الصالح العام، ومنع مثل هذا الأذى وهذه المخـاطر، وأخيراً توفـر رأي جماعـي قضى بإعـداد رسـالة مستقيمـة، حتى يجري ارسالها إلى البـلاط الروماني، لتبيـان المظالم الجادة إلى البابا، وتقرر إرسـال الرسالة التالية باسم جماعـة الناس كلها ورجال الدين إلى البابا والكرادلة.

الرسالة التي أرسلت إلى البابا باسم جماعة إنكلترا كلها

«إلى الأب الأعظم قـداسـة في المسيـح والرب، والذي هو بمـوجب الحكمـة الـربانيـة الحبر الأعظم ترسـل جماعـة رجـال الدين والناس في مقاطعة كانتربري، قبلات تقوية إلى قدميه المقدستين:

بما أن الكنيسة الانكليزية، منذ التاريخ الذي جرى فيه منحها الإيمان الكاثوليكي للمرة الأولى، قد سعت لإرضاء الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمنا، والتزمت دوماً بعبادة الرب باخلاص، من دون محاولة التخلي عن الواجب الذي حملته، واستفادت دوماً من مزيد من الرعاية، وهي الآن تلقي بنفسها عند قدمي قداستك، وترجو باخلاص، أنه بالنسبة لمطلب المال، الذي طلب منها، بطرق مختلفة، وبضغط شديد من أجل مساعدة شعوب متنوعة، بأن تتفضل بعواطفك وتتنازل بابداء الرحمة نحوها، لأن العبء المطلوب لايمكن حمله، وبسبب عدم كفاية الممتلكات، غير ممكن، لأنه وإن كانت بلادنا تنتج أحياناً محاصيل، لكن هذه يجري تخصيصها وصرفها لمعيشة شعبها، ثم إنها لاتنتج وفرة من المال، كما أنها منذ وقت طويل لم تنتج ما يكفي لتلبية المطلوب منها في الوقت الحالي، يضاف الى هذا أنه قد ضغط عليها، وأثقلت فيما مضى بعبء مشابه، لكنه لم يكن ثقيلاً جداً بالنسبة لما مضى من أيام، ولم يعد الآن بامكانها تحمل هذه الاستخراجات، وبالاضافة الى هذا،إنه بناء على أوامر قداستك، المساعدة مطلوبة في اللحظة الحالية،من رجال الدين الى مولانا وملكنا الدنيوي(الذي لاينبغي لنا ولايمكننا لكرامته أن نتخلى عنه في ضيقه)، من أجل أن نمكنه من صد هجمات الأعداء(نجانا الرب منها) وللدفاع عن ميراثه،ولاسترداد الذي انتزع منه.

ونحن بناء عليه،نرسل حاملي هذه العروض، مع التماسات الى حضرة قداستك، بأن تقدر مدى المخاطر والأضرار التي سوف تنجم عن مثل هذه الاستخراجات، كما تقدم الذكر أعلاه، والتي لايمكننا تحملها بأي حال من الأحوال، مع أننا مرتبطون بكم بكل رباط عاطفي، ولأن جماعتنا ليس لديها ختمها، نرسل هذه العروض إلى قداستكم، موقعة بعلامة جماعة مدينة لندن».

الرسالة التي أرسلت بإسم الجماعة نفسها إلى الكرادلة

«إلى أكثر الآباء تبجيلاً في المسيح والرب، كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، من عبيدهم المخلصين، إلخ، صحة، واحترام صحيح لائق، وتشريف:

إلى أخوتكم، بحكم كونكم القواعد المستندة عليها كنيسة الرب، قد طرنا إليكم بالتماسات متذللة، ونحن نرجوكم بحرارة، أن تمنحوا الاهتمام، وأن تصغوا إلى المظالم التي نتألم في ظلها، وأن تعطونا العون، في سبيل أن تتمكن الكنيسة الانكليزية من أن تسترد أنفاسها، بعد اضطرابات متوالية واجهتها في الأيام الماضية، ونحن مقابل هذا ملزمون بأن نرد إليكم شكرنا المتوجب، فمنذ أيام مجمع اللاتيران الأخير، تعرضت الكنيسة الانكليزية إلى ضيق شديد، بسبب أوامر الكرسي الرسولي، التي قضت بدفع الأموال، بداية الجزء من عشرين من أجل عون الأرض المقدسة، وبعد ذلك الجزء من عشرة، من أجل مساعدة البابا، وفيما بعد أوامر متنوعة حول هدايا وأعطيات مختلفة، بطرائق متباينة، ولاستخدامات متنوعة، ومع ذلك صبت كل الذي تمكنت من جمعه بيدها، وبالاضافة إلى هذا، قدمت أيضاً بناء على أوامر الكرسي الرسولي، مراراً وتكراراً المساعدات إلى ملكنا وإلى الرعاة الدنيويين، وذلك بقدر ما توفر لديها من قدرات، والآن في هذه اللحظة الحالية، قد طلب منها، بناء على التماساتكم، تقديم مساعدة إلى الملك المذكور (الذي لايمكننا، ولايجوز لنا عدم تلبية مطالبه وقت الحاجة) في سبيل أن نمكنه من صد غارات أعدائه، ومن أجل حماية حقوق المملكة، ولاسترداد الذي حرمت منه، وأخيراً هناك مطلب جديد، قد عمل الآن، وفرض على الكنيسة نفسها، وهذا ما لايمكنها تحمله، لأن ممتلكاتها القليلة جداً لاتسمح لها بالاستجابة لهذا الطلب، وتلبيته، ولقد طلب من بعضهم نصف الممتلكات التي بحوذتهم، ومن آخرين الثلث،

ومن البقيـة جـزئـاً من عشرين، وسـوف يخصص شطر مـن هذا كله لاستخـدامات الفـرنسيين، الذين يقـومـون دوماً باضطهـادنا وتعـذيبنا وإلحاق الأذى بدولتنـا، وذلك مـن أجل الاستيـلاء على امبراطـورية الاغـريـق، وشطر آخـر لمسـاعـدة الأرض المقـدسـة، التي من الممكن —حسبما أعلن العالم بصوت مـرتفع— استردادها من العدو، بمخاطرة أقل، وشطر ثالث إلى الاستخـدامات الأخـرى وفق ماقـد يراه الكرسي الرسولي ويأمر به، ويبدو في الحقيقة أنه صعب ومتناقض أن يكون هناك آخرون يمتلكون الكثير من مقتنياتنا وجهـودنا، وأن يتوجب على رجال بلادنا، وفقـراء مملكتنا —الذين الأعطيـة عـائـدة إليهم— الصـوم وأن يكونوا بلا مقتنيـات، كما أن ملكنا وجنوده أيضاً، لن يكون، وهـم معـه، قـادرين على صد الغـارات، والدفـاع ضد الأعمال العـدوانية لأعـدائنا، لاسمح الرب بذلك، كما أنه لن يكون من الممكن تقديم أية مساعدة إلى الذين يعـانون من العوز والحاجـة، وذلك إذا مـا جرى استهـلاك جميع أمـوال المملكة، وفي الحقيقة، إن كل شيء يمتلكـه رجال الدين، سـوف يكون عرضـة للبيع، ذلك أن مبلغ المال المطلوب حاليـاً، لايمكن توفره بيننا،ولسـوف ينجم العـديد من المصـائب عـن هذا الطريق، مثلما ينجم عن أعمال النهـب والسلب، وذلك إذا —لاسمح الـرب— تم الاصرار على ذلك، وفي سبيل ايضـاح هذه الأمـور إليكم، نرسل إليكـم الحاملين لهذه العـروض، بمثـابة رسلنا بشكل عـام، ليمثلوا بحضرتكم، ولكي يلتمسـوا منكم بحـرارة، ومن أجل خـاطر الرب، والكرسي الرسـولي، حتى تتـولوا تذكير البـابا، ولكي توقفـوا أيـديكم وآراءكم عن مثل هذا الظلم، وأن تتعطفـوا، إذا كـان يرضيكم، بأن تتذكـروا تلك المدهشـات والتمزقات الحاصلة في الخارج، بالابتعـاد عن صدر الكنيسة الأم، وعن طاعتهـا، بطريقة لاتتفـرقـوا أنتم فيهـا في الخارج، ولكي لاتبعدوا عنهـا الذين تجمعوا من قبل مـع بعضهم بموجب عاطفـة الحب والاخلاص، وبما أن جماعتنا ليس لـديها ختمهـا الخاص، أرسلنا هذه العـروض إلى

اخوتكم المقدسة، ممهورة بختم جماعة مدينة لندن».

حصول الملك على إمتياز غامض من البابا

وفي حوالي الوقت نفسه، وقع الملك، دون أن يعرف بمصائد الرومان الخفية، بوساطة دهائهم وكلامهم المخادع، وحصل بوساطة بعض رجال بلاطه، الذين رغبوا في ارضائه، على امتياز ما، له شخصياً، من البلاط الروماني، جاءت صيغته كما يلي:

«مع أن البابا قد قام بناء على إرادته وبرغبة منه، في سبيل تخفيف مظالم الكنيسة الانكليزية، فأصدر مراسيم، في كل مكان، وقام من دون تمييز بتوزيع المنافع في انكلترا، لصالح الايطاليين، قد قام مع ذلك الآن، وقد هدأت العاصفة كثيراً، فأصدر أمراً قضى أنه إذا ما جرى إعطاء أي واحد من أقربائه، أو من أقرباء الكرادلة، عليه أن يحصل على اذن الملك وعلى رضاه على المنحة التي تمّ عملها»، وحصل أنه بموجب هذا الامتياز الغامض والمخادع، أن تمكن الأصدقاء الطفيليون للملك من تهدئة مشاعره، وربطوه بقوة أكثر بأدواتهم، لأن الموثقين والكتّاب العائدين للبلاط الروماني يستجيبون مثل الشمع للرشوى والاكتراء، وإذا ماقاموا بناء على أوامر البابا بكتابة رسائل مليئة بالعبارات الرنانة من أجل إرسالها إلى مولانا الملك، فعلوا ذلك لإغناء أنفسهم وللتلاعب به، فهل يمكن للمرء أن يتوقع إلاّ الأسوأ منهم؟ ولذلك نظرت أنا إلى الامتياز المتقدم ذكره، وعددته كلا شيء، غير أنه تعلق به وتأمل.

كيف جرى إحضار سيدات أجنبيات للزواج من نبلاء إنكلترا

قبل ارفضاض المؤتمر المذكور، وصل إلى بلاط الملك في لندن بطرس أوف سافوي، ايرل رتشموند محضراً معه من مناطق نائية بعض السيدات غير المعروفات، من أجل تقديمهن زوجات إلى نبلاء انكلترا، الذين رباهم الملك في حراسته، وهو عمل كان مغضباً بوضوح وغير

مرض لكثير من النبلاء المحليين في انكلترا، الذين أنفسهم قد أهملوا.

إرسال راهبين فرنسيسكان إنكليز من قبل البابا إلى إنكلترا لاستخراج المال

في الوقت الذي كانت فيه تقلبات الحظ تخدع العالم بمثل هذه المغالطات، جرى ارسال راهبين، من طائفة الفرنسيسكان إلى انكلترا، كان اسمهما: جون، والاسكندر، وكانا من أصل انكليزي، كما كانا قد حصلا من البابا على سلطة استخراج المال، من أجل الاستخدام من قبل قداسته، فلقد جرى بعثهما إلى انكلترا من قبل البابا نفسه، مسلحين بعدد من الرسائل، ممهورة بالختم البابوي، ومخفية نهم الذئب تحت صوف الشاة، وقد مثلا أمام الملك، بنظرات ساذجة، وبعينين تنظران نحو الأسفل، ورجواه بكلام لطيف، والتمسا اذنه ليتجولا في أرجاء المملكة، يطلبان الاحسان من أجل منفعة البابا، وقد أعلنا أنهما سوف لن يقوما بأي ضغط، وما أن حصلا على هذا الاذن من الملك، الذي لم ير أية نية شريرة في هذا الاجراء، حتى تحول الراهبان المذكوران فأصبحا نائبين بابويين خبيرين، وقد تشجعا بأعطيات كهنة الملك، لذلك انطلقا من البلاط الملكي، وقد امتطيا على مهرين أصيلين، مزينين بسرجين محليين بالذهب، وهما شخصياً قد ارتديا ثوبين جميلين جداً، وكان في أقدامهما أحذية مما يلبسه الفرسان مع مهاميز، من النوع الذي يعرف عادة باسم heuses (hose?), وذلك في سبيل إيذاء طائفتهما، وإلحاق العار بمهنتيهما، وقد توليا وظائف النواب البابويين، ومارسا طغيانهم، وطالبا بالأموال، واستخرجا الأتاوات، ونظرا باستخفاف إلى مبلغ عشرين شلناً طالبا به كل واحد ممن سنذكره، فقد ذهبا في المقام الأول إلى أساقفة أعلى الطوائف في انكلترا، وطالبا بشكل مهيب بالمال لاستخدامات البابا، تحت تهديد العقوبة، وسمحا بوقت قصير جداً للاجابة، أو من أجل الدفع، وعرضا عليهم رسائل تهديد البابا، التي

قدمـاها وكأنها قرون تخويف، ولدى قـدومهما إلى أسقف لنكولن، الذي كـان دوماً محبـاً خاصـاً وتابعاً لطائفتهما، وذلك إلى حـد أنه تصور مـرة فكرة الدخول بطائفتهما، ولقد استولت عليه الدهشة لدى مشاهدته هذا التغيير الذي ألم بالرهبـان الفـرنسيسكان وذلك بالنسبـة لكل من الملبس والسلوك، والوظيفة، لأنه بات الآن من الصعب اكتشـاف إلى أي طائفة أو وضع كانـا ينتميان، وعندما أقسما حـول مايتعلق بمحتـويات الولاية البـابوية، بخاصـة من أجل تصـديقهما من قبل كثيرين، ثم طالبـا بإلحاح وسرعــة بمبلغ صغير، هو ستـة آلاف مــارك من أسقفيتـه، وقتهــا رد عليهما، وهو على درجة عـالية من الدهشـة والحزن، حيث قال: «حضرة الراهبين، إن هذه الأتاوة —مع احترامي للسلطة البابوية— مهينة وغير صحيحة، ولايمكن الاصغاء إليهـا، لأنه من غير الممكن تنفيذ مطلبكما، ثم إن المسألة لاتعنينـي أنا وحـدي فقط، بـل تعني جميع جماعـة رجــال الدين، والشعب، والمملكـة بشكل عـام، وأنـا أرى أنني سـوف أكــون طائشاً ومتهوراً ومتناقضاً، باعطائكما جـواباً ايجابياً حول هذه المسألة، أو منحكما موافقة مؤكـدة حول مثل هذا الإجراء الخطير، من دون التشاور مع جماعة المملكة بشكل عام»، وقامـا بعد هذا الجواب بالمغادرة، وسارا وهما قـد تحولا إلى رجلي بـلاط وتغيرا (كما ذكـرنا أعــلاه) ومضيـا إلى كنيسة القـديس ألبان، ولم يباليا بالحط من كـرامتهما إلى حد الذهاب إلى موضع الاقامة، مع الغرفـة التي بنيت في داخل باب الساحة للاستخدام الخاص من قبل الدومينيكان والفـرنسيسكان، ثم انحـرفـا وخرجـا عن طريقهما وتوجهـا إلى المكان الأكثـر سمـواً المخصص لإقـامة الأسـاقفـة ولاستراحـة الرجـال أصحـاب المراتب العليـا، ولقـد استقبـلا باحترام هناك، ثم إنهما بالطريقـة نفسهـا التي طالبـا بها بمبلغ الستة آلاف مـارك من الأسقف المتقـدم ذكـره، طالبا الآن بمبلغ أربعمائـة مـارك من راعي الدير، من أجل الاستعمال البابوي، وبكل غطرسـة طالبا بوجوب الدفع في وقت قصير، تحت طـائلة التهــديد بأقسى العقــوبات، لكـن لدى

اجـابتهما والـرد عليهما من قبل الراعـي، وفق الطريقــة التـي قــام بها الأسقف المذكـور، إنما بشيء من التـواضع أكبر، ارتدى هذان الراهبـان ثياباً علمانية ومع حـركات علمانيـة، امتطيا فـرسيهما الأصيلين، وغادرا وهما يتمتمان ويزمجران، ويهددان.

البابا يسأل أساقفة فرنسا اقراضه مالاً

أرسـل البـــــابـا في هـذه الآونة رسلـه الخاصين مـن الدومينيكـان والفـرنسيسكـان، وهم يحملون رســائله الأصيلة إلى جميـع أســاقفة فرنســا، واحداً، واحـداً، يرجو كل واحـد منهم، أن يقرضـه مبلغاً من المال، وفقاً لإمكاناته، واعداً أنه عندمـا سيسترد أنفاسه، سوف يدفع من دون شك لكل واحـد استحقـاقاته، وعنـدما أصبح هذا معـروفـاً لدى الملك الفرنسي، الذي كانت لديه شكـوكه حـول شره البلاط الرومـاني، منع كل واحـد مـن الأسـاقفـة في مملكتـه، تحت طائلة عقــوبة فقــدان ممتلكاته، إذا ما قـام بافقـار أراضيـه وفق هذه الطريقـة، وهكذا حـدث أن غـادر النواب البابويون البـارعـون الذين ألقي على عواتقهــم عبء هذا الواجـب، المملكة وهم خــالين الوفــاض، وسط اشمئزاز وازدراء جميع الفرقاء.

حول ترقية ورفع شأن جون مانسيل

عندما كـان الوقت يشع هكذا وسط هذه الأحـداث غير المرئية، تولى جون مانسيل Mansel مستشار كنيســة القديس بولص في لنـدن، بناء على رغبــة الملك وطلبـه (الملك الـذي طلبـاته لاترد وهـي مهيبـة) واجبات المسؤولية عن ختم الملك، في سبيل أن يتـولى مسؤولية وظيفـة المستشار، وبالاضـافة إلى هذا أضفيت عليه مـرتبة رئاسة كنيسـة بيفـرلي Beverley من قبل رئيس أساقفة يـورك، ومع أن الملك كان آسفـاً لأن هذا المنصب لم يمنـح إلى أخيـه من أمــه، لكن لأنـه وجـد جـــون

المذكـور مخلصاً، ومحتاجـاً إليه كثيراً في دعم عناياته واهتماماته، لم يرغب أن يتعرض للحزن أو أن يفقد أياً من المناصب التي أضفيت عليه.

إرسال قسيس اسمه مارتن إلى إنكلترا

في الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يقوم باستمرار برفع المتدني إلى الأعلى، اعتقد مـولانا البابا، أن جـامعي الأموال المتنوعين الذيـن جرى ارسـالهم، غير كافين لجمع المال، فأرسـل إلى انكلترا رجلاً اسمـه المعلم مـارين Marin (هو مـارتن آخـر)، وكـان قسيســـه، والذي توحي أهميـــة اسمـه بأنـه قـد اختير ليكون صيـاداً، لكن ليس للرجـال، إنما لمقتنيـاتهم، في بحر العـالم هذا، وقد جـاء مع نيـة، أنـه في الوقت الذي كـان فيه الآخرون يصطادون، أن يقـوم باقتناص الانكليز من على بعد، أو أن يتمكن بخداعه لهم برميهم في شبكتـه بمهارة وحذر، وهو وإن لم يكن قـــد منح رسمـيـاً شــــارات نائب بابوي، مـع ذلك تسلح بقـــوة بسلـطات نائب بابوي، في سبيل التخلص من امتياز الملك.

إرسال غودفري الأسقف المنتخب لبيت لحم بمثابة نائب بابوي إلى سكوتلندا

وجرى في هذه الآونة أيضـاً، ارسال غودفـري، ابن مفتش السوق في رومـا، والأسقف المنتخب لبيت لحم، نائبـاً بابـوياً إلى سكوتلندا، وذلك من قبل البـــابا، لكن مـن أجل أي غـــرض، هـذا غير معـــروف، لأن العقيـــدة الكاثوليكية كـانت مزدهرة باستمـرار، وكان السـلام مؤسسـاً بشكل راسخ بين رجـــال الدين والناس، ولذلك من المعتقـــد، أنه بنـاء على ماهو معـروف عن العادات الرومـانية، أن مهمـة غودفـري المتقـدم الذكـر، الذي كـان قـاسيـاً ولـديه قـدرة حـديدية على الجـذب، سـوف يجـذب إلى نفسـه الموارد الماليـة الوافـرة للاسكوتلنديين، والمرغـوب بها كثيراً.

إرسال المعلم جون إلى إيرلاندا

وجرى في الوقت نفسه ارسـال المعلم جون الأحمر إلى ايرلاندا، لجمع المال، مع صـلاحيـات كـاملة، وكأنه كـان نائبـاً بـابوياً، مع أنه لم يمنح شارات تلك الوظيفة، وذلك خشية من أن يظهـر البابا وكأنه يقدم سبباً للإسـاءة إلى ملك انكلترا، الذي كان فـرحاً بأنه كـان محمياً —عبثـاً كما خيّل إليه— بامتياز، أنه ما من نائب بابوي يجوز أن يقدم إلى أراضيه، ما لم يكن قـد سئل من أجله، وعلى هذا قـام جون المذكـور بنشاط بتنفيـذ أوامر البابا، وصرف نفسه نحو منافعه وكسبه، إلى حد أنه استخرج ستة آلاف مـارك من ايـرلاندا، وقـد أرسل هذا المبلغ إلى لنـدن يوم عيـد القديس ميكائيل، بعهدة بعض رجال الـدين، وذلك لاضافته إلى خزانة البابا وأمـواله، لكن جميع هذه الإجراءات لم تنجَ من المعـرفة بها من قبل فردريك.

هزة أرضية في إنكلترا

في الثالث عشر من شباط لهذا العام، أي في يوم عيد القديس فالنتاين Valentine كـانت هناك هزة أرضيـة في عـدة أمـاكن من انكلترا، خاصة في لندن، وأكثر شيء على شواطىء نهر التيمز، وقد هزت الأبنية، وكانت مؤذية جداً ومرعبـة بنتائجها وتأثيراتها، هذا ومن المعتقد أن مثل هذه الواقعة كانت خطيرة، لأنها غير عادية، وغير طبيعية في هذه البلدان الغـربيـة، لأن الكتلة القـوية المتماسكة لانكلترا متحـررة من الكهـوف الموجودة تحت الأرض، والمغائر العميقة (التي فيها، تبعاً للفلاسفة يجري بالعادة انتـاج الهزات الأرضية)، كما أنه من غير الممكن كشف أي سبب آخـر لقيامهـا، ولذلك كـان من المتوقـع، وفقاً لتهـديدات الانجيل، بأن نهاية الدنيا وشيكة، وأن حـركة الأرض هذه تشير إلى أنها جاءت تجاوباً مع التحـركـات في هـذا العـالم، وبذلك من الممكـن تحريك العناصر وازعاجها بوساطة تحركات متـوالية، لأنه قبل عدة أيام مضت، كان المدّ

والجزر قليلاً جداً، إن لم نقل انعدم كلياً، وكان هذا قد حدث على طول مسافة طويلة من الساحل، وقد وقع خلال ثلاثة أشهر، وهي واقعة ما من أحد يتذكر أنه شاهد مثلها من قبل، كما أنه لم يكن هناك زلزال في انكلترا منذ عام ١١٨٦، [بالأصل ١١٣٣] وهي السنة الثالثة، قبل وفاة الملك هنري الثاني، وكان قد أعقب وقوع هذا الزلزال عواصف مديدة من الأنواء، وبقسوة شتوية جاءت في غير وقتها، وببرد مزعج، وأمطار، إلى حد أن الفلاحين والبساتنة قد اشتكوا من أن الربيع قد تحرك عائداً نحو الخلف وتغير إلى شتاء، وشعروا بخوف عظيم بأن آمالهم بموسم جيد، وبوفرة لثمار الأشجار، وللحبوب، سوف تحبط، واستمرت هذه الحالة المزعجة للمناخ بدون انقطاع، لو لاستراحة هدوء يوم واحد، حتى عيد انتقال القديس بندكت Benedict.

موت الفارس فولك

حدث في اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم، أن مات في لندن فولك أوف نيوكاسل، الذي كان فارساً متميزاً، وهو ابن عم للملك، وبسبب أصله النبيل، جرى دفن جسده بشكل مهيب ومشرّف في كنيسة ويستمنستر، وكان ذلك بناء على أوامر الملك، الذي صدف وجوده هناك في أعقاب عقد البرلمان الذي تقدم ذكره أعلاه.

إلغاء المرسوم المتعلق بالأشخاص الذين يموتون من دون وصية

وتواترت الأخبار في هذه الآونة، وتحدثت عن فضيحة لم يسمع بمثلها، انتشرت في الخارج خلال مختلف البلدان، حول قيام الكرادلة بفرض المرسوم الذي ألغي، وهو المرسوم الذي كان قبل وقت قصير قد عمل من قبل البابا، بموجب محرض من الشره كان واضحاً تماماً، والذي حتى يضعه موضع التنفيذ، قد كلف الرهبان الفرنسيسكان أن يكونوا وكلاءه، وذلك في سبيل خسارتهم وفضيحتهم وإلحاق الأذى

بطائفتهم، وهذا المرسوم هو الذي ادعى البابا بموجبه المطالبة بممتلكات الأشخاص الذين كانوا يموتون من دون وصية، لاستخداماته الخاصة، ونجم عن هذا المرسوم إلحاق الضرر وتسبيب الأذى لكثير من النبلاء، وفي سبيل زيادة ذلك الظلم، أضيفت إليه فقرة جديدة، مضادة لجميع الشرائع، وللتقوى كلها، وجاء نص هذه الفقرة الإضافية كما يلي: «إنما إذا كان هناك رجلاً مريضاً، وكان على وشك عمل وصيته، وصدف أن منع من ذلك بوساطة ضعف مفاجيء، حيث صار بشكلٍ واضح غير قادر على التعبير عن وصيته، وتوجب عليه تعيين واحداً من أصدقائه ليقوم بالتعبير عنها له، وليعمل بمثابة وكيل له، فإن مثل هذه الوصية لاتعدّ قائمة، بل ينبغي عدّها لاغية، ومثل تلك الشهادة تعدّ شهادة انسان غير أهل»، وعلى زبانية البابا ابتلاع جميع ممتلكاته.

اكتشاف مؤامرة خيانية ضدّ حياة البابا

في الوقت الذي كانت فيه ثورات الأيام تتقدم وتسير هكذا نحو الأمام، قام واحد من الفرسان الذين كانوا في خدمة فردريك، واسمه رالف، وقد كان في حالة غضب، لعدم تسلمه أجره من الامبراطور في وقت الاستحقاق، فتخلى عن خدمة سيده مع تهديدات، وكان هذا الرجل صاحب عقل صلب، وقوة جسدية عظيمة، وبارعاً في الحرب، وبما أنه امتلك الرغبة في إلحاق الأذى بسيده الأخير فردريك، ذهب إلى ليون بحثاً عن سيد آخر، يمكنه أن يخدم تحته مأجوراً في سبيل تحقيق فائدة أعظم، وذلك بحكم أنه لم يكن لديه مكاناً ثابتاً للاقامة، ولدى وصوله اتخذ مكان اقامة له مع مضيف اسمه رينالد، وصدف أنه بعد عدة أيام كان المعلم ولتر دي أوكرا، الكاهن الخاص والمستشار لدى فردريك، عابراً لذلك الطريق، وقد اتخذ مكان إقامة لنفسه في البيت نفسه، ولدى رؤيته للفارس المذكور رالف هناك، سلم عليه بحكم كونه

واحداً من معارفه المقربين، وناداه لقربه منه ولمعرفته به بالاسم، وسأله عما كان يفعل هناك، ولماذا تخلى هكذا عن سيده، الذي خدمه لمدة طويلة، ولدى معرفته بكامل تفاصيل القضية، سأله المعلم وولتر عما إذا كان قد وجد سيداً آخر، وعلى سؤاله أجاب قائلاً: «لا، لأنني غير معروف»، وعندها قال له المعلم وولتر «عد ياصديقي إلى ولائك، وإلى خدمة مولاي، الذي هو بحاجة ماسة لمثلك من الرجال، وأنا سوف أعيد لك جميع مستحقاتك، لابل إنني سوف أضيف إلى ذلك المزيد»، وعلى هذا وافق رالف وهو مبتهج، ووقتها قال له وولتر:«إن مولاي سوف يعد نفسه سعيداً، لولا أنه أزعج، لابل بالحري هوجم من قبل عدوه المميت، ومضطهده الذي لايعرف الكلل، أي البابا، وإذا كنت ترغب، وكان بإمكانك أن تنهي حياته المجرمة، أنا سوف أهيل الجوائز عليك، والذي وعدتك به سوف أفي به من دون احباط، ولسوف أضيف ثلاثمائة طالن Talents [وحدة نقد قديمة] إلى الموارد الكثيرة التي وعدت بإعادتها إليك، كل ذلك مع حظوة مولاي، التي سوف تكون مصدراً لكثير من المرابح لك، لأنه بهذا سوف تنتهي مشاكل مولاي، لابل هيجان العالم كله سوف يهدأ، ولاتظنن أن هناك أي ذنب في هذا العمل، بحكم أن البابا الذي ينبغي أن يكون أساس الدين كله، والمثل الأعلى له، أصبح ممارساً للربا بشكل مكشوف، وهو أتون للسيمونية، ومتعطش بسعيه وراء المال وسلبه، وبلاطه هو سوق للدعارة، أو بالحري وكر للداعرات والبغايا»، وعلى هذا أجابه رالف: «إذا مابرهنت على كلامك بأفعالك، وسوف تعوض علي، أنا سوف أعمل الذي طلبته مني»، وبناء على وعود المعلم وولتر، وتقييد نفسه باليمين، وافق عى اقتراف الجريمة، حيث تمّ الاستيلاء عليه والتحكم به بوساطة الهدايا التي قدمت الآن إليه، والوعد بالزيادة، وتمكنا بوساطة مغريات مماثلة، بعد لأي من جعل مضيفهما رينالد، يوافق على هذه الخطة السرية، وكان رينالد هذا معروفاً من قبل الحبر الأعظم،

ومن قبل خدمه، ولكي يقدم موافقته ومساعدته، قيدوه بأن يكتشف، بوساطة الاختباء متخفياً في مكان ما، الوقت والمكان الذي من الممكن قتل البابا به، وأن يتولى تقديم القاتل، وبعد هذا غادر المعلم وولتر، وبعد مضي عدة أيام، أصيب رينالد المذكور بمرض شديد، ووصل إلى حافة الموت، ولدى ادراكه أنه بات على حافة الموت، قام أثناء اعترافه بإباحة هذه الأمور كلها إلى كاهنه، وبعد هذا تاب، وأعد نفسه لمواجهة منيته، وقام الكاهن عى الفور باخبار البابا بهذا الخطر العظيم، وبسرعة جرى بعث رسل، ومن ثم جرى اعتقال رالف المذكور، وقد قام في البداية بانكار كل شيء متعلق بهذا، بكل اصرار، لكن بعدما تعرض إلى أشد أنواع العذاب، تقيأ بسم الخيانة التي تقدم ذكرها أعلاه، وكشف الحقيقة عن القضية إلى البلاط البابوي كله، وأودعت هذه الأشياء كلها كتابة، وختمت بالختم البابوي، لإلحاق الضرر بفردريك، ولكي يفتضح أمره بشدة أكبر، ويدان.

كيف جرى اعتقال اثنين آخرين للجريمة نفسها

وجرى في حوالي الوقت نفسه أيضاً، اعتقال اثنين من الفرسان الايطاليين، في ليون للذنب نفسه، وقد اعترفا بعد اعتقالهما، بوجود حوالي الأربعين فارساً جريئاً، قد تآمروا فيما بينهم وأقسموا على إنهاء حياة البابا، وكان هؤلاء قد قرروا أنه حتى لو كان فردريك ميتاً، لن يقلعوا خوفاً من أية عقوبة، حتى وإن كانت الموت، ولن يتوقفوا عن تقطيع البابا إلى قطع، لأنه مثير الاضطراب للعالم، والملوث للكنيسة، وقد آمنوا من دون أي تردد، أنهم إذا ما نجحوا بقطع عنق مثل هذا الانسان، فإنهم يكونوا قد أنجزوا عملاً مرضياً إلى كل من الرب والانسان، ومنذ ذلك الوقت حافظ البابا على الالتزام بغرفته، وأبقاها محروسة بخمسين رجلاً مسلحاً نهاراً وليلاً، ولم يتجرأ على الخروج من غرفته أو قلعته، أو قصره، ولاحتى لمسافة قصيرة للقيام بقداس، لأنه

بات من الضروري أن يخشى من كثيرين، يخشاهم الكثيرون، وأن المثير المتاعب لكثيرين لابد من أن تثار له المتاعب بطرائق كثيرة مضاعفة.

حول البرلمان العظيم الذي عقد بفرنسا

وفي العام نفسه، في حوالي منتصف الصوم الكبير، دعا الملك الفرنسي، بوساطة صك ملكي نبلاء مملكته بشكل عام، ورجال الدين والعلمانيين للاجتماع في بارلمان، ليقوموا بكل دقة بالبحث ببعض القضايا الصعبة، التي تتعلق بحالة المملكة، لأنه كان قلقاً حول حمله الصليب بنفسه ومن قبل نبلائه، وواجب ذلك العهد المهم الذي لايمكن خرقه، وقد أعلن أيضاً أنه تلقى أمراً من ملك التتار، لأن يخضع له، وقد تجرأ ذلك الملك المذكور، على دعوة نفسه، بفم مدنس، في رسالته «بالخالد»، وأنه قد أعلن أنه هو وأتباعه كانوا هم الذين قد كتب عنهم بأن «الرب قد أعطى الأرض لأبناء الناس»، وترك الملك الفرنسي —على كل حال— هذه القضية كلها إلى القدر الرباني، وقام بعد ذلك. في المقام الأول، بشكل حكيم وعقلاني، بترتيب جميع القضايا المستحقة والتي تستاهل الاهتمام، وهي القضايا التي أبدعها الخصوم بمكر الشيطان، أو بمكر الانسان، فقد توجب احباطها، وتقرر بشكل قاطع وترتب أنه مع نهاية عام من عيد القديس يوحنا المعمدان، ثم في العيد المقبل، سوف —إذا بقي حياً— ينطلق إلى حجه، مع أتباعه الصليبيين، حيث سيقوم باخلاص بالوفاء بنذره، وليقوم في الأرض المقدسة بعبادة آثار أقدام المصلوب، الذي أعاد إليه الحياة، وقد أقسم بشكل علني أنه سوف يفعل هذا، وجعل نبلاءه يؤدون القسم نفسه، وذلك مالم يقع حادث غير مرئي، لايمكن للضعف البشري تجنبه، بإعاقته وتأخيره، وقد أعلن أن كل من يعارض هذا المرسوم الصحيح، ينبغي أن يعدّ محروماً كنسياً، وعدواً معلناً، وعندما وصل هذا إلى علم الخوارزمية والمسلمين الآخرين المعادين للصليبيين في الأرض المقدسة،

وفي حالة حرب معهم، وإلى الذين خضعوا مؤخراً لطاعة المسلمين، قاموا بتحصين قلاعهم ومدنهم بقوة.

وقام الملك أيضاً، بعدما وجد أن المال الانكليزي، كان مفيداً جداً إلى التجّار، بعدة طرق من العمل، وبسبب أن المعدن قد تناقص كثيراً في القيمة، وأنه أفسد كثيراً من قبل السماسرة المزيفين الذين اسمهم «قصاص— المال»، بسبب هذا كله أصدر أمراً، أن أي نقد سوف يتم العثور عليه، من الآن فصاعداً، في مملكته، ليس له وزن قانوني، تتوجب على الفور إذابته، وذلك في سبيل أن لاتعاني التجارة ولاالتجار أنفسهم أية مشاكل بعد الآن، بسبب مثل تلك النقود المغشوشة، وكانت هذه أيضاً مسألة مخشي منها في انكلترا، بسبب التناقص الحاد في قيمة الأموال، ولقد قيل أيضاً، وتبين أن هذا كان صحيحاً، أن النقود كانت قد تعرضت للقص من حولها من قبل المختونين، واليهود الكفار، الذين انحدروا الآن —بسبب الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم من قبل الملك— إلى حالة التسول، وقد قيل بأن جرائم أخرى أيضاً، قد صدرت عنهم.

قيام سلام بين كنيستي درم وسينت ألبان

وتمّ في هذا العام أيضاً إعداد سلام بين كنيستي درم Durham, والقديس ألبان، حول مايتعلق بالزيارات التفقدية للكنيسة الأبرشية في دير التانيماوث، التي حولها نشب خلاف، في أيام نيقولا، أسقف درم، وجون الثاني راعي دير القديس ألبان، وهي مسألة جرى عرضها بشكل أوفى، وشرحت في كتاب Additaments, وسوف يتم أيضاً تقديم مثل آخر عنها، سوف تجده بعد عدة صفحات.

وفي هذا الوقت نفسه من العام، وجد فردريك أن العالم يتشكى منه ويثور ضده، فقام بموجب مشورة حكيمة، فتلطف بمنح السلام إلى

الميلانيين، السلام الذي طلبوه منه مع خضوع حقيقي واحترام، فقد أرغم سكان المدينة بشكل ملح وعاجل على التماس ذلك بتذلل، بسبب المعركة الأخيرة، التي حوربت بينهم وبين كونراد بن فردريك، فقد نالوا الخسارة الجسيمة في هذه المعركة، وسقط عدد كبير منهم، وذلك إلى جانب الكثيرين الذين أخذوا أسرى، بوساطة الهجوم على ساقتهم من قبل كتلة من الرجال كانوا جالسين في كمين، وعندما وقعوا بالأسر، وكانوا على وشك وضعهم بالسجن، قام فردريك بحكم أصالته التي فطر عليها، فأظهر الصبر نحوهم، ودعاهم إلى الخضوع بالإحسان، بعدما أخفق في اخضاعهم بالقوة، وأصدر أوامر، عندما دخلوا إلى مدينتهم، بوجوب إغلاق جميع الطرق ضدهم، وبذلك أصبح سكان المدينة، بناء على ذلك، وهم الذين أسباب عيشهم تصدر عن التجارة، مطوقين، وكأنهم محاصرين، أو سجناء، لأنه لم يعد بإمكانهم المرور بحرية إلى الأسواق، أو الموانىء، أو إلى المدن المجاورة، دون التعرض إلى الخطر بأشخاصهم أو بمواشيهم، أو بمقتنياتهم، وبما أن كثيراً منهم قد عادوا الآن إلى ولائهم إلى مولاهم القديم والصحيح، فتح فردريك لهم صدر الرحمة، وهكذا بعد صراع طويل، وأضرار جسيمة، تمكن بالحكمة من استعادتهم، حتى وإن كان ذلك ضد إرادتهم، إلى وحدة الامبراطورية، وإلى سلام نافع لهم وكذلك له نفسه، ولم يعد الميلانيون منذ ذلك الوقت فصاعداً يزعجون أنفسهم، بالوقوف إلى جانب البابا، الذي خدعهم بوساطة وعود كاذبة.

موت اللاندغريف الذي انتخب ملكاً لروما

وخلال الصوم الكبير نفسه، ولكي لايخفق الزلزال الذي تقدم ذكره في تهديداته المهمة، فكر البابا، الذي عبثاً وثق بمبالغ الأموال الكبيرة جداً، التي سلبها من كل اتجاه، وكان قد اقترح ورغب في ترقية صديقه اللاندغريف إلى المرتبة الامبراطورية، وفكر الآن بترقيته إلى مرتبة ملك

ألمانيا، والقيام بشكل مهيب بتتويجه، من دون معارضة من أي واحد، غير أن كونراد بن فردريك، كان قد علم بهذا من قبل جواسيسه، وقد عرف بجميع التفاصيل والخصوصيات، فقدم فجأة مع جيش كبير، جمعه من جميع الأرجاء، ووصل إلى مكان ترتيبات البابا، حيث كان اللاندغريف على وشك التتويج، وحيث كانت جميع الإعدادات الضرورية قد عملت من أجل هذا الاحتفال العظيم، وخشية من كونراد المذكور من أن يدخل في صراع مشكوك به، وضع خمسة عشر ألفاً من جنوده في كمين، في مكان ليس بعيداً جداً، حيث يمكنهم وقت الضرورة، القدوم إلى مساعدته في الوقت المناسب، على صوت البوق، ومن دون توقع انقطع سرور الاحتفال، وأعقب ذلك معركة كانت الأكثر عنفاً ودموية، وفي بدايتها فقد كونراد كثيراً من أعظم النبلاء من أتباعه، لأن ثقل القتال تحول ضده، لكن عندما بات الخطر عظيماً بتعرضه إلى الاضطراب، أعطيت الاشارة على سرعة، وجاء الجنود المتشوقين الذين كانوا ينتظرونها في موضع الكمين، وقدموا «مسرعين مثل سرعة الريح»، وبرجولة دخلوا إلى المعترك، وقاتلوا العدو الذي كان على وشك الحصول على النصر، وقتلوا كل الذين تصدوا لهم بحد السيف، ولدى وصولهم تنفس كونراد الصعداء بحرية:

وبسرعة هدأت روح

الذي بحرية شرب الإناء

وتجدد صراع الحرب الآن، وبدا أن الهواء نفسه قد انزعج بقرع السلاح، وبطعنات الرماح، وبضربات السيوف، وبصهيل الخيول، وبصراخ المتصارعين يحثون بعضهم بعضاً، وببكاء الجرحى، وأنين الذين كانوا يموتون، وتصاعدت سحب من الرمال، وانصبغ النهر من الأجساد النازفة، ومن جداول الدماء، وكان القتال شديداً وقاسياً إلى حد أن الألمان الذين كانوا مع اللاندغريف، لم يعد بإمكانهم الصمود،

وتخلوا عن القتال، وهربوا بشكل مهين، أو أصيبوا بجراحات مميتة، ووقع كثير منهم بالأسر، حيث ألقي بهم بالسجن حسب رغبة أعدائهم، وأعقب ذلك مذبحة مريعة، وذلك بعد خسارة لاتعوض من الدماء المسيحية، وقام اللاندغريف بالفرار، وحمل نفسه إلى مكان آمن، حيث تلاشى هناك حزناً، وتحقق الآن إلى أبعد الحدود كلام ثاديوس نائب فردريك، الذي قاله في مجمع ليون، عندما زجر البابا بقرار الحرمان الكنسي ضد مولاه حيث قال: «واأسفاه، واأسفاه، حقاً إن هذا اليوم هو يوم الغضب، يوم التعاسة، ويوم المأساة»، فاللاندغريف الذي كان حسب تقديراته سوف يتوج في الغد ملكاً على ألمانيا، قد شاهد الآن كيف تبدل مجده إلى اضطراب وعار، فقد انهزم أقرباؤه وأصدقاؤه مع أتباعهم وقتلوا، والمال الذي سلف وأرسل إليه من قبل البابا، قد أخذ منه من قبل أعدائه، وقد أصيب بالحزن حتى القلب، ففقد شجاعته، وأصيب ليس بضربة غريبة، بل فقط بوساطة أساه، ولفظ روحه، دون أن يبكيه أحد، وامتلك كونراد الآن الرغبة بعمل انتقام كامل للأذى والخسارة التي عانى منها في قتاله الأخير، بعدما هزم في ألمانيا، فقام إما بشنق جميع الأسرى بشكل شائن، الأسرى الذين نجوا من السيف، وبشكل خاص أقرباء وأصدقاء اللاندغريف، أو أمر بهم بالسجن بالأغلال، في سبيل فدائهم مقابل مبلغ كبير».

البابا يرسل أربعة كرادلة نواباً بابويين إلى جميع مناطق أوروبا

ولدى سماع البابا بهذه الحوادث استولى عليه الحزن، وقهره الأسى، فأرسل أربعة من الكرادلة، بمثابة نواب بابويين للتجول في جميع أرجاء العالم المسيحي، من أجل الإساءة إلى فردريك المذكور، والتشهير به، وبابنه كونراد، لأنه تجرأ فأقدم على تلك الإجراءات، ومن أجل تشجيع جميع المسيحيين، بوساطة التحليل من الذنوب، بمهاجمة فردريك المذكور، ومضايقته، وإذا أمكن سحقه، وأيضاً لكي يسعوا بوساطة جميع

الطرق التي كـان فيهـا البـلاط الرومـاني بارعـاً تماماً، وبدهاء الشره، وبشراهة الدهاء، لإستخراج المال، من أجل اخضـاع فردريك الممقوت، وبناء على هذا، أرسل واحـداً منهم إلى ألمانيا، وأرسل الثـاني إلى إيطاليا، وأرسل الثالث إلى اسبانيـا، وأرسل الرابع إلى النروج، كل هذا بالاضافة إلى الآخرين من النواب البابويين البـارعين، المزودين بصلاحيات كبيرة، الذين أرسلهم بشكل سري إلى انكلترا من دون شاراتهم الرسمية، حتى لايبـدو أنه كان يتجـاوز امتياز الملـك، وكان مع هؤلاء وبينهم الرهبـان الفــــرنسيسكان والـدومينيكان، الذيـن عملهم لم يكـن من دون إلحاق الأذى والفضيحـة بطائفتهما، جبـاة للضرائب، ورجـال مـراسم، وكـان النائب البـابوي الذي أرسـل إلى النروج، هو أسقف سـابينا Sabina, وقــد أرسل أيضــاً ليمسح وليتــوج هاكــو Haco ملك النروج، وليمارس أعمال النائب البـــابوي في تلك البـــلاد، وفي بـلاد الســـويد، ولإلحاق الأذى بفـردريك المتقـدم ذكـره، لكـن ليس من دون توقعـات كبيرة للربح.

كيف جعل فردريك الأبوليين والصقليين والكلبريين يقدمون الولاء لابنه هنري من إيزابيلا

وفي الوقت نفسه، قام فردريك صاحب الذكرى المشكوك بها، والذي محظور علينا أن نـدعـوه امبراطوراً، بجعـل جميع الأبوليين، والصقليين، والكلبيريين، يقـــدمـــون الولاء إلى ابنه هنري، من زوجتـــه المحبـــوبة، الامبراطورة إيزابيـلا، أخت ملك انكلترا، وعندمـا سمع بذلك الأخير، أي خال الصبي، كان مسروراً كثيراً، ولم يكن ذلك من دون سبب جيد.

وعندما سمع فـردريك، بأن النواب البابويين المذكـورين، قد أرسلوا إلى مختلف أرجاء العـالم، لإلحاق الأذى بسمعته وبمكانتـه، أرسل رسالة إلى ابنه هنسيـوس Hensius, ملك سردينيـا، بأن ينصب المصـائـــد

للجنويين، لابل حتى أن يقـدم على قتلهم، ولاسيما آل البـابا، وأقربائـه، وأصدقائـه، وقام هذا بتنفيذ ذلك بشكل فعال، وذلـك حتى يظهر نفسه مطيعـاً لوالده، ونتيجة لذلك اعتقل وشنـق أقرباء البـابا المقربين، وكـان واحـداً منهم، قـد أحبه —مع أنه أحـب الجميع بلاحدود— قـداستـه، وقدّره بعـاطفة أعظم مـن البقية، وعندما سمـع البابا بهذا الإجـراء كان غضبـه بلا حـدود، فقـام في يوم الإعداد، فحـرم كنسيـاً فـردريك وابنه هنري، مع شجـب مـرعب، إلى حــد أنه ألقى الرعـب في قلوب جميع الذين رأوه وسمعوه، وعندمـا سمع فردريك بذلك تنهـد وقال: «هكذا فعل اليهــود الذين صلبـوا المسيح، فبعــدمـا تعـرض للصلب، طعنوه برمح».

قوانين جديدة عملها ملك إنكلترا

حـذا في هذا العـام الملك الانكليـزي حـذو البـارونات، الذين سنوا قـوانين في فرنسـا، وكـان ملك تلك البلاد، قـد أعطى مـوافقته عليهـا، ووضع عليها ختمـه، فعمل القوانين التـالية، التي توجبت مـراعاتها من دون إحبـاط، في جميع أرجـاء انكلترا، في سبيـل وضع بعض الضـوابط لشره البلاط الروماني المستمر.

فقد منع الملك النظـر في جميع قضايا نقض الوعـود والحنث بالعهود، عندمـا يجري دعــوة العلماني للمثـول بمثل هذه القضـايا أمــام قـاض لاهوتي، وتمّ منع القضـاة اللاهوتيين من إجراء أية محاكمـة ضد علماني، إلاّ في قضـايا الزواج أو الوصـايـا، وكـانت احـدى المواد التي وضعهـا الملك حديثـاً، للأساقفة، هي صيغـة تتعلق بالأبناء غير الشرعيين، سواء أولد الطفل قبل الزواج أو بعده، وجـرى منع الكهنة، بموجب مـذكرة ملكية، من عرض أعمالهم المتعلقة بالعشـور، أمام قاض لاهوتي، ووضع في تلك المذكرة تعريفـاً يتعلق بالأيمان التي تؤخذ من الكهنة، بألاّ تؤخذ أمـام رجـال العدالة الملكيين، لأن من المفهـوم أنهم يسيرون بإجـراءات

قضـايـا تهمّ بشكل معـاكس لتحـريم الملك، وكـذلك لأن الكهنة غير ملزمين بحلف أيمان، إلاّ أمـام قـاض لاهوتي، ولاسيما في القضـايا الروحية، وكان هناك بند يتعلق بقضية الكهنة، الذين تولى موظفو الملك وضعهم بالسجـن، على أسـاس تقـرير جلب ضـدهم مـن قبل رجل علماني.

كيف أقيم السلام بين أسقف درم وراعي دير القديس ألبان

وأنهي في هذا العـام الخلاف الذي كان قـائماً بين أسقف درم وراعي دير القديس ألبان، وفق الشروط التالية:

«إلى أبناء الكنيسة الأم العـالية والمقدسـة، إلى جميع من سوف تصلهم هذه العروض، مـن مايكل رئيس شمامسـة ستو Stow, وهو قاض مناب من قبل مولانا البابا، ومن نيقولا مستشار لنكولن، الذي هو نائب مفـوض لرئيس شمامسـة نورثأمبتون، وقـاضي وزميل لرئيس الشمامسـة المذكور، صحة في الرب: ليكن معلوماً من قبل الجماعة كلها، بأن قضية عرضت أمامنا من قبل السلطات الرسـولية —خازن لنكولن، واحد منا القضاة الثلاثة، قد قبل عذره تماماً— بين الأب المبجل نيقولا، الذي هو بنعمـة الرب أسقف درم، باسم كنيسته في درم، من الجهـة الأولى، وبين جون، الذي هو بالنعمة نفسها راعـي دير القديس ألبان، ورهبان المكان نفسه، ورئيس التجمع الرهباني في التاينماوث، باسم دير التاينماوث، من الجهـة الثانيـة، وذلك فيما يتعلق بالزيارات التفقـدية للكنيسة الأسقفيـة للتاينماوث، والطاعة المفروضة من قبل الأسقف نفسه، والمستخرجة من رئيس رهبان التاينماوث، والكنائس الأسقفية الأخرى في أبرشيته، والتي هي بأيدي رهبـان التـاينماوث، أخيراً بناء على مـوافقـة الهيئة الكهنوتيـة لكنيسة درم، وجلـب الصراع إلى صيغة مصالحة أبديـة كما يلي: أن تقول بأن أسقف درم المتقـدم ذكـره، وخلفـائـه، إمـا بأنفسهـم، أو بوسـاطة مـوظفيهم، سـوف يمارس تلك الوظيفـة، في ذلك الجزء من كنيسـة

التاينهاوث، التي تقام بها القداسات، لصالح الأبرشيات، من دون فرض لأتاوات، وعلى شرط أن لايقحموا أنفسهم بأي شكل من الأشكال، بين الرهبان، أو في أي جزء آخر من الكنيسة، ولا حتى في الخلوة نفسها، باستثناء في جميع الحالات، الامتيازات الأخرى والغفرانات الممنوحة إلى الرهبان المتقدم ذكرهم، لكن تعيين رئيس خلوة التاينهاوث وعزله هو من قبل الراعي المتقدم ذكره، أو إذا كان كرسي راعي الدير شاغراً، يجري ذلك من قبل رئيس رهبان دير القديس ألبان، مع موافقة هيئته الرهبانية، وفقاً لفحوى امتيازاتهم، وعلى الذين سوف يجري تعيينهم الذهاب إلى الأسقف، وأن يقدموا له، وأن يتعهدوا بالوقت نفسه بطاعة قانونية له، مع الاحترام للكنائس الأبرشية، وبقدر ما تسمح الامتيازات الممنوحة إلى دير القديس ألبان، على شرط هو أن رؤساء رهبان التاينهاوث، سوف لن يجري —بحجة تلك الطاعة— استدعاءهم من قبل أي مجمع، أو هيئة كهنوتية، أو أي تجمع لاهوتي، بما يتعارض مع فحوى امتيازاتهم، ولسوف يجري تعيين القساوسة في كنيسة التاينهاوث بالتوالي من قبل رئيس الديرة، والتجمع الرهباني للتاينهاوث، مع موافقة راعي ديرهم، وسوف يقدمون إلى الأسقف المتقدم ذكره وإلى خلفائه، والذين جرى قبولهم سوف يجيبون الأسقف المتقدم ذكره في المسائل الروحية، ويجيبون الرهبان المذكورين في المسائل الدنيوية، وكشهادة على ماتقدم، وعلى هذه الوثيقة، التي كتبت بشكل قانوني صحيح، أي أن تقول، بالنسبة للحصة التي تركت مع راعي الدير المتقدم ذكره ورهبان دير القديس ألبان، ورئيس ورهبان التاينهاوث، وبالنسبة للحصة التي تركت بأيدي كنيسة درم، قام الأسقف المتقدم ذكره، والهيئة الكهنوتية لدرم، وراعي دير القديس ألبان، ورهبان هذا الدير نفسه، ورئيس رهبان، ورهبان التاينهاوث، قام كل واحد منهم بدوره فوضعوا أختامهم، مع أختامنا. أبرم في عام ألف ومائتين وسبعة وأربعين لتجسيد ربنا، بحضور الأسقف المتقدم ذكره

أعلاه، وكذلك راعي الدير، وكان أيضاً حاضراً: رعاة النيومنستر، ورؤساء شمامسة نونتغهام، والقديس ألبان،، وشروبري، والمعلم هوغ دي ستانبردج Stanbridge, والمعلم وليم دي بورغ Bourg, والمعلم أودو أوف كيلكني Kilknny, والمعلم جون الذي كان فرنسياً، وعدد كبير آخر».

فرض الأتاوة البابوية من قبل إنكليزي فرنسيسكاني اسمه جون

في العام نفسه، عند بداية الصوم الكبير، أي أن تقول بعد عيد إعدام القديس يوحنا المعمدان، وصل إلى لندن، واحد من طائفة الفرنسيسكان، اسمه جون، وهو الذي تقدم ذكره في الصفحات الماضية، وهو الذي استخرج مائة مارك من راعي دير القديس ألبان، بموجب السلطة الرسولية، وبسبب أن الراعي المذكور تقدم بالتماس إلى الكرسي الرسولي، وإلى الكرادلة، حول ذلك الظلم الذي لايمكن تحمله، صار الآن الحامل لولايات جديدة، تم الحصول عليها من ذلك الكرسي الرسولي، وذلك وفقاً لرغباته، وبناء على سلطات الولاية الجديدة هذه، استدعى الراعي المذكور، وطلب منه القدوم إلى لندن، في اليوم الثالث من ذلك التاريخ، أي في اليوم التالي لعيد القديس جايل، أو أن يرسل نائباً قديراً، لديه تعليمات كاملة حول القضية، ليتولى ترضيته، أي ترضية جون المذكور، حول قضية إعانة مالية، جرى طلبها من قبل البابا، منذ زمن طويل مضى، وبناء عليه، أرسل راعي الدير، في اليوم المحدد، رئيس شمامسته بمثابة نائب له، والذي طلب على الفور نسخة عن الولاية الجديدة، وقد حصل عليها بعد بعض المصاعب، وتولى نسخها، حيث جاء نصها كما يلي:

«من أنوسنت، أسقف، إلخ، إلى ابنه المحبوب، جون راعي دير القديس ألبان، في أسقفية لنكولن، صحة ومباركات رسولية: إن حوادث الاضطهاد اليومي ترغمنا بقسوتها، وفي مقاومتنا لها، على

اللجوء إلى عون الذين هم رعية لنا، لنجدة الكرسي الرسولي، وبناء عليه، إننا بموجب نصيحة إخواننا نسألكم، وننذركم، ونحثكم، وبوساطة هذه الكتابات الرسولية نأمركم، بأن تمنحوا ثقة كاملة إلى ولدنا المحبوب كثيراً جون، الذي هو انكليزي، وهو المسؤول الاقليمي للرهبان الفرنسيسكان في بروفانس، وهو الحامل لهذه العروض، ورسولنا، وهو الذي سيبين لكم باسمنا مايتعلق بالمساعدة المالية المطلوبة إلى الكرسي الرسولي، وانتبهوا إلى أن الكنيسة بهذه المقاومة، تدافع عن المصلحة العامة لجميع الكنائس، ولرجال الكنيسة، وعليكم أن تفعلوا كل الذي سوف يبينه لكم، فبذلك يمكن اعطاء الرضا لنا وإلى إخواننا، ويمكن أيضاً أن يظهر إخلاصكم بهذا العمل، الذي هو أفضل وسيلة للبرهنة على الصدق. صدر في ليون في هذا الثاني عشر من تشرين الأول، في السنة الرابعة من حبريتنا»، وبوساطة سلطات هذا الراهب جون، التي فرضها على أولئك الوكلاء بالظهور في اليوم الثامن من ذلك الموعد، طلب منهم في المكان الذي ظهروا فيه بشكل رسمي أن يدفعوا له مبلغ ثلاثمائة مارك، وإلاّ فهو سوف يتولى تنفيذ أمر البابا بحرمانهم كنسياً، وبتعليق كنائسهم من شراكة المؤمنين، فأجابه الوكلاء بأن راعي الدير كان على وشك ارسال رسله الخاصين إلى البابا، بغية أن يوضحوا له المظالم، ولكي يرضوه وفقاً لإمكانات كنيسته، والذين خاضعين له، دون التنازل —على كل حال— عن الالتماسات التي صنعت من قبل، ووقعت هذه الأحداث عندما كانت السنة قد تقدمت كثيراً، وبذلك فإن عرضنا المنظم للأحداث قد اضطرب بعض الشيء، لكن كنا مكرهين على ذلك، لأنه حيث يكن هناك ألم، من المؤكد أن تقوم الاصبع بالاشارة إليه.

ازدياد سلطة الراهب جون بسبب التفويض البابوي

مع ازدياد يأس الانكليز وأذاهم، ازدادت سلطات الراهب جون

المذكـور، وقد جـرى حثه من قبل البـابا على القيام بضغـوط أكبر لدفع الأتاوات، بوساطة الرسالة التالية:

«من أنوسنت، إلخ: تقديراً منا للمسائل التي أبلغتني عنها برسائلك، نحن نأمرك بوسـاطة سلطة هذه العروض، حـول مسألة تزويد الكنيسة الرومانيـة بالمساعـدة المالية، التي تم طلبها من قبلـك بموجب سلطاتنا، لوحظ من ردود أكثـرية الأسـاقفـة اللاهوتيين الانكليـز بأنهم معفين ومحررين منها، عليـك أن تجعلهم يدفعون لك الذي سـوف تختاره، وفي مدة مـوائمة، أي أن يدفعوا المبالغ الأكبر من المال من أجل المسـاعدات التي طلبتهـا منهم مـن قبل، واضبط جميع المتمـردين بوسـاطة الروادع الكنسيـة، مـع إلغـاء جميع الالتماسـات، وبدون الاهتمام بـأي من الامتيازات، أو الاعفاءات، مع أن هذه العـروض لم تقم بذكرهم. صدر في ليون، في اليوم السابع من تموز، في السنة الرابعة من حبريتنا».

وكل من يـرغب أن يرى السلطات السـالفـة الـذكـر التي منحت للراهب جون، يمكنه أن يعثر عليهم في كتاب الرسائل [من تصنيفنا].

خوف رجال اللاهوت وخشيتهم من فقدان ممتلكاتهم

عندمـا بلـغ العلم إلى كثيرين، بأن هذه الاستخـراجـات الاجبـارية المتواليـة قد مورست من قبل البابا ومن قبل نوابه المجـربين والمنحرفين، وأن امتيـازات وغفرانات واعفـاءات الآباء المقـدسين كـانت بلا فائـدة للدفـاع عنهـم، باتوا في خـوف عظيم، لأنهم خشيـوا من أن يقـوم العلمانيـون والأمـراء المدنيـون والنبـلاء، الذيـن تولى أجـدادهم تقـديم عطاءات إلى الكنائس وأغنوها، حيث كـانوا قـد أنقصـوا ممتلكاتهم، وأعطوا صكوكهم حول ذلك، من أن يقومـوا الآن بسبب ما أقدم عليه البـابا، باسترداد امتـلاك مقتنيـات الكنائس، ذلك أن البـابا قـد قـام هو وأتبـاعـه الذين اختـارهـم، باللامبـالاة، بفحـوى الامتيـازات، ولاسيما

سلوكـه المخـالف لنـوايا المؤسسين، ولقـد استعـان البـابا بالايطاليين وبالأجـانب الآخـرين الذيـن سمنوا على منح المؤسسين، في حين بات أهل البلاد جائعين.

ظلم لم يسمع بمثله

وعندما رأى أعضـاء التجمع الكهنوتي للكنيسة المذكـورة، أي كنيسة القـديس ألبان، أنهم معـارضون من جميع الجهـات، تقدمـوا —بناء على نصيحة راعي الـدير— بالتماس إلى الكرسي الرسولي، الذي كـان واجبه تحرير المظلومين من أعبائهم، وأرسلوا واحداً من رهبانهم، واسمه جون بـولـوم Bulum والمعلـم آدم دي بيرن Bern, إلى الكـرسي الرسـولي، أي إلى ليـون، لكن قبل أن يعـودوا، سلم الراهب جـون المذكور، ولاية إلى راعي دير القديس ألبان، جاء محتواها كما يلي:

«إلى جـون المبجل، الذي هو بنعمة الـرب، راعي دير القديس ألبـان، يرسل جون، رسول مولانا البابا في انكلترا، تمنيات الصحة في الرب: مع أننا كتبنا الآن إليكم مـراراً، لقـد تلقينـا أمـراً حتميـاً بأن نفعل ذلك، ولذلك قـررنـا أن نكتب إليكم مرة أخرى، وبناء عليـه، نحن نطلب منكم، وننصحكم، وبموجب سلطات مـولانا البابا نأمركم، أن تقـوموا بمـوجب فضيلة طاعتكم، بإزالة جميع الاعتـذارات وأن تقدمـوا في يوم الثلاثاء المقبل، قبل عيد القديـس توما الرسول، إلى بدفورد Bedford, إلى بيت الفرنسيسكـان هناك، لتقديم ترضيـة كاملة، من أجل المسـاعدة المالية إلى الكنيسة الرومـانية ويتوجب عليك العمل بطريقـة لانجد معها أنفسنا أنه من الضروري اتخاذ إجـراءات، نحن غير راغبين بها، متماشيـة مع محتـويات الولاية المتقـدم ذكرها، وعليـك عدم التفكير بأن لاتقـدم، على أساس **الالتماس الذي عملتموه، لأننا تلقينا أمـراً خاصاً، فيما يتعلق** بذلك. وداعاً. **إن الـذي تنوي فعله بالنسبة لهذه القضية، أرسلـه برسالة** ايصا لنا، **لإخبارنا، بوساطة حامل هذه العروض».**

الالتماس المرفوع إلى البابا

وبناء عليه تم عمل التماس لرفعه إلى البابا، لأن راعي الدير، وكذلك التجمع الرهباني، فضلوا سلوك طريق الاحتكام إلى أفضل رجال البابا، على الرضوخ والوقوع تحت قبضة التذلل والفقر المخفية لمثل هذه القسوة الحادة، لكن خلال الوقت الذي أرسل فيه الرسل إلى البلاط الروماني، في أسبوعي عيد القديس ميكائيل، تهددهم المعلم جون، وضغط عليهم بشدة أعظم، وبناء عليه أرسل إليه رئيس شمامسة القديس ألبان مع بعض الرهبان، لتلطيف قسوته، لكنه أجاب بأنه سوف يمارس أشد أنواع العدالة، وأقصى ماتسمح له سلطاته، لأنه عندما كان في دير القديس ألبان، لم يقدم له الرهبان الاحترام اللائق به كنائب بابوي، أو حتى رسول بابوي، لابل إنه بالحقيقة تعرض لملامة بعضهم، لأنه خرق أحكام طائفته، ولأنه غيّر زيه، مع أنه استقبل باحترام وأدب بما فيه الكفاية، فيما يتعلق بمأكله ومشربه، مع كلام ناعم ومستقيم، ثم إنه مع شيء من الصعوبة، وعلى ركب جاثية، وبكلام استعطاف، حصلوا أخيراً على فرصة، إلى أن يتم سماع ما هو مؤكد من الرسل الذين أرسلوا إلى روما، وفيما يتعلق، بمسألة نجاح عملهم هناك، أكد الراهب جون لهم بأنهم لن يحصلوا على أي شيء مفيد أو نافع، لأنه قد كتب إلى البابا مثيراً غضبه، ومعلناً بأن راعي دير القديس ألبان، كان الوحيد بين جميع رعاة الديرة في انكلترا، الذي تحرك ضد الولاية البابوية وهو سوف لن يطيعها، وهذا أمر واضح وجلي بوساطة ارساله رسله إلى البابا، ولهذا السبب واجه الرسل الذين بعثوا إلى بلاط روما كثيراً من المثبطات، والمعيقات التي رميت على طريقهم، وتأخروا كثيراً في البلاط، ووجدوا المزيد من المصاعب في انجاز أعمالهم، وتمكنوا أخيراً عن طريق وساطة بعض الأصدقاء المرتزقة والمستأنفين في ذلك البلاط، من الوصول إلى تسوية للقضية، ودفعوا غرامة مائتي مارك إلى البابا،

وهكذا إذا حسبنا الهدايا والنفقات التي ابتلعها تهم ذلك البلاط الذي لايعرف الشبع، نجد أن الجميع صار ثلاثمائة مارك، لكن حدث أن كنيسة القديس ألبان التي كان من المتوجب أن تتنفس الآن بحرية أكبر وبسلامة أعظم، تحت الحماية الخاصة للجناحين البابويين، أكثر من الكنائس الأخرى، حدث أن تعرضت لمزيد من المضايقة، وبحدة أكبر، بوساطة مظالم مستمرة، صدرت عن الأساقفة، الذين كانت ديرتنا موجودة في أسقفياتهم، فهم لم يروا أن الرسائل البابوية لها فعالية، وقاموا بمضايقة رؤساء رهبان الديرة، حيث لم يقدروا، أو بالحري تعاموا وأظهروا أنهم لايعرفون محتويات الرسائل، التي عبرت بكل وضوح، أنهم كانوا معفين من دفع ضريبة الأحد عشر مارك، المتقدم ذكرها، واحتفظوا كذلك بثلاثة محاسبين، ليقوم البابا وحده بافقارهم، ولقد جرى تقديم محتويات هذه الرسائل في كتاب الـ Additaments, وأخيراً أمكن ضبطهم بمحتويات تلك الرسائل، وبرسائل من الراهب جون المذكور، فأقلع الأساقفة، وتوقفوا مكرهين، عن الاستمرار عن ظلم الديرة، لكنهم —على كل حال— لم يعيدوا الذي سلبوه منهم من قبل.

حول دعوة نبلاء إنكلترا إلى بارلمان

وفي هذه الآونة، عندما وجد الملك أن مملكته كانت عرضه إلى خطر عظيم، أمر باجتماع جميع نبلاء المملكة في اكسفورد، في اليوم الذي ينشد فيه Quasinodo geniti, لبحث أحوال القضايا في وضعها الخطير الحالي، ودعا إلى هذا البارلمان بشكل خاص وبدقة الأساقفة، بسبب أنه رأى أنهم تعرضوا للافقار بشكل مستمر بوساطة أتاوات البابا، ولأن أموال انكلترا غالباً مانقلت منها إلى الخارج، في حين لم تتحقق أية منافع للكنيسة من جراء ذلك، بل إنها كانت مصدر خسارة وإضرار، ولهذا السبب فإنهم عن حق اعتقدوا بأن تلك

الأتـاوات قـد سببت أعظم الازعـاج الممكن إلى الخالق الأعظم، وقـد أملوا مع أعظم الثقـة بأن يكون من الممكن في هذا البـارلمان التوصـل إلى بعض المقـررات، لكن الـذي حـدث هـو أنه مـع أن بعض الأساقفـة، كانـوا قد قرروا من قبـل معارضة الاسهام المتقـدم الذكر، قـاموا كلهم، باستثناء رعـاة الديرة المعفيين، والمحاسبين الثـلاثة، في هذا المؤتمر، فـوافقـوا على الاسهام بأحـد عشر ألف مـارك، وبهذا الامتيـاز جعل المحـاسبون أنفسـهم هنا عـرضة للشك والريبـة من قبل المملكة كلهـا، ثم جـرى دفع المال المذكـور، وقـد تسلمـه أسقفـا وينكستر ونورويـك، اللـذان كانا مسلحين بالسلطة البابوية، وأرغم رجال الدين على دفع الشيء نفسـه كاملاً، وبات رعـاة الديرة المعفيين عـرضة لإرادة البابا، الذي أظهر قليلاً من الرحمة نحـوهم، بل أنهكهم بخسائر متوالية، وبأضرار مستمرة، بوسـاطة نيابة الراهب جون، حسبما تقـدم الذكر، كما أنه لم يظهـر أي لطف زائـد نحـو راعـي دير القـديس ألبـان، نتيجـة لإرسـاله له ثمـانين مـاركـاً في العـام الأخير المنصرم، وروعيت أيضـاً مخاوف من أن يقوم الملك نتيجة الاذن المتبادل، والتوافق بينه وبين البابا، بارغام الكنيسة والمملكة بالاذعـان لهذه الأتاوة، حيث أن البابا قد كتب مـؤخراً إلى نبـلاء انكلترا لصـالح الملك، ليرفع من شأن قضيتـه في جمع المال.

إرسال رسل إلى برابانت

وجـرى في هذه الآونة إرسـال راعي دير ويستمنستر، والمعلم جـون مونسيل Maunsell بمثابة رسولين من قبل الملك إلى ألمانيـا، ليقومـا بترتيبات أوليـة مع دوق بـرابـانت، لعقد زواج بين ادوارد ابـن الملك، و بين ابنة الـدوق المذكـور، وبسبـب بعض المعيقـات السرية عـادا آسفين، وخاليي الوفاض، وكان كل واحد منهما حزيناً، لأنه تعب من دون فائدة، وكذلك لما أنفقه.

-٧٧١٣-

البابا يتدبر انتخاب وليم كونت هولاندا ملكاً لألمانيا

اشترى البابا في هذه الآونة، بوساطة مبلغ المال الكبير الموعود، الذي استخرجه من جميع الأرجاء، وجمعه من أجل تدمير فردريك، انتخاب وليم كونت هولاندا، وكان رجلاً في مطلع حياته وقوته، ومن أصل مشهور، إلى منصب ملك ألمانيا، وكان الكونت المذكور وأسقف لييج أبناء عم (خال؟)، وكان دوق برابانت عمه (خاله؟)، وكان رئيس أساقفة كولون صديقه القريب كثيراً، ومتحالفاً معه بوساطة بعض المصاهرة، هذا وكان البابا قد قدّر، انه بانتخابه لاندغريف ثورينجيا،، الذي مات فجأة، كما ذكرنا من قبل، قد فقد مبلغاً كبيراً جداً من المال، وكان بالحقيقة مدهشاً إلى درجة أنه يسبب العجب إلى عقول الذين سمعوا به (لأنه لم يكن بالحقيقة أقل من خمسين ألف رطلاً من بنسات البندقية، التي كل واحد منها يساوي ثلاثة أرباع بنس استرليني، وجميع هذه الأموال وقعت تحت سلطة أعدائه)، ولذلك سعى الآن لتدبر القضايا بحذر أكبر، وبناء عليه أرسل المال الذي وعد به إلى الملك المنتخب حديثاً، أي الكونت وليم على أيدي رسل عقلاء، لم يشك بهم ولم يرتب، وقد عيّن الكاردينال أوكتافيانوس Octavianus لمتابعة تنفيذ هذه الأعمال، وأرسل أيضاً رسلاً استشاريين إلى الميلانيين، والبارميين Parmese, وإلى آخرين اعتقد أن قلوبهم متقلبة، وحرضهم على التخلي عن جميع مشاعر الثقة والأمل، ولكن بما أن بهجة هذه الدنيا لايمكن أن تأتي غير مزيجة بالأحزان، كان هناك كونت سافوي، الذي كان عدواً مكشوفاً للكنيسة، وكان منتظراً تحت خداع التظاهر بالسلم، حتى قضي على رسل البابا، الذين كانوا مرافقين بجنود، بالمرور خلال الوديان وأن يجتازوا الممرات الصعبة للجبال، وقد سمح لهم بفعل ذلك دونما أذى، ولكن عندما بات تراجعهم ووسائل نجاتهم قد قطعت، حدث هكذا بشكل خياني، أن تم فقدان المال

البابوي، والجنود الذين تسلموا إلى جانب متأخرات مدفوعاتهم، مبلغاً كبيراً من المال مقابل عطاء شهرين سلفاً، هؤلاء الجنود تفرقوا، وأرغموا على الفرار، وهكذا حدث ثانية، وبشكل مهين بما فيه الكفاية، أن جميع الموارد جرى تحويلها لصالح استخدامات العدو.

وفي العام نفسه حصل الرهبان الدومينيكان على امتياز من البابا، قضى بعدم السماح إلى أي واحد من رهبانهم بالانتقال من طائفتهم إلى أية طائفة أخرى، وأنه لايجوز لأي راعي دير أو رئيس رهبان استقبال أي من هؤلاء الرهبان، مع أنهم أنفسهم استقبلوا رهباناً متخلين عن طوائفهم، وهذا الإجراء —كما هو واضح— لايتماشى مع المنطق، ومخالف لنظام القديس بندكت، وكذلك إلى القاعدة الطبيعية التي تقول: «لاتعمل مالا تتمناه أن يعمل لك»، وحدث أيضاً أن كثيراً من الأشخاص، كانوا متميزين لأخلاقهم ولعلمهم، ولأصلهم الطيب، كانوا قد انسحبوا من هذه الدنيا، إلى طائفتهم، لكنهم وجدوا أن ذلك ليس شكل الدين الذي أملوه، بل وجدوا العالم بطوله وعرضه، عوضاً عن الدير (خاصة وأن القديس بندكت قد شجب في مطلع أحكام نظامه ذلك النوع من الرهبان الذين قاموا يتجولون حول البلاد) ولذلك بدأوا يأسفون ويحزنون لأنهم دخلوا إلى مثل هذه الطائفة، وبحثوا عن ذريعة تمكنهم من التحول إلى اتجاه معاكس، ولهذا السبب، فإن الأشخاص الذين يعدّون الأعظم في طائفتهم، هم الذين يرعون الطريق الوسط والمعتدل.

كيف جاء بعض النبلاء إلى إنكلترا لطلب هدايا من الملك

ووصل في هذه الآونة إلى انكلترا أيضاً بعض النبلاء الأجانب المفلسين والجياع، فاتحين أفواههم لالتهام أموال الملك، وكان من بينهم بلدوين، الذي يعرف باسم امبراطور القسطنطينية، ومعه بعض المؤيدين الذين طردوا بالقوة من الأراضي الاغريقية، وكان قبل عدة سنوات

مضت، بلدوين هذا المذكور، قد باع جميع الآثار المقدسة التي أمكنه أن يستولي عليها، واقترض من حيثما استطاع، ثم بعد ذلك هرب بشكل معيب من تلك البلاد، وهو رجل فقير، ومنفي، ومجرد من جميع ممتلكاته، مع أن البابا قد تبنّى قضيته، وقدم إليه مساعدة فعالة، عندما شن الحرب ضد بتاكيوس، زوج ابنة الامبراطور فردريك، وظهر الآن أنه محتاج فعلياً، وقد طلب مساعدة مالية من ملك انكلترا، الذي عرف عظمته من قبل، ولكي يحصل على حظوة أكبر منه، أعلن بأن الملك كان قريباً له.

وصول أسقف سابينا إلى إنكلترا بمثابة كاردينال— نائب بابوي

وصل أيضاً إلى انكلترا أسقف سابينا Sabina, الذي هو كاردينال للكنيسة الرومانية، وقد كان على طريقه إلى البلدان الشمالية: النروج، والدانمارك، والسويد، وقد قدم بمثابة نائب بابوي، ومن أجل مسح وتتويج هاكو Haco ملك النروج، وعندما كان على وشك القدوم إلى انكلترا، واجه في البداية بعض المصاعب في الحصول على اذن من الملك، بسبب أن جميع النواب البابويين مهما كانت مراتبهم، وجميع الرسل البابويين، مارسوا دوماً سياسة افقار المملكة التي مروا في طريقهم بها، أو اثاروا الاضطراب بها، بطريقة أو بأخرى، ولم يسمح له حتى حلف أخيراً بروحه أنه قادم إلى انكلترا، وليس في نيته تسبيب الأذى إلى الملك، أو المملكة، أو الكنيسة، بل ليمر بسلام فقط من خلال البلاد، من ميناء دوفر إلى لين Lynn, وأنه سوف يغادر إلى الممالك النائية، التي كان قاصداً إليها، عندما يواجه مناخاً موائماً، وريحاً مناسباً، وبعدما حصل على الاذن وفق هذه الطريقة، دخل إلى المملكة من دون خوف، وبعدما قدم احتراماته إلى الملك، وتلقى بعض الهدايا منه، أسرع برحلته إلى لين، حيث أقام لمدة ثلاثة أشهر، وفي أثناء اقامته لم يستطع التمنع عن ممارسة الشره الروماني، بل أرسل بشكل سري، رسلاً إلى

الأساقفة وإلى رعاة الديرة، وإلى رؤساء الرهبان، يطلب مبالغ مالية كبيرة، وهدايا ثمينة، وكان بين البيوت والعزب العائدة إلى أسقف النروج مكاناً اسمه غيوود Gaywood, وكان غنياً إلى درجة كانت مرابحه تصل —كما قيل— إلى أربعة آلاف مارك، ومع ذلك وفي سبيل أن يغطي جميع إجراءاته بمظهر من القداسة، غالباً ماتولى وعظ الناس، وعندما كان على وشك المغادرة في سفينة، كان قد شحنها بثراء بكمية كبيرة من القمح، وعدد كبير من الدنان كانت مملوءة بأفضل أنواع الخمرة، وبالمؤن الأخرى، أمر راهباً من طائفة الدومينيكان، بأن يقيم قداساً فيها، وهذا ماحدث، مما أثار دهشة كبيرة بين كثيرين، حيث أنهم لم يشاهدوا من قبل قداساً من هذا النوع، وكان على ظهر تلك السفينة —كما قرأنا في قضية سفينة نوح— ممرات، وسقف فوق آخر، وحجر، وغرف طعام، بنيت خصيصاً من أجله، وبناء عليه، ووفق هذه الحالة، وبعدما أصبح غنياً، عهد بنفسه إلى بحر الشمال مع هبوب ريح طيبة، وذلك بعدما ألقى المباركة على انكلترا، وعلى الانكليز الأسخياء.

وصول ثلاثة أخوة وأخت للملك من أمه إلى إنكلترا

ووصل بالوقت نفسه إلى انكلترا، وبصبحة النائب البابوي المذكور، ثلاثة أخوة لملك انكلترا من أمه، وذلك بناء على دعوته، وذلك في سبيل اغنائهم من مباهج انكلترا وثرواتها، وكان هؤلاء هم: غي دي لوزنغنان، وهو الأكبر سناً، وكان فارساً، ووليم دي بلنسية، وكان هو الأخ الأصغر، ولم يكن قد عمل فارساً بعد، وايثيلمار Ethelmar, وكان كاهناً، وبالاضافة إلى هؤلاء جاءت أخت لهم وللملك اسمها ايليزا Eliza, وكانت ابنة ايزابيلا، التي كانت ملكة انكلترا من قبل، وكونتسة بروفانس بوساطة هوغ برن Hugh Brun ايرل التخوم، لأنهم كانوا قد تعبوا وأهينوا في الإقامة في بواتو، التي شرع الفرنسيون يدوسون عليها بطريقة تعيسة، وبازدراء السكان، الذين كانوا

من قبـل تحت حماية ملك انكلترا، ولقـــد أرادوا العيش بحـــرية، وأن يتمتعوا بجميع صنوف الازدهار، وقـد دعاهم الفرنسيـون باسم خونة، وأشاروا إليهم بالأصابع، وسـط الضحك والاستخفاف، ولدى وصول إخوته وأخته، ذهب الملك إلى استقبـالهم، مع كل مظاهر الفرح، وأسرع لمنحهم العناق والقبلة الأخـويـة، ووعـدهم بهدايا رفيعـة، وبممتلكات وافرة، وقد وفى بهذا الوعد باخلاص، لابل أعطاهم أكثر مما وعدهم به، حسبما توضح الرواية التالية بشكل كامل:

كيف تزوجت بعض السيدات البروفانسيات من نبلاء إنكليز

في بداية شهـر أيار، كـان الملك مقيماً في وودستـوك Woodstock, واستمرت إقامته من عيد القديس فيتال Vitalis حتى اليوم التالي لعيـد الرسـولين: فيليب، وجيمس، وآنـذاك جـرى بتـدبير وترتيب من بطرس أوف سافوي، زواج سيدتين من بروفانس من شابين نبيلين، كانا هما: ادمـــونـد ايرل أوف لنكـولن، ورتشـــارد دي بورغ Bourg, الذي كان الملك قبل عدة سنوات قد رباه في قصره، وبسبب هذا الزواج سمعت أصـوات بعـدم الرضـا والغضب وانتشرت في جميع أرجـاء المملكة، لأنهم قـالوا بأن هاتين المرأتين، قـد تزوجتـا —على الرغم من كونهما ليستا معروفتين— من نبيلين، ضد ارادتهما.

زواج جوهانا ابنة وارين من وليم أخي الملك لأمه

وفي العـام نفسـه، وفي الثـالـث عشر من آب، وبناء على رغبـة الملك واقتراحـــه، تزوجت جـــوهـانا Johanna ابنة وارين دي مـــونتشيـــزنيل Warin de Muntchenil, من وليم دي بلنسيـة، أخي الملك لأمـه، ولأن الابن الأكبر والوريث لوارين المذكـور كان متوفى، فإن ميراثاً غنياً جداً كان ينتظر جوهانا هذه، التي كانت ابنته الوحيـدة البـاقيـة، وبذلك شعر النبـلاء الانكليـز إلى درجـة كبيرة بأنهم

أصبحوا من حصة الأجانب، مع أشخاص غير معروفين، وتزوجت ايليزا أخت الملك لأمه، أيضاً من الشاب جون ايرل وارني Warrenne.

وفاة أودو رئيس أساقفة روان

وفي الوقت نفسه من العام مات أودو Odo رئيس أساقفة روان Rouen, الذي كان من قبل راعي دير القديس دينس Denies, وجاءت وفاتهُ فجأة، لأنه ضرب —كما قيل— بحكم رباني، لأنه بالكاد قد ترأس على كرسي رئاسة أساقفته لمدة سنة، حيث اغتصب لنفسه الاسم فقط والمنصب وأحال جميع إجراءات رئاسة الأسقفية إلى سلفه بطرس، وقد كان انكليزياً من حيث الأصل، كما كان من قبل راعي دير القديس دينس، لكنه تخلى عن ذلك وابتعد لرغبته بالحصول على منصب رئاسة الأساقفة، وقد ترك ديره تحت دين لايمكن سداده، ولدمار نفسه حصل على المنصب المتقدم ذكره من خلال السيمونية.

حمل الصليب من قبل وليم لونغييسبي وبعض النبلاء الآخرين

في حوالي أسبوع الابتهالات من هذا العام، حمل الصليب أسقف ووركستر مع وليم لونغييسبي Longuespee, وغودفري دي لوسي من أسقفية ووركستر، مع كثير من نبلاء مملكة انكلترا، فقد تشجعوا على هذا بوساطة المثل الذي ضربه ملك فرنسا مع نبلائه، وجمع وليم لونغييسبي المال من الذين حملوا الصليب، مثلما فعل الايرل رتشارد، وبعقلانية ذهب إلى البلاط الروماني، وخاطب البابا حول مسألة الحملة الصليبية، وقال له: «مولاي، إنك كما ترى، إنني قد حملت شارة الصليب، وأنا على استعداد للسفر، والالتحاق بملك فرنسا في حجه، وأن أقاتل في سبيل الرب، وأنا أحمل اسماً عظيماً، وهو معروف

بشكل جيد، أي وليم لونغيسبي، غير أن ممتلكاتي صغيرة، فقد أخذ ملك انكلترا، الذي هو قريبي، وهو مولاي، مني لقب ايرل، مع جميع ثروتي، وهو —على كل حال— فعل هذا بشكل عادل، وليس بوساطة غضبه، أو بوساطة أي عنف أملاه عليّ، ولذلك إنني لاألومه، وأنا مرغم على الالتجاء إلى الصدر الأبوي لعطفكم، لأطلب العون منكم في حالة الضرورة هذه، ونحن نفعل هذا اقتداء بقضية النبيل الايرل رتشارد، الذي، مع أنه لم يحمل الصليب، قد نال الحماية من فضلكم، وهو فضل كان وافراً، وخصباً في قضيته، حيث جمع مبلغاً كبيراً من المال في انكلترا، من الناس الذين حملوا الصليب، وأنا الذي حملتُ الصليب، وفي حاجة، استمد الأمل من قضيته، وأسأل أن يجري منح الفضل نفسه لي»، وبناء عليه، قدر البابا فصاحة المتكلم، وقوة المنطق لديه، ولياقة شخصه، فأظهر نفسه متعاطفاً مع الملتمس، ومنحه جزئياً الذي طلبه، يعني أن تقول شوكة من جلد رجل آخر.

تعيين وليم بويلي حاكماً على غسكوني

وعهد في هذا العام بالمسؤولية عن غسكوني إلى وليم دي بويلي Buales, وهو فارس كان من قبل مارشال البيت الملكي، وقد كان تبعاً لعادة بلاده —كونه من نوستريا Neustrian- عظيماً بالكلام، بطيئاً بالفعل، وجباناً، ولذلك فإن المقاطعة بدأت في ظل عنايته تتعرض إلى الخطر، وقد اضطربت كثيراً بالحروب، وكان أكثر أعداء ملك انكلترا نشاطاً هو غوستو Guasto ابن كونتسة بيارد Biard الذي كان أكثر الناس عقوقاً، بين الذين أعطاهم الملك الكثير وأغناهم.

حول نقل القديس إدموند المعترف

وجرى خلال هذا العام نقل القديس ادموند المعترف، الذي كان من

قبل رئيس أساقفة كانتربري، وقد جرى نقله في بونتغناك Pontignac, مع تشريف عظيم، في الكنيسة الديرية لرهبان طائفة السسترشيان، بحضور لويس الملك المسيحي العظيم الإيمان، لفرنسا، مع عدد كبير من النبلاء، والأساقفة، وكذلك بحضور آخرين، كان بينهم من الجنسين الحضور، السيدة بلانشي، أم ملك فرنسا، ولقد كانت الأكثر وضوحاً في اخلاصها للرب، ولذلك القديس، فقد داومت على السهر مع الصيام والصلاة، مع كميات وافرة من الشموع المضاءة، وغالباً مارددت في صلواتها الكلمات التالية: «أيها الأب المعترف والأعظم قداسة، عندما كنت حياً وفي المنفى، قمت بناء على رجائي بمباركتي ومباركة أولادي، وبناء على طلبي عبرت إلى فرنسا، وأكملت فينا، الذي كنت قد بدأت فيه، وأسست مملكة فرنسا على سلام ثابت، وعلى النصر»، وكان اليوم التالي، الذي كان السابع من حزيران، متوافقاً مع اليوم نفسه، الذي كان قد جرى فيه نقل جسد الأسقف الأعظم مباركة، والمعترف: وولستان Wulstan أوف ووركستر (وأنا أعتقد أن هذا قد حدث الآن بموجب ارادة ربانية)، والآن جرى نقل جسد ادموند الممجد في بونتغناك، وذلك على الرغم من عدد السنين التي مرت بين الحادثتين، وينبغي أيضاً أن يكون معلوماً، لابل بالحقيقة أن ينشر في جميع أنحاء العالم، بأن جسده قد وجد كاملاً، غير متفسخ، وله رائحة جميلة، والذي هو أكثر ادهاشاً بالنسبة لجسد ميت هو الليونة في كل أطرافه، مثلما هو الحال مع شخص نائم، وكان شعره وثيابه غير متغيرين باللون والتكوين، وقد تقرر أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً —وذلك بناء على اقتراح أول من ملك فرنسا— وجوب اعطاء الانكليز، الحرية أكثر من الشعوب الأخرى، بالقدوم لزيارة جسده، ولتقديم صلواتهم هناك، وتقرر أيضاً تشريف المكان بحوامل شموع مضاءة، ومع صور معمولة بشكل محكم، وبشأن تفاصيل إجراءات هذه المسألة، قد جرى تقديمها في كتاب Additaments.

كيف نذر الإيرل رتشارد بناء
الجزء الرابع من مزار القديس إدموند

وعندما غدت هذه الوقائع معروفة من قبل الايرل رتشارد، من خلال تقرير موثوق، وعن طريق أشخاص صادقين، قال وهو يتنهد: «واأسفاه، أنه لم تجر مباركته بشكل عال من أجلنا، أي أن يكون الملك أخي وأنا شخصياً، حضوراً أثناء هذا النقل المجيد والمهيب، لأنه كان قديسنا بالمولد، والتعليم، والترقية، على الرغم من أنه —بسبب ذنوبنا— قد انسحب من انكلترا، وعلى كل حال إن الذي كنتُ سأفعله لو كنت حاضراً هناك، سوف أفعله وأنا غائب، إنني سوف أقدم له الاحترام المتوجب، والتشريف اللائق له»، وبدأ منذ ذلك الحين يحب القديس باخلاص أعظم، وبتشريف أكبر، وبتقوى أعمق، فقد حدث أنه أصيب بمرض سري وحاد، هدّد حياته، فطلب مساعدته مع الثقة، وبسعادة تحرر من مرضه، وامتناناً منه للرب وللقديس أخذ على نفسه عهداً بأن يبني المزار، أي واجهته.

كيف فسدت النقود الإنكليزية

وفي العام نفسه نقصت قيمة النقود الاستيرلينية، فبسبب جودة المعدن الذي تألفت منه، قطعت أطرافها من حولها بوساطة عمل ممقوت، ولذلك لحقها الزيف، ومرد ذلك إلى مزيفي المال والنقود الذين ندعوهم «القصاصين»، وقد قصوا النقود كثيراً إلى حد أن الذي بقي منها الدائرة الداخلية فقط، ذلك أن الدائرة الخارجية قد قصت كلياً، وكان الذين تولوا عملية التزييف هذه هم تجار البلدان المجاورة لانكلترا، وبشكل خاص الفلمنكيين حيث جرى الاكتشاف بشكل واضح أنهم يمارسون هذا في القارة أكثر من فعلهم ذلك على هذا الجانب من القنال، ولذلك قام الملك الفرنسي بمعاقبة هؤلاء الناس

بقسوة أعظم في أراضيه مما فعله الملك الانكليزي في بلاده، ولكن بما أن النقود قد تشوهت الآن وتزيفت إلى أبعد الحدود بدأ الملك يبحث عن مخرج لهذا، وفيما إذا كان من الممكن والأنفع تغيير النقود بالشكل أم بالمعدن، وقد بدا لكثير من الناس العقلاء أنه سوف يكون مفيداً أكثر تغيير المعدن، من تغيير الشكل، لأنه من أجل المعدن، وليس من أجل الشكل، كانت تلك النقود قد خضعت لذلك الإفساد والأذى، ومصداقاً على هذا، فإن النقود الفرنسية، ونقود كثير من الأمراء الأجانب تقدم شهادة واضحة وبرهاناً.

مبارزة بين إيرل غلوستر وبين غي أخي الملك

وفي حوالي الوقت نفسه جرى الترتيب لمبارزة، مع أنها كانت رياضة دموية جداً، تجري في بقعة بين دنستيبل وليوتون، وذلك بين رتشارد ايرل غلوستر، وغي دي لوزنغنان ابن كونت التخوم، وكان الملك الذي أظهر المزيد من الحظوة نحو أخيه ونحو البواتيين الآخرين من الأتباع، وكان ذلك أكثر مما أظهره نحو رعاياه الانكليز الطبيعيين، قد بدأ —الملك— يشعر بخوف كبير خشية أنه إذا جرت هذه المبارزة، فإن أخاه وأتباعه سوف يقطعون إلى قطع، ولذلك منع المبارزة تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث، وقد تحمل الانكليز هذا المنع بصبر، لأن كثيرين قد أحبوا غي المذكور باخلاص، فقد قيل بأنه كان هو الذي حذر ملك انكلترا عندما كان في سانتونغ Santonge, وطلب منه القيام بالفرار على الفور في ذلك الوقت، لأن والد غي، كونت التخوم كان قد باع الملك المذكور إلى ملك فرنسا، وهكذا فإن هذا الاضطراب، الذي كان في البداية خطيراً جداً، قد أنهي بإرادة الرب، واستقر.

تدمير الخوارزمية

في هذا العام نفسه أيضاً، تعرض شعب الخوارزمية الممقوت كله إلى

الضعف، وكـان ذلك بعـدمـا نشر النار والقتل، وجلب عـدة أنواع من الدمـار المضاعف للأرض المقـدسة، وبعدمـا أنزل عكا إلى حالـة الفقر، بعـد هذا تعرض الشعب كله —أقـول بفضل انتقـام الرب— إلى وهن شديد وضعف عظيم حتى أنهم أنهكـوا أنفسهم، وكان ذلك بسبب أنهم شرعوا بالعمل ضـد سلطان مصر، وبذلك حرموا من معونتـه، فأخفقوا في الحصول على الذي احتـاجوا إليه، فقهروا وهزمـوا من قبل أعدائهم، الذين تضاعفوا وتكاثروا من كل اتجاه، ولذلك حصل أخيراً أن اسمهم محق تمامـاً من على وجه الأرض، ولم يعـد هناك أثر منهم مـرئياً، سـوى أنهم لوثوا الأرض المقـدســة بشكل لايمكن جبره، برائحتهم القــذرة وبآثار أقدامهم.

حول فرار كونراد من ألمانيا

وهرب في هذه الآونة أيضـاً كـونراد بـن فـردريك —الذي كـان ابناً شريراً لأب شرير— من ألمانيا إلى أبيه في ايطاليا، لأنه لم يستطع الصمود أمام هجمات أعدائـه، والزيادة اليومية في قوة الكنيسـة، لأن نائباً بابوياً، اعتمد على مسـاعدة رئيس أساقفة كـولون، قام بعدمـا جبى مبلغاً كبيراً جداً من المال من الكنيسة من ألمانيا، فجلب معـه جيشاً مؤلفاً من حوالي عشرة آلاف جندي، وواصل بـدون توقف مهــاجمة أعــوان فــردريك المذكـور، وانخــرط في أعمال النار والقتل، وتمكن هذا النائـب البـابوي بوساطة انزال عقـوبة الحرمان الكنسي الآن ضـد بعضهم، ثم الآن ضد آخرين، من جمع المال لتـزويد الجيش الكبير العائد إلى رئيس الأسـاقفة، وجـاء استخـراجـه للمال من حيثما استطاع: من الأسـاقفـة، ومن رعـاة الديرة، ومن رؤسـاء الرهبـان، ومن رجال الديـن الآخرين، إلى درجـة أنهم أرغمـوا فيهـا على دفع فـدية حتى عـن أجـراسهم، وعندمـا سمع فـردريـك بهذا انزعج كثيراً، إلى درجـة المرارة بالقلب، وشعــر بالخوف حتى الناس العقلاء الذين وزنوا مخاطر المستقبل بميزان العقل، وقدروا:

أن يرغم فردريك فيقوم بسبب الغضب والدفاع عن نفسه، باللجوء إلى الردة، أو أنه سيطلب عون التتار من روسيا، أو سيقوم بشكل خياني فيسمح لسلطان مصر، الذي كان معه على وفاق تام، بالقدوم إلى الامبراطورية، مع جيشه وأتباعه من المسلمين، مما سيسبب اضطراباً مخيفاً إلى المسيحية كلها، وكان من الممكن أن يرى بوضوح التعاسة المخبأة لهم، لأن الفضائح تكدست فوق الفضائح، وتوجت الشرور فوق الشرور، إلى حد أن بعضهم وقف إلى جانب فردريك، وكأن ذلك في سبيل صالح الامبراطورية وازدهارها، ووقف آخرون إلى جانب البابا، وكأن ذلك لصالح الكنيسة، وبما أنهم أثاروا الآن حروباً بغيضة ودموية، نشبت حتى في ألمانيا، وكذلك في صقلية وكالبيرا، وجميع ايطاليا، فإن الأساقفة والرجال المقدسين الآخرين، الذين سلف للكنيسة أن رعتهم بحنان أمومتها، قد أرغموا بشكل مهين على التسول وعلى طلب ضروريات الحياة بوساطة الوعظ في بلدان أجنبية ونائية، لكن حتى آنذاك أهانهم الناس، ورفضوا الاستجابة لمطالبهم قائلين:

«اذهبوا إلى باباكم، اذهبوا إليه فهو الذي يمتلك وفرة هائلة من مبالغ الأموال التي نهبها»، وفي الحقيقة لم يتوقف البابا عن جمع المال، سواء في بلاطه أو في البلدان النائية، جاعلاً من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان —على الرغم من عدم رغبتهم— صيادين، ليس للرجال، بل للمال، لكن كيف راوغوا في أداء هذه الأعمال، إن هذا مايمكن الوقوف عليه في كتاب الـ Additaments.

كيف جمع الإيرل رتشارد المال من الذين حملوا الصليب

وجمع في هذه الآونة الايرل رتشارد، بموجب سلطات البابا —الذي كان قد لبى مطالبه وأرضاه بشكل سري وعقلاني— مبلغاً ضخماً من المال، من الذين حملوا الصليب، وفي الحقيقة حمل —كما قيل— من رئاسة شمامسة واحدة، وجبى ستمائة باوند، معتمداً على سلطات رسائل

البابا، وفي ظل الحماية نفسها، حسبما تقدم الذكر، جمع وليم لونغيسبي ألف مارك، لا بل أكثر من الصليبيين.

حول استخراج المال من قبل بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري

وفي هذا الوقت نفسه، علق بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، بموجب سلطات الكرسي الرسولي، بعض أساقفة منطقة كانتربري، لأنهم رفضوا الخضوع لتقديم اسهام جديد، لم يسمع به من قبل، حيث كان قد حصل على امتياز جبايته من البابا، وتعلق ذلك بمرابح موارد الكنائس الشاغرة، المتوجبة خلال السنة الأولى من شغورها، فقد توجب الآن تقديم هذه المرابح إلى رئاسة الأساقفة المذكورة، لتحريرها من ديونها، وهي الديون التي كان أسلافه قد حمّلوها لكنيسة كانتربري مع فوائدها، وكان هذا الكلام زائفاً بشكل واضح موثق، وقد قيل لالحاق الأذى بسلفه المباشر ادموند، وبرجال مقدسين آخرين، وقام الأساقفة، بناء عليه مرغمين، لأنهم كانوا غير قادرين على التمرد ضد ولاية البابا وسلطته، قاموا بعد لأي فوافقوا، وهم غير راضين، ومع مرارة بالقلب، وجاء ذلك في سبيل التمكن من التحرر من تعليقهم، وتسلموا فيها بعد، مرة أخرى، ولاية من خلال عمدة بوفيا Beauvais, الذي كان الوكيل في هذه القضية، وقضت أوامر هذه الولاية بأن يتم الحرمان كنسياً من قبل البابا لجميع الذين انتقدوا، وكل الذين ضلوا، ولأي واحد مارس الغش في قضية الامتياز المتقدم ذكره الذي منح بفضل من البابا، وأعلن الحرمان الكنسي على جميع أرجاء منطقة كانتربري،باستثناء الملك وزوجته وأولاده، والنبيل رتشارد أوف كورنوول.

حصار بارما من قبل الإمبراطور

عندما كانت الشمس تسير نحو الاعتدال الخريفي، عبر فردريك

جبال الألب، وبادر مسرعاً مع جيش كبير نحو ليون حيث كان البابا مقيماً، ومن هذا التحرك خيف كثيراً من قيامه بهجوم عدواني على أشخاص: البابا، والكرادلة، واللاهوتيين الآخرين، لكن حدث بفضل الادارة الحكيمة للبابا، الذي شجع أهل بارما Parma, ووعدهم بمبلغ كبير من المال، وبمساعدة فعالة، أن دخلت هذه الدولة بمجملها فجأة بتحالف مع الميلانيين والآخرين الذين كرهوا الامبراطور، وبجرأة عملت الترتيبات لمقاومته، وذلك بعدما كانت من قبل واقفة بثبات إلى جانب فردريك.

ولدى سماع فردريك بهذا، بات من الصعب عليه ضبط نفسه، واستبد به الغضب لأنه صرف عن مقاصده بوساطة هؤلاء العصاة، فعاد مع جيشه من أجل حصار البارميين، ولكي ينزل بهم أقسى انتقام، وتحرر البابا بعض الشيء من الخوف العظيم الذي استولى عليه، ووضعت مدينة بارما تحت الحصار، وقام الامبراطور بالشروع ببناء مدينة واسعة ومكتظة بالسكان خارجها، حتى أنها بدت معادلة لمدينة بارما نفسها، وقد منحها اسم «فيتوريا» "Vittoria", [المنصورة] كما أنه أقسم أنه سوف لن يغادر من هناك حتى يتمكن من اخضاع المحاصرين، ويستولي على مدينتهم، وتمكن خلال وقت قصير من منعهم من الافادة من النهر، كما لم يتمكن الميلانيون أو أية جماعة أخرى، وضعوا ثقتهم بها، من تقديم أية مساعدة إلى المحاصرين، وفي ظل هذه الظروف، باتوا راغبين خلال ثلاثة أشهر بإعطاء يد المصالحة إلى فردريك، وطلبوا منه المصالحة، ولكن بما أنه كان غير واثق من سكان المدينة، رفض القبول بتذللهم، ثم إنهم بدأوا يشعرون بحراجة وضعهم، وقالوا فيما بينهم، «هذه النوازل وقعت علينا بشكل عادل، لهجومنا الخياني ضد مولانا الذي وثق بنا، ولقد عوقبنا، ولكن ليس من دون سبب مسوغ صحيح، فمدينتنا في خطر

عظيم، وهي المدينة التي سلب فيها بشكل وحشي روجر المقدس، أسقف لندن، الذي قيل بأن الرب قد شرفه الآن بعمل معجزات له، وجاء سلبه من حاجاته الضرورية لرحلته، ومن المقتنيات التي كانت ذات قيمة لديه، عندما كان متوجهاً في حجه إلى البلاط الروماني، ولم تردّ إليه مقتنياته، لذلك قام لدى مغادرته في اليوم التالي بانزال اللعنة على المدينة وعلى سكانها.

كيف أعطى ملك فرنسا ترضية إلى جميع الذين عانوا من الأذى

خلال الخريف نفسه، أرسل لويس التقي، ملك فرنسا، رهباناً من الدومينيكان والفرنسيسكان ليجولوا في جميع أرجاء مملكته، وليقوموا بأبحاث يقظة، كما أنه أمر بإجراء فحص يقوم به نوابه، من أجل أنه إذا كان هناك أي تاجر أو شخص آخر قد عانى من الضرر بوساطة سلف إجبارية، أو استخراج للمال، أو مصادرة للمقتنيات، الأمر الذي غالباً ما وضع قيد الممارسة من قبل الوكلاء الملكيين، وأمكنه تقديم تصريح مكتوب، أو لائحة بما تعرض له من أضرار، أو قدم بينة على ذلك، وإذا ما حلف على صدق ذلك، أو قدم أي برهان قانوني حول ذلك، فإن الملك كان جاهزاً لتقديم تعويض كامل حول كل شيء، وهذا ماجرى تنفيذه.

مرض إدوارد الابن الأسن للملك

في عشية عيد القديس متى، وقع الابن الأسن للملك، ووريثه ادوارد مريضاً، فكتب الملك إلى جميع رجال الدين المقيمين في لندن وبقربها، أن يصلوا من أجل حفظ ابنه، وكان من الذين كتب إليهم بشكل خاص راعي دير القديس ألبان والرهبان فيه، يرجوهم.بأن يخصصوا صلوات لصالحه، وأن يقوم جميع الرهبان بانشاد مزمور «القدير والرب الدائم، هو الأمل الباقي للذين يؤمنون» إلخ، بشكل

مهيب، وأن يكون الشطر الأول من هذا لصالح القديس ألبان، وأن يكون الشطر الثاني لصالح الشاب المريض، وبفضل الرب، عاد الشاب إلى الصحة، وقد قلت كثيراً حول هذا، بسبب إشاعة راجت بين الناس، الذين أبدوا دهشتهم قائلين: «انظروا لقد صلى رجال علمانيون إلى الرب، وقد استجيب إلى صلواتهم، فلماذا على هذا لايقوم البابا بالصلاة، والعمل لصالحه، لابل لصالحنا، ولصالح الكنيسة العالمية؟ لكن بدلاً عن هذا هو متشوق من دون كلل بالسعي وراء المال»، ولقد قيل أيضاً، وتأكد الذي قيل، الأمر الذي كتبته ليس من دون دموع، بأنه وضع ثقته في مخازن المال أكثر من وضعها في الصلوات وتقديم الصدقات إلى المسيحيين.

كيف جرى انتخاب وليم كونت هولاندا ملكاً للرومان

في اليوم التالي لعيد القديس ميكائيل، انتخبت أكثرية نبلاء ألمانيا الذين لهم يعود حق الانتخاب، ملكاً لألمانيا، هو وليم كونت هولاندا، وكان شاباً في حوالي الثلاثين من عمره، كما كان وسيماً في مظهره، ومن أصل نبيل، وبعد انتخابه قدموا الولاء له، ولم يوافق دوق سكسوني وبعض النبلاء الآخرين على هذا الانتخاب، ونتيجة لذلك حدث انشقاق عظيم بين الناس، الذين وجدوا متنفساً للتعبير عن مشاعرهم بهذه الكلمات: «انظروا الفرسان واقفون ضد الكهنة بسبب التجبر، وللسبب نفسه الكهنة مخاصمون للفرسان».

جلب بعض دم المسيح إلى لندن

وفي تلك الآونة، كتب ملك انكلترا إلى جميع نبلاء المملكة، يأمرهم بالاجتماع [في لندن] في يوم عيد القديس ادوارد، أي في يوم عيد تحويله، الذي يحتفل به خلال الأربعة عشر يوماً لعيد القديس ميكائيل، لسماع أعظم الأخبار، حول منفعة مقدسة، أضفيت من قبل

السماء مؤخراً على الانكليز، وثانياً من أجل تقديم التشريف إلى تحويل ذلك الملك المجيــد والشهيـد، وثالثـاً حتى يتمكنوا مـن أن يكونوا حـاضرين احتفال أخيـه لأمـه، وليم دي بلنسية، الذي سـوف يضفى عليـه في ذلك اليـوم شرف الفـروسيـة، وكـذلك على بعض الشبـاب النبلاء الآخـرين، ولكي يكون هذا العيد المضاعف أكثر قبولاً، أفعم بحضور النبلاء والأساقفـة مع آخرين كذلك، في سبيل تشريف الملك والمملكة.

وبناء عليه، اجتمع النبـلاء في اليوم المتقدم على التـاريخ المحدد، في ويستمنستر، وبعـدمـا أخبروا بأن ذلك اليوم كـان يوم عيـد القـديس ادوارد، والاحتفـال بوليم المذكور، سألـوا عن الأخبار المرضيـة، التي جـاءوا إلى هناك من أجل سماعها، والتـي قيل بأنها صحيحة وجـديرة بالقبـول كله: لأنه بشهـادة مقـدمـي الداوية والاسبتـارية، مع شهـادة أختـــام كثيرة، وبشكل خـــاص أختـام: بطريـرك القـدس، ورؤســاء الأساقفة، والأسـاقفة، ورعاة الديرة، ورجال الديـن الآخرين، ونبلاء الأرض المقـدسة، جـرى ارسـال بعضاً من دم ربنا، الذي سفحـه على الصليب من أجل خـلاص العـالم، وكـان محفـوظاً في وعـاء جميل من الزجـاج الصافي (الكريستـال) وقـد عهد به إلى عناية راهب معـروف بشكل جيـد، من رهبـان الداوية، وأن الملك، بحكم كـونه أعظم أمير مسيحي، قـــد حصل عليـــه مـن الأغسطس هرقل، أعظـم الأباطرة انتصـارات وقوة، وبـذلك سار على منوال الملك الفـرنسي الذي كـان حيـاً آنذاك، والذي كـان يبـدي كـل تشريف في باريس، نحـو صليب الرب نفسه، كما ذكـرنا من قبل، وقـام بروح تقية وتائبة بالبقـاء ساهراً ليلة عيد القديس ادموند [اقرأ: ادوارد]، وكان صائماً على الخبز والماء، وذلك مع شموع مضاءة، وصلوات خالصـة، وقد أعد نفسه من أجل مهابة اليوم التالي.

كيف حمل الملك دم المسيح إلى كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر

ثم أصدر الملك أوامر، قضت بوجوب اجتماع جميع الكهنة في لندن، في نظام لائق واحترام في كنيسة القديس بطرس، في الصباح الباكر لليوم التالي، الذي كان يوم عيد القديس ادوارد، وأن يرتدوا ثيابهم الاحتفالية مع أرديتهم الكهنوتية وأغطية الرؤوس، وأن يكونوا محاطين بأتباعهم من رجال الدين، الذين عليهم أن يكونوا مرتدين لملابسهم ولشاراتهم، وللصلبان، والشموع مضاءة، وإلى هناك ذهب الملك أيضاً، ولدى تسلمه للوعاء الحاوي للكنز المتقدم ذكره، قام بتشريف عظيم، واحترام، ومهابة، فحمله فوق رأسه، وسار على قدميه وهو لابس لثياب متواضعة، مؤلفة من رداء بسيط من دون غطاء رأس، وسار مع الكهنة اللابسين كما قلنا من قبل، وقد سار من دون توقف إلى كنيسة ويستمنستر، التي كانت على بعد حوالي الميل عن كنيسة القديس بولص، ويتوجب علينا عدم اسقاط ذكر، أنه حمل الوعاء بيديه معاً، وعندما كان يصل إلى أي مكان وعر، أو جزء غير مستو من الطريق، بقي دوماً مثبتاً عينيه نحو السماء، أو على الاناء نفسه، وجرى حمل الطيلسان على أربعة رماح، وتولى مساعدان دعم ذراعي الملك، خشية أن تتهاوى قوته، أثناء هذا الجهد الكبير، ولدى وصوله إلى باب ساحة أسقف درم، استقبل من قبل التجمع الديري لويستمنستر، مُرافقين من قبل جميع الأساقفة، ورعاة الديرة، والرهبان الذين احتشدوا (والذين أحصي عددهم فتبين أنهم كانوا أكثر من مائة)، وهم يغنون، بفرح وسرور في الروح القدس، وذلك مع الدموع، ثم إنهم عادوا بمسيرة كما قدموا، إلى كنيسة ويستمنستر، التي تمكنت بصعوبة من استيعابهم جميعاً، بسبب الجماهير التي احتشدت، ولم يتوقف، بل حمل الوعاء من دون تعب، كما فعل من قبل، وقام بطواف في الكنيسة، وفي القصر، وفي غرفه الخاصة، وأخيراً

قـدم الوعـاء، وأهداه، كهـدية لاتقـدر بثمن، وهي هدية جعلت انكلترا مشهـورة، وجـاء التقـديم إلى: الرب، ولكنيسـة القـديس بطرس في ويستمنستر، وإلى حبيبـه ادوارد، وإلى الرهبـان المقـدسين في ذلك المكان المكرسين للرب ولقديسيه.

أسقف نورويك يعظ بقداس إلى الناس حول فضائل دم المسيح

وأقام أسقف نورويك قـداساً في ذلك اليـوم، وهو نفسه قدم قـداساً للناس، فيه ذكـر أنه بين الأشياء التي نظر الناس إليها أنها مقدسـة، يعد دم المسيح هو الأكثر قداسة، لأنه كان ثمن العالم، وسفكه كان الخلاص للعالم، ولكي يظهر عظمة الواقعة أكثر، أضاف قول الفيلسوف التالي:

كل نهاية أعلى من وسائطها

وفي الحقيقـة إن الصليب هو أكثر الأشيـاء قداسـة، بسبب دم المسيح الذي سفك عليـه، الذي هو الأكثر قـداسـة، وليس سفك الدم مقدساً بالنسبـة لعمليـة الصلب، وقـال: إن هذه الأشيـاء، كما نعتقـد يمكن أن تجعل انكلترا تشعر بكثير من السرور والفخار، وذلك نظراً لتملكها لهذا الكنز العظيم، مثلما شعرت فـرنسا في امتلاكهـا للصليب المقدس، الذي بجله ملك فرنسـا —وليس ذلك من دون سبب صالح— وأحبـه أكثر من الذهب والجواهـر، وأضـاف أنه نظراً للاحترام العظيم، ولقـداسـة ملك انكلترا، المعـروف بأنـه أعظم المسيحيين، بين جميـع الأمـراء المسيحيين، أرسل إليـه هذا الكنز الذي لايقـدر بثمـن، من قبل بطريرك القـدس (والذي تبرهن على حقيقتـه وتأكـد بها فيـه الكفـاية)، من أجل امكانية تقـديم الاحترام إليه في انكلترا أكثر منـه في سورية، التي تركت الآن مهجورة تقـريباً، لأنه في انكلترا، كما يعلم العالم، الإيمان والقـداسة مزدهران أكثـر من أي بلد آخر في جميع أرجاء العالم، وبالنسبـة لفحصه، لأن كثيرين كـانوا مـايزالون بطيئين بالتصديق، ولكـون ذلك قد جـرى

الدخـول به، قـام ثيـودورك، رئيـس الاسبتـارية في القـدس بمخـاطبـة الأساقفـة والآخرين الذين كانوا جالسين هناك، بالكلمات التـالية: «لماذا ماتزالون مترددين ياسـادتي؟ هل طالب أي واحد منا، نحن الداوية، أو الاسبتارية، أو حتى الراهب الذي جلبه، بأية منفعة من أجله؟ هل سأل أي مكافأة بالذهب أو الفضة من الملك، أو من أي واحد آخر، أو حتى لو بجائزة صغيرة جداً؟» وعلى هذا أجاب الملك: «لامطلقاً»، ثم أضاف الراهب: «لماذا يعـرض عـدد كبير من النـاس من ذوي المراتب العـاليـة أنفسهم إلى ادانة، أرواحهم، ويقـدمـون شهـادة على صحـة هذا الأمـر، ويثبتون أختـامهم على الشهادة، التي هي واضحـة، ويقسمون على ذلك بإيمان صـالح»؟، ومع أن هذه الكلمات قـد تفـوه بهن رجل علماني، قـد قبل بهن الأساقفة وكذلك قبلن من الآخرين.

لكن دعونا نعود الآن إلى سياق روايتنا، فبعـدما فرغ الأسقف المتقدم ذكـره من قـداسـه الفصيح، أعلن —لسرور النـاس— بأن كل من يأتي لتعبـد الدم الأعظم قداسـة، والمحفـوظ هناك، سوف يحصل، بمـوجب اذن مفضال من جميع الأسـاقفة، على اعفاء حر من العقوبـات المفروضة عليهم، لمدة ستـة أعوام، ومـائة وأربعين يـوماً، وبعـد مناقشات جـرت هناك، ثابر بعض الجالسين هناك على التمسـك باصرار بعناد بشكوكهم، وطرحوا السؤال التالي: «كيف أتيح للرب، عندما قـام ثانية تاماً وكاملاً في الجسم، وذلك في اليـوم الثالث بعـد آلامه، ترك دمـه على الأرض»؟ وهو سـؤال أحكم الإجـابة عليـه على الفـور أسقف لنكولن، وجـرى تدوين المناقشـات في كتاب الـ Additaments, وذلك كما سمعها كاتب هذا العمل، فقد دونها كلمة كلمة بكل دقة.

كيف عمل وليم دي بلنسية فارساً بحزام

أثناء القيام بهذه الإجـراءات المهيبة في كنيسـة ويستمنستر، كان الملك مرتدياً ثوباً مصنوعـاً من أغلى أقمشة القطيفة، وكان منسـوجاً بالذهب،

وكـان مرتـدياً تاجاً صغيراً، يعـرف عـادة باسم إكليل، وقـد جلس على عرشه الملكي، حيث أمر بمثول أخيـه لأمه أمامه، وقد حضر على الفور برفقة عدد كبير مـن معاونيه، الذين جاءوا معـه لتسلم أسلحته ودروعه بأبهة عظيمة، وبشكل مهيـب، ومنحه الملك وقتها مـرتبة الفـروسية، كما منحها لبعض رفاقه.

الملك يأمر بإيداع جميع هذه الإجراءات كتابة

عندما كان الملك جالساً على عـرشه الملكي، شاهد كاتب هذا العمل، فدعاه إليه، وجعله يجلس على الدرجة الـوسطى بين عرشه وقاعة البناء، وقال له: «لقد شاهدت جميع هذه الأشيـاء، فهل مارأيته قد انطبع بثبات في عقلك»؟، وعلى هذا أجبتـه: «نعم يامولاي، لأنهم جـديرين بالحفظ، فإجراءات هذا اليوم هي بالفعل رائعة»، وقـد أضاف قائلاً: «إنني أؤكد كحقيقة بأن الرب قـدم عربوناً على لطفه الوافـر، وعلى أعماله المستقبلية الجيـدة، تفضل بلطفـه فعمل معجـزة هـذا اليـوم، فقـد حـدث هذا في الصبـاح البـاكـر، وأتمنى أنك سررت في هـذه القضيـة، ولذلك ألتمس منك وآمـــرك أن تكتب رواية واضحـــة وكـــاملة حـــول جميـع هذه الإجـراءات، وأن تدخلهم بشكل لطيف السمات في كتـاب، حتى يمكن تذكرهم من قبل كثيرين، ولكي لاتضيع فائدتهم وليكونوا نافعين في كل عصر في المستقبل»، ثم دعـا الملك الشخص الذي تحدث إليـه إلى تناول طعام الافطار، مـع ثلاثة من رفاقه، وأمـر أيضاً في اليـوم نفسه بضيـافة جميع الرهبـــان الذين جـاءوا إلى هناك بشكل غنـي في مطعم الدير، على حسابه، وذلك مع رهبان دير ويستمنستر، وبعض الآخرين.

تكريس سيلفستر أسقف كارآيل

وجـرى في هذا العــام تكريس سيلفستر Sylvester الأسقف المنتخب لكارآيل، كأسقف في يوم عيد القديسة أغاثا.

ووصل في يوم عيد القديس ادوارد ايرل أوف ليستر من القارة، إلى حيث كان قد ذهب للقيام بعمل سري من أعمال الملك.

إرسال سفراء من قبل الملك إلى برابانت

وفي هذه الآونة جرى ارسال راعي دير ويستمنستر، وجون مونسل Mauncell نائب أسقف بيفرلي، إلى القارة، حول العمل السري نفسه، الذي كان عائداً إلى الملك، وكان هناك سبباً للتخمين، أن الارسال كان من أجل القضايا المرتبطة بحديث الزواج بين ابنه وولي عهده ادوارد، وابنة دوق برابانت، وهو حديث لم يتوصل بعد إلى الترتيب النهائي.

عودة الإيرل رتشارد من القارة

وفي يوم عيد القديسين: سمعان، وجود، عاد الايرل رتشارد من القارة، مرافقاً بابنه هنري الذي كان قد أخذه إلى هناك معه، وقد قيل بأنه عقد مؤتمراً طويلاً وودي مع الملك الفرنسي، فقد عقد الأخير العزم بشكل أكيد على الانطلاق إلى حجه، في عيد الفصح المقبل، وقام بشكل عقلاني بصنع جميع الترتيبات بشأن كل من القضايا الروحية والدنيوية، وأعاد الحقوق إلى كل واحد توفر لديه إدعاء صحيح، وبناء عليه طلب الايرل إعادة جميع حقوق ملك انكلترا، بما أنه جاهز ولديه الرغبة بفعل الذي ينبغي أن يفعله، وكان من الممكن أن يستجيب الملك الفرنسي بسهولة لهذه المطالب، لولا بعض العوائق التي ألقيت على الطريق، من قبل بعض الحاسدين والشرهين من النبلاء الفرنسيين، الذين كانوا مستشاريه وكانوا مفطورين على التجبر، ولذلك جرى اخبار الرسل الانكليز مواجهة، خاصة حول قضية نورماندي، بأن ملك فرنسا قد استمر بتملكها بشكل متواصل وسلام لمدة طويلة من الزمن، هي حوالي الأربعين عاماً، لم تتوفر خلالها مطالبة بإعادتها بشكل فعال

لصالح ملك انكلترا، كما لم يتوفر أي استدعاء حولها إلى البلاط الروماني، حيث يجري بالعادة اقرار القضايا الصعبة والشائكة، ولذلك وضح إلى الملك الفرنسي، أن الملك الانكليزي يتوجب تجريده من ادعائه، وعلى كل حال لم يكن الضمير الصافيُ للملك الفرنسي راضياً بهذه الأسباب، لذلك أحالها إلى أساقفة نورماندي، حتى يمكن التوصل إلى الحقيقة بوساطة البحث في هذه القضية المشكوك بها، وقد أعلنوا أن اعتقادهم المؤكد، هو أن الملك الفرنسي يمتلك الادعاء الأقوى بنورماندي، وليس ملك انكلترا، لاسيما وأن الأخير قد جرى خلعه من قبل نظرائه، وهذا —على كل حال— واضح التناقض ولايتوافق مع أية عدالة ومنطق، فكيف يمكن لملك انكلترا أن يحكم عليه ويدان من قبل أعدائه، خاصة وأن الرب يقول: «إذا لم يقلد الابن أباه، ينبغي أن لايعاني من أجل ذنوب أبيه»، وعندما وجد الايرل المذكور القضايا على هذه الصورة، ارتدى زي حاج، وذهب إلى بونتغناك ليصلي للقديس ادموند، وليكرم مزاره بأعطيات وهدايا، وليقدم له الشكر من أجل تحسين صحته الجسدية، ولدى وصوله إلى هناك، قدم بالاضافة إلى الهدايا التي عملها من قبل، وللذي وعد به، ونذر أنه سوف يفعله في وقت ما في المستقبل، أهدى ياقة جميلة جداً، عرضها أكثر من كف إنسان، ومرصعة بجواهر ثمينة، مثلها لايمكن العثور عليه في خزائن الملوك.

حول الأحوال البائسة التي ضغطت على الويلزيين

كانت ويلز في هذه الآونة في أحوال تعيسة جداً، بسبب توقف الأعمال الزراعية، والتجارة، وتربية المواشي، وبدأ السكان يتلاشون بسبب العوز، فقاموا —غير راغبين— بالانحناء لنير الشرائع الانكليزية، فقد بهت جبروت نبالتهم القديمة، وبلغت الأمور حداً أن قيثارة اللاهوتيين تحولت إلى حزن ونحيب، ومات أسقف ميناي

أو القـديس داود، ذلك أنه تلاشى حــزناً، وأصيب وليم ,Menai أسقف لـلانداف Llandaff بالعمى، ونظراً لتعـــــرض أسقفتي أسقفي القديـس أساف Aasaf وبانغور Bangor للدمار بالنار والقتل، أرغما على التسول حتى يعيشا على ممتلكات الآخرين.

انتخاب توماس وهو ويلزي إلى أسقفية القديس داود

وهكذا بات كـرسي ميناي شـاغـراً، وبعـد عـدد لايحصى من الآلام عـانى منهــا الويلزيون، وذلك بسبب الحرب ومــوت زعمائهم، جـرى انتخــاب المعلم تومــاس، الذي يلقب بالـويلزي، والذي كـــان رئيس شمامسة كنيسة لنكولن، جرى انتخابه لذلك الكرسي، لأنه كان من أبناء ويلز، وقـد وافق على هذا الانتخـاب لسبب أول هو أن أسقف لنكولن امتلك السلطة العليا على رهبانه، وكان السبب الثاني هو أنه دعي لشفاء الأرواح في موطنه الأصلي، بحكم أن كل واحـد منجذب إلى الذكريات الحلوة لمسقط رأسه، وأيضاً أنه بحضوره، ونصـائحه، ومساعدته، يمكنه أن يواسي أبناء بلده التعساء، وقـد قبل بهذا الانتخاب الأسقفي دون أن يثير كثيراً من المتاعب في القضية، لأنه رأى أنها أسقفية ضعيفة فقيرة.

آلام البارميين

خلال هذا الوقت كله حوصرت مدينة بارما من جميع الجهات، وكانت تعـاني بشكل مميت من المجـاعة والعـوز بشكل مضـاعف، لأن سكانها لم يكن بإمكانهم مغـادرة المدينة مـن الجانب، حيث بنى المحـاصرون مـدينة كبيرة وذلك بدلاً من نصـب معسكر، وهي المدينة التي أعطاها فـــردريك اسم فيتــوريا [المنصــورة]، كما لم يمكنهم الخروج بوســاطة النهــر، لأن فردريك قد حرسه بكل دقـة، كما لم يمكنهم الحصول على أية مساعدة، أو مشورة تصلهم من البابا، الذي شجعهم على العصيان لأن الطرقات كانت محروسـة بكل شـدة، ولأن فـردريـك قـد استعـد لتمضيـة الشتـاء هناك،

ولإطالة إقامتـه حتى ينتصر على أعدائه، فـإن آمال المحاصرين قـد ماتت، وقرروا في أحـد الأيام، وقد أرغمـوا بالعـوز، على القيام بهجوم مفـاجىء على جيش الامبراطور، حتى لايظن أنهم كســالى، وبناء عليـه قـام مـائـة وأربعـــون من أعلى المراتب مـن السكان بتسليح أنفسهم، وحملـوا بشكل مفاجىء، ولكنهم جعلوا هجومهم من دون حذر، ولذا تمّ استقبالهم بحد السيف من قبـل الجيش، الذي كـــان محذراً من الهجـــوم مـن قبل، ولدى سعيهم إلى العودة إلى مـدينتهم، تمّ قطع طريق تراجعهم من قبل الأعداء، ووقع بعضهم بالأسر، وجـرى قتل البقية، وإثر ذلك تقـرر بشكل اجماعي في بلاط فـردريك —بناء على رغبة القـاضي ثاديوس ونصيحتـه— أنه في المستقبل ينبغي عدم ابقاء أي أسير بالسجن من أجل فديته، بل ينبغي على الفـور اعدامـه، واشتعل غضب فـردريك الآن أكثر، وبحـدة أعظم، لأنه جرى انتخـاب ملك جديد في ألمانيـا، ورأى سكان المدينة المرهقين —بناء عليـه— أنفسهم، قـد تمّ التخلي عنهم من كل جـانب، وأحبطت آمـالهم كليـاً، بعـدم وصول النجـدة التي وعـدهم بها البـابا، فأرسلوا سفـارة إلى الامبراطور، يطلبـــون القبـول بمنحهـم السـلام، ويسألـون الرحمة وليس الحكم القضـائي، وكـان فردريـك —على كل حال— قـد اشتعل غضبـاً، وامتـلأ عجـرفة، فأغلق أوعيـة الرحمة ضـد التماسـاتهم، ورفض منح إذن اللطف والاحسان إلى هؤلاء القوم التعساء، وبذلك أثار عدم رضا الرب، ذلك أنه تصرف بناء على نصيحـــة سرية وقـاسيـة، فأرسل إليهـم رسـالة متعجرفة، بأن عليهم استخدام قمحهم باقتصاد وعقلانية، لأنهم سوف لن يحصلوا على أي مزيد ليأكلوه مـادام هو —فردريك— حيـاً، ومن المعتقد أن هذه الرسالة القاسية قد صدرت عن ثاديوس.

الاستعدادات للمبارزة التي جرى منعها من قبل الملك

في حوالي عيد القديس مـارتين من هذا العام، قام ر. R ايرل أوف غلوستر، اعتماداً منه على الموافقـة التي كان قد حصـل عليها من

الملك، وعلى ما أعلنه في اليوم الذي جعل فيه من أخيه وليم فارساً، أي السماح الكامل والحر في عقد مبارزة عامة، تحدى فيها وليم المذكور، في أن يقابله في الحلبات في نورثأمبتون، في الأسبوع الذي يأتي قبل الميلاد، من أجل أن يتمكن وليم المذكور وأتباعه الجدد من الحصول على الخبرة في الفروسية، لأن البواتيين، الذين استمدوا شجاعتهم من صلاتهم الوشيجة بالملك، واعتمدوا بالتالي على حمايته، بدأوا يضعون أنفسهم على قدم المساواة مع الانكليز، لابل قاموا حتى بالاستخفاف ببعضهم، وعلى كل حال بها أن مخاوف قد انتشرت المشاعر بها، من أن يقوم هؤلاء الرجال المتفاخرون المتجبرون مع بعض الآخرين من القارة باثارة صراع وقتال، وأنه بعد قصف الرماح، يمكن أن تشاهد بارقة السيوف الدموية، ولذلك قام الملك بناء على نصيحة المسستشارين العقلاء، بتحريم المبارزة، مع الإعلان بأن ورثاء الخارقين لهذا المنع، يمكن أن يجردوا من التمتع بمواريث آبائهم، ولذلك عندما قدموا إلى المكان المحدد من أجل المبارزة، وجدوا أنفسهم أنهم قد خدعوا بتوقعاتهم، وأنهم أنفقوا الكثير من الأموال من دون محصلة، ولذا انصرفوا وهم غاضبين، وقد ازدروا ضعف الملك وتقلبه بكلامه، ثم إن هذا التحريم لم يكن ضرورياً، لأن تجبر وعجرفة هؤلاء الأجانب قد أثارت الكراهية الانكليزية، وسببت تأكيدها.

زواج توماس أوف سافوي من ابنة فردريك

وفي هذه الآونة، أعطى فردريك ابنته بالزواج إلى توماس أوف سافوي، أخو رئيس أساقفة كانتربري، وقد أعطاه أيضاً فيرسيلي Ver-celli وتورين Turin مع المناطق المجاورة، وعهد إليه بالحواجز التي أعدت لمنع البابا وأعوانه، الذين يمكن أن يمروا في هذه المقاطعات.

كيف أغنى الملك إخوته جميعاً

عندما قام غي دي لوزنغنان، أخو الملك، بمغادرة انكلترا، ملأ الملك حقائب خيوله بكميات ثقيلة مـن المال، إلى حد أنه كان مرغماً على زيادة عدد خيـوله، وأعطى إلى أخيه الآخر، وليم دي بلنسية، قلعـة هارتفورد مع المناصب الشرفيــة المتعلقـة بها، ومبلغـاً كبيراً مـن المال، ولذلك بدا الملك نفسـه أنه بات بحاجـة، ولأن يقوم بسلب طعـامه أو استجـدائه، ولذلك فإن الـذين أحبـوا الملك عن صـــدق، ومن دون تظاهر، كـــانوا خائفين كثيراً، خشية أن تكون صدقاته من دون تأثير، لأن الفقير كدس اللعنات على رأسـه، وخشيـة من أن تكـون صلواته في الكنيسـة سـوف تحسب —لاسمح الرب— بمثـابة ذنوب، وبالنسبـة إلى ايثيلمار، الذي كان الأخ الثالث له، فقد زوده بموارد ثرية ووافرة مما امتلكه، وبوساطة التماسات ملكيـة مهيبة، استخرج له من كـل أسقف وراعي دير، واحداً بعد الآخر، حتى أنه بدا الآن قـد تفوق على الرومان في الجشع، وبذلك جعل من ايثيلمار المذكور متفوقاً على الأساقفة بثروته.

تتويج هاكو ملك النروج

في هذا العـــام، وفي التـــاسع والعشريـن من تموز، الذي هو عيـــد أولافــوس Olavus الشهيــد، وأعظم الملوك قــداســـــة، وأعلى القديسين تميـزاً بين مناطق النروج وجزرهـا، في هذا اليوم جرى تتـويج ومسح هاكـــو بشكلٍ مهيب في بيرجن Bergen, من قبل أسقف سـابينا، الذي كـان آنذاك نائب الكرسي الرسـولي في تلك المناطق، ومن أجل هذا التكريم واللطف دفـع هذا الملك خمسـة عشر ألف مـارك من النقـود الاستيرلينية، أمـا بالنسبة إلى النائب البـابوي، فإنه بالاضافـة إلى حصوله على كثير من الهدايا الثمينة، استخـرج خمسمائة مارك من كنائس تلك المملكة، وحمل الملك المذكـور الصليـب، وحصل على تفـويض من البـابـا بأخـذ ثلث الموارد من اللاهـوتيين في مملكتـه، لتأمين حـاجـــاته

الضرورية مـن أجل حجه، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة —بواسطة تقـرير— إلى علم الملك الفـرنسي، كتـب رسـالة بصيغـة ودودة إلى الملك هاكـو، رجاه فيهـا بعطف، وتمنى عليـه من أجل تقـدم مصالح الكنيسـة، وتشريفـاً للصليب المقدس، الرمـز الذي حمله، أن يسير من دون تأخـر إلى الأرض المقدسـة، وأن يكون ذلك برفقته —أي الملـك الفرنسي— وذلك من أجل أن يسند إليه تدبير وإمـرة الاسطول الفرنسي كله، بحكم أنه أمير بارع في المسـائل الروحية، وأيضـاً أنه بذلك سوف يكون الجيش الفـرنسي من ذلك الحين ميـالاً إلى حد كبير لتقـديم الطاعة لإرادته، وعندمـا وصل المكتـوب الحاوي لهذه الرسـالة إلى ملك النروج، والذي كـان كـاتب هذا الكتاب هو الحامل له، قام الملك النروجي بعد قراءة المحتويات، بالرد على الشخص الذي سلمـه إياه، لأن روحــه وثقت به، وتفـوه بهذه الكلمات: «أرسل شكري الوافـر إلى الملك التقي، ملك فـرنسـا لرغبتـه في أن أكـون برفقته في هذا الحج، لكنني مـدرك إلى حد كبير طبيعة الفـرنسيين، كما قال الشاعر:

كل واحد في السلطة يغار من تابعه

لكنني قلت:

كل متكبر يغار من تابعه

ثم استطرد يقـول: قومي متهـورين، وطائشين، لايعرفـون الصبر تحت أي نوع من الأذى، وكذلك لايصبرون على الضوابط، ولذلك إذا ما نشب أي صراع بين مثل هؤلاء الناس وبين شعبه، فإننا معـاً سوف نجني ضرراً لايمكن رتقـه، لذلك دع كل واحد منا يذهب لوحـده، وليعمل ماقسمـه الرب له، وإنني على كلٍ حال قد كتبتُ إلى الملك المذكور، أرجوه بموجب لطفه أن يمنحني امتيازاً، برسـائله المعتمدة، هو أن يسمح لي أثناء ابحاري على طول شاطىء مملكتـه، أثناء حجي، أنه إذا مامـرضت أنا أو أي واحد

من قـومي، أو إذا ما كنتُ أنا بحـاجـة إلى امدادات أو أية أشيـاء ضرورية أخرى، أن أرسو بسـلام في أراضيه، لتزويد نفسي بالذي أنا بحـاجة إليه»، وبناء عليه، فإن الشخـص الذي كان عاقـداً للمقابلة معـه، أي كاتب هذا العمل الحالي، أعطاه الرسائل المعتمدة التالية:

رسالة الملك الفرنسي إلى ملك النروج

«من لويس الذي هو بنعمـة الرب ملك فـرنسا، إلى جميع أصـدقائـه، ورعاياه المخلصين، والنواب الملكيين، والعمد، والقساوسة، وإلى كل من تصل إليه هذه الرسائل الحالية، تحيات:

بما أن صديقنا المشهور هاكو، ملك النروج اقترح —حسبما بعث إلينا يلتمس منا برسالة— أن يبحر إلى مساعدة الأرض المقدسة، نأمركم، أنه إذا ماحـدث وقام الملك المذكور أو أسطوله، بأخذ طريقهم فـوق البحر على مقـربة مـن سـواحل أراضينا، أو حـدث ووصل إلى أي مكان من ممتلكاتنا، عليكم استقباله واستقبال قومه بلطف وتشريف، والسماح لهم بشراء الامـدادات في أراضينـا، وتزويد أنفسهم بالضروريات بمـوجب ابتياع مشروع.

صنع في سينت جيرمين Germains في سنة ربنا ألف ومائتين وثمان وأربعين».

وعندما قـرأ ملك النروج، الذي كان لبيباً، ومعتـدلاً، ورجلاً متعلماً، هذه الرسالة، كان مسروراً جداً، فكـرر الشكر لحاملها، وذلك بالاضافة إلى مكافأته بجوائز ملكية وغنية.

الخطر الذي تعرض إليه إيرل وينكستر

وفي هذه الآونة، عندما كان روجـر، ايرل وينكستر مترئساً في أراضيه في غالوي Galway التي عادت ملكيتها إليه بموجب حق زوجته

ابنة آلان Alan صاحب غالوي، وأثناء ممارسته طغياناً أكثر من المعتاد ضد نبلاء تلك البلاد، وقع فجأة تحت الحصار في إحدى قلاعه، عندما لم يكن مستعداً لذلك، ومن دون امدادات، أو وسائل للدفاع، وعندما رأى آنذاك أنه كان معرضاً لموت مهين، آثر أن يقتل في المعركة على أن يتلاشى من الجوع، فامتطى فرساً ثميناً، مسلحاً تمام التسليح، وفتح فجأة أبواب القلعة، واندفع مع عدد قليل من الأتباع الجريئين، وتابع انقضاضه على وسط الأعداء، حيث فتح طريقه بالسيف، وسقط عدد من حول يديه، ونجح أخيراً في شق طريقه، وفرق الأعداء، وبصعوبة نجا بحياته، وقد تابع سيره دون أن يرخي عنانه، حتى وصل إلى ملك سكوتلندا، الذي إليه قدم الشكاوي، وبناء عليه قام الأخير بمعاقبة العصاة، وبسلام أعاد الايرل إلى ممتلكاته.

كيف لم يسمح لوليم الملك المنتخب بالدخول إلى اكس لى شابيل

وجرى في هذه الآونة منع وليم كونت هولاندا، الذي انتخب مؤخراً ملكاً لألمانيا من الدخول إلى مدينة اكس لى شابيل (آخن)، حيث كان سيجري تتويجه، وحيث كان متوقعاً أن يستقبل، ويشرّف بالتاج الملكي، وفقاً لعادات الألمان، لأن كونراد ابن فردريك، ملك ألمانيا المخلوع، قد عارضه بفعالية، وكان —على كل حال— قد تلقى رسالة ودودة، أرسلت إليه من قبل أوكتافيان، النائب البابوي هناك، ومن رئيس أساقفة كولون، ومن بعض آخر من نبلاء ألمانيا، نصحوه فيها بأن لايسير مقلداً لأبيه، وأن لايتبع طريق رجل محروم كنسياً ومخلوع، حتى لايتورط بعقوبة مماثلة، وردّ كونراد على هذه الرسالة قائلاً: «إنني سوف لن أتخلى عن أبي من أجلكم، ذلك أنكم خونة»، ولذلك وضعت المدينة تحت الحصار، وبدأت معركة هي الأكثر دموية بين مؤيدي الحزبين، وقد ازدادت —على كل حال— قوة الكنيسة بفضل جهود الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، والمال الذي جمع، وأرسل من قبل البابا،

ومن المناطق الألمانية، والمناطق المجاورة لها، وتناقصت قوة جيش كونراد يومياً، لأن الملك المنتخب المتقدم ذكره كان متحالفاً بصلة النسب والقرابة مع كثير من أعلى النبلاء مرتبة في ألمانيا، فقد كان هو وأسقف لييج أبناء عم (خال) وكان دوق برابانت خاله (عمه)، وكان نبلاء آخرون مرتبطون به بروابط متنوعة، وكذلك بوساطة الهدايا.

حول طاعون انتشر في هذه الآونة

في أيام برج الكلب، وعندما كانت الشمس مائلة في دائرة البروج، خاصة في شهر أيلول، بدأ طاعون واستعر مع موتان بين الناس، واستمر ذلك لمدة ثلاثة أشهر، وكان شديداً إلى حد أن تسعة جثث أو عشرة دفنت في يوم واحد في مقبرة كنيسة واحدة، هي كنيسة القديس بطرس في بلدة القديس ألبان.

موت إيرل فيرار مع بعض النبلاء الآخرين

مات في هذا العام بعض النبلاء في انكلترا، وكان من بينهم وليم ايرل فيرار Ferrers, وكان رجلاً مسالماً وصالحاً، وقد مات عن عمر متقدم، وكان ذلك في حوالي عيد القديسة كاترين، بعدما عانى طويلاً من آلام الأمعاء، وجرى زواجه من زوجته الكونتسة، بشكل مهيب على يدي القديس توماس رئيس أساقفة كانتربري، وماتت في الشهر نفسه زوجته م. M كونتسة فيرار، بالعمر نفسه وبشهرة مساوية وصلاح، وبناء عليه خلف الايرل المذكور في ايرليته من قبل ابنه وليم، الذي كان أسن أولاده ووريثه، وكان رجلاً صالحاً ولبيباً، لكنه كان مصاباً بشكل تعيس بالمرض نفسه الذي عانى منه والده، ومات أيضاً أسقف كنيسة القديس داود، وكان رجلاً مقدساً وتقياً، وكان من قبل راهباً في طائفة الفرنسيسكان، وكان كريماً جداً، لابل الأكثر كرماً بين جميع نبلاء ويلز، حيث ولد، كما كان شخصاً جميلاً، وقد هلك

بعـدما أنهك بوسـاطة الاضطراب، والحزن لدى مشـاهدته نهب مـوطنه الأصلي ودماره، وبالاضافة إلى هؤلاء مات نبلاء آخرون، كان من بينهم الفارسان: رتشارد دي بورغ، ووليم فتز— هام.

وصف مختصر للعام كله

هذا العام مع أنه كان وافراً جداً بالحبوب، كان جدباً بالفواكه، وكان عاماً أنتج الأذى لانكلترا، والطغيان لويلـز، والعدوان للأرض المقدسة، والاضطراب والفـوضى للكنيسـة، وكـان مصـدراً للدمـاء في ايطاليـا، والحروب والعـدوان إلى الامبراطورية وإلى البـلاط الرومـاني، وبشكل خـاص لمملكة ألمانيـا، والشعـور بالكراهيـة في القلوب لدى الأسـاقفـة ولدى عدد كبير آخر، ضد البابا، بسبب أنه أفقر بالقوة حماتهم، وعلقهم مـانعاً إياهم مـن جباية منافعهم، وهي واقعـة لم يسمع بمثلهـا من قبل، وضد الملك لأنه تساهل تجاه مثل هذه الإجراءات.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٤٨، هو العام الثاني والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، وكـان الملك المذكـور في وينكستر في أيام عيـد الميـلاد، وفي ذلك المكان تولى الاحتفـالات لذلـك الموسم، برفقـة عـدد كبير جـداً من النبـلاء، وتناول في اليوم التـالي لعيد الميلاد، طعـام الافطار مع وليم أسقف تلك المدينة.

كيف حمل إيرل ليستر مع كثير من النبلاء الآخرين الصليب

وحمل في هذه الآونة نفسهـا ايـرل ليستر شـارة الصليب المقـدس، في سبيل أن يتحـرر من ذنوبه، وينال الـدخـول إلى الجنة، فنتيجـة التفكر بنفسه، كان خـائفاً جداً، حول مايتعلق بـالزواج الذي عقده مع زوجته، التي كانت من قبل، قد نذرت نفسهـا، بحضور القديس ادموند، رئيس أسـاقفـة كـانتربري، للرهبنة، قـامت الكونتسـة التي وقعت، أيضـاً تحت

التأثير نفسه، فاعتقدت بالروح نفسها وآمنت، لذلك ما أن رأت زوجها يحمل شارة الصليب، حتى طارت بكل سرعة لحملها أيضاً، وتسلم كثير من الفرسان مع آخرين أيضاً من حواشيهم الشارة المقدسة نفسها، للحصول على مكافأة الخلاص الأبدي، وبالاضافة إلى هؤلاء فعل عدد من النبلاء الشيء نفسه، واقترحوا بأن ينطلقوا برحلتهم مع أعظم المسيحيين، الملك الفرنسي، الذي تنازل الرب من أجله بشكل اعجازي، وأعاده من أبواب الموت، أو بالحري من الموت نفسه، الأمر الذي عمل ليس من دون قصد، لأنه قد قيل من خلال الكهانة، لابل بالحري من خلال روح التنبؤ، وتأكد ذلك في كل مكان بمثابة حقيقة، بأن الرب قد أعاد الملك المذكور إلى الحياة، حتى يتمكن بالقوة من انتزاع ميراثه من أيدي أعداء الصليب.

فرار أسقف بانغور إلى راعي دير القديس ألبان

وفي حوالي الوقت نفسه، وصل رتشارد أسقف بانغور Bangor, إلى راعي دير القديس ألبان، يرجو ذلك الراعي أن يفتح صدر الرحمة إليه في فقره، وأن يتمكن من الإقامة معه حتى تتمكن أسقفيته، التي تدمرت في الحرب من استرداد عافيتها قليلاً، ومن أجل أن يتمكن هو وكهنته من استرداد أنفاسهم، بعد الاضطرابات والمظالم التي أحاطت بهم، وذلك وفق الطريقة نفسها مثلما فعل أسقف هيرفورد، الذي مكث هناك، وأنفق عليه بكرامة لحوالي العشرين عاماً.

مرض رتشارد سيوورد الخطير

وفي تلك الآونة نفسها أصيب رتشارد سيوورد Seward, الذي كان فارساً متميزاً، والذي تقدم ذكره كثيراً من قبل في هذا الكتاب، بشلل غير قابل للشفاء، وحمل إلى فراشه في حالة ميئوس منها، وكان يأمل أن يتمكن أثناء مرضه الطويل، من التحرر من ذنوبه

الماضية، ومن ثم أن يطير إلى الحياة السرمدية.

وصول بيتر ايس كونتسة بروفانس إلى إنكلترا

ووصلت في هذا العام أيضاً بيترايس، أرملة ريموند كونت بروفانس المتوفى، إلى انكلترا، مرافقة بتوماس أوف سافوي، الذي كان كونت فلاندرز من قبل، وتظاهرت أنها أرادت زيارة أصدقائها وأقربائها، أما السبب الحقيقي لقدومهما، فمن الممكن تبيانه إلى الذين يرغبون في معرفته، فهي قدمت مع توماس، لأنهما كانا متعطشين، ويريدان اللجوء إلى النبع نفسه، على أمل الارتواء من ثروات الملك الوافرة، وأن يملأ من سخائه حقائب خيولهما الفارغة والفاغرة، أثناء مغادرتهما.

وفاة روبرت أسقف باث

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في حوالي عيد القديسة هيلاري، غادر روبرت أسقف باث طريق الجسد، وبناء عليه، وضع الملك —كما جرت العادة— يديه الجشعتين على ممتلكات تلك الأسقفية، حتى ينهب منها كل مايستطيع جرفه وجمعه.

قيام الملك الفرنسي بإعادة حمل الصليب

وتعرض الملك الفرنسي في هذه الآونة إلى ملامة حادة ونقد شديد من نبلائه، فهو كما معروف بشكل جيد قد حمل الصليب، وجاء توجيه النقد إليه، لأنه —بناء على نصائحهم— لم يحرر نفسه وينقذها من نذره بأية طريقة من الطرق، وكان بين الذين لاموه أمه السيدة بلانشي، وأسقف باريس الذي كان مدركاً لسذاجته، لذلك أصبح أكثر إلحاحاً، وقد ثابرا معاً على مناقشته، حيث قال الأسقف له: «تذكر أنك عندما حملت الصليب، عملت نذرك فجأة ومن دون مشورة، فلقد كنت مريضاً، وإذا أردت الحقيقة، كنت محروماً من مداركك، فقد انتقل دمك إلى عقلك، ولم تكن بذي عقل سليم، ولذلك فإن الكلمات التي تفوهت

بها، كـانت فـارغـة من وزن الحقيقة والتأثير، وقـداسته سـوف يمنحنا بلطفـه تحليـلاً، عندمـا سيعـرف أوضـاع المملكـة الضرورية، والوضع الضعيف صحيـاً لجسـدك، ونحن في الجانب الأول نخشى من قـوى فـردريـك المنشق، ومن الجانب الثـاني دهـاء ومكر ملك انكلترا الغني، ونخشى هنا من خـداع الخونة البـواتيين، علماً بأنهم قـد قهروا مـؤخـراً فقط، وهناك اعتراضات الألبينيين، التي هي مسألة ذات ريبة، وألمانيا في حـالة اضطـراب، وايطاليـا غير مستقـرة، وسبـل الوصـول إلى الأرض المقدسـة صعبة، ومن الصعب إيجاد مكـان لاستقبالك فيه، وأنـت أيضاً تترك وراءك الكراهيـة الشديدة، والعـداء المميت بين البـابا والامبراطور فـردريك، فإلى من تتركنا معزولين؟ وضغطت عليـه أمه أيضـاً بفعاليـة أكبر، وتعاملت معه بعاطفتها، فقالت له: «ولدي العزيز، استمع، وأصغ إلى نصائح أصـدقائك العقلاء، ولاتكافح ضـد حكمتك، وتذكر فضيلة اطاعـة أمك والاستجـابـة لرغبـاتها وكم هـذا يرضي الرب، امكث في مملكتك، فـالأرض المقـدسـة سـوف لن تعـاني ولن تتـدهور من عـدم ذهابك، ومـن الممكن ارســال جيش كبير، يكون أكبر ممـا لو ذهبت إلى هناك شخصياً، فالرب ليس مفتري، أو مثير للاعتراضات التافهة، فأنت ولدي، وأنت معــذور لفقـدانك لعقلـك، وعــانيت مـن بلادة جميع مشاعـرك أثناء مرضك، لابل أثناء ذلك حتـى الموت أو ضلال العقل»، وانزعج الملك من هذه الحجج كثيراً، وأجابهما قائلاً: «لقد احتججتما بأن فقـداني لمداركي كــان السبب في حملي الصليب، وبناء عليــه، وأخــذاً بنصيحتكما وتماشياً مع رغبتكما، سوف ألقي الصليـب جانباً، وأتخلى عنه لكما»، ثم رفع يده نحـو كتفه، ونزع الصليب من عليـه قائـلاً: «مولاي الأسقف، هاكم الصليب الذي حملته، إننـي عن طواعية أتخلى عنه لك»، ولدى فعله ذلك استـولى سرور لايمكن وصفـه على جميع الذين كـانوا جــالسين هناك، إنما فجأة قــال الملك وقــد تغيرت مــلامحه ولهجتــه: «أصـدقـائي.إنني الآن لست مفــرغـاً من العقل أو الادراك، وأنا لستُ

ضعيفاً وبلا قوى، وبناء عليه إنني أطلب الآن صليبي حتى يعـاد إليّ، لأن الذي ليس بجاهل بأي شيء، يعرف أن ما من شيء يؤكل يمكن أن يدخل إلى فمي، حتى أقـوم ثانية بحمل شـارة الصليب»، وأعلن الذين كـانوا جـالسين هناك، لدى رؤيتهم هذا، أن اصبع الرب كـانت في هذه الاجـراءات، وأن القـدرة اللاهوتيـة، قـد تولـت صنع هذا من السماء، ولذلك ما من واحد تجرأ على إثارة المزيد من النقاش حول القضايا التي تقدم ذكـرها، ولقد قمنا بتـدوين كل شيء، وذكرنا جميـع الأشياء، حتى يكون كل واحـد مدركـاً لمثابرة أعظم المسيحيين، أي الملك الفـرنسي في استمراره في خدمة المسيح.

حول البارلمان العام الذي عقد في لندن

في حوالي بداية العام، وفي ثمانية عيد الطهارة، جرت دعوة جميع نبلاء انكلترا للاجتماع في لندن، للتباحث مـع الملك، حـول شـؤون المملكة، التي كـانت الآن مضطربـة كثيراً، وفقيرة، ومتضررة، وتماشيـاً مع هذه الدعوة، قدم إلى هناك تسعة أساقفـة، وتسعة إيرلات، بالاضافة إلى عدد كبير من البـارونات والفـرسـان، ونبـلاء آخـرين، وكـذلك رعـاة ديرة، ورؤساء رهبان، وكهنة، وكان من بينهم رئيس أسـاقفة يورك، وأساقفة: وينكستر، ولنكـولـن، ونـورويـك، وووركستر، وشيستر، وإيـلاي، وروكستر، وكـارآيل، والايرل رتشـارد، وايرلات: غلوستر، وليستر، ووينكستر، وهيرفـورد، وروجـر بيغـود، والايرل مـارشـال، وايرل اكسفـورد، وبالإضافـة إليهم: ايرل لنكولن، وايرل فيرار، وايرل وارني، وب. P أوف سـافوي، وايرل رتشمـوند، أمـا الأساقفـة الذين لم يكونوا حـاضرين في هذا الاجتماع الكبير فهم: بونيفيس، رئيس أساقفـة كانتربري، الذي كـان يقاتل لصالح البـابا في القارة، وأسقف درم الذي كان مريضاً في مكان بعيد، وأسقف باث، الذي مات مؤخراً.

ثم شرح لهم الملك مقصـده، الذي لم يكن في الحقيقـة سراً بـالنسبـة

للجماعة بشكل عام، فقد طلب مساعدة مالية منهم، وبناء عليه نقد بشكل حاد، ووجهت الملامة إليه، فهو لم يخجل من طلب مثل تلك المساعدة في ذلك الوقت، خاصة وأنه أثناء الاستخراج الأخير لمثل هذا النوع، والذي وافق عليه نبلاء انكلترا بصعوبة كبيرة، وقتها أعطى صكه، بأنه لن يقوم ثانية بمثل هذا الاستخراج، كما وجّه اللوم إليه بحدة بالغة (ولاعجب) للطريقة غير الحكيمة، التي دعا بها الأجانب إلى المملكة، ولتوزيعه ببذخ وبشكل غير معقول ممتلكات المملكة بينهم، وأيضاً لتزويجه نبلاء المملكة من أجنبيات وضيعات، وبذلك ازدرى أبناء بلده، ورعاياه الطبيعيين، وأقصاهم، وعمل الزواج من دون طلب موافقة الطرفين، الذي هو ضروري لإكمال الزواج، وقد ليم أيضاً —لكن ليس من دون سبب— لأنه استولى بالقوة على كل شيء استخدمه، مثل اللحوم والشراب، ولاسيما الخمرة، لابل حتى على الملابس، ضد إرادة الذين يتولون بيع هذه الأشياء، وكانوا الملاكين الحقيقيين لها، ولذلك انسحب الباعة، وأخفوا أنفسهم، ومثلهم فعل الأجانب، الذين لم يعودوا يجلبون بضائعهم للبيع في تلك البلاد، وهكذا جرى ايقاف التجارة، التي منها حصلت شعوب بشكل متبادل على الثروة والقوة، وبذلك ساءت سمعتنا، ولحقنا الفقر، لأن الباعة والتجار حصلوا على لاشيء من الملك سوى قضايا قانونية وغضب، وبفعله هذا حصل الملك على لعنات رهيبة، من أعداد لاتحصى من الناس، مما ألحق الخطر به والعار، وبكل المملكة، وعلاوة على ذلك، وفي سبيل أن يقوم بإعطاء الصدقات بشكل غير مستقيم، ولكي يحصل على شهرة واسعة، استولى بالقوة على الشمع، والحرير، والأقمشة، وعلى أشياء أخرى، من دون تقديم أية شروط للترضية، وبذلك جلب الفضيحة لنفسه، ولمملكته، وإلى جميع سكانها، و لم يكن ذلك من دون اغضاب للرب بشكل جدي، الذي يعدّ السلب مقرونا مع المقت، عندما يربط بأعطية، وفي ممارسته لهذه الإجراءات اعتمد على الطغيان والظلم إلى درجة بلغ

فيها أنه لم يسمح على شاطىء البحر، بتوزيع سمك الرنكة والأنواع الأخرى من السمك، بناء على رغبة صيادي السمك الفقراء، كما أنهم لم يتجرأوا على الظهور في أماكن مجاورة لشاطىء البحر، أو في المدن، خشية من أن يتعرضوا للسلب، وعلى هذا عدّوا أنه أسلم لهم أن يعهدوا بأنفسهم إلى الأمواج العاتية، وأن يذهبوا إلى الشواطىء النائية، وتعرض التجّار التعساء إلى الظلم الوحشي، واسيئت معاملتهم من قبل وكلاء الملك، وبهذا أضيفت العقوبات إلى الخسارة، وتكدست الأضرار فوق الأضرار، فيما يتعلق بكل من أشخاصهم، وكذلك بالنسبة لبضائعهم المحمولة، وانهاك خيولهم، وعلاوة على ذلك استحق الملك الشجب، لأنه تصرف على عكس يمينه الأول والرئيسي الذي أداه عند تتويجه، فقام بافقار الأسقفيات ورعايات الديرة إلى حد الدمار، وعمل الشيء نفسه بالنسبة للأوقاف الشاغرة، التي كانت قد تأسست من قبل النبلاء والآباء المقدسين، حيث احتفظ بها لوقت طويل بين يديه، مع أنه كان من المتوجب عليه أن يكون الحامي لها والمدافع عنها، ولهذا قد قيل إنهم بحكم كونهم بين يديه، هم تحت حمايته، وعملت شكوى أخرى ضده، من قبل كل واحد، ولم تكن شكوى خفيفة، وكانت هذه الشكوى، هو أنه كان على عكس أسلافه النبلاء، هو لم يعين لارجال عدالة، ولا مستشارين، ولاخزنة، لتسير المملكة بالتوافق العام مع نصائحهم، كما ينبغي وحسبما هو موائم، وعيّن فقط أناساً مطيعين لرغباته في كل شيء، شريطة أن يكون ذلك مفيداً له شخصياً، وأن لايستهدفوا فائدة المصلحة العامة، بل منفعتهم الخاصة بجمع المال، والحصول على الإدارات، والموارد لأنفسهم.

الملك يسعى لتهدئة جماعة إنكلترا بالوعود

وعندما سمع الملك جميع هذه الشكايات اضطرب واستحى بنفسه، لأنه عرف بأن جميع هذه التهم كانت صحيحة، ولذلك وعد باخلاص

شديـد، بأنه راغب باصلاح هذه المسـائل، وكان يأمل أنه بهذا التـواضع —مع أنه ظـاهري— سـوف يكون أسهل عليـه إلانـة قلوب الجميع ليـوافقوا على طلبـه، وعلى هذا، حـدث على كل حال، أن الجماعـة التي غالباً ما وقعت بمصيدة مثل هذه الوعود، أجابت قائلة: «إن هذا سوف يظهر بشكل واضح بما فيـه الكفاية، وخـلال وقت قصير، ونحن سوف ننتظر بصبر، وحسبما سيتصرف الملك، ويوجّـه نفسـه نحـونا، وعلى هذا نحن سـوف نطيعـه في جميع المسـائـل»، وهكذا وضع كل شيء جـانبـاً، وسوف يعاد النظر به وبتقديـره، وسوف يمتد الانتظار حتى أربعة عشر يوماً من ميلاد القـديس يوحنا المعمدان، وأصبح الملك في الوقت نفسه، إما بمبادرة منه شخصياً، أو بناء على تحريض من رجال بلاطه، الذين لم يرغبـوا باضعـاف سلطاتهم، أصبح أكثـر فظاظة، وأشـد سخطاً ضـد رعـاياه، واهتم قليـلاً بعمـل أي تعـويض أو اصـلاح لهم، مقـابل التجاوزات التي تقدم ذكرها أعلاه، وذلك حسبما وعد أن يفعل.

كيف ظلم أسقف درم كنيسة التاينماوث

قام في هذه الآونة، نيقولا، أسقف درم، بطريقة غير موائمة، وبسلوك غير صحيح، لايتماشى مع كرامته، ومع الأخوة التي تأسست بينه، وبين بيت دير القديس ألبان، بعد ترتيبـات السلام بينهما، حول مسألة الزيارة التفقـدية لكنيسة التـاينماوث، قـام بالشروع بمضـايقة تلك الكنيسـة في القضايا الدنيوية، إلى أقصى مـا امتلكه من طاقة، مما سبب الأذى، ودفع النفقـات من قبـل الفئتين، وليضيق امتيـازاتها، الممنوحـة لها، بمـوجب صكوك الملوك النبـلاء، والتي تمتعت بها لسنوات طوال، ولذلك جـرى ارسال واحـد من رهبان كنيسة القديس ألبـان، ليلتمس منه الاقلاع عن مثل هذه المنغصـات، لكنه استخف بكل من الانذار والالتماسـات التي تقدم بها الراهب المذكور، وأبدى الشيء نفسـه نحو الرسالة التي جلبت إليـه من راعي دير القـديس ألبـان ومن التجمع الديـري، وأعلن أنه

يمتلك سبباً صحيحاً في مناقشة مثل هذه القضية، التي كانت —على كل حال— مزيفة بشكل واضح، مع أنه أعلن أنها تقررت من قبل اثني عشر فارساً، جرى اختيارهم بالاجماع وبموافقة كلا الفريقين، وبما أن هذا يمكن مشاهدته بكل وضوح من قبل كل واحد يمكنه أن يتفحص بدقة امتيازات كنيسة القديس ألبان، وهي امتيازات أنقصها إلى حد كبير في المسائل الروحية، والتي يقوم الآن بانقاصها وخرقها في المسائل الدنيوية، ولذلك نحن نعتقد أنه من المفيد تقديم عرض مختصر عنهم في هذا الكتاب.

حرية وامتيازات كنيسة القديس ألبان

«سوف تكون كنيسة القديس ألبان، وديرتها، وكل شيء عائد إليهم، معفية من دفع جميع الضرائب إلى: الملك، والأسقف، والايرل، والدوق، والقاضي، أو الوكيل، ومن جميع الخدمات التي تفرض بالعادة، وتقضي ارادتنا، بأن لايكونوا ملزمين بتقديم الإجابة حول أية قضية، إلى أي واحد، باستثناء الحبر الروماني.

بند: نحن نمنع أي رئيس أساقفة، أو أسقف من الإقدام على عمل أي استخراج أو فرض أتاوة، أو أي ادعاء، أو ممارسة أية أعمال أسقفية في ديركم.

بند: إن الأماكن التي ليس لكم فيها حقوق حبرية، سواء أكانوا بيعاً أو مقابر، وسيكونون معفين من جميع الاستخراجات، وفي مثل هذا الكنائس أو البيع، لك ولرهبانك الحق في اختيار كهنة، على شرط أنهم سوف يتسلمون مهمة معالجة النفوس من الأساقفة أنفسهم، أو من نوابهم، من دون أي شراء، وبعد أن تقوم بتعيين مايكفي لهؤلاء الكهنة، بتجهيز أنفسهم بالضروريات من الطعام واللباس بشكل لائق، إنك سوف تمتلك الحرية في تحويل المتبقي لاستخداماتك الخاصة.

وكنا قد بعثنا إليكم، بوساطة رسائلنا الرسولية، أوامر إليكم، وإلى الأساقفة الآخرين، لتقديم المساعدة من أجل التفريج عن الأرض المقدسة، وقد تأثرت أنت —كما سمعنا— بما ذكرناكم به، فأوقفت جزئاً من عشرة من موارد كنيستكم وديرتكم، ومن موارد الخاضعين إليكم، من أجل ذلك الهدف التقوي، وبناء عليه نحن نقدر احسانكم بالرب، ونطريه ونثني عليه، وننظر إلى مقاصدكم الرفيعة نظرة رضا وموافقة، وبموجب سلطات هذه العروض، واعتماداً على هذا العمل الضروري والتقوي، نحن نمنع —تحت طائلة عقوبة التكفير— أي شخص لاهوتي أو مدني من الآن فصاعداً، من القيام بارغامكم أو ارغام كنيستكم، أن يتعرض إليكم بمثل هذا، أو بقضية مماثلة، أو مضايقتكم أو مضايقة كنيستكم أو ديرتكم، في أية طريقة مهما كانت، خشية (لاسمح الرب) أن تجبروا في يوم أو آخر، على الرغم من أنفسكم، أن تكرروا عملاً كنتم قد عملتموه خروجاً عن الحرية المخلصة، أو «الخير الخالص» . (وعلى كل حال أرغم الأسقف المذكور كنيسة التاينماوث على الاسهام في بناء كنيسة درم، وفق الطريقة نفسها، كما فعل جميع اللاهوتيون في جميع أرجاء أسقفيته).

«إلى جميع الأساقفة في جميع أرجاء إنكلترا، إلخ:

«بما أن كنيسة القديس ألبان هي عائدة إلى القديس بطرس، وملكاً له، إلخ، إلخ، إذا ما رفض أي من الناس أو الكهنة العائدين إلى الكنائس الاستجابة إلى راعي الدير المتقدم ذكره أو الرهبان حول مايتعلق بالمسائل الدينيوية، أو أن يدفع لهم المعاش المستحق، نحن نمنح راعي الدير المذكور والرهبان السلطة الكاملة لأن يأخذوا منهم من دون أية معارضة أو إجازة استدعاء، أي شيء عندهم في كنائسهم، أو بيعهم، والذي احتفظوا به وهو عائد لهم، وذلك حتى يتم ارغامهم، ولو كان ذلك دون إرادتهم، على الاستجابة لهم، فيما يتعلق بالقضايا الدنيوية،

وأن يدفعوا لهم معاشاتهم». (منع الأسقف المذكور على كل حال بعض القساوسة من دفع المعاش المستحق إلى كنيسة التاينماوث).

«ونحن عن رغبة وطواعية قابلون لمطالبكم العادلة، وذلك بموجب السلطات الرسولية، وبحماية هذه الوثيقة الحالية، ونؤكد، ونوثق لكم ومن خلالكم لكنيستكم، بحكم أنها جزء من الدير المذكور، الممتلكات التي أضفيت عليكم بكرم تقوي من قبل أهل الإيمان، وأيضاً المنح والامتيازات والمنافع الأخرى التي منحت إلى كنيستكم من قبل الملك رتشارد صاحب الذكرى اللامعة، ومن قبل ولدنا المحبوب في المسيح جون الملك المشهور لانكلترا، حسبما أنت متملك لهم بسلام وعدل، وبشكل كامل تبعاً لما ورد في صكوكهم، وأيضاً هذا فيما يتعلق بالكنائس ومعاشاتها، المؤكدة في رسائل من قبل المطران ومن قبل أسقف المنطقة، وكذلك امتيازاتهم مع الإعفاءات الممنوحة إلى دير القديس ألبان، ولصالح ديرته، إلخ، إلخ».

لكن بعد إعادة تأسيس السلام وفق البنود التي تقدم ذكرها، بين الأسقف المتقدم ذكره —الذي أقدم بطيش على خرق الامتيازات التي تقدم ذكرها— وبين رئيس رهبان التاينماوث ورهبان الدير، الذين تعرضوا إلى المضايقة والأذى من قبله بطرق مضاعفة كثيرة، قام الأسقف المذكور بالاقدام شخصياً على اغضاب رئيس الرهبان المذكور وايذائه، ومعه رهبانه، في مسائل دنيوية، وفي خرقه للامتيازات الخاصة، التي منحت إليهم من قبل هذين الملكين التقيين، وسوف يظهر مدى ايذاء هذه الممارسات الطائشة في رسالة الملك التالية، الذي وصلت إليه صرخة شكوى الكنيسة.

رسالة ملك إنكلترا إلى أسقف درم

«من هنري، الذي هو بنعمة الرب، إلخ، إلخ، إلى أسقف درم: نحن

لايمكننا إلاّ أن نعجب، أننا على الرغم من قيامنا بعاطفة كاملة، برجائكم، مرة أولى، ثم مرة ثانية، بالاقلاع عن ايذاء رئيس رهبان التاينهاوث، المحبوب كثيراً لدينا في المسيح، والذي —كما أنت تعرف— يقاتل تحت حمايتنا ودفاعنا، وأنت لم تزعج نفسك بالاستجابة لالتماساتنا لصالحه، ونحن مرغمون على أن نعيد إلى ذاكرتكم، أننا صدوراً عن الاحترام لكم قد أحلنا هذه المسألة إليكم، بحكم أننا نعتقد بشكل ثابت، ونأمل بأن تقنعكم حكمتكم ولطفكم بأن تفعلوا طائعين متطوعين، الذي سوف تكونوا مرغمين على فعله بموجب شريعة المملكة، وبموجب السلطات الملكية، وفي سبيل أن تكون الأمور واضحة بيّنة إليك، بأننا قمنا للمرة الثالثة بتحويل هذه القضية إليكم، ولقد قررنا للمرة الثالثة أن نلتمس منكم باخلاص، وصدوراً عن التماساتنا، وللاحترام المتوجب عليك نحو أميرك، أن تتخلى بحرية، ومن دون تأخير، عن الممتلكات العائدة لرئيس الرهبان المذكور التي استوليت عليها، بشكل مضاد لشريعة البلاد، والتي أنت تحتفظ بها بشكل غير عادل، وهو مايمكن البرهنة عليه بوساطة امتيازاته، التي يمتلكها بموجب صكوك من ملوك انكلترا من أسلافنا، وبشكل خاص صك عمنا الملك رتشارد، وهي الامتيازات التي تمتعوا بحرية بها في أيام أسلافنا، وكن على يقين أنك إذا لم تنفذ مطلب التماساتنا تنفيذاً كاملاً قبل ثمانية عيد القديسة هيلاري المقبل، كل الذي أحلناه إليك، ورغبنا الآن باحالته إليك، سوف نقوم بعد ذلك (دون المبالاة بامتيازك، تحت حجة ماينبغي علينا أن نفعله لك، وفي أن لانسمح بإلحاق الأذى بك من قبل الآخرين، من دون التصحيح بموجب السلطات الملكية) بجعل الممتلكات المتقدم ذكرها تعطى إليك، وبالنسبة للخسائر، التي عانى منها رئيس الرهبان المذكور، بسبب الأذى الذي اقترف بحقه، أن تقوم بالتعويض عنها بشكل صالح، ولسوف نرغمك على تقديم عدالة كاملة له. شهدت بنفسي، إلخ، إلخ».

لقد اتضح تماماً بموجب الرسالة المتقدمة، الأذى الذي اقترف بحق رئيس الرهبان المذكور مع ديره، والذي تمتع بالامتيازات والمنح والحقوق نفسها، مثل كنيسة القديس ألبان، وقد جرى منح الكنيسة المذكورة القدر نفسه من الامتيازات، مثلما يمكن قانونياً منحه إلى أي راعي دير، وذلك من قبل الحبر الأعظم، في القضايا الروحية، وفي القضايا الدنيوية، كل الذي يمكن للسلطات الملكية أن تمنحه، وكل الذي جرى منحه لهذه الكنيسة وأضفي عليها من قبل مؤسسها أوفا Offa التقي، ومن قبل الملوك الآخرين لانكلترا.

الانقضاض الذي عمله البارميون والنصر الذي نالوه

بينما كان الحظ يتسابق هكذا مع الشؤون الدنيوية، قام البارميون بالدعوة إلى اجتماع حول قضيتهم العامة، وتذللوا بأنفسهم أمام الرب، وأمام روجر المبارك، أسقف لندن، الذي خصه الرب، وميّزه بشكل مجيد بالمعجزات، وكان هذا الأسقف، قد تعرض عندما كان من قبل مقيماً إقامة قصيرة في مدينتهم عندما كان في طريقه إلى البلاط الروماني، فسرق من قبل البارميين في الليل وسلب من ماله كله، ولذلك غادر المدينة، وفي طريق عودته من روما، لعنها بألم شيد في القلب، وعندما قام سكان المدينة بالتقصي حول المسألة، وجدوا أن مبلغ المال، الذي ذكر أنه قد سرق منه، قد وصل إلى عدد كبير جداً من الماركات، ولذلك تعهدوا بأنهم سوف يعطون بكل تذلل ترضية بذلك العدد نفسه إلى الرب، وإلى قديسه، أي بالقيام ببناء كنيسة بلندن، عن طريق الصدقات أو بأية طريقة أخرى سوف ترضي القديس المذكور.

ولقد قلت هذا بمثل هذا التفصيل، لأنهم سمعوا بأن فردريك، الذي ثابر على حصار المدينة، قد غادر منذ بعض الوقت، لقضاء بعض الأشغال، وترك —على كل حال— جيشه كله تقريباً هناك، وبناء عليه، بما أن الجيش قد نقص عدده، وبما أن قائده كان غائباً، بدا أنه مفيداً لهم

القيام بهجوم مفاجىء على أعدائهم، وقاموا بناء عليه، في أحد الأيام، بعدما طلبوا العون من عليين، وبعدما عملوا التعهد المذكور بكل اخلاص من القلب، استعدوا جميعاً للقتال، وبعدما جرت تعبئة القوات وصف العساكر بشكل منتظم، فتحوا الأبواب بشكل مفاجىء، واندفعوا بصورة غير متوقعة، وانقضوا مثل البرق على العدو، مفضلين الموت في القتال على الهلاك والتلاشي بوساطة جوع مديد، وعندما شاهد ثاديوس هذا، الذي كان المستشار المقرب من فردريك، والذي بثقة عهد إليه بالمسؤولية عن جيشه وأمواله، صرخ تعجباً لكن بعجرفة واستخفاف قائلاً: «تجرأ أخيراً هؤلاء الجرذان على الخروج من جحورهم»، وقام سكان المدينة بهجوم فعال شديد، فتمكنوا في وقت قصير من إلحاق الهزيمة بجيش فردريك كله، وحصلوا على نصر مجيد، وأنزلوا هزيمة مهينة بآلاف الأعداء، وبعد هذا هدموا القلاع التي بناها فردريك حول المدينة، من أجل متابعة الحصار وأحرقوها،وأسروا أيضاً ثاديوس، قاضي القصر الامبراطوري، الذي كان من أكثر الناس فصاحة في مرافعات القضايا الصعبة، وكان حكيماً في تقريرهم، كما استولوا أيضاً على مبلغ كبير من المال، كان قد ترك بعهدته، وقد رفضوا الاصغاء إلى أي من كلماته المعسولة واللينة، خشية الوقوع في أي زيف، فقطعوه إلى قطع، وأنزلوا الهزيمة أيضاً بالكريمونيين Cremonese, الذين وقفوا إلى جانب فردريك أثناء الحصار، ولإلحاق العار والخزي بمدينتهم استولوا على رايتهم، وبعدما تمكنوا هكذا من تمزيق جيش فردريك كله وإلحاق الفوضى به، عاد المنتصرون مسرورين إلى مدينتهم، جالبين معهم أسراهم، وكمية من السلاح، والمال، والامدادات، والخيم، وأشياء أخرى نافعة، وذلك دون أن نتحدث عن الكميات الكبيرة جداً، من الأسلاب الأخرى، واستولى المنتصرون من سكان المدينة على حوالي خمسة عشر ألف رأس من الماشية، بما في ذلك خيولاً ثمينة، ومهرة، وخيول تحميل، وبغال،

وثيران، وكان ذلك كـله على عكس ماتوقعـوه، فقد امتـلأت مدينتهم بجميع الأنواع من الثـروات، وعندمـا وصلت هذه الأخبار إلى البـلاط الروماني، استولى على البابا الفـرح واستبدت به البهجة، وتفوه بالكلمات التالية:

منصورتك، زالت باسم المسيح

لأن فردريك كـان قد منح ذلك الاسم لقلاعه حـول المدينة، وعندما غـدت هذه الواقعة معلومـة لدى فـردريك، تأوه بروحـه، وأخذ يتنهـد بشكل متـواصل وكأنه أصيب بجرح عميق، لأن مـوت ثاديوس وإهانة البابا له جـرحت قلب فردريك، وآلمته بحـدة أكثر من أي من الحوادث والخسائر الأخرى، لأننا نحن الذين نقرأ حوليات التاريخ ونتفحصها لم نجد مثل الكراهية القاتلة التي وجدت بين البابا وبين فردريك، ثم أعاد فردريك تجميع قواته، ومن ثم شرع بمـزيد من التهديدات بالضغط على سكان المدينة بمزيد من الحدة أكثـر من المعتادة، وقـد جرى وصف هذه الوقائع بتفاصيل وافية أكثر في كتاب الـ Additaments.

إصلاح الأموال الإنكليزية التي فسدت بالنقود المزيفة

وفي هذه الآونة كـانت النقود الانكليـزية قد فسـدت بشكل لايمكن احتماله، بوسـاطة قصاصي النقـود والمزيفين، حتى صـار لايمكن لأهالي البلاد والأجانب أن ينظروا إليها إلاّ بعينين غـاضبتين وبمشاعر انزعاج، لأنها قد تعرضت للقص من حولها حتى وصل القص إلى الجزء الداخلي من الدائـرة، والاطار الذي حمل الكتـابات، إما جـرى تدميره تمامـاً، أو تشـوه بشكل كبير، وبناء عليـه جـرى الاعـلان بوسـاطة المنادين، باسم الملك، في جميع المدن،والمناطق، والأسـواق، بعـدم أخـذ أي بنس إذا لم يكن قـانوني الوزن، والإطار، ولايجوز تسلمــه، لافي بيع، أو شراء، أو تبديـل، وأن جميع الخارقين لهذا الأمر سـوف يعاقبون، وصرفـت جهود

كبيرة لاكتشاف المتعاملين المزيفين الذين تقدم ذكرهم، حتى إذا وجدوا مذنبين باقتراف هذه الجريمة، سوف يواجهوا العقوبة المستحقة، وفقاً لقرار المحكمة، وجرى بحث دقيق حول هذه المسألة، وبناء عليه تبين أن المجرمين المقترفين لهذه الجريمة هم بعض اليهود، وبعض القراصنة الفاسدي السمعة، وبعض تجّار الصوف الفلمنكيين، وأمر الملك الفرنسي أيضاً بجميع الأشخاص المقترفين لهذه الجريمة، الذين وجدوا في مملكته، فعلقوا على المشانق وصاروا عرضة للرياح.

موت وولتر موكليرك واثنين آخرين من الرهبان الدومينيكان

وفي الوقت نفسه من العام، في حوالي عيد القدسين: سمعان وجود، أكمل وولتر موكليرك Mauclerc, الذي كان من قبل أسقف كارلآيل، حياته الدنيوية بشكل موائم ورمى عن عاتقيه أعباء العناية بالحياة الدنيا والثروات، وغادر طريق الجسد، وغادر هذا العالم أيضاً في العام نفسه، في الرب، الراهبان الاثنان اللذان كانا من الطائفة نفسها (الدومينيكان)، واللذان من المعتقد أنه لامثيل لهما، وفي الحقيقة لامعادل لهما، عندما كانا حيين، في اللاهوت، وفي العلوم الأخرى، وهذان الراهبان كانا: روبرت بيكون Baconورتشارد فيشكيلي Fishkele, واللذان كانا يحاضران في الكلية نفسها لسنوات طوال، وكانا متميزين بالتبشير بكلمة الرب إلى الناس.

حول زواج فردريك وابنه كونراد

قام فردريك في هذا العام، في سبيل تقوية قضيته في الصراع الذي كان منشغلاً به ضد البابا، فدخل في تحالف مع بعض الزعماء، وتزوج من سيدة ثرية الأموال، وذات مظهر جميل، وأصل مشهور، وتأثر ابنه أيضاً بنية مماثلة، فاقترن بابنة دوق بافاريا، ولدى معرفة هذا من قبل رئيس أساقفة كولون، والذين وقفوا إلى جانب حزب الملك المنتخب

حديثاً لألمانيا، ألحا أكثر من المعتاد وحرضا على ضرورة أن يتم تتويج وليم، الملك المنتخب المذكور، بشكل كامل ومهيب في اكس لى شابيل (آخن)، لكن بسبب معارضة فردريك المذكور، وابنه كونراد حيل بينه وبين إمكانية الوصول إلى تلك المدينة، ولذلك تولى رئيس أساقفة كولون، والنائب البابوي، بالتعاون مع عدد لايحصى من الأساقفة والنبلاء، الذين آثروا قضية الكنيسة (وكان الشطر الأكبر منهم قد تلقى شارة الصليب على أيدي الدومينيكان والفرنسيسكان) تولى بمزيد من النشاط والفعالية، حصار مدينة اكس لى شابيل المذكورة، حيث جرت معارك كثيرة مع نجاحات مختلفة، بين الفئتين، وسقط كثيرون من على الطرفين، واستمر الحصار وتمت متابعته مع كثير من سفك الدماء والخسائر على الجانبين، وتزايد عدد الذين يتولون الحصار يومياً، مثلما يزداد النهر بالفيضانات، ومع ذلك استمرت ثقة المحاصرين عالية، بوساطة رسائل أرسلت بشكل متواصل من قبل فردريك، وابنه كونراد، يحثونهم على عدم فقدان الشجاعة، لأن خلاصهم —كما أعلنا— بات وشيكاً.

حول مبارزة عقدت في نيوبري

عقدت مبارزة كبيرة جداً، يوم أربعاء الرماد، في نيوبري Newbury, وقد عقدت بين فرسان انكلترا لتجريب قدراتهم في ميدان الفروسية وقوتهم، وبما أن الملك كان مؤثراً لها، فقد بدأت بشكل جيد وانتهت كذلك، وتصرف في هذه المبارزة وليم دي بلنسية، أخو الملك لأمه، مبدئياً بشكل جريء جداً، فهكذا قاد نفسه من أجل الحصول على اسم مشهور بالفروسية، ولكن بما أنه كان في عمر غض، وغير قادر على تحمل قوى وشدة وحملات الفرسان، فقد رمي على الأرض، ومن ذلك عانى من خسائر كبيرة، وضرب بشكل جيد، من أجل أن يتمكن من تلقي احترافه بالفروسية.

حول اضطرابات الناس وآلامهم نتيجة لتبديل النقود

اضطرب الناس كثيراً في هذا العـام، بسبب أوامر الملك المتنوعـة، فيما يتعلق باستلام النقـود، فقد جـرى الإعلان بوسـاطة صوت المنادي، في جميع أرجاء مدن انكلترا بأن معياراً واحداً من القمح سوف يكلف أكثر من عشرين شلناً، لأن التبـديل جرت متـابعة تنفيذه في عـدد قليل فقط من المدن، وعندمـا جـاءوا إلى هناك تسلمـوا وزناً محدداً من النقـود الجديدة، مقـابل وزناً محدداً من القـديمة، وأرغمـوا على دفع ثلاثة عشر بنساً لكل باوند، مقـابل عمل الصائغ، أو عـامل المال، الذي كان يدعى بشكل عـام باسـم المبيض، واختلف شكل هذه النقـود عن القـديمـة، حيث كـان هناك صليباً مضـاعفـاً مـرّ عبر الاطار الخارجي، في المكان الذي كـانت هناك فيه كتـابات، إنما في المجـالات الأخرى، أي بالنسبـة للوزن، والطبع، ولشكـل الحروف، فقـد بقـي ذلك، كما كـان من قبل، ولذلك آل مـآل الناس إلى ضيق شديد، وعـانوا من أضرار كبيرة، حتى بات من الصعب الحصول على عشرين شلناً من على مائدة مبدل النقود، مقـابل ثلاثين، وذلك ليس من دون اضطراب، ونفقـات لعـدة أيام مستمرة، ومتـاعب وتوقعات مـزعجة، وبما أن الملك حصل على مـرابح كبيرة من هذه المسائل، جـاء إليه أخـوه رتشارد، وكان الملك مـداناً إليه كثيراً، وكان قـدومه مثل يعقوب آخـر، وقال له بذكـاء وبراعة: «مليكي وأخي ادفـع لي الدين المستحـق لي عليك»، وتابـع باستمـرار الضغط بطلبه، فأجابه الملك قـائلاً: «أخي الوحيد من الأبوين نفسهما، أنت ترى حاجتي القصوى من جميع الجوانب، والحصة الصغيرة من الأراضي التي بقيت لي في القارة هي عرضة للمخاطر وللأذى، فغسكوني محمية بترس بوردو وحـده، ولتحـرير هذه المقـاطعـة، الأمـر الذي وجـدته ضرورياً، اقتضى انفاق مبلـغ كبير من المال»، وقام الايرل على كل حال، بـالمطالبة بصوت مرتفع ووقح بتقـديم ترضية له مقابل ديونه، من الأرباح الناتجة

عن ضرب النقود، وكرر طلباته من دون توقف بوقاحة، ونظراً لذلك، حصل على وعد بأنه سوف يتسلم المرابح الناتجة عن ضرب النقود، والتي سوف تستمر —تبعاً لمبدلي النقود— لمدة سبعة أعوام، وسوف تصل الأرباح نفسها إلى عشرين ألف باوند، وحصة الثلث من هذا الإجراء سوف تحفظ للملك، وبذلك تحرر من ديونه إلى الايرل، وبعدما حصل الايرل على هذا، حصل أيضاً على رسائل توصية من الملك، بمنع تداول جميع النقود التي تعرضت للقص في انكلترا، وفي الحقيقة يتوجب ثقب جميع النقود المقصوصة، وإذا ما جرى اكتشاف أي مبدل للنقود في أي مكان، وقد أعطى بنسين مقابل بنس واحد، أو ثلاثة مقابل بنسين، ينبغي اعتقاله، ومعاقبته بحدة، وأن تطال المعاقبة ممتلكاته وشخصه، على أساس أنه آثم ضد الملك، وخارق للأوامر الملكية، ومن المذكرة التي أرسلت إلى عمد المناطق، يمكن أن نجد تفاصيل وافية حول ذلك، وكلها قد جرى تقديمها في كتاب Additaments.

خسوف للقمر

في عيد حزيران لهذا العام، بعد غياب الشمس مباشرة، تعرض القمر لخسوف كامل تقريباً.

حول إجراءات البارلمان الكبير الذي عقد في لندن

في شهر حزيران، ومع اقتراب الأربعة عشر يوماً لعيد القديس يوحنا المعمدان، اجتمع جميع النبلاء الانكليز في لندن، معتقدين بثبات، أنه من خلال الوعود الايجابية للملك، هو سوف يصلح أغلاطه، وأنه بفضل النعمة التي أضفيت عليه من عليين، سوف يميل بأذنيه إلى الاصغاء إلى الآراء الأكثر حكمة، وبناء عليه، بعد اجتماع جميع مقدمي الناس في انكلترا، سمعوا الرد التالي المليء بالنكران يتدفق من فم الملك، على شكاويهم المتقدمة: «أنتم جميعاً زعماء الناس، في انكلترا، تسعون لجعل

مـولاكم وملككم ينحني أمـــام ارادتكم، وأن يكون ذلك أولاً مع شيء من الدمـاثة، ومن بعد ذلك تفـرضون شروط استعبـاد كاملة، وكل مـا سيختاره أي واحد، سـوف يستنكره عليه بوقاحة، وكـل واحد مسموح له أن يتبنى خططـه والخطط التي ســوف يختـارها، ومجدداً إن كل أب لأسرة مسموح له بـأن يعين أي واحد مهما كان لتلك الـوظيفة أو هذه، في بيتـــه، أو ليـــوقفهـم ويعلقهم أو حتى يخلعهم، غير أن هـذه الحرية —يمكن التنبؤ— أنكم بطيش سوف تقدمون على انكارها على ملككم، ولاسيما أنه لايجوز للعبيـد أن يقضـوا، وأن يلزمـوا سيـدهم بشروطهم، مثلما لايجوز للأتبـاع أن يفعلوا بأميرهم، بل المتوجب أن الذين يعـدون هم الأدنى، ينبغي بالحري أن يحكموا وأن يداروا بمـوجب إرادة ورغبة مـولاهم، لأن العبد ليس فـوق سيده، مثلما ليس التلميـذ فوق معلمـه، وبناء عليـه، إن ملككم سـوف لن يبقى ملكاً، بل سـوف يكون بطبيعـة الحال، عبداً إذا مـا مال هكذا للاصغاء لإرادتكـم، ولذلك هو لن يعزل لاالمستشـــار، ولا المســؤول عن العــدالة، ولا الخازن، كما تقترحــون، وترتبون، وأيضاً لن يعين آخرين محلهم وعوضاً عنهم».

وبالطريقة نفسها، جرى تقديم رد اعتراضي تافه حول المسائل المفيدة إلى الملك نفسـه: «غير أنه طلب معونة مـالية منكم لاسترداد حقـوقه في القـــارة، التـي هي تتعلق بكم»، و لـدى سماع النبـــلاء لهذه الكلمات، اعتقدوا بشكل واضح وضوح الضـوء، بأن هذا مصدره هو المستشارين الحاليين، الذين كانت سلطتهم سوف تضعف، لابل سوف تخمد، لو أنه تمّ الإصغـاء إلى نصيحة جماعة البـارونات، وعلى كل حال، عنـدما رأوا كيف أجيبـوا، وأنهم قـد عورضـوا بمهـارة وبدهاء، تأثروا جميعـاً بروح واحـدة، وأجـابوا بشكل واضح، أنهم سـوف لن يفقـروا أنفسهم ثانيـة ولابحـال من الأحـوال من دون فـائـدة، وأن يقـوم الأجـانب بالولوغ بكرامتهم فــوق ممتلكاتهم، وأن يتقـوى أعــداء الملك وكـذلـك أعـداء

المملكة، كما حدث مؤخراً في القضية في بواتو، وكذلك في غسكوني، حيث تعجل بطيش ومن دون عقل، على عكس نصيحتهم ورغبتهم، وذلك عندما تمت مواجهته بشكل عدواني، ونحن بصدق نعتقد، أنه بناء على ما ظهر من جشع الملك، ومن حالة عوزه، أنه كان معتقلاً بشكل سري وأسيراً، لكن عندما قام بهدوء بدفع غرامة، وتولى التعهد صادقاً، وحلف يمينه، ومنح صكوكه، من الواضح أنه قد أطلق آنذاك سراحه وبات متحرراً، ثم كان أن تم التخلي عنه بعدما حرم من شرفه وكرامته وماله وأراضيه، و سمح له بالمغادرة بشكل مهين، وسط جميع أنواع الإهانات.

ولذلك ارفض المؤتمر بغضب، وجميعهم هكذا خدعوا بآمالهم، التي تصوروها لوقت طويل وتمنوها من هذا البارلمان، وجاءت متاعبهم ونفقاتهم بالنهاية إلى لاغاية، وربحوا لاشيء سوى إجابات ساخرة وعابثة على شكاويهم.

كيف باع ملك إنكلترا ثروته المخزونة

عندما شاهد الملك هذه النتيجة رداً على إجراءاته، انفجر بغضب عنيف وقال لمستشاريه: «إنه بسببكم نأت عني عواطف نبلائي، وهاأنذا الآن على وشك فقدان غسكوني، ولقد انتزعت مني بواتو، وأنا مجرد من المال، ماالذي عليّ فعله»؟، وبعدما عقد مؤتمراً جباناً، تقرر بناء عليه، من دون أية حكمة، وجوب بيعه ثروته بالوزن، دونما مبالاة بالذهب، والفضة، والأعمال الفنية، مع أن الأعمال فاقت على المادة بالقيمة؛ وذلك في سبيل الحصول على المال بهذه الطريقة وبهذه الوسائل، وعلاوة على ذلك أضاف المستشارون، الكلام الاستشاري التالي، وذلك في سبيل تهدئة الملك ومواساته: «وكما أن جميع الأنهار تصب عائدة في البحر، هكذا إن كل شيء قد بيع الآن، سوف يعود في وقت ما إليك على شكل هدايا تعويضية، لذلك ينبغي أن لاينزعج مولانا الملك»، وبعدما جرى

بيع الثـروة التي تقدم ذكـرها أعلاه، سأل الملك أين بيعت ولمن، وكـان الجواب الذي أعطي إليه: «في لندن»، فقال: «أنـا أعرف، أنه لو عرضت ثروة أوكتـافيـان Octavian للبيع، فإن مـدينة لندن ســـوف تشتريها، وتبتلعهـا كلهـا، لأن هؤلاء الأخسـاء اللنديين، الذين يسمـون أنفسهم بارونات، يمتلكون وفـرة وافرة حتى التخمـة، فتلك المدينة بئر لاينضب»، ثم قام على الفور بابداع خطة، سـوف يطبقها مع أول فرصة تقـوم، بأن يقـوم بتجـريد اللندنيين من ممتلكاتهم، وهـي خطة جـاءت الحوادث التالية برهاناً وافياً على تطبيقه لها، والرواية المقبلة سوف تروي ماحدث بالتفصيل الكامل.

كيف انطلق الملك الفرنسي في حملته إلى القدس

عندمـا برهنت تحولات الأنواء أنها مـوائمـة، والمناخ قـد بات طيبـاً، وقدم الخريف كميـات وافرة من الحبـوب والخمرة، قـام الملك الفرنسي بالحصول على إجازة خاصة في كنيسـة القديس دينس وفي أماكن أخرى مقدسة في مملكته، وبعدمـا عمل تعهداً نذرياً، انطلق برحلته إلى القدس، وعبر من خـلال ليـون، حيث كـان البـابا مقيماً، فقـدم إليـه احترامـاته بتواضع واخـلاص، ورجاه بشكل جاد، أن يقوم ببـذل جهوده في سبيل المحافظة على كـرامة الكنيسة في جميع القضـايا، وذلك بأن يتنازل بقبول تواضع فردريك، الذي طالب بمسـامحته، وأن يمنحه إحسـان المصالحة، وأن يفتح له صـدر العـاطفة الأبوية نادمـاً، وقـال: «إن ذلك يجعل على الأقل عبوري أكثر أماناً وأنا مسافر إلى حجي»، وعندما شاهد البابا وقد بدت عليـه ملامح الرفض، غـادر آسفاً قـائلاً: «أنا أخشى أنني بعـد أن أسافـر، سوف يجري التخطيط لمؤامـرة عدوانيـة ضد المملكة الفـرنسية، بسبب حدتك التي لاتعـرف الهوادة، ولسوف تتحمل المسؤوليـة، إذا ما تعطلت مسيرة الأحداث في الأرض المقدسة، وإنني على كل حال سوف أحرس فـرنسا مثل حراستي لبـؤبؤ عيني، لأنه على أوضاع تلك المملكة

يتوقف ازدهارك، وكـذلك ازدهار المسيحية كلهـا»، وعلى هذا رد البابا: «إنني طوال ما أنا حيّ، سوف أقف إلى جانب فرنسا، وضد هذا المنشق فـردريك، الذي أدانتـه الكنيسـة، وخلعتـه من المنصب الامبراطوري بوسـاطة المجمع العام، وفي الحقيقـة إنني سوف أفعل الشيء نفسـه ضد ملك انكلترا، الذي هو من أتبـاعنا، إذا مـا أقـدم على التحرك العـدواني ضد مملكة فرنسا، أو ضد الحقوق العـائدة لها، وهذا ماسوف أفعله ضد جميع أعـداء المملكة المذكـورة»، وهدأ الملك بعض الشيء بهذه الكلمات، ثم أجابه: «بما أنك عملت هذه التعهـدات، إنني أعهد بمقاليـد حكومة مملكتي الفرنسية إليك»، وبناء عليه جرى ترتيب وجوب إرسال مبعوث خـاص إلى ملك انكلترا ليمنعـه من مهـاجمة أي واحـد من المتعلقين بالمملكة الفـرنسيـة، أو مضـايقتهم بأي شكـل من الأشكال، ومن أجل تحقيق هذه الغاية جرى إرسـال المعلمين ألبيرت وبولص بشكل خاص، وقـد وصلا إلى الملك في ويندسـور، يوم عيـد تمجيد الصليب المقـدس، ليقدما رسـالتهما إليه، لكن هذه الواقعة أبقيت سرية، حتى يتمكن الملك بسهولة من استخـراج المال، في سبيل المطالبة بحقوقـه واستردادها بقوة السـلاح، ثم قـام الملك لـويس بعمل اعتراف طويل ودقيق إلى البـابا، وحصل منه على غفـران لذنوبه، واستأذن قداستـه، وغادر مع مبـاركته، وسافر من ليـون، متوجهاً مع جيشه نحو مرسيليـا، وعندما أخذ يقترب من مـدينـة أفينون Avignon لم يختر سكان تلك المدينـة تحمل اهانات الفـرنسيين المتعجـرفين، الذي أطلقـوا عليهم اسم: الألبينيين، والخونة، والمسممين، فقـامـوا بالهجوم عليهم في الممـرات الضيقـة، التي كـانت معـروفـة بشكل جيـد من قبلهم، وقـد أثير غضبهم الشـديد، وكراهيتهم الكبيرة، بوساطة عـداوتهم المستمرة منذ وقت طويل، فنهبوا بعض الجيش الفرنسي، وقتلوا الـذين تصدوا لهم، وبناء على ذلك اقترح بعض النبلاء الفـرنسيين على الملك وجوب أن يقوم بإلقـاء الحصار على مـدينتهم، على الأقل لسبب واحـد، هو أن ينتقم منهم انتقـامـاً فـاعـلاً

وعادلاً، لقتلهم أبيه، الذي جرى دس السم له هناك، أو أنه إذا ما أراد متابعة رحلته، أن يسمح لهم بفعل ذلك تحت موافقته، وتمكن الملك بصعوبة من تهدئة غضبهم، وقال لهم: «إنني مغادر لفرنسا ليس للانتقام لمصائبي، أو لمصائب أبي، أو أمي، بل لأنتقم لمصائب ربي يسوع المسيح»، ثم استأنف ذلك الملك المسيحي العظيم الإيمان، رحلته على الفور، وعانى من خسائر أكبر على أيدي المرسيليين، إلى حد أن النبلاء أثير غضبهم كثيراً، ولولا أنهم ضبطوا بجدية الملك واعتداله المقدس، لقاموا وهم غاضبين بمحاصرة مرسيليا بشكل فعال، فقد قال لهم الملك: «إن الوقت لعبورنا بات وشيكاً، والرب يمنع من سيطرة الشيطان، لأنه حزين لهذا السبب، وهو يسعى لوضع بعض العراقيل لمنع العبور»، وبعدما تمكن بصعوبة من تهدئة مشاعرهم المضطربة، قام في اليوم التالي لعيد القديس بارثلميو، فأخذ معه بعض العساكر النخبة، وترك وراءه أكثر من ألف من رماة القسي الزيارة، وعدداً كبيراً من الفرسان، والأتباع، وعادوا وهم يشعرون بغضب عظيم وبخجل مهين، وبصعوبة ضبطوا أنفسهم، وتمنعوا عن الالتحاق بملك انكلترا، وعن الاقدام متطوعين على إثارة حرب ضد ملك فرنسا، ولكن لدى وزنهم المخاطر المستقبلية بميزان العقل والحكمة، عادوا بسلام إلى البابا، وعرضوا الدخول بخدمته، وأن يقاتلوا من أجله، بناء على أوامره، ضد أي واحد مهما كان، وقد تمّ اقناعهم بحجج البابا، وبحجج رجال بلاطه، الذين عرفوا أن لديهم كميات وافرة من المال، فقاموا بخلع شارات الصليب، وتخلوا عن امدادات سفرهم إلى البابا، ليحصلوا على اعفاء من القيام بحجهم، وبجيوبهم فارغة، حتى يتمكنوا من العودة والسفر بخفة أكبر، عادوا إلى مواطنهم، مع حصة صغيرة جداً من ممتلكاتهم، فالذي بقي لهم قد اقتصر على مايكفيهم ويمكنهم من الانفاق على أنفسهم أثناء سفرهم، وكان الملك الفرنسي قد سافر في البحر في ذلك الوقت ذاته، وبأشرعة منشورة وجّه طريقه مع ريح طيبة

نحـو قبرص، التي كـانت مليئة بكل الأشيـاء الطيبـة للعيش برفـاهيـة، وذلك في سبيل امضاء الشتاء هناك بسلام، ولاسترداد أنفاسه.

وفي صيف هذا العام، وصلت الأخبار، بـأن مدينة اشبيلية، التي هي مـدينة فخمة في اسبـانيا، قـد تمّ الاستيلاء عليهـا من قبل الملك المنتصر لقشتالة، وكانت هذه المدينة تساوي بالنسبـة لصاحبها تسعة آلاف طالن Talents في كل يوم مـن أيام الأسبـوع، وفي اليـوم السـادس، أحدعشر ألفاً.

الاستيلاء على اكس لى شابيل وتتويج وليم كونت هولاندا ملكاً على روما

في الوقت الذي كـانت فيه قسـوة الشتاء معلقـة فوق العـالم المتجمد، كان المحـاصرون من سكان مدينة اكس لى شـابيل يعانون بحـدة بالغة، لأنهم حرمـوا من جميع سبل الدخول والخروج، ومن جميـع أنواع العون والمشورة، ومن جميع امدادات الطعام، حيث لم يعد لديهم طحين، وصار خبـزهم قـاسيـاً، ولحمهم نتن، وقـد تكسرت أسلحتهـم، وتآكلت من الصـدأ، وكـانت ثيـابهم قـد اهترأت، وتغيرت طبيعـة النسـاء، وطلب الأطفال الخبز، ولم يكن هناك خبـز لتقطيعه واعطائهم إياه، وكان الذين تولوا أعمال الحصـار، مـؤلفين من نبـلاء ألمانيـا، مع النائب البـابوي، ورئيس أسـاقفة كـولون، وأسقف لييج، فقد جلب هؤلاء معهم حشـداً كبيراً جـداً، وتابعوا تنفيـذ هدفهم بكل نشاط وفعـالية، بينما قـام الذين حملوا الصليب، بناء على تبشير الـرهبـان الدومينيكان، بـالتـدفق يوميـاً عليهم من مختلـف المناطق في العـالم، وبناء عليـه غطى رجـال جيش الأسـاقفـة المنطقـة كلهـا مثل الجراد، ولذلك قـامـوا ليـلاً ونهاراً بشكل متـواصل، وعلى نـوب، بقصف الأسـوار وحصـون المدينة، بـالمجـانيق والعـرادات والآلات الأخـرى، التي نصبت على كل جـانب منهـا،

وسحقت الناس الذين كـانوا معـرضين وبلا دفـاعـات، وقـد طعنوهم بنشابهم، وضايقـوهم بكل الوسائل التي توفرت لهم، وهكذا فإن المدينة —بناء عليـه— أرغمت بوسـاطة الحاجـة على الاستسلام إلى الأعـداء، الذين تعاملوا معهـا، حسبما رغبوا، وهكذا جـرى الاستيلاء على المدينة عنوة، وبعـد ذلك تـم تتـويـج الكونت وليم كـونت هـولاندا، الملك المنتخب لألمانيا، بشكل مهيب هناك، في يوم عيـد جميع القديسين، وكان التتويج على يـدي كونراد، رئيس أساقفـة كولون، وفقـاً للعادة القـديمة لملوك ألمانيا، وفي الوقت نفسه، هرب كثير من السكان المحليين، وكذلك المرتزقة الذين وضعهم فردريك هناك لحمايتها، هربوا من المدينة المستولى عليهـا، التي تحولـت إلى الدمـار والفقـر، وكـانوا هم أنفسهم منهكين، فقـدوا توازنهم من العـوز، وعـدّ هذا التتـويج —على كل حـال— غير شرعي، بسبب أن جميع المنتخبين لم يكـونوا حـاضريـن هناك، ولا حتى وافقــوا على ذلك، وكـان من بين هؤلاء دوق سكســوني، الذي دخل بتحالف مع فـردريك، على أساس ابنة الدوق، التي كان سيتـزوج منها، إذا ما تمكن من تأمين مصالحة مع الكنيسة، كما لم يوافق دوق بافاريا على التتويج، وهو الذي كانت ابنته قـد تزوجت من كونراد بن فردريك، كما رفض كثيرون اعطاء موافقتهم.

كيف هرب كونراد بن فردريك إلى أبيه

عندمـا تمكن رؤسـاء الأسـاقفـة، والأسـاقفة والقسـاوسـة، والنبـلاء الآخـرون، هكذا من تنفيـذ غـايتهم، كان كـونراد بن فـردريك مسرعـاً لانقــاذ المدينة، فجـرى اعتراضـه لدى اقترابه، مـن قبل الجيش الألماني الآخر، الـذي حشده النائب البـابوي، وكان جيشـاً قوياً، وقـد اعترضه وهاجمه بحـد السيف، وكـان هذا الجيش، تحت قيـادة رؤساء أسـاقفـة: مينس Mayence, وميتـــز Metz,واللوريــــن Lorrain, وستراسبــــورغ Strasburg, وتألـف من عــــدد لايحصــــى من

الوحدات من مقـاطعاتهم ومن فريزلاند، وغوثلاند، وروسيـا، وداشيا، ومن مقـاطعات ألمانيـا، ومن أهل الحدود الذين حملوا الصليب، والذين تأثروا جميعـاً بروح واحـدة، وكانـوا كأنهم رجل واحد، وقـاتلوا بجـرأة كـونراد المذكور، وانتصروا عليـه، وأرغمـوه على الفرار مع جيشـه كله، وعند ذلك تراجع الابن مضطرباً، وهـرب بكل سرعة، ولم يوفـر جنبي فرسه حتى وصل إلى أبيه، من دون مواساة من الروح القدس.

كيف غزيت مطردة كنيسة القديس ألبان لكن أخيراً جرى تحريرها

عـانت كنيسة القـديس ألبـان في هذا العام من كثير من الاضطهـاد، والخسارة، والضرر على أيدي فـرسان، اعتقدت بثقة أنهم كانـوا أصدقاء مخلصين، لأنه مع أن الصيد كـان ممنوعاً قضائيـاً بالنسبة لبعضهم بشكل خـــاص، تحت طائلة عقـــوبة عشرة باونـدات، بدا لآخـريـن، لم يتم تسميتهم، أنه كان مسموحاً لهم بإجازة كاملة القيام بصيد أرانب برية في المطردة المذكـورة، لأنهم قـالوا بأن مـا كان مقـرراً لمنفعـة الآخـرين، أو محبـوسـاً لصـالحهم، ينبغـي عـدم ردّه إلى ضررهم، ونتيجـة لهذا جـرى اختيار عشرين فارساً بنطاق، بناء على موافقة جميع الفرقاء، لإعطاء قرار صحيح حول هـذه القضية، ولوضع نهاية لهذا الخلاف، وكـان خمسة من هؤلاء —على كل حال— رجال حمقـى، جاهلين بالحقيقة، ومترددين في عقولهم، وبعـدما أقسمـوا، قالوا بأنهم لايعرفـون الحقيقة حـول القضية بشكل مـؤكد، وقـالوا —على كل حـال— بأن خصـوم راعي الدير لهم الحق في الذي ادعـوه وطالبـوا به، مـالم يكن راعي الدير قـد حصل على صك آخـر حول القضيـة، الأمر الذي لم يكونوا يعـرفون بعـد أي شيء حـوله، بشكل مطلق، وعندمـا أخبروا بالصـك الذي لدى راعي الدير، وكـان قد حصل عليـه من الملك الحالي، وذلك بالاضافـة إلى الصكوك القديمـة، اضطرب خصومه وصمتوا، ولولا قيـام هنري باث، المسؤول

عن العدالة، بحمايتهم عطفاً منه، لتمت ادانتهم ولصدر قرار بحرمانهم من مواريثهم، لكن المسؤول عن العدالة، تولى —بموافقة راعي الدير— إلغاء هذا القرار، ولقد كان هذا آخر أثر لاضطهاد قديم، كانت الكنيسة المذكورة قد عانت منه في عام ١٢٤٠، حيث جرى تقديم رواية كاملة حولهم في أحداث ذلك العام، إلى الذين يودون قراءتهم.

تأسيس سوق جديد في ويستمنستر

في الثالث عشر من تشرين الأول لهذا العام، وخلال الأربعة عشر يوماً لعيد القديس ميكائيل، توجه الملك إلى لندن، للاحتفال بعيد القديس ادوارد، أي بعيد نقل ذلك القديس، وأرسل رسالة إلى عدد كبير من الأساقفة والنبلاء، رجاهم صدوراً عن صداقتهم واخلاصهم له، بأن يكونوا حاضرين في ويستمنستر، وأن يلتحقوا به ويشاركوه بمهابة وتقوى بالاحتفال بعيد القديس ادوارد، وبناء على دعوته قدم إلى هناك: الايرل رتشارد، وروجر بيغود، والايرل مارشال، وايرل هيرفورد، وبعض النخبة من البارونات، وبعض الفرسان، وأساقفة: وينكستر، ولندن، وإيلاي، ووركستر، وكارآيل، وعدد كبير من رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ثم أعلن الملك، أنه من دواعي سروره، وأنه أمر بأن يعلن بوساطة المنادي في جميع أرجاء مدينة لندن كلها، وفي كل مكان آخر، بأنه قد أسس سوقاً جديداً، ليعقد في ويستمنستر، وأن يستمر لمدة أربع عشرة ليلة كاملة، كما أنه أمر بكل دقة، وتحت طائلة غرامة ثقيلة وخسارة، أن تستمر جميع الأسواق التي تعقد في انكلترا لمثل هذه المدة من الزمن، من ذلك على سبيل المثال سوق ايلاي والأماكن الأخرى، كما أنه أمر بجميع السلع التي كانت بالعادة تحمل في لندن، بأن تحمل إلى داخل وخارج أبواب السوق، وذلك في سبيل أن يكون ممكناً بهذه الوسائط، الحضور في سوق ويستمنستر بشكل أكبر من قبل الناس، وأن يكون السوق أفضل تزويداً بالتجارات، ونتيجة لهذا تدفقت

أعـداد كبيرة من الناس إلى هناك من جميع الجهـات، مثلما كـان يجري في الأسواق الكبرى المشهـورة، وقد جرى الاحتفـال بنقل القديس ادوارد، وتعبد الناس الذين اجتمعـوا هناك دم المسيح بدرجة غير متـوقعة، لكن جميع التجـار، الذين عـرضـوا بضائعهم هنـاك للبيع، كانوا عـرضـة إلى ارباكـات كبيرة، لأنهم لم يمتلكوا غطاء بـاستثناء خيم من قماش القنب، وبسبب تبدل هبـات الرياح التي كانت تهاجمهم، كما هـي العادة في ذلك الوقت من السنة، كانت هذه الخيم باردة ومبللة، كما أن التجار قد عانوا من الجوع والعطش، وكـانت أقـدامهم ملوثـة بالوحل، وقـد تعفنت بضائعهم بـزخات المطر، وعندما كـانوا يجلسون لتناول طعـامهم هناك، كان الذين معتادين على الجلوس لتناول طعامهم مع أسرتهم، إلى جانب النار، لم يعـرفوا أبداً كيف يتحملون حـالة العوز وعـدم الراحة، وكـان أسقف ايلاي قد خسر سوقـه في ايلاي، نتيجة تأجيله بموجب ترخيص ملكي، لذلك تقـدم بشكوى ثقيلة إليـه حـول هذه المسألة، ولأنه أدخل كثيراً من التجـديدات، ولكنه حصل على لاشيء سـوى كلمات وعـود تلطيف حول تعويضات مستقبلية.

حول فيضان للبحر غير اعتيادي

في الرابع والعشرين من تشرين الثاني لهذا العام، فاض البحر، وتجاوز حدوده وتخطاها إلى مسـافة عظيمة، وسبب أضراراً لايمكن تعـويضها، إلى الذين كانوا سـاكنين على مقربة من الساحل، لأنه عندما كـان القمر، وفقاً لتعداد التقويم، في ربعه الأخير، فاض تيار المد بمياه كثيرة من دون رؤية تيار جـزر أو تناقص، ومن المعتقد أن هذا قد حدث نتيجـة هبوب رياح قوية من البحر، ولكن كان قد حدث كثيراً من قبل أن الريح هبت قـوية من البحر، ومع ذلك فإن البحـر نفسـه لم يرتفع بالدرجة نفسهـا، فقـد اعترت الدهشـة حتى الأشخـاص المسنين، لحدوث هذه الـواقعـة الجديدة وغير المعتادة.

حول هزة أرضية مرعبة في سافوي

وقعت في هذا العـام هزة أرضية مخيفـة في سافوي، في وديان مـورين Maurienne, فيهـا تم هدم خمس قـرى مـع حظائـر أبقـارهم وأغنامهم وطواحينهم، وانتـزعت الجبال والصخور في المنـاطق المجاورة من أماكنهـا التي وقفت عليها منذ الخليقـة، وابتلعت واختفت في بعض كهـوفهـا، وليس معـروفـاً فيما إذا كـان هـذا الدمـار للجبـال قـد وقع، وفجرت الهزة الأرضيـة وأخرجت غضبها على القرى المذكـورة بوساطة معجزة، أو أن ذلك جاء طبيعياً، ولكـن بحكم أنها دمرت حوالي التسعة آلاف إنسـان، ومـا لايحصى عـدده من الحيـوانـات، يبـدو أنها تسببت بمعجزة وليس خلال المجرى العام للحـوادث، ويقال بأن حدة العقوبة اللاهوتية، قـد أعطت متنفساً لغضبها بشكل عـادل، وأنزلته على سكان تلك المنـاطق، بهذا الشكل المهين، ودونما تمييـز لممارستهم تجارة الـربا المعيبـة، وكانوا مـوصـومين كثيراً بالجشع، إلى حـد أنهم قامـوا في سبيل تغطية شرورهم بمظهر من الفضيلة، فلم يترددوا في تسمية أنفسهم تجّار المال، وكانوا لايخافـون من السيمونية، وكانوا يتـورطون وينغمسون من دون خـوف أو رحمة في السلب والنهـب، ولم يترددوا في قطع رقـاب أو تسميم التجّار أو العلماء الذين أرغموا على الذهاب إلى البلاط الروماني، وعبروا بطريقهم بهم، أو أقـاموا معهم أثناء سفـرهم، ولم يكونوا يدرون أن الانتقـام الرباني كلما كان أكثـر بطئاً، كلما كـان أكثـر حدة في ممارسـة الغضب، ويشهد على هذا غـريغوري المبـارك الذي قال: «يسير الغضب الرباني الصارم نحو تنفيذ العقوبة بخطوات بطيئة، لكنه يعوض فيما بعد بطئه بقسوته».

كيف جرى طعن رئيس رهبان ثيتفورد من قبل واحد من رهبانه

في سبيل أن يجري تنفيذ ما كتب في الانجيل، بات من الضروري، أو أن نقـول أمـراً لابـد من حـدوثه هو «أن الفضيحـة التـي تسبب الويل

للدنيـا، لابد من أن تصـدر عن فضيحـة»، فقـد حدث في شهـر كـانون الأول من هذا العـــام، أن قـــام رئيس رهبـــان ثيتفـــورد Thetford, وكان أصله من سـافوي، ومن رهبان دير كلوني، كما كـان قد أعلن عن نفسه، أن له علاقة أو قرابة بالملكة، ولذلك تكبر وتجبر لهذا السبب، قام بتـــوجيـه الدعـــوة إلى أخـويه بـرنارد، وكـان فـارسـاً، وغـــويسكارد Guiscard, وكان كاهناً متوحشاً، للقدوم إلى بيته في ثيتفورد، وقد بقي هنا، تبعـاً للعـادة الليل كله، حتـى صراخ الديك، منشغـلاً بالأكل معهما، والشرب بدون اعتدال، ناسياً تعهداتـه: فهو نادراً ما أزعج نفسه ليكون حاضراً أثناء القـداس، حتى القداسات الصغيرة، ونادراً مـا ظهر في الساعات القانونيـة، ولكن في الصباح، كان يتقيأ الذي التهمه وشربه في الليل، لأنه كـــان يصحـو متخماً بالطعـام إلى أبعـــد الحدود، وإذا مـا وصلت صرخات الفقير الجائع إلى أذنيه، كان يعير ذلك اهتماماً قليلاً في صـدره، وكـان كلما غـادر برنارد، الذي كـان واحـداً من أخـويه، كـان غويسكارد، الأخ الآخر، الذي كان كرشه مثل كيس في المناخ الجليدي، والذي كان جسده يشكل حمولة عربـة، كان يقيم معه مدة أطول، حيث كـان يبتلع جميع طعـام الرهبان في متـاهة بطنه، وفيما بعـد عندمـا يكون متخماً تمامـــاً، يزدريهم ويحملهم الاهانـات، وعندمـــا كـان راعـي الدير المذكـور يعـامل رهبـانه على هذه الصـورة، وهـم الذين تحملوا متـاعب النهـار وحـرارته، وذلك وفق طريقـة غير لائقة به، وكـان يبـدد بشكل مهين موارد هذه الكنيسـة الصغيرة العائدة إليـه، متجاوزاً —كما قلنا— جميع حـدود الاعتدال في نهمـه، نشب آنذاك صراع بينه وبين واحـد من رهبـانه، وكـان ويلزي الأصل، وكان هـذا الراهب قد استـدعـاه رئيس الرهبـــان، منـذ وقت قصير، من كلوني، غير أنـه أخـــذ يسعى الآن إلى إعـادته إلى هناك، على الرغم من ارادتـه، وليس من باب الإحسـان، بل صـــدوراً عن الكـراهيـــة، وذلك على الرغم من أن الـراهب المذكـــور، عـارض الإجـراء، واعتـذر عن نفسـه على أسس منطقيـة، ولكن أعلن

رئيس الرهبان مقسماً بصوت مرتفع وبشكل مخيف، بأن على الراهب المذكور الذهاب إلى الحج مع جعبة ومحفظة، والتهب هذا الراهب الشيطاني بغضب عنيف، أو بالحري أصيب بالجنون، فسحب سكيناً، وغرسها في أمعاء رئيس الرهبان، من دون أي تردد في تنفيذ مثل هذه الجريمة في داخل الكنيسة وحاول راعي الدير المجروح مع حشرجة الموت في حلقومه، أن يدعو الرهبان إلى مساعدته بصراخه، أو على الأقل بايقاظهم، لكنه كان غير قادر على فعل ذلك، نتيجة لتوقف شرايينه، وبناء عليه انقض الراهب المذكور عليه ثانية، وسدّد إليه ضربات ثقيلة أربع مرات أو ثلاث مرات متوالية، ودفن السكين حتى مقبضها في الجسد الهامد، وهكذا قام هذا الشقي، في سبيل زيادة ضرر الطائفة الرهبانية ضرراً كبيراً، وإلحاق العار بها فأرسل رئيس الرهبان التعيس إلى جهنم، في ظل الغضب لرب اقترفت بحقه الآثام، وقد رويت خبر هذه الواقعة بشكل كامل، حتى يحذر الذين سوف يقرأونها، من اقتراف مثل هذه الجريمة، حتى لايقذفوا بغضب من الرب إلى دمار مماثل، وجرى اعتقال منفذ هذه الجريمة من قبل الأشخاص الذين وصلوا إلى المكان، ولأنه كان جيد الحفاظ على نفسه، أودع في السجن، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى علم الملك، انزعج كثيراً، بوساطة الشكاوى المستمرة للملكة، فأمر بالقاتل، فغلّ بالسلاسل، وبعدما حرم من عينيه، ألقي به في أعمق زنزانة في قلعة نورويك، وجاء ذلك دون أن يعبأ بالمبادىء التي قاتل في سبيلها القديس توماس الشهيد، في دفاعه عن واحد من الكهنة كان اقترف جريمة قتل، حتى أنه سفك دمه وبعثر دماغه، فقال بأن رجل الدين، خاصة الكاهن لايمكن أن يدان أمام لجنة حكم مدنية، أو أن يشنق بعدما تنتزع طوائفه منه، وهذا مبدأ في سبيله عانى واستشهد، أي أن الرب لايعاقب مرتين من أجل الذنب نفسه، فهو قد وضع حداً لعقوبة الشرير، وقدم جائزة أكبر بكثير مما استحقه الانسان، وأن خطيئة واحدة كافية ومعقولة

للتكفير عنها بعقوبة واحدة، وأتى على ذكر هذه الوقائع واحد من أعداء الرهبان بمثابة وصمة بحق الرهبان، وقام أحد الأشخاص، وكان صديقاً لهم ومحباً ومدافعاً خاصاً عن الدين، فقال مجيباً: «بين الملائكة أوجد الرب متمرداً، وبين الشمامسة السبعة ضالاً عن الطريق القويم، وبين الرسل خائن، والرب يمنع استخدام ذنب واحد، أو قلة للنيل والتشهير بمثل هذه الجماعة الكبيرة التعداد، وجرى التبشير بهذا الاعتدال من قبل واحد من الشعراء الكفار، الذي قال:

ينبغي أن لاتؤدي جريمة بعضهم إلى الإضرار بالجميع

حول خصام وقتال بين رهبان سيلبي وجون فرانسيس

ونشب في العام نفسه خصام بين رهبان سيلبي Selby وجون فرانسيس Francis وهو محاسب لدى الملك حول جميع التبن والقمح، وجرى قتل واحد من الرهبان، وجرح عدد آخر وتعرضهم للضرب، ومن أجل أن لاتمر هذه الفضيحة لوحدها، حدث في العام نفسه في رئاسة الرهبانية في كانتربري أن تعرض واحد من الرهبان إلى جراحة قاتلة على يد آخر.

الوفاة التعيسة لرئيس رهبان بينيثلي

وفي الشهر غير السعيد نفسه، حدث أن كان رئيس رهبان كنيسة صغيرة قرب دير القديس ألبان، يتفقد كومة من القمح، مما ندعوه بشكل عام الحاصل، ويقدّر قيمته، وكانت أوعية هذا الحاصل غير مكدسة فوق بعضها بشكل صحيح، ولذلك اهتزت وتمايلت ووقعت عليه، ولفظ رئيس الرهبان هذا، الذي كان رجلاً بسيط التفكير وصغير الحجم أنفاسه ومات مخنوقاً، قبل أن يمكن رفع الأثقال التي تكدست عليه، ونجا الآخرون الذين كانوا إلى جانبه من خدم ورفاق رئيس الرهبان، لأن كميات صغيرة وقعت عليهم، ولكنها لم تقهرهم.

عقوبة حادة لزاني

أنا أعتقـد أن الواقعة التـالية، ينبغي عـدم تجاوزها، مع أنها قد تبـدو مضحكة، ففي هـذا الشهـر غير السعيـد نفســه، ولكـي لايقــال بأن الفضيحـة قـد قـامت ضـد رجـال الدين وحـدهـم فقـد نزلت الاهانة والاهانة التي لاتعوض على واحـد من طائفة الفروسية، فقـد كان هناك فارس من نورفولك Norfolk اسمه غودفري دي ميللر Millers, وكـان من أصل نبيل، كما كـان متميزاً في أعمال الفـروسيـة، لكنه ضلل بشكل مهين ومخجل، حيث دخل بشكل سري مسـاكن جـون البريتـاني الذي كـان فارسـاً، من أجل الاضطجاع مع ابنتـه، لكنه اعتقل من قبل بعض الأشخـاص المتخفين، بالتـوافق مع العـاهرة نفسهـا، التي كـانت خـائفـة من أن يعتقـد أنها عشيقـة رجل متـزوج، وقـد رمـوه بعنف إلى الأرض، وأوسعـوه ضرباً بشدة وجـرحوه، وبعـد هذا جرى تعليقـه إلى جذع شجـرة، مع ساقيه وقـد مددا وأبعدا عن بعضهما، وبعـدما أصبح تحت تصرف أعـدائه، مثلـوا به وشوهوه بشكل مخجـل إلى درجة كـان يفضل فيهـا أن يقطع بها رأسـه، و هكذا بعـدما جـرح وشـوّه، ألقى به خـارج البيت نصف ميت، ووصلت شكوى حـول هذا الإجـراء إلى الملك، وألقـي القبض على الذين اقترفــوا هذا العمـل الوحشي الكبير، وعلى جون البريتـاني، حيث وجد مـداناً في هذه الجريمة، وقـد جرد من ممتلكاته وميراثه، وطرد بصـورة أبـدية، ولم يمكن العثـور على العـاهرة، ذلك أنها أخفت نفسهـا في أماكن سرية لايمكن الوصـول إليها، وهكذا نجت مع شيء من المصـاعب، من المؤامـرت التي حيكت ضد حيـاتها، وجميع الذين كـانوا حضـوراً أثناء اقتراف هذه الفعلة الوحشيـة الكبيرة، جرى إخراجهم إلى المنفى مطاردين بلا مأوى، وهكذا فإن هذه الجريمة اللاانسـانيـة والخاليـة من الـرحمة، قـد تورط بها عـدد كبير من النبـلاء بشكل مأسـاوي محزن، وحدث في حوالي الـوقت نفسه أيضاً، أن كـاهناً

وسيماً، أو بالحري قسيساً لكنيسة غنية، قد تفوق على جميع الفرسان الذين عاشوا من حوله في تقديم الضيافات المتوالية، وأعمال الكرم، فهذا أيضاً قد تورط في مأساة مماثلة، وثارت عاطفة الملك مع الشفقة، وقد حزن بشكل عميق، فأمر بأن يعلن بوساطة المنادي ما عدّ بمثابة قانون،أن ما من إنسان يجوز له الاقدام على تشويه آخر من أجل الزنا، إلاّ في حالة زوجته.

حول وقوع عدة حرائق بالصدفة

ووقعت في هذا العام أيضاً واقعة تستحق التسجيل، لأنها كانت مدهشة، وهي قد رأينا أنها تستحق الادخال في رواية هذا العمل، بحكم أننا لانتذكر مطلقاً أننا رأينا مثلها من قبل، فقد حدث في كثير من المناطق، بسبب غضب الرب، أن استعرت نيران مدمرة، حولت مدناً وبلداناً إلى رماد، مع أنها لم تتسبب بالحرارة ولابجفاف الأرض، لأنه في ألمانيا —بالإضافة إلى الخسائر الأخرى التي نجمت عن غضب لهيب النار المستعرة— تحولت الكنيسة الكاتدرائية للقديس بطرس في كولون (التي هي بالفعل أم الكنائس جميعاً في ألمانيا) إلى مجرد جدران، وكان ذلك بوساطة اللهب، وفي فرنسا أيضاً تعرضت مدن وبلدات للدمار بوساطة النيران، وحدثت في نورماندي خسائر لايمكن تعويضها بوساطة غضبها الذي تعذر ضبطه، وفي انكلترا —دون أن نذكر القضايا الأخرى— جرى احتراق الجزء الأكبر من منقطة نيوكاسل على التاين، مع جسرها، بوساطة النيران المستعرة، واستعرت في النروج إلى درجة هائلة في ثلاث مدن رئيسية، مما سبب العجب والدهشة إلى عقول الجميع، وكانت إحدى هذه المدن تدعى بيرجن Bergen, فقد احترقت كلياً وتحولت إلى رماد، باستثناء أربعة بيوت دينية، والقصر، وبيعة، ومساكن الملك، وقد احترقت إحدى عشرة أبرشية في المدينة المذكورة، بالاضافة إلى بعض البيوت التي كانت عائدة إلى الأسقف،

وانتشر لهيب نيران الانتقـام للذنوب هذه، مثل نيران قـذفها تنين، كـان يجر ذيله وراءه، فوصلت إلى قلعـة الملك، التي كانت تبعد مسـافة خمس رميات قوس عن المدينة، وبذلك ما من شيء ظهر أكثر تأكيداً ووضوحاً إلى السكان من أن حدة الانتقام الرباني قد تسببت بهذه الكارثة، فالقلعة التي كانـت قد بنيت من أفضل الحجـارة وأقساها قـد تحولت إلى رماد، وفي اليوم التـالي جعل الرب الرعد يدوي فوق مـوقع المدينة، ومعه برق أصـاب سفينة كبيرة كـانت قـد وصلـت من انكلترا أثناء الليل، فقتلت رجلاً واحـداً، وجرحت أو تسببت برضوض قاسيـة إلى جميع الآخرين، وشطرت السـارية وحـولتهـا إلى قطع صغيرة، قـذفتهـا إلى البحـر، وتعرضت جميع السفن التي كـانت في الميناء أيضاً، وكان عـددها حوالي المائتين أو أكثر إلى الأذى، ووصل صاحب هذا الكتاب إلى السفينة التي تحطمت سـاريتها، لأنه كان وقـت الحادث يقوم بتأدية قـداس في كنيسة قرب شاطىء البحر، وينشد ترنيمـة بحرية، لتقديم الشكر إلى الرب بعد النجاة من مخاطر البحر، وعندما نقلت أخبار هذه الوقائع إلى الملك، قام صدوراً عن تقديره للشخص الذي كـان على ظهر تلك السفينة، فأمر له بسارية أكبر وأفضل ليتزود بها.

وبعـد عيد القـديس ميكائيل، عبر أسقف نورويـك البحر، لأسبـاب سرية محددة.

حول الأوامر غير العادلة لرئيس أساقفة كانتربري

وفي تلك الآونة نفسهـا، أظهـر بونيفيس، رئيس أساقفـة كـانتربري، الذي كـان يقاتل في سبيـل البابا في منطقـة ليـون، قليلاً من القلق نحـو الكنيسة، مع أنه كان قد جرى تعيينه من أجل معالجة الأرواح، واعتماداً منه على السلطات الرسـولية، استخـرج كثيراً من الأمـوال من الكنائس الشـاغرة، في أبرشيتـه، التي كان مخولاً بالاحتفـاظ بها بين يديه لمدة سنة واحـدة، وهكـذا باتت انكلترا غير السعيـدة، مثل كــرم تم التخلي عنه

كمأكلة إلى الأرانب البرية، ولكل عابر ليقوم بجني عنبه، وفي سبيل أن يجرح قلوب الذين سلبهم، بعمق أكثر، أمر أن يجري الإعلان، بوساطة عميد بوفياس Beauvais, الذي كان نائبه في هذه القضية، بأن جميع الأشخاص —باستثناء الملك والملكة وأولادهما، والايرل رتشارد اللامع— سوف يحرمون كنسياً، إذا كانوا قد وجهوا اللوم سراً أو علناً، أو تكلموا من دون احترام، حول المعروف الذي منحه البابا إياه، وأعطاه إليه، أي إلى رئيس الأساقفة المذكور، أو أن يقوم بأي شكل من الأشكال بمعارضته، أو عمل أي تعويق له أو تملص منه، أو أن يمارس أي خداع في مسألة المرابح المتقدم ذكرها، وجرى نشر وصية الولاية في كل واحدة من الكنائس في جميع أرجاء انكلترا، فأنتجت غضباً في قلوب الكثيرين، بسبب كل من الأذى الذي لم يسمع بمثله والاستخراجات الجشعة للمال، وأيضاً الاضافات المفتوحة لها، وتفوهوا بلعنات من القلب ضد الملك الذي سمح بهذه الإجراءات ووافق عليها.

كيف قدم رسل إلى عند البابا من لدن التتار

قدم في صيف هذا العام رسولان تتاريان من عند أميرهم إلى البابا، لكن محتوى رسالتهما بقيت سرية مغلقة عن الجميع في ذلك البلاط، ولم يكن ذلك معروفاً لدى الكهنة ولا الأعيان، ولا من قبل الآخرين مهما كانوا مقربين من قداسته، وكانت رسالتهما التي جلباها إلى البابا قد جرت ترجمتها من لغة غير معروفة إلى لغة وافقت الناس أكثر، وكان ذلك لدى اقترابهما من البلدان الغربية، وكان من المخمن من خلال بعض الاشارات، بأن الرسائل قد حوت اقتراحاً، وخطة من التتار المذكورين، في أن يقوموا بحرب فورية ضد بتاكيوس الاغريقي زوج ابنة فردريك، وهو منشق وغير مطيع للكنيسة الرومانية، ومن المعتقد أن هذا العرض كان مفرحاً كثيراً للبابا، بدليل أنه أعطاهما بعض الثياب

الثمينـة، التي ندعوها بشكل عـام ملابس، وكانت مصنوعـة من أقمشة أرجوانية مختارة، مع أردية، وفراء من جلود القاقم، وتحادث معهما مراراً بشكل مفتوح وبطريقة ودودة بـوساطة المترجمين، وقدم لهما بشكل سري هدايا من الذهب والفضة.

حول المظالم التي مورست يومياً ضدّ الإنكليز من قبل البلاط الروماني

في هذا العـام نفسـه ازدادت المظالم التي أبـدعت بطرق مضـاعفـة، وتدفقت من البـلاط الروماني وانصبت على التعسـاء الانكليز، يوميـاً، وتضاعفت، فبـالاضافة إلى المظالم والعبـودية غير العادية، بسبب تعليق الأسـاقفـة ومنعهم من استثمار منافعهـم حتى يكون نهم الرومـان قـد أشبع، والتي ضـدها لم يصرخ الملـك الصغير لجبنه وخـوره، جـرى في كل يوم ارسـال أسراب من المظالم المقيتـة وقذفهـا، ومع أننا لانستطيع ذكـر جميع الأضرار (لأن ذلك صعبـاً، لابل في الحقيقـة من المستحيل فعل ذلك) رأينا من الموائم أن نقحم ذكر بعضها في هذا الكتاب، حتى يحزن الذي سوف يقرأ عنهم، ولكي يقوم الحزين بالشكوى إلى الرب، فلعله في بعض مستقبل الأيـام أن نتحـرر منهم بفضلـه، ومن أجل أن يرى الجميع الحالة المحـزنة لانكلترا، التـي حـرمت من حكامهـا ومن المدافعين عنها، وتلقى راعـي دير أبنغدون Abingdon ولاية من البابا بأن يقوم على الفور بتجهيـز وظيفة لواحد من الرومان، لكن هذا الرومـاني رفض اختيار وقبـول أية كنيسة، إلاّ الكنيسـة الغنية، فـانتظر بهدوء، وأخفى نواياه، حتى تصبـح إحـدى الكنائس الفخمـة والغنيـة شـاغرة، وكـانت أولى الكنائس التي أصبحت كذلك كنيسـة القديسـة هيلين في بلدة أبنغدون، والتي عـدّت أنها تساوي مائة مـارك، وكانت مزودة بكل المنافع، لأنها كانت موجودة في منطقة كانت خاضعة للدير المذكـور، وطالب الرومـــاني الذي كـان هـادئـاً منذ وقت طويل، بهذه

الكنيسة على الفور، وضغط بإلحاح بالطلب بوجوب أن تعطى إليه، بموجب سلطات الكرسي الرسولي، وفي اليوم الذي أصبحت فيه الكنيسة شاغرة، تلقى راعي الدير أمراً مستعجلاً كثيراً من الملك، ممزوجاً بالتهديدات والالتماسات والوعود، بأن عليه تسليم الكنيسة المذكورة إلى أخيه —الملك— من أمه ايثيلمار، مع أن هذا الأخير كان بين يديه الآن عدداً وافراً من الكنائس والموارد، علينا أن لانعجب إذا كان هو نفسه لم يعرف عددهم ولاقيمتهم، وبناء عليه، بات راعي الدير في حالة حيرة واضطراب، وكأنه قد سحق بين حجري طاحون دائرين، فاستشار الرهبان في ديره وبعض الأصدقاء الجديين والمخلصين، حول القضية فأجابوه: «من الواضح أنها قضية صعبة من على الجانبين، لكن إذا كان الملك راغب بحمايتك من عنف البابا، نحن نعتقد أنه سوف يكون أفضل إعطاء الكنيسة إلى أخيه هذا، بحكم أنه أميرنا وراعينا، وليس الرومان، الذين سوف يداومون بشكل سيء التآمر ضدك، وهم بالفعل مضطهدون لايعرفون التعب، وكأنهم شوكة في عينك»، وجرى ابلاغ الملك بهذا القرار في الوقت المناسب، فأقدم على الفور بوعد راعي الدير المذكور بحمايته الخاصة، ووقايته من الخسارة، وبناء عليه، قام راعي الدير، اعتماداً على هذه الكلمات المخادعة، فأعطى الكنيسة إلى ايثيلمار المذكور، بناء على التماس الملك، وبناء عليه ذهب الروماني المتقدم الذكر على الفور وهو شديد الغضب إلى البابا، مع شكوى ثقيلة، وحكى له اشكاليات الموضوع، مع اضافات من عنده حتى يثير غضب البابا، وبناء عليه استدعى قداسته راعي الدير المذكور للمثول أمامه للاجابة على تهمة عدم الطاعة، وبات راعي الدير محروماً من كل مواساة ومساعدة من الملك، مع أنه غالباً ماطلب ذلك، ومع أنه كان رجلاً عجوزاً وضعيفاً، فقد ذهب إلى البلاط الروماني، وبعدما تعرض هناك إلى كثير من الآلام، وإلى دفع نفقات كبيرة، أرغم على تقديم ترضية إلى الروماني المذكور، تبعاً لقرار

البـابا، بأن دفـع له خمسين مـاركـاً سنوياً مـن حجـرته، مما ألحق ضرراً عظيماً بكنيسته.

مظلمة أخرى كبيرة جداً للبابا

في هذا العـام نفسه أيضـاً أخذ راعـي دير القديس ادمـوند من بيننا، ووضع الملك جـانبـاً كل خـوف من الرب واحترام إلى الشهيـد، الذي كـان مـرتبطاً به بشكل خـاص، وذلك لأسباب كثيرة، في أن يقـدسـه، فأخذ مبلغـاً كبيراً من المال من ذلك الدير، وذلك عندما أصبح شـاغراً، وبأخذه لهذا المبلغ بدا وكأنه قـد فقد جميع مشاعر الرحمة، لأنه بالاضـافة إلى المدفوعـات التي سددت إلى النواب الملكيين، استخرج بوحشيـة ألفاً ومائتي مارك من الدير، وعندما قـام الرهبان بانتخاب راع جديد ليأخذ مكان الراعي الذي توفي مـؤخراً، أرسلوا بعضاً مـن جماعتهم إلى البلاط الرومـاني للحصـول على تثبيت للانتخـاب نفسـه، وتعـرض كل من المنتخبين والمنتخب إلى فحص شـديد، وفي النهـاية تم رفض الفـريقين، وتوجب وضعهما في وضع محزن، لكـن هذا الوضع بدا أكثـر من محزن من جميع الجوانب، وعندمـا كـان الراهبـان على وشك المغـادرة آسفين خجلين، استـدعـاهما البـابا وقـال: «بما أنكما تعسـاء فأنتما بحـاجـة إلى المرحمـة، وإننا صدوراً عن عمل الإحسـان، ولكي لاتنزعجا نسمح لكما في الوقـت الحالي بهذا الراعي المنتخب، وبحـريـة وبإرادة نعطيـه دير القديس ادمـوند، لكن عليه أن يدفع ثمانمائـة مارك، وعليـه تسديد ذلك إلى التـاجر الذي سـوف نرسله له لهذه الغـاية، والذي نحن مـدانون له كثيراً»، وهكذا غادر الراهبـان، بعدما وقعا في المصيدة، ولكنهما كـانا قد أنهكا بسبب كثير من الأذى الـذي لحقهما والمظالم، وقـد حـزنا من دون مـواسـاة، ولذلك مـات واحـد منهما في ليـون، قبل أن يغـادرا البـلاط الروماني، وتلاشى الآخر من الآلام والانزعاج في القلب، وغادر طريق الجسد كله في دوفر، أثناء عودته من ذلك البلاط القاسي.

وفاة راعي دير وولثام

ومـات أيضـاً في هـذه الآونة راعي ديـر وولثـام Waltham, صاحب الذكرى التقية كثيراً، وكان واحداً من رهبان طائفة القـديس أوغسطين، وكان رجلاً متميزاً بقداسته.

موت سيمون لانغتون

ومات في هـذا العام المعلم سيمـون لانغتون Langton, وهو أخو ستيفن رئيس أساقفة كانتربري وصاحب الذكرى اللامعة، ورئيس شمامسة كنيسة تلك المدينة، وكـان هو مضطهـداً ومـزعجـاً لكنيستـه، كنيسـة كـانتربري، ولكن لاعجب في ذلك، لأنه كـان المثير والمسبب للاضطراب للمملكة الفـرنسية، وكـذلك بالنسبة لمملكة انكلترا، وكـان هذا عندمـا اضطربت كثيراً بـالحرب، وذلك حسبما ذكـرنـا من قبل في المكان المناسب.

موت جون بلند

ومات في العام نفسه أيضاً المعلم جون بلند Blund, المستشار لكنيسة يورك، وكـان لاهوتياً متميـزاً، وقد انتخب مـرة رئيساً لأسـاقفة كـانتربري، لكن الانتخاب ألغي من قبـل سيمون المتقـدم ذكره أعـلاه، وهكذا ذهب مثير الاضطراب والذي تعرض إلى الاضطراب، للالتحاق بحشود الموتى، ومـات الايرل باتريك أيضاً، الذي كان يعدّ الأكثـر قوة بين نبـلاء سكوتلندا، ومـات هذا النبيـل وهو حـامل لشعـار الصليب، عندما كان في الحج برفقـة الملك الفرنسي، ومن المعتقد أنه حمل الصليب حتى يتمكن من ارضاء الرب، والقديس أوسوين Oswin, لأنه ألحق الضرر والأذى بشكل غير عـادل بكنيسـة التـاينماوث، وبدير كـان مكرسـاً للقـديس ألبان، ومـرتبطاً بشكل رباني خـاص بالملك أوسـوين المبارك والشهيد، وحيث رقد جسد ذلك القديس مدفوناً.

كيف جرى إرسال الراهب متى إلى نورماندي

أحاق في هذا العام خطر عظيم بواحد من الديرة الفخمة في النروج، وهو الذي عرف باسم دير القديس بندكت أوف هولم Holm, وكان قد تأسس من قبل كنوت Cnut الذي كان من أعظم الملوك نبلاً، وهو الذي كان أيضاً قد أسس ديراً آخر بالاسم نفسه وتابع للطائفة نفسها، في انكلترا، ذلك أنه أفقر كثيراً، وكان الرهبان قد تبعثروا، والدير نفسه كان قد تدمر تقريباً، مع متعلقاته، وكان راعي الدير قد تخلى عن الطائفة، وغادر بشكل سري، آخذاً معه ختم الهيئة الرهبانية، تحت مظهر اقطاعي، وكان إما قد باع جميع محتويات الدير، أو رهنها بالضمان بشكل أساسي، وأخذ معه واحداً من الرهبان، كان الحافظ لغرفة المقدسات، وهو الذي كان مسؤولاً عن الختم، كما كان أيضاً مطلعاً على جريمته ومشاركاً بها، وكان الآن مع راعي الدير المذكور مرتداً، وطريداً، ونتيجة لهذا، قام رئيس أساقفة درونثيم Drontheim, الذي كان الدير المذكور في أسقفيته، بوضع الدير بين يديه، مع جميع متعلقاته، واتهم الرهبان بأنهم رهباناً بالمظهر فقط، وأنهم كانوا جاهلين بأحكام الطائفة الديرية، وبالقديس بندكت، وظهروا أنهم قد خرقوا النظم الديرية واعتدوا عليها، وأن بعضهم كانوا لصوصاً ومطاردين، لكن الرهبان، الذين مع أنهم بقيوا من دون راعي، ظلوا يقاتلون في سبيل الرب، في بعض السبل، تحت قيادة رئيسهم، ولجأوا إلى تقديم التماس، وطاروا إلى الحبر الأعظم لحماية أنفسهم، لأنه كان ظلماً وبعيداً عن المنطق، أن تطال خطيئة واحد، أو اثنين، أو حتى قلة، الطائفة كلها، واعتماداً على الالتماس، لم يتجرأ رئيس الأساقفة على التمادي في ازعاجهم أو القيام بأية اجراءات جديدة، وبناء عليه تمكن رئيس الرهبان، بشكل حكيم من استرداد بعض ممتلكاتهم، وجمع بعض المال، وذهب إلى البلاط الروماني، لكن راعي الدير المرتد وشريكه كانا

هناك من بعض الوقت قبله، وباعطائهم صكوكاً مختومة بالختم المسروق، وضعا الدير المذكور تحت دين يساوي حوالي الخمسمائة مارك، وبناء عليه عاد رئيس الرهبان إلى الوطن مضطرباً وحزيناً، لكن قبل أن يصل إلى هناك سمع بأن هذا الراعي التعيس قد مات في دير القديس ألبان في ذل Zell في النروج، وبعدما حصل على هذا الخبر، قام هو والرهبان بانتخاب راعي دير جديد، وعلى هذا أعيد رئيس الرهبان المذكور مع واحد من الرهبان رفيقاً له، ومعهما مبلغ ثلاثمائة مارك، وكان معهما رسائل موجهة إلى الراهب متى باريس، فيها التماس بأن يبذل غاية مساعيه في سبيل تحريرهم من دينهم، وفي النهاية أمكن بسعادة الترتيب بأن يتحرر الدير المذكور من دفع الدين فقط، وبعد الحصول على جميع الكتابات والأدوات التي بموجبها عدّ دير هولم مداناً إلى السماسرة الذين كانوا آنذاك في لندن، عاد الدير خلال سنة سليماً ومتحرراً تماماً، لكن مع أنه تنفس بحرية في ميدان المسائل الدنيوية، ظل الرهبان غارقين في حالة اضطراب بالنسبة للمسؤوليات الروحية، ومكثوا متخفين، ومع بعض الصعوبات، وبوساطة هدايا متوالية حصلوا على استراحة قصيرة خشية من أن يقوم رئيس الأساقفة فيضع بين يديه الجزيرة كلها، التي كانت ملكاً للدير المذكور نفسه، الذي كان مقاماً في الجزيرة مع متعلقاته، وأن يرغم الرهبان على الفرار، وهم الذين قال عنهم بأنهم رهبان بالاسم فقط، وفي تلك الآونة كان أسقف سابينا وكاردينال الكرسي الرسولي، قد وصل —كما ذكرنا من قبل— إلى النروج بمثابة نائب بابوي، وإليه طار على الفور هؤلاء الرهبان، الذين ظلموا بشكل حاد من قبل رئيس أساقفتهم، ليتلقوا منه المواساة في محنتهم، وجواباً منه على شكاويهم قال: «أبنائي أنا جاهل تماماً بالأحكام المرعية وبنظام القديس بندكت، غير أنني أنصحكم باخلاص جيد بأن تذهبوا إلى البلاط الروماني، وأن تلتمسوا من قداسة البابا تزويدكم بشخص موائم ليقوم بإصلاح طائفتكم، وليكون لكم موجهاً

مناسباً، وأنا سوف أكتب له ملتمساً لصالحكم، وسوف أرجوه أن يتلطف بالاصغاء إلى طلبكم في هذه القضية، ولاتتحمل هذه القضية التأخير، لأن رئيس أساقفتكم شديد الاصرار في مساعيه على طردكم بحجة جهلكم»، وبناء عليه ذهب راعي الدير إلى البلاط، مرافقاً برئيس الرهبان، وبعدما أبلغاه برغبتهما، حصلا على رسائل التماس من ملكهما ومن النائب البابوي، وجواباً على طلبهما قال البابا: «أبنائي إذا كنتما جاهلين بالأشياء التي ينبغي أن تعرفاها، استخدما البحث والتقصي، واختارا شخصاً ما لتعليمكما الأحكام والنظم، وأية بلد أو دير، أو من ستفضلانه وتطلبانه سوف يمنح لكما، وادرسا للحصول على المعلومات، حتى لايتمكن عدوكما من التغلب عليكما»، وبعدما قاما في اليوم التالي بالتشاور والتباحث مع رجال آخرين جادين ومستقيمين، أعطيا جوابهما إلى البابا كما يلي: «ياصاحب القداسة لقد تعلمنا بالتجربة أن الرهبان في طائفتك ليسوا منظمين تماماً في كل مكان من العالم كله، وذلك كما نعتقد أنه موجود في انكلترا، كما أنه لايوجد —كما سمعنا من التقارير— هناك أي دير حسن التنظيم في المملكة الانكليزية، مثل دير القديس ألبان، الذي هو الرائد الشهيد لانكلترا، ولذلك نطلب واحداً من رهبان ذلك الدير اسمه متى، الذي جربنا حكمته واخلاصه، ليتولى تعليمنا وتوجيهنا، بالاضافة إلى ذلك هو صديق مقرب من ملكنا، الذي يمكن أن يكون قادراً بوسائطه، إذا ما رأى الأمر ضرورياً، اخضاع أية عصاة ضده»، وبما أن هذا الجواب أرضى البابا، فقد حصل هذان الراهبان منه على الإجازة التالية، لتقديمها إلى راعي دير القديس ألبان.

إجازة البابا إلى راعي دير القديس ألبان

«**من أنوسنت، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب كثيراً، الراعي لدير القديس ألبان، من طائفة البندكتيين في انكلترا:** إنه بناء على ماذكر لنا من جانب ولدنا المحبوب كثيراً، راعي دير هولم التابع لطائفة البندكتيين، في

أسقفية درونثيم، إن الدير المذكور، قد سقط بسبب إهمال أسلافه بالفوضى، فيما يتعلق بالقضايا العائدة إلى النظام الرهباني، وبما أنه تعذر الحصول في تلك الجهات على واحد عالم بصورة جيدة بالنظم وبمراعاتها، أي النظم العائدة إلى تلك الطائفة، نحن نرجوكم، بناء على التماس الراعي المذكور، ونحثكم، ونأمركم بوساطة هذه الرسائل الرسولية أن ترسلوا إلى الدير المذكور، ولدنا المحبوب منا كثيراً، متى الذي هو راهب في جماعتكم، والذي يتمتع بسيرة مرضية في الحياة، والذي هو مجرب بالحياة الرهبانية، وذلك من أجل أن يقوم بتعليم وتوجيه الراعي المذكور في مجال الأنظمة المرعية والأحكام العائدة إلى تلك الطائفة، وهذا سوف لن تتأخر بعمله صدوراً عن احترامك للرب، وللكرسي المقدس».

وبناء عليه أطاع راعي دير القديس ألبان البابا، كما كان متوجباً عليه، وقام الراهب المذكور بإطاعة راعيه، وسار العمل على مايرام، وتمت الترتيبات بشكل ناجح، واستمر دير هولم في النروج بسلام وازدهار، واسترد النظام الرهباني، الذي كان عرضة إلى مخاطر كبيرة في تلك البلاد، الآن أنفاسه بفضل الرب، وكذلك فعلت الديرة الأخرى هناك.

وجرى في هذا العام الاستيلاء على مدينة اشبيلية الفخمة في اسبانيا، وكان ذلك من قبل ملك قشتالة المسيحي العظيم، وتميزت كرامة ربنا يسوع المسيح بوساطة عنوان المسيحية.

هزة أرضية في إنكلترا

وفي العام نفسه، في يوم قدوم ربنا، الذي كان اليوم الرابع قبل عيد الميلاد، وقعت هزة أرضية في انكلترا، بها (حسبما جرى اخبار كاتب هذا العمل من قبل أسقف باث، الذي وقعت الهزة في أسقفيته) تدمرت جدران الأبنية، وانتزعت الحجارة من أماكنها، وظهرت فجوات في

الجدران المدمرة، وكـان السقف الجملوني المقنطر الذي وضع على رأس كنيسة ويل Wells بعد بذل جهود كبيرة من قبل البنائين —وكان كتلة كبيرة ذات حجم كبير ووزن عظيم— قد قـذف من مكـانه، مما سبب كثيراً من الدمـار، فقد سقط فـوق الكنيسة، محدثاً ضجـة مرعبـة، لدى سقــوطه من ذلك الارتفـاع، وبذلـك أصـابت الضجــة بالرعب الشـديد كل الذين سمعـوها، وأثناء تلك الهزة الأرضيـة، وقعت واقعـة مـدهشـة، فقـد سقطـت رؤوس المداخن، والشرافـات، والأعمـدة من أماكنها، لكن قواعدهم وأسسهم لم تتأثر مطلقاً، مع أن العكس كان من الطبيعي حدوثه، وكـانت هذه الهزة الأرضية هي الثالثة بالوقـوع خلال ثلاثة أعــوام، على هذا الجانب مـن الألب، حيث وقعت واحــدة في سافوي، واثنتان في انكلترا، وهي واقعة لم يسمع بمثلها منذ بداية الدنيا، ولذلك كانت الأكثر رعباً وضرراً.

خاتمة العام

عبر هذا العام عادياً وهادئاً، وملأ السنابل بكميات كبيرة من القمح، وجعل المعـاصر تتدفق بالخمـرة، وكانت وفرة المواسـم كبيرة إلى حد أن معيـار القمح قـد سقط سعـره إلى شلنين، وقد بيع دن الخمـرة الممتـازة بشكل مطلق بماركين، وكــانت فــواكـه الحدائق وافــرة كثيراً في بعض الأماكن وقليلة في أمـاكن أخرى، ولكن ديدان الأرض دمـرت كلياً كل شيء أخضر، وقـد تسرب المرض إلى الأغصـان، وبرهنت أحـداث هذا العـام، أنها كانـت عدوانيـة بالنسبـة إلى الأرض المقـدسة، غير مستقـرة بالنسبة إلى ايطاليـا، مميتة بالنسبة لألمانيا، وغير موافقـة بالنسبة لانكلترا، ومدمرة بالنسبة لفرنسا، ولكي نجمل كثيراً من التفاصيل بكلمات قليلة، كـان هذا العـام مستهلكاً للمال تقـريبـاً في كل بلد من بلدان المسيحيـة، وقدم في كثير من الجوانب شارات تدلل على أن نهاية الدنيا باتت قريبة، وذلك حسبما قـرأنا «ســوف تثـور أمم ضـد أمم وســوف تكون هناك

هزات أرضيـة في بعض الأمـاكن»، كما أن هناك نبـوءات أخرى، وكـان هذا العـام بالنسبـة للبـلاط الرومـاني، مصـدراً للعـار، والشنار، ومن الواضح أن ذلك كـان بمـوجب تهديد الغضب الرباني، وكـان المناخ في الشتـاء متغيراً كليـاً إلى مناخ الربيع، ولـذلك لم يغط لاالثلج ولاالجليـد وجه الأرض ليومين معاً، وكـان من الممكن رؤية الأشجار وقد أخذت تورق في شباط، والطيور تغرد وتلعب وكأنها كانت في نيسان.

كيف طلب الملك منحه هدايا من سكان لندن

عـام ١٢٤٩، هو العـام الثـالث والثـلاثين لحكم الملك هنري، وقـد أمضى عيـد الميـلاد في لندن، وكـان أخـوه الايرل رتشـارد يحتفل في وولنغفورد Wallingford أثناء هذا الموسم المهيب بأيام القـدوم، برفقة عـدد كبير من النبلاء، كانوا ضيـوفه، وعقـد في الوقت نفسه ايرل غلوستر بلاطه بـأبهة دنيـوية لم تكـن أقل، قـرب غلوستر، على حـدود ويلز، لكن الملك خرق من دون حياء حدود الكرامة الملكية في يوم عيد الختـانة، واستخـرج من كل واحـد مـن سكان لندن الهدية الأولى، التي اعتاد الناس على تسميتها خرافياً باسم هدايا السنة الجديدة.

الاحتفال الفخم بيوم عيد القديس إدوارد

ومع اقتراب عيـد القـديس ادوارد، الذي يحل عشيـة عيـد الغطاس، دعا الملك بوساطة رسائله عـدداً كبيراً من النبلاء للاحتفال بذلك العيد معه في كنيسـة القديس بطـرس في ويستمنستر، وقام هو نفسـه في عشية ذلك العيـد، الذي كان يوم اثنين، فصـام على الخبـز والماء، وفقاً للعـادة المتبعـة، وارتدى مـلابس صـوفيـة، وبناء عليـه اجتمع عـدد كبير منهم هناك، صـدوراً عن الاخلاص والمحبـة التي شعـروا بها نحو القـديس، وكذلك في سبيل تعبد دم المسيح الذي تمّ الحصول عليه مؤخراً، وأيضاً من أجل العفو عن الذنوب الذي يتم الحصول عليه هناك، مع الاحترام

المتوجب إلى الملك أيضاً، لأنه هو الذي دعاهم، ولقد اجتمعوا الآن هناك مع الملك والملكة، والايرل رتشارد، وروجر الايرل مارشال، وأربعة آخرين، والعدد نفسه من الأساقفة.

عودة إيرل ليستر

كان الملك مقيماً في ويستمنستر أثناء عيد الميلاد، وعاد آنذاك سيمون ايرل ليستر من غسكوني مع بعض النبلاء الآخرين، والفرسان والأعوان، الذين كانوا يقاتلون هناك باخلاص في سبيل الملك، وأبهج وصولهم الملك والبلاط كله إلى درجة عالية جداً، لأن ذلك الايرل كان قد أرغم غاستون ابن كونتسة بيارد، الخائن بحق ملك انكلترا، أن يقبل بشروط للهدنة، حتى وإن كان ذلك ضد ارادته، وكان غاستون هذا قد ألحق أضراراً كبيرة في تلك المقاطعة بالتآمر ضد الملك، حتى أنه دمّر وأفسد البلاد كلها، وبالخداع والخيانة أقنع الناس بالتخلي عن ولائهم إلى ملكهم، لأن غاستون المذكور كانت لديه أموالاً كثيرة، هي التي حصل عليها من الملك عندما كان في غسكوني بوساطة وعود خادعة، وكانت أمه مماشية له وموافقة على إجراءات ولدها المخادع، مع أنها كانت في الوقت نفسه، قد حصلت أيضاً بشكل دنيء على مبلغ كبير من المال من الملك المسحور، وذلك من الأموال التي سحبها من انكلترا، من أجل اذلال المملكة وافقارها، ومعها كذلك النبلاء فيها والأساقفة.

وعلاوة على ذلك، قام الايرل المتقدم ذكره، مدعوماً بعون المخلصين إلى الملك، فاعتقل لصاً كبيراً، وخائناً، وأكثر أعداء الملك دموية، واسمه وليم بيرترام أوف ايرمونت Bertram of Aigremont, وكان قد اقترف جرائم كثيرة في غسكوني وفي المناطق المجاورة، وقد وضعه الايرل الآن في سجن مضيق عليه في برج راؤل Reole, وذلك إلى أن يرغب الملك بأن يرجع هذا الايرل إلى غسكوني لسحقه ولسحق الأعداء الآخرين للملك.

الظلم الكبير الذي أنزل بسكان لندن من قبل الملك

ولم يقدم الملك —على كل حال— التمجيد إلى الرب، رب الحشود، على النصر الذي منح له، بل بدأ الآن يفكر بشكل مثابر، كيف يمكنه أن يجفف بئر انكلترا الذي لاينضب، لأنه لدى مقابلة مع الذين جرى طردهم للتو من جماعة الأمراء، حسبما تقدم الذكر أعلاه، والذين قالوا بأنهم لن يستمروا في تبديد ثرواتهم من أجل تدمير المملكة، درس بوساطة ابداعات بارعة كيف يمكن أن يروي عطش نهمه، ففور الانتهاء من احتفالات أعياد الفصل المذكور، شرع في تنفيذ الخطة التالية، بالقيام بمضايقة سكان لندن، بتعليق حركة نقل البضائع في تلك المدينة كما جرى الذكر من قبل، وذلك لمدة أربعة عشر يوماً، بوساطة إقامة سوق جديد في ويستمنستر لالحاق الخسارة والأذى بكثيرين، وإثر ذلك على الفور أرسل رسائل إليهم بوساطة وكلائه تحتوي التماسات ذكية، ورجاوات ملكية مهيبة، يطلب منهم مساعدة مالية، ولدى تسلم سكان المدينة هذه الرسالة، حزنوا حتى الأعماق، وقالوا: «الويل لنا، الويل لنا، أين هي حرية لندن، التي غالباً مابيعت، وغالباً ما منحت، وغالباً ما ضمنت بوساطة كتابات، وغالباً ما أقسم على احترامها؟ لأننا في كل سنة تقريباً أفقرنا مثل عبيد من الحالة الدنيا،وذلك بوساطة ضرائب جديدة، وبالأذى والمضايقة بمحاججات ثعلبية ماكرة، كما لايمكننا أن نعرف إلى أي قعر عميق آل مآل الأملاك التي سرقت منها وجرى ابتلاعها»، وبعد لأي، ومع أن المبالغ المطلوبة كانت كبيرة، على كل حال، وافق سكان المدينة، وإن كان ذلك بالإكراه ومع آلام بالقلب، وأذعنوا بتقديم الموافقة، على الاسهام بألفي باوند، تدفع إلى الملك خلال وقت قصير، وعلاوة على ذلك فإن مظالمه المعتادة استعرت من دون هوادة، لأن جميع المواد المعروضة للبيع، إن لم تكن مخفية جرى الاستيلاء عليها كما هي، خاصة اللحوم والمشروبات، وقد سلبت لصالح

استخدامات الملك، مع أن بيته لم يتطلب أية زيادة في الضيافة من ذلك، لكنه وقد تخلى عن كل الحياء، دمغ نفسه بزيادة كل يوم بسمة البخل الشنيعة، والمضافة الملكية القديمة طردت من أمام بابه، ومعها المائدة الرومانية المعتادة، فهذه زالت أيضاً، مما أساء إلى سمعته إلى درجة كبيرة ولكرامته كملك.

كيف استجدى الملك المال من نبلائه واحداً واحداً

وفي هذه الآونة، عندما لم يستطع الملك تطويع نبلاء المملكة حتى يوافقوا على طلبه وهم متحدين، لجأ إلى الطرائق الرومانية المعتادة، فأرسل إلى كل من النبلاء، أو كتب إلى كل واحد منهم، وقد خاطبهم بالتماسات مهينة قائلاً: «أنا رجل فقير، أنا مجرد تماماً من المال، وأنا أجد من الضروري أن يقوم كل واحد منكم بإعطائي مساعدة فعالة، ذلك أنني مدان بموجب صكوكي بمبلغ ثلاثين ألف مارك، وأنا لاأفرض شيئاً، إلاّ المعروف، وكل من سيعطيني هذا المعروف أنا سوف أعيده له، عندما تتوفر الفرصة، وكل من سوف لن يعطيني المعروف، أنا سوف لن أعطيه شيئاً»، ولكنه استجدى بسبب مزيف، من أنه كان على وشك شن الحرب ضد ملك فرنسا، بحكم انتهاء الهدنة، وذلك لاسترداد حقوقه بالقوة، فهو قد أثار فقط سخرية وازدراء الحكماء، لأنه كان قد منع مؤخراً من قبل المعلم ألبيرت باسم البابا، من مهاجمة —بأية طريقة من الطرق— أية أراض موجودة تحت سلطة ملك فرنسا، تحت أي عنوان من العناوين، لأن ملك فرنسا كان قد حمل الصليب وكان يقاتل في الأرض المقدسة، في سبيل الرب والكنيسة العالمية، لابل إنه حتى لو لم يكن قد منع من فعل ذلك، كان من المعتقد، بأن براعته العسكرية، أو قوته، أو ماله، مهما كان الذي استخرجه، ما كان كافياً لتجريد الملك الفرنسي، حتى من أصغر ممتلكاته، لأنه توجب عدم الظن بأن فرنسا كانت مجردة من الجنود تماماً ومن المال، وفي سبيل بقاء رسالة المعلم

المذكور مخفية عن الجميع، لم يسمح الملك بنشرها بأية طريقة من الطرق، ولقد قيل أيضاً بأن المعلم ألبيرت المذكور قد تلقى التخويل السلطوي بوضع انكلترا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، بموجب الولاية البابوية، لو تبرهن بأن الملك سوف يكون متمرداً، لكن هذه الأشياء كلها قد غطيت بغطاء السرية، حتى يتمكن من الفرض بمهارة على الجهلة.

كيف استجدى الملك المال من الأساقفة ورعاة الديرة

في الوقت الذي كان فيه الملك فاغراً هكذا فمه يسعى وراء الربح المالي، حدث أنه ذهب إلى هتنغدون Huntingdon, وكان ذلك في حوالي عيد القديسة هيلاري، وعندما كان على طريقه إلى هناك بعث وراء راعي دير رامسي، وخاطبه بسرية كما يلي: «ياصديقي أنا بجد ألتمس منك، تقديم المساعدة لي، باعطائي —أو على الأقل باسلافي— مائة باوند، لأنني أنا بحاجة، وينبغي أن أحصل على هذا المبلغ من دون تأخير، ولم يكن بإمكان راعي الدير شرفياً الاجابة بالرفض، بل أجابه قائلاً: «لقد أعطيت في بعض الأحيان، لكني لم أسلف، ولن أسلف الآن»، واقترض على الفور ذلك المبلغ من السماسرة، مقابل فائدة ثقيلة، وذلك في سبيل إرضاء مطالب هذا الملك المستجدي.

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، شدّد الملك وألحّ على راعي دير بيتربورا Peterborough بالتماسات مشابهة من أجل المال، معلناً بأنه سيكون احساناً أكبر لدى اعطائه مساعدة مالية وأفضل من التصدق على متسول على بابه، ولكن بما أن راعي الدير اعتذر عن نفسه، ولم يذعن بالاستجابة إلى التماساته، أثقله بالملامة والنقد، وبناء عليه غادر سراً بيت الملك، واستخرج في الوقت نفسه بالحجج نفسها ستيناً ماركاً من راعي دير القديس ألبان، مع أنه خدعه بوساطة هذه الحجج الماكرة، وانتزع منه مبلغاً كبيراً من المال، في كل من هذا العام

والعـام الأخير، وبناء عليه، عندمـا رأى الملك أن مـا من واحد سـوف يعـارضـه، تصور متـأملاً أن مـا من واحـد من رعـاة الديرة أو رؤسـاء الرهبان سوف يبدي نحوه أية مقـاومة، ومع أن النبلاء ألقوا العوائق في سبيله، كتب إلى الأسـاقفـة الذين كـانوا منصـاعين لإرادته —وإن كـان ذلك كرهاً لا طوعاً— كما يلي:

رسالة الملك إلى أساقفة إنكلترا

«**من هنري الذي هو بنعمـة الرب، إلخ، إلى جميع رهبـان الديرة وإلى رؤساء الرهبان في كونتيتي: اسكس وهارتفورد، تحيات**: إذا كنا بكياستنا الملكية نرغب بأن نمتحن صداقـة رعايانا المخلصين والأوفياء، فذلك في سبيل الدفاع عن حقوق المملكة، وإذا كانوا قـد أظهروا مراراً في أوقات مناسبـــة، احترامهم لأميرهـم، الذي يعيشـــون تحت حماية جناحيـــه، ويتنفســـون بحـريـة، أظهـروا ذلك بـالخدمـات الجســدية، أو بتقــديم الأعطيـات، فتلك ليست واقعة مـدهشـة، ولهذا، بما أن الهدنة بين ملك فرنسا وبيننا قد انتهت، ونحن في سبيل استرداد وحماية حقوقنا على هذا الطرف من القنال، وكـذلك المقـاطعات على القـارة، التي إليهـا أرسلنا مـؤخـراً كتلة من الجنود، فنحن الآن تحت الحاجـة لدفع نفقـات كبيرة، وأن نفتح يد الكرم إلى كثيريـن لأسبـاب متنوعـة، لـذلك أرسلنا إليكم سيمون باسلو المخلص لنا، والذي هـو من رعيتنا، ومحبوب لدينا كثيراً، مع عمد عدة كونتيات، كل واحد بمفرده، ونحن نرجوكم بحرارة، بأن تمنحـــوهم أذناً صـــاغيـــة، وأن تحسنوا إليهم، ومن خـــلالهم إلينا، وأن تستمعـوا إلى الذي سوف يـذكرونه لكم حـول هذه القضيـة، وذلك في سبيل أن نرفع عبء النفقات المتقدم ذكـرها، عليكم أن تساعدونا بكرم من أموالكم، هـذا ومفروض علينا دين، من الواجب القيـام بسداده في وقت قريب».

وعندما وصل هذا إلى علم الأشخاص الحكماء، قدروا بوضوح، مثل

وضوح الضوء، بأنه عندما كان في بواتو، وفي ألمانيا، فإن هؤلاء القوم الذين ألزم نفسه بالأخذ بتوجيهاتهم وبنصائحهم السيئة، قد أثقلوا بالمال فقط، ومن دون حماية رعاياه الانكليز، أوقعوه بشراكهم، واعتقلوه، وأنزلوه إلى حالة الفقر، وبدناءة استخرجوا منه كل الذي كان قد امتلكه، والذي سوف يمتلكه في مستقبل الأيام، أي أنه ارتبط بشكل لايمكن الخلاص منه بأيمان وصكوك موقعة من قبله، حيث تعهد بأن يرسل إليهم كل الذي جرفه من انكلترا، وهكذا ازداد حزن الانكليز وأسفهم يوماً فيوماً.

كيف استقال أسقف درم من منصبه

مع اقتراب عيد طهارة القديسة مريم،وجد نيقولا أسقف درم نفسه وقد بات عجوزاً، وضعيفاً، ومريضاً في صحته، فاختار بالحري أن يتخلى عن ثروته، بدلاً من أن تتخلى عنه، فاستقال من أسقفيته في درم، وذلك بعدما حصل على إجازة من البابا، وبناء عليه جرى تعيين أوصياء على المسألة، وهم: رئيس أساقفة يورك، وأسقفي لندن وووركستر، وجرى تعيين ثلاثة عزب له، هي عزب: هوفيدي Ho-vedey مع متعلقاتها، وستوكتون Stockton وايزنغتون Esington, فغادر المدينة وذهب ليعيش في إحدى العزب المذكورة، وذلك من أجل أن يتخلى عن جميع المسؤوليات الدنيوية، وأن يعيش بسلام متحرراً من مشاكل الشكايات والمحاكمات والمخاصمات، وأن يمتلك المزيد من الوقت ليشغل نفسه بالصلوات والتأملات حتى يأتي عليه التغيير الذي كان ينتظره، وعندما علم الملك بذلك لم يكن بطيئاً في تولي المسؤولية عن الممتلكات المتبقية العائدة إلى ذلك الكرسي، حتى يتمكن من ابتلاع المرابح المالية الكبيرة، ذلك أنه كان جائعاً وجشعاً، وفي سبيل جمع هذه الممتلكات، أرسل إلى هناك واحداً من محاسبيه اسمه توماس أوف نيوآرك.

كيف جرى منع مبارزة بسقوط ثلج ثقيل

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى تعيين موعد لمبارزة عامة تعقد في نورثأمبتون، يوم أربعاء الرماد، لكنها منعت بتحريم من الملك وبتهديد منه، وبوساطة جليد الفصل آنذاك، وحزن الفرسان كثيراً لهذا، وبشكل خاص الجدد منهم، لأنهم رغبوا بالدخول بالمباراة الأولى في مجال نظم انضباط الفروسية، وكان وليم دي بلنسية، أخو الملك لأمه، والذي كان جديداً، قد بعث برسالة إليهم، بأن لايعبأوا بحظر الملك وبشكوكه الكبيرة، وأنهم ينبغي ألاّ يتوقفوا، إذا ابتسم مناخ صالح لهم، وأن يعقدوا المبارزة، لأنه سوف يضع نفسه بمثابة ضمانة بين أخيه الملك وبينهم، ليمنع تفجر غضبه وصبّه عليهم، وأعطت هذه الرسالة إلى وليم المذكور كثيراً من الادعاء بالفروسية، وأضافت كثيراً إلى كرامته، وحدث على كل حال أنه في ذلك اليوم، وهو يوم أربعاء الرماد، أن حدث سقوط ثلج ثقيل، وقد استمر لمدة يومين، وكان كثيفاً إلى درجة أنه غطى وجه الأرض إلى عمق قدم، وحطم أغصان الأشجار الثقيلة الأوزان، ثم ذاب، مسبباً أخاديد في الحقول، أصبحت الآن كأنها كهوف امتلأت بالجداول التي صبت فيها، وهكذا جاء تدمير المبارزة المذكورة بوساطة معيق مزدوج.

كيف رغب الملك بانتخاب أخيه ايثيلمار أسقفاً لدرم

وفي الوقت نفسه قام الملك المتيقظ دوماً، والباحث الذي لايعرف التعب، والساعي وراء المال، فوضع جانباً كل خوف من الرب، بطريقة لاتليق به سوى قليلاً، فمع أن حق الانتخاب عائد إلى التجمع الرهباني في درم، أرسل التماسات تكدست فوق التماسات إلى تلك الجماعة، وكان ذلك بوساطة رسل حكماء ووعاة، وكذلك بارعين في فرض الأمور وترتيبها،حيث نصح، وطلب، وتهدد باعطاء أوامر بوجوب انتخاب أخيه لأمه ايثيلمار بالاجماع من قبل جماعتهم، ليكون أسقفاً لدرم وراعياً

لأرواحهم، وفي سبيل أن ينجح في مقاصده تصرف وفقاً لكلمات الشاعر:

مزج الأوامر والوعود والالتماسات

وهكذا ظهر على التوالي سيداً ومستجدياً

وعلى هذا الطلب رد الرهبان بتواضع قائلين: «تذكر ياصاحب الجلالة، ياأعظم الملوك المسيحيين، تذكر، إذا كان يرضيك اليمين الأول الذي أديته، عندما كنت على وشك التتويج، والذي كان فوق كل شيء بأن تسمح للكنيسة المقدسة بأن تتمتع بحريتها، على الأقل أحياناً، بانتخاب —مع فضل الرب— أباً مناسباً وموائماً، وراعياً لأرواحنا، وأنت تعلم، والعالم يعلم بأن أخاك المذكور غير كفء، في كل ممايتعلق بالمعرفة والسن، ليقوم بأعباء مثل هذه المهمة الروحية الصعبة»، وعلى هذا يقال بأن الملك قد أجاب قائلاً: «أنا قادر، وراغب تماماً بالاحتفاظ بهذه الأسقفية بين يدي لمدة ثمانية أعوام أو تسعة، أو أكثر، حيث سيكون وقتها في سن ناضج، مقبول لديكم».

شكوى حول السرقات المقترفة في إنكلترا

مع اقتراب الصوم الكبير، كان الملك قد وصل إلى وينكستر، وإليه وصل إلى هناك تاجران من برابانت لتقديم شكوى، وقد خاطباه بالكلمات التالية، الممزوجة بالأسى والدموع: «أيها الملك الأكثر سلاماً وعدلاً، نحن بحكم أننا تاجرين من برابانت، كنا عابرين من خلال أراضيك، التي اعتقدنا أنها آمنة، لمتابعة تجارتنا، وقتها هوجمنا ونحن مسافرين، غير محميين، فهكذا كان واقعنا، وجرى الهجوم من قبل بعض قطاع الطرق واللصوص، الذين نعرفهم من وجوههم، والذين وجدناهم في بلاطك، فهم قد قاموا بدناءة وبلصوصية، فانتزعوا منا بالقوة مايساوي مائتي مارك، وإذا ما أقدم هؤلاء الرجال على انكار

التهمة، نحن على استعـداد —بعون الرب الذي هو قـاضينا— لكشف الحقيقة بمحنة مبـارزة واحدة ضدهم»، وجرى اعتقـال الفئات المتهمة، و تقرر بعد ذلك اقرار قضيتهم بوساطة إفادة أهل المنطقة، وأطلق يمين حلفتـه المنطقـة سراحهم، ومـاهو وجـه العجب في ذلك؟ فقـد كـانت المنطقة موائمة لهم، لأنها كلها كانت مصابة بداء السرقة، لكن التاجران المتقـدم ذكرهما تـابعا الضغط بتهمتهما، وطالبـا بجـرأة بما لهما على يدي الملك، وبدأ الملك بالانزعاج، فاستدعى مستشاريه، وقال لهم: «ماالذي ينبغي صنعه؟ لقد ضاقت أحشائي من بلية هذين الرجلين»، وعلى هذا رد مستشـاروه: «ياصاحب الجلالـة، لقد سمعنا، ونحن نعـرف أن تهماً مماثلة قد راجـت في جميع مقاطعات انكلترا، ذلك أنه غـالباً مـا تعرض المسـافرون هنا إلى السرقـة، والجراحـة، وجعلوا أسرى، وقتلوا، ونحن نعجب كيف أن رجال عدالتكم المتجولين —الذين واجبهم هو هذا— لم يقوموا بتنظيف هذه البلاد من هذا العار، وبناء عليه، نحن نعتقد بأن لصـوص هذه البلاد، المنتشرون هنا بكثـرة من دون حدود، قـد دخلوا ببراعة وعملوا مـؤامرة فيما بينهم أنفسهم، بأن لايقـوم أي واحد منهم، مهما كانت المعطيـات، باتهام الآخر، وهكذا فإن مؤامـرتهم ومكرهم قد نجوا من أن تعـرفهما، وكذلك نجـوا من رجال عـدالتكم ومن نوابكم الآخـريـن، وقـد كـان هنـري دي مـارا Mara,رجل عـــــدالتكم هنا،مع أصحابه، ولم يفعل شيئاً نافعاً، وهؤلاء الأشخاص أيضاً، الذين قمت بتعيينهم مفتشين متحالفين مـع اللصوص ومحرضين لهم، ولذلك علينا أن نتصرف بحذر ضـد مثل هؤلاء الخونة المتعددي الأشكال، أي أن تتـولى البراعة خـداع البراعـة، لأن عـدداً كبيراً من التجـار، خاصـة الذين هم من القـارة، يجيئون ويروحون من هنا بسبب الميناء المجـاور، وبحكم أنها المدينة الملكيـة، ومن أجل السـوق، وأيضاً هذان الرجـلان اللذان سلبـا قـد أعلنا، أن المال —الـذي من أجل البرهنة على حقيقـة أمـره هما على استعداد لفعل ذلك بوسـاطة مبارزة فـردرية— إذا لم يرد

إليهما، فلسوف يستردانه بالقوة، بالاستيلاء على جميع المقتنيات العائدة إلى التجار من مملكتكم في بلادهم، مما سوف يسبب الخسارة إلى التجار المذكورين ولسوف يلحق العار بك، ودوق برابانت، الذي نرغب بصداقته، سوف يعاملك —ليس من دون مسوغ صحيح— بازدراء».

وبناء عليه استدعى الملك النواب، والرجال الأحرار لتلك المنطقة، أي أن تقول منطقة ثاوثأمبتون، وبنظرة صارمة قال لهم: «ماهذا الذي سمعته عنكم؟ لقد وصلتني شكاوى أناس مسلوبين، ومن الضروري بالنسبة لي الإصغاء إليهم، حيث ليست هناك كونتية أو منطقة في جميع أنحاء انكلترا إلاّ وسيئة السمعة بهذا، أو ملطخة بعدد كبير جداً من الجرائم، حتى عندما أكون أنا حاضراً في المدينة، أو في ضواحيها، أو في الأماكن المجاورة، تقترف السرقات وأعمال القتل، كما أن هذه الجرائم ليست لوحدها، حتى أن خموري الخاصة عرضة للسرقة والنهب، وتحمل بعيداً في عربات من قبل أولئك المجرمين، الذي يضحكون ويسكرون عليهم، كيف يمكن التساهل مع مثل هذه الإجراءات أية مدة أطول؟، وفي سبيل استئصال هذه الجرائم ومايماثلها، عينت أشخاصاً حكماء للالتحاق بي في حكم المملكة وحمايتها، أنا رجل واحد، ولستُ أرغب، كما أنني لست بقادر على تحمل أعباء إدارة المملكة كلها من دون مساعدة معاونين، وأنا خجل ومنهك من النتانة القذرة لهذه المدينة، وللمناطق المجاورة، فلقد ولدت في هذه المدينة، ولم يلحقني القدر نفسه من العار في أي مكان آخر كما لحقني هنا، ومن المحتمل، ولابد أن أعتقد، لابل إن الأمر واضح الآن تماماً، أنكم أنتم سكان المدينة، وسكان المنطقة شركاء بالجريمة ومتحالفين سيىء السمعة، وانني سوف أدعو جميع كونتيات انكلترا، حتى يقوموا بمحاكمتكم بمثابة خونة لي، ولكي يلاحقوا جرائمكم، حتى لاتستمر براعة محاجحاتهم في نيل الربح، أية مدة أطول»، وحدث هذا في قاعة

قلعـة وينكستر، بحضـــور و. .,W أسقف تلك المدينة، ثم صرخ الملك فجأة بصـــوت مـرتفع: «أغلقـوا أبواب القلعــة، أغلقـوهم على الفـور»،وعندها انتصب الأسقف وقـال: «تمهل يامـولاي، تمهل قليـلاً واستمع إليّ بصبر، إذا كـان ذلك يرضيك، يوجد في هذه القلعـة بعض الغـرباء، مع رجـال صـالحين، لهم سمعــة نقيـة، وهـم أصـدقـاء لكم، ولايرضيكـم حبسهم، فأنت قـــد اتهمت سكـان وينكستر ومحرضيهم فقط»، ثم تابع كلامـه، وحول الأسقف وجهه نحو الحشـود وقال: «أنا راعيكم ووالدكـم الروحي، ولدي السلطة على أرواحكـم في القضـايا الروحية، وإلى حـد كبير في القضايا الدنيـوية، وإنني أحرم كنسياً جميع المتآمرين في هذه الجريمة البشعـة، وكذلك الذين يحبذونها، أو يتعاملون معها من خـلال الخوف، أو من أجل الحصول على جـائزة، وكل الذين يخفـون الحقيقـة بأية طريقـة من الطرق عندمـا يستجـوبون حـول هذه القضيـة»، وبناء عليـه جرى هناك انتخـاب اثني عشر شخصاً من بين سكان و ينكستر، ومن كـونتية ثاوثأمبتون، وقـد أقسم هؤلاء أن يعطوا أسماء أية لصـوص عندمـا يعـرفون، وبعـدمـا انتقل هؤلاء الرجـال إلى مكان خاص، عقدوا نقـاشاً طويلاً، وكانوا تحت حراسة مشددة، وبعد مداولات طويلـة، جرى استدعـاءهم ثانية، لكنهم رفضـوا اعطاء اسم أي واحـد من اللصـــوص، الأمـر الذي أزعج الملـك كثيراً، لأنه كـان مدركاً تماماً أنهم يعـرفون شيئاً ما عن خطط اللصوص، وبما أنه اشتعل غضبـاً قـال: «أمسكوا هؤلاء الخونة المخـادعين، وغلوهـم بالسـلاسل، وألقوهم في الزنـزانة الأعمق، لأنهم رفضوا الكلام، وأخفوا مـاتوجب أن يكون معلـومــاً، وهـم لاشك محرومين كنسيـــاً من قبـل أسقفهم، وانظروا كيف أعطوا هؤلاء الرجـال الحظوة والتأييـد، اختـاروا لي اثني عشر واحداً آخر من سكان وينكستر وكونتية ثاوثأمبتون، من الذين لن يعارضـوا الحقيقة، لكي يكشفـوا لي الحقيقة حـول القضايا التـي سوف أسألهم عنهـا»، وبناء عليـه جـرى اختيـار اثني عشر آخـرين، وجـرت

دعـوتهم، وعندمـا وجـد هؤلاء أن الاثني عشر المتقـدمين، قـد جـرى سجنهم، وحكم عليهم بالشنق، لأنهم أخفوا الحقيقـة، شرعوا يشعرون بخـوف عظيم، وقـال أحدهـم للآخر: «نحـن أيضاً سـوف نعـاني من عقوبة مماثلة إذا ما أخفينا أي شيء من الحقيقة عندما نستجوب»، وبعد مداولات سرية ومناقشات طويلة عقدوها فيما بينهم، قدموا عائدين إلى وسط الاجتماع، وأطلقوا عقال ألسنتهم، وكشفوا سرقات وجرائم كثير من الأشخـاص، الـذين كـان عـدد كبير منهم ينتمـون إلى المناطق المجـاورة، بشكل خـاص إلى ألتـون Alton وإلى الملكيـة الخاصـة بالأسقف في تانتـون Tanton, ومن بين هؤلاء كـان بعضهم من سكان المدينة والكثير منهم كـانوا من سكان المنطقـة، والذين كـانوا يعـدون من قبل صالحين، ورجـالاً مخلصين، وكانت لديهم وفـرة كبيرة من الممتلكات الغنية، وكان بعضهم ممن أنابهم الملك، كأوصياء ونواب، لحماية ذلك الشطر من البـلاد، ولاعتقال اللصـوص وطردهم، وامتلك آخـرون خيولاً وثيـاباً غاليـة، وكـان لدى بعضهم الآخر بيـوتاً وأسراً، وتمتعـوا بامتـلاك خمسين أو ثمانين ملكيـة خـاصـة من الأرض، وكـان بعضهم من كبار موظفي الملك وحـاشيته، كما كان من بينهم رماة قسي عقارة يعملـون في خدمة الملـك، وجرى اعتقـال هؤلاء جميعاً، وبعـدما تبرهن أنهم مجرمين، شنقـوا، والتجأ بعضهـم إلى الكنائـس، وهرب آخـرون بشكل مفاجيء وبصـورة سرية، ولم يظهروا مـرة ثانية، وكـان بعض الأشخاص ينتمون إلى المدينة نفسها، وكانوا آنذاك يتولون خدمة الملك، بابعـاد الناس الذين كـانوا قـد احتشـدوا بسبب طرافـة هذه الإجراءات وحداثتها، فقـد كان عدد الناس الذين اجتمعوا مع بعضهم كبيراً جـداً، وامتزج هؤلاء ببراعـة مع الحشود، وقـاموا فجأة بمغـادرة القلعـة، حيث أبقـوا أنفسهم مخفيين، أو هربـوا إلى أقـرب الكنائس، وعندمـا جرى استجـواب الذين اعتقلوا بدقـة أكبر، اعترفوا بأنهم قـد اقترفـوا جرائم لم يسمع بمثلهـا، من نوعي السرقات والقتل، بالتـواطؤ

مع آخـرين وبمسـاعـدتهم، ومن بين هؤلاء تبرهن أن حـوالي الثـلاثين كـانوا مدانين، لـذلك أخذوا وشنقـوا، وأودع العـدد نفسه أو أكثـر في السجن، لينتظروا عقوبات مماثلـة، وقال بعض الذين عادوا إلى حـاشية الملك، عندمـا كـانوا على وشك التعليق على المشنقـة، للضبـاط الذين كـانوا مسؤولين عنهم: «قـولوا لمولانا الملك بأنه هو سبب مـوتنا، لابل السبب الرئيسي لذلـك، لأنه أوقف لمدة طويلة الدفـع لنا مـانستحقــه، ولذلك أرغمنا على أن نتحـول إلى لصـوص وقطاع طرق، أو لأن نبيع خيـولنا وأسلحتنـا، أو مـلابسنا التي لم يكن من الممكـن لنا العيش من دونها»، وعندما تسلم الملك هذه الرسالة، تأثر وشعر بالخجل والحزن، وعبّـر عن أسفـه بتأوهات متواليـة، وكان من بين اللصـوص الأخساء الذين اعتقلوا واحـداً تقـدم بالتماس استئنـاف، وكـان اسم هذا الرجل وليم، ولقبـه بابا Papa, وكـان هذا الرجل لــديه ثروات هائلة على شكل بضـائـع مخزونة، وكـانت من الكثـرة بمكـان، حتى أنه لدى فحص بيتـه، بعد اعتقـاله، وجـدوا هناك في مستودعـه حوالي الخمسـة عشر برميــلاً مليئة بالخمــرة، وكـان هذا الرجل قــد تقــدم بالتماس استئناف، ولكن عندمـا وجـد مجرماً، تم شنقـه على الفـور، وقام أحـد الناس بعمل خدمة جيدة للملك في القتال، حيث حرر المنطقة من ستة من اللصوص، وهكذا جرى طرد هؤلاء المجرمين الذين لطخوا سمعة تلك البلاد، بقـدر وتوفيق من رحمة الرب، إله الانتقـام، وعلى كل حال تخلصت وينكستر، وثاوثأمبتون وجميع تلك المنطقـة من الوصمة الشائنة للسمعة، ومن مخازي تلـك الوقائع، ولقد توليـت شرح هذه الأحداث بشكل كـامل وباسهاب، حتى يكون واضحـاً كم هو سهل أي تحالف، وكيف يمكن بسهـولة تفكيك أية مـؤامـرة منسوجـة بين مقترفي الشر، لأنهم يرتحلون في دائــرة، وفي وقت الضرورة يسببــون اضطراباً بينهم أنفسهم، لكي تكون العقوبة في النهاية أكثر حدة.

ازدياد سوء سمعة الإمبراطور بشكل جدي

وأصبح في الوقت نفسه اسم فردريك مشهور جداً في مختلف أنحاء العالم، بأنه أسوأ من هيرود، ويهوذا، ونيرون، بسبب النتانة المميتة الصادرة عن أعماله، حسبما ورد ذكر ذلك في الرسالة التالية، التي تثير سمع و قلوب المسيحيين، وتملأهم بالدهشة والحزن.

رسالة قدح صادرة عن الكاردينال ريمير ضد الإمبراطور فردريك

«جريمة كبيرة، ممارسات شائنة، وحشية حيوانية، شرور لم يسمع بمثلها، دناءة متجاوزة الحدود، قد مورست في هذه الأيام، مظهرة صورة مرعبة للرب، وللملائكته، وللناس، نحوها ينبغي أن تصبح الشمس شاحبة، وأن تختفي أشعتها بالغيوم، وأن تغلف النجوم بالظلام، وكأنها بالفعل مختومة بختم، والأرض ترتجف، والبحر يهتاج غاضباً، وآذان الذين يسمعون بهذه الأفاعيل ترن بها، واضطربت قلوب المؤمنين، واهتزت أحشاء المسيحيين، وثارت قلوب الملوك، والأمراء، والفرسان، وجميع المؤمنين الذين يعتقدون بالمسيحية للقيام بالانتقام، وانتبهوا كيف أن مبشر الشيطان، وناثب ابليس، ورائد المسيح الدجال، ومبدع الأعمال الوحشية ووكيلها كلها، قد هاجم بعنف وانقض على المكرسين للرب، وعلى الحبر الأعظم الممسوح بالميرون المقدس، وعندما أدرك مارسيللينوس Marcellinus المقدس، أسقف أريزو Arezzo, بأن مرجل الاضطهاد، قد حمي كثيراً بوساطة هبات رياح الشمال، وأنه كان يغلي بعنف ضده، في مدينته، انصاع أمام تيار غضبه، وعاش في المنفى والفقر لكثير من السنين في أنكونا Ancona, التي هي ابنة مخلصة جداً للكرسي الرسولي، وبعد لأي، قام إثر تلقيه توصية رسولية، فبذل جهوده بشكل مواظب لانقاذ شعب التخوم من بين فكي التنين

المسمم، ومن شراك الشياطين الذين كانوا يطاردونهم، ومن نير الطغيان، وفي هذا، كما يبدو، بفضل نعمة الرب، قد حقق بعض التقدم، وحدث على كل حال، أنه بإرادة من الرب وسماح، قد وقع بين أيدي أعدائه، وضغط عليه بشدة بالسجن والأغلال لمدة ثلاثة أعوام أو أكثر، بوساطة أتباع فرعون، وبعد مضي بعض الوقت فرح فرحاً عظيماً فردريك، رجل الدم ذاك، الذي كان يتجول ثائراً مثل تنين، ومثل أسد غاضب، يبحث عمن يفترسه، وهو ملوث بدم الأبرياء، ثمل من شرب دماء الرجال المقدسين، وبعدما فرح فردريك وشعر بالسرور العظيم، قام بمشاعر حيوان مفترس، وخطط بفكره لتدمير كاهن الرب هذا، ولاشك أن هذا الرئيس المدنس وغير التقي، كان يشعر مثل أبيه الشيطان، بغضب عظيم ضد كنيسة الرب، وبما أنه قد عرف أنه لايمتلك سوى وقت قصير، انفجر على الفور غاضباً، وزمجر وتفوه بقرار قضى بالشنق، وبقطع العنق ضد هذا الرجل المكرس للرب في مدينة المنصورة، التي تأسست من قبله، والتي لقبها ينبغي أن يدرج بين أولئك العائدين للمؤمنين، وقد حدث بوساطة معجزة مدهشة في اليوم الثالث قبل الانتصار المدمر له ولتلك المدينة، لأن المنصـــــورة هذه، على عكس نوايا هذا الرئيس الغاضب، الذي منحها ذلك الاسم، قدمت اشارة مسبقة باسمها، بأنها سوف تذعن من نفسها إلى النصر المدوي لقضية الكنيسة، ومجدداً كان عمالقة الجحيم، وأتباع الشيطان، قدتلقوا أمراً من رئيسهم أن يفعلوا مايلي: أن يحرضوا الأسقف أن يعلن على الملأ الحرمان الكنسي للبابا، والكرادلة ولأساقفة الكنيسة الآخرين، وأن يكون ذلك أمام جميع الناس، وأن يقسم على تقديم الولاء إلى فردريك الغادر، الذي وعده بالعفو، وبكثير من الثروة إذا فعل ذلك، ولكنه وقد نال القوة بروح الرب، أكد بجرأة أنه غالباً ما تولى حرمان فردريك المذكور، ابن الشيطان وتلميذه مع أتباعه، كنسياً، ثم إنه قام بترديد حكم التكفير نفسه ضده، وعندما اقتيد هذا الكاهن إلى الشهادة، متّن نفسه للمرة الأولى بدموع

التـوبة، وبجميع القداسـات، عندما اعتقـد أنه على وشك أن يلقى به في الهاوية، عـرف من الذين كـانوا واقفين هناك، بأنه سـوف يسحل خـلال البلدة ليموت على المشنقة، وقتها أخذ ينشـد بصوت مرتفع قائلاً: «نحن نحمـدك أيها الرب»، وكـذلك ترنيمـة الملائكة، ثم إنه رغب بأن يجر إلى المشنقـة، مثلما جرّ المسيـح إلى الصليب، ولكن لوجـود النساء والأطفـال الذين كانوا يبكون من حـوله، لم يسمح بتعريته تمامـاً، وعلاوة على ذلك قام المسلمون بربـط يديه وقدميه المقدسين، وبتغطيـة عينيه، ووضع رأسه إلى جـانب ذيل دابـة تولت جـره، وذلك من أجل أنـه إذا مـا خـرج أي روث من الدابة، يمكن أن يلـوث رأسـه المقـدس، ولكن مجدداً فإن هذه الدابة البهيمة، على الرغم من نخسها بالمهاميز، تعذر تحريكها، حتى أنهى بطل الرب هذا المزمـور والصـلاة التي كان قـد شرع بها، وقـد سمح لها بالسير من قبل الأسقف نفسه، وهكذا جره أولئك المسلمون إلى المشانق، خلال قلعـة القديس بلاميـانو Plamiano, وكأنه كان عـــامياً من أصل وضيع، محروم من الغطاء، أو أنه كان غادراً قـاتلاً لأبيه، أو مغتالاً له، أو لصـاً، أو مداهماً للبيـوت ليلاً وللحقـول، وكان بين الأشيـاء التي عملهـا أنه قدم اعترافـاً للمسيح، ولبعض الرهبـان الفـرنسيسكان الذين وقفوا هناك، بأن هشـاشة الضعف الانساني قد حرضتـه —إذا كان ذلك ممكناً— بأن ينجو من الشهادة التي رغب بها عندمـا كان حراً، وتابع هو شخصياً بشكل مكشوف الاعتراف بهذا، وببعض التوافه التي جاءت إلى ذاكرته، وطرد من قلبه جميع مشاعر الكراهية ضد الذين آذوه، وقد تحمل بصبر كل الأذى الذي فعلوه له، وجرى تعليقـه على المشنقة في أول أحد من هذا الصـــوم الحالي، وبالسـاعــة نفسهـا التي صعــد بها مخلصنا إلى الصليب، وتمت مركزة الحراس على مقربة منه، ومكث معلقاً على المشنقة لمدة ثلاثة أيام، أي حتى قام الفـرنسيسكان بسرقة جسده، لكن الجلادين الذين تولوا عمليـة الإعدام، أخرجـوه من القبر، وبعدمـا سحلوه خلال الوحل، علقوه مجدداً على المشنقة، على أن لايحركوه وينزلوه من دون اذن

خـاص، من بيــلاطيـوس الجديد، والمحتقــر الكبير للمسيحيـة، والمهين لرجـال الدين، والملحق العـار المستمـر بطائفة الكهنة، والمدمـر للكرامـة البابويـة،ومع أن جسد الشهيد كـان قد اهترأ من قبل، بسبـب العقوبات القـاسية التي تعـرض لها، ولأنه دفن من قبل، لقد تماسك الآن بوسـاطة معجزة، فهـذا ماشهد به الرهبـان الذين قدمـوا من ذلك المكان، وأكدوه بشكل يقيني، أنه على الرغـم من مـرور عشرة أعـوام، لم تصـدر عنه أية رائحـة قـذرة، وعملت الشهـادة نفسهـا من قبل رجـال حكماء بالنسبـة للمعلم هوغلين زيموكشيو Hugelin Remoccio وكانَ رجلاً محترماً، الذي كبـا به فرسه، فوقع على الأرض، فأخـذ أسيراً أثناء القتال، فجـرى تجريـده من قبل أعـدائــه غير الأتقيـاء، ومن ثم جــرى ذبحـه بوحشية.

انظروا أيها القوم المسيحيين، وتبصروا فيما إذا كان هناك أي حزن مثل حـزن الكنيسة أمكم، أو بالحري كنيستكم، لأنه من الذي شـاهد قط أو سمع بمثل هذه الإجراءات، أو مايشابهها؟، فهل يمكن للعبيد المخلصين للمسيح، لدى تفكرهـم بهذه الأشيـاء، أن يكفكفوا دموعهـم، أو يوقفوا تأوهاتهم وتنهــداتهم؟، هل هنـاك من قلب مهما يكن قـاسيـاً، لايحزن ولايأسف عندما يضرب بمطرقة مثل هذه الوحشية الكبيرة؟ أولم تسحق بعض القلوب الحجرية لبعض المسيحيين، وتتمزق صـدورهـم القاسية؟، أين هي غيرة الإيمان المسيحي؟، أيـن نار حب المسيح المعلق الآن ممثــلاً بشخص رجل دينـه وكـاهنه الأعلى؟، وكما قــال لبطرس: «اذهب إلى رومـا، واربح أن تصلب» «وشــاول، شـاول لماذا تضطهـدني»؟، ومـرة أخـرى قال في الانجيل فيما يتعلق بـرسله: «كل من يرفضكم، يرفضني، وكل من يؤذيكم يؤذي بؤبؤ عيني»، وعلى هذا، قام هذا التعيس الشرير، حتى يضيف إلى ركـام شروره، ولكي يلوم قســوة قلوبنا، التي نادراً مـا أثيرت تجاه مثل هذه الجرائم المرعبـة، فلم يتردد بـالغـالـب في تكرار مثل

هذه الاعتداءات، مؤكداً بسبب أن مظالمه التي قد اقترفت مراراً من دون انتصاف، بأن الاحسان قد أصبح بين المسيحيين بارداً، وأن أوعية العواطف قد أصبحت جافة كلياً منهم، وأن الغيرة كلها من أجل الإيمان قد ماتت، لأنه تدبر منذ عامين اغراق أسقف غيراس Girace في كالبيرا، في حمام عمل حاراً جداً، وفي هذا العام أيضاً تسبب في مدينة اللاتيران بمقتل أسقف سيفاليدي Cephaledi في صقلية، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان قد طرد من كرسيه لمدة خمسة عشر عاماً بوساطة هذا الرجل غير التقي المذكور نفسه، وجاء مقتله بالسيف على أيدي قاتل صقلي مستأجر، وكان هذا الأسقف المبجل والجليل محبوساً، وكان قد أقام مدة طويلة في حجرة الفقر، تحت هواء النفي البارد، وكان بالفعل قد شرع يغرق من قبل نفسه في القبر، ولم يرسل هذا القاتل المستأجر المتقدم ذكره من أجل هذه الغاية فقط، بل أيضاً ليلقي —إذا استطاع— بيديه الدمويتين على أي واحد من الأعمدة الكبار للكنيسة، وينبغي أن لانعجب لدى قتله الأقل شهرة من الأساقفة، لأنه كان قد جلب من قبل قتلة مستأجرين، ورجال اغتيال لقتل النائب الأول للمسيح، وبعض إخوانه، كما أنه عمل محاولات مماثلة، ضد بعض الأمراء، ويالأسف كيف أن الخوف من الرب قد نام لدى الأمراء المسيحيين، وكيف أن التراخي بحب المخلص صار مطلقاً، وكان يحدث فيما مضى في أيام الأمم إذا ماجرى انكار عبادة الشيطان في أي من البلاد الوثنية، كان الشخص المقدم على ذلك يمزق إلى قطع، ويقتل بوساطة عدة أنواع من العذاب، والآن وقد جرى الاستخفاف بالإيمان، وبدأ الهراطقة بالسيطرة، وهم الآن محميين محروسين من قبل هذا الرجل غير التقي، والتبشير بالهرطقة قائم في ممالك هذا الشرير التعيس، والارتداد بازدياد هناك، وجرى ازدراء القداسات مع مفاتيح الكنيسة، وديس على الحرية اللاهوتية، وانعدمت العناية بالأرواح.

ومنذ بعض الوقت، عندما كان الجيش الصليبي، الذي كان ناوياً الاستيلاء على القاهرة، قد منع من التراجع بفيضان المياه، أولم يحدث أنه بلطف السلطان، جرى تزويده بالمؤن، وحفظ سليماً، وأرسل عائداً إلى الوطن من دون أذى؟ وكان مع ذلك الجيش أسقفي ألبانو وعكا، صاحبي الذكرى اللامعة، وبعض الأساقفة الآخرين والقساوسة، وجون بريين، ملك القدس، صاحب الذكرى اللامعة، وأولم يكن جون دي كولونا Colonna, صاحب الذكرى اللامعة، و الراهب الكاردينال، الذي ذهب إلى بلاد الاغريق مع امبراطور القسطنطينية، لاسترداد تملك تلك البلاد، قد وقع أسيراً لدى ثيودور كومينوس، وأقول أولم يكن هو الذي عومل باحترام وأطلق سراحه؟، وانظروا إلى جنون هذا العدو الأكثر وحشية، هو لم يكتف بهذه الأفاعيل الشريرة، بل إنه تسبب بتدنيس الكنيسة بوساطة المسلمين، وأن يجري تدمير المذابح، وبعثرة الآثار المقدسة، وأن يجري الاعتداء على العذراوات، والأرامل، والنساء المتزوجات، في الأماكن المقدسة وعلاوة على ذلك جرى بناء على أمره قتل الرهبان الفرنسيسكان، والرهبان الآخرين، الذين كانوا مسافرين حول العساكر المسيحيين وبينهم، لتحديد الكفارات عن الذنوب، ولدفن أجساد القتلى، لقد جرى قتل هؤلاء بسيوف أتباع هذا المتمرد غير التقي، وبالاضافة إلى هذا، ولكي يشتعل غضب الرب بحدة أعظم ضد هذا الرجل الشرير، قام المسلمون مؤخراً في هارينا Harina, على مشهد من الجمهور بجر تمثال المصلوب بذيل أتان، مع تمثال مريم المباركة، وقديسين آخرين، ثم قطعوا رجلي وذراعي تمثال المسيح، وفعلوا الشيء نفسه بالتماثيل الأخرى، وثبتوا الجميع على ترستهم، حتى يرغم المسيحيون أثناء القتال على طعنهم برماحهم ونشابهم، ولماذا على هذا، لايكترث الصليبيون بهذه الأعمال الشائنة، فيحرثون الأنهار بسيوفهم، ويعبرون البحر لقتال المسلمين أو التتار، الذين أرسلوا غضبهم من مسافة، عندما عدّت وحشيتهم أقل بكثير من إجراءاته هذه؟.

إن المتـوجب أولاً محق شرور المسلمين هذه، مـع قـادتهم ومحرضيهم، وعليهم بعـد ذلـك السيرضـد آخـرين، لأن القضيــة الموجـودة الآن في الوطن، هي التي ينبغي أن تطلب في الخارج، والآن يجري الاضطهاد من قبل الكفــار في قلب الكنيســة ذاتها، وفي ديـرة المسيحيين، وداخل اطار العالم المسيحي، يبـدو من الموائم أولاً طرد المقترفين لمثل هذه الجرائم من ايطاليا، خشية أن تجري رعاية الثعبان في الصدر، والفأر في القفيز، والنار في الرحم، وعليهم بعـد هذا السير إلى أمـاكن نـائيـة، لأن الرب لم يختر شعبــه بالنسبــة للمكـان، بل بالحري العكس هـو الصحيح، حسبما هو واضح من القـديس بطرس والـرسل الآخـرين، الذين غـادروا القـدس وعبروا إلى الشعــوب، وقـدر بناء عليــه، أنه إذا كـان هناك أي واحــد صـاحب فهم، وإذا كان هنـاك أي واحد يحزن لموته، وإذا كـان هناك أي واحـــد ينظر إلى الأذى الـذي ألحق بكهنة الرب، وأن الرب يتطلـع من السماء فيرى أبناء الناس، وعلى كل مسيحـي أيضـاً أن يقــدر أنه في يوم الحساب عليـه تقديم الاجابة إلى الـرب، إذا ماعبر مع مثل هذه الجرائم، وبناء عليه، اتبع حتى النهاية قضية ابن الرب الأعلى، في سبيل أن تتمكن من إيصـال قضيتك إلى نهايـة جيـدة، وحـافظ على قـرينـه باليـد اليمنى لقـدرتك، من أجل أن يضعك القـاضي العـادل في يوم الحسـاب الأخير على يمينه، ويفضي بك إلى مجد سرمدي».

كيف أقنعت مفاسد البلاط الروماني كثيرين بالوقوف إلى جانب قضية الإمبراطور فردريك

لدى وصـول هذه الـرسـالة المرعبـة إلى علم الناس، خــرقت قلوب الكثيرين، وكـــانت ستغضبهم كثيراً، وتشجعهم على الوقــوف ضــد فـردريك، لولا أن أعــداءه البـابويين كـانوا ملـوثين بدنس آثام الجشع، والسيمـونيـة، والربا، مع شرور أخـرى، فقد كـان بين أعمالهم الجنونيـة تضييقهم على الصليبيين، حيث حشــوهم تحت طائلة عقــوبة الحرمــان

الكنسي، في بعض الأحيـان لإرسال مسـاعدة إلى الأرض المقـدسة، وفي وقت آخـر، ارسـال المساعـدة إلى رومـانيـا (بيزنطة)، وألمحـوا لهم مـرة أخـرى أن عليهم الثـورة ضـد الامبراطور فـردريك، والذي عـدّ أكثـر تقـزيزاً للنفس هو جعلهم الرهبـان الفرنسيسكان والدومينيكان جبـاتهم للضرائب، وقـد استخـرجـوا بحجـة أو أخـرى الامـدادات الضرورية للسفر من الذين حملوا الصليب، وبناء عليه صحيح أن الطاغية فردريك قد اقترف جرائم فظيعة، ومع ذلك إنه بالنسبة لفظائع الرومان قد وجد عدداً من المحرضين بشكل علني أو سري وأصحاب في الجريمة.

حول الخلاف بين سكان كمبردج والكهنة فيها

وأيضـاً في حـوالي الوقت نفسـه، أي في الصـوم الكبير، نشب لسبب صغير خـلاف بين سكان كمبردج والبـاحثين فيهـا، عنه نجمت قضـايا قضائية، ومعارك، ونهب، وتدمير للبيـوت، وجراحات وقتل، ووصلت صرخـات شكاوى ثقيلة إلى أذن الملـك، وانتشرت أخبـار الفضـائح في الخارج، وسببت الخسـائـر التي وقعت مـن على الجانبين آلامـاً كبيرة،وأعتقـد أنه جـدير بالذكر أيضـاً، أنه بوسـاطة إثارة عـدو الجنس البشري، حسبما جرت العـادة في الصوم الكبير، أثير خـلاف دموي بين الباحثين والعلمانيين، وكذلك في القارة، مثلما حدث على هذا الجانب من الماء، حسبما تقدم ذكر ذلك مـراراً من قبل في هذا الكتاب، من أجل أن يصاب الانسان بالجراحة في هذا الوقت المقدس.

كيف نجا الإمبراطور من الموت بالسم

تعـرض في هذا العـام نفسه فـردريك للمضـايقـة الشـديدة من جميع الجهات بوسـاطة قضايا متنوعـة فهو قد جـاء إلى هذا الجانب من الجبال لمحاربة البابا، ولكنه عاد إلى أبوليا ثانية، لأنه حسبما ذكر أحد التقارير قد دس له السم، وكان شديد المرض، وبناء على نصيحة أطبائه توجب عليه

استخدام الأدويـة لتنقية نفسه مـن السم، وأخذ حمام يعـدّ خصيصاً لهذه الغاية، وكـان لدى المعلم بطرس دي فينيـا الذي كان أقرب المستشـارين من فردريـك المذكور، وكان مسـؤولاً بشكل خاص عن العنايـة بروحه، واحـداً من الأطبـاء مـرافقـاً له، وقـد ذهب هذا الطبيب بناء على أوامـر فـردريك، وكـذلك أوامـر بطـرس المذكـور، لعمل الترتيبـات الضرورية لمعالجته، لكن مع نوايا خيـانية، ذلك أنه قام بناء على تحريض من بطرس المذكـور، بمزج سم قـوي وقاتل مع شرابه الدوائي، وكـذلك في الحمام، لقتل سيدهما الواثق بهما بهذه الوسائل، وقال أعـداء الكنيسة بأن البابا قد أفسـد قلب بطـرس بالهدايا وبالوعـود الكبيرة، وأقنعـه باقتراف هذه الجريمـة، وحدث على كل حـال، أنه في الوقت ذاته الذي كـان الشراب سيجـري تناوله، أن جـرى تحذير فـردريك بشكل سري من الجريمـة المنوية، وتمّ اخبـاره بالتفصيل بجميع الخصوصيات، مـن قبل واحد من أصـدقائـه، وبناء عليه عنـدما عـرض بطرس والطبيب الدواء وأرياه إياه قـال لهما: «ياصـديقاي، إن روحي واثقـة بكما، ولذلك أرجـوكما احـذرا فلاتعطيـاني، الذي عهد به إليكما، أي السم، عوضـاً عن الدواء»، فأجابة بطرس قـائلاً: «مـولاي إن هذا هو طبيبي الذي غـالباً مـا أعطاكم دواءً صحيحـاً ونافعـاً، فلماذا أنت الآن خائـف»؟، وكان فـردريك قـد وضع حـرساً خلف الخائنين حتى لاينجـوا، ثم إنه قال بنظرة مقطبـة للطبيب، الذي كـان يقـدم له الكأس: «اشرب نصـف هذا الدواء معي»، وأصيب الطبيب بالدهشـة تجاه هذا، ولأنه كان مـدركاً لخبثه، تظاهر بـأن شيئاً ما جعل قدمـه تنزلق، فوقع متمـدداً على الأرض، فأهرق الشطر الأكبر من السم، وأمـر فـردريـك بالقليل المتبقي فأعطـي إلى بعض الأشخـاص المحكومين بالاعـدام، وكـانوا قد جلبـوا من السجن، فلفظوا على الفـور أرواحهم التعيسة، وبعدما اقتنع فردريك على هذه الصورة بالخيانة المميتة التي خططت ضـده، أمـر بشنق الطبيب، وبقلع عيني بطـرس، ثم أمـر بقيـادته خلال عـدة مـدن في أبوليـا، وايطاليا، ليعترف بجـريمتـه بشكل

علني، وأخيراً أمر بإعطائه إلى البيازنة، الذين كانوا يشعرون بحقد عظيم ضد بطرس المذكور، كي يقوموا بقتله، وعندما سمع بطرس بهذا، أقدم متطوعاً فضرب برأسه ضد العمود الذي إليه كان مربوطاً،وأخرج دماغه، في سبيل أن لايجري قتله بناء على إرادة أعدائه، لأن سينكا يقول: «أن تموت بناء على ارادة عدو، يعني أن تموت مرتين».

حزن فردريك وأساه

ولدى تأمل فردريك لهذه الواقعة حزن من دون تعزية مع دموع كثيرة، وكان بالفعل مؤلماً مشاهدة ذلك يصدر عن شخص له مثل تلك السلطة، ومثل ذلك العمر، وصفق بيديه معاً وقال مندهشاً: «الويل لي، لأن أحشائي تقاتل ضدي، فهذا بطرس الذي اعتقدت أنه صخرة، والذي كان نصف حياتي، عمل مؤامرة لقتلي، والبابا، الذي امبراطورية هذا العصر العائدة إلى أسلافي النبلاء، قد أوجدته من لاشيء، وأغنته، يسعى الآن إلى تدميرها ويستهدف موتي، أنا حاكم الامبراطورية المترنحة، فيمن سوف أضع ثقتي؟ وكيف يمكن أن أكون من الآن فصاعداً سليماً، وكيف يمكن أن أكون سعيداً»؟ وشاركه أصدقاؤه الذين جلسوا من حوله في أساه بتأوهات ودموع، وتدهورت سمعة البابا نتيجة لهذه الواقعة كثيراً، لكن الرب الفاحص الذي لايخفق، للأسرار، وحده يعرف الحقيقة.

كيف جرى تبديد المؤن في قبرص بشكل سري عندما كان الملك الفرنسي يمضي الشتاء هناك

وفي حوالي الوقت نفسه، كان الملك الفرنسي الذي كان يمضي الشتاء في قبرص، يعاني كثيراً من نقص المؤن، فأرسل كونت بار، وهو رجل جدي وفصيح، وصاحب بيجو Beaujeu وكان فارساً جريئاً، إلى البنادقة، وإلى سكان الجزر الأخرى المجاورة والمدن يرجوهم بإلحاح الإحسان إليه

بمسـاعـدته، ببيعـه المؤن والامدادات، لأنه كـان يقـاتل في سبيل الكنيسـة المسكونيـة، وأعطى البنادقـة لهذا الطلب جـواباً بالموافقـة والإيجاب، وعن طواعيـة أرسلـوا ست سفن كبيرة محملة بالقمـح، والخمـر، وأنواع المؤن الأخـرى، وكـذلك نجـدة من الجنود، مع أعـداد ممـن حملوا الصليب، وأرسلت بعض المدن الأخـرى والجزر، التي طلب منها المسـاعدة، مختلف أنواع الامـدادات، ولم يسمح فـردريك بهذا فقـط، بل أقنعهم بلطف بفعل ذلك، وقام هو ذاته، حتى لايظهر نفسـه أنه أدنى من الآخرين، فأرسل إليه كميـات واسعـة من امـدادات مختلف أنواع الطعـام، وبذلك امتلك الملك الفـرنسي منها كميـات وافـرة، وبعـدما كتب إليـه يشكره، كتب إلى البـابا يرجوه، أن يتلقى فـردريك بحظوته، وايقاف الحرب ضـده، والتوقف عن التشهير بمثل هذا الصـديق العظيم والمفيد للكنيسـة، الذي بوساطتـه تحرر الجيش الصليبي من مجاعـة كبيرة ومخيفـة، وعندمـا سمعت بلانشي الأم النبيلة للملك الفـرنسي بهذا، بعثت شكرها إلى فـردريـك، وأثقلتـه بهدايا لاتقدر بثمن، وأعلنت بأنه حفظ حياة ابنهـا، وكرامة الجيش الصليبي كله، كما أنها كتبت إلى البابا أيضاً، تلتمس منه تخفيف الضغينة التي شعر بها ضد فـردريك المذكـور، ورفض قـداستـه —على كل حـال— جميع هذه الالتماسـات وضايـق فردريك أكثـر فأكثـر كل يوم، لكن أينما ذهب صـار وضعه أسوأ فأسوأ في القضية.

كيف صالح الملك الفرنسي كثيرين كانوا على خلاف فيما بينهم أنفسهم

وعمل الملك الفرنسي في الوقت نفسه مؤتمراً حكيماً ومقدساً، أصلح فيه بين كثير من النبـلاء كـانوا على خـلاف، وكـان ذلك في قبرص وفي مناطق أخـرى تابعـة للصليبيين، وكـان بين الـذين أصلح فيما بينهم الـداوية والاسبتارية، في سبيل أن لايترك مجالاً للخلافات فيما بينهم، ولكي يتمكن من السير بأمان أعظم في رحلته.

هنري بن فردريك يكتب إلى الملك الفرنسي نيابة عن ملك إنكلترا

قـام في هذه الآونة (بناء على تحريـض من ملك انكلترا، كما هو معتقـد) هنري بن فردريك والامبراطورة ايزابيلا، وابن أخت الملك المذكور بالتقدم بالرجاء إلى الملك الفـرنسي، من أجل انقاذ روحه، وفي سبيل نجـاح حجه، بأن يتصرف بشكل تقـوي وعادل نحـو خـاله ملك انكلترا، وأن يتنازل له عن الممتلكات العائدة له، بموجب حق جده، خشية أن يتحول ذنب الملك الفرنسي لويس، بموجب غضب من الرب إلى ابنه البريء، ودعم طلبه هذا بكثير من الالتماسـات، وبوسـاطة رسـل خـاصين، كـانوا محملين بالهدايا، ويقـال بأن فردريك أرسل أيضـاً رسـائل التماس إلى الملك الفرنسي حـول القضية نفسها، لكنه لم يضغط، خشية أن يظهر بأنه قد باع هداياه وأعطياته، وعلى هذه الالتماسـات ردَّ الملك الفـرنسي قائـلاً: «بحق الصليب المقـدس الذي أنا حـامله، أنا على استعـداد لفعل ذلـك، لو أن مجلسي الاستشـاري يسمح بذلك، لأنني باخـلاص أحب ملك انكلترا، بحكم أنـه قـريب لي، غير أن الأمـر سـوف يكون محرجـاً أثنـاء حجي، في ازعـاج جماعـة مملكتي كلهم بمخـالفـة آراء أمـي ونبـلائي، وذلك مهما كـانـت درجـة حبي للمتوسطين لدي».

وصول رئيس أساقفة روان إلى إنكلترا

في العام نفسـه، في حوالي عيـد الفصح، وصل إلى انكلترا رئيس أسـاقفة روان، الذي كـان راهباً من طائفـة الفرنسيسكان، وكـان فرنسياً من حيث المولد، وكـان قـد حصل على اذن الملك، لاسترداد ملكيـة بعض الموارد، العائدة لامتيازات كنيسته، وبعدما حقق غرضه، قدم الولاء، من أجلهم إلى الملك (لأنهم كـانوا في انكلترا)، ثم عاد إلى وطنـه، وفي حوالي الوقت نفسـه أيضـاً، قدم إلى انكلترا أسقف طـرطوس، الذي كانت أسقفيتـه في سـورية،

والذي كان من أصل انكليزي، وجاء قدومه من أجل زيارة وطنه الأصيل، ورؤيه والديه إذا ما كانا أحياء، وكان هذا الأسقف قد ولد قرب ردنغ من أبوين متواضعين، ولكن بما أنه لم يجد أي أثر لبيت والديه، أو والديه، اللذان أذعنا للعمر وللفقر، عاد إلى مقره آسفاً وخجلاً.

وذكر هذا الأسقف —بمثابة حقيقة مؤكدة— إلى التجمع الرهباني في ردنغ (حيث قام بمناسبة عيد العثور على الصليب المقدس بعمل قداس عالي) بأن بقايا الخوارزمية في الأرض المقدسة قد ذبح أحدهم الآخر، وذلك بوساطة انتقام رباني حاق بهم، وأن سلطان القاهرة يثير الحرب فيما بينهم، وأن أكثر الأمراء المسلمين تميزاً، هم الذين أنهكوا أنفسهم بالحروب فيما بينهم، وأن جبروت ذلك السلطان المذكور، عندما أخبر بقرب الوصول العدواني للملك الفرنسي ضدهم، قد عمل سلاماً فيما بينهم، ووحدهم في حلف، وبما أن هذا السلطان المذكور أيضاً، كان هو الرئيس، أو واحداً من رؤساء أمراء المسلمين المشارقة، قد بعث برسالة إلى الملك المذكور، بأنهم جميعاً ينتظرون قدومه بتشوق، حتى يتمكنوا من الاشتباك معه بمعركة تصادمية، وأنهم لايخشون على الاطلاق حملاته، وأردف ذلك برسائل قاسية ومتفاخرة.

حول اجتماع النبلاء في لندن

ومع انتهاء عيد الفصح اجتمع نبلاء انكلترا، مع بعضهم في لندن، حسبما كان مقرراً من قبلَ فيما بينهم، وذلك حتى يقوم الملك وقتها بالوفاء بما وعد به بالغالب، أي أن يقوم بتعيين مستشار، مع مسؤول عن العدالة، وخازن، بناء على توصياتهم، وكانوا يتصورون أنهم سوف يحصلون بكل تأكيد على جميع ماطلبوه، لكن غياب الايرل رتشارد، الذي بدا وكأنه مقدمهم، عطل تماماً كل تقدم في مجال هذا العمل، ذلك أنه كان قد ذهب من قبل إلى منطقة نائية في كورنويل، وكأن ذلك كان في سبيل قضاء عمل، وبذلك خدعوا ثانية، وعاد النبلاء إلى مواطنهم.

كيف أصبح رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان جباة الضرائب للبابا

وفي حوالي الوقت نفسه، شغل الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان أنفسهم بالتبشير وذلك بناء على أمر من البابا، الذي يطيعونه إطاعة تامة، وفي سبيل أن يزيدوا من تقوى المسيحيين ذهبوا بوقار عظيم،إلى الأماكن التي كانوا قد بشروا بها من قبل، ومنحوا كثيراً من الأيام بالتفرغ إلى الذين قدموا لسماعهم، وجرى استقبالهم من قبل قساوسة وكهنة، وهم في ثياب بيضاء، يحملون الصلبان والرموز الأخرى، وجلبوا معهم حشوداً كبيرة من الناس، حسبما جرت العادة في اسبوع الابتهالات، ولدى تبشيرهم لصالح الصليب، منحوا ذلك الرمز إلى الناس من كل عمر، وجنس، ورتبة، ومهما كانت ممتلكاتهم أو كانت تساوي، ومنحوه للناس المرضى وإلى النساء، وإلى المحرومين من قواهم بسبب المرض، أو تقدم السن، وبعد ذلك استردوا منهم في اليوم التالي أو مباشرة، الذي منحوهم إياه، وذلك بأن حللوهم من تعهدهم بالحج، مقابل أي مبلغ يمكنهم الحصول عليه مقابل ذلك الاحسان، والذي بدا غير لائق ومتناقضاً، هو أنه بعد أيام قلائل، جمع الايرل رتشارد جميع ذلك المال ووضعه في خزانته، عن طريق وكالة المعلم برنارد، الذي كان كاهناً ايطالياً، وهو الذي جمع الثمار، وبذلك لم تكن الفضيحة التي قامت صغيرة في كنيسة الرب، وفيما بين الناس بشكل عام، وبالنهاية تراجعت التقوى لدى المؤمنين وبردت حرارتها.

وفاة رئيس أساقفة منتز

ومات في الوقت نفسه أيضاً رئيس أساقفة منتز Mentz, الذي كان عدواً كبيراً لفردريك، لكن حتى لايشعر فردريك بالسرور أو يمتلك سبباً لذلك بموته، قام البابا بتحويل رئاسة الأساقفة تلك، بأن أسندها، ووضعها تحت حكم وتصرف رئيس أساقفة كولون، لأنه كان قد قاتل

بشجاعة من أجل الكنيسة ضد فردريك وابنه كونراد، ثم إنه وضع بعد ذلك بين يدي رئيس الأساقفة نفسه أفخم الديرة، الذي اسمه وولسا Wolsa, وقد قيل إنه لم يكن هناك ديراً أفخم ولا أغنى في العالم منه، وكان هذا الدير مرغماً منذ قديم الزمان على تقديم ألف عسكري إلى كل امبراطور جديد بعد تتويجه في اكس لى شابيل، وأفقر الآن رئيس أساقفة كولون المذكور هذه الكنائس الفخمة، حيث استصفى جميع ممتلكاتهن، حتى يدفع إلى جنوده، وبلغ الأمر حداً أن الرهبان والكهنة قد تفرقوا، ولم يعد لدى القساوسة القلةالذين بقيوا مايكفيهم بالكاد للانفاق على أنفسهم، واستولى على كل ما كان ثميناً من ذهب، وفضة، وجواهر، وملابس غالية، وكذلك على الموارد الغنية، وأخذه، ولكن المحصلة التي نجمت عن هذه الطريقة بالسرقة، إن الحكاية التالية، سوف تظهرها، وعلاوة على ذلك فإن هذا الرئيس للأساقفة، العسكري والمثير للحرب، حصل من البابا على امتياز استخراج مبالغ ضخمة من المال من جميع أرجاء رئاسة أسقفيته، لمتابعة الحرب، وقام بالتحصيل حتى من فقرائها، الذين من المعتقد أن صرخات شكاويهم قد وصلت إلى السماء.

كيف نصب إنسيوس بن فردريك كميناً للبارميين

وفي تلك الآونة نفسها حدث أيضاً، أن البارميين، الذين من أجل مواساتهم ودعمهم في معاداة فردريك أرسل البابا إليهم مبلغاً كبيراً من المال، وقوة من الجند، وقد بعثوا مائتين من الفرسان للدفاع عن إحدى القلاع القريبة من مدينتهم، وهي قلعة كانوا قد بنوها من أجل حماية مدينتهم، لكن انسيوس Ensius ملك سردينيا وابن فردريك، قد جرى تحذيره سرياً من الواقعة قبل حدوثها، فنصب كميناً، وأسرهم وهم غير متيقظين، وعندما كان على وشك شنقهم على مشهد من المدينة، أرسل سكان المدينة رسالة إليه، بأنه إذا ماشنقهم، سوف يشنقون جميع أفراد جيش فردريك الذين كانوا لديهم أسرى، ولذلك لم يشنق انسيوس أسراه،

واحتفظ بهم لبعض الوقت من أجل الفدية أو المبادلة، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى مسامع البابا، حزن حزناً كبيراً، لأن المال الذي كان قد أرسله إلى سكان المدينة تبدد من دون فائدة.

هطول غير معتاد للمطر

مع بداية شهر حزيران هطل مطر غزير في المناطق القريبة من أبنغدون Abingdon, إلى حد أن أشجار الصفصاف والأشجار الأخرى، والبيوت المجاورة، وجلود الأغنام، والأغنام، وحفر الملح، والطواحين وبيعة بنيت على مقربة من تلك البلدة، جرفتها كل الأنهار الفائضة والمجاورة التي طافت بالماء، وصار القمح والسنابل النامية مع الأرض، ولذلك ظهر أن الخبز سوف يصنع من النخالة بدلاً من الطحين.

التحويل الثاني لجسد القديس ادموند رئيس الأساقفة المعترف

وحدث في هذا العام أيضاً، أن الجسد المبجل للقديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، المتوفى، قد جرى نقله ثانية، وكان غير متفسخ في بونتغناك، إلى تابوت جرى صنعه بشكل جميل من الذهب والفضة، مع جواهر مرصعة به، وكان مثبتاً بوصلات زجاجية، وفي اليوم نفسه الذي أخرج من الأرض، والذي كان اليوم التاسع من حزيران، وكان أيضاً يوم عيد القديسين بريموس Primus وفيلشانوس Felicianus وضع الجسد باحترام، وكان مايزال سليماً لم يتفسخ، وذلك بفضل الحفظ الرباني له، وأنزل في القبر نفسه بحضور حشد كبير من الأساقفة والنبلاء.

كيف حمل عدد كبير من النبلاء الإنكليز الصليب وانطلقوا نحو القدس

وفي حوالي الوقت نفسه استعد للانطلاق عدد كبير جداً من نبلاء انكلترا، كان من بينهم وليم لونغيوسبي Longuespee, وحامل

رايته روبرت دي فيري Vere, وعدد كبير آخر من النبلاء الآخرين، الذين قدّر عددهم بأنه وصل إلى مائتي فارس، هؤلاء جميعاً استعدوا للانطلاق في رحلتهم نحو القدس، وبناء عليه قام وليم الذي كان قائد الصليبيين من مملكة انكلترا، بعدما حصل على اذن ومباركة أمه النبيلة، والراعية المقدسة لدير لاكوك Lacock, من دون أي مزيد من التأخير، فانطلق في شهر حزيران، والتحق بالجيش الفرنسي سليماً ومعافى، واستقبله الملك المسيحي التقي لفرنسا، مع رفاقه باحترام، وأدرجه بين أصدقائه الخاصين، وشكره لأنه قدم إلى مساعدته، والتمس بحرارة من أتباعه بعدم السماح للتجبر الفرنسي والحسد، بإثارة خلاف بينهم وبين الانكليز، كما حدث في أيام الملك الانكليزي رتشارد، ولكن نتيجة لمؤامرات الشيطان، الذي اعتاد منذ أقدم الأزمان على الغيرة من نجاحات الناس، فإن الفرنسيين عندما شاهدوا فيما بعد أن الانكليز كانوا عظماء، وقد حصلوا على ممتلكات كبيرة، وشهرة، أصبحوا غيورين، ووجهوا الإهانة إليهم، وأظهروا سوء سلوكهم المعتاد، ومزجوا ذلك بالاهانات الشنيعة، وبذلك نفذوا كلمات النبي الذي قال:

ما من حاكم يدمر شريكاً بقوته

وأيضاً بالطريقة نفسها، من الممكن القول:

ما من رجل متشامخ يدمر شريكاً

والذي كان أكثر أن تجبرهم أثار كراهية متبادلة وحسداً بينهم أنفسهم، وبذلك فإن سيدهم قد أعيق كثيراً في تقدمه، الأمر الذي سوف يجري شرحه بالتفصيل فيما سيأتي.

كيف جرى اخضاع الغسكونيين من قبل ايرل ليستر

وفي حوالي الوقت نفسه، قام سيمون دي مونتفورت، ايرل ليستر إما بتغيير رأيه أو بإلغاء نيته بالحج (لأنه كان قد حمل الصليب) ومن ثم أقلع

لإخضاع أعـداء الملك في غسكوني، وقد وصل إلى تلك المنطقـة مع قوة كبيرة من العسـاكـر، وكـان مـزوداً بمبلـغ جيـد من الأمـوال الملكيـة، وزحف على الفـور إلى قتـال أعـداء الملـك، الذين تمردوا بشكل خيـاني ضـده، وقـد أخضـع غـاستـون، وروستين Rustein, ووليم دي سولاري Solaires, وجميع النبـلاء الأكثر تميـزاً في بوردو، وقـد تصرف بشـجاعـة كبيرة وباخـلاص استحق عليهما عن جـدارة ثناء وحظوة جميع أصـدقـاء الملك، وقـد قيـل بأنه تصرف مثل أبيـه في جميع المجالات.

أسر إنسيوس المتقدم ذكره من قبل البولونيين

في شهـر أيار من هذا العـام، عنـدمـا كـان إنسيـوس، الابن الطبيعي لفردريك، وملك سردينيـا، في حملة خلال المناطق المجـاورة لبولونا، من أجل إلحاق الأذى بأعدائه، وذلك برفقة بعض الكريمونيين، وأناس من ريغيو Reggio, وكـان البـولونيـون قد أنذروا مسبقـاً بمقـدمـه وباقترابـه، فنصبـوا كميناً، وقـاموا بهجـوم مفـاجىء عليـه، عندما كـان سائـراً من دون حذر أثناء زحفه، وكـان ذلك عند جسر القديس أمبروز Ambrose, الذي كـان قـائماً على منتصـف الطريق بين بـولون وكـريمـونا، وأعقب ذلك صراع عنيـف، مع مقتلة كبيرة، وانهزمت فئة إنسيوس، ووقع هو نفسه بالأسر، مع الأشخاص الرئيسيين في حاشيته، حيث وصل عـددهم إلى حوالي المائتـي فارس، وذلك مع عـدد كبير من الكريمونيين، ومن سـكان ريغيو، وحشد من عامة الجنـد، وقد أخذوا جميعاً إلى بولونا للايـداع بالسجون، حيث أصبحوا تحت إرادة أعدائهم، وجـرت معـاملتهم بوحشيـة وبـلاانسـانيـة، وقـام الأسرى، في سبيل الحصـول على معـاملة ألطف، ولكي يحصلـوا على قليل من الراحـة من قسـوة السجن، فدفعـوا إلى البـولونيين مبلغ ثمانيـة عشر ألف باوند، من النقود الامبراطورية، التي تساوي المبلغ نفسه من النقود الاستيرلينية.

موت ولد آخر لفردريك وحمله هو مريضاً

وفي حوالي الوقت نفسه، مات ولد طبيعـي آخر لفردريك في أبوليا، وهو نفسه لحقه مرض جلدي اسمه «داء الذئبة»، أو النار المقدسة، وهكذا وجد نفسه وقد قهر من قبل كثير من المآسي، فحزن كثيراً من دون مواساة، وبات متذللاً، وفقـاً لكلمات داود: «املأ وجـوههم بالعار، وهم سـوف ينشدون اسمك يارب»، فعرض شروطاً مشرفة للسلام مـع البابا، وفرح البابا كثيراً لمرضـه وضعفه، ولذلك رفض قبـول عـروضه، ونتيجـة لذلك حصل على غضب وسـوء القبـول والنوايا لعـدد كبير من النبـلاء، الذين شرعـوا الآن بمـواساة فـردريك، والوقـوف إلى جانب قضيتـه، رافضين تجبر عبد عبيـد الرب.

كيف جرى إرسال بطرس كبوشي بمثابة نائب بابوي إلى أبوليا

وجـرى في الوقت نفسـه أيضـاً ارسـال بطرس كبـوشي Caboche, الذي كان كـاهناً وصديقـاً متنفذاً لدى البـابا، جرى ارساله مـن قبل البابا، نائباً بابـوياً في أبوليا، مسلحاً بسلطة عظيمـة في مسح الذنوب، حتى يتمكن من سحق فـردريك وأصـدقائـه، وبناء عليـه، تمكن هذا الرجل، مع سلطة متزايدة القـوة، كان قد حصل عليهـا في جميع المناطق، بوساطة إعطاء المال، ومنح غفـــرانات كـــاملـة من الذنوب، تمكـن من إلحاق الكثير من الأذى بفردريك، واستعاد كثيراً من النبلاء للتخلي عن ولائهم له.

كيف استحوذ الرهبان السسترشيان على مدارس في الجامعات

وفي تلك الآونة أيضاً حصل الرهبان السسترشيـان على امتياز جديد، في سبيل أن لايستمروا موضع استخفاف وازدراء لدى الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، والرجـال المتعلمين العلمانيين، خـاصـة المحـامين، ورجـال القانون، وفي سبيل هذا الغرض شيـدوا أبنية فخمة لأنفسهم في باريس وفي أمـــاكن أخـــرى، حيث ازدهرت المدارس، وأرادوا من امتـــلاك المدارس، دراسة اللاهوت، والقوانين والشرائع، لكـي لايظهروا أدنى من الآخرين،

لأن العـالم قـد أصبح الآن أكثـر تيهـاً وتجبراً، وازدرى الديـن والديرة، واستهـدف تجريد الرهبـان ورجال الـدين من ممتلكاتهم، وهكذا إنه بسبب شرور العالم، تعـرض النظام الصارم للرهبنة إلى الوهـن الكبير، لأننا لم نقرأ بأن هذا قد نشأ عن نظام القديس بندكت، الذي —حسب شهادة القديس غريغوري— كان قد تأسس في روح القديسين، والذي هو زيادة على ذلك أننا نقـرأ ونغني عنـه، أنه قـد أهمل الدراسـات الأدبيـة، وقـرر أن يطلب الصحراء.

تتويج بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري

في يوم عيـد جميع القـديسين، جـرى تتـويج بونيفيس رئيـس أسـاقفـة كـانتربري، وسط تشريف عظيـم وأبهة كبيرة، وكـان ذلك بحضـور الملك والملكة، وجميع الأساقفة تقريباً، الذيـن اجتمعوا لهذه المناسبة المهيبة وكانوا كثيراً، وعندما كان الملـك مسرعاً إلى هناك مع حاشيته، أخـذ جون مانسيل Mansel, مستشاره الخاص، وهو مريض مرضاً شديداً، وكان ذلك في ميدستون Maidstone, ذلك أنه كان قد تأثر —كما قيل— بسم دس له، حيث عـانى منه لمدة يومين، وبصعوبـة بالغة جـرى انتزاعـه من أبواب الموت، بفضل العناية الكبيرة للأطباء.

حول انتشار تقارير غير مؤكدة

وترددت في هذه الآونة اشـاعـات، لانـدري مـدى صحتهـا، مع أنه تمّ ارسـال رسائل بليغـة حـول هذه المسألة إلى الملك، وقـد تحدثت عن تحول ملك التتار إلى المسيحية، وهذه الرسائـل التي تقدمت الإشارة إليها، يمكن للقارىء الحريص أن يجدها في كتاب Additaments.

عودة أسقف نورويك من البلاط الروماني

وحوالي هذا الوقـت، عاد وولتر أسقف نورويك من البـلاط الروماني، حيث كان قد حصـل —كما روي— على امتياز مهين، لاستخراج المال من

أسقفيته.

تقرير حول الاستيلاء على دمياط

في حوالي عيد القديس ميكائيل، وبعد ذلك، انتشرت التقارير المفرحة في جميع أرجـــاء بلدان الغـــرب وكـــان أول شخـص جلبهم إلى انكلترا هو بونيفيس، رئيس أسـاقفـة كانتربري، الذي وصل يـوم عيد القـديس متى، وأفادت هذه التقارير أن الملك المسيحي التقي لفرنسا، قد نزل على الساحل في قـوة كبيرة، وأنه صـدّ المسلمين وقهـرهم، واستـولى على دميـاط، ولكي نكون أكثـر اقتناعـاً بهذه الحقيقة، تلقى ملك انكلترا حـولها رسـالة، يمكن الوقوف عليها في كتاب Additaments.

اجتماع رهبان الطائفة السوداء

وفي حوالي الوقت نفسه، في يوم عيد القديس كاليكستوس Calixtus, اجتمع رعـاة ديرة رهبـان الطائفة السـوداء —أو حماتهم— في بيرمـوندسي Bermondsey, حيث جرى ابرام اصـــلاح بفضل إلهام من الرب من الممكن الوقـوف على محتوياته في كتـاب Additaments, وقد تمت الموافقـة على تلك الاصـلاحات بالاجماع، وهناك أمـر واحـد، هو على كل حـال جـدير بالملاحظة، وقـد ورد في بنود هذه الاصـلاحـات، أعتقـد أنه لايجوز تجاوزه هو أن الملـك —مع أنه لم يقـــدم لهم السماح بفعـل ذلك— حصل منهم جميعـاً، على وجوب أن يقرأوا يـومياً لصالحه ولصـالح الملكة، القداس الذي يجري الغنـاء به يومياً في كنائسهم تشريفـاً للعذراء المبـاركة، وهو الذي بدايته: «أيها الرب، الذي بين يديه قلوب الملوك».

حول الحجرة التي حملت طبعة قدم رجل

وفي هذه الآونة أيضاً، جلب الرهبان الدومينيكان إلى انكلترا حجرة من الرخام الأبيض، كانت موجودة في الأرض المقدسة منذ أيام المسيح، والتي تحمل طبعـة قدم مخلصنـا عليها، وكأنها كـانت قـد عملت من شمع طري،

وهي تري بشكل واضح نصف قدم انسان، وبشأن هذه الطبعة أو الشكل، أعلن سكان الأرض المقدسة بأنها كانت طبعة قدم المسيح، عندما كان على وشك الصعود إلى السماء، وذلك بعدما قام بوداع تلاميذه، وكان الهدف من ذلك أن يخلّد لتلاميذه ذكراه، وهم الذين نظروا إليه للمرة الأخيرة على الأرض، ويقال أنه وفق الطريقة نفسها، عمل المسيح أيضاً طبعة عن وجهه، في سبيل أن تبقى ذكراه مرعية على الأرض، وقدم الملك هذه الهدية الفاخرة إلى كنيسة ويستمنستر، مثلما كان قد فعل مؤخراً بدم المسيح.

حول ولادتين غير طبيعيتين

وفي حوالي ذلك الوقت نفسه، وجد في جزيرة وايت Wight, طفل صغير اسمه جون، لم يكن قزماً، بقدر ما كانت أطرافه غير موزعة بشكل صحيح، ومع أنه كان في الثامنة من عمره، لم يزدد حجمه على الاطلاق، حيث لم يصل طوله إلى ثلاثة أقدام، ولكي تثير الملكة دهشة الذين يروه، أمرت بأن يحمل معها بمثابة أعجوبة طبيعية.

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، ولد طفل ذكر في أراضي ايرل هيرفورد، على حدود ويلز، وقد أنجب من قبل الشيطان —كما قيل— ففي اطار نصف سنة، جرى تزويده بأسنان، وقد نما حتى وصل إلى ارتفاع شاب في حوالي السابعة عشرة من عمره، وكانت أمه بعدما ولدته، استولى عليها المرض، وتلاشت حتى ماتت، وكان هذان الطفلان أعجوبتان طبيعيان، أولهما تجاوز الحجم الطبيعي للكائن البشري، ولم يصل الآخر إلى الحجم الطبيعي.

عقد مباراة مقارعة في بريكلي

وعقدت في هذه الآونة مباراة مقارعة في بريكلي Brackley, فيها تعرض عدد كبير من فرسان جماعة انكلترا، الذين اعتيد على تسميتهم الفرسان الأغرار Bachelors, للجراحة، وفي هذه المبارزة التحق

رتشارد ايرل غلوستر، الذي مارس دوماً الوقوف ضد الأجانب، ومساندة قضية الانكليز المحليين، هذه المرة بهؤلاء الأجانب، مما ألحق ضرراً كبيراً بقضيته وشرفه، لأنه بعمله هذا وبتصرفه على هذه الصورة، عانت الفئة الانكليزية من الهزيمة، وفي هذا الصراع تمكن وليم دي بلنسية أخو الملك، بمساعدة الايرل المذكور من إلحاق الهزيمة بوليم دي أودنغسليٍ Odin-gesseles وجراحته وكان فارساً جريئاً من جماعة الفرسان الأغرار.

تكريس وولتر أوف كيركهام أسقفاً لدرم

في الأحد الأول للميلاد، جرى تكريس وولتر دي كيركهام Kirkham, الأسقف المنتخب لدرم، في يورك من قبل وولتر رئيس أساقفة تلك المدينة، ذلك أنه كان نائبه الأسقفي.

حول الخلافات بين راعي دير ويستمنستر ورهبانه

ونشب في حوالي الوقت نفسه خلاف بين راعي دير ويستمنستر ورهبان ديره، مما سبب فضيحة ومهانة إلى جميع طائفة الرهبان السود، وقد جرت حكاية السبب والتفاصيل بشكل كامل في كتاب Additaments, وتمّ بوساطة تدخل ووساطة من الملك، الذي لديه —على كل حال— رعاية خاصة لذلك الدير، الوصول إلى سلام ووئام من هذا النوع أو ذاك، وأعيد تأسسيه بينهما.

حول خلاف آخر وقع بين راعي دير بيتربورا ورهبانه

ولزيادة سبب الفضائح المتقدم ذكرها، تفجر في الوقت نفسه خلاف بين وليم راعي دير بيتربورا Peterborough وبين رهبان ديره، لأنه على الرغم من توجيه دعوة له حول مايتعلق بانفاقه الأموال في سبيل اغناء أقربائه، وذلك بوساطة عدد كبير من الذين أحاطوا به، وذلك مما سبب خسارة كبيرة جداً إلى كنيسته، هو لم يقم بإصلاح خطيئته، واستاء الرهبان تجاه هذا، فتقدموا بالتماس شكاية إلى أسقف لنكولن، الذي كان دائماً

المرتبـه الكهنوتية، ونتيجـة لذلك،أعطاه أسقف إيـلاي كنيسة درم الغنيـة، التي كانت عائدة الى إرميا، الذي كان كـاهناً للملك قد توفى مؤخراً، وشعر الملك على كل حـال ببغضاء كبيرة نحـو كل من الأسقف المعطي، وروبرت المتسلم،لأن الأسقف لم يقم متطوعـاً، بمنح تلك الكنيسـة الى ايثيار، أخي الملك.

إيرل روجر بيغود يأمر باعتقال كونت غوزني

وفي هذا العام نفسه كـان كونت غوزني Gusne على طريقه خلال انكلترا ليـذهب الى الملك،وسمع الايرل روجـر بيغود بهذه الحقيقـة، فأمـر باعتقـاله،وعندمـا بات الكونت على دراية بهذا الأمـر تقدم بشكوى حـادة حولها الى الملك،ولذلك جرى استدعاء الايرل روجر،وفي اجابة على التهمة قـال بشكل علني للملك: «مـولاي ،عندمـا بعثت الى مـؤتمر ليـون بمثـابة مبعـوث من قبلكم ومن قبل المملكة كلهـا،وكنت مسـافـراً بسـلام خـلال أراضي كونت غوزني، وكنت قد تحملـت الكثير من النفقات، ولقد شعرت متأكـــداً بـأنني لابد مـن أستقبل من قبله مـع بعض التشريف والتكـريم، صدوراً عن احترامـه لكم، ومقابل كثير من الاحسان واللطف الذي غـالباً ما قدم إليـه من قبلنا، وخلافاً تماماً كـان عمله، لأنه لخسارتي ولاهانتي، أو بالحري لخسـارتك واهانتك، أوقـف خيـولي عن متـابعـة سيرها وكـذلك أتباعي، حتى استخـرج أتاوة (أنا لاأعرف لماذا،أو على أية قاعـدة)، وكانت الأتاوة بقـدر مـااختـاره نوابه أن يطلبـوا، كما أنه لم يستثنيني، صـدوراً عن الأدب والاحترام لكم، ولذلك عنـدمـا جـاء الكونـت الى هذا الطرف من القنال،وكـان مــاراً خـلال أراضي،أنا رددت عليـه،وكــان حقي أن أفعل ذلك،لأنني متملك لأراضي منكم،لأنك مـولاي الملك، وبشكل حر، مثلما هو متملك لأراضيـه من الملك الفرنسي، وأنا مـرتبتي ايرلاً كما هي مرتبتـه كـذلك، فمن أين استمـد حقـه في ممارسـة هـذا النمط من السلب، أي بيع الطرقات والهواء الى المسافرين؟» ولدى سماع كونت غوزني لهذا كان صامتاً

جاهزاً وراغباً في معاقبة الذين يضلون عـن الطريق القويم، ووضعوا أمامه شكوى ثقيلة حول تجاوزات راعي ديرهم.

ولقـد تبرهن بأن الراعي كـان مداناً بما اتهم بـه، وعندما رأى أن خلعـه بات وشيكاً، استقـال، وكأن ذلك جـاء بناء على رغبته، وتخلى عن وظيفتـه الرعـوية وعن مـرتبتها، ووضعهـا بين يدي الأسقف، وبناء عليـه، جـرى منحه شطراً من تلك الـرعوية، حوى عـزبة واحدة، فقـد تمّ تعيينها له، مع أنه لم يستحقها، وذلك من أجل أن يتمكن أن يعيش باستقامـة وكرامة مثل ناسك يمارس أعمال التوبة، وجرى على الفور ارسال وكلاء الملك إلى هناك من قبله، وانكبوا على العمل في سبيل الربح، وكانوا يسعـون لالتهام موارد تلك الرعوية، وشغلوا أنفسهم في سلـب ذلك الدير وتدميره، وعلاوة على ذلك كان الملك غـاضباً جداً، وتطلع نحـو فرصـة للعمل ضد ذلك الدير، لأنه أخبر بأن الرهبان قـد اضطهدوا راعيهم، ولاموه لأنه كان كـريماً نحوه ومؤثراً له، أي نحو الملك.

انتخاب جون أوف كاين راعياً لدير بيتربورا

ثم قـام الرهبـان، حتى يتجنبـوا غضب الملك، الذي كـان يصـادر جميع ممتلكاتهم، قـاموا بناء على رغبتـه وأمـره، فانتخبـوا راضين أو غير راضين، راعيـاً لهم ولديرهم هو جون أوف كـاين Caen, الذي كـــان رئيس رهبان كنيسة القديس سويثن Swithin في وينكستر، وذلك على الرغم من أنه كـان ينتمي إلى طائفـة أخرى، وكـان أجنبيـاً من حيث الأصل،لأنه كان نورمانديا.

كيف تخلى روبرت باسلو عن البلاط

في يوم الخميس،قبل عيد القديسة لوسيا Lucia قام روبرت باسلو(الذي تقـدم ذكـره مـراراًمن قبل في هذا المجلد) بالتخلي عن البـلاط الكثير التقلبات والتغيرات، وطار ليقطف ثمار حياة أفضل، وقـد جرت ترقيته الى

لشعـــوره بـالخجل، ولم يكن بـإمكانه أن يـرد بأي منطق على هـذه التهم، وعندما وصل خبر اجـراءات الكونت الى علم ملك فرنسـا التقي(وحدث هذا بعد أمـد قصير من المؤتمر)، أعطى علاوة سنوية الى الكـونت المذكور، حتى لايتحمل أية خسـائـر مـالية، وأمـر بإلغـاء تلك الأتاوة، لأنها كـانت مهينه، كما أنها كانت مؤذية، لذلك توجب التخلي عنها.

تكريس كنيسة بيوليو

قـام في هذا العام راعـي دير بيوليـو Beaulieu, بتكريس كنيسته بوقار عظيم، بحضور الملك هنري (الذي كـان والده الملك جون قد أسس وبنى هذه الكنيسـة)، مع الايرل رتشـارد —أخيه— وكثير مـن الأساقفـة والنبلاء الآخرين، وقد أنفق على هذا الاحتفال المهيب خمسمائة مارك، لابل أكثـر، لكن الملك، لهذا السبب، لم يوفـره، بل أرغم الراعي المذكـور على أن يدفع إليه غرامة ثقيلة جـداً، لأنه— كما قيل— اقترف ذنباً ضده، فيما يتعلق باحتـلاله لأرض غـابيـة، وعـلاوة على ذلـك، أرسل راعي الدير المذكـور عشرين راهبـاً منتخباً، وثلاثة عشر راهبـاً آخـر، مما سبب خسارة جسيمـة لكنيستـه، أرسلهم ليسكنـوا دير طائفـة السسترشيـان الجديـد، الذي كـان الايرل رتشارد قـد أسسه قـرب وايشيكومب، للوفاء بالنذر الذي كـان قد قطعه على نفسه عندما كان في البحر.

تقاريرعن تحول ملك التتارالى المسيحية

وتواتر في هذا الوقت نفسـه وصول أكثـر التقارير سروراً، أي التقـارير التي تحدثت بأن أعظم ملوك التتـار قوة، قد خضع لتـأثير التبشير المتواصل واقناع بطرس الهندي، الذي كـان راهبـاً من طائفة الـرهبان السـود (الذي ورد ذكره مراراً من قبل فيما يتعلق بالرسائل حول التتار)، وأنه قد تحول الى المسيحية، وجـرى تعميده، على الطهارة، والأمـانة، والقداسة التـامة، التي جرى التبشير بها إليه وعلمت له.

وأرسل الملك المذكور أيضاً رسائل مواساة وتأييد، الى الملك الفرنسي، الذي كان مقيما في دمياط،وقد شجعه،وأقنعه بإلحاح على متابعة الحرب ضد المسلمين، وأن ينظف أراضي المشرق كله من دنسهم، ووعده أيضاً بمساعدة فعالة وسريعة، بحكم كونه كاثوليكيا، ومعمداً جديداً للمسيح، والرسالة المتعلقة بهذه القضايا كلها، والتي جرت ترجمتها من العربية الى اللاتينية، والفرنسية، وأرسلت الى الملك الفرنسي، قد قدمت كاملة في كتاب Additaments, وكان الملك الفرنسي مسروراً جداً بهذه الاضافة إلى الإيمان المسيحي، فأرسل إليه بيعته الثمينة، وبعض الآثار الغالية، وأرسل أيضاً بعض الدومينيكان والفرنسيسكان، للحصول على معلومات وافية حول هذه القضية.

وجرى في الوقت نفسه أيضاً، اختراع بعض التقارير الزائفة الأخرى لطمأنة المسيحيين، ولربما لتشجيع الصليبيين على الابحار، والالتحاق بالملك الفرنسي، وقد انتشرت هذه التقارير خلال ممالك هذا الجانب من البحر، وكان الناشر لهذه التقارير والمخترع لها هو أسقف مرسيليا، وبعض مشاهر الداوية، وبما أنهم تولوا الكتابة، وختموا ما كتبوه بأختامهم، كانوا موثوقين أكثر، لكن عندما باتت الحقيقة حول القضية معروفة، تألم الناس بعمق أكثر منهم، وقد ظهر على كل حال ما هو حقيقة بالنسبة إليهم، هو أن المسلمين، ومقدميهم، اشترطوا، بعد الاستيلاء على دمياط وعرضوا بأن يتخلوا إلى الصليبيين عن جميع الأراضي التي كانت من قبل عائدة إليهم، مع اضافات أعظم، شريطة أن يعيدوا إليهم مدينة دمياط، دون أن تتعرض للأذى، ومعها المناطق التي استولوا عليها، لكن تجبر كونت أرتو لم يسمح بهذا، كما لم يقبل بأية عروض تقدم بها المسلمون المتذللون، مالم يسمح للصليبيين بامتلاك دمياط بشكل سلمي، وأن يؤذن لهم بالاستيلاء على الاسكندرية، مضافة إليها، ولم يوافق المسلمون على هذه الشروط الثقيلة بأية حال من الأحوال، ولذلك نعتقد بأن الرب قد غضب، لأن الصليبيين

حين عبروا البحـر، فعلوا ذلك لهدف واحـد فقط لاغير، وهو تملك ميراث المسيح، ويقـال بأن المسلمين تشاوروا فيما بينهم وتحادثوا وقـالوا: «انتظروا قليــلاً، انتظروا، إن هذا التجبر، وهذا الشره، الـذي هو ممقــوت من ربهم يســوع المسيح سـوف يدمرهـم جميعـاً»، وهكذا تحولت الأمـور، وحـدثت الوقائع، حسبما سوف يوضح التأريخ المقبل بشكل كامل.

الموت المؤسف لملك سكوتلندا

في الثـالث من تموز من هذا العـــام، مـات الاسكندر، ملك سكوتلندا، وكان رجـلاً حكيماً ومعتدلاً، وهـو بعدما حكـم بعدل، وسعـادة، وسلام لسنين طويلة، قام في الجزء الأخير من عمره، وقد أثير بالشره، ولذلك قيل بأنه ابتعد عن سبيل العـدل، ففي سبيل أن يجد فرصـة تكون متنفساً للتعبير عن غضبـه، أبدع وسيلة لغضب عنيف ضـد واحـد من أعلى نبـلاء مملكتـه اسمه أوين أوف أرغايل Owen of Argyle، وكان فارسـاً جريئاً ومجرباً، وبما أنه خطط ليحرمه من ميراثه، اتهمه بالخيانة، على أساس أنه قدم في السنـة الأخيرة التي مضـت الولاء إلى ملـك النـروج، من أجـل استثمار جـزيرة عـائدة إلى ذلك الملـك، وهي جزيـرة كان والد أوين المذكـور، قـد استحـوذ عليها من الملك نفسـه، وقـد تمتع بتملكهـا بسلام لعـدد كبير من السنين، شريطة تقديم مثـل هذا الولاء، وكانت تلك الجزيرة قـائمة فيما بين أوركني Orkneys، وسكوتلندا، وخوفاً من أوين من تهديدات ملك سكوتلندا، الذي كـــان مـولاه، أخبره بأنــه سـوف يقـدم الخدمـــة الكاملة المتـوجبة عليـه، إلى كل من ملك سكوتلندا وملك النروج، وعندما أجـابه الملك السكوتلندي وهو مغضب بأن «مامن انسان يمكنه خـدمة سيدين»، تلقى جواباً من أوين المذكـور، بأن أي واحد يمكنه بشكل صحيح خـدمة سيدين، عندما لايكون السيـدان نفسيهما متعاديين، وبناء عليه، حشد ملك سكوتلندا جيشـاً من أجل القيـام بالهجوم عليـه، وخشيـة من أوين من أن يغضبـه، رجـاه والتمس منه منحه وقتـاً يقـوم به بالتخلي عن ولائـه، وعن

الجزيرة المذكورة إلى ملك النروج، وتم رفض منحه هذا، وظهرت وحشية وجشع ملك سكوتلندا بشكل واضح، ولذلك نال غضب الرب، وغضب القديس كولومكل Columkil, المدفون في تلك الأماكن، حيث هو محل تشريف كبير، كما نال غضب عدد كبير من النبلاء، ثم تحدى الملك أوين المذكور، وطارده بالبحر حتى أرغايل، وكان يحرضه —كما قيل— أسقف غير مستقيم، هو أسقف ستراثيون Strathune, لكي ينتهز فرصه، وكان هذا الأسقف ينتمي إلى طائفة الدومينيكان، لكن لدى مغادرة الملك لسفينته، وقبل أن يتمكن من امتطاء ظهر فرسه، حل به غضب الرب، فأصيب فجأة بمرض مميت، وهكذا فإنه في الوقت الذي أراد أن يجرد انساناً بريئاً من ميراثه، لفظ كل من نفس الحياة ومطمحه.

وفاة هوغ برون إيرل التخوم

وفي العام نفسه، وبعدما نزل الملك الفرنسي في دمياط، تحرر هوغ برون، ايرل التخوم من جميع مشاكله الدنيوية، واستحق هذا النبيل القليل من البكاء عليه، لأنه تآمر بشكل خياني في بواتو ضد ابن زوجته، ملك انكلترا الذي وثق به، إلى حد أنه بعدما بعث إليه للقدوم إلى هناك، باعه بشكل خياني إلى الملك الفرنسي، ومن المأمول أن يكون قد حظي بالفضل فتحلل من هذا الذنب، ومن ذنوب جرائمه الأخرى، في حجه هذا.

موت كونت صنجيل أو طولوز

في هذا العام، ومع اقتراب نهاية الصيف، تراجعت قضية البابا، وأصبحت ضعيفة إلى درجة كبيرة، وبدأ حسن الحظ الذي تمتعت به عند بداية الصراع مع فردريك، بالتغير، علاوة على ذلك، فإن وليم كونت هولاندا، الذي جرت ترقيته في أيام حياة البابا، إلى مرتبة ملك ألمانيا، قد تعرض للهزيمة على يدي كونراد بن فردريك، وقد هرب، وتولى اخفاء نفسه.

وأصيب ريموند كونت صنجيل أو طولوز، بمرض شديد، وكان فارساً شجاعاً ومتفوقاً، وصديقاً كبيراً للبابا، ولأنه كان في خطر عظيم أعاد إلى البابا الأموال التي كان قداسته قد عهد بها إليه، في سبيل شن الحرب على أعداء الكنيسة، وبشكل خاص ضد كونت سافوي، وحين أعادها أعلن بأنه يعاني من مرض شديد ومميت، وأنه كان يتوقع الموت، وأن الذي بقي له هو القبر فقط، ولذلك عمل وصيته بكل فخامة، وأمر بأن يدفن جسده في دير راهبات القديسة ايفرود Evroud, عند قدمي الملك رتشارد الذي كان قريباً له، ومع جسده تبرع بخمسة آلاف باوند من الفضة إلى ذلك الدير.

موت بطرس دي غينور

ومات في العام نفسه أيضاً بطرس دي غينور Geneure, وكان من بروفانس من حيث المولد، ومع أنه كان متواضعاً من حيث الأصل، لكنه كان صديقاً للملك، الذي برهن على مكانته لديه بأعماله، ذلك أنه زوج بطرس المذكور من السيدة النبيلة ماتيلدا Matilda, وكانت ابنة وسيمة لوليم دي لاسي، وحين أعطاه إياها زوجة، أعطاه معها جميع ميراثها والمناصب الشرفية العائدة إليها في ايرلندا، ومن خلال هذه السيدة أنجب صبياً وابنة.

موت المعلم سيمون النورماندي

وفي هذا العام أيضاً، مات المعلم سيمون النورماندي، الذي كان من قبل المستشار الرئيسي للملك والرئيس والحافظ للختم الملكي، وهو وإن كان متكبراً، نال أخيراً غضب الملك، بسبب المسلك الأمين الذي اتبعه، لأنه عندما رغب الملك باعطاء صك إلى توماس، كونت أوف فلاندرز، وكان ذلك الصك مضاداً لكرامة التاج، وكان سيسبب كثيراً من الضرر لمملكة انكلترا، رفض سيمون المذكور التوقيع عليه لهذا السبب، وبهذا التصرف

كـان أميناً ومخلصـاً، وقـد استحق الثناء، وبهذا العمل تحولت أعمال العنف الأخرى التي اقترفها إلى أعمال مسوغة.

وفاة وليم أوف درم

وفي هذا العـام نفسه، مـات في روان المعلم وليم أوف درم، أثناء عـودته من البـلاط الرومـاني، وكان رجـلاً عظيم التميـز بعلمه، وبـوفرة مـوارده الكثيرة، مع أنه تشوق لاستحواذ المزيد، وكـان قسيس الكنيسة الفخمة في ويرماوث Wearmouth, القائمة قـرب البحر، وإثر موته تدبر الملك الأمر بشكل فعال، بحيث آلت كنيسته إلى أخيه ايثيلمار، وذلك من دون أي بحث جرى حول القضية، وقام ايثيلمار هذا بسبب كثرة موارده، خاصة في المناطـق الشماليـة مـن انكلترا، بتعيين مـارتـن دي سينت— كـروكس Sainte -Croix, ليكون وكيله، وكان كاهناً، ورجلاً عاقلاً.

وفاة روجر فتز— جون

وفي العـام نفسه، في حـوالي عيد الشعـانين، مـات واحد من البـارونات النبـلاء لشمالي انكلترا، وكـان اسمه روجـر فتـز— جـون، الذي ترك ولداً صغيراً بمثـابة وريث له، وقـد عهـد الملـك بالمسـؤوليـة عنه إلى وليم أوف بلنسيه، الذي كـان أخوه، مع أن أمـه قد رغبت بشراء الوصـاية على الطفل مقابل مبلـغ ألف ومائتي مارك، وكـان اسم الأم آدا دي بالأويل - Ada, de Baliol وقد نال الطفل اسم ن .N.

وفاة عدد من النبلاء الفرنسيين

عندما كان الملك الفـرنسي يمضي الشتاء في قبرص، غادر إلى الرب عدداً من مشاهير الصليبيين الفـرنسيين، أن نقوم بتعدادهـم سيكون الأمـر متعباً، ولاعلاقـة له بالتاريخ الانكليزي، ومات أيضـاً كثيرون أثناء السفر، في البر والبحـر، وكـان من بين الذين مـاتوا هناك على ظهـر سفينة قـرب قبرص، الأسقف النبيل لـ «نويون» Noyon, وكـونت بالاتاين Palatine,

وكان واحداً من الاثني عشر كونتاً (النظراء) لفرنسا، وقد مات أيضاً، أثناء السفر في أفينون Avignon, هوغ دي تشاتليون Chatelion, وكونت القديس بولص وبليو Blois, الذي قتل بوساطة حجر قذف من منجنيق، في أفينون، في الصراع الذي تورط الملك فيه مع سكان ذلك المكان، قبل أن يقلع، وكان ذلك نذير شؤم أنذر باخفاق الصليبيين، لأنه لم يكن في الجيش الفرنسي كله رجلاً أكثر نبالة منه، أو رجلاً أقوى منه في القتال، فقد كان في ركابه خمسين فارساً من النخبة، بمثابة حاملين لأعلامه في المعركة، لكن عندما مات، تفرقوا جميعاً، وتركوا مهملين، وكان الكونت هوغ هذا قد بنى سفينة أنيقة في انفرنس Inverness, في كونتيه موري Murray, وفي مملكة سكوتلندا ليكون قادراً بوساطتها على عبور البحر مع البولونيين Bolognese, والفلمنكيين، والذين يعرفون بشكل عام باسم «رجال أفالتيرا» Avalterre, لكن هذه الاستعدادات قطعت قبل أن تكتمل، مثلما يقطع الحائك النسيج، ومات هناك أيضاً في قبرص جون دي درو Dreux, وكان شاباً عظيم الجرأة في الحرب، وكان زهرة أسرته، ومن أسرة عالية النبالة، وجاء موته نذير شؤم للمستقبل، وإلى جانب هؤلاء، مات نبلاء آخرون من كلا الجنسين، وذلك بعدما تعرضوا للمرض، نتيجة لتغير الطعام والهواء، وهو الذي يخاف منه بسبب الطبيعة، وقد طاروا مثل شهداء إلى الممالك اللاهوتية، وقد رأينا أنه من المناسب أن نتولى ذكرهم في هذا الكتاب، لأنهم ختموا حياتهم بسعادة في سبيل تقدم قضية الكنيسة العالمية، وفي خدمة الصليب.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٥٠، هو العام الثالث والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، فهو قد أمضى عيد الميلاد في وينكستر، حيث احتفل تبعاً للعادة بأعياد ذلك الموسم بوقار عظيم، ففي اليوم التالي للعيد، تناول طعام الإفطار مع وليم، أسقف تلك المدينة، الذي أصبح الآن ضيفه، حيث رغب في منحه

السرور بحضوره، وقد أسرع بعد ذلك بالتوجه إلى لندن، حيث أقام عيد القديس ادوارد، بالوقار المستحق، وحيث دعا إلى هناك بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي أقام قداساً هناك، كما دعا سبعة أساقفة، وعدداً كبيراً من نبلاء المملكة.

ولادة كونتسة كورنوول لصبي

وفي حوالي الوقت نفسه، في اسبوع عيد الميلاد، قدمت سينشيا، كونتسة كورنوول، زوجة الايرل رتشارد، إليه ولداً ذكراً في بيركها مبستد، لتعميده، وقد بعث به الايرل إلى بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، والذي كان عم الطفل، وتلقى المولود اسم ادموند، تشريفاً لادموند المعترف، الذي كان رئيس أساقفة كانتربري من قبل.

موت إرميا مستشار الملك

وخلال أسبوع الميلاد نفسه، مات أيضاً إرميا كاكستون Caxton, وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك، وأعطيت كنيسته الغنية على الفور من قبل أسقف ايلاي، إلى روبرت باسلو، على أمل، أن يصبح بعد حياة غير مثمرة طويلة، كاهناً مقدساً.

حول الغرامة الثقيلة التي فرضت على وولتر دي كلففورد

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، جرى اتهام وولتر دي كلففورد Clifford, الذي كان واحداً من الأعظم مكانة بين بارونات الحدود الويلزية، سواء في القوة، أو الثروة، أو الكرم، وجاء اتهامه أمام الملك، بأنه قام متحدياً للملك المذكور، فعامل رسوله بعنف وبشكل غير لائق، وهو الرسول الذي حمل إليه رسائل ملكية، وأرغمه على أن يأكل الرسائل مع الختم، وقد تبرهن أن وولتر هو مدان ومجرم أمام الملك، ولذلك لم يتجرأ على الوقوف أمام المحاكمة، بل ألقى بنفسه على رحمة الملك، وبوساطة ذلك، هو مع الصعوبة نجا من الموت، ومن التجريد من الميراث، غير أنه

فقد حريته وجميع الأموال التي استحوذها، أو كان بإمكانه الحصول عليها، وقد وصل ذلك إلى حوالي الألف مارك، ثم سمح له بالعودة إلى موطنه دون أن يسجن، وذلك بموجب كفالة بعض الضمانات.

إعادة تأسيس السلام بين راعي دير ويستمنستر ورهبانه

وأثناء العيد نفسه ثابر الملك على استخدام جميع الوسائل المتوفرة لسلطته، لإعادة تأسيس السلام بين راعي دير ويستمنستر، والتجمع الرهباني في ذلك المكان نفسه، لأن الفضيحة التي نجمت عن ذلك الخلاف، انتشرت في الخارج، ونشرت عدواها إلى جميع الرهبانيات، في جميع البلاد حقيقة، وجرى إخبار الملك، بأنه قد عرض نفسه إلى الاضطراب، وإلى تحمل النفقات من دون غاية، في إعادة بناء كنيسة ويستمنستر —أي الراعي والقطيع، يعني راعي الدير ورهبانه الديريين— الذي هم الحجارة الحية في مثل ذلك البناء الفخم، على مثل هذه الدرجة من الخلاف، وهكذا أمكن بوساطة تدخل الملك، الذي كان لديه تقدير خاص نحو تلك الكنيسة، أعيد تأسيس السلام، فيما بينهم.

كيف استدعى أسقف لنكولن جميع الرهبان في أسقفيته

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، قام المضطهد الذي لايعرف الكلل للرهبان، روبرت، أسقف لنكولن، بتوجيه الدعوة إلى جميع الرهبان في أسقفيته، للاجتماع في ليستر، في يوم عيد القديسة هيلاري، حتى يستمعوا هناك إلى ولاية من البابا، لأن هذا الأسقف، قد سعى بأقصى ما أمكنه نحو وضع الكنائس وموارد الرهبان في جميع أرجاء أسقفيته تحت سلطته، وهو أمر كان سيسبب الأذى إلى كثير من الناس، ذلك أن تلك الموارد لم يكن لدى الرهبان موافقة عليها من قبل الهيئة الكهنوتية، كما لم يكن لديهم أية وثائق تعطي برهاناً حول القضية، وكان الأسقف، حتى يصل إلى غايته، قد أنفق مبلغاً كبيراً من المال، حيث أرسل كاهنه ليونارد، بمثابة رسول متردد

على روما، إلى البلاط الروماني، وكان هذا البلاط —كما قلت من قبل— مثل خليج، وقد كانت لديه القدرة، وعمل عادة ابتلاع موارد جميع الناس، لابل في الحقيقة جميع ممتلكات الأساقفة، ورعاة الديرة، ومن الممكن الوقوف على الرسائل التي منحت هذا الامتياز إلى الأسقف في كتاب الـ Additaments.

كيف عبر كثير من النبلاء الإنكليز البحر

وفي حوالي الوقت نفسه، أقلع كثير من النبلاء الانكليز، وغادروا انكلترا، لكن سبب اقدامهم على هذا لم يكن معروفاً لدى أي من الناس، وكان من بينهم الايرل رتشارد، وايرل غلوستر، وهنري هيستنغ Hastings, وكان بارونا، وروجر دي ثيركباي Thurkby, وعدد كبير آخر، وكان معهم من الأساقفة: أساقفة لنكولن، ولندن، وووركستر، ومعهم رئيس شمامسة أكسفورد، وبدفورد، وعدد كبير آخر من الكهنة، من أسقفية لنكولن، وسافر الايرل رتشارد خلال المملكة الفرنسية، بصحبة الكونتسة زوجته، وابنه الأكبر هنري، وحاشية كبيرة، وكان محاطاً بمرافقة كبيرة، في أبهة عظيمة، وتألفت المرافقة من خمسين فارساً، مجهزين بجهاز جديد موحد، وكانوا ممتطين لخيول جميلة، تحمل مقاود جديدة، تلمع بالذهب، وكان معه خمس عربات، وخمسين دابة حمولة، وبذلك قدموا مشهداً رائعاً ومشرفاً للفرنسيين الذين شاهدوهم وهم مندهشين، وجرى استقباله لدى وصوله من قبل السيدة الشريفة بلانشي، وذلك بأعلى احترام، وقد عبرت عن بهجتها لدى رؤيتها له، وقدمت له هدايا رفيعة، مثلما يفعل قريب إلى قريبه، أو بالحري كما تفعل أم وتتصرف نحو ابنها المحبوب.

ذهاب أسقف لنكولن إلى البلاط الروماني

وكان سبب عبور أسقف لنكولن للبحر واضحاً إلى الجميع، لأنه، وإن كان رجلاً مسناً، كان يسعى جاهداً لاخضاع جميع الرهبان الذين

استدعاهم إلى طاعـة دقيقة له، فهو كان قـد دعاهم —كما ذكرنا من قبل— لسماع نص الولاية البابوية، وقد كانوا قد ترافعوا إلى الكرسي الرسولي ضد مظالمه التي لم يسمع بمثلهـا، وكـان رعـاة الديرة المعفيين، وكـذلك الداوية والاسبتـارية، قـد ترافعـوا جميعاً، ومعهم عـدد كبير آخـر، وقـد تمكنوا من خلال المال، من شراء السـلام بشكل عقلاني، وذلك لأنفسهم، مـن البابا، وذلك وفقاً لكلمات الشاعر الكافر الذي قال:

عون القاضي مطلوب عندما تكون القوانين قاسية

وعندمـــا بات هذا معلومـــاً لدى الأسقـف، وبعـد انفـــاق كبير للمال، ومتـاعب بلافائـدة، ذهب إلى البـابا، وهو آسف ومضطرب، وخاطبـه كما يلي: «مولاي، الأب المقـدس، إنني قد خجلت لدى هـزيمتي في قصدي في تنفيذ مااعتمدت عليه واثقاً بما جاء برسائلك، وبوعودك، وانني الآن أشعر بالخيبـة في توقعـاتي، لأن أولئك الذين صـدقتهم وأخضعتهم، قـد مضـوا أحراراً، مما سبب الإهانة إليّ والاضطراب»، ويقال بأن البابا قد رد على هذا قـائـلاً مع نظرة عـابسة: «مـاذا ألم بك؟ لقـد حـررنا روحك، وصنعنا لهم معـروفاً، فهل عينك شريرة، بسبب أنني جيـد؟»، ثم قال الأسقف لنفسـه وهو يتنهـد: «آه أيها المال، أيها المال كم سلطتك عظيمة، خـاصة في البـلاط الروماني»، لكن البابا كان قد سمعه، فغدا ساخطاً، فأجابه قائلاً:

«آه منكـم أيها الانكليز، أنتم أكثـر الناس تعاسـة، كل واحد منكم يعض جاره، ويسعى إلى افقـار تابعه، كم كـان عدد الرهبـان الخاضعين لك، مثل الشياه، ومن أبناء وطنك وبلدك، وأنت كنت تسعى بالالتماسـات وباظهار الكرم، كما أنك قد بذلت غاية مـاتستطيع، في سبيل اشباع طغيانك ونهمك من ممتلكاتهم، وكـي تغني آخـــرين، ربما من الأجـــانـب»، وهكذا غـــادر الأسقف المهـان، وسط صرخات الشتـائم من جميع الذين كانوا حضـوراً، ولكي لايبدو أنه لم يحقق شيئاً، تولى متابعة القيام ببعض الأعمال الأخرى.

كيف باع كثير من نبلاء إنكلترا مزارعهم

وقام في هذا العام روجر دي مونتهوت Monthaut, وكان واحداً من أعلى النبلاء مرتبة في مملكة انكلترا، بحمل الصليب، وتولى ايجار حصته التي امتلكهـا في الغابات وفي الموارد الأخرى في كـوفنتري، إلى رئيس رهبان، ورهبان دير ذلك المكان، على شكل ضمان حر، مقابل مبلغ كبير من المال، في سبيل تزويد نفسه بالضروريات من أجل السفر، كما قام أيضاً بتحويل كثير من ممتلكاته الأخرى إلى آخرين، وباع بعضها، وكان كثيراً، بيعاً كاملاً، ومثله فعل كثير من النبلاء الآخرين، في كل من القارة وعلى هذا الجانب من القنال، وبالإضافة إلى روجر هذا، تولى عدد كبير جداً من النبلاء الانكليز، والأساقفة، وكذلك الفرسان، حمل الصليب في هذا الوقت نفسه، من أجل رفع شأن قضية الصليب، وكذلك في سبيل اللحاق بالملك الفرنسي ومساعدته، وكان من بين هؤلاء أسقفي وورسكتر، وهيرفورد، وايرلات: ليستر، وهيرفورد، وغيوفري دي لوسي، وروبرت دي قوينسي، وعدد كبير آخر، كانوا كثيرين جداً، لايمكن ذكرهم، وقام عدد كبير أيضاً برفض تسلم شارة الصليب بشكل علني، وذلك خشية من مكر البلاط الروماني، كما أنهم رفضوا وضعها على أكتافهم، لكنهم عزموا سرياً بشكل ثابت، وتعهدوا بمساعدة الأرض المقدسة، بكل ما امتلكوه من تقوى واخلاص.

معاناة البارميين

وفي هذه الآونة نفسها ازدادت قوة فردريك كثيراً جداً، فبعدما تمكن من طرد وليم أوف هولاندا، وسفيره بطرس كبوشي، خضع كثير من النبلاء إليه، وقدموا الولاء له، ولذلك تمّ الضغط كثيراً من قبله على البارميين، وعلى الريجيانيين Reggians, أيضاً وكذلك على البولونيين، والعصاة الآخرين، وكان التضييق عليهم قد بلغ حداً، أنهم لم يتجرأوا على إظهار أنفسهم بعيداً عن مدينتهم، خشية الوقوع في

مصـائـده، ولذلك فـإن تجّار هؤلاء النـاس، الذين كـانوا بالعـادة مليئين بالثـروة، باتوا الآن في حـالة العـوز، بسبب تعطيل أسـواقهم، واغـلاق الموانىء، وتسكير الطرق، ولـذلك شرعوا يرغبـون بالسلام مع فردريك، ويمقتون الحرب البابوية، وجرى تحريض الكثيرين على هذا توبة فردريك المستمرة وتواضعـه، والترضيات التي قيل بأنه قدمها مصحـوبة بإخلاص لائق إلى البـابا، لأنه رغب، وبتـواضع سأل منحه الاذن بشنّ الحرب ضـد أعـداء المسيح، وأن يقـاتل في سبيل الكنيسـة في الأرض المقـدسـة، لبقيـة حيـاته، أو على الأقل، حتى يتمكـن بقـوة السـلاح، من استرداد مـا كـان متملكاً من قبل الصليبيين في أي وقت من الأوقـات، شريطة السماح لابنه هنري —ابن أخت ملك انكلترا، الـذي أحبـه أكثـر من أولاده الآخـرين —بأن يحكم الامبراطورية من بعده، وعـلاوة على هذا عرض بأن يعيد إلى الكنيسة كثيراً من ممتلكاتها التـي كان قد جـردها منها، وأن يعـوض عليها خسـائرها، وعلى هذه العـروض أصر البابا بعناد وتمسك بجـوابه، بأنه لن يكون من السهل أبـداً إعادته إلى وضعـه الطبيعي، وهو الذي جرى خلعه وادانتـه في المجمع المسكوني لليـون، وقـد أكـد كثيرون بشكل حـاسم بأن البـابا رغب بشدة وتشـوق فـوق كل شيء، إلى الاطاحة بفـردريك، الذي سماه التنين الكبير، وذلك حتى إذا ما تمكن من دوسه بقدميه، ومن سحقه، يمكنه بعـد ذلك بسهولة أكبر، أن يـدوس على ملكي فرنسـا وانكلترا، مع الملوك المسيحيين الآخرين (الذين أطلق عليهم اسم «الأمراء الصغار»، أو «الأفـاعي الصغيرة»)، حيث يمكنه أن يتولاهـم الرعب من خلال قضيـة فـردريك المذكـور، ويمكن بالتـالي للبـابا أن يجردهم مع أقـربائهم من مقتنياتهم ومن مباهجهم، وقد أثارت هذه الأقاويل، مع الأفاعيل الكثيرة، التي تحمل براهين قوية على معاني كلمات البابا، كثيراً من الناس، وأدخلت الخوف في قلوبهم، ومتنت عـدالة قضيـة فـردريك، لذلـك بدأت قضيتـه بالتحسن يومياً.

إحصاء ثروة بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري

واجتمع في هذه الآونة أساقفة منطقة كانتربري في اكسفورد، لإحصاء الأموال التي جرى جمعها من جميع أرجاء أسقفياتهم من أجل استخدام رئيس أساقفة كانتربري، ولمعرفة فيما إذا كانت قد وصلت إلى المبلغ المسموح له به، وقد عرفوا هذا من الجباة الذين جرى تعيينهم في كل واحدة من الأسقفيات، لكن رئيس الأساقفة كان قد عيّن عدداً كبيراً أكثر، من أجل حساب جميع النفقات لصالحه، وبناء عليه منحه الأساقفة —مكرهين— الذي طلبه، لأنهم شاهدوا بأن البابا مؤثر له في كل شيء.

كيف طلب الملك المسامحة من سكان لندن من أجل إجراءاته الماضية

في يوم الأحد التالي قبل عيد القديس بيربيتوا Perpetua, والقديس فيليستياس Felicitas, اجتمع جميع سكان لندن، بناء على أمر من الملك، واحتشدوا جميعاً مع أسرهم، لابل حتى مع الأطفال من ذوي الاثني عشر عاماً، في ويستمنستر، في القصر الكبير، الذي يدعى باسم القاعة الكبيرة، وكان عددهم كبيراً إلى حد أن القاعة وكذلك القصر قد غصا بحشود الجماهير المجتمعة، وبعدما اجتمعوا جميعاً، قام الملك بتواضع، وكأن الدموع خارجة من عينيه، فالتمس من كل واحد منهم، لابل منهم جميعاً، في أن يقوم سكان المدينة بفم واحد، وبقلب واحد، بمسامحته من أجل غضبه، وحقده، وضغينته نحوهم، وقد اعترف بشكل مكشوف، بأنه غالباً ما قام هو وعملائه، بإلحاق الأذى مضاعفاً بهم، مع انتزاع ممتلكاتهم بشكل غير عادل والاحتفاظ بها، وخرقه المتوالي لامتيازاتهم، ولهذا طالبهم الآن ورجاهم أن يمنحوه عفوهم، ورأى سكان المدينة أنه من غير اللائق عدم الاستجابة، فوافقوا على طلبه، لكن جاء ذلك من دون إعادة أي من ممتلكاتهم المنتزعة إليهم.

الملك يحمل الصليب ومعه كثير من النبلاء

وتسلم الملك في اليوم نفسه الصليب من يدي بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وقام رئيس الأساقفة نفسه فيما بعد بمنح ذلك الشعار المقدس إلى بعض النبلاء، وكان من بينهم فتز— نيقولا، قهرمان الملك، ووليم أوف بلنسيه، أخيه [الملك] لأمه، وبوينتز بيبر Pointz Pepper, الذي كان مستشاراً خاصاً به، مع عدد كبير آخر من النبلاء ورجال البلاط، وقام راعي دير القديس ادموند، الذي كان اسمه ادموند أيضاً، أمام سخرية الجميع، فضرب مثلاً سيئاً إلى جميع الرهبان، وسبب الضرر إلى طائفته المقدسة، فخرق كل تعهد، فحمل الصليب أيضاً، وكذلك فعل جون مونسل Maunsel, وفيليب لوفل Lovel, وكانا كاهنين للملك ومستشارين، وكذلك عدد كبير آخر، هم كثيرين جداً حتى نتمكن من ذكرهم، وأقدم بعض المفسرين الأشرار على التأكيد بأن الملك قد حمل الصليب لغرض واحد فقط، هو أن يتمكن لهذا السبب من استخراج المال بالقوة من النبلاء الذين رفضوا من قبل الاستجابة إلى طلبه، والدفع له، وبأن يدفعوا له الآن بحجة الحصول على امتلاك الأرض المقدسة ورفع شأن المسألة الصليبية، لكن الأناس الجديين والأكثر عقلانية تحفظوا بآرائهم حول هذه المسائل، حتى يمكن تفسيرها وبرهنتها من خلال اجراءاته الماضية، لأن المتوجب على العقل الجيد أن يؤثر الأشياء البناءة على القضايا المشكوك بها حتى يتبرهن العكس، وأيضاً من الذي —غير الرب— يعرف ما يفكر به الناس الفانين؟، وكانت أسس هذه الشكوك قد ازدادت من خلال المثل السيء الذي ضربه الملك الفرنسي الذي انتزع من مملكته مبلغاً كبيراً من المال، الذي كان مفيداً قليلاً له أمام أيدي الرب المنتقم، الذي أعاق حجه، والثمار التي جناها من تلك الإجراءات، الرواية التالية سوف تظهرها.

حول القرار الجماعي للصليبيين

في السابع والعشرين من نيسان لهذا العام، اجتمع القادة بين رجال الصليبيين الانكليز في بيرموندسي Bermondsey, في لندن، لعمل الترتيبات من أجل الانطلاق بحملتهم، ذلك أنهم أعلنوا أنهم لن يتراجعوا عن عمل ذلك بسبب الملك، ولقد قدروا في الحقيقة، أنه كان غير مجدياً بالنسبة إليهم إهمال اخلاص أرواحهم، والتخلي عن واجباتهم نحو الرب السماوي، في سبيل خدمة أي ملك أرضي، وبناء عليه حددوا يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ليكون موعد انطلاقهم، وقد أحصي أنه كان في الاجتماع خمسمائة من الفرسان مع أتباعهم، بالاضافة إلى حشد لايحصى من الأعوان، والناس المرتبطين بهم، لأن جميع نبلاء مملكة انكلترا مع عدد كبير من مملكة فرنسا، ممن عملوا استعداداتهم أمام ملك انكلترا، وحملوا الصليب، كانوا يتوقعون هذه الحركة المجيدة، وكان الملك مثله مثل جاسوس متيقظ، لذلك حصل على معلومات مسبقة حول هذه الاجراءات، فكان لذلك قد حصل بوساطة هدايا الأموال، والوعود بتقديم المزيد على الفور، على رسائل من البلاط الروماني، يمكنه بوساطة سلطاتها، تأجيل مغادرتهم حسب رغبته، حتى يتمكن، وهو القائد الرئيسي في بلاده، من المسير مع قوة كبيرة، إلى بلدان ماوراء البحار، فبذلك يمكنه التصرف بشكل أكثر جدوى وسلامة، وعلى هذا ردّ الصليبيون، بأنه سوف يكون من الموائم وأمراً سليماً، أن يقوم الذين حملوا الصليب قبل أن يقوم الملك بذلك، والذين قد زودوا أنفسهم بالخيول، والسلاح، وبالضروريات المحتاج إليها أثناء السفر، بوساطة رهن أراضيهم، وببيعهم الكثير من مقتنياتهم، وودعوا أصدقاءهم، أن يقوموا بالانطلاق، والشروع برحلتهم أولاً، وأن يسيروا قبله، وبذلك سوف يواجهون ويستقبلون بمزيد من إمدادات الطعام، وعندما سيشاهد الأجانب هذا، سوف يقولون: «إذا كان

مثل هذا العــدد الكبير من الناس من ذوي مثـل هذه المراتب العليـا، قــد جـاءوا قبل الملك النبيل لانكلترا، علينا أن نتصور كم سيكون عـدد الذين سيرافقــونه ويتبعـونه عنـدمـا سيأتي هو نفســه؟»، وبذلك ســوف يزداد الاحترام للملك بين جيرانه، وسيتضـاعف الخوف منـه بين أعـدائـه، لكن الرسـائل المهـددة للبـابا، والالتماسـات الملكيـة التي قـام بها الملك، غيرت مقاصـدهم، فبقيوا، ومع أن هذا الاجـراء لم يكن مشكوراً في ذلك الوقت، لقد تحول في هذه المناسبـة فكان فيما بعد لحسن حظهم، ولكن بسبب أنهم لم يذهبـوا إلى مسـاعـدة الملك الفـرنسي، في ذلك الوقت المناسب، كما رغبـوا وتشوقوا، فإن القضية الصليبية، قد وهنت كثيراً لسبب أو لآخر، وتدمرت بشكل غير سعيد.

كيف جرى اخضاع الغسكونيين الذين تمردوا على مولاهم من قبل إيرل ليستر

وأمكن في العــام نفســه، تدجين غسكـوني إلى أبعــد الحدود، من قبل سيمـون دي مونتفـورت، ايرل أوف ليستر، فقد جـرى أسر غاستـون دي بيارد، الذي كان أقوى أعداء الملك، أو كان واحداً من أكثرهم قوة، وأهين بعد أسره، وبناء على أوامـر من الايرل، ذهب إلى انكلترا، إلى الملك المتأذي منه، الـذي كــان مقيماً آنـذاك في كليرندون Clarendon, ليترجـــاه بتـذلل، وليطلب منه العفـو عنه وابقــائـه حيـاً، مع المحـافظة على أطرافـه واقطاعـه، ورمـى هناك بنفسـه كليـة على رحمة الملـك، وليس على حكمـه القضائي، وقـد قوبل بالرحمة منه، مع أنـه لم يستحقها، لأن الغضب الملكي قاهر، وقد ابتعد عن ممارسة انتقامه عندما شاهد بأنه قد قهر أعداءه، وذلك وفقاً لكلمات أوفيد التالية:

ضحيته قُتلت، الأسد بات راضياً

المعركة قد انتهت، وغضبه كله قد تبدد

وبناء عليـه، استحـوذ الملك، مـن خـلال الايرل المذكـور، على بعض القلاع، التي كانت عائدة إلى غاستون المذكور وإلى المتعاونين معه، وقد كان من بينها قلعتي فـرونساك Fronsac, وايغريمـونت Aigremont, وعـدد كبير آخر، وبعـد تذلله، الذي كـان ظاهرياً فقط، وبوسـاطة تدخل الملكة، التي جعل نفسـه قـريباً لها، استقبل غـاستـون بحظوة كبيرة من قبل الملك، بلغت حداً أنه أعاد إليه تملك أراضيه، ولكن جاء ذلك مرتبطاً بكثير من الشروط الدقيقة، وقـام الايرل المذكور بدراسة سبل تقليـد أبيه في جميع المجـالات، وأن يسير على خطـاه، أو أن يتخطاها، ولذلك ضبط وقـاحـة الرعية التي كـانت عاصيـة على الملك في بوردو، وفي جميع أرجاء غسكوني، حتى أنه أرغم وليم دي سـولاري Solaires, وروستين Rusten, مع رجال آخـرين متجبرين كانوا عصاة ضـد الملك، وأجبرهـم على الفرار، أو قام بتجـريدهم من مـواريثهم، أو حكم عليهم بالنفي، كما أنه تولى شنق الكثيرين.

كيف استخرج الغسكونيون بالقوة مبلغاً كبيراً من المال من ملك إنكلترا

ليكن معلومـاً، أنه عندمـا كان الملك في غسكوني، وظـن أنه غادر حـراً وبمشيئته، كان الغسكونيون، وبشكل خاص شعب بوردو، قد شاهدوا أنه كان في وضع حرج، لذلك قاموا قبل أن يسمحوا له بالمغادرة، فاستخرجوا منه مبلغاً كبيراً من المال، كـان مقداره أربعين ألف مـارك، ومن أجل الوفاء بذلك، استخـرجوا منه أيضـاً بالقوة عهـده ويمينه، وكذلك صكاً مـدوناً، وبعـد ذلك، قـام الملك إثر وصـوله مبـاشرة إلى انكلترا فـاعتصر هذا المال واستخرجه من الأسـاقفة،وبذلك أفقر انكلترا، وذلك حتى بعدمـا كان قد خسر بواتو، ولذلك بما أنه كـره الغسكونيين، باع خـزانتـه حتى يتمكن من الخلاص.

حول الحملة التي قام بها الفرنسيون ضدّ المسلمين

في يوم الاثنين، قبل أربعاء الرماد، حمل الجيش الفرنسي فجأة، وتقدم بقوة عظيمة من قلعة دمياط، وانقض رجاله على المسلمين الذين كانوا يتولون حصارهم، فقتلوا عدداً كبيراً منهم، وبعدما حصلوا على النصر، عادوا ومعهم أسلابهم، سالمين ومسرورين، إلى المدينة، وأملوا في اليوم التالي بالحصول على حظ طيب مماثل في القتال، ولكن نظراً لتزايد أعداد الأعداء، نالوا السوء من المعركة، وخسروا عشرة أضعاف الأسلاب، التي فرحوا بها أثناء عودتهم إلى المدينة في اليوم السالف، فقد رجعوا وقد غطاهم الدم، وهم مجروحين، ومشوهين، وأعدادهم قد تناقصت كثيراً، وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يشعرون بالعزيمة في قلوبهم، وبرفع رؤوسهم عالياً أمام الصليبيين، فأغلقوا جميع الطرقات في جميع أرجاء المنطقة، وفي كل الاتجاهات، بما أن آمال السلطان أصبحت الآن في حال أفضل، جمع غلايين من الاسكندرية، ومن الأماكن الأخرى القائمة على الساحل، ومن كل مكان أمكنه الحصول عليهم، وأمر باقامة مراقبة متيقظة على البحار، وعلى السواحل، وعلى جميع الأماكن التي كانت مفتوحة لجلب المساعدات إلى الفرنسيين، واستخدم المزيد من العناية، حتى يمنع من جلب الإمدادات إليهم.

حول شروط السلام التي قدمها السلطان

وأخيراً جرت بعض المشاورات، وتمّ عقد مؤتمر بين الجانبين، وقد أرسل السلطان رسالة إلى الملك الفرنسي، أنه في سبيل تسوية جميع الخلافات، سوف يكون من المعقول بالنسبة له، أن يتخلى عن مدينة دمياط مع امداداتها، التي تدعى عادة باسم «حواصل الحبوب»، ومقابل ذلك سوف يعاد إليه جميع منطقة القدس مع الأسرى الصليبيين بشكل سلمي، وقال أيضاً إن على الملك الفرنسي أن لايطمح أو يتطلع إلى أي شيء أكثر من إعادة الأرض المقدسة إلى الصليبيين، وعلى هذه الخطة، وافق وقتها

كثير من الصليبيين، خاصة ذوي المراتب المتوسطة والمراتب الدنيا، الذين كانوا في حالة عوز، لابل وافق عليها حتى النبلاء، وأعلنوا عن رضاهم، وقالوا صحيح بأن عروض السلام هذه كانت متواضعة، إنه إذا لم يتم الموافقة عليها، فإن تجبر النبلاء سوف يلحق الأذى بالجيش كله، ولدى معرفة الملك، كان ميالاً للأخذ بهذه النصيحة، لولا أنه عورض بعناد من تجبر وتشامخ كونت أرتوي، الذي أصر على المطالبة بالاسكندرية، بالاضافة إلى ماتقدم، غير أن السلطان ما كان بأي حال من الأحوال، يقبل بالتخلي عن تلك المدينة إلى الصليبيين (لأنها كانت أكثر المدن فخامة، ومقصد جميع التجارات الشرقية والجنوبية)، كما أعلن أنه لاأهل الاسكندرية ولا المصريين سوف يرضون بذلك.

كيف ماتت أعداد كبيرة من الفرنسيين بالجوع وبالسيف

بدأت أحوال الفرنسيين، الذين كانوا محاصرين من جميع الجهات، الآن بالتدهور بدرجات عالية جداً، لأن الذين كانوا بالعادة نظيفين ولطيفين في طعامهم وشرابهم، قد أرغموا الآن على أكل طعام غير نظيف ومكروه، كما أنه لم يكن بإمكان فردريك، أو أي أمير مسيحي من البلدان المجاورة، مساعدتهم، ولكي نجمل الأمور ونصفها باختصار، لقد كان الضغط عليهم بالنسبة للأطعمة قد وصل إلى حد، أنهم أرغموا أثناء الصوم الكبير حتى على أكل خيولهم الثمينة، التي كانت ضرورية جداً إليهم، ولقد كان هذا مشهداً محزناً، والذي كان أكثر سوءاً، هو أن خلافاً وكراهية قد تفجرا بين النبلاء وبين الصليبيين البلديين [البوليان]، لأن النبلاء رفضوا بعناد شروط السلام المنطقية التي جرى عرضها، وعلاوة على ذلك كره المسلمون رعونة الصليبيين وعنادهم، فزادوا من قوة تحالفهم، وضغطوا عليهم بشدة أكبر من ذي قبل، ولذلك قام عدد كبير من الصليبيين منذ ذلك الحين، بسبب المصاعب، فتركوا القلعة والمدينة سراً، والتحقوا بحشود المسلمين، وفق شروط معتدلة، ووقفوا بشكل مؤثر وفعال ضد

بني قومنا، ذلك أن المسلمين استقبلوهم بسرور، وزودوهم بالأطعمة، في الوقت الذي كانوا يسقطون به من الجوع، وعينوا لهم مايكفي من الطعام يومياً، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من هؤلاء الصليبيين الفارين حافظوا على إيمانهم وشريعتهم، بسبب اعتدال المسلمين وتسامحهم، غير أن بعضهم قد ارتدوا، والتحقوا بدنسهم، وأكدوا ذلك بتقديم الولاء لهم، وجرى تزويد هؤلاء بثروات واسعة، مع زوجات وقلاع، وجرت ترقيتهم إلى كثير من مراتب الشرف، وسبب هؤلاء أضراراً قاتلة إلى الصليبيين، فضلاً عن أنهم كشفوا عن أسرارهم وعن خططهم إلى أعدائهم.

كيف أصبح عدد كبير من الفرنسيين مرتدين

بات العوز الشديد للصليبيين معروفاً تمام المعرفة لدى السلطان، بوساطة هؤلاء المرتدين، فأرسل رسالة سخرية قاسية إلى الملك الفرنسي يسأله لماذا جلب معه في مراكبه إلى الشرق: مساحي، ومذاري، وعربات، ومحاريث، وأنواع أخرى من أدوات الفلاحة، التي لم يعرف كيف يستخدمها، ذلك أنها سوف تتلف بالصدأ؟، وقد أوضح أنه إذا ماأصبح الملك الفرنسي صديقاً له، سوف يجد كثيراً من الزاد يصل إلى جيشه أثناء إقامته هناك، من نوع القمح، والخمرة والزيت، واللحم، وقاوم الملك —ليس من دون حزن شديد— جميع إغراءات أعدائه، وبحكمة أخفى جرح قلبه، تحت ملامح هادئة.

موت السلطان

وإثر ذلك مباشرة مات السلطان، حيث يقال بأنه سمم من قبل حجابه، لأنه بات مكروهاً لدى قومه، ولدى قادته جميعاً، ولدى جيرانه، لأنه كان متجبراً، وشرهاً، وغير عادل نحو الجميع، ولدى سماع الصليبيين بهذه الواقعة ابتهجوا كثيراً، مع أنه توجب عليهم الحزن، لأن كثيراً من المسلمين تظاهروا فقط بالوقوف إلى جانبه، في حين كانوا قد أغضبوه بكراهيتهم

المخفية، ومالبث بعد ذلك أن جرى تعيين سلطان جديد في مكانه، وامتلك هذا السلطان نوايا طيبة نحو جميع شعب الشرق تقريباً، وتابع هذا الرجل النشاط الحربي ضد الصليبيين، لابل بشدة أعظم من سلفه، ورفض تمام الرفض أن يمنحهم عروض السلام، التي سلف منحها، والتي تمناها جميع الصليبيين وطلبوها، وبدأت أحوال الصليبيين منذ ذلك الحين بالتدهور بدرجات عالية، وباتت سمعتهم متدنية وكذلك احترامهم، في أعين شعب الشرق.

كيف تلاشى إيمان الكثيرين

وبناء عليه، بدأ كثيرون ممن لم يكونوا أقوياء في إيمانهم، يذعنون أمام اليأس، ويعبرون عن ذلك بتجديفاتهم، وتبددوا من خلال الجوع، ومؤسف القول إن إيمان الكثيرين بدأ يتلاشى، لأن أحدهم قال للآخر: «لماذا تخلى المسيح عنا، نحن الذين نقاتل هنا من أجله ومعه؟ فغالباً في أيامنا هذه ماهزمنا، ووضعنا في حالة من الفوضى، وأعداؤنا —في الحقيقة أعداء المسيح— منتصرون علينا وممجدون في دمائنا، وفي الأسلاب التي أخذوها منا، وكان ذلك في المقام الأول عندما جرى تطويقنا بفيضان النيل، وفي دمياط، التي أرغمنا على التخلي عنها، وهي المدينة التي حصلنا عليها مقابل الكثير من الدماء، ومجدداً جرت هزيمة فرسان الداوية المشهورين قرب أنطاكية، وتمّ تفريقهم مع خسارة حامل رايتهم، الذي جرى اعدامه، ومجدداً كان قد حدث قبل عدة سنوات مضت، أن هزمنا من قبل المسلمين عند قيسارية، بعدما كان قد جرى انقاذها من قبل الايرل رتشارد الانكليزي، فبعد ذلك بأمد قصير، جرى تمزيق جميع الصليبيين تقريباً، إلى مزق من قبل الخوارزمية، الذين لوثوا، ودمروا جميع الأماكن التي تدعى مقدسة، والآن، إن ماهو أسوأ من كل شيء، هو أن ملكنا المسيحي التقي، والذي أقيم من الموت بشكل إعجازي، بات الآن معرضاً لمخاطر مهينة واضحة، ومعه جميع نبلاء فرنسا، وصار الرب وكأنه عدو لنا، والرب

الذي كـان بالعادة يدعى رب الحشـود، هو الآن، وياللأسف، مـزدرى من قبل أعدائه، وبحكم أنـه قد هزم مراراً، ماالذي أفادنا اخـلاصنا؟، وماهي الفائـدة التي نلناها من صلوات رجـال الدين، ومن اعطاء الصدقـات من قبل أصدقـائنا؟، فهل ياترى شريعة محمـد (صلى الله عليه وسلم) خير من شريعـة المسيح؟»، وهكذا ترددت كلمات التجـديف وسمعت من ضعفـاء الإيمان، وبدا أن الصوم الكبير، هو وقت للعقوبة، أكثر منه وقت للتوبة.

تدهور أحوال الإمتيازات الكنسية

وحدث في العام نفسه، أن قـام أسقف لنكولن بتجريد واحد من الكهنة في أسقفيتـه، اسمـه رالف، من منفعتـه، بسبب أنه اتهم بالفجـور، ومع أنه رفض —على الرغم من إدانته— التخلي عن المنفعة، جـرى حرمانه كنسياً، وبعـدمـا مكـث الكاهن الآن لمدة تزيد على أربعين يـومـاً تحت الحرمـان الكنسي، أرسل الأسقف رسـالـة إلى عمـدة روتلاند Rutland, حيث سكن الكاهن، وعـاش في ظل سلطانه القضـائي، وطلب منه اعتقـاله، وادخـاله السجن، بحكم كونه متمـرداً، غير أن العمدة الذي كـان صديقـاً كبيراً لرالف المذكـور، إمـا قـام بتأخير ذلك، ورفض تنفيـذ الطلب، لأنه لم يكن صـديقـاً للأسقـف، لأن سينكا يقـول: «الـذي يجري تأخيره لوقت طويل، يرفض لوقت طويل»، وبناء عليه، عندمـا شاهد الأسقف الكراهية الخفية للعمـدة، قام بوقار فحرمـه كنسياً أيضاً، وبناء عليه قـام العمدة وهو مغضب ويشعـر بالإهانة، فتقـدم بشكوى ثقيلة أمـام الملك حـول هذه القضيـة، وعندمـا سمع الملك بهذا هو ورجـال بلاطه، أثيروا جميعـاً كثيراً، وأجـاب الملك وهو حانق، وأرفق أجـابته بقسم عظيم قـائلاً: «إذا قـام أي واحد من شعبي بجعل نفسه عـرضة للتغريم من قبل هذا الأسقف، أو من قبل أي واحـد آخر، يتـوجب عليه تقـديم الشكوى إلينا، لأنه يبـدو وكأنه ينظر إليّ نظرة ازدراء»، وبنـاء عليـه أرسل رسـلاً خـاصين إلى البـلاط الروماني، وتمكن بوساطة المال، من الحصـول بسرعة على الامتياز الوارد في

الرسالة التالية، مما ألحق الضرر بالحرية اللاهوتية.

رسالة البابا

«**من أنوسنت الرابع، إلخ، إلى ابنه المحبوب، راعي دير ويستمنستر في لندن، تحيات**: لقد وافقنا عن طواعية على رغبة ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، صاحب السمو، ملك انكلترا المشهور، حتى نظهر أنفسنا محابين له ومؤثرين، في القضية التي طلبها منا بشكل عادل، حيث أنه قد وقع، حسبما روي لنا باسمه، بأن بعض رجال الدين والأساقفة، قاموا من أجل تسبيب الأذى للملك المذكور، بإرغام نواب مملكته على الترافع بقضاياهم أمامهم، وحسب هواهم، وذلك في القضايا، العائدة إلى القضاء الملكي، وقد تفوهوا بقرارات الحرمان الكنسي ضدهم، إذا لم يفعلوا ماطلبوه منهم، واستجابة منا لالتماساته، وبموجب سلطات رسالتنا هذه، رأينا من الموائم، أن نمنع أي رئيس أساقفة، أو أسقف، أو أي قسيس آخر في تلك المملكة، من القيام بارغام أي واحد من نوابه، على الترافع بقضاياهم أمامه، في القضايا العائدة إلى العدالة الملكية، أو القيام لهذا السبب بالتفوه بأي حكم ضدهم، وبناء عليه نحن نأمركم بهذه الرسائل الرسولية، أن لاتسمحوا بموجب اخلاصكم، أن يجري اغضاب الملك المتقدم ذكره بشكل غير موائم، من قبل أي واحد من جماعتكم في هذه القضايا، وذلك معارضة لمقصد حظرنا، فاعل الشر، إلخ، إلخ. صدر في ليون في التاسع من آذار الحالي، في السنة السابعة لحبريتنا».

وفعل الملك هذا، لكن ليس من دون الحصول على ملامة الناس العقلاء، لأنه اشتكى إلى البابا حول هذه القضية.

عودة الإيرل رتشارد

في يوم الاثنين التالي قبل أسبوع الابتهالات، وصل الايرل رتشارد عائداً من البلاط الروماني، ولدى وصوله إلى لندن، استقبل بكل تشريف

واحترام، في سبيل أن لايكون الاحترام المبدى نحوه هنا ليس أقل مما أبدي نحوه في القارة، لأن السيدة بلانشي قدمت إليه كل الاحترام الذي كان بمقدورها، وفتحت صدر فرنسا كلها له، وبات معروفاً لدى الجميع، بناء على رواية الايرل وروايات أتباعه، درجة التشريف العظيم التي أضفاها البابا عليه، لدى وصوله إلى ليون، ذلك أنه لدى اقترابه من تلك المدينة، جرى استقباله من قبل جميع الكرادلة والكهنة التابعين للبلاط الروماني، حيث بقي مع البابا كاردينال واحد وعدد قليل من الكهنة، وبالنسبة إلى أتباعه، والناس الذين جاءوا لاستقباله، كان هناك ضغط شديد، وحشد كبير للرجال والخيول، ولقد كان عدد حاشيته، وفخامة عتادها، وخيول تحميله كبيراً جداً، إلى حد أن سكان المدينة، وكذلك الذين جاءوا إلى البلاط الروماني لتأدية الأعمال، كانوا مندهشين لوصول مثل هذا الأمير العظيم، ولدى دخوله إلى البيت نهض البابا من مقعده، وذهب إلى استقباله، حيث حياه، وباحترام مليء بالبهجة استقبله معانقاً، ثم قام وهو هادىء الملامح، فسأله تناول طعام الافطار معه في ذلك اليوم، ووافق على هذا الايرل راغباً، وجلس إلى المائدة إلى جانب البابا، وكان رتشارد ايرل غلوستر قد أجلس بعيداً بعض الشيء، ثم إنهم انشغلوا بالمشاركة بالمائدة، بشكل موافق وأديب، وقاموا بالأكل والشرب ومزجوا ذلك بأحاديث ودودة، وذلك وفقاً لعادات الفرنسيين والانكليز، وبعد ذلك عقدوا كثيراً من المحادثات السرية والطويلة فيما بينهم، خاصة وسط كرم عظيم وغير معتاد للبابا، وفي نهاية نيسان، بعدما قدم الايرل رتشارد احتراماته إلى القديس ادموند المعترف في بونتغناك، عاد مسروراً إلى انكلترا، كما تقدم الذكر أعلاه.

حول مختلف الآراء التي جرى تداولها حول مؤتمر البابا مع الإيرل رتشارد

انتشرت آراء مختلفة، وتخمينات متنوعة حول هذا المؤتمر الطويل والودود وحول غاياته، وأكد كثيرون بأن البابا قد رغب بأن يقوم الايرل

رتشارد بضبط وقاحة الاغريق، وإعلاء شأن قضية إعادتهم إلى الحكم الروماني، ذلك أنه قد عرف أنه كان نهماً وطموحاً، ووافر الثروة، ولذلك أراد هذا البابا استخدامه لهذا الغرض، ولم يتردد آخرون عن الاعلان بأن البابا قصد بشكل مدروس الحصول على مساعدة الايرل، لكي يستقبل بتكريم في انكلترا، متى أراد القدوم إليها.

كيف اشترى الإيرل رتشارد رئاسة رهبان أحد الديرة

وعندما كان الايرل عائداً عبر دير القديس دينس، دفع إلى راعي دير ذلك المكان مبلغاً من المال لشراء إحدى رئاسات الرهبان في انكلترا، كانت عائدة إلى كنيسة القديس دينس، وكانت هذه الرئاسة تعرف باسم [دير] هيرست Hurst [Deer], وكانت واقعة قرب غلوستر، وكان آنذاك يعيش فيها بعض الرهبان، وكان عائداً إلى هذه الرئاسة ثمان قرى غنية، ولذلك كانت كنيستها تساوي ثلاثمائة مارك سنوياً، مع حديقة وملاحق، وكان كل مارك يساوي ثلاثين شلناً في المصرف، وقد حصل على ابرام هذه الصفقة والمصادقة على الشراء في البلاط الروماني، وبعد وصوله إلى انكلترا قام على الفور بطرد الرهبان، ودمر المباني، وأدخل الرئاسة في ممتلكاته، وبعد هذا لم يعد يخاف من أي من جيرانه، خاصة الرهبان، واعتماداً منه على حماية البابا، بعثر كل شيء حسب رغبته، وبذلك بدأت أحوال الكنيسة تزداد سوءاً يومياً، كما أنه عزم على بناء قلعة هناك على نهر سيفيرن Severn.

حول معجزة عملت بذراع القديس إدموند المعترف

في هذا العام نفسه، كان رهبان بونتغناك، إما أنهم قد تعبوا من الوصول المستمر للحجاج، وبشكل خاص النساء الانكليزيات (لأنه لم يكن مسموحاً لأية امرأة أخرى أن تفعل ذلك) اللائي تدفقن على شكل حشود، على قبر القديس ادموند، أو أن هؤلاء الرهبان قد أثيروا بالجشع —وهو

أمر مرعب أن تذكره— فأقدموا على عمل طائش، بأن بتروا الذراع الأيمن للقديس، غير أنهم بقيامهم بهذا الإجراء، لم يتمكنوا من منع أعداد الحجاج، من كلا الجنسين، من التدفق على شكل حشود لرؤية الجسد ولتعبده، وهكذا كانوا قد هزموا بجدارة في مقاصدهم، وعلاوة على ذلك، إنه بسبب ما بدا أنه نقص في الإيمان، قاموا إما بسبب الحاجة إلى الثقة، أو صدوراً عن الجبن، وأيضاً (باستثناء الاحترام المستحق لطائفتهم) صدوراً عن العوز في الإيمان والفقر فيه، أقدموا على تحنيط جسد القديس بالزيت، وهو الجسد الذي حفظه الرب حتى الآن سليماً، وحدث أن أي جزء من الجسد قاموا بتحنيطه قد تحول إلى لون قبيح جداً، ولذلك تكدست الملامة المتوالية على رهبان بونتغناك، وفي الحقيقة على جميع الرهبان السسترشيان، وفي الواقع حزن كثيرون بسبب أن مثل ذلك الجسد المبجل قد وضع في كنيسة عائدة إلى السسترشيان، مقدرين كيف أن أجساد القديسين كانت محروسة بكل احترام في كنائس رهبان الطائفة السوداء، آه من العمل الطائش، فالذي حفظه الرب سليماً ودونما اهتراء، تجرأ الانسان على تشويهه، لامثلما فعل الملك الفرنسي التقي، عندما كان على وشك الانطلاق في حجه، حيث أجاب عندما جرى عرض جزء من الجسد ليمنح إليه قائلاً: «إنه لايسرني أن يجري تشويه ماحفظه الرب سليماً، من أجلي»، آه كم الحاجة ملحة لإعادة الإيمان! فالذي حفظه الرب سليماً دون اهتراء، وجميلاً، حنطه هؤلاء الرهبان بالزيت، واعتقدوا أنهم سوف يحفظونه بشكل أفضل بوساطة هذا الدهن، ولذلك تغير لون الجسد، وصار مثل لون الأرض، وغضب الرب محقاً، حيث بدأ يجعل وقوع المعجزات أكثر ندرة، مما كانت عليه من قبل، عندما كانت تحدث هناك باستمرار، ولذلك بات احترام الرهبان السسترشيان وأساقفتهم وكهنتهم أدنى في أعين النبلاء، ومن المعتقد بأن هذا قد وقع بمثابة نذير سوء إلى جميع المسيحية.

كيف وضع الملك قيوداً على ضيافة مائدته

وابتعد في هذا العام الملك بشكل مخجل عن سبيل أسلافه، فأمر بانقاص نفقات بلاطه ومعها التسلية المعتادة لضيافة مائدته، ومع أنه سوغ عمله هذا، إلاّ أنه جلب على نفسه تهمة الجشع، كما أمر بإلغاء كميات الصدقات المعتادة، ومعها أعداد الشموع في كنائسه، وعلى كل حال إن الذي يستحق عليه المديح هو أنه قام بعقلانية بتحرير نفسه من الديون، التي كان متورطاً بها نحو عدد كبير من التجّار.

حول الغرامة التي فرضت على اليهود

أصبح الملك في هذه الآونة ظمئاناً، ومتعطشاً بنهم، وقد ألقى جانباً كل رحمة، فأمر باستخراج المال من اليهود، إلى درجة ظهروا فيها أنهم باتوا فقراء بشكل دائم، لأنه استخرج منهم كل الذي كان في صناديقهم، وهؤلاء مهما كانوا تعساء، هم لايستحقون الشفقة، لأنه تبرهن مراراً أنهم قد أجرموا في تزييف النقود، وفي تزييف الأختام أيضاً، وعلى الرغم من سكوتنا على بقية جرائمهم، نعتقد أنه من الموائم ذكر حقيقة واقعة واحدة تتعلق بهم، حتى تظهر شرورهم وتكون أكثر وضوحاً للمزيد من الناس.

حول جريمة اقترفت من قبل بعض اليهود

كان هناك واحداً من اليهود العاديين غنياً، وكان اسمه ابراهيم، لكنه لم يكن مثل ابراهيم بالإيمان، وقد امتلك بيتاً ومنتجعاً في بيركهامبستد، وولنغفورد Wallingford, وكان لسبب غير مناسب أو لآخر —كما قيل— مقرباً من الايرل رتشارد، وكان لهذا الرجل زوجة جميلة، وكانت مخلصة له، وكان اسمها فلوريا Floria, وفي سبيل أن يكدس المزيد من الإهانات على يسوع المسيح، اشترى تمثالاً للعذراء المباركة، محفوراً بشكل جميل ومطلي، وكما هي العادة، كانت تحتضن ابنها وتضمه إلى صدرها، ووضع اليهودي هذا التمثال في خلائه، وأقدم على عمل مهين

وبشع أن تتولى ذكره، حيث أقدم بشكل شنيع جداً بالنسبة للعذراء مريم، بأن عاملها بقذارة، ولوثها بالدنس والفضلات ليلاً ونهاراً بشكل متواصل، وهو عمل من الصعب ذكره، وجعل زوجته تفعل الشيء نفسه، ولكن بعد مضي عدة أيام، عندما رأت زوجته هذا، تحركت عواطفها بسبب طبيعتها الانثوية، وشعرت بالأسف ومضت بشكل سري إلى ذلك المكان، وغسلت من القاذورات وجه التمثال، الذي كان ملوثاً بشكل كبير جداً، ولكن عندما اكتشف زوجها اليهودي هذا، خنق زوجته بشكل فاجر، ولدى الكشف عن هذه الجرائم، تبرهن أنه مجرم بهم، ومع أنه لم تكن هناك حاجة لبراهين أخرى لإعدامه، ألقي به في أكثر الزنزانات قذارة في برج لندن، ووعد في سبيل الحصول على اطلاق سراحه وتعهد بأن يبرهن بأن جميع اليهود في انكلترا خونة منحطين، وبناء عليه أثيرت دعوى تهمة ثقيلة ضده من قبل جميع يهود انكلترا الآخرين تقريباً، وبما أنهم سعوا إلى إعدامه، تكلم الايرل رتشارد لصالحه، وعندها اتهمه اليهود بقص النقود، وبجرائم أخرى ثقيلة، وعرضوا على الايرل رتشارد مبلغ ألف مارك حتى لايحميه، وقد رفض قبول ذلك، لأن اليهودي —كما قيل— كان صديقاً له، ثم أعطى هذا اليهودي، الذي اسمه ابراهيم، إلى الملك، سبعمائة مارك، ليحرره من السجن المؤبد، الذي حكم به عليه، وتمكن من الحصول على ذلك بمساعدة الايرل رتشارد.

كيف جرى إرسال رجال عدالة
لفحص كميات المال العائدة إلى اليهود

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، أرسل الملك رجال عدالة لإجراء بحث وتحقيق حول جميع كمية المال العائدة إلى اليهود، على شكل ديون عائدة إليهم، أو نقود هي بالفعل بحوذتهم، وأرسل معهم أيضاً يهودياً منحطاً وبلا رحمة، من أجل أن يقوم باتهام جميع البقية، حتى ولو مقابل ثمن تجاوز الصدق، ووجه هذا اليهودي النقد إلى جميع المسيحيين، الذين أسفوا

وحزنوا لما عانى منه بني جلدة هذا اليهودي، وأطلق على وكلاء الملك صفة المتهاونين والضعفاء بلا فعالية، وكشر بأنيابه غاضباً تجاه كل واحد منهم، وأعلن —مصحباً إعلانه بأيمان مغلظة— بأنه كان بإمكانهم اعطاء الملك ضعف الذي أعطوه إياه، مع أنه كذب بذلك، ومع هذا عمد حتى يزيد من أضرارهم، فأباح أسرارهم يومياً إلى وكلاء الملك المسيحيين.

موت واحد من الأرمن في إنكلترا

في تلك الآونة، قدم إلى انكلترا بعض الرهبان الأرمن، الذين طردوا من ديارهم، نتيجة لما قام به التتار من دمار لها، وقد وصلوا إلى انكلترا من أجل الحج، ولدى وصولهم إلى سينت ايف Ives, أصيب واحد منهم بالمرض في تلك المدينة ومات، وقد دفن بشكل مشرف قرب نبع سينت ايفو Ivo, وهو نبع قيل بأن مياهه قد امتلكت فضائل كثيرة، وكان الرهبان المذكورين يتمتعون بحياة مستقيمة جداً، واعتدال مدهش، حيث كانوا يمضون وقتهم كله بالصلاة، وكانت ملامحهم بسيطة وهادئة، وكانت لهم لحى، وكان الراهب الذي مات هو رئيسهم، وكان معلماً، وكان كما هو معتقد، رجلاً مقدساً جداً، وأسقفاً، وبدأ الآن بالتميز بصنع المعجزات.

حول مبلغ المال الكبير الذي أرسل إلى الملك الفرنسي

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل مبلغ كبير من المال، لمساعدة الملك الفرنسي، الذي كان في ضائقة شديدة، وكان مقيماً في معسكره، المنصوب حول دمياط، وكان هذا المعسكر محاطاً بالخنادق، لكنه كان في حالة عوز، ويفتقر إلى المؤن، وكان معرضاً للحملات ليلاً ونهاراً، وكان عليه تحمل الهجمات التي عملت بوساطة كمائن كان فيها أعداد لاتحصى من المسلمين، كانوا يطوقون المناطق الجبلية المجاورة، مع أنه لم تكن هناك حاجة إلى حراسة متيقظة أثناء الليل، وفي سبيل حراسة المدينة، وضع فيها خمسمائة فارس، مع كتلة كبيرة من الجنود الرجالة، الذين بقيوا هناك مع النائب

البـابوي، والأسـاقفـة، والملكة، وبعض السيـدات النبيـلات الأخـريات، وأرسل كميـات كبيرة من الأمـوال على شكـل طالن، ونقـود استيرلينيـة، ونقـود كـولونيـة مجازة (وليس مـن الأمـوال المنحطة للبـاريسيين، أو أهل تور)، وحملت الأمـوال على احـدى عشرة عربة، وكـل عربة جـرها أربعـة خيـول قوية، وحملت أقصى مـايمكن أن تحمل، وبالاضـافة إلى العـربات، كـانت هناك بعض خيـول التحميل، على ظهورهـا جرى حمل الأمـوال إلى شـاطىء البحـر، فهناك جـرى تسلمهـا ووضعهـا على ظهـر بعض السفن الجنوية، وذلك من أجل نقلهـا إلى الملك المحتاج، وذلك مع كميـات كبيرة من الامدادات، وحملت كل عربة سلتين واسعتين، صنعتا بشكل محكم من الحديد، وكان قد جرى اعدادها لهذه الغاية، وقد ملئت بالأموال التي تقدم ذكـرها، وكـان قد جـرى استخـراجهـا من ممتلكات الكنيسة خـلال مـدة مقدارها ثلاث سنـوات، والنتائج التي حصل الملك عليهـا وتوصل إليها، سوف تبينها الرواية المقبلة بشكل كامل.

عودة النبلاء الإنكليز

عـاد من القارة في أسبـوع الابتهالات، ايرل رتشـارد مع ايرلي غلوستر، وليستر، ونبـلاء آخرين، كـانوا قد عبروا البحـر، كما تقدم الذكـر من قبل، وقد عاد هؤلاء سـالمين إلى انكلترا، وبقي أسقفان في الخارج، وهما: أسقفا: وينكستر، ولنكولن، وبقي أسقف وينكستر في فـرنسا، وهو يعيش في بيت صغير، من أجل توفير النفقـات، واستمر أسقف لنكولن بالبقـاء في البلاط الروماني، في سبيل الحصول على ماتمناه وخطط له، من البابا.

أمـا بالنسبة لسبب رحلة الايرل رتشـارد، فقد كـان ذلك برأي بعضهم —ولم يكن هذا الرأي مـن دون منطق— بأن البـابـا بعث خلفـه، ليـدفع قضيته بالحصـول على امبراطورية رومانيا (بيـزنطة)، التي يعلم بأنها كانت مليئة بالأمـــوال، ورأى بعضهم، ومـــارأوه أصبح صحيحـاً، من خـــلال الحقـائق التـاليـة، بأنه قـد ذهب من أجل اعـاقـة الصليبيين، عن الاقـلاع

والسفر بحراً، وأعلن آخرون، أن المرجح —وهو ماتبرهن بعد ذلك على الفور أنه هو الحال— كان ذهابه بقصد شراء دير هيرست، من راعي دير القديس دينس، ولابتياع المؤن الضرورية للسفر للصليبيين، أما سبب اظهار البابا كثيراً من الرعاية له، هو أنه كما قيل، أن البابا أراد أن يعرف أنه إذا ماقدم إلى انكلترا، هل سيجري استقباله باحترام من قبله، وأن يتمكن الايرل من اقناع أخيه الملك، ونبلاء البلاد (خاصة الذين كانوا في المجلس الاستشاري للملك) بأن يرسلوا إليه للحضور إلى هناك، وقد جرت معالجة هذه القضايا، وتمّ التعرض إليها في الصفحات المتقدمة.

حول التقارير التي بلا أساس والتي انتشرت

وجرى في حوالي الوقت نفسه ارسال رسائل من الأرض المقدسة، إما بقصد تقديم مواساة زائفة إلى المسيحيين، أو من أجل تشجيع الصليبيين، الذين كانوا يعملون على إلغاء مغادرتهم للقيام بحجهم، وقد كتبت هذه الرسائل من قبل بعض الأشخاص ذوي النفوذ الموثوقين، وهم أسقف مرسيليا، وبعض الداوية، وحوت هذه الرسائل تقارير مفرحة كثيراً، وقد شجعت الذين استمعوا إليها بوساطة أخبار كانت بلا أساس، وأفادت هذه الأخبار، بأن القاهرة والفسطاط جرى الاستيلاء عليهما، وأن المسلمين قد أرغموا على الفرار، وأن الاسكندرية تركت في وضع ميئوس منه، وأقول بأن هذه التقارير جرحت الذين سمعوها وصدقوها، في النهاية بعمق، وذلك بقدر ما أفرحتهم في البداية، ونظرنا منذ ذلك الحين إلى الرسائل التي وصلت، وإن كانت صادقة، نظرة شك كبير، وازدراء.

تكريس كنيسة ونغريف

في أسبوع الابتهالات لهذا العام نفسه، نشب خلاف بين راعي دير القديس ألبان وبين جون دي ويدن Wedone, حول مايتعلق بتكريس كنيسة ونغريف Wengrave, التي كانت شاغرة آنذاك، ثم

انتهى وتمت تسـويتـه، وأعيـد السـلام إلى مـابين الطائفتين، وأعلن جـون المذكـور بحضـور رجلي العـدالـة الملكيين روجـر دي ثيركيسبـاي Thurkesby, وروبرت بروس Bruce, وآخـرين من زمـلائهما، أن حق الكنيسة المذكـورة عائد إلى منحة راعي الدير المتقـدم ذكره، غير أن جون المذكور حصل على المذكـرة التالية، التي خلاصتهـا ضد راعي الدير: «من الملك إلى عمـدة بكنغهام، تحيـات: أصـدر أمراً إلى راعي دير القـديس ألبـان، بأن يتولى دونها تأخير السماح إلى جـون دي ويدن بأن يقدم شخصـاً مناسبـاً وموائماً إلى كنيسـة ونغريـف، التي هي شاغـرة، والتي هي كما قيل عـائـدة إلى أعطيتـه، والتي عمل بشأنها شكوى بأن راعي الـدير المذكـور يعارضـه بشكل غير عادل، وما لم يعطك ضمانة بأنه سـوف يترافع بقضيته، عندها وجه الدعـوة، بشكل صالح وقانـوني إلى راعي الدير المذكور، حتى يمثل أمام رجال عدالتنا، في اليـوم التالي لعيد صعود ربنا»، إلخ، إلخ، لكن ما هي المنفعة أو الضرر الذي واجهته كنيسة القديس ألبان في هذه القضية، هو أن الرومان ووكـلاء الملك استولوا بالقوة على جميع الكنائس الشـاغرة، خاصة الكنائس العائدة إلى الرهبان، حيث تنافست كل فئة مع الأخرى.

كيف قرر بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري القيام بزيارات تفقدية

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، استثير بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري بالمثل الذي ضربه أسقف لنكولن، الذي حصل على سلطة القيـام بزيارات تفقديـة لكهنته، وبناء عليـه حاول أن يقوم بزيـارات تفقدية إلى الأسـاقفة، ورعاة الديرة، ورجال الدين، والناس في مقاطعته، وعلى هذا قام أولاً، وفي المقام الأول، بزيارة تفقـدية إلى الهيئة الرهبانية، لرهبانه في كـانتربري، وكان ذلك بكل دقـة، وبلا رحمة، ولذلك قـال الرهبان فيما بينهم: «إننا نعـاني من هذا بسبب ضـلالنا، لأننا قـد أذنبنـا بحق سلفـه، القـديس ادمـوند، الذي عـددناه قاسيـاً ومستقيماً، ونحن نتحمل مـانستحقه بشكل عـادل من أجل

انتخـاب أجنبي، وجـاهل، وغير معـروف، ومن دون خبرة، وهو واحـد متدرب على الأمور العسكرية ومختص بها، وليس بالمسائل الروحية، آه، كم كـانوا رجـالاً رائعين أسـلافـه، وشهـداء، ومعلمين معتمـدين، ومعترفين مقـدسين للرب، لماذا ويالالأسف، أطعنا في هذا الانتخـاب ملكنا الأرضي، بدلاً من ملكنا السماوي»؟، ومن هناك ذهب رئيس الأساقفة إلى رعوية دير فيفـرشـام Feversham، ولم يتجـرأ الرهبـــان الجبناء، لذلك المكان، لخوفهم من طغيـانه، على الوقوف ضـد زيارته التفقـدية، ومن هناك ذهب وهو غـاضب جداً إلى رئـاسة رهبـان روكستر، واستخرج أكثـر من ثلاثين مـاركـاً مـن ذلك الدير الفقير، ومن هذا وضح أنه مـــارس وظيفـة الزيارة التفقدية رغبـة منه في الحصول على المال، أكثـر من رغبته باصـلاح الطائفة وعاداتها، لأنه كان جـاهلاً بأنظمة وعادات الطائفة، كما أنه كـان فارغاً من المعرفة.

الطغيان الذي مورس من قبل رئيس الأساقفة بونيفيس على رجال الدين في لندن

في الثاني عشر من أيار، الذي كان يوم عيـد القديس بنكراتيوس Pan-cratius وأتباعه من القديسين، قـدم رئيس الأساقفة المذكور إلى لندن، ليقوم بزيارة تفقـدية للأسقف ولهيئته الكهنوتيـة، ولرهبان تلك المدينة، ولم يترك أحداً من الناس، وأقام في البيت الفخم العـائد لأسقف شيستر، قرب بيوت الديرة والرهبان، ولم يذهب إلى بيته في لامبث، كما أنه أمر مارشالاته بأن يشتروا له مـؤناً بالقوة من سـوق الملك، الأمر الذي فعلوه، وكـدس في الوقت نفسـه، التهديدات، والملامات والاهانات على التجـار، وهو لم يقم —على كل حـال— بدعـوة أي ضيـف، وقـام في اليـوم التـالي بعمل زيارة تفقدية للأسقف فولك، وقـد مارس ضده بلاحياء استخراجـات، مارسها بنفسـه ذلك الرئيس للأسـاقفـة، وكـذلك بمطالبـاته بالطعـام، والشراب، والمقاود، والمقصود هنا مقـاود الخيول، ولو تمكن أي انسان أن يحكي الذي

عمله، لأذى الآذان والعقـــول، ولجرح قلوب جميع الذيـن سمعـــوا بهم، وعندمـا كـان على وشك عمل زيـارة تفقـدية للهيئة الكهنوتيـة في كنيسـة القـديس بولص، في لندن، عـــارضـه الكهنة، وترافعـوا إلى الحبر الأعظم، وبناء عليه حرم كنسياً العميد وبعض الآخرين.

حول المعارضة التي عملت من قبل كنيسة القديس بارثلميو للزيارة التفقدية لرئيس الأساقفة

وفي اليـوم التالي، وكـان مايزال يتميـز غضبـاً، قام بارتداء دروعـه تحت ثيابه، وأكد الذيـن شاهدوا رئيس الأساقفة هذا أنه ذهب إلى رئـاسة رهبان كنيسة القديس بارثلميو Bartholomew ليقوم بزيارة تفقدية للكهنة هناك، لكن عند وصـوله، وعندمـا كان على وشـك الدخول إلى الكنيسـة، استقبل من قبل نائب رئيـس الرهبان (لأن الـرئيس لم يكن آنذاك في الدير) ومن حـوله رهبـان الدير، بمسيرة مهيبة، وهم يحملـون عدداً من الشمـوع المضاءة، وذلك وسط الأجـراس التي كانت تقرع، وكـان الرهبان أنفسهم يرتدون أردية القـداسـات، وكـان الرداء الأكثـر جمالاً يلبسـه نائب رئيس الرهبـان، ولم يلتفت رئيس الأسـاقفة كثيراً، إلى التشريف الـذي قدم إليـه، ذلك أنه قـال بأنه قـدم إلى هناك للقيـام بزيارة تفقـدية للكَهنة، وكـان جميع الكهنة قد اجتمعوا الآن في وسط الكنيسة، أي أن نقول في السدة، وكان قد اجتمع معهم رئيس الأسـاقفة المذكـور مع الجزء الأكبر من حـاشيته، وقـد ضغط عليهم وعصروا بشكل فوضوي، ثم قام واحد من الكهنة، فتحدث مجيبـاً باسم الجميع، وأعلن بأن لديهم أسقف مجرب وحـريص، وهو يقـوم بوظيفــة زيارتهم التفقــدية، عندمـــا يكون ذلك ضروريـاً، وهم على هذا لايرغبـون بأن يقـوم أي واحد بزيارة تفقـدية لهم، كما أنه ينبغي عـدم فعل ذلك، خشيـة أن يظهر أنه يقـوم بذلك تحدياً، ولدى سماع رئيس الأساقفـة بهذا، انفجر بغضب غير لائق ولامعتاد، وانقض على نائب رئيس الرهبان، ناسيـاً مركـزه، وقـداسة أسـلافـه، وأوقع بفجارة ضربه بمقبضـه على هذا

الكاهن المقـدس والراهب، وهو واقف في وسط الكنيسـة، وبوحشية كـرر ضرباته على صدره المسن، وعلى وجهـه المحترم، وعلى رأسه الشائب، وهو يصيح ويزمجر بصـوت مرتفع قـائلاً: «هكذا، بات عليّ التعـامل معكم أيها الانكليز الخونة»، ثم إنه تفوه بشكل مـرعب وتلفظ بأيمان لايمكن ذكرها، وطالب بجلب سيف له على الفور، ومع ازدياد الفـوضى والهياج، ومحاولة الرهبان انقـاذ نائب رئيس رهبانهم من أيدي المعتـدي العنيف، مزق رئيس الأساقفـة الرداء الثمين، الذي ارتداه نائب رئيس الرهبـان، وانتزع الوصلة التي تعـرف عادة باسم الابزيم، وكـان ثميناً مصنوعاً من الذهب والفضـة والمجـوهرات، وقد ديس عليـه وسط الحشد وضـاع، والرداء الفخم ديس عليـه أيضـاً، وجـرى تمزيقـه واتلافـه، ومـع ذلك لم يهدأ غضب رئيس الأسـاقفـة، ذلك أنه انقض مثل رجل مجنـون على هذا الرجل المقـدس، وبعنف شـديد، وأرغمه وقهـره ودفعـه نحو الخلف، وضغط على جسـده المسن بعنف شديد على الحاجـز الذي فصل مابين مقعدين، وكـان معمولاً من أجل منصة، فسحق عظامه حتى النقي، وجرح رئتيه والأجزاء التي من حـول قلبه، وعندمـا شاهد بقيـة رجال الحشـد، العنف اللامتناهي لرئيس الأسـاقفة، تولـوا انقاذ نائب رئيس الـرهبان، بصعـوبة بالغـة من بين فكي الموت، ودفعوا المعتـدي عليه إلى الخلف، وعندمـا سقط هذا على الأرض، وقعت أرديتـه جانباً، وأصبحـت دروعه مرئيـة بوضوح من قبـل الحشود، الذين أصيبـوا بالرعب، لدى رؤيتهم رئيس أسـاقفة لابسـاً للدروع، وبناء عليه، أعلن كثيرون بأنه قدم إلى هناك، ليس مـن أجل القيام بزيارة تفقدية، ولا لإصـلاح أخطاء، بـل لإثارة معـركـة، وقـام بالوقت نفسـه أتبـاعـه المتهورون، أو بالحري رجال بلاطه، بوحشية بمقاتلة الكهنة الباقين، الذين كـانوا غير مسلحين وغير مستعـدين، وجـاء ذلك بنـاء على أوامـر رئيس الأساقفـة واقتداء به، وقد عاملوا الكهنة بقسـوة متناهية، حيث ضربوهم، وجـرحوهم، وألقـوهم أرضـاً، وداسوا عليهم، ثـم قام الكهنة بعـد ذلك، وهم قـد تورمـوا، وأقـدامهم ملطخـة بالدمـاء، وقـد تعـرضـوا للتشـويه

والإهانات، وغير ذلك، فذهبوا إلى أسقف المدينة، وكانوا يبكون، وتقدموا بشكوى ثقيلة إليـه، حول الإجـراء المرذول، وجواباً على مـاقالوه، أجـابهم هذا الأسقف بقوله: «الملـك موجود في ويستمنستر، اذهبـوا إليه، وانظروا فيما إذا كـان هذا العـدوان الظاهر، والخرق للسـلام في مـدينتـه الرئيسيـة، سوف يثير غضبه»؟.

الملك يرفض الاصغاء إلى الشكاوى حول طغيان رئيس الأساقفة

وبناء عليـــه، قـام أربعـــة من الكهنة بـالذهاب إلى الملك في ويستمنستر (فـالبقيـة كانوا غير قـادرين على الذهاب بسبب آلام جـراحـاتهم)، وأروه ثيابهم الممزقة، وآثار الضربات، الظاهرة من الدم، ومن شحوب أجسادهم وتورمها، وكان ذلك وسط كثير من النـاس، الذين أشفقوا عليهم لما عانوه من آلام، ومقتوا مثل تلك الفعلة النكراء، وكان خامسهم، أي نائب رئيس الرهبان المذكـور غير قادر على الذهاب إلى البلاط، لامشياً على قـدميه، ولا على ظهـر حصان، بـل حمل وهو يئن إلى المصحة، وتمدد في فـراشـه، حيث أمضى بقية حياته في حالة من الضعف، وعلى كل حال، رفض الملك مقابلة الرهبـان المذكورين، مع أنهم انتظروا طـويلاً أمام باب حجـرته، كما رفض الاصغـاء إلى شكاويهم، ولذلك عـادوا وهم في حـالة اضطراب عقلي إلى كنيستهم، التي كـــان رئيس الأسـاقفـة قـــد لطخهـا، ولوثهـــا بدم الكهنة والرهبان، واستثيرت المدينة في الوقت نفســه كثيراً، وكأن انشقاقـاً قد وقع، ولذلك اقترح سكان المدينة قرع النـاقوس العام، وتقطيع رئيس الأسـاقفة إلى أشـلاء، مهما حـدث بعـــد ذلك من أمـر، وترددت أصـــوات الشتـائم والإهانات، وأخذ الناس يتجمهرون بحثـاً عنه، ويندفعون وهم يصرخون خلفه، عندما كان مسرعـاً نحو بيته في لامبث، ويقولون: «أين هذا اللص؟ هذا الفـاجـر، والمعتـدي الدمـوي، على كهنتنا، والـذي هو ليس الكاسب للأرواح، بل المستخـرج للمال، والذي ليس الرب ولا الانتخـاب الحر قـد ارتقى به إلى منصبه، لكنه أقحم به بشكل غير قانوني، وهو جاهل ومتزوج،

وجرى فرضه من قبل الملك، وسمعته الفاسدة، قد نشرت عدواها في جميع المدينة»؟، وما لبث بعد ذلك، أن نزل فوراً في نهر التيمز، وتقدم بشكوى ثقيلة حول المسألة أمام الملك، وسوغ نفسه، واتهم الآخرين، ثم إنه أسرع إلى الملكة، وتقدم إليها بشكوى أكثر جدية، وخشي الملك وقتها، وخاف كثيراً من قيام عصيان وانشقاق في المدينة، فأمر بأن يعلن بوساطة المنادي، بمنع أي واحد، تحت طائلة فقدانه حياته وأطرافه، من التدخل في هذا الخلاف، وجرى رفض هذا من قبل كهنة القديس بارثلميو، وكذلك من قبل كهنة الثالوث المقدس، الذين ترافعوا بجرأة ضد إجراءات الملك، ثم استمد رئيس الأساقفة الجرأة من حظوة الملك، وتابع سيره إلى لامبث، وجدد في البيعة هناك بشكل مهيب قرار الحكم الذي كان قد تفوه به ضد كهنة القديس بولص، وأدخل فيه أيضاً أسقف لندن، بدعوى أنه المحرض للكهنة المذكورين، وبما أنهم على هذا كانوا يعانون من الأذى والضرر من جميع الجوانب، عهدوا بقضيتهم بشكاوى حزينة إلى القديس بارثلميو الذي خدموه ليلاً ونهاراً، وصلوا إلى الرب، إله الانتقام، بما أن الإنسان، لم يقبل، ولم يتنازل، بالقيام بمعاقبة مثل هذه الآثام العظيمة.

استعداد رئيس الأساقفة للذهاب إلى البلاط الروماني

وكان رئيس الأساقفة مايزال حانقاً وشديد الغضب، فذهب في اليوم التالي إلى عزبة تابعة له اسمها هارو Harrow, كانت على بعد سبعة أميال من دير القديس ألبان، وذلك في سبيل القيام بزيارات تفقدية هناك، وقد جدّد في ذلك المكان قرار الحكم المتقدم الذكر، ومع أنه كان قد أخبر من قبل أصدقائه، وكهنته، ومن قبل أناس متعلمين، وفصحاء، وأحيط علماً بالامتيازات الفخمة الممنوحة إلى تلك الكنيسة من قبل الكرسي الرسولي، أخفى هذه المعرفة، وتجاهل هذه الامتيازات، ثم إنه عاد، وعمل الاستعدادات لعبور البحر، حتى يتمكن من إلقاء المصائد للأبرياء في البلاط الروماني، حيث كان له نفوذ عظيم، وحيث اعتاد على الإقامة لمدة

أطول من الترؤس على رعيته، كما يتوجب عليه كراع صالح، وقام أيضاً عميد القديس بولص في لندن، وكان رجلاً مسناً وصاحب تجربة وصالحاً، والمعلم روبرت بارتون، والمعلم و. W من ليشفيلد Lichfield ورجال فصحاء ومتعلمين وكهنة من الكنيسة المذكورة، بصحبة نواب أسقفهم، والكهنة المتقدم ذكرهم، قاموا بالذهاب إلى البلاط الروماني، للتقدم بشكوى ثقيلة إلى الحبر الأعظم، حول جميع القضايا والإجراءات التي تقدم ذكرها، وكانوا قد تزودوا بشكل جيد بما يلزم من توجيهات وتعليمات حول القضية، وتمتنوا بشهادات الكثيرين، للبرهنة على صدق شكواهم.

رسالة أسقف لندن إلى راعي دير القديس ألبان

وكان أسقف لندن منزعجاً كثيراً تجاه هذه المشاكل، وقد ارتعب رعباً عظيماً، ولاغرابة بذلك، فقد كان هناك شره البابا ونهمه من الجهة الأولى، ومن الجهة الثانية صداقة الملك المريبة وسوء نواياه تجاه رعاياه الطبيعيين، ومن جهة أخرى كان يخاف من نبلاء سافوي، وكان لايتجرأ على معاداتهم، وقد رغب في حالة الطوارىء هذه بالحصول على نصيحة راعي دير القديس ألبان والرهبان هناك، وعلى مساعدتهم، لذلك كتب الرسالة التالية إلى راعي الدير، وفق الصيغة التالية:

«إلى أصدقائه المبجلين، والمحبوبين كثيراً بالمسيح: ج. J, الذي هو بنعمة الرب، راعي دير القديس ألبان، ورهبان ذلك الدير، وكذلك جميع الرعايا الآخرين التابعين إلى ذلك الدير نفسه، يرسل فولك Fulk الذي هو بموجب الاذن الرباني أسقف لندن، تمنيات الصحة، وعواطف مخلصة مستمرة متزايدة:

تلمع الشهرة مع خطوتها البعيدة الروعة في أنحاء الأرض، وتهددنا بصوت الرأي العام، في الوقت الذي تنتشر فيه، في مناطق لاتحصى، أخبار الخطر الحالي، وقد هوجم الهدوء الطويل لأسقفيتنا من أبينا المحترم، رئيس

الأسـاقفة، وبما أننا نعتقـد بأننا نقوم فقط بالإجـراءات الصحيحة للدفـاع، مثل مقاتليك، الذين يتحملون ثقل الحملة الأولى للمعركة، لصالح الجميع الذين في المقـاطعـة، نحن نخبركم سلفـاً، بأن الحرب التي فـرضت علينا —مـالم نل عـون الرب، وأنتم— سـوف تنزل بثقل أكثـر عليكم أنفسكم، لأن رئيس الأساقفـة المذكور قد قام —كما ربما قـد علمتم— بزيارة تفقدية إلى جميع الكهنة والناس، في أسقفيتنا، ولأنه طـالب بالمال، أولاً منهـم، ومن الهيئة الكهنوتيـة لدينا، ومجدداً من رئيسي الـرهبـان لتلك المدينة، ووجـه بالمعارضـة، والرفض، إنما بشكل أديب، وبناء عليه قـام بحرمـانهم كنسياً، وجاء هذا بالمقام الأول، لعدم السماح له بالقيـام بالزيارة التفقدية المذكورة، وفي المقام الثـاني لأننا أمرنا بعض الأشخـاص الذين هم تحت سلطاننا، بأن لايسمحـوا له، القيـام بهذا العمـل، وقـام في سبيل إلحاق الأذى بكنيستنا، فأصدر قرارات ضدنا شخصياً، مع أنه جرت معارضته بموجب إجراءات مرافعات قانونية، وضد قضايا عادلة، وصحيحة، ومنطقية، ولم يكتف بهذا وحـده، بل إنـه أغـار على بقيتنا، لأنه تسبب بإعــلان الأحكام التي هكذا تأسست، في أسقفيته، وفي كل مكان آخـر، حسبما علمنا من التقارير، وبناء عليـه، بعدمـا أرسلنا بعض نوابنا إلى البـلاط، توجهنا بالخطاب بأنفسنا إلى بعض نظرائنا من الأساقفة حول القضـايا المتقدم ذكرها، وقد تسلح هؤلاء بالجرأة، وأعـدوا أنفسهم وقـدمـوها للـدفـاع عن حقـوقهم وامتيـازاتهم، ولذلك رأينا أيضـاً من الموائم أن نتـوجـه بالرجـاء إليكم، وإلى عـواطفكم حتى تقــومـــوا بتقــديـر الأسس لهذا الطلب، آملين بأن لاتسمـح لكم كـرامتكم، وحمايتكـم، وصـلاحكم، بالتراخي، وأن لاتغــدو شجـاعتكم باردة، بـل أن تضعــوا ثقتكـم بالذي يتــولى حماية المظلومين مـن المؤذين والرجـال غير العادلين، وأن تمدّ يد المواسـاة، والمسـاعدة، والمشـورة إلينا، آملين بأن تبقى أخوتكم دوماً بخير ورعاية في الرب».

والمراسيم التي أراد رئيس الأساقفة، أن يتخـذها ذريعة لنواياه وخططه،

قـد أعطيت كاملة في كتـاب Additaments, مع اعتراضات جميع الأطراف.

حول الاجتماع العام للهيئة الرهبانية للدومينيكان

وفي حـوالي الوقت نفســه، أي في حـوالي عيـد ميـلاد القــديس يوحنا المعمدان، اجتمع رهبان طائفة الدومينيكـان، بناء على دعوة عامة، من جميع بلدان العـالم المسيحي، لابل حتـى من منطقـة القـدس، والتقـوا في بيت في هولبورن Holborn لعقد مناقشة عامة حول أوضاعهم وإدارتهم، وبما أنهم لم يمتلكوا وسائل خاصـة بهم، قدم لهم النبلاء والأساقفـة، كرماً منهم المؤن وفعل ذلك بشكل خـاص سكان مدينة لندن والأمـاكن المجاورة لها، وكذلك قام راعيا وولتهام والقـديس ألبان، وأمثالهما من الناس، وعقد هذا المؤتمر في أسبـوع العنصرة، وتم التـوجه بالدعـاء إلى الروح القـدس، التي كانت قد أرسلت في مثل ذلك الوقت إلى الحواريين، وقـد كان هناك حوالي الأربعمائة راهب حاضراً، وقدم الملك في اليوم الأول إلى اجتماعهم، وطلب العون بصلواتهم، كما أنه زودهم بالطعـام، وصدوراً عن احترامه لهم تناول طعـامـه معهم في ذلـك اليـوم، وبعـد ذلك تم تزويدهم بـالطعـام من قبل الملكة، ثم من قبل أسقف لندن، وبعـد ذلك من قبل جـون مـونسيل، وفيما بعــد من قبل القســاوسـة الآخــرين، أي من قبـل راعي دير ويستمنستر وآخرين، الذين التمسوا منهم برسالة، سـداد عوزهم وتلبية حاجاتهم، من ثرواتهم الوافرة.

حول الاضطراب بين سكان لندن

واستثيرت مدينة لنـدن، في الوقت نفسه، بدرجـة كبيرة جداً، لأن الملك استخرج بعض الضرائب من سكان المدينة، لصالح راعي دير ويستمنستر، مما سبب لهم خسـارة كبيرة، وأضراراً لحقت بامتيـازاتهم، وعـارض عمـدة المدينة والجماعة كلها بشكل عام، وبقدر مـاامتلكوا من قدرة عارضوا رغبة

(أو بالحري عنف) الملك وسلبه، لكنه برهن أنه فظ وعنيد نحوهم، وبناء عليه، ذهب سكان المدينة، وهم في حالة هياج كبيرة، مع شكاوى آسفة، إلى الايرل رتشارد، وإلى ايرل ليستر، وإلى النبلاء الآخرين للمملكة، وأخبروهم كيف أن الملك، قد انحنى وتحوّل إلى قوس من الشرور، مقتدياً بالبابا، حيث قام بلاحياء بخرق صكوك حقوقهم، التي منحت إليهم من قبل أسلافه، وانزعج النبلاء المذكورين كثيراً، تجاه هذا، وخافوا من أن يحاول الملك اتخاذ إجراءات مماثلة معهم، ولذلك انتقدوه بحدة، وأضافوا التهديدات إلى نقدهم، ولاموا راعي الدير بقوة، الذي اعتقدوا أنه كان المسبب والدافع إلى هذا الخطأ، وكدسوا الاهانة فوق الاهانة عليه، وهو أمر لايجوز لنا روايته، صدوراً عن الاحترام للطائفة، وهكذا أمكن بوساطة حكمة النبلاء، رد الملك بسعادة وتراجعه عن خطته التي صممها.

كيف منح الملك صكوك إمتيازات جديدة إلى راعي دير ويستمنستر

وفي هذه الآونة أيضاً، كان الملك متأثراً بروح مشابهة، مضادة لصكوك امتيازات أسلافه، وأيضاً لصكوك الذين حكموا انكلترا قبل الاستيلاء (النورماندي)، ونقضاً لتعهداته وليمينه الأول، فقام بمنح صك جديد إلى راعي دير ويستمنستر، وذلك في سبيل إلحاق خسارة، وضرراً واضحاً بكنيسة القديس ألبان، عن طريق قرية ألدنهام Aldenham القديمة، وهي قرية اشتق اسمها من Ald, الذي تعني ترجمته «قديم»، ولهذا يبدو أمراً مسوغاً، إذا ما سكتت جميع الصكوك حول هذه المسألة، لكن القرية المذكورة كانت قد منحت في الزمن القديم إلى ألبان، رائد الشهداء الانكليز، وبالاضافة إلى هذا، منح الملك صكاً بامتياز مطردة في أراضي دير القديس ألبان، وعلى مقربة من تلك البلدة، إلى أحد الفرسان، واسمه غيوفري (مع أنه لم يكن منحدراً من آباء نبلاء أو فرسان) الذي كان يحتل مركزاً رئيسياً بالنسبة لكنيسة القديس ألبان، وجاء هذا مضاداً للامتيازات

القـديمـة لتلك الكنيسـة، وللصكوك التـي تم الحصـول عليهـا من الملوك الأتقياء للزمن القديم، ولصك الملك الحالي هنري، وجاء ذلك لمجرد سبب هو أن الفارس المذكور، كان قـد تزوج من أخت كاهنه، جون مونسيل، كما أن غيوفري روفوس المذكور، لم يتردد في التحرك ضد الكنيسة، سيدته التي ثقفته، ورفعتـه إلى مرتبـة الفروسيـة، ولذلك وسم بعلامة السمـة الأبوية، وليس بعلامة الخيانة للأم، لأنه بشكل ظالم وبلا حياء آذى الأم التي حملته، كما فعل نحو الكنيسة التي أغنته، وأغنت آباءه من قبله، وقد دفع مع الجرأة لأن يتصرف هكذا، من قبل الكاهن الخاص للملك المتقـدم ذكـره، والذي كـانت ثروته، تعـادل ثـروة أسقف، والذي أختـه كـان روفـوس Rufus قد تزوجها، كما ذكرنا أعلاه، وكـان اسم هذه السيدة كلاريسا Clarissa, وكـانت ابنة كـاهن ريفي، وكانت مـاتزال من دون أولاد، وقـد نظرت إلى نفسهـا وتفـاخرت فـوق منزلتهـا، مما كـان مـوضع ازدراء الجميع، وكـان زوجها كما يعتقـد مفتوناً باقتراحاتها، ولا أعتقـد أنه معذور بهذا، بل ينبغي بالحري أن يكون مـداناً بذلـك، وذلك وفقـاً لكلمات الرب عندمـا شجب بلعنتـه أبانا الأول، آدم بقوله: «بسبـب أنك أطعت صوت زوجتك، أكثر من صـوتي، اللعنة ستكون على الأرض إلى الأبد» ، وعندمـا توجه مـؤلف هذا الكتـاب، أعنى الراهب متـى باريس بالملامـة إلى الملك، حـول هذه الإجـراءات ، أجـابه قـائـلاً من دون خجل:« ألا يتصرف البـابا وفق هذه الطريقـة نفسهـا، لدى إلحاقـه رسائله بعبـارة: دون التقيـد بأي امتيـاز، أو غفران»؟، ثم إنه بعد وقت تكلم باعتدال أكبر، وقال: « انتظر قليلاً، سوف نفكر حول القضية» ، لكن ذكرياته لجميع كلماته ووعوده عبرت وزالت مع صوت نطقه بكلماته .

كيف عهد بختم الملك إلى وولتر أوف كيلكني

خـلال هذا العام، أخـذ الملك بمشورة حكيمـة، فعهـد بالمسؤوليـة عن ختمـه(الذي تبرهن أنه كان بالفعل مفتـاح المملكة) إلى المعلم وولتر أوف

كيلكني Kilkenny, وكـان رجـلاً معتـدلاً، وأميناً، ومتعلماً، وواحـداً بارعاً جداً، وحكيماً في القوانين الدينية وكذلك المدنية .

كيف مضى الملك الفرنسي بزحفه نحو الشرق

وقـام الملك الفـرنسي في هذه الآونة بحملـة من دميـاط، وذلك بعـدمـا وضع بعناية حاميـة في تلك المدينة، تكونت من دوق بيرغندي، وعدد كبير من النبـلاء الآخرين، والفـرسان، مع كتلة كبيرة من الجنود الرجـالة، ومع النائب البـابوي، وبعض الأسـاقفـة والكهنة والملكة، وسيـدات نبيـلات أخريات وأسرهن، لأن:

الذي حصلت عليه، أكثر من عمل ربح جديد

وزحف هو مع جيشه، نحو المزيد من عمق المناطق الشرقية، وقد لحق به وليم لونغـوسبي Longuespee مع أصحـابه الذين رافقـــوه، وهم روبرت دي فيري Vere, وآخرين، عددهم كبير جداً لايمكن ذكرهم، وبعض الفرسان والأتباع الذين احتفظ بهم بالأجر المدفوع.

كيف أصبح الفرنسيون غيورين من الإنكليز

وبسبب مـافطر عليـه الفـرنسيـون من تجبر، استخفـوا بوليم المذكـور، وكـرهوه مع أتباعـه، وعاملوهم بجفـاء، مع أن الملك الفرنسي التقي، قـد حظر عليهم بشكل خـاص هذا، ولذلك خاطبهم هكذا قـائلاً: «أي جنون أصابكم وأثاركم أيها الفرنسيـون؟ لماذا تضطهدون هذا الرجل، الذي قدم من بلاد بعيدة لمسـاعدتي شخصياً ولمساعدتكم، والذي هـو حاج، ويقاتل باخـــلاص في سبيل الـرب، كما تفعلون أنتم أنفسكم»؟ ولم يتمكـن الملك —على كل حال— من تهدئة عـواطف الفرنسيين بهذه الحجج، أو بوساطة الالتماسـات، حيث استمـــروا في ازدراء الانكليـز واضطهـــادهم كما قـال الشاعر:

كل تجبر الغيرة شريك له

وكـان أساس هذه الغيرة والكراهيـة هو مايلي: كـان وليم المذكور، قـد استـولى ليس بالقــوة، بل بالصـدفـة وحسن الحظ، على بـرج قـوي قـرب الاسكندرية، كــان مليئاً بالسيــدات، زوجـات بعض النبــلاء المسلمين، وحدث ذلـك تماماً دون معرفـة الفرنسيين، ولهذا السبب أصبحت شهـرته واسعة، وانتشر الخوف منه ووصل حتى إلى منـاطق بعيدة في الشرق، ولأنه امتلك كثيراً من المال هنا، كما فعل في كل مكان آخـر، بموافقـة حظ الحرب له، أغنى بذلك حاشيته وزاد من مكانته، (الأمر الذي لم يستطع الفرنسيون فعله مع أنهم كـانوا كثيرون وأقـوياء) ولذلك حسـده الفـرنسيـون، وآذوه بالتآمـر ضده، واضطهـدوه مع كراهيتهم، كما أنهم لم يتمكنوا من إقـامة أية علاقة صداقة معه.

حول الاستراتيجية التي مارسها وليم لونغوسبي

وأيضـاً حــدث ثانيـة، أن وليم المذكـور، علـم بشكل سري من بعض الجواسيس البارعين، الذين كان قـد نشرهم، بأن بعض التجّار الأغنياء من الشرق، كـــانوا قـادمين مـن دون حـذر، مع حـــراســة صغيرة، إلى بعض الأسواق التي كانت تعقـد قرب الاسكندرية، حيث أملوا بثقة كبيرة بزيادة ثرواتهم، وبناء عليه أخذ كتلة مـن جنوده معه، وبادر مسرعاً إلى هناك، سراً أثناء الليل، وانقض فجأة عليهم مثل البرق وهم غير متنبهين، فقتل التجّار فوق تلك البقعة، وشتت المرافقة، وأسر جميع تلك الفئة، التي كانت تعرف بشكل عام باسم قافلـة، ووجد بينهم جمالاً وبغالاً وحميراً، محملين بالحرير، والصور، والتماثيل، والـذهـب، والفضة، وذلك إلى جانب بعـض العربات مع ثيرانها وجواميسها، وأيضاً الأطعمة الضرورية لكل من الخيول والناس حيث كانوا محتاجين إلى ذلك كثيراً، ومـع أن وليم المذكور قتل أثناء القتال، وأسر عـدداً كبيراً من أعدائـه، خسر هو واحـداً من الفـرسان، وثمانيـة من الأتباع، فهؤلاء قد قتلوا، وكان بعضهم قد أصيب بجراحة، فأعادهم حتى

يستردوا صحتهم بوساطة المساعدة الطبية، وهكذا عاد إلى الجيش منتصراً، ومبتهجاً بثرواته، وكان الفرنسيون الذين مكثوا من دون نشاط، وفي حالة من العوز عظيمة، قد أثيروا بمشاعر الغيرة والشره، فاعترضوه لدى وصوله بطريقة عدوانية، وأقدموا مثل لصوص وقحين، فأخذوا منه بالقوة كل الذي ناله، عازين إليه أنه اقترف مايكفي من الخطأ، بإقدامه على ذلك العمل بتهور، على عكس أوامر الملك، وتعاليم قادة الجيش، وأنه قام خلافاً للنظام العسكري، بتهور وتجبر، فانفصل عن الجيش كله، وعندما سمع وليم هذا، وعد بتقديم الترضية إليهم بكل سبيل، وسمح بتوزيع جميع الأطعمة التي حصل عليها بين أفراد الجيش المحتاج، لكن الفرنسيون صرخوا ضد هذا، وادعوا أن كل شيء هو عائد إليهم أنفسهم، واستولوا على ذلك على الفور، وبذلك أضافوا الإهانة إلى الأذى، ولذلك حزن وليم، وشعر بالمرارة في نفسه، لدى معاناته من مثل هذه الأضرار، وهكذا تقدم بشكوى ثقيلة إلى الملك، حول القضية، وأضاف بأن أخاه كونت أرتوي كان رأس ومقدم هذا العمل العدواني والسلب، وعندها رد عليه الملك بصوت منخفض، وبروح تقوية كبيرة وبنظرة هادئة، وقال: «وليم، وليم، الرب الذي لايجهل شيئاً، على دراية بالضرر والأذى الذي ألحق بك، وأنا أخشى من أن يقوم تجبرنا مع ذنوبنا الأخرى، بإلحاق الخزي بنا، وأنت تعلم مدى خطورة الأمر وجديته، إذا ماأسأت إلى نبلائي أو أثرتهم، في هذا الوضع الخطير، الذي أنا موجود الآن فيه»، وعندما كان يتكلم هكذا، وصل كونت أرتوي، وهو هائج وغاضب مثل رجل مجنون، ومن دون تقديم التحية إلى الملك، أو إلى الذين كانوا جالسين هناك، رفع صوته،وهتف وهو غاضب جداً وقال: «مامعنى هذا، مولاي الملك؟ هل تريد الدفاع عن هذا الرجل الانكليزي، وأن تقف ضد رجالك الفرنسيين؟ لقد قام هذا الرجل متحدياً لك، وللجيش كله، وهو مدفوع بطيشه وتهوره، وبناء على مسؤوليته، وبمبادرة منه، فحصل بشكل سري على أسلاب، أثناء الليل، وذلك على عكس ماقضت به مراسيمنا، ولهذا السبب

انتشر صيته، وعمت شهرته وحده، وليس شهـرة الملك الفرنسي وقومه، في جميع أنحـاء مناطق الشرق، وبذلك حجب أسماءنا وألقـابنا»، ولدى سماع الملك المسيحي التقي لهذه الكلمات، أشـاح بوجهـه، وألقى نظرة على وليم، وقـال بلهجـة معتـدلة: «يمكنك الآن أن تسمع ياصـديقي، هكذا يمكن للخـلاف أن يتـأصل، لاسمح الرب بوقـوعـه في هذا الجيش، إنه من الضروري في هذا الـوقت الحرج، أن نتحمـل مثل هذه الأشيـاء بـاتزان ورباطة جأش، لابل أن نتحمل أشيـاء أسـوأ من هذه»، وعلى هذا ردّ وليم قـائلاً: «بناء على هـذا إنك لست ملكاً، حيث لايمكنك أن تضبط شعبك، وأن تعاقب المعتـدين منهم، مع أنني قد وعدت، أنني إذا مـا أذنبت، سوف أقدم كل ترضيـة من أجل ذنبي»، وأضاف وهو متـألم مجروح في قلبه بسبب الأذى الذي لحق به: «إنني منـذ الآن فصـاعـداً لن أخـدم ملك مثل هذا، وبمثل هذا المولى لن أرتبط»، ولأسف الملك الشـديد، غادر وهو غـاضب، ثم إنه ذهب إلى عكا،وهناك أقام لعدة أيام، مع رفاقه بالسلاح، ونشر أخبار الأضرار التي عـانى منهـا بين جميع الذين سكنوا هناك، وبذلك أثار شفقـة الجميع نحوه، وخاصة شفقة الأساقفة، وحرك غضبهم ضد الفرنسيين، ولم يتردد أصحـاب الخبرة والفهم، والـذين كـانوا مجربين في قضـايا وشؤون الحرب، عن توقـع بأن هذا كـان نذير سـوء بشأن الـوقـائع المقبلة، وأن الغضب الثقيل للعلي الأعلى سوف يثار بسبب مثل هذه الآثام، ويروى بأن كونت أرتوي وصـل به الأمر إلى حد القـول حول مـايتعلق بهذه القضايا: «الآن أصبح جيش النبـلاء الفـرنسيين نقياً تمامـاً من هؤلاء الانكليـز ذوي الذيول»، وهو كـلام سبب الضيق إلى كثير ممن سمعـوه، وقـرر وليم آنذاك البقاء مع السكان والداوية والاسبتـارية في عكا، وأن ينتظر وصول صليبية نبـلاء انكلترا، من أجل أن يعلمهم بتجبر الفرنسيين، وبالأذى الذي عـاناه على أيديهم، وليحثهم على قتـال أعـداء الصليـب وفقـاً لمشـورة الناس الجديين، وذوي العقول المتواضعة، دون الوثـوق بمساعدة الفرنسيين، وأن يحاولوا إلحاق الهزيمة بأعداء الصليب بقواتهم الخاصة.

حول سفر النبلاء الإنكليز نحو القدس

وفي حوالي الوقت نفسه، بات النبلاء الانكليز (الذين ذكرت أسماؤهم من قبل) الذين كانوا قد قرروا الانطلاق نحوالقدس في يوم عيد القديس يوحنا، كما تقدم الذكر من قبل، والذين كانوا قد باعوا أراضيهم أو رهنوها، أو ألقوا بها في شباك اليهود والمرابين، والذين أيضاً قد ودعوا أصدقائهم، باتوا جاهزين، في الصباح المشهور لعيد القديس أوغسطين، للانطلاق والشروع بالسفر مع أتباعهم، لكن الملك تصرف مثل طفل مجروح أو مزعوج، الذي بالعادة يركض إلى أمه مع شكاويه، فبعث بكل سرعة إلى البابا يرجوه أن يمنع مغادرتهم، مبيناً له بأن بعض النبلاء المهمين من مملكته في انكلترا، والذين كانوا قد حملوا الصليب، قد قرروا على عكس رغباته وحظره الانطلاق نحو القدس، دون الموافقة على انتظاره، وهو مولاهم وملكهم، وهو الذي كان قد حمل الصليب أيضاً من قبل، واقترح المضي في الحملة نفسها، وأن هؤلاء النبلاء، قد اختاروا اتباع عدوه الرئيسي، أي الملك الفرنسي، الذي —كما قالوا— ذهب قبلهم، وأعدّ الطريق، والمدخل إلى أرض المشرق، وآثروا ذلك على مرافقته، وبناء عليه قام البابا، مثلما فعل الملك بوساطة أوامره الملكية، فمنع بكل دقة، أي واحد —تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي— من الاقلاع، دون الحصول على موافقة الملك، وذلك مهما كان الخطر أو المغامرة المحيقة بالملك الفرنسي.

كيف وضع الملك الإنكليزي حرساً على الموانىء الإنكليزية

علاوة على ذلك، بعث الملك على الفور، أوامر إلى قسطلان دوفر، وإلى حكام الموانىء الأخرى، بألا يسمحوا إلى أي نبيل، يحمل شارة الصليب، بالنزول إلى البحر للسفر، وقد عزي إلى الذين كانوا معارضين لهذا، بأن الملك قد تصرف بشكل غير حكيم، لأنه لو أن مثل تلك الأعداد من ذوي المراتب العليا (كان هناك حوالي خمسمائة مارشال فارس إلى جانب أتباعهم، الذين لايمكن تعدادهم تقريباً) كانت ستسير قبله، فإن كل الجماعة

المسيحيـة كانت ستقـول وهي مندهشة: «كم هو عظيم، وكم هو مـرعب، لابد أن يكون هذا الملك، الذي بعث مثل هؤلاء القـوم أمامه، ومقـدمة له، فكم من الأعداد، لنا أن نخمن ونعتقد سوف تصاحبه، ونتيجة لذلك، فإن جميع المسلمين سوف يرتجفون خوفاً»، لكن مـاهي فائدة هذه المناقشة؟ لأنه بالاضـافة للعوائق التـي وضعها الذين منعـوهم، كان هذا أيضـاً، النتيجة الطيبـة لما حـدث إلى الحجـاج، لأنهم حتى لو كـانوا قـد أقلعـوا (آسف أن أقـول) لما كانوا قـد وصلوا في الوقت المناسب والموائـم لتقديم النجـدة إلى الملك الفرنسي، الأمر الذي رغبوا كثيراً في فعله، وذلك حسبما سوف نروي في الأخبار المقبلـة، ذلك أننا لانستطيع أن نحكي جميع الذي وقع في الوقت نفسه، مرة واحدة.

الملك الإنكليزي يستخرج المال من جميع المناطق

وفي الوقت نفسه لم يتـوقف الملك عن سلب الأموال وجـرفها من جميع الجهات والمناطق، وبشكل رئيسي من اليهود، وفي الدرجة الثانية من رعاياه الطبيعيين المسيحيين، ومارس ذلك إلى درجة كبيرة، وتابع استخراجاته من اليهود، حتى أنه استخـرج من واحد منهم، اسمه هرون، وكـان قد ولد في يورك، وامتلك بيتاً في تلك المدينة، أربعـة عشر ألف مارك [فضي]، وعشرة آلاف مـارك من الذهب، من أجل استخـدامـات الملكة (لأنه كما قيل، قـد تبرهن إن كان مجرمـاً بتزييف أحـد الصكوك)، وأن يجري دفع ذلك خلال وقت قصير، حتى يحول دون وضعـه في السجن، وبالاضافـة إلى دفعه هذه المبالغ كلهـا، لقد تبين أن هرون هذا المذكـور، كان قـد دفع إلى الملك، لدى عودته من القارة، مبلغ ثلاثين ألف مـارك من الفضة، ومائتين من الذهب، من أجل استخـــدامـات الملكة، وذلك حسبما أعلن هـرون اليهـودي هذا، بوسـاطة شهادة قـانونية، وبنـاء على عهدته، إلى الراهب متى، مـؤلف هذا الكتاب، وعلى كل حال، إن هؤلاء اليهود، مهما كـانوا أشقياء وتعساء، هم لايستحقون الشفقـة، لأنه قد تبرهن بوضوح بأنهم كانوا المفسـدين للنقود

الملكيـة، والمزيفين للأختـام، وللصكوك، ومن أجل ذلك تعـرضـوا مـراراً للملامة والإدانة.

طغيان غيوفري لانغلي

وفي حـوالي الوقت نفسه، قـام أحد الفـرسان، واسمـه غيوفـري لانغلي Langley, وكـان نائبـاً للملك، ومحققـاً بالتجـاوزات التي اقترفت في الغابات الملكية، بجولة في عـدد من المقاطعات في انكلترا، وببراعة، وشره، وارغام، استخـرج مبلغاً كبيراً من المال، وبشكل خـاص، من نبلاء المناطق الشمالية لانكلترا، وكـانت كمية المبلغ الذي جمعـه فوق تصـور جميع الذين سمعوا به، وسبب الدهشة إلى عقـولهم، وظهر أن هذا الظلم الشديد الذي مارسه ضـد النبلاء الشماليين، قد صدر عن كـراهية قديمة نحـوهـم، وكان غيوفـري المتقدم ذكره محاطاً بحـاشية كبيرة، وجيدة التسليح، وكـان إذا ما حاول أي واحـد من النبلاء المتقـدم ذكرهـم أن يعتذر، أو تجرأ على التعبير عن تذمره، بأن القضاة كانوا أعداءه، كان يأمر على الفور باعتقاله، وايداعه في سجن الملك، فلم يستطـع أحـد أن يرد على الطلب بمـوجب أية حجج منطقيـة، وذلك للخوف مـن أن يعد ذلك ذنبـاً، ذلك أنه من أجل حيـوان صغير، خشف أو أرنب، وإن كان ضائعاً خـارج الطريق، قام بإفقار بعض الناس من ذوي الأصل النبيل، وأوصلهم حتى الدمار، فهو لم يوفر لا الدم ولا الحظ، ومقارنة بهذا الرجل، كـان روبرت باسلو يعدّ الأكثـر لطفاً، وفي الحقيقـة عدّ جميع أسـلافـه عادلين، وجـاء الحديث عنهم جيداً، وخاصـة عندما كـانوا يقارنون به، وكان غيـوفري هذا، منذ الوقت الذي جـرت فيه ترقيتـه إلى وظيفـة مارشـال حـاشيـة الملك، ليقـوم بحمل العصا العـائـدة للمارشـال الكبير، وبقدر مـا أوتي من سلطة، قد أنقص الضيـافة والرعـاية العـائدة للمائـدة الملكيـة، فبهـذا وبأعمال تملقه قـد أبهج الملك، وبناء عليـه حصل على حظوته مع أنه لم يستحق ذلك، وفيما بعد عـدّه روبرت المذكور، انسـاناً مخلصـاً، وجديـراً بأن يتشارك معـه شخصيـاً، لذلك دعـاه، وجعله زميلاً وشريكاً في وظيفة المسؤول عن عدالة الغابات الملكية، لكن غيوفري

نصب شركاً لقدمي ولي نعمته روبرت، وفيما بعد أحل نفسه بدناءة محله، وبدناءة خلع النواب الذين كان روبرت قد عيّنهم في وظائفهم، مما جلب له كثيراً من العار والأذى، لكن من الذي سوف يشفق على الحاوي، إذا ما لدغ من قبل الأفعى؟، وبناء عليه تجنب روبرت المذكور مصائد البلاط، ورجال البلاط، وحصل على تكريس نفسه كاهناً، وطار ليقطف ثمار حياة أفضل، كما كنا قد ذكرنا من قبل.

كيف ذهب رئيس أساقفة كانتربري إلى البلاط الروماني

وفي الوقت نفسه علم بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، بأن عميد القديس بولص مرافقاً ببعض الكهنة التابعين لتلك الكنيسة، وببعض وكلاء الذين كان قد آذاهم، قد ذهبوا إلى البلاط الروماني، وبناء عليه، وقد تشجع بمشورة المحامين، أقلع بأبهة كبيرة وفخامة وتوجّه نحو البلاط نفسه، مسلحاً بحماية الملك وبرسائله، ومعتمداً على نفوذ أسرته، وذلك في سبيل أن يصبح بوساطة سلطات البابا، أكثر قوة وطغياناً.

موت روبرت أوف ليكسنغتون

وفي التاسع والعشرين من أيار لهذا العام، مات روبرت أوف ليكسنغتون Lexington الذي استمر مدة طويلة في وظيفة المسؤول عن العدالة، فحصل على اسم متميز، وعلى ممتلكات وافرة، وكان على كل حال، قبل سنوات قليلة من موته قد أصيب بالشلل الارتجافي، فتخلى عن الوظيفة المذكورة، وبذلك كان مثل القديس متى، استدعي من وظيفة تسلم العشور إلى حياة أفضل، وشغل نفسه في تقديم الصدقات بشكل وافر، وبالصلاة التقية، وبذلك أنهى حياته الواهنة بطريقة محمودة.

التقارير المتنوعة حول الاستيلاء على القاهرة

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، كثر تداول تقارير تبعث كثيراً على السرور، لكنها كانت بلا أساس، وقد تحدثت عن الاستيلاء على القاهرة

والفسطاط، وعن تـدمير الاسكندرية، وقـد سكّنت هذه الإشـاعـات، وأرضت قلوب جميع الناس في الغـرب، بوسائل مـواساتها الزائفـة، وتبين أخيراً أنها صدرت عن السبب والمصدر التالي، وهو مايتطلب رواية طويلة، مهما كانت —على كل حال— غير مثمرة، لأن:

المحصلة الدنسة تدمغ الإجراء جميعه بالدنس

حول الاستيلاء على دمياط من قبل الصليبيين

عندما علم سلطان مصر بقرب وصول ملك فرنسا المشهور ومعه جيشه، في العام المنصرم، عهد بالمسؤولية عن دميـاط إلى واحد من مقدميه، وكان له فيه ثقـة كبيرة، وعهد بالقـاهرة والفسطاط إلى عناية أخي المقـدم نفسه، لكن بعد الاستيلاء غير المتوقع على دمياط، دعا السلطان المذكور إليه جميع أعيانه، وعلى مسمع منهم جميعاً وجـه تهمة ثقيلة ضـد المقدم الذي إليه عهـد بمدينة دميـاط، والذي ضـاعت وهي تحت وصـايتـه، واتهمـه ليس فقط بالخسـارة الخيـانية لمدينتـه الرئيسية، من خـلال الاهمال والجبن، لابل أيضاً بتسليمهـا ووضعها بين يدي العدو المعلن، وبذلك امتلـك الصليبيون الذين هم أعداء جميع المسلمين، الآن منفـذاً حـراً إلى مصر، وإلى جميـع بلاد الشرق، مع آمـال بالاستيلاء بشكل أسهل ومؤكد أكثـر على جميع المناطق الأخرى، والحصول على مكان جيـد الـدفـاعـات ومـلاذاً، مما ألحق الأذى والاضطراب بجميع المسلمين.

وعلى هذا ردّ المقـدم المتهم قـائلاً: «مـولاي الأعظم قـوة، إنني خـادمك المخلص والوفي، قد أرسلت جواسيسي إلى جـزيرة قبرص، عندما كان الملك الفـرنسي يمضي الشتـاء هناك، ومنهم قـد علمت، أنه عندمـا غـادر تلك الجزيرة، سوف يبحر إلى الاسكندرية، ليقوم بحصار ذلك المكان، وبناء عليه قمت بإرسـال جميع العساكـر من دميـاط إلى ذلك المكان، لتقـديم مساعـدة فعالة إلى أصـدقائنا الاسكندريين، الذي هم رعيتـك، ولأسر الملك المذكور،

وللاستيلاء على أسطوله كله، وإرساله إليك، لكن الحظ لم يكن مواتياً لنا، فبتغير الريح لتكون موائمة لهم، جلبت أعداءنا، وأوصلتهم إلينا، عندما كنا غير مستعدين، وبذلك نالوا الاستيلاء على الساحل، مع أننا قاومنا إلى أقصى ماكان في قدرتنا، كما تعلم أنت شخصياً.

وفي اليوم التالي ابتسم سعد الحرب لعدونا، فألقى الحصار على دمياط، التي وجدها مجردة من جميع وسائل المقاومة، وقد وصل معه أسطول كبير جداً، إلى حد أن وجه البحر بدا وكأنه مغطى بالسفن، وبناء عليه، قدرنا ذلك، وبما أننا كنا بدون مقدمين، ومن دون أسلحة المدينة، وقدرنا سلامتنا وسلامتك، فقتلنا وقطعنا أعناق جميع الأسرى الصليبيين، الذين كانوا بين أيدينا، ثم عمدنا إلى الفرار سراً أثناء الليل، حتى نتمكن من استدعاء القوات التي كنا قد أرسلناها إلى الاسكندرية، ومحاربة الصليبيين بقوة أعظم.

غير أن بعض الأسرى الصليبيين، عندما شاهدوا وصول بني قومهم، ورأونا ونحن نعدم رفاقهم، تمردوا علينا، وثاروا علينا بطريقة عدوانية غاضبة، وقتلوا بعضاً من قومنا، وقام هؤلاء أيضاً بعد مغادرتنا، بجلب الفرنسيين المقتربين الزاحفين عبر ممرات غير معروفة، وأدخلوهم إلى الأماكن السرية والداخلية من المدينة، وقمنا قبل مغادرتنا بإلقاء النيران في المدينة، حتى لايتمتع أعداءنا بممتلكاتنا، لكن الأسرى أخمدوها في أسرع وقت استطاعوه، وعندما أرغمنا على التراجع، كنا في حال من الأسى لعنّا فيها شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم)، لابل لعنا فيها النبي نفسه، ووددنا بأننا لو كنا أمواتاً، ولم نكن أحياء»، وعندما سمع السلطان هذا انفجر غاضباً، واستولت عليه حالة من الهياج (لأنه كان متجبراً وبلا رحمة)، ومع أن المقدم المذكور، استطاع بشكل صحيح أن يبرىء نفسه من التهمة، حسب رأي بعض الحضور، وقف السلطان بمزيد من العنف ضده، وأمر به ليعلق على المشنقة كخائن ومجدف كافر.

وعندما وصل هذا إلى مسامع أخيه، حاكم القاهرة، (الذي كان قلبه منذ

زمن طويل مضى ميـالاً إلى العقيـدة المسيحيـة، إنما بشكل سري، لخوفـه من المسلمين) استـدعى بعض الذين كـانوا أسرى لـديه، وكـان من بينهم بعض الداوية والاسبتـارية، وبعض الفــرنسيين، الذين كـانوا قـد أخـذوا أسرى، مؤخراً في المعركة عند غزة، وخاطبهم كما يلي:

«لدي سر خفي في صـدري، عليّ بثقة أن أبوح به إليكم، إذا مـا وعدتموني بيمين دقيق تحلفـونه بحق إيمانكم وشريعتكم، أن تخفـوه، وأن تساعـدونني، وقتها سوف أبوح به إليكـم».

وجــواباً على هذا الاقتراح، أعطاه الأسرى كلمتهم ويمينهم، ووعــدوه بالحفاظ على الصدق والاخلاص غير المنقوض معه، في كل شيء، وبناء عليه شرع يقول لهم مايلي:

«إن سلطان مصر، لم يعـد الآن مــولاي، وهوالذي خـدمتــه حتى الآن باخلاص في كثير من المخـاطر، ذلك أنه قد سبب لي مؤخـراً غضباً لايحتمل، وإهانة، وآذاني كثيراً، ذلك أنه شنق مـؤخـراً على المشنقة، أخي الذي أحببتـه أكثر من أخ —وفي الحقيقة أكثر من جميع أسرتي إلى جانبه— حيث اتهمه بأنه سلم عن طواعيــة دميـاط إلى الفــرنسيين، أو من خــلال الخوف، مع أنه لم يمتلك سببـاً أو بينة تؤيده في اتهامه له، وأنتم تعلمـون تمام المعرفـة، بأن هذه التهمـة التجـريميـة زائفة تمامـاً، لأنكم تعلمـون، كيف أنه قـاتل بشجـاعـة واخلاص، وتصـدى للفرنسيين عندما استـولوا على الساحل، وكـانوا كثرة كثيرة، وفي الحقيقـة لقد قـاتل كثيراً إلى جـانب كثير من أصدقـائنا وأقـربائنا الذين هلكوا هناك، وقـد خسرنا ركننا (ركن الدين) الذي كـان أعظم رجل بيننا، والثـاني بعـد السلطان، وهو الذي كـان قـد قتل كثيراً من الصليبيين في الأوقات الماضية، ونال النصر على قـومكم في غزة، ولذلك قد أوقفت نفسي على الانتقـام بسبب مثل هذا الطغيـان الكبير، وأن أعطي إلى الملك الفـرنسي التقي هذه القلعـة التي لاترام، التي عليهـا تعتمد ثقـة جميع المسلمين، والتي فيها مخزون جميع أموال السلطان، وإنني أيضاً أسلم نفسي وجميع ممتلكاتي إلى

يسوع المسيح، وإلى الملك الفرنسي، وأطالب بقداس التعميد، ذلك أن مافعله السلطان بأخي، سوف يفعله، بدون شك بي، إذا حدث ووقعت بين يديه، وذلك مهما كنت بريئاً.

أنتم الآن قد أطلق سراحكم من سجنكم، وبناء عليه، اذهبوا بحذر، وبأعظم سرعة إلى الملك الفرنسي، وقدموا له تقريراً صادقاً حول جميع القضايا، ولكي يكون أكثر تأكداً من حسن اخلاصي، عليه أن يجلب جيشه كله الذي نعدّه جيشاً لايقهر، أن يجلبه وهو معبأ للقتال.

وعندما سيصل هذا إلى مسامع السلطان، سيدفع بقواته كلها للتصدي له لدى اقترابه، لكن عليكم عدم الخوف من هذا، وأن لايشكل ذلك مناسبة للخشية، لأنكم سوف تجدون القلعة المتقدمة الذكر مهيأة لكم، وكذلك مدينة الفسطاط، التي سوف تفتح لكم، وتكون بمثابة مكان للالتجاء والتحصن، ولكي نسبب اضطراباً مفاجئاً إلى جميع المسلمين، سوف يكون لديكم ارشادي، ومشورتي، ومساعدتي في جميع إجراءاتكم».

وكبرهان أول على صدق أقواله، جرى اطلاق سراح جميع الأسرى، مما منحهم سروراً وبهجة، وذهبوا على الفور بشكل سري إلى الملك، وبما أن الذين حملوا هذه الرسالة وجلبوها كانوا موثوقين، وأشخاصاً معروفين بشكل جيد، حصلوا على تصديق كامل، ولدى سماع الملك بهذه الرسالة، أمر بعدم إباحتها إلى أي انسان، حتى تكون خططه قد أعدت بشكل أكثر تحديداً.

وكان حزيناً لغياب وليم لونغوسبي وأتباعه، الذين كانوا قد عانوا من أضرار بالغة، ولأن جيشه كان قد نقص تعداده كثيراً، وكان يعاني من الفضيحة، قام على الفور بإرسال واحد إليه حتى يأتي، ويتلقى كل ترضية من أجل الأذى الذي ألحق به، وقال له في نهاية رسالته: «ولكي تسمع بعض التقارير المفرحة، التي سوف يتلوها بعض الأحداث المرغوب بها منذ زمن

طويل، و المتشـوق للابتهاج بها كثيراً، والتي رغبتنا وأمـانينا أن تكون شريكاً بها».

وانتشر خبر هذه الرسالة بين جميع سكان عكا، ومن خلالهم وصلت إلى سكان تلك المنطقة من البلاد، وبناء عليه، ذهب وليم وقتها مع جميع أتباعه إلى الملك، مطيعـاً لأوامـر مثل ذلك الأمير العظيم، لكن بشكل رئيسي بناء على الإضافة الأخيرة، وبعدما سمع من الملـك، رسالة المقدم المتقدم ذكره، قام بسبب السرور الذي شعر به، بالتخلي عن مشـاعر الغضب والحقد ضد الذين أساءوا إليه.

وبسبب هذه الأحـوال المستجـدة، قـام بعض المتطفلين، فكتبـوا بشكل سري، رسـائل مفرحـة فيها الأخبـار السـارة، وبعثوا بها، وكأنهم قـد نالوا الذي وعـدوا بـه، واستحـوذوا عليـه، ولذلـك بعثـوا برسـائـل زائفـة إلى أصدقـائهم، الذين أرادوا تنشيطهم وافراحهم، بأن القـاهرة والفسطاط قد جرى الاستيـلاء عليهما، وأن الاسكندرية تركت عـرضة للاستيـلاء عليها من قبل الصليبيين، ومن هاهنا كـان منشأ تلك التقارير، والرسـائل المتقدم ذكرها.

كيف عرض السلطان كثيراً من الهدايا على الصليبيين حتى يحصل على السلام

وبناء عليه انتعش الملك، وارتفعت آماله، فوضع حامية موثوقة في مدينة دمياط، مكونة من دوق بيرغندي، وعدد كبير من أتبـاعه المخلصين، وأخذ اتجاه القــاهرة، مع جميع جيشــه معبئاً وفقــاً للنظام العسكري، وقتل على طريقه بعض المسلمين، الذين كانوا موضوعين على شكل كمين، لمنع جلب المؤن إلى دميـاط، وأخبر السلطان في الوقت نفســه عنهم، أنهم قـد رفعـوا أعلامهم، وهم مسرورين مبتهجين، وأقلعوا حـاملين من دمياط، وشعروا بكثير من الآمـال بالاستيـلاء على البـلاد كلهـا، ولذلك خـاف من قتـال

الفـرنسيين، فأرسل بعض الـرجـال الأعيـان من بـلاطه، بمثـابة رسل، يعـرضون التخلي عن جميع الأرض المقـدسة إلى الصليبيين، يعني أن تقـول جميع مملكة القدس وزيـادة، وكذلك مبلغاً من المال، من ذهـب وفضة، مع هدايا أخرى مـرغوبة، على شرط —على كل حال— وجـوب إعادة الملك لدميـاط، مع جميع الأسرى الذين كـانـوا تحت سلطانه، وأنه سـوف بتسلم جميع الأسرى أحراراً، وأن يكون مسموحـاً بقيام اتصالات حرة وتجارات، بشكل عام في بلدان كل منهما، من التمتع بمنافع السلام، واللطف المتبادل. ومـا قيل تأكدت صحتـه كحقيقة، أن السلطان قـد عزم مع عـدد كبير من الأعيـان المسلمين، على التخلي عن عقيـدة محمـد (صلى الله عليه وسلم) (التي ظهـرت بوضـوح إليهم على أنها...)، وأن يلتحقـوا مخلصين بعقيـدة المسيح، التي كانت من الواضح نظيفة جداً، ومشرفة، شريطة أن يسمح لهم بسلام بالاحتفاظ بأراضيهم وممتلكاتهم، لكن عروض السلام هذه رفضت بعناد، من قبل النائب البـابوي، طاعـة منه للأوامـر البابوية، الذي شجعـه على التصرف هكذا، إذا ما حدث، وتقدم المسلمون بمثل هذه العروض.

كيف جرى إعلام السلطان بخيانة المقدم

خلال هذا التعويق غير المفيد والطويل، حول هذه القضايا، تمكن بعض المسلمين، من المناطق الجبليـة، الذين وضعوا على شكل كمين، بين الرعـاة الذين كانوا يرعون قطعانهم في الوادي، لمنع وصول المؤن إلى المدينة، من أن يعرفوا عن طريق جواسيسهم، ويكشفوا خيـانة حاكم القاهرة، الذي تقدم ذكره، ولذلك امتطوا أسرع خيـولهم، وبذلوا كل سرعة ممكنة حتى وصلوا إلى السلطان، فأخبروه بكـل وضـوح بسبب اقتراب وصـول الصليبيين، ونشاطاتهم، ومشاعـرهم بالأمن، فأرسل على الفور بعض الجنود المجربين بكل سرعـة إلى القـاهرة، فـاعتقلوا الحاكم، واحتفظوا به في السجن، حتى يتمكنوا من الوقـوف على براهين على صـدق التقـرير، وكـان أول برهان وجـدوه، هو أنهم وجـدوا السجن فـارغـاً من الأسرى، وبذلك تبرهنت

خيـانة الحاكم، ولذلك قام السلطان على الفـور بتقوية القـاهرة والفسطاط بحـاميـات من الجنود قـائـلاً: «الآن، آمل، أخيراً بأن رب الصليبيين المولى يسوع المسيح، الذي يحب الاعتدال والتواضع، سوف يخزيهم لتجبرهم».

وأصبح السلطان من ذلـك الحين هادئـاً، وواثقـاً مطمئناً، ورفض منح الصليبيين عـروض السلام التـي كان قـد تقـدم بها من قبل إليهم، مع أنهم رجـوه أن يفعل ذلك، ومع أنه جـرى تشجيعـه على أن يوافق، تطلع واثقـاً للتصـدي إليهم، أو بالحري للانتصـار عليهم، وبناء عليه جمع أعـداد كبيرة من العساكر من جميع بلدان الشرق، من بين الذين كانوا قلقين على الصالح العـام، والمتشـوقين للحصـول على ثروة كبيرة، وأمـر بأن يعلن على الناس جميعـاً بصـوت المنادي، أن كل من يقـدم له رأس صليبي، فسـوف يتسلم عشرة طالن، وذلك بالاضافة إلى عطائـه المعتاد والموعود به، وأن أي واحد سوف يجلب اليـد اليمنى لأي صليبي فلسوف يحصل على خمسـة، ولسوف تكون جائزة الذي سوف يحضر قدماً طالنين.

كيف أخذت شؤون الإمبراطور فردريك بالتحسن

وكـان في العـام نفسـه الامبراطور مـزعـوج تمامـاً بسبب زيادة عناد الايطاليين، وبشكل خاص عناد البـارميين، والبولونيين: البـارميون بسبب مقتل ثاديوس مع أتبـاعـه المخلصين الآخرين، ولدمـار قلعتـه، التي سماها المنصـورة، والبـولونيـون لأسرهم ابنه وحبسـه، وبدأ إنسيـوس Ensius بشكل مواظب يعمل على ابداع خطط ضدهم، لينتقم للأذى الذي لحق به، وللأضرار التي لحقت بالكريمـونيين، فقد أخذ البـارميون، نتيجـة للسلام الطويل الذي سمح به فردريك إليهم، يتمتعون بالتجول هنا وهناك سالمين من غير أذى، وتجولوا أولاً في المناطق المجـاورة لمدينتهم، لكنهم بعـد ذلك نقلوا بضـائعهم إلى سـوق كـان على مسـافـة أكبر من ذي قبل، ومـارسـوا أعمالهم دونما انزعاج، وعادوا سالمين، وفي أحد الأيام، عندما عدّ بعض من الأعلى في طبقات أهل المدينـة، أن هذا برهاناً على الأمن والسلام، فـذهبوا

وهم يشعرون بالأمن، وهم غير مسلحين، لتفقـد حدائقهم وقلاعهم التي بنيت في ضـواحي المدينة من أجل حمايتهم، كـانت هناك كتلة من أتبـاع فردريك جالسين في كمين، وقـد سمحوا لهم بفعل ماأرادوه دون اعتراض سبيلهم، وفجأة انقضوا عليهم خارجين من المكـان الذي تخفوا به، وكانوا مسلحين تسليحاً تاماً، وقطعـوا جميع طرق الوصـول إلى المدينة عن أهل المدينة غير المسلحين، وهكذا تمكنوا من أسر جميع هؤلاء من سكان المدينة، وهـم غير متنبهين، وكـانوا مثل طيـور وقعت في الشبكة، وكـان كثير منهم من أصل نبيل، ثـم تمكن هؤلاء الجند من دخـول المدينة، بعـدمـا شقـوا طريقهم بالقـوة من خـلال الحرس الأول عند الأبـواب، واعتقـدوا أنهم استولوا على المدينة، وأنها صارت تحت إرادتهم، غير أن الناس الذين كانوا باقين في المدينة، رفعوا أصـوات الانذار، وتصدوا لهم على الفـور، وأوقفوا تقـدمهم، ووضعـوا سـلاسل، وجذوع أشجـار، وعـوارض خشبيـة عبر الطرق، كما أنهم دحرجوا براميل فارغة على الأرصفة، حيث صدرت عنها أصـوات مرعبـة، أخـافت الخيـول، وجعلتها تفر، لكن عندمـا علم أهل المدينة بأسر أبناء مـدينتهم توسلوا بتذلل لمنحهم بعض العـروض للسلام، وقام عدد كبير منهم، بالاندفاع خارجين من المدينة، وقد تمكنوا عن طريق بذل مبلغ كبير من المال من اقناع الامبراطور فـردريك بقبول الولاء منهم، وأنهم سـوف يخضعون له، وتمسك بعضهم الآخـر بوجوب التصـدي له، وكـان اعتمادهم على حصـانة أبراج المدينة، حيث التجأوا إليهـا، وشرعـوا يرمون بالنشاب والحجارة الثقيلة على المهاجمين لهم، وآثروا تحمل أي خطر من المخاطر، على الخضوع لإرادة فردريك.

وعندما سمع البولونيون بهذه الوقائع، بعثوا رسلاً إلى فردريك، ورجوه بتـوسلات وتذلل أن يمنحهم السـلام، لكن فردريك رفض الاصغـاء إلى طلبهم، وأرسل في حـوالي الوقـت نفسـه بعضـاً مـن رسله الموثوقين إلى مدينتي أفينون وآرل الفخمتين، الواقعتين على مقربة من ليون، فتلقى أيمان الولاء من سكانهما، وعندما باتت أخبـار هذه الوقائع معروفـة لدى البابا،

حـــزن وتحسر متألماً لانفاقه من دون فائدة تلك المبالغ الكبيرة من المال، ولزيادة أسى البـلاط الرومـاني وحـزنه، فـارق الحيـاة رينير أوف فيتربو Reiner of viterbo, وكـان كاردينالاً وحـاجبـاً للبابا، وكـان رجلاً من أسرة مشهورة، عندها ممتلكات غنية، وكان مضطهداً لايعرف التعب ومشهراً بفـردريك، وإثر وفاته أرسل الرومان رسـالة، مصحوبة بالتهديدات إلى البـابا، يأمرونه بالعـودة من دون تأخير إلى روما، بحكم كونه راعيهم الروحي وأسقفهم.

برنارد دي نيمفا يجمع المال من الصليبيين

وقام في الوقت نفسه برنارد دي نيمفا Nympha, وهو كاهن، كـان مسلحـاً بوثائق بابوية، بجمع مبلـغ كبير من الصليبيين، من أجل استخدامات الايرل رتشارد، وكان ذلك بطريقة غير أمينة تماماً، حتى أن ذلك بدا هو سرقة أكثر منه عـدالة، والولاية الآمرة باقتراف هذه السرقة المهينة، قد جرى تقديمها كاملة في كتاب Additaments, وذلك حتى لاتؤذي آذان ومشاعر الكثيرين.

التقارير المحزنة التي جلبت من الأرض المقدسة

في يوم عيـد القـديس كينيلم Kenelm, الذي كـان في اليـــوم الأول من تموز، عندمـا كان الايرل رتشارد عنـد المسؤول المالي في لندن، قدم إليه إلى هناك بكل سرعة رسـول، كان الحامل الكئيب لأكثر التقارير المحـزنة، ورسـائل تحتوي على التقـرير الاخبـاري التـالي: «تشجع الملك الفرنسي المسيحي التقـي، من قبل رجل كان يلي القاهـرة —الذي جرت الإشارة إليـه من قبل— فقـام بعدما عقـد مجلساً استشـارياً عامـاً، فنقل معسكره من دمياط نحو القـاهرة، وقتل بعض المسلمين الذين تصدوا له على الطريق، وبما أن حظ الحرب قد ابتسم له من كل جانب، تمّ الاقلاع بهجوم حـاد على المسلمين، فيه عـانى الصليبيون بعـد قتال طويـل وحاد

جداً، من خسائر مرعبة، وفي الحقيقة كانت الخسائر من على الجانبين، وفي الأخير نال الصليبيون نصراً مجيداً عليهم، ثم قام الملك مع نهاية عيد الفصح، فعبر نهراً كبيراً اسمه تنيس، وكان يتدفق من مجرى نهر النيل، وجاء العبور بوساطة قوارب، كانت قد ربطت إلى بعضها بقوة، كما وعبر كثير من الناس النهر بوساطة مخاضة سرية، دلهم عليها بعض المسلمين المتحولين إلى المسيحية، وأخذ روبرت كونت أرتوي —أخو الملك— معه بعض النبلاء، كان واحداً منهم وليم لونغوسبي، وعبر إلى الشاطىء الثاني، ودون معرفة أخيه الملك، وكانت نيته الحصول على النصر لوحده، بدلاً من السماح للجميع بالمشاركة به، وأن يحصل على فضل النصر لوحده، بحيث يعزى إليه وحده فقط (لأنه كان متجبراً وأرعناً وشرهاً للحصول على مجد عابث)، وعندما وجد بعض المسلمين هناك، تمكن هو وأصحابه من قتلهم، ثم قرر بشكل غير حكيم أن يستولي بالقوة على قرية كانت أمامه اسمها المنصورة، وقد استهدف قتل السكان الذين كان سيجدهم فيها، ثم أن يدمرها، ولذلك شق طريقه إلى داخلها، لكن أمكن قهره بالحجارة التي ألقيت عليه، وأرغم على مغادرتها، إنما ليس من دون قتل بعض السكان، ثم عقد مع أصحابه مؤتمراً للتداول حول الذي ينبغي عمله، وكان الكونت روبرت يأمل بأن تكون النهاية سعيدة مثل البداية، لذلك أقنعهم وشجعهم جميعاً، بمتابعة الزحف، وقال لمقدم فرسان الداوية، الذي كان معه، وإلى وليم لونغوسبي الذي كان أيضاً موجوداً: «دعونا نلاحق العدو الهارب، الذي قيل بأنه قريب منا، بينما الأحوال الطيبة بين أيدينا، وفي الوقت الذي نرى فيه قومنا متحمسين، ومتعطشين إلى دماء أعدائهم، الذين هم يائسين من نجاتهم، وبذلك إذا ما سحقناهم جميعاً، يمكننا على الفور جلب حربنا إلى نهاية سعيدة، ودعونا نتابع زحفنا بثقة، لأن ثلث الجيش الفرنسي يتبعنا، وإذا صدف ووقع لنا أي شيء غير سعيد —لاسمح الرب به— إن الجيش الذي لايقهر لأخي الملك سوف يأتي إلى مساعدتنا

بناء على استدعـاء منا»، وعلى هذا الخطاب ردّ مقدم الداويـة، الذي كان رجلاً حكيماً، وحذراً، وبارعاً وجيداً في قضايا فن الحرب، ومجرباً، قائلاً: «مـولاي، ياأيها الكونت النبيل، نحـن نثمن بحق جـرأتكم ونثني على شجاعتك، وعلى عظمتك الفطرية، واقـدامك، وعلى اخلاصك التطوعي لصالح شرف الرب وكنيستـه العالمية، وهو مانعـرفه، وغالباً مـا جربناه، ومع ذلك إننا —على كل حـال— نحـن نود أن ننصحك ونرجـوك، أن تتولى تقـدير هذا الاحسان، وأن تميل نحـو الاعتدال والحذر من أجل أن نتمكن من استرداد أنفاسنا قليلاً، بعد هذا النصر، والشرف الذي أضفاه الرب علينا، فبعـد حـرارة وتعب هـذه المعـارك، نشعـر بالإنهاك، ونحن مصابون بالجراحـة، وجائعون، وعطشانون وإذا كنا نحن نشعـر بالمواساة بشرف ومجد النصر الذي نلناه، مـا من تشريف أو سرور يريح خيـولنا المعقورة، التي بدأت الآن تخذلنا، وبناء عليه، دعـونا نأخذ بخطة أفضل، بأن نعـود، من أجل إذا مـا اتحدنا بجيش ملكنا، يمكننـا أن نتقـوى بمشورته، ومسـاعدته، وبذلك تتمكن خيولنـا، وكذلك نحن أنفسنا من الانتعاش بوسـاطة قليل من الهدوء والراحـة، وعندما سيشاهـد أعداؤنا هذا سـوف يحمدون اعتـدالنا وحكمتنا أكثر، ولسـوف يشعرون بخـوف أكبر منا، ثم إننا بعقـدنا المزيد من المشـاورات المحكمـة، مع أبناء وطننا، عندما نجتمع مع بعضنا، بعد ذلك يمكننا النهوض ثانية أقوى، ولسوف نمتلك ثقـة أعظم بقـواتنا الموحـدة، لأن الصرخـات قـد ارتفعت من الفارين، الـذين يمتطون خيولاً سريعـة، سوف تنبه السلطان مـع أعدائنا الآخرين، الواثقين بقوتهم، وبأعدادهم، وسوف تنذرهم وتعلمهم بعددنا الصغير، وعندمـا سيعلمـون بهذا كله وبهذه الأشيـاء جميعـا، سـوف يتشجعون لانفصـالنا عن جيشنا، وهذا أمر لطالما تشـوقوا إليـه، فبذلك سـوف يحملون علينا بجرأة أكبر وبثقـة أعظم، ولسـوف يصبون قـواهم علينا من أجل تدميرنا وخـرابنا، لأنهم يعلمون الآن، أنهم إذا مـاسحقوا في الوقت الحالي سوف يجردون كلياً من مـواريثهم، ولسوف يدفعون مع

أسرهم للغرق في نهر النيل».

التأنيبات التي جرى تكديسها على الداوية والاسبتارية من قبل كونت أرتوي

وعندما سمع كونت أرتوي هذا الكلام، بات غاضباً جداً، وأجاب وهو يتميز غضباً وتجبراً قائلاً: «انظروا إلى الخيانة القديمة للداوية، وللتمرد القديم المعروف للاسبتارية، وكيف ظهر الآن خداعهم المخفي منذ زمن طويل، وانفجر وتدفق الآن بيننا، فهذا الذي كنا قد أخبرنا به منذ زمن طويل جداً، وهذا ماتحقق بعدما كان متوقعاً، ولقد كان من الممكن منذ وقت طويل مضى الاستيلاء على كل بلاد الشرق، لولا أننا العلمانيين كنا مخدوعين بالاعتماد على الداوية والاسبتارية، مع آخرين يدعون أنفسهم الرهبان، انظروا إن فرصة أسر السلطان باتت مفتوحة أمامنا، وتدمير جميع المسلمين في متناول اليد، وكذلك التمجيد الدائم للإيمان المسيحي، وهذا كله مايحاول هذا الداوي الموجود هنا ويسعى إلى إعاقته بحججه الواهية والمخترعة، ذلك أن الداوية والاسبتارية والمشاركين لهم، يخشون من أنه إذا ما أمكنت السيطرة على البلاد واخضاعها إلى الصليبيين، فإن تحكمهم الذي عظم اعتماداً على مواردها الغنية، سوف يزول وينتهي، ولذلك فإنهم سمموا —بمختلف الطرق— الصليبيين الذين جاءوا إلى هنا، وهم جاهزين لمساعدة قضية الصليب، وهم بتحالفهم مع المسلمين قد قتلوا هؤلاء الصليبيين بطرق خيانية متعددة، أوليس فردريك الذي عانى من خيانتهم، هو الشاهد الأعظم توكيداً حول هذه القضية»؟.

جواب مقدم الداوية

وحزن مقدم الداوية المتقدم ذكره وتألم بقرارة نفسه مع اخوانه، وكذلك فعل مقدم الاسبتارية واخوانه، وانزعجوا كثيراً من هذه

الكلمات التوبيخية والقاسية، وردوا وكأنهم عقل واحد، كما يلي: «لماذا أيها الكونت النبيل، توجب علينا ارتداء الزي الرهباني؟ هل فعلنا ذلك من أجل الاطاحة بالكنيسة، وهل بممارسة الخيانة، نتولى فقدان أرواحنا؟ إن هذا بعيد عنا، وفي الحقيقة بعيد عن كل مسيحي»، وبما أن مقدم الداوية كان غاضباً كثيراً، قال أيضاً بصوت مرتفع إلى حامل علمه: «انشر علمنا وارفعه، دعونا نزحف نحو القتال، لكي نتمكن في هذا اليوم جميعاً من تجريب حظ الحرب، ونواجه فرص الموت، فنحن سنكون غير ممكن قهرنا إذا ما استمرينا غير منقسمين، لكننا لسوء الحظ قد انقسمنا وصرنا مثل رمل من دون كلس، وبذلك غير موائمين من أجل واجهة روحية، ومن دون ملاط التعاطف سوف نكون منذ الآن مدمرين، مثل مواد مرفوضة»؟.

حول المشاحنة بين وليم لونغوسبي وكونت أرتوي

ولدى سماع وليم لونغوسبي لهذا الكلام، وكان يخشى من حدوث انشقاق في الجيش، ولذلك رغب في تهدئة العنف الأرعن للكونت أوف أرتوي، وفي تلطيف واطفاء غضب مقدم الداوية، لهذا صاغ رداً تدخل به وقال: «إنه من مثل هذا الشقاق والخلاف —تبعاً لكلمة الرب— ينجم الخراب، لذلك دعونا بناء عليه أيها الكونت الأعظم نبالة، نصغي إلى هذا الرجل المتنفذ والمقدس، لأنه مقيم منذ وقت طويل في هذه البلاد، وقد تعلم من كثير من التجارب،وعرف قدراتهم وكذلك مكرهم وبراعتهم، وهل هو أمر غريب، إذا كنا نحن القادمين الجدد، ونحن شباب وغرباء، أن نكون جاهلين بمخاطر الشرق؟ ومثلما هي المسافة بين الشرق والغرب، مثل ذلك الخلافات القائمة بين شعب الغرب وبين هؤلاء الشرقيين»، ثم إنه التفت نحو مقدم الاسبتارية، وخاطبه بكلام فيه تهدئة وتلطيف، وقد سعى إلى إطفاء عنف مشاعره، ووقتها عارضه كونت أرتوي فجأة وقاطعه وهو يتكلم، وتفوه بصوت

مرتفع، وفقـاً للعادة الفرنسية، وتلفظ بأيمان غير معتـادة، وصدرت عنه التوبيخات التالية والشتائم المهينة على مسمع من الحشود: «ماهذا الجبن الموجـود هنا، لدى هذا الانكليـزي الرعـديد، ذي الـذيل الطويل، فكم سيكون هذا الجيش سعيـداً، وإلى أي مـدى سيكون نقيـاً، لو أنه تنظف من هؤلاء الذيول ومن هؤلاء الأشخـاص ذوي الذيول»، وشعـر وليم لونغوسبي بالخجل، ولأنه أثير وأغضب بكلماته العدوانية، فأجابه قائلاً: «ياكـونت روبرت، من المؤكـد أنني سـأزحف غير عـابىء بأي خطر أو خوف من الموت الوشيك، ويخيل لي أننا سنكون في هذا اليوم، حيث لن تتجـرأ على لمس ذيل حصـاني»، ثم وضعـوا خـوذهم على رؤوسهم، ونشروا أعلامهم، وتابعوا زحفهم ضد العدو، الذي غطى سهلاً شاسعاً مع الجبال والوديان في جميع الاتجاهات.

وكان الكونـت روبرت يرغب في أن يعزو كل شيء إلى نفسـه، إذا ما حـدث ونال الصليبيـون نصراً، وتأبى عن إخبار أخيـه الملك الفـرنسي، بالخطر المفترض، وجـرى إعلام السلطان بجميع هـذه المسائل بوسـاطة جواسيسـه النشطين، فاستلهم الشجاعة لأن يقـاتل بجيشه الكبير، الذي احتشد في وقت قصير وغير اعتيـادي، وخاطب رجـال حشوده كما يلي: «إعلمـوا إن هذا مـاانتظـرته طويلاً، ورغبت به، وتشـوقت إليـه، إن الصليبيين منقسمين على أنفسهم، فـالأخ غير متعـاون الآن مع أخيـه، لابل حتى هؤلاء الرجـال الذين يشكلون ثلثهم فقط، على خـلاف، فيما بينهم لقـد أعطيوا إلينا بمثـابة غنيمـة ننالها ونسلبها، فهم في هذا اليـوم بالذات قد تشـاجروا، وتقاذفـوا بالشتائم فيما بينهم، وإن الذي يفعلونه، ومـا هم مقبلـون على فعله، الملك الفـرنسي جـاهل بـه تماماً، وهو على مسـافة بعيـداً عنهم، ففي المقام الأول، علينا أن نسحق هؤلاء الرجـال، الذين هم قلـة، وهم بلاشك قـد هدهم الجوع، وأنهكهم القتـال، مع متاعب السفر، ويعانون من كدمات الحجارة وضرباتها وهي التي رميت

عليهم في المنصــورة، وسيكون ذلك في سبيل أن يكـون من السهل فيما بعــد محاربـة الآخــرين، الذيـن هم الآن مقطوعين عن جميع وســائل الحصول على المؤن»، وعندما سمع المسلمون الآخرون بهذه الخطة، تمت الموافقة عليهـا من قبل الجميع، ووقتها اندفع السلطان مـع حشوده التي لاتحصى، بشـدة ضـد الجيش الصليبي، وتـلا ذلك قتـال شـديد جـداً، وخـلال وقت قصير جـرى تطويق الصليبيين من قبل جمهـور المسلمين، وباتوا أشبه بجـزيرة في البحر، وأقحم المسلمون أيضـاً أنفسهم، ووقفوا بين الصليبيين وبين النهـر الذي عبروه، حتى لايتمكـن أي واحـد منهم من النجاة، ولدى رؤيته هذا، أسف كـونت أرتوي، أنه لم يأخذ بنصيحة الرجـال الأكبر سناً منـه، والأكثـر حكمـة، لكن الذي كــان قـد وضع خوذته على رأســه ما كـان من الممكن له الانسحاب من القتـال، ولدى رؤية روبرت الكونت وليم لـونغـوسبي، وقـد جـرى تطويقـه من جميع الجهات، من قبل كتلة كثيفة من الأعـداء، وأنه كان يتحمل لوحده ثقل المعركة كلها، صرخ الكونت روبرت مستحياً، ومن دون حكمة: «وليم، الرب يقـاتل ضـدنا، لايمكننا الاستمـرار بالمقاومـة، تدبر أمـر نجـاتك بوساطة الفرار، وانج حياً، مادام حصانك قادراً على حملك والنجاة بك، وإلاّ فإنك سوف تطلـب فعل ذلك، عندما تنعدم من لدنـك الوسائل»، وعلى هذا ردّ باختصـار، وبقدر مـاسمح له الصراع: «لاسمح الرب بأن يقوم ابن أبي بالفرار من أمـام أي مسلم، وإنني أوثر الموت بسعادة على أن أعيش من دون سعادة»، لكن روبرت كونت أرتوي، رأى نفسه وقد بات مطوقـاً من قبل أعدائـه، وليس لديه أية فرصـة مفتوحـة أمامـه أو قـدرة على الفرار، أدار رأس حصـانه، وشرع بالفـرار، وحيث أنه كـان ممتطياً لحصان سريع، شـق طريقه بكل سرعة نحو النهـر، وقصد إما نهر النيل، أو نهر تنيس الذي يتـدفق فيه، وعلى الفـور دخل به، وهو مسلح لابساً لدروعه كما كان، واثقاً من إمكانيـة السباحة وعبور النهر، لأنه قد عرف بأن حصــانه كان حصـاناً قوياً جـداً، لكن الحصان كـان غير قادر

على السباحة، لأنه كان مثقلاً بدروع حديدية، وبمعدات أخرى، ولذلك فإنه غرق، وغـرق هذا الرجل المتجبر بشكل تعيس، وهو هارب، لهذا لم يشفق عليـه أحـد من الناس، كان متـواضعـاً، أو باختيـاره، بل إن فعل ذلك، فعله مكرهاً، فهـو لم يحظ بـدمـوع أي انسـان، لأنه وإن كـان قـد انحـدر من دم ملكي نبيـل، لقـد ضرب مثـلاً سيئاً للآخــرين، ووفقـاً لكلمات الشاعر:

حسبما يشغل الانسان مكانة عالية أو منخفضة

مثل هذا ينظر إلى جريمته فتعد صغيرة أو كبيرة

أمـا وقـد غـرق الكونت، ألمّ اليأس بالفـرنسيين الذين كـانوا في تلك المعـركة، فتراجعـوا على شكل كتل متفـرقة، ووجـد وليم، الذي انقض المسلمون كلهم عليـه، أن القضية باتت قضية مـوت أو حياة، ومع ذلك صمـد بشجـاعـة أمـام حملاتهم، وأرسل بأرواح الكثير من أعـدائـه إلى الجحيم، مع أنه بعد مضي وقت طويل، أصبح حصـانه ضعيفاً، وقطعت قدماه، ومـع ذلك، تمكن وليم نفسه حتى وهو في ذلك الوضع من قطع رؤوس، وأيدي وأقدام بعض مهاجميه.

موت وليم لونغوسبي

وأخيراً بعــدمــا تلقى الكثير من الضربـات، والجراحــات، وأنهك بوسـاطة مــاتسـاقط عليـه من رمـايات الحجـارة المتــواصلة، بدأ وليم بالسقـوط، لنزيفه ولنقصـان دمـه، ولفظ أنفـاسه ليتسلم تاج الشهـادة، وهلك معـه روبرت دي فيري، الذي كان الحامل لـرايته، وكـان فارسـاً نبيـلاً، وهلك أيضـاً الكثير من الانكليـز الذيـن تبعـوا رايتـه، منذ بداية الحرب، وفي الليلة التي تقدمت على هـذه المعركة، ظهـرت رؤيا إلى أمه النبيلة، راعية دير لاكوك، وكـان اسمها هيلا Hela, فقد ظهر في هذه الرؤيا فـارس شـاكي السـلاح، لابسـاً لجميع دروعه، وقـد جـرى

استقبـالـه في السماوات التي انفتحت لتلقيـه، وبما أنها عـرفت ترس الفارس من خـلال الرنك المرسوم عليه، تقصت وهي مندهشـة لتعرف من كان الفـارس الذي صعد إلى السماء، وتم استقبـاله من قبل الملائكة، بمجـد عظيم، وبعـدمـا عـرفـت ترسـه، جـاء الجواب واضحـاً إليهـا، وبصـوت جلي: «إنه ابنك وليم»، وبناء عليـه، سجلت اسم الليلة التي ظهرت فيها الرؤيا، والتي أبيح لها معناها بشكل واضح فيما بعد.

ولكن دعونا نعـود إلى القضية الأساسية، حيث كـان روبرت، كونت أرتوي قد غرق، وقتل وليم لونغوسبي، وهنا صار المسلمون واثقين من النصر، فـالصليبيـون باتوا محاصرين ومن دون أمل، وقـد كـانوا طعمـة للسيف من دون شفقة، ونجا من جميع تلك الكتلة المجيدة من الفرسان المتميـزين، فقط اثنان من الداوية، وواحـد من الاسبتـارية، وشخص واحد من فئة أدنى، وكان قـد سبح عبر النهر وهو عريان، وجلب الخبر إلى الملك الفرنسي، وإلى بقيـة الجيش، وحدثهم حـول هذه الحادثة، التي مأسـوف من أجلها من قبل جميع الأجيـال، أمـا الآخرون الذين نجـوا، فكانوا منهكين إلى أبعد الحدود، ومصابين بالجراحة، وبالكاد يمكنهم أن يتنفسـوا، ولذلك كـانوا غير قـادرين على عبور النهـر، غير أنهم أخفـوا أنفسهم وسط نبـاتات الشعـراء التي كـانت قـائمة على ضفـاف النهـر، وانتظروا حتى حلـول ظلام الليل، لكن غضب الـرب، لابل بالحقيقـة حنق الرب، لم يسمح لواحد من ذوي المراتب العالية بالنجاة.

كيف شجع الملك الفرنسي أتباعه

وعندمـا وصلت أخبـار هذه الوقـائع إلى علم الملك الفـرنسي التقي، انفعل وشعـر بـالحزن في قـرارة قلبـه، ولم يتمكن من حبـس نفسـه عن التنهـد بألم وعن سفح الدمـوع بوفـرة، وهو يضرب يداً على يد، وعيناه شـاخصتان نحـو السماء، وقـال وشهقاتـه تعترض كلامـه: «بما أن ذلك يرضي الرب، هكذا وقعت الأمـور، تبارك اسم الرب»، ثم جمع النبـلاء

الفـرنسيين الذين كـانوا من حـوله وقـال لهم: «أصـدقـائي، وأتبـاعي المخلصين، وشركائي في مخاطري، ورفاقي الشجعان في السلاح، ماالذي ينبغي عمله في هـذه الأزمـة الحزينـة؟ إننا إذا مـا تحملنا هذه الأشيـاء وتراجعنا دون أن نعبأ بهم، سيعلو عـدونـا علينا، وكأنه قـد حصل على النصر علينا كلنا، وهـم سيتمجـدون ويفـرحـون بتراجعنا أكثـر من سرورهم بقتل رفـاقنا، ولسـوف يتشجعون بقـوة أعظم للهجـوم علينا، ولمطاردتنـا، بما أنهم أسرع منا، وهكذا سيتمكنـون فـوراً من تـدميرنا، وإزالتنا من على وجه الأرض، مما سيلحق الأذى والعار بالمسيحية كلها، وباتخاذ مثل هذا الإجـراء سـوف تـزداد الكنيسـة دمـاراً كليـاً، وتوصم فـرنسا بعـار لايمكن إزالتـه، ولذلك دعـونا نتوجـه بالدعـاء إلى الرب، الذي من الواضح أنه غاضب علينا بسبب ذنوبنا، ودعونا نقوم بالاجماع وبثقـة نهاجم أعـداءنا الذين تلطخـوا بـدمـاء إخـواننا، ودعـونا نطالب بغضب مـوائم بدمـاء أصدقـائنا، التي سفكت على أيدي أعـدائنا، فمن الذي بالحقيقـة بات بإمكانـه أن يتحمل أية مـدة أطول ويصبر على هذا الأذى العظيم الذي لحق بالمسيح»؟.

الزحف غير السعيد للملك إلى المعركة

وهكذا تشجع الجميع، وقـامـوا بنـاء على أوامـر الملك، وكأنهم رجل واحـد بحمل أسلحتهم، ولكن بما أن كـل رجل قـد أعـاد إلى ذاكـرته، موت بعض الأصـدقاء أو الأقرباء تأوه وبكى بـألم، وبدموع تدفقت من عينيه بغزارة، وهكذا تلاشوا ضعفاً بالحزن أكثر منه بسبب الجوع، وكان الذين امتلكوا القوة قـد أخذوا بالزحف، وقد سار أمـامهم حامل الراية الفـرنسية الحريرية الحمـراء، وساروا على آثار إخـوانهم الذين قتلوا، كما ذكـرنا من قبـل، وأرسلوا العجـزة والضعفـاء، والذين كـانوا من دون أيدي، وأيضاً بـلا امدادات، بقوارب، بوسـاطة طريق النهـر إلى دمياط، حتى يتمكنوا هناك من استرداد قوتهم في المأوى الذي تقدمه لهم المدينة.

وأخبر السلطان بهذه الواقعة، فأمر على الفور بجلب قوارب تحمل إلى هناك على العربات التي تجرها الثيران، من أجل أن يكون بإمكانهم بالتعاون مع السفن التي كانت لديه هناك، الحيلولة دون وصول الامدادات، ولكي يتمكن من امتلاك اسطولاً أكبر لإكمال تدمير الصليبيين التعساء، وواجهت هذه المراكب، المليئة بالمسلمين، الصليبيين وهم يبحرون نزولاً بالنهر، وأعقب ذلك معركة بحرية هي الأكثر دموية، فقد تساقط نشاب المتقاتلين، وتطاير كأنه زخات برد، وأخيراً بعد قتال طويل، تحول إلى قتال مرعب بوساطة النفوط، التي قذفت عليهم من قبل المسلمين، وبدأ الصليبيون يعانون من الانهاك ومن الجوع والحزن، ولذلك انتصر المسلمون عليهم بسرور، ونتيجة لوجود الاسطول الاسلامي الذي جاء من دمياط، وكذلك الاسطول الذي تمركز بالنهر، لمنع حمل الامدادات إلى تلك المدينة، ولمعارضة هؤلاء للصليبيين والتصدي لهم، وكانت جميع الممرات مغلقة في وجههم عندما رغبوا بالفرار، لذلك مامن واحد من الصليبيين نجا ليحمل أخبار الكارثة، إلى أصحابهم في دمياط، بل هلكوا جميعاً حيث أنهم إما أنهم غرقوا، أو أحرقوا، أو طعنوا بالأسلحة، أو واجهوا نوعاً آخر من الميتات التعيسة، وكان هناك واحد ممن جاءوا في الساقة، وكان على مسافة بعيدة عن كتلة الطليعة منهم، تمكن مع بعض الصعوبة من النجاة، وعاد دون المتابعة بسيره نحو دمياط، وقد طارده المسلمون، وفي أثناء فراره أصابوه بخمس جراحات كبيرة، وكان اسم هذا الرجل الاسكندر غيفارد Giffard, وكان انكليزياً من حيث المولد، وكان من أصل نبيل، وكانت أمه سيدة نبيلة، أقامت مع الملكة.

حول المذبحة التعيسة للفرنسيين

وعندما علم الفرنسيون بهذه الوقائع، تلاشوا ضعفاً أكثر فأكثر، مع الأسى الداخلي، ولم يستطع الملك مواساتهم، واستبد بعقولهم جميعاً،

وطغى عليها شعور باليأس الكبير، وفي المقابل كان السلطان الذي سمع بالكارثة التي حلت بالصليبيين، قد فرح وشعر بالسعادة، واستمد المزيد من الجرأة، وعندما سمع بالزحف الهجومي للملك الفرنسي مع جيشه دهش تجاه تهورهم، بعد تلك النوازل، وعجب كيف أن قلة من الرجال الجائعين قد تجرأوا على إثارة مثل ذلك الجيش الكبير، وتحريضه على القتال، ذلك أنه كان جيشاً تألف من جميع قوى الشرق، ولذلك دعا أعيانه للاجتماع معاً، وشجعهم بالكلمات التالية: «أيها المقدمون الأعظم نبلاً في الشرق، الذين تمكنوا الآن بشكل مشرف من الانتصار، وهزيمة قرابة نصف الجيش الفرنسي، والذين يتمتعون بأسلاب، وأسلحة، وخيول الذين قتلوا، تصدوا بجرأة لهذه الحثالة المقبلة، الذين هدّ أفرادها الجوع، والحزن، ومن السهل سحقهم، وعليكم أن تقتلوا بلا رحمة الذين يتصدون إليكم، حتى لايتمكن أي واحد منهم من الفرار، أو يتملص من أيديكم المنتصرة، لأنه ما هذا التهور الأحمق الذي حرضهم على مهاجمتنا، والسعي لحرماننا من ميراثنا، نحن الذين سكنا في هذه الأرض الجليلة منذ الطوفان؟ فهل هم يريدون منا أن نؤمن بمسيحهم على الرغم من إرادتنا؟ فمن الذي يمكنه أن يتحول عن دينه، أو يؤمن بشيء ضد إرادته؟ هناك محرض ما —هو ضعيف— قد دفع الصليبيين إلى اشتهاء السيطرة على مايسمونه مقدساً، لكن ما شأنهم ومصر، ولماذا يفعلون فيها مايفعلون؟ فهم غير أهل لأن يكونوا سادة على البلاد التي تشرب من نهر أرسل من الجنة، وتنال الثروة منه، إنهم رجال بلالحى، وحليقين، وليسوا أهلاً للقتال، وبلهاء، ومخنثين، لابل أكثر شبهاً بالخصيان، أو بالحري بالنساء، منهم بالرجال فكيف تجرأوا أن يفعلوا الذي فعلوه»؟، ولدى سماع هذه الكلمات التهب جميع المسلمون حماسة ورغبة بالقتال، وصاروا مثل نار مستعرة، وواجهوا رجال الصليبيين في القتال مع كثير من الثقة.

أسر الملك الفرنسي

وعند ذلك زحف اخـوانـنا الصليبيـون، وعندمـا اقتربوا من مكان المعركـة، التي هلك فيها اخـوانهم من الفرنسيين بشكل تعيس، وجدوا أجسـاد القتلى من دون رؤوس، وقد حـرمـوا من أيديهم وأرجلهم، كما كانوا كذلك مشوهين، لأن المسلمين تنافس واحدهم مع الآخر، في قطع أطراف ورؤوس أجسـاد القتلى، وذلك في سبيـل الحصـول على الجائـزة الموعـودة من السلطان، وتركـوا بقيـة الأجسـاد حتى تلتهـم من قبل الحيـوانات، والطيـور الجارحـة، وعندمـا رأى الفـرنسيـون هذا المشهـد شرعـوا بالندب والنحيب، ونتفـوا شعـورهم، ومـزقـوا ثيـابهم، وبللوا دروعهم وترستهم بدمـوعهم، وبذلك كان أسـاهـم يمكن أن يثير شفقة حتى أعدائهم، وفي الوقت نفسـه، ظهرت حشود العدو أنها باتت قـريبة جداً، وأعقب ذلك على الفور نشوب صراع محزن، لكن ماالذي كان من الممكن أن يفعله مثل ذلـك العـدد الصغير من الرجـال، الذين أنهكهم الحزن، والآلام، والجوع، والعـوز، وكـانوا يمتطون خيـولاً جـائعـة، ويؤثرونه ضـد مثل تلك الآلاف المؤلفـة؟، وانهزم الفـرنسيـون، ونزلت بهم الضربات، وقتلوا، وتنافس واحـدهم مـع الآخـر في الخضـوع إلى أعدائهم، وباختصار جرت هزيمـة الجيش الفرنسي وتمزيقه، وعدد قليل فقط من أعـداء الفـرنسيين قتلوا، وفي هذا القتـال المشـؤوم، قتل واحـد فقط من ذوي المراتب بين المسلمين كان معروفـاً وكان اسم هذا الرجل Melkadin ابن Rocus(?) وعلى الـرغم مـن سقـوط الكثيرين من الجانب المعادي، مثلما خسرنا، فإنه لم يظهر على جيشهم أي نقص، ذلك أننا خسرنا ألفي فـارس وثلاثمائـة فـارس، كلهم من أصل نبيل، وخمسـة عشر ألفـاً من الجنود، فهـؤلاء جميعاً قـد قتلوا، أو وقعـوا أسرى وصـاروا تحت إرادة أعـدائهم، ولكي يضـاف إلى أحـزان الفـرنسيين، وخزيهم الـدائم، ولاضطراب الكنيسة والمسيحيـة بأجمعهـا،

وقع الملك الفرنسي بالأسر، مع عدد صغير جداً كانوا قد دافعوا عنه، وهم شارل كونت بروفانس، وألفونسو كونت بواتو، ونبلاء آخرين ثبتوا إلى جانبه، ولم يرد قط في أي كتاب بأن ملك فرنسا قد وقع أسيراً، خاصة لدى المسلمين، أو لحقت به الهزيمة، إلاّ هذا الملك، وطالما أنه هو وحده قد بقي سالماً ومشرفاً، وإنه وإن سقط البقية، فإن المسيحية يمكنها أن تمتلك بعض الوسائل، في استرداد أنفاسها، وفي تجنب العار، ولهذا قام داود في المزامير، بالدعاء بالروح، بأن يتم حفظ الملك، لأن على بقائه يعتمد بقاء الجيش كله، وجاء هذا في قوله: «يارب، احفظ الملك»، أما بالنسبة للقوات التي قادها روبرت كونت أرتوي، أخو الملك، في حملته الطائشة، فقد هلك حوالي الألفي فارس، وسبعة آلاف ومائتين من الرجال المحاربين، وقد نجا من الداوية ثلاثة فرسان فقط، ومن الاسبتارية أربعة فقط، فقد مات الخامس من جراحاته، ولنزيفه ونقصان دمه، وكانت وفاته قبل أن يصل إلى عكا، ونجا من رهبان طائفة التيوتون ثلاثة فقط، وكانوا نصف أموات، وسقط هناك في هذا الصراع المميت، إلى جانب الداوية والآخرين، الرجال المشهورين التالين: «رالف دي كوسي Coucy, وكان فارساً مشهوراً ومتميزاً، وهوغ، كونت فلاندرز، وكان رجلاً صاحب قوة كبيرة، ومتميزاً، وهوغ برون Brun, كونت التخوم، الذي كان والده قد توفي قبل وقت قصير في دمياط، وأيضاً كونت أوف بونثيو Ponthieu, وكان حاجاً، ولكي نجمل ما حدث ببضع كلمات فإن جميع النبالة الفرنسية قد سقطت هناك وقتلت، ووقع بالأسر غوشير دي شاتيلون Gaucher de chatillon, وكان جريئاً، وفارساً لايقهر، ونقل بعد المعركة، وأرسل ليقدم هدية إلى الخليفة بين هدايا غنائم المعركة، وكان من عادة الخليفة عدم اطلاق سراح أي صليبي، أودع في سجنه، وكان وليم لونغوسبي، قد سقط أيضاً، وهو مغطى بالدماء، بعدما لطخ سيفه بدماء عدد كبير من أعدائه، وسقط معه روبرت دي

فيري، وعدد آخر من الفرسان المشهورين وأتباعه، وهذا الفارس، مع أنه أقنع بأن ينجو، وكان بإمكانه أن يفعل ذلك، رفض خشية أن يظهر أنه غير جدير بالتعايش مع الشهداء الآخرين.

حول ولاة دمياط والأسطول الذي ترك هناك

وكان قد ترك في دمياط مسؤولاً عنها: دوق بيرغندي، الذي تولى إمرة القوات والناس الذين تركوا في تلك المدينة، وأوليفر أوف تيرمس Termes, وكان مقاتلاً متميزاً، وقد تولى إمرة رماة القسي الزيارة، وخيول المناوشة، وكان هناك أيضاً في المدينة أودو، النائب البابوي مع أسقفي أميان Amiens وسواسون، وقساوسة آخرين وكهنة، وكذلك ملكة فرنسا، وسيدات أخريات كثيرات كن في خدمتها، أما بالنسبة لقيادة الأسطول أيضاً، الذي كان تعداد سفنه كبيراً جداً، ومثله في الفخامة، أو أحسن منه تزويداً، لم يشاهد مثله قط، فقد عيّن لقيادته بعض مشاهير الفرسان، وقد تمركز في المدينة، مع بعض الجنويين، والفلمنكيين، والبواتيين، والبروفانسيين، وكانوا جميعاً مخلصين للملك الفرنسي، وخاضعين له.

وينبغي أن نشير هنا، إلى أنه في اليوم نفسه الذي جرى فيه أسر الملك الفرنسي، كان الايرل رتشارد يحتفل مع البابا، ومثلما أسر سلطان مصر الملك الفرنسي، كان البابا يسعى لأن يأسر الايرل، بوساطة الاحتفال به، وليقدم له معروفاً واستجابة لرغباته.

كيف رفض الملك الفرنسي إعادة دمياط إلى المسلمين مع أنه كان أسيراً

وبعدما جرى أسر الملك الفرنسي، ووضع في سجن مضمون، وقام المسلمون، كما كانوا قد فعلوا من قبل في قضية الذين أسروهم وكانوا مع أخي الملك روبرت، فقطعوا الآن رؤوس وأطراف وأيدي وأرجل

القتلى، وذلك بمثابة علامة على الانتقام الأقصى، وذلك حسبما أمر السلطان، وكانوا أيضاً يأملون بالجائزة التي تقدم ذكرها أعلاه، إنما كان كلما ازدادت آلام هؤلاء الشهداء المقدسين، كانت بلاشك الجائزة التي سوف ينالونها أعظم، وقرر السلطان أخذ الملك الأسير إلى الأجزاء القصوى من الشرق، وذلك كعلامة على النصر، وموضوع هزء إلى جميع المسلمين، ولكي يحصل على شهرة لنفسه، من أجل أن يتعرض أسيره إلى اهانات جميع المسلمين، وفي سبيل أن يجري تقديم أكثر الملوك المسيحيين شهرة إلى الخليفة، تشريفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، على أساس أن أعظم المسيحيين نبلاً ومكانة قد سحق، فبذلك يمكن للمسلمين أن يشعروا بآمال سحق البقية.

لكن بما أنهم كانوا أشد رغبة بتملك دمياط، جرى تغيير الخطة، وذلك خشية أن يموت الملك حزناً وكمداً، لأنه رفض أكل أي شيء، أو الشرب لمدة يومين بعد أسره، وقد رغب بالموت، ولو أنه مات، لكان بإمكان المحاصرين، الوقوف والصمود دونما خطر، لمدة عام على الأقل، في وجه حملات جميع جيوش الشرق، بكل من البر والبحر، ولكان في الوقت نفسه من الممكن تحريرها بوساطة نجدة من الصليبيين، لأن دمياط كان مدافعاً عنها بشكل جيد بالأسوار والسواتر الدفاعية، والأبراج، وكان الأسطول في البحر أسطولاً لايقهر، ولذلك قدر الأناس الأكثر حكمة والأعلى مكانة بين المسلمين هذا الأمر، ورأوا دعوة الملك على الفور لتسليم دمياط،وأن يدفع بمثابة فدية لشخصه مبلغ مائة ألف باوند من الذهب، وعلى هذه المطالب رد الملك بملامح كئيبة، وبلهجة متوسلة: «الرب القدير يعلم بأنني قدمت إلى هنا من فرنسا ليس لنيل أراض أو مال لشخصي، بل لأربح للرب أرواحكم المحيق بها الخطر، وأنني لم أقم بهذه الرحلة الخطرة في سبيل منفعتي، بل من أجلكم، ووفاء لنذري، لأنني أمتلك كثيراً جداً من الأراضي،

المعتدلة والصحية، مع أنني مذنب ولست جديراً بها، غير أنني مشفق على أرواحكم، التي سوف تهلك بدون شك، كونوا راضين بالدمار الذي لحقني، لأن المسيح غاضب عليّ، ولذلك عانيت بطرق مختلفة، أنا من الممكن أن أقتل، ومن الممكن استخراج المال مني، إلى حد إفقاري تماماً، لكنني لن أسلم دمياط إليكم، التي حصلت عليها بوساطة معجزة لاهوتية».

كيف حاول المسلمون الاستيلاء على دمياط بالخداع

بينما كان المسلمون يتداولون حول هذه القضايا، قال واحد من الأكثر دهاء بينهم: «لماذا أنتم مترددون؟ إنه سواء أرضي هذا الأمير الأسير الضعيف، أم لم يرض، سوف نحصل على دمياط وعلى المال المطلوب»، وبموجب هذه النصيحة، قامت كتلة قوية من المسلمين مساوية في العدد لتعداد الجيش الصليبي، أو ربما كانت أكبر، وقام أفراد هذه الكتلة بلبس دروع الصليبيين بشكل خياني، وحملوا أيضاً ترسة وأعلام الصليبيين الذين قتلوا، وانطلقوا على الفور وهم مموهين على هذا الشكل نحو دمياط، من أجل أنهم، وقد حملوا مظهر الفرنسيين، يمكنهم الحصول على سماح بالدخول إلى المدينة، فما أن يسمح لهم بذلك، حتى سيقتلون كل الذين سيجدونهم هناك فيها، لكنهم عندما وصلوا إلى المدينة، نظر الحرس الصليبي من وراء شرافات المدينة والأبراج نحوهم، واعتقدوا في البداية أنهم صليبيين مسرورين يحملون الأسلاب والغنائم، لكن مع ازدياد اقترابهم، ظهروا أكثر أنهم لايشبهون الفرنسيين، لأنهم ساروا مسرعين وعلى شكل حشود غير منتظمة، وحملوا ترستهم بشكل فوضوي، وفق عادات المسلمين أكثر منه وفق عادات الفرنسيين، وعندما وصلوا إلى الحد الأقصى من التحصينات، واقتربوا من أبواب المدينة، تبرهن بشكل واضح أنهم مسلمين من خلال وجوههم السوداء الملتحية، وكانت مهمة جداً مسألة لحاهم، وطلبوا

على الفـــور بشك جليـل السماح لهم بالدخـــول إلى المدينـة، لأن جميع الممرات إلى القلاع والمدينة، كانت محروسة بتيقظ وحذر.

حول حزن الصليبيين لدى معرفتهم بالمذبحة التي تقدم ذكرها أعلاه

عندمـا شاهد رجـال حاميـة المدينة المسلمين، وقـد تجهزوا بأسـلاب الصليبيين، ومن ثم أخبروا بتـدمير الجيش الصليبي، مـلأوا المدينة كلهـا بنحيبهم، ورفضوا —على كل حال— السماح إلى أعـدائهم بالدخول إلى القــلاع وإلى المدينة، وأعلنوا بجـرأة، أنـه وإن كــان الجيش الصليبي، وكـذلـك ملكه، قـد هلكوا، فإنهم ســوف يتحملون بثبــات الحصـار، وسيصمدون أمام حملات جميع المسلمين في الشرق، لوقت طويل، لأنهم يأملون بشكل أكيد باستلام المسـاعدة، إنما عندما رأى الأشخاص الذين كانوا يتولون المراقبة من أعلى الأبراج، بأنه كان هناك جيشاً كبيراً، واسع الانتشار، وقد تكون من هؤلاء القادمين الجدد، ولأنهم عرفوا أن قواتهم كـانت تماماً غير قـادرة على الوقـوف أمام قـوات الأعـداء، قرروا عـدم الاقلاع بحمـلات للهجوم عليهم، خـاصة وأن قـواهم أخذت تحبطهم بسبب الحزن والعــوز، هذا ومـن الذي كــان بإمكانـه أن يروي بشكل كـامل حــزنهم القلبي وأسـاهم، عندمـا شـاهـدوا أعـداء المسيح وهـم مظهـرين لتفــاخـرهم واستخفـافهم، وهـم مـــرتدين لدروع، ويحملون أعلاماً، ورنوكاً يعرفون أشكالهم بوضوح؟.

كيف تنازل الملك الفرنسي عن دمياط إلى المسلمين ثمناً لحريته

وعندما أخفقت هكذا خطط المسلمين عادوا، وشرعوا منذ ذلك الحين بالتعـامل بلطف مع الملـك الفـرنسي، وبناء على ذلك سمحـوا بخـدمتـه بالطعـام وبالشراب، وأن يتولى ذلك رعـاياه الذين وقعوا في الأسر معـه، لأنه كان خائفاً من أن يجري تسميمه، وفقاً لعادات المسلمين، وقد احتفظ

به سجيناً بينهم لمدة شهر وأكثر، وطولب خلال تلك المدة، مع تهديدات مرعبة، بالتخلي عن دمياط، وبما أنه رفض أن يفعل ذلك، وفق أي شرط من الشروط، طالبوه بوجوب دفع مبلغ المال الذي تقدم ذكره من دون نقص، أو أنه سوف يتعرض لميتة شنيعة، بوساطة عذاب طويل، أو أنه سوف يرسل إلى الخليفة، مما سيسبب العار للإيمان المسيحي، حيث لن يسمح له بالعودة، ولن يكون هناك أمل بالفدية.

وبناء عليه، قدّر، وهو في هذه الضائقة، أنه لن يتمكن من النجاة من بين أيديهم، وأنه لن يستطيع بأية وسيلة من الوسائل الاحتفاظ بدمياط، أو الحيلولة دون سقوطها للعدو الذي سيحاصرها (فمن الذي كان يمكنه وقتها أن يحرره، أو ينقذ تلك البلاد بالقوة؟)، ورغبة منه في أن يحسن أوضاعه بطريقة ما، أجابهم الملك قائلاً: «نحن في الغرب ليس لدينا الوفرة الكبيرة من الذهب مثلما لدى شعبكم في الشرق، كما أننا لانستخدم الباوند في حساباتنا، ولذلك نبدل الذهب إلى فضة، والباوندات إلى ماركات، ودعوني أذهب تحت الضمان والارشاد من قبلكم إلى عكا، لأتدبر إعادة الأسرى من على الطرفين، وخلوا أيضاً الذين يسكنون في دمياط يذهبون تحت ضمانتكم، إلى مكان آمن، غير متعرضين للأذى بأشخاصهم، ومحتفظين بأسلحتهم، فوقتها سوف أقول بقلب جريح بعمق:

إنني سأتخلى لكم عن دمياط، إذا ما تمكنت من اقناع المحاصرين في المدينة بالموافقة على هذه الشروط»، وبما أن هذه العروض، مضاف إليها هدنة عشر سنوات، قد أرضت السلطان، أرسل الملك أربعة من فرسانه، مصحوبين ببعض الأعيان المسلمين، مع رسائل، واعتمادات سرية إلى النائب البابوي، والدوق، وإلى الآخرين الذين كانوا مسؤولين عن المدينة ومتولين لحكمها، وأعطاهم شارة، وأقنعهم بإعادة دمياط إلى المسلمين، وفق الشروط التي تقدم ذكرها أعلاه.

وعندما عبر رسل الملك المعسكر بصحبة المسلمين الذين تقدم ذكرهم، ووصلوا إلى أبواب المدينة، سلموا الرسالة التي كان معهوداً بها إليهم، ولدى تسلمها حزن النبلاء الصليبيون أكثر مما يمكن التعبير عنه، ومكثوا وقتاً طويلاً وهم في حيرة حول الذي عليهم فعله بالنسبة للقضية، لأنهم خافوا خوفاً عظيماً من مكر العدو، وخشيوا أنهم بعد تسليمهم دمياط، أن يجدوا الملك وقد تسمم، وكذلك جميع الذين كانوا معه، وأنهم سوف يعيشون لوقت قصير جداً فقط، لأنهم كانوا على دراية جيدة بهذا النوع من الخيانة الاسلامية، ولكنهم عندما علموا من رسل الملك، بأنه كان لايتسلم الطعام أو الشراب من أيدي أي من المسلمين، اقتنعوا بوساطة تدخلات النائب البابوي والملكة، وأصدقاء الملك الآخرين، الذين كانت تهمهم حياته، بأن يتجاوبوا مع الشروط، وبعدما تسلموا ضمانات حول سلامة الملك، وكذلك سلامتهم، وسلامة البحارة، وكذلك أماناً حتى الوصول إلى عكا، تخلى ولاة المدينة (وأنا آسف أن أكتب ذلك) عن مفاتيحها، ولم يكن ذلك على كل حال من دون تأوهات حزن عميقة، وعندما سمع الناس بهذا، قاموا بهياج حزنهم، وغضبهم، وعلى عكس الشروط التي تمت الموافقة عليها من الجانبين، فدمروا جميع المؤن، التي كانت متروكة هناك، وهي المؤن التي كانت عائدة إلى الملك أو إلى الآخرين، وكسروا براميل الزيت، والخمرة، ورموا بالقمح والشعير، واللحوم المملحة، أو أحرقوها، لأن الحزن كان قد استبد بهم وقهرهم لدى التفكير بأن أعداء الإيمان سوف يسمنون اعتماداً على مخزوناتهم، التي حفظوها خلال تلك المدة الطويلة من حالة الجوع، ورأوا أنه كان من الأفضل أن لاتؤخذ مطلقاً.

كيف جرى إعدام الصليبيين في دمياط

ثم أطلق السلطان سراح الملك، وأرسله بأمان إلى عكا، وتملك مدينة دمياط، لكن لدى دخوله إليها، وجدها مجردة تماماً من جميع أنواع المؤن،

وأن الأوعيــة التي تحفظ هذه المؤن قــد حطمت إلى قطع، لذلك أمــر بأفراد الطبقات الدنيا من الصليبيين الذين وجدهم هناك [لأن أصحاب المراتب العليا كانوا قد نجوا] فأعدموا، وحزن لأنه سمح لأعيان الناس —الذين وافقـوا على الشروط— بالمغـادرة بسلام، كما أنه أمـر بإحـراق أسطول الصليبيين الذي وجده هنـاك، وعلاوة على ذلك، فإن الصليبيين الذين كـانوا قد غادروا المدينـة على شكل حشود، قد جـرى اعتراضهـم من قبل كمائن المسلمين، الذين هاجموهم مـن الجبال ومن الوديان، وقـد جـرى تمزيقهم إلى أشــلاء من قبلهم، ولحسن الحظ كــان الأسرى قـد أعيدوا قبل هذه الواقعة.

كيف تحدى الملك الفرنسي السلطان

عندما وصلت أخبـار هذا الإجراء إلى مسـامع الملك الفرنسي، الذي كــان مقيماً في عكـا، تحت حماية الداويـة والاسبتــاريـة مع الصليبيين الآخـرين، أرسل رسالة إلى السلطان، بأنه غـادر، وعدواني، لأنه خـرق من دون حيـاء الهدنة التي عقداها، وأنه حصل على المال، الذي تسلمـه منه —الملك الفرنسي— بالخداع، وعلى هذا رد عليه السلطان قائلاً، بأن الفـرنسيين هم الذين أسهمـوا في اعطـاء فـرصـة الانتقـام هذه، وأثاروا عدوانيـة المسلمين، وأن شطراً منهم قد تبرهن بأنهم قـد تورطوا في هذه الآثام العدوانية، لذلك عانوا بعدل من العقوبات التي تقدم ذكرها.

المسلمون يثورون ضد السلطان

عندمـــا سمع شعب الشرق مـع المصريين بأن السلطان قـــد رشي، وبذلك سمح لمثل ذلك الملك القـوي ولإخـوانه بالمغادرة وهـم أحـرار، غضبوا غضباً شديداً، وثاروا بالسـلاح ضده، ولم يستطع أن يسوغ نفسه إليهم بـالسبب الذي أعطاهـم إياه، من أنـه رغب في استرداد دميـــاط لصـــالـح المسلمين كلهم، وفي سبيل أن لايكون الميناء الموجـــود هناك،

ووسائل الدخـول إلى البلاد، مفتوحة لبقيـة الصليبيين، ولذلك إما أنهم أرغمـوه على الفـرار، أو قتلوه، وقـد ازدادت ثورة الشعب المسلم ضـد السلطان، من أنه لم يعط أحداً شيئاً من المال الذي حصل عليه، قبل أسر الملك، وبعــد أسره، ولم يدفع لهم الأعطيــات المتفق عليهــا مع أنهم أوصلوا الحرب إلى نهايتهـا، وتولوا إعدام الفـرنسيين المغلوبين، بناء على أوامره.

ونشب بين ذوي المراتب العليـا من النـاس الشرقيين، الذين كـانوا هناك، صراع مميت وخـلاف شـديد، حـول من الذي من بينهم سـوف يتمتع بمجـد الاستحـواذ على مثل تلك الغنائم الكبيرة، هـذا وعندمـا علموا باطلاق سراح الملك، صبوا جام غضبهم على السلطان.

وهلك في مدينة دميـاط أوليفر دي تيرمي Termes مع جميع أتبـاعــه، الذين ندعــوهم الـ Ruptarii (المناوشين بالخيـــــول)، وهلك أيضــاً عـدد كبير آخــر، تعـدادهم كبير جــداً حتى نتمكن من ذكـرهم، لكنهم —كما هو معـروف بشكل جيـد— قـد دونت أسماءهم اسماً اسماً في كتــاب الحيــاة، ومـن الواضح أن السبب في هـذه الكارثة الكبيرة كان تجبر كونت آوف أرتوي، الذي رفـض مع الشتائم الإصغاء إلى تواضع المسلمين، عندمـا تقــدمـوا —في سبيل السـلام— بكثير من العـروض، سلف ذكرهـا، وبعد ذلك، ومن أجل أن ينسـب المجد إليـه كله، أخذ معه ثلث الجيش، وترك بشكل سري بقية جيش الملك، ولكي نكون على اطلاع كـامل حـول خصـوصيـات المسـائل المتقـدم ذكـرها، أقحمنا في هذا العمل، الرسالة التالية، التي أرسلت إلى الايرل رتشارد.

الرسالة التي أرسلت إلى الإيرل رتشارد

«إلى صاحب السمـو رتشارد، ايرل أوف كورنويل، مستشـاره جون، إلخ، إلخ:

بما أنه في بعض الأحيان تقلق عقول الكبار، وتتعذب نتيجة لعرض مختلف الاشاعات، حتى تبات الحقيقة معروفة، رأيت من المناسب أن أوصل إليكم بعض الأخبار المحزنة والمبكية المتعلقة بالجيش الفرنسي، بشكل محدد وصادق، وهي تقارير لم تنشر بعد، وقد علمت بخصوصيات ذلك برواية شفوية، وليس من خلال رسالة مكتوبة، وهي تقارير معتمدة وصادقة سمعتها من كاهن سالف لي، كان قد أرسل إلى ملكة فرنسا، وذكرت هذه التقارير، أنه بعد عيد طهارة مريم العذراء المباركة، أخذ الملك الطريق نحو القاهرة، وقد بقي دوق بيرغندي في دمياط، وكذلك زوجات النبلاء، وكثير من السيدات يتولين خدمة الملكة، لكن عندما حاول الملك عبور النيل، جرى اعتراضه بقوة من الطرف الآخر للنهر من قبل سلطان مصر ومعه أعداد كبيرة من المسلمين، ولذلك نصب معسكره على هذا الجانب من النهر، وجمع قوارب، من أجل أنه إذا ماربطهم مع بعضهم، يمكنه عبور النهر مع جيشه بهذه الواسطة، التي تكون بمثابة جسر، وفي اليوم الأول للامتناع عن أكل اللحوم، كان السلطان غائباً، مع أنه ترك حشداً كبيراً في معسكره قرب النهر، وتطبيقاً لخطة واحد من المتحولين المسلمين، كان كونت أرتوي ومقدم الداوية وجميع اخوانه الذين كانوا هناك، قد تلقوا تعليمات خالصة بعبور النهر، وكان هذا المتحول بين جماعة كونت أرتوي، لابل كان في الحقيقة خادمه، وكان برفقة هذين المقدمين وليم لونغوسبي وأتباعه، مع عدد كبير آخر، يصل تعدادهم إلى حوالي ثلث الجيش كله، فهؤلاء جميعاً عبروا النيل، وانقضوا بشكل مفاجىء على المسلمين، واشتبكوا بجرأة معهم في القتال، وتبع ذلك صراع عنيف، وبعد طويل وقت، وبعد مقتل عدد كبير، في الحقيقة مقتل جميع المسلمين الذين وجدوهم في السهل، وكذلك في معسكرهم، وبعدما كانت هناك مذبحة ألمت بكلا الجنسين، حصل الصليبيون على نصر مجيد، لكن الكونت وأتباعه لم يكونوا قانعين بهذا، ذلك أن الكونت رغب بعناد

بالمتابعة متوغلاً، ليهاجم قـرية اسمها المنصورة، وكانت على مقربة منهم، مع أن الداوية عـارضوا ذلك، وسعـوا لإقناعه بالاقـلاع عن فعل ذلك، عـازين الأسبـاب إلى المصـاعب التي عملوا في ظلهـا، والناجمة عن تعب أجسـادهم وجـراحاتها، ومثل ذلـك خيولهم، مع أسبـاب أخـرى، لكن الكونت المذكـور وأتباعـه ما كـان ليعود بأي حـال من الأحوال، وبعـد تبـادل اللوم بين أحـدهم والآخـر، تابعـوا زحفهم إلى القـرية المذكـورة، وهاجموا الأعــداء بجـرأة، ولدى رؤية هذا، هـرب جميع المسلمين الذين سكنوا في تلك القـرية وفي الأمـاكن المجـاورة، مع أصـوات بكاء وانذار مرتفعـة، وبذلك علـم السلطان الذي لم يكن وقتها بعيـداً كما هو معتقد، وسمع في اليوم نفسه الصراخ، وعلم بحقـائق القضية، ودخل الصليبيون —على كل حال— دون حـذر إلى القرية، فقطعـوا عن طريق تراجعهم، وقهــروا بوسـاطـة الأحجـار التي انهالـت عليهم، والتي رمــاها بعض السكان، الذيـن بقيـوا متخفين فـوق الشرافـات، وتمزق أفــراد الجيش وتفرقوا، وبصعـوبة بالغة نجوا من ذلك المكان، بعدمـا تناقص تعدادهم كثيراً، ولذلك بدأوا على الفور ييأسـون، ثم قدم السلطان مع حشد كبير جداً، واشتبك بصراع دموي معهم، وأخيراً —بعـدما سمح الرب— تمّ قتل جميع الصليبيين، باستثناء شخص واحـد، من مـرتبـة متدنيـة، أخـذ طريقــه عـائــداً بصعـوبـة كبيرة، وحـزن الملك كثيراً لدى سماعــه بهذا (ولاعجب في ذلك)، واستعــد بكل حماسـة في عقله، وبكـل سرعـة في مقـدوره، ليتمكن شخصياً من عبـور النهر، بـوساطة القـوارب المتقدمـة الذكر، وبوساطة مراكب أخـرى، قائلاً لأتباعه: «إنه من الضروري الآن أن تعرض فرنسـا كل شجاعتها، وأن تبذل قـوتها كلها»، لكن في الوقت نفسه كـان كثير من الصليبيين قد سقطوا من الجوع والعطش، وحيث أن خيولهم كانت مرهقة وجـائعة، بدأت تزداد ضعفاً، والذي كان أسوأ من هذا كله، ومحزناً، هو استعـادة ذكـرى الذين قتلوا، فهـذا أصـاب قلوب الجميع وجعلهم يشعرون بالمرارة في أرواحهم.

وفي الوقت نفسه أيضاً، تبع العائق العائق، لأن السلطان المذكور، الذي كان كثير من المسلمين قد هجروه، صدوراً عن كراهيتهم له، بالعقل والجسد، بسبب تجبره وخداعه، قد مات في هذا الوقت، وقام المسلمون على الفور بتعيين واحد آخر، هو ابنه، وقد توحدوا جميعاً معه، وأدوا يمين الولاء له على أساس أنه مولاهم، وهكذا أصبحوا كلهم بالفعل جسداً واحداً، وأخذوا يشعرون بالثقة، وصاروا متوحدين بقوة أعظم مما كانوا عليه من قبل، في سبيل تدمير الصليبيين، لأنهم رأوا أن الدمار الشامل محيق بهم، وعرف السلطان المعيّن حديثاً عن طريق نصائح الشيوخ والشطر الحكيم من أتباعه، بعد عمل مشابر، بإجراءات الصليبيين وخططهم.

وأرسل الملك في الوقت نفسه، كثيراً من أفراد الجيش الفرنسي، الذين هدهم المرض والجوع، في أسطول، عن طريق النيل، عائدين إلى دمياط، في سبيل أن يستردوا قوتهم في مكان آمن، وكان السلطان قد أخبر سلفاً بهذا، فتدبر جلب عدد أكبر من المراكب، مشحونة برجال مسلحين، وجلبت هذه المراكب في عربات تجرها الثيران، وكانت مهمة هذه المراكب اعتراض أسطول الملك، ونشبت معركة بحرية حادة جداً فوق النهر، فيها تمّ تبادل الرمايات من على الجانبين، حيث تطايرت مثل زخات البرد، وقد تمكن المسلمون بقذفهم النفوط على الصليبيين، من إحراق كثير من مراكبهم، وقتلوا الناس الذين كانوا فيهم، وحصلوا على النصر، وغرق الصليبيون، أو قتلوا، أو أحرقوا، وهكذا تمكن الرب في غضبه من تدميرهم جميعاً بالسيف مثلما دمرهم بالجوع، ونجا واحد منهم فقط، وكان انكليزياً من حيث المولد، ليعلن خبر الكارثة المبكية إلى الملك، الذي غلبه الحزن والأسى، فكان مثل أيوب آخر.

وبعد هذا، في ثمانية الفصح التالي، قام الملك مع جيشه بعبور النهر الذي يتدفق من النيل، وهو يعرف باسم آخر، هو نهر تنيس، وقد قوبل

من قبل السلطان مع حشد لايحصى من المسلمين، وأعقب ذلك معركة، انتهت بنتيجة مأساوية محزنة، ذلك أن الجيش الصليبي الذي ضعف من الآلام ومن الحزن، انهزم، ونزل سوء حظ لايمكن جبره بشعب المسيح، ووقع الملك مع أخـويه الحيين بالأسر، ومثل ذلك كـان حـال البقيـة، الذين لم يقتلوا، وهكذا بحكـم خفي وبقضـاء من الرب، تحولت قيثـارة المسيحيين من الغناء إلى الحزن، وعـوضـاً عن صـوتها الجميل السـالف، أخـذت تقـرع أصوات ندب مبكيـة، وبعـدمـا بات الملك مع الآخـرين أسرى، تحدث السلطان معــه ومعهم حـول الســلام، إنما أثناء البحث حول هذه القضيـة —لأنهم لم يستطيعوا الاتفاق، لأن الملك كـان حزيناً يائسـاً إلى حد الموت تقـريباً— أرسل السلطان بشكل خيـاني كتلة كبيرة من رجــاله، يحملون الراية الفــرنسيـة الحريـرية الحمـراء مع الأعــلام الفرنسية الأخـرى، من أجل مفاجئة الصليبيين الذين كانوا يجهلون هذه الحادثة، بغية التمكن من السيطرة على المدينة.

وكـان الصليبيون —على كل حـال— قـد أنذروا سلفاً وحـذروا من هذه الخديعة، وتنبهوا من خلال الزحف غير النظامي للقوات، فأغلقت الأبواب، وجـرى عقــد مــؤتمر، رفض خـلالـه الدوق مع الآخــرين مطالبهم، وأعلنوا أنهم ليسـوا خائفين، وأن بإمكانهم الدفـاع عن المدينة لمدة عـامين أو أكثـر، ففي خــلال تلك المدة، وقبل أن تنتهي، لابد وأن الرب سيزودهم بالمسـاعدة وبالرأي الصحيح، وأنهم لن يتزحـزحوا عن مـوقفهـم من أجل المحـافظة على حيــاة الملك، وبناء عليــه عـادوا إلى السلطان مخفقين فيما نووه.

وعلى كل حال، عمل الملك هدنة عن نفسه وعن ورثته، وربط نفسه، بوساطة رهائن، بأن يدفع مائة ألف مـارك من الفضة مع فقدان دمياط، ولان مـوقف ولاة تلك المدينة بوسـاطة الملكة وبعض أصـدقـاء الملك، الذين رغبوا في إنقاذ حياته، وأعيدت دمياط (أنا أكتب ذلك خجلاً) إلى

أعـداء المسيح، مما ألحق الإهانـة بالكنيسـة المسكونيـة، وهلك في هذه المعركـة السيئة الحظ، جميع نبلاء فـرنسا تقـريباً، ومـات جون أوف درو Dreux في قبرص، وكان فخار فرنسـا، كنذير سوء حول مستقبل شرير».

سخط الفرنسيين لدى سماعهم بمقتل أبناء بلدهم

عندمـا جلبت أخبـار هذه الحوادث المفجعـة إلى علم السيـدة بلانشي ونبلاء فرنسا، بوساطة بعض الناس الذين عادوا من البلدان الشرقية، لم يكن بإمكانهم تصديقها، ولم يرغبوا بذلك، وأمروا بحملتها بأن يشنقوا، ولقد كان هؤلاء، كما نعتقد، شهداء ظاهرين، وبعد لأي، عندما سمعوا بالحقـائق نفسهـا من تقـارير متواليـة حملهـا أناس لايمكن التجـرؤ على تسميتهم رواة حكايات، وعندمـا شاهدوا رسائل تحتـوي على الروايات نفسها، مع وثائق موثوقة لايمكن أن تخطىء، سـاد فرنسا كلها النحيب، والشعور بالإهانة، وتـلاشى لاهوتيون وكذلك فـرسان حـزناً، ورفضوا تلقي المواساة، وكـان الآباء والأمهات في جميع الاتجاهات ينـدبون موت أولادهم، وبكي التـلاميـذ واليتـامـى مـوت الآباء، والأقـربـاء مـوت الأقرباء، والأصدقاء موت الأصدقاء.

وتغير جمال المرأة، ورمي جـانبـاً بأكـاليل الورود، وألغيت الأغـاني، ومنعت الأدوات الموسيقيـة، وجرى تغيير كل نوع من أنواع البهجـة إلى نحيب وبكاء، والذي كـان أسوأ هو أنهم اتهمـوا رب العـدل، وجدفـوا بمرارة قلوبهم، ولعنف حزنهم، وتفوهوا بكلمات الكفر، التي بدت ولها مـذاق الردة أو الهرطقـة، وبدأ إيمان الكثيريـن يترنح، وكـان من الممكن لمدينة البندقيـة الفخمة، وعـدد كبير آخر من المدن، التي كـانت مقطونة بأناس نصف مسيحيين، أن تقع بالردة، لولا أنها جـرى تثبيتها بمـواساة أسـاقفتها المقـدسين، ورهبانها، الذين أكـدوا بكل ثقة، بأن القتلى كـانوا الآن يحكمون بمثـابة شهداء في السماء، وهم لايرغبـون الآن بالعيش في

وادي ظلام العـالم، مـن أجل جميع الذهب الموجـود في الـدنيـا، وهكذا أمكن بعـد بعض المصـاعب، تهدئـة غضـب بعضهم، لكن ليس غضب الجميع.

كيف حمل ملك قشتالة الصليب

عندمـا سمع ملك قشتـالـة العظيم الانتصـارات، والذي ربح حتى الآن أكثـــر مـن ثلاثـة عشر نصراً على المسلمين، سمع بهذه الحوادث، أشفق على الفرنسيين لما عـانوه، وحمل شخصياً الصليب، معتقـداً أن من الأفضل اخضاع الأرض المقـدسة للمسيح، وأجـدر من اخضاع أي بلد آخر.

الشكاوى التي عملت بسبب استخراج المال

مثل هذه كـانت الثمار التي أنتجت بوسـاطـة السلب والنهب، الذي مارسه النبلاء، بناء على اذن من الكنيسـة الرومانية، أو بالحقيقة بناء على تعليم منهـا، مـارسـوه على جميع الفقـراء المتـألمين، في سبيل أن يمـلأوا أكيـاسهم، عندمـا ينطلقـون للحج وليقـاتلوا في سبيـل الرب، ومن الحوادث المتقـدمـة الوقـوع، مـن الواضح وضـوح الضـوء، كيف أنه لايرضي الرب الربح الذي يأتي من ظلم الفقراء وافقارهم.

مثل واضح حول استخراج المال مورس في فرنسا

مع أن ممارسـة استخـراج المال، التـي جـرت في جميع أرجـاء المملكة الفـرنسية، لم يجر ذكـرها، وينبغي أن تبقى في صمت أبدي، رأينا أنه من الموائم، إقحام مثل في هذا الكتاب، حيث من المعلوم أن الملك الفرنسي، قـد استخـرج —بناء على اذن مـن الكنيسـة الرومـانيـة— العشر من الكنائس في جميع أرجاء مملكة فـرنسا، لمدة ثلاث سنوات، على شرط أن يقوم البـابا باستخراج الكمية نفسها من الجهـة نفسها، حتى يتمكن من متـابعة الحرب بنشـاط أكبر ضد فـردريك، لكن بعد الجبـاية لمدة ثلاث

أعوام، عندما رغب البابا في أن يجمع الثمار لنفسه، جرى اخبار الملك الفرنسي بذلك فرفض بشكل مكشوف السماح بذلك، ومارس خداعاً خاصاً به، ليهزم هؤلاء الجباة الشرهين، معطياً سبباً لذلك، بأنه لايمكنه بأي حال من الأحوال، السماح بأن تتعرض كنائس مملكته للإفقار، من أجل شن الحرب على مسيحيين، لكن في سبيل قتال الكفار، هو يمكنه أن يتحمل ذلك بمـــزيد من رباطة الجأش، لكن حتى آنذاك، يؤثر أن يكون ذلك بوساطة العلمانيين وليس رجال الدين، وبالاضافة إلى ذلك، إذا تركت الكنائس فريسة لمدة ثلاث سنوات مقبلة سوف تكون عرضة إلى دمار لايمكن جبره، وهذا أمر لن يزعج البابا حوله، وهو على هذا قام —حسبما ذكرنا أعلاه— باستخراج المال المذكور، بوساطة وكلاء البابا، حتى يكون التحصيل أكثر فاعلية، وأيضاً حتى يتمكن كذلك من معرفة كم ستكون حصة البابا، عندما ستجمع، وبهذا الإجراء، شعرت قلوب الكثيرين بحزن عميق، وفي وسط لعناتهم صلوا، بأن ينزل حكم النبي اشعيا، أو بالحري حكم الرب، بالذي لم ينظر نظرة مقت إلى جميع السرقات المرتبطة بالتقديمات إليه.

فهل من الممكن أن يقـوم ملك انكلترا مع أخيـه الايرل رتشـارد، والأمراء الصليبيين الآخرين الذين هم عازمين على نيل الربح القذر، أن يزنوا هذه الأشياء بميزان العقل، لأنه مع أن عمل الحج المقدس، هو عمل تقوي بحد ذاته، مع ذلك إن التزود من أجل الرحلة، عندما يتم الحصول عليه بوسائل قذرة، يدنس ممارسة العمل التقوي، وهذا —كما هو معتقد— كان سبب العار المتقدم ذكره أعلاه والدمار، مع أنه لعل هناك أسباباً أخرى، ربما هي غير مطلوبة، وبشأن الاستخراج الذي مورس في مملكة فرنسا، رأينا أنه من المناسب ذكر قضية واحدة، على أساس أنها حادثة مهينة جداً، فقد صدف أن قابل وكيل البابا المذكور كاهناً صغير المرتبة لإحدى القرى، وهو يحمل ماء في وعاء صغير، مع

مرشة وبعض قطع من الخبز أعطيت له مقابل رشه بعض الماء المقدس، وإليه توجه الروماني المخادع بمخاطبته هكذا: «كم هي المرابح التي تحصل عليها من هذه الكنيسة سنوياً»؟ وعلى هذا السؤال رد الكاهن الجاهل بالدهاء الروماني: «حوالي العشرين شلن، كما أظن»، ووقتها أعلن الروماني عن نفسه، وقال له: «من هذا المبلغ، يترتب على هذا من أجل منفعة المورد أربعة وعشرين بنساً، أي شلنين»، فدمر على الفور ذلك الرجل المسكين، الذي تسول من باب إلى باب قائلا: «ادفعوا إلى الملك مايستحقه منكم»، ولكي يدفع هذا المبلغ الصغير، أرغم هذا الرجل المسكين على اكتراء مدارس لأيام كثيرة، وأن يقوم ببيع كتبه في الساحات، وأن يسير وهو نصف جائع، لابل بحياة جائعة، لكن دعونا نترك الآن عملية الجباية هذه، وأن نعود إلى قضيتنا الأساسية.

شهامة راعية دير لاكوك

وعندما وصلت أخبار الكارثة المذكورة أعلاه إلى علم البابا، حزن بشكل مؤلم، ومثل ذلك فعلت كل جماعة البلاط الروماني، وجرى تعليق جميع المراسيم لبعض الأيام، وازدادت سمعة البابا سوءاً، وانتشر ذلك في الخارج بدرجات كبيرة، وكان من بين شكاوي الفرنسيين، كلمات سمعت، مثل مايلي: «واأسفاه، كم من الشرور جلبه علينا تجبر البابا، الذي رفض بعناد أن يقبل بتذلل فردريك، وأن لايتلقى منه ترضية صحيحة وموائمة، لابل بالحري أثاره حتى أوصله إلى مرارة الروح، فهو قد عرض بلا تردد، بلطفه، أن يسترد —من دون سفك للدماء— لنا جميع الممتلكات التي كانت في أيدي الصليبيين، في أي وقت من الأوقات، في الأرض المقدسة، والآن ويالـلأسف، كم من الدماء العامة والنبيلة، جرى سفكها —من دون فائدة— في الأرض المقدسة، وفي ألمانيا، وفي ايطاليا، وما هو أسوأ، إن الإيمان يتأرجح ويتراجع، والأرض المقدسة عرضة للخطر، والديانة المسيحية قد

تلاشت في تأثيرها، وأوهـام المسلمين قــد ارتفع شأنها، ففـي ظل أي كوكب غير سعيد لابد أنه قد ولد، لأن سوء الحظ قد تفجر في أيامه، في كنيسة مولانا يسوع المسيح، الذي أعلن هو عن نفسه أنه نائبه».

وعندما وصلت أخبار هذه الكارثة إلى مسامع راعية الدير الكونتسة هيـلا، التي أدارت بنشاط نسـائي ديراً للسيـدات الراهبات في لاكـوك، وهي التي كانت أم النبيل وليم لونغوسبي ولدى تذكرها الرؤيا المجيدة التي رأتها حول ابنها، في الوقت الذي مـات فيه، حيث كان واضحاً أنه كان شهيداً، كما ذكرنا أعـلاه، قامت بروح مشرقة، فضربت يداً على يد، وجثت على ركبتيها، وانطلقت تحمد الرب وتثني عليه، وقدمت شكرها بشكل رفيع إلى المسيح بهذه الكلمات: «أيها الرب يســوع المسيح، أقـدم لك شكري لأنك قضيت بذلـك، قضيت بأن يخرج من جسـدي —مع أنني مـذنبة— مثـل ذلك الابن، الذي تفضلت بتشريفـه بتاج الشهـادة، وإنني آمل بمسـاعـدته، سـوف أتقـدم على الفــور نحـو أمجاد مملكتك السماوية»، وعندمـا شـاهد الذين كـانوا حـاملين لهذه التقـارير، والذين التـزمــوا الصمت لوقت طـويل، لخوفهم، شـاهـدوا أعمالها، وسمعـوا كلماتها، أثنوا على هذا الثبـات الأكثر مما هو نسـائي، لهذه المرأة، وعجبوا كيف أنها بعـاطفة الأم لديها، لم تنفجـر بالنحيب والشكوى، بل بالحري تمجدت فرحاً ببهجة روحية.

وفيات بعض النبلاء

في سياق هذا العام الحزين، مات بعض النبلاء الذين كانوا رجالاً من الأعظم شهـرة، أثناء ذلك الحج الـذي تقـدم ذكـره، وكـان بين هؤلاء: ايرلات، ومركيـزات، وأساقفة، وفـرسان، وقد مـات بعضهم على ظهر سفنهم، وبعضهم في الجزر التي نزلوا بها، وغرق بعضهم، وكـان واحداً من هؤلاء أسقف نويون Noyon, الذي كتب اسمــه، وكــذلك أسماء البقيـة، كما هو واضح، في كتاب الحيـاة السرمدية، وفي هذا العـام

أيضاً، في حـوالي يوم عيد القديسة مـرغريت، مات روبرت مـوسشامب Muschamp, وكان رجلاً صـاحب اسم رفيع في المناطق الشمالية من انكلترا، ومـات في حـوالي الوقـت نفسـه أيضـاً هنري هيستنغ Hastings, وكان فارساً متميزاً، وباروناً غنياً.

كيف استعد المسلمون لإلقاء الحصار على عكا

وفي حوالي الوقت نفسه، عندما رأى المسلمون أن الحرب تقدمت بين أيديهم ونجحت، عملوا الاستعـدادات لحصـار عكا، لأنهم تمتعـوا الآن وابتهجوا بالأسـلاب الوافرة التي أخذوهـا من أعدائهم القتلى، وتألفت هذه الأسـلاب من: الخيـول، ومن الأسلحـة والدروع، وآلات الحرب، والقسي الزيارة، والسفن، والمؤن، وأيضـاً بسبب الجرأة التي شعـروا بها إثر الهزيمـة الأخيرة للصليبيين، وكـذلك نتيجـة للهـدنة التي تمّ التخلي عنهـا وهجـرها، وكانوا آسفين أيضـاً إلى أقصى الحدود، لأنهم سمحـوا للملك الفرنسي ولأخـويه الحيين بدفع الفدية، أو بالمغـادرة وهم أحرار بعدما دفعـوا الفدية، ولهذا صبوا التهم ضد سلطان مصر، كـراهية منهم لنهمـه، وكـانوا أيضـاً واثقين تمامـاً بأنهم سـوف يستردون مقتنيـاتهم المفقودة، وأن ينالوا النصر على الملك وعلى أخـويه، وأسرهم أثناء تعبهم وهم مرهقين.

الملك الفرنسي يرسل أخويه عائدين إلى فرنسا

قام الملك الفرنسي التقي بتقدير الأمور، فبعـدما دفع مبلغ مال الفدية المتقدم ذكره، وهو مبلغ كان قد استقرضه من الداوية والاسبتارية، ومن الجنويين والبيازنة، وبعـدما استرد الرهائن التي كـان قد أعطاها، أرسل فجأة وبشكل سري أخـويه الحيين: ألفـونسـو، كـونت بواتو، وشـارل كـونت بروفانس، في سفينة قـوية، فبحكمـة أعادهما إلى الغـرب، وتحت ارشـاد الرب وحمايتـه وصـلا سـالمين معـافيين، أمـا الملك نفسـه، فبقي

حزيناً، ودونها مجد في عكـا، وأقسم في قرارة قلبه المرير، أنـه لن يعود إلى فرنسـا الحلوة، في مثل تلك الحالة من العـار، لأنه من الذي يستطيع من دون تأوهات ودمـوع الحزن، أن يصف أسـاه ونحيبـه، عندمـا يرى أن أخـاه روبرت قـد بات ميتـاً، وهو نفسـه قـد هزم، وقـد عهـد بأخـويه الآخرين، في وضع مخز، إلى الأمواج الكبيرة في المحيط؟.

وذهب الأخوان المتقـدما الذكـر، مع دوق بيرغندي، الذي عاد معهما إلى الوطن، على الفـور إلى البـابا، لأنهم أمـروا بأن يفعلوا ذلك من قبل الملك، ليقومـوا بحثّه، لكن ليس بتوسـلات ناعمة، بأن يرسل مسـاعدة سريعة إلى الملك الفـرنسي، الذي كان موجـوداً في خطر ضائقـة شديدة، وكـان يقـاتل في سبيل كـرامة الكنيسـة المسكونيـة، وأن يعيـد فـردريك المتذلل إلى السلام مع الكنيسة، بحكم أنه هو وحده بين جميع المسيحيين يمكنه أن ينجد في حالة الخطر هذه، ومن ثم اقناعـه لإعطاء نجدة فعالة وسريعـة إلى الملك، الذي هو الآن في وضع ميئوس منه تقـريبـاً، وإذا لم يستجب وكـــان الأمــر على عكس المطلوب، على الـدوق، والكونتين المذكـورين، نقله، أي البابا من مقـره في ليـون، على أساس أنه عنيـد في كراهيته، غير حريص على كـرامة الإيمان المسيحي، وإذا ما قام الأسقف المنتخب لليـون مع أخيـه رئيس أساقفـة كـانتربري، اللذين وضع فيهما ثقته، بالدفاع عنه، فإن على فـرنسا كلها، برئاسة النبـلاء المتقدم ذكرهـم، الثورة ضده.

حول الفيضان غير الاعتيادي للبحر وهياجه

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في اليـوم الأول من شهر تشرين الأول، وكـان القمر في ربعـه الأول، ظهـر هناك قمر جـديد، منتفخ، وأحمر في شكله، وذلك كإشـارة على قـدوم عـواصف، وذلك وفقـاً للكتـابات المجربة لفيلسوف وشاعر في قوله:

عندما مايزال القمر جديداً، وعليه مسحة من اللون الأحمر

منتشرة فوق وجهه، إنه يهدد بعواصف من الريح

مالم يمنع ذلك حرّ، أو برد شديد.

وعندما يكون وجهه متورماً، ينذر بالعواصف، لكن عندما يكون شاحباً

ومشعاً، فهو ينقي وجه السماء

وبناء عليه فإنه في الأسبوع الأول من زيادة القمر، تغطت السماء بضباب كثيف، وبدأت تضطرب كثيراً بعنف الرياح، التي بدأت تمزق وتطرح الأغصان والأوراق التي كانت وقتها تتلاشى وتموت على الأشجار، وحملتهم إلى مسافة بعيدة في الهواء، والذي كان أكثر تدميراً، هو هياج البحر الذي تجاوز حدوده الطبيعية، وتدفق تيار المدّ لمرتين من دون جزر، وقذف بأصوات زئير مرعبة، إلى حد أنها بعثت الدهشة لدى الذين سمعوها حتى في مناطق نائية عنها، واعترت الدهشة حتى الشيوخ من الناس، وفي الحقيقة ما من أحد في العصور الحديثة يتذكر قط وقوع مايشبه هذا الشيء من قبل، وفي ظلام الليل أيضاً، ظهر البحر وكأنه يحترق مثل النار، وبدت الأمواج الهائلة وقد احتشدت مع بعضها، وكأن إحداها تتحارب مع الأخرى، بحدة كبيرة إلى حد أن البحارة البارعين ما كان بإمكانهم انقاذ سفنهم من الغرق، ودون أن نذكر قضايانا الأخرى، ففي ميناء هارتبورن Hertbourne وحده، ابتلعت الأمواج الهائلة والهائجة ثلاث سفن فخمة، إلى جانب سفن أخرى صغيرة، مع سفن أخرى متوسطة الحال، وفي وينشلسي Winchelsea —وهو ميناء على الساحل الشرقي— جرى تدمير بيوت الملح، ومساكن صيادي السمك، والجسور، والطواحين، وبالاضافة إلى ذلك تمّ تدمير أكثر من ثلاثمائة بيت في تلك القرية،

وذلك بالاضافة إلى بعض الكنائس، فقد أطيح بها بوساطة البحر الهائج والمرتفعة مياهه، وعانت هولاندا في انكلترا، وهولاندا في القارة أيضاً، وكذلك فلاندرز، والمناطق الأخرى المنخفضة، المجاورة للبحر من دمار يصعب جبره، وأرغمت الأنهار التي تصب في البحر على التراجع وازدادت مياهها إلى درجة أنها فاضت على المروج، فدمرت الطواحين، والبيوت المجاورة لهم، وهاجمت الحقول، وحملت الحبوب التي لم تكن قد خزنت بعد في الهري، وبذلك ظهر غضب الرب واضحاً إلى الفانين في البحر، وكذلك على الأرض، وبدت عقوبات المذنبين أنها باتت وشيكة، وفقاً لنبوءة حبقوق في قوله: «هل أنت غاضب أيها الرب في الأنهار، أم أن سخطك هو في البحر»؟ وهل من عجب في ذلك؟ لأنه من البلاط الروماني، الذي يفترض أن يكون نبع العدالة كلها، صدرت آثام لم يذكر مثلها، وإن واحداً منها —مع أنه غير جدير بالوصف— رأينا أنه من الموائم إقحامه في هذا العمل.

حول الاستخراج المقيت من رئاسة رهبان بنهام

مع أن رئيس رهبان بنهام Binham كان له الحق الكامل في كنيسة ويستلي Westley, على أساس أن يستحوذها لاستخداماته الخاصة، وذلك على قاعدة منحة الراعي، وتأكيد أسقفين مع هيئتهما الكهنوتية، ومن ثلاثة بابوات من بابوات الكنيسة الرومانية، وهم: لوكيوس Lucius, ويوجينوس Eugenius وغريغوري Gregory التاسع، ومع هذا كله فإن جنويا كان زائفاً وجاهلاً، قد حصل على الرسالة التالية من البابا، وهي رسالة مناقضة لجميع الحقوق، والعدل: «من إنوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب كثيراً، المعلم برنارد دي نيمفا Nympha, كاتبنا في انكلترا، صحة ومباركات رسولية، بما أن ولدنا المحبوب كثيراً وحاجبنا ن. N, كان قد أعطى من قبل كنيسة ويستلي Westley, في أسقفية

إيلاي، إلى رينير دي ســـــوليريوم Reiner de Solerium قسيس يبري Ypres, الذي توفي مؤخراً، ومع أن هذه الكنيسة عائدة إلى تقدمة أولادنا المحبوبين كثيراً، رئيس رهبان ورهبان المجمع الرهباني في بنهام، من طائفة القديس بندكت، وقد احتفظ بها القسيس المذكور وبقي في انكلترا أثناء حياته، لقد رأينا من الموائم أن نقوم بموجب سلطاتنا، بالانعام بالكنيسة المذكورة ومنحها إلى ولدنا المحبوب كثيراً، كاهن هيريغيتوس Herrigettus ابن النبيل بيراشين Per-rachin دي مالاشانا Malachana أوف فولتا Volta وهو من أهل جنوى، معلنين أن كل شيء يعمل ضد استغلاله لها لاغياً وفارغاً، ونحن نصادق على الذي عمله حاجبنا في هذه القضية، وبوساطة هذه الكتابات الرسولية نأمركم، إما أنتم شخصياً أو بوساطة شخص آخر، بتعيين نائب لـ هـ .H المذكور، أو أي شخص آخر، يمكنك أن تختاره باسمه ليستحوذ شخصياً على الكنيسة نفسها، وليتولى حمايتها عندما يُنصّب فيها، وأن يزال منها أي معيق مهما كان، وتأجيل جميع المرافعات، وضبط المتذمرين بالروادع الكنسية، دون الأخذ بالانعامات التي أعطيت إلى الانكليز، من أنه عندما يموت كاهن إيطالي، أو يتخلى عن منافعه، لايجوز أن يتسلم ايطالي آخر على الفور تلك المنافع، أو أية انعامات أخرى، يتوجب ذكرها في هذه العروض، أو التي من الممكن بها تعويق أو منع هذا التنصيب أو التعيين، ودون الأخذ بأي مرسوم برحلة اليومين، مما صدر في المجمع المسكوني. صدر في ليون في التاسع والعشرين من نيسان، في السنة السابعة لحبريتنا».

كيف قمع رئيس أساقفة كانتربري بالتهديدات شكاوي المتذمرين

وفي حوالي الوقت نفسه شعر رئيس أساقفة كانتربري، بأن ضميره قد جرح حول مايتعلق بالعدوان الكبير الذي اقترفه في لندن، خاصة في

كنيسة القديس بارثلميو، كما روينا أعلاه، فأرسل سراً برسل مع تهديدات وكذلك مع كلام لين باسمه وباسم الملكة، وباسمه شخصياً، وسعى إلى قمع شكاوى الكهنة.

وفاة وليم أسقف وينكستر

وفي حوالي عيد القديس متى في هذا العام، توفي وليم أسقف وينكستر في تور، بعدما أقام هناك لحوالي أحد عشر شهراً، مع حاشية صغيرة، من أجل أن يوفر على نفسه النفقات، لأن أسقفيته كانت مثقلة بديون لانهاية لها إلى البابا، وهي الديون التي ازدادت، عندما أخرجه الملك —بتنكيله به— من انكلترا، فوقتها كان البابا يتمتع بالثروة، لذلك فتح له صدر المواساة، كما ذكرنا من قبل، وبعدما حقق —على هذا— السلام مع البابا، وجعل الملك يميل نحوه بمشاعر طيبة، قام بانقاص النفقات المعتادة لمائدته، وأنقص كثيراً عدد حاشيته، في سبيل أن يتمكن في أسرع وقت من جمع مبلغ المال المتفق عليه، من أجل تحرير كنيسته من ديونها، وعندما كان على وشك الموت، ورأى قربان الموت قد جلب إليه، قال، والكاهن كان داخلاً من الباب، وهو حامل للقربان: «تمهل قليلاً ياصديقي، إنه من الموائم لي، أنا الخائن لربي والمستخف به، وجوب حملي أمامه»، وبناء عليه أطيع، وحمل من قبل خدمه إلى أمام جسد المسيح، فتلقى قربان التحية بدموع الندامة، وهكذا وهو في حالة خوف من الرب، لفظ روحه النادمة.

الملك يستخدم أقصى مساعيه اليقظة للحصول على انتخاب أخيه ايثيلمار لكرسي وينكستر

وسمع الملك بهذه الحادثة، فتفوه بكلمات أسف قصيرة مع دموع جافة، كانت ممزوجة مع البهجة، وسعى باستخدام جميع الوسائل التي كانت بمقدوره أن يؤمنها إلى تعيين أخيه ايثيلمار في مكان الأسقف

المذكـــور، مع أن هذا الأخ لم تكن فيـــه الشروط المطلوبـة، فيما يختص بالطائفـة، والعمـــر، والمعـرفـة، وبناء عليـــه أرسل على الفـور اثنين من مقـــدمـي كهنتــــه (اللذين عـــرف بأنهما بارعين كثيراً في جميـع أنواع المناقشات) إلى وينكستر، يحملان رسائل منه، من أجل أنه بمزج الكلام الناعم مع التهـديدات، والوعود، يجعل عقـول رجال دين الكاتدرائيـة، الذين إليهم يعـود حق الانتخاب، تميل إلى طلب ايثليمار المذكـور، حتى يكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، وكان الشخصان اللذان أرسلا لهذه الغـاية هما: جـــون مـونسيل Mauncell, وبطرس تشيسبـــــــورك Chacepork, وكـانا كاهنيـة، ولقد استخـدما كل جهـد ممكن في تأمين الأخـذ برغبـة الملك، وبإلحاق الوهن بعقـول عـدد من الرهبـان، أقنعـاهم بطلب ايثيلمار المذكور ليكـون أسقفهم، ولقد قلت: «طلبـوا»، بسبب أنه كـان عاجـزاً تماماً، وغير أهل لمنصب الأسقفيـة، وبعد مـرور حـوالي الخمسة عشر يومـاً، استخـدم خلالها الكاهنان المذكـوران أقصى مســاعيهما، للتأثير على الرهبـــان، الذين ظهـــروا أنهم ثابتين أكثـــر من الآخرين حتى يرضخـوا لإرادة ملكهم الأرضي، وأن يضعوا جـانباً كل خوف من الملك السماوي، وقد ذهـب الملك نفسه إلى وينكستر، وتوجه على الفـــور إلى الكنيسـة الكاتـدرائيـة للقـــديس ســـويزين Swithin, ودخل إلى مقـر الهيئة الرهبـانيـة، وكأنه كـان أسقفاً أو رئيسـاً للرهبـان، وأخذ كـرسي الأسقف الرئيس، وشرع بإلقاء القـداس التالي، مقـدماً له بنص مقدس.

كلمة الملك التي ألقاها وكأنه يعظ في الهيئة الرهبانية لوينكستر

«قبلت الاستقامـة والسلام بعضهما بعضاً» إلخ، ثم تابع إلقـاء كلمته فأضاف: «إنه بالنسبـة لي وللملوك الآخرين، وأيضاً للمقـدمين ولرجال العـدالة لدينا، الذين بوساطـة العدالة، لديهم سلطة حكم الناس، وفقـاً لصرامة الحكم والعدل، وإليكم أنتم، الذين هم رجال السلام، وطلاب

الدين، يعـود السـلام والهدوء، في هذا اليــوم، بسبب إظهـاركم، لحسن التـوافق بأنفسكم، مؤثريـن لطلبي، وموافقين عليـه، وذلك كما سمعت —وإنه جيـد بالنسبـة لكم أنكم تصرفتم كـذلك— قبّلت الاستقـامـة والســلام بعضهما بعضـاً، كما قلت مـن قبل، ففي بعض الـوقت الذي مضى، قـد كنتم متمـرديـن ضـدي، في انتخـاب وليم دي ريلي Rele, أسقفكم المتـوفى أخيراً، الذي كان غير مقبـول لدي، ولقـد كنت قاسيـاً عليكم، لكنني أصبحـت الآن راضيــاً عنكم وصــديقــاً ودوداً إليكم، وبتذكري لمعروفكم، أنا ملتزم بتقديم عظيم الاحسان، بالمقابل إليكم.

علاوة على ذلك، من المعروف بشكل جيـد، أن الدمار أول ما جلب إلى العالم، جلب بوساطة امرأة، لكن بوسـاطة امرأة أيضاً جاء الخلاص، وفي الحالة الحاضرة، مثل هذا، إنه في محاولة مني لإرضـاء رغبات الملكة زوجتي، التي رغبت في الارتقـاء بهذا الكرسي بوسـاطة انتخـاب عمهـا وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، وكنت قد ضـايقتكم من قبل بالتماساتي للقيــام بـذلك، وألحقت بكم الضرر، غير أني الآن أرغـب في رفع شأن قضية أخـي لأمي، الذي هو بسبب امرأة، هي الملكة ايزابيـلا، أمنا، هو بلا شك متحالف معي بحكـم القرابة، لذلك سوف أكـون أنا متصالحاً معكم، ولسوف أعمـل بشكل مؤثر، على إعلاء شأن منـافعكم شخصياً ومنافع كنيستكم، ولسوف أطوقكم بذراعي العواطف القلبية.

ومجدداً، عليكم أن تلقـوا في ميـزان العقل، قضيـة، ليست هي الأقل أهمية، هي حقيقة أنني ولدت في هـذه المدينة، وتعمدت في هذه الكنيسة ولذلك إنكم مـرتبطون بي بروابط أعظم عـاطفـة، وينبغي عليكـم عـدم معارضة إرادتي بأية طريقـة، لابالحري أن تدعموني في جميع المسائل، مع اخلاص رفيع، كما أنه لايخفى على عقولكم وجوب إعطاء الموافقة، لأنه إذا مـاجـرى انتخـاب أخي ايثيلمار سـوف يتمكن لـوقت طويل —كما نأمل— مـن إنارة هذه الكنيســة، مثل الشمس، بـأشعــة أصله النبيل،

وعنصره الملكي، فهو متميز بهذا بسبب أمـه، وبسبب دمه المتميز الصادر عن أبيـه، وأيضـاً بسبب لطفـه الأصيـل، وبسبب شبـابه، وفي ذلك هو مرض لكل من الرب والانسان.

اذهبوا —على هـذا— بسلام للتشاور، وعـودوا مسرعين، ومن دون أية إعـاقة أو اعتراض، ونفـذوا غـايتي التقوية، التي أعطيتمـوني الأمل حـولها، وأن تعلنوا بالإجماع بحضـوري عن أخي ايثيلمار مـرشحكم للأسقفية»، هذا وقـد أضاف في نهاية مـوعظته، أنه إذا ما وجـد الرهبان معارضين لقناعاته، فإنه سوف يدمرهم جميعاً، وفقاً لكلمات الشاعر:

الرجل في السلطة يستجدي بسيف مجرد

كيف قام رهبان وينكستر، وهم تحت الاكراه بطلب ايثيلمار ليكون أسقفهم

أمـا وقد وضع الرهبـان هكذا، في ضيق عسير، تناقشـوا بدقة حـول هذه القضايا، وكان ذلك عندما ابتعدوا عن مقر الهيئة الرهبانية، وأعادوا إلى عقولهم ذكرى الاضطرابات السالفة التي جنوها، والتي كانت ظالمة، في قضيـة وليم، الأسقـف المنتخب لبلنسيـة، لابل أكثـر من ذلك لدى انتخابهم وليم، أسقفهم المتوفى أخيراً، وقال أحـدهم للآخر: «ومرة ثانية ها نحن مهـددون بـوسـاطة التـوسـلات المسلحـة للملك، وأن نقـوم بمعارضته، إنها قضية صعبة ومرعبة، وهي مليئة بالمخاطر لكنيستنا، لأن البـابا مطيع للملك في كـل شيء، وبما أنه الآن في وضع حـرج، سـوف يتجنب من خلال الخوف تقديم أية إساءة إلى الأمراء، وبناء عليه إننا إذا مـا طلبنا، أو انتخبنا أي شخص آخـر، مهما كـان انسـاناً أهلاً ومـوائماً، وقتها فإن أخـاه الملك، سوف يستثار إلى حـد الغضب، لابل في الحقيقة إلى حد الانفجار، ولسوف يقوم بإلغاء جميع إجراءاتنا، حتى لو أننا قمنا بتعيين القديس بطرس، لو أنه كان حياً، سوف يقوم باضطهادنا، وهكذا

فإننا سنجعل من الجانب الأول الملك عـدواً لنا، ومن الجانب الآخـر المعارضة الشديدة لدى البابا، الذي من السهل رشوته، وسوف نسحق، وكأننا بين حجـري رحـا، وسيكـون اضطرابنا ودمـارنا الذي لايمكن جبره، قريباً جداً.

بالاضـافـة إلى هذا، كنـا قـد رقينا وليم أسقـف نورويك، وانتخبناه ليكون أسقفنـا، ووضعنا أنفسنا تحت سلطـانه، على الرغـم من رغبـة الملك، ومع أنه عارض الانتخـاب، وظلمنا لهذا السبب نفسه، فإن وليم المذكـور، بعدمـا تسلم السلطة كـاملة، ومع أنه كـان انكليزياً، بارعـاً في قـوانين البـلاد، وواحـداً كنـا نأمل أنه سـوف يـرضي الرب في جميع المجـالات، وسيكون مفيـداً لأنفسنـا، قـام بالتنكيـل بنا من دون رحمة، وألحق الأضرار التي لاتجبر بنا، ناسياً جميع المنافع التي كـان قد تسلمها، ومن أجله عـانينا من آلام وأضرار لاتعـد ولاتحصى، فقـد سجنا، وسحلنا، وضربنا، وتألمنا من الجوع، وتلطخنـا بالدمـاء من جـراحـاتنا، وغللنا مثل اللصـوص، فبمن على هـذا يمكن أن نثق؟ وبمن يمكن أن نضع آمـالنا، فمن الجانـب الأول نخـاف من سيـلا (صخـرة خطيرة في الجانب الايطالي من مضيق مسينا) ومن الجانب الآخر من خطر الدوامة الوشيـك، [أي بتنا بين نارين]، وإذا فعلنـا هذا فـالموت نصيبنا وإذا لم نفعل سوف لن ننجو من أيدي الملك.

وإلى جانب هذه الأشياء، إنه أيضاً ممـا يعطينا سبباً عادلاً للخوف هو أننا إذا مـا رقينا ايثيلمار المذكـور إلى الأسقفيـة، هو سـوف يكون دومـاً أسقفاً منتخباً، وليس أسقفاً، وهذه حالة لم تعرفها هذه الكنيسة من قبل، ونأمل أن لايحدث هكذا مطلقاً، ولربما أيضاً، سوف يحصل على اذن من البـابا، بأن يحتفظ —إذا مـاانتخب— بالموارد التي لاحصر لها، التي هي الآن بين يديه، لأنـه مـاهو الذي لايستطيع الكـرمـاء بأعطيـاتهم، أن لايحصلوا عليـه في البـلاط الرومـاني في هذه الأيام؟، وإذا مـا انتخبناه،

سـوف لـن يكون الأقل في الثـروة والسلطة مـن أي واحـد في انكلترا، وبصعـوبة يمكن حتى استثنـاء الملك، ووقتهـا يمكن أن يمتلك القـدرة (لكن عله لن يسير على خطى أبيه أو البـواتيين) على تحويل انكلترا كلها إلى بواتو، أو يكون مثل الحاجب للملك، الذي يمتلك السلطات كلهـا، فيجلب بواتو كلهـا إلى انكلترا، وبذلـك سـوف يدمـر ذكـرى الانكليـز ويزيلها من على وجـه الأرض»، وفي النهاية على كل حـال، وبعد تحمل الكثير من الآلام، وبعدما رأوا أن الوقت كـان شريراً، وأن ما من مكان للجـوء مفتـوح أمـامهم في صـدر أبينا البـابا، الذي يقـدم بشكل عـام المسـاعدة إلى الذين يفـرون إليه، الذين انحنوا أمـام قسوة التجـريد من الأملاك، والذيـن أرغموا على الرضوخ لـرغبات الملك، وبناء عليـه قام رهبـان وينكستر، وقـد أرغمهم تدخل الملك وانتهـازيته، وكـانوا أيضـاً يائسين من مسـاعـدة البـابا، قامـوا بصـوت واحـد —لكن ليس بقلب واحـــد— بالمطـالبـــة أن يكون ايثيلمار أسقفهـم، والـراعي الـروحي لأنفسهم، وهو الذي كـان أخـو الملك لأمــه، وابن هوغ برون، كـونت التخوم، وايزابيـلا زوجته، التي كانـت ملكة انكلترا من قبل، وكان من مـواليد بواتـو، وطالبوا به مع أنه كـان غير كفـء للمنصب، في العمـر، والمعرفة، والطائفة، وكانت لديه مـوارد لاتحصى موائمة لرئيس أساقفة، وهكذا قامـوا بناء عليه، بحضـور الملك، بترشيح ايثيلمار المذكور بشكل علني ومهيب، وعلى هذا صـار ايثيلمار مـرشحهم، أو أسقفهم المنتخب، على شرط، أن مثل هذا الشخـص يمكن ترقيتــه إلى المنصب الأسقفي، فقط بوساطة إعفاء من البابا وموافقة.

ملك إنكلترا يبعث رسلاً إلى البابا

ثم إن الملك عبّـر عن سروره، بمـلامح وجهه، وبحـركاته، وبنبرات صوته، وأمر كاهنه، روبرت سوثندن Sothenden, وكان بليغاً بارعاً، أمـره بصياغة رسالة بليغـة ومؤثرة، يمزج فيها تهديدات مـرعبة،

مع وعود سخية وافرة، والتماسات حارة، حتى تنقل إلى البابا، ثم أرسل رسلاً خاصين، وفصحاء، يعرفون كيف يربحون البابا وكرادلته للقبول برغبتهم، وللتباحث مع البابا والتشاور، حول هذه القضية الصعبة بشكل مرض، لأنها قضية مرغوبة قلبياً من قبل الملك، وأن يقوموا بوساطة الالتماسات وكذلك الرشوة، حتى يرضى بإعطاء موافقته عليها.

حول رسالة الملك الشاكية إلى البابا

واأسفاه، لماذا ضعف العالم سوف يطول أكثر؟ ولماذا قام السلام والعدل، اللذان يأخذ منهما الملك نص قداسته، فنفيا نفسيهما؟، وأين هي حرية الانتخاب، وأين هو السلام الأولي للكنيسة، الذي أقسم الملك على رعايته من دون إحباط، أثناء انتخابه، واأسفاه، واأسفاه، هو الآن يزدري الرعايا الطبيعيين لمملكته، مع أنهم رجال مقدسين، ومتعلمين، ومتدينين، وجرى اقحام الأجانب، مع أنهم رجال غير لائقين بأي منصب، وجاهلين تماماً بالآداب، ولايعرفون اللغة الانكليزية، وهم غير نافعين كلياً في الاعتراف، وفي الوعظ، من دون نظام، أو مكونين بشكل جيد في أخلاقهم، مستخرجين للأموال، ومهملين للأنفس، والذين كانوا فيما مضى رجالاً مقدسين، ومتدينين، ومتعلمين، بالتعاون وبوساطة إلهام الروح القدس، جرى سحبهم، حتى من دون موافقتهم، ونزعهم من كراسيهم الكنسية، التي جرى الآن الاستيلاء عليها بالقوة، بعدل، أو من دون عدل، من قبل رجال البلاط والأجانب، وجميع الديرة التي إليها يعود حق انتخاب الأساقفة، قد تدمرت، بسبب هذه الظروف نفسها، وغدت الرعاية الآن عبئاً، ولم تعد مرتبة شرفية، ومصدر خسارة، وليس مصدر منفعة، وجميع الكنائس، سواء أكانت أسقفية أو ديرية، بحكم سقوطها بيدي الملك بعد شغورها —وهو الذي ينبغي أن تكون سلطته وقدرته مسخرة لحمايتها والدفاع عنها— هي الآن عرضة للسلب

والنهب، آه، أيها البـابا، ياأبا الآباء، لماذا سمحت لبلدان المسيحيـة، بأن تتلوث بمثل هذه الإجـراءات؟ وعلى هذا، كان بعدل طردك مـن مدينتك ومن كـرسيك، وابعـادك إلى المنفـى مثل قـابيل محروم آخـر، وأعـداؤك، الواقفين إلى جانب فـردريك يتقدمون، وأنـت هارب من الذين أرغموك على الفرار، والذين يطاردوك سريعين وأقوياء، وفي كل مكان أمرك يرعد مـدوياً فـوق الذيـن هم رعيـة لك، لكـن ليس له قيمـة بين الذين هم متمـردين عليك، ففي كل بقعـة يجري حـرمـان الأسـاقفـة من منافعهم، وتصـدر الأوامر بإعطاء المنافع إلى أنـاس غير جديرين بها، وإلى أجـانب، وإلى أشخاص غير معـروفين، وإلى الذين يطلبون الحليب مـن شياه قطيع الرب، ويجتزون الصـوف، ويسلخون الجلد منها ويذهبـون به، ويبقرونها ويفرغون ما في جوفها، و ما من أحد يمكنه الحصول على الحماية بوساطة الامتيـازات الممنوحة إليـه من قبل الآباء المقـدسين، وبين الأمم والبلدان أيضـاً، إن انكلترا —كما يعلم العـالم— هي المكان الذي ازدهرت فيـه المسيحيـة كثيراً، وهي أيضاً التي ديست بـالأقدام وسحقت أكثـر، وبظلم البـابا سلبت أملاكهـا وحرمت من ثمار جهـودها، ومع أن ما من واحـد يتـولى سلبـه، هو يعمـل بمثـابة ســالب نحـو الآخـريـن، لأنه أين هو الانكليزي، الذي من المعروف أنه يمتلك موارد في أي جزء من روما، أو ايطاليـا، أو جنـوى، أو في أية مملكة أخـرى، مع أن رجـال هذه البلدان مستـولين على كل شيء في انكلترا؟ آه يارب، ياإله الانتقـام، متى ستتـولى شحذ سيفك مثل البرق، لكي يغرق في دماء مثل هؤلاء الناس؟، وصدقاً إن ذنوبنا هي التي جلبت بعدل مثل هذه النوازل، وأوقعتها علينا.

حول وفاة أسقف روكستر وانتخاب المعلم لورانس دي سينت مارتين إلى ذلك الكرسي

وفي الوقت نفسـه من العام، في حـوالي عيـد القديس ميكائيل، مـات أسقف روكستر، وفي مكانه انتخب رهبـان روكستر المعلم لورانس دي

سينت مارتين Martin, وكـان كاهناً ومستشـاراً خاصـــاً بالملك، وفعلوا ذلك خشية منهم أنهم إذا ما اختاروا واحداً آخر، سوف يعارض الملك ذلك الاختيار.

عودة أسقف لنكولن من البلاط الروماني

وفي حـوالي عيــد القـديس ميكائيل نفســه، عـاد إلى انكلترا روبرت أسقف لنكولن حــزيناً وغير راض، بعـدمـا بقي عــدة أيام في البـلاط الروماني، ومقابل انفاق كبير من دون فائدة، ودون أن يتمكن من تحقيق غـرضـه كما رغب، وكـان قـد قـام على كل حـال، بالتضييق إلى أبعـد الدرجـات على كثير من الـرهبـان، وآذاهم بإرغـامهم على الـدفـاع عن أنفسهم ضد هجماته.

ولدى وصـوله إلى أسقفيته، وقـد شـاهد الفـوضى المحيقة بالكنيسـة المسكونيــة، كما قـد تعلـم من مثل نيقــولا، أسقف درم، جـرد نفســه وحررها من جميع مشاكل الـدنيا، التي غالباً ما مـزج نفسه بها، وشغلها من دون فائدة، وعهد بإدارة الواجبات والوظائف العائدة إليه إلى المعلم روبرت مارش Marsh, وكان من موظفيه، ناوياً أن يقول وداعاً إلى هذا العـالم الفاني، وأن يتخلى عن أسقفيتـه، ولكن بما أنه كـان يخشى من سلب الملك ونهبــه، الذي تولى بالعـادة إفقـار الكنائـس الشـاغـرة، وقيـامـه بعـد ذلك بإقحـام أشخـاص غير لائقين بها، لهذا جلس ينتظر بصمت، وعلق تنفيـذ نيتـه السرية، دون أن يعـرف الذي عليـه عمله في هذه الحالة من اضطراب الشؤون الدنيوية.

كيف عارض أساقفة إنكلترا رئيس أساقفة كانتربري

وفي الوقت نفسه، علم أساقفة انكلترا، من إفادات الأسقف المذكور، الذي عـاد مـؤخـراً من البـلاط الرومـاني، ومن إفـادات آخـرين، ومن جـواسيسهـم المنابين، الذين كـانوا قـد أرسلوهـم إلى هناك، بأن رئيس

أساقفـة كانتربري كان يخطط للتآمـر ضدهم، من أجل ايذائهم، ولذلك جمعوا مـالاً للانفاق على أنفسهم في ذلك البلاط، الذي مـال بالعادة إلى هذا الجانب وإلى ذلك الجانـب بتـدخل المال، وكــان مثل قصبـة تهتـز وتتمايل مع الريح، وبناء عليه أخـذوا من الأشخاص ذوي المنافع بنسين من كل مـارك، لأن المسألة كانت مسألة صعبـة، أي ما طلبـه المستخرج المذكــور، فهــو أراد الحصــول على المال، وتحصيل ضرائـب للزيارات التفقـدية من رجـال الدين والنـاس في مقـاطعتـه التي كـانت مقـاطعـة واسعة، وكـان هذا الإجراء سيضغط على الجميع بثقل شـديد، لأنه كان من الواضح أن رئيس الأساقفة المذكور الذي كان معاباً في أخلاقه، وفي علمه، اشتهى أن ينال من زياراته التفقدية ليس زيادة الدين، أو اصلاح الأخلاق، بل هدف من وراء ذلك الربح الدنيء، الذي صـار الآن عادة له.

حول الهزة الأرضية في تشيلتيرن في إنكلترا

في العام نفسه، في يوم عيد القديسة لوسيا Lucia, وفي حوالي الساعة الثالثة من النهار، وقعت هزة أرضية في سينت ألبان، وفي المناطق المجاورة، التـي اسمها تشيلتيرن Chiltern, وذلك حيث أن مثل هذه الحادثة لم يسمع بمثلها من زمن سحيق، ولم يشاهد قط مثيلها، لأن الأرض هناك متماسكة وحوارية، ليسـت ذات حفر، أو مائيـة، أو قرب البحر، وعلى ذلك كـانت هذه الواقعة غير اعتيـادية وغير طبيعية، ولكن الأكثـر عجبـاً منهــا، هو أنه لو كـانت هذه الهزة الأرضيــة مـدمـرة في تأثيراتها، مثلما كـانت غير اعتيـادية ومـدهشـة، لتـولت هزّ جميع الأبنيـة وحولتهـا إلى قطع، وقد جـاءت مع حركة كبيرة، وتـرافقت، مع صوت كان مرعباً، وكأنه كان رعداً من تحت الأرض، وقد وقع حادث مدهش أثناء هذه الهزة الأرضية، هو الحادث التـالي: استولى الرعب على الحمائم، وعلى الغـربان، وعلى العصـــافير، وعلى الطيـور الأخـرى، التـي كـانت

معشعشة فوق البيوت، وعلى أغصان الأشجار، وكان رعبها وكأن صقراً كان يحوم من حولها، ثم مدت هذه الطيور أجنحتها ونشرتها فجأة وهربت، وكأنها كانت مجنونة، وطارت بشكل مضطرب نحو الأمام ونحو الخلف، وأثارت الخوف والرعب بين الذين شاهدوا هذه الواقعة، لكن بعد توقف اهتزاز الأرض، وتوقف الضجيج الذي رافق ذلك، عادت إلى أعشاشها المعتادة، التي اضطربت بوساطة الهزة الأرضية، وأوقعت هذه الهزة الأرضية —في الحقيقة— الرعب في قلوب الجميع، وكان ذلك أكثر من الدهشة، أو الخوف، وقد قيل بأنها كانت منذرة بالحوادث المستقبلية، وفي هذا العام، تأثرت الأرض، وكذلك البحر بالتحركات غير الاعتيادية والمرعبة، التي وقعت وفقاً للكلمات المهددة للرب في الانجيل، في قوله: «سوف تكون هناك هزات أرضية في أماكن مختلفة»، وهدّد هذا وأنذر بأن نهاية العالم باتت وشيكة.

كيف ردع رئيس أساقفة كانتربري
الشكاوى الصاخبة لكهنة القديس بارثلميو

وفي حوالي الوقت نفسه أرسل البابا رسلاً خاصين إلى ملك انكلترا، ورجا أن ينال اذنه ليتخذ مقر إقامته في بوردو في غسكوني، لأن أخوي الملك الفرنسي، استجوباه، بدقة، وسألاه باسم الملك المذكور، وطالباه باسمهما، فيما يتعلق بكرامة الكنيسة العالمية، بأن يقيم سلاماً مع فردريك، الذي تذلل الآن، وعرض تقديم الترضيات، وأن يبدي الاحترام للكنيسة، وقام أخوا الملك، أي كونتا: بواتو، وبروفانس، بالتلميح له، بأن سوء الحظ الذي تقدم ذكره، قد نشأ من خلال جشعه، لأنه —أي البابا— فاسد بالمال، منع الصليبيين من الزحف لتقديم النجدة إلى الملك وانقاذه، وحللهم من نذرهم بالحج، مع أنهم هم الناس الذين كانوا قبل وقت قصير مضى، قد حملوا علامة الصليب، نتيجة لجهود وكلائه، أي الدومينيكان والفرنسيسكان،وبالاضافة إلى

ذلك كان قد باع الصليبيين إلى الايرل رتشارد وإلى نبلاء آخرين، وفق الطريقة نفسها التي مارسها يهود الأزمان الخالية، لدى بيعهم الأغنام والحمام في الهيكل، وهؤلاء هم الذين عوقبوا ورميوا إلى الخارج من قبل الرب الغاضب، كما نقرأ في الانجيل، ولم يعبأ البابا بهذه الحجج وبوسائل الاقناع هذه، وأظهر نفسه عنيداً متشبثاً، وبناء عليه غادر الكونتان بقسوة ومع كلمات نابية، وبادرا مسرعين إلى انكلترا، لاقناع الملك الانكليزي، نظراً لرغبته بتكريم المسيح، بأن يقوم بكل سرعة بالتوجه لانقاذ الملك الفرنسي ونجدته، وفقاً لما تعهد به، ذلك أن هذا الملك متشوق لحضوره.

حيرة ملك إنكلترا

وبناء عليه، كان الملك الآن في وضع حرج صعب، بسبب أنه كان إذا ما أراد قطع الطريق على البابا، فإنه سوف يغضب، ولسوف لن يرقي أخيه ايثيلمار، وإذا ما أراد فتح صدر الحماية للبابا سوف يثير فردريك ويغضبه، فمن خلال أراضي فردريك كان سيرغم على المرور، عندما سيسير لأداء حجه، بالاضافة إلى ذلك هو لن يرضي الفرنسيين، وكان هناك أمراً آخر أقلق الرجال الأكثر حكمة بين الانكليز، وهو أنه إذا ماسمح للبابا بالإقامة في بوردو، سوف يكون بإمكانه الابحار في وقت قصير إلى انكلترا، وأن يؤذيها، لابل أن يدنسها بحضوره، لأن هؤلاء الأشخاص كانوا يعتقدون أن البلاد كانت تعاني من الفساد، فهي كانت بالفعل تعاني من ذلك بوساطة أعمال الربا للسماسرة، وكانوا يخافون من أنها سوف تكون ملوثة أكثر ببلاط البابا، إذا (لاسمح الرب) كان حاضراً، ولذلك عقد مناقشات دقيقة، وأكثر طولاً، حول هذه المسألة.

رسالة البابا إلى راعي دير القديس ألبان وإلى بعض الآخرين

وفي حوالي الوقت نفسه، أي مع ميلاد ربنا، أرسل البابا أوامر إلى

راعيي دير القـديس ألبان، ودير وولثـام Waltham, وإلى رئيس شمامسة المكان الأول، بأن قرار الحرمان الكنسي الذي أصدره بونيفيس، رئيس أسـاقفـة كـانتربـري ضـد: هنري عميـد لندن، وبطرس رئيس الشمامسـة وروبرت المرتل لذلـك المكان، وأيضـاً ضـد المعلم وليم أوف ليشفيلد Lichfield, ووليم ليفتي Leafete, وضد رهبان آخرين من لندن، بسبب العـدوان على هيئتهم الكهنوتية، ينبغي الإعلان أنه لاغياً وفـارغاً، وعلى الرغم من هذا، ضغط رئيس الأساقفـة المذكور بطلبه في البلاط الروماني من أجل الحصول على الأموال، وعلى ضرائب الزيارات التفقـدية من الذيـن سوف يـزورهم، وطالب بهذا بمـزيد من الإلحاح، وبثقـة أكبر، بسبب أن أسقف لنكولن، الذي من المعـروف أنه كان أدنى منه مـرتبة، وكان قد حصل قبل عـدة سنوات خلت من البابا على امتيـاز القيـام بزيارات تفقـديـة لكهنة كنيستـه في لنكولن، مع أنهم عارضوه بشدة، وأنفقـوا مبلغاً كبيراً من المال في الدفاع عن أنفسهم ضد محاولاته، إنما من دون فـائـدة، والـرسـائل حـول هذه القضيـة، أي فيما يتعلق بقاعدة الشجب، قد أعطيت كاملة في كتاب Additaments.

موت الإمبراطور فردريك

وفي حوالي الوقت نفسه، فارق هذه الحيـاة فردريك، الذي كان أعظم أمـراء الأرض، وأعجـوبة هذا العالم، والمنظـم لإجراءاته، فـارقهـا وهو منسحق الفؤاد بشكل مـدهش ومتذلل، وبعدمـا جرى تحليله من الحكم الذي صدر ضـده، وقد قيل بأنه ارتدى زي الرهبان السسترشيـان، وقد مات في يوم عيد القديسة لوسيا، ولذلك فإن الهزة الأرضية التي وقعت في ذلك اليوم لم تكن بوضـوح من دون أهمية وبوفاته، مـاتت جميع آمال الفرنسيين التي عاشوها بإنقاذ، أو انجاد ملكهم، وأبقي خبر وفاته سرياً لمدة عدة أيام، حتى لايفرح أعداءه على الفور، لهذه الواقعة، لكن في يوم عيد القـديس اسطفان، جـرى الإعلان عن ذلك،وجـرى إخبار الشعب

به، وسوف نكتب وصيته النبيلة في كتاب Additaments[1].

إكمال خمسة وعشرين نصف قرن من سنة النعمة

مع نهاية هذا العام يكون قد انقضى، منذ سنة النعمة خمسة وعشرين نصف قرن، أي ألف ومائتين وخمسين عاماً، ويتوجب أن نذكر أيضاً، وأن لانمر باستخفاف دون أن نوضح، أن ما من واحد من أنصاف القرن هذه حتى ثلث الثلاثين سنة الماضية، قد وقعت فيه حوادث مدهشة، وغير اعتيادية وجديدة، كالتي وقعت في هذا النصف الأخير، أي في الخمسة والعشرين عاماً، وهناك في الحقيقة كثير من الكتّاب والباحثين في التاريخ، الذين يقولون، إنه لم يشاهد في أنصاف القرون الأخرى، أعاجيب ومستجدات مدهشة كالتي وقعت في النصف الذي انتهى الآن، ولا حتى حوادث أسوأ من التي هي متوقعة الآن مع الخوف.

حول الأحداث المدهشة لهذا النصف الأخير من القرن

لأنه في نصف القرن هذا، غادر التتار ملاجئهم، وعاثوا فساداً، بوحشية الحيوانات المفترسة بلدان الشرق، والبلدان المسكونة من قبل المسيحيين، وكذلك البلدان المسكونة بالكفار.

وتمت هزيمة أمير المؤمنين الذي كان أقوى ملوك اسبانيا وأفريقيا، وانهزم، وتفرق جيشه كله.

وعندما كان المعلم أوليفر يعظ في المقاطعات الألمانية، ظهر تمثال المسيح في السماء، وكان مرئياً بوضوح إلى كل واحد، وانسحبت الكنيسة الاغريقية من الخضوع إلى كنيسة روما، بسبب التجاوزات لهذه الكنيسة، خاصة ممارستها للربا وللسيمونية (بيع المناصب)، وبيع العدالة، وآثام

---

١ - مالبث متى باريس أن غيّر نيته، بادخاله نص هذه الوصية بعد قليل في كتابه هذا.

أخرى كثيرة لايمكن التهاون بها.

وجرى الاستيلاء على دمياط، المدينة المصرية المشهورة مرتين، واستردت مع فقدان عظيم للدماء، من الجانبين الاسلامي والصليبي.

ووضعت انكلترا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين لمدة سبعة أعوام، وعانت المملكة نفسها من حروب داخلية للمدة نفسها تقريباً، وغدت أيضاً دافعة للجزية، وتنفيذاً لنبوءات بعض الأشخاص، لم يكن بين يدي الملك جون، عندما مات أي استحواذ كامل لأية منطقة، ولذلك أطلق عليه اسم «بلاوطن».

وجرى تحريم ممارسة المحنة بالنار والماء للبرهنة على البراءة.

وأعطي الاذن لشخص واحد بتسلم مرابح عدة أسقفيات، وبأن يحتفظ بالموارد التي كانت لديه من قبل.

وجرى تحويل الشهيدين: القديس توماس في انكلترا، وادموند المعترف في فرنسا، وانتشر صيت القديسة ايليزابث، ابنة ملك هنغاريا في ألمانيا خلال هذه الحقبة، وجرى منع الأشخاص، وبعد ذلك سمح لهم عن طريق المال، بأن يتملكوا أكثر من كنيسة واحدة، وبذلك صار غير الشرعي شرعياً.

وجرى انتخاب لويس الابن الأكبر لملك فرنسا، والوريث الشرعي له سيداً، وكأنه صار ملك انكلترا، لكن مالبث، بسبب خرقه لوعوده، أن ترك البلاد بشكل مهين، وواجه الامبراطور الروماني أوتو سقوطاً محزناً بسبب اضطهاد البابا انوسنت الثالث له، ذلك أنه هزم في القتال، وحرم كنسياً، وخلع من العرش.

وجرى مرتين أسر رهبان الداوية، والاسبتارية، ورهبان طائفة التيوتون للقديسة مريم، والقديس لعازر (لازاروس)، وتمزيقهم،

وإعدامهم.

وتعرضت مدينة القدس المقدسة، مع كنائسها المقدسة، وأماكنها التي تقدست بحضور المسيح للدمار مرتين، وفي المرة الأخيرة سويت مع الأرض بشكل وحشي، من قبل الخوارزمية وسلطان مصر.

وحدث كسوف للشمس مرتين خلال ثلاث سنوات، وظهرت ثانية أعجوبة مدهشة في السماء، عنها جرى تقديم رواية كاملة في هذا الكتاب، وكان ذلك في سنة النعمة ألف ومائتين وثلاث وثلاثين، ووقعت هزات أرضية في انكلترا، وكان ذلك حتى في تشيلتيرن، لعدة مرات، وفي مقاطعات سافوي، جرى سحق خمس قرى، مع كنائسهم، وبيوتهم، وسكانهم بركام الجبال الذي سقط عليهم، وحدث فيضان للبحر غير اعتيادي ومدمر، مثله لم يشاهد من قبل، وشوهد في إحدى الليالي سقوط عدد لايحصى من النجوم من السماء، بحيث كان هناك في وقت واحد، وفي اللحظة نفسها عشر نجوم أو اثنتي عشرة نجمة تتطاير هنا وهناك في وسط السماء، وكان بعضها يتطاير في الشرق، وبعضها الآخر في الغرب، وبعض في الجنوب، وبعض في الشمال، ولئن كانت هذه النجوم نجوماً حقيقية، لما بقي نجم واحد في السماء، ولم يمكن العثور على سبب منطقي واضح لهذه الحادثة في الكتب حول الأنواء وعلم الهيئة، باستثناء أن تهديد المسيح كان وشيكاً ومحيقاً بالناس، وهو قوله: «ستكون هناك علامات بالشمس» إلخ، إلخ.

وجرى عقد مجمع مسكوني مرتين في روما، وفي ليون: وفي المجمع الثاني منهما (في ليون) جرى خلع الامبراطور الروماني فردريك، ووقع بالأسر الكاردينال أوتو، الذي كان من قبل النائب البابوي في انكلترا، وجاء وقوعه بالأسر قرب جنوى، مع عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، والقساوسة، وبعض الجنويين، الذين غرق منهم عدد كبير.

وفي ويلز حدث أنها بعدما فقدت أميرها للويلين، وولديه بالتوالي، اللذان واجها موتاً مبكراً، خضعت إلى القوانين الانكليزية، ولحكم الملك الانكليزي.

أما غسكوني التي تحركت ضد سلطة ملك انكلترا، فتم اخضاعها من قبل سيمون ايرل ليستر.

وعبر الملك هنري الثالث البحر مرتين مع جيشه، ليسترد حيازة ممتلكاته في القارة، بالقوة، وخاصة نورماندي، التي جرى انتزاعها من أبيه، بوساطة قرار من النبلاء النظراء الاثني عشر لفرنسا، لأنه تلطخ بقتل ابن أخيه آرثر، وعاد هذا الملك مرتين مهاناً، ومجللاً بالعار، ورجلاً فقيراً.

وجرى استرداد جزء كبير من اسبانيا وإعادته إلى المسيحية، وذلك مع عدة من مدنها الجليلة، التي كان من بينها: قرطبة، واشبيلية، وبنشكلة Peniscola مع مدن أخرى، وكذلك جزيرتي: ميورقة، ومنورقة، وأماكن أخرى كثيرة على الساحل، وجاء الاستيلاء عليها من قبل الملوك المنتصرين لقشتالة.

وفي المناطق الشمالية، تم الاستيلاء على جزء كبير من فريزلاند، وروسيا، وذلك إلى امتداد سفر اثني عشر يوماً، وذلك من قبل وولدمار Waldemar, ملك داشيا Dacia, حتى أنه جرى اكتساب سبع أسقفيات للمسيح بوساطة هذه الحادثة.

وهرب البابا، أو بالحري طرد من مدينة روما بوساطة تنكيل الامبراطور فردريك، ونفى نفسه، واتخذ مقراً لذاته متخفياً في أناني Anagni وبيروسيا Perusia,ذلك أنه اتهم من قبل الامبراطور المذكور، بأنه سعى إلى الاستيلاء على الامبراطورية، عندما كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وقام الداوية أيضاً،

بسبب الحقد المثار بهم من قبل البابا بانتهاز الفرصة، والسعي إلى تسليم الامبراطور، ووضعه بين يدي سلطان مصر.

وإثر وفاة البابا غريغوري، بات الكرسي البابوي شاغراً لمدة سنة وتسعة أشهر، وقد جلس ثلاثة على الكرسي الرسولي خلال عامين، وكان هناك واحداً من الكرادلة، متميزاً أكثر من البقية، هو المعلم روبرت سمركوت، وكان من أصل انكليزي، وقد جرى قتله خنقاً في القصر، الذي عرف باسم قصر الشمس، خشية من أن ينتخب بابا، وصدوراً عن الحسد كما قيل، وأخيراً جرى انتخاب سينيبولد Sinibald, وكان كاردينالاً، انتخابه بابا تحت اسم انوسنت الثالث، وقد سار على خطى سلفه، فحرم كنسياً الامبراطور فردريك وظل يهرب من قصر إلى قصر، ليتجنب اضطهاد الامبراطور، وذهب أخيراً إلى ليون، حيث تولى في مجمع مسكوني، خلع الامبراطور المذكور، وتولى من دون حياء استخرام مبلغ من المال من أساقفة الكنيسة، وسعى بوساطة هذا المبلغ إلى ترقية لاندغريف ثورنجيا، وبعد ذلك وليم كونت هولاند، إلى العرش الامبراطوري، وقد مات الأول من هذين، وألحقت الهزيمة بالثاني، فأخفق في مقصده.

ووجد الممارسون للربا، الذين اسمهم الـ Caursins, والذين عدّوا مسيحيين، مكان التجاء، وموضع استقرار وهدوء في انكلترا، أولاً بموجب تساهل من البابا فقط، لكن بعد ذلك تحت حمايته المكشوفة، ولذلك أطلقوا بلا حياء، على أنفسهم، اسم تجار البابا، وصرافيه.

وجرى تعليق الأساقفة وحرمانهم من استغلال منافعهم الكنسية، حتى تتم تلبية طلبات الجشع البابوي وارضائها، من أجل أتباعه الذين لايستحقون، والذين لم يظهروا قط في انكلترا، ولم يزعجوا أنفسهم للقيام بأعباء المسؤولية عن الأرواح والأنفس.

وظهرت طوائف رهبانية متعددة ونبعت بأعداد وافرة، ففي البداية ظهر الدومينيكان، وبعدهم الفرنسيسكان، وظهر الآن حملة الصليب، ثم ظهر الكرمليون، وفي ألمانيا نشأت هناك طائفة النساء العفيفات، اللائي حملن لقب الـ Beguins, وقد غدا تعدادهم كبيراً جداً، إلى حد أن ألفاً منهن أو أكثر أقمن في كولون وحدها، ومارس هؤلاء الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان في البداية حياة فقر، وقداسة عظيمة، وكرسوا أنفسهم لأعمال الوعظ والتبشير، والاعترافات، وللواجبات اللاهوتية في الكنيسة، وللقراءة والدراسة، وتخلوا عن كثير من الموارد، وتبنوا فقراً تطوعياً في خدمة الرب، ولم يحتفظوا بشيء لأنفسهم لليوم التالي، لاسيما من أنواع الطعام، غير أنهم حصلوا خلال أعوام قليلة لأنفسهم على ما جعلهم في أحوال رائعة، فبنوا بيوتاً ثمينة، وعلاوة على ذلك، جعلهم البابا —على الرغم من إرادتهم— المتسلمين للضرائب، والوكلاء الذين يستخرجون الكثير من الأتاوات لصالحه، ويبدو أن الزمان قد عاد بالحقيقة، إلى الوقت الذي كان فيه القديس بندكت، الذي بروح جميع القديسين، قد عمل اشارة إلى هذا، في بداية نظامه، وذلك حيث عالج قضية مختلف أنواع الرهبانيات، هذا ولم تنحدر طائفة القديس بندكت، ولا طائفة القديس أوغسطين طوال الوقت الطويل منذ تأسيسهما أولاً، مثلما انحطتا في هذه الأيام.

وأشع القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، الذي وجد جسده غير مهترىء في بونتغناك، والقديس روبرت الناسك الذي كان في نارسبورا Knaresborough, والقديس روجر، أسقف لندن، مع عدة قديسين آخرين، أشعوا وانتشر صيتهم بوساطة عدد من المعجزات المدهشة، التي عملت عند قبورهم، ومثلهم أيضاً القديسة ايليزابث، ابنة ملك هنغاريا، والقديسة هيلديغارد Hildegarde, التي كانت نبية في ألمانيا.

وأعيد بناء كنيسة ويستمنستر، وتمت إشادة معبد ذهبي بأعمال ذات نفقات عالية جداً، من قبل الملك هنري الثالث، من أجل استخدام القديس ادموند، وجلب إلى انكلترا بعض دم المسيح، وحجرة تحمل طبعة قدمه، ووضعت في ويستمنستر بمثابة هدية من الملك.

أما بالنسبة لهرطقات الألبينيين Albigenses والجوفينانيين Jovinians مع هرطقات كثير من الشعب الايطالي، التي نمت لها فروع كثيرة، فقد جرى تدميرها في هذه الحقبة.

وجرى مسح هاكو وتتويجه ملكاً على النروج.

وسار الرهبان السسترشيان على خطى رهبان الطائفة السوداء، فحصلوا على اعفاء من البابا، فعمروا أبنية موائمة في باريس وفي أماكن أخرى، حيث ازدهرت جماعات العلماء، وامتلكوا مدارس هناك، حتى لايكونوا موضع عدم احترام من قبل الدومينيكان والفرنسيسكان.

وتمت حيازة الكرسي الجليل لكانتربري مع الكنيسة، من قبل شخص غير كفء، أقحم من قبل الملك، مع أن هذا الكرسي كان متميزاً وقد تقدس من خلال كثير من رؤساء الأساقفة في الأزمنة الماضية، وقام هذا الدخيل، وقد حرضه المثل الذي ضربه أسقف لنكولن، الذي لم يعبأ بمعارضة كهنته، فحصل على سلطة زيارتهم زيارات تفقدية، فاستخرج في السنة الأولى منافع الكنائس الشاغرة، لمدة سبعة أعوام، وظلم بذلك الكثيرين ممن كانوا خاضعين له.

وفي السنة الأخيرة هذه من نصف القرن الأخير، حصل المسلمون على نصر فرضوه بإرادتهم، وجرى تمزيق الجيش الصليبي كله، الذي تألف من نبلاء جميع فرنسا، والداوية، والاسبتارية، وفرسان طائفة التيوتون للقديسة مريم، وفرسان طائفة لعازر، وتقطيعه إلى أشلاء، وجرى بالوقت نفسه أسر لويس، الملك التقي لفرنسا، مع أخويه:

كونت بواتو، وكونت بروفانس، وكان وليم لونغوسبي هناك، وقد قتل مع كثير من نبلاء انكلترا، وهرب كونت أرتوي، أخو الملك الفرنسي، من المعركة، وغرق.

وخسر البابا والبلاط الروماني كله الحظوة والمكانة لدى رجال الدين، وكذلك لدى الناس، لأن الصليبيين جرى بيعهم،وحللوا من عهودهم، مقابل دفع المال، وتأخروا وأعيقوا بطرق كثيرة مضاعفة.

وانزعجت المسيحية كلها واضطربت، وتعرضت الكنيسة العالمية للخطر، بسبب الحروب التي تفجرت عن الكراهية وصدرت عن عدم الاتفاق بين البابا وفردريك.

وحمل الملك هنري الثالث الصليب، ومثله فعل كثير من نبلاء انكلترا، وكذلك فعل كثير من ملوك، وأمراء، ونبلاء، وأساقفة العالم المسيحي، وكان راعي الدير الوحيد الذي فعل مثل هذا، هو راعي دير القديس إدموند، الذي نسي أنه مع القلنسوة الرهبانية، قد تعهد بأن يحمل بشكل دائم صليب المسيح، وسط سخرية الكثيرين، فهو حين تسلم الشارة المزيفة للصليب، بحضور الملك ومعه، عمل عملاً له بشكل واضح طعم التملق.

وفي هذا العام المميت، غادر خلاله إلى المسيح عدد كبير جداً من النبلاء، الذين كانوا قد تركوا أوطانهم، وزوجاتهم وأولادهم، وأقربائهم، وأصدقائهم، ليقاتلوا بإخلاص في سبيل المسيح، وكان هؤلاء جميعاً بشكل واضح شهداء، وأسماؤهم التي لايمكننا تقديمها في هذا الكتاب، بسبب عددها الكبير، هي قد دونت بأحرف لايمكن مسحها في كتاب الحياة، وهم أنفسهم قد تسلموا تاج الشهادة، وفقاً لما استحقوه.

وعلاوة على ذلك، توفي في يوم عيد القديسة لوسيا، فردريك أعجوبة

الدنيا، وكانت وفاته في أبوليا.

ووقعت هذه الحوادث المدهشة جميعها خلال نصف القرن الأخير، وهي حوادث غريبة مثلها لم يشاهد قط أو سمع به، كما لايمكن العثور عليه في أي من كتابات آبائنا في العصور الخالية.

**** **** **** ****

هنا نهاية تواريخ الراهب متى باريس، الذي هو من رهبان القديس ألبان، وقد تولى كتابة هذه التواريخ لصالح الأجيال المقبلة، صدوراً عن محبة الرب، ومن أجل تشريف القديس ألبان، رائد الشهداء الانكليز، وذلك من أجل أن لاتتعرض ذاكرة الحوادث الحديثة للدمار بوساطة تقادم الزمن أو النسيان:

منذ أن حملت العذراء أولاً بولدها، انقضى

ألف واحد ومائتين وخمسين مرة

جرى فيها سياق الأعوام حتى الآن، وخلال جميع ذلك الوقت

لم يقع الفصح قط في اليوم السادس

قبل غرة نيسان، في السنة

التي أنهت نصف قرن، باستثناء السنة

التي انتهت الآن.

لقد انقضى على هذا خمسة وعشرين نصف قرن، منذ تجسيد ربنا، ويبدو أن الفصح لم يحتفل به في سنة اليوبيل، التي هي السنة الخمسين، في وقته الصحيح، أي في السادس والعشرين في هذه السنة الأخيرة:

تاريخ متى انتهى هنا

وأرسلت سنة اليوبيل

وأنزلت رقوداً من السماوات

وأعطى أيار رقوداً له

هنا على الأرض، وفي عليين في السماء

عندما فيها سيقوم هناك

ومن المعتقد، ومانعتقده ليس من دون أهمية، أن جميع العناصر الأساسية قد عانت في هذه السنة الأخيرة، من الضرر والنار، لأنه في ليلة عيد الميلاد الذي مرّ مؤخراً، أشعت السماء بطريقة مرعبة، معاكسة للمسيرة الطبيعية للطبيعة والهواء، وحدث أيضاً أنه في أسقفية نورويك وفي المناطق المجاورة لها طولاً وعرضاً، كانت السماء قد غطيت بالضباب، واضطربت برعد غير طبيعي، وليس في موسمه، وذلك لوقت طويل، وقد حجبت بغيوم كثيفة، كما أنه لم يسمع منذ زمن طويل مثل هذا الرعد المخيف، كما أنه لم يشاهد مثل ذلك البرق حتى في الشتاء، وكذلك حدث أن البحر قد تجاوز حدوده الطبيعية، ودمر الأماكن المجاورة له، كما حدث أيضاً أن الأرض اهتزت في انكلترا، لابل حتى في تشيلتيرن، التي هي بالعادة أرض حوارية وصلبة:

متى تعبك هنا انتهى

أوقف قلمك ولاتتعب أكثر

ولاتطلب الذي سيجلبه المستقبل

فجيل آخر لديه أشياء أخرى*.

---

* يبدو أن متي باريس توقف عند هذه النقطة من تاريخه، ولم يتابع العمل فيه لبعض الوقت، غير أنه استأنف العمل فيما بعد وكتب التكملة.

عام ألف ومائتين وواحد وخمسين

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ألف ومائتين وواحد وخمسين، العام الخامس والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث:

فيه أمضى الملك عيد الميلاد في وينكستر، وبسبب أن أخاه —كما تقدم الذكر— ايثيلمار قد جرى ترشيحه لشغل الكرسي الأسقفي لوينكستر، الذي كان شاغراً، كبح يديه الجشعتين عن نهب وسلب ممتلكات الأسقفية، حسبما كانت عادته الطبيعية، ولكن بما أن العادات القديمة لايمكن نسيانها بسهولة، أمر بالأشجار بأن تقطع وأن تباع، وأن يجري جمع المال الذي سيتم تحصيله من البيع وأن يضاف إلى خزينته، مع أنه أخبر بكل وضوح بأن مثل عملية السلب تلك هي بلا شك لن تفيد الذين كانوا ذاهبين إلى الحج، للقتال في سبيل الرب.

حول عاصفة رعدية جاءت في غير موسمها في الشتاء

وفي حوالي هذا الوقت، أي في ليلة عيد الميلاد، سمع رعد مخيف، وعدّ ذلك بمثابة دليل على غضب الرب، وظهر هذا بشكل خاص في أسقفية نورويك، وفي المناطق المجاورة لها، ولمع برق وقذف بشرره، وقد ترافق مع هياج غير معتاد للهواء، وفي غير موسمه، مما أوقع رعباً عظيماً وخشية شديدة في قلوب الجميع، الذي سمعوا ذلك ورأوه، وقال اللاهوتيون بأن هذا نذير بكاء كبير في المستقبل.

عدم توزيع الملك أية ملابس بمناسبة العيد

وفي هذا العيد الذي يحتفى به كثيراً لم يوزع الملك أية ملابس عيد على فرسانه، وعلى آل بيته وحاشيته (ولعله لم يفعل ذلك للتوفير لأنه كان قلقاً على حجه)، مع أن جميع أجداده قد مارسوا أعمال التوزيع منذ عصور قديمة، حيث كانوا يمنحون ملابس ملكية، وجواهر ثمينة.

كيف جرى إلغاء نفقات المائدة الملكية

وجرى أيضاً إلغاء المائدة الغنية والضيافة الملكية، وقام الملك من دون حياء، بالسعي لنيل الاقامة ووجبات طعامه مع رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، و الكهنة، ورجال من درجات متدنية، حيث أقام معهم، وسألهم منحه الهبات والهدايا، و في الحقيقة هو لم يعدّ الأشخاص الذين اقتصر عملهم فقط على تقديم الضيافة والمعاملة الفخمة له، ولحاشيته، وللملكة والأمير ادوارد ورجال البلاط، بأنهم متأدبين وكرماء، إذا لم يرفقوا ذلك بتخصيصه بهدايا كبيرة وفخمة، وفي الحقيقة هو لم يخجل بسؤالهم، ولم يكن سؤاله لهم تقديم معروف له، بل توجب عليهم ذلك لأن هذا كان حقه.

وفي هذه الآونة أيضاً، بعدما تناول الملك مؤخراً وجبه طعام عند روبرت باسلو في بيعته في ويستمنستر، أثقله بتوبيخات مهينة، فما كان منه إلاّ أن أجازه الآن ببعض الهدايا الثمينة، كما أن رجال البلاط، والحاشية الملكية، لم يقبلوا أية هدية، مالم تكن ثمينة، وغالية الثمن، مثل أن يكون ذلك: جياد جميلة، وكؤوس من الذهب أو الفضة، وعقود بجواهر منتخبة، وأحزمة امبراطورية، وماشابه به ذلك من أشياء، وصار بلاط الملك مثل بلاط روما، حاضنة، أو بالحري، يمدد نفسه، مثل عاهرة، من أجل الربح.

وكان عدد الذين قتلوا من جيش الملك الفرنسي —بسبب رعونة كونت أرتوي— أكثر من ستين ألفاً، وعشرين ألف رجل كانوا تحت السلاح، وذلك بالاضافة إلى الذين غرقوا، مع آخرين اختفوا أثناء الفرار، والذين سلموا أنفسهم عن طواعية إلى العدو، وصاروا مرتدين عن المسيحية، وسبب هؤلاء للمسيحيين أذى أعظم مما فعله أعداؤهم الآخرين.

ولم يختلف رقم مبلغ المال من أجل فـدية الملك، الذي وقع بالأسر، من خلال غضب الرب، كثيراً عن رقم تعداد الذين قتلوا، حيث كان ستين ألف باونـد، من أفضل أنواع الذهـب الخالص، أي من النقـود الاستيرلينة، إلى جـانب بعض الأموال العـامة الأخرى، من نقـود تور وباريس، وكـان ذلك مبلغـاً هائـلاً، ووقعت هذه المذبحـة في سنة النعمة: ألف ومائتين وخمسين، وجـرى دفع الفدية، مع تقديم الرهائن من أجل ذلك، في السنة التـاليـة، أي في سنة ألف ومـائتين واحـدى وخمسين.

كيف فرضت الحراسة بمزيد من الشدة على سجناء الإمبراطور

وفي هذه الآونة، كـان هناك ثلاثة أو أربعـة أشخـاص من كل مـدينة من مـدن ايطاليا، مع بعض المواطنين من دول أبوليـا، ممن حاربوا ضـد فردريك وابنه، وكانوا مودعين في سجن فردريك (وكلهم كان قد اعتاد أن يسميهم خونة أو متمـردين ضده) هؤلاء جـرى إرسالهم بعـد موت فـردريك من قبل ابنه كونراد إلى منـاطق نائية من أراضيـه، أي إلى نابل Naples وبلرم في صقليـة، حتى يمكن حـراستهم بشـدة أعظم، ويكونوا أكثر حفظاً، وقد فعل كونراد هذا بناء على نصيحة أبيه، وجرى تسليم بعض السجناء إلى هنري بن فردريك، والذي هو أيضاً ابن أخت ملك انكلترا، غير أن وضع هؤلاء السجناء في سجـن فـردريك، وكـان من بين هـؤلاء السجناء ابن مـركيـز مـونتسرات Montserrat, وهو الذي جـرى تقديمه بدلاً عـن انسيوس، وكان ولداً آخـر من أبناء فـردريك، وكان مـايزال سجيناً لدى البـولونيين، ذلك أن المعـاهدة من أجل هذا التبـادل كـانت على وشك الابرام، عندمـا تـدخل مـوت فردريك، وحال دون الاتفاق النهائي عليها.

كيف ثار أبناء فردريك وأصدقائه ضدّ البابا

ثم شرع أبناء فردريك مع أصدقائه، الآن بتقوية أنفسهم، ومن ثم التحرك ضد البابا، وصحيح أن رأساً قد جرى قطعه —حسب ماحدث في قضية هيدرا Hydra, التي قيل بأن هرقل قد قتلها— نمت عدة رؤوس في مكانه، لأن كونراد، كان فارساً شجاعاً جداً هو نفسه، ومحبوباً، ومخشياً جانبه من قبل جميع الامبراطورية، لأنه كان ابن ابنة جون الذي كان لايغلب، وكان ملكاً على القدس، وأيضاً لأن هنري —أخي كونراد— كان شاباً وسيماً، ومقبولاً من الجميع، وقد كان موضع تقدير من قبل جميع أصدقاء الامبراطور، لأنه كان ابن الامبراطورة ايزابيلا، التي كانت محبوبة من قبل الجميع، وكان أيضاً ابن أخت الملك المسيحي التقي لانكلترا، هذا وكان البابا، بسبب جشعه، وكذلك جشع بني جلدته كلهم، هدفاً للكراهية العالمية ولكراهية أتباع الامبراطورية، ولذلك غدت الكنيسة، بسبب تزايد تنكيلها في وضع خطير جداً، وعانت من أضرار مضاعفة، وكانت استعادة ذكريات كوارث الماضي، أيضاً شوكة في أعين الذين وقفوا إلى جانب البابا، وهكذا نجد هنري راسبي Raspe, الذي كان لاندغريف ثورنجيا، والذي استهدف البابا أن يرقى به إلى العرش الامبراطوري، والذي من أجل ترقيته أنفق مبلغاً كبيراً من المال، قد هلك في ميتة مهينة، وبعد موته جرى اختيار هنري أوف غولديري Gueldres, لكنه لدى تفكره بالميتة المهينة للذي تقدم عليه، رفض هذه الترقية، وجرى من بعده اختيار دوق برابانت واللورين، لكنه رفض هذا العرض رفضاً تاماً، وكان الذي وقع الاختيار عليه بعد ذلك لشغل المنصب ايرل رتشارد، لأنه كان رجلاً داهية، ولديه أموالاً كثيرة، وأيضاً لأنه كان أخاً لملك انكلترا، لكنه رفض كلية المنصب، بسبب أن حظوظ الحرب كانت موضع شك، ومن بعده اختار البابا وليم كونت هولاندا، الذي بطيش

وافق على ذلك، وهو الآن، بعدما فقد كل شيء، قد أرغم على العودة إلى أراضيه، وفي الحقيقة، هي الآن ليست أراضيه، لأنه كان قد أعطاها إلى أخيه، ولذلك قد أرغم الآن، على الاستجداء، وقد ازدرى مكر البابا ووعوده، وبعد هذا كله، سعى البابا إلى وضع هاكو، ملك النروج، على العرش الامبراطوري، مكان فردريك، وفي سبيل أن يحوله لأن يكون مناسباً، وأكثر حظوة وموائمة لمقصده، تدبر أمر تكريسه وتتويجه ملكاً، لكن إثر تتويجه مباشرة، أعلن الملك المذكور صراحة بأنه كان دوماً على استعداد لشن الحرب ضد أعداء الكنيسة، ولكن ليس ضد أعداء البابا، وهذا ما كان هذا الملك قد أعلنه لي، أنا متى كاتب هذه الصفحات، ولكن بوساطة يمين عظيم، وإنه بسبب معطيات الظروف المبينة أعلاه، أحاقت المخاطر وتفجرت يومياً من كل جانب لتصيب الكنيسة.

حول الخلافات بين اثنين من أعظم السلاطين قوة

وفي حوالي الوقت نفسه نشب خلاف بين اثنين من أعظم أمراء المسلمين قوة، هما سلطان حلب وسلطان مصر، وذلك بسبب قبول الفدية من الملك الفرنسي، واطلاق سراحه من بين أيدي المسلمين، من خلال جشع سلطان مصر، لأن الشرقيين قالوا بشكل عام، بأنه كان ينبغي عدم فقدان مثل هذه المنحة الثمينة، وأن هذا ما كان ينبغي أن يحدث لولا تقاعس المصريين وجشعهم، ولذلك تعرض السلطان المذكور للهجوم من كل جانب، من قبل المسلمين، وخاصة من قبل سلطان حلب، وأرغم على الاعتراف بهذا، وأيضاً على ارسال رسالة إلى الملك الفرنسي، يتوسل إليه بتواضع لعقد السلام معه، وعرض بنود إقامة صداقة على أساس شروط محددة وصالحة، ومن خلال ذلك، ومن معطيات الظرف توفرت الآمال، بأن الحفاظ على القدس سوف يكون ممكناً بفعالية.

وفيما يتعلق بهذه القضية، تلقينا رسائل موثقة ومختومة من مقدم

الاسبتارية في القـدس، وإذا ما رغب أي واحد برؤيتهم، عليـه العودة إلى كتاب Additaments, وقـد شعــر الشخص الذي قتل السلطان بالتجبر والتفــاخــر، إلى حــد أنه أثار غضـب جميع شعب الشرق، لأن السلطان الذي جـرى للتـو قتله بشكل خيـاني، كـان مستقيماً، ومعتـدلاً، وواحـداً غيـوراً من دون تعب على إيمانـه وعهـده، ولأنه تعـرض للنقـد الشـديد أثناء حياته، وللمـلامـة لأنه سمح بفـدية الملك الفرنسي وتركـه يغـادر حيـاً، قيـل بأنه قـد ردّ كما يلي: « ياأصـدقـائـي، أنتم تعلمـون أنه الأعظم نبـلاً بين جميع المسيحيين، ولذلك لو أنـه قتل، لشعـر أقــرباؤه، الذين هم كثرة كثيرة، في قرارة قلوبهم، بوجـوب الانتقام له، وعلاوة على ذلك إنني كنت سأخسر مـال الفـدية، لأنه بدفع هذا المال سيلحق الفقـر بفـرنسا، وسينال المسلمـون الغنى والسرور، كما أنني لم أتجرأ على اقتراف ذنب دس السم لمثل هذا الشخـص، صـاحـب مثل هذه المرتبـة العــاليـة، خشيــة من أن تثير مثل هذه الخيــانة الكبيرة الـرب والمسيحيين، ولذلك دعـونا نكون راضين بفضل محمـد (صلى الله عليـه وسلم)، وبدمـار مثل هذا الملك العظيـم، الذي هزم، وأخــذ أسيراً، ودفع الفـديـة، وذلك مع العلم أنه لايوجد شخص له مرتبة عالية، أو حتى هو معروف، يمكنه أن ينجو من بين أيـدينا، ونحن فرحون في تملكنا لأشخـاصهم، وأسلحتهم، وخيولهم، وأمـوالهم، وعلينا أن نفتخر بالنصر الذي فـاق جميع الثروات»، ولم ترضهم هذه الإجـابة فقط، بل إنها ألهبت غضبهم وزادته، وقـالوا له: «أنت تكذب بدناءة، لأننا لو قتلناه، أو أودعناه في السجن الدائم، لقـذفنا بالرعـب وبالاحترام في قلوب جميع شعـب الغــرب، لكن الجشـع أعمى قلبك»، وقبل أن يحذر ذلك السلطان ويكون متنبهاً، طعن بخنجر، ومات بطريقـة مـؤلمة، والخائن الدمـوي الذي —كما ذكـرنا— تولى قتله، مع أنه مـولاه، قـد حلّ محله، وخبر مقتل هذا السلطان وتعيين السلطان الآخـر، جـرى اعـلام الايرل رتشارد بـه، برسالـة يمكن العثور عليهـا في كتـاب Additaments.

حول صبر الملك الفرنسي

وفي الوقت نفسه تحمل الملك الفرنسي المسيحي التقي جميع الانتكاسات بصبر وصمت، وبقي في عكا ينتظر المساعدة، ويرجو صلوات الرهبان، وبشكل خاص الذين كانوا في الهيئة الرهبانية لطائفة السسترشيان، حتى يمنحهم الرب لطفاً ويمنّ عليهم بالهدوء، بعد تلك العواصف الثقيلة، وقام أيضاً، كما تقدم الذكر من قبل، بارسال أخويه، اللذين عقد عليهما آمالاً كبيرة، ووضع بهما ثقة عظيمة، وقد بعث بهما إلى المناطق القريبة من جبال الألب، ولكنهما —على كل حال— نسيا يوسفهما، وتوليا القيام بالواجب الذي فرض عليهما، بإهمال كبير، وأخرا القضايا إلى درجة أنهما بديا وكأنهما غير راغبين بمساعدته، وذلك وفقاً لكلمات الفيلسوف: «المماطلة الطويلة هي تردد كبير».

وصول غي أخي الملك من الأرض المقدسة

أثناء الاحتفالات المهيبة لعيد الميلاد، وصل غي، أخو الملك لأمه، وهو عظيم السرعة، من الأرض المقدسة، وليس معروفاً فيما إذا كان قد جاء فاراً من المعركة، وعلى كل حال من الممكن القول أنه بالنسبة لمقامه، بأنه هرب بحكمة ونجا من السجن في دمياط، بعد إعادة تأسيس السلام، وبما أنه وصل إلى انكلترا في حالة من الفقر، وكان مسافراً على قدميه تحول وهو على طريقه إلى دير فيفرهام Feversham, ليطلب الضيافة، وقد استقبل هناك بلطف وعومل بفخامة وكرم، ثم إنه سأل راعي الدير بأن يتفضل صدوراً عن رعايته له، وبسبب مكانته، ولاحترامه للملك، بإعارته وأصحابه، بعض الخيول، وأيضاً بعض الخدم، إلى أن يتمكن من الوصول إلى لندن، معلناً ومقسماً، أنه بمجرد وصوله إلى هناك، هو سوف يعيد الخيول ويرسلها مع الخدم مصحوبة بكثير من الشكر، وعلى هذا وافق راعي الدير، ولبى مطالبه، ولكن عندما وصل غي المذكور إلى

لندن، لم يخف من نيل تهمة نكران المعروف، مع الخزي البواتي القديم، ولـذلك لم يعـد الشكر إلى راعي الدير، كما لم يرجع الخيـول، بل أعـاد الخدم فقط، بعـدمـا أغضبهم بشتـائـم لايمكن ذكـرها، وعلى هذا من الممكن مقـارنة هذا الضيف، الذي هو بلا حيـاء بأفعى في الصـدر، أو بفـأر في الجبن.

كيف أغنى ملك إنكلترا إخوته

وعندما رآه الملك، اندفع مسروراً، واحتضنه بسرور أخوي، وبما أنه وجـده فارغ اليـدين، يتطلع لنيل المال الملكي، أعطاه على الفور مبلغـاً كبيراً من المال، كان قد أخـذه من اليهود، وعلى هذا فإن الحقائب التي كانت فارغة على ظهـور الخيل، امتلأت الآن بخمسمائة باوند، وعلاوة على ذلك أعطى إلى أخيـه غيـوفـري المسـؤوليـة عن بارونيـة هيستنغ Hastings الفخمـة، التي كـانت شـاغـرة آنذاك، وهكذا ضلل النبلاء المحليين لانكلترا، الذين هم رعاياه الطبيعيين، وحرمهم من كل شيء، وعيّـن الأجـانب كل يوم في مكـانهم، وبذلك يمكن للانكليـز الشكاية محقين، وأن يـرددوا مع النبي قـــوله: «أعطيت مـــواريثنا إلى الآخرين، وبيوتنا إلى الغرباء»، كما أن الملـك لم يكن قانعاً بالتوزيع غير المعقـول بين العلمانيين والأجـانب، المال، الذي توجب عليـه حفظه، لتأمين شراء الضروريات من أجل حجه، بل سعى بمـواظبة للحصول على ترقية الأجانب غير الأكفاء، وغير الجديرين، إلى المراتب اللاهوتية العـاليـة، وتسليحهم وتشجيعهم ضـد الانكليـز، والدفـاع عنهم في القضايا القضائيـة المرفوعة ضدهم، لأنه كان قـد كتب إلى البابا يرجوه بحـرارة أن يبـدي بشخصـه الرعـاية نحـو بونيفيس، رئيس أسـاقفـة كانتربري، في القضية القائمـة بينه وبين أساقفة انكلترا، وبشكل خاص بينه وبين أسقف لندن وكهنتهـا، وذلك حتى لايحبط رئيس الأسـاقفـة المذكور في أي من رغباته وخططه.

كيف أقسم أسقف لندن على الالتزام بمراسيم رئيس الأساقفة

وعلى الرغم من أن أسقف لندن قد تعـرض مؤخراً إلى الإيذاء الكبير من قبل رئيس الأساقفة، الذي حرمه كنسياً، وتسبب بنشر قرار الحرمان الكنسي في الطول والعرض، إنه عندما تأمل في هذه الأشياء كلها، ونظر إليهـا بعين الحكمة، وتفكر فيهـا قـال لنفسه: «إن شرف انكلترا ينحـدر بسرعـة، ورئيـس الأسـاقفـة يقـوم باضطهــادي والتنكيل بي وبجميع الانكليـز، ومع أنه أجنبـي، يتـولى مضـايقتي مع أنني مـن أهل البـلاد، وشخصيـة متميــزة بدم نبيل انكليــزي، ثم إنه عندمــا سيمتلك الملك الفـرصة للتعبير عن غضبـه نحـوي ونحو أسرتي، سـوف يسخر نفسـه لفعل ذلك بكـل سرعــة وسرور، ولســـوف يجرد أقــربائـي من جميع ممتلكاتهم، بكل وسيلة مـن الوسـائل في قــدرته، ومن ثم ســوف يغني الأجــانب بها، وبذلـك فإن الشرور ســوف تتكدس فــوق الشرور في انكلترا»، ولدى تفكيره بعمق حـول هذه الاحبـاطات، وجـد نفسـه في وضع صعب، وكأنه مسحوق بين حجري رحا، وقد سيق ودفع إلى هذا الجانب وإلى ذاك، فمن الجانـب الأول كــانت هناك قضيـــة الكنيســة وكرامتها، ومن الجانب الآخر عنف الغضب الملكي.

واختــــار أخيراً —في سبيل أن يعــــاني من أدنى أذى ممكن، مـع أنه انزعج وتألم تحت الأذى— أن يتواضع بنفسه لبعض الوقت، وأن يقسم على الالتزام بمـراسيم رئيس الأساقفة، مـع أنه عدو، بدلاً من أن يخاطر في نيل غضب الملـك، و حصل بهذه الوســائل على التحليـل من قــرار الحرمـان الكنسي الذي صدر ضـده، وذلك في الوقت الذي عجب فيـه كثيرون من عـدم خوفـه من تهديد النبي في قوله «ويل لك يامن تسـوغ عمل الرجل غير التقي».

ذهاب البابا إلى بيروسيا

وفي حوالي الوقت نفسه، بعدما أمضى البابا شهراً وزيادة في ميلان، وسط كثير من القلق، تابع سفره إلى المدينة (روما)، وأثناء عبوره خلال المدن التي كانت على طريقه، أنفق مبالغ كبيرة من المال، ووصل أخيراً إلى بيروسيا Perusia, حيث رأى أنه سيكون من الحكمة والأفضل له البقاء، لأنه فهم أنه إذا ما ذهب إلى روما، سوف يستخرج منه شعب روما مبلغاً كبيراً من المال بالقوة، وأنه لن يمتلك القدرة على الوقوف بوجههم وفق شروط متساوية، لأنه سوف يكون داخل شباكهم، ولذلك، وعلى الرغم من أن الرومان رغبوا بحضوره، لم يذهب إلى هناك، خائفاً من المؤامرات، التي نجا منها منذ بعض الوقت، وقال وكأنه كان يخاطب روما:

إن آثار الأقدام تلك التي تشير إلى الوكر فقط

تخيفني كثيراً، لأنه لاتوجد آثار تشير إلى طريق العودة.

إجراءات شكاوى البنادقة مع آخرين ضدّ ملك فرنسا

وفي هذه الآونة أيضاً، شكل البنادقة، والبيازنة، والجنويون مؤامرة ضد ملك فرنسا، وضد أخويه، وضد رعيته، مع أنهم كانوا ليسوا بحاجة للمشاكل وللاضطراب والأذى، ذلك أنهم قالوا بأنهم تمكنوا بالقوة من الحصول على مدخل إلى دمياط قبله، غير أنهم طردوا بعد ذلك من المدينة بسبب جبروت وعنف الفرنسيين عندما وصلوا، كما أنهم اتهموا الملك الفرنسي بممارسة الفوضوية، وبالخيانة، والجبن، ذلك أنه عندما كان الملك جاهزاً للاقلاع برحلته، أبعد عشرة آلاف رجل من رماة القسي الزيارة، كان من بينهم بنادقة، وبيازنة، وجنويين، وكذلك بعض الفرنسيين، ولم يتعب نفسه بأخذهم معه، مع أنه قد استدعاهم، ووعدهم بأن يدفع لهم مبلغاً محدداً من المال عندما سينطلق، وبإجرائه

هذا الذي قضى بابعادهم، هو أرغمهم على العودة إلى حالة من التسول، فعندما عادوا إلى مناطقهم، لم يسمح لهم حتى بالاقامة في البيوت والحقول التي باعوها، ولذلك قاموا بإغلاق الموانىء بغلايينهم، وراقبوا البحر بحرص، من أجل سلب، أو إغراق أي فرنسي، يمكن أن يعبر البحر.

حول اتحاد بعض الرهبان

وفي هذا العام، رأى بعض القساوسة والرهبان الذين انتموا إلى الكنائس الديرية، بوضوح بأن الأساقفة في جميع الأماكن، الذين من المفترض أن يجدوا فيهم حماتاً لهم، قد أصبحوا الآن منكلين بهم بشكل مكشوف، وآذوهم أكثر من أي رجل علماني أو مدني، وأيضاً أن الحبر الأعظم كان الأكثر حدة في ظلمهم، وأن هذا كان يزداد، كلما ازداد قوة، لذلك عقدوا اتحاداً فيما بينهم، من أجل أنه بالمساعدة في تحمل أعباء بعضهم بعضاً، يمكن لهذه الأعباء أن تكون أقل ثقلاً عليهم، وبناء عليه قام تحالف تجاري بين التجمع الرهباني للكنيسة الأسقفية لكانتربري، مع رعوية ودير وولتهام Waltham, وقاموا هم، وكذلك قام آخرون بالرجاء بتواضع بتقديم طلب المعونة نفسها والمساندة، من قبل دير القديس ألبان.

عودة سيمون إيرل ليستر من غسكوني

في يوم عيد الغطاس، عاد فجأة سيمون ايرل ليستر، وبشكل مهين، وبكل سرعة من غسكوني، يحيط به ثلاثة رجال مسلحين فقط، كانت خيولهم قد هدّها الجوع والتعب، وعند وصوله إلى لندن طالب بسرعة وإلحاح تقديم مساعدة فعالة من الملك، بالمال والعساكر، حتى يكبح وقاحة العصاة الغسكونيين، ذلك أنه أكد، أنه لن يستطيع الاستمرار في تلك الحرب العالية النفقات اعتماداً على امكانياته وحده فقط، من دون

مساعدة الملك، علماً بأنه سوف يستنزف موارد ايرليته في ليستر، وفي سبيل هذه الغاية، حث الملك وشجعه بالكلمات التالية، حيث قال:

«مولاي الملك، عليك أن تعيد إلى ذاكرتك، أنك عندما كنت مؤخراً في غسكوني، لجأت واثقاً، إلى مساعدة أولئك الذين عددتهم رعاياك المخلصين، ومع ذلك لم يفتحوا صدر العطف والمساعدة إليك، كما أنهم لم يمدوا يد العون إليك، حسبما هو متوجب عليهم، كما أنهم لم يشفقوا مطلقاً عليك، عندما كنت هارباً من خيانة وتنكيل الملك الفرنسي، وأيضاً لم يشفقوا على الملكة أثناء حملها، وعندما كانت متمددة مريضة في ريولي Reoli, ولا أثناء ولادتها في بوردو، بل انتزعوا أموالك منك، وسمحوا لك بفقدان أراضيك، وكرامتك»، وعندما سمع الملك هذا تأثر، وأشفق على الايرل لما عاناه من آلام وارهاق، فأجابه بطريقة فيها مواساة له قائلاً: «بحق رأس الرب، لقد أخبرتني بالصدق، أيها الايرل،وأنا سوف لن أرفض تقديم عون فعال لك، أنت الذي تقاتل بنشاط ومواظبة من أجلي، غير أن صرخات شكاية قد وصلت إليّ، من أنك توليت بشكل تعسفي سجن الذين جاءوا إليك بطريقة مسالمة، والذين أنت بعثت خلفهم، وأنت قد وعدتهم بالوفاء وتعهدت لهم بالحفاظ عليهم، غير أنك توليت قتلهم عندما أصبحوا تحت سلطانك»، وقد أنكر الايرل هذا بشكل كامل، وأضاف قائلاً: «مولاي، إن خيانتهم معروفة، فأنت قد جربت ذلك وعانيت منه، وقد جعلهم هذا غير جديرين بالتصديق».

إجراءات الإيرل سيمون قبل مغادرته غسكوني

قام الايرل سيمون المتقدم الذكر، الذي كان رجلاً صاحب قوة وخبرة في الحرب، قبل مغادرته غسكوني، بالاستيلاء على قلعة فرونساك Fronsac الحصينة، وأسر المحاصرين، وسوّى القلعة مع الأرض، وكانت هناك قلعة لايمكن الوصول إليها تقريباً، وواقعة

في منطقة جبلية، وكانت بالفعل قلعة لاترام، وكان اسمها ايغريمونت Aigremont, وهذه أيضاً أفرغها من سكانها، وبذلك صار بإمكان جميع المسافرين عبر ذلك الطريق، متابعة سفرهم، وتنفيذ ارتحالهم بسلام، وكان هذا المكان محاطاً بصخور لايمكن اجتيازها، وكانت هناك أبراج قد بنيت على قمم الصخور حيث أشرفت من علو فوق الوديان، كما أنه لم يكن بإمكان التجّار أو الحجاج، لابل حتى سكان تلك المنطقة، العبور من دون التعرض للسلب من قبل اللصوص، والتعرض حتى للقتل، وقد أخضع الايرل هؤلاء جميعاً، وجعلهم طائعين للملك بقوة السلاح، وهذا أيضاً مافعله بالنسبة لبعض سكان بوردو، والذين تمردوا ضد القوانين العادلة.

مغادرة الإيرل المذكور إلى غسكوني

واسترد الايرل المتقدم ذكره أعلاه أنفاسه من المواساة، التي قدمت إليه من قبل الملك، ومع أنه كان مقهوراً من قبل ثورة جماعة الخونة كلها في غسكوني ضده، أصبح الآن متشجعاً ولديه آمالاً عالية، وبعدما تسلم ثلاثة آلاف مارك من خزانة الملك، وبعدما جمع مبلغاً كبيراً من كونتية ليستر التابعة له، ومن الأراضي التي كانت عائدة مؤخراً إلى غيلبرت دي همفرونفيل Humfronville, التي كان له حق الوصاية عليها، عاد على الفور مسروراً، وأرسل رسالة إلى دوق برابانت، وإلى المقدمين الجيران له، حتى يرسلوا له بعض الفرسان والأتباع المزودين بالسلاح، لكي يستقبلوه لدى وصوله، لأنه كان مسرعاً تماماً في طريقه إلى غسكوني، وقال بأن أولئك الرجال سوف يقاتلون مخلصين لصالحه، فلسوف يغنيهم بعطاء وافر، وإطاعة من الكونت لأوامره، أرسل إليه ثلاثمائة فارس غير نظاميين، وبعض رماة القسي الزيارة، الذين هبوا لمساعدة الايرل، وكانوا متعطشين مثل علقات لامتصاص دماء الغسكونيين، وفي الوقت نفسه كان الغسكونيون غير مهملين لأمرهم، فحصنوا أنفسهم ضدهم.

كيف جرى ادخال عبارة «دون التقيد» بالاستخدام في المحاكم العلمانية

وفي حوالي الوقت نفسه، نشب خلاف قضائي بين سيلفستر Sylvester, أسقف كارلآيل، وواحد من البارونات، حول عزبة، كان البارون المذكور قد باعها إلى وولتر، سلف الأسقف المذكور، والتي قد رغب البارون المذكور باسترداد تملكها، وبحكمة ظهر الأسقف المذكور بشخصه في المحكمة، لأن خصمه كان في القارة، مع أن حماته كانوا موجودين، ولذلك حصل على رسائل حماية من الملك، طوال غياب البارون، وإلى عودته مسروراً إلى مقاطعته، وبقيت الفئة المعارضة ساكنة، لكن عندما سافر الأسقف وابتعد إلى مسافة، حصلوا على رسائل من الملك فيها عبارة «عدم التقيد بالرسائل السالفة، وأن قضية البارون لايجوز تأخيرها»، ومن المعتقد أنه لم يتم الحصول على هذا الإجراء، من دون استخدام المال، وانتشرت الرسائل وتوزعت في كل اتجاه، وفيها قد أقحمت العبارة المقيتة «دون التقيد بالأمر المتقدم»، أو عبارة «عدم التقيد بأي امتياز قديم، وبموجب ذلك ينبغي أن تكون إجراءات القضية»، ولقد أدخلت هذه العبارة بالاستخدام، وبالاضافة إلى هذا تسللت تأويلات شريرة الآن إلى الصكوك، وباتت ممارسة، من ذلك على سبيل المثال، إذا ورد مكتوباً مايلي: «نحن نمنح امتياز كذا إلى الدير الفلاني»، وقد ورد ذكر الدير بوضوح، وتبع ذلك قوله: «وجميع عزبه»، وهنا إذا لم يرد ذكر العزب بكل دقة ووضوح، من الممكن للعبارة المضافة أن تكون بلا فعالية، وهذا كما هو واضح مضاد للعقل، ولجميع أشكال العدل، لابل في الحقيقة معاكس لأحكام المنطق، التي بوساطتها يمكن البحث عن الحقيقة من دون اخفاق، وتولى تأسيس طريقة الإجراءات هذه رجل غير مستقيم، كان وقتها مسؤولاً عن العدالة، وكان اسمه روجر دي ثيركباي Thurkeby, وقد قال

وهو يتنهد بعمق مشيراً إلى العبـارة المتقدمة الذكر: «واأسفـاه، واأسفاه، لماذا انتظرنا كل هذا الوقت؟ إن المحكمـة المدنيـة ملطخـة الآن بالأمثلة اللاهوتية، والنهر كله قد تسمم بالنبع الكبريتي».

إطلاق سراح بعض الصليبيين من الأسر بين المسلمين

وفي هذه الآونة، تبين أن بعض الأشخـاص الـذين كـان من المعتقـد أنهم قد قتلوا في المعـركة ضد المصريين، هم أحيـاء في سجون المسلمين، وتمّ الآن دفع فديتهم من قبل أصدقائهم، فقد جرى دفع فدية كبيرة من أجل مقـدم الاسبتـارية، وأطلق سراحـه، ونظراً لسجنه جـرى تعليق استخدام ختم الاسبتـارية، الذي كان من الرصاص، وذلك وفقـاً لعادة الطائفـة، وظل معلقاً حتى تمّ التأكـد من اطلاق سراحـه ثانية، وجـرى تقـديم شكل الختم المذكـور في كتـاب Additaments, كما أن الرسالة التي قيل بأن المقدم المذكور قد بعث بها إلى أصـدقائه، قد جرى ادخالها هناك.

حول تحليل عمدة لندن وكهنتها من قرار الحرمان الكنسي

وفي حـوالي الوقت نفسه، جـرى تحليل عمـدة وكهنة كنيسة القـديس بولص في لندن، الذين تقدمت الاشارة إليهم في الصفحات الماضية، من العقوبة التي أصـدرها ضدهم رئيس أساقفة كـانتربري، وجاء ذلك بناء على سلطان البـابـا، وتولى ذلك راعي دير القـديس ألبـان، وراعي دير ولتهام Waltham, ورئيس شمامسة كنيسة القـديس ألبان، غير أنهم وضعوا بعد ذلك تحت العقوبة نفسها، لسبب آخر.

حول النزاع المتعلق بحصة الأسقف الأخير لدرم

ورغب في حـوالي الوقت نفسـه، بعض ذوي العقـول الشريرة، والأشخـاص المرائين بإرضـاء وولتر أسقف درم، فـذهبـوا إلى البـابا، وأعلنوا بأن حصـة مـن أسقفيـة درم، قـد أعطيـت من دون سبب إلى

نيقولا، الأسقف الأخير، الذي كـان قد استقال من منصبـه، وأن نيقولا المذكـور، قـد احتفظ بحـوالي ثلث الأسقفية، وبنـاء عليه تقـدمـوا الآن بالرجاء إلى البابا من أجل إعادة الأسقفية كاملة، أو على الأقل أن تكون أقل ضرراً، وعلى هذا ردّ البـابا قائـلاً: «نحن مندهشون لسماع كـلامكم هذا، أولم يكن قد جرى التوزيع والتقسيـم بعد مداولات طويلة، ووفقاً لرأي أناس متعلمين، وكـذلك بنـاء على مـوافقـة الفـرقـاء، وأولم يجري تثبيت ذلك من قبلنا ومن قبـل ملك انكلترا، ومن قبل نوابنا؟»، وكـان أسقف باث، الذي كـان واحداً من النواب، آنذاك مـوجوداً في البـلاط، ولذلك دعي ليقدم بينة حول الحقيقة، فشهد بأن كل شيء قد عمل، مع التقدير المتوجب للعدالة، ولـذلك جرى ابعاد المشتكين مع الملامة، وهم في حين فكروا باضعـاف قضية الأسقف نيقـولا، هم قامـوا فقط بزيادة قـوتها، ولم تمر هذه الإجـراءات من دون تسبيـب الاهانة لوولتر أسقف درم، وإلى رئيس رهبـان ورهبـان ذلك المكان، الـذين من الواضح أنهم كانوا شركاء سريين في المؤامرة وفي التحريض عليها.

حول التقارير الشريرة المتعلقة بهنري أوف باث

وجـرى في العـام نفسه، في يوم عيـد طهـارة القـديسة مـريم تقـديم شكوى ثقيلة ضد هنري أوف باث Bath, وكان فـــارساً متعلماً، وبارعاً تمامـاً في شريعة البلاد، ورجل عـدالة ومستشاراً خـاصاً للملك، وكانت فحوى التهمة، أن كونه صديقاً وحيداً للملك، قام بخداع مولاه أثناء شغله لمنصب المســؤول عن العــدالة الذي عهــد به إليــه، وتولى بوسـاطة حجج بارعة، إن لم نقل بوسـاطة الخيـانة، من افراغ حـافظات النقـود للآخرين، ليمـلأ حافظتـه، ولم يتردد، أو يخف، من تسلم الهدايا من جميع الجهـات بكلتـا يديه، وبذلك صـار ثـرياً، بالموارد، والعـزب، والذهب، والفضـة، حتى أنه صار الآن الأول الأكثـر ثروة بين زملائـه المتـولين لأعمال العدالة، وكـانت زوجته أيضـاً، امرأة جشعـة ومتجبرة،

وكــانت من حيث الأصل من أسرة باسيت Bassets ومن ساندفوردز Sandfords, وعلى هذا كانت متفاخرة بنسبهـا وأصلها، وقامت بتحريض هنري المذكور على هذا السلوك، وبما أنه حرض، ومال ليعمل هكذا بإرادته، صار متشوقاً للبحث وراء الربح الدنيء، بالعدل وأيضاً من دون وسائل عادلة، فقد قيل إنه حصّل لنفسه ولاستخداماته في جولة واحدة أثناء ممارسته لأعمال العدالة، على أكثر من مائتي قطعة أرض، ولذلك انتشرت حوله فضائح كثيرة، ونشب خصام أيضاً بين هنري المذكور وايفرارد دي ترمبنغتون Everard de Trumpington, بشأن إحدى العزب، ووجهت التهمة إلى هنري بالحنث بالوعود وبالخيانة، من قبل أحد الفرسان واسمه فيليب دي أرسي Arcy, وكان ذلك بحضور الملك والملكة، ولذلك احتجز، أو بالحري كما يقال بالعادة جرى اعتقاله، مع أن جون مونسيل Maunsell, الذي كان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك رغب بضمانته، وأن يكون كفيله بأنه سوف يلتزم بالعدل، غير أنه أخفق بالحصول على الإصغاء، لأن غضب الملك اشتعل بشكل مرتفع، وأجاب بأنه لن يقبل بأي كاهن ليكون كفيلاً له في مثل هذه القضية، لأنه عدّ الجريمة إحدى جرائم الخيانة العظمى، وبما أن أسقف لندن جاء ليتحدث لصالحه، وبناء على وساطة وتدخل كثير من الوسطاء، جرى تسليمه وعهد به إلى أربعة وعشرين فارساً، سوف يحضرون المحاكمة ويسوغون هنري المذكور بالمحاكمة خلال مدة جرى الاتفاق عليها وتحديدها.

حول كفالة هنري أوف باث

وكان هنري رجلاً بارعاً وداهية، ففكر آنذاك وتصرف وفق قول الشاعر الكافر:

مساعدة القاضي مطلوبة من أجل الشرائع غير العادلة

وبناء عليه أرسل زوجته إلى جميع أقربائها من الباسيت Bassets, ورجتهم بحرارة، من أجل التدخل بشكل فعال لدى الملك من أجله، وأن لايوفروا تقديم الهدايا الكثيرة، والوعود الأكثر، وإذا لم يتمكنوا من نيل أي شيء بهذه الوسائط، عليهم الظهور من أجله في يوم الفزع، وهم مجهزين بالسلاح والخيول إذا كان ذلك ضرورياً، وعلى هذا وافقوا جميعاً بصوت واحد، لأنه كان هناك واحداً من بينهم اسمه نيقولا دي ساندفورد Sandford, وكان فارساً جريئاً، وكان قادراً، وراغباً وعلى استعداد للقيام بدوره ضدهم جميعاً، حتى لو كلفه ذلك المخاطرة بحياته، وأبلغت أخبار هذه الاجراءات سراً إلى الملك، فازداد غضبه، ورفض بإصرار قبول جميع الهدايا، والكلام التلطيفي، وأقسم على أنه سوف يتابع القضية حتى تعرض وسط محاكمة دقيقة، وعندها عرف هنري أنه في وضع حرج، لذلك ذهب مع أسقف لندن، وفيليب باسيت وبعض أصدقائه الآخرين إلى الايرل رتشارد، وأمكن بوساطة الالتماسات والرشاوى جعل قلب ذلك النبيل يميل إلى قضيته، وأضافوا متوعدين بوساطة أيمان مرعبة، أن الملك إذا ما تسبب بموته، لابل حتى بحرمانه من ميراثه، لسوف تثار المملكة كلها، وتثور ضد الملك، وأنه إذا ما حدث هذا، فإن قضايا أخرى سوف تستخدم، خاصة التحكم غير العادل والصحيح للأجانب، وبالتالي ظلم الانكليز، وأن الشقاق الذي ظهر في الخارج، سوف لن يهدأ ويخمد، وعندما سمع الايرل هذا، استولى عليه الرعب، ولكونه تمت السيطرة عليه بوساطة التماسات وهدايا هنري المذكور، ذهب إلى الملك ليهدىء غضبه، وليطالب لصالح هنري، ولصالح سلام المملكة، ولكن غضب الملك وسخطه كان من غير الممكن تهدئته هكذا، وعندما كان الايرل على وشك المغادرة وتركه، خاطبة على الشكل التالي: «نحن لايمكننا منع نبلاء المملكة من تأييد حقوقهم وامتيازاتهم، ولن نستطيع النجاح في تأسيس سلام المملكة المترنحة».

إحصاء كمية نفقات الملك

وأمر الملك في تلك الآونة بإجراء احصاء وفحص لجميع السجلات والملفات، بغية اكتشاف مبلغ النفقات غير العادية التي عملها منذ تتويجه، وقد تبين أن ذلك كان مبلغاً ضخماً جداً، وقد جرى تقديمه في كتاب Additaments.

تأسيس دير للنساء من قبل كونتسة آرونديل

وفي حوالي الوقت نفسه، أسست السيدة النبيلة ايزابيل، كونتسة آرونديل Arundel أرملة هوغ ايرل آرونديل، ديراً للنساء في مكان اسمه مارهام Marham قرب ليني Lynne, وكان ذلك على نفقتها، أي من حصة زواجها.

جلب أخبار وفاة الإمبراطور فردريك إلى الممالك الغربية

ومع نهاية عيد الميلاد، ومع اقتراب عيد طهارة القديسة مريم، انتشر تقرير في جميع بلدان الغرب، مالبث أن تأكد، وقد تحدث عن وفاة فردريك الامبراطور الروماني الأخير، ذلك أنه أصيب بمرض متعذر الشفاء، في يوم عيد القديسة لوسيا العذراء، ومات في يوم عيد القديس اسطفان، وأضاف التقرير أنه عندما شاهد أن حلول موته بات مؤكداً، بات نادماً، ومع دموع غزيرة عمل اعترافاً كاملاً تماماً بذنوبه، وعهد بنفسه إلى الرب، وإلى طائفة السسترشيان، التي كان قد لبس زيها، فهذا ماأخبرنا به رفاقه بشهادة مؤكدة، حيث قالوا أنه قام بتواضع وبتقوى قبل وفاته بلبس زيهم وارتدائه، وبحكم اقتراب وفاته، تمّ جلب أحد الأساقفة، بناء على طلب الامبراطور، من أجل التحليل من ذنوبه، وأيضاً لتحليله من حكم الحرمان الكنسي، وذلك باسم الرب، الذي لايرغب بهلاك أي واحد يؤمن به.

وصية الإمبراطور فردريك

ومع تنهـدات عميقـة، وإعـلان أنه ودّ لو أنـه لم يلد، ولم يتسلم حكومـة الامبراطورية، وفي سبيل استرداد وتأييـد الحقـوق التي من أجلها تورط في كثير جـداً من الأحزان العميقـة، وأسف كثيراً، يروى بأنه عمل الوصية التالية:

أنا فـردريك، أترك مـن أجل خـلاص روحي في المقـام الأول ألف أونصـة Ounces من الـذهب، حتـى تنفق، وتـوضع تحت تصرف ابني كـونراد، من أجـل استرداد الأرض المقـدسـة، ومن أجل الكنيسة الرومانية المقدسة.

بند: إن إرادتي تقضي برد كـل الممتلكات التي أخـذت بشكل غير عادل من أي واحد.

بند: إنني أمنح الحرية إلى جميع السجناء العـائـدين للامبراطورية أو المملكة، باستثناء الخونة فقط.

بند: إنني أدع جميع ممتلكات الكنيسـة حـرة، وتقضي رغبتي بإعـادة جميع حقوقها إليها.

بند: إنني أترك كـونراد بمثـابة وريثي للامبراطوريـة الرومـانيـة، ولمملكة صقلية.

بند: إنني أترك لابني هنـري مملكة القـدس، وعشرة آلاف أونصـة [من الذهب] لتدفع باملاء من ابني كونراد.

بند: وأترك لحفيـدي، أي ابن إبني هنري دوقيـة النمسـا، وعشرة آلاف أونصة ذهب.

بند: وأترك ابني مـانفرد Manfred بمثابة نائب لكونراد في

الامبراطورية، من بافيا Pavia على هذا الجانب، ومملكة صقلية، لمدة سبعين سنة، إلاّ عندما يكون كونراد موجوداً.

بند: انني أختار هنغاريا لتكون مكان دفني، وذلك حيث جرى دفن الملك وليم».

وتحتوي الوصية على أعطيات أخرى كثيرة، لم أقم بتذكرها، لأنها أقل أهمية، وقد وزع بين أصدقائه، وأولاده الآخرين، وخدمه كميات كبيرة من الممتلكات، وبشكل رئيسي من الذهب والفضة، وهذا من الممكن تصديقه، لأنه في تلك السنة نفسها، جرى ارسال اثني عشر جملاً إليه من الشرق، كانوا محملين بالذهب والفضة، لأنه كان شريكاً في حركة نقل التجارات، وصديقاً كبيراً لجميع سلاطين الشرق، ولذلك فإن الذين كانوا يسافرون بالبر والبحر، وصولاً حتى إلى الهند، كانوا على حسابه.

كيف جرى إيقاع عقوبة الحرمان الكنسي بعميد وبكهنة لندن

وفي حوالي الوقت نفسه، قام رئيس أساقفة كانتربري بوساطة المعلم يوستاس أوف ليني Lynne, الذي كان موظفاً لديه، بانزال عقوبة الحرمان والملامة بعميد وبكهنة لندن، مما سبب الدهشة لكثيرين، وعلّل ذلك بسبب اعتداءاتهم، وزاد على ذلك، دعوتهم للظهور أمام البابا، وبذلك تفجرت فضيحة مهينة، لأنهم حرموا في الوقت الأول كنسياً من قبل فئة أولى لسبب ما، ومن جهة أخرى جرى تحليلهم من قبل آخرين لسبب ما آخر، وكان حال الكهنة أنهم شعروا بخوف كبير، وبمرارة في القلب، والتمسوا من جميع أساقفة انكلترا مساعدتهم في الوقوف ضد هذه المظالم، وأن يقاوموا العنف الذي أنزل بهم، بحكم أن جدار جيرانهم كان يحترق، وأما الملك، فلأنه كان هو الذي أوجد رئيس الأساقفة، والملكة لأنه كان عمها، لم

يستطيعـا تركه معـزولاً مهجوراً، مع أنهما شعـرا بالخجل، وعلى الرغم من أن قضيته كانت قضية غير عادلة.

الموت الجريء للإيرل وولتر

وتعـرض في هذا العـام الايـرل وولتر للانهاك والتـلاشي، وهو الذي كان قد أظهـر قوته في الأرض المقدسة بالقـول والفعل، وهو الذي كان لبعض الوقت حاكم يافا، وبعض القلاع الأخرى على الساحل، وبعض الجزر القريبـة منها، وكـان مسجوناً ومضيقـاً عليه في زنزانة قـذرة لدى المسلمين، ذلك أن المسلمين قـد كـرهوه، لأنه عندمـا كـان حراً، غـالبـاً ماألحق بهم أذى كبيراً، ولأنه لم يكن هناك واحداً أكثر شهرة منه في جميع الأرض المقدسة، أو أعظم قـوة منه، أو أخلاقه رضية أكثـر منه، وبعدما كاد يتـلاشى وبعدمـا تعرض للجـوع والعطش، بناء على إرادة أعـدائه، ونظراً لأنه كان قـد تعرض للجلد مراراً، بات واضحـاً أنه أخذ يقترب من الموت، وأن القبر هو كل مابقي له، واستخدم المسلمون جميع وسائل التعذيـب حتى يرضخ ويرتد، أو يذعن لإرادتهم، لكن من دون فائـدة، وبناء عليـه جرى عقد مـؤتمر فيما بينهم، وجرى جلب الايرل للـوقوف وسطهم، وعلى هذا تـولى السلطان مخاطبتـه بكـلام ناعم وبتهـديدات، ومزج ذلك بوعود وافـرة، وحثه المسلمون بقدر مـا كان لديهم من قوة، ووعدوه بالحصول على حريتـه، بحكم أنه كان بين أيديهم، على أن يقوم بتسليمهم يافا، التي كـانت موضوعـة تحت عهدته، والتي كان قـد عهد بها إلى أتباعه الشجعان والمخلصين، وخاطبه السلطان قائلاً: «أيها الايرل الذي لايقهـر، إنك غـالبـاً مـا ألحقت بي أذى لايمكن الخلاص منه، ولذلك إنك تستحق أن تعـاقب بعـدة ميتـات، ومع ذلك، يمكنك الآن أن تنقذ حياتك، وأن تنال التكريم مـع هدايا كثيرة، إذا أعدت يافا إلينا، التي كـانت لبعض الوقـت تحت حكمك، والتي وضعت فيهـا حـامية موثوق بها من أتباعك، الذين لم نستطع اضعـاف ثباتهم، ولسوف يجري

آخذك إلى باب تلك المدينة، لتتـولى إعلام المحاصرين بهذه الشروط، أي حصـولك على حـريتك مع حـرية جميـع سكان المدينة»، وأعطى الايرل مـوافقته على هذا، وحمل إلى باب المدينة —التي كـانت مطوقـة بعساكـر المسلمين— من أجل أن يخبر الحاميـة بذلـك العـرض، وعندمـا شـاهد سكان المدينة الايرل، وجـدوا صعـوبة بالغـة بالتعرف عليـه، لأنه كـان متلاشيـاً، وقام الايرل أولاً بمخاطبـة حرسـه قائلاً: «اسمحـوا لي بإلقاء خطابي حتى النهاية، لأننا نقول بأن الكلمة الأخيرة تحتوي على المغزى»، وأعطي الاذن ليفعل ذلك، وسعى الايـرل إلى ايصـال الكلمات التـاليـة بوضوح وبصوت مسموع، إلى جنوده الذين اجتمعوا فوق الباب، حيث قال: «أيها الصليبيون الشجعـان والأتقياء،والجنود المخلصين، انظروا إلى جسـدي حيث أنه قد تلاشى إلى حـد أنكم تستطيعون التعـرف لي فقط من خلال صـوتي، وكلامي وحده، إن مـوتي بات وشيكاً، وجسدي هو تقـريبـاً بلاحيـاة، وبصعـوبة يحتفظ بالـرمق الأخير، لاتتنازلوا عن شيء أبداً، ولاتمنحـوهم أية عروض للسـلام مطلقاً من أجلي، فلماذا يتـوجب فداء جسد شبه ميت؟ وإنه إذا ماجرى فدائي، إنني لن أتمكن مطلقاً من استرداد صحتي، ولذلك إنني أرجوكـم بحق دم المسيح المسفوك، الذي تدفق في هـذه الأرض من أجل خـلاص العـالم كلـه، بأن لاتسلمـوا لاالقلعة ولاالمدينة إلى هؤلاء الكلاب الكفرة، الذين هم متشوقون بشدة للاستحـواذ على هذه المدينة، وتـدمير المسيحيـة كلهـا، لأنهم سـوف لن يظهروا الرحمة نحوكم بعد تسليمهـا، كما أن الحجاج والسكان الذين قد استعدوا الآن للقـدوم إلى مساعدتكم على الفـور، لن يتمكنوا وقتها من مساعدتكم»، ولدى سماع المسلمين لهذا الخطاب ضربوا الايرل صاحب العقل النبيل على فمـه بمقـابض سيـوفهم، التي أبقـوها مجردة، فسببـوا تدفق الدم الكثير، وخلعوا أسنانه، ثم سحبـوه وجروه إلى الوراء ليتولوا قتله بوسـاطة جميع أنواع العذاب القـاسية، وقـد تحمل الايرل جميع هذه الاجراءات برجولة، وسار على الطريـق الذي سلكه قريبه أمير أنطاكية،

وبما أن الاشارة قد تمت إلى هذا الشخص الأخير، نعتقد أن من الموائم ادخال رواية قصيرة حول موته وكتابتها على صفحات هذا الكتاب.

حول ثبات أمير أنطاكية أمام الموت

عندما كان صلاح الدين يقاتل ضد الملك رتشارد في الأرض المقدسة، وقع أمير أنطاكية بالأسر، وقد عومل بشكل لاإنساني كبير في السجن الاسلامي، حيث احتفظ به مضيقاً عليه بشدة، وكان يعاني من الجوع والعطش، ولذلك بدأ يتلاشى، وأمر صلاح الدين في أحد الأيام بجلبه إلى حضرته، الأمر الذي جرى تنفيذه، ونظر إليه صلاح الدين وهو مقطب وقال له: «أخبرني الصدق، لو أن الله قد أعانك وكنت بين أيديك وتحت سلطانك، كما أنت الآن بين يدي، ماالذي كنت ستفعله بي»؟ وعلى هذا ردّ عليه بازدراء ودونما خوف: «لو أن الرب قد أعانني، لقمت على الفور بالأمر بقطع رأسك، لكن بما أنك ملك، وإن كنت كافراً، لما جعلت أحداً يتولى قطع رأسك، بل توليت ذلك بنفسي أنا شخصياً، لأنه لايجوز لأي انسان من مرتبة متدنية فعل ذلك»، وعلى هذا ردّ صلاح الدين قائلاً: «إن فمك قد أملى عقوبتك» ودعا على الفور بجلب سيف إليه، وقال: «وهكذا إنني سوف أتولى على الفور قطع رأسك»، وكان أمير أنطاكية مغلولاً من يديه وقدميه، ومع ذلك قفز نحو الأمام وهو مسرور، واقترب من صلاح الدين، ومدّ رأسه نحو الأمام، وكذلك مدّ رقبته، حتى يكون أكثر جاهزية لضربة يد صلاح الدين، وتفوه للمرة الأخيرة بالكلمات التالية: «خذ أيها الكلب، هذا الرأس المهان، والأشعث، وذي اللحية، وهذا الوجه الهزيل، والاذنين القذرتين، وإن الذي ستكسبه قليلاً —لابل لاشيء له قيمة زائدة— وإنني أعهد بروحي إلى الرب»، وعند ذلك تمكن صلاح الدين بضربة واحدة خفيفة من قطع رأس ذلك الشهيد الرائع في الرب، قائلاً:

«رجل عنيد، حتى في الموت لم يمكن قهرك (*)»، وكان هذا الشهيد الرائع قريباً للايرل وولتر الذي تقدم ذكره أعلاه، ونحن نعتقد أنهما يحكمان معاً بمثابة أتباع للشهداء، وحدثني بالرواية عن أمير أنطاكية هذا واحد كان حاضراً، وشاهد الواقعة بعينيه، واسمه المعلم رالف بيزاس Bezace, وكان وقتها طبيب الملك رتشارد، وصار بعد ذلك كاهناً في كنيسة القديس بولص، لأنه كان قد بعث إلى صلاح الدين من أجل اطلاق سراح ذلك الأمير، لكنه لم ينجح.

كيف جرى قطع أشجار رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى قطع أشجار رئاسة الأسقفية، وبذلك نزل الناس الذين كانوا في تلك الأحراش إلى الفقر، وجرى توزيع موارد الكنائس الشاغرة، وفق رغبات الأجانب، الذين لم يكن الموزع يعرف شيئاً عن أخلاقهم وعلمهم، وهكذا بما أن الراعي كان غائباً كانت الشياه عرضة للذئاب.

حول الحرب بين أبناء وولدمار ملك الدانمارك

وتفجرت في هذا العام نفسه حرباً مقيتة بين أبناء وولدمار Waldemar, ملك الدانمارك، الذين كانوا يتصارعون من أجل تملك المملكة، وفي الوقت الذي كان فيه العالم كله يشجب مثل هذه الخلافات الأخوية، وكانت الممالك قد تمزقت بمثل هذه العداوات القذرة، قام آبل Abel الذي كان الابن الأكبر (والذي بالحري ينبغي دعوته باسم قابيل) بالتخطيط لعمل خياني ضد هنري، وعندما كان هنري ﺑـذا على وشك الاستحمام، بعد لعبه بالنرد، انقض فجأة عليه، وذبح أخاه بشكل خياني، وبعد ذلك رمى بجسده في البحر، الذي

* — هذه حكاية مخترعة، فيها أصداء لقتل أرناط صاحب الكرك، وأمير أنطاكية من قبل، إثر أسره في معركة حطين، ولاعلاقة للملك رتشارد بالموضوع.

قام ثلاث مرات بقذف الجسد الميت على الشاطىء، لكن آبل اللاانساني لم يرغب بدفن هذا الجسد، فأمر به فنقل إلى مسافة بعيدة، وأغرقه بالأعماق، لكن الرب لم يكن راضياً بذلك، لهذا جرى قذف جسد الملك البريء على الشاطىء، فوق البقعة نفسها، كما كان الأمر من قبل، ولهذا قامت جماعة من الرهبان الفرنسيسكان بأخذ الجسد، وأودعوه بشكل مشرف في قبر في كنيستهم، حيث استجاب الرب لصلواتهم، فمنحهم منافع المعجزات، وللبرهنة على أن الخيانة لاتلقى الحماية من قبل أي شخص، أدان نبلاء داشيا آبل هذا القاتل لأخيه، الذي لم يسمح حتى بدفن أخيه المقتول، وحكموا عليه بالنفي الدائم، وبما أنه حاول التحرك ضدهم وتحديهم، هو نفسه قتل من قبلهم، وبموافقة عامة وضع في مكانه الأخ الثالث الأصغر، ورفع إلى العرش، وهو الآن يحكم بشكل مزدهر، وينبغي أن يكون معلوماً، أن ملوك داشيا جرى منذ القدم مسحهم، وتكريسهم، وتتويجهم، وتلقى هاكو ملك النروج منفعة التكريس، وكذلك الشرعية، من البابا، وجاء ذلك بناء على دفعه إلى البابا انوسنت الرابع مبلغ ثلاثين ألف مارك من الفضة، وتم تكريسه بوساطة لورانس، الذي كان انكليزياً من حيث المولد، وكان من طائفة السسترشيان، وهو الذي صار فيها بعد راعي دير كيركستد Kirk-stead في لنكولنشاير Lincalashire, وهو الذي ذهب إلى روما، وجعل القضية كلها تصل إلى محصلة فاعلة.

عودة سيمون إيرل ليستر إلى غسكوني

في العام نفسه، ومع اقتراب الربيع، عاد الايرل سيمون صاحب ليستر إلى غسكوني، مع قوة كبيرة، ومبلغ كبير من المال، وهناك وجد تقريباً جميع الرجال ذوي المراتب من أهل المنطقة قد تحالفوا في مؤامرة عامة ضده، وكانوا جاهزين للعصيان، ولذلك تجددت الحرب مع شدة مضاعفة، وحصل الغسكونيون على السوء من القضية.

حول البارلمان الذي عقد في لندن

وفي السابع عشر من شباط في هذا العام، عقد بارلمان عظيم في لندن، وذلك حسبما جرى الإعداد له من قبل، وفيه ظهر هنري أوف باث، لأن الملك كان يضطهده، وكان مهاجماً ومتهماً من كل جانب من قبل خصومه، وكان الملك غاضباً منه إلى أعلى الدرجات، لأنه قدم إلى هناك وهو محاط بكتلة كبيرة من الفرسان، وبأسرة زوجته والأصدقاء، وبأصدقائه الخاصين، وقدم الملك ضده تهماً أعظم ثقلاً من الآخرين جميعاً، من أنه سبب الاضطراب إلى المملكة كلها، وأثار جميع جماعة البارونات ضده، ونتيجة لذلك بات حدوث تمرد عام قريب الوقوع، وبناء عليه أمر بإعلان نداء عام بوساطة المنادين في لندن، وفي البلاط من أن أي إنسان له قضية عمل، أو شكوى ضد هنري أوف باث، عليه القدوم إلى البلاط، حيث ستعرض قضيته بحضور الملك، وبناء عليه قام عدد كبير من المتهمين ضده، حتى أن واحداً من زملائه من مسؤولي العدالة، ذهب إلى القول أنه بناء على تلقيه رشوة مؤلفة من هدايا ثمينة، قام بالسماح لرجل كان قد أدين باقتراف جريمة، وسجن من أجلها، بالمغادرة دون التعرض للعقوبة، وهذا إجراء فيه إلحاق للأذى بالملك، وتعريض للخطر ومخاطرة بزملائه المسؤولين عن العدالة، ولذلك ازدادغضب الملك التهاباً، ونهض وهو يقول: «إذا ماقام أي واحد بقتل هنري أوف باث، سوف يكون محللاً من قتله، وأنا سأعلن عنه أنه محلل من ذلك»، ثم إنه غادر مسرعاً، ولقد كان هنالك بين الموجودين عدداً كبيراً ممن ودوا الانقضاض على هنري المذكور، ومهاجمته، لولا أن حكمة جون مونسيل Maunsell واعتداله قد ضبطت عنفهم، ذلك أنه قال: «سادتي وأصدقائي ليس من الضروري أن نتصرف بناء على ماقيل بتسرع وغضب، ومن المحتمل أنه عندما تزول لحظة الغضب، سوف يكون مولانا آسفاً لأنه تفوه بمثل ذلك الكلام الغاضب، وبالاضافة إلى هذا إنكم إذا ما أقدمتم على اقتراف أي

عنف ضد هنري هذا، هاهنا أسقف لندن، مع أصدقائه الآخرين، وهؤلاء الفرسان، فالفئة الأولى سوف تتولى الانتقام روحياً، والفئة الآخرة سوف تتولى الانتقام دنيوياً»، وهكذا، استطاع إلى حد بعيد ايقاف غضبهم، وجرى منذ ذلك الوقت فصاعداً التعامل معه بلطف أكبر، وجاء ذلك بفضل وساطة الايرل رتشارد، والأسقف المذكور، ولأنه أيضاً جرى اخبار الملك، إنه سوف يكون مدهشاً إذا ما اهتم أي إنسان بخدمته، لأنه يسعى إلى قتلهم بعد تقديمهم الخدمات إليه، وبناء على وعد بدفع مبلغ من المال، تحرر هنري المذكور من جميع المخاطر على حياته، وقام بالمغادرة.

تثبيت إيثيلمار في كرسي وينكستر

وجرى في حوالي الوقت نفسه تثبيت أخي الملك لأمه ايثيلمار في كرسي وينكستر من قبل البابا، دون التقيد بصغر سنه، وبجهله بالمعرفة، وعدم كفاءته بشكل مطلق لتسلم مثل هذا المنصب الرفيع، وأن يتولى شفاء الأعداد الكبيرة من الأرواح، وقد نال رعاية كبيرة من البابا، بأنه احتفظ بالموارد التي كانت بين يديه من قبل، وقد تحقق هذا بوساطة المتابعة اليقظة للملك، ولكي يبرهن البابا أنه لم يبذر البذور على ساحل قاحل، من دون أمل من نيل منفعة من الموسم، طلب على الفور، بتجهيز ابن كونت بيرغندي، وكان مايزال طفلاً، بمنحة تخصص له تشكل مورداً له مقداره خمسمائة مارك.

وفاة وليم دي كانتيلوب

ومات في حوالي الوقت نفسه وليم دي كانتيلوب Cantelupe, وكان رجلاً صاحب مرتبة واستقامة، وصديقاً مخلصاً للملك، وقد خلفه في ميراثه ابنه وليم، الذي أبدى الملك نحوه خشونة وقسوة، قبل أن يتمكن من استحواذ ميراثه بشكل كامل، مع أن والده كان صديقاً كبيراً له، أي إلى الملك، وكان القهرمان للبيت الملكي.

اجتماع أساقفة إنكلترا في دنستيبل

مع أن رئيس الأساقفة كان في هذه الآونة يبذل قصارى جهده بكل متابعة، وبقدر ما أوتي من قوة، لابل أكثر مما أوتي من قدرة، وذلك في البلاط الروماني، ليحقق مقاصده، أي الحصول على سلطة القيام بزيارات تفقدية لجميع رجال الدين، في جميع أرجاء منطقته، وكان أساقفة انكلترا، غاضبين تجاه هذا، (بسبب أنه كان من الواضح لهم بأنه لم يكن يستهدف من وراء هذا اصلاح السلوك والدين)، ولذلك اجتمعوا في دنستيبل Dunstable, في يوم عيد القديس متثياس Matthias, للتداول حول عمل الأذى والظلم، الأمر الذي يعنيهم جميعاً ويحزنهم، ووجوب أن يقوموا بالتجهز ضد ذلك من قبلهم جميعاً، وكان هناك بين الحضور أساقفة: لنكولن، ولندن، ونورويك، وسالسبري، وإيلاي، وووركستر، ولأن أسقف شيستر لم يكن بوضع صحي جيد، لم يستطع الحضور، وبعد نقاش وتداول دقيق، أرسلوا مندوباً عنهم المعلم ج. ل إلى البلاط الروماني، ليتقدم بشكواهم حول هذه القضية ويضعها أمام البابا، ذلك أنهم عزموا على تحرير أنفسهم من عنف رئيس الأساقفة، لابل حتى إذا كان ضرورياً أن ينفقوا أربعة آلاف مارك (لأن البلاط الروماني كان جاهزاً بالعادة لمنح الحظوة إلى الذين يقدمون الهدايا)، وبناء عليه ذهب المندوب المذكور إلى ذلك البلاط، وانطلق يعمل بكل نشاط ومتابعة حول القضية التي أسندت إليه، وفي ذلك الوقت أمكن جعل البابا يفهم —ربما من قبل المندوب المذكور، أو من قبل واحد من الأعداء الآخرين لرئيس الأساقفة— لأن مظالمه قد تضاعفت يومياً، وأن رئيس الأساقفة المذكور قام في سبيل إلحاق الأذى العظيم بالكنيسة الانكليزية، فجمع سراً أكثر من أحد عشر ألف مارك، قيل كانت قد منحت إليه من قبل البابا، وبناء عليه كتب البابا جواباً لهم،

بأن عليهم أن يقدموا معلومات وافية حول التجاوز المذكور، وتمّ تجاوز اعتداءاته الهائلة في لندن،ولم يشر إليها، إما بسبب جبن المتشكين، الذين لم يتجرأوا على متابعة دعاويهم، أو أنهم كانوا غير قادرين على انفاق المال، ثم قام البابا بالاعتراف أخيراً، بأنه كان مسروراً لانتقاله من ليون، وأنه تجنب قيود الشّافويين، ووعد الطرفين اللذان تشكيا، بكل لطف ممكن، بأنهما سوف يحصلان على ماهو عدل، ولكن بما أن البلاط كان يسمن يومياً على ألطافهم، ظل يؤخر إعطاء القرار المحدد، لأنه غالباً ماتشكى، بأنه عندما كان مقيماً في ليون، كان مرغماً على تنفيذ رغبات رئيس أساقفة كانتربري، مع الأسقف المنتخب للنكولن، إلى حد أنه عندما جرى تعيين أحد الأشخاص في أوقاف تلك الكنيسة بموجب سلطاته، وظهر هناك، جُعل طعاماً للأسماك، حيث أغرق أثناء الليل، ولم يتجرأ هو، أي البابا، على التذمر، ولذلك بات أساقفة انكلترا أكثر هدوءاً في قرارة أنفسهم، بسبب النوايا الصالحة للبابا، ولم يخبروه عن أي شيء من تجاوزات رئيس الأساقفة، خشية من أن تعطي حشود الشكاوي مظهر الكراهية، بل تابعوا بثبات العمل في سبيل القضية الرئيسية.

الزيارة التفقدية لأسقف لنكولن

وقام في حوالي الوقت نفسه، أسقف لنكولن بزيارة تفقدية للديرة المؤسسة في أسقفيته، وإذا ما أراد إنسان أن يروي أخبار جميع أعمال الطغيان التي اقترفت من قبله أثناء تلك الزيارة التفقدية، سوف يرى به ليس قاسياً فقط بل متزمتاً وغير إنساني، لأنه بين الإجراءات التي قام بها، عندما جاء إلى رامسي Ramsey, يرافقه أعوانه المدنيين، ذهب يتجول في كل مكان من الموقع، حيث تولى شخصياً فحص الأسرة في مهجع نوم الرهبان، ودقق في كل شيء، إذا ماوجد أي شيء مغلقاً، قام بتدميره، وتولى فتح صناديقهم مثل لص، وداس

محطماً الكؤوس المزينة بأطر، والتي لها في أسفلها أقدام من الفضة، ولو أنه تصرف بشكل حكيم لأعطاها إلى الفقراء وهي سليمة، والذي هو غير مناسب ذكره، أنه ذهب أيضاً إلى ديرة النساء، وأمر بعصر أثدائهن، ليحاول أن يرى مثل طبيب، إذا كانت هناك ممارسة للفسوق فيما بينهن، كما أنه كدس شتائم مرعبة عليهن، مثلما كتب موسى على رؤوس الذين خرقوا مراسيمه، وكتبت مباركة النبي نفسه على رؤوس الذين التزموا بها، وحدث على كل حال أنه جرى في الصوم الكبير التالي تعليقه من ممارسة وظيفته الأسقفية، لأنه لم يقبل أحد الايطاليين الذي كان جاهلاً باللغة الانكليزية، لأن يتسلم إحدى المنافع الغنية في أسقفيته، لكن من المعتقد أنه فعل كل شيء ليمنع الذين كانوا رعيته من اقتراف الذنوب، ذلك أنه كان مسؤولاً عن أرواحهم.

كيف جرى اخضاع ويلز للقوانين الإنكليزية

وجرى في تلك الآونة اخضاع ويلز، التي غالباً ما ثارت ضد مملكة انكلترا، وجعلها مذعنة للقوانين الانكليزية، وعهد بالجزء المجاور لشيستر إلى ألبان دي لى زوكي Zouche, وحلّ هذا الرجل محلّ جون دي غري Grey, الذي كان قد دفع خمسمائة مارك من أجل ذلك، وجاء ذلك بدفعه ألف ومائة مارك من أجلها، وهكذا عرضت ويلز البائسة للإيجار من قبل الذين هم على استعداد لدفع المورد الأكبر.

تثبيت الأسقفين المنتخبين لوينكستر ورو كستر

وجرى في الوقت نفسه أيضاً تثبيت أسقفين منتخبين هما: إيثيلمار، أخو الملك لأمه، في كرسي وينكستر، والمعلم لورانس دي سينت مارتين إلى كرسي روكستر، وقد منحا الاذن بالمحافظة لبعض السنوات المقبلة على الموارد التي كانت بين أيديهم من قبل، وهكذا

صارت المخالفة أمراً مطبقاً وعادة، أي أن أي واحد يجري ترشيحه لتسلم أسقفية، يمكنه الاستمرار بمثابة أسقف منتخب، عوضاً عن أن يكون أسقفاً، وبناء على هذا لم يعد الراعي هو الذي يتولى الاطعام، بل هو الذي يطعم، ويضاف إلى ذلك أيضاً أنه يستطيع الاحتفاظ بموارده الماضية، عندما يجري تعيينه أسقفاً، وبناء عليه ظهر التنين المرعب بعدة أشكال، وأن أي أسقف جرى ترشيحه لتسلم كرسي غني، يتوجب انتقاله إليه، وبذلك صارت كنيسة ما متكئاً لكنيسة أخرى.

كيف عبر راعي دير ويستمنستر البحر

وفي هذه الآونة أيضاً، أي في الصوم الكبير، عبر راعي دير ويستمنستر البحر بشكل سري، بناء على رغبة الملك، وأوامره، وفي الحقيقة كان هناك بعض الذين قالوا بأن الملك توفرت لديه النية بالسفر بنفسه، في سبيل أن يقوم بالحج إلى بونتغناك، من أجل أن يتصالح هناك مع القديس ادموند، لأنه اقتنع بأنه أساء إليه في كثير من الجوانب، وذلك بالالتزام وقتها بمشورة النائب البابوي أوتو، وبناء عليه آذى رئيس الأساقفة المذكور وأثاره، مع أنه كان المتلقي لاعترافاته، وأوصله إلى حد المرارة في الروح، وساقه إلى المنفى، لكن الايرل رتشارد لم يقدم موافقته على مثل ذلك الحج المريب، ولم يستطع راعي الدير تأمين طريق آمن من أجل حج الملك، ولذلك شغل نفسه بقضايا تتعلق به، أي محاولة الحصول على الوسائل التي يمكنه بها ارغام رهبانه الديريين على الرضوخ له، ومن ثم الحصول على لقب قسيس البابا، وعندما سمع الملك بذلك سعى لتسبيب الاخفاق له في مسعاه، وفقد من ذلك الوقت حظوة الملك، التي عليها اعتمد وبها وثق، وذلك حسبما ستبرهن النتيجة بشكل كامل، وهو الذي سوف تظهره الرواية التالية في النهاية.

حول الأوضاع البائسة لأنطاكية

وفي تلك الأونة (يؤسفني أن أكتب ذلك) باتت مدينة أنطاكية الجليلة، التي تم الحصول عليها مقابل ثمن سفك الكثير من الدماء النبيلة، عرضة لمخاوف مخزية، ومرد ذلك إلى تزايد قوة الأتراك والتركمان، وتضاعف أعدادهم، ولذلك ارتاب كثير من سكان المدينة بسلامتهم، فأخذوا يهربون، وباتت أوضاع الحكومة كلها مع الإدارة البطركية في حالة من الفوضى، لأن ذكريات انتصار السلطان، واضطراب أوضاع الملك الفرنسي، شجعت المسلمين كثيراً، وأرعبت الصليبيين إلى أعلى الدرجات.

كيف ذهب عمدة لندن إلى البلاط الروماني

وحوالي هذا الوقت نفسه، قام عمدة لندن، الذي غالباً ما تعرض للمضايقة في الدفاع عن امتيازات كنيسته، بالذهاب إلى البلاط الروماني، مع أنه كان متقدماً بالسن، وذلك في سبيل الدفاع عن حقوق كنيسته المذكورة، نتيجة للفضائح المضاعفة التي نشأت من خلال رئيس الأساقفة، ولوجود الذين أمر البابا بتحليلهم، فقام أعداؤهم، فأمروا باسم البابا بحرمانهم كنسياً لأسباب أخرى، ولذلك كان كفاحهم مصدر سخرية لدى العلمانيين، ولاعجب في ذلك.

كيف أغنى الملك الأجانب وأمطر التقدير عليهم أكثر فأكثر في كل يوم

وفي هذا الوقت فقد الملك يوماً إثر يوم عاطفته نحو رعاياه الطبيعيين، حتى أنه لم يبق الآن لديه ولادرجة، ذلك أنه اتبع بشكل مكشوف سيرة أبيه، وأثار الأجانب وجذبهم بقدر مااستطاع إلى جانبه، وأغناهم، وحرم رعاياه الانكليز الطبيعيين، وأقحم الغرباء ووضعهم مكانهم، ففي البداية كان هناك الايرل رتشارد، وبعد ذلك رئيس

الأساقفة، والآن أسقف وينكستر وإخوانه الآخرين، ثم جاء أسقف هيرفورد، وجاء أيضاً بطرس أوف سافوي، مع آخرين هو استدعاهم من جميع الجهات، وصحيح أن كثيراً من الملوك قاموا في انكلترا بالاستيلاء على العربات وعلى الخيول، وعلى المؤن، وعلى الأقمشة، وعلى كل ماهو ضروري بالفعل، فإن البواتيين أيضاً، شغلوا أنفسهم في ظلم نبلاء البلاد، وخاصة الرهبان، بآلاف الطرق، وإذا ماأراد أي واحد أن يحصي فقط الأضرار التي أنزلها وليم دي بلنسية على راعي دير القديس ألبان، ورئيس رهبان التاينهاوث، سوف يبكي بدموع من قلبه، هذا وجرى تقديم رواية حول هذه القضايا في كتاب Additaments, في سبيل اختصار مادة هذا الكتاب.

وفاة الكاردينال وليم أسقف سابينا

وفي حوالي الوقت نفسه من العام، شاهد وليم، أسقف سابينا، وكان رجلاً مقدساً، كما كان كاردينالاً للكنيسة الرومانية، وهو الذي كان قبل سنوات قليلة مضت النائب البابوي في السويد والنروج، وقد تولى تتويج هاكو ملكاً على تلك البلاد، شاهد وهو نائم في إحدى الليالي سالماً ومعافى في فراشه، رؤيا ظهر فيها الكادرينال أوتو، الذي كان قد مات قبل وقت قصير مضى، وهو جالس في نوع من أنواع المؤتمرات الذي كان فيه حشد كثيف من الناس، وذهب وليم المذكور إلى هناك، لكن ما من أحد قام لدى دخوله، أو قدم إليه مقعداً، باستثناء أوتو المذكور فقط، الذي أنهضه من كرسيه، وقال له بصوت مرتفع «تعال ياصديقي إلى الأعلى، لقد احتفظت بمكان لك لتجلس عليه»، وعندما كان أوتو حياً، كان هذان الرجلان في الحقيقة أعظم الأصدقاء، وعندما استيقظ وليم انزعج كثيراً، وأوحي إليه من عليين، بأنه سوف يغادر هذه الحياة في غضون ثلاثة أيام، ولذلك ذهب مباشرة إلى البابا، وبعدما حصل على اذنه ومباركته قال له: «وداعاً يامولاي، لأن الرب قد

استدعـاني من هذه الحياة، وبعدما ودع إخـوانه وأصدقائـه وفق الطريقة نفسهـا، عـاد بشكل تقـوي إلى بيتـه، ودهش جميع الناس تجاه إجـراءاته هذه، وسخـر بعض الأشخـاص منه قـائلين بـأنه صـار متقـدمـاً بالسن ومجنوناً، لأنهم رأوه يتمتع بصحـة جيدة، ولم يصب بأي جـرح جسدي، لكن وليم عمل جميع الترتيبـات الضرورية في بيتـه، باتقـان وكما ينبغي، وبعدمـا أباح خبر الرؤيا المذكـورة أعلاه إلى كثيرين، عبر في اليـوم التالي من مناطق هذا العام بوساطة موت مضمون.

ومـات في حـوالي الوقت نفســه أيضـاً المعلم جـون أوف أوفنغتـون Uffington، وكان كاهن كنيسة سالسبري، وهو لم يكن هناك من هو أشهر منه بين الكهنة في انكلترا.

حول الخلافات بين راعي دير ويستمنستر وبين التجمع الرهباني هناك

وفي هذه الآونة تفجرت فضيحة في دير ويستمنستر الفـاخر، لنشوب خـلاف بين الفئتين فيـه، وهو خـلاف لم يكن هناك مـؤذياً مثله ومضراً وغير طبيعي، لأن راعي الدير كـان رجـلاً متعلماً وحكيماً، وكـان يسعى إلى إلغـاء إجـراء عملـه سلفـه، الذي كـان قـد قسـم ممتلكات الدير إلى قسمين، الحصـة الأولى لاستخدامـاته، والحصـة الثـانيـة لاستخدامـات رهبـانه، وكـان ذلـك في سبيل العيش متمتعين في أعظم سـلام، غير أن راعي الدير هذا كـان يسعى باذلاً كل جهـد ممكن له لتوحيـد القسمين، وأن يرضخ كل شيء ويضعه تحت تصرفه، وبناء عليـه بادر مسرعاً نحو البابا، وتبعه خطوة خطوة، وأطال إقـامته كثيراً في بلاطه، ولم يكن ذلك من دون انفاق مبلغ كبير من المال، ونتيجة لحكمتـه، وفصاحته، وبراعته خصيصاً، عـدّ بين الأصدقـاء المقربين من البـابا، وشرفه بلقـب قسيسه، وحصل على أشياء كثيرة رغب بالحصول عليها وخطط لها، ولدى سماع

رهبان الدير بهذا كله، باتوا مرعوبين كثيراً، وصاروا يخشـون من أن ما رسمه بتقوى راعي الدير المتقدم، أي راعي الدير رتشارد، سوف يصبح لاغياً، وبالتالي سـوف تصبح أحـوالهم أسوأ، وبناء عليـه أرسلوا بعض الرهبان المتفوقين في ديرهم، إلى الملك، حيث تقدموا إليه بشكوى محزنة، وخاطبـوه كما يلي: «ياصاحب الجلالة، إن راعي الدير الـذي عينته علينا يسعى لاشـاعـة الفـوضى في ديرنا، لابالحري في الـدير الخاص بك شخصياً، وإلى إلغاء الذي تقـرر تقوياً لسلامنا وراحتنا، وإن واجبك هو أن تحمي ديرك، لابل منزلك الملكي من الانحدار والسقـوط، من خلال اعتداءات وتجاوزات أعـدائه»، وعلى هذا رد الملك مـرفقاً كـلامه بيمين عظيم، قـائلاً: «مـن المؤكد أنه لن يحقق غـرضـه»، وفي غضب وسخط، وكراهية، شعروا بأنه قد قال: «أنا آسف بأنني جعلته رجلاً».

رسالة من ألفونسو ملك قشتالة إلى ملك إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل ألفونسـو [اقرأ: فرناند الثالث] الملك المنتصر لقشتـالة، صدوراً عن عاطفـة التقـدير والاحترام لملك انكلترا، فـارساً وسيماً وفصيحـاً إليه، بمثـابة رسـول خاص، ومن خـلاله نصح ملك انكلترا بحكم أنه كـان قـريبـه، وبناء عليـه محبـوباً كثيراً لديه، بأن لايتبع خطى الملك الفـرنسي، عندما سيـذهب ويسافـر إلى حجه، أو أن يقلد رعونة الفرنسيين، بل بـالحري أن يرتحل بشكل مضمون من خلال أراضيه، أي أراضي الملك ألفونسو، وهو شخصياً سوف يرافقه، وسوف يكون صـاحبـه الذي لن يفترق عنه، ومعـاونه الـذي لن يتخلى عنه، ولســوف يزوده بـالمؤن، والسـلاح وبأسطول، وعلمنا مما ذكـره هذا الرسـول أنه بعـد الاستيـلاء على مـدينة اشبيليـة الغنيـة، خضعت جميع اسبـانيـا كلهـا تقـريبـاً حتى شـاطىء البحـر إلى سلطة الملك نفسـه أي ألفونسـو، ولقد ذكـر أيضاً أن مدينة اشبيليـة مع المقاطعـة المجاورة لها، اعتـادت أن تدفع إلى ملك المغـرب (الذي ندعـوه أمير المؤمنين) مـورداً

ثابتاً كل أسبوع، هو أن تقول أحد عشر ألف مارك، وكان هذا المبلغ يجرى دفعه في اليوم السادس من الأسبوع، ويكاد هذا مما لايمكن تصديقه بالنسبة لنا شعب الغرب، وكان ملك انكلترا مسروراً تجاه هذه الرسالة، وفرحنا نحن أيضاً بجوهر هذه الرسالة، وكنا سنحصل على التشريف بموجبها، لولا أن ألفونسو الملك النبيل قد انتزع من بيننا بموت مبكر، ذلك أنه أذعن للموت في العام نفسه، ومات مبكياً عليه من قبل جميع المسيحيين، وعلى كل حال، حدث بقدر من الرب، أنه عندما مات حتى لايظهر أنه فقد تماماً، ترك وراءه بعض الأولاد الشجعان ليتولوا حكم مملكته.

رسالة بدون قيمة من البابا

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل البابا رسالة إلى راعي دير القديس ألبان، جاء محتواها كما يلي:

«من أنوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى أبنائه المحبوبين، راعي دير القديس ألبان ورهبانه في أسقفية لنكولن، تمنيات الصحة، ومباركات رسولية:

بما أن ولدنا المحبوب كثيراً جون دي كيمكيف Camecave, الذي هو حفيدنا وقسيسنا مستحوذ على كنيسة وينغريف Wengrave بموجب حق التقديم الذي هو —كما نفهم— عائد إليكم، نحن نرجوكم بموجب العاطفة الأبوية، وبهذه الرسائل الرسولية نأمركم بتبديل الكنيسة المذكورة بأول كنيسة عائدة إليكم سوف تصبح شاغرة، والتي سوف يرى القسيس المذكور أو نائبه المنتدب بأنها موائمة للقبول، مع الاحتفاظ بوينغريف لتكون أعطيتنا، دون التقيد بأي منع، أو تحفظ مهما كان، ودون التقيد أيضاً حتى بالغفرانات التي يقال بأنها ممنوحة إلى الانكليز، والمتعلقة بمنافع الكهنة الايطاليين الذين يتخلون عنهم أو

يمـوتـون، وفي أن لاتعطى على الفـور إلى واحـد آخـر مـن الكهنة الايطاليين. صدر في ليون في الثاني عشر من كانون الأول».

ولقد أقحمنا هذه الرسـالة في كتابنا في سبيل أن تعرفـوا مدى الآلام والأذى الذي أنزله البـلاط الروماني على الانكليز التعسـاء، لأن كل من يتولى تقـدير مقاصـدها، يمكنه أن يجد فيها التحـدي، والأذى، والظلم، وأن كلمات شجب الرسـول تطبق عليها وهـو قوله: «مـا لم يتم الفصل أولاً، فإن ابن الظلم لن يظهر»، فها هنـا القضية، وهاهي الأسباب التي تبين لماذا ينسحب الناس من الكنيسـة بالقلب، وليس بالجسـد، وذلك بسبب أبينا البـابا، الذي أثير ليتصرف بعناد مثل زوج الأم، الذي ينفس عن غضبه بالتنكيل بزوجة الأب.

وصول الملك إلى سينت ألبان

ذهب الملك في هذا العـام، في أحـد أسبـوع الآلام إلى سينت ألبـان، وبقي هناك ثلاثة أيام، قـدم خـلالها ثلاثة طيلسـانات إلى القديس ألبـان عند المذبـح الكبير، وقـدم طيلسـاناً إلى القـديس أمفيبـالوس Amphibalus, وأعطى بعض التقـديمات من الذهب إلى مـزار القـديس ألبـان، ولقد كـان على كل حـال معـاق كثيراً في تنفيذ العـدل بالنسبـة لقضيتنا، التي كانت مـؤذية كثيراً لنا، وهي القضية التي كـانت قائمـة بين كنيسة القـديس ألبان وغيـوفري دي تشـايلدويك Childe-wick الذي اقترف تجاوزات كثيرة جداً حتى نتمكـن من روايتها، وخرق بعنف سـلام المملكة، وكرامة التـاج الملكي، وفعل ذلك بالقوة، وتصرف مثل قاطع طريق، فـاستولى على حصان كـان محملاً بالهدايا من واحد من خدم كنيسة القديس ألبان، ونتيجة لذلك جرى اتهامه من قبل الخادم بخرق السـلام، وتم الحصول على مـذكرة من الملك، فيهـا جرى اتهام هذا الفارس بالجريمـة، وألصقت به، إذا ما كـان بإمكاننا استخدام هذه الكلمـة المأخوذة من مفـردات العـدالة، ولكن عندما شـاهد راعي

الدير الفتـور في العدالـة، واعفاء الملك وتراخيـه، ومعـه جون مـونسيل Maunsell, الذي كان مستشاره الخاص، والـذي كان أيضاً زوج أخت الفـارس المذكور، وصـدوراً عن حظوته لدى الملك، وأنه سيقف منحازاً إلى الفـارس، عندما شاهد هـذا كله أهمل الترافع بالقضية، ومع ذلك فإن هذا الفارس العـاق، لم يتقيد بهذا، وسعى بشكل دنيء وخياني إلى إيذاء الكنيسـة، وراعي الدير، ورهبـان القـديس ألبـان، مع أنه كـان تابعـاً لهذه الكنيسة، وتـولى جون المذكـور حضـه وتشجيعه، وحثـه على الاستمرار، وساعده.

حول اعتقال فارس إسمه روبرت وموته

وجرى في هذه الآونة اعتقال أحد الفـرسان واسمه روبرت كاندوس Chandos, وكـان رجلاً قـوياً وجريئاً، وكـان تابعاً لحاشيـة بيت جون أوف مونماوث Monmouth, وكان هذا الرجل لسبب ما قد تخلى عن خدمة مولاه جـون وهو غاضب، وانخرط بصحبة عدد من المتعـاونين معـه، وشغل نفســه سراً وعلناً، مثل حشيشي شرير في أعمال السرقة والقتل، وعندما كان الملـك مقيماً في كنيسة القديس ألبان، حسبما ذكـرنا أعـلاه، وصل إليه تقـرير بأن أعـوان ايرل غلوستر قـد اعتقلوه، وألقوا به في السجن، حيث بقي مغلولاً بشدة لأن سجانيه كانوا خائفين منه، وقد مات هناك ميتة تعيسة.

وفاة العقيلة التقية سيسيليا دي ساندفورد

وفي الثالث والعشرين من تموز في هذا العام، وعلى بعد حوالي التسعة أميال عن سينت ألبـان ماتت امـرأة مقدسة كثيراً اسمهـا سيسيليا أوف سـاندفـورد Cecilia of Sanford, وكـانت أرملة من أصل نبيل، وكـانت أكثـر نبـلاً بأخـلاقهـا، وكـانت أرملة وليم دي غـورهام Gorham, وكان فارسـاً، وأم وليم دي غورهام الأصغر، والذي

كـان أيضـاً فارسـاً، وبعـدمـا مكثت لسنين طويلة أرملة، ولأنها كـانت متعلمة وفصيحة، انتخبت لتكون معلمـة وموجهة لجوهانا Johanna أخت الملك، والتي كـانت أرملـة وليم مـارشـال الأصغـر، وفيما بعـد صـارت جوهانا زوجـة و. W دي بلنسيـة، وقامت هذه السيـــدة سيسيليـا مع جـوهانا، كـونتسة بمبروك Pembroke, وكــــانت آنذاك أرملة، بحضـور القـديس ادمـوند، وكـان آنذاك رئيساً لأسـاقفـة كانتربري، فقطعت على نفسهـا عهداً مهيبـاً بالالتزام بعفة دائمـة والبقاء أرملة، ومع خـاتم الاقتران ارتدت الثـوب الخمـري اللون، الذي كـان يرتدى بمثابة علامة على العذوبية الدائمة، ومثلما فعلت، فعلت تلميذتها الكونتسـة جـوهانا، لكن جـوهانا هذه رغبت فيما بعـد بأن تصبح أمـاً، فحصلـت على تحليل مـن البـــابـا، وتزوجـت من ايـرل أوف ليستر، وحـافظت سيسيليا —على كل حـال— في كل من العقل والسلوك، من دون احباط على عهدها الذي قطعته للرب حتى وفاتها، وعندما شعرت بدنو منيتهـا، استـدعت بسرعـة المتلقي لاعترافـاتها، الراهب وولتر دي سينت مـارتين، الذي كـان من طائفـة الدومينيكان، والذي كـان رجـلاً متعلماً وفصيحاً، وبعدما عملت اعترافاً كاملاً، وتمتنت بقربان جسد ربنا للمـوت، وتلقت مسحـاً أقصى، تمددت تنتظـر الموت، وعندمـا شـاهد الراهب وولتر الخاتم الذهبـي على اصبعهـا، قـال لخدمهـا الذين كـانوا يرعـونها: «انزعـوا هذا الخاتـم على الفـور، حتى لاتموت وهي مـزينة»، لكن سيسيليا، مع أنها كانت شبه ميتة، سمعت هذه الكلمات، فاستردت أنفاسهـا وسعت لأن تتكلم، وقالت مـايلي: «بعيداً هذا عني، أيها الأب العزيز، أن يتركني هذا الخاتم مادمت حية، فأنا سوف أقدمه أمام محكمة الرب، الذي هو قريني، شهـادة على الطهارة الدائمـة التي أنا وعدته بها بوسـاطة هذا الخاتم، في سبيل أن أتمكن من تلقي الجائـزة الموائمـة، وأنا أعـرف الذي أثق به، لأنني لهذا السبب رفضت معانقـة النبلاء والمهـور الثمينة التي عـرضت علي»، ومـا أن أكملـت قـولها حتى سحبت يدها،

وحنت اصبعها، وحافظت بثبات على الخاتم، مع أن الخدم حاولوا انتزاعه، ومع الانتهاء من كلامها أنهت حياتها، وبما أن الراهب ولتر كان رجلاً مستقيماً أطرى على كلامها التقوي، وعلى غايتها التقية، وروى ذلك لي، أنا كاتب هذه الصفحات، وأخبرني أيضاً بأمثلة أخرى عن قداستها، وتمّ جلب جسدها والخاتم مايزال في اصبعها، إلى كنيسة القديس ألبان، وبسبب الامتياز الذي منح لعزوبيتها، ولنبالة أسرتها، دفنت بشكل مشرف في قبو حجري أمام مذبح القديس أندرو في تلك الكنيسة، وأثناء القيام بالمراسيم المهيبة للدفن، كان حاضراً راعي الدير والرهبان، وعدد كبير من الفرسان والنبلاء من أسرة السيدة المتوفاة، وكان من بين هؤلاء نيقولا أوف ساندفورد، أخوها، ونتيجة للحزن الذي شعر به لوفاة أخته النبيلة، لم يتقدم صحياً بعد ذلك، فهو قد كان شاباً، ووسيماً في شخصه، وكان الفارس الأول في انكلترا في الشجاعة، لكن بعد مرور بعض الوقت، في الحزن، دفع في العشرين من كانون الثاني من العام نفسه دين الطبيعة.

مغادرة البابا لمدينة ليون

وفي العام نفسه، في موسم الاحتفالات، غادر البابا مدينة ليون، مرافقاً بكرادلته، وبعدد كبير من النبلاء، وكان دليله فيليب الأسقف المنتخب لليون، وكان محاطاً بحاشية كبيرة من الرجال المسلحين، خوفاً من اعتداء من أصدقاء فردريك، وعندما بات كل شيء جاهزاً للمغادرة، تولى الراهب هوغ، وكان كاردينالاً، باسم البابا، توديع سكان ليون، ووعظ بشكل علني بقداس إلى الناس، وبعدما أعطاهم توجيهات صالحة، وودعهم بشكل أديب، وأستأذنهم باسم البابا والبلاط كله، أضاف إلى ذلك خطاباً، نعتقد أنه من الموائم ادخاله في هذا الكتاب بسبب التوبيخ الشديد الذي ورد فيه، حيث قال: «أيها الأصدقاء، عملنا منذ وصولنا إلى هذه المدينة كثيراً من الأعمال الصالحة،

ووزعنا الصدقات بشكل واسع، لأننا عندما قدمنا إلى هنا وجدنا ثلاثة أو أربعة بيوت دعارة، والآن عند مغادرتنا خلفنا وراءنا بيتاً واحداً فقط، لكن هذا البيت ممتد من الباب الشرقي للمدينة إلى الباب الغربي»، وأساء هذا الخطاب إلى جميع النساء وأزعجهن، ذلك أنه كان هناك منهن عدداً كبيراً جداً لسماع هذا القداس والخطاب، لأنه جرى جمع سكان المدينة بواسطة صوت المنادي، باسم البابا، لأنه كان على وشك مغادرتهم، وجرى تناقل هذا الكلام الحاد من فم إلى فم بين كثيرين، لأن سخريته أصابت الجميع سواء.

كيف وصل البابا دونما أذى إلى ميلانو

وبعد كثير من المخاطر والمصاعب، وصل البابا دونما أذى إلى ميلانو، في يوم عيد ميلاد القديسة مريم، وعند وصوله جرى استقباله من قبل السكان، الذين رحبوا به بتشريف عظيم، لكنه بعدما أمضى شهراً بينهم، طالبوه بدفع مبلغ كبير من المال، قالوا بأنهم أنفقوه في التصدي إلى الامبراطور فردريك، في سبيل كرامة الكنيسة، وهو شخصياً، وعلى هذا الطلب، يقال بأن البابا أجابهم بهدوء كما يلي:

«أصدقاء الرب والكنيسة، نحن نعرف معرفة جيدة بأنكم عرضتم أنفسكم إلى كثير من المخاطر والخسائر، في سبيل كرامة الرب، وكنيسته، ونحن أنفسنا، لكنكم تعرفون جيداً بأنني طردت من المدينة (روما) وكنت منفياً، وعانيت من كثير من الخسائر، بالاضافة إلى كرامتي، وإنه على كل حال عندما يتبسم الحظ لنا وللناس كما آمل، وأثق أن يكون ذلك بفضل جهودكم، سوف أتفقدكم بكثير من الكرامات»، وبهذا الخطاب وخطابات مشابهة له، وبتقديم الهدايا، التي قدم منها البابا كثيراً بيدين مفتوحتين، ومع كثير من الوعود والأماني، تمكن بحكمة من تهدئة غضب سكان المدينة، لأنه كان يعلم بأن يده محبوسة بشدة في فم الأسد، وعلاوة على ذلك حصل على وعد منهم، بأن جميع سكان

المدينة، سوف يرافقونه وهم مسلحين بشكل جيد، ويوصلونه سالماً دون أذى وبدون خسارة إلى حدود ممتلكاته، وذلك بهدف حمايته من جميع مؤيدي فردريك، ثم إنه انطلق، إنما ليس من دون نفقات كبيرة نحو بيروجيا Perugia، ولم يرغب بدخول أية مدينة كبيرة، خشية الوقوع مثل سمكة في شبكة الصيد، وأن لايتمكن من الخروج ثانية، ولذلك لم يوفر جنبي فرسه وأسرع بقدر مااستطاع في سفره حتى وصل إلى بيروجيا، حيث استقبله السكان بكل اخلاص مستحق، وذلك صدوراً عن التقدير للربح الذي سوف يحصلون عليه من الناس الذين سوف يتدفقون على هناك.

وصول راعي دير ويستمنستر عائداً من البلاط الروماني

ووصل في حوالي الوقت نفسه، راعي دير ويستمنستر، وقسيس البابا، عائداً من البلاط الروماني، وهو متورط بعمق بالديون، وبالمسؤوليات القانونية، لأنه أقام طويلاً في ذلك البلاط، ونال لنفسه عواطف كثيرين كانوا هناك، إلى حد أنه اعتقد بأنه كان الرجل الذي كان بإمكانه تحمل القضايا الصعبة، وأنه سوف يبقى كلية مع البابا، وقد وصل الآن مسلحاً بكثير من السلطات المضاعفة ليرغم الرهبان في ديره على الخضوع لإرادته، وتوجه على الفور إلى عند الملك في ويندسور Windsor، حيث رتل قداساً أمامه وكأنه كان البابا، لأنه كان مدهشاً ومتميزاً بصوته وكذلك بوساطة شخصيته، ثم إنه اقترب واثقاً من الملك، وأراه رسائل من كثير من الأمراء، والتمس منه اذنه، أن يتولى الإدارة الكلية لدير وينكستر، الذي عهد الملك بولايته إليه، وأن يدمج الحصتين المفصولتين للممتلكات في كنيسته في حصة واحدة، وتجاه هذا الطلب، نظر الملك، الذي كانت عواطفه قد نأت عن راعي الدير، وحدق به شزراً، وتفوه بكثير من عبارات الملامة والتوبيخ التي لايمكن ذكرها، ووجّه الاهانات إليه، وكان من بين ماقاله توبيخاً أنه أعلن بأنه قد رقاه —أي راعي

الدير— دون أن يستحق ذلك، وأنه تصرف بشكل غير حكيم بدعوته إلى استشارة سرية، وقال له: «كيف يمكنني أن أضع أية ثقة بك وبإخلاصك، وأنت الذي سعيت إلى ظلم ومضايقة رهبانك مع الذين كانوا أصحابك والضيوف على المائدة لوقت طويل مضى»؟، وقام عدد كبير من أصدقاء راعي الدير، كان منهم جون مونسيل مع كثيرين آخرين عددهم كبير جداً حتى نقوم بذكرهم بالاسم، فتوسطوا من أجله، ومع ذلك قام الملك وهو غاضب بطرده من مجلسه الاستشاري، وأبعده عن حظوته، وبعد لأي وافق راعي الدير —الذي كان بإمكانه إثارة غضب الملك بسهولة— على الالتزام بقرار يصدر عن لجنة تحكيم مؤلفة من جون المتقدم ذكره أعلاه، ومن الايرل رتشارد، إذا كان ذلك يرضي الملك، ووعد بأنه سوف يصادق على الذي سوف يقررانه ويوافق عليه، وقد وافق على هذا بالرضا المجمع الديري، مع أن المحكمين كانا صديقين حميمين لراعي الدير، ومثل هذا أعطى الملك موافقته، وبعد كثير من المناقشات، وافق الحكمان على رغبات الرهبان ومطالبهم، ورفضا طلبات راعي الدير، لأنهما علما بأنهما سوف يرضيان الملك بهذا القرار، ومع ذلك فإن هذا الخلاف لم يصل إلى نهاية في هذا العام.

فقدان الملك الفرنسي للمال في البحر

وفي الوقت نفسه أرسلت أم الملك الفرنسي مع أخويه مبلغاً كبيراً من المال من أجل فديته، ولكن عندما كانت السفينة الحاملة للمال تسير في البحر، هبّت عاصفة، وغرقت السفينة مع كل شيء كان على ظهرها، وعندما سمع الملك الفرنسي التقي بهذه الحادثة قال: «لاهذه الكارثة ولاأية كارثة أخرى سوف تنأى بي وبعاطفتي عن المسيح»، وهكذا اطمأن هذا الملك النبيل وواسى ومتّن الذين رأى أن قلوبهم ضعيفة، وبذلك بدا وكأنه الثاني ليعقوب، حتى أن المسلمين أشفقوا عليه وأعجبوا بمثابرته وبثباته العقلي.

الفيضان غير الاعتيادي في فريزلاند

وتدفقت في العام نفسه بعض المياه، كما هو معتقد، من صدر البحر، وسببت فيضاناً غير عادي في فريزلاند، غطى وجه تلك البلاد لمسافة سفر حوالي السبعة أيام، وبهذه الزيارة التفقدية للانتقام الرباني، وفي تلك الأثناء، جرى دمار جميع القطعان، لكن بعد مضي أربعين يوماً عادت كتلة المياه المدمرة هذه إلى مكانها المعتاد، ثم قام الناس من أهل الجوار الذين بقيوا أحياء بالتفتيش في كهوف الصخور، والقلاع شبه المدمرة، حيث تمكنت الأمواج المدمرة من قهر السكان، ووجدوا هناك أعداداً كبيرة جداً من الأجساد المرتدية، حول أذرعتها، ورقابها، وأصابعها، والأجزاء المتبقية من أجسامها سلاسل زينة، وعقوداً، وخواتم، وأحزمة ثمينة، ومشابك ذهبية، مع أثواب ثمينة، تساوي جميعها مبلغاً هائلاً، فقد قام هؤلاء الناس، وهم على وشك الهلاك، بربطها حول أجسامهم، من أجل أنه لدى العثور عليهم فيما بعد، أن يجري دفنهم بجاهزية، وأن يمنحوا طقوس الدفن بكرم زائد، وهكذا حدث أن الذين بقيوا أحياء صاروا الآن أغنياء بوساطة أسلاب هذه الأجساد، ومضى كثير منهم إلى سوق القديس بوتولف Boutlph, وباعوا ذهبهم، وفضتهم، وجواهرهم، وفق شروط جيدة إلى التجار الذين كانوا على استعداد لشرائهم.

عودة هنري أوف باث إلى البلاط

وفي حوالي يوم عيد القديسة مريم المجدلية، عاد هنري أوف باث، الذي تقدم ذكره أعلاه، إلى البلاط، واسترد حظوة الملك بوعده إياه بألفي مارك، ونسي بذلك جميع المصائد التي نصبت له، ونجا منها من قبل.

وصول الأسقف المنتخب لوينكستر إلى إنكلترا قادماً من البلاط الروماني

وقدم في هذه الآونة أيضاً ايثيلمار، أسقف وينكستر، من القارة، ونزل في انكلترا، تحيط به حاشية كبيرة وبأبهة عظيمة، ولدى وصوله، مضى الملك وهو مسرور لاستقباله، يرافقه عدد كبير من النبلاء، خاصة من البواتيين، وكان من بينهم أخويه: وليم دي بلنسية، وغيوفري دي لوزنغنان، الذي كان الأخ الثالث للملك، وبعد التعبير عن سرورهم فيما بينهم، ذهبوا إلى وينكستر، وفي اليوم التالي لعيد القديسة مريم المجدلية، الذي كان يوم أحد، اشتركوا مع بعضهم بالعيد هناك، وهكذا طارت جميع عظمة انكلترا ونبالتها، وذهبت إلى الأجانب، لأن الانكليز المحليين قد أبعدوا كلياً، وكان لدى الأسقف المنتخب المتقدم ذكره، سبباً إضافياً للسرور، لحصوله على حظوة البابا، وعلى حظوة الملك التي نالها بموجب علاقة الأخوة بينهما، وبموجب ذلك احتفظ بالممتلكات وبالموارد التي كانت بين يديه من قبل، والتي وصلت إلى أكثر من ألف مارك، وهي التي، مع أنه أسقف منتخب مسكين، قد حصل عليها من استخراجات أخيه الملك، لأن من المعتقد أنه لم يكن هناك كنيسة مفردة في انكلترا، هي مشهورة، لم يتم امتصاص الحليب من صدرها حتى جف، ولقد رأينا أنه من المناسب أن نقحم في هذا الكتاب رواية لابد من أن تسبب جريان الدموع من عيون قرائي، فقد أرغم راعي دير كنيسة القديس ألبان، من خلال الاستخراجات الهائلة والتي بلاحياء، للملك، على دفع مائة شلنغ من خزانته، لصالح سيمون الذي كان كاهناً من نورويك، مع أن سيمون هذا المذكور كان قد مات في العشرين من عمره، ولقد طالب الملك قبل دفنه تقريباً، بأن يجري تحويل المورد ليسمن به شخص آخر، كان أيضاً من الأجانب، وهذا ماجرى تنفيذه، مع أن ذلك كله كان ضد رغبة راعي الدير، وسبباً لحزنه،

وعلاوة على ذلك طلب الملك بوجوب منح عشرة ماركات سنوياً من خزانته، إلى أخيه ايثيلمار، الذي هو الآن الأسقف المنتخب لوينكستر، وبناء عليه، عندما جرى انتخاب ايثيلمار إلى ذلك الكرسي، طالب على الفور بتحويل هذه العشرة ماركات، التي كان ايثيلمار قد تسلمها لعدة سنوات، ودفعها إلى كاهن بواتي صغير، الأمر الذي سبب الخطر للكنيسة، وكذلك الخسارة، وبذلك توفرت الظروف لأن يلحق بالكنيسة ضرر لايمكن تعويضه، وأن تصبح عرضة للعبودية، وبالإضافة إلى هذا لم يتردد الملك بطغيانه عن إنزال أضرار كثيرة متكررة ومضاعفة، ووضع أعباء ثقيلة على كنيسة القديس ألبان، الذي كان رائد الشهداء الانكليز، وهذا كله مزعج لأن يقوم الكاتب بوصفه، ومرهق للسامع حتى يصغي إليه.

موت بوينتز بيبر

وفي الخامس من حزيران من هذا العام، غادر طريق الجسد، فارس متعلم، أو بالحري كاهن فارس اسمه بوينتز بيبر Poyntz Piper, وجاءت وفاته في لندن، ولقد كان ساقي الملك، وواحداً من مستشاريه الرئيسيين، وكان عندما بدأ يدور حول بلاط الملك ويتردد عليه بالكاد يمتلك فدانين من الأرض، وذلك كما هو معروف بشكل جيد، لكنه تمكن خلال مدة وجيزة، بوسائط قانونية وكذلك غير قانونية، من الحصول على كثير من الأراضي والموارد، حتى أنه امتلك أكثر من خمسين فداناً من الأراضي الجيدة، وباتت لديه ثروة ايرل، لابل حتى إنه ادعى لنفسه فخار حمل هذا اللقب، وكان شارياً للأرض لايعرف القناعة، ولامثيل له في بناء العزب، ومن دون أن نذكر أعماله الأخرى الكثيرة، تولى تزيين عزبة تيدنغتون Tedington, ببناء قصر فيها، وبيعة، وغرف نوم، وبيوتاً أخرى من الحجارة مغطاة بالرصاص، وشيد حدائق ومطارد هناك، كانت محطّ اعجاب كل الذين شاهدوها، وقد

ذكر العاملون في أبنيته أنهم بقيوا عدة سنوات، يتلقى أحدهم مائة شلن في كل أسبوع، وغالباً ما كان أجر كل واحد منهم عشرة ماركات، وبعدما جرى فتح جسده، جرى دفنه في لندن، لكن قلبه جرى حمله إلى تيدنغتون، وهو القلب الذي بقي في حالة عدم استقرار خلال حياته، وتزوج جون دي غري Gray, الذي كان فارساً شجاعاً ووسيماً من أرملة بوينتز المذكور، وصار خليفة غير متوقع له، وبذلك سكن الأبنية الفخمة، التي بالكاد كانت قد كملت، وهكذا فإن جسده قد قسّم، وممتلكاته أيضاً قسمت وتفرقت:

ليس لنفسك أيتها النحلات تصنعين العسل

تأبين بولينوس Paulinus *بيبر*

أنت يابولين بيبر حماك الرب
وعندما تقوم من قبرك آمل
أن تمنح بفضل نعمة ادوارد
حياة أبدية مباركة في السماء

تأبين آخر للشخص نفسه

هنا يرقد تحت الأرض رماد بوينتز بيبر
تفكروا، أنتم ياأبناء الفناء:
أنا ماستكونون أنتم، وماأنتم عليه الآن
قد كنته.. وأن يرتفع إلى السماء النذر التقي
والدعاء إلى الرب الذي أحتاجه في وقت عوزي هذا
في أن لاتتغذى الديدان على جسدي

وصول راعي دير كلوني إلى إنكلترا

وفي حـوالي الوقت نفسـه، قـدم راعي دير كلوني إلى انكلترا، ليـزور رهبـانه، وليصلح طائفتهم، وليتـولى فحص كمية أمـوالهم، لكنه عندمـا كان مقيماً في انكلترا، ناوياً الحصول على بعض المرابح، قام بعض جيرانه في القارة بالاستيـلاء بالقوة على بعض قلاعه مع متعلقـاتهم، وبناء عليه أرغم على العودة على الفور.

كيف تم العثور على بعض الرهبان الموتى في كنيسة القديس ألبان

جـرى في هذا العـام، أثناء عمارة بعض الأبنية الحجـرية قـرب المذبح الكبير، في الجانب الجنوبي من كنيسـة القـديس ألبان، العثـور على عظام بعض الرهبان الموتى، بلغ تعـدادهم حوالي الثلاثين، وقـد جرى جمعهم بكل عناية، ووضعوا في قبـوين حجريين، تحت قنطرة عملت في الجدار، وقد عمل هذا لسبب جيـد، لأنه كان من المعتقـد وجود كنز ثمين مخفي هناك، وكانت عظام بعض الأجسام بيضاء مثل العـاج، لابل أكثر بياضاً عندما جرى تفتيتها، وأعطت رائحـة كأنها قد دهنت كلها بزيت معطر، وكانت أحذية هذه الأجسـاد —علاوة على ذلك— سليمة بنعالها، ومن الواضح أنها كانت مناسبـة لاستخدامات الفقراء، وكـانت النعال نفسها مستـديرة، لذلك كانت مناسبـة لأي قـدم من القدمين، من دون تمييـز، وكـانت الأحذية مـربوطة بخيـوط، وكانـت بعض هذه الخيوط مـاتزال سليمة، وهذه واقعـة سببت العجب والدهشة لجميع مشاهديها، خـاصة وأن القبـور عدّت بأن عمـرها مـائـة سنة على الأقل، وبحكمة وتقـوى اعتقد بأن هذه علامة على قداستهم، ولدى تفكر بعض الرهبان الأحياء الآن حـول هذه المسائل، انفعلوا وحـزنوا، وقـالوا فيما بين أنفسهم، مع تنهدات عميقـة: كم كان أسلافنا وآباءنا مبجلين، حتى أنهم استخـدموا

مثل هذه الأشياء، التي فيها اشارات إلى قداستهم، آه أيها الرب، كم هي موثوقة البينات التي عملتها، وكم هي واضحة البراهين على صلاحهم وسعادتهم، خاصة في بياض عظام وطيب رائحة هؤلاء الرجال المتواضعين، ثم إنه بلاشك، كانت كنائس هؤلاء الرهبان قد تلقت السعادة مضاعفة في الأمور الدنيوية، وفي القضايا الروحية، وهي الكنائس نفسها، التي من خلال انتقام الرب، لضلالها وابتعادها عن طرق آبائها، معاقة ومتضررة من قبل الأساقفة وكذلك من قبل النبلاء، اخجلوا أنتم يارهبان أيامنا، الذين ترتدون، لابالحري تتزينون بالأثواب الناعمة، والرفيعة والثمينة، ومااللذي يمكن قوله عن القمصان التي ترتدونها، وعن القبعات التي تلبسونها أيها الناس؟ آه، لو أن القديس بندكت يعود إلى الحياة —وهو الذي كان قد شاهد في بعض الأحيان العالم كله قد تجمع تحت أشعة الشمس— ويرى هذه الأشياء (وفي الحقيقة لابد بالفعل أن يراهم) إلى أي حد سوف يشعر بالانزعاج والغضب، ولو أن القديس برنارد، تمكن من رؤية هذه الأشياء، كيف كان سيتأوه آسفاً، لأنه كان قد قال وكتب: «مامن شيء أكثر اغضاباً للرب، من راهب أكل طعاماً لطيفاً، وارتدى ثياباً ثمينة، ولبس حذاءً ناعماً خفيفاً».

وفاة غيوفري قهرمان الملك

وفي العام نفسه، وفي الوقت نفسه، الذي غادر فيه بوينتز هذه الحياة، كما تقدم الذكر أعلاه، مات غيوفري الفارس النبيل، قهرمان قصر الملك، والمستشار الخاص له.

كيف جرى استدعاء السماسرة إلى العدالة

أصبح في حوالي الوقت نفسه المرابون من وراء الألب الذين ندعوهم باسم السماسرة Caursins كثيري العدد، وصاروا أغنياء إلى حد

أنهم شيدوا قصوراً فخمة لأنفسهم في لندن، وقرروا أن يقيموا هناك بشكل أبدي، مثل السكان المحليين المولودين هناك، ولم يتجرأ الأساقفة على التذمر لأن السماسرة قد أكدوا أنهم كانوا وكلاء البابا، كما لم يتجرأ سكان المدينة على التعبير عن عدم رضاهم، لأن هؤلاء كانوا محميين من قبل بعض النبلاء، وينالون حظوتهم، الذين قيل بأن أموالهم قد وضعوها لديهم في سبيل جمع الفائدة، وفق طريقة البلاط الروماني، وحدث على كل حال أنه تم بناء على رغبة الملك وبتوجيه منه، أن وجهت إليهم تهماً ثقيلة عرضت ضدهم في المحاكم المدنية، وجلبوا إلى المحاكمة أمام القاضي، وجلس أحد القضاة في لندن، ممثلاً للملك، وقد اتهمهم، ووجه إليهم تهماً بأنهم كانوا منشقين، وهراطقة، ومجرمين بالخيانة ضد الملك، ذلك أنه مع أنهم أعلنوا عن أنفسهم بأنهم كانوا يؤمنون بالمسيحية، كان من الواضح تماماً أنهم لوثوا مملكة انكلترا بتجارتهم الدنيئة في ممارسة الربا، وتجاه ذلك تشكى الملك المسيحي، لأنه تأثر كثيراً وجرح في ضميره، بحكم أنه كان قد أقسم على الحفاظ على مؤسسات الكنيسة دونما أذى، وبما أن السماسرة لم يكن بإمكانهم إنكار التهمة، جرى اعتقال بعضهم، وعهد بهم إلى السجن، وأخفى آخرون أنفسهم في أماكن نائية، وفرح اليهود لاتخاذ هذه الإجراءات، لأنهم أصبحوا الآن شركاء لهم في حالة العبودية، وعلى كل حال أمكن أخيراً عن طريق دفع مبلغ كبير من المال، فسمح لهؤلاء السماسرة —المنافسين لليهود— بالعيش بسلام لبعض الوقت، وأخبرني واحد منهم، أنا كاتب هذا العمل حول هذه القضايا، وأعلن لي مؤيداً إعلانه بيمينه، أنهم لولا عمارتهم لهذه البيوت الثمينة في لندن، بالكاد لم يبق أحد منهم في انكلترا.

وفي هذا العام أيضاً، تولى البابا صياغة بعض الفتاوى، التي يمكن للقارىء الحريص أن يجدها في كتاب Additaments.

حول اجتماع الرعاة في فرنسا
من أجل الاستيلاء على الأرض المقدسة

وفي حوالي هذا الوقت، تصور عدو الجنس البشري بعض الآمال المطمئنة، بأن نهر الأردن سوف يتدفق على فمه، مثلما هو يشرب الآن منه بوسائط سلطان مصر، ولدى مشاهدتهم أنه في فرنسا الحلوة الإيمان المسيحي كان يترنح، وبات جاهزاً للسقوط، فشغل نفسه في تأسيس نوع جديد من العقيدة الزائفة، وكان هناك أحد الأشخاص من أصل هنغاري، كان قد بلغ الآن الستين من عمره، ولقد كان منذ صباه مرتداً عن الديانة المسيحية، وقد تقمص بشكل جشع الزيف والمكر الصادر عن الجحيم، وأصبح خادماً وتلميذاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى هذا وعد مخلصاً سلطان مصر، الذي أصبح أيضاً عبداً له، بأنه سوف يقدم إليه عدداً كبيراً جداً من الأسرى المسيحيين، حتى تصبح فرنسا مهجورة من الناس، ومحرومة من ملكها، وبذلك تغدو إمكانية الدخول إلى تلك البلاد المسيحية أكثر سهولة بالنسبة للمسلمين، ثم إن هذا الدعي، الذي عرف اللغة الفرنسية، واللغة الألمانية، واللغة اللاتينية، قام من دون تفويض من البابا، أو ضمانة من أي أسقف، فتجول هنا وهناك، وأخذ يبشر، ويؤكد كاذباً بأنه تلقى أوامر من القديسة مريم، أم ربنا، بأن يجمع الرعاة والذين يتولون حفظ الحيوانات الأخرى، فهؤلاء، حسبما أعلن، قد منحوا من السماء السلطة، بحكم تواضعهم وبساطتهم، بأن يتولوا انقاذ الأرض المقدسة، مع جميع الأسرى من بين أيدي المسلمين، ذلك أنه قال بأن فخار فرنسا من الجند كانوا غير مرضين للرب، ودعمت فصاحة خطبه، مثلما فعل حين أمسك بيديه المضمومتين إلى بعضهما ورقة —ادعى كاذباً— بأنها تحتوي على أمر العذراء المباركة، واستدعى جميع الرعاة للالتحاق به، فتخلوا عن قطعانهم، ومواشيهم، وخيولهم، وقاموا من دون التشاور مع مواليهم أو أقربائهم، باللحاق به

على أقـدامهم، دون الاهتمام مطلقاً بالطعـام، لأن هذا الرجل قد مـارس البـدع الرئيسية التي كـان قد تبناهـا من ذلك الشاب الأمـرد في فرنسـا، والذي فتن الشعب الفرنسي، وجمع حشداً كبيراً جداً من الأطفال، الذين سـاروا وراء خطاه، وهم يغنون، والذي كـان مدهشـاً، أنه كـان من غير الممكن منعهم لابالمغـاليق ولابالحواجـز، كما لم يكن من الممكن اعـادتهم بوساطة الأوامر والالتماسات أو بوساطة هدايا آبائهم وأمهاتهم.

وبوســاطـة البــدع نفسهــا، يحكى بأن روبـرت بوغــري Bugre, الذي كان راهباً مزيفاً من رهبان الدومينيكان، قد فتن عدداً لايحصى من الناس، وأودع هؤلاء الناس المخــدوعين الأبرياء وعهـد بهم إلى النيران، وتمت مساعدته بوساطة السلطة الـدنيوية للملك الفرنسي، الذي مال إلى توجهـاته، فقـام بتسبيب دمـار هائل، هـذا وجـرت حكاية هذه المسـائل بشكل كامل في مكان آخر.

وحمل هذا الدعـي الكذاب، وكـــذلك جميع الذين تبعــوه، عــلامــة الصليب، وكـان هناك الكثير من الناس الـذين تعـاطفـوا معهم، وأبدوا نحوهـم الاحسان، وأعطوهم المسـاعدة، قائلين بأن «الرب غالبـاً مايختار الأجزاء الضعيفـة في العالم ليخـزي بها الأجزاء الأقـوى، فالرب القـدير ليس راضيـاً أو مسروراً بأرجل الانسان، كما أنه ليس مقبـولاً لديه الذين يدعون البراعة والشجاعة في الحرب»، وقامت السيدة بلانشي أيضاً، التي كانت ملكة فـرنسا ونائبة الملك، وهي آملة بأنهم سـوف يستحوذون على الأرض المقـدسـة، وينتقمـون لأولادهـا، فمنحتهم احسـانها، وأظهـرت نحوهـم اللطف، ولذلك تضـاعفت أعدادهم إلى درجة، أنه جـرى تقدير عـددهم بأنه قـد بلغ مـائة ألف وأكثر،وعملوا أعـلامـاً لأنفسهم، حتى يقاتلوا تحتهـا، وفي ظل قائـدهم، ورسموا عليهـا صورة حمل، واتخذ هذا الشعار رمـزاً على تواضعهم وبراءتهم، وعدّوا الراية التـي عليها الصليب رمزاً للنصر.

وصول رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا

وفي حوالي عيد القديس برنابا، وصل رئيس أساقفة كانتربري إلى انكلترا، فشهد على صدق القضايا المذكورة أعلاه، وذكر أن هذه المشكلة قد بدأت في المملكة المتقدمة الذكر، بعد عيد الفصح، وعلاوة على هذا، أضاف بأن البابا، بعدما قام بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بكونراد بن فردريك وبجميع أعوانه في يوم العشاء الأخير، انطلق في يوم الجمعة في أسبوع الفصح تحت حماية، وبتوجيه، وقيادة من فيليب الأسقف المنتخب لليون، الذي تحمل نفقات ثلاثة آلاف مارك، مقابل تزويده بالأمان، وشجعت مغادرة البابا وغيابه هؤلاء الرعاة الذين تضاعفت أعدادهم في فرنسا، وزودتهم بالثقة والجرأة، وقد ازدادوا في القوة والعدد.

كيف تزايدت أعداد هؤلاء الرعاة كثيراً في فرنسا

وتدفق الآن للالتحاق بعصابتهم: لصوص، ومنفيين، ولاجئين، وأشخاص محرومين كنسياً، (الذين هم جميعاً يدعون بشكل عام في فرنسا باسم السفهاء)، وبذلك فإنهم جمعوا جيشاً كبير العدد كثيراً، وكان لديهم خمسمائة راية، مشابهة لرايات سيدهم ومقدمهم، وحملوا سيوفاً، وفؤوساً، وحراباً، وخناجر، وسكاكين طويلة، وعلى ذلك ظهروا أنهم يرعون فكرة الحرب، أكثر من اهتمامهم بالمسيح، وتكلموا هائجين بشكل مجنون، وعقدوا زيجات غير قانونية، وتولى قادتهم والموجهون لهم الوعظ والتبشير، مع أنهم كانوا مدنيين، وضلوا كثيراً في وعظهم وابتعدوا عن أركان الايمان المسيحي، والأحكام الواضحة والصدق، وكان إذا ما حاول انسان مخالفتهم أو معارضتهم، هاجموه بالسلاح، وليس بالمنطق أو بقوة الحجة، وعندما كان قائدهم الرئيسي يتولى الوعظ، كان يحاط بالأتباع المسلحين، ويتولى إدانة جميع الطوائف باستثناء جماعاتهم، وركز لعناته بشكل خاص على الدومينيكان

والفـرنسيسكان، الذين سماهم الـزائغين والمنافقين، وأعلن بأن رهبـان السسترشيان كانوا الجشعين والأكثر حباً للقطعان وللأراضي، أما رهبان الطائفـة السـوداء فقـد أكـد بأنهم كـانوا شرهين ومتجبرين، وقـال عن الكهنة بأنهم كـانوا شبـه مـدنيين ومفترسين أكلة لحوم، وأن الأسـاقفـة ومـوظفيهم كـانوا فقط صيـادين للمال، يتمتعـون بفيض من جميع أنواع المباهـج، وذكر عن البلاط الـروماني أشياء كثيرة لايمكن ذكـرها، وعلى هذا ظهـروا جميعـاً من خلال مـاصرح به، هراطقـة ومنشقين مـرتدين، وصـدوراً عن الكراهية والمقـت لرجال الدين حيـا الناس هذه الشتـائم التي صدرت عنه، وأصغوا باهتمام ورعاية إلى عقائده الخطيرة.

وصول أولئك الرعاة إلى مدينة أورلين

ووصل هؤلاء الرعـاة في يوم عيـد القـديس برنابا إلى مـدينة أورلين Orleans في أبهة كبيرة، وقـوة عظيمـة، ودخلوا إلى المدينة على الرغم من عدم رضـا الأسقف وجميع رجال الدين، مع أن سكان المدينة كانوا مسرورين كثيراً بوصولهم، وبعـد دخولهم، أعلن مقدمهم مثل نبي بمعجـزاته، بصـوت المنادي، وأعطى مـلاحظة، لابل بالحري أصـدر مـرسـوماً مثلما يفعل الملك، وبين أنه سـوف يلقي مـوعظة، وبناء عليـه تدفق الناس عليه بأعداد لاتحصى.

وكـان أسقف المدينة في حـالة خـوف كبيرة، وشعور برعب مـدمـر، لذلك منـع كل رجل دين، تحت طائلـة عقـوبة التكفير، من الاصغـاء لخطاباتهم، ومن اتباع خطواتهم، وأعلن بأن جميع هذه الإجراءات كانت مصائد للشيطان، لأن الرجال المدنيين استخفـوا بتهديداته وبأوامره، أما بعض الباحثين اللاهوتيين، فقد خـرقوا حظر الأسقف، ولم يتمكنوا من حبس أنفسهم ومنعها من إعارة مسامعهم المتشوقة لهذه العقائد الجديدة غير الاعتيادية، وطبعاً لم تكن لديهم نية باتباع أخطائهم، بل أرادوا فقط رؤية وقـاحتهم، وغـريب حقـاً، وكـان أمراً متناقضـاً، أن يقـوم رجـلاً

علمانياً، لابل بالفعل رجلاً عامياً، مستخفاً بسلطات البابا، بامتلاك الجرأة على الوعظ علينا في مدينة فيها الجماعة العلمية في أوج نشاطها، وأن تميل آذان وقلوب مثل هذه الأعداد من الناس إلى سماع دجله! وقد حملوا معهم خمسمائة راية، وتجاه ذلك قام الكهنة ذوي الفهم السليم، فأغلقوا أبوابهم بقوة ووضعوا حواجز لها، وأخفوا أنفسهم بقلق وخوف في بيوتهم.

ثم قام المقدم المذكور ليعظ الناس، وبدأ دون أن يقدم لكلامه بنص مقدس، ثم اندفع متدفقاً يتحدث بصوت مرتفع بكلام وشتائم لايمكن ذكرها، وحدث وقتها فجأة أن قام واحد من الباحثين، وكان واقفاً على مسافة منه، فشق طريقه بالقوة، واقترب منه، وانفجر يقول الخطاب التالي:

«دنيء، وهرطقي، وعدو للحقيقة، وانك تكذب، وكذبك حيق برأسك، وإنك تخدع هؤلاء الناس الأبرياء بحججك الزائفة والمراوغة»، وما كاد يتفوه بهذه الكلمات، حتى قام —على كل حال— واحد من هؤلاء السفلة وانقض عليه، رافعاً فأساً له رأس مدبب، فشطر رأسه إلى قسمين، وبذلك لم يتفوه الرجل المصاب بأية كلمة أخرى، وتفجر هياج واضطراب، والناس الذين سميناهم رعاة، والذين يستحقون الآن أن نسميهم أفاقين، ورواد للمسيح الدجال، قاموا بحمل أسلحتهم ضد رجال الدين في أورلين بشكل عام، وانقضوا على سكان المدينة غير المسلحين، وهم حاملين لأولادهم المحبوبين، وحطموا جميع أبواب ونوافذ البيوت، وألقوا النيران بأنفسهم في البيوت في الثالث عشر من كانون الثاني.

وبرضا سكان المدينة، أو بالأصح بموافقتهم (الذين من خلال موافقتهم تم ادخال مجموعة هذه الكلاب استحقوا مانالوه) مزقوا كثيراً من مواطني المدينة، وأغرقوا عدداً كبيراً في نهر اللوار Loire,

والذين نجوا من الموت أصيبوا بالجراحات، وسلبوا من ممتلكاتهم، وأما الذين مكثوا متخفين في بيوتهم، فعندما شاهدوا هذه الأعمال، هربوا على شكل حشود من المدينة أثناء الليل، وعمت الفوضى بين جميع الناس وساد الاضطراب، واكتشف فيما بعد أن خمسة وعشرين كاهناً قد هلكوا، وذلك بالاضافة إلى أعداد الذين جرحوا، ونالهم الأذى بطرائق مختلفة، وأيضاً تعرض الأسقف وأتباعه الذين أخفوا أنفسهم ليتجنبوا التورط بمأساة مشابهة، إلى كثير من الاهانات، وعانى من كثير من الأضرار.

وبعد هذا قام الرعاة بالمغادرة، خوفاً منهم، أن يثور سكان المدينة ضدهم ويهاجمونهم، وقام الأسقف، حتى لايبدو مثل كلب غير قادر على العواء، فوضع المدينة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لأن سكان المدينة جعلوا من أنفسهم ملومين ومتلبسين بالعار، بسماحهم بمثل هذه الإجراءات، لابل وصل بهم الأمر إلى حد الموافقة، والتعاون معهم، وأخيراً وصلت صرخات الشكوى إلى مسامع السيدة بلانشي، وإلى النبلاء والأساقفة، وإثر سماع الملكة بما حدث أجابت باعتدال: «إنه كما يعلم الرب، كنت قد اعتقدت أنهم بسذاجتهم، سوف ينالون ملكية جميع الأرض المقدسة، لكن بما أنهم مخادعين، يتوجب حرمانهم كنسياً، واعتقالهم، وتدميرهم»، وبناء عليه جرى حرمان جميع هؤلاء الأشرار كنسياً، والدعوة إلى التشهير بهم على هذا الأساس، ولكن قبل أن يجري نشر هذا القرار، ذهبوا مع نوايا إجرامية إلى مدينة بورجي Bourges, ففتحت أبواب المدينة لهم، بموافقة من سكان المدينة، الذين رفضوا الاصغاء إلى أوامر الحظر الصادرة عن رئيس أساقفتهم، ودخل الشطر الأكبر منهم إلى المدينة، وأما البقية فمكثوا في الكروم خارج المدينة، لأن أعدادهم كانت كبيرة جداً إلى درجة أن مامن مدينة كان بإمكانها استيعابهم جميعاً بسهولة، ولذلك توزعت حشودهم على عدة مدن،

حتى أن باريس عـانت من أذى محسوس منهم، وأعلن مقدم هؤلاء القوم الضالين عن نيته إلقاء موعظة قداس عام، ووعد بعمل بعض المعجزات المدهشة، ولذلك تدفقت أحشاد هائلة من الناس مع بعضهم من جميع الجهات، لسماع أشياء لم يسمعوا بمثلها من قبل، ولرؤية أشياء لم يروا مثيلاً لها من قبل، وبعدما تفوه هذا المخادع ببعض الخطابات التي كانت كلها هذيان، وبعدما تبين أن المعجزات التي وعد بها كانت خداعاً، قام واحد من الناس، وكان جذاراً، يحمل فأساً، بتوجيه ضربة له على الرأس، فأرسل به من دون دماغ إلى جهنم، وألقى بجسده على مفترق طرق، وترك من دون دفن حتى يهترىء، وعندما انتشرت التقارير وعمت بأن هؤلاء الرعاة مع محرضيهم، وكذلك كل الذين أصغوا إليهم، قد حرموا كنسياً، تفرقوا، وتشرذموا مثل كلاب مسعورة، وأيضاً حدث في بوردو عندما وصلت مجموعة من هؤلاء، واقتربت من المدينة، أغلقت الأبواب، بناء على أوامر سيمون ايرل ليستر، ولم يسمح لهم بالدخول، وبناء على طلبهم الدخول أجابهم الايرل بسؤالهم: «بسلطة من تفعلون هذا؟»، وعلى هذا أجابوه: «نحن لانلتمس سلطة البابا أو الأسقف، بل سلطة الرب القدير، ومريم المباركة، أمه، التي هي سلطة أعظم من سلطتهم»، وعندما سمع الايرل هذا الجواب، عدّ مثل هذا الكلام كلاماً عابثاً، فأرسل إليهم الرسالة التالية: «غادروا جميعاً، بأقصى سرعة ممكنة، أو إنني سوف أحشد جميع عساكري، وكذلك الكتائب المدربة، وسكان هذه المدينة، وسوف نهاجمكم ونمزقكم إلى أشلاء».

حول نهاية الواعظ الثاني لهؤلاء الرعاة

واعترت الدهشة هؤلاء التعساء الضالين لدى سماع هذه الكلمات، وأصبحوا مثل رمل من دون كلس، وتفرقوا في جميع الاتجاهات، وبما أن كل واحد منهم فكر فقط بسلامته شخصياً بوساطة الفرار، فقد تعرضوا

إلى كثير من المخاطر بأشكال متعددة، وهرب مقدمهم ورئيسهم بشكل سري، وركب سفينة، وسعى لأن يأخذ طريقه بكل سرعة إلى بلاد المسلمين، التي كان قد جاء منها، ولكن تبين للملاحين أنه خائن، ورفيق للهنغار المتقدم ذكرهم، الذين كانوا قد قتلوا شعب مدينة بورجي، لذلك غلوه بيديه ورجليه، وألقوا بهذا المتشرد التعيس في الزنزانة، وهكذا حين حاول النجاة من خطر وقع في خطر أشد، ووجدوا في حقائبه، بالإضافة إلى مبلغ كبير من المال، عدة أوراق مكتوبة بالأحرف العربية والكلدانية، وكذلك ببعض الأحرف الأخرى غير المعروفة، ووجدوا أيضاً بعض المساحيق الضارة، من أجل صنع عدة أنواع من السموم، وقد جاء في بعض الرسائل التي كانت معه، كما تبين من بعد أن «السلطان شجعه كثيراً على الاستمرار بمهمته، مقابل نيل جوائز كبيرة»، وورد في الرسائل الأخرى بأن الواعظ المذكور «سوف يعطي إلى السلطان عدداً كبيراً من الناس»، وهكذا فإن ساحرين وقعا في مصائد الشيطان وهلكا.

نهاية الواعظ الثالث

وحاول الواعظ الثالث الدخول إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham, وأقنع أكثر من خمسمائة إنسان باتباعه، وقد تألفوا من: رعاة، وفلاحين، ورعاة خنازير، ورعاة قطعان، ومثل هؤلاء الناس، ولكن عندما انتشر بين الناس بأنهم محرومين كنسياً، وأن الهنغاري هو أستاذهم الرئيسي، وأن رفيقه قد قتل، وأن أصحابها قد تفرقوا، تغيرت أوضاعهم نحو الأسوأ كثيراً، وحاول مقدمهم لدى أوصوله إلى مونترويل Montreuil أن يعظ هناك، ولكنه ما أن شرع بإلقاء خطابه المجنون، لابل بالحري شرع يؤكد هذيانه، حتى قام مستمعوه ضده، ولدى حملهم للسلاح هرب إلى الغابة، لكن مالبث أن اعتقل وقتل، ولم يتعرض فقط إلى تقطيع أطرافه، بل جرى تمزيقه إلى

أشلاء وقطع صغيرة، وترك جسده طعاماً للطيور الجارحة.

كيف تابت الحشود الساذجة لأنها ضللت

ثم حدث في الحقيقة، أن وجد كثير من أتباعهم أنهم قد ضللوا، واكتشفوا أوضاعهم التعيسة، فقبلوا بالتوبة التي فرضت عليهم، وألقوا بالصلبان التي تسلموها من أيدي أولئك المخادعين، وأعادوا حمل شارة الصليب من أيدي الرجال الصالحين، في سبيل القيام بحجهم بشكل صحيح، وفي سبيل الانطلاق نحو الأرض المقدسة، دخلوا في خدمة الملك الفرنسي، بعد اطلاق سراحه من أيدي المسلمين، حسبما سنوضح في الرواية التالية، لأنهم قالوا بأنهم قد تعلموا من معلمهم، بأنهم سوف يحررون الملك الفرنسي، ولذلك تنافس أحدهم مع الآخر في حمل شارة الصليب، وكان معلم اسمه توماس، من أهالي نورماندي، كما كان راهباً من شيربورن Sherborne, وكان أيضاً رجلاً مستقيماً وفصيحاً، وقد أرسل في تلك الآونة إلى القارة في سبيل قضاء بعض الأعمال لصالح الملك، وقد اعتقل من قبل الرعاة الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وسجن لديهم لمدة ثمانية أيام، ولأنه رفض الإصغاء إلى حججهم، تعرض للضرب بحدة، وأخيراً تمكن بعد بعض المصاعب، من النجاة أثناء الليل، وأخذ طريقه إلى الملك في وينكستر، فقدم رواية كاملة عن إجراءاتهم، وعن أعمالهم المخادعة إلى الملك، وكان ذلك على مسمع من كاتب هذا العمل، الذي قام بصدق وبشكل كامل بكتابة كل الذي سمعه من فم الراوي، بحكم أنه كان رجلاً موثوقاً.

وقال رجال أصحاب نفوذ، ومتسمين بالاخلاص، وأساقفة ذوي تفكير عميق، أنه منذ أيام محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يتسلل مثل هذا الطاعون المخيف إلى كنيسة المسيح، خاصة بسبب الكارثة التي حدثت للملك الفرنسي، فبذلك بدأ الايمان بالترنح في مملكة فرنسا.

كيف جرى تدمير دمياط وتسويتها بالأرض

وأمر في الوقت نفسه، سلطان مصر، بهدم مدينة دمياط، وبتسويتها مع الأرض، لأنه وجد أنها كانت فريسة للصليبيين مرتين.

ظهور بعض الطيور الغريبة في إنكلترا

خلال هذا العام، وفي حوالي موسم الفواكه، ظهر في الحدائق بشكل رئيسي، بعض الطيور الغريبة، التي لم تشاهد قط من قبل في انكلترا، وكانت أكبر بعض الشيء من القنابر، التي تأكل لب الفواكه، ولاتأكل شيئاً آخر، ولذلك أصبحت الأشجار من دون فواكه، مما سبب الخسارة لكثيرين، وكانت مناقير هذه الطيور مصلبة، ولذلك تمكنت بهذه الواسطة من فتح الفاكهة، مثل فتحها بوساطة الكماشة أو السكين، وكان الجزء من الفاكهة الذي تركوه، كأنه قد تأثر بسم.

كيف حلل البابا كثيراً من النبلاء كان قد حرمهم كنسياً من قبل

في الثامن والعشرين من حزيران، عندما كان البابا على وشك مغادرة جنوى، بعث برسل خاصين مع رسائل سلم، وسعى إلى دعوة بعض النبلاء، الذين كان قد حرمهم كنسياً بشجب رهيب، يوم عيد العشاء الأخير، ورغب في أن يعودوا إلى وضع الوئام السالف مع الكنيسة، وكان واحداً من هؤلاء توماس أوف سافوي، الذي كان يسعى لتزويجه من حفيدته، وهو على كل حال لم يظهر أية رحمة تجاه كونراد، فيما يتعلق بذلك القرار، ولكي يمتن حزبه، أعطى واحدة من حفيداته بالزواج إلى صاحب تور دو بين Tour du Pin, وكان نبيلاً قوياً، وقد تقبلها هذا النبيل، ليس بسبب جمالها النسائي، بل من أجل المال الذي أعطي معها، لأن البابا أعطى مع السيدة عشرين ألف مارك من الفضة، وإلى توماس أوف سافوي، الذي كان من قبل كونت فلاندرز، أعطى

البابا واحدة أخرى من حفيداته لتكون زوجة له، وذلك بعدما حلله من قـرار العقوبة الـذي كان قـد صـدر ضده، وأنعم عليـه بكثير جـداً من الموارد، وذلك بالاضافـة إلى المال الذي دفع لدى الزواج، كما أنه أصدر أوامـر دقيقة، تتعلق بالمورد السنوي المتـوجب تسلمه من فـلاندرز، بأن يجري دفع ذلك من دون تقاعس ومصاعب من ذلك التـاريخ فصاعداً، ولأنهم كـانوا، بسبب تحريم البـابا، قد قـامـوا بالاحتفاظ بالموارد لعـدة سنوات منذ أن جرى حرمانه كنسيـاً، أمر مولانا البابا، بأن يدفع له منذ ذلك التـاريخ فصاعـداً، جميع المستحقات المتأخـرة، طالما أنه قد تصـالح الآن مع الكنيســة، وبفضـل هذه النعمــة، لابل بالحقيقـــة بفضل هذه الزيجات المقـدسة، تحول مـن كونه ابناً للغضب إلى ابـن للنعمة، وتابعـاً للانتخـاب، وكان قـد بقي على كل حال، تحت حكم الحرمـان الكنسي، الذي كان البـابا قد أصـدره: عظام فردريك، وابنه كـونراد، الذي تمكن بفضل عطيــة والده، مـن الاستيــلاء بـالقـــوة على الشطـر الأكبر من الامبراطورية، مع الذي انتـزعه لنفسـه بالقوة، من دون مـوافقة كنيسـة روما: ممالك سردينيا، وصقلية، وأبوليا، وكالبيرا (قلورية)، وعلاوة على ذلك فإن جيرارد صـاحب مـرسيليـا مع سكان مـرسيليـا، وكـريمـونا، وبافيـا، وأحبـائهم، وكثيرين أيضـاً، من الذين كـان قد حـرمهم كنسيـاً بالاسم، وبعضهم باسـم الأسرة، في يوم عيـد العشـاء الأخير، أبقـاهم مشمـــولين بذلك الحرمـــان، وبناء على هذا تضـــاعفت أعـداد أعـــداء الكنيسة، وأضيفت الشرور إلى الشرور، فازدادت.

الاستيلاء على كاستيلون في غسكوني

وفي حوالي هذا الوقت نفسه أيضـاً، حقق سيمون ايرل ليستر انتصاراً على كثير من الغسكـونيين، أعـــداء الملك في القـــارة، واستـــولى على كاستيلون Castillon, وهي قلعة كانت مكان اللجوء لهم جميعاً.

كيف عاقب أسقف لنكولن أناساً انغمسوا بالشهوات الجسدية وجعل كثيرين كهنة

وفي هذه الآونة أيضـاً، عمل أسقف لنكـولن جـولة تفقـدية في جميع أسقفيتـه، وبعـد بحث دقيق، أرغم الذيـن كـانت بين أيديهم منافع على التخلي عنهـا على أسـاس انغماسهم بالشهـوات الجسـدية، وأمـر بابعـاد بعض النسـوة عنهم، ممـن كن مـوضع ريبـة، لأنهن كن مـرعيـات من قبلهم، وعاقب المذنبين بحرمـانهم من منافعهم، ذلك أنه سعى إلى تنقية أسقفيتـه من الآثام والشرور، وتمكـن باستخـدام توسـلات لطيفـة، وبوسـائل تنكيل حـادة، من الارتقـاء بكثيريـن إلى مـراتب الكهـانة، والوظائف اللاهـوتيـة، وبالاضـافـة إلى هذا غـالبـاً مـاألقى محاضرات وخطب على الناس، وجمع الناس مـع الكهنة، الذين كـانوا يسكنون في الجوار، وأرغمهم على الإصغاء له، وكـان يكره الرومان الأشرار، الذين كـان بين أيديهم الرسـالة البـابويـة، التي أوجبت عليهم القيـام بوظيفـة الوعظ، ومقتهم وكأنهم كـانوا سم أفـاعي، وقـال بأنـه لو عهـد إليهم بعلاج الأرواح، لكان تصرف مثل الشيطان، ولذلك فإنه بما أصدره من أوامـر، عمل بشكـل مكشـوف ضـد الرسـائل البـابويـة الصـادرة عنه والمختومة بختمه.

حول تقارير من الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة أيضـاً، عندمـا كـانت الهيئة الرهبـانيـة العـامـة للسسترشيـان عـاقـدة لاجتماع عـام، قـرأ رسـول مـن عند الملك الفـرنسي،وكـان راعي دير من الطائفـة نفسهـا، رسـالة من ذلك الملك، وتلاها أثناء الاجتماع، وكان فحوى هذه الـرسالة هو كما يلي: كان الملك الفـرنسي وزوجتـه، والكتلة الصغيرة من الأتبـاع الذين كـانوا معـه، في وضع صحي جسدي سيء، وكـانوا ينتظرون رحمة الرب بعد الذي نزل

بهم، وجرى تزويدهم بشعاع من الأمل، بوساطة العداوة، والشحناء، والحرب بين المسلمين، أي بين سلطان مصر، وسلطان حلب، وكان هو —الملك— مقيماً في قيسارية، وقد قام بتحصينها بناء على مشورة الداوية والاسبتارية.

وصول الملك إلى سينت ألبان وأعطياته هناك

وفي هذا العام نفسه، في ثمانية عيد ميلاد العذراء المباركة، وصل الملك إلى سينت ألبان، وذهب إلى الكنيسة كما كانت عادته، فقدم هناك ثلاث قطع من الحرير، وقد لوحظ أنه بتعداد القطع اللائي كان قد قدمهن من قبل، أصبح العدد ثلاثين قطعة، وبالاضافة إلى ذلك، قدم بهذه المناسبة عقدين ثمينين جداً، وأمر بهما، حفظاً لذكراه، بأن يجري حفظهما بقوة في المزار، بتثبيتهما بالمسامير، وبعدما أقام هناك لمدة ثلاثة أيام، قام بالمغادرة.

سقوط غزير جداً للمطر

وفي ليلة يوم عيد القديس لامبرت Lambert, الذي كان يوم أحد، كان الظلام مخيفاً، وكان هناك تساقط غزير من الأمطار، حتى بدا وكأن أبواب السماء قد فتحت، وتصببت الغيوم نفسها على الأرض، وكأنها تريد أن تدمرها.

حول الزيارة التفقدية التي عقدت في سينت ألبان

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، أرسل ثيوبولد رئيس رهبان هيرلي Hurley, وجيمس نائب رئيس رهبان القديس أوغسطين في كانتربري، وقسيس البابا، رسالة مكتوبة إلى رهبان القديس ألبان، بأنهما على وشك القدوم إلى سينت ألبان، للقيام بزيارة تفقدية هناك، وذلك حسبما كان قد تقرر في عيد القديس المخلص في لندن، وجرى طلب تأخير ذلك لصالح الدير في كنيسة القديسة مريم في

ساوثورك Southwark حتى يوم الأحد التـالي لما قبل عيد جميع القديسين، وتمت الموافقة من الزائرين المتقـدم ذكرهما، وقالا بأنهما سوف يقدمان في يوم عيد القديس دايونيسيوس Dionysius, ووعد في الوقت نفسـه راعي دير القديس ألبـان بأنه سوف يقـوم بقدر مـا يمكنه من اصـلاحـات، وأعلن قبل وصـولهما، بأنه لن يتـوانى عن القيـام بأي اصـلاح ينبغي عمله في سيـاق الأيام، ووعـد أيضـاً بأنه لن يكون هناك مـاسيثير شكوى مشكوك بها، وقـدمـا في اليـوم الذي تقـدم ذكـره، وفي اليوم التـالي ألقى نائب رئيس الرهبان محاضرة في مجمع الرهبـان، ثم أمر بقراءة نص اجازته، وبعـد ذلك البنود التي حصل عيها في مجمع رهباني اقليمي عقـد في لندن، فهناك جـرى تقـرير ذلك، بحكم أن ذلك كـان صحيحـاً وضرورياً جداً للنظام الرهبـاني، وهذا كله مـوجود في كتـاب Additaments, حيث جـرت كتـابة ذلـك بالكامل، وبما أنهما لم يجدا أي شيء غير صحيح، مع أنهما قـامـا بعمليـة فحـص دقيقـة، واستجواب لكل راهب من الرهبـان على انفراد، خلال إقامـة استمرت أربعة أيام، غادرا بسلام.

وكـان قد جـرى ارسال بعض رهبـان القـديس ألبان، للقيـام بزيارة تفقـدية في دير القـديس ادمـوند، وفي أمـاكن أخـرى، وبالنسبـة لجون، الراعي الثاني لدير القديس ألبان، فقد أعطى ترضية إلى الدير، فيما يتعلق بجميع الاصـلاحات التي كـان قـد وعد بها قبل الزيارة التفقـدية، وأنه سوف يقوم بها فيما بعد، وفق الطريقـة نفسها، التي قام بها سلفه، راعي الدير وليم، عندمـا جـرت زيارتـه زيارة تفقـدية بمـوجب تفـويض من البـابـا، وذلك من قبل راعـي دير بوكسلي Boxley, وراعي دير بيغهـام Begeham, ويمكن القــول أن أياً منهما لم يعمل بشكل جيد كما كان قد وعد، ذلك أنه كان قد وعد الدير، ضمن أشياء أخرى، بأنه سوف يسقط تماماً عمـومياته والحصص الصغيرة، التي كان هو أول

واحد بين رعاة الدير، قد أقدم على أخذها إلى غرفته الخاصة، وذلك مالم يتناول طعام الافطار مع أصحابه في مطعم الدير أو في مصلاه، وأنه سوف يسترد جميع الحصص الصغيرة، التي كان سلفه وليم قد انتزعها من الرهبان المرضى، والثمن الذي كان يحصل عليه ليزود نفسه بالخمرة لاستخداماته الشخصية، لكن بعد انتهاء الزيارة التفقدية، ومع أنه لم يُقل له أي شيء حول الإجراءات المتقدم ذكرها، هو لم يقم بتنفيذ أي من وعوده مطلقاً.

رسالة الملك الفرنسي

ومع مرور الأيام، ربح كونراد الحظوة، والمكانة الطيبة لدى كثير من شخصيات الامبراطورية، لأنه جاء من الدم النبيل لجون، ملك القدس، ذلك أنه كان ابن ابنته، وتمتع أخوه هنري، ابن أخت الملك بالمحبة والاحترام لدى جميع النبلاء المخلصين لأبيه، وأيضاً بسبب براءته، وسمو أخلاقه، ورفعة أسرته، ولم يكن البابا على كل حال مسروراً بهذا، وتسبب بإعلان بلاغ مهيب عام في مقاطعتي برابانت وفلاندرز، بأنه يتوجب على الأتباع المخلصين للمسيح القيام بحصار قلاع كونراد، واعداً إياهم بمكافأة مجزية، هي الغفران من جميع ذنوبهم، وكان هذا أعظم مما منح من أجل الحج إلى الأرض المقدسة، على أساس أن كل من سوف يحمل شارة الصليب ضد كونراد، ويفعل ذلك باسم أبيه وأمه، سوف يحصل على الغفران لذنوبهما.

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الملك الفرنسي الذي عانى كثيراً من الاضطراب، وتألم بسبب الحاجة إلى الضروريات في قيسارية، بارسال رسالة كئيبة وحزينة إلى أمه، وإلى أخويه، وإلى رعاياه المخلصين، رجاهم فيها بحرارة بأن يرسلوا بكل سرعة إليه العساكر، وأن يزودوه بالمؤن والمال، ذلك أنه كان يعاني من كثير من النوازل في سبيل الكنيسة العالمية، ولدى سماع الملكة بلانشي بهذه الأخبار، وهي التي

أمسكت بين يديها مقاليد الحكم في المملكة الفرنسية، تصرفت ليس كما تتصرف النساء، فجمعت جميع نبلاء المملكة للتشاور حول القضية، وأثناء بحث المسألة بدأ النبلاء يتذمرون بغضب شديد قائلين: «بما أن البابا قد أثار حرباً داخلية جديدة، وبقيامه بإذاعة إعلان جديد للناس الخاضعين للرب، قد شحذ سيف المسيحيين ضد المسيحيين، للقتال في أراضي المسيحيين أنفسهم، تاركاً ملكنا الذي يعاني من كثير من الإهانات والانتكاسات للقتال في سبيل الإيمان المسيحي، عرضة للاهمال وللنسيان»، لأن الاعلان الذي تقدم ذكره، كان قد عمّ انتشاره في جميع أرجاء المناطق الفرنسية، وبناء عليه شعرت بلانشي بالسخط، لأن الشكوى التي انبعثت لم تكن من دون سبب مسوغ، فأمرت بمصادرة جميع أراضي وممتلكات الذين حملوا شارة الصليب، وأن توضع تحت تصرفها قائلة: «على هؤلاء الذين يقاتلون من أجل البابا أن ينالوا التمويل من ممتلكات البابا، وليذهبوا دون أن يعودوا مطلقاً، وعلاوة على هذا تصرف النبلاء المجاورين، وعملوا وفق الطريقة نفسها في أراضيهم، ضد الذين حملوا الصليب نتيجة لذلك الاعلان، وهكذا مات هذا الاعلان وتلاشى، وتراجع الذين حملوا الصليب، وتعرض رهبان الدومينيكان والفرنسيسكان أيضاً للملامة، لأنهم أثاروا هذه الفوضى والاضطراب، وجرى توبيخهم لما قاموا به من إجراء، من قبل النبلاء، الذين قالوا: «نحن بنينا الكنائس والديرة لكم، ونحن علمناكم، واستقبلناكم،وأطعمناكم، فأي منفعة أضفاها البابا عليكم؟، فهو قد ضيّق عليكم وأثاركم، وفرض ضرائب جباها منكم، وجعلكم مكروهين من قبل الذين يقدمون المنافع إليكم»!، وأجابوا على هذا كله قائلين: «الطاعة ترغمنا»، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، خجل البابا، وسعى في سبيل الحصول على السلام.

حول الاتهام الجاد الذي أثير ضدّ فيليب لوفل

وخلال العام نفسه أيضاً، وفي حوالي عيد القديس ميكائيل، جرى اتهام فيليب لوفل Lovel بشكل جاد أمام الملك، وكان فيليب هذا محاسباً، جرى نقله من وكالة ايرل وينكستر إلى خدمة الملك، وعهد إليه بالوصاية على اليهود، وقد أكد أعداؤه، بأنه عندما جرى إرساله هو ونيقولا الكاهن من كنيسة القديس ألبان، إلى المقاطعات الشمالية لفرض ضرائب على اليهود، استلم بشكل سري بعض الكؤوس الثمينة جداً، من يهودي غني كثيراً، ليستثنيه من دفع الضريبة الملكية، ومثل هذا تلقى أعطيات خاصة من آخرين لاقناعه حتى يستثني بعضهم، ويلقي بالأعباء على آخرين، مما ألحق الأذى بالملك، وجعله يخرق أمانته، ولذلك غضب الملك غضباً شديداً، وأمر بتعريض فيليب المذكور إلى الاهانة، حتى يكفر عن هذا الاثم العظيم، وبما أن فيليب هذا كان رجلاً داهية وعاقلاً، نشد في حاله المضطرب كثيراً المشورة والعون من جون مونسيل، الذي كان المستشار الرئيسي للملك، وأشفق جون عليه، لأنه كان هو الذي استدعاه شخصياً إلى خدمة الملك حتى يرفعه إلى مرتبة أعلى، فقام بترتيب القضية بشكل فعّال، فاسترد حظوة الملك، وجاء ذلك بعدما دفع مبلغاً كبيراً من المال، مقداره كما قيل ألف مارك، وجرى على كل حال طرده من مكتب الوكالة، وتعرض للإهانة بدرجة عالية.

تكريس كنيسة هيل

وفي التاسع عشر من تشرين الثاني، من العام نفسه، وهو يوم عيد القديس ليونارد، قام الايرل رتشارد بشكل مهيب، ولقاء نفقات كبيرة، بتكريس كنيسة هيل Hales, وهي التي كان قد أسسها وأشادها مقابل نفقة كبيرة، وفعل ذلك وفاء للنذر التي عمله عندما كان في البحر، أثناء عودته من غسكوني، حيث كان في خطر، نتيجة لعاصفة

كـانت قـد ثارت، ولذلك وصل وقتهـا بصعـوبة إلى كـورنوول، وكـان الملك والملكة حـاضريـن أثناء التكريس المذكـور، وتقـريبـاً جميع نبـلاء وأسـاقفـة انكلترا، وقد كـان هناك ثلاثة عشر أسقفـاً، كل واحـد منهم عمل قـداساً في يوم التكريس، كل واحـد منهم على مذبحـه الخاص به، أما أسقف لنكولن فقد رتل قـداساً عند المذبح الكبير، وكان هذا في يوم أحد، واحتفل النبـلاء بشكل فخم وسخي برفقـة الأساقفة والآخـرين، فأكلوا اللحـوم، في حين جلس الرهبـان في أمـاكنهم، وأنعشـوا أنفسهم بكميـات كبيرة من السمك من مختلـف الأنواع، وكـان مـوجـوداً هناك أيضاً أكثر من ثلاثمائـة جندي، وفي الحقيقة إنني إذا ما رغبت في وصف عظمة ذلك الاحتفـال وفخامته، وذلـك الاجتماع الاحتفالي، لقيل بأنني تجاوزت حدود الحقيقـة، وعندما رغبتُ أنا متى باريس، أن أحصل على المعلومات حول هذه القضيـة، في سبيل أن لاأدخل أخباراً زائفة في هذا الكتـاب، أخبرني الايرل بكل تأكيـد ومن دون تردد، أنه عندمـا جـرى احصـاء النفقـات تبين أنه أنفـق عشرة آلاف مـارك على تلك الكنيسـة، مضيفـاً الكـلام الرائع والمستحق للثناء وهو التـالي: «لو أن ذلك يرضي الرب لكنت أنفقـت هنا مثلما أنفقـــت على بنـاء قلعـة وولنغنفـــورد Wallingford بطريقة معقولة ومرضية».

وصول إيرل ليستر مع الأخ الثالث للملك

وفي حـوالي ذلك الـوقت نفسـه صعـد إلى ظهـــر سفينة في ويســـاند Wissand سيمون إيرل ليستر مـع زوجته، وجلب معه كـونت غي أوف لوزنغنان الأخ الثـالث للملك من أمه، وقـد أرادوا العبور إلى انكلترا، وبعد رحلة موفقة، وعندما كانوا على وشك الوصول إلى الميناء، هبت فجـأة ريح، فغيرت الاتجاه، ودفعت بـالسفينة مع خطـر عظيم إلى ويساند، وعلى هذا كان هناك من علّق حول ابعادهم عن هناك، والعودة إلى مأواهم الســالف بقـوله: «امتــلأ إخـوة ملك انكلترا بوفـرة فـوق

الحدود، وقد قدموا إلى انكلترا خاليي الوفاض، واحتشدوا هناك من أجل ملء أنفسهم، ولقد أعاد البحر الممتلئين كثيراً»، وقد قيل هذا مزاحاً وفقاً لعادة الفرنسيين، ثم انتظر الايرلان حتى هبوب ريح أكثر مواءمة، ثم أقلعا فوصلا إلى ميناء دوفر، وكان سيمون ايرل ليستر قد ترك أتباعه يتابعون الحرب بشجاعة لصالحه، وبصمود صدوا هجمات الغسكونيين، وبعدما علم الملك بوصولهما، ذهب مسروراً لاستقبالهما، وجاء خروجه في الحقيقة لأن الكونت كان أخاه، ولم يخرج لاستقبال ايرل ليستر، كما أنه أصدر تعليماته إلى كثير من النبلاء وسكان لندن، لاستقبال أخيه، والترحيب به بهتافات فرح، وبعدما ملأ الكونت حافظة نقوده الفارغة، عاد إلى أراضيه رجلاً غنياً.

حول عاصفة مدمرة

وفي صيف العام نفسه، وفي يوم عيد القديس دنستان Dunstan, ارتفعت غيوم كثيفة في الصباح الباكر، وقد جعلت العالم كله مظلماً في كل من الشمال والجنوب، والشرق والغرب، وسمعت الرعود، وكأنها قادمة من مسافة بعيدة، وتقدم عليها البرق، وفي حوالي الساعة الأولى من النهار، أصبح الرعد والبرق أكثر قرباً، وزمجرت رعود إحدى الغيوم أكثر من سواها بشكل مرعب، وكأنها أرادت أن تحمل السموات وتلقي بها على الأرض، فأرعبت قلوب الذين سمعوها وأصمّت آذانهم بقرعها المفاجيء، وأثناء ذلك التصادم سقطت صاعقة على غرفة نوم الملكة، حيث كانت مقيمة وقتئذ مع أولادها وأسرتها، وألقت بالفراش إلى الأرض وحولته إلى رماد، وهزت البيت كله، وفي غابة ويندسور المجاورة، رمت بثلاثين شجرة من أشجار البلوط أو حولتها إلى شظايا، وعلاوة على ذلك، دمرت بعض الطواحين مع متعلقاتهن، وبعض حظائر المواشي مع رعاتهم، وسببت الرضوض لبعض الفلاحين والمسافرين، وألحقت كثيراً من الأضرار ببني البشر، مثل ذلك لم يسمع

به كـاتب هـذه الرواية، أو شـاهده من قبل، وعــلاوة على ذلك، سقط البرق في سينت ألبـان على الحمام، فأشعل النيران فيه، وسقط في أمـاكن أخرى على الدير نفسه، لكن لم يسبب كثيراً من الأذى، لكن آثاره ظلت ظاهرة على الجدران لسنين طويلة كثيرة فيما بعــد، لكن مـاهو مـدهش، وجــدير بالـرواية، هو أن بعض الرهبــان من طـائفــة الدومينيكان أو الفرنسيسكان، جرى استقبالهم في اليـوم نفسه، من أجل المأوى والطعام في دير القـديس ألبان، حسبما كـانت عليه العـادة في كل يوم، ولم يمكن منعهم من متــابعـة سفــرهم، على الرغـم من الالتماسـات الملحــة من الرهبــان، الـذين —كما هي العــادة— استقبلوهــم وزودوهم بما لزم، فغـادروا مع أن العاصفـة لم تكن قد توقفت بعـد، وبعدمـا خرجـوا من المدينة، شاهدوا على الطريق الذي هو الطريق العام، والذي هو مطروق كثيراً من قبل الناس ومن قبل العربات، مشعلاً متصـدياً لهم، مع ماظهر وكأنه سيف مصلت، غير أنه كـان يلوح به، فيتبعـه رعـد غير متـوقف، وأنين مـرعب، فتحولوا جـانباً، ورسمـوا على أنفسهم علامـة الصليب، وشرعـوا في خـوف واخـلاص بالتـوجــه بالدعـاء إلى الروح القـدس، وينشدون Veni Creator Spiritus والذي أعقب ذلك، هو أنه عند هذا توقفت الرعود وخمدت البروق، وعبرت، وانتهت، في حين بقيوا هم من دون أذى.

فيضان غير اعتيادي للبحر

وفي حوالي الوقت نفسه من السنة، وبالتحديد أيام الاعتدال الخريفي، فاض البحـر وتجاوز حدوده الطبيعية المعتـادة، فسبب أضراراً عظيمة في المقاطعات الانكليـزية القائمة قرب الشاطىء، وتغطى الشـاطىء لمسافة ستة أقدام، أكثر مما رؤي قط من قبل.

كيف عادت ملكة سكوتلندا إلى بلادها

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل، قامت ملكة سكوتلندا، أرملة الملك الاسكندر، وابنة انغلرام أوف كوسي Engelram of Coucy, بعدما جرى تعيين الحصة العائدة إليها من مملكة سكوتلندا مع مورد مقداره سبعة آلاف مارك، فتركت سكوتلندا للعودة إلى الوطن، من أجل زيارة بلادها، ووالديها، وتوقفت وسط رحلتها، وجاءت لتقدم احتراماتها إلى الملك، الذي كان من عادته معاملة جميع الأجانب بالهدايا والموارد، لذلك حملها بانعاماته وبهداياه، ورجاها أيضاً بإلحاح بالعودة من دون تأخير، عندما تجري دعوتها إلى زفاف ولدها الاسكندر الثاني، الذي رفعه النبلاء في سكوتلندا إلى العرش.

حول مبارزة عقدت في روكستر

وفي العام نفسه، في يوم عيد حمل العذراء المباركة، عقدت مبارزة حادة في روكستر فيما بين الانكليز، والأجانب، فيها جرت هزيمة الأجانب بشكل مهين، وقد هربوا مع الخزي إلى المدينة للالتجاء، لكن لأنهم جرى اعتراضهم من قبل فرسان جاءوا من الاتجاه المعاكس، هوجموا ثانية، وسلبوا، وضربوا بشدة بالعصي والهراوات، وهكذا استرد الانكليز مع كثير من الفائدة الضربات والأضرار التي كانوا قد تعرضوا لها في المبارزة التي عقدت في بريكلي، ونتيجة لهذا ازدادت الكراهية، وتعاظم الغضب بين الانكليز والأجانب، وأصبح يومياً أكثر إخافة.

خاتمة العام

كان هذا العام كله خصباً في انتاج الحبوب والفواكه بكميات كافية، لابل بكميات وافرة، مع أنه كان عاماً عاصفياً، ومضطرباً ومرعباً بالبرق، وكان عاماً متعباً وعالي النفقات بالنسبة للبابا، وللبلاط الروماني، وخطيراً بسبب العودة إلى ايطاليا، أما بالنسبة لفرنسا وانكلترا

فكان مليئاً بالشكوك في ظل السلام المتأرجح، أما بالنسبة للرومان، والايطاليين، والألمان، والصقليين، والأبوليين، والكلبيريين، الذين كانوا بلا رأس ولامقدم، فكان عاماً قلقاً، أما بالنسبة لداشيا، فكان عاماً دموياً، أما بالنسبة لسكوتلندا، التي كان ملكها طفلاً، فكان عام متقلقلاً ومهدداً، كما قال لوكان Lucan في قضية بومبي الكبير:

سني عمر شبابه يمكن أن تثير الشكوك

لأنه حتى يكون ثابتاً، يحتاج الإنسان إلى أيام طويلة.

وبين الصمت والتعرض للخطر كان ملك سكوتلندا، مع الحظ المتقلب.

كيف أقام الملك عيد الميلاد في يورك

في عام ألف ومائتين واثنين وخمسين لتجسيد ربنا، وهو العام الخامس والثلاثين لحكم الملك هنري، كان الملك المذكور في يورك في عيد الميلاد، من أجل ابنته مرغريت، التي وصلت الآن إلى سن الزواج، حتى يمكن أن تتزوج من الاسكندر، ملك سكوتلندا، ومن أجل أن يجري الاحتفال بالزفاف بشكل لائق بين مثل هاتين الشخصيتين الرفيعتين، وقد اجتمع هناك حشد كبير من رجال الدين، وكذلك من الفرسان، من أجل أن تشع عظمة الاحتفال بالزفاف الكبير بالطول وبالعرض، ولقد كان موجوداً هناك ملك وملكة انكلترا، مع نبلائهما، الذين سوف نحتاج إلى وقت طويل حتى نأتي على ذكر أسمائهم، وكان أيضاً موجوداً ملك سكوتلندا، والملكة أمه، التي استدعيت من القارة من أجل المناسبة، وكان بصحبتها كثير من النبلاء، ليس فقط من سكوتلندا، بل أيضاً من فرنسا، حيث كانت قد ولدت، وقد جلبتهم معها، لأنها كانت تمتلك حسبما كانت العادة مع الأرامل، ثلث موارد مملكة سكوتلندا، الذي وصل إلى خمسة آلاف مارك، وأكثر، بالاضافة إلى امتلاكها مقتنيات

أخرى، كانت قد تسلمتها بمثابة هدية من أبيها انغلرام، وقد ظهرت في الخارج وهي قادمة مع قطار فخم وكبير العدد من الأتباع والخدم، وعندما وصل الجميع إلى يورك، أقام الذين قدموا مع ملك السكوتلنديين في شارع واحد، دون الاختلاط بأي من الآخرين من باب الحيطة، لكن عندما كان بعض موظفي النبلاء، الذين ندعوهم المارشالية، يعدون أماكن إقامة إلى مواليهم، اشتبكوا بشجار فيما بينهم أنفسهم، أولاً بقبضات أيديهم، وبعد ذلك بالعصي، وأخيراً بسيوفهم، وقد أصيب بعضهم بجراحات بالغة، وقتل رجل واحد، والذين أصيبوا بالجراحات لم يتعافوا قط بعد ذلك، وتمكن الملك بالحكمة وبوساطة الحرس الذي كان موجوداً هناك، ببراعة من منع قيام صراع بين السادة، وكذلك من ايقاف القتال بين الخدم، وقام أيضاً أعوان رئاسة الأساقفة، حتى لاتسبب رداءة أماكن الاقامة سبباً للصراعات، بتزويد الناس بأماكن كافية للرعاية والضيافة، وذلك حسب الوقت، وتأمن ذلك للجميع، مع أنهم تجاوزوا أعدادهم.

كيف جرى منح مرتبة الفروسية إلى ملك سكوتلندا من قبل ملك انكلترا

وفي يوم عيد الميلاد، قلد ملك انكلترا ملك سكوتلندا نطاق الفروسية، ومنح ذلك إلى عشرين آخرين معه، الذين كانوا جميعاً مزينين بملابس جميلة وثمينة، وكانت مناسبة لحفلة الترقية تلك.

حول زواج ملك سكوتلندا من ابنة ملك إنكلترا

وفي اليوم التالي ليوم عيد الميلاد، الذي كان يوم عيد القديس اسطفان، اقترن ملك سكوتلندا بابنة ملك انكلترا، وبسبب أن حشد الناس اندفع وضغط مع بعضه بطريقة غير نظامية، حتى يكون حاضراً، ويشاهد عظمة مثل ذلك الزواج، تمّ إجراء الاحتفال في الصباح الباكر،

وبشكل سري، وقبل أن يكون ذلك متوقعاً، فلقد احتشد هناك كثير من الناس من مختلف الأنـواع، ولقـد شكلوا حشـوداً عظيمـة من النبـلاء الانكليـز، والفرنسيين، والسكوتلنديين، ولقـد كان هناك حشـوداً كبيرة من الفرسان، لبسوا بشكل أنيق بألبسـة فاخرة، وتباهوا بزينتهم الحريرية وبالأنواع الأخرى، حتى أننا إذا ماأردنا وصف الترف الدنيوي والخيلاء وبهجـة المشهـد بالكامل، سـوف نثير العجب، ونتعب الذيـن سـوف يسمعـون بذلك، لأن ألفـاً من الفـرسـان، لابل أكثـر، كـانوا يرتدون الملابس الحريـرية التـي تعـــرف بشكـل عـــام بـاسم Cointises, ظهـروا أثناء الزفاف عن جـانب ملك انكلترا، وخلعـوا في اليوم التـالي جميع هذه الملابس، وعرضوا أنفسهم ثانية في البلاط بأثواب جديدة، أما من جانب ملك سكوتلنـدا، فكان هناك ستين فارساً، وأكثـر في ملابس لائقـة، وكـان هناك أعـداداً كبيرة من المراتب نفسهـا المسـاوية لمراتب الفرسان، قد لبسوا وفق الطريقة نفسهـا، وقد عرضوا أنفسهم أمام جميع الناس الذين احتشدوا.

كيف قدم ملك سكوتلندا الولاء إلى ملك إنكلترا

ثم قــدم ملك سكوتلندا الولاء إلى ملـك انكلترا، عن الاقطاع الذي بين يديه من ملـك انكلترا، ومن أجل حصـة من مملكـة انكلترا اسمهـا لوثيان Lothian, ومن أجل بقيـة أراضيه، لكن عندمـــا استدعي سكوتلندا ليقدم الولاء عن مملكته السكوتلندية، وليقدم الطاعة والتابعية إلى مولاه ملك انكلترا، مثلما فعل أسلافه، وذلك حسبما جرى تدوينه في التواريخ، في كثير من الأجزاء، أجاب ملك سكوتلندا بأنه قدم إلى هناك بسـلام وفي سبيل كرامـة ملك انكلترا، وبناء على أوامره، وأنه بوسـاطة رابط الزواج يمكنه التحـالف معـه، وليس أن يقـدم له جـواباً على مثل ذلك السؤال الصعب، لأنه —كما قـال— لم يتباحث بها فيه كفـاية حول هذه القضية مع نبلائه، أو عمل مشـاورة موائمة حول مثل تلك القضية

الصعبة، وحسبما تتطلبه، ولدى سماع الملك بهذا، لم يكن راغباً بأن يقوم أي معيق بإلقاء أية ظلال على الاحتفال السلمي، أو أن يثير أية متاعب لذلك الملك الذي مايزال شاباً، وزوجته التي ماتزال أيضاً شابة، خاصة وأنه جاء بناء على استدعائه، بسرور عارم، لإعطائه ابنته في الزواج، ولذلك ضبط مشاعره، وعبر بجميع الأشياء بصمت.

حول إمتياز الإيرل مارشال في هذه المناسبة

وأثناء هذه الترقيات، واحتفالات الزواج، طالب الايرل مارشال بوجوب منحه امتيازه الذي هو امتياز وصل إليه من أجداده، وهو أن المهر العائد لملك سكوتلندا، والذي ادعى أنه امتياز له، ينبغي أن يعطى إليه، مع غطاء سرجه المزركش، وذلك ليس بسبب قيمته، ولاصدوراً عن أي شره، ولكن تماشياً مع عادة قديمة تتعلق بمثل هذه القضايا، وأنها ينبغي أن لاتموت، أو أن تتلاشى من خلال أي اهمال من جانبه، وفي جواب على هذا المطلب تم اخباره بأن ملك سكوتلندا سوف لن يخضع لمثل هذا المطلب، بسبب أنه لو أراد الاختيار، يمكنه الحصول على هذه التجهيزات من أي أمير كاثوليكي، أو من بعض من نبلائه، وهو صدوراً عن احترامه وتقديره للملك الذي هو أمير عظيم، وجاره وختنه، هو يفضل أن يصبح فارساً على يدي ملك انكلترا، وليس على يدي أي واحد آخر، وبناء عليه قضت تعليمات الملك، بوجوب تهدئة كل نوع من أنواع الخلاف أثناء يوم الاحتفال.

وصف لاحتفال الزواج

ثم بدأ المحتفلون بتمتيع أنفسهم مع بعضهم، ومع الملكين ونبلائهما، ومع أسرهم، وهكذا أمضوا عيد الميلاد في أعظم بهجة، ولو أنني أردت أن أصف بشكل كامل وفرة الموائد وتنوعها، واختلاف الملابس، والحركات المرحة والقصف والصياح، وعدد الضيوف في هذه

الاحتفالات، سوف تبدو الرواية فيها مبالغة غير معقولة لمسامع الذين لم يكونوا حاضرين، وسوف تكون سبباً لملاحظات قاسية، ولكن في سبيل تقديم مثل مستخلص من البقية، ولفهم ماحدث من خلال حقيقة واحدة، نجد أن أكثر من ستين رأساً من ماشية المراعي شكلت الوجبة الرئيسية على المائدة، وكانت هذه تقدمة من رئيس الأساقفة، واحتفل الضيوف على التوالي مرة مع الملك الأول، ثم مرة أخرى مع الملك الثاني، في إعداد وجبات ثمينة، حتى أن عبث الدنيا قد أظهر نفسه لبني البشر بقدر مايمكنه في لحظات عابرة من البهجة، ولقد تناولوا جميعاً أطعمتهم لعدة أيام مع رئيس الأساقفة، الذي ظهر وكأنه أمير الشمال تولى اضافة الجميع، وقدم المشورة إلى الجميع في كل قضية نقص أو حاجة مستعجلة، وزود بشكل فعال حاجات الجميع، أحياناً بتقديم أماكن الاقامة للمسافرين، وأحياناً أخرى بتقديم الأعلاف لخيولهم، ومرات كثيرة أخرى بتقديم الأدوات المنزلية، والوقود للنيران، وهدايا من المال، وهكذا فإنه بموجب هذه الزيارة لمولاه، وفي تقديمه الهدايا من الذهب ، والفضة، والملابس الحريرية، بذر على أرض قاحلة أربعة آلاف مارك، لم يحصد منها فيما بعد أية ثمار، إنما كان من الضروري بالنسبة له القيام بهذه الأشياء في ذلك الوقت، حتى يكون من الممكن الحفاظ على سمعته سليمة متماسكة، وأيضاً في سبيل اغلاق أفواه الذين يتكلمون بالشرور.

الاحتفال بعيد القديس إدوارد في لندن

في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الاحتفالات في المقاطعات الشمالية من انكلترا، بناء على مبادرة من الملك، الذي لم يكن ناسياً للقديس ادوارد، قام أسقف ايلاي، ورعاة ديرة ويستمنستر، ووولتهام، عوضاً عن الملك، وبناء على أمره، بالاحتفال بعيد القديس ادوارد، في ويستمنستر بكل أبهة، وذلك بوساطة القداسات في الكنيسة، والاحتفال في القصر.

كيف استرد فيليب لوفل الحظوة لدى ملك إنكلترا

وبينما كانت احتفالات الزفاف ماتزال مستمرة، وكانت أفكار وآراء الجميع متركزة حول هذه الأيام الاحتفالية، أقدم ذلك الرجل الماهر والداهية، فيليب لوفل، المحاسب، بتقديم الرجاء بتواضع إلى ملك سكوتلندا وإلى زوجته الجديدة، بأن يستخدما التماساتها لصالحه، لتهدئة غضب الملك ضده، وأن يستردا من أجله رضاه وطيب نواياه، وكان فيليب المذكور معروفاً من قبل لدى ملك سكوتلندا، كما كان صديقاً حميماً لأبيه ولأمه، لأنه أثناء عمله قهرماناً لايرل وينكستر في غالووي Galloway, العائدة الملكية ذلك الايرل، مكث لبعض الوقت في تلك المقاطعة، وغالباً ماقدم هدايا تشريفية إلى الملك المذكور، وإلى ملكة سكوتلندا، وأصدقائهما، ولذلك أصغى الملك الجديد باهتمام لشكوى فيليب، وعندما وجد وقتاً مناسباً، ذهب ليمثل أمام ملك انكلترا، وجثا على ركبته، وبيدين متشابكتين مهّد لطلبه بالخطاب التالي، الذي امتلك قدرة تحريك قلب ملك انكلترا، الذي رغب في انهاضه، مع أن ذلك جاء ضد الراجي الجاثي، وبدا أنه قادر على إسالة دموع التأثر والسرور من أعين كثيرين ممن جلسوا هناك، ثم إنه تكلم كما يلي: «مولاي الملك، يعلم جلالتكم أنه مع أنني ملك، وأنني بفضل احسانك صرت فارساً، إنني مجرد طفل، من دون سن أو معرفة، علاوة على ذلك إنني يتيم، بسبب موت أبي، وعودة أمي إلى بلادها، البعيدة، فيما وراء البحر، تاركة إياي في عمر غض، فهي ماكانت لتأتي إلى هنا، لولا أنها دعيت من قبلكم، وإنني منذ الآن فصاعداً قد تبنيتكم بمثابة أب لي، أنت الذي يمكنك أن تعوض عليّ الخسارة في قضية كل من أبي وأمي، ويمكنك أن تزودني بها أحتاجه من مشورة أبوية كافية وحماية»، ولم يستطع الملك حبس نفسه عن البكاء، فأجاب وهو يتنهد بعمق: «أنا على استعداد»، وبناء عليه أضاف الصبي، لكن ليس متحدثاً مثل صبي:

«بناء عليه سأحـاول في هذه القضية، وبالتجـربة سوف أعلم (بما أنك بمعـروفك أصغيت إليّ) فيما إذا كنت سوف تلبي أول طلب لي، ورغبـة، اعف عن جميع ذنوب فيليب لوفل كلهـا، الذي أضفى في أحد الأوقـات كثيراً من التشريفات على أبي وأمي، وعليّ شخصياً، بأن تعيـده إلى خدمته السـالفة، لأنني علمت من أشخاص جـديرين بالتصـديق، بأنه قـد اتهم بشكل غير عـادل، وهـو شخص قـديم الاخـلاص، وكـان لايمكن الاستغناء عنه في معـالجة المسـائل الصعبـة لايرل وينكستر، وعـلاوة على ذلك كان موائماً في مشورته لك وتأدية واجبـه نحوك»، وكان الذين كانوا آنذاك جلوساً هناك أثناء هذا الخطاب ميالين لصالح هذا الطلب، ولذلك تفضل الملك فاستجاب، وكانت هناك أيضاً مساعدة فعالة في هذه القضية من خلال دور جون مانسيل، الذي فاق الجميع قوة.

وعند انتهاء احتفالات الزواج، غـادر ملك سكوتلندا وسافر إلى بلاده مع زوجتـه التي اقترن بها حـديثـاً، وجرى أيضـاً تعيين حـارس مـوثوق ليتولى العناية بالعروس، وليزودها بجميع أنواع المعلومات، وكان هذا هو روبرت أوف نورويك، الذي كان مارشـال بيت الملك وحاشيته، وستيفن بوزان Bauzan, وكانا معاً فارسين، وبالاضـافة لهما ماتيلدا أرملة وليم الثـاني أوف كـانتلوب Cantelupe, وكـانت سيـــدة تتمتع بجميع مشاعر الشرف، مع بعض الرجـال الآخرين المستقيمين والجيدين، ووعـد ملك انكلترا ملـك سكوتلندا بأن يرسل إليـه بعـض المستشـارين الحكماء والمخلصين للتشاور مع نبلاء مملكته حول جميع القضايا المتعلقة به وبالملكة.

حول عاصفة ريح حادة جداً

وفي هذا العام نفسـه، في ثمانية عيد الغطـاس، هبت ريح شرقية حتى حركت الريح الجنوبية الغربيـة على الهبوب أيضاً، وقد عانى كثيرون من المؤثرات، وهبت الريح الجنوبية الغربية مع زمجرة مرعبة، وعنف شديد،

وردت الأمـواج عن الشـاطىء، وكشفت أسقف البيــوت أو دمـرتها، واقتلعت بعض أشجار البلوط مـن الجذور، أو فتتها إلى شظايا صغيرة، وجـردتها من أوراقهـا، واقتلعت رصـاص أسقـف الكنائس، وأغـرقت أقـوى السفن وأكبرها في الأعماق، وسببـت أضراراً لايمكن تعـويضهـا لكثيرين، هذا وكـانت الأضرار أعظـم على اليـابسـة، ومن الواضح أنها كـانـت أكبر بعشرة أضعـاف من الأضرار على البحـر، ودون أن نـذكـر الأضرار الأخرى والخسائر، أعتقـد أنه من المفيد أن نأتي على ذكربعضها مما عـــرفنـاه، وكنا شهـــوداً عليـــه، ففي وينكلسي Winchelsea, التي كـانت ميناء له فوائـد عظيمة للانكليـز، وخاصـة إلى سكان لندن، فقـد قامت أمـواج البحر، وكأنها كـانت غاضبـة وساخطة لإبعـادها في اليـوم الماضي، بتغطيـة أمـاكن مصـاقبـة للشـواطيء، واستحـوذت على طواحين وبيـوت، وأغـرقت وجـرفـت عـدداً كبيراً من السكان، ولكي نكون أكثر علماً وإحاطة بالوقائع الأخرى التي لم تكن متوقعة، وحدثت في كل مكان، اقتلعت الريح مـن الجذور ثلاثة بلوطات في مقبرة كنيسـة القـديس ألبـان، كل واحـدة منهن لايمكن لثـلاثة رجـال الإحـاطة بها بأذرعتهم، واقتلعت أثناء ثورتها أوراق أشجار أخرى.

وفي يوم عيد القديس فالنتاين، وصل الملك إلى لندن.

كيف جمع أسقف روكستر حصة الخمس من موارد رعاياه من رجال الدين

وفي هذه السنة نفسهـا أيضـاً قـام أسقف روكستر، الذي كـان قـد تسلم منصبـه منذ وقت قصير، بالحصـول من بلاط رومـا، على سلطة استخـراج حصــة الخمس من منافع رجـال الديـن في أسقفيتـه، ومن مـــواردهم لمدة خمس سنوات، مما أثار دهشـــة الكثيرين، ولاعجب في ذلك فهـو كان معـروفـاً من قبل ذلك البلاط، نتيجـة إقـامته فيـه لمدة

طويلة نـائبـاً للملك هناك، وجـاء هذا على الرغـم من أن الأسقف المذكـور، كـان قـد احتفظ، بمـوجب ترخيص من البـابـا، بمـوارده السالفـة، التي كانت بحوذته، قبـل ترقيته إلى أسقفيته، وقـد عدّ ذلك ضروريـاً —كما أعلن— لتخليص أسقفيتـه القـاحلة من حـالة الفقـر، لأنه بدا إليه أنه أمـراً مخجلاً أن يقال بأن أسقفيتـه هي الأفقر بين جميع الأسقفيـات في انكلترا، وقد تفـوقت الآن على أسقفية كـارأيل، وبناء عليـه طالب بوجـوب دفع ذلك المبلغ إليـه، ليس حسب التقـدير اللاهوتي للممتلكات الذي عمله رجاله، بل وفق جمعه من الممتلكات اللاهوتية بأية طريقة من الطرق.

موت نيقولا أوف ساندفورد

وفي تلك الآونة، في العشرين من كـانون الثـاني، مـات نيقـولا أوف ساندفـورد، الذي كان فارسـاً، ولقد أتينا على ذكـر موته في هذا المجلد، ليس بسبب ثروته، بل بسبب شجـاعته، وكان سبب مـوته الأسى الذي شعر به، نتيجة موت اخته سيسيليا، كما تقدم الذكر من قبل.

كيف حث البابا ملك إنكلترا على القيام بالحج

وفي هذه الأونة أيضـاً، أرسل البـابا رسـالة لاقناع ملك انكلترا، وحثه على القيام باستعدادات فعـالة، من أجل انجاد الأرض المقدسة، وليقـدم مساعـدة مؤثرة إلى ملك فـرنسا، الذي كـان ينتظر المساعـدة، وإذا لم يكن راغباً بفعل ذلك، بأي حال من الأحوال، عليه عدم إلقاء أية عقبات في طريق الآخرين، الذين كـانوا جاهزين وراغبين في عبور البحـر، والقيام بـالحج، وقد أضيفت هذه الفقـرة الأخيرة، لأنه أخـر بعض النبلاء، الذين كانوا مستعـدين للذهاب إلى الأرض المقدسة، مما سبب لهم ضرراً كبيراً وخسـارة، وبناء عليـه، قـام الملك، في سبيل التجـاوب مع رغبة البـابا الملحـة، فـاستخرج من اليهـود، كل ملكيـة

ظاهرة امتلكها هؤلاء القوم التعساء، فهو لم يكتف بسلخ جلودهم، بل استخرج أيضاً ما كان في أجوافهم، وهكذا فإن هذا المتعطش الساعي وراء الذهب خدع المسيحيين، وكذلك اليهود، واستخرج منهم أموالهم، وأطعمتهم، وجواهرهم، بجشع كبير بلغ حداً، ظهر فيه وكأن السماسرة قد قاموا من الموت.

كيف متن البابا نفسه بزيادة عدد كرادلته

ومع اقتراب الربيع، وفي سبيل أن تتمكن الكنيسة من التنفس بحرية بالتوافق مع صفاء الفصل، أوجد البابا سبعة كرادلة في بيروجيا، المدينة التي استقبل من قبل سكانها بالتكريم، لأنهم عرفوا أنهم سوف يحصلون على المنافع من قدومه، وبعدما كان قد زوج حفيدته بأبهة عظيمة ونفقات عالية، زاد على ذلك، في سبيل زيادة قوة حزبه، بأن اقترح تزويج احدى حفيداته إلى هنري بن فردريك، وابن أخت ملك انكلترا، واستهدف من وراء ذلك أن يصبح هنري الابن المتبنى من قبل البابا، وأن يصير محمياً تحت جناحي الكنيسة، ومن ثم تحليلة من الحرمان الذي فرض عليه، ووقت ذلك يمكنه —البابا— أن يتمتع بسلام كامل، لكن عندما سمع نبلاء الامبراطورية بهذا، شعروا بسخط عظيم، من محاولة البابا بالاقدام على الحط من شأن مثل ذلك الشاب النبيل والرفيع الأصل.

وحدث في هذه الآونة أيضاً، أن وليم كونت هولاندا، الذي حزن للخسائر التي عانى منها، من خلال اقدامه على ادعاء المنصب الامبراطوري، وذلك بوساطة المساعدة المالية للبابا، تخلى عن جميع ماادعاه حتى الآن، مفضلاً —مع أن ذلك جاء متأخراً— أن يتمتع بأمن السلام، على الرغم من أنه نزل إلى منزلة منخفضة، مؤثراً ذلك على مواجهة مخاطر الحرب المتقلبة، والعيش في منصب رفيع.

الظهور الأول للجواميس في إنكلترا

وفي أيام الصوم الكبير من هذا العام نفسه، جرى ارسال بعض الجواميس إلى الايرل رتشارد من القارة، وكان بعضهم ذكوراً، وبعضهم الآخر من نوع الإناث، في سبيل أن تزداد هذه الحيوانات، التي لم تشاهد من قبل في هذه البلدان الغربية، وتتكاثر، والجاموس هو نوع مشابه للثور، ومتأقلم بشكل جيد لحمل الأثقال أو جرها، وهو عدو كبير للتمساح، ومغرم بالماء، ومزود بقرنين كبيرين للدفاع عن نفسه، وعن هذا الحيوان قال الفيلسوف برنارد:

للفيل أنياب، والسنام يزين ظهر الجمل

وينتفخ جبين الجاموس بشموخ بقرنيه

حول رفض الرهبان الفرنسيسكان قبول هدية من ملك إنكلترا من بضائع مسلوبة

وفي هذه الآونة نفسها، أرسل الملك صدقاته إلى الرهبان الفرنسيسكان، عبارة عن عربة محملة بالأقمشة الصوفية والأقمشة الرمادية، المناسبة لتكون ملابس للرهبان المذكورين، لكن لدى سماعهم بأن الملك استخرجهم من التجار، وفق الطريقة التي يأخذ بها، لابل يستولي بها، على الأشياء الأخرى، واحتفظ بثمنهم، ودفع فقط الضريبة الاقطاعية عنهم، رفضوا تسلم مثل هذه الهدية، وأعادوا العربة، مع جميع محتوياتها، قائلين إنه لايجوز قانونياً اعطاء الصدقات من أسلاب الفقراء، وهم لن يتسلموا مثل هذه الأعطية الملوثة، وجعل هذا العمل الرهبان جديرين بالمدح، واستحق الملك الملامة، لابل بالحري العار، فالملك ينبغي أن يعدّ مرآة للعدل وأساساً له، وأن يكون مثل الشمس، التي أشعتها مستقيمة، تخرق الظلمات، وأن تكون كلماته صادقة، وغير متقلبة، تمنح الضوء والمعرفة إلى الذين هم في الظلام، لكن الآن، بما أن

الذي يسمى ملكاً مليئاً بالظلمات في ذاته، فكيف يمكن له أن يضيء الذين حجبهم الظلام؟ وحول هذه المسألة قال ستاتيوس Statius: أنت يمكنك أن تضع كل شيء تحت سلطانك القضائي، عندما تكون ملكاً على نفسك، ولقد عانى الاغريق جميعاً من أجل هذه الأشياء».

حول الاتهامات الجادة التي وجهت ضد سيمون إيرل أوف ليستر

وفي العام نفسه، عندما كان سيمون، ايرل ليستر، مقيماً إقامة قصيرة في انكلترا، تحرك شعب غسكوني ضد السلطة الملكية، وتخلوا عن المواثيق التي دخلوا بها، و شنوا الحرب ضد الملك، وتجرأوا على مهاجمة الذين وضعهم الايرل، وأنابهم عنه لحماية قلاعه والممتلكات الأخرى، وأرسلوا رسالة إلى الملك، بأن الايرل المذكور، هو أكثر الخونة انحطاطاً، وأنه كان يتولى جمع مبلغ لاحدود له من المال، قام باستخراجه من النبلاء، ومن المواطنين، ومن العوام، فهو لم يوفر أحداً، وأنه أخبرهم بأن الملك هو الذي بحاجة لذلك لأنه على وشك الذهاب للحج، فهو على هذا سوف يتسلم جميع الأموال، غير أنه احتفظ بذلك كله لنفسه،وعلاوة على هذا تقدموا ضده بشكوى جادة، هي أن دعا إلى مجلسه الاستشاري بشكل سلمي بعض الرعايا المخلصين كثيراً إلى الملك، وبعدما دعاهم، تصرف مثل سينون Sinon وليس مثل سيمون، حيث سجنهم بشكل غادر، وأبقاهم في السجن، وأجاعهم حتى الموت، وبهذه الشكاوى وبأمثالها، وبالهمس بالشكاوى، حولوا الايرل إلى هدف للشك من قبل الملك، وتأرجح الملك وقتها في حالة من الشك، فأرسل فجأة وبشكل سري إلى غسكوني محاسبه هنري أوف وينغهام Wengham, وكان رجلاً بارعاً وحكيماً، ليقوم ببحث جاد، حول ماتعلق بالشكاوى المتقدم ذكرها، وذلك في سبيل أن يحصل الملك على معلومات موثوقة حول المسألة، وذلك وفق الطريقة التي

كـــان قـــد أرسل بها مـن قبل غيــوفــري أوف لانغلي Langley, للبحث في إجراءات روبرت باسليف Passeleve, عندما كان مـوضـع شك، وللتقصي حتى يكتشف الذي كــان هو السر في المسألة، وليتعـرف إلى العقدة في القصبـة الناعمـة، وإلى الزاوية في اطار الدائـرة، لكن كل واحد من المفتشين أخفق في فحصه، وعندما سمع الايرل بهذه الإجـراءات، غضب غضباً عظيماً، لسبب مضـاعف، وأعلن عن براءته إلى الملك قـائلاً: «كيـف حدث يامـولاي أن ملت بأذنيك وقلبك نحـو رسـائل هـؤلاء الخونة لك، وصـدقت أولئـك الذين غـالبـاً مـا أدينوا بالخيـانة، بدلاً مني، أنا الذي خـاضع لك ومخلص، وهكذا أقمت بحثـاً حـول أعمالي»؟، وعلى هذا أجـابه الملك، الذي أصبح هادئـاً تمامـاً: «إذا كـان كل شيء واضحـاً، مـا هو الأذى الذي سيلحقـه بك التـدقيق؟ في الحقيقة سوف تصبح سمعتك أكثر وضوحاً واشراقاً بذلك»، ثم تواضع الايرل، واستعد للمغادرة إلى غسكوني، وبناء على التماساته، زوده الملك بمبلغ كبير من المال، لكن من دون استقـرار في الفكر، لأنه فكر بالقيـام بانتقـام موائم، بسبب الأذى الذي لحق به من خـلال هذه التهم الجادة، وحشـد جيشاً كبيراً من الفـرسـان الفرنسيين مع أتبـاعهم المستأجـرين، ودعـا ملك نافـار لتقـديم المساعـدة إليـه، وكـذلـك كـونت بيغـوري Bigorre, مع كثير آخرين، ومتن حـزبه إلى درجة عـالية، وهكذا أخمد تجبر الغسكونيين، الذيـن لولا أن انكلترا مفيــدة لهم مـن أجل بيع خمورهم، لقامـوا جميعاً بالتخلي عن ولائهم لملك انكلترا، ولأقـدموا على اختيـار سيـد آخر، وعلى كل حـال بما أن الغسكونيين صـار لديهم الآن مكاناً للجوء إليه في اسبانيا من أجل بيع خمورهم —التي من حاصلاتها هم يعيشـون— في قـرطبـة، واشبيليــة، وبلنسيـة الكبيرة، وهي أمـاكن خضعت الآن للادارة المسيحيـة، لكان من المخشي أنهم سـوف يتركـون الأراضي الانكليزية، التـي فيها تعرضـوا للاضطراب ولكثير من المظالم، والأذى، خاصة من خلال الأتاوات الملكية، ولأخذوا أنفسهم من أجل

المستقبل إلى مناطق أكثر بعداً، ولقد رأينا بأن هذه الملاحظات مناسبة لأن يجري ذكرها كاملة في هذه الصفحات، لأن جميع سمعة مملكة انكلترا، التي اعتادت على القيام بالتفاخر بالمقاطعات الموجودة في القارة والخاضعة لها، أخذت الآن بالتناقص والتشتت بسبب كسل ملك انكلترا وزيفه، لذلك لم يبق إلاّ النادر في مقاطعة غسكوني، من هو خاضع للانكليز، وهي المقاطعة المكروهة من الملك الفرنسي، والتي —علاوة على ذلك— كانت في حالة تأرجح، وإذا مافقد الانكليز تلك المقاطعة، حسبما هو معلن من قبل الغسكونيين، لن ترسو بعد الآن فصاعداً أية سفينة انكليزية في المقاطعات القارية، ولن تتوقف فيها.

الحالة المدهشة للهواء والمناخ

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، وبالتحديد في اليوم التالي لعيد القديس غريغوري، في اليوم الرابع من الأسبوع، عندما صار تغير القمر وشيكاً، ظهر قبل أربعة أيام من يوم ظهوره، كما كان متوقعاً من قبل، لأن اليوم التالي قبل السبت، كان في الترتيب الصحيح للأشياء، وكان اليوم الأول لظهوره، وبعد ذلك، خلال خمسة عشر يوماً متواليات، ظهرت الشمس، وظهر القمر، وكذلك النجوم بلون أحمر، وظهر أحد الأيام غائماً، أو كأنه مغطى بالدخان الذي ملأ محيط العالم كله، وكانت الريح آنذاك تهب من الشمال، أو من الشرق، وخلال الجزء الأكبر من شهر آذار، وأثناء نيسان كله وأيار، من هذا العام نفسه، جفت الأرض، وعطشت بوساطة حرارة الشمس المحرقة، واستمرت الريح بالهبوب من الشرق، والشمال، أو الشمال الشرقي، ونتيجة لتزايد الحرارة، وبسببها وبسبب الجفاف، ولانعدام الندى المنعش، تساقطت ثمار التفاح والفواكه الأخرى، فبعدما كانت قد ظهرت بكثرة مثل حبات الفستق، ذبلت وسقطت لافائدة منها، ولم يبق أي جزء من هذه الثمار حياً، مع أن الأغصان كانت قد وعدت بوفرة عظيمة من الفواكه، واستمر

تناقص الفواكه بازدياد، ولاسيما عندما وصلوا إلى حجم البلوط، فعندما وصلت الفواكـه إلى حجم البلوط، أصيبت بجليد مفـاجىء في الصباح، وترافق ذلك مع أشعـة ضـوئيـة غير اعتيـادية (مما يسميـه الفـلاسفـة الطبيعيين لفحات الضوء والحرارة)، أحـرقت التفاح الناضج، والبلوط، والدراق، وجميع أنـواع الفـواكـه، والكـلأ، إلى درجـة أن الذي بقي لم يتجاوز العشر، وعلى كل حال إنه بسبب الوفرة الأولية للمواسم، بقيت الحدائق مليئة بالتفاح، والحقول بالقمح، وفي الحقيقة لو أن جميع الأزهار بقيت، لما استطاعت الأشجار أن تحمل الفـواكه التي أنتجتها، وارتفعت الشمس إلى العلو الانقـلابي في السماء، وأحرقت حـرارتها العاليـة والتي لايمكن تحملها، وجـه الأرض، حتى أن جميع الأعشاب قـد ذبلت، ولم تعد المروج قـادرة على تقديم الطعام للمـواشي، واستمرت الحرارة أثناء الليل، وسببت كثـرة الذباب والبعوض، مع الحشرات الأخـرى المؤذية، وهكذا صار جميع الأحياء متعبين من الحياة.

حول رفض رجال الدين ذوي المنافع الترقية إلى المراتب الكهنوتية

وفي هذه الآونة جـرت محاولة لاقناع رجـال الدين من ذوي المنافع في أسقفيـة لنكولن بإلحاح، ومن ثم حثهـم من قبل أسقف تلك الأسقفيـة، بإرادتهم، أو بـدون إرادتهم، على السماح لأنفسهم بالترقيـة إلى المراتب الكهنوتيـة، وقـد رفـض كثير منهم، إخضـاع رقـابهم إلى نير المولى بهذه الطريقة، وتم بمـوافقة عامـة جمع مبلغ من بينهم أنفسهم، وبعدمـا جمعوا مبلغاً كبيراً، بعثـوا إلى البلاط الروماني، وتمكنـوا عن طريق الانفاق الكبير للمال، المال الذي له سلطة قوية في ذلك البلاط، من الحصول على السلطة من البـابا، وقـاومـوا هذا المرسـوم الأسقفي، وحصلـوا على اذن لعـدة سنوات، بامتـلاك مـدارس دون الدخول في الكهـانة، وهكذا استطاعـوا بمظهر الأمانة، وبمكر يشبه مكر الثعلب إزالة نير المولى من على رقابهم.

كيف رفض الفرنسيون إطاعة أوامر ملكهم

وفي العام نفسه، ومع اقتراب حلول موعد عيد الفصح، دعا الملك جميع نبلاء انكلترا الذين حملوا شارة الصليب، إلى الاجتماع في لندن خلال اسبوعي الفصح، لعقد مشاورات حول شؤون الأرض المقدسة، التي كرامتها كانت في حالة تأرجح وتردي كبيرة.

وفي هذه الآونة أيضاً، بدأ اسم الملك الفرنسي يقدر تقديراً متدنياً كثيراً في تلك المملكة،وأصبح مكروهاً، وغير محترم بين كل من النبلاء وعامة الناس، وذلك لسببين، كان أولهما، أنه قد تعرض لهزيمة مهينة على أيدي المسلمين في مصر، وعانت النبالة الفرنسية كلها معه من عار لايزول، ولأنه عزم، من دون موافقتهم، على منح نورماندي، والأراضي الأخرى في القارة، التي تملكها الملك الفرنسي واستحوذ عليها، إلى ملك انكلترا، على شرط أن يمده بمساعدة قوية وفعالة، خاصة وأنه كان ملزماً بأن يفعل ذلك، على أساس أنه قد حمل الصليب.

وعلاوة على ذلك ازداد تجبّر الفرنسيين، بوساطة الخزي والمرارة التي أخرجوها من أفواههم أثناء المحادثات، من ذلك أنه عندما كان النبيل روبرت، كونت أرتوي، وأخو الملك الفرنسي، فاراً خلفه، كان هناك شاب انكليزي، اسمه وليم صاحب السيف الطويل، وكان منحدراً بأصله من الأسرة الملكية لانكلترا، وقد وقف هذا بثقة وبشجاعة، وثبت في مكانه، يقاتل حتى الموت، وبما أن الفرنسيين أنفسهم، لم يكن بإمكانهم انكار، بأنه سوف يشع مطوقاً ومتوجاً بتاج الشهادة، وأنه جدير بأن يكون مفضلاً لدى القديس ادموند، وأن هذا يمكن تأكيده شرعياً، فادموند هو المعترف المجيد، وهو الذي اشتهر باستقامته، وبمعجزاته المتوالية، أما الآخر، فكان فارساً شجاعاً، ومن أصل نبيل، وقد تبرهن بشكل مكشوف بأنه شهيد، وكان هذا كله شوكة جارحة في أعين الفرنسيين، لأن كل رجل متجبر يحزن كثيراً عندما يشاركه أحد

بالثناء عليه، ويزداد حزنه وأساه إذا ماتفوق أي واحد عليه، وحول هذا قال الشاعر:

كل قدرة

أو

كل تجبر

يغار من الشريك

وبالنسبة لمحاولة الملك الفرنسي إعادة الممتلكات في القارة إلى ملك انكلترا، ردّ الفرنسيون برعونة على الشكل التالي: «لاسمح الرب أن تتعرض فرنسا في أيامنا إلى البتر، وأن تهان وتتدنى سمعتها —مع أن ذلك أصبح أكثر شراً وسوءاً مما هو ممكن من خلال تقاعس وغلبة الملك الصغير— بإعطاء ملك انكلترا الضعيف، وتلبية مطالبه، بالتخلي عن الأراضي، فلقد عانينا من الإهانة بما فيه الكفاية، وأسيء إلى سمعتنا كثيراً، وأفقرنا بما فيه الكفاية، وإذا كانت ملكتنا بلانشي، تريد ذلك، صدوراً عن عاطفة الأمومة، وعن الرغبة النسائية، وعلى استعداد لأن تفعل هذا، في سبيل تحرير ابنها وفائدته، فإن جماعة المملكة الفرنسية كلها لن تسمح مطلقاً بذلك، وإننا لن نسمح مطلقاً بخرق قرار النظراء الاثني عشر، الذي قضى بتجريد الملك الانكليزي من نورماندي، أو عدّه لاغياً أو طائشاً، ولن يتمكن ملك انكلترا، عدونا المميت، بأي حال من الأحوال ومهما كان، بالحصول على مطالبه الأخرى مادمنا أحياء».

وهكذا تفجر التذمر والرفض بين النبلاء الفرنسيين، تجاه عزم الملك على القيام بهذه الأعمال من دون موافقة البارونات جميعاً، وشرع أخواه أيضاً: كونت بواتو، وكونت بروفانس بإزدرائه وكراهيته، والنظر إليه بقلة احترام، ومع أنه كان متوقعاً مساعدتها الأخوية الموعودة،

وحمايتهما، لقد رفضا تزويده بذلك، وكان الوحيد الذي وقف إلى جانبه، وعمل لصالحه هو أمه بلانشي، التي لم تسمح لها رحمتها، وعاطفتها الطبيعية، ومشاعرها الدينية بالوقوف ضده.

وعندما سمع ملك انكلترا بهذا، ماتت جميع آماله في استرداد حقوقه في القارة، وتلاشت، ولقد جرى إخباره أيضاً، بأن النبلاء الفرنسيين، قد أقسموا قسماً عظيماً، بأنه، أي ملك انكلترا قبل أن يحصل على مايتطلع إليه، سوف يرغم على شق طريقه خلال أسنة ألف رمح، وبعد قصفهم وتكسيرهم، سوف يرغم أيضاً على شق طريقه خلال العدد نفسه من السيوف التي كانت جاهزة لتغطس في دمه، ولقد خاف ملك انكلترا من هذا كثيراً، ولاعجب تجاه ذلك.

كيف أقسم الملك بأنه سوف يقوم بالحج إلى الأرض المقدسة

وأثناء هذا العام، في يوم الاثنين التالي قبل اليوم الذي ندعوه بالعادة وبشكل عام باسم Hokeday, دعا الملك بوساطة صوت المنادي جميع سكان لندن، من أدناهم إلى أعلاهم، آمراً إياهم بوساطة مرسوم ملكي بالاجتماع جميعاً في ويستمنستر، لسماع مارغب به، وعندما اجتمعوا جميعاً مع بعضهم، أمر الملك أسقفي: ووركستر، وشيستر، وراعي دير ويستمنستر، بإلقاء خطابات مهيبة وعاجلة، على الناس، حول موضوع حمل الصليب، لكن بسبب الاستخراجات المالية المتنوعة، وأعمال الخداع، لبلاط روما، قليل من سكان لندن وأتباعهم من سكان الريف، كانوا هم الذين فعلوا ذلك، بناء على تبشيرهم، وقام على كل حال الذين كانوا حول البلاط، ورتشارد دي غري، وأخوه جون، وج. J دي بليست Plessets, بحماس بحمل الصليب، وبادر الملك على الفور بالتوجه نحوهم، وعانقهم، وقبلهم في ذلك المكان، ودعاهم باسم إخوانه، ووجّه في الوقت نفسه اللوم إلى سكان لندن، ودعاهم مرتزقة منحطين، لأن قليلاً منهم كانوا هم الذين حملوا

الصليب، وكان هذا التمسك بالتهور بعناد، سببه روما، لأن الملك كان لتوه قد حصل على تفويض من البابا بأن يجبى العشر لمدة ثلاثة أعوام من رجـال الدين، ومن شعب المملكة، ولو أن هذا كله جمع وأحصي لوصل إلى مبلغ يزيد على ستمائة ألف [مارك]، مما كان سيلحق الضرر الدائم بالمملكة، ولهذا قد قيل بشكل سري، بأن أصحاب العقول التقية، صعب عليهم تصديق بأن الملك قد حمل الصليب، إلاّ لغرض واحد، هو أن يتمكن بهذه الوسائط من تجريد المملكة من ثروتها، وهو على كل حال قد أقسم بأنه سوف يقوم بعبوره خلال السنوات الثلاث المقبلة، شروعاً من عيد القديس يوحنا المعمدان، مالم يمنعه عن ذلك الموت، أو مرض شديد، أو سبب آخر معقول، ولدى تأديته لهذا القسم، وضع يده اليمنى على صدره، مثلما يفعل الكهنة، ثم وضعها على الأناجيل، ثم قبلهم وفق طريقة العلمانيين، وهذا على كل حال لم يجعل الذين كانوا من حوله أكثر قناعة، لأنهم تذكروا الخروقات الماضية، لذلك شعروا بالريبة الآن.

كيف طلب سلطان مصر السلام من الملك الفرنسي

وفي هذه الآونة، عندما كان الملك الفرنسي، مايزال باقياً في قيسارية، شنّ أهل قونية ودمشق حرباً دموية متواصلة ضد السلطات المصرية، وأوقفـوا أنفسهم، على السلب والنهب، والحرق والقتل، لأن سلطان مصر كان هدفاً للكراهية لدى جميع الشرقيين، وذلك لسببين: أولهما لأن الملك الفرنسي جرى السماح له بالنجاة من دون أذى، من بين أيدي المصريين، وذلك من خلال إثارة الشره، وأيضاً بسبب أنه قد قيل بأنه قتل بشكل غادر، مولاه سلطان مصر، وسلفه، في سبيل إغناء نفسه بأمواله، وفي الحقيقة استهدف جميع المشارقة التشهير بالملك الفرنسي، وعرضه ليكون هدفاً للاستهزاء من قبل جميع المسلمين، وذلك في سبيل محق العقيدة المسيحية وشريعتها، وإلحاق عار أبدي بها، وكانوا يريدون بعد هذا كله تقديمه أخيراً إلى خليفتهم حتى يسجن طوال أيام حياته،

أو أن يجري التضحية به، وتقديمه أضحية محرقة إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) من أجل رفع شأن شريعتهم، ولم يكن الغضب الرباني مشتعلاً على كل حال إلى مثل هذه الدرجة ضد عبيده، مع أنهم استحقوا بوساطة ذنوبهم مثل ذلك العقاب من انتقام الرب، لكن مع أنه كان غاضباً، لقد تذكر رحمته.

ولقد أرسل سلطان مصر المتقدم ذكره، منذ ذلك الوقت فصاعداً الهدايا، والرسائل المسالمة إلى الملك الفرنسي، أخبره بها حول كم من الاضطرابات قد تحمل بسببه، لأنه أبقاه حياً، كما أنه بدأ يفكر بتقديم عروض للسلام معه، أو هدنة، يمكن منحها إلى الملك المذكور، ولذلك شعر هذا الملك بالطمأنينة، وتشجع على الشعور بآمال أفضل.

حول قسوة الملك نحو رعيته وسخائه تجاه الأجانب

قبل انتهاء اجتماع البارلمان المتقدم ذكره، صار الملك جافياً ليس لديه مرحمة نحو أي واحد، وهو لم يكتف بعدم منح أي تأخير، ولو كان قصيراً، إلى المديونين له، بل شدّد بقسوته على رعاياه الطبيعيين من دون شفقة، ومن دون أي تقدير للحكمة، وفي سبيل سحب المزيد من الدم من قلوب رعيته، أنعم بقطعة من الأرض تساوي قيمتها خمسمائة مارك على واحد من البواتيين اسمه الياس دي راباني Rabani، وكان رجلاً غير جدير تماماً بهذا التشريف العظيم، وهكذا كان الملك من الجانب الأول شرهاً ولايعرف الشبع، وبرهن من جهة أخرى عن نفسه أنه مبذر، ومبدد لثروات المملكة.

كيف نُظر إلى كونراد بن فردريك بعين التقدير من قبل جميع الفئات

وفي هذه الآونة، كان كونراد بن فردريك، الذي حظي بتأييد ورضا: تقريباً جميع الايطاليين، والكالبريين والصقليين، والرومان، والألمان، قد

جرى تسميمه بشكل غادر، بوساطة مشروب مميت (يارب لاتجعل هذه الجريمة تقع على عاتق بلاط روما)، وبصعوبة بالغة جرى انقاذه من بوابات الموت، بفضل العناية الكبيرة جداً به من قبل أطبائه، وقد كان هناك من قال بأن بعضاً من مؤيدي البابا وأعوانه —لكن من دون معرفة البابا— قد فعلوا ذلك، لأن حزب البابا كان خائفاً كثيراً، لخشيته من أن يقوم كونراد باتباع خطى والده، وأن يتذكر مانا له من اضطهاد، فينزل جزاءه الإنتقامي على أعدائه، ومن هذا، وبناء عليه، أخذ الجميع ينظرون إلى كونراد بعين التقدير، لأن الرب قد حفظه دون أذى، في مثل تلك الظروف الخطرة جداً، والتمس كثيرون من البابا، وحثوه بإلحاح على القيام بترقية كونراد إلى المرتبة الامبراطورية، باذلاً ما لديه من قوة، لكن البابا كان خائفا، ويخشى من أن يتبع كونراد خطى فردريك خطوة، خطوة، ويسير على طريقه في اضطهاد الكنيسة.

حول مصاعب سيمون إيرل ليستر

وصل في هذا العام، سيمون دي مونتفرات، ايرل ليستر، الذي عانى من كثير من المشاكل، إلى بوردو، حيث وجد بأن مؤامرة سرية قد حيكت ضده، وأن كثيراً من سكان المدينة شرعوا بإبداء العداوة ضد سلطته، وبإحياء الخطط القديمة، وبحبك خطط أعمال خيانية جديدة، ولذلك وجد أنه من الضروري الدخول بمخاطر الحرب من جديد، ومواجهة حظوظ الموت، حسبما سوف يظهر في الصفحات المقبلة.

وفاة المعلم جون أوف بيزنغستوك

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً، حتى لاتأتي الشرور منفردة، بل مصاحبة، غادر طريق الجسد كله المعلم جون أوف بيزنغستوك Basingstoke, رئيس شمامسة ليستر، وكان رجلاً له كفاءة عالية، وخبرة في ثلاثة مناهج اختصاصات، لابل في أربعة مناهج

اختصاصات، في مجالات الدراسة، وكان متعلماً تماماً وعارفاً بالاغريقية، وبالأدب اللاتيني، وبذلك ازدادت أحزان وأسى الايرل المتقدم ذكره، وكان المعلم جون هذا قد أخبر روبرت، أسقف لنكولن،بأنه عندما كان يتابع دراساته في أثينا قد شاهد، وأيضاً سمع من بعض العلماء الإغريق، عن بعض الأشياء غير المعروفة باللاتينية، وكان من بينها أنه اكتشف أسفار البطاركة الاثني عشر، أبناء يعقوب، الذين من الواضح أنهم كانوا جزءاً من الكتابات المقدسة، كان قد جرى اخفاءه من خلال مكر اليهود، وذلك بسبب وضوح النبوءات المتعلقة بالمسيح، والظاهرة فيهم، وبناء على ذلك، بعث الأسقف المذكور إلى بلاد الاغريق، وتمكن من الاستحواذ عليهم، وقد ترجمهم من الاغريقية إلى اللغة اللاتينية، ومعهم بعض الكتابات الأخرى، وعلاوة على ذلك أدخل المعلم جون الأرقام الاغريقية إلى انكلترا، وعلّم رفاقه الأقربين استخدامهم، وبيّن أهميتهم، وبهذه الأرقام جرى تقديم الأحرف أيضاً، وماهو مدهش بشكل رئيسي فيهم هو أنه بوساطة حرف واحد فقط، يمكن تقديم أي رقم، الأمر الذي ليس موجوداً في اللاتينية أو في النظام العددي، كما أن المعلم جون المتقدم ذكره، قد ترجم أيضاً عملاً من الاغريقية إلى اللاتينية فيه جميع قواعد النحو قد عرضت بشكل محكم، وهو مادعاه المعلم المذكور بـ Donatus of the Greeks.

كما أنه صنف عملاً آخر، فيه جرى شرح أدوات الجمل بوساطة التمييز الذي يبدأ هكذا «هيكل الرب»، والذي هو مفيد كثيراً.

وترجم هو أيضاً عملاً آخر، حصل عليه من أثينا، لأن الأناس المتعلمين من الاغريق كانوا يتابعون هناك دراساتهم، وأن الحكمة خالدة، وحسبما يقول الكتّاب المتعلمون عنها: «أنا خلقتُ من البداية، وقبل جميع العصور، وسأبقى حتى النهاية من دون اخفاق»، واسم أثينا هذا مشتق من حرف الألف، الذي يعني «من دون»، ومن كلمة

(Thanatos)، التي معناها «موت»، وبالمحصلة إن المعنى هو «خالد»، وقد برهن في هذا العمل ترتيب الأناجيل، كما أنني ينبغي ألا يفوتني ذكر أن ذلك المعلم المذكور، كان بالعادة هو صديق لي، أنا كاتب هذه الصفحات، وقد أخبرني بأنه: كانت هناك امرأة شابة، هي ابنة رئيس أساقفة أثينا، وكان اسمها قسطنطينا، ولم يكن عمرها يزيد على العشرين عاماً، وكانت تتمتع بكل الفضائل، وقد تعلمت كل مصاعب المنهاج الثلاثي والرباعي، ونظراً لما تمتعت به من علم ومعرفة مدهشة، كان المعلم جون يدعوها بشكل مسوغ باسم كاترين أخرى، أو ببساطة كاترين، وقد كانت هي معلمة المعلم جون، وكل الأشياء الجيدة التي حصل عليها عن طريق العلم، كان قد التمسه منها، فهذا ما قد أكده مراراً، مع أنه درس لمدة طويلة في باريس، وكانت هذه المرأة الشابة تتنبأ، بالأوبئة، وبالعواصف، وبالخسوف والكسوف، وماهو مدهش أكثر، بالهزات الأرضية، ولذلك كانت تقدم انذارات مبكرة لاتخطىء إلى جميع المستمعين إليها، ولكن دعونا نعود من هذا الاستطراد إلى صلب موضوع روايتنا، ونتابع حكاية مشاكل وهموم سيمون، ايرل ليستر.

كيف أن الإتهام الأول ضدّ الإيرل سيمون قد تبعه إتهام آخر أكثر جدية

انتشر في هذا العام نفسه تقرير شرير ضد سيمون ايرل ليستر، وجرى تقديم شكوى فيها تهمة جادة ضده، عرضت أمام نبلاء مقاطعات ماوراء البحر، من أنه عمل بشكل غادر ضد الرعايا المخلصين لمولاه ملك انكلترا، وأنه سجنهم، وقتلهم بصورة لاإنسانية بالسيف، أو أنه أجاعهم حتى الموت، وأنه استولى على ممتلكات قلاعهم وأراضيهم، وبذلك أظهر نفسه أنه كان مغتصباً متوحشاً للبلدات والمدن، ومدمراً لاإنساني للإنسان، وليس محافظاً على أتباع مولاه، الذين سعى إلى تجريدهم من مواريثهم، وبناء عليه تقرر بموافقة عامة من قبل جماعة غسكوني كلها،

إرسال رسل خاصين إلى مولاهم ملك انكلترا، عليهم أن يأخذوا معهم، بمثابة برهان على هذا الاتهام، رسائل من جماعات مدن غسكوني، ومن النبلاء، ومن شحن القلاع، والنواب، وأن يقدموهم إلى الملك مع شكاويهم، وتقرر أيضاً باتفاق عام، بأنه يتوجب على جميع الشخصيات الرفيعة في تلك المقاطعة أي رئيس الأساقفة في بوردو مع بعض النبلاء الآخرين المشهورين، الذهاب إلى انكلترا، إلى الملك بكل سرعة، لأنه من الممكن تصديقهم أكثر من سواهم، وبذلك يسببون الاضطراب للايرل، وعندما جرى اخبار الايرل بهذا، بذل قصارى جهده لكي يعود بكل سرعة إلى انكلترا، حتى يتمكن من إجابة الملك بشكل مقنع عن جميع قضايا الشكاوى التي رفعت ضده من قبل متهميه.

حول إخضاع ويلز إلى القوانين الإنكليزية

وفي هذا الوقت نفسه، عبر اللورد ألان دي زوك Alan de Zouch, المسؤول عن العدالة في مقاطعات ويلز المجاورة لشيستر، بدير القديس ألبان في عشية يوم عيد أحد الشعانين، جالباً معه في عربات، إلى خزانة لندن، مبلغاً كبيراً من المال، جمعه من الموارد الملكية، وأعلن بشكل مكشوف أمام جميع مستمعيه بأن ويلز خاضعة ومستقرة بشكل سلمي في ظل القوانين الانكليزية، وأعطى أسقف بانغور Bangor, الذي قدم أيضاً إلى دير القديس ألبان الرواية نفسها أيضاً، وجرى أيضاً في الوقت نفسه انتخاب المعلم رالف، الكاهن في كنيسة لنكولن أسقفاً لموري Murray, في سكوتلندا.

كيف قدم نبلاء غسكوني إلى إنكلترا للشكوى ضدّ طغيان الإيرل سيمون

قبل عدة أيام من أحد الشعانين من العام نفسه، قدم إلى انكلترا من غسكوني رئيس أساقفة بوردو، وبعض النبلاء من راؤل Reole,

ومن مدن غسكوني الأخرى، وقد جاءوا عبر الماء حتى لندن، حيث وجدوا الملك قد وصل قبلهم، وقدموا شكوى محزنة حول طغيان ايرل ليستر، بعدما أرسل ليكون المتولي عليهم، واتهموه بأعظم غدر يستحق التحقيق به، ولم يشق الملك —على كل حال— فوراً بكلامهم، لأنه وجدهم من قبل غدارين عندما كان في غسكوني، فأرسل إلى هناك نيقولا دي مولي Molis, وكان فارساً، ودرو دي فالنيس Dreux de Valence, ليتقصيا لمعرفة فيما إذا كان الغسكونيين مجرمين أم أبرياء، وفيما إذا كان هنري دي وينغهام Wengham, على وفاق وعلاقة صداقة معهم أم لا، وعما إذا كانوا يرفقون صراخهم بأفعالهم أم لا، وأنه ينبغي ايضاح جميع هذه النقاط ببينات أحسن العارفين بهم، الأمر الذي أزعج الايرل سيمون كثيراً، ولاعجب في أنه فعل ذلك، وتصرف هكذا.

بنود الإتهامات ضدّ الإيرل سيمون

وبناء عليه، عندما عاد المفتشان، أخبرا الملك بأن الايرل سيمون، قد عامل بعض الغسكونيين بشكل غير إنساني كبير، لكن وفقاً لما اعتقداه، كانوا يستحقون ذلك، وهو ما لم —على كل حال— يستطيعا برهنته، بسبب غياب الايرل، ولدى سماع هذا قال رئيس أساقفة بوردو والغسكونيون الذين كانوا معه بحضور الملك، بغضب شديد: «إن برهان الحقيقة سوف يجري ذكره من دون اخفاق، وبعد البرهان نطالب بالحكم»، وأعلنوا مقسمين أنهم سوف لن يطيعوا مطلقاً، أو يخدموا ذلك الايرل المبيد، وأنهم بدلاً عن ذلك، سوف يختارون سيداً آخر لهم، غير ملك انكلترا، وبما أن الايرل جرى التشهير به إلى هذا الحد في بلاط الملك، وأخذت البراهين على سوء سلوكه تكسب التثبيت، بزيادة عدد الشهود، قدم مسرعاً تماماً إلى انكلترا، ولدى وصوله عرف اليوم الذي حدد له للرد على تهم خصومه، ولأنه شعر أنه بات في وضع صعب،

رتب هذا الايرل، أن يكون في ذلك اليوم موجوداً الايرل رتشارد، الذي كان مسروراً كثيراً للاضطراب الذي لحق بالغسكونيين، وايرل غلوستر، وكان صديقاً للايرل سيمون في هذه القضية، وايرل هيرفورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، ورجال من المرتبة العليا، الذين كانوا لن يسمحوا بتعرض الايرل للخطر، بأي حال من الأحوال حول هذه القضية، لأنه كان يخشى كثيراً من الملك بتسرعه المفطور عليه، ولإيثاره المعروف للأجانب، من أن يأمر بالايرل، الذي كان من أصل نبيل، وكان من رعاياه الطبيعيين، فيعتقل، ويوضع بالسجن، إذا ما أدين بأنه خائن، وهذا أمر لن يسمح به بشكل مطلق، وعندما أعطى الايرل براهين كافية على براءته، وتمّ اسكات الفريق المخاصم ورفضه، تابع الملك الكلام ضده، لكنه عندما شعر بأن الايرل رتشارد والبقية كانوا مؤثرين للايرل سيمون، ولأنهم كانوا يدارون بالحكمة، لم يعد يتجرأ —مع أنه أثير لأن يفعل ذلك— على وضع القسوة الملكية موضع التنفيذ ضده، ومع ذلك استمرا يتراشقان الكلام، فأثارا غضب بعضهما بعضاً، وبسرعة استعادا ذكريات ماوقع منذ زمن طويل مضى، فقد ذكر الايرل —على سبيل المثال— كيف أنقذ الملك في سانتاغيو من مصائد الفرنسيين، وكيف أنه عندما كان على وشك الانطلاق إلى غسكوني للمرة الأولى، نصحه الملك بسحق الخونة، وكيف أنه أعطاه صكاً بتولي الوصاية على تلك البلاد لمدة ستة أعوام، وكيف أنه وعده بمساعدة فعالة وبالمشورة، الأمر الذي لم ينفذه، ثم أضاف قائلاً: «ولولا أنه كان مغطى باسمه الملكي وبمكانته، لكانت ساعة سيئة تلك الساعة التي تفوه بها بمثل ذلك الخطاب»، وهنا وجد الملك صعوبة في حبس نفسه ومنعها من الغضب، ومن ثم الأمر باعتقاله في مكانه، لولا أنه كان متأكداً تماماً بأن مثل هذا الإجراء سوف لن يسمح له به من قبل النبلاء، وعلاوة على ذلك أضاف الايرل قائلاً: «من الذي يمكنه أن يعتقد أنك مسيحي؟ أولم تعترف قط؟» فأجاب الملك: «لقد فعلت»، فاستأنف

الايرل يقـول: «لكن مـاهـي منفعـة الاعتراف من دون توبة وتكفير؟»، وكأنه قصد أن يقول: «إذا كنت قـد مارست قط الاعتراف، إنك لم تتب قط، ولم تقم مطلقـاً بالتكفير الصحيح، وعلى هذا الكلام ردّ الملك الذي ازداد غضبه أكثـر فأكثر اشتعـالاً قائـلاً: «إنني لم أندم قط على أي عمل مثل ندمـي الآن على السماح لك بدخـــول انكلترا، أو بتركك تضع بين يديك أية أرض أو مـراتـب شرفيـة في تلك البـلاد، التي سمنت بها إلى أحـد أنـك تمردت على سلطتي»، وهنا قطع أصـــدقـاء الطـرفين هذا الخلاف، وهكذا افترقا.

سبب الشر المتقدم ذكره أعلاه

ووقعت هذا الأشيـاء كلهـا بسبب عـدم استقـامـة الملك وعـدم استقـراره، إنما حتى نتمكن من متـابعـة هذا الموضـوع، علينا أن نعـود بروايتنا بعض الشيء إلى الوراء لـوقت قصير، في سبيل ايضـاح السبب، فمنذ سبعة وعشرين عـاماً انقضت، قام الملك، بناء على نصيحة نبـلائه، عن طواعية وبارادته بمفـرده، بالتنازل عن غسكوني إلى الايرل رتشارد، وأبحـر الايرل إلى هناك، وبعدمـا جعل الغسكونيين يرون الصك المثبت لدعواه، والذي تسلمـه من الملك، تلقى الولاء منهم، الأمر الذي قـاموا به عن طواعية، من قبل أنفسهم، وأدوا يمين التابعية له، في ذلك الوقت نفسـه، لأنه كـان آنذاك شـاباً، وصـاحب مظهـر جيـد، وجـديراً بكل التشريفات والاكـرام، وبعد مضي عدة سنوات، أنعم الملك ثانيـة بالبلاد نفسهـا على الايـرل نفسـه، وأعطاه صكاً بذلـك، لكي يكون التملك لها أكثر ثباتاً وضمانـاً بالنسبة له، وبعد مرور عدة سنوات، كـانت الملكة قد أنجبت للملك أول ولد كـان منتظراً منذ وقت طـويل، وبناء على إثارة الملكة وتحريضهـا، انتـزع الملك غسكوني من أخيـه الايرل رتشـارد، من أجل أن ينعم بها على ابنه البكر ادوارد، فألغى صكيـه الماضيين ومنحته، لكن الايرل رتشـارد رفض القيام بـالتنازل، معتمداً على امتيـازه، في أنه

لايجوز تجريده من ممتلكاته، وبناء عليه، عندما كان الملك أخيراً في غسكوني، وكان بعض الغسكونيين يتأرجحون، وفي حالة شك، لايدرون إلى أي من الاثنين يتوجب عليهم تقديم الطاعة، قام الملك وهو في حالة غضب شديد، فأمر الايرل بشكل قاطع بالتخلي عن صكية، وأن يعلن على الملأ تنازله عن دعواه في غسكوني، ولأن الايرل رفض بثبات أن يفعل ذلك، أمر الملك رجال شعب بوردو بأن يعتقلوه ليلاً، وأن يودعوه في السجن، وعلى هذا أجابه الغسكونيون من دون تردد، لكن بشكل سري، بأنهم لن يفعلوا ذلك مهما كان الأمر، أولاً بسبب شهرته، وأصله الملكي، وبسبب الولاء الذي كانوا قد أدوه إليه، وأيضاً بسبب ضعف الملك وتقلبه، أي خشية من أن يقوم فيما بعد بالندم لإقدامه على هذا العمل، ويعاقبهم جميعاً، ولم يعط الملك هذا الأمر إلى نبلاء انكلترا، لأنه كان متأكداً من أنهم لن يفعلوا ذلك من دون تداول كبير، وبما أنه أصبح ساخطاً مليئاً بالغضب، سعى إلى رشوة الغسكونيين بوساطة الهدايا، لأنه لم يستطع جعلهم يطيعون أوامره باعتقال الايرل بمثابة متمرد، وأن يضعوه في السجن، وكان الإيرل قد أنذر مقدماً في الليلة نفسها، فأخفى نفسه في دير الصليب المقدس، ومبكراً عند الفجر، قام بشكل سري ومفاجىء بالصعود على ظهر سفينة والعبور إلى انكلترا، وبما أنه لم يكن مجهزاً من قبل بالمؤن وبالأشياء الضرورية الأخرى، عانى من عوز كبير في البحر، ومن العواصف أيضاً، التي ثارت، وأبعدته عن طريقه الصحيح، وجعلت الرياح المتضادة تتقاذفه، وتعرض إلى مخاطر عظيمة، إلى حد أنه نجا بصعوبة من بين فكي الموت، ونتيجة لذلك عمل نذراً في وقت تعرضه للخطر، بأن يبني لعبادة الرب، ديراً لطائفة السسترشيان، وقد وفى بنذره هذا بالشكل الصحيح، حسبما تقدم ذكر ذلك في الصفحات الماضية، وألقى الايرل باللوم نتيجة لكل ماعانى منه على الملك، وشعر بالفعل بأعظم الغضب ضده، كما أنه لم يتعامل بعد ذلك هو والملك بموجب

العلاقـات الأخوية والمشـاعر المتبـادلة، كما كانا من قبل، وعندمـا وجد الملك بأن الايرل قـد نجـا هكذا من سخطه، جمع وهو حـانق في قـرارة نفسـه نبلاء غسكوني، ولاسيما نبـلاء بوردو، وبعـدمـا ألقى خطاباً فيهم نأى بقلوبهم عن المحبـة وعن الـولاء والاخـلاص للايرل، وجـاء ذلك بوساطة عدد لايحصى من الخطابات الناعمـة، والوعود السخية، وأعلن بأنه —أي الايرل— كـان رجلاً شرهاً، وظـالماً للرعية التي كـانت تحت حكمه، وأنه كان الأكثر سخاء بوعوده، لكنه الأعظم شحاً في تنفيذهم، كما أنه أضـــاف أنه ألغى صكيـه، وأزال منحـــة غسكوني، وبذلك أزال ولاءهم له، وجـرد الايرل تماماً من دعـواه ومن حقه بالتملك، وفضـلاً عن هذا وعدهم بسيد أفضل، وبحـاكم أكثر رأفة، وأنهم إذا مافعلوا كما يرغب ويريد، فلسوف يتسلمون منه مبلغاً كبيراً من المال بمثابة مكافأة، وتقرر السعر أيضاً، وتحدد المبلغ بثلاثين ألف مارك، وهكذا أمكن إلزام الغسكونيين بالتنازل عن خضوعهم وعن ولائهم للايرل رتشارد.

وعندما أخيراً، كـان الملك على وشك مغادرة غسكوني، هكذا بشكل مهين، أعطاهم ضمانة بوساطة صك على الالتـزام بدفع المال والوفاء به، وتعهـــد بيمينه وبشرفـه بأن يفي بهذه الصفقـــة، لأنه اعتقـــد أنه يمكنه خداعهم بمثل هذه الوعـود الكبيرة، لكن المخادع وجد نفسـه أخيراً قد وقع بالفخ، لأن الغسكونيين، احتفظوا بالورقـة المختومـة من قبل الملك في حـوذتهم، بمثـابة برهان على الصفقـة، وهكذا وياللأسف، إن العـار والخداع واضح على الجانبين، وكـان من المتـــوجب على مثل هذا الأمير العظيم عدم ممارسة الخداع، وكذلك لايجوز تعرضه للغش.

أما بالنسبة للايرل رتشارد، فإنه في الوقت نفسه، بعـدما جرى تقاذفه بين الأمواج الكبيرة، مما ألحق به ضرراً مستمـراً بصحته البـدنية، وصل أخيراً بكل صعـوبة كبيرة إلى ميناء في كـورنوول، وهو مجرد لامـال لديه ولاخيل، وطلب في ذلـك المكان، وهو حـــزين وكئيب، تـزويده بما هو

ضروري، من أتباعه في ذلك الجزء من أراضيه.

ولدى الفراغ من هذه القضايا، عاد الملك إلى انكلترا، بعدما عانى من جميع أنواع الخسائر، وعلى الفور استخرج المال من كل واحد من الأساقفة، في سبيل تلبية المطالب الوقحة للغسكونيين، وبما أنه ظل غاضباً على هؤلاء القوم، وكارهاً لهم، عيّن الايرل سيمون حاكماً عليهم، من أجل أن يقوم، وهو الرجل المشهور، والواسع التجربة في مسائل الحروب، بسحق عصيانهم المتجبر، كما أنه أعطاه صكاً، بأن يستحوذ على الولاية لمدة ستة أعوام، وأنعم عليه بعشرة آلاف مارك من خزانته الملكية، والتمس منه بالوقت نفسه، لابل فرض عليه أن يدوس عليهم، ويضعهم تحت قدميه، وأن يعاملهم بخشونة وقسوة، خصوصاً الذين هربوا من ظل سلطته، طلباً لحماية أنفسهم، والذين استخرجوا المال منه، ليس فقط بالطريقة التى تقدم ذكرها، بل بطرائق أخرى كثيرة، وبشكل خاص غاستون دي بيارد وأمه، التي كانت امرأة ضخمة، أو بالحري مثل التنين، مع عدد كبير آخر، وبناء عليه قام الايرل سيمون، الذي كان رجلاً مقاتلاً، وقوياً، وصاحب خبرة، بإطاعة أوامر الملك،وبفعله ذلك عرّض نفسه، وممتلكاته، وأتباعه إلى مخاطر البحر والحرب، وأنفق كل الذي استطاع أن يستخرجه من ممتلكاته بوساطة الضرائب، أو بيع الخشب الذي كان فيهم، أن ينفق على الضروريات لذلك المقصد، وفي نهاية جهوده هذه، كانت جائزته تلك التي تلقاها من الملك، ومن هذا الاستطراد المختصر لأخبار الوقائع، بات واضحاً لماذا لم يحزن الايرل رتشارد، أو لم يهتم، حول خسائر الملك، أو اضطراباته في هذه القضية، وعلى كل حال، إنه مهما تفاوتت وجهات النظر والتفاسير، يمكن القول فقط بأن الملك قد تغير، وأصبح مؤثراً للغسكونيين، الذين كان قد عانى من مكرهم، وأبعد عن حظوته الايرل سيمون، الذي خدمه باخلاص في كثير من قضايا الريبة والأزمات.

لكن دعونا نعود من هذا الاستطراد إلى موضوع روايتنا.

كيف جرى اتهام الإيرل سيمون بعنف شديد من قبل الغسكونيين

عندما جاء الايرل سيمون بكل سرعة من غسكوني، وجد الملك في لندن، لكنه لم يتلق التحية كما ينبغي، ولم يستقبل بالتشريف من قبله، بل على العكس وقف خصومه، رئيس أساقفة بوردو ورفاقه ثابتين ضده، وكأنهم كانوا متحالفين مع الملك، ونظروا إليه نظرات مسمومة، واتهموه بالكلمات التالية: «في المقام الأول، ياسولانا الملك، والايرل رتشارد، سوف نريكما أنتما مع بقية النبلاء، الذين هم حاضرون هنا، لصالح الملك، التواكيل المعتمدة، التي جلبناها معنا من جميع نبلاء غسكوني، الذين هم رعايا مخلصين للملك، ومن الفرسان، ومن المواطنين، ومن العقائل العفيفات، ومن السكان الذين أنابونا بشكل عام بالتحدث وطرح شكاويهم، وإننا بناء عليه نحن جميعاً نتقدم بالشكوى بالإجماع ضد سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، الذي تولى حكومة غسكوني، لكن الذي بحدة عدو، وشدته، يقوم باجتياحها، وايصالها إلى الدمار.

وعلاوة على ذلك، إنه بالنسبة إلى الذين منحهم الايرل رتشارد (الذي كان ومابرح متفوقاً كثيراً على الايرل سيمون) لمدة طويلة حياة سلام، والذين جرت معاملتهم في الأزمان المتأخرة بلطف وبسلام، لابل حتى بودّ وصداقة من قبل هنري دي تروبفيل Trubeville الذي كان بموجب تفويضك قهرمان غسكوني، والذي كان وصياً متعاطفاً وعادلاً علينا، والذين أيضاً عوملوا بطريقة لطيفة مماثلة من قبل ويلران Waleran الألماني، الذي كان رجلاً مستقيماً وحكيماً، هؤلاء أنفسهم هم الرجال الذين يتولى الايرل سيمون التضييق عليهم،

ودفعهم إلى الدمــار مما ســوف يسبب خســارة كبيرة، وأذى عظيماً إلى صاحب الجلالة الملك.

فضلاً عن هذا، لقـد ألغي الأحكام والمراسيم المكتوبة، العـائدة لكثير من النبـلاء، وأرسـل رجـالاً من ذوي المراتب العـاليـة في بلادنا، ومن الرعايا المخلصين للملك، بمثابـة أسرى إلى فرنسا، حتى يسجنوا هناك، وذلك تحدياً لنا، ولإلحاق الأذى بالملك، وقـد هلك بعض هؤلاء النبلاء بالسجن، من الجوع ومن وزن سـلاسل قيـودهم، كما أنه استخـرج من النبلاء المذكـورين مبالغ كبيرة من المال، مما ألحق أضراراً لايمكن جبرها بالملك، وهو لم يخبره بها، أو يسمح له بالمشاركة بالمال، وقام أيضاً بشكل غـادر باستدعـاء كثير من الرعايا المخلصين للملك، وذلك تحت مظهـر عقد مقـابلات سلمية، فصاروا مثل بـائسين تعساء، لأنه اعتقلهم، ومن ثم أعـدمهم، وبالاضـافـة إلى هذا كله، طـالب بتسليم القـلاع من أجل استخدامـات الملك، لكنه قام بشكل غـادر ودنيء بالاحتفاظ بملكيتهم، وكأنهم كانوا قـلاعه، وألقى بالسجون ولاتهم، الـذين سلموه إياهم عن حسن نية، وبإرادة طيبة».

رد الإيرل سيمون على الإتهامات

ورد الايرل سيمـون على الاتهامـات المذكـورة أعـلاه من دون تردد، بأنهم، أي الذين اتهمـوه، ليسـوا مـوضع ثقـة، ولايجوز تصـديقهم، لأنه عندمــا كــان الملك، في حـالـة طوارىء كبيرة، فكر أن يجد فيهم رعــايا مخلصين وأصدقـاء، فاكتشف أنهم دجـالين، وأعداء دمويين، وقـال: «لقد برهنتم في الحقيقة، أنه لاشهادتكم ولاحكمتكم مما يتوجب الاعتماد عليه، ومن الممكن أن يكون قد حدث أنه وجد في مقاطعتكم، بعض الذين، قد منحهم الايرل رتشــارد، والنبـلاء الآخـرون الذيـن جـرى تعيينهم ولاة عليكم، قد جـرى منحهم السلام والحيـاة، لأنهم تظاهروا لبعض الوقت أنهم أبناء السلام، لكنهم عندما قامت الفـرصة، ثاروا، وأصبحوا فيما بعد

أبناء جهنم، واستحقوا فقدان حق الادعاء بالسلام والحياة، فلماذا كان علي أن أفعل غير الذي فعلته؟ وصدقاً، لقد كان ذلك واجبي، فالرب عمل هكذا، وهو الذي أكثر عدلاً من أي إنسان، فالذين حافظوا على السير في طريق العدل توجهم، وعاقب الذين عادوا إلى ذنوبهم، وهكذا إنني لم ألحق، بأي طريق من الطرق، الأذى بأسلافي، ولاتكم المعينين، ولابالملك نفسه، في هذه القضية، وفي سبيل البرهنة على صدق هذه التأكيدات، أنا جاهز، في الوقت المناسب، لتقديم شهود أكثر عدداً، وأعظم جدارة بالتصديق منكم، لكن هل تريدون شهوداً حول هذه المسائل؟ فالملك نفسه، إذا مااعترف بالصدق، سوف يكشف نواياكم الشريرة، فهو قد نظر خلال زيفكم، وفيما يتعلق بقضايا الاتهامات الأخرى، التي تقدمتم بها ضدي، إنه ليس بوساطتكم، بل بوساطة أشخاص أكثر ثقة، سوف يتم جلاء الحقيقة، لأنه لايمكن وضع الثقة في القوم الخونة»، ثم إن الايرل رتشارد والنبلاء الآخرين، الذين تعلموا بالخبرة في غسكوني، وتعرفوا إلى مكر الغسكونيين، صادقوا على كلام الايرل سيمون، ولم يضعوا أدنى ثقة بالغسكونيين، ولم يصدقوهم.

الأذى الذي أنزل براعي دير رامسي من قبل الملك

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الملك الذي كان مهتماً بالحصول على المال بمختلف الطرق، أكثر من اهتمامه بأن يصبح إما موائماً، أو موافقاً، بالعمل، بناء على نصيحة روبرت باسليف Passeleve, بازعاج راعي دير رامسي Ramsey, في امتلاكه لسوق القديسة حواء Ives, مع أن راعي الدير المذكور كان متملكاً لهذا السوق، من دون أية اعتراضات على ادعائه وحقه، منذ عصور سحيقة، ومع أن راعي الدير المذكور قد عرض صكوكاً أصيلة، من القديس ادوارد، الذي يبدي الملك نحوه عاطفة خاصة، وأيضاً من قبل القديس أولستان Ulstan تأييداً لادعائه وحقه، إنه مع هذا كله لم يخف الملك من إلغائهم، وفي

الحقيقـة، كـان هذان القـديسان قـد تفـوها، بالاتفـاق مع عـدد كبير من الأساقفة المقـدسين الآخرين، بقرارات وأحكام مرعبـة بالحرمان الكنسي، ضـد جميع الذين يخرقـون حرمـة صكوك امتيـازات دير رامسي (وبشكل خاص مـايتعلق بالسوق المتقدم ذكـره أعلاه)، لكن الملك أعلن، بناء على مشورة شريرة، وبيّـن لصالح نفسـه، أنه تبعاً لصكوك راعي الـدير، كان من الممكن الحفاظ على السوق، وابقائـه بشكل قانوني، حتى أيام القديسة حـواء، وليس بعـد ذلك، كما ادعى ملكيـة الطريق القـائم بين الشـارع والنهر، مع أن راعي الدير، قد تملكهما بسلام بموجب امتياز قديم، وكان أي تأخير لاجتماع التجار هناك بعد ذلك اليوم، لن يعزى إلى الملك، ذلك أنه رغب بالإبقاء على ذلك السوق وعلى أجـوره من أجل منفعته الخاصة من دون أية معارضة، مما كان سيتحول كله بشكل واضح لأذى وخسارة راعي الدير، وكان ذلك لايتوافق مع المنطق ومع النوايا الطيبة للمعطيين، الذين رغبـوا بوجـوب استقبـال الكنيسـة حشـوداً كبيرة، وأعطيـات غير مـادية، وهكـذا حـدث أن عـانى دير رامسي النبيـل من مثل ذلك الأذى الكبير، وكان أفضل بالنسبة له لو أنه فقد أياً من عزبه.

حول الخطر الذي أحاق بكنيسة القديس إدموند

ووفق الطريقـة نفسها، تهددت خسـائـر كبيرة الكنيسة النبيلة للقـديس ادمـونـد الملك والشهيـد، حيث نشب خـلاف، تعلق بعـزبة مـايلدنهول Mildenhall, ولكي نعرض ماحدث باختصار، لقد بات العالم الآن يميل إلى السلب والاغتصـاب، حتى أن أي واحـد كـان يمارس أي عمل من الاستخراج، على الرهبان، ظهر وكأنه يستحق المكافأة وليس الملامة.

حول الخلاف الذي نشب حول كنيسة فليمستد

وفي حـوالي أيام عيـد الفصح من العـام نفسه، مـات رتشـارد، الذي كنيتـه دي ثوني Thony, وكـان خـازن أنجو، ورجـلاً مشهـــوراً

بأصله وبفضائله، وكان قريباً لملك سكوتلندا، وأخاً من جانب الوالدين معاً للفارس النبيل رالف دي ثوني، ولأنـه كان بحوذته كثيراً من الموارد في مملكتي فرنسا وانكلترا، أصبحت كنائسه عند وفاته شاغرة، وكان من بين الكنائس التي شغرت كنيسـة فليمستد Flamstead, التي لم تكن بعيـدة عن كنيسة القـديسة ألبـان، وقامت الملكة بناء عليـه، بحكم الوصـــاية التي أعطـاها إياها الملك، على أراضي رالـف دي ثوني، الذي كان في أعطيتـه الكنيسة المذكورة، بالإنعـام بالكنيسة نفسهـا على قسيسه وليم، الذي كان كاهناً من كنيسة القديس ألبان، وذلك بسبب أن كنيسة كنّبل Kennebell قـد أنعم بها عليه من قبل راعي دير القـديس ألبـــان، وقـد فعلـت الملكة هذا، اعتماداً على حقهـــا، لأنها تولت لسنين طويلة تعليم —وهذا قـد حصلت عليه بمثـابة أعطية من الملك اعترافـاً بالفضل— وريث رالـف دي ثوني المذكـور، الـذي كـان آنذاك طفـــلاً، والذي إليـــه يعـود حق ولاية النعمـــة، وهكذا فإن حق العطيـــة آل إلى الملكة، وعندما سمع الملك بهذا، انفجـر غاضباً غضباً عظيماً قـائلاً: «إلى أي مـــدى يمكـن لتجبر المرأة أن يصل بها، فقط إذا سمح لها بـأخـــذ سبيلهـا»، وبناء عليه قـام بشكل غير لائق، وكـذلك غير عـادل، فألغى عمل الملكة وأبطله، وأنعم بالكنيسة المذكورة، التي بلغت مـواردها مائة مـارك، على كـاهن خـاص به، ومستشـار، اسمـه هيرتولد Hurtold, وكـان من أصـل بيرغندي، وقـام هذا على الفـور بطـرد وليم المذكـور، واغتصب الكنيسة، واستولى عليهـا على الفور، وعلى كل حال لم تتحمل الملكة هذا بسهولة، بسبب الأذى والإهـانة التي لحقت بها، وعلاوة على ذلك، عندمـــا وصل خبر هذا الإجـراء إلى علم أسقـف لنكولن، الذي وقعت في أسقفيته الكنيسـة المذكورة، قام بانزال عقـوبة الحرمان الكنسي بحق هيرتولد المذكـور، وتولى بعد ذلك تعليق الكنيسـة، وحرمـانها من شراكة المؤمنين، وبذلك لم يعد من الممكن دفن الموتى هناك.

موت روبرت باسليف

وفي السادس من حزيران لهذا العام، مات في وولتهام روبرت باسليف، رئيس شهامسة ليوي Lewes, الذي عنه كتب كثيراً في الصفحات الماضية، ومع أن روبرت هذا كان كاهناً، ورجل لاهوت، لم يتردد في وقوفه إلى جانب الملك، في العمل على إفقار كثير من الناس بطرق كثيرة ومتنوعة، في سبيل إغناء سيده، لكن أفاعيله لحقت به.

وفاة رتشارد دي ويندوفر

وفي حوالي الوقت نفسه، مات المعلم رتشارد دي ويندوفر Wendover, وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، وطبيباً صاحب شهرة واسعة، وأخذ هذا الرجل احتياطات لنفسه، بشكل أكثر حكمة، وبطرق أكثر عقلانية من روبرت المتقدم الذكر، ذلك أنه جهز الوسائل الضرورية لتسعة من الكهنة لتقديم أعطيات مفيدة للمسيح إلى الأبد، من أجل الحفاظ على الأرواح، ولقد رأينا من المناسب أن نعمل ذكر خاص له في هذا الكتاب، فبسبب اخلاصه الواضح وتقواه أهدى إلى كنيسة القديس ألبان صليباً، احتوى في داخله على عدد كبير من الآثار المقدسة، كما تبرهن على ذلك كتاباتهم المقدسة، وكان التمثال على الصليب من العاج، وكان جذع الصليب والذراعين، الذين يدعون معاً باسم Furcae, مغطيين بغطاء من العاج، وكان هذا الصليب عائداً من قبل إلى البابا غريغوري، الذي قدره تقديراً عالياً جداً، وبما أن المعلم روبرت المتقدم الذكر كان طبيبه، فقد قام هذا البابا عندما كان على حافة الموت، فأعطاه الشيء الذي كان موضع تقدير كبير جداً لديه، أي الصليب نفسه، أعطاه إلى صديقه العزيز، المعلم رتشارد.

كيف حصل أسقف لنكولن من البابا على سلطة إقامة قساوسة

خلال هذا العام، قام روبرت أسقف لنكولن، في سبيل التجاوز والتدخل بموارد الرهبان، ولكي يزيد من فئة القساوسة، فحصل من الكرسي الرسولي على الولاية التالية والتفويض الذي كان متوقعاً منذ زمن طويل:

«من أنوسنت، أسقف الخ، إلى أسقف لنكولن المحترم: بما أنه يوجد في مدينتكم وأسقفيتكم، كما سمعنا، بعض الرهبان مع آخرين يشكلون جماعات وبين أيديهم ممتلكات الكنائس الأبرشية، من أجل منافعهم الخاصة، وهي ليس فيها قساوسة معينين، أو إذا كان هناك بعض القساوسة، فعددهم قليل جداً، إننا نأمركم بموجب هذه الإجازة الرسولية، ياأخانا، العامل عوضاً عنا، وفي مكاننا، أن تعين قساوسة في الكنائس نفسها، اعتماداً على مواردها، وبعدما تتولى تعيينهم، أن تتولى زيادة إمكانات الذين هم فقراء، حسبما تجد الأمر سوائها، ومتوافقاً مع إرادة الرب، وأعراف البلاد، دون التقييد بأن تكون تلك الفئات معفية، أو أنها محمية بوساطة أي امتياز رسولي، أو غفران وإعفاء، يمكن أن يشكل إعاقة لهذه الولاية، أو يؤخرها، والتي يتوجب عمل ذكر خاص لها في هذه العروض، وأن تضع جانباً جميع الالتماسات والمرافعات، وأن تضبط جميع المعارضين بالروادع اللاهوتية. صدر في ليون في هذا اليوم الخامس والعشرين من أيلول، في العام الثامن لبابويتنا».

وبناء عليه، تسبب الأسقف المذكور (كما قيل وكما هو واضح، صدوراً عن كراهيته للرهبان، أكثر من عاطفته نحو القساوسة، والارتقاء بهم) بموجب هذه الولاية بكثير من الخسارة والأذى إلى تلك الفئة من الناس.

كيف جرت إعاقة مشروع السلام بين البابا وبين شيعة فردريك

وفي هذا العام نفسه أيضاً، في حوالي أيام عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، عندما كان البابا مقيماً في بيروجيا، جرى إخباره بشكل سري، وبمثابة نصيحة تحذيرية، من قبل جميع الكرادلة، مع أصدقائه، أنه إذا لم تتم بسرعة تسوية الخلاف بينه وبين شيعة فردريك، الذين يتمتعون الآن بالحظوة لدى الشطر الأكبر من الامبراطورية، وإنهائه كلياً، فإن الكنيسة كلها، لابل في الحقيقة العالم المسيحي كله، سوف يتعرض للخطر، وللدمار، لأن كونراد بن فردريك محبوب، ويحتل مكانة حظوة عظيمة لدى جميع النبلاء، وكذلك بسبب سمو مكانة أصله، وللطفه الكبير، ولشجاعته التي لاتقهر في الفروسية، ولجرأته وبراعته في الحرب، وكان هنري، الابن الآخر لفردريك، وابن أخت ملك انكلترا، أيضاً مثله استحق عن جدارة نيل الحظوة، وحسن المكانة والعاطفة لدى جميع الحزب الامبراطوري، وذلك بسبب براءته، ومظهره الوسيم، ولحبه [الحزب الامبراطوري] للامبراطورة ايزابيلا، التي برهنت عن لطفها نحو الجميع.

وبناء عليه أخذ البابا بفكرة محاولة نيل حظوتهم ورضاهم وأن يجعلهم يتحالفون معه بوسائل الزواج من احدى الاناث من قريباته، حسبما بدأ يفعل في قضية النبلاء الآخرين، الذين أعطاهم حفيداته بالزواج، ولكن هذه الخطة أعيقت بسبب مرض كونراد، الذي —كما سلف القول— نجا بصعوبة بالغة من آثار السم الذي قدم إليه، وأيضاً بسبب مشاعر الرفض والغضب والمعارضة، التي قدمها أصدقاء الامبراطور، لهذه القضية، وعندما نجا كونراد من عتبات الموت، واسترد صحته، اتهم شيعة البابا بأنهم هم الذين خططوا لهذه الفعلة، وجلبوا ذلك الخطر العظيم إليه، وأسقط هذا إلى أعلى الدرجات الثقة باسم البابا، على أساس التأكيد بأن ذلك السم المميت قد أعطي له ليشربه بناء

على تحريضه (البابا)، كما تقدم بالمحاولة الغادرة التي عملت لأبيه (لاسمح الرب أن يكون ذلك صحيحاً)، ولهذا وبما أن قوة أذى البابا قد غدت أشد، بات واضحاً بأنه قد فقد الحظوة لدى كثيرين جداً.

وسلف أن قام توماس أوف سافوي، وهو قريب للبابا وصديق له، أن مهّد بحكمة السبيل ووفر الوسائل لترتيب سلام، لكن هذا المسعى أعيق بسبب الواقعة غير السعيدة، ونتيجة لذلك حدث هياج مميت، في كثير من أجزاء الامبراطورية، إلى درجة أن الذين كانت لديهم قضايا أعمال تتوجب عليهم ملاحقتها في بلاط روما، لم يعد بإمكانهم الذهاب إلى هناك من دون التعرض للنهب، وتمزيق أوراقهم، وتحطيم أختامهم، في تحد للبابا، ولإلحاق الأذى به، لأن أصدقاء فردريك، وبشكل خاص أصدقاء كونراد، قالوا بأن كونراد قد حرم كنسياً بشكل غير عادل، وهو بالتالي يمتلك الحق المسوغ بالتنكيل بالبابا، الذي حرمه كنسياً، وأن يكون ذلك بالنار والسيف، وبناء عليه صرف عدد كبير من الناس أنفسهم للنهب، وللحرق، وللقتل، ولهذا السبب فإن الذين أرادوا الذهاب إلى بلاط روما، آثروا السفر بحراً، للنجاة من المصائد التي نصبت إليهم، مع أنهم باختيارهم لهذا الطريق عرضوا أنفسهم للخسارة، وهكذا فإن أبانا البابا الذي اتبع خطوات قسطنطين، وآثرها على خطوات بطرس، سبب كثيراً من المصائب في العالم.

كيف جرى منح حق القيام بزيارة تفقدية جزئية إلى رئيس أساقفة كانتربري

قام الآن توماس أوف سافوي الذي تقدم ذكره أعلاه، والذي كان البابا مطيعاً لجميع ترتيباته، وبسبب محبته —أي توماس— لابنة أخيه [ملكة انكلترا]، ببذل قصارى جهوده لعمل ترتيبات فعالة، ليحول دون احباط أخيه رئيس أساقفة كانتربري، وليحقق رغبته بالقيام بزيارات

تفقـدية في انكلترا، وهكذا جـرى منح رئيس الأسـاقفـة المذكـور الاذن بالقيـام بزيارات تفقدية، لكن الفـوائد الماليـة التي كان سيحصل عليهـا بوسـاطة هذه الزيارات التفقـدية جـاءت محدودة، حيث اشترط من قبل بلاط رومـا صـاحب الدهاء الكبير، أن يكون البـابا هو المنتفع بوسـاطة أمـوال رئيس الأسـاقفـة، وأنه ينبغي أيضـاً أن لايخسر شيئاً مطلقـاً، من الذي سيتمكن من جـرفـه من الفئـة المضـادة، وجـرت كتـابة الرسـائل الأصيلة حول هذه القضية في كتاب Additaments.

كيف شفى طفل عدداً كبيراً من الناس المرضى

في هذا العام، كان قد عـاش في بلدة في كنت اسمها ستون Stone, على مقربة من دارتفورد Dartford, طفل وصل إلى سن عامين في عيـد تمجيد الصليب المقـدس، وقـد تمكن من عمل معجـزات، (مع أنه غير معـروف بقـوة أية فضيلة تمكـن من فعل ذلك)، وكـان اسم والد الطفل وليم كـرول Crul, واسم أمـه يوسـتـاتيـا Eustatia, وكـان اسم الطفل نفسـه وليم حسب اسم أبيـه، وكـان هذا الطفل قـد تمكن من شفـاء جميع الذين كـانوا مـرضى، وذلك بعـد رسم عـلامـة الصليب من قبل أي واحـد كان واقفـاً هناك لمسـاعدته، وشمل الشفـاء كل مرض مهما كان جاداً، وكانوا يعانون منه، وبسبب السمعة التي نالها عن طريق الذين شفـوا، فقـد تدفق عليه جميع الذين كانوا يعـانون من عجـز أو مـرض، في سبيل استرداد صحتهم، ورائع أن نذكـر أنهم لم يخدعوا في الحصول على تلبية كاملة لجميع الذي رغبوا به، ولدى سؤال أم الطفل: كيف جرى اضفـاء هذه المنحة على مثل ذلك الطفل الصغير، أجـابت بأنها أخبرت سلفـاً من قبل الرب بهذه الحقيقـة، عندمـا كـانت حـامـلاً، وكذلك بعد ميـلاد الطفل، وعلى كل حـال بما أن هذه القـوة الاعجـازية لم تدم لمزيد من الوقت، بل تناقصت في فعـاليتها يوميـاً، ولم تعد تلاحظ بعد وقت قصير، ونسيت.

كيف تمّ صنع سلام بين راعي دير ويستمنستر والرهبان هناك

وفي هذه الآونة من العام، أي أن تقول في حوالي عيد صعود العذراء المباركة، لنتهى الخلاف الذي استمر لعدة سنوات بين راعي دير ويستمنستر وبين رهبانه، والذي مضى يزداد يوماً بعد يوم، وجرت تسويته بسعادة، وجاء ذلك بوساطة تدخل الملك، الذي كان لديه احترام خاص إلى ذلك الدير وإلى كنيسته، وأثناء هذا الخلاف نال راعي الدير غضب الملك، ولذلك نال راعي الدير الخسارة في هذه القضية، فقد كانت هناك ثلاث عزب، كان راعي الدير، قد إستحوذ عليها من قبل لمدة طويلة، على الرغم من معارضة الرهبان، وشكاويهم، وقد جرى أخيراً تعيينهم لصالح الرهبان، في سبيل أن تزداد موارد الضيافة والإحسان لدير ويستمنستر، وعلى هذه الصورة جرى ترتيب القضية، بعد مداولات مستفيضة بين الايرل رتشارد، وجون مانسيل، ذلك أن الفريقين المتنازعين كانا قد وعدا بالالتزام بقرارهما، ولأن راعي الدير امتلك النية بالانسحاب من وعده، وتقدم بالتماس دعوى إستئناف ضد القرار، أصبح الملك ساخطاً كثيراً، وكدس على راعي الدير بطريقة غير لائقة الملامات والاهانات، مما هو غير موائم لذكره، ولم يتنازل بعد ذلك لاستقباله وفق شروط الصداقة الماضية، مع أن راعي الدير المذكور كان من قبل مستشاراً مقرباً كثيراً لديه، كما كان صديقاً كبيراً لجون مانسيل المذكور، وجاء ذلك على الرغم من أنه (الملك) كان هو الذي عمله راعي دير، لأنه أعلن أنه قد أفقر إلى أبعد الحدود دير ويستمنستر، وآذى الرهبان وظلمهم.

حول الإمتياز الملكي الذي منح إلى دير ويستمنستر

ثم قام الملك الآن صدوراً عن عاطفته نحو دير ويستمنستر، الذي عانى لعدة سنوات من كثير من الأذى والخسائر، فمنح إلى رهبان هذا الدير نفسه بكرم منه حرية التصرف، عندما يصبح منصب راعي دير

ويستمنستر شاغراً، وتدبير الممتلكات العائدة إلى ذلك الدير، إلى أن يجري تعيين راعي دير إليه، وكانت تلك الممتلكات يجري بالعادة الاحتفاظ بها من قبل الملك، ضمن ممتلكاته الخاصة، مما كان قد سبب خسارة كبيرة وأذى للدير، وفي سبيل الوفاء بهذا أعطى الصك التالي نصه إلى الرهبان:

صك ملك إنكلترا

«**من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ، إلى جميع الذين سوف تصلهم هذه العروض، تحيات:** بما أن ممتلكات راعي دير ويستمنستر، وممتلكات رئيس الرهبان، مع ممتلكات المجمع الرهباني للمكان نفسه، منفصلة عن بعضها بعضاً، ورغبة منا بتزويدهم بالوقاية والهدوء، وبتزويد رئيس الرهبان المذكور مع الرهبان، بإسمنا نحن أنفسنا وبإسم ورثتنا، ومنحهم، أنه كما يحدث في الغالب، أن تصبح رعاية الدير شاغرة بسبب تخلي الرعاة أو استقالتهم أو وفاتهم، منحهم حرية إدارة ممتلكاتهم المنفصلة، مبقين لنا ولورثتنا، خلال وقت شغور ذلك الدير، العناية بالممتلكات العائدة للرعاة المتقدم ذكرهم، وشهادة على ماتقدم، إلخ، شهدتُ أنا نفسي في ويستمنستر، في العام السادس والثلاثين من حكمي».

وعملتُ هذه الوثيقة في دير القديس ادموند، حيث بقي الملك في وضع صحي سيء لقرابة ثلاثة أسابيع، مما سبب احراجاً كبيراً إلى ذلك الدير.

غضب الملك ضد راعي دير ويستمنستر

ثم إن الملك، خوفاً منه أن يسبب راعي ويستمنستر له سخط بلاط روما، بحكم أنه كان قسيس البابا، صار الآن واقفاً تماماً ضده، خاصة وأن راعي الدير المذكور قد ترافع بدعوى استئناف إلى البلاط المذكور، وكان هذا يعني توريط دير ويستمنستر بديون لايمكن سدادها، ولذلك كدس عليه الاهانات وإنهال عليه بالشتائم والاتهامات، التي كانت

بشكل واضح غير مدعومة بأية أرضية صحيحة، وكانت فقط صادرة عن الغضب، كما أنه أصدر إعلاناً، تولى نشره المنادون في جميع أرجاء مدينة لندن، قضى أنه لايجوز لأحد، بأي حال من الأحوال، تقديم أي مال إلى راعي دير ويستمنستر، ولا أن يبدي أية طاعة لمراسيمه وختمه، مما كان واضحاً أنه إهانة كبيرة إلى راعي الدير.

واعترت الدهشة إلى أقصى الحدود، جميع الذين سمعوا هذا الاعلان، وعجبوا كيف تحول راعي الدير من كونه أعظم أصدقاء الملك، فأصبح الآن هدفاً للكراهية والمقت، وفق الطريقة نفسها عندما تحدث الشاعر بلسان سيدة اشتكت من حبيبها:

كل نظرة على الآخر، بدت تسأل

بصمت: هل سافر حبنا وغادر؟

حول أخبار تتعلق بأحوال الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه بعض التقارير المتعلقة بأحوال الأرض المقدسة، إثر وصول الرسالة التالية، إلى راهب من طائفة الدومينيكان، كان اسمه وولتر أوف سينت مارتين، وكان قد نال من قبل شهرة كبيرة في الأرض المقدسة:

«إلى أخيه المحترم والمحبوب في المسيح وولتر أوف سينت مارتين، يرسل الراهب يوسف دي كانسي **Cancy**, الخازن المتواضع للدير المقدس للاسبتارية في القدس وعكا، التحيات (انظره في كتاب Additaments), وكان مجمل محتوى هذه الرسالة هو كما يلي: «إن الهدنة التي طلبت من الملك الفرنسي من قبل المصريين الذين ضغط عليهم بشدة من قبل سلطان حلب، لم يتم ابرامها بعد، كما لايبدو أنها معروضة وفق شروط مواتئمة، لأن المصريين قد ألقوا بمعيقات على الطريق، ومجدداً إن كامل المنطقة المحيطة بأنطاكية قد تعرضت للسلب

والنهب من قبل التركمان، وسكان تلك المدينة يفرون بحشود من خلال الخوف، ولهذا يقوم كثير من المسلمين، الآن بالتجول في المنطقة كما يريدون وفي أرجاء المناطق الخاضعة للصليبيين، ويجتاحون البلاد كلها بالنار والسيف، وقد اتخذوا مكان لجوء في موضع يدعى قيصرية الكبرى، وإن جميع هذه الشرور، قد تسبب بها سلطان حلب»، ولقد انتشرت هذه الأخبار في الخارج في بلدان ماوراء جبال الألب في الخريف.

أخبار أكثر قبولاً من الأرض المقدسة نفسها

وفي هذا العام أيضاً، قام بعض الرهبان من طائفة السسترشيان الذين كانوا عائدين من اجتماع الهيئة الرهبانية العام لطائفتهم، بنشر بعض التقارير الأكثر سروراً، حيث حصلوا على معلوماتهم من الكاردينال جون، الذي كان رجلاً انكليزياً، وكان يعرف بشكل عام باسم الكاردينال الأبيض، لأنه كان راهباً من طائفة السسترشيان، وكان قد أرسل رسالة إلى هيئته الرهبانية العامة، بوساطة راهب من الطائفة نفسها، كان فحواها هو كما يلي: «بما أن الكراهية والعداوة القائمة بين سلطان مصر وسلطان حلب ازدادت يومياً، وبناء عليه تولى الذين ظهروا بأنهم المقدمين والرجال الرئيسين بين المصريين، فأرسلوا رسالة مستعجلة وضاغطة إلى الرجل الذي كان إما هو سلطان مصر، أو بين يديه سلطات ذلك السلطان، وأعلنوا أنه بات من الضروري تماماً بالنسبة لهم إقامة سلام، أو ترتيب هدنة مع الملك الفرنسي، لأن جيشه ازداد بشكل كبير جداً، ولقد تضخم مثل جدول في الوادي عندما ذابت ثلوج الجبال، وقالوا له: إننا إذا لم نفعل ذلك، سوف نهاجم ونقهر، إما من الجهة الأولى من قبل سلطان حلب، أو من الجهة الثانية من قبل الصليبيين».

وبناء عليه جرى ترتيب المسائل، بناء على موافقة عامة، بعقد هدنة مرضية إلى كلا الفئتين، وهكذا تمت الموافقة على هدنة لمدة خمسة عشر

عـامــاً، وجـرى الاتفــاق في هذه الهدنة على وجــوب أن يصبح الملك الفـرنسي صــديقــاً لسلطان مصر، وحليفــاً ومستشــاراً أثناء تعــرضـه للاضطرابات، خـاصة ضـد سلطان حلب الذي كان يستهـدف تدميره، مبقيـاً إلى الملك الفـرنسي وإلى الذين هم رعيـة له من الصليبيين التقـدير والاحترام كله، وعـلاوة على ذلك ينبغي عليهم اقتسام كل شيء سـوف يربحونه من سلطان حلب، إذا مـادخلوا بحرب ناجحة ضـده، وكذلك مـاسوف يربحـونه من حربهم ضـد أي أعداء آخـرين لهم، وجميع أنواع الغنائم والأسلاب التي سيحصلون عليهـا، وأيضاً اسقاط أي مبلغ بقي وتوجب دفعه من أجل فدية الملك الفرنسي، وأن يحررونه منه تماماً.

وكـانت كمية المبـالغ المطلوبة لفـدية الملك المذكـور، تقريبـاً لايمكن تعدادها، وكـانت في الحقيقة عشرة أضعاف الذي اعتقد أنها كـانته، وقد أبقيت سرية، خشية أن يكون هناك يأس من دفعهـا، كما تمّ الاتفاق على أن كل الذي يمتلكه سلطان مصر في الأرض المقـدسة، تتوجـب إعادته إلى الملك الفـرنسي مـع العبيـد الصليبيين (لأن الأسرى الصليبيين هكذا جرى عدّهم من قبل آسريهم).

عدم ثقة الكثيرين بخصوص شروط الهدنة

عندمـا جـرى اقتراح هذه الشروط من أجل الهدنة أو السـلام، كـان هناك بعض الذين ترددوا في قبـولهم والموافقـة عليهم، بناء على تحريض من الشيطان، وشعـروا بسخـط عظيم في قلوبهم، قـائلين: «العلي الأعلى يمنع ملك فـرنسـا، أعظم الملوك وأكثـرهم نبـلاً على الأرض، وخليفـة شـارلمان الـذي لايقهـر، والذي مسح بالميرون السماوي، يمنعــه من أن يصبح مـرتزقـاً، أو رجـلاً مثل كلـب، لابل كلبـاً لاإنسـاني»، لكن هذا التجـديف كـان مجرد غمغمـة وهيــاج التجبر والتفـاخـر الفطري لدى الفرنسيين.

كيف وافق الملك الفرنسي على شروط الهدنة المعروضة

وكان الملك الفرنسي، مدركاً على كل حال، بأن أخويه الباقيين قد تخليا عنه، ولم يكن خافياً عليه أن نبلاءه الفرنسيين قد استخفوا به، ولذلك تواضع في روحه، وأعطى موافقته على الهدنة التي طلبت منه، ووافق أيضاً على الشروط المقترحة، وبناء عليه أزيح كل الغضب وجميع العداء بين الفئتين، ووضع جانباً، وتمت إعادة جميع مناطق مملكة القدس من على هذا الجانب من الأردن، التي كانت موضوعة تحت سلطة المصريين إلى الملك الفرنسي، من دون إعاقة، وذلك مع جميع الأسرى الصليبيين، الذين يطلق عليهم بشكل عام اسم عبيد، وجرى أيضاً عقد حلف منيع بموجب الموافقة العامة للفئتين، بأن عليهما مضايقة سلطان حلب بالنار والسيف، ومن دون رحمة، على أساس أنه عدوهما المشترك، والمضي بالعمل حتى تدميره، وأن عليهما أن يقتسما بالتساوي بينهما أية غنائم سوف يحصلون عليها، وبناء عليه قام هذان الأميران: ملك فرنسا من هذا الجانب، وسلطان مصر من الجانب الآخر، بشنّ الحرب على سلطان حلب، ومحاربته، وبمقاتلته من اتجاهين، بمثل ذلك النشاط، كان سلطان حلب، غير قادر تماماً على مقاومتهما، وكان جيش الملك الفرنسي قد ازداد الآن زيادة كبيرة جداً وتقوى بوساطة ملك قبرص مع آخرين كثر قدموا في الوقت المناسب إلى مساعدته، وهكذا حدث أنه بفضل الرب «الذي يقاوم المتجبر، لكن يظهر الحظوة نحو المتواضع»، أن تقدمت الحرب بين يدي الملك، وكنا قد جمعنا بعضاً من هذه المعلومات، إن لم يكن كلها، من الرسالة المختصرة التالية.

الرسالة المتعلقة بالهدنة المذكورة أعلاه

«إلى الأب المبجل في الرب، رتشارد أسقف شيستر، يرسل وليم الذي هو بالنعمة الربانية نفسها، القسيس الحقير لأورلين، تحياته مع جميل التبجيل والتشريف، وهو على استعداد لأن يفعل كل مايرضيه بحكم أنه

مـولاه وأباه: نقـدم إليكم فيما يلي باختصـار، وبشكل مكتـوب الأخبـار القادمة من بلاد ماوراء البحر، والتي هي كما يلي: عمل صاحب الجلالة ملك فرنسا الأعظم نبلاً هـدنة لمدة خمسة عشر عاماً مع المسلمين، وتمت إعـادة جميع مناطق مملكة القدس الموجـودة على هذا الجانب من الأردن إلى الملك، مع جميع الأسرى الصليبيين، الذين يعرفـون بشكل عام باسم العبيـد، كما جـرى إلغـاء رصيـد المبلغ المتبقي للمسلمين من فـديتـه من أسره، وكان مبلغ الفدية خمسين ألف مارك من الفضة.

حول الاجتماع بين الملك الفرنسي والسلطان

وحدث في أحد الأيام بعد تثبيت الهدنة المذكورة أعلاه، أن تمتع الملك الفرنسي وسلطان مصر باجتماع كـان منتظراً منذ وقت طويل، وعبر كل واحـد منهما، بوسـاطة مترجمين موثقين عن رغبـاتهما المتبادلة، وجعـلاها معـروفـة فيما بينهما، وجـاء ذلك عندمـا بدأ السلطان بهدوء وبمـلامح مشرقـة القول: «كيف أنت يامـولاي الملك»؟ وعلى ذلك رد الملك وهو حـزين وبمـلامح كئيبـة: «أنا حسـن ومـريض أيضـاً»، فسأله السلطان: «لماذا، ألاتعرف الجواب؟ حسناً ماهو سبـب حزنك»؟ وعلى هذا أجاب الملك: «إنني لم أحصل على الذي كان رغبتي الرئيسية، والتي من أجلها تركت أمي الحبيبـة، التي تبكي الآن بصـوت مـرتفـع من أجلي، ولقـد عرضـت نفسي أيضاً إلى مخاطر البحار والحرب»، وتسـاءل السلطان عما يمكن أن يكون الهدف الذي تشوق إليـه كثيراً وإلى هذه الدرجة، ثم إنه قـال: «ومالذي كـانته، أيها الملـك، رغبتك التي تشوقت إليهـا إلى هذه الدرجة»؟ فأجـابه الملك: «إنها نفسك التي ادعى الشيطان أنها عـائدة له حتى يلقي بها في قعـر جهنم، لكن أبداً، بعـون يسـوع المسيح، الذي يرغب بانقـاذ جميع الأرواح، سوف لن يتفـاخر الشيطان بالحصـول على مثل تلك الغنيمـة الكبيرة» وأضـاف قـائـلاً: «إن العلي الأعلى، الذي لايجهل شيئاً، يعرف لو أن العالم المرئي هو كله ملكي، إنني سوف أتخلى

عنه جميعه من أجل انقاذ الأرواح»، ثم قال السلطان: «وهل كانت هذه نيتك ياملكي الصالح في اقدامك على القيام بحجك الكبير؟ إن جميع الشرقيين يعتقدون أن ذلك كان صدوراً عن رغبة الشره والطمع في الاستيلاء على بلادنا والاستحواذ عليها، وأن ذلك لم يكن من أجل انقاذ النفوس، فكل الذي طمع به جميع صليبيوك وتشوقوا للانتصار علينا، في سبيل الاستحواذ على تملك هذه البلاد والتحكم بها»، وعلى هذا أجاب الملك: «إنني أدعو الرب القدير، ليكون شاهداً بأنني لم أهتم مطلقاً بالعودة إلى مملكتي في فرنسا، إذا ماتمكنت من نيل روحك وأرواح جميع بقية الكفار لصالح الرب، حتى يمكن أن يتمجدوا فيه»، وعندما سمع السلطان هذا قال: «إن هذا مانأمل به باتباع شرائع محمد صلى الله عليه وسلم، وبالحصول على التمتع بالسرور الأعظم في الحياة المقبلة»، وعلى هذا الكلام رد الملك الأعظم تقوى قائلاً: «أنا لايمكنني أن أعجب بما فيه الكفاية، كيف يمكن لأناس حكماء ووعاة مثلكم أن يؤمنوا بالدعي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي علم وسمح بكثير من الأعمال غير الطاهرة وغير الأمينة، لأنني قد رأيت قرآنكم وتفحصته، الذي هو غير طاهر مطلقاً وغير نقي، ذلك أنه بالنسبة لجميع الرجال الحكماء للأزمان الغابرة، لابل حتى بين الكفار، الاستقامة هي أعظم الأشياء الجيدة في هذه الحياة».

وعندما سمع السلطان بهذه الكلمات انهمرت الدموع من عينيه، فتبللت لحيته، ولم يقدم جواباً على هذه الاعتراضات، بل تأوه وتنهد بعمق، وتوقف عن الكلام، وبعد هذا الاجتماع الودي لم يعد يميل نحو أوهامه أو لم يعد مخلصاً لها كما كان من قبل.

وهكذا من الممكن أن نستخلص من الأقوال والأفعال المتقدمة الذكر، أنه توفرت هناك أرضيات جيدة لآمال قد انبعثت، بأن هذا السلطان نفسه سوف يتحول إلى الإيمان المسيحي، ويغدو مسيحي

الديانة، ولقد أعلن الملك الفرنسي بأنه سوف لن يعود إلى فرنسا، بل سيظل يقاتل في الأرض المقدسة بقية حياته لنيل أرواح المسلمين لصالح الرب، تاركاً مملكته لعناية أمه، وواثقاً بشجاعة الفرنسيين في حمايتها ضد هجمات جيرانها الأمراء، ونحن نترك هذا إلى المقادير الربانية(١).

موت ألفونسو ملك إسبانيا

حتى لايكون ازدهار هذا العالم صافياً بل ممزوجاً بالانتكاسات، فقد أصبح الملك الفرنسي الآن حزيناً جداً، لدى تلقيه أخباراً بأن ألفونسو، الملك المشهور لقشتالة، الذي لصفاته العالية أطلق عليه اسم ملك اسبانيا كلها، قد غادر طريق الجسد كله، وجاء ذلك بعدما جعل نفسه مشهوراً بأعماله، وبعدما نال انتصارات كبيرة على المسلمين في اسبانيا، الحديث عنها، ورواية أخبارها سوف يحتاج إلى رسالة خاصة، وكان ألفونسو المذكور قد وعد الملك لويس بأن يقدم إليه مساعدة سريعة وفعالة، وذلك بعدما أقنعته بذلك بلانشي، بوساطة الالتماسات الملحة والهدايا، وقد وعدها بذلك لأنه كان قريباً لها، وقد ترك وراءه أسرة نبيلة، وفرساناً مشهورين ووسيمين، وهم قد قاوموا المسلمين بشجاعة في تجبرهم وجرأتهم، وبمثابة تعويض من الرب وتسكين لأحزانه، منح الرب إلى الملك الفرنسي أولاداً نبلاء، ولدتهم له الملكة في الأرض المقدسة، وهم صبي وابنة، وكان قد تشوق كثيراً إلى الابنة ورغب بها كثيراً.

كيف أصيب ألفونسو أخو الملك الفرنسي بداء غير قابل للشفاء

وفي هذه الآونة أصيب ألفونسو، أخو الملك الفرنسي، بالشلل، مما سبب حزناً كبيراً لأخيه الملك، وكذلك لأمه، وأخذ يتلاشى ويسير نحو

---

(١)- واضح أن هذه حكاية دعائية مخترعة، لم يرد ذكرها في أي مصدر آخر، ولاسيما لدى جوانفيل الذي بقي بصحبة الملك لويس حتى عودته، وفائدتها في التدليل على العقلية الأوروبية، ولاسيما عقلية رجال اللاهوت، الذين كما يبدو اخترعوها وروجوا لها.

الموت، تحت هذا الداء غير القابل للشفاء، ولعله أصيب بانتقام رباني، لأنه عندما كان أخوه في وضع حرج جداً، لم يساعده حسبما كان قد وعده وأقسم أنه سيفعل ذلك.

حزن الملكة الفرنسية بلانشي

ولدى سماع الأعظم بين السيدات، الملكة الفرنسية بلانشي بهذه الأخبار، لم تستطع ضبط عواطف الأمومة لديها، بل نفست عن أحزانها بالآهات والتنهدات، وكأنها كانت قد أصيبت بجرح عميق، لأنها تذكرت أن أكبر أولادها وأعزهم لديها قد تعهد بالبقاء في الأرض المقدسة كل حياته، وتذكرت كيف أن روبرت كونت أرتوي، الذي كان ولداً آخر من أولادها قد مات ميتة شنيعة، وهاهو ولدها الثالث، ألفونسو، كونت أوف بواتو، ممدد الآن وهو مصاب بداء غير قابل للشفاء، وأخذت منذ ذلك الحين تتلاشى، مثل واحدة قد حرمت من أغلى الذين عطفت عليهم، وهكذا قهرها الأسى، وباتت تتوقع موتها في حال من التعاسة،ولم تستطع العودة إلى حال الشعور بالسعادة، ولم تعد قادرة على تقبل المواساة.

كيف عبر الراهب وليم من دير القديس إدموند الألب

وفي هذا العام أيضاً جرى إرسال وليم الراهب من دير القديس ادموند، ووليم الكاهن من كنيسة القديس ادوارد، إلى بلاط روما، الذي كان معقوداً آنذاك في بيروجيا، من أجل بعض الأعمال الضاغطة، المتعلقة بكنيسة القديس ميكائيل في كنغبيرن Kingsbern, وبعد إرسال الكاهن عائداً إلى الوطن، اختفى الراهب، وتعذر معرفة إلى أين قد ذهب، مع أن بحثاً دقيقاً جرى عنه في جميع البلدان من قبل ناظر دير القديس ألبان، وبعد مضي وقت طويل عاد أخيراً إلى الوطن مشوشاً وفي صحة سيئة، بعدما قام بترتيب أعماله بطريقة ما من الطرق،

وبعدما مضى على غيابه في حجه عـاماً وزيادة، وبعدما —أيضاً— ورط دير القـديس ألبـان بدين مقـداره ثلاثمائـة مارك، وبعـد وصـوله ذهب بشكل سري إلى المصحة، وبعـدما أقـام هناك لبضعة أيام، أبحـر، مخالفاً لأوامـر وأعـراف دير القـديس ألبـان، وذهب إلى دير القـديس جـايلز، وجرى ادخال رسائل مناظراته في كتاب Additaments.

كيف أرسل ملك إنكلترا الإيرل سيمون إلى غسكوني

وفي هذه الآونة، قـام ملك انكلترا، مقلداً لداود الذي بعث أوريا إلى وسط مخاطر الحرب، في سبيل أن يظهـر أن المعكـر للسـلام هو الواحـد القـادر على إعادة تـأسيس السلام، وعلى هذا قـال لسيمـون ايرل أوف ليستر: «ارجـع إلى غسكـوني، حتى تتمكـن، أنـت الخبير كثيراً بـالحرب والمغـرم بها، من أن تجد مـايكفي مـن الحروب هناك، واجلب معك من هناك جائزتك المستحقـة، كما فعل أبوك قديماً»، وربح الملك بهذا الكلام القصير قبـول الغسكونيين ورضـاهـم، وقـام الايرل وهو مسرور وغير هيـاب بالاجابة على الفـور حيث قال للملك: «سـوف أذهب إلى هناك برضـــاي، وأعتقـــد أنني لـن أعــود من هنـاك —وإن كنت غير ممتن وشاكـر— حتى أعيد هؤلاء العصـاة إلى طاعتك، وأجعل أعداءك تحت قـدميك»، وبناء عليه غـادر انكلترا على الفور، وحمل نفسـه إلى فرنسـا، التي كـان على عـلاقــة طيبـة معهـا، وتمكن هناك بمسـاعــدة أقـربائـه وأصدقـائه، على الفور من جمع جيش كبير وقـوي من المرتزقة، وبعـدما عبأهم وعــدهم، بأنهم ســوف يحصلون من الأســلاب والغنائم، على مكافـآت مــوائمـة وكـافيـة، وكـان أولئك الجنـود شرهين أكثـر منهم متعطشين إلى الدمـاء، وقـد تبعوه بحماس وجـرأة، وكـان الايرل نفسـه يتحرق رغبة للانتقام للنيل من سمعته.

وقـام الملك بالوقت نفسه إمـا بالتظاهر —أو أنه نسي— أنه قـد منح من قبل غسكوني مرتين إلى أخيه الايرل رتشارد، وأعطاه إياها بموجب

صكوك، فعزم على منحهــا إلى ولده ادوارد الأول ولادة، وجـاء ذلك بشكل رئيسي بناء على تحريض مـن زوجتـه الملكة واقنـاعهـا، وعندمـا توصل الايرل رتشـارد إلى معـرفـة هذه النيـة، غضب غضبـاً شـديداً وسخط، وسحب نفسه على الفور عقلياً وجسدياً من بلاط الملك، وتخلى من صميم قلبه عن تقلبات هذا البلاط وعدم استقراره.

كيف أعطيت غسكوني إلى إدوارد الابن البكر للملك

ثم أمر الملك، بموجب مـرسوم ملكي، جميع الغسكونيين الذين كانوا مقيمين في لندن: رئيس أسـاقفـة بوردو والآخريـن الذين قدمـوا معـه، بوجوب الاجتماع على الفـور، وعندما أعلن، وبيّـن بشكل عـام بأنه قد أعطى غسكوني إلى ادوارد، ولده البكر، وذكـر بأن أخاه الايرل رتشـارد لم يحرص على تملك غسكـوني، لابل في الحقيقـــة هو لم يرغـب قط في رؤيتها، لأن تلك العاصفة في البحر قد ضايقته بما فيه الكفاية، وأفرغت غسكوني، في كثير من الأحيان حافظة نقـوده، وكانت هذه الخطة مقبولة كثيراً من قبل الغسكـونيين، وقــدم الذيـن كــانوا هناك جميعـــاً الولاء وأقسموا على الاخـلاص إلى ادوارد الأمير الشاب، الذي تولى، بناء على ذلك تقـديم بعض الهدايا الجميلة والثمينة إليهم، من الذهب، والفضـة، والأطواق، والأحـزمـة، والملابس الحريريـة، ووعـدهـم بهدايا أعظم، واحتفظ الملك —على كـل حـال— لنفســه، بالسيــادة الرئيسيــة، أي بولائهم، ثم إنهم شـاركـوا جميعــاً باحتفـال كبير، وعبروا عن مشـاعـر سرورهم وتفاخرهم، ولم يختف التهديد خلال أحاديثهم، من أن الايرل سيمـون، الذي تصور آمـالاً، بأن نهر الأردن كله سوف يصب في فمـه، سـوف يجري إمــا تقطيعـه إلى قطع، أو أنه ســوف يطرد إلى المنفى من بلاده، ثم ركب الغسكونيون سفينة، وتمكنوا بأشرعة منشورة من العودة ثانية إلى بلادهم، ولدى وصولهم إلى هناك، وقبل أن يتعافوا من متاعب رحلتهم، وقبل أن يجدوا الوقت للإعلان عما حـدث في انكلترا، وجدوا

الايرل سيمـون، الذي تردد ذكره كثيراً من قبـل، قد تحصن ضـدهم مع جيش كبير، كـان جيد التسليح والتجهيـز، وقـاموا —على كل حـال— بدعـوة كثيرين من أعـداء الايرل وحشـدوهم، وبعثـوا الحماسـة في نفوسهم، بإخبـارهم بأنه قد بات لديهم سيداً جديداً، كـان الآن مستعداً لإبطال مفعـول قـرني الايرل رتشـارد وكسرهما، فحشـدوا جيشـاً كبيراً وقوياً، اعتقدوا أنه سيكون قادراً على سحق الايرل المذكور، وبدأوا على الفور بالأعمال العدوانية ضده، ولأنهم كانوا محترسين، وصلوا إلى كمين كـان الايرل سيمـون قـد نصبـه في مـوضـع حتى يتمكن منه من أخـذ الغسكونيين على حين غرة، وبعـد معركة دمـوية أسروا فارساً شجـاعاً، كـان الايرل سيمـون قد عهـد إليـه بقيـادة ذلك الكمين، وحملوه معهم أسيراً، وبعـدما فـرقوا بقيـة تلك الكتلة، عبّـروا عن بهجتهم بصرخـات النصر.

حول المعركة الدموية بين الغسكونيين والإيرل سيمون

ولم يكن الايرل معسكراً على بعـد كبير عـن المكان الذي وقعت فيـه الحوادث الأخيرة، وكان متوقعاً مواجهـة أعدائه على حد السيف، وكان يأمل كما كان قـد خطط بشكل سري، بأن يتمكن الجنود الذين وضعهم في الكمين من الانقضـاض عليهم من اتجاه آخـر، وكـان ينتظر وصـول بعض الشـارات التي تخبره ببداية القتـال، ووقتها وصل إليه واحـد من الفارين من القتال الأخير، وكان يمتطي على فرس سريع، وقد قدم إليه ليخبره بالذي حـدث، وكـان مجروحاً ملطخـاً بالدم، ومشـوهاً ويتنفس بصعوبة، فأخبره بالذي وقع، وأضاف بأن قائدهم الفارس الشجاع، قد حمل أسيراً، ولدى سماع الايرل بهذا، بدا مندهشاً، ومثل واحد أفاق من نوم عميق سأل: «نحن تـأخـرنا كثيراً، هل العـدو بعيـد عنـا»؟ فأجـابه الفار: «لا، إن الأعـداء قريبين جـداً، وهـم يتقدمـون مسرعين للاشتباك بالقتال معكم على الفور، وهـم أيضـاً مسرورين، ويتمتعون بروح عالية،

لأنهم واجهوا النجاح في المعركـة، وسببوا لنا الاضطراب وأرغمونا على الفرار»، وما كاد الرجل ينهي كلامـه حتى ساق الايرل مسرعاً، متشوقاً لانقاذ الفـارس، الذي تقدم الحديث عنه أعلاه، وبصعوبة انتظر أتبـاعه، وأخـذ الرسول معـه ليكون دليله، ولم يوفر جنبي فـرسه، وطار مسرعـاً مثل صاعقة نحو الأعداء، وعلى الفور جاء إلى مواجهتهم، وشرب سيفه اللامع من دمـاء عدد كبير منهم، وبقوة تمكن مـن انقاذ الأسرى، وقطع أغـلالهم وحطم قيودهم، وحيث أنهم كـانوا متشوقين للقتـال، وبعدمـا وجدوا أنفسهم قـد أنقذوا، انقضوا حـانقين على العدو، ثم أعقب ذلك صراع دمـــوي ومشكوك بنتـــائجـــه، وكـــان الغسكونيـــون واثقين من أعدادهم، فـاندفعوا منقضين كتلة واحدة على الايرل، الذي تشـوقوا إلى أسره أو قتله قبل سواه، وهكذا صار ثقل المعركة كله واقعاً عليه، وتابع العـدو بإلقاء رجـاله عليـه بجدة وبشكل جماعي، وقـد ألقي به من على حصـانه، وبات في خطر عظيم بأن يفقـد حياتـه، ووقتها رآه واحـد من الفرسـان، كان قـد أنقذه قبل وقت قصير، ولدى مشـاهدة هذا الفارس ماأحاق به من خطر، صرخ بصوت مرتفع: «أيها الايرل الشجاع كثيراً، إن من العـدل والواجب عليّ إنقاذ الـذي حفظني»، وتمكن بقوة جبـارة من خرق صفـوف الأعداء الكثيفـة، وبعدما تمكـن من إعادة الايرل إلى ظهر حصـانه، أصاب بشكل قاتل بعـض الذين تصدوا له، أو ألقى بهم إلى الأرض حتى يواجهوا الموت، واستمرت المعركة حتى قرابة منتصف النهـار، عندمـا أخيراً انهزم الغسكونيين، وأرغموا على الفـرار، وجـرى أسر العـــديد منهم، وتمّ في هذه المعـــركـــة أسر خمســة من أعلى نبـــلاء الغسكونيين مكـانة، كـــان مـن بينهم روستين Rustein, الذي جرى تقـديمه إلى الملك، وحصل الايرل في ذلـك اليوم على نصر رائع، ولم يواجه قـط النجاة بصعوبة مـن المخاطر كما حدث لـه الآن، ولم يعد أعداؤه الآن يتجرأون على الشكوى ضده.

حول الاجتياح المخيف الذي عمله الأجانب في إنكلترا

خلال تلك الآونة، وعن طريق عدة أشكال من خدع الشيطان، بات شعب انكلترا بشكل عام من بارونات، وفرسان، ومواطنين، وتجار، وعمال، وبشكل خاص الرهبان، يعملون في ظل وباء جارف بعدواه، لأن ذوي المراتب العليا من الأجانب، فرضوا على الطبقات الدنيا كثيراً من الخدمات الشاقة، وآذوهم بوساطة كثير من السرقات والأضرار، إلى حد أن جميع الشعوب المقيمة في انكلترا ظهرت في أدنى الأحوال، ففي المقام الأول جرى الاستيلاء على بيوت التجار، وفي مقام آخر تمّ الاستيلاء على عرباتهم، وعلى ممتلكاتهم الصغيرة، وتمت مصادرتها بالقوة، وما من شيء ترك لهم غير عرضة للخطر، وذلك باستثناء الريبة والسخرية، ولدى مشاهدة هذه الإجراءات، قال بعض الأكثر نبالة من الانكليز، الذين أستحي من ذكر أسمائهم، قالوا في حالة تجبر، وأصحبوا الذي قالوه بالأيمان: «هناك الآن كثير من الملوك والطغاة في انكلترا، ونحن علينا أن نكون ملوكاً وطغاة مثل الآخرين»، وهكذا صاروا أسوأ من البقية، وكان إذا ماتعرض إنسان إلى الأذى الشديد، وتقدم بشكوى أمام البواتيين الذين انقلبت رؤوسهم وتحولت بوساطة الثروات الواسعة والممتلكات، وطالب بتقديم العدالة إليه، وفقاً لقانون البلاد، كانوا يجيبونه: «نحن لانقيم وزناً لقانون البلاد، بل لما هو قانوني وعرفي بالنسبة لنا»، وهكذا بات السكان المحليين للبلاد، خاصة الرهبان مثل الوسخ في أعين الأجانب، الذين لم يخجل بعض الانكليز من اتباع خطواتهم، ففي إحدى المناسبات، كان الراهب متى باريس، كاتب هذا الكتاب، وروجر دي ثيركباي Thurkeby, الذي كان فارساً ورجل ثقافة، يتناولان الطعام معاً على مائدة واحدة، وقتها قام الراهب متى بذكر المظالم المتقدمة الذكر، فبادر الفارس المسمى أعلاه مجيباً له بشكل

جاد قائلاً: «سوف يأتي الوقت أيها الرهبان، لابل في الحقيقة قد جاء، عندما سيعتقد كل واحد يتولى ظلمكم بأنه يؤدي خدمة إلى الرب، وأنا أعتقد أن هذه الأضرار والمظالم لن تتأخر كثيراً عن تدميركم كلياً»، وعندما سمع متى المذكور هذا الكلام، أعاد إلى ذاكرته القول بأنه «في الأيام الأخيرة للدنيا، سوف يكون هناك أناس يحبون أنفسهم، وليس لديهم أدنى تقدير لمنافع جيرانهم».

حول الحر والجفاف خلال هذا الصيف

كان هناك خلال أشهر نيسان، وأيار، وحزيران، وتموز من هذا العام، حراوة لاتحتمل وجفاف عام، استمر طوال ذلك الوقت من دون سقوط للمطر، أو للندى، لإنعاش الأرض، ونتيجة لذلك فإن الأغصان المورقة على الأشجار، التي وعدت بكميات وافرة من الفواكه، ذبلت وتساقطت، وتجردت الحقول من أعشابها، وذبلت أوراق النباتات، ولم تقدم المراعي الطعام إلى القطعان الجائعة، وأصبحت الأرض قاسية، وتشققت وتفتت، وبسبب الحاجة إلى الرطوبة لم تعد قادرة على تغذية القمح، وتطايرت الحشرات مع أزيز أصواتها، أما الطيور فخفضت أجنحتها وفتحت أفواهها، وتوقفت عن التغريد الممتع، وبشر التعرق المحرق الصادر بسبب هذه الأنواء بني البشر وتوعدهم بأمراض شديدة، وبحميات قاسية خلال خريف هذا العام.

حول رسائل إصلاح صدرت عن البابا

وفي هذه الآونة قدّم البابا تنازلاً إلى الذين شغلوا مناصب لاهوتية رفيعة، والذين تعرضوا للظلم إلى أبعد الحدود، خاصة في مناطق ماوراء الألب: «بأن على الذين يعود إليهم أمر الانتخاب أن يضعوا الرب أمام أعينهم، وأن يتولوا بشكل صحيح توزيع هذه المناصب»، وجرى تقديم الرسائل حول هذه القضية في كتاب Additaments.

حول الاحتفال في دير وولندن بنوع من المبارزات دعيت باسم المائدة المستديرة

وفي هذا العـام قـرر فـرسـان انكلترا بالاجماع، من أجل البرهنة على براعتهم وعلى ممارستهـم لأعمال الفـروسيـة الشجاعـة، ولكي يجربوا قواهم، التباري حـول مايعرف بشكل عام باسـم المبارزات، بل التباري بنوع الفروسية الذي أطلق عليه اسم «المائـدة المستديرة»، ففي ثمانية عيد ميلاد العـذراء المباركة، احتشدوا بناء عليـه بأعداد كبيرة في دير وولندن Wallenden وتقـاطروا مع بعضهم مـن الشمال ومن الجنوب، وكـذلك من القـارة، وتبعـاً لأحكام هـذه الرياضـة التي تشبـه الأعمال القتالية جرى في ذلك اليوم وفي اليـوم الذي تلاه أن قام بعض الفرسان الانكليـز بعرض أنفسهم مع بـراعة عظيمـة وشجـاعة مما بعث البهجـة والاعجاب لدى جميع الأجـانب الذين كانوا حـاضرين هناك، وفي اليوم الرابع التـالي، دخل فـارسان مشهـوران بالشجـاعـة العظيمـة في قائمـة المتبـارين وهما أرنولد دي مـونتني Montigny, وروجـــر دي ليمبيرن Lemburn, وجاءا إلى التباري وهما مسلحان تماماً وفق طرائق الفـرسـان، وكـانا يمتطيان على فـرسين مختـارين ورشيقين، وقـد اندفعا ليتصـدى أحدهما للآخـر برماحهما، وسـدد روجر سـلاحه الذي كان سنـانه مشحوذاً، مع أنه توجب أن يكون غير ذلك، ولذلك خـرق تحت خـوذة أرنولد، ونفـذ في حلقومـه، وقطع قصبتـه وشرايينه، لأنه لم يتول تغطية ذلك الجزء من جسمه، وكـان من دون ياقة، وبعدما أصيب هكذا بشكل قاتل، وقع أرضاً من على ظهـر حصانه، ومات على الفور، مما سبب حـزناً عظيماً، كما حكي عن روجـر، وكان أرنولد هذا، واحـداً من أبرع الفرسان في استخدام السلاح، ولم يترك بعده نظيراً له، ولاحتى أي واحد يعـدّ ثانياً له في ذلك المجـال، وانبعث حزن كبير ونواح وبكاء بين الفـرسـان الذين كـانوا مـوجودين هنـاك، وهكذا فإن أولئك الذين

قـدمـوا إلى هناك فـرحين مسرورين تفـرقـوا فجأة وسط حـزن وبكاء، وجـرى دفن جسـده في جـوار دير وولندن، وسـط كثير من الحزن والأسف، أمام النبلاء الذين كانوا هناك قبل أن يغادروا، وما من فارس بكى لموت المتوفى بقدر الذي تسبب بوفاته، أي روجر المتقدم ذكره، وقد نذر على الفـور أن يحمل الصليب وأن يقـوم بـالحج لتحـرير نفسـه من أرنولد، وحسبما ظهـر واضحاً أنه قتل أرنولد المذكـور دون قصد، لابل حتى دون أن يعـرف بأنه قتل أرنـولد دي مـونتي المتقـدم ذكـره، لهذا لم يتهم لذلك، ولم يوجـه إليـه اللوم، وكـان بين ذلك التجمع الفـرسـاني الكثير من نبـلاء انكلترا وسـواهم، وكـان من بين هؤلاء ايرل غلوستر، الذي حـاول لدى إصابة الفـارس المذكـور أرنولد وجرحـه أن يسحب بقيـة الرمح من رقبة الرجل المجـروح، وعندما نجح في سحب القطعـة الخشبيـة بقي السنان الحديدي في الجرح، وبعـد قطع العنق وانتـزاعـه، وفحصـه من قبل الفرسـان الذين كـانوا مـوجودين هناك، وجـدوا هذا السنان حـاداً في رأسـه مثل مـدية، مـع أنه توجب أن يكون كليـلاً غير مشحـوذ، وأن يكون عـريضـاً بقـدر سكين صغير، وقـد بدا شكل هذا السنان مثل سكة المحـراث لكن على مستـوى صغير، ولذلك كـان هذا النوع يعـرف باسم المحـراث الصغير، وفي الفـرنسيـة Soket, ولقـوة هذه البينات، بات روجـر دي ليمبيرن الذي تقـدم ذكـره هدفـاً للشك، مع أنه أعلن عن نفسه أنه كـان بريئاً، وجرت ملامتـه بحدة بأنه اقترف غدراً جـريمة قتل، خـاصة وأن أرنولد المذكـور، قد سلف له في مبـارزة مـاضيـة أن كسر رجل روجـر دي ليمبيرن هذا، لكن الرب هو وحده الذي يعلم حقيقة هذا الأمـر، فهو وحده يبحث في أسرار قلوب الناس:

متشوق للشهرة، بناء على صرخة الشرف الدنيوي

وهكذا جرت هزيمة أناس، وهكذا مات المهزوم.

كيف ذهب الملك إلى سينت ألبان وقدم كثيراً من الهدايا

وخلال هذا العام، وعشية عيد القديس بارثلميو، ذهب الملك إلى سينت ألبان، وتوجه على الفور إلى المذبح الكبير، حيث قام بعد صلاته، وحسبما كانت عادته، بتقديم منحة إلى الشهيد، وكان ذلك عبارة عن طيلسان أنيق وثمين، وعقدين، وخاتمين ذهبيين، واثني عشر طالن، أمر بأن يجري تكريسهم بشكل خاص لتزيين الأضرحة، وفي اليوم نفسه، قام ابنه البكر ادوارد بتقديم طيلسان عند المذبح نفسه، وقدم طيلساناً آخر، وعقدين عند مذبح القديس أمفيبالوس Amphibalus, وهؤلاء جميعاً كان الملك قد أمر بشرائهم، مع هدايا أخرى ثمينة، وأمر بتغطية الضريح بزينة شريت مع المشتريات المتقدمة، ولقد أقام لمدة خمسة أيام في سينت ألبان، كما كان قد فعل من قبل في عيد الفصح، في السنة التي تلت حصار بدفورد Bedford.

وفاة وليم أوف هافرهل

وفي اليوم نفسه، الذي وصل فيه الملك إلى سينت ألبان، حسبما ذكرنا أعلاه، أي عشية عيد القديس بارثلميو، مات وقتها في لندن وليم أوف هافرهل Haverhull, وكان لاهوتياً في كنيسة القديس بولص، وخازناً للملك، وكان قد أمضى كثيراً من سنوات حياته مخلصاً في خدمة الملك المذكور، وكان من المعتقد بأن الملك سوف يضع جون الفرنسي في موضع وليم وفي وظيفته، لكن انتشرت تقارير، أفادت بأن جون المذكور قد توفي في منطقة نائية من شمالي انكلترا، إلى حيث ذهب للشكوى ضد أحد الرهبان، وبناء عليه عيّن الملك، خازناً لنفسه، في مكان وليم المذكور، فيليب لوفل، وكان محاسباً، ورجلاً فصيحاً وحكيماً ومن أصل نبيل، وجرى هذا التعيين في سينت ألبان، بناء على ترشيح وتحبيذ من جون مانسيل، الذي كان صديقاً خاصاً لفيليب.

- ٨٠٨٠ -

النقش على ضريح وليم أوف هافرهل

هنا يرقد وليم الخازن الأعلى للملك
ولن يلد النحيب على هافرهل مطلقاً
واحداً مثله. فعندما كان على الأرض
هي التي زودته وهي أيضاً كانت قادرة
على تزويده بخمرة ثمينة وبأطعمة لمائدته
لكن الآن مملكة المسيح هي جائزته السماوية

حول مرض مميت بين الماشية

خلال هذا العام، وبعد صيف حار كثيراً، ومع اقتراب الخريف، انتشر طاعون مميت مثله لم يشاهد من قبل، ولايتذكره إنسان، وجاء انتشاره بين المواشي في كثير من أجزاء انكلترا، إنما بشكل خاص في نورفولك Norfolk, وفي السباخ، وكذلك في المناطق الجنوبية، وكان من الملامح المثيرة لهذا الطاعون، هو أن الكلاب والغربان التي تغذت من أجساد المواشي التي ماتت بسبب هذا الوباء كانت تصاب بالعدوى على الفور، وتتورم، وتموت حيث هي، ولذلك لم يتجرأ أي إنسان على الأكل من لحوم المواشي خشية أن تكون عائدة إلى الحيوانات التي ماتت بذلك المرض، وكان من بين الوقائع المدهشة التي لوحظت بين الماشية هو أن الأبقار والثيران البالغة رضعت من أثداء الأبقار الأكبر سناً مثل العجول الصغيرة، ولوحظت واقعة مدهشة أخرى، هي أنه في هذا الوقت من العام، الذي تنتج فيه الطبيعة كما اعتادت الأجاص والتفاح، أزهرت الأشجار، حسبما اعتادت أن تفعل في نيسان، وكان سبب هذا الموتان بين الماشية، وظهور الأزهار، مع الشهوانية غير الاعتيادية بين الماشية، قد تأصل وصدر عن الحر

والجفاف، الأمر الذي أتينا على ذكره من قبل، لأن ما كان مدهشاً ومثيراً للعجب، هو أن الأعشاب، حتى في المروج، قد اهترأت وجفت وباتت قاسية خلال أشهر: أيار، وحزيران، وتموز، ومع الاعتدال الفصلي، تساقطت كميات وافرة من الأمطار، وغطت الرطوبة وجه الأرض، التي شربت مياه الأمطار وابتلعتها في شقوقها ومسامها المفتوحة، وأصبحت غنية بالانتاج وتقديم المنافع، وقدمت الخضراوات الخصبة بشكل غير اعتيادي، وأقل من المواسم المعتادة، والتهمت القطعان الجائعة وشبه الميتة هذه الأعشاب التي كانت مشتاقة إليها، وأصبحت فجأة مليئة بالشحوم، وبذلك صارت أجسادها غير صالحة للأكل، وصدرت عنها أعمالاً مضحكة غير عادية تماماً، وأخيراً أصيبت بالجنون، وتصرفت وفق طرائق مدهشة غير اعتيادية، إلى أن أصيبت أخيراً بالمرض، فسقطت المواشي موتى، وانتقلت العدوى منهم، بسبب خبث المرض، وبذلك أثرت بالآخرين أيضاً، ومن الممكن استخلاص سبب مماثل من أجل إزهار الأشجار في غير موسمها.

حول تكريس كنيسة إيلاي

في السابع عشر من أيلول لهذا العام، الذي كان يوم عيد القديس لامبرت، جرى تكريس الكاتدرائية الفخمة لإيلاي وسط احتفال فخم وأبهة كبيرة، وجرى بناء الجزء المشيخي من هذه الكنيسة إلى جانب برج جميل، وروائع الأعمال وكبير النفقات، كله بالكامل وتماماً على النفقة الفردية لهوغ، أسقف ذلك المكان، والذي كان مشرفاً خاصاً على ذلك كله، وله مكانته وصلاحه، وبنى هذا الأسقف نفسه في ساحة إيلاي قصراً ملكياً جميلاً، مع غرف وأبنية أخرى موائمة، فيها شارك الذين حضروا التكريس بمتع الاحتفال وبموائده، وذلك حسبما سنحكي في الرواية التالية، وتولى القيام بطقوس التكريس أسقف إيلاي، وهي التي كانت هدفه ورغبته المخلصة منذ زمن طويل مضى، وساعده كل من

أسقفي نورويك وللانداف، وكان موجوداً هناك أثناء الاحتفال الملك نفسه، وعدد كبير جداً من نبلاء المملكة، وذلك بالاضافة إلى عدد لايحصى من الأساقفة ورجال الدين، وجرى منح غفران لعدة أيام إلى جميع الذين جاءوا للمشاركة في الاحتفال، وإلى الذين كان من الممكن أن يأتوا فيها بعد، وبعد مراعاة صحيحة وموائمة للاحتفالات الروحية، وجهوا تفكيرهم نحو احتفال أجسادهم، وامتلأت مساكن الرهبان، وكذلك مساكن الأساقفة والذين يعيشون في البلدة بالضيوف، ومع ذلك أبدى الأسقف حزنه للعدد الصغير من الضيوف الذين تجمعوا، وأعلن أن الضيافات التي اقترحها لنفسه كانت على معيار أكبر، وقد نقصت عن حجمها الصحيح، ومع ذلك فرح في قرارة نفسه، وشعر ببهجة عظيمة، لأنه تمكن بنعمة الرب من البقاء إلى ذلك اليوم، الذي استطاع فيه بسرور تنفيذ جميع الذي نواه ورتب له، وبناء عليه إن بهجة ذلك الأسقف العجوز وسروره وسعادته يمكن أن تردد قول سمعان المبجل: «الآن أخيراً أنا خادمك» إلخ، إلخ.

وفاة مرغريت الكونتسة الكبيرة لـ دي لآيل

وفي الثاني من تشرين الأول لهذا العام، ماتت السيدة النبيلة والرفيعة النسب مرغريت كونتسة دي لآيل Lisle, التي كانت ألقابها الأنهار، والتي كانت من قبل زوجة ذلك الخائن الدموي فولكس Faulkes, فهي كانت قد تزوجت منه ضد إرادتها، وكان هذا الزواج واحداً من أعمال الارغام (كانت قد أعطيت إلى فولكس بموجب طغيان جون الذي لم يتورع عن اقتراف أية جريمة شريرة) حيث أكرهت النبالة على الاتحاد بالدناءة، والتقوى مع عدم التقوى، والجمال مع انعدام الشرف، وحول هذا الاتحاد كتب واحد من الكتّاب يقول محقاً:

القانون جعلهما واحداً، وكذلك الحب وطقوس القران

فأي قانون، وأي حب، وأي رابط ربط مابين مثل هذين الاثنين؟
وبدلاً عن قانون، اقرأ: لاقانون، وعن حب، اقرأ: كراهية
وعدم الوئام هو وئام مصير هذين المحبين.

وسوف تبقى الذكرى الطيبة لهذه السيدة النبيلة جديرة بالذكر من قبلي، بسبب الواقعة التالية: عندما كانت في إحدى الليالي متمددة نائمة مع زوجها فولكس، رأى الأخير رؤيا، فيها ظهر له بأن حجرة ذات حجم مدهش سقطت مثل صاعقة عليه من برج كنيسة القديس ألبان وسحقته وحولته إلى رماد، وأفاق من نومه، وقفز من فراشه وهو مصاب بالدهشة والرعب، وعندما رأته زوجته يرتجف، وكأنه قد تلبسه جنون قالت له: «ماالخطب يامولاي؟ ماالذي أزعجك»؟، وعلى ذلك أجاب: «لقد تعرضت إلى كثير من المخاطر لكن لم أضطرب قط مثلما حدث معي في المنام الذي رأيته»، وقص عليها تفاصيل منامه، فقالت له زوجته:

«لقد أزعجت مؤخراً القديس ألبان وأغضبته بشكل جدي، بتلويث كنيسته بالدم، وبنهب بلدته وتجريدها من بضائعها، والحاق الأضرار بالدير والرهبان بكثير من الطرق المضاعفة، وبناء عليه انهض وأسرع، وبادر على الفور إلى هناك، حتى قبل بزوغ الفجر، وتواضع بنفسك وتصالح مع ذلك الشهيد، وليكن ذلك على الفور سريعاً بقدر الامكان، خشية أن يحل بك انتقام يسحقك»، وبناء عليه ذهب فولكس في الصباح الباكر إلى سينت ألبان (لأنه كان قد أمضى الليل في ليوتون , Luiton) واستدعى راعي الدير إلى حضرته، وقام وهو جاث على ركبتيه، ويديه مقبوضتين، ودموعه منهمرة بمخاطبته قائلاً: «كن رحيماً بي يامولاي، لقد أذنبت بشكل جدي إلى الرب، وإلى شهيده القديس ألبان، وإليك، لكن كن رحيماً بي أنا المذنب، وبإذن منك سوف

أتحدث الآن إلى أعضـــاء المجمع الـرهبـاني، وأطلـب المســامحة منهم بحضـورك، عن الذنوب التي اقترفتهـا»، ووافق راعي الدير على طلبـه، وأعجب بالذئب الذي جـاء متلطفـاً ومتـواضعـاً مثل شـاة، وبناء عليـه جـرى تجريد فـولكس من ثيـابه، وحمل بيـده عصـا تعـرف عـادة باسم Baleis, ودخل على مجمع الهيئة الرهبانيـة، يتبعه خدمـه، ورجال مسلحين، كانوا مثله مجردين من مـلابسهم، وبعدمـا اعترف بذنبه الذي اقترفه أثناء الحرب، وتلقى لصالحه عقـوبات على جسده العاري من كل واحـد من الرهبان، وبعـدمـا ارتدى ملابسـه مضى وجلس إلى جـانب راعي الدير، وقـال له بصـوت مـرتفع: « إنها زوجتي هي التي جعلتني أتصرف هكذا، بسبب منام قد شاهدته، ولكن إذا ماطالبت بإعادة الذي أخـذته منكم، إنني لن أستجيـب لطلبكم»، ولدى فـراغـه من هذا قـام بالمغـادرة، ورأى —على كل حـال— راعي الدير والرهبـان أنها منفعـة عظيمـة إذا مـاأقلع منذ ذلك الحين وتوقف عن إيـذائهم، لأنه في ذلك الوقت، عُـدّ كل من لم يكن سيئاً تماماً، جيـداً، وذلك حسبما قرأنا قـول استاروث Astaroth: «عندما يتوقف رجل ظالم عن الأذى يعدّ نافعـاً»، وكذلك وفقـاً لقـول الرسول: «الزوج الكافـر يجري حفظه من قبل الزوجة المخلصة».

حول البارلمان الكبير الذي عقد في لندن

ومع اقتراب حلول عيـد القـديس ادوارد (الذي اعتـاد الملك على الاحتفـال به مع رفقة كبيرة واكـرام كبير) اجتمع تقـريبـاً جميع أساقفـة انكلترا، حيث جرت دعوتهم للاجتماع بموجب مـذكرة ملكية، وكان في الحقيقة جميع الأسـاقفة موجـودين هناك، باستثناء: أسقف شيستر، الذي كان مريضاً صحياً، ورئيس أسـاقفة كانتربري وأسقف هيرفورد، اللذان كانا آنذاك في القـارة، ورئيس أساقفة يـورك، الذي كان غائبـاً لسبب ما غير معروف لنا، مالم يكن موجوداً آنذاك يعيش في منطقة نائية.

وعندما اجتمعوا كلهم، ذكرهم الملك ولفت انتباههم إلى الولاية البابوية، التي كانت هدفاً للكراهية والازدراء من قبل جميع الذين حرصوا على رفع شأن المملكة مع مصالحها، وكانت مقاصد الولاية البابوية، أن البابا بموجب فضيلة السلطة الممنوحة له من الرب، قد أعطى لمدة ثلاثة أعوام، جميع عشور المملكة، أي أن تقول موارد الكنيسة الانكليزية كلها، لتأمين الضروريات من أجل حج الملك، مضيفاً العبارات العظيمة العدوانية التالية: «ليس حسب الإحصاء الماضي للكنائس، بل حسب تقدير جديد، يتم عمله إثر تدقيق وبحث شامل، وذلك وفقاً لإرادة وقضاء الوكلاء الملكيين واستخراجاتهم، وكان هؤلاء بدهائهم الكبير في المقام الأول يعملون في سبيل منافعهم وبعد ذلك من أجل منافع الملك، ملحقين بذلك ضرراً لايقاس بالكنيسة، ومنزلين إياها إلى درجة العبودية الدائمة.

وتقدم وكلاء الملك ورسله، مع حجج ماكرة، باقتراح إلى الأساقفة المجتمعين، بأن عليهم الموافقة على هذه المساهمة الكبيرة، وبمكر يشبه مكر الثعلب سألوا بأن يجري دفع المال لمدة عامين وفقاً لولاية البابا، وأن المال من أجل السنة الثالثة —مع أنه لم يرد ذكره في الولاية البابوية— يتوجب تجهيزه قبل أن يبدأ الملك بحجه، وبناء عليه فإن جميع مبلغ المال الذي سوف يجري جمعه وفقاً للطريقة المذكورة أعلاه، أو نصفه على الأقل، ينبغي منحه حراً ودونما شرط إليه، عندما سيكون على وشك الشروع بحجه، لأنه —كما قالوا— سوف ينطلق على الفور برحلته، ولدى سماع هذا الاقتراح، اعترت الدهشة أسقف لنكولن الذي كان بين الآخرين، وعجب من مثل هذا الكلام المسموم، والذي قصد منه الإطاحة بالكنيسة، فأجاب بغضب شديد: «باسم مولاتنا، ماهذا؟، أنتم تتصرفون على أساس امتياز، هو لم يمنح إليكم، فهل تفترضون أننا سنوافق على هذا الاسهام الملعون؟ لاسمح الرب بأن

نقوم بالجثي على ركبنا أمام بعل»، وإثر هذه الإجابة، قال الأسقف المنتخب لوينكستر: «ياأبانا كيف سنكون قادرين على معارضة إرادة البابا والملك؟ فالأول يقوم بدفعنا، ويقوم الثاني بجذبنا، وفي حالة مماثلة وافق الفرنسيون على مساهمة مماثلة، لمساعدة ملكهم، عندما كان على وشك القيام بحجه، وهم أكثر قوة مما نحن عليه، وبالعادة ميالين أكثر للمقاومة، أما بالنسبة لنا، ماهي وسائل المقاومة التي نمتلكها»؟ وعلى هذا أجاب أسقف لنكولن قائلاً: «إنه للسبب نفسه الذي من أجله أسهم الفرنسيون، يتوجب علينا معارضة هذه الضريبة، لأن أي شيء عمل مرتين صار عرفاً، وبالاضافة إلى هذا، نحن رأينا بوضوح مثل وضوح النهار، النتيجة التي وصلت إليها عملية طغيان الملك الفرنسي في جباية المال واستخراجه، علينا أن نتعلم من الأمثلة الماضية، وبناء عليه لاتدعونا نحن أو الملك ننال غضب الرب الحاد، وبالنسبة إليّ، إنني أقول دون تردد، إنني أعارض هذا الاسهام المؤذي»، ووافق على هذا القرار برغبة وبدون تردد أساقفة: لندن، وشيستر، ووووركستر، والأسقف المنتخب لوينكستر، وجميع الآخرين تقريباً، وكان أسقف سالسبري متقلباً برأيه، وقد أضاف أسقف لنكولن إلى ماتقدم قائلاً: «دعونا نلتمس من الملك أن يكون لديه تقدير لخلاص روحه، وأن يلجم الرغبات العنيفة والطائشة».

كيف جرت تهدئة غضب ملك إنكلترا من قبل رجال بلاطه

جرت رواية جميع هذه الوقائع بصدق إلى الملك، الأمر الذي أثار غضبه الشديد، ولأنه لم يستطع ضبط غضبه، طرد جميع الذين كانوا في غرفته، وأبعدهم عنه مثل رجل مجنون، وبعد لأي تمكن رجال بلاطه المقربون منه من تهدئة غضبه، فأرسل رسالة إلى الأساقفة يلتمس منهم أن يزودوه من قبل أنفسهم، وبناء على إرادتهم بالمساعدة المالية المناسبة، ليس على أساس النظر إليه على أنه مولاهم وسيدهم، بل عدّه بمثابة

واحد يطالب بـالمساعدة بناء على فضيلة الأمـر البابوي، وتقـديره رجلاً متضرعاً، على وشك القيـام بالحج إلى الأرض المقدسة، في سبيل كـرامة الكنيسة المسكونية، ولكي يقاتل هناك من أجل يسوع المسيح.

كيف أجاب الأساقفة بالاستجابة لطلب الملك

وعندمـا حملت هذه الرسـالة إلى الأسـاقفـة، أصبحـوا أكثـر هدوءاً، وأجابوا قـائلين: «نحن بلا شك نعتقـد أن البابا لو كـان حقاً على دراية بالأضرار، وبـالمظالم، وبالاستخـــراجـــات، التي أثقلت بها الكنيســـة الانكليزيـة وبها ضغط عليها بشدة، فـإن الملك ما كان مطلقـاً سيحصل على هذا الترخيص من بـلاط رومـا، وإذا مـــا قمنا باعـلام البـــابا بهذه المســـائل بشكل كـامـل، مما لاشك فيـه هـو سـوف يلغي قـــراره هذا، ولاعجب إذا كـان قد غـرر به بخنق الصـدق واسكاته وبأقوال زائفـة، لأن الملك قد أفقر مملكته بكثير من الطرق، فهو حيناً قام بتوسيع غابته، وحيناً آخـر عن طريق جـولات رجـال عـدالتـه، ومـرة ثالثـة بإدخـال اجـــراءات قضـــائيـــة جـــديدة، وهكذا بمختلف الأســـاليب الأخـــرى والطرائق، وعندما تجف المملكة، سيتبع ذلك بالضرورة تعرض الكنيسة للفقـــر، وتحولها إلى حـالة العـــوز، ثم مـــاالذي يمكن أن نقـــوله بشأن الأساقفـة الذين أقحمهم الملك في الكنائس الفخمة؟ وكيـف قام بشكل مأساوي بونيفيس رئيس الأساقفة الأخير لكانتربري، فاستخرج ثروات منطقته وابتـزها، مدعيـاً بأنه متورط بكثير جداً من الـديون، إلى حد أنه لايستطيع التنفس بحرية، ومن دون مسـاعدة الكنيسة الانكليـزية كلها؟ كما أن الملك —لو سمح لنـا بذكـر مثل هذه الأشيـــاء— لم يتمنع حتى الآن، عن تجريد مملكتـــه، والكنيســـة مـن المال، ومن الامتيـــازات التي تمتعت بها منذ زمن طويل، وذلك يومياً بمختلف الحجج التي لاتحصى، ومخالفة ليمينه الرئيسي، وعـلاوة على ذلك من المعتقد، والمقـرر بموجب حقائق واضحة، بأنه قد حمل الآن شارة الصليب ليس إلاّ لسبب واحد،

هو أن يتمكن بهذه الطريقة الجديدة، وبهذا الإدعاء من الاستيلاء على البقية الصغيرة من الثروة التي بقيت الآن في انكلترا، وبذلك قام بتحويل انكلترا الحلوة، والمملكة الغنية إلى وضع الجفاف والقحط، أو أنه سيجرد السكان الذين ولدوا في هذه المملكة وفيها نشأوا مما لديهم ويفقرهم، ومن ثم يحل محلهم أجانب يعطيهم أماكنهم وممتلكاتهم، أولم يقم منذ زمن طويل مضى، في شبابه، عندما جرى تحت الطالع السعيد جعله ملكاً، بوضع صليب الملك جون على كتفيه، نعني بذلك والده الذي حمل شارة الصليب في الوقت نفسه؟، وبناء عليه، ينبغي الخوف من أن يكون هذا الملك متبعاً لخطوات والده، وقد حمل هذه الشارة وفق الطريقة نفسها، ومع النية نفسها، مثلما فعل والده، أي من أجل ظلم رعاياه الطبيعيين المخلصين والدوس عليهم بقدميه، لاسمح الرب بذلك، ومع ذلك، من دون التقيد بأفعاله حتى الآن، ودون التقيد بأمر أنه قد ظلم الكنيسة الانكليزية وآذاها وفعل الشيء نفسه بمملكة انكلترا، سوف نمنحه الذي طلبه منا، وسوف نتجاوب، بقدر مانمتلك من قوة، مع طلبه، إذا كان —حسبما ماوعد به غالباً— لن يقوم من الآن فصاعداً بخرق صك امتيازاتنا، التي غالباً ما منحت إلينا وغالباً ما أقسم على مراعاتها والتقيد بها، وأن يمنحنا أيضاً صكاً آخر، يتعهد به، أنه لن يقوم في وقت آخر، اعتماداً على هذه السابقة بمنحه الآن هذا المعروف، فيطالب بأن تكون الكنيسة الانكليزية خاضعة لمثل هذه الاسهامات اللعينة والاستخراجات، ونحن نطالب أيضاً، بأن يجري جمع المال الذي يطالب الملك أن نمنحه إياه، بعناية وبأمانة، وأن يوضع جانباً في سبيل المصلحة، بحذر وحيطة أكثر مما هو معتاد، وحسبما سيظهر موائماً لرعيته المخلصين، في سبيل منفعة الملك، عندما يشرع بالذهاب إلى الأرض المقدسة، فوفقاً لهذه الشروط سوف يجري منح المال إلى الملك وتزويده به».

وقــد أضيفت هــذه الشروط، بسبب أن جميع المبــالـغ الماليــة، التي استخرجها الملك مـن الانكليز، قد جرى توزيعها من قبلـه بطريقة فيها طغيــان وأذى، وجــاءت لمنفعــة أعــدائـــه، ولإلحاق الأذى بالمملكة، والإضرار برعـاياه التــابعين له، وفعل ذلك مثل قيـام إنســان بإرادته، بتوزيع أسلحته بين أعدائـه، في سبيل إيذائه وتدميره، وجرى إعداد هذه الشروط المفيدة من قبل الأساقفـة، أبناء السلام، لتكون معلومة من قبل الملك ولصالحه.

كيف أصر الملك على نواياه ومقاصده

وعندمــا جــرى إعــلام الملك بهذه المقـررات التـي اتخذت من قبل الأسـاقفة، وحملت إليـه لإعـلامه بها، من قبل أسقف سـالسبري، ازداد غضبـه اشتعـالاً، وبأنف توسعت فتحتــاه، أقسم أيهاناً مـرعبـة، أنه لن يخضع مطلقـاً مادام حيـاً، لمثل هذه الحالة من العبـودية، وبهذه الطريقـة سـار على خطى والده وعلى طريقـه نفســـه، وبعث ثانيـة إلى الأسـاقفـة يسألهم عما إذا كانوا سيقـدمون إليه جواباً بطريقة أخـرى ما من الطرق، غير هذا الهراء والمراوغـة، ولكي لايظهـر الأســاقفـة بأنهم وقحين عن طريق إرسال رفض صريح جواباً على طلب الملك، أعادوا إليه الجواب، بأنهم لن يتمكنوا مـن التـداول حـول الموضــوع كما ينبغي، ولايمكنهم إعطاء جـواب كــامل وقـرار نهائي، من دون حضـور رئيـس أسـاقفـة كانتربري وموافقتـه، بحكم أنه المعترف به الأول بينهـم في بريطانيا، وهو الأعلى مقـامـاً بين جميع الأسـاقفة، أو مـن دون موافقـة رئيس أسـاقفـة يورك، ثم الحصـول على الرأي الحكيم الصـادر عنه،لأنه هو الذي إذا لم يكن الرئيـس الأول، إنه واحــد من رؤســاء الرجــال في المملكة، هذا ومعلوم أن الأول بينهما موجـود في القارة، وكان الثـاني يعيش في منطقة بعيدة، وقد منع من الحضور، لسبب غير معروف.

كيف وزع الملك الموارد الشاغرة بين أشخاص غير جديرين

واستمر الملك —على كل حال— في اسرافه المعتاد، وتصرف وكأنه يريد الانتقام لمعارضة الأساقفة له، ولذلك تابع منح الأبرشيات الشاغرة والموارد وتوزيعها بين أشخاص غير معروفين، وسفهاء، وأجانب لايستحقون، في سبيل إنزال جرح لايمكن شفاؤه على رؤوس رعاياه الطبيعيين، ودون أن نذكر كل قضية، إننا نعتقد أنه من الموائم والصحيح أن نذكر في هذا المجلد القضية التالية، وهي قضية بين كثير من القضايا: كان في خدمة غيوفري دي لوزنغنان، أخوالملك [لأمه] أحد الشمامسة، الذي عمل بمثابة أحمق ومهرج للملك، ولأخيه غيوفري مولاه المذكور، وإلى جميع البلاط، وكانت أقواله مثل أقوال أصحاب الحركات السخيفة، وحملة العصي، قد أسهمت في تسليتهم، وفي إثارة ضحكهم، وقد أنعم الملك على هذا الرجل بكنيسة بريستون Preston الغنية، وكانت هذه الكنيسة عائدة من قبل إلى وليم هافرهل Haverhull, الذي توفي مؤخراً، حيث كان خازن الملك، وكان دخل هذه الكنيسة السنوي، قد وصل فيما مضى إلى أكثر من مائة باوند، وكان هذا الشماس نفسه من أصل بواتي Poitevin, وكان جاهلاً تماماً، في علمه وفي أخلاقه، وقد رأيناه يرشق الملك، مع أخيه غيوفري ونبلاء آخرين، أثناء سيره في حديقة كنيسة القديس ألبان، بقطع الأعشاب، والحجارة، والتفاح الأخضر، ويعصر العنب غير الناضج في أعينهم، مثل واحد كان خالياً من العقل، وكان خسيساً جديراً بالازدراء في حركاته، وفي طريقة كلامه، وفي عاداته، وكذلك بحجمه وبمظهره الشخصي، وكان هذا الشخص جديراً بأن يكون ممثلاً على المسرح لا أن يكون كاهناً حسب احترافه، مما ألحق إهانة كبيرة بالطائفة الكهنوتية، فمثل هذا وعلى شاكلته كان الأشخاص الذين عهد إليهم ملك انكلترا بالعناية والوصاية على آلاف كثيرة من النفوس،

رافضاً أعداداً كبيرة جداً من المتعلمين، والحكماء، والرجال الموائمين، الرجال الذين ولدتهم انكلترا، والذين عرفوا لغة السكان المحليين، وعرفوا كيفية توجيه الجهلة، وبطريقة مماثلة أيضاً، ولكي يثير غضب الناس الصالحين وكراهيتهم، تصرف الملك بناء على نصائح سيئة، فأعطى، أو بالحري بعثر المنافع الأخرى للكنيسة والتي كانت عائدة إلى وليم المتقدم ذكره، ووزعها بين أناس غير جديرين وأجانب، وهؤلاء قد وضحت عدم كفاءتهم وانعدام الفائدة منهم بتصرفاتهم غير الاعتيادية والشاذة، والذين تبرهن بشكل واضح أنهم فاسدين بأقوالهم، التي لم تكن سخيفة فقط، بل حمقاء أيضاً وفاحشة، وجاء استطرادنا هذا وابتعادنا عن سياق روايتنا، لأن أسفنا قد أثير لتلك الأسباب.

سير الملك بالتسلسل في هذه القضية

وأصبح الملك مصاباً بعاهة الشره الكبير، وبالتعطش العظيم للمال، فقد عاد الآن إلى مكره المعتاد وخداعه، وأبدع في ذهنه خطة أن يخضع لإرادته، واحداً إثر آخر، من أولئك الذين لم يستطع تحطيمهم وهم متحدين، وبناء عليه، عندما ارفض المؤتمر المتقدم ذكره أعلاه، وقبل أن يغادر الأساقفة لندن، استدعى إليه أسقف إيلاي، إلى مقابلة خاصة معه، ولدى وصول ذلك الأسقف، نهض إلى استقباله بكل تقدير واحترام، وبعدما طلب منه الجلوس إلى جانبه شخصياً، خاطبه بتواضع وبملامح هادئة قائلاً مايلي: «عزيزي مولاي الأسقف، سوف يكون من الصعب عليّ أن أذكر جميع ألطافكم، وكرمكم، وخدماتكم التي غالباً ما جربتها، وتلقيتها على أيديكم، فأنت الذي قمت عن طواعية من نفسك، فتعذبت وعانيت من شقاء السفر إلى بروفانس، على حسابك الخاص، لإحضار زوجتي إلي، وعلاوة على ذلك، عندما كنت على وشك الانطلاق إلى القارة، قمت مرة تلو أخرى دون أن تمل من مطالبي، فزودتني بمساعدة فعالة، وماالذي يمكنني قوله أكثر من هذا؟

ثم مامن مرة احتجت فيها أنا إلى المساعدة، إلاّ وقمت بتقديمها أو على الأقل وقفت إلى جانب مطلبي بنوايا طيبة جاهزة، هذا وإنني الآن أحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى اختبار لطفك المعتاد، وجودك، لأنك كما تعلم أيها الأب المقدس، أنني قد وضعت صليب الرب على كتفيّ، لأحمله بنبل إلى الأرض المقدسة، في سبيل تشريف الكنيسة المسكونية، ومن أجل ازدهار هذه المملكة، وبالنسبة لهذا الحج، إن رغبتي الخاصة، ورجائي إليك، أن تكون وأنت من رعيتي المخلصين والنافعين لي، شريكاً مساهماً، وبناء عليه إنني ألتمس بكل إلحاح ممكن، أن تساعدني في هذه الحالة الضاغطة من العوز، والتي تتطلب نفقات ثقيلة، حتى تكون مثلاً صالحاً إلى الآخرين، وأن لاتولي أدنى اهتمام إلى تراخيهم في هذه القضية، وعندما تتهيأ الفرصة، سوف أرد هذا المعروف إليك بمنافع أكثر وفرة».

وأمام هذا الكلام المخادع، وقف الأسقف صامدا أمام الإغراء، وقد ردّ عليه كما يلي (بلطف، وبالأخذ بالصمت تجاه الأذى الذي لحقه من استبدال سوق القديس ايثلرد Ethelred واقامة بدلا عنه سوق القديس ادوارد في ويستمنستر): «مولاي، إنني إذا كنت في أي وقت من الأوقات قد أديت خدمة لك، فأنا مسرور لذلك كثيرا، لكن جلالتك يعلم أنني لن أقوم، كما أنه لايمكنني بأي حال من الأحوال، أن أبعد نفسي، أو التخلي عن البنود التي عملت والقرار الذي أجمع الكل عليه صادقين، أي من قبل الجماعة كلها، لأنني إذا مافعلت ذلك سوف يكون عملاً مخلاً بالكرامة من قبلي، وإذا ما قمنا نحن الأساقفة بالإذعان إلى قرارك غير المحدود، سوف تتعرض الكنيسة للفقر، كما سيتعرض للأذى تعهدك ويمينك، وسوف نخضع إلى ضريبة دائمة، وإلى عبودية مستمرة، ويمكنك إذا تفضلت، أن تعيد إلى ذاكرتك، كم كان عدد القديسين كبيراً، الذين خضعوا للعقوبة والنفي، والذين عدّوا

بشكل رائع ومجيد كشهداء في سبيل حرية الكنيسة المقدسة، فهل أنا بحاجة إلى ذكر ذلك الشهيد المجيد، توماس المبارك؟ أو لذكر خليفته القديس ادموند، المعاصر لنا؟ وهناك فيض من الأمثلة واضحة أمامك، كلها تميل بشكل واضح إلى نقدك ولومك، والذي عليك هو أن تكون حذرا ومتنبها إلى الذي حصل إلى الملك الفرنسي، وهو المثل الذي أشع واضحا كالمرآة لك من قبل الرب، لأنه وزع المال الذي استخرجه من مملكته بين أعدائه، من أجل فديته، وبهذا المال أصبح أعداؤنا من المسلمين أغنياء، وبذلك فإن الذين يطاردوننا سوف يكونون أسرع، والذين يكرهون مجدنا، سوف بذلك المال يكونون القاهرين لنا، لابل إنهم الآن يعيشون في بهجة، لأنهم أصبحوا أغنياء بمالنا وبسلاحنا، ومهما حدث من الآن فصاعدا إلى هذا الملك المذكور، إنه قد نال عارا لايمحى في الماضي، ففي الحقيقة أصبح ذلك الأعظم نبالة بين المسيحيين، فريسة بيد المسلمين، ومن المؤسف القول انه بسبب ذلك تخلى كثيرون عن العقيدة وارتدوا، وهذا كله من الأمور يعزى إلى نظام السرقة المتقدم ذكره».

رفض الملك الإصغاء إلى المنطق

ولدى سماعه لهذا الكلام، كان الملك مثل واحد أصيب بجرح عميق، ولم يصغ إلى ما أملاه العقل، ودعا بصوت مرتفع خدمه قائلاً: «اطردوا هذا العجوز الهرم، وأغلقوا الباب دونه، ولاتدعوه يظهر أمامي ثانية، بما أنه رفض أيضاً أن يقدم لي المواساة والعون»، وهكذا فإن هذا الأسقف، الذي استقبل بلياقة لدى دعوته، غادر وهو مغطى بالملامات والاهانات، ووفق الطريقة نفسها سعى الملك إلى اضعاف ثبات بعض الاخرين، الذين بعث خلفهم بشكل سري، ومع أن اجاباتهم لم تكن من دون وزن، فإننا سوف نتجاوزها من أجل الاختصار، وقد بذل بهذه الطريقة البارعة قصارى جهده لتطويع عقول الأساقفة لإرادته، من

أجل أن يرغم النبلاء على الموافقة على هذا الاسهام، لأن اصرارهم اعتمد على اصرار الأساقفة.

ثبات كهنة وينكستر

وفي ذلك الوقت أيضاً، قدم الأسقف المنتخب لوينكستر إلى عند أخيه الملك، ليطلب منه الاذن بالعودة إلى وطنه، وليقول له وداعاً، لكن الملك لم يخاطبه بملامح هادئة كما ينبغي أن يفعل، كما أنه لم ينهض من كرسيه، كما كان يفعل نحو إخوته القادمين إليه، ثم إن هذا الأسقف خاطبه كما يلي قائلاً: «يبدو لي يامولاي، أن المؤتمر قد ارفض، وبت عارفاً بالقرار الثابت للأساقفة، حيث أعتقد أنك أخبرت به، وأنا الآن على استعداد —إذا سمحت— للعودة إلى الوطن، أسرع مما كنت متوقعاً لأن الإقامة الأطول في هذه المدينة لن تكون موافقة لي، وبناء عليه، أعهد بك إلى الرب»، فأجابه الملك: «وأنا أعهد بك إلى الشيطان، فقد كان يتوجب عليك الوقوف إلى جانبي، حتى لو كان العالم كله واقفاً ضدي، فأنت أخي لأمي، وأنا الذي رقيتك لتكون الذي أنت عليه، ولذلك نلت عدم رضا الرب، وقديسيه، وعدم موافقة الذين يعود إليهم حق الانتخاب، ورفعتك إلى أعلى المراتب وأسمى الأماكن، حتى أنك الآن الأول في انكلترا بالنسبة للثروة»، وأجابه الأسقف المنتخب على كلامه التوبيخي قائلاً: «مولاي إنني شاب بعدد سنوات العمر، لكن هل تريد، لأنك عملت مني الذي أنا عليه، أن أتصرف مثل طفل؟ لاسمح الرب بأن أنسحب من قرار تلك الجماعة التي تحب الرب، وتقدر كرامتك»، وبهذا غادر غاضباً.

كيف دفع سكان لندن عشرين ماركاً إلى الملك

وفي هذه الآونة، استخرج الملك بوساطة التماسات ملكية، عشرين ماركاً ذهبياً من سكان لندن (الذين توجب وفقاً لفحوى صكوك

حقـوقهم، وللأعراف القـديمـة، أن يتمتعوا بالقـدر الأكبر من الحرية)
وكأنهم كانوا الطائفـة الأدنى من العبيد، لابل بالحقيقة ظهـر وكأنهم قد
نظر إليهم بالمنطق نفسه، أو ربما أقل قدرا من مكانة عرق العبيد اليهود.

فرض ضريبة عبودية أخرى على اللندنيين

وعـــــلاوة على ذلـك، أرغم الملك سكـان لندن، بـإرادتهم أو بدون
رغبتهم، على إغــلاق نوافــذ حـوانيتهـم في مـدينة لنـدن، من أجل أن
يحضروا السوق الذي أقامـه في ويستمنستر أيام عيد القديس ادوارد، مما
ألحق الأذى بسـوق ايلاي، والذي استمر لمدة خمسـة عشر يومـاً، وذلك
دون التقيد بالأحوال الشتوية للأنواء، وبـالوسخ، والمطر، وعدم مواءمة
المكان، ولقـد أرغمـوا على الوقــوف في خيمهم، وذلك بناء على أوامـر
الملك، الذي خشي من أن لايقـوموا جميعـاً بعرض بضـائعهم للبيع، مع
أنهم لم يواجهوا مشترين.

حول معاناتهم من الأنواء القاسية

وبناء عليه، تغلب عليهم جميعـاً الوصب، وشمل ذلك الذين جاءوا إلى
السوق، والذين سكنوا هناك، لأنه خـلال ذلك الوقت كله، كانت هنالك
حشـود كبيرة من أنحـاء المملكة أتت مسـافـرة إلى هناك، وأقـامت بعض
الوقت ثم عادت، وقـد أمطرت في تلك الأثناء إلى درجة كبيرة، حتى أنهم
تبللوا جميعـــاً مـن المطر، وغطاهم الطين، كما أنهم أنهكوا أثنـاء سفــرهم،
حيث وجدوا المخاضات لايمكن عبورهـا إلاّ بصعوبة بالغة، والجسور قد
زالت، والطرقـات غير مـوائمة للسفـر عليهـا، وذلك مع أوسـاخ المدينة،
وانعدام المؤن والحاجـات الضرورية الأخرى، وكان كل شيء قليـلاً وغالي
الثمن، وعلى هذا تورطوا جميعـاً بمتـاعب لاحدود لها، وعـلاوة على ذلك
كانت هنالك جماهير عديدة وكثيرة من الأشخـاص الذين قدموا إلى لندن،
وأقاموا فيهـا، وبلغ ذلك حداً، أن سكان المدينة قد أعلنوا —حتى المسنين

بينهم— أنهم لم يشاهدوا من قبل قط مثل هذه الحشود الهائلة، وخلال ذلك الوقت كله تزايدت مشاعر الغضب وارتفعت ومعها الكراهية ضد البابا والملك، اللذان آثرا الطغيان وتعاونا مع بعضهما في سبيل ذلك، ولأنهم كانوا منزعجين كثيراً، فقد أطلقوا عليهما اسم «المزعجين لبني البشر»، وبذلك تحقق قول الرسول: «إنه مالم يحدث الانفصال سوف يظهر ابن الظلم»، ذلك أن الذي ظهر حتى الآن هو أن الشقاق بات قريباً، مع استيقاظ مشاعر عالمية للسخط وعدم الرضا المطلق، إن لم يكن بالأجساد، فعلى الأقل في القلوب (وكان هذا شراً أشد وأقسى) ضد كنيسة روما، والشعاع الضعيف الذي بقي من التقوى قد انطفأ.

مقالة حول شؤون غسكوني

وقام الملك في الوقت نفسه، حتى لايظهر بأن بعض النبلاء قد جرى جمعهم مع بعضهم من دون غرض، فعرض للمناقشة الخاصة، قضية الذي يتوجب عمله بالنسبة لشؤون مقاطعة غسكوني، التي ظهر بأن ايرل ليستر، قد بعث الفوضى فيها إلى درجة عالية، مما ألحق الضرر الكبير به، أما فيما يتعلق بالايرل نفسه، فقد انتشرت اشاعة في كل مكان في الخارج، تقول إنه بعدما حصل على النصر المجيد على الأعداء لنفسه وللملك، حسبما تقدم ذكر ذلك أعلاه، حمل نفسه وذهب من دون حذر إلى القلعة التي اسمها مونتوبان Montauban, التي وإن بدت أنها لاترام، كانت مهجورة وليس فيها عساكر للدفاع عنها، كما لم يكن فيها جميع أنواع المؤن، وهنا —كما قيل— جرى حصاره فجأة من قبل أعدائه الاقليميين، وبصعوبة بالغة جرى انقاذه بوساطة مساعدة بعض أتباعه المخلصين، الذين خاطروا بحياتهم لانقاذه، وعلاوة على ذلك أعاد إلى الذين تولوا حصاره، بعض الأسرى الذين وقعوا مؤخراً بين يديه في كمائنه، وفضلاً عن هذا كله، كان الملك غاضباً، لأنه رغب شخصياً بعبور البحر حتى يتولى تهدئة تلك المنطقة المضطربة التعيسة،

وقد بعث محاسبه بطرس تشيسبور Chacepore, ليطلب الاذن من الملكة بلانشي، حتى يرتحل بسلام ويسافر خلال فرنسا، وكان مثل هذا الطلب الأحمق يقابل دوماً برفض مطلق، وهو لم يتجرأ على الركوب بالسفينة ليسافر إلى هناك عبر الماء، بسبب مخاطر البحر، التي كان قد عانى منها، لاسيما وأن حلول الشتاء بات قريباً، ومعه التهديد بازدياد العواصف، وفي الوقت الذي كان فيه الجميع يتناقشون حول القرار الذي ينبغي اتخاذه حول هذه المسائل، جدد الملك في نهاية خطابه، بروح عالية، المطلب الملح بتقديم المساعدة المالية والعسكرية إليه شخصياً، لأنه كان على وشك الاقلاع للحج، وليقاتل في سبيل المسيح من أجل السلامة العامة، وعلى هذا المطلب أجابوه بالاجماع، بأن جوابهم يعتمد على جواب الأساقفة، وأنهم سوف لن يخالفوا القرار الذي سوف يتخذونه، أو يتخلون عنه، ونظر أحدهم نحو الآخر وتهامسوا فيما بينهم قائلين: «أي أمل يمكن تحقيقه من خلال هذا الملك الصغير، وماالذي يمكن توقعه منه، وهو الذي لم يتعلم قط ممارسة الفروسية، والذي لم يركب قط على ظهر حصان، ولم يشهر سيفاً في حياته، ولم يهز رمحاً، ولم يرفع ترساً في معركة، فهل ياترى يمكنه أن ينتصر، حيث جرى أسر الملك الفرنسي، وحيث سقطت فروسية فرنسا وتدمرت؟ أو أية مشاعر طائشة التي يشعر بها بأنه سوف يتمكن من استرداد الاستحواذ على مناطقه في القارة بالقوة، وهي المناطق التي لم يستطع الاحتفاظ بها عندما كانت تحت حكمه»؟ ومع هذه الانتقادات، ومع إعلانهم أنه قد ولد فقط لغرض استخراج المال، عادوا ساخطين إلى مواطنهم، مع محافظ نقوذ فارغة، وديون متعاظمة.

ارفضاض المؤتمر وغضب الملك مع الآخرين

ثم إن المؤتمر ارفض، وسط غضب الملك، ورجال الدين، والنبلاء، وخزن الملك غضبه وكراهيته في قلبه، معتقداً أن جميع الذي عمل وقيل

مصدره الحقد والكراهية، وبناء عليه اعتقد أنهم أعطوه سبباً للعمل بشكل سيء ضدهم وشرير بدوره، وعلى هذا الأساس أصبح عنيداً وشديد الإصرار على تنفيذ خططه التي أبدعها بطريقة ملتوية عندما تتهيأ الفرصة.

كلام كونتسة آروندیل

وفي تلك الآونة أيضاً، عندما كان الملك مايزال مقيماً في لندن، أتت إليه إلى هناك، إلى غرفته الخاصة ايزابيلا كونتسة آرونديل Arundel, أرملة هـ . H, ايرل آرونديل، وكانت من أقرباء الملك لتطالب بحقوقها في قضية متعلقة بوصاية عائدة إليها، وبدا الملك أولاً هادىء المظهر، لكنه بعد ذلك قرعها بكلمات قاسية، ولم يرض بالاصغاء إلى أي من مطالب الكونتسة أو التجاوب معها، لأنه ادعى لنفسه المسؤولية عن الوصاية المذكورة، وبناء عليه قامت الكونتسة، مع أنها كانت امرأة بالرد عليه غير هيابة، وتخطت كونها امرأة فقالت: «لماذا يامولاي الملك تشيح بوجهك عن العدالة؟ حيث لايستطيع الإنسان الحصول على ماهو عدل وحق في بلاطك، فأنت قد جرى تعيينك بمثابة وسيط بين الرب وبيننا، وأنت لاتحكم بشكل صالح لانفسك ولالأنفسنا، كما أنك لاتخشى من إثارة الاضطراب والأذى للكنيسة في كثير من الطرق، وهذا ماقد تبرهن ليس الآن فقط، لكن غالباً ماتبرهن مراراً في الماضي أيضاً، وعلاوة على ذلك إنك تقوم من دون خوف أو حياء بظلم نبلاء المملكة بطرق متنوعة»، ولدى سماع الملك هذا الكلام ضحك باستهزاء، وبعدما لعب بفتحتي أنفه، قال بصوت مرتفع: «ماهذا ياسيدتي الكونتسة؟ هل اتفق معك نبلاء انكلترا وأعطوك تفويضاً لتكوني المرأة المتكلمة بلسانهم والمحامية لهم، بحكم أنك فصيحة؟»، وعلى هذا ردت الكونتسة —مع أنها كانت امرأة شابة— بطريقة ترفع من مقام الإنسان الأكثر نضوجاً بالعمر قائلة: «ولابشكل من الأشكال يامولاي أعطاني نبلاء مملكتك تفويضاً، لكن أنت الذي أعطيتني تلك الرخصة، فهي التي منحتني

والدك إياها، وأنت وافقت عليهـا، وأقسمت على رعـايتهـا بإخـلاص، والحفاظ عليها غير مخروقة، ولقـد قمت مراراً كثيرة باستخراج المال من رعيتك، في حين قد وعدت بالحفاظ على حقوقهم وامتيازاتهم، غير أنك برهنت دوماً عن نفسك بأنك ناقض للميثاق بدون حياء، ومعتدي على هذه الامتيـازات، وبذلك برهنت بوضـوح على أنك حـانث بيمينك وخافر لذمتك، فأين هي امتيازات انكلترا، التي غـالباً مامنحت، وغالباً مادونـت كتابة، وغالبـاً ماجـرى انقاذها؟ وإنني وإن كنت امـرأة، وكلنا نحن الذين رعـايا طبيعيين ومخلصين، نترافع بالدعـوى ضدك، ونتقـدم بالشكوى عليك أمام قضـاء الحكم العدل المخيف للجميع، والسماوات والأرضين سوف تكـون شهودنا، بما أنك تعـاملنا بالظلم، مع أننا أبرياء من اقتراف أية جـريمـة ضـدك، وأرجـو أن يقـوم المولى إلـه الانتقـام بالانتقـام لنا»، وأمـام هذا الكلام استحى الملـك وصمت، لأنه علم بما أمـلاه عليه ضميره، بـأن الكونتسة لم تبتعـد عن طريق الحق والصـدق، وبعـد لأي قال: «هل إنك لاتطالبين بـإسداء هذا المعـروف إليك لأنك امـرأة قـريبـة لي؟»، وعلى هذا ردت قـائلة: «بما أنك تنكـر علي مـاهي مطالب عـادلة، كيف يمكن أن آمل أنك ستسـدي إليّ معروفـاً بناء على طلبي؟ غير أنني أتضرع بالشكوى أيضـاً أمـام وجـه المسيح ضـد الذين هم مستشاريك، الذين أضلوك، وأزاغوك، وحادوا بك عن طرق الحق، لأنهم مهتمـون بتشـوق بمنافعهم فقط»، وبعـدمـا أصغى الملك إلى هذا التقـريـع الأديب وهذا الكلام الـلائق، لزم الملك الصمـت، وعـادت الكونتسة إلى منزلها مـن دون الحصول على الاذن، لابل بالحري دون أن تطلب ذلك، وذلك بعـدما عـانت من كثير من المتـاعب ودفعت الكثير من النفقات من دون فائـدة، واستمر الملك —على كل حال— لايمكن تقـويمـه، وليس على استعـداد للاصغـاء إلى هؤلاء ولا إلى الآراء والمشاورات السليمة.

حول البحث في شؤون غسكوني

ثم قام الملك مرة ثانية بدعوة النبلاء للاجتماع مع بعضهم، وهم الذين —كما ذكرنا أعلاه— كانوا قد رفضوا طلباته الملحة وقاوموها، وشاورهم حول الذي ينبغي عمله بالنسبة لقضية غسكوني، وعلى طلبه أجابه النبلاء، أنه «إذا كان الايرل سيمون ايرل ليستر يسعى إلى اخضاع أولئك العصاة المتمردين ضد ملكهم، ينبغي أن لانعجب تجاه ذلك وأن لانتحب، خاصة وأن هؤلاء الغسكونيين مجموعة من الناس المنحطين، لأن مولاهم الملك عندما اتخذ ملجئاً بينهم بكل اطمئنان، خانوه، وأفقروه بعدد من الطرق المضاعفة، وبناء عليه عدت إلى الوطن مهاناً وفقيراً، مما سبب الأذى وألحق العار بجميع الانكليز، وعلاوة على ذلك إن كثيراً من هؤلاء الغسكونيين هم لصوص وقطاع طرق، يسلبون الحجاج والتجّار أثناء سفرهم، ويلتجئون إلى كهوف قطاع الطرق القدماء بين سلسلة جبال ايغريمونت Aigremont الوعرة والتي لايمكن الوصول إليها، والتي حصنوها بقلاع قوية، يضاف إلى هذا، لقد بقيت فقط سنين قليلة، هي مجرد ثلاث سنوات ونصف السنة للايرل، وذلك وفقاً لصك ولايتك، للاحتفاظ بحكومة تلك البلاد، ومجدداً نحن لم نتلق معلومات تتعلق بأوضاعها مؤخراً، لوجود مسافة واسعة من الأرض والماء بيننا وبينها، وبالتالي لايمكننا إعطاء جواب محدد حول قضايا غير مؤكدة بالنسبة لنا».

هذا ولم يكن الملك مسروراً لتقديمهم له تسويغاً وعذراً لأعمال الايرل، لأنه كان ينوي التعامل معه بقسوة أكبر، وأن ينظر إليه على أنه خائن، وأن يحكم عليه هكذا، وبالتالي يجري تجريده من أملاكه، ولم تكن هذه الخطة —على كل حال— سرية بالنسبة للايرل، مع أنه كان بعيداً، وعندما رويت إليه أخبار الإجراءات المتقدمة الذكر قال: «أنا أعرف تماماً أنه يريد تجريدي، ليغني بعض البروفانسيين أو البواتيين بايرليتي».

انتهاء المؤتمر

ولذلك ارفض المؤتمر، وبقي الملك ملتهباً بغضب عنيف ضد النبلاء، وكـذلك ضد الأسـاقفة، وفكر بأن يستـدعي إلى مسـاعدته نائبـاً بابوياً، يمكنه بفضل السلطات الرســولية أن يرغم رجـال الـدين على تقـديم الاسهام إلى مطالبه، مع أنها سـوف تكون ضريبة ثقيلة، ونوعاً من أنواع العبــودية الجديدة ومسألة لاتحتمل بـالنسبـة للكنيســة، وهكذا هددت الشرور بمضـاعفة الشرور وتكديسهـا فـوق بعضها، وبذلك يكون قـد جرى إغناء السماسرة، واليهـود، وآخرين من مقرضي الأمـوال، وسوف يغادر الأساقفة والنبلاء، خاليي الوفاض، حزينين ومحتاجين.

حول المقابلة التي جرت بين مقدم الاسبتارية والملك

وفي هذه الآونة أيضاً، كـان مقدم اسبتـارية القدس، ينتظر في بيت الطائفة في كليركنول Clerkenwell ينتظر وقتاً مناسباً وهادئاً، وذلك منذ وصوله، من أجل الحصول على اجتماع مع الملك، وعندما جـاء إليـه تقدم إليـه بشكوى، حـول الأذى الذي لحق به، وعـرض رسائل حمايته موقعة من قبل الملك الحالي، وكذلك من قبل سلفه من الملوك، وبما أن الملك قد غضب، خاطبه بصوت مرتفع، وقدم لجوابه بيمين، ثم أجـابه قائـلاً معايلي: «أنتم القسـاوسة والرهبـان، وبشكل خاص الداوية والاسبتـارية، لديكم كثيراً من الامتيازات والصكوك، وقد جعلكم تملككم الزائف والمسرف متجبرين، ومن التجبر انسقتم إلى الحماقة، وبناء عليه، يتوجب علينا، أن نلغي بشكل عقلاني، الذي منح إليكم بصـورة لاعقلانيـة، وأن نسترد من عهـدتكم، الذي وزع بموجب مشورة فـاسدة»، ثم أضاف قائـلاً: «أولم يقم البابا في بعض الأحيان، لابل مراراً كثيرة ومراراً كثيرة، بمراجعة أوامره وإلغائها؟، أولم يقم هو باقحامه فقرة «دون التقيـد» بإلغاء صكوك جرى منحها من قبل؟ وهكذا إنني سـوف أخرق هذا الصك وألغيـه، والصكوك

الأخـرى أيضـاً، التي منحهـا سلفي ومنحتهـا أنا بتسرع ومن دون روية»، وقـام مقدم الاسبتـارية، الذي حمل رتبـة رئيس رهبـان برفع رأسه، وخـاطبه من دون خوف قـائلاً: «ماهذا الذي تقـوله يامولاي الملك؟ لاسمـح الرب لمثل هـذا الكلام المليء بالنكـران والجحــود، والمتناقض، أن يخرج من فمك، فطوال مـا أنت تتولى مـراعاة شرائع العـدل، سوف تكون ملكاً، لكن عندمـا تخرقهم وتتجاوزهم سـوف تتـوقـف عن كـونك ملكاً»، وعلى هـذا رد عليـه مع حـاجـة كبيرة للتقدير قائلاً: «مـامعنى هذا؟ هل ترغبون أنتم الانكليز بالإطاحة بي من على عرشي، كما فعل آباؤكم من قبل مع أبي، وبعد خلعي تتولون قتلي؟»).

تعيين رينالد دي موهون حافظاً للغابات

وحـدث في هذه الآونة، أن جـرى صرف الفـارس غيـوفـري لانغلي Langley, الذي كـان ظالماً بلا حــدود لجميع الذين وقعـوا تحت سلطانه، وذلك بمختلف السبل ومهما كـانت، صرفه من وظيفـة حافظ الغـابات، وأرسل إلى سكوتلندا، بمثـابة مستشـار لملكة سكوتلندا، التي كانت ابنة الملك، ومنح صرفه رضـا كبيراً إلى كثير من الانكليز، وجرى تعيين رينالد دي موهون Mohun بدلاً عنه، وكان غيوفري هذا، قـد جرى تعيينه، بناء على أوامـر الملك، واحداً من الأوصيـاء على ملكة سكوتلندا، غير أن نبــلاء تلك البـلاد لم يستطيعـوا الاستمــرار بتحمل سلوكه الوقح، ولذلك صرفـه من منصبه، ثم إنه حول نفسـه ونقلها إلى خـدمــة ادوارد، وعمل في وضعـه الجديد الكثير من الأعــداء للملك، وكذلك لادوارد، وكـان غيوفري هذا قد جـرت تربيته من قبل روبرت باسليف، وتمت ترقيتـه إلى منصبه من قبله، لكن بعـد بعض الوقت حل المتلقي للتــوجيهـات محل الموجـه لـه، وهذا الذي جـرت ترقيتــه تولى الإطاحة بالذي رقاه.

٨١٠٣

حول الأخبار التي جلبها بعض الأرمن

وجاء في هذه الآونة بعض الأرمن إلى كنيسة القديس ألبان، حتى يقدموا صلواتهم، وكان واحدا منهم أخا للرجل المقدس الذي مات في سينت ايف، وهي واقعة جرى ذكرها من قبل، وحملت الوجوه الشاحبة لهؤلاء الرجال، ولحاهم الطويلة، وطريقة عيشهم القاسية شهادة على قداستهم، وعلى قسوة نظامهم، وأكد هؤلاء الأرمن، الذين ظهروا أنهم رجال يستحقون التصديق، جوابا على سؤال طرح عليهم، مايمكن عدّه حقيقة، بأن التتار، قد عانوا من خلال انتقام الرب، وليس من خلال انتقام الإنسان، من النقص الشديد في التعداد، بوساطة مرض مميت انتشر فيما بينهم، وكذلك بوساطة سيوف أعدائهم، وأنهم قهروا تماما، وأرغموا على العودة إلى مواطنهم الماضية، وفي الحقيقة بات بإمكان شعوب الغرب أن تكون متأكدة بأن هذا الوباء المدمر لن يزور العالم ثانية، وذكروا أيضا، أنهم يعلمون —بدون أدنى شك— بأن يوسف، الذي رأى المسيح، عندما كان على وشك الصلب، والذي كان ينتظر اليوم الذي سيحكمنا كلنا فيه، مايزال حيا حسب عادته، وهذه الواقعة هي احدى الحوادث المدهشة في العالم، وهي برهان عظيم على صحة الإيمان المسيحي.

وكانت بلاد هؤلاء الأرمن، تبعا لما ذكروه، تبعد سفر حوالي الثلاثين يوما عن القدس، وتصل مناطقها القصوى إلى بداية مقاطعات الهند، التي تعرضت للنهب إلى حد كبير من قبل التتار، وينبغي أن يكون معلوماً بأن سفينة نوح، قد رست في أرمينيا هذه نفسها، وذلك تبعا لما ورد في الكتابات المقدسة، وما هو مدهش أكثر، هو حقيقة أنها ماتزال راسية هناك، ولكن بما أنها واقفة على قمتي جبلين عاليين كثيرا، والمكان علاوة على ذلك مشحون بحشود الأفاعي السامة والخطيرة، ما من أحد يستطيع الوصول إلى هناك، وفضلا عن هذا، إن إرادة الرب قد قضت

أن لايصل مخلوق من بني البشر إليها، ويحطمها، في سبيل أن يحمل قطعاً منها، أو بالحري، إنها بقيت بفضل رحمة الرب الدائمة، هناك، حتى يبقى دمار العالم كله، وتصالحه بعد ذلك مع الرب، في ذاكرة بني البشر بشكل دائم.

وفاة كونتسة وينكستر

وماتت في الوقت نفسه في غروبي Groby, وهي عزبة عائدة إلى ايرل وينكستر، ليس بعيداً عن ليستر، الكونتسة زوجة ذلك الايرل، وابنة ايرل هيرفورد، وقد ماتت وهي شابة، ولذلك لم تترك ولداً منها للايرل، مثلما كان الحال مع زوجته الماضية ابنة ألان أوف غالوي Galway, التي ماتت من قبل، مخلفة له بناتاً فقط، وكانت الكونتسة المذكورة أولاً، قد ماتت في العشرين من تشرين الأول، ودفنت في بريكلي Braukley, حيث كانت قد دفنت زوجة الايرل السالفة أيضاً، وكان دير ذلك المكان قد تأسس من قبل أجداده، ولهذه الأسباب اختاره ليكون مكاناً لدفن زوجتيه، ثم مالبث على الفور أن اقترن بامرأة أخرى، حيث ظل آملاً أن ينال من الرب نعمة انجاب صبي.

حول إطلاق سراح أسرى صليبيين من قبل سلطان مصر

وجرى في هذه الآونة أيضاً إرسال رسل من قبل الملك الفرنسي، تم الحصول لهم على اذن بالتجول في جميع مناطق سلطان مصر مع الأماكن الواقعة تحت حكمه، للبحث عن الصليبيين الذين في أسر سلطان مصر، وتحت سلطته حتى يجري اطلاق سراحهم من دون شروط، وفي ذلك الوقت كان قد جرى اطلاق سراح الأسرى الآخرين الذين كانوا تحت سلطة السلطان وفق شروط سهلة، وفي سبيل اطلاق سراح هؤلاء، بذل الملك الفرنسي، الذي كان أكثر الناس تقوى، كمية وافرة من المال، بوساطة صدقاته.

كيف جرى جلب عظام وليم صاحب السيف الطويل إلى عكا

وفي أحد الأيام، قال سلطان مصر للرسل الذين بعثوا لأداء المهمة المذكورة أعلاه: «أنا أعجب منكم أيها الصليبيون الذين تحترمون عظام الموتى، لم تقوموا بالسؤال عن عظام وليم ذلك الرجل المشهور كثيراً، وذي الأصل النبيل، الذي منحتموه اسم «صاحب السيف الطويل»، ونحن قد سمعنا كثيراً من الافادات، لاندري إن كانت مجرد حكايات أم لا، تتعلق بهذه العظام نفسها، من ذلك على سبيل المثال، أنهم يظهرون فوق قبره في الليالي المظلمة، وأن كثيراً من المنافع تضفى من قبل السماء على الذين يدعون إلى الرب في ذلك المكان، ولهذا السبب، ولأنه قتل في المعركة، وبسبب سماته الرفيعة، ولأصله النبيل، قد دفنا جسده مع كل احترام لائق».

وتحدث الرسل فيما بينهم، و قالوا لبعضهم بعضاً: «كيف يمكننا أن نستخف بهذا الرجل، الذي هو رجل انكليزي، والذي حتى المسلمين لايمكنهم رفض ماهو جدير وحقيق بنبالة وليم هذا نفسه؟» وبناء عليه قرروا من تلك الساعة المطالبة بوجوب إعطاء عظامه إليهم، وقد زودهم السلطان بها برضاه، ثم إنهم جلبوا معهم عدداً من العبيد المحررين، وقاموا بجمع عظام وليم المتقدم ذكره، وأخذوهم ونقلوهم معهم، وساروا إلى عكا، حيث تولوا دفنهم بكل احترام في كنيسة الصليب المقدس.

حول الإجراءات العدوانية والعنيفة لوليم أوف بلنسية

وفي هذه الآونة نفسها، قدم وليم أوف بلنسية، أخو الملك لأمه من مقر سكنه في هارتفورد، ودخل بالقوة، ومراغمة للمرسوم الملكي الذي صدر مؤخراً، بناء على الموافقة العامة للانكليز، إلى مكان مغلق (مما يطلق عليه بشكل عام اسم حديقة) كان عائداً إلى أسقف ايلاي، قرب عزبة

هاتفيلد Hatfield, وقـام هناك بالصيد، من دون الحصـــول على الاذن من أي إنسـان، مع أن ذلك شكّل خرقـاً لقـانون البلاد، ولمبـادىء الشرف، وأصـالة النسب، وبعـدمـا عمـل هذا تحوّل إلى عـزبة الأسقف، وكـان عطشـاناً، ولم يجد شيئاً يشربه مـاعـدا البيرة، فحطم بالقـوة أبواب المستـودعات التي كـانت محكمة الاغـلاق، وهو يصرخ بصوت مـرتفع، ويجدف بشكل مـرعب، ويلعن البيرة والذيـن صنعـوها أول مـرة، ثم إنه سحب سكور بعض البراميل، وبعدمـا شرب هو نفسه مافيـه الكفاية من الخمرة الموجودة هناك، والتي كانت من أفخر الأنواع، أمر بتوزيعها بوفرة بين أتباعـه، وعلى جميع الذين اختاروا أن يشربوا منها، وكأنها كـانت ماء، أو من أسـوأ أنواع البيرة، وسمع رجل كـان يتـولى الاشراف على العـزبة ضربات المطارق التي استخدمت لتكسير الأبواب وفتحها، وسمع صراخ الذين استخدموا في ذلك العمل، فجاء حتى يوقف عنفهم، وليوزع بينهم كميات كافية من الخمرة، لكنهم لكموه فقط وأهانوه، وبكل صعوبة نجا من عنفهم، وبعدما سكروا إلى حد التقيؤ، وبعدما بددوا كثيراً من الخمرة وصبـوها هناك، غـادروا وهم يصرخون سخـرية، دون أن يعبأوا أجـرى إعـادة السكور إلى البراميل أم لا، وبعدمـا ذهبـوا وابتعدوا، ذهب خـادم العـــزبة إلى المكان، ووجــد البـاب محطماً، وكأن ذلـك فعل أثناء الحرب، والخمـرة تسيل بكميات كبيرة على أرض المستـودع، وقـد قام على الفـور وبكل سرعـة، بتسكير البراميل، واغلاق البـاب واحكامـه ثانية، وعندمـا جـرى اخبـار الأسقف بهذه الإجـراءات، لم يأسف للأذى الذي لحق به، وقال وهو هادىء المظهر: «عجباً هل كانت هناك ضرورة لسلب ولنهب ماكـان يمكن أن يعطى إليهم طواعيـة وبالرضا، بكميـات وافية، لو أنهم فقط طلبوا ذلك؟ ثم إنه لعن هذا العدد الكبير من الملوك، أو بالحري من الطغـاة في مملكة واحدة»، ولقـد كـان من الواضح تماماً أن المحـرض على مثل ذلك العنـف، وذلك الهجـوم الذي كـــان بـلا حيـاء على ممتلكات الكنيسة، استحق عقوبة الحرمان الكنسي لهذا الذنب الذي اقترفه.

حول العمل غير الشريف الذي اقترفه غيوفري دي لوزنغنان

وفي اليوم الثالث، بعد وقوع الحوادث التي رويت أخبارها أعلاه، قام غيوفري دي لوزنغنان، أخو وليم الذي تقدم ذكره أعلاه، بالعزم على الإقامة في دير القديس ألبان، فأرسل قهرمانه قبله، ليعلن عن نيته بالقدوم إلى هناك، وليجعل رغباته معلومة، ووصل القهرمان إلى باب ساحة الدير، وقال للبواب دون أن يحييه: «معلمي وشيك الوصول، ويرغب بالإقامة هنا، أين سوف ينام؟»، فردّ عليه البواب قائلاً: «حيث سيختار»، فأجابه القهرمان قائلاً: «هو لن ينام في أي مكان غير القصر الملكي، لأنه هو من أصل ملكي»، فأجابه البواب قائلاً: «ليكن ذلك كما يريد، لكن العادة بالنسبة لنا، أن يسأل الذين يرغبون بالاستضافة هنا، أن يكون ذلك تلطفاً، وليس طلب ذلك بوقاحة، لأن هذا البيت بيت للإحسان».

ولدى سماعه هذا الكلام نظر إليه القهرمان نظرة غاضبة، وقطب جبينه، وقال للبواب: «أية حماقة هذه التي تقولها أنت؟ أين هو الاسطبل لنضع خيولنا»، وبناء عليه دلّه على اسطبل واسع، مكرّس لاستخدام الضيوف، فيه يمكن وضع ثلاثمائة رأس من الخيل من دون صعوبة، وصدف في ذلك اليوم أن بعض الناس ذوي المقتنيات، من رجال دين ومن علمانيين كانوا قد وصلوا إلى هناك للاستراحة، ولإنعاش أنفسهم، ولذلك وضعوا خيولهم في ذلك المبنى، مع علف لهم قد وضعوه أمامهم، ولدى دخول القهرمان المتقدم الذكر بعجرفة وتكبر شاهد الخيول، وخدم الضيوف، فغضب غضباً شديداً، واندفع نحو الحيوانات، وقطع أربطتهم، وبتهديد كبير وعجرفة طرد الخيول والخدم من الاسطبل، ولم يسمح لهم باتخاذ زاوية من المكان على اتساعه يحتمون بها، ولقد توجب على راعي الدير تحمل هذا كله بصبر، كما فعل أسقف ايلاي تجاه الاعتداء والأذى الذي لحق به، وذكرناه أعلاه، خاصة وأن

الانكليز الآن مستضعفين ومداسين تحت الأقـدام، في حين أن الأجانب سـادة على الجميع، ففي ظل الملك الطاغيـة، يتجمع كل شيء ويحشر مع بعضه في العراء ويتعرض للخطر وللمطر.

حو ل الاتهامات التي قدمت ضدّ الفارس روبرت دي لى هو

وخلال العـام نفسه، ولدى اقتراب حلول عيد القـديسين الرسولين: سمعـان ويـود (الذي هو العيـد الذي يجدد سنـوات حكم الملك هنري الثالث) جـرى اتهام واحد من الفـرسان المتعلمين، وكـان اسمه روبرت دي لىٰ هو Ho, الذي كـان الملـك قـد عهـد إليـه بالـوصـاية على اليهود، وأيضـاً على ختمه، العـائد إلى خـازن أولئك اليهود المذكـورين، اتهامه من قبل الملك بجريمة كبيرة، وهذه الجريمة أنه قام بوساطة صك زائف، حمل أيضـاً الختم الذي كـان روبرت المذكـور الحامل له والوصي عليه، بحكم كـونه المتولي لشـؤون العدالة على اليهود، قـام بايذاء وظلم ابن أحـد الفـرسـان، وكـان بريئاً مـن كل اثم وعـدوان، وبناء على هذه التهمـة جـرى اعتقـاله، وألقي به بشكل مهين في سجـن مضيق عليـه، وجـاء هذا الإجـراء تجديداً لفضيحـة التشهير، التـي عـانى منهـا فيليب لوفل، الذي كان وقتها المسؤول عن العـدالة على اليهود، وكان ذلك قد حـدث في العـــام المنصرم، عندمـا وقع في شراك اليهـــود الأشرار، وهو الذي تمكن الآن بمهارته من الارتقاء إلى وظيفة الحافظ للخزانة الملكية، وعلى هذا يمكن القـول بأن «القـدرة الربانيـة قـد تسـابقت مع شـؤون الناس وتبارت».

وحدث على كل حال أنه بتدخل من أصدقاء روبرت المذكور، جرى كشف خبث اليهـــود وشرورهـم، وتبرهنت براءته وتأسسـت، ولذلك أطلق سراحـه، لكنه صرف من وظيفة الوكـالة، وجـرى تغريمـه بمبلغ أربعة ماركات من الذهب على الأقل.

حول الإجراءات القضائية لناظر أساقفة إنكلترا

وفي هذه الآونة نفسها، جرى استخدام المعلم ج. ل, الناظر العام لأساقفة انكلترا في بلاط روما، حيث ترافع بقضيتهم ضد رئيس أساقفة كانتربري، الذي ادعى لنفسه حق الزيارة التفقدية في انكلترا، مما كان سيسبب أضراراً لايمكن تحملها للكنيسة الانكليزية، وفي سبيل مقاومة هذا الظلم، دفع المعلم ج. ل المذكور ستة آلاف مارك إلى البابا، وبهذه الوسائل أمكن منع رئيس الأساقفة من الاستحواذ على حق الزيارة التفقدية الكاملة التي طلبها، واشترط أيضاً أنه ينبغي أن لايقوم بأية زيارة تفقدية إلى أية كنيسة أبرشية، مالم تتم دعوته للقيام بذلك من قبل قسيس المكان، ولكن الكنائس الديرية هي وحدها التي لم تعف، ووقتها عند ذلك، ينبغي أن يتلقى مساعدة مالية مقدارها أربعة ماركات فقط، ومن الممكن فهم خصوصيات هذا العمل بوضوح أكبر، بوساطة رسائل البابا، التي أقحمت في كتاب Additaments, وسوف يظهر الفحص الدقيق في مقاصدهم كيف احترم الأساقفة الرهبان في المملكة، خاصة المعفيين، وأنه عندما يجري اغضاب الرب، سيكون هناك انشقاق في الكنيسة، سوف ينتج اقفاراً، فيصبح وباء عاماً بين الأساقفة وكذلك بين العلمانيين.

وصول ألبيرت موثق البابا إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة، في أيام عيد القديس مارتين، وصل إلى انكلترا المعلم ألبيرت، موثق البابا، وهو الذي كان قد جاء إلى هناك أيضاً قبل عامين، عندما كان الملك الفرنسي يستعد لعبور البحر، وذلك بقصد منع ملك انكلترا باسم البابا من ازعاج أراضي الملك المذكور، بأية طريقة من الطرق، أثناء وجود الملك الفرنسي المذكور في القتال في سبيل الرب، وكان هدف قدومه سرياً بالنسبة لكثيرين في البداية، ولكن بعد ذلك بات السبب معروفاً بوساطة نتائجه، ولقد كان البابا يعرف أن الايرل

رتشـارد، أخي الملك، مليئاً بالثروات، وأغنى من جميع رجـال الغـرب الآخرين، الذين كـانوا من مرتبته، (دون أن يتعب نفسه في معـرفة كيف حصل على ثرواته) فرتب بدهـاء لاختياره من أجل التعيين ليكون ملكاً حـاكماً لأبوليا، وصقليـة، وكـالبيرا (قلورية)، وذلك في سبيل أن يقـاتل الايرل لصـالح البـابا، وينفق أمـواله على حظوظ للحـرب مشكوك بها، وتعريض نفسه للمخاطر الشخصية، حتى يمكن نيل جميع هذه البلدان، من أجل منفعة البلاط الروماني، و أن يجمع الأموال لصالح هذا البلاط ولضرره الذاتي، وبتصرف البـابا وعملـه على هذه الصـورة، اعتمـد على كلام الشيطان الذي فيـه دهاء وخداع عندما قـال: «سوف أعطيك جميع هذه الأشياء، إذا ماسجدت لي وتعبدتني»، ذلك أن البابا كان يعرف بأن الايرل مستحـوذ عليـه بالنهم مثل المصـاب بـالاستسقـاء، وبعطش إلى الثروة وإلى المفـاخر الدنيوية، وبهذه الطريقـة وضع طعم شصه، ظاناً أنه سيمسكه به بكل سهـولة، وعلى هذا ليس عجبـاً سر لماذا قدم البـابا من قبل كثيراً من التشريف إلى الايرل رتشارد في ليون، وعامله وكأنه قريب له، وأبدى سروراً عظيماً بمصـاحبتـه ممـا أثار دهشـة الجميع، ولم تعتقـد أكثـرية الناس بأن الايرل سوف يصغي بأي حـال من الأحوال لوعـود البابا، لأنه لم يكـن قوياً بصحته الجسـدية، ولم يكن شجاعـاً ولابارعاً في الحرب، ومجدداً لأنه سـوف يبدو أنه بدون شرف في أن يسعى لإحـلال نفسه محل ابن اخته هنري، وأخيراً لايمكن لإنسـان عاقل أن يقدم ماهو مؤكد ويستبـدله بما ليس مؤكداً، لكن البابا اعتقـد أن جميع هذه العيوب يمكن تحملهـا، لابـل إنها ليست حتى مـزعجـة أو مـربكة، وينبغي أن يكون معلومـاً أنه في اليـوم الذي كـان فيـه الايرل يحتفل مع البـابا وقع الملك الفرنسي —بضربة غير موائمـة من ضربات الحظ— بالأسر، وقد حـدثني بأخبـار هذه الوقـائـع —أنا كـاتب هذه الصفحـات— الايرل نفسه.

كيف شغل ألبيرت نفسه في سبيل الارتقاء بمصالحه

هناك قـول متـداول أن المصلي يصلي بشكل أحمق إذا نسي نفسـه في الصلاة، وكـذلك المنصرف للعمل على منفعة واحـد آخر، وغير متـذكر لنفسـه، ولقـد قـام المعلم ألبيرت الذي كـان مقيماً في لندن ينتظر حتى يعطيه الايرل جواباً على رسالة البـابا، الأمر الذي أخره، في سبيل تقدير القضيـة، قـام بارسال رسـائل إلى كثير من أسـاقفـة انكلترا، التمس من أحـدهم أن يهديه مهـراً، ومن آخـر أن يعطيـه منفعـة كنيسـة، وجعلهم يفهمـون أنه لن يرفض قبـول أية هدية أخـرى يمكن أن يقـدمـوها له، وبذلك فـإن المعطي لن يظهـر أنه مستخف به من قبلهـم، وحصل من كنيسة القديس ألبان —بمثابة عمل معروف وإحسان— على مهر وعلى منفعـة أيضـاً، على غـرار مـايحصل عليـه الرومـان عـادة من مكتب أي أسقف، والذي يعني تقريباً الشيء نفسه.

حول وصول رئيس الأساقفة إلى لندن

وفي ثمانيـة عيـد القـديس مـارتين، وصل بونيفيس رئيـس أسـاقفـة كـانتربري إلى انكلترا، ولدى وصـولـه مـا من أحـد شعـر بالبهجـة، لابالحقيقـة —ونقـول هذا مكرهين— شعـر الناس بالحري بالانزعـاج لوصـوله، لأن كل واحد، لابـل جميعاً تذكـروا كيف تصرف بشكل غير معتـاد ووحشي في لنـدن، وكيف أنه عندمـا كـان هناك قـد انتـزع من الرهبـان حـق زيارتهم زيارة تفقـدية، وفـرض ذلـك عليهم، وكيف أنه —عـلاوة على ذلك— قد أفقـر المملكة والكنيسة بطرق كثيرة متعـددة، باستخراجه أولاً أحد عشر ألفاً من الماركات، ومؤخراً ستة آلاف مارك، التي جرى فرضها لدى زيارته التفقدية الطغيـانية، وكيف أيضاً قد أفقر بشكل كبير كنيسـة كـانتربري الجليلة، التـي عـاشت في ظل حكم عـدد كبير من القديسين، وجـاء ذلك عن طريق قطع أشجار غـاباتها، ووضع الدير تحت قـدميـه والدوس عليـه، ومجدداً كيف أنـه أعطى وبعثـر بين

الأجانب الموارد الغنية كلها، التي أصبحت شاغرة في أيامه، ولهذا من المعتقد أن البناء الذي يقام على أساسات أرض مستنقعية، سوف يكون بناء ضعيفاً، وهذا —على كل حال— ينبغي أن ندعه لقدر العلي الأعلى.

حول الخلاف الذي نشب بين رئيس الأساقفة والأسقف المنتخب لوينكستر

وقبل ثمانية القديس مارتين مباشرة، في هذا العام، كان هناك كاهن يعمل لصالح الأسقف المنتخب لوينكستر، قد أدخل نفسه في الوصاية على مشفى ساوثويرك Southwark, كان معروفا بشكل جيد في أسقفية وينكستر، وكان الوصي على ذلك المشفى —الذي يقال بأنه تأسس من قبل القديس توماس الشهيد— قد نال حسبما جرت العادة بين السكان لقب رئيس رهبان، ورأى المعلم يوستاس أوف لين Lynn أن الإجراء المذكور أعلاه فيه تجاوز على حقوقه، لأنه كان من موظفي رئيس أساقفة كانتربري، وبموجب وصايته، كان ينبغي الحصول على موافقته، وقد تمّ تجاهل طلب موافقته تحدياً له، ولذلك حذر الكاهن المذكور مرتين وثلاث مرات حتى يتخلى عن استحواذه على الوصاية، على أساس أن توليه للوظيفة كان مؤذياً، ومجرد ادعاء، لكن هذه التحذيرات جرى رفض الاستجابة لها من قبل الكاهن، أو رئيس الرهبان كما كان يعرف، وجاء رفضه اعتماداً على استحواذه للمنصب، وبناء عليه قام موظف رئيس الأساقفة بحرمانه كنسياً، لعصيانه وتمرده، وبقي رئيس الرهبان المذكور تحت هذه العقوبة لمدة أربعين يوماً، كان خلالها يتفوه بالتهديدات وبالإهانات، ووقتها لم يعد بإمكان هذا الموظف تحمل ذلك التجبر والوقاحة، فأمر باعتقاله على أساس أنه شخص متمرد، ولدى سماع رئيس الرهبان بهذا، ارتدى ملابس مقدسة للحماية، والتجأ إلى الكنيسة، ولكن الموظفين الذين أرسلوا لاعتقاله، لم يوفروه لتلك الأسباب لأنه بحكم كونه محروم كنسياً، قد أظهر تحديا لمفاتيح الكنيسة،

ثم أمر موظف رئيس الأساقفة بأخذه إلى ميدستون Maidstone, وكانت عزبة تابعة لرئيس الأساقفة، ليسجن هناك، حتى يتقرر الذي سوف يعمل معه، لأنه أفيد بأن رئيس الأساقفة بات قريب الوصول.

حول الإجراءات الجريئة التي قام بها الأسقف المنتخب لوينكستر

ولدى سماع الأسقف المنتخب لوينكستر بهذا الإجراء، غضب غضباً تجاوز جميع الحدود اللائقة، وتقدم بشكوى ثقيلة لإخوانه، وكأنه قد عانى من ضرر عظيم وإهانة كبيرة، ولأنه تلقى منهم التشجيع والمشورة، جمع عصابة مسلحة من الفرسان، وأرسلهم مع كوكبة كبيرة من الخدم والأتباع للبحث عن المحرضين على هذا العمل العنيف واعتقالهم، وبناء عليه انطلقوا مع جلبة كبيرة وصراخ، وتوجهوا على الفور إلى ساوثويرك، ظانين أنهم سوف يجدون هناك في ذلك المكان الذين كانوا يبحثون عنهم، ولكن بعدما بحثوا في كل مكان في ساوثويرك، دون أن يعثروا على أحد أرادوه، تابعوا سيرهم بكل سرعة إلى ميدستون، لاطلاق سراح رئيس الرهبان المعتقل، وخرقوا هناك كل حاجز اعترض سبيلهم وفتحوه، وعزموا على تحويل المكان كله إلى رماد، ولما لم يجدوه هناك حيث بحثوا عنه، جرى إخبارهم من قبل واحد من تجار الحكايات بأن موظف رئيس الأساقفة موجود في لامبث Lambeth قرب لندن، فبادروا مسرعين مغادرين إلى هناك على شكل حشد، بعدما أحدثوا أضراراً كبيرة في ميدستون، ووصلوا إلى لامبث فخرقوا الأبواب وفتحوها، أوخلعوها واقتلعوها من أماكنها، ودخلوا إلى كل بيت بشكل فوضوي ومفاجىء، حتى تمكنوا قبل ساعة الغداء من اعتقال الموظف بشكل مهين، ذلك أنه لم يكن متوقعاً مثل ذلك الإجراء، ووضعوه على الفور على ظهر حصان، وأخذوه إلى المكان الذي اختاروه، مثل واحد كان من أكثر المجرمين شروراً، قد جرى

اعتقـاله وهو يقترف عمل السرقة، ولم يسمحـوا له حتى بإمساك المقـود حتى يقود الحصان، ولكم كان إجـراءاً وقحاً وطائشاً! ولكم افتقروا إلى الاحترام، وأية وقـاحـة قد تلبستهم حتـى قامـوا هكذا بمطاردة إنســان صـاحب سلطة عاليـة ومكانة رفيعـة، وعـاملوه بشكل مهين، فقد كـان رجلاً عظيم المعـارف، ومشهوراً بشكل مدهش، وهو واحـد كان يمثل شخص رئيس الأساقفة؟.

ولقـد أهانوا أيضـاً، وأسـاءوا معاملة شماس، كـان يقـوم بواجبـه في البيعـة، حتى بعـدما فـرّ إلى المذبح، وهاجموا مقتنيـات الكنيسـة بأيديهم المدنسـة، وعندمـا سمع المعلم هنري أوف غنت Ghent الجلبـــة، استبـد به الخوف، وهذا مـا كان يحدث بالعـادة مع الذين كـانوا أشجع منه، وبحذر قام بالنجاة، حتى لايقع بأيـدي الذين كانوا يطلبون حياته، وبعدمـا اقترفوا جميع الأعمال الوحشيـة التي دفعهم غضبهم، أو بالحري سخطهم، لاقترافها، جروا الموظف وسحبـوه بمقود الحصان إلى فارنهام Farnham, عـازمين على حبسـه هناك بـالقـوة، حتى يتمكنوا من الحصول على معلومات حول سجن رئيس الرهبان، وبعد لأي سمح له بالمغادرة، وجـرى طرده بشكل مؤسف ومهين، لكنه كـان مسروراً جداً لتمكنه من النجـاة من بين مخالبهم وأيديهم المدنسة، وهرب على قـدميه، مع أنه كان رجـلاً عجوزاً، ولم يتجرأ على النظر إلى خلفـه، حتى لايعود إلى الاعتقـــــال، وظل يـركض حتـى وصل إلى ويلـرلي Walerle, وهو دير كـان تابعـاً للسسترشيـان، ولـدى رؤيتـه من قبل رهبـان ذلك المكان، تسـاءلوا أي سـوء حظ قـد سـاقـه إلى عندهم طريداً ووحيـداً، وتلقى هناك —على كل حال— المواساة، وبدأ يتنفس بحرية من جديد.

حول الشكوى التي رفعت إلى رئيس الأساقفة

ولأن الموظفين المعتمـدين من قبل رئيس الأســاقفـة، عـانوا من هذا الأذى العظيم، تقـدمـوا مع الدمـوع والنحيب بشكوى حــول قضيـة

الوقاحـة والدناءة التي عـوملوا بها، إلى رئيس الأساقفـة، مع كمية كبيرة من المبالغـة، ولدى سماع هذه الأخبار، كان غضب رئيس الأسـاقفة أكبر مما يمكن وصفـه، وقـال متعجبـاً: «هـذه أخبـار سيئة نتلقـاها لدى أول وصولنا»، وقام على الفـور بالانطلاق إلى لندن، آخذاً معه أسقفي شيستر وهيرفـورد، ومن ثم قام في كنيسـة سينت مـاري —لي— بو - Mary Le- Bow ومعه الأسقفين المذكورين، وقـد ارتدوا جميعاً الثياب الحبرية، بحضـور عدد كبير جـداً من الناس، كانوا قـد دعوهـم بوسـاطة المنادي، من أجل منح الـذين سـوف يحضرون غفـراناً لمدة ثلاثين يومـاً، ووقتها تفـوهوا بشكل مهيب بقرار عقوبة الحرمان الكنسي الرهيبـة، ضد جميع الذين شاركـوا باقتراف ذلك العمل الطائش وحرضـوا عليه (فقط باستثناء الملك والملكة وأولادهما، والايرل رتشـارد، وزوجتـه الكونتسـة وأولادهما) ثم كتب رئيس الأسـاقفـة إلى جميع الأسـاقفـة المسـاعـدين التـابعين له، يأمــرهم بكل دقـة، بحكم فضيلة الطاعــة التي يدينون بها لكنيسة كـانتربري، أن يفعلوا الشيء نفسه في كنائسهم في كـل يوم أحد، وفي أيام الأعياد.

ومن الجهة المقـابلة أمر الأسقف المنتخب لوينكستر، على الفـور عميد سـاوثويرك وبعض الآخـرين الخاضعين له بمعـارضـة رئيس الأسـاقفـة بوجهه صراحـة، وأن يعلنوا على الناس أن قراره لاغياً وفارغـاً وطائشاً، وأن التعليل الذي اتخذ كـان خـاطئاً وزائفاً، ووقتهـا ترافع حـزب رئيس الأسـاقفـة إلى الحبر الأعظم حـول هذه الاهانة، وحـول الفضيحـة التي نشأت عنهـا، وقـد كـان هناك بالحقيقـة بعض الناس الذين لم يقفـوا إلى جـانب أياً مـن الحزبين، وبعض الذين قـالوا بأن مـن الواضح أن رئيس الأسـاقفــة أضر بالأسقف المنتخب، وفي سبيل إنهاء هـذا الخلاف تقـرر وضع ترتيبـات بين الحزبين، وتمّ الاتفاق أن الـدير المتقدم الذكـر يصبح معفياً من لقب الولاية، وأن يصبح خاضعاً لإدارة أسقف وينكستر، وأن

يدفع ثلاث شلنات سنوياً بمثابة اعتراف بالخضوع، وبذلك نالت كل طائفة من الطائفتين اسما سيئاً، وجنت الملامة،والأذى، والتصرف العنيف، وفي الوقت نفسه تذكر سكان لندن الوقاحة التي أبداها رئيس الأساقفة، في إجراءاته العنيفة في تلك المدينة، واستعادوا إلى الذاكرة مبلغ الاستخراجات الضخمة التي كان سببها، وتذكروا أيضا طيش الملك في ايجاده، واسهامه غير الاعتيادي في منفعته، ومن جانب آخر حصلت شيعة الملك، أي الوافدين من البواتيين، على تهمة الغدر والخيانة، التي هي بالحقيقة، فطرية فيهم، وذلك مع الملامات الأخرى، حسبما هو معتاد مع الذين يتقدمون بالشكاوي، وكان هناك الكثير من المواطنين الذين رغب بعضهم أنهم لوتمكنوا من تحطيم رؤوس بعضهم واستخراج المخ منها، ورغب بعضهم الآخر أنهم لواستطاعوا تمزيق أحشاءهم من أجسادهم لفعلوا، وذلك حسبما كتب: «ويل له —أولهم— الذي من خلاله يأتي الذنب»، وبات الفريقان عرضة للخطر من الازدراء والفضيحة التي نشأت، وهكذا تحزب أصدقاء الملك وصفوا أنفسهم ضد جماعة الملكة، أي البواتيين ضد البروفانسيين الذين سكروا حتى الثمالة بسبب ممتلكاتهم الواسعة، والذين أنزلوا غضبهم على الانكليز النائمين، وكأنهم كانوا يتبارون فيما بينهم حول أيهم ينبغي أن يحصل على السيادة في المملكة، في سبيل رفع شأن أبناء جلدته، وجرى على كل حال تداول تقرير، أدان بالحري البواتيين، لأن الأسقف في تجبره قد تجاوز جميع الحدود في الوقوف في وجه رئيسه، معتمدا على أخيه الملك، الذي والله يعلم، قد أوجده ليكون حيث هو الآن، وبشكل خاص لأننا —كما ذكرنا من قبل— قد فقدنا بواتو من خلال خيانة أبيه.

كيف ذهب رئيس الأساقفة إلى اكسفورد

ثم إن رئيس الأساقفة بونيفيس أخفى الغضب الذي شعر به، مثل النار تحت الرماد، وقام بناء على تحريض من المعلم يوستاس، الذي كان

قد تأذى أكثر من سواه، وحزن كثيراً في هذه القضية، فأصر على القيام بانتقام موائم لهذا العدوان الكبير الذي لحق به، ومع هذه النية أسرع بخطاه نحو أكسفورد، في سبيل أن يجعل معلوماً لدى الناس أخبار هذا الإجراء الشائن، وبشكل خاص إلى جماعة الباحثين الذين احتشدوا هناك للدراسة من أنحاء العالم، ولكي يقوم هؤلاء أيضاً بحكاية روايات عن هذا الاثم العظيم ونشرها بين أقصى أمم الأرض، وعندما وصل إلى المدينة، استقبل من قبل حشد كبير من الكهنة وقد ارتدوا أجمل الثياب وأكثرها أناقة، وقد امتطوا على ظهور خيول مجهزة بشكل فخم، وقد رحبوا به بالهتافات مع كل مظاهر التبجيل والاحترام، لأنهم شعروا أنهم يستقبلون رئيساً للأساقفة هو الأول على الجميع في انكلترا، وهو أيضاً مشهور جداً بأصالة نسبه، ثم أكرموه بعد ذلك باحتفال كانت فيه وفرة عظيمة من اللحوم والمشروبات، وعندما تعرف رئيس الأساقفة بالتجربة ومعه كهنته البروفانسيين الكسولين إلى ذكاء وفصاحة تلك الجماعة، وإلى سلوك أفرادها المثالي، وإلى نظام ألبستهم، وإلى دقة تصرفاتهم، كانوا مرغمين على الاعتراف بأن جامعة أكسفورد تستحق أن تكون نظيرة لجامعة باريس.

الإعلان عن القرار ونشره في أكسفورد

وفي اليوم التالي الذي أعقب يوم عيد القديس نيقولا، قام رئيس الأساقفة بحضور كهنة الجامعة الذين اجتمعوا لتلك الغاية بوساطة قرع الناقوس العام، فحكى لهم بشكل مكشوف تفاصيل العمل الوقح الذي تجرأ الأسقف المنتخب لوينكستر على اقترافه، ومعه إخوته ومعاونيه، الذين استمدوا جرأتهم من ثقتهم بتأييد الملك، وكذلك أعلن بالتحديد عن أسماء المجرمين، وأعاد تلاوة قرار الحرمان الكنسي المتقدم ذكره، وهو القرار الذي ورد بالتفصيل في الرسائل التي بعث بها رئيس الأساقفة إلى جميع أساقفته المساعدين، وورد في هذه الرسائل أسماء

المجرمين بالكامل، وإذا مارغب أي إنسان برؤيتهم، عليه البحث في كتاب Additaments المحفوظ في كنيسة القديس ألبان، والذي فيه جميع التفاصيل المتعلقة بالموضوع، هذا وكان واضحاً إلى كل واحد، وإلى الجميع بأن الأسقف المنتخب مع إخوانه كانوا المقترفين لتلك الآثام.

موت بلانشي ملكة فرنسا

وفي هذه الآونة، أي بالتحديد في الأحد الأول لعيد ميلاد ربنا، الذي وقع في اليوم الأول من الشهر، توفيت سيدة السيدات في هذه الدنيا، بلانشي، أم الملك الفرنسي الوصية على مملكة فرنسا، والحامية لها ومملكتها، وقد غادرت هذه الحياة، بمثابة سيدة تقية مخلصة، حتى تتمكن باحترام من مقابلة مولانا يسوع المسيح لدى قدومه، وشكلت وفاتها خسارة كبيرة ومصدراً للحزن لفرنسا كلها، فهي كانت قد عانت من أحزان كثيرة مبكرة، كان من بينها موت زوجها الملك لويس، الذي سلب منها وهي في عزّ شبابها، تاركاً المملكة الفرنسية معتمدة عليها، وهي قضية لم تكن سهلة التناول، وكان مرض ابنها وضعفه، وحمله للصليب، وحجه، الذي قرر أن لايعود منه، ثم أسره من قبل المسلمين آثاره عليها، وهذه وقائع تستحق البكاء والنحيب من قبل جميع المسيحيين، وكذلك الفرار المهين لروبرت كونت أوف ارتوي وماتلاه من موته غرقاً، ومجدداً المرض غير القابل للشفاء لابنها ألفونسو، كونت بواتو، وأخيراً الأخبار التي حملت إليها وتحدثت بأن ابنها الأكبر، الملك الفرنسي، الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، قد عزم على البقاء هناك طوال حياته، وأن يموت هناك، وأن يحصل بذلك على المملكة السماوية، عوضاً عن مملكته الأرضية، وبذلك تلاشت تلك السيدة بلانشي التي كانت الأكثر نبلاً، في عزلتها، وماتت قبل أوانها، وبذلك حرم أولادها الأمراء الذين تقدم ذكرهم من عاطفتها التي

أوقفتهـا عليهم، وعندما رأت أن مـوتها بات وشيكاً، تركت أوامـر بأن يدفن جسدها في دير للراهبـات في بونتوي Pontoise كانت هي التي قد أسستـه وبنته بشكل فخم جداً، وفي الحقيقة كـانت قد أصبحت قبل موتها راهبـة محترفة، ولبست الحجـاب، الذي وضعت فوقـه التاج، كما أنها ارتـدت أثواب الملكـة، وبهذه الحالـة وهـذا الشكل مـن ارتـداء الملابس دفنت بشكل لائق، وهكـذا فعلت السيـدة النبيلة بلانشي، التي كـانت امـرأة من حيث الجنس، لكنهـا كـانت رجـلاً بالآراء، وواحـدة تستحق المقـارنة بسميراميس، وقـالت وداعـاً للدنيـا، تاركـة المملكة الفرنسية بدون راحة، وفارغة من كل مواساة.

حول الموارد الهائلة لجون مانسيل

وخـلال هذا العـام، ابتسم الحظ كثيراً لجون مـانسيل، الذي كـان المستشار الرئيسي للملك، فأصبح غنيـاً جداً، حتى أن دخله السنوي قد جـرى تقديره أنه قـد وصل إلى أربعـة آلاف مارك، بما في ذلك سبعمائـة مارك جرى جمعها مؤخراً من قبله، وفي الحقيقة ليس معروفاً في أيامنا أن كاهناً غيره قد ارتقى إلى مثل تلك الحالـة من الغنى، وكان ذلك مصدراً لدهشـة عظيمـة، ومحط تسـاؤل لدى الذين يعـرفـون الأشيـاء التي هي عائـدة للرب، وأن رجلاً واعياً مثله لم يخف من تـولي العناية بعدد هائل من الأرواح، في وقت كـان الأمـر فيـه واضحاً أنـه كان عليـه أن يقـدم حساباً عنهم جميعـاً أمام القاضي الأعظم، وهذا في الحقيقة يؤكـد ماكتب أو جـاء تصـديقاً لما قيل: «هناك كثير مـن الناس يعرفـون أشيـاء كثيرة، لكنهم لايعرفون أنفسهم تماماً».

كيف قام أسقف لنكولن بإحصاء موارد الأجانب في إنكلترا

ووصل أثناء هذا الوقت كله شره الرومـان إلى درجة عاليـة جداً من الضخامة، إلى حد أن روبرت أسقف لنكولن، الذي اعترته الدهشة تجاه

ذلك، أمر محاسبيه بالقيام بإحصاء لموارد الأجانب في انكلترا، ولقد تبين أن البابا الحالي، انوسنت الرابع قد أفقر الكنيسة المسكونية أكثر من جميع أسلافه، منذ التأسيس الأول للبابوية، فموارد الكهنة الأجانب الذين جرى تعيينهم في انكلترا من قبله، مع الذين صاروا أغنياء بوساطة كنيسة روما، بلغت أكثر من سبعين ألف مارك، وأحصي الدخل الصافي للملك، فوجد أنه لايتجاوز ثلث ذلك المبلغ.

حول معاناة رهبان طائفة السسترشيان في إنكلترا

ووجد الملك في هذا العام أن الخلافات التي تفجرت بين النبلاء حول مطاردهم، قد تسببت بالحصول على زيادة كبيرة لخزانته، مع أن ذلك جاء بطريقة مهينة ومخجلة، وقد حدث عن طريق المصادرة التي نالوها، ولهذا أمر بالاعلان بوساطة المنادي، في الأماكن العامة، مثل الأسواق، أن كل من يرغب بالحصول على مطردة، ينبغي أن يتحدث إليه مباشرة حول الموضوع، وأنه لدى دفع مبلغ من المال، تتوجب الاستجابة لطلبه، وبذلك جرى تدمير حقوق وامتيازات عدد كبير من الأشخاص، وهي التي كان قد منحها بصكوك قديمة، وتأكدت بالاستخدام، وبين كثيرين، اعتقد راعي دير ويردون Waredon مع رهبانه، أنه سوف يكون مفيداً لهم امتلاك مطرد، لأن خدم جيرانهم من النبلاء قد حطموا تخومهم وعاثوا فساداً في حقولهم المبذورة، وداسوا على محاصيلهم، وأهانوا الرهبان واعتدوا عليهم، وهم الرهبان الذين تولوا أعمال الزراعة، وكانوا مسؤولين عن الحقول، وبناء عليه دفعوا المبلغ المطلوب من المال، وحصلوا على حق مطردة من الملك، وقد بدا هذا —على كل حال— لوليم بيوشامب Beauchamp انتقاص لحقه وامتيازه، ولذلك استولى على مواشيهم، وقتل وجرح عدداً من رهبانهم، كما تولى بطرائق أخرى إلحاق الأذى بهم، لأنه كان قد تعلم بناء على تحريض زوجته (لأنه كان رجلاً مفتوناً بزوجته وخانع

لها) أن يشنّ حرباً ضد الرهبان، وليس ضد الفرسان، وهكذا فإنه منذ اثني عشر عاماً، استمر بمضايقة الكهنة النظاميين في نيوهام New-ham وظلمهم، حيث برهن عن نفسه أنه كان قاسياً مثل الصخر نحو أولئك الذين توجب أن يكون ولي نعمتهم وحاميهم، وبطريقة مماثلة أيضاً، تصرف بطرس أوف سافوي، الذي أمدته صداقته القوية مع الملك بالجرأة والوقاحة، حيث أقدم دون أن يخاف على تعطيل منافع النبالة القديمة، وخرق النظام القائم للأشياء، ولم يتوقف لمدة عشرة أعوام متتالية عن اضطهاد الدير المقدس في جيرفولكس Jervaulx وهو مؤسسة تابعة لطائفة السسترشيان في شمالي انكلترا، تأسست من قبل وبنيت مع فخامة كبيرة من قبل آبائنا الأتقياء الأوائل، وكان الملك متهماً تجاه جميع هذه الأعمال، وقد عبر بهم وتجاوزهم من دون عقوبة، لأنه بالسماح لهم على هذه الصورة، أصبح طرفاً راضياً، وأما الذين اقترفوا مثل هذه الجرائم، فقد احتفظ بهم من أجل زيارة تفقدية أكثر حدة يقوم بها الانتقام الرباني.

مختصر أخبار العام

وهكذا على هذه الصورة عبر هذا العام، منتجاً للقمح بشكل متوسط وكذلك للفواكه، قاسياً فيما يتعلق بالمرض المميت بين المواشي، ولكي نجمل باختصار أوضاع الشؤون البشرية، كان عاماً مضطرباً بالنسبة إلى جميع بني البشر، وفي الأحوال المضطربة هذه، خاصة بين الشرقيين، كان الأسر غير السعيد للملك الفرنسي، وهكذا نحن نشاهد عندما تلقي عظمة بين مجموعة من الكلاب المتلقفة، يسعى كل واحد منها إلى التقاطها وامساكها، وأثناء صراعهم يقاتل كل واحد منهم الآخر، وهكذا يتصارعون في سبيل عض عظمة، فيعض أحدهم الآخر وتبقى العظمة دون أن تلمس، وكانت الامبراطورية في وضع خطر، مثل مركب من دون ربّان، وجردت المملكة الفرنسية من حكامها،

وباروناتها، وأسلحتها وأموالها، ولم تندب قط من قبل مثل هذه الحالة من الاضطراب والهجران، وديست انكلترا تحت أقدام الأجانب، فحنت رقبتها إلى كثير من السادة، وحرمت من العاطفة الصادقة لملكها، وخضعت إلى أخس الأحوال، وأخذت تتلاشى في يأس وقنوط، والذي كان أعظم سخطا هو البغضاء المميتة التي كانت قائمة فيما بين الكنيسة والناس، حيث ازدادت يوميا.

كيف احتفل ملك إنكلترا بعيد الميلاد في وينكستر

في عام ألف وواحد ومائتين وثلاثة وخمسين، الذي وافق العام السابع والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، كان الملك المذكور في وينكستر أيام عيد الميلاد، حيث أقام الاحتفالات بميلاد ربنا وسط أبهة كبيرة.

حول تطويب بطرس الذي كان واحداً من طائفة الدومينيكان

وفي هذه الآونة أيضا وصل إلى هنا بعض الرسل إلى عند الملك وإلى عند بعض النبلاء، حيث جلبوا معهم أخبارا، بأن واحدا من رهبان الدومينيكان اسمه بطرس، عندما كان يعظ في ميلان، وينتقد من دون خوف الميلانيين بسبب شرورهم وذنوبهم، أو بالحري هرطقاتهم، جرى قتله سرا من قبلهم لتأكيده الحقيقة، وبذلك حصل على الشهادة بمثابة مكافأة، على تصرفه على هذه الشاكلة، ولكي لايبقى نور الحقيقة مخفياً لمدة طويلة تحت المكيال، جعله الرب معروفا فوق البقعة بوساطة معجزات، وعندما تسلم البابا معلومات كاملة حول ماحدث وحول المعجزات قام على الفور بتطويبه وسط أبهة عظيمة.

كيف انتخب الرومان برانكليون شيخاً لهم

وذكر الرسل الذين تقدم ذكرهم أيضا، بأن الرومان قد انتخبوا في شهر آب شيخا جديدا اسمه برانكليون Brancaleon, وكان مواطنا من بولون Boulogne, وكان رجلاً صادقا ومستقيماً،

وكـان جيد المعـرفة في القـانون، كما كان إنسـانا من المستحيل أن يوافق، بأي حـال مـن الأحـوال، على انتخـابه ذاتيـا، مـالم يكونوا قـد أعطوه ضمانات ببقـاء سلطة الشيخ مضفـاة عليـه لمدة ثلاثة أعـوام، وذلك على عكس قوانين المدينة، وعـلاوة على ذلك طلب من كل مواطـن صاحب نفـوذ ضمانـة معتـدلة، ومن عـامـة أهل المدينة أداء قسم بـأنهم سـوف يطيعـونه باخـلاص بمثـابة شيـخ لهم، لأنه كـان على دراية تامـة بتمـرد الشعب الروماني الـذي غالبا مـاخرج وثار لأقل الأسبـاب والمناسبات، وبعـدما تمّ الحصـول على مـوافقته، وجـرى استقبـاله من قبل المواطنين والناس، فرض عليـه شرط لايمكن خرقه، بأنه يتـوجب عليه أن يحكم المدينة وسكانها بعـدل، وإلاّ فإنه لن يسمح له بالعـودة إلى بولون بجسم صحيح، وعندما جرى أخيرا تنصيبه شيخا لمدة ثلاثة أعوام، أمر ببعض المواطنين الذين كـانوا مشهـورين بالقتـل، والذين أدينوا لإقترافهم هذه الجريمـة نفسها، بـأن يجري شنقهم على نوافذ قـلاعهم، كما أمـر ببعض الذين كانوا عصاة بتعليقهم على أعواد المشانق.

كيف أرسل شعب وينكستر هدية فخمة إلى الملك

وعندما كان الملك على وشك تناول وجبـة طعام أثناء الاحتفال بعيد الميلاد، كما تقدم الذكر، أرسل إليه سكان وينكستر هدية فخمة جدا من الأطعمـة والأشربة، قـد أثارت إعجـاب جميع الذين شـاهدوها، وقـام الملك، حتى يقـدم إليهم الشكر، ففرض عليهـم أن يدفعـوا مائتي مـارك خـلال مـدة وجيـزة من الزمن، مع أنه كـان قـد ولد في ذلك المكان، وهكذا انقلب الاحتفال بالميلاد إلى أسف ونحيب بالنسبة إليهم، ولم يقم الملك وزنا لهذا، وشغل نفسه بالاحتفالات، لكن بما أن سرور هذا العالم نادرا مـامضى من دون منغصات، فإنه مع الضيـوف قد غضبـوا بسبب القرار الذي أصـدره رئيس الأساقفـة ضد الأسقف المنتخب لوينكستر، الذي كـان مضيف الملك، وضد جميع أعـوانه، لأن الأسقف المنتخب لم

يكن قد جرى تحليله بعد، كما لم يتم قبوله لنيل قبلة السلام، مع أن مصالحة كانت قد أقيمت بين الطرفين، وتمّ في ثمانية عيد الغطاس بوساطة التدخل الفعال للملك والملكة —الملك لصالح أخيه الأسقف المنتخب، والملكة لصالح عمها رئيس الأساقفة، مع الذين كانوا مهتمين في تحقيق مصالحة أكثر من سواهم، لأنه أفيد بأن وليم أوف بلنسية، وجون دي وارني Warrenne, كانا متورطين في ذلك العمل من العنف— من التوصل إلى مصالحة كاملة بين الأسقف المنتخب وبين رئيس الأساقفة، وعادا إلى تمام المودة، وقبل الأسقف المنتخب لنيل قبلة السلام من رئيس الأساقفة، لأنه أقسم بشكل علني بأنه لم يعط قط موافقته، على تلك الإجراءات العنيفة، وأنه لم يكن أبدا راضيا بهم، لكن جرى تنفيذهم من دون معرفته، وضد رغبته، وبذلك جرى تحليل الأسقف المنتخب من قرار الحرمان، وفي سبيل عدم بقاء أي أثر للغضب بسبب ذلك الخلاف، تمتع جميع الذين شاركوا في تلك الإجراءات العدوانية، بمنفعة التحليل الكامل، وبات على هذا واضحا كل الوضوح من خلال خاتمة هذه القضية، وحيث تمّ تجاوز جميع المضار التي تقدم ذكرها، دونما عقوبة، وعفي عنها، مدى اهتمام الأساقفة والآخرين واخلاصهم لإعادة تأسيس السلام بين هاتين الفئتين، وأن القضية جرى ترتيبها، بدون شك لأن الملك قد وعد دوما في إظهار نفسه محبذا لجميع الذين كانوا الواسطة في تحقيق هذه المصالحة، وأنه ميال دوما لتلبية رغباتهم، ولذلك حملوا أنفسهم بثقة أكبر للقيام بمناقشة الشؤون الصعبة التي تقدم ذكرها، أي منح المساهمة التي تقدم ذكرها أعلاه، شريطة مراعاة شروط «الماغنا كارتا»، وتوصلوا أخيرا، وبعد كثير من المناقشات إلى قرار بالموافقة، لكن ليس على الاسهام الكبير حسبما جرى طلبه، بل على منح مبلغ محدد، وتقديمه تطوعا، مع مساعدة فعالة إلى الملك، إذا ماقام، حسبما وعد مرارا بالإقلاع عن إلحاق الأذى بالكنيسة وظلمها، وفق الطريقة التي اعتاد أن

يعملها، وأن يصغي إلى الآراء المفيدة لرعاياه الطبيعيين، الذين ضغطوا بإلحاح عليه ليفعل ذلك، وتضرعوا حتى يستجيب لهم، ورد الملك على هذه الاقتراحات بالترحيب، وأضاف أنهم إذا ماوجدوا من خلال تقصي صحيح واكتشفوا، وكتبوا إليه بشكل سري وخاص حول قضايا كل تجاوز، هو سيقوم بعمل كل ماهو ضروري من اصلاحات، وجرى تحديد يوم لنشر جميع الشكاوى، حتى يتمكن بمشورة الجميع بشكل عام، من اصلاحهم وتقويمهم جميعاً، ولذلك شعروا بآمال كبيرة بأن الملك سوف يتجاوب بكرم منه مع جميع رغباتهم، لأنهم قاموا عند التقدم بهذا الطلب المستعجل بغفران جميع ذنوب أخيه، الأسقف المنتخب لوينكستر، كما تقدم ذكر ذلك، وأعادوا تأسيس السلام تماماً، لأنه حمل الصليب، وقد تطلب مثل هذا العمل التواضع والاستقامة والعدل، وبسبب أنه بات في سن أكثر نضوجاً، ومجدداً لعله يتعلم وينال التوجيه والدرس من مثل أبيه، وأخيراً بسبب أن الكنيسة قد وعدته الآن عن طواعية بالمساعدة، وتوفرت هناك عدة أسباب كثيرة تعلل رضوخه ورضاه، واقدامه بسرعة على الاذعان لمطالبهم، وإن واحداً من الأسباب الأكثر إقناعاً هو الذي رأينا من الموائم اقحامه في هذا المجلد:

في الأيام التي كان فيها القديس ادموند يحكم كنيسة كانتربري، جرى منح الملك واحداً من الاسهامات، وجاء ذلك بناء على طلبه، وقد أقسم (واضعاً يده اليمنى على الأناجيل المقدسة، وممسكاً شمعداناً شموعه مشتعلة بيسراه، أثناء إملاء رئيس الأساقفة المذكور صيغة القسم عليه) أنه سوف يقوم من ذلك الوقت فصاعداً، من دون تعليلات بمراعاة أحكام الصك الذي جرى منحه مرارا إلى رعاياه من دون خرق، وأنه لن يسمح لنفسه بالتورط في شباك أية تصريحات زائفة تصدر عن أي مستشار ماكر مخادع، وفي ذلك الوقت أيضاً، التحق عدد كبير جداً من الأساقفة الذين كانوا موجودين وقتها، برئيس الأساقفة، وهم يحملون

شمعدانات شموعها مشتعلة، وشاركوه في إنزال عقوبة الحرمان الكنسي بكل واحد سوف يخرق الصك، أو يقوم بتفسير ماورد فيه بشكل خاطىء، وتأكيداً على الموافقة على القرار الذي جرى التفوه به، قام جميع الذين كانوا هناك، حتى الملك نفسه، فرددوا مؤمنين قائلين: «ليكن ذلك هكذا، ليكن ذلك هكذا»، ثم جرى إلقاء الشموع واطفائها، حيث صدرت عنها رائحة بشعة آذت آناف الذين شموها ممن كانوا واقفين هناك، وبناء عليه ردد رئيس الأساقفة قائلاً: «وهكذا ومثل هذا تهلك النفوس المدانة، وتصدر عنها مثل هذه الرائحة البشعة، أي نفوس الذين سوف يخرقون الصك المذكور، أو يفسرونه بشكل خاطىء»، وقام الملك بحماس أكبر من حماس الآخرين، وردد مراراً بصوت مرتفع قوله: «آمين، آمين»، وجرت هذه الأعمال في بيعة القديسة كاترين في ويستمنستر، ولم يقم الملك على كل حال، حسبما قرأنا في العهد القديم، في قضية بعض الملوك الحمقى، بتدمير الأماكن العالية، بل جمع المال، وبدده بتبذير، مع أنه جمعه ضد القرار العام، ووفق الطريقة نفسها تصرف مرة ثانية، والآن من جديد، في العام الحالي، ولكن بما أن هذا التصرف عمل أحمق وفيه اسراف، وقد جرى تكراره مراراً، لايمكن (مما نأسف له) عدّه إثماً عظيماً.

مغادرة المعلم ألبيرت

وكان المعلم ألبيرت ينتظر الآن الحصول على جواب للرسالة يحمله إلى البابا، وقد قام الآن بالاستعداد لعودة سريعة إلى الوطن، لأن البابا لن يعطي بأي شكل من الأشكال مساعدة إلى الايرل رتشارد من ماله، أو سيعطيه قلاعاً ليتخذ منها مقراً له، أو رهائن عليهم يمكن أن يعتمد وهو واثق، ولذلك استمع الايرل رتشارد إلى النصيحة الأكثر حكمة، وإلى اقتراحات صديقه كونراد، وبقي هادئاً، ثم إن البابا عندما وجد نفسه غير قادر على اضعاف حذر الايرل وكثرة شكوكه، التفت إلى

استخدام الحجج الأكثر مخادعة، مع نية أن يستغل بساطة أخي الايرل وسذاجته، أي الملك، ولسوف نوضح في الصفحات المقبلة، مدى النجاح الذي حققه في هذه المسألة.

حول طرد اليهود من المملكة الفرنسية

ووصلت في هذه الآونة أوامر من الملك الفرنسي الذي كان موجودا في الأرض المقدسة، قضت بوجوب إخراج جميع اليهود الموجودين في مملكة فرنسا وطردهم، وإدانتهم بحكم نفي دائم، مع —على كل حال— الاستثناء التالي: «لكن كل من كان منهم راغبا في الإقامة، إذا كان تاجرا أو حرفيا، عليه اشغال نفسه بالتجارة وبالحرف»، لأنه قد ألمح إلى ذلك الملك من قبل المسلمين، بأننا نمتلك قليلا من الحب أو الاحترام لمولانا يسوع المسيح، لأننا سمحنا لقتلته بالعيش بيننا، وبناء عليه بادر السماسرة بكل سرعة فاستولوا على أماكن ومكاتب ووظائف اليهود المنفيين.

موت راعي دير القديس أوغسطين في كانتربري

وفي هذه الآونة، كان أيضا راعي دير القديس أوغسطين، على وشك الموت، فقام الملك حتى يظهر كم كان قليلا مانواه من أجل احترام صك الحقوق الذي تقدم ذكره ورعايته، قام باستخدام زبانيته، بنهب مقتنيات تلك الكنيسة، إلى حد تدميرها النهائي، ومن دون حياء أو خجل خرق البنود الأخرى للصك نفسه، ونفّس عن غضبه وأظهره ضد الأساقفة، والنبلاء، والمواطنين في لندن، وقام رهبان ذلك الدير، فركزوا جهودهم بكل سرعة لانتخاب قائد جوقة المرتلين حتى يكون راعيا لديرهم، في سبيل وضع حد لعمل السلب ذاك، ووجد هذا بعد انتخابه صعوبة حتى استطاع تجهيز نفسه بالضروريات اللازمة مما هو موجود في تلك الكنيسة، وذلك بعدما دفع غرامة إلى الملك، وبما أن

ثروة الكنيسة جرى تبديدها على تلك الصورة، وجد الرهبان صعوبة في الانفاق على عيشهم لمدة خمسة أعوام تالية.

حول الخسارة والإهانة التي ألحقت بكنيسة القديسة مريم في يورك

وحوالي هذا الوقت نفسه، عانى راعي دير القديسة مريم في يورك، ورهبان كنيسة الدير نفسه من خسارة ثقيلة، ومن إهانة كبيرة، وذلك بموجب أحد الصكوك الذي حكم بأنه كان لاغياً من قبل خصومهم، الذين كان المقدم بينهم جون الفرنسي، وكان محاسباً لدى متسلم خزانة الملك، وفي الحقيقة كان من المعتقد، أن حقيقة الأمر هو هذا جون نفسه، الذي كان قد ولد في الشمال، كان متشوقاً وراغباً في أن يزيد موارده في هذه المناطق، اعتماداً على ممتلكات تلك الكنيسة ومن خلالها، وهو لذلك حقق الوصول إلى تلك النتيجة، مع تقدير قليل لصالح نفسه، وذلك حسبما كتب: «ويل للإنسان الذي من خلاله جرت أية فضيحة»، ثم إن الرهبان أرغموا على دفع مبلغ ضخم من المال إلى الملك، وعلاوة على ذلك لقد فقدوا إلى الأبد أراضيهم ومواردهم الغنية، وجنوا عاراً لايمكن غسله، وأخيراً تفرقوا، وفي الوقت نفسه آلت حال تلك الكنيسة إلى الاضطراب، وتركت عرضة للخوف والدمار، وبطريقة مماثلة أيضاً، وللسبب نفسه، تسبب جون، المضطهد المتقدم ذكره (الذي حرمه الرب المنتقم من إحدى عينيه، لآثامه المتقدم اقترافها) بخسارة لايمكن تعويضها، وبدمار لايمكن جبره للدير الموجود في سلباي Selby.

استباحة مدينة تيفولي من قبل الرومان

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الرومان، بسبب وقاحة سكان مدينة تيفولي Tivoli وتجبرهم باستباحة تلك المدينة، حتى أوصلوها إلى حالة

الدمـــار، وأرغم السكان نتيجــة لذلك، ولكـي ينقـذوا حيـــاتهم، على الذهاب إلى روما عراة حفاة، يرجون الرحمة.

حول زواج إيرل غلوستر من ابنة أخي الملك

وفي هذا العـــام أيضـاً، وبنـاء على خطط البـواتيين الـذين حلوا محل الانكليـــز المحليين، ورغبـة منهـم بانحطاط جميع نبـــلاء المملكة، وبهذه الطريقـة تدمير جميع الأسر الشرعيـة الانكليـزيـة، حتى يمكن تدميرهم نهائيـاً، ولمزج دمهم النبيل مـع الدم الفـاسـد للأجـانـب، وقـد شعـروا بالأسى لأن من بين النبلاء لم يتلـوث رتشارد ايرل أوف غلوستر وولده بهذا المصدر السام، وكـان هذا الايرل شاباً، ووسيماً، وفصيحاً، وحكيماً، وبارعـاً في قـوانين البـلاد، ولذلك كـان من جميع الجوانب مـوضع أمل جميع نبـلاء انكلترا، وعليـه رست بثقـة جميع هذه الآمـال، وقـد امتلك الحظوة لدى الجميع، مع طيب الرغبات، لكنهم كانوا مخدوعين جميعاً في آمالهم هذه، لأن الشر، والنهم الذي كان مخفيـاً منذ مدة طويلة لديه، قد انكشف الآن وظهـر تمامـاً، مما أسـاء كثيراً إلى نبالتـه، وقـد شعـر الملك آنذاك بنهمـه (لأن الايـرل كـان تحت وصـايتـــه لسنين طوال)، ولذلك خاطبه قائـلاً: «عزيزي الايرل، لن أخفي عليك بعد الآن الرغبة السرية لقلبي، وهي أن أرفعك وأغنيك، ولأن ارتقي بمصـالحك، بتزويج ابنك الشرعي الأكبر سناً من ابنة غي كـونت أنغـوليم، الذي هو أخي لأمي، وإليك سوف أبرهن عن سخائي باعطائك خمسة آلاف مارك، بها يمكن أن ترتقي زوجة ابنك إلى مستوى يتماشى مع المستوى الملكي، وذلك كما هو لائق بسيـدة من أصل ملكـي»، وبمـوجب هذه الإثارة، ثم لتـوفـر النهم (الذي هو وحده بين جميع الشرور يمثل العبودية للأصنام) أصبح الايرل منذ تلك اللحظة منحطـاً، وسقط من النبـالة لأجـداده، وأعطى مـوافقته على المال، وكأنه كـان تاجـراً أو مـرابياً، نعم لقـد وافق على أن يتزوج ابنه الشرعي ووريثـه من فتاة، أو بالحري من طفلة، كانت خـالية

من الإيمان والجمال (فهذا مايمكن استخلاصه فرضيا من الشكل المعهود للبواتيين)، وهي قد ادعت التحالف مع الفضائل الملكية، إنما في بعض المناسبات، وحسب المقتضيات، وبما أنه لم يكن ذلك المال المتقدم ذكره متوفرا بين يديه، أي الملك (لأنه عهد لنفسه بعادة تبديد الأموال التي كان ينهبها في جميع الاتجاهات) قام بالرجاء —لكن بطريقة ملكية— إلى رعاة ديرة: القديس ألبان، وردنغ، ووولثام، بأن يكونوا الكفلاء له عند ايرل غلوستر من أجل دفع المبلغ المتقدم ذكره، وكان هذا لايمكنهم قبوله ولاأيضاً رفضه، لأن من الذي يمكنه ارغام الملك على الدفع، إذا ماقاوم؟ كما أنه التمس بتوسل من الاسبتارية والداوية التعهد بالقيام بذلك الواجب، وقد رفضوا بشكل مكشوف أن يفعلوا ذلك، وأعلنوا أنه ليس بمقدورهم القيام بذلك، فأصبح الملك غاضبا، وتفوه بتهديدات مرعبة ضدهم، وأثناء غضبه صرف الراهب روجر الداوي وعزله من وظيفة جمع الصدقات، وطرده من بلاطه، وفي مناسبات أخرى نصب عندما تأتّى له ذلك شباكه الماكرة للداوية والاسبتارية، وبالاضافة إلى ماتقدم كان الملك مداناً بمبلغ كبير من المال إلى سيمون ايرل ليستر، لتخليه عن صك الولاية الذي كان بين يديه من الملك، والذي ولاه بموجبه حكومة غسكوني لمدة خمسة أعوام.

كيف ادعى ملك إسبانيا الحق في غسكوني

عندما علم ألفونسو، ملك اسبانيا، بأن سيمون ايرل أوف ليستر، قد ترك غسكوني، وتخلى عن صك ولايته وحكمه لها، ادعى على الفور، بأن تلك الولاية عائدة له شخصيا، وقد فعل ذلك بثقة كبيرة، لأنها تركت وحيدة لتحكم من قبل الطفل ادوارد، لأنه وفقاً لكلمات لوكان: «إن عمر طاغية النيل مصدر شك كبير، ذلك أن الثقة الدقيقة تستدعي عمراً ناضجا».

ولدى معرفة الملك المتقدم ذكره أعلاه بحقيقتي، بأن الايرل، الذي

كـان رجـلا محاربا، قـد ترك، وأن طفـلاً جـرى تعيينه حـاكماً لها، التمس حظـوة الحبر الأعظـم، حتـى يجري السماح لـه، دون إلحاق أي أذى بالكنيسة، حتى يطلب حكمهـا، ويسترد تملكها بالقـوة، لأنها كانت ملكاً له، بموجب منحة من الملك هنري الثاني ملك انكلترا، وهو يمتلك صكاً بتلك المنحة، جرى تأكيده من قبل كل من الملكين رتشارد، وجون، وبناء عليه دعا ملك قشتالة إلى مساعدته رجلاً مسكونيا من نسب رفيع، وكان قـوياً اسمـه غـاستـون Gaston، كما دعـا نبـلاء آخـريـن من تلك المقاطعة، ولقد كان هناك كثيراً من نبـلاء غسكوني وقفوا إلى جانب قضية ملك اسبـانيـا (وتخلوا عن ملـك انكلترا)، وكـان فـوق الجميع، الرجـال الأغنيـاء، الذين اعتادوا على ارسـال خمورهم للبيع في انكلترا، وهي خمور لم يخجل ملك انكلترا مـن الاستيـلاء عليهـا، والاحتفـاظ بها من أجل مسراته، ولدى مشاهدة شعب بـوردو، الذين بقيوا مخلصين للملك، هذه الإجـراءات، بعثـوا رسـالة إليـه بكل سرعـة، بأنه إذا لم يقم بكل سرعـة وبشكل فعـال، سوف بلا شك يفقـد غسكوني كلها، وأنها سـوف تعطى لغيره ويتم التخلي عنها، لصالح ملك قشتالة، الذي يدعي الحق بها كلها، ويأمل باستحـواذها، وحزن الملـك لدى سماعه بهذا، وتندم قلبيـاً —لكن ذلك جـاء متأخـراً كثيراً— لأنه استـدعى الايرل سيمـون وعـزله عن حكومة غسكوني، وكان ذلك الايرل حتى لايتعرض للاحراج عن طريق التماسـات الملك، ليعـود إلى غسكوني، غادر إلى فـرنسـا، حيث احتفظ به نبلاء تلك المملكة راغبين، واقترحوا عليه، بما أنـه كان جريئاً ومخلصاً، أن يتخـذوا منه قهـرمـاناً عليهم، يتـولى نصيحتهم في سبيل منفعتهم ومنافع المملكة، التي كـانت مهجـورة وفي وضع يائس، بسبب غيـاب الملك، وموت الملكة بلانشي، ورفض الايرل بثبات الموافقة على هذه الخطة، حتى لايظهـر كأنه خائـن، لأنه كما قال الرسـول: «احفظ نفسك وأبعـدها عن جميع مظاهر الشر»، ولأنه عزل عن غسكوني، التي امتلك صكاً بولايتها، راقب تلك الإجراءات بحذر وصمت مع نظرات متغاضية.

حول القيود في قضية الزيارات التفقدية

وفي هذه الآونة، أمر البابا أيضاً، بتقديم ترضية للطائفتين المتنازعتين حول مسألة الزيارات التفقدية، ورسم بشكل حكيم ومعتدل، ووجه بوجوب أن يقوم رئيس الأساقفة والأساقفة، الذين يمتلكون حق القيام بزيارات تفقدية، بالزيارات التفقدية المعتادة والموائمة، لكن في ظل تفاهم أن لايتعرض المزارين للظلم، وأن لايتضايقوا أو ينكل بهم من قبل المتفقدين لهم، وحدد وبيّن مقدار نفقة كل زيارة تفقدية، حسبما جاء في الرسائل المودعة في كتاب Additaments.

كيف عبر بعض النبلاء البحر من أجل تنفيذ الزواج الذي تقدم ذكره أعلاه

ومع اقتراب حلول ربيع العام نفسه، انطلق رتشارد ايرل أوف غلوستر، ووليم أوف بلنسية أخو الملك، معاً بأبهة كبيرة، وبفخامة عظيمة، ليضعا موضع التنفيذ، ويقوما بترتيبات أمور الزواج الذي تقدم ذكره، بين أكبر أبناء رتشارد، وابنة كونت أنغوليم، أخو الملك، وقام هذان النبيلان بتوسعة ثوبيهما، واستهدفا الحصول على شهرة في البراعة بأعمال القتال وهما في زهرة شبابهما، فعرضا باندفاع طائش قوتهما وشجاعتهما، وسرعة فرسيهما أمام الامتحان في مباراة مبارزة عقدت هناك، وكان الفرنسيون المحليون بحكم تجبرهم الذي فطروا عليه ساخطين من إقدام شابين ضعيفين وناعمين على الدخول بتلك المباراة بكل وقاحة (لأننا نقرأ بأن هكتور قال لباريس: «المريخ يفرح بالعسكري الشديد»)، لذلك قاموا برغبة شديدة بالدخول في المباراة، وبعدما أنزلاهما أرضاً، وسلبوهما، ضربوهما إلى درجة أنهما طلبا بعد ذلك استخدام الكمادات والحمامات يومياً، وهما على كل حال استحقا القليل من الشفقة، لأنهما كانا مسرعين من أجل تنفيذ زواج كان

مكروهاً من الانكليز، وكانا مليئين بالتجبر، وبالتفاخر الفارغ، وظهر القمر في هذه الآونة قبل أربعة أيام من موعده الذي أعلن عنه.

كيف جرى ارغام اللنديين على دفع مبلغ من المال إلى الملك

وفي هذه الآونة أيضاً، أي أن تقول في الأسبوعين الأول من الصوم الكبير، أرغم الملك لحجة صغيرة مواطني لندن (الذين ندعوهم بالعادة باسم البارونات، بسبب سمو مدينتهم، وللامتياز القديم لمواطنيها) على الاسهام بمبلغ ألف مارك، وجرب شباب لندن في الوقت نفسه قوتهم، وسرعة خيولهم، في لعبة تدعى بشكل عام /Quintain/ حيث اتفقوا على ديك ليكون الجائزة في المباراة،وغضب بعض من أتباع الحاشية الملكية وغلمانها (لأنه كان موجوداً في ويستمنستر) من هذه المباراة، وأهانوا المواطنين، ودعوهم باسم: فلاحين، وضعفاء، وتعساء كالرغوة، ودخلوا على الفور في قائمة المتبارين ضدهم، وبحماس قبل اللندنيون التحدي، وبعدما ضربوهم على ظهورهم بعصي رماح مكسرة، ظلوا يتناولوهم، حتى أصبحت ظهورهم سوداء وزرقاء، ثم ألقوا بجميع أتباع الملك من على ظهور خيولهم، وأرغموهم على الفرار، ثم ذهب الفارون إلى الملك، وأيديهم متشابكة، ودموعهم منهمرة، والتمسوا منه أن لايدع هذا العدوان الكبير يعبر من دون عقوبة، ولجأ هو إلى طريقة انتقامه المعتادة، فاستخرج مبلغاً كبيراً من المال من المواطنين.

حول مراسيم من أجل تقوية المملكة

وفي تلك الآونة أيضاً، أي في أيام الصوم الكبير، انتشرت أخبار، تبينت صحتها، أفادت بأن الغسكونيين تحدثوا بوقاحة فيما بينهم أنفسهم قائلين عن ملك انكلترا: «إننا لن نقبل به حتى أن يحكمنا، لأنه رجل غير عادل، وهو رجل لايحافظ على وعده، ولاعلى يمينه، ولاحتى على

بنود صكوكـه»، ووصلت بعد أيام أخبـار بأن لى راؤل La- Raole,
في غسكوني والقـديس اميليـون Emilion وعـدة قـلاع أخــــرى،
جرى الاستيـلاء عليها، وضاعت لغير صالح الملك، وأن مـذبحة كبيرة
قد وقعت بين السكان، وارتعب الملك إلى درجة عالية، خشية أن يحدث
بمثل هذه الخسائر أن تصبح غسكوني كلهـا عرضة للخطر، مثلما حدث
مـؤخـراً في قضيــة بواتو، (لأن هـاتين المملكتين هما بالفعل الحارسين
والحاجزين للمملكة الانكليزية كلها) ولذلك أصدر مرسوماً، وأمر بأن
يعلن بوسـاطة صـوت المنـادي في جميع أرجـاء انكلترا بشكل عـام، كما
جـرى ارسال أوامـر مكتوبة إلى كل منطقـة من المناطق، أنه تبعاً للعـادة
القديمة، يتوجب تقـديم مايكفي من كميات الأسلحة إلى السكان، وأنه
ينبغي حشـدهم، واجـراء احصاء عـام، من أجل تأمين عـدد كـاف من
الرجال المقتـدرين، وتجهيزهم وفقاً لامكـانات كل واحد منهم، وأن كل
من يمتلك خمس عشرة حصـــة أرض محررة، ينبغي أن يكون فـــارسـاً،
وعـــلاوة على ذلك، ينبغي أن يكون في كل مـــدينة، أي بقـــدر امتـــداد
حـدودها القضـائية، حـراسـة معينة، يشرف عليهـا رجال ذوي حكمـة
واستقامة وحذر، من أجل أن يتولوا حـراسة القرى والشوارع وطرقات
الدخـول والخروج، وفضـــلاً عن هذا أصـدر الملـك، بناء على نصيحـة
السافـويين مرسومـاً ووجه أنه إذا ما كـان أي إنسان مسافـراً، وتعرض
للنهـب، أو لـلأذى بأي شكـل مـن الأشكـال مـن قبل قطـاع الطـرق،
يتـوجـب على الذين قـد أوكلت إليهـم مهـام حـراســة ذلك الجزء من
المقـاطعة، والذين تعتمـد عليهم بشكل خـاص، أن يقدمـوا تعويضـات
كـافية للفئة التـي تعرضت للأذى، وعليهـم أن يعيـدوا إليهم الذي فقـد
تبعـاً لأعـراف السافـويين، ويعني ذلك أن الأشيـاء إذا مـا حملت بعيـداً
وسلبت، عليهم ملاحقـة ومطاردة مقترفي الآثام، وتنظيف المنطقة منهم،
ولقـد بدا واضحاً إلى كثيرين، أن هذه الخطة من غير الممكن تنفيـذها في
هذه البلاد، مثلما هي مطبقـة في سافـوي، لأنه في بلاد سافـوي لايوجد

مثل هنا الكثير من الجوانب الواقعة قرب الطريق، والعديد من الأحراج، أو مثل هذه الكثرة من الغابات والأشجار، كما أنه ليس موجوداً هنا بسبب الجبال الوعرة والتي لايمكن الوصول إليها، طرقاً مفتوحة، بل مجرد ممرات مطروقة فقط، حيث لايمكن لقطاع الطرق المحافظة فيها على أنفسهم بشكل موائم بعيدا عن الطرق، أو اخفاء أنفسهم، ونتيجة لذلك كان من السهل اعتقالهم، وبالاضافة إلى هذا ماالذي يمكن قوله، أو كيف يمكن البرهنة على أي شيء من دون شهود؟ وهكذا إنه نظرا لتوفر بعض عدم الرضا، أعيقت القضية، أو بالحري لم تحقق أية نتيجة، والسبب الأول لذلك، أن مثل ذلك التغيير الكبير في القانون، لم يكن من الممكن إحداثه بشكل فعال من دون موافقة عامة للبارونات.

وفاة رتشارد دي ويتز أسقف شيستر

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في الثاني من نيسان، مات المعلم رتشارد دي ويتز Witz أسقف شيستر، وكان رجلا متميزاً في علمه، وبقداسة محمودة، وكان من قبل كاهنا ومستشاراً خاصا لدى القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، وهو قد حاول أن يسير على أثره ويقلده خطوة خطوة، وكان ادموند المبارك قد تنبأ لهذا الأسقف بالوصول إلى مرتبة الأسقفية، وقد ذهب إلى بونتني في الوقت الذي كان سيجري فيه نقل القديس المتقدم ذكره، من أجل أن لايكون مثل ذلك الصديق الخاص للقديس غائباً عن حضور مثل تلك المناسبة المهيبة والمقدسة، وفي الحقيقة كان هو على علاقات طيبة مع القديس، وكان على اطلاع على جميع أسراره، التي غدت الآن كلها مكشوفة في سبيل تنوير الجميع، واعتماداً على ماذكره هذا الرجل مع الذي أورده الراهب روبرت بكيون Bacon, الذي كان من طائفة الدومينيكان، تمكن الراهب متى باريس، الذي هو راهب في كنيسة القديس ألبان، من كتابة

سيرة حياة القديس ادموند المذكور، كما أنه صنف بعناية الذي عرفه عن طريق أناس كانوا بلا شك موضع ثقة، وكل من أراد الاطلاع على ذلك الكتاب يمكنه أن يجده في كنيسة القديس ألبان.

تجدد الاضطرابات بين الغسكونيين

وفي حوالي حلول يوم عيد القديس إلفيجي Elphege, وجد الرعايا الخونة للملك في غسكوني، أن غياب الايرل سيمون، وأي واحد يمكن أن يضبطهم ويؤدبهم، قد منحهم الفرصة للتحرك بحرية للتعبير عن غضبهم وحماقتهم، فشرعوا مثل حيوانات مفترسة، أو مهرة غير مدجنة، يتصرفون بطيش، ويضايق كل واحد منهم الآخر، فهاجموا القلاع، وأسروا الأتباع وسجنوهم، وحولوا إلى رماد مساكن بعضهم بعضاً، وتسببوا في موت السكان، وكان بينهم وأعظمهم دوراً هو غاستون حاكم بيرن Bearn وبيريغورد Perigord, وكان رجلاً ملطخاً باقتراف كثير من الجرائم، وكان من الرعايا المقسمين على الاخلاص للملك، لكنه جرد نفسه من ذلك وحنث بقسمه، ومع أن ملك انكلترا وفره ولم يقم بإدانته، فقد قام في سبيل مضايقة هذا الملك وإغضابه أكثر، بالتحول إلى جانب ملك اسبانيا، ثم قام هذا الرجل باجتياح شطر كبير من غسكوني، وأثار الأعداء وشجعهم على التمرد ضد مولاهم وسيدهم ملك انكلترا، ولذلك باتت بوردو التي كانت بالعادة تزود غسكوني كلها بالمؤن، هي نفسها تعاني من العوز.

كيف جرى نهب بضائع الفقراء

نال الملك في هذه الآونة كراهية لايمكن إزالتها، وجلب إلى نفسه اللعنات المرعبة لكل من السكان المحليين والأجانب، وقد تزايدت هذه اللعنات وأسبابها يومياً، لأن عمد المناطق والوكلاء الملكيين، عملوا شغلهم الدائم، اعتماداً على حجج مخترعة أو أسباب أخرى، القيام

بإفقـــار كل من يمكنهـم افقــارهم، أو بالحري نهبهم، وصــار الآن في انكلترا كثيراً من الملوك المستبدين، كل واحـد منهم لديه الرغبة بالسلب والنهب، وأعتقـد أنه خطير ومزعج الإقـدام على تسميتهم، فقد سلبـوا من الفقـراء، وبشكل خـاص من البـاعة والتجّـار خيـولهم، وعـرباتهم، وخمورهم، ومـــؤنهم، وأقمشتهم، وشمعهـم، والحاجيـات الأخـــرى الضرورية، لابل إنهم أرغموا المنهوبة بضـائعهم بالاكراه وضد إرادتهم، على نقل البضائع المسلوبة إلى أماكن نائية، دون إعطائهم أجراً، ولاحتى شكراً فـارغـاً مقـابل أتعـابهم، وقـد عثـروا على أخطاء من دون سبب، ففرضـوا غرامـات ثقيلة على البلدات، واحتجوا بـوجود موازيـن زائفة وكذلك مقاييس، فاستخـرجوا المال من الأبرياء، وبما أن الخمور جلبت للبيع من قبل الغسكونيين، وقـد جـرى الاستيـلاء عليهـا، من دون أية مـدفـوعـات، فـإن الذين جلبـوها، عـادوا بأيدي فـارغـة إلى بلادهم، واشتكوا إلى جميع سكان مناطقهـم، ونتيجـة لذلك جنى الملك كـراهيـة عامة.

حول منح امتياز عظيم إلى كنيسة وولتهام

وفي أيام عيـد الفصح، من هذا العـــام نفســه، قـام الملك تقـديراً منه لقداســة كنيسة وولتهـام Waltham وللكرم الفخم الذي أظهره راعي الدير مع رهبان دير وولتهـام، ولذلك منح وثبت ما كـان ممنوحاً من راعيه، من خلال وفاة الراعي أو استقالته، أن يقوم الرهبان بناء على إرادتهم ولصــالحهم، ولامتـلاكهم السلطة الكاملة: التصرف بالبـارونيـة وبالممتلكات الأخـرى للدير، ولهذه الغـاية منحهم صكاً نظاميـاً كامـلاً، وكان هذا الامتياز قـد حصلوا عليه منذ زمن قديم مضى، إنما من أجل ضمانة أعظم، منحهم الملك إياه مجدداً وأكده لهم، وقد منحهم أيضاً حق عقد سوقين، وأنعم عليهم بمنافع أكبر، هذا وجرى عرض هذه الأشياء كلها مع محتويات الصكوك كاملة في كتاب Additaments.

كيف طلب الفرنسيون المشورة والمساعدة من الإيرل سيمون

ومع اقتراب حلول عيد الفصح، تفحص النبلاء الفرنسيون وقدروا كيف أن مملكة فرنسا كانت محرومة من وجود حاكم لها، وأنها كانت عرضة لخطر عظيم، وذلك بسبب غياب الملك الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وكذلك بسبب وفاة الملكة بلانشي، يضاف إلى ذلك أيضاً خسارة نبلاء فرنسا الذين قتلوا في الأرض المقدسة، فحولوا انتباههم نحو الايرل سيمون، لأنهم رأوا اخلاصه، ونبالة عقله، وأنه تعلم حتى يحذو مثل والده في جميع الأشياء، كما أنهم رأوا أنه قد تحرر من حكومة غسكوني، فالتمسوا منه ورجوه أن يقوم بالاقامة بينهم، حتى يصبح واحداً من الأوصياء على التاج وعلى مملكة فرنسا، وأنهم سوف يكدسون التشريفات عليه بمثابة تعويضات مجزية، ذلك أنهم أكدوا أنه كان مثل والده سيمون الذي قاتل لصالح الكنيسة ضد الألبينيين، ولأنه أحب مملكة فرنسا من قلبه، كما أنه لم يكن غريباً بالنسبة لفرنسا من حيث الأصل، وأرسل الفرنسيون مرتين رسائل من أجل هذه الغاية مع رسل خاصين، إلى الايرل، لكنه رفض بثبات الاستجابة لطلبهم، حتى لايبدو وكأنه مرتد.

كيف دعي البابا إلى العودة إلى وطنه من قبل الرومان

وفي هذه الآونة، أرسل الرومان رسلاً خاصين، ليتقدموا بالرجاء إلى البابا حتى يعود إلى روما، ليعين رعيته مثل راع صالح، ولكي تبتهج روما بوجود حبرها (لأنه حمل لقب الحبر الروماني) مثلما فعلت المدن الأخرى، حيث تمتعت كل منها بوجود أسقفها، وقد ظهر للرومان —وحق لهم أن يظهر— أنه من غير الطبيعي أن تكون روما لوحدها —التي كانت تدعى باسم «ملكة المدائن»— محرومة لمثل تلك المدة الطويلة من وجود كاهنها الأعظم وحضوره فيها، هذا وكان البابا فاغراً فمه لتلقي الهدايا من هؤلاء الذين جاءوا إليه، وفتح صدره لتسلم جميع

أنواع الأعطيات، لكنه وإن بدا مرتاحاً، كان غير مستقر عندما كان موجوداً بين الناس على هذا الجانب من الجبال، ولأنه تأخر عن القدوم، دعاه الرومان مرة ثانية، كما فعلوا من قبل، لكن بإلحاح أكثر ومع شرط أن عليه أن يأتي إليهم أو أنه لن يأتي أبداً، وعندما شاهد بأن الخطر محيق به، خاصة عندما أرسل الرومان رسالة إلى أهل بيروجيا، بأن لايحتفظوا بالبابا أية مدة أطول، مع التهديد أنهم إذا فعلوا ذلك سوف يحاصرون ويدمرون، وقتها غادر بيروجيا في شهر أيار، وبادر مسرعاً إلى روما خائفاً مرتعداً، ولقد همس إليه بأن الرومان والميلانيين يطالبونه بدفع مبلغ كبير من المال، مستحق لهم مقابل ماأنفقوه في شن الحرب ضد فردريك وفي حماية الحقوق البابوية واللاهوتية، وبناء عليه إنه وإن كان قد شد حذاءه تحت ملامح هادئة، لقد عاد إلى مدينته وهو يشعر بالخوف والقلق، وعلى كل حال استقبله الشيخ والشعب الروماني بالبهجة.

حول البارلمان العظيم الذي عقد خلال أسبوعي الفصح

في أسبوعي عيد الفصح، في شهر أيار، جرت دعوة نبلاء انكلترا للاجتماع مع بعضهم، بموجب قرار ملكي، وتوجب اجتماعهم في لندن، للتباحث مع الملك حول بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالمملكة، وحضر في هذا الاجتماع والتقى عدد كبير من الايرلات، والبارونات، وكذلك بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، مع جميع أساقفة انكلترا تقريباً، أما بالنسبة لرئيس أساقفة يورك (الذي كان بالعادة يتجنب الالتحاق بالملك في المؤتمرات، بقدر ما كان يستطيع، لأنه وجد بالغالب أنها كانت مؤتمرات بلا فائدة عملية) فقد اعتذر عن الحضور، بحجة كبر السن، وعيشه على بعد كبير، وكان سوء صحة أسقف شيكستر مسوغاً لعدم حضوره، وكان كرسي شيستر في تلك الآونة شاغراً، وبعد مناقشات طويلة كانت بلافائدة، حيث جرت حول الحاجة الضاغطة

للملك، الذي طالب بمبلغ كبير من المال من أجل حجه، وبعد القيام فجأة بتوزيع رسائل بين الفئتين، تمّ الحصول على الموافقة، ثم جرى ارسال رئيس أساقفة كانتربري، وأسقفي سالسبري، وكارآيل، والأسقف المنتخب لوينكستر، إلى الملك، باسم جميع الأساقفة ورجال الدين، لحثه ولاقناعه، بحكم أنه وعد مراراً، وأقسم بالتنفيذ أيماناً مهيبة، أن يسمح للكنيسة المقدسة أن تتمتع بجميع امتيازاتها، خاصة فيما يتعلق بقضية الانتخابات، الموجودة بشكل أساسي داخل الامتياز اللاهوتي، لأنه في الوقت الحالي، من غير الممكن ترقية أي واحد في الكاتدرائيات، أو في الكنائس الديرية، مالم يكن قد فرض عليهم بوساطة الملك، ولهذا السبب فإن الأساقفة والمتعلقين بهم قد لحق بهم الدمار، وتأذت الكنائس بصورة مرعبة، وقد قالوا بأنه إذا ما أقدم على تقويم هذا مع بعض التجاوزات الأخرى، تماشياً مع بنود الصك العظيم لامتيازاتهم، فإنهم سوف يوافقون على مطالبه، مع أن ذلك سيلحق بهم أذى كثيراً، وعلى هذه الاقتراحات أجاب الملك قائلاً: «إن الذي ذكرتموه صحيح، وأنا حزين وآسف لأنني تصرفت على هذه الصورة، وبناء عليه ينبغي أن يتم الترتيب الآن أن يجري تصحيح الذي عمل، وأن لاتتخذ مثل هذه الإجراءات في المستقبل، وكونوا أنتم أيها الأساقفة معي، بحكم أنكم ترقيتم على هذه الصورة، حتى لاتتعرضوا للأذى، أنتم والذين هم رعية لكم، لأن عليكم أن تتذكروا، أنني أنا الذي دفعت إلى المقام العالي الذي هو فيه الآن بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وأنت ياوليم أسقف سالسبري، أنا الذي ارتقيت بك من درجة منخفضة كثيراً، لأن تكون الكاتب لصكوكي، ولقد عملت كثيراً من الأحكام المرعبة عندما كنت تعمل بمثابة مسؤول عن العدل، وتابعاً مأجوراً، وأنت ياسيلفستر أسقف كارآيل، الذي كنت لمدة طويلة تلتقط فتات المستشارية، وكنت كاهناً صغيراً بين كهنتي، كم من اللاهوتيين والأشخاص المحترمين قد وضعتهم أنا جانباً، لأرتقي بك إلى الأسقفية؟ ومثل هذا بالنسبة لك

ياأخي ايثيلمار، مـن المعــروف تمامـــاً، كيف ارتقيت بك، ضـــد إرادة الرهبـان، ومن دون الاهتمام بصلواتهم وانذاراتهم، ورفعتك إلى رئـاسـة كنيسة وينكستر الفخمة، وذلك على الرغم من صغر سنك وقلة علمك، لابل كـونك مـازلت تحتـاج إلى أستـاذ، وأولاً وفـوق كل شيء، إنه من الموائم لي ولكم أنفسكم، أن تقـومـوا تحت تأثير التـوبة، بالاستقـالة مما حصلتم عليـه بشكل غير عـادل، حتـى لاتعـانوا من إدانـة أبدية، وأنا سـوف أمتلك بمثـل هذا المثـال المسـوغ والدافع، بـأن لاأقـوم من الآن فصـاعداً، بترقيـة أي إنسـان إلى منصب ليس هو جـديراً به»، وعلى هذا كـان النقاش أديبـاً وفيه نقـد توبيخي وسخـرية لاذعة، ثم إنهم أجـابوه قائلين: «مولانا الملك نحن لانريد أن نذكر الذي مضى، إن مطلبنا يمتد إلى المستقبل»، ثم إنهم تخلوا عن جميع القضـايا المثيرة، التي يمكنهـا فقط أن تثير الخلافـــات، ثم إنهم نقلوا أنفسهـم بشكل جـــدي إلى الأعمال الصعبـة التي أمامهم، وبعـد أمد طويل وبعـد كثير من النقاشـات التي استمـرت لمدة خمسة عشر يومـاً وأكثـر، تقرر بمـوجب الموافقـة العامـة للجميع، عـدم إعاقة الملك مطلقـاً في نيته، التي كـانت نية تقـوية، وهي القيـام بالحج، إنما ينبغي أن لاتعـاني المملكة والكنيسـة من أضرار كبيرة بمـوجب ذلك، وبناء عليـه جـرى منـح الملك العشر من الموارد التي تتلقـاها الكنيســة، وهـذا العشر ينبغي انفـاقـه تحت اشراف النبــلاء المستقيمين على ضروريات الرحلة، وأن يكـون ذلك لمدة ثلاث سنوات، كما تقـرر أيضـاً أنـه عندمـا سينطلق يريد القـدس، في سبيـل مسـاعـدة الأرض المقدسـة ضد أعداء الرب، يتـوجب فرض ضريبـة بدل الخدمة العسكرية على الفرسـان لذلك العام، أي ثلاث عـلامات لكل رنك من الرنوك، ووعد الملك باخلاص وحسن نية كاملة، ومن دون أية مواربة، بأنه سـوف يـأخـذ بصـدق بالصك العظيم (الماغنـا— كـارتا) وبجميع شروطه، والذي حدث أن والده، الملك جون كان قد أقسم منذ سنوات خلت على تطبيق مـاجـاء في ذلك الصك، ومثـل هذا فعل الملك الحالي

لدى تسلمه التاج، ثم فعل ذلك في كثير من المناسبات فيما بعد، حيث تمكن بهذه الوسائل من استخراج مبالغ ضخمة من المال، وكان موجوداً في هذا المؤتمر من رجال الدين والأساقفة: بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفة: لندن، وروكستر، وايلاي، ولنكولن،ووركستر، ونورويك، وهيرفورد، وسالسبري، وباث، واكستير، وكارلآيل، ودورهام، والقديس داود، والأسقف المنتخب لوينكستر، وكان أسقف شيكستر قد مات مؤخراً، واعتذر أسقف شيستر وسوغ غيابه بسبب سوء الصحة، وكذلك فعل رئيس أساقفة يورك بسبب تقدم السن، ولإقامته في مكان بعيد جداً.

وفي اليوم الثالث من أيار جرت قراءة الإعلان التالي في القاعة الكبرى في ويستمنستر: «بحضور وموافقة مولانا الحاكم هنري، الملك المشهور لانكلترا، مع أصحاب السمو: رتشارد ايرل كورنوول، أخي الملك، ور. R ايرل أوف نورفولك وسفولك Suffolk ومارشال انكلترا، وهـ. H ايرل أوف هيرفورد، وهـ. H ايرل أوف اكسفورد، وج. J ايرل أوف وورويك Warwick, والنبلاء الآخرين للمملكة، نعلن نحن: ب. B الذي هو بالنعمة اللاهوتية، رئيس أساقفة كانتربري، والأول في جميع انكلترا، وف. F أسقف لندن، وهـ. H أسقف ايلاي، ور. R أسقف ووركستر، وو. W أسقف نورويك، وب. P أسقف هيرفورد، وو. W أسقف سالسبري، وو. W أسقف درم، ور. R أسقف اكستير، وس. S أسقف كارلآيل، وو. W أسقف باث، ول. L أسقف روكستر، وت. T أسقف القديس داود، ونحن في ثيابنا الحبرية مع الشموع المشتعلة، بأننا تفوهنا بشكل مهيب بقرار عقوبة الحرمان الكنسي وفق الشروط التالية: ضد جميع الذين يخرقون امتيازات الكنيسة، وامتيازات الأعراف الحرة

لمملكة انكلترا، ولاسيما مـاجـاء متضمناً في صك الامتيـازات لمملكة انكلترا، وفي الصك المتعلق بالغـابات (وكانت هذه الصكوك قـد كتبت ووضعت في الكتاب، لدى الحديث عن أيام هنري الذي تولى منحهم)، وإننا نتـولى بمـوجب سلطات الرب القـدير، والابن، والروح القـدس، والأم المجيـدة للرب، مـريم العـذراء الـدائمـة، والرسـولين المبـاركين: بطرس، وبولص، وجميع الرسل، والمبـارك رئيـس الأسـاقفـة الشهيـد توماس، وجميع الشهداء، والقديس ادوارد ملك انكلترا، وجميع المعترفين والعـذراوات وجميع قـديسي الرب، حـرمـان، وتكفير، مع الطرد من عتبـات الكنيسـة الأم المقـدسـة، جميع الذين سـوف يقـومـون من الآن فصاعداً عن معـرفة وبصورة شريرة، بتجريد الكنائـس أو حرمانهن من حقـوقهن، وكل الذين سيقـومـون بخبث، أو يسعـون بطيش لخرق، أو انقاص، أو تغيير بصورة سرية أو علنيـة، بالقول أو بالفعل، أو بالمشورة والرأي، امتيازات الكنسية، أو الأعراف القديمة والمصادق عليها العائدة للمملكة، وبشكل خـاص الامتيـازات والأعـراف الحرة الموجـودة في الصكوك المتعلقـة بالامتيـازات العـامـة لانكلترا، وللغـابات، وهي الامتيـازات التي جـرى منحهـا من قبـل مـولانا ملك انكلترا، وتشمل العقـوبات رؤساء الأسـاقفـة، والأسـاقفة، ورجـال الدين الآخـرين في انكلترا، والايرلات، والبـارونات، والفـرسان، والمتملكين الأحـرار، إذا ماقـاموا بطيش بانتهـاكهم، أو أي واحد أقدم على ذلـك بأي فعل كان، والعقوبـات أيضاً ضد الـذين سيذيعون، أو إذا مـاأذيع سوف يـأخذون بأي بند، أدرج مجدداً أو سـوف يدرج، أو سيرعـون أي عـرف جـديد، ضد هذه الامتيازات، أو ضد بنودها، أو ضد كتّاب مثل هذه البنود، أو ضد المستشارين والمنفذين لهم، والذين يسعون للحكم بموجبهم.

وليكن بمعلوم جميع الذيـن تقـدم ذكـرهم أعـلاه فـرداً فـرداً، الذين سوف يقترفون عن دراية أياً من التجاوزات التي تقدم ذكرها، وليكونوا

على يقين بأنهم سينـالون هذه العقــوبـة، بسبب الاقتراف، والذيـن من خـلال الجهل ســوف يقترفـون مثل هذه الأفـاعيل، ولم يقــومـوا بعـد انذارهم، بالاصلاح وتقديم ترضية كـاملة عما اقترفوه خلال أربعة عشر يوماً، شروعاً من يوم التذكير، أمام قضاة متميزين أو عاديين، فهم إذا لم يفعلوا ذلك، سوف يشملون من ذلـك الحين بالعقوبة، وإننا نشمل بهذه العقوبة نفسها أيضاً، كل من يعكـر صفو سلام الملك والمملكة، وتخليداً للذكرى وضعنا أختامنا على هذه العروض».

ثم أحضروا إلى أمـام الاجتماع، صك والده الملـك جـون، الذي قـام الملك هنري بإرادته الحرة، فمنح أيضـاً بمـوجبه الامتيـازات التي تقـدم ذكرها، وعندما أصغى الملك إلى قرار العقوبات المتقدم ذكره، وضع يده على صـدره، وحافظ على نظـرة هادئة، ومشرقـة وفـرحة، وعنـدما قـام رجال الدين أخيراً بعـد الفراغ، بإلقـاء الشموع أرضـاً، وعندما انطفئت هذه الشمـوع أرسلت رائحـة نتنة، وهنـا قـال كل واحـد منهم ورددوا جميعاً: «هكذا سوف يهلك وتصـدر عنه مثل هذه الرائحة في جهنم جميع الذين سينالون هذه العقـوبة»، وكانت الأجراس في الوقت نفسـه تقرع، وهنا قال الملك: «هكذا ساعدني يارب، إنني سوف التزم بصدق بجميع هذه البنـود، بحكم أنني رجل، ومسيحـي، وفــارس، وملك متــوج وممسوح».

وينبغي أن نشير إلى أنه لـدى الشروع بالتفــوه بهذا القــرار، أعطيت شمـوع مشتعلة إلى جميع الحضـور، وعنـدمـا أعطيت شمعـة إلى الملك، أخـذها لكنه لم يحتفظ بها، وناولها إلى واحـد من الأسـاقفة قـائـلاً: «إنه لايليق بي أن أمسك مثل هـذه الشمعـة، لأنني لسـت كـاهناً، فـالقلب يعطي أصدق برهان، واحتفظ لبقية الوقت بيده مفتوحة وهي موضوعة على صدره، وظل هكذا حتى تم الفراغ من قراءة قرار الحكم.

وصمم —على كل حال— روبرت أسقف لنكولن في قلبه على القيام

فور عودته إلى كرسيه بإعلان قرار العقوبات الكنسية بكل مهابة في كل كنيسة موجودة في أسقفيته (التي من الصعب علينا القيام بتعدادها) ضد جميع الذين سوف يخرقون الصكوك التي تقدم ذكرها أعلاه، وخاصة ضد الكهنة، وفعل ذلك خشية منه من أن الملك سوف ينقلب على الفور ويتخلى عن تعهداته، ولذلك علق هذا القرار في آذان الجميع، وأرعب قلوب الذين سمعوه إلى أقصى الدرجات.

حول عزل الإيرل سيمون من ولاية غسكوني

وهكذا كان أن ارفض الاجتماع، وما أن جرى ذلك حتى حصل الملك على الفور على أسوأ مشورة، استهدفت إلغاء جميع الإجراءات التي تقدم ذكرها، فلقد قيل له إنه إذا جرت المحافظة على الشروط المذكورة أعلاه، هو لن يكون ملكاً، ولاحتى سيداً لانكلترا، وأن والده جون قد اكتشف ذلك، ولذلك فضل الموت على أن يداس على هذه الصورة تحت أقدام رعيته، وقال له وكلاء الشيطان هؤلاء همساً: «لاتشغل نفسك إذا مانلت هذه العقوبة، لأنه مقابل مائة أو مائتي باوند سوف يحللك البابا، فهو بموجب سلطاته الواسعة يمكنه أن يحلّ أ و يربط كل الذي يختاره، وما من أحد مهما كان عظيماً، يمتلك سلطة أعلى من السلطة التي يمتلكها هو نفسه، فأنت سوف تحصل على جزء العشر كاملاً، الذي سوف يصل إلى كثير من آلاف الماركات، وإنك إذا ما أعطيت جزئاً صغيراً من هذا المبلغ الكبير إلى البابا، سوف يتولى تحليلك، حتى ولو كان قرار الحكم مؤكداً من قبله، لأن إليه يعود حق نقض وإلغاء أي شيء كان مقرراً، وفي الحقيقة إنه مقابل مكافأة صغيرة، يمكنه حتى أن يمدد مدة الاسهام بدفع العشر لمدة عام، أو لمدة عامين».

وهذا ما وقع إثر ذلك، حسبما توضح ذلك الرواية التالية: وفي حوالي الوقت نفسه أرسل سكان بوردو رسالة إلى الملك بأنه مالم يقدم بسرعة وبكل قوة إلى غسكوني، سيكون من المؤكد فقدانه للبلاد كلها، وحول

هذا كانوا غالباً ما أخبروا الملك بذلك من قبل، لكن في هذه المرة فعلوا ذلك ببيانات واضحة، وأضافوا (ماكان زائفاً) بأنه قد خسر كثيراً من الرعية والأصدقاء، من خلال طغيان سيمون، ايرل أوف ليستر، لأنه دجن وأنزل إلى طاعة الملك، كثيراً، لابل وأكثر من كثير من المتمردين الأقوياء ضده، ثم إن الملك رغب بإرضاء الغسكونيين، فأخبرهم بأنه إذا ماعاش سوف يأتي إليهم من دون شك، وبقوة في سبيل تشريفهم وعلو شأنهم، كما أنه أمر بأن يعلن بوساطة المنادين في غسكوني، أنه ما من أحد ينبغي له من ذلك الوقت فصاعداً، الخضوع للايرل سيمون، أو اطاعته، وجعل أمراً معلوماً للجميع فرداً فرداً، أنه نتيجة للشكاوى التي عملت ضد مظالم الايرل، قد قام بعزله، وأن ذلك كان مقابل نفقة كبيرة، لأنه انتزع منه الصك الذي كان الايرل قد حصل عليه، من أجل الاستحواذ على غسكوني للأعوام الثلاثة المقبلة، وأعطت هذه الإجراءات كلها رضاً عظيماً إلى الغسكونيين، ثم كان أن الخيانة التي بقيت متخفية لمدة طويلة، قد أعلنت عن نفسها، لأنه منذ اللحظة التي عرف بها أصدقاءه الخلص، أن مدة حكم الايرل قد انتهت، قام هؤلاء المتظاهرون بالصداقة، والذين تبعوا سعادته، فأصبحوا أكثر أعداءه مرارة.

حول عودة هنري أوف باث إلى البلاط

وفي هذه الآونة أيضاً، نسي هنري أوف باث جميع أحزانه، وقام مجدداً بناء على إرادته المحضة فمزج نفسه وشغلها بمشاغل الاهتمام بالبلاط، لأن الذي تشغله الدنيا بمتاعبها، يجد بعض الصعوبة بالنجاة منها، وفي هذا العام أيضاً، جرى تعيين الفارس أرنولد دو بيوس Bois مسؤولاً رئيسياً عن الغابات، في محل روبرت باسليف، وذلك في الأجزاء الجنوبية من انكلترا، امتداداً حتى نهر ترنت Trent الكبير، وعيّن جون أوف ليكسنغتون Lexington, وكان

فارساً، للمناطق الممتدة من النهر نفسه إلى مملكة سكوتلندا، وجاء ذلك بدلاً عن غيوفري دي لانغلي Langley, الذي أفقر في السنوات الماضية من دون رحمة ومن دون سبب جميع سكان المنطقة المجاورة للغابات.

حول المعجزات التي عملت عند قبر رتشارد أسقف شيكستر

وعمل الرب في الوقت نفسه معجزات واضحة عند ضريح رتشارد، أسقف شيكستر، في كنيسة ذلك المكان، وقد جرى الآن الكشف عن تقواه السرية، لأنه عندما قضى، وتمت تعرية جسده، بغرض القيام بغسله، تبين أنه كان مغطى بثوب من الشعر، ومتمنطق بأطواق حديدية.

حول انتخاب جون كلبنغي لأسقفية شيكستر

وفي هذه الآونة وضع الكهنة النظاميون لشيكستر الرب أمام أعينهم، فانتخبوا أسقفاً لهم المعلم جون كلبنغي Clippinge, وكان كاهناً نظامياً في الكنيسة نفسها.

حول الزيارة التفقدية للطائفة السوداء

وعزم البابا، بناء على شكوكه ومقاصده، وأمر الآن الأساقفة، وفرض على كل واحد منهم القيام بزيارة تفقدية إلى التجمعات الرعوية الرهبانية وإلى الديرة المؤسسة في أسقفيته، وارغامهم تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي بتطبيق بعض الشروط التي لاعلاقة لها بأحكام القديس بندكت، والتي لاتشكل جزئاً من صلب الأحكام المذكورة، والتي عملها الرهبان ممارسة لن يطيعونها مطلقاً، وتعهدوا أنهم لن يمارسونها أبداً، وعندما وجد رهبان الطائفة السوداء (البندكتيون) في فرنسا، أنفسهم محرومين تماماً من حماية الملك، نشدوا شراء السلام لأنفسهم، حتى لايكونوا عرضة للخضوع لإرادة الأساقفة، الذين كانت

الامتيازات الممنوحة لهم هدفاً للكراهية، ولهذا دفعوا أربعة آلاف باوند من نقود تورين إلى البابا، وبذلك أوقفوا عنف هذا العمل الطغياني، وهذه الشؤون وجميع ماتعلق بها من خصوصيات، قد جرى شرحها بصورة كاملة في كتاب Additaments, وترافع راعي دير القديس ألبان ورهبانه إلى البابا، واشتكوا ضد الزيارة التفقدية لأسقف لنكولن، لأن بذلك سوف يجري خرق امتيازاتهم.

كيف عمل ملك إنكلترا الاستعدادات لحملة إلى غسكوني

فور عقد المؤتمر الذي تقدم ذكره أعلاه (يعني أن تقول في حوالي الأول من حزيران) جرى اخبار الملك بالحالة البائسة في غسكوني، فحشد بموجب الأوامر الملكية الفرسان الذين يدينون له بالخدمة العسكرية في جميع انكلترا، وأمرهم بأن يكونوا مستعدين مع الخيول والأسلحة والأشياء الضرورية الأخرى في بورتماوث، في ثمانية عيد التثليث، للاقلاع بحراً معه، بحكم أنه كان على نية الانطلاق بحملة كبيرة قوية إلى غسكوني، التي كانت الآن عرضة للخطر، واستهدف من وراء ذلك إعادتها للطاعة، ومن ثم استرداد السلام، وأمر بالوقت نفسه بالاستيلاء على جميع السفن العائدة للتجار، وسفن النقل العائدة للقارة أو لانكلترا، أو للآخرين، واستهدف من هذا الاستيلاء تأمين نقله شخصياً مع أتباعه، وكان تعداد هذه المراكب يزيد على الألف، وقام أصحاب هذه السفن، بتأخير إقامتهم وتمديدها لمدة ثلاثة أشهر، مقابل خسائر كبيرة ومتاعب عظيمة، وفعلوا ذلك انتظاراً لرياح موائمة، لكن ذلك كان بلا محصلة، وبذلك بدا واضحاً بأن هذه الحملة لاتحظى برضا الرب، ووجد الملك نفسه وقتها وقد أنفق، مبلغاً كبيراً من المال، وأنه استخرج جميع أساسيات العيش لدى الرهبان في المنطقة المجاورة واستهلكها، وقد بعث بخيوله وبأتباعه إلى هنا وهناك للعسكرة والإقامة، حتى تهب ريح أكثر مواءمة، وتبتسم لهم، كما أنه كتب إلى

الايرل رتشارد وإلى الملكة، بحكم كونها الأوصياء على المملكة، يأمرهما أنه إذا ما أصبحت أية رعاية ديرية فخمة شاغرة، أن يحتفظا بالمسؤولية عنها لنفسيهما، والأمر نفسه فيما يتعلق بأية أسقفية إذا أصبحت شاغرة، وهنا لم يتردد ولم يساوره الشك أنه بعمله هذا قد خرق كثيراً من شروط الصكوك، التي كان يعني عدم الالتزام بها قرار الحرمان الكنسي، الذي جرى إعلانه منذ وقت قريب.

حول المذبحة التي اقترفت في أحواز فلاندرز

وفي هذا الوقت نفسه من العام، وقعت مذبحة كبيرة للرجال والخيول والمواشي في المقاطعات المجاورة لفلاندرز وألمانيا، حيث من المعتقد أن أكثر من أربعين ألفاً من الرجال المقاتلين قد ذبحوا، ومثلما حدث في طروادة، التي قيل بأنها قد تدمرت مع سكانها بسبب امرأة، مثل ذلك فإن هذه المذبحة كان سببها امرأة، هي كونتسة فلاندرز، وجرى ذكر سبب وتفاصيل هذه المأساة التي لاتعوض، بشكل كامل في كتاب Additaments, كما أن تفاصيل أخبارها كلها سوف يرد ذكرها في الصفحات المقبلة.

ومات في هذه الآونة وليم أسقف للانداف Llandaff, الذي أخبر مسبقاً بموته بوساطة العمى لمدة سبعة أعوام.

حول زيارة تفقدية عملت من قبل رئيس أساقفة كانتربري

وفي هذه الآونة نفسها أيضاً، قام رئيس الأساقفة بونيفيس بزيارة تفقدية لفيفرهام، وروكستر، وزار متفقداً الكهنة النظاميين لكنيسة القديس بولص ولآخرين في المدينة، وبسبب التقييدات التي فرضت، استقبل بلطف، وفعل هذا بحذر حتى يمكنه الوصول، والحصول على حق القيام بالزيارة التفقدية.

كيف استقبل مارشال إنكلترا زوجته ثانية

وفي تلك الآونة نفسها، استقبل الايرل روجر بيغود مارشال انكلترا زوجته ثانية، التي هي ابنة ملك سكوتلندا، التي كان من قبل قد طلقها اعتماداً على مشورة شريرة، واقتنع بهذا بوساطة حكم صدر عن الكنيسة، وعندما بات متأكداً من الحقيقة قال: «بما أن هذا هو حكم الكنيسة، إنني بأمان وعلى استعداد للقيام بهذا الزواج، الذي كنت من قبل شاك به ولدي ريبة حوله»، لأنه سلف أن قيل له بأنهما أقرباء بالدم.

حول مغادرة ملك إنكلترا إلى غسكوني

وفي السادس من آب في هذا العام، بعدما قام الملك بتعيين الايرل رتشارد والملكة وصيين على المملكة، وعهد إليهما بالعناية بإدوارد الذي كان أسن أولاده، قال وداعاً لانكلترا، وأقلع من بورتسي Portsea, وركب متن البحر برفقة ثلاثمائة سفينة كبيرة، وأسطول كبير جداً من المراكب الأخرى، وبعدما قبل الطفل والده، وبكى لمغادرته، وقف يبكي ويتنهد على الشاطيء، طوال الوقت الذي استطاع أن يرى فيه أشرعة السفن وهي تغيب في عرض البحر.

وفاة توماس أوف هارتفورد رئيس شمامسة نورثأمبرلاند

في ثمانية عيد القديس لورانس في هذا العام، مات توماس أوف هارتفورد، رئيس شمامسة نورثأمبرلاند، والراهب من دير القديس ألبان، وجاءت وفاته، في رئاسة شمامسته، وكان في نهايته مقدساً وسعيداً، وعظيم الاستعداد في جميع الأشياء الضرورية للتحول المقدس لمسيحي ولانتقاله من الدنيا، وكان من قبل تلميذاً في مدرسة القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، وكان صديقاً مقرباً من ذلك الحبر، ومنذ أن أصبح مثله، سعى لأن يسير على دربه خطوة خطوة (مثلما فعل المعلم رتشارد، الذي صار فيما بعد أسقف شيكستر، وهو الذي تقدم

ذكـره من قبل أعـلاه)، وبما أنه كـان رجـلاً صـاحب ثروة، وصـديقـاً للفقراء، خـاصة من الفرنسيسكان والدومينيكان، فقـد تبرع بجسده إلى دير فقير جداً تابع لرهبـان جبل الكرمل، وكان لهذا التبرع أثره في زيادة مكانة الرهبـان ومنفعتهم، وبعـدما غـادرت نسمـة الحيـاة جسده، كـان رفـاقــه الواقفين هناك يتناقشـون بقلق من أجـل الحصـول على ضريح حجـري، وكان الحصـول على مثل هذا الشيء صعبـاً في ذلك الحين، كما كان توفـره في تلك المناطق، وقد رغبـوا بأن يحفروا عليـه اسم توماس، وهنا تدخل واحـد من الكهنة وكان اسمـه أيضاً تومـاس، وكان رجـلاً صالحاً، وتقياً، وأعلن قائلاً: «لاتزعجوا أنفسكم حول هذه القضية، لأنه موجـود لدي الذي تريدونه، أي ضريحاً حجرياً، عليـه قد نقش اسمي، وهو توماس، فقد كنت أنا المذنب تـوماس أنوي بأن أدفن فيه، لكن إنه بإرادة الرب، الذي يقضي بتوزيع كل شيء حسب إرادته، لقد قضي غير الذي أردتـه في السماء، ولهذا أنا أقـــدم هـذا هدية إلى رئيـس شمامستنا المقـدس (كما أنه ليست هناك حاجـة لتغيير الاسم)، وأنا واثق أنه تقـرر أن يحل محلي، ويتلطف بأخـذ مكاني الذي مقر اقـامته في السماء، آه كيف حصلت هذه الصخـرة بسعـادة على نزيـل آخـر سـواي»، وعند ضريح توماس رئيس الشمامسة هذا نفسه، حصل عبيد المسيح المخلصين بشكل اعجازي على الشفاء من الأمراض، كما شهد بذلك بمثابة حقيقة مطلقة لكاتب هذا الكتـاب، جون أوف لكسنغتـون Lexington, وكان فـارساً ورجـلاً صـاحب علوم كبيرة، وسلطات عـالية، وأظهـر مـولانا يسوع المسيح أيضاً قداسة هذا الرجل المقدس، بمعجزات خاصة، حول مصـداقيتهم هناك شهـادات، وبناء عليـه حصل في وقت قصير، نتيجـة للمنافع الكثيرة والمتكررة، روحياً وجسـدياً، وقد أنعم بها على المتوسلين هناك، وهكذا فـإن البيعـة الصغيرة للرهبـان المذكـورين قـد ازدادت سمعتهـــا، فحصلت على لقـب دير، ونحن نعتقـد بثبـــات بأن رئيس الشمامسـة المقدس هـذا، وكذلك رتشـارد أسقف شيكستر، وإن كـانا لم

يطوبا في روما، كانا متحدين مع القديس ادموند، حيث كانا صديقيه الخاصين أثناء حياته، وبخصوص المعجزات التي تفضل الرب بعملها من خلال فضائل الأسقف المبارك، إنه قد جرى ذكرها في الكتب المتضمنة تاريخ كنيسة القديس ألبان، أي في كتاب سيرة حياة القديس ادموند، والمعجزات النافعة التي منحها الرب إلى المحتاجين إليها من خلال فضائل توماس، رئيس الشمامسة، المتقدم ذكره أعلاه، معروفين بشكل جيد من قبل رهبان جبل الكرمل المتقدم ذكرهم، ومن قبل الناس في تلك البلاد، ونحن نعتقد أن هؤلاء الأبناء الثلاثة المباركين لانكلترا: ادموند، ورتشارد، وتوماس، يتمتعون بمجد التثليث العظيم.

حول الكارثة التي نزلت بالجيش الفرنسي

ومع مرور الوقت على هذه الصورة، في الوقت الذي كان فيه الملك الفرنسي يعيش في محنته، وقد ضغط عليه بالجوع في الأرض المقدسة، آنذاك كان يمضي الوقت بشكل مهين في تحصين قيسارية، ووقتها جاء إليه فارس نبيل من أصل فرنسي، وقال له: «مولاي الملك، إننا مقيمون هنا في حالة عطالة مخجلة، اسمح لي إذا كان يرضيك، أن أذهب ضد هؤلاء الكفار، الذين لم تقم معهم لا هدنة ولاصداقة، لأنال بينهم بعض التشريف والمنفعة، وكذلك بعض المؤن، التي نحن بحاجة ماسة إليها، هذا عدا عن التدريب العسكري لجيشنا، لأنه كما تعلم، إن أية منفعة أو شهرة تعزى إلى فارس ما، ذلك كله يتجمع ليعزى بشكل أكمل إلى مولاه»، وعلى هذا الطلب رد الملك بأريحية قائلاً: «اذهب، وليعيدك ربي سالماً من مهمتك»، وبناء عليه جمع الفارس كتلة من الجنود، ووجههم وشجعهم بوساطة المثل الذي ضربه وليم صاحب السيف الطويل، الذي تولى القيام بحملة مماثلة، حسبما ذكرنا ذلك في المكان المناسب، وقد انطلق نحو بلاد المسلمين الذين كانوا قد ألحقوا أضراراً بالغة بالصليبيين، وقاتلهم بشدة متناهية، وهزمهم بشكل مفاجىء، وفرق

شملهم، ومن ثم عاد بنصر مجيد، وهو في غاية السرور، مع غنائم كبيرة، ولدى رؤية هذا من قبل واحد من المتملقين بين مستشاري الملك قال له: «ياصاحب الجلالة، لقد حصل هذا الفارس على مبلغ كبير من المال،، وحقك يخولك ويتطلب أن تقوم بالمطالبة بحصة كبيرة منه، لاسيما وأنت الآن بحاجة ماسة، لأنه بموجب لطفك ومعروفك، غادر الجيش بشكل سري، مخالفاً ماقضت به الأوامر العامة، وخارقاً لها بطيش»، وبناء عليه جرى استدعاء الفارس إلى أمام الملك، ووجهت إليه تهمة قاسية من قبل منافسيه، ونتيجة لذلك الإجراء، قام بالتخلي عن الجزء الأكثر مما حصل عليه إلى الملك، ثم خاطب ذلك الفارس الملك قائلاً: «مولاي، إن جميع ماأملكه، حتى نفسي هو ملك لك، لكن يبدو لي أن الأكثر عدلاً هو أن يتمتع بالثروة الذي حصل عليها، بعدما عرض جسده وحياته للخطر في الحصول عليها، والذي أعتقده هو أن هذه الإجراءات، قد أثيرت من قبل بعض السادة الكسالى، ورجال القاعات الجبناء، والمستشارين لديك، الذين يطرونك ويتملقون إليك لمنحك السرور»، وقام واحد ممن نالوا اللوم هكذا، لدى سماعه لهذا الكلام، فقفز نحو الأمام إلى وسط الذين كانوا مجتمعين، وكان يغلي غضباً، وقد تدفق بكلام كله قدح وذم ضد الفارس، قائلاً: « بتفوهك بهذا الكلام أنت تتشدق بالكذب من حلقومك القذر، وذلك عندما تتهم كتلة عبيد مولانا الملك بالكسل والغدر»، وأضاف يقول: «بأن الموجه للاتهام كان فارساً سيئاً، وجباناً، ورجلاً مهزوماً»، وباللغة الفرنسية هو mechant, مما كان يعني أكبر شتيمة بينهم، ولدى سماع هذا الكلام، كان هناك ابن الفارس المتهم، وكان شاباً جريئاً، وفارساً شجاعاً، فقفز واقفاً في وسطهم، ولم يستطع أن يضبط نفسه لغضبه، فصرخ بصوت مثل الرعد، قائلاً: «بحق دماغ الرب، إنك حقير، وتعيس منحط، كيف تتجرأ على التفوه بمثل هذا الكلام إلى أبي بحضوري وعلى مسمع مني»؟ وسحب فجأة سيفاً صغيراً، أو خنجراً كان يحمله، وطعنه على الفور في بطنه، ثم ركض وهو

مثل المجنون من غضبه، وهرب إلى الكنيسة للحماية، ولدى رؤية والده الذي صنعه، حزن حزناً عميقاً، وانكب على قدمي الملك قائلاً: «الآن يامولاي الأكثر احتراماً، هل ستظهر رحمتك الملكية وتبرهن عليها، إذا تفضلت بالعفو عن هذا العمل الغاضب، أما بالنسبة لي، فأنا سوف ألتزم بحكم محكمتك، وسوف أخضع للذي ستقضي به»، وبناء عليه أجابه الملك: «اجلب كفلاء مواثمين للقضية»، وعندما كان ذاهباً لتحقيق هذا الغرض، كان ابنه قد سحب من الكنيسة من قبل وكلاء الملك، وجرى شنقه من دون أية محاكمة أو قضاء، وعندما كان والده عائداً مع كفلائه، مستعداً لإطاعة القانون في كل جانب، وجد ابنه مشنوقاً، وقد مات، العمل الذي قام به أعداؤه، في سبيل زيادة حزن والده، برؤية ابنه المتوفى، فارتجفت أطرافه من الغضب والألم، وبصعوبة بالغة تكلم، وأخيراً قال متعجباً مندهشاً: «ماهذا ياسيدي الملك؟ هل قمت بالشنق، أو اقتنعت، وسمحت بشنق ابني من دون محاكمة أو قضاء؟ إنني لاأستطيع ضبط مشاعري كأب، أين هو الاحترام المستحق للكنيسة؟ وأين هي عدالة المحاكم الفرنسية؟ إن ماهو عائد لي في فرنسا، بموجب حقوق آبائي، وكذلك ولائي لك، والذي حصلت عليه مؤخراً بسيفي، أتخلى عنه لك، وسوف أغادرك أنا شخصياً، وأتخلى عنك»، وما أن فرغ من كلامه هذا، حتى امتطى مسرعاً على حصان سريع، ولم يوفر مهمازه، حيث هرب إلى أحد السلاطين، وقصّ عليه جميع هذه الوقائع بالتفصيل، وهنا قال له السلطان: «لقد فررت إليّ وأنا سوف لن أتخلى عنك أبداً، وأنا أفتح لك صدر اللجوء والحماية»، ثم التحق على الفور بجيش ذلك المسلم، وصار مرتداً مرعباً، مبرهناً على صدق المثل القائل: «الغضب هو الرغبة بالانتقام»، ومنذ ذلك الحين أوقف نفسه على الانتقام، وتغيرت صداقته إلى كراهية خاصة، وألحق ضرراً بلاحدود بالملك وبجيشه، ولم يتوقف عن قصده حتى قتل الذين شنقوا ابنه، وهكذا أنجب الحسد غضباً، واقترف الغضب القتل.

ووقع حادث مأساوي مماثل تماماً قبل أربعين سنة خلت، عندما قام واحد من الداوية اسمه فيراند Ferrand, وكان رجلاً شجاعاً في القتال، وحكيماً بالرأي والمشورة، بالالتحاق بالمسلمين، نتيجة انتزاع فرس ثمين منه بالقوة، ومن خلاله فقد الصليبيون في المقام الأول دمياط بتعاسة، وأخيراً كل الشرف الذي كانوا قد حصلوا عليه، ولكن عندما كانوا أخيراً على وشك الغرق، تحركت عاطفة الشفقة لديه، وساعد الذين كانوا على وشك الهلاك، في سبيل أن لايشمل الانتقام لغلطة عدة آلاف كثيرة.

وفي هذه الآونة، ابتسمت الرياح الموائمة، بعد انتظار كبير، للملك، وأقلع الملك بعد تقبيله لابنه ادوارد وعناقه له، وعاد الولد إلى أمه، وغادر الملك بأشرعة منشورة.

وصول ملك إنكلترا إلى بوردو

وفي هذه الآونة، أيام الاحتفال بصعود العذراء المباركة، وصل الملك سالماً إلى بوردو، وخرج المواطنون لاستقباله، وقد استقبلوه بكل احترام لائق، وفي الوقت نفسه هرب أعداؤه، أو أغلقوا على أنفسهم قلاعهم للدفاع عن أنفسهم، ثم أمر بحصار لى راؤل، حيث كانت هناك أعداد كبيرة من المتحزبين لعدوه غاستون، وكانوا فيها مختبئين، ذلك أن غاستون نفسه كان قد هرب إلى ملك اسبانيا، الذي أصبح صديقاً له، وحليفاً، واعداً إياه أن تكون ملكية غسكوني وحكمها —حسبما قال— عائدة له، وقام الذين تركهم لحماية لى راؤل، بالاعتماد على هذا التحالف، فدافعوا عن أنفسهم بحماس وشجاعة.

حول مشاعر الشكوك التي شعر بها الفرنسيون تجاه البواتيين

وكان الذين أمسكوا بزمام أمور حكومة فرنسا، يشعرون بالشكوك نحو البواتيين، بسبب غدرهم الذي تبرهن مراراً، وقد باتوا الآن

خـائفين، عندما سمعـوا بوصـول ملك إنكلترا سـالماً إلى غسكوني، وصـاروا يخشـون من أن يقوم البـواتيـون بالالتحـاق به، ذلك أنه كـان مولاهم القديم، وسيدهم المحرر لهم الآن، خاصة وأن ملكهم كان على مسـافـة بعيـدة عنهم، ولذلـك بعثـوا إلى هناك بكتلـة من الجنود، ولم يسمحـوا للبواتيين بالاستحـواذ على ممتلكاتهم، أو أن يكونوا مسـؤولين عن قـلاعهم ومدنهم، وبهذه الصـورة بقي البواتيـون، على الرغم منهم، مخلصين، ولم يلحقـوا أي أذى بالمملكة الفرنسيـة، كما أنهم لم يقدمـوا أية منفعة لملك انكلترا، وهم على كل حال، نصبوا الشباك والأفخاخ لأقدام الانكليز، حسبما سنشرح ذلك بالتفصيل في الصفحات التالية.

رسالة أسقف لنكولن إلى البابا

وفي هذه الآونة، كان البابا أنوسنت الرابع قد بعث برسائل رسولية، أمـر فيهـا أسقف لنكولن بالقيـام ببعـض الأعمال، التي بدت إلى ذلك الأسقف أنها غير عادلـة، ومضادة للعقل، وذلك حسبما اعتـاد البابا أن يعمل غـالبـاً معـه ومع الأساقفـة الآخـرين، وبناء عليـه قـام الأسقف المذكور بكتابة الرسالة التالية جواباً له:

«**تحيـات**: ليكن معلومـاً بالنسبة لقـداستكم أنني أطيـع بإخـلاص وتبجيل الأوامـر الرسوليـة، مع مشـاعر بنـوية، وبموجب غيرتي نحـو كـرامـة والدي، إنني أعترض على هذه الأشيـاء وأقـاومهـا، لأن هذه الأشياء مضادة للأوامر الرسوليـة، هذه الأوامر التي أنا مرتبط باتباعها وملتـزم بموجـب الأمر اللاهوتي، لأن الـولايات الرسوليـة وأوامـرها ليست، ولايمكن أن تكون غير عقـائد الرسـول ومولانا يسـوع المسيح نفسـه، الذي هو معلم الرسل ومـولاهم، وتبعـاً له، ووفقـاً لمراتب الكنيسـة يمثل البـابا النمـوذج والشخص الذي يحتل أعلى الدرجـات، وذلك بشكل لائق ومـوائم، لأن مولانا يسـوع المسيح قد قـال: «الذي ليس معـي هو ضـدي»، وضـده من غير الممكن أن يكـون الكرسي

الرسـولي الذي هو أعظم قـداسـة ومكانة لاهوتيـة، وبنـاء عليـه، إن الرسالة المتقـدمة ليست متـوافقة مع القداسـة الرسوليـة، بل مضادة لها تماماً ولاتتماشى معهـا مطلقـاً، لأنه في المدخل إلى تلك الـرسـالة، والرسائل الأخـرى المشابهة لها، التي انتشرت بالطول وبالعـرض، نجد عبـارة «دون التقيـد»، التي أقحمت من دون الحاجـة لإطاعـة القـانون الطبيعي، وعنها قـد صدر وانتشر فيض من عدم الاستقرار، والوقـاحة والغش، وانعـدام الحياء، والكـذب، والخداع، والحاجة إلى وضع الثقـة والأمـانة في أي واحـد، ومن الشرور التي نجمـت عن هذا كله، والتي هي من دون إحصاء تكدرت نقـاوة الديانة المسيحية، واضطرب الهدوء الاجتماعي لبني البشر، وانقلب كليـة، وعـلاوة على ذلك، بما أن ذنب الشيطان، هـو الذنب نفسـه الذي سيكون في نهايـة الحيـاة ذنـب ابن الهلاك، أي المسيح الدجـال، المسيح الـدجـال الذي سـوف يقتله الرب بنفخـة من فمـه، لايمكن أنه كـان أو سيكـون هناك ذنب من أي نوع، معاكساً مثله أو مضاداً لعقيدة الرسل والانجيل، وفي الوقت نفسه مثله كـراهيـة، ومقتاً، وبغضـاً بالنسبـة لمولانا يسـوع المسيح، الذين يميتـون الأرواح ويدمـرونها ويقـودونها إلى الضـلال عن طريق وظائف وأعمال رعـاتهم الكنسيين، وبوسـاطة أكثـر البراهين وضـوحـاً في الكتـابات المقـدسـة، يجري اقتراف هذا الذنب من قبل الذين وضعـوا في وظائف الرعاة ومنحـوا سلطات الرعاية والعنـاية، لكنهم قامـوا بالحصول على رواتبهم من حليب وصوف شيـاه المسيح، التي ينبغي أن تنشط وتحفظ بوساطة واجبـات وأعمال الرعاة، وأن لاتستخدم لتلبية حـاجاتهم، لأن عدم القيـام بواجبات الرعـاية، هو بالنسبة للكتـابات المقدسـة، هو قتل الشيـاه وإهلاكها، وإن هذين النوعين من الذنوب، مع أنهما يختلفـان في نوعيهما، هما أسـوأ الذنوب قاطبـة، ويتفـوقان بلا حـدود على كل نوع آخـر مـن الذنوب، حسبما هو واضح منهما، ذلك أن الذنبين وإن كـانا موجودين كما قلنا من قبل، هما مختلفـان بالنوع ولايشبه أحدهما الآخر،

ومضادان لما هو الأفضل، وكل ماهو مضاد للأفضل هو الأسوأ، هذا وإنه بالنسبة إلى الذين يذنبون بهذه الطريقة، إن أول الذنوب هو ذبح الرب، وهو الذنب القاضي على كل صلاح ومضاد له ومن غير طبيعته تماماً، والذنب الثاني هو ذبح الاصلاح والتعبد الصحيح، الذي بنعمة المشاركة في الشعاع اللاهوتي هو أساسي، وبشكل طبيعي جيد جداً، ومن هذا المنطلق، إنه في أحوال الأشياء الصالحة، نجد أن سبب الصلاح قد عدّ أفضل من النتيجة والتأثير، ومثل هذا بالنسبة لقضية السوء، فسبب السوء أسوأ من التأثير، وإنه على هذا واضح أن الذين يدخلون عمليات الذبح الشريرة للاصلاح والعبادة والتقوى، بين شياه المسيح في كنيسة الرب، أسوأ من أسوأ القتلة أنفسهم، لابل هم حتى أعظم قرباً من الشيطان ومن المسيح الدجال، وفي هذا أسوأ في درجة الشرور تفوق الآخرين، وبما أن السلطة الأعظم والقدرة اللاهوتية قد منحت إليهم من السماء من أجل العبادة والتأله، وليس من أجل دمار بني البشر، عليهم أن يشعروا بأنفسهم أن عليهم أن يبعدوا عن كنيسة الرب، وأن يطردوا مثل هؤلاء القتلة الشريرين، وبناء عليه، إن الكرسي الرسولي الذي هو الأعظم قداسة، والذي إليه بشهادة الرسل قد منحت جميع أنواع السلطات، من قبل قدس الأقداس، ومن قبل مولانا يسوع المسيح، من أجل العبادة و التأله وليس من أجل التدمير، لايمكنه أن يميل نحو أي ذنب من هذا القبيل، مثل أن يأمر، أو أن يفرض، أو أن يحاول بأية طريقة من الطرق، عمل أي شيء، هو على هذه الدرجة من الكراهية، والرفض والمقت، لدى مولانا يسوع المسيح، وهو مهلك مميت إلى أبعد الحدود بالنسبة للجنس البشري، لأنه سوف يكون بوضوح ضلالاً أو فساداً، أو تجاوزاً، لسلطاته المطلقة الأعظم قداسة، أو ابتعاداً عن عرش المجد لمولانا يسوع المسيح، وهو سوف يجلس في مقعد الهلاك والعذاب في جهنم، إلى جانب أميري الظلام، اللذين ذكرتها أعلاه، ولن يكون هناك أي واحد من الرعايا المخلصين

للكرسي المذكور، مطيعاً له باخلاص وطهارة، إلاّ إذا فصل نفسه عن جسد المسيح وعن الكرسي المقدس المذكور بالخروج والانشقاق، ولايمكنه إطاعة مثل هذه الأوامر أو الوصايا، أو القبول بذلك صدوراً عن أي ملك، أو أي واحد مهما كان، حتى لو صدرت عن السلطة العليا في انكلترا، بل إنه من الضروري بالنسبة له وواجبه يقضي بأن يقف ضدهم، وأن يقاومهم بأقصى ما أوتيه من قوة، وبناء عليه، مولاي المبجل، إنه بموجب فضيلة الطاعة والولاء المتوجبة عليّ نحو كل من الآباء والكرسي الرسولي الأعظم قداسة، وصدوراً عن اتحادي معه في جسد المسيح، إنني مع رغبتي الكلية بالاتحاد، وعلى الرغم من مشاعري البنوية وطاعتي، أرفض الطاعة، وأقف ضدها، وأقاوم الأوامر التي وردت في الرسائل التي تقدم ذكرها، وهذا بشكل رئيسي، حسبما أوضحت من قبل، لأنهم كما هو واضح يميلون إلى ماهو ذنب بغيض، ضد مولانا يسوع المسيح، ولأنهم الأكثر شراً وضرراً للجنس البشري، وهم كلية ضد قداسة الكرسي الرسولي، وضد الإيمان الكاثوليكي، كما لايمكن لقداستك استخدام أية إجراءات قاسية ضدي، لأن جميع حججي في هذه القضية هي ليست معادية أو متمردة، بل دوافعها مشاعر البنوة لدي، ورغبتي بتشريف أبي وأنت بوساطة طاعة الأوامر اللاهوتية، ولكي أجمل كلامي، وأعرض ماأريده ببضع كلمات، إنني أقول إن قداسة الكرسي الرسولي تمتلك السلطة فقط للإعمار والتهذيب وليس للتدمير، حتى تكون القدرة الوافرة لديها الاستطاعة على بناء كل شيء والارتفاع به، وهذه الأشياء التي يدعونها الاسهامات وأعمال التزويد، ليست من أجل التنوير، لكن من الواضح تماماً انها من أجل التدمير، ولذلك فإن الكرسي الرسولي المبارك لايمكنه أن يقبلهم، لأن الجسد والدم، اللذان لن يتملكا مملكة الرب، قد أوحيا بهم، وليس الأب لمولانا يسوع المسيح الذي هو في السماء».

حول سخط البابا العظيم تجاه رسالة أسقف لنكولن

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى البابا لم يستطع أن يضبط غضبه وسخطه، وبعدما أخذ مظهر المتجبر مع نظرة غاضبة قال: «من هو هذا العجوز المخرف، وهذا الأطرش والمجنون الذي يهذي، الذي بوقاحته وطيشه يحكم على أعمالي؟، بحق بطرس وبولص لولا أن كرمي الفطري يمنعني لألقيت به في متاهة لانظير لها من الفوضى والاضطراب، والعار، حتى يكون موضوعاً للكلام، وهدفاً للتعجب والرعب لجميع أنحاء العالم، أوليس ملك انكلترا من أتباعنا، أو بالحري عليّ القول: من عبيدنا؟ ويمكن بأمر منه أن يلقى بالسجن، ويلحق الإهانة بهذا الأسقف العجوز نفسه»، وعندما تليت الرسالة بين اخوانه الكرادلة، استطاعوا بصعوبة ضبط غضب البابا وكبحه بالقول له: «ليس لائقاً بنا ياصاحب القداسة، فرض أية عقوبة قاسية ضد هذا الأسقف، لأننا والحق يقال، إن الذي قاله صحيح، ونحن لانستطيع أن نحكم عليه بالادانة، فهو كاثوليكي، لابل هو مقدس جداً، وأعظم ديانة، وأعظم قداسة، ويمتلك حياة أكثر استقامة منا أنفسنا، وهو في الحقيقة ليس له نظير، ولايوجد من يتفوق عليه بين جميع الأساقفة، وهذا مايعرفه جميع رجال الدين من الانكليز، وكذلك من الفرنسيين، ومعاداتنا له ستكون بلافائدة، ومصداقية هذه الرسالة، التي ربما أصبحت الآن معروفة من قبل أعداد كبيرة، من الممكن أن تثير الكثيرين ضدنا، لأنه يعدّ فيلسوفاً عظيماً، وهو مجيد تماماً لمعرفة اللغتين اللاتينية والاغريقية، وهو غيور على تطبيق العدالة، وعالم في مدارس اللاهوت، وواعظ للناس، محب للاحسان، ومطارد منكل بالمذنبين»، فهكذا تحدث جايل الاسباني وكان كاردينالاً، ومثله فعل الآخرون، الذين تحركت ضمائرهم، ونصحوا البابا بالتغاضي، وأن يعبر بتلك المسائل صامتاً، خشية أن لاتحدث إثارة بسببها، ولاسيما أنهم كانوا يعرفون أن الخروج والتمزق سوف يحدث على الفور.

حول كرم روبرت أوف سوثندون وإحسانه

وقام في هذا العام أيضاً روبرت أوف سوثندون Sothindon, وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك، صدوراً عن مشاعر الإحسان، وتقديراً منه للمال الذي جرى صرفه من قبل دير القديس ألبان، فأعطى كنيسة هارتبورن Hertburne, التي كان يمتلكها كلية، ومستحوذ عليها تماماً، قام باعطائها إلى الدير المذكور، حتى يتملكها تماماً، ويتصرف بها بما يفيده، كما أنه أنعم أيضاً بمنفعة مماثلة على كنيسة القديس مارتين أوف باتل Battle, بإعطائها كنيسة جيليلهام Jelelham, ومثل هذا أنعم بكنيسة هوسبنغ Hospinge على فرسان الاسبتارية في دوفر، وبلغ مورد المنحة الأولى سنوياً مبلغاً مقداره ثلاثمائة مارك، أما المنحة الثانية فكانت مائة مارك، أما الثالثة فكانت ستين ماركاً، وعملت المنح الثلاث جميعاً صدوراً عن التقوى، ولزيادة الضيافة وتقديمها ظاهرة إلى كل من الناس والخيول.

موت رالف راعي دير رامسي

في أمسية عيد صعود العذراء المباركة، مات المبجل رالف، راعي دير رامسي، تاركاً ديره عرضة للنهب من قبل مخلوقات الملك في أيام الحصاد، ثم عهد بالعناية بالدير إلى يود Ude, وكان كاهناً من البلاط، وأنا سوف أعبر بأعماله بصمت خشية أن تصل إلى مسامع خصومه، وجرى الاستيلاء على أوعية من الفضة كان وزنها خمسة وثلاثين ماركاً، وخمرة منتخبة، وخيول، وحيوانات من الغابة، من أجل استخدامات أوصياء المملكة، وأبعدوا بدون احترام عن الكنيسة، والذي كان أكثر قسوة وحدة، هو استخراج مبلغ من المال من العاملين في أملاك الدير، وذلك من قبل الذين كانوا متوجب عليهم حراسة الذين لآباء لديهم وحمايتهم، وعلاوة على ذلك جرى ارسال المعلم نيقولا بلمبتون Plumpton والمعلم جون ايرلاندا، وكانا كاهنين

لدى الملك، إلى بلاط روما، في سبيل معارضة ثم إلغاء الوعود الملكية التي تقدم ذكرها أعلاه، وقد تلقيا أوامر بأن لايوفرا نفقة في سبيل تنفيذ غايات الملك، وفي الوقت نفسه، وخلال ذلك العام كله، قام أسقف لنكولن، الذي تنبأ بأن الملك سوف يضلل بوساطة مشورة شريرة حتى يخرق جميع وعوده، لذلك أمر بالتفوه بقرار الحرمان الكنسي ضد جميع الذين سيتولون خرق صكوك الامتيازات المتقدم ذكرها، في جميع أرجاء أسقفيته، وفي أي مكان توفر فيه اجتماع للناس، لكن مما يؤسف له كانت مفاتيح الكنيسة فيما بينهم محل استخفاف وتحدي.

الطوفان المدهش الذي تسببت به الأمطار

ووقعت في حوالي الوقت نفسه واقعة مدهشة، كان حولها هناك أحاديث طويلة، هي أنه على الرغم من أنه كان هناك في ربيع هذا العام وصيفه جفاف كبير وطويل، حدث في نهاية الصيف وفي الخريف فيضان للأنهار، فقد غمرت المياه الشواطىء، وارتفعت إلى مستوى قمم التلال، وغطت المناطق المجاورة، ومجدداً حدث في نهاية الخريف وبعد عيد القديس ميكائيل أن كان هناك فيضان نجم عن أمطار غزيرة، ثم اختفى وأعقبه جفاف كبير ونقص لا بل ندرة في مياه الأنهار والينابيع، إلى حد أن الذين أرادوا طحن القمح أرغموا على حمل حبوبهم إلى مسافة تقارب رحلة يوم من أجل طحنها، ووقعت واقعة مشابهة ومدهشة في ربيع هذا العام نفسه، جاءت معاكسة لطبيعة الفصل، لأنه في أيام الاعتدال الربيعي يكون المناخ كله معتدلاً ولطيفاً، ويكون هناك هدوء لجميع العناصر.

الاحتفال الفخم بعيد القديس إدوارد

اجتمع بناء على أوامر من الملك عدداً كبيراً من الأساقفة والنبلاء، في عيد القديس ادوارد، الذي يحل خلال أسبوعين من عيد القديس

ميكائيل، واحتفل بهذا العيد من خلال إدارة الايرل رتشارد والملكة بشكل رائع، ووفق طريقة لم يكن هناك قط ما هو أبهى منها.

كيف حصل ملك إنكلترا على ملكية قلاعه في غسكوني

وفي نهاية صيف هذا العام، حصل ملك انكلترا بعد بذل كثير من الجهود، وبعد انفاق كبير للمال من دون فائدة، على تملك قلاعه الخاصة في غسكوني، حيث منح عروضاً جيدة للذين كانوا محاصرين فيها، وفي الحقيقة هو لم يلحق بهم كبيراً من الأذى والأضرار، مع أنهم استحقوا ذلك كثيراً، واقتصرت الأضرار، كما شاهدوها بأنفسهم، وعرفوها، على تدمير كرومهم، وقد رمى المحاصرون يومياً أحجار طواحين كبيرة ومقذوفات ذات أحجام مدهشة، على جيش الملك، وقد جرى حمل هذه المقذوفات إلى انكلترا، حتى يجري عرضها بمثابة أشياء غريبة جداً، وعندما جرى التضييق عليهم وحوصروا عن قرب، أرسلوا مراراً وبشكل سري رسلاً إلى ملك اسبانيا، رجوه فيها أن يساعدهم، على أساس أنهم من رعاياه المخلصين، وفي أثناء حصارهم على هذه الصورة، زادوا من عدوانيتهم، ولجأوا إلى الغلو في إجراءاتهم، وعندما أرغموا على مغادرة قلاعهم بمثابة أسرى لدى الملك، ذهب إخوة الملك لأمه إليه، وطلبوا منه تسليمهم الأسرى، حتى يتولوا معاملتهم كما يريدون ويرغبون، وقد أثار هذا المطلب الوقح دهشة وحفيظة العديد من أصدقائه، وقام هو على كل حال بتوفير حياة الذين كانوا أعداءً مكشوفين له، وذلك بباعث من الرحمة لديه، وهو الذي واجه متاعب كبيرة في اخضاعهم، وفعل هذا من دون تقدير منه لأحكام الانجيل التي تقول: «أحضروا الذين رفضوا تقديم الطاعة لي حتى أكون حاكماً عليهم، واذبحوهم بحضوري»، وبذلك ماتت سمعته الجيدة، وتلاشت كل مظاهر الاحترام له، بحكم أنه تولى ظلم رعيته من أبناء بلده، وأظهر اللطف نحو الأجانب.

كيف أرسل ملك إنكلترا سفراء إلى ملك إسبانيا

ثم قام الملك، خشية منه من غدر الغسكونيين وخيانتهم، وأن يقدموا على التخلي عنه والالتحاق بملك اسبانيا، الذي كان له نفوذ كبير عليهم، فأرسل أسقف باث، وجون مانسيل، كاهنه المفضل، بسفارة خاصة إلى ذلك الملك، يرجوان بتواضع الحصول على صداقته والتحالف معه، ويطلبان منه اعطاء اخته لأمه لتكون زوجة لابنه الأكبر، والذي هو ولي عهده الشرعي، أي ادوارد، فهو —أي ملك انكلترا— كان قد تنازل عن غسكوني إلى ابنه ادوارد المتقدم ذكره، ولم يكن ذلك ليختلف كثيراً، أو بعيداً عن المنحة التي عملت، أو التي سوف يجري منحها إلى أخت ملك اسبانيا المتقدم ذكرها، إذا ما تزوجت من ابنه ادوارد، وأوصل السفيران المذكوران مهمتهما إلى التمام، وحصلا بعد متاعب جمة، وقلق عظيم على صداقة ملك اسبانيا وعلى نواياه الطيبة وتمكن أيضاً من الحصول على صك حقوقي فخم، كان وزن الختم الذهبي عليه يعدل وزن مارك من الفضة، وقد ورد في الصك فقرة خاصة، أقحمت فيه خصيصاً، تحدثت وأفادت بأن ملك اسبانيا قد تخلى عن كل ادعاء له مهما كان نوعه أو سيكون في غسكوني، وذلك بموجب فضيلة منحة الملك هنري الثاني، ثم تأكيد ذلك وتثبيته من قبل الملكين رتشارد وجون، وجاء ذلك بفضل الإجراءات البارعة لهذين السفيرين، أو بالحري أن تقول جهود جون مانسيل وحده، وتم الحصول أيضاً على بعض الامتيازات، لصالح الحجاج الذين يذهبون إلى القديس جيمس، ومنفعة حق الإقامة حسب رغبتهم في المدن التي هي تحت حكم ملك اسبانيا، وكذلك شراء الطعام لأنفسهم كما يريدون، دون أن يطلبوا الاذن من الذين يتولون رعايتهم.

ثم إن ملك اسبانيا المذكور طلب وجوب تقديم إدوارد إليه، حتى يتمكن من فحصه والتعرف على براعته ومعارفه، ولينعم عليه بمرتبة

الفروسية، مع جميع التشريفات الجديرة بشاب من مثل هذه المرتبة العالية، وأفرحت هذه النهاية الذكية والإدارة الكاملة لجميع الشؤون، ملك انكلترا، لكنه شعر بخوف عظيم، ولاعجب من ذلك، فقد خاف من ارسال ابنه الأسن، والوريث لجميع أراضيه، إلى ملك اسبانيا، الذي كان يعيش على بعد كبير، وخشي من أن يجري تضليل ذلك الملك باثارة النهم لديه والشرور، فيحتفظ به لديه بمثابة رهينة، أي أن يرتهن لديه ذلك الأمير الذي سلم إليه من دون عناية وتقدير، وأخيراً قدم جون مانسيل —على كل حال— شهادة على صلاح ملك اسبانيا وصدقه، وأعلن أنه لن يقترف، كما أنه لن يسمح باقتراف، مثل هذا الاثم، وارتفعت ثقة الملك، وكان راضياً بعد ذلك بإصدار الأوامر بأن لايذهب ادوارد لوحده، بل أن ترسل ملكته معه، الأمر الذي جرى تنفيذه، وحدث أثناء مدة تلك الحرب كلها، أنه كان كلما اقترف أي انكليزي ذنباً من الذنوب، كان يعاقب بشكل يتجاوز مايستحقه ذنبه، لكن في حال اقتراف أجنبي لإثم من الآثام، كان يعاقب قليلاً، أو حتى كانت القضية تمر من دون عقوبة، وكانت هذه الحقيقة موضع تساؤل، ولم يكن ذلك من دون سبب مسوغ.

حول عدوان حاد قام به المسلمون ضد الصليبيين

وقام في هذه الآونة بعض النبلاء من المسلمين الشرقيين، بحكم كراهيتهم للصليبيين، بالدخول بتحالف في سبيل تدميرهم، وعاثوا في أراضيهم كما أرادوا، واجتاحوها من دون أية معارضة، حتى وصلوا إلى أبواب عكا نفسها، وقد تسببوا بجبروتهم بكثير من الأذى.

حول المجاعة الكبيرة في غسكوني

وفي هذه الآونة أيضاً، عانى جيش الملك من نقص كبير في المؤن، إلى درجة أن الدجاجة الواحدة بيعت بستة بنسات استيرلينية، وبيع مكيال

القمح مقـابل عشرين شلناً، والربع من الخمـر مقـابـل شلنين وأكثر، والرغيف الواحـد من الخبـز الذي وزنه باوند واحـد ببنسين أو بثـلاثة، وهكذا صـار بالكاد يمكن لفـارس جـائع أن يكتفي بانفـاق شلنين من الفضة للانفاق يومياً على نفسه وعلى تابعه وعلى غلامه، وعلى فرسه.

كيف جرى إعفاء راعي دير القديس ألبان والدير معه من الدين المستحق لرتشارد أوكسهي

في الثـالث والعشرين من شهـر تشرين الأول في هذا العـام، جـرى سحب قيـد رباط الدين الذي كـان راعـي دير القـديس ألبـان والدير خاضعين له بموجب قرض رتشارد أوكسهي Oxhaye من يدي اليهودي الياس اللندني، والدين كله ألغي، وجرى الإعلان عن ذلك في مجمع اليهـود في لندن، من أن راعي الدير المذكـور والدير قد أعفيـا من كل ادعاء ضدهما فيما يتعلق بذلك الجانب، منذ بداية الخليقة حتى ذلك الحين، وجرى الحصول على وثيقة من قبلهم ثم تمّ الإعلان عنها.

كيف انتشرت سمعة ملك إسبانيا في الخارج

وفي هذا الوقت انتشرت سمعـة ملك اسبـانيـا وشهـرته، لكن ليس بقـدر سمعة ملك انكلترا وشهـرته، وجـاءت ألقاب الملك الاسبـاني في وثائقـه كما يلي: «ألفونسو، بنعمـة الرب ملك قشتـالة وليون، وغـاليشيا وطليطلة، وميورقـة، وقرطبة، وجيـان»، وكانت مملكة ملك انكلترا أكبر بكثير وأضعافاً مضـاعفة لمملكته، حيث كان قـد عهد بايرلاندا مع كثير من ممتلكاتـه الأخـرى إلى ابنه، لكـن هذه القضـايـا تحتـاج إلى عـرض خاص.

النصيحة الحكيمة التي قدمها ملك إسبانيا إلى ملك إنكلترا

أصبح الآن ملك اسبانيا صديقاً كبيراً لملك انكلترا، وبعدما سمع عن

ممارساته، حزن، وتأثر بروحه اللطيفة وبحكمته، فأرسل رسالة إليه، أي إلى ملك انكلترا، يحثه فيها على أن يحذو حـذو الملوك الصالحين والأمراء الجيدين، الذين كان شعـارهم منذ العصور الأزلية كما يلي: «هو سيكون حملاً لعبيده وجندياً تابعاً، وأسداً نحـو الغرباء والعصاة»، وتمت الإشارة إلى هذا القـول الذي ذكـره لإثارته وتشجيعـه على أن يعمل هكذا، وأن لايستمـر بعـد الآن في ظلم رعـاياه الطبيعيين، وأن يرعى الأجـانب والغرباء وأن يدعمهم، لكن:

ماهي الفائدة المتوخاة من بذل الجهد

في إلقاء البذار على أرض قاحلة؟

وكان لدى ملك اسبانيا ثماني ممالك هي: قشتالة، وغاليشيا، واشبيلية، وقرطبـة، وميورقـة، واشباليـا Hispalis, فهؤلاء جميعـاً بين يديه وهم يخضعـون إلى القـوانين المسيحيـة، ولديه أيضـاً ملكين مسلمين يدفعون الجزية إليه، كما ظهر في الصك الذي أرسله إلى ملك انكلترا.

حول المرض الشديد الذي أصيب به أسقف لنكولن

وحـوالي ذلك الوقت نفسه، وعندمـا كانت أيام الشعـرى (من أوائل تموز حتـى أوائل أيلـول) تمارس تأثيرهـا الشريـر، تمدد روبرت أسقـف أوف لنكولن مصاباً بمرض شديد، وكـان ذلك في عزبة اسمها بوكدون Buckdon, ولذلك استدعى إليه المعلـم جون أوف سينت جايل، وكان راهباً من طائفة الدومينيكـان، وكان بارعاً في فن الطبابة والمداواة، ومحاضراً متعلماً باللاهوت، مـن أجل أن يحصل منه على المواسـاة، لكل من جسده وعقله، لأنه عرف، وكأن ذلـك جاء بوساطة إلهام، أن المحن مقبلة لتحل بالكنسيـة خـلال وقت قصير، ونحن غير مجهـزين ضـدها، ولهذا السبب أمر الكهنة المؤسسين في جميع أرجـاء أسقفيته بإعـادة قراءة قـرار الحرمـان الكنسي، من دون توقف ضـد الذين يخرقـون صكوك

الحريات العظيمة التي فيها امتيـازات المملكة، وذلك حيثما وجدوا أناساً مجتمعين مع بعضهم، وقـاوم بعض أصـدقاء البـلاط، والكهنة وكـذلك بعض الرجال العلمانيين هذا الأمر بتمرد، وكدسوا الإهانات على رجال الدين، وبناء عليه نحن على يقين أنهم بقيـامهم بهذا الإجراء، قد سقطوا في شراك التكفير، وعندمـا كـان الأسقف يتحـادث في أحـد الأيام مع الراهب جـون الطيب المتقـدم ذكره، أخـذ الأسقف يتحـدث عن أعمال البـابا، فانتقـد بحدة اخـوانه الرهبان الدومينيكان والآخـرين، كما أنه لم يوفر الرهبان من طائفـة الفرنسيسكان، لأن طائفتهم تأسست على الفقر التطوعي، وهو الفقـر بالروح، في سبيـل أن يتمكنوا من ممارسـة حـرية أعظم، وليس في تلطيف أخطاء الذين بالسلطـة، بل أن يقومـوا بلومهم ونقدهم بوساطة حدة الروادع، لأن:

المسافر، الذي حافظة نقوده خفيفة

سوف يغني مع أن قطاع الطرق على مشهد منه.

وقـال الأسقف: «إنه بالنسبـة لـك أيها الراهب جـون، وبقيتكم أنتم الدومينيكان، إنكم بقـدر مـاتحجمـون عن نقـد ذنوب النبـلاء بجـرأة، وبقـدر مـا تتمنعـون عن الكشف عن جـرائمهـم، أنا أعـدّكم هراطقـة منحطين» وأضـاف قـائـلاً: «مـاهـي الهرطقـة؟ أعطني تعـريف محدد للكلمـة»، ولأن الراهب تردد في الجواب، ولم يتـذكـر معنى أصيـلاً، أو تعريفاً محدداً للكلمة، استطرد الأسقف مضيفاً معطياً ترجمة صحيحة من الاغـريقية إلى اللاتينيـة قائـلاً: «الهرطقة مـوقف جرى اختيـاره من قبل المشاعر الإنسانية، هو مضاد للكتابات المقدسة، ويجري التبشير به بشكل مكشـوف، ويجري الدفـاع عنه بعناد وإلحاح»، والهرطقة في الاغـريقيـة، هي الانتخاب في اللاتينية، وعلى هذا الأساس انتقد الأسقف الأساقفة، خاصة الرومان منهم، من أجـل إيكالهم مهام شفاء النفوس والعناية بها إلى أقربائهم، الذين كـانوا غير مناسبين، وضعفاء غير أكفاء، بسبب أنهم

كانوا شباباً وبسبب الحاجة إلى المعرفة، واستطرد يقول: «إن إعطاء وظيفة العناية بشفاء النفوس إلى طفل، هو موقف أي أسقف جرى اختياره بوساطة المشاعر الإنسانية، على أساس الجسد أو العلاقة الدنيوية، وهو مضاد للكتابات المقدسة، التي تمنع أن يتولى الرعاية الذين غير قادرين على منع الذئاب، ولقد جرى التبشير بهذا، لأن هذا مؤيد بشكل مكشوف بصكوك حريات تحمل الأختام أو التواقيع، وجرى الدفاع عنها بعناد، لأنه إذا ما حاول أي واحد أن يقف ضدها يجري تعليقه من شراكة المؤمنين، وحرمانه كنسياً، وإثارة الحرب ضده أمر مقدس ومشروع، وكل من ينطبق عليه تعريف الهرطقة وهو متبني لذلك، هو هرطقي، هذا وعلى كل مسيحي مخلص واجب الوقوف ضد الهرطقة بقدر ما أوتي من قوة، وبناء عليه، إن الذي بإمكانه مقاومة الهرطقة ولايفعل ذلك، هو مذنب، وقد أظهر نفسه أنه يحبذ الهرطقة، وفقاً لقول غريغوري: إن الذي يخفق في الوقوف ضد جريمة ظاهرة، ليس بريئاً من التهمة في أنه شريك سري في اقترافها، هذا وإن الرهبان الفرنسيسكان، وكذلك الرهبان الدومينيكان، هم فوق غيرهم، يتوجب عليهم الوقوف ضد مثل هذه العقيدة، وبحكم فضيلة وظيفتهم، لديهم القدرة على التبشير، وبسبب فقرهم هم أكثر حرية في ممارسة ذلك العمل، وهم لايذنبون فقط إذا لم يقفوا ضدها، بل إذا ما حبذوها، لأن الرسول يقول في الفقرة الأولى من رسالته إلى الرومان: «الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت لايعملون فقط بل أيضاً يسرون بالذين يعملون»، وبناء عليه يمكننا الوصول إلى محصلة، أنه مالم يقم البابا نفسه بالتوقف عن اقتراف مثل هذه الخطيئة، وكذلك مالم يظهر الرهبان المذكورين أنفسهم أنهم مهتمين بالتخلي عن مثل هذه العقيدة، يستحقون موتاً سرمدياً، وهناك أيضاً مرسوم يقول بأن مثل هذا الإثم يعني هرطقة، وبناء عليه من الممكن دعوة البابا هكذا، لابل ينبغي دعوته هكذا على هذا الأساس».

شكوى أسقف لنكولن من الحبر الروماني

وكانت الليالي آنذاك طويلة (لأنها كانت الليلة الثالثة قبل عيد القديس دينس)، وكان الأسقف قد أنهكه المرض، وكان قد هدّه التعب، لذلك أمر بإحضار بعض كهنته، علّه يستطيع الترويح عن نفسه بالحديث معهم، وقام الأسقف بابداء الحزن الشديد حول فقدان النفوس، بسبب شره البلاط البابوي، وقد خاطبهم بحزن وأسف كما يلي: «جاء المسيح إلى العالم ليربح النفوس، وبناء عليه إذا كان هناك أي واحد لايخاف من تدمير النفوس، ألا يستحق أن يحمل اسم المسيح الدجال؟ لقد عمل الله الدنيا كلها في ستة أيام، لكن من أجل إصلاح خطيئة إنسان، عمل لمدة تزيد على الثلاثين سنة، أفلا ينبغي —بناء عليه— عدّ المدمر للنفوس عدواً للرب، ومسيحاً دجالاً؟ فلقد قام البابا باعتماده على وسيلة استخدام عبارة «دون التقيد» إلخ، بإلغاء امتيازات الأحبار الرومان من أسلافه، من دون حياء، وهذا لم يقترف من دون إلحاق الأذى والضرر بهم، لأنه بعمله على هذه الشاكلة، ألغى تماماً، ودمّر الذي بذل كثير من القديسين جهوداً كبيرة لبنائه، لابل إنه استخف بجميع القديسين وازدراهم، وبناء عليه أوليس من العدل أن يستخف بالمستخف وأن يزدرى وفقاً لكلام اشعيا: «الويل لك أيها الرافض، أولا تستحق أنت أن ترفض؟» فمن الذي يحافظ على امتيازاته؟ وجواباً على هذا، إن البابا، بناء عليه يدافع عن خطيئته، وهو يستحق أن لايمتلك السلطة على الآخرين، وبناء على ذلك إن واحداً اسمه البابا لايمكنه أن يرغمني، فأنا الذي بالفعل أيضا بابا»، وقال الأسقف: «إن جوابي على هذا هو: يبدو لي أن الذين يبحرون وسط مخاطر العالم، والذين فرحين في أمان الميناء ليسوا متساوين، والتسليم بأن أي بابا يمكن أن يكون محفوظاً، بعيد عني قول غير ذلك، ذلك أن المخلص يقول: «إن الذي هو الأدنى في ملكوت السموات هو أعظم

من يوحنا المعمـــدان، وأعلى من الذين لايوجـد أعلى منهم ممن ولدتهم امـرأة»، وعلى هذا، أوليس أي بابا، أعطي امتيازات أو ثبتهـا أعظم من البابا الحالي؟ من المؤكـد، كما يبدو لي هو أعظم، وبناء عليـه، لديه سلطة على واحـد أدنى منه، ونتيجـة لهذا، ينبغي أن لايقـوم هذا البـابا بإلغـاء قـرارات أسـلافـه، أوليس البـابا هو الذي يقـول في حـديثـه عن معظم أسلافه: كذا وكذا واحد صاحب ذكرى تقية، أو سلفنا، إلخ؟ وغالباً ما يقـول أيضـاً: إننا نسير على خطى سلفنا المقـدس، إلخ؟ فلماذا، على هذا الأساس، يقوم هؤلاء الذين يتبعـون الخطوات بتدمير الأسس التي تولى الذين من قبلهم ارساءها؟ فلقـد قام عدد من الأحبار الرسـوليين بتأكيد كل امتياز جـرى منحه من قبل بلا استثناء، أوليس العـديد الذين جرى انقـاذهم بالنعمـة اللاهوتيـة أكثر مـن واحد فـرد مـايزال تحت الخطر؟ ومجدداً إن آباءنا الأقـدمين، الأحبار الرسـوليين، كـانوا من قبله بالزمن، وقد نالوا الاحترام من قبل العصور القديمة، ورفع شأنهم، ونحن علينا أن ننظر إليهم باحترام، وقـد جـرى الحفـاظ على هـذا النظام من قبل بندكت المقدس، وصاحب الفضـائل، والمبجل، والذي امتلأ بروح جميع القديسين، لدى تأسيسه لنظامـه، لأنه فضل الذين جاءوا أولاً للالتحاق بالطائفة، مهما كانت مراتبهم، وآثرهم على الذين التحقوا فيما بعد، حتى وإن كانوا رجـالاً أصحاب مراتب، وسلطـة، وأمر بتقدير القـدماء وأن ينظر إليهم بالاحترام الأعظم، ولذلـك، من أين نبع هذا الأذى المتهـور الذي يستهدف إلغاء امتيازات مثل هذا العدد الكبير من القديسين.

شكواه المريرة من ظلم الكنيسة

وعـلاوة على ذلك، مع أن كثيراً من الـرجـال الرسـوليين، قـد آذوا الكنيسة، قـد أنزلها هذا الواحد إلى أسوأ درجة من درجـات العبودية، وجعلهـا أدنى من الآخـرين، وزاد كثيراً مـن ارباكـاتها، لأنه بسبب السماسرة، الذين يظهـرون التعـامل بالربا في أيامنـا هذه، حسبما رأينا

وعرفنا، فإن الآباء المقدسين والمعلمين، الذين من بينهم: واعظ فرنسا المشهور، راعي دير فلي Flaye الذي هو من طائفة السسترشيان، والمعلم جيمس دي فيتري Vitry, وستيفن المنفي، رئيس أساقفة كانتربري، والمعلم روبرت دي كوركون Courcon, جرى طردهم من فرنسا، لأنهم بوعظهم قد أيقظوا المشاعر، وقام هذا البابا بحماية هؤلاء السماسرة في انكلترا، التي لم تتعرض قط من قبل للمعاناة من مثل هذا الوباء، وإذا ماقام أي واحد بالشكوى منهم أو بنقدهم، ينال المتاعب والخسارة، كما شهد على ذلك روجر أسقف لندن، والعالم كله يعرف أن الربا قد عدّ ممقوتاً في العهدين القديم والجديد معاً، وهو محرم من قبل الرب، والآن يقوم تجار البابا أو وكلاؤه —في سبيل اغضاب اليهود— بممارسة أعمال الربا بشكل مكشوف في لندن، ويبدعون مختلف الخطط للظلم ضد عبيد الكنيسة، وبشكل خاص ضد الرهبان، حيث أنهم يرغمون الذين تعرضوا لضغط العوز، على ممارسة الكذب، وأن يضعوا تواقيعهم على كتابات مزيفة، ومثل هذه الإجراءات هي اعتراف عملي، وممارسة لعبادة الأوثان، ومن ثم التخلي عن الحق الذي هو الرب، وعلى سبيل المثال إنني أقبل بقرض مقداره مائة مارك مقابل مائة باوند: وإنني هنا أنا مرغم على إعطاء ورقة مكتوبة، والتوقيع بالاسم، وفيها أعترف بأنني تقبلت قرضاً مقداره مائة باوند ينبغي سداده عند نهاية العام، وإذا مارغبت أن تدفع إلى مرابي البابا المال الذي اقترضته خلال شهر، أو خلال بعض الوقت الأقل، هو لن يتسلم منك أقل من المائة باوند كاملة، وهذه شروط أكثر ظلماً من شروط اليهود، لأنك متى أردت أن تعيد إلى يهودي المال الذي أقرضك إياه، هو سوف يتسلمه منك بتقدير وشكر، ومع فائدة تتوافق فقط مع الوقت الذي أقرض به المال، وعلاوة على ذلك نحن نعلم بأن البابا قد فرض على كل من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، أن يحضروا عند الذين يموتون ليطلبوا

منهم بكل عناية، وليحاولوا اقناعهم بإلحاح، ليعملوا وصاياهم لمنفعة الأرض المقدسة ولنجدتها، وليلزموهم بحمل الصليب، من أجل أنهم إذا ما تعافوا من مرضهم، يمكن لهؤلاء الرهبان خداعهم حول ممتلكاتهم الأساسية، أو أنهم إذا ماتوا، وقتها من الممكن استخراج الكثير من المنفذين لوصاياهم، كما أنه باع أيضاً الذين حملوا الصليب إلى رجال علمانيين، مثلما عمل اليهود عادتهم من قبل، بيع الأغنام والثيران في الهيكل، ولقد رأينا رسالة صدرت عن البابا، نجد أنه ورد فيها، أن الذين عملوا وصاياهم، أو حملوا الصليب لمساعدة الأرض المقدسة، سوف يتلقون غفراناً يتماشى مع نسبة المال الذي قدموه من أجل هذا الغرض، وعلاوة على ذلك قام البابا في كثير من رسائله، بتوجيه الأساقفة لتجهيز كذا وكذا شخص بمنافع لاهوتية، وهم أشخاص غرباء وغائبين، وبعضهم غير لائقين تماماً بالمنافع، لكون أحدهم كان لايعرف لغة المحليين حتى يكون بذلك قادراً على الوعظ، أو تلقي الاعترافات، ولايمكنه حتى أن يستقر ويسكن ليتولى تدبر حاجيات الفقراء، ولاستقبال المسافرين، وقد أمر بأن تكون المنفعة واحدة من نوع يجعل هذا الغريب نفسه يفكر ويتمعن فيما إذا كانت تستحق القبول، ومرة ثانية نحن نعلم بأن البابا قد كتب إلى راعي دير القديس ألبان يأمره بتزويد واحد اسمه جون أوف كيمزان Came-zan —هو لم يره قط— بمنفعة موائمة، وفي وقت قصير، وبناء ءعليه جرى تعيين ذلك الشخص في كنيسة تساوي أربعين ماركاً، وأكثر، سنوياً، وهو لم يكن حتى راضياً بهذا وقانع، لذلك تشكى إلى البابا، ومجدداً، كتب قداسته إلى راعي الدير المذكور، أن يتدبر منفعة أكثر ربحاً ليعطيها إلىُ الكاهن المذكور، ومع هذا أن يبقي لصالحه —أي البابا— أعطية الكنيسة المتقدم ذكرها.

وبعد مضي أيام قلائل بعد ذلك، ذهب شخصان وضيعان إلى دير

الراعي المذكور، وهما يحملان رسائل من البابا، كان من بين محتوياتها أمراً إلى راعي الدير أن يدفع على الفور باليد، ومن دون أية مشاكل مبلغ عشرة ماركات إلى هذين الشخصين النبيلين، حتى يتمكنا من تدبر شؤونهما، ووضع راعي الدير حداً لتهديداتهما ولكلامهما المتعجرف بدفع المال، وبشأن الرجال المقدسين والمتعلمين، الذين غادروا هذا العالم ولن يعودوا، قام البابا حتى يحاكي الرب، بتعيين جباة لاستخراج المال بحجج متنوعة، وقد تولوا القيام بهذا العمل، وإن كانوا مكرهين، حتى لايظهروا أنهم غير طائعين، وهكذا صاروا مع كونهم دنيويين أكثر دنيوية، ودللت خشونة ملابسهم، التي ارتدوها على كذبهم، وبالقدر نفسه تسترهم تحت غطاء الفقر على سكنى روح التجبر فيهم، وبناء عليه بات من غير الممكن ارسال نائب بابوي إلى انكلترا، مالم يجري طلب إذن الملك من أجله، ويرسل البابا نواباً مزيفين ومموهين، ومع أنهم لايرتدون ملابس حمراء، هم متسلحون بسلطات كبيرة، وليس من الصعب ايجاد مثل يستشهد به، لأن عدداً كبيراً من هذا النوع جاءوا مراراً، أن نتولى ذكرهم بالاسم سوف يكون مؤذياً للسامعين، ومن جديد إن الذي لم أره بالعادة، هو أن البابا قد قام، في سبيل مصلحة دنيوية، فسمح إلى أي واحد بشغل منصب الأسقفية، مع أنه لم يكن أسقفاً، بل منتخب بشكل أبدي، محافظاً أيضاً على الموارد القديمة، الأمر الذي يؤكد الأمر التالي، هو أنه قد سمح له بأخذ حليب الشاة وصوفها دون أن يتولى طرد الذئاب وابعادهم.

وبعد استحواذهم على هذه التجاوزات المقيتة وأشياء مزدراة أخرى، مثل كل نوع من الشره، والربا، والسيمونية، والسلب، وكل نوع من الترف، وممارسة الجنس، والنهم، وحب الزينة، المستبد بذلك البلاط والمتحكم به، وبذلك انطبق بعدل عليهم القول: «أن تشبع

نهمه العالم كله لايكفي، وأن تلبي رغبات مسراته، جميع عاهرات العالم غير كافيـات»، ثم قام ذلك البلاط ببذل كثير من الجهـود، وقام بكثير من الإجـراءات، على أمل أن يظهر بـأن الأردن سوف يصب في فمـه، ولذلك فغـر عن فكين مفتوحين وهو راغب في أن يدعي لنفسـه تملك حـاجيات أولئـك الذين ماتوا مـن دون وصية، وكـذلك أيضـاً الذين منحوا بوضـوح ممتلكاتهم بموجب وصيـة، وتصرفوا حتى يفعلوا هذا بحرية أكبر، بأن جعلوا الملك متـورطاً معهم وشريكاً في سرقاتهم»، ثم إنه أضـاف يقـول: «ولن تستطيع الكنيسـة أن تتحـرر من أغـلال عبـوديتها، إلاّ بحـد السيف الدموي، وهذه الشرور هي الآن خفيفـة، لكنهم خـلال وقت قصير —خلال ثلاث سنوات كما أخمن— سـوف يصبحـون أكثر جـدية»، وعند الفـراغ من هذا الكلام التنبـؤي، الذي تفوه به بكل صعـوبة، والذي قوطع بالآهات والدمـوع، انبسط لسانه، وعجز عن التنفس، وأصبح صامتاً، لأنه فقد القدرة على الكلام.

حول وفاة روبرت أسقف لنكولن

وهكذا بناء عليـه، غـادر من منفى هذه الدنيـا، التي لم يحبها مطلقـاً، روبرت المقدس، الأسقف الثـاني للنكولن، وقد مات في عزبتـه بوكدون Buckdon, في ليلة عيد القـديس دينس، وقام خلال حيـاته بنقد البابا والملك بشكل مكشوف، وأصلح القساوسـة، وقوّم الرهبان، وفيه فقد رجـال الدين، المدير، والكاهن، والموجه —العـالم والداعم— وفقد فيـه الناس الواعظ، وقـد أظهـر نفسه مضطهـداً للعـاجـزين عن ضبط شهواتهم الجنسيـة، وفاحص مـدقق لمختلف الكتابات المقـدسة، مكافح للرومان ومـاقت لهم، وكان كـريماً مضيافـاً، ومسرفاً، وأديبـاً، ومشرقاً، ودمثاً عند المائدة، ومعتدلاً في تناول الأغذية الجسدية، وتقياً مخلصاً عند المائـدة الروحيـة، وباكيـاً نادماً، وكـان في ممارستـه لواجبـاته الأسقفيـة، لطيفاً، لايعرف التعب، وجديراً بالاحترام.

حول الموسيقى التي سمعت في السموات

خــلال الليلة التي غــادر فيهــا الأسقف المذكــور إلى الرب، سمع فولكس Faulkes أسقف لندن في الهواء من فوق صــوتاً رائعاً، وعظيم القبول، وموسيقى أنعشت أذنيه وقلبه وركز انتباهه على الوقت، وعندمـا كـان يصغي إلى الموسيقى (ذلـك أنه كـان في ذلك الوقت مقيماً قـرب بوكدون) قـال لبعض الأشخـاص الذين كانوا واقفين إلى جنبـه: «هل سمعتم أنتم أيضـاً الذي أنا أسمعه»؟ وبناء عليه سـألوه: «ماالذي تسمعه يامـولانا؟» فأجابهم الأسقف: «إنني أسمع صـوتاً غير اعتيادي، مثل صـوت جـرس دير كبير يقـرع لحناً بهيجـاً في الهواء من أعلى، ومع أنهم أصغـوا بكل عناية، أعلنـوا أنهم لم يسمعـوا شيئاً، وبناء عليـه قـال الأسقف لهم: «بحق الإيمان الذي أدين به للقـديس بولص، إنني أعتقـد أن أبانا المحبوب، وأخانا، ومعلمنا، الأسقف المحترم للنكولن، يعبر من هذا العالم ليـأخذ مكانه في ملكوت السموات، وإن هـذا الصوت الذي سمعته قد قصد منه، تقـديم انذار مكشوف لي حول ذلك، لأنه لايوجد دير قريب من هنا، فيه جرس من ذلك النوع، ومرتفع إلى هذه الدرجة، دعونا نبحث في القضية على الفور، وبناء عليـه قاموا بالتقصي، فوجدوا، حسبما تبرهن بإفـادة جميع آل بيتـه، أنه في تلك السـاعـة بالذات، غـادر الأسقف هذا العالم، وبالنسبـة لهذه الواقعة الرائعـة، أو بالحري، المعجزة الأولى، جـرى الإخبـار بها بمثـابة حقيقـة، وحملت كبينة إلى كـاتب هذا الكتاب، من قبل المعلم جون كراتشيل Cratchale, وهو كاهن وثيق الصلة بالأسقف، وواحد كان مـوضع احترام كبير، وكان صاحب سلطة عالية بين أتباعه وأصدقائه.

حول أصوات الأبواق والأجراس التي سمعت في السماء

وفي تلك الليلة نفسهـــا، كـــان هناك بعـض الرهبـــان من طـائفـــة الفـــرنسيسكان، مسرعين نحـو بوكـــدون، حيث كـــان روبرت أسقف

لنكولن مقيماً (لأنه كـان المواسي والأب للرهبـان الدومينيكان والفرنسيسكان) وأثناء عبورهم للغابة الملكية في فوبيرج Vauberge, بما أنهم كانوا جاهلين لمتعرجاتها أضاعوا طريقهم، وعندما كانوا يتجولون ويبحثون، سمعوا في الهواء أصوات أجراس، ميزوا بوضوح بينها صوت جرس كان لحنه جميلاً جداً وحلواً لايشبه أي شيء سمعوه من قبل، وأثارت هذه الواقعة دهشتهم كثيراً، لأنهم عرفوا أنه لم تكن هناك كنيسة قريبة معروفة، وعندما بزغ نور الفجر، وبعدما تجولوا هنا وهناك من دون فائدة، قابلوا بعضاً من أهل الغابة، فحصلوا على التوجيه لاسترداد طريقهم الصحيح، وبعد ذلك سألوهم عن معنى القرع الكبير والمهيب للأجراس، التي سمعوها قادمة من اتجاه بوكدون؟ وعلى هذا أجابهم رجال الغابات أنهم لم يسمعوا شيئاً، ومع أن الصوت كان مستمراً يملأ الهواء بلطف، لم يكونوا يسمعون أي شيء على الاطلاق، ومع أن الرهبان ظلوا مندهشين تابعوا سيرهم، فوصلوا إلى بوكدون في الوقت المناسب، وهناك جرى اخبارهم، أنه في الوقت الذي سمعوا فيه تلك الألحان الشجية في الليل والأصوات اللطيفة، لفظ روبرت أسقف لنكولن روحه السعيدة.

حول المجاعة الكبيرة في غسكوني

استمرت في هذه الآونة ندرة المؤن في غسكوني وتثبتت، وازدادت إلى درجة بلغ فيها ثمن مكيال الطحين عشرين شلناً، والكمية نفسها من الشوفان بعشرة شلنات، وبيعت اللحوم والأسماك بأسعار عالية، لابل حتى الخمرة، بيعت كذلك، مع أن غسكوني كانت فيها بالعادة وفرة منها، ولذلك أرسل الملك رئيس رهبان نيوبري Newbury, وكان كاهناً نظامياً، وبعث أيضاً روجر سنسور Censor, مع بعض مستشاريه المخلصين إلى انكلترا للحصول، ومن ثم جلب ما كان ضرورياً لجيشه، وذهب هؤلاء الرجال وقتها إلى لندن، وفرضوا مبلغاً

كبيراً من المال واستخرجوه من سكان ذلك المكان، ولم يكونوا بطيئين أو غير نشيطين في جباياتهم، وجمعوا الأسلحة، والقمح، واللحوم المملحة، وحملوا جميع ذلك في عدد كبير من السفن، لكن رجال بلاط الملك والجيش كانوا مثل خليج كاريبديس Charybdis الذي لايعرف الشبع، التهموا هذه الأشياء كلها، وفي الحقيقة عدّ الملك انكلترا بئراً لاينضب، وكان عليها أن تدفع من أجل أخطاء وذنوب جميع الجيران وكذلك جميع البلدان المجاورة، وفقاً لقولهم:

عقوبات النزوات الملكية

تقع على أكتاف الاغريق

أما وأصبح الملك Lycurgus ثانياً، اقتلع كروم الأعداء ودمرها، وهي الكروم التي اعتمد عليها الغسكونيون بشكل رئيسي من أجل عيشهم، وأمر بتسوية بيوتهم وقلاعهم مع الأرض، وعندما تبين هذا للغسكونيين اشتكوا من هذا النوع من الانتقام، وعدوه أدنى بكثير من طريقة الفروسية في الحرب التي مارسها سيمون ايرل أوف ليستر، وعدّوا تدمير كرومهم واحراق بيوتهم حروب امرأة عجوز، وليست من حروب الرجال.

حول إطلاق سراح أسرى من قبل الملك

وبعد الاستيلاء على قلعتي لى راؤل وبازاس Bazas, اللتان كلفتا الانكليز الكثير من المتاعب والنفقات، أعطى الملك ملكيتهما بشكل حر إلى بطرس أوف سافوي، وإلى إخوته البواتيين، الذين ما ان أطلق سراحهم حتى التحقوا على الفور بأعدائه.

موت وليم دي فيزي

وهكذا سلبت انكلترا من كل جانب، وجردت من السلاح، والطعام

والمال، والذي كان محزناً أكثر هو تجريدها من فرسانها، لأنه بعدما ذهب الملك إلى القارة مات عدد كبير من أتباعه، كان من بين أعدادهم وليم دي فيزي Vesey, وكان واحداً من أعظم النبلاء وبارونات شمالي انكلترا، فقد غادر طريق الجسد، وقام الملك على الفور بإعطاء المسؤولية التي كانت بعهدته، وكانت ذات أهمية عظيمة، إلى أجنبي، محدثاً بذلك أذى عظيماً ألحقه برعاياه الطبيعيين.

حول آلام فرسان شروبري

وفي هذه الآونة بالذات، رفض بعض فرسان شروبري Shrewbury, لابل هم جميعاً، الانصياع إلى مرسوم الملك الجديد، المتعلق بالممتلكات، التي كان المسافرون قد سلبوها، وذلك حسبما كانت العادة بين السافويين في بلادهم، ولذلك تعرضوا عن طريق العقوبات إلى أعظم استخراج، ولهذا مكثوا لعدة سنوات وهم يجدون صعوبة في تزويد أنفسهم مع آل بيوتهم بالضروريات من أجل الحياة، أو بوسائل زراعة أراضيهم.

حول التجاوزات التي اقترفت من قبل المسلمين

في يوم عيد جميع القديسين، وصلت أخبار مرعبة جداً إلى الايرل رتشارد، الذي كان قلقاً أكثر من الآخرين حول أوضاع الأحوال في الأرض المقدسة، وقد تحدثت —وذلك كإشارة على الغضب العظيم للرب— بأن سلطان المسلمين والقادة الرئيسين بينهم أقاموا سلاماً فيما بينهم أنفسهم، ودخلوا في تحالف اتحادي من أجل تدمير الصليبيين، حيث أخذوا يجتاحون الأرض المقدسة كيفما أرادوا، واستولوا على مقتنيات الصليبيين حسبما رغبوا من دون أية معارضة، أي أنهم دمروا جميع المنطقة عبر عكا، وأزالوا بعض الطواحين التي كانت عائدة إلى سكان ذلك المكان، لأن المسلمين عملوا مؤامرة لمحاصرة عكا، وأسر

ملك فرنسا، مما كان سيشكل عاراً لايمكن رحضه بالنسبة للصليبيين، وعزموا أن يقدموه بعد أسره إلى خليفتهم، الذي كان بالنسبة لهم مثل البابا، وعندما أصبحت هذه الحقيقة معروفة بشكل عام (بين الصليبيين) حزنوا بشكل عميق، وعزوا هذا كله إلى سوء الحظ، وإلى الشره العنيد للرومان، الذين رفضوا بصلف تواضع فردريك وعرضه المساعدات لاسترداد جميع مقتنيات الصليبيين بشكل مسالم، أي جميع الممتلكات التي امتلكها الصليبيون في أي وقت من الأوقات في الأرض المقدسة، ذلك أن الرومان لم يرغبوا بأن يعزى مثل هذا الانجاز العظيم إليه، وما كان مؤلماً أكثر هو أنهم باعوا إلى العلمانيين الصليبيين، فأنهكوا وتحولوا إلى متسولين، وجاء ذلك وفق الطريقة نفسها كما فعل اليهود، حسبما ذكرنا أعلاه، حيث باعوا الأغنام، والثيران، والحمام في الهيكل وهم الذين طردهم الرب، وحدث على كل حال، أنه بإرادة الرب، الذي وإن غضب، تذكر الرحمة، فكان أن ثار بعض المسلمين ضد الذين كانوا ينزلون بالصليبيين غضبهم، وبذلك أخفقت مقاصدهم، وأرغموا على التراجع.

حول حملة كونراد بن فردريك

خلال هذا الوقت كله كان كونراد يلاقي النجاح في حملته في أبوليا، منطلقاً من كراهيته للبابا، فاستولى على مدن كابوا Capwa, ونابل، ومدن أخرى، وأدخلها في طاعته وسحق قوى كثيرين وقفوا ضده، وكان قد سكن في تلك البلاد رجلاً شريراً، وملطخاً بالدماء، وكان واحداً من أهلها أيضاً، اسمه جون الموري Moor, وكان داهية متملقاً، تمكن تحت رداء التظاهر بالصداقة، من أن يسمم بشكل سري، كثيراً من الناس، وقد قيل بأن هذا الرجل قد تمكن بهذه الوسائل من قتل فردريك في الأزمان الماضية، ونصب الآن شباكه السرية المميتة لابنه كونراد.

حول الخلاف بين رئيس الأساقفة

بونيفيس والهيئة الكهنوتية في لنكولن

بعدما عاد بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري من حضور دفن روبرت أسقف لنكولن، نشب خلاف بينه وبين الهيئة الكهنوتية في لنكولن، لأنه ادعى بموجب الحق العام أنه يمتلك السلطة في توزيع أوقاف أسقفية لنكولن ومواردها، بعدما حرمت الآن من راعيها، وفي المقابل وقف ضد ادعائه العميد والهيئة الكهنوتية، معتمدين على امتيازهم الخاص وعلى العرف القديم والمعترف به، وقد أيدهم المعلم وولتر بيلستدون Billesdton, وكان رجلاً بارعاً تماماً بالقانون وجديراً بالثقة، حيث قدم بينة إليهم، ذكر فيها ثلاث كنائس، قد جرى منحها من قبل العميد، عندما كان الكرسي الأسقفي شاغراً، ومثل هذا فعل عدد كبير من الأشخاص الآخرين، الذين عرفوا أن تلك كانت القضية الحقة، وقام رئيس الأساقفة، وهو واثق من سلطاته المتنوعة والمضاعفة، بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع الذين وقفوا ضده، وكان وليم وولف Wolff, رئيس شمامسة لنكولن، الذي كان رجلاً كبير المعرفة بالقانون، وفي الأنواع الأخرى من الآداب، وكان صاحب نفوذ كبير، كان هو الرجل الوحيد، الذي وقف مواجهة ضد رئيس الأساقفة، وقد ترافع بدعوى استئناف إلى الحبر الأعظم، لصالح حقوق وامتيازات كنيسته، وأقام نفسه وحدها بمثابة حاجز للدفاع عن ممتلكاته الخاصة وعن امتيازات كنيسته، وقد أرغم على تحمل أشد الآلام تعاسة، حسبما سوف تظهر الرواية التالية:

وكان الكهنة النظاميون قد هدتهم الإجراءات التي جرى تنفيذها في الأزمان السالفة من دون فائدة، ولذلك لم يكونوا قادرين، ولاحتى راغبين في الدخول في قضية مشكوك فيها ضد خصم على درجة كبيرة من القوة، ولذلك أذعنوا لرئيس الأساقفة وخضعوا له، وبقيامهم بهذا

حصلوا على نعمـة التحليل من الحرمان الكنسي، وبقي رئيس الشمامسـة مصراً على موقفـه، وبحث في الوقت نفسه عن مكان للاختفـاء، واعتقد أخيراً أن عليه آن يجد لنفسه مكاناً للجوء في مدينة القديس ادموند، لأن العـادة جـرت بأن يجد المضطهـدون الملجأ هناك مع الحماية، وكـذلك في منطقة نفوذ كنيسـة القديس ألبان، ولذلك حمل نفسه إلى مـدينة القديس ادمـوند المتقـدمة الذكـر، وذلك بعـدمـا بقي مدة أربعين يـوماً بصـورة مستمـرة، تحت الحرمان الكنسي، بصـورة عادلة أو غير عـادلة، لايمكننا القول، لكن المطاردة والتنكيل من قبل رئيس الأساقفة لحقا به إلى هناك، ولذلك عـوضاً عن أن يجد ملجئاً، وجـد سجناً، كما لم يستطع راعي دير القـديس ادمــوند أن يستقبله، أو أن يقـدم الحماية له، وأنـزل إلى حـالة الفقـر، وحكم عليــه بالنفي، لذلك ذهب رئيس الشمامســة إلى رومـا، ليطلب المعـونة والمواسـاة من البابا، الـذي عندما علم بحقـائق القضيـة آشفق عليـه، وأعطاه انصافـاً أبوياً، وانتقـد بالوقت نفسـه خنوع الكهنة النظاميين، وقسـوة رئيس الأساقفـة، وأثنى على ثبات رئيس الشمامسـة، وعند ذلك ارتفعت آمــال رئيس الشمامسـة، وانطلق عـائــداً من بلاط روما، لكن لدى وصوله إلى المناطق الواقعـة عبر جبال الألب، استبد به التعب والأسى، الذي تحمله في الـدفـاع عن امتيـازات كنيستـه، فغـادر طريق الجسد كله، ليكون جديراً بالتعـايش مع القديس توماس الشهيد، الذي مات في قضية مشابهة، وكان قبل موته قد عانى لمدة تقارب الثلاثة أعوام من المحنة في هذه القضية.

كيف ذهب رئيس الأساقفة بونيفيس إلى دير القديس ألبان

أثناء تلك الآونة التي تقــدم ذكـرها أعـلاه من السنة، عنـدمـا كـان بونيفيس رئيس أسـاقفـة كـانتربري على طـريق عـودته من دفن الجسـد المقــدس لروبرت، أسقف لنكولن، عبر بديـر القـديس ألبــان، وطلب السماح له بالإقـامـة هناك، وتقـدم بطلبـه بكثير من اللطف والتـواضع،

خشية منه أن يقابل بالرفض، لأن ذلك الدير معفى من تقديم الضيافة، وذلك حسبما كان قد حدث له من قبل في بلفوير Belvoir, وهي رئاسة رهبانية تابعة لدير القديس ألبان، وقام —على كل حال— راعي دير القديس ألبان بإرسال رئيس شماسته مع بعض من الرهبان لاستقباله، معتذرين أنه لم يستطع القدوم لاستقباله بسبب الضعف وتقدم السن، وبناء عليه ذهبت هذه الفئة لاستقباله مع تشريف عظيم واحترام، وجاء ذلك إثر تسلمهم لرسائله، التي ذكر فيها أنه طلب الضيافة كعمل من أعمال اللطف، وتبعاً لذلك جرى قبوله في يوم محدد بعد العصر، ومع أنه عومل بقلق، رفض قبول أية هدية قدمت إليه من مقتنيات الدير، باستثناء الطعام والشراب، ثم إنه شكر بأدب راعي الدير لأنه استقبله بلطف، ولضيافته الكريمة، وبعدها قام بالمغادرة في الصباح الباكر من يوم عيد القديس مارتين، من دون الدخول إلى قلب الدير أو الكنيسة.

وتصرف وفق الطريقة نفسها، النائب البابوي أوتو، الذي كان حاله في انكلترا بمثابة بابا ثاني، فكتب رسائل، أفاد فيها بأنه طلب الضيافة كعمل إحسان، لكن روبرت أسقف لنكولن أثناء ذهابه إلى هارتفورد، لم يقم بكتابة رسالة من أجل هذا الهدف، ولذلك لم يتم استقباله، فقام في اليوم التالي بتعليق كنائس العلمانيين من شراكة المؤمنين، لكن لأنه انتقد لعمله هذا من قبل النائب البابوي، قام على الفور بإلغاء القرار الذي تفوه به بسرعة، لأنه عمل بناء على نصيحة شريرة.

حول امتياز دير القديس أوغسطين في كانتربري

وإثر مغادرة رئيس الأساقفة المذكور لدير القديس ألبان، تلقى رسالة بابوية، ناوله إياها راهب من دير القديس أوغسطين في كانتربري، وكان الذي جاء فيها أمره أن لايزعج راعي ذلك الدير، أو رهبانه، بوساطة الزيارات التفقدية، أو التعليق من شراكة المؤمنين، أو الحرمان الكنسي،

وهو ما كـان قد اقترحه، وحـاول أن يقوم به من قبل، وبعدمـا قرأ هذه الرسـائل مـن دون اهتمام، أمـر باحـراقهم، ومن الممكـن الوقـوف على محتـوياتهم في كتـاب Additaments, ونتيجـة لهذا، كـــان رئيس الأسـاقفة، وكـذلك الذين قـدموا إليـه النصيحة، مسرورين تمامـاً، لأنه تصرف بنفسه مسالماً هكذا، وباعتدال في دير القديس ألبان.

كيف ولدت ملكة إنكلترا إبنة

وفي هذه الآونة نفسهـــا، ولدت ملكة انكلترا ابنـة للملك في لندن، وقد جـرى تعميدها من قبل رئيس الأساقفـة، وتسميتها بكاترين، لأنها تنفست للمرة الأولى في يوم عيد القديسة كاترين.

كيف ذهب سيمون إيرل ليستر إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة نفسهـا، ذهب سيمون ايرل ليستر، الذي كما ذكـرنا من قبل، كـان قد طلب منه قبـول منصب قهـرمان فـرنسـا، بسبب اخلاصـه وشجاعته، لكنه رفض على أساس أن «ما من رجل يمكنه أن يخدم بشكل صحيح سيدين»، كان أحدهما معادياً للآخر، ذهب إلى مولاه ملك انكلترا في غسكوني، مقـدمـاً نفسـه ومعلناً عن استعـداده ورغبته في خـدمتـه، في اخضاع أعـدائه العصـاة من الغسكونيين، الذين —يمكن القول— كـانوا يرتعبـون منه مثل الرعب من الرعـد، كما أنه أخذ معـه قطعة منتخبـة من العساكر، جمعهـا على نفقته، وقد عرض أن يبقيهـا تحت طلب الملك ووفقاً لرغبته، وشكـل الفرسان والجنود الـذين كانوا معـه حشداً كبيراَ، لأنه أثير بروح الإحسـان والتواضع، الذي تجاوز حـدود المشاعـر الإنسانيـة، بالرد بالخير على الشر، وأن لايفكـر شيئاً حـــول كلمات الغضب الطائـش التي صدرت عن الملك، الذي تفوه أثناء حدة غضبه، بكلمات إهانة ضده، لكنه عوضاً عن ذلك أعاد إلى الذاكـرة المنافع التي أنعم بها الملك عليه، باعطائه اخته لتكون زوجة لـه، وبمنحه ايرلية ليستر، وبالعهدة إليه بأمـر الوصاية

على وريث غيلبرت أوف همفـــريفيل Gilbert of Humfreville,
وكان الايرل قد تلقى نصيحـة حول هذا الموضوع من قبل روبرت أسقف لندن، الذي كان صديقاً خاصـاً به، كما كان أيضاً الأب المتلقي لاعترافات الايرل، وقـد مـال الايرل عن طواعيـة لهذه النصيحـة، واستجـاب لهذه الرغبـة، وأعجب الملك بأريحيـة الايرل، واستقبله بأعظم بهجـة، ولدى معـرفـة الغسكونيين، الذين كـانوا أصـدقاء الحظ، بأن ملـك اسبانيـا قـد تصالح مع ملك انكلترا، وأن الايرل سيمون قـد وصل ومعه تلك القطعة المرعبة من العسـاكر، أصبحوا متواضعين، مع أن ذلك كـان ضد إرادتهم، وعادوا بموجب درجـات وتراجعوا إلى خضوعهم إلى الملك، الذي اقترح بعد هذا العودة إلى انكلترا.

حول الاضطرابات في جامعة باريس

وتفجـر في هذه الآونـة خـلاف كبير بين البـاحثين في جـامعـة باريس والرهبـان الدومينيكان، الذين أصبحـوا كثيرين جداً، وعـلا شأنهم كثيراً، لأنهم صاروا المتقبلين لاعترافات الملك والمستشارين لديه، ولذلك رفضوا الخضوع للأعراف القديمة والمقررة، والاعتراف بامتيازات الباحثين، ولهذا اجتمع البـاحثـون، وجمعـوا المال من بين بعضهم بعضـاً، حيث أسهم كل واحـد منهم حسب إمكاناته، وجرى إلغـاء الدخل الاسبوعي العـام لكل واحـد منهم، في سبيل تلبيـة مطالب بلاط روما وارضـائـه من ذلك المال باسم رجال الدين، وتشجع الرهبان المتقـدم ذكرهم من هذه الواقعة، لأنه كان لديهم أصـدقاء أصحاب سلطة كبيرة في ذلك البـلاط، كان من بينهم الراهب هوغ، الذي كـان من طائفة الدومينيكان، لابل حتى البـابا نفسه، وذلك بالاضافـة إلى عدد كبير آخر، أصحـاب نفوذ رفيع وسلطات كبيرة، ولذلك جـرى صرف مبلغ كبير من المال، وكـانت هناك متـاعب كثيرة تبـددت في هذه القضيـة، حتى أمكن أخيراً إعـادة تأسيس السـلام، بتغيير الأعراف الباريسية.

حول وصول البابا إلى روما

وأثناء هذا الوقت كله أهيج البابا بوساطة كثير من الاضطرابات اليومية، وكان وقتها قد مدد اقامته المؤقتة في أسيسيو Assissio, وإلى هاهنا أرسل إليه الآن طلباً بوساطة رسل خاصين من قبل برانكليون، شيخ الرومان وجميع سكان مدينة روما، بأن عليه العودة من دون تأخير إلى مدينته، لأنه كان راعيهم، والحبر الروماني، وعلاوة على ذلك ذكروا له أنهم يعجبون كثيراً من تجوله هنا وهناك دونما استقرار، وفي المنفى، تاركاً كرسيه الحبري لروما، وهاجراً لشياهه، الذين سوف يقدم عنهم حساباً دقيقاً للقاضي الأعظم، لأنه تركهم لأنياب الذئاب، في حين هو يسعى فقط وراء المال، فضلاً عما تقدم، أوضح شيخ روما مع الشعب الروماني، إلى مواطني أسيسيو، مع التهديد بتدمير لامنجاة منه، إذا مااحتفظوا بالبابا أية مدة أطول، ذلك أن العالم كله قد عرف أنه كان بابا روما، وليس حبرليون، ولابيروجيا، ولاآغنانو Agnano, لأن هذه كانت هي الأماكن التي غالباً ما أخفى نفسه بها، وبناء عليه ذهب سكان أسيسيو أنفسهم إلى قداسته، وعبروا عن هذه الرسالة وأوصلوها كاملة إليه، ولذلك بات واضحاً للبابا، ومفهوماً تماماً، أن عليه بحكم الضرورات الذهاب إلى روما، خشية من أن يجري تدمير شعب أسيسيو من قبل الرومان أثناء سخطهم، فالشيء نفسه كان قد حدث مع شعب أوستيا،وبورتو، وتوسكولوم، وألبانو، وسابينو، وحاليا مع مواطني تيفولي، وبناء عليه برضا منه أو بعدم رضا، حزم حقائبه، وذهب إلى روما، مع أنه كان في حالة من الرعب، لكن عند وصوله استقبل بكل تشريف، وكان الشيخ مسرورا كثيرا، وبوضع نظامي، وفي الوقت نفسه، ظل كونراد بالفعل شوكة في عين البابا، وكان يقترف أعمال تخريب مرعبة، في كل من البر وعلى شاطىء البحر، وضد أسوار نابل

ودفاعـاتها (وهي المدينة التي كـانت من قبل المفضلة للسكنى من قبل فرجيل)، لكن بسبب كراهية البـابا ولعناته، لم يستطع احراز التقدم بما أخذه على عاتقه.

أمثلة على جشع الرومان

وكان الـرومان غير راغبين، لابالحري غير قادريـن على الاستمرار في اخفـاء جشعهم، لذلك بدأوا بعمل شكاوى كبيرة ضـد البابا، وطالبـوا بسرعـة وإلحاح بأن عليه تعـويضهم عن الخسـائر والأضرار التي عـانوا منهـا، بسبب غيـابه، وذلك عن طريق ايجارهم لمسـاكنهم، ولتجـاراتهم، ولرباهم، ومـواردهم، وتجهيزاتهم، وطرق أخـرى لاحصر لها، مما أحزن البابا في قلبه، حيث وجد نفسـه قد وقع في الفخ، فالتجأ إلى الشيخ من أجل المواسـاة، وبناء عليـه قـام الشيخ بضبط غضب الشعب بخطابات لطيفـة، حيث أخبرهم، أنه كان عمـلاً غير إنسـاني، اغضاب البـابا بهذا القـدر وازعاجـه، وهو أبوهم وراعيهم الروحي، وقـد استـدعي بشكل مسـالم من قبلهم، ليتـولى العناية بأرواحهم، وبهذه الوسـائل خفت ثورة العاصفة وخمدت.

حول الأحوال المضطربة للأنواء وللبحر

وفي اليـوم الذي أعقب عيد القـديسة لوسيـا في هذا العام، انهمـرت السحب بكميـات وافرة مـن الثلج، وأعطت الرعود الشتـوية الانطبـاع وأشارت إلى انذارات مرعبة.

حول طرد شعب لى راؤل ونفيه

وأيضـاً في هـذا الوقت بالتمام أديـن جميع الناس الذيـن سكنوا في لى راؤل، وفي القـلاع الأخـرى التي وقعـت تحت الحصـار، ثم جـرى اخـراجهم منها أثناء المجاعـة، وحكم عليهم بنفي دائم رجالاً ونسـاءً، ولذلك أخذوا يتجولون في البلدان المجاورة بمثابة متسولين.

حول فيضانات البحر والأنهار

وفي هذا العام أيضاً فاض البحر والأنهار عدة مرات، وتجاوزت المياه حدودها، محدثة أضراراً لايمكن تعويضها للمنطقة المجاورة.

حول المعجزات التي صنعت في كنيسة لنكولن

تكدست المعجزات فوق المعجزات وتضاعفت يومياً في كنيسة لنكولن، وقد عملت من قبل الرب من خلال فضائل الأسقف روبرت، ونهض القديسان الآخران اللذان كانا متمددان مرتاحان في الكنيسة نفسها، وهما القديس ريمي Remy, والقديس هوغ ليضفيا المنافع على المؤمنين، وكان الناس قد توجهوا بالدعاء إليهما، فاستجابا لهم بوساطة الصلوات والتضرعات، وينبغي أن لايندهش أي إنسان تجاه بعض أعمال العنف التي اقترفت من قبل هذا الأسقف نفسه خلال حياته، والتي رويت أخبارها في هذا المجلد، وقد كان واحداً من هذه الأعمال رغبته الملحة بالقيام بزيارة تفقدية للكهنة النظاميين في لنكولن، مما ألحق بهم أذى كبيراً وأغضبهم كثيراً، وعلاوة على ذلك كان روبرت هذا نفسه يوجه تهديدات مخيفة ضد العاملين في الرهبنة، خاصة الراهبات من النساء، ولاشك أن دافعه كان غيرة صحيحة، لكن ربما من دون تمييز صحيح، وأنا يمكنني أن أؤكد بأن فضائله قد أرضت الرب بدرجات أعلى بكثير من عدم رضاه تجاه أخطائه، كالشيء نفسه الذي حدث في قضية داود وبطرس، فأنا امتدح لطف داود، لكنني أشجب عمل الغدر الذي اقترفه نحو أوريا الذي كان من رعيته المخلصين، وأنا أيضا أطري ثبات بطرس، لكنني لاأرتضي بإنكاره ربنا ثلاث مرات، فالأول كان قريباً جداً إلى قلب الرب، وجرت تسمية الثاني رئيساً للرسل.

خلاصة أحداث العام

كان هذا العـام بمجمله خصباً وافراً بالقمح والفواكـه كثيراً إلى حد أن سعـر مكيـال القمح نزل إلى ثلاثين بنسـاً، لكن المنفعـة التي تمّ الحصـول عليهـا على الأرض ضـاعت بالدمـار الذي أحدثـه البحر، عندمـا فـاض، وتجاوز حـدوده، فهو قـد أهلك فجأة بفيضـانه الناس والمواشي، وعندمـا حدث ذلك أثناء الليل، أغرق المزيد أكثر فأكثر، وكان هذا العام عام دمار بالنسبة للأرض المقـدسة، وعـام سفك للدماء بالنسبـة لفلاندرز وللبلدان المجاورة لها، وعـام خسارة واهانـة وشقاء بالنسبـة لفرنسا، وعـام غضب واضطراب بالنسبـة للبابا ولمؤيديه، وبالنسبـة لانكلترا كان عـاماً مشحـوناً بالاضطراب، وقدم ميلاً نحو الضغط على شؤونها الروحية والدنيوية.

كيف أمضى الملك الشتاء في غسكوني

في عيد ميـلاد عام ١٢٥٤ لتجسيـد الرب، الذي و افق العام الثـامن والثـلاثين من حكم الملك هنري الثـالث، كان الملك المذكـور في بازاس Bazas في غسكوني، ليـس بعيـــداً عن لى راؤل، واحتفـل هناك برفقـة نبلائه بـذكرى حلول الميلاد بـأبهة عظيمة، وبمهابـة كبيرة، وقدم أيضاً بعض الهدايا الثمينة من الملابس، والأشياء الأخرى التي لها قيمتها إلى الغسكونيين، الذين كـانوا متشـوقين لشم رائحـة أمـواله، وأقـامت الملكة التي قامت معافاة من ولادة، حفلاً رائعاً جداً، وكان ذلك في يوم عيد القديس ادوارد، حيث توافق ذلك مع ذكرى طهارتها، وكان موعد ذلك عشية عيد الغطاس، وكان موجوداً في ذلك الاحتفال، عمها رئيس الأساقفة، وأسقف إيلاي، والايرل رتشارد، وايرل غلوستر، وعدد كبير آخر من نبـلاء انكلترا، وفي هذا الوقت بالذات، أرسلت الملكة أيضاً إلى الملك هديـة السنة الجديدة مبلغ خمسمائـة مـــارك، من الموارد الملكيـة المتسلمـة، حتى تسـاعـده على متـابعــة الحرب، ولكي يتمكن من تحرير نفسه من تعهداته.

انتخاب هنري ليكسنغتون لأسقفية لنكولن

وفي اليوم التالي لعيد القديس توماس الشهيد، انتخب الكهنة النظاميون في لنكولن لأسقفيتهم المعلم هنري ليكسنغتون Lexington, الذي كان عميد الكنيسة نفسها، و قد قام هذا بعد انتخابه بالذهاب إلى القارة لرؤية الملك، ولكي يرى من قبله وينال الموافقة منه، لأنه امتلك سلطة المو افقة وعدم الموافقة على المنتخب، وكذلك على الانتخاب، وكان طوال الوقت خائفاً من الظهور أمام الملك، الذي كما جرت عادته، كان قد تقدم برجاء، بإلحاح، وتوسل إلى العميد المذكور، وإلى الهيئة الكهنوتية بمجملها، من أجل أن يختاروا أسقفاً لهم، وراعياً لأنفسهم هو أسقف هيرفورد، لكن هذا قد توجب رفضه من دون تردد، ليس فقط لأنه كان أجنبياً، ولايفهم اللغة الانكليزية، بل لأنه كان معروفاً بشكل مكشوف أنه أكثر الناس عدوانية وعدم اخلاص للمملكة، وعلى هذا المطلب الذي حثهم الملك عليه، وضغط عليهم، رفض الكهنة النظاميون والمنتخبون الإصغاء والقبول به، فهو بالحقيقة كان قد فرضه بالقوة فأدخل إلى أسقفية هيرفورد، وأيضاً بوساطة القوة العلمانية، وبعدما سمن نفسه على حليب وصوف، وثروات القطيع الذي عهد به إليه، تخلى عن ذلك القطيع وهجره، وعن الرهبان ورجال الدين والعلمانيين وذهب إلى القارة (حيث عاش، وأنا آسف أن أقول: من دون كرامة) ليكونوا جميعاً عرضة لأنياب الذئاب، وعلى كل حال، بما أن الملك لم يستطع العثور على أي سبب لرفض الانتخاب الذي تقدم ذكره، والذي قام به الكهنة النظاميون، قام بقبوله، لكن بمشاعر راضية من قلبه.

حول ظاهرة مدهشة في السماء

وفي حوالي منتصف الليل من يوم عيد ختانة ربنا، كان القمر في اليوم الثامن من عمره، وكانت قبة السماء مرصعة بالنجوم، وكان الهواء هادئاً

تماماً، ظهر آنذاك في السماء منظراً رائعاً أن تصفه، وكان على شكل سفينة كبيرة، تصميمها جيد، ولها نموذج مدهش ولون، وجرت مشاهدة هذه الظاهرة من قبل بعض رهبان دير القديس ألبان، الذين كانوا مقيمين في دير القديس أمفيبالوس Amphibalus للاحتفال بالعيد، وهم الذين كانوا ينظرون نحو السماء لمشاهدة النجوم، لمعرفة فيما إذا كان الوقت قد حلّ لترتيل الأناشيد الليلية، وقد قاموا على الفور بدعوة جميع رفاقهم وأتباعهم الذين كانوا في الدير لمشاهدة تلك الظاهرة الرائعة، لكنها بعد أمد بدأت بالتلاشي واختفت، ومن هنا جاء الاعتقاد، بأن الذي كان هو مجرد غيمة، لكن واحدة رائعة وغير اعتيادية.

ولاية مخادعة

وفي السابع والعشرين من كانون الثاني، في هذا العام، وهو يوم عيد القديس يوليان، اجتمع تقريباً جميع نبلاء انكلترا في بارلمان، حيث ظهر أمامهم روجر بيغود، وايرل ميرسكال Mareschal, وغيلبرت سيغريف Segrave, بمثابة رسل خاصين من الملك، للاعلان —ربما أن ذلك قد فرض على أنفسهم فرضاً— لجماعة انكلترا كلها، عن الرغبات التي شعر بها الملك داخلياً وعن مقاصده، وكان بين الحضور أيضاً في هذا الاجتماع: رتشارد ايرل أوف كورنوول، أخو الملك، وايرل وينكستر، مع الملكة، وجميع أساقفة انكلترا، باستثناء أسقفي: درم، وباث، فقد كان الأخير مع الملك في غسكوني، ولدى اكتمال اجتماعهم كلهم، نهض المتحدث باسم الملك، وخاطبهم كما يلي: «أصدقائي وسادتي، الذين بصدورهم يضع مولانا الملك ثقته،، الذي ليس لديه، في الحقيقة، من ملجأ غير رعيته المخلصين، وأنتم تعرفون كيف عرّض نفسه باخلاص وثبات إلى مخاطر البحر، التي لاتوفر إنساناً، وأيضاً لمخاطر الحرب، ليحافظ على قوة المملكة، فقد وجد أعداءه يتحركون ضده، ومعادين له بشجاعة، وقد قام بسحق بعضهم،

بينما بقي بعض آخر يحتاج إلى غلبة وقهر»، ثم أضاف المتحدث حتى يثير المستمعين إليه ويحركهم قائلاً (مع أنه بقوله جانب الصدق والحقيقة) بأن: «ملك قشتالة، الذي كان الملك يتوقعه، ويأمل بأن يجده أعظم أصدقائه، لكونه متحالفاً معه بالدم، وجده غير ذلك تماماً، حيث تبرهن أنه أكثر الأعداء دموية، حتى أنه تحدى ملك انكلترا واستخف به، وقد مال الغسكونيون إلى ملك قشتالة المذكور، وآثروه وفضلوه وهو اسباني لأن يكون سيدهم الطبيعي ومولاهم، وبناء عليه هو يطلب مساعدة فعالة منكم، لأنه هكذا موجود في وضع حرج»، وبرهاناً على أمانتهم،وتصديقاً لكلماتهم، جلب بعض رسل الملك، بعض النشاب، من حجم مرعب، وهو الذي رموه بوساطة القسي الزيارة، وهو النشاب الذي يدعى عادة باسم مربع اليأس (من الممكن تسمية القسي بالنسبة لحجمها الكبير باسم عوارض، وتسمية النشاب بنوع من دعامات الحائك)، وتجاوباً مع طلب الملك، ولكي يضرب مثلاً مشجعاً للآخرين، قال الايرل رتشارد (لأنه وثق بحكاية الرسل المذكورة أعلاه وصدقها): «بما أنني أكثر قدرة، وعليّ يتوجب تقديم المساعدة أكثر من بقيتكم، سوف أساعد بشكل فعال مولاي وأخي، بتزويده بثلاثمائة عسكري يقاتلون من أجله لمدة سنة على حسابي»، ووعد ايرل غلوستر بتقديم مساعدة، حسب أفضل مايستطيعه، وأضاف بأنه لن يساعد الملك من أجل الحصول على مناطق، لكن إذا ماقام ملك قشتالة بمهاجمته، هو سوف يقدم المساعدة لانقاذه، وقام الايرل رتشارد أيضاً، فوضع قيداً مشابهاً على وعده بالمساعدة، وأضاف قائلاً: «إذا كان الذي أخبرنا به صحيحاً»، ووجد جمهور المجتمعين بأن فخاً كان منصوباً لهم، ولذلك أجابوا على كلام أولئك المتحدثين قائلين: «واأسفاه، واأسفاه، لماذا يسعى سادتنا إلى خداعنا بمثل هذه الحجج البارعة؟ فنحن نجد واضحاً وضوح النهار، واقعتين متعارضتين، ذلك أن الملك قد بعث خلف ملكته، وابنه الكبير، وولي عهده، وهما شخصان ضعيفان، وغير

موائمين للتعرض لمخاطر الحرب، وطلب حضورهما إليه، بأقصى سرعة ممكنة، وهذا أمر ما كان لـه ليفعله ولابشكل من الأشكال، لو أنه على وشك شن الحرب ضد ملك قشتالة، لابل إنه بالحري أنهما لو كانا معه، لأرسل بهما عائدين إلى انكلترا من أجل السلامة الأكبر، أولم يتقدم الذكر عن زواج خاص سوف يجري عقده بينهما؟ وهذا كله يتناقض مع ما أفاد به الرسل و ذكروه من قبل»، وهكذا حوّل الملك نفسه إلى واحد لايمكن تصديقه، وغير جدير بالثقة، وارفض المؤتمر من دون أية نتيجة، وبناء عليه أرسل الايرل رسالة إلى الملك حول هذا الموضوع، انظرها في كتاب Additaments عند علامة القيثارة.

كيف ذهب بعض المسلمون إلى فرنسا حتى يجري تعميدهم

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً، قدم بعض المسلمون الذين كانوا قد تحولوا إلى العقيدة المسيحية إلى فرنسا، وكان بعضهم قد جرى تعميدهم من قبل، والبقية على نية التعميد، وكان سبب تحولهم هو كما يلي: كانوا قد رأوا بأن الملك الفرنسي قد جرى بالفعل تحريره بشكل اعجازي من يدي سلطان مصر القوي، والسلطان نفسه قد جرى قتله على الفور، بعد أسر الملك، وشاهدوا —علاوة على ذلك— صبر الملك في الشدائد، وثباته الذي لايتزحزح عن مقاصده، فهو حتى بعدما وقع أسيراً، بقي في الأرض المقدسة، وتابع أعمال تحصين القلاع، وتمتين المدن ضد أعداء الرب، وشهدوا أيضاً قوة إيمانه، وأنه كان مثل أيوب، في عدد كبير من البلايا والشدائد، ومع ذلك هو لم يذنب حتى بشفتيه، وبالاضافة إلى هذا، قدروا حقيقة، أنه قام في سبيل حبه لربه يسوع المسيح، قد تخلى عن مملكته الجميلة، مملكة فرنسا، ليعرض نفسه لمخاوف البحر والرياح، ولمخاطر المعارك والحروب في الممالك الأجنبية والبعيدة، صارفاً كل جهوده وانتباهه إلى كسب أرواح الكفار، وهذا كله ماكان له أن ينجح بفعله من دون عون الرب، ومواساة الجلالة اللاهوتية، وقد تعلموا

أيضاً من تبشير الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان أن شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).. كانت مسممة لأرواحهم، وجلب هؤلاء المتحولون رسائل معتمدة من الملك، فيها أوامر بأن يجري الإنفاق عليهم من الصدقات الملكية، حتى يعود هو نفسه إلى بلاده، فعندها سوف ينعم عليهم بالمزيد من الانفاق ويزيد من تجهيزهم.

حول وصول غرباء إلى إنكلترا كانوا لايعرفون لغة الإنكليز وعاداتهم

في أيام الصوم الكبير من هذا العام، وصلت بعض المراكب الأجنبية، وقد ساقتها إلى هنا قوة الرياح، وجاء ذلك على الرغم من جهود الذين كانوا مسؤولين عنهم، ولم يكن لدينا أياً من السفن مثلهم، فقد كانوا مراكب واسعة، وجميلة، وبنيت بقوة، وكانت مجهزة بجميع أنواع الأسلحة والمؤن، وكانت أشبه بمخازن حربية، وقد دفعت إلى السواحل الشمالية لانكلترا، قرب بيرويك Berwick, وقد شوهدوا على الفور من قبل خفر السواحل، كما تمت مشاهدة الملاحين الذين كانوا فيهم، وقد توجسوا أن يكونوا أجانب، أو جواسيس، أو أعداء من نوع من الأنواع، ولدى القيام بتفتيش دقيق في المراكب، وجد الذين اعتقلوهم أنهم كانوا مليئين بكميات كبيرة من الأسلحة، مع دروع، وخوذ، وترسة، ورماح، وقسي وسهام، وقسي عقارة ونشاب، وكذلك كميات من المؤن كانت كافية لجيش، ولدى سؤالهم، لم يخبروا النواب الملكيين من هم، أو من أين جاءوا ولماذا جاءوا، ولم يستطع أي من النواب الملكيين فهم لغتهم، وكانت هناك أيضاً مراكب أخرى مشاهدة في البحر، وعندما خيّل لجميع الذين كانوا في المراكب بأنهم سوف يعدمون، سمح لهم بالمغادرة بسلام، حتى لايبرهن الرجال عن أنفسهم أنهم أكثر قسوة ووحشية من العاصفة، وربما للخوف من الانتقام، إذا ماألحقوا بهم أية أضرار.

حول مؤامرة في بيون

وفي هذا العام نفسه، وفي حوالي أيام عيد طهارة مريم المباركة، كان غاستون أوف بيرن Bearn قد جمع حشداً من أعداء الملك، وحاول بوقاحة أن يشق طريقه حتى يستولي على مدينة بيون Bayonne, وكانت بيون هذه مدينة غنية، وكانت هي الثانية من حيث الأهمية في غسكوني، وكانت تمتلك ميناء مطروقاً بكثرة من قبل السفن، وكانت مقطونة بأعداد كبيرة من الأشخاص المحاربين، وكذلك من قبل تجار الخمرة، وكان معظم سكان المدينة يكرهون الملك، بسبب الأضرار الكبيرة التي ألحقها بهم في انكلترا، وقد جرى السماح لبعض الأعداء بالدخول إلى المدينة، عندما كانت عرضة للخطر، وقد تمّ اعتقالهم من قبل أتباع الملك المخلصين، وجاء ذلك بوساطة بعض الذين كانوا من الطبقات الدنيا، الذين أحبوه، وهكذا دخل كثير منهم بشكل خياني إلى مكان العقوبات وفقاً لاستحقاقاتهم.

حول دفن جون هانسارد

في يوم عيد القديس غريغوري، الذي يقع في مثل هذه الأيام، جرى حمل جسد الفارس جون هانسارد Hansard خلال بلدة القديس ألبان على طريقه إلى الجزء الذي ولد فيه من البلاد، وكان ذلك في الشمال، حتى يدفن هناك بالتشريف اللائق، لأنه كان لتقديرات كبيرة يعدّ بين نبلاء ذلك الجزء من البلاد، وكان قد فقد حياته في المصيبة العامة، أثناء حضوره الحملة.

حول الصقيع الذي لم ينقطع

وفي اليوم نفسه أيضاً، توقفت حدة الصقيع، الذي استمر من دون انقطاع طوال الشتاء كله تقريباً، ولقد تواصل تقريباً منذ ليلة عيد الختانة، وقت مشاهدة الظاهرة الرائعة للسفينة في السماء، أو الغيمة التي

كانت تشبه السفينة تماماً، وساد الاعتقاد في ذلك الوقت لدى مشاهدة الظاهرة، بأن ذلك علامة على قدوم مناخ عاصف، وعلاوة على ذلك، تبع هذا الصقيع مرض مميت بين الأغنام، والحيوانات البرية، إلى حد أن حظائر الحيوانات باتت فارغة من الأغنام، والغابات بلا حيوانات متوحشة، وفي الحقيقة كانت هناك قطعان كبيرة، نصفها بالكاد هو الذي بقي حياً.

حول إصلاحات البابا

وتبين في حوالي الوقت نفسه للبابا، الذي كان مايزال في روما، بأن العلوم العقلية، قد تحولت كلياً تقريباً إلى علوم مكر وبراعة في سبيل الربح، وصار من الممكن بحق القول عن الفلسفة «بأنها بطحت نفسها مثل عاهرة تنتظر من يكتريها»، واكتشف أيضاً أن جميع العلماء قد أهملوا مبادىء النحو، وتخلوا عن دراسة المؤلفين والفلاسفة، وكانوا متعجلين لدراسة القوانين، التي كما كان واضحاً لم تكن مشمولة بين أعداد العلوم العقلية، لأن العلوم العقلية قد سعى الناس من أجلها، وطلبوا الحصول عليها من أجلها، لكن القوانين درست من أجل الحصول على الرواتب، وفي الحقيقة بات واضحاً للجميع، أن الشباب، الذين كانوا فقراء بالمعرفة، كانوا ما ان يكتسبوا القدرة على معرفة الثرثرة حول قليل من السفسطات في الاجتماعات الصاخبة، والاعتلاء على كراسي المعلمين، من أجل اغتصاب اسم معلم، حتى كانوا ينتفخون تيهاً، لأنهم أصبحوا في أوضاع تجعلهم يطلبون المزيد من الاحترام، من أجل الارتقاء إلى أوضاع أكثر ارتفاعاً، من دون أية أسس لدعمهم، ثم يغادرون مدارس القانون، أو الشهادات، ليطيروا إلى المراتب الوظيفية الحبرية، حيث سيكون الوضع أحسن، وأكثر منفعة، أي أن تنال الخبرة أولاً من المدارس، وبذلك ترتقي إلى المناصب ذات الأوضاع العالية، وأن يحكم عليهم من قبل الآخرين وفقاً لاستحقاقاتهم، ولذلك رغب البابا في

تقـديم نصيحــة صحيحـة ونافعـة إلى الذيـن يسيرون على هذا الطريق، ونشر مـذكرة مـوائمة وجـديرة بالاحترام، وكتب حـول القضية رسـالة بليغة، بدأت كما يلي:

«**من أنوسنت، الأسقـف، إلخ، إلى جميع الأسـاقفــة المعينين في ممالك فرنسـا، وانكلترا، وسكوتلندا، وويلز، واسبانيـا، وهنغاريا، حتى يتمعنوا في القضـايا، ويتفحصوها، تحيـات، مع مباركـات رسوليـة:** لقد تذكـرنا بحزن» إلخ، إلخ، انظرها في كتاب Additaments.

ومجدداً عمل البـابا عمـــلاً تقـوياً آخـر بتلطيف الـزيارات التفقـدية، والمظالم التي كـانت تنشأ عنها، وانظر أيضـاً الكتاب نفسـه، عند علامـة الحمامة الأولى، وجاءت بداية الرسالة على النحو التالي:

«**من أجل التذكير، وفي سبيل المراعاة الدائمة، وضد المظالم» إلخ.**

ومن جـديد عمل البـابا انوسنت عمـلاً تقـوياً آخـر، تعلق بالقضـايا الواردة في رسالة كتبت في الكتـاب المذكور، عند عـلامة الحمامة الثـانية، وهي الرسالة التي تبدأ كما يلي:

«**إلى جميع إخـــواننا المحترمين، والبطـارقــة، ورؤســـاء الأســـاقفـــة، والأساقفة، وإلى أبنائنا المحبوبين رعاة الديرة» إلخ.**

ووفق الطريقة نفسها، جرى تقديم هاتين الرسالتين، في هذا الكتاب، عند نهاية السنة الجارية، عند علامة الحمائم.

حول الحلم المرعب الذي رآه البابا انوسنت الثالث

وفي أحد الأيام من هذا العام نفسه، رغب البابا وهو في حالة غضب شديد، على الرغم مـن معارضة جميع إخـوانه الكرادلة، بأن يرمي بعظام روبرت، أسقف لنكـولن، خـارج الكنيســة، وأن يطوح بـه حتى يكون سيء السمعـة إلى أبعـد الحدود، ومنحطاً، من أجل أن يكون قـادراً على

إعلانه كافراً، وعاصياً متمـرداً في جميع أنحاء العالم، وأمر بإعداد رسالة، ذكر فيها مقاصـده هذه كلها، وأن تكتب وترسل إلى ملك انكلترا، عالماً أنه سـوف يقبـل وهو راغب بالتنفيس عن غضبـه ضـد الأسقف، وأن ينزل سخطه على الكنيسة التي كانت مفتـوحة وجاهزة حتى تنهب لكن في الليلة التي أعقبت ذلك النهـار، ظهر حلـم للبـابا عندما كـان متمدداً من دون راحـة في فـراشه، فقـد ظهـر له أسقف لنكولن المذكـور، وهو لابس لثيــابه الكهنوتيــة، واقترب منه وهو مقطب ينظـر إليـه شــذراً، وخاطبـه بصوت مـرعب، ووخزه بالوقـت نفسه برأس عصـا الأسقفية التي حملها، وصرخ قائــلاً، وتكلم و َ أنه شبح: «سينبولد Senebald: أيها البـابا النذل، هل تنوي أن ترمي عظامي من الكنيسـة، حتى تلحق الإهانة بي وبكنيستـي في لنكولن؟ من أيـن نشأ هذا العمل الطـائش من قبلك؟ إن الجدير بك، وأنت الذي رفع الرب شأنك وشرفك، أن تتولى رعاية عباد الرب الغيورين، حتى وإن كانوا أمواتاً، إن المولى لن يعطيك من الآن فصـاعداً أية سلطة عليّ، فلقـد كتبت إليك بروح التـواضع مع العاطفـة، راجياً منك أن تقوم بتصحيح ذنوبك المتواليـة، لكنك عاملت نصـائحي الصحيحـة بتجبر، واستخفيت بهم في قـرارة قلبك السـاخط والحاقد المليء بالسموم، الويل لك أيها المستخف، ألن تكون أنت عرضة للاستخفـاف»؟، ومع الفراغ من هذه الكلمات، غـادر الأسقف روبرت تاركاً البـابا نصف ميت، ذلك أنه كان يتأوه ويتنهـد بألم وأنين وكأنه قد طعن برمح في كل مرة كـان يوخز بها بالعصا كما ذكـرنا أعلاه، واعترت الدهشـة حجـابه لدى سماعهـم لتأوهاته وأنينه، وسـألوه مــاذا يريد، فأجابهم وهو مستمـر بالتأوه والأنين: «إن رعب هذه الليلة قد أزعجني كثيراً، وأنا لن أعــود مطلقــاً إلى وضعـي الصحي الماضي، آه، آه، انني أشعـر بألم عظيـم بجنبي، وكأنني قـد طعنت برمـح من قبل الشيطان»، وهو لم يأكل في ذلك اليـوم ولم يشرب، متظاهرا بأنه كـان يعـاني من حما متوقدة، كما أن غضب الرب وانتقامه لم يتوقف عند هذا الحد.

حول هزيمة جيش البابا

وبعد هذا بأمد وجيز، واجه البابا انتكاسات في الحملات الحربية، ذلك أنه أعطى اهتمامه إلى الشؤون الدنيوية، وقليلاً من الاهتمام لانذارات الرب من خلال عبده، وكان قد اهتم بتلك الحرب اهتماماً عظيماً، وأولاها الكثير من الجهد والنفقات، ذلك أن سعد الحرب ذهب ضده، أو بالحري ضد قائد جيشه، الذي كان قد أرسله ضد الأبوليين، مقابل نفقات عالية، تحت قيادة حفيده وليم، فلقد هزم الجيش تماماً، وتفرق جمعه، وأصيب قائده بجرح مميت، ولقد قيل بأنه قتل هناك أربعة آلاف مسيحي شجاع من الفرسان والجنود، الذين كانوا مستأجرين من قبل البابا، وقد بكت منطقة روما كلها من أجل هذا السفك الكبير للدماء المسيحية، وكان البابا في تلك الأثناء راكباً الطريق إلى نابل، مع أنه كان يعاني من الآلام والضعف في جانبه، وكأنه مصاباً بذات الجنب، أو بجرح رمح، ولم تقدم له البراعة الطبية للكاردينال ألبو Albo أية مساعدة، لأن روبرت أسقف لنكولن لم يوفر سينبولد الجنوي، الذي لم يصغ إلى انتقاداته عندما كان حياً، ولقد شعر الآن بضرباته بعد موته، ولم يتمتع هذا البابا قط فيها بعد بأي يوم عبر كاملاً وهو في صحة جيدة، أو بازدهار، ولم يمر به يوم لم يكن فيه مضطرباً ومن دون راحة.

كيف جرى تثبيت انتخاب أسقف لنكولن

في الثامن والعشرين من نيسان، قام بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري بتثبيت انتخاب هنري أوف ليكسنغتون، عميد لنكولن، الذي خلف سلف نبيل جداً، وأعطى بذلك آمالاً إلى الذين كانوا من حوله شخصياً، لكن ما ان جرت ترقيته إلى السلطة والمكانة التي كان يحتلها سلفه حتى ظهر أنه أدنى منه في أعماله الإحسانية والخيرية.

موت أسقف كارلآيل

وفي الشهر نفسه، أي أن تقول في الخامس عشر من أيار، مات سيلفستر أسقف كارلآيل، وكان سبب موته حادث، ذلك أنه عندما كان ممتطياً ظهر حصان حرون، اصطدم الحصان بكتلة متجمعة من أعشاب الأرض، فسقط الراكب على ظهره فانخلعت أطرافه ومفاصله.

موت وليم إيرل فيرير

في الرابع والعشرين من آذار في هذا العام مات وليم فتز —وليم ايرل فيرير Ferrers, وكان رجلاً حكيماً، وجيد المعرفة بقوانين البلاد، وعاش هذا النبيل منذ سنين حياته المبكرة في ظل ضعف قدميه الذي يدعى داء المفاصل، مثلما كان حال والده قبله، فمنه ورث هذا المرض، ولوضعه هذا كان بالعادة ينقل من مكان إلى آخر على محفة أو على عربة، وعندما كان في أحد الأيام مسافراً، تسبب خدمه الذين كانوا يسوقون عربته، بسبب الاهمال، بانقلابها على جسر، ومع أنه نجا بحياته في ذلك الوقت، لم يعد قط صحيحاً بجسده بعد ذلك، ومالبث بعد هذا، أن غادر طريق الجسد كله.

وفي هذا العام أيضاً، جرى إعداد الميرون، في كنيسة القديس ألبان، من قبل رتشارد المبجل، أسقف بانغر.

وفي حوالي أيام عيد الفصح، انتخب الكهنة النظاميون، في كنيسة القديس بولص المعلم وولتر اللندني، ليكون عميدهم، عوضاً عن المعلم هنري أوف كورنهل Cornhill.

وانتخب الكهنة النظاميون في لنكولن، أسقفاً لهم المعلم هنري أوف ليكسنغتون، وهو عميد تلك الكنيسة نفسها.

حول كراهية الصقليين هنري بن فردريك

وفي هذه الآونة نفسها، كان هنري ابن فردريك وايزابيلا أخت ملك انكلترا، في مقتبل شبابه، وكان بسبب نبالته الفطرية وأصالته، يظهر عواطفه نحو الانكليز، وكان يدفع بمصالحهم ويرتقي بها، مستخدماً غاية قدرته، وقد أصبحت هذه الحقيقة معروفة لدى الصقليين والأبولويين، ولذلك قالوا فيما بينهم: «ماذا تظن أيها الشاب أنك سوف تكون؟ إنه منحدر من الدم الملكي لانكلترا، وإذا ماتابع الازدهار كما بدأ، سوف يقهرنا نحن جميعاً، وعندما سيقهرنا، سيدوس علينا بقدميه»، كما أنهم سمعوا بأن البابا قد أعطى مملكتهم، إلى الإيرل رتشارد، خال الشاب هنري، ولذلك باتوا ساخطين إلى أبعد الحدود، وامتلأوا غضباً ضد البابا، وضد هذا الشاب البريء، وحسبما كانت عادتهم أبدعوا خطة لدس السم له، كما ذكرنا أعلاه.

الحرب المؤلمة على تخوم فلاندرز

وفي هذه الآونة نفسها، وقعت معركة هي الأكثر دموية عرفتها أبوليا، وجرى القتال على تخوم فلاندرز وبرابانت، بين الفرنسيين والفلمنكيين وحلفائهم من جانب، وكونتسة فلاندرز وحلفائها: وليم صاحب هولاندا وملك ألمانيا، وعدد آخر من مقدمي برابانت وألمانيا من الجانب الآخر، وكانت بسبب ولدي الكونتسة المذكورة وزوجيها، وفي هذه المعركة المؤلمة، التي يظل المرء يبكي من أجلها لأجيال، سقط أشجع المقاتلين، حيث إما قد قتلوا في المعركة، أو غرقوا في البحر أو في الأنهار، وكانت المذبحة من على الجانبين بلا حدود، حتى أنه من سكان إحدى مدن فلاندرز قد قتل عشرة آلاف، وما من واحد نجا، ليتحدث عن الفاجعة، وأخيراً، بعد سفك الكثير من الدماء آل النصر إلى جانب الملك وليم المتقدم الذكر ومعه الألمان، في حين لحقت الهزيمة بالفرنسيين، وجرحوا، وقتل الشطر الأكبر منهم، ونالوا أسوأ نتائج

القتال، وعانوا من خسائر لايمكن تعويضها، وكذلك من العار، فغرقوا في متاهة اليأس، وعدم الثقة والدمار، وأيضاً أضيف إلى ذلك ما كان قد لحق أبناء و طنهم من قتل كبير في الأرض المقدسة، وحول هذه الهزيمة الأخيرة على أيدي جيرانهم، الذين باتوا الآن، يمتعون بالنصر ويتصرفون ضدهم كما يريدون، أرسلوا بكل سرعة رسالة إلى ملكهم الذي كان في البلدان الأجنبية، والذي قام بناء على نصيحة الداوية والاسبتارية، بجعل مدن تلك البلدان تحت وطأة ديون كبيرة، من أجل فديته، وحثوه على العودة إلى الوطن بأقصى سرعة ممكنة، لأنهم أخبروه بأن تاج فرنسا بات في مهب الرياح، من خلال جبروت امرأة، هي كونتسة فلاندرز، التي اعتمدت على ولديها وعلى زوجيها، وباتت مملكة فرنسا كلها عرضة للخطر، وأن مملكتي ألمانيا وصقلية تترنحان، وفوق كل شيء، هو أن ملك انكلترا قد أذعن لرغبة البابا، وأنه قد قوي كثيراً بالتحالف مع ملك اسبانيا، وقد ظهر على حدود نورماندي، حيث قدم نفسه، وهو مدعوم بقوة من الاسبان، وبناء عليه بات يهدد بمهاجمة فرنسا، وعندما تسلم ملك فرنسا هذه الأخبار، قام على الرغم من أسى جميع سكان الأرض المقدسة، وضد رغباته الشخصية، فعمل الاستعدادات لعودة سريعة إلى الوطن، متخذاً جميع الإجراءات الاحترازية الموائمة، لأنه كان يخاف من البيازنة والجنويين، الذين طردهم بطيش عند الاستيلاء على دمياط، والذين علاوة على ذلك، كان مداناً لهم بمبلغ كبير من المال، ولذلك تابع الفرنسيون إشغالهم على اليابسة، في سبيل أن يتمكن ملكهم من العودة بأمان أعظم.

سبب الحرب في فلاندرز

حتى هذا الوقت، لم تتوقف الكراهية، والغدر، والنار، والقتل عن الاستشراء بين الألمان والفرنسيين، والفلمنكيين، والبرابنتيين، والفريزيين، الذي استمروا يفترسون بعضهم بعضاً ويلتهمون، ليلاً

ونهاراً، وبما أن هذه الحرب كـانت منتجـة لكثير من سفك الـدمـاء إلى جميع العـالم المسيحي، أعتقـد أنـه من الموائم، أن أتولى شرح سببهـا الأساسي إلى قرائي، والآن كانـت البذور الأولى للخلاف قد زرعت كما يلي: عندما كانت مرغريت كـونتسة فلاندرز ماتزال صبية صغيرة، ومن دون أي أمل بالوصول إلى حكم تلك المنطقة، عقدت عقد زواج بشكل سري مع بـوشـارد Bouchard أوف أفيسني Avesnes, وقـد أنجبت منه ثلاثة أولاد هـم جـون أوف أفيسني مع اثنين آخـرين، وتذكـر بوشارد الآن نفسـه أنه كـان شماسـاً، وأن زواجه بالتـالي لم يكن شرعيـاً وينبغي فكه، أو ربما تحرك ضميره في قـرارة نفسـه، فـذهب إلى رومـا ليحصل على تثبيت للزواج من البـابا، أو الضغط عليـه، حتى يتغاضى عن هذه المسألة، وتم الآن اكتشاف أن أخت مرغريت المذكورة التي كانت متسلمة للكـونتية كانت عاقراً، وبذلك تـوفرت آمال أنه مع مرور الوقت سـوف يؤول الميراث إليها بنفسها، وكان هناك رجـلاً آخر اسمـه وليم دامبير Dampier, نبيـلاً من أسرة فـرنسيـة (وهو كذلك كان نائب شماس) قد تطلع نحـو نيل حكم فلاندرز، لذلك عقد مقـابلة سرية مع مـرغـريت المذكورة، وتعـاقـد بعـد ذلك بشكل مهيب بالزواج منها، في حين كـان الرجل الآخر يتابع أعماله في رومـا، وعندما سمع بوشـارد المتقدم ذكـره للمرة الأولى بهذا الخبر، عـدّه بمثابة تقـرير زائف، لكن بعـد ذلك جعله تتـابع الأخبـار يقتنع بالحقيقـة، ويصـدق الخبر، فكتب إلى مرغـريت المذكورة يلومها، ويرجوها بحـرارة أن تعود إلى عقلها ومداركها، وقامت وهي متمتعة تماماً بزواجها الثاني، أكثر من زواجها الأول، فتعاملت مع مطالبه بالرفض، ولكي تتولى نقده وملامته كتبت مجيبـة له بلهجة سخـرية واستخفـاف وقالت: «على بوشـارد، أن يخدم من الآن فصـاعـداً الكنيسة في طائفـة اللاويين، وعليـه أن يمسك بالقـربان، في حين تتمتع مـرغـريت بعناق زوجهـا الجديد الذي انتظرته ورغبت به كثيراً»، وبعـدمـا تسلم بـوشـارد رسـالتهـا، وادراكـاً منه أنه

لايستطيع فعل شيء، عـاد إلى روما، يرجو ويعمـل في سبيل عدّ أولاده من الكونتسة أولاداً شرعيين، وولدت مرغـريت من زوجها الثاني ثلاثة أولاد هم: وليم دامبير وأخـــويه، وعندمـا وصل الأولاد مـن الأبوين المختلفين إلى سن الرجـولة، وكـانت أمهم قـد حصلـت على كـونتيتي فلاندرز وهينولت Hainault بعد وفاة أختها، بدأوا يختلفون فيما بين أنفسهم حول الميراث، وقد قالت الأم بأن أولادها من الزوج الأول كـانوا أولاد زنـا غير شرعيين، وأن أولادها من الزوج الثـاني كـانوا شرعيين، ذلك أن كراهيتهـا لزوجها الأول تعـدته فوصلت إلى أولادها منه، وعند وفـاة الأبوين، وصـل الخلاف والتقـاضي بين الشبـاب إلى أقصى الدرجـات، وأعلنت الأم وكـذلـك الرجـال الشبـاب دناءة وانحطاط كل طرف منهما وبعضهما بعضـاً، وأخيراً حملت قضية الخلاف إلى محكمـة بلاط فرنسـا، وأخضع الطرفـان أنفسهم إلى قـرار ملك تلك البـلاد، وقام هو، تقـديراً لقـرابة الجسـد والدم (لأن وليم المذكور كـان قـريبـاً لـه) فأعطى قـراره، بأن لايكون الميراث كله عـائـداً إلى أي من الطرفين: الأول أو الثـاني، على انفراد، بل ينبغي قسمتـه، وقضى —على كل حـال— بأن تكون فـلانـدرز إلى وليم، وهينولت إلى جـون، ولم يستطع جون تحمل هذا القـرار، ورد على الملك قائـلاً: «لقد أعطيتني يا صاحب الجلالة الذي لايمكنك أخذه مني، وأخذت مني الذي يمكنك أن تعطيني إياه، لأن فـلاندرز موجـودة تحت سلطانك، وهينولت تحت سلطة الامبراطورية»، وبحكم أنه مـا كـان باستطاعته الحصـول على أي شيء، لأنه كـان مـرتبطاً بتعهدات بالالتـزام بالقـرار الذي يتخـذه الملك ويصادق عليه، غادر البلاط غاضبـاً، وقرر الحفاظ على انفعالات غضبه وكتمهـا إلى وقت مناسب، ومكـان مـوائـم، وفي سبيل الاحتراز، ومن أجل تقـوية حـزبه، اقترن بحفيـدة الذي كـان آنذاك دوق برابانت، التي كـانت أخت وليم صـاحب هولاندا، وقـويت قضيته أكثـر بوفـاة وليم [دامبير] الذي كان قد قتل في احدى مبـاريات المبارزة، كما أن أخا وليم

الأخير هذا، هلك وسط جيش الفـرنسيين وهو الذي كـان من المفترض أن يخلفه في كونتية فلاندرز.

حول المذابح الكبيرة التي تسببت بها مرغريت كونتسة فلاندرز

ووقع الصراع الـذي يتـوجب أن يبكى لأجلـه لأجيـال، على تخوم فـلاندرز، في حـوالي منتصف الخريف، وبذلك تمكن الشيطـان من جني موسم وافر، وجمع الكثير من الأرواح لعظم أعداد الذين ماتوا، فقد هلك هناك بطرق مختلفة أكثر من عشرين ألفاً من الرجال المحاربين، الذين كانوا قد احتشدوا من مختلف مناطق المملكة الفرنسيـة ومقاطعاتها، وكذلك من الامبراطورية، أي أن تقول من ألمانيا التي تضم كثيراً من المقـاطعات، وقد مـات هؤلاء جميعاً على حسـاب امـرأة واحـدة غير خلوقة، ومثلما حـدث لطروادة كلها، أو بيرغاموس Pergamus (التي مصدرها كلمتي: Per ومعناهـا خـلال، و gamus, ومعناهـا زواج) حيث تحولت إلى رماد من خلال امرأة، وبلاد الاغريق التي أخليت من سكانها، بناء على إثارة فينوس، كـانت هذه المأساة التي وقعت في يوم جمعـة (الذي هو يوم فينوس)، وعمّ الاضطراب والفوضى والحزن جميع فرنسا، وألمانيا، وفـلاندرز، وبالاضـافـة إلى هذا، عـانت زوجـات القتلى، وأولادهـم، وأقـربائهم، وأصـدقـائهم، وتألموا مثل التألم من نوع آخـر من الموت، وفي هذه الآونة، جـرى إرسـال جـون رئيس رهبـان دير نيـوبري، الذي كـان مستشاراً خـاصاً لملك انكلترا، وقـريباً منه، ارساله إلى هـذه المناطق، ليقوم بترتيب بعض الأعمال الصعبة العـائدة إلى مليكه، وقد جـرى إخباره بهذه الوقائع من قبل النبلاء، وقد أودع التفاصيل كتابة.

حول قسوة الكونتسة مرغريت ووحشيتها

وإنه لأمـر حقيقي أن أخت مرغـريت هذه الكونتسة المتـوحشة، قـد حصلت بوسـاطة ذنوبها العظيمة على اسم قـاتل الآباء من قبل كثير من

الناس، وبالقدر نفسه وللأسباب ذاتها استحقت ذلك، التي أخضعت نفسها من دون حياء إلى المعانقة المحرمة لرجلين، وتسببت بموت مثل هذه الأعداد الكبيرة، وهي بالحقيقة تستحق اسم قاتلة أولادها، لأن ابنها الكبير قد قتل من قبلها، وقد كسرت رجلي ابن آخر.

حول الذين قتلوا وأخذوا أسرى في المعركة المتقدمة الذكر

وكان بين الذين وقعوا بالأسر في هذه المعركة الدموية كونت بار، الذي كان يقاتل بحدة راغباً بالانتقام لنفسه، بسبب جراحة لحقت به في معركة ماضية أثناء الحرب، حيث فقد وقتها احدى عينيه (لأن الحرب استمرت لقرابة ثلاثة أعوام)، وكونت غوسني Guisnes, وكونت غولدري Gueldres, وكونت جوغني Joigny في شامبين، وسيمون دي كليرمونت Claremont وجون دي غيني Giny, وروبرت دي بوسك Bosk, وهو نبيل من أعلى المراتب بين السويسريين، مع عدد كبير آخر من النبلاء، الذين لانتذكر أسماءهم، ومن المراتب الأدنى كان هناك حشد كبير جداً من الفرنسيين، وفي الحقيقة كان عدد الذين أسروا، والذين قتلوا، بما في ذلك: النبلاء، والفرسان، والخدم والأتباع، والجنود العاديين قد بلغ كما قيل مائة ألف رجل، أو أكثر من ذلك، وما كان لي أن أقحم تفاصيل هذه الأحداث في حوليات تواريخ انكلترا، لولا أنه فرض عليّ أن أفعل ذلك، بسبب هذا السفك المرعب للدماء المسيحية، وهي الدماء التي سفحت في منطقة مجاورة لانكلترا.

حول الأمراء الذين كانوا مسؤولين عن الحرب في فلاندرز

وفي هذه الأثناء، كان أعداء الرب من المسلمين مسرورين، فهذا مايشعرون به عادة لدى سماعهم بأية خسائر كابد منها المسيحيون، واهتزت دويلات جميع أمراء ألمانيا حتى الأعماق، وفي المقام الأول كانت

أعظم الخسائر وأقساها، هي التي عانى منها ملك فرنسا الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وهو الملك الذي لم يكن هناك ملكاً آخر أقوى منه، كما تسببت هذه الخسائر بعودته من تلك البلاد، لأنه جرى استدعاءه نتيجة لوقوع هذه الكارثة، وكان هناك عدداً كبيراً من مقدمي فرنسا ممن عانى أيضاً من الخساتر، فدوق بافاريا، الذي كان يتسلم منذ زمن قديم مائة ألف مارك كولوني بمثابة دخل سنوي، بل إن هذا المبلغ قد ازداد مؤخراً، قد أنفق أمواله كلها في هذه الحرب، وكان من بين الذين عانوا، دوق غسكوني أيضاً، وقد كان صاحب مكانة عالية مثل الدوق الذي ورد اسمه أخيراً، وكان قريباً بالنسبة لملك انكلترا، وكذلك دوق برونزويك Brunswick, الذي كان قريباً للملك نفسه، ودوق برابانت ولوفين Louvain, والذي وضع نفسه دوقاً على اللورين، ودوق ليمبورغ Limbourg, ودوق سوابيا، ودوق النمسا، ودوق ليونبورغ Luneburg, ونبيلة عالية المكانة والقوة اسمها صوفيا، كانت الحاكمة لشطر كبير من ثورونجيا، ومركيزين، كان الأول بينهما مركيزاً لهذا الجانب من سكلافونيا Sclavonia, وكان الثاني مركيزاً للجانب الآخر أي بوهيميا، وهو كان أيضاً ملك بوهيميا، ودوق بولاندا، الذي قتل من قبل التتار، وأيضا اللاندغريف لثورنجيا وسينت اليزابث، ولاندغريف ثورنجيا، وابنة ملك هنغاريا، فقد كان كل واحد من هؤلاء المذكورين أعلاه قد بعث مساعدة إلى وليم صاحب هولاندا، وملك ألمانيا، ضد الجيش الفرنسي، وأسيئت معاملة الفريزيين الذين قدموا للالتحاق بالجيش من قبل وليم، الذي كان متكبرا، وغير مكترث بصداقتهم، وكان علاوة على ذلك قد صار غنياً بوساطة الأموال التي تسلمها من البابا، وغضب الفريزيون من هذا، وتآمروا ضده، حسبما ظهر فيما بعد، وكما سنوضح في الرواية المقبلة، وكانت أموال البابا على كل حال —هي أموال جنيت بطرائق غير صحيحة— بلا فائدة له، لابل على العكس ألحقت به ضرراً

كبيراً، وهكذا كانت أوربا كلها تقريباً في أوضاع مضطربة من أجل متعة امرأة، ومن خلال مكر الشيطان ودسائسه الذي يضحك —لسبب جيد لديه— للمآسي التي تلحق بالإنسان، وفي هذا العام أيضاً، عانى الرهبان من طائفة السسترشيان من خسائر كبيرة، بسبب دمار فلاندرز، حيث لم يستطيعوا الحصول على ماكانوا يحصلون عليه بالعادة من مادة الصوف، وأعتقد أنه يتوجب عليّ عدم حذف الخطاب الوحشي الذي ألقته هذه الكونتسة مرغريت، التي هي ميديا Medea ثانية ولم تخجل من التفوه به.

الخطاب الوحشي للكونتسة مرغريت

وحدث بعد ذلك على الفور، أن تمكن جون أوف أفسني، ابن الكونتسة المتقدم ذكرها أعلاه، من أسر اثنين من اخوته لأمه، أي أولادها، بوساطة كمين نصبه، وقد فرح لحسن حظه، وأمل بالوصول إلى اتفاق سلام مع أمه، وقد بعث رسالة إليها مع رسل اعتقد أنهم سوف يكونوا مقبولين لديها، وقد كتب إليها وفق الصيغة التالية: «أمي العزيزة، إنك إذا لم تختاري الاشفاق علي، أشفقي على الأقل على أخوي لأمي، اللذان هما أسيرين بين يدي، ووافقي على شروط عرض السلام التي سوف تكون مفيدة لك»، وأجابته على هذا الالتماس قائلة: «إن أخويك، ولدي بين يديك وإنني لن أتحول عن هدفي بسببهما أو من أجلهما، وهما تحت ارادتك، وطوع رغباتك، اقتلهما أيها الوغد المتوحش، وكلهما، واطبخ أولهما مع التوابل، واشو الثاني مع الثوم»، وجرى تناقل هذا الكلام من فم إلى فم بين الناس، مما ألحق العار بجميع النساء، خاصة بالأمهات، ولكن حتى لانلوث الهواء، دعونا نترك هذه القضية، وأن نستخدم قلمنا لتدوين القضايا المرتبطة بتاريخ انكلترا.

حول اجتماع نبلاء إنكلترا في لندن

ومجدداً اجتمع نبلاء انكلترا في لندن، ومن جديد أرسل الملك رسالة إليهم، بأنه بحاجة إلى المال، وإلى قوات كبيرة لصدّ هجمات عدو كبير، قادمة ضده، وختمت هذه الرسالة بالختم الملكي، وأجابوا فردياً وجماعياً، بأنه مضى عليهم وهم ينتظرون لمدة ثلاثة أسابيع من دون هدف أو محصلة، وهم ينتظرون وصول الايرل رتشارد، وبعض النبلاء الآخرين، الذين تأخر غيابهم كثيراً، وأنهم غالباً ماأرهقوا باستخراجات الملك، إلى حد أنه بات صعباً عليهم التنفس، وقالوا —على كل حال— بأنهم سوف لن يتوانوا عن الذهاب شخصياً لمساعدة الملك، إذا مااقتنعوا تماماً، حول الوصول العدواني لملك اسبانيا، الذي يهدد بالقيام بذلك، وتساءلوا قائلين، بأن ملك قشتالة نفسه لم يطالب قط بغسكوني، أيام سيمون ايرل ليستر، أي عندما كان حاكماً لغسكوني، وعندما أبقى كثيراً من العصاة تحت السيطرة، ومن هذه الحجج، وحجج أخرى كثيرة ورد ذكرها أثناء عقد البارلمان الأخير، وكذلك من معرفتهم حقيقة القضية من الايرل سيمون، الذي كان قد عاد آنذاك من القارة، لذلك احترزوا ضد دهاء الملك، وخططه الماكرة، الذي أغنى الأجانب على حساب ثروة انكلترا، في وقت حاجتها، ويقال بأن هذه المؤامرة الماكرة قد صدرت عن النبع السام لنصائح البواتيين، وعلى هذا ظل النبلاء منزعجين كثيراً، وغادروا وهم في حالة سخط عظيم.

حول شقاء اليهود وتعاستهم

وفي حوالي الوقت نفسه فيما بين عيد الفصح وأيام الابتهالات، قام الملك الذي كان لايعرف الاستقرار، فنفس عن غضبه ضد الرعاع اليهود التعساء إلى حد أنهم وصلوا إلى درجة كرهوا فيها حياتهم، فقد دعاهم الايرل رتشارد إلى اجتماع، وطلب منهم من أجل استخدامات الملك —الذي كان كما قال غاضباً كثيراً عليهم— مبلغاً كبيراً من المال، وذلك

تحت طائلة السجن، والموت المهين، ونتيجة لهذا عقد الياس اللندي، الذي كان الكاهن الأعظم لليهود، والذي غالباً ما دفع برضاه أو من دون رضاه مبالغ كبيرة، اجتماعاً تشاورياً مع أتباعه اليهود، ورد على المطالب قائلاً مايلي: «موالي وسادتي، إننا نرى بوضوح أن الملك يريد اقتلاعنا واجتثاثنا من تحت السماء، فباسم الرب، نحن نطلب اذنه وأماناً منه لنا لنغادر ونسافر من مملكته، حتى نبحث عن مكان للاقامة في موضع آخر، في ظل أمير لديه مشاعر رحمة، وسيتولى بشكل صحيح الالتزام بالصدق والآمانة، ودعونا نغادر من هنا ولانعود مطلقا، وأن نترك خلفنا بيوتنا والحاجيات الموجودة فيها، إذ كيف يمكن أن يحبنا نحن اليهود التعساء، أو أن يوفرنا، وهو الذي دمر رعاياه الطبيعيين؟ فهو لديه تجارا بابويين، أو بالحري تجارا خاصين به (أنا لن أسميهم مرابين) الذين يتولون جمع كميات هائلة من المال، دعو الملك يعتمد عليهم، ويسعى للحصول على منافعه من خلالهم، فهؤلاء هم الذين دمرونا وأفقرونا، وأخفى الملك معرفته بهذا، وطلب منا مالا نمتلك القدرة على إعطائه إياه، حتى لو قام باقتلاع أعيننا، أو سلخ جلودنا، وقطع أعناقنا بعد ذلك»، وبعدما تفوه بهذا الخطاب، الذي كان قد تخلله تنهداته ونحيبه، صمت، وسقط من دون حياة، وكأنه آصيب بانفجار، وعندما جرى إعلام المسؤولين عن العدالة بقرار اليهود هذا، لم يسمحوا لهم بمغادرة المملكة حيث قالوا لهم: «إلى أين ستفرون أيها الأشقياء؟ فملك فرنسا يكرهكم، وقد حكم عليكم بالنفي الدائم، فهل تودون النجاة من خطر حتى تقعوا فيما هو آخطر؟ وهكذا جرت بالقوة مصادرة ما كان قد بقي لديهم من قليل من وسائل العيش، والتي لو بقيت لهم لما كفتهم إلاّ للعيش بكفاف شديد.

حول المعركة بين الفرنسيين والألمان

وفي هذه الآونة نفسها، وقعت معركة بين الفرنسيين، وحلفائهم من الجانب الأول، والألمان وحلفائهم من الجانب الآخر، وذلك تحت إمرة

وليم صاحب هولاندا، وملك ألمانيا، وبالنسبة للفريزيين، الذين بقيوا على الحياد، فقد تعرضوا للهجوم من قبل وليم صاحب هولاندا، الذي أخبر بأنهم يخططون لعمل خياني ضده، وبصعوبة بالغة أنقذوا أنفسهم بالفرار.

حول تكريس الأسقف المنتخب للنكولن

وفي السابع عشر من أيار، جرى تكريس هنري أوف ليكسنغتون، الأسقف المنتخب للنكولن، أسقفاً لتلك الأسقفية، من قبل بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وتمّ ذلك في القارة.

حول الغارات التي قام بها بعض الويلزيين الذين كانوا في جيش الملك

وفي هذه الآونة نفسها قام بعض الجنود الويلزيون الذين كانوا في جيش الملك في غسكوني، تبعاً لما اعتادوا عليه، بغارات على أراضي أعداء الملك، وأطلقوا لأنفسهم العنان بالنهب، ولذلك جرى اعتقالهم من قبل إخوة الملك، وأسقف هيرفورد، وجرت معاقبتهم بشدة أكبر مما استحقوا، لأنهم كانوا في ذلك الوقت قد أحدثوا قليلاً من الأذى أولم يحدثوا شيئاً البتة، كما لم تفد الشكاوي حول هذه القضية، التي عرضت على ايرل هيرفورد، الذي كان، ومابرح يمتلك منذ القدم وظيفة قسطلان جيش الملك، وبما أن غير المتشكين كانوا سيتضررون من حكم الايرل المذكور، تحدوه، ووقفوا ضد قانون الجيش وأعرافه، ونتيجة لذلك تقدم الايرل بشكوى إلى الملك، لكنه لم يقابل بأي شيء غير الإهمال، وبات الانكليز غاضبين تجاه هذا التصرف، وبصعوبة بالغة حبسوا أنفسهم عن مهاجمة البواتيين، وتمزيقهم إرباً إرباً، ذلك لأن الملك قام وهو خائف يرتجف، وبيدين مقبوضتين، فالتمس بتواضع العفو عن خطيئته، ومع ذلك حتى ذلك الوقت ضبطوا أنفسهم وغضبهم

المتصاعد، الذي لو أنه انفجر لتسبب بسفك الكثير من الدماء، وانتشر التذمر في جميع أرجاء الجيش، بأن الملك يسعى من جميع الجوانب أن يسير على خطى أبيه، وأن أتباعه قد تخلوا عنه، لأنه تصرف بشكل غير مستقيم وأمين، وأنه عائد إلى الوطن، ذلك أنهم رأوا أن الوصول إلى أي سلام دائم بعيد المنال مطلقاً، وحصل بعض نبلاء انكلترا، وكان منهم الايرل روجر بيغود، ووليم دي سي Saye, وآخرين كثرة على إذن الملك، وساروا على خطى سيمون، ايرل أوف ليستر، الذي كان قد عاد قبلهم.

حول إلغاء حكم غير عادل ضدّ امتيازات دير القديس ألبان

وجرى في هذا الصيف سحب وإلغاء الحكم الجائر، الذي أصدره هنري دي مير Mer, رجل العدالة المتجول، وعاقب به دير القديس ألبان بمبلغ مائة باوند، وحدث هذا عندما كانت الملكة مع الايرل رتشارد نائبي المملكة، وذلك أثناء غياب الملك في غسكوني.

رسالة تتعلق بإلغاء هذا الحكم نفسه

«من هنري، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وصاحب ايرلاندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، إلى جميع من سيصل إليهم هذا البيان، تحيات:

بناء على ماتبين لنا، من خلال العودة الفاحصة لصكوك أسلافنا من ملوك انكلترا، التي هي بين يدي راعي دير القديس آلبان، والقاضية بعدم إلزام أي من أتباع الراعي المذكور بتجاوز الامتياز الممنوح لراعي الدير المذكور، بحيث لاتجوز دعوتهم في أية مناسبة من المناسبات للظهور أمام أي من الجهات القضائية، أو التحقيق معهم، وقد حررنا راعي الدير المذكور من دفع المائة باوند التي جرى بها تغريم بلدة القديس ألبان مع امتياز الدير، لأن الذين يسكنون في ذلك

الامتياز، لم يمثلوا أمام رجلي العدالة المحبوبين من قبلنا، وهما هنري دي مير، ووليم أوف ويلتـــــون Wilton, في تشيسترهنس Chesterhunce, الموجودة خارج الامتياز المتقدم ذكره، وذلك بهدف القيام ببحث يتعلق بعنف متبادل، ولإنزال العقوبة حول هذا العنف نفسه، وألغينا أيضاً بالنسبة لراعي الدير المذكور، ماتعلق بالسوقين ونصف السوق، الأمر الذي من أجله جرت معاقبة نيقولا السمان، والاسكندر ستـــولي Stoyle, ووليم ســـانـــــدروغي Sandruge, ورينالد صائغ الذهب، وهم من أتباع راعي الدير المذكور، وقد جرت معاقبتهم وتغريمهم أمام هنري ووليم، من أجل التجاوز الذي تقدم ذكره، وشهادة على هذا لقد منحنا بأنفسنا رسائلنا هذه المعتمدة إلى راعي الدير المذكور، وشهد على ذلك أيضاً رتشارد ايرل أوف كورنوول، أخونا، وكان ذلك في ويستمنستر، في هذا اليوم الثالث عشر من تشرين الأول، في العام الثامن والثلاثين من حكمنا».

تثبيت امتيازات دير القديس ألبان

وختمت هذه الرسائل التوثيقية، المتعلقة بامتيازات دير القديس ألبان بالختم الأصغر، لأن الملك كان آنذاك في القارة، وكانت المملكة تحت وصاية الايرل رتشارد والملكة، وفيما إذا كان الايرل أو الملكة قد أخذا أية أموال مقابل منح هذه الرسائل، يكونا قد اقترفنا اثماً عظيما ضد الشهيد ألبان، وضد مولاهما الملك، لأن هذه الامتيازات، مع امتيازات أخرى قد جرى منحها منذ العصور القديمة من قبل الملوك، وجرى تثبيتها من قبل البابا، ومن المعروف أنهم بقيوا حتى هذا الوقت من دون خرق، وهذا سوف يشاهد من قبله الذي لايخفى عليه شيء.

حول التثبيت الأمتن لهذه الامتيازات نفسها

وفي سبيل أن تكون هذه الامتيازات مضمونة بشكل أمتن، تبع الرسالة المتقدمة أعلاه رسائل أخرى، وقد جرى ايداعها في كتاب Additaments, وهي قد بدأت وفق مايلي: «قام عمدة هيرفورد بتقديم حساب بمائة باوند وباوند واحد من بلدة القديس ألبان».

حول التقارير الزائفة التي وردت في رسائل جاءت من غسكوني

وجاء بعد الرسائل التي تقدم ذكرها أعلاه، والتي وضعت في الكتاب نفسه، رسالة قصيرة من غسكوني وهي التي حوت الأخبار المزيفة والمضللة التالية: «من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ:

لقد وعدنا باخلاص وصدق ايرلات مملكة انكلترا، وباروناتها والنبلاء الآخرون، أن يكونوا في لندن بعد ثلاثة أسابيع من عيد الفصح المقبل، وهم مجهزين بالخيول والأسلحة، ومستعدين للانطلاق من دون تأخير إلى بورتماوث، من أجل الالتحاق بنا في غسكوني، والوقوف معنا ضد ملك قشتالة الذي هو على وشك القيام بغارة على أراضينا في غسكوني، في الصيف المقبل» إلخ، إلخ، وأضاف حامل هذه الرسالة أيضاً، بأن ملك قشتالة المذكور، قد وصل مع آلاف كثيرة من الجنود، بلغت حداً أنه لن يخاف من قوى انكلترا، أو فرنسا، غير أنه لم يستطع الوصول إلى هناك بأية وسيلة من الوسائل، لأنه كان إذا مافكر بالزحف نحو مقاطعات غسكوني مع مثل ذلك الجيش، إنه من الضروري بالنسبة له، أن يكون على علاقات طيبة واتفاقات صديقة مع الممالك التي سوف يمر بها، من ذلك مثلا مملكتي نافار وآرغون، ومقدمين آخرين كثر وزعماء وأعيان كبار، هم سوف يسمحون بمثل هذا الزحف، وعلاوة على ذلك، إن المسلمين الذين كانوا في حالة حرب معه، سوف يسيرون خلفه، حيث سيجدون الأراضي التي أخذت منهم، معروضة أمامهم بمثابة هدية مقدمة إليهم، ومجدداً، كما

ذكرنا من قبل، هناك حقيقة ارسال الملك وراء الملكة وابنه الأسن، فهذا يظهر دهاء هذا الملك وخداعه، وكما يقال: «إن الشباك المرئية بوضوح تام من قبل الطير، تجعله يتجنبها»، ثم إنهم حزنوا في قلوبهم، من دون أمل بالمواساة، لأن مولاهم وحاكمهم سعى بذرائع كثيرة لتدمير رعاياه الطبيعيين، بوسائل سواء أكانت قانونية أم غير قانونية، ومن الذي يستطيع بسرعة أكبر أو بسهولة أعظم، تعريض السفينة إلى الخطر أكثر من القبطان، الذي هو على العكس ملتزم بالتحكم بدفة المركب؟

حول الامتياز الذي منح إلى رعاة دير ويستمنستر

عملت في هذا العام نفسه منحة من قبل الملك هنري، باسمه وباسم خلفاته، بأنه يتوجب أن يحصل رعاة دير ويستمنستر وخلفائهم، الذين من الممكن أن يظهروا أمام أي رجل عدالة تابع للملك، سواء من المتجولين أو الآخرين، يحصلوا على خلاصات عن أحكام رجال العدالة المذكورين، فيما يتعلق بالعقوبات والغرامات من جميع الأنواع، التي توقع على التابعين لهم، وأيضاً على أثاث التابعين المذكورين، الذين هم مطاردين أو مدانين، شريطة عدم تسليم الخلاصات المذكورة إلى خازننا، بل ينبغي أن تسلم باليد من رجال العدالة المذكورين إلى وكلاء رعاة الديرة المذكورين، أو إلى الدير، الذي يكون فيه الأشخاص المتقدم ذكرهم، أي الذين سوف يعاقبون أو يغرمون، وجرى تدوين صك من أجل هذه الغاية، ومنح إليهم في سنة النعمة ١٢٥٢، وفي ذلك العام نفسه، جرى أيضاً منحهم صك قضى بوجوب أن يستحوذ التجمع الرهباني على كل ماهو عائد إليه أثناء وجود شاغر، ونسخ عن هذه الصكوك من الممكن الوقوف عليها في كتاب Additaments, ومن الممكن أن يشاهد في المكان نفسه أيضا الصكوك التي سلف أن منحت إلى راعي دير وولتهام ورهبانه، في تاريخ آخر من العام نفسه، لكنه لم يصل إلى علم كاتب هذا الكتاب في الوقت الذي رغب فيه.

كيف عملت ملكة إنكلترا الاستعدادات من أجل الذهاب إلى القارة

بما أن الملكة تستعد الآن للابحار إلى القارة، أرسل سكان يارماوث Yarmouth سفينة واسعة وجميلة، مشحونة بثلاثين من البحارة البارعين، والمسلحين بشكل جيد، حتى تكون بخدمة الأمير ادوارد، لاصطحابه مع أعوانه وخدمه عبر القنال بأمان كبير، وأعدّ شعب وينشيلسي Winchelsea بعض السفن لنقل الملكة، وعندما وجدوا بأن السفينة التي أرسلت إلى الأمير كانت أكثر اتساعاً وأعظم جمالاً من سفنهم، شعروا بالغيرة والحسد، وقاموا بشكل غادر ومفاجيء بالهجوم عليها، ودمروا السفينة وقتلوا وجرحوا بعضاً من ملاحيها، وفي سبيل التنصل من جريمتهم وطمسها، أخذوا سارية المركب المدمر، وثبتوها إلى سفينة الملكة، وكأن الذي فعلوه كان لصالحها ومنفعتها، وبناء عليه تقدم سكان يارماوث بشكوى ثقيلة حول هذا الإجراء، ورفعوها ليس فقط إلى الملكة بل إلى الايرل رتشارد أيضاً، وكذلك إلى حكام الموانىء الخمسة، وهذا قد أثار المملكة كلها بشكل عادل للانتقام لهذه الجريمة.

كيف أبحرت الملكة إلى القارة دون أن تتقيد بأوامر الملك

أثناء وقوع هذه الاضطرابات غير المنتظرة، التي أزعجت الملكة وأقلقتها، وصلت رسالة ثانية كانت مستعجلة من الملك، أمر فيها الملكة بعدم عبور القنال، وهكذا تعرضت للعناء من جانبين، فقالت وهي تشعر بالسخط: «لقد ثارت المشاكل من كل جانب، فها هو كل شيء جاهز للاقلاع والابحار، وقد قلت وداعا للجميع، وهبت الريح بشكل موائم، فهل سأرجع؟ لا»، ثم أنها أخفت غضبها تجاه هذه الوقائع، وأقلعت من بورتماوث في التاسع والعشرين من أيار، وكان يوم جمعة،

وذلك قبل أحـد الشعـانين، وأخذت ولديها معهـا: ادوارد، وادمـوند، وكان برفقتهـا أربعين فارسـاً، وحاشيـة من النبلاء، وكـانت تحت قيادة وتوجيـه عمهـا رئيس أساقفـة كـانتربري، وكتبت في الوقت نفسـه إلى الايرل رتشـارد حـاثـة إيّاه على السعي بكل حكمـة من أجل تسـوية الخلاف وتهدئـة الإثارة التي نشـأت بين شعب الموانىء الخمسـة، لأن ذلك مشحون بـالخطر بالنسبة للمملكة، وقـد جرى تنفيذ هـذا فيما بعد بكل سعـادة، ووصلت الملكة سالمة إلى بوردو في اليـوم الأخير من أيار، وكـان قـد جـرى تعيين وولتر دي غـري، رئيس أسـاقفـة يورك، نائبـاً للمملكة في مكان الملكة، لكنه لم يقم بممارسـة هذه الوظيفة، لأنه شعـر بنفسـه بأنه كـان منهكاً بسبب المرض وتقـدم السن، وكـان هناك بعض النبلاء قـد فضلوا السفر براً على الرغم من التأخير، على السفـر مباشرة بحراً، وكان من هؤلاء —على سبيل المثال— جون وارني، وادموند دي لاسي، فقد عبرا البحـر عند دوفر، ومن ثـم أخذا طريقهما مبـاشرة نحو بوردو، ووقعت في هذا العام واقعـة غريبة بالنسبـة للريح، وكانت، بأن الريح هبت بشكل متـواصل من الشمال —الشرقي، أو من الشمال لمدة ثلاثة أشهر وبضعـة أيام، وقد دمـرت فواكـه وورود الربيع، وفي حوالي الأول من تموز، وهو مـوعـد الانقـلاب الصيفي، سقطت أمطار عنيفـة جـداً، وكـانت هناك عاصفـة برد ثقيل، مثلهـا لم نشـاهد من قبل، وقـد استمـرت هذه العـاصفـة لمدة سـاعـة أو أكثـر، وقـد اقتلعت القـرميـد والألواح الخشبية للأسقف، وأتلفت أغصان الأشجار.

حول وفاة هنري ابن الإمبراطور فردريك

وفي شهـر أيار من هذا العـام، مـات هنري، أمل الانكليـز ومجدهم، وكـان شـاباً وسيماً جـداً في مظهـره، وهو ابن الامبراطور فـردريك والامبراطورة ايزابيـلا، اخت ملك انكلترا، وقـد فقـد حيـاته —حسبما ذكر أعـداء كونراد ملك صقلية— من خلال دسـائس هذا الملك نفسه،

لكن هذا الخبر مستبعـد، ويبـدو أنه غير جـدير بالتصـديق، لأن الملك المذكور قـد عامل هنري بعـاطفة آخويه، وقـد قدم براهين على عـاطفته نحوه، وذلك حسبما أفاد أيضا في إجاباته على تهم جادة أثيرت ضده من قبل البابا، حيث قـال بأنه قد شعر عند وفـاته بأنه قد فقد جزئـاً رئيسياً منه شخصياً، وكـان المقترف الحقيقي لهذه الجريمة الشقي الشريـر جداً، الذي عـرف باسم جـون الموري، فهو الذي دس السـم إليه، وفيما بعـد عندما كان مايزال يتنفس وفي آلام الموت، تولى خنقه، وبعد وفاة أخيه لم يظهر كونراد أنه هادىء مستقر كما كان من قبل.

حول الخلاف بين البابا وبين كونراد ملك صقلية

وفي شهـر آبار من هذا العـام تفجـر خـلاف شـديد بين البـابا، وبين كونراد ملك الصقليين، ذلك أنه كان هدفـا للكراهية من قبل البابا، الذي لم يتقيد بمرضه، وأنه قد تعرض للنقد الشديد من قبل الأسقف روبرت، أسقف لنكولن، واهتم قليـلا بالاصـلاح، أو بالحري لم يهتم مطلقا، وقـد اتهم كونراد بعدد كبير من الجرائم، ومنحته كـراهيته لفردريك الأرضيات لتـوجيـه الاتهامات، لأن رمـاد النيران لم يكن خلوا من بقـايا وقيـد النار بينها، وقد رد الملك على كل واحدة من الاتهامـات باعتدال، وقد أنكرهم جميعا بشكل مكشـوف وثابت تماما، وقـد اتهمه البـابا بأنه كان مهـرطقاً، ومجرما قاتلا، وواحـدا جاحدا لمفاتيح الكنيسـة، ورجلا تسبب في ممارسة الخدمات اللاهوتية في آيام الحرمان من شراكة المؤمنين، كما أنه اتهمه بقتل واحد اسمـه فردريك، بالسم، وكـان حفيدا له، وأيضـا بقتل أخيه هنري وذلك بوساطة جـون الموري، الذي دس السم إليه أولا، ثم عندمـا وجد آن موته قد تأخر، تولى خنقه بوساطة منديل.

وألح البـابا على هذه التهـم ورددها كثيرا، في سبيل إثارة ملك انكلترا ضـد كونراد، ومن الممكن الوقـوف على تهم البـابا، وعلى أجوبة كـونراد عليهم في كتاب Additaments, عند علامة المرساة الحمراء.

عدم إلتزام الملك بمراعاة الامتيازات التي غالباً ما أقسم يمينه واعداً بمراعاتها

لقد كانت هناك آمال عظيمة شعر الناس بها، بأن يقوم الملك مخلصاً بمراعاة صكوك الامتيازات التي تقدم ذكرها، حيث اعتقد الجميع بأنها استقرت على أرضية ثابتة، لأن الملك الذي غالباً ما كان قد أقسم من قبل على الالتزام بها، لأنها منحت من قبل أسلافه، هذا الملك بات الآن في عمر أكثر نضوجاً، وكان يخاف من التورط بقرار الحرمان الكنسي الذي جرى التفوه به، لكن على الرغم من ذلك، فإنه أذعن الآن إلى نصيحة الرجال الأشرار، فلم يتردد في خرقها وتجاوزها، معتقداً أنه يستطيع بوساطة مبلغ صغير من المال الحصول على التحليل من ذنوبه وتجاوزاته.

حول زواج إدوارد ابن ملك إنكلترا من أخت ملك إسبانيا

وجرى في هذه الآونة ارسال ادوارد بأبهة عظيمة، وبفخامة كبيرة، إلى ألفونسو ملك اسبانيا، الذي تولى استقباله بتشريف واحترام، واتحد في بورغوس Burgos بالزواج من إليانور الأخت الصغرى للملك، وتسلم المرتبة الشرفية للفروسية من الملك نفسه، الذي كان مسروراً تجاه المظهر الوسيم، وحسن التصرف لدى الأمير الشاب، ثم عاد ادوارد إلى أبيه مع زوجته التي كان قد تزوج منها حديثاً، واستقبل بسرور عارم، وكأنه ملاك قادم من عند الرب، وجلب جون مانسيل أيضاً معه، صكاً من ملك إسبانيا مختوم بالذهب، فيه تخلى باسمه وباسم ورثته عن الادعاء بغسكوني كلها، إلى ملك انكلترا وورثته، وبناء عليه قام ملك انكلترا عند ذلك بمنح ابنه وزوجته مقاطعة غسكوني، وايرلاندا، وويلز، وبريستول Bristol, وغراهام Graham, وبذلك أظهر نفسه ملكاً صغيراً بشكل مضاعف، ثم إنه منذ ذلك الوقت، بدأ

الملك باستعداداته لعودة سريعة إلى الوطن، بما أن المشاكل الصغيرة قد جرت تسويتها حسب رغبته، مع أنه ظهر للرجال العقلاء بأنه لم يربح شيئاً لصالح المملكة، بل بالحري جلب أضراراً كبيرة للمملكة، لأن ماهي النجدة أو ماهو العون، الذي يستطيع ملك، كان على مثل تلك المسافة البعيدة، عمله ضد ملك فرنسا، الذي منه يشتكي ملك انكلترا كثيراً؟ وفي الحقيقة كان محاطاً من جميع الجهات بأعداء داخليين تآمروا ضده، ولم يكن بإمكانه مقاومتهم بشكل جيد، وكيف يمكنه ذلك وعدد كبير جداً من البلدان والممالك تعترض سبيله وتفصله عن غسكوني، وعلاوة على ذلك كان الملك متوائماً مع أخلاق الاسبان وعاداتهم وديانتهم، وكان يعرف بأنهم حثالة بني البشر، فقد كانوا قبيحون في الوجوه، وضيعين بالسلوك، وممقوتين في أخلاقهم، وقد تبين فيما بعد بوساطة براهين لايمكن دحضها، بأن الملك الانكليزي قد أنفق في حملته غير المثمرة في غسكوني، حيث لم يربح شيئاً، ماعدا الذي كان من قبل بين يديه، أنفق من دون فائدة مليونين وسبعمائة آلف باوند وزيادة، وذلك باستثناء الأراضي والموارد التي كان قد أعطاها من دون تقدير لأشخاص لايستحقون، آشخاص كانوا على استعداد لإلحاق الأذى والضرر به وبمملكته، وكانوا أيضاً يرغبون في التهام جميع ثروات البلاد، وعلاوة على ذلك، هو أعطى إلى إخوته لأمه، البواتيين الحقيقيين بالأصل وبالأخلاق ثلاثين آلف مارك، وذلك إلى جانب الأراضي، والموارد، والوصايات، والبيوت، والجواهر الثمينة، وهكذا، هكذا يالـلأسف انكشف أنه أنفق في إطار عدة سنوات خلت كثيراً من الأموال على حملته إلى بواتو التي خسرها، والآن في غسكوني، التي استطاع بصعوبة كبيرة الاحتفاظ بها، وقد بذر كثيراً من المال على تربة قاحلة، وكان ذلك آكثر مما يمكن أن يدفعه أي مشتري أو مثمن أمين، ثمنا لكلا البلدين، لو أنهما عرضا للبيع، وهكذا حدث أن حرمت انكلترا من الكرامة، وجردت من ثروتها من خلال فسولة ملكها، الذي

عنه روي بأن ميرلين Merlin قد قال: «يمضي الوشق نحو الأمام خارقاً كل شيء، حتى لو كان ذلك قد قصد به دمار بني جنسه»، وفي الحقيقة خرق الوشق كل شيء، حيث ليس هناك ولاحافظة نقود في انكلترا، لم يتم خرقها، ونفضت حتى أفرغت من محتوياتها، وجرى إعلامه بهذا الانفاق الهائل للمال من قبل بعض أصدقائه المقربين، وعندما سمع بذلك أصيب بالدهشة وتملكه الغضب، وأجاب وهو يتنفس بصعوبة قائلاً: «بحق رأس الرب (حتى نستخدم عبارته المعتادة) ماهذا بالنسبة له؟ لاتنشروا خبر ذلك إلى أي واحد، حتى لايسبب العجب والدهشة لعقول الناس».

كيف تطلع الملك نحو الاستحواذ على العشور التي منحت إليه

وفي الوقت نفسه، لم يكن من الممكن ضبط الملك بوساطة النصائح والملامات التي وجهت إليه من قبل الناس الصالحين، بل تطلع بجشع شديد إلى جباية العشور، التي وعد بها مشروطة من قبل الجماعة لمدة ثلاثة أعوام، حتى تمكنه من القيام بالحج، من أجل نجدة الأرض المقدسة، وفي الوقت نفسه لم يقم تقديراً للوعود التي غالباً ماقطعها على نفسه بالالتزام بصكوك الامتيازات والحريات سليمة، وبعدم خرقها، وهذه أمور كثيراً ماورد ذكرها من قبل.

كيف ذهب أسقف نورويك إلى كنيسة القديس ألبان لجباية العشور

في أيام عيد نقل القديس بندكت، قام أسقف نورويك، بناء على أمر البابا، وكذلك أمر الملك، بالذهاب إلى كنيسة القديس ألبان، ليجبي عشور جميع ممتلكات تلك الكنيسة، باستثناء البارونية، وذلك من أجل استخدام الملك، وبناء عليه جمع كل قساوسة الكنائس في منطقة القديس ألبان، وكذلك جميع الخوارنة والأوصياء على الكنائس نفسها، بما في ذلك

كنيسة غوبول Gopwell أيضاً، حيث تعيش الراهبات حياة عزلة أبدية مع القليل من وسائل العيش، وكذلك كنيستي القديس يوليان وكنيسة القديسة مريم في الحقول، وكان يعيش في الكنيسة الأولى عدد قليل من الرهبان التعساء، ويعيش في الكنيسة الثانية بقايا راهبات فقيرات، يعشن حياة تعيسة، حيث كن لايمتلكن بالكاد أي شيء يكفي لإقامة أودهن، ودعي هؤلاء الناس للاجتماع مع بعضهم ليجري فرض الضرائب عليهم بكل دقة، حيث جرى تحليفهم حول الاقرار بما يمتلكون من وسائل الحياة، كما أنه جمع كل الذين يشغلون مناصب، في ظل كنيسة القديس ألبان، حتى الذين يقدمون الصدقات، وفرض عليهم ضرائب دقيقة حول ممتلكاتهم، معلناً أنه سوف يجري فيما بعد بحث وتدقيق، ليتم معرفة فيما إذا كان الإحصاء غير عادل، وقد عرض الاجازات والتفاويض التي كان يمتلكها: المأخوذة من البابا وكذلك من الملك، وأضاف قائلاً ان القيام بهذه الوظيفة جاء كثيراً ضد إرادته، وأنه تحمل هذا العبء المزعج والثقيل رغماً عنه، وأنه كان مكرهاً على التصرف هكذا بحكم فضيلة طاعته، وقد قام بتنفيذ الواجب باعتدال كبير، وبلطف، آه، ماهذه البدعة التي لم يسمع بمثلها من قبل، فإلى هذا الوقت كان العلمانيون يدفعون العشور بالعادة إلى رجال الدين، والآن بانتكاس المفاهيم وانقلاب أنظمة الأشياء، جرى ارغام رجال الدين، بالاكراه، على دفع العشور إلى العلمانيين، وقد وجدوا على كل حال تعزية واحدة أثناء معاناتهم، هي الاعتقاد —حسبما تقدم الوعد إليهم— بأن المال الذي سوف تجري جبايته من هذه العشور، سوف يتم صرفه، في سبيل نجدة الأرض المقدسة وفي سبيل تشريف الرب ومن أجل كرامة الكنيسة، وكذلك أيضاً سوف يجري الالتزام ببنود صكوك الامتيازات، وفقاً للوعد، لكن: «الأمل يتجدد، وكذلك خداع الشخص الذي يتصوره».

وعلاوة على ذلك، قبل أن يجري إخبارنا بذلك، قام الرومان ووكلاء

الملك، في سبيل تتويج خداعهم، قاموا باتفاق عام، وبشكل سري، بإضافة عامين إلى الثلاثة أعوام، وعلى هذا فإن تلك العشور التي جرى منحها والوعد بها لمدة ثلاثة أعوام، باتت الآن معطاة لمدة خمسة أعوام، على أساس شرط لم يجر الالتزام به من جانبهم.

حول الفيضان غير المعتاد للبحار الشرقية

ووصل في هذه الآونة، بعض وكلاء الملك من سوق القديس بوتولف Botulf, وقد ذكروا بأن شعوب المناطق الشرقية من أوربا، الذين ندعوهم Estrichales و Gutlanenses, قد عانوا من الكارثة التي عانينا منها نحن أنفسنا، وجاءت معاناتهم من البحار الشرقية، التي تجاوزت حدودها المعهودة وغطت السواحل إلى مسافة بعيدة، وما كان مدهشاً أكثر، هو أنه على مسافة من الشاطىء، حيث البحر بالعادة عميق، تراجعت المياه، تاركة بقعة رملية جافة، مثل جزيرة، لم تشرق عليها أشعة الشمس قط من قبل، وبناء عليه يبدو أن الأمور غدت على عكس ما كان مشروعاً من قبل حيث نقرأ في المزمور مايخص البحر قوله: «أنت أعطيت إليهم حداً (يعني إلى المياه) لن يتجاوزه»، هذا وعلينا أن نقر أن كل شيء ممكن مع الرب، وليس للإنسان أن يعرف ذلك، وكأن مثل هذه الأمور الاستثنائية قدمها الرب بمثابة انذارات لنا، لأنه يقول: «سوف تكون هناك علامات في الشمس»، إلخ.

عودة الملك الفرنسي من وراء البحر

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في أيام عيد نقل القديس بندكت، عاد ملك فرنسا من الأرض المقدسة، مع أن ذلك كان ضد رغبته، لأن نبلاءه كانوا قد استدعوه بإلحاح شديد، من أجل غاية خاصة هي إنهاء الشقاق الذي أثير بوقاحة امرأة، تسببت بموت أكثر

من مـائـة ألف رجل، فجعلت الأطفـال أيتـامـاً، والعقيـلات أرامل، وحولت البلاد الجميلة، وجعلتها بدلاً عن ذلك أشبـه بصحراء، وبعدما نجا الملك الفرنسي، تحت حماية الرب، من غـدر بعض أعدائه في البحر، وصل سـالماً إلى أحـواز مـرسيليـا، إلى قـرب مـونتبللير Montpllier (حيث تنتعش العلوم الطبيـة)، وبقي هنـاك لبعض الوقت للاستراحـة، وليتعافى من متـاعب رحلته البحرية، لأنه قال بأنه لم يختم حجـه بعد ولم يكمله، بل إنه اكتفى بتعليقه لبعـض الوقت، ولهذا السبب ارتدى شعار الصليب بشكل علني، وأعلن قائلاً بأنه قدم مسرعاً إلى مملكته، بناء على إلحاح نبـلائـه، لأنه بصعـوبـة كبيرة جـداً، أمكن اقناع وليم صـاحب هولاندا، وملك ألمانيا، بالقبـول بهدنة قصيرة، والمحافظة عليها من دون مهـاجمة الفلمنكيين والفـرنسيين بألمانه المتهـورين، ولدى وصـول الملك الفـرنسي التقي إلى مملكته، بعـد الكثير من المخـاطر التي كـابدها في بلد أجنبي، وفي البحـر، والآن في بلاده، على الرغم من كل ماعـانى منه من متـاعب وخسائـر، جرى استقبـاله بتشريف لائق وباحترام، وشرع على الفور في اشغـال نفسه في تقـدير الطريقة التي سـوف يتبناها، أي إما أن يتولى اخضـاع أعدائـه القريبين في الوطن بـالقوة، أو أن يقوم بتهـدئتهم بوسيلة العـدل، لكن لم يكن بإمكـانه تهدئـة مثل ذلك العـدد الكبير من العواصف والزوابع من دون التشاور الدقيق والطويل مع مستشاريه.

وفاة هوغ أسقف إيلاي

وغادر هذه الحياة، في هذه الآونة أيضاً، هوغ الصالح، أسقف إيلاي، الذي كـان من قبل راعي دير كنيسة القـديس ادموند، وهو الذي قـاتل بجـدارة وفائـدة، في سبيل الرب، في الكنيستين لمدة أربعين عـاماً، وقـد مـات في عـزبته في التـاسع من آب، وقـد حمل جسـده بكثير من العناية والاحترام إلى إيلاي، حيث جرى دفنه في كنيستـه في بيت مشيخي فخم كـان قـد أسسـه وبناه بالـرخـام على حسـابه الخاص، ومن بين الأعمال

التقوية الأخرى التي كان قد أنجزها، بناء قصر كبير من الحجارة، غطاه بسقف رصاصي، وكان ذلك في إيلاي، كما أنه شيد بعض الأبنية الواسعة والفخمة في أماكن أخرى، وفي الوقت نفسه تجاوز هذا كله ولم يتقيد به، حيث أعد لنفسه قصراً سماوياً بإعطاء الصدقات، وبأعمال خيرية أخرى، وبالطريقة نفسها، مثلما أظهر تقواه عند المائدة الروحية، أي عند المذبح، وبينابيع من الدموع تدفقت من مقلتيه، كذلك فعل عند مائدة التغذية للبدن، حيث أظهر نفسه مضيافاً، وكريماً، ومشرقاً، وهادئاً، وبوفاته ماتت زهرة المعلمين والرهبان، فمثلما كان راعي الرعاة في انكلترا، مثل هذا أشرق وأشع فكان أسقف الأساقفة.

رعد وبرق غير اعتيادي

في عشية عيد صعود مريم المباركة، في هذا العام، وفي حوالي الساعة السادسة، وفي وسط سقوط ثقيل غير اعتيادي للمطر، سمع زئير رعد، وشوهد برق، ترافق معه، وقد وقع على برج كنيسة القديس بطرس في سينت ألبان، فخرق الجزء الأعلى منه بضربة ساحقة مرعبة فتل بها المواد السنديانية، وكأنها كانت مجرد شبكة، ومن المدهش القول، سحقها، وحوّلها إلى شظايا صغيرة، وخلفت النار وراءها رائحة نتنة من الدخان لاتحتمل في جميع أرجاء البرج.

انتخاب توماس أولدبردج لأسقفية كارلآيل

وفي حوالي الوقت نفسه، انتخب الكهنة النظاميون في كارلآيل المعلم توماس أولدبردج Oldbridge بمثابة أسقف لهم، وراعياً لأرواحهم، مع أن الملك استخدم أكثر الالتماسات إلحاحاً مع المطالب الملكية إلى الهيئة الكهنوتية العامة، لانتخاب واحد آخر، إذا كانوا يقدرون منفعة كنيستهم، وكان هذا الآخر هو رئيس رهبان نيوبري، وكان كاهناً نظامياً أيضاً، ومستشاراً خاصاً به، ورجلاً عاقلاً وحكيماً.

وصول نبلاء اغريق إلى بلاط روما

قـدم في صيف هذا العـام بعـض النبـلاء والأشخـاص ذوي المراتب العليا، من الامبراطوريـة الاغريقية، وهم يرتدون ثيـاباً ثمينة، ويمتطون خيـولاً جميلة، وقـد أحاط بهم حـاشيـة مجهزة بشكل جيـد، مع حـوالي الخمسين من خيـول التحميل، ومثل هؤلاء الأشخـاص أمـام البـابا، واتهموه بعبارات قاسية باقتراف ذنوب كثيرة في العقيدة، وبسلوكه جعل جميع الـلاتين يفعلون الشيء نفسـه، لأن الـلاتين يقـولون بـأن الروح القـدس قـد جاء من الأب والابن وصـدر عنهما، في حين كـان الموقف المعتمـد من قبل الاغـريق، أنهم أثبتـوا أنه صـدر عن الأب فقط، وهذا الذنب القديم للاغريق، والذي رفضـه اللاتين وشجبوه، قد ثبت برأيهم بوساطـة بينات دينية وتقاليـد قوية ومنطقيـة، مملة حتى نذكرهـا، وكان الموضـوع الآخـر للخـلاف فيما بينهم يتعلق فيما إذا كـان اصطلاحي «انبثاق» و«رسـالة» لهما المعنى نفسه، أم يختلفـان في معناهما، ونحن ندع هذا للمناقشة من قبل الجدليين.

وقالوا أيضـاً بأن «السيمونية» و«الربا» متأصلان في البـلاط الروماني، وهذا مايمكن أن يبرهنوا على صحتـه بأوضح البراهين والأمثلة، وحول هذا انتشر تقـرير في الخارج، من الصعب القـول أنه جانب الحقيقـة، أو على الأقل ابتعـد عن الإيمان الإنسـاني، وعلى كل إنه من دوافع التقـوى الاعتقـاد بأن مثل هذه الأعمال التـي اقترفت بناء على نصيحـة الأشرار، ينبغي التغاضي عنهـا وعدم إلغائها بقـرار بابوي، ولدى فحصهم حول قواعد إيمانهم وقـداساتهم، أعطوا أجوبة مقنعة ومرضيـة، وعندما كانوا في موضع الشك، تقبل بعضهم طواعيـة التوجيهات، وقـدم البابا إليهم هدايا مـلابس قرمـزية ثمينة، لها حواشي بفـراء ثمين، وأحزمة حـريرية مـرصعة بالذهب والفضـة، ولها أبازيم غـالية، وبذلك كـان يمكنهم أن يكونوا فخورين بذلك.

كيف منح البابا مملكة صقلية إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة، عاد المعلم ألبيرت إلى بلاط روما، حاملاً رسالة إلى البابا، بأنه لم يستطع ولابطريقة من الطرق التأثير على الايرل رتشارد، حتى يقبل مملكة صقلية وأبوليا، التي منحت له، أو أن يعرض نفسه وجميع مقتنياته للمخاطرة، مالم يقدم البابا أولاً رهائن جيدين من أسرته بمثابة ضمانة على الاخلاص والصدق، وعلاوة على ذلك، أن يساعده بمبلغ محدد من المال، وذلك حتى ينطلق بالحملة، وأن يسلمه أيضاً بعض القلاع، التي بين يدي البابا، وهم على الحدود، حتى يمتلك أماكن آمنة للتراجع، ورأى البابا من الصعب عليه العمل في ظل تلك الشروط الصعبة، فلم يوافق عليها وقال: «إننا لن نخضع لمثل هذه الشروط الكثيرة»، ثم أضاف المعلم ألبيرت قائلاً: «لقد أخبرني الايرل، بأنك إذا لم تفعل وفق الشروط المعروضة أعلاه، سوف يكون كما لو أن واحداً قال له: إنني أعطيك —أو أبيعك— القمر، تسلق إليه وخذه»، فوجد البابا أن مبادرته مع الايرل لم يكن لها نتيجة، لذلك أضاف قائلاً: «نحن لسنا مهتمين بشأن الدخول بأية معاهدة معه، أو أن تكون لنا أية مصلحة عامة معه»، وكان قانعاً بما عمله حتى الآن، «حيث رمى بشبكته أمام الطيور من دون فائدة»، فأرسل رسلاً سريين إلى ملك انكلترا، سعياً منه لاستغلال بساطته (لأنه عرف بأنه كان سهل التصديق، نزاع نحو خسارته الذاتية»، وعرض عليه مملكة صقلية وأبوليا، وأن يعطيه مساعدة كبيرة للحصول عليها وتمكلها، بحيث يمكنه تنفيذ ذلك من دون إلحاق أي ضرر به نفسه، أي أنه لتحقيق تلك الغاية، هو سوف يحول جميع الصليبيين عن هدفهم الأساسي بالابحار إلى الأرض المقدسة، وسوف يقنعهم باتباعه —ملك انكلترا— ومساعدته في الحصول على امتلاك صقلية وأبوليا، وعندما سمع الداوية والاسبتارية، وبطريرك القدس، وجميع الأساقفة، وسكان الأرض

المقـدسة، الذين كـانوا واقفين في وجـه أعداء المسيح، بهذه الإجـراءات حـزنوا في قلوبهم، لأنهم سئمـوا من زيف الحبر الروماني، وخـافـوا من وقوع الأسوأ، وابتهج الملك —على كل حال— كثيراً تجاه الوعد الفارغ للبابا، وانتفخ قلبه كثيراً بسرور فارغ، وأظهر فرحة نفسه في صوته، وفي حـركته، وفي ضحكتـه، وبشكل مكشـوف أطلق على ابنه ادمـوند لقب «ملك صقلية»، ودعـاه كذلك، معتقـداً أن الاستحواذ على تلك المملكة بات حقيقـة ناجـزة، وهمس رسول البـابا باذنه، بأن لايبـوح بهذا السر، خشية أن يصل إلى علم أصـدقائه، الذين كـانوا على دراية بمكر البلاط الرومـاني، فبـذلك يجعلونه يحذر ويتخـذ احتيـاطـاته، وعند ذلك أرسل الملك إلى البابا جميع الأموال التي كـان يمكنه سحبها من خزانته، أو من المسؤول عن أمـواله، وكذلك كل مـا كان بإمكانه أخـذه من اليهود، أو استخراجه بوساطة رجال عدالته المتجولين، وذلك من أجل شن الحرب ضـد كـونراد، واخضـاع الصقليين والأبوليين، وبالنسبـة لكونراد، فقـد حـزن لأن ملك انكلترا وقع في شبـاك البـلاط الرومـاني، وشكر الايرل رتشارد لعـدم السماح لنفسه بالوقـوع بالشباك، وأعطاه في الوقـت نفسه الانطباع، بأنه تصرف بشكل حكيم، بعـدم الوثوق بوعود البـابا، وبعدم الاقبـال على انفـاق أمـواله، لأن كـونراد كـان قـد ألمح، أنه حيث كـان للايرل القـدرة على انفاق قطعة من الفضـة، فإنه سوف ينفـق قطعة من الذهب، وكان البـابا معتمداً على ثرواته الكبيرة جـداً، ولذلك ارتقى إلى درجـة الوثوق بالذات، ولهذا حشـد جيشـاً كبيراً من المرتزقـة، هو تولى الدفع له، وعهـد بقيادته إلى الكاردينال أوكتـافيان، ووزع بكرم المال بين الجنود، وأرسل رسـالة إلى ملك انكلترا، عندمـا نقصت لديه الأمـوال، وأطاع هذا الملك محرضـات الشيطان ونهمـه، فكتب إلى البـابا رسـائل تعهـد مختـومة بالختم الملكـي، مخولاً إياه أن يستديـن مافيـه الكفـاية من الأمـوال، وبكميات وافـرة، من التجار الايطاليين، وأوصـاه أن لايكون خائفـاً حول كميـة المال المطلوبة، أو حـول الفائدة العـالية، لأنـه سوف

يسدد عنه جميع ديونه، وتعهد بنفسه بفعل ذلك، تحت طائلة عقوبة فقدانه لميراثه وحرمانه منه، ووافق البابا على هذا كله، وقبل بأوامره وقال: «إنه إذا عمل جيداً، فإنه يترك ذلك إلى الرب —الذي هو قاضي القضاة جميعاً، والذي يتولى العناية بالجميع— ليقرره، وإنه ليس لي الحكم على أعمال البابا، وبناء عليه أمر بعمل إعلان عام، وكأن ذلك بموجب مذكرة امبراطورية أو ملكية، ووجه بذلك الدعوة إلى كل من أراد الحصول على دفع جيد، للالتحاق بالجيش البابوي، لأن لديه الآن مبلغاً كبيراً جداً من المال، حيث كان قد استدانه من المرابين الايطاليين، وبناء عليه تدفق حشد كبير من الناس وتجمعوا مع بعضهم، من أجل الدفع البابوي، وتشكل من الايطاليين المنحطين والجهلة، والعاطلين عن العمل، ومن المخلوقات غير المؤهلين للحرب، والخالين من الصدق والوفاء، الذين لم يتطلعوا نحو منفعة ملك انكلترا أو البابا، بل كان همهم وشاغلهم جمع المال، فهذا ما سوف تظهره نتائج شؤون هذه القضية.

وفاة كونراد ملك صقلية

وأعد الملك المذكور، في الوقت نفسه، ذاته للتصدي للفئات المذكورة أعلاه بنشاط، ودعا واستنفر رعاياه الطبيعيين، وسكان صقلية وأبوليا، وأتباعه من الجنود الذين معه، وطلب منهم الوقوف بشجاعة وأن يقاتلوا في سبيل بلادهم، وأن لايطأطئوا رقابهم لنير السادة الأجانب، وقام يومياً بانقاص تعداد جيش البابا واضعافه، غير أن حب المال الانكليزي زاد حشود أعدائه، لأن البابا لم يوفر حافظة نقود الملك، بل أنفق مبالغ هائلة، في رغبته لقهر ملك صقلية، ولإبداله بملك انكلترا في حكم تلك البلاد واحلاله محله، ومع ذلك رغب في إزالة الجميع من التاج، وجعل ادموند ملكاً وحيداً، حتى يمكن أن يعمل وفقاً لإرادته، وأن ينفذ رغباته، لأنه هو الذي أوجده، وأوجد كل ماهو عائد إليه،

وأساء البابا في الوقت نفسه إلى سمعة الملك كونراد كثيراً، واتهمه باقتراف جرائم عظيمة —من ذلك على سبيل المثال قتله لأخيه هنري— من أجل أن يثير ملك انكلترا ضده، ومعه جميع الانكليز، واتهمه بالتعامل مع مفاتيح الكنيسة بالرفض والتحدي، كما اتهمه بجرائم أخرى كثيرة، ليس من الضروري أن نذكرها، حيث أنها جميعاً عرضت في كتاب Additaments, وقد سلف ذكرها من قبل في هذا الكتاب، وأثرت الأعمال العدوانية، والتهديدات واللوم على التصرفات، والتشهير بالسمعة، التي تكدست عليه من قبل البابا، كثيراً على الملك كونراد، لابل إنها تجاوزت الحدود، لذلك بدأ يتلاشى تحت ثقل الأسى، وأصيب بعلة شديدة فقد قيل تبعاً لبعض التقارير، بأن السم دس له، وأنه أخيراً التزم فراش موته، ونفس آنذاك عن أساه بالكلمات التالية: «واأسفاه، واأسفاه، كم أنا إنسان تعيس وشقي، لماذا ولدتني أمي؟ ولماذا أنجبني والدي، حتى أكون عرضة لمثل هذا العدد الهائل من الآلام؟ والكنيسة التي توجب أن تكون أماً لأبي ولي، هي بالفعل زوجة أب، والامبراطورية التي ازدهرت منذ ميلاد المسيح حتى الآن قد أخذت الآن بالتلاشي، وقد قضي عليها بالزوال»، ثم إنه لعن يوم ميلاده، ومن ثم لفظ روحه التعيسة والمتألمة.

سرور البابا العارم بوفاة الملك كونراد

وعندما تأكد البابا من موته، عقب على ذلك وهو يشعر بسرور عارم في قلبه، مع ابتسامة ظاهرة على محياه، وعلى نبرة صوته وهو يتحدث مسروراً، حيث قال: «أنا مسرور إلى أقصى الحدود، وعلينا نحن جميعاً، وأبناء الكنيسة الرومانية أن نبتهج، لأن اثنين من أكبر أعدائنا قد أخذا من بيننا، أولهما رجل كنيسة، وثانيهما علماني، فالأول هو روبرت أسقف لنكولن، والثاني هو كونراد ملك صقلية، وقد مات الملك كونراد المتقدم ذكره في شهر حزيران، وقام البابا على الفور بالزحف شخصياً إلى

المقـاطعـات الداخليـة لأبوليـا، وتمكن في مـدة قصيرة مـن الوقت من الاستيـلاء على تلك المملكة كلها تقـريبـاً، وأخضعها لنفسـه، واغتصب حكمها وسيـادتها، غير أن نبلاء المنطقة، التي كانت دوقيـة من قبل، قد شعـروا بالغضب الشـديد تجاه هذا الإجـراء، فـوجهـوا الدعـوة إلى ابن طبيعي لفردريك اسمه مانفرد Manfred, واتحدوا معه، وقدموا إليـه ولاءهم، وعـاهدوه وبايعـوه على أنه مـولاهـم، وبذلك أصبحت الغلطة الأخيرة أسوأ من الأولى، ونهض أعداء البابا وانبعثوا وانتعشوا.

كيف جرى إرسال اثنين من رهبان كنيسة القديس ألبان إلى روما

وفي هذه الآونة أيضـاً جرى ارسال اثنين مـن رهبان كنيسة القـديس ألبـان إلى روما، لمقـاومـة صلف ووقاحـة بعض الأسـاقفة الذين كـانوا يسعون للقيام بزيارات تفقدية في الكنيسة نفسها، على عكس ماقضت به بنود امتيـازاتهم، وكان هذان اللـذين أرسلا بهذه المهمـة هما: وليم أوف هنتنغـدون Huntingdon رئيس رهبـان هيثفيلد Heathfield, واللورد جـون دي بوليم Bulim, اللذان انطلقـا في رحلتهما في اليوم التالي للاحتفال بصعود القديسة مريم، وعادا سالمين.

قحط الأرض بسبب فيضان البحر

في هذا العام نفسه، وفي أيام فصل الخريف، عندمـا يقطف الفلاحون —كما جـرت العـادة— ثمار جهـودهم وأتعـابهم، قـد وجـدوا أن جميع الأراضي الواقعـة في أحواز البحـر، على الرغم من زراعتهـا بكل عناية، وجدوهـا خاوية من أي نوع من أنواع الثمار، وهي مبللة مشبعـة بالملح، لأنه حدث —كما ذكـرنا من قبل— أن استولى البحـر، أثناء الشتاء، على الشـواطىء، وعلى الأراضي المجـاورة لهم، لذلك لم يكن مـرئيـاً هناك لاقمح، لابل حتى الأشجـار والبسـاتين، لم يشـاهد عليهـا لاأوراق،

ولأغصان، أو فواكه، ويمكن لنا أن نتصور مدى الخسائر من ضرب مثل واحد من بين أمثلة القضايا الكثيرة، هو أن رئيس رهبان سبالدنغ Spalding, لم يستطع التفاخر بأنه جنى حزمة واحدة من القمح، من كل تلك الأرض المجاورة لشاطىء البحر، أما بالنسبة للأشجار في الغابة، وكذلك أشجار الفواكه، فقد جفوا تماماً، وأصبحوا فقط موائمين للقطع، وعانت فلاندرز أيضاً، وجميع المناطق البحرية، من الخسارة نفسها، وما من إنسان عجوز كان بإمكانه أن يتذكر أنه شاهد قط مثل هذا الشيء من قبل، وكانت هناك حقيقة مدهشة قد لوحظت أثناء ذلك الطوفان الاستثنائي وغير الاعتيادي، من قبل البحارة وصائدي الأسماك، أثناء ممارستهم لكثير من أعمالهم في أجزاء ومناطق كثيرة من البحر، وتمثل ذلك باكتشافهم أثناء إلقاء المراسي، أو خلال السفر، بأن البحر قد غادر قيعان تجمعه المعتادة، أو الأقنية، وترك بقايا من الرمال فقط في وسط المحيط، وذلك حيث كان الماء بالمعتاد له أعماق كبيرة، هذا وقد تقدم ذكر هذه الأمور من قبل.

أسر بعض النبلاء في بونز في بواتو

وقرر في ذلك الوقت نفسه جون دي بليست Plessets, ايرل أوف وورويك Warwick وغيلبيرت سيغريف مع نبلاء آخرين، أنه بما أن كل شيء هادىء —حسبما بدا— في غسكوني، قرروا الحصول على اذن بالعودة إلى الوطن، وبناء عليه، حصلوا على جواز مرور للعبور بسلام خلال المناطق الخاضعة للحكم الفرنسي، وإثر ذلك ركبوا الطريق، وانطلقوا مسافرين وهم يشعرون بالأمان خلال تلك البلاد، يريدون انكلترا، وقرر الايرل، الذي كان من أصل نورماندي، أن يسافر خلال نورماندي، ولدى وصولهم إلى مدينة في بواتو اسمها بونز Pons, وهي التي كانت قبل سنوات قليلة مضت مدينة أثيرة لدى الملك الانكليزي، فقد جرى استقبالهم بمظاهرة فرح من قبل

السكان، الذين اصطحبوهم إلى مساكنهم وقدموا إليهم هدايا جميلة تعبيراً عن الاحترام، وجرى إخبار الذين عسكروا عندهم بأن يستولوا في الغد على الدروع والأسلحة التي كانت مع الانكليز، وأن لايعطوهم إياها ثانية، لكن توجب عمل ذلك بالخفاء، وغدراً، وفقاً لعادات البواتيين، وبناء عليه، عندما كان الايرل وغيلبيرت سيغريف يحتفلان بكل أمان مع الذين كانوا بضيافتهم، قدم بعض سكان المدينة يركضون إليهما، وهم مرعوبين كثيراً، والكذب في أفواههم يقولون: «انظروا، انظروا، لقد أحدث أصحابكم وأتباعكم اضطراباً في المدينة، ونحن لم نستطع تهدئة الموقف والتعامل مع هذا الاضطراب، وبرفقة الايرل، وغيلبيرت سيغريف، كان آنذاك مقيماً في المدينة بعض الانكليز المشاهير، من جملتهم بارونات وفرسان وأتباعهم، وكان من بينهم فيليب مارميم Marmim, ووليم مانديم Mandim, وعدد كبير آخر، كان من جملتهم حوالي الأربعين فارساً إلى جانب عدد كبير من الأتباع، مساوين في المرتبة للفرسان، وكان بإمكان هؤلاء الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد، لو أنهم تسلموا تحذيراً من قبل، واستشرى الاضطراب، وارتفعت صرخات «إلى السلاح»، وطلب الضيفان من مضيفيهم اعطاءهما دروعهما على الفور، لكن الأخيرين لم يفعلوا ذلك، بل احتفظوا بهم مخزونين بعيداً، وفجأة هجمت قوة كبيرة من السكان، كانت شاكية السلاح تماماً، وانقضت على الضيفين غير المتنبهين، وغير المسلحين، واعتقلوهما، ولم يفدهما شيئاً عرض جوازات السفر الممنوحة لهما من ملك فرنسا، من أجل السفر بسلام وأمان خلال تلك المنطقة، وكان بإمكان بعض أفراد تلك الفئة المغادرة، لكنهم لم يفعلوا ذلك، مالم يتم السماح للجماعة كلها التي قدمت برفقة الايرل بالذهاب بعد اطلاق سراحها، ولدى سماع ملك انكلترا بهذه الأحداث غضب كثيراً، لكنه لم يظهر الذي يتوجب عليه فعله، لو أنه امتلك قلب ملك حقيقي، وقام على كل حال بالكتابة لصالحهم إلى سكان بونز، الذين كانوا أصدقاءه

من قبل، وكانوا مواطنين مخلصين، لكنهم عاملوا رسالته بالرفض واحتفظوا بأسراهم في سجن مضيق عليهم، وعانى الأسرى أثناء سجنهم من المزيد من الآلام، لأن ملك انكلترا، الذي كان مولاهم الطبيعي، كان قد كدس عليهم من قبل الكثير من المنافع، وكان غيلبيرت رجلاً نبيلاً وغنياً، وصاحب سمات رفيعة، وعندما كان هناك معتقلاً أصيب بعلة لم يبرأ منها بعد ذلك مطلقاً، بل عاش حياة تعيسة أمضاها حتى موته، وبهذا العمل المكشوف صار البواتيون معروفين مفهومين من قبل الجميع، من الفرنسيين ومثل ذلك من الانكليز، ووضح كم من الغدر مقيم في قلوب البواتيين.

وفاة وليم كانتلوب

وفي حوالي أيام عيد القديس ميكائيل من هذا العام نفسه، مات وليم كانتلوب Cantelupe, وكان رجلاً غنياً، وشاباً وسيماً، مما سبب الحزن لكثيرين، وكان هذا هو الثالث من أسرة كانتلوب، الذي أخذ من بيننا في اطار سنوات قليلة.

حول ولاية غير اعتيادية من الملك

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في عيد القديس ادوارد، صدر عن محكمة قاضي القضاة الملكية، الاجازة غير الاعتيادية التالية، التي كان من غير الممكن تعليق أي أمل عليها أو توقعه منها:

«**من هنري، الذي هو بفضل الرب، إلخ**: ينبغي القيام بعملية فحص دقيقة في عزب الطوائف الرهبانية، لمعرفة كم هو عدد الفدادين الموجودة فيها، والموائمة لزراعة الأرض المتملكة، وكم عدد الفدادين العادية ينبغي أن يكون هناك، وفيما إذا كان من الممكن عن طريق انقاصهم، أن يجهزوا فداناً في العام، أو أكثر أو أقل، ويتوجب مثل هذا عمل بحث بشأن الفدادين المشكوك بها، وينبغي أيضاً عمل تفتيش لإحصاء الكمية التي

تنتجها كل ملكيـة بنفسها كل عام، محذوف منهـا النفقات الضرورية التي يتم دفعهـا، وينبغي أيضاً إجراء تفتيـش لإحصاء كمية العمـل والخدمات التي يقدمهـا الفلاحون سنوياً إلى سادتهم، على حسـاب أراضيهم، وأيضاً مـاذا، وكم، وأي نوع هي الموارد لكل من عزبهم سنوياً، وينبغي أن يقـوم بأعمال التقصي هذه أربعـــة رجـــال مستقيمين، والذي سيكـون العمـــدة للمكان، ينبغي اختياره من كل عزبة من بين الطوائف الرهبانية.

حول وليم أوف كيلكني الذي شغل منصب قاضي القضاة

وشغل منصب قاضي القضاة في هذه الآونة، واللقب الذي حمله، من قبل وليم كيلكني Kilkenny, وذلك باعتـدال ومن دون ملامـــة، وكان كـاهناً ومستشاراً خـاصاً للملك، ورجـلاً ضليع المعرفة بـالقانون ووسيماً في مظهره، وفصيحاً في خطاباته.

انتخاب وليم أوف كيلكني لأسقفية إيلاي

وبعـد هذا بـوقت قصير، أي إثر الاحتفـال بعيـــد القـديس ادوارد، انتخب رهبان إيـلاي [أسقفاً لهم] المعلم وليم كيلكني، لأنه كـان رجلاً مستقيماً وحكيماً، وواحداً بارعاً في القـانون، وكان في ذلك الوقت قاضي قضاة الملك، أو أنه كان يمارس واجبات قاضي القضاة.

موت ثلاثة من رعاة الديرة

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في إطـار شهر وعدة أيام، مات ثلاثة رعـاة ديرة في أراضي السبـاخ Marshlands, وهذه حقيقة غـريبـة ومـــدهشـة، وهؤلاء هم: راعي دير كـــرويلاند Croyland, وراعي ديـر ثورني Thorney, ووليم هـاشـــــولت Hacholt, راعي الدير الصـــالح لرامسي، الذي مـات في الســـابع عشر من تشرين الأول، وهو لم يشغل وظيفة حكم كنيسة رامسي إلاّ لسنة واحدة.

حول رعد ومطر في الشتاء

في اليوم التالي للاحتفال بعيد القديسين: كريسبين Crispin وكريسبين، انزعجت مسامع الناس جميعاً وقلوبهم برعد مرعب، ومع أن ذلك كان في الشتاء، فقد ترافق مع أمطار غزيرة جداً.

اضطرابات في الأنواء

وفي هذا العام أيضاً، حدث أنه من يوم الصعود حتى يوم عيد جميع القديسين، أنه بالكاد مرّ يومان أو ثلاثة أيام من دون الإثارة ببعض اضطرابات الأنواء.

حالة الأسى والقنوط لدى الملك الفرنسي

شعر الملك الفرنسي بحالة من الأسى والحزن العميق في قلبه، وظهر وكأنه يرفض كل أنواع العزاء والمواساة:وهكذا لم تعد الآلات الموسيقية تمنحه السرور، ولم تتمكن الخطابات المسلية أو كلام المواساة تنتزع الابتسامة منه، ولم يشعر بالبهجة لدى عودته لزيارة بلاده الأصيلة ومملكته، ومثل ذلك تجاه تحيات الاحترام التي تلقاها، وكذلك لدى تلقيه هدايا الاعتراف التي قدمها له رعاياه بحكم أنه مولاهم، بل إنه بنظرات نفس مهانة، مع حزن عميق، وآهات متوالية، تفكر بأسره من قبل المسلمين، ومن خلال ذلك العار الذي لحق بالمسيحية بشكل عام.

وأخيراً خاطبه أسقف مستقيم ومقدس بكلمات مواساة قال فيها: «احذر يامولاي المحبوب ومليكي من إلقاء نفسك في مثل هذه الحياة الحزينة المرهقة، فهي مناقضة لبهجة الروح، وهي الأم العقوق للنفوس، وهذا ذنب كبير ولايغتفر، وأذى وانحطاط بالنسبة للروح القدس، أعد إلى بصيرتك صبر أيوب، وتحمل يوستاس» "Eustace", ثم قص عليه أخبار كامل تاريخ الرجلين، وكيف أن الرب كافأ كلاً من الرجلين، وعلى هذا ردّ عليه الملك، الذي كان أعظم ملوك الأرض

تقــوى قــائــلاً: «لو أنني كنت لـوحـدي الذي تـألمت من الاضطراب والمهــانة، ولو أن ذنوبي لم تقع على الكنيســة المسكونيــة، لكان بإمكاني تحمل ذلـك بصبر واتزان، لكـن الويـل لي، حيث من خــــلالي غلفت المسيحيـة كلها بالاضطـراب والعار»، ولذلك جـرى ترتيل قـداس على شرف الروح القـدس، حتى يتمكن الملك مـن تلقي المواسـاة منه، الذي هو فـوق جميع الأشيـاء، ومنذ ذلك الحين فصـاعـداً، تقبل بفضل نعمـة الرب الصحة، والمواساة والنصيحة.

كيف جرى تعيين رؤساء الرهبان من الطائفة السوداء رجال عدالة بناء على مبادرة من الملك

وفي هذا الوقت نفسـه، أرسل الملك رجال عدالة إلى عـدة مناطق من انكلترا، لسماع القضايا، ولإعطاء كل واحـد الحق العائد إليـه، ولتحرير البـلاد من اللصـوص وقطاع الطرق، وكـان واحداً من رجـال العـدالة هؤلاء رئيس الرهبــان لمنطقــة بيتربورا Peterborough, الذي التحق بهم بمــوجب فضيلة الطاعــة، التي دان بها ليـس للرب، وليس لطائفـة القـديس بندكت، بـل لملكه الأرضي، وقـد شـاركهم في مـرابح عزبه، ولعله لهذا السبب، جرى تعيينه بالأصل، ولم يحدث هذا في قضية رئيس الرهبـان المذكور فقط، لكن ذلك حـدث أيضاً مع عـدد آخر من رهبـــان الطائفــة الســـوداء، لإلحاق المزيد من الأذى الكبير بـأحكام اختصاصهم، وكذلك بالنسبة لكنائسهم.

كيف سدّد الملك ديونه من خلال ممتلكات رئاسات الرهبانيات الشاغرة

وفي الوقت نفسـه مـدّد الملك اقـامته غير المثمـرة في غسكوني، منفقـاً مبلغاً هائلاً من المال، ليس فقط الذي كان معه، لابل الذي كان بإمكانه الحصول عليـه، ولقد ورط نفسه، ومملكته، والكنيسـة الانكليزية بديون

ثقيلة، ونحن نعتقد لو أن غسكوني كانت معروضة للبيع، ما كانت لتجلب مبلغاً مساوياً لهم، وعندما أخبر بوفاة رؤساء الرهبان الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وببعض الأساقفة الذين كانوا قد توفوا قبل ذلك، منهم مثلاً أسقف إيلاي، ورئيس رهبان سيلباي Selby, مع عدد كبير آخر نحن لانتذكرهم في الوقت الحالي، أمر بتحويل ممتلكات كنائسهم إلى خزانته، وأن تكرس لدفع الفوائد التي هو مدان بها، غير خائف من القرار الرهيب، الذي جرى التفوه به في لندن، ولم يلتزم مطلقاً ببنود صكوك الامتيازات، حسبما كان قد وافق عليها.

كيف طلب الملك السماح له بالعودة إلى الوطن خلال فرنسا

واستعد الملك في هذه الآونة لعودة سريعة إلى الوطن، بعدما نجح في ترتيب شروط سلام فعالة مع ملك اسبانيا، ولأن الرحلة بالبحر كانت محاطة بمخاطرة كبيرة، قرر تفضيل السفر براً، إذا كان يمكنه ذلك من دون فرصة التعرض للخطر، لكن إذا تمكن من الحصول على الاذن من ملك فرنسا، وكانت لديه أيضاً رغبة برؤية المملكة الفرنسية، ومدنها، التي كان يعرف آنذاك أسماءها فقط، ولذلك قام بعد ذلك بإرسال رسل إلى ملك فرنسا، واختار لهذه الغاية، الذين عدّهم أهل لهذه المهمة، والذين نظر إليهم نظرة عالية، وقدرهم تقديراً سامياً، وبما أنه نجح بالحصول على الاذن بالسفر كما أراد، استعد للعودة إلى الوطن من خلال مملكة فرنسا.

كيف عبرت كونتسة كورنوول القنال لزيارة أختيها

وعندما سمعت كونتسة كورنوول بأن ملك انكلترا على وشك العبور خلال فرنسا، مصاحباً بالملكة أختها، وأن ملكة فرنسا، وهي أخت أخرى لها، سوف تلتقي بهما، حصلت على الاذن من زوجها الايرل رتشارد، حتى تقابل أختيها، وأقلعت محاطة بحاشية كبيرة جداً

ومشهـورة، من أجل أن لاتظهر أحـوالها أدنى من أختيهـا الملكتين، وفي الحقيقـة كان جميـع الذين رافقوها، فـرسـاناً مشهـورين، يمتطون أفضل الخيـول، مع أفضل التجهيـزات، وهم يرتدون مـلابس ثمينـة، وكـانوا محاطين بأتباع كثيريـن، حتى يظهروا أنهم يستحقون الاعجـاب من قبل الفرنسيين.

كيف ظلم الأسقف المنتخب لوينكستر رهبانه

كـان في الوقت نفسه أخـو الملك ايثيلمار، الأسقف المنتخب لوينكستر يمارس أقسى أنواع الظلم ضد رعاياه الرهبان، وإذا ما أقدم الإنسان على ذكر ذلك بالتفصيل، سوف تنهمر دموعه رحمة بهم، فقد أبقاهم محبوسين في كنيستهم صـائمين لمدة ثلاثة أيام وزيادة، وكان ذلك قبل حلول عيـد القـــديس ميكـائيل، ولذلك فـإن بعضهم هدهـم الجوع، وآلام الروح، ومرارة النفس، ولذلك لم يعودوا مطلقاً بعد ذلك إلى أوضاعهم الصحية الصحيحة، وبناء عليـه بحث رهبان الدير عن أماكن أكثر أمـاناً للالتجاء إليهـا، وذلك انتظاراً لأوقـات أفضل، وتفـرقوا في حـالة من التعـاسـة، وذهب بعضهم إلى ديـر القـديـس ألبـان، وبعضهـم إلى ردنغ، وبعضهم الآخر إلى أبنغـدون Abingdon، وذهب آخرون إلى ديـــرة أخرى تابعة لطائفـة الرهبان السـود، ذلك أنهم أرغموا على الذهاب إلى المنفى، والتسول، وأرغمـوا على العيش على صدقـات الآخرين، ولدى افتراقهم قـال أحدهم لـلآخر وهم يبكون: «إننا بعـدل نستحق الذي نعـاني الآن منه، لأننا أثناء قيامنا بالانتخـاب خفنا من الإنسان، ولم نخف من الرب، وذلك بترقيتنا إنسـاناً غير جدير بذلك تمامـاً، حيث رفعناه إلى مثل ذلك المنصب العـــالي، ووضعنـاه في مكان شغله فيما مضـى عـــدد كبير من القـديسين، والأشخـاص ذوي النفوذ، فلقـد قبلنا إنسـاناً شـاباً، سنوات عمره قليلة، انساناً قيل بأنه لم يمـدّ يده قط إلى العصا في المدرسة، وهو لم يستمع قط إلى مبـــادىء العلوم الفكرية، أو حتى للقـواعــد، وهو رجل

نهب الأسقفية التي استولى عليها، حتى قبل أن يكون أسقفاً، وهو إنسان جاهل بلغتنا، وبالكتابات المقدسة وبالواجبات الكهنوتية، وهو إنسان لايعرف حتى كيف يتكلم، أو كيف يتلقى الاعترافات، أو أداء أي واجب روحي نحو الرب»، وجرى استقبالهم في دير القديس ألبان وفي أماكن أخرى بلطف، ووجدوا صدر اللجوء مفتوحاً لهم، بين الرهبان، وقام الملك الذي كان قد تولى بوساطة التماساته الملكية، وبضغوطه غير الأخلاقية والقانونية، فارتقى بالأسقف المنتخب إلى المنصب الأسقفي، قام بمخاطبته لصالح الدير، وانتقده واتهمه بالعقوق، وأنه جلب على نفسه العار، مقابل التكريم الذي أضفي عليه، وأنه دفع مقابل المنافع المضاعفة، جميع أنواع الشرور، وأن هذا التصرف والسلوك مضاد لوعود الملك المقررة، ولم يصغ الأسقف المنتخب إلى أوامر الملك أو التماساته، بل كدس التهديد فوق التهديد، ووضع مكان الذين غادروه وتخلوا عنه، وعمل رهباناً من الرعاع الجهلة، وأشخاصاً غير مناسبين بالمرة، وذلك في سبيل إهانة الدين مع جميع الطوائف الرهبانية، وجرى فرض أحد الأشخاص بالقوة ليكون رئيساً للرهبان، وذلك بسبب تملقه، فتولى احلال الفوضى وقلب مفاهيم الأشياء كلها، وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه رئيس الرهبان الصحيح يبحث عن مكان للجوء، حيث ذهب إلى روما ليبقى حتى يهدأ غضب الأسقف المنتخب، وتمكن هناك بسبب وضوح عدالة قضيته من الحصول على كثير من الحظوة، مع أن ذلك لم يكن من دون دفع للمال، لكن كل جهوده تحولت لأن تكون من دون فعالية، بوساطة هدايا الأسقف المنتخب، (الذي منعت وكالته العدالة بشكل عام، وخاصة عدالة روما)، وجرى تبديد مقتنيات وممتلكات تلك الكنيسة الفخمة، وتلاشت الطائفة الرهبانية،ولخجلنا وعارنا يمكن القول بأن جميع الاحترام والتوقير للدين بات قليل القيمة، وكانت هذه هي الكنيسة الثالثة في انكلترا، التي أعطيت بسبب الزواج من قبل ملك انكلترا إلى أجانب (لأن ولاية الأمير نقضت الامتياز،

وإرادته خرقت المنطق)، وهذه الكنائس هي الكنيسة الكاتدرائية الفخمة في هيرفورد، وكنيسة وينكستر التي هي أكثر فخامة، والأكثر فخامة من الجميع هي رئاسة أساقفة كانتربري، وقد عدّت هذه الكنائس الثلاث هي الأكثر شهرة في انكلترا، ومن المتوجب أن يكن تحت حكم وحماية الذين ينبغي عدّهم الأكثر جدارة وصلاحاً من بين السكان المحليين، لكن خشية من أن يجلب ذكر الحقيقة العداوة (الأمر الذي غالباً مايحدث) فإن هذه الأشياء مع أنها حقيقية وواضحة، ينبغي المرور بها صامتين، لأن هذا أمر صعب في قضية كتّاب التاريخ، ذلك أنهم إذا ماكتبوا الحقيقة، أثاروا الناس، وإذا ماقاموا بتدوين ماهو زائف، يكونون غير مقبولين من قبل الرب، الذي يفصل مابين الذين يقولون الحقيقة والذين يتملقون، ويفرق بينهم.

كيف رهن الملك بطيش نفسه ومملكته للبابا

وفي هذه الآونة أيضاً، تصرف الملك وعمل بشكل غير لائق وغير نافع، فرهن نفسه ومملكته للبابا (وهو عمل أيضاً ما كان يجوز ولاينبغي عمله) تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث والتجريد من الملك، وذلك بتعهده بدفع جميع الأموال التي سوف ينفقها في حملته الحربية لصالحه —الملك— وحثه الملك أن لاييأس من التزود بالمال، بل عليه متابعة تنفيذ ماتولى القيام به من دون تردد، وأن يردع جميع الذين يقفون ضده في تنفيذ خططه، وفي سبيل ذلك سوف يزوده بكميات وافرة من جميع الأشياء المحتاجة، من بئر انكلترا الذي لاينضب، وبناء عليه قام البابا الذي لايمتلك أية عاطفة نحو انكلترا، فاستدان بشكل واسع، لابل في الحقيقة بشكل تبديدي، من المرابين الايطاليين، الذين يتجولون باسم تجار، وأصبحت انكلترا الآن بوساطة استخراجات البابا، وخداع الملك وغشه، أمة مسترقة من أدنى المستويات، وقد أرغمت على دفع هذه الديون، لكن بقدر من الرب وحكمة منه، لم يجلب هذا المبلغ الهائل

من المال، الذي نهب واستخـــرج على هذه الصـــورة، أيـة منفعــة على الإطلاق، لاإلى البـــابا، ولا إلى الملك، حسبما ستظهـــر الحكايـة المقبلة بتفصيل أكبر، في وقتهـا المناسب، آه كم هو رأي جـديـر بالثناء وكم هو أكثر صلاحـاً، ويستحق التصديق الرأي التالي، مع أنه صـدر عن شاعر كـافـر ومشرك، لكنه لم يكن من دون إيمان بـذاته عندمـا قـال: «مـا من نتيجة صالحة تنتج عن غنيمة قذرة تم اكتسابها بالحرام».

موت البابا أنوسنت الرابع

وفي هذه الآونة أيضاً، أي في اليـوم التالي لعيد القديس نيقـولا، مات البابا انوسنت الرابع في نابل، حيث أصيب بعلة مضاعفة مزدوجة، فهو منذ أن تلقـى الضربة على جنبـــه من عصـــا الراعي روبـرت، أسقف لنكولن، أثناء غضبـــه، كما ذكـرنا من قبل، أخـذ يعـــاني من ذات جنب متعذرة الشفـاء، كما أنه منذ أن هزم جيشه، وجـرى تفريقـه وتشتيته من قبل عدوه كـونراد، لم ينعم بالصحة، لاعقليـاً ولاجسدياً، ولذلك أذعن بشكل منطقـي لنفـــوذ الموت وقبل بـه، وعندمـــا تمدد وهو بين الموت والحياة، ورأى أقرباءه واقفين من حوله يبكون وينوحون، وكانوا حسبما كـانت العادة هناك يولـولون، ويمزقـون شعـورهم وثيابهم، رفع عينيـه وعليها غشاوة الموت، وقال لهم: «لماذا تبكون أيتها المخلوقات التعيسة؟ ألم أترككم جيمعـــاً أغنيـاء؟ مـــاالذي تريدونه أكثـــر من ذلك»، وبهذه الكلمات لفظ روحه ليمضي إلى مواجهة القضاء القاسي للرب.

حول رؤيا مرعبة تتعلق بالبابا نفسه

وحـدث في الأسبوع نفســه، الذي غـادر فيـه انوسنت الرابع هذه الحيـاة، أن شوهدت رؤيا رائعــة مـريعة من قبل واحـد من الكرادلة، الذي أخفي اسمـه لأغـراض احترازية، فقـــد ظهـر له، بأنه كـان في السماء، أمام جلالة المولى، الذي كان جـالسا على كرسي القضاء، وقد

وقفت على يمينه أمه العـذراء المباركـة، في حين ظهر إلى يسـاره امرأة ذات شخصيـة نبيلة، ومظهر محترم، وكـان ذراع هذه الأخيرة ممدوداً، وقـد حملت بيدها اليسرى نوعـاً من أنواع المعابد، كتب على واجهتـه بأحـرف من ذهب «الكنيسـة»، وسجـد انوسنت الرابع أمـام الجلالة اللاهوتيـة، ثم إنه جثا على ركبتيـه، وسأل العفـو، ويديه متشابكتـان، ومـرفوعتـان، وأن لايحاكم، وعلى كل حـال، تكلمت السيـدة النبيلة ضده قـائلة: «آه، أيها الحكم العدل، أعط حكماً صحيحـاً، لأنني أتهم هذا الرجل بثـلاث نقـاط: وكـانت النقطة الأولى، هي أنـك عندمـا أسست الكنيسـة على الأرض، أوجدتها مع الامتيازات التـي صدرت عنك نفسك، فلقـد قـام هذا الرجل بتحويلهـا إلى أذل أنواع العبيـد، والنقطة الثـانيـة هي أن الكنيســة تأسست من أجل انقــاذ المذنبين، ولتكسب نفوس التعســاء، لكنه جعلها مـائدة صراف للمال، والنقطة الثـالثـة هي أن الكنيسة بُنيت على ثبـات الإيمان، وعلى العـدل، وعلى الصـدق، لكن هذا الرجل جعل الإيمان والأخـلاق يترنحـان، وأزال العـدالة كليـاً، وغطى الصدق ووضعـه في الظل، وبناء عليـه قـدّم لي حكماً عــادلاً»، ثم قــال الرب: «اذهـب وتسلم جــزاءك وفقــاً لاستحقـاقك»، وهكذا حمل وأبعـد، وخـاف الكاردينال وارتعب من صـدور هـذا القـرار الرهيب، ولذلـك أفـاق مـذعــوراً وهو يصرخ بصـوت مــرتفع مع الخوف، وأصبح مثل إنســان فقـد السيطرة على نفسـه، لابل بالحقيقـة فكر الجميع بأنـه بات مجنوناً، وعلى كل حـال، عندما بدأ حزنه يخف، شرع يحكي تفـاصيل رؤياه بشكل كامل، حتى أصبحت منشــورة في ذلك الجزء من المنطقـة، وأزعجـت هذه الرؤيا (التي لاندري فيها كـانت من ابداع الخيال أم لا) وسببت رعبـاً عظيماً لكثير من الناس، ليجعلهـا الرب مـؤثـرة حتى يصلح الناس أنفسهم ويقوّموا سلوكهم.

كيف جرى جعل الاسكندر الرابع بابا

أمـا وقد جـرى نقل البابـا انوسنت من بيننا، جرى تعيين رجل آخـر مكانه، الذي كان حسبما أفـاد أحد التقارير لطيفاً ومتـديناً، ومواظباً على الصلوات، ودقيقـاً في تقشفـه، ومن السهل التغـرير به، وقيـادته بعيـداً بهمسات الاطراء، وكان ميـالاً إلى الاصغاء إلى الاقتراحات الشريرة من الأشخـاص الشرهين، وكـان من قبل أسقفـاً لأوستيـا، وحفيـداً للبـابا غـريغـوري، الذي توفي مـؤخـراً، حيث كـان هـو الذي ارتقى به إلى أسقفيتـه، وقد اتخذ الآن لنفسـه اسم الاسكندر الرابع، وقام فـور تعيينه بالكتابة إلى جميع أسـاقفة الكنائس، يرجوهـم بتـواضع الصلاة من أجله، حتى يعطيـه الرب القـدرة، والنعمـة والارادة، ليحكم الكنيسـة بشكل موائـم، من أجل منحه لقب نائب رحيم للرب، وخليفـة لائق لبطرس، وأعطى بطريقـة التصرف الجديدة هـذه (لأن مـا من واحـد من خلفـاء ذلك الرسـول تصرف هكذا) آمالاً جديدة، وبعثهـا في قلوب الكثيرين، لكن هذه السـذاجـة سمحت على الفـور للتعـرض للخـديعـة من قبل اخوانه الكـرادلة من حول شخصه، واعتماداً على احـدى الروايات تمت ممارسة عملية تـزييف غير اعتيادية بوساطة ختمه للمـراسيم، وقد عزي ذلك ونسب إلى سـذاجـة البابا، ومع ذلك أنـا لاأعفيه في هذه القضيـة، ولاأقـدم له العـذر، لأن البـابا ينبغي أن يكون إنسـانا لايخدع ولايمكن خــداعـه، لأن هـاتين السمتين، غير مقبـولتين في رجل يحتـل مثل ذلك المنصب الرفيع، وعرضـة للملامة، فبناء على نصيحـة بعض الأشخاص الذين وثق بهم ثقـة عمياء، وصـدقهم من قلبه، وكـذلك بناء على اقناع وضغوط سلفه البابا انوسنت الرابع، الذي عندما كان على وشك الموت حث الكرادلة على ذلك، قام بمتـابعة الحرب بنشاط، الحرب التي سلف شنها ضـد شيعة فـردريك، وخاصـة ضد مانفـرد، الابن الطبيعي، لكن الشرعي لفردريك، ولقد كـان —في الواقع— من الصعب بالنسبة للبابا

في بداية ولايته معارضة مثل هذه الوصايا، وعدّ النصائح التي قدمت إليه من قبل الرجال الدنيويين، صحيحة ومقبولة، ولاسيما وأنهم كانوا منصرفين نحو الأبهة الدنيوية، ولذلك أخبروه بشكل خاص، أنه سوف يكون أمراً متناقضاً، ومعاكساً لديانة الكنيسة، السماح ببقاء مدينة في الأراضي المسيحية مسكونة، لابل محشوة ومليئة من قبل المسلمين، وهي المدينة التي كان فردريك قد أسسها، وبناء على التعليل المخادع اتخذ البابا قراره، وكذلك بناء على تعليل آخر، قال إنه من غير المنطقي، ولايجوز إنسانياً احباط ملك انكلترا في آماله، حيث تصور بناء على وعود الكنيسة، بأنه سوف يحصل على مملكة صقلية، ففي سبيل ذلك كان قد أنفق مبالغ لاحدود لها من المال.

رغبة الرومان بتهديم نوسيرا

منذ بعض الوقت الذي مضى، كان الامبراطور فردريك قد بنى المدينة، التي أشير إليها أعلاه، والتي سميت نوسيرا Nucera [منصورة؟]، وقد أسكنها بالمسلمين، وباتت بيتاً، وملجئاً، وموضع ثقة بالنسبة له، وقد وجهت الملامة إليه بحدة على هذا العمل، وكان يرد على منتقديه، بتقديم حجة قوية دفاعاً عن خطيئته، من أنه يؤثر أن يعرض مثل هؤلاء الناس إلى مخاطر الحروب، التي قد تتفجر في المملكة أو في الامبراطورية، على تعريض المسيحيين، لأنه بالنسبة لسفك دماء المسيحيين، عليه أن يقدم حساباً دقيقاً أمام المحكمة الرهيبة للحاكم الأعظم، وبناء عليه سمحت الكنيسة بها، وتغاضت عنها، ولكن بما أنها أصبحت في الأيام الأخيرة، موضع لجوء، ومصدر اعتماد وثقة لكونراد المتوفى أخيراً، والآن وفق الطريقة نفسها مكان لجوء ونجدة لمانفرد، صارت مثل شوكة في جنب الكنيسة الرومانية، فالناس الذين قطنوا في نوسيرا كانوا مسلمين، ولقد كان بينهم نحواً من ستين ألف جندي، جاهزين للدخول في القتال، وكانوا مخشيين أكثر، لأنه كان من عادة

المسلمين في الحرب، استخدام رماح مسمومة، والنفوط، وأنواع أخرى من الأسلحة الشائنة وأدوات الحرب.

الحصار غير المثمر لنوسيرا

وبناء على موافقة الإخوة الكرادلة، وبناء على نصيحة مركيز منحط وخائن، جعل من نفسه صديقاً خاصاً للكنيسة، وذلك بقدر ما أمكن بالمظهر، جمع البابا جيشاً كبيراً، وأعاد حشد وتجميع الجيش الذي كان قد هزم بشكل مهين، وتمزق، وكان تحت قيادة الكاردينال وليم، حفيد البابا انوسنت الرابع، المتوفى أخيراً، الذي أنهى الرب حياته الضعيفة بموت سريع، وتمكن البابا من حشد قوة كبيرة، وجدها قد وصلت إلى ستين ألف رجل محارب، وقد أمطرهم بكميات كبيرة من المال، حيث لم يظهر الرحمة نحو خزانة ملك انكلترا، وعهد بقيادة هذا الجيش العملاق إلى الكاردينال أوكتافيان Octavian وإلى المركيز المتقدم ذكره، وأرسل هذا الجيش من أجل تدمير مدينة نوسيرا، وسحق قوة مانفرد وأعوانه وحلفائه من الصقليين والأبوليين، وعندما وصل جيش البابا إلى أمام المدينة المذكورة، لم يتجرأ —على كل حال— على مهاجمته، كما أن سكان المدينة لم يتجرأوا على الخروج منها، ومهاجمة هذا الجيش، ومع أن رجال البابا عزموا على الشروع بالعمل، لم يحرزوا أدنى تقدم، بل أضاعوا وقتهم في التأخيرات، مما سبب المزيد من النفقات والأضرار لملك انكلترا، ولقد قاموا على كل حال بتهدئته وتطمينه بوعود بأشياء عظيمة.

كيف قام ملك إنكلترا بنقل جسد أمه في داخل الكنيسة فونتفرولت

وفي هذه الآونة أيضا، وصل الملك إلى دير فونتفرولت Fon-tevrault النسائي الفخم، حيث قدم صلواته عند قبور أجداده

الذين كانوا مدفونين هناك، ولدى وصوله إلى قبر أمه ايزابيلا، الذي كان في المقبرة، تدبر نقل جسدها إلى داخل الكنيسة، وقد بنى فوقه ضريحاً، وقدم هناك، وكذلك في أماكن أخرى في الكنيسة نفسها، بعض الأقمشة الحريرية ذات الثمن المرتفع كثيراً، وبذلك نفذ وصية ربنا بقوله: «أكرم أباك، وأكرم أمك» إلخ.

كيف ذهب الملك إلى بونتغني لتقديم صلواته

وشعر الملك بنفسه أنه لم يكن على مايرام، ولذلك مثلما فعل من قبل، ذهب الآن إلى بونتغني، وبعدما صلى عند مزار القديس ادموند، استرد صحته، وهناك أيضاً قدم طيلسانات وبعض الهدايا الملكية الأخرى الثمينة.

كيف جرى السماح للملك بالسفر خلال فرنسا

رغب ملك انكلترا منذ زمن طويل رغبة شديدة بزيارة المملكة الفرنسية، ولزيارة عديله بالزواج ملك فرنسا، وكذلك ملكة فرنسا، التي كانت أختاً لملكة انكلترا، وأن يشاهد أيضاً مدن فرنسا وكنائسها، وأخلاق وطبائع وعادات الفرنسيين، وأن يرى أيضاً بيعة الملك المشهورة في باريس، مع الآثار المقدسة غير الاعتيادية التي تحتويها هناك فيها، وبناء عليه أرسل رسلاً خاصين إلى الملك الفرنسي، فحصل على إذن مفتوح وجواز سفر وأمان، وبناء عليه قام على الفور بحشد أهل بيته وحاشيته، ووجّه طريقه نحو مدينة أورلين.

استقباله التكريمي في جميع أرجاء فرنسا

وأعطى الملك الفرنسي، صاحب القلب اللطيف، في الوقت نفسه، أوامر دقيقة إلى نبلاء البلاد، وإلى سكان المدن، التي من خلالها سوف يمر ملك انكلترا، حتى يزيلو الأوساخ، وقطع الأخشاب الحاجزة، وكل شيء مزعج ولو إلى حد بسيط، وبتزيين الشوارع بالأعلام،

وواجهـات الكنائس والبيوت بـالأوراق، وبأغصان الأشجـار، وبجميع أنواع التـزيينات الأخـرى الممكنة، وباستقبـاله لدى وصـوله بقـرع النواقيس، والموسيقى، وبمظاهر الفـرح الأخـرى، وأن يلبسـوا مـلابس الأعياد، وأن يقوموا بخدمته أثناء اقامته في أي مكان.

كيف ذهب الملك الفرنسي إلى استقباله

وعندمـا علم الملك الفـرنسي بوصوله، ذهب لاستقبـاله في تشـارترز Chartres, ولدى رؤية أحدهما الآخر، اندفعا نحو العناق، وضم أحـدهما الآخر بين يديـه، وبعد تبـادل التحيـات، دخلا في المحـادثات، وأمـر الملك الفـرنسي أيضـاً بكرم منـه، بتقـديم كميـات وافـرة من الامدادات الجيـدة والثمينة إلى ملك انكلترا، على حسابه الخاص، وذلك طوال اقـامتـه في مملكتـه، ومن جهتـه تقبـل ملك انكلترا ذلك بلطف وشكر، وكـان في حاشيـة الملك ألف فـرس جميل، امتطاها رجـال ذوي مكانة ومـراتب، وذلك بالاضـافـة إلى العـربات، وحيـوانات التحميل، وكذلك عـدد كبير من الخيول المنتخبة، وسبـب جمال رتل موكب الملك وجـدته دهشـة عظيمـة إلى جميع الفـرنسيين، الذين تـزايدت أعـدادهم بشكل مدهش يـومياً، مثلما تزداد مياه النهـر بالروافد، لأن ملكة فـرنسا قـدمت مع أختيهـا كـونتستي أنجـو وبروفـانس، لاستقبـال اختيهم والترحيب بهما، وهما ملكتي انكلترا، وكـونتسة كـورنوول، اللتان كـانتا مع ملك انكلترا، وكـانت أمهم حـاضرة لذلك اللقـاء، أي الكونتسة بيترايس صاحبـة بروفانس، التي كـانت مثل نيوبي Niobe أخرى يمكنها أن تنظر بزهو نحو بناتها، حيث لم يكن هناك بين النساء في جميع أرجاء الدنيـا، ولا أم يمكنها التفـاخر بثمار رحمها، مثلما كـان يمكنها أن تفعل بالنسبة لبناتها.

وصول ملك إنكلترا إلى باريس

عندما علم الباحثون في باريس، خاصة الذين كانوا من أصل انكليزي، بوصول هؤلاء الأشخاص المشهورين: الملكان، والملكتان، والنبلاء، علقوا دراساتهم ومناقشاتهم لبعض الوقت، لأن ذلك كان تماماً موسماً للاحتفال، فجهزوا شموعهم، وثياب الاحتفالات (التي تعرف بشكل عام باسم Cointinses) وجميع الأشياء المحتاجة لاظهار سرورهم، ثم حملوا أغصان أشجار وورود، ومضوا يغنون مصحوبين بأدوات موسيقية، وساروا لاستقبال الزوار القادمين، وكان تعداد الواصلين، والذين خرجوا إلى استقبالهم كبيراً جداً، ولم يشاهد قط من قبل في العصور الماضية، مثل هذا الفرح والمشاهد الاحتفالية، مثلما حدث في المناسبة الحالية، فخلال ذلك اليوم كله، والليل، واليوم التالي، كانت المدينة مزينة بشكل جميل جداً، وأمضى الباحثون وسكان المدينة الوقت، وسط تعاريش زاهية من أوراق الأشجار والورود، وانشغلوا بالغناء والفرح، مع كل أبهة هذا العالم وسروره.

كيف اتخذ ملك إنكلترا مقراً لإقامته في المعبد القديم

وعندما وصل الملكان وأتباعهما (الذين يمكن أن يعدا جيشاً كبيراً) إلى باريس، واستقبلوا بمثل هذا العدد الكبير من الشطر المتميز من المجتمع الباريسي، شعر الملك الفرنسي بسرور عارم، وشكر الكهنة لتقديم مثل ذلك التشريف العظيم، ثم إنه خاطب ملك انكلترا قائلاً: «ياصديقي إن مدينة باريس موضوعة تحت تصرفك، فأين تود وترغب اتخاذ مكان إقامتك؟ هناك قصري في وسط المدينة، فإذا أحببت اتخذ مكان اقامتك هناك، فإذا كانت هذه رغبتك فإن رغبتك سوف تنفذ، أو إذا كنت تفضل اتخاذ مكان اقامتك في المعبد القديم، خارج المدينة، الذي هو أكثر سعة، أو في أي مكان آخر، فذلك يمكن اعداده»، واختار ملك انكلترا، مكان اقامته في المعبد القديم، لأن

حاشيته كان عددها كبير جداً، وكـان يوجد في ذلك البناء غرفاً كافية، لإقـامـة جيـش، ففي بعض الأزمـان الماضيـة والمناسبـات كـان جميع الداوية الدوليين يجتمعون هناك، في هيئة كهنوتية عامة، فكانوا يجدون وفرة من المرافق هناك، فلقد كان ضرورياً بالنسبـة إليهم جميعاً الإقامة في بناء واحد، لأنهم كانوا أثناء اجتماعاتهم الكهنوتيـة العامة يتباحثون في قضـاياهم وأعمالهم أثناء الليل، ومـع أنه —على كل حـال— توفـر هناك أماكن كثيرة في ذلك البلاط، لقد كان عدد الذين اجتمعوا هناك كبيراً في هذه المناسبـة إلى حـد أن كثيرين أرغمـوا على النوم في الهواء الطلق، ولم تكن البيـوت المجـاورة، والممتـدة إلى الشـارع وتدعى الـ Greve, كافيـة لإقامتهم فيها، ووضعت الخيـول في أبنية أفضل جرى تكييفها لتكون اسطبلات.

كيف أمر ملك إنكلترا بإعداد احتفال للفقراء

وبعدما اختار ملك انكلترا، المعبد القديم ليكون مكان إقامته، أعطى أوامر بأنه ينبغي في الصبـاح المقبل دعوة الفقراء للاحتفـال هناك، بقدر ما يمكن للمكان أن يستوعب، ومع أن عدد الضيوف الذين قدموا كان كبيراً جـداً، فإنهم جميعاً، لابل كل واحـد منهم جرى تزويده بوفـرة من اللحم، والسمك، والخبز، والنبيذ.

زيارة الملك للأماكن المقدسة في باريس

وفي الصباح التـالي، عندما كان الفقـراء يجري تزويدهم بالأطعمة، في الساعة السابعة والتاسعـة، قام الملك الانكليزي بتوجيه وقيادة من الملك الفـرنسي بزيارة البيعة الجميلة، في قصر الملك الفـرنسي، وبعـدما شـاهد الآثار المقـدسـة المعـروضـة هناك وتفقـدها، أدى صلواته، وقـدم بعض الهدايا الملكية، ووفق الطريقة نفسها أيضاً، زار أماكن أخرى مشهورة في المدينة، حيث صلى بتقوى صحيحة، وقدم تقديمات.

كيف اشترك الملكان مع عدد كبير جداً من النبلاء في وليمة هناك

وجرى في اليوم نفسه، حسبما كان مرتباً من قبل، أن قام الملك الفرنسي والملك الانكليزي وعدد كبير آخر من المرافقين، تألفوا من حاشية الملكين، بعمل وليمة في القصر الكبير في المعبد القديم، وكانت جميع الأجنحة في البناء مليئة بالضيوف، ذلك أنه لم يكن هناك أية بوابين أو جباة للرسوم عند الباب الكبير، بل تركت المداخل مفتوحة للداخلين، وجرى تقديم وجبة غنية إلى جميع القادمين، وكانت هناك كميات كافية من جميع أنواع اللحوم، منحت الشبع لجميع الآكلين، وبعد تناول الطعام أرسل ملك انكلترا، إلى النبلاء الفرنسيين، في أماكن اقامتهم، كؤوساً ثمينة من الفضة، والأبازيم الذهبية، والأحزمة الحريرية، وهدايا أخرى، كانت لائقة بالتقديم من قبل مثل ذلك الملك القوي، وقد تسلمها النبلاء بالشكر.

حول فخامة الوليمة

لم يحدث قط فيما مضى من أيام، أن جرى إقامة مثل هذه الوليمة الفخمة، لافي أيام عيد الفصح، ولا في أيام آرثر، أو شارل، لأن هذه الوليمة كانت مجهزة بأنواع غنية من الأطعمة، وكميات وافرة من المشروبات اللذيذة، والخدمات الجاهزة للخدم، والتنظيم الذي شمل الضيوف، والهدايا الكبيرة والجميلة، وكان حاضراً فيها أيضاً شخصيات استحوذوا على التبجيل الأعلى والاحترام، ولم يكن أعظم منهم وأعلى ولايمكن أن يكون هناك، ولا من يساويهم، لابل كان من الصعب أن تجد مثلهم في أنحاء العالم.

النبلاء الذين حضروا الوليمة

وقدمت الوليمة في القاعة الكبرى في المعبد، وهي التي كان معلقاً فيها —وفقاً لعادة القارة— أكبر عدد من الترسة، كان يمكن للجدران

الأربعة أن تستوعب، وكان بين الترسة المشاهدة هناك ترس رتشارد، ملك انكلترا، وحوله قال أحد الأشخاص الأذكياء الذين كانوا حاضرين لملك انكلترا:

«لماذا دعوت يامولاي الفرنسيين لتناول الطعام معك في هذا البيت؟ انظرفهناك ترس صاحب القلب النبيل، الملك رتشارد، فضيوفك لن يستطيعوا الأكل دون خوف وارتجاف»، لكن لم يزد على هذا، وقد انتظم الضيوف وفق النظام التالي: فقد جلس الملك الفرنسي، الذي كان ملكاً على جميع ملوك الأرض، بسبب الميرون السماوي الممنوح له، والذي مسح به، وأيضاً بسبب قوته، وعظمته بالفروسية، جلس في الوسط، بينما جلس ملك انكلترا على جانبه الأيمن، وملك نافار على جانبه الأيسر، وعندما حاول الملك الفرنسي وسعى لعمل ترتيبات أخرى، وأن يضع ملك انكلترا في الوسط، وعلى مقعد أكثر تميزاً، قال الأخير له: «ليس هكذا ياسيدي إنه أكثر لياقة، ومواءمة أن تجلس في الوسط، لأنك مولاي، وهكذا سيكون الأمر، والسبب واضح»، وعلى هذا رد الملك الفرنسي بصوت منخفض قائلاً: «يمكن لكل واحد أن يحصل على حقه دونما ضرر، لكن التجبر الفرنسي لن يسمح بذلك»، وعلى كل حال، يكفي ماقيل حول هذا، فقد جلس بعدهم الدوقات، وفقاً لتسلسل مراتبهم، وكان هناك آخرون، كان تعدادهم خمسة وعشرين، وقد احتل هؤلاء وشغلوا أكثر الأماكن تميزاً، حيث أنهم مزجوا مع الدوقات، وإلى جانبهم كان هناك اثني عشر أسقفاً حاضرين المأدبة، وقد نال بعضهم الأفضلية على بعض الدوقات، غير أنهم ظلوا متمازجين مع البارونات، ولم يتم تعداد مشاهير الفرسان الذين كانوا حاضرين، وكان هناك ثماني عشرة كونتسة، ثلاث منهن كن أخوات للملكتين المتقدمتي الذكر، وكن: كونتسة كورنوول، وكونتسة أنجو، وكونتسة بروفانس، وكن جميعاً جديرات بالمقارنة بالملكتين، وكانت هناك أيضاً الكونتسة

بيترايس، أمهن جميعاً، وبعد احتفال فخم وغني، مع أن اليوم كان مخصصاً لأكل السمك فقط، اتخذ الملك مأواه لإمضاء الليلة التالية في قصر الملك الواسع، الذي هو موجود في وسط مدينة باريس، فهكذا قرر بشكل حاسم الملك الفرنسي، الذي قال مازحاً: «ليكن ذلك على هذه الصورة، لأنه من الموائم بالنسبة لي أن أقوم بتأدية جميع واجبات اللياقة والعدل»، وأضاف يقول مبتسماً: «أنا سيد، وملك في مملكتي، ولسوف أكون سيداً في بيتي»، وبذلك قبل ملك انكلترا وأذعن.

كيف عرض ملك انكلترا نفسه على شعب باريس

وبعدما سار ملك انكلترا في الشارع الذي اسمه Greve, انتقل إلى شارع باتجاه القديس جرمين لى أوكسروي Germain, L'Auxerrois وانتقل بعد ذلك إلى جسر كبير، حيث تفحص البيوت الجميلة، المعمولة في مدينة باريس من الجص أو الجبس، وتأمل البيوت التي كانت هناك التي تألفت من ثلاثة طوابق لابل حتى من أربعة طوابق، وأكثر، وعند نوافذ هذه البيوت ظهرت أعداد كبيرة من الناس من الجنسين واحتشدت أيضاً جماهير من الناس، واندفعت على شكل كتل بشرية كبيرة، وتنافس بعضهم مع بعض في مسعاهم لرؤية ملك انكلترا في باريس، فقد كانت شهرته قد وصلت إلى السماء لدى الفرنسيين، بسبب هداياه الكبيرة، وأعمال ضيافته في ذلك اليوم، وصدقاته الكريمة، ولأن ملك فرنسا كان متزوجاً لأخت، وكان هو، أي ملك انكلترا متزوجاً من الأخرى، وقد قال له ملك فرنسا التقي: «أولسنا متزوجين من أختين، وإخواننا من الأخوات الباقيات؟ إن جميع الذين سيلدون منهن، من كل من الصبيان والبنات، سوف يكونوا إخوة وأخوات، آه لو أمكن أن يكون هناك مثل هذه المصاهرات والقرابة بين الفقراء، لتوفر تعاطف عظيم بينهم، وبالروابط القلبية كانوا سيتحدون، وأنا آسف، والرب يعلم، أن مشاعر تعاطفنا لايمكن تمتينها حول جميع

النقاط، ذلك أن عناد البارونات لن يتزحزح، وهم لن يذعنوا لي، لأنهم قالوا بأن النورمان لم يعرفوا كيف يحافظون على حدودهم، وعلى تخومهم من دون خرق، وابقائها آمنة، والبقاء بسلام، لذلك لايمكنك أن تسترد حقوقك»، وعلى كل حال في هذا كفاية، ورافق الملك الفرنسي الملك الانكليزي وشيعه لمسافة يوم، وبعدما افترقا، تبين بعملية حساب صحيحة، بأنه بدد ألف باوند من الفضة على نفقاته في باريس، وذلك بالاضافة إلى هدايا لايمكن تقدير ثمنها تقريباً، وقد أخرجها من خزانته، وقد أضر ذلك بها كثيراً، لكن سمعة ملك انكلترا، لابل في الحقيقة سمعة جميع الانكليز، قد ارتفعت كثيراً وارتقت.

المحادثات بين الملكين

وفي أحد الأيام، عندما كان الملكان يتحادثان، قال ملك فرنسا لملك انكلترا: «ياصديقي كم هو جميل الاصغاء إلى حديثك، دعنا نمتع نفسينا بالحديث معاً، فلربما لن نمتلك الفرصة بعد الآن للقيام بذلك»، وأضاف قائلاً: «كم كانت الآلام لروحي التي تحملتها، عندما كنت في حجي، في سبيل حبي للمسيح، وإنه ليس عملاً سهلاً اخبارك بذلك، ومع أن كل شيء استدار ضدي، أنا أعيد الشكر إليك، أنت الذي في أعلى عليين، وفي تأمل مني لقلبي، وتكرار فحصي له، إنني مبتهج ومسرور من الصبر الذي تفضل الرب فمنحه لي، أكثر مما لو أن العالم كله وضع تحت طاعتي».

افتراق الملكان

وبعدما تماشى الملكان مع بعضهما لسفر يوم، افترقا، وكانا —على كل حال— قبل افتراقهما، قد خرجا قليلاً عن الطريق، وعقدا محادثات سرية خاصة، وفق ظروف ودية، وقال الملك الفرنسي وهو يتنهد: «لو أن النظراء الاثني عشر لفرنسا من البارونات، قد وافقوا على رغباتي،

لكنا آنذاك صديقين لايمكن فصلهما عن بعضهما، هذا وإن خلافاتنا تعطى سبباً للسرور وللتجبر للرومان»، ثم إنهما بعدما تبادلا القبل، وتعانقا، افترقا، حيث عاد ملك فرنسا إلى أراضيه، ووجه ملك انكلترا مساره نحو بلاده، ولدى وصول هذا الأخير إلى شاطىء البحر، أرغم على الانتظار طويلاً ضد ارادته، من أجل ريح طيبة (لأن البحر والرياح لم يكونا مطيعين له)، وزار أثناء اقامته هناك كنيسة القديسة أوف بولون Boulogne, لمشاهدة الآثار المقدسة هناك، ومات في ذلك المكان بطرس تشيسبور Chacepore وكان من أصل بواتي، وكان محاسباً ومستشاراً أثيراً عند الملك، وخازناً للملكة، وقد أنهى حياته بموت سعيد.

اختصار لوقائع العام

كان هذا العام، خلاله كله خصباً بالفواكه والحبوب، ولذلك نزل سعر مكيال القمح إلى شلنين، ومثل ذلك الكمية نفسها من الشوفان، وبقية أنواع الحبوب والقطاني، حيث نزلت أسعارها لصالح الفقير ومنفعته، وبالنسبة للايطاليين، والفرنسيين، والفلمنكيين، كان هذا العام عام حرب وعدوان، وعام توجس في انكلترا، فقد اضطربت البلاد من منتصف الخريف حتى الربيع بالزوابع إلى درجة أنه حدث في بدفورد Bedford أن هلك أكثر من أربعين رجلاً مع عدد كبير جداً من المواشي.

كيف بقي الملك ينتظر ريحاً طيبة

عام ١٢٥٥ لتجسيد الرب، كان الملك في بولون، بعد عودته من غسكوني، ينتظر هبوب ريح طيبة لعبور القنال إلى انكلترا، ووافق هذا العام، العام التاسع والثلاثين لحكمه، وقد قام في الوقت نفسه، وفقاً لعادته التطوعية بزيارة الآثار المقدسة، التي كانت هناك كمية كبيرة منها

محفوظة في كنيسة القديسة مريم في بولون، ودفع الاحترام لها وتشريفها، وتولى هناك دفن جسد محاسبه الأثير، بطرس تشيسبور بشكل محترم، وأمر بإقامة قداس دفن مهيب له، وكان بطرس هذا نفسه قد عمل وصية نبيلة، أشهد عليها، قبل ثلاثة أيام من عيد الميلاد، وكان بين ما أوصى به (بين منح أخرى، اعطاء ستمائة مارك، لشراء أرض في انكلترا، حيث من الأسهل الشراء، وبناء كنيسة عليها، لصالح طائفة رهبانية، تتألف من كهنة نظاميين يجري اختيارهم من دير ميرتون Merton, وذلك في سبيل عبادة الرب بشكل لائق وصحيح إلى الأبد، وأن يجري يومياً تقديم أضحيات للرب من أجل روحه، ومن أجل أرواح جميع المسيحيين، وقد غادر هذه الحياة عشية عيد ميلاد الرب، ووقع يوم الميلاد في هذا العام في اليوم السادس من الأسبوع، وقد أكل بعض الأشخاص لحماً صدوراً عن الاحترام للمسيح، وكان ذلك بسبب أن كلمة «أصبح جسداً»، جرى التفوه بها في ذلك اليوم، بمثابة ضياء للعالم، وبناء على ذلك، قد يصرخ أحدهم باعجاب قائلاً: «آه، لقد منحت الكرامة إلى الجسد».

عودة الملك إلى إنكلترا

وفي يوم الأحد الذي جاء بعد ذلك مباشرة، صار البحر والريح صالحين، فكان أن أقلع الملك، وبعد رحلة ناجحة وصل إلى دوفر، ولدى وصوله إلى ذلك المكان استقبل بسرور من قبل أخيه الايرل رتشارد ومن قبل النبلاء الآخرين، الذين جاءوا من مسافة بعيدة، لأنهم استدعيوا لهذه الغاية قبل بعض الوقت، وكانوا ينتظرون على الساحل الانكليزي بقلق كبير، ولدى وصوله، قاموا على الفور بتقديم هدايا ثمينة له، ومثلهم فعل الأساقفة أيضاً، ولاسيما رؤساء الرهبان ورعاة الديرة، لأنه كان من الضروري بالنسبة إليهم أن يدفعوا، وأن يفعلوا ذلك، لأنه عمل مطالب ملكية مستعجلة، مثل رجل كان جائعاً إلى الطعام، ولذلك قدموا إليه

أفضل الاختيارات، وهدايا ثمينة من الذهب والفضة، وأشياء أخرى يمكن أن تأسر النظر، وتعجب المتطلع إليها، وكان بإمكان الملك بهذه الهدايا جمع مبلغ كبير من المال، لكن ذلك كله لم يكن كافياً لدفع جميع ديونه التي تعاقد عليها، ولاحتى لو جرت مضاعفتها مائة مرة، لأنه قد قيل بأن ديونه كانت أكثر من ثلاثمائة ألف مارك.

تعيين هنري وينغهام حافظاً للختم الملكي

وحوالي الوقت نفسه، كان الملك قد صادق على انتخاب المعلم وليم كيلكني، الذي كان يشغل وظيفة حافظ الختم الملكي مع الثقة، وعهد بالحفاظ عليه نفسه إلى المعلم هنري أوف وينغهام Wengham الذي كان محاسباً أثيراً لديه ومستشاراً، وكان يثق باخلاصه كثيراً.

رفض الملك هدية سكان لندن

وعندما تأكد سكان لندن من وصول الملك استقبلوه بسرور، وكانوا أثناء غيابه قد قدموا صدقات وافرة، وقدموا صلوات مستمرة من أجل سلامته وازدهاره أثناء وجوده في القارة، وكانوا يرغبون بحرارة بعودته إلى انكلترا، وبعدما استقبلوه، قدموا إليه هدية مقدارها مائة باوند، ولأن هذه التقدمة جرى من قبل تكرارها مراراً، فقد عدّها الملك بأنها أصبحت عادة، ولذلك نظر إليها على أساس أنها ليست هدية تهنئة، بل بالحري دفعة لما هو مستحق، ولذلك لم يمدح اخلاص السكان ولا هديتهم، ولم يرد عليهم حتى بشكر فارغ، ولأنه عرض للنقد من قبل واحد من الذين كانوا واقفين هناك لجحوده، أجاب قائلاً: «إنني لم أقدم الشكر لسكان لندن لأنهم أحضروا إليّ ماهو حق متوجب لي، وقد سدّدوا إليّ ديناً، لكن يتوجب عليهم أن يقدموا إليّ هدية فخمة بمثابة تهنئة، ولتكن هدية مشرفة ووقتها سوف أقدم إليهم الشكر بشكل منطقي».

سعي سكان لندن إلى إرضاء الملك بهدية أخرى

وعندما جرى اخبار سكان لندن بهذا، قاموا رغبة منهم بإرضاء الملك وتلبية رغبته، فاشتروا بمبلغ مائتي باوند كأساً ثميناً جداً بديع الصنعة والمادة، صدف أن كان معروضاً آنذاك للبيع في لندن، وقدموه مع احترام لائق إلى الملك بمثابة هدية امتنان وعاطفة، ووقتها قدم إليهم الشكر حقيقة، لكن ليس بقدر قيمة الهدية الجميلة، وقد تسلم الهدية، لكن —على كل حال— ليس مع نظرة راضية ومسرورة.

كيف طالب الملك لسبب سكان لندن بدفع ثلاثة آلاف مارك

وبعد مرور عدة أيام، حدث أن هرب من السجن واحداً من الكهنة، قيل وفقاً لأحد التقارير كان متهماً بجريمة قتل، وكان قد وضع في السجن في لندن، ونتيجة لذلك فرض الملك إجراءات حادة ضد سكان لندن، وطالبهم (مع أن السبب كان خفيفاً وتافهاً) بدفع مبلغ ثلاثة آلاف مارك تحت عنوان ضريبة وعقوبة، لأنهم لم يحرسوا سجنهم بعناية أكبر، وكان الهارب واحداً من رجال الأدب، قد اتهم بقتل رئيس رهبان من طائفة الرهبان السود في القارة، وقد سجن في لندن في نيوغيت Newgate، وكان رئيس الرهبان المقتول قد ادعى أنه من أقرباء الملكة، لذلك غضبت من فرار القاتل، وأصرت على الانتقام، واشتكت إلى الملك، وفرّ الهارب من السجن والتجأ إلى اخوانه من طائفة الفرنسيسكان الذين فتحوا صدر الرحمة إليه، واستقبلوه فيما بينهم، وحلقوا شعره، ومنحوه الرداء الرسمي لطائفتهم الرهبانية، وبناء عليه أصبح السكان غاضبين، وأنزلوا غضبهم بالرهبان، وألحقوا بهم أضراراً بالغة، لأنهم آووا الهارب، وعندما استدعيوا بعد ذلك من قبل الملك، حول هذه القضية، أجابوه مع خوف عظيم، بأنه هو نفسه قد سلم السجين إلى أسقف لندن، الذي طالب به، بحكم أنه كان كاهناً محترفاً ومكرساً، وبما أن الأسقف لم يكن لديه مكان موائم للسجن، فقد

رجـاهـم بالسماح له باستخـدام سجـن نيـوغيت، لأنه سجـن قـوي ومضمون، يمكن فيـه إبقاء السجين آمناً حتى يمكن محاكمتـه، والتوصل إلى قرار حـول ماينبغي أن يعمل معه، وقـد قام السكان من باب اللياقة والأدب تجاه الأسقف فاستجـابوا لطلبه، وأن السجين قـام بالوقت نفسه بخـداع الحراس الذين عهـد إليهـم الأسقف بحـراسته، وبناء عليـه إن الملامـة والمسـؤولية عن نجـاته ينبغي عـدم إلصـاقهـا بالسكان، ولذلك التمسـوا من الملك بتـواضع أن يكـون رحيماً فيخفف من غضبـه، الذي أنزله بهم من دون تقـدير صحيح ومن دون إثارة، وأن يتـذكر اخـلاص السكان ومشـاعرهم الطيبـة نحـوه، وأن لاينسى أيضاً امتيـازات المدينة، التي كان ملتـزماً بالحفـاظ عليها، وعـدم خرقها، بوسـاطة أيمان مكررة، وبصكوك حريات، وقرارات قضت بعقوبة الحرمان الكنسي لغير الملتزم، وتجاه هذا ازداد غضب الملك، وأصبح أكثر حدة، وأقسم يميناً رهيباً بأنه سـوف يستخـرج ذلك القـدر، أو أكثـر من سكان لندن، الذين دعـاهـم باسم عبيد، لابل قام بأكثر من هذا، فأمر باعتقال بعضهم وسجنهم.

موت آرنولد دو بوي

وفي اليوم السادس من شبـاط لهذا العام، مات النبيل آرنولد دو بوي Bois, وكـان من أعلى المسـؤولين عن الغـابات في انكلترا، وكـان رجلاً شجاعاً في الحرب، وفصيحاً بالخطاب، ومتحلياً بأفضل الصفات، وقـد دفن في دير لطـائفـة السسترشيـان في بيكليسـدن Becclesden أمام المذبح العالي.

كيف جرى تجريد اليهود من أموالهم

وعندما اقترب حلول موعـد الصيام الكبير، طالب الملك بإلحاح كبير وبسرعة عظيمة بأن يدفع له اليهـود الذين سلف له افقارهم، على الفور ثمانيـة آلاف مـارك، تحت طـائلة الشنق في حـال عـدم الـدفع، ولدى

مشاهدة اليهـود أنه ليس أمامهم سـوى الهلاك والدمار، وأن ذلك محيق بهم، قام اليهـود بالاجماع بالرد عليه وعلى طلبه بالعبارات التـالية: «أنت ترى يـاصـاحـب الجلالة أنك لم تـوفـر لامسيحيين ولايهود، بـل إنك جعلت شغلك الشـاغل بمختلف الحجج القيام بافقـار الجميع، ولم يبق أمل لنا التنفس بصورة حـرة، فقد حلّ مرابو البـابا محلنا، ولذلك اسمح لنا بالمغادرة مـن مملكتك بموجب أمان منك، ونحـن سوف نبحث عن مكان اقامة آخـر، من نوع من الأنواع»، وعندما أخبر الملك بهذا الكلام صرخ بلهجة مخاصمـة قائلاً: «ليس عجبـاً أنني أتولى جمع المال، لأنه أمر مرعب التفكير بالديون التي أنا متورط فيها، فبحق رأس الرب، إن هذه الديون تصل إلى مبلغ مائتي ألف مارك، لابل إنني عندما أقول ثلاثمائة، لاأتجاوز حدود الصـدق، فلقد خدعت من كـل جانب، وأنا ملك أبتر وناقص متـلاشي، لابل أنا بالحقيقـة، الآن مسحـوق إلى قطع صغيرة، لأنني عند قيـامي بحساب دقيق للمـوارد والنفقات، وجـدت أن مورد ابني ادوارد يصل إلى أكثر من خمسة عشر ألف مارك، ولذلك أنا مضطر تحت ضغط الحاجـة، إلى العيش على المال الذي تـمّ الحصـول عليـه من جميع الجهـات، ومن أي واحد من الناس، وبأية طريقـة من الطرق مهما كـانت ويمكنني بها الحصـول على المال»، وهكذا أصبح تيتـوس آخـر أوفسبسيـان، حيث باع اليهود لبضـع سنوات إلى أخيه الايرل رتشـارد، وذلك حتى يتمكن الايرل من تجويف أولئك الذين كان الملك قد سلخ جلودهم من قبل، وقـام الايـرل على كل حـال، بتـوفيرهم، تقـديراً منه لتناقص قدرتهم، ولفقرهم المدقع.

كيف أقرض الإيرل رتشارد الملك مبلغاً كبيراً من المال

وقام الايرل رتشـارد، بناء على طلب ملح من أخيه، وعلى تقـدير منه لحاجتـه القصوى للمال، فأقـرضه مبلغـاً كبيراً من المال، وتسلم على كل حال ضمانة له من الذهب.

حول التساقط المستمر للأمطار الغزيرة

وحدث في هذا العام منذ عيد القديس فالنتاين، ولمدة شهر تلاه، أن الريح هبت بعنف، وقد ترافقت بتساقط أمطار غزيرة في كل من النهار والليل، مسببة هياجاً وفيضاناً ليس فقط على الأرض، ولكن أيضاً على البحر.

حول تنين بحر مدهش

وقذف البحر في الوقت نفسه في المناطق العائدة لأسقفية نورويك تنيناً بحرياً هائل الحجم، حيث أنه أزعج بوساطة الهيجان العنيف للأمواج، وقد قتل —كما هو معتقد— من الضربات والجراحات التي تلقاها، وكان هذا التنين أكبر من حوت، ولم يعدّ من أنواع الحيتان، وقد أغنى جسده جميع المنطقة المجاورة.

حول فيل في إنكلترا

وجرى في هذا الوقت نفسه أيضاً، ارسال فيل إلى انكلترا، من قبل الملك الفرنسي، بمثابة هدية إلى ملك انكلترا، ونحن نعتقد بأن هذا كان الفيل الوحيد، الذي شوهد قط في انكلترا، لابل حتى في البلدان الواقعة على هذا الجانب من الألب، وبناء عليه تدفق الناس مع بعضهم، وتجمعوا لرؤية هذا المشهد الجديد، وأعطت مرغريت ملكة فرنسا إلى ملك انكلترا طاووساً، أو أن تقول حوض تغسيل عجيب، كان على شكل طاووس، وقد رصع بحجارة ثمينة، تعرف بشكل عام باسم اللؤلؤ، وبالاضافة إلى هذا وجدت تزيينات أخرى عملت بشكل فني على جسد الطائر، بالذهب والفضة والزفير أيضاً، في سبيل أن يشبه طاووساً حقيقياً عندما يمد ذنبه على شكل دائرة، وكانت الجواهر المستخدمة فيه ثمينة وكثيرة، وكانت جديدة، وكان العمل رائعاً، إلى حد أنه أوجد العجب في عيون الذين شاهدوه.

كيف ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان

وفي التاسع من آذار في هذا العام، وعندما كان ادوارد ابن الملك مايزال في غسكوني، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، ومكث هناك ستة أيام، وخلال ذلك الوقت صلى ليلاً ونهاراً بخشوع وتقوى، والشموع مضاءة، وجاءت صلواته إلى القديس ألبان، بحكم كونه مقدم شهداء المملكة، وجاءت صلواته عن نفسه، وعن ابنه ادوارد، وعن آخرين من أصدقائه، وعمل أيضاً تقديمات للرب، وللشهيد المبارك، كانت عبارة عن ردائين ثمينين، مما ندعوه نحن باسم Baudkins, وكأسي قربان جميلين مزينين بالذهب، ويتوجب التبيان، أن ما من واحد من ملوك انكلترا، حتى الملك أوفا نفسه Offa, مؤسس دير القديس ألبان، ولا أي واحد من أسلافه، لابل ليسوا معاً مجتمعين، قد قدموا مثل الذي قدمه هنري الثالث ملك انكلترا، وأعطاه لوحده من الطيلسانات لتزيين جدران تلك الكنيسة، فهذا مثبت في داخل كتاب صغير في الكنيسة نفسها، حيث فيه رواية وافية حول الطيلسانات المعطاة، والخواتم، والجواهر الثمينة.

مقتل أحد الفرسان من أجل ميراثه

خلال أسبوع الآلام من هذا العام، تسبب واحد اسمه وليم، وكان ابناً حقيراً وشريراً لفارس، بمقتل والده، حتى يحصل على ميراثه في الحال، وبعد ادانته بالجريمة، سحب إلى المشانق في لندن، وشنق، وبالنظر لبشاعة جريمته، ولأنه تجرأ على اقتراف جريمة قتل أبيه في أسبوع الآلام، لم يسمح لجسده بالدفن، ولم يشفق عليه من قبل أحد من الناس، فترك ليجري التهامه من قبل الكلاب والطيور الجارحة، كما أنه لم يحصل على طقوس الدفن المسيحية، وكان اسم الفارس المقتول جون، وكنيته دي سيلدفورد Seldeford, وكان عائداً إلى امتياز كنيسة القديس ألبان، وهذا يوضح القول المفرح للشاعر، عندما تكلم عن

الذين يعتنـون، ويهتمـون، ويغنون ورثتهم مثلهـم أنفسهم، أو بالحري أكثر من أنفسهم، وهو الذي قـال: «إن الذي من أجل وريثه يحرم نفسه ويضيق عليهـا هو شبيه بالأحمق وقـريب له»، وكـان قد جـرى مع قتل الفارس جون المتقدم ذكره، كاهن نظامي كان قسيسه.

حول المعجزات التي عملت عند قبر القديس روبرت في لنكولن

وحـدث في هذا الوقـت نفسـه أيضـاً، أن عـدداً كبيراً من مختلف المعجزات المؤكـدة يقينياً والواضحة قـد عملت في كنيسة لنكولن، وكأن المعترفين القـديمين المقـدسين، الأسقفين: ريميغـوس Remigius وهوغ، كانا مبتهجين مع القديس روبرت، الذي غادر مؤخراً إلى الرب، وقد تبـاروا بين بعضهم بعضاً في اضفاء إحسـانهم على المسيحيين، وكان من بين كثير من المعجـزات، التي هي كثيرة جـداً لايمكـن ذكـرها، وعـددها عظيم إلى حـد لايمكن فيـه كتـابتهـا، هناك عشرين معجـزة واضحـة، قـد جرى فحصهن بكل دقـة أمـام أشخـاص مـوثقين ولهم نفوذهـم في الهيئة الكهنوتيـة لكنيسة لنكولن، (لأننا نعلم أن زيف هؤلاء في مناصبهم مكروه مـن قبل الرب)، وإن شهـاداتك وبراهينك، آه أيها الرب هي مـوثوقـة بالحقيقـة، وبات من المؤكـد أنه حـدث لواحـد من الناس، واحد جدير بالثقة مشاهدة رؤيا في الليل (ليست مجرد إبداع من الخيال) أثناء حيـاة أسقف لنكولن المذكور، وذلك قبل أربع سنوات من وفاته، فقد بـدا له أنه سمع صوتاً يقول بوضوح وتمييـز الكلمات التالية: «أحب الرب ادمـوند في طيـب رائحـة لطفـه، وأحب الرب روبرت في طيب رائحة إيمانه»، وقد سمح له بمعرفة هذا بالروح، حتى يتمكن من فهم أن هذه الكلمات قـد قيلت فيما يتعلق بالأسقفين المباركين: ادمـوند المعترف، وروبرت.

رؤيا البابا الاسكندر

أخبرنا في الصوم الكبير من هذا العام بأمر حقيقي، هو أن مناماً شوهد من قبل البابا الاسكندر، عندما كان مستلقياً في نوع عميق، وكان ذلك في إحدى الليالي بعد متاعب النهار، فقد ظهر له أنه أخذ إلى قصر كبير وواسع في الأسفل، قد جلس في مكان مرتفع رجل صاحب سلطة ومنظر مهيب، وكذلك امرأة ذات مظهر محترم وسيماء مبجلة، مع عدد كبير من الخدم والأتباع من حولهم من كل جانب، وفجأة جلب إلى أمامهما نوع من أنواع النعوش، محمولاً من قبل حملة ذوي منظر قبيح، حيث ألقوا نظرة ازدراء على الجثة، ثم قامت الجثة وسجدت بنفسها أمام الذي جلس على المقعد المرتفع، الذي كان يشبه مقعداً من مقاعد الحكم، وقال بصوت منتحب: «أيها الرب الأعظم قدرة والأعلى تقوى، كن رحيماً بي»، وفي رد على هذا الدعاء، بقي القاضي صامتاً، لكن المرأة قالت: «إن زمن التوبة والرحمة قد مضى، وقد حلّ الآن الوقت للحكم عليك، إن دعواتك جاءت في غير وقتها وغير موائمة، الويل لك، لأنك سوف لن تجد رحمة، والحكم عليك هو ماتستحقه، فلقد قمت أثناء حياتك بازعاج كنيسة الرب، فما أن أصبحت رجلاً بجسد، حتى ازدريت المراسيم المقدسة، وألغيتها وجعلتها غير نافذة، وفعلت الشيء نفسه بالنسبة للمنافع التي جرى الانعام بها من قبل أسلافك المقدسين، الأمر الذي ألحق الأذى بهم، ولذلك جرى الحكم على أعمالك بالإلغاء والمحق»، ولدى الفراغ من هذا الكلام نظر الذي جلس قاضياً نظرة حادة، وبدا عليه الغضب، وتكلم بصوت مرعب، وقال للحاملين للنعش: «إنني بعد بعض الوقت، سوف أحكم عليه وفقاً لقوانين العدالة، لقد انتهى وقته، ووقت الحكم عليه قد حلّ بالنسبة له» وأضاف القاضي يقول: «اذهب وتسلم جزاء وفاقاً، تبعاً لأعمالك»، وما أن تفوه بهذا الحكم، حتى

جرى حمله بعيداً، وابعـاده من حضرة القاضي إلى مكان غير متفق عليه ومقرر بالنسبة لنا، إنما كما هو متوجب أن نعتقد تقوياً، ربما جرى حمله إلى المطهرة، وعندما قـام البابا الاسكندر، الذي إليه أبيحت هذه الرؤيا (سواء أكـانت حقيقية أم إبداع من الخيال) بالسـؤال بصوت منخفض ومرتجف، وتوجـه بالسؤال إلى دليله: من كـان ذلك المخلوق التعيس؟ أجيب: «إنه البابا انوسنت الذي مـات مؤخراً، والذي كـان يعرف من قبل باسم سينبـولد، الذي غـادر هذه الحياة متـلاشيـاً من الحزن، ليس على ذنوبه، بل بسبب هـزيمـة جيشـه وتدميره»، وبعـدمـا سمع البـابا الاسكندر هذا كله (وهو الذي كـان الخليفـة المباشر لأنوسنت المتقـدم الذكر) أفـاق من نومه (إذا كان من الممكن تسمية الذي كـان به نوماً) في رعب كبير وخـوف، وأصبح وكأنه قـد حـرم من عقله ومـداركـه، واحتاج إلى عـدة أيام حتى استرد صحته وعـاد إلى عافيتـه، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أمـر هذا البابا التقي بتقديم صدقات، وإقامـة قداسات لصالح انـوسنت المتوفى، وألغى بعض قراراتـه، في سبيل الحصول على تلطيف لعقوبته، وكان إذا عرض عليه أي واحد هدايا ثمينة للحصول على أية كنيسة قد رغب بها، كان البـابا الاسكندر يجيبه: «لاياأخانا، إن بائع الكنائس ميت»، وأيضـاً من ذلك الوقت طلب مـن الأساقفـة أن يتفضلوا عليه بالـدعاء له، وقد كتب إلى كثير منهم كما ذكـرنا من قبل، وإنه —على كل حال— من المعتقد، أنه لو لم يجر انذاره، وتقويمه بهذه الرؤيا، لكان عـرضـة لمواجهـة حسـاب أشـد أمـام الرب، لكن الرب اختـار أن يعمل هذه الرؤيا له —كما هو معتقـد— لإنذاره ولتقويمـه، ولتكون مـؤشراً على عواطفـه الأبوية، وأصدر البـابا أيضاً، على الفـور مـرسومـاً قضى بأن أي كاهن يعتقل من أجل جـريمة تتطلب عقـوبة جسـدية ينبغي تجريده من الامتيـازات اللاهوتيـة، إذا لم يكن تحت أية روادع كهنوتية وقانونية.

حول الرغبة العامة لعقد تحالف مع ملك إنكلترا

ورغب في هذه الآونة نفسها وليم صاحب هولاندا بأن يملأ صناديق ماله —مثلما فعل آخرون كثر— بالمال، الذي كان الهدف الرئيسي لرغباته، فأرسل مبعوثين خاصين إلى ملك انكلترا، يرجوه عقد تحالف معه، بسبب قرابتهما، وجاء في الوقت نفسه أيضاً جون أوف أفسني Avesnes من فلاندرز مسرعاً، مع التماس ملح جداً إلى الملك ليساعده في حربه، وأعلن الملك على كل حال بأنه كان مشغولاً بمشاغل صعبة تتعلق بمملكتي صقلية وأبوليا، ولايريد أن يبتعد بتفكيره بالتركيز على عدة قضايا في آن واحد، ولكن عندما يفرغ من القضية الأولى أولاً، وقتها سوف ينصرف إلى قضية أخرى فأخرى حسب الترتيب، وبذلك يصل بهم إلى نهاية مفيدة.

حول البارلمان العظيم الذي عقد في لندن

في أسبوعي عيد الفصح، اللذان يعرفان بشكل عام باسم Hokeday, اجتمع جميع نبلاء انكلترا، ورجال اللاهوت وكذلك العلمانيون، في لندن، ولم يكن قط من قبل مثل هذا الحشد الكبير، ولم يشاهد مثله يجتمع مع بعضه هناك، وفي هذا الاجتماع (حتى نختصر الكثير بعدة كلمات) اشتكى الملك من أنه متورط في كثير من الديون، ولايمكنه تخليص نفسه من دون مساعدة فعالة من نبلائه، وبناء عليه طلب بعنف وإلحاح، مساعدة مالية، مقترحاً بأنه يرغب باستلام الجزء الكامل من العشور، الذي جرى منحه من قبل من البارونات لمساعدته، وأنه ملتزم بتقديم شكر كامل وموائم مقابل ذلك، وكان من الواضح أن هذا الإجراء سوف يكون مدمراً للمملكة، لأنها عندما تجرد من أموالها سوف تكون مهجورة وعرضة لكل من يرغب بالاستيلاء عليها وتملكها، وبما أن هذا التصرف لايمكن تحمله بأي شكل من الأشكال، قام المجتمعون بالتشاور فيما

بينهم، وقرروا بين بعضهم، بأنهم سوف يأخذون على أنفسهم القيام بحمل عبء عظيم، وهو الالتزام من ذلك الوقت فصاعداً، ومن دون أية اعتراضات تافهة، بالصك العظيم، الذي غالباً ماوعد بالالتزام به وأقسم على ذلك، وربط نفسه بأن يفعل وينفذ، وأقسم بروحه بطريقة هي الأكثر قانونية، وعلاوة على ذلك، طلبوا الاذن، في أن يختاروا لأنفسهم، بموجب الرأي العام للمملكة: رجل عدالة، وقاضي قضاة، وخازن، حسبما هي العادة من العهود الخالية، ولأن ذلك امتيازهم بشكل محق، وأنه لايجوز عزلهم من وظائفهم ما لم يكن ذلك لجرائم واضحة، وأن يعلن عن ذلك، إثر مداولات كافية وصحيحة، وبموافقة عامة من المملكة بشكل مطلق في مؤتمر معقود: لأنه يوجد في انكلترا كثيراً من الملوك الصغار، حتى بدا الحال وكأن العصور القديمة قد جرى تجديدها هناك، ولقد كان منظراً عاماً أن ترى الأسى منتشراً بين الناس، وفي الحقيقة لم يعرف الأساقفة والنبلاء كيف يضمنون بروتوس Proteus الخاص بهم، أي الملك، حتى لو عملوا كل هذه التنازلات، لأنه في أعماله كلها قد تجاوز حدود الصدق، وحيث لايوجد صدق لايمكن وضع اعتماد ثابت أو مؤكد، وبالاضافة إلى هذا، لقد سمع المجتمعون من حجاب الملك الخاصين، بأن الملك سوف لن يمنحهم بأي شكل من الأشكال مطالبهم فيما يتعلق بقضية رجل العدالة، أو قاضي القضاة، أو الخازن، ومجدداً كان الأساقفة مقهورين بالأسى، لأنهم أرغموا، بسبب حالة العبودية المطلقة، التي هبطت إليها الكنيسة، على دفع العشر، الذي وعدوا به فقط على أساس شروط معينة، وتمزق النبلاء حتى قلوبهم بسبب الاستخراج الذي سيحيق بهم، وتوصلوا أخيراً إلى قرار جماعي، بأن يبعثوا برسالة إلى الملك، باسم الجماعة كلها، بأنه يتوجب توقيف القضية كلها وتعليقها حتى عيد القديس ميكائيل، من أجل أن يروا ويتملكوا براهين على لطفه، وعلى اخلاصه وصدقه في الوقت نفسه،

وعلى ذلك إنـه إذا تمكن من نيل إرادتهم الطيبـــة، والقيـــام بمكـافأة صبرهم بالالتـزام بشروط الصك، الذي غالبـاً ما وعـد بذلك، وكثيراً جداً مـا حنث بوعوده، إنهم سوف يطيعون إرادته، بقـدر ما يمتلكون من قـدرة، وسوف يساعـدونه في أوقات حـاجته، ويقـال بأن الملك لم يقبل بهذه الشروط، وأظهـر بصمته أنه لم يوافق عليهم، وهكذا جـرى بعد مناقشـات طويلة وعقيمة، أن ارفض المؤتمر في حـالة من الانزعاج واليأس، وأصبح النبلاء الآن أخساء، وعادوا إلى ديارهم.

الأنواء غير الرحيمة أثناء انعقاد البرلمان

كانت الأنواء في هذه الأيام ليست في موسمها تماماً، فقد هبت الريح الشمالية التي هي عـدو كبير لبراعم الورود والأشجار، طوال الربيع كله تقـريباً، ولم يتـوفـر قط، ولاندى مـرطب، أو مـانح على الأقل شيئا من الانتعـاش إلى الأرض العطشى، ولذلك صـام النبـلاء يومـاً بعـد يوم، وكانوا يحركون الهواء من دون فائدة، وأصيب كثير منهم بمختلف أنواع الأمراض والأسقـام، وصار المناخ قـاسياً وغـدت الأجواء جـافة بسبب هبات الريح الشمالية الساخنة، وأيضاً بسبب الرياح الاستوائية، فأخذت شكلاً يشبه لون الليمون، وسببت الكثير من الأمراض.

وفاة وولتر دي غري رئيس أساقفة يورك

وكان وولتر دي غري Gray رئيس أساقفة يورك، مثل البقية، قـد ضغط عليـه بمختلف أنواع المنغصـات والاضطرابـات أثناء عقـد البارلمان المتقـدم ذكره، وقـد أصيب بمرض في مخه، من الصـوم اليومي، وفي سبيل استرداد صحته، بعـد المتاعب، والأعمال التي جـاءت بلاثمار، ذهب إلى فولهام Fulham, وهي عـزبة عائــدة إلى أسقف لندن، وجاء ذلك بناء على طلب الأسقف المذكـور، ولكن بحكم أنه قد أنهك بسبب تقدم السن، وكذلـك بسبب الأحزان، ومتاعب الأعمال الأخيرة،

قد فقد قابليته للأكل تماماً، فأصبح ضعيفاً جداً، فمات في اليوم الثالث لوصوله إلى فولهام، وجاء ذلك بعد تلقيه جميع القوانين المقدسة، التي تشكل جزئاً من واجبات المسيحي، وقد أدار بشكل صحيح كنيسته في يورك لحوالي الأربعين سنة (يعني أن تقول أنه كان هناك فقط ثلاثة أشهر وثلاثة أسابيع حتى تكتمل تلك المدة)، وكان بإمكانه أيضاً أن يحكم المملكة بشكل لايمكن انتقاده فيه، وقد غادر طريق الجسد كله في الأول من أيار.

كيف جرى حمل جسد رئيس الأساقفة المتقدم الذكر إلى يورك ودفن هناك

بعدما جرى فحص جسده بدقة، جرى حمله بكل تشريف إلى يورك، تحت اشراف وولتر أسقف درم الذي كان نائبه، وهو الذي قام بكل واجب إنساني واحترام، وبقدر ما أمكنه، وسير أمام جسد ذلك الأسقف العالي المقام تقديم الصدقات، وتأدية مأتم يومي، وأخيراً جرى وضع الجسد في القبر بتشريف لائق، في كنيسة يورك.

حول الجفاف الكبير

عمّ في هذا الصيف نفسه جفاف، بسبب استمرار الرياح الاستوائية، التي أوقفت تماماً أنداء الصباح، وخنقت أنداء المساء، واستمرت من منتصف أيار حتى الأول من حزيران، وأصبح بإمكان الإنسان رؤية سنابل القمح مرمية في الرمل كلياً، وليست مائلة كما هو معتاد، لتزداد طولاً، ولإعطاء المزيد، وحدث أخيراً على كل حال، بفضل الذي بلطفه ينزل المطر على المستقيم وغير المستقيم، والأرض بجذورها شبه الميتة، فانتشعت البذور بأمطار موسمية وفيرة، وبالأنداء، وهكذا كان بنعمة من الرب أن تحول الجفاف إلى انتعاش إحياء، وعادت جميع الأماكن إلى الحياة، وقدمت وعداً بوفرة من الفواكه والحبوب.

المعجزات التي عملت في كنيستي لنكولن وشيكستر

وفي حوالي الوقت نفسه، أصبحت كنيستا: لنكولن وشيكستر مشهورتين بوساطة المعجزات التي عملت هناك لتمجيد الرب، ولتمجيد الحبرين: روبرت، ورتشارد، وقد أشعت في كنيسة لنكولن عشرون معجزة كبرهان، لأنها فحصت، وذلك دون الحديث عن المعجزات الأخرى التي لايمكن تعدادها، وحدث في شيكستر العدد نفسه، أو أكثر، وعملت واضحة، وقد أضيف كل يوم إلى عددهم، وكل واحد يرغب أن يرى رواية حول المعجزات التي جرى فحصها، يمكنه أن يعثر على كتابات تتعلق بهم في كنيسة القديس ألبان.

حول تعيين رئيس شمامسة لنكولن محل وليم وولف

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، أرسل المعلم هوغ مورتايمر Mortimer, الذي كان مسؤولاً عن دير كانتربري، أوامر إلى الهيئة الكهنوتية في لنكولن، لإلغاء انتخاب وليم وولف، الذي جرى تعيينه مؤخراً رئيساً لشمامسة لنكولن، وأن يقوموا بتعيين واحد آخر محله من دون تأخير، وإذا لم يحدث هذا، فإن المعلم هوغ سوف يقوم بموجب السلطات الرسولية، وبموجب سلطات سيده رئيس أساقفة كانتربري، وسلطاته شخصياً، بمعاقبة الكهنة النظاميين لعدم الطاعة، وقام الكهنة النظاميون، طاعة منهم لهذه الأوامر، فانتخبوا رئيس شمامسة جديد، ووقف المعلم وليم وصمد بشجاعة من أجل حرية الكنيسة وامتيازها، وتحمل هذا كله بصبر، وهرب للجوء إلى صدر الرحمة لدى البابا، الذي هو بالعادة مفتوح للمتضررين.

حول تحطيم جيش البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، سار البابا الاسكندر على خطى سلفه انوسنت في متابعة الأعمال المتعلقة بمملكة صقلية وأبوليا، فكان أن

أرسل الكاردينال أوكتافيان مع جيش كبير، مؤلف من ستين ألف رجل مسلح، لتدمير مدينة نوسيرا تدميراً نهائياً، مع مانفرد الذي كان متخفياً هناك، وأيضاً لتدمير جميع سكانها، وكان يوجد في المدينة أكثر من ستين ألفاً من المسلمين، كان الامبراطور فردريك قد حشدهم من أجل تعريضهم لمخاطر تقلبات الحرب، ولهم أعطى تلك المدينة مكاناً للإقامة، وفتحت هذه المدينة صد راللجوء لمانفرد ولبعض الآخرين من شيعة فردريك.

وبناء عليه رتب أوكتافيان قواته ونظمها، بمساعدة مركيز بارع ومحب للحرب (على نصيحته ومساعدته اعتمد الجيش البابوي كلية) ورعى هو والبابا آمالاً كبيرة بأنها سوف يحصلان على غايتهما،ولكن عندما صار هذا الجيش الذي لايقهر كما اعتقد على بعد أميال قليلة من المدينة، استولى رعب مفاجىء وخوف على الطرفين، وبناء عليه لم يتجرأ سكان المدينة على الخروج ومهاجمة الغزاة، كما لم يتجرأ الغزاة على مهاجمة السكان أو المدينة، وهكذا أضاعوا لعدة أيام كثيرة وقتهم من دون فائدة، وكان الجيش البابوي كبيراً جداً ومرعباً، وكان يتلقى يومياً المدفوعات من صندوق مال ملك انكلترا، وكان يعيش وسط توقعات كبيرة، نتيجة لوعود البابا، فعلى هذه الصورة كانت أوامر وترتيبات البابا انوسنت، المتوفى أخيراً، وكل هذه الإجراءات شهدت القيام معه، وجرى تنفيذها من قبل الكرادلة، وبعد انتظار طويل، مكث فيه الطرفان من دون عمل، ذهب هذا المركيز الخائن، الذي كانت لديه كتلة كبيرة من الأتباع في الجيش، إلى أوكتافيان وقال له: «لماذا نحن يامولاي واقفون هكذا من دون عمل لهذه المدة الطويلة؟ إننا نقوم بتبديد مبلغ كبير من المال، لندع ثلث الجيش ينصرف، لأنه لامانفرد ولاجيشه سوف يتجرأ على الخروج من المدينة والقيام بهجوم، فهم محاصرون ومضيق عليهم، وقوة صغيرة سوف تكون كافية لإبقائهم من دون

حـركة وخـائفين»، ومجدداً بما أن سكان المدينة لم يقـوموا بالانقضـاض، فعل المركيـز الشيء نفسه فـأنقص تعداد جيش البـابا، إلى حـد أن الذي بقي منه بالكاد كان تعداده عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً من الجنود، ثم إنه قام في إحدى الليـالي، فركب فرساً سريعـاً وذهب إلى مدينة نوسيرا، وتوجه بنفسه بالخطاب إلى مانفرد قائـلاً: «ياصديقي العزيز، لقد أخذت انطبـاعاً، وفهمت بأنني قـد آذيتك، ومازلت جـاهزاً لفعل ذلك، وإنني أعجب كيف أنك أصغيت لمثل هـذه الأقـاويل الدنيئة، ولماذا صـدقتهم بأي حال من الأحوال، وسموك يعرف كيف قدمت الخدمات باخلاص إلى والدك في أيام المخاطر، أعني الامبراطـور فردريك، فكيف يمكن أن أعـذب ابـن مـولاي الحبيب، ووالدك المحترم؟ ولســوف تكتشف على الفور الولاء والاخلاص وهو ماشعـرت به منذ زمن طويل نحوك، لقد نقص الجيش البـابوي وتبـدد بوسـاطتـي، وبالكاد بقي منه عشرة آلاف رجل مقاتل مع أوكتافيان، ومن هؤلاء جزء كبير عائد إليّ، لاتتأخر، دع جميع المخلصين لك في المدينة يسلحون أنفسهم على الفـور، واللحاق بي عن قـرب، فإنك سـوف تتخلص من أوكتـافيـان ومن أتبـاعـه كما تراه مناسبـاً»، وبناء عليـه خرج مـانفـرد من المدينة منقضاً يحيـط به أتباعـه، وحمل جميع سكان المدينـة الســلاح، وباتـوا شـاكين الســلاح تمامــاً، واحتشـدوا في أعـداد مسـاوية لجيش كبير، واقتربوا من عسـاكـر البـابا بسرعة تماثل سرعـة عاصفـة من الريح، ولكن عندما كـانوا يعيشون مع أمل أسر جميع أعدائهم، مثل طيـور أمسكت في الشبكة، في ذلك الوقت بالذات جرى انذار أوكتـافيان من قبل بعض الأصدقاء، وجـرى اخباره بالذي كـان على وشك الحدوث، فقام بـالنجاة، لكن بصعـوبة، في حين تعــرض جيشـه للقتل أو الأسر أو التمــزيق، باستثنـاء أتبـاع المركيــز وأصحـابه، فهـؤلاء جرى تـوفيرهـم، وبعد هـذا الانتصار، بدأ مـانفـرد يزدهر يوماً بعد يوم، مما ألحق الاضطراب والأذى بالكنيسة، وفي الوقت نفسه عاش البابا وعاشت الكنيسة الرومانية كلها بحالة من الحزن، وقد

قهرا من الأسى والكارثة التي شعرا بها من الأخبـار، وخاصة بسبب أن الكنيسة قد وعدت بإعطاء مملكة صقلية وأبوليا إلى ملك انكلترا،لصالح ابنه ادموند، الذي إليه حول البابا خاتم الولاية، بوساطة أسقف بولون، وبسبب أن مستشاريه قد ألقوا بأموال انكلترا في حفرة عميقة، مما سبب دماراً لايمكنه جبره لتلك البلاد، وعمل الأسقف المذكور الذي كان قد عبر الجبال كل سرعـة للوصول إلى انكلترا، عالماً بأن عليـه إرضاء الملك وافراحه، ومن ثم استلام هدايا ثمينة، وكان جاهلاً تماماً بأخبار الكارثة التي تقدم ذكـرها أعلاه، وكـان متحمساً، مرتفع الآمـال ويشعر بسرور مزيف، وبفرح فارغ.

وهكذا تتسابق القدرة اللاهوتية مع الأشياء الإنسانية

مناجاة نحيب على ظلم البلاط الروماني

كم هو عظيم نحيبك، وكم هـو أعمى طمـوحك، آه، يابلاط رومـا، فبقدر ما أنت مقدس، أنت غالباً ماخدعت بآراء الأشرار، لماذا لاتضبط عنقك بلجـــام التعقـل؟ لماذا أنت لم تتعلم بالماضي وتنصلـح بكثير من المصائب؟ عجبـاً ألا تعلم أننا بخسارتك، نحن جميعـاً نعاقب، لأننا نتألم جميعـاً، ونشعر جميعـاً بالفضيحة العـامة وبالنقـد، لقد حـاولت الآن أن توجد امبراطورين في ألمانيا، بترقيتك الذي أنت مرغم على الانفاق عليه مبلغـاً كبيراً جـداً من المال، جـرى نهبـه من جميـع الاتجاهات، مع أن الطرفين لم يكونا متـأكـدين مـن ذلك المنصب الرفيع، وجــرى الآن في أبوليـا، تدمير الجيش البـــابوي مـرتين، بشكل مهين، الأولى تحت قيـادة الكاردينال وليم، والآن تحت قيـادة أو إمـــرة الكاردينال أوكتـافيـــان، ولذلك تعـرض جميع أبناء الكنيسة المسكونيـة للقهر بوسـاطة الخسائـر، وغطاهم العـار، وتقطعت قلوبهم بالأسى، ولكي نجمل الأمـور ببضع كلمات: إن الكنيسـة المسكونية التي من واجب البـلاط الروماني الدفـاع عنها، وحمايتها، تتشكى من أنها تأذت كثيراً في كثير من النقاط من قبله.

حول الإعلان المتعلق بمراعاة صك الامتيازات لإنكلترا

وجرى في هذه الآونة نفسها عمل إعلان في الكونتيات، وفي المجامع الكنسية، وفي الكنائس من أن الصك العظيم، الذي جرى منحه من قبل الملك جون، والذي قام الملك الحالي بتأكيده وتثبيت منحه مرات كثيرة، تتوجب مراعاته والالتزام به من دون خرق، وجرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي، بشكل مهيب ضد جميع الذين يقدمون على خرقه من الآن فصاعداً، وإلى هذا بقي الملك لايبدي اهتماماً بل قام بشكل غير إنساني بتبديد ممتلكات كنيسة يورك، وأيضاً غالباً ماقال: «لماذا لايقوم هؤلاء الأساقفة والنبلاء في مملكتي، بالالتزام بهذا الصك نحو رعاياهم، الأمر الذي عملوا حوله صراخاً كثيراً وشكاوى»؟ وعلى هذا تلقى الرد المنطقي التالي: «عليك ياصاحب الجلالة أن تضرب المثل في مراعاة يمينك، وبناء عليه سوف يقلدك الجميع ويحذون حذوك، لأنه كما قال الشاعر:

حيثما يوجه الأمير خطواته

يقوم الرعاع الضعفاء باتباعها»

حول الاتهامات التي عملت ضد روبرت روس وجون بالأويل

وعملت في هذه الآونة أيضاً اتهامات جدية ضد روبرت روس Ross, وجون بالأويل Baliol بأنهما عملا بلا اخلاص وبلا عدالة نحو مملكة سكوتلندا، وكذلك نحو كل من الملك والمملكة لتلك البلاد، حيث كانت الوصاية عليهما قد أسندت إليهما، وكان الملك في ذلك الوقت في نوتنغهام Nottingham في المقاطعات الشمالية لانكلترا.

كيف عمل رينالد باث الذي هو طبيب اتهاماً ضد السكوتلنديين

لقد كان هناك طبيب اسمه رينالد باث Reginald Bath, وكان بارعاً في فن الطبابة، وقد أرسل ليتولى رعاية الصحة الجسدية لملكة سكوتلندا، وذلك من قبل ملكة انكلترا، التي كانت قلقة إلى أبعد الحدود على سلامة ابنتها، وحسن أوضاعها، التي كانت ملكة سكوتلندا، وكذلك حول زوجها الملك الذي أحبته وكأنه ابن متبنى، وعندما وصل المعلم رينالد المذكور إلى قلعة دامسل Damsels, التي تعرف بشكل عام باسم أدنبره، أوضح سبب قدومه، وعرض رسائل من ملك وملكة انكلترا، فيها برهان حول الموضوع نفسه، وقد استقبل بلطف، ولدى تركه منفرداً مع الملكة، حسبما كانت العادة مع الطبيب، سأل عن سبب غيظها وشحوبها، لأنه وجدها حزينة، وقد ردت عليه قائلة: «إنه من الموائم كشف أسرار الجسد إلى الطبيب، مثلما يجري كشف أسرار القلب إلى الكاهن»، وعندما فهم المعلم رينالد أسباب اضطراباتها النفسية والجسدية، وجّه اللوم بشدة إلى خدمها والأوصياء عليها، وبعد كثير من الخصام والاتهامات المتبادلة واللوم، لابل حتى التهديدات، اتهم النبلاء والأوصياء على الملك، والملكة بالخيانة، وهدّدهم بالعقوبة بتهمة الخيانة، وبعد مضي عدة أيام أصيب هذا الطبيب رينالد بمرض مميت، وحمل إلى فراشه، وقد كان هناك بعض ذوي الظنون الشريرة، الذين قالوا بأنه تعرض للتسميم، وعندما رأى رينالد نفسه قد اقترب من عتبات الموت، كتب إلى الملك، وكذلك إلى الملكة، حيث ذكر بأنه قدم إلى سكوتلندا تحت طالع غير سعيد، لأنه شاهد بأن ابنتها تعامل بشكل غادر وغير إنساني، بين هؤلاء السكوتلنديين الذين لايستحقون، ولأنه أقدم على توجيه اللوم إليهم، أقدمت هذه المخلوقات الشمالية على دس السم له، وعندما تسلم الملك هذه المعلومات، غضب غضباً عظيماً، وفكر بعمق حول الانتقام لهذه

الجريمـة الكبيرة، وبعدمـا تقيأ هذا الطبيب سم عدم الوفـاق، الذي هو أصل شرور المستقبل، والأضرار التي لايمكن تعـويضهـا، لفظ روحـه التعيسة.

حول فقر بعض الكنائس في إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه لحق كنيسة كانتربري اضطراب عظيم، وظلم شديد، وقـد لحقها ذلك عن استحقـاق بوساطة إجـراءات أولادها، أي رهبان الكنيسة المذكـورة، لأنها على الرغم من احتلالها للمكان الأول في انكلترا، تولت رفـض النبـلاء والرجـال المستحقين من أهالي البـلاد، وقبلت أجنبياً ليكـون بمثابة الوصي عليها، وبناء عليـه، لم يكن من دون استحقاق، أن الذين تصرفوا على هذه الصورة قـد وقعوا في حالة الفقر، الفقـر الشـديد في الحقيقـة، إلى حـد أنهم تـورطوا في ديون وصلت إلى مـايزيد على أربعة آلاف مـارك، وعندمـا رأى الرهبان بأن الدمـار محيق فـوق كنيستهم، قـاموا حتى لايقعـوا في مهـاوي الاضطراب والارباك، فأعطوا ستـة من أفضل عـزبهم إلى واحـد اسمـه جـون دي غيتـدن Gatesden, وكـان فـارسـاً، وتخلوا عنهم وعهـدوا إليـه بهن، بأن يتـولاهن وفق شروط مفيدة له، لكنهـا مؤذية جـداً وظالمة لهم أنفسهم، وذلك إلى أن يتمكنوا من الخلاص من الديون، وفي الوقت نفسـه كانت رئاسـة رهبانية روكستر متورطة في ديون لانهاية لها، وبناء عليـه عهد بها إلى جـون نفسـه وإلى ممولين آخـرين، وألغى الرهبـان عـلاوات الطعـام واللبـاس العائـدة إليهم، وبالكاد احتفظوا لأنفسهم بضروريات الحيـاة، ومجدداً كانت رئاسة رهبانية القديسة سويثن Swithin في وينكستر مثقلة بخسائر لايمكن تعويضها، وقد ازدادت جراحاتها لأنها استحقت ذلك، ذلك أنها آثرت فضل الملك على الخوف المتـوجب من الرب، وقد اختارت راعياً كان تماماً غير موائم لإدارة مثل تلك الكنيسة المهمة، لأن الأسقف المنتخب أقحم واحداً وجعله رئيسـاً للرهبان، وفـرق الرهبان،

وقبل في الطائفة الرهبانية، بعض الجهلة، ومنح اللباس الرهباني إلى أشخاص لايصلحون لشيء، وأحلّهم محلّ الذين تولى طردهم، وكانوا رجالاً جديرين بالرفض وليس بالاختيار، وهو إجراء جاء لإلحاق العار بالديانة وبالحياة الرهبانية الصحيحة، وفي الحقيقة كان هناك ثلاثة عشر راهباً، كانوا لاشيء البتة، سوى مجرد ارتداء القلنسوة، وهل يتوجب عليّ ذكر فوضى واضطراب الكنيسة الديرية للقديسة مريم في يورك، والكنائس الفخمة الأخرى، أم الاكتفاء بإظهار أن غضب الرب قد ظهر نحو الناس، بسبب تراكم ذنوبهم؟

حول الخسوف غير الاعتيادي للقمر

ومجدداً في سبيل أن لاتختلف أحوال الأجساد السماوية عن أوضاع هؤلاء الذين هم بالأسفل، تعرض القمر إلى خسوف غير اعتيادي وكامل، في شهر حزيران، وكان ذلك في الليلة التي أعقبت عيد القديسة مرغريت، وبدأ الخسوف قبل ساعتين من منتصف الليل، واستمر لمدة أربع ساعات تقريباً.

وفاة وارن دي مونتشينسل

ومات في حوالي الوقت نفسه البارون النبيل وارن دي مونتشينسل Montchensil الذي كان الأكثر نبلاً وحكمة، أو على الأقل كان واحداً من الأكثر حكمة والأعظم نبلاً بين جميع نبلاء انكلترا، وكان وارن هذا نفسه محامياً غيوراً على السلام وعلى امتيازات المملكة، وعند موته ترنح أقوى أعمدة المملكة، وكان علاوة على ذلك متملكاً لمبلغ كبير من المال، وجرى تقدير ممتلكاته بأنها وصلت إلى مائتي ألف مارك وزيادة، وعهد الملك على الفور بالوصاية على وريثه وليم إلى وليم صاحب بلنسية، الذي كان أخوه لأمه، والذي كان قد تزوج من ابنة وارن المتقدم ذكره، ليصبح صهره، وبهذا، باللأسف أخذت نبالة انكلترا تتلاشى يومياً.

حول مرض جون الفرنسي

أصيب الآن جـون الفـرنسي، الذي كـان واحـداً مـن كهنة الملك ومستشـاراً رئيسيـاً لديه، بشلل لايمكن الشفـاء منـه، لكن هذا لم يدفع أحـداً إلى البكاء شفقة وحـزناً عليـه، بين رهبـان دير القديسـة مـريم في يورك وسيلباي Selby.

حول مغادرة جون دي غري للبلاط

وحـدث في هذا الـوقت نفسـه أيضـاً أن جـون دي غـري Gray, الذي كان فارساً ورجلاً معتدلاً ومستقيماً، وربما مهذباً قد تعلم الحكمة، حدث أنه انسحب من بين مستشاري الملك، ومن متاهة البلاط.

كيف ذهب الملك إلى سكوتلندا
حيث أثير لأن يفعل ذلك بشكاوي ابنته

وفي هذه الآونة صار الملك أكثـر فأكثر انزعاجاً، واشتـد ضيقه نتيجة الشكاوى اليوميـة لملكة سكوتلندا وخدمهـا وأتباعها، وبناء عليـه حشد جيشـاً ووجـه زحفه نحـو سكوتلندا، مع نيـة المطالبـة بتقـرير دقيق من روبرت روس وجون بالأويل، اللذان كانا فارسين، ورجلين صاحبا قوة كبيرة ونفوذ، لأنهما حسبما جـرى اخباره —كما قـال— بوساطة رسـائل سرية من أصـدقـائـه، تصرفـا بشكل معـاكس لوعـودهما، وحكما مملكة سكوتلندا بشكل غير صحيح، وأسـاءا معـاملة الملك والملكة، وعندمـا اقترب من سكوتلندا، بعث رتشارد ايرل أوف غلوستر، وجون مانسيل الذي كان محاسباً أثيراً ومستشـاراً، وجعلهما يسيران قبله ليكتشفا فيما إذا كان روبرت روس قد سـوغ بأعماله الشكاوي التي صدرت ضده، وفيما إذا كان قـد تجرأ على التمرد للدفـاع عن أخطائه، والجرائم التي عـزيت إليه، وعما إذا كـان ينوي العمل ضده، وبنـاء عليه، سار الايـرل وجون مقدمـاً، بناء على أوامر الملك، ترافقهما حراسة كبيرة ومنتخبـة، وقد علما

بأن ملك وملكة سكوتلندا كانا آنذاك مقيمان في قلعة دامسيل، لذلك توجها على الفور إلى هناك، دون التسبب بأي إثارة، وتركا أتباعهما مع أوامر باتباعهما من على بعد، ولذلك تمكنا من العبور بنفسيهما بمثابة فارسين متواضعين من حاشية روبرت دي روس، وبذلك خدعا البواب وبقية الحرس، وشقا طريقهما إلى داخل القلعة، وما لبث أن لحق بهما أتباعهما، وبذلك شكلوا قوة كبيرة، حتى إذا ما أراد الذين تركوا في القلعة لحراستها مقاتلتهما، لن يشعر هذان المتسللان بالخوف، ثم ذهبت ملكة السكوتلنديين إليهما بكل ثقة، وشكت إليهما بمرارة، بأنها أبقيت بشكل غير لائق تحت الحراسة، أو بالحري مسجونة في تلك القلعة، والمكان المعزول، الذي ليس فيه هواء صحي، ومحروم من مشاهد الحقول الخضراء، لأن القلعة كانت على مقربة من البحر، وأنه لم يكن مسموحاً لها بالسفر خلال مملكتها، أو امتلاك خدم خاصين بها، أو الاحتفاظ بشابات ليكن بمثابة وصيفات لقاعتها ليتولين خدمتها، كما أنه لم يسمح لزوجها بالاقتراب منها، أو التمتع بامتيازات الزوج، ولانعرف عما إذا كانت هناك قضايا أخرى مزعجة أضيفت إلى هذه الشكاوى، وحاول الايرل جون، وكان رجلاً فصيحاً ومستقيماً مهذباً أن يهدئها، وأن يوقف دموعها ونحيبها، وواساها بوعدها بأن عقوبات محددة، سوف يجري انزالها من أجل هذه الجرائم، وقام على الفور بترتيب الأمور لكي ينام ملك وملكة سكوتلندا معاً في فراش واحد، كزوج وزوجة، واستدعي روبرت دي روس للمثول بشكل خاص في محكمة بلاط انكلترا، لكي يجيب على الشكاوي التي عملت ضده، لكن لأنه كان خائفاً على نفسه، بقي بعض الوقت متوارياً، لكنه أصبح فيما بعد أكثر تواضعاً، فأطاع وذهب إلى هناك، وأصبح بعض النبلاء السكوتلنديين غاضبين فعلياً، لأن الايرل وجون، قد فعلا الذي فعلاه فجأة من دون معارضة من أي واحد، وتمكنا من الاستيلاء على قلعتهم، التي هي المدخل إلى أراضيهم، وشكلت نوعاً من أنواع الحواجز لحماية

مملكتهم كلها، وعـزموا على الانتقـام، فاقتربوا من القلعـة مع عدد كبير جداً من الأتباع، وأحاطوا بها، لكن عندما علموا بأن الملك والملكة كانا بخير، وأنه من الحماقة محاصرتهما انسحبوا، وهكذا جرى تسوية كل شيء بسـلام، ووعـد روبرت دي روس بناء على بعض الشروط بالقـدوم إلى محكمة بلاط الملك للاجابة على التهـم التي رفعت ضده، لكن الملك قام بناء على نصيحـة بعض الأصـدقاء الذين سـايروا حظه بالاستيـلاء على أراضيه، ووضعهم تحت وصاية دقيقة.

حول الخلاف بين جامعة باريس والرهبان الدومينيكان

وفي تلك اللآونة نفسها أيضاً نشب خلاف جاد بين جماعة الباحثين في باريس والرهبان الدومينيكان الذين كانوا يعيشون هناك، فقد أراد هؤلاء الرهبان، مراغمـة للعرف القديم المؤسس للمدينـة وللجامعة، ومن دون موافقة المدينة والجامعة، واستهـدفوا زيادة عدد المحاضرات في اللاهوت التي كانت حتى ذلك الحين محدودة، وتمكـن هؤلاء الرهبان الدومينيكان أخيراً من الحصـول على النتيجـة الأفضل من هذا النزاع، وذلك دون أن يعبأوا بالملـك الفـرنسي، وبسكان باريس الـذين سعــوا للحفــاظ على امتيـازات الجامعـة، وذلك لأن هؤلاء الرهبــان كـانوا مكرسين أنفسهم للبابا، ولأنهم قدموا كثيراً من أنواع الخدمـات لبلاط روما، لذلك تمتعوا بحظوة كاملة في أعين هذا البـلاط، وبناء عليه أعطى البابا قـراره لصالح الرهبـــان الـدومينيكان والرهبـــان الآخـــرين، في أن يتملكـوا الحرية للمحاضرة في اللاهوت، من دون التقيد بأعداد المحاضرات، التي كانت حتى الآن منذ زمن طويل مضى، محصورة بعدد مقيد.

كيف عمل جون بالأويل سلاماً مع الملك بدفع مبلغ من المال

وفي هذه الآونة نفسهـا أيضاً كـان جون بالأويل، الذي كـان فارسـاً ورجلاً غنيـاً، (والذي كان والده رجـلاً شجاعـاً في الحرب، وقدم كثيراً

من الخدمات للملك جون، وغالباً ماقـدم المساعدة إليه في أوقات الريبة والمصاعب) متهماً مثـل روبرت بجرائم ثقيلة، ولقد تمكـن ببراعة ودهاء من صنع سلام مـع الملك، بتزويده في وقت حاجتـه بالمال، الذي امتلك منه كثيراً.

عودة الملك من سكوتلندا

أمـا وقـد فـرغ الملك من ترتيب كل شيء بسـلام وذلك بما يرضيـه، وبعدما تمتع هو وملكته بأحاديث كافية مع ملك وملكة سكوتلندا، بادر ملك انكلترا بالعودة مسرعاً إلى الأجـزاء الجنوبية من انكلترا، وزار على الطريق الديرة ورئاسـات الرهبانيات، وعهد بنفسـه لصلوات الأساقفة، وأغنى في الوقت نفسه، ذاته بأموالهم.

كيف استولى الملك على بعض المال الذي كان مودعاً في درم

وعندما وصل الملك إلى درم، دخـل إلى الكنيسة، وصلى لوقت قصير عند ضريح الأسقف المبـارك، والمعترف المجيـد كـوثبيرت Cuthbert, وهناك علم مما ذكـره له أحد المخبريـن، بأنه كان هناك مبلغـاً كبيراً من المال مودعـاً في الكنيسة، وهو عائـد إلى الأسقف نيقولا، أسقف إيلاي، ولبعض الكهنـة، الذيـن صـــدوراً عن احترامهـم وثقتهم بـالأسقف كوثبيرت وبكنيسته، قد أودعوا ثروتهم هناك، تحت رعاية رئيس الرهبان والمجمع الرهباني، وبناء عليـه أمر الملك وكـلاءه اللصوص، على الرغم من معارضة الرهبان ومن عدم طلب الموافقة من أصحاب المال، أمرهـم بشق طـريقهم بالقـــوة، وبكسر جميع الأغـــلاق والأختـــام، ومـن ثم الاستيلاء على أي مال سوف يجدونه في الخزائن، وفي الصناديق، عاداً أن المال لم يصادر ولم يتم الاستيلاء عليه بالقوة، بل أسلف إليه، وهكذا هو لم يخف من خـرق سـلام الكنيســة، كنيسـة مثل ذلك القـديس العظيم، وأيضاً الكنيسة المسكونيـة للرب، التي غالباً ما أقسـم على الحفاظ عليها

سليمـة، وحـدث على كـل حـال أنه بعـدمـا تفكـر، أعـاد دفع المال إلى أصحابه، وهو المال الذي استلفـه بهذه الطريقة، لكن من دون ترضيتهم بالنسبة للأذى الذي لحق بهم.

تكريس وليم كيلكني أسقفاً على إيلاي

وفي تلك الآونة نفسهـا، أي أن تقول في يوم صعـود مـريم المباركـة، جـرى تكريس وليم كيلكني الأسقف المنتخب لإيلاي، تكريسه أسقفـاً لإيلاي، وكان ذلك في بولنزا Polenza, من قبل رئيس أساقفة كـانتربري، الـذي كـان آنذاك مقيماً في القـارة، وعندمـا جـاء الأسقف المنتخب إليه في بلاده، أعطاه رئيس الأسـاقفة تشريفاً له امـدادات وافرة من جميع الحاجيـات الضرورية، كما أنـه تلقى المديح أيضـاً والمعـاملة بالتشريف من قبل بطرس سافوي، حتى لايظهرا أنهما كانا في حالة عوز في بلادهما، لكن أساقفة انكلترا وكذلك رهبان دير كانتربري، قد حزنوا من هذا الإجراء، لأنه كان مؤذياً لهم، لأن العـادة كانت قد قضت دوماً بتكريس الأساقفة في انكلترا، وعلاوة على ذلك كانوا خائفين كثيراً، من أن يتخـذ رئيس الأسـاقفـة نتيجة الإجـراء الجديد عـادة، وهو الإجـراء الذي كان رئيس الأساقفة هذا نفسه قد عمله في قضية كنيسة لنكولن.

وصول الأسقف المنتخب لطليطلة إلى لندن

في ثمانية عيـد ميلاد مريم المبـاركة، وصل إلى لندن الأسقف المنتخب لطليطلة، الذي كان اسمه سانشو، وكـان عمره عشرين سنة، وكان أخاً لملك قشتـالة، وجاء بصحبتـه أيضاً رجل صـاحب نفوذ كبير في اسبـانيا اسمـه غـارسيـا مـارتين Garcias Martin, ولم يكن سبب قدومهما معلومـاً، لكن قد قيل من أجل زيادة مـواردهما بوساطة الهدايا الثمينة التي من الممكن لهما الحصـول عليهـا مـن الملك، الذي جعل من ممارساته القيـام بالتوزيع من دون تمييـز بين مثل هؤلاء الناس كل الذي

كـان بإمكانه استخراجـه من رعاياه الطبيعيين، وكـانت أخلاق وطبـاع، وأتبـاع هذا الأسقف المنتخب تختلف تماماً عما كـان متـوفراً وقـائماً بيننا، لأنه كـان شـاباً يرتدي خـاتماً في اصبعـه الأول، ويقـدم المبـاركـات إلى الناس، وقد زين مكان إقامته الذي كان في المعبد الجديد، وشمل التزيين أرض الغرفة أيضـاً، بالسجاد، والطيلسانات، والستائـر، ومع ذلك كان لديه أتباع وخـدم متوحشين وغير عاديين، واحتفظ معـه بعدد قليل من الخيـول، مع أنه كـان لديه عدداً كبيراً من البغـال، وعندمـا سمع الملك بوصـولهما، أعطى أوامر دقيقـة، بوجوب استقبـالهما بأعلى تشريف، وأن مـامن شيء مزعج مهما كـان، ينبغي أن يشاهداه، ولكن عندمـا اكتشف سكان لندن عاداتهما وأخلاقهما ضايقوهما وأهانوهما، ووصموهما بالشره والترف، وكان الملك في الوقت نفسه يشعر بالمجد بوساطة الزواج الذي جـرى عقده بين أسن أولاده ادوارد، وأخت ملك قشتـالة، وكأنه كـان على وشك الحصـول على جميـع امتيـازاته وممتلكاته في القـارة بـوسـاطة الزوجـة الجديدة لابنه، مع أن ذلك الزواج لم يكن نافعـاً له، أو لمملكتـه بأية طريقة من الطرق.

زواج ابن ملك فرنسا من ابنة ملك قشتالة

عندمـا وصلت المعلومات عن حلـف الزواج الذي جرى ترتيبـه بين ملك قشتـالـة وملك انكلترا، إلى ملك فـرنسـا، بدأ هـذا الملك تسـاوره الشكوك حـوله، ولذلك بعث برسـول خاص إلى ملك قشتـالة، فطلب ابنة الملك لتتزوج مـن ابنه، وسعى الرسول لاقناعـه بفعل ذلك، ورجاه أن لايجاوب بالرفض، الرغبـة بالتحـالف عن طريـق الزواج من رجل عظيم كهذا، وقـد عرض عليـه شروطاً أفضل من شروط ملك انكلترا، الذي حصل على أخـت الملك لأنه لتكون زوجـــة لابنه الأسن ادوارد، وهكذا نجح في رغبـاته، وهنأ المعطي نفسـه على الشرف الذي ناله بهذا الطلب.

الخطط المتنوعة التي كانت بلافائدة حول تبديد الأموال والتي وضعت قيد الممارسة من قبل ملك إنكلترا

وفي الوقت نفسه كانت النفقـات تتم يومياً، من أجل دعم الحرب في أبوليا، وحول هذه المعـركة التي تقدم ذكرها أعلاه، والتي كـانت بفائدة صغيرة، أو من دون فائدة، ومن أجلها أنفق الملك مبلغاً كبيراً من المال، كما أن أسقف طليطلة قد أنفق أيضاً من عشرة إلى اثني عشر ماركاً يومياً من أمـوال الملك، والآن جـاءت إلى الوجـود طريقـة جـديدة لتبـديد الأمـوال، لأن تومـاس، الذي كـان من قبل كـونت فـلاندرز، وهو عم الملكة، وأخـو رئيس أسـاقفـة كـانتربري، قـد أثار حـرباً جـديدة ضـد مـــــدينتي: تـورين وأستـي Asti,وفي سبيل دعـــــــم هذه الحرب واستمـرارها، كـان الملك وكنيسـة كـانتربري، لابل حتى الملكة نفسهـا، مرغمين على الاسهام بمبلغ كبير جداً من المال، وهكذا فإن الملك الذي أنقص مؤخراً كثيراً من موارده، لإعطاء شطر منها إلى ابنه، تعرض الآن للضيق وللضغوط والقلق من كل جانب.

المشورة الشريرة التي أعطيت من قبل أسقف هيرفورد

وفي هذه الآونـة نفسهـــا ذهب بطرس ايغبـــلانك Egeblank, أسقف هيرفـورد (الذي تثير ذكـراه أبشع الـروائح وأكثـرها قـذارة) إلى الملك الذي عرف حاجته إلى المال، وأنه كان متعطشاً للحصول على المال بقـدر ما أوتي من قـوة، وهمس في أذنه المشـورة المسممة التـاليـة قائـلاً: «وافق يامـولاي على خطتي، فأنا لن أفـرج عن عوزك فقط، بل سـوف أعطيك الوسـائل للحصـول على المال بكميـات وافـرة جـدا، لأنك إذا حصلت لي —وكأن القضية من أجل عمل صغير— على ثلاثة أو أربعة أختام عائدة للأسـاقفة ذوي النفوذ في انكلترا إنني —كما آمل— سوف أتمكن بوسـاطة تفسير جـديد من اقناع البـابا بالقيام بإرغـام كل واحـد

منهم، مع جميع أساقفة انكلترا، حتى بالقوة وضد إرادتهم، على دفع مبلغ كبير من المال، وذلك مايلبي حاجتك تماماً»، وأعطى الملك لهذه الخطة موافقة قلبية، وكان الاثنان مسرورين كثيراً، ولذلك شرع الأسقف على الفور بالعمل على عبور الألب، ليتولى تنفيذ وعوده، وقد تمت مرافقته من قبل واحد اسمه روبرت ويلران Walerann, من أجل تنفيذ سحره بشكل أكثر فعالية مع البابا، ولدى وصوله إلى روما وجد البابا في حالة يأس وحزن مفرط نتيجة الكارثة التي تعرضت الكنيسة إليها مؤخراً، وكان علاوة على ذلك متورطاً بديون بلغت حداً، أن كل من سمعوا بكمياتها أصيبوا بالدهشة، وهذه الديون كلها كان ملك انكلترا ملزماً بدفعها، تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث، وعلاوة على ذلك أخذ تجار عبر الألب مع المرابين يضغطون بشدة وإلحاح واستمرار مطالبين بدفع الديون المستحقة لهم، وهي الديون التي كانت تزداد كميتها يومياً بالربا، وبالعقوبات، والفائدة، ولدى تعبير البابا عن أساه حول هذه القضايا، أجابه الأسقف قائلاً: «لاتدع قداستك تنزعج حول مبلغ ديونك الكبيرة، حتى وإن كانت عظيمة، لأننا قبل أن نغادر انكلترا، جهز الملك وأنا هذا الفارس البارع طريقة سليمة ومؤكدة من أجل دفع جميع الديون من دون صعوبة، شريطة السماح لي بفضل منك وإذن، القيام بتنفيذ الخطط المشبعة بها نفسي، لأن الملك مخلص جداً إليك وإلى الكنيسة الرومانية، وهو جاهز بكرمه نحو الكنيسة واللاهوتيين فعمل كثيراً من أنواع الوظائف، وأضفى عليهم كثيراً من المنافع، على شكل منح من الحرير، وكذلك ببناء الأبنية، وإهداء الشموع، وهدايا أخرى ثمينة، لأن لديه النية الصالحة والرغبة باسداء المعروف إلى جميع البشر، ومثل هذا أنعم هو بكثير من الأعطيات على نبلائه، من الأراضي، والمصنوعات، والموارد، ولذلك تمتع بحق بالعواطف العظيمة للجميع نحوه، فهو عندما اجتاز خلال فرنسا مؤخراً، أعطى إلى الكنائس كثيراً من الكؤوس الفضية،

والطيلسـانات، والعقود، وأعطى إلى النبـلاء والأسـاقفة كثيراً جـداً من الهدايا، من كـؤوس، وخـواتم، وأحـزمـة، وأبازيم، ثمينة في مـوادها وكـذلك في صنعتهـا، وبذلك نال ثناء واعجـاب الفـرنسيين، وعلى هذا ارتفع الاسم المشهـور للانكليـز حتـى السماء، وبناء عليـه فإن الانكليـز لديهم رغبة عارمـة، وسوف يكونون مسرورين كثيراً بأوامركم، بصرف أنفسهم وتحميلهـا، وأن يربطوا أنفسهم، وكأنهم قـد أرغمـوا بالرغبـات التقوية في سبيل تحريـر ملكهم المحبوب من ديونه»، ثم أظهـر الرسائل، التي كتبت بمكر الثعـالب، واستخـرجـت من بعض الأسـاقفـة، والتي ختمت بأختـامهم، وبهذا أعطى مظهـر الصدق للتصريحات والافـادات التي تقدم ذكرها أعلاه، وجعلت البابا أكثر استعداداً للاصغاء إلى زيفه، وفي جواب على كـلامه قال البابا: «صـديقي المحبوب، وأخي، اعمل في هذه القضيـة كل الذي تراه مناسباً بالنسبـة إليك، ونحن نثني كثيراً على جهودك وبراعتك».

حول خيانته غير الاعتيادية

وانضم الآن إلى أسقف هيرفـورد، واحد من الكرادلة، الذي توفـرت لديه حرية الوصول إلى الختم البـابوي العظيم، والذي بموجب مشورته قـام البـابا بتنفيـذ الأعمال الشريرة لسلفـه، ففـرض واجبـات ثقيلة على أسـاقفة انكلترا الذين لم يكونوا على دراية تامـة بخديعتـه، بحيث لو أن جميع المظالم الماضيـة جمعت مع بعضها، لعـدت خفيفة بالمقـارنة مع هذه النازلة، ويوجد في الرسائل التـي أقحمها بعض الأدلة على التزييف، من ذلك أن كل واحد من الأسـاقفة، لابل هم جميعاً، كـانوا ملزمين بالدفع إلى فلان وفـلان من تجار سيينا Sienna أو فلورنسـا مبلغاً كبيراً من المال، كـانوا قـد قبلوه بمثـابة دين، من أجل تسـويـة نافعـة لبعض الأعمال المتعلقـة بكنائسهـم، مع أن مـا من واحـد منهـم عـرف قط أي واحـد منهم أو رآه، ولم يرد أي ذكر للمال، وإذا لم يـدفعوا الذي فـرض

عليهم خلال مدة وجيزة من الزمن، فإن هؤلاء المرابين (الذين يطلق عليهم الفرنسيون عادة اسم bougres) سوف يمتلكون السلطة الكاملة بمعاقبة العبيد الأبرياء للرب، وأساقفة الكنيسة، بكل أنواع العقوبات، وبادانتهم بدفع غرامات ثقيلة، وبظلمهم بمختلف الطرق، وذلك حسبما ستظهر الرواية المقبلة وترويه في الوقت المناسب والمكان الموائم.

وصول زوجة إدوارد إلى دوفر

وفي تلك الآونة من أيام عيد القديس دينس في هذا العام، عندما كان الملك عائداً من شمالي انكلترا إلى لندن، حتى يكون حاضراً الاحتفالات المهيبة المقامة تشريفاً للقديس ادوارد، وفي اسبوعي عيد القديس ميكائيل، وصلت اليانور، أخت ملك اسبانيا، وزوجة ادوارد إلى دوفر وسط أبهة عظيمة ومع حاشية كبيرة جداً، إلى حد أن وصولهم بعث الشكوك في انكلترا كلها، وشعر الجميع بالخوف من أن البلاد سوف يجري الاستيلاء عليها كلها بالقوة من قبلهم، وبناء عليه أصدر الملك أوامره بوجوب استقبالها بأعظم تشريف واحترام في لندن، وكذلك في الأماكن الأخرى، لكن بشكل خاص في لندن، حيث جرى الاحتفال بوصولها، بالمسيرات، والتزيينات، وقرع الأجراس، والأغاني، وجميع الوسائل الخاصة للتعبير عن الفرح والاحتفال، وبناء عليه، عندما اقتربت من المدينة، خرج السكان لاستقبالها، وقد ارتدوا ثياب الأفراح، وامتطوا على خيول مزينة بشكل ثمين، وعندما وصلت النبيلة زوجة ابن الملك إلى المكان المعين لها للإقامة، وجدته مثل مكان إقامة الأسقف المنتخب لطليطلة، معلق على جدرانه الطيلسانات الحريرية والسجاد وذلك مثل معبد، لابل حتى الأرض كانت مغطاة بالأقمشة المزركشة، وتولى عمل هذا الاسبانيون، لأن تلك كانت عادتهم في بلادهم، لكن هذا التجبر المسرف، قد أثار ضحك وازدراء الناس، ولدى قيام

أشخاص جادين وعقلاء بالتفكر حـول حوادث المستقبل، حزنوا بعمق من التقــدير الكبير الذي يبـديه الملـك لدى حضـور أية أجــانب، وفي الحقيقـة أثار التكريم الذي أبدي نحـو الاسبان دهشـة وعجب الجميع، ولاغـرابة في ذلك، ولذلـك بكى الانكليـز وانتحبـوا لأنهم وضعـوا في مكان أقل تقــديراً من شعب أية دولة أخـرى، وذلـك من قبل ملكهم، وبحزن تصوروا بأن دمارهم الذي لايمكن جبره بات وشيكاً.

حول الأوضاع التعيسة لمملكة إنكلترا

عـلاوة على ذلك تحققت صحـة بعض التقـارير التي انتشرت، والتي أفـادت بأن نائبـاً بابوياً، أو بالحري كـاهناً بـابوياً، مسلحـاً بسلطة نائب بابوي، قـد جـرى إرسـاله معتمـداً من قبل البـابـا، وأن وصـوله بات وشيكاً، حيث أنه كان فقط ينتظر ريحاً طيبة، وكان هذا المبعوث مستعداً وراغباً في المقام الأول بمسـاعدة الملك ودعمه في جميع مشـاريعه، وبعد ذلك أن يغل بأغلال التكفير جميع الذين يعارضون رغبة الملك، وطغيانه حسبما كان حاله، وعـلاوة على ذلك صار النبلاء مرعوبين، وقـد غرقوا في متـاهة اليأس، لدى رؤيتهم كيـف تمكن الملك بمكر لايمكن وصفـه من جـذب الأجانب ونشرهم من حـوله بموجب درجـات، وكيف أنه دفع إلى التحالف معه كثيراً من نبـلاء انكلترا، لابل في الحقيقة هم جميعاً تقـريباً، من ذلك على سبيل المثـال ايرلات: غلوستر، ووارني، ولنكولن، وديفون، وذلك بالاضافة إلى عدد كبير آخر من النبلاء الآخرين، وكيف قـد جـرد الآن رعـاياه المحليين، وأغنى إخـوتـه، وأقـرباءه، وأهله، ولو أرادت الجماعـة الانكليـزية كلهــا بشكل عـام، أو تجرأت على الوقـوف ضده، لن يكون لديها القدرة أو الوسـائل للردع، أو الوقوف ضد الملك وأجانبـه، وكان الايرل رتشارد، الذي عدّ على أنه المقـدم لجميع النبلاء، على الحيـاد، ومثله كــان العـديد من الآخـريـن، حيث لم يتجـرأوا على التذمر،وكـان رئيس أساقفة كانتربري، الذي كـان من المتوجب عليه أن

يكون ترساً ضد العنف العدواني للملك، على مسافة نائية في القارة، منشغلاً في كثير من المشاكل الدنيوية المتنوعة، ويقدم اهتماماً قليلاً لرعيته في انكلترا، وكان أصحاب العقول العالية والمدافعين الغيورين عن المملكة، وأعني بذلك رئيس أساقفة يورك، وروبرت أسقف لنكولن، ووارن دي مونتشينسيل وعدد آخر من أمثالهم، قد أخذوا من بيننا، وفي الوقت نفسه حصل إخوة الملك، والبواتيون، والبروفانسيليون، والآن الاسبان والرومان على الثروة بوساطة الموارد، وهذه الثروة تزداد يومياً، وجرى غمرهم بالتشريفات إلى حد الحرمان الكامل للانكليز.

كيف جرى منح إدموند ابن ملك إنكلترا مملكة صقلية

بعد عيد القديس لوقا، اجتمع عدد كبير من النبلاء مع بعضهم، وذلك بعدما جرت دعوتهم بوساطة رخصة ملكية، لأن أسقف رومانا Romagna قد جاء إلى الملك باسم البابا، وعوضاً عن قداسته، جالباً معه خاتماً، أعطاه إلى ادموند ابن الملك، وبهذا العمل المهيب، ولاه على مملكة صقلية وأبوليا، وامتلأ الآن قلب الملك بالفخر والسرور الكامل، وكأنه قد فرغ من تلقي ولاء الصقليين والأبوليين، وقد أصبح سيد مدنهم وقلاعهم، وابنه ادموند قد جرى تتويجه ملكاً، وفي الحقيقة أقدم علناً على دعوة ابنه ادموند باسم ملك صقلية، ولم يكن الأسقف المتقدم ذكره —كما هو معتقد— على دراية بأن جيش الحملة البابوية قد جرى تدميره، وأن أموال ملك انكلترا قد تمّ انفاقها كلها، وأكثر من هذا، أنه قد أثقل بشكل مرعب بالديون، ولو أنه كان يعرف كان قد أخفى بمكر معرفته بذلك، حتى لايخسر الهدايا التي أعدت له، والحقيقة لم يكن الملك بالفعل والنبلاء معه يعرفون، وعاد الأسقف إلى وطنه مثقلاً بالهدايا الثمينة، وحدث ذلك قبل أن تصبح الأوضاع الحقيقية للقضية معروفة في انكلترا، وكان الملك قد قام على كل حال، بسرعة كبيرة جداً بالاقتراب من المذبح بحضور نبلائه، وأقسم بحق القديس

ادموند، وهو معتمد على مساعدة البابا وواثق منها، بأنه سوف يذهب إلى أبوليا، وشاغله فقط صعوبة معرفة كيف يمكنه السفر خلال فرنسا بأمان مع جيشه وأمواله، وشرع على الفور بالتفكير حول الذي ينبغي أن يرسله إلى الملك الفرنسي للحصول على اذن بالعبور خلال أراضيه، ثم إنه فكر وفق طريقة سلطوية ملكية، أن يطلب من الملك نفسه ممتلكاته في القارة، والسعي إلى استردادهم بالقوة إذا كان الأمر ضرورياً، لأن بين أبوليا وانكلترا هناك فرنسا التي سوف تسحق بين حجري الطاحون، وأخيراً أرسل جون مانسيل إلى هناك، وهذا أمر سوف نذكره فيما بعد في وقته الموائم.

كيف أعاق الملك انتخاب رئيس أساقفة يورك

واستخدم الملك في هذه الآونة كل الوسائل التي كان بإمكانه استخدامها لتأخير وإعاقة انتخاب رئيس أساقفة ليورك، في سبيل أنه كلما امتلك المزيد من الوقت، امتلك الحرية الأعظم لنهب ممتلكات رئاسة الأساقفة تلك، حيث قال: «لأنني لم أفرغ بعد من وضع رئاسة الأساقفة تلك في ممتلكاتي، لذلك ينبغي أن أنتبه إليها حتى لاتضيع مني بسرعة»، وبعد لأي قام الكهنة النظاميون فانتخبوا، لابل بالحري رشحوا إلى تلك الوظيفة المعلم سيول Sewal, الذي كان عميد تلك الكنيسة وكان معتدلاً، ورجلاً مقدساً، وجيد المعرفة بالقانون وبالعلوم الأخرى، ثم إنهم بعثوا المعلم روجر هولدرنس Holderness, وكان رجلاً متعلماً، وواحداً له حظوة عالية في روما، وقد جلب القضية إلى نهاية سعيدة، حسبما سنروي في الصفحات المقبلة.

المعاملة الوحشية لليهود لأنهم صلبوا صبياً

وفي هذا العام نفسه، في حوالي أيام عيد الرسولين: بطرس وبولص، سرق يهود لنكولن طفلاً عمره ثمانية أعوام، كان اسمه هوغ، وقد

حبسوه في غرفة بعيدة عن الطريق، حيث غذوه بالحليب وبأطعمة الأطفال الأخرى، وبعثوا تقريباً إلى جميع مدن انكلترا حيث عاش اليهود، واستدعوا بعضاً من طائفتهم من كل مدينة ليكونوا حضوراً لشهود تقديم القربان الذي سيجري في لنكولن، لأنهم حسبما قالوا هناك طفل مخفي بهدف صلبه، واستجابة للدعوة قدم كثير منهم إلى لنكولن، وبعدما اجتمعوا عيّنوا على الفور واحداً يهودياً من لنكولن بمثابة قاض، ليأخذ موضع بيلايطس، الذي بناء على حكمه، وبناء على موافقة الجميع، أصبح الطفل عرضة لمختلف أنواع التعذيب، فقد ضربوه حتى تدفق الدم منه، وهو مايزال حياً تماماً، وتوّجوه بالشوك، وسخروا منه، وبصقوا عليه، وعلاوة على ذلك لقد طعن من قبل كل واحد منهم بسكين من خشب، وجعلوه يشرب شراباً مراً، وقهروه باللوم وأرهقوه بالشتائم ودعوه مراراً باسم يسوع النبي الزائف، وفعل ذلك معذبوه الذين أحاطوا به، وهم يصرون بأسنانهم ويكشرون عن أنيابهم، وبعدما عذبوه بمختلف الطرق صلبوه، وطعنوه حتى قلبه بوساطة رمح، وبعدما قضى الطفل أنزلوه من على الصليب وجوفوه، لأي سبب لانعرف، غير أنه تأكد أنهم فعلوا ذلك بقصد ممارسة عمليات السحر والكهانة، وكانت أم الطفل تبحث عنه بحرص وحذر، واستمرت تفعل ذلك لمدة أيام بعد غياب ابنها، وبعدما جرى اخبارها من قبل بعض الجيران بأنهم رأوه مؤخراً يلعب مع بعض الأطفال اليهود من عمره، وأنه دخل إلى بيت واحد من تلك الطائفة، قامت بشق طريقها فجأة إلى ذلك البيت، فرأت جسد الطفل في بئر كان قد ألقي فيه، وجرى استدعاء نواب الملك بحذر، وتمّ العثور على جسد الطفل، وجرى سحبه واستخراجه من البئر،وعند ذلك شاهد الناس منظراً غير اعتيادي بالمرة، وذلك في الوقت الذي كانت فيه أم الطفل تبكي بصوت مرتفع وتولول، وبذلك أثارت حزن وشفقة المواطنين الذين تدفقوا مع بعضهم إلى ذلك المكان، وكان موجوداً في ذلك المشهد

واحداً اسمه جون أوف لكسنغتون Lexington, وكان رجلاً متعلماً، وحكيماً، ومستقيماً، وقد خاطب الناس قائلاً: «لقد علمنا بأن اليهود لم يترددوا في محاولة اقترافهم لهذا العمل بمثابة شتيمة وسخرية بربنا يسوع المسيح، الذي كان قد صلب»، ثم إنه خاطب اليهود الذين جرى اعتقالهم، والواحد الذي كان الطفل قد دخل إلى بيته عندما كان يلعب، والذي كان بذلك هدفاً لمزيد من الشكوك أكثر من الآخرين، وقال له: «أيها الرجل الشقي، ألم تعرف بأن موتاً سريعاً هو بانتظارك؟ فجميع ذهب انكلترا لن يكون كافياً لانقاذك، والحفاظ عليك، والحيلولة دون منيتك، وإنني على كل حال سوف أخبرك —مع أنك لاتستحق— كيف يمكنك الحفاظ على حياتك، والحيلولة دون تقطيع أوصالك، فهذان أنا سوف أكفلهما لك، إذا ما قمت من دون خوف أو تردد، فكشفت لي، من دون أي زيف، جميع الذي وقع في هذه المناسبة»، واعتقد اليهودي الذي كان اسمه كوبين Copin, أنه وجد وسائل للنجاة فقال: «يامولاي جون إذا كانت أعمالك سوف تسدد لإفاداتي، سوف أكشف لك أشياء رائعة»، ثم جرى حثه وتشجيعه بفصاحة جون لأن يفعل ذلك، ولذلك تابع يقول: «إن الذي يقوله المسيحيون هو صحيح، ففي كل عام تقريباً يقوم اليهود بصلب طفل بمثابة إهانة لاسم المسيح،ولكن ذلك لايجري اكتشافه في كل عام، لأنهم ينفذون هذه الإجراءات بشكل سري، وبعيداً عن الأماكن، أما بالنسبة لهذا الطفل هوغ، فقد قام يهودنا بصلبه من دون رحمة، وبعدما مات، وعندما رغبوا في اخفاء جثته، قدروا بأن جسد طفل هو بلافائدة لاستخراج العرافة من خلاله (لأنهم لهذه الغاية قد جوفوه)، وهم لم يستطيعوا اخفاءه تحت الأرض كما رغبوا أن يفعلوا، لأنهم وجدوا في الصباح، عندما اعتقدوا بأنه أخفي عن الأنظار، أن الأرض قد لفظته وأخرجته، وظهر الجسد غير مدفون فوق الأرض، الواقعة التي أصابت اليهود بالرعب، وأخيراً ألقي في بئر، لكن حتى هناك لم يكن من الممكن

حجبه عن الأبصار، لأن أم الطفل، بحثت في هذه الجرائم، فاكتشفت جثة الطفل وأخبرت النواب الملكيين»، وبعدما سمع جون هذه الأسرار، حبس اليهودي في سجن شديد الحراسة.

وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى علم الكهنة النظاميين للكنيسة الكاتدرائية في لنكولن، طلبوا جسد الطفل، وقد أعطي إليهم، وبعدما جرى عرضه كمشهد أمام عدد كبير من الناس، جرى دفنه بتكريم في كنيسة لنكولن، وكأنه جسد شهيد ثمين، ويتوجب أن يكون معلوماً بأن اليهود قد احتفظوا بالطفل لمدة عشرة أيام، يغذونه طوال ذلك الوقت على الحليب، حتى يتمكن أثناء حياته من تحمل الكثير من أنواع العذاب.

ولدى عودة الملك من شمالي انكلترا، جرى اخباره بهذه الواقعة، فوجّه اللوم إلى جون لأنه قام بتقديم الوعد إلى مثل ذلك المخلوق الشرير بالحفاظ على حياته وأطرافه، حيث لم يمتلك الحق في أن يفعل ذلك، لأن كافراً وقاتلاً مثله يستحق الموت مرات ومرات، وعندما رأى الرجل المجرم أنه لامندوحة أمامه من العقوبة، وأن العقوبة محيقة به، عند ذلك قال: «موتي بات وشيكاً، ولايمكن لوعد جون أن ينقذني من الهلاك، وسوف أخبركم الآن بالصدق كله، فلقد وافق تقريباً جميع يهود انكلترا على ذبح هذا الطفل، الذي هم (اليهود) متهمون به، فقد جرى اختيار اليهود تقريباً من كل مدينة في انكلترا يسكن بها من طائفة اليهود، واستدعيوا ليكونوا حاضرين أثناء التضحية به، وتقديمه قرباناً في يوم عيد الحصاد»، وبعدما فرغ من التفوه بهذه الكلمات وكلمات تجديف أخرى، تم ربطه إلى ذيل حصان، وسحب إلى المشانق، حيث ترك جسده ونفسه إلى الأرواح الشريرة للهواء، أما بقية اليهود الذين كانوا شركاء في هذه الجريمة، وكان عددهم واحد وتسعين شخصاً، فقد حملوا إلى لندن في عربات، وألقي بهم في سجن محروس بدقة وشدة، ولم

ينالوا أبداً الشفقة من أي مسيحي، كما أنهم لم يثيروا دموع الرحمة بين المرابين، المنافسين لهم.

كيف جرى جرّ ثمانية عشر يهودياً إلى المشانق وشنقوا

وجرى بعد ذلك تحقيق من قبل رجال العدالة الملكيين، وبناء عليه تمّ الاكتشاف وتقرر أن يهود انكلترا، قد وافقوا جميعاً على صلب وقتل طفل بريء، بعدما جلدوه لعدة أيام، هذا وبالنسبة لهذا العدوان المجرم، وبناء على شكوى أم الطفل المتقدم الذكر، وتقديمها التماس إلى الملك حول جريمة القتل المذكورة، قام الرب، إله الانتقام فأنزل بهم عقوبات تتوافق مع الذي يستحقونه، لأنه في يوم عيد القديس كليمنت، تم جر ثمانية عشر من أغنى يهود مدينة لنكولن وأعلاهم مكانة، إلى المشانق الجديدة التي أقيمت خصيصاً لهذه الغاية، وجرى شنقهم، ومنحوا إلى الرياح، وأبقي أكثر من ثمانين آخرين أيضاً في سجن مضيق عليهم، وتحت حراسة شديدة في برج لندن، بانتظار مصير مشابه ومماثل.

وصول المعلم روستاند إلى إنكلترا بمهمة من البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، أرسل البابا الاسكندر معاون شمامسة، المحامي المعلم روستاند Rustand, وكان غسكوني المولد، أرسله إلى انكلترا، معطياً إليه السلطات، وأرسل أيضاً رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف هيرفورد، لجباية العشور من انكلترا، وسكوتلندا، وايرلندا، لصالحه (البابا) ولاستخداماته، أو لصالح الملك واستخداماته من دون تمييز، وقضى بأوامره «**بعدم التقيد بأية رسالة أو غفران أو إعفاء تقدم منه وإرساله، في أي شكل من الأشكال جرت صياغته وتوجيهه، ومهما كان السبب الذي من أجله تمّ الحصول عليه، أو أي عائق يمكن أن يفهم حول ذلك**»، ومنح البابا إلى الفئة نفسها سلطة تحليل ملك انكلترا من أي تعهد قطعه على نفسه من أجل الحملة الصليبية والذهاب إلى

القـدس، من أجل أن يتمكن من القيـام بحملة إلى أبوليـا، لشن الحرب ضـد مانفـرد، ابن الامبراطور الراحل فـردريك، الذي كـان عدواً قـوياً لكنيسة رومـا، وفي الحقيقة كان البـابا قد تسلم وعـداً مقروناً بيمين من ملك انكلترا، بأنه سـوف يفعل ذلك، وجـاء هذا من خـلال أسقف بولون، الذي كان قد أرسل من قبل قداسته خصيصاً لهذه الغاية، وأيضاً لتولية ادموند مملكة صقلية، حسبما تقدم الذكر أعلاه.

البارلمان الذي عقد إثر مهمة روستاند

في عيد القديس ادوارد في هذا العام، اجتمع تقريباً جميع نبلاء انكلترا في ويستمنستر، وظهر الملك بينهم، وخاطب أخـاه أولاً، ملتمساً بحرارة تقديم مساعدة مالية إليـه، وكان البابا قد أرسل أيضاً رسائل التماس إلى الايرل المذكـور رجاه فيهـا تقـديم المساعـدة إلى أخيـه بقرض مقـداره أربعين ألف [مـارك]، وقـد أبقى حقيقـة أنه قـرض سرية، من أجل أنه بقيـام المذكور بتقـديم أعطيتـه، سوف يضرب مثـلاً إلى الآخـرين، لكن الايرل لم يصغ لا إلى التماسات الملك أو البابا، وبشكل خاص بسبب أن الملك كان مسحـوراً بالإثارات الخفية من مستشـاريه الذين هم من عبر الألب، وأنه تولى القيـام بالحملة إلى أبوليـا من دون طلب نصيحتـه، أو مـوافقته (الايرل) أو مـوافقة ونصيحـة البارونات، ولدى عـرض طلب المساعدة أمام الآخـرين، أجابوا، أنهم لم يجمعوا كلهم في ذلك الوقت بما يتماشى مع بنود الصـك العظيم، وأنهم بذلك من دون نظرائهـم، الذين كـانوا غائبين، لايمكنهم اعطاء جـواب، أو منح مساعـدة»، ولذلك لجأ الملك إلى حججه الماكرة المعتادة، ليرغـم النبلاء على الموافقة على رغباته، وأخر الأعمال التي من أجلها انعقد البـارلمان لعدة أيام، وبذلك تأخرت القضايا التي كـانت قيد المناقشة بحجج مختلفة زائفـة لمدة شهر، وأخيراً بعدمـا أفرغـوا محافظ نقودهم في مدينة لنـدن، حرضهم، —وبالحري لم يستـدعهم— للاجتماع وعقـد مـؤتمر في مكـان آخـر، هذا وقـام الايرل

رتشارد، وكـان رجلاً حـذراً وحكيماً، فوجّـه الملامة بحـدة —وهو محق بذلك— إلى أسقف هيرفـورد وصـاحبـه روبـرت ويلران بفتنهم الملك وتسبيب الخبل إليـه على هذه الصـورة، ممـا سيـؤدي إلى الدمـار الكامل للمملكة، وبذلك عـاد جميع النبـلاء إلى مـواطنهم وهم في حـالة ضيق وارباك، ومن دون أن يفعلوا شيئاً، وينبغـي أيضـاً أن يكون معلومـاً أنه عندمـا عـاد الملك من غسكوني، كـان متـورطاً بديون وصلت إلى مبلغ ثلاثمائة ألف وخمسين ألف من الماركات، وهو على كل حال، على الرغم من هذا المبلغ لم يتـوقف عن الاصغـاء إلى النصائح السيئة، وعن تبـديد الأمـوال يومياً بين الأجـانب، وهي الأمـوال التي كانت لديه، وكـذلك كل الذي اعتقـد أنه يمكنه استخـراجـه من انكلترا، التي عـدها بئراً لاينضب، فهـو قـد أعطى إلى الأسقف المنتخب لطليطلة دخـلاً ومبلغـاً كبيراً من المال، وكـذلك فعل بالنسبـة لأسقف بولـون، وأيضـاً إلى روستاند، وذلك إلى جانب بعض الهدايا الثمينة جداً، وأعطاه أيضاً وقفاً غنياً في كنيسة يورك.

كيف أمر المعلم روستاند بالدعوة إلى حرب صليبية ضد مانفرد

وفي هذا الوقت أيضاً، أصدر المعلم روستـاند أوامر إلى جميع المؤيدين الغيورين للكنيسة المقدسة، للتبشير بصورة علنية من أجل حملة صليبية، أولاً في لندن، وبعد ذلك في أماكن أخرى، وتوجيه ذلك ضد مانفرد بن فـردريك، الامبراطور الأخير الراحل لـلامبراطورية الرومـانيـة، بحكم كـونه عـدو الرب، وعـدو كنيسة رومـا، وعـدو ملك انكلترا، وحليفـاً للمسلمين، ومحرضاً لهم على اقتراف الشرور، وحاميـاً، وأيضاً لأنه محتل غير شرعي لمملكة واحد آخر، أمـا الذين سوف يلتحقون بتلك الحملة، فقـد وعـدوا بالحصول على غفـران كـامل لذنوبهم، وكأنهم قـد ذهبـوا للحج إلى الأرض المقـدسـة، وعندمـا سمع المسيحيـون الحقيقيـون بهذا الإعلان، اعترتهم الدهشـة لأنهم سلف ووعدوا بالشيء نفسـه من أجل

سفك دماء المسلمين، والآن وعدوا بالشيء ذاته من أجل سفك دماء المسيحيين، وقد أثارت كلمات المبشرين الضحك والسخرية، وفي أحد الأماكن عندما كان المعلم روستاند يقوم بالوعظ، أضاف في نهاية قداسه يقول: «كونوا أبناء الطاعة، واعهدوا بأنفسكم إلى كذا وكذا من التجار، من أجل كذا من مبالغ المال»، وحدث هذا بين رهبان كانوا مجتمعين في هيئتهم الرهبانية حيث لم يكونوا قد سمعوا من قبل بمثل هذا الإجراء، ولاانزعجوا بمثله.

حول الهدنة التي عملت في الأرض المقدسة

ووجد سكان الأرض المقدسة أن البابا مهتم قليلاً، بتحرير الأرض المقدسة، التي كرسها الرب نفسه بحضوره، وأخيراً بدمه، ولذلك عقدوا هدنة مع سلطان مصر، الذي كان في حالة حرب مع سلطان دمشق، وأطالوا تلك الهدنة فجعلوها لمدة عشر سنوات.

كيف تعرض رئيس الأساقفة المنتخب ليورك للمضايقة من قبل الملك

بات الآن المعلم سيول عميد يورك، الذي جرى مؤخراً انتخابه بشكل صحيح رئيساً لأساقفة تلك الكنيسة، حزيناً إلى أبعد الحدود، وبشكل لايقبل المواساة، وذلك لأنه رأى مقتنيات تلك الكنيسة تنهب، وتدمر، ويجرى تبديدها، وعلاوة على ذلك قام الملك بسبب أن العميد المذكور لم يلد من خلال زواج شرعي، بالسعي، اعتماداً على بعض الحجج التافهة، إلى إعاقة ترشيحه وانتخابه إلى رئاسة الأساقفة.

انسحاب جون دي غري من البلاط

وحدث في هذا الوقت أيضاً، أن قام جون دي غري، وكان فارساً صاحب أخلاق حميدة، وعظيم الشجاعة، ومستشاراً أثيراً لدى الملك،

قام بالانسحاب من البلاط، ولعل ذلك كان بسبب أن مشاعره الداخلية وضميره قد انزعج تجاه مهام البلاط، والقلق الذي كان خاضعاً إليه، وأيضاً بسبب تقدمه بالسن، الذي جعل شعر رأسه أبيض اللون، ويبدو -كما هو معتقد- قد أخذ حذره ضد حوادث المستقبل، لأنه كان خائفاً من أن مستشاري الملك لابد من أن يكونوا في يوم من الأيام عرضة للوم الشديد بسبب أخطائهم المتوالية.

رسالة البابا التي حصل عليها أسقف هيرفورد

بدأ الآن أسقف هيرفورد، بالتعاون مع حليفه روستاند، بالتنفيس عن غضبه بإنزاله على أساقفة انكلترا، خاصة على الطوائف الرهبانية، وكان مدعوماً بقوة، واقعياً بالسلطات الرسولية، وبالرسالة التالية: «من **الأسكندر، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أسقف هيرفورد، إلخ:** بما أننا نعلم بأنك بحاجة كبيرة لتحمل نفقات كبيرة من أجل فائدة ومنفعة رئيس رهبان، ورهبان دير القديس ....ودير القديس.... الأمر الذي من أجله جئت إلى الكرسي الرسولي، وفي سبيل أن لاتكون شؤونهم عرضة للاهمال، بسبب الحاجة إلى الوسائل التي تكفل الانفاق عليهم، نقوم نحن بموجب فضيلة هذه العروض، بمنحك ياأخانا، سلطة كاملة، بابرام عقود دين من أجل هذه الغاية، تصل إلى مبلغ خمسمائة، أو ستمائة، أو سبعمائة، أو أكثر، من الماركات الاستيرلينية، باسم رئيس الرهبان المتقدم ذكره، والرهبان والدير، وأن ترهنهم: رئيس الرهبان، والرهبان،وخلفائهم، والمقتنيات العائدة للدير المذكور، للمقرضين، وبالتخلي عن مبدأ الإعلان لمدة يومين الذي تقرر في المجمع العام، وعن منفعة إعادة التأسيس كاملة، وعن الرسائل الرسولية، وعن الغفرانات التي تمّ الحصول عليها، أو سوف يتم، وكذلك عن استدعاء القضاة، وعن جميع الرسائل الرسولية مهما كانت محتوياتها ومقاصدها، التي قد يحدث ويتم الحصول عليها منذ الآن فصاعداً حول هذه القضية باسم

المقـرضين، وهكذا سوف يكونوا هم وخلفـائهم ملزمين بدفع هذا المال إلى المقـرضين، وإذا لم يلتـزمـوا بدفـع المبلغ نفسـه، في المدة المحـددة من قبلك، يتـوجب عليهم تعـويض جميع الخسـائـر والنفقـات، ودفع جميع الفـوائد، وفيما يتعلق بذلك تقضي ارادتنا بأن عليك تصـديق يمينهم، أو يمين أي واحــد منهم، من الـذين أقــرضــوا المال، من دون طلب أي برهان، وأيضاً بالنسبـة للمقرضين المذكورين بناء على حجة أي مـرسوم سواء أكـان لاهوتياً أو مدنياً، أو أي امتيـاز، أو اعفاء، ينبغي التعبير عنه تعبيراً كـاملاً في رسـائلنا، وفي سبيل أن لايكونوا هم ولاخلفـائهم بعـد الآن قـادرين على الدفـاع عن أنفسهم بأية طريقـة من الطرق، لن تكون هناك حاجة لتقديم برهان بـأن ذلك المال قد وضع قيد استخدام رئيس الرهبـان المذكـور، والرهبـان، والديـر. صـدر، إلخ»، وفي الوقت نفسـه طلب البابا منحـه قرضاً من الايرل رتشـارد، يصل إلى مبلغ خمسة آلاف مـارك، لدفع قضيـة ادمـوند ابن أخي الايـرل ورفع شأنها، وعلى هذا الطلب أجـاب الايرل قـائـلاً: «أنا لن أقـرض أي مـال إلى رئيس، أنا لايمكنني أن أرغمـه على الدفع لي»، وصـدرت هذه الإجـراءات المقيتـة وغيرها، والتي هـي مهينة لنا، والمؤسف أن نقـول إنها نبعـت من النبع الكبريتي السام للكنيسة الرومانية.

حول المجمع الذي عقد في لندن من قبل أساقفة إنكلترا

وقام في هذه الآونة روستاند، بموجب تخويـل البابا وسلطاته، بتوجيه الدعـوة إلى جميع أساقفة انكلترا لـلاجتماع في لندن، خلال أسبوعـي عيد القـديس ميكائيل، من أجـل سماع رسـالة من قـداستـه، ولمناقشـة بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالملك، وبالبـابا أيضاً، وأن يقوموا بحكم كونهم أبناء الطاعـة، باعطاء جـواب عقـلاني ومفيـد على المطالب التي عملت، وأيضـاً على المطالب التـي سـوف تعمل، وعندمـا اجتمعـوا في الزمـان والمكان المحـددين، جـرى أولاً قـراءة وشرح الذي تعلق بصـلاحيـات

روستاند وسلطاته، ثم قام ذلك الشخص بإلقاء خطاب فيهم، حيث طلب مبالغ كبيرة من المال منهم جميعاً، أن نقوم بكتابة أذاها كلها وظلمها، سوف نجرح بعمق قلب الإنسان الأكثر صبراً، ولو أن هذا المال قد جرت جبايته من كنيسة انكلترا، لتحولت المملكة في الحقيقة كلها، ولنزلت إلى أدنى درجات العبودية، ولتسبب ذلك بفقر لايمكن الخلاص منه، فلقد كان عبئاً لايمكن حمله هو الذي فرض على الآخرين حمله، ومع ذلك كان على غير استعداد لتحريك اصبع واحد لمساعدتهم، ومن دون القيام بذكر جميع القضايا، لقد فرض على دير القديس ألبان لوحده، وجوب دفع ستمائة مارك إلى البابا، بالاضافة إلى فائدة وإلى بنود قاسية وشروط، تولى فرضها هؤلاء التجار المرابون، الذين إليهم قد جرى منح سلطات ظلم الكنائس كما يرغبون، مع إمكانية ارغام الدير المذكور، وعلاوة على ذلك سعى روستاند، وأسقف هيرفورد والمتعاونين معهما، إلى اختصار المدة الممنوحة للدفع تحت طائلة عقوبة التعليق من شراكة المؤمنين والحرمان الكنسي، وكان الموعد الذي جرى تحديده، من غير الممكن لأي من المفروض عليهم الالتزام به، وعمل هذا في سبيل إرغام هؤلاء الأساقفة على استدانة المال من أولئك التجار، حتى يكونوا خاضعين لشروط فوائدهم الربوية، وهي شروط بدت لكل واحد منهم، لابل لهم جميعاً، ليست فقط صعبة، لابل مستحيلة، وبعد مداولات دقيقة استمرت لعدة أيام، تحدث فولك أسقف لندن بقلب مليء بالأسى، وخاطب المجتمعين قائلاً: «قبل أن أعطي موافقتي على أن تكون الكنيسة خاضعة لمثل هذه الحالة من الأذى والعبودية، سوف أقطع رأسي، وأحرر نفسي من هذا الظلم الذي لايطاق»، ولدى سماع هذا الكلام الشجاع والحازم صرخ وولتر أسقف ووركستر بصوت مرتفع قائلاً: «أما بالنسبة لي، فقبل أن تخضع الكنيسة المقدسة لهذا الاستخراج المدمر، سوف أحكم على نفسي بالشنق»، وتشجع الأساقفة بهذه الإعلانات السليمة، ووعد الجميع بثبات بأن يسيروا خطوة خطوة، على

طريق القديس توماس الشهيد، الذي سمح بضرب رأسه في سبيل حرية الكنيسة، لكنهم كانوا مطوقين من كل جانب، وعرضة للضغوط، فالملك كان ضدهم، وكان البابا بشرهه إلى المال عدوهم، ولم يشعر النبلاء بالشفقة تجاه أمهم الكنيسة، وقام روستاند وكان متعلماً وقادراً على إلحاق الأذى بهم بإثارة أعدائهم ودفعهم نحو الالتزام بهذه الإجراءات، أما رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان من المفترض الداعم للكنيسة المترنحة، وربان مركب بطرس، الذي كان تحت رحمة الأمواج العاتية، فكان متورطاً بأعمال دنيوية في مناطق نائية فيما وراء البحر، وأدار رعيته بعناية أقل مما ينبغي، وكان رئيس أساقفة يورك رجلاً عميق التفكير، وحكيماً بآرائه، لكن كان قد أذعن لمنيته، أما الأسقف المنتخب لوينكستر فكان موضعاً للريبة، وبالتالي جرى تجنبه، لأنه كان بواتياً، وأخاً للملك، الذي يتولى قمعهم، وأيضاً لأنه لم يكن أسقفاً، وفي الوقت نفسه لم يكن أسقف هيرفورد موضع ريبة فقط، بل كان يعدّ بمثابة عدو معلن، وبناء عليه قاموا بالتوجه بالدعاء إلى الروح القدس لمنحهم المواساة والسلوى، وقرروا الترافع إلى البابا —الذي يتوجب أن يكون كهف اللاجئين والحامي لكل واحد مظلوم— حول قضية الاستخراج التي لاتحتمل وكانت غير اعتيادية، وأعدوا أنفسهم للوقوف ضد استبداد، واجحاف، وتهديدات المعلم روستاند، وبناء عليه عُمل إعلان على الفور، قام بتعميمه المنادي في لندن، وذلك بموجب سلطة أسقف تلك المدينة، أنه يتوجب أن لايقوم أي إنسان بتنفيذ إجراءات المعلم روستاند، أو إطاعة ماورد في رسائله وذلك لمدة عدة أيام، وعندما وصل هذا الإجراء إلى علم روستاند، عمل شكاوي كبيرة إلى الملك، وذكر له بأن أسقف لندن قد أثار الأساقفة الآخرين وشجعهم على الوقوف ضد إرادة البابا، وضده هو أي الملك.

وغضب الملك غضباً شديداً، فكدس الملامات فوق أسقف لندن،

وأعلن أنه لاهو ولاأي واحد من أسرته قد أحب الملك أبدا مع أنه ملكهم، وأنه سوف يسعى، بقدر مايمتلك من قوة، لجعل البابا يتولى ردعه ومعاقبته، وعلى هذا رد الأسقف قائلا: «ليقم البابا والملك، اللذان أقوى مني، بانتزاع أسقفيتي، الأمر الذي لايمكنهما فعله بعدل، ودعوهما يأخذان هذه القلنسوة، فالخوذة سوف تبقى»، وحدث في هذا الوقت نفسه، أن جرى التهامس من أذن إلى أخرى لكثيرين، بتقرير غير معقول (سوف يكون تناقضاً وشراً تصديقه)، وأفاد هذا التقرير وتحدث عن خداع معين، وأعمال تزييف مهينة جرت بسوء في استخدام الختم العظيم للبابا، وأنه وضع على جداول بيضاء، يمكن لكل من يرغب أن يكتب عليهم فيما بعد، هذا وقال الناس أحدهم للآخر: «لاسمح المسيح، من غير المعقول أن يقوم البابا، الذي هو بلاشك رجل هو الأكثر قداسة، بالموافقة على هذا الاثم العظيم، لأن من الواضح والجلي أنه جرت ترقيته إلى منصبه الرفيع بوساطة نفوذ لاهوتي، وعلاوة على ذلك لقد فعل مالا نذكر أي بابا أقدم على فعله، لأنه طالب بأن تقدم صلوات الكنيسة إليه، ثم كيف يمكن التصديق بعد هذا أنه يمكن أن يفعل أشياء أسوأ من أعمال سلفه؟ لاسمح الرب بذلك»، وهكذا سعى الناس وراء الحصول على مايواسي جهلهم واضطراباتهم، فبوساطة عباءة هذا النقد المنطقي عزوا هذه الأعمال الحمقاء ونسبوها إلى مزيفين».

كيف سعى أسقف هيرفورد والمتعاونين معه إلى إثارة شقاق ديني بين الأساقفة

وفي الوقت نفسه سعى أسقف هيرفورد، وروستاند مع الآخرين من حلفائهم من ماوراء الألب، إلى إثارة شقاق ديني وتمزق بين أساقفة انكلترا، مستخدمين جميع الوسائل التي كانت تحت تصرفهم، ذلك أنهم خافوا من أنهم إذا ما وقفوا إلى جانب بعضهم بعضاً باخلاص، قد يتمكنوا من توجيه البابا، وجعله يسير في طريق الصدق، وأنهم بذلك

سوف يعاقون في مشاريع نهمهم لجمع المال، وبذلك تصرفوا وعملوا وفقاً لقول الانجيل: «كل مملكة منقسمة على نفسها سوف تكون مهجورة».

عودة إدوارد من غسكوني

وفي تلك الآونة نفسها، أي عشية عيد القديس أندرو، عاد ادوارد من غسكوني، واستقبل في اليوم نفسه من قبل عدد كبير جداً من نبلاء انكلترا، ومن قبل سكان لندن، الذين تولوا تزيين مدينتهم بشكل ثري، من أجل المناسبة، وجرت مرافقته من قبلهم إلى قصر ويستمنستر، مع أبهة كبيرة، وكثير من الهتافات.

حول ترتيبات السلام فيما بين أسقف درم وجون بالأويل

وعمل في هذا العام أيضاً، سلام فيما بين وولتر أسقف درم، والفارس جون بالأويل Baliol, حول عدة قضايا خلافية قامت بينهما، ومثل هذا أعيد تأسيس السلام فيما بين رئيس رهبان دير التاينماوث، وجون المذكور، وكان جون هذا نفسه شرهاً، وجشعاً، وعنيداً، أبعد مما كان يليق به، ومما هو نافع لروحه، وقد قام لمدة طويلة بمضايقة كنيسة التاينماوث وإلحاق كثير من الأذى بها، ومثل ذلك بكنيسة درم، كما أنه قام بحجج مختلفة مشكوك بها بازعاج كنائس أخرى وإلحاق الأذى بهن، وفعل الشيء نفسه بفرسان آخرين ولاهوتيين، وبجيرانه، وبذلك انطبق عليه القول:

كل قوة

أو

كل جبروت

يغار من شريكه

وبطريقة مماثلة وبسلوك مشابه، قام هذا الرجل الشره، الذي لم تكن ممتلكاته كافية لاقناعه واشباعه بالاستيلاء على ممتلكات الآخرين، وعلم الملك بأن جون المذكور يمتلك كميات وافرة من المال، فاتخذ إجراءات قاسية ضده، وكما ذكرنا من قبل، لقد أمل في انقاص أكوام ماله عن طريق رغبته في إعادة تأسيس السلام فيما بينهم، وكان روبرت دي روس متورطاً أيضاً بإجراءات مماثلة، ولقد لحقه لذلك كثيراً من الأذى، وأصابه الفقر.

إصلاح جامعة باريس

وفي هذه الآونة أيضاً، جرى إعادة تأسيس جامعة الكهنة في باريس وإصلاحها، وكانت عرضة للخطر، بسبب تعليق المحاضرين فيها، وبسبب الخلافات، وتفرق كثير من الباحثين فيها، نتيجة الاضطراب الذي تسبب به الرهبان الدومينيكان، الذين رغبوا بتغيير العرف القديم المؤسس للجامعة، غير أن وضع هؤلاء الرهبان، الذين كانوا مؤيدين مدعومين بالصدقات وأعمال الإحسان، قد تغير نحو الأسوأ وفي الوقت نفسه إنه بسبب إهانات وملامات الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، توفر كثير من الفقر وازداد، وشُعر به من قبل رهبان دير السسترشيان الذين كانوا يدرسون في باريس، وهو الدير الذي سلف تأسيسه من قبل رئيس رهبان كليرفو، الذي كان انكليزياً من حيث المولد، واسمه ليكسنغتون Lexington, وكان سلوكهم المشرف والمستقيم قد أعطى السررو للرب، وإلى الأساقفة، وإلى الناس، فهم لم يتجولوا مثل عصابات الرعاع في المدن والبلدات، كما لم يكن المحيط حاجزهم وحدهم، بل إنهم مكثوا هادئين محبوسين داخل جدران بيتهم، يطيعون رئيسهم، وفقاً لأحكام القديس بندكت، التي لاشك ستنال ثناء كل واحد يختار أن يدرسها لأن القديس ميّز في مطلعها بين مختلف أنواع الرهبان، ووجه النقد إلى Sarabaitas و Gyrivagos,

وقام هؤلاء الرهبان أنفسهم —على كل حال— بالالتزام بمتابعة ممارسة أعمال التبشير، وبذلك أضعفوا سلطة المبشرين العاديين، ونالوا ثناء كثيرين وقبولهم، وذلك في الوقت الذي جعل كثير من الآخرين أنفسهم أهدافاً للنقد، لأن كثيراً منهم أخذوا بالوقاحة في جنحهم، لأنهم لم يكونوا مرغمين على الاعتراف بذنوبهم إلى كاهنهم، وهنا كان الأذى: حيث أن بعضهم رفض الاعتراف لكاهنهم الرسمي، لأنه ربما كان سكيراً، أو من أجل أسباب أخرى سرية، ولذلك لجأوا إلى القيام باعترافاتهم تحت مظلة أجنحة المواساة والتعزية، وانتشر هذا الرأي من عندهم إلى الدومينيكان والفرنسيسكان، فأي علاج وفائدة نتجت عن ذلك؟.

موت الكاردينال جايل الإسباني

ومات في هذه الآونة الكاردينال جايل الاسباني، وكان قد وصل إلى سن المائة، وبرهن هذا الرجل المدهش، الذي لم يكن له نظير، عن نفسه في بلاط روما أنه عمود الصدق والعدل، ورفض قبول الهدايا التي تحرف بالعادة الناس وتبعدهم عن الالتزام والعدل، والاستقامة.

حول غضب الإيرل مارشال ضد الملك

وأثناء المؤتمر الذي تقدم ذكره أعلاه، والذي مدّد من دون فائدة لمدة عدة أيام، تسبب روستاند، في سبيل أن يجعل الملك خاضعاً أكثر إلى إرادته، بنشر تقارير لاأساس لها، أفادت بأن جيش مانفرد قد تفرق، وأن مانفرد نفسه قد دس إليه السم، وأنه بات على عتبات الموت، وأنه نتيجة لذلك قد تواضع، ولأنه عرف أوضاعه التعيسة، بادر مسرعاً وبإلحاح إلى التماس السلام من البابا، وبناء عليه امتلأ بلاط روما كله ببهجة عظيمة وبسرور عارم، وبات أفراد هذا البلاط واثقين بأنهم سوف يحصلون على مارغبوا به بالنسبة لقضية أبوليا، وبسماع هذه

الأخبار فرح الملك فرحاً كثيراً، وامتلأ قلبه بسرور لاأساس له، إلى حد أنه أطلق على ابنه اسم ملك، وبادر مسرعاً إلى أقرب مذبح، فأقسم عنده بأنه سوف يذهب إلى أبوليا ليتولى الاستحواذ عليها لصالح ابنه ادموند.

وفي هذا البارلمان ألقى الايرل مارشال خطبة لتسويغ روبرت دي روس والدفاع عنه (وهو الذي كان متهماً بجريمة جادة، وهي جريمة كانت تهدد حياته بالخطر) وجاء ذلك عندما كدس الملك أقوال لوم وتوبيخ مهينة على روبرت وعلى الايرل، وأعلن أمام الناس بأن الايرل هو خائن، ولدى سماع هذا التوبيخ غضب الايرل غضباً شديداً، وتوجه بنظرة حادة نحو الملك وأجابه قائلاً: «أنت تكذب، أنا لم أكن، ولن أكون خائناً»، وأضاف قائلاً: «ماالذي يمكنك فعله بالنسبة لي؟ كيف يمكنك إلحاق الأذى بي إذا حكمت بالعدل»؟ وعلى هذا رد عليه الملك قائلاً: «أنا يمكنني الاستيلاء على حبوبك، وجمعها في البيادر ودرسها وبيعها، وبذلك سوف أخضعك وأذلك»، وعند ذلك قال له الايرل: «إنني سوف أقطع رؤوس الذين سيدرسون حبوبي وأرسلهم إليك»، وعند هذا بات مخشياً بأن المسائل سوف تتطور نحو الأسوأ بين الايرل والملك، لذلك تدخل أصدقاء الطرفين بينهما، وفصلوهما، ومع أن خطاباتهما التهديدية قد قوطعت، هما لم يسكنا، وكان الغضب والكراهية هما نتيجة هذا الشجار، وفي هذا المؤتمر الذي كان بلاثمار، والذي لم يعمل به شيء من أجل المسألة الرئيسية المعروضة، قام البارونات في اليوم الأخير لجلساته فأجابوا: «بأنهم لن يستمروا كما فعلوا حتى الآن في افقار أنفسهم من أجل منفعة الآخرين، ورفضوا مناقشة أية أمور صعبة أو سرية عائدة للمملكة، لأنهم قالوا بأنهم رأوا بأن كل شيء كان مليئاً بالريبة، وبالغدر الثعلبي، وكانت مدينة لندن مليئة حتى آخر الحدود، ليس فقط بالبواتيين،

والرومـــان والبروفـــانسيين، بل والاسبـــان، الذين ألحقـــوا أذى كبيراً بالانكليـز، وخـاصة بسكان مـدينة لندن، حيث كـانوا يقترفـون الزنا، والفسوق، ويهينون الناس، ويجرحـونهم، لابل حتى كانوا يقتلونهم، في حين لم يقم الملك بردعهـم، لابل بالحري قـام بالدفـاع عنهم، ولذلك فإن المؤتمر —إذا جـاز أن يطلق عليـه اسـم مـؤتمر— ارفض بحــزن وأسى.

وفي يوم عيـد القديسـة لوسيـا، غادر لوكـاس Lucas رئيس أسـاقفـة دبلن طريق الجسـد، وكان هذا الـرجل قد جـرت ترقيتـه إلى رئـاسة الأسـاقفة بوسـائل الإرغام من قبل هيـوبرت دي بورغ، الذي كان مسؤولاً عن العدالة من قبل، والذي كان قسيسه هو لوكاس هذا، ولكن الرب أراد أن يعـــذبه، وحثـه على التـوبة، فتفقـــده بأن أنزل به العمى، وظل يعاني من هذه المصيبة بتعاسة لمدة سنوات عدة.

كيف التحق بهانفرد كثير من الأعوان لأنه كان منتصراً

في الوقت الذي كـانت فيه هذه الأشيـاء تعبر في انكلترا، دار دولاب الحظ في مناطق ماوراء الألب، وأحدث تغييرات هائلة، لأن الذين كانوا قبل وقت قصير مضى مسروريـن، جـرى قـذفهم في متـاهـة الفـوضى والاضطراب، لأنه بعـد تفرق جيـوش البابا، كـان الأبوليون قـد علموا بأن البـابا كان قـد أعطى بلادهم من دون موافقتهم إلى رجل انكليـزي غير معـروف، وأجنبي بـالنسبـة إليهم، ولذلك غضبـــوا غضبـاً عظيماً، وظلوا يشعرون بمـزيد من الانزعاج لأن البابا كان قـد حول الصليبيين عن غرضهم الأساسي، ورغب بإرسـالهم ضدهـم (أي الأبولين)، وكأنه مـــرســـلاً بهم ضـد المسلمين، وذلـك بهدف إبادتهم، ولذلك خضعـــوا لمانفـرد، ووقفوا إلى جـانبه، وفعل ذلك حتى الذين كـانوا قد وقفـوا إلى جانب البابا، وقد شكلوا الآن جيشاً كبيراً ضده.

الاجتماع الثاني للأساقفة أمام روستاند

وفي حوالي الوقت نفسه، اجتمعت كتلة أساقفة انكلترا كلها ثانية بحضور المعلم روستاند في لندن، وبعد مناقشات متنوعة يوماً بعد يوم، تقرر بالنظر لغياب رئيس أساقفة كانتربري الذي كان في القارة، ولشغور كنيسة يورك، التي كانت هي الثانية في المرتبة في المملكة، ولغياب بعض الأساقفة، تأجيل اعطاء جواب حاسم للمطالب التي عملها البابا من خلال المعلم روستاند، حتى عيد القديسة هيلاري، فوقتها يمكن أن يجتمعوا كلهم لإعطاء جواب حاسم ومحدد، وهكذا فإنه بعد كثير من الخسائر، والمتاعب، والنفقات، افترقوا جميعاً وعادوا إلى مواطنهم، دون أن يعرفوا المتوجب عليهم فعله، لأنه إذا جرى بصورة عادلة أو غير عادلة تعليق أي واحد منهم، أو حرمانه كنسياً من قبل المعلم روستاند، كان هناك الملك مثل أسد كامن رابض، يتطلع إلى من يمكنه افتراسه، فهو وقتها سيقوم بمصادرة كل ممتلكات جميع الفئة التي صدر قرار بحقها والاستيلاء عليها، وسوف يفعل ذلك بعد مهلة مقدارها أربعين يوماً، وكان البابا والملك مثل الراعي والذئب، وكانا متحالفين مع بعضهما في سبيل تدمير الشياه، من ذلك الوقت فصاعداً، ثم إنهم افترقوا وكانوا أشبه برجال عميان يلتمسون طريقهم بوساطة الجدار، وكل واحد منهم همّه سلامته، وذلك حسب عادة الانكليز، ولو أنهم (الأساقفة) قاموا باتفاق جماعي فأرسلوا إلى البلاط الروماني ممثلاً عنهم، أو نائباً لهم، يتحدث من أجلهم جميعاً، لكانوا تمتعوا بسلام سعيد.

مغادرة كل من الأسقف المنتخب لطليطلة وأسقف بولون لإنكلترا

ومع أن الأسقف المنتخب لطليطلة، وأسقف بولون، كانا متأكدين من أن قوة البابا قد ضعفت وتحطمت، وأن الملك سوف يسقط في حالة من

الفوضى الكاملة، والدمار بسبب خسائره، مع هذا كله لم يكشفا له حقائق القضية، بل ما أن أصبحا غنيين من خلال هداياه الثمينة، حتى قاما بالمغادرة واحداً بعد الآخر، وعادا إلى وطنيهما بصورة سرية، ومثل ذلك فعل جميع الذين أثاروه وأوهموه بوساطة وعود زائفة، وذلك باستثناء المعلم روستاند، الذي كان محتفظاً به من قبل الملك من خلال سذاجته، ولكن مع ذلك عندما أخيراً تمت البرهنة للملك على أن خداع البابا وعاره كانا أمراً حقيقياً، لم يشعر بالأسى إلى أبعد الحدود ولم يحزن، لأنه لم يعرف كيف يحزن، ولم يعرف كيف يخجل، ولو عرف ذلك لشعر بعمق المرارة في قلبه، ذلك أنه لو امتلك أي قلب، لقام بعدما أثير إلى حد عظيم بالأضرار والخسائر التي لحقت به، وأصر على الانتقام المناسب، لكن لفسولته وأوهامه، استمر بعد جميع الخسائر التي عانى منها والخداع، ملتزماً بالاستماع إلى نصائح الأجانب، وأعداء المملكة، ولم يتنازل بالاستماع إلى النصائح المقنعة والصحيحة لرعاياه الطبيعيين، ومن الممكن معرفة هذه الحقيقة من الكلام المتناقض والمهين التي ألقاه روستاند عند نهاية المؤتمر المتقدم الذكر، وكان ذلك بحضور الجميع، وجاء رداً على واحد من الذين اشتكوا من الغرامات غير العادلة للبابا، حيث قال: «لولا احترامي للأساقفة الموجودين هنا، لما بقيتم من دون عقوبة، طالما يوجد شعر على رؤوسكم»، ويستدل من هذا الكلام الطائش والوقح، ويمكن الفهم بأنه أظهر مظاهر الوقاحة لثقته بحماية الملك، وجواب مماثل جرى تقديمه من قبله إلى المعلم ليونارد Leonard الذي كان المتحدث باسم الأساقفة عندما سأله: «هل رقيت من قبل الآخرين لتتكلم كما فعلت؟ أم أنك تتكلم على مسؤوليتك الخاصة؟»، ثم أمر بتدوين خطابه كتابة، وكأنه أراد بذلك أن يذكره إلى الحبر الأعظم، وتجاه هذا أصبح ليونارد خائفاً كثيراً، مع أنه لم يتكلم شيئاً يتناقض مع المنطق والحق، وخشي من أن يفقد كل الذي امتلكه، خاصة وأن ما من واحد من الآخرين سوف يتكلم لصالحه، وقد قيل بأن المبلغ الذي كان الملك

مـدان به إلى البـابا قد وصل إلى مـاتتي ألف باوند، وذلك بـالاضافـة إلى خمسين ألف باوند استيرليني كان أسقف هيرفورد قـد ألزم أساقفة انكلترا بدفعها، مع أن ذلك كان من دون علمهم.

الخصام بين أسقف باث ورئيس رهبان دير غلاستونبري

ونشب في هذا الوقت نفسه، خـلاف جاد مابين أسقف باث، ورئيس رهبـان غــلاستـونبري Glastonbury, ولذلك انطلق الأسقف ليقـوم بعبـور الألب في سبيل حسم المسـألة في رومـا، ووقف الملك إلى جـانب رئيس الرهبـان، دون أن يقيم تقــديراً للاضطرابات المضـاعفـة للأسقف والنفقــات الكثيرة التي سـوف يتحملهــا، ذلك أنه مســايرة لبعض الالتهاسات توجب عليه أن يرتحل إلى اسبانيا ثم يعود منها، لابل إلى المناطق النائية من تلك المملكة.

قائمة بأسماء الذين ماتوا في هذه الآونة

ومات في هذا العام، أو خلال مدة وجيزة منه وولتردي غري، رئيس أساقفـة يورك، وتوماس ويلشمان Welchman, أسقف القديس داود، وروبرت أسقف لنكـولن، والمعلم وليم وولـف، رئيس شمامســة لنكولن، ووليم ملـك ألمانيـا وكــونت هولاندا، وعــدد كبير آخــر من المراتب العـاليـة والمنخفضـة، وهم الذين هلكوا بالسيف أو غـرقـاً على تخوم فـلانـدرز وبرابانت، وكــذلك مـات المعلم روبـرت أوف تورتونا Tortona, وكـان رئيس شمامسـة في بلاط رومـا، وهو الذي كـان مشغـولاً هناك بالمحـاضرة باللاهوت، وكـذلك مـات في البـلاط نفسـه جايل الاسبـاني، ووليم حفيد البابا انوسنت، وكـان الأخيران كردنالين، ووارن دي مونتشينسيل Montchensil, وآرنولد دي بوي، وكان واحداً من أعلى المسؤولين عن الغابات في انكلترا، وكان متميزاً لأخلاقه وشجـاعته في الحرب، وجـون الرومـاني، وكان كـاهناً نظاميـاً في يورك،

ورجلاً عجوزاً وغنياً، وشرهاً كثيراً ومخاصماً، ومات من بين الأصدقاء المقربين للملك وليم أسقف سالسبري، الذي كان من بين أعماله الدنيوية اقتراف عمل أنزل على رأسه لعنات لانهاية لها، ووليم أوف هافرهول Haverhulle وكان خازن الملك، وبطرس تشسبور Chacepore, الذي أنهى حياته بنهاية مجيدة، بعدما صنع وصية نبيلة، وروبرت باسليف Passeleve, ورتشارد رئيس طباخي الملك، وهو الذي جمع مبالغ كبيرة من المال، فقد قيل بأنه كان يمتلك عند موته خمسة آلاف مارك أو أكثر، ومات من حاشية الملكة الخاصة روبرت موسغروس Muscegros, وكان قهرمان الملكة، وولتر دي بروديل Brudel وكان خازنها والمعلم الاسكندر، وكان طبيبها، ولقد كانوا ثلاثة رجال يستحقون عظيم الثناء، وكان بين هؤلاء المقدم الرئيس والزعيم هو وولتر دي غري، رئيس أساقفة يورك، الذي كانت براعته وكان اخلاصه أمران غير مشكوك بهما من قبل أي إنسان، ويكفي للبرهنة على ذلك ادارته للمملكة عندما كان الملك في القارة، ومات في هذا العام أيضاً بعض النبلاء في غسكوني، الذين كانوا يقاتلون هناك من أجل الملك، وكان من بين هؤلاء جون الفرنسي الذي كان محاسباً ومستشاراً أثيراً لدى الملك، ومضطهداً لديري القديسة مريم في يورك وسيلبي Selby, وكان سبب وفاته اصابته بالشلل.

مختصر لأخبار العام

وكان هذا العام خلاله كله مميت جداً لكنيسة روما وللبلاط البابوي، وذلك إذا أخذت تقوى الناس بعين التقدير، لأن كل تلك التقوى قد زالت، وكذلك الاخلاص الذي شعر به بالعادة الأساقفة والناس نحو أمنا كنيسة روما مع أبينا وراعينا الروحي البابا، ومع أن هذا البلاط قد قام بالغالب بقهر المسيحيين وجعلهم يشعرون بمرارة الروح، لكنه لم يقم قط بإحداث مثل الذي أحدثه من جراح أصابت كل واحد من

عباد المسيح، لابل أصابتهم جميعاً، فهذا ما فعله هذا البلاط في هذا العام، وفي العام الذي يليه، لأن الأبرياء قد دفعوا إلى الوثنية، حيث قاموا مثل المرتدين، بالتخلي عن الحقيقة والصدق، الذي هو الرب، وبالاضافة إلى هذا (الذي هو غير محتمل ومع ذلك عدوه محتملاً) لقد أرغموا على التخلي عن مقتنياتهم الدنيوية، ثم إن الإرباكات والازعاجات التي جلبت هذا العام إلى انكلترا، نعتقد أنها تستحق الوقفة معها لنأتي على ذكرها في هذا الكتاب، فقد جرى خرق امتيازات القديسين وغفراناتهم مما ألحق الضرر بهم، حيث لم يقدم التقدير لهم، وتبعاً لروبرت أسقف لنكولن امتلك البابا السلطة في القضايا التي تقود إلى البناء، وليس في الذي يقود إل الدمار، وفيما يتعلق بوعد العشور، تبدلت الثلاث سنوات فجأة وبصورة سرية إلى خمس سنوات، مع أن الوعد الذي أعطي لثلاث سنوات، كان حدثاً جديداً على الأرض، فقد كان من المعتاد دوماً حتى الآن أن يدفع العلمانيون العشور إلى الأساقفة، لكن الآن جرى ارغام الأساقفة على أن يدفعوا العشور إلى العلمانيين، وكان العشر يجري منحه لنجدة الأرض المقدسة، ولقد أرغمنا على تحويله لمساعدة أبوليا ضد المسيحيين، وكان العشر قد جرى منحه للحصول على التزام بالصك، الذي كان هنري، الملك المتقدم ذكره، ملزم بالاعتراف به والالتزام، ومع ذلك فإن بنوده لم يتم الالتزام بها، وكان العشر قد جرى منحه، ليتم انفاقه حصة حصة، ووفق شروط محددة، في مساعدة الملك، أثناء الذهاب إلى الحج، وليس أن نرغم على الدفع، كما يجري ارغامنا الآن بوساطة أكثر وسائل الارغام ظلماً، ولنتحمل أسوأ الأعباء، والكذب في طرق متنوعة ومضاعفة، لابل وصل الأمر إلى حد تجريد أنفسنا، الذي هو محرم بموجب الأوامر اللاهوتية في كل من العهدين، فنحن قد أرغمنا على تحديد تواريخ للدفع، وهي مواعيد لايمكننا بأي شكل من الأشكال الالتزام بها، وذلك من أجل أن نقع في شباك المرابين، الذين نعرف أنهم متحالفين

معهم ومتعاونين، فهناك أشخاص لايستحقون مطلقاً قد زودوا بالسلطة على الكنائس الفخمة، وعلى أساقفتهم الأماجد، وقد جرى بيع الأساقفة مثل الثيران والحمير، وهي حالة أسوأ أنواع العبودية، فأولئك هم الباعة الذين ينبغي طردهم من الهيكل وجلدهم، ولكن بما أنه أكثر إهانة اقتراف الأذى بعنف بدلاً من الخضوع لواحد، يمكننا أن نعتقد ببراءة بأن الشكاوي في هذه القضية سوف ترفع إلى الرب، إله الانتقام، وكان هذا العام —أقول ليس وفقاً لما نستحقه— كله خصب الانتاج للقمح والفواكه، إلى حد أن مكيال القمح نزل بسعره إلى شلنين، ووصل سعر الكمية نفسها من الشوفان إلى اثني عشر بنساً، وفي هذا العام انبعثت الكراهية المتأصلة، بوساطة ميديا الثانية تلك، أي سيئة السمعة كونتسة فلاندرز، وقد تسبب ذلك بتراكم الشرور، وسبب ذلك حدوث مذابح بشرية هائلة، وفي الحقيقة كانت أعظم مذبحة لحقت بالمسيحيين، وهي تستحق الحزن الدائم، وقد وقعت قبل وقت قصير وألمت بالفرنسيين والألمان، وقد أثارت الذين عانوا من الجراحات إلى طلب الانتقام، وفي الواقع حكم زحل وسيطر على موقع إقامته، واسم هذا الكوكب عند أوفيد «حامل المنجل» لأنه يجتث كل ماهو مزدهر، ويسبب الموت إلى كل ماهو حي، وبالنسبة إلى الأرض المقدسة تبرهن هذا العام أنه لطيف إلى حد ما، بسبب الهدنة وشروط السلم، وهي هدنة وإن كانت مشكوك بها، فقد عملت لمدة عشرة أعوام، أما بالنسبة إلى اليهود فكان عاماً مشحوناً بسفك الدماء.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٥٦ لتجسيد الرب، وهو العام الأربعين لحكم الملك هنري الثالث، وقد أمضى الملك المذكور عيد الميلاد في وينكستر، حيث زوده أخوه الأسقف المنتخب، بجميع الحاجيات الضرورية، وذلك بالاضافة إلى تقديم هدايا ثمينة له، واستضافته على مائدته، وفي أثناء المحادثات،

تكلم الملك مع أخيه لصـالح الرهبان، الذين جـرى طردهم من الدير، وتفـرقوا، حـاثاً إياه على أن لاينال وصمـة نكران الجميل، بالنسبـة إلى هؤلاء الذين ارتقوا به إلى منصبه الـرفيع، وأن ذلك كان أيضا بنا ءعلى التماسـه هو (الملك)، لكن الأسقف المنتخـب أجـابه قـائـلا: «ألم تعلم ببراءتك العطش المحترف الذي غـالباً مـاتبرهن عليه، بالنسبـة للبلاط الروماني»؟ فأجابه الملك قائلاً: «أنا أعلم وأعرف أنه لن ينطفىء أبدا»، وعلى هذا عقب الأسقف المنتخب قائلاً: «كما لن يكون نبع مالي جاف أبداً، بل سوف يجري استخـدامه حتى يملأ حتى التخمـة أمعاء هؤلاء الرومـان التي تشبـه الاسفنج والأفـواه الملتهمـة، وسـأتابع ذلك حتى يجري تحقيق رغبـاتي في مسألة هؤلاء الـرهبـان، الذين نصبـوا أنفسهم للوقوف ضدي».

وفي هذا الوقت نفسـه أيضـاً نشب خلاف بين وكـلاء الملك لجبـاية الجمارك وتجار الخمـور من الغسكونيين، الذين عـانوا بالعـادة من كثير من الخسـائـر والأضرار، من خـلال الشراة الـذين يستخـدمهم الملك، ورداً على متعهـدي تموين الملك قـال الغسكونيـون: «نحن لدينا سـد جـديد، منه نـأمل أن ننال منافع كبيرة، ونحـن نعتقـد أنكم سـوف تغيرون أعمالكم الشريـرة بالسرقـة التي تسمـونها جمارك، إلى أعمال صالحة، أو على الأقل معتـدلة، وقانونية، فمولانا شـاب، وإنه مفيد له الاستماع إلى نصـائح نافعـة، وأن يعـاملنا في منصبـه الجديد بكل لطف وعـدل، لأنه مثل غرسـة صغيرة السن وغضة، يمكن أن تنمـو وتطور نفسهـا، مـن أجل أن تحصل على القـوة، لإعطـاء ثمار جيـدة»، وبما أن وكـلاء الملك رفضـوا الإصغـاء لهم، بل قـامـوا كما جـرت العـادة بالاستيـلاء على خمورهم بالقـوة، من دون أن يدفعـوا لهم، ذهب الغسكونيـون إلى مـولاهم، أي إلى ادوارد، وتقـدمـوا بشكوى ثقيلة وعرضـوها عليه حـول الإجراءات التي تقـدم ذكرها، وأضـافوا بأنهم

امتلكوا حرية كتجار بالرسوبين المسلمين، وعرض بضائعهم للبيع، التي من أجلها سوف يتسلمون أسعاراً مناسبة من دون معيقات، وبناء عليه ذهب وكلاء الملك غاضبين قائلين: «ياصاحب الجلالة هناك ملك واحد في انكلترا يمتلك السلطة ليحكم بعدل، ذلك أن تجار الخمرة الغسكونيين قد تقدموا بالشكوى إلى واحد سواك، وذلك حول أذى قد لحق بهم، وهم قد أكدوا ذلك بشكل زائف، وهذا الإجراء هو بلا شك يسبب إلحاق الأذى بك وبالمملكة»، وبينما كان الملك شاعراً بالسخط لسماعه هذا، جاء إليه ادوارد، عارضاً شكوى ثقيلة حول الأضرار التي لحقت برعيته، معلناً أنه لن يتساهل مع مثل هذه الإجراءات والتصرفات مهما كان الأمر، ولدى سماع الملك هذا الكلام، قال له وهو يتنهد بعمق: «إن الذي هو من جسدي ودمي يهاجمني، وهاهو أيضاً أخي الايرل رتشارد قد أثير ضدي، وكذلك أول أولادي ولادة، فالآن تجدد زمان جدي هنري الثاني، الذي ثار ضده أولاده الأعزاء بوقاحة»، وتوقع كثير من الناس أنه سوف ينتج عن هذه القضية سوء كبير، وباتوا يخشون من حوادث أسوأ سوف تأتي بعد ذلك، لكن الملك أصغى إلى نصيحة حكيمة، فمر بهذه المسائل وعبر بهدوء، وأمر بإصلاح الأضرار التي وقعت، ومع ذلك زاد ادوارد من اتخاذ احتياطاته، فضاعف أعداد أتباعه المحليين، وصار يركب علناً وحوله مائتي خيال.

كسوف الشمس

أثناء متابعة الاحتفالات بعيد الميلاد، وفي اليوم السادس بعد يوم الميلاد، والثالث قبل اليوم الأول من السنة الجديدة، الذي كان عشية عيد القديس سيلفستر، تعرضت الشمس إلى كسوف جزئي، وفي طليطلة كان الكسوف كاملاً، وفي اليوم الثالث التالي، الذي كان عيد الختانة، كان القمر تبعاً للتقويم عمره يوم واحد.

خوف أساقفة إنكلترا الذين تجرأوا على التذمر ضدّ روستاند

وفي عيد القديسة هيلاري، قام أساقفة ورؤساء شمامسة انكلترا، الذين استبد بهم الأسى من كل جانب، بالاجتماع في لندن لتقديم جواب إلى المعلم روستاند، كاهن البابا والملك معاً، حيث أنه كان سفير البابا، والمحمي من قبل الملك، ولدى مثول المعلم ليونارد أمامه، وهو الذي تقدم ذكره من قبل على أنه المحامي لرجال الدين والمتحدث باسم الجماعة، قام بإلقاء كلمة لصالح الأساقفة، وكان من بين الأشياء التي قالها رداً على المعلم روستاند (الذي وقف ليعارض المعلم ليونارد، وقال بأن «جميع الكنائس عائدة للبابا»)، وقد قال باعتدال كبير: «إن ذلك صحيح، لو أنه من أجل الدفاع عنهم وحمايتهم، وليس للتمتع بثمار الآخرين أو اغتصابها، وذلك مثلما نقول: كل شيء عائد إلى الأمير، فنحن نفهم من ذلك، من أجل حمايتهم وليس من أجل تدميرهم، فهذه كانت نية المؤسسين»، وعلى هذا الكلام رد المعلم بغضب قائلاً: «ليتكلم في المستقبل كل واحد عن نفسه ولأجلها، وذلك في سبيل أن يعلم البابا وكذلك الملك، الذي قاله كل واحد حول مسألة تتعلق بها»، وعند سماع هذا التصريح، أصيب الجميع بالدهشة، إما لأنهم لم يتجرأوا، أو لم يعرفوا كيف يعبرون عن عدم رضاهم، لأنه بات الآن واضحاً وضوح النهار، أن البابا والملك كانا متحالفين متحدين من أجل ظلم الكنيسة ورجال الدين، ولذلك استأنفوا ضد المطالب التي عملت، لأن المعلم روستاند رفض تغيير حرف واحد مما أودعه كتابة، وكانت فحوى ذلك بأن الأساقفة قد أقسموا بأنهم اقترضوا مبلغاً كبيراً من المال —كما ذكر من قبل— من تجار عبر الألب، وأن تلك الأموال جرى تحويلها من أجل استخدام كنائسهم، وكان هذا واضحاً إلى الجميع أنه كان زيفاً، وبناء عليه أكدوا —ولم يكن ذلك من دون سبب— أنه أن تموت في سبيل هذه القضية سوف يكون طريقاً أكثر استقامة إلى الشهادة، مما كان في قضية

القديس توماس الشهيد، وعندما رأى المعلم روستاند أنهم جميعاً قد استبد بهم الأسف ومرارة الروح، عاد إلى طريق المداراة والنفاق، وأصبح أكثر لطفاً، وقال بأنه يرغب بأن يعقد اجتماعاً مع البابا حول القضية، وجرى على كل حال إرسال عميد كنيسة القديس بولص في لندن مع بعض الآخرين، إلى روما، ممثلين لجماعة الكنيسة الانكليزية، وساد شعور بالخوف فوق كل شيء بأن الأساقفة سوف يذعنون وينهارون أمام نفاق وعنف مثل أولئك الخصوم الأقوياء، حسبما كان عليه حال الملك والبابا، وأن هذه العبودية المقيتة، وهذا الظلم لرجال الدين وللكنيسة سيصبح بالنتيجة عادة، مما سيسبب الأسف عبر العصور.

التدابير الاحتياطية من أجل الالتزام بصكوك الامتيازات الممنوحة، إلخ

وجرى بشكل مفيد اتخاذ تدابير احتياطية من أجل وجوب الحصول على الالتزام الدقيق بالصكوك العظيمة للملك جون، وذلك تحت طائلة عقوبة التكفير الرهيبة، وهي الصكوك التي كان برضاه وعن طواعية قد وعد بها باروناته، وهي التي قام الملك الحالي فيما بعد، مرة ثانية الآن مؤخراً، بحرية وعن طواعية بمنحها في القاعة الكبرى لويستمنستر، وأنه أيضاً بسبب طغيان الملك، الذي لم يتوقف عن ممارسته في الكنائس الشاغرة، توجب تقديم صك آخر إلى البابا من أجل فحصه، وهو صك كان الملك جون المتقدم ذكره قد منحه إلى المملكة، وبسبب المنافع التي يمكن تحصيلها من الالتزام به من دون خرق، رأينا من الموافق اقحامه في هذا المجلد.

تثبيت صك الملك جون من قبل البابا أنوسنت الثالث

«من أنوسنت الثالث، إلخ، إلى إخوانه المبجلين، وإلى أبنائه المحبوبين، وإلى جميع الأساقفة المكرسين للكنائس في جميع أنحاء

إنكلترا، تحيات ومباركات رسولية:

بحمد مناسب نحن نثني على عظمة الخالق، الذي منه بآرائه الرائعة والمهيبة قد سمح لبعض الوقت للعواصف بالهبوب على أبناء البشر، وكأنه بهذا يتبارى مع العالم أراد أن يرينا ضعفنا وعدم كفايتنا، فهو الذي بإرادته يقول للريح الشمالية «هبي» وللريح الجنوبية «لاتمنعي هبوبها»، ويأمر الرياح والبحار، ويوقف العواصف في السموات، حتى يتمكن البحارة من الوصول إلى الميناء الذي يستهدفونه ويرغبون بالوصول إليه، وبالنظر لقيام خلاف مؤسف، مصحوب بخطر عظيم وخسائر كبيرة من زمن طويل هو قائم بين الملك ورجال الدين في انكلترا حول مايتعلق بانتخاب الأساقفة، هذا وبمعونة وإلهام منه الذي لاشيء غير ممكن بالنسبة له، والذي يجعل الرياح تهب حسبما يشاء، فقد قام ولدنا المحبوب في المسيح، جون، الملك المشهور لانكلترا، بمطلق حريته الشخصية، ومسؤوليته الذاتية، وبناء على الموافقة العامة لباروناته، وفي سبيل خلاص روحه وأرواح أسلافه وخلفائه، فمنح بكرم منه، وأكد المنحة وثبتها برسائله، حيث قضى أنه من الآن فصاعداً، تكون انتخابات ذوي المناصب من رجال الدين من جميع الأنواع العالية والمنخفضة، حرة وإلى الأبد، وذلك بالنسبة إلى جميع الكنائس والديرة، والكاتدرائيات، والرهبانيات في جميع أرجاء انكلترا، وبناء عليه قبلنا بهذه المنحة وصدقنا عليها بموجب فضيلة سلطاتنا الرسولية، وها نحن نثبت المنحة التي عملت لكم ونؤكدها، ومنكم إلى كنائسكم وإلى خلفائكم، وفقاً لمحتويات الرسائل المذكورة الصادرة عن الملك كما شوهدت من قبلنا، ونحن ندعمكم بحماية رسالتنا هذه»، وفي سبيل المزيد من تأكيد هذه المنحة، ولكي نجعل ذكراها دائمة من الآن فصاعداً، أدخلنا في هذا الكتاب الرسائل المتقدم ذكرها التي تتعلق بمنحة الملك في هذه المسألة، ونصها هو التالي:

صك المنحة التي عملها الملك جون

«من جون الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وسيد ايرلاندا، ودوق نورمانـدي وأكوتين، وكونت أنجـو، إلى رؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفة، والإيرلات، والبـارونات، والفرسـان، والنواب الملكيين، وإلى جميع الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، تحيات:

بناء على مـاتم بيننـا وبين آبائنا المبجلين: اسطفـان رئيس أسـاقفـة كانتربري، الذي هو الأول في انكلترا كلهـا، وكاردينال الكنيسة المقـدسة لروما، والأساقفـة: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف إيلاي، وجايل أسقف هيرفورد، وجوسلين، أسقف بـاث وغلاستونبري، وهوغ أسقف لنكولن، تم بنعمة الرب، وبالإرادة الحرة لكلا الفـريقين، تأسيس السلام كامـلاً حول مسألة الأضرار والخسائـر التي عانوا منهـا، في أيام الحرمان من شراكـة المؤمنين، ونحـن لانرغب فقط في ارضـائهم بقـدر مـايعيننا الرب، بل أن نعمل تدابير صحيحـة ونافعـة إلى كنيسـة انكلترا كلهـا إلى الأبد، وبناء عليه، إن كل عـرف مهما كان، كان حتى الآن ملتـزماً به، في أيامنا وفي أيام أسـلافنا في كنيسـة انكلترا، وكل امتيـاز ادعيناه حتى الآن لأنفسنا في مسألة انتخـابات أي رجل دين مهما كـان، إننا نقـوم بناء على التماسهم، وبناء على ارادتنا الحرة، ومن تلقـاء أنفسنا، وبناء على مـوافقـة باروناتنا، في سبيل خـلاص روحنـا وأرواح أسـلافنا وخلفـائنا في مملكة انكلترا، بناء على ذلك كلـه قمنا بمنح ورسم، وبوسـاطة الصك الحالي الصادر عنا الذي هو تأكيـد للمنحة، أنه من الآن فصاعـداً في كل كنيسة لابل في الكنائس جميعهـا، والديرة، والكاتدرائيات والرهبـانيات في جميع أرجـاء مملكة انكلترا، سـوف يكون انتخـاب أصحـاب المناصب الدينة العالية والمنخفضة حراً، مبقياً لنا ولورثتنا الوصاية على الكنائس الشاغرة والديرة، عندما يكونون عائدين لنا، ونحن علاوة على ذلك نعد بأننا لن نعيق، ولن نسمح لعمالنا باعـاقة الانتخابات المذكـورة، كما أننا لن نعمل

على منع الناخبين في أية كنيسة، وفي جميع الكنائس والديرة —كلما كان المنصب اللاهوتي شاغراً— من أن يعينوا بشكل حر راعياً لأنفسهم، مهما يكن الذي سوف ينتخبونه ويختارونه، على شرط، أن يطلبوا على كل حال سلفاً الاذن بعمل هذا منا ومن ورثتنا، وهذا سوف لن نرفض منحه، أو تأخير اعطائه، وإذا صدف (لاسمح الرب) أننا رفضنا أو أخرنا منح موافقتنا، يمكن للناخبين أن لايتقيدوا بذلك، ومن ثم متابعة أعمال الانتخاب بشكل قانوني، وبعد إجراء الانتخاب، ينبغي التوجه بطلب موافقتنا عليه، ونحن لن نرفض ذلك، مالم نقدم مستندات منطقية للرفض.

وبناء عليه تقضي إرادتنا، وأوامرنا الدقيقة، أنه بالنسبة لقضية الكنائس والديرة التي تصبح شاغرة، لايجوز لأي واحد انتهاك منحتنا هذه، ومرسومنا هذا بأية طريقة من الطرق، وإذا ما أقدم أي واحد، في أي وقت من الأوقات على مثل هذا الانتهاك سوف ينال لعنات الرب القدير ولعناتنا.

وشهد على ذلك: بطرس أسقف وينكستر، وو. W مارشال ايرل أوف بامبروك، وو. W ايرل وارني، ور. R ايرل شيستر، وس. S ايرل وينكستر، وغ. G دي ماندفيل ايرل غلوستر واسكس، وو. W ايرل فيرار، وو. W بروير Bruere, وو. W فتز—جيرالد، وو. W دي كانتلوب Canteloup, وهـ. H دي نيفيل، ور. R دي فيراند، وو. W دي هنتنغفيلد.

ونظم في المعبد الجديد في لندن، وكتب بيد ر. R دي مارش، مستشارنا، في هذا اليوم الذي هو الخامس عشر من كانون الثاني، في سنة ١٢١٦ لتجسيد الرب، وهي السنة السادسة عشرة لحكمنا، ولايجوز لأي واحد مطلقاً، بناء عليه الاقدام بنفسه على تجاوزهذا المرسوم، الذي جرى

تثبيته من قبلنا، أو القيام بطيش بانتهـاكه بأية طريقة من الطرق، لأن كل من يتجـرأ، مهما كـان فيحـاول هذا الشيء، ليكـن متأكـداً من أنه سينال غضب الرب، ورسوليه المباركين: بطرس وبولص. صدر في اللاتيران في هذا اليوم الثالث عشر من آذار، في السنة الثامنة عشرة لحبريتنا».

تذبذب كبير في قراراتهم التقوية

مثل هذه كـانت الصكوك والوثائق التي جـرى إعـدادها، في سبيل إرسالها إلى انكلترا، ليتم تقديرها من قبل الحبر الأعظم، لكن أي شيء جيد يمكن أن تعمل؟ ذلك أن تلك الاضـافة المقيتة «دون التقيـد» قد أضعفت كل شيء، لقـد منع المراوغون، ومستشـارو الشر، والمتملقون للرجـال الكبـار، كل شيء، وكل الذين تقـدمـوا بالشكـاوي، غـالبـاً ماتلقوا من البلاط الروماني، أي من البابا ومن إخوانه رداً مثل التالي: «إننا لانرغب في هذه الأوقـات أن نزعج الأمـراء»، وكانوا يضيفـون: «علينا أن نخفي الشيء الكثير، وأن نمـر بأمور كثيرة بعين التغـاضي»، (مهما كانت كمية الأذى التي يمكن أن تعمل)، وهكذا، إنه لمما نأسف له، إن دقـة التقيـد بالعـدل، عـدّ بسبب خـوف الناس الجبناء تذبذباً، خاصة في ذلك البلاط.

وفاة جون الروماني رئيس شمامسة ريتشموند

وفي هذا الوقـت نفسـه مـات جـون الرومـاني، رئيس شمامسـة ريتشموند Richmond، وكان رجـلاً شرهاً جداً، وقـد امتلك مبلغاً كبيراً جداً من المال، فقد استخـدم نفسه لحوالي الخمسين عاماً في جمع الثـروة، ومع أنه كان واحـداً من أعلى الكهنة النظاميين مرتبـة في كنيسة يورك، لقـد كان الأول، أو واحد مثل الأول، بمثابة جـاسوس منحط، تـولى كشف أسرار انكلترا، وأثـار الرومـان وحـرضهم للاستحـواذ بنهم أكبر من المعتـاد، والاستيـلاء بوسـائل صحيحـة أو

خاطئة، على موارد تلك البلاد، وبوفاته، ولشغور منصب رئاسة الشمامسة، استولى الملك على أوقافه، وعلى جميع ممتلكاته الأخرى ومقتنياته التي كان باستطاعته الاستيلاء عليها، ووزع كل الذي استولى عليه حسبما أراد ورغب.

وفاة وليم اليوركي أسقف سالسبري

وفي تلك الآونة نفسها من السنة مات وليم اليوركي، أسقف سالسبري، الذي كان منذ صباه من رجال البلاط، وبوساطة البلاط جرت ترقيته إلى أسقفيته، وكان من بين أعماله الدنيوية التي عملها واقترفها أنه أدخل إلى المملكة بمثابة قانون عرفاً كان سيئاً جداً، قضى أن يقوم كل مستأجر أو مكتري، مهما كانت القطعة المستأجر لها صغيرة، بتقديم خدمة للبلاط أو لرئيسه المتملك للأرض، مما سبب أذى كبيراً وإعاقة لهؤلاء المكترين، مع منفعة صغيرة، أو من دون منفعة إلى الرؤساء، وبناء عليه فإن الذين لم يعملوا قط خدمات من هذا النوع، اعترتهم الدهشة، لأنهم أرغموا الآن على القيام بذلك، وعبر هذا الأسقف من بين هذه المشاغل الدنيوية والاهتمامات في الحادي والثلاثين من كانون الثاني، ليواجه المخاوف التي يواجهها الأشخاص الدنيويين وأتباع البلاط، والتي سوف يخضعون لها، لأن أعمالهم الدنيوية سوف تلحق بهم.

كيف أرهق رئيس أساقفة كانتربري كنيسة روكستر

وفي حوالي الوقت نفسه، ضغط بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري ضغطاً شديداً على كنيسة روكستر، وهاجم ممتلكاتها، وحصل بموجب هذا الإجراء على كثير من اللوم، وقد قيل بأن الكنيسة التي كان من المتوجب أن يكون المدافع عنها، قيل بأنها أرهقت من قبله، وتقدم أسقف روكستر بشكوى إلى الملك حول هذا الأذى العظيم، ذلك أن

الملك هو المنتقم لمثل هذه الأفـاعيل، ومع ذلك نظر باستحياء وأجـاب: «أنا لايمكنني إرغـامه على العمل بالعـدل والاعتدال، خشيـة أن أسبب انزعاجـاً أو أذى إلى أسرته، خاصـة الملكة، ولأنه من أصل رفيع ونبيل، وله مكانة سامية».

الفضيحة التي اقترفت من قبل الفرنسيسكان

وفي حوالي الوقت نفسه، كان بعض اليهـود الفاسدي السمعة، الذين بلغ عـددهم واحـد وسبعـون، قد أدينـوا وحكم عليهم بالموت من قبل محلفين تألفـوا من خمسـة وعشرين فـارسـاً، من أجل قتل الطفل السيء الحظ، الذي صلبوه في لنكولن، وكان هؤلاء اليهود في السجن في لندن، من أجل شنقهـم، وبحكم أنهم كانوا أعداء الدولة، أرسلوا رسلاً سريين إلى الرهبـان الفـرنسيسكان، يرجـونهم التـدخل لصـالحهم، حتى يمكن اطلاق سراحهم مـن السجن، وانقـاذهم من الموت، مـع أنهم كـانوا يستحقون موتاً هو الأكثر مهانة، وبناء عليه قام الرهبان (بناء على تقارير عـالمية، إذا أمكن في قضيـة كهـذه من الممكن تصديـق العالم) بالتـدخل لصالح هؤلاء اليهود، لأنهم تأثروا برشاويهم، وأمكن بوساطة صلواتهم اطلاق سراحهم من السجن، وانقاذهـم من الموت الذي استحقوه، هذا وأعتقد أن علينا أن نؤمن بأنهم تأثروا بالمقام الأول بدافع روح التقوى، لأن كل واحـد يسير في طـريق الحيـاة في هذا العـالم لـه الحق في رعـاية مـوقفه، ومن الممكن انقـاذه، وينبغي أن يشعـر بالآمال، ولكن بالنسبـة للشيطان، أو الذين أدينوا وحكـم عليهم بصـورة واضحـة، لايمكن أن يكون لدينا أمل من أجلهم، كما أنه لاتجوز الصـلاة من أجلهم، لانعدام الأمل من أجلهم، فالموت والحكم المحدد قد غلّ هؤلاء اليهود من دون رجعـة، وهذه المناقشـة لايمكنهـا تسـويـغ عمل الفـرنسيسكان، أو منع الفضيحـــة من تشـــويه سمعتهم، مع أنهم لم يكـونوا مجرمين، وأوقفت الطبقـــات الدنيـــا من الناس أعمال صـــدقـــاتها، ولم يعـودوا ينعمـــون

بالصدقات عليهم، كما كانوا يفعلون من قبل، وهكذا فترت عواطف الناس من أهل لندن نحو الفرنسيسكان، وذلك وفق الطريقة نفسها التي تناقصت فيها صدقات البارسيين نحو الرهبان الدومينيكان، لأنهم حاولوا انتهاك الأعراف القديمة والمقررة للمجتمع.

اعتقال الشيخ الروماني وسجنه

وقام الرومان في هذا العام أيضاً باعتقال شيخهم برانكليون وسجنه، لأنه برهن عن نفسه إلى أعيان المدينة وإلى الناس أيضاً، بأنه شديد جداً في تنفيذ العدالة، وغير متهاون في عقوبة الأخطاء، وإثر اعتقاله بادرت زوجته بالذهاب مسرعة إلى بولونا لإخبار شعب تلك المدينة، الذين كان لديهم ثلاثين من الرهائن مقابل سلامته، ولقد أخبرتهم بالذي حدث إلى الشيخ الرسولي، وبناء عليه ضيق أهالي بولونا على الرهائن الذين كانوا لديهم مقابل برانكليون، ووضعوهم في سجن شديد الحراسة، وتقدم أعيان الناس في روما بشكوى ثقيلة حول هذا الإجراء إلى البابا، وبوساطة تدخل بعض الكرادلة الذين كانوا من أصل روماني، حصلوا منه على وعد، بأن سكان بولونا إذا لم يسلموا الرهائن، الذين لديهم من أجل سلامة برانكليون، سوف توضع مدينتهم تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وقد وضع هذا موضع التنفيذ، وتحمل سكان بولونا —على كل حال— نتائج هذا الحرمان، ورفضوا التخلي عن الرهائن للرومان، لأنهم عرفوا أنهم إذا فعلوا ذلك، سوف يجري على الفور إعدام برانكليون.

البرلمان العام الذي جرى عقده من قبل الملك الفرنسي

في اليوم الذي جاء بعد يوم عيد طهارة مريم المباركة، عقد الملك الفرنسي بارلمانا عاما، إليه أرسل ملك انكلترا رسلا خاصين، للمطالبة —كما هو معتقد— بحقوقه في القارة، وفي الحقيقة لقد ظن نفسه أنه

مـوضع خـوف في فـرنسـا، لكن هو لم يحصـل على شيء، إلاّ الرفض الصريح، كما أنه أخبر أيضاً بوساطة رسله بأن جيـوش البابا قد تحطمت بشكل لايمكن جبره وأنها تمزقـت وتدمـرت، وأنه لايحتـاج أن يزعج نفسه، أكثر مما مضى حول صقلية وأبوليا، وعلى هذا الأساس لم يطلب رسوله —الذي كان هو جون مانسيل— الاذن من ملك فرنسا، للسماح لملك انكلترا وإلى الذين جرى تعيينهم باسمـه، بالمرور بشكل حر خلال المملكة الفرنسيـة مع جيشه وأمـواله، وذلك على طريقه إلى أبـوليا، التي أعطاه إياها البابا بكرم منه، لصالح ابنه ادموند، وبناء عليه عاد الرسول دون أن ينجز شيئاً، سوى أنه جلب معه أخبار تدمير جيش البابا.

الحرب في تورين نتيجة لسجن توماس أوف سافوي

وفي هذه الآونة قام بونيفيس، رئيس أساقفـة كانتربري، يرافقه فيليب الأسقف المنتخب لليون، وبطرس أسقف سـافوي، ومعه كتلة كبيرة من العسـاكـر، قـام بالانطلاق إلى ايطاليـا، لمحـاربة مـدينة تورين Turin, التي كـان فيهـا أخـوهما تومـاس أوف سـافـوي —الكونت الأخير لفلاندرز— موضـوعاً في السجن، فقد برهن توماس عـن نفسه أنه كان حاداً وطاغيـة بالنسبة لشعبه، حيـث مزقهم بطريقة غير صحيحـة تماماً، وبشكل معـاكس لأعرافهم المعتـادة وعـاداتهم، ونتيجة لهذا قـرر سكان تورين، وأستي، وآخرون كانـوا متحالفين معهم، أن لايتحملوا أذاه بعد ذلك الوقت، فقـاوموه بشكل معلن في وجهـه، ولم يعبأوا بأصله النبيل، الذي اعتمـد عليـه ووثق به أكثـر مما هو صحيح، ومـارس طغيـانه على الناس الأبريـاء، ولهذا —كما ذكـرنا مـن قبل— ألقـوا بـه في السجن، ولذلك جـاء السـافـونيون مسرعين وعلى حنـق لانقاذه، وقـد واجهـوا مقاومة فعالة من السكان، ولكن حشـود السافونيين الكبيرة التي جاءت ضـدهم، أرغمتهم على التراجع إلى مـدينتهم، التي وقعت تحت حصـار فعـال على الفـور، وكـان بطـرس يمتلك كميـات كبيرة من المال، كـان

الايرل رتشارد قد أقرضه إياها بناء على رهن، وكان أيضاً مع الأسقف المنتخب لليون ومع رئيس أساقفة كانتربري مبلغاً كبيراً من المال المقدس، كان عائداً إلى الكنائس النبيلة التي كان لهم الرئاسة عليها، ووزعوا من هذه المصادر مبالغ كبيرة أعطيت إلى جيشهم الكبير، ومجدداً فإن ملك انكلترا والملكة، اللذان كانا ملزمين، قاما بتحويل كميات كبيرة من المال بصورة سرية إليهم، في حين قام البابا، حتى يظهر أنه معين فعال لملك انكلترا وللملكة، ولكي لايظهر أنه محرض بلافائدة، لكنه لم يرسل إليهم لاذهب ولافضة، بل رسالة مواساة بليغة ومطمئنة، من الممكن رؤيتها في كتاب Additaments.

كيف جرى استدعاء الراهب جون أوف دارلنغتون إلى المجلس الاستشاري للملك

وفي هذه الآونة نفسها، استدعى الملك إلى مجلسه الاستشاري الخاص الراهب جون أوف دارلنغتون Darlington, وكان واحداً من الرهبان الدومينيكان، وكان متميزاً لعلمه، ولمقدرته على المحاكمة وحسن مشورته، لأن الملك قد احتاج الآن إلى نصائح حكيمة، وإلى مواساة روحية، لأنه عندما بات متأكداً من دمار البابا وجيشه، عرف بأن المملكة غدت عرضة للخطر، ولذلك كان في حالة ذهول عقلي كبيرة.

شرف الفروسية الذي أنعم به على ملك مان من قبل ملك إنكلترا

في عيد الفصح أنعم ملك انكلترا على ملك جزيرة مان Man بشرف الفروسية، وأرفق ذلك بكثير من التشريفات والمنافع بناء على مبادرته، وكان اسم ملك مان المذكور ماغنوس Magnus.

موت وليم الهولاندي ملك ألمانيا

وفي هذا العـام نفسـه، حـدث أن وليم الهولاندي، الذي جعله البـابا ملكاً، ورفعـه إلى أعلى المناصب التي نالها قط بجعله ملكـاً على ألمانيـا، وهو الذي شعـر بتوفـر الوسائل والفـرصة بالحصـول على الامبراطورية الرومـانية، حـدث الآن بعـد انفـاق لانهاية له من مـال البابا عليـه، أن توفرت لـه فرصة صغيرة، فشرع بشن الحرب على الفـريزلانديين، وهم شعـب من النـاس غير متحضرين وغير مـــــدجنين، وسكن هـؤلاء الفـريزلانديون في المنطقة الشماليـة، وكانوا بارعين في الحروب البحـرية، وكانوا يقاتلون بنشاط كبير وشجاعة فوق الجليد، وحول المناطق الباردة لهؤلاء الفـريزلانديين وجيرانهم السارمـاتنيين Sarmatians, قال جوفنال Juvenal: «الأفضل للإنسان أن يهرب من هنا إلى ماوراء السـارماتنيين والمحيط المتجمـد»، إلخ، وبناء عليه نصب الفـريزلانديون كمائن على شاطىء البحر، بين الشعراء والنباتات هناك، وكذلك في جميع أرجاء البـلاد التي كانت مستنقعيـة (وكان فصل الشتـاء وشيك الحلول حوالي عيد طهـارة العذراء المباركة)، وقد خـرجوا لمطاردة وليم المذكور وقـد تسلحـوا بالحراب والنشـاب، وهـو مـاأطلقـوا عليـه اسم Gaveloches, وكـانوا بارعين في استخـدام هذا السـلاح، وتسلحوا أيضـاً بالبلطات الدانماركية والرمـاح، وكانوا يرتـدون ملابس كتـانيـة، غطوها بـدروع خفيفـة، وعند وصـولهم إلى أحـد المستنقعـات تقـابلوا مـع وليم، وكـان على رأسـه خـوذة، ويرتدي دروعـاً كـاملة، ويمتطي حصـان حرب كبير، أيضـاً مغطى بالدروع، وأثناء سيره تكسر الجليد تحته، مع أن سماكته كانت أكثر من نصف قدم، وغرق حصانه إلى كفليـه، وبات غير قـادر على التحـرك في طين المستنقع، وقـام الراكب الغاضب بغـرس مهمازيه في طرفي الدابة حتى وصلا إلى جوفـه، وحاول الحصان الأصيل الملتهب النهـوض، وبذل جهوده للقيـام وتحرير نفسه،

لكن من دون نجاح، وكـان مسحوقـاً ومعقـوراً، ولذلك غـرق أعمق، وتمكن أخيراً بجهـوده من رمي راكبه، بين قطع الجليـد القاسيـة، والتي تسبب الانزلاق، واندفع الفريزلانديون وقتها وانقضوا على وليم، الذي لم يكن هناك أحد يعينه في مأزقه ويخرجـه مما هو فيه، لأن جميع أصحابه المسلحين كـانوا قد هربوا ليتجنبـوا حادثـاً مماثلاً، ولقد قـاتلوه من جميع الجهات بحـرابهم ونشابهم، وذلك على الرغم من طلبـه الرحمة، وطعنوا جسـده ونفـذوا فيـه أعمق فأعمق، وكـان هذا الجسـد قـد تيبس بالبلل والبرد، وعـرض على قتلته مبلغـاً كبيراً جـداً من المال، بمثابة فـدية، إذا ماوفروه، وسمحوا له بالنجـاة حياً، لكن هؤلاء الأشخاص اللاإنسانيين لم يظهروا نحوه الرحمة، ومزقوه إرباً إرباً، وهكذا ما أن تذوق وليم طعم الامبراطورية، وهو الذي كان زهرة الفروسية، وكان ملك ألمانيا وكونت هولاندا، كما كان صنيعة البابـا وتلميذه، هوى من ذروة سمو منصبه إلى أعماق الفوضى والدمار، ولكن كما قـال الفلاسفة: «أن تموت وفق إرادة الأعداء، هو أن تموت مـرتين»، وعندما وصلت أخبـار الذي حدث إلى البابا، أصـابه الأسى، لأنه أسقط في أعماق الهاوية تلك المبـالغ الضخمة من المال، التي جمعت من كافة الأطراف، وبمختلف الوسائل.

موت إتيشيا كونتسة وارني

وفي هذا العام نفسه ماتت اتيشيا Etesia كونتسة وارني، أخت الملك لأمـه، مـاتت وهي في زهرة شبـابها وازدهـارها، مما سبب الحزن الكبير للملك ولزوجها جون الايرل الشاب لوارني.

مهمة وليم أوف هورتون ووليم راهب كنيسة القديس إدوارد وأحد رهبان القديس ألبان إلى روما

وفي حوالي الوقت نفسه، قام كاهن من وراء الألب اسمه جون أوف كيمزان Camezan بإلحاق الأذى وتسبب ببعض الخسائر لكنيسة

القديس ألبان، ولذلك جرى ارسال واحد من رهبان الكنيسة نفسها إلى البلاط الروماني للحصول على العدالة ضد الكاهن المذكور، ومن ثم تمت مرافقة الراهب المذكور، الذي كان اسمه وليم دي هورتون (؟)، وكان المسؤول عن المؤونة في الكنيسة المذكورة، مرافقته بالمعلم وليم أوف سينت ادوارد، وانطلقا في أحد السعف من أجل عبور الألب، وكان حاملاً لرسالة هي الأكثر بلاغة من الملك، خاطب بها البابا، وكتب كذلك إلى الكرادلة للتدخل من أجله، وبما أن الرسالة صيغت وكتبت بأفضل أسلوب وأبلغه، قام جون هذا —لأنه كان سخيفاً— بالتأكيد بأن الرسالة مزيفة، معلناً أن شخصاً له مثل هذا المنصب الرفيع، لم يتوسط قط برسالة لدى البابا، ولدى شخصيات أخرى من أصحاب النفوذ والسلطة، ولايمكن أن يعهد برسالة خاصة جداً وودودة إلى راهب بسيط، لكن هذه التهمة رفضت فيما بعد ونقضت بشهادة الملك، وإذا ما رغب أي إنسان برؤية تلك الرسالة، يمكنه أن يجدها في كتاب Additaments.

رسالة البابا إلى رئيس رهبان دير القديس ألبان

وجرى في اليوم نفسه إرسال رسالة من قبل البابا إلى رئيس رهبان ورهبان الدير المذكور، التابع لكنيسة القديس ألبان المذكور، آمراً إياهم، أن يدفعوا خلال شهر، إلى بعض التجار، مبلغ خمسمائة مارك، كانوا مدانين بها إلى التجار أنفسهم، وجعلهم يفهمون أنهم إذا تجاوزوا موعد الوقت المحدد لدفع المال، سوف يجري تعليقهم مباشرة، فهذا كان مقصد الرسالة وغايتها، مع أنهم لم يعرفوا أنهم كانوا مرتبطين بدين إلى أي واحد، وحدث الشيء نفسه لعدد من الديرة، التي كان عليها مثل ذلك أن تتحمل مرغمة نير هؤلاء التجار المرابين، وأعلن هؤلاء المحصلون، من أجل أن يجعلوا تحصيل المال أكثر يسراً وفعالية، أن جميع المال المطلوب هو من أجل استخدام الملك، الذي كان جاهزاً للانطلاق في حجه.

إطلاق سراح السجناء اليهود

في الخامس عشر من أيار في هذا العام، تم اطلاق سراح خمسة وثلاثين من اليهود الذين اتهموا بصلب القديس هوغ، الصبي من لنكولن، والذين حبسوا في سجون في برج لندن، فلقد أخرجوا من ذلك السجن، ونالوا حريتهم، علماً بأن هؤلاء اليهود، وجدوا مجرمين لدى محاكمتهم من قبل المحلفين، وكذلك من الإفادات التي عملت من قبل اليهود، الذين شنقوا في لنكولن، في المقام الأول.

اجتماع أساقفة إنكلترا في لندن

عندما وجد أساقفة انكلترا أنفسهم قد أنهكوا بسبب مختلف المشاكل، اجتمعوا في لندن، خلال أسبوعي الفصح، لتقديم جواب محدد إلى روستاند على الطلبات التي تقدم بها، وكانوا في البداية غير متحدين وغير متفقين فيما بينهم، وكانوا على وشك التفرق ثانية، لكن بعد ذلك جرى تشجيعهم من قبل البارونات، ولذلك رفضوا الاسهام بأي شيء من بارونياتهم إلى الملك.

كيف جرى استدعاء رؤساء رهبان طائفة السسترشيان للمثول أمام روستاند في ردنغ

وفي حوالي الوقت نفسه، قام المعلم روستاند، بناء على السلطات الرسولية باستدعاء جميع رؤساء رهبان طائفة السسترشيان في انكلترا، للمثول أمامه، في يوم الأحد الرابع بعد عيد الفصح، لسماع رسالة من البابا، وعندما اجتمعوا كلهم في الوقت والمكان الذي حدده لهم روستاند في دعوته، وبعد مقدمة طويلة، طلب منهم، من أجل استخدام البابا، والملك مبلغاً كبيراً من المال، كان مقداره في الحقيقة يعادل ماتبلغه نفقات صوفهم، والعالم كله يعرف، أن جميع وسائل ربحهم، لابل حتى الذي ينفقونه على حياتهم، يعتمد على صوفهم، ولدى سماعهم هذا

الطلب، اجتمعوا للتشاور فيما بينهم، وبعدما توصلوا إلى الاجماع في قرارهم، أجابوا بثبات بأنهم لم يكن مسموحاً لهم إعطاء جواب ايجابي لمثل هذا الطلب الثقيل من دون أخذ موافقة ونصيحة الرئيس مع الهيئة الرهبانية العامة للسسترشيان، الذين كانوا بالنسبة إليهم هم الأطراف والأولاد، وهكذا عادوا إلى ديرتهم تاركين المعلم روستاند في حالة من الغضب العظيم، وتصرف ذلك الشخص مثل طفل جريح عندما يفرّ للالتجاء إلى صدر أمه، فأسرع إلى الملك يشكو إليه مما جرى، وأفاد بأن رؤساء رهبان طائفة السسترشيان كانوا متحمسين بروح مبتكرة واحدة، ولذلك أجابوا بأنهم سوف لن يساعدوه في وقت حاجته بأية طريقة من الطرق، وغضب الملك، وأقسم وهو غاضب بأنه سوف يؤذيهم ويضطهدهم افرادياً، بحكم أنه لم يستطع ارغامهم على الاذعان بالموافقة على رغباته عندما يكونوا متحدين، ولأنهم قالوا بأنه كان الأكثر لياقة بالملك سؤال صلواتهم، لاالمطالبة بأموالهم، وأقسم بأنه سوف يحصل على كل من صلواتهم، ولن يعاق عن نيل مالهم، وصدف في ذلك الوقت أن كان في البلاط رئيس رهبان بايلدواز Bildewas من طائفة السسترشيان، وأرسل الملك خلفه، ولدى وصوله قال له بلهجة ناقدة: «كيف حدث أنكم يارئيس الرهبان قد رفضتم تقديم المساعدة المالية لي، في الوقت الذي أنا بحاجة إلى ذلك، وسألتكم ذلك بتواضع؟ أولست أنا ولي نعمتكم»؟ وعلى هذا أجابه رئيس الرهبان قائلاً: «طالما أنت ولي نعمتنا، وأبانا والمدافع عنا، أوليس اللائق بك والجدير أن لاتؤذينا باستخراج مالنا منا، فلقد كان الحري بك أن تطلب العون بصلواتنا، وأن تحذو بذلك حذو ملك فرنسا التقي»، ووقتها أضاف الملك قائلاً: «إنني أطالب بكل من مالكم وصلواتكم»، وعلى هذا أجابه رئيس الرهبان قائلاً: «أعتقد أن هذا من غير الممكن، عليك أن تكون من دون المال أو الصلوات، لأنك إذا استخرجت مبالغ قوام عيشنا الصغيرة منا بالقوة، كيف يمكننا أن نصلي من أجلك بتقوى واخلاص

في القلب؟ لأن الصلاة من دون تقوى صحيحـة، سوف تكون لها فائد قليلة لك، أو بلافائـدة»، لكن الملك، وإن كان رئيس الرهبان قـد أجابه بحكمة، وضع خطة سرية ضد جميع رؤساء رهبان السسترشيان.

كيف التمس رئيس رهبان ويردون الرحمة من الملك

وكـان في ذلك الوقت هناك فـارس غني اسمـه وليم بيـوشـامب. كـانت له زوجة اسمهـا ايدا Ida, وكانت سيـــدة من أسرة نبيلة. لكنها انحطت وباتت شريرة في أخلاقهـا، وكانت هذه المرأة مضطهدة لاتعـرف التعب للرهبـان من كلا الجنسين، الذين كـانوا يعيشـون من حولها، وقـد وجدت الآن فرصة مناسبـة نتيجة لغضب الملك، لإلحاق الأذى برئيس رهبان ويردون Waredon, فقد وضعت خططها بدهاء المرأة، وعملت شكـوى جـادة ضـــد رئيس الرهبـان المذكـــور، وقدمتهـا إلى بلاط الملك، عارفة بأن الملك وهو في حالة غضبـه سوف يدينه بعـدل أو من دون عـدل، وبناء على أسس تافهـة، أو بالحري من دون أسس مطلقاً، وهكذا ترك رئيس الرهبان عند رحمة الملك، وبما أن الملك كـان قد أوقف جميـع الطرق الأخرى للحصـول على الرحمة، إلاّ بوساطة التقدم بالالتماس إليه شخصيـاً، كان رئيس الرهبان مرغماً على التقدم بكل تواضع بالتماس الرحمة من الملك، ولدى تقـدمه بذلك، رد الملك بنظرة حـــادة أصحبهـا بقسم مـرعـب، وأجـابه قـائـــلاً: «كيف امتلكت يارئيس الـرهبـان الجرأة على طلب رحمتـي؟ أولست أنت مع اخـوانك من رؤساء الرهبـان، قد رفضتم مـؤخراً تقـديم الرحمة لي في وقت حاجتي»؟ ولذلك قـد غرمه مبلغـاً كبيراً من المال بناء على تقدير مضطهديه وإرادتهم.

ووفق الطريقـة نفسها، حـدث أيضاً أن جـرى ارغام رئيس رهبـان روفور Rufore, وكـان من طائفة السسترشيـــان، على دفع مبلغ كبير من المال، مع أن ذلك كـان من دون عدل، وبحجـة لاأساس لها،

اصلت وتطورت من قبل شخصين منحطين يدعيان «الغلامين»، ومثل ذلك حدث ارغام رؤساء رهبان آخرين من طائفة السسترشيان على المعاناة من خسائر مضاعفة وأضرار كبيرة.

رسالة البابا لصالح طائفة السسترشيان

نتيجة لهذه الإجراءات، جرى ارسال بعض الرجال الحكماء من طائفة السسترشيان إلى بلاط روما، للحصول على فرج وخلاص من هذا النوع من الظلم، وفي الوقت نفسه أرسل الملك وليم بونكوك Boncopue, وكان فارساً بارعاً في القانون، إلى البلاط نفسه، ممثلاً له وليعمل لصالحه في الوقوف ضدهم، ولقضاء بعض الأعمال الأخرى، وفيما يلي الرسالة التي حصل عليها السسترشيان:

«من الاسكندر، الأسقف وعبد عبيد الرب، إلى جميع أبنائه المحبوبين من رؤساء طائفة رهبان السسترشيان ورهبان طائفة السسترشيان في مملكة انكلترا وفي الأماكن الخاضعة لحكم المملكة المذكورة، تحيات مع مباركات رسولية:

كلما ارتفعت مكانة الدين —الذي تحتل فيه طائفتكم بنعمة الرب، المقام الأعلى، الذي حصلت عليه بفضل سلوكها وقداستها— كلما تعاظمت نحوها عواطف أمها، أي الكرسي الرسولي، الذي يرفع دائماً من منافعها وفوائدها وازدهارها، ويقويها بالنعم الروحية، ونحن بناء عليه، الذين نرعى مشاعر عواطف عظيمة نحو الطائفة نفسها، قد أخذنا بعين التقدير بأن ديرة الطائفة المذكورة، كانت في مملكة فرنسا معفية من دفع العشور إلى الموارد اللاهوتية، وهي العشور التي منحت من قبل من قبل سلفنا البابا أنوسنت صاحب الذكرى السعيدة، إلى لدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع للفرنسيين، من أجل

نجدة الأرض المقدسة، لأن ذلك الملك عدّ بأن الصلوات الخالصة لتلك الطائفة سوف تكون أكثر منفعة من المساعدة الدنيوية، ونحن بناء عليه نرغب بتزويدكم بمواساة وتهدئة، وذلك بقدر مانستطيع في تأدية واجبنا باستمرار نحو الرب، وأن نصنع لكم معروفاً خاصاً، وبفضل هذه العروض، نحن نمنحكم إعفاءً بعدم الدفع إلى ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، أو إلى أي شخص آخر، ونعفيكم من الارغام على أن تدفعوا له العشر من مواردكم ودخولكم، استناداً لحجة المنحة التي أعطيت إليه منذ ذلك الوقت من قبل الكرسي الرسولي، من عشور الموارد اللاهوتية في مملكته وفي الأماكن الخاضعة لسلطانه، من أجل نجدة الأرض المقدسة، ونحن على الرغم من ذلك نرسم بأنكم سوف تكونون أحراراً تماماً، ومعفين تماماً من دفع هذه العشور، ومن أي فروض أو مكوس على مقتنياتهم أو ممتلكاتهم، ونحن نلغي كلياً ونزيل جميع الاعفاءات، والرسائل، والإجراءات مهما كان نوعها، والمقررة لكم ولديرتكم، والتي جرى منحها من قبل الكرسي المذكور في هذه القضية، ونحن علاوة على ذلك نرسم بأن جميع الغفرانات والرسائل التي سوف تمنح من الآن فصاعداً، مهما كانت مقاصدها ومحتوياتها، سوف تكون بلاسلطة ضدكم، وضد ديرتكم، مالم يعملوا ذكراً خاصاً كاملاً، كلمة كلمة إلى هذا الغفران، وبناء عليه لايجوز لأي واحد، مهما كانت الأسباب، التجرؤ على التجاوز، أو العمل بشكل مضاد لهذه الوثيقة، الحاوية لما ألغيناه ولمرسومنا، وإذا ما تجرأ أي واحد على فعل ذلك، ليكن على يقين بأنه سينال غضب الرب القدير، والرسولين المباركين: بطرس، وبولص. صدر في نابلس، في الخامس والعشرين من أيار، في السنة الأولى لحبريتنا.

إغلاق الموانىء

وفي حوالي يوم عيد القديس دنستان Dunstan, أغلق الملك الموانىء، ونحن لانعرف سبب ذلك، وذلك في سبيل منع أي أسقف، أو فارس، أو كاهن من عبور البحر، مع أن أسقفي باث وروكستر، كانا قد فعلا ذلك، وفرغا منه.

حول المبارزة التي عقدت في بلايث

وفي حوالي أحد الشعانين عقدت مبارزة عامة في بلايث Blithe, وذلك وفقاً لقوانين ومبادىء الفروسية، وقد حضرها ادوارد الابن الأكبر للملك، وهو يرتدي ثياباً كتانية، وواضعاً دروعاً خفيفة، في سبيل التدرب على قوانين الفروسية، وقد حاول كثير من النبلاء وسعوا للحصول على شهرة الفروسية ونيلها هناك، لكنهم ضربوا، وألقي بهم من على خيولهم، وسحقوا، وديس عليهم بالأقدام، وكان واحداً منهم هو وليم صاحب السيف الطويل، لم يتعاف بعد ذلك أبداً من آثار جراحاته.

رسائل وساطة لصالح طائفة السسترشيان

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل البابا رسالة التماس إلى الملك، لصالح طائفة السسترشيان، وبالاضافة إلى هذا، كتب الكاردينال وايت White رسالة مخلصة كثيراً إلى الملك لصالح طائفة السسترشيان، ورجاه من أجل خاطر الرب، أن لاينهك تلك الطائفة المقدسة بمثل تلك الاستخراجات،وهكذا تمكن السسترشيان لبعض الوقت من التنفس بحرية، وتمتعوا بنوع من الهدوء والسكينة، فذلك ما كان عليه الحال.

اعتدال البابا في مطالبه

حصل الأشخاص الذين جرى إرسالهم إلى البلاط الروماني لصالح طائفة الأساقفة على تعديل للمطالب التي عملت من قبل البابا، وعلى شيء من التفريج من شدتها التي لاتحتمل وكذلك من مظالمها الأخيرة، فهذا ماتظهره الرسالة التالية:

من الاسكندر، إلخ، إلى الأساقفة إلخ: يتوجب على المساعدة التي جرى تقديمها بوساطة بصيرتنا أنكم إذا لم تحصلوا على فائدة منها، أن لاتشعروا إلاّ بقليل من الضرر، وبما أن أخانا المحترم أسقف هيرفورد قد قام باذن منا، قد منح إليه برسائلنا، بالاقتراض من ابننا المحبوب بشكل خاص أوليفر روزا Rosa ومن رفاقه مواطني وتجار فلورنسا، مبلغ خمسمائة مارك استيرليني، من أجل تسوية أعمال ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، ومع أنه جرى الايضاح في هذه الرسائل، وفي الوثائق العامة، التي أعدت من أجل هذا القرض، وأودع في المحتويات، وتم تبيان أن قرض المال هذا، لم يكن من أجل المسائل المتعلقة بكم وبديركم، وهو القرض الذي قام الأسقف المذكور برهنكم مع الدير المذكور وممتلكاته إلى التجار المذكورين، نحن نرغب في ترتيب هذه القضية بشكل لاتتعرضون أنتم فيه ولاالدير المذكور لأي أذى من هذا الإجراء، ولذلك نحن نمنحكم بموجب سلطات هذه العروض إذناً مفتوحاً، أنه إذا ماعجز الملك المذكور عن دفع المال المذكور، وكان من المتوجب عليكم ارضاء التجار المتقدم ذكرهم من أجل القرض، أن تحتفظوا بين أيديكم بممتلكاتكم بشكل مطلق، وأن تحذفوا من عشور مواردكم اللاهوتية القدر نفسه من المال الذي دفع إلى الملك من أجل نجدة الأرض المقدسة، وذلك حتى يصل إلى مثل المبلغ الذي سوف تدفعونه إلى التجار المذكورين، مع الخسائر والنفقات التي سوف تتحملونها بسبب هذه القضية، دون التقيد بأية رسائل إما جرى

الحصول عليهـا أو سوف يتم الحصـول عليها من الكرسي الـرسولي، فيما يتعلق بجمع العشور المتقدم ذكرها، مهما كانت الجهة التي وجهت إليها، أو مهما يكن القضـاة أو الوكـلاء الذين يمكن أن يكونوا وجهـوا إليهم، وعلاوة على ذلـك، إنه إذا ماحدث بسبـب الاحتفاظ بالعشـور المذكورة وصـدرت أية قـرارات بالتعليق، أو بالحرمـان الكنسي، أو بالحرمـان من شراكة المؤمنين،وجرى إعلانه ضـدكم، أو ضد أي واحد منكم، من قبل أية فئة مهما كـانت، إننا نرسم بمـوجب قوة هذه العـروض، ونقضي بأن يكونوا لاغين وفارغين، وأنكم غير ملزمين بالأخذ بهم وتطبيقهم».

الفتور العام في مشاعر الإخلاص نحو البابا

وفي حوالي الوقت نفسـه سيطر فتور على مشاعـر الاخلاص التي كنا نشعر بها نحـو والدنا البابا، وأمنا الكنيسـة الرومانيـة، لأنه منذ اللحظة الأولى لتعيينه، عندمـا طلب من المسيحيين تقـديم صلـواتهم له، نظر كثيرون إلى ذلك على أنه عمل نفـاق لتغطيـة إجـراءاته الدنيـوية، لكن شكوكهم أخذت تميـل إلى الهدوء لدى تذكرهم نصيحة القـديس، حيث قال: «عندمـا تبدأ بأي عمل صـالح، توجه بالدعـاء باخلاص إلى الرب ليكمله هو نفسه» إلخ، ولكن بما أن هذا الاخلاص قد تبعته أعمال ذات طبيعة مضـادة، بدأت تقاريـر غريبة تنتشر حـوله، والآمال التـي عقدت من قبل على قدسيـة البابا، قد خمدت وانطفأت، فقد جـرى التهامس في آذان الكثيرين، وتبين أن ذلك وقع حقيقة، بأن البابا قد خدع، وأن كثيراً من أعمال الزيف والخداع المضـاعفة قـد اقترفت بوسـائل الختم العظيم، وهذه الأسبـاب، وإن كـانت منطقيـة، لاتشفـع للبـابا ولاتسـوغ عمله، ولاتعطيه العذر.

انتخاب جايل لأسقفية سالسبري

وحوالي الـوقت نفسه قام الكهنـة النظاميون في سالسبري، بـانتخاب

المعلم جايل أوف بريديلفورد Bredelford أسقفاً لهم وراعياً لنفوسهم، ولدى عرضه على الملك، جرى قبوله منه، لأنه لم يجد أية أرضية فيه لرفضه.

انتخاب رالف أوف نورويك لرئاسة أساقفة دبلن

وجرى انتخاب المعلم رالف أوف نورويك، وكان رجلاً مثقفاً وفصيحاً، وقد تعلم منذ سني حياته المبكرة في بلاط الملك، أكثر منه في مدارس العلوم العقلية، ليكون رئيساً لأساقفة دبلن، ولكن بسبب معارضة هذا الانتخاب من قبل بعض الفئات، جرى تأخير تثبيته، وفي الحقيقة جرى توجيه اللوم إلى الناخبين لقيامهم باختيار رجل دنيوي تماماً، وكان مايزال في خدمة الملك، وتحت حكمه، حيث كان المتسلم لجمارك ايرلاندا، وهكذا جرى إلغاء الانتخاب.

سفر رئيس رهبان ويستمنستر وروستاند

قام رئيس رهبان ويستمنستر، والمعلم روستاند، والأسقف المنتخب لسالسبري، بالسفر بحراً، بناء على طلب من الملك، لترتيب بعض الأعمال له، التي لانعرف طبيعتها، لكن القائمة على خطط سرية، وكان من المؤمل أن تكون خططاً جيدة، كما أن أسقفي باث ووركستر قد سافرا مسرعين بصورة سرية، للقيام برحلة عبر الألب، لإبادة الكثير من البذور المضاعفة لعدم الاتفاق التي انتعشت الآن، وقام رئيس الرهبان ورفاقه بالمغادرة في بداية شهر حزيران.

المرسوم الجديد للملك حول تقليد الفرسان

وصدر في هذا العام مرسوم ملكي، وجرى الإعلان في جميع أرجاء انكلترا، بأن كل واحد يمتلك خمسة عشر امتيازاً من الأرض أو أكثر، ينبغي عليهم الشروع بالتدرب على استخدام السلاح، وأن الذين لايرغبون بحمل شرف مرتبة الفروسية، ولايمكنهم تحمل ذلك، عليهم

شراء اعفاءهم، وعمل هذا في سبيل تقوية فروسية انكلترا، كما هو الحال بين الايطاليين.

إقامة السلام بين الفلمنكيين والألمان والفرنسيين

أعيد إقامة السلام بين الفرنسيين، والألمان والفلمنكيين، لكن ظل ينظر إلى ذلك بريبة، لأن كثيرين جداً من على الطرفين، لابل في الحقيقة من جميع الأطراف، قد عانوا من الأذى والخسارة، حيث أن أكوام الرماد المتكاثرة لايمكن أن تصبح باردة، بل لابد من بقاء بعض شرر الغضب، وعقد السلام بين الشعوب المتقدمة الذكر في يوم عيد القديس سيرياك Cyriac وأمه.

عاصفة ثقيلة

وفي اليوم الثالث بعد ذلك، هبت عاصفة غير اعتيادية، أو بالحري عواصف متوالية من الريح والمطر، ترافقت مع البرد، والرعد والبرق، فأرعبت قلوب الناس، وسببت تدميراً كبيراً، وكان بإمكان الإنسان أن يشاهد دواليب الطواحين وقد انتزعت من محاورها، ونقلت بوساطة عنف الريح إلى مسافات بعيدة، ودمرت في طريقها البيوت المجاورة، والذي فعلته المياه إلى الطواحين المائية، لم تعجز الريح عن فعله للطواحين الهوائية، وتغطت دعائم الجسور بالحشائش وحملت أكواخ الصيادين مع شباكهم وأعمدتهم، لابل حتى الأطفال وهم في مهودهم، وقذفوا بعيداً فجأة، وهكذا بدا بأن طوفان Deucalion قد تجدد، ودون أن نذكر جميع المناطق، نشير إلى أن بدفورد التي تسقى بنهر أوسي Ouse قد عانت منه من دمار لايمكن تقديره، مثلما كان قد فعل قبل سنوات قليلة مضت، وحدث في الحقيقة أنه في أحد الأماكن جمعت على الفور ستة بيوت مع بعضها بعضاً وحملت بعيداً بوساطة التيار السريع، وواجه سكانهم مصاعب جمة في انقاذ أنفسهم، وتعرضت أماكن أخرى مجاورة للنهر إلى مخاطر مماثلة.

حول المرسوم الذي عمل في كنيسة القديس ألبان في ذكرى الملك أوفا

في هذا العام، في ذكرى يوم اعدام القديس ألبان، مقدم الشهداء في انكلترا، وهو اليوم الذي اعتاد فيه جميع رؤساء رهبان الديرة المتعلقة بدير القديس ألبان، على ممارسة الاجتماع في ذلك المكان، ويومها رسم في الهيئة الرهبانية التي اجتمعت هناك، بحضور رؤساء الرهبان وحشد جميع الرهبان مع جميع رؤساء الرهبانيات، وتقرر بموافقة الجميع، أنه في نهاية كل ساعة نظامية في جوقة المرتلين، وبعد تقديم صلاة الشكر أثناء الغداء، وبعد الصلوات، وصلوات الأسرة ومزاميرها، وفي المصح، وكذلك في غرفة رئيس الرهبان، ينبغي تلاوة الكلمات التالية: «علّ روح الملك أوفا ترقد بسلام»، وينبغي أن يجري ترداد ذلك بصوت واحد مرتفع، وأن هذا ينبغي الالتزام به من دون توقف أو انتهاك إلى الأبد.

وما من أحد يتذكر بأن هذا قد عمل من قبل، وكان اهماله غير معذور مهما كان الأمر، وبذلك لم يعد بالامكان الاستمرار بتوجيه النقد إلى الدير بالعقوق، وصحيح أن هذا المرسوم جاء متأخراً، لكنه عمل الآن، لأن ذلك الملك النبيل، الذي كان ملك الميرشيان Mercians, هو المؤسس الكريم لذلك الدير، والمعبد التقي للدين، فهو وإن كان متواضعاً جداً، ومنصرفاً إلى التدين، كان قوياً جداً وشجاعاً في الحرب، وكان مثل شارلمان في فرنسا، الذي كان معاصراً لأوفا وصديقاً كبيراً له، وهو الذي أخضع جميع الذين ثاروا ضده، ولقد تمكن أوفا العظيم من قهر جميع الأمراء الصغار واخراجهم من انكلترا، وهم الذين كانوا فيما مضى يصبون جام غضبهم وازعاجهم هناك، لذلك كان هو وحده الذي استحوذ على جميع المملكة تقريباً، أي المملكة الانكليزية، لأنه تملك بالقوة وحافظ على تملك خمس وعشرين منطقة، دعيت من قبل الانكليز باسم Shires, وأعتقد أنه لن يكون بعيداً عن موضوعنا إذا ماقمت بايراد ذكرهم في هذا الكتاب، حتى يمكن البرهنة على قدرته

وعلى اتساع حكمه، وعلى قداسته ببنائه الدير الفخم للقديس ألبان.

المقاطعات التي كانت تحت حكم الملك أوفا

هيرفورد وووركستر ١-٢	هنتنغدون وكيمبردج ١٥-١٦
غلوستر ووورويك ٣-٤	هارتفورد واسكس ١٧-١٨
تشيستر وستافورد ٥-٦	ميدلسكس ونورفولك ١٩-٢٠
شروبري وديربي ٧-٨	ساوثأمبتون وروتلاند ٢١-٢٢
	أونوتنغهام
ليستر ولنكولن ٩-١٠	
نورثأمبتون واكستير ١١-١٢	
بكنغهام وبدفورد ١٣-١٤	

ملحق الملك أوفا بدير القديس ألبان

وعلاوة على ذلك، أسس هذا الملك أوفا لدير القديس الحرية في المسائل الدنيوية، وبقدر مايستطيع أي ملك أن يفعل بالنسبة لهذا الدير كان هو المؤسس النبيل له، وفي سبيل أن يجعله أيضاً حراً في المسائل الروحية، ذهب شخصياً إلى روما، وأسس هناك مدرسة من أجل الانكليز، وذلك بالاضافة لإعطاء كثير من المنافع عندما كان مسافراً، وبعدل وعن جدارة، استحق على هذا، هذا الملك الذكرى السرمدية، وحصل على المنفعة الروحية للصلوات من أجل الغفران لروحه، التي جري التفوه بها إلى الأبد في الدير وفي كل مكان آخر، حسبما ذكرنا أعلاه، وذلك عند نهاية كل ساعة ترتيل نظامية، وبعد صلاة الشكر عند الغداء.

الاضطرابات التي وقعت في روما بسبب اعتقال الشيخ

وتفجرت في حوالي الوقت نفسه اضطرابات في مدينة روما بين النبلاء والشعب في أعقاب اعتقال وسجن شيخهم برانكليون بسبب الاستقامة والتشدد في إدارته للعدالة (لأنه تسبب بشنق جميع الذين أدينوا بالقتل، والسرقة، وجرائم أخرى، وبالتشويه وبعقوبات مضاعفة بطرق متنوعة)، وقامت زوجة الشيخ (التي يقال لها الشيخة) بالفرار بشكل سري، ومضت بكل سرعة إلى بولونا، حيث كان يوجد ثلاثين شاباً من أعلى الطبقات في المدينة محبوسين هناك بمثابة رهائن من أجل سلامة برانكليون، وأخبرت سكان تلك المدينة بالذي اقترف، وبناء عليه احتفظوا بالرهائن تحت حراسة مشددة، وأثار بعض الكرادلة الذين كانوا من أهل روما، ومنحدرين من أسر نبيلة، غضب البابا ضد سكان بولونا، وبذلك ازدادت الاضطرابات.

المعركة التي وقعت عند سوق بوتولف

ونشب في هذا العام أيضاً خلاف عند سوق بوتولف Botulph, وقد بدأ ذلك بخلاف وانتهى بمعركة بين الناس من أتباع بطرس أوف سافوي، وأتباع روبرت تيتشيل Tateshale الذين شاركوا في استلام بعض الأجور التي كانت تستخرج من ذلك السوق، وبما أن أعداد المتصارعين قد ازداد كثيراً، وهدّد بمزيد من سفك الدماء، تدخل أتباع الايرل رتشارد بحكمة وأوقفوا الهياج، وينبغي أن يكون معلوماً أن بطرس عندما كان على وشك مغادرة انكلترا، تمكن بقوة الالتماسات والهدايا، من اقناع الايرل رتشارد لأن يصبح الحامي لمقتنياته، وهكذا كان بطرس مستفيداً أكثر بكونه غائباً من لو أنه كان حاضراً، لأن الناس قالوا بأنه كان من العيب إلحاق الأذى برجل أثناء غيابه، خاصة عندما ألهموا بتأثير العاطفة، وبالروح الكريمة، في أنه كان يقاتل لإنقاذ أخيه، وهكذا توقف الخصام لبعض الوقت.

كيف كتب البابا إلى ملك إنكلترا وملكتها

وقـام بالوقت نفسـه بطـرس أوف سـافـوي مع نبـلاء أسرته: ٍرئيس أساقفة كـانتربري، والأسقف المنتخب لليون وسافونيين آخـرين بحصار مدينة تورين بنشـاط كبير، وهكذا أخذت المؤن تتناقص في المدينة، وبدا هناك أنه لاتوجد فـرصة بوصول نجـدة إليهم عن طريق نهر البو Po, وطرد السكـان من المكان جميـع الذين كـــانـوا غير قـــادرين على حمل السـلاح، وكـانوا كلما ازداد عليهم الحصار شـدة وضيقـاً كلما زادوا من التضييق على الكونت تومـاس في سجنـه، من أجل أنهم (سكان المدينة) إذا ماتعـرضوا للأسر والعقوبة، تتـوجب معاقبـة ذلك الكونت في المقام الأول، لأنه كـان السبب في مشاكلهم من الأول إلى الآخـر، وقام البـابا لكي يبدو أنه كان راغباً في فعل شيء جيد إلى ملك انكلترا وملكتها، في ظل تلك الظروف، فكتب رسـالة لهما على شكل مـواسـاة وتهدئة، وقـد جاء نصها كما يلي:

«من الاسكندر، أسقف، إلخ، إلى ابنته المحبوبة كثيراً في المسيح، الملكة اللامعة لانكلترا، تحيات ومباركات رسولية:

مـــؤلمة حقـــاً ومحزنة الأضرار التـي أنزلـت على الأبناء المخلصين للكنيسة، وقلبنا منزعج كثيراً نحو الاعتـداءات التي اقترفت ضد العبيد المخلصين للكرسي الرسـولي، ونحن نحزن أكثـر تجاه اضطرابات أولئك الذين أشع اخـلاصهم وتقواهـم نحو الكرسي الرسـولي، بشكل واضح أكثـر، لأنهم نالوا فــوق الآخـرين لقب الطهـارة، فـاستحقـوا الحظوة الأعظم والتشريف الأكبر من الكرسي المذكــور، لأننا نشعـر بأن المظالم التي وقعت على هؤلاء الأشخــاص قـد وقعت علينا أنفسنـا، وعندمـا يصـابون نحن نتذوق مـرارة جراحـاتهم، ولقد علمنا بمـرارة في القلب وانزعـاج في الروح، أنه عنـدمـا ذهب سكان آستي Asti لتـــــدمير قلعـة مــونتكالير Montcallier, في وقت مضى، قـــــام ولدنا

المحبوب كثيراً، النبيل الكـونت توماس أوف سافـوي، الذي هو عمك، وكـان وقتها يعيـش في تلك القلعة، بالفـرار من هناك، وحمل نفسـه إلى مدينة تورين، آملاً أنه بمساعدة سكان ذلك المكان، الذي هم أتباعه، أن يتمكن من استرداد تملكه للقلعة المتقـدمة الذكـر، التي من المعروف أنها عائدة له، لكن سكان تورين المتقدم ذكرهم، قـاموا بعدما استخفوا بكل الغضب من الرب، ومن الاهتمام بسمعتهم، فـاندفعوا بطيش، وخـرقوا اليمين التي كـانوا مـربوطين بها نحو ذلك الكونـت، وأقدمـوا بناء على إثارة سكان آستي ومسـاعدتهم باعتقـاله وجعله سجيناً، وبذلك جلبـوا على أنفسهم وصمة الخيانة، وجرحت هذه الأخبار المزعجة قلوبنا بحزن عميق، وهي أكثر إيلامـاً إلى عيوننا لأن السجين نفسه عـزيز جداً علينا، ولذلك حزنّـا —وليس ذلك لسبب غير صحيح— من أجل أن ولدنا، الذي نحبـه بشكـل خـاص من بين جميع الآخـرين، بات الآن سجيناً، ونحن نشعـر بالأسى —ولاعجـب في ذلك— لأن مثل ذلك الشخص النبيل الرفيع، الذي يمكن الاعتماد عليه في تأدية الواجبات المخلصة، قد سقط في أيدي خونة، وهو موجود في سجن مشـدد عليه، لأنه غدا أكثر قوة، نتيجـة اخلاصـه المستمر، وعمله المتـواصل من دون ملل في سبيل رفعة شـأن الكرسي الرسولي، وبما أننا نرعي مشـاعر طيبـة خاصـة نحو الايرل المتقدم ذكره، ونحـو أسرته، ولأننا شعرنا دوماً بعـواطف خاصة نحـو بيتـه بسبب اخـلاصـه الخاص نحـونا، لهذا إننا نشعـر على هذا الأساس بالألم بحـدة أكبر بسبب معاناته، ونتذوق مـرارة مايعانيـه بقوة أعظم، وعلاوة على ذلك إن آلامه تثيرنا وتؤلمنا عن قرب، لأننا نتعاطف مع آلامـه التي يعـاني منها، وبالطريقـة نفسهـا نحن لايمكن أن نضرب بجلدات العـدوان من دون أن نكون ذاتيـاً قـد ضربنا على الفـور مثلما ضرب هو، وفي الحقيقة، هـو لديه مشاعر ممـاثلة نحونا، وحـوّل أحزانه إلينا بنوع من أنواع التحويل المريرة، وعلى هذا رأينا أنه أمر صحيح، أن نلتمس برجـاء وأن نحث جلالتكم المخلصـة بالقيام بإلقـاء القبض على

الأشخاص والممتلكات العائدة للمواطنين من تورين وآستي، الذين من الممكن وجودهم يعيشـون في بلادكم وخاضعين لحكمكم، وأن تحتفظوا بهم سجناء، إلى حين تتم إعادة الكونت المتقدم ذكره إلى وضعه السالف من الحرية»، وقد جرى ارسال رسالة مماثلة إلى الملك.

كيف سأل رهبان دير أبنغدون الإذن من الملك القيام بانتخاب رئيس للرهبان عوضاً عن الحالي الذي كان يموت

أصيب في هـذا العـــام رئيس رهبـــان أبنغـــدون Abingdon بالشلل، وأثناء تمدده بلا حراك، متوقعـاً الموت، ذهب رهبان ذلك الدير إلى الملك وسألوه بتـواضع، بما أن رئيسهم كـان يحتضر، وبات غير نافع للآخرين، أن يستحوذوا سلميـاً على ديرهم، وأن يضعوه بين أيديهم، في سبيل عمل ترتيبـات نافعـة لتلبيـة حـاجـاتهم والتـزود بها، وفي سبيل الحصول على حظوة مـوافقته دفعوا خمسمائة مارك، من أمـوالهم الوافرة، إلى الملك، وبعـد عـودتهم إلى موطنهم بخمسـة عشر يومـاً مـات رئيس الرهبـان المشلول، وقـام الرهبـان على الفـور بعمل الترتيبـات اللازمـة وجهـزوا أنفسهم لانتخاب رئيس رهبـان آخر، لأنه كـان مسموحـاً لهم بفعل ذلك، بموجب صك حصلوا عليه مـؤخراً من الملك، وكان الملك قـد اعتقـد بأن حيـاة رئيس الرهبـان سـوف تطول لبعض الوقت، لأن الأشخـاص المشلـولين يعيشـون بالعـادة لوقت طويل، وعنـدمـا أخبر بوفـاته، دهش كثيراً، وعقب على ذلك بحـزن قائـلاً: «بحق رأس الرب (لنستخـدم كلماته المعتـادة) كم أنا خـدعت وغششـت! فلقـد تسلمت خمسمائة مـارك فقط، من ذلك الدير الغني، الذي بات شـاغراً بمثل هذه السرعـة، في حين لو أنني احتفظت به بين يـدي لأيام قليلة فقط، لكنت قـد حصلت من غاباته فقط، مـن دون تعويضـات أخرى، مـا كان قـد أضاف إلى خـزانتي مبلغ ألف مـارك أو أكثر»، وبناء عليه بـات واضحاً وضـوح النهار، لكل واحـد بأن تعطش الملك ونهمـه قـد ازداد كل يوم

أكثر فأكثر، وكان هذا حتى بعدما أقسم على المحافظة على امتياز الكنيسة وراحتها وسكونها.

كيف قدم جون دي ديا إلى انكلترا بموجب أوامر البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، قام الراهب جون دي ديفا Diva أو ديا Dia, وهو شخص جدير بالثناء، من طائفة الفرنسيسكان، بالقدوم إلى انكلترا، مع تفويض من البابا لتنفيذ جميع الاصلاحات المطلوبة.

تأكيد اقحام رئيس رهبان وينكستر

وجرى الآن بالنسبة لأندرو، رئيس رهبانْ وينكستر، الذي أقحم في ذلك المنصب من قبل الأسقف المنتخب، تثبيته في منصبه، على الرغم من معارضة الرأي العام للجميع (مما يبرهن على القوة العظيمة للرشوة في روما)، أما مايتعلق برئيس الرهبان القديم، الذي قد أنفق أموالاً كثيرة للحصول على حقوقه، فقد عاد الآن إلى انكلترا معاقاً غير محقق لهدفه، مع أنه كان يشعر بالأمل، من خلال بعض الوعود التي كان قد تلقاها، ليس من دون الوعد بتقديم مكافأة كبيرة مقابل ذلك، أي مقابل أن يعاد إلى وضعه رئيساً للرهبان في ديره، وذلك بمثابة طلب عادل، وجرى على كل حال تعيين بعض العزب العائدة للدير ومنحها له، حتى تتوفر له وسائط الانفاق والعيش طوال حياته، مع أن بقية حياته عبرت باضطراب وإهانة، وبرهنت هذه الواقعة عن مدى التأثير الكبير للرشوات في بلاط روما، وجرى الآن استدعاء الرهبان المتفرقين وإعادتهم، وهم قد تجللوا بالعار والشنار.

حول المكوس الجديدة التي فرضت على مواطني لندن

أرغم سكان لندن، الآن مرة جديدة على دفع مكس وصل إلى

خمسمائة مارك، وفي سبيل اعطاء بعض اللون لأسباب هذه الاستخراجات، ذكروا في بعض الأحيان أنها جاءت من أجل استخدامات الملك، وذكروا مرة ثانية أنها لصالح الملكة، وهم الآن يتوقعون أن تفرض عليهم ضرائب لصالح ادوارد، ولذلك كانوا تماماً تحت رحمة الملك، من دون التقيد بأي امتياز، وقد تحولوا إلى حالة هي أسوأ أنواع العبودية.

حول الاستيلاء على ممتلكات روبرت دي روس

وجرى الآن أيضاً الاستيلاء بشكل غير إنساني على ممتلكات روبرت دي روس، التي تكونت من الثيران، والأغنام، والقطعان من مختلف الأنواع، وعلى جميع ماامتلكه في مملكة انكلترا، حيث جرى بيع الجميع بشروط جيدة، وفقاً لرغبات المشترين، وهو لم يحصل على أية فائدة من اللهجة المتواضعة، وعرضه تقديم التعويض، كما أنه لم ينتفع من طاعته للأوامر التي حصل عليها من الملك، بعدم السماح لملك سكوتلندا وملكتها بالنوم معاً، بسبب صغر سنهما، حتى حلول وقت محدد، قد تبرهن أنه لم يحل بعد، ثم ثابر روبرت على طلب العفو من الملك، وكان كله أمل بالحصول عليه، ولكن بما أنه لم يحصل بعد على هدفه، تهامس الناس، وتردد بين صفوفهم، بأن هذا الحرمان من الحظوة الملكية، مرده إلى الكراهية الشديدة التي شعر بها الملك نحو شعب الشمال، الذي حاول من قبل خلع أبيه من العرش، وأنه اضطهد أناساً آخرين في الشمال، مثلما فعل مع روبرت نفسه، بسبب تلك الكراهية نفسها، لأن الملك قد قام حتى الآن، باستثناء روبرت هذا وجون بالأويل (الذي كان الآن يبذل غاية جهوده حتى لايسقط)، قام الملك بتجريد جميع نبلاء الشمال من ثرواتهم الماضية، وحوّل ممتلكاتهم إلى أجانب، آه منك أيها الملك المدهش، الذي لايتذكر الخدمات و الواجبات التي قدمت إليه، بل تعبر من ذاكرته مثل عبور غيوم الصباح، لكن صدره يختزن

الإساءات طويلاً، فماالذي عمله روبرت حتى استحق الملامة، آخذين بعين التقدير جوابه، عندما عرض الدفاع عن نفسه بجسده، غير أنه لم يستطع تبرئة نفسه من التهم التي وضعت ضده، لذلك خضع لحكم أعدائه، أو بالحري أصدقاء المناخ الطيب، الذين عندما يأخذ إنسان بالسقوط يعجلون بسقوطه، لكن كانوا يساندونه في أوقات ازدهاره.

تأسيس السلام بين رئيس رهبان القديس ألبان وويستمنستر

في هذا العام أيضاً، تم بعد تقلبات كثيرة، إقامة سلام بين رئيس رهبان دير القديس ألبان، ورئيس رهبان دير ويستمنستر، في قضية الخلاف المتعلقة بـ ألدينهام Aldenham, ومن الممكن الوقوف على شروط السلام في كتاب Additaments.

تكريس سيوول رئيساً لأساقفة يورك

جرى تكريس المعلم سيوول Sewal رئيساً لأساقفة يورك، وذلك بعدما أخذ من وسط تلك الكنيسة حيث كان عميدها، وكان القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان سيوول تلميذه ورفيقه قد توقع كثيراً من الخير منه.

السلام الذي أقيم بين و. أسقف إيلاي وهـ . رئيس رهبان رامسي

وفي حوالي الوقت نفسه أقيم سلام بين و. W أسقف إيلاي، وهوغ رئيس رهبان رامسي حول قضية السباخ، وقد وقعت واقعة مدهشة، فوق هذه السباخ في أيامنا، وكان ذلك في أماكن كانت منذ زمن سحيق من دن ممرات، ولايمكن الوصول إليها، حيث لم تتوفر وسائل للسفر للناس أو للمواشي، كما لم يكن هناك سكان، بل مجرد نباتات وأعشاب، ووحل عميق، وأماكن مستنقعية، مسكونة فقط

بالطيور، دون أن نذكر الأرواح الشريرة (التي عنها قرأنا في سيرة حيا القديس غوثليس Guthlace الذي اتخذ مسكنه هناك، بناء على إرادته، لأنه مكان رعب وعزلة واسعة)، وأقول لقد تحولت هذه الأماكن الآن إلى مروج واسعة، لابل حتى إلى أرض صالحة للزراعة. وهذه الأماكن نفسها التي كانت لاتنتج قمحاً أو تبناً، تنتج كميات وافرة من الأعشاب السيفية، والحلفاء، مع مواد أخرى للحرق. لاستخدامات السكان ومنفعتهم، ولذلك نشب خلاف بين الذين سكنوا السباخ منذ البداية، تتعلق بحدود هذه الأماكن، وأقسام الأرض وحصصها، وقادت هذه الخلافات إلى نزاعات ومعارك.

الفضيحة التي تأصلت في دير الثالوث المقدس في لندن

في يوم عيد القديس بطرس في الأغلال، نشب نزاع في دير الثالوث المقدس في لندن، بين اثنين من الكهنة النظاميين في ذلك الدير، اختلفا دوماً حول لاشيء تجاوز صوف الماعز، وصدر عن هذا النزاع كراهية شديدة، وهي كراهية سعت إلى القيام بالانتقام عن طريق سفك الدماء، لابل والقتل أيضاً، حيث شجع الشيطان على ذلك، ذلك أنه يزيد من الغضب ومن الكراهية الموجودة، ويوقدها بنفسه غير التقي، وقام الأول من الاثنين فاغتنم فرصة مناسبة لمحاولة اقتراف جريمة كبرى، حيث أقدم على قتل الآخر، وفي سبيل أن يظهر نفسه —القاتل— بأنه أثير ودفع على اقتراف جريمته، أقدم على جرح نفسه بشكل مرعب كما أنه شوّه نفسه، وارتفع آنذاك صراخ وولاويل، وجرى اعتقال مقترف الجريمة، وعوقب وفقاً للأحكام الدقيقة للعدالة، وبوساطة الشيطان، الذي خطط لجميع هذه الإجراءات، وهكذا فإن الجماعة الرهبانية، التي اهتم بشكل رئيسي بتشويه سمعتها، والاساءة إليها، حصلت —لأسفنا— على الفضيحة، وعلى العار، والاضطراب، فماالذي يمكن لهذين الكاهنين

النظامين المتمردين، اللذان حصلا على خطر ورعب اللعنة والادانة، أن يقولا أمام محكمة القاضي الأعلى، وإلى المتهم للجنس البشري؟ الويل لهما، اللذان من خلال فضيحتهما قامت الاساءة إلى سمعة الرهبان بشكل عام، ويتوجب على الرهبان الذين ينصب لهم الشيطان بشكل خاص أحابيله وشباكه، أن يكونوا واعين وحذرين، وأن يلجموا غضبهم وكراهيتهم عندما تنشب النزاعات وأعمال اللوم، لأن «الغضب ينتج الصراع، ويسبب الصراع الحروب، وتسبب الحروب الموت»، ومثل هذا الموت، كما حصل للأول، جلب الموت للثاني، وكان موتاً أبدياً.

كيف جرى الاعتراف بمانفرد ابناً شرعياً للإمبراطور فردريك

وتبين في هذه الآونة، أن مانفرد الذي ساد الاعتقاد لوقت طويل أنه كان ابناً طبيعياً لفردريك، بعد البحث عن الحقيقة في القضية، أنه لم يكن مجرد ابناً طبيعياً (أي غير شرعي)، بل ابناً شرعياً لذلك الملك، وبناء عليه نال على الفور محبة وتشريف الصقليين والأبوليين، الذين شرعوا الآن بالوقوف إلى جانب قضيته، فلقد حدث قبل عشرين سنة مضت أن أم مانفرد هذا، وقعت مريضة بشكل شديد، فقامت بمراسلة الامبراطور راجية إياه من أجل خاطر الرب أن يزورها، ويشفق عليها، لأنها اعتقدت أنها كانت على حافة الموت، واستجاب لطلبها، وعند ذهابه إلى المرأة خاطبته، ويديها مطبقتين والدموع نافرةمن عينيها وقالت له: «أشفق عليّ يامولاي، وساعدني بما أنني على وشك الموت، ذلك أنني سوف أكون في خوف عظيم من المخاطر على جسدي، لابل إن خوفي هو أعظم حول مايتعلق بروحي الذي هو خطر قريب ووشيك، فأنت لك ولد طبيعي مني اسمه مانفرد، كنت قد حملت به منك، فهل يرضيك أن تقترن بي، في سبيل أن يكون شرعياً، ومن أجل أن تتحرر روحي من الخوف»، واستجاب إلى التماساتها، وتزوج الامبراطور منها، لكن الواقعة بقيت

سرية لسنوات كثيرة، وفي هذا العام تبرهنت —على كل حال— حقيقتها إلى الصقليين والأبوليين، ولذلك وقفوا منذ ذلك الحين بثبات إلى جانبه، وانحازوا إليه ضد البابا، وضد جميع الذين عارضوه، وشرع مانفرد أيضاً يزدهر في حياته، ويحقق الانتصارات على جميع أعدائه، وكان الرب تجاه ذلك راضياً ومسروراً، وبما أنه أخذ يحصل على النتائج الطيبة في الحرب ضد البابا، بدأ هذا الأخير يسعى من أجل السلام، لأن مانفرد كان قد استولى على نابلس وبارليتا Barletta, وعلى مدن ساحلية أخرى، وعلى كابوا Capua, وعلى كثير آخر من المدن والبلدات، والذي كان أكثر فائدة له هو أنه تصالح مع النبلاء والناس وكسب قلوبهم إليه، وياللأسف، ووأسفاه، لم يكن هناك أي أسقف من أساقفة الكنيسة، كان يمكنه أن يواسي البابا ويتعاون معه، وهذا أمر لايمكنني أن أتفوه به، أو أدونه كتابة من دون فيض من الدموع، فلقد تصرف البابا بطريقة نحو الأتباع المؤمنين للمسيح، الذين توجب عليه أن يرعاهم بعواطف أبوية، ويضمهم إلى صدر إحسانه، نعم تصرف بطريقة جعلت ما من واحد يتعاطف معه في أزماته، لابل أكثر من ذلك وعوضاً عنه، إنه إذا ماقام أي واحد باغضابه والاضرار به، مع أنه قد يكون رجلاً شريراً ومعتدياً، ومقترفاً آثماً، ترى كل واحد مسروراً تجاه نجاح المضطهد.

إطلاق سراح برانكليون من السجن

أما بالنسبة لبرانكليون، الشيخ الروماني، الذي انتشرت سمعته الطيبة في الخارج، والذي عانى من اضطهاد كبير من نبلاء روما لتمسكه بالتنفيذ الدقيق للعدل، فقد جرى اطلاق سراحه من السجن، بوساطة تدخل الناس، وهو السجن الذي كان قد رمي به فيه.

كيف قدم ملك سكوتلندا وملكتها إلى إنكلترا

في بداية شهر آب، وبناء على مايشبه رسالة من ملك انكلترا

وملكتهـا، قدم ملـك سكوتلندا وملكتها إلى انكلترا، يحيط بهما مرافقـة كبيرة ومشرفـة (من المعتقـد أن بين عـددهم كـان هناك حـوالي ثلاثمائـة فـارس) وقـد جـاءا لزيـارة ملك وملكة تلك البـلاد، وأرادت ملكة سكوتلندا أن تشـاهد أبيها وأمهـا، ملك انكلترا وملكتهـا، ورغب ملك سكوتلندا في رؤية ملك انكلترا الذي أحبـه، وكـان قـد تبناه، كـابن له، وأراد رؤية الملكة أيضـاً، لأنهما كـانـا متشـوقين كثيراً لرؤية ملك انكلترا وملكتهـا، وكـذلك المملكة نفسهـا، وكنـائسهـا، ومـدنها، وقـلاعهـا، وأنهارها، ومـروجهـا، وغـاباتها، وحقـولها، وفي الحقيقـة مشـاهدة جميع المشاهد الجميلة التي تبرهن وجودها في تلك المملكة فوق سواها.

كيف ذهب ملك إنكلترا لاستقبال ملك سكوتلندا وملكتها

عندمـا علم ملك انكلترا بوصـولهما، خرج بسرور عظيم لاستقبـالهما على الطريق، وبعـدما عانقهما دخـل معهما في أحاديث ودية، وصـديقة، وبناء على أمر الملك، اجتمع عدد كبير من النبلاء في القصر، لاستقبالهما، وعندمـا اكتمل اجتماع الجميع، كـان مـن الممكن تعـداد عـدة آلاف من الخيـول، وكتلة عـددها أكبر من الرجـال، ولم يكن بإمكـان أية مـدينة، ولاحتى العزبة الملكية لوودستوك Woodstock, حيث اجتمعوا مع بعضهم، كـان يمكنهـا أن تستـوعبهم جميعـاً، وأقـام الفـرسـان، وعسكروا في سرادقـات نصبت في الغـابـات والحقـول لهذه الغـاية، وامتلأت مـدينة اكسفورد أيضـاً مع جميع القرى المحيطة بها بـالضيوف، ومن اكسفورد انطلقوا نحو لندن عبر طرق متنوعة، حتى لايكون هناك نقص بالمؤن، بسبب وجود ذلك الحشـد العظيم، وكان الملك قـد أصدر أوامـر بتزيين مـدينة لندن، بالأعلام، والأكـاليل، وبوسائل زينة أخـرى مضاعفة، في سبيل أن تظهر المدينة وكذلك ويستمنستر، متميزة بالبهجة، وجرى تنفيـذ هذا تمامـاً، وبعد الاحتفـال بعيد صعـود العذراء المبـاركة بفخـامة كبيرة في وودستـوك Woodstock, في كل من الكنيســة

والقصر الملكي، انطلق ملك سكوتلندا وملكتها، وملك انكلترا وملكتها نحو لندن، كما ذكرنا من قبل، عبر طرق مختلفة، وذلك بسبب الأعداد الكبيرة للذين كانوا مسافرين معهم.

كيف عمل ملك إنكلترا تقديمات ثمينة في كنيسة القديس ألبان

وقام الملك، وهو على طريقه إلى لندن بالذهاب إلى كنيسة القديس ألبان، وكانت زياته لذلك المكان غير معروفة في اليوم الذي تقدم على تاريخ وصوله، وحسبما كانت عادته، صلى هناك باخلاص وتقوى للقديس ألبان، الذي هو رئيس الشهداء الانكليز، وعمل منحة للكنيسة مؤلفة من أربعة طيلسانات، واحد منها أعطاه إلى مذبح القديس ألبان، ليجري تعليقه على الجدار كزينة، وأعطى آخر، للغاية نفسها، ليجري وضعه عند مذبح القديس أمفيبالوس، وثالث لمذبح القديس وولستان Wulstan, والرابع إلى مذبح القديسة مريم، حتى يجري تعليقه حيث يتم يومياً انشاد القداس.

كيف خرج إدوارد لاستقبال الملك لدى وصوله إلى لندن

وعند اقتراب الملك من لندن، خرج ابنه الأسن ادوارد مع كثير من النبلاء الآخرين لاستقباله، وكانت المدينة مزينة تكريماً للوصول المتوقع لتلك الشخصيات الكبيرة، لأنه كان هناك: ملك انكلترا وملكتها، وملك سكوتلندا وملكتها، وادوارد، وعدد كبير من النبلاء والأساقفة، وفي يوم عيد القديس أوغسطين «الأستاذ»، طلب جون مانسيل الاذن بالقيام بتضييف جميع النبلاء الضيوف في اليوم التالي، وجرت الاستجابة لهذا الطلب، وبناء عليه وجّه الدعوة لحضور وليمة غداء فخمة، إلى ملكي انكلترا وسكوتلندا، وجميع الايرلات، والبارونات، والفرسان الانكليز وكذلك السكوتلنديين، وكذلك أسقف لندن، مع عدد كبير من المواطنين، وكان عدد الضيوف في الحقيقة كبيراً جداً إلى حد أن بيته في

توثول Tothall لم يكن قادراً على استيعابهم جميعاً، لذلك أمر بنصب بعض السرادقات الملكية لاستقبال الضيوف، وكان الذين شاركوا في هذا الاحتفال كبيراً جداً، إلى حد أن سبعمائة صحن كانت بالكاد كافية لتخديم الحلقة الأولى من الحفل، ولم يكن معلوماً قط في أي وقت من الأوقات أن أي صاحب منصب ديني كان قادراً على تجهيز مثل ذلك الحفل الثري والوافر، لأنهم جميعاً جرى تزويدهم بكميات وافرة من كل نوع من أنواع المباهج.

وصول أخو ملك إسبانيا إلى إنكلترا الذي كان منفياً من بلاده

ووصل في الوقت نفسه بارون صاحب مرتبة عالية في اسبانيا، كان هو أخو ملك تلك البلاد، الذي قضي عليه بالنفي من بلاده، لأنه نال عن استحقاق غضب الملك، وقد أراد الآن الحصول على عون ملك انكلترا، وجاء يلهث وراء أموال الآخرين، ذلك أنه كان قد أزعج كثيراً ملك اسبانيا، وقد هرب الآن ليلتجىء إلى ملك انكلترا وإلى ادوارد، راجياً اياهما للتوسط من أجله، في سبيل أن يستعيد شروط صداقته الماضية مع أخيه الملك، ذلك أنه —أي المذنب— كان على استعداد، ولديه رغبة، في التكفير عن الأخطاء التي اقترفها، وبناء عليه قام ملك انكلترا، حسبما اعتاد أن يتصرف نحو الأجانب جميعاً، بفتح صدر المواساة له، وأمر بتزويده بكميات وافرة من الحاجيات الضرورية، كما أنه عهد بالوصاية به وبالاسبان الذين وصلوا معه وبصحبته إلى وليم بونكوك Boncoque, وكان فارساً يعرف الاسبان، وأخلاقهم وعاداتهم، لأنه قام بنقل عدة رسائل شفوية من ملك انكلترا إلى ملك اسبانيا.

منح هنتنغدون إلى ملك السكوتلنديين

وفي اليوم التالي لعيد القديس جايل، عمل ملك انكلترا منحة فأعطى هنتنغدون Huntingdon إلى ملك سكوتلندا، وأكد هذه المنحة

وثبتها بوساطة صك، معطياً السلطة للملك لتملك البلدة والاستحواذ عليها، مع التشريفات العائدة لها، والمتعلقة بها، حسبما كان بعض أسلافه قد فعلوا، وهكذا زاد الملك يومياً من ممتلكاته وافقار نفسه.

الهدايا التي عملها رئيس رهبان وينكستر المخلوع إلى مائدة البابا

قام هذا العام رئيس رهبان وينكستر المخلوع بكرم عظيم منه بزيادة نفقات مائدة البابا بمارك فضي واحد في كل يوم من أيام السنة إلى الأبد، وابتلع البابا هذه الأعطية بفكين مفتوحين، فلقد كان هناك ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً في السنة، ونتيجة لذلك اقتضى هذا استخراج مورد وصل بالماركات إلى العدد نفسه، ومع ذلك غادر هذا الرئيس للرهبان البلاط الروماني وسط الضحك والاستهزاء، دون إكمال عمله، وهو محبط تماماً في نواياه، لأن أعطيات خصمه، الأسقف المنتخب لوينكستر، قد قيل تفوقت على أعطياته بالكم وبالقيمة.

الجريمة الرهيبة التي اقترفت من قبل عمدة نورثأمبتون

كان هناك في هذا الوقت، واحد من الفرسان، كان غنياً، قد امتلك كثيراً من الممتلكات بالأراضي، قيل كانت تجلب إليه مورداً مقداره مائة وخمسين باونداً، ومع أن هذا الفارس كان غنياً، لقد رغب في أن يكون أغنى، وفي سبيل ذلك اشترى تعيين نفسه عمدة لنورثأمبتون، بعد الحلول محل العمدة المنصرف، وما أن حصل على منصبه، حتى استخرج المال من كل جهة من الجهات باللجوء إلى بعض الحجج التافهة حول أخطاء أو أمور أخرى، وكان هذا الرجل (الذي كان اسمه ولمي دي لآايل Lisle) مسافراً في أحد الأيام خلال الريف، وصدف أن وصل إلى مرج جميل كانت فيه بعض المواشي السمينة والجميلة ترعى، ولدى رؤيته لهم استبدت به مشاعر الحسد والشره، فاخترع سبباً للنزاع والخصام، حيث قال للراعي: «أنت خادم من؟»، وعلى هذا رد عليه

الرجل قائلاً: «أنا خادم صديقك» وقدم اسم سيده، «وهذه المواشي له»، وكان العمدة قد كره هذا الرجل منذ وقت طويل، وفكر الآن بعمق أكبر ودرس كيف يمكن أن يصطاده، حتى يتمكن من الاستحواذ على مقتنياته، سواء بوسائل طيبة أو قذرة، لأنه كان رجلاً له مكانته في المنطقة، محترماً، وحكيماً، وغنياً، ونظر العمدة بحدة إلى الراعي ثم قال له: «أنت لص، وخادم لص، وإلاّ كيف كان بإمكانه الاستحواذ على مثل هذا العدد الكبير من المواشي الجميلة؟ إنك لص مواشي تسرق في الليل، وهو بلاشك المتسلم لهم بعد سرقتهم»، وأنكر الراعي هذا، وأعلن أنه هو وسيده كانا رجلين شريفين، وهنا تابع العمدة كلامه وأجابه قائلاً: «أنت تكذب، لأنك أنت لص صغير، وخادم لص، وإنني معتقلك، ومستولياً على المواشي، التي هي مسروقة قد تسلمها سيدك، لأنه يتسلم الأشياء المسروقة، وهو يسمنها ليبيعها»، وقام عند ذلك العمدة الغاضب، من دون أي سبب عادل، بالاستيلاء على الثيران، أو عهد بالمسؤولية عنها إلى أحد الأشخاص، وسجن الراعي، وحمله معه إلى بيته مبعداً إياه عن مكانه، وأكد بيمين رهيبة بأنه سوف (لنستخدم عبارته العامية والدارجة) يجعله يغني، وأثناء غنائه عن نفسه وعن سيده، سوف يجعله يعترف بالحقيقة، فيما يتعلق بالسرقات التي اقترفت، ثم إنه سجن الراعي، وعذبه بشدة وبكثير من الطرائق غير المعروفة للتعذيب، حتى أنه وصل إلى حافة الموت، وأخيراً وفي سبيل أن يوقف المعذب أعمال تعذيبه غير الرحيمة، التي ترافقت مع انذارات بالاعتراف قائلاً له: «اعترف، اعترف بأنك لص، فاعترف الرجل التعيس الذي كان شبه ميت بأنه كان لصاً، مع أنه لم يكن كذلك، ثم أمر العمدة بمثول الرجل أمامه، وخاطبه على الوجه التالي: «والآن وقد اعترفت بشكل مكشوف بأنك لص وخادم لص، وجاء ذلك مترافقاً مع سماع بعض الذين هم قادرين وراغبين بتقديم الشهادة ضدك، ولذلك سوف تدان ويحكم عليك بالشنق، فالمشنقة هي الشيء الوحيد الذي بقي لك، وأنا على كل

حال لدي السلطة في أن أشنقك وفي أن أطلق سراحك وأمنحك الحرية، ولسوف تكون حراً، إذا مااتهمت سيدك باللصوصية وأكدت ذلك بدون تردد أمام رجال العدالة، وقلت بأنك لص وخادم لص، وأنك أنت كنت الوكيل، وكان هو المحرض والمتسلم، وقام الخادم المرتجف، وكله خشية من أنه سوف يلقى به ثانية في المكان، الذي عانى فيه من العذاب، بالموافقة على هذا كله، وبناء عليه أمر العمدة بالاحتفاظ به في السجن لكن مع مزيد من الحرية أكثر من ذي قبل، وذلك حتى وصول رجال العدالة، وكانوا سيصلون خلال وقت قصير، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى سيد الراعي، الذي كان آنذاك يعاني من حمى، أرسل بعض الرسل الجيدين، وبتواضع توجه بطلب الرحمة من العمدة، لأنه كان في وضع حرج جداً، لأنه كان معرضاً للضغط حتى مواجهة الموت بنوعين من الاضطرابات، وأخيراً، وبعد بعض المتاعب، واستخدام وسائل كثير من الرشوة، حصل الرجل المريض على فرصة تأجيل، حتى زوال أزمته الخطيرة وتكون اضطراباته قد عبرت، ويكون هو قد استرد صحته بعض الشيء وتخلص من مرضه، وعندما أصبح ناقهاً، تشاور بنشاط ومتابعة مع محامين قادرين، حول سبل النجاة من الكمين الذي نصب له، وقد تلقى تعليمات كاملة منهم، واستراح واسترد صحته، وفي الوقت نفسه تابع العمدة تعذيبه للرجل البريء، وأصر على الاستمرار في نواياه الشريرة التي أبدعها، مع أنه التمس منه بوسائل لطيفة وودودة، وجرى حثه بوساطة هدايا ثمينة، على الاقلاع عن نواياه ومقاصده، وذلك في سبيل تهدئة الفضيحة التي ثارت.

وبعدما وصل رجال العدالة، وضع العمدة الراعي أمامهم، معتقداً بأنه كان مستعداً لاتهام سيده باللصوصية، وعندما كان الجميع هناك ضائعين في لجة الدهشة تجاه تلك الاجراءات بين مثل تلك الشخصيات المشهورة، جرى الاعلان عن الالتزام بالصمت، من أجل الاستماع إلى

الراعي وهو يقدم بينتـه، وقد فعل ذلك وفق الطريقة التاليـة حيث قال: «سادتي رجال العـدالة، أنا في الحقيقة لست لصاً، كما أنني لست رفيق او خـادم لص، لكن هذا العمـدة في سبيل التمكن من إمـاتة سيـدي، قـام بتعريضي يومياً إلى عذاب لا يحتمل، حتى أن صراخي أزعج الجوار كله، وقـد أرغمت عليّ الاعتراف بالذي رغب مني أنَ أعترف به، لا بل حتى بعـدمـا اعترفت بأنني لص(مع أنني لست كـذلك) قـال لي:« أمـا وقـد اعترفت بأنك لص، إن المشنقـة هي كل الذي بقي لك، غير أنني سـوف أطلق سراحك، إذا ما أبدلت البينة الملكية، واتهمت سيـدك باللصوصية، وإن جميع الذي وعدت به بعـد ذلك، وعدت به وأنا فاقد لمشـاعري من خـلال أعمال تعـذيبـه، وإنني الآن أحتج، وأعلـن، وأؤكـد بأنني خـادم مخلص لسيـدي، وأن الأوضاع الحقيقيـة للقضية وتفـاصيلها مـوضوعـة أمــامكم، وإذا مــا قــام أي انســان بمعــارضتي، واتهمني أو اتهمــه باللصوصية، أو بأي جريمـة أخرى، فإننا سوف ندافع عن أنفسنا بشكل موائم، يتوافق مع قوانين وأعـراف المملكة»، وكان مولى الراعي حاضراً، وقـام بشكل مكشوف وصريـح بانكار الجريمة التي عـزيت إليـه، ودفع رجال العدالة انتباها دقيقاً وتقديراً وافياً لرواية الراعي، ذلك أنها حولت العمدة إلى مـوضع ريبة، وكـانت المنطقة كلها، لا بـل حتى بعض رجال العدالة عرفـوا بأن العمدة مشاكس، وشره، ومرتزق، وقـام مولى الراعي أيضـاً مـراراً في اجتماع عـام للمنطقـة بمعـارضـة الأحكام غير العـادلة، والقرارات القاسية التي أصـدرها العمدة، وفعل ذلك بحكم كونه رجلاً مستقيماً وحكيماً، وعلاوة على ذلك كان الراعي نفسـه وكذلك مولاه لهما سمعة جيدة غير ملوثة، ولم يتهما قط باللصوصيـة أو بأية جريمة أخرى، وكـان لجميع هذه الحقــائق وزنها لدى رجـال العـدالة، وكــانت أيضـاً منطقية، لكن بما أن العمدة كـان رجلاً في السلطة، وكان من أصل نبيل، وكان نائباً أعلى للملك، لم يختاروا اصدار قرار بعقوبة الاعدام ضده، مع أنه استحق ذلك، لأسباب كثيرة مضـاعفة، ووصلت صرخات الشكوى

من هذه القضيـة إلى مسـامع الملك ومسـامع بلاطه، وقـد أصيبوا جميعـاً بالدهشة تجاه ضخامة الجريمة، ووفقاً لما كان قد كتب:« أنا سوف أذهب نحـو الأسفل وأرى فيها إذا كان الصراخ مسـوغاً بالاجـراءات»، فأرسل الملك بعض الرجـال العقلاء والماهرين، كما كـانوا من ذوي المراتب، ممن لا يمكن ان يفسدوا لا من خـلال الخوف، أو الالتماسات، أو الرشاوي، وكلفهم بالقيـام بعمليـة بحث في هذه القضيــة، في سبيل أنه عندمـا يتم اكتشاف الحق، ينبغي أن يواجـه المجرم العقوبـة المستحقة، وبذلك يمكن انذار الآخـرين بذلك، فيخافـون من العمل وفق الطريقـة نفسها، وكـان الفـريق الذي أرسل لأداء هذه المهمــة هم: ايرل غلوستر، وايرل ليستر، وهـ .H وروبرت ويلران Walerann, وفـرسـان، وكــانوا جميعاً على معـرفة جيدة بقـوانين المملكة، وبعدما عمل هذا الفـريق بحثاً دقيقاً وشـاملاً تماماً، بوساطة فـرسان المنطقة، وجدوا آثامـاً أعظم جاهزة لتوجيه الاتهام بها إلى العمدة، وقد أخبروا الملك بها، وقد اعترته الدهشة تجاه الحقيقة، مثله في ذلك مثل الذين سمعـوا بالاجراءات التعسفية، وبما أن مـوتاً مهيناً على المشنقـة بات محيقـاً بالعمدة، بادرت زوجتـه مسرعـة كثيراً، وهي قلقـــة للغـايـة، إلى ملك السكوتلنديين وملكتهم، وبدمــوع ونحيب التمست منهما التوسط لدى ملك انكلترا، لمنع ذلك الشر الكبير من اللحـــاق بزوجهـا، وعـــلاوة على ذلك، أشفق جـون مـــانسيل على تعـاستهـا الكبيرة، فتكلم لصـالح المرأة الشقيـة، وبما أن ملك سكوتلندا وملكتها قـد توسطا من أجل العمدة، ومع أنه كان مجرمـاً بكل وضوح، اختـار الملك عدم اغضـاب المتـوسطين، الذين كـانوا من ذوي المناصب والمراتب العاليـة، فمنح المحافظة على حياة العمـدة وعلى أطرافه، مع أن ذلك جاء ضد ارادته، وفعل ذلك وكأنه كـان مرغماً، لأنه كان قد انزعج كثيراً، ورغب في تحقيق العـدل، وهكذا حسبما قـال الرسـول:« بوسـاطة زوجة مخلصـة تم انقاذ زوج غير مخلص»، ولقد رأينا أنه كان أمـراً مفيداً اقحــام رواية كـاملـة حـول هذه القضيــة في هذا الكتــاب، حتى يعلم

القــاريء، كم هو مغضـب للرب ممارسـة الطغيــان الشرير، والقيــام بالأفـاعيل الشريرة المؤذية للآخـرين، لأنه كما قـال الشـاعـر:« إنه يكفي بفعلك الشر أن تكون قادراً على فعل ذلك»، و«ولا تفعل شيئا لا ترغب فيها بعـــد أن تكون لم تفعله، بـل دع عقلك يفكر بحـــذر بالعمـل قبل اقدامك على عمله».

أصل الفريضة المقيتة التي فرضت على الأساقفة

في سبيل أن يعلم كل واحــد من قـراتنا ويفهم بوضـــوح، عليـه أن يعـرف بأن هذه الفـريضـة المقيتـة التي صـدرت عن أسقف هيرفـورد، تأصلت في المقــام الأول لدى البـابا، وأن الختم العظيـم لم يكن زائفـا، ولقد رأينا من المفيـد، ادخال الرسـالة التالية في هذا الكتـاب، لنعيد إلى الذاكـرة حـــالة العبـودية التي خضعـت إليهـا الكنيسـة مع الأســاقفـة الحديثين.

الرسالة الشائنة للبابا

«**من الاسكندر، إلخ، إلى ولده المحبـوب كثيراً، المعلم روستاند، إلخ:** بما أننا كنا قـــد أمـرنا من قبـل بوجـوب دفع ألفـي أونصــة Ounces ذهب إلى بيرثولد Berthold, مـركيـــز كمبردج، الذي هو وكيلنا من أجل إدارة شـؤون مملكة صقلية، وذلـك بوساطة أولادنا المحبـوبين كثيرا: رينـــالـــد، وريمير Reimer, وبيرفيـــــــــس Pervis, وسكوت Scott, وكرستوفـر كولون Christopher Colon, ورفـاقهم تجار ومواطني سيينا، وبما أنه بمـوجب أوامـرنا أيضا، كـانت بعض ديرة مملكة انكلترا ملزمـة بأن تدفع إلى التجـار أنفسهم مبلغ ألفي مارك استيرليني جديد، وبما أن المركيز المتقدم الذكر واخوانه، لم يتذكروا المنافع الكثيرة التي تلقوها منا ومن كنيسة روما، فاقترفوا خيانة مكشوفة ضـدنا وضـد الكنيسـة نفسهـا، وضـد ولدنا المحبـوب كثيرا في المسيح،

الملك اللامع لانكلترا، وذلك في مملكة صقلية،، ولاقترافهم لهذه الخيانة يستحقون عدلا أن يجردوا من جميع المنافع والانعامات التي أضفيت عليهم من قبلنا، وبما أنه لم يدفع من هذا المال سوى ثلاثمائة أونصة من قبل التجار المذكورين إلى المركيز واخوانه المتقدم ذكرهم، نحن نأمركم بهذه الوسائل الرسولية، وبموجب فضيلة طاعتكم، أن تقوموا بجمع المال، أو أن تتدبروا الجمع بوساطة أي واحد آخر، من الديرة والكنائس، وليكن هذا بوساطة ابننا المحبوب كثيراً، المعلم برنارد أوف سيينا، الذي هو قسيسنا وسفيرنا، أو بوساطة شخص آخر، يكون زميلاً له، أي جمع الألفي مارك المتقدم ذكرهم الذين جرى تعيينهم إلى التجار المتقدم ذكرهم، وأن يحذف من التجار المتقدم ذكرهم ماقيمته تساوي الثلاثمائة مارك المتقدم ذكرهم، وأن تتدبر تأمين تزويدك بالبقية من قبل المحتجزين للمال، ونحن علاوة على ذلك نأمركم بردع جميع المعارضين والحاجزين لهذا المال بوساطة الروادع اللاهوتية، وأن تؤجلوا جميع الاستئنافات، وبعدم التقيد بأية رسائل رسولية، أو غفرانات جرى الحصول عليها، أو سوف يجري الحصول عليها من الآن فصاعداً، مهما كان محتواها، حيث من الممكن أن يعاق بها دفع هذا المال، أو يجري تأخيره، ولاتعبأ مطلقاً بأن يكون الكرسي الرسولي، قد قام بوساطة أية رسائل رسولية، بمنح اعفاء أو غفران إلى أي واحد، واستثناء من أن يجري تعليقه أو حرمانه كنسياً، أو أن يوضع تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وبعدما تكون قد جمعت أو تسلمت المال المتقدم ذكره من الحابسين، مهما كانوا، عليك القيام بموجب السلطات الرسولية بتحليل هذه الديرة والكنائس المتقدمة الذكر من الالتزامات التي كانوا مرتبطين بموجبها بدفع المال المتقدم ذكره إلى التجار المتقدم ذكرهم، ثم عليك عمل إعلان بأن الرسائل والوثائق العامة التي صدرت حول مايتعلق بهذا الالتزام سوف تكون غير نافذة بالنسبة للمستقبل، وعليك أيضاً، تقديرا منك لحظوتنا ولحظوتنا أن ترسل أية مبالغ من المال قد تسلمتها

من الديرة والكنائس، ومن المعلم برنارد، ومن التجار المتقدم ذكرهم، ومن المحتجزين الآخرين، مهما كانوا، إلى ولدينا المحبوبين كاربوكو Carbuco وجيمس دي لاست Last, أو أي واحد منهما، ومن ثم إلى ج. J ريمير Remeir, وغيلبيرت أوف كريمونا، وإلى التجار الفلورنسيين، الذين أقرضونا بكرم مبلغ ألفي مارك استيرليني في سبيل تحصين المدن والقلاع، والأماكن الأخرى في مملكة صقلية، ومن أجل سداد بعض المدفوعات التي نحن وكنيسة روما ملزمين أنفسنا بها، ولاتتقيد أيضاً، بالرسائل الأخرى التي كنا قد أرسلناها لكم والمتعلقة بدفع مبالغ محددة من المال، وكذلك هذه المبالغ المذكورة، واسهامات أخرى سوف تعمل بشكل عام، وعليك أن تخبرنا برسائلك الموثقة عن مبالغ المال التي رأيت من الموائم تعيينها إليهم، وعندما يكون هذا المبلغ من المال قد دفع باسمنا، وباسم كنيسة روما، إلى كاربوكو المذكور وجيمس، أو إلى واحد منهما، نحن وقتها سوف نعتقد بأن ترضية كاملة قد أعطيت إلينا، وإلى الكنيسة المتقدمة الذكر، وعليك علاوة على هذا أن تسعى إلى تنفيذ أمرنا، أي أن كاربوكو المذكور وجيمس، سوف لن يكونا مرغمين على اللجوء إلينا ثانية، وعليك أيضاً أن تخبر الملك بأن هذا كله قد صدر عن نوايانا الطيبة نحوه، أما بالنسبة لرؤساء الرهبان، ورؤساء الرهبانيات، ورهبان الديرة والكنائس التي وضعت تحت الالتزام في هذه القضية جعلنا معلوماً لديهم في هذه العروض كمية المال، المتوجب على كل واحد من هذه الديرة، وعلى كل واحدة من هذه الكنائس، دفعه بموجب هذا الالزام، والمفروض على رئيس رهبان درم والدير فيها دفع خمسمائة مارك، وذلك بموجب سلطات الكرسي الرسولي، أما المفروض على باث فهو أربعمائة مارك، وعلى رئيس رهبان ورهبان دير ثورني مبلغ أربعمائة مارك، وعلى رئيس رهبان ورهبان دير كرويلاند Croyland أربعمائة مارك، وعلى رئيس رهبان ورهبان دير غيسبورن Gisburne من طائفة

القديس أوغسطين ثلاثمائة مارك. صدر في أغنانو Agnano في الثاني والعشرين من حزيران، في السنة الثانية لحبريتنا».

حول رفض رئيسي رهبان ورهبان ديري درم وغيسبورن الخضوع إلى الإلزام المتقدم ذكره

وعندما سمع أساقفة انكلترا بأن البابا والملك، كانا متحالفين، حسبما ذكرنا أعلاه، من أجل اخضاع الكنيسة الانكليزية، الأمر الذي من الممكن فهمه من الرسالة المذكورة أعلاه، باتوا في حالة من الحيرة، وظهروا وكأنهم قد سحقوا بين حجري رحا، وأصبحوا مثل رجال عميان لايعرفون الذي عليهم عمله، وعلى كل حال رفض رئيس رهبان درم والتجمع الرهباني لدرم، ورئيس رهبان غيسبورن ورهبان الدير، اعطاء الموافقة، ولابأي شكل من الأشكال، ورفضوا اخضاع كنائسهم لمثل هذا النوع من العبودية، وجاء ذلك على الرغم من أن جميع الآخرين تقريباً قد انحنوا أمام بعل، وجثوا على ركبهم أمامه، وقد بقيوا على كل حال واقفين بثبات، يقاتلون في سبيل حرية كنيستهم، وعلى استعداد بشجاعة لتحمل تعليق طويل مع تنكيل البلاط الروماني، وكذلك الاهانات، والملامات، والتهديدات الصادرة عن التجار، أو بالحري المرابين، هذا ولم يكن لهم أي صديق في ذلك الصراع، وقد حزنوا لذلك، وخاف البابا وحزبه من أن يقوم آخرون بتقديم المساعدة إليهم في وضعهم المضطرب، وذلك صدوراً عن الشفقة، وأن يقوموا بروح عدوانية مماثلة بالتعاون مع إخوانهم، لكن هؤلاء خافوا وارتعبوا، وحنوا رقابهم إلى النير، وديس عليهم بأقدام أعدائهم، وهكذا لم يكن هناك من واساهم، أو قدم النجدة إليهم، بل انقسموا، وتأرجحوا إلى هنا وهناك وكأن الريح كانت تحركهم، وفقدوا الإحسان، فدافعت كل فئة عن الذي كان عائد إليها، وسقطوا في دفاعهم، وكان هذا سبب رفع جباه أعدائهم وشموخهم.

كيف هدّد ملك قشتالة بغزو غسكوني

وفي هذه الآونة، أخذ الملك الذي كان من دون مال، وبحاجة إلى المال، في جشعه إلى المال، بالاستيلاء على خمور الغسكونيين، دون أن يدفع إليهم أي مال، ولذلك عاد تجار الخمرة مع آخرين إلى ملك قشتالة، الذي كان وسيطاً وصانعاً للسلام بينهم وبين ملك انكلترا، وهو الذي أمر بتدوين بنود السلام وكتابتهم في صك، من الممكن الوقوف عليه في كتاب Additaments, عند علامة السيفين المتصالبين (؟)، وعندما سمع ملك قشتالة بهذه الإجراءات غضب غضباً شديدا، وأثير، لذلك انفجر في التوبيخ وقال: «أنا آسف لأنني دخلت بتحالف مع ملك انكلترا، الذي لايحافظ على عهده، ولاعلى صكوكه من دون خرق، والذي لايخجل من الحنث بيمينه، كما أنه لايخاف من الحصول على حكم قانوني بالحرمان الكنسي يجري إعلانه، وعلى كل حال، أنا مسموح لي، وموائم بالنسبة لي عدم الالتزام بالشروط (التي أبرمتها أنا مع واحد لايحافظ شخصياً على عهده)، ومع قسم رهيب هدّد بالقيام بغزو غسكوني، لوضعها تحت حكمه، وعلاوة على ذلك أعلن ملك فرنسا، لأن الهدنة قد انتهت، عن نية لم تكن أقل خطراً، وارتعب ملك انكلترا تجاه هذه الشرور التي أحاقت به، ولم يكن هذا أمراً ليس مسوغا، فأرسل جون غيتدين Gatesden الذي كان فارسا مع بعض الآخرين، رسلاً خاصين إلى ملك قشتالة، لإطفاء غضب ذلك الملك، وكان بين العبارات البليغة والمعتدلة، التي تفوه بها السفير الحكيم والمتعلم، حسبما روي هي الكلمات التالية: «مولاي الكريم، هل هناك كرم أعظم، أو لطف أكبر مما أظهره الرب القدير لبني البشر، من أنه قدم ابنه لتخليص وانقاذ كل واحد»؟، وعلى هذا أجابه الملك قائلا: «أنا لاأعرف، أنه يوجد، لأن ذلك هو الأعظم بين جميع المنافع»، ثم أضاف جون: «إن هذا مافعله ملك انكلترا نحوك، لأنه أعطاك ابنه الأكبر، وهو شاب وسيم في

شكله وشخصه، وهو الوريث لجميع الممتلكات، لذلك ينبغي أن لاتكون ياصاحب الجلالة غاضبا من مثل هذا الصديق، الذي يقدرك تقديره لأخ له»، وبذلك انطفأ غضب ذلك الملك، لكن غاستون وبعض الخونة الآخرين لملك انكلترا، قاموا معتمدين على حماية ملك قشتالة، برفع رؤوسهم، وحافظوا على مواقفهم الرافضة التي كانوا متورطين فيها.

احتلال مخادع لعمادة يورك

وفي حوالي الوقت نفسه، قدم أشخاص غير معروفين إلى كنيسة يورك، ودخلوا إليها بشكل سري، عندما كان الناس جالسين إلى المائدة منشغلين بتناول طعامهم، وسألوا واحداً كان يصلي هناك، عن المقعد الذي كان العميد يجلس عليه، وبعدما تلقوا الجواب، وأرشدوا إلى مقعد العميد، اقتاد اثنان منهم رجلاً ثالثاً إلى ذلك المقعد، وقالا له: «أيها الأخ، إننا بموجب سلطان البابا نتولى تنصيبك»، وعندما بلغ هذا إلى مسامع رئيس الأساقفة المعين حديثا، أي سيوول، الذي كان من قبل عميداً لتلك الكنيسة، قهره الحزن، تجاه اقتراف مثل هذا العمل المخادع، واستخدم كل الوسائل التي توفرت إليه وكانت بقدرته للحيلولة دون هذا التنصيب، لكن وكلاء هذا الإجراء ومقترفوه، ذهبوا إلى بلاط روما، حيث عادوا من هناك، وقد تمكنوا من تدبير المسائل، حتى أنهم تمكنوا من وضع هذا الرجل الصالح واللطيف تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وجعلوه يتحمل خسائر كبيرة ونفقات، وقد تحمل رجل الدين هذا كله بصبر، في سبيل أن يظهر وهو يعاني، وهي المعاناة التي كان معلمه وصديقه، ورفيقه القديم، القديس ادموند، قد أخبره مسبقاً بأنها سوف تقع له، وأدهشت عملية الوقاحة هذه باقتراف الخديعة جميع الكهنة النظاميين، إلى حد أنهم جميعاً لم يعرفوا الذي عليهم القيام به، لأنه بدا لهم أمراً متناقضاً، وبعيداً عن المنطق، لابل في الحقيقة، أمراً مقيتاً السماح لمثل ذلك المنصب الكنسي النبيل، الذي هو منصب له أهميته

القصـــوى، بأن ينعم به على شخص مخادع وغير معـــروف، الذي أقحم نفسه ونصبهـا بطريقة عـدوانية، ومن ثم السماح بأن يستحـوذ على ذلك المقام في تلك الكنيسـة الفخمة، وهو المقـام الذي يعد الثـاني بعد رئـاسة الأساقفـة، غير أنهم كانوا في رعب عظيم وويل من طغيـان سلطة البابا، التي إليها أذعن الملك، أو بالحري إذا أردنا قول الحقيقة: جثا على ركبتيه.

كيف جرى ارغام الرهبان السسترشيان على دفع ضريبة

أصدر الملك أوامر بوجوب عـدم ابداء المراعاة نحو السسترشيان، بل يتوجب على عمد المناطق وبقيـة الوكلاء الملكيين إنهاكهم، وفقط العدالة ينبغي اظهارها نحوهم، ولأنه كـان غاضباً تجاههم بسبب حصولهم على وسيط لصـالحهم، أعطى إذنه بوجـوب فـرض ضريبـة الجمارك عليهم، وهي الضريبة التي تعرف عـادة باسم ضريبة المرور، وأن تستخرج منهم لدى عودتهم من الاجتماع العام لهيئتهم الكهنوتية، وكان هذا إجراء جاء مضاداً بشكل مبـاشر لامتيازاتهم، ولأعرافهـم القديمة المصـادق عليها، ونتيجـة لهذا فإن كثيرين منهم الذين لم ينذروا من قبل أرغمـوا على بيع قلانسهم وثيابهم، ومعاطفهم.

موت بعض الأساقفة

في هذا المعـام نفسـه، وقع رئيس أسـاقفة بوردو، الذي كـان عجـوزاً وضعيفاً، مريضـاً مرضاً مميتاً وعندما خيل للنـاس أنه مات، مع أنه كان مايـزال شبه حي، حصل أسقف هيرفـورد (الذي كان متشـوقاً كثيراً إلى رئاسة الأساقفة تلك) على رسـالة من الملك، الذي وافقه على مشاريعه، لأنه كان جابي ضرائبـه [وانطلق من أجل الحصول على رئاسـة الأساقفة تلك]، ولكن عندما تبرهنت حقيقة أن رئيس الأساقفة مايزال حياً، فقد جهـده وأمـواله، وخضع بالاضـافـة إلى ذلك للسخـرية، وقـد قيل بأن القضيـة نفسها قـد وقعت مع المعلم لامبين Lambin, الذي نظم

بحقـه بيتان من الشعـر، وهما وإن كـانا بعيـدين قليلاً عـن موضـوعي، سوف أدخلهما هنا: «بوساطة دفع مبلغ كبير من المال، تطلع لامبين نحو الأسقفية، مع أن الراعي لم يكن قد دفن بعـد»، وفي حوالي الوقت نفسه مـات أسقف للانداف Llandaff، وجـرى تعيين آخـــر محله، وفي بداية شهـر تشرين الأول من العـام نفسه، أخـذ المعلم تومـاس، أسقف كارلآيل، الذي كـان مثل أسقف آيل قد شغل أسقفيته لعـام واحد، من بيننا، وبمـــوته ظهـر واضحـاً كيفيـة الانتقـال من الأمجاد المتأرجحـة للمناصب الدنيـوية، وأذعن وليـم أسقف إيلاي لمنيتـه في بلد أجنبي، حيث كـان مسافـراً في طريقه إلى اسبـانيـا، وفي الوقت الذي كان يقـوم بتنفيـذ إرادة ملكه الأرضي، وقـد سحب للمثـول أمـام محكمـة الملك الأعظم، وقد جلب قلبـه إلى كنيسة إيلاي ليـدفن هناك بكل مهابة، وفي يوم عيد جميع القديسين، حدث أيضاً أن تخلى المعلم روجر دي ويستهام Westham، أسقف شيستر عن أسقفيتـــه، طواعيـــة وبخيـــاره الشخصي، ومات في الوقـت نفسه أيضاً جـون الكاهن النظامي، ورئيس رهبان دير نيـوبري Newbury، الذي كـان مثلما كان عليـــه وليم أسقف إيلاي، الذي تحدثنا عنه أعلاه، صـديقاً مقرباً، ومستشاراً خـاصاً للملك.

الطلب الذي عمله الملك عندما كان النبلاء جالسين في بيت المال

في اليـوم الرابع الذي حلّ قبل عيـد القديس ادوارد في هذا العـام، ذهب الملك إلى بيت المال، عنـدمـا كـــان البـارونات جـــالسين هناك، وأعلن بفمـه بأن كل عمـدة سـوف لايظهـر في ثمانيـة عيـد القـديس ميكائيل من كـل عـام وفي كل عـام، ويقـــدم للملك المال المجبي من الضمانات، والغـرامات، ومن المصـادر الأخرى، ينبغي تغـريمه لعـدم ظهوره، في اليـوم الأول خمسة مـاركات، وفي اليـوم الثاني عشرة، وفي اليوم الثالث خمسة عشر، وإذا ماغاب في اليوم الرابع، ينبغي أن يفدي

نفسه، وعُمل إعلان مماثل من قبل الملك ضد المدن التي تقدم حسابا إلى بيت المال بوساطة وكلائهن الملكيين، وقضى هذا الاعلان أنهن سوف يفقدن امتيازاتهن في اليوم الرابع، وفق الطريقة نفسها، التي يتوجب فيها على العمد الظهور، وينبغي أن يكون معلوما أيضا، أنه جرى في اليوم نفسه تغريم جميع عمد انكلترا، كل واحد منهم بمبلغ خمسة ماركات، لأنهم لم يقوموا بإرغام كل رجل في مناطقهم، بين يديه عشرة امتيازات من الأرض، لأن يصبح فارسا، أو يسأل التأجيل من الملك، بحكم أنه فرض عليهم ذلك برسائله الملكية التي وجهها إلى العمد.

انتخاب نائب رئيس رهبان إيلاي للأسقفية

ورغب الملك في رفع شأن هنري أوف وينغهام Wengham وتأييد قضيته، وهو الذي كان الحافظ لختمه، ولذلك أرسل رسلا خاصين، ورسائل التماس إلى رهبان دير إيلاي، يرجوهم بحرارة لانتخاب هنري المذكور ليكون أسقفا لهم، وراعيا لنفوسهم، لكن الرهبان أخذوا بعين التقدير معرفتهم بنائب رئيس الرهبان لديهم، وتوافقا مع المبدأ الكافر: «لاتفضل شخصا غير معروف لديك، على الذين معروفين لديك»، فانتخبوا نائب رئيس الرهبان المذكور هوغ دي بيليسيل Belesale, أسقفا لهم، رغضب الملك لرفض طلبه، ولذلك رفض قبول الأسقف المنتخب، وجاء رفضه اعتمادا على حجج تافهة، وقام إما بإصدار الأمر، أو رضي وتغاضى عن الذي عمله جون ويلران، الذي عهد إليه بالوصاية على تلك الأسقفية، فأسقط الأشجار، واستباح جميع المقتنيات، ونهب كل ماهو عائد لها، وجرى تنفيذ هذا بصورة فعالة أكثر مما أذن —أو سمح— وبلغ ذلك حدا أنه أبكى حتى أعداء تلك الأسقفية، وأثار القديس ايثيلرد Ethelred ودفعه إلى الانتقام.

كيف وضعت كنيسة القديس ألبان تحت الحرمان من شراكة المؤمنين

وفي حوالي يوم عيد القديسين سمعان وجود في هذا العام، وبسبب قسوة الاستخراجات البابوية، وضعت كنيسة القديس ألبان تحت الحرمان من شراكة المؤمنين لمدة خمسة عشر يوماً، ولم يكن ذلك لأنها جردت من امتيازاتها الشرفية، بل بسبب تلك العبارة المقيتة المضافة «دون التقيد»، فهي قد أضعفت المنح التقوية، وألغت سلطات الآباء المقدسين، واختارت الجماعة الرهبانية —بناء عليه— تنفيذ هذا الحكم غير العادل والعنيف، بكل احترام موائم، وآثرت ذلك على عدم الاقدام بطيش على رفضه، وذلك خشية من أن يجلب عمل التحدي، الاضطراب إليهم، ولذلك توقفوا عن قرع الأجراس، وعن إقامة القداسات اللاهوتية، وقاموا أثناء أيام الحرمان بتنفيذ قداسات الساعات النظامية والساعات المسائية، بصوت منخفض، وكانوا قد تلقوا التشجيع —على كل حال— من قبل جون دي ديا، الذي كان مكلفاً آنذاك بأعمال النائب البابوي في انكلترا، ثم إنهم أقاموا القداسات اللاهوتية بالطريقة المعتادة.

الفضيحة التي انبعثت في دير غلاستونبري

ونشبت في هذا العام بعض الخلافات بين أسقف باث وبين راهب من دير غلاستونبري، وهو شخص كان قد أقحم بالقوة بموجب سلطات الملك، وضد إرادة الأسقف، في ذلك الدير، وقد بدأ على الفور بطيش ووقاحة بترنيب كل شيء حسب رغباته، وعمل ختماً مزيفاً لنفسه، وفي الوقت الذي ذهب فيه الأسقف إلى روما، لملاحقة شؤونه وليحصل على امتيازاته، حدث نهب عام لممتلكات الدير، وقام هذا الشخص المقحم، في سبيل تقوية حزبه ضد الأسقف، فحشد جميع العاطلين والرعاع وجاء

بكل الذين تمكن من جمعهم، وقـام من أجل الأذى بـالشرف الديري، فـرسم ثمانية عشر واحـداً منهم، كـانوا بالفعل غير مناسبين، وفي اليـوم الثـالث بعـد ذلك، جعلهم يصبحـون رهبـانـاً محترفين، ولم يظهـر أدنى خـوف، أو بالحري أية خشيـة من اقتراف الاثـم، أمـام الرب إلهنا، الذي قـال: «الـويل للرجل الذي منـه تنبعث الفضـائح»، وأصيبـت كنيسـة وينكستر، وتعرضت للاهانة من انقسام ممـاثل، ومثل الأدعياء الذين كان الأسقف المنتخب لوينكستر قـد جمعهم وعملهـم رهبـاناً، على الرغم من عـدم موافقـة رئيس الرهبـان، واستخفافـاً به، كـان الآن أن قام الرهبـان المكرسين بالمغادرة، وما من شيء آخر كان يؤمل منهم.

تثبيت رئيسي أساقفة دبلن ويورك في رئاسة أساقفيتهما

وفي حوالي هذا الـوقت، وبعون الرب، وبعـد كثير من المضار الكبيرة التي ألمت بأبرشيتيهما، جرى تثبيت المعلم فـولك باسيت، رئيس أساقفة دبلن، والمعلم سيـوول رئيس أسـاقفة يورك، بقـوة، كل واحـد منهما في منصبه، وهكذا تناقصت سلطة الملك —بسبب أخطائه— يومياً، ومعها أيضاً كرامة المملكة.

جباية العشور من قبل أسقف هيرفورد

ولم يقم أسقف هيرفورد أية تقـدير لمنفعة المملكة وصالحهـا، بل ركز اهتمامه فقط على الذين يمكن أن يقـود إلى منفعته، ولذلك جبى العشور لنفسـه في ايرلاندا، وفي المناطق المجـاورة، وكـان ذلك بوسـاطة اذن من البابا والملك، وقد تجمع ذلك في مبلغ كبير، وهو قـد أقام التقدير واهتم بالمكافأة على أعماله، وبالجائـزة على خيـانتـه، ولذلك جبى هذه العشـور بشـدة، الخجل يمنعنا مـن ذكـر طرائق الجبـاية التـي مـورست، وبما أن الغش نادراً مـاجرت ممارسته مـن دون خوف، فقد تجول وهو خـائف، وقد أحاط نفسه بمرافقة مسلحة.

كيف جرى تثبيت أندرو رئيس الرهبان المقحم في وينكستر في منصبه

جرى في هذا العام تثبيت أندرو المقحم في منصب رئيس رهبان وينكستر، وذلك بفضل التوزيع السخي للهدايا في بلاط روما من قبل الأسقف المنتخب لذلك المكان، وكذلك بفضل الجوائز والأعطيات السيمونية والالتماسات التي قام بها رئيس الرهبان المقحم شخصياً، الذي دان بتنصيبه إلى الأسقف المنتخب، أما بالنسبة لرئيس الرهبان الماضي، فإنه بعدما تحمل كثيراً من المتاعب في رحلته عبر الألب، وبعدما أنفق كثيراً من المال، وشاهد الضرر الكبير الذي ألم برئاسة رهبانيته، بعد هذا كله جرى تزويده ببعض العزب لينفق على نفسه ويعيش، أما بالنسبة لرهبان الدير الذين كانوا قد تفرقوا، فقد جرت دعوتهم بأوامر سلطوية للاجتماع ثانية، وصدرت الأوامر عن الأسقف المنتخب، وترافقت مع التهديد بعقوبة التكفير، وهكذا فإن مثل هذه الانشقاقات المخزية ألمت يومياً بالكنائس الديرية الفخمة في انكلترا، وقدمت هذه الانشقاقات التي نشبت بسبب الخلافات ومطامح المجموعات المتنافسة، الطعام إلى البلاط الروماني، فبهذا الخلاف وحده، جاءت إضافة دخل سنوي، وربح مقداره مارك فضي واحد يومياً لتزويد مائدة البابا.

عودة رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا من إيطاليا

في حوالي أيام عيد القديسة كاترين، وصل رئيس أساقفة كانتربري من إيطاليا، بعد كثير من الانفاق للمال الانكليزي من دون فائدة، وبعد متاعب بلاثمار، وبعد كثير من الاضطرابات، وقد حصل على قليل من المنفعة في الحرب ضد مدينة تورين، كما أن أخاه توماس، الذي كان من قبل كونت فلاندرز، لم يطلق سراحه، ولم يخرج من السجن في تلك المدينة، مع أن السافونيين بذلوا كل جهودهم لإطلاق سراحه، ولم يكن

مفيداً أيضاً أن البابا استخدم كل جهوده في سبيل اطلاق سراحه، وكتب إلى ملكة انكلترا ضد سكان تورين، وضد مصالحهم ولأذاهم، ولقد قيل بأن توماس المذكور، ألحق بظلمه، كثيراً من الأضرار بالسكان المذكورين.

كيف سعى الويلزيون وقد وجدوا أنفسهم مظلومين إلى استرداد حرية بلادهم

وفي حوالي يوم عيد جميع القديسين، قام الويلزيون، وقد ظلموا بطرق كثيرة مضاعفة، وغالباً ما جرى بيعهم إلى الذي كان يدفع أكثر، قاموا وقد ظلموا إلى أبعد الحدود بطغيان وكيل الملك الفارس غيوفري لانغلي Langley, وثاروا بأنفسهم من أجل الدفاع عن بلادهم، وفي سبيل الالتزام بقوانينهم، وبعدما أقاموا تحالفات، قاموا بغزو مقاطعات انكلترا المجاورة وهاجموا رعية مولاهم ادوارد، الذي لم يكونوا آنذاك قد اعترفوا به على أنه سيدهم، وحققوا نجاحاً كبيراً في حملتهم الحربية، إلى حد أنه قيل بأنهم استقبلوا برضا السكان المجاورين، وعندما سمع ادوارد بهذا، طار ملتجئاً إلى عمه رتشارد، وذلك بحكم أن الملك بات بلا مجد وفقير، فاقترض أربعة آلاف مارك منه، وقد عزم على ضبط طيش ووقاحة الويلزيين، وأن يعاقبهم على جرأتهم، وأراد شن الحرب ضدهم إلى حد افنائهم، لكن شتاء ذلك العام كله كان ممطرا وكثير العواصف، وبما أن بلاد ويلز كلها كانت من دون طرق، وذات طبيعة مستنقعية، كانت منيعة ويتعذر الوصول إليها من قبل الانكليز، وهكذا جاءت جهود ادوارد التي بذلها، والأموال التي أنفقها من دون ثمار وبلا محصلات، ثم إن غيوفري المتقدم ذكره ندم —ولكن جاء ذلك متأخرا كثيرا— لأنه أثار الحرب، ولوحشيته في نهب الويلزيين، مثلما كان قد فعل قبل عدة سنوات مضت للشعب في شمالي انكلترا، ولقد كان هناك بعض الذين قالوا بأن غيوفري، أقدم برضاه أو بغير رضاه، على التسبب بخسارة ادوارد بقدر ما كان بإمكانه أن يفعل.

أعمال العنف التي اقترفت من قبل أتباع ادوارد

أحدث خدم ادوارد وأتباعه اضطراباً وازعاجاً لسكان المنطقة التي مروا بها، وذلك بالقيام بنهب ممتلكاتهم، وبإهانة أشخاصهم، وإنه بسماحه بمثل هذه الدرجة من العنف وإلحاق الأذى جعل الناس يقارنون مافعله بالذي اقترف من قبل والده الملك، فوجدوها أقسى بكثير، لأن الوحوش وقطاع الطرق الذين احتفظ بهم في بلاطه، نشروا أنفسهم بالطول وبالعرض، واستولوا بالقوة وصادروا الخيول وعربات التجار، ومؤن السكان، ونظرا لبشاعة أفاعيل الظلم التي اقترفت من قبل وكلائه، رأيت من المناسب والمفيد ذكر تفاصيل واحد منها إلى القراء، فعندما ذهب ادوارد المذكور، كما روينا من قبل، إلى الايرل رنشارد، وجده في وولنغفورد Wallingtord, حيث استقبل هناك بلطف، وعومل بمثابة ضيف في القلعة، وشق أتباعه بالوقت نفسه طريقهم إلى داخل رئاسة الرهبانية، ولم يطلبوا الضيافة، حسبما جرت عليه العادة، بل دفعوا من دون احترام الرهبان جانباً، واستولوا على ما كان ضروريا لتزويد مائدتهم، وعلى الوقود، وعلى الأعلاف لخيولهم، وكسروا الأبواب، والنوافذ والمقاعد، وأهانوا خدم الرهبان، وشتموهم وضربوهم، وكأنهم كانوا عبيدا، أو اقترفوا أعمال سرقة، وطردوهم من أماكنهم، وبصعوبة بالغة سمحوا للرهبان أنفسهم باستخدام قاعة الطعام، لأن قاعة الاستقبال كانت مملوءة بالذين كانوا يأكلون، ومهجع النوم كان مشغولا من قبل الشاربين، وحين رغب أصدقاء ادوارد باقتراف هذه الآثام، عزوها ليس إلى سوء الأخلاق، بل إلى طيش الشباب، غير مقدرين ماتكهن به لوكان وقاله: «إن عمر طاغية النيل موضع شك كبير، لأنه حتى يكون الإيمان الجيد ثابتاً، يتطلب ذلك نضوجا بالسنين».

ولم يعبأ الويلزيون في الوقت نفسه، ولم يخافوا من طغيان ادوارد

وأتبـاعه، ولذلـك شقوا طريقهم بعيـداً حتى شيستر، وتغلبـوا على جميع العوائق، ونهبوا كل شيء رأوه على طريقهم، ولم يكن قطاع الطرق هؤلاء مساوين أبداً، حتى للذين جلبهم لويس مرة وأدخلهم إلى انكلترا معه.

المرسوم الجديد للملك

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً أعطى الملك أمراً دقيقاً، أنه لايجوز مطلقاً ختم أية مـذكرة بالختم الملكـي، واصدارها من بلاط المستشـار، يمكن أن تكون مسببـة للأذى أو الخسـارة إلى أخيــه رتشـارد، وإلى رتشـارد ايرل غلوستر، وإلى بطرس أوف سـافوي، أو إلى أي واحـد من إخوته، وكـان من الواضح أن هذا المرسوم معارض لجميع الحقوق، وإلى سلام المملكة.

البحث الدقيق حول المكاييل

أمـر الملك رجالاته في هذه الآونـة القيام ببحث دقيق وتفتيش حـول مكاييل الخمـرة والبيرة التي نسميهـا Flagons أو Gallons, وحـول مكاييل القمح التي نسميهـا Bushels, وحــــول أوزان الميازين وهكذا وجه ضرباته إلى هنا وهناك، حتى يفرض الغرامات على البريء وعلى المذنب ســواء، وبذلك يضيف مــالاً إلى خـزانتــه، حتى بوساطة معـاقبة المذنبين أكثر مما يستحقون، وهكذا جـرى اختراع أعذار مخادعــة يوميــاً من أجل استخــراج المال، وقــد حــدث في كل مكان الاستيـلاء على المقتنيات الصغيرة للبـاعة، ولم تقـدم أية تعويضـات على الذي جرى الاستيلاء عليه، لابل كانت الفئة المسروقة حتى مسرورة إذا ماتدبرت النجـاة من دون إهانات ولكمات، وهكذا مثلما حدث مـؤخراً في قضيـة الفــريضـة الإلـزاميـة التي تعــرف بشكل عـام باسـم قضيـة السيرجاندية، نبعت الأسبـاب لاستخراج المال، الآن كثيراً من خـدمات البـلاط، من ذلك الارغام بأن يصبح بعضهم فـرساناً، والتفتيش حـول المكاييل وحول قضـايا أخرى كثيرة مخترعـة، كان دافعها شراهيـة ذئبية،

وتزايدت أعمال السلب والنهب والاغتصـاب هذه، مـدمـرة للمملكة، ومستعبـدة للكنيسـة، وقد توفـر الآن في انكلترا عـدد كبير من الطغـاة، وكأن العصور القـديمة قـد تجددت، فهذا ماظهـر عندما قـام عدد كبير جداً من الملوك الصغار بفرض إرادتهم هناك.

ازدياد المظالم اليومية ومضاعفتها ضد الكنيسة

وأصغى الملك في حوالي الوقت نفسه إلى أسـوأ النصائح، فقبل قرضاً بمبلغ كبير جـداً من وكلاء البـابا، من أجل ترقيـة ابنه ادمـوند إلى ملك مملكة صقلية، وبـذلك تقيد بقيود أعظـم حالات الفقر الكاملـة، والبابا الذي ينبغي أن لايغش وأن لايُغش، قد آمن بتأكيـدات الملك وصدقها، مع أنه كـان بـإمكانه أن يراها —لو أراد ذلك واختـاره— بأنها كـانت كلها خداع وزيف، لأن الملك، أعطى البابا في رسائله إليه الانطباع، بأن انكلترا منجماً للثروة، لايمكن لأحد أن يستخرج كل مـافيه، وأيضاً بأنه لم يكن هناك قط من قبل قـد وجد ملك في انكلترا كان محبـوباً مثله، أو غنيـاً مثلما هو، مع أنه كـان بإمكان البابا أن يعـرف العكس من خـلال عدد من أصدقائه المقربين الذين كانوا آنذاك موجودين في روما، وكانت الفـائدة المقـررة على هذا المال، والعقوبات التي جناها الملك من خـلال ذلك، قد وصلت إلى مبلغ مقداره أكثر من مـائة باوند يومياً، وعلى هذا أحاق الدمار ومعه العزلة عن قرب برجال الدين والناس في انكلترا.

خلع ستيفن رئيس رهبان أوف كليرفو

وجرى في هذا العام، أن تعرض ستيفن، الباني لدير تشاردني Char-denay الفـاخر في باريس للعـزل بعـدما سـار خطوة خطوة على طريق سلفه القـديس برنارد، وجاء خلعـه في المؤتمر الأخير العام للهيئة الرهبانية لطائفة السسترشيان، لكنه كان مثل يوسف، تحمل بصبر حسد أخوته وتعـذيبهم له، لأن الكراهية تهاجم بالعـادة الرجال ذوي المكانة،

وقد اتهم بأنه حصل من البابا على امتياز بعدم جواز حرمانه من مكانته ورتبته، بل ينبغي أن يستمر إلى الأبد رئيسا لرهبان كليرفو، وهو ما كان مضاداً لمبادىء السسترشيان، لكن هذا الاتهام كان زائفا، حسبما تبرهن ذلك بوضوح فيما بعد، وعندما جرى اخبار البابا بحقيقة القضية أمر بإعادته إلى منصبه، وعاقب في الوقت نفسه بشدة الذين اتهموه، هذا ورأى ملك فرنسا، وإن كان صديقا متحمسا وحاميا لطائفة السسترشيان، أنه ستكون هناك فضيحة كبيرة سوف تلحق بتلك الطائفة، إذا ماجرى إلغاء قرار مثل أولئك الأشخاص المتنفذين، ومن ثم إعادة أي واحد خلعوه في المؤتمر العام لهيئتهم الرهبانية، وكتب بهذا الرأي إلى البابا، وحصل على الذي طلبه، وقام ستيفن أيضا برفض إعادة التنصيب، في سبيل أن لايتعرض نفوذ طائفته للأذى، وأعلن أنه تحرر من العبء، ولم يتعرض للاهانة، وأنه الآن أكثر حرية مما كان عليه عندما كان رئيسا على جماعته، حسبما كان من قبل، وأن هذا كان أكثر لصالحه ومنفعته، وهكذا فإنه مع أنه كان عظيماً من قبل، صار الآن عن حق أكثر عظمة.

حول رفض الويلزيين الإقلاع عن الإجراءات الحربية

ومع أن الملك نفسه، وكذلك الايرل رتشارد، حاولا منع أية إعاقة لمحاولة تسوية قضايا المصاعب، ورجوا بتواضع الويلزيين للاقلاع —ولو على الأقل— لبعض الوقت، عن أعمالهم العدوانية والحربية، رفضوا البقاء بهدوء وسلام، لأنهم رأوا أن فصل الشتاء الممطر كان لصالحهم، وأن مواضع مكامنهم هي سهلة الوصول إليها من قبلهم، لكنها كانت صعبة كثيرا ولايمكن النفاذ إليها من قبل الانكليز، ولذلك تابعوا الأعمال العسكرية، وهاجموا غريفين دي برونيت Griffin de, Brunet لأنه طلب حماية الملك، وعندما هرب للالتحاق بالملك، طاردوه عن قرب، وبما أنهم لم يتمكنوا من اعتقاله، اجتاحوا أراضيه

بالنار والسيف، وكذلك أيضاً آراضي بعض البارونات من جيرانه، وكان هناك من هؤلاء الويلزيين عشرة آلاف خيّال مسلح، وعدد كبير جداً من العساكر الرجالة، الذين دخلوا في حلف، وأقسموا بجرأة واخلاص على الأناجيل بأن يقاتلوا حتى الموت في سبيل حرية بلادهم وقوانين أجدادهم، وأعلنوا أنهم يؤثرون الموت بشرف على العيش حياة غير سعيدة في ظل المهانة، وهذا الموقف الرجولي والشجاع، يحق له أن يلحق العار بالانكليز بشكل محق، الانكليز الذين بكسل وخنوع حنوا رقابهم إلى الأجانب، وإلى كل واحد داس عليهم، وكأنهم رعاع شريرون، وحثالة الجنس البشري.

وقاحة إدوارد وأتباعه

ولم يشعر ادوارد ولابقليل من الخجل أو الأذى، من ثورة الويلزيين، وكذلك من شجاعتهم، وذلك بسبب أنه كان يدعى باسم مولى الويلزيين، ومع هذا لم يستطع ضبط إجراءاتهم الثورية، وبناء عليه ذهب الابن مرة ثانية إلى أبيه وأمه، وكذلك إلى عمه، وتقدم بالرجاء إليهم ليمنحوه مساعدة فعالة، لكن الملك كان مثقلاً بالديون، في مقاطعات ماوراء الألب، وقد أقرضه الايرل كثيراً من المال، حيث عجل له فأسلفه مبلغ أربعة آلاف مارك، وكانت الملكة قد بددت أموالها بلافائدة وأنفقتها على الحرب ضد تورين، وعلى هذا كانت موجوداتهم من المال قد تلاشت إلى حد أنه لم يعد بإمكانهم مساعدة ادوارد بأية طريقة من الطرق، ولأن أبناء الملك —حسبما عمت الأخبار بين الناس في كل مكان— كان يسعى لسحق الانكليز، قام سكان التخوم سرّياً بإبداء العاطفة نحو الويلزيين وتشاوروا معهم، وكان من الأسباب الرئيسية وراء ذلك، ان ادوارد احتفظ بخدمته برجال ألحقوا الأذى بالكنيسة والمملكة، وبات أكيداً وحقيقياً أنه لم يكن بين أتباع لويس الذي غزا انكلترا، بجرأة ووقاحة قطاع الطرق، مثل الذين احتفظ بهم ادوارد

المذكـور في خـدمتـه وأبقـاهم في بلاطه، ونظراً لأعمالهم الشريرة الكثيرة وأفاعيلهم، أعتقد أنه من المفيد أن نـذكر في هذا الكتاب خبراً من أخبار طغيان ادوارد (وذلك بالاضافة إلى الخبر الذي سلف أن ذكرته من قبل) من أجل أن يرى قـراؤنا في أية متاهة من اليأس غـرقت انكلترا، فعندما كان عـابراً في منطقة آمنة من البلاد، في أيام السلام، قابله شـاب، فأمر ادوارد، من دون امتلاك أية حجة للقتل أو التشويه أعطاه إياها الشاب، بقطع احدى أذنيه، وباقتلاع احدى عينيه، الأمر الذي جرى تنفيذه، مع أن ذلك كـان مضاداً لكل أحكام العـدالة، وعندما شـاهد كثيرون هذا، لابل عندمـا استعادوا إلى ذاكـرتهم الأذى الهائل والدموي الذي اقترفـه بحق أحد النبلاء، عندما كان أصغر سناً مما هو عليه الآن، وقتها شرعوا بمقته، وعلقوا على ذلك متسائلين: «إذا كان هذا قد وقع عندما الشجرة خضراء، مـاالذي يمكن أن نرجـوه عنـدمـا تصبح عجـوزاً وجـافـة»؟، وعلاوة على ذلك استولى أتباعـه على كل شيء كان معروضاً للبيع، دون أن يدفعـوا شيئاً، واستـولوا بالقـوة على الخيـول، وعلى العـربات، وعلى سـائقيهم، وظلمـوا السكان من دون رحمة، وهكـذا تكدست الشرور يومياً فوق الشرور، والخسائر فوق الخسائر.

كيف جرى إرسال وفد من جامعة باريس إلى روما

تزايدت الفضـائح والبغضاء يوميـاً بين المعلمين الباريسيين والرهبـان الدومينيكان، وبعـد كثير من المداولات الكبيرة، اختاروا بعضاً مـن أكثر الأسـاتذة المحاضرين شهـرة، وكان هؤلاء: المعلم وليم دي سينت أمـور Amour, والمعلم أودو أوف دويـا Douai, اللذان كـانـا عضوين في مجلس الجامعة في الآداب، وفي صيـاغة المراسيم البابوية، وفي اللاهوت أخيراً، والمعلم كـرستيـان، وكـان كـاهناً نظاميـاً من بيـوفيـا Beauvais, الذي عدّ عن جـدارة رئيساً للفـلاسفة، وذلك بعـدما كان عضـواً في مجلس الجامعة في الآداب، ومحاضراً في اللاهوت، والمعلم

نيقولا أوف بـار— سور— أوبي Bar- Sur- Aube, الذي كان عضواً في مجلس الجامعـة في الآداب، والقوانين، والمراسيم، وكـان يستعد ليكون محاضراً في اللاهوت، والمعلم جـون دي غيكتافيل Gectaville, وهو انكليزي، كان يدرس علم البـلاغة في الجامعة، والمعلم جون بيلين، وهو فرنسي، وكـان فيلسوفـاً، صاحب سمعـة عاليـة، وعضواً في مجلس الجامعة في الآداب، ولقد جرى اختيـار جميع هؤلاء الرجال، الذين كانوا من أسر مشهـورة، بعد مـداولات عميقة، ومشـاورات كبيرة (لأن الثقة كانت قـد زالت) اختيارهم للذهاب إلى روما، وللتشاور مع البـابا حول الوسائل التي يمكن بها الحفـاظ على سلام جامعـة باريس والهدوء فيها، وحـول كيفية استعـادة الثقة، ولاسيما وأن هذا الشر قـد هدّد بأن يتطور فيصبح أكبر، وقـد جرى جمع المال لتغطيـة نفقات رحلتهم من الجامعـة، وكان الرهبـان الدومينيكان —كما ذكرنا من قبل— يـدرسون، ويعظون، ويعلمون بعض العقائد الجديدة والمتناقضة، كـانوا قد أخذوها من كتاب رئيس الرهبـان واكيم Joachim, الذي كـانت كتاباته قـد أدينت من قبل البابا غـريغوري، كما أنهم صنفوا أيضاً كتابـاً، قرروا أن يمنحوه العنوان التـالي: «هنا يبدأ الانجيل السرمـدي»، وكان يحتـوي على عقائـد أخرى ليس من اللائق القيام بذكرها، وأرسل الرهبان الدومينيكان أيضاً رسلاً إلى روما بسرعة كبيرة للمرافعة والدفاع عن قضيتهم ضد الجامعة، وللوقـوف في وجه وفـد المعلمين ومعـارضتهم وجـاهياً، وسخـر الناس منهم، وأوقفــوا دفع صـدقــاتهم المعتـادة إليهم، وأطلقــوا عليهم اسم منافقين، وخلفاء المسيح الدجال، ومبشرين زائفين، ومرائين، ومستشاري سـوء للملوك والأمـراء، وخلفـاء مقيتين للمبشرين العـاديين، ومتطفلين مفضوحين على غـرف نوم الملوك، ومتلقين مراوغين للاعترافـات، وهم رجـال تراهـم متشردين في المناطق حيث كـانـوا غير معـروفين، وحيث كانوا يقدمون التشجيع والجرأة للمـذنبين، وبعدما سمع البابا الشكايات من على الجانبين، أمـر بالكتـاب الـذي سمـوه «الانجيل السرمـدي» بأن يحرق بشكل سري، وإذا أمكن من دون إثارة فضيحة وإلحاقها بالرهبان،

وأمر بالشيء نفسه بالنسبة للكتابات الأخرى، التي قيل بأنها صدرت عن نبع واكيم الفاسد، وتمّ تنفيذ هذا بحذر وهدوء وسرية، بفضل حرص ومتابعة الكاردينال هوغ، مع أسقف ميسينا، اللذان انتميا إلى طائفة الدومينيكان، وبذلك هدأ الاضطراب لبعض الوقت.

انفجار مفاجيء من تحت الأرض

وفي حوالي الوقت نفسه، بينما كان بعض العمال يحفرون في أسفل قناة لجر المياه لتنظيفها من الوحول (لأن الماء كان قد توقف عن الجريان) حدث انفجار مفاجيء صدر من تحت الأرض، وقد ترافق مع لهب مشابه لنار الجحيم، تمكن خلال طرفة عين من خنق عدد من العمال، وقتل واحدا منهم على الفور، وأحرق، وشوه، وعطل أعضاء آخرين، أصبحوا عاجزين تماما ومن دون فائدة لأنفسهم بعد ذلك أبدا، وقد كان هناك بعض الذين قالوا بأن هذا الانفجار قد حدث بوساطة معجزة، بسبب أن هؤلاء العمال انشغلوا في عمل ممنوع في ساعة غير موائمة من المساء.

مختصر أخبار العام

وعلى هذا انتهى هذا العام، الذي كان خصبا إلى حد ما في الفواكه والقمح، أما بالنسبة إلى الكنيسة والأساقفة، فقد جلب أسوأ أنواع العبودية وأكثرها شرورا، وإلى الفرنسيين الفساد نتيجة لترقية الايرل رتشارد، وكان عام نهب بالنسبة لانكلترا، وقحط أو بالحري مؤذيا أكثر مما ينبغي للأرض المقدسة، وقد جلب الحرب إلى ويلز، والاضطراب وانعدام الهدوء إلى سكوتلندا، وكان العام ممطرا وعاصفا فوق الحدود، إلى حد بدا فيه وكأن أيام الطوفان قد تجددت، فمن يوم عيد صعود العذراء المباركة، إلى يوم عيد طهارتها، لم يتوقف المطر عن الهطول بشكل غزير يوميا، مما حوّل الطرقات وجعلها غير قابلة للعبور، وجعل الحقول قاحلة، ولذلك اهترأ القمح وهو في السنابل عند نهاية الخريف.

عام ألف ومائتين وسبع وخمسين
كيف جرى انتخاب الإيرل رتشارد ملكاً لألمانيا

عام ألف ومائتين وسبع وخمسين لتجسيد الرب، الذي هو العام الحادي والأربعين لحكم الملك هنري الثالث، وكان الملك في لندن أيام عيد الميلاد، وهناك كان قد احتشد الايرل رتشارد مع عدد كبير من النبلاء، حيث كان قدم إليه عدد من مقدمي الناس في ألمانيا، وقد أعلنوا بحضور جميع المحتشدين، بأنهم قاموا بموافقة عامة بانتخاب الايرل رتشارد، انتخاباً صحيحاً، ملكاً على ألمانيا، وهم الآن يطلبونه ليكون ملكهم ومولاهم، إذا ماوافق على رغباتهم، وكان رئيس أساقفة كولون، والمستشار الأعلى للامبراطورية المقدسة، وبعض النبلاء الآخرين من ألمانيا، قد بعثوا بوساطة هؤلاء الرسل الخاصين، رسائل موثقة، تحمل بينات حول الاجماع في الانتخاب، وتؤكد ذلك وتثبته، وتعلن أن ما من أحد جرى قط انتخابه إلى ذلك المنصب، بعفوية وبالاجماع مثله الآن، وذلك أمام القليل من العوائق، وعندما كان الجميع في حالة تردد وشك حول ماينبغي عمله بالنسبة لهذه القضية، لأن وجود الايرل كان ضرورياً بالنسبة لمملكة انكلترا، خاطب الملك الجميع وقال: «إنني أنصحكم وأرجوكم أن لاتدعوا الجبن يظهر، بالرفض وبعدم قبول هذا التشريف الذي منح إليكم وقدّم من قبل السماء، وبني البشر»، وفي الوقت الذي عبر فيه بعضهم عن خوفهم، على أساس أنه خلال مدة عدة سنوات قلائل، جرى انتخاب شخصين، ومن ثم جرت ترقيتهما إلى حكم ألمانيا، ثم وصلا إلى نهايتهما بوسائل بشعة، خاطب آخرون الايرل بكلمات مطمئنة، حيث قالوا: «أيها الايرل الأكثر عقلاً وحكمة، لماذا أنت متردد، وكأنك مرعوب من سوء حظ اللاندغريف هنري، أو من الموت البشع للكونت وليم الهولندي؟ إنه ليس البابا هو الذي يقحمك في هذا المنصب بالقوة، بوعدك بما هو ضروري من منهوبات

الكنيسة، ومن سلب الذين حملوا الصليب، الأمر الذي لن يكون مفيدا لك، لأن هذه الأموال التي حصل عليها البابا بشكل غير صحيح، قد أثارت مشاعر الناس، ليس لتقديم الرحمة، بل للغضب، فهناك مبلغ من المال، قد جمع من مملكة ألمانيا، هو محفوظ باخلاص لصالحك ولاستخدامك، كما أن لديك كميات وافرة من المال خاصة بك، وكأنك أوكتافيان آخر، كما أنك مدعوم بأصدقاء ألمان وكذلك انكليز، كما أنك محاط بأقرباء وكأنك محاط بسور، فلاتدع بلادة الرفض أو الجبن تتغلب عليك، وتجعلك كسولاً ومتراخيا، بل تشجع وتمتن لخدمة الرب، ولاتكن مثل روبرت كورتهوز Curthose دوق نورماندي الذي تهيأت له الظروف مرة، عندما كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، حيث عرض عليه بشكل عفوي وبإلهام من السماء لأن يكون ملكاً على مملكة القدس، حتى يتمكن من الحكم على ميراث المسيح، وقد رفض هذا العرض بعناد، فأحس بعد ذلك بغضب الرب الحاد، بسبب هذا الرفض، ولم يواجه قط بعد ذلك أي سعادة أو ازدهار، وقام الملك أيضاً ومعه اخوته، وبشكل خاص الأسقف المنتخب لوينكستر فأعطوه تشجيعاً حيويا لقبول هذا العرض، وأعلن بأن هذا التشريف سوف يرفع من شأن الدولة الانكليزية إلى الأبد، وعند الفراغ من هذا الإعلان، تشجع الايرل وصار رجلا، ولأنه حمل آمالاً عظيمة، قال بصوت متشوق: «وأنا واثق برحمة الرب، ومع أنني ضعيف وغير جدير، أنا على استعداد لأن أتولى بنفسي حمل هذا العبء»، وهذا التشريف الذي منح إليّ، وكذلك أنا آمل، بحق السماء، أن لايقال عني متخاذلا وجبانا»، وأضاف بعدما أدار وجهه نحو الأساقفة الذين كان واحد منهم رتشارد بانغور Bangor (الذي روى هذه الحقائق إلى كاتب هذا الكتاب): «وبالنسبة لي، انني قبل أن أغادر هذه البيعة، لعلني أتعرض للحرق بنار أبدية، وأن أموت ميتا مفاجئا، اذا كنت سأفعل هذا صدورا عن المطمح أو الشره، أو لأي سبب آخر غير تحسين

أوضـاع تلك المملكة، الأمـر الذي أرجـو أن يعطيني الرب القـدرة على فعله، وأن أحكم بكل عـدل، واعتـدال، وشرف، هـؤلاء الذين قـامـوا بشكل عفـوي باختيـاري لأكـون سيـدهم»، وأعطى هذا الخطاب الذي جعل كثيرين يبكون، أعطى السرور الأعظم للرسل الألمان، الذين كانوا حتى الآن شاكين حول قبوله، ولقـد تأكدوا الآن من قبوله، ومن نواياه الطيبة نحوهم، ولذلك انطلقوا عائدين مبتهجين، وأخذوا طريقهم نحو الوطن، لايصـال الخبر حـول ذلك إلى النبـلاء الذين أرسلـوهم، وقـد تمكنوا من الوصول خلال عشرين يوماً بعد يوم عيد الميلاد.

السبب الذي دعا نبلاء ألمانيا إلى انتخاب الإيرل رتشارد

كـره النبلاء الألمان (الأعظم بينهم هم الـذين جرى ذكـرهم في المقطع التـالي) تجبر الفـرنسيين، وقـد أغضـب أحـدهم الآخـر، وهكذا لم يقع اختيـارهم على أي رجل فـرنسي، أو أي واحـد مـن ذلك الجنس، لأن يحكمهم، كما أنهم لم يرغبوا في اختيار أي واحد من بينهم أنفسهم، بسبب خـلافـاتهم الداخلية، لأن الألمان عنيفين وحـادين، و«كل رجل متفـاخـر سـوف يكون عـديم الصبر في القـاعـة»، كما أنهم لم يختـاروا ايطالي أو روماني، مبتعدين عن أصدقاء البابا بسبب نهمهم الذي لاحدود له، وبناء عليه قـاموا بعـد تداول دقيق وتشاور، فـانتخبوا الايرل رتشـارد، وأيضاً بحكم تكلمـه اللغـة الانكليـزية، التي مشـابهة بالصـوت للألمانيـة، لأنهم يمتلكون أصلا واحداً قـديماً وحديثاً، فالأصل القـديم يمكن اكتشافه من التـواريخ، أما الحديث فيمكن تتبع أثـره في أيامنا من أصل دوق برنويك Brunswick، ودوق سكسـوني، ومن نسب الامبراطور أوتو، الذي كـان ابن امـرأة انكليـزية، أي ابنة هنري، ملك انكلترا، وأنا أقـول: إنهم اختاروا الايرل رتشارد، على أساس اخلاصـه، وثباته، وحكمته، وكذلك أيضا على أساس ثروته، ولذلك قـال أحد الشعراء الهجائين «المال يصرخ ويقول من أجل خاطري، تزوج كورنوول Cornwall من روما».

قائمة بأسماء مقدمي ألمانيا

فيما يلي أسماء مقدمي ألمانيا الذين عليهم يعتمد انتخاب ملك تلك المملكة، التي هي كما هو معروف خاضعة للامبراطورية الرومانية: رئيس أساقفة كولون، الذي لقبه هو المستشار العالي للامبراطورية الرومانية المقدسة»، ولكن هذا اللقب هو أدنى مكانة من لقب رئيس الأساقفة، ورئيس أساقفة مينس Mayence ورئيس أساقفة تريفي Treves, وملك بوهيميا، والكونت الملكي للراين، ودوق النمسا، ودوق سوابيا، وكونت بافاريا، ودوق بولاندا، ومركيز مايخ Miche, ومركيز براندنبيرغ Brandenburg, ودوق سكسوني، ودوق برونويك، ودوق كارينثايا Carinthia, ودوق ميلاي Melaye ودوق برابانت ولوفين Louvaine, ولاندغريف ثورونجيا، ومركيز مايس Mise, وبين جميع هؤلاء النبلاء، الأكثر تميزاً والأعلى مكانة هو رئيس أساقفة كولون، الذي كان مكلفاً بموجب عرف قديم مقرر، أن يتولى تتويج ملك ألمانيا في اكس لى شابيل.

كيف أرسل الإيرل رتشارد بعض الأشخاص الموثوقين إلى ألمانيا ليتعرفوا على نزعات النبلاء

وكان ايرل غلوستر وجون مانسيل رجلين حكيمين ولهما نفوذهما، ذلك أرسلا مسبقاً باسم الايرل، إلى ألمانيا، ليكتشفا الرغبات الصافية وغير المشوبة للنبلاء حول القضية المذكورة أعلاه، وقد وجد هذان المندوبان أن كل شيء كان مناسباً، وأن قلوب مقدمي تلك البلاد، وكذلك نزعاتهم واخلاصهم هي للايرل، حتى أنهم أقسموا على الفور بتقديم الولاء والاخلاص له، وجرى تسليم مفاتيح بعض المدن والقلاع إلى هذين الرسولين.

كيف وضع الفرنسيون الذين كرهوا الألمان خططاً لاعتقال الرسل

وعندما علم الفرنسيون بهذه الحقائق بدأوا يشعرون بخوف كبير، من أنه إذا مانجح الايرل رتشارد في الحصول على عرش ألمانيا، حسبما كان الطريق آنذاك مفتوحاً له، سوف يلحق الأذى بمملكتهم، وذلك بالمطالبة ومن ثم استرداد حقوق ملك انكلترا، ولذلك وضعوا خططاً للايقاع بالايرل رتشارد وبرسله واعتقالهم، وسعوا إلى اضعاف عزيمة وقرار بعض نبلاء ألمانيا، بالخضوع إلى الايرل المذكور، وبذلك خيل إليهم أنهم سوف يعيقون جزئياً أو كلياً ترقيته إل ذلك المنصب السامي، ولكن بفضل الرب، وقف الألمان بثبات أعظم إلى جانب الايرل في تلك المسألة، وذلك بسبب الكراهية التي كانت قائمة بين الفرنسيين والألمان، ولأنها كانت متجذرة، كان الذي لايرضي الفئة الأولى، كان يعتقد أنه مفيد للفئة الثانية، وعندما اكتشف الفرنسيون نتيجة محاولتهم، أخذوا وهم حزينون يواسي أحدهم الآخر.

كيف واسى الفرنسيون أحدهم الآخر

كان الامبراطور أوتو رجلاً عظيم الشجاعة في الحرب، وغنياً بوساطة أموال ملك انكلترا، وهو قد جاء من أصل مختلط انكليزي— ألماني، وعندما ارتقى إلى تسلم الامبراطورية الألمانية هدّد نبلاء مملكة فرنسا، وبسبب ذلك أحيطت باريس بسور، ولذلك هو لم ينجح، ومجدداً قام فردريك الذي كان أغنى أباطرة الرومان وأكثرهم قوة، والذي كان أيضاً أكثر ملوك الأرض دهاء، بالدخول في تحالف مع ملك انكلترا، حيث أنه تزوج من أخته، وأنفق أمواله في سبيل تدمير المملكة الفرنسية، لكنه لم ينجح في محاولاته التي وعد فيها بتقديم العون لملك انكلترا، هذا ولقد كانت قدرة الايرل رتشارد أدنى كثيراً وأقل إخافة بالنسبة لنا، لأنه كان

جبانا وبليهاً، وعديم الخبرة في شؤون الحرب، وحتى الآن قدم الرب العون إلينا، وبفضل وساطة وعون القديسين العائدين لهذه المملكة نحن دوما منتعشين تحت حماية جناحيه، وإذا كنا في الأرض المقدسة، حيث قاتلنا مؤخراً في سبيل الرب وفي خدمة الكنيسة، قد عانينا من الكوارث المضاعفة بسبب ذنوبنا، فإنه مع ذلك وهو في غضبه سوف يتذكرنا برحمته.

كيف قام الملك الفرنسي بجولة في نورماندي وفي المقاطعات الحدودية

اتخذ الملك الفرنسي —على كل حال— احتياطات من أجل المستقبل، وقام بجولة في نورماندي في حدود مملكته، لتشجيع قلوب الذين كانوا يرتجفون ولتقوية دفاعات المدن والبلدات وترميمها، وقد طمأن نبلاءه وشجعهم، وخاصة الذين ندعوهم النظراء الاثني عشر لفرنسا، ومثلما قدمنا أعلاه قائمة بأسماء مقدمي الناس في ألمانيا، الذين عليهم يعتمد انتخاب الملك، أعتقد أنه لن يكون غريبا على موضوع هذا الكتاب تقديم قائمة بأسماء النبلاء الفرنسيين، خاصة أولئك الذين تتعلق بهم إدارة الأمور الصعبة، المتعلقة بالمملكة الفرنسية.

النظراء اللاهوتيون لفرنسا

رئيس أساقفة الرايم، وهو الذي يتولى مسح الملك الفرنسي بالميرون المقدس (ولهذا السبب يعد الملك الفرنسي هو الأكثر عظمة بين جميع الملوك)، ولذلك هو المقدم، والأكثر تميزا بين جميع نظراء فرنسا، وأسقف نويون Noyon, الذي هو كونت ملكي، وأسقف بوفيا Beauvais, الذي هو أيضا كونت ملكي، وأسقف تشالون Chalons, وأسقف لانغري Langres, الذي وإن كان فقيراً يحتل مرتبة عالية، وأسقف ليون، الذي هو دوق وكونت بفضل القديس ريمي، لأن إليه نزل الميراث الشهير.

النظراء العلمانيون

كان الأول بين النظراء العلمانيين والأعلى مرتبة هو دوق نورماندي الذي هو كذلك ملك انكلترا، فهو دوق لنورماندي بموجب حق النسب، وهو ملك بحكم الاستيلاء والغلبة، ولقد روي —على كل حال— بأن القديس ادوارد كان من دون وريث، فمنح مملكته إلى وليم النغل، دوق نورماندي، لكن هذه المنحة كانت باطلة لأنه عملها وهو على فراش موته، من دون موافقة باروناته: دوق أوف أكوتين، ودوق أوف بيرغندي، وكونت أوف فلاندرز، وكونت شامبين، وكونت طولوز، الذي يعرف أيضاً باسم صنجيل (سينت جايل).

سقوط أمطار غير اعتيابة والرعود أثناء الشتاء

في يوم عيد الأبرياء في هذا العام، سقطت كميات من المطر بلغت حداً أنها غطت وجه الأرض، وبدا الأمر وكأن أيام الطوفان قد تجددت، وبدت الأخاديد وكأنها تشبه كهوفاً أو أنهاراً، وغطت الأنهار المروج وجميع المنطقة المجاورة، ولذلك أعطت مظهر بحر من البحار، هذا ومن وصفنا لإحدى الحالات يمكننا فهم الحالات الأخرى، وهكذا يمكنني أن أذكر أن واحداً من الأنهار في المناطق الشمالية من انكلترا جرف سبعة جسور كبيرة من الخشب والحجارة، وتم أيضاً جرف الطواحين والبيوت المجاورة وكان ذلك بسبب طوفان مياه الجداول الصغيرة، وفي اليوم المتقدم الذكر أيضاً كانت هناك زوبعة حادة جداً، ترافقت مع عاصفة برد عنيفة، أحدثت اضطراباً في الأنواء، وحجبت السماء بالظلام، حتى صارت مثل ظلام الليل، وتجمعت الغيوم مع بعضها، ومنها اندفع البرق بلمعان مخيف، تبعه تصادم للصواعق، ومن الواضح أن هذه الصواعق كانت بشائر شر، لأنها حدثت في منتصف الشتاء وكان البرد معادلاً لما يأتي عادة ويشعر به في شباط، وتبع هذا المناخ مناخاً كثيفاً ليس في أوانه، وقد استمر لمدة ثلاثة أشهر.

إحصاء ثروة الإيرل رتشارد

وفي حوالي الوقت نفسه عمل تقـدير لثروة الايرل رتشارد، فتبين أنها وصلت إلى مبلغ كبير وصل حـداً أنه كان بإمكانه أن يدفع مـائة مـارك يوميـاً لمدة عشرة أعـوام، وذلك من دون أن ندخل الزيـادة اليـوميـة للأرباح التي كانت تأتيه من موارده في انكلترا وألمانيا.

اكتشاف ضريح القديس ألبان

ظهـرت في هذا العام بعض التصـدعات والشقـوق في الجزء الشرقي من كنيسـة القديس ألبـان، ونظراً للمخاوف التي شعـر بها بأن الجدران سوف تسقط، قرر رئيس الرهبان مع رهبان الدير ترميم الأجزاء المهدمة في أيام الاحتفـال بعيد ميـلاد ربنا، وعندمـا كان عمال الحجـارة يعملون بمعاولهم فوق البلاط، شعـروا من قرع أصوات أدواتهم، ومن أصوات خطواتهم، أن هناك شيئاً ليس عـادياً وليس معروفاً مخفيـاً تحتهم، ولدى تفحصهم على عمق أكبر، وجـدوا تحت الأرض، لكـن ليس على عمق كبير ضريحاً حجـرياً، مبنـي بشكل جميل، في بقعـة بين مـذبـح القـديس أوسـوين Oswin, حيث يجري بالعـادة ممارسـة القـداس الصبـاحي، ومـذبـح القـديس وولستـان Wulstan حيث كـان موجـوداً صورة نعش قديم، وضريح من الرخام مع أعمـدة من الرخام أيضـاً، وقـد قيل بأن هذا كـان الضريح القـديم ومكان الدفن للقـديس ألبان، ففي هذا الضريح الفخم كـان القديس ألبان قـد جرى دفنه بكل تشريف، وكـان ذلك في اليوم نفسـه الذي قطع به رأسـه، والذين تولوا دفنه هم أصـدقاؤه، وأقـرباؤه، وتلاميـذه، مع أن مراسيم الدفن جـرت بصـورة سرية، وأثناء الليـل، خـوفـاً من الوثنيين، فإلى هنـا نزل الضـوء السماوي وظهـرت الملائكة وهي تنـزل وتصعـد، وهـي تغني كلمات الترنيمـة التاليـة: «ألبان الشهيـد اللامع هو الآن في مجد»، وعثـر في هذا الضريح على ورقـة من الرصـاص، كـان عليهـا محفوراً، وفقـاً لعـادات

القـدمـاء ومنقـوشاً الكلمات التـاليـة: «عشر في هذا الضريح على جسـد القديس ألبـان المقدم الرئيسي لانكلترا»، وحدثت هذه الواقعـة في ثمانية القـديـس اسطفـان، بحضـــور السيـد أسقف بـانغـر Banger, ورئيس الرهبان جـون، وفيليب أوف شيستر، والمستشار الرئيسي للايرل رتشارد، وبعض النبلاء من حاشيـة وليم أوف بلنسية، أخو الملك لأمه، مع جميع رهبان الدير، وعدد كبير مـن المسيحيين الآخرين، الذين جرى الإعـلان لهم عن الاكتشـاف بشكل مهيب، ومنح الأسقف غفـراناً لمدة خمسة عشر يومـاً إلى جميع الذين شرفوا الاكتشاف بحضـورهم، ومالبث بعد ذلك أن قدم رئيس أساقفة يورك إلى هناك لتقديم صلواته.

عدد الأعوام التي انقضت منذ آلام القديس ألبان

ينبغي أن يكون معلوماً أنه عندما وقعت هذه الوقائع، كان قد مضى تسعمائة وسبعين عامـاً، يعني أن تقول أن الأمر احتاج إلى ثـلاثين عاماً، حتى يكون العدد ألفاً.

موت بعض النبلاء

ولكي لايمضي احتفـال العـالم من دون الامتـزاج بالأسف، مـات في هذه الآونة، أي أن تقول في أيام عيـد الميلاد رئيس رهبـان دير القديس ادموند، ومات آنذاك أيضـاً في مقتبل الحياة روبرت كوينسي Quincy, الذي أسف عليـه كثيراً، ومـات أيضـاً وليم صـاحب السيف الطويل، وألان دي واتساند، كـاهن الملك ورجل العدالة، كما مات كـذلك جون أوف لكسنغتون، وروجر بيغـود، وأصيب ايرل ميرشال Mareschal بوجع مميت، فهؤلاء جميعاً كانوا قد ميزوا أنفسهم في المبارزات في بلاي Blie, وكانوا قـد أرهقوا أنفسهم إلى درجـة تجاوزت قواهم، حتى وصل بهم الأمـر أن أعصاب مفـاصلهم قـد ارتخت، ولذلك لم يستردوا صحتهم بعـد ذلك أبداً بشكل تام، ولذلك مات كثير منهم، وتمّ انقـاذ

الايرل روجر بصعوبة كبيرة من بين فكي الموت، وجرى اختيار سيمون أوف ليوتون Luiton, رئيس الرهبان الحسن التجربة في دير القديس ادموند، رئيساً لرهبانية ذلك الدير.

كيف جرى جمع رؤساء رهبان طائفة السسترشيان بناء على أمر ملكي

في أيام عيد غطاس مولانا، قام الملك مع قليل من الاهتمام بالأمطار الثقيلة، وبعنف الرياح، وبفيضانات الأنهار، وبالمتاعب والاضطرابات التي قد تقع، فدعا رؤساء رهبان طائفة السسترشيان للاجتماع في لندن، لسماع أوامره الملكية، ولذلك جاءوا، وكأنهم قد أرغموا على فعل ذلك، مع أنهم تعرضوا للارهاق بتعاسة، وكانوا بلاأمل بالرحمة، وبعدما مثلوا أمام الملك، طلب منهم على الفور وبإلحاح تقديم مساعدة مالية وصلت إلى مبلغ كبير، وعلى هذا الطلب، أجابوه بالاجماع وكأنهم قد صدروا عن روح واحدة، وقالوا بأنهم لن يفعلوا ولن يستطيعوا من دون الموافقة العامة لهيئتهم الرهبانية العامة، أو على الأقل من دون الموافقة العامة لجميع رؤساء رهبان طائفة السسترشيان في انكلترا، الذين لم يكونوا آنذاك موجودين.

ولأنهم غادروا من دون تثبيت يوم يمكن أن يجتمعوا فيه مع بعضهم، أعطى الملك وهو غاضب جداً أمراً بعدم ابداء الرضا وتقديم الخدمات لرؤساء الرهبان السسترشيان، فزاد منح أذناً ضمنياً، إلى عمد المناطق، وإلى المسؤولين عن الغابات، وإلى الوكلاء الملكيين الآخرين (الذين كانوا جاهزين بما فيه الكفاية للقيام بالاستخراجات من دون أوامر الملك)، وشجعهم على ايذاء رؤساء رهبان طائفة السسترشيان وارهاقهم في المناطق المجاورة لهم، وبموجب أية ذريعة يمكنهم اختراعها.

موت بعض النبلاء

وفي حوالي أيام عيد الغطاس، مات ألان دي وورسانت Warsant, وكان كاهناً خاصاً بالملك ومن رجال العدالة، وكان قد تخلى مؤخراً وهو سعيد عن هذا المنصب الأخير قبل موته، ومات كذلك جون أوف ليكسنغتون، وكان شاباً وسيماً، وفارساً فصيحاً ومتعلماً، وهو بسبب علمه كان من قبل الحافظ للختم الملكي ومستشاراً خاصاً للملك، وكذلك مات جون الكاهن النظامي ورئيس رهبان نيوبري، وهو الذي كان من قبل قسيساً لجون مانسيل، وقد ارتقى إلى مثل هذا المنصب العالي، حيث لم يكن فقط رئيس رهبان دير نيوبري، بل كان مستشاراً سرياً للملك، ورسولاً إلى الأمراء المجاورين، لكنه تطلع الآن نحو المناصب الأسقفية، وفي هذه الآونة أيضاً عاد رئيس رهبان دير ويستمنستر، والأسقف المنتخب لكنيسة سالسبري، من بلاط روما، ومثل ذلك فعل بعض الأشخاص الآخرين ذوي المراتب والنفوذ، وكان هؤلاء جميعاً —حسبما تبرهن من النتائج— قد ذهبوا إلى بلاط روما برسائل شفوية غير مجدية تعلقت بمملكة أبوليا وصقلية، وقد تعرضوا لمخاطر كبيرة على الطريق، وجاء ذلك من كمائن الفرنسيين.

كيف رفض الملك قبول الأسقف المنتخب لإيلاي

وفي حوالي الوقت نفسه انتخب رهبان إيلاي بشكل صحيح نائب رئيس رهبانهم، وكان رجلاً مستقيماً وغير مذموم، ليكون أسقفاً لإيلاي، وراعياً لأرواحهم، وبذلك رفضوا الاستجابة لرغبات الملك الذي حثهم بالتماساته بكل رسائله وبوساطة رسل خاصين، وحرضهم على انتخاب رجل آخر، وبناء عليه غضب الملك غضباً شديداً، فعهد بالمسؤولية عن الكنيسة إلى جون ويلران، فكان بذلك كمن عهد بالحمل إلى ذئب جائع، فقام على الفور بقطع أشجار غابتهم، وأفقر المعتمدين عليهم، وآذى الرهبان أنفسهم إلى درجة أن جميع الخوف، من الرب

والاحترام للقديسين، قد اختفت بالداخل، وكل شيء بات عرضة للخطر وللدماء، ونزلت الكنيسة إلى أدنى أوضاع العبودية، وباتت مهيأة لهجمات الغزاة النهابين.

كيف جرى إرسال رسل خاصين إلى الملك الفرنسي

وفي عيد تحول القديس بولص إلى المسيحية، جرى ارسال الأسقف المنتخب لوينكستر، والفارس جون غيتدن ·Gatesden, وبطرس دي أوريفالي Orivalles, باسم ملك انكلترا إلى الملك الفرنسي من أجل تمديد الهدنة المعقودة، لكن ماالذي عمل في القضية لم يظهر بعد.

كيف حصل الأسقف المنتخب لسالسبري على إذن بالاحتفاظ بموارده الماضية

وبعدما عاد المعلم جايل أوف برايدلفورد Bridleford الأسقف المنتخب لسالسبري من بلاط روما جعل الجميع يعرفون بأنه حصل على اذن من روما بالاحتفاظ بموارده الماضية وبعمادته، التي منها كان قد تنشق الرائحة الطيبة، وقد عدّ هذا شيئاً جديداً، لكن غالباً ماسمح به، بالنظر للمكافآت التي عملت، ولذلك لم يسبب مفاجأة لأحد.

الوصاية التي منحت إلى الملكة

وحوالي الوقت نفسه منحت الوصاية على الأرض التي كانت عائدة من قبل إلى وليم كانتلوب Canteloup, والتي كانت ممنوحة من قبل إلى ادوارد، إلى الملكة، ومثل ذلك أيضاً الوصاية على الأرض التي كانت عائدة إلى وليم صاحب السيف الطويل، وبناء عليه فإن الوكلاء الذين كانوا معينين تحت أخو وليم امتلكوا الجرأة والوقاحة،

لأنهم أصبحـوا تحت حماية مثل هـذه السيـدة ذات المنصب السـامي، ومـارسوا لـذلك ظلماً هائلاً على جيرانهم، حيث وصـل الأمر حـداً أن آلامهم أسالت الدموع من أعين حتى أعدائهم.

طائفة رهبانية جديدة

ظهـرت الآن في لنـدن طائفـة رهبـانيـة جـديدة، لم تكن حتى الآن معـروفـة، وأظهـرت على الملأ ترخيصاً بـابوياً، مماسبب الاضطراب إلى عدد كبير من الطوائف القديمة.

كيف جرى تعيين مواطن من بريشيا في محل الشيخ برانكليون

بعدمـا جرت استقالة الشيخ برانكليون من منصبـه، تم تعيين مواطن من بريشيـا Breschia في مكانه، وقـد سار بشكل مـوثوق على طريق سلفه في تنفيذ العدالة، ومارس واجبات منصبه بنشاط مماثل.

انتخاب روجر دي مولند لأسقفية شيستر

وفي هذا العـام أيضاً، قام الأسقف روجـر أوف ويستهام بالاستقـالة من منصبه، نتيجـة لتقدمه في السـن ولضعفه الجسدي، فـانتخب رهبان الدير أسقفـاً لهم وراعياً لنفـوسهم المعلم روجر دي مـولند Molend, وكان حفيداً للملك، ولذلك قبله الملك، ووافق على انتخابه كما ينبغي، لأنه ما كـان في حال الأمانة يمكنه رفضه، مثلما فعل بالعـادة في حالات الآخرين، وعلاوة على ذلك التمس من الرهبان الديريين انتخاب خازنه فيليب لوفل Lovel, ولذلك قـامـوا بناء على تحريض من الايرل رتشـارد بانتخـاب المعلم روجـر المتقـدم ذكـره، الذي إليـه مـال الملك وعطف عليه، لأنه كان علاوة على ذلك حفيده.

كيف ازداد الويلزيون يومياً بالعدد والقوة

وفي هذه الآونة نقـل الويلزيون النار والقتل إلى داخـل المقـاطعـات

الويلزية الـواقعـة على حـدود انكلترا، ووافقهم الحظ، حيث أرغمـوا الانكليز على التراجع، كما أنهم طردوا من بلادهم واحـداً اسمه غريفين دي برونيت، وكان رجلاً صـاحب نفوذ، ومن أصل نبيل، وكان ويلزي المولد والأسرة واللغـة، ونهبوا جميع أراضيـه، التي كـانت غنية وواسعـة وعاملوها بالنار والسيف، وكـان سبب جميع هذه الأضرار التي لايمكن تعويضها وحشية الطغيـان، والنهم الذي لايشبع لغيوفري لانغلي، الذي ظلـم الويلـزيين حتى قـــالـوا أخيراً أنهم يؤثـرون الموت بشرف على الاستمـرار بحيـاتهم المهـانـة في ظل مثل ذلك الظلم والعبـودية، هذا وعندما جرى انتخـاب الايرل ملكاً لألمانيا كتب بلغة ودودة إلى للويلين Llewellyn وإلى المقـدمين الآخرين للجيش الويلزي، يرجـوهم، الاقـلاع عن غـاراتهم العـدوانيـة في سبيل هـدوء المملكة، وخشيـة أن ينزعج ويعاق في إجراءاته، وبالتـالي ينمنع من مغادرة المملكة، وعلى كل حـال عندمـا رأى الويلـزيون أن الفصل الممطر مـوافق لخططهم، وأن الطرق قد أصبحت غير ممكنة العبـور عبر المستنقعات، رفضـوا الاقلاع عن هجماتهم، ولذلك أرهقـوا أعـداءهم بنشاط أكبر، وقسمـوا جيشهم إلى قسمين، بسبب كثـرة العـدد، حتى يتمكنوا بـذلك بسهـولة أكبر من الحصول على المؤن، ووصل تعداد هذين القسمين إلى ثلاثين ألف رجل، مسلحين حسب عـادات بلادهم، وكـان بينهم خمسمائة فـارس مسلحين بشكل جيـد، ويمتطـون على خيـول مغطاة بالدروع، ولـذلك اشتكى ادوارد إلى أبيـه من أعمال الوقـاحـة من جـانب الويلزيين، ويقـال بأن الملك أعطاه الجواب التـالي: «مـاشـأني بهذا؟ إن الأرض هي أرضك بمـوجب أعطيـة مني، ابذل غـاية جهدك للمـرة الأولى، واعمل شهـرة لنفسك في شبـابك، حتى يمكن لأعـدائك أن يخافـوا منك بالنسبـة للمستقبل، أما بالنسبـة لي فأنا مشغول بأعمال أخـرى»، وهكذا تعرضت انكلترا للظلم بالاضطرابات المتنوعة الأشكال من جميع الجوانب.

حول وصوع رئيس أساقفة مسينا
والسلطات التي كانت ممنوحة له

وجرى في هذا العام، عند حلول موعد الصوم الكبير، ارسال رئيس أساقفة مسينا من قبل البابا (لأي سبب لم يكن معروفاً)، ووصلت معه حاشية كبيرة من رهبان طائفة الدومينيكان، يمتطون على الخيول، وبحكم حمله لرسائل من البابا تخوله أن يفرض وأن يتسلم المساعدات المالية، كان بإمكانه انزال عقوبات ثقيلة على جميع المتذمرين والمعارضين، وبناء عليه بعث برسالة سلطوية إلى كل واحد من الأساقفة، يأمرهم بتزويدهم بالمساعدات المالية، وفق مبالغ جرى تحديدها من قبله، فقد استخرج من دير القديس ألبان ومن الديرة المعتمدة عليه مبلغ إحدى وعشرين ماركاً، كما أن رهبان دير القديس ألبان قد ذهبوا إلى زيارته في مقر اقامته بكل لطف وتواضع، غير أنه لم يسمح لهم بالمغادرة، بل احتفظ بهم مثل سجناء، حتى يرغمهم على اشباع مطالبه الشرهة، وعندما أجابه الرهبان بتواضع بأنهم لايملكون بنساً معهم، ردّ عليهم رئيس الأساقفة الغاضب بصلف: «لماذا أنتم متسولين هكذا؟ أرسلوا وراء بعض التجار الذين سوف يقرضونكم بعض المال»، وهذا مافعلوه، لأنهم كانوا مرغمين، لأنه لم يكن مسموحاً لأولئك الرهبان بمغادرة البيت، مع أنهم كانوا الرهبان المنتخبين للدير، فهم كانوا: رئيس شمامسة كنيسة القديس ألبان، وجون حامل ختم رئيس الرهبان وممثله، وكان رئيس أساقفة مسينا هذا راهباً في طائفة الدومينيكان، نحن أملنا أن نجد فيه تواضعاً أكثر مما أبداه، وكان حصل من البابا على الرسالة التالية التي تخوله استخراج المساعدات المالية:

«من الراهب جون الذي هو بفضل رحمة الرب رئيس أساقفة مسينا، إلى إخوانه المحبوبين كثيراً في المسيح رئيس الرهبان، والجماعة الرهبانية لدير القديس ألبان، في أبرشية لنكولن، تحيات في الرب. اعلموا.. إلخ

(لأن بقية الرسالة موجولة في كتاب Additaments).

وجرى في الوقت نفسه توجيه رسالة بليغة باسم البابا إلى ملك انكلترا، تحثه على اصلاح أخطائه المعتادة، وجاءت هذه الإشارة الأخيرة بسبب توسل لورانس أسقف روكستر، الذي عانى من كثير من الأذى على يدي بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، لأن رئيس الأساقفة هذا قام وهو مسلح بقوة علمانية، فهاجم بالقوة، وقاتل ممتلكات تلك الكنيسة، التي كان بالحري ملزماً بالدفاع عنها وحمايتها، وأظهر رئيس الأساقفة الجرأة وأبدا الوقاحة والصلف لأنه كان محمياً من قبل الملك والملكة، وكذلك من قبل جميع شيعة الملك وأعوانه، لأنه كان عم الملكة، وعلاوة على ذلك كان أسقف روكستر المتقدم الذكر قد عانى من دمار لايعوض حلّ برئاسة أساقفة يورك، وألحقه بها أسقفية إيلاي، ومن مثل ذلك من الأضرار غير الاعتيادية التي لحقت بالكنائس الشاغرة على يدي الملك، الذي وضع جانباً كل احترام للمسيح، وعامل مفاتيح الكنيسة بالاستخفاف والتحدي، ورأى الأسقف المذكور أن خطراً مماثلاً كان معلقاً فوق أسقفيته ومحيقاً بها، في حال التخلي عن منصبه والاستقالة منه أو موته، وكانت محتويات الرسالة التي حصل عليها الأسقف المذكور، الذي انتظر في روما طويلاً من أجل الحصول عليها هي كما يلي:

«من الاسكندر، أسقف، إلخ، إلى ملك انكلترا اللامع، إلخ، إنه فيما يتعلق بأعمالك أيها المحبوب كثيراً»، (من أجل البقية انظر كتاب Ad-ditaments عند علامة السهمين المتصالبين).

موت بعض الأساقفة والنبلاء

في التاسع من شباط في هذا العام مات روبرت أوف هارتفورد Hartford, عميد كنيسة سالسبري وكان صاحب ذكرى طيبة،

ومتقدماً كثيراً في السنين، وأكثر تقدماً بالأخلاق، ومتقدماً فوق كل شيء بالمعرفة، وهو كما نعتقد كان بسبب فضائله المتفوقة، صديقاً خاصاً للمخلص، كما مات أيضاً رالف فتز— نيقولا، قهرمان الملك، ووليم دي ماندفيل Mandeville, وكانا معاً من النبلاء المتميزين، ومات أيضاً رتشارد أسقف اكستير Exeter.

زواج بلدوين إيرل ديفون من سافوينية

بناء على تحريض من الملكة، تزوج بلدوين دي ريفر Rivers من سيدة أجنبية، كانت من سافوي، وقريبة للملكة، وكانت كونتية ديفون Devon عائدة إلى بلدوين، وهكذا فإن الممتلكات الفاخرة ومواريث الانكليز قد تحولت يومياً إلى الأجانب، وهذه حقيقة إما لم يعرفها الانكليز الجبناء أو تظاهروا بعدم معرفتها، وقد تعرضت فسولتهم وسذاجتهم التامة إلى النقد من قبل الويلزيين الشجعان والأبطال.

المنح الكثيرة التي قدمها الملك إلى كنيسة القديس ألبان

وفي الثالث من أيار في هذا العام ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، وعمل تقديمات عند المذبح الكبير، تألفت من طوق جميل جداً مع مشبكين، وسلسلة صليب، وكذلك بعض الخواتم الثمينة، أما عند مذبح القديس أمفيبالوس Amphibalus, في المكان نفسه، فقدم أيضاً كأساً مذهباً من الفضة حتى يوضع فيه الرماد الذي تمّ العثور عليه مؤخراً في الضريح الذي ذكرناه أعلاه، وكذلك ست قطع من الأقمشة الحريرية، واحدة منها عينها لتغطية الضريح المتقدم ذكره، والثانية لتغطية ضريحي الناسكين روجر وسيغارد، كما أنه دفع بعض المال لترميم التابوت، ومدّد إقامته في ذلك المكان لمدة أسبوع، وبما أن كاتب هذا الكتاب كان مرافقه الدائم في الأماكن وعند المائدة، وفي قاعته، فقد أملى عليه بعناية ودماثة أشياء كثيرة، وفي أثناء المحادثات،

كانت هناك إشارات متوالية إلى أخيه الايرل رتشارد، كما أنه ذكر النبلاء بالاسم الذين عليهم يعتمد الانتخاب، الأمر الذي جرى ادخاله في الجزء المتقدم من الكتاب، كما أنه ذكر أسماء جميع الملوك المقدسين لانكلترا، الذين جرى تطويبهم، وفي سبيل أن لاتكون هذه الشخصية العظيمة قد تعبت من دون فائدة في املاء هذه المسائل قمنا بتدوين أسماء هؤلاء القديسين في هذا الكتاب.

أسماء الملوك القديسين لإنكلترا

ألبيرت، وادوارد الشهيد، وكينيلم Kenelm, وأوسوولد، وأوسوين، ونيثان Neithan, وويستان Wistan, وفرومond Fromund, وأدوولف Edwulf, وادموند، وادوارد، وذكر الملك وعدد بالاسم جميع بارونات انكلترا الذي حضروا في ذاكرته، واكتشف أن عددهم قد وصل إلى مائتين وخمسين، لكن دعونا الآن نعود إلى موضوعنا ونتابع تاريخنا.

اضطرابات في جامعة اكسفورد

في التاسع من آذار في هذا العام، ذهب تسعة معلمين للعلوم العقلية في اكسفورد إلى كنيسة القديس ألبان، وقدموا في بيعة القديس أوسوين شكوى إلى الملك ضد أسقف لنكولن الذي كان يسعى للاعتداء على امتيازات المدارس، متجاوزاً ومضاداً للمبادىء القديمة المقررة للجامعة، وبناء عليه جرى تعيين يوم لسماع الأسقف وهو يرد على هذه الشكاوي، وكان ذلك لدى اقتراب موعد عقد برلمان كبير، وذلك من أجل سماع حجج الفريقين، وتأسيس سلام بين الجماعتين، وفي ذلك اليوم نفسه، قال الراهب الذي كتب هذا الكتاب بشكل سري إلى الملك: «ياصاحب الجلالة، بحق اسم الرب، انتبه للكنيسة المتأرجحة المترنحة، لأن الجامعة، التي هي الحاضنة والسيدة لعدد كبير جداً من الأساقفة المقدسين قد

اضطربت إلى أبعد الحدود، وإذا ماتعرضت جامعة اكسفورد، التي هي المدرسة الثانية للكنيسة، لابل بالحري الأساس لها، للاضطراب، من المتوقع بالطريقة نفسها، وبالوقت نفسه، ومن المخشي منه أن الكنيسة كلها سوف تتدمر»، وعلى هذا الكلام أجاب قائلاً: «لاسمح الرب أن يكون الأمر كذلك، على الأقل في أيامي كلها».

عودة رئيس رهبان دير ويستمنستر مع أصحابه من بلاط روما

في يوم عيد القديس بريسكا Prisca, في هذا العام، عاد رئيس رهبان دير ويستمنستر والأسقف المنتخب لسالسبري من بلاط روما، بعدما عانيا من كثير من الأذى، وتعرضا لمخاطر كبيرة من مكائد خصومهما، لأنه لعبور الألب، الأمر الذي فعلاه في سبيل قضاء أعمال للملك، كان معناه أنه توجب عليهما المرور عبر فرنسا، حيث عانيا من أعظم الخسائر، وأثناء تلك الرحلة مات واحد من أصحاب رئيس الرهبان، وكان اسمه هنري دي مير Mer, وكان من رجال العدالة المتجولين التابعين للملك، مات ومضى ليقطف ثمار أعماله، وفقد رئيس الرهبان أيضاً آخرين من حاشيته أثناء الرحلة.

كيف جرى نهب ممتلكات أسقفية إيلاي

وتعرضت في الوقت نفسه، الأراضي والغابات، والبلدات في أسقفية إيلاي إلى مخاطر كبيرة جداً، فقد جرى قطع الغابات، وتجفيف البحيرات بفتح أقنية، ونهبت الأسماك، وتم الاستيلاء على الحيوانات وهي في الحدائق، وهكذا وضع كل الخوف من الرب، ومن القديس ايثلرد Ethelred, جانباً، وفرضت الضرائب على أفراد شعب الأسقفية، وتعرضوا للأذى بطرق متنوعة، وكان ذلك على أيدي الوكلاء الأخساء للملك وجباته، وفي الوقت الذي كان فيه الأسقف المنتخب ورهبان الدير كلهم أمل في أن يصغى إليهم من قبل الملك في اليوم المحدد، أصبح

الملك عدوهم المعلن، مفضلاً الوقـوف ضد الأسقف المنتخب، وكان هذا كـافياً لإثارة مشـاعر الاستغـراب والفضيحـة في نفس كل واحد، وكـان السبب الرئيسي وراء هذه التهـم هو التـالي: «كـانت جـزيرة إيلاي منذ العصور القـديمة حصناً ومكاناً للالتجاء لعدد كبير جـداً من الذين عانوا من الأضرار في أيام الحرب، ولم يكن مـوائماً ولا مأموناً العهدة بالـوصاية على مثل هذا المكان، الذي كان مثل قلعة، إلى أجنبي من الدير، كان أبلهاً وغير خبير في إجراءات الحروب، ولم يتعلم قط مهارة وحكمة البلاط».

كيف ذهب الأسقف المنتخب لإيلاي إلى روما

مضى الأسقف المنتخب بكـل سرعـة وبشكل مفـاجيء نحـو البـلاط البابوي بعد الخسـائر العظيمة التي عانى منها، وحـافظ رئيس الأساقفة في الوقت نفسه بعناد على الاستمرار بأعمال تنكيله، لإرضـاء الملك، ومع أن رئيس الأسـاقفـة هذا، عندما كـان قـد قـام مـن قبل بفحص الأسقف المنتخب، ولم يجد سبباً للاعتراض ضده، كتب إلى أصـدقائه في بلاط روما ضــده، وذلـك في سبيل أن يجري رفضــه، وأن يجري تعيين الـراهب آدم مـارش Marsh عـوضـاً عنه، مع أن هذا الراهب آدم، الذي كـــان راهباً من طائفـة الفرنسيسكان، كان متقدمـاً بالسن، وقد امتلك كثيراً من المعارف والعلم، وتخلى عن العظمة الدنيوية، وعن موارد واسعة، في سبيل ارتداء الزي الرهبــاني، وعلى الرغم من ذلك يروى بأنه أعطـى مـوافقتـه وأبدى رضاه ليحلّ محل الأسقف المذكور، وذلك وفقاً لقول أوفيد: «نادراً مارأيت أي واحد كان من برج المريخ لم يكن الربح موافقا لعقله».

نادراً مارأيت واحداً من أهل برج المريخ

لم يكن قلبه يبتهج بالمكاسب

وقام المعلم هنري أوف وينغهام Wengham, الذي إليه أوكل الملك مهمة حث رهبان إيلاي وترغيبهـم للاستجابة لطلبه، فتحمل بصبر

التفكير بعدم اختيار أي واحد آخر وترقيته إلى تلك الأسقفية المذكورة، وأعلن بتواضع أن أي واحد من الاثنين أجدر منه شخصياً بذلك المنصب.

المعجزات التي عملت عند قبر القديس ألبان

في هذا العام نفسه، وحوالي هذا الوقت نفسه، وقعت معجزات بشكل متواصل في كنيسة القديس ألبان، في البقعة التي عثر فيها على ضريح القديس ألبان، ففي يوم عيد القديس أغنس جرت إعادة طفل إلى الحياة بعد موته، وفيما بعد تمت إعادة واحد آخر مثله، وفي البقعة نفسها جرى شفاء عدد من المشلولين والعميان، وجميع المعجزات التي عملت، قد تبرهن أنها قوية الأساس وصحيحة، وذلك بموجب بينات أناس موثوقين، من أمثال الكهنة ورجال الأبرشيات والمحلفين العائدين للمناطق المجاورة، لأنه ليس الذنب المقترف بنشر تقارير زائفة حول تشريف الرب وحمده، أقل من البقاء صامتاً تجاه الأخبار التي هي صحيحة.

كيف جرى إرسال مبعوثين إلى ملك فرنسا

وجرى في يوم عيد تحول القديس بولص إلى المسيحية، ارسال الأسقف المنتخب لوينكستر وجون غيتسدن Gatesden, وبطرس دي أوريفالي D'Orivalles, إلى الملك الفرنسي، وذلك باسم ملك انكلترا، لقضاء بعض الأعمال السرية الخاصة بالأخير.

كيف حافظ الأسقف المنتخب لسالسبري على موارده السالفة

وفي هذه الآونة نفسها عاد المعلم برايدلفورد Bridleford, الأسقف المنتخب لسالسبري من البلاط الروماني، وأظهر ترخيصاً مكتوباً، صادراً عن البابا، به سمح له بالاحتفاظ بموارده السالفة لبضع سنوات، وكان بدعة عجيبة جديدة ولدتها روما.

زيادة عدد الوصايات الممنوحة إلى الملكة

وجرى في هذا الوقت نفسه أيضاً منح الوصاية على أرض وليم كانتلوب Cantelupe (التي كانت ممنوحة من قبل إلى ادوارد) إلى الملكة، ومثل ذلك أيضاً الوصاية على أرض وليم صاحب السيف الطويل وهي الأرض التي تخلت عنها على الفور إلى قهرمانها الراهب وليم أوف تارنتوم Tarentum, الذي فغر فاهه وراء المال مثل سعي علقة الخيول وراء الدم، ونتيجة لذلك قام الوكلاء الذين جرى تعيينهم تحت وليم الراهب المذكور بالتظاهر بالتجبر والوقاحة، بحكم أنهم تحت رعاية وحماية سيدة لها مثل ذلك المنصب الرفيع، فظلموا الناس من الجيران، وهكذا تعرضوا للافقار بسبب حجج تافهة، لابل حتى من دون حجة مهما كان نوعها، وهكذا صار الحال مثلما حدث في الماضي كثير من الملوك مارسوا الطغيان في انكلترا.

طائفة جديدة من الرهبان

وفي حوالي الوقت نفسه، قامت طائفة جديدة من الرهبان، لم تشاهد من قبل ولم تعرف باظهار نفسها في لندن، وعند ظهور رهبانها كانوا يرتدون أكياساً، ولذلك عرفوا بالرهبان المرتدين للأكياس.

موت مرغريت أخت القديس إدموند

وماتت في هذه الآونة أيضاً مرغريت رئيسة راهبات كيتباي Katesby, أخت القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، وكانت امرأة ذات قداسة عظيمة، قد أجيزت فضائلها المتميزة بصنع معجزات.

البرلمان العظيم الذي انعقد ليقول فيه الايرل رتشارد وداعاً لانكلترا

في منتصف الصوم الكبير من هذا العام نفسه، جرى عقد بارلمان عظيم، فيه ظهر أساتذة الفكر والآداب من اكسفورد، بناء على أوامر الملك، من أجل إعادة تأسيس السلام بين جامعة اكسفورد وأسقف لنكولن، الذين أنهكهم، ووصل إلى هذا البارلمان أيضاً رتشارد ايرل غلوستر، وجون مانسيل، اللذان كانا قد ذهبا إلى ألمانيا لرؤية كيف كانت الأمور قائمة، ولإعداد السبيل لرتشارد، ايرل أوف كورنوول، الذي انتخب مؤخراً ملكاً على ألمانيا، وكان هذين الشخصين جاهلين بالانتخاب الزائف لملك اسبانيا، الذي أكد فيما بعد بأنه هو الذي انتخب أولاً، حسبما ستبينه الرواية المقبلة، وكان الايرل رتشارد الملك المنتخب حديثاً لألمانيا، حاضراً أيضاً في هذا البرلمان، من أجل القول وداعاً إلى الجماعة العامة لانكلترا، وفي الحقيقة كان جميع نبلاء انكلترا موجودين تقريباً هناك، وعين الايرل المذكور فولك أسقف لندن وكيلاً رئيسياً على ممتلكاته التي بحوذته في انكلترا، وأثناء عقد جلسات هذا البارلمان، كانت هناك أعداد كبيرة جداً من أهل مدينة لندن، وكانوا من الكثرة بمكان أن مدينة تكاد بصعوبة أن تحتويهم.

كيف جرى استدعاء رئيس أساقفة كانتربري إلى روما للإجابة حول الأضرار التي اقترفها روكستر

وأصر في الوقت نفسه أسقف روكستر، الذي عانى من أضرار لا تحتمل على يدي رئيس أساقفة كانتربري على متابعة شكاويه التي عملها لجميع البلاط الروماني، ولأن قضيته استدعت انتقاما مناسباً (لأنها كانت اعتداءات ثقيلة) وذلك بعد تحذيرات كثيرة جرى توجيهها إلى الملك، الذي تولى تشجيع رئيس الأساقفة المذكور في وقاحته العدوانية،

جرى استدعاء رئيس الأساقفة هذا للمثول شخصياً أمام البابا، للإجابة على الشكاوي التي عملت ضده، ولتقديم ترضية على الخسائر التي تسبب في إلحاقها.

حول مرض أسقف هيرفورد

أصيب أسقف هيرفورد بتمعط الجلد أو بنوع من أنواع الجذام، وجاء ذلك عقوبة له على ذنوبه المضاعفة.

كيف طلب الملك المساعدة لابنه ادموند

قبل ان يرفض البارلمان المتقدم ذكره، أحضر الملك ابنه ادموند، مرتدياً لزي أبولي، وجعله يمثل أمام الاجتماع، وأشار إليه أمامهم جميعاً، وقال على مسمع من الجميع: «إنكم تشاهدون يا رعيتي المخلصة، ابني ادموند، الذي دعاه الرب بكرمه ومنته إلى المرتبة الملكية، وترون كيف هو بشكل واضح جديربحظوتكم جميعاً، وكيف سيكون عملاً لا إنسانياً وطغياناً من الذي سوف يرفض أن يقدم إليه مساعدة معقولة وفعالة، ونصيحة في هذه الأزمة»، وأضاف أنه قام بناء على نصيحة البابا وحسن نواياه، وكذلك الكنيسة الانكليزية معه، وفي سبيل الحصول على مملكة صقلية، فألزم نفسه —تحت طائلة عقوبة فقدانه مملكته— بدفع مائة وأربعين ألف مارك من دون الفائدة، التي تزداد يومياً، دون أن تكون ظاهرة، وأنه حصل أيضاً لمدة خمسة أعوام متوالية، على العشور، التي ينبغي فرضها على جميع رجال الدين بشكل عام، أي أن تقول من منافعهم، التي سوف يجري احصاؤها، وفقاً للطريقة الجديدة للضرائب، من دون انقاص لأي نفقات، باستثناء النفقات التي حصلت بفعل الضرورات، وكذلك جميع المنافع اللاهوتية التي شغرت خلال العام الأول، وذلك حتى اكمال الأعوام الخمسة، وجعل هذا الخطاب آذان الجميع ترتجف، وألقى الرعب في القلوب، خاصة وقد علموا بأن هذا

الطغيان، نشأ عن البابا وصهدر، ومع أنهم قدموا أعذاراً، وسألوا منحهم بعض الوقت، كانوايعرفون أنهم لن يستطيعوا الحصول حتى على هذا المعروف، وقد أرغموا أخيراً على اعطاء وعد بالتفريج عن الملك ومساعدته لمواجهة الضروريات الضاغطة عليه، على شرط - على كل حال - أن يقوم من ذلك الوقت فصاعداً بالالتزام بالصك العظيم دون خرق له، وهو ما كان قد وعد مراراً به وأن يفعله، والذي غالباً ما قدمه لهم ثم أعاد تقديمه إليهم، وأن يتوقف عن إلحاق الأذى بهم وافقارهم، على أساس حجج فارغة، وعلى أساس هذه الشروط وعدوا الملك بدفع اثنين وخمسين ألف مارك، مع أن ذلك سوف يلحق أضراراً لا يمكن جبرها بالكنيسة الانكليزية، وعلى الرغم من هذا لم يقبل الملك بهذه الأعطية الثمينة حتى وإن كانت بهذا الحجم.

كيف تسلم المتطفلون على عمادة يورك موارد هذه العمادة

قام الروماني الذي فرض نفسه بطريقة مراوغة على عمادة يورك، فاستولى بالقوة بشكل فاضح على مقعد العميد في السدة أثناء ساعة الطعام، لأنه كان مسلحاً بحظوة البابا وحمايته، محدثاً بذلك أضراراً كثيرة متنوعة وأذى عظيماً ألحقه برئيس الأساقفة ثم تسبب أخيراً بتعليقه مع أنه كان رجلاً بريئاً، وواحداً قد حبي بالقداسة كلها، وأخيراً، وبعد كثير من الخلافات، وفي سبيل السلام وافق الروماني على الجلوس قانعاً باستلام مائة مارك سنوياً من كنيسة يورك، إلى أن يكون قد تجهز بشكل أفضل.

وصول رئيس أساقفة كولون إلى إنكلترا

ما أن ارفض المؤتمر المتقدم ذكره أو البارلمان (الذي كان الحضور فيه كبير جداً) حتى وصل رئيس أساقفة كولون، يحيط به بعض الأساقفة، وكان بصحبته دوق أيضاً بقصد تشجيع الايرل رتشارد للقيام بتولي المملكة الألمانية من دون خوف (وهي التي دعيت باسم المملكة

الرومانيـة لأنها كانت بالواقع لديها العهد بتولي الامبراطورية الرومـانية) وهي التي منحت إليه من دون معارضـة أي واحد، وذلك بغية حكمها بسـلام من قبله، والذي كـان مصـدراً للدهشـة للكثيرين فيها بعـد، هو الصمت الذي التزم به تجاه حقيقـة، أن بعض نبلاء ألمانيا، قـاموا —بناء على تحريض من الفـرنسيين— بالموافقـة على انتخـاب ألفـونسـو، ملك اسبانيا، لتولي المملكة المتقدمة الذكر.

وينبغي أن يكون معلومـاً، أنه كان موجـوداً في البارلمان العـام المتقدم ذكره ستة رؤساء أساقفة هم رؤساء أساقفة: كانتربري، ويورك، ودبلن، ورئيس أساقفة ميسينا، الذي كـان يتلقى أموالاً كثيرة من كل واحد من الناس، ورئيس أساقفة تارنتوم Tarentum في أبوليا، الذي قدم ليفرض على الملك مـايتعلق بمسألة أبوليا، وأسرع ايـرل غلوستر وجون مـانسيل قادمين من القـارة حتى يكونا حاضرين في البـارلمان، وهما وإن عملا تقصيـاً دقيقاً، كـانا جاهلين بالعـائق الذي ألقي على طريق الايرل رتشارد ايرل كورنوول، بانتخاب واحد آخر سواه.

الأمر البابوي إلى رئيس رهبان القديس ألبان بتزويد أحد الإيطاليين بمنفعة غنية

وفي نهاية آذار، أرسل البابا أمـراً سامياً إلى رئيس رهبـان دير القديس ألبان، قضى بتجهيز منفعـة موائمة واعطائها إلى أحـد الرومان، وكأنه لم يفعل مـافيه الكفايـة في قضية روماني آخـر، كان قبل عـدة أيام مضت، جلب رسالة ملحـة، إن لم تكن أكثر من هذه الرسـالة، كانت على الأقل مثلها، وهكذا تكدسـت التعاسات فـوق التعاسـات في انكلترا، وتشوق الأساقفـة إلى التحرر من اقـامتهم المؤقتة في هذا العـالم، لأننا لم نعد أبناء سـارة بل الأبناء غير الشرعيين لهاجـر العبـدة، وجـردنا من الحرية التي حررنا بها المسيح.

كيف قدم بعض نبلاء ألمانيا الولاء إلى الإيرل رتشارد

وقـام في هذا الوقت أيضـاً، كـونراد رئيس أسـاقفـة كـولون وبعض النبلاء الألمان الآخـرين الذين كانوا قـد جاءوا برفقتـه إلى لندن، بتقديم الولاء وأقسمـوا على الاخـلاص للايـرل رتشـارد، وبناء عليـه أعطى الايرل على الفور خمسمائة مارك إلى رئيس الأساقفة لتغطية النفقات التي تحملها في رحلته إلى هنا، وأعطاه أيضـاً تاجاً أسقفياً جميلاً جـداً، مرصعاً بالأحجار الكـريمة، وموصـولاً بقطع من الذهب، وعندما وضعه على رأسـه، قـال وهو بادي السرور: «لقـد أغناني الايرل رتشـارد وأغنى كنيستي بهدية ثمينـة، ومثلما وضع التـاج الأسقفي على رأسي، سـوف أضع على رأسـه تاج المملكة الألمانية أو الرومـانية، هو قـد توجني، وأنا سوف أتوجه»، ولقد رأيت من المناسب ادخال كلام رئيس الأساقفة في هذا الكتـاب، حتى يمكن للخلف أن يعلمـوا كم كان الأجـانب دهاة، فوجدوا الوسائل حتى يتغلبوا على بساطة الانكليز.

كيف حصن ملك فرنسا قلاع نورماندي

عندما سمع الملك الفرنسي بهذه الإجـراءات، أضاف بحكمة إلى قوة وحصـانة القـلاع الموجـودة على حـدود مملكتـه، وحصّن مـدن وقـلاع نورمـاندي، وشحنهـا بشكل خـاص بفرنسيين محليين، وأصـدر أوامـره بوجـوب بأن يكون هناك زواج بين الفرنسيين والنورمـانديين، والعكس صحيح، في سبيل أن يتحدوا براوبط الصداقة المتبـادلة، وقد جرى تنفيذ هذه الخطة، لأنهم قالوا: «كان الانكليـز قد تشجعوا فيما مضى وامتلكوا الجرأة، بوسـاطة الامبراطور الرومـاني أوتو، الذي كان فـارسـاً شجاعـاً جـداً، ومجدداً بوساطة فـردريك، الذي قـامت له روابط قـرابة بملكهم (الانكليز) وبالأقرباء الآخرين، ولذلك كانوا عدوانيين كثيراً نحو مملكة فـرنسا، ومع ذلك، إن هذه المملكة مـاتزال بفضل حماية الرب مستمـرة بالقوة وبالرفعة والعظمة»، وبذلك حصلوا على بعض المواساة.

كيف قدم بعض النبلاء الألمان الولاء للإيرل رتشارد

وقام بعض النبلاء الألمان الآخرين، الذي قدموا مع رئيس أساقفة كولون، وتسلموا بعض الهدايا الثمينة من الايرل رتشارد، بتقديم الولاء إليه، وأدوا أيمان الطاعة بدقة له، عندما كانوا على وشك مغادرته، وفعلوا ذلك حتى لايكونوا موضع ريبة.

إحصاء الأموال التي أنفقت من دون فائدة من قبل الملك

وقام في هذه الآونة المحاسبون في قاعة الملك بفحص جميع السجلات المالية، وقاموا بإحصاء دقيق للمبالغ التي أنفقت، وقد تبرهن لهم، وكانوا جديرين بالثقة، أنه منذ أن شرع الملك في نهب وتبديد ثروات مملكته، قد أنفق تسعمائة ألف وخمسين ألف مارك، وهو مبلغ مخيف أن تفكر حوله، لأن مملكة انكلترا لم تشعر قط بالحصول على مثل ذلك المبلغ الكبير من المال، ولاأقل من ذلك بكثير، لأنه أوليس من الأفضل لك أن تفقد سيفك أو سهمك بتركهما يسقطان إلى قعر البحر، من أن تدعهما ينتزعان منك من قبل عدوك؟

مغادرة رئيس أساقفة كولون لإنكلترا

في عيد الفصح صعد رئيس أساقفة كولون ظهر غليون كبير، كان راسياً في نهر التيمز، وأقلع من لندن، وكان الغليون مشحوناً بالرجال، ومسلحاً، ومجهزاً بالمؤن من أجل الرحلة، وقد بادر مسرعاً نحو الوطن ليكون جاهزاً لاستقبال السيد الجديد المنتخب، الايرل رتشارد، ولإعداد السبيل من أجله للوصول إلى مملكته بأمان.

مغادرة الإيرل رتشارد لإنكلترا

وفي اليوم الثالث من أسبوع الفصح، قام ايرل كورنوول، المنتخب حديثاً ملكاً على ألمانيا بوداع أصدقائه، وعهد بنفسه إلى صلوات رهبان

الطوائف، وانطلق نحو ساحل البحر، تحيط به حاشية كبيرة من النبلاء، حيث كان ناوياً على الاقلاع من يارماوث، لكن الرياح لم تكن موائمة، وقد انتظر لوقت طويل على الساحل، مقابل نفقات كبيرة من دون فائدة، ومارس —على كل حال— عندما كان مقيماً على الساحل بعضاً من الطغيان على كنيسة القديس ألبان، وهو مارأينا أنه من الأفضل العبور به بصمت من أن نأتي على ذكره في هذا الكتاب.

نقص المؤن بين أتباع الإيرل رتشارد

وعندما كان الايرل مبدداً وقته عند الساحل تحيطه حراسة كبيرة، وذلك في توقع لريح موائمة، حدث نقص في المؤن، بحيث أصبحت عزيزة، حتى أن المكيال الواحد من الطحين قد بيع بمبلغ خمسة عشر شلناً، وصارت الطيور والبط قليلة جداً، وغالية إلى أبعد الحدود، وجرى بيع لحم البقر والغنم بأي سعر أراد البائع أن يفرضه، ولولا أن الايرل دفع عن رضا —حسبما فعل بالعادة— ثمن المشتريات، لصارت حالة العوز أسوأ، ولضغطت على جميع أتباعه، أو أبعدتهم كلياً عنه.

إلغاء حكم جائر أصدره هنري دي مارا
ضد رئيس رهبان دير القديس ألبان

وينبغي أن نتذكر أيضاً، أنه عندما كان الملك في القارة، وكان الايرل رتشارد نائب المملكة، جرى إلغاء الحكم الجائر، الذي أصدره رجل العدالة هنري دي مارا Mara, وجاء الالغاء بفضل الجهود المتواصلة لوليم هورتون Horton, وكيل المؤونة في الدير، فبموجب قرار هنري المذكور، كان قد جرى تغريم رئيس رهبان دير القديس ألبان بمبلغ مائة باوند، وذلك بشكل غير عادل، لأن رجاله لم يذهبوا (لأنه لم يكن مفروضاً عليهم الذهاب) إلى شيسترهانت Chesterhunt, لأن ذلك كان خارج اطار امتياز رئيس الرهبان،

ولاقى هنري المذكور عقوبة عادلة، بوساطة انتقام الشهيد ألبان، حيث أنه مات ميتة بشعة وفي ظروف سيئة، عندما كان مسافراً عبر الألب، ولم تتوقف الجهود المشكورة لوكيل المؤونة المذكور، حتى حصل من الايرل على الرسالة الموثقة التالية، التي منها من الممكن عرض امتيازات دير القديس ألبان بوضوح للأيام المقبلة، إلى الذين يرغبون بمعرفتهم.

الرسالة التي حصل عليها رئيس رهبان دير القديس ألبان من الإيرل رتشارد

«من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ:

من خلال تفحصنا لصكوك أسلافنا ملوك انكلترا، التي هي بحوذة رئيس رهبان دير القديس ألبان، تبين أن رجال رئيس الرهبان المذكور، لايجوز لهم الذهاب وراء امتيازهم، الأمر الذي يمكن لرئيس الرهبان المذكور أن يريه إلى أي مستدعي، أو في أية مناسبة، وأمام أي رجل عدالة، أو تفتيش، لذلك قمنا باعفاء رئيس الرهبان المذكور من المائة باوند، التي جرى بها تغريم بلدة وامتياز القديس ألبان، وذلك بسبب أن الأشخاص العائدين لذلك الامتياز لم يمثلوا أمام رعايانا المخلصين: هنري دي مارا، ووليم ويلتون [في شيستر هانت] التي هي وراء الامتياز المتقدم الذكر، وذلك لدى التفتيش والتقصي الذي عقد فيما يتعلق بخرق الصرافة والتقايض، ومن أجل تغريم الخارق للصرف وللتقايض المذكور»، ومن أجل البقية انظر كتاب Additaments, وعلاوة على ذلك كانت هذه الرسالة موثقة.

الربح المخجل الذي ابتغي استخراجه من الصرافة

قبل عدة أيام من هذا، جرى استخدام طريقة مخجلة وغير إنسانية للاستخراج، وهي مازالت مستمرة، وقد وضعت قيد التطبيق على البريء وعلى المجرم سواء، وذلك بالنسبة لامتياز الصرافة الذي حصل

عليه الايرل رتشارد من الملك، لأن أي إنسان كان على وشك القيام برحلة، أو القيام بأي نوع من الأعمال مهما كان تافهاً، وتوجب عليه مقايضة وتبديل أية نقود مع الجيران أو الأصدقاء، ومهما كان المبلغ صغيراً، أو مهما كان الأمر ودفع الإنسان لفعله بحكم الضرورة، كان الفاعل لذلك يتهم بالاحتفاظ بالصرافة، لإلحاق الضرر بالملك، وهكذا كان يعاقب بحدة، وكأنه فتح حانوت صرافة للمال، وقام الايرل رتشارد بهذه الوسائل بافقار الكثيرين، وجمع آلافاً كثيرة من الماركات وكدسها في خزانته.

مغادرة الإيرل رتشارد إنكلترا إلى ألمانيا

وبعدما عيّن الايرل أسقف لندن وصياً على قلاعه، وأراضيه، وممتلكاته في انكلترا، وجعله وكيلاً مطلقاً له، أقلع بحراً مع أسطول كبير، كان محتفظاً به في موانىء انكلترا، وكان يتألف من سفن تم الاستيلاء عليها في جميع مناطق انكلترا وبلدان أخرى، وهو على كل حال لم يقدم أية تعويضات لدير القديس ألبان على الأضرار التي اقترفت من قبله، سواء في قضية Miclefeld أو في قضايا أخرى، التي كان منها أن طفلاً يتيماً جرى تجريده من أراضيه، فتحول إلى حالة تعيسة من الفقر، وكان ذلك بوساطة جون غيتسدن Gatesden, وذلك على الرغم من عدم الخوف الكلي من الرب، وتأثر رئيس رهبان دير القديس ألبان، وتحركت شفقته، فتحمل المسؤولية عن ذلك الطفل المحروم، وتولى تربيته وتنشئته، وكان اسمه روجر، وقد حمل الايرل معه سبعمائة ألف باوند، ولم يعدها قط، وكانت كلها ملوثة بالدم، بوساطة جرائم كثيرة، وذلك بالاضافة إلى الزيادة اليومية في الموارد في انكلترا، التي كانت تجبى يومياً وتنهب، وبهذه الوسائل جردت انكلترا من هذه ومن أشياء أخرى كثيرة، وبشكل خاص المال، ونزلت إلى حالة من الفقر مؤسفة، بينما تفاخر الأجانب في نهبهم لها.

وينبغي أن يكـون معلومـــاً أنه من أول يوم مـن شبــاط حتـى هذا الوقت، الذي هـو بداية أيار، اضطرب الهواء بعـواصـف الرياح والمطر، الأمر الذي حول انكلترا إلى مـايشبه المستنقع الموحل، وحملت الأخاديد مظهر خنادق، وكـانت الخنادق تشبه المستنقعـات، وبدت الأنهار وكأنها أذرعة للبحر، وهكذا تولت ثـلاثة أشهر تحويل الأرض إلى أرض قاحلة ومن دون ثمار، ولذلك قـام كثير من المزارعين ببـذر بذور جـديدة في أراضيهم.

النار الرهيبة التي أحرقت معبد محمد (صلى الله عليه وسلم)

قــدم في هذه الآونة إلى دير القــديس ألبــان، رجل محترم هو معلم رهبـان كنيسة القـديس توما في عكا، وقـد جلب معه أخبـاراً إلى رئيس الرهبان وإلى الرهبان، ذكر أنها كـانت صحيحة، فقد ذكر أولاً أن نائبهم كـان سليماً ومعـافى، وأنه كان شـاغـلاً نفسـه بنشاط وفـاعليـة بالأعمال الصعبة العـائدة لكنيسة القديس ألبـان في بلاط روما، وهو المكان الذي قدم منه شخصياً.

وذكـر أيضاً أن برقـاً جهنمياً محرقـاً قـد نزل من السموات، وأحـرق فجأة ودمـر معبد محمـد (صلى الله عليـه وسلم) مع تمثاله (كـذا)، وأنه حدث مـرة أخرى انفجار ثان، مشـابه للأول، حوّل المعبـد المذكور إلى قطع صغيرة وأن انفجاراً ثالثاً قام —كما هو معتقد— بدفع الخرائب إلى الهاوية في الأرض، وقال: بعد هذا قامت هذه النار التي أحرقت بحرارة مدمـرة تماماً، مع أنها لم تعط ضوءاً لامعـاً، بالزحف تحت الأرض، مثل نار الجحيم، فـأحـرقـت حتى الصخـور، ولم يكـن بالإمكان اطفــاءها، وهكذا فإن مدينة مكة كلها والمنطقة المحيطة بها، احترقت تماماً بنار غير قابلة للاطفاء.

النهر الملتهب

وقـدم أيضـاً رواية تحدثت عـن نهر ملتهم، كـان على عكس الطبيعـة المائية، حيث لم يكن راضياً بحدوده فـاتبع مجرى غريباً، وشق طريقه إلى الجبـال العـاليـة، وأخـذ بالمفـاجأة الذين هربـوا إلى قممهم للالتجـاء، ودمرهم بلهب مجرى تياره، وكأنهم قد أحرقوا بالنار، وهكذا فإن الذين نجـوا من النار الكبريتية الموجـودة في الأسفل جـرى ابتلاعهم بوسـاطة هذا النهر الملتهب.

كيف حصل رهبان بيت لحم على موضع للاستقرار في كمبردج

جرى منح مكان للإقـامة إلى رهبـان بيت لحم في كمبردج، في شارع يقـود إلى ترومبنغتـون Trumpington, ولبـاس هؤلاء الرهبـــان مشـــابه للبـاس الرهبـــان الدومينيكان، غير أن قبعــة الرأس تحمل على صدرها شعـار نجمة حمراء، خماسية الشكل، في وسطهـا دائرة لونها لون السماء، وهذه عملت في ذكرى النجم الذي ظهر في بيت لحم عند ميلاد مـولانا، وقد ظهـرت الآن طوائف رهبـانية كثيرة في انكلترا، حتى كـان هناك خلط عجيب فيما بينهم.

كيف استدعى رئيس أساقفة كانتربري رجال الدين في أسقفيته

وفي تلك الآونة نفسهـا استـدعى بونيفيس رئيس أسـاقفة كـانتربري ورؤساء شمامسـة أسقفيته، للاجتماع، حتى يقومـوا بعد التوجـه بالدعاء المخلص وطلب العـــون مـن الروح القـــدس، بعمل بعض الترتيبـــات لتقديم العـون إلى كنيسة انكلترا المترنحة، والتي كان مضغـوطاً عليها في هذه الأيام المعـاصرة بمظالم ثقيلـة ولاتحتمل، وغير اعتيـادية، لأن الملك وقع تحت تأثير بعض النصـائح الخفية لبعض المتملقين وأعـداء المملكة، فسمح لبعض الأعـــراف الجديدة وغير النظاميـة، بأن تنشـأ مثل نبـات شوكي بين الفـواكه أو في حـديقة المسرات، وأن تخنق الأشجـار المثمرة،

ولذلك كانت هنالك آمالاً وثيقة بأنه في هذا الاجتماع سوف يكون رئيس الأساقفة قد حُبي بالقوة من عليين ليقيم نفسه مثل حاجز أمام بيت الرب، وأن يسير متبعاً خطوات القديس توماس الشهيد، لإنشاب القتال ضد أولئك المتمردين ضد الكنيسة.

وفاة كاترين ابنة الملك

وفي حوالي عيد العثور على الصليب المقدس، ماتت كاترين ابنة الملك، التي كانت خرساء، ومناسبة للاشيء، مع أنها امتلكت جمالاً كبيراً، وقد تغلب الحزن على الملكة حتى أنه سبب لها المرض، الذي اعتقد أنه غير قابل للشفاء، لأنها لم تستطع الحصول على الشفاء من البراعة الطبية، أو على المواساة البشرية.

الشكوى التي عملها أسقف روكستر في روما

وقام في الوقت نفسه لورانس أسقف روكستر، في دفاعه المشكور عن امتياز كنيسته، بالمتابعة بحرارة واصرار، يوماً بعد يوم، والتمسك بالشكوى التي تقدم بها أمام البابا والكرادلة ضد بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، الذي غزا بشكل جائر ممتلكات كنيسته ومقتنياتها، ونتيجة لذلك استدعي رئيس الأساقفة للمثول شخصياً أمام البابا.

الحملات النشطة التي قام بها الويلزيون ضدّ الإنكليز

وفي الوقت نفسه، عبر الويلزيون عن غضبهم بشغل أنفسهم بلا هوادة وبشكل فعال في النهب، والقتل والاحراق، ولم يتمكن جميع البارونات الجيران، مع أنهم توحدوا مع ايرل غلوستر، من تقديم أية مساعدة إلى الانكليز أو إلى ادوارد، وضحك الويلزيون فقط وسخروا من جهودهم، وهكذا كسبت الكراهية الشديدة بين الويلزيين والانكليز المزيد من الأرضية، مثل الطاعون، وبما أن ادوارد قد تهددهم بمساعدة الايرلنديين له، الذين دعاهم لتقديم العون له، لسحقهم مثل إناء من

الفخــار، وبناء عليــه عمل الويلـزيون احتيــاطاتهم، وجهــزوا بعض الغلايين، الذين شحنوهم بالرجال بصورة جيدة، وبالسلاح، وزودوهم بكميــات جيــدة من المؤن، وذلك بهدف وضعهم في البحــر، مع نيــة انشاب القتال ضد الايرلنديين هناك.

العثور على جسد مالكولم ملك السكوتلنديين

وحـدث في هـذا العـام نفســه أثناء إرسـاء أسس بعـض الأبنيـة في التاينماوث، في رئاسة رهبانية دير القديس ألبان، أن تمّ العثور على عظام مالكولم Malcolm ملك السكوتلدنيين ومعــه ابنه ادوارد (حول أعمال هذا الملـك ومــوته هناك روايـة في كتـــاب Additaments)، وخلاصة لتلك التفاصيل، هي أنه عندمـا كان مع جيشه كله يقوم بغارة هجومية في انكلترا، حورب من قبل روبرت دي ماوبري Mowbray، مـؤسس الكنيسة عند التـاينماوث، وقـد قهره وقتله، وبعـد ذلك، بما أنه كان ملكاً، أمر به ليدفن عند التاينماوث.

ترميم أسوار لندن

وفي هذا العام أيضـاً، أمر الملك بأسوار لندن، التي كـانت في أوضاع متداعية، ومن دون شرافـات، بأن ترمم بشكل صحيح، على نفقة المدينة كلها.

الخلاف بين سيمون إيرل ليستر ووليم دي بلنسية

وفي هذه الآونة نفسهــا، نشب خــلاف، بحضــور الملك وكثير من النبلاء في لندن بين سيمون ايرل ليستر ووليم دي بلنسية، لأن وليم هذا بحكم أنه كـان أخـاً للملك لأمـه، مارس وحشيتـه ضـد جميع جيرانه، وبشكل خـاص ضـد رهبـان الطوائـف، وقـد امتلك الجرأة في ممارسـة طغيانه، مثل إخـوته، صدوراً عن عـلاقته الأخوية بـالملك، وقام بشكل جـائـر بالاغارة على ممتلكـات الايرل المذكور، واستـولى على الأسـلاب

وحملها من هناك، وقام قهرمان الايرل بانقاذ أسلابه، فغضب وليم وتهدد وتوعد وكدس الأذى على الايرل، بكل من الكلام والفعل، وعرضت قضايا الشكاوي هذه أمام الملك، وتبادل الفريقان الانتقادات ضد بعضهما بعضاً، ووصل الأمر بينهما إلى حد التلاكم، وتبادل الضربات، لأن وليم قام بحضور الملك والنبلاء فاتهم الايرل بالكذب —إذا استخدمنا الاصطلاح العام— ثم اتهمه بعد ذلك بالخيانة، وكان هذا عدواناً كبيراً على فارس، ولذلك أثير الايرل عند هذا إثارة كبيرة، وسعى —كما قيل— إلى الانقضاض عليه (لأن الغضب جنون صغير) لكنه منع وأوقف من قبل الملك، وذلك بكل صعوبة، حيث أنه ألقى بنفسه بين زوج أخته وبين أخيه، وكان خائفاً من أن يقوم الايرل بقتل الذي وجّه الإهانة إليه، وأنتجت رواسب هذا الصراع بين الفئتين عداوة ما كان بالإمكان التخلص منها فيما بعد.

كيف جرى تحليل رهبان درم من الحرمان من شراكة المؤمنين

وبعد مضي عدة أيام، وبعدما كان رهبان درم، الذين كانوا مع الكهنة النظاميين لغيسبورن Gisburne, هم وحدهم الذين قاوموا الإجراءات غير الأمينة لوكلاء البابا، وتحملوا نتيجة لهذه المقاومة انزال عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين لمدة طويلة، بعد هذا كله، وبعد لأي، وبعد كثير من المناقشات، نالوا وحصلوا بوساطة السلطة الكاملة للبابا، على رسالة تحليل، بوساطتها صاروا قادرين، وهم مسرورين كثيراً على تأدية قداساتهم وواجباتهم، آه، لو أنهم كان معهم رفاق في اضطراباتهم، ومؤيدين في صمودهم، كم كانت كنيسة انكلترا ستكون سعيدة في انتصارها على المضطهدين لها والظالمين، أما بالنسبة للرسالة التي حصل عليها الرهبان المتقدم ذكرهم، فمن الممكن العثور عليها في كتاب Additaments.

إلغاء الانتخاب الذي عمل في قضية أسقفية إيلاي

جرى في عيد القديس غـورديان Gordian والقديس ايبياخـوس Epimachus, إلغـاء انتخـاب الأسقف المنتخب لإيلاي، وجـاء ذلك بناء على تـدخل من الملك ومن رئيس أسـاقفـة كانتربري، اللذان سعيا إلى تعيين المعلم آدم مارش —الذي كـان واحداً من طائفـة الفـرنسيسكان— مكانه، وأثارت هذه الإجـراءات دهشـة الجميع، لأنه لاالانتخاب ولاالمُنتخب من الممكن رفضهما بصورة عادلة، كما أنه كان من غير الممكن العثـور على أية خطيئة في الانتخاب، بل كل مـا هنالك أن أحـد المراوغين، الذي احتـاج إلى الوقـوف على أرض مكشوفة، قـام بإقحام غلطة وإلصاقها فيه، بأنه كان فقط راهبـاً ساذجاً، وعـديم الخبرة في القضـايا الدنيـوية، وغير قـادر تمامـاً على إدارة وحماية الأسقفية الفخمـة لإيلاي، والجزيرة التي كانت هناك، والتي كـانت منذ قـديم الزمـان ومـازالت مكاناً للجـوء للذين تعـرضـوا للظلم في أيام الاضطراب.

لكن الرائج اعتقـاده ويرجـح على هذا، هو أن أبواب الحظوة الملكيـة كـانت مغلقـة ضد الـرهبان، على أسـاس ثبـاتهم واخـلاصهم، الذي به رفضـوا الاستجـابة لمطلب الملك الضـاغط منهم، بانتخـاب مستشـاره هنري أوف وينغهام، ليكون أسقفاً لهم، وكـان هذا الطلب قد عمل من دون معـرفة هنري المذكـور، وعندما علم بأن رهبـان الدير قد انتخبـوا شخصـاً مناسبـاً وموائماً ليكون راعيـاً لنفـوسهم، قـال للملك: «توقف ياصاحب الجلالة عن الفرض على هؤلاء الرهبان الأتقياء، ولاتستمر في ازعاجهم بمطالبك الملكية والتماساتك المسلحة، لأن الرهبان قد توجهوا بالدعاء، وطلبوا عون الروح القدس، وبعد ذلك انتخبوا بشكل صحيح شخصـاً موائماً ومناسبـاً، وهو واحـد أفضل مني وأنا، لاسمح الرب في أن أتولى وأستحوذ على مثل هذه الأسقفية الفخمة، أو أنه اغتصب مثل

هذا المنصب الديني الفخم بضمير مـريض»، ولهذا الكلام نال المستشـار ثناء الإنسـان والرضا من الرب، لكن غضب الملك لم يتـوقف، كما أنه لم يتمنع عن إنهاك الأسقف المنتخب والأسقفيـة، وكـان الأسقف المنتخب قـوياً في حقه، ولذلك ذهب إلى رومـا للحصول على التثبيت والمواسـاة من البابا والمساندة في اضطرابه الكبير.

كيف متّـن ملك فرنسا دفاعات نورماندي

وأمر الملك الفرنسي بالوقت نفسه بتحصين قلاع نورماندي وتقويتها، وبالعناية بها، وبانتزاع مناصـب الولاة من الأشخاص المشكوك بهم، ثم إنه عهـد بهذه الوظـائف إلى فـرنسيين، أمـا بالنسبـة للنـورمـان الذين لم يرغب بعزلهم من وظائفهم، فقد ربطهم بنفسه بروابط لايمكن فصمها، إمـا بالقـرابة أو ببعـض روابط الاتحاد الأخـرى، ونقـل ديرة الطوائف الرهبـانيـة التي كـانت على مقـربـة من الحدود باتجاه ألمانيـا، ومثل ذلك باتجاه نورمـاندي، وأسكن الـرهبـان في أمـاكن أخـرى، وزاد في الوقت نفسه من ممتلكاتهم، ثم بنى بعـد ذلك قلاعـاً في تلك الأماكن، وزودها بكل الأعتـدة والمؤن الضرورية، واستهـدفت هذه الاحتيـاطات التي اتخذها، أن لايجد ملك ألمانيا الذي طالـب ببواتو، ولاملك انكلترا الذي طالب بنورماندي، مكاناً للاستراحة هناك، إذا مـارغبا بالاغارة عسكرياً والتوغل في تلك البلاد، ذلك أن الفـرنسيين كانوا خائفين كثيراً، من أن يجري سحقهم بين هاتين المملكتين، مثل السحـق بين حجـري الرحـا، وقـامـوا على كل حال، حسبما جـرت عـادتهم، بتطمين بعضهم بعضـاً، بمثل الكلمات التالية: «قـام الامبراطور السالف أوتو، الذي كان أشجع الفـرسان، والذي ترقى إلى المقـام الامبراطوري الروماني بتهـديد فرنسـا بشكل جـاد، لكنه تراجـع في معـركـة بوفل Bovel, وهو مهـان، وقام الرجل نفسـه، الذي كان قريبـاً لملك انكلترا، فدخل في تحالف مع الايرل وليم، الذي كان لقبـه صاحب السيف الطويل، وكـان أخاً لملك

انكلترا المذكور، ومع فيرراند Ferrand كونت فلاندرز، ورينالد، كـونت بولون، وهـوغ دي بوفي Bove, ومع محاربين آخـرين متميزين، ونوى اجتيـاح فرنسا بجيش قـوي، وكان ذلك في أيامنا، لكنه سحق بفضل عناية الرب، وعلاوة على ذلك، قام في الوقت نفسه، الملك جون الانكليـزي بحصار قلعـة روشي —أو— مويني -Roche -au, Moines وبما أنه كـان مطارداً من قبل لويس، الذي لم يكن آنذاك ملكاً، قـام برفع الحصـار، وهرب من أمـام مطارده، وحـدث ذلك على الرغم من أن القـوات الفـرنسية كـانت مقسـومـة إلى قسمين، قسم هو الذي كـان يتبع أبيـه، الملك الفـرنسي، في حين بقي القسم الآخـر معـه، ومجدداً تفوه الامبراطور فردريك الذي كان أقوى جميع الملوك المسيحيين والذي كـان قـد تزوج من أخت ملك انكلترا، بتهـديدات مرعبـة ضـد فـرنسـا، لكن الرب القـدير حفظنا تحت جناحي وقـايتـه الفـاعلة»، وبضربهم لهذه الأمثلة طمأن أحدهم الآخر.

كيف وعد أساقفة إنكلترا بدفع مبلغ كبير من المال إلى الملك تبعاً لبعض الشروط

وفي هذه الآونة نفسها، منح أسـاقفة انكلترا الذين أصبحـوا ضعفاء، وجبناء رعاديد (حيـث لم يقلدوا مثابرة السسترشيان وصمـودهم الذين قدموا رفضاً مكشوفاً وواضحاً إلى الملك في وجهه شخصياً عندما طلب ملبغـاً كبيراً من المال) مبلغ اثنين وأربعين ألـف مـارك إلى الملك، وذلك لزيادة الأضرار الجسيمـة التي لحقت بالكنيسـة وبالمملكة، وجـرى منح هذا المبلغ إلى الملك أو إلى ابنه ادمـوند، من أجل الاستحـواذ على مملكة أبوليا، مع أن الحصول على تلك المملكة بات ميئوساً منه أكثر فأكثر كل يوم، ووعد الملك الذي كان راضياً قليلاً بهذه المنحة، أنه سوف مع أول فـرصة ممكنة، يلطف من ظلم الكنيسـة، ويعيدها إلى وضعهـا الصحيح من الحرية، وحول هذه الشروط وضعت بنود وصل تعـدادها إلى حوالي

الخمسين، وقد أمر الأساقفة بتدوينهم كتابة، في سبيل تنفيذهم، أو وضعهم موضع التنفيذ في الوقت المناسب، وكان ذلك بحضور الملك، والنبلاء، والأساقفة، وكانت هذه البنود، أو المواد مشابهة لتلك التي قاتل في سبيلها القديس توماس الشهيد، رئيس أساقفة كانتربري الممجد كثيراً، ومن أجلها قهر، وهي كثيرة حتى يتولى الإنسان كتابتها، حيث أنها تحتاج إلى ليلتين أو ثلاث ليالي حتى يمكن تدوينها على الورق، انظرها في كتاب Additaments.

وفاة وولتر أسقف نورويك

في يوم عيد القديس وولستان Wulstan, الذي حلّ في العشرين من أيار، مات وولتر دي سففيلد Suffield, أسقف نورويك في كلوستر، وحمل جسده إلى الكنيسة الكاتدرائية في نورويك، ليدفن بتشريف هناك، وروي فيها بعد بأن معجزات قد عملت عند قبره، وكان هذا الأسقف قد أعطى في أيام المجاعة جميع كؤوسه وأوانيه الفضية، وكذلك جميع أمواله، لصالح إفادة الفقراء.

المرسوم الجديد الذي عمل في روما فيما يتعلق بالذين انتخبوا لرئاسات الرهبانيات المعفية

وفي هذا العام أيضاً، صدر مرسوم في روما، من قبل البابا واخوانه الكرادلة، الذين لاحقوا بنشاط منافعهم واهتموا بمرابحهم، دون الاهتمام بشؤون الآخرين، وقضى هذا المرسوم أن «كل واحد سوف يجري من الآن فصاعداً انتخابه إلى رئاسة رهبانية معفية، عليه الذهاب إلى روما من أجل تثبيته ولكي يتلقى التبريك»، وتعرضت الديانة بوساطة هذا المرسوم غير الاعتيادي للخطر، وجردت الكنيسة من ازدهارها الدنيوي، لأنه لم يعد من الضروري بالنسبة للرهبان أن ينتخبوا رعاة لنفوسهم شخصاً ناضجاً، وراهباً، بل رجلاً نصف علماني،

يفضل الفروسية على العدالة، ويؤثر شريعة جستنيان على شريعة الرب، «التي تهدي النفوس»، وعلاوة على ذلك، لنفترض أن مثل هذا الشخص جرى انتخابه (لأن أي نوع آخر من الرجال سوف يجري رفضه من قبل الملك ووكلائه) قد يحدث أنه بعد اضاعة كثير من الوقت في السفر عبر الألب، قد يجري عدم الموافقة على الشخص المنتخب، ومن ثم يحدث إلغاء الانتخاب، أو قد يموت الأسقف المنتخب أثناء سفره، وفي كلتا الحالتين سوف يكون الدير قد وهن، لأن الملك الذي لصالحه تكون جميع الممتلكات قد صودرت، سوف يقوم بسلبها وابتلاعها كيفما شاء.

كيف عمل ملك إنكلترا الاستعدادات للقيام بحملة إلى ويلز

وحوالي الوقت نفسه أصدر الملك مذكراته، وعممها على جميع أرجاء انكلترا، دعا فيها كل من يتوجب عليهم تأدية خدمة فروسية لمولاهم وملكهم أن يكونوا مستعدين، جاهزين، مزودين بالخيول والسلاح، للحاق به إلى ويلز في عيد مريم المجدلية، حيث سوف يزحف بحملة لضبط عنف الويلزيين وكبح جماحهم، لأنهم كانوا يجتاحون كما يريدون، وقد استولوا على قلاع نبلاء الحدود، لابل حتى إنهم استولوا على قلاع الانكليز، بوقاحة، وقتلوا حامياتهم، ونشروا النار والقتل، والاحراق في كل اتجاه، وبناء عليه، علم الويلزيون بأن الملك سوف ينزل إلى الميدان للقتال ضدهم بجيشه، فتصرفوا بحكمة بأن أبعدوا زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم إلى المناطق الداخلية من البلاد، حول سنودون Snowdon, والمناطق الجبلية الأخرى، التي لايمكن للانكليز الوصول إليها، وفلحوا حقولهم، ودمروا الطواحين الموجودةعلى الطرقات التي سيزحف عليها الانكليز، ونقلوا جميع أنواع المؤن، ودمروا الجسور، وجعلوا المخاضات لايمكن عبورها بحفر حفر فيها، في سبيل أنه إذا ماحاول العدو عبورها، سوف يتعرض للغرق، وساعدهم الحظ في هذه الحرب، لأن

قضيتهم، ظهرت حتى بالنسبة إلى أعدائهم، بأنها قضية عادلة، والذي دعمهم بشكل رئيسي وشجعهم هو أنهم كتروجانيين Trojans (الذي منه انحدروا) كانوا يناضلون بثبات جدير بنسبهم في سبيل شرائع أجدادهم وامتيازاتهم.

الويل للانكليز التعساء، الذين ديس عليهم تحت الأقدام، من قبل كل أجنبي، حيث سمحوا للامتيازات القديمة لمملكتهم بأن تموت، ولم يشعروا بالحياء والخجل من المثل الذي ضربه الويلزيون، الذين فضلاً عن أنهم تمنعوا عن اظهار الطاعة لادوارد ابن الملك، قاموا بالاستهزاء به، وكدسوا الاهانات والشتائم عليه، ونتيجة لذلك راودته المشاعر، وتبنى فكرة التخلي عن ويلز، وعن الويلزيين غير المدجنين، آه ياانكلترا، لقد عددت عن حق وصيفة جميع الشعوب، وكأنك بلد في أدنى درجات العبودية وأحطها، فكل ماتولى السكان المحليون رعايته، قام الأجانب بنهبه.

وصول الإيرل رتشارد إلى ألمانيا

ووصل في حوالي الوقت نفسه الايرل رتشارد سالماً إلى ألمانيا، حيث وجد حشداً كبيراً من الناس ينتظرون لتحية وصوله بمظاهرات كبيرة جداً من السرور والتشريف، وبما أن هؤلاء الناس كانوا قد تحملوا نفقات كبيرة، أمر بتوزيع مبلغ كبير من المال بينهم، بوساطة إعادة ماأنفقوه والتعويض عليهم، ونتيجة لهذا حصل على ثناء الجميع ونواياهم الطيبة نحوه.

كيف جرى تتويج الإيرل رتشارد ملكاً على ألمانيا

في يوم صعود ربنا، الذي وقع في السابع والعشرين من أيار، جرى تتويج رتشارد ايرل كورنوول ملكاً على الألمان أو الرومان، وتولى إجراء احتفال التتويج كونراد رئيس أساقفة كولون، في اكس لى شابيل بمهابة

عظيمة، وبأبهة كبيرة، وفقاً للعـادات التي وصلت من الأيام الخالية، ولم يكن هناك متذمـراً أو مزعجاً للاحتفال، وهي واقعـة لم يحدث مثلها قط منذ العصور القـديمة، وجرى في الوقـت نفسه تتويج زوجتـه الكونتسة سينيثيـا Cynthia ملكة معـه، وفي اليـوم التـالي، الذي كـان يوم الجمعة، أنعم الملك رتشارد بمرتبة الفروسية على ابنه هنري، من زوجته الماضيـة ايزابيـلا، واحتفل بمنح الفـروسيـة لهنري المذكـور مثلما احتفل بتتويج نفسه، بوساطة وليمـة في كل يوم من هذه الأيام، وكان هذا سبباً جيداً لإثارة دهشـة الألمان، هذا ومن الممكن الوقوف على وصـف كامل لهذه الإجراءات في رسالة كان قـد أرسلها إلى انكلترا، وهي موجودة في كتاب Additaments.

تعيين جون أوف أفني قهرماناً لألمانيا

شرع الملك رتشـارد يعمل بهدوء من أجـل ترتيب شـؤون المملكة، حيث تبنى آراء نبـلاء البلاد، وعمل بنـاء على نصائحهم، وأخـذ بشكل خـاص بنصيحـة رئيس أسـاقفـة كـولون، وعيّـن جـون أوف أفني Avennes قهرمـاناً له، وكان رجـلاً خبيراً بالحرب، وكان مـايزال هناك بعض الذين يتحـركون ضـد سلطته، وكـان من بين هؤلاء رئيس أساقفة تريفي Treves, وكان رجلاً قوياً، ومن أهل الحرب، وقد تشجع في طيشـه وتهوره بوسـاطـة الحظوة التي أبديت نحـوه من قبل الفرنسيين.

الخصام بين رهبان وينكستر ورهبان غلاستونبري

في هذا العـام نفسـه، وقبل أيام قليلة من وقـوع الحادثة المشـار إليهـا أعـلاه، تسبب رئيس رهبـان وينكستر ومعـه رهبـانه، ورئيس رهبـانيـة غلاستـونبري ورهبان الدير، بنشوب خـلاف، بسبب مطامحهم، مما نجم عنه فضيحـة غلفت جميع الطائفة الـرهبانيـة، وبددت ممتلكات كنائسهم

الفخمة والقديمة، وألحقت الأذى بهم والعار إلى الأبد، وأعتقد أنه ليس مفيداً التحدث عن تفاصيل أخطائهم في هذا الكتاب، ذلك أن ذكرهم يحتاج إلى عناية خاصة ووقت طويل، وفي الحقيقة إنني أفضل التزام الصمت تجاه مثل هذا الشقاق، الذي يقدم الوقود إلى بلاط روما، أكثر من جلبه المصالحة إليهم.

موت موريس فارس إيرلاندا

في هذا العام نفسه، وقبل عدة أيام مضت، مات موريس فتز—جيرالد، وكان فارساً شجاعاً ومقبولاً، وكان قد شغل من قبل وظيفة مسؤول العدالة في ايرلاندا، ولم يكن هناك أدنى من أحد، وعاش هذا الرجل طوال حياته بأخلاق موضع الثناء، لكنه نال سمعة سيئة، وربما كان ذلك عن طريق الخطأ، وذلك بتسببه بموت رتشارد الايرل مارشال.

موت روبرت أوف سوثندون

ومات في العلام نفسه أيضاً روبرت أوف سوثندون Sothindon, وكان كاهناً خاصاً بالملك، ومن قبل رجل عدالة متجول، وقد وقع مريضاً في هارتفورد، وفي ذلك المكان أنهى حياته ودفن.

استيلاء الويلزيين على قلعة عائدة لإيرل غلوستر

وفي ثمانية عيد القديس بندكت، قام للويلين، القائد العام للويلزيين بهجوم مفاجىء على ممتلكات ايرل غلوستر، واستولى بالقوة على قلعة عائدة لذلك الايرل، وهناك قتل جميع الذين وجدهم في القلعة.

موت أليس رئيسة راهبات كيتباي

وماتت في هذا العام أيضاً أخت القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، السيدة أليس، رئيسة راهبات كيتباي Katesby,

وكـانت نـاسكة ذات قـداسـة مــدهشـة، وبريئة، وقــد روي حــدوث معجزات عند قبرها.

وفاة الرئيس الصالح لرهبان نورويك

ومات في الوقت نفسه الرئيس الصالح لرهبان نورويك، وكان رجلاً صاحب قـداسة عظيمة، وكان متميـزاً بعلمه، وكان يقوم بالاضـافة إلى القداسات، وساعـات الصلوات النظامية، والصلوات الخاصة والسرية، بانشـاد المزامير كلها يومياً، وقـد انتخب هذا الرجل عن جدارة أسقفـاً لنورويك منذ حـوالي العشرة أعوام، لكن الملك آثر نصيحـة المستشارين الأشرار، فتولى إلغاء الانتخاب، على أساس بعض الحجج الواهية.

كيف وقع الملك مريضاً من خلال الحزن

وحـوالي الوقت نفسه، أي حـوالي نهاية شهـر أيار، تغلب الحزن على الملك وقهره، نتيجـة النجاحات المتواليـة للويلزيين، وبسبب مقتل أعداد كبيرة جـداً من رعـايـاه الخاضعين له، على تخوم ويلز، وكـذلك لتفكيره بأنه قد خدع فيما يتعلق بمملكة أبوليـا، التي في سبيلها أنفق مبالغ هائلة من المال من دون فـائـدة، ومجدداً ازداد حــزنه بسبب المرض الشــديد للملكة، ووفاة ابنتـه كاترين، وسبب له تراكم هذه الأحـزان حمى ثلثية، أبقته لمدة طويلة في لندن، وذلك في الوقت الذي كانت فيه الملكة حبيسة فراشها في ويندسور Windsor بسبب نوبات آلام ذات الجنب.

مقتل مرافق لوليم دي بلنسية من قبل شعب لندن

وفي حوالي الوقت نفسـه، كان هناك مرافق يعمل في خـدمة وليـم دي بلنسيـة أخي الملك، وقـد تصرف بـوقـاحـة كبيرة في لندن، وقـد أشهـر سكينه وأقسم أنه سوف يغمسها في دمـاء المواطنين، وقد وضع تهديداته قيد التنفيذ، فجرح بعضهم من دون أي سبب، وبعد ايقاعه الجراحات، تلفظ بالاهانات والتهـديدات، معتمـداً كما هو معتـاد على حماية سيـدة،

وانقضت الفئات الدنيا من المواطنين عليه على شكل حشد كبير، لأنه كان غير قادر، وليس راغباً بوضع حد لرعونته، وهاجموه بالحجارة والعصي، وقتلوه، وقد جرى حمله إلى بيت عندما كان على وشك الموت، وقد قال وقتها: «من أجل خاطر الرب، أخبروا مولاي بأن موتي لم يكن نتيجة خطأ أي إنسان، بل ينبغي عزوه فقط إليّ أنا شخصياً، وإلى حماقتي ووقاحتي، لأننا بوثوقنا بحماية ساداتنا وموالينا، دسنا من دون رحمة على الأبرياء، وكذلك على المجرمين».

وعندما سمع وليم بهذه الواقعة، تقدم بشكوى أمام الملك ضد مواطني لندن، وفي سبيل إثارة غضبه أمر بجلب جسد الرجل الميت وعرضه أمامه، وعندها جرى استدعاء عمدة المدينة، وبعدما طلب منه بكل حدة تقديم تقرير عما حصل أجابه قائلاً: «مولاي الملك أنا لايمكنني ضبط عنف الشرائح الدنيا من المواطنين، لكن اسأل عن الذي قاله الرجل المتمدد ميتاً عندما كان على حافة الموت»، وعندما عرف الملك جميع تفاصيل حقائق القضية قال: «لقد تلقى المعتدي الذي استحقه فقط»، لكن بقايا المشاعر السيئة ضد المواطنين لم يتم التخلص منها تماماً، كما سوف تبين الحكاية التالية بالتفصيل.

وفاة روجر أوف ويستهام أسقف شيستر

وحوالي الوقت نفسه غادر المعلم روجر أوف ويستهام Westham, أسقف شيستر الذي كان رجلاً جديراً بالثناء كثيراً، طريق الجسد كله، وكان قد عانى منذ زمن طويل من آلام الشلل الارتجافي، وقد استقال من أسقفيته، وقد خلفه المعلم لونغسورد Longsword.

المعجزة الاعتيادية التي عملت في كنيسة القديس ألبان

وحوالي الوقت نفسه، أي أن تقول مع بداية الخريف، قدر رئيس رهبان ورهبان دير القديس ألبان أن الموسم المؤلف من القش والقمح

في خطر كبير مـن التعــرض للتلف بسبـب التســاقط الكثيـف للمطر، ولذلك توصلوا إلى قـرار أثناء اجتماع هيئتهم الكهنوتيـة، حسبما جـرت العادة في أحوال مثل هذا الخطر، وقضى قرارهم بوجوب إعلان الصيام في أرجاء رئاسـة شماستهم، وأن يتم الالتزام به من قبل الناس وكذلك من قبل الرهبان، وأنه يتوجب حمل نعش القـديس ألبان في مسيرة مهيبة إلى كنيسة القديسة مـريم في الحقول، وسار الرهبان والناس وراء النعش حفاة وهم يتفوهون بصلوات مخلصة، وقد نفذ هذا كما ينبغي، وفي اليوم نفسه، ومن خلال فضائل الشهيد، توقفت الأمطار المدمرة.

مغادرة جامعة باريس لمكانها

وفي تلك الآونة نفسهـا، غادرت جـامعة باريس لتلك المدينة، تاركـة إياها شبـه فـارغـة، وجـاء هذا جـزئيـاً بسبب أن مـوسم الحصـاد بات وشيكاً، وجـزئياً بسبب تنكيل الرهبـان الدومينيكان، لأن الراهب هوغ، الذي كـان من طـائفـة الدومينيكان، وكـاردينالاً في كنيسـة رومـا، قـد استخدم كل مساعيه الجبارة، لإضعـاف قضية الباحثين، ولتمتين موقف الدومينيكان، الذين كانوا واقفين ضدهم.

الغارات المدمرة للويلزيين

وجد الويلـزيون أن القضية باتت الآن قضيـة حياة أو موت بـالنسبة لهم، فـدخلوا في تحالف ثـابت، حيث اتحد الذيـن كـانوا في الشمال مع الذين كـانوا في جنوب ويلز، وهو أمـر لم يكن معـروفـاً من قبل، لأنهم كانوا حتى الآن دائماً متعادين ضد بعضهم بعضاً، ثم إنهم قاموا بناء على موافقـة عامـة، بهجوم حـاد ومفاجىء على جيش الملك، وقـد حرضهم على القيام بذلك المعلـومات التي تلقوها من الجواسيـس والخونة، وكان جنود الملك في وضع صعب، في منطقــة مستنقعيـة، قـرب قلعـة هناك، حيث توقعـوا أن يعثروا على مكان للالتجـاء، لكن عندما تراجعـوا على

أمل الحصول على الحماية هناك، وجدوا أعداءهم عوضاً عن الأصدقاء، ولذلك جرى تمزيقهم، وسحقوا وكأنهم كانوا بين حجري رحا، فقد هوجموا من الأمام ومن الخلف، وقد هزموا وأرغموا على الفرار، أو التعرض للقتل حسب إرادة العدو، وسقط في ذلك الصراع الدموي بعضاً من مشاهير الفرسان الذين كانوا في خدمة ملك انكلترا، وكان من بين كثيرين ستيفن بانكان Bancan, وكان صديقاً عزيزاً على الملك، وروبرت أوف نورهام Norham, مع عدد كبير آخر، نحن لانتذكر أسماءهم.

وبعد هذا النصر قبل الويلزيون غريفين دي برون Griffin de, Brun الذي عملوا بموجب معلوماته، ونصيحته فنجحوا، قبلوه للتحالف معهم، وكان هو في الحقيقة ويلزياً من حيث المولد وشجاعاً، ومن أصل نبيل، لكنه كان قبل بضعة أيام مضت قد التحق بملك انكلترا، وبناء عليه قام الويلزيون بتدمير جميع أراضيه، وممتلكاته التي كانت كبيرة جداً، والتي لم يستطع الملك ولم يتمكن من ضمان سلامتها وأمنها.

الخطاب الحماسي الذي ألقاه للويلين مقدم الويلزيين

بات منذ ذلك الحين للويلين، مسروراً للنصر الذي حصل عليه بوساطة أتباعه الويلزيين وللأسلاب التي أغنته والتي حصل عليها من المهزومين، وقد قوي جانبه بالتحالف الذي عقده مع ويلزي الشمال، وكذلك بتجديد تحالفه مع غريفين المتقدم ذكره، لذلك شغل نفسه في تشجيع أتباعه وتطمينهم، وذلك بقوله: «حتى الآن قام رب الحشود بمساعدتنا، ومن الواضح إلى الجميع أن النصر الأخير لايمكن عزوه إلى شجاعتنا، بل لعاطفة الرب الذي يقاتل مع القليل مثلما يفعل مع الكثير، فكيف كان لنا نحن الضعفاء، وغير المعتادين على الحرب، والجبناء، عندما نقارن بالانكليز، أن نتجرأ، فنقف ضد ملكهم، لولا أن

الرب أعطانا وقايته؟ فلقد شاهد الرب ما نزل بنا، وكيف أننا ببساطتنا قد فرض علينا غيوفري لانغلي، والوكلاء الآخرين الذين لايرحمون للملك، وكذلك التابعين أيضاً لإدوارد، وعليكم أن تعلموا أننا الآن، ومنذ الآن فصاعداً نحن نقاتل في سبيل حياتنا، وإذا ما وقعنا بالأسر، فسوف لن نحصل على الرحمة مطلقاً، لذلك علينا أن نقف ثابتين مع بعضنا، فنحن إذا بقينا غير متفرقين، سوف نكون لايمكن غلبتنا قط، ونحن نرى بوضوح مثل وضوح النهار، كيف قام ملك انكلترا بإفقار رعاياه الانكليز الطبيعيين، وكيف جردهم من مواريثهم، وأهانهم، فكيف يمكن على هذا أن يوفرنا، الذي يطلب إلحاق الأذى بنا، والذي أثرناه للانتقام؟ فهو يستهدف اقتلاعنا من على وجه الأرض، لكن القضية العادلة هي التي تحمينا، وتخزي خصومنا، وإنه من الأفضل لنا أن نموت، وأن نغادر إلى الرب، من أن نعيش في الظلم، وأن نموت في النهاية بناء على إرادة أعدائنا»، وتشجع الويلزيون بهذا الخطاب، فتابعوا الحرب بشدة، وأوقفوا أنفسهم على القتل، والحرق، والسلب، ليلاً ونهاراً، فحولوا جميع المنطقة الحدودية بين انكلترا وويلز إلى صحراء.

مرض أسقف هيرفورد

وفي هذا العام نفسه، جرت عقوبة أسقف هيرفورد، الذي غرق من كثير من اللعنات التي نزلت على رأسه، عقوبته من قبل الرب بطرق مضاعفة كثيرة، ومن المؤمل أن ذلك كان من أجل اصلاحه، فقد أصبح مثل طريد مختبىء، ولم يترك له حظه السيء أحداً في أسقفيته قد اهتم بالعثور على أماكن تخفيه، فقد قال بعضهم بأنه ذهب مسرعاً إلى مونتبيلير Montpellier, حتى يشفى من مرضه الذي كان يعاني منه، لأنه كان يعاني من مرض التمعط، أو من الجذام في أنفه، والذي شوّه وجهه كله، لأنه تبعاً لما قاله الأطباء إن التمعط في الجلد، هو الجذام بالنسبة للجسد.

الاتهام الذي قدم أمام البابا ضدّ روستاند

وجرى في حوالي الوقت نفسه توجيه التهمة إلى كاهن البابا الخاص، المعلم روستاند، أمام البابا، بأنه اهتم بمصالحه دون مراعاة للعدل: بجمع المقتنيات، والموارد، والأموال في انكلترا، وإنه بإرغامه الملك والأساقفة على إطاعة رغباته، أصبحت له بعض الأهمية بين نبلاء المملكة، وذلك نتيجة لثروته الكبيرة.

وصول ملك إنكلترا مع جيشه إلى شيستر

وفي حوالي الوقت نفسه، الذي كان موسم الحصاد، وصل ملك انكلترا وبرفقته جيش كبير إلى شيستر، فمنع الويلزيين، وحال بينهم وبين العثور على الطعام في تلك المناطق، وبدد أتباعه الموسم الوافر من القمح ومن منتجات الأرض الأخرى، مما ألحق الأذى بهم أنفسهم وكذلك بالآخرين، ونتيجة لهذه التصرفات أصبحت المؤن خلال وقت قصير قليلة جداً في أوساط الجيش، ولذلك عانت الخيول والبشر كثيراً من العوز الشديد، وقام الملك في الوقت نفسه، حتى يدفع بالويلزيين —الذين دعاهم باسم الأعداء والخونة له— إلى متاهة اليأس، فبعث إلى سكوتلندا وايرلاندا وبلدان أخرى، يطلب أعداد كبيرة من العساكر، في سبيل التضييق على الويلزيين وحبسهم، وسحقهم مثل سحق آنية من الفخار.

وعند ذلك قام للويليين فأرسل —بناء على نصيحة نبلائه— رسلاً خاصين إلى الملك، وتقدم بالرجاء من أجل السلام، على كل حال، على شرط «أن يحتفظوا بشرائع أجدادهم وامتيازاتهم بسلام حسبما اعتادوا أن يفعلوا، وأنهم غير ملزمين بتقديم حساب عن أعمالهم إلى ادوارد، أو إلى أي واحد آخر، بل إلى الملك فقط»، ذلك أنهم أعلنوا بوضوح «أنهم سوف لن يخضعوا بأي حال من الأحوال، ويداوموا على قبول توزيعهم

أوبيعهم مثل ثيران أو حمير»، ورفض الملك —على كل حال— الاستماع إلى التماساتهم التي قدموها بتواضع وكذلك إلى رسالتهم، بل شجع جنوده على القتال، ونشر علمه، وتقدم نحو الأمام يوماً بعد يوم، يحيط به رجاله المسلحين، وكان مثل تنين لايعرف كيف يوفر أي واحد، وهدّد بإبادة كاملة للويلزيين.

تثبيت سيمون دي وانتون أسقفاً على نورويك

وفي حوالي يوم عيد القديس بطرس في الأغلال، جرى تثبيت المعلم سيمون دي وانتون أسقفاً على نورويك، وقد قام بعد انتخابه مباشرة من قبل الرهبان، بارسال رسل مسرعين إلى بلاط روما، حيث استطاعوا بوساطة الرشاوي الوافرة، الحصول على ترخيص يمنحه سلطة الاحتفاظ بموارده الماضية لمدة أربع سنوات، مع أن أسقفيته جيدة ومزودة بشكل جيد بسلع هذا العالم، وبات هذا النوع من التنازل عادة في بلاط روما.

ابتعاد عواطف ملك إسبانيا عن ملك إنكلترا

وفي هذا العام نفسه أيضاً، نأى ملك اسبانيا بعواطفه وابتعد بها عن ملك انكلترا، ذلك أنه قال بأن أخا الملك الأخير، ايرل كورنوول، قد حلّ محله في ألمانيا، أو المملكة الرومانية، ولذلك طلب المساعدة منه، أي من ملك انكلترا، ضد أعدائه، وفقاً لشروط الصك المعمول بينهما الذي جاء فيه: «كل واحد متوجب عليه وملتزم بمساعدة الآخر»، وعلى هذا رد ملك انكلترا وأجاب قائلاً: «بناء عليه إن ملك اسبانيا ملزم بتقديم المساعدة عندما يحتاجها أخي لأنه لايمكنني وسوف لن أتخلى عن تقديم المساعدة له، فهو قد انتخب بصورة شرعية ملكاً لألمانيا، وجرى تتويجه من دون معارضة أي واحد، ولو أن أي واحد تقدم بإدعاء لصالح ملك اسبانيا، وأنه له حق، وبرهن أنه جرى انتخابه بشكل صحيح من قبل،

فإن أخي رتشارد، ايرل كورنوول، ما كـان ليوافق على انتخابه شخصياً، ومـا كنت أنا لأقـدم له المسـاندة، بأي حـال من الأحـوال»، وبهذا هدأ الغضب الطائش لملك اسبانيا.

العودة المخزية للملك إلى إنكلترا

وفي تلك الآونة، وجـد الملك أن الحرب سـارت ضـده، وأن المؤن أصبحت قليلـة، وأنها ازدادت ندرة في كل يـوم، وأن الذين وعـدوه بالمسـاعـدة لم يقـدمـوا، وأن المناخ غير الـرحيم للشتـاء بات وشيك الحضـور، لـذلك عمل استعـداداته للعـودة إلى انكلترا، بحكم اقتراب حلول عيـد القـديس ميكائيل، ولذلك وجـه زحفه بصـورة مخزية نحـو لندن، وذلك من أجل أن يكون حـاضراً في عيد القـديس ادوارد، الذي وقع خلال أسبوعين من عيد القديس ميكائيل.

كيف جرى إرسال رسل خاصين إلى ملك فرنسا لاسترداد امتيازات ملك إنكلترا

وجـرى في حـوالي الوقـت نفسـه، ارسـال وولتر أسقف ووركستر Worcestor, وسيمون ايرل ليستر، وروجر بيغود الايرل مارشال، وبطرس أوف سـافـوي، وروبرت ويلران في بعثـة خـاصـة إلى الملك الفـرنسي، للتبـاحث معـه من أجل إعـادة ممتلكات ملك انكلترا، التي احتفظ بها بشكل غير عادل لمدة طويلـة، ورد الملك الفرنسي على طلبهم باعتـدال، غير أن أخويه والنبـلاء الفرنسيين، أجـابوا بوقاحـة وغضب، وقدموا رفضاً مكشوفـاً، وعلى هذا عاد الرسل دون أن يحققوا عرضهم، ووصلوا إلى الوطن في حوالي عيد طهارة العذراء المباركة.

موت نيقولا فارنهام الذي كان مرة أسقفاً لدرم

ومات في هذا الوقت نفسـه المعلم نيقولا أوف فارنهام Farnham,

الذي كان من قبل أسقف درم، وهو الذي كان قد استقال من أسقفيته، في سبيل أن يكون أكثر هدوءاً وراحة ليجني ثمار التأمل، وقد مات في ستوكتون Stockton, وكانت عزبة فخمة قائمة على نهر تي Tees, وهي قد صارت من نصيبه، عندما جرى تزويده بعزبتين أخريتين هما: عزبة هوفدون Hovedonوعزبة ايسنغتون Esington, وعندما وصلت أخبار موته إلى الملك، استخرج ثلاثمائة مارك من أسقفية درم، على أساس أنه لم يمتلك الوصاية على تلك الأسقفية تماماً عندما كانت شاغرة، وذلك خلال الحقبة التي مضت مابين استقالة نيقولا المذكور، حتى تعيين خليفته وولتر.

وكان وولتر رئيس أساقفة يورك، وفولك أسقف لندن، يعدان وصيين وحاميين للحصة العائدة لنيقولا المذكور، ولم يخجل مستشارو الملك من نصيحة مولاهم، كما عمل.

الخلاف بين ملكي الدانمارك والنيرويج

وتفجر في هذا العام خصام جاد بين ملكي الدانمارك والنيرويج، ووقعت عدة معارك في البحر بين سفن البلدين، أثناء رحلاتهم، وكان على كل حال قد تم التوصل بوساطة الأساقفة في المملكتين، إلى إعادة السلام بينهما، ومات في هذا العام أيضاً هاكو Haco, الابن الأسن، والوريث لملك النيرويج المتقدم ذكره، وكان شاباً، له مظهر جميل.

كيف عاد الملك من ويلز من دون تحقيق أي إنجاز متميز

ومع نهاية الخريف، اقترب حلول الشتاء الذي جعل الأيام قصيرة، وجلب البرد، وبما أن ندرة المؤن سيطرت على جيشه، قام الملك بناء على نصيحة مستشاريه الخاصين، الذين لم يكن بإمكانهم تحمل حالة العوز، بالمغادرة من شيستر، وعاد نحو لندن، حتى يكون موجوداً لدى

الاحتفال بعيد تحويل القديس ادوارد، ولدى سماع للويلين بهذا لحق به وطارده لوقت طويل، بقصد مهاجمة وقتل المتخلفين من جيش الملك، وهكذا بعدما أنفق مبلغاً كبيراً من المال، عاد الملك مخزياً، وقد لحقت به أصوات السخرية من عدوه، حتى وصل إلى بلاده، التي كانت مكاناً فيه أمان عظيم بالنسبة له، ومع ذلك زحف وهو مسلح بشكل وسيم في وسط جيشه، مع الراية الملكية وهي منشورة، وقد شجع أتباعه من المقاتلين ليقوموا بقتل الويلزيين، الذين هم حثالة الجنس البشري.

حول خلع ستيفن أوف ليكسنغتون رئيس رهبان دير كليرفو

أثناء مرور الوقت على هذه الصورة، جرى خلع ستيفن أوف ليكسنغتون، رئيس رهبان دير كليرفو، بشكل مهين، من منصبه، لأنه حصل على امتياز الاستحواذ على تلك الرئاسة إلى الأبد، وكان ذلك معاكساً لمبادىء وأحكام طائفة السسترشيان، لكن قد قيل بأن هذا جرى التخطيط به ضده بشكل شرير، ومن خلال الحسد، لأنه كان قد أسس، وبعد ذلك دعم على نفقته مدرسة في تشاردني Chardenay, وكذلك بسبب تميزه بفضائله، وعلو مكانته لعلمه، وعلاوة على ذلك لأنه كان من أصل انكليزي، وعندما سمع البابا بهذا رغب في تحليله، وإعادته إلى منصبه السالف، لكن أعداء ستيفن المذكور، حصلوا بوساطة توزيع سخي للرشاوى في بلاط روما، حصلوا على تثبيت قرار العزل الذي أعلن ضده.

المرسوم الجديد الذي عمل في روما الذي أرغم كل أسقف منتخب على الذهاب إلى روما

وفي هذه الأثناء فشت أخبار بأن الأسقفان المنتخبان لإيلاي ولكنيسة القديس ادموند، قد وعدا بتقديم مبلغ كبير من المال في بلاط روما في سبيل الحصول على امتيازاتها، حتى أن جميع الناس الحكماء والعقلاء

أصيبوا بالدهشة وشعروا بالاستغراب، وبعدما نجحا في عملهما، مع أنهما تورطا في ديون ثقيلة، عادا إلى الوطن حزينين لأنهما كانا السبب في تعريض كنيستهما لخطر كبير، وكان هذا نتيجة لذلك المرسوم الأكثر مصاً للدماء الذي صدر في روما، والذي بموجبه صار كل أسقف منتخب مرغماً على عبور الألب، مما كان يلحق الأذى به، أو بالحري يدمره، في سبيل أن يحشو حاويات نقود الرومان، وعندما علم الملك بأخبار هذا المرسوم، الذي استنزف كنيستي الأسقفين المتقدم ذكرهما، خجل، أو بالحري توجب عليه أن يخجل، لدى التفكير أنه لدمار كرامته، هوجمت مملكة انكلترا بالفضائح الكثيرة، وظلمت بوساطة كثير جداً من الأعداء، وظهرت علامات هذه الاضطرابات على الأساقفة، وفي سلب الكنائس في الوقت نفسه تحت سلطة الملك، وسلطة وكلاء الملك، وظهرت أيضاً في الحالة المحزنة والمديدة التي عانت منها الأديرة المهجورة، وإذا ماحدث ومات الأسقف المنتخب وهو مسافر، أو أنه رفض وجرى إلغاء انتخابه، فإن جميع هذه المآسي سوف تتجدد، وإذا ما حدث في المستقبل وجرى انتخاب أي شخص ضعيف لأحد الديرة —وكان واحداً لم يتعذب في ركب الخيول، أو السفر والترحال إلى أماكن نائية بشأن قضايا دنيوية— سوف يتعرض الدير إلى الدمار تحت هذا القانون القاسي، وبما أن المنتخب سوف يكون مرغماً على توريط نفسه، قبل التعيين، بديون لايمكنه دفعها، فإن الممتلكات الدنيوية للدير سوف تتلاشى.

عودة هنري بن رتشارد ملك ألمانيا إلى إنكلترا

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل، عاد هنري بن رتشارد ملك ألمانيا، الذي نصب فارساً من قبل أبيه في اليوم التالي لتتويجه، وذلك حسبما روينا من قبل، عاد إلى انكلترا، ومثله فعل أيضاً بعض النبلاء الانكليز، الذي وقفوا إلى جانب الملك المتقدم ذكره، وكان من بينهم هوغ سبنسر

وجيمس أودلي Audeley, وستيفن تشينـدوت Cheinduit مع عـدد كبير آخر، ولم يكن سبب عـودتهم معـروفاً، لكن من المعتقـد، وهذا مـا تأكـد بمثابة حقيقـة من قبل أشخـاص مـوثوقين، أن الألمان لم يكونوا مثلما فعل الانكليـز، فلم يسمحـوا لقلب ملكهم بـالميـلان مثل القصب، إلى آراء ونصائح الأجانب.

الحرمان الكنسي لرئيس أساقفة يورك

وحـوالي هذا الوقت نفسه، ألقى البـابا يده بشـدة على رئيس أساقفـة يورك، وأمـر بـأن يعلن بشكل مهين في جميع أرجـاء انكلترا بحـرمـانه كنسياً، وأن يتـم ذلك مع شموع مشتعلة مترافقـة بقرع الأجـراس، وقد سعى بوساطة هذه المرعبات إلى اضعاف عزيمته واصراره، ولكن رئيس الأسـاقفـة تمتـن في اصراره، بوسـاطة مثل القـديس تـومـاس الشهيـد، وبوسـاطة مثل وتعليم القـديـس ادمـوند، الدي كـان معلمـه من قبل، وكـذلك بثبـات وإيمان القـديس روبرت أسقـف لنكولن، وهكذا تحمل جميع هذا الطغيـان الصادر عن البابا بصبر، ولم ييأس مـن تلقي المواساة من السماء، ورفض أن ينعم بالموارد الغنيـة لكنيستـه على أشخـاص غير معروفين وغير جـديرين من ماوراء الألب، كما أنه لم يخضـع مثل امرأة، ولم يركع أمام إرادة البابا، بالتخلي عـن الأحكام الدقيقة للعدل، ولذلك كـان كلما ازدادت لعناته بناء على أوامر البـابا، كلما ازدادت تبريكاته من قبل الناس، مع أن ذلك كان سرياً، بسبب الخوف من الرومان.

وصول الملكة إلى كنيسة القديس ألبان

في الثامن من تشرين الأول، ذهبت الملكة برفقة زوجة ادوارد، وعدة سيدات أخريات، إلى كنيسة القديس ألبان للوفاء بنذورها، ولترد الشكر إلى القديس، وأيضـاً لتقدم تقدمة جميلة عند ضريحه، لأنها عندمـا كانت تناضل تحت مـرض حاد جداً، وعـدت الشهيد، بأنها سـوف تذهب إلى

هناك، وسوف تأخذ معها هدية نذرية، وبناء عليه قدمت تقدمة عند المذبح، عبارة عن رداء ثمين جميل، وهو الذي ندعوه بشكل عام باسم Baudkin.

خصوبة بيترايس كونتسة بروفانس

إنني أعتقد أنه ينبغي عدم مروري صامتاً، دون أن أذكر حقائق، علمت بها عندما توفرت الفرصة، وذلك فيما يتعلق بخصوبة رحم بيترايس كونتسة بروفانس، فقد ولدت ثلاث ملكات لامعات، وهن ملكات: فرنسا، وانكلترا، وألمانيا، واثنتين من هؤلاء الملكات، أي ملكة فرنسا، وملكة انكلترا، قد جلبن إلى العالم ملكتين، وأعني بذلك ملكة سكوتلندا، وملكة نافار، وهكذا فإنه بهذا التوالد، الذي هو منحة ربانية، فإن الكونتسة بيترايس التي تقدم ذكرها، قد نشرت هالة من الضياء على جميع امتداد العالم المسيحي بتقديم خمس ملكات إلى الجماعة والمجتمع، وبالاضافة إلى هؤلاء أعطت الكونتسة بيترايس الخصبة نفسها بالولادة ابنتان نبيلتان أخريتان، كل واحدة منهن تزوجت من ابن ملك، حيث تزوجت الأولى من كونت أنجو، والثانية من كونت بروفانس.

طغيان التتار

في وسط هذه العاصفة العامة التي أزعجت العالم، ومثلما حدث في البلدان الغربية أنها أثارت بهياجها الحروب بين الويلزيين والانكليز، ومثل ذلك كان العداء والطغيان العائد للتتار وللمسلمين قد ثار في الشرق، وقد أرغمت شعوب كثيرة على أن تدفع الجزية للتتار، ومثل ذلك فعل السلاطين، والأمراء، والملوك، والخلفاء، ورغبة من التتار في اخضاع الصليبيين إلى الأوضاع نفسها، طلب التتار من الداوية والاسبتارية، ومن الآخرين من سكان الأرض المقدسة أن يخضعوا إلى

سلطانهم الذي لايحتمل، ولقد قاموا بعدما تشاوروا أثناء الليل، وبعد مداولات كافية وطويلة، أجابوا بالاجماع على رسائل التتار بأنهم «قد غيروا أزياء ملابسهم، وعهدوا بأنفسهم لخدمة الرب، ليس من أجل العيش برفاهية وسرور، بل بالحري حتى يموتوا من أجل المسيح، الذي لم يرفض في تلك البلاد المعاناة من الموت من أجل تخليص الجنس البشري»، ثم استطردوا يقولون إن هؤلاء التتار —أو هؤلاء الشياطين التتار— قد جاءوا، ولسوف يجدون عبيد المسيح معسكرين وجاهزين لانشاب القتال ضدهم في الدفاع عن الشريعة المسيحية».

دمار الحشيشة من قبل التتار

خلال هذا العام، دمر هؤلاء التتار المقوتين الحشيشة، وهم جنس أكثر مقتاً، فهم يحملون خناجر من حولهم، وإذا مارغب أي واحد في معرفة وقاحة هؤلاء التتار، وطرائق حياتهم وعاداتهم، أو إذا رغب في أن يقرأ عن أوهام الحشيشة وقسوتهم، يمكنه الحصول على المعلومات، بالقيام ببحث نشيط في كنيسة القديس ألبان.

كيف أنه بعد وفاة هورتولد جرى تعيين بطرس دي أوريفالي مكانه

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل مات هورتولد Hurtald الذي كان كاهناً خاصاً ومستشاراً للملك، وكان خازناً لقاعته، وجرى تعيين بطرس دي أوريفالي Orivalles محله، وهكذا خلف أجنبي أجنبياً.

كيف أخذ نبلاء سكوتلندا على أنفسهم العهد القيام بتوجيه إجراءات الملك والملكة

وفي هذه الآونة ورط الاسكندر ملك سكوتلندا نفسه باقتراف حماقات غير لائقة، مع أنه عندما يتولى الشباب القيادة، يتوقع الناس

منهم ثماراً عالية المنفعة بالنسبة للمملكة، فقد اتبع نصائح الأجانب، واهتم بمصالحهم، ورفعهم فوق رعاياه الطبيعيين، وقد غضب هؤلاء من هذا السلوك، وقاموا حتى يحولوا بينه وبين القيام بإجراءات أكثر سوءاً، فوضعوه والملكة تحت الحجر، وزيادة على ذلك، أبقوا الملكة معزولة عنه، خشية أن تلتحق بأبيها، وبذلك حذوا حذو الألمان، إلى أن يتمكنوا من الخلاص من الأجانب جميعاً ويبعدونهم عن المملكة، ومنذ ذلك الحين أمسك نبلاء سكوتلندا بأزمة حكومة مملكتهم بسهولة كبيرة وأمان، وعلاوة على ذلك اتهموا الملكة بأنها أثارت غضب أبيها، وأنها بعثت إليه للقدوم ضدهم مع جيشه ليجلب الدمار للبلاد، وقالوا بأنه من خلال شكاويها جرى تدمير روبرت دي روس، الذي كان أعظم نبلاء الشمال، فقد جرى تدميره من دون رحمة وبشكل كامل، وتمت مصادرة جميع ممتلكاته القابلة للبيع ثم بيعت.

المعارك بين جيمس أودلي والويلزيين

وفي هذا الوقت نفسه، قام نبيل قوي وغني اسمه جيمس أودلي Au-deley (وكان واحداً من الذين جاءوا مؤخراً من ألمانيا)، كان يمتلك أراضي، وقلاع وممتلكات أخرى في ويلز، كان الويلزيون قد هاجموها ودمروها أثناء غيابه، قام بالشروع بدوره بحملات هجومية، ضد مقترفي الشرور هؤلاء، وأرسل بالكثير منهم إلى الظلال في الأسفل، مطالباً أيديهم بتقديم حساب عن دماء إخوانه، لكن قام الويلزيون فجأة بالانقضاض من مخابئهم التي تشبه أوكار الثعالب، وشقوا طريقهم خلال المستنقعات، وصدوا حملات أعدائهم الغزاة بجميع الوسائل التي كانت بمقدورهم، وبذلك وقعت مذبحة كبيرة، وتحولت بيوت وقلاع إلى رماد من على الجانبين، وبهذا تناقصت قوة انكلترا يومياً، لأنه كان هناك بالعادة تجارة جلبت استيراداً من ويلز إلى انكلترا، من خيول وثيران، وسلع أخرى مختلفة الأنواع، كانت مربحة لسكان البلدين معاً.

كيف أكد ملك إسبانيا بأنه قد انتخب ملكاً لألمانيا قبل انتخاب الإيرل رتشارد

وتحقق في هذه الآونة خبر اشاعة، أزعجت الكثيرين، وقد أفادت بأن ملك اسبانيا قد أكد أنه جرى انتخابه بشكل صحيح ملكاً على الرومان، قبل انتخـاب الايرل رتشـارد، وكبرهان على هذا وقف رئيـس رهبـان تريفي، وبعض النبلاء الألمان الآخرين ثابتين ومن دون تغيير في وقوفهم إلى جـانب ملك اسبـانيا المذكـور، وفي الوقت نفسـه وعـد ملك فرنسـا بتقـديم نصـائحـه ومسـاعـدته إلى ذلك الفـريق، لأن الفـرنسيين كـانوا منزعجين كثيراً تجاه التشريف الذي دفع إلى الايرل رتشـارد، وغـاضبين من المنافع التي سـوف يحصل عليها الألمان من انتخابـه، لأنه كان هناك فيما بينهم أنفسهم منذ قـديم الزمـان عـداوة فطرية وكـراهيـة من غير الممكن اطفاءهـا، وهي قد ازدادت بالحرب الكبيرة التي وقعت مـؤخراً بين الألمان، وبينهم أنفسهم وبين الفـرنسيين الذين نالوا المسـاعـدة من حلفائهم الفلمنكيين.

وكـان على كـال انتخاب رتشـارد الملك الجديد لألمانيـا أمـراً مقـرراً، ونظاميـاً، ولايمكن تغييره، لأنه عندمـا جـرى في العام الماضي الإعـلان عن انتخابـه في لندن إلى الملك وإلى نبلاء انكلترا من قبل نبـلاء ألمانيا، لم يكن ظاهراً أي ظل من المعارضـة مهما كان صغيراً، كما أنه لم يكن هناك فيما بعـد عندما قـدم رئيس أساقفـة كولون إلى انكلترا، وهو الذي كـان المستشـار الأعلى للامبراطورية، وعندما جـاء كـان برفقته عـدد كبير من زعماء الناس في ألمانيـا، ولم يذكر هؤلاء ملك اسبـانيا أو انتخـابه، ومثل ذلك لم يفعل الأشخـاص الحكماء الذين جـرى ارسالهم للقيـام بالتقصي حول القضايا في ألمانيا، وبناء عليه فإن ملك ألمانيا كان مستقراً، هادئاً في استحواذه لملكه وقـد تعامل مع تهديـدات ملك اسبانيا بـاستخفاف، مع أن الأخير هدّد بمحـاربتـه بالقـوات المتحـدة العـائـدة لملـوك فـرنسـا،

وأراغون، ونافار، وعلاوة على ذلك أقحم ملك اسبانيا فقرة في رسائله أطلق فيها على نفسه لقب «الملك المنتخب للرومان أو لألمانيا»، وعندما سمع رتشارد ملك ألمانيا بهذه التهديدات، رد غير هياب: «دعوه يأتي مع جميع قواته، وليفعل أسوأ مايمكنه، فأنا سوف ألاقيه خارج حدود مملكتي».

رسالة ملك إسبانيا إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الأثناء كتب ملك اسبانيا إلى ملك انكلترا يرجوه بحرارة «أن يقدم إليه مساعدة فعالة، حسبما هو متوجب عليه، ضد رتشارد ايرل كورنوول، الذي اغتصب بوقاحة تاج ألمانيا، وحلّ بشكل مخادع محله —أي محل ملك اسبانيا— عندما كان قليل من الناس متوقعين مثل هذا الإجراء»، وقد حث ملك انكلترا على مساعدته توافقاً مع شروط الصك المعمول بينهما، الذي بموجبه كان كل واحد منهما ملزماً بمساعدة الآخر ضد كل عدو أي عدو، وكانت هذه المعاهدة قد عملت، عندما أعيد تأسيس السلام بينهما في غسكوني، وبعدما تسلم الملك هذه الرسالة، رد عليه كما يلي: «إنه بالنسبة لي، إنني أطالب بسرعة وبإلحاح بالمساعدة منه إليّ شخصياً، ومن أخي ضد أعداءنا المتمردين، هذا وإن كل من يعادي أخي ويقف ضده، هو يعد لسبب جيد العدو الخاص بي، لأن الذي ليس معي هو ضدي»، وينبغي أن نذكر بأن غسكوني كان قد جرى منحها من قبل الملك الانكليزي هنري مع ابنته، إلى ألفونسو ملك اسبانيا، الذي تملكها بموجب صك كان مثبتاً من الملكين: رتشارد وجون.

ونتيجة لهذا تعاهد ملك اسبانيا مع هنري الثالث الملك الحالي، وبموجب ذلك كان على ابن هنري الاقتران بأخت ملك اسبانيا، وأن على كل واحد منهما تقديم المساعدة للآخر في وقت الحاجة، وأن ملك اسبانيا سوف يتخلى عن ادعائه بغسكوني لصالح ملك انكلترا ولصالح

ورثتـه، وقـد عمل صك يتعلق بهذه الاتفـاقـات المتبـادلة، وعمل ملك انكلترا أيضاً صكاً مهينـاً، تقرر فيه عمل تعـويض إلى جميع الغسكونيين على الخسائـر التي تكبدوها من خلال قـدومه، وخضع ملك انكلترا إلى جميع هذه الخسائـر والاهانات، لأنه عندما كان سيمـون ايرل ليستر قد أخضع تقـريبـاً العصاة الغسكونيين، أرسل الملك أوامـر إلى نبـلاء تلك البـلاد بمقـاطعـة الايرل، وهكذا بمـوجب ذلك ألغيت سلطاته تمامـاً، وبهذه الصفقة غير السعيدة حصل الملك على خسارة جسيمة، في كل من الأراضي والمال، ونال ضرراً لايمكن تعـويضـه بالنسبة لكـرامته، وكـان عمل الملك هذا مضـاداً للصك الذي يحمله الايرل والذي حصل عليـه منه، وفي سبيل أن لايظهر هذا التصرف وكأنه سرقة، خلص الملك ذلك الصك منه واسترده مقابل ستة آلاف مارك، ومجدداً قام —كما ذكرنا من قبل أعـلاه— بعبور القنال شخصيـاً مع جيش كبير، وكـانت جميع هذه الإجراءات مؤذية له، هذا وتقدم ذكر هذه الأحداث أعلاه.

كيف جرى إرسال رسل خاصين إلى فرنسا

وفي هذه الآونة، جرى ارسـال أسقف ووركستر، والأسقف المنتخب لوينكستر، ورئيس رهبـانيـة ويستمنستر، وايرل ليستر، وهوغ بيغـود الايرل مـارشـال، وبطرس أوف سـافـوي، وروبرت أوف ويلران في رسالة خاصة من ملك انكلترا إلى ملك فرنسا، للقيام ببعض الترتيبات، إذا كـان من الممكن عملهـا بأي سبيل مع الشرف، مع الملك الفـرنسي، من أجل أن يتـولى الإعـادة إلى ملك انكلترا الممتلكات والامتيـازات العـائـدة إليـه منذ الزمن القـديم، وبذلك يكـون من الممكن منع إثارة العـداء، الذي يمكن أن تنتج عنه الحروب وسفـك الدمـاء، لأنه بدا أنه لايتماشى مع العقـل والدين أن يدان الابن ويحكـم عليـه بحمل أوزار ظلم أبيـه، وفي الحقيقة كانا قـد تأذيا حتى الآن بما فيـه الكفاية وعـوقبا، فقـد مضى حتى الآن حـوالي الخمسين سنة، منذ أن حـرم ملك انكلترا

بشكل مؤسف له، من أراضيه في القارة، وعاد المندوبون الذين أرسلهم إلى فرنسا إلى الوطن، وهم بحالة صمت وأسف، بعدما قوبلوا بكلمات قاسية وتهديدات، وبعدما تسلموا رفضاً كلياً واضحاً بعدم الاستجابة لطلباتهم، وقد انزعج جميع النبلاء الذين دعاهم الملك إلى بارلمان في لندن، ولذلك توصلوا إلى قناعة بأن الرسل عادوا من دون التمكن من انجاز مهمتهم، وحصلوا على لاشيء، باستثناء السخرية، والتمس رتشارد ملك ألمانيا أيضاً بتواضع من الملك الانكليزي إعادة الممتلكات العائدة إليه، ولاقى هذا المطلب مثلما لاقت القضية الأخرى، حيث جرى تأجيل النظر فيها، حتى يفرغ الملك الفرنسي من بارلمانه، الذي كان سوف يعقد في منتصف الصيام الكبير، ولذلك بقي رئيس رهبانية ويستمنستر في فرنسا للحصول على جواب حول هذه القضايا، في حين عاد الآخرون إلى الوطن.

كيف جرى تحويل منطقة الحدود مع ويلز إلى صحراء فعلية

ويؤسفنا القول بأن حدود ويلز جرى تحويلها إلى صحراء غير مسكونة، فقد سقط السكان ضحايا للسيف، وأحرقت البيوت والقلاع بالنار، وسقطت أشجار الغابات أمام البلطة والمسحاة وسقطت المواشي والقطعان ضحايا للجزارين، أو ماتت من الجوع، وهكذا جردت انكلترا من جزء كبير منها.

مختصر أخبار العام

كان هذا العام كله غير خصب وشحيح، لأن كل الذي جرى بذره في الشتاء، وأزهر في الربيع، وبات ناضجاً في الصيف تلف ودمر بوساطة الأمطار الخريفية، وجلبت أعمال السلب التي مارسها البابا والملك في انكلترا، قلة الأموال وندرتها، وكانت وراء فقر غير اعتيادي، وبقيت الأرض غير مزروعة، ومات كثير من الناس من المجاعة، وفي

حـوالي عيد الميـلاد ارتفع سعـر مكيـال القمح إلى عشرة شلنات، وبات التفـاح نادراً ومثله الأجـاص لابل أكثـر، وكـذلك التين، والدراق، والكرز، والخوخ، وقـد تلفت جميع الفواكـه التي حفظت بالجرار فسـاداً كاملاً، وهكذا كان العام عامـاً قاحلاً، وعلاوة على ذلك أعطى الفرصة لحميات مميتـة، استعرت إلى درجة، أننا إذا لم نذكـر جميع الحالات، نجد أنه في كنيسة القديس ادموند، جـرى دفن أكثر من ألفي جسد في المقبرة الواسعة، وكـان ذلك خلال الصيف، ومـات الشطر الأكبر منهم في أيام الشعـرى أي مـابين أوائل تموز وأوائل آب، وكـان هناك رجـال شيـوخ كـانوا قد شـاهدوا من قبل بيع مكيـال القمح بمارك لابل حتى بعشرين شلناً، لكن ذلك كـان من دون جـوع الناس حتى الموت، ولكي نضيف إلى التعاسـات كان رتشـارد ملك ألمانيا قـد جرد مملكة انكلترا من آلاف كثيرة من الماركات، التي قد أمر بتحصيلها من أراضيه في انكلترا.

وعـاشت الأرض المقدسـة في آلام العـزلة، والخوف من التتار، فقـد امتلك ملك هؤلاء القـوم أربعـة مـلايين من الرجـال المقـاتلين، وسـار هؤلاء في ركابه، وذلك حسبما سمعنا من أشخاص متعلمين وموثوقين، وهـم قد أخضعوا حتى الآن نصف العالم، وفعلوا ذلك بالقوة، وكل من رغب القيام ببحث دقيق حولهم، يمكنه أن يجد في كنيسة القديس ألبان، روايات حول طرائق حياتهم القذرة كثيراً.

وانتشرت في هذا العـام آلام دائمة وموجعـة، نادراً ما سمحـت بقوة التنفس لأي واحد عانى منهم، ولم يكـن هناك يوم جليدي واحد، كما لم يقع أي يوم جميل، كما أن وجـه الأرض والبحيرات التي كانت بالعـادة تصبح قاسيـة بالجليد لم تصبح قـاسية على الاطلاق، ومثل ذلك لم تكن هناك قطع ثلجيـة متجلدة معلقة من أطـراف البيوت، بل كـانت هنالك أمطار ثقيلة غير منقطعـة، وكان هناك ضباب حجـب السماء. حتى عيد طهارة العذراء المباركة.

كيف احتفل ملك إنكلترا بعيد الميلاد في لندن

عام ١٢٥٨ لتجسيد المسيح، وهو العام الثاني والأربعين من حكم الملك هنري الثالث، وقد أمضى الملك المذكور عيد الميلاد في لندن، حيث كان ينتظر وصول الرسل الذين كان قد بعث بهم إلى لندن، وهناك احتفل بذلك العيد بمهابة كبيرة وبفخامة، برفقة كثير من النبلاء، وكان الملك أيضاً حاضراً في العيد الذي احتفل فيه على شرف القديس ادوارد.

وصول أسقف إيلاي ورئيس رهبانية دير القديس ادموند

وحوالي الوقت نفسه، وصل أسقف إيلاي ورئيس رهبانية دير القديس ادموند إلى انكلترا، وكانا عائدين من بلاط روما، حيث نجحا في الحصول من البابا على مرسوم تثبيت لهما كل على انفراد في منصبه، وذلك على الرغم من معارضة الملك وسوء نواياه، ومعه رئيس أساقفة كانتربري، وهكذا تصرف الملك وفعل بناء على النصائح الفاسدة، فدمر كرامته الملكية، وسعى إلى إلحاق الأذى بالكنيسة بطرائق مضاعفة.

اضطرابات في روما

في هذا الوقت، وقبل مضي بضعة أيام، وقعت اضطرابات جادة في مدينة روما، نتيجة لإجراءات الشيخ م. M, الذي كان مواطناً من بريشيا، نأى بنفسه عن مسالك العدالة فأفقر شعب روما وظلمه بمختلف الطرق، وفعل ذلك بناء على تحريض النبلاء له، وقد حصر هو اهتمامه وجعل شغله فقط هو العمل على ارضاء النبلاء المذكورين، خاصة الآنيبلدي Annibaldi, ثم إن الناس قاموا بناء على نصيحة واحد اسمه متى أوف بيلفيور Belvoir, وكان انكليزياً، ومواطناً من أتباعهم، يعمل معلماً في صناعة الخبز، قاموا بالاحتشاد مع بعضهم على شكل جمهور كبير، حيث قاموا بهجوم عنيف على السجن، حيث

كان برانكليـون الشيخ السالف مسجوناً، وقد نجحـوا في فتحه واطلاق سراحـه، ومـا أن عملوا ذلك حتى عينوه شيخاً، وتماشيـاً مع العـادة القديمة لتلك المدينة أقسمـوا على الولاء وتقديم الاخلاص له، ثم إنهم تمكنوا بمساعدة برانكليون، من طرد أعدائه من المدينة، وألقوا جانباً كل احترام للبـابا، فعلقـوا على المشـانق اثنين مـن الآنيبلدي، وكـانا قـريبين لواحـد من الكرادلـة، وقـام البـابـا بانزال عقـوبة الحرمـان الكنسي ببرانكليون وشيعتـه، ونتيجة لذلك أعلنوا أن لـديهم امتيازاً يقضي بمنع أي بابا من إنزال عقـوبة الحرمان الكنسي بهم، وبناء عليـه هم لم يكتفوا بالسخـرية منه، بل هدّدوا بـإلحاق الأذى بالبـابا والتنكيل به وبكرادلتـه حتى الموت، وأثار هذا خوف البابا على سلامتـه، فقال لإخوانه: «عندما يكون الغضب مندفعـاً ابتعد عن مجراه»، وخـوفاً من أن الشرور سـوف تتبع، انسحب فجـأة إلى فيتربو، وبنيتــه التحـرك أبعـد والانتقــال إلى أسيسيو Assisio.

وفاة وليم هيرون عمدة نورثأمبرلاند

ومـات في هذا الوقـت نفسـه وليم هيرون Heron عمـــدة نورثأمبرلاند Northumberland, وكـان رجـلاً شرهاً جـداً، ومطرقـة متوحشـة بالنسبة للفقـراء، ومنكلاً بالطوائف الرهبانيـة، ومن الشره الدنيـوي والعطش لنيـل الثـروة، عبر —كما هو معتقـد— إلى المناطق الجهنمية ليعاني من عطش Tantalus.

وفي حـوالي عيـد غطاس مـولانا، مثل المندوبون النبـلاء الذين بعثهم ملك انكلترا أمـام الملك الفـرنسي، الذي عـاملهم بكيـاسـة وتكريم، وأجـابهم بلطف حول القضيـة التي حضروا من أجلهـا إلى هناك، وهي قضيـة الطلب بإعـادة نورمـاندي والممتلكات الأخـرى في القـارة، لكن أخـويـه وبعض النبـلاء الآخـريـن، رفضـوا بكل وضـوح الاستجـابة لمطالبهم، ولذلك عاد الرسل إلى الوطن دون انجاز لمهمتهم.

حول الاتهامات التي عملت ضد بعض مواطني لندن

وفي الوقت نفسه أيضاً، عمل سكان لندن من الطوائف الوسطى والدنيا شكوى جادة تقدموا بها إلى الملك، بأن الذين جرى تعيينهم لجمع المال من أجل إعادة بناء أسوار المدينة، حسبما كان الملك قد أمر من أجل كرامتهم، قاموا بخداع بالاحتفاظ بالجزء الأكبر من هذا المال في حوافظ نقودهم، في سبيل إيذاء الطوائف الوسطى والدنيا من المواطنين، وفي الحقيقة إنهم قد فعلوا الشيء نفسه في جميع الجبايات والضرائب التي تولوها، وتبرهن حول هذا الموضوع أنهم كانوا مدانين، وحدث على كل حال أن وفرت حياتهم بعد صعوبة كبيرة، وذلك بناء على وساطة جون مانسيل، لكنهم أرغموا على دفع فدية عن أنفسهم.

وفاة جون أوف أفني

ومات في هذا الوقت نفسه جون أوف أفني قهرمان ملك ألمانيا، الذي رست عليه جميع آمال ذلك الملك.

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الويلزيون، الذين يئسوا تماماً من عقد سلام مع الملك، ومن الحصول على رحمة منه، فاستولوا على بعض البلدات الاقليمية على حدود ويلز، وكانت عائدة إلى ادوارد وإلى بعض النبلاء الآخرين، واستولوا على جميع المؤن التي كانت مخزونة هناك، ودمروا وأحرقوا البقية، وقطعوا رؤوس جميع الرجال الذين وجدوهم في البلدات المذكورة من دون رحمة، ومن دون السماح لهم بفداء أنفسهم.

كيف تواضع البابا بنفسه إلى الشيخ برانكليون

وفي حوالي ذلك الوقت نفسه، حدث أنه مثلما كانت لندن مسرحاً لإثارة كبيرة واضطراب عظيم، كانت روما يتقاذفها انشقاق كبير بين المواطنين، لأنه عندما اشتكى النبلاء إلى البابا، وحرضوه على اصدار

الحرمان الكنسي ضد شعب روما، وضد شيخهم برانكليون، مع جميع المشايعين له، هزأ برانكليون من تهديداتهم وضحك منهم فقط، وعامل تهديداتهم باستخفاف، وهكذا فإنهم لم يكتفوا فقط بعدم الاهتمام سوى قليلاً والانشغال بالقوة التي ستفرض ضدهم، لابل قللوا من قيمتها وعاملوها باستخفاف، وكان الشيخ برانكليون الذي رقي إلى ذلك المنصب مؤخراً محبوباً من قبل جميع الناس، ومارس الآن بجرأة سلطاته لمعاقبة جميع مقترفي الآثام في المدينة، والانتقام بشكل خاص لنفسه ضد الذين كانوا وراء سجنه، فقد عهد بهؤلاء إلى المشانق، ولم يوفر لاأصدقاء ولاأقرباء البابا، وكان غير قابل للافساد لابالالتماسات، ولا بالتهديدات ولابالرشوات الصادرة عن أي أحد، وعلاوة على ذلك أصدر مرسوماً عاماً أمر فيه جميع شعب المدينة، تحت طائلة الحرمان من الأملاك والمواريث، وعقوبة النفي، بأن يجهزوا أنفسهم بالسلاح، وللاحتشاد مثل رجل واحد للقيام بحملة ضد أغنانو Agnano, مسقط رأس البابا، وما أن سمع سكان ذلك المكان بهذا الأمر، خاصة أقرباء البابا وأصدقائه حتى ذهبوا إليه —البابا— وعبروا عن أساهم قائلين: «ياصاحب القداسة كن رحيماً على الأقل نحو أصدقائك وأقربائك،ونحو مدينة أغنانو كلها التي هي مسقط رأسك، لأن مرسوماً قد صدر عن الشيخ برانكليون، وجّهه إلى الرومان، أمرهم فيه جميعاً بحمل السلاح، ومن ثم بإلقاء الحصار على مدينتنا وهم في حالة غضبهم، سوف يأتون مثل رجل واحد، وسوف يدمرون المدينة، ويزيلون القلاع، ويجتثون البيوت ويسوونها بالأرض، وسوف يستولون على ممتلكات المحاصرين ومن ثم سوف يقتلونهم جميعاً من دون رحمة»، وبعد سماع البابا لهذا الخطاب، قام، مع أنه غضب، وعلى الرغم من أنه كان يكره الشيخ برانكليون، بإرسال رسل خاصين —عن رضا أو من دون رضا— والتمسوا بأعظم تواضع، بأن يكبح غضبه، وأن يوفر أغنانو، التي كانت مدينة طفولته [البابا]، خشية أن يكون موضوع

الكراهيـة لجميع بني البشر، وبناء عليه تبنى الشيخ الرحمة، وتنازل أمـام التماسـات البـابا المتـواضع، مع أنـه واجـه صعـوبة كبيرة في منع الناس وكبحهم عن تدمير جميع العوائق التي واجهتهم.

ومنحت هذه القضيـة أعظم البهجـة والسرور إلى مانفـرد الذي كـره البـابا، ومن ثم تعـاطف قلبياً مع الشيـخ، وكان مسروراً بشكل خـاص لدى رؤيتـه وهو الذي قـام قبل وقت قصير، برمي التهـديدات، وزمجر متفوهاً بقرار عقـوبة الحرمان الكنسي، قد تواضع الآن وتذلل كثيراً، إلى حـد أرغم فيـه على طلب السـلام، ووعد الأمير مـانفـرد أيضـاً الشيخ برانكليون، بأنه سـوف يساعده في جميع أحوال الحاجـة، وانحدر صديق الملك هنري وهوى إلى حـالة متردية وعـزلة، وهو الذي إليـه دفع ذلك الملك مساعدة كبيرة جداً مع نجدة عظيمة، وجميع ذلك المبلغ الكبير من المال، الذي كان قد جباه، وأرسله إلى هناك من أجل الحصول على مملكة أبوليا، وكان كافياً لدفع الفوائد وابعادها عنه، وهي الفوائد التي تزحف بسرية حتى قـامت بغل الملك غير المدرك وغير الحكيم، وعـلاوة على ذلك اتهمـه البـابا بأنـه تولى خـداع الكنيسـة واستغلهـا وتطفل عليهـا، ونتيجة لذلك ساءت سمعته كثيراً لدى جميع الشعوب.

غضب البابا ضدّ ملك إنكلترا

وحـوالي الوقت نفسه انفجـر غضب البابا ضـد ملك انكلترا، لأنه لم يلتزم بوعـوده الكثيرة، من أنه سوف يقوّم أخطائـه المعتادة، وذلك تحت طائلة عقـوبة فقدانه مملكتـه، وبناء عليه وتحت المطالب الملحـة للورانس أسقف روكستر مع آخـرين كثر، وبعد كثير مـن الانذارات غير المثمرة، تبنى فكرة الزمجرة ضـد الملـك بقـرار عقـوبة الحرمـان الكنسي، ووضع المملكة تحت عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، وانزال عقوبات متوالية عليه، تزداد فيها حدة العقاب بالدرجات.

وكـان الملك في حـالة اضطراب عقلي، فدفـع خمسة آلاف مـارك إلى البابا لتهدئة غضبه، ولتأجيل إعلان العقوبة لبعض الوقت، ووافق البابا تحت ضغط التماسـاته ورشاويـه على طلبه هذا، وهكذا أفقـرت انكلترا وجـردت من ثروتها من كل جـانب، وفي الوقت نفسـه مـاتت الآمـال بالحصـول على امتـلاك مملكة أبوليـا، باستثناء أمل واحـد صغير جـداً اعتمـد على نفـوذ رتشـارد الملك الجديـد لألمانيـا، وكـان هذا الأمل في الحقيقـة خفيف جـداً، لأنه لم يكن قـد توصـل بعـد إلى المقـام الامبراطوري.

عودة روستاند إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة أيضاً، قدم إلى انكلترا، المعلم روستـاند، كاهن البابا، لكن لأي سبب، لم يكن ذلك معـروفـاً، سـوى أنه جـاء للقيـام بزيارة، ولجمع موارده، لأنه امتلك ثورة.وافرة في انكلترا، كان قد حصل عليها، وأنعم بها عليه في وقت قصير، ولهذا السبب كـان عندما ذهب أخيراً إلى روما حصل على عدم رضا الكثيرين، لابل حتى على غضب البابا نفسه، لكن باستخـدامه العـلاج المعتـاد لتلك الشكوى، نجا من العقـوبة التي أحاقت به وكانت متوقعة.

تكريس ثلاثة أساقفة في كانتربري

في يوم أحد آلام مولانا يسوع المسيح، جرى تكريس ثلاثة أساقفة في كـانتربري، وهـم: المعلم سيمون أوف وانتـون Wanton لأسقفية نورويك، والمعلم روجـر أوف ميولان Meulan لأسقفية شيستر، والمعلم وولتر أوف إكستير Exeter لأسقفيـة إكستير، وجـــرى انتخاب هؤلاء جميعاً خلال أسبوعين، وجرى تثبيتهم وتكريسهم أساقفة بمهابة صحيحة من قبل بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري.

الترتيبات التي عملت حول التزود بالمؤن بين رئيس رهبان دير القديس ألبان وبين الرهبان

وفي هذا العام نفسه أيضاً، بما أن رهبان دير القديس ألبان قد تشكوا مراراً إلى رئيسهم جون (ولم يكن ذلك من دون سبب جيد) بأنهم لم يكونوا يزودون بشكل صحيح أو نافع بالخبز والجعة من أجل استخداماتهم الخاصة، ومن أجل التوزيع بين ضيوفهم من دينيين وعلمانيين، بحكم أن ذلك الدير قد تأسس لهذه الغاية، أي تقديم وسائل كافية لعيش الأشخاص المتقدم ذكرهم، قام رئيس الرهبان المتقدم ذكره بصرف انتباهه لتدبير علاج ناجع لهذه الحاجة، وبالمحصلة عملت الترتيبات التالية بين رئيس الرهبان والرهبان، وعلى هذا الأساس توجب أن يتسلم الرهبان منذ ذلك الوقت فصاعداً زيادة معلومة وثابتة من الخبز والجعة، وذلك بما يكون كافياً لتقديم منعش معقول وموائم لهم أنفسهم وللضيوف، وجرى تدوين ذلك في صك اتفاقية، ختمت من الطرفين، وتمّ تثبيتها من قبل الملك، ومقابل هذه الترتيبات، واللطف الذي عمل إليهم، قام الرهبان بالتعبير عن شكرهم، فسددوا من قبل أنفسهم وبوسائط رؤساء رهبان الديرة المعتمدة على دير القديس ألبان، ديوناً محددة وصلت إلى مبلغ..... ماركاً، كانت مستحقة على رئيس الرهبان المتقدم ذكره لبعض التجار في القارة، لكن بقي هناك بعض الديون الأخرى الثقيلة التي توجب سدادها من قبل رئيس الرهبان المذكور، وفي سبيل أن تكون تفاصيل هذا العمل الكريم والسخي والذي كان عملاً لطيفاً، أن تكون معلومة من قبل جميع الذين رغبوا في معرفتها، رأينا من الموائم أن ندخل في هذا الكتاب الصك الملكي الذي قضى بتثبيت الاتفاقية المذكورة أعلاه.

صك تثبيت الإتفاقية المتقدم ذكرها

«من هنري الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وسيد ايرلندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورؤساء الرهبانيات، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، ورجال العدالة، والعمد، والنواب، والقساوسة، والوكلاء، وإلى جميع المتبقين من رعاياه المخلصين:

قمنا بفحص التدبير والترتيب الذي عمل فيما بين جون أوف هارتفورد، رئيس رهبانيات دير القديس ألبان، ورهبان الدير نفسه الذي نصه كما يلي:

من جون أوف هارتفورد الذي هو بنعمة الرب رئيس رهبانيات دير القديس ألبان إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح، تحيات في الرب:

إنه حق وواجب علينا، أن نقدم موافقة راضية على الطلبات المحقة للمتشكين، وأن نضع رغباتهم موضع التنفيذ تماماً، ماداموا لم يضلوا عن طريق الصواب، ولذلك رأينا من الموائم أن نجعل معلوماً لدى جماعتكم، بأننا سوف نتصرف مثلما عمل أسلافنا رؤساء الرهبانيات في دير القديس ألبان وجعلوا العادة في العصور الخالية توفير امدادات من المؤن فيما يتعلق بالخبز والجعة، من أجل الاستخدامات العامة لرهبان ديرنا المذكور، وأيضاً للضيوف الذين يمكن أن يحدث قدومهم، وسوف تستخرج هذه المؤن من حاصلات بارونيتنا، وكذلك من كنائسنا، التي لنا فيها حقوقاً وقفية، ومن الكنائس الأخرى التي ليس لنا فيها حقوقاً وقفية، وكذلك من مزارعنا ومن الموارد العائدة إلى الدير المذكور.

وقد جرى تحريضنا بمحرضين خيريين مضاعفين، ولقد رغبنا في زيادة كرامة الدير المذكور، وفي تحسين أحوال الرهبان فيما يتعلق بالتزويد بالمؤن المذكورة، وذلك من أجل أن يبقى الرهبان من الآن

فصاعداً بسلام واستقرار إلى الأبد، ورغبنا أيضاً في تحرير رؤساء الرهبانيات الذين سيخلفوننا من تقديم المؤن المذكورة، من أجل عيش الرهبان المذكورين، ولذلك قررنا، مع الخوف من الرب أمام أعيننا، وبناء على الرغبة العامة، ونصيحة ومواءمة رهباننا، بتعيين الحصص المذكورة أدناه إلى الرهبان المذكورين: أي أن تقول كنيستي هارتبورن Hertburn وايلنغهام Eglingham في أسقفية درم، وكنيستي نورتون ووالدون Waldon, وبأربعين شلناً، سوف يدفعها الآن قسيس والدون سنوياً، وأيضاً العشور، مع القش الذي نتسلمه بالعادة في أسقفية واتفورد Watford, مع عشر ماركات من قسيس واتفورد للوقت الحالي، وكذلك كنيسة هونتون مع ستة ماركات سنوياً من قسيس بوتغريف Potsgrave, مع ماركين ونصف المارك من كنيسة هارتبورن، في أسقفية لنكولن، وأيضاً مع ستة ماركات من قسيس أبلتون Appleton في أسقفية يورك، وكذلك جميع التقديات التي تأتي من احتفالي القديس ألبان، وكذلك عزبة كنغبري Kingsbury, مع جميع متعلقاتها، وكذلك أيضاً مع خمسة رجال في بلدة وستويك Westwick, مع سماد ساحة كنيسة القديس ألبان لتحسين أوضاع العزبة المذكورة، عندما يرون ذلك مناسباً.

وينبغي أن يكون معلوماً أيضاً أن القمح والشغير المنقوع العائد للدير المذكور يتوجب أن يطحن في مطاحننا في داخل ساحة كنيسة القديس ألبان وفي خارجها أيضاً، من دون نفقات، بحكم أنه قمحنا، والاعفاء من المطالبة بأية نفقات من الدير المذكور من أجل إصلاح أحجار الطواحين، أو الطواحين، أو المياه، أو على أي أساس آخر، ولسوف نوفر للدير المذكور البيوت الموائمة، التي سوف تكون ضرورية من أجل التخمير والخبز، ومن أجل عمل الشعير المنقوع، وأيضاً من أجل خزن

القمح، ومن أجل إيواء خيولهم، مع جميع الأدوات الضرورية لجميع القضايا المذكورة أعلاه.

وفيما يتعلق بعزبنا، حيث سوف توضع العشور المذكورة، سوف نوفر بيوتاً مناسبة من أجل خزن القمح و القش، ومن أجل إقامة رجالهم وخيولهم، وكذلك جميع الآنية الضرورية لطبخ أطعمتهم، وكذلك الأخشاب من أجل وقودهم بكميات كافية في كل من داخل ساحة دير القديس ألبان وخارجها، والمواد أيضاً من أجل ترميم البيوت المتقدم ذكرها، الأمر الذي هو بالغالب ضروري، ولسوف نقوم نحن وخلفاؤنا بضمان، وبتسديد، وبالدفاع على نفقتنا، لصالح الدير المذكور وضد جميع الناس، عن الحصص المتقدم ذكرها، مع جميع متعلقاتها، وتسكين وتحرير المتقدم ذكرهم، ولسوف نتحمل إلى الأبد جميع التكاليف العادية وغير العادية في الكنائس المتقدم ذكرها، وكذلك أقساط التعويضات، حيثما يكون مثل ذلك.

وفي سبيل المزيد من الأمان لهذه الاتفاقية، قررنا التفوه بحكم الحرمان الكنسي ضد جميع الذين سوف يقومون بناء على تحريض من الملك أو من البابا، أو بدافع شخصي بخرق، أو التسبب بخرق الأحكام التي تقدم ذكرها، مالم يحدث أن تتم التغييرات بناء على الموافقة العامة وكذلك الغربة لكل من رئيس الرهبانية مع جميع رهبان الدير، في سبيل الصالح الأعظم والمنفعة الأكبر للدير ولكنيسته.

ونحن علاوة على ماتقدم سوف نقوم بمحض إرادتنا، وبناء على الموافقة العامة لإخواننا الرهبان المتقدم ذكرهم، برهن أنفسنا إلى كل من الملك (الذي هو ولي نعمتنا) ولورثته للمستقبل، وإلى البابا وخلفائه كما يلي، أي أن تقول إذا قمنا نحن أو خلفاؤنا، في أي وقت من الأوقات، بالتجرؤ على الاقدام بطيش على تغيير الأحكام المتقدم ذكرها، سواء كلياً أو جزئياً (لاسمح الرب بذلك) وكان ذلك من دون الموافقة العامة

لرهبـان الدير المتقـدم ذكره، كما أوضحنا أعـلاه، يمكن للملك وورثتـه الاستيلاء على بارونيتنا، وكما يمكن أيضاً للبابا ولخلفائه بوساطة الروادع اللاهوتية، أن يـرغمنا بشكل فعال على الالتزام الدقيـق بالأحكام المتقدم ذكرهـا، وكذلك بوسـاطة جميع الوسائل التي يرونها مـوائمة، وبوسـاطة الوسائل الشرعيـة المتوفرة لـديهم، وفي سبيل أن تمتلك جميع المواد المتقدم ذكرها قوة كـاملة إلى الأبد، وضعنا أختامنا، وكذلك ختم ديرنا على هذا النص المكتوب. صـدر في كنيسة القديس ألبـان، أثناء اجتماع كامل الهيئة الرهبانية، في يـوم الجمعة، الذي جاء بعد عيد القـديس متى الرسول، في سنة ألف ومائتين وسبع وخمسين لتجسيد ربنا».

تثبيت ماتقدم أعلاه من قبل الملك

«وبناء على الفحص الذي أمـرنـا بعمله، علمنا بأن الشروط والأحكام سوف تكون لصالح عتقنا وتقـدمنا وورثتنا، نحن نصدق، ونمنح، ونؤكد الشيء نفسه لأنفسنا ولورثتنا، حسبما تقـدمت كتابة الوثيقـة المعمولة بيننا، ونشهد.

ولتقديم برهان آخر حول ذلك، إن ارادتنا، ونحن نمنح باسمنا وباسم ورثتنا السلطة إلى رئيس الرهبانية وإلى الرهبان الديريين للمكان نفسه، أنه في حال استقالة أو مـوت رئيس الرهبانية المذكور، أو رؤسـاء الرهبان من خلفائه في كنيسة القـديس ألبان المتقدم ذكرها، بأن يمتلكوا وأن تكون بين أيديهم بصـورة حرة مع الاستحـواذ السلمي، إلى الأبد، في أوقات شغـور رئاسة الـرهبانية المذكورة، أو في الأوقات الأخـرى، استحواذ وتملك جميع الحصص المتقدم ذكـرها، للاستخدام كما تقدم الذكر أعـلاه، وأن يرتبوهـم حسب رغباتهم، من دون أية إعاقـة من جانبنا، ومن جانب ورثتنا، أو أي واحـد من نوابنا أو مـوظفينا الآخـرين، كما أننـا لن نسمح للأحكام التي تقـدم ذكـرها، والمتعلقـة بالـدير المذكـور، بأن يجري تغييرها أو الاعتـداء عليها، بأية طريقة من الطرق من قبل أي من نوابنا أو موظفينا الآخرين».

أسماء الشهود الخاصين

وكان الشهود: غيوفري أوف لوزغنان، ووليم دي بلنسية، أخوينا، وسيمون دي مونتفورت— ايرل ليستر، ورتشارد كلير -Clare ايرل أوف غلوستر وهارتفورد، وروجر بيغود— ايرل أوف نورثأمبرلاند، ومارشال انكلترا، وبطرس أوف سافوي، وهوغ بيغود، وجون مانسيل، وخازن يورك، وفيليب لوفل، وهنري أوف باث، وروبرت ويلران، ووليم دي غري Gray, ووولتر أوف ميريتون Mereton, وهيوبرت بوغي Pogeys, مع آخرين كلهم كانوا حضوراً. صدر تحت يدنا في ويستمنستر في هذا اليوم الثامن من آذار، في العام الثاني والأربعين من حكمنا».

من الذي كان وراء تحقيق الإتفاقية المتقدم ذكرها

وتحققت هذه الترتيبات لصالح الرغبات الفعالة لرئيس الرهبانية المتقدم ذكره من خلال متابعة ونشاط وبراعة وليم أوف هورتون -Hor ton الحاجب، وجون بولوم Bulum حامل الختم، اللذان امتلآ بالغيرة والحماسة في خدمة الرب، والعاطفة نحو إخوانهم، وجرى تعيين المعلم وليم أوف هنتنغدون Huntingdon باسم المدير معلماً من أجل الضيوف، ووصياً على الممتلكات المتقدم ذكرها، وعلى النظار الاقليميين.

عودة روستاند من بلاط روما

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير، عاد المعلم روستاند من بلاط روما، وقد جرد من سلطاته الماضية، لأنه تعرض إلى الاتهام أمام البابا من قبل أعدائه، بالتعطش إلى المال والشره، والطريقة غير السوية، وبوضعه جانباً كل الغضب من الرب، حيث استولى على كثير جداً من الموارد الغنية، وبذلك رفع من شأن نفسه فوق نفسه، ولدى استحواذه

على هذه الأملاك والموارد، ولكي ينال الحظوة الكبيرة لدى الملك، أكد بأنه كان من أهل بوردو، ونتيجة لذلك هو من الرعايا الطبيعيين للملك، ولذلك سوف يقدم إليه مساعدة فعالة ومستمرة في بلاط روما، وفي كل مكان آخر، وفي الحصول على السلطة في أبوليا، وفي ترتيب الأمور الأخرى العائدة إلى الملك، وبوساطة مثل هذه الوعود والكلام الناعم اللطيف فرض نفسه على سذاجة الملك، وبذلك أثرى بوساطة كثير من أعطيات الموارد، ولكن بعد لأي، وبناء عل مبادرة من بعض أعدائه استدعي للعودة إلى روما، وهناك جرى تقريعه بحدة من قبل البابا بسبب سلوكه وتصرفاته، وقد وجد صعوبة كبيرة في استرداد حظوته مثلما كان من قبل، وجرى على كل حال تجريده من منصبه، وسلطته وتمت إهانته.

وصول المبعوث البابوي هيرلوت إلى إنكلترا

وبعد ذلك على الفور، أي أن تقول في الأسبوع التالي قبل الفصح، قدم إلى انكلترا المعلم هيرلوت Herlot, وكان كاهناً كاتباً للعدل، وخاصاً للبابا، وهو وإن لم يطلق عليه اسم نائب بابوي، أظهر جميع أبهة وفخامة واحد من هذا القبيل، وقد وصل إلى لندن يحيط به عشرون من الأتباع على الخيول، وكان الأشخاص المقربون إليه من الأتباع يرتدون ثياباً ثمينة، مع ثمانية (؟) أردية، أي أن خمسة منهم ارتدوا أردية ضيقة من دون أكمام، وخمسة مع أكمام، وكما جرت العادة، حياه الملك باحترام لدى وصوله، لأنه كان مزوداً بأعظم الصلاحيات والسلطات.

وصول بعض السفن إلى إنكلترا وهي محملة بالقمح

وفي الوقت نفسه أيضاً، وعندما كانت هناك مجاعة غير اعتيادية منتشرة ومستبدة إلى درجة أن أعداداً كبيرة تلاشوا في أنفسهم وماتوا، وقد بيع مكيال القمح في لندن مقابل تسعة شلنات أو أكثر، في هذا

الوقت وصلت حوالي الخمسين سفينة كبيرة إلى انكلترا قادمة من القارة، وقد جرى ارسالها من قبل رتشارد ملك ألمانيا، وهي محملة بالطحين والخبز، ووقتها جرى عمل إعلان من قبل السلطات الملكية، تحظر على أي مواطن من لندن بيع أي قمح من أجل الخزن، مع التفكير ببيعه بأسعار عالية إلى الذين بحاجة إليه، وذلك كما اعتادوا أن يمارسوا ذلك، وفي الحقيقة، كان المواطنون المذكورين، مشهورين بسوء السمعة، بقيامهم في وقت الحاجة، إما بشكل خياني بإرسال سفن محملة بالمؤن وابعادها، أو بالقيام بشراء حمولاتهم كلها، من أجل بيعهم حسب هواهم إلى الذين يريدون مثل هذه المواد للعيش والاستهلاك، وقد أفيد بما هو حقيقة مؤكدة أن ثلاثة مناطق من انكلترا متحدة مع بعضها لم تنتج مثل ذلك القدر من القمح، الذي جلب بوساطة هذه المراكب، لكن نظراً لندرة الأموال، ومع أنها لطفت إلى حد ما من آثار المجاعة، التي كانت عامة في جميع أرجاء انكلترا، إنها لم تُزل مؤثرات المجاعة تمام الإزالة، لأن الملك قام في سبيل الإضرار بمملكته، التي كانت قد جردت من ثروتها من قبله، فرفع من شأن جميع الأجانب وأغناهم، وهم الذين اختاروا القدوم إلى هناك.

الطبيعة المدهشة للفصل

في هذا العام نفسه، استمر المناخ الهادىء للخريف حتى نهاية كانون الثاني، وعلى هذا لم تتجمد مياه وجه الأرض في أي مكان خلال ذلك الوقت، لكن انطلاقاً من ذلك الوقت، أي أن تقول من عيد طهارة العذراء المباركة حتى نهاية آذار، هبّت الريح الشمالية من دون انقطاع، وانتشر الصقيع المستمر، مترافقاً مع ثلج، ومع برد لايحتمل، لف وجه الأرض، وتأثرالفقير بشدة، فجرى تعليق جميع أعمال الزراعة، وقتل صغار الضأن، إلى درجة بدا فيها الحال وكأن هناك طاعون منتشر بين الأغنام والخرفان.

الأوضاع المزدهرة لرتشارد ملك ألمانيا

أخضع رتشارد ملك ألمانيا أعـداءه، وجذبهم وربطهم بقضيته بحكمة كبيرة، بلغت حـداً أن المدن الايطاليـة الفخمة قـدمت إليـه اليـد اليمنى للصداقـة، أما بالنسبة لتهـديدات أعدائـه، وبصورة خاصـة: الفرنسيين، والاسبان، وشعب تريف، والمناطق المجاورة، فكانت أيضـاً صامتة، مع أنهم نووا إلحاق الضرر به.

وصول توماس أوف سافوي إلى إنكلترا

في أسبوعي عيـد الفصح، قدم إلى لندن، تومـاس الذي كان من قبل كونت فـلاندرز، وهو محمول على محفة، لأنه كان في حـالة صحية سيئة، وقـد أطلق سراحـه من سجن توريـن، ومنح الحرية مقـابل التبـادل مع بعض تجار أوستي، الذيـن جـرت فـديتهم مقــابل مبلغ كبير من المال، وكان الملك الفـرنسي، قد عمل كثيراً من هؤلاء التجـار سجناء بناء على طلب البـابـا، وأرغمهم على فـداء أنفسهم، حتى يطلـق سراح تومـاس المتقـدم ذكـره، وينال حـريتـه للعـودة إلى انكلترا، حيث سيتسلم هدايا وافرة.

الغرامة الثقيلة التي فرضت على مواطني لندن

وجـرى اتهام مواطني لندن ببعض المخـالفات نحـو الملك، فعوقبـوا بطرق مضـاعفة، وأرغمـوا على فـداء أنفسهم، وإنهم حتى بعدمـا فعلوا هذا وجـدوا صعوبة كبيرة في استرداد حظـوة الملك، وكان المقـدم بينهم هو رالف هيردل Hurdel, وكان عمدة المدينة، وقد مات حزناً.

انتهاء الهدنة بين الإنكليز والويلزيين

وانتهت في هذا الوقت الهدنة بين الانكليز والويلزيين، وضغط أعوان الملك عليهم من دون رحمة حتى أنهم باتوا غير قـادرين على شراء الملح،

والقمح، أو أية ضروريات أخرى، وقام الويلزيون على كل حال باستغلال انشغال الملك واهتمامه بنزاعه مع نبلاء سكوتلندا، الذين كانوا قد رفعوا رؤوسهم ضدهم، وذلك مع أسقف درم، الذي استدعي للظهور في بلاط الملك، فرفض بتمرد المثول هناك، وكدس الأذى فوق الأذى، فزاد الويلزيون من أعمال نهبهم، وخرقوا وتوغلوا خلال حدود ويلز واجتاحوها للتزود بما كانوا بحاجة إليه.

كيف جرى حشد فرسان إنكلترا ضدّ الويلزيين

وفي حوالي الوقت نفسه، دعا الملك جميع فرسان انكلترا بوساطة مذكرة ملكية، وأمرهم بأن يكونوا جاهزين مع الخيول والسلاح، من أجل القيام بحملة عامة على ويلز، وسحق الويلزيين واجتياح أراضيهم إلى حد تدميرها كلياً، وعندما جرى استدعاء الفرسان، عبروا عن أساهم، لأنهم غالباً ماخضعوا للخسارة، وظلموا بنفقات بلافائدة.

البارلمان الذي عقد في لندن

في اليوم الذي جاء بعد يوم الثلاثاء، الذي يعرف بشكل عام باسم Hokeday, تمّ عقد بارلمان في لندن، لأن الملك كان مضغوطاً عليه بالقلق حول قضايا كثيرة صعبة، كان من بينها قضية مملكة أبوليا، التي حولها وبشأنها، جرى بعث المعلم هيرلوت بمهمة خاصة، ليحصل على جواب حاسم حول القضية، وعلاوة على ذلك طولب الملك بمبلغ كبير من المال، لدفعه ربط البابا نفسه ببعض التجار، وذلك لصالح الملك، وبناء على طلب ملح منه، وكان الملك مغلولاً بعقوبات ثقيلة، ثقيلة إلى حد أنني أعتقد أنه عمل غير كريم الاتيان على ذكرها، وكان مبلغ المال المطلوب ضخماً جداً، سوف يسبب الدهشة والرعب لكل من يسمع برقمه، وحزن نبلاء المملكة حزناً كبيراً، لأنهم أنزلوا إلى حالة الدمار هذه، بسبب السذاجة المتناهية لرجل واحد.

وكـان الملك —علاوة على ذلك— شـديد الغضب بسبب الويلزيين، الذين تفاخروا بأنهم آذوه مراراً وتكـراراً، وصدوه مراراً مع جيشه كله، وأنهم غالباً ما حصلوا على النتيجة الأفضل في القتال عندما واجهو نبالة انكلترا كلها، وأضـاف إلى غضبه وحنقه، أنه سمـع، أنه مع انتهاء الهدنة في حـوالي أيام عيد القـديس ايلفيجي Elphege, بأنهم استأنفوا نظامهم في النهب، والقتل، والحرق، وأنهم عملوا غارات نفذوا فيها إلى كونتيه بمبروك Pembroke, حيث قتلوا عدداً كبيراً من السكان بشدة كبيرة، وأنهم كدسوا الاهانات، وسـوء المعاملة على الذين سمحوا لهم بالنجاة بأرواحهم، وحول هـذه الإجراءات اشتكى وليم دي بلنسية بصـورة ثقيلة إلى الملك، وعليـه ردّ الملك قـائـلاً: «أنفق ياأخي الحبيب بعضـاً من المال الذي تملك منـه كميـات كبيرة، لتنتقم لأضرارنا»، لكن وليم اكتفى فقط بتكديس التهديدات فـوق التهديدات، وأضاف الإهانة إلى الإهانة، وأعلن بأن هذه الأشيـاء كلهـا قـد وقعت بناء على مـوافقـة ورضا الانكليز الخونة، وبعد وقت قصير فصّل مـا كان تفوه به من قبل باضطراب، وقدمـه بمثابة ملاحظـة عامة، وشعـر تجاه هذه التهمة ايرل غلوستر وايرل ليستر بكثير مـن الخجل والغضب، ومع ذلك تـابع وليم التفـوه بالسباب ضـد ايرل ليستر، وتجرأ بحرارة أكبر بشكل مكشـوف، وبحضـور الملك والنبلاء، على التأكيـد على أن الايرل كـان خائناً قـديماً وكـذاباً، وأمام هذا إلتهب الايرل غضباً وسخطاً، وردّ قائـلاً: «لا، لا، ياوليم، أنا لسـت ابن خـائـن، كما أنني لست نفسي خـائناً، ووالدينا لم يكونا مثل بعضهما»، ثم إنـه رغب بأخـذ انتقـام مبـاشر تجاه هذا الأذى الكبير، وسعى لكي ينقـض على وليم، لكنه منع من قبـل الملك نفســه، الذي فصـل بينهما، ولكن بصعـــوبة كبيرة، وهكذا هدأ غضـب الايرل لبعض الوقت.

وسوف لن تكون مسألة سهلة إحصاء المضار التي اقترفت في جنوب

ويلز، أثناء الصراع الأخير ضد الويلزيين، ويكفي أن نقول، بأن الذين كانوا المنتصرين، وضعوا داخل الملح القمح والحاجيات الأخرى الضرورية، التي كانوا من قبل بحاجة إليها.

اجتماع الفرسان للزحف ضدّ الويلزيين

في اليوم التالي وخلال الأيام التي تلته عقد الملك والنبلاء مداولات دقيقة، حول كيف ينبغي عليهم القيام بسحق تمرد الويلزيين، وكيف يمكنهم ذلك، وايقاف غاراتهم المتوالية، وبناء عليه جرى حشد كل جماعة الفرسان، من أجل أن يقوم الذين عليهم التزام تقديم خدمة فروسية إلى الملك، بتجهيز أنفسهم بالخيول والسلاح، وأن يكونوا جاهزين في شيستر، ليسيروا وراء الملك في حملة إلى ويلز، في يوم الاثنين قبل عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ونتيجة لذلك تمّ سماع الكثير من الاشاعات والشكاوي بين الناس، لأن الملك قام مراراً وتكراراً بافقار نبلائه وانهاكهم من دون كرامة أو ربح، وذلك عن طريق طلب ضريبة الخدمة العسكرية مراراً كثيرة منهم، وازعاجهم لدى اقتراب موسم الحصاد، خاصة عندما كانت مجاعة غير اعتيادية قد دمرت كثيراً من الناس.

وأولى الملك قليلاً من الاهتمام لمخاطر المملكة، ومع أنه كان مجرداً تماماً من المال، وكان على وشك الانخراط فوراً في حرب، قام الآن وبكل سرعة بدفع ألف مارك إلى توماس أوف سافوي الذي كان من قبل كونت فلاندرز، والذي وصل مؤخراً محمولاً على محفة، حيث كان في وضع صحي متدهور، كما أنه أعطى مائتي مارك إلى أحد البواتيين، الذي كان يخدم بالعادة على المائدة الملكية، ويقوم بتقطيع اللحم له، ولم يهتم هذان بالمخاطر الكبيرة التي كانت المملكة عرضة إليها، فتسلما جميع أعطياته بأيدي مفتوحة.

وما أن شعر توماس بأن حافظة نقوده قد امتلأت، حتى قام بوداع الملكة (التي لم يرفض أعطياتها مثلما لم يرفض أعطيات الملك)، وعاد على الفور إلى القارة، بقصد تدمير مدينة تورين، من دون اهتمام بالرهائن الذين كانوا محبوسين هناك، وكان اسم البواتي المتقدم الذكر وليم دي سينت هرمس Hermes, الذي لم يقم بالمغادرة في الوقت الحالي، بل بقي متوقعاً هدايا أكثر.

تكريس روبرت دي تشوز أسقفاً لكارلآيل

في يوم عيد القديس تيبورتيوس Tiburtius وأصحابه، جرى تكريس المعلم روبرت دي تشوز Chause, الذي كان كاهناً للملكة، أسقفاً على كارلآيل من قبل أساقفة: باث، وسالسبري، وبيرموندسي Bermondsey, في لندن.

وفاة رئيس أساقفة أرماغ

ومات في الأسبوع نفسه في لندن رئيس أساقفة أرماغ Armagh, وهو الذي كان من قبل عميد كنيسة القديس بولص.

اضطرابات رئيس أساقفة يورك

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، ألقى البابا يده الثقيلة على رئيس أساقفة يورك، الذي كان وضعه بالنسبة إلى العالم قد تأذى كثيراً، لكنه تحسن كثيراً في نظر الرب، لأن صبره قد ازداد تناسباً مع أعمال التنكيل المضاعفة له، وهكذا بات مستعداً للاستشهاد في سبيل تحقيق نبوءة القديس ادموند رئيس أساقفة كانتربري، وفي الحقيقة لقد قرأنا بأن كثيرين قد تسلموا تاج الشهادة من دون سفك دمائهم، لأنه بالاضافة لكثير من الذنوب اقترفوها بحقه، حرموه الآن من امتياز حمل الصليب أمامه من قبل كاهنه الرئيسي، حسبما جرت العادة، ومع ذلك استمر يرفض الركوع أمام بعل، وأن يتخلى عن المنافع الرئيسية لكنيسته لأناس

غير جـــديرين، لابل أجـــانب غير نظيفين، مثل الذي يـرمي اللآلىء إلى خنزير.

كيف هوجم أسقف هيرفورد بمرض تمعط الجلد

تعـرض أسقف هيرفـورد لزيارة تفقـديـة من قبل الرب، فقـد تشـوه بأكثر الأمـراض قذارة، الذي يدعى تمعط الجلـد، وذلك نتيجة لأضراره الخيانية لمملكة انكلترا كلها.

كيف أعطى إدوارد عزبه إلى وليم دي بلنسية

تخلى ادوارد الابن الأكبر للملك عن أراضيه وعن العزب الغنية، التي كـان قـد تلقـاها هدية من أبيـه، وهـم: عـزبتـا سـتـانفــورد Stanford, وبراهام Braham وعـــزب أخـــرى كثيرة، وتركهم معـــــروضين وكأنهم للضمان بعهدة وليـم دي بلنسية، الذي امتلك كميـات وافرة من الأموال، وفعل ادوارد ذلك حتى يتمكن بهذا من الحصول على المساعدة التي كان يحتاجها، ولارضـاء شره عمه وحبه للمال، وسبب هذا الإجراء نذير شـؤم محزن بالنسبـة لمستقبل الاثنين، لأنـه بالنسبـة لوضع الشـاب، أظهر أنه عندما سيصل إلى السلطة الكاملة للمملكة، سوف يضيع ويبدد ثرواتها، وبالنسبة لقضية وليم، أنه سوف يتم تجريده من ثرواته الخيالية.

وصول الراهب الفرنسيسكاني مانسيوتوس في مهمة من البابا

وحـوالي الوقت نفسـه وصل إلى انكلترا، بناء على مبـادرة من الملك، راهب من طائفـة الفـــرنسيسكان اسمـه مـانسيـوتوس Mansuetus, وقـد أرسل مـن قبل البـابا، مـزوداً بسلطات كبيرة، وقـــد تبع خطوات المعلم هيرلوت، وكانت سلطاته في الحقيقة، قد وصلت إلى درجة —كما قيل— أنه قام بتحليل شيعـة الملك، أياً كانوا، عندمـا كانوا يودون تغيير تعهداتهم [بأن يكونوا صليبيين]، أو عندما جـرى حرمانهم كنسياً، لابل حتى تســويغ المتكلمين زيفـــاً والحانثين بأيمانهم، ونتيجـة لـذلك امتلك

كثيرون الجرأة والوقاحة في اقتراف الذنوب، لأن سهولة الحصول على الغفران أعطت سبباً لاقتراف الذنوب، لكن فيما بين العقلاء والأشخاص الحكماء قد أعطى هذا وسبب نشوء الاستهزاء والسخرية، كما سوف تظهر الرواية التالية بشكل كامل.

الجواب الذي أعطي من البارلمان إلى الملك

وانعقد البارلمان الذي تقدم ذكره في هذا الوقت، وقام الملك بالمطالبة بسرعة وإلحاح بمبلغ كبير من المال من أجل الانفاق على شؤونه في أبوليا، وفي سبيل متابعة مشاكل أخرى صعبة، وقام النبلاء على الفور بالاجابة بثبات وبالاجماع، بأنهم لايستطيعون الاستجابة بأية طريقة من الطرق من دون تدمير أنفسهم بشكل لايمكن جبره، لأنه تولى بالغالب استنزاف أنفسهم، وغالباً ما أنفق حتى القليل الذي يمتلكونه للانفاق على عيشهم، وكان ذلك من دون فائدة، فهو إن حصل على مملكة أبوليا من البابا إلى ابنه ادموند بطريقة غير صحيحة وغير حكيمة، لابد من أن يعزو ذلك إلى سذاجته، ولابد من أن يوصل القضية إلى النهاية الأفضل التي يستطيعها، لأنه تصرف بصورة غير حكيمة ومن دون الحصول على نصيحة نبلائه، ومثل ذلك رفض جميع المداولات والعقلانيات التي تنظر بشكل عام إلى نتائج الأعمال مسبقاً، ولقد توجب عليه أن يكون قد تعلم على الفور أن يكون حكيماً، وأن يحذو حذو أخيه رتشارد ملك ألمانيا، الذي عندما عرضت عليه المملكة المذكورة أي أبوليا، وقدمت إليه أعطية من البابا، وجرى إرسال المعلم ألبيرت لإعلان ذلك له، رفضها على الفور باستخفاف، وخاصة وأن انكلترا كانت مفصولة عن أبوليا بعدد كبير غير معروف من الممالك تستخدم لغات متنوعة، وبعدد كبير جداً من الامارات، وكذلك بعدد كبير من المدن المجهزة بشكل جيد بالجنود والسلاح، وببحار وجبال، وببلدان واسعة، متعبة جداً أن تسافر عبرها.

والذي خافه الايرل رتشارد أكثر من أي شيء آخر، وكان ذلك لسبب منطقي، تعلق بالسلوك المراوغ للبلاط الروماني، والخيانات المضاعفة للأبوليين، الذين دمروا حلفاءهم وأقرباءهم بالسم، ولكن حتى لايظهر وقحاً تجاه البابا، الذي بسبب مقامه هو أعلى من جميع الأمراء والأساقفة، والذين صدوراً عن الصداقة قد انتخبوه، كتب الايرل بسبب ذلك المقام السامي، جواباً إلى البابا بأنه سوف عن طيب خاطر يوافق على خطته، إذا ما سمح البابا لجميع الصليبيين بمساعدته وهو أمر يستطيع ترتيبه بسهولة على أساس مدينة نوسيرا في أبوليا، التي كانت مسكونة من قبل المسلمين، وأن يعطيه نصف النفقات التي سيتحملها في تلك الحرب، وسوف يعطيه ملكية بعض المدن والقلاع التي كانت آنذاك ملكاً للبابا، وذلك مع رهائن جيدين، وذلك في سبيل أنه عندما سيأتي إلى هناك سوف يجد أمكنة آمنة للالتجاء، والحماية فيهم ضد المتمردين، أو ضد أي واحد سوف يثور ضده، وإذا —علاوة على ذلك— مامنحه الحماية بوثائق مدونة مختومة بالختم البابوي العظيم.

كيف فرض البابا الأمر خداعاً على ملك إنكلترا

وعندما جرى اخبار البابا بجميع هذه المطالب، رفض الموافقة عليهم بأية طريقة من الطرق، ولذلك أرسل بشكل سري رسلاً، كانوا قادرين تماماً على اخضاع عقول المستمعين إليهم، بوساطة دهاء حججهم، ويمكنهم أن يفرضوا أنفسهم خداعاً على فسولة الملك وعلى سذاجته المتناهية، بمنح مملكة أبوليا إلى ابنه الأصغر ادموند، ووعدوه بمساعدة فعالة في ايصال القضية إلى نهاية صالحة، وبهذه الوعود الفارغة فرح الملك إلى أبعد الحدود، وشعر بسرور عارم، إلى حد أنه منح البابا ورسله كل الذي كان بحوذته، وكل ما كان بإمكانه الحصول عليه، بأية وسيلة من الوسائل، وبثقة وسرية وعد بالمزيد.

ونتيجة لهذا تنافس رسل البابا أحدهم مع الآخر بالفعل، حول

القدوم إلى انكلترا إلى عند الملك، من أجل الحصول على الهدايا الثمينة للملك، لأنهم شموا عن بعد الرائحة الطيبة لأمواله، فقد جاء أولاً أسقف بولونا الذي قام باسم البابا بمنح ادموند المذكور مملكة أبوليا واسنادها إليه بوساطةخاتم، ثم جاء رئيس أساقفة ميسينا، الذي لم يعد فارغ اليدين، وجاء من بعده على التوالي جون أوف ديفا، ثم المعلم برنارد، ثم المعلم برنارد أوف سيينا، ثم روستاند، وبعده هيرلوت، ثم عدد كبير آخر، لكثرتهم يصعب ذكرهم، وكل واحد منهم استقبله الملك بأعظم الموارد والتشريف، مما ألحق الأذى وسبب الدمار لمملكته كلها، ولذلك أثير النبلاء تجاه صمت وفسولة الأساقفة، وسعوا لتنظيم إجراءات الملك، لو أنهم تمكنوا من فعل ذلك بأية وسيلة من الوسائل.

موت رئيس أساقفة تريف

وفي هذه الآونة نفسها، مات رئيس أساقفة تريف، الذي كان قد شكل حلفاً مع دوق برابانت وكان معارضاً لملك ألمانيا.

كيف جرى منح الملك مساعدة مالية

بما أن نبلاء المملكة قد قدموا جواباً قاطعاً بالاجماع لطلب الملك المستعجل للحصول على مساعدة مالية، وقد صرحوا أنهم لايستطيعون وكذلك لايرغبون بالخضوع أية مدة أطول لمثل هذه الاستخراجات، لذلك حمل الملك نفسه غاضباً، وتحول نحو أساليب ماهرة أخرى، لجرف مبلغ كبير من الكنيسة، ولذلك توجه بالخطاب في المقام الأول، إلى رئيس رهبانية دير ويستمنستر، وأداره بوساطة وعود خادعة ليحرك حماسه وحماس رهبانه إلى عمل مدون، وبناء عليه أصبح ضامناً للملك بمبلغ ألفين وخمسمائة مارك، في سبيل أن يقدم مثلاً شنيعاً، يمكن أن يعطيه الوسائل لاستخراج مثل ذلك المبلغ من الديرة الأخرى.

كيف جرى إرسال سيمون باسليف بمهمة إلى مختلف رئاسات الرهبانيات لاستخراج المال منهم

ثم إن الملك أرسل بكل سرعة سيمون باسليف، مع هذه الرسائل إلى الديرة الأخرى، من أجل أن يقوم رؤساء رهبانهم بالتعهد بحمل الحمل نفسه، وأساء الملك بهذا الإجراء وأضر بسمعته إلى درجة عالية، لأن العمل بحد ذاته أظهر إلى أي مدى كان متشوقاً لظلم الكنيسة من دون رحمة، وقام سيمون باسليف، البارع والكذاب، الذي كان محاسب الملك ومستشاره، في سبيل اشباع رغبته في تنفيذ أوامر الملك، حتى وإن كانت غير موائمة وغير صحيحة، فذهب بكل سرعة إلى وولتهام Waltham, وقدم رسالة الملك، والتمس من رئيس الرهبان والرهبان في وولتهام التعهد بالقيام بالواجب نفسه مثل الذي فرضه رئيس رهبان ويستمنستر على نفسه عن طواعية، أي بالكتابة بيده وبأيدي الرهبان بأن يكونوا ضامنين للملك لدفع مبلغ سبعمائة مارك لصالح الملك.

وأراهم أيضاً الرسائل المصدقة حول هذه القضية، والعائدة إلى رئيس رهبان دير ويستمنستر مع المجمع الرهباني للدير نفسه، وهي تحمل أختامهم، ولدى مشاهدة ذلك، ارتعب رئيس رهبان دير وولتران كثيراً، وسأله عما إذا كانت هناك رسائل مماثلة موجهة إلى الديرة الأخرى، فأجابه سيمون: «في الحقيقة أنا لدي رسائل إلى دير القديس ألبان، وإلى دير ردنغ، وإلى الأماكن الأخرى»، ثم إن رئيس الرهبان شرع بالتشاور مع رهبان الدير في مقر الهيئة الرهبانية، وأعطى أخيراً إلى سيمون الفهم، في جواب لطلبه، أنه مهما كان نوع التصرف الذي قام به حول هذه القضية رئيس رهبان دير ويستمنستر والرهبان (الذين أظهروا بحكم الضرورة المراعاة للملك، لأنهم كانوا ملزمين بإطاعته في المسائل الصعبة، بحكم كونه المجدد لكنيستهم) هو لن يكون بأي حال من

الأحوال كفيلاً، أو سيتعهد بنفسه بأية طريقة من الطرق بدفع مثل ذلك القدر من المال إلى الملك، «لأنه مـا من أسقف كان مسموحـاً له وفقاً لما هو مدون في المراسيم البابوية، في مادة الالزامات، أن يخضع كنيسته لمثل هذا الخطر والمخـاطرة»، وعلى هذا الكلام أجابه سيمـون: «الملك سوف يعطيك أية ضمانة ترغب بها، تكون مكتوبـة، من أجل تحديد دفع مالك وتأكيـد ذلك»، لكـن رئيس الرهبـان رد عليـه قـائـلاً: «نحن لانرغب بوجـود أية مناسبـة للخلاف مع الملك، أو أن نتـورط بدعـوى قضائيـة معـه، لأننا لانمتلك الامكانـات للتنازل معـه على أرضيـات متسـاوية، ونحن لايمكننا جلبـه إلى القضـاء أو أن نفـرض عليـه الدفع، إذا كـان ضعيفـاً بما فيه الكفـاية بالإصغاء إلى رأي ضـال»، وهنا أضاف سيمـون قائـلاً: «أشفقوا من أجل خاطر الرب، أشفقوا على مـولاكم، وحاميكم الخاص، لأن بيعتـه سـوف توضع على الفـور تحت عقـوبة الحرمـان من شراكـة المؤمنين، يعنـي أن تقـول إن ذلك سيكون خـلال ثلاثة أيام أو أربعة، ولسـوف يتبع ذلك إجراءات أقسـى، مالم توافقوا على التماسـاته، وكما تعلمـون بشكل جيـد، هـو أحسن المسيحيين، والأكثـر تقـوى بين الملوك، ولن يرغم على الاقلاع عن الالتزام بتنفيذ الواجبات الدينية، من أجل أي مبلغ مهما كان من الذهب الصافي.

كيف ذهب سيمون باسليف إلى رئيس رهبان ورهبان دير القديس ألبان

وبما أنه لم يستطع النجاح على هذه الصورة، أو بـوساطة أية مناقشات مراوغـة وكذب، غـادر غاضبـاً، وكدس التهـديدات فوق التهـديدات، وأخذ طريقـه إلى دير القديس ألبـان، مصحوباً بواحـد من كتّاب الملك، كان هو مـرافقه في مهمته، في سبيل ربط رئيس الرهبـان مع رهبان ذلك المكان، وإلزامهم بالموافقة على رغبات الملـك، بوساطة خطابات مخادعة، أو بوسيلة مـا أو أخرى، سواء أكـانت صحيحة أو خـاطئة، لكن رئيس

رهبان وولتهام كان قد أرسل رسالة سرية بكل سرعة إلى رئيس رهبان دير القديس ألبان وإلى الجميع هناك، حيث أخبرهم بجميع الذي حدث، وكيف أن سيمون باسليف قد حاول بوساطة حجج مخادعة وملتوية، وسعى بناء على الطلب الملح للملك أن يربط كنيسة وولتهام بدفع سبعمائة مارك إلى الملك، وكيف أنه رغب بجعل رئيس الرهبان والرهبان أن يصبحوا ضامنين له بوساطة وثيقة مدونة، ووصل سيمون المتقدم الذكر (أو بالأصح أنْ نقول سينون) إلى كنيسة القديس ألبان قبل صلوات ساعة الهيئة الرهبانية، وتظاهر بأنه قدم من لندن في ذلك اليوم، وأنه سار طوال الليل تقريباً (مع أنه جاء مباشرة من وولتهام) وألقى بنفسه على مقعد وأمال رأسه عليه، وغرق في النوم، ثم إنه ذهب بعد هذا بكل سرعة إلى رئيس الرهبان، وتحدث بلهجة حزينة وآسفة وقال: «لقد أرغمت يامولاي أنا ومرافقي بحكم الضرورات الكبرى، على السفر وقطع المسافة كلها بين لندن وهذا المكان في الليلة الماضية»، وقدم رسالة الملك، التي تولت الاشارة إلى مبلغ مختلف عن الذي كان قد ذكره شفوياً، وعرض أيضاً بشكل مكشوف رسالة رئيس رهبان ويستمنستر مع التجمع الرهباني للدير، مبرهناً بأنهم وافقوا بأريحية على طلب الملك، وبضربه لهذا المثل أمل أن يخضع رئيس الرهبان والرهبان في دير القديس ألبان إلى ارادة الملك، كما أنه وعد أيضاً، باسم الملك، أن أي صيغة مكتوبة يرغبون بها، ينبغي اعدادها، من أجل ضمان دفع المال، الذي سأله اقراضه لبعض الوقت، تحت ضمانة مكتوبة، وكان المبلغ الذي طلبه كما ذكر، قد وصل إلى سبعمائة مارك، وأضاف أنه إذا مارفض رئيس الأساقفة، سوف ينال غضب الملك الأبدي، لأنه بيعته كانت تحت خطر التعليق، الأمر الذي هو لن يقبل به ويرضى بأي حال من الأحوال.

وتملكت الدهشة رئيس الرهبان والرهبان، لابل في الحقيقة جميع

الذين سمعوا هذه الرسالة، وجاءت دهشتهم من طغيان الملك ودهائه، خاصة وأنه يرغب بوساطة التماساته الملحة بالحصول على وثيقة مكتوبة من رئيس الرهبان والرهبان تشبه تلك التي كان قد حصل عليها رئيس رهبان ورهبان دير ويستمنستر.

وبناء عليه جرى عقد مؤتمر للتشاور في مقر الهيئة الرهبانية، وأخيراً جاء الجواب حاسماً، بأنهم لايمكنهم بأي حال من الأحوال الرضوخ لمطلب الملك «لأن ذلك سوف يكون مضاداً للمحظورات البابوية، ومناهضاً للكرامة»، وعرض على سيمون أيضاً وأري توجيهات مكتوبة، إحداها موجهة بشكل خاص إلى وارن Warren الذي كان من قبل رئيساً للرهبان، وإلى خلفائه، وقد ورد في الوثيقة المذكورة فقرة تحرم عليهم وضع كنيستهم تحت الالزام بأية طريقة من الطرق، وذلك تحت طائلة عقوبة التعليق، والحرمان من شراكة المؤمنين، والحرمان الكنسي، وبناء عليه، اختار هكذا رئيس الرهبان والرهبان في دير القديس ألبان الحصول على غضب الملك الأرضي الذي عمل طلبات غير عادلة، وآثروا ذلك على اغضاب الملك السماوي، ثم إنهم بخرقهم لما حرمه البابا، سوف يغلون أنفسهم بأغلال التكفير.

وعندما سمع سيمون أسبابهم للرفض تظاهر بالهدوء واللطف، وأجابهم بحرارة قائلاً: «أصدقائي المحبوبين لاتزعجوا أنفسكم مطلقاً حول هذا، لأن ملكنا معه رجلاً مقدساً جداً، هو راهب من طائفة الفرنسيسكان، اسمه مانسيتوس، قد جرى إرساله من البابا بمثابة حماية، وهو لديه سلطات كاملة، وهو جاهز تماماً لتحليل جميع الذين حنثوا بأيمانهم في سبيل مساعدة الملك في حاجته الضاغطة كثيراً، إنما إذا كنتم لن تساعدوا الملك في هذه الآونة، سوف أعود على الفور إلى لندن، وسوف أخبر الأسقف بأنكم ألقيتم جانباً كل احترام للملك، وأنكم ازدريتم حمايته، وأنكم تعاملون لطف وسلطة الراهب المذكور

باستخفاف»، وعلى هذا تلقى سيمون جواباً جاء فيه: «إنه لن يبدو منطقياً أن نرغب بأن نتعرض لعقوبة الحرمان الكنسي، وأن يجري تحليلنا في الوقت نفسه، ووفق الطريقة نفسها ينبغي علينا عدم اطاعة أوامر طبيب دجال يمكن أن يقول: لاتخافوا اكسروا أرجلكم، أو أي عضو آخر، وأنا سوف أجد لكم جراح جيد، سوف يتولى شفاء وإعادة العضو المكسور، يضاف إلى هذا، إذا كنا سنفعل هذا، فلسوف نذنب بطرق مضاعفة، ففي المقام الأول سوف نكون كذابين معروفين بالكذب، وفي المقام الثاني إذا ماوضعنا أختامنا —الأمر الذي يعني رهن إيماننا— على مثل هذه الوثيقة، فلسوف يصرخون عالياً ضدنا، بأننا تصرفنا بشكل ظالم، وهذا أمر لن نفعله بأي حال من الأحوال»، فعقب سيمون على هذا قائلاً: «مامعنى هذا؟ هل سأذهب مغادراً فارغ اليدين؟ إن مولاي الملك سوف يعتقد بأنني بعثت بعض الخلاف بينكم وبينه، وبذلك سوف ينزل اللوم كله على رأسي، مع أنني بريء، ولماذا واجه مولاي هذا الصد على أيديكم؟ أنتم لاتمتلكون شيئاً إلا الذي أعطاكم إياه الملك أو أجداده، ولذلك إنكم ملزمون بشكل عادل أن تقدموا المساعدة إليه في هذه الضائقة الطارئة، لاسيما وأن كل شيء عائد إلى الملك»، وعلى هذه الحجج رد رئيس الرهبان والرهبان قائلين: «صحيح إن كل شيء عائد إلى الملك، لكن من أجل الحماية، وليس من أجل التدمير، فهذا ماأقسم الملك عليه عند تتويجه، ثم مراراً كثيرة بعد ذلك، ولذلك نحن لانولي أدنى اهتمام للحجج الواهية العائدة لك».

وعندما سمع سيمون هذا، لجأ إلى استخدام نوع آخر من الخداع، وعلى ذلك قال: «إذا كنتم لن تفعلوا شيئاً آخر للملك، افعلوا على الأقل مايلي: دونوا كتابة الموافقة على طلب الملك، وذلك تماشياً مع طلبه ورغبته، واختموا ماسوف تكتبونه، واحتفظوا به بين أيديكم في خزانتكم، وهكذا عندما تلين قلوبكم في أي وقت من الأوقات

وتتواضعون، يمكن للملك أو لمندوبه أن يجدها جاهزة، وسوف يأخذها عندمـــا يحل الوقت المناسب، افعلوا حتى لايكون استخفـــافكم ولامبـالاتكم واضحين تمام الوضـوح»، وعلى هـذا أيضـاً أجـابه رئيس الرهبـان والرهبـان قـائلين: «لاياسيمون لا، لأنـك وقتها سـوف تقـول —ويمكنك القــول بشكل منطقي— بأننا وافقنا، وكتبنا بذلـك وثيقـة اعتراف ذكـرنا فيهـا مـوافقتنا على رغبـاته، حسبما هو الـوضع بالنسبة لرسالة رئيـس رهبان دير ويستمنستر التي عرضتهـا علينا وأريتنا إياها، وبذلك سـوف نضرب مثـلاً خسيسـاً للآخـريـن، الذين أنت راغـب في الانقضــاض عليهم، واخضـاعهـم لإرادتك، وهذا لن نفعله مطلقــاً»، وهكذا ذهب رجل الاغواء وغادر مضطرباً، دون تحقيق هدفه.

الخداع الذي وضع قيد التطبيق من قبل سيمون المتقدم ذكره ليفرض على بعض رؤساء الرهبان

لقد أدخلت جميع هذه التفاصيل بالكامل، من أجل أن يعلم القارىء لهذا الكتـاب، كم هم خطيرين الأعداء الداخلين، ومـدى الأذى الذي أراد هذا الانكليـزي المنحط سيمـون وسعـى لإنزاله على المملكة وعلى الكنيسة، وقام رئيس الرهبان المذكور والرهبان بالكتابة بصورة متواضعة وباعتدال وصـداقة، واعتذروا عن أنفسهم على أساس قـاعدة صحيحة، وبذلك نجوا من المخاطر التي تهددهم، وفي الوقت نفسـه، كان سيمون قد أعلن مـرفقاً إعلانه بيمين، بأنه سـوف يذهب على الفور إلى الملك في لندن، ومع ذلك لم يشعر بالخجل ولم يخش أن يتهم بكذبة أخرى، فغيّـر طريقـه، وذهب بسرعــة كـاملة إلى ردنغ، ليـوقع بـالفخ رئيس رهبـان ورهبان ذلك المكان بأحابيل خداعه المعتادة وزيفه، لكن كانوا قد أنذروا مسبقـاً بقدومـه، وأخبروا بإجراءاته، ولذلك واجهـوه في وجهه بجـرأة، وهكذا فإن الجور الذي هو زيـف لذاته، أخفق في مقـاصـده، وكنت في الذي كتبتــه أعـلاه،قــد ذكـرت المبلغ الاجمالي مـن المال بالكامل، لأن

الطلب الملكي المكتوب، استهدف كل واحد من الديرة الأربعة، التي هي: ويستمنستر، والقديس ألبان، وردنغ، ووولتهام، وأن تصبح هذه الديرة كفيلة، أي كل واحدة منها للآخر، من أجل المبلغ كاملاً، وعلى هذا الأساس سوف يكون كل دير مسؤول عن نفسه، وعن كل واحد من الآخرين من أجل خمسمائة مارك، أي من أجل ألفي مارك، وخمسمائة مارك من أجل الفائدة، وقد طلب الملك الحصول على هذا المال بكل سرعة، وعلى ذلك سوف يكون مرغماً على الاستدانة من تجار السماسرة.

كيف شق الرهبان الفرنسيسكان طريقهم بالقوة إلى داخل مدينة القديس ادموند

وحوالي هذا الوقت نفسه، قام الرهبان الفرنسيسكان بفضل السلطة الممنوحة إليهم من البابا، بفرض أنفسهم على مدينة القديس ادموند، ضد إرادته، وذلك على الرغم من معارضة رئيس رهبان ورهبان ذلك المكان، ولقد أدخلوا إلى هناك وأسسوا أنفسهم بوساطة رجلين علمانيين، هما: ايرل غلوستر، الذي كان عدواً معلناً لرئيس الرهبا ن المذكور وللرهبان، وغيلبيرت برستون، وقبل عدة أيام مضت كان رئيس الرهبان المذكور قد جاء من البلاط الروماني، حيث كان يقوم بأخذ احتياطات للمستقبل ضد عنف الرهبان المذكورين، وسلح نفسه مسبقاً برسالة من البابا، لكن على الفور، حصل بعد هذا هؤلاء الرهبان على رسالة أخرى، موجهة لهدف معاكس، بوساطة اضافة تلك الفقرة «دون التقيد»، ولدى سماع الناس بهذه الإجراءات، لم يستطيعوا بصعوبة التعبير عن دهشتهم، من قيام مثل هؤلاء الناس المقدسين —الذين اختاروا عن طواعية الفقر ليكون حصتهم— برميهم جانباً كل خوف من الرب، وحيث استخفوا بغضب الشهيد المبجل، وبالناس، ولم يهتموا بحماية الامتيازات، بل خرقوا، وأزعجوا حالة سلام تلك الكنيسة النبيلة، التي كانت معروفة تماماً بكرامتها العالية وبقدمها، ولم يكن

رئيس الرهبان قد شعر بالانهاك نتيجة الرحلة المتعبة عبر الألب، أو بالديون الضخمة التي كان قد تورط بها، بقدر ماتضايق من هذا الإجراء، وليضيف إلى أحزانه، كان خائفاً جداً من الإجراءات القانونية التي اتخذت من قبل ايرل غلوستر، ولإدراكه لضعف أوضاعه الصحية، وافق على تأجيل القضية.

إكمال البارلمان الذي بدأ مؤخراً

استمرت المشادات الكلامية بين الملك ونبلاء المملكة في البارلمان الذي تقدم ذكره أعلاه حتى يوم الأحد الذي جاء بعد يوم عيد الصعود، ويوماً بعد يوم ازدادت الشكاوي وتضاعفت ضد الملك، وتركزت حول أنه لم يحافظ على وعوده، وأنه عامل مفاتيح الكنيسة باستخفاف، وخرق شروط الصك العظيم مراراً ومراراً لانقاذ نفسه، وكان من أسباب الشكاية الأخرى، أنه رفع من شأن إخوته لأمه، وكأنهم من أهل هذه البلاد الطبيعيين، وفعل ذلك بطريقة لاتحتمل، معاكسة لحقوق وشريعة المملكة، ولم يسمح باتخاذ أية إجراءات ضدهم في المحكمة العليا، ومع أن صلف إخوة الملك المذكور، والبواتيين الآخرين كانت لاتحتمل، كانت تصرفات وليم دي بلنسية قد تفوقت عليهم جميعاً في الوقاحة والصلافة، واشتكى ايرل ليستر، فوق الآخرين، من هذا بمرارة ليس فقط إلى الملك، بل إلى الجماعة كلها على اتساعها، وطالب بإلحاح بأن تناله يد العدالة، وعلاوة على ذلك جرى توجيه النقد إلى الملك من أجل إغناء جميع الأجانب، والدفع بمصالحهم، وأنه أرفق هذا بازدراء رعاياه الطبيعيين ونهبهم، مما سيؤدي إلى دمار المملكة كلها، وقيل له وأفهم أنه كان محتاجاً معوزاً، في حين يمتلك الآخرون أموالاً وافرة، ولحاجته إلى الأموال لم يعد بإمكانه استرداد حقوق مملكته، لابل لم يعد بإمكانه ضبط الغارات المدمرة للويلزيين، الذين هم الحثالة الحقيقية لبني البشر.

وباختصار مجمل نجد أن تجاوزات الملك تتطلب أن تعالج بشكل خاص مفردة، وكانت ردات فعل الملك هي الاعتراف بصدق الاتهامات، مع أن ذلك جاء متأخراً، وقد تواضع بنفسه، وقد أعلن أنه غالباً ماألزم بقبول النصائح الشريرة، ووعد وأقسم عند مذبح ومزار القديس ادوارد، بأنه سوف يقوّم أغلاطه القديمة تماماً وبشكل صحيح، وسوف يظهر الحظوة واللطف نحو رعاياه الطبيعيين، لكن تبدلاته المتكررة جعلته من قبل غير جدير بالتصديق، وبما أن النبلاء لم يتعلموا بعد كيف يحافظون على بروتوسهم Proteus منضبطاً (لأنها كانت مسألة شاقة وصعبة)، جرى تعليق جلسات البارلمان، وتأجيله حتى عيد القديس برنابا، حيث سيجتمع في اكسفورد.

وفي هذا الوقت قام نبلاء انكلترا أمثال ايرلات: غلوستر، وليستر، وهيرفورد، والايرل مارشال، مع رجال آخرين لهم تميزهم بالتحالف فيما بينهم لاتخاذ إجراءات احترازية، لأنهم شعروا بمخاوف كبيرة من مؤامرات الأجانب ودهائهم، وكانت لديهم بعض الشكوك أيضاً حول إجراءات الملك الخفية، ولذلك ذهبوا تحت حماية مرافقة كبيرة من الفرسان والأتباع المسلحين.

الأنواء غير الموسمية

في هذا العام هبت الريح الشمالية بدون انقطاع لعدة أشهر، وعندما عبر نيسان وأيار والجزء الرئيسي من حزيران، ولم يكن مشاهداً أية أغراس صغيرة ونادرة، أو أية أشجار مبرعمة ومزهرة، نتيجة لذلك، بقيت هناك آمال ضئيلة حول موسم مثمر، ونظراً لندرة القمح مات عدد كبير من فقراء الناس، وتم العثور على جثث الموتى في جميع الاتجاهات، وقد انتفخت وكانت شاحبة، وكانت كل خمسة جثث وستة ممددة في مرابط الخنازير، أو على أكوام القمامة والمزابل، وفي الشوارع الموحلة، والذين كانت لديهم ديرة لم يتجرأوا في حالة عوزهم على تزويد

الذين كانوا يمـوتون بغرف في الديرة، خوفاً من العـدوى، وعندما كان يتم العثـور على عدد من الجثث، كـان يتم عمل حفر واسعـة وكبيرة في المقابر، حيث كانوا يمددون فيهم أعداداً كبيرة من الجثث مع بعضهم.

البعثة الخاصة إلى الملك الفرنسي

خـلال الوقت الذي مضـى قبل عقـد البـارلمان في اكسفـورد، جـرى اختيـار رسل خـاصين من ايـرلات وبارونات انكلترا، وقـد أرسلوا إلى الملك الفرنسي، للحصـول على بعض المواساة منه، أو على الأقل لمنع أية عـوائـق من أن ترمى في الطريق، فتعيقهم في خططهـم ونواياهم، لأنهم كـانوا يسعـــون في سبيل منفعتهم، ومن أجل منفعـــة البلدان المجـاورة لترتيب ولتهـدئة الإثارة التي قـامت في انكلترا نتيجة للفسولـة المستمرة طويلاً والمتعلقة بسذاجة الملك.

تأسيس دير رهباني من قبل جون مانسيل

في هذا العـام نفسه أيضاً، أسس جـون مانسيل رئيـس كنيسة بيفيرلي Beverley, والذي كان كاتباً ومستشـاراً خاصاً لدى الملك، وكان رجلاً عاقلاً وحكيماً، أسس في رومني Romney, على بعد حوالي الميلين عن البحر، ديراً للكهنة النظاميين، وجهـزه على نفقته، ووضع فيه كهنة نظاميين، ولقـد أقنعـه بالقيـام بهذا العمـل هو التقـدير بأن الحظوة الملكيـة ليست وراثية، وأن ازدهار الدنيـا لن يدوم إلى الأبد، كما أنه تأثر بالمثل الذي ضربه بطرس كاسبورت Chaceport, الذي قام قبل وقت قصير بتقـوى وسعادة، فأسس ديراً للطائفـة نفسها، ولذلك كـان يأمل بأنه عندمـا سيعبر من عـالم استحـواذ الثـروات المؤقتـة، يمكن أن لايفقد الثروات التي كانت سرمدية.

وفاة سيوول رئيس أساقفة يورك

وفي حـوالي أيام عيـد الصعـود، قـام رئيـس أسـاقفـة يورك في سبيل

الصعود مع الـرب بالخروج من سجن هذا العالم، وفـرّ طائراً إلى السماء، ومن المعتقـد من دون أي شك في أنه قـايض حيـاته الأرضيـة بملكوت السماء، وحصل على تاج النصر، بعـــدمـا قـاتل بشجـاعــة حتى أقصى ماامتلكه من قـوة في سبيل كنيسته ضـد طغيان بلاط رومـا، وكان ذلك من خـلال فضـائله، والمحن الكثيرة التي مرّ بها، وسـار سيـوول رئيس الأساقفة هذا على خطى القديس ادمـوند، واتبع منهجه (فهو الذي كان قد أصغى إلى محاضراته، وكان باحثـاً لديه وتلميذاً) وقد سعى بأن يقلد بنفســه وبأعماله وأخلاقـه ذلك القديس وأعتقـد أنني ينبغي أن لاأتجاوز ذكر أن القـديس ادموند، عنـدما كان يحاضر في اللاهـوت في اكسفورد، اعتـاد أن يقــول إلى أعـز الأصـدقـاء عليــه، وإلى طلابه الخاصين: «آه ياسيـوول، ياسيوول سوف تعبر مـن هذا العالم شهيداً، فلسـوف تهاجم وتقتل بالسيف أو بوسـاطة محن هذا العالم الهائلة، وعلى كل حـال ليكن المواسي لكم الذي أوحـى بالمزمــور الذي يقــول: «كثير من الممتحنين محقين، ومن هذه المحـن ســوف يحررهم الرب في أحـــد الأيام»، وإنها لحقيقة واضحـة ومقررة أن كثيراً من الشهـداء، عبروا من هذا العالم من دون أن تسفك دمـاءهم، ومن هؤلاء على سبيـل المثـال القـديس يوحنا الانجيلي، وعدد كبير آخر.

أقوال وأعمال رئيس الأساقفة المتقدم الذكر لدى اقترابه من الموت

عندما رأى رئيس الأساقفة المقدس هذا أن الموت بات بلاشك قريباً، وأنه على وشك العبــور من هذا العـالم، نهض بنفســه قـائماً، وبيــدين متشابكتين، وبسحنة باكية، توجه نحـو السماء، وتفوه بالدعاء التالي: «آه أيها الرب يسـوع المسيح، الذي أنـت أعـدل القضـاة، إنك تعلم بعلمك الدقيق كم تعرضت في براءتي إلى الإرهاق بطرق مضاعفة من قبل البابا، الذي أنت سمحـت لأن يصبح حـاكماً على كنيستـك، بسبب (كما يعلم

الرب ولأنه ليس سراً للدنيا) أنني رفضت قبول أشخاص غير معروفين وغير جديرين لإدارة الكنائس التي عهدت بها لعنايتي، أنا الذي لست جديراً، وقمت على كل حال خشية الاستخفاف بحكم البابا، مع أنه حكم غير عادل، ولكي يكون عادلاً، قمت بالتوسل متواضعاً، ورجوت بأن أحلل من أغلال الحرمان الكنسي، لكنني استأنفت مترافعاً ضد البابا إلى القاضي الأعلى الذي لايفسد، والسموات والأرض سوف تكون شهودي، كيف أنه هاجمني، وقرعني، وفضحني بطرائق مضاعفة كثيرة».

وفي مرارة نفسه، قام بناء عليه بالكتابة إلى البابا (متأثراً بمثل روبرت أسقف لنكولن) وعبر عن آلامه وأحزانه التي يمكن مواساتها، لأن البابا قد أرهقه، لأنه رفض —كما ذكرنا أعلاه— قبول أشخاص من دون خبرة، جاهلين باللغة الانكليزية، فما كان من البابا إلاّ أن قام أولاً بتعليقه، ثم قام مرة ثانية بمنعه من تخطي عتبات الكنيسة، ثم قام الآن بأخذ الصليب من أمامه، ثم مرة ثانية أعلن عن حرمانه كنسياً في جميع أرجاء المملكة (مع أن الوكلاء لمثل هذا الحرمان الكنسي قاموا بتنفيذ واجبهم من دون رضا)، وهكذا أساء إلى اسمه الجيد وآذاه بطرق مختلفة، مما آذاه دنيوياً كثيراً، ثم إنه قام على كل حال بالشكوى بمرارة، من أنه قد تحمل ذلك بصبر، لكنه كان لايستطيع أن يتحمل إلاّ بصعوبة بالغة الحملات العنيفة لبعض الكهنة، الذين تفاخروا بأنفسهم بأنهم يمتلكون سلطات البابا وتفويضه من أجل إجراءاتهم، خاصة المعلم جوردان الذي كان يسعى فاتحاً فاهه لالتهام منصب العمادة، وكرر أنه قد تحمل هذا كله بصبر، حتى لايقال بأنه ضحك ليسبب الاهانة لأبيه، مثل حام، بكشف عورته، بل كان قلقاً لإخفائها وتغطيتها مثلما فعل سام، وكان غالباً مايعيد إلى ذاكرته الوصية المختصرة التالية «في كشف لعورة أبيك، أنت مثل حام، ومثل سام في اخفائها».

وفي رسـالتـه، قام بناء عليـه، فتصرف مثلما تصرف روبرت المذكـور، أسقف لنكولن، فتوجه بالرجاء بتواضع واخلاص إلى البابا «ليلطف من طغيـانه المعتـاد، وليأخـذ بالمثل الذي ضرب بإنسـانيـة وتواضع من قبل أسـلافـه»، لأن الرب قـال لبطرس: «أطعم شيـاهي، ولاتجزهم، أو تسلخهم، ولاتجوفهـم ولاتفترسهم»، لكن البـابا ضحك من طلبـه، وعامله باستخفاف، وشعـر بغضب عظيم، لأنها امتلكا الوقاحة الكبيرة بازعاجه على هذه الصورة، فهو البابا ولايجوز التصرف نحوه هكذا بأي حال من الأحوال، ولذلك رفض الاصغاء إلى التحذيرات السلمية لكل من رئيس الأسـاقفـة سيـوول، أو إلى روبرت المذكـور، رئيس أسـاقفـة لنكولن.

معجزة الماء الذي تحول إلى خمرة

وحـدث في أحد الأيام عندمـا كـان [رئيس الأسـاقفة] يتعـرض من المرض المميت الذي كـان يعاني منه، إلى ضغط شديد وصـل إلى حد أنه شعـر بالعطش، وطلب مـاء من أحـد الينابيع، وعندمـا قـدم الماء إليـه، باركه بتقـوى، وكما قال إنه لافـائدة من الشكاية، ولدى تذوقـه له وجد أن طعمـه كان طعم خمرة وليس مـاء، وقـد وبخ خادمـه لقيـامه بغشـه، حيث قـال له: «لماذا غششتنـي بهذا المشروب؟ وأين وجـدت هذا؟»، وأجابه الخادم قائلاً: «في النبع يامولاي، ولم أكن لوحدي هناك»، ثم إنه أحضر اثنين آخـريـن من الخدم، الذين كـانوا واقفين هناك، وعنـدها أضاف يقول: «هنا شهـود موثوقين حول صدق مـاقلته»، ووقتها تذوق الخادمان ماكان في الكأس، وأعلنا أنها خمرة جديدة، وعندما سمع رئيس الأساقفة ماقاله الرجال، وخوفاً من أن يقوم خدمه بنشر الخبر وتعميمه، شرب ماكـان في الكأس، وتوجه بالرجـاء إلى خدمه بلهجـة لطيفة (لأنه كان رجلاً لطيفاً في كلامه) بأن لايقـولوا شيئاً حول القضية، وقد حدث هذا قبل موته مباشرة.

حول المجاعة الكبيرة التي انتشرت في جميع أرجاء إنكلترا

وفي حوالي عيد الثالوث في هذا العام، هاجم طاعون مخيف لايمكن احتماله، الناس، وبشكل خاص الذين كانوا من الشرائح الدنيا، ونشر الموت فيما بينهم، إلى درجة محزنة جداً، ومن دون أن نأتي على ذكر جميع الحوادث، لعله يكفي ذكر الحادث التالي: «فقد هلك في مدينة لندن خمسون ألفاً من الفقراء، وتمّ الآن نشر الإعلان التالي: «اذهبوا جميعاً أنتم الذين بحاجة إلى الخبز، وتسلموا حصة من الخبز من فلان وفلان من النبلاء»، وحدد المنادي أسماء الأشخاص والأماكن التي كانوا سوف يتسلمون منها الصدقات، وفي الحقيقة انتشرت المجاعة في انكلترا إلى حد أن كثيراً من الآلاف من بني البشر ماتوا من الجوع، لأن الحبوب وصلت إلى حد النضوج متأخرة كثيراً في الخريف، بسبب الأمطار الثقيلة، ولذلك توفر المحصول فقط في عيد جميع القديسين، وذلك في عدة أجزاء من المملكة، وقد بيع مكيال القمح بستة عشر شلناً، وفي عشية عيد القديس يوحنا المعمدان هبت عاصفة من الأمطار مثلها لم يشاهد قط في أيامنا، حيث فاض مجرى السيفيرن Severn من سالسبري إلى بريستول إلى درجة أن الماء تدفق (كما قال بعضهم من خلجان مخفية في المناطق الداخلية) وغطى جميع المروج، وأتلف جميع الحاصلات في المناطق المجاورة للنهر، وبسبب عنف الفيضان مات عدة رجال، وكثير جداً من الأطفال، ومن الحيوانات أعداد لاتحصى من مختلف الأنواع.

رسالة ملك إسبانيا إلى ملك ألمانيا

وفي هذا العام أرسل ملك اسبانيا رسالة لم تكن مناسبة ووقحة إلى ملك ألمانيا، يحثه مع التهديد بأن «يتخلى عن مملكته في ألمانيا. وأن يغادر من هناك»، وعلى هذا الطلب أجابه ملك ألمانيا وهو غير هياب وبمعنويات عالية قائلاً: «إنه إذا مااختار أن يأتي لمحاربتي، فلسوف

يجدني جاهـزاً لمقابلته خـارج حدود مملكتي، وسأستقبله بحـد السيف»، وقام ملك اسبـانيا وقد استثير أكثر بهذا الجواب فدمج جيشـه مع قوات مملكتي أراغون ونافار،ووجّه زحفه نحو ايطاليا، ولكن عندما كان غائباً حاول المسلمون الاسبـان الاستيلاء على قرطبة، ولـدى سماعه بهذا عاد كما ذهب لإيقـاف غـزواتهم،وقـام على كل حـال بـإرسـال بعض الشخصيات المتميـزة في بعثة إلى البـابا، للمطالبة بحقـوقه، وليطلب من البـلاط الرومـاني أن لايقبل أي واحد سـواه لحكم الامبراطورية، فهـو أعظم ملوك اسبانيـا وأكثرهم قوة، وهو الذي مدّ حـدود المسيحية أكثر من أي ملك مسيحي آخر، وفي جواب على هذا، قال البابا لصالح ملك ألمانيـا: «أنتم تعلمون ياأبنائـي الأعزاء، وعليكم أن تكونوا عـارفين، أن النظام الاجـرائي الصحيح، والعـرف المعتـاد والموافق عليـه منذ الزمن القـديـم، وهو مـايزال قـائماً، هو أن تعـد مملكـة ألمانيـا تابعــة للمقـام الامبراطوري، وهو مقام ينبغي استحواذه مسبقاً، لأنه الاستحواذ الأول له، لذلك دعوا مولاكم، الملـك اللامع لاسبانيا، أن ينتخب أولاً بشكل صحيح ملكاً لألمانيا، في إكس لا شبيل، من قبل رجال دين ونبلاء تلك البلاد، الذين بين أيديهم مقاليـد الانتخاب راسية، وذلك بحكم العرف القديم، ودعـوه أولاً يجري تكريسه بشكل مهيب ومن ثـم تتويجه ملكاً، وبعـد ذلك، سـوف نريه الخطـوة بقـدر مـابين أيدينا من قـوة، واضعين الخوف من الرب أمـام أعيننا، ونريه أنفسنا أننا لصالحه، ومـوافقين على دفع انتخاب مولاكم، الملك اللامع لاسبانيا، لأنه جدير بكل تكريم».

وقـام الرسل بناء على التقـدير الدقيق لجواب البابـا، وكذلك تقـديراً منهم للجواب الذي أعطاه الملك إلى ملكهم، ونظراً لأحكام الإجراءات القضائيـة، فنصحوه بأنه سوف يكون مـن الحكمة وأكثر فـائدة له حماية مملكتـه، التي كـان المسلمون يتـآمـرون ضـدها، هذا وعندمـا بات هذا معلوماً لدى نبـلاء ايطاليا، قـدم كثيرون منهم اليد اليمنى للصـداقة إلى

ملك ألمانيا، وعلى الفور قدموا له ولاءهم، واستقبلهم الملك بلطف، ودفع مبلغاً كبيراً من المال لتحرير بعض المدن الألمانية من الديون، وبهذا الإجراء طوقهم، وبذلك كسب حظوة عظيمة لدى رجال ذوي سلطة بين الألمان، فقط لو أنه كان نشيطاً في الإجراءات الحربية مثلما هو حكيم ومتفوق في آرائه.

عودة رئيس رهبان دير القديس إدموند من البلاط الروماني

وحوالي هذا الوقت نفسه قام رئيس رهبان دير القديس ادموند الملك الشهيد، بعدما أطال اقامته وأنفق عليها كثيراً في بلاط روما، بالعودة إلى الوطن، وهو متورط بديون كبيرة، وعلاوة على ذلك كان الرهبان الفرنسيسكان، كما ذكرنا من قبل، قد بنوا لأنفسهم ديراً، على الرغم من معارضة رئيس الرهبان المذكور مع رهبانه، وكان أثناء زيارته الأخيرة لروما قد حصل على امتياز، بموجبه جرى منع الرهبان المذكورين من محاولة القيام بمثل هذا الإجراء مهما كانت الأحوال، لكنهم تمكنوا من إلغاء كل شيء حصل عليه، بوساطة إضافة العبارة المعروفة «دون التقيد».

البارلمان الذي عقد في أكسفورد

ومع اقتراب حلول عيد القديس برنابا، بادر كبار نبلاء البلاد مسرعين نحو البارلمان الذي كان سيعقد في اكسفورد، وأعطوا أوامر إلى جميع الذين عليهم واجب أداء خدمة الفروسية للملك بمرافقتهم، وهم مجهزين ومستعدين، وكأن عليهم الدفاع عن أشخاصهم من هجمات الأعداء، ووضع هؤلاء هذا الأمر موضع التنفيذ، وأخفوا أسبابهم الحقيقية لعملهم هذا، تحت التظاهر أن قدومهم على هذه الصورة، هو اظهار أنفسهم أنهم جاهزين للانطلاق بقواتهم الموحدة ضد أعداء الملك في ويلز، وفي الحقيقة توفرت لديهم مشاعر كبيرة، أنه نتيجة لعدم اتفاق

الفئات، أنه سوف يتفجر خلاف شديد ونزاع بينهم هم أنفسهم، وأن الملك وإخوانه من البواتيين سوف يدعون جميع الأجانب لمساعدته ضد رعاياه الطبيعيين، وعلاوة على ذلك قام النبلاء بعمل احتياطات اضافية، بحراستهم الموانىء البحرية حراسة دقيقة.

وفي بداية البارلمان، كانت الخطة المقترحة للنبلاء قد تقررت من دون تغيير، وجرى الاتفاق عليها، وطالبوا بشدة وإلحاح بوجوب أن يحافظ الملك باخلاص على شروط صك الحريات والامتيازات لانكلترا، وأن يلتزم به، وهو الصك الذي عمله والده، ومنحه لرعاياه الانكليز، وهو الذي أقسم جون المذكور على الالتزام به، وهو الصك الذي قام الملك الحالي هنري مراراً كثيرة بمنحه، وأقسم على الالتزام به، وهو الصك الذي جرى اعلان الحرمان الكنسي ضد المخترقين له، وأن يجري الإعلان عن هذا الحكم من قبل جميع أساقفة انكلترا، فهو الذي كان قد أمر بهذا، وأن يكون إعلان الحرمان بحضوره نفسه وحضور باروناته، وهو بناء عليه بات محروماً كنسياً.

وطالبوا علاوة على ذلك، بتعيين قضاة لتقديم العدالة إلى الذين عانوا من الأضرار، وأن يكونوا محايدين نحو الأغنياء ونحو الفقراء، كما أنهم تقدموا ببعض المطالب الأخرى، المتعلقة بشؤون المملكة، عازمين على رفع شأن مصالح الملك والمملكة، وسلامها، وكرامتها، وعلاوة على ذلك أصروا، على وجوب أن يقوم الملك بمشاورتهم، والاصغاء إلى نصائحهم في عمل الترتيبات الضرورية، وأقسموا جميعاً بتقديم كل واحد منهم يده اليمنى إلى الآخر، وذلك بمثابة عهد على الاخلاص، بأنهم سوف يتابعون نواياهم، مقابل مخاطرة فقدانهم لأموالهم، ولأراضيهم، لابل حتى لأراضيهم، وكذلك لما هو عائد لأتباعهم، واعترف الملك بمنطقية احتجاجهم، وأقسم بشكل مهيب بأنه سوف يصغي إلى آرائهم ونصائحهم، وارتبط ابنه ادوارد أيضاً بيمين مماثل،

وجـرى رفض هذا القسم من قبـل جـون ايرل وارني، ومن قبل إخـوة الملك لأمه، أي وليم دي بلنسية والآخـرين، وعلاوة على ذلك صدرت الأوامـر إلى مـوانيء انكلترا لأن تكون محروسـة بدقـة أكبر، وأن تكون أبواب لندن مغلقة بعناية أكبر وبأمـان أعظم أثناء الليل، وبناء عليه قال بعضهم: «أغلقت أبواب لندن أثناء الليل، خـوفاً من خـداع الفرنسيين، من أن يقتحموا المدينة».

وبعدما مددوا اقامتهم في اكسفورد لبضعة أيام، اجتمعوا مع بعضهم في دير رهبان الدومينيكان للتداول حول الذي ينبغي فعله بشأن المشكلة الصعبة، المتعلقة بتحسين الأوضـاع الصعبة، للمملكة المضطربة، وهناك جددوا تحالفهم، ومثل ذلك أعادوا تأدية أيمانهم، وثبتوا عزمهم على أنهم لن يسمحوا لأنفسهم، حتى أمام الحياة والموت، أو ضياع الممتلكات، أو الحب والكراهية، أو لأي سبب مهما كـان، بأن يتزحـزحوا عن نواياهـم، أو يضعفـوا، وهي النوايا التي قضت بالتطهر من الأجـانب المدنسين في المملكة، التي أعطيت بحكم الأصل إليهـم أنفسهم، ولأجـدادهم الذين كـانوا رجـالاً مـن أصل نبيل، وهم يطالبـون باسترداد حقـوقهم مع الشرائع الصحيحـة، وقـرروا أنه إذا وجـد أي واحد، مهما كـان، وقـام بمعارضة مـاقرروه، ينبغي ارغامه، حتى لو كـان ذلك ضد إرادته، على الالتحـاق بهم، ومع أن الملك، وابنه الأكبر ادوارد، قـد أديا اليمين، بدأ ادوارد يسعى بقـدر مـايستطيع إلى الانسحـاب من قسمـه، وذلك مثلما فعل جـون ايرل وارني، وهنري بـن رتشـارد، ملك ألمانيـا، حيث أخـذ يتعلل، ويقـول أنه لايمكنه ولابأي حـال من الأحـوال أداء مثل هذا القسم، من دون مشـورة أبيـه واذنه، وبناء عليـه جـرى اخبـاره بكل وضوح وبشكل علني، أنه حتى والـده إذا لم يوافق على خطة البارونات ويشـارك فيهـا، لن يتمكن من الاحتفـاظ حتى ولابشبر من الأرض في انكلترا.

وعلاوة على ذلك، أقسم إخوة الملك المتقدم ذكرهم بكل تأكيد بموت المسيح وبجراحه، بأنهم لن يتخلوا ماداموا أحياء، أبداً، عن القلاع، أو الموارد، أو الوصايات، التي أعطاهم إياها أخوهم الملك بمحض ارادته، مع أن سيمون ايرل ليستر، قد تنازل مجاناً إلى الملك عن قلعتيه كينيلوايت Kenilwithe وأوديهام Odiham, اللتان كان قد فرغ من ترميمهما وتحصينهما قبل عدة أيام مضت، وعندما عمل البارونات هذا الاعلان، مؤكدين إياه بأيمان لايمكن تعدادها، توجه سيمون ايرل ليستر بالخطاب شخصياً إلى وليم دي بلنسية، الذي كان متفجراً غاضباً أكثر من الآخرين، وقال في رد له عليه: «عليك أن تكون متأكداً من أنك إما سوف تتخلى عن القلاع التي بين يديك من الملك، أو أنك سوف تخسر بلاشك رأسك»، وقال الايرلات الآخرون والبارونات الشيء نفسه، وأقسموا على ذلك بأكثر الطرائق تأكيداً، ونتيجة لذلك بات البواتيون في حالة رعب شديد، ولم يعلموا ماالذي عليهم فعله، لأنهم إذا ماحملوا أنفسهم على الاختفاء في أي من القلاع، وهم مجردين من المؤن المخزنة ومن وسائل الدفاع، سوف يجري حصارهم، وسوف يهلكون من الجوع، لأنه حتى إذا لم يقم النبلاء بحصارهم ولم يفعلوا ذلك، فإن جماعة الشعب كله، سوف تتولى حصارهم، وتدمر قلاعهم وتجتثها إلى الأساسات، ولذلك قاموا فجأة وبصورة سرية بالفرار، وذلك أثناء الإعداد لتناول طعام الغداء، وفي سبيل أن لاتتكشف نواياهم، تظاهروا بأنهم يودون الجلوس إلى المائدة، وأثناء فرارهم، كانوا غالباً ماينظرون خلفهم، وجعلوا خدمهم يصعدون إلى أبراج عالية، لمعرفة فيما إذا كان البارونات يقومون بمطاردتهم، ولم يوفروا أطراف خيولهم، حتى وصلوا إلى وينكستر، حيث لخوفهم وضعوا أنفسهم تحت حماية جناحي الأسقف المنتخب لوينكستر، الذي عليه رست جميع آمالهم، وعلاوة على ذلك لقد أملوا في العثور على مكان للجوء في القلاع العائدة إليه، أي إلى الأسقف المنتخب المذكور،

وأصبح النبلاء في الوقت نفسه أقوى تحالفاً مع بعضهم، وعينوا مسؤولاً عن عدالتهم هوغ بيغود، وكان أخاً لايرل مارشال، وفارساً مشهوراً ومن أصل رفيع، ومن دم انكليزي نقي، وكان بارعاً تماماً في شرائع البلاد، وقد قام بواجبات العدالة والقضاء بكل نشاط، ولم يسمح لامتيازات المملكة بالتداعي بأي شكل من الأشكال. وعندما عرف النبلاء وتأكدوا من فرار البواتيين —حسبما ذكرنا من قبل— خافوا من أن يقترب الفارون من شاطىء البحر، لاستدعاء الأجانب، من بواتيين وغيرهم من القارة لمساعدتهم، وقد رأوا أن التأجيل سوف يجلب الخطر، ولذلك أعطوا أوامر دقيقة إلى جميع أتباعهم وإلى كل شيعتهم، بأن يهبوا إلى السلاح، وأن يمتطوا خيولهم بكل سرعة، وبذلك أنهوا البارلمان في اكسفورد، من دون أية نتيجة ثابتة ومحددة.

الخلاف في روما بين البابا والشيخ برانكليون

وحرر في الوقت نفسه رتشارد، ملك ألمانيا، بحكمة بعض مدن ألمانيا، من ديونها الثقيلة، ومن تعهداتها التي كانت متورطة بها من قبل ملوك ألمانيا من أسلافه، وكان رئيس أساقفة تريف مريضاً منذ وقت طويل، إلى حد أنه ساد اعتقاد بأنه مات منذ أيام كثيرة مضت، وقام رئيس الأساقفة هذا بإرسال رسالة إلى الملك المذكور، أنه «مالم يقم ملك اسبانيا، حسبما وعد بشكل ايجابي، بالقدوم لمساعدته، أي مساعدة رئيس الأساقفة المذكور، ودوق برابانت، اللذان كانا متحالفين مع ملك اسبانيا، فإنهما سوف يقدمان من خلال تحالفهما الوثيق والمخلص، الطاعة له، بحكم كونه ملك ألمانيا».

وعلاوة على هذا قام سكان كثير من مدن ايطاليا، فقدموا اليد اليمنى للصداقة له، لأنهم كانوا قد تشوقوا كثيراً إلى وصوله، وإلى ترقيته إلى المقام الامبراطوري، وكان في الوقت نفسه برانكليون شيخ روما، يقوم بتدمير قلاع النبلاء الرومان، ويتولى سجن أصحابها، كما أنه شنق أو

شـوّه عدداً من أقـرباء الكرادلة ونسبـائهم، ولم يعمل بذلك مخالفـاً بأي شكل من الأشكال لرغبات الشعب الروماني وخططه، وكان هذا الشيخ له حظوة لدى الأمير مـانفـرد، الذي كـان يتطلع نحـو الامبراطورية، ونتيجـة لذلك كرهـا معاً ملك ألمانيـا، ووضعـا خططاً لمعارضتـه، ولهذا السبب بالذات، فإن البـابا الذي كـره الشيخ والأمير مـانفـرد، أظهـر الحظوة نحو ملك ألمانيا المتقدم الذكر.

كيف حصل رئيس رهبان دير رامسي على إمتياز إقامة السوق في القديسة إيف

وفي هذا العـام نفسه أيضـاً، استردت كنيسـة رامسي حقها وامتيـازها الكامل في سوق القديسة ايف، وجاء ذلك بوساطة براعة الادارة لرالف رئيس رهبان رامسي، وكـان هذا الامتياز قد حصلت عليه بمثـابة أعطية من الملك ادغار Edgar, جـرى تثبيتها من قبـل الملوك القدمـاء الآخرين، كما أن هذا التملـك له قد تثبت وتمتن بموجـب كتابة أصيلة، صدرت عن القديـس توماس الشهيد —رئيس أساقفـة كانتربري، ولقد قيل بأن رئيس الرهبـان رالف المذكـور قد دفـع خمسمائة مـارك فضي في سبيل استرداد امتيـاز ذلك السوق المذكـور، وهو امتياز كـان قد ضـاع، ليس بسبب خطيئة الكنيسـة المذكـورة، بل بسبب الاعتراضـات التافهـة لبعض الآخـريـن، وهي اعتراضـات وضح لكثيرين أنها كـانت زائفـة وبلاأسس.

وفاة رتشارد رئيس رهبان دير ويستمنستر

في الثامن عشر من تموز، في هذا العام، مات، قرب وينكستر، رتشارد رئيس رهبان دير ويستمنستر، وكـان رجلاً وسيماً في مظهـره، وفصيحاً، وعـالي المعرفـة بنوعي الشرائع اللاهوتيـة والمدنيـة، كما أنه كـان صديقـاً خاصـاً بالملك، ولذلك تحمل عن طواعية في خدمتـه كثيراً من المتاعب،

وأنفق الكثير من الأموال، في كل من القارة والوطن، وقد تمكن رتشارد المذكـور، بوساطة حكمتـه العظيمة، التي تميـز بها كثيراً، تمكن من زيادة أمـلاك الدير بـاثني هايد Hide من الأرض، كما حصل على كثير من الامتيازات لصالح الدير، ولكن بما أن الفضائل تمتزج بالعادة ببعض الشرور، وضع رتشـارد هـذا المذكـور ختمـه مع ختـم ديره على وثيقـة كتبت من قبل الملك، حتى يقـوم رؤساءالرهبان الآخـرون الذين وردت أسماءهم فيها بوضع أختـامهم عليها أيضاً بسهولة أكثـر وبجرأة أعظم، وكانت هذه الوثيقة قـد كتبت في ذلك الوقت لاقناع بعض كبار رؤساء الرهبان في انكلترا ليرهنوا أنفسهم لصـالح الملك، لدى بعض التجار في القارة، في سبيل دفع مبلغ كبير من المال، بناء على وعد بإعطاء ضمانة إلى رؤساء الرهبان المذكورين ولخلفـائه، من أجل دفع المال المذكور وسداده من قبل الملك، والحفاظ على كنائسهم مؤمنة، ولكن بما أنه لم تتوفر الثقة بهذا الوعد، جـاءت موافقتـه لوحده من دون مسـوغ، لأن جميع رؤساء الرهبان الآخـرين قاوموها بالاجماع وبنشـاط، مضيفين —بوساطة إلهام لاهوتي— أن مثل هذا الالتـزام إذا ما تمّ الأخـذ به من قبلهم والشروع به، فإن البقيـة سـوف يحذون حـذوه، وحمل جسـد رتشـارد المتـوفى إلى ويستمنستر ودفن بتشريف في كنيسته الديرية هناك.

كيف مات فيليب رئيس الرهبان المنتخب للدير ويستمنستر قبل تثبيت انتخابه

وجرى انتخـاب فيليب مقدم الرهبان في الدير المذكـور ليكون رئيساً للرهبان هناك، لكنه عندما سمع بانتخـابه عبر عن معارضته الشديدة في إعطاء مـوافقته، وذلك من خـلال الخوف من المرسوم البـابوي الأعظم ظلماً، الذي أرغم كل صـاحب منصـب ديني على الذهاب شخصيـاً إلى رومـا، لأنه كـان يفضل ويـرى أنه من الأحسن له الرفض، للبقـاء في الوطن يمارس طريقته السالفة في الحياة، وقد آثر ذلك على تعريض نفسه

لمثل تلك المخاطر في سبيل منصب دنيوي، ولكن بما أنه تم التغلب عليه من قبل اخوانه الرهبان بكثرة إلحاحاتهم، ثم بما أنه قد جرى انتخابه بشكل شرعي من قبل الجماعة كلها، وافق على رغباتهم، على شرط هو أن يرسلوا بعض الأشخاص الآخرين إلى البلاط للحصول على التثبيت لانتخابه، وبناء عليه سافر بعض من أعلى الرهبان مكانة في سبيل تحقيق هذا المقصد، وترافعوا بأكثر الأسباب قوة وعللوا عدم حضور رئيس الرهبان المنتخب، وبعد كثير من المصاعب، بسبب معارضة الكرادلة، حصلوا أخيراً على المعروف المطلوب، لكن ذلك جاء من خلال دفع مبلغ كبير من المال، وعندما كانوا على طريقهم عائدين، بعد تسويتهم لأعمالهم بصعوبة كبيرة، وصلتهم أخبار بأن رئيس رهبانهم المنتخب قد مات للتو، وأن آخر جرى تعيينه في مكانه بأقصى سرعة ممكنة، ولذلك استأنفوا وهم حزينين كثيراً مهمتهم الماضية بالسفر إلى بلاط روما.

انتخاب غودفري دي كاينتون رئيساً لأساقفة يورك

وفي الوقت نفسه، اجتمع الكهنة النظاميون في يورك وانتخبوا عميدهم المعلم غودفري أوف كاينتون Kineton رئيساً لأساقفة يورك، وقد ذهب بشخصه إلى بلاط روما، وبعد كثير من المصاعب والنفقات أنهى أعماله نهاية مرضية، وعاد إلى الوطن سالماً.

الموتان الذي تسببت به المجاعة بين الناس

وانتشرت في تلك الآونة نفسها مجاعة كبيرة ومميتة في البلاد، حتى أن مكيال القمح ارتفع ثمنه إلى خمسة عشر شلناً وأكثر، وكان ذلك في وقت كانت فيه البلاد قد انعدمت فيها الأموال، وهكذا كانت هناك أعداداً لاتحصى من الجثث ممددة في الشوارع، وما من أحد في الحقيقة كان بإمكانه أن يتذكر بأنه شاهد من قبل مثل هذا الشقاء وهذه المجاعة، مع أنه كان هناك كثيرون ممن شاهدوا الأسعار ترتفع أكثر مما كانت

عليه الآن، ومـالم يتم جلب القمح من القارة للبيع، فإن الأغنيـاء سوف يكون بإمكانهم بصعــوبة النجـاة من الموت، وعـلاوة على ذلـك كـانت جثث الموتى ملقـاة فـوق أكـوام القمامـة والأوسـاخ في الشـوارع، وهي منتفخـة ومهترئـة، ولم يكن هناك أي واحـد ليقـوم بدفنهم، كما أن المواطنين لم يتجـرأوا ولم يختـاروا استقبال الموتى في بيـوتهم، خـوفاً من العدوى، وكانت أيضـاً ندرة الأموال كبيرة جداً، حتى لو أن القمح بيع بسعـر صغير للمكيال، بـات من النادر وجود أي واحـد يمكنه امتـلاك الإمكانات لشرائـه، لكن الرب لكونه رحيماً قدم العـلاج بشكل سريع، حسبما تقدم الذكر أعلاه.

مغادرة إخوة الملك لأمه وسفرهم من إنكلترا

في ثمانيـة تحويل القـديس بندكت، أي في الشـامن عشر من تموز، قـال إخـوة الملك الذين تقـدم ذكـرهم وداعـاً للانكليز، ثـم قامـوا بمغـادرة انكلترا مصحوبين ببعض البـواتيين الآخرين، وكـان من بينهم وليم دي سينت هيرمس (الذي اعتـاد على الوقـوف إلى جـانب الملك أثناء تناوله للطعام، مع منـديل اصبع وكان يقطع اللحم له)، وأعـداد كبيرة أخرى من الذين ظلموا المملكة كلهـا، ونهبوا ثرواتها، وخاصـة نقودها، وأراح هؤلاء البـواتيـون أنفسهم أولاً في وينكستر، وبعـد ذلك في بيت عـائـد للأسقـف المنتخب لوينكستر في ســاوثوورك Southwark في لندن، ولقـد روي بـأن كثيراً من نبـلاء انكلترا قـد تأثـروا من السم هنا وهناك، وتبرهنت النتيجـة أن ذلك كـان حقيقـة، ولـدى وصـولهم إلى شاطىء البحـر، عهد بهم النبلاء الذي قـادوهم إلى هناك عهدوا بهم إلى عناية إلـه البحـر نبتـون Neptune, وعند وصـــولهم إلى بولون Boulogne كتبـوا إلى الملك الفـرنسي لكي يسمح لهم بالسفـر بأمـان خـلال بلاده، أو أن يقيمـوا هنـاك لبعض الوقت، وفقـاً لامتيـاز فرنسي قديم ولعرف موجود، كما طلبوا اذناً للأسقف المنتخب لوينكستر

بالبقـاء بعض الوقت في بـاريس بمثـابـة باحث، لكن الملك الفـرنسي رفض، لأنه كـان غـاضبـاً، بسبب الشكاوى التي عملتهـا ملكة انكلترا، وأضـاف الملك بـأنهم قـد طـردوا من انكلترا «بشكـل مهين بسبب جرائمهم».

وعندمـا سمع بهذا هنري ابن ايرل ليستر، قـام فجأة بعبـور القنال لمهاجمتهم، وفعل ذلك إما من دون علم أبيه، أو ضد ارادته، أو ربما كان ذلك برضاه، ولدى وصـوله إلى هناك التقى بعدد من الأصـدقاء، الذين كـانوا صـدوراً عن احترامهم لأبيـه ولتعـاطفهم معـه، كـانوا جـاهزين للانتقام للأضرار التي لحقت بـه، لأنه تحدث كيف أن وليم دي بلنسية، قام معتمداً على حظوة ملك انكلترا، وتأييد اخوانه الآخرين الذين كانوا حضـوراً، فتجـاوز جميع الحدود بشتـائمـه في بـارلمان لندن، واتهم أبيـه بالكذب بشكل معلن، وفعل ذلك ضد الايرل وسماه خـائناً قديماً، الأمر الذي أدهش كثيراً من سكان القـارة حيث عجبوا كيف قـام أناس أدنى نبالة منه، وأكثـر قرابة أيضـاً من الملك، فرغبـوا أو تجرأوا على تقريع أو تشويه سمعة مثل ذلك النبيل في مكانته السامية، وذلك سواء بالقول أو بالفعل، ذلك أنه نبيل الأصل، وواحداً من أعظم النبلاء جميعاً وأعلاهم مكانة سـواء في داخل الوطن أم في القـارة، وعـلاوة على ذلك، إنه لم يكن لائقـاً، كما أنه كـان من الصعب التصـديق بأن رجـالاً مـرتبطين بالملكية يمكنهم التفوه بمثل تلك الكلمات المهينة.

وبناء عليـه لدى سماع أصـدقـاء الايرل بـالحقيقـة ومعـرفتهم بها، استعـدوا لـلالتحـاق بجـون في حملتـه على البـواتيين، وعندمـا عـرف البـواتيـون صـورة الأوضـاع، انسحبـوا بصـورة سرية إلى بولون، لكن مطارديهم أدامـوا مراقبـة المكان من جميع الجهات، من البحـر ومن البر، وهكذا قاموا بتطويقهم، وجردوهم من جميع وسائل النجاة، وكانوا الآن أحراراً في انهاكهم وازعاجهم حسبما يستحقون.

كيف اعترض قسطلان دوفر مبلغاً كبيراً من المال وصادره

قام رتشارد غري Gray, الذي كان رجلاً شجاعاً ومخلصاً، والذي كان أيضاً قد جرى تعيينه قسطلاناً لدوفر، لصالح البارونات، بفحص جميع الأشخاص الذين عبروا أو أرادوا العبور من خلال ذلك المكان بكل دقة، وأثناء فحصه الدقيق لكل ما كان ينقل إلى هناك، وقف في حوالي هذا الوقت على مبلغ كبير من المال، كان سينقل سراً من هناك من قبل البواتيين المذكورين، وقد استولى عليه كله واحتفظ به في القلعة، وفي الهيكل الجديد في لندن، جرى أيضاً الاستيلاء على مبلغ كبير، وصل إلى حجم أنه أثار الدهشة العظيمة للذين سمعوا به، وكان مخفياً هناك من قبل البواتيين المذكورين، مع أن فرسان الاسبتارية حاولوا أن ينكروا ذلك، وجرى الاستحواذ على المال، ليجري انفاقه بشكل نافع، تحت اشراف كل من الملك والبارونات، من أجل منفعة المملكة.

رغبة الويلزيين في تقديم اعتذار مذل إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة نفسها تقدم الويلزيون، الذين تشاجروا مع ملك انكلترا وحصلوا على سمعة سيئة لديه، بعروض سلام مشرفة، وأعلنوا عن أنفسهم أنهم جاهزين لتبرئة أنفسهم في محكمة قضائية، من جميع التهم التي وجهت ضدهم، وكذلك من تهم القتل والنهب والسلب.

كيف قبل اللندنيون بالمشاركة بقرارات البارونات

وجرى في عيد القديسة مريم المجدلية إرسال رسل خاصين إلى لندن، وذلك من قبل جماعة انكلترا كلها، وهناك دعوا المواطنين الذين كانوا معينين بمثابة بارونات للاجتماع في الغيلدهول Guildhall, وكان السؤال الذي عرض عليهم، عما إذا كانوا باخلاص سوف يقبلون بالمشاركة بقرارات البارونات، وإذا ما كانوا سيلتحقون بثبات بقضيتهم، وتقديم مساعدة فعالة إليهم في الوقوف ضد خصومهم، وعلى هذا

قدموا جميعاً الموافقة عن طيب خاطر، وكتبوا صكاً بتأكيد هذا الشيء، وختموه بالختم العام للمدينة، لكنهم لم يكن بنيتهم الإعلان عن القرارات التي اتخذت، بسبب مرض ايرل غلوستر، الذي نشأ عن بعض السم، الذي دس إليه، وذلك حسبما قيل بشكل عام، هذا وكانوا قد أملوا بأنه سوف يتعافى من مرضه لأن مايشبه الدماء خرج من البثور الكثيرة التي ظهرت على جسده، وعلى شعره، وعلى أظافره، كما أن جلده قد تساقط، وتساقطت أيضاً أسنانه، وهكذا حلق وتطهر، وعهد به للعناية وللمعالجة الطبية للمعلم جون أوف سينت جايل، الذي كان راهباً من طائفة الدومينيكان، وهو الذي كان قد عالج من قبل روبرت أسقف لنكولن، وشفاه من مرض مماثل.

كيف جرى تسميم عدد من النبلاء في إنكلترا

وبدأ الآن كثير من نبلاء انكلترا الذين جرى سمهم في الوقت نفسه —كما قيل— من قبل البواتيين، يتلاشون في أنفسهم، وفارقوا هذه الحياة، في حين بقي آخرون يتأرجحون بين الحياة والموت، وكان بعضهم علمانيين ذوي مراتب وسلطة، وكان آخرون رجالاً نبلاء ومتعلمين، وليس واضحاً بعد للانكليز فيما إذا كان البواتيون قد دسوا لهم السم، لأنهم اعتقدوا بأن هذا المرض ربما قد صدر عن مصيبة أخرى، وأظهر نفسه بشكل واضح، وكان هناك، علاوة على ذلك، بعض الأشرار الذين يدسون السم، الذين خلفهم البواتيون، وكانوا متورطين في بعض الخطط الشريرة، وأعمال التآمر ضد النبلاء، ونتيجة لذلك شعر النبلاء بالريبة وتشككوا بمتعهدي الأطعمة، والطباخين، والسقاة، وخشيوا من أن يكونوا قد ارتشوا لاقتراف جرائم مماثلة ضد سادتهم.

عدم استقرار فولك أسقف لندن

أثناء وقوع هذه الأمور الصعبة والمهمة، وخلال هذه الترتيبات الجديدة والسعيدة جداً لمسائل المملكة، كان فولك أسقف لندن غير

متـوائم بالمرة، وكسـول وفـاتر الهمـة، وبسلوكـه على هذه الصـورة آذى سمعتـه الجيـدة وزاد من ذلك، بسبب أنه رفع شأنه بسبب أصله، أكثـر من البقيـة، وبما أن آمـال البـارونات قـد رست عليـه، فإن سلوكـه قـد أغضبهم، لأنهم اعتمدوا عليه لتسويغ الملك مع الناس.

الكلام القاسي للملك الذي وجهه إلى إيرل ليستر

وتزايدت مخاوف البارونات وقلقهم بالقـدوم إلى شهر تموز، مع وبائه المفترس، واشتـداد انتشـار أمـراضـه، الأمـر الذي يثير الهواء السـاكن، والذي أخـافهم أكثـر من أي شيء آخـر هـو تفـاهة الملك وتقلبـاته غير المنضبطة، الأمـر الذي اكتشفـوه وتأكدوا من وجـوده من الكلام التـالي الذي تفـوه به، ففي أحـد الأيام كـان قـد غـادر قصره في ويستمنستر، وصعـد ظهـر أحـد المراكب ليتناول غـداءه، وليتمتع بـرحلة فـوق نهر التيمس، ووقتها أصبحت السماء غائمة، وجاءت عاصفة مترافقة بالبرق وبمطر ثقيل، والملك الذي ارتعب من العـاصفة من هذا النوع أكثـر من أي شيء آخر، أصـدر أوامره بالرسو به على الفـور، وكان المركب آنذاك مقـابل القصر الفخم لأسقف درم، حيـث كـان ايرل ليستر مقيماً آنذاك، وعندمـا عـرف الايرل بوصـول الملك، ذهب مسروراً لاستقبـاله، وفي سبيل تهدئتـه قـال له: «مم أنت خـائف، لقـد ذهبـت العـاصفـة الآن وزالت»، وعلى هذا الكلام ردّ عليـه الملك ليس مـازحـاً، بل جـاداً كل الجد قائلاً: «إنني أخاف من الرعد ومن البرق بدون قياس، ولكن بحق رأس الرب، إنني أخـاف منك أكثر مـن جميع الرعد والبرق في العـالم»، وردّ عليه الايـرل بلطف قائلاً: «هـذا غير عدل وغير معتمد يـامولاي، بأن تخافني، وأنـا صـديقك الثـابت، فأنا دومـاً مخلص لـك ولذويك ولمملكة انكلترا، والذي عليك بالحري هـو أن تخاف من أعـدائك، ومن المدمرين لك، والذين يتملقون لك زيفاً ورياء»، وتوجس كل واحد بأن هذه الكلمات قـد خرجت متفجـرة من الملك، لأن ايرل ليستر قـد أصر

على قرار ارغام الملك على القبول بالقرارات التي اتخذت، وكذلك ارغام جميع الذين وقفوا ضدها، ليحولوا دون الوقوف إلى جانب خططهم، ودون الطرد الكلي لإخوته، الذين تسببوا بإفساد المملكة كلها.

العثور إثر وفاة برنارد على صندوق مليء بالأوراق البيضاء مختومة بالختم البابوي العظيم

وفي حوالي هذا الوقت نفسه مات المعلم برنارد دي نيمفا Nym-pha فجأة، وكان من أهالي ضواحي روما، وكان رجلاً بارعاً وغنياً، وعمل كاتباً لدى رتشارد ايرل أوف كورنوول، واستخرج المال من الصليبيين بحجج مريبة، وعثر بين مقتنياته على صندوق مليء بأوراق مختومة بالختم البابوي العظيم، وهي أوراق كان من الممكن ملئها حسب الرغبة، واستخدامها في أي مجال سيء، مثل استخراج المال بطريقة فاسدة قائمة على الغش، من الفقراء، وكأن ذلك بوساطة سلطات البابا وتفويضه.

اجتماع أساقفة إنكلترا في أكسفورد

وحوالي الوقت نفسه، وجهت الدعوة إلى أساقفة انكلترا بشكل عام للاجتماع في اكسفورد، من أجل القيام بتطوير وإصلاح أحوال الكنيسة الانكليزية المترنحة، والتي دفعت بطرق مضاعفة كثيرة إلى هنا وهناك، وباتت مهددة بخطر السقوط كلها مع بعضها، وقدم إلى ذلك المكان أربعة أساقفة، قد جرت انابتهم هناك من أجل قصد معين، وهؤلاء هم أساقفة: نورويك، وشيكستر، واثنين آخرين، أنا لم أتذكر اسميهما، ودعا هؤلاء الأساقفة جميع رؤساء الرهبان المعفيين مع آخرين من الطوائف الأخرى، أو حماتهم الأقوياء، لأنهم رغبوا في أن يعرفوا فيما إذا كانوا سيقبلون بالمشاركة بمبادئهم وقراراتهم، وهل سيقف الأساقفة إلى جانبهم ويتحدوا معهم في تأييد الشيء نفسه والدفاع عنه، ولكن بما أن

بعض الأساقفة كانوا غيـاباً لسبب أو لآخر، ولأن بعضهم قد ترددوا في إعطاء مـوافقتهـم، لم يتمكنوا من تقـديم جـواب ايجابي آنذاك، ولذلك غادروا جميعاً، تاركين الأعمال دونما انتهاء، وقد جرى تقديم المبادىء في كتاب Additaments.

العثور على السم

بعد مضي وقت قصير، انتشر تقرير، وعملت شكاوي، بأن سماً قاتلاً قـد دسّ إلى أناسٍ متنوعين في انكلترا، وبشكل خـاص إلى النبـلاء، وأن مـؤثراته كـانت آخـذه بالانتشـار في مختلـف الاتجاهات بصـورة محزنة، وبرهنت نتيجـة الأحـداث التي ورد ذكرها أعـلاه، على الفـور بأن هذه كانت حقيقية، لأنه تمّ العثور في بعض الأماكن السرية كثيراً، على بعض الجرار التي يطلق عليها بشكـل عام اسم Cortrells, وجرى فتح مغـاليقهم بصعوبة كبيرة، وقـد وجدوا فيهـم، وفقاً لتقـرير عام، سـائل أزرق، وكـان سماً مميتـاً، وهو قـد عـرض على بعض الكلاب الجائعـة، فرفضت تذوقه، ولكن عندما جرى مزجه مع أطعمتهم الأخرى، وقدم إليهم، تناولوه فماتوا على الفـور، وقـد قيل بأن هذه كـانت مؤامـرة من الأجانب لتسبيب الموت إلى الانكليز.

وحشية الأسقف المنتخب لوينكستر نحو واحد من الكهنة

ولقد حـدث، قبل وقت قصير مضى، أن قام جون فتز— غيـوفري، الذي كان المسؤول عن العـدالة في ايرلندا، وكان مشهوراً بأصله النبيل، وغنياً، وقوياً، بإعطاء كنيسـة إلى واحد من كهنته، ولدى سماع الأسقف المنتخب لوينكستر بهذا، ادعـى أنه يمتلك حق الاشراف على الكنيسـة نفسهـا، وأمر وهو في حـالة غضب شـديد بطرد الكاهن المذكور منهـا، وأنه إذا ماأبـدى أية معارضة، بـأن يجري سحبه منها بإهـانة وقوة، وأن يرمى به في أي مكان قذر.

وبناء عليه قـام وكلاء الأسقف المنتخب المذكـور، بطرده من الكنيسة بوحشية كبيرة، ولأنه عبر عن دهشته ضـد تصرفاتهم، أظهروا صفاقتهم ضده، إلى حـد أنهم أرادوا قتله، وأهانوه، وضربوه، وجرحـوا بعضاً من خدمه، وطردوهم من بيوتهم، ونهبوا الكنيسة، وتمت معاملة بعض خدم الكاهن المذكـور بصـورة لاإنسـانية بشعـة، إلى حـد أنهم انهاروا ومـاتوا خلال أيام قصيرة، ونقلت أخبار هـذه الفعلة الشنيعة إلى الحبر الروماني من قبل بعض البارونات، وعنـدما سمع رجل العدالة المتقـدم ذكره بها، غضب بشكـل محق، وتقـــدم بشكوى إلى الملـك، الذي تصرف حسبما كـانت عادته، فحـاول أن يلطف خطيئة الأسقف المنتخب، وحث الفئة المتشكيـة على عـدم فضح الأسقف المنتخب، باتهامـه بمثل ذلك الذنب الكبير، وبعدم اتخاذ أي اجـراء قضائي ضده، ولذلك عبر جـون المتقدم ذكـره بالقضيـة وتجاوزها صامتـاً، وانتظر وقتـاً أكثـر مواءمـة للانتقـام، وعندمـا وجـد في الوقت الحالي، أن جبروت البو اتيين قـد انهار، جـدد شكواه، واتهم واحـداً مـن البـواتيين، كـان خـادمـاً للأسقف المنتخب المذكور لوينكستر، باقتراف الجريمـة الكبرى، والأسقف المنتخب نفسه، بأنه هو الذي أمره باقتراف الجريمة.

نقاهة إيرل غلوستر

ووجـد ايرل غلوستر —الـذي كـان مقيماً في سننغ Sunning, وهومكان قـرب ردنغ نفسـه— وقـد أخـذ بالتحسن بعض الشيء في صحته، ومع ذلك لم يتجرأ، بسبب خبث مرضه، أن يزعج نفسه، خشية من أن يستعيـد شدتـه ثانية، ذلك أنه كـان يعـاني من الآلام في الداخل والخارج، داخلياً بسبب مـوت أخيـه و. W, الذي بسبب فقـــدانه حزنت انكلترا كلها، وخـارجياً، مع أنه كان ناقهاً، كـان قد تشوه بشكل مخيف، حيث فقد شعـره، وكذلك بشرته، في حين باتت أسنـانه وأظافره وضيعة وشاحبة، وتهدد بالسقوط منه.

كيف دمر الشيخ برانكليون حصون بعض قطاع الطرق

ووجد في هذا العام أيضاً الشيخ الروماني برانكليون أن وقاحة النبلاء الرومـان وتجبرهم أمر لايمكن قمعه إلا بطريقة واحدة هي تدمير قلاعهم، التي كانت بالواقع مكاناً للاختباء لرجال العصابات وقطاع الطرق، ولذلك تولى تدمير حوالي مائة وأربعين من قلاع النبلاء المذكورين، وأمر أن تجتث إلى الأرض، وهكذا أمكن استرداد السلام والهدوء بشكل كامل، وبذلك تفرق قطاع الطرق الذين يسمونهم Birri ومعهم جميع الآثمين والجناة، في كل من روما نفسها والمناطق المحيطة بها.

الشكاوي التي رفعت ضدّ البواتيين

وأرسلت التعليمات إلى كثيرين ممن تعرضوا للأذى بشكل مهين وللأضرار والاعتداءات من قبل البواتيين الذين تقدم ذكرهم، للتقدم بشكاويهم حول القضايا المتعلقة بهم، مع إعطاء براهين حول الأضرار التي لحقت بهم على أيدي إخوة الملك المذكورين، وتم التأكيد لهم أنهم إذا ماعرضوا شكاويهم مؤيدة ببراهين جيدة، وتابعوها بإصرار، فإن كل تعويض سوف يقدم إليهم، وفقاً لما تمليه العدالة، ولكن بما أن موسم الحصاد بات وشيكاً، ورأوا أنه من غير الموائم متابعة مثل هذه الإجراءات، ولربما ستكون متاعبهم واضطراباتهم، بعد كل شيء، من دون هدف ومحصلة، لذلك رفضوا متابعة شكاويهم، إلى أن يروا مناسبة أفضل.

كيف سمح للبواتيين بالعودة إلى الوطن من خلال فرنسا

وبما أن إخوة الملك المتقدم ذكرهم كانوا محاصرين ومضيق عليهم في بولون، حسبما تقدم الذكر أعلاه، بعثوا رسولاً موثوقاً إلى ملك فرنسا، ورجوه بتواضع، بأن لايتخلى عن الذين فروا للالتجاء إلى صدر حمايته

أثناء اضطراباتهم، بل بالحري التعامل معهم وفقاً لامتياز مملكته (الذي ألزمها باستقبال من فرّ إليها وحمايته بسلام) بإرسال رسل سلام، وأدلاء من أجل رحلتهم، والسماح لهم بالمرور خلال مملكته، وهم على طريقهم إلى بواتو، وجرى قبول هذا الطلب عن طواعية من قبل ذلك الملك العظيم التقوى، وما من أحد يشك أن اظهار الرحمة نحو التعساء —مع أنهم لم يستحقوا ذلك— هو تمام الإحسان.

زيادة المجاعة بسبب دمار الموسم بالأمطار الثقيلة

وفي هذه الآونة أيضاً، أي في نهاية تموز وبداية آب، وبسبب عجز المواسم في هذا العام وكذلك في العام المنصرم، ازداد الشقاء، والعوز، وانتشرت المجاعة، حتى أن الذين اعتادوا على مساعدة الآخرين باتوا الآن بين الأشقياء الذين هلكوا من العوز، والذي أرعب الفئات الدنيا من المجتمع أكثر من النبلاء هو استمرار تساقط الأمطار الغزيرة، التي هددت بتدمير مواسمهم، التي كان الرب قد أعطاهم آمالاً حولها من قبل، وباختصار نقول كانت انكلترا سوف تسقط عجزاً بنفسها لولا أنها أعيدت إلى الحياة، بوصول بعض المراكب العائدة إلى التجار من القارة، حيث كانت محملة بالقمح والخبز للبيع، وقد جاءت من هولاندا وألمانيا، لكن بقي هناك أن كثيرين كانوا قد أنفقوا أموالهم كلها، قد ماتوا من الجوع والعوز، وكان من الممكن رؤية أشخاص من المراتب العليا، امتلكوا من قبل وفرة من جميع الأشياء، لكن جميع ثرواتهم قد أنفقت تماماً، لذلك أرغموا الآن على العيش على صدقات الآخرين، والتسول من باب إلى باب، وقد غلبهم الحياء، وكانت وجوههم شاحبة من الجوع ومن الحاجة إلى الراحة، ولتمضيتهم لياليهم من دون نوم، في أسى وفي نحيب، وفي أيام عيد صعود العذراء المباركة، عندما تمتلىء الاهراءات بالعادة بالحبوب السنوية، نادراً ماكانت هناك سنبلة واحدة ناضجة، ونظراً لازدياد تساقط الأمطار يومياً، كان العمال الأجراء

وقطعانهم يتكلفون نفقات عالية جداً، دون أن يستطيعوا مغادرة بيوتهم، أو القيام بأي عمل مفيد في الحقول، ونتيجة للظروف التي لم تكن معروفة من قبل، كانت مواسم القمح جاهزة في يوم عيد جميع القديسين للحصاد، لكنها كانت بلافائدة، وشبه تالفة، وحدث في بعض الأماكن أن كانت هناك بعض المزروعات صالحة للاستخدام بعض الشيء، ولذلك حصدت ونقلت، لكن في كثير من المناطق الأخرى تركت كلياً في الحقول لاستخدامها بمثابة سماد لإغناء التربة، وينبغي أن يكون معلوماً أيضاً، أن الأرض لو أنتجت في ذلك العام موسماً وافراً، لكان من الممكن انقاذ كل شيء، ولكانت وفرة المواسم كافية لمدة تقارب العامين حتى يمكن استهلاكها.

الإعلان عن صوم والمسيرة التي أعقبت ذلك في سبيل الحفاظ على المواسم

وبما أن جميع وسائل المواساة الإنسانية قد أخفقت، تمت العودة الآن إلى المواساة اللاهوتية، ولذلك تقرر في اجتماع عقد في مقر الهيئة الكهنوتية في كنيسة القديس ألبان، أنه ينبغي القيام بصوم عام ومهيب، ويتوجب الإعلان عن ذلك بين الناس، من قبل رؤساء الشمامسة في جميع الكنائس في تلك البلدة، وأن السكان عليهم جميعاً الاجتماع بتقوى عميقة في يوم عيد القديس أوسوولد Oswald, الذي يقع في التاسع من آب، وأنه ينبغي أن يتبع ذلك مسيرة يقوم بها رهبان الدير وهم حفاة، إلى كنيسة القديسة مريم في الحقول، ثم أن يقوموا هناك بالتقدم بالرجاء إلى الرب وإلى أمه حتى يتوليا رحمة الناس، ولكي يشفق الرب ويستجيب للأدعية، وبفضل وجود أمه هناك، فيعيد الأنواء إلى شكلها الطبيعي.

ولدى سماع شعب لندن بهذا، لاموا أنفسهم لتباطئهم، وتأثروا بهذا المثل الذي ضرب، ولذلك قرروا القيام بصوم عام، تم فرضه على

الطوائف الرهبانية وعلى مواطني وسكان المدينة، وأن على الناس من كلا الجنسين الالتزام بالندم والتوبة، والمشاركة بالمسيرات، وأن يتم تناوب ذلك بين بعضهم، وبين الكنائس، وأن يقدموا صلوات تقية مخلصة إلى الرب، بأن يحفظ ثمار الأرض، الأمر الذي أعطى أملاً به، بمنحهم موسماً هادئاً وموائماً، وذلك للسماح للناس بجمع حصادهم وحبوبهم ووضعها في الاهراءات، وذلك بوساطة ضبط تساقط الأمطار وايقافها، لأنهم قالوا: «نحن يمكن أن نتحمل بصبر أكبر اخفاق اللامرئي، أكثر من سحب المنفعة بعدما تقدم الوعد بها»، وجرى تنفيذ هذه القرارات عن طواعية وباخلاص وتقوى، ومالبثت النتائج أن تبرهنت على الفور أنها فعالة، ذلك أنه خلال وقت قصير، حدث بوساطة تدخل تلك المحامية الأكثر قوة عنا [العذراء مريم]، والشهيد المبارك ألبان، مع القديسين الآخرين، أن توقف المناخ السيء الذي استمر طويلاً جداً، أو صار يأتي لماماً، ونزلت أسعار القمح منذ ذلك التاريخ، حتى بيعت الحبوب بنصف السعر الذي كانت تكلفه من قبل، لأن الصلوات الخالصة للناس، وماتبع ذلك من تغير في الأنواء، والمناخ قد وعدوا بموسم وافر سريع في كل من القمح والفواكه.

وفاة هنري ليكسنغتون أسقف لنكولن

في الثامن من آب مات هنري ليكسنغتون، أسقف لنكولن في نيتلنغتون Netlington وهي عزبة عائدة له قرب لنكولن، وقد دفن جسده، مع كل الاحترام المستحق في الكنيسة الكاتدرائية في لنكولن.

مغادرة هيرلوت مندوب البابا لإنكلترا

مع اقتراب حلول عيد صعود العذراء المجيدة، غادر هيرلوت مندوب البابا، انكلترا، وكان موثقاً ومستشاراً خاصاً للبابا، وجاء إلى

انكلترا مسلحاً بأعظم السلطات من البابا، ولكن عندما شاهد الأوضاع المضطربة للمملكة، قـام بتعقل بالمغادرة بهدوء، حتى تهب رياح السـلام والوحدة، وتكون الأوضاع أكثر مواءمة له.

مصادرة بعض الأموال العائدة للأسقف المنتخب لوينكستر

وفي الوقت نفسه تـابع حاكم دوفر مـراقبة يقظة على السـاحل، وقام بتفتيش دقيق لجميع المســافرين،الذين وجـد عـدداً كبيراً منهم محملين بالنقـود المحبوبة كثيراً، وكـانت منقـولة لصالح الأجـانب، وخفف عن هؤلاء الأشخاص أحمالهم، حتى يمكن أن يسافروا بسهولة أكبر، وجرى في هذا الوقت بـالذات العثـور على ألف مـارك، عـائـدة إلى الأسقف المنتخب لوينكستر، وكـان قد أودعهـا في دوفر، وأعطيت هذه الأمـوال إلى أربعة فـرسان، وقـدمت إليهم نقداً، لتجهيز مـاهو ضروري لرحلة، كـانوا ربما سيقـومـون بها إلى رومـا، وذلك باسم الملـك وباسم نبـلاء انكلترا، ليترافعـوا لصـالح قضيـة البـارونات، من دون أي خـلاف أو تأخير، وليعلمـوا البـابا بخبر العثـور على أوراق بيضـاء مختـومـة بالختم البابوي الكبير، في صندوق عائد إلى المعلم بيرارد دي نيمفا، وكان ذلك بعد وفـاته، وليبرهنوا له في الوقت نفسه بوسـاطة هذه الأوراق البيضاء المختومة، وليروه البدع الكثيرة، والكثيرة المضـاعفة، التي سعى الرومان بوسـاطتهـا لتلويث البـلاد، وأخـذ المندوبـون معهم هذه الأشكال من الأوراق البيضاء المختومة بالختم البابوي الكبير، وقت اكتشافهم.

قلق ملك فرنسا من أجل إقامة سلام دائم مع إنكلترا

كان ملك فرنسا الأكثر تقوى، يدرس بنشاط الوسائل التي تمكن من إقـامـة سـلام دائم بين مملكتي فـرنسـا وانكلترا، لأنه قـال: «ينبغي بذل أعظم الجهود في سبيل تأسيس سلام ثابت ودائم بين أبنائي وأبناء ملك انكلترا، الذين هـم أبناء خـالة، والذين سـوف يكونـون بفضل الرب

ملوكـاً، حتى لاتستمـر المملكتــان بقضم بعضهما بعضـاً، بناء على إثارة عدو الجنس البشري، ولكي لايقـوم السكان بتبادل أعمال النهب، وقتل بعضهم بعضـاً، وبذلك سـوف يقذفـون في جهنم»، ولذلك أمـر بجمع مبلغ كبير من المال، حتى يســاعـده على تنفيـذ خططه التـي أبدعهـا في عقله، واعــداً رعـاياه الفــرنسيين بأنهم سـوف يجنـون منافع كبيرة من اسهاماتهم، ورجاهم أن لايغضبوا من التكليف القصير العمر، الذي منه سيحصلون على منافع دائمة للمستقبل.

تعيين أربعة فرسان في كل كونتية للبحث في مآسي الفئات الدنيا

وصدرت في هذه الآونة مذكرة عن الملك إلى كل كـونتية، موجهة إلى أربعة فـرسان يجري تعيينهم في كل كونتيـة، للقيام ببحث دقيق ومخلص في طبيعة المظالم وسماتها والمآسي التي عانت منها الفئات الدنيا على أيدي جيرانهم الأكثـر قوة، وليتـولوا الفحص بكل دقـة والتمحيص في سبب كل شكوى وأذى، تسبب بـه أي واحـد كــان، وأنزل بأي واحــد من الناس، وذلك لوقت طـويل مضى، ولكي يجلبـوا نتـائج فحـوصـاتهم، مغلقة تحت أختـامهم، حتى يعرضوها أمـام البارونات في موعـد جرى تحديده في تلك الرســائل، التي من الممكن الـوقـوف عليهــا في كتـاب Additaments.

غضب الملك ضد فيليب لوفل
بسبب الأضرار التي لحقت بالغابات

ومع بداية أيـام الحصـاد من هذا العـام، قــام الملك بفحص دقيق في أوضـاع غـاباتـه في أحـواز ستـوني ستراتفـورد Stony Stratford, وقد نمي إليه بأن فيليـب لوفل الذي كان كاتباً ومستشاراً خـاصاً به مع خـازنه، قـد تسببـا بأضرار لاتعوض للغـابات الملكيـة، وكـان الملك في الحقيقة قد منحه بشكل حر وبكرم ملكي عدداً من الحيوانات للاحتفاظ

بها في حدائقه، ولاستخدامات مائدته، غير أنه أساء استخدام معروفه، وبلا حياء تجاوز العدد المسموح به إليه، فوصل إلى درجة عشرة أضعاف، كما أفاد التقرير.

وغضب الملك غضباً شديداً تجاه هذا، وقام بفحص داخل الغابات، فوجدهم فارغين من الحيوانات، وأخبر —كما ذكرنا أعلاه— بأن فيليب لوفل كان السبب في هذا، فأمسكه بقسوة من ذراعه قائلاً: «فيليب، بحق رأس الرب، إنني أعتقلك بحكم كونك الأكثر انحطاطاً بين رعيتي»، وكان فيليب راغباً في تهدئة غضب الملك، لذلك رد عليه بلطف واعتدال وتذلل قائلاً: «مولاي الملك، الذي أنا خدمتك باخلاص لبعض الوقت في بيت مالك، هناك عدد كبير من المسؤولين عن الغابات، وبشكل خاص في ويتلوود Whittelewood, الذين مارسوا الطغيان ضد أتباعهم من سكان الريف، والذين حولتهم جرائمهم إلى أناس لايمكن تصديقهم، وذلك حسبما يمكن لرئيس رهبان ورهبان دير بيكل Beccles أن يبرهنوا، ولذلك —إذا تفضلت— لاتصغ بسرعة للإفادات السرية والخفية لمثل هؤلاء المتهمين، لأنهم يسعون إلى تشويه سمعة الملك، حتى يمتلك أعداءه سبباً للقول: ينتهي الملك، مثل الشيطان باعتقال وتدمير الذين خدموه، حتى أن ذلك طال الذين خدموه على أحسن مايرام في وظائفهم»، وأثير الملك أكثر بهذا الكلام، وأمر بإيداع فيليب في سجن المارشال، وهو يقول بصوت مرتفع: «بما أنني رفعت من شأنك مع آخرين، وبفضل مني عينتك في وظائف عالية ومربحة، ولذلك توجب عليك خدمتي بدقة أكثر وباخلاص أعظم، ولهذا إنك تستحق أن تعاقب بشدة أكبر لأخطائك وآثامك»، وهذه الكلمات نفسها قد اعتاد أن يستخدمها مراراً ويقولها إلى روبرت باسليف، عندما أخذ ذلك الشخص بالتمرد على سلطته، قبل بضع سنوات خلت، لكن فيليب، الذي كان قد عمل

أعمالاً صالحة لكثير من الناس، لم يكن من دون أصدقاء، ولدى عثوره على بعض الأشخاص من ذوي المراتب العليا كفلاء له حتى يستطيع اثبات براءته، أطلق سراحه لبعض الوقت، وذلك إلى أن يتمكن كما أمل بأن يتم اطلاق سراحه تماماً.

إلقاء عمدة نورثأمبتون في السجن

اقتفى عمدة نورثأمبتون طريق سلفه، وليم دي لآيل، الذي كان عمدة قبله، وقلده حيث أثير بالشره، فألحق الأذى بعدد من الأشخاص الأبرياء، وعملت شكاوي حول سلوكه إلى هوغ بيغود، المسؤول الرئيسي عن العدالة، فوجده مجرماً باقتراف عدد من أفاعيل الأذى والظلم، ومع اقتراب حلول ميلاد مريم المباركة، اعتقل، وأودع في سجن مضيق عليه، وقد نجا بذلك بصعوبة بحياته.

وفاة روجر أوف ويكهام

وفي هذه الآونة مات روجر أوف ويكهام Wickham, وكان كاتباً خاصاً ومستشاراً للملك، وقد شغل منصب المسؤول عن العدالة، واستخدم غاية جهده لتقديم الترضية للملك بتنفيذ أوامره.

وفاة وليم أوف تارنتوم

ومات في هذه الآونة أيضاً وليم أوف تارنتوم Tarentum, وكان راهباً من طائفة رهبان السسترشيان، وكان ناظراً ونوعاً ما قهرماناً للملكة، وقد ضل هذا الرجل وابتعد كثيراً عن أحكام القديس بندكت، وكان مثاراً بشره لايعرف الاستقرار ولاالشبع، فقام إما ببيع أو برهن جميع الممتلكات والعزب لصالح الملكة، حيث زاد بذلك بشكل واسع ممتلكاتها، لكنه بزيادة خسائر الآخرين وتعريضهم للمخاطر، أساء إلى سمعته بشكل لايمكن تعويضه، ومع أن الرهبان، خاصة الذين كانوا من طائفته، وجه إليهم اللوم من أجل أخطاء وليم المذكور، وجرى

تقريعهم معه، وجلب هذا سوء السمعة للطائفة كلها، مع ذلك صنعت له الملكة الأعذار، ورخصت أغلاطه، وبذلك سمحت لذنوبه بالازدياد لسنين كثيرة.

كيف جرى إرسال رسل إلى البابا باسم جماعة إنكلترا

وجرى ارسال رسل خاصين إلى البابا باسم المملكة وجماعة انكلترا كلها، مع أوامر بتقديم رسائلهم على الفور، ومن ثم العودة بأقصى سرعة ممكنة، من دون انتظار أو اصغاء إلى أية مناقشات أو مباحثات، وكان واحداً من هؤلاء هو بطرس برانشي Branche, وكان رجلاً من أكثر الناس فصاحة وتقوى، وقد مات في باريس، مما نشر الذعر وسبب الحزن للبقية، غير أنهم تابعوا سفرهم، بتصميم على الاستمرار، وتحقيق غرض بعثتهم، وكل من يرغب في معرفة هدف رحلتهم، وأن يرى نسخة عن الوثيقة التي كتبت من قبل البارونات، يمكنه أن يجدها في كتاب Additaments.

الخيانة التي اقترفت ضد الويلزيين

وفي إحدى المناسبات، عندما كان الانكليز عاقدين لمراهنات سلمية مع الويلزيين، وجدوا أن فئتهم أكثر عدداً وأعظم قوة من الويلزيين، فقال واحد من الفرسان الانكليز لباتريك، الذي كان مقدمهم: «مولاي باتريك، إنك بارون عالي المقام لدى الملك، وأنت مقدمنا اللامع والمحامي عنا، انظر لقد قام الرب، إله الحشود، والمنتقم، بوضع أعداءنا بين أيدينا، لأننا أقوى وأكثر عدداً من الويلزيين، دعنا نهاجمهم وهم غارين، وأن نرسلهم أسرى إلى مولانا الملك، الذي إليه هذا النصر سوف يكون مقبولاً كثيراً، لكن إذا لم تستجب لطلبي، سوف أتهمك بأنك خائن للملك»، وعندما سمع الانكليز بهذه الخطة المقترحة، ولاسيما رجال الحدود، الذين نسميهم رجال التخوم، انقضوا فجأة على

الويلزيين، وهكذا قتلوا بشكل خياني كثيرين منهم، ولكن بعد وقت قصير وقع ثقل المعركة على رجال التخوم هؤلاء أنفسهم، وسقط عدد كبير من هؤلاء الخونة قتلى بدورهم، وكان بينهم البارون باتريك المتقدم الذكر، أما الجبان الذي اقترح اقتراف هذه العملية الخيانية، فقد نجا خلسة من ميدان المعركة عندما كان الآخرون يقاتلون بحدة.

وكان قائد الويلزيين في هذا الصراع الدموي، داود، الأصغر بين ثلاثة إخوة، كانوا أبناء للويلين الكبير، الذي كان قد حاز على كثير من الانتصارات التي تستحق الذكر بشكل خاص، وقد قيل عنه الكثير من قبل في هذا الكتاب في الأماكن المناسبة، وكان هناك ابن آخر من أبناء للويلين، وكان اسمه أيضاً للويلين حاضراً في هذه المعركة، وتصرف بنفسه بشجاعة كبيرة ضد الانكليز، محتذياً حذو والده في كل سبيل، ومبرهناً عن نفسه أنه لم يكن ابناً متدنياً، وكان الابن الآخر، وهو الأكبر بين الثلاثة، محفوظاً في سجن مشدد عليه.

تكريس غودفري رئيساً لأساقفة يورك

وعند اقتراب حلول عيد الميلاد، جرى تكريس المعلم غودفري المتقدم ذكره في روما رئيساً لأساقفة يورك، حيث تبين إلى كل من البابا ولجميع الذين فحصوه أنه مناسب وشخص موافق لذلك المنصب، وبعدما أنهى بشكل موائم الأمور المتعلقة بكنيسته، عاد في الوقت المناسب ليتولى ادارتها وتسييرها.

رغبة رئيس أساقفة كانتربري في أداء بعض القداسات في كنيسة القديس ألبان

وكانت كنيسة لنكولن شاغرة في هذه الآونة، ولذلك أرسل رئيس أساقفة كانتربري رسالة إلى رئيس رهبان كنيسة القديس ألبان، اقترح فيها القدوم إلى هناك، وتقديم بعض القداسات (إذا كان ذلك موافقاً

عليـه من قبل رئيس الرهبان) في الكنيسـة الديرية هناك، ولدى وصـول هذا الخبر، بات رئيس الرهبـان مـذعـوراً، خشيـة أن يجري تجريد هذه الكنيسة من امتيـازاتها بأية طريقة من الطرق، وبعد القيـام بالمشاورات، قرر معارضـة رغبته، وبناء عليه جرى اخبار رئيس الأسـاقفة جواباً، أنه لن يستقبل للقيام بهذا بأي شكل من الأشكال، لأنه من الواضح أن دير كنيسـة القـديس ألبـان كـان منذ القـديم معفيـاً، الأمـر الذي ينبغي أن لايكون سراً بالنسبـة له، ولأنه كان في ذلك الوقت مستحـوذاً على ادارة كنيسة لنكولن، التـي كانت شاغـرة، كان من المعـروف بشكل جيد أنها مستثناة كليـاً وخـارج امتياز كنيسـة القـديس ألبـان، ولدى سماع رئيس الأساقفـة بهذا تخلى بهدوء، لأنه وجد أن متـابعة العمل في هـذه القضية سـوف يكون بلافـائـدة، ولذلك تولى اعطاء قـداسـات في دنستيبل Dunstable, وقـد طلب على كل حـال بأن يستقبل ضيفـاً في كنيسـة القديس ألبـان من باب الكرم، وبناء عليـه، جرى استقبـاله أثناء الذهاب وأثناء الاياب، بلطف واحترام، وتم تزويـده بوفرة من الطعـام عندما كان هناك، وبذلك كان راضياً تماماً، وتقدم بالشكر إليهم، وبارك في الوقت نفسـه كل من المضيفين والضيـافـة، وترك كنيستهم مع جميع ممتلكاتها دونما ازعاج، ودونما أذى.

انتخاب بندكت أوف غريفسند أسقفاً للنكولن

في يوم الاثنين التالي قبل عيد القـديس ميكائيل، جرى انتخاب المعلم بندكت أوف غـريفسند Gravesend, عميـد كنيسـة لنكولن أسقفاً لكنيسة لنكولن، وذلك بموافقة جميع الفرقاء، لأنه بدا لهم شخصاً جديراً بالثناء، وواحداً يبدو أنه لن يكون مهملاً لمصالح أي واحد يكون تحت سلطته.

تكريس كنيسة سالسبري

في اليوم التالي لعيد القديس ميكائيل، جرى تكريس كنيسة سالسبري Salisbury من قبل بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك بحضور الملك وكتلة عديدة من الأساقفة، وقام الأسقف بتأمين الضيافة لجميع الذين احتشدوا هناك أثناء القداس.

خلع فيليب لوفل من منصبه ومعه بعض الآخرين

في حوالي أيام عيد القديس لوقا الانجيلي في هذا العام، جرى طرد فيليب لوفل، خازن الملك من منصبه، بموجب قرار قضائي صدر عن البارونات، وبالنسبة للمنصب المتقدم الذكر تم تعيين جون دي كراشال Crachal, الذي كان رئيس شمامسة بدفورد Bedford, مكانه، ولم يحزن فيليب كثيراً لعزله شخصياً، وذلك بقدر ماحزن لسبب ذلك، ولسقوطه من منصبه العالي، فعرض على الملك مبلغاً كبيراً من المال في سبيل إعادة تأسيس اسمه الجيد، ولكي يكون صديقاً للملك، ولو من حيث المظهر على الأقل، ووفق الطريقة نفسها، وبموجب نصيحة من البارونات، وبشكل خاص من المسؤول الرئيسي عن العدالة، جرى صرف عدة آخرين من مناصبهم في بيت المال (الخزانة)، وتم تعيين آخرين محلهم، وجرى تعيين توماس وايموندهام Wy-mondham قائد جوقة المرتلين في كنيسة لشفيلد Lichfild خازناً لبيت المال، حيث يجري ختم المذكرات بالختم الأخضر.

كيف توبعت المراقبة والضبط لنهم العمد

وجرى ضبط نهم العمد بحكمة ولأسباب صالحة، لأن المرتزقة، قاموا متجاوزين كل الحدود، فمارسوا حتى الآن استخراج الهدايا من السكان، بأية وسيلة من الوسائل، سواء أكانت صحيحة أم خاطئة، وزودوا بعضهم بعضاً بزيادة مزارعهم، وركبوا وتجولوا مع حواشي

كبيرة، وظلموا سكان الأرياف باستخراجاتهم، وبحجج تافهة ومن دون أسس صحيحة، وبناء عليه تقرر أنه إذا ماأقدم أي واحد من ذلك الحين فصاعداً، على تقديم هدية إليهم بشكل سري أو علني، أي إلى العمد، أو إلى أي واحد منهم، من أجل الحصول على العدالة، أو من أجل تعطيل مسيرة العدالة الحقة —مالم تكن مثل هذه الهدايا مكونة من كمية لطيفة من الطعام والشراب— فإن كلاً من الراشي والمرتشي ينبغي عقوبته بقسوة.

المندوبون الذين أرسلوا من إنكلترا إلى البارلمان الذي عقد في كامبري

في حوالي عيد القديس ليونارد، توصلت جماعة الفرسان التي كانت مجتمعة في لندن، إلى قرار قضى بإرسال مبعوثين خاصين إلى البارلمان السري الكبير، الذي تقرر عقده في كامبري Cambray بين ممالك: فرنسا، وانكلترا، وألمانيا، وبقي الملك، بناء على نصيحة البارونات، في انكلترا، في حين وقع الاختيار على من سوف يتابع الإجراءات هناك ممثلاً لملك انكلترا وللمملكة فكانوا: أسقفي ووركستر ولنكولن، وروجر بيغود— الايرل مارشال، وايرل ليستر، وقد عبر هؤلاء القنال من أجل هذه الغاية، لكنهم لم يستطيعوا إيصال الأمور إلى أية نتيجة، لأن الملك الفرنسي تغيب شخصياً عن عمد، بسبب غياب الملك الآخر.

تكريس بندكت أوف غريفسند أسقفاً على لنكولن

في يوم الأحد الذي جاء بعد عيد جميع القديسين، جرى تكريس أسقف لنكولن في كمبردج، وقام بعد ذلك مباشرة بعبور القنال، حسبما ذكرنا أعلاه، وذلك لصالح الملك، وبذلك غادر كنيسة لنكولن وتخلى عنها، مع أنه عمل أسقفاً لها، ولم يزرها لوقت طويل من الزمن بعد ذلك.

كيف طالبت جوانا زوجة وليم دي بلنسية ببائنتها

في حوالي الوقت نفسه، عندما كان الملك مايزال في لندن، قدمت إليه جوانا زوجة وليم دي بلنسية، وطالبت بإلحاح وسرعة، بحضور هوغ بيغود، المسؤول الأعلى عن العدالة، والبارونات، بمنحها العدالة، وأنه ينبغي أن يسمح لها ببائنتها العائدة إليها، وبعد مداولات وافية حول القضية، جرى منحها جزء من الأراضي التي كانت عائدة إليها قبل زواجها من وليم المتقدم ذكره، أي أن ماجرى منحه لها كان يساوي بالقيمة خمسمائة مارك، وكان ذلك جزء من ميراثها، مع أن الأراضي التي تقدم ذكرها قدرت قيمتها بمبلغ يزيد على ألف مارك، وذلك أنهم خافوا من أنهم لو سمحوا بأكثر من ذلك، سوف ترسل الشطر الأكبر منه إلى زوجها، الذي كان عدواً معلناً للمملكة، ولم يرغبوا بأخذ كل شيء منها، خشية أن تتعرض امرأة بريئة للعقوبة بسب ذنب إنسان آخر.

كيف جرى تتويج مانفرد ملكاً على أبوليا

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً، بدأ البلاط الروماني يعاني من سوء السمعة، ووضح هذا في اقدام أساقفة أبوليا ونبلاؤها، على انتخاب مانفرد ابن الامبراطور فردريك، وتتويجه ملكاً عليهم، على الرغم من عدم موافقة البابا، وكان مانفرد مثله مثل أسرته كلها، نظر إليه نظرة تحدي من قبل البابا والبلاط الروماني كله، وفضلاً عن هذا تولى ملك أبوليا تعيين أساقفة ورؤساء أساقفة من دون أن يطلب موافقة البابا، وأحياناً جاء التعيين حتى ضد رغبته، وأظهر هؤلاء جميعاً بالاجماع، وعلى الرغم من تحريم البابا طاعة كبيرة للملك المذكور، وقدموا المزيد من التشريف والاحترام أكثر مما قدموه إلى البابا، ولم يقم النبلاء أيضاً بأي ذكر لادموند، ابن ملك انكلترا (الذي إليه أعطى البابا مملكة أبوليا وعينه عليها بوساطة خاتم سلمه إياه أسقف بولون) بل قدموا الولاء،

وأقسموا على الاخلاص لمانفرد هذا نفسه، وأعطوه تملكاً كاملاً واستحواذاً لمدنهم ولقلاعهم، ونتيجة لهذا اشتكى ملك انكلترا —وهو يمتلك سبباً منطقياً— إلى البابا، بأنه قام بالتعاون مع الكرادلة، بشكل غير صحيح، وبحجج كلها دهاء ومكر، فسحبوا كثيراً من المال من مملكته، في سبيل الحصول على مملكة أبوليا، لكن ذلك كله جاء بلامحصلة وذهب من دون فائدة، ومع هذا استقبل هو —أي ملك انكلترا— بكل تشريف رسل البابا، الذين أرسلوا إلى انكلترا، ومن هؤلاء على سبيل المثال: الراهب جون ديفا، والمعلم برنارد أوف سيينا، وأسقف بولون، ورئيس أساقفة ميسينا، وعدد كبير آخر، الذين قدموا نواباً من أجل تسهيل أعمال ابنه ادموند في قضية مملكة أبوليا، وهو الذي سمح لهم باستخراج مبالغ كبيرة من الطوائف الرهبانية، وعلاوة على ذلك، قام في الوقت نفسه مواطنو فلورنسا فدمروا حتى الأرض إحدى القلاع التي كان الكاردينال أوكتافيان قد بناها، والتي كانت هدفاً للريبة من قبلهم.

كيف جرى تعيين عم (خال) برانكليون شيخاً لروما

في يوم عيد القديسة سيشيليا Cecilia العذراء، الذي وقع يوم الجمعة، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، وبقي هناك الأيام الثلاثة المتوالية، وفي يوم عيد القديسة كاترين، أمر بحمل تمثال الشهيدة في مسيرة مهيبة حول الدير، حيث كان رهبان الدير قد ارتدوا أفخر الملابس، وسار هو ومعه حاشيته خلف المسيرة، بتقوى واحترام بتقديم هبات.

وعندما كان مقيماً هناك، وصل إليه رسل أعلنوا له بأن وولتر كومين Comyn, الذي كان أقوى ايرل في سكوتلندا قد أذعن للمنية، فقد مات نتيجة السقوط من على فرسه، الذي كبا به فوق بعض العوائق على الطريق، وألقى به، وكسر رجليه، وجلبت إليه رسالة أخرى أيضاً،

تعلن بأن جون فتز– غيوفري قد غادر طريق الجسد قرب غيلدفورد Guildford, وقبل أن يغادر الملك أمر بعمل قداس مهيب.

ووصلت إلى الملك أيضاً المزيد من المعلومات، أفادت بأن برانكليون المتقدم ذكره، الذي كان شيخ الرومان، قد أخذ من بيننا حسبما ذكرنا أعلاه، مما ألحق ضرراً كبيراً بمدينة روما، وأن عمه [خاله] جرى تعيينه عوضاً عنه.

عودة رئيس أساقفة يورك بعدما جرى تكريسه من قبل البابا

عندما غادر الملك كنيسة القديس ألبان، ذهب نحو إيلاي والقديس ادموند، وفي ذلك الوقت بالذات، وصل أيضاً رئيس أساقفة يورك إلى انكلترا من بلاد ماوراء الألب، وعند وصوله إلى لندن، أمر بحمل صليبه بشكل معلن أمامه خلال وسط المدينة، ثم إنه ذهب إلى الملك، حيث استقبل بالتشريف المناسب من قبله، وبعد ذلك انطلق نحو الشمال من انكلترا، وقد استقبل في رئاسة أسقفيته، بمثابة أب وراع للناس بفرح عظيم، وبعد ذلك بوقت قصير عيّن عميداً ليورك المعلم روجر أوف هولدرنس Holderness, الذي كان كاهناً في كنيسة القديس ألبان، وجاء ذلك بمثابة مكافأة على فضائله، ولأنه هو نفسه كان من أهالي منطقة القديس ألبان، وبمنحه لمنافعه درس بأن تكون المنح وفقاً للاستحقاق.

حرمان وإبعاد غي دي روشفورت

وفي هذه الآونة نفسها نال غي دي روشفورت Rochfort, الذي كان بواتيا من حيث الأصل، والذي كان الملك قد منحه منذ عامين مضيا قلعة كولشيستر Colchester بموجب صك مع المراتب الشرفية العائدة لها، نال غضب الملك والبارونات، وقد حكم عليه بالنفي مع المعاناة من مصادرة جميع ممتلكاته، وسبب ذلك هو أن

كثيراً من الشكاوي المكررة قد عملت ضده، وأنه قد ظلم كثيراً وآذى سكان المنطقة، خاصة الذين كانوا خاضعين له، ولكن حقيقة كونه بواتياً قد زادت من آثامه أكثر من أي من آثامه الأخرى.

الاتهام الذي عمل ضد وولتر أوف سكوتني الذي اختفى سراً

انسحب وولتر أوف سكوتني Scotenny, قهرمان ايرل غلوستر، وتغيب عن الايرل المذكور، وأخفى نفسه مع بعض أصدقائه في بعض المناطق البعيدة عن الأنظار، لأنه اتهم أنه قام بدناءة وبشكل خياني فدس السم إلى مولاه الايرل، وإلى أخيه وليم، ومن تأثير هذا السم مات وليم المذكور، وتعرضت حياة الايرل للخطر، وكسب الاتهام الذي أعلن ضده المزيد من الوزن من حقيقة أن وليم المتقدم ذكره، عندما كان على وشك الموت، أعلن بأن وولتر سكوتني المذكور كان مجرماً مداناً بذلك العمل الخياني، وكان هناك شيئاً واحداً مؤكداً، هو أنه ما أن عمل تلك الافادة حتى مات فجأة، وحدث على كل حال بعد مضي بعض الوقت أن عرض وولتر المذكور القيام بتبرئة نفسه من الجريمة التي عزيت إليه، علنياً وبشكل صحيح.

سجن وليم دي بوسي

وتمّ في هذا الوقت نفسه اعتقال وليم دي بوسي، قهرمان وليم دي بلنسية، وأكثر الناس شروراً، وألقى به في سجن مضيق عليه في قلعة لندن، بسبب دناءته وجرائمه الظالمة وآثامه.

سفر جوانا زوجة وليم دي بلنسية

في أيام عيد ميلاد مولانا، عبرت زوجة وليم دي بلنسية القنال، لتشارك زوجها في منفاه، وقد حرضت على التصرف هكذا، إما لحبها له، ورغبة في أن تكون برفقته، أو غضباً منها لتوزيع أراضيها، حيث بدا

أنها تحولت إلى الفقر مع أنها تسلمت أربعمائة مارك(★).

الخلاف بين الباحثين في اكسفورد

وتفجر في هذه الآونة أيضاً خلاف جاد بين الباحثين في اكسفورد، الذين كانوا من مختلف البلدان، فقد كان بينهم أناس من سكوتلندا، ومن ويلز، وكذلك من جنوب انكلترا ومن شمالها، ووصل الخلاف إلى درجة (كان فيها مرعباً وحزيناً) أنهم عرضوا فيها أعلاماً متعادية، وقاتلت الفئات المختلفة بعضها بعضاً، وقتل أحدهم الآخر وجرحه بطرق متنوعة.

كيف رغب الويلزيون في إقامة سلام مع الملك

وفي العام نفسه أيضاً، لم يتقيد الويلزيون بانتصاراتهم المتوالية على خصومهم، وشرعوا بشكل حكيم يقدرون مستقبل الأحداث في عقولهم، وقاموا بالتشاور فيما بينهم وقالوا: «نحن نعلم بأن مملكة انكلترا في حالة اضطراب كبيرة، ولكن عندما يتأسس السلام، وهو عمل يحاول نبلاء البلاد تحقيقه، نحن لن نستطيع مقاومتهم، عندما ينقضون علينا وهم متحدين، ودعونا نقدر، فوق كل شيء، أن أخا للويلين، الابن الأكبر لمولانا غريفين، الذي مات في السجن في لندن، هو الآن موجود في السجن، وأنه إذا ماأطلق سراحه، سوف يثار للقيام بالانتقام، ولسوف يميل أخويه الآخرين: داود، وايدريك Edric نحو الشيء نفسه، ولسوف ننقسم، ونتعرض للدمار، وفي تلك الحالة اليائسة، إنه إذا ما هاجمنا الانكليز، سوف يطلبون من أيدينا حساباً عن دماء إخوانهم، ولسوف يقتلعوننا من على وجه الأرض، ولسوف يسحقوننا من دون عودة، مثل قطعة من الفخار»، وعلى هذا قاموا

(★) ذكر قبل قليل أن المبلغ كان خمسمائة.

بموافقة عامة فعرضوا على الملك أربعة آلاف مارك، وثلاثمائة إلى ادوارد، ومائتين إلى الملكة، على شرط أن يتم العفو عن جميع أسباب الخلاف، وأعمال العدوان، والصراع، من على الجانبين بصورة كاملة، وأنه ينبغي أن يسمح لهم بالتمتع بسلامهم المعتاد، وهدوئهم، وحريتهم، ولدى سماع الملك بهذه المقترحات اعتمد على النصائح الشريرة، فرد غاضباً حيث قال: «ماالذي يعنيه هذا إن رجلاً صالحاً واحداً هو أكثر قيمة من المبالغ التي عرضوها من أجل السلام المطلوب»، وهكذا بقي الطلب الذي عمله الويلزيون من أجل السلام من دون جواب، وقاموا هم —على كل حال— بالانتظار بهدوء وسلام، وهم يعلنون دوماً أنهم، حسبما كانت عادتهم دوماً —سوف يدافعون عن أنفسهم، وسوف يقاومون هجمات أعدائهم، ويدعمون قضيتهم، كرجال، إلى أقصى ماامتلكوه من قدرة.

عرض عام للأحداث خلال العام كلّه

كان هذا العام، خلاله كّله، لايشبه جميع الأعوام الماضية، فقد جلب المرض والموت، وعواصف ثقيلة من الريح والمطر، ومع أن لطف المناخ في الصيف وعد بموسم وافر من القمح، مع اعطاء وفرة بالفواكه، مع ذلك إن استمرار سقوط الأمطار الغزيرة أتلف القمح، والفواكه، وجميع الأنواع الاضافية، وفي بعض أجزاء انكلترا، حدث أنه مع قدوم عيد ميلاد ربنا، وحسبما ذكرنا أعلاه، أن الاهراءات بقيت فارغة، والقمح كان جاهزاً للحصاد، لكنه قد أتلف كلياً، وصحيح أن الحبوب المزروعة نمت وكسبت طولاً، فإن السنابل والسوق قد اهترأت مع بعضها، ولذلك مات الناس من الحاجة إلى القمح، وبناء عليه ماتت القطعان بسبب الحاجة إلى الأعلاف، ومع أن انكلترا كانت قد نزفت وصارت فارغة من المال بسبب حجج متنوعة، أجبر الناس بسبب ضغط الجوع على دفع ستة عشر شلناً، ثمناً لمكيال القمح، والقمح مايزال غضاً ونامياً

لم ينضج، ونتيجـة لهذا تلاشى الفقير وهلك من الجوع، ومات، وابتعـد الناس الذين كـانوا يموتون وتخفـوا في مناطق مختلفة، ليتخلوا عن آخـر أنفاسهم التعيسة، ومن هؤلاء كانت هناك أعداداً كبيرة جداً، إلى حد أن الذين كـانوا يحفـرون القبور قـد صرعهم الانهاك، وكـانوا يلقون بعـدة جثث في قبر واحد، أما بالنسبة للناس من الطبقة الوسطى، فإنهم عندما شـاهدوا أنه لم يعـد لديهم أطعمـة، باعـوا مـواشيهم، وأنقصـوا تعـداد العاملين لديهم، وتركوا أراضيهم من دون زراعة، حيث أن جميع الآمال بالنهوض من هذه الهاوية، وهي الآمال التي كانت بالعادة تواسيهم، قد خمدت وزالت تماماً، ولولا أن القمح جلـب من القارة، لهلكت انكلترا، من دن شك، بذاتها.

رؤيا إحدى النساء المقدسات

ظهرت في هذه الآونة رؤيا واضحـة تماماً ومرعبة إلى ناسكة مقـدسة في دير القـديـس ألبـان، وقـد تبرهنت هـذه الرؤيا، حسبما تحدث رئيس شمامسة المكان، وذكـر حقيقة، أن هذه لم تكن منامـاً، بل نوعاً من أنواع الهواتف، و تهديداً مخيفـاً من السماء، فقد رأت الناسكة المذكـورة، رجلاً متقدماً بالسن، ومحترماً بمظهره، حيث أعطته لحيته مظهراً صارماً، وكان واقفاً في قاعتـه، حيث بدا وهو ينسحب من ذلك المكان مغضباً، ليصعد إلى برج،ومن هناك التفت فألقى نظرة صـارمة نحـو البلدة، وأخذ يزمجر بصوت مهـدد قائـلاً: «الويل، الويل، للسكان فـوق الأرض»، وقد ردد ذلك عدة مرات ثم عدة مرات.

كيف رغب رتشارد ملك ألمانيا بزيارة إنكلترا

عام ألـف ومائتين وتسعة وخمسين لتجسيـد الرب، وهو العـام الثاني والأربعين من حكم الملك هنري الثـالث ، وكان الملك المذكـور في لندن أيام عيـد الميـلاد، حيث كـان النبلاء مشغـولين بالتـداول بعمق، حـول

كيف، وهم ملتزمين بقرارهم السليم، يمكنهم التعامل مع الرغبة التي عبر عنها رتشارد ملك ألمانيا، الذي تشوق بشدة —حسبما أخبروا— للقدوم إلى انكلترا، ليزور أقربائه وأصدقائه وبلاد موطنه، وليتفقد ممتلكاته، لأنهم ارتابوا بأنه بقدومه سوف ينفس عن غضبه، وعن سخطه على البارونات، وسوف يتهمهم بأنهم الآن ينكلون بأخيه الملك هنري، ويظهرون كراهيتهم له، مثلما فعلوا من قبل إلى أبيه الملك جون، وكما فعلوا مؤخراً بالحكم الذي أصدروه على إخوته لأمه بالنفي، وكأنهم كانوا مجرمين قد اقترفوا أعظم الجرائم، في حين أنهم كانوا في الوقت نفسه أبرياء، وعلاوة على ذلك خافوا بأنه سوف يعمل من إخوته هؤلاء أنفسهم أعداء عامين للمملكة، وهو إما سوف يعيدهم معه خلسة، أو أنه سوف يتدبر في مستقبل الأيام قيام مصالحة، وسوف يحرضهم بصورة خيانية على العودة إلى انكلترا، حتى يدوسون عليها تحت أقدامهم، مما سيؤدي إلى دمار أعظم للسكان، وسوف يسبب نشوء غلطة جديدة أسوأ من الغلطة الأولى، ومثل هذا خافوا من أنه سوف يعيق قراراتهم السليمة ويقف ضدها، وهي القرارات التي استهدفت إحداث ترتيبات جديدة لشؤون المملكة، وأنه بعدما يعيقهم في خططهم، سوف يعيد تأسيس النظام القديم للأشياء، وسوف ينفيهم، أي البارونات واحداً بعد الآخر، وسيقوم أخيراً بتجريدهم من ممتلكاتهم.

كيف تمت إدانة اليهود بالخيانة وكيف نجوا من العقاب بالتعميد

ومع اقتراب الوقت من عيد ميلاد ربنا بالجسد، تمت إعادة ولادة واحد من مخلوقاته بالروح، فقد قام الياس اليهودي اللندي، الذي كان لقبه الأسقف، وقد كان خائفاً من أنه في خطر الادانة لاقترافه بعض الجرائم، قام بالفرار إلى جرن المعمودية من أجل السلامة والحفظ، وهكذا جرى تطهيره بوساطة الإجراءات الصحيحة للتعميد، وكان

ذلك بصحبة اثنين آخرين، وبذلك تم انتزاعه من بين صفوف الشيطان، وحفظ من العقوبة المستحقة لاقترافه من قبل جريمة دنيئة جداً، لأن تقريراً قد أفاد بأن ذلك السم السائل، الذي جلب الخطر والموت لكثير من نبلاء انكلترا، قد عمل في بيته، وقيل بأنه قام عن طواعية فسمح بالتنفيذ والممارسة، لكنه كان في ذلك الوقت شيطاناً، وهو الآن قد تبدل إلى مسيحي، وقد تغيرت أعماله وفقاً لأحواله.

كيف جرى بدهاء إرسال مبلغ كبير من المال إلى الخارج من خلال مكر زوجة وليم دي بلنسية

وانتشرت الآن أيضاً شائعة في جميع أرجاء المملكة، بأن إخوة الملك، الذين ساءت سمعتهم، كما ذكرنا من قبل، تمكنوا في سبيل إلحاق خسارة كبيرة وضرراً عظيماً بالمملكة، من نيل ثروة عظيمة بوساطة مبلغ كبير من المال، وجاء ذلك بفضل براعة امرأة، وربما بوساطة تعليمات مكتوبة من البواتيين إلى جوانا زوجة وليم دي بلنسية، التي غادرت انكلترا مع مبلغ كبير من المال، وقد حرضها على ذلك حبها لزوجها ورغبتها باللحاق به، ووفقاً لما جاء بالتقرير، قامت جوانا المتقدمة الذكر، ببراعة نسائية فاشترت كمية كبيرة من الصوف، أمرت بوضعها بشكل أمين ومحكم في أكياس، وخبأت وقتها بين الصوف مبلغاً كبيراً من المال، ثم إنها وضعت الأكياس داخل بعض العربات المتينة، وكأن الذي فيها صوف خالص فقط، وأرسلت بهم إلى بواتو في أول فرصة مناسبة، وبناء عليه، إنه مع أن الكثيرين قد ذكروا من قبل أن الأموال العائدة إلى وليم المتقدم ذكره، قد تمت مصادرتها في كل مكان كانت مودعة به ومخزونة، لقد تبين من هذا الإجراء أنه لايمكن الوثوق بمثل هذه التقارير، ولاالاعتماد على مصداقيتها.

وفاة فيليب لوفل

أثناء القيام باحتفالات عيد الميلاد، ومن أجل أن لاتعبر مباهج هذا العالم غير ممزوجة بالموت، مات فيليب لوفل الذي كان المستشار الخاص بالملك، وخازنه قبل ذلك، وحدثت وفاته في يوم عيد القديس توماس في كنيسة هامستيبل Hamestable, وكان سبب موته الأسى، كما ذكرنا من قبل، ومرارة الروح، لأنه لم يتمكن من المصالحة شخصياً مع الملك، الذي كان قد خدمه من قبل، فقد طلب الملك منه مبلغاً كبيراً جداً من المال، من أجل الجرائم التي اقترفت من قبله، وفقاً لتقرير رجال غاباته، وعندما أخبر بوفاة فيليب، أمر بمصادرة جميع الممتلكات والمقتنيات العائدة له، وذلك حتى تمّ ارضاء طلباته.

زواج فيليب ابن الملك الفرنسي

وفي حوالي الوقت نفسه، من العام التالي، تزوج فيليب ابن الملك الفرنسي، من ابنة ملك أراغون.

تطويب رتشارد أسقف شيكستر

وفي هذه الآونة، على الفور مع بداية العام المقبل، أدخل البابا أوربان اسم رتشارد، أسقف أوف شيكستر، في قائمة أسماء القديسين.

انتخاب هنري أوف وينغهام أسقفاً لوينكستر

وفي الوقت نفسه أيضاً، وجد رهبان وينكستر، أن الملك لن يقبل أي واحد انتخبوه أسقفاً، مالم يكن صديقاً خاصاً به، خاصة بعد طرد أخيه ايثليمار، ولذلك انتخبوا هنري أوف وينغهام Wengham, مستشار الملك، ليكون أسقفهم وراعياً لنفوسهم، وقام هو على كل حال، بالنظر إلى انتخابه على أنه مسألة غير مؤكدة، ومن الممكن أن تثير مشكلة الشرعية، ولذلك لم يوافق على الانتخاب له شخصياً، ومع أنه كان

لايشك بالحصول على حظوة الملك، فقد أعلن أنه غير كفء لشغل مثل هذا المنصب الرفيع، ولأن يتحمل المسؤولية عن النفوس، يضاف إلى هذا أنه لم يكن متميزاً بشكل صحيح في دراسة اللاهوت، وفي الكتابات اللاهوتية الأخرى، وبعد لأي أعطى نوعاً من الموافقة، وقد قبل عن طواعية من قبل الملك، ولكن وفقاً للشرط التالي، وهو أنه إذا ما تمكن إيثليمار —أخو الملك— الذي كان الأسقف المنتخب من قبل، تمكن من الحصول على نعمة التكريس من البابا، له حق الأسبقية قبل جميع الآخرين بأن يجري تنصيبه في كنيسة وينكستر المذكورة، وأن لايجري تعيين هنري المذكور مكانه، فقد استبقى الملك لأخيه حق الاحتفاظ بالمنصب.

كيف جرى إرسال مندوبين للقاء رتشارد ملك ألمانيا

بعدما عقد البارونات مؤتمراً عاماً، فيه جرت مناقشات كثيرة تعلقت بقدوم رتشارد ملك ألمانيا إلى انكلترا، لذلك أرسلوا مندوبين خاصين لاستقباله، وتشكل هذا الوفد من: أسقف ووركستر، ورئيس رهبان دير القديس ادموند، وبطرس أوف سافوي، وجون مانسيل، وكانوا كافين بأنفسهم لمعالجة قضية زيارته المفاجئة وغير المتوقعة لانكلترا، وكذلك ماتعلق باقتراح طول الإقامة هناك، وأمام تساؤل كثيرين، كان الايرل سيمون مايزال مقيماً في القارة، ولذلك كان اجتماع البارونات غير مكتمل إلى حد كبير، وكانوا يخافون من بعض المؤامرات الخفية، وكان بين الأشياء الأخرى التي خافوا منها، هي أن الملك وإن تظاهر بنظرة هادئة مع رباطة جأش، سوف يتعاطف مع إخوته المنفيين، وسوف يتشكى إلى أخيه المتقدم ذكره، ملك ألمانيا، بأن الانكليز بعدما لاحقوا والده الملك جون حتى الموت بكراهيتهم القاتلة، إنهم الآن بالطريقة نفسها يطاردون أبناءه وأحفاده، كأن مشاعر الغضب والكراهية قد انتقلت إليهم بالوراثة، والأذى الذي اقترف بحق ملك انكلترا، ينبغي رفضه بالدرجة نفسها من

قبل ملك ألمانيـا، ولذلك اقترح نبـلاء انكلترا، أن يطلبـوا من ملك ألمانيـا أداء يمين، قبل أن ينزل في انكلترا، بأنه سـوف لن يلحق الأذى بمملكة انكلترا، بأي شكل من الأشكال، كما أنه لن يعيق الترتيب العام للأعمال، لكن ماهي الفائـدة التي ستحصل من ذلك؟ لأنه ربما سيقول فيما بعد أنه أرغم على أداء اليمين ضد إرادته، غير أنه لم يكن معروفاً بالنسبة إلى عامة الناس فيما إذا كـان هذا سيعبر هكذا، فأنا لايمكنني أن أغـامـر في تأكيـد هذه القضية في هذا الكتـاب، ولقد أفيد بشكل عـام بأنه قد أقسم، حسبما جرى الترتيب أعلاه، وأعطى رسالة معتمدة توافقت مع الذي طلب منه.

كيف انطلق الملك وسافر لاستقبال أخيه رتشارد

وبادر الملك في الوقت نفســه مسرعـاً نحـو شـاطىء البحـر، وكـان بصحبتـه كتلة كبيرة جـداً من النبـلاء، الذين كـانوا —من باب الحذر والاحتيـاط— مسلحين بشكل جيـد، ويمتطون الخيـول، لأنه أفيـد بأن رتشـارد المذكور قـد اقترح وعـزم على جلب واحد أو أكثـر من إخـوته معه، وهم الذين طردوهم بموافقة عامة، وأن هدفه من وراء ذلك إلغاء القرار حول تلك القضية، وذلك حتى يتمكن من إعادتهم إلى أوضاعهم الماضية، الأمـر الذي سوف يتحمله البارونات بكراهيـة، وأمر الملك بأن يعلن في لندن بـوســاطة المنادي، بـوجــوب تنظيف المدينة مـن الوحل والقاذورات، ومن جميـع الأخشاب المعيقة، ومن كـل شيء يؤذي عيون المشـاهدين له. فهـذا ينبغي ازالتــه،وأن تزين المدينة بالأعـلام المعلقـة، وبالأقمشة المعلقة، وبجميع أنواع الزينة الجديدة ومظاهر الاحتفال.

جواب رتشارد ملك ألمانيا للمندوبين الذين قدموا من عند جماعة إنكلترا

وعلى الرسل الخاصين، الذيـن أرسلوا هكذا من قبل جماعــة انكلترا، قـام ملك ألمانيا الذي كـان ينتظر على الطرف الآخر من القنال، ويتـولى

جمع جيش قوي وكبير العدد، بالرد بنظرة حادة، وبلهجة مهددة، مقسماً ببلعوم الرب: «إنني لن أؤدي اليمين الذي طلبتموه، ولن أثبت موعداً لإقامتي في انكلترا، بناء على طلبكم»، ثم إنه أضاف قائلاً: «لايوجد من يعادلني في انكلترا، لأنني ابن الملك الأخير، وأخاً للملك الحالي، وكذلك أنا ايرل كورنوول، ولذلك لو أن نبلاء انكلترا قد رغبوا في إصلاح أوضاع المملكة، كان المتوجب عليهم في المقام الأول أن يرسلوا خلفي، وأن لايقوموا بطيش ووقاحة بمحاولة معالجة هذه القضية الصعبة من دون حضوري وموافقتي»، وقد رغب واحد من المندوبين أن يقوم برد ما على هذا الكلام، لكنه منع من قبل رفاقه، وكان رده الذي نوى التفوه به كما يلي: «نحن غالباً ماتولينا تعيينك لأن تكون قائداً، في سبيل تحقيق إصلاح أحوال المملكة، ولكنك أثرت وحرضت بالشره، ولذلك سعيت دوماً للايقاع بنا بوساطة بدعك الماهرة، وكان ذلك يحدث في الوقت الذي كنا لانتوقع فيه أية إجراءات من هذا النوع، ولقد كنا نقوم بدراسة شاملة لتحسين أوضاع الملك وكذلك أحوال المملكة، ونتيجة لذلك تراجع الملك عن القرارات الصحيحة، وآذى كل واحد تمكن من إيذائه بعد ذلك».

ولتجنب إثارة أي خلاف من هذا التقريع، عاد المندوبون بأقصى سرعة تمكنوا منها، وهم راضين تماماً عن الأوضاع الحالية، لمشاعر ملك ألمانيا، لأن عدداً كبيراً من الناس، كانوا مجهزين بطرق متنوعة، كانوا بانتظاره، وعندما جرى الإعلان عن نتيجة المهمة إلى النبلاء الانكليز على هذا الجانب من القنال، أمروا بجمع السفن والغلايين من الموانىء الخمسة، وكذلك من الموانىء الأخرى، وأن يكونوا قد أخذوا الاحتياطات قبل قدومهم إلى الساحل، بتجهيز أنفسهم بالسلاح والعتاد، وبذلك باتوا مستعدين لمواجهة العدو، وكانوا يشعرون برغبةعارمة بمقاتلته، وقد تشجعوا أيضاً على القيام بهذا بحقيقة أنه

عندما جاء لويس ابن ملك فرنسا، قبل بعض الوقت الذي مضى، لغزو انكلترا، قام عـدد صغير من السفن التي كانت عائـدة إلى الانكليز، على عكس جميع التـوقعـات، بمهـاجمة وتدمير أسطول فـرنسي قـوي وكبير العـدد، كما أنهم جمعـوا جيشاً كبيراً من الخيـالة والرجـالة على السـاحل الانكليزي، من أجل أنـه إذا ما أحرز العـدو تقدمـاً في الصراع البحري (الذي حول نتيجتـه كانوا غير خائفين) يمكنهم أن يمنحـوهم استقبالاً جـريئـاً وثابتـاً على حـد السيـف، عند السـاحل، ووصـل علم هذه الإجـراءات إلى رتشـارد، ملـك ألمانيـا، بـوسـاطة الجواسيـس، ولذلك استجاب إلى نصيحـة الأصدقـاء العامين، فهـدأ مشاعـر غضبه، وأعلن بوسـاطة عمل مكتـوب مـوافقتـه على اعطاء اليمين الذي طلب منه إلى البارونات، وذلك استجابة لغيرتهم على مصالح المملكة وتقدمها.

عودة رتشارد ملك ألمانيا إلى انكلترا

ثم أقلع رتشـارد ملك ألمانيا، وبرفقتـه ملكته، نحـو انكلترا، ونزل في دوفر، في يوم عيد القديس يوليان، ودخل إلى انكلترا مع حاشية صغيرة وخاصـة، مؤلفة من كـونتين ألمان، كان معهما ثلاثة فرسـان فقط، وكان مع الملك في ركابه ثمانية فرسان، وكـان مرافقاً لملكته وابنه ادموند، ومع أنهم نزلوا في دوفر، فإنه لم يسمح لهم بدخـول حصن دوفر، ومثل ذلك لم يسمح لملك انكلترا بدخـول الحصن، لأن نبلاء انكلترا كـانوا خائفين من السماح إلى أي واحد لم يـؤد اليمين، بالدخول إلى القلعة التـي كانت الحاجز الرئيسي لانكلترا، وذهب الملك على كل حال إلى استقباله، وقت رسوه، واستقبله بـأعظم سرور، ثم أنهما أقامـا وليمة مع رئيس أسـاقفة كانتربري، واحتفلا بلقائهما بسرور وفرح.

كيف أقسم رتشارد ملك إنكلترا على مساعدة نبلاء إنكلترا

وفي اليـوم التـالي ذهب نبـلاء انكلترا إلى داخل بيت مقـر الهيئة

الكهنوتية في كانتربري، ورافقوا باحترام ملكي انكلترا وألمانيا، ثم أمروا بنص الانجيل فوضع على منبر هناك، ثم وقف رتشارد ايرل غلوستر في وسطهم، ونادى بصوت مرتفع، ولكن باحترام ايرل كورنوول بالقدوم إليه، ولم يخاطبه كملك لألمانيا، بل باسم «رتشارد ايرل كورنوول»، فقام تلبية منه، فاقترب منه باحترام، وتفوه بصوت مرتفع ومتميز بأداء القسم الذي فرض عليه، وهوالذي كان نصه كما يلي:

قسم رتشارد ملك ألمانيا

«اسمعوا أنتم جميعاً، بأنني هنا أقسم على الانجيل المقدس، وبأنني أنا رتشارد، ايرل كورنوول سوف انضم إليكم باخلاص ويقظة في إصلاح مملكة انكلترا، التي اضطربت أمورها حتى الآن كثيراً جداً بالنصائح الشريرة، ولسوف أساعدكم بشكل فعال في طرد أعداء المملكة ومثيري الاضطراب فيها، وهذا اليمين سوف ألتزم به من دون احباط، وذلك تحت طائلة فقداني لجميع الأراضي التي أمتلكها في انكلترا»، وعند ذلك قال جميع الحضور: «في هذا كفاية، لقد ربط نفسه بهافيه الكفاية وبإخلاص معنا»، لكن ايرل غلوستر المتقدم ذكره، أجاب قائلاً: «لقد تأذينا مراراً في حالات مماثلة، ذلك أن الذي جرى مرة حرمانه كنسياً، يخاف دوماً من الماء الذي يغلي، أنا لست متأكداً بأي حال من الأحوال، سوى بأن الذي عملناه كان قليلاً، لكن لعل الرب القدير يمنع أن يكون الحال هكذا».

كيف قام نبلاء ألمانيا بالمغادرة لدى وصول ملكهم إلى لندن

في يوم عيد طهارة القديسة مريم، وصل الملكان، والملكتان، وبصحبتهما عدد كبير جداً من نبلاء انكلترا إلى مدينة لندن، التي كانت تماشياً مع الأوامر التي تقدم ذكرها أعلاه قد جرى تنظيفها بشكل موائم من القاذورات، وتزينت بشكل ثري من أجل وصول مثل هذين

الأميرين العظيمين، ولقـــد استقبــلا لدى وصــولهما بعـــدد كبير من المواطنين، يهتفون بعبارات الترحيب، وكانت المدينة بالفعل مليئة بالناس إلى حـد أن أرصفة الشـوارع كانـت مغطاة تماماً بالحشـود التي تجمعت، وبما أن إخوة رتشارد لأمـه لم يكونوا برفقته، حسبما كان متـوقعاً ومهدداً (كانوا قـد بقيوا في القارة) لقـد عبروا عن سرورهم بحرارة أعظم، غير أنهم دهشـــوا كثيراً، وتســـاءلوا لماذا أعطـاه الألمان مثل هـذه الحرية العظيمة،وسمحـوا له بالذهاب إلى انكلترا برفقة زوجتـه وابنه، مع أنهم كـانوا أعزاء كثيراً عليهم، وكيف أنهم لم يحتفظوا حتى بواحـد منهم على الأقل كنوع من أنواع الرهائن، وكيف أيضـاً وهو أمير الألمان وسيدهم، قد ترك الشعب الألماني وراءه، ليأتي عن طواعيه، ليكون وسط الانكليز، ولكن خلال وقت قصير بدأت سمعته تتلاشى، والخشية من سلطته بين الانكليز، كانت موجودة قليـلاً أو غير موجودة، ونتيجة لهذا فإن النبلاء الألمان، الذين بقيوا حتى الآن في خـدمة ملكهم في انكلترا، قدروا أنه لم يحتل مكانة عـاليـة في انكلترا، ولم يعــامل بالاحترام المستحق للمـرتبـة الملكيـة، ولذلك غـادروا وهـم غـاضبين، وبادروا مسرعين بالعـودة إلى الوطن قائلين بأنفسهم: «إذا كان أبناء وطنـه لايحترمونه، كيف يتوقع أنه يمكننا أن نعـــامله بتشريف؟ إن الذي قمنـا بانتخـابـه هو بالحري المال، أكثر من الرجل الذي يعمل المال، فهو مال مجموع، وليس بالرجل الذي يجمع المال، إنما إنه إذا مـاأعطـانا جميع المال الذي تركـه، فإننـا لن نزعج أنفسنا أكثر بوجـوده الشخصي»، فقد كـان هدفهم، حسبما فعلوا إلى حد بعيد هو أن يسحبوا منه كل الذي بقي من ماله.

البارلمان الذي عقد في لندن

في ثمانية عيد الطهارة، اجتمع نبـلاء انكلترا في لندن، حسبما كانوا قد رتبوا من قبل، أما بالنسبة لايـرل ليستر، الذي كان طول غيابه وامتداده مصدراً للأسف لجميع أفراد شعب انكلترا، الذين لم يعرفوا الذي حدث

له في القارة، فقد جاء إلى المؤتمر الحالي، وكان المستشار السري لملك فرنسا، عميد بورجي Bourges أيضاً حاضراً في البرلمان، وجرت في هذا البارلمان مناقشات كثيرة تعلقت بالقضايا الخلافية بين ملكي فرنسا وانكلترا، والجهود التي بذلت لتحسين القضية نفسها في القارة، وكانت نتيجة المناقشات، أنه خلال مدة قصيرة، يعني أن تقول في يوم عيد القديس فالنتاين أن سلاماً قد عقد وتثبت بينهما في لندن، على أساس الشروط التالية: وهي إن على كل فئة منهما، الالتزام من دون خلاف بجميع ماجرى ترتيبه من قبل وتقرر بين رسلهم الخاصين المهيبين، وذلك حسبما سنذكره فيما بعد بالتفصيل، في مكانه المناسب.

اعتقال وسجن وولتر سكوتني ووليم بوسي

وفي بداية آذار من هذا العام جرى اعتقال وولتر سكوتني المستشار الرئيسي الخاص لايرل غلوستر وقهرمانه، وحدث اعتقاله في لندن، بتهمة دس السم للايرل المذكور، وإلى أخيه وليم، والذي من تأثيره نجا الايرل بصعوبة بحياته، في حين مات وليم من الشيء نفسه وقد وضع قيد الاعتقال لدى كفلاء، لكنه حمل الآن إلى برج لندن، ووضع في سجن مضيق عليه هناك، وجرى أيضاً اعتقال وليم بوسي Bussey قهرمان وليم دي بلنسية، أخو الملك لأمه، ومستشاره الخاص، ونحن نحتاج إلى تقديم رواية خاصة، وشرح كامل لجرائمه، وبعدما أبقي لبعض الوقت في سجن كفلائه، جلب الآن للمحاكمة ومثل أمام القضاة، وبما أنه لم يستطع أن يقدم بشكل مقنع أجوبة على التهم التي عملت ضده (لأنه كان متورطاً في كثير من الجرائم) أراد أن يفك أربطة قلنسوته الضيقة، ليظهر بشكل عام أنه كان يمتلك بقعة محلوقة من شعر رأسه تدلل على أنه كان رجل دين، فلم يسمح له بفعل ذلك، ولكن بأمر من القضاة حمل بوحشية وبعنف وأبعد ليوضع في أسوأ مكان من السجن، وكان الموظفون الذين تولوا ابعاده وأمسكوه ليس من قلنسوته

الضيقة المربوطة، بل من بلعومه، وعندما كانوا يجرونه إلى السجن قال ساخراً: «إذا أنا لم أقدم لكم العدل، فمن الذي يقدم لكم العدل»؟، وكانت هذه هي الكلمات التي اعتاد وليم المذكور على استخدامها وقولها إلى الفرقاء الذين غالباً ماظهروا أمامه، للتشكي من الأضرار التي عانوا منها، وطلبوا تقديم العدالة من قبله، وكان في كثير من المناسبات يقول أيضاً: «إن إرادة مولاي الملك هي متوافقة تماماً مع إرادة معلمي وليم دي بلنسية، وليست على عكسها»، وهكذا لم يتنازل بإبداء الاحترام للملك أو إلى أي واحد من النبلاء، كما لم يقدم العدل إلى أي واحد من الناس، مؤكداً أن معلمه قد حصل على امتياز من الملك، بعدم صدور أية مذكرة قضائية ضده، ولذلك هو غير مجبر على تقديم أية إجابة إلى أية فئة متأذية، مهما تكن الجريمة ومهما كان نوعها، باستثناء مايرغب بالإجابة عليه، وعندما كان وليم المذكور هذا، محمولاً إلى السجن، شتمه جميع الناس وأهانوه، لتجبره الذي لايحتمل، ولطغيانه الذي لم يعرف الهوادة، ولأعمال سلبه ونهبه وظلمه، ومع أن الذي اقترفه كان كثيراً جداً حتى نأتي على ذكره كله، أعتقد أنه من المفيد أن نذكر نموذجاً واحداً في هذا الكتاب، حتى يمكن تخيل الباقي.

الأفاعيل المقيتة لوليم بوسي

كان في أحد الأيام شاباً يعبر الطريق في ترمبنغتون Trumpington، عندما أخذ كلب يعوي عليه، وعندما رغب في إيقاف هذا العواء، رمى الشاب من دون انتباه حجراً على الكلب، وانحرفت الحجر إلى إحدى الجهات، وقتلت دجاجة عائدة إلى إحدى النساء الفقيرات، التي صدف أن خرجت من بيتها فشاهدت الواقعة، فرفعت صوتها بالشكاية، فجمعت حولها عدداً من الجيران، وأعلن الشاب بتواضع، وأرفق إعلانه باليمين، بأن الواقعة كانت مجرد حادثة عرضية، وعرض أن يدفع ثمن الدجاجة، لابل ضعف الثمن كتعويض للذنب الذي وقع، لكن المرأة

الشريرة رفضت كل العروض، وأصرت على الحصول على انتقام أكثر ربحاً، وكان هناك خادم سليط من خدم وليم دي بلنسية، فتظاهربالشجاعة صدوراً عن علو رتبة معلمه، فاعتقل الشاب البريء، ووضعه في سجن مضيق عليه، فمات خلال عدة أيام من العذاب الذي لايحتمل، وجمع كاهن المنطقة الجيران مع بعضهم وأصبح متأكداً من براءة الشاب، فدفن جثته في المقبرة، وعمل له طقوس الدفن، بقدر ماتمكن من جودة، وذلك بعدما ألقيت الجثة لمدة يومين أو ثلاثة على كومة للقاذورات، فهناك كانت قد رميت، حتى أصبحت متفسخة، وبعد ثلاثة أيام صدف أن كان وليم بوسي عابراً، فسمع بالذي عمل، فأمر بالجثة التي كانت قد اهترأت خلال أربعة أيام، بأن تسحب من القبر، وأن تعلق على المشنقة، وجميع هذه الأعمال الوحشية، وأعمال أخرى مماثلة، اقترفت من دون أية محاكمة، لكن ليس من دون تسجيل الانتقام من الرب، وتقدمت زوجة الميت بشكوى حول هذا العمل الوحشي، وهي الآن تتابع شكواها، ويقوم الآن أعظم القضاة عدلاً بمجازاة هذا الأعظم ظلماً من أجل أعماله، بالحكم عليه بالبقاء أبدياً في جهنم.

عودة وليم هورتون الذي أرسل إلى سكوتلندا من قبل ملك انكلترا

وفي حوالي الأول من آذار في هذا العام، عاد وليم هورتون Horton, الذي كان راهباً وحاجباً لكنيسة القديس ألبان، من الأجزاء النائية من سكوتلندا، حيث كان قد بقي مدة طويلة، أي منذ أيام عيد القديسة كاترين في هذا العام نفسه، فلقد قام برحلة متعبة بناء على أمر من الملك، وذلك صدوراً عن اقتراح لمستشاريه، وذلك بعد الحصول على اذن رئيس الرهبان، لأنه قد عهد إليه من قبل الملك، والملكة، ونبلاء انكلترا، ببعض القضايا الصعبة والمسائل الخاصة، التي أمر بالإعلان عنها إلى ملك، وملكة، ونبلاء سكوتلندا، ولدى وصوله إلى هناك وجد الملك والملكة مع

نبـلاء تلك البـلاد مجتمعين في بـارلمان، بناء على رغبتـه، وعند ذلك شرح سبب رحلته، وقـدم رسائل اعتماده، وبعد ذلك تقـدم بالتماس حار باسم الملك والملكة وبـارونات انكلترا، إلى ملك وملكة سكوتلنـدا للذهاب إلى انكلترا من دون تلكؤ، مـن أجل سماع ومناقشـة بعض القضـايـا التي تتطلب الاستماع إليهـا بعناية، والتـداول حـولها بشكل سري، ومع أن المجتمعين قدمـوا كثيراً من الاعتراضات، وألقـوا بكثير من المعيقات على الطريق، وبعـد كثير من المناقشـات، مـارس وليم الضغـط الملح لطلبـه، فأقنعهم بالموافقة على الذي طلبه ورغب به، ولذلك أعطوا وليم رسائلهم المعتمـدة والمختـومـة بختم الملك، وبأختـام جميع نبـلاء سكوتلندا، وقـد وجهوا هذه الرسـائل إلى الملك وإلى جماعة انكلترا كلهـا، وذكروا في هذه الرسائل بأنهم وافقوا عن طواعية بالعمل وفقاً لرغبتهم شرط أن يعطيهم ملك ونبـلاء انكلترا ضمانـة حـول المسألة المتعلقـة بالـوثيقـة، وأن تكون مكتـوبة باخـلاص حسبما كـانوا مـوعـودين من قبل، وعـلاوة على ذلك أرسلوا رسـائل إلى ملك وملكة ونبـلاء انكلترا، أثنوا فيهـا على اخـلاص وليم المذكور ونشاطه الذي لايعرف التعب في العمل في سبيل المهمة التي عهـدت إليه، وإثـر مغادرته على الفـور أرسلوا وفـداً مهيبـاً وخاصـاً إلى انكلترا، مؤلفـاً من ايرل بوخان Buchan, والمعلم وليم المستشار، ولورد آلان حـاجب القصر، للإعداد للمسألة المتقـدمة الذكـر بكمال أكبر مع ملك انكلترا ومجلسـه الاستشاري، ولدى وصول هـؤلاء الأشخاص، والاجتماع والتحـادث مع وليم المتقـدم ذكـره، الذي كـان قـد سبقهم إلى انكلترا، لكنهم عندما غـادروا عائدين إلى الوطن لم يتركـوا أية معلومات معلنة تتعلق بترتيبات القضية مع الاهتمام بين الملك وجماعة المملكة.

وفاة توماس الذي كان من قبل كونت فلاندرز

وبات في هذه الآونة أيضـاً تومـاس الذي كـان كـونت فـلاندرز من قبل، والذي كان قد استخـرج من الملك والملكة صاحبي العقل الساذج

آلاف مؤلفة من الماركات، وكل هذه الأموال قد تبددت مثل حبوب زرعت على شاطىء البحر، وذلك مثلما حدث لكثير من الأموال الأخرى، التي وزعت بين الأجانب وجرى الاستيلاء عليها من قبلهم من أجل ايذاء المملكة وخسارتها، وكان قد قام من دون أي سبب بإلحاق أذى كبيراً بكنيسة القديس ألبان، وزاد من الخلاف بينها وبين الملك، ويقال بأن السم قد دس له في القارة، فهذا ماورد في أحد التقارير، وغادر هذه الحياة لينال الجزاء على أفاعيله،

كيف جرى إرسال وفد إلى بارلمان ملك فرنسا

وفي حوالي الأول من نيسان، وبناء على أمر من ملك انكلترا، ونصيحة باروناته، أقلع ايرلا: كلير وليستر، وجون مانسيل، وبطرس أوف سافوي، وروبرت ويلران، إلى القارة، من أجل أن يكونوا حاضرين في البارلمان الذي كان سيعقد في فرنسا، من قبل ملك تلك البلاد، وللترتيب لعدد من القضايا الصعبة المتعلقة بمملكتي فرنسا، وانكلترا، وأخذوا معهم صكاً من ملك انكلترا، تعلق بالتنازل عن نورماندي، وكذلك رسائل اعتماد، تخولهم التوصل إلى اتفاقات مع ملك فرنسا ومجلسه، حول المسائل الخلافية بين الملكين ومملكتيهما، وفي سبيل أن تكون الاتفاقيات التي عقدت من قبل، كما ذكرنا أعلاه بين الرسل البارعين والمعينين خصيصاً، ثابتة، وغير مخروقة، ولكن نظراً لتشتت الوفد المذكور، لم ينشر أي شيء حول الذي أنجز في هذه القضية، ولذلك لايمكن ذكر أية إفادة معتمدة حولها في هذا الكتاب.

كيف استولى الرهبان الدومينيكان على دير دنستيبل

وفي ذلك الوقت نفسه أيضاً، كان هناك بيت واقع في المنطقة التابعة والمجاورة لدير دنستيبل Dunstable, قد أعطي إلى الرهبان الدومينيكان، فقامت مجموعة من تلك الطائفة بتشوق، ولكن بصورة

سرية، فشقت طريقها بالقوة إلى داخل الدير، مما ألحق ضرراً كبيراً برئيس رهبان ورهبان دنستيبل، وقد تشجعوا على القيام بهذا بالمثل الذي ضربه الرهبان الفرنسيسكان، الذين حصلوا على مكان للإقامة في دير القديس ادموند، ضد ارادة ذلك الدير، مع إلحاق ضرر كبير به وبرهبانه، وقد عمروا هناك مباني كبيرة النفقات، حتى أن كل من نظر إليهم أصيب بالدهشة تجاه الانفاق المفاجىء والكبير لمثل تلك المبالغ الكبيرة من المال، من قبل هؤلاء الرهبان الفقراء، والأشخاص الذين احترفوا الفقر التطوعي، وكان بعدما تمكن الرهبان الذين تقدم ذكرهم من الحصول على مدخل إلى المكان المذكور فجأة وبالقوة، شيدوا مذبحاً، ومن دون انتظار الحصول على اذن من أي واحد، أقاموا القداسات هناك، وكانوا في الحقيقة قد تشجعوا بالتجهيزات التي كانوا قد تسلموها، وبالامتيازات التي رغبوا بها، وبالحماية التي قدمت إليهم من قبل الكاردينال هوغ، الذي كان راهباً من طائفتهم، له وزن كبير وأشادوا يوماً بعد آخر أبنية، وسعوا إلى زيادة ممتلكاتهم، مما ألحق الضرر الكبير بدير دنستيبل، وذلك عن طريق جمع التبرعات من الأماكن المجاورة، وهي الأماكن التي توجب أن يتسلم منها رئيس الرهبان والرهبان مواردهم، وزاد الرهبان الدومينيكان من أبنيتهم كما وسعوا ممتلكاتهم، إلى حد أن امتيازات رئيس الرهبان والرهبان قد زالت، لأن النفقات التي كانوا يتلقونها من المباني قد أعطيت الآن إلى الرهبان الدومينيكان، الذين فقدوهم، وهؤلاء الرهبان الذين قدموا حديثاً، تمكنوا بأعمال تبشيرهم المستعجلة، من الاغتصاب الكامل للمنح التي كانت بالعادة تقدم إليهم.

موت كونتسة بولون

في الأسبوع الأول من الصوم الكبير لهذا العام، ماتت كونتسة بولون، التي من خلال طغيانها أزهقت أرواح أعداد كبيرةمن بني البشر، وهم الذين قتلوا قبل عدة سنوات مضت، وقد مضت الآن لتجني ثمار أعمالها.

كيف جرى تعيين شيخين في روما حيث شرعا بالأعمال العدوانية ضد الشيخ الذي جرى تعيينه مؤخراً

في هذا العـام، وفي أعقاب تدمير دفاعـات مـدينة رومـا، اجتمع المواطنون وهم في حـالة هيـاج وغضب، وعينوا شيخين جـديدين، تمكنا من جمع قوة كبيرة، تشكلت من الطبقات الوسطى لروما، ومن ثم شرعا بالأعمال العدوانية ضد الشيخ الذي جرى تعيينه مؤخراً، أي عم (خال) برانكليون، وحـاصروه في قلعة المدينة، حيث قرروا اعتقـاله، وتمزيقه إلى أشـلاء، وقـد وثق هو واستند على يمين الولاء الذي أعطي له، واعتمـد على الرهائن، الذيـن احتفظ بهم في بولونا مـدينتـه الأصيلة، ودافع عن نفسـه بنشاط، ليبرهن أنـه لم يبتعد عن الروح النبيلة لابـن أخيه (أختـه) وسلفه، ولذلك أنهكت روما إلى حد كبير، والتهمت نفسها داخلياً.

الخلافات التي تفجرت في ثلاث جامعات

وأثناء هذا الصـوم الكبير نفسـه، تفجـر خـلاف جـاد في اكسفـورد وكمبردج، نتيجـة لاطلاق سراح شخص كـان قـد أدين بالقتل، وجـاء اطلاق سراحـه بـالقـوة من قبل الكهنة، الذين حطمـوا أبواب سجنه، وأخـرجـوه منه، ووضعوه في الكنيسـة من أجل الحماية، كما أن جـامعـة باريس قد اضطربت كثيراً من قبل الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، وفي الحقيقة نشأت طوائف كثيرة جداً، حيث حلت طائفة محل الأخرى، ولم يمتلك الناس الإمكانيات لدعمهم بصدقاتهم.

الخلاف بين إيرلي غلوستر وليستر

وفي هذه الآونة، وعنـدمـا كـان الناس مشغـولين كثيراً، أثناء انهماك البـارلمان في عمل قـوانين نافعـة وأوامر ومـراسيم، جـرى تبـادل بعض الكلمات الغاضبة بين ايرلي غلوستر وليستر، ولأن الايرل الأخير غضب من الأول، ومن تقلبـاته في مـواقفه وتأييـده لخططهم المقترحـة، ولذلك

تفـوه بالخطاب: «أنا لا يهمنـي أن أعيش، أو أن تكون لي عـلاقـات مع أناس تافهين إلى هذه الدرجـة ومخادعين، لأننا جميعـاً اتحدنا في الوعـد، وأقسمنا على تنفيذ الخطة التي كنا نناقشهـا، وبالنسبة لك يا مولاي ايرل غلوستر، إنه بقدر علو مرتبتك فـوقنا جميعاً، مثل ذلك أنت ملزم بوضع هذه القوانين الصحيحـة موضع التنفيذ»، ومـا أن أنهى خطابه هذا حتى غـادر انكلترا، وقـام ايرل هيرفـورد ونبـلاء آخـرون من نظرائهما، لدى سماعهم لهذا الخطـاب، بالإيماء إلى ايرل غلوستر، بـأن ايرل ليستر قـد سافر بسببه، وأنه يتـوجب استدعاءه وتهدءته بأسرع وقت ممكن، وذلك بدلاً مـن إثارتـه إلى هذه الـدرجـة مـن الأذى، وليكن هـذا في سبيل الوقـوف إلى جـانب زملائـه، وأيضـاً إنه يتـوجب على ايرل غلوستر أن يقـوم مخلصاً بتنفيـذ أيمانه بالموافقـة على قـوانينهم وقدراتهم، وأن يتـولى عمل اصلاح في ممتلكاته بالتوافـق معهم ومع الذي صنعوه، وإلا سوف يعـاقبـونه لتقلباتـه، وقد أخـاف هذا الايرل المذكـور، فأرسل قهـرمـانه هيروين Horion, ليجول في جميع ممتلكاته مع أوامر بأن يتأكد من أن العدل يجري تطبيقـه وفقاً للقوانين، وأن كـل شيء ينبغي ترتيبه من دون تأخير، وفقاً لشروط وعـده الأخير، وبذلك هدأت عـاصفة الغضب إلى حـد كبير، ومع أن إيرل ليستر كـان مـا يزال في القـارة، إنه نتيجـة لهذه الاصلاحات، توفرت آمال أكبر، ومشاعر أكثر وثوقاً بعودته.

العوائق في طريق إقامة سلام بين ملكي فرنسا وانكلترا

تلقت ترتيبـات السلام بين ملكي فـرنسا وانكلترا، التي تقدم ذكـرها أعـلاه، والتي عهـد بإدارتها إلى عـدد من الرسل الخاصين، ذوي النفـوذ الكبير، انتكاسة غير متوقعة، وذلك في الوقت الذي ساد اعتقاد أنهم قد وصلوا إلى نقطة القناعـة والرضى في الاتفاقـات، لأن كونتيسـة ليستر لم تكن لترضى بأي حال من الأحوال بـالتنازل عن حصتها في نورماندي، التي كـان ملك انكلترا سيتنازل عنهـا إلى ملك فـرنسـا، وفقـاً لشروط

الاتفاق، ونتيجة لهذا كان ايرل غلوستر قد قذف بكلام مهين نحو ايرل ليستر، الذي سدد لـه عدوانه الكلامي، بكلام مثله كـان حاداً وقـاسياً، ووصلت القضيــة إلى قــرابة سفك الدمــاء، لكنهما ضبطا مـن قبل أصـدقائهما المشتركين، في سبيل أن لا يجد الفـرنسيون سبباً للسرور من تلك الواقعــة، وهكذا عــاد المندوبون من دون إنجــاز هدفهم، وذلك وسط سخرية الفرنسيين.

معركة بين الداوية والاسبتارية

وحـدث في حــوالي الوقت نفسـه في عكا أيضــاً، أن تخاصم الداوية ورهبـان القديس لعـازر، والقـديس توماس، مـن جانب، والاسبتـارية وشيعتهم في ذلك الجوار، بالاضافة إلى بعض الآخرين، الذين تألفوا من الجنويين والبيـازنـة من الجانب الآخـر، وحــدث الخصـام فيما بينهم في الأرض المقدسة، وبرهن الذين عدوا بالعادة أنفسهم المدافعين الشرعيين عن الكنيسـة، أنهم الآن أكثـر المدمرين للسـلام تعطشـاً لسفك الدمـاء، وتدميراً لبعضهم بعضـاً، وللكنيسة المذكورة، وثار الاسبتـارية كلهم من دون استثناء ضد الداوية، وجـاء ذلك نتيجة لبعض الأحقـاد المميتة فيما بينهم، وبعدما فقدوا عدداً كبيراً من كتلتهم، دمروهم تماماً، وفي الحقيقة بالكاد لم ينج ولا رجل واحـد من الداوية، في حين بقي عدد كبير جـداً من الاسبتـارية على قيــد الحيـاة، وفي الواقع، لم يذكــر قط أن مثل هذه المذبحة وقعت بين المسيحيين، خاصة بين الرهبان، ونتيجة لهذه الكارثة، عقد جميع الـذين بقيوا من الداوية في الأرض المقـدسة اجتماعـاً في حالة الطوارىء هذه، ووفقاً لأحد التقارير، أرسلوا رسالة مستعجلة كثيراً إلى جميع رهبان طائفتهم، الذين كـانوا ساكنين في ديرة تابعة للطائفـة نفسها في جميع البلدان، بأن يضعــوا من هو لازم للعناية بكل ديـر من الديرة، وأن يضعـوا جـانبـاً جميع الأعـذار للتأخير، وليقـدمـوا بكل سرعـة إلى الأرض المقـدسة، ليسـدوا إلى حـد ما الفـراغ في ديرتهم في عكا، بسبب

دمـار وهلاك عدد كبير جـداً من اخـوانهم هناك، وأيضاً من أجل أخـذ انتقام مخيف من الاسبتـارية بقوة السـلاح، ولذلك انتشر، نتيجة لذلك، شعـور عظيم بالخوف في جميع أنحاء العـالم، وأنه مالم يقم الرب القـدير بتهدئـة غضبهم، فإن استقرار العالم المسيحي سوف يتعـرض إلى الدمار، إلى حد كبير، من خلال حقدهم الذي هو بلاحدود.

كيف حصل البابا بصورة سرية على المنصب الامبراطوري للإيرل رتشارد عندما كان مقيماً في إنكلترا

وفي الوقت نفسه، عندما كان ملك ألمانيا مقيماً بسلام في انكلترا، أعدّ له طريق سهل للحصـول على المرتبـة الامبراطورية، وصنع هذا من قبل البـابا نفسه، بشكل تآمـري خفي، وببراعة عميقـة، حتى لايظهر نفسـه عـدواً معلناً لملك اسبـانيـا، وبقي على كل حـال، ملك ألمانيـا هادئـاً في انكلترا، في سبيل أن يجمع المزيد من الأمـوال، وذلك حتى يحتـاط ضـد أوقات الحاجة في المستقبل.

وفي الوقت نفسه أوقف نبـلاء انكلترا بحكمة أنفسهم على أن يضعوا موضع التنفيذ القرارات التي كانـوا قد توصلوا إليها، واهتموا قليلاً، أو بالحري لم يهتمـوا مطلقـاً أبقي الملـك المذكـور مقيماً أم غـادر، وبالاجماع صرفوا كل اهتمامهم لتدمير الأعراف الشريرة، وأفاعيل الظلم والفساد.

وباء حاد ووفاة فولك أسقف لندن

وفي العام نفسه، عندمـا كانت الشمس تدخل إلى برج السرطان، وقع وباء مميت وغير متوقع على بني البشر، ودون أن نذكر شيئاً عن الأعداد الكبيرة من الناس الذيـن مـاتوا في مختلـف المناطق، نجـد أنه في باريس وحـدها، أكثـر من ألـف من بني البشر أودعـوا في القبر، ولحق الفسـاد أيضـاً: الزيـت، والخمـرة، والقمح، وبات الحال وكأن مـائتي سيف للموت جـردت ولم توفر أحداً، فضربت أحيـاناً واحداً، وأحيـاناً أخرى

آخـر، وطردت من الدنيا الغني والفقير، ومثل هذا وعلى هذه الصـورة، مات فولك أسقف لندن، أثناء ذلك الوباء المميت، وكان ذلك الأسقف من أصل نبيل، ومن أسرة سامية، ولو أنه قبل قليل من الوقت مضى لم يتقلب في إعطاء تأييـده للترتيبات العـامـة للمملكة، لبات يعـدّ مرسـاة الاستقــرار، وترس الدفــاع عن المملكـة كلهـــا، ودفن أخيراً بمهـــابة مستحقـة، في يوم عيـد القـديس أوربان، في كنيسـة القـديس بولص في لندن، بحكم أنه كان الأب والراعي لتلك الكنيسة.

إدانة وولتر سكوتني

وعــرض في الأسبـــوع نفســه وولتر سكـوتني، الذي كـــان من قبل قهرمان ايرل غلوستر، والذي كان قد اتهم بدس السم، واعتقل، ووضع في سجن مضيق عليـه في ثلاث كونتيـات، خاصـة في كونتيـة وينكستر، عـرض تبرئـة نفسـه من التهمـة، ولكن الـذي كـان محزناً أن ترويه وأن تسمعـه، هـو أن الواقعـة نفسهـــا التي منحتـه الثقـــة الكبيرة في اطلاق سراحه، كانت السبب في اصـدار الحكم عليه بالإدانة، لأن الذين طلب منهم تقديم بينـة صحيحة في المحكمة عن الذي عـرفوه حـول القضية، أجـابوا: «بما أننا لم نعـرف قط أو سمعنـا، بأن وليم دي بلنسيـة المتقـدم ذكـره، أو أي واحـد مـن إخـوته، كـان مـدانـاً بأي شكل من الأشكال لوولتر المذكـور، وإن الذي نعرفـه بشكل صحيح ومتأكـدين منه هو أن وولتر المذكـور قـد تسلم مـؤخـراً كميـة كبيرة جـداً من المال، من وليم المتقدم ذكره، وبناء عليه، نحن أكثر ميلاً نحو الاعتقاد بأن هذه الأموال قـد دفعت إليـه من أجل تـدبير دس السم إلى مـولاه الايرل، وإلى وليم دي كلير أخيه، وإلى كثيرين آخرين، كما ورد الذكر أعلاه، لإرضاء رغبة الانتقام لدى الفئات المنفيـة، وليس سداداً لأي دين جرى التعاقـد عليه من قبل فيما بينهم، ونحن متأكـدين أكثر من صحة هذا الـرأي، بوساطة حقيقة أن وليم دي كلير، عندمـا وجد أنه قـد سمم، وأنه قد اقترب من

الموت، قال بصورة علنية: «ليعلم جميعكم أن وولتر سكوتني هو الذي عهد بي إلى فكي الموت»، وبناء على هذا، تبين للقضاة أنه كان مجرماً بعمل الخيانة هذا، وبذلك تمّ جره إلى وينكستر ليعلق على المشنقة.

★★★ ★★★ ★★★ ★★★

ملاحظة

ينبغي أن يكون معلوماً، أن هذا العمل قد كتب إلى هذا المكان من قبل الراهب المبجل متى باريس، ومع أن خط اليد قد يتنوع، فإن الأسلوب نفسه بالتصنيف أمر ملاحظ، ولذلك فإن جميع ماتقدم معزو إليه، إنما الذي كتب هاهنا فيما بعد وأضيف هو معزو لراهب آخر، أقدم على محاولة —مع أنه غير جدير— متابعة عمل سلفه العظيم، وذلك على الرغم من أنه لم يكن أهلاً لفك أربطة حذائه، ولم يقم حتى بذكر اسمه في هذا الكتاب.

ذيل تاريخ متى باريس

[ذكر مؤلف «شهـود الحقيقة» هذا الذيل، ونسبة إلى راهب من الدير نفسـه، وعـزاه باليـوس Balaeus (ص ٣٢٦، ٣٧٦، ٣٧٧) إلى وليم ريشنغـر Rishanger, الذي كـان راهبـاً في دير القـديس ألبان].

★★★ ★★★ ★★★ ★★★

الترتيبات بين ملكي إنكلترا وفرنسا من أجل إعادة ممتلكات ملك إنكلترا وأراضيه في القارة مقابل دفع مبلغ من المال

كـان هذا العام نفسـه، الذي هو العام الثـالث والأربعين لحكم الملك هنري (الذي كان هو الثـالث منذ الاستيلاء) فيـه قد عبر هذا الملك إلى فرنسـا، وطلب من الملك الفرنسي إعـادة الأراضي التي أخذت ظلماً من أبيه جون، وذلك حين استولى عليها فيليب جـد ملك فرنسا المذكور مع أبيه لويس، والتي ماتزال بشكل غير عـادل محتفظ بها، وقدم الفرنسيون كثيراً من الحجج ضـد ملك انكلترا، وكان من بينهـا حجة خاصـة، هي أن هبـة نورمـاندي لم تكن في الزمن القـديم عن طواعيـة، بل اغتصبت بالقـوة من الملك الفـرنسي بوسـاطة دوق رولو Rollo وبما أن الملك لم يمتلك لاالشجـاعة لاسترداد أراضيـه المفقودة، ولامـايكفي من مال لجمع جيـش، وفوق ذلك كله أنه رأى أن رعيتـه على وشك الثورة ضـده، قبل الشروط التـاليـة للسـلام، حيـث أنه أرغم إلى حـد مـا على القبـول بذلك، وقضت هذه الشروط ببقـاء دوقيـة نورماندي وكـونتيـة أنجو بحوذة الملك الفرنسي بسـلام، ومقابل ذلك كان عليه أن يدفع إلى ملك انكلترا ثلاثمائـة ألف باونـد صغير من نقـود تور، وبالاضـافـة إلى ذلك وعد بإعادة بعض الأراضي في غسكوني، وكانت تنتج سنوياً مورداً مقـداره عشرين ألف باوند، وبمـوجب هذه الاتفـاقية أيضـاً تخلى ملك

انكلترا كلياً وبدون تحفظ عن ادعاءاته ومطالباته بجميع الأراضي التي كانت آنذاك بين يدي الملك الفرنسي، وأن يقوم منذ ذلك الوقت فصاعداً باختصار ألقابه في رسائله، وأن لايشير إلى نفسه لاباسم دوق نورماندي، ولاكونت أنجو.

حرمان مانفرد كنسياً

وقام في هذا الوقت نفسه مانفرد بن فردريك، بتتويج نفسه ملكاً على صقلية، وفعل ذلك بناء على تسلم تقرير زائف أفاد بموت ابن أخيه كونرادين Conradin, وبناء على هذا حرمه البابا الاسكندر كنسياً على أنه محتل للمملكة لصالح المسلمين، وحرمه بموجب قرار قضائي من جميع ألقابه ومناصبه.

التحكم الظالم للأجانب بإنكلترا

في هذه الآونة ظلمت انكلترا بطرق متعددة من خلال خبل وفسولة الملك، وجاء ذلك بوساطة تحكم البواتيين والرومان، وبشكل خاص ايثيلمار، الأسقف المنتخب لوينكستر، ووليم دي بلنسية، أخوي الملك لأمه، وبطرس أوف سافوي عم الملكة، التي عامل رهبان المملكة وكذلك العلمانيين بعدم احترام ووحشية، وكان أي واحد قد عانى من أذى، وذهب إلى قهرمان وليم المذكور، ليطلب العدالة، كان يتلقى مثل الجواب التالي: «إذا ماألحقت بك أنا الأذى من سيقدم لك العدالة؟ إن رغبات الملك متماشية مع رغبات معلمي، وليست معارضة لها»، وهكذا لم يظهر هو الاحترام لاللملك أو إلى أي واحد من النبلاء، وفي هذه الأيام أيضاً ساد الرومان مع نائبهم البابوي في انكلترا، وألحقوا أضراراً جسيمة بالعلمانيين وكذلك باللاهوتيين بالمسائل المتعلقة بنذور الكنيسة، حيث جهزوا أصدقائهم بالمنافع الشاغرة حسب رغباتهم، ونصبوا أنفسهم في مواجهة الأساقفة، ورؤساء الرهبانيات، ورجال الدين

الآخـرين، وطوقـوهـم بقـرارات الحرمـان الكنسي، ونتيجـة لهذا سخط النبـلاء من أعمال التجبر هـذه، فحـركـوا أنفسهم —مـع أن ذلك جـاء متأخـراً— لتقديم العلاج، وأرغمـوا الأجانب على الفـرار من المملكة، حسبما سيظهر في الصفحات التاليـة، وهم في الحقيقة لم يطردوهم جميعاً، بل اهتموا بشكل خاص بطرد البواتيين.

وفاة البابا الاسكندر وخلافته من قبل البابا أوربان الرابع

في عام النعمة ١٢٦٠، الذي كـان العام الرابع والأربعين لحكم الملك هنري الثـالث منذ الاستيـلاء، كـان الملك في لندن أيام عيـد الميـلاد مع حشـد من الأجانب، ومـات البابا الاسكندر في هذا العـام، وقد خلفـه أوربان الرابع، الذي كـان من قبل بطريرك القدس، وبعـد تتويجه، تمكن بمساعـدة الصليبيين من هزيمة جيش للرومـان، كان مانفـرد قد أدخله بالقوة إلى ميراث القديس بطرس، وأعطـى مملكة صقلية إلى شارل أخي ملك فـرنسا، على شرط أن يقـوم بطرد مـانفـرد من المملكة، ومنذ ذلك الحين بدأ ملوك صقلية يحملون رنوك ملك فرنسا.

موت يهودي في كنيف من خلال أوهامه

وفي هذا الوقت نفسـه حـدث في توكبري Tewkesbury أن سقط يهودي في كنيف، وصـدوراً عن احترامه للسبت، وهواليـوم الذي وقع فيـه الحادث، لم يسمح لنفسـه بالاخراج، حتى اليـوم التـالي، الذي كان يوم أحد، ونتيجة لذلك مات، لأنه اختنق من الروائح القذرة.

ونشب في هذا العام خلاف بين الملك وبين نبلاء المملكة، نتيجة لعدم مراعـاة الملك للشروط التي عملت في البارلمان الذي عقـد في اكسفورد، وفوق هذا كله قيام الملك بصورة غير حكيمة بالرفع من شأن الأجانب، واسرافـه في إغنائهم، وهم الذين لم يكونوا نافعين ولامخلصين للمملكة، ونتيجـة لهذا تحالف النبلاء مع بعضهم بعضـاً، وأمروا وليم دي بلنسيـة

وأتباعه بمغادرة انكلترا، وبعدم العودة مطلقاً، وذلك حسبما سنذكر بالتفصيل الكامل فيما بعد.

كيف جرى تحليل الملك من يمينه بوساطة البابا

ندم الملك، الذي كان مع ابنه الأكبر ادوارد والبارونات، قد أقسموا بعزم وبدون تردد ونكوص على مراعاة القرارات التي اتخذت في اكسفورد، لإقسامهم ذلك اليمين، وخشي الملك من نيله تهمة الحنث باليمين، إذا لم يقم بالالتزام بهم ومراعاتهم، ولذلك بعث بشكل سري إلى البابا يرجوه أن يحلله من يمينه، وقد حصل على هذا المعروف بسهولة.

كيف قوبل رجال العدالة بالصد في هيرفورد

في هذا الوقت جرى إرسال رجال العدالة الجوالين العاملين في خدمة ملك انكلترا إلى هيرفورد Hereford للقيام بواجبات وظيفتهم، لكن لم يسمح لهم بدخول المدينة، حيث ادعى أعيان الناس في تلك المنطقة من البلاد، أن قدومهم معاكس للقوانين التي عملت مؤخراً في اكسفورد، وهكذا عادوا دون انجاز لمهمتهم.

مقتل الفلورنسيين

وحوالي الوقت نفسه تعرض الفلورنسيون، الذين تحالفوا مع بعضهم لتدمير مدينة سيينا، للهزيمة على أيدي جنود مانفرد، وكونت جوردان Jordan, الذي آثر قضية مانفرد، وجرى الاستيلاء على مدينتهم، ودمرت جزئياً، وهم أنفسهم أرغموا على الخضوع لحكم مانفرد والسيينيين.

الحرب في هنغاريا

ووقعت حوالي الوقت نفسه معركة جادة جرى القتال فيها بين ملكي هنغاريا وبوهيميا بسبب بعض الأراضي، وتعرض الهنغار إلى الهزيمة،

فهربوا، فسقطت أعداد منهم للسيف، لكن أعداداً أكبر بكثير غرقت في نهر كانوا مرغمين على عبوره أثناء فرارهم، ثم دخل ملك بوهيميا إلى مملكة هنغاريا، وبناء عليه أعاد ملك تلك البلاد المناطق التي كان قد اغتصبها، وبوساطة حلف زواجي تأسست الصداقة وتثبتت بين الملكين من أجل المستقبل.

طرد البواتيين من إنكلترا

ودخل في الوقت نفسه سيمون دي مونتفورت —ايرل ليستر، ورتشارد كلير— ايرل غلوستر، ونيقولا فتز— جون، وجون فتز— غيوفري، وعدد كبير من النبلاء، في حلف مع بعضهم، واجتمعوا في اكسفورد، وهم مجهزين كما ينبغي بالخيول والأسلحة، وقرروا تماماً، وعزموا في نفوسهم إما أن يموتوا من أجل سلام البلاد، أو أن يتمكنوا من نفي المفسدين للسلام، ومثيري الاضطراب من البلاد، وجاء إلى هناك أيضاً مع بعضهم إلى المكان الذي تقدم ذكره أعلاه ايثيلمار، الأسقف المنتخب لوينكستر، ووليم دي بلنسية، وبواتيون وأجانب آخرون، وكان يحيط بهم حشد من الأتباع والأشياع، ورغب النبلاء في دعوة هؤلاء الأخيرين لمواجهة العدالة من أجل أعمالهم الشريرة، وأن يلتحقوا بهم وينضموا إليهم في أداء اليمين على تطبيق القرارات والمبادىء، التي عملت من أجل منفعة المملكة، ولكن بما أن الأجانب وجدوا أنفسهم غير أكفاء بالشجاعة، وكانوا خائفين من الخضوع للعدالة والقضاء، هربوا أثناء الليل إلى قلعة وينشلسي Winchelsea, وهناك على كل حال تم اقناعهم من قبل البارونات —الذين أرغموهم على التخلي عن القلعة— على مغادرة المملكة فوراً.

دعوى الاتهام التي عملت ضد البواتيين أمام البابا

وخاف النبلاء —على كل حال— من أن يقوم الأسقف المنتخب لوينكستر، بالذهاب إلى روما، وأن يتمكن بوساطة المال من دفع قضيته

هناك، حيث سيكون أكثر قدرة على إلحاق الأذى، ولذلك أرسلوا أربعة فرسان متمكنين من الفصاحة وأقوياء، إلى البلاط الروماني، وأمروا هؤلاء الفرسان بتقديم رسالة إلى البابا والكرادلة، مختومة بأختامهم، وهي حاوية على عرض للجرائم التي اقترفت من قبل الأسقف المنتخب المتقدم ذكره مع إخوته، وإفادة عن أعمال القتل، والسلب والنهب وعن مختلف أنواع الآثام الأخرى والمظالم، التي سحقوا بها شعب البلاد وآذوه.

كيف جرى تحرير إنكلترا لبعض الوقت من الاستخراجات الرومانية

وعلاوة على ذلك أمر النبلاء الرهبان الضامنين لكنائس الرومان، بعدم عدّ أنفسهم مسؤولين عن الضمان أمام الرومان، بل أن يقدموا حساباً عن أعمال الضمان المذكورة وعن مواردهم إلى حماتهم، أي إلى البارونات، في يوم ومكان جرى تحديدهما مسبقاً من قبلهم، وأخبروهم أيضاً أنهم إذا تصرفوا بشكل معاكس، فإن مقتنياتهم سوف يعهد بها إلى النار، وهم أنفسهم سوف يحصلون على المخاطر التي كانت تهدد الرومان، وأعطوا الأوامر نفسها إلى الأساقفة، وحظروا عليهم أن يقوم أياً منهم بالتدخل في قضية الرومان أو مواردهم، تحت طائلة العقوبة، حسبما تقدم الذكر أعلاه، وبترتيبات البارونات هذه، بقيت انكلترا غير مضطربة بالاستخراجات لمدة ثلاثة أعوام تقريباً، أي حتى أذعن سيمون دي مونت فورت، الذي تقدم ذكره أعلاه للموت، وحين مات تتوج بالشهادة، كما هو معتقد بشكل عام.

كيف حبس الملك نفسه في برج لندن

في عام النعمة ١٢٦١، الذي كان العام الخامس والأربعين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، كان الملك أثناء عيد الميلاد في برج

في لندن مع الملكة، وقد اقتيد إلى هناك بوساطة بعض النصائح الشريرة، لبعض الأشخاص، للتهـرب من تنفيذ الاتفـاق الذي كان قـد عقده مع النبلاء، وفكر الآن باظهار مشاعـره الغاضبة بشكل علني، ولهذا السبب حبس نفســه في برج لندن، وكسر مغـاليق الأمـاكن الحاوية للمال، الذي جـرى خزنه منـذ زمن طويل، ووزع الأموال وبددهـا، واستأجر أيضـاً عــدداً من العمال لترميم وتحصين البرج المذكــور، في الأمـاكن الأكثــر صـلاحية للدفـاع، وعـلاوة على ذلك، أمر بالأبـواب التي حول مـدينة لندن، بأن يجري تحصينهـا بعوارض وحواجـز، ثم إنه جمع سكان المدينة ممن كـان في الثانيـة عشرة من عمـره فصـاعداً، وجعلهم يقسمـون على الاخـلاص له، و كـان هناك منادي ينـادي في الوقت نفسـه أن كل من يريد أن يقـاتـل من أجل الملك، عليـه القـدوم على الفــور، وهو الذي سيتكفل بنفقـاتـه، وعند سماع البـارونات بهذا، تدفقــوا كلهم من جميع الجهـات مع وحدات كبيرة من الجنود، وعسكروا خـارج المدينة، لأنه لم يسمح لهم بشكل مطلق بدخول المدينة للإقامة بها.

إرسال مندوبين من عند البارونات إلى الملك

وتم في هذه الآونَة الحصــول على رسـالة تحليل، فيهــا جـرى تحليل الملك وابنه ادوارد من الأيمان التي كـانا قـد أدياها، حسبما تقـدم الذكـر أعـلاه، لكن ادوارد رفض ذلك، أو الإفــادة من هذا التحليل، في حين أصر الملك على عناده، وعندما سمع النبـلاء بأن الملك جرى تحليله على هذه الصورة، أر سلوا رسلاً إليـه، ورجوه بتواضع أن يحافظ على اليمين الذي أخذه بشكل عام معهم، وأن لايخرقه، وبينوا أنه إذا كان هناك أي شيء ليس مرضيـاً بالنسبة له ومكـروهاً، عليه أن يبينه لهم حتى يقـوموا بإصـلاحه، ولم يقبـل الملك بأي شكل من الأشكال بطلبهم ولم يستجب له، بل رد عليهــم بخشــونة وتهديد، بأنهم نأوا عن اتفــاقهـم، وأنه لن يذعن لرغباتهم، بل المتوجب من الآن فصاعداً، على كل واحد منهم أن

يتجهز من أجل الدفاع عن ذاته، وبعد لأي تم أخيراً الوصول إلى تسوية بوساطة بعض الأشخاص، وتم الاتفاق على انتخاب فريقين، الفريق الأول لصالح الملك، والفريق الثاني لصالح البارونات، وأن يقوم هذان الفريقان بانتخاب فريق ثالث، ومن ثم يقوم الفرقاء الثلاثة بسماع الشكاوى من على الجانبين، وأن يقوموا بترتيب سلام ثابت القواعد بينهما، لكن تمّ الاتفاق على تأجيل القضية حتى وصول ادوارد، الذي كان آنذاك في القارة.

التحالف ضد المستشارين الأشرار

وكان ادوارد، الذي سمع بهذه الوقائع في منطقة نائية، وعندما سمع بها، عاد على الفور إلى الوطن، في سبيل أن لايجري تأخير إقامة السلام بسبب غيابه، وقد جلب معه وليم دي بلنسية الذي كان قد طرد مؤخراً من المملكة، وفي الحقيقة لم يكن الآن بإمكانه الحصول على اذن بالدخول إلى المملكة حتى يقوم بتأدية يمين بإطاعة القرارات والشروط العائدة للبارونات في جميع النقاط، وعليه إذا كان ضرورياً الاجابة على جميع الشكاوي التي قد تثار ضده، وعندما أخبر ادوارد، بعد وصوله، بالخطط الطائشة للملك، غضب كثيراً، ولم يقدم نفسه لأبيه، بل انضم إلى فريق البارونات تماشياً مع قسمه، وعقدت بعد ذلك اتفاقية فيما بينهم مشفوعة باليمين، بأن يبحثوا عن المستشارين الأشرار العائدين للملك مع محرضيهم، وأن يبقوهم بعيدين عن الملك، وذلك بقدر ما يمتلكون من قوة، وعندما أصبح الملك على دراية بهذا،حمل نفسه فوراً مع مستشاريه إلى برج لندن، وبقي ابنه ادوارد في الخارج مع البارونات.

طرد الإمبراطور بلدوين من القسطنطينية

وجرى في هذا العام طرد بلدوين امبراطور الاغريق مع الفرنسيين واللاتين، وذلك من قبل الاغريق بمساعدة الجنويين والبنادقة، وبعدما

استرد الاغريق امبراطوريتهم على هـذه الصورة، عينوا امبراطوراً عليهم واحـــداً من بينهم أنفسهم اسمـــه باليـــولوغـــوس Palaeologus, وهرب بلدوين، وبقي منفياً في فرنسا.

مختصر أخبار العام

كـــان هـذا العـــام كله عـــام خـــوف لانكلترا، واضطـراب للملك وللبـارونات، ومعطياً للسرور إلى الاغـريق، وبغيضاً إلى اللاتين، وكـان خصباً إلى حد ما في إنتاج الفواكه، ولطيف المناخ.

كيف غادر ملك إنكلترا برج لندن

في عـام النعمـة ١٢٦٢، الذي كان العـام السـادس والأربعين لحكم الملك هنـري، كـــان الملـك المذكـــور في برج لندن بصحبـــة ملكتـــه ومستشـــاريه، الذيـن لم يكونوا لانافعين له ولامخلصين، والـذين كـــانوا يخافـــون من أن تجري محاولات للعنف ضـــدهـم، لذلك أخـــذوا الاحتيـــاطات بالبقـــاء وراء الأســـوار في داخل البرج، وأمكن أخيراً، بوساطة الملكة، التوصل إلى عمل سلام مع بعض النبلاء، وإن كان ذلك مع بعض الصعـوبة، وجـرى تبـادل قبل السـلام، وبناء على هذا أظهـر الملك نفسه بثقـة أعظم خارج البرج، وترك جون مـانسيل مسؤولاً عنه، ثم بادر مسرعـاً إلى دوفر، ودخل إلى القلعة هنـاك، من دون اذن وأيضاً من دون اعتراض، ثم اكتشف الملك للمرة الأولى بأنه كان مفروضاً على الزيف والخديعـة، وذلك عندما شاهـد بأن القلعة كانت محروسـة بعناية من قبل البـارونات، وهي جـاهزة تمامـاً ومهيأة لدخـوله، وعهـد الملك بالمسؤولية عن تلك القلعة إلى إ. E(?) ويلران، ثم بادر بالذهاب مسرعاً إلى قلعة روكستر، ومن هناك إلى بعض الحصون الأخرى، حيث وجد فيهم جميعاً مدخلاً حراً ومخرجاً حسب رغبته.

كيف انحسب الملك علناً من يمينه اعتماداً منه على التحليل البابوي

تصور الملك الآن نفسه في أمان، لذلك قرر أن ينسحب بشكل علني من يمينه الذي أداه، بحكم أنه حصل على التحليل منه من البابا، ولهذا قام بجرأة بجولة على المدن والقلاع، لأنه رغب في امتلاك سلطة كاملة عليهم وعلى المملكة كلها، وقد تشجع كثيراً على القيام بها بحقيقة أن نبلاءه قد وعدوه مؤخراً بمساعدته بقوة قوية، ولدى وصوله إلى وينكستر عزل من وظيفتيهما كل من المسؤول عن العدالة وقاضي القضاة اللذين جرى تعيينهما مؤخراً من قبل البارونات، وعين بدلاً عنهما اثنين وافقا هواه ورغبته، وعندما سمع البارونات بهذا، بادروا مسرعين، وهم مسلحين ومعهم قوة كبيرة إلى وينكستر، لكن جون مانسيل الذي توقع هذا، ذهب سراً إلى الملك وحذره من الخطر، وأرغمه على العودة بكل سرعة إلى برج لندن.

وكان هذا العام كله خصباً في انتاج القمح والفواكه، وكان مشحوناً بالغش والخداع بالنسبة للانكليز.

كيف خضع ملك إنكلترا والنبلاء إلى تحكيم ملك فرنسا

في عام النعمة ١٢٦٣، الذي كان العام السابع والأربعين لحكم الملك هنري الثالث، الحامل لهذا الاسم منذ الاستيلاء، أمضى الملك عيد الميلاد في برج لندن مع ملكته ومستشاريه، وفي هذه الآونة بذلت مساعي من قبل أساقفة انكلترا وكذلك أساقفة فرنسا لإعادة تأسيس السلام بين ملك انكلترا والبارونات، وكانت النتيجة أن أخضع الملك والنبلاء أنفسهم إلى تحكيم ملك فرنسا، وذلك بالنسبة للمقررات المتقدم ذكرها واتخذت في اكسفورد، وكذلك بالنسبة إلى أعمال الأذى والسلب التي اقترفت فيما بينهم.

كيف أصدر ملك فرنسا قراره ضد بارونات إنكلترا

في اليوم التالي ليوم عيد القديس فينسنت Vincent, اجتمع عدد كبير جداً من الناس في اميان Amiens, وذلك عندما قام لويس ملك فرنسا، بحضور الأساقفة، والكونتات مع آخرين من نبلاء فرنسا، بإصدار قراره بشكل مهيب لصالح ملك انكلترا ضد البارونات، حيث قضى «بالإلغاء إلغاءً نهائياً: المقررات، والقوانين، والالزامات التي تقررت في اكسفورد، باستثناء القرار المتعلق بالصك القديم العائد إلى الملك جون ملك انكلترا، الذي جرى منحه إلى المجتمع على اتساعه»، ولم يقصد بمثل هذا القرار إلغائه بأي شكل من الأشكال، وتولى هذا الاستثناء تثبيت ايرل أوف ليستر وآخرين، الذين امتلكوا سرعة خاطر بالادراك، فوقفوا ثابتين إلى جانب مقاصدهم بدعم المقررات التي عملت في اكسفورد، والتي شكل ذلك الصك الأساس لها.

وفي هذا الوقت أيضاً، قام للويلين عدو الملك، وأمير ويلز، بإحداث مذبحة مع أعمال سلب في أراضي ادوارد ابن الملك هنري.

عودة الملك مع مرافقيه من البارلمان الفرنسي

في هذا الوقت عاد إلى الوطن الذين كانوا حاضرين بارلمان الملك الفرنسي، وكان بين هؤلاء هنري ملك انكلترا، وملكته إليانور، وبونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، وبطرس أسقف هيرفورد، وجون مانسيل، الذين تابعوا من دون توقف التآمر لإحداث كل مايمكنهم من أذى ضد البارونات، وحدثت منذ ذلك الحين بالفعل غلطة جديدة أسوأ من الغلطة الماضية، ذلك أن عدداً من النبلاء حنثوا بأيمانهم، وانسحبوا من ولائهم الممنوح إلى ايرل ليستر، الذي كان يناضل من أجل العدالة، وقام هنري ابن ملك ألمانيا، بعدما تسلم لقب Tikhel الذي منح إليه من قبل ادوارد ابن الملك، بالذهاب إلى مقدم تحالف

البارونات وقال له: «مولاي الايرل أنا لايمكنني الاستمرار بعد الآن بالقتال ضد أبي، ملك ألمانيا، وضد عمي ملك انكلترا، وضد أقربائي الآخرين، وبناء عليه بموافقتك واذنك، أنا أتركـكم، لكنني لن أحمل السلاح ضدكم، وعلى هذا رد عليه المقدم قائلاً وهو غير مكتئب: «مولاي هنري، أنا لست حزيناً على سلاحك، بل حزين من عدم الاستقرار الذي أراه فيك، وعلى هذا اذهب، مع أسلحتك، لأنني لاأخاف منهم بأي شكل من الأشكال»، وفي الوقت نفسه،انسحب أيضاً روجر دي كلففورد Clifford, وروجر ليبيرن Leyburne, وجون دي فوكس Vaux, وايمون لى استرانج Aímon L'Stranges, وكثير آخرون، أعمتهم الهدايا، لذلك تخلوا عن التحالف الذي أقسموا عليه بشكل عام للبارونات.

كيف شرع روجر مورتيمير بالأعمال العدوانية ضد البارونات

ثار في هذه الآونة روجر مورتيمير Mortimer, —وكان من شيعة الملك— ضد ايرل ليستر، ونهب أراضيه ومزارعه، وكان مقدم حزب البارونات قد شكل تحالفاً وصداقة مع للويلين أمير ويلز، فأرسل جيشاً قوياً إلى تلك المنطقة قام بغزو أراضي روجر المذكور، ودمر ممتلكاته وأحرقها، وحاصر في الوقت نفسه ادوارد، واستولى عل قلعتي هي Haye وهنتنغدون Huntingdon, اللتان كانتا بحوذة همفري دي بوهن Bohun, كما أنه استولى على قلعة بريكنوك Brecknock, وسلمهم جميعاً إلى روجر المذكور ليكونوا تحت وصايته، وقام في حوالي الوقت نفسه روبرت فيرار Ferrers, ايرل دربي Derby, الذي لم يقف لاإلى جانب الملك ولا إلى جانب البارونات، والذي يمكنك القول أنه لم يدخل في عداد البارونات، قام بإلحاق كثير من الأذى، لأنه قاد قوة عسكرية

كبيرة، فأستـولى بها على ووركستر، ودخل المدينة، ودمـر مقـراً يهودياً هناك،ونهب رجـال الديـن والعلمانيين سـواء، وذلك حيثما التقى بهم، ودمر الحدائق الملكية، واقترف كثيراً من الآثـام الأخرى، التي من أجلها اعتقل فيها بعـد، وجلب إلى المحـاكمـة، وأودع في السجن في لندن، وفي حوالي الوقت نفسه استولى ادوارد ابن الملك على قلعة غلوستر ومدينتها بالخدعـة، وصدوراً عن كـراهيتـه للبارونات أرغمهـم على تقديم فـدية للمكان بدفع ألف باوند.

إجراءات البارونات

في عام النعمة ١٢٦٤، الذي كان العام الثامن والأربعين لحكم الملك هنري، الذي هو الثـالث بهذا الاسم منذ الاستيلاء، كـان الملك المذكور في لندن أيام عيد الميلاد بصحبته ملكته، ورتشارد ملك ألمانيا وعدد كبير من الآخـرين، وفي حوالي الوقت نفسـه، نهب سيمـون دي مونتفـورت قائـد البارونات، ممتلكات المتحيـزين للملك، وخاصـة الأجانب منهم، الذين كانـوا متحالفين بالدم مع الملكة، وأدخلوا إلى انكلترا بوسـاطتها، واعتقل بعض شيعـة البـارونـات، بطرس أسقف أوف هيرفـورد، الذي كـان بيرغندي الأصل، وحدث اعتقـاله في كنيسته الكاتدرائيـة، وحملوه إلى قلعـة أوردلي (؟) Ordely, وذلك بعـدمـا عملوا اقتسـام متسـاوي للمال فيما بينهم أنفسهم، وبعـد هذا زحف جيش تحت إمـرة سيمـون دي مـونتفورت إلى غلوستر، وحـاصر القلعـة لمدة أربعـة أيام، واعتقل —لكن من دون متـاعب كبيرة— حـاكمهـا، متى دي بيسيلي Besille, وكان أجنبياً، ولكن جريئاً وفارساً شجاعاً، وقد حمل إلى مكان اعتقـال الأسقف نفسه، ثم زحف مع قـواته إلى ووركستر وبورغ Burgh أوشروبري، التي دخلوها واستـولوا عليها مع مصـاعب قليلة، ثم زحف الايرل مـع جيش البـارونات إلى الأجـزاء الشرقيـة من انكلترا، ودخل إلى جـزيرة إيلاي بقـوات ضخمة، وجعـل المنطقة كلهـا

خـاضعـة له، وكان الملك والملكـة أثناء هذا الوقت كله مقيمان في لندن، وحوالي هذا الوقت هـرب كاتبهما الخاص ومستشارهما، جـون مانسيل، الذي كان أغنى رجل في العـالم، هرب تبعاً لأحـد التقارير بشكل سري من برج لندن، خـوفاً منه من انتقـام البارونات، وفي هذه الآونة أيضـاً، جرى اعتقال هنري ابن ملك ألمانيا من قبل وكلاء الملك، لأنه وقف إلى جانب الايرل والبارونات وآثر قضيتهم، ووصل في الوقت نفسه ادوارد ابن الملك من القـارة، وعسكر في قلعة ويندسـور Windsor مع بعض الجنود الأجانب، الذين جلبهم معه قبل وقت قصير مضى.

توقف الانهيار المفاجيء للسلام

وخاف الملك من أن يشـدد الضغط عليه في برج لندن من قبل جيش البارونات، لذلك أقـام سلاماً مـؤقتاً معهم، بوسـاطة بعض الأشخاص الجبناء، ووعد بالالتزام بالمقـررات التي اتخذت في اكسفورد، لكن الملكة وقـد أثيرت بمكرها النسـائي، بذلت كـل الذي كـان بإمكانها لمنعـه من فعل ذلك، ونتيجـة لهذا السلوك، عندمـا رغبت في إحـدى المناسبـات بالذهاب إلى ويندسـور عن طـريق التيمـز، وركبت في مـركب من أجل هذه الغاية، تجمع حشد من الرعـاع من الفئات الدنيا للمدينة على جسر توجـب عليهـــا المرور من تحتـــه، واستقبلوهـا لدى اقترابها بإهـانات مـزيجةوباللعنات، وبرمي الوحل والحجـارة في المركب، وأرغمـوها على العودة إلى البرج.

وجـــرى ابـرام شكل من أشكـال الســلام بين الملـك وبين الايرل والبـارونات، وفق الشروط التـاليـة، وهي: إنه «ينبغي في المقـام الأول، اطلاق سراح هنري ابن ملك ألمانيا من الاعتقـال، وأن جميع قلاع الملك في جميع أرجاء انكلترا ينبغـي تسليمها إلى البارونات والعهـدة بها إليهم، وأن القـــرارات التي اتخذت في اكسفـــورد ينبغي الالتـــزام بها من دون احباط، وأن جميع الأجانب، ينبغي عليهم خلال وقت محدد الخروج من

انكلترا، باستثناء الـذين سـوف يسمح لهم بالبقـــاء في المملكة بناءعلى موافقـة عامة من البـارونات، على شرط اعطاء وعد بالسلوك المخلص، وأنه من ذلك الوقت فصـاعداً، على السكان المحليين، المخلصين وذوي الأخلاق الحميـدة، والذين يرعون مصـالح المملكة ويتطلعون إلى ذلك، تسلم المناصب، وترتيب، أعمال المملكة تحت توجيه الملك.

تحصين قلعة ويندسور

بعـــد وقت قصير من ابـرام هذه المعـــاهدة، ومن دون التقيـــد بالاتفاقيات، والوعود، والأيمان التي عملت، وضع بعض فرسان حزب الملك كميـات كبيرة مـن السـلاح والمؤن في قلعـة ويندســور، وفي هذا الوقت نفسـه، ذهب ادوارد ابن الملـك إلى قلعـة بريستـول، حيث نشب خصـام بين فـرسـانه وبين شعب المدينة، الذين قـامـوا بعمل تحضيرات لحصـار القلعـــة، وقـام ادوارد وهو مـذعـور، فبعث إلى وولتر أسقف ووركستر، الذي كان منحـازاً إلى البارونات، وذلك من أجل أن يذهب تحت حماية ذلك الأسقف إلى بلاط أبيه، ووعد بأن يقنع أبيه ومستشاريه بتبني إجــراءات السـلام، وبنـاء عليـه انطلق مـع الأسقف، لكن لدى وصوله إلى قلعـة ويندسور، دخل إليهـا، مما أزعج الأسقف كثيراً، الذي ارتاب به.

كيف أعطيت قلعة ويندسور إلى الإيرل سيمون

كان الايرل سيمـون قد وصل لتـوه لإلقاء الحصـار على تلك القلعة، وقـد تلاقى قـرب بلدة كنغستـون Kingston مع ادوارد، الذي عرض عليـه الدخول في مفاوضات لإقـامة ترتيبات للسـلام معه، لكن الايرل —بناء على نصيحـــة وولتر الأسقـف المتقــدم الذكــر— رفض الإصغاء إلى اقتراح ادوارد، ولدى رغبتـه بالعودة إلى القلعـة، احتفظ به سجيناً، ونتيجة لهذا، جرى تسليم قلعة ويندسور إلى الايرل، مع السماح

بإعطاء الحرية إلى الحاميــة بالمغـادرة مع جميع مقتنيــاتها إلى المكان الذي سوف يختـاره أفرادها، وأعطي الأمـان إلى الأجانب، وإلى الذيـن رغبوا بالعـودة إلى القارة، وفي هـذه الآونة تحالف للويلين، أمير ويلز بذاته مع ايرل سيمـون، وقام خـلال هذا الوقت بنهب كـونتية شيستر والتخـوم، وهـدم قلعتي دايســــــارت Dysart وغنّوك Gannock, وكانتا عائدتين إلى ادوارد، وسواهما بالأرض.

وجرى بعد ذلك بوقت قصير عقد بارلمان في لندن، وفي هذا الاجتماع تحول كثيرون ممن كـانـوا واقفين إلى جـانب قضيـة الايـرل، إلى جـانب الملك، وكـان المقـدم بينهم هنري الألماني ابـن ملك ألمانيـا من زوجتـه الماضيـة، وبدأت قـوة الملـك تسترد الثبـات إلى بعض الحدود، ثم ذهب الملك إلى دوفـر، وحاول الاستيـلاء على تلك القلعـة وانتزاعهـا من بين يدي الايرل، لكنه أخفق في مقاصده، فقام بالمغادرة ثانية.

كيف أعطى البابا أوربان مملكة صقلية إلى الكونت شارل

جرى انتخـاب الكونت شارل شيخاً دائماً لمدينة رومـا، وأعطاه البابا أوربان مملكة صقليـة، وأن تبقى بين أيدي ذريتـه حتـى الوريث الرابع، على أساس التفاهم بأن ينتزعها من مانفرد.

وفي هذه الآونـة ذهب الملك هنري إلى اكسفــورد ليقــدم صلـواته وليـزور ضريح القـديس فـريدوز Fredeswith, الأمــــر الذي لم يتجـرأ على عمله ملك لانكلترا قط قبله، وبذلك أظهـر أنه لايخاف من الآراء الواهمة للذين رأوا أنه غير شرعي للملوك الانكليـز دخـول تلك المدينة، لأن العذراء سـوف تزورهم بانتقامهـا، والتحق به ابنه ادوارد في ذلك المكان، واقترح أن يقـومـا بقــواتها المتحـدة بطرد البـارونات وابعـادهم بقـوة السلاح، وشرع بطرد رجـال اللاهوت من اكسـفورد، لكن حـدث في الوقت نفسـه، أن قـام مــواطنو لندن باعتقـال رجـال

العدالة التابعين للملك، وبارونات بيت المال، وألقوا بهم في السجن، وكان مع الملك في هذا الوقت الأمراء المشهورين التالين مع الشخصيات المهمة التالية: رتشارد ملك ألمانيا وعديله، وابنه ادوارد، ووليم دي بلنسية أخيه لأمه، والفارس المتميز جون كومين Comyn السكوتلندي مع حشد من السكوتلنديين، وجون بالأويل —لورد غالووي Galloway, وروبرت بروس Bruce —لورد أنانديل Annandale, وروجر كلففورد Clifford, وفيليب مارميون Marmion, وجون دي فوكس Vaux, وروجر ليبرن Leyburne, وهنري بيرسي Percy, وفيليب باسيت، وروجر مورتيمر Mortimer, وانطلق مصحوباً بهؤلاء ومتبوعاً بجيشه يريد نورثأمبتون، وألقى الحصار على ذلك المكان، وتمكن في يوم الأحد في أسبوع الآلام من احداث ثلمة، ودخل إلى البلدة، وهنا أسر خمسة عشر فارساً من ذوي الأعلام هم: سيمون الأصغر، ووليم فيرير Ferrers, وبطرس دي مونتفورت، وبلدوين ويك Wake, وآدم نيوماركت Newmarket, وروجر بيرتراند Bertrand, وسيمون فتز— سيمون، الذي كان أول من رفع الراية ضد الملك، وبيرنير Berengere دي ووترفيل Waterville, وهوغ غبيون Gebion, وتوماس مونسيل Mauncel, وروجر بوتيفيلين Boteveleyn, ونيقولا ويك Wake, وروبرت نيونغتون Newington, وفيليب درايبي Drieby, وغريمبولد بونيمونت Grimbald Paunsemont وقد أرسل بهم جميعاً إلى مختلف الحصون، حتى يجري حفظهم في سجون مضيقة، وبالاضافة إلى هؤلاء وقع بالأسر أيضاً حوالي الأربعين فارساً من مرتبة أدنى مع عدد من حملة الترسة.

زحوف الملك والبارونات

وزحف الملك من ذلك المكان نحو نوتنغهام، حيث نهب عزب البارونات، واجتاحها من جميع الجهات، وعاملها بالنار والسيف، وازداد عدد أتباعه بشكل كبير، وعند سماع الايرل سيمون بهذه الإجراءات، ذهب إلى لندن، وأعد آلاتاً للحرب، في سبيل استخدامهم، لأنه عزم على حصار مدينة روكستر، التي كانت آنذاك بحوذة جون وارني، ومدافع عليها من قبله، وعندما كان سيمون وجيشه قد استوليا على الباب الأول للمدينة وعلى الجسر، سمع أخباراً جلبت إليه ولمن معه بأن الملك كان زاحفاً على لندن، وبناء عليه رفعوا الحصار، وزحفوا مسرعين للقائه، وقام الملك على كل حال بالابتعاد عن لندن، واستولى على قلعة كنغستون Kingston التي كانت عائدة إلى ايرل غلوستر، وزحف على روكستر، وهزم الذين تركوا فيها لحفظ البلدة والدفاع عنها، وذلك بعدما قتل عدداً كبيراً منهم، ثم استولى بعد ذلك على قلعة تونبردج Tunbridge, وقد وجد فيها كونتسة غلوستر، فسمح لها بالمغادرة وهي حرة، وبعدما ترك كتلة كافية من الجنود لحماية القلعة المسماة أخيراً، زحف إلى وينشيلسي Winchelsea, حيث سمح لشعب الموانىء بعمل سلامهم معه، ومن ثم تابع تقدمه حتى وصل إلى لويس Lewes, وجرت ضيافته في ذلك المكان في رئاسة الرهبانية، في حين عسكر ابنه ادوارد في القلعة، وعندما كان هناك كتب إليه البارونات الرسالة التالية:

رسالة البارونات إلى ملك إنكلترا

«إلى عظمة جلالة مولاهم هنري، الذي بفضل نعمة الرب الملك اللامع لانكلترا، وسيد ايرلاندا، ودوق أكوتين، من باروناته والآخرين من رعاياه المخلصين الذين يرغبون بالالتزام بيمين الاخلاص للرب وله، تحيات، مع جميع الخضوع الصحيح، والتشريف والاحترام.

إنه واضح تمام الوضـــــوح، من عـــــدة براهين، أن هنـاك بعض الأشخـاص الذين حول ذاتك، قـد كـدسوا الكذب فـوق الكذب، فيما يتعلق بنا وبجـلالتك، ويحاولون إلحاق كل أذى هـو بإمكانهم، ليس بنا فقط، ولكن بك أيضاً وبالمملكة كلها، ويمكن لجلالتك أن تكون متأكداً أن رغبتنا هي حفظ صحتك وسـلامة شخصـك بكل ماأوتينا من قـوة، وذلك مع الاخـلاص المستحق لـك، وأن غـايتنا هي أن نطرد —بقـدر مـالدينا مـن قـدرة— ليس فقط أعـداءنا، بل أيضـاً أعـداءك، وأعـداء مملكتك كلهـا فهل يرضي جـلالتك أن لاتصدق إفـاداتهم، وبالنسبـة لنا فإنك ســوف تجدنا رعــايا مخلصين لك، وقــد قــام ايرل أوف ليستر، وغيلبرت دي كلير بوضع أختامنا على هذه الـرسالة، بنا ءعلى طلب من البقيـة، وذلك من أجلهم ومن أجلنا. صدر، إلخ، إلخ»، وعـامل الملك هذه الرسالة باستخفاف، وتشوق من قلبه كله من أجل معركة، ولذلك رد عليهم برسالة التحدي التالية:

جواب الملك على الرسالة المذكورة أعلاه

«من هنري، الـذي هو بنعمـة الرب، ملك انكلترا، سيـــد ايرلاندا، ودوق أكــــوتين إلى سيمــــون دي مــــونتفــــورت وغيلبرت دي كلير ومشايعيهما:

إنه لمن الواضح تماماً، من خلال إجراءات الحرب، وإثارة الاضطراب في مملكتنا من قبلكم، وكذلك أعمال الاحـراق والجرائم الكبيرة الأخرى التي اقترفت من قبلكم، أنكم لاتراعـون نحـونا الاخـلاص الحقيق بنا، وأنكم غير مهتمين بسلامة شخصنا، لأنكم آذيتم النبلاء كثيراً، والرعايا المخلصين لنا، والذين وقفـوا بثبـات إلى جـانب اخـلاصهم لنا، وحسبما أخبرتمونا في رسالتكـم، أن هدفكم العمل بقدر مـاهو متوفـر بقدرتكم، إننا نعـد الآن أن الإضرار بهم إضراراً لحق بنا، وأن أعداءهم هم أعـداء لنا، وكما قلنا من قبـل هم رعـايا مخلصين لنا، في الالتـزام بـاخـلاصهم

نحونـا، وقد ساعـدونا باخلاص ضـدكم في انعدام الاخـلاص لديكم، ونحن لسنا مهتمين لاباخـلاصكم ولابحبكم، ونحن نرفض أعـداءهم، شهـدت بنفسي في لويس، في هذا اليـوم الثـاني عشر من أيار، في السنة الثامنة والأربعين لحكمنا».

وكتب ملـك ألمانيـا، وادوارد ابن الملك إلى الايـرل المذكـور وإلى المتعـاونين معـه باسمهما، وبأسماء الآخـرين المؤيدين لقضيـة الملك وفق الصيغة التالية:

رسالة رتشارد ملك ألمانيا إلى البارونات

«من رتشارد الذي هو بنعمـة الرب، الملك الأغسطس للرومان، ومن ادوارد الابن الأكبر لملك انكلترا اللامع، ومن جميع البـارونات الآخـرين والفـرسـان المتمسكين بثبات بولائهـم نحو ملك انكلترا المتقـدم ذكـره، باخـلاص صـافي، ومع جميع ممتلكاتهم، إلى سيمـون دي مـونتفـورت، وغيلبرت دي كلير، وإلى جميع المتعاونين معهما في غدرهما:

علمنا من رسـائلكم التي قـدمناها إلى مـولانا الملك اللامع لانكلترا، أننا مـرفـوضين من قبلكم، مع أن عمل هذا الـرفض لم يكن ضرورياً، ولكن هذا بات واضحـاً إلينا بوسـاطة أعمالكم العـدوانيـة، وقد جـرى تنفيذه باحراق ممتلكاتنا، ونهب أراضينا واجتياحها، وبناء عليه نحن نود أن تعلموا جميعاً أننا نرفضكم جميعـاً وواحداً واحداً، وننظر إليكم أعداء معلنين، ونخبركم أننا سـوف نستخدم من الآن فصـاعداً جميع جهـودنا لإلحاق الأذى بكم، في كل ممتلكاتكم وأشخاصكم، وذلك حيثما وجدنا سبيـلاً لفعـل ذلك، وفيما يتعلق بالذي أكـدتموه بشكـل زائف، وهو أننا غير مخلصين للملك، وأننا لانقدم له النصيحة الصالحة، إن الذي قلتموه ليس صحيحاً بأي شكـل من الأشكال، وإذا مارغبت يامـولانا سيمون دي مـونتفـورت، أو أنت ياغيلبرت دي كلير، بتقـديم هذه الإفـادة في

محكمة مولانا الملك، نحن على استعداد لأن نمنحكم أماناً حتى تقدموا إلى المحكمة المذكورة، وذلك حيث سنكون نحن جاهزين أيضاً للبرهنة على براءتنا، وعلى زيف كل منكما، وأنكما خائنين جبانين، وذلك بوساطة واحد سيكون مساوياً لكما في الأصل والمكانة، ونحن جميعاً داخلين ومشمولين تحت ختمي: صاحب الجلالة ملك الرومان، ومولانا ادوارد. صدر كما ورد أعلاه».

الرفض الثاني لطلب البارونات من أجل السلام

وأرسل البارونات ثانية، هنري أسقف لندن، ووليم كانتيلوب Cantelupe أسقفووركستر، إلى الملك بمثابة وسطاء، لإقامة السلام، وعرضوا دفع ثلاثين ألف باوند مقابل الأضرار التي عملت في جميع أرجاء المملكة من قبلهم، شريطة الحفاظ على كل الاحترام للقرارات التي عملت في اكسفورد، لكن ملك ألمانيا رفض الاصغاء للسلام بأي شكل من الأشكال، لأنه كان في حالة سخط كبير لأن البارونات قد ثاروا ضده، ونهبوا ممتلكاته، وقد صرح ضد السلام، ومنع في الوقت الحاضر الترتيبات، ولذلك عاد الرسولان ليعلنا بأن الفئة المضادة باتت مستعدة تماماً للحرب، وأن هذا كان قراراً نهائياً، ولذلك أمضى الايرل سيمون تلك الليلة كلها من دون نوم، وأمضى الوقت كله في الصلاة، وتأدية الواجبات المقدسة، وحث أصحابه وأتباعه على القيام بالاعتراف، وأعطى وليم كانتيلوب —أسقف ووركستر تحليلاً إليهم جميعاً، وأوجب عليهم، في سبيل الخلاص من ذنوبهم ونيل ذلك، القتال بنشاط ورجولة في ذلك اليوم من أجل العدالة، ووعد بالدخول إلى ملكوت السموات إلى جميع الذين سوف يموتون في سبيل مثل تلك القضية، وعندما بات جيش البارونات متأكداً بأن المعركة باتت وشيكة، غادر قبل الفجر قرية فلشنغ Fleching, حيث أمضى جزءاً كبيراً منهم الليل هناك، والتي

كـانت على بعد حـوالي ستة أميـال عن لويس، وقبل أن يبـدأوا بالحملة منح الايرل سيمون شرف الفروسية لغيلبرت كلير.

استراتيجية سيمون دي مونتفورت

وعندمـا وصلوا إلى مكان بالكاد كـان على مسافـة ميلين من بلدة لويس، صعد سيمون مع رفاقه على مكان مرتفع، ووضع عربته فوقه في وسط الأثقـال وخيـول التحميل، وعـرض هناك رايتـه وربطهـا بشكل محكم إلى العربة، وأحاطها بعـدد كبير من جنوده، واستحوذ هو وجيشه على الأرض من على جهتـي هذا المكان، وانتظـر نتيجـة الأحـداث، وسجن في عربة أخرى أربعـة مواطنين من لندن كانوا قد تآمـروا لخيانته قبل وقت قصير، عندما كـان يمضي الليل في ساوثورك Southwark, وفعل هذا من باب الاحتياط، ثم قام بشكل حكيم بترتيب قواته، وأمر جنوده بربط صلبـان بيضـاء على صـدورهم وعلى ظهـورهم، وذلك ليظهـروا أنهم يقـاتلون من أجل العـدل، وفي الصباح البـاكـر من ذلك اليـوم فاجـىء جيش البارونات أتبـاع الملك الذين ذهبـوا يبحثـون عن الطعام، وقتل عدداً كبيراً منهم.

المعركة بين بارونات إنكلترا والملك

وتم اخبار الملك باقتراب البـارونات، فقام بالتحرك فـوراً مع جيشه، وذهب نحـو الأمام لمواجهتهم مع أعـلامه وهي منشـورة، وسار أمـامه الشعـار الملكي، المحمـول على تنين،وذلك بمثابـة إعلان بنفسـه رسـالة الموت، وكـان جيشـه مقسماً إلى ثلاث كتـل، وكـانت الكتلة الأولى تحت قيـادة ابنه الأكبر ادوارد، مصحـوباً بـوليم دي بلنسيـة، وايرل بامبروك، وجـون دي وارني —ايرل سري Surrey وسسكس Sussex, وكـانت الكتلة الثانيـة تحت قيـادة ملك ألمانيا وابنه هنري، في حين قـاد الملك هنري نفسه الكتلة الثـالثة، وكـان جيش البارونات مقسماً إلى أربع

فرق، حيث كانت الفرقة الأولى تحت قيادة هنري دي مونتفورت وايرل أوف هارتفورد، وكانت الفرقة الثانية تحت قيادة غيلبرت كلير، وجون فتز— جون، ووليم دي مونشينيل Monchesnil, وتألفت الفرقة الثالثة من اللندنيين، الذين كانوا تحت قيادة نيقولا سيغريف، وقاد الايرل سيمون وتوماس بيلفيدون Pelvedon الفرقة الرابعة، وانقض ادوارد وفرقته على العدو بشدة كبيرة أرغمته على التراجع، حتى قيل بأن عدد الفرسان الذين غرقوا قد بلغ الستين، وفي الحال أرغم اللندنيون على الفرار، وقام ادوارد الذي كان متعطشاً لدمائهم، بسبب الاهانة التي وجهوها مؤخراً إلى أمه، بمطاردتهم لمسافة أربعة أميال، وأحدث مذبحة مرعبة بينهم، ولكن بغيابه أضعف كثيراً قوات الملك، وفي الوقت نفسه شاهد بعض قادة جيش الملك علم الايرل على الرابية، فظنوا أن الايرل نفسه كان هناك، فبادروا فجأة مسرعين إلى هناك وقتلوا المواطنين اللندنيين الذين كانوا محبوسين في العربة، وذلك دون أن يعرفوا أنهم كانوا من أصدقاء قضيتهم، ولم يكن خلال هذا الوقت كله الايرل وغيلبرت كلير من دون نشاط، بل صرعوا وقتلوا كل من تصدى لهم، ووجهوا جهودهم كلها بكثافة لأسر الملك وهو حي، وقد سقط عدد كبير من أعوان الملك أمامهم، وأما جون ايرل وارني، ووليم دي بلنسية، وغي لوزغنان وجميع إخوة الملك لأمه، وهوغ بيغود، وحوالي الثلاثمائة فارس مسلحين، فأداروا ظهورهم، وهربوا أمام الحملات الحادة للبارونات، ووقع بالأسر رتشارد ملك ألمانيا، وروبرت بروس، وجون كومين، الذين كانوا قد جلبوا عدداً من السكوتلنديين معهم، أما الملك هنري فبعدما قتل فرسه تحته فقد سلم نفسه إلى سيمون دي مونتفورت، وإثر ذلك بوقت قصير وضع في الدير تحت الحراسة، وقتل عدد كبير من البارونات السكوتلنديين على أرض المعركة في ذلك اليوم، والجنود الرجالة الذين قدموا معهم، فقد تعرضوا للقتل بأعداد كبيرة، وعلاوة على ذلك وقع

بالأسر همفري دي بوهون Bohun, ايرل هيرفورد، وجون فتز- ألان -ايرل آرونديل، ووليم باردولف Bardolf, وروبرت تيتشل Tatesull, وروجر سومري Somerey, وهنري بيرسي، وفيليب باسيت، ومن جانب الملك قتل رجلا العدالة: وليم ويلتون Wilton, وفولك فتز- وارن، حيث سقط الأول في المعركة، وغرق الثاني في النهر، ومن جانب البارونات سقط هناك رالف هورنغاند Horinganade, وكان بارونا، ووليم بلند Blund, وكان حامل راية الايرل، ولقد قيل بأن الخسائر من على الجانبين وضعت مع بعضها، فوصلت إلى خمسة آلاف رجل.

كيف رغب البارونات بالتوصل إلى شروط سلام مع الملك

ولدى عودة ادوارد مع رفاقه بالسلاح من قتل اللندنيين، دون أن يعرف الذي حدث لأبيه، تجول حول البلدة ووصل إلى قلعة لويس، غير أنه لم يجد والده هناك، فدخل إلى الدير، حيث التقى به، وعلم بالذي حدث، وقام البارونات بالوقت نفسه بهجوم على القلعة، لكن الحامية قامت بدفاع فعال، فانسحبوا، وعندما سمع ادوارد بشجاعة الحامية ورجولتها تشجع كثيراً، وأعاد حشد قواته، ورغب في أن يجرب حظه في معركة ثانية، وعندما سمع البارونات بالذي عزم عليه، أرسلوا أشخاصاً للتوسط للسلام، ووعدوا بالتوصل إلى بعض الترتيبات المحددة حول هذا الموضوع في اليوم التالي، وتم التوصل في اليوم التالي بوساطة الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، أن يتم في اليوم السادس المقبل تسليم ادوارد وهنري نفسيهما إلى الايرل سيمون، بدلاً عن والديهما، ملكي انكلترا وألمانيا، على أمل الحصول على السلام والاستقرار، على شرط أن يجري حوار صحيح حول أي من القرارات والمبادىء ينبغي الالتزام بها لصالح المملكة، وأيها ينبغي إلغاءه، وأن جميع الخسائر من على الجانبين ينبغي التخلي عنها من دون أي تعويض،

وفي يوم السبت التالي أعطى الملك الاذن إلى جميع الذين وقفوا إلى جانب قضيته بالعودة إلى أوطانهم، وكتب بناء على رغبة الايرل سيمون إلى الذين كانوا في حصن تونبردج Tunbridge يأمرهم بالعودة إلى أوطانهم، وأن لايؤذوا البارونات، وقد سمعوا على كل حال بأن اللندنيين الذين هربوا من المعركة قد التجأوا إلى كرويدون Croydon, ولذلك لم يتقيدوا بهذا الأمر، فسلحوا أنفسهم، وانقضوا على ذلك المكان، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وحملوا كميات من الأسلاب، وذهبوا من ذلك المكان إلى بريستول حيث بقيوا في حالة دفاع حتى اطلاق سراح ادوارد، أما بالنسبة لادوارد، فقد جرى إرساله إلى قلعة وولنغفورد من أجل السلامة.

مآسي وفواجع إنكلترا

كان هذا العام كله مع خمسة أشهر وأسبوعين من العام المتقدم، قد عبروا وسط رعب الحرب، ومحاولة كل واحد وسعيه للدفاع عن قلعته، ونهب كل واحد المنطقة المجاورة، ودمر الحقول، وسلب المواشي لتزويد قلعته بالمؤن من أجل المدافعين عنها، ولم يوفروا لاالكنائس ولاالمقابر، وعلاوة على ذلك تعرضت بيوت أفقر العمال الزراعيين للتفتيش وللنهب، ولحق النهب حتى القش الذي استخدم لحشايا النوم، ومع أن الايرل أعطى أوامر، أنه تحت طائلة الاعدام، أن مامن أحد ينبغي أن يتجرأ على الدخول إلى كنيسة مقدسة أو مقبرة، من أجل النهب، أو التعامل بعنف مع الرهبان أو مع خدمهم، مع ذلك لم يحصل على شيء من هذا الإجراء الحكيم، لأنه لم يتمكن لاالأساقفة، ولارؤساء الديرة، أو أي من رجال الدين بالعبور من بلدة إلى بلدة دون التعرض للسلب على أيدي قطاع الطرق بالليل.

وصف للسمات العامة للعام

وكان هذا العام، خلاله كله منتجاً بصورة لابأس بها للفواكه، ولطيفاً في المناخ، وصحياً، ولكنه في جميع الأحوال عبر مع الخسارة لانكلترا، بسبب الحرب العامة، واعتقال الملكين، والسلب المؤسف للمقتنيات بشكل علني وسري.

إجراءات سيمون دي مونتفورت

في عام النعمة ١٢٦٥، الذي كان العام التاسع والأربعين لحكم الملك هنري، الثالث بهذا الاسم منذ الاستيلاء، كان الملك مسجوناً في حبس الايرل سيمون، مع رتشارد ملك ألمانيا، وادوارد الابن الأكبر للملك، وبعض النبلاء الآخرين، وخلال كل من العام الماضي والعام الحالي أخذ الايرل سيمون ملك انكلترا وابنه ادوارد —الذي نقله من قلعة وولنغفورد— إلى حيثما ذهب حتى تمكن من الاستيلاء على جميع القلاع الأكثر حصانة في المملكة، ولكنه من ذلك الحين أبدى نفسه وهو أقل ميلاً للتعامل مع قضية السلام، وفقاً للشروط التي تقدم إعدادها، لأن الملك والمملكة كلها باتت تحت سلطته، وأخيراً وضع ملك الرومان في برج لندن، ووضع ادوارد وهنري، ابني الملكين، قيد الاعتقال في قلعة دوفر، وأخذ ملك انكلترا معه دوماً حيثما ذهب، هذا وكانا حيثما ذهبا وإلى أي مكان وصل، كان يستقبل دوماً بالتشريف، وذلك كملك، وأبدى الايرل نحوه كل نوع من أنواع الاحترام.

إجراءات أهل التخوم مع ويلز

قام في الوقت نفسه، عدد كبير من الفرسان الشجعان والمتميزين كان من بينهم روجر مورتيمر Mortimer, وجيمس أندلي Andeley, وروجر ليبورن Leybourne, وروجر دي كليففورد Clifford, وإيمون لى استرانج، وهوغ دي توربيفيل

Turbeville, وعدد آخـر، فأعلنوا عن سخطهم على هذه المعاملة للملك ولأولاده، وثاروا ضد ايرل ليستر بموافقة عامة، ولكي يضبط وقاحتهم اتخذ الايرل سيمون للويلين —أمير ويلز حليفاً له، ودخل إلى قلعة هيرفـورد، وأخذ معه سجينه ادوارد من دوفر، ثم إنه استرد الاستيلاء على قلعة هي Haye, التي كانت عائـدة إلى ايرل هيرفورد، واستولى على قلعة لودلو Ludlow, وبعدما اجتـاح أراضي روجر مورتيمير، زحف نحو مونتغمري Montgomery, وفي ذلك المكان عقد سلام بين الايرل سيمون، والنبلاء الذين تقدم ذكرهم، حيث قدم النبلاء رهائنهم، وبعد هذا، زحف الايرل نحو المناطق الجنوبية من انكلترا، بقصد مواجهة فرقة من الجنود، روي بأنها كانت قادمة لمساعدة الملك.

كيف جرى إرسال نائب بابوي تولى حرمان البارونات كنسياً

في هذا الوقت نفسه تأثر البابا أوربان من الحالة المضطربة في انكلترا، فأرسل كاردينال أسقف سابينو Sabino, بمثابة مندوب بابوي إلى تلك البلاد، لكن أسطول الموانىء الخمسة كان محتلاً وحارساً لجميع المنافذ إلى انكلترا بوساطة البحر، ولذلك بعث وراء بعض الأساقفة للقدوم إليه، فقد أرسل إليهم أولاً للقدوم إلى اميان Amiens, وبعد ذلك إلى بولون، وعهد إليهم بالاعلان ومن ثم تنفيذ قرار الحرمان الكنسي، والحرمان من شراكة المؤمنين، الصادر بموجب السلطات البابوية ضد مدينة لندن، والموانىء الخمسة، وأيضاً ضد جميع مثيري الاضطراب وتعكير سلام ملك انكلترا، ومع هذا استخف الأساقفة بالقضية وراوغوا حولها، وما من شيء مؤكد كان معروفاً، مع أن مواقف عدة وآراء متنوعة جرى التعبير عنها، بطرق مختلفة، حول سبب سلوكهم وتصرفهم.

الخلاف بين الإيرل سيمون وغيلبرت دي كلير

وفي هذا العام، عندما كان ادوارد ابن الملك مايزال في السجن في قلعة هيرفورد، نشب خلاف بين سيمون ايرل ليستر وغيلبرت دي كلير، وكان سبب ذلك هو كما يلي: لم يكن ايرل أوف ليستر قانعاً بالاحتفاظ بملك انكلترا في سجنه، بل استولى على قلاع الملك ووضعها تحت سلطته، ورتب شؤون المملكة كلها حسب ارادته، والذي كان السبب الرئيسي للخلاف، هو أنه ادعى لنفسه وحصر بها وحدها إجراءات المملكة ومنافعها، ومبالغ فداء الأسرى وجميع الموارد المتوجبة الأخرى، وهذا كله كان من المفترض اقتسامه بالتساوي بينهما، وبدا أيضاً أنه نظر نظرة استخفاف إلى أولاده، الذين أصبحوا متجبرين، وكانوا الآن وراء الإعلان عن مبارزة سوف تعقد في دنستيبل ضد ايرل غلوستر، وقد جاء إليها اللندنيون وعدد كبير من الفرسان، والرجال المقاتلين، وعندما سمع والدهم بهذا، وبخهم على وقاحتهم، وفرض عليهم الاقلاع عن إجراءاتهم، وهددهم أنهم إذا لم يطيعوا أوامره، فسوف يضعهم في مكان لن ينتفعوا فيه من رؤية الشمس أو القمر.

وعندما سمع ايرل غلوستر بهذا المنع، غضب فوق حدود المعقول، ووجد الذين عملوا الاستعدادات من أجل المبارزة المذكورة صعوبة في تحمل أن يروا أنفسهم وقد حيل بينهم وبين مقاصدهم، وكان المصدر الأعظم للغضب هو النفقات الكبيرة التي تحملوها في هذا المجال، وقد نفسوا عن حنقهم ضد الايرل، وقالوا إنه أمر مضحك ومزعج أن يقوم أجنبي بامتلاك الوقاحةعلى امساك سيادة المملكةكلها بين يديه، وكان مما زاد غضب غيلبرت أنه عندما سأل سيمون المذكور ورجاه أن يسلمه ملك ألمانيا وبعض الأسرى الآخرين الذي جرى اعتقالهم من قبله (غيلبرت) ومن قبل أتباعه، رد سيمون رداً موجزاً بالرفض أن يفعل ذلك، ولهذا السبب تحولت الصداقة السالفة بينهما إلى كراهية، وتفجر

الخلاف وتصاعد إلى درجة أن غيلبرت لم يعد يقيم تقديراً لالقسمه، ولالإخلاصه للقضية، ولم يعد هناك شيء يمكن أن يهدئه، وعلاوة على ذلك دافع غيلبرت عن جميع النبلاء الفرسان للتخوم (الذين تقدم ذكرهم أعلاه) الذين أمر الايرل سيمون بموجب مرسوم أعلنه، بوجوب طردهم من المملكة، وقام غيلبرت بمراسلتهم، واستمالهم إلى جانبه بالتحالف معهم، وازداد تحالفهم بانضمام جون دي وارني—ايرل سري وسسكس، ووليم دي بلنسية —ايرل بمبروك Pembroke, الذي وهو على طريقه إلى المقاطعات الغربية من ويلز، نزل في بمبروك.

وعند ذلك أخذ الايرل سيمون الملك معه، وانطلق نحو هيرفورد، فجمع فرقة كبيرة من الجنود، مع نية اخضاع الفرسان الذين تقدم ذكرهم بقوة السلاح، وجرت في الوقت نفسه مساعي من قبل بعض الأساقفة، لإعادة ايرلي ليستر وغلوستر إلى سالف حالة الصداقة والوحدة بينهما، لكن ذلك كان بلا محصلة.

وفي هذا الوقت عندما كانت الأمور على هذا الوضع، حصل ادوارد ابن الملك الذي كان موضوعاً في السجن في قلعة هيرفورد، على اذن من حراسه، ليقوم بتمارين في الحقل خارج المدينة، وليفرج عن نفسه ويسليها بتجريب سرعة خيولهم، وفي إحدى المناسبات، بعدما قام بتجربة عدد من الخيول، وبعد اتعابه لهم، اختار أخيراً واحداً جيداً، حيث امتطاه، وحثه على الاسراع بمهمازيه، وقال وداعاً لحراسه، وعبر نهر وير Wear, وكان مرافقاً باثنين من الفرسان، وبأربعة من الأتباع، الذين كانوا على دراية بنواياه، ووجه طريقه إلى قلعة ويغمور Wigmore, وطارده حراسه، لكنهم حين شاهدوا رايتي روجر مورتيمر، وروجر دي كليففورد، اللذان كانا قادمين لمساعدة ادوارد في فراره، لم يعد بإمكانهم المطاردة وعادوا إلى هيرفورد، ووقعت هذه الوقائع عشية عيد التثليث، وجرى الاعداد لها بالتشاور مع، وبمساعدة الفرسان الذين تقدم ذكرهم.

إجراءات سيمون وإدوارد

وهكذا وقد تخلص ادوارد من سجنه، قام بحشد جيش كبير، لأن أعداداً كبيرة تدفقت على الالتحاق به، ودخلت كونتيات: هيرفورد، وووركستر، وسالوب Salop وشيستر بتحالف معه، وتدفق سكان البلدات، والقرى، والمدن، والقلاع للانضواء تحت رايته والانضمام إليه، فقام على الفور بحصار مدينة غلوستر، التي كان الايرل قد استولى عليها مؤخراً، وترك حامية فيها، فرت الآن إلى القلعة، ولكن بعد حصار لمدة خمسة عشر يوماً سلموا القلعة إليه أيضاً، ولتقديمهم يمينهم أنهم لن يحملوا السلاح ضد ادوارد في المستقبل، سمح لهم بالمغادرة وهم أحرار، وهاجم ايرل ليستر في الوقت نفسه قلعة مونماوث Monmouth, التي كان ايرل غلوستر قد استولى مؤخراً عليها وحصنها، وبعدما أرغم الحامية على الاستسلام، هدم القلعة وسواها بالأرض، ثم إنه دخل إلى غلامورغانشاير Glamorganshire, في أراضي ايرل غلوستر المذكور، وبما أنه التقى بأمير ويلز مع مساعدة، تمكن المقدمان من اجتياح المنطقة كلها بالنار وبالسيف، وسمع ادوارد في الوقت نفسه أن كثيراً من شيعةالايرل سيمون، قد تدفقوا مع بعضهم إلى قلعة كنيلوورث Kenilworth ولذلك ضم قواته إلى قوات ايرل غلوستر، وانطلق زاحفاً من ووركستر في المساء، فوصل إلى ذلك المكان بزحف قوي، وانقض على المكان فجأة، فأسر ايرل اكسفورد، وحوالي الثلاثة عشر فارساً من ذوي الرايات، قبل أن يتمكنوا من الدخول إلى القلعة، التي كان سيمون ابن الايرل سيمون قد أغلقها على نفسه وتحصن بها، أما سيمون ايرل أوف ليستر، الذي احتفظ دوماً بالملك برفقته، فقد عاد من جنوب ويلز، ووصل يوم عيد القديس بطرس في الأغلال إلى كمبسي Kempsey, وهي مزرعة كانت عائدة إلى أسقف ووركستر، وأقام هناك في اليوم التالي، وعاد ادوارد

وقتهـا من كنيلوورث إلى ووركستر، التي كانـت تبعد ثلاثة أميـال فقط عن العزبة المتقدم ذكرها، ولـدى سماع سيمون بوصوله إلى هناك، ابتعد مع الملك عند بـداية الليل، وعسكر في بلدة ايفهـام، حيـث انتظر قـدره غير السعيد، لأنه في اليـوم التالي، وهو اليوم الذي عثر فيـه على القديس اسطفـان، تحرك ادوارد من ووركستر، وعبر النهـر قـرب بلدة كلين Claines, وقطع إمكانيـة اتصال الايرل بابنه الذي كـان في قلعة كنيلوورث، ومنع أية فـرصة، أوإمكانية اللقـاء بين الأب وابنه، وزحف في اليـوم التالي حتى بات قـريباً من بلدة ايفهـام، هو من الجانب الأول، وايرل غلوستر وروجـر مـورتيمير قد قـدما كل لوحـده من الاتجاهين الآخرين، وهكذا بات ايرل ليستر مطوقـاً من جميع الجهات، وبات تحت ضرورة التسليم عن طواعية، أو انشاب القتال معهم.

وفي الخامس من آب، الذي وقع في اليوم الثـالـث من الأسبوع، التقى الجيشـان في سهل واسع خـارج البلدة، حيث أعقب ذلك صراع جـاد، واستمـر ذلك حتى بدأ أتباع الايرل بـالتراجع، ووقع ثقل القتال عليـه، وقـد قتل على أرض المعـركـة، وعند مقتله هبت عـاصفـة من الرعـد والبرق، وانتشر الظلام على مسـاحـة واسعـة، وقـد أصيب الجميع بالدهشـة، وسقـط هناك إلى جـانب الايرل في تلك المعـركـة اثني عشر فـارساً من حملـة الأعلام، وهم: هنري ابنه، وبطـرس دي مونتفـورت، وهوغ ديسبنسر Despenser رجل العدالة لانكلترا، ووليم دي مـانـديفيل، ورالف بـاسيت، وولتر دي كـرسبغني Crespigny, ووليم يـورك، وروبرت تريغـور Tregor, وتومـاس هوستلي Hostelee, وجـون بيـوشـامب Beauchamp, وغي بالأويل، وروجـر دي رولي Roulee, وعـدد كبير آخـر من ذوي المراتب الأدنى، وكذلك من الأتباع، والرجالة، وكانت الخسارة الكبرى بين الويلزيين، وهكذا انتهت جهـود ذلـك الرجل النبيل ايرل سيمـون،

الذي لم يقدم ممتلكاته فقط، ولكن شخصه أيضاً للدفاع عن الفقير ضد الظلم، وللحفاظ على العدل وعلى امتيازات، المملكة، وكان متميزاً بعلمه، وبمواطنته وصرفه انتباهه لتأدية الواجبات الدينية، فذلك كان يشكل سروراً له، وكان معتدلاً ومقتصداً، وكان من عاداته ممارسة السهر في الليل، مفضلاً ذلك على النوم، وكان جريئاً في الكلام، وله مظهر حاد، وقد وضع ثقة كبيرة في صلوات الرهبان، وقدم دوماً احتراماً عظيماً للاهوتيين، وسعى للالتزام بنصائح القديس روبرت الذي كنيته غروستيت Grosstete —أسقف لنكولن، وعهد إليه لتربيتهم، عندما كانوا صغاراً جداً، وعلى نصيحة ذلك الأسقف اعتمد أثناء ترتيبه للمسائل الصعبة، ولدى محاولته القيام بمخاطرات مشكوك بها وصعبة، وفي انهاء ماكان قد بدأ به، ولاسيما القضايا التي أمل أن يزيد بها من فضائله، ويروى بأن ذلك الأسقف نفسه قد فرض عليه أن يتبنى هذه القضية من أجل الحصول على عفو من ذنوبه، وفعلاً التزم بها وقاتل حتى الموت، معلناً أن سلام كنيسة انكلترا، لايمكن تأسيسه بثبات إلاّ بوساطة السيف، ومؤكداً له بصورة ايجابية، أن كل من سيموت من أجله سوف يتوج بالشهادة، وذكر بعض الأشخاص، علاوة على ذلك، أن الأسقف وضع في إحدى المناسبات يده على رأس الابن الأكبر للايرل وقال له: «ياولدي العزيز، أنت مع أبيك ستموتان في يوم واحد، وبنوع واحد من الموت، لكن ذلك سوف يكون في سبيل العدل والصدق»، ومضت التقارير إلى القول أن سيمون، تميز بعد وفاته، بعمل عدد من المعجزات، وهي معجزات لم يتم الاعلان عنها واشهارها، خوفاً من الملك.

كيف أعطى إدوارد الأوامر بدفن الموتى

وبعدما حصل ادوارد على هذا النصر المبكي، أعطى أوامره إلى رهبان ذلك المكان بدفن أجساد الموتى، ولاسيما الذين كانوا من المراتب العليا،

وأن يكـون ذلك بشكـل لائق، وحضر شخصيـــــاً جنازة هنـري دي مونتفورت، الذي كان والده الملك قد أمسكه عند جرن المعمودية عندما جرى تعميـده، والذي نشأ معه وتربـى، وقد أحبه، لأنه رافقـه منذ أيام الطفولة.

وقال بعضهم أنه قبل المعركة المذكـورة، خرج سيمون إلى خارج بلدة ايفشام، وشـاهد بأية حكمة وبراعة جـرت تعبئة صفوف أعدائـه، فقال لمرافقيـه: «بحق ذراع القـديس جيمس (هكذا كـان قسمه المعتـاد) إنهم يقتربون بحكمـة، ولقد تعلمـوا هذه الطريقـة مني، وليس من أنفسهم، لذلك دعونا نوصي بنفوسنـا إلى الرب، لأن أجسادنا سوف تكون لهم»، كما أنه حث هوغ دسبنسر و رالف باسيت مع آخرين على الفـرار وانقاذ أنفسهم من أجل أوقـات أفضل، لكنهم قـالوا بأنهم لايودون العيش إذا مامـات هو، وبعد مقتله قطـع أعداؤه رأسه، وقـدميه، ويديه، مضـادين ومخالفين بذلك جميع قـوانين نظام الفـروسيـة، وقـدم رأسـه إلى زوجـة روجر مورتيمير التي كانت مقيمة في قلعة ووركستر.

وأصيب الملك في هذه المعـركة بجراحـة من ضربة رمح قـذف نحوه من دون قصـد، فصـار في خطر فقدانه حيـاته، وبهذا النصر أعـاد الملك تأسيس سلطتــه الملكيـة، وبناء على نصيحـة ابنه المنتصر دعـــا إلى عقـد بارلمان في وينكستر، في عيــد ميــلاد العـذراء المجيــدة، وقـــام في هذا البـارلمان— بعـد التشـاور، بتجـريـد لندن، بسبب أعمال عصيـانها، من حـرياتها القـديمة وامتيـازاتها، وأمـر بمقدمي العـاملين ضـد السلطات الملكيـة بالالقاء بالسجن، انتظاراً لرضـاه، وفي يوم عيد القـديس ادوارد جرد جميع الـذين وقفوا إلى جانـب الايرل سيمون ضد مـولاهم الملك، من أمـلاكهم ومـواريثهم، ومـــالبث بعـد ذلك أن أعطى أراضيهم، إلى الذين وقفـوا مخلصين إلى جانب الملك، معـوضـاً كل واحد منهم وفقـاً لاستحقـاقـاته، ولذلك قـامت الفئـات المحـرومـة بالتجمع مع بعضهـا

بعضاً، وانخرطت في أعمال النهب والسلب في جميع الاتجاهات، وكان على رأس الذين حرموا: سيمون، وغي، ولدي الايرل سيمون دي مونتفورت، وسمح لزوجة الايرل بالمغادرة وهي تمتلك حريتها، مع جميع مقتنياتها، وتبسلمت أماناً من ادوارد، وبناء عليه عادت إلى بلادها الأصيلة، ولم تعد.

الوقائع في بلدة القديس ألبان

وفي هذا الوقت كانت بلدة القديس ألبان، مدافع عنها بقوة، والأبواب أمينة ومحكمة الاغلاق بالحواجز والأقفال، من كل من الداخل والخارج، بسبب الخوف الذي أوحت به الحرب، وجرى منع الدخول إليها إلى جميع المسافرين، خاصة إلى الفرسان، ثم إن غريغوري ستوك Stock عمدة هارتفورد، استاء من شجاعة شعب بلدة القديس ألبان، وتبجح متفاخراً بأنه سوف يدخل إلى البلدة مع ثلاثة شبان فقط، دون المبالاة بالأقفال والحواجز، وأنه سوف يعتقل ويحمل معه إلى هارتفورد أربعة من أعلى فئات المواطنين، وفي سبيل تنفيذ هدفه دخل إلى البلدة، وأخذ يسعى في جميع الاتجاهات مثل إنسان فقد عقله، وكان يلقي بنظره هنا وهناك، وكأنه كان على وشك تنفيذ خطة عظيمة، وأخيراً قال لواحد من الشباب الذين كانوا بصحبته: «كيف حركة الريح؟»، وبناء عليه سمع جزار كلماته، فظن أنه يريد إحراق البلدة، فقال: «سوف أعلمك كيف تتحرك الريح»، وقام على الفور بتوجيه ضربة له على وجهه بقوة جعلته يسقط على الأرض، ثم إنه جرى اعتقاله مع الشباب الذين كانوا معه، ووضعوا بالأغلال، وفي الصباح تم قطع رؤوسهم من قبل الجزارين، ووضعت رؤوسهم على أربعة أعمدة عالية، نصبت في الزوايا الأربعة للبلدة، وعندما سمع الملك بهذه الإجراءات، وضع غرامة على المدينة مقدارها مائة مارك، حيث جرى دفعها على الفور.

مذنب غير اعتيادي

وظهرفي هذا العام مذنب مـدهش، لم يشاهد مثله من قبل، وقد ظهر في الشرق مع اشعاع كبير، واتخذ طريقه نحـو الغرب نحو وسط السماء، مضيئاً جميع أجزاء السماء التي عبر بها في طريقـه، ومع أنه مما لاشك فيه أنه بشر بوقوع كثير من الوقائع في مختلف أنحاء العالم، هناك شيء واحد مؤكـد، هو أنه عندما ظهر للمـرة الأولى، وقع البابا أوربان مـريضاً وفي الليلة نفسها التي مات فيها، اختفى فيهـا هذا المذنب، وذلك بعدما بقي لمدة ثلاثة أشهر، ومات ذلك الحبر في باريس، وقد دفن هناك.

البابا كليمنت السادس

وقد خلفه البـابا كليمنت السادس، الذي كان من مواليـد بروفانس، وكـان متـزوجـاً من قبل، له زوجـة وأولاد، وكـان محامياً مشهـوراً ومستشـاراً لملك فرنسـا، وقام بعـد وفاة زوجتـه، بسبب حياته الجيـدة، وتميـزه العلمي في المقـام الأول، فصـار أسقفـاً لمنطقـة بوي Puy, وبعـد ذلك رئيساً لأسـاقفة نربون، وجـرت ترقيته بعـد وقت قصير إلى مرتبـة كاردينال، وصار أسقف أوف سابينو، وجـرى إرساله إلى انكلترا نائباً عن البابا أوربان، لإعادة تأسيس السلام هناك، وجرى انتخابه بابا أثناء غيابه.

وازدهر في هـذه الآونة في باريس: تـومـــاس أكـــوينا Aquinas وبونافينتشرا Bonaventura وباتا عـــالمين مشهـــورين، وكـــان الأول بينهما من طائفـــة الدومينيكان، أمـــا الثـــاني فكان من طـائفـــة الفرنسيسكان.

مقتل خمسين من قطاع الطرق على أيدي الفلاحين

وفي هذه الآونة شـق خمســون رجـــلاً جـريئاً، مسلحين بالسيـــوف والقسي، طريقهم إلى داخل دير الـراهبـات في القـديس جـايل دي بوي

Bois, قـرب بلدة القديس ألبـان، وبعـدما نهبـوا مقتنيات النسـاء الفقيرات المقيمات هناك، واقتراف جـرائم كبيرة أخـرى، غـادروا وهم محملين بالأسلاب، وعندما كانوا متحركين باتجاه دنستيبل، لحقهم رجل وهو يصرخ وينفخ بالبـوق، ولدى سماع الصـوت اجتمع جميع سكان الجوار واحتشـدوا، وأخبروا بأن «هؤلاء الأشخـاص قـد سلبـوا دير راهبات دي بوي، واقترفوا كثيراً من الجرائم هناك»، ومدهش أن تروي بأن جميع اللصوص قد أصيبوا على الفور، وأصبحوا وكأنهم غير قادرين على الكلام، كما أنهم أصبحـوا عـاجـزين عـن الدفـاع عن أنفسهم، ولم يتوفـر واحد منهم كان باستطاعتـه رفع يده لتجريد سيفـه، أو أن يفوّق قـوسه، فإلى هذا الحد كـان الانتقـام اللاهوتي قـد أثير ضدهم، ونتيجـة لذلك صرعـوا، وجميعهم تم قتلهم على أيدي الفـلاحين، ومـات بعض الذين هربوا باخفاء أنفسهم في التخوم من الجوع.

كيف جرى تتويج شارل أخو ملك فرنسا ملكاً على صقلية

وفي هذا العـــام نفســـه، جـــرى ارســـال أوتـوبون Ottobon الكاردينال الشماس الحامـل للقب القـديس أدريان Adrian إلى انكلترا، من قبل البـابا كليمنت بمثابة نائب بابوي، وسـافر شـارل أخو ملك فرنسا إلى روما، حيث جرى تتويجه ملكاً على صقلية من قبل البابا كليمنت، ووصل عـدد كبير من الفـرنسيين الـذين حملوا الصليب ضـد مـانفـرد إلى رومـا، تحت قيـادة غي أسقف أوكسيري Auxerre, وروبرت ابن كونت فلاندرز، وبوكارد Boucard كونت فيندوم Vendome, لتقديم المساعدة إلى شارل.

مقتل الويلزيين

في هذا العـام، وفي يوم الأحـد قبل معـركـة ايفهـام نزل حشـد من الويلزيين تحت قيادة وليم بيركلي Berkeley وكان فارسـاً نبيلاً،

مع أنه كان مشهـوراً بأفاعيله الشريرة، وقـد نزل على اليابسة في مـاينهد Minehead, قرب قلعة دنستير، وذلك بهدف نهب سمـرستشاير Somersetshire وتمت مـــواجهتهـم من قبـل آدم غـــوردون Gordon, الذي قتل عـدداً كبيراً منهـم، وأرغم البقيـة منهم على الفرار معاً مع مقدمهم، وقد غرق عدد كبير منهم أثناء فرارهم.

كيف عمل الملك استعداداته لمهاجمة سيمون الأصغر

وفي حـــوالي يوم عيــد القـــديسـة لوسيــا، حشــد الملك جيشــاً في نورثأمبتـون، بهدف مهاجمة سيمـون دي مونتفـورت الأصغر، والنبـلاء الآخرين الذين انضموا إليه، الـذين كانوا متخفين في جزيرة أوكسهولمي Axholme, ووقتهـا اضطرب الرهبان الذيـن عليهم تأدية خدمـة عسكرية كثيراً، وظلموا، ولسـوف نحتاج إلى وقت طويل حتى نودع في هذا الكتاب رواية عن اضطرابات كل منهم، لذلك سـوف نقول كلمات قليلة حـول المصاعب التي عـانت منها كنيستنا، كنيسـة القديس ألبـان، فقـد أرسل رئيس رهبان ديـر القديس ألبـان فـرسانه إلى المكان المتقـدم ذكـره أعـــلاه، تحت إمـرة كل من رئيس الشمامســة والحاجب للمكان نفسه، حيث توجب عليهم تقديم نفسيهما ومن معهما إلى الملك، وبعدما مكثـوا هناك، مع عشرين فـرساً لمدة ستـة أسـابيع مقابل نفقـات كبيرة، فرض الملك أربعين ماركاً، واستخرجهـا مقابل كل فارس، ولم يستخرج هذا من كنيستنـا لوحـدهـا، بل من الجماعــات الديرية الأخــرى، التي توجب عليها تقـديم خدمات فـروسية إليه، والذين كـانوا على استعداد لرهن أنفسهـم من أجل فرسانهم.

مختصر أحداث العام

كان هذا العـام، خلاله كله مثمراً وخصبـاً، ولكنه تميز بأعمال السلب والنهب والاغتصـاب التـي اقترفهـا قطاع الطرق، وقـد اتسم بـالدمـار

بالنسبة لانكلترا، بسبب مقتل نبلائها والرعايا المخلصين الآخرين، وغير نافع للسكوتلنديين، بسبب خسارة ومقتل أبناء بلادهم في انكلترا، وكان عام أسى للويلزيين الذين شاهدوا أبناء بلدهم يذبحون مثل الماشية.

اخضاع سيمون الأصغر للتحكيم

في العام ١٢٦٦، الذي كان العام الخمسين لحكم الملك هنري الثالث منذ الاستيلاء، أمضى الملك المذكور عيد الميلاد في لندن، بصحبة زوجته، وملك ألمانيا وأوتوبون— النائب البابوي، وكان برفقته جيش مخيف، وجرى من خلال وساطة عدد من الشخصيات المرموقة، الذين سعوا إلى إعادة السلام بين سيمون الأصغر وبين الملك، إلى أن خضع سيمون للتحكيم من قبل النائب البابوي، وملك ألمانيا —خاله، وفيليب باسيت، على شرط استثناء زوجته، وعدم حرمانه من عضو من أعضائه، والسجن المؤبد، وبناء على هذا، قام، بعد تسلمه رهائن، بتقديم نفسه إلى الملك في نورثأمبتون، ولدى وصوله رافقه ملك ألمانيا إلى حضرة الملك، وهنا أعاد الشكر إلى سيمون لانقاذه حياته، حيث أفاد أنه كان سيقتل في كينلوورث، عندما قتل والده، لولا أنه جرى انقاذه من قبل سيمون الأصغر، وكان ساخطاً كثيراً على حامية القلعة من أجل وفاة سيدهم، وبناء على هذا تم قبول سيمون لدى الملك والرضا عنه ومنحه قبلة السلام، وكان من الممكن له الحصول على الحظوة الكاملة للملك، لولا حقد وحسد ايرل غلوستر وبعض الآخرين الذين ألقوا المعيقات في الطريق.

وجرى على كل حال الترتيب بأن يسلم سيمون قلعة كنيلوورث إلى الملك، وأن عليه أن يغادر المملكة حتى يبتسم السلام ثانية على انكلترا، وأنه سوف يتسلم خمسمائة مارك سنوياً من خزانة الملك، ورفض —على كل حال— الناس الذين كانوا في القلعة هذه الشروط، وأعلنوا أنهم لن

يسلمـوا القلعة لاإلى الملك، أو إلى سيمـون نفسـه، الذي ذهب إلى هناك تحت الأمـان، لأنهم قـالوا بأنهم لم يتسلمـوا المسـؤولية عن القلعـة من سيمـون، بل من الكـونتسـة، التي جـرى طردها مـؤخـراً من المملكة، وقـرروا عـدم التباحث حـول تسليم القلعـة إلى أي كـائن حي باستثناء الكونتسة نفسهـا، أو بحضورها، ولذلك ذهب الملك مع جيشـه لحصار القلعة، لكن الحاميـة دافعت عنها ضـد حملاته لمدة نصف عام، أي حتى الوقت الذي نقصت فيـه المؤن لديهم، فـوقتهـا استسلمت إلى الملك على شرط أن يحتفظ المدافعـون بحيـاتهم وأعضـائهم سـالمين معـافيين، وأنه يمكنهم أن يحملوا معهم مـن حـاجيـاتهم مّـاهو ضروري لهم، وكـان مـدهشاً أن منحهم الملك هـذا كله، مع أنهم نهبوا المنطقـة، وتجرأوا على الاحتفـاظ بقلعة قـائمة في وسـط المملكة، وضد المملكة، وضـد الملك، وكانوا أيضاً قبل وقت قصير قد اعتقلوا رسـولاً للملك، وبعدما قطعوا يده، أعـادوه إلى الملك مع السخـرية، لاظهار التحـدي الذي عـومل به الملك من قبل الأشخاص الذين جرى تجريدهم من أملاكهم.

كيف استولت الفئات المحرومة من أملاكها على جزيرة إيلاي

وفي الوقت نفسه، عندما كان الملـك مع جيشه كله مثابراً على حصار قلعة كنيلوورث، عـرف الساخطون المحرومـون من أملاكهم أن المناطق الأخـرى من انكلترا، كـانت مجردة مـن الحماية العسكرية لذلك نهبـوا المنطقـة واستـولوا على الأسـلاب، ودخلوا أخيراً عشيـة عيـد القـديس لورانس إلى جـزيرة إيلاي، حيـث أقـامـوا معسكراتهم، ونهبـوا المنطقـة المجـاورة يومـاً تلو الآخر، ووضعـوا مخزوناً من المؤن جلبـوه معهم، في تلك الجزيرة، وذهب أسقـف إيلاي ليعلن عن مأسـاته إلى الملك، لكنه استقبل بالتقريع، وعزا كثيرون الكارثة إلى ضعفه وعدم قدرته، وتداعى عوام المناطق إلى وضع حواجـز، لمنع غاراتهم من الجزيرة، لكن هؤلاء لم يظهروا الخوف من هذه الاستعدادات، وأرغموا هذا القطيع من الرعاع

على الفـرار، وطردوهم بعيـداً حتى بلـدة نورويك، وأرسلوا بعضـاً من رجالهم للاستيلاء على الأسلاب والمؤن، وتمكن هؤلاء من شق طريقهم بالقـوة إلى البلدة، وحملوا معهم كميـات كبيرة جـداً من الأسـلاب، ودخلوا إلى كمبردج وفق الطريقة نفسهـا، فاعتقلوا اليهـود والأشخاص الأغنيـاء الآخـرين، والذين وقع اختيـارهـم عليهم، وحملوهم معهم إلى الجزيرة، من أجل أن يفرضوا عليهم سعراً لفديتهم.

أسر وقتل أفراد شعب لين الذين قاموا بهجوم على الغزاة المتمردين

وفي هذه الآونة، ذهب شعب لين Lynn إلى الملك، ووعـدوه أنه إذا مـاسيقـوم ثانيـة بمنحهـم امتيـازاتهم، فإنهم سـوف يجلبـون إليـه المستولين على الجزيرة، إمـا أحياء أو أمـواتاً (لأن الملك كان قـد حرمهم من امتيـازاتهم مثلما فعل ببلدات أخرى ومـدن شاركت بالعمل ضـده)، وبعـدمـا حصلوا على الذي طلبـوه، جمعـوا عـدداً كبيراً من الناس من الفئات الدنيا، وزحفوا مع بعض المراكب المشحونة برماة النشاب، وحملة القسي مع رجـال مسلحين بمختلف الطرق، لاعتقـال المستـولين على الجزيرة، وعلم المتمردون مسبقاً بوصـولهم، ونصبوا أعلامهم فوق أرض جـافة، حتى يتمكن القـادمون عبر النهـر من مشاهدة مكان وجـودهم، وعندمـا شاهد شعب لين عسـاكرهم وأعـلامهم هناك، شجعوا رجـالهم على النزول إلى اليابسةبكل سرعة، وعند ذلك اقتلع المتمردون أعلامهم، وتظاهروا بالفـرار، وكأنهم لم يتجـرأوا على مقـاومـة مثل تلـك القـوة الكبيرة، ولم يكن مواطنو لين مدركين لخطتهم، فنزلوا على اليابسة في كل اتجاه، وفي فوضى، وبناء عليـه عاد المتمردون وطوقـوا المواطنين وقواتهم من العـوام، وقتلوهم كيفما شاءوا، وأسروا بعـض الذين حاولوا العـودة إلى مـراكبهم، وقتلوا الآخـرين، وهلكت أعـداد كبيرة في النهـر، وعـدد صغير منهم هو الذي عاد إلى لين، حيث جرى استقبالهم بسخرية.

الخلاف بين إيرل غلوستر وبين روجر مورتيمير

وجرى في هذه الآونة اختيار النائب البابوي، وايرل غلوستر واثني عشر آخرين، لوضع شروط للسلام، وقد بذلوا غاية جهودهم لترتيب القضايا، بأن بإمكان المتمردين المحرومين من أملاكهم استرداد أراضيهم وممتلكاتهم، بدفع تعويض عن الجرائم التي اقترفوها، وعارض بشدة روجر مورتيمير مع الكونتات الآخرين الذين تسلموا أراضي المحرومين بمثابة هبة من الملك، ووقفوا ضد هذه الترتيبات، وقالوا بأنه سيكون ظلماً بأن يتسلم هؤلاء الآن بمثل هذه السهولة الأراضي التي تسلموها من الملك، وأن يفقدوا هذه الأراضي، التي نالوها بمثابة جائزة مقابل جهودهم واخلاصهم، والتي فقدها المتمردون بصورة عادلة، ولهذا قيل من قبل بعضهم، بأن روجر المذكور، قد تآمر مع بعض الآخرين، الذين كانوا مثله، أثيروا بالشره، من أجل تدبر موت ايرل غلوستر، وبناء عليه سحب ايرل غلوستر نفسه من جميع الاتصالات معهم، بقدر ما أمكنه من سرعة.

وكان هذا العام جميعه عام خصب الانتاج بالفواكه والحبوب، لكن المحاصيل غدت غير مفيدة للسكان بسبب النهابين الذين نهبوا وسلبوا القمح المخزون، واجتاحوا البلاد حسبما أرادوا.

رفض إيرل غلوستر حضور احتفال الملك بعيد القديس إدوارد

في عام النعمة ١٢٦٧، الذي كان العام الحادي والخمسين لحكم الملك هنري الثالث منذ الاستيلاء، أمضى الملك عيد الميلاد في اكسفورد برفقة الملكة والنائب البابوي مع نبلائه، وقد بذلت جهود كبيرة في سبيل المصالحة بين ايرل غلوستر وروجر مورتيمير، لكن من دون أية نتيجة مفيدة، ومن اكسفورد ذهب الملك إلى لندن للاحتفال بعيد الملك القديس ادوارد، وذلك كما كانت عادته سنوياً، ولإضفاء المهابة على الاحتفال وأن يترافق مع البهجة الجديرة به، وجه الدعوة إلى عدد كبير

من أساقفة المملكة ونبلائها، للمشاركة بوليمة قدمت بالمناسبة، وأجلس النائب البابوي في المقعد الملكي، ووضع أمامه كل طبق فيه لون جديد أولاً، وإلى هذا الاحتفال وجهت الدعوة إلى ايرل غلوستر، لكنه رفض الحضور، لأنه توجس من وجود بعض النوايا الشريرة ضده في البلاط، وأرسل أخيراً —كما قيل— رسلاً إلى الملك، ينذره فيها، ليقوم بطرد الأجانب من مجلسه الاستشاري وأن يأمر بالالتزام بجميع المقررات التي عملت في اكسفورد، في جميع أرجاء المملكة، وأن ينفذ التي عملها له —أي ايرل غلوستر— في ايفهام، مضيفاً أنه إذا لم يفعل ذلك، لايحتاج للتعجب من أي عمل سوف يقدم عليه —ايرل غلوستر— ويعتقد أنه مفيداً له، وفي هذا الوقت كانت قلعة دوفر قد أعطيت إلى ادوارد وسلمت إليه، فقام على الفور بنقل غي دي مونتفورت إلى ذلك المكان، ليحبس هناك.

الحرمان الكنسي للأساقفة وللآخرين الذين عاضدوا الإيرل سيمون

دعا النائب البابوي إلى مجمع في نورثأمبتون، وهناك أصدر عقوبة الحرمان الكنسي ضد جميع الأساقفة ورجال الدين الذين قدموا المساعدة، وأظهروا التأييد للايرل سيمون ضد الملك، وذكر بين هؤلاء بالاسم جون أسقف وينكستر، ووولتر أسقف ووركستر، وهنري أسقف لندن، وأسطفان أسقف شيكستر، ومن هؤلاء مات إثر ذلك بشكل تعيس أسقف ووركستر، وكان ذلك في الخامس من شباط، وقد خلفه نيقولا أوف إيلاي، مستشار الملك، في حين ذهب الأساقفة الثلاثة الذين تقدم ذكرهم إلى روما، وانتظروا الحصول على التحليل من البابا، وأدخل بشكل علني بقرار الحرمان نفسه جميع الآخرين الذين وقفوا ضد الملك، وأعلن عن السلطات التي منحت إلى الملك بفرض العشور على كنيسة انكلترا لمدة السبعة أعوام المقبلة.

إجراءات أولاد سيمون دي مونتفورت بعد حرمانهم من مواريثهم

وفي هذه الآونة تخلى المتولي لسجن غي دي مونتفورت في قلعة دوفر عن واجبه بالرشوة، وسمح لسجينه بالنجاة، وعبر القنال برفقته، وذهب غي على الفور إلى توسكانيا، والتحق بالكونت رالف، ونظراً لحصوله على الشهرة في خدمته، تزوج من ابنته ووريثته، وكان أخوه الأكبر سيمون قد نجا من السجن بطريقة مماثلة، قبل ذلك بوقت قصير، وهرب إلى غاليا، وعيّن الملك في تلك الآونة رجلاً رئيساً، في كل مدينة، ليلتحق بالعمدة في ضبط للعنف الذي جرى اقترافه من قبل قطاع الطرق، الذين باتوا كثيرين جداً، ووضع أيضاً روبرت فيرّار Ferrers ايرل أوف ديربي في السجن في قلعة تشيسترفيلد، من قبل فرسان الملك، أما رفاقه الذين احتشدوا مع بعضهم من أجل النهب والسلب، فقد كانوا قد هربوا وتفرقوا.

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، كان هناك فارس اسمه آدم غوردون Gordon يعيش قرب وينكستر، وقد جرد من أملاكه مع الآخرين الذين أيدوا الايرل سيمون، وقد رفض القبول بشروط السلام التي عرضت من قبل الملك، وانسحب مع أتباعه إلى جزء من الطريق الذي يقود من ويلتون Wilton إلى قلعة فارنهام Farnham, التي كانت واقعة في وادي متعرج بمرتفعات ضخمة مغطاة بالأشجار، وبذلك كان مكاناً جيداً للانسحاب لقطاع الطرق، وقد شغل نفسه في سلب ونهب المنطقة المجاورة، خاصة أراضي الذين وقفوا إلى جانب قضية الملك، ورغب ادوارد في تجريب قوة وشجاعة هذا الرجل الذي وصلت شهرته إلى مسامعه، فزحف مع كتلة قوية من العساكر، وعندما كان يستعد للمعركة، أعطى ادوارد أوامر إلى أتباعه بعدم التدخل لمنع مبارزة فردية بينهما، وبناء عليه التقى الرجلان، وتابعا تبادل الضربات

المتوالية أحدهما ضد الآخر بجهود متساوية، وتحاربا لبعض الوقت، من دون أن يتزحزح أياً منهما أمام الآخـر، وشعر ادوارد بالسرور تجاه اقدام الفارس وشجاعته في القتال، فنصحـه بالاستسلام إليه شخصياً، ووعده بالمحـافظـة على حيـاته، وبمبلغ كبير، وعلى هذا وافـق الفـارس، وألقى أسلحته، واستسلم لادوارد، فبعث به لإمضاء تلك الليلة في غيلدفورد، مع توصيـة جيدة به، من أجل تقـديمه إلى أمـه الملكة، وبعد ذلك أعيـد إليـه ميراثه من قبل ادوارد، الذي أصبح صـديقه، ووجـده دائماً خادمـاً مخلصاً.

التشريع لصالح الفئات التي جردت من مواريثها

والتقى في هذا العـام نفسـه، بعض الأشخاص المختـارين، في مـدينة كـوفنتري، وأصدروا مـرسومـاً وافقوا عليـه بالاجماع، قضى أن بإمكان الفئات المحرومة استرداد مـواريثها بدفع غرامات مـالية، أي استعادتهم لها من الذين استحـوذوا عليهـا بمثـابة أعطيـة من الملك، على شرط أن المبلغ الذي سيدفع لفديتهم ينبغي أن لايتجاوز دخل مواريثهم المصادرة لمدة سبعــة أعـوام، وينبغي أن لايكون أقـل من دخلهم لعـام واحــد، وينبغي أن تكون الضريبـة المفروضـة بين هذين التقديرين، وذلك وفقـاً لدرجــة ذنـب الفئة، ولم يشمل هذا أولاد الايرل سيمـــون، وكـــذلك روبرت ايرل أوف دربي، ولم ينتفعـوا من هذا الفداء (لأن حـرمانهم قـد عـدّ أبدياً)، وأمـا الذين كـانوا غير قـادرين على دفع المبلغ الذي فـرض عليهم، وفقـاً للطريقـة التي ورد ذكرها أعـلاه، فإنهم يتركـون أراضيهم بحــــوذة متملكيهم الحاليين، إلى أن يمكـن جمع المطلوب مـن دخلهم وانتاجهم.

ووصل في هذا العـام حشد من المسلمين إلى اسبـانيا بوساطـة البحر، وألحقوا كثيراً من الأضرار بالمسيحيين، ولقد قهـروا فيها بعد، لكن ذلك لم يكن من دون سفك كثير من الدماء.

وفي هذا العام نفسه أيضاً، خاض شارل ملك صقلية معركة ضد مانفرد أمام بينيفنتو Benevento, ونال هناك نصراً مجيداً، حيث هزم عدوه وقتله.

وفاة غودفري رئيس أساقفة يورك ووصول وولتر إلى رئاسة الأساقفة

أنهى في هذا العام غودفري رئيس أساقفة يورك حياته، وانتقل وولتر أسقف أوف باث إلى كرسيه، وقد خلفه في أسقفيته وليم بوتون رئيس شمامسة ويلز.

البارلمان الذي عقد في بري

وفي هذه الآونة أصدر الملك دعوة إلى الايرلات، والبارونات، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورؤساء الرهبانيات، وإلى كل جماعة تدين بخدمة عسكرية، للاجتماع في بلدة القديس ادموند، مجهزين بشكل جيد بالخيول والأسلحة، من أجل الشروع بالأعمال الهجومية، ضد الذين استولوا على قلعة إيلاي، خرقاً منهم لسلام الملك، وأطاع الجميع هذا الأمر، باستثناء ايرل غلوستر، الذي كان قد جمع جيشاً كبيراً على حدود ويلز لمهاجمة أعدائه، وأهمل الحضور، ولذلك جرى إرسال جون دي وارني ووليم دي بلنسية لاستدعائه لحضور هذا البارلمان، لكنهما لم يحصلا على شيء منه، باستثناء رسائله المعتمدة والمختومة بختمه، معلناً أنه سوف لن يحمل السلاح قط ضد الملك، أو ضد ابنه ادوارد، إلاّ في حالة الدفاع عن النفس، وأعلن أنه سوف يستخدم غاية جهوده لاخضاع روجر موتيمير وأعدائه الآخرين، والدوس عليهم بقدميه، وقد قيل إنه اخترع بدهاء هذه الحجة، لأنه خاف من أن يتهم بالخيانة، وعلى هذا كان الذين دعيوا إلى هذا البارلمان قد اجتمعوا باستثناء المتمردين، وأوضح الملك والنائب البابوي مطالبهما بالبنود التالية:

أولاً: إن على جميع الأساقفة ونوابهم في الكنائس منحهما العشور لمدة ثلاث سنوات بعد السنة التالية، وكذلك بالنسبة للسنة الأخيرة التي مضت، حتى يصبح المبلغ مساوياً لما دفعه البارونات من أجل حراسة شاطىء البحر ضد الأجانب.

جواب: وعلى هذا أجابوا بأن الحرب قد تفجرت ضد شره ظالم، وأنها مازالت مستمرة، وأن من الضروري المرور بصمت بمثل هذه النصائح الشريرة والمطالبة بمثل هذا المطلب، وأنه ينبغي عمل الترتيبات من أجل تأسيس السلام في المملكة، وتوجيه انتباه بارلمانه نحو تأمين مصالح الكنيسة والمملكة، وليس من أجل استخراج المال، خاصة وأن الأرض تضررت بالحرب، وأنها سوف تحتاج إلى بعض الوقت إلى استرداد عافيتها، إذا ماسمح لها بذلك.

ثانياً: وطالبا أيضاً بوجوب أن تفرض الضرائب على الكنائس من قبل رجال علمانيين بضرائب عادلة وصحيحة، وفق نسبة ثمن جميع الممتلكات العائدة إليهم.

جواب: وعلى هذا كان الجواب، أنه أمر غير منطقي، بل عمل معاكس للعدل تماماً، أن يقوم علمانيون بالتدخل في جمع العشور، وأنهم سوف لن يوافقوا على هذا مطلقاً، أو على أية ضرائب، بل أن تكون الأمور حسبما كانت قديماً.

ثالثاً: بند، على الأساقفة، ورؤساء الرهبان، إلخ، أن يدفعوا عشوراً كاملة عن بارونياتهم وعن اقطاعياتهم المدنية، وفقاً للضرائب الصحيحة والعادلة.

جواب: وعلى هذا كان الجواب، بأنهم قد أفقروا بأعمال السلب والنهب، وأنهم تبعوا الملك في حملاته، وأنهم أنفقوا مبالغ كبيرة جداً، إلى حد أنهم أصبحوا مملقين، وأن أراضيهم متروكة حتى من دون زراعة بسبب الحرب.

رابعاً: لقـد طالبـا بأن يدفع رجـال الدين بشكل عـام إلى الملك، من أجل إعـادة تأسيس سمعتـه وكـرامتــه مبلغ ثلاثين ألف مـارك، وذلك بسبب أن العشـور التي تقدم ذكـرها، قد طالب بها النائب البـابوي من أجل استخدامات البـلاط الروماني، لمواجهة الديون التي جـرى التعاقد عليهـا، في صقليـة، وأبوليـا وكالبيريا (قلـورية)، باسم ادوارد ابن الملك الموجود حالياً.

جــواب: وكـــان الجواب على هذا، بأنهم لن يعطـوا شيئاً، لأن جميع الضرائب والاستخـراجات من هذا النوع، التي جـرى فرضهـا من قبل بالقوة، من قبل الملك، لم يتم تحويلها لمنفعة الملك أو المملكة.

خامساً: ولقد طالبا أيضــاً بأن على جميع رجال الدين الذي في أيديهم بارونيات أو اقطاعيات مدنيـة، أن يحملوا وأن يزحفوا بأشخاصهم ضد أعـــداء الملك، أو أن يجهــزوا خـدمـــة إلى الملك في حملاته تتنـاسب مع الأراضي أو مع الاقطاعيات.

جواب: وعلى هذا جاء الجواب، بأنه ليس من واجبهم القتال بسيف الفـولاذ، بل بالسيـف الروحي، يعني أن تقـول بالدمــوع، وبالصلوات المخلصـة، وأنه بحكم منافعهم، عليهم الحفاظ على الســلام، وليس على الحرب، وأن بارونياتهم قد تأسست عن طريق الصدقات الخالصة، وبناء عليه هم مـدانون بتأدية خدمـة عسكرية ثابتة، وهم لن يبـدأوا مع نظام جديد.

سادساً: لقد طالبـا ثانية بأن على رجال الدين بشكل عـام سداد دين مقـداره تسعة آلاف مـارك، وهو المبلغ الذي كـان قد استـدانه لورانس أسقف روكستر، ووليم أسقف باث، ورتشارد رئيس رهبان ويستمنستر من تجار البـابا، في بلاط روما، عندمـا كانوا مشغـولين هناك، في ترتيب بعض أعمال الملك.

جواب: وكان الجواب على هذا، بأنهم لم يوافقوا قط على استدانة مثل هذا المبلغ الكبير، وأنهم لم يعرفوا أي شيء عنه، وأنهم على ذلك غير ملزمين بأي حال من الأحوال بدفع هذا الدين.

سابعاً: وجرى تقديم طلب لصالح البابا، بأنه ينبغي على الفور التبشير بحملة صليبية في جميع أرجاء المملكة، من أجل اخضاع الناس الذين سوف يحددهم البلاط، أو من أجل تخليص الناس إلى الأبد من واجباتهم بالالتحاق بتلك الحملة الصليبية.

جواب: وعلى هذا كان الجواب، بأن شعب البلاد قد تدمّر إلى حد كبير بوساطة الحرب، وإذا كان هناك من سيحمل الآن الصليب، فسوف يكونون قلة، أو لاأحد، وسوف لن يترك أحد للدفاع عن البلاد، ولذلك إنه لمن الواضح بأن النائب البابوي يرغب في نفي أبناء البلاد الطبيعيين، من أجل أن يتمكن الأجانب بسهولة من الاستيلاء عليها.

ثامناً: لقد قيل أيضاً، بأن الأساقفة كانوا ملزمين شاءوا أم أبوا، بالاستجابة والموافقة على جميع المطالب التي عملت إليهم، على أساس قسمهم في كوفنتري Coventry, حيث كانوا قد أقسموا بأنهم سوف يساعدون الملك بكل الوسائل التي بقدرتهم.

جواب: وعلى هذا أجابوا بأنهم عندما أدوا ذلك القسم قد فهموا بأنه أشار فقط إلى المساعدات الروحية، وتقديم النصائح الصحيحة.

حول الرسالة التي أرسلت من قبل النائب البابوي إلى المتمردين المحرومين الذين احتشدوا في جزيرة إيلاي

وفي هذه الآونة عندما كان المتمردون المحرومون متخفين في جزيرة إيلاي، جرت مخاطبتهم من من قبل رسل تم إرسالهم من قبل النائب

البابوي، بأن يعودوا إلى إيمانهم، وإلى الوحـدة مع الكنيسة الأم المقدسة، وإلى طاعتهم إلى البـلاط الرومـاني، وأن يعملـوا سـلامـاً مع الملك على أســاس الشروط المكتـوبة، وبـذلك يمكنهم تسلم التحليل من القــرار الذي صـدر ضـدهم، وذلك وفقـاً لأنظمة الكنيسـة، وأن يتـوقفـوا عن اقتراف السلب والنهـب، والجرائم الأخــــرى، وأن عليهـم التخلي عن الذي فعلوه والتكفير عما اقترفوه بحق رجال الدين والكنيسة.

جـواب: وفي المقـام الأول أجـاب رجـال الفئـات المحـرومـة، بأنهم يتمسكون بثبـات بالإيمان نفسه، الذي تعلمـوه من الأساقفـة المقدسين: القديس روبرت، والقديس ادموند، والقديس رتشارد، ورجال كاثوليك آخرين، وأنهم يؤمنون بمبـادىء الإيمان ويحافظون عليها، وهي المبادىء الموجودة في العقيـدة، يعني أن تقول إنهم يؤمنون بالانجيل وبقـداسات الكنيسة، مثلما الكنيسة المسكونيـة تلتزم وتؤمن، وأنهم على استعداد لأن يعيشوا وأن يموتوا في سبيل هذا الإيمان.

ثانيا: قـالوا بأنهم يدينون بالطاعـة إلى الكنيسة الـرومانيـة بحكم أنها الرأس لجميع المسيحيــة، لكن ليس للشره وللطلبـات الالزاميــة للذين يتوجب أن يحكمـوها، وأضافـوا بأن أجدادهم، الذين هـم ورثتهم، قد حصلوا على تلك الأرض بالسيف، ولذلك بدا لهم أنهم حرمـوا بصورة غير عـادلة، وبما أن هذا عمل من قبل النائب البـابوي حثـوه على عمل إصلاح لهذا العمل الظالم.

جواب— ثـالثاً: لقد قـالوا بأن النائب البابـوي قد أرسل إلى انكلترا ليعمل سلماً، لكن عوضاً عن ذلك، هو بالحري حافظ على الحرب، لأنه علناً وقف إلى جانب الملك، وآثر قضيتـه، وطالما أنه فعل هذا هو حافظ على استمرار الحرب.

وثانية: لقد قالوا بأن شكل المعـاهدة التي تم الوصول إليها من قبل،

هو ملغى، بما أن البـابا أعطى أوامر إلى الملك وإلى النائب البابوي، بوجوب عدم حرمان أي واحد من ميراثه، وهما قد أصرا على نوع من الفدية، هو مساو لحرمانهم من مواريثهم، ولذلك حثوا النائب البابوي على تولي إصلاح هذه الخطيئة.

جواب— رابعاً: لقد قالوا بأن يمينهم الأول، والكنيسة كلها، وأن جميع أساقفة المملكة، أصدروا قراراً بالحرمان الكنسي ضد كل من يخرقه، وأنه بالنسبة لهم هم مايزالون مصرين على المقاصد نفسها، وأنهم على استعداد للموت في سبيل ذلك اليمين نفسه، ولذلك حثوا النائب البابوي على إلغاء الحكم الذي أصدره، وإلاّ فإنهم سوف يترافعون إلى الكرسي الرسولي، وأيضاً إلى المجمع العام، أو إذا كان ضرورياً إلى القاضي الأعلى للجميع.

جواب —خامساً: لقد قالوا بما أنهم كانوا يقاتلون في سبيل منفعة المملكة والكنيسة، إنهم ينبغي أن يعيشوا على تعويضات أعدائهم، الذين يحتفظون بأراضيهم ومتملكين لها، ولذلك طلبوا من النائب البابوي، أن يتدبر إعادة أراضيهم لهم، حتى لايكونوا تحت ضرورة الحاجة مضطرين إلى النهب.

جواب —سادساً: لقد قالوا بأن كثيراً من المشايعين للملك ولادوارد، نشروا أنفسهم في كل مكان، وهم يقترفون كثيراً من الجرائم ومن مختلف أنواع أعمال السطو والنهب، ويفعلون ذلك وهم يقولون بأنهم ينتمون إلى الفئة التي حرمت، من أجل الاساءة إليهم، وإلى قضيتهم هم أنفسهم، وبناء عليه إنهم يحذرون النائب البابوي بأن لايصدق إفادات مثل هؤلاء الناس، لأنهم إذا ماوجدوا أي واحد بينهم مقترفاً لمثل هذه الجريمة، فإنهم سوف ينزلون به حكم العدالة من دون تأخير.

الاعتراضات الشديدة للمحرومين

واحتجت الفئات المحرومة بالوقت نفسه إلى النائب البابوي، بأنه طرد من المملكة من دون احترام، وبالفعل، المستشارين للمملكة كلها، وهم أساقفة: وينكستر، ولندن، وشيكستر، الذين هم رجال متفوقين بنصائحهم وبحكمتهم العظيمة، ونتيجة لذلك ضعف المجلس الاستشاري للمملكة إلى درجة كبيرة، وترنحت المملكة، لأن النائب البابوي ادعى لنفسه ممتلكات الأساقفة، وبسبب غيابهم، أحل الدمار بالمملكة، ولذلك أنذروا النائب البابوي بوجوب تصحيح خطيئته.

ومن جديد أخبروا النائب البابوي أن يتولى تحذير الملك لكي يتولى ابعاد مستشاريه من الأجانب الذين بوساطتهم استعبدت المملكة، كما أنهم طلبوا من النائب البابوي بوجوب إعادة أراضيهم إليهم من دون فدية، وأن المقررات التي عملت في اكسفورد، ينبغي مراعاتها والالتزام بها، وأن الرهائن يتوجب إرسالهم إليهم إلى الجزيرة، من أجل أن يضمنوا لهم بقاء السلام، منذ ذلك الوقت ولمدة خمسة أعوام، وذلك إلى أن يتمكنوا من رؤية كيف قام الملك بالالتزام بجميع وعوده.

ومرة أخرى بينوا للنائب البابوي وذكروه بأن رئاسات الرهبانيات وبقية ديرة الطوائف الرهبانية، قد بنيت من أموال أجدادهم، وهم الآن قد لحقهم الدمار، بوساطة استخراجات الملك وضرائبه، ومعه النائب البابوي، ولذلك لم يعد بإمكانهم تقديم الصدقات، ولااظهار الضيافات، وذلك وفقاً لأعرافهم المعتادة، ولذلك حذروا النائب البابوي، وطالبوه بوجوب إصلاح هذه الأخطاء.

ومجدداً أخبروا النائب البابوي، بأن كنائس مملكة انكلترا قد أعطيت إلى أجانب، هم أعداء للبلاد، وهم ينقلون إلى القارة ممتلكات الكنيسة، التي عليها يتوجب أن يعيش رجال الدين المحليين ويجري الانفاق

عليهم، ونتيجة لذلك باتوا عرضة للمخاطر ليس في الجسد فقط، بل وفي الروح أيضاً، لأنه لم يبق لديهم رعاة للأرواح، إلاّ بعض الكهنة المستأجرين، الذين من الممكن اكترائهم مقابل مبلغ صغير، ولذلك أنذروا النائب البابوي بوجوب إصلاح هذا الأمر.

ومن جديد أخبروا النائب البابوي، بأن العشور المطلوبة من رجال الدين، ينبغي عدم دفعها، لأن المملكة جرى تدميرها من قبل أتباع الملك، بوساطة الحرب العامة، ولأن الأرض تركت بوضع غير مزروعة فيه، وما من ثمار انتجت منها، ونتيجة لهذا الناس يموتون من الجوع.

وغضب الملك والنائب البابوي من هذه الردود وسخطوا، ولذلك قاموا في السنة التالية بحصار الجزيرة. وكان هذا العام على العموم عام قحط، من دون ثمار، وغير مفيد لانكلترا من جوانب كثيرة.

كيف حاصر الملك جزيرة إيلاي

في عام النعمة ١٢٦٨، الذي كان العام الثاني والخمسين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، حشد الملك المذكور جيشه وبادر مسرعاً ليتولى حصار جزيرة إيلاي، وليمنع الدخول والخروج على المتمردين، وتولى ادوارد ابن الملك عمل جسور من حواجز وعوارض خشبية، ووضعهم في أماكن مناسبة (حسبما جرى توجيهه من قبل سكان المنطقة)، ودخل إلى الجزيرة مع جنوده، وعلى الفور استسلم له بعض المتمردين، في حين تشتت الباقون في القتال.

وأثناء وقوع هذه الأحداث، كان ايرل غلوستر يتآمر ضد الملك، وكان قد أعدّ جيشاً في ويلز، لصالح الأشخاص المحرومين، وزحف نحو لندن، والتقى به جون ايملي Eymley مع قوة كبيرة من أتباعه، لذلك دخل إلى المدينة بناء على موافقة سكانها، وأرسل الايرل على الفور رسلاً إلى النائب البابوي، الذي كان مقيماً آنذاك في برج لندن،

آمـراً إياه بتسليم البرج إليـه من دون تأخير، وفي سبيل أن يؤمن سرعـة الاذعان إلى هـذا الاستدعاء، أمـر كل إنسـان بعدم بيع المؤن إليـه مادام باقيــاً في البرج، ثـم تظاهر النائب البــابوي أنه لم يهتم بالمسـألة، وترك البرج، وذهب إلى كنيسة القديس بولص للتبشير بالحملة الصليبية، وبعد عدة أيام تمّ وضع نهاية لهذا الاضطراب، وتصالح الايرل مع الملك، من خلال وساطة رتشارد ملك الرومـان، والفارس المشهور فيليب باسيت، وتعهد الايرل بعدم إثارة أي اضطراب في المستقبـل، تحت طائلة تغريمه بعشرة آلاف مارك.

كيف توصل للويلين للمصالحة مع ملك إنكلترا

وفي حوالي أيام عيـد القديس ميكائيل— رئيس الملائكة، وصل الملك هنري إلى شروبري مـع جيش كبير، عـازمــاً على الزحـف داخل ويلز، لشن الحرب ضـد للويلين، أمير تلك البـلاد، الذي سـاند قضيـة الايرل سيمـون، في اقدامـه على العصيـان ضـد الملك، وأرسل للويلين على كل حـال رســلاً إلى الملك، وعـرض عليـه مبلغ اثنين وثـلاثين ألف باوند استيرليني من أجل الحصول على السلام، ومن ثم أمكن بوساطة النائب البابوي، إعادة الأراضي الأربعمائة التي كان الملك قد أخذها من الأمير، إليه.

وفاة جون غيرفاس أسقف وينكستر

مــات في هذا العــام جـون غيرفــاس Gervase, أسقف وينكستر، ودفن في فيتربو Viterbo.

اجتياح أرمينيا والاستيلاء على أنطاكية

اجتاح سلطان مصر في هذا العام أرمينيا، واستولى على أنطاكية، وهي واحدة من أشهر مدن الدنيا، وانتزعها من الصليبيين، بعدما قتل الرجال والنساء، وحوّل المكان إلى صحراء.

كيف حمل ولدا ملك انكلترا الصليب

في عام النعمة ١٢٦٩، الذي كان العام الثالث والخمسين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، كان الملك في لندن مع ملكته، والنائب البابوي أوتوبون، وعقد النائب البابوي أوتوبون مجمعاً في لندن، فيه نشر كثيراً من المبادىء والمقررات، لاصلاح كنيسة انكلترا، وقام بعد هذا مباشرة، بمنح الصليب، إلى ولدي الملك: ادوارد، وادموند في نورثأمبتون، ومنحه كذلك لايرل غلوستر، ومثل ذلك لعدد كبير من نبلاء انكلترا، وبعد ما فرغ من تنظيم الأمور على هذه الصورة، عاد إلى روما مع كميات كبيرة من الأموال.

الإعلان عن السلام في جميع أرجاء إنكلترا

وفي هذه الآونة، قام الملك هنري، في سبيل تدمير أعداء السلام في جميع أرجاء المملكة، بتدبر الاعلان في كل كونتية ضد الذين يعارضون تأسيس السلام، ورسم أنه إذا ماقام أي واحد، بشكل غير عادل باغتصاب مقتنيات إنسان آخر، سواء أكانت أغناماً، أم ثيراناً، أو أي شيء آخر مهما كان، ينبغي أن ينال عقوبة الاعدام.

اعتقال وإعدام واحد من لصوص الأغنام

وفي هذه الآونة، تجرأ واحد من سكان دنستيبل، كان قد اعتاد على أعمال قطع الطرق، تجرأ في ساعة غير سعيدة بالنسبة له، وذلك على الرغم من مرسوم الملك، فاستولى على اثني عشر ثوراً، كانت عائدة إلى سكان بلدة كالني Calne, وكان يأمل بأن يواجه الافلات من العقوبة على جريمته ووقاحته، وقام أصحاب المواشي بمطاردة اللص بعيداً حتى ردبورن Redbourne, حيث اعتقلوه، وأعادوه معهم إلى مدينة سينت ألبان، ورفعوا دعوى ضده أمام نائب الملك في تلك الاقطاعية، وقام هذا النائب بقراءة رسالة الملك بحضور الرجل المجرم،

مع حشد من الناس كانوا قد تجمهروا، ثم إنه أعلن، بموجب أحكام المرسوم الملكي، حكم الاعدام عليه، وجرى اعدامه في المكان نفسه.

كيف بعث ملك فرنسا إلى إدوار ابن ملك إنكلترا للالتحاق به في حجه

أرسل في هذا العام، القديس لويس، ملك فرنسا، رسلاً خاصين إلى ادوارد، ابن ملك انكلترا، يرجوه أن يجتمع به على الفور، وقد استجاب ادوارد على الفور، وبادر مسرعاً إلى عبور القنال لمقابلة الملك الفرنسي، واستقبله الملك الفرنسي بملامح مشرقة، وبعدما عانقه بقوة، شرح له السبب لدعوته كما يلي: فقد قال إن الحقيقة هي أنه يرغب بالعودة إلى الأرض المقدسة، وأن يكون ادوارد بصحبته في خضد عنف البرابرة الكفار، وعلى هذا الاقتراح أجاب ادوارد قائلاً: «إنك تعلم أن الموارد الأساسية لانكلترا قد استهلكت كلها تقريباً، بسبب الحرب بين الملك وبين النبلاء، وإن امكاناتي المتوفرة قليلة جداً للقيام بمثل هذا الأمر مع شخصية مهمة مثلكم»، وعلى هذا رد عليه ملك فرنسا قائلاً: «إنني سوف أقرضك ثلاثين ألف مارك من الأموال الجيدة والقانونية، وفي الحقيقة إنني سوف أعطيك هذا المبلغ، إذا ما وافقت فقط على رغباتي»، وفي الحقيقة كان ادوارد رجلاً عالي المكانة، يمتلك شجاعة عظيمة وجرأة، وكان قوياً إلى أبعد الحدود، وكان ملك فرنسا يعد نفسه سعيداً إذا ما تمكن من الحصول على مثل هذا الرفيق، وهكذا لم يكن اداورد أدنى رغبة من ملك فرنسا في القيام بهذا العمل، ولذلك وافق على رغباته، ورهن لديه غسكوني، بناء على تسلمه المال الضروري من أجل رحلته إلى الأرض المقدسة، ثم إنه عاد إلى انكلترا للحصول على اذن والده الملك، الذي لشفقته أخذ يبكي، لكنه وافق على رغباته، وعن طواعية تولى مباركته، وأعطاه اذناً بأن يختار القدر الذي يريده من الاتباع لاتباعه في حجه، وأن يقوموا بالاستعداد لرحلتهم، ولقد كان في

هذه المناسبة، أنه تسلم الصليب من النائب البابوي، حسبما تقدم الذكر أعلاه.

نقل القديس ادوارد

وجرى في هذا العام، بناء على مبادرة من الملك هنري الثالث، ملك انكلترا، نقل جسد القديس ادوارد، الملك والمعترف، بشكل مهيب، إلى مزار من الذهب، كان الملك هنري قد أعده له، وفي حوالي الوقت نفسه قتل جون دي وارني— ايرل سري، بيديه،في قاعة ويستمنستر ألان دي لى زوخ Zouck رجل العدالة لدى الملك، نتيجة لتبادل بعض الكلام الذي عبر بينهما.

كيف تطلع كونرادين إلى تملك صقلية

وفي هذه الآونة، تطلع كونرادين حفيد الامبراطور فردريك السالف الذكر، من جهة ابنه كونراد، إلى تملك صقلية، بحكم أن عمه مانفرد كان قد مات، وأخذ طريقه إلى روما، بمساعدة الألمان، وحشد من اللومبارديين والتوسكانيين، الذين التحقوا به، واستقبل في تلك المدينة بجميع المهابة التي يستحقها الامبراطور، وعندما كان هناك التحق به شيخ المدينة، وهنري أخو ملك قشتالة، وعدد كبير من الرومان، ودخل إلى أبوليا مع قوة كبيرة ضد الملك شارل، وبعد معركة التحامية حادة، انهزم جيش كونرادين، وهو نفسه أخذ أسيراً، فجرى إعدامه بناء على أمر الملك شارل، مع عدد من النبلاء من أسرته، وهرب هنري أخو ملك قشتالة من المعركة إلى قلعة كازينو Cassino, لكنه استسلم فيما بعد إلى شارل، وألقي به في السجن.

وفاة البابا كليمنت

ومات في هذا الوقت نفسه البابا كليمنت في فيتربو، ودفن هناك في كنيسة عائدة إلى الرهبان الدومينيكان وكان هذا البابا، مكرساً للسهر،

والصيام، والصلاة، وللأعمال الصالحة الأخرى، ولذلك بات من المعتقد أن الرب قام مكافأة له على فضائله، فوضع نهاية لكثير من الاضطرابات التي كانت تعاني منها الكنيسة، وعلاوة على ذلك، مع أن الكثيرين عدّوا قضية الملك شارل، عملاً يائساً، وكذلك بسبب الأعداد الكبيرة لجيوش كونرادين،وكذلك بسبب أن مملكة صقلية عدت في حالة عصيان تقريباً، مع هذا تنبأ البابا المذكور بنتيجة الأخبار، وأخبر بها سلفاً في قداس، وقام هذا البابا نفسه أيضاً بتطويب القديسة ادويغا Edwiga دوقة بولاندا، التي كانت أرملة تتمتع بقداسة مدهشة، وجرى التطويب في كنيسة الرهبان الدومينيكان في فيتربو.

وبعد وفاة البابا كليمنت بقي الكرسي البابوي شاغراً لمدة ثلاثة أعوام، وشهرين، وعشرة أيام.

البارلمان الذي عقد في مارلبورغ

في ثمانية عيد القديس مارتين، في هذا العام، عقد الملك بارلماناً في مارلبورغ Marlborough, فيه جرى بناء على موافقة الايرلات والبارونات، نشر بعض القوانين، التي عرفت باسم قوانين مارلبورغ، وجرى ترشيح نيقولا أوف ايلاي— أسقف أوف ووركستر، ونقله إلى أسقفية وينكستر.

ملخص أحداث العام

كان هذا العام كله خصباً، في كل من القمح والفواكه، وإلى حد بعيد لصالح الانكليز، ومقبولاً لديهم، على أساس إعادة تأسيس السلام، وظل هناك —على كل حال— شاغل واحد، أقلق الفرنسيين والانكليز، تعلق بالاستعدادات من أجل الحملة إلى الأرض المقدسة، وكان العام بالنسبة للصقليين، والألمان، واللومبارد، والرومان، عام أسى، بسبب الحرب التي بدأت بشكل غير عادل، وجرى تنفيذها بآراء فاسدة.

مغادرة لويس— ملك فرنسا إلى الأرض المقدسة

في عام النعمة ١٢٧٠، الذي كان العام الرابع والخمسين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، أمضى الملك المذكور عيد الميلاد في ايلتهام Eltham مع ملكته، وأعيان رجال المملكة.

وفي هذا العام قام القديس لويس، دون أن يعبأ بالمتاعب، وبروح صامدة لم تتأثر بالخسائر والنفقات التي تحملها فيما وراء البحر، في الأيام الماضية، بالانطلاق ثانية في حملة من أجل استرداد الأرض المقدسة، بصحبة ولديه، وملك نافار، وعدد كبير من أساقفة الكنائس، والبارونات، ومن أجل أن يكون استرداد الأرض المقدسة أكثر سهولة بالنسبة إليهم، رأوا أن يقوموا أولاً باخضاع مملكة تونس إلى الحكم الصليبي، لأنها واقعة على حوالي منتصف الطريق لرحلتهم، ولأنها كانت تشكل معيقاً كبيراً على طريق المسافرين، ولذلك نزلوا في مملكة تونس، واستولوا بسهولة على ميناء وبلدة قرطاج، التي كانت قد تحولت الآن إلى بلدة صغيرة، وكانت تونس جزيرة صغيرة، لكن كانت مصدراً للازعاج للمسافرين، وهي أيضاً تعرف بالاسم نفسه أي تونس.

زواج إدموند من ابنة وليم ألبيمارلي

وفي الثامن من نيسان في هذا العام، تزوج ادموند ابن الملك من ايفيلينا Evelina ابنة وليم ألبيمارلي Albemarle ايرل أوف هولدرنس Holderness, التي كانت الوريثة لممتلكات كل من أبيها وأمها، واستحق بهذا الزواج أن ينال لقب كونت ديفون Devon, والسيادة على جزيرة وايت Wight, لكن هذه السيدة مع كل ما كان لديها، ماتت قبل وفاة والديها.

ومات في هذا العام وولتر دي لي ويلي Wyle -أسقف سالسبري، وخلفه روبرت ويكهامبتون Wickhampton, الذي كان آنذاك شماس الكنيسة نفسها.

وخلال العـام الحالي، كان ادوارد وادموند، ابنـا الملك هنري مع عدد كبير من الفـرسان المجـربين في المملكة، مشغـولين في إعداد الأسلحـة، والأعتـدة، والسفن، والأشياء الأخـرى الضرورية، من أجل حملتهم إلى الأرض المقـدسـة، واستولى السـلام على المملكة، من خـلال الخوف من الملك، وليس من خلال المحبة له.

مختصر أخبار العام

كـان هذا العـام على العموم خصبـاً في انتـاج كل من القمح والثمار، وكـان مما جعـل المسيحيين يشعـرون بالسرور، والبهجـة جهــود الملك والنبلاء في تكريس أنفسهم من أجل تحرير الأرض المقدسة.

مغادرة إدوارد نحو الأرض المقدسة

في عـام النعمـة ١٢٧١، الذي كـان العـام الخامس والخمسين لحكم الملك هنري، الثـالث منذ الاستيلاء، احتفل الملك بعيـد الميلاد في لندن، مع الملكة، وابنيه، وكثير من النبلاء.

وفي شهـر أيار من هذا العام، أقلـع ادوارد ابن الملك، للقيام بحجـه، مصطحباً معه زوجته اليانور، وكذلك ادموند ابن ختنه وأربعة ايرلات، والعدد نفسـه من البارونات، مع كثير من النبـلاء الآخرين، وفي عكون (أو التي تعـرف بشكـل عـام باسم عكا) في الأرض المقــدسـة، ولدت اليـانـور هذه نفسهـا ابنة، أطلق عليهـا فيها بعـد اسم جــون العكاوية Joan Of Acre, والتي تزوجت مع مـرور الأيام من غيلبرت ايرل غلوستر، وكان ادوارد قـد وصل إلى فرنسـا مع أسطوله، وقد علم هناك بأن الملك الفرنسي قد توجه نحو الأرض المقدسة، ولذلك لحق به بحراً، وبعد رحلة لمدة عشرة أيام وصل سالماً إلى تونس، وهناك نزل مع جميع أصحـابه وأتبـاعـه، والتقى بملك فرنسـا وبنبـلائـه حيث استقبله بسرور، وسمح له بقبلة السلام.

وفاة لويس-الملك الفرنسي

وفي شهر آب، كان المرض الذي انتشر في منطقة الساحل، قد أحدث اضطراباً عظيماً في أوساط الجيش الصليبي في تونس، وكان أول من مات بين قادة الجيش هناك جون كونت نيفار Nevers —ابن ملك فرنسا، وكاردينال ألبانو— نائب الكرسي الرسولي، وقد حدث موته بعد ذلك بوقت قصير، وفي اليوم الذي جاء بعد عيد القديس بارثيلميو الرسول، عبر القديس لويس، الملك المسيحي التقي لفرنسا، من المملكة الفانية إلى مملكة سرمدية، وقد أخبر ملك نافار أسقف توسكوليوم Tusculum في رسالة، كيف ختم ذلك الملك حياته وهو يشعر بالسعادة، لأنه أثناء مرضه لم يتوقف عن الثناء على اسم الرب، وكان غالباً ما يردد الصلاة التالية: «اجعلنا أيها الرب، وأنا أرجوك أن نزدري رفاه هذا العالم، وأن نخاف من أي من معيقاته»، كما أنه صلى من أجل الناس الذين جلبهم معه كما يلي: «أيها الرب كن المقدس والحامي لشعبك والوصي عليه»، وعندما اقترب من نهايته، قال وهو ينظر نحو السماء: «إنني سوف أدخل بيتك أيها الرب، ولسوف أعبدك في هيكلك المقدس، وسوف أمجد اسمك، أيها الرب»، ومع الانتهاء من هذه الكلمات نام في الرب.

وقد خلفه في مملكته ابنه فيليب، وعندما كان الجيش في حالة من اليأس، نتيجة لوفاة الملك، وصل شارل ملك صقيلة، وذلك بعدما كان قد أرسل خلفه من قبل الملك قبل وفاته، ومع أن المسلمين كانوا بشكل واضح أكثر عدداً من الصليبيين، لم يتجرأوا على مهاجمة الصليبيين والاشتباك معهم في معركة مكشوفة، لكنهم سببوا لهم الكثير من المضايقات، وأزعجوهم بأعمالهم وتصرفاتهم، وقد كان من بين خططهم الخطة التالية: بما أن المنطقة كانت منطقة رملية، وكثيرة الغبار في موسم

الجفاف، مركـز المسلمون عدة آلاف من شعبهم فوق أماكن مرتفعة في جـوار الصليبيين، وعندمـا كانت الريح تهب بـاتجاه الصليبيين، حركـوا الرمال والغبار،مما سبب ضيقـاً شديداً للصليبيين، ولكن أخيراً تساقطت الأمطار، وتوقف الغبـار، واستعد الصليبيـون لحركات حـربية جـديدة، واستعـدوا لمهـاجمة تونس بالبر والبحـر، ولدى مشـاهدة المسلمين هذا عقـدوا معـاهدة معهم، ووافقـوا على اطـلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين الذي كـانـوا في بلادهم، وسمحـوا كـذلـك بالتبشير بعقيـدة المسيح من دون اعتراض من قبل الرهبـان الدومينيكان والفرنسيسكان، ومن قبل جميع الـرهبـان الآخـرين، في الديـرة التي تأسست على شرف المسيح في مدن تلك المملكة، وكـذلك إن كل من يرغب بالتعميد، يجب أن يسمح له بفعـل ذلك بكل حـرية، وجـرى دفع نفقـات الملكين، واعترف ملك تونس بأنه تابع يدفع الجزية لملك صقلية، وجرى الإعداد لهدنة تدوم عدة سنوات، واستعد ملك صقلية للمغادرة مع جيشه، لكن الانتقـام الرباني لحق به، فعندما كـان يسعى للعودة، غمـر البحر جيشـه كله تقـريبـاً، وكـذلك أغـرق الأمـوال التي أخـذهـا من تونس، وجميع مقتنياته المتحركة.

مقتل هنري ابن ملك الرومان في الهيكل في فيتربو

وطلب في الوقت نفسـه هنري الألماني، ابن رتشـارد ملـك الرومـان الاذن من ابن عمه ادوارد حتى يعود إلى الوطن، لأنه قال بأنه تعب من رحلة حجه الطويلة، وقد رغب في مشاهدة انكلترا، بلاد السلام، وأبيه، قبل أن يمـوت، لكنه أحبط في آمـالـه، لأنه بعـدمـا حصل على الاذن بالعـودة، عبر بتوسكانيا على طريقـه، وعندما كـان حاضراً لقـداس في كنيسـة القـديـس لورانس في فيتربو، جـرى قتله هناك مـن قبل غي ابن سيمون دي مونتفورت، انتقاماً لموت والده.

مغادرة ادوارد وتوجهه إلى عكا

وعندما سمع ادوارد بالانتقام الرهيب، الذي أوقعه الرب على شارل —ملك صقلية، وأخي الملك لويس، ملك فرنسا المتوفى أخيراً، وبعدما قدر بأن هذه الكارثة لم تحدث من دون سبب، ضرب على صدره وأقسم بدم الرب، الذي كان قسمه المعتاد، وقال: «ومع أن جميع رفاقي بالسلاح وأبناء بلدي قد يتخلون عني، فإنني مع فوين Fowin, سائس مهري (لأن ذلك كان اسمه) سوف ندخل إلى عكا، وسوف أحافظ على عهدي ويميني، حتى وإن كانت روحي ستفارق جسدي لإقدامي على هذا العمل»، وسمعه جميع الانكليز الذين كانوا معه، وسمعوا هذا الإعلان، ولذلك وعدوه بأنهم سوف يذهبون معه، وعند ذلك أقلع على الفور باتجاه عكا، وعند وصوله إلى هناك، وجد تلك المدينة مطوقة من قبل المسلمين، منذ أربعة أيام مضت، وبوصوله خابت آمال سلطان مصر وتوقعاته، ومع أنه كان قد بدأ بحصار المدينة، عاد إلى بلاده مع جيشه.

وفاة رتشارد ملك الرومان

في اليوم الثاني من نيسان في هذا العام، غادر رتشارد، ملك الرومان، وأخو ملك انكلترا طريق الجسد كله في قلعة بيركهامبستد، وقد دفن قلبه في كنيسة الرهبان الفرنسيسكان في اكسفورد، ودفن جسده في كنيسة طائفة الرهبان السسترشيان في هيل Hailes التي كانت قد بنيت على حسابه الشخصي.

مختصر أحداث العام

وكان هذا العام عام خصب في الفواكه والقمح، وعام سلام، وكان أيضاً عام سرور وبهجة للمسلمين، بسبب وفاة ملك فرنسا، وعام حزن أيضاً للصقليين بسبب موت ملكهم، لكنه كان عام لامبالاة بالنسبة

للانكليز، الذين لم يعانوا من أي من هذه الحوادث.

ومات بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، وجرى انتخاب رئيس الرهبان ليكون خليفته.

كيف تعرضت حياة إدوارد ابن ملك إنكلترا للخطر في عكا

في عام النعمة ١٢٧٢، الذي هو العام السادس والخمسين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، كان الملك المذكور في لندن، أيام عيد الميلاد بصحبة ملكته، وفي هذا العام عندما كان ادوارد الابن الأكبر للملك مقيماً في عكا، كان هناك أمير ليافا (أي أن مرتبته تساوي مرتبة إيرل بيننا)، وكان مسلماً من حيث الأصل، وقد أحبه وتوجهت عواطفه نحوه، بسبب شهرته بالشجاعة، ولذلك بعث إليه مراراً برسائل وبرسل الإطراء له بوساطة واحد من الحشيشية اسمه عبد العظيم Anzazin, وكان هذا الرجل قد تعلم في أماكن تحت الأرض منذ طفولته، وهناك تعلم كيف يقوم بهجوم مفاجيء على أي أمير من خصوم طائفته، وزرع في نفسه وأفهم أنه وإن تعرض للقتل أثناء محاولته، فإنه لعمله هذا، سوف يتلقى حياة جديدة، وسط المباهج في الجنة، وفي إحدى مناسبات قدومه إلى ادوارد، كما اعتاد بالغالب أن يفعل، مع رسائل، تظاهر بأنه يود أن يبوح ببعض الأسرار له، وعند ذلك جرى اخراج كل واحد من الغرفة، وعندما كان ادوارد مائلاً أمام النافذة، وموجها انتباهه نحو الخارج، سحب الحشيشي فجأة مدية مسممة، وجرحه مرتين في ذراعه، ومرة ثالثة تحت ابطه، وتمكن ادوارد على الفور من إلقاء الحشيشي على الأرض بقدمه، وانتزع السكين من يديه، وقتل الجاني بها، وفي انتزاعه للسكين، جرح نفسه جرحاً بليغاً في اليد، وبما أن السم انتشر في الجراح، لقد عالجوه بصعوبة بالغة، وباستخدام عدة أنواع من وسائل العلاج.

وقال بعضهم أنه عندما وجد ادوارد نفسه قد جرح فجأة، ولم يكن بيده شيء يدافع عن نفسه به، أمسك المنصب الثلاثي الحامل لمنضدته، وضرب به المجرم على رأسه، ثم إنه دعا خدمه، وبعدما شرح لهم

تفاصيل ماأصابه، أمر بجسد المجرم بأن يعلق على أسوار المدينة، وذلك إلى جانب كلب حي، من أجل أن مشاهدة ذلك المنظر قد تبعث الخوف في قلوب الآخرين، وعندما سمع الأمير بأن ادوارد قد جرح من قبل رسوله حزن كثيراً، وأعلن بأن الجريمة قد اقترفت من دون رضاه أو معرفته، وفي الحقيقة، هو فكر —كما قال بعضهم— ونوى أن يتخلى عن طائفته الاسلامية، وأن يتلقى نعمة العماد المسيحي من خلال ادوارد، وعندما سمع الصليبيون بأن ادوارد قد جرح بهذه الطريقة، خططوا لمهاجمة المسلمين انتقاماً لهذه الجريمة، لكن ادوارد منع ذلك وحظر فعله تماماً قائلاً: «باسم الرب، إنني أمنعكم من إلحاق الأذى بجيش المسلمين بأية طريقة من الطرق، كما أمنعكم من اقتراف أي عمل عنف ضدهم، لأن الكثيرين من شعبنا يذهبون إلى الحج إلى ضريح ربنا، وإذا ماتعرض المسلمون إلى أدنى أذى على أيدينا، فإن أبناء بلادنا سوف يهلكون على أيدي المسلمين»، وأعطى هذا الرأي القناعة إلى الجميع، ولم يكتف الصليبيون بالثناء على حكمة ادوارد، بل فعل المسلمون ذلك أيضاً، لابل حتى السلطان نفسه أثنى كثيراً على حكمته.

مختصر أخبار العام

كان هذا العام كله خصباً في انتاج كل من القمح والفواكه، وساده السلام، وكان لطيفاً بالأنواء وبالنسبة للانكليز، وهم في ظل ملكهم القديم، لم يكن العام لامحزناً ولامفرحاً، أما بالنسبة للفرنسيين في ظل ملكهم الجديد، فقد كان عام متعة وسرور، أما بالنسبة للرومان فكان عام اضطراب، بسبب أن كرسي القديس بطرس بقي شاغراً.

انتخاب ثيوبولد أوف بلاسنزا للكرسي البابوي باسم غريغوري العاشر

في عام النعمة ١٢٧٣، الذي كان العام السابع والخمسين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، جرى انتخاب ثيوبولد أوف بلاسنزا

Placenza, رئيس شمامسة لييج Liege. الذي كان قد ذهب إلى عكا مع ادوارد، مدفوعاً بروح التقوى، جرى انتخابه بابا مع لقب غريغوري العاشر، وقد تسلم مرسوم انتخابه وهو في عكا، من أيدي بعض الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، الذي جرى إرسالهم خصيصاً لهذا الغرض، فبادر على الفور مسرعاً إلى فيتربو، حيث كان الكرادلة بانتظاره، فتولى رسم خمسة كرادلة أساقفة، الأمر الذي أطري كثيراً، لأنه اختار أشخاصاً قادرين ومستقيمين، كما أنه ألغى انتخاب رئيس أساقفة كانتربري، وأعاد المنصب الحبري في تلك الكنيسة إلى روبرت كيلووردباي Kilwardby, الذي كان في هذا العام نفسه قد استقال من منصب الرئيس الاقليمي لرهبانه، وهو المنصب الذي شغله لمدة أحد عشر عاماً، والذي إليه أعيد انتخابه، وكان رجل الدين هذا منتمياً إلى طائفة الدومينيكان، وكان الأكثر تميزاً، ليس فقط بقداسة حياته الدينية، بل أيضاً بعلومه ومعارفه، وقبل أن يدخل إلى طائفته الحالية، كان نائباً في كلية الآداب في باريس، وبراعته في الآداب وخاصة فيما يتعلق بالنحو والمنطق شهدت له به الكتابات العملاقة، وبعدما دخل إلى الطائفة، كرس نفسه لدراسة الكتابات المقدسة، والكتابات الأصيلة للآباء المقدسين، ولقد قسم كل كتب أوغسطين تقريباً، مع أعمال كثيرة جداً لآخرين من العلماء اللاهوتيين، إلى فصول صغيرة، وعلق على آراء كل منها بتعليقات مختصرة، وهناك انتشار واسع لرسائله: **حول الوقت، وحول العالم، وحول أصل العلوم**، وهذه الرسالة الأخيرة كتاب غريب ونافع، وأعطاه البابا إذناً بأن يتلقى منفعة التكريس من أي أسقف كاثوليكي يراه موائماً، للاختيار لهذا الغرض، وقد ركز على وليم، أسقف باث، الذي كان متميزاً بين بقية الأساقفة بشهرة قداسته، ومن قبله جرى تكريسه في كانتربري في الأحد الأول من الصيام الكبير، بحضور أحد عشر نائب أسقف.

إحراق كنيسة نورويك من قبل المواطنين

واستمرت في هذا العام دسائس الشيطـان، فقد نشب خلاف وتفجر بين عـامة النـاس في ذلك المكان، وقد تطور إلى غضـب عارم، إلى حـد أنهم ألقوا النار وأحرقوا جميع الكنيسة الفخمة لتلك المدينة مع مكاتبها، باستثناء بيعـة القديس وولتر، قرب المصح، وهم لم يكـونوا قانعين بهذه الجريمة بل نهبوا بأيديهم المدنسة الأوعية، والكتب، والمجوهرات التي لم تلمسها النيران، مع الكأس الذهبي الذي كـان معلقاً عند المذبح الكبير، وهو الذي كان موضوعـاً فيه جسد ربنا، وغضب الملك هنري كثيراً من اقتراف هذه الجريمـة، وعلق مندهشـاً قائـلاً: «بحق العـاطفة المستحقـة لربنـا، أنا ســوف أذهب وأنظـر في هذه الفعلة الشريـرة وأتفحصهـا شخصياً، وسـوف أجعلهم يسددون، كل حسـب جريمته»، وبنـاء عليه أرسل قبله فارساً اسمه ترايفت Tryvet, كان قد جعله مسؤول العدالة للتاج.

وبناء عليـه وتنفيـذاً للأوامـر المستعجلة للملك، وتقـديـراً لفظاعـة الجريمـة، صـدر الحكم بإدانة عـدد كبير من الناس من نورويك، وقضي عليهم بالسحل وهم مربوطين إلى ذيول الخيول إلى المشانق، فهناك جرى شنقهم، وما أن تمكن الملك، حتى انطلق إلى نورويك، آخذاً معه أسقف روكستر، وغيلبيرت ايرل أوف غلوستر، وقد أحاطـت به حاشية كبيرة، وعندمـا وصل إلى هناك، وشاهـد الكنيسة وقـد تدمـرت كلياً بوسـاطة النيران، لم يتمكن حتى بصعوبة من منع نفسـه من البكاء، وحرم أسقف روكستر كنسيـاً جميع الأطراف والمحـرضين على اقتراف هذه الجريمـة الرهيبـة، وقضـى الملك على الفـور على جماعـة المدينة بـدفع ثلاثة آلاف مارك من الفضة، وقرر دفع هذا المبلغ خلال مدة محددة، من أجل إعادة بناء الكنيسة المذكـورة، وقضي على سكان المدينة أيضاً بتعـويض الكأس الذهبـي الذي سرق، بكأس آخـــر أيضـــاً من الذهـب، وزنه عشرة

باوندات، وقيمته مائة باوند من الفضة، وكان وليم برونهام Brun-ham في ذلك الوقت هو رئيس الكنيسة، وبعدما فرغ الملك من انزال العقوبات على الناس الآثمين من أهل نورويك، قرر العودة إلى لندن، ولكن عندما كان على طريقه إلى هناك، حدث أن توقف عند دير القديس ادموند، وهناك أصيب بمرض خطير، لم يتركه حتى نهاية حياته.

وفاة الملك هنري الثالث

وعندما كان متمدداً هناك أثناء مرضه، قدم عدد من الايرلات والبارونات العائدين للمملكة، وكذلك بعض الأساقفة، قدموا إلى هناك حتى يكونوا حاضرين لحظاته الأخيرة، واعترف الملك بذنوبه بتواضع، وهو يضرب على صدره بأسى، وقد تخلى عن النوايا السيئة تجاه الجميع، ووعد بتقويم طريقة حياتهم ثم جرى تحليله من قبل أحد الأساقفة، ثم تلقى بعد ذلك بتقوى جسد المسيح، وبعدما جرى مسحه بالدهن المقدس للكنيسة إلى الحد الأقصى، قدم صلوات إلى الرب، بمثابة شكر على نعمه، ثم أمر بدفع ديونه، وأن يجري توزيع بقية مقتنياته من دون تمييز بين الفقراء، وبعدما أدى واجباته هذه كلها بشكل صحيح، سلم روحه إلى الرب، وجرى دفن جسده بتشريف في ويستمنستر، وقد حكم لمدة ستة وخمسين عاماً وذلك بالاضافة إلى المدة التي انقضت مابين عيد القديسين سمعان وجود، وعيد القديس ادموند الحبر، وكانت هذه المدة عشرين يوماً، وكان قد تزوج من سيدة نبيلة اسمها اليانور، كانت ابنة كونت سافوي، ورزق منها بولدين هما: ادوارد الذي أصبح ملكاً من بعده، وادموند الذي كان ايرل ليستر ولانكستر، وابنتين هما: بيتر ايس، التي تزوجت من كونت بريتاني، ومرغريت التي صارت زوجة لملك سكوتلندا، وكان الملك هنري هذا قد بدأ بإعادة بناء كنيسة ويستمنستر، غير أنه لم يكملها، وبالحكم عليه كملك، هو قد عدّ رجلاً تعوزه

الحكمة في الأعمال الدنيـوية، وعلى هذا كان أكثر تميزاً بتقـواه واخلاصه نحـو الرب، لأنه كان من عـادته الاصغاء يوميـاً إلى ثلاثة قداسـات مع الموسيقى، وكان يرغب بالاستماع إلى المزيد، ولقد ساعـد بصورة مواظبة على إقامة القداسات الخاصة، وعندما كان الكاهن يرفع جسد ربنا، كان بالعادة يمسك بيد الكاهن ويقبلها.

كلام ذكي لملك إنكلترا

وفي إحـدى المناسبات عندمـا القديس لويس، ملك فـرنسا يتحـادث معه حول القضية التاليـة، حيث قال بأن «الانتباه ينبغي أن يصرف دوماً ويكرس للإصغاء للقـداسات، وأن علينا الاستماع إلى القـداسات غـالباً وبقـدر مـا هو ممكن»، وعلى هذا الكـلام أجـاب ملك انكلترا بذكـاء وتهذيب: «إنه بالحري غـالباً مايرغـب برؤية الصديق أكثـر من الاصغاء للحديث عنه، مع أن عليه الاستماع إلى الحديث الحسن حوله».

حول المظهر الخارجي للملك المذكور

كـان الملك هنري متوسط القـامة، كثيف البنيـة، وكان جفن إحـدى عينيـه معلقـاً نحـوالأسفل، إلى حـد أنه غطى الجانب الـداكن من بؤبؤ العين، وقد امتلك قـوة كبيرة، وكان منعـدم التقدير في أعماله، ولكن بما أن أعماله وصلت إلى نتـائج سعيدة وكـانت محظوظة، اعتقـد كثيرون أنه كان هو المقصـود من قبل المتنبىء ميرلين Merlin, عندما تحدث عن الوشق، عندما يخرق كل شيء بعينه.



Additaments كتاب

[تم العثور تحت هذا العنوان على عدد من الوثائق الأصيلة جرى تصنيفها من قبل متى باريس، ونشرت منفردة بمثابة ذيل أضيف إلى تاريخه، وتمت هنا ترجمة أهم المواد التي هي موائمة لاكمال الكتاب بقضايا ذات أهمية من الدرجة الثانية، وجرى ادراج كل منها حسب السنة التي انتمت إلى وقائعها].

أجوبة المعلم لورانس من دير القديس ألبان لصالح إيرل كنت— هيوبرت دي بورغ، الذي أثار ضده مولانا الملك قضايا صعبة

[انظر أحداث عام ١٢٣٩]

وبناء عليه جرى تعيين يوم لهيوبرت دي بورغ— ايرل كنت، وكان ذلك في ثمانية عيد القديس يوحنا المعمدان، في العام الثالث والعشرين لحكم الملك، حتى يقدم إلى مولانا الملك التعويضات التي يتوجب عليه عملها له، لأنه لم يقدم له صداق زواج رتشارد دي كلير، في اليوم الذي جرى تحديده له من قبل مولانا الملك نفسه، وذلك وفقاً لاتفاق كان قد عقد بينهما، أو وفقاً لرأي نظرائه، وقد طلب منه مولانا الاصلاح وتقديم التعويضات، وهو لم يفعل أي شيء، وكانت هذه التهم التي أثيرت ضده من قبل مولانا الملك ولصالحه، وذلك حتى يتمكن المتقدم ذكره من الإجابة عليها.

وعلى هذا أجاب الايرل المذكور، أنه لم يحدد له يوم ليفعل هذا، كما أنه قال أيضاً، بأنه سوف يقنع مولانا الملك في يوم محدد ومعقول، أو أنه سوف يلتزم برأي نظرائه،وطلب أن يريه مولانا الملك كتابة المسائل التي يتوجب عليه الإجابة عنها.

وعلى هذا أجاب الايرل، أنه مامن يوم من الأيام جرى تعيينه من قبل مولانا الملك، إلا وكان هو —أي الايرل— حاضراً، ولم يطلب

التسبب بأي تأخير، بل كان دوماً مـوافقاً على اليوم، وذلك حسب رغبة مولانا الملك، وبناء عليه، لقد بدا بـالنسبة إليه أن جميع الأيام التي جرى تعيينها له بعـدما كـان في كنتون [Kingston or Kennington?] Kenintone ينبغي أن تعدّ يوماً واحـداً فقط، وأنه كان دوماً على استعداد للالتـزام برأي نظرائه، في كونه قـد تدخل في قضية الزواج، أو جـرى تخويله من قبل أي واحـد ليفعل ذلك له، وذلـك منذ أن أقسم يميناً في غلوستر بأنـه لن يتـدخل قط في الـزواج، كما أنه لم يعلم آنذاك، وهو لم يعلم الآن أي شيء حـول الزواج، سـوى من خـلال بعض الافادات البسيطة لزوجتـه الكونتسة، التي قالت بأن الزواج قـد عقد في كنيسـة سينت ادمـوند، عنـدمـا كـان الايرل في ميرتون Merton, وإذا لم يكن في هذا كفايـة هو سوف يقول المزيد،وهو جـاهز لأن يفعل في هذه المسألة ماسيقرره نظراؤه.

وكانت المادة الأولى بين المواد المتقدمة الذكـر هي أن مولانا الملك قد طلب منه جميع نفقـات الأربعة عشر عـاماً التي جـاءت بعد وفـاة أبيه، مولانا الملـك جون، والتي تسلم خـلالها الوصاية والمسـؤولية، من دون تكليف أبيـه مـولانا الملك جـون، ومن دون مـوافقـة مـولانـا غـولو Gualo, الذي كـان آنذاك النائب البـابوي، وهو الذي كـان بناء على الموافقة العـامة وقبول المملكة كلها، كـان الأول والمستشار الرئيسي لجميع مملكة انكلترا، وذلك بعد وفاة المارشال.

وعلى هذا أجـاب بأن هنـاك بعض الأشخـاص قـد أوكلت إليهم الإجابة حـول نفقات المملكة، وهم الخازن والحجـاب، حيث أنه جرى بعـد وفـاة يوستـاس دي فـالكونبردج Eustace de Fal-conbridge أسقف لندن، أن طلب من الخازن تقـديم حسـاب حـول ذلك، وهذا مـا كـان قـد فعله وفقـاً لما هو مطلوب، وبعـد ذلك طلب تقـديم حسـاب من أسقف كـارلآيل حـول جميع نفقـات المملكة

حسبما يطلب عادة من المتسلم الرئيسي، وقد عقد الأسقف جلسة من أجل تقديم الحساب المطلوب، وطلب فيها بعد حساب من بطرس دي أوريفال Orival, وعلى هذا إن مثل ذلك الحساب ينبغي عدم طلبه من رجل العدالة، لأنه لم يكن المتسلم لنفقات المملكة، وبناء عليه، يبدو أن الذي لم يتسلم شيئاً، ليس ملزماً بالاجابة على أي شيء، وعلاوة على ذلك قال بأن مولانا الملك قد سلم إليه المسؤولية عن العدالة في رنيميد Runnymede, بحضور مولانا اسطفان رئيس أساقفة كانتربري، وايرل وارني، وايرل فيرار، ونبلاء آخرين، وأنه بقي رجل عدالة طوال أيام الملك جون، لكن حدث أن قلعة دوفر تركت أيام قدوم الملك جون مهجورة، وهو نفسه دخل إليها، وذلك في وقت كان فيه قلة على استعداد للدخول، مالم يدخل هو إليها، وأنه خلال وقت الحرب كله لم يتمكن من مغادرة القلعة، أو ممارسة وظيفة العدالة.

لكن عندما مات مولانا الملك جون، في أيام الحرب، عمل المارشال حاكماً على الملك والمملكة، بناء على نصيحة غولو، الذي كان آنذاك النائب البابوي، وموافقة النبلاء أيضاً، الذين كانوا مع مولانا الملك، ثم إنه بعد عمل السلام مرة ثانية، بقي المارشال المذكور حاكماً على الملك والمملكة، وبقي هيوبرت المذكور المسؤول عن العدالة، من دون أي تذمر، وبعد وفاة المارشال، بقي هو بالعدالة بناء على نصيحة مولانا غولو الذي كان النائب البابوي آنذاك، واسطفان رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفة ونبلاء المملكة، وجاء بقاؤه من دون أية معارضة، وقد كتب إليه مولانا البابا دوماً كرجل عدالة، وهكذا نظر إليه دوماً من قبل كنيسة المملكة، وعدّ رجل عدالة حسبما جرى تعيينه من قبل مولانا الملك جون، وعلى هذا بات من الواضح أنه لم يتسلم وظيفة العدالة من دون تكليف من مولانا الملك جون، وموافقة اللورد غولو، وإذا لم يكن هذا كافياً، هو سوف يقول أكثر، وهو على استعداد لأن يفعل كل مايراه

النظراء صحيحاً، وأيضـاً إنه إذا كان ملزماً بالإجـابة، هو لديه صك من مـولانا الملك، يحلله فيـه من هذه التهم، وهو صك قـام بتقـديمه، وقـد عمل في العام الخامس عشر من حكم الملك هنري.

وطلب الملك أيضاً منه جواباً حول جبـاية الجزء من خمسة عشر جزئاً كله، الذي توجب أن يحرس وأن يودع بناء على الـرأي العام لمستشـاري المملكة، وذلك وفق طريقة أن لايؤخذ منه شيئاً حتى يصل مولانا الملك إلى السن القـانوني، باستثناء أن يكون ذلك تحت اشراف ستـة أسـاقفـة، وستـة ايرلات، جـرى تعيينهـم خصيصـاً لهذا الغـرض، وأن لايكون لغـرض آخر سـوى غرض الدفـاع عن المملكة، ووصل المبلغ آنذاك إلى تسعة وثمانين ألف مارك من الفضة.

وعلى هذا أجاب بأن السيدين أسقفي سالسبري وباث قد تسلما ذلك المبلغ بناء على موافقة عامة من مجلس مستشاري المملكة، وقدما حسابهما حوله، وقد تسلم اقرارهما بموجب رسـالة عائدة إلى مولانا الملك، وبناء عليـه يبـدو أنه ليس من الحق أن تتم دعـوته للإجـابة على تلك المسألة، بعدما تسلم آخرون إقراراً به، وذلك كما هو ظاهر من سجلات الخازن، وبوسـاطـة الرسـالة المعتمـدة الصـادرة عن مـولانـا الملك، والتي هي موجودة في الخزانة، وبالنسبة إليه هو لم يتسلم شيئاً منه، ولذلك هو غير ملزم بتقديم حسـاب حول ذلك، وإذا لم يكن في هذا كفـاية، هو سوف يقول أكثـر، وجاهز لأن، إلخ، إلخ، وكـان لديه أيضاً صك مـن مولانا الملك، إلخ، إلخ.

وطلب الملك منه أيضـاً أن يجيب حـول أرض بـويكتـو Poictou, التي مـات الملك جـون وهو متملك لها، والتي مـولانا، الذي هو الآن الملك، متملك لها، وذلك عنـدمـا تسلم الايـرل المذكـور الوصـاية على المملكة، والمقصـــود بذلك لى راؤل La Rachelle, ونيروت Niort, وسينت جـون دي أنجلي Angely, وأن يجيب على

التهمة في أنه عندما كان عليه أن يرسل خزانة ومالاً من أجل انقاذ هذه الأراضي، أرسل براميل مملوءة بالحجارة والرمال، وأنه نتيجة لذلك عندما شاهد نبلاء وبارونات مولانا الملك والبرجاسية هذا العجز، وهذه الاساءة تحولوا بولائهم وبخدمتهم لمولانا الملك، وانصرفوا نحو أعداء مولانا الملك، ونتيجة لذلك فقد مولانا الملك بواتو.

وعلى هذا أجاب أنه لم يرسل قط مثل هذه البراميل من هذا النوع، وأنه مصر على هذا وسيبقى كذلك وفقاً للطريقة التي يراها نظراؤه مناسبة، وأنه بناء على رأي نبلاء انكلترا، جرى ارسال مائة فارس للدفاع عن لى راؤل، لابل أكثر من ذلك، مع عدد كبير من الأتباع والمرافقين، الذين كانوا هناك مع الملك حتى تخلى برجاسية ورجال تلك البلاد عن ولائهم لمولانا الملك، وبناء عليه إنه ليس من خلال إهماله ضاعت لى راؤل، وليس بسبب إهمال الفرسان الذين كانوا هناك، بل كان ذلك ضد موافقتهم، لأن شعب البلدة هم الذين تخلوا عن تلك الأرض وأعطوها إلى ملك الفرنسيين، وهذا واضح كثيراً، من أنه عندما كان مولانا الملك في البلدة، أبعدهم سكان البلدة عن التشاور معهم، وأقاموا سلماً من دون الفرسان، على شرط أن يقوم الفرسان بالمغادرة سالمين بأجسادهم ومعهم خيولهم.

وضاعت لى راؤل نتيجة سوء إدارة فولك Faulkes الذي ثار مع رجاله ضد مولانا الملك في الوقت الذي كانت فيه لى راؤل محاصرة، وكان فولك هذا نفسه أيضاً، قد تمكن بوساطة أخيه وليم من اعتقال هنري أوف بريبروك Braybrook, قاضي الملك، عندما كان في إيرى eyre, ونظراً لهذا الاعتقال والأضرار الأخرى التي اقترفها فولك المذكور، كان من الضروري بالنسبة للملك ولنبلاء البلاد القيام بحصار قلعة بدفورد، وذلك بناء على نصيحة رؤساء أساقفة، وأساقفة، ونبلاء البلاد، وقام الأساقفة هناك بانزال عقوبة الحرمان

الكنسي بحق فـولك، وعلى هذا بات واضحـاً أن ذلك نتيجـة لسـوء سلوكه، وإلاّ لما قـام الأساقفـة بحرمـانه كنسياً، ولو أن فولـك نجا من دون عقـاب، وكذلك لو أن القلعـة لم يتم الاستيلاء عليهـا، لاضطربت أحوال المملكة أكثر مما كانت عليـه، وإذا لم يكن هذا كافيـاً، إلخ، إلخ، فهو جاهز بناء عليه، إلخ، إلخ.

وكذلـك كان عليه الاجـابة على التهمة التـالية، وهي بينما كـان الملك مـايزال دون السن القانوني، وقـد توجب انجاد بلاد بواتو، وكـان على الجيش الانطلاق إلى بواتو، جعلـه الايرل المذكـور يقـوم بحصـار قلعـة بدفورد، حيث أنفق مولانا الملك مع نبلاء انكلترا كثيراً من المال قبل أن يتم الاستيـلاء عليها، وبعـدما تم الاستيـلاء عليها، أمـر بتهديمهـا، ثم تنازل عنهـا إلى وليم بوشـامب، الذي منه كـان مولانا الملـك جون قـد انتـزع تلك القلعـة في الحرب، وهي القلعــة التي استـولى عليهـا الملك جون، عندما مات.

وعلى هذا أجاب بأن حصار القلعة لم يتم القيام به من خلاله وحده، لكن بناء على اجماع آراء المملكة، وبسبب سـوء سلوك فـولك ورجـاله، الذي تسبب باعتقـال هنري بريبروك قـاضي مولانا الملك من قبل أخيـه وليم دي بريتي Breante, وبناء عليـه كـان مـولانا الملك قـد أرسل رسائله لفولك المذكور ليس مرة واحـدة بل للمرة الثانية، ليسلمه قاضيه، وقد رفض أخوه عمل أي شيء في القضية، ولم يستجب، كما أن الملك أرسل رســائلـه إلى وليم دي بريتي، الذي أجـاب بـأنه لم يسلم هنري المذكور، من دون موافقة أخيه فـولك، وأن أخاه كان من قبل قد ثبت الذي عمله، وبناء عليه عقد مولانا الملك اجتماعـاً مع نبلائه، وقدم حتى بدفـورد، وأرسل إلى الذيـن كـانوا في القلعـة: بطرس ابن هيريبين Herebin, وآلان باسيت، ليطلبـا منهم اطلاق سراح هنري أوف بريبروك— قـاضيـه، الذي كـان معتقـلاً لديهم، وأن يقـدمـوا ويدفعـوا

تعويضـاً عن سوء تصرفهم بـاعتقالهم قاضي مـولانا الملك، وقد أجـابوا بأنهم لن يفعلـوا شيئاً استجـابة لمولانا الملـك، وأنهم ســوف يحتفظون بهنري المذكور، وإذا استطاعوا سـوف يعتقلون المزيد، ولذلك جرى بناء على رأي نبلاء انكلترا حصار القلعة، والاستيلاء عليها وتدميرها، وبعد ذلك أعطي مــوقع القلعـة إلى وليم دى بوشـامـب بناء على رأي نبـلاء انكلترا، ولهذا السبب ورد ذكرها في صيغة السلام الذي أبرم بين مولانا الملك، ومولاه لويس والبـارونات، حيث جاء أنه تقـرر أن يبقى بيد كل واحد مـا كان بين يديه في بداية الحرب، وبنـاء عليه قام النائـب البابوي السيد غولو، ورئيس الأساقفة والأسـاقفة بايقاع عقوبة الحرمان الكنسي بكل من ســوف يخرق صيغة السـلام تلك، وبسبب أن وليم نفسه كـان دومـاً يطالب بالقلعـة المذكـورة ويدعي أنها حقـه، وذلك في معـارضـة لفولك المذكور، ولم يستطع أخذها حتـى جرى الاستيلاء عليها من قبل مولانا الملك، فلقد قام مولانا الملك نفسه، بناء على نصيحة نبلائه، وبناء على صيغـة السلام الذي أقيم، وبسبـب الخوف من القرار الذي صـدر، فتخلى إليه عن مـوقع القلعة المتقـدم ذكرها، وأن يتملكهـا وفق الصيغة نفسهـا التي تملكهـا أجـداده، وهذا واضـح في مـدونات مـولانا الملك، وأيضاً أن وليم المذكور أعطى من نفسه إلى مولانا الملك، بأن بإمكانه أن يتملك تلك الاقطاعيـة، مثلما هـو واضح ومـدون في سجـلات مـولانا الملك، وإذا لم يكن في هذا كفـاية، هو ســوف يقـول المزيد، وبناء عليـه، إلخ، إلخ.

وأيضاً كـان عليه الاجابة على التهمـة التاليـة، في أنه أرسل رسلاً إلى رومـا، وحصل على وجـوب أن يكون مولانا الملك قـد صـار في السن القـانونية، مع أنه لم يكن قـد وصل إلى السن القـانونية، وكأن ذلك فيـه منفعة لمولانا الملك، ثم إنه بفضـل الإعلان أنه صار في السن القـانونية، تسبب في أن يمنحه بموجب صك الأراضي التي كانت عائدة إلى هنري

أوف اسكس، وأراضي أخرى، ومناصب، وامتيازات، استولى عليها وتملكها حسب مشيئته، بعد وفاة الملك جون، وهي كانت متملكة من قبل الملك جون المتوفى نفسه، وتسبب أيضاً في أن يعطى، وأن تتثبت أعطيات إلى رهبان، وأشخاص لاهوتيين، وآخرين، أراضي كثيرة، وامتيازات، وأشياء أخرى، مما أنقص كثيراً وآذى مقام مولانا الملك وتاجه.

وعلى هذا أجاب، بأنه لم يرسل رسلاً إلى روما، بل أسقف وينكستر أرسل إلى روما وليم من كنيسة القديس ألبان حول القضية نفسها، وكان ذلك لإلحاق الأذى بهيوبرت المذكور، وليس لصالحه، وذلك من دون أن يتخلى هو مع الآخرين عن وصايتهم، كما فعل أيضاً في نورثأمبتون، ولقد تقرر فيها بعد بناء على الرأي العام، لرئيس الأساقفة والأساقفة، بأنه ينبغي أن يمتلك مولانا الملك ختماً، وأن رسائله ينبغي أن تصدر، حتى يتمكن من تأسيس خوف أعظم لنفسه في المملكة، وأن يمتلك سلطة أعظم، وتمّ بعد ذلك الحصول على تحلة من أجل عمره من البابا هونوريوس، بناء على اقتراح رئيس الأساقفة، والأساقفة، والايرلات والبارونات، لأنهم اقترحوا إلى البابا بأن حكمته، وحسن تدبيره، قدمت تعويضاً لسنه، وذلك كما هو موجود في امتياز البابا الموجه إلى الايرلات والبارونات، والذي يبدأ هكذا: Ad boec etinfra —مع أن ولدنا المشهور والعزيز في المسيح مايزال يعدّ في سنوات صغره، مع ذلك إنه كما سمعنا، وسررنا لما سمعناه، بأنه أظهر عقلاً رجولياً، وعمل تقدماً بالعمر والحكمة، ولذلك فإن ماكان محتاجاً إليه في عقد من الزمان، يبدو أنه قد عمل من قبله بفضل حسن تدبيره، ولذلك ينبغي أن لايمنع من مباشرة الحكم، وأن يدير بشكل نافع شؤون المملكة، وبناء عليه إننا نأمر بموجب كتاباتنا الرسولية، أن يتم بالتوافق مع أخينا المحترم أسقف وينكستر، والسادة النبلاء التالين:

قـاضي انكلترا ووليم بريوير [القيـام برعـاية القضـايا المتقـدم ذكـرها]، ونحن نأمرهم بموجب كتـاباتنا هذه في أن يتخلوا له بشكل حر ومسالم عن إدارة مملكته».

كما أنه كتب أيضـاً إلى إيـرل شيستر كما يلي: «نحن نأمـر ونفـرض عليكم بمـوجب هذه الكتابات الـرسوليـة، بأن تتخلى له الآن عن ادارة مملكته، وأن تسلم إليه من دون أيـة مصاعب الأراضي والقلاع التي بين يديك تحت عنوان الوصاية، وأن تجعل الآخرين يفعلون الشي نفسه».

وكتب بصيغـة الكلمات نفسهـا إلى أسقف وينكستر، كما أنه كتب إلى المستشار وفق الصيغة التـالية: «نحن نأمركم بموجب كتـاباتنا الرسولية، إنه بحكم أن بين يديك ختم الملك المذكور،وأنت تمتلك الوصـاية عليه، يتوجب عليك من الآن فصـاعداً، أن تستخـدمه وفقاً لرغبـاته الصالحة، وأن تقـوم، بناء عليـه، بإطاعتـه واتبـاعـه فقط، وأن لاتتسبب بختم أية رسالة من الآن فصاعداً بالختم الملكي ضد ارادته».

وفيما يتعلق بأرض هنري أوف اسكس، لقـد قـال إنه عندمـا صـار مولانا الملك في السن القانونية وبعـدما أطاعه المستشار، بناء على تدخل مولانا البـابا، قد أعطاه تلك الأرض عـن طواعية منه ورغبـة، بموجب براءة لصالحه، وأعاد إليه أيضـاً الأرض بمثابة حق له، وعمل بعد ذلك سلماً معه، وإذا لم يكن في هذا كفاية، إلخ، إلخ، هو جاهز، إلخ، إلخ.

وطلب منه أيضاً الاجابة على مايلي، هو أنه عندما أرسل مولانا وليم ملك سكوتلندا إلى مـولانا الملك جـون ابنتيـه، اللتين كـانت كبراهن ستتـزوج من مـولانا الملك، أو من الايرل رتشـارد، إذا مـاحـدث شيء لمولانا الملك، وهذا الزواج هو الـذي من أجله تخلى وليم الملك المذكـور إلى الملك جـون عن ادعـائه وجميع حقـوقـه حـول أراضي كمبرلاند Cumberland, ووستمـورلانـد Westmoreland,

وأعطاه بالاضافة إلى ذلك Northumberland, ونورثأمبرلاند خمسة عشر ألف مارك فضة، وقد تزوج من تلك السيدة، وذلك قبل أن يصبح مـولانا الملك في سن يمكنه أن يقـرر فيه، عما إذا كـان يرغب أن تكون زوجته أم لا، وهكذا عندمـا صار مـولانا في السن القانوني، بات من الضروري بالنسبـة إليـه، أن يعطي ملك سكوتلندا الموجـود الآن مـائتي هـايد Hides من الأرض حتى يتخلى عن دعـواه بالأراضي المتقدمة الذكر، وذلك بسبب أن الاتفاق الأول لم تتم مراعاته، وحـدث هذا على الرغم من أنـه لم يتقيـد أنـه كـان من قبـل مقترناً من كـونتسة غلوستر التي كـانت قـد اقترنت لبعض الوقت مضى بمـولانا الملك جـون، عندمـا كـان مـايزال بمـرتبة ايـرل، وهي التي أعطاه إياها الملك جـون للوصـاية عليهـا، وهي التي باع زواجهـا لبعض الوقت إلى غيـوفـري دي مـانديفيل Mandeville, بعشرين ألف مـارك، وهاتين السيدتين كلتاهما مرتبطة بالأخرى ببعض القرابة إلى درجة ما.

وعلى هذا أجاب بأنه لم يعلم مطلقـاً بالاتفاق بين الملكين، أي لم يعلم شيئاً حول الزواج الذي سوف يعقد مع إما مولانا الملك، أو مع الايرل رتشارد، بل كان عليها الزواج من مـولانا الملك بناء على نصيحة نبلائه، وإنها تزوجت بنـاء على مشـورتهم، وهذا واضح من رسـائل السيـد باندولف Pandulf, الذي كان آنذاك هو النائب البابوي، وأيضاً رسائل رئيس أسـاقفة كـانتربري، والأسـاقفـة، والايرلات، والبارونات، ثم إنه لم يكن من الممكـن إعـاقـة ذلك الاتفـاق لـو أنه عمل قط، لأنها عندما تزوجت، كـان الملك في سن، يمكنه فيه أن يعقـد الزواج معها أو مع واحـدة أخرى، إذا مـا اختـار، وفيما يتعلق بوجود قـرابة عصب بين كـونتسـة غلوستر وابنة ملك سكوتلندا هو لم يعلم عنـه شيئاً، وحـول مايتعلق بالمائتي هايد من الأرض التي منحت إلى ملك سكوتلندا، مامن شيء قد عمل من خلال ايرل كنت، وبشأن كـونتسة غلوستر، قال بأنها

لم تكن تحت وصاية هيوبرت، بل كانت سيدة نفسها، وكانت حرة في أن تزوج نفسها من أي واحد ترغب به وذلك بعد وفاة غيوفري دي مانديفيل، وذلك منذ أن باع مولانا الملك جون من قبل زواج الكونتسة إلى غيوفري المتقدم ذكره، وإذا لم يكن في هذا كفاية، سوف يقول أكثر، وهو أيضاً جاهز، إلخ.

وطلب منه أيضاً الإجابة على مايلي، وهو أنه عندما أمر مولانا البابا، بوجوب أن يكون هناك طلاق بينه وبين زوجته الكونتسة التي كانت آنذاك لديه، بسبب القرابة المتقدم ذكرها، جعل رجلاً اسمه لويثيل Le-wytheil يقوم بجز واتلاف جميع قمح الرومان، ونتيجة لهذه الفعلة صدر قرار بالحرمان الكنسي بشكل عام ضد الذين اقترفوا الاثم والذين حرضوهم، وقد فعل هذا عندما كان قاضياً، ولقد اقترف ذلك من قبل واحد توجب عليه الحفاظ على السلام، وبهذه الطريقة إن السلام، المتعلق بهذه الأشياء قد اضطرب ومازال مضطرباً حتى الوقت الحالي.

وعلى هذا أجاب بأنه لم يعلم شيئاً حول ذلك، لأن ذلك لم يعمل من خلاله، وهذا واضح تماماً، لأن مولانا البابا أمر بعمل تفتيش حول هذا، من قبل أسقف وينكستر، ورئيس رهبان دير القديس ادموند، وقد جرى تحويل نتيجة التفتيش إلى البابا، وكان واضحاً من ذلك التفتيش تمام الوضوح أنه لم يكن مخطئاً، ولو أنه كان كذلك لتولى البابا معاقبته، الأمر الذي لم يفعله، وإذا لم يكن في هذا كفاية، إلخ، وهو أيضاً جاهز للاستجابة لما يراه نظراؤه أنه أمر صحيح.

وطلب منه الإجابة على مايلي، هو أنه عمل نفسه سجيناً لمولانا الملك، وتم الاتفاق بينهما بأنه سوف يعد خارجاً على القانون، إذا مانجا من ذلك الحبس من دون اذن من مولانا الملك، ومع ذلك نجا من ذلك الحبس، وعندما أصبح خارجاً على القانون من خلال ذلك الاتفاق،

وبناء على مبادرة الذين نجا بوساطتهم من الحبس، وفيما بعد استقبله مولانا الملك برضاه، ومع ذلك لم يحصل على مذكرة من مولانا الملك تعفيه من الخروج المذكور على القانون، وفيما بعد عندما جرى استقباله في حظوة مولانا الملك بطريقة لايمكن فيها اضعاف المنح التي كان مولانا الملك قد أعطاه إياها من قبل، في الأراضي التي كانت بين يديه من خلال تلك الإتفاقية، وعلى الرغم من ذلك قام معاكساً لتلك الاتفاقية، فقاضى جون دي غري، وماستي Masty, وبيزلي Besily, وأنكويتيل مالور Malure Anquetil, وروبرت باسلوي Passelewe, وآلان أوري Urry, مع عدد من الآخرين، وربح الدعوى ضدهم، وبناء عليه عمل مولانا الملك مبادلة مع بعضهم ببعض اقطاعياته، مما ألحق به خسارة كبيرة،وبناء عليه، بدا لمولانا الملك أنه غير ملزم بالتمسك بأية اتفاقية مع الايرل المتقدم الذكر، لأنه رأى أن الايرل لم يلتزم بأي اتفاق معه.

وعلى هذا أجاب، بأنه لم يعقد مثل هذه الاتفاقية، وقال بأنه عندما كان تحت مسؤولية الايرلات الأربعة لانكلترا، الذين استلم منهم تعهدات أنه لن يكون في خطر التعرض لأذى جسدي، مع ذلك، حدث بعد هذا أن الحراس الذين توجب عليهم حمايته من الأذى قد سحبوا، وهو لم يعرف من قبل من، ولذلك شعر بالخوف على سلامته، وخاصة بعدما قام أسقف وينكستر، الذي كان مستشار مولانا الملك، بتهديده، كما تعلم انكلترا كلها، وكانت قلعة ديفي Deviezes بعهدة بطرس دي أوريفال d'orival. وبناء عليه، إنه عندما شاهد أن حرسه، الذين يتوجب عليهم الدفاع عنه، وفقاً للاتفاقية، عندما كان قيد الاعتقال، قد تخلوا عنه وذهبوا، ليس عجباً أنه هرب إلى الكنيسة، وهو لم يكن ليفعل ذلك، وما كان له ليقدم على هذا، لو أن الاتفاقيات حفظت بشكل سليم نحوه.

وفيما يتعلق باصطلاح الخروج على القانون الذي أطلق عليه، قال بأنه لم يعمل مثل هذه الاتفاقيات لأنه لايمكن لرجل صالح ومخلص أن يصبح خارجاً على القانون بموجب اتفاقية، لأن الخروج على القانون عقوبة لمقترفي الآثام، وليست لواحد تصرف بشكل جيد، وهي تتبع الأعمال الشريرة المقترفة من قبل واحد لم يلتزم بالصلاح، وهو لم يكن قط واحداً من هذا النوع، لأنه طلب دوماً وعرض الالتزام بقرار نظرائه، وهو عندما عاد فيما بعد إلى سلام مولانا الملك، جرى العفو عن جميع الذي تقدم، وأنه قضي عليه وتم الإعلان أنه ليس خارجاً على القانون، في جميع كونتيات انكلترا، وذلك بوساطة رسائل مولانا الملك، وأن ذلك القرار قد اتخذ في غلوستر، وتفوه اللورد وليم رادلغي Rad-leghe [?Raleigh] بالحكم بحضور رئيس الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات.

وجواباً منه للتهمة من أنه لم يحصل على مذكرة، تلغي الخروج على القانون، أجاب بأنه فعل ذلك، حتى لايعتقد أنه اعترف بعدالة تهمة الخروج على القانون، وقال بأنه لم يترافع للتقاضي إلى أي واحد على عكس ماجاء بالاتفاقية، لأنه لم يعمل اتفاقية مع مولانا الملك، باستثناء ماتعلق بتولي العدالة في انكلترا، وكانت قلعة دوفر بحوذته بموجب صك لمدى الحياة، وهذا واضح بعدما استرد من الذين قاضاهم، وذلك بإرادة مولانا الملك، وفي بلاطه، بموجب الحكم الصادر عن محكمته، وبناء عليه ينبغي أن لايلام بهذا الشأن، وإذا لم يكن هذا، إلخ، إلخ، وهو أيضاً جاهز، إلخ، إلخ.

وطلب منه أيضاً الاجابة على مايلي: من أنه استخدم كلمات دنيئة وملامة ضد مولانا الملك، بحضور اللورد رالف فتز— نيقولا، وغيوفري دي غرانكوم Grancombe, والراهب غ. G وآخرين، ومازال لدى مولانا الملك أشياء كثيرة لتقديمها ضده،

ولقـولها، وهي مـايزال يحتفظ بها في عقله، وهو سـوف يقـدمهـا ضـده عندما يرغب، وعندما يأتي الوقت المناسب.

وعلى هذا أجاب، إنه سوف يتمسك بإصرار بالذي قـاله ضد مولاه، وضـد جميع الآخرين الذين سـوف يقولون هذا،وبأي شيء سـوف يراه نظراؤه صحيحاً، وكـذلك بأن جميع التهم المتقـدمة قد تـم التخلي عنها، وأنها ألغيت بالنسبـة له قانونيـاً، عندما عمل ثانيـة سلماً مع الملك، وبناء عليـه لقد رأى أنـه لايمكن محاكمته على أي من التهـم المتقدمـة، وإذا لم يكن في أي من أجـوبته ماليس كـافياً أومقنعـاً، فالايرل جـاهز إلى قول المزيد، وبدا أيضـاً بـالنسبـة إليـه أنه لايجوز توقيفــه، كما أنه ليس عليـه الاجابة مـالم تتم إعادته إلى تملك جميع مقتنياته التي جرد منهـا، مشاهداً أن مامن واحـد أوقف للاجابة أمـام أية محكمة سواء أكـانت علمانية أو لاهوتية، وهو في حال التجريد من ممتلكاته.

وجـرى تعيين يوم لهيوبرت نفسـه للمثـول أمام مـولانا الملك لسماع حكمه، وكان ذلك في اليوم التالي لعيد إعدام يوحنا المعمدان.

- ٢ -

الذين أدينوا باقتراف جرائم في الحدائق والمطارد وإنزال العقوبة بهم

[انظر أحداث عام ١٢٤٦]

إذا ما هرب المجرم وقتل، هو لن ينال العدالة ولاالمقاضاة، ولكن إذا ما قـام ايرل، أو بارون، أو فـارس بالشكوى إلى مـولانا الملك، حـول دواب أمسكت في حـديقته، بناء عليـه ينبغي إجـراء تحقيق حول ذلك بمـوجب مذكـرة صادرة عن مولانا الملك، وبناء عليه إن الرجل الذي سـوف يشار إليه من خلال التحقيق، ومن ثـم جـرت ادانته، فلسوف يلقى به في سجن مولانا الملك لمدة عام واحد ويوم واحـد، وبعد ذلك سوف يجري تخليصه مقابـل سعر يساوي قيمـة أرضه لمدة ثلاثة أعـوام، وفق طريقة أنـه سوف

يبقى في عمله، وعند ذلك سـوف يحصل مـولانا الملك على ثلثي مـال الخلاص، وسيحصل الرجل الذي اقترفت الجريمة ضده على الثلث، وبعد ذلك الخلاص عليه أن يؤمن اثني عشر كفيلاً، يتولون كفالته، بأنه لن يحدث أضراراً في المستقبل في الحدائق، أو المطارد، أو الغـابات، أو في أي شيء مضاد لسلام مولانا الملك، وإذا حدث وألحق أضراراً في أي من الأماكن التي تقدم ذكرها، فإن الكفلاء سوف يقدمون جواباً عن جسده، وعن ذنبه، هذا وإذا ماجرى فجأة اعتقال أي واحد في أية حديقة، أو مطردة، وذلك من دون أية مذكرة تحقيق صادرة عن مـولانا الملك، فلسوف يبقى في سجن مولانا الملك، حسبما قيل من قبل، وسوف يحصل بعد ذلك على الخلاص وفق الطريقة التي تقدم ذكرها، ولسوف يحصل مولانا الملك على نصف مبلغ ذلك الخلاص، والفئة المتضررة على النصف الآخر، وعليه بعد ذلك أن يؤمن اثني عشر كفيلاً وفق الطريقة التي تقدم ذكرها... [هناك وثائق كثيرة أخرى آثرتُ عدم ترجمتها لبعدها عن موضوع الحروب الصليبية، واكتفيتُ بالنموذجين المتقدمين].

- ٨ -

رسالة من كونت أراس تتعلق بالاستيلاء على دمياط

[انظر أحداث عام ١٢٤٩]

إلى الأم الأكثر عظمة ومحبة، بلانشي، التي هي بنعمة الرب، الملكة اللامعة لفرنسا، يبعث إليها ابنها العزيز، تمنيات الصحة، مع المحبة الولدية، مع الاستعداد لإرضائها:

بما أننا نعلم أنك سوف تفرحين كثيراً بأخبار تقدمنا وتقدم أصحابنا، وستسعدين للنجاحات الكبيرة التي حصل عليها الشعب الصليبي، وذلك عندما تحصلين على أخبار صحيحة حول هذا الموضوع، لذلك نحن نرغب بأن تعلم سيادتكم بأن مولانا العزيز وأخانا الملك، والملكة، وأخته،

ونحن نتمتع بالصحة في الجسد، وذلك بفضل نعمة الرب، كما أننا متشوقين وآملين بأن يكون الحال نفسه بالنسبة لك شخصياً، ومايزال أخانا العزيز كونت أوف أنجو يشعر بقشعريرة حماه الربعية، لكن ألطف مما هو معتاد، ونود أن تعلم محبتك بأن مولانا العزيز وأخانا والبارونات والحجاج، الذين أمضوا الشتاء في قبرص، قد أقلعوا بمراكبهم في يوم عيد الصعود، في المساء إلى ميناء لينوك Linoc, من أجل أن يتمكنوا من الزحف ضد أعداء الإيمان المسيحي، وأقلعوا من ذلك الميناء، وجاء ذلك بعد متاعب جمة في البحر، وفي مواجهة رياح معاكسة، وصلوا أخيراً بتوجيه من الرب في يوم الجمعة بعد عيد التثليث، وكان ذلك في حوالي منتصف النهار، وألقوا المراسي، وعقدوا اجتماعاً في ذلك اليوم نفسه في سفينة مولانا الملك، للتشاور حول الذي عليهم عمله بعد ذلك، وقد شاهدوا أمامهم دمياط، والميناء محصن بعدد كبير من الترك من كل من الخيالة والرجالة، ومصب النهر، الواقع بالقرب محمي بحشد من الغلايين المسلحة.

ولقد تقرر في هذا الاجتماع ورسم بأنه ينبغي في الصباح المقبل أن يقوم الجميع بالنزول إلى اليابسة مع مولانا الملك، وفق أفضل الطرق الممكنة، ونحن نود أن تعلم سيادتكم، أنه في صباح السبت، وحسبما كان قد تقرر، غادر الجيش الصليبي سفنه الكبيرة، ونزل برجولة وتجهز في الغلايين والقوارب الصغيرة، واعتمد على رحمة الرب، وعلى عون الصليب المنتصر، الذي حمله مولانا النائب البابوي فوق راية قرب مولانا الملك، مستمداً السرور والطمأنينة من الرب، وبذلك اقترب من اليابسة، على الرغم من العدو، الذي قام بحملات عديدة علينا، بكل من اطلاق النشاب، وباستخدام الوسائل الأخرى، لكن عندما لم يعد بإمكان القوارب الوصول إلى اليابسة، بسبب أن البحر كان منخفضاً جداً، غادر الجيش الصليبي قواربه، وباسم الرب قفز إلى الماء، ووصل أفراده إلى اليابسة مع

أسلحتهم على الأقدام، مع أن حشداً كبيراً من الترك دافع عن الشاطىء ضد الصليبيين، ولكن بفضل ربنا يسوع المسيح، وصل الشعب الصليبي إلى الشاطىء سالماً مسروراً بعد مقتل عدد كبير من الخيالة والرجالة الترك، كان من بينهم —كما قيل— أصحاب مراتب عالية.

وبعدما انسحب المسلمون إلى داخل المدينة، التي كانت قوية جداً، وكذلك حصينة لوجود النهر المعترض الذي أحاط بأسوارها القوية وبأبراجها، قام ربنا القدير الذي منح إلى الجميع الوفرة من دون ملامة، فأعطى إلى شعبه المدينة من دون تعب، وكان ذلك في حوالي الساعة التاسعة من اليوم التالي، الذي كان ثمانية الثالوث المقدس، لقد أعطى المدينة إلى الشعب الصليبي، ذلك أن المسلمين غير المؤمنين فروا وتركوها، وقد عمل هذا بموجب أعطية من ربنا وحده، وبموجب رحمته الجبارة.

وليكن معلوماً من قبلك أيضاً بأن هؤلاء المسلمين أنفسهم قد تركوا تلك المدينة مجهزة بكميات وافرة من المؤن واللحوم، وآلات الحرب، وأشياء أخرى نافعة، حيث بقي جزء كبير منها في المخازن من أجل المدينة المذكورة، ومن ذلك الجزء تزود الجيش وباع كثيراً، لكن مولانا الملك مع جيشه عمل إقامة طويلة هناك، وتدبر جلب أشيائه من مراكبه، ونحن نعتقد بأن الجيش لن يغادر من هناك حتى تتناقص مياه النهر، لأنه كما أخبرونا كان آنذاك على وشك غمر الأرض، لأن الصليبيين في تلك المناطق كانوا يعانون من كثير من الخسائر.

وعندما كانت كونتسة أنجو في قبرص، ولدت طفلاً جميلاً جداً، وجيد التكوين، وقد تركته هناك بعهدة ممرضة. صدر في معسكر جاماس Jamas, [دمياط؟] في عام ١٢٤٩م، في شهر حزيران عشية عيد القديس يوحنا المعمدان».

وكانت هذه أهم رسالة أرسلت إلى ملكة فرنسا، كلمة، كلمة.

المزيد من المعلومات حول الاستيلاء على دمياط

«إلى أخيه العزيز لأمه، وإلى صديقه العزيز المعلم بينت Bennet أوف تشارترز— تلميذ في باريس، من غي— الفارس في حاشية فيزكونت أوف ميلون Melun, صحة، وتمنيات أن يكون مسروراً:

بما أننا نعلم أنك قلق حول أوضاع الأرض المقدسة، وأوضاع مولانا ملك فرنسا، ليس فقط من أجل الازدهار العالمي للكنيسة، بل من أجل قرابتنا وصداقتنا في خدمة المسيح تحت قيادة مولانا ملك فرنسا، رأينا أن علينا أن نعطيك معلومات تتعلق ببعض الأخبار التي جرى تداولها بين عوام الناس.

عندما غادرنا قبرص، بعدما عقدنا مجلساً حربياً، وأبحرنا باتجاه الشرق، ناوين أن نهاجم الاسكندرية، حدث خلال الأيام التالية أننا حملنا من قبل عاصفة غير متوقعة، كلفتنا كثيراً في البحر، فقد تفرق الكثير من سفننا، وابتعدت احداهن عن الأخرى، وفي ذلك الوقت كان سلطان مصر، مع أمراء المسلمين الآخرين، قد علموا من خلال كشافتهم بأننا قد نوينا مهاجمة الاسكندرية، وبناء عليه، كانوا قد حشدوا حشداً كبيراً من الرجال المسلحين من سكان القاهرة، والفسطاط، ودمياط، والاسكندرية، وأقاموا ينتظرون وصولنا، حتى يهاجموننا بالسيف بعد متاعب زحفنا، وعلى هذا حدث في إحدى الليالي، أننا بعدما حملنا من قبل ريح قاسية فوق شريط طويل من البحر، هدأت الريح في الصباح، وظهر الهدوء الذي انتظرناه طويلاً، فتجمعت سفننا المتفرقة ثانية، وأرسلنا إلى الأعلى متسلق ماهر، عرف جميع السواحل على هذا الجانب من البحر، وكانت هناك تساؤلات وألغاز كثيرة، فطلبنا من دليلنا المخلص أن يتسلق إلى رأس السارية، وأن يخبرنا عما إذا كان قد شاهد أرضاً، وأن يبين لنا في أي مكان من العالم نحن كنا آنذاك،

وبعدما تفحص هذا الرجل بعناية قصـوى جميع الأماكن المجاورة وأعاد التمعـــن والفحـــص صرخ مندهشاً بصوت مرتفع: «ساعدنا يارب، ساعدنا يارب، الرب وحده يمكنه أن يفعل ذلك،ويتصرف هكذا، نحن هنا الآن أمـام دمياط»، واقتربنا الآن بما فيـه الكفـاية لنرى الأرض، وتحدث المراقبـون من على ظهـر السفن الأخـرى بأنهم شـاهدوا الشيء نفسه،وشرعت السفن تقترب إحـداهن من الأخرى، وعندمـا استوعب مـولانا الملك صـورة هذا الأمر، بدأ بروح عـاليـة في حثهم وتشجيعهم جميعـاً، حيث انتصـب قـائماً في وسطهم وهو يقـول لهم: «أصـدقـائي، وجنودي المخلصين، ســوف يكون من غير الممكـن قهـرنا، فقط إذا لم نفترق بحبنا أحـدنا عن الآخر، إنه ليس من دون إرادة ربانيـة أننا حملنا إلى هنا عبر البحر بمثل هذه السرعة، دعونا ننزل على هذه الأرض، مهما تكن، وأن نحتلهـا بقــوة، أنا لست ملك فـرنسـا، وأنـا لست الكنيسـة المقدسة، أنتم الملك، وأنتم الكنيسة المقدسة، أنا فقط رجل واحد، حياته سوف تنقضي عندمـا يريد الرب، مثل حياة أي رجل آخـر، وبالنسبة لنا كل محصلة هي سليمة، فإذا مـاهزمنا، فلسوف نطير بمثـابة شهداء، وإذا مـاحصلنا على النصر، فمجد الرب هو الذي سيجـري التبشير به، ومجد جميع فـرنسـا، لابل إن مجد المسيحيـة كلهـا سـوف يتضـاعف، وإنه من الحماقـة الاعتقاد بـأن الرب الذي يجهز كل شيء ويـوجده، قـد نهض بي عبثاً، فهـو سوف يرعى قضيتنا، فنحن سـوف نكون منتصرون في سبيل اسم المسيح، وهـو سـوف ينتصر فينـا، معطيـاً، ليس لنا، بل لاسمـــه، المجد، والتشريف، والمباركة».

وفي الوقت نفسه كانت سفننا قـد تجمعت مع بعضها، واقتربت من السـاحل، وبذلك أصبح بإمكان سكان دمياط، والذين عـاشوا قـرب الساحل، تأمل أسطولنا وتقديره، فهو تألف من ألف وخمسمائة سفينة، إلى جانب السفن التي كـانت قد تفرقت، وكان عـددها مائة وخمسين،

وفي الحقيقـة، إنه كما نعتقد، لم يكـن هناك في أيامنا أسطول من السفن قـد جمعـت مع بعضهـا، بضخـامتـه، ولذلك دهش شعـب دميـاط، وأصيبـوا بالهلع، وخـافـوا خـوفـاً شـديداً، فأرسلوا أربعـة من أفضل غـلايينهم، مع أمهـر قـراصنتهم للتقصي ولمعـرفـة من نحن، ومـاهي نوايانا.

وعندما رأينـاهم قد اقتربوا بما فيـه الكفاية لتمييز مـراكبنا، ترددوا، وتوقفـوا عن التحرك بسرعـة كما كـانوا من قبل، وكأنهم حصلوا على المعلومـات المرغـوبة، ورغبـوا بالابتعاد سـالمين، لكن غـلايينا قـامت بالوقـت نفســه، مع المراكب السريعــة بمطـاردتهم، وأحـــاطت بهم، وبذلك أرغمــوا، وهم غير راضين على الاقتراب مـن مــراكبنا، هذا وشاهد رجالنا ثبات وعزم مولانا الملك وعدم تقلب قراره وتصميمه، لذلك أعدوا أنفسهم، بناء على أوامره من أجل معركة بحرية، وكانت أوامره القيام باعتقال هؤلاء، والبعض الآخـر إذا ماقدموا، وبعد ذلك احتـلال الشـــاطىء بجـرأة، وذلك في المنطقـة التـي سيجـري النزول عليهـا، ولذلك أطلقنا ضدهم مقـذوفات نارية، وحجـارة من مجانيقنا البحرية، التي كانت معدة لرمـي خمسة حجارة أو ستة مع بعضهم من مسافة عظيمة، وقذفنا قوارير صغيرة مليئة بالكلس، صنعت ليرمى بها من القوس، أو رمينا بعصي صغيرة مثل النشـاب، ضد الأعداء، وبناء عليـه خـرقت قـذائفنا أجسـاد قــراصنتهم وعتـادهم، في حين تولت الحجارة سحقهم، وأعماهم الكلس الخارج من القوارير المكسرة، وبناء عليه جـرى على الفور تدمير ثلاثة مـن غلايينهم، وجرى انقـاذ بعض القــراصنة من الغــرق، واتخذوا أسرى، وتمكن الغليـون الـرابع من النجـاة، لكـن ليس من دون تلقي بعض الأضرار، ووضعنا الـرجـال الذين اعتقلناهم تحت عذاب مميت، فاعترفوا بالحقيقة، وهي إن دمياط كانت قد تركت فارغة من سكانها، وأننا كنا متوقعين في الاسكندرية،

أما القراصنة الذين هربوا (بعضهم قد أصيب بجراحة حادة) والذين أرغم غليونهم على الفرار، فقد نقلوا معهم رسالة مع البكاء والعويل، إلى شعب دمياط، الذين كانوا بانتظارهم على الشاطىء، على شكل حشد كبير، وقالوا بأن البحر مغطى بأسطولنا الذي وصل للتو، ذلك أن ملك الفرنسين كان يقترب بالسلاح، مع عدد هائل من النبلاء، الذين منهم —كما قالوا— عشرة آلاف شرعوا بشكل مكشوف بالقتال ضد المسلمين، وأمطروهم بالنيران، والحجارة، مثل الغيوم، وقالوا: «لكن بها أنهم ضعفاء من الارهاق ومن متاعب رحلتهم، فإذا كنتم تحبون حياتكم وبيوتكم، هاجموهم متكاتفين مع بعضكم واقتلوهم، أو على الأقل صدوهم بالقوة، حتى يمكن استدعاء رجالنا، ونحن لوحدنا نجونا بصعوبة لاخباركم بهذه الأشياء، ولانذاركم بأن عليكم الدفاع عن أنفسكم، ونحن نعرف أعلام نبلائهم، انظروا إنهم ينقضون بغضب علينا، مستعدين، ويحث أحدهم الآخر، للقتال سواء على الأرض أو على البحر»، ونتيجة لهذا الكلام نزل الخوف وعدم الثقة بالمسلمين، وكان رجالنا قد أخبروا بالحقيقة، ولذلك ارتفعت آمالهم الجيدة، وقفزوا على شكل حشود من سفنهم إلى القوارب، وكان أحدهم يتنافس مع الآخر، لأن البحر كان ضحلاً جداً قرب الشاطىء، ولهذا لم تستطع القوارب ولاالزوارق الوصول إلى اليابسة، ولذلك غطس كثير منهم في الماء، حتى الحقوين، وذلك في طاعة منهم للأوامر الدقيقة والحثيثة لمولانا الملك، وعلى الفور كانت هناك معركة هي الأكثر دموية، وتواصل تلاحق رجالنا ببعضهم دون ترك فراغ، فتحطمت شجاعة المسلمين، وقتل واحد من الرجال من جانبنا فقط، لكن غرق اثنان أو ثلاثة، الذين لشدة حماستهم وتشوقهم للقتال ألقوا بأنفسهم بسرعة في المياه، وبذلك تسببوا بالموت لأنفسهم، وليس عن طريق الآخرين.

وبناء عليه تخاذل المسلمون، وأخذوا يتراجعون، وهربوا بشكل مهين، وارتدوا إلى مدينتهم، وكان عدد كبير منهم قد قتلوا، وأعداد أكبر منهم قد جرحوا وتشوهوا، وكان رجالنا يريدون مطاردتهم، وكان بإمكانهم فعل ذلك عن قرب، لكنهم منعوا من قبل قادتهم، خشية من خديعة قذرة، وأثناء القتال تمكن بعض العبيد والأسرى من تحطيم أغلالهم، وخرجوا من السجن ونجوا، لأنه حتى السجانين كانوا قد خرجوا للقتال ضدنا، ولم يبق أحد في المدينة إلاّ النساء، والأطفال والمرضى، وقابلنا هؤلاء العبيد بتشوق وسرور، وحيوا ملكنا وجيشه، وهتفوا يقولون: «مبارك هو الذي جاء باسم الرب»، وعملت هذه الأشياء بطالع سعيد، وبداية خيرة، في يوم الجمعة أي يوم آلام الرب (الجمعة السعيدة)، وبعد ذلك وصل مولانا الملك إلى اليابسة بأمان وانتصار، وذلك مع بقية الجيش الصليبي، وهكذا استرحنا حتى اليوم التالي، واستولينا في يوم السبت التالي بقوة وببراعة على ماكان قد بقي من الأرض والساحل دون استيلاء، وفعلنا ذلك بناء على توجيه ومعلومات العبيد، الذين عرفوا أيضاً الممرات السرية، واكتشف المسلمون في تلك الليلة نفسها بأن بعض العبيد والأسرى قد نجوا، لذلك حطموا رؤوس الذين بقيوا وبذلك جعلوا منهم شهداء ممجدين للمسيح، وألحقوا بأنفسهم بذلك الدمار كمسلمين، وقام المسلمون في ظلام الليلة التالية، وفي صباح يوم الأحد، بتقدير عدد مهاجميهم، وشجاعتهم، ومثابرتهم، فقرروا الافراغ غير المتوقع للمدينة، لأنهم كانوا بحاجة إلى قادة، وإلى رجال متفوقين، وإلى أشخاص يتولون تشجيعهم ويقومون أيضاً بتقويتهم، كما كانوا بحاجة إلى من يدعمهم ويسلحهم ويقاتل معهم، ولذلك أخذوا زوجاتهم وأولادهم، وكل ماستطاعوا حمله معهم، وهربوا بأسلحة خفيفة من خلال بوابات صغيرة، كانوا قد أعدوها ببراعة منذ زمن طويل مضى، وذلك على الطرف الآخر من المدينة، ونجوا فجأة، بعضهم عبر

اليـابســة، وبعضهم الآخــر عبر النهـر، وتركــوا المدينة مليئة بجميع الأشيـاء، وفي يوم الأحد، في السـاعـة التاسعـة صبـاحاً، قـدم أسيران خارجان من المدينة، وكانا قد نجيا صدفة من أيدي الأعداء، وأخبرانا بالذي حـدث، وألقى الملك جانبـاً بناء عليـه، كل خوف من الخيـانة، ودخل إلى المدينة قبل الساعة الثالثة بعد الظهر، من دون إراقة للدماء، أو قعقعـة للسـلاح، ومن دون أن يعترضه أحـد، وعـلاوة على ذلك، مـامن واحد من الـذين دخلوا معه قـد جـرح، باستثناء هوغ لى برون Brun, ايرل التخـوم، الذي مانظـن أنه سوف ينجـو من الموت، بسبب كميــة الدم التي تدفقت مـن جـروحــه، لأنه كــان غير مهتم بحياته، نتيجة للوم الذي تحمله، وكان قد ألقى بطيش بنفسه في وسط الأعداء، ذلك أنه كان موضـوعاً في الصف الأول للمقاتلين، بناء على طلبه، بمثابة كونه شخصاً مشكوكاً به، وهذا الأمر كان قد أخبر به.

ويتوجـب أن لانغفل ذكر، أن المسلمين عندمـا قرروا الفـرار، رموا ضـدنا النفـوط بكميات كبيرة، وبقـوة، الأمـر الذي كـان خطراً كثيراً علينا ومدمراً بالنسبة لنا، لأنه كـانت هناك رياحاً قوية تهب من المدينة نحــونا، ولكـن فجأة توقفت الريـح وتغير اتجاههــا، وحملت النيران معيدة إياها إلى المدينة، فأحرقت عدداً من رجـالهم ودفاعاتهم، وكانت ستحرق أكثر، لولا أن العبيد، مع أن عـدد الذين كانوا قد بقيوا منهم كـان قليلاً، قـد تمكنوا على الفور من مـواجهتها، وأخمدوها بوسـائل، كـانوا هم على دراية بها، وبوســاطة صلواتهم للرب، الذي استجـاب لطلبهم، حتى لانقوم بامتـلاك المدينة وهي قد أحـرقت تماماً، وفي يوم الرب، وحسبما سلف بنا القــول، دخل مــولانا الملك المدينة في نصر عظيم، وذهـب إلى الصـلاة في معبد المسلمين أنفسهم، وعـزا إلى الرب جميع نجاحاته، بشكل لائق،وكان ذلك قبل تناول الطعام، وكان جميع المؤمنين يقطرون عرقاً، وتتدفق منهم الدموع لشدة فرحهم، وكان على

رأسهم النائب البـــابوي، حيث غنوا ترتيلة الملائكة، أي:" Te Laudamus Deum وأقيم بعد ذلك مباشرة قداس العذراء المباركة، واحتفل به فوق البقعة نفسها، التي اعتاد الصليبيون منذ وقت طويل مضى أن يقيموا القداسات فوقها، و أن يقرعوا الأجراس، الأمر الذي عملوه الآن تكفيراً عما مضى، ورشوا الماء المقدس، وعلى هذه البقعة، ومنذ أربعة أيام مضت، حسبما أكد الأسرى بصوت مرتفع، جرى تمجيد محمد (صلى الله عليه وسلم) بوساطة أضاحي غير طاهرة، وبصرخات عالية من الأعلى، وبزعق الأبواق، وقد وجدنا في المدينة كميات وافرة لاحدود لها من الطعام، والسلاح، والآلات، والملابس الثمينة، والأواني والأوعية والأدوات المنزلية، والذهب، والفضة، وأشياء أخرى جيدة.

وعملنا بالاضافة إلى هذا على جلب الأطعمة التي كنا نمتلك كميات كبيرة منها، من السفن، وفعلنا هذا على الفور، وجلبنا أيضاً جميع الأشياء العزيزة، والضرورية لنا، وبناء عليه، مع مباركة الصلاح اللاهوتي، ازداد الجيش الصليبي يومياً، مثل بحيرة كانت تتلقى الروافد من الأنهار الفائضة، وجاءت الزيادة من الجانب الأول، من ممتلكات اللورد فيلهاردين، ومن الجانب الثاني على شكل قوة رديفة من عساكر الداوية والاسبتارية، وذلك بالاضافة إلى حجاج جدد قد وصلوا، وبذلك تقوينا بفضل نعمة الرب إلى حد كبير، هذا وبقي رجال الداوية والاسبتارية لوقت طويل غير قادرين على تصديق مثل هذا النصر المجيد والعظيم، وفي الحقيقة إن الذي وقع كان مدهشاً جداً حتى يمكن تصديقه.

وفيما يتعلق —بناء عليه— بالأشياء التي وقعت بشكل اعجازي، خاصة انقلاب الرياح، وإلقائها عائدة النار الحامية على رؤوسهم، إن هذه معجزة قديمة من معجزات المسيح، لأنها حدثت من قبل مراراً

في أنطاكيـــة، وقـد تحول بعضهم إلى الإيمان بمــولانا يســوع المسيح، وانضمـوا من ذلك الوقت باخـلاص إلينـا وتمسكوا بذلك، ولكن في ظل دروس الوقــائع الماضيـة، سـوف نسير بحــذر، وتنبـه في أعمالنا بالنسبة للمستقبل، لأنه كـان معنا أشخاصـاً مؤمنين من الشرق، نحن ليس لدينا شك في اخلاصهم، وهؤلاء قد عرفوا بالتجربة جميع بلدان الشرق، مع مخاطرها، وهـم بحكم اخـلاص تقــواهم، قـد تسلمــوا طقوس التعميد.

وأثناء كتـابة هذه الأشياء، عقـد نبـلاؤنا اجتماعاً، وتناقشـوا بيقظة، وتداولوا حـول هل سيهاجمون الاسكندرية أم الفسطاط والقـاهرة، في اليـوم التـالي، ولكن بقينا جـاهلين للنتيجــة التي سيتـوصلون إليهـا، وسوف نجعلكم تعلمـون، إذا بقينا أحياء، بالذي سيحـدث، وعندما سمع سلطان مصر بأعمالنا، اقترح علينا الاشتباك في معركة عامة، وأن يكون ذلك غداة عيد القديس يوحنا المعمدان، في مكان يجري الاتفاق عليه فيما بينهم، وقد اقترح المسلمون أن نجرب ذلك بشكل عام، مرة واحـد ة وإلى الأبد، لمعرفـة سعـد الحرب، بين شعب الشرق، وشعب الغــرب، يعني أن تقـول بين ذوي الإيمان الصحيـح وبينهم أنفسهم، والطرف الـذي سينال حـظ النصر، ســـوف يكـون الطرف المنتصر، وسوف يخضع الطرف الآخر بكل تذلل ويقبل بهزيمته.

وعلى هذا أجـاب مـولانا الملك: «إنني لن أتحدى أعـداء المسيح في ذلك اليــوم، كما أنني لن أحـدد شروطـي للسـلام، لكن منذ الغــد، وطوال أيام حيـاتي، من هذا اليـوم إلى الأبد، إنني سأظل أتحداه، حتى يمتلك الشفقـة على روحـه، ويتحـول إلى الرب، الـذي يرغب بإنقـاذ جميع الناس، والذي فتح صدر رحمته إلى جميع الذين يتحولون إليه».

وجميع هذه الأشيـاء التي ذكرتها لكم في رسالتي هـذه، قد حصلت عليها مـن خلال قريبي غـويسكارد الذي لايستهدف شيئـاً، سوى أن

يتمكن على حسابنا، من ارتقاء كرسي الاحتراف، وأن يمتلك مكان إقامة مناسب، على الأقل لمدة عامين.

ونحن لم نسمع شيئاً مؤكداً، أو يستحق أن نخبركم به حول التتار، كما أننا لانأمل أن نجد الاخلاص و الصدق عند الخؤون، ولاالإنسانية عند اللاإنساني، ولاالاحسان عند الشحيح، مالم يعمل الرب، الذي ليس لديه شيئاً مستحيلاً، بعض الأشياء الجديدة، فلقد نظف الرب الأرض المقدسة من الخوارزمية الأشرار، واقتلعهم وأزالهم من تحت السماء، ودمرهم دماراً كاملاً، وعندما سنسمع أي شيء مؤكد، أو جدير بالتدوين حول التتار المتقدم ذكرهم أو حول آخرين سوف نخبركم به، برسالة شفوية، أو برسالة مكتوبة، بوساطة روجر دي مونتيفاجي Montefagi, الذي سوف يذهب بالربيع إلى فرنسا، إلى ممتلكات مولانا الفيزكونت، ليحصل لنا المال.

رسالة من مقدم الداوية حول الموضوع نفسه

«من الراهب وليم دي سوناك Sonnac الذي هو بفضل نعمة الرب مقدم جند الداوية الفقراء، إلى أخيه المحبوب في المسيح روبرت سانفورد Sanford, ناظر الطائفة في انكلترا، صحة في الرب:

نحن نرغب في أن نعلن إليكم في الرسالة الحالية هذه، عن أخبار سعيدة ومفرحة، وليكن بناء عليه معلوماً لديكم، أنه في يوم الجمعة بعد التثليث، وصل لويس، الملك اللامع للفرنسيين، بفضل الرب إلى اليابسة مع جيشه عند ميناء دمياط، وفي يوم السبت التالي، تمكن لويس هذا نفسه، مع جنوده من احتلال أرض وسواحل البحر، وقد قتل كثير من المسلمين، وشخص واحد فقط من الصليبيين، وفي الساعة التاسعة من يوم الأحد، استولى جيش الملك على مدينة دمياط، وهزم هزيمة ساحقة

جيش المسلمين، وبناء عليـه تمّ الاستيـلاء على دميـاط، ليس بفضلنا، وليس بالقـوة والسـلاح وذراع اليد، بل مـن خلال القـدرة اللاهوتيـة، والنعمة الربانية.

وليكن أيضـاً معلومـاً من قبلكـم —عـلاوة على ذلك— أن مـولانا الملك، عازم بفضـل الرب على توجيه خطاه نحو الاسكنـدرية، أو نحو الفسطاط، لينقذ إخواننا ويحررهم مع آخرين محبوسين في الأسر، وليعيد البلاد كلها إلى الوصاية المسيحية، بعون الرب».

إلى غي دي بورسي (من قريب للمعلم جون الراهب في بونتني)

«إن مـولانا ملك فرنسـا ليس قلقـاً على شيء، وقد استـولى الآن على دمياط، إلاّ حول أنه ليس لديه قـوات كافية لحماية وسكنى المناطق التي نالها، والتي سوف ينالها، فقد جلب الملك نفسه معه محاريث، ومساحي، وعـربات، وأدوات الزراعة الأخـرى، وعندمـا سمع سلطان مصر بهذا أرسل رسـالة إلى الملك قـال فيهـا: لماذا جلبت إلى هنا أدوات الفـلاحـة هذه، ألفلاحـة الأرض بها؟ إنني سأوفر لك مـايكفي من القمح، طوال مـاأنت مقيم هنا، وقـد قـال هذا سخـرية، وكأنه قصـد أن يقـول: إنك شاب غض وناعم، ولن تستطيع الإقـامة طويلاً في الشرق، من دون أن تموت من الانهاك، وعلى هذا رد مـولانا الملك: لقـد أقسمت وتعهـدت على القدوم إلى هنا، وحـددت من قبل موعـداً لتنفيذ ذلك وعمله، وفق أفضل مالـدي من قدرة، هذا وإنني لم أتعهد ولم أقسـم على المغادرة من هنا ثانيـة، كما أنني لم أحـدد أي مـوعـد لمغـادرتي، ولذلك جلبت معي أدوات الفـلاحة هذه، وقـد حـافظ قـادة السفن على البقاء قـرب سفينة مـولانا الملك، وكـان هناك في أسطولـه مـائـة وعشرين سفينة كبيرة، مما يعرف باسم درومون Dromons, إلى جانب الغلايين والمراكب الأصغر، وقد قفز الملك برشاقة من سفينته، ووقع على وجهه، يصلي إلى الرب باخلاص عظيم، ليوجه طريقه وجميع أعماله.

- ٩ -

رسالة من ملك التتار ترجمت حرفياً عن الكلدانية (السريانية) إلى الرومانية (الفرنسية)

[انظر أحداث عام ١٢٥٠]

«بقوة الرب الأعلى، من أقطاي Achatay, الرسول من ملك بلاد حام، إلى ملك عدة مقاطعات، النبيل المقاتل، سيف العالم، ناصر المسيحية، وحامي اللاهوتية، وابن الشريعة الانجيلية، وملك فرنسا:

زاد الرب عظمته، وحفظ مملكته سنين كثيرة، ونفذ رغباته في الشريعة، ووجهه في العالم الآني، والعالم الآتي، بصدق التوجيه اللاهوتي لجميع الناس، ولجميع الأنبياء والرسل، وليكن ذلك.

مائة ألف سلام ومباركة، وأنا أدعو له بأن يتسلم هذه الأشياء وأن يكونوا موافقين له، وعلى هذا الأساس، لعل الرب يعطي في أن أرى هذا الملك النبيل، الذي وصل، ولعل الخالق العظيم يسمح باجتماعنا بإحسان، وأن يمنح بكرمه في أن يحدث ونتمكن من الاتحاد في شخص واحد.

والآن، بعد هذا السلام، ليكن معلوماً من قبله، أن قصدنا في هذه الرسالة ليس أكثر من منفعة المسيحية، وتقوية يد الملك المسيحي، بتأييد الرب، وأنا أطلب من ربنا، بأن يعطي النصر إلى هؤلاء المسيحيين، وأن يجعلهم المنتصرين على خصومهم، الذين يرفضون الصليب، وبعد ذلك من جهة الملك السامي وباسمه، رفع الرب من شأنه، ليعلم ذلك بوجود كيوك Kyocay [خان]، لعل الرب يزيد من عظمته.

لقد قدمنا مع قوة وأوامر قضت بإعفاء جميع المسيحيين من العبودية، ومن الجزية، ومن الازعاج والمضايقة، ومن الأشياء المشابهة، وأن ينظر

إليهم بتشريف وتبجيل، وأن لايأخذ أحد منهم ممتلكاتهم، وأن يعاد بناء الكنائس المدمرة مرة ثانية، وأن تعاد الألواح، وأن لايتجرأ إنسان على منع هذه الأشياء، وأن يؤدوا صلواتهم بسلام، وبقلب مطمئن في جميع أرجاء مملكتنا.

وعلى هذا لقد قدمنا في هذه اللحظة للعمل الصالح ولحفظ المسيحية، بناء على أوامر من الرب العلي الأعلى، وعلى هذا الأساس أرسلنا هذه الأشياء بوساطة رسولنا المخلص الشريف صفي الدين Saphadin, داود، ومرقص، حتى يعلنا إليكم هذه الأخبار الطيبة، وليخبراكم مشافهة بالأشياء التي بيننا، أرجو أن يكون ملك الأرض مشرفاً، وأن يزداد بالعظمة، وبعد ذلك إنه ورد الأمر في شريعة المسيح، أن لايكون هناك فرق بين اللاتين، وبين الاغريق، و الأرمن والنساطرة، واليعاقبة، وجميع الآخرين، ومثل هذا نحن نطلب من الملك الفاخر أن لايقوم بالتمييز بينهم، بل أن تكون تقواه وشفقته شاملة لجميع المسيحيين، وأن تكون تقواه وشفقته دائمة. صدر في نهاية شهر محرم Thercharram, وأن يكون ذلك صالحاً في ظل توجيه ربنا».

- ١١ -

تقرير حول أوضاع الأرض المقدسة وصل إلى إنكلترا يوم عيد القديس يوحنا لعام١٢٥٢

[انظر أحداث عام ١٢٥٢]

«إلى أخينا المحترم والمحبوب كثيراً بالمسيح، من وولتر أوف سينت مارتين، والراهب يوسف أوف كانسي Cancy, الخازن المتواضع للدير المقدس للاسبتارية في القدس، وعكا، صحة، وأن يواجه نجاحاً مضطرداً في رغباته:

ليكن معلوماً من قبل عـاطفتكم، إنه فيما يتعلق بالتقارير من الأرض المقدسـة، إن الملك اللامع لفرنسـا، المستقر خلال هذا العـام في قيسارية فلسطين، قد تدبر إحاطتهـا بخط من الأسوار والخنادق، وأن العمل قد اكتمل الآن.

وفي وقت كتـابة هذه الرسـالـة، تم للمـرة الثـانيـة ارسـال رسل من سلطان حلـب ومن الذين يتحكمـــون الآن بمصر، إلى مــولانـا الملك المتقـدم ذكــره، مع تخويل للتفـاوض حـول الهدنة، ولتثبيـت، وكـذلك للتصـديق على الاتفاقيـات بين الأطراف، وأخيراً لم يقبل الملك المذكـور قبـول التهـادن مع سلطان حلب، لكن في أسبـوع الفصح الأخير الذي مضى، عقد هدنة لمدة خمسـة عشر عاماً مع المصريين، فـارضاً أداء يمين جسدي على الطرفين، وجاء الاتفاق على الشكل التالي:

لقـد وعـد المصريون بالنسبـة لبقيـة الأسرى الصليبيين —الذين ورد ذكـرهم في صيغـــة أخـرى للهـدنة، عندمـــا كـان الملك أسيراً لديهم— بإعادتهم، ووافقـوا على التخلي لمولانا الملك عن جميع الأراضي فيما وراء نهر الأردن، بصرف النظر عمن كـان شاغـلاً لها من المسلمين، باستثناء: غـزة، وجباليـا Gibelet, وجينين الكبيرة Grand- gerin, والداروم (دير البلح)، وهي الأمـاكن التي بقيت بأيدي المصريين، وفقـاً لبنود المعاهـدة، وعلاوة على ذلك تقرر، أنـه مالم يقم المصريون بمـركزة جيشهم في غـزة، قبل منتصف أيار، بعـد تـاريخ الرسـائل الحاليـة، وأن يكون خلال المدة نفسها، قد قاد الملك جيشه من قيسارية إلى جوار يافا، فإن المعاهدة المذكورة سوف تكون بلافعالية.

هذا وعندمـا كـان سلطان حلب —العــدو المكشــوف للمصريين المذكـورين— مقيماً في دمشق، أثناء عمل هذه العـروض، محتفظاً بجميع المنطقة التي احتلها، حتى مكان يعرف باسم كاسي Casey بين غــزة والداروم، زحف ضــد المصريين المذكـورين مـع اثني عشر ألف

مقـاتل، وهو متـوقع أن يكون هناك ثلاثة آلاف آخـرين، سـوف يأتون باليـوم التـالي للالتحـاق بـه، مع أن جميع قـوات المصريين المذكـورين لم تتجـاوز بالعـدد ستة آلاف أو سبعـة آلاف رجل مسلح، قسم منهم قـد نجحـوا بسحبهم إلى أجـزاء من مصر، للـدفـاع عن تلك الأرض ضـد البـدو، والقبائل الأخـرى المحلية، كما أن جيش الملك المذكـور ليس من القـوة بمكان يمكنه أن يمتلـك الفـرصـة لمسـاعــدة المصريين في حـالة الطوارىء، فـالذي متـوفر لـديه مابين دينيين وعلمانيين سبعمائـة فـارس فقط، وأربعمائة من فرسان الحرب التوركبلية، وقد حسبنا بين العدد هنا المائـة فـارس الذين يأمل الملك أن يضيفهم إلى رجـاله، وبناء عليـه، كنا نحن مع آخـــرين كثـر، شـــاكين في أن المصريين المذكـورين ســـوف لن يمتلكوا الامكانيــات للقــدوم، وبذلـك فإن الهدنة المذكــورة ليس لها فاعلية.

وعــلاوة على ذلك، نحـن نرغب أن لاتكونوا جـــاهلين، بأن جميع المنطقة على هذا الجانب من البحـر مسكونة من قبل الصليبيين، باستثناء أرمينيـا، التـي هي في وضع صعب، بسبب الهدنة التي كـــان ملك تلك المملكة قد عقدها مع سلطان قونية، وهي الآن في حالة أسوأ، لم تشاهد مثلها من قبل.

وبالنسبـة لبـــلاد أنطاكيـة، قـد أصبحت الآن بسبـب عـدوان بعض المدنسين، الذين اسمهـم التركمان، والذين يقـــومــون منذ مـــدة طويلة باجتياحهـا، كلها مهـدمة مهجورة، ولذلك هنالـك خوف عظيم من أن مدينة أنطاكيـة نفسها، سوف يلحقها الدمار سريعـاً، من خلال الخوف، ونتيجـة لهروب سكانها، فلقـد زحـف حـوالي العشرة آلاف من الشعب الشرير المتقـدم ذكـــره إلى مكان اسمـه قيصرية الكبرى، وهنـاك نصبـوا خيـامهم للاقامـة، ومايزال هنـاك المزيد قد تشجعـوا، وبذلك اجتاحـوا بلادنا وبلاد الآخـــرين بعيـداً حتى طرابلس، وقـد أحـــرقـوا كثيراً من

البيوت الريفية، وأخذوا معهم أربعة آلاف من مواشينا الكبيرة، وبعدما أحدثوا مذبحة كبيرة بين أعدائهم، حملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى، ذلك أنهم مضوا راجعين إلى قيصرية المتقدم ذكرها، وهنا سوف يبقون إلى أن يكملوا تدمير المنطقة كلها، مالم يعيننا الرب، ومن المعتقد أيضاً أنهم سوف يزحفون ضدنا لمساعدة سلطان حلب، لأنه بناء على تحريضه، وقعت كل الأفاعيل التي تقدم ذكرها وعملت.

صدر في الثاني من أيار، وقد نشرت هذه التقارير في يوم صعود مريم العذراء المباركة».

- ٢٣ -

رسالة من الأسقف الهنغاري إلى أسقف باريس حول التتار

[حوادث عام ١٢٥٧]

«إنني أكتب مجدداً إليكم حول التتار، وكيف أنهم وصلوا إلى قرب حدود هنغاريا، خلال زحف استغرق خمسة أيام، وذلك إلى قرب بعض المياه اسمها دينفير Deinphir [Theiss?]، التي لم يكونوا يستطيعون عبورها في الصيف، وبما أنهم كانوا راضين بالانتظار حتى الشتاء، أرسلوا أمامهم، بعض الجواسيس إلى روسيا، وجرى اعتقال اثنين منهم، وأرسلا إلى مولانا ملك هنغاريا، وهذين لدي في سجني، وقد تعلمت منهما بعض الأشياء الجديدة، ها أناذا مرسلها إليكم، وقد سألتهما عن موقع بلادهما، فأخبراني أنها موجودة خلف الجبال، وهي واقعة قرب نهر يدعونه ايغوغ Egog، وأنا أعتقد أنهم شعب يأجوج ومأجوج، وسألتهما عن عقيدتهما، وبكلمات بسيطة هم لايؤمنون بشيء، ثم شرعا يخبراني بأنهم خرجوا من بلادهم للاستيلاء على العالم، وهم يستخدمون الأحرف اليهودية، لأنهم لم يمتلكوا شيئاً من هذا خاصاً بهم من قبل، وسألتهما من الذي علمهم تلك الأحرف، فقالا: تولى ذلك

بعض الرجال الشاحبين، الذين يصومون كثيراً، ويرتدون ملابس طويلة، ولايؤذون أحداً، وبما أنهما أخبراني بوقائع كثيرة حول هؤلاء الرجال، وجدته يتوافق مع أوهام الفريسيين والصدوقيين، فاعتقدت أنهم صدوقيين وفريسيين، وسألتهما عما إذا كانوا يعملون أي تمييز بين اللحوم، فقالا: لا، لأنهم يأكلون الضفادع، والكلاب، والأفاعي، وكل شيء مشابه، وسألتهما كيف خرجوا إلى خارج الجبال التي سكنوا خلفها، فقالا بأنها رحلة عشرين يوماً لعبور هذه الجبال، في كل من الطول والعرض، ولديهم دوماً اثني عشر ألف رجل على ظهور الخيول لحراسة جيشهم، وأن خيولهم جيدة، لكنها حمقاء، وأن كثيراً من الخيول تتبعهم دون أن تقاد، وعلى هذا إذا ماركب رجل على ظهر حصان، يتبعه بالعادة عشرين أو ثلاثين حصاناً، ولديهم دروع من الجلد أقوى من دروع الحديد، ووفق الطريقة نفسها لديهم أغطية لستر خيولهم، وهم لايستطيعون القتال على الأقدام، لأنهم يمتلكون أرجلاً قصيرة وأجساداً طويلة، وهم نبالة أفضل من الهنغار ومن الكومان، ولديهم أطراف أقوى، والطريقة التي يغزون بها البلاد، هي أنهم يقتلون السكان، باستثناء الأطفال، الذين يتولى مولاهم جنكيزخان —ومعنى اسمه هذا ملك الملوك— دمغهم بختمه، بكيهم على الوجه، ولدى جنكيزخان اثنين وأربعين مستشاراً، إليهم عهد بختمه، ومامن واحد من الجيش كله يتجرأ على الصراخ بصوت مرتفع، ومامن واحد من الجيش كله يتجرأ على التساؤل: «إلى أين ذاهب مولانا»؟ أو «ماالذي ينوي أن يفعل»، وهم يشربون ألبان خيولهم، وهي في الغالب مسكرة، ونحن غير قادرين على سماع أي شيء جديد حولهم، يمكن الاعتماد عليه بشكل مؤكد، لأنهم يسيرون أمامهم بعض الناس الذين يدعون باسم مورداني Mordani, وهم يقتلون الجميع من دون تمييز، ومامن أحد منهم يتجرأ على لبس نعليه حتى يكون قد قتل صاحبها، وأعتقد أنهم هم الذين قتلوا الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، والرسل الآخرين، الذين كان ملك هنغاريا قد أرسلهم

للاستطلاع، وبلاشك هم قد أفسدوا ودمروا جيمع الأراضي التي وصلوا إليها، وذلك حتى النهر الذي تقدم ذكره».

رسالة أخرى

«إلى اللامع والممجد جون، الذي هو بنعمة الرب دوق برابانت وبولون، والذي هو رجل موهوب بصلاح مدهش، ومتوج بحكمة الخلاص، وإلى ن. N, الذي هو بفضل الرب لاندغريف أوف ثورنجيا وسكسوني، وكونت بالاتاين Palatine, صحة وسلامة من المخاطر لكما وللعقيدة المسيحية:

اسمعوا يوجد هنا جزر، جميع سكانها نصارى، ممن يؤمنون بصليب ربنا، يولولون في الرماد، وفي الثياب البالية، وهم في حالة صيام ودموع، وعويل، فلتسل دموعكم أنهاراً، لأن يوم الرب قد وصل، إنه الآن قد حل، وهو ذلك اليوم العظيم والحاد المرير، ولقد وقع تنكيل لم يسمع بمثله بصليب المسيح، وجاء من الشمال ومن البحر، وإنه بعقل مضطرب وبقلب مفجوع، وبمظهر دامع، وبأنين بالروح، والتنهد بين آونة وأخرى، إنني سعيت لإخباركم بالحكاية بقدر مااستطعت، عن كيف قامت شعوب لايمكن تعدادها، هي ممقوتة بالنسبة للناس الآخرين، وهي شريرة بلاحدود، باجتياح الأرض والدوس عليها بلامبالاة وازدراء، جاءوا من الشرق، ووصلوا حتى حدود مملكتنا، وذلك بعدما دمروا الأرض كلها، فلقد دمروا مدناً وقلاعاً، لابل دمروا حتى المدن الحواضر، ولم يوفروا لامسيحيين، ولامسلمين ولايهود، فقد قتلوا الجميع سواء من دون رحمة، باستثناء الأطفال فقط، الذين يختم جنكيزخان على جباههم بختمه، وهم لايأكلون الناس، بل يفترسونهم، ويأكلون الضفادع، والأفاعي، ويتكلمون بإيجاز، ولايميزون في أطعمتهم، ومثلما تهرب جميع الحيوانات من وجه الأسد، مثل هذا يفعل الناس المسيحيون، ويديرون ظهورهم للهروب من وجه هؤلاء الناس،

لأن الكومان، وهم شعب شجاع، لم يستطيعوا الصمود ضدهم في بلادهم، بل إن عشرين ألفاً من الكومان قد هربوا إلى عند المسيحيين، وعملوا حلفاً معهم، وهم على استعداد للقتال ضد كل شعب، إلاّ ضد الشعب المتقدم ذكره، ومالعجب من هذا؟ وهم أشخاص مرعبون، لهم منظر مخيف، الغضب ظاهر من أعينهم، وأيديهم قوية متينة، وأسنانهم دموية، وأفواههم جاهزة دائماً لأكل لحوم الناس، ولشرب الدماء البشرية، وأعدادهم كبيرة جداً إلى حد أن جيشهم يزحف بطول عشرين يوماً، وبعرض خمسة عشر يوماً، ولكي نجمل كل شي بكلمات قليلة، فإن التتار المتقدم ذكرهم قد دمروا تماماً روسيا كلها، وبولاندا حتى حدود مملكة بوهيميا، والشطر المتوسط من هنغاريا، ودخلوا فجأة إلى المدن، وشنقوا رؤساءهم في وسطهم، ولذلك نحن نعتقد أنهم سيف غضب الرب، بسبب ذنوب الشعب المسيحي، كما شهد على ذلك القديس ميثودياس Methodias, الذي دعا هؤلاء التتار باسم «الاسماعيلية والحمر الوحشية» إلخ.

لكننا نثق بفضل ورحمة القاضي الأعلى، ونتوجه بالرجاء بتواضع إلى الرجال المقدسين من الدومينيكان والفرنسيسكان للدعوة إلى حملة صليبية، وإلى الصلاة، وكبح الغرائز، والصوم، من قبل جميع شعوب المسيحية، ذلك أننا نقترح الإقامة في المملكة السماوية، وأن نرفع السلاح، ونمسك الترسة، لأنه من الأفضل لنا أن نموت في الحرب، على أن نشهد الشرور محيقة بشعبنا، وبقديسينا، وإذا ماتحطمت ترستنا تحت وطأة الحملة الأولى وضربات السيوف، وعندما تصبح بيوتنا عرضة للنيران وأراضينا قد نهبت واجتيحت، لابد للبيوت المجاورة، والمقاطعات المجاورة، أن تأخذ حذرها. وداعاً.

لقد سمعت من الراهب روبرت دي ثيل Theles بأن هؤلاء التتار قد دمروا بالفعل سبعة أديرة للرهبان».

رسالة ثالثة

«إلى جميع الأبناء الأعـزاء والمخلصين في المسيـح الذين من الممكن أن تصل إليهم هذه الرسالة، من الراهب جوردان، من طائفة الفرنسيسكان، نائب منطقـة بولاندا، ودير برنغ Pring(1-), مع بقيـة الرهبـان صحة:

إنه من خـلال ذنوب النـاس، ازداد تلقي التعـاسـات في هذا العـام، والمآسي، التي عـرفت من قبل، وجـرى الاخبـار عنها، والتنبـؤ بها، قـد نزلت بنا، وكأنها قـادمة تطير بأجنحـة من عند الرب، فلقد جـرى طرد الرهبان الدومينيكان، ورهبـاننا، وجميع الآخرين من المؤمنين، من شعب التتار، الذي من بلاد التتر Tartarus, بعنف جـرى وصفه في بينات الكتابات المقدسة، لأن دولاً كثيرة غير معروفة قد جرى تدميرها، وروسيـا التي هي ليسـت دولة غير معـروفـة، قـد هلكـت مع دوقـاتها السبعة، وقامـوا أكثر من هذا، وياللعار، بغـزو أراضي الكنيسة، وبسرعة عبروا أعظم الأنهار وأكبرها، وأكثف الغابات، وقـدموا بصورة مـدهشة جداً، فاحتلوا الشطر الأكبر والأقـوى من هنغاريا، وهذا الأمر، وإن كنا —بسبب المسـافـة— لانستطيع أن نقـدم إليكـم عنه معلومـات كـاملة وصحيحة، مع ذلك سـوف نقدم إليكم رواية صادقـة عن الأشياء التي وقعت في مقاطعتنا.

إن بولاندا كلهـا تقـريبـاً، قـد دمـرت من قبل أفـراد هذه الشعـوب المتوحشة، الذين لايقيمون وزناً، لالعمر، أو جنس، بل يذبحون الجميع بحد السيف، ويدنسون الأماكن التي تقدست من قبل الرب، وهم الآن على حدود ألمانيـا وبوهيميا، جـاهزين لاقتراف جميع الأفاعيل الـوحشية نفسهـا، مـالم يمنعهم الرب عنا وعن بقيـة العـالم المسيحي، ولأن العـالم

١- غير مـؤكـد المقصـود هنا أهو براغ، أم بنسك Pinsk في ليتـوانيـــا؟.

المسيحي مثقل بالحروب الكثيفة والانشقاقات، يبدو أنه يقدم قليلا من الانتباه، أدنى مما ينبغي، ومما هو ضروري للصالح العام والسلام ومنفعته العامة، ونحن مضغوط علينا من قبل هذه المخاطر، إننا نسأل فقط تضرع صلواتكم، وحث جميع المؤمنين لفعل ذلك، باخلاص صحيح، وليكن معلوماً من قبلكم أن خمسة ديرة تابعة للرهبان الدومينيكان مع ديرين عائدين لرهباننا، قد جرى تدميرهم كلياً، ويغطي أعداؤنا بمعربديهم مساحة واسعة من الأرض في الشمال، هي أكبر من توسكانيا ولومبارديا، وفقط ثلاثة مواقع نجت، فموقع واحد أو بالحري اثنان قد نجوا، ومن الموقع الثالث، الذي قبل كان في بوهيميا، خرج الملك لمواجهتهم مع جيش كبير جداً، لكن النصر مع الرب.

صدر في بنسك في العام ١٢٤٢ لمولانا، وفي اليوم الرابع قبل حلول شهر نيسان».

رسالة رابعة

«إلى جميع أعضاء الجماعة الدينية والمخلصة للكنيسة المسكونية المقدسة، الذين سوف يشهدون أو يسمعون الرسالة الحالية، من ف. F, الذي هو بفضل نعمة الرب رئيس رهبان دير القديسة مريم، ومن جميع الرهبان في المكان نفسه، الذين هم من طائفة القديس بندكت، القاطنين في هنغاريا، مواساة الفارقليط، والصحة المستحقة بفضل القديس بندكت، والمجد إلى الأبد:

نحن نوصيكم بالإحسان إلى حملة هذه الرسائل، وهم من الرهبان البندكتيين، وجون، وكهنة ورهبان من ديرنا، أرسلنا بهم من دير القديسة مريم في روسيا للإقامة في ايرلاندا، لأننا أرغمنا على فعل ذلك، بالوصول غير المتوقع للتتار، الذين إليهم نقول مع الشعور بالعار قد

منح اسم اسماعيلين، ويالللأسف، إن كنيستنا الأم تئن وتنتحب من أجل أولادها، عبيد الرب، الذين تفرقوا في مختلف دول العالم، بسبب التتار، الذين وصلوا بأعداد كبيرة، ولقد غزونا عبر الحدود الشرقية، وقتلوا الشطر الأكبر من السكان في تلك الأماكن، ونهبوا أيضاً نهباً شاملاً ممتلكات كنيستنا، والموارد التي كان رهباننا يعيشون منها، ولقد قيل بأنه انقضى حتى الآن اثنان وأربعين عاماً منذ أن غادروا الجبال المحيطة ببلادهم، وقد جاءوا متقدمين —كما نعتقد— من هذه البلدان الملعونة، ونهبوا ودمروا مثل حيوانات متوحشة بلدان آسيا، وبوحشية قتلوا أربعة ملوك من ملوك تلك البلدان مع أمرائهم، وقتلوا في يوم واحد، أو بالحري بلحظة واحدة الملك الفارسي مع المتعلقين به، وخمسة وعشرين من دوقات روسيا الأقوياء، وهنري دوق بولاندا، صاحب الذكرى الطيبة، مع أربعين ألف رجل، كما أنهم أرغموا بيلا Bela الملك القوي لهنغاريا، وثلاثة رؤساء أساقفة، وأربعة نواب أساقفة، وخمسة وستين ألف رجل على الفرار، وفي الحرب نفسها، أيضاً جرحوا بجراحة مميتة كولومان Colomans أخي الملك المتقدم ذكره، ولذلك مات بعد وقت قصير، ثم إنهم انطلقوا نحو مناطق دوق النمسا النبيل، وستيريا Styria, وتخوم تريفسيا Trevisa, ومورافيا وبوهيميا، وعبروا في يوم عيد الميلاد بقوة كبيرة، فوق نهر الدانوب، الذي كان متجمداً، وجاء عبورهم إلى الجانب الآخر من النهر، حيث نهبوا ودمروا أراضي الأمراء الذين تقدم ذكرهم، ومحقوا بشكل وحشي كل شيء كان هناك، دون أن يوفروا جنساً، واقترفوا بصورة بشعة كل أنواع الجرائم، فقد ناموا مع نسائهم في الكنائس، ومن المحزن القول أنهم عملوا مرابط لخيولهم في الأماكن المقدسة الأخرى، وتعاظمت وقاحتهم من خلال غضب الرب، وبلغت من الشدة أن رجال الدين، أي رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورؤساء الرهبانيات، والأمراء، وحشود هائلة لم نعرف أسماءها، قد هربت من أمام قادة

هؤلاء المتوحشين غير المدجنين، وهم لايتوقعون شيئاً على أيديهم، غير الموت، وجرى قتل الرهبان، والراهبات، والواعظين، وقد ماتوا شهداء في سبيل اسم المسيح، ونحن نعتقد بأنهم قبلوا للعيش في سعادة سرمدية، وبناء عليه نحن نتوسل إلى محبتكم متواضعين من أجل أن تفتحوا صدر الرحمة إلى الذين يفرون الآن إليكم للالتجاء.

صدر في فينا في عام النعمة ١٢٤٢، في اليوم السابع من كانون الثاني.

★★★ ★★★ ★★★

وانتشرت في هذه الأيام بسبب هذه الأخبار من هذا النوع، الأبيات التالية، المعلنة عن قدوم المسيح الدجال:

«عندما يكون ضعفي ستمائة عام وخمسين زيادة

قد مضوا منذ ولادة ابن المباركة مريم

وقتها سوف يأتي المسيح الدجال مليئاً بالشرور».

رسالة خامسة

«إلى جميع اخوانها، من الراهب رتشارد من طائفة الدومينيكان، وجون من طائفة الرهبان الفرنسيسكان، صحة:

لقد سمعتم أخباراً متفرقة، من أشخاص متنوعين حول التتار الملعونين، لكن ليكن معلوماً لديكم، بأن الأشياء التي نكتبها الآن إليكم، هي الأكثر صحة، ولايمكن أن تكون زائفة:

إنهم أقوياء، ورجال حرب، وعددهم كبير، ومسلحين بما فيه الكفاية وبشكل جيد، وهم قد دمروا بلداناً كثيرة، ومن هذه البلدان، ليكن معلوماً لديكم، بأن الشطر الأكبر من روسيا قد جرى نهبه واجتياحه، وتعرضت مدينة كييف والقلعة التي كانت هناك إلى الدمار، وجرى قتل

عدد كبير، ولقد علمنا من الذين نجوا من تلك البلاد، وبشكل رئيسي في سكسونيا، بأنهم هاجموا تلك المدينة وأبراجها بإثنين وثلاثين منجنيقاً، ولقد خاضوا الحرب لمدة عشرين عاماً ضد الروس، غير أنهم قدموا في هذا العام قبل عيد الفصح إلى بولاندا، حيث ذبحوا أعداداً من الناس، وتملكوا بعض المدن الجيدة، وقد واجههم هنري دوق بولاندا مع جيشه، لكنه قتل، مع حوالي عشرة آلاف رجل من أتباعه، زحفوا من بولاندا، فوصلوا إلى حدود ألمانيا، حيث من هناك انعطفوا جانبياً إلى مورافيا، ودمروا ونهبوا جميع تلك البلاد الجيدة، وواجه بعض هؤلاء جيشاً كان قادماً ضدهم من خلال هنغاريا، فأوقعوا به ونالوا منه، وقاموا بعد ذلك باحتلال الشطر الأكبر من هنغاريا، حيث طردوا منها ملكها، إلخ».

الملاحق

الملحق الأول

أشعار حب وتمجيد للصليب والقدس والفرسان

من أشعـار وأغـاني الحروب الصليبية ذات التـواريخ المتنوعـة، والتي من الممكن أن ندعوها خـواطر ذاتية، حيث تقدم لنا حقيقـة تاريخية عن الحروب الصليبية، وعن واجب الفـرسان في تلك الآونة لإنقـاذ القدس بيت الرب:

أيها الفرسان أحاطكم الرب بحمايته.

عندما اشتكي إليكم من الأتراك والمرابطين.

الذين تصرفوا باستهانة واستخفاف إزاء مساسهم بمقدسات الرب،

كم هو كبيرٌ ألمنا لمساسهم بأول أماكن الرب وأقدسها.

★★★ ★★★ ★★★

من يذهب الآن ليلحق بالملك لويس

عليه أن لايخاف الجحيم، لأن روحه

ستسكن الجنة مع ملائكة الرب.

★★★ ★★★ ★★★

القدسُ أخذت كما تعلمون

والمسيحيون في حزن شديد

الكنائس سلبت ونهبت

والمقدسات انتهكت

أيها الفـرسان تحركـوا وتشجعوا، وضحـوا بأنفسكم من أجل الرب، الذي صُلب من أجلكم.

★★★ ★★★ ★★★

اقتدوا بالملك لويس

الذي يملك الجاه والمال والسلطة، ومع كل هذا ترك قصوره وأملاكه ومدنه وأطيانه ليذهب إلى القدس، حيث صلب

المسيح الرب من أجلنا، ليخلصها.

★★★ ★★★ ★★★

من يذهب الآن ليلحق بالملك لويس

عليه أن لايخاف الجحيم، لأن روحه

ستسكن الجنة مع ملائكة الرب.

★★★ ★★★ ★★★

سُلّم الربُ لليهود

ليحررنا من أسر الجحيم

أولئك الذين جرحوه خمسة جروح

ليتعذب ويتألم من أجلنا حتى الموت

يناديكم المسيح الآن ويتوجه إليكم للقضاء على الكنعانيين، وعلى الجماعات المتعطشة للدماء

ليأخذوا جزاء مااقترفته أيديهم.

★★★ ★★★ ★★★

من يذهب الآن ليلحق بالملك لويس

عليه أن لايخاف الجحيم، لأن روحه

ستسكن الجنة مع ملائكة الرب.

★★★ ★★★ ★★★

حدد المسيح الموعد واليوم في القدس

للآثمين، مع هؤلاء الذين يعرفون تماماً كيف سيقاتلون،

هؤلاء الذين أحبوا المسيح، وذهبوا من أجله

★★★ ★★★ ★★★

من يذهب الآن ليلحق بالملك لويس

عليه أن لايخاف الجحيم، لأن روحه

ستسكن الجنة مع ملائكة الرب.

★★★ ★★★ ★★★

هيا اذهبوا واغزوا مهد موسى وقبره

في سيناء، انتزعوه من أيدي المسلمين

وهكذا فلق موسى البحر الأحمر بضربة واحدة إلى قسمين

عندما كان شعبه يتبعه، وفرعون يلحق به،. فقضى البحر على فرعون وأتباعه.

★★★ ★★★ ★★★

آه وحدكم أيها العشاق تفهمون قصدي

سأجعلكم شاهداً لألمي ومعاناتي

بانتزاعي من بين ذراعي حبيبتي

عندما تضيع حبيبتي مني، ماذا يبقى لي إذاً

★★★ ★★★ ★★★

الحب، نعم، أستطيع أن أقول هذا

لو استطاع المرء أن يموت حقاً من الألم.

فلن أنظم بعد اليوم لاأشعاراً ولاأغنيات

★★★ ★★★ ★★★

عذب أنت أيها الرب المولى، ماذا جرى لي؟

هل يجب علي فعلاً أن أقول لها وداعاً؟

آه، نعم، لم يبق لي سوى أن أذهب بدونها إلى أرض بعيدة

فإذا رحلتُ فسيكون عذابي الذي ينتظرني أخفُ قليلاً من عذابي هنا من غير عزاء.

★★★ ★★★ ★★★

أيها الرب المولى، كيف ستكون حياتنا بعد فراقنا

كيف ستكون أفراحنا وأحاديثنا،

والعبارات التي كانت ترددها لي حبيبتي

تلك التي كانت لي سيدة ورفيقة وحبيبة

عندما تذكرني بحضورها العذب، وطيبتها وحنانها نحوي

كيف لقلبي أن يتحمل فراقها (القدس)

بالتأكيد، أنه لأمرٌ سيء صعب

ماأراد الرب أن يمنحني كل هذه المسرات دون مقابل،

كم كنت أخشى الموت تحت وطأة ديوني نحو الرب

الشفقة! الحب! هذا إذا أراد الرب أن يتفضل وأن يهبني إياها.

★★★ ★★★ ★★★

وهكذا سينكسر في قلبي حباً حقيقياً

لاأستطيع انتزاعه من نفسي أو التخلي عنه

حينذاك قد يجب علي أن أهجر سيدتي (القدس)

★★★ ★★★ ★★★

هؤلاء الوشاة الوضيعون سيسعدون ويبتهجون بتعذيبي، وبالألم الذي سيصيبني

لن أشفق عليهم أبداً ولن أتسامح معهم ولن يكون قلبي رحيماً معهم

لأنهم قد أضاعوا ثمرة حياتي وجهادي

هؤلاء الخونة قد سببوا لي الكثير من الألم.

فلن يكون الرب قد فرض علي إلاّ عبأً ليس بأثقل علي منه.

★★★ ★★★ ★★★

آه، ياسيدتي، سأذهب إليهم لأقاتلهم

أوصيك بالله خالقنا، حيثما أذهب

ولاأعرف إن كنت ستشهدين رجوعي يوماً ما

أو أنه من الممكن لي يوماً أن أراك ثانية،

ولكنني أرجو منك حيثما أذهب، أو حيث أبقى، أو أعود، أن تكوني مخلصة لعهدنا.

★★★ ★★★ ★★★

هل للرب أن يمنحني رأفته

تلك هي صلاة قلب أحبك بإخلاص

★★★ ★★★ ★★★

إنه ربيع أيار، أزهار البنفسج والبلابل تدفعني لأغني

وقلبي يجعل حبي لها (القدس) عذباً رقيقاً لاأجرؤ على مقاومته

آه! إن الرب منحني السعادة الفائقة

بأن يجعلني أضمها عارية بين ذراعي

تلك التي وهبتها قلبي وعقلي

ثم سأذهب إلى ماوراء البحار لأحارب مشاركاً بالحملة الصليبية

★★★ ★★★ ★★★

ظهرت لي منذ البداية غاية في العذوبة والرقة

حتى أنني لم أكن أفكر بعذابي ومعاناتي من أجلها

فلقد كان وجهها الرقيق وشفتاها غاية في الجمال

وكانت عيناها الزرقاوتان (المائلتان للاخضرار) الجميلتان والمليئتان بالضحك

والصفاء قد جعلتني أسيرها قبل حتى أن أجرؤ على الارتباط والتعلق بها.

فإذا مـــاأرادت أن تأسرني أو تحررني، وإذا مـــاأخفقـت أنا، أو إذا ماأعطتني وعوداً

سأفضلها على أية واحدة غيرها.

★★★ ★★★ ★★★

آه! لماذا تتأملها عيناي

هذه المرأة الرقيقة التي تستحق لقب الحبيبة

★★★ ★★★ ★★★

هي التي تضحك مني عندما أحبها بهذا القدر

لايوجد أي إنسان خانته تلك العذوبة، بهذا القدر

عندما أتعلق بها، فلاتمنحني إلاّ السعادة

★★★ ★★★ ★★★

الآن إنها لي وهي تقتلني دون مسوغ

لقد أحببتها حباً صادقاً من دون شك

ولاأرى في هذا باعثاً آخر

تنهدت آلاف التنهدات وتأوهت

ولم ترق لحالي ولو مرة واحدة

منعتني أن لاأحبها إلاّ بإخلاص

وتركتني بلا نوم أو راحة

فستكون هي انتصاري وثأري

فلن نلوم إلاّ الموت من أجل الحب

★★★ ★★★ ★★★

أفراح الحب ستتوج الآخرين

أراد الرب أن يضيء شعلتي أنا فقط

لا، ذلك هو مصيري، هذا مافعله أعداء الحب

مع ذلك هم يعرفون بأن هذا لن يفيدهم شيئاً

هؤلاء الذين يستولون على شيء لايمكن أن يُعطى

★★★ ★★★ ★★★

الذين ينشرون الحقد والكراهية

وتستمر الحروب دون أن يربحوا شيئاً (الأعداء)

وقد لاأستطيع التنهد بعد الآن من كثرة نطقي باللعنات لهؤلاء

★★★ ★★★ ★★★

سآخذ نصيبي في سبيل حبك ونصيبي هو الموت

ولكن في اللحظة التي قد أموت فيها

سينكشف كل شيء وسيظهر واضحاً

أن الرب لن يعفو عنهم مطلقاً (الأعداء)

★★★ ★★★ ★★★

آه! أيها الرب كم هو صعبٌ علي أن أترك

السيدة الأفضل التي كانت دائماً معينة وحبيبة

ولطالما كان ألمي كبير لفراقها،

فإن الرب الطيب سيمنحني رؤياها ثانية

★★★ ★★★ ★★★

مسكين أنا! ماذا أقول؟

لن أتركها أبداً

فإذا ذهب جسدي لخدمة الرب

فإن قلبي سيبقى صامداً بكامل قوته

من أجلها سأذهب متنهداً إلى سورية

لأنه لايجوز لأحد أن يتخلف

عن أداء واجبه نحو الخالق

ومن يتخلف عن هذا سيكون مصيره الخطر الشديد

فالذين يتخلفون عن هذا يعرفون جيداً أنهم أذلاء

★★★ ★★★ ★★★

فهذا هو برهان الشجاعة والبطولة

وهاهو عندما نغزو الفردوس، ونحقق الشرف والمجد والشهرة وحب حبيبته (القدس حبيبة الرب)

حوصر المسيح في أرضه المقدسة (القدس) لكننا سنرى كيف سينقذه هؤلاء

من سجنه المعتم وسيرفعون الصليب عالياً

وسيعرف الذين تقاعسوا عن إنقاذ القدس بأن العار سيغطي

وجوههم كلها

إلاّ الشيوخ، أو القاصرين، أو المعلولين الذين لايستطيعون الذهاب ليحاربوا

أما الأقوياء والشباب والأغنياء فليس لهم عذراً بالبقاء هنا دون الدفاع عن القدس

★★★ ★★★ ★★★

أما رجال الدين والفكر والكهنة الذين لايتوقفون عن فعل الخير والعمل النبيل

فسيشاركون بهذا الحج المقدس لتحرير القدس بنبلهم وأعمالهم الطيبة.

وأيضاً النساء الطاهرات اللواتي بقين مخلصات للغائبين (أزواجهم)،

ماعدا اللواتي انغمسن في الفسق والخبث والفساد.

كل الناس الطيبين سيشاركون بهذه الحملة لتحرير القدس

أما الإنسان الذي لا يرضى أن يعيش بالحزن والأسى،

الذي قد يذهب سعيداً فرحاً لملاقاة الموت من أجل الرب،

فسيكون الموت بالنسبة إليه عذبٌ

فبالموت وحده نستطيع أن نسترد أغلى الممالك

لا بقاء لإنسان لم يمت في سبيلها، حيث الجميع سيتحولون إلى حياة ملؤها المجد.



أيها الرب استبسلنا في سبيلك لمدة طويلة دون جدوى.

لكن في هذا الموقف وفي هذه الحرب

سنرى من سيعرف كيف يبرهن عن شجاعته.

★★★ ★★★ ★★★

سنحاول إصلاح خطئنا وفعلنا المشين

الذي جعلنا نمتلىء خجلاً ونتطير غضباً

وذلك لأن الأماكن المقدسة ضاعت في عهدنا

حيث تعذب الرب من أجلنا وعانى من مرارة الموت

فإذا تسامحنا الآن مع أعدائنا الطاغين

ستمتلىء حياتنا خذيٌ وعار

★★★ ★★★ ★★★

القدس تتكلم:

سأغني من أجل أن تهدأ روحي

لأنني بحاجة للراحة في هذه المحنة

لأتفادى الموت أو الجنون

الآن أرى جيداً بأن أحداً لن يعود من هذه المنطقة المقفرة

لكن حيث يبقى حبيبي (المسيح)

يرتاح صدري، ويخف عذابي عندما أسمع كلاماً عنه

ربي! عندما يهتف الحجاج المحاربون: «إلى الأمام»

انقذوا ذاك الذي يرتعش قلبي من أجله:

إنهم لقساة هؤلاء المسلمون!

★★★ ★★★ ★★★

سأتحمل مصيبتي وتعاستي

حتى يمضي العام

إنه الحج الذي سيحرر القدس ويعيدها إلينا

★★★ ★★★ ★★★

وعلى الرغم من أن الأمر سيكون ضد رغباتي، لكنني لاأستطيع

أن أقبل بزوج غيره(المسيح)

وسيكون مجنوناً من يجرؤ على مناقشتي بالأمر

★★★ ★★★ ★★★ -

ربي! عندما يهتف الحجاج المحاربون:« إلى الأمام»

انقذوا ذلك الذي يرتعش قلبي من أجله:

إنهم لقساة هؤلاء المسلمون!

★★★ ★★★ ★★★

لماذا أنا حزينة إلى هذا الحد

فمن كان سبب عذابي، أصبح بعيداً عني

فكم أنا جميلة، وكم هو جميلٌ

أن يكون هناك الكثير من الضحك والسرور

ولكن لماذا افترقنا عن بعضنا أيها الرب؟

★★★ ★★★ ★★★

ربي! عندما يهتف الحجاج المحاربون:« إلى الأمام»

انقذوا ذلك الذي يرتعش قلبي من أجله:

إنهم لقساة، هؤلاء المسلمون!

ولكني بقيت مخلصة له

فعندما تهب على المنطقة نسماتٌ عذبة قادمة من بلادٍ عذبةٍ

ذهب إليهاِ حبيبي— المسيح الرب.

أحس وكأن الرب يلامسني

من خلال معطفي الرمادي هذا.

★★★ ★★★ ★★★

ربي! عندما يهتف الحجاج المحاربون:« إلى الأمام»

انقذوا ذاك الذي يرتعش قلبي من أجله:

إنهم لقساة، هؤلاء المسلمون!

★★★ ★★★ ★★★

وكم أنا آسفة بأنني لم أرافقه عندما رحل(الرب)

فقميصه الذي كان يرتديه، قد أرسله لي لأضمه إلى جسدي ليلاً،

وعندما تتأجج نار الحب فيّ وتحرقني، أضعه إلى جانبي أثناء نومي

وأجعله قريباً من جسدي العاري، حتى أخفف من ألمي

★★★ ★★★ ★★★

ربي! عندما يهتف الحجاج المحاربون:« إلى الأمام»

انقذوا ذاك الذي يرتعش قلبي من أجله:

إنهم لقساة، هؤلاء المسلمون!

★★★ ★★★ ★★★

أيها السادة اعلموا، أن الذي لم ينو الذهاب إلى هذه الأرض المقدسة حيث ابن الرب عرف الحياة والموت.

والذي لم يأخذ الصليب معه ليذهب إلى ماوراء البحار ليحارب،

سيصعب عليه دخول الفردوس

أما الذي يذكر الرب ويرأف لعذابه من أجلنا

يجب عليه أن يترك أرضه ومملكته ليثأر لموت مولانا، ويخلص أرضه ومملكته،

وجميع السيئين الذين لا يحبون الرب ولا الشرف ولا المجد

كل واحد منهم سيقول: ماذا سيجري لزوجتي إن ذهبت؟

ومهما كان الثمن لن أهجر أحبائي.

هؤلاء قد مسهم الجنون لأنهم تقاعسوا عن واجبهم

ففي الحقيقة ليس لي حبيب غيره—الرب الذي قبل أن تسمر يداه على الصليب من أجلنا.

انظروا الى الشجعان من الفرسان، فهؤلاء الذين أحبوا الرب وشرف العالم

هؤلاء هم العقلاء الذين أرادوا أن يذهبوا إليه(المسيح)

أما الجبناء وذوي النفوس الوضيعة فسيقبعون هنا كالعميان،

فبالتأكيد لم يرغبوا أن ينقذوا الرب ولو مرة واحدة في حياتهم

إنهم الذين أضاعوا مجد العالم بما فعلوه.

★★★ ★★★ ★★★

ترك المسيح نفسه يتعذب على الصليب وقال:

إن أنتم ساعدتموني على حمل الصليب

فستذهبون الى حيث الملائكة

هناك سترونني وترون أمي مريم

أما أنتم الذين لم تنقذوني، فستهبطون إلى أعماق الجحيم

★★★ ★★★ ★★★

ليتخيل كل واحد نفسه وكأنه يستطيع أن يعيش بسعادةٍ إلى الأبد

★★★ ★★★ ★★★

فـالشيطان والخطيئة يسيطـران إلى هذا الحد دون تميـز أو جـرأة أو جبروت

أيها الرب العذب لا تتركهم يفكرون بهذه الطريقة

واجعلنا نفعل ما نستطيع

وأن ندخل مملكته ونتأملك

★★★ ★★★ ★★★

أيتها السيدة العذبة والملكة المتوجة(مريم العذراء)

صلي من أجلنا أيتها العذراء السعيدة

فسنكون في مأمن من كل الشرور والآثام

★★★ ★★★ ★★★

الملحق الثاني
مختارات من تاريخ السلاف
تأليف الألماني
هيلمولد كاهن بوساو Helmold, Priest of Bosau
[١١١٨-١١٧٧م؟]

رسالة بطرس الراهب

هناك حادثة تستحق الحكاية، وهي حادثة ينبغي ذكرها من قبل الأجيال المقبلة، وقد وقعت في الأيام الأخيرة لهنري الأكبر، فقد كان هناك واحد اسمه بطرس، هو من أصل اسباني، ومن حيث الاختصاص راهباً، فقد دخل إلى داخل حدود الامبراطورية الرومانية، و أطلق صوته عالياً، وقام بالتبشير في المملكة كلها، حيث حث الناس وحرضهم على الذهاب إلى القدس، لتحرير المدينة المقدسة، التي كانت بأيدي البرابرة، وأخرج رسالة وقدمها إلى الناس مؤكداً بأنها نزلت من السماء، جاء فيها بأن الوقت قد حان بالنسبة للشعوب، وأن تلك المدينة ينبغي تحريرها، وهي المدينة التي ديس عليها من قبل الكفار.

وبعد ذلك قام الناس الأكثر قدرة في جميع البلدان، من أساقفة، ودوقات، وكونتات، ورجال فرسان، وكذلك رجال من العامة، ورؤساء للرهبان، ورهبان، فركبوا الطريق إلى القدس تحت قيادة غودفري، الأكثر شجاعة، ومع الاعتماد على النعمة الربانية استعادوا تملك نيقية، وأنطاكية، وكثيراً من المدن، كانت بأيدي البرابرة، ومن هناك تابعوا، فحرروا المدينة المقدسة، من البرابرة، ومن ذلك الوقت أخذت أماديح الرب يزداد انشادها هناك، وقد عبد الرب من قبل شعوب الأرض، في المكان الذي وقفت عليه قدماه.

برنارد المبارك راعي دير كليرفو

وقعت في هذه الأيام وقائع كانت غريبة، وقد أدهشت العالم كله، ففي الوقت الذي كان فيه يوجينوس البابا الأكثر قداسة في السلطة، وكان كونراد الثالث على رأس الدولة، ازدهر هناك برنارد، راعي دير كليرفو، الذي صار اسمه مشهوراً جداً بوساطة التقارير التي تحدثت عن معجزاته، حتى أن حشوداً من الناس تدفقت عليه من كل مكان، وهي راغبة بمشاهدة العجائب التي كانت تعمل من خلاله، وجاء برنارد أيضاً إلى ألمانيا، وظهر في قداس لاهوتي في فرانكفورت، حيث صدف أن قدم كونراد الذي كان الملك آنذاك، في وضع احتفالي، مع حاشية كلها من الأمراء، وبما أن الرجل المقدس، كان قد عزم باخلاص شديد على شفاء المرضى باسم الرب، فقد وقف في الكنيسة بحضور الملك والأمراء الكبار، ونظراً لحشد الناس الكبير، لم يمكن لأي واحد أن يكون متأكداً من الذي كان يعانيه كل واحد، أو من الذي كان يتوقع أن يحصل على الفرج، وكان كونتنا أدولف هناك، راغباً بالحصول من المولى على العلم الصحيح بفضائل الإنسان، وجرى في الوقت نفسه تقديم طفل إلى برنارد أعمى وأعرج، وحول عجزه لم يكن هناك من شك، ووقتها شرع الكونت العالي الحكمة، يراقب بعناية ليرى عما إذا كان ربما لن يحصل من خلال هذا الطفل على برهان على قداسة الرجل، وكأن المولى أخبره بتقديم شفاء لأمراضه، أمر رجل الرب بجلب الطفل واحضاره أمامه، وكان هذا على عكس طريقته، لأنه بالنسبة للآخرين تولى فقط مباركتهم، وعندما بات الطفل حاضراً، أخذ برنارد الطفل بيديه، وجعل يحك بنعومة العينين، فأعاد لهما الرؤية، ثم أقام برنارد ركبتيه الملتويتين، وأمره أن يركض إلى الدرج، ليقدم برهاناً مرئياً أنه قد شفي في نظره وفي خطاه، وبدأ الرجل المقدس —بموجب أي أمر إلهي أنا لاعرف— يحرض الأمراء وحشود المؤمنين الآخرين على الانطلاق

نحـو القدس لقهـر الشعـوب البربرية للشرق، ولاخضـاعهم إلى الحكم الصليبي، قائـلاً بأن الوقت قد جـاء، وهو الوقت الذي ستأتي به الأمم مع بني اسرائيل لتنقذ.

وبعد الفراغ من كلمة الواعظ وبناء عليها، كرس حشد كبير جداً من الناس أنفسهم منذ تلك اللحظة لاتبـاع هذا الطريق، كـان بينهم وأولهم وأعظمهم حماسـة الملك كـونراد، والدوق فردريك أوف سـوابيـا، الذي صـار فيها بعـد ملكـاً، ودوق غيـولف Guelph, مع الأسـاقفـــة والأمراء، وهكذا تشكل جيش من النبلاء، والعـامة، والرعاع، كان أكبر من أن يمكن تعداده، ومـاالذي ينبغي لي قوله عن جيـش الألمان، عندما انضم إليه لويس ملك البـارسيين، وجميع القوة المقـاتلة للفرنسيين، التي دعمت قضيته؟ فمثل هذا الجيش لم يعرف اجتماعه في أيامنا، أو سمع به منذ بداية الخليقة، فهو كـان بالفعل جيشاً عظيماً إلى أقصى الحدود، وقد حمل أفـراده علامـة الصليب على مـلابسهم وعلى أسلحتهم، ورأى على كل حـــال الذين خططـوا للحملة أن من المفيــد تعيين الجزء الأول من الجيش للذهاب إلى بلدان الشرق، والجزء الثــاني للذهاب إلى اسبـانيـا، وأن يذهب جزء ثالث إلى السلاف الذين يعيشون بجوارنا.

الملكان كونراد ولويس

انطلق الجيش الأول، الـذي كـــان هو الأكبر، عبر الطـريق البري مع كونراد ملك ألمانيـا، ولويس ملك فرنسا، وأعظم أمـراء المملكتين، وقد مضوا عبر مملكة هنغاريا حتى وصلوا إلى حـدود بيزنطة، فأرسلوا رسلاً إلى ملك الاغـريق، حتى يمنحهم عبـوراً وحقـوق سـوق، لأنهم كـانوا يرغبـون بالذهاب عبر أراضيـه، ومع أن هذا الملك كـان سيئاً، لايرغب بالتعاون، فقـد أصدر مرسـوماً لصالحهم إذا مـاقدموا مسـالمين، فأعادوا إليـه رســالة بأنهم لاينوون إحـداث اضطراب، لأنهم تطوعـوا للقيـام بحملة صليبيـــة لمدّ حـــدود الســلام، وبناء على رغبتهـم —على هذا

الأســاس— منحهم ملك الاغـريـق حق عبـور أراضيــه، وأن يشتروا بشكل حـر مـاتعـرضـه الأسـواق للبيع، وأن يقيمـوا معسكراتهم حيثما رغبـوا، وشـــوهد في هذه الأيام في الجيـش العــديد من نـذر السـوء والمصائب، وكان أعظم هذه الشـارات وأغربها، هو أنه حدث في إحدى الأمسيات أن غلف ضباب كثيف المعسكر، وعندما ارتفع هذا الضباب، كـانت الخيام كلهـا مغطاة مع كل شيء كـان موضـوعـاً بالعراء، وظهـر وكأنه يقطر دمـاً، وكأن الغيوم أمطـرت دماً، ولدى مشـاهدة الملك لهذا استخلص مع بقية الأمـراء بأنهم مدعوين لمواجهة محنة هي الأكثـر تعباً، وكذلك مخاطر الموت، ولم يخطئوا في الذي توصلوا إليه، فليس بعد ذلك بوقت طويل وصلوا إلى منطقة جبلية، فيها وجدوا وادياً جميلاً جداً، مع أرض مـرجيه ونهر جـاري، وهناك أقامـوا معسكرهـم،وذلك على سفح الجبل، لكن حيـــوانات الجر، مع ست عــربـات حملت مــؤن وعتــاد الفرسـان، وأيضاً عدداً كبيراً من المواشي المعـدة للذبح، أبقيت في وسط الوادي حتى تكون على مقربة من مجرى الماء والمرعى الموائم.

وعند حلول الظلام سمع قصـف الرعـد، مع أصـوات عـاصفـة من فـوق قمــة الجبل، ثم ياللهـول حــدث في منتصف الليل، لاأدري من خـلال مطر الغيوم أو بعض الوقـائع الأخرى، أن تضخم مجرى النهـر، وفاض وفي لحظة واحدة غسل كل شيء وجرفه إلى البحر، وشمل ذلك الرجال والدواب، وكل من كان في الأجزاء السفلى من الوادي، فكانت هذه أول كارثة عـانى منها فرسان هذه الحملة الصليبيـة، وقام الآخرون الذين بقيـوا أحياء بـاستئناف زحفهم الذي كانـوا قد شرعـوا به، وعند إكمال عبورهم لبـلاد الاغريق، وصلوا إلى مـدينة القسطنطينية، وبعـدما استراح الجيش هناك لبضعة أيام،وصلوا إلى شـاطىء البحر الذي يعرف باسم ذراع القديس جـورج (البوسفـور)، وكان ملك الاغريق قـد أعد سفناً من أجلهم للعبـور بالجيش ونقله، ووضع كتّـاباً توجب عليهم أن

يخبروه بعدد المقـاتلين، وعندما نظر إلى تقريرهم تنهـد بعمق وقال: «إلى أين أيها الرب تقـود هؤلاء الناس العـديدين بعيـداً عن أوطانهم؟ حقـاً إنهم يحتـاجون إلى ذراعك القـوي حتى يتمكنوا ثانيـة من رؤية أوطانهم الجميلة، أي بلادهم التي ولدوا فيها».

وعبر لويس ملك فرنسـا البحر، ووجه زحفـه باتجاه القدس، غير أنه فقد جيشـه كله في القتال مع البرابرة، ومـاالذي سوف أقـوله عن ملك ألمانيا والذين كانوا معه؟ فقـد اقتيدوا إلى داخل صحراء كبيرة جداً، من خلال خيانة نائب ملك الاغـريق، الذي توجب عليه قيادتهم إلى أراضي الفــرس، وقـد هلكـوا من الجوع والعطش، وهكذا تبــددوا من الجوع والعطش، إلى حـد أنهم قـدمـوا عن طـواعيـة رقـابهم إلى البرابرة الذين هاجموهم، أما الملك والرجال الأقـوى معه، الذين نجوا من الموت، فقد هربوا عـائدين إلى بيـزنطة، آه أيتها الأحكام الصـادرة عن العلي الأعلى، لقـد كانت الكارثة التي حلت بالجيش كبيرة جـداً، ولقد كـانت فاجعـة فاقت حدود التصور، ولهذا فإن الذين شـاركوا فيها يبكون بدموع حتى هذا اليوم نفسه.

اجتياح لشبونه

أمـا الجيـش الثـاني، وكـان قـوة بحـرية جمعت من كـولن Koln, ومن المدن الأخـرى القائمـة على طول الراين، إلى جـانب المدن القائمـة على ضفتي نهر ويزر Weser, فقد أبحر لمسافة بعيدة في المحيط، حتى وصل إلى بريطانيا، وبعد الإقـامة هناك لبضعة أيام (ليس من دون أن يزداد بوسـاطة مـلائكة بريطانيـا) انطلق نحـو اسبانيـا، ونزل أفـراد الجيش في البرتغال، عند مدينة قشتالة الفخمـة للتعبد عند مزار القديس جيمس (شنت ياقوب= القديس يعقوب)، وكان ملك قشتالة [ألفونسو الأول ١١٢٩-١١٨٥م] سعيداً لقـدوم الصليبيين، وسألهم إن كانـوا قد خرجـوا في سبيل القتال من أجل الرب أن يساعدوه ضـد لشبونة، التي

يقـوم سكانها بمضايقـة حـدود الأراضي المسيحيـة، ووافقوا على طلبـه، وذهبـوا إلى لشبــونة مع أسطول كبير، وجـاء الملـك معهم عبر الطريق البري مع جيش قــوي، وتمت محاصرة المدينـة من البحــر والبر، وقضي وقت طويل في حصـارها، وعندمـا استـولوا أخيراً على المدينة، وهزمـوا البرابرة، طلب ملك قشتالة من الصليبيين اعطاءه المدينة الفـارغة، وكان ذلك بعد اقتسـام الأسلاب فيما بينهم، وهكذا تأسسـت هناك مستعمرة للمسيحيين ماتزال موجودة حتى هذا اليوم، ومن بين جميع الأعمال التي قام بها الجيش الصليبي، تبرهن أن هذا العمل وحده فقط كان ناجحاً.

الملحق الثالث
وصف القدس والأراضي المقدسة من قبل بعض الحجاج الغربيين
(١٠٩٩-١١٨٥م)

- ١ -

دليل وصفي

[ترتيبات مدينة القدس— وصف الأماكن المقدسة]

(١٠٩٩-١١٠٣)

باسم ربنا يسوع المسيح.

على أي إنسان قد يرغب بالذهاب إلى القدس، المدينة المقدسة، أن يتابع السفر باتجاه الشرق، وهكذا سوف يصل— بمشيئة الرب— إلى مدينة القدس المقدسة وإلى الغرب منها يمكن أن يرى جبل البهجة (صموئيل)، وهو مشهد رائع، والمسافة هي ميل واحد من هذا الجبل إلى المدينة، وعندما يدخل الإنسان إلى المدينة، يجد حصناً، هو برج داود.

علاوة على ذلك إن هيكل الضريح المقدس مستدير الشكل، وهو فوق الضريح المقدس، الموجود في أعلى نقطة من الهيكل، وهو مستدير ومفتوح من الأعلى، وضريح ربنا يسوع المسيح موجود في وسط الهيكل، وفي الوقت الذي نجد فيه الشكل الخارجي مستديراً نشاهد أن الشكل الداخلي مستطيلاً، ولدى الدخول إليه، يدخل الناس من باب موجود في الشرق، والطريق إلى الجزء الداخلي هو عبر باب ثاني خاص به، ويخرج الناس من باب موجود في الجهة اليمنى، وإلى الشرق على بعد قليل مركز العالم، وليس بعيداً عن هناك، أي أن تقول في الشرق، يقع جبل أكرا (الجمجمة)، الذي عليه جرى صلب الرب، وتحت هذا الجبل موضع الجلجلة، والمسافة من هذا الجبل إلى الضريح المقدس، هي المسافة التي يستطيع إنسان أن يرمي إليها حجراً بحجم كف يده، وعلى يسار جبل أكرا يوجد السجن، وبعد السجن على اليسار، عمود إليه قد ربط، وجنوب الضريح المقدس كنيسة القديسة مريم للاتين، وإلى الشرق من جبل أكرا، يوجد المكان الذي اكتشفت فيه القديسة هيلانة صليب الرب.

وإلى الشرق من هناك يوجـد البـاب الجميل، الذي يقـود إلى هيكل الرب، وهو هيكل مستـدير، وله أبواب ثلاثة، ومحاط بساحـة هي الأكثر جمالاً أن تـراها، وفي وسـط هـذا الهيكل، «الهيكـل الـذي صنع مـن دون أيدي» يعني خيمة العهد، الموجود فيها ومحفوظ —كما هو معتقد— عصا هرون، ورأس زكـريـا بن براخيـا، والمذبح الذي بنـاه يعقـوب للرب، ولوحي العقيـدة، وتابوت العهـد، والمن الذي تغـذى منه بنو اسرائيل في الصحـراء، وعلاوة على ذلك، في الجزء العلوي من الهيكل معلق مصبـاح من الذهب.

وباتجاه الجنـوب من هيكل الرب، يـوجـد هيكـل سليمان، وذلك إلى الشرق من هيكل الرب، حيث خـارج باب الساحة، هناك بـركة الضأن، التي لها خمس قناطر، وبعـد المغـادرة من هناك من خـلال باب المدينة من على الشرق، يصل الإنسـان إلى وادي شعفـاط، الحاوي للكنيسـة وللقبر العائـد لمريم الأكثر قداسـة وإجلالاً، مع حـديقة جثسيماني، وذلك حيث صلى الرب مع حـوارييـه، وكذلك جـرت خيـانتـه من قبل يهوذا الخائن، الذي كان واحداً من تلاميذه.

وإلى الشرق من هذا المكان يوجـد جبل الزيتون، الذي من عليـه صعد الرب إلى السموات، وحيث كتب أيضـاً «أبانا» للحواريين، وعلى مسـافة ميل واحد من جبل الزيتون، يوجـد الضريح الذي أقام الرب منه لعازر، في اليوم الرابع بعد وفاته.

وأيضـاً، على مسـافـة تزيد على ست مـراحل من هناك، يوجـد المكان الذي صام الـرب فيه لمدة أربعين يوماً، وحيث أغـوي من قبل الشيطان، لكن دون أن يستجيـب له، ومن هذا الجبـل هناك ستـة أميـال إلى نهر الأردن.

وإلى الجنوب من القدس، وعلى بعـد أكثر من أربعـة أميال، هناك بيت

لحم، مدينة داود، التي ولد فيها المسيح، وحيث يوجد البئر الذي نزل إليه النجم الذي قاد الحكماء لعبادة الطفل، وبجانب باب القدس الموجود في الجنوب، يوجد جبل صهيون، وذلك حيث غادرت القديسة مريم هذا العالم، وليس بعيداً عن هناك [حقل] حق الدم، أي حقل الدم، وعلى بعد قليل إلى الجنوب من هناك توجد بركة سلوان، وفي أسفل الجبل، قرب أسوار المدينة التي تعبر هذه المنطقة، هناك المكان الذي بكى فيه بطرس بعدما أنكر المسيح، وفي الشمال، خارج باب المدينة، هناك المكان الذي رجم فيه القديس أسطفان.

هذه هي صورة بناء الأماكن المقدسة في القدس، التي أنا شاهد عليها، لأنني رأيت هذه الأماكن، وقد كتبت هذه الرواية، مع أنها متواضعة.

- ٢ -

دليل أوتوبونيان Ottobonian

[إن وصف القدس الآن هو كما يلي]

[١٠٩٩-١١٠٣م]

مدخل القدس موجود على الجهة الغربية بعد برج داود، وفي الأسفل في المدينة، يوجد ضريح الرب، وخارجه هناك مركز العالم، ومن هناك نحو الشمال يوجد سجن الرب، وبعد السجن المكان الذي ربط فيه، وجلد، وتوج، وجرد من ثيابه، وحيث جرى تقسيم ثيابه، وجبل أكرا هو الذي تحته الجلجلة، حيث سقط دم الرب وتقاطر من خلال الصدع في الصخرة، وفيما وراء هذا الجبل يوجد المكان الذي عثرت فيه القديسة هيلانة على صليب الرب.

ودون ذلك إلى الجنوب، يوجد هيكل الرب، الذي له أربعة مداخل هي: من الشرق، ومن الغرب، ومن الشمال، ومن الجنوب، وهناك —كما قالوا— كان تابوت الرب، وهناك ألواح العهد، وسبعة مصابيح ذهبية، وعصا هرون، وغرفة، حيث ظهر رئيس الملائكة جبرائيل إلى النبي زكريا، وعلى مقربة من هناك، يوجد الباب الجميل الذي يقود إلى وادي شعفاط، وعلى الجانب الآخر من الهيكل نحو الجنوب، يوجد هيكل سليمان، حيث في الطرف الأول منه هناك مهد المسيح، وفراش أمه، وعلى الطرف الآخر من هيكل الرب هناك كنيسة حنة المباركة، أم مريم أم الرب، وبعد الكنيسة هناك بركة الضأن.

وخارج المدينة يوجد وادي شعفاط، وهناك توجد كنيسة، فيها دفنت القديسة مريم من قبل الرسل، وفي المكان نفسه، هناك موضع جشيماني، حيث خان يهوذا يسوعا إلى اليهود، وهناك في الجوار المكان الذي صلى فيه ربنا، وبعد هذا هناك جبل الزيتون، من حيث صعد الرب إلى

السموات، وحيث أيضاً كتب «أبانا» وإذا ماتابعنا السير من هناك شرقاً، نجد بيت عنيا، حيث منح الرب الحياة إلى لعازر.

وجبل صهيون موجود على الجهة الجنوبية من المدينة، فهناك ماتت القديسة مريم، وهناك تعشى الرب مع حوارييه،وهناك حيث أعطى الرسل الروح القدس، في يوم عيد الحصاد، ومقابل هذا الجبل هناك [حقل] حق الدم، وعلى الجانب الآخر إلى الشرق هناك بحيرة سلوان.

وبيت لحم واقعة على مسافة مرحلتين نحو الجنوب من المدينة، فهناك ولد الرب، وهناك المزود، حيث جرى تمديد الرب بعدما ولد، وهناك أيضاً المائدة التي أكلت عليها مريم المباركة مع الملوك الثلاثة، الذين كانوا ينشدون الرب ويطلبونه، وهناك أيضاً حمامه وفراشه، وهناك أيضاً —كما قالوا— تمّ قتل مائة ألف وأربعة وأربعين ألفاً من الناس من قبل هيرود.

وعلى الطرف الشرقي من المدينة يوجد نهر الأردن، وهو على بعد عشر مراحل، وعلى ذلك الطريق مدينة أريحا، التي على مقربة منها الأربعين، حيث صام الرب لمدة أربعين يوماً.

- ٨٦٨٦ -

- ٣ -

دليل
ربما من إعداد كاتب ألماني
(١١٠٢-١١٠٦)

وادي شعفاط:

يحتوي الجزء الأعلى من وادي شعفاط على المكان الذي كان فيه مزرعة جثيسماني، وذلك حيث ترك يسوع أثناء آلامه حوارييه، وصلى لأبيه.

وقرب هذا المكان، في أسفل وادي شعفاط، هناك ضريح مريم العذراء المباركة.

وعلى بعد رمية حجر من هذا المكان، الموضع في هذا الوادي نفسه، حيث رجم اليهود اسطفان.

وبعد مكان الاستشهاد هذا، سقط [جيمس] أخو الرب على أم رأسه، من فوق الجدار إلى الوادي، ومن ثم قتل بعصا القصار.

وهناك بعد هذا بركة سلوان، التي قربها عمل المسيح معجزات رائعة.

وهذه الأماكن، وأماكن أخرى أيضاً، موجودة في وادي شعفاط، ودعونا الآن نذهب صاعدين إلى جبل الزيتون، الذي في أسفله يوجد وادي شعفاط، وفي ذلك الجبل، ليس عند الذروة، بل على الجانب الأيمن، توجد قرية بيت فاجي، وهي التي كانت فيها مضى قرية كهنة، وهناك عندما كان الرب يسوع، وقد باتت آلامه قريبة، أرسل حوارييه إلى القرية لإحضار أتان وابنها.

وعلى قمة الجبل، يوجد مكان الحجـرة المبجلة، والتي عليها علامات الرصف، فهناك كـان للرب يسوع حـديث جميل مع حوارييـه، ومن ثم صعـد إلى السماء، ويقـول رجـال حكماء من بين الأرثوذكس الذين يعيشـون في القـدس، بأن الأرض التي من حـول هذه الحجـرة جـديرة بـالتبجيـل، وتستحـق التقبيـل من قبـل النـاس الـذيـن هـم مسيحيين، والسبب في هذا، أنها تبللـت بدمـوع الحواريين، بسبـب غيـاب جسـد المسيح، ولأنهم وقفـوا هناك، وهم ينظـرون إلى السماء، وذلك عندمـا سمعـوا صـوتاً يقـول «يارجـال الجليل، لماذا أنتم واقفـون»؟ وهكذا إلى آخره (أعمال: ١/ ١١).

وهذه الأماكن المقدسة وأكثر، موجودة على جبل الزيتون.

ومن هناك إن المسافة ليست أكثـر من ميل واحد إلى بيت عنيا، وهي إلى الشرق، وهي قرية مـريم ومرثا، و هناك مـازال من الممكن رؤية قبر لعـازر، الذي أقامـه الرب من الموت، وهذا مطروق كثيراً من قبل جميع المؤمنين، ومن قبل اليهود أيضاً.

وأريدك أن تعـرف أيضاً، أن لعـازر هذا نفسـه، قد نشأ نشأة رائعـة، لذلك أمكن أن يكون أسقف جزيرة قبرص.

ودعـونا نذهب عـائدين إلى الجانب الغـربي من وادي شعفـاط، فعلى الجانب الغربي من الوادي هناك جبل صهيون، ومدينة القدس.

ولدى الذهاب صعـوداً فوق الجبل، هناك المعبد، الذي يعـرف باسم كنيسـة بطرس في الدمـوع، لأن النسـاء المقـدسـات وهن قـادمـات من الضريح، حيث قيل بأنهن وجدنه يبكـي بمرارة، وذلك في الوقت الذي أخبرن به، أن عليهن الذهاب، وأن يخبرن الحواريين، وبطرس بأن الرب قد قام.

واسم قمـة الجبل، صهيـون، وقد بنيت هناك كنيسـة، تشريفـاً للرب

ولأمه المقدسة، وهي التي قيل بأنها أول كنيسة مسيحية.

وهنا تعشى الرب مع حوارييه.

وهنا غسل أقدامهم.

وهنا كان المكان الذي التجأ إليه الحواريون خوفاً من اليهود.

وهنا نزلت الروح القدس على الحواريين على شكل نار.

وهنا صنفوا العقيدة.

وهنا ماتت مريم المباركةفي هذا العالم.

وكان هذا المكان الذي أحبه الرب كثيراً، حتى قبل ميلاده، بوساطة القدرة ومعجزات لاهوتية، وبعد ميلاده بقدرة جسده المقدس، ولدينا على هذا شهادة حوارييه، إذا ماأردنا أن نفهم ذلك حرفياً، لأنه قال: «أحب الرب أبواب صهيون أكثر من جميع خيم يعقوب» [المزمور ٨٧/ ٠٢]

ودعونا الآن نذهب إلى المدينة نفسها، فهناك يوجد ضريح للذي صلب من أجلنا، حيث بني فوقه معبد، وهو على شاكلة معبد القديسة مريم، الذي بني أيام الامبراطور شارلمان، وذلك مع فارق هو حقيقة أن معبد القدس له برج واحد، وهذا البرج، هو الموجود فوق الضريح، وهو مفتوح من الأعلى.

ودعونا الآن نتقدم فنذهب من المعبد إلى الشمال، فإلى الشرق هناك السجن الذي وضع فيه الرب، وبعد باب السجن، نحو الجنوب هناك المكان الذي أطلق فيه سراح الرب وأخرج من السجن، وجلس ينتظر مع رجال السجن حتى قدم بيلاطيوس مع اليهود،وجلس للمحاكمة.

وبعد هذا هناك الدرجات، التي يصعد عليها الناس إلى المعبد، وقد

كـان هناك فيها مضى بناء جميـل، وذلك حيث تم العثـور على خشبـة الصليب، وبعد هذه الدرجات هناك حجـرة حاملة صليب، لها المقاييس نفسهـا للصليب الـذي حمل من قبل الرب، وهو الـذي جعل اليهـود سمعان القيرواني يحمله.

وبعـد هذا الصليب، هناك بيعـة صغيرة، حيث جرى اقتسـام ثيـابه، وحيث ضربوا قرعة على معطفه.

وبعـد هذا المكان الذي عـاش فيه آدم حتى وفـاته، وإلى جـانب هذا المكان موقع أكرا (الجمجمـة) حيث جرى صلب الرب، وحيث ضحى فيها مضى ابراهيـم باسحق، وعند سفح تلة أكـرا يوجـد مـذبح، هو موجود في المكان نفسه الذي دفن فيه آدم.

وفي هذه المدينة باتجاه جبل الزيتـون توجـد كنيسة بركـة الضأن، على مقربة من هيكل سليمان، وإلى الشمال هناك هيكل الرب.

- ٤ -

دليل في كتاب أعمال الفرنجة في الحملة على القدس
(بعد عام ١١٠٩م)

الفصل ٣١:

إن الموقع الحالي للمدينة، ووضع الأسوار التي تحيط بها، يختلف كثيراً عما كانت عليه بالأصل في خطتها وأوضاعها في أيام يسوع المسيح، ومع ذلك هي ماتزال تحتوي على مذكرات بذلك العصر، مما يعطي مسوغاً لشهرتها، ومكانتها، وعظمتها، وسموها فوق المدن الأخرى في العالم.

وعلاوة على ذلك، إنها مثل كثير من المدن الأخرى، لها أربعة مداخل: على الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب، ويعرف المدخل الموجود في جهة الشرق من قبل السكان باسم باب وادي شعفاط، لأنه المخرج إلى ذلك الوادي، الواقع بالقرب، واسم المدخل الواقع في جهة الغرب باب داود، وقد عرف بهذا الاسم لأنه يقوم تالياً لبرج داود، أما المدخل الشمالي، فهو باب القديس اسطفان، لأنه قد قيل بأن ذلك الشهيد، قد رجم خارج ذلك الباب، وقد تأسست هناك كنيسة في ذكراه، والمدخل الجنوبي، هو باب صهيون، لأن جبل صهيون واقع في ذلك الجانب، وهو شديد الانحدار، قد جعل الوصول من ذلك الجانب صعباً ومنهكاً.

وإلى هذا اليوم هناك باب خامس أيضاً، اسمه الباب الذهبي، وهوقائم بين البابين الشرقي والجنوبي، تحت هيكل الرب، ومنه دخل ملك السموات إلى هذه المدينة قبل آلامه، وهو جالس على ظهر أتان، وقد استقبل ببهجة من قبل أبناء العبرانيين، ولايفتح هذا الباب أبداً، إلاّ يوم أحد السعف، وإذا مادخل إنسان إلى المدينة من هذا الباب، فضريح الرب، موجود إلى اليسار.

وقـرأنا أنه في أيام آلام المسيح، كان الضريح مـوجوداً خـارج المدينة، وكـان منحـوتاً في الصخـر، وعلى مقـربة منه، وإلى الجانب قليـلاً، هناك صخـرة ناتئة، كانت قـد تصـدعت، لأننا نقرأ بأنها انشقت بسبب وفـاة المسيح، وتحت ذلك الجلجة، وهو مكان يستحق الاحترام بشكل عظيم، وهو جـدير بالتعبـد والتبجيل، فمنـذ الأيام الخاليـة وصلنا أثر مكتـوب تحدث أنه في ذلك المكان كـان ابراهيم على وشك تقـديم ابنه بمثـابة أضحية، لكنه قدم عوضاً عنه كبشاً، جاء بديلاً لحمل الرب وابنه، الذي تقـرر أن يضحى به فيما بعـد، في ذلك المكـان بالذات، وعلى بعـد قليل هناك البقعـة التي عـرفت باسم أكـرا (الجمجمـة) لدى الكاتب نفسـه، وهناك جـرى الكشف عن خشبة الرب —بعـدمـا بيّـن اليهـود أين هي موجـودة— من قبل هيلانة (حنة) المبـاركة، وكان ذلك في عـام ثلاثمائة وستـــة وثمانين بعـــد آلام المسيح (كــــذا)، وفي المكان نفســـه أسست الامبراطورة كنيسة، تميـزت بحجمها وبجمالها المعماري وزخرفتهـا، وقد دمرت فيما بعـد من قبل الأمم الغادرة، هذا وإن بقاياها الموجـودة تظهر أية آبدة مـدهشـة كانت فيما مضى، وتم حفظ قطعـة من الخشبـة الثمينة من قبل المسيحيين في هذه الأماكن، وهي تبجل وتعظم باحترام وحب.

الفصل ٣٢:

وبعـد هذا المكان حيث جرى اكتشـاف الصليب، وإلى الجنوب هناك كنيســة أم الرب، وتعرف باسم «اللاتينيـة»، لأنها كـانت دوماً في عهـدة اللاتين، فقد قيل بأن العـذراء، قد بكت هناك، ومزقت شعـرها، عندما رأت ابنهـا الوحيـد، قـد علق بالمسـامير على خشبـة الصليب، وبجـوار ذلك، يوجـد المكان الذي بكت فيه مـريم المجدليـة والنساء الأخـريات موت المخلص.

وإلى الشرق من هذا مباشرة،وداخل أسوار المدينة، هناك هيكل الرب المشهـور(الحرم القدسي)، الذي بني ببراعـة مدهشـة، ومع أن هذا ليس

البناء الأصيل الفخم لسليمان، وليس أيضـاً البناء الذي أعيـدت عمارته للمرة الثانيـة بعد عزرا، إنه متفوق على كل بناء آخـر في العالم، ومع هذا له أربعة مداخل وفق الطريقة نفسها مثل الهيكل الأول.

وفي هذا المكان كف الملاك يده، وهـو الملاك الذي كـان يقتل الناس، عندما كان داود يصلي ويقول:

«هاأنا أخطأت وأنا أذنبت» [صمـوئيل الثاني: ١٦-١٧]، والصخـرة التي فوقها وقف وكف يده وردها مـاتزال قائمة في وسط الهيكل، وهي حتى كما هي لم تجر تسويتها وتنعيمها فنياً.

وهذا المكان كـان يستخـدم في أيام سليمان بمثـابة الغطـاء الذهبي لتـابوت العهـد، الذي كـانت فيـه ألواح مـوسـى، وعصـا هرون التي أورقت، والمن، والأشياء الأخـرى التي عرفت بالأشياء المقدسـة لقدس الأقداس، وقـد كانوا مـوجودين هناك وبقيـوا كذلك حتى أيام صـدقيا ملك يهوذا، حسبما يمكن للمرء أن يقـرأ في سفر المكابيين، لكن قيل إنه فيما بعد قام ارميا بإخفاء التـابوت في العربية على مقربة من جبل سيناء، وهو موجود هناك حتى هذا اليوم، حيث أن الجبل يتصاعد منه الدخان وهو مغطى بالغيـوم، والذين يـرغبـون بالذهاب إلى هناك، يجرى ردهم ومن ثم إعادتهم بالظلام، وبشدة لن يتم العثـور عليه، حتى تجتمع عدة أمم مع بعضها بعضاً، وهذا أيضاً هناك من يؤمن بأنه سيحدث هكذا.

ويعد ذلك المكان (أي الهيكل) مقـدساً لعدة أسباب، فـالطفل يسوع جرى تقـديمه هناك، وقـد تم تسلمه من قبل الشيخ سمعـان، وفيما بعد تم العثور عليه هناك عندمـا كان في الثانية عشرة من عمـره، جالساً بين الأحبـار، ومن هناك طـرد صرافي النقـود، وقـال: «إنه سيكون بيتـاً للصـلاة»، وهذا المكان ينبغي أن يكون مبجـلاً، ويعـد مكاناً مقـدسـاً، بسبب عدد من المعجزات، والآيات والمدهشات قد عملها الرب هناك.

وتقع كنيسة القديسة حنة إلى الشمال من الهيكل، وعلى الطريق إلى البركة، فهي قد كانت أم مريم المباركة، وهذا هو المكان الذي قيل بأنها ولدت فيه أم الرب، وتم اكتشاف خزان ماء من قبل الفرنجة، أمام هذه الكنيسة، ومن الممكن رؤية بقايا البركة القديمة هناك مع قناطرها الخمس محفوظة حتى هذا اليوم، ونحن نقرأ أنه في أيام المسيح كان ينزل ملاك إلى هناك، وعندما كان يلمس الماء، كان الماء يشفي المرضى، وهنا شفى المسيح رجلاً مريضاً، كان منذ ثمانية وثلاثين عاماً يعيش مع عجزه، وينزل الإنسان إلى البركة من خلال إحدى القناطر، وطعم الماء هناك مراً، وهو يشفي عدداً كبيراً من الناس المرضى.

وفي داخل المدينة يبجل المسيحيون أيضاً أماكن جلد يسوع المسيح، وتتويجه، والسخرية منه، والأشياء الأخرى التي عانى منها من أجلنا، لكن في هذه الأيام ليس أمراً هيناً اكتشاف أين وقعت هذه الأمور، خاصة بسبب أن المدينة نفسها تعرضت منذ ذلك الحين مراراً للخراب والدمار.

الفصل ٣٣:

والآن في خارج المدينة يغادر الإنسان ماراً بالقسم الأعلى من المدينة، من باب داود إلى الطريق الذي يقود إلى بيت لحم، التي كانت تعرف بالقديم باسم إفراتا، وهي واقعة على مسافة مرحلتين في الجنوب الغربي من القدس، على الطريق إلى الخليل، وبيت لحم —حسبما قلنا من قبل— مكان ولادة المسيح، والمعلف موجود هناك، علاوة على ذلك إن الكنيسة الموجودة هناك، جميلة جداً، وواسعة، وصنعت بشكل رائع، وتتمتع بمرتبة أسقفية، وقد قتل الأبرياء من قبل هيرود واستشهدوا في بيت لحم وجوارها.

ولدى العودة من هناك نحو المدينة، يرى الإنسان على الطريق قبر

راحيل، زوجة يعقوب، ثم يتسلق الإنسـان جبل صهيون، الذي كان في أيام المسيـح، أعلى نقطة في المدينة، وفي وسطهـــا، لكنه الآن في الخارج، وفي ذلك المكان هناك الغرفة التـي غسلت فيها أقدام الحواريين من قبل ربهم ومعلمهم، وهو قـد أقـام عشاء معهم، وترك قـداس جسـد الرب ودمه، وأخبرهم أيضاً مسبقاً بجميع الذي كـان سيحدث له حتى موته، وهو علاوة على ذلك، المكان، الذي أرسـل إليهم وهم فيه، بعد القيـامة الروح القـدس، وهناك —كما قيل— غادرت أم الرب الحيـاة، و لذلك السبب بنيت هناك كنيسة على اسمها، وهي كنيسـة عندما ينظر الإنسان من الداخل، يشـاهد كم كانت رائعة البناء في العصـور القديمـة، لكنها هدمت من قبل الغدارين المسلمين.

وينبغ عند سفح جبل صهيون نبع يبدو صافيـاً تماماً، لكن طعمه مرّ، ويطلق الناس عليه اسم نبع سلوان، وهو يرسل ماؤه داخل مجرى يسيل به نحـو الأسفـل وهو المجـرى نفسـه لجدول قـدرون الـذي يتـدفق في الشتـاء، وفي هذا المكان كان هناك رجل ولد أعمى، وقـد استرد بصره، وذلك حسبما قـرأنا في الانجيل، وأبعد نحـو الجنوب هناك [حقل] حق الدم، الذي شري ليكون مكاناً لدفن الغرباء.

ويبـدأ جـدول قـدرون في الشمال، ويجري نحـو الجنوب، من خـلال وادي شعفاط، ولايكون مـاء فيه إذا لم يكن هناك مطر قـد تساقط، وفي هذا الوادي، بين المدينة وجبل الزيتـون، توجـد كنيسـة مـريم أم الرب، وذلك حيث دفنت من قبل الرسل، ومايزال قبرها محترماً ومشرفاً هناك، هذا ومن التاريخ القـديم للمسيحية، كما ذكر جيروم المبـارك في كتاباته، قد جرى تشييـد بناء رائع في ذلك المكان، وقد كان هذا البناء فيما مضى واسعـاً بشكـل غير اعتيـادي، وكنيسـة جميلـة وحسنة التخطيط في ذلك المكان، لكنهـا دمرت فيما بعـد من قبل الأمم الخائنة، وخـرائبها مـاتزال مشاهدة حتى الآن بشكل واضح، وهذا هو المكان أيضـاً، الذي كان فيه

في أيام المسيح قــرية صغيرة اسمهـا جثيسماني، وذلـك حيث وضع ابن الرب للمحنة، وجـرى اعتقـاله، وهنا خلف وراءه رسله عندمـا كـانوا نائمين بعمق، وابتعــد عنهم مقـدار رميـة حجـر، وذلـك باتجاهه جبل الزيتــون، ليصلي هناك، ويوجــد الآن في تلك البقعــة بيعــة مكرســة للمخلص.

ومن هناك يتسلق الإنسان إلى جبل الزيتون، الذي هو مرتفع إلى حد أنه متحكم بالمنطقـة كلهـا، وذلك هو المكان الذي اعتـاد الرب أن يعلم فيه حوارييه، والذين كانوا من أهل المدينة يتجمعون لسماعه، ويقال بأنه علم هناك الصلاة الربانيـة إلى حوارييـه، وتفوه بصلواته إلى الأب، وفيما بعد حمل من قمـة الجبل إلى السماء، والرسل ينظرون إليه، ويـوجد هناك كنيســة تأسست في العصـور القديمـة، وهي تحتـوي على قبـور كثير من القــديسين، ومن هذا الجبل من الممكن رؤيـة العـربيــة ووادي الأردن بوضـوح، والبحــر الملحي النتن، الذي يغطي ســدوم وعمـوره، وهما المدينتان اللتان جرى تدميرهما فيما مضى بشكل تام بغضب من الرب.

وليس بعيـداً عن منحـدرات هذا الجبل، وإلى الجنوب الشرقي، يصل الإنسان إلى بيت عنيـا، حيث أقام الرب لعـازر، وحيث عفا عن ذنوب مـريم المجـدلية، وحيث أيضـاً تمت ضيـافتـه وإكرامـه في بيت سمعـان المجـذوم، وإلى هذا اليوم مـازال ضريح لعـازر يبجل هناك، وبسبب أن المخلص غـالبـاً مـاأمضى الوقـت هناك، فإن المكان مقـدس، ومـوضع تبجيل.

وهذه الأماكن واقعة خارج المدينة.

هذا وإن نهر الأردن، حيث تعمــد المسيح، يبعــد عشر مــراحل إلى الشرق من المدينة، ويفصل هـذا النهـر اليهـودية عن العــربيـة، ويصل الإنسان إليه من خلال أريحا، التي كانت فيما مضى مدينة عظيمة، وعلى

يسارها تقع الصحراء، التي صام فيها الرب لمدة أربعين يوماً، وهناك يرى الإنسان جبلاً عالياً، فهناك أغوي الرب من قبل الشيطان.

هذا وإن الناصرة هي المكان الذي حمل به فيه، والجليل هو المكان الذي ظهر فيه لحوارييه بعد قيامته، وجبل الطور، والصحراء، فالمكان الأول هو الموضع المرتفع الذي أطعم فيه بخمسة أرغفة مع سمكتين وأشبع خمسة آلاف إنسان، والمكان الثاني هو حيث أطعم بسبعة أرغفة أربعة آلاف إنسان، وجميع الأماكن هي التي غالباً ماطرقها ملك المجد، عندما كان طفلاً، وجميع هذه الأماكن بعيدة عن القدس.

....

وعلاوة على ذلك عمل الامبرطور هدريان المدينة جميلة بشكل رائع، وزينها بصورة فخمة، وبلط شوارعها وساحاتها، وهو الرجل الذي من اسمه أخذت القدس اسمها، فصارت من بعده تعرف باسم إيلياء، وجهز جميع الشوارع بمصارف، وبذلك عندما كانت الأمطار تتساقط، كانت جميع قاذورات المدينة تغسل، وتنجرف خلال تلك المصارف، وكانت هذه المدينة فيها كفايتها من صهاريج الماء، التي حوت دوماً كميات وافرة من المياه، واحتلت المدينة مساحة مسورة لابأس بحجمها، ولذلك لم تظهر صغيرة متعبة، أو واسعة مرهقة.

- ٥ -

حول موقع القدس والأماكن المقدسة في داخل المدينة أو من حولها (١١٢٨-١١٣٧م)

مدينة القدس قائمة في الجزء الجبلي من اليهودية، في مقاطعة فلسطين، ولها أربعة أبواب:

على الشرق، وعلى الغرب، وعلى الجنوب، وعلى الشمال، ففي الشرق هناك الباب الذي يمضي الإنسان منه نزولاً إلى وادي شعفاط، ومن خلاله يذهب الإنسان إلى خارج المدينة إلى جبل الزيتون، وإلى نهر الأردن، وإلى الغرب هناك باب داود، وذلك باتجاه البحر وعسقلان، وإلى الجنوب هناك الباب الذي حمل اسمه من جبل صهيون، ومنه يذهب الإنسان إلى كنيسة القديسة مريم على جبل صهيون، وإلى الشمال هناك الباب الذي يعرف باسم باب القديس اسطفان، لأنه خارج هذا الباب جرى رجمه، وهذا الباب نادراً مايفتح.

ومن خلال باب داود، نحن دخلنا إلى المدينة المقدسة، وكان على يميننا برج داود، وقريباً جداً منا عندما دخلنا، فبرج داود قائم في غربي المدينة، وهو أعلى من كل مكان فيها.

وهيكل الرب موجود في الجهة الشرقية في الجزء المنخفض من المدينة، فوق وادي شعفاط، وله أربعة أبواب، باب في الشرق، وآخر في الغرب، وثالث في الجنوب، ورابع في الشمال، وهناك صخرة كبيرة في الوسط، حيث يوجد مذبح، فهناك جرى تقديم الرب من قبل والديه، واستقبل من قبل القديس سمعان، وإلى هنالك دخل، عندما وعظ الناس.

وضريح الرب موجود داخل المدينة، على بعد قليل إلى اليسار منا، ونحن ذاهبون إلى الهيكل، وكنيسة الضريح مستديرة، وبنيت بشكل

جميل جـداً، وضريح الرب مـوجود في وسط هذه الكنيسـة، وهو مـزين بصورة جيدة، ومرتب بشكل جميل، وفي الخارج هناك في الشرق موضع أكـرا (الجمجمـة) حيث كـان الرب قد صلـب، ويصعد إليهـا الإنسـان بست عشرة درجة، فهنـاك صخرة كبيرة، حيث صليب المسيح كـان قد نصب، وتحت هناك الجلجلة، المكـان الذي إليـه تسـاقط دم المسيح من خـلال وسط الصخـرة، وهناك أيضـاً مـذبح مكرس على شرف الأم المقـدسة للـرب، وفي الخارج إلى الشرق يوجد المكان الـذي عثرت فيـه القديسة هيـلانة على الصليب، وقد بنيت كنيسة كبيرة هناك، وفي الاتجاه الآخـر، نحـو السـاعـة السـادسـة (أي الجنـوب) هناك مشفى من أجل الفقراء، والناس المرضى، ومشفى القديـس يوحنا المعمدان، وعلى مقربة من هناك كنيسـة القـديسـة مـريم للاتين، وفي كنيسـة القـديس يوحنا المعمدان هذه، هناك ابريق من الحجر، فيه حول الرب الماء إلى خمرة.

وهيكل الرب، الذي تقـدم ذكـره أعـلاه، متفـوق في جماله على جميع الكنائس، وهناك ابريق مـاء حجري آخر، حـول فيه الماء إلى خمرة، مثلما عمل في قـانا الجليل، وتحت الصخـرة، القـائمـة في وسط الهيكل، ينزل الإنسان بـدرجات إلى المكان الذي كـان فيه فيما مضى قـدس الأقداس، وهنا صلى زكريا عندما أعلن له الملاك جبريل عن ميلاد يوحنا المعمدان المبـارك، وهناك يوجـد المكان الذي جلس فيـه الرب، عندمـا جلب الفريسيون امرأة اعتقلت وهي تزني.

وإلى الجنوب مـن هنا قصر سليمان، وإلى الشرق من القصر كنيسـة القديسة مريم، التي إليها ينزل الإنسان بدرجات كثيرة، ويوجد هنا مهد المخلص، وفـراشـه، وفـراش أمـه، وإلى الجانب اليسـاري من الهيكل، وخارج أسـواره، هناك كنيسة القـديسة حنة، التي كـانت أم أم المسيح، وخارجها قيل كانت هناك بركة الضأن.

ليس بعيـداً، خـارج أسـوار المدينة، إلى الجنوب، هناك الكنيسـة التي

تعرف باسم كنيسة القديسة مريم لجبل صهيون، حيث ماتت السيدة الأكثر مباركة جسدياً، وفي هذه الكنيسة المكان الذي يعرف باسم الجليلي، حيث ظهر المسيح بعد قيامته هناك إلى حوارييه، وفي تلك المرحلة لم يكن توما موجوداً معهم، وفي هذه الكنيسة، باتجاه الشرق، المكان الذي ظهر فيه بعد ثمانية أيام، وذلك عندما كانت الأبواب مغلقة، وجاء ظهوره الآن مجدداً لحوارييه، وكان توما موجوداً، وقال لهم «سلام معكم»، وأراهم يديه وطرفه، ومنحهم أن يتعلموا، وأن يبشروا وفقاً لكلام الانجيل، وإلى الأعلى يصعد الإنسان الدرجات إلى المكان الذي أقام فيه العشاء مع حوارييه، وهناك موجودة المنضدة نفسها التي تعشى عليها، وهناك قدم جسده للأكل، ودمه من أجل محي الذنوب، وهناك أعطى الروح القدس الضوء إلى الحواريين في يوم عيد الحصاد.

وإلى اليسار هناك توجد كنيسة القديس اسطفان، وذلك عندما جرى جلبه من كفرجمالا، وهناك دفن من قبل البطريرك جون، وتحت الجبل يوجد [حقل] حق الدم، وهو مكان الدفن للمسافرين، وعلى الطرف الآخر من الجبل هناك كنيسة القديس بطرس، حيث بكى بمرارة لدى سماع صوت الديك، وذلك بسبب ذنب الانكار، وفي الأسفل دون هذا هناك النبع، الذي يعرف باسم بركة سلوان، فهناك استرد رجل ولد أعمى بصره بناء على أوامر الرب.

وبيت لحم، مدينة داود، قائمة على مسافة مرحلتين باتجاه الساعة التاسعة [نحو الجنوب الغربي]، وهناك كنيسة القديسة مريم، وهي معمولة بشكل جميل جداً، ففي داخل كهف هناك، ولدت العذراء المباركة جداً بمخلص العالم، وهناك يوجد المعلف الذي جرى تمديد المسيح فيه، وأمام الكهف هناك مائدة من الرخام، عليها أكلت أم الرب مع الملوك الثلاثة، وأمام الكهف هناك بئر مياهه صافية وباردة، فيه —كما قيل— سقط النجم، وهو النجم الذي قاد الحكماء الثلاثة إلى

مدخل هذا الكهف، ولدى الخروج من الكنيسة، هناك كهفين إلى جانب الباب، كهف علوي وكهف سفلي، ففي الكهف العلوي راقدة باولا المقدسة كثيراً، وعند قدميها العذراء المقدسة كثيراً يوستوخيوم، ويمضي الإنسان نزولاً إلى الكهف الأسفل بوساطة سلم درجاته طويلة، وهناك ضريح، فيه يرقد الجسد المقدس كثيراً لجيروم المبارك كثيراً، الذي هو المعلم الممتاز، وهذه هي بيت لحم، التي فيها، وفي جميع المنطقة من حولها، أمر هيرود بوحشية بوجوب قتل جميع الأطفال.

وكنيسة القديسة مريم، فيما يعرف باسم وادي شعفاط، بين القدس، وجبل الزيتون، في وسط الوادي، هناك ضريح أم الرب، حيث دفن الرسول جون المبارك جسدها الأعظم قداسة، وخارج تلك الكنيسة يوجد المكان الذي يعرف باسم جثسيماني، والكهف الذي خان فيه يهوذا الرب لصالح اليهود، وعلى رمية حجر إلى اليمين هناك مكان الصلاة، وذلك حيث صلى إلى الأب في ساعة آلامه، وتساقط عرقه مثل نقاط من دم، وسال إلى الأرض، وظهر أمامه ملاك لتشجيعه، وفي قمة هذا الجبل مكان للصلاة، وذلك حيث صعد إلى السماء، وعلى مقربة من هناك كنيسة أخرى، حيث نظم الرب صلاة «أبانا».

وعلى مقربة من هناك بيت فاجي، التي كانت فيما مضى قرية كهنة، وعلى بعد حوالي الميل باتجاه الساعة الثالثة [أي الجنوب الشرقي] توجد بيت عنيا، حيث أقام الرب لعازر، وقبره موجود هناك، وهناك أيضاً كنيسة القديسة مريم المجدلية، وذلك حيث كان فيما مضى بيت سمعان المجذوم، وحيث غفر لها الرب ذنوبها.

وعلاوة على ذلك، إن نهر الأردن على مسافة جيدة عن القدس، أي حوالي العشرين ميلاً، والطريق وعر، وتبعد أريحا ميلين عن الأردن، ويجري نهر الأردن من الشمال إلى الجنوب، وقرب الأردن هناك كنيسة القديس يوحنا المعمدان، فهناك يتولى الرهبان الأرثوذكس خدمة الرب

وعبادته، وخلف الأردن توجد العربية.

وليس بعيداً عن هذا المكان الذي تعمد فيه الرب، يوجد البحر الميت، وذلك حيث ينتهي نهر الأردن، فهناك جرى تدمير سدوم، وعاموره، ودومه، وساعور، منذ زمن طويل، بناء على حكم عدل من الرب، وعرف البحر الميت بهذا الاسم لأن مامن شيء حي يمكن أن يعيش فيه، ولاحتى السمك يمكن أن تسبح أو أن تعيش هناك، ومامن مخلوق يمكنه أن يشرب منه، وإذا ماحاول أي طائر أن يطير فوق هذا البحر، فإنه يسقط على الفور ويموت، وأطلق على هذا البحر اسم نهر الشيطان، ويبعد الجبل حيث صام الرب لمدة أربعين يوماً وليلة، حوالي ثلاثة أميال عن أريحا.

- ٦ -

عرض حول توضع الأماكن
(بعد عام ١١٥٧ م)

كـانت الخليل منذ مابعـد الطوفان حتى قـدوم بني اسرائيل عاصمـة فلسطين، ومكان عاش فيـه العمالقة، وهي مـوجودة في ديار سبط يهوذا، وهي مدينة كهنة، ومدينة للالتجاء.

وهي على بعـد ستة أميـال عن القـدس، وهي قائمـة على الحدود بين الصحراء واليهودية.

وهي في المنطقة التي صاغ فيها الخالق العلي الأعلى أبانا الأول آدم.

وهي جزئياً مزروعة وجزئياً براري.

وتأسست الخليل مـن قبل العمالقـة، قبل سبع سنـوات من تأسيسهـم تنيس التي هي مـدينة في مصر، وكـان اسم الخليل ممرا، صـدوراً عن أصدقاء إبراهيم. [سفر التكوين: ١٤/ ١٣].

واسم المدينة هذا عـرف به جبل عـالي، بقي عند سفحـه ابراهيم لمدة طويلة، والمكان معلم بشجـرة بلوط، تحتها ظهـر ثلاثة ملائكة له، وقـد عبد بينهم واحداً.

والثـالوث المقدس هو الذي يخبرنا أنه عندمـا يعبد الثـالوث من قبلنا ينبغي أن يعبد متحداً.

وقد أطلق عليهم اسم ضيوفه.

وعندمـا كـانوا جـالسين إلى المائـدة أحضر لهم شـاة، وحليب أيضـاً، وزبدة، وفي الخليل تحرك بوساطة رؤيـا من الرب، فأقام مذبحـاً، وعليه ضحى إليه بتواضع.

وعلى مقــربة من هذه البلـوطة يجري الاحتفــال بشكل فخم بعيــد الثالوث المقدس، في كل عام، مما يمنح البهجة للجماعات المسيحية.

وبقيت هذه البلـوطة منـذ ذلـك الحين حتى أيـام حكم الامبراطـور ثيـودوسيـوس حيـة، وذلك حسبما ذكـره جيروم، ولقـد قيل بأن الجذع والجذر بقيا هناك، مـع أنهما كانا جافين، فقـد تبرهن أنهما دواء، لأن أي راكب يحمل قطعة منها معه، فإن دابته لاتتقيأ.

وعرفت الخليل باسم «أربعة»، وقبل ذلك الوقت حملت اسم «قرية»، وقد أضيف هذا إلى اسمهـا، ومعنى كلمة قرية، باللغة العـربية «مدينة»، وعلى هذا عندما نقول: «قرية أربعـة» نعني «مدينة أربعة»، ومرد هذا إلى وجود أربعة راقدين في قبر عـام، وهـم: آدم، أول المخلوقات، والبطاركة العظماء الثلاثة: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، في كهف مزدوج، في حقل عفرون، وهناك أربعة زوجات معهم، وهن: حواء أمنا، وسارة، ورفقة، وليا.

والخليل واقعـة بعـد وادي الدموع، وقـد عـرف بهذا الاسم، لأنه في هذا الوادي بقي آدم لمدة مائة سنة يبكي على ابنه هابيل، وفي الخليل ولد له شيـث، الذي منـه ولد المسيـح، وكـــذلك ولـد له الأبنـاء والبنات الآخرين.

ومن هنـا، حمل باتجاه الجنوب، مـن قبل الرب، ليتملـك السلطة على جنة عـدن، ومعنى هذا الاسم بالاغـريقيـة والعبرية «حديقـة البهجـة»، ولكن تبعاً للتاريخ القـديم، فإنه بعد سقوطه، جرى نفيـه مهاناً من قبل الرب، إلى هنا إلى الخليل، لكيون فلاحاً فقيراً على ترابه الأصيل.

وهذا هو الحقـل الذي منه يستخــرج بالحفـــر السكان الأصليــون التراب، وينقلونه بعيداً، حيث يبيعـونه في مختلف أرجاء مصر والعـربية، لأنه ضروري لأغـراض دوائيـة، وهو يستخـدم بمثابة مـادة تجميليـة في

بعض الأماكن، وهذا الحقل، مهما جرى حفره بالعرض وبالعمق، يجدونه أنه غير ناقص التراب في نهاية العام، وذلك بنعمة ربانية، لأن تربة هذا الحقل حمراء.

وتماشياً مع التقاليد العبرانية، كان آدم أحمر اللون.

وفي الخليل، عمل جاسوسا الأرض المقدسة شالب ويشوع أول استطلاعهما.

وفي الخليل اختير داود لأن يكون ملكاً، وذلك من قبل الرب، ومسح من قبل صموئيل، وقد حكم لمدة سبعة أعوام، وحول ذلك قال الرب: «وجدت داود يتماشى مع قلبي» [المزامير: ٨٩/ ٢٠].

وفي الخليل ولد الأبناء الستة لدواد، وهم: أمنون من أخينوعم، وكيلاب من أبيجايل، وأبشالوم من معكة، وأدونيا من حجيت، وشفطيا من أبيطال، ويثرعام من عجلة [صموئيل ٢/ ٣/ ٣].

وعبر كالب بن يفونه من الخليل، وهزم ثلاثة من أبناء عناق، وهم: شيشاي Sheshai , وأخيمان Achiman , وتولماي Tolmai.

وفي المنطقة التالية للخليل في مواجهة الفلسطينيين كانت هناك دبير، التي كانت تعرف من قبل باسم قرية— سفر، يعني «مدينة الكتابة»، التي استولى عليها أوثونئيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من الخليل، هناك مكان دفن لوط، ابن أخي ابراهيم.

وعلى مسافة عشرة أميال وراء الخليل، نحو الفلسطينيين هناك بئر السبع، وهي مدينة جميلة وفخمة كانت لبني اسرائيل منذ زمن طويل مضى، ومعنى اسمها «بئر القسم»، لأن ابراهيم واسحق دخلا هناك

بمعـاهدة مع أبيمالك، وفي بير السبع زرع ابـراهيم كـرمـا، حيث توجـه بالدعـاء هناك لاسم الاله السرمدي، وقـد سكن هناك لمدة طويلة، ومن بعده اسحق، الذي إليه ظهر الرب هناك، وباركه وبارك ذريته.

وعلى بعـد ستـة أميـال من الخليل، بـاتجاه الجنوب بيت— فـاروئيل، الذي يشكل الحدود مابين اليهودية ومصر، والفلسطينيين والعربية، وقد كـــانت فيما مضى مـــدينة غنيـــة ومليئة بالسكان، وهنـا استقبلت أم المخلص، بعدما أنذرها الرب لتهرب مع ابنها يسوع، وقد قادها زوجها المقترنة به يوسف، وجاء استقبالها للمرة الأولى ضيفة خارج اليهودية.

وعلى مسافـة عشرة أميال من الخليل إلى الشرق هناك بحيرة اسفلت، وعرفت هذه البحيرة أيضاً باسم البحر الميت، ولسبب مماثل باسم بحيرة الشيطان، لأنه نتيجـة لوحشيتـه وللغضب جـرى دمـار المدن الأربع: سدوم، وعمـوره، وساعور، ودومه، وحـدث التدمير بشكل مخيف بنار الكبريت، في تلك البحيرة لاسرافهـن، ولأنهن حـافظن على شرورهن، ومعنى اسم سـدوم هو «الجمهـور الصـامت»، أو الأعمى، وعمـوره: «خـوف الناس» أو الخيـانة، أمـا معنى ساعـور فهـو «البحـر» أو «ميناء البحر»، ومعنى دومه: «النشوة».

وعلى الطريق نزولاً مـن اليهـودية، وعلى بعـد ميل عن البحيرة تقع سيجور، ومعنى سيجور هو صغير أو قليل، وعرفت أيضاً باسم «بلع»، ومعنى ذلك «اختفى»، كما تعرف أيضـاً باسم «زرع» وهو اسم سرياني، وهي تعـرف أيضـاً باسم «بعلزرع»، ويكـون هذا عندمـا يجري توحيـد الاسمين ودمجهما.

وإلى سيجـــور هـذه هرب لوط، تحت قيــادة الملائكة، مـن ســدوم، وبوســـاطة صلواته أنقـــذ من النار والـدمـــار، ولدى الـذهـاب إلى

سيـجور، هناك مـاتزال علامات من بقـايا زوجة لوط، التي تحولت إلى عمود من ملح.

وفـوق سيجور في الجبـال أمام اليهـودية، سكر لوط ونام مع ابنتيـه، فولدتا منه: مُـآب، وعمون.

وتدعى سيجور من قبل معاصرينا باسم «بلدة النخيل».

وتعـرف منطقـة هذه المدن الخمسـة باسم «البنتـابولس» Pen-tapolis، لأن الموجود هناك هو خمسة مدن، وقبل المدن وقبل دمار منطقتهم، كان البنتابولس وادياً كثيف الأشجار، وقد مضى ملوك المدن الخمسة إلى الحرب ضد خدر لامور (أو خدر لغومير) ملك العيلاميين، وقاتل عمرافيل ملك شنعـار، وعروج ملك بنطش، وتينال ملك الأمم، وقاتلـوا بيرا ملك سدوم، وبيرشا ملـك عموره، وشنعاب ملـك دومه، وشمبر ملك سـاعور، وملك بلع، وهزم الخمسـة، واستولى العـدو على مقتنياتهم وعلى طعام سـدوم وعموره، وأخذوا لوطاً، ابن أخي ابراهيم، معهم أسيراً.

وبين سيجـور وأريحا منطقة عـرفت باسم عين الجدي، وهي مصـدر خمور عين الجدي، والمكان الذي كـان من المعتاد نمـو شجر البلسم فيـه بوفـرة كبيرة، وفـوق بحيرة اسفلت يجمـع الإنسـان كثيراً من الشب، وأيضاً كثيراً من القطران.

والشب هـو من مـاء ملـح الأرض، ويتكون في الشتـاء من تمازج الكلس مع الماء، ويبلغ النضـوج بوسـاطـة شمس الصيف، ونال الشب Alumen, [المقابل اللاتيني لـ Alum] اسمه مـن الضوء Lumen [معنى ضـوء باللاتينـي]، وذلك بسبب أن الألوان التي تمزج به تصبح أقل دكانة.

والقطران سـائل شـديد الـرائحـة، أقـرب إلى السـواد، وهو مفيـد لطـلاء الجمال، لإزالة الحكة، ولدهن أشـجار الكرمـة لإزالـة الحشرات التي تأكلهم.

وبعـد بحيرة اسفلت هنـاك جبل مصنوع كليـاً تقـريبـاً من الملح الشفـاف، ويستخرج من البحيرة نفسهـا كتل (أحجـار الطواحين) لأنها شيء ضروري في تلك المناطق.

ويستخرج الحمـر (القار) من البحيرة، الذي هو مفيد لاستخـدامات الأطباء.

والبحيرة نقية إلى درجـة أنه يمكن أن يشـاهد خلالها الأبنيـة القيمة، والخرائب، ولكنها مـرة كثيراً إلى حد أنه لايمكن أن يتحملهـا أي كائن حي، ولذلك مـامن طائر يطير فـوقهـا، ويوجد جـزر في البحيرة عليهن ينمـو تفـاح أخضر، تراه جيـداً وصـالحاً للأكل، ولكـن إذا مـاالتقطت واحدة منهن وفتحتها فإنها تتفتـت إلى رماد، ويخرج منهن دخان، كما لو أنهن كن يحترقن، وتبـدو الأشجـار على الجزر وهي مغطاة بـالجمـرات والرمـاد، وكأنها تمثل النهـاية المحترقـة للمـدن، وتؤخـذ الأخشـاب من الجزر بوساطة القوارب، وهي تستخدم للأغراض المحلية.

وإذا صـدف وأمضى أي واحد من الناس ليلة قـرب البحيرة، وترك حقيبتـه مليئة بـالخمـرة أو بالماء على الأرض، فإنه سـوف يجد في اليـوم التـالي مافيهـا وقـد صـار مراً، وغير قـابل للشرب، مهما كـان حلواً من قبـل.

وهناك على الطرف الآخـر من البحيرة زردم، وهي جـزيرة، إليهـا ذهب سابا المبـارك للقيام بالصيـام الكبير منفرداً، لكن بغضب الشيطان التهبت نار فجأة، فتركتـه محروقـاً تمامـاً، ولمدة سبعـة أيام كـان أشبـه بالميـت، ولكن برحمة من الـرب شفي، واسترد صحتـه، ومع ذلك بقي

من دون لحية بعد ذلك، وعندما عاد إلى الوطن إلى اخوانه، وجدوا صعوبة في التعرف عليه أنه سابا.

وعبر منطقة بحيرة اسفلت، وعلى سفوح العربية، هناك شيوه (صفا) Shaveh , وهي مدينة قديمة، كان خدرلغومير قد هزمها.

والبنتابولس، التي تقدم ذكرها أعلاه ، موجودة على الحدود بين اليهودية والعربية.

[يحتوي النص الآن، على ماأورده جيروم في الرسالة ٧٨، حول المحطات في الصحراء التي عسكر فيها موسى مع بني اسرائيل، أثناء الخروج من مصر إلى جبل سيناء وكنعان، وهذا ليس له علاقة بالحج، وبعيد عن النصوص التالية، واعتمد المؤلف هنا، مثلما فعل من قبل على رسالة فيتيلوس، انظرها في الموسوعة الشامية في الجزء٣١، ومن أجل المحطات انظر ص٣٥٣-٣٦١].

وسيناء هو جبل بالعربية عظيم الارتفاع، وصعب أن تتسلقه، فالطريق إلى أعلاه يحتاج إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة خطوة، ويقول النساك والرهبان الذين يعيشون هناك، بأن المكان منذ أيام موسى، موقعاً تسير فيه ملائكة السماء، وجبل سيناء مغطى غالباً بالدخان، والبروق المضيئة، وقد قيل عن سيناء (وماقيل هو صحيح) أنه تحيط به كل يوم سبت نار سماوية، لكنها نار لاتحرقه، وكل من يلمسها لاتؤذيه، وقد ظهرت مراراً مثل لحف [أغطية— بطانيات] بيضاء، تسير حول الجبل، بسهولة وانسياب، وتهبط أحياناً مصحوبة بأصوات مرعبة، من الصعب تحملها. ويخفي عبيد الرب الأكثر قداسة أنفسهم هناك في كهوف، وفي قلايات الدير.

ويوجد على قمة جبل سيناء كنيسة جميلة ومبجلة، وموقعها هو حيث أعطى الرب موسى الشريعة، وقد كتبت بيديه على ألواح من حجارة،

وهذه الكنيسة محترمة إلى درجة أن مامن واحد يتجرأ على الدخول إليها، ولا أن يتسلق الجبل ما لم يكن مقبولاً من الرب في الاعتراف، ومالم يكن قد قام أولاً بالصوم والصلاة، والرهبان والنساك منصرفون كثيراً إلى الدين، إلى حد أنهم تحرروا من آلام الجسد، أو الروح، وهم فقط يقاتلون للرب، وهم على درجة كبيرة من الشهرة إلى حد أن الناس يتحدثون عنهم باحترام من حدود أثيوبيا إلى أقصى حدود فارس، ويفعلون ذلك بكل لغة من لغات الشرق موجودة بينهم، وهم متملكون بصورة حرة وتامة الديرة في مصر وفارس، وحول البحر الأحمر وفي العربية، ولذلك حياتهم فيها و فرة كبيرة.

وهم محترمون إلى درجة أن ما من واحد يتجرأ على الاساءة إليهم في أي شيء، وإذا ماأساء إليهم أي واحد، يحدث أنه يتعرض للعقوبة من قبل الرب بقسوة، ويعيش كل واحد في قلاية منفردة حول الجبل، وهم لايعيشون حياة جماعية، بل بعيداً عن التكتلات الجماعية، وفي سيناء بقايا العليقة التي ظهر فيها الرب إلى موسى في وسط لهيب من النار.

وفي منطقة حور (أور) جبل عدن، وهو يعرف باسم «جبل الرمال»، لأنه واقع في منطقة رملية، وهو صعب التسلق، ومرتفع بشكل مدهش، وقد تشكل بشكل طبيعي وكأنه برج مرتفع، مع أجزاء شديدة الانحدار، وكأنها قد قطعت باليد، ويستغرق الطريق من حوله أكثر من يوم واحد والأشجار حول أطراف الجبل نادرة، وكثير من الطيور من مختلف الأنواع تطير حول الجبل على شكل أسراب، ويبدو الجبل نفسه من دون مزروعات أو رطوبة، وبعيد عن أية منطقة فيها مزروعات في الصحراء.

وسمعت من الناس الذين يعيشون على مقربة منه يذكرون، أنه بتصميم من الرب، تمّ الكشف عن طريق صعود إلى الجبل إلى رجلين، كان الأول بينهما رشيقاً ونشيطاً، وقد تسلق بسهولة الأجزاء الخفية من

الجبل، لكن الآخـر تمكن بصعـوبة بالغـة من الوصـول إلى منتصف الطريق، وحين صـار هناك كـان متعبـاً، منقطع الأنفـاس، فجلس على الأرض، وقطع الرجل الأول الطريـق وتسلق بقيـة الجبل، وتعجب من طبيعة الجبل، ومن الهدوء الذي كـان سائداً هناك، فقد كـان الهواء نقياً، وكـانت هناك رائحة الورود، وطيب رائحـة المزروعات والأشجـار، كما توفـرت أنواع من الحجـارة، شـوهدت خـلال الجدول، حيث توفـرت ينابيع رائعـة، ووفـرة من أشجـار الفـواكـه، مع جمال لثمارهم، وكـانت الطيـور تغرد وتغني، كما توفـرت مسـاحات من الأمـاكن الظليلة، ومن المواضع المكسوة بالعشب الأخضر، وهناك قـرر، ووعد نفسه، إذا سمح الرب، أن يتمتع بالحياة وأن يموت.

ونظر من حوله، فـاعترته الدهشة لغياب صاحبـه، وبادر على الفور، مسرعاً خفيفـاً مندفعاً وسعيداً، ومبتسماً لنفسه، وهو يصفق بيـديه، نحو حافة الجبل، ودعا صديقه ورفيقه، راغباً بأنه سوف يرغب أيضاً بالعيش على ذلك الجبل، الذي قال بأنه يـوجد فيه نبع دائم، ووعـده بأنه سيجد المكان مثل الجنة، لكنه رفض الصعـود إلى الأعلى، والدخول إلى المكان، ولاندري لم فعل ذلك، هل كـان خـائفـاً من صعـوبة الجبل، أم أنه منع بمانع رباني، وهكذا بقي في مكانه، واكتفى بالأشياء التي رآها وسمعها، وقـال وداعـاً لصـديقـه وبذل جهـوده بالنزول إلى الأسفل، ثم عـاد إلى المكان الذي جاء منه، وأعلن عن الذي رآه وسمعه.

ويوجـد حول جبل عـدن جبال أخـرى كثيرة، وهضاب، وصخـور، وأخـاديد، وهي من الذروة حتـى الأسفل منحـوتة على شكل أقـواس، وكهوف، وأقبيـة، وقلايات من مختلف الأنواع، وفيها قـالوا بأن النساك المقدسين والرهبان اعتادوا على العيش في الأيام الخالية.

وعند سفح جبل عـدن ينبع نبع، لايجري جـدول منه، وإذا مـارأيتـه خيّل إليك أنه قـد يسقي حصـانين أو ثلاثة، لكنه في الحقيقـة قـد يسقي

أكثر، وقد تبرهن أنه لم تظهر عليه الزيادة أو النقصان.

[هناك اقتباسات من جيروم، الرسالة ٧٨ متواصلة، ثم يبدأ النص الجغرافي ثانية، انظر فيتيلوس ص٣٥٩-٣٦١].

وبين الأردن وأريحا هناك بيت حجلة، ومعنى هذا الاسم «مكان الخاتم»، والسبب —كما قيل— في أخذ شكل الخاتم هو أن أبناء يعقوب ساروا على شكل دائرة، عندما كانوا يندبونه، وذلك عندما أعادوه من مصر إلى الخليل.

وبين أريحا والجلجال هناك عمق— عخور، الذي معناه وادي عخور، أي جيشان الناس أو الحشود، فهناك جرى رجم عخور [عخان] لأنه سرق بعض الأشياء المكرسة.

وجرى الاستيلاء على أريحا، ومن ثم تسميتها اليبوسية.

وفي الجلجال ختن يوشع الناس للمرة الثانية، وأقام الحجارة التي جلبوها من الأردن، لأن تابوت العهد بقي هناك لمدة طويلة.

وتتصل العربية بأدوم بأراضي بوصترا [بُصرى]، التي هي بُصره، التي منها جاء باراخ (برخئيل) البصري، لكن هناك بصره أخرى في جبال أدوم، التي حولها قال إشعيا «من ذا الآتي بثياب مصبوغة من بصره»؟ [اشعيا: ٦٣/١] والطرخونية وعيطوره هي أجزاء من أدوم المتجهة نحو دمشق، وفي هاتين المنطقتين —تبعاً لانجيل لوقا— استحوذ فيليب على الطرخونية، وكان عوص، الابن الأول لآرام، وحفيد سام هو الذي أسس الطرخونية، ومنه حملت البلاد اسم عوص، الذي جاء منه يعقوب المبارك.

وكانت بوصترا فيما مضى عاصمة أدوم، وأدوم أسفل سورية، وسورية هي دمشق.

وكـان أليعـازر ابـن وكيل ابراهيم هو الذي أسـس دمشق، في تلك المنطقـة التي قتل فيها قـابيل أخـاه، ولهذا السبب، إن معنى اسم دمشق هو «شرب الدم» أو «قبلة الدم».

وكانت دمشق فيما مضى عاصمة سورية، لكن تلك المكانة نقلت من قبل أنطوخيوس إلى أنطاكية، وقد عـرفت باسم سورية من اسم سوري حفيد ابراهيم وابن قطوره.

وعـرفت دمشق باسم آخـر هو «آرام» وبـاسم ثالث هو «أرفـاد»، وكانت دمشق فيما مضى المطرانية اللاهوتية في سورية.

وعـرفت منطقة دمشـق، وفقاً لزكـريا، باسم سـدراث Sedrath , وقد سكـن أجزاء منها عيسـو، الذي عرف أيضـاً باسم سعير، وأدوم، ومن أدوم جزء في سورية اسمه أدمه.

وفي سعير توجد مدينة أدمه.

وفي أدمه ليس بعيـداً عن دمشق، في جبل سعير، قـد عاش الحوريون في سعير، وهم الذين قتلهم خدرلغومر.

وفي منطقـة أدمه، على بعـد ثلاثة أميال عن الأردن، هناك نهر يبـوق، وهو الذي عبره يعقوب عنـدما كان عـائداً من بلاد الرافـدين، وتصارع مع الملاك.

وعلى بعد أربعة أميال عن دمشق، يوجد المكان الذي ظهر فيه المسيح لشاول [كـوكب] وقال: «شاول، شاول، لماذا أنت تعـذبني؟»، وتشريفاً لهذه الحادثة، هناك كنيسـة مبجلة جـداً في دمشق، تحت اشراف رئيس أساقفة أرثوذكسي.

وعلى مسافة أربعـة وعشرين ميلاً من دمشق إلى الجنوب، وعند سفح جبل لبنان، توجـد بانياس وهي مـدينة فخمة، وهي تعرف أيضـاً باسم

بلنياس أبيلينا، من «جمال» الأماكن الصالحة هناك للسكنى، واسمها أيضاً قيسارية فيليب، وهذا الاسم اشتق من اسم قيصر.

وتقع بعلبك على بعد ميل إلى الشرق من مدخل وادي البقاع، وهي مدينة في موقع مناسب تماماً، وقد تأسست من قبل سليمان، بسبب وفرة الأشياء الجيدة، ولترف امتلاكها غابة، وقد سماها «غابة لبنان» وذلك عندما بنى بيتاً من عاج، وأطلق على هذا أيضاً اسم «غابة لبنان».

وعند سفح لبنان ينبغ فرفر وأبانا، نهرا دمشق، ويجري أبانا عابراً جبال لبنان، وعبر سهل عرقة، ثم إنه يتصل بالبحر الكبير، في المنطقة التي انسحب إليها يوستاخيوس المبارك، بعدما حرم من زوجته وأولاده.

وعرقة هذه، مدينة في الحقيقة لايمكن حصارها، وقد تأسست من قبل عرقايت، الابن السابع لكنعان، وهي موجودة عند سفح لبنان، على ثمانية أميال إلى الشرق من طرابلس، وتشكل عرقة بداية فينيقيا، والنهاية الأخيرة لجبل الكرمل، الذي تبدأ منه فلسطين.

ويشطر لبنان فينيقيا عن سورية.

ويجرى فرفر خلال سورية حتى ربله، يعني أنطاكية، حيث يمر عابراً أسوارها، وعلى بعد عشرة أميال عن المدينة، يصب في البحر المتوسط، في ميناء السويدية، أي ميناء القديس سمعان، وذلك على مسافة عشرة أميال عن المدينة.

وعند سفح لبنان، وليس بعيداً عن بانياس، هناك «أر» و«دن» حيث هناك نبعين يصدران عنهما، وتحت جبل جلبوع يتشكل الأردن، الذي فيه تعمد المسيح من قبل يوحنا، ويطلق على الوادي الذي فيه يجري الأردن، من جبل جلبوع إلى بحيرة اسفلت، اسم الغور.

وألون، التي هي كلمة عبرية (الصحيح اغريقية) هو أيضاً الاسم الذي يطلق على السهل الواسع والزراعي، الذي يمتد نزولاً من الجبال، ويتتابع من لبنان إلى صحراء فاران، ويشمل ألون وادي بيسان، يعني الوادي الذي يمتد من بيسان إلى الأردن.

وعبر الأردن إلى الشمال هناك بعل، وبعل معون، وعما مدينتان فخمتان، قد بنيتا من قبل أبناء رأوبين، وإلى الشمال هناك بيت —رام، التي بنيت من قبل سبط جاد.

وفي ألون، فوق الأردن هناك عمون، أي بيت حنينا، التي فيها جرى تعميد يوحنا.

وفي هذه الزاوية لبيت حنينا هناك عشتاروت قرنايم، حيث قالوا بأن يعقوب قد عاش.

ويفصل الأردن الجليل عن أرض بوصترا، ومعنى اسم الأردن هو «المنحدر»، لأنه يجري منحدراً.

ويجري «دن» من نبعه تقريباً تحت الأرض إلى ميدان، التي ليست بعيدة عن ثمان، عاصمة منطقة السواد، وميدان سهل خصب وعريض، فيه يصبح «دن» مرة أخرى مكشوفاً ومرئياً، ولهذا السبب يعرف باسم ميدان، لأن «دن» ينبع في وسطه، وفي اللغة العربية معنى كلمة ميدان «ساحة»، والساحة تعرف باللغة اللاتينية بفوريوم Forum، لكن ميدان عرف بهذا الاسم لأنه يحدث في كل عام اجتماع حشد لايحصى من الناس في هذا السهل، يجلبون أي شيء يريدون بيعه، ويمكثون هناك، ويقوم جيش كبير من الفرثيين والعرب بحراسة هؤلاء الناس، وذلك أثناء رعيهم لقطعانهم في هذه المراعي الغنية، وكلمة ميدان مشكلة من «مي» و«دان»، ومعنى كلمة «مي» بالعربية «الماء»، ومعنى «دان» النهر، وذلك اشتقاقاً من السهل الذي

أتينـا على ذكره، وأصبح نهراً، ويجري خلال السواد.

وجـزء من السواد هو أرض عـوص، وفي السواد هناك قبر يعقـوب، الذي يبجل حتـى الآن من قبل الأرثوذكس والسـوريين، والشعـوب، ومن السواد كان نعمان، التي جاء منها سوفر النعماني.

ويجري دان تحت مدينة جدر (أم قيـس)، ويجري إلى جانب الحمامات الطبية (الحمة) وفي سهول الشوك حتى يتحد مع نهر «أر» تحت جلبوع.

وفي سهـول الشوك، وقـع الأمير الثالث للجليل بعـد تانكرد، وكـان اسمـه جـرفـاس أوف باسـوكي Basoches, وكـــان من أصل نبيل، من أسرة فـرنجيـة، وقع أسيراً إثر انتصـار طغتكين ملك سـورية، وقـــد حمل أسيراً إلى دمشق، وعنـدمـا —بعـــد وقـت قصير— سكر طغتكين، حتى لم يعد مع نفسه، أمر بقطع رأسه، فأرسل إلى الرب ذلك الشهيد المشهور، وعندما عاد في الصبـاح إلى نفسه ثانية، حزن وغضب، لأنه كـان من الحماقة قتل مثل ذلك الرجل النبيل، فأمـر بدفنه، لكن من دون رأسـه، حيث عملـه كأسـاً، وزينه بشكل غني بـالذهب والجواهر، واحتفظ به بمثابة تذكار لنفسه، حيث اعتاد أن يشرب منه.

وليس بعيـداً عن بانيـاس يصنع الـ «أر» بنفسـه بحيرة (الحولة)، ثم هناك بعـد ذلك بحر الجليل، الذي يبـدأ بين كفـرناحوم، وبيت صيـدا، ومن بيت صيـدا كـان بطرس وأندرو، وجـون، وجيمس، وجيمس بن ألفيوس.

وعلى مسافـة أربعة أميـال من بيت صيدا هناك كـوروزين، التي فيها سوف ينشأ المسيح الدجال.

وعلى بعد خمسة أميال جدر، التي هي مدينة رائعة جداً، والتي حولها قد قيل: «هو سكن مع سكان جدر»، ومعنى كلمة جدر: «في الظلام».

وعند النهاية القصوى للبحر هناك كفرناحوم، التي كان اخلاصها موضوعاً في وعظ المسيح.

وعلى مسافة ميلين من كفرناحوم، هناك سفح الجبل، حيث وعظ الحشود، وحيث شفى المجذوم، وعلى بعد ميل من هذا السفح، هناك المكان الذي أطعم الرب فيه خمسة آلاف إنسان، ومن هذه الواقعة أطلق على المكان اسم «المائدة»، وتحت ذلك مباشرة يوجد المكان الذي أكل المسيح فيه بعد قيامته.

وفوق ساحل بحر الجليل هناك جرجوسيا، وهو المكان الذي شفى فيه الذين تلبسهم الشياطين.

وعند رأس البحر، على اليسار، هناك في الجبل وادي جنسارت، وهو مكان عثر فيه على الذهب، ومن هنا جاء اسم بحيرة جنسارت.

وعلى ميلين من جنسارت المجدل، المكان الذي جاءت منه مريم المجدلية.

وهذه المنطقة تعرف باسم جليل الأمم، وهي موجودة في ديار سبطي: زبلون، ونفطليم، التي منها جاء طوبياس، وفي مناطق من هذا الجليل، كان هناك عشرون مدينة، هي التي أعطاها سليمان إلى حيرام، ملك صور.

وعلى ميلين من المجدل تقع مدينة كينيرث Kinnereth، التي هي الآن طبرية.

وكان هيرود الأصغر هو الذي أسس طبرية، وسماها طبرية تشريفاً للقيصر طايبيروس.

وهكذا عرفت البحيرة أيضاً باسم طبرية.

وتستغرق الرحلة حول هذه البحيرة حوالي اليوم، ولهذا البحر المزية

الطبيعيـة التـالية، وهي أن يكون نتنـاً وغير قابل للشرب، مـالم تلقى فيـه قاذورات المدينة والمزارع المجاورة.

وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقع مدينة بيت أوليا(★)، التي منها جاءت يودث التي قتلت هولوفرنس.

وتبعـد دوثيم أربعــة أميـال إلى الجنوب من طبريـة(★★)، فهنا عثـر يوسف على إخوته، وهم تولوا بيعه هناك.

وعلى مسافة إثني عشر ميلاً عن طبرية، تقع الناصرة، التي هي حاضرة الجليل، وهي التي نشأ فيها المسيح، ومعنى كلمة الناصرة «الزهرة».

وفي كنيس الناصرة، فتح يسوع سفـر اشعيا، وشرح معانيـه إلى اليهود، وعند الجانب الشرقي من الناصرة هناك نبع صغير، منه اعتـاد يسوع أثناء طفولته، أن ينضح الماء ليزود أمه ونفسه.

وعلى مســافة ميلين من الناصرة توجـد مدينة الصفـورية، على الطريق الذي يقود إلى عكا، ونالت المدينة اسمها من صفت الذي أسسها.

وحنة المباركة، أم أم المسيح جاءت من الصفورية.

وعلى مسافـة خمسة أميال من الناصرة، هنا قـانا الجليل (كفركنا) وهي مدينة قديمة في ديار سبط أشير، وهناك حوّل يسوع الشاب الماء إلى خمرة، ومن قانا جاء سمعان الكنعاني، وفيليب وناثانئيل.

وعلى بعد ميل إلى الجنوب من الناصرة مكان يعـرف باسم «السقوط»، وهو قمة جبل، منها رغب أقرباء يسوع أن يلقوه، لكنه اختفى من بينهم.

وعلى مسافة أربعـة أميال إلى الجنوب من الناصرة، يوجد جبل الطور،

(★) الاشارة هنا في الحقيقة إلى صفد، ولعل بيت أوليا هي الآن مثليا.

(★★) لعل المقصود هنا خان يوسف، لأن دوثان قرب طولكرم.

وهو في وسط الجليل، وهو مستدير بشكل مـدهش ومرتفع، وهنا المكان الذي تغير فيــه شكل المسيح، وأظهــر مجده إلى خـاصتــه، وعلى طريق النزول من جبل الطور التقى ملكيصادق بابراهيم، وهو عائد من هزيمة أمالك، وقدم إليه خبزاً ونبيذاً.

وعلى بعـــد ميلين إلى الشرق من الطور هناك جبل حــرمــون، وعن الجبلين قال صاحب المزامير: «الطور وحرمون باسمك يهتفان» [المزامير: ٨٩/ ١٢]، وهناك حرمون آخر في أدوم، مجاور لسلسلة لبنان الشرقية.

وتباحث ملكيصادق وابراهيم حول العشور تحت الطور.

وعلى بعـد ميلين من الطور هناك نين، التي كانت فيما مضى من مـدن بني اسرايل، وعند بابها أعاد يسوع إلى الحياة ابن الأرملة.

وهناك فـوق نين جبل عين دور، وبين عين دور والطور، في سهل نين توجد قـدوميم، أي مجرى جدول قيسـون (نهر المقطع)، حيث على ضفته هزم باراخ الأدوميين، وذلك بنـاء على تحريض من دبوره، وجــرى قتل سيسرا من قبل يئيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الشرق من الطور، هناك شارون [تل صارم، أو سهل ابن عامر].

وعلى مسـافة خمسـة أميـال من الطور هناك يزرعيل، أي زرعين، التي هي مدينة قديمة، وفي يزرعيل حكـم اهاب وجيزبل، وجاءت نبوت من يزرعيل، وهي التي رجمت عنـد مـؤامـرة جيـزبل، ولهذا السبب مـاتت، عندما تسبب ياهو بسقوطها، وقبرها مايزال هناك.

وبعـد يزرعيل هناك سهل مجيدو، حيث مـات يشوع، بعـدما جـرى خداعه من قبل ملك السامرة، ومن هناك نقل جسده، ودفن في صهيون.

وعلى مسافة ميل من يزرعيل هناك جبل جلبـوع (فقوعة)، التي فيها

سقط شاؤول ويوناثان، وفي جبال جلبـوع هناك قرية تحمل اسم جلبوع (جلبون).

وعلى بعـد ميلين من جلبـوع هناك مـدينة بيسـان، التي هي حـاضرة الجليل، وعلى أسوار هذه المدينة جرى تعليق رأس شاؤول.

وفي الجليل قـرية الكوش Elkosh, التي جـاء منهـــا النبي ناحوم.

وعلى بعـد خمسة أميـال عن يزرعيل هناك بلدة جنين، التي منها تبـدأ السامرة.

وبين جنين ومجدو، غـور، وهو مكان فيـه قتل ياهو —ملك اسرائيل أخزيا ملك اليهودية.

وعلى مسافة عشرة أميال من جنين، هناك السامرة، وقد أطلق الاسم أيضاً على المنطقة التي من حولها.

وسنحريب هو الذي أسس المنطقة، ومن الســامرة جاء الســامريون، وبعـدما جـرى تدمير المدينة وتسـويتها بالأرض من قبل أنطوخيـوس، أعيـد بناؤها من قبل هيرود بن أنتباتر تشريفـاً لأغسطس قيصر، وأطلق عليها اسم أوغسـطا، الذي هـو بالاغريقية سبسـطية، ويقال بأن يوحنـا المعمـدان قـد دفن في هذه المدينة بين إيليا وعـوبيديـا، فقـد قطع رأسـه من قبل هيرود عبر الأردن في قلعة مكرون Macheron, وقد قيل بأن جسده قد أحرق من قبل يوليان المرتد، ورمى بالرماد في الريح، وكـان رأسـه قـد نقل منذ زمن بعيـد إلى الاسكندريـة من قبل الكاهن مـارسيلوس، ثم نقل من بعـد ذلك بـوسـاطة فلسيلـوس الراهب إلى أكوتين مع ثلاث أيقونات، في أيام حكم ببن، لأنه حدث له، عندما كان عـائـداً من قتل الوندال، أن أعيـد إلى الحيـاة عشرين فارسـاً كـانوا قـد سقطوا في الحرب، بفضل جون المبارك.

لكن اصبع السبابة، التي أشار بها إلى يسوع ليقدم من أجل تعميده، فقد أخذته العذراء تغريس Tigris معها عبر الألب، وهو الآن محفوظ بكل تشريف في الكنيسة في مورين Maurienne وفي سبسطية كانت امرأة قد افترست ابنها، وقد حملها على ذلك الجوع، الأمر الذي وقع أيضاً في القدس لمريم.

وفي السامرة تنبأ اليشع أيضاً، وأطعم مائة نبي في الكهوف.

وفي السامرة، مدينة شونيم Shunem, التي جاءت منها المرأة الشونيمية، ومن السامرة جاء سمعان مجوس.

وعلى مسافة أربعة أميال من سبسطية تقع شكيم (نابلس) التي بناها عمور، وسماها شكيم على اسم واحد من أولاده، وأطلق عل هذه المدينة فيما بعد اسم نابلس، أي المدينة الجديدة، وكان أبناء يعقوب قد دمروا شكيم، وقتلوا عمور، لأنهم غضبوا لاقتراف الزنا مع أختهم، وإلى شكيم أعيدت عظام يوسف ونقلت من مصر، ودفنت في شكيم قرب النبع قرب سفح جرزيم، وصنع يربعام العجلين الذهبيين، حيث وضع أولهما في دان، والثاني في بيت ايل.

وذهب السوريون والسامرة إلى أن هناك أربعة جبال تظلل شكيم هي: عيبال، ودان في الشرق، وبيت إيل، وجرزيم في الجنوب، لكن جيروم رأى أن اثنين منهم موجودين في أرض الميعاد فوق أريحا، وهما جبلا عيبال، حيث بنى يوسف مذبحاً للرب من الحجارة الطبيعية، بناء على أوامر موسى، وجرزيم على مقربة منه، فمنهما معاً من الممكن سماع أصوات الأشخاص وهم يتباركون، أو يتلاعنون.

وأسس اليبوسيون لوز (خربة لوزه)، وذلك على مسافة ميل من شكيم، وهي تعرف بالعبرية باسم ألموس، وهنا أراد ابراهيم، بناء على رسالة من الملاك، أن يضحي بابنه اسحق، وانطلق إلى سفح الجبل مع

الشاب ومع الأتان، وفي الحقيقة تمت التضحية بكبش عوضاً عنه، وفي كل عام يقوم المسلمون تقليداً، منهم لإبراهيم بالتضحية، ومثل ذلك يفعل سلطان فارس (الخليفة العباسي) الذي هو الأكثر قوة فيما بينهم، وكذلك أمير ممفيس، فهم يضحون بجمال بأيديهم.

وبعدما نام يعقوب هناك، وحدثت له رؤيا السلم، أطلق من قبله على المكان اسم «بيت ايل» أي بيت الرب، لكن بعدما وضع يربعام هناك العجل الذهبي، صارت تعرف باسم «بيت أون» Bethaven, يعني بيت الصنم، وأطلق إبراهيم على المكان اسم «الرب يرى»، وقد شيد يعقوب عموداً من الحجر هناك.

وعلى بعد ميل من شكيم توجد بلدة عسكر، قرب الحقل الذي أعطاه يعقوب إلى ابنه يوسف، وهناك أيضاً نبع أو بئر يعقوب، الذي فوقه حدثنا الانجيل بأن المسيح تحادث مع امرأة سامرية وذلك حيث تقوم الآن كنيسة هناك، وليس بعيداً عن شكيم مكان البطمة، التي أخفى يعقوب تحتها الأصنام.

وعلى بعد ستة أميال إلى الجنوب من شكيم توجد تمنه هناك، وهي مدينة يوشع، التي بقي فيها ومات، وقبره مازال باقياً هناك.

وعلى مسافة عشرة أميال من شكيم هناك قرية صنجيل وهي (قلعة) نالت اسمها من الكونت صنجيل الذي كان في الجيش الفرنجي، وعسكر هناك في اليوم الذي تقدم على رؤيتهم القدس، الحاضرة الأعظم قداسة في اليهودية.

وعلى بعد أربعة أميال من القدس توجد إفراتا، التي أسسها اليبوسيون، والتي فيها بعد سماها يعقوب بيت لحم، أي «بيت الخبز»، وهي التي فيها ولد المسيح، ومن بيت لحم: بوعز، وعوبيد، والد ايشا أويسي، والد الملك داود، الذي من ذريته انحدر المسيح، ثم بعد مكان

الميلاد في بيت لحم، هناك المزود، الذي تمدد فيه الطفل يسـوع، وقد أخذ إلى رومـا من قبـل الملكة هيـلانة، وهو محفـوظ بتشريـف في بازيليكا القديسة مريم الكبيرة.

وعلى مسـافة ميل من بيت لحم باتجاه الشمال، أشع النجم للرعـاة عند ولادة المسيح، وتم هناك غناء الترنيمـة التـاليـة من قبل الملائكة: «المجـد للرب في الأعـالي»، وإلى بيت لحم جـاء المجـوس لعبـادة الرب، وهناك جـرى من قبل هيرود قتل الأولاد، والعـدد الأكبر من الأبرياء مستلقين مدفونين هناك، على بعد ثلاثة أميال من بيت لحم إلى الجنوب.

وعلى بعـد ميلين إلى الغرب مـن بيت لحم توجد رامـا (بيت جـالا)، التي عنهـا قيل: «صـوت سمع في رامـا»، وفي بيت لحم مـدفـون جسـد جيروم المبارك، مع جسدي باولا، ويوستوخيوم.

وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم توجـد تقوع، التي جاء منها النبي عاموس، الذي جسده مدفون هناك.

ومن هذه المنطقة جرى حمل حبقوق بوساطة ملاك إلى بابل، وفي تقوع اعتاد كثير من الأنبياء على الاجتماع للبحث في اللاهوت.

وعلى مسافة أربعـة أميال من بيت لحم على الطريق إلى حبرون، توجد كنيسة القـديس خريطون، وذلك حيث عندما كـان ينتقل من هذا العالم، انتقلت الجماعة كلها التي كانت معه أيضاً بالطريقة نفسها.

وعلى بعـد ميـل من بيت لحم، على الطريق الذي يقـود إلى القـدس، هناك قبراتا (قبـة راحيل، أو قبر راحيل)، وهو المكان الذي عندما مـات بنيـامين ماتت راحيل حـزناً، ودفنت هناك من قبل يعقوب، وقـد وضع فوق القبر اثني عشرةحجرة، ماتزال موجودة حتى الآن.

وعلى بعـد ميـل من قبراتا، وإلى يمين الطريق، وفي منتصف المســافـة مابين القدس وبيت لحم يوجد بيت عرقة، حيث هناك قتل الملاك في ليلة

واحـدة مـائـة ألف وخمسـة وسبعين ألفـاً من جيش سنحـريب، ونجـا سنحريب وعاد إلى نينوى، وقد قتل هناك من قبل ولديه.

ووفقاً للتقـاليد العبرانية كان الولد الأول انجـاباً لنوح هو سام، وهو كما قـالوا كـان ملكيصـادق نفسـه، الذي كـان الأول الذي تولى تأسيس «سـالم» بعـد الطوفـان، وقـد حكم عليهـا بمثـابة ملك وكـاهن، وقـام اليبوسيون بالاستيـلاء عليها من بعده، وسموها يبـوس على اسم جدهم يبـوس الذي كـان الابن الثـالـث لكنعـان، ثم جـرى دمج الاسمين مع بعضهما، فصارت تعرف باسم يبوس— سالم، وفيما بعد، باتت تدعى من قبل سليمان باسم يبروسوليما (تقريباً يبوس— سالومونيا)، وعرفت لدى الشعراء باسم سوليما، ثم من قبل ايليـوس هادريان، عندما أعاد عمارتها، باتت تعـرف باسم ايليـاء، وهي صهيـون، التي تعني بالعبرية «مشهـد»، والقدس هي «مشهد السلام».

والقدس هي حاضرة اليهـودية، وهي موجودة عند سرة الأرض، أي في وسط العـالم، ولذلك قـال داود: «لقـد عملـت خـلاصـاً في وسط الأرض».

والقدس متفوقة على جميع مدن الدنيا، في الصلاة وأعمال الإحسان.

وحكم داود في القـدس ثـلاثة وثلاثين عـامـاً، وذلك بعـدمـا توقف شـاول عن كونه ملكاً، وكان اشعيا النبي من القدس، وهـو الذي قطـع من قبل الملك منشا بمنشار خشب.

وفي القدس جبل موريا، وهو مكـان رأى داود الملاك فوقه وهو يقتل [الناس]، وكـان واقفـاً فوق أرض بيـدر أورنان اليبـوسي، وهي الأرض التي بنى عليها سليمان فيما بعد الهيكل.

وقد شرع ببناء هيكل الرب، بعد مضي ثلاثة آلاف ومائة عام وعامين من آدم، وألف وأربعمائة عام من الطوفان، وألف ومائتي عام من مغادرة

ابراهيم لبلاد الرافدين، وخمسمائة عام وعامين من مغادرة بني اسرائيل لمصر، ومائتين وأربعين عام على تأسيس صور.

وبنى سليمان الهيكل (أي بيت ايل) والمذبح مقابل نفقات عالية، وكرسه بمهابة وتقوى، لكن في أيام الملك صدقيا، دنسه نبوخذ نصر بصورة كاملة، وشوّهه ونهبه، ودمر المدينة، ثم أمر بصدقيا مع أولاده بالظهور أمامه في ربله (يعني أنطاكية التي تعرف باسمين آخرين هما: حماه وأفامية) [ربلة على العاصي إلى الغرب من حمص، وحماه مدينة تبعد كثيراً عن أنطاكية، وتقع أفامية إلى الغرب من حماه] حيث قتل أولاد صدقيا بحضور والدهم، ثم اقتلع عينيه.

ثم دمر نبوخذ نصر كل من صهيون والهيكل، الذي أعيدت عمارته فيما بعد في ظل حكم قورش، ملك الفرس، من قبل عزرا الكاتب، ونحميا، ثم جرى تدمير هذا الهيكل مرة أخرى من قبل أنطوخيوس، ثم أعيدت عمارته في ظل المكابيين، وجرى تدنيس هذا الهيكل من قبل بومبي، الذي أقام هناك عندما فرّ من أمام يوليوس قيصر، وأخيراً تم تدمير هذا الهيكل الثالث حتى أساساته، في ظل حكم تيتوس وفسبسيان.

وحول هذا الهيكل يقول بعضهم بأنه أعيدت عمارته في ظل حكم الامبراطور قسطنطين من قبل هيلانه، وقال آخرون لابل كان ذلك من قبل الامبراطور هرقل، وقال آخرون بأن ذلك كان من قبل الأغسطس جستنيان، بيد أن آخرين يقولون بأنه بني من قبل أمير ممفيس في مصر تشريفاً لاسم «الكبير»، يعني الرب العلي الأعلى، وهذا معلن من خلال الكتابة العربية المنقوشة، وعلاوة على ذلك، إنه لدى وصول الفرنجة، مامن شيء ظهر في أعمال زينته عن الشريعة، ولاشيء بالاغريقية.

وقد قيل بأن الهيكل الحالي هو الهيكل الرابع، وفي الهيكل الذي كان

قبله جرى ختان الطفل يسوع، وقد تم تقديم غرلته من قبل ملاك في الهيكل إلى شارل الكبير، ومن قبله نقلت إلى غاليا ثم إلى آخن، ونقلت فيها بعد من قبل شارل الجريء إلى منطقة بواتو في أكوتين، إلى كارو Charroux.

وجرى تقديم يسوع في الهيكل من قبل أمه، وتم تسلمه من قبل سمعان، ومن الهيكل طرد يسوع الناس الذين كانوا يبيعون ويشترون، وأطلق سراح المرأة التي اقترفت الزنا، وحررها من أيدي الذين اتهموها، ومن الهيكل جرى إلقاء جيمس المبارك على أم رأسه، وفي الهيكل كانت البشارة التي أعلنها الملاك إلى زكريا حول ولادة ابنه، وفيما بين الهيكل والمذبح مات زكريا بن براخيا، وجرى تحويل هذا المذبح، فيما بعد من قبل المسلمين إلى مزولة حتى يمكن مشاهدته من قبل الجميع، في الساحة في القدس، وإلى جانب القديسة حنه، وليس بعيداً عن الباب الذي يفضي إلى شعفاط هناك بركة الضأن.

وفي وسط القدس أقام يسوع فتاة من الموت، وفي القدس جرى قتل جيمس الثاني بالسيف من قبل هيرود، ثم جرى نقله إلى يافا، ومن هناك فيما بعد إلى اسبانيا.

وفي داخل الهيكل منطقة هي مسكن الفرسان الجدد الذين يحرسون القدس.

وفي القدس Xenodochium أو الـ Nosokomion, ونقلت كلمة Xenodochium الاغريقية وترجمت إلى اللاتينية بمعنى ملجأ للمسافرين والناس الفقراء، أما الـ Nosokomion أي المشفى، فهو المكان الذي يعتني بالناس المرضى، الذي كانوا ينقلون إليه من الساحات والأزقة.

وخلف أسوار القدس، بين برج تانكرد، وباب القديس اسطفان،

هناك مكان اقامة للمجذومين.

وقد قيل بأن الأمير اليهودي هركانوس، كان أول من أقام مشفى، بالأموال التي أخذها من قبر داود.

وفي المنطقة خارج مدينة القدس باتجاه الشرق، هناك وادي أبناء هنوم Hinnom وفيه توفث Topheth, وهو المكان الذي لم يخجل فيه بنو اسرائيل من عبادة أصنام الأمم، وعرف وادي هنوم باسم وادي جهنوم Gehinnom, بسبب أن العبرانيين ذبحوا هناك أبناءهم للشياطين، وأطلق عليه أيضاً اسم وادي الأوثان، لأنهم عبدوا الأوثان هناك، ووادي جثسيماني هو وادي شعفاط، ووادي جهنوم متصل بجثسيماني.

وفي أيام حكم سليمان بنيت بركة سلوان، التي هي موجودة على سفح صهيون، وتقريباً في وادي شعفاط.

ووفقاً لتقاليد العبرانيين تنبع مياه سلوان في شيلو، ويجري جدول سلوان بصمت لأنه موجود تحت الأرض، وتحت سلوان هناك نبع روجل (عين أم الدرج)، وإلى جانبه جرى دفن اشعيا المبارك، فهذا ماقيل، وبعد نبع روجل هناك «الزاحفة»، وهي صخرة إليها جلب أدونيا الأضاحي للذبح والتقدمة.

وفوق سلوان، إلى الجنوب هناك بركة فولر Fuller والحقل الملاصق لحقل شجرة التين، الذي فيه حق الدم، حيث يجري دفن المسافرين، وفوق حق الدم يوجد جيجون، حيث جرى مسح الملك سليمان، ليكون ملكاً، من قبل صادوق الكاهن.

وقالوا بأن جيمس المبارك جرى دفنه في وادي شعفاط، ومن هناك نقل إلى القسطنطينية، وفي وادي شعفاط جرى دفن الملك شعفاط، في آبدة ذات سقف مائل.

وعلى بعد ميل عن القدس، باتجاه البحر الميت، يوجد بيت عنيا، حيث استقبل سمعان يسوعاً بمثابة ضيف، وهناك استحقت مريم الغفران من الذنوب، وهناك أقام لعازر من الموت.

وبين بيت عنيا وجبل الزيتون يوجد بيت فاجي.

وعلى جبل صهيون غسل يسوع أقدام حوارييه، وتناول العشاء معهم، وفي القدس باع يهوذا يسوع إلى اليهود، وعند منعطف جبل الزيتون، المكان الذي صلى فيه يسوع إلى الأب، وأيضاً حيث قال لبطرس: «أولم يكن بإمكانك أن تسهر معي ساعة»، وهناك عندما رجع يهوذا إلى جشسياني، تمت خيانته لليهود، فقاموا بربط يسوع وقدموه في رواق سليمان إلى حنان وقيافا، ثم اقتادوه إلى صهيون إلى مكان كان اسمه Lithostortos (دار رئيس الكهنة)، وهو مكان مايزال حتى الوقت الحالي يحمل هذا الاسم نفسه خارج باب الكنيسة.

ثم إنهم اقتادوه إلى الجمجمة، وذلك بعد كثير من السخرية، وهناك جرى صلبه بين لصين.

وفي ميدان التجار، هناك كنيسة اسمها «اللاتينية»، وسبب ذلك أن اللاتين كانوا قد تملكوها منذ أيام الرسل، وهذا هو المكان الذي بكت فيه أم الرب على ابنها بعد آلام المسيح، ومثلها فعل الحواري فبكى معلمه.

وتحت موضع الجمجمة إلى اليمين، وأنت داخل إلى الكنيسة، هناك بيعة، وذلك حيث قيل بأن المريمات الثلاث بكين من أجله، عندما كان يتألم على الصليب، وليس بعيداً عن هناك دفن يوسف يسوعاً.

وفي عشية عيد الفصح من كل عام، حيث يستعد كثير من الناس لها، يجري تكريم ضريح الرب بالنار التي تشتعل بشكل رباني، وفي المكان القائم بين الضريح، وموضع الآلام، ظهرت مريم المجدلية ليسوع.

وفي المكان الذي اسمه السجن، انتظر يسوع، أثناء اعداد الصليب من أجله.

وعلى مسافة ثمانية أميال من القدس، هناك يثروبولس Eutheropolis, أي عمواس، فهناك ظهر لاثنين من حوارييه كانا يسيران على الطريق، وفي جبل صهيون ظهر لحوارييه عندما كان توما غائباً، وبعد ذلك أيضاً عندما كان حاضراً.

ومن على جبل الزيتون صعد الى الأب، وهناك جسد بلجيا المباركة مدفون.

وفي جبل صهيون ماتت مريم المباركة، ومن هناك حملت إلى شعفاط من قبل الرسل،وفي جبل صهيون نزلت الروح القدس على الحواريين،وفي جبل صهيون،يقال بأن داود وسليمان،وملوك القدس الآخرين قد دفنوا، وأمام الباب الغربي للقدس، جرى رجم اسطفان المبارك، ومن هناك نقل الى صهيون، ودفن مع نيقوديموس Nicodemus, وبين القدس وشعفاط هناك كنيسة، قالوا بأنها بنيت حيث جلس شاول، عندما قاموا برجم اسطفان.

وليس بعيداً عن القدس هناك كهف، إليه نقل أسد — بناء على أمر من الرب— في ليلة واحدة، اثني عشر ألف شهيد، كانوا قد قتلوا من قبل خسرو (كسرى).

وعلى بعد ميلين هناك الموضع الذي نمت فيه شجرة صليب الرب.

وليس بعيداً عن موضع الجمجمة، يوجد المكان، الذي فيه تم العثور على الصليب.

وكانت هيلانة بعدما فتشت بدقة موضع الجمجمة، تسببت بتنظيف الموقع، وحطمت تمثال فينوس، الذي وضعه هادريان هناك لإهانة المسيحيين.

وجبل الزيتون هو متصل بجبل العدوان، حيث أغوي الملك سليمان من قبل نسائه على عمل تمثال لكموش ومولوك.

وعلى بعد ثلاثة أميال من القدس هناك عناتا، التي جاء منها ارميا العناتي.

وعلى بعد مسافة ميل من القدس، وعلى الطريق نحو جاجا، هناك مكان اسمه سكوبولوس Scopulus, حيث خرج سبط لاوي لمواجهة الاسكندر.

وعلى بعد خمسة أميال إلى الجنوب من القدس، توجد البلدة، التي زارت فيها مريم اليزابث وسلمت عليها، وهناك —كما قيل— ولد جون.

وعلى مسافة ميلين من القدس، على الطريق الذي يقود إلى نابلس، هناك جبل جبعة، ومدينة فنحاص حيث يقال بأنه دفن هناك [المتداول هو أن القبر في عورتا إلى الجنوب من نابلس، وجبعة هي تل عاصور].

وعلى بعد ميل إلى الجنوب من عمواس هناك جباتا، حيث حبقوق مدفون.

ومن جبعة صار شاؤول ملكاً في الجلجال، في جبعة جرى اغتصاب زوجة أحد اللاويين.

وبين القدس وعسقلان، قرب بيت شمس، هناك ابن— عزير Eben- ezer, وهو المكان الذي استولى فيه الفلسطينيون على تابوت الرب، (لعل الموقع هودير أبان إلى الشرق من عين شمس)، وبيت-هورون Beth- Horon موجود في ديار أبناء يوسف، وهي المدينة التي إليها هزم يوشع القبائل، وهناك بيتان تحت اسم بيت هورون، هما بيت هورون الفوقا،وبيت هورون التحتا، وقد بنى سليمان الفوقا، أما التحتا فقد أعطيت إلى اللاويين ليتملكوها.

وفي منطقة بيت هورون ولد النبي يوئيل، وكذلك دفن.

وعلى بعد سبعة أميال من القدس، وعلى الطريق الذي يقود إلى نابلس، هناك جبعون، التي جاء منها الجبعونيون، وهناك جبعون أخرى قرب راماوريمون، وذلك حيث كان سليمان قد نال النبوءة الربانية، وحيث كان يوشع بن نون يقاتل، فتوقفت الشمس، كما يقال.

وفي المنطقة التلية للخليل يوجد موقع زيف (تل زيف)، الذي يعرف أيضاً باسم الكرمل، فهناك كانت قرية نابال الكرملي، والكرمل هذه هي التي طلب فيها داود أرغفة وطعاماً لرجاله من نابال، وكان ذلك عندما هرب من وجه شاؤول، وقابلت أبيجايل داود عندما كان مغادراً للكرمل، وتمكنت من تهدئته بوساطة هدايا سخية، وبعد وفاة نابال اتخذها داود زوجة له.

وهناك زيف أخرى، التي منها جاء الزيفيون، وفي الصحراء العائدة لهذه القرية، اختبأ داود من أمام شاؤول، وزاره يوناثان، وهنا أيضاً المكان حيث استولى داود على كأس شاؤول ورمحه.

وعلى مسافة ثمانية أميال من عمواس، على الطريق الذي يقود إلى الخليل، توجد مدينة كيلا (خربة كيلا) حيث اختبأ داود في إحدى المرات.

وعلى مسافة تسعة أميال من القدس، على الطريق الذي يقود إلى الرملة، يوجد جبل مودين، التي جاء منها ماتياس أبو المكابيين، ولقد كانت هذه في يوم من الأيام مدينة لاترام تقريباً، ومن الممكن رؤية بحرين من هناك، هما: البحر الكبير، والبحر الميت، وفي مودين يرقد ماتياس مع أولاده الأربعة وحفيديه، تحت سبعة اهرامات ماتزال موجودة حتى الآن.

وعلى الطريق النازل من القدس إلى أريحا تقوم أدوميم، وهي تعرف

الآن باسم الصهريج الأحمر (الخان الأحمر)، وقد أتى الرب على ذكر هذا المكان، عندما وصف الرجل الذي وقع بين اللصوص.

وعلى بعد ثلاثة عشر ميلاً من القدس هناك أريحا، وقد انقسم نهر الأردن عند وصول إيليا واليشع، فعندما جرى اعتقال إيليا، رمى رداءه إلى اليشع، وهو الآن محفوظ بالقسطنطينية بمثابة كنز ثمين.

وعندما كان يسوع يسير خلال أريحا، تسلق زكا على شجرة جميز.

وكان في أريحا، في أيام القديس سابا بيتاً للمضافة، فيه كثيراً من المحبة قد أبديت، وكان هو على رأسه، وحدث أنه كان لديه ضيف صديق اسمه توما من مدينة مادبا، وقد أكل الرجلان مع بعضهما وأكل معهما أيضاً الرجلان المقدسان كثيراً: بولص، وثيودور، ووقتها جرى إخبار المبارك سابا أنه ليس لديهم خمرة، ولاأي مشروب مهما كان، باستثناء قليل من مرق الحنظل، الذي فيه يطبخون الخضار من أجل الوجبة، وجلب ذلك السائل إلى أمام سابا، وعندما باركه، تحول إلى خمرة، وكانت كمية وافرة إلى حد أنها كانت كافية إلى جميع الذين كانوا في المضافة، للأيام الثلاثة التالية، وعندما عاد ضيوفه إلى وطنهم أعطى الخمرة إلى توما وأصحابه، واحتفظ ببعضها للذين كانوا مرضى لشفائهم بها عندما يدهنون بها.

وفي أريحا جلس رجل أعمى على الطريق، وقد استحق الشفاء من قبل الرب.

وعند الصوة الثانية من أريحا، هناك المكان الذي صام فيه يسوع أربعين يوماً وأربعين ليلة، وهو مكان يعرف الآن باسم الأربعين (خلف عين السلطان)، وذلك حيث أغواه الشيطان، وقال له: «قل لهذه الحجارة حتى تصبح خبزاً».

وعلى بعد ميلين من الأربعين، باتجاه الجليل هناك جبل مرتفع، من

فوقه مكن الشيطان يسوعاً من رؤية جميع ممالك العالم.

وتحت الأربعين هناك مجرى النبع الذي كان مراً، لكن اليشع جعله عذباً، بصب الملح فيه.

وعلى بعد عشرين ميلاً من القدس، هناك اللد، التي هي ديوبولس، ومعنى ذلك المدينة المزدوجة.

وفي منطقة ديوبولس توجد تمنه، التي كانت فيها مضى قرية كبيرة، فهناك جز يهوذا صوف غنمه،عندما اضطجع مع تامار، على مفرق الطرق (وذلك على بعد ميل من تمنه) وقد ولدت له: فارص، ورازح.

وعلى مسافة أربعة أميال من ديوبولس، هناك أرماثا، أي راماثيم— زوفيم، وهي مدينة: القانه، وصموئيل، وقد ذكر الانجيل هذا المكان، على أنه المكان الذي دفن فيه يوسف.

والأربطة التي أخذها يوسف هذا نفسه عندما أنزل يسوعاً من على الصليب، قد أخذهم حالياً أسقف بيت لحم، وحملهم إلى بيت لحم، وكذلك واحد من مسامير الرب، ذلك أن اثنين من هذه المسامير محفوظين في بيعة ملك القدس.

وعلى بعد ميلين من ديوبولس باتجاه البحر، توجد قرية باث، حيث نحت نيقوديموس صورة خشبية لوجه الرب، هي موضع اكرام في لوكا Lucca في ايطاليا.

وعلى مسافة ميلين من ديوبولس باتجاه البحر، توجد يافا، التي فيها أعاد بطرس طابيتا إلى الحياة، وحيث ظهرت الملاءة لبطرس [أعمال الرسل: ١٠/ ١١]، ويشار إلى صخرة هناك، عليها أثار أغلال أندروميدا.

وعلى مسافة ستة أميال من يافا هناك أرسوف، التي بناها سليمان.

وعلى بعد عشرين ميلاً إلى الشرق من أرسوف، توجد دور (خطأ دور هي الطنطورة قرب حيفا)، وهذه هي المدينة التي سماها هيرود قيسارية، تشريفاً منه لأغسطس قيصر، فهناك بني ميناء من الرخام الأبيض، وهناك عمد بطرس كورنيليوس، وحول بيته إلى كنيسة، ورسمه أسقفاً، وهناك أيضاً مدفون أربعة عذراوات كن نبيات، وقد قيل كان في قيسارية هذه يوسبيوس الأستاذ، أسقفاً، وفي قيسارية كان فيما مضى برج ستراتو، فهناك في هذا المكان جلس هيرود مرتدياً أثوابه الأرجوانية، فضرب بانتقام رباني ومات.

وفي أيام المسلمين كانت قيسارية مزدهرة إلى حد أنها أصبحت جنة بين بابل وبابليون (أي مابين بغداد في بلاد فارس وممفيس في مصر)، وهناك جرى دفن رجال نبلاء وأقوياء، وفي جميع المناطق حول المدينة، يوجد في الحدائق حجارة صغيرة لها فتحات، من أجل المزج مع وقود النار والبخور، وعندما كان يحمله الهواء، تصبح رائحة المدينة كلها طيبة، وبذلك كان يجري طرد الروائح السيئة، ويصبح المواطنون مبتهجة قلوبهم، لكن الآن كل هذه الأشياء قد دمرت تدميراً كاملاً.

ويوجد في الأنهار حول قيسارية تماسيح، التي هي ثعابين مرعبة، ولايشبه فم التمساح أي فم، لأن الفك العلوي متحرك، لكن الجزء السفلي يبقى ثابتاً، وليس للتمساح مخرج سفلي، وعندما يمتلىء التمساح بالطعام ينام على ضفة النهر، ويقصد مكان استراحته المعتاد، ثم إنه يرتاح على قدميه، ورقبته ممتدة، وينام وفمه مفتوح ليتمكن من التنفس، وعندما يصبح التمساح نائماً، تزحف بعض الديدان فوقه، وتدخل إلى أمعائه، وتتغذى على طعام التمساح، وتعمل إحدى الديدان بمثابة بواب للبقية، وحارس، لأنه يخشى أن يستيقظ التمساح، ويحبسهم في الداخل، وهكذا فإنه يلسع ثم يلسع ثانية العرق الأسفل في الفك العلوي، وبذلك يجري خداع التمساح من قبل الحيوانات.

ويكره التمساح الإنسان أكثر من كراهيته لأي مخلوق آخر، لكن هناك ثعبان آخر (ابن عرس) اسمه ثعبان الماء، يحب الإنسان أكثر من جميع المخلوقات، وهو يكره التمساح، والتمساح يكرهه، ولذلك يسعى كل واحد منهما على الدوام لاصطياد الآخر، ويخفي ثعبان الماء نفسه في الوحل، ثم يدخل إلى جوف التمساح، لأنه أثناء قيام التمساح بصيد الأسماك، يبتلع سمكتين أو ثلاثة من دون أن يلاحظ، ويقوم ثعبان الماء أثناء وجوده في السجن المغلق عليه، فيسبب الاضطراب في الأجزاء الداخلية للتمساح، ويدمر الكبد، ويجرح القلب، ثم يحدث فتحة في جنبه، ويخرج من هناك وقد مات عدوه.

وسوف أتحدث باختصار عن كيفية حصول التماسيح في قيسارية، وكيف جاءوا إليها، فقد كان هناك في الأيام الخالية أخوان حكما بسلطة متساوية، ولأن الأخ الكبير لم ينفرد لوحده بالسلطة أعدّ فخاً لأخيه، الذي كان معروفاً باصابته بالجذام، وخطط لإحضار زوجين من التماسيح من النيل، ووضعهم في هذه الأنهار، فبذلك يمكن لأخيه (الذي اعتاد في فصل الصيف الاستحمام في النهر) أن يموت، وبالتالي سوف يحكم لوحده، وفي الحقيقة كان هذا ماحدث، وصار الأخ الأكبر الملك لوحده.

وعلى مسافة عشرة أميال إلى الشرق من قيسارية، توجد أسخريط، التي جاء منها يهوذا الخائن، الذي أطلق عليه اسم الأسخريوطي.

وعلى بعد ستة أميال من أسخريط هناك بورفيريوم Porphyrium, عند سفح الكرمل، وهي قد كانت فيما مضى مدينة ممتازة.

وجبل الكرمل هو المكان الذي تحدث فيه ايلياء مع اليشع لمدة طويلة، وحيث قام بحضور أربعمائة وأربعين كاهناً من كهنة بعل، بتقديم أضحية للرب، وأعطيت إليه نار من السماء، وجرى اعتقال

الكهنة، ومن ثم جرى نقلهم وهم أسرى من هناك عبر قيشون، وأعدموا بالسيف، وهرب إيلياء من جزبل Jezbel, ووصل من هناك إلى حوريب، وحوريب هو جبل واقع إلى جانب جبل سيناء.

وعلى مسافة ثلاثة أميال من الكرمل هناك جبل قاين (تل قيمون)، وعند نبع واقع عند سفحه قتل لامخ أخاه قاين بسهم، وقتل بقوسه قائده.

وعلى بعد عشرة أميال من جبل قاين توجد عكا، التي عرفت باسم بيطولومي من اسم الملك بطليموس الذي أسسها، ويصل إلى هذا الميناء العدد الأكبر من السفن المسيحية، وذلك أكثر مما يصل إلى أي مكان آخر، على الساحل بين عسقلان وجبل طوروس، وهكذا يصل إلى هذا الميناء، وتتجمع البضائع الضرورية للحياة من أفريقيا، وأوروبا، وآسيا، وهذا هو المكان الذي يظهر فيه نبع في شهر آب من كل عام، على شاطىء البحر، في نقطة ليست بعيدة عن الأسوار الشرقية، وتسيل الجداول إلى البحر، ويتحرر الشخص الذي يشرب من هذه الجداول من الإمساك إذا مارغب بذلك، ولهذا السبب يتجمع خلق كثير في هذه البقعة، ممن يسكنون فيما بين الفرات والنيل.

وعلى بعد ستة عشر ميلاً من عكا، تقع صور، التي عرفت في العصور الخالية باسم سرّا Sarra صدوراً عن اسم نوع من الأسماك موجود بوفرة هناك، ويطلق السوريون على هذا السمك، بلغتهم الخاصة اسم «سر» Sar ومن هنا جاء أصل اسم هذا السمك «سرّي» Sarrae أو سردين، ويطلق العبرانيون على مدينة تير Tyre اسم «صور»، والاسم الشائع الآن لدى الجميع هو «صور»، وقد أسس الفينيقيون مدينة صور، عندما جاءوا من البحر الأحمر.

وعلى بعد أربعة عشر ميلاً عن صور، تقع مدينة صيدا، وأسس صيدا صيدون، الابن الأول لكنعان بن حام، ومنه جاء الصيداويون، أو الصيداوي، وحكم في صور وصيدا فونكس Phoenix, أخو كثموس (قدموس) المصري الطيبي، وكان ذلك عندما جاء إلى سورية، ومنه ومن اسمه صار الناس يدعون باسم «الفينيقيين»، وكذلك جميع منطقة فينيقيا، وقد احتلت صور المكان الرئيسي فيها، وحكم حيرام في صور، عندما كان سليمان ملكاً في القدس، ولم ترغب صور باستقبال المسيح، عندما سار على طول الساحل، فهذا مايقوله السوريون ويعلنونه، ولكن بعدما قام يسوع من الموت، استقبلت بولص، حيث بشر بالشريعة وبالانجيل باسمه، ثم إن بولص ركع بعد ذلك على الرمل وصلى من أجل أن تقوم رحمة المسيح بتمتينها في إيمانها.

وليس بعيداً عن صور هناك الصخرة التي يقولون بأن يسوعاً قد جلس عليها، وهي التي بقيت من دون التعرض للأذى وسليمة من زمانه حتى جرى طرد المسلمين من المدينة، ولكن فيما بعد جرت سرقتها من قبل الفرنجة وكذلك من قبل البنادقة، وفي المكان الموجودة فيها، وفوق بقاياها، قد بدأ الآن العمل ببناء كنيسة، جرى تكريسها إلى المخلص.

وقدمت صور —حسبما حدثنا بيد Bede المبجل— كثيراً من الشهداء للرب، لم يستطع بعلمه أن يحصيهم، فالرب وحده فقط هو الذي يستطيع تعدادهم، وفي صور اختبأ أورجين Origen وفيها دفن.

وهاجم الاسكندر الكبير صور، ووصل سورها بالبر، وهو السور الذي يحميها هذه الأيام من جهة البحر.

وقام البطريرك وورموند، صاحب الذكرى المباركة، بفضل نعمة

الرب، وبإذن منه، في أيامنا بحصار صور بشجاعة، والاستيلاء عليها، بمساعدة البنادقة، براً وبحراً.

ومن منطقة صور وصيدا، خرجت المرأة الكنعانية، وجاءت إلى يسوع وقالت له: «ارحمني يابن داوداً، ولدى التجول في تلك المنطقة، وخلال وسط حدود من الديكابولس (المدن العشرة) حتى الجليل، أعاد السمع إلى الرجل الأعمى، والكلام إلى الأخرس.

وعلى بعد ستة أميال من صيدا، على شاطىء البحر، باتجاه صور، هناك صرفند الصيداويين، التي إليها جرى ارسال اليشع من قبل الرب إلى الأرملة الصرفندية، حتى تعطيه طعاماً، وحينما مكثا معاً، شبعا بقليل من زيت الزيتون مع قليل من الطحين، وهنا أقام اليشع من الموت ابن الأرملة أماثوس Amathus, أي يونه، وجمعت المرأة قطعتين من الخشب في الصرفند.

وفي جبال صيدا والصرفند، جاث— حافر (المشهد على ثلاثة أميال من الشمال الشرقي للناصرة)، وهي البلدة التي جاء منها يونه.

ومن صيدا جاء ديدو، الذي بنى قرطاج في أفريقيا.

واستولى الفينيقيون على صيدا، واستمروا يسمونها صيدا، بحكم أن صيدا بلغتهم معناها «سمك».

وعلى مسافة ثمانية عشر ميلاً من صيدا، توجد بيروت، وهي مدينة غنية جداً، وكان في بيروت تمثال لمخلصنا، كان نيقوديموس، قد صنعه بيديه، وحدث بعد وقت قصير من آلام المسيح، وللسخرية منه، أن تم استهزاءً من قبل بعض اليهود، صلب التمثال، فأخرج دماً وماء، ولهذا السبب آمن كثيرون بالمسيح وعاد كل واحد من الناس، على كثرتهم، جرى مسحه بنقطة من التمثال، إلى الصحة التامة ثانية.

وعلى بعد عشرين ميلاً إلى الشرق من بيروت، هناك بيبلوس، التي هي جبيل، وبالعبرية غوبل، فهي كانت الميناء الذي نقل منه خشب لبنان، لبناء بيت الرب في القدس، حيث أنه شحن من جبيل إلى يافا.

وعلى مسافة عشرين ميلاً من جبيل باتجاه الشرق توجد طرابلس، وهي مدينة سكان المنطقة وحاضرتها، وهي محمية بأسوار جبارة وبالبحر.

وعلى بعد اثني عشر ميلاً إلى الشرق من طرابلس ألبانا (أبانا)، الذي هو نهر عرقة، ومن هذا النهر تبدأ مملكة القدس.

والقدس هي المكان الذي تأصلت فيه ثلاثة أشياء: من خلال يهوذا المكابي: الصلاة العامة على الميت، والمنافع العامة، ومن خلال هركانوس، المشفى العام.

وبُني البرج الذي اسمه برج داود من قبل هيرود، وعندما دمر تيتوس وفسبسيان المدينة تركا هذا البرج قائماً بمثابة علامة على النصر.

والقلعة التي بناها داود لنفسه، والتي فيها نظم المزامير، هي بين الكنيسة التي بنيت الآن (وزينت) على صهيون، وبين بيت لحم (الأفضل القول: باتجاه بيت لحم)، وذلك على رابية عالية جداً، وظلت موجودة في هذا الموقع حتى أيام الابن الأصغر لمتاثياس، الذي دمر القلعة والرابية، وعندما دمر تيتوس وفسبسيان المدينة، لم يخلياها من سكانها فقط، بل جرداها من تابوت العهد، والأشياء الموجودة فيه، فقد أخذاهم معهما إلى روما، وذلك حسبما هو ظاهر في النقوش، الموجودة على قوس النصر، الموجود بين البالاديوم Palladium, وتل البالاتاين Palatine, بعد كنيسة القديسة مريم الجديدة.

وأعطيت مفاتيح هذا البرج أولاً إلى الدوق غودفري من قبل البطريرك ديبرت Daybert, ولذلك هيأ كل ماكان بإمكانه

وقدمه إلى البطريرك مع الألقاب في الكنيسة، وكان غودفري مسروراً أنه امتلك اللقب الأول والمرتبة الأعلى، لكن ليس تحت لقب ملك، بل «عبد الرب».

ونذر بالاضافة إلى ذلك، أنه لو سمحت له العناية الربانية بالاستيلاء على عسقلان، فإنه سوف يعطي جميع موارد القدس، ويضعها في أيدي جنود الرب في الضريح المقدس، وتحت سلطة البطريرك، لكن بعد إكماله العام تقريباً، واجه نهايته، وكان من غير الممكن بالنسبة له تجاوزها، وقد دفن وسط نحيب لايوصف أمام الجلجلة، وذلك حيث جرى صلب ربنا، وعلى قبره كتبت هذه الأبيات الشعرية:

هنا يرقد حاج فرنجي، الذي موضع

صهيون المقدس ابتغى وقصد، ونجم رائع هو

الدوق غودفري. فقد أصبح للمصريين سبب

الخوف، وهزم العرب، وأوقع الفرس بالفخ

وانتخب ملكاً، لكنه لم يختر اسم ملك

وكذلك رفض تاج الملك، لكن تحت المسيح

اختار أن يخدم. وكان همه أن يعيد

مرة أخرى شرائع صهيون إليها نفسها (القدس)

وفي العقيدة الكاثوليكية أن يتبع العقيدة الصحيحة

وأن يراها قد اتبعت من الجميع، وجميع الهرطقات

من حوله جرى تدميرها، وساد الحق والصواب

وهكذا توج مع جميع القديسين في عليين

فخر الجنود، وقوة الشعب، وأمل رجال الدين.

★★★ ★★★ ★★★

وخلفه أخوه بلدوين....

وبلدوين دي بورغ خلفه

وبعد هذا كان فولك المحترم هو الثالث— كونت أوف

أنجو، وأوف سينوماني Cenomani

- ٥ -

مختارات من كتاب حول الأماكن المقدسة
تأليف
بطرس الشماس
(١١٣٧م)

القدس وأماكنها المقدسة:

شيد ضريح الرب، الذي كنا قد تحدثنا عنه من قبل، في وسط الهيكل، والهيكل موجود في مركز المدينة باتجاه الشمال، ليس بعيداً عن باب داود، وخلف القيامة حديقة، فيها تحدثت مريم المقدسة مع الرب، وخلف الكنيسة، وخارجها مركز العالم، وهو المكان الذي عنه قال داود: «أنت عملت خلاصاً في وسط الأرض»، كما وقال نبي آخر: «هذه هي القدس، أنا أقمتها في وسط الأمم».

....وليس بعيداً عن مركز العالم هناك السجن، وهناك جرى وضع الرب في الأغلال، وجلد، وقرب ذلك جرى سلبه، واقتسام ملابسه.

وعلى الجمجمة (أكرا) حيث جرى صلب الرب، هناك صدع بالجبل، ويصعد الإنسان إلى جبل أكرا بوساطة سبع عشرة درجة، وهناك سبعة مصابيح معلقة في ذلك المكان، كل واحد منها له غطاء من الفضة، وتحت هناك الجلجلة إلى حيث سال دم المسيح وسقط على الصدع في الصخرة.

وإلى الشرق، وتحت جبل الجمجمة، هناك هيكل الرب، في جزء آخر من المدينة، وهوالذي بني من قبل سليمان، وهو له أربعة أبواب: الباب الأول موجود على الشرق، والثاني على الغرب، والثالث على الجنوب، والرابع على الشمال، مما يشير إلى الجهات الأربع للعالم، وفي خارجه له ثماني زوايا، والتفاف كل زاوية اثنتي عشرة خطوة، وفي وسط الهيكل

هناك جبل كبير مطوق بالأسوار، فيه كانت موجودة الخيمة، وهناك كان تابوت العهد، الذي بعد تدمير الهيكل، جرى نقله إلى روما من قبل الامبراطور فسبسيان.

وعلى الطرف اليساري من الخيمة، وضع المولى يسوع قدمه، وكان ذلك في مناسبة أخذ سمعان له بين ذراعيه، ومازال طبعة قدمه موجودة هناك تماماً، وكأنها قد عملت فوق شمع، وعلى الطرف الآخر من الصخرة فتحة الخيمة، التي ينزل إليها الناس بوساطة اثنتين وعشرين درجة، وهناك صلى الرب، وقدم أيضاً زكريا أضحية، وخارج الهيكل، المكان الذي قتل فيه زكريا بن براخيا، وفوق الصخرة، في وسط الهيكل، هناك مصباح ذهبي، يحتوى على دم المسيح، الذي سال من خلال صدع الصخرة.

وليس بعيداً إلى الجنوب، قد بني هيكل سليمان، الذي فيه قد عاش، والذي له خمسة وعشرين باباً، وهناك في داخله ثلاثمائة واثنين وستين عموداً، وليس بعيداً عن هناك، يوجد مهد المسيح وحمامه، وفراش الأم المقدسة للرب، وتحت هيكل الرب ودونه نحو الشرق الباب الجميل، الذي منه جاء الرب داخلاً، وهو جالس على ظهر فلو ابن أتان، وهناك أيضاً شفى بطرس، الرجل الأعرج، وإلى الشمال هناك كنيسة القديسة حنة، وذلك حيث عاشت مريم المباركة لمدة ثلاثة أعوام، وعلى مقربة منها هناك بركة الضأن، التي لها خمس قناطر.

منديل رأس المسيح:

ومنديل الرأس الذي مسح به المسيح وجهه، أو الذي يعرف باسم ورنيقا Veronica, قد جرى حمله إلى روما في أيام القيصر تايبيروس، وكذلك القصب الذي ضرب به رأسه، ونعليه والأربطة التي كان ربط بها، وغرلته، ودمه، فهذا كله محترم في روما.

وادي شعفاط. جبل الزيتون. بيت عنيا:

عبر جدول قدرون هناك كهف، وفوقه كنيسة، أقيمت فوق المكان الذي قام فيه اليهود باعتقال المخلص في يوم الخميس بعد العشاء، وهذا المكان موجود عند رأس وادي شعفاط.

وليس بعيداً عن هناك مكان استشهاد اسطفان المقدس، وليس أيضاً بعيداً عن ذلك المكان يوجد الموقع الذي صلى عليه الرب، وذلك عندما أخذ عرقه يتساقط مثل نقاط من الدم، وعلى الطريق إلى بيت عنيا، القرية التي جلبت منها الأتان.

الخليل:

في الخليل قام بيت داود، حيث جزء منه مازال موجوداً حتى الآن، وإلى هذا اليوم مازال الناس يذهبون إلى الصلاة في القاعة التي عاش فيها، وليس بعيداً عن الخليل، أي على مسافة ثلاثمائة ياردة، في المكان الذي اسم أبراميري Abramiri, يوجد بيت يعقوب، حيث بنيت كنيسة من دون سقف.

....وأبراميري هو كرم، فيه الكهف المدفونة فيه أجساد أحد عشر ولداً من أولاد يعقوب، لأن عظام يوسف دفنت منفردة في كنيسة خاصة بهم، وليس بعيداً عن الخليل قبر أبنير Abner ابن نير Ner.

أريحا. الأردن. البحر الميت:

إذا مارغب إنسان بالذهاب من القدس إلى الأردن، يمضي نازلاً عبر طريق جبل الزيتون، ومن جبل الزيتون صعد المسيح إلى السماء، وكان هناك أنه عمل الصلاة الربانية.

وجبل صهيون هو نحو الجنوب، وهناك ماتت مريم المقدسة، وهناك

تناول الرب العشاء مع حـوارييه، وإلى هناك أيضـاً أرسل الروح القدس إلى حوارييه.

وفي الكنيسـة الموجودة في بيـت لحم، المائدة التي أكلت عليهـا مـريم المقدسـة مع الملوك الثلاثة، الذين جـاءوا يطلبون المسيح ابن الرب، وفي داخل هذه الكنيسة أربعة وستين عموداً، وهناك مدفون الأطفال، الذين قتلهم هيرود، بحثاً عن المسيح وطلباً له.

الجليل:

....جبل حـرمـون، جبل عظيم الارتفـاع، ومن هناك يتوفـر مشهـد يغطي جميع الجليل، وهو مشهـد لانظير لـه بالجمال، لأن السهل الواسع كله هو كروم عنب، وحقول زيتـون، وهناك الحقل الذي أكل فيه الرب مع حـوارييه، ومـازال يمكنك رؤية الصخـرة التي عليها أراح ذراعـه، وليس بعيـداً عن هذا الجبل هناك نبع باركه المخلص، وهو مفيـد للناس المرضى بجميع الأنواع.

وفي قرية نين بيت الأرملة، التي أعيد ابنها إلى الحياة، والذي هو الآن كنيسة، ومكان الدفـن الذي كانوا ذاهبين لتمديده فيـه، مايزال مـوجوداً حتى هذا اليوم.

وفي الناصرة حديقة، اعتاد الرب أن يكون فيها بعد عودته من مصر.

- ٨ -

نقول من رحلة نيقولا أوف بفيرا Veronica
من الدانمارك إلى القدس
[حوالي عام ١١٤٠م]

ومن هناك، أي من روما، توجد عشرة أميال إلى تيـ ..... ام Ti, ám [....] ثم بعـد ذلك هناك سفـر يوم إلى فلورنشـوبورغ Florenciusborg, ثـم يوم آخـر إلى سيبران Separan, وهناك يتدفـق نهر غاريليم Garileam, وهو يفصل مملكة روما عن صقلية، وهنـاك كـامبـانيـا Campania أو بول Pull قائمـة إلى الجنوب الشرقي، وإيطاليا إلى الشمال، ثم إن.... نابورغ [....] naborg على بعـد اثني عشر ميلاً عن سيبران، ثم من هناك ستة أميال إلى جبل مونتاكاسين Montakassin, حيث يوجد هناك دير كبير، وسـور دفاعـي يحيط بعشر كنائس، والأهم بين هذه الكنائس كنيسة بندكتيه، لايمكن للنساء أن يدخلنها، وهناك أيضاً كنيسة مارتين، التي بناها بندكت، وهي التي فيهـا اصبع الرسول متى، وذراع الأسقف مـارتين، وكـذلك هنـاك كنيسـة أندرو، ومثل ذلك كنائـس: مـريم، واسطفـان، ونيقـولا، ثم إنه من هناك سفـر يـومين إلى كـابا Kapa, وتقع جـرمـانـوس- بورغ Germanus- borg بعـد مونتـاكاسين، وبعد ذلـك هناك سفر يومين إلى بينيفينت Benevent التي هي أكبر مدينة في بول Pull, وإلى الجنوب الغربي من هناك توجد ساليرنيبورغ Salerniborg, حيث يوجد أحسن الأطباء، وتقع سيبونت Sepont عند سفح ميخائيلفول Michialsfiall, التي هي ثلاثة أميـال في العـرض وعشرة أميـال بالطول، وهي بعيـدة بعض الشيء عن الجبل، وهناك يوجد كهف ميخـائيل، وقطعـة القماش

الحريري التي أعطاها للمكان، ثم هناك سفر يوم إلى بارل Barl, وبعد ذلك سفر ستة أميال إلى ترون Traon, ومن هناك أربعة أميال إلى بيسينوبورغ Bissenoborg, وبعد ذلك أربعة إلى مالفيتابورغ Malfetaborg, وبعدها أربعة إلى ايفنت Ivent, ثم ستة إلى نيقولا Nicholas في بار Bar, حيث هو مدفون.

وفيما يلي طريق آخر، يتجه أكثر غرباً إلى كابا Kapa: من روما بورغ Romaborg إلى ألبانوبورغ Albanusborg, ومن هنا يسافر الإنسان على طول طريق Flaian [إقرأ: Traian] التي يستغرق السفر من طرف إلى آخر ثلاثة أسابيع، خلال تخوم وغابات، وهي من أعظم المنشئات الإنسانية وأكثرها شهرة، لأن الإنسان يسافر طوال اليوم خلال غابات، وكل خطوة هي خطوة غير ممكنة، إلاّ عبر طريق فلايان Flaian, ثم يصل الإنسان إلى تيرينتيانا Terentiana, وهي التي دمرها الرومان، ولذلك هي الآن صغيرة، ثم يصل إلى فونديانا Fundiana, ومن بعد ذلك إلى غايدا Gaida, وبعد ذلك هناك سفر يومين إلى كابا، ومن ثم يسافر الإنسان إلى بينيفنت، ويتابع من هناك إلى مانوبل Manupl, وبعد ذلك إلى برنديزي، ويوجد في ذلك الخليج فينيار Feneyiar, حيث هناك عرش بطركي، وهناك أيضاً الآثار المقدسة لمرقص ولوقا.

وعلى مسافة قصيرة من دوراكور Duracur تقوم ماريوهوفن Mariohofn, ثم يصل الإنسان إلى فيزغاردز هوفن Visgardzhofn, ومن ثم انكلسن Engilsnes, وبعد ذلك هنالك مسافة قصيرة إلى جزيرة باسينشيا Paciencia أو صقلية، حيث هناك نار بركانية، ومياه تغلي، مثلما هو موجود في آيسلاند

Tceland, ثم يصل الإنسان إلى البلدة التي اسمها مأخوذ من مارتين، وهي موجودة في بلغاريا، وبعد هذا يبحر الإنسان إلى الجزيرة التي اسمها كو Ku, وذلك حيث تلتقي الطرق من بول وميكليغاردر Mikligardr, لكونها واقعة إلى الشمال الغربي من بول، وذلك عبر جزيرة في البحر، ويتابع من كو إلى جزيرة اسمها رودس، ثم على الإنسان الابحار إلى بلاد الاغريق وإلى رودا كاستالي Raudakastali, وبعدها يصل إلى باتيرا Patera, وكان الأسقف نيقولا قد ولد هناك، ومدرسته ماتزال قائمة هناك، ثم يصل إلى ميرابورغ Mireaborg حيث كان أسقفاً، ثم هناك مسافة قصيرة إلى جالادان Jalandanes في أرض الأتراك، ثم يصل بعد سفر يومين في البحر إلى قبرص Kipr, وهناك يوجد خليج يسميه الشماليون Norsemen أتالسفيورد Atalsfiord, لكن الاغريق يسمونه غولّس Gullus [اقرأ Gulfus= خليج]ساتيلا Satalie, وعلى قبرص توجد بلدة يطلق عليها اسم بفّا Baffa [بافوس]، حيث يوجد هناك حصن الفرنجة Varangians, وهناك كان قد مات ايريكر Eirikr ملك الدانماركيين Danes, الذي كان ابن سوين Sveinn أخو كنوتر Knutr المقدس، وقد أوقف مالاً في لوكا Luka, وبناء عليه يمكن لكل رجل يتكلم بالدانماركية، أن يشرب خمرة من دون مقابل بكمية كافية، وقد بنى مشفى على بعد مسافة ثمانية أميال من بلازينزوبورغ Plazinzoborg, حيث يقدم الطعام إلى أي واحد، وسمح له البابا باسكال بنقل كرسي رئاسة الأساقفة من ساكسلاند Saxland إلى الدانمارك.

ومن قبرص رحلة يومين في البحر إلى عكا الموجودة في أرض القدس، ثم يصل الإنسان إلى كفر ناحوم، التي كانت تعرف بالعصور

القديمـة باسم بولوميدا Polomaida, ثم إلى قيسارية، ثم يصل إلى يافـا، التي عملهـا بلدوين ملك القدس صليبيـة، بالتعـاون مع ملك النيرويج— الملك سيغـورور ماغنوسـون Sigurор Magnus-son, وبعـد هذا يصل إلى عسقـلان القـائمـة في أراضي المسلمين، وماتزال غير صليبية، وإلى الشرق من عكا صـور، ثم صيدا، وبعد ذلك طرابلس، ثم الـلاذقيـة، وهناك خليج نحـن نسميـه - Anpekio, Fiord يمتـد في قلب الأرض، وهناك في الخليج مـدينة أنطاكيـة، حيث أسس الرسـول بطرس كرسي بطركي، وجميع هذه المدن مـوجودة في سـورية، ومنطقة الجليـل موجـودة في بلاد عكا، وهناك يوجـد جبل كبير اسمه الطور، وذلك حيث ظهر موسى وإيليا إلى الرسل، وبعد هذا تأتي الناصرة، حيث جـاء الملاك جبرائيل لمقـابلة مـريم، وحيث عـاش المسيح لمدة ثلاثة وعشريـن عـامـاً، ثم تأتي قـرية اسمهـا هناك غيلين Gilin, وبعدها تأتي Kastali- Iohannis التي عرفت من قبل باسـم السـامـرة، فهنـاك تمّ العثـور على آثار يوحنـا المعمـدان، وهناك أيضاً بئـر يعقوب، الذي منه، طلب المسيح، من امـرأة، أن تعطيه شربة ماء، ثم تأتي بعد ذلك نابلس، ثم بعد ذلك Maria Maka.

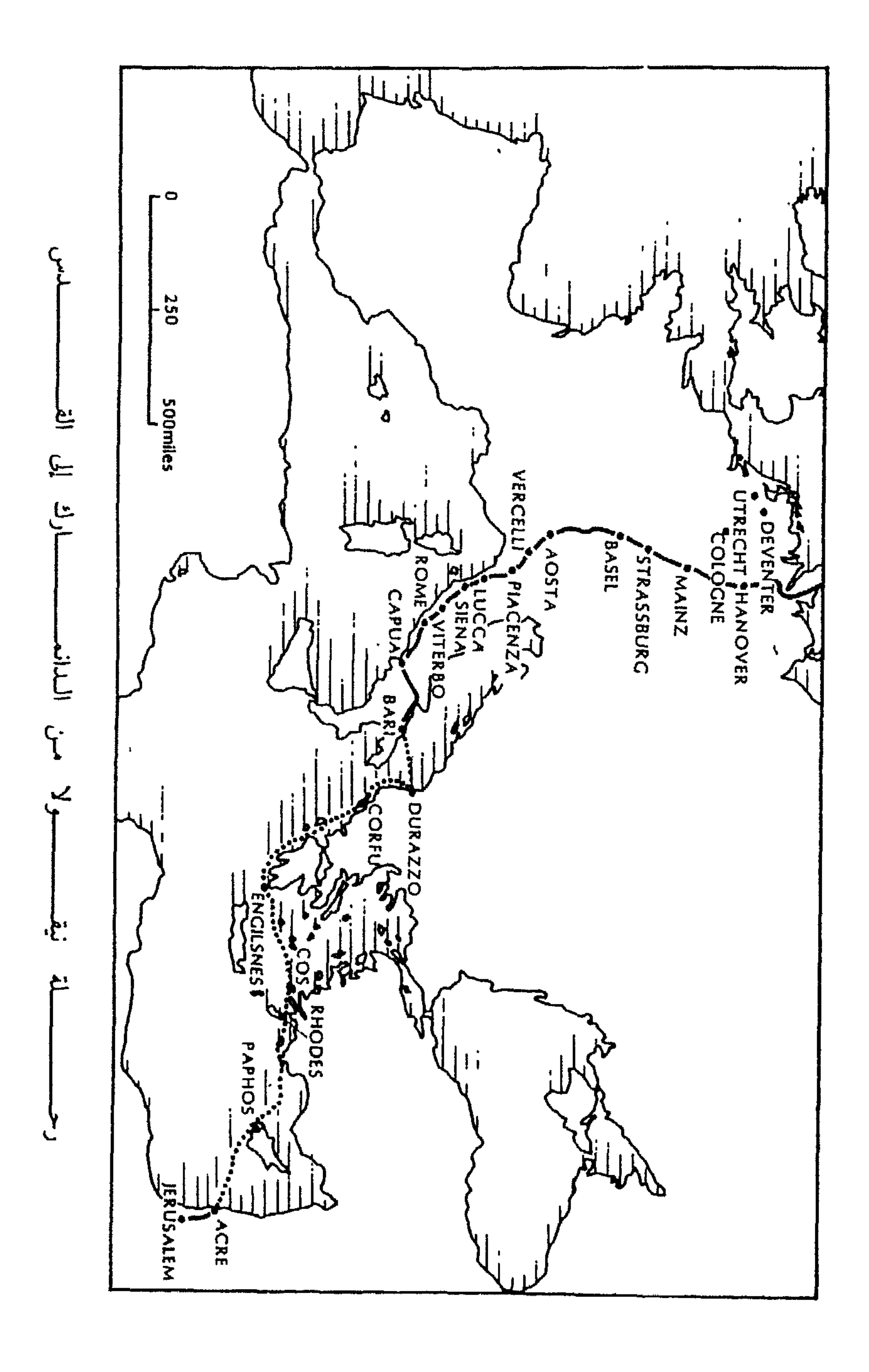
ثم يصل المرء إلى مـدينة القـدس، التي هي الأعظـم بين جميع مـدن العالم، وهي مشهـورة في الأغاني في كل مكان في العـالم المسيحي، بسبب أن العلامـات الرائعة لآلام المسيح ماتزال مشـاهدة هناك، ويوجد هناك الكنيسة التي فيهـا ضريح الرب، والمكان الذي وقف فيه صليب الرب، وذلك أنه يمكن لـلإنسـان أن يرى بوضـوح دم المسيح على الصخـرة، وكأنه سال حديثاً، وهكذا سـوف يبقى حتى يوم القيامة، ويتلقى الناس الضوء نازلاً من السماء، عشية عيد الفصح، وهذه الكنيسة، تعرف باسم كنيسة الضريح المقـدس، وهي مفتوحـة فوق الضريح، ومـركز الأرض مـوجـود هنـاك، حيث تشع الشمس مبـاشرة من السماء في يوم عيـد

القديس يوحنا، وهناك يوجد مشفى يوحنا المعمدان، وهذا المشفى هو الأفخم في العالم كله، ثم هناك برج داود، وفي القدس يوجد هيكل الرب، وهيكل سليمان.

وإلى الجنوب الغربي من القدس هناك جبل اسمه جبل صهيون، فإلى هناك نزل الروح القدس على الرسل، وأكل المسيح هناك عشية خميس العهد، والمنضدة التي أكل عليها ماتزال قائمة هناك، وعلى بعد أربعة أميال باتجاه الجنوب، تقوم بيت لحم، وهي بلدة صغيرة وجميلة، فهناك كان المسيح قد ولد، وعلى بعد قليل عن القدس قرية بيت عنيا، حيث أقام المسيح، لعازر من الموت، وإلى الجنوب الشرقي لمدينة القدس توجد بحيرة اسمها البحر الميت، فهناك أغرق الرب مدينتين هما: سدوم، على الطرف الأقصى، وعموره على هذا الجانب، ويصب الأردن هناك لكنه لايمتزج مع مياه البحيرة، لأنه ماء مقدس كثيراً، وإلى الشرق من المدينة هناك جبل، يدعى جبل الزيتون، حيث من عليه صعد المسيح إلى السماء، ويوجد بين جبل الزيتون والقدس الوادي الذي يعرف باسم وادي شعفاط، حيث يوجد هناك قبر الملكة مريم، ثم هناك مسافة طويلة إلى الأربعين، حيث صام الرب، وحيث أغواه الشيطان، ويوجد هناك قرية ابراهيم، كما وقائم هناك أريحا، ويوجد هناك أيضاً بلدة ابراهيم، ثم هناك مسافة قصيرة إلى الأردن، حيث تعمد المسيح، فهو هناك يجري من الشمال الشرقي، إلى الجنوب الغربي، ويوجد فيما وراء النهر Rabitaland, هذا وإن أرض القدس التي يسمونها أرض سورية موجودة على هذا الجانب، ويوجد على ضفة النهر بيعة صغيرة، حيث خلع المسيح ملابسه، وهكذا بقيت هذه البيعة بعد زمان طويل شاهداً على البقعة، وخارج الأردن إذا مااستلقى الإنسان على ظهره فوق أرض مستوية، ثم رفع ركبته بقبضة يده على الرأس، ثم رفع ابهامه من رسغه، من الممكن وقتها رؤية نجم القطب فوق عالياً، لكن ليس عالياً جداً.

وفي العـودة إلى الوطن من عند الأردن، هناك سفـر خمسـة أيام إلى عكا، وبعد ذلك سفر أربعـة عشر يوماً بالبحر من هناك إلى بول Pull, وهي مسافة ١٨٠٠ من الأميال، وبعـد ذلك سفر أربعة عشر يوماً على الأقـدام من باري Bar إلى مـدينة رومـا، ثم سفـر ستـة أسـابيع قصيرة من الجنوب إلى مونديا Mundia, ثم بعد ذلك سفر ثلاثة أشهر باتجاه الشمال إلى هيدابور Heidaboer, لكن بالسفر أكثر شرقاً [إقرأ: غرباً] فإن ايلاين— فيغر Vegr -Ilians, تحتاج إلى تسعة أسـابيع سفر حتى يصل الإنسان إليها، ثم سفـر سبعة أيام من هيـدابور إلى فيبيـورغ Vebiorg, ثم هناك نهر سكـودوبورغ Scoduborg, مـوجود في منتصف الطريق بينهما، ومن فيبيـورغ سفر يومين إلى ألابورغ Alaborg.

وهذا الدليل مع قـائمـة المدن، وجميع هذه المعلومـات قـد كتبت بناء على إمـلاء راعي الدير نيقـولا، الذي كان حكيماً ومشهـوراً، مبـارك مع ذكرى صـالحة، وعالماً بكثير مـن الأشياء، وعاقـلاً وصادقـاً، وهنا أنهى روايته.



رحـــلة نيقـــولا من الدانمـــارك إلى القـــدس

- ٩ -

دليل آيسلاندي

(حوالي عام ١١٥٠م)

على الجانب الجنوبي لتلك الكنيسة القائمة فوق موقع الجمجمة (أكرا) باب، وعندما يدخل الإنسان، يوجد على الجانب الأيمن بيعة، حيث تقاطر الدم وسال من صليب الرب، وهناك يمكن للإنسان أن يشاهد الدم، وشرقي البيعة هناك صخرة، وعلى الجانب الشمالي من الصخرة هناك سلم حلزوني فيه تسع عشرة درجة، من أجل الصعود إلى الصخرة، ثم بعد ذلك على مسافة قامة نحو الشرق، المكان الذي وقف فيه الصليب، عندما جرى تعذيب الرب، وتوجد فتحة في الصخرة هناك، ومن هناك تقاطر الدم الى موضع البيعة، وإلى الجنوب منها ، على مسافة قامة واحدة إلى الفتحة في الصخرة، وذلك حيث تصدعت الصخرة، وكان ذلك عندما أبعد الرب عن نفسه خشبة الصليب، التي صلب عليها فيما بعد، وإلى الجنوب من هناك، في مواجهة الجدار، هناك مذبح القديس سمعان، حيث الرسالة التي كتبت بأحرف ذهبية جاءت من عليين★، والى غربي باب الكنيسة هناك بيعة خارج الجدار، وهناك موجودة يد آناستاسيا★★ المقدسة، وهي غير مهترئة إلى جانب المذبح، وإلى جانب المذبح في وسط الهيكل تقوم كنيسة Pulcro فوق

★— الاشارة هنا إلى ماعرف باسم الرسالة السماوية، أو رسالة الأحد، وهي كانت مشهورة في العصور الوسطى، في العالم المسيحي، بنصوص مختلفة، والجميع متفقون على الادعاء أنها من المسيح نفسه، لكن هناك من قال بأنها كتبت بدم المسيح، بعصا ذهبية، أو من قبل واحد من الملائكة، والنصوص مختلفة أيضاً في تسمية المكان الذي نزلت عليه أرضاً، وهي دوماً كانت موجودة في المعابد الرئيسية للعالم المسيحي.

★★— من الواضح أن هناك سوء فهم لكلمة القديس أناستاسيا، ذلك أن معنى هذه الكلمنة بالاغريقية «كنيسة القيامة»، أما بالنسبة ليد القديس غير المهترئة، فلربما في ذلك اشارة إلى بعض الآثار المقدسة التي كانت محفوظة في كنيسة القديسة مريم للاتين.

مذبح الرب، وجميع الأبراج مذهبة، وينبغي على الانسان أن يدخلها من الشرق، ومن ثم توجد مسافة قامة واحدة إلى الصخرة التي دحرجت من مدخل الضريح، ومن الممكن للإنسان أن يمشي حولها، وعلى بعد قامة واحدة إلى الغرب، توجد الصخرة التي فيها ضريح الرب، وعندما يدخل الإنسان إلى الضريح، يجد تابوتاً من الحجر على الجهة اليمنى، عليه حجارة رخامية، ويمضي الإنسان نحو الجنوب خارجاً من كنيسة Pulkro, والهيكل مفتوح من الأعلى فوق الكنيسة هناك، وإذا ماكانت المدينة تحت سيطرة المسيحيين، فإن الضوء ينزل من عليين، عشية عيد الفصح، على المصابيح الواقفة هناك أمامه، وهناك يقوم، مع بداية كل صباح، الذين يطبقون القداسات السريانية وجميع طقوسها، بالغناء بأماديح الرب، وإلى الشمال من كنيسة Pulkro, هناك بيعة موجودة على جدار الهيكل، حيث مايزال هناك سلسلة حديدية، وهي التي غلّ بها ربنا، وإلى الشرق من كنيسة Pulkro, وعلى بعد أربع قامات توجد السدة الخارجية، وهي مبنية من الحجارة، ويوجد في السدة مذبح مرتفع، وباب إلى الجانب الغربي، حيث يمكن للإنسان أن يسير طوال الطريق من حول ذلك، ومن زاوية تلك السدة، التي تواجه الجنوب الشرقي، يوجد إحدى عشرة درجة مضاف إلى ذلك عشرين درجة إلى الجنوب من أجل النزول إلى الأرض، حيث توجد بيعة، في المكان الذي عثر فيه على صليب الرب، والصلبان هناك مرسومة على الأرض، على ألواح رخامية، على شكل الصلبان وهي ممددة، وإلى الجنوب من السدة، هناك بيعة قائمة في الجدار الجنوبي، إلى الشرق من الصخرة التي عليها تعذب، وقائم هناك عمود، إليه ربط، وهناك جرى ضربه قبل تعذيبه وصلبه، وفي السدة الموجودة خلف المذبح العالي، هناك مقعد عليه —يقول الناس— جلس الرب، عندما وضع تاج الشوك على رأسه، وضغط عليه قبل أن يصلب، وهناك أبواب إلى الهيكل على كل من جهتي الشرق والغرب، وإلى الغرب من الهيكل هناك بيعة فيها مدفون القديس كاريتاس Karitas

[اقرأ: شارتون Chariton]   سليم غير مهترىء.

وهيكل الرب قائم في موقع مرتفع باتجاه الشرق أكثر منه باتجاه مركز مدينة القدس، وتقف في وسط الهيكل صخرة ارتفاعها قامة، وعرضها كثيراً من القامات، فإلى هناك يقول الناس بأن ابراهيم جلب ابنه اسحق ليضحي به للرب، ويوجد هناك طوق حديدي موضوع حول الصخرة، ويوجد داخل الهيكل أعمدة من الحجارة من كلا اللونين الأبيض والأسود، والأحمر، والأزرق، والأخضر، وإلى الشرق من القدس يوجد جبل الزيتون، وعلى هذا الجبل، حيث أعلى نقطة فيه، هناك تقوم كنيسة ميكائيل(كنيسة الصعود)، حيث فيها تقوم صخرة عالية، عليها موجودة الحجرة التي عليها خطا الرب عندما صعد الى السماء، ومن الممكن للإنسان أن يشاهد طبعة قدمه اليسرى، وطولها أربعة عشر إنشاً، وكأنه قد خطا حافياً فوق صلصال، ويوجد بين الجبل والقدس جبل شعفاط، فهناك توجد كنيسة مريم، وعلى الجانب الجنوبي منها يوجد باب، مضاف إليه أربعين درجة للنزول عليها إلى الأسفل إلى أرض الكنيسة، ويقوم في الجزء الآخر من الكنيسة مذبح، وبعده على مسافة قصيرة هناك ناووس مريم، وفوقه غطاء حجري، ويوجد هناك دير مريم، وإلى الشمال من الكنيسة يوجد البيت الذي اعتقل فيه اليهود الرب، ويمكن للانسان أن يشاهد طبعات أصابعه على الصخرة التي ضربها بيديه، عندما قفز الرجال الأشرار عليه، وفي الجنوب، عند سفح جبل الزيتون توجد قلعة بيت عنيا، حيث هناك دير للراهبات، وعلى مقربة من تلك الكنيسة ضريح لعازر، ويوجد من القدس مسافة ميلين إلى بيت عنيا، ويوجد من هناك اثني عشر ميلاً إلى قلعة الروضة Rauda*,   ومن هناك ميلين إلى الأردن.

* ـ هذه تسمية آيسلاندية صحيحة لقلعة قامت على منتصف الطريق إلى أريحا، لكن إذا حسبنا عدد الأميال المعطاة فهذا يقودنا إلى قلعة كانت موجودة في أريحا اسمها القرنطينا Quarentena.

- ١٠ -

وصف فلسطين والقدس
للشريف الادريسي
(١١٥٤)

يعد الشريف الادريسي—أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد عبد الله بن ادريس، من أعظم الجغرافيين العرب في القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، ويعد أيضاً بين كبار الرحالة حيث تجول في بلدان المغرب والمشرق، ثم أمضى الشطر الأكبر من حياته في صقلية، وهناك قام بأعمال جغرافية مهمة، منها صنعه لملكها روجر كرة تمثل الأرض من الفضة، وأشهر مؤلفاته الجغرافية كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وبما أن معلوماته عن فلسطين أيام الحروب الصليبية، يمكن تصنيفها مع ما تركه عنها الحجاج من الغرب الكاثوليكي، قمتُ باثبات هذا الذي كتبه، وفي الحقيقة اتبعت الترتيب نفسه للكتاب الذي نقلت عنه نصوصي الجغرافية الحالية، وهو:

Jerusalem Pilgrimage 1099- 1185, by John Wilkinson with Joyce Hill and W.F Ryan, London 1988.

وأما حدود فلسطين وهي أول أحواز الشام وحدودها مما يلي المغرب مقدار أربعة أيام وذلك من رفح إلى اللجون وعرضها من يافا إلى أريحا مسيرة يومين، وزغر وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وجبال الشراة مضمومة إليها، وهي منها في العمل إلى حدود أيلة.

وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وزغر إلى بيسان وطبرية تسمى الغور لأنها بقعة بين جبلين وسائر مياه الشام تنحدر وتجتمع، فيكون منها

نهـر زخار أوله من بحيرة طبرية، فيأخـذ من طبرية وجميع الأنهار تصب إليه مثـل نهر اليرموك والحدُ، وأنهار بيسان ومـا ينصب من كـور مآب، وجبال بيت المقدس، وجبل قبر إبراهيم عليـه السلام، وجميع ما ينصب أيضاً من نابلس فإنه يجتمع الكل منها حتى يقع في بحيرة زغر، وتسمى بحيرة سـادوم وغامـوراء، وهما كانتـا مـدينتين لقوم لوط، فغـرقهما الله تعالى فعـاد مكانهما بحيرة منتنة، وسميت البحيرة الميتة لأن مـا فيها شيء له روح، لاحـوت، ولا دابة، ولا شيء متكون مثل مـايتكون في سـائـر المياه الراكـدة والمتحركـة وماؤها حار كـريه الرائحة، وفيـه سفن صغار يسـافر بها في تلك الناحيـة، وتحمل عليهـا الغلات، وصنوف التمـر من زغر والدارة إلى أريحا، وسـائر أعمال الغـور، وطول هذه البحيرة ستون ميلاً وعرضها اثنا عشر ميلاً.

ومن ريحا إلى زغر يومان.

ومن زغر إلى جبال الشراة ومن جبال الشراة إلى آخر الشراة يومان.

ومن ريحا إلى بيت المقدس مرحلة.

ومن بيت المقدس إلى عمان، والبلقاء، يومان.

[ومن الرملة إلى قيسارية مرحلة كبيرة]

وريحا المذكورة من أجمل بقـاع الغور، وعمتا، وبيسان، وأكثـر غلات بلاد الغور النيلج، وأهله سمر بل هم إلى السواد أقرب.

والجي بلد من بلاد فلسطين صغير ماؤه حار وهواؤه وخيم.

وأما مـدينة بيسان فصغيرة جـداً، وبها نخل كثير وينبت بها السـامان الذي يعمل منه الحصر السامانية، ولا يـوجد نباته البتة إلا بها وليس في سائر الشام شيء منه.

وفلســطين ماؤها من الأمــطار والسيول وأشــجارها قليلـة وديـار

فلسطين حسنة البقاع بل أزكى بلاد الشام، ومدينتا الشام هما الرملة، ثم بيت المقدس.

فأما الرملة فهي مدينة حسنة عامرة، وبها أسواق وتجارات ودخل وخرج، ومنها إلى يافا التي على ساحل البحر الملح نصف يوم.

ومن الرملة إلى قيسارية مرحلة كبيرة.

ونابلس مدينة السامرية، وبها البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام وبها جلس السيد المسيح وطلب من المرأة السامرية الماء ليشرب، وعليه الآن كنيسة حسنة، ويزعم أهل بيت المقدس أن السامرية لا يوجد أحد منهم إلا بهذه المدينة.

وبآخر مدن فلسطين مما يلي الجفار، وطريق مصر، مدينة غزة وبينهما من الأميال ثلاثون ميلاً.

ومن فلسطين إلى مدينة عسقلان مرحلة كبيرة.

وبين عسقلان وغزة نحو من عشرين ميلاً وهي الآن عامرة بأيدي الروم، ومرسى غزة تيدا.

ومن ميماس إلى عسقلان شرقاً عشرون ميلاً.

والعريش مدينة كانت ذات جامعين مفترقة المباني، والغالب على أرضها الرمال، ولها ثمار وجمل فواكه، وهي على مقربة من البحر.

وأيضاً فإن الطريق من الرملة إلى يبنى(نصف مرحلة ،و منها) إلى يزدود في البر مرحلة، ومن يزدود إلى غزة، وقد تقدم ذكرها مرحلة.

ومن غزة إلى مدينة رفح، وهي مدينة صالحة مرحلة، ومنها إلى العريش مرحلة ومن العريش إلى الورادة وهي منزل قرب البحر مرحلة.

ومن الورادة الى الفرما، وهي مدينة على بحر الشام، مجاورة لبحيرة تنيس مرحلة.

وأما مدينة عسقلان فهي مدينة حسنة ذات سورين وبها أسواق، وليس لها من خارجها بساتين، وليس بها شيء من الشجر، واستفتحها صاحب القدس بعساكر الروم من الإفرنج وغيرهم في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وهي الآن بأيديهم، وعسقلان معدودة في أرض فلسطين، ويقابلها في جهة الجنوب ناحيتان جليلتان وهما: جبال، وشراة، فأما جبال فمدينتها تسمى دراب، وشراة أيضاً مدينتها تسمى أذرح، وهما في غاية الخصب وكثرة أشجار الزيتون واللوز والتين والكروم والرمان وعامة سكانها من قيس.

وكذلك بين جنوب منها وشرق قرية مؤتة، ومنها إلى عمان تمر فيها بين شعبي جبل يقال له الموجب، وهو واد عظيم عميق القعر، ويمر فيها بين هذين الشعبين وليسا بمتباعدين، وذلك يمكن ان يكون بمقدار ما يمكن أن يكلم إنسان إنساناً، وهما واقفان على ضفتي النهر فيسمع بعضهما بعضاً، ينزل فيه السالك ستة أميال ويصعد ستة أميال.

ومن عسقلان الساحلية —المتقدم ذكرها —إلى حصن الماحوز الأول على البحر خمسة وعشرون ميلاً، ويقابله في البرية كوم زنجل، وبيت جبريل، وهما محلان ينزل بهما، ثم إلى الماحوز الثاني خمسة وعشرون ميلاً، ومنها إلى مدينة يافا وهي فرضة بيت المقدس وبينهما مرحلتان خفيفتان.

وبيت المقدس مدينة جليلة قديمة البناء أزلية، وكانت تسمى إيلياء، وهي على جبل يصعد إليها من كل جانب وهي في ذاتها طويلة وطولها من المغرب إلى المشرق، وفي طرفها الغربي باب المحراب، وهذا الباب عليه قبة داود عليه السلام، وفي طرفها الشرقي باب يسمى باب الرحمة، وهو مغلق لا يفتح إلا من عيد الزيتون لمثله، ولها من جهة الجنوب باب يسمى باب صهيون، ومن جهة الشمال باب يسمى باب عمود الغراب، وإذا دخل

الداخل من باب المحراب وهو الباب الغربي— كما قلناه— يسير نحو المشرق في زقاق شارع إلى الكنيسة العظمى، المعروفة بكنيسة القيامة، ويسميها المسلمون قمامة، وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها، فيدخل من باب في غربها فيجد الداخل نفسه في وسط القبة التي تشتمل على جميع الكنيسة وهي من عجائب الدنيا، والكنيسة أسفل ذلك الباب، ولايمكن أحداً النزول إليها من هذه الجهة، ولها باب في جهة الشمال ينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلاثين درجة، ويسمى هذا الباب باب شنت مرية، وعند نزول الداخل إلى الكنيسة تلقاه المقبرة المقدسة المعظمة ولها بابان وعليها قبة معقودة قد أتقن بنيانها وحصن تشييدها، وأبدع تنميقها، وهذان البابان أحدهما يقابل الشمال، حيث باب شنت مرية، والباب الآخر يقابله من جهة الجنوب، ويسمى باب الصلوبية، وعلى هذا الباب قنبنار الكنيسة ، ويقابلها من جهة الشرق كنيسة عظيمة كبيرة جداً، يقدس فيها إفرنج الروم ويقربون.

وفي شرقي هذه الكنيسة منحرفاً بشيء لطيف إلى الجنوب الحبس الذي حبس فيه السيد المسيح، ومكان الصلوبية، وأما القبة الكبيرة فهي قوراء مفتوحة للسماء، وبها دار الأنبياء مصورون، والسيد المسيح، والسيدة مريم والدته، ويوحنا المعمدان، وعلى المقبرة المقدسة من القناديل المعلقة على المكان خاصة ثلاثة قناديل ذهب، وإذا خرجت من هذه الكنيسة العظمى، وقصدت شرقاً ألفيت البيت المقدس الذي بناه سليمان بن داؤود عليه السلام، وكان مسجداً محجوجاً إليه في أيام دولة اليهود، ثم انتزع من أيديهم وأخرجوا عنه إلى مدة الإسلام، فكان معظماً في ملك المسلمين، وهو المسجد المعظم المسمى بالمسجد الأقصى عندهم، وليس في الأرض كلها مسجد على قدره، إلاّ المسجد الجامع الذي بقرطبة من ديار الأندلس، وفيما يذكر أن مسقف جامع قرطبة أكبر من مسقف الجامع الأقصى، وصحن المسجد الأقصى هو في تربيع، وله مائتا باع في عرض

مائـة وثمانين باعاً، نصفـه مما يلي المحراب مسقـف بأقباء صخـر على عمد كثيرة صفـوفاً، والنصف الثـاني صحن لاسقف له، وفي وسط الجامع قبـة عظيمة تعرف بقبة الصخـرة، وهذه القبة مرصعة بالفص المذهب والأعمال الحسنة من بناء خلفـاء المسلمين، وفي وسطهـا الصخـرة المسماة بالواقعـة، وهو حجر مربع كالدرقة في وسط القبة رأسها الواحد مرتفع عن الأرض مقـدار نصف قامـة، أو أشف من ذلك، ورأسهـا الثـاني لاصق بالأرض، وطول هذه الصخرة مقـارب لعرضهـا يكون بضعة عشر ذراعـاً في مثلها، وينزل من باطنها وأسفلها إلى سرداب كالبيت المظلم طوله عشرة أذرع في عرض خمسـة، وارتفاع سمكه يشف على القامـة، ولايدخل إلى هذا البيت إلاّ بمصبـاح يستضاء به، ولهذه القبـة أربعـة أبواب، والبـاب الغربي منهـا يقابله مـذبح كان بنو إسرائيل يقـربون عليه القرابين، وبالقـرب من الباب الشرقي من أبواب هذه القبـة الكنيسة المسماة بقدس القـدس، وهي لطيفة القـدر والقبلي منهـا يقـابله المسقف الذي كـان مصلى للمسلمين، فلما استفتحهـا الروم، وبقي بأيديهم إلى وقـت تأليفنا لهذا الكتـاب صيروا هذا المسقف من المسجد بيوتاً يسكنها الجيل المعـروفون بالداوية، ومعناه خدام بيت الله، ويقـابل الباب الشمالي بستـان حسن مغروس بأنواع الأشجـار، ودائر هذا البستـان أعمدة رخام مضفورة بأبدع مـايكون من الصنعة، وفي آخر البستان مجلس برسم الغذاء للقسيسين والمدرجين.

وتخرج من هذا المسجـد أيضاً شرقـاً فتصل إلى باب الرحمة المغلوق، كما قدمنـا، وبالقرب من هذا البـاب باب آخر مفتـوح يعرف ببـاب الأسباط، عليه الدخـول والخروج، وإذا خرجت من باب الأسبـاط سرت في حدود مقـدار رمية سهم فتجـد كنيسة كبيرة حسنة جـداً على اسم السيدة مـريم، ويعـرف المكان بالجسمانيـة، وهناك قبرهـا يبصر جبل الزيتـون، وبينه وبين باب الأسباط نحو ميل.

وفي طريق الصعــود إلى هذا الجبل كنيسـة عظيمـة حسنة متقنة البناء، تسمى كنيسة باتر نصتر [الصلاة الربانية]، وعلى أعلى الجبل كنيسة أخرى حسنة معظمـة وفيهـا رجـال ونسـاء محبـوسـون يبتغـون بذلك أجـر الله سبحـانه، وفي شرقي هذا الجبـل المذكـور منحـرفـاً قليـلاً إلى الجنوب قبر العازر الذي أحياه السيد المسيح، وعلى ميلين من جبل الزيتون القرية التي جلب منهـا الأتان لركوب السيـد المسيح عند دخـوله إلى أورشليم، وهي الآن خراب لاساكن بها.

وعلى قبر العازر يؤخـذ طريق وادي الأردن، وبين وادي الأردن وبيت المقدس مسافـة يوم واحد، ومن قبل أن تصل إلى وادي الأردن مدينة ريحا السـابق ذكــرها، وبينهـا وبين الوادي ثلاثة أميــال، وعلى الوادي المسمى الأردن كنيسـة عظيمة على اسم شنت يوحنا، يسكنهـا رهبان الإغـريقيين، ووادي الأردن يخرج مـن بحيرة طبريـة، ويصـب في بحيرة ســـــــادوم وغامـوراء، اللتين كانتا مدينتي قـوم لوط فغرقهما الله بذنوب أهلهما، ومما يلي قبلة وادي الأردن برية متصلة.

وأما مـايلي بيت المقدس في ناحية الجنوب، فـإنك إذا خرجت من باب صهيون وسرت مقدار رميـة حجر وجدت كنيسة صهيـون،. وهي كنيسة جليلة حصينة، وفيها العلية التي أكل فيها السيد المسيح مع التلاميذ، وفيه المائدة باقيـة إلى الآن، ولها ميعاد في يوم الخميس، ومن بـاب صهيون تنزل في خندق يعرف بوادي جهنم، وفي طرف الخندق كنيسة على اسم بطرس، وفي هذا الخنـدق عين السلوان، وهي العين التـي أبرأ بها السيـــد المسيح الضرير الأعمى، ولم تكن له قبل ذلك عينان، ومن هذه العين المذكورة إلى الجنوب الحقل الذي يدفن فيه الغـرباء، وهي أرض اشتراها السيد لذلك، وبقربها بيـوت كثيرة منقورة في الصخر، وفيهـا رجال قـد حبسوا أنفسهم فيها عبادة.

وأمـا بيت لحم وهو الموضع الـذي ولد فيـه المسيح فبينه وبين القـدس

ستة أميال، وفي وسط الطريق قبر راحيل أم يوسف، وأم ابن يامين ولدي يعقوب عليهم السلام، وهو قبر عليه اثنا عشر حجراً، و فوقه قبة معقودة بالصخر، وبيت لحم هناك كنيسة حسنة البناء متقنة الوضع، فسيحة مزينة إلى أبعد غاية، حتى إنه ماأبصر في جميع الكنائس مثلها بناء، وهي في وطاء من الأرض، ولها باب من جهة المغرب، وبها من أعمدة الرخام كل مليحة، وفي ركن الهيكل من جهة الشمال المغارة التي ولد بها السيد المسيح، وهي تحت الهيكل، وداخل المغارة المزود الذي وسد به، وإذا خرجت من بيت لحم نظرت في الشرق منه كنيسة الملائكة الذين بشروا الرعاة بولادة السيد المسيح.

ومن بيت لحم إلى مسجد إبراهيم في الجنوب، نحو من ثمانية عشر ميلاً وهي قرية ممدنة، وفي مسجدها قبر إبراهيم، وإسحق، ويعقوب عليهم السلام، وكل قبر من قبورهم تجاه قبر امرأة صاحبه، وهذه المدينة في وهدة بين جبال كثيفة الأشجار، أعني شجر الزيتون، والتين والجميز، وفواكه كثيرة.

وليس بشمال بيت المقدس شيء من البناء، ومن مدينة بيت المقدس شمالاً إلى مدينة نابلس يومان، وكذلك من نابلس إلى الرملة يوم كبير.

ومن بيت المقدس إلى عمان والبلقاء يومان وبعض يوم.

ومن بيت المقدس إلى طبرية تسعون ميلاً، وكذلك من طبرية إلى الرملة ثلاث مراحل، وطبرية مدينة الأردن الكبرى، وهي قصبتها، فمنها إلى صور يومان كبيران، ومنها إلى عقبة أفيق نحو يوم، ومنها إلى بيسان بعض يوم، ومنها إلى عمتا مدينة الغور إلى آخر عمل الأردن، ومنها إلى موضع يعرف بالجميلة يوم.

ومن طبرية إلى عكة يومان خفيفان، وهي مدينة جليلة على جبل مطل، طويلة في ذاتها، قليلة العرض، وطولها نحو من ميلين، وأسفلها

من جهة الشرق بحيرة عذبة الماء، طولها اثنا عشر ميلاً في عرض مثلها، وبها مراكب سابحة تحمل فيها الغلات إلى المدينة، ولها سور حصين، ويعمل بها من الحصر السامانية كل عجيبة، وقليلاً ما يصنع مثلها في بلد من البلاد المعروفة وفي هذه المدينة حمامات حامية من غير نار توقد لها، فهي حارة في الشتاء والصيف، وفيها حمام يعرف بحمام الدماقر، وهو كبير عظيم، وماؤه في أول خروجه حار تسمط فيه الجداء والدجاج، ويسلق فيه البيض، وماؤه ملح، وبها حمام اللؤلؤ وهو أصغر من حمام الدماقر، وماؤه حار عذب وهذا الماء الحار يخترق في الدور المجاورة له، وبه يغتسلون ويتصرفون، ومن حماماتها حمام المنجدة، وماؤه حار عذب، وليس فيها حمام توقد له النار، إلاّ الحمام الصغير الذي بها، وذلك أنه بناه أحد الملوك الإسلامية في داره ليدخله هو ومن له من أهل وولد وحاشية، فلما مات أخرج وجعل للناس عامة فهم يدخلونه وماؤه يسخن بالنار وحده، وفي جهة الجنوب منها حمامات كثيرة مثل عين موقعين، وعين الشرف، وغيرهما تصب إليها عيون مياهها حارة مدى الدهر، ويقصد إليها من جميع النواحي أهل البلايا من الناس مثل المقعدين، والمفلوجين، والمرياحين، وأصحاب القروح والجرب، فيقيمون بها في الماء أيام، فيبرؤون بإذن الله من ذلك.

ومدن سواحل فلسطين منها عسقلان، وأرسوف، ويافا، وهذه كلها مدن تتقارب مقاديرها وصفاتها وأحوال أهلها، مع أنها لطاف حصينات كثيرة العمارات، وبها شجر الزيتون والكروم كثيرة جداً، ويافا في ذاتها مدينة ساحلية، وهي فرضة لبيت المقدس، وبينهما ثلاث مراحل خفاف.

وبين يافا والرملة عشرون ميلاً.

وقيسارية بلد كبير عظيم له ربض عامر وحصن منيع حسن.

وبين يافا وقيسارية ثلاثون ميلاً، ومن قيسارية إلى نابلس مرحلة،

وكـذلك من قيسـارية إلى الرملة مـرحلتان خفيفتـان، ومن قيسـارية إلى مدينة حيفا على الساحل يومان.

وحيفـا تحت طرف الكرمل، وهو طرف خـارج في البحـر، وبه مـرسى حسن لإرساء الأساطيل وغيرها، ومدينـة حيفا هي فرضة لطبرية، وبينهما ثلاث مراحل خفاف.

ومن حيفـا إلى مـدينة عكة مـرحلـة في البر، وهي من الأميـال ثلاثون ميـلاً، وفي البحـر رؤوسية ثمانيـة عشر ميـلاً، ومـدينة عكة كبيرة واسعـة الأرجاء، كثيرة الضيـاع ولها مرسى حسن مـأمون، وناسها أخـلاط، فمن طبرية إلى عكة يومـان، ومن عكة إلى حصن الزيب اثنـا عشر ميـلاً، وهو حصن حسن على ضفة البحر الملح.

ومنه إلى النواقير وهي ثلاثة جبال بيض شـواهق مطلة على ضفة البحر نحو من ثمانية عشر ميـلاً، ومن وسط النواقير إلى مدينة الإسكندرية خمسة أميال.

ومن الإسكندرية إلى مـدينة صور خمسـة عشر ميلاً وهي مـدينة حسنة على ضفـة البحـر وبها للمـراكب إرسـاء وإقـلاع وهو بلد حصين قـديم والبحـر قد أحـاط به من ثلاثة أركـانه ولهذه المدينة ربض كبير ويعمل بها جيد الزجـاج والفخار، وقد يعمل بها من الثيـاب البيض المحمولة إلى كل الآفـاق كل شيء حسـن، عـالي الصفـة والصنعـة، ثمين القيمـة، وقليـلاً مايصنع مثله في سائر البلاد المحيطة بها هواء وماء.

ومن صور إلى طبرية يومان كبيران، ومنها إلى عدوان، وهوحصن منيع على البحـر، ومنه إلى صرفند عشرون ميـلاً، وهو حصن حسن، ومنه إلى صيدا عشرة أميال، وبين صـور وصرفند يقع نهر ليطة، ومنبعه من الجبال، ويقع هناك في البحـر، ومن مدينـة صور في البر إلى طبرية يومـان كبيزان، ومن صور إلى دمشق أربعة أيام.

- ١١ -

رواية الراهب بيلارد أوف أسكولي Belard of Ascoli
(١١٥٥م أو مابين ١١٤٢-١١٨٧)

تبعد القـدس سفر يوم واحد عن البحر الغـربي، أي خمسة وعشرين ميـلاً أو ثلاثين Perna. وهي مـوجـودة على جبل، وقلعـة صهيـون تتفوق بارتفـاعهـا على جميع الأماكن المرتفعـة في المدينة، وهي مقـابل جبل الزيتون إلى الغـرب، والغرفـة العليا عند قمـة هذا الحصن هي المجاورة للسـور، وهذه الغرفة العليا، كـانت مكاناً واسعاً ومبلطاً، فيـه تم العشـاء [الأخير]، وفيـه ظهر المسيح لتـلاميـذه، عندمـا كـانت الأبواب مغلقة، وإلى هناك نزلت الروح القـدس على الرسل والتلاميذ، وهناك أيضاً ماتت مريم العذراء المباركة.

والهيكل موجود على مكان مستو في المدينة، تحت الحصن إلى الشرق.

وجـرى جلد المسيح في قـاعــة المحكمـة، أي... وقـرب هذا المكان السجن الذي اقتيد منه بطرس المبارك من قبل الملاك.

وبركـة الضأن هي فـوق المنطقة المستـوية نفسهـا، مثل الهيكل، وهي على بعـد حوالي الـربع ميل عن الهيكل، وعـرض وادي شعفاط حـوالي الغلوة، وموقعه هو أنه بين جبل الزيتون والقدس.

وقمة قبل الزيتون على مسافة عن.....

وبيت فـاجي مـوجـودة بين جبل الزيتـون وبيت عنيـا، التي هي إلى الشرق.

وبركــة سلوان مـوجــودة في وادي شعفـاط بين صهيــون، وجبل الزيتون.

عودة...... جدول قـدرون، الذي هو في الوادي نفسه، وهو يسيل عندما تكون هناك أمطاراً غزيرة.

ومزرعة جثسيماني موجودة عند سفح جبل الزيتون، باتجاه الغرب، والحديقـة التي إليها دخل المسيح مع حـوارييـه هي موجـودة في هذه المزرعة نفسها عند رأسها، وفي هذه الحديقة سرداب محفور في صخرة جبل الزيتــون، يمكن أن يستـوعب ثلاثمائـة إنســان، وفي نهاية هذا السرداب هناك سرداب آخر أصغر، مثل قلاية راهب واحد، وفي هذا السرداب الأصغـر غالبـاً مـاوقف المسيح يصلي، وهناك ألقي القبض عليـه، وعنـد مـدخله مـرئي بوضـوح شكل ثلاثة أصــابع من يده المقدسـة، مطبوعـة على صخرة السرداب، وهي التي قيل بأنـه عملها عندما ألقي القبض عليه، وهذا السرداب هو الآن كنيسة.

وعلى بعـد قليل، أمـام هذا السرداب، هناك قبر العذراء المبـاركـة، الذي إليــه ينزل الإنســان بثـلاثين درجـة تحت الأرض، وفي تلك الحديقة يوجـد مكان الصلاة، حيث صار عـرق المسيح مثل نقاط من دم.

وجبل أكـرا قائم بعـد القـدس، وهناك حوالي الثـلاثين خطوة بين هذا المكان، الـذي هو مكان الصلب والجلجلة مـن جــانب، والمكان الذي تم العثور فيه على الصليب، وكذلك ضريح المسيح، وهؤلاء في كنيسة واحدة.

والمكان المعـروف باسم جبل أكرا مكان واسع، وهو يشبـه حزمـة كبيرة من القش، وهـو معمـول مـن الحجـارة، التـي لم تجلب من أي مكان آخر، لكنهـا نابتة بشكل طبيعي مـن الأرض، وعلى قمته هناك فتحة عميقة في الصخرة نفسهـا، فهنا جرى تثبيت الصليب، والفتحة

واسعـة ومستـديرة، وهي واسعـة بقـدر حجم رأس إنسـان واحـد، وعميقة مقدار ثلاثة أشبار أو أربعة.

وعلى مقـربـة من هذا المكان، على الأرض، وليس فـوق الصخـرة، جرى صلب اللصين.

وفي صخرة الصلب، ظـاهر في جهة اليمين صدع، هو الـذي كان له شرف تلقي دم المسيح الذي سال وتساقط من جنبه.

وضريح المسيح هو صخـرة كـاملة، مـربعة في جـزئهـا العلوي، وفي الداخل تشبه المربع، ولها باب يشبـه باب الفرن، وهي في الداخل طولها قرابة العشرة أقدام أو أكثر، وحوالي أربعة أقدام بالعرض.

والحجر الذي دحـرج إلى باب الضريح كبير جداً، وهو مستـدير من الجانب الأول، ومن الجانب الآخـر مسطح، وهذا الحجـر مـوجـود إلى جانب الضريح.

والجلجلة هي المكان الذي عثـر فيه على الصليب، في حفـرة عميقة، بعيـدة عن مكان الصلب مـايزيد على خمس خطوات، وحـوالي المسافـة نفسها من الضريح.

والناصرة موجـودة في مقاطعـة الجليل الكبرى، وهي على بعد ستين ميلاً أو أكثر عن القدس، وهي ليست مدينة كبيرة، ومع ذلك لها رئيس أساقفة.

وغرفة سيـدتنا، التي إليها جاء الملاك وهي فيها، كـانت كهفاً، وهذا الكهف مـوجـود إلى جـانـب المدينة، في داخلهـا إلى الشرق، وهو ليس معمـولاً من الحجـارة، بل محفـوراً في الصخـــر، وطوله أربع خطوات، والشيء نفسه بالعرض.

وهناك طريق مستقيم بين القدس والناصرة، وهو يقود إلى نين، ومجاور لمزرعة اسمها عين دور، وبين الناصرة ونين سهل يدعى فارام Pharam.

وبعد نين هناك السامرة، المدينة والمقاطعة، وبعد هذا كانت مدينة Sychar.

وجبل جلبوع موجود بين نين والسامرة.

وجبل الطور جبل مقدس، عليه تغير شكل يسوع، وهو قريب من الناصرة، على بعد حوالي الميل نحو الشرق.

وبعد Sychar, تبدأ مقاطعة اليهودية، التي في وسطها تقوم مدينة القدس.

وبيت زكريا، الذي فيه حيت العذراء المباركة اليزابث، واقع على مسافة سبعة أميال عن القدس، وذلك إلى الغرب، حيث يوجد الآن كنيسة مكرسة على شرف المبارك يوحنا المعمدان، وقرية عمواس موجودة قرب هذا البيت، وهي على بعد ميل واحد كبير مع زيادة قليلة عن القدس، وبما أن هذين المكانين على مسافة متساوية، فإنه في هذه المزرعة، في المكان الذي ظهر فيه المسيح لاثنين من تلاميذه، يوجد الآن كنيسة.

ومدينة بيت لحم، مدينة صغيرة، وهي على بعد خمسة أميال إلى الجنوب من القدس، وهي التي فيها مهد الرب، وذلك عند الطرف الشرقي من المدينة، وكان المكان كهفاً واسعاً، مع مدخل عريض، وكان الكهف مكاناً يمكن للإنسان أن يلتجيء إليه إذا كان هناك مطر، وذلك مالم يدخل الهواء إلى داخله، ومساحته هو خطوتين جداء

خطوة ونصف الخطوة، وهو محفور في زاوية الصخرة.

ووادي أو موضع الرعاة هو على مسافة ميل واحد إلى الشرق من المهد، ويوجد الآن هناك كنيسة.

...وعلى بعد سفر يوم [ولقد بحثوا عنه وطلبوه] بين معارف العذراء المباركة وبين أقربائها، ولربما كان هؤلاء المعارف والأقرباء زكريا واليزابث.

وعلى ضفة نهر الأردن مكان تعميد المسيح، وهو يبعد خمسة وعشرين ميلاً أو أكثر عن القدس، ويوجد هناك كنيسة مكرسة على شرف جون المبارك.

وحول موضع التعميد سهل الجليل، ومقابلنا مدينة أريحا.

والجبل العالي، وصحراء المسيح على ميل واحد من أريحا، وإذا مارجعنا إلى الخلف، فهناك الطريق التي تأتي عليه من القدس، ففي منتصف هذا الطريق الجبل، حيث فيه ليس عند القمة كهف حفر في الصخر، فيه صام المسيح، ويمكن الوصول إليه من خلال ممر ضيق معلق في وسط الهواء، ومن قمة هذا الجبل جعل الشيطان المسيح يرى جميع ممالك العالم، والكهف هو حوالي أربع خطوات بالطول، والشيء نفسه بالعرض، وذلك لأن شكله مربعاً.

وعند سفح هذا الجبل جدول ماء قام اليشع بتنقية مائه بالملح، وهو واسع بما فيه الكفاية لإدارة طاحون ماء.

وكفرناحوم قائمة على جانب البحر، فهي بلدة إلى جانب بحر الجليل، وهي تبعد حوالي الخمسة عشر ميلاً عن الناصرة.

وبحر الجليل، أو بحر طبرية، أو بحيرة جنسارث هم واحد،

والمكان نفسه، وبعد هذا البحر كفرناحوم، باتجاه الجنوب، يوجد الجبل، الذي غالباً ماقام المسيح بالوعظ فيه، وأعطى بشكل خاص قداساً على الجبل.

وأيضاً في هذا الجبل أطعم الرب خمسة آلاف شخص بخمسة أرغفة، لكن تلك المدينة موجودة عند سفح ذلك الجبل، وفي ذلك المكان الكثير... الأحجار المقطوعة بشكل جيد، وملقاه هناك.

وعلى الطرف الآخر لهذا الجبل، على الجانب الشمالي قرب شاطىء البحر، هناك المكان الذي أكل فيه المسيح مع حوارييه بعد القيامة، وفي هذا المكان هناك كنيسة، وأمواج البحر هي على حوالي ثماني خطوات أو عشر خطوات عن هذا المكان.

وهناك مسافة ميلين إلى المكان الآخر، الذي هو المجدل، بعد البحر، فمن هناك جاءت مريم المجدلية، وعلى بعد أربعة أميال أخرى، بعد البحر، توجد مدينة طبرية.

وقرب طبرية، وإلى جانب البحر، يوجد بيت صيدا، وكذلك كوروزين هي بعد طبريا، وإلى جانب البحر، وجميع هذه المدن هي على بعد سبعين ميلاً عن القدس.

وقرية قانا قائمة بين الناصرة وطبرية، وهي مكان العرس في كهف محفور في الصخر، يمكنه أن يتسع لحوالي الخمسين شخصاً.

وبيت عنيا هي قرية قائمة على جبل الزيتون نحو الشرق، وهي على مسافة حوالي الثلاثة أميال عن القدس، وفي هذه القرية قبر لعازر.

والمكان الذي التقت فيه مريم المجدلية بالرب على طريقه لإقامة

[لعازر] موجود خارج القرية، على بعد ربع ميل، حيث هناك ملتقى طرق واضح.

وفي المكان الموجودة على جبل الزيتون، الذي صعد منه الرب، ظاهر هناك شكل القدم اليسرى للرب، مطبوع على الصخر، ومن غير الممكن الرؤية بوضوح طول وعرض القدم، فالذي ظاهر فقط طبعة نهايات الأصابع مع جزء من أخمص القدم.

ومدينة عكراتون أو عكا، موجودة في منطقة الجليل إلى جانب البحر الغربي.

وجبل لبنان موجود في منطقة الجليل، حيث يوجد عند سفحه نبعان هما: «أر» و«دن»، اللذان يتحدان ويشكلان نهر الأردن، وهذا هو النهر الذي يتعرج في منطقة السامرة، وينتهي في منطقة اليهودية، ليس بعيداً عن القدس، حيث يصب في بحيرة سدوم، وغاموره، ومن هناك يدخل إلى البحر بوساطة طريق سري.

ومدينة أشدود موجودة في منطقة السامرة، بجوار البحر الغربي.

ومدينة أريحا، موجودة في هذه المقاطعة على هذا الجانب من نهر الأردن، وبين أريحا ونهر الأردن الجليل.

ومدينة غزة وكذلك يافا، موجودتان في منطقة اليهودية، بجوار البحر الغربي.

وفي وسط منطقة اليهودية تقع مدينة القدس.

وبيت لحم مدينة موجودة إلى الجنوب من القدس، باتجاه صهيون، بين هذه المدينة ومدينة الخليل.

وممرا هي قرية صغيرة، حيث هناك رابيـة عليها بيت ابراهيم، وهذا البيت هو كهف محفـور في الصخـر، وهو في زاوية مع شجـرة قـائمـة أمام مدخله.

وأنا الراهب بيـلاردوس أوف ايسكولوم Belardus of Es-culum, قـد رأيـت جميع هذه الأشيـــاء، وتفحصتهم، وكتبت ملاحظات حولهم، يمكن أن يكون منها فائدة للآخرين.

- ١٢ -

الدليل السابع

(١١٦٠م)

إذا مارغب أي واحد بالدخول إلى القدس، عليه السير باستمرار نحو الشرق، ووقتها سوف يدخل إليها من باب القديس اسطفان، فهناك خارج الباب قد رجم، وبعد دخوله عليه أن يطلب أماكن القدس بالتتابع.

ويوجد في القدس ضريح الرب، وعند أبواب الدخول للضريح، وخارج الباب، هناك كنيسة أكرا (الجمجمة) وذلك حيث كانت القديسة مريم، وحيث وقف القديس يوحنا، وكان ذلك عندما قال الرب: «انتبهي أيتها المرأة إلى ابنك.... ولد، انتبه إلى أمك» وخارج البوابة، على الجهة اليسرى هناك مذبح القديس يوحنا المعمدان.

وداخل البوابة، ومرة أخرى إلى اليمين، يوجد جبل أكرا (الجمجمة)، حيث جرى صلب الرب، وتحت ذلك، هناك الجلجلة، حيث سقط دم الرب على الصخرة، وهناك يوجد رأس آدم، وهناك أيضاً قدّم ابراهيم أضحيته، وعلى الطرف الآخر، عند سفح جبل أكرا، يوجد مكان مع عمود، فهناك جرى جلد الرب، وعلى مقربة من هناك إلى الشرق، نزولاً أربعين درجة، يوجد المكان الذي تمّ العثور فيه على الصليب المقدس من قبل القديسة هيلانة.

وفي الكنيسة، هناك ضريح الرب، وعلى مقربة من هناك إلى الشرق، في موضع قريب من السدة، يوجد مركز العالم، وذلك حيث تمدد الرب، بعدما أنزله نيقوديموس من على الصليب، وعلى يسار ذلك الموضع يوجد سجن الرب، والمكان التالي لذلك، هو المكان الذي يجري تبجيل الصليب المقدس فيه.

وبعد كنيسة الضريح هناك كنيسة القديسة مريم، التي تدعى «اللاتينية» فهناك —كما قيل— قامت القديسة مريم المجدلية، ومريم زوجة كليفاس بتمزيق شعريهما، عندما وضع الرب على الصليب، وهناك أيضاً مشفى القديس يوحنا المعمدان.

ومن ذلك المكان، وعلى بعد رميتي سهم يوجد هيكل الرب، الذي عمل من قبل الملك سليمان، وهو له أربعة مداخل، واثني عشر باباً، وفي وسط الهيكل موجود صخرة كبيرة، عليها كان تابوت العهد قد وضع، والذي فيه الآن عصا هرون، ولوحي الشريعة، والشمعدان الذهبي، والوعاء الذي فيه المن الذي نزل من السماء، وهناك أيضاً نار الأضحية، والزيت مازال يجري، وهو الذي به جرى مسح الملوك والأنبياء، وبعد هذا الموضع الذي جرى فيه تقديم ابن الرب، وهناك رأى يعقوب السلم نازلاً من السماء.

وعلى يسار السدة مكتوب:

يسوع ملك الملوك قد جرى

مرة تقديمه، ابن العذراء الملكة:

وتعمل هذه الذكرى أكثر قيمة

المكان المقدس الذي جلس فيه.

ورأى يعقوب السلم، وذكرى له جرى بناء مذبح، وعلى الجانب الأيمن الموضع الذي ظهر فيه الملاك لزكريا، وتحت ذلك هناك معبد، كان في الأيام الخالية قدس الأقداس، فهناك أطلق الرب سراح المذنبة التي اعتقلت بجريمة الزنا.

كل الشعوب الذين يعترفون بذنوبهم

انني أحللهم الآن من الشرور والآثام

فهناك جرى الإعلان عن ولادة يوحنا المعمدان، وهنا يوجد العمود الذي قام المسلمون بتزيينه، وذلك في المكان، الذي قيل بأن ابراهيم قد رغب أن يضحي بابنه فيه، وهناك أيضاً الكنيسة، حيث جرى رمي القديس جيمس على أم رأسه من أعلى الهيكل، وهناك خارج سور الهيكل مذبح، إلى جانبه جرى قتل القديس زكريا، وقرب باب ساحة الهيكل يوجد الباب الجميل.

وعلى الجانب الآخر من هيكل سليمان، بين الهيكل والباب الذهبي، هناك أشجار، فمن هناك قطع الأطفال الأغصان، عندما جلس الرب على ظهر الأتان، وهناك بعد هيكل سليمان، في زاوية المدينة، يوجد مهد المسيح، وفراش أمه، وحمام، وهناك أيضاً ضريح القديس سمعان.

وإلى الشرق بعد الهيكل هناك باب، وإلى الشمال هناك بركة الضأن، وعلى مقربة من هناك توجد كنيسة القديسة حنة، والبئر الذي ينزل إليه الحجاج، وعلى مقربة من القديسة حنة، توجد كنيسة القديسة مريم المجدلية، وإلى الشرق، بعد كنيسة الضريح، توجد كنيسة القديس شارتون.

وإلى الجنوب هناك جبل صهيون، حيث جرى تأسيس كنيسة جميلة على شرف القديسة مريم، ومنها حملت إلى السماء، أما بالنسبة لجسدها المقدس جداً، فقد أنزل إلى وادي شعفاط، وإلى اليسار من هناك توجد بيعة في المكان الذي كانت فيه قاعة المحكمة، حيث هناك حكم على المسيح، وعلى الجانب اليساري هناك موضع الجليلي، وذلك حيث ظهر الرب إلى سمعان والنساء، وفي الأعلى، بعد السدة، يوجد المكان الذي نزل إليه الروح القدس على الرسل، وفي الكنيسة نفسها توجد المائدة

التي تناول عليها المسيح العشاء، وذلك عندما قال: «خذوا، كلوا، هذا هو جسدي»، وفي الأسفل يوجد الموضع الذي غسل فيه أقدام تلاميذه، والحوض موجود هناك، وهوالحوض الذي حوى الماء، وفي ذلك المكان وقف يسوع عندما قال: «سلام معكم»، وهناك لمس توما جنبه، وعلى الجانب الأيسر، مذبح القديس اسطفان، وذلك حيث دفن.

وخارج الكنيسة هناك كنيسة صغيرة، في المكان الذي كان يوجد فيه قاعة المحكمة، وهو المكان الذي جرى جلد المسيح فيه، وتتويجه بالشوك، والسخرية منه، فهذا كان بيت قيافا، وخلف جبل صهيون، توجد كنيسة في المكان الذي هرب إليه بطرس عندما أنكر الرب عند صياح الديك، وباتجاه الوادي هناك بركة سلوان، وهناك جرى دفن النبي اشعيا.

وبين القديس وجبل الزيتون يوجد وادي شعفاط، حيث جرى دفن القديسة مريم، من قبل الرسل، وهناك جدول قدرون، وهناك أيضاً المزرعة التي عرفت باسم جشيماني، فمن هناك أبعد الرب بطرس وبقية-الحواريين، عندما صلى قائلاً: «ياأبا الأب كل شيء مستطاع لك، فأجزعني» وهكذا دواليك، فهنا توجد الحديقة، حيث جرى اعتقاله من قبل اليهود، وعلى بعد رمية حجر من هناك يوجد الموضع الذي صلى فيه، وتقاطر فيه عرقه على الأرض مثل نقاط من الدم، وإلى جانب هذا الموضع، ضريح الملك شعفاط، الذي من اسمه حصل الوادي على اسم «شعفاط»، وهناك توجد كنيسة حيث جرى دفن جيمس، والقديس سمعان الأكبر، وزكريا، وليس بعيداً عن هناك نحو الجنوب، مكان [حقل] حق الدم، أو موضع دفن الغرباء.

ومن على جبل الزيتون صعد الرب إلى الأب، وهناك أمر الحواريين

بالتبشير إلى جميع المخلوقات، وعلى مقربة من هناك، حيث جرى عمل «الصلاة الربانية»، وعلى مسافة ضئيلة من هناك، يوجد ضريح القديس بيلاغيوس، وبين جبل الزيتون، وبيت عنيا، بيت فاجي، إلى حيث أرسل الرب بطرس وجون من أجل جلب الأتان، وليس بعيداً عن هناك بيت عنيا، حيث أقام الرب لعازر، وغفر للمرأة التي كانت مذنبة، وهنا كان أيضاً بيت سمعان المجذوم، وعلى مقربة من هناك الموضع الذي قابلت فيه القديسة مرثا الرب.

ويبدأ الطريق الذي يقود من القدس إلى بيت لحم من باب داود، وينزل إلى كنيسة القديس إلياس، وذلك حيث يقوم، وعلى الطريق هناك قبر راحيل، وفي بيت لحم كان المسيح قد ولد، وهناك يوجد قبر القديس جيروم، والبئر الذي سقط فيه النجم، وهناك رسم للمائدة التي أكلت عليها مريم مع الملوك الثلاثة، وفي هذه المنطقة توجد قبور الأبرياء، وفي كهف العذراء المباركة يوجد مذبح، في المكان الذي ولدت فيه، وليس بعيداً عن بيت لحم توجد الكنيسة التي أقيمت حيث ظهر الملائكة للرعيان، وهناك كنيسة فوق المكان الذي استراحت فيه القديسة مريم عندما كانت حاملة بالرب، وفي النهاية القصوى يوجد الطريق الذي يقود إلى الخليل، التي تبعد خمس مراحل عن القدس.

وفي ذلك المكان خلق الله آدم، وليس بعيداً عن هناك بيت قابيل وهابيل، وليس بعيداً عن هناك المكان الذي ظهر فيه الرب على شكل ثالوث لابراهيم، وإلى الشرق الموضع الذي سلمت فيه القديسة مريم على اليزابث، وعلى مرحلتين من هناك تقوم قرية عمواس.

وخارج الباب توجد كنيسة الصليب المقدس، وذلك حيث جرى قطع خشبة الصليب، وفي القدس المكان الذي وضع فيه القديس

بطرس بالسجن، وفي الهيكل يوجد نبع ماء حي، وهذا هو السبب الذي جعل النبي [حزقيال] يقول: «أنا رأيت مياه تخرج» [حزقيال ٤٧/ ١].

ومن القدس إلى جبل أربعين مسافة سبع مراحل، وعند سفح هذا الجبل هناك بستان ابراهيم، وعلى مقربة من هناك توجد أريحا، وعلى بعد مرحلتين من هناك يوجد نهر الأردن، ومن النهر إلى جبل سيناء سفر ثمانية عشر يوماً، ومن القدس إلى السامرة، التي اسمها الآن نابلس، اثنتي عشرة مرحلة، وهناك يوجد البئر، حيث تحادث الرب مع المرأة السامرية، وهناك يوجد الجبل، حيث رغب ابراهيم بالتضحية بابنه، ومن هذا المكان إلى سبسطية مسافة مرحلتين، وهنا في هذا المكان جرى قطع رأس يوحنا المعمدان، وبعض رماده مازال محفوظاً هناك.

والمسافة من هناك إلى جبل الطور هي عشر مراحل، فهناك تغير شكل الرب، وإلى جانب ذلك الجبل وملاصقاً له يوجد جبل حرمون، وفي ذلك المكان هناك مدينة نين، وذلك حيث أحيا الرب الولد الوحيد لأمه أمام الباب، وإلى الشرق هناك بحر الجليل، وذلك حيث أشبع الرب خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة مع سمكتين، وإلى الغرب توجد مدينة الناصرة الفخمة، وهناك تلقت العذراء المباركة البشارة من الملاك، فهناك كان يوجد بيتها.

وهذه الأماكن وأماكن أخرى من المتوجب تبجيلها من قبل المؤمنين.

- ١٣ -

الدليل الثاني★

(حوالي ١١٧٠م)

بوساطة الطريق العالي وأنت ذاهب من عسقلان إلى المدينة المقدسة، توجد هناك بلدة الناصرة، وعلى بعد ميلين من هناك يوجد جبل الطور، الذي فيه جرى تغيير شكل المسيح، وعلى مقربة من هناك توجد مدينة طبرية، وهي بجوار بحر الجليل، حيث عمل الرب كثيراً من المعجزات، وعند نهاية البحر هناك المائدة، حيث أعطى الرب الطعام لخمسة آلاف إنسان من خمسة أرغفة مع سمكتين.

ثم تأتي مدينة سبسطية، التي هي مبجلة من أجل آثار القديس يوحنا المعمدان، ثم إنك تذهب إلى نابلس، حيث يوجد البئر الذي جلس عليه الرب، عندما تحادث مع امرأة من السامرة.

ومن هناك تأخذنا الرحلة إلى المدينة المقدسة، وأول شيء إلى كنيسة القديس اسطفان، وذلك حيث جرى رجمه، ومن هناك نذهب إلى كنيسة الضريح المقدس، ونمضي أول كل شيء إلى موضع الجمجمة، حيث تألم، وهنا جرى نصب الصلبان الثلاثة، وتركوا طابعهم، في سبيل أن يتم الاصغاء إلى صلواتنا، ومن أجل عبادة الواحد الذي صلب.

ومن هناك يذهب الإنسان إلى الجلجلة، حيث سال دم الرب من خلال الصخرة المتصدعة، ثم يذهب الإنسان إلى المذبح، الذي من المعتقد أنه أقيم فوق المكان الذي كان فيه قطعة العمود الذي ربط إليه المسيح عندما جرى جلده، وهناك يوجد طريق يقود نزولاً إلى المكان

★— من أجل الدليل الأول، انظر الموسوعة ج٣٩ ص١١-١٤.

الذي اكتشف فيـه الصليب المقـدس، وكان هذا في كهف، و الصخـرة مـاتزال مـرئيـة فـوقـه، والمذبح الموجـود في الوسط هو لتشريف الملكة هيـلانـه، والمذبح اليســاري هو لتشريـف القــديس قــوريــاكـــوس Quriacus, وهذا كـــان يهودياً، وهو الذي أبـان الموضع الذي كان فيه الصليب، وكـان عندما شاهد معجزة قيـامة الميت، اهتدى إلى الإيمان، وأصبح أسقف القدس.

وفي وسط ســدة الكهنة النظاميين يوجـد مكان مبجل كثيراً، وهذا كـان بسبب أن المسيـح جـرى تمديده هناك، بعــدمـــا أنزل من على الصليب، وذلك قبل أن يـؤخـذ إلى الضريح، ويوجـد هناك مصبـاح لاينطفىء مطلقـاً، والمذبح الكبير مقـام على شرف القديسـة مـريم، ثم يزور الإنسان الضريح المقدس.

وفي هذا مذبح جنوبي في كنيسة زينت بشكل موائم، فهناك الصليب المقـدس محفوظ، وبعـدها هناك كنيسة أخـرى سريانية، فيهـا يحتفظون أيضاً بالصليب المقدس، وتقـريباً عند طرف الكنيسة في الجانب الجنوبي هناك المكان الـذي يدعى السجن، فهناك تمت حـــراســة المسيح أثناء إعداد الصليب على الجبل.

وتحت خمسة أعمدة من أعمدة الكنيسة، جرى دفن الأربعين شهيداً، وشخصيتهم معروفة من خلال حقيقة أنه يحتفل بعيدهم في التاسع من آذار، وبعـد مـوضع الجمجمـة، يوجـد مكان بابه مغلق، فيـه كما قـال جيروم جرى دفن آدم، ويقول بعض الناس بـأن نقاطاً من الدم ملأت فمه، ولهذا السبب قام من الموت.

وبعد الكنيسة الرئيسيـة، هناك ثلاث بيع على الجنوب، البيعة الأولى منهن مكرسـة على شرف.... الثالوث المقدس، والأخيرة، على جـانب السـاحـة، مكرسـة على شرف القـديس جيمس الكبير، ولقـد قيل بأن

الرب قد جلس في المقعد الموجود عند المذبح المتوسط، وقام بمباركة جون من على اليمين، وجيمس من على اليسار، وكان ذلك عندما سألت أمهم بوجوب «جلوسهما في مملكته، واحد على يمينه والثاني على يساره»، ويقال بأن القديس جون قد وقف فوق مكان مذبحه، عندما عهد المسيح بأمه إليه.

وأيضاً وقفت العذراء الأكثر قداسة في المكان القائم الآن فيه المذبح الكبير، للكنيسة الرئيسية نفسها، ونظرت إلى ابنها وهو يتألم، وخارج الكنيسة نفسها، على جهة الجمجمة (أكرا) هناك بيعة صغيرة مكرسة على شرف مريم المجدلية، وذلك في المكان الذي وقفت فيه المريمات الثلاث أثناء الآلام.

وهناك كنيسة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، على الجهة المواجهة للكنيسة الرئيسية، وهي ليست مبجلة فقط بسبب آثارها المقدسة كثيراً، بل بسبب أن أعظم الصدقات تعطى فيها، وهناك من الواضح وجود ستة أعمال من الرحمة يجري تنفيذها، وعلى مقربة من هناك كنيسة القديسة مريم للاتين، وهي مشهورة منذ زمن طويل، كما أنها مشهورة أيضاً بسبب الآثار المقدسة التي تحتويها، ومنها هناك: رأس القديس فيليب الرسول، مع بعض من شعر القديسة مريم.

ويوجد مكان على جبل صهيون، فيه ظهرت الروح القدس، ونزلت على الرسل، على شكل ألسنة من اللهب، فأضاءت قلوبهم، وهناك تمت عملية غسل أقدام التلاميذ، والمائدة نفسها موجودة هناك، التي أقيم عليها العشاء، وهذا المكان موجود أمام الأبواب التي عرفت باسم أبواب «الروح القدس»، وإلى الجنوب هناك المكان الذي عرف باسم الجليلي، الذي عنه قيل: «هو سوف يذهب قبلكم إلى الجليل» [مرقص: ١٦/ ٧]، وعلى الجانب المواجه للشمال يوجد المكان الذي ماتت فيه القديسة مريم في هذا العالم.

وفي نهاية هذا الجانب، إلى الشرق، يوجد مذبح مدفون تحته: القديس اسطفان، والقديس جمالإيل، والقديس أبيباس، والقديس نيقوديموس.

وخارج الساحة إلى الشمال هناك كنيسة مقامة على شرف القديس بطرس في السجن، وذلك حيث احتفظ به هيرود سجيناً مغلولاً بسلسلتين.

وعندما نذهب عائدين إلى هيكل الرب، إن المكان الأول الذي يصل الإنسان إليه، هو مكان التقدمة المقدس، ويأتي بعد ذلك المكان الذي نام فيه يعقوب ورأى السلم، وتصارع مع الملاك، وحيث في ذكرى ذلك أقام حجراً، وتحت السدة، إلى الجنوب هناك كهف محفور في الصخر، وهو الذي يدعى باسم «مكان الاعتراف»، وكان سبب ذلك أن امرأة قدمت إلى المسيح، حيث قال لها: «أما دانك أحد»؟ وهكذا إلى آخره (يوحنا ٨/ ١٠).

وعند رأس الهيكل توجد بيعة القديس جيمس، وذلك حيث ألقي به من شاهق على أم رأسه، وقتل بعصا القصار، هذا وكان جيمس بن ألفيوس Alphaeus, الأسقف الأول للقدس.

وليس بعيداً عن هناك الباب الذهبي ظاهر يشار إليه، وهو الباب الذي دخل منه إلى القدس، عندما جاء من جبل الزيتون، وهو على ظهر أتان، والأطفال يصرخون: «أوصينا لابن داود» [متى: ٢١/ ٩، ١٥]، ويفتح هذا الباب فقط في يوم عيد السعف، وفي يوم عيد تمجيد الصليب المقدس.

ومن هناك من الممكن رؤية المكان الذي فيه: المهد، والحمام، وقبر سمعان، وهناك يقال بأن المسيح مكث مع سمعان لمدة سنة ونصف السنة.

وعلى مقربة من الباب المتوجه نحو وادي شعفاط، توجد كنيسة القديسة حنة، أم القديسة مريم، وذلك حيث كانت ساكنة عندما كانت حاملة، ورعته (ورعتها؟).

وعلى مقربة من هناك، توجد بركة الضأن التي لها خمس قناطر، وهذه البركة هي المكان الذي يجري اخبار الذين يزورون، بأن خشبة الصليب قد بقيت هناك لمدة طويلة، ولكن الداوية يرونك بركة أخرى، ويقولون بأنها كانت بركة الضأن.

ومن هناك يذهب الإنسان إلى وادي شعفاط، حيث يوجد قبر القديسة مريم، ويوجد هناك قبل باب الدير مكان اسمه جشيماني، فهنا خانه يهوذا، وهناك على أقل من رمية حجر —حسبما يقولون— ترك طبعة أصابعه، وفي تلك البيعة هناك أربعة أماكن منفصلة عن بعضها، فهناك وجد حوارييه نائمين كل ثلاثة مع بعضهم.

وخارج الساحة، وعلى بعد رمية حجر، توجد كنيسة مكرسة على اسم المخلص، وذلك حيث صلى ثلاث مرات، وتقاطر عرقه منه كأنه نقاط دم.

وبعد منطقة السير في شعفاط يجري جدول قدرون، وفي داخل وادي شعفاط هناك مياه سلوان، وهناك أيضاً حيث يعيش النساك، توجد بيعة مكرسة على شرف القديس جيمس، [وحقل] حق الدم موجود تقريباً على حدود وادي شعفاط، وهو الحقل الذي شري بالثلاثين قطعة من الفضة، من أجل دفن الغرباء هناك، فهناك لايرفض دفن أحد.

ولدى الصعود إلى جبل الزيتون، إن أول كنيسة تواجه الإنسان، هي كنيسة «باترنُصتر» ومرد هذا إلى أن المسيح علم هناك «أبانا»، وعلى رمية حجر من هناك، موجود تحت المذبح المكان الذي كتب

عليه بخط يده «أبانا» بأحرف اغريقيـة، وبعد ذلك تأتي كنيسة العذراء المقـدسـة بلجيـا، وفي الكنيسـة التي بنيت على قمـة الجبل، من الممكن هناك رؤية مكان الصعود.

ويلي ذلك، لكن ليس بعيداً، بيت فاجي، ثم تأخذنا الرحلة إلى بيت عنيـا، ثم إلى الأردن، حيث يصل الإنسـان أولاً إلى أريحا، حيث هناك بستـان ابراهيم وحيث من هنـاك يجري جـدول اليشع.... حيث هناك اثني عشر نبعاً، وسبعين شجرة نخيل، وعندما يكون الإنسان زائراً إلى هناك، يجد مكاناً محمياً من قبل أناس رهبـان، ويعرف هذا المكان باسم «أربعين»، بسبب أن المسيح صـام هناك لمدة أربعين يـومـاً. وعند قمـة الجبل هناك المكان الذي أغواه فيه الشيطان، ومن هناك يذهب الإنسان إلى الأردن.

وهناك مكان يعرف باسم مقبرة الأسد، خارج مدينة القدس، حيث أجسـاد كثير من القـديسين راقـدة مـدفـونة، وبعـد ذلـك يأتي دير الجورجيين الذي اسمـه «عند الجذل» أو «الجذع»، لأنـه هناك كـانت الشجرة التي قطع منها الصليب المقـدس، وفوق مكان «الجذل» يوجد مذبح نصب هناك.

وعلى الطريق الـذي يقـود إلى بيت لحم قبر راحيـل، وهناك المكان الذي جرى فيه تبجيل ايليا، وكذلك كنيسة بنيت من أجله، وفي المكان الذي ولد فيـه الرب مطرقـة ومسـامير صلبـه، وهناك دفن جيروم، وهناك كثيراً من آثار الأبرياء المقدسين.

وليس بعيداً عـن هناك مكان اسمه «المجد للـرب في الأعالي»، لأنه في اللحظة التي ولد فيها الرب سمعت الملائكة وهي تغني مع بعضها: «المجد للرب في الأعالي».

وبين جبل الزيتون وجبل جيجون، مكـان اسمه «عند الرعاة»، لأن

الرعـاة عندمـا كـانوا سهـرانين هناك، أشع نور، وغنى الملائكة معلنين بأن المسيح قد ولد.

ولدى الذهاب إلى القديس ابراهيم في حبرون، فإنك تجد أولاً جذر (بلوطة) ممراً، وهناك الآن كنيسة مبنية على شرف الثالوث المقدس.

وإلى جـانب حبرون هناك مكان هو حيث قتل قـابيل أخـاه هابيل، وهناك أيضـاً الجبل الذي عليـه قدم كل واحـد منهما للرب أول ثماره، وهناك الأرض المشار إليها بأن آدم قد خُلق منها.

وفي العودة إنك تسافر مـاراً بكنيسة القديس يوحنا المعمدان، حيث بشر بعماد التـائبين في الصحـراء، وهناك نبع مـاء لايتـوقف، وهذا قـد انبثق عندما بشر وكان يصلي.

ومن هناك تأخـذنا الرحلة إلى القـديس زكـريا، حيث عـاش مع القديسـة إليزابث، ومارس أعمال نسكه، وسلمت هناك مريم المقـدسة على اليزابث، فتحرك الطفل في رحمها فرحاً.

ومن هناك يسافر الرحالة من خلال القلعة التي اسمها عمواس، إلى المدينة المقدسة.

وبعـد المدينة يوجـد مـوضع جيجـون، حيـث يوجـد الآن دير للأرثوذكس، وبعـد جبل الزيتون على اليسار، يوجـد دير للسريان، في الوادي مابين جبل الزيتون وجبل جيجون...

ومن جبل الزيتـون يمكن للإنسـان أن يشـاهد البحيرة التي اسمهـا «البحـر الميت»، وذلك حيث جـرى اغـراق المدن الأربع: سـدوم، وغـامـوره، والبقيـة، وفي هـذه البحيرة يصب الأردن، وهناك يجري ابتلاعه.

وفي المدينة هناك دير لليعـاقبة، حيث يوجد رأس القـديس جيمس،

وذراع القديس اسطفـان رائد الشهداء، ويمتلـك اليعاقبة أيضـاً كنيسة القديسة مريم المجدلية، فهناك يعرضون شعرها.

وفي كنيسـة الضريح المقـدس هناك أبواب مواجهـة لبيعـة السريان، التي يحتفظون فيها بالصليب المقدس.

وهناك بوابة، عندها وقفت القديسة مريم المصرية، ولم يكن بإمكانها الدخول من دون توبة صحيحة.

المحتوى

١٠٤٠	استقالة أسقف درم
١٠٤١	منع مبارزة
١٠٤١	رغبة الملك بانتخاب أخيه أسقف لدرم
١٠٤٢	شكوى حول السرقات المقترفة في انكلترا
١٠٤٨	تدهور سمعة الامبراطور فردريك
١٠٤٨	رسالة قدح ضد الامبرطور
١٠٥٤	مفاسد البلاط الروماني
١٠٥٥	خلاف بين سكان كمبردج والكهنة
١٠٥٥	نجاة الامبراطور من الموت بالسم
١٠٥٧	حزن فردريك وأساه
١٠٥٧	تبديد المؤن في قبرص
١٠٥٨	كيف صالح الملك الفرنسي كثيرين فيما بينهم
١٠٥٩	مراسلة هنري بن فردريك الملك الفرنسي
١٠٥٩	وصول رئيس أساقفة روان إلى انكلترا
١٠٦٠	اجتماع النبلاء في لندن
١٠٦١	رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان جباة للبابا
١٠٦١	وفاة رئيس أساقفة منتز
١٠٦٢	انسيوس بن فردريك ينصب كميناً للبارميين
١٠٦٣	هطول غزير للأمطار
١٠٦٣	تحويل جسد ادموند
١٠٦٣	عدد كبير من النبلاء الانكليز يحملون الصليب
١٠٦٤	اخضاع الغسكونيين
١٠٦٥	أسر انسيوس
١٠٦٦	موت ولد لفردريك
١٠٦٦	ارسال بطرس كيوشي إلى أبوليا
١٠٦٦	الرهبان السسترشيان يحصلون على مدارس في الجامعات
١٠٦٧	تتويج بونيفيس

١٠٦٧	تقارير غير مؤكدة
١٠٦٧	عودة أسقف نورويك
١٠٦٨	الاستيلاء على دمياط
١٠٦٨	اجتماع رهبان الطائفة السوداء
١٠٦٨	الحجرة التي حملت طبعة قدم المسيح
١٠٦٩	ولادتان غير طبيعيتان
١٠٦٩	مباراة مقارعة في بريكلي
١٠٧٠	تكريس أسقف درم
١٠٧٠	خلافات بين راعي دير وسيتمنستر ورهبانه
١٠٧٠	خلاف بين راعي دير بيتربورا ورهبانه
١٠٧١	انتخاب جون أوف كاين راعياً لدير بيتربورا
١٠٧١	روبرت باسلو يترك البلاط
١٠٧٢	اعتقال كونت غوزني
١٠٧٣	تكريس كنيسة بيوليو
١٠٧٣	تحول ملك التتار إلى المسيحية
١٠٧٥	موت ملك سكوتلندا
١٠٧٦	موت هوغ برون
١٠٧٦	موت كونت طولوز
١٠٧٧	موت بطرس دي غينور
١٠٧٧	موت المعلم سيمون النورماندي
١٠٧٨	وفاة وليم أوف درم
١٠٧٨	وفاة روجر فتز— جون
١٠٧٨	وفاة عدد من النبلاء الفرنسيين
١٠٧٩	احتفال الملك بعيد الميلاد في وينكستر
١٠٨٠	ولادة كونتسة كورنوول لصبي
١٠٨٠	فرض غرامة على وولترد
١٠٨١	المصالحة بين راعي دير ويتسمنستر ورهبانه

١٠٨١	استدعاء أسقف لنكولن رهبانه
١٠٨٢	عبور كثير من النبلاء الانكليز البحر
١٠٨٢	ذهاب أسقف لنكولن إلى البلاط الروماني
١٠٨٤	بيع كثير من نبلاء انكلترا مزارعهم
١٠٨٤	معاناة البارميين
١٠٨٦	احصاء ثروة رئيس أساقفة كانتربري
١٠٨٦	الملك الانكليزي يطلب المساحة من سكان لندن
١٠٨٧	الملك يحمل الصليب
١٠٨٨	القرار الجماعي للصليبيين
١٠٨٩	اخضاع الغسكونيين
١٠٩٠	كيف استخرج الغسكونيون المال من الملك
١٠٩١	حملة الفرنسيين ضد المسلمين
١٠٩١	شروط السلام التي قدمها السلطان
١٠٩٢	موت أعداد كبيرة من الفرنسيين
١٠٩٣	ارتداد عدد كبير من الفرنسيين
١٠٩٣	موت السلطان
١٠٩٤	كيف تلاشى إيمان الكثيرين
١٠٩٥	تدهور أحوال الكنيسة
١٠٩٦	رسالة من البابا
١٠٩٦	عودة الايرل رتشارد
١٠٩٧	الآراء حول مؤتمر البابا مع الايرل رتشارد
١٠٩٨	شراء الايرل لأحد الديرة
١٠٩٨	معجزة عملت بذراع القديس ادموند
١١٠٠	الملك يضع قيوداً على مائدته
١١٠٠	غرامة على اليهود
١١٠٠	جريمة أحد اليهود
١١٠١	فحص أموال اليهود

١١٩٩	عودة غي أخو الملك من الأرض المقدسة
١٢٠٠	كيف أغنى ملك انكلترا اخوته
١٢٠١	أسقف لندن يقسم على الالتزام بمراسيم رئيس الأساقفة
١٢٠٢	ذهاب البابا إلى بيروسيا
١٢٠٢	شكاوى البنادقة ضد ملك فرنسا
١٢٠٣	اتحاد بعض الرهبان
١٢٠٣	عودة سيمون ايرل ليستر من غسكوني
١٢٠٤	اجراءات الايرل سيمون
١٢٠٥	عودة الايرل سيمون
١٢٠٦	ادخال عبارة دون التقيد في المحاكم العلمانية
١٢٠٧	اطلاق سراح بعض الأسرى الصليبيين
١٢٠٧	تحليل عمدة لندن وكهنتها
١٢٠٨	تقارير حول هنري باث
١٢٠٩	كفالة هنري باث
١٢١١	احصاء نفقات الملك
١٢١١	تأسيس دير للنساء من قبل كونتسة آرونديل
١٢١١	جلب أخبار وفاة فردريك إلى الممالك الغربية
١٢١٢	وصية الامبراطور فردريك
١٢١٣	ايقاع عقوبة الحرمان الكنسي بعميد لندن وكهنتها
١٢١٤	موت الايرل ولتر
١٢١٦	ثبات أمير أنطاكية أمام الموت
١٢١٧	قطع أشجار رئيس أساقفة كانتربري
١٢١٧	الحرب بين أولاد ملك الدانمارك
١٢١٨	عودة ايرل ليستر إلى غسكوني
١٢١٩	عقد بارلمان في لندن
١٢٢٠	تثبيت ايثيلمار في كرسي وينكستر
١٢٢٠	وفاة وليم دي كانتيلوب

١٢٢١	اجتماع أساقفة انكلترا في دنستيبل
١٢٢٢	زيارة تفقدية لأسقف لنكولن
١٢٢٣	اخضاع و يلز للقوانين الانكليزية
١٢٢٣	تثبيت أسقفي وينكستر ورروكستر
١٢٢٤	عبور راعي دير ويستمنستر البحر
١٢٢٥	أوضاع أنطاكية البائسة
١٢٢٥	ذهاب عمدة لندن إلى البلاط الروماني
١٢٢٥	اغناء ملك انكلترا الأجانب
١٢٢٦	وفاة الكاردينال وليم أسقف سابينا
١٢٢٧	خلافات بين راعي دير ويستمنستر والرهبان
١٢٢٨	رسالة من ألفونسو ملك قشتالة إلى ملك انكلترا
١٢٢٩	رسالة من البابا
١٢٣٠	وصول الملك إلى سينت ألبان
١٢٣١	اعتقال الفارس روبرت
١٢٣١	وفاة سيسليا دي ساندفورد
١٢٣٣	مغادرة البابا ليون
١٢٣٤	وصول البابا إلى ميلانو
١٢٣٥	عودة راعي دير ويستمنستر
١٢٣٦	فقدان ملك فرنسا للمال في البحر
١٢٣٧	فيضان في فريزلاند
١٢٣٧	عودة هنري أوف باث إلى البلاط
١٢٣٨	عودة أسقف وينكستر من البلاط الروماني
١٢٣٩	موت بوينتز بيبر وتأبينه
١٢٤١	وصول راعي دير كلوني إلى انكلترا
١٢٤١	العثور على جثث بعض الرهبان في سينت ألبان
١٢٤٢	وفاة قهرمان الملك
١٢٤٢	استدعاء السماسرة إلى العدالة

١٢٩٧	الحاق الأذى براعي دير رامس من قبل الملك
١٢٩٨	الخطر الذي أحاق بكنيسة القديس ادموند
١٢٩٨	الخلاف حول كنيسة فليمستد
١٣٠٠	موت روبرت باسليف
١٣٠٠	وفاة رتشارد دي ويندوفر
١٣٠١	البابا يمنح بعض السلطات إلى أسقف لنكولن
١٣٠٢	اعاقة مشروع سلام بين البابا وشيعة فردريك
١٣٠٣	منح حق الزيارة التفقدية إلى رئيس أساقفة كانتربري
١٣٠٤	كيف شفى طفل الكثير من الناس
١٣٠٥	عقد سلام بين راعي دير ويستمنستر والرهبان
١٣٠٥	منح امتياز إلى دير ويستمنستر
١٣٠٦	صك ملك انكلترا
١٣٠٦	غضب ملك انكلترا من راعي دير ويستمسنتر
١٣٠٧	أخبار من الأرض المقدسة
١٣٠٨	أخبار أفضل من الأرض المقدسة
١٣٠٩	شكوك حول شروط الهدنة
١٣١٠	موافقة الملك الفرنسي على الهدنة ورسالة حولها
١٣١١	اجتماع بين السلطان والملك الفرنسي
١٣١٣	موت ألفونسو ملك اسبانيا
١٣١٣	مرض ألفونسو أخو الملك الفرنسي
١٣١٤	حزن الملكة الفرنسية بلانشي
١٣١٤	عبور الراهب وليم الألب
١٣١٥	ارسال الايرل سيمون إلى غسكوني
١٣١٦	اعطاء غسكوني إلى ادوارد ابن الملك
١٣١٧	معركة دموية بين الغسكونيين والايرل سيمون
١٣١٩	اجتياح الأجانب لانكلترا
١٣٢٠	حر وجفاف خلال الصيف

١٣٢١	مبارزات المائدة المستديرة
١٣٢٣	ذهاب الملك إلى سينت ألبان
١٣٢٣	وفاة وليم هافرهل
١٣٢٤	النقش على قبر وليم هافرهل
١٣٢٤	مرض مميت بين الماشية
١٣٢٥	تكريس كنيسة إيلاي
١٣٢٦	وفاة الكونتسة مرغريت
١٣٢٨	عقد بارلمان كبير في لندن
١٣٣٠	تهدئة غضب ملك انكلترا
١٣٣١	موافقة الأساقفة على طلب الملك
١٣٣٣	اصرار الملك على نواياه ومقاصده
١٣٣٤	توزيع الملك للموراد الشاغرة
١٣٣٥	سير الملك بالتسلسل
١٣٣٧	رفض الملك الاصغاء إلى المنطق
١٣٣٨	ثبات كهنة وينكستر
١٣٣٨	سكان لندن يدفعون عشرين ماركاً إلى الملك
١٣٣٩	فرض ضريبة عبودية على اللنديين
١٣٣٩	المعاناة من الأنواء القاسية
١٣٤٠	شؤون غسكوني
١٣٤١	ارفضاض المؤتمر وغضب الملك
١٣٤٢	كلام كونتسة آرونديل
١٣٤٤	البحث في شؤون غسكوني
١٣٤٥	انتهاء المؤتمر
١٣٤٥	مقابلة بين الملك ومقدم الاسبتارية
١٣٤٦	تعيين رينالد دي موهون حافظاً للغابات
١٣٤٧	أخبار جلبها بعض الأرمن
١٣٤٨	وفاة كونتسة وينكستر

١٣٤٨	اطلاق سراح أسرى صليبيين من مصر
١٣٤٩	جلب عظام وليم صاحب السيف الطويل إلى عكا
١٣٤٩	الإجراءات العنيفة لوليم أوف بلنسية
١٣٥١	عمل غير شريف اقترفه غيوفري دي لوزنغنان
١٣٥٢	اتهامات ضد الفارس روبرت دي لى هو
١٣٥٣	الاجراءات القضائية لناظر أساقفة انكلترا
١٣٥٣	وصول ألبيرت موثق البابا إلى انكلترا
١٣٥٥	انشغال ألبيرت بمصالحه
١٣٥٥	وصول رئيس الأساقفة إلى لندن
١٣٥٦	خلاف بين رئيس الأساقفة وأسقف وينكستر
١٣٥٧	إجراءات أسقف وينكستر
١٣٥٨	رفع شكوى إلى رئيس الأساقفة
١٣٦٠	ذهاب رئيس الأساقفة إلى اكسفورد
١٣٦١	اعلان قرار رئيس الأساقفة في اكسفورد
١٣٦٢	موت بلانشي ملكة فرنسا
١٣٦٣	موارد جون مانسيل
١٣٦٣	احصاء موارد الأجانب في انكلترا
١٣٦٤	معاناة رهبان السسترشيان في انكلترا
١٣٦٥	مختصر أخبار العام
١٣٦٦	احتفال الملك بعيد الميلاد في وينكستر
١٣٦٦	تطويب بطرس الدومينيكاني
١٣٦٦	انتخاب برانكليون شيخاً لروما
١٣٦٧	ارسال هدية فخمة من شعب وينكستر إلى الملك
١٣٧٠	مغادرة المعلم ألبيرت
١٣٧١	طرد اليهود من فرنسا
١٣٧١	موت راعي دير القديس أوغسطين في كانتربري
١٣٧٢	خسارة كنيسة القديسة مريم في يورك

١٣٧٢	استباحة مدينة تيفولي
١٣٧٣	زواج ايرل غلوستر من ابنة أخي الملك
١٣٧٤	ادعاء ملك اسبانيا الحق في غسكوني
١٣٧٦	قيود الزيارات التفقدية
١٣٧٦	عبور بعض النبلاء البحر من أجل الزواج المتقدم ذكره
١٣٧٧	ارغام اللنديين على دفع مبلغ من المال
١٣٧٧	مراسيم من أجل تقوية المملكة
١٣٧٩	وفاة رتشارد دي ويتز أسقف شيستر
١٣٨٠	تجدد الاضطرابات بين الغسكونيين
١٣٨٠	نهب بضائع الفقراء
١٣٨١	منح امتياز إلى كنيسة ولتهام
١٣٨٢	الفرنسيون يطلبون مساعدة الايرل سيمون
١٣٨٢	دعوة البابا إلى العودة إلى روما
١٣٨٣	عقد بارلمان عظيم
١٣٨٩	عزل الايرل سيمون من ولاية غسكوني
١٣٩٠	عودة هنري أوف باث إلى البلاط
١٣٩١	معجزات عند قبر رتشارد أسقف شيكستر
١٣٩١	انتخاب جون كلبنغي لأسقفية شيكستر
١٣٩١	زيارة تفقدية للطائفة السوداء
١٣٩٢	استعدادات الملك لحملة إلى غسكوني
١٣٩٣	مذبحة في أحواز فلاندرز
١٣٩٣	قيام رئيس أساقفة كانتربري بزيارة تفقدية
١٣٩٤	استقبال مارشال انكلترا لزوجته ثانية
١٣٩٤	مغادرة ملك انكلترا إلى غسكوني
١٣٩٤	وفاة توماس أوف هارتفورد رئيس شمامسة نورثأمبرلاند
١٣٩٦	الكارثة التي نزلت بالجيش الفرنسي
١٣٩٦	وصول ملك انكلترا إلى بوردو

١٣٩٩	مشاعر الشكوك الفرنسية تجاه البواتيين
١٤٠٠	رسالة أسقف لنكولن إلى البابا
١٤٠٤	سخط البابا من الرسالة
١٤٠٥	كرم روبرت أوف سوثندون
١٤٠٥	موت رالف راعي دير رامسي
١٤٠٦	طوفان مدهش
١٤٠٦	احتفال بعيد القديس ادوارد
١٤٠٧	حصول ملك انكلترا على قلاعه في غسكوني
١٤٠٨	ارسال سفراء من عند ملك انكلترا إلى ملك اسبانيا
١٤٠٩	عدوان حاد قام به المسلمون ضد الصليبيين
١٤٠٩	مجاعة كبيرة في غسكوني
١٤١٠	اعفاء دير القديس ألبان من دين مستحق
١٤١٠	انتشار سمعة ملك اسبانيا
١٤١٠	نصيحة ملك اسبانيا إلى ملك انكلترا
١٤١١	مرض أسقف لنكولن
١٤١٤	شكوى أسقف لنكولن من الحبر الروماني
١٤١٥	شكواه من ظلم الكنيسة
١٤١٩	وفاة روبرت أسقف لنكولن
١٤٢٠	موسيقى وأصوات في السموات
١٤٢١	مجاعة كبيرة في غسكوني
١٤٢٢	اطلاق الملك سراح بعض الأسرى
١٤٢٢	وفاة وليم دي فيزي
١٤٢٣	آلام فرسان شروبري
١٤٢٣	تجاوزات بعض المسلمين
١٤٢٤	حملة كونراد بن فردريك
١٤٢٥	خلاف بين رئيس أساقفة كانتربري والهيئة الكهنوتية في لنكولن
١٤٢٦	ذهاب رئيس الأساقفة إلى دير القديس ألبان

١٤٢٧	امتياز دير القديس أوغسطين في كانتربري
١٤٢٨	ولادة ملكة انكلترا لابنة
١٤٢٨	ذهاب سيمون ايرل ليستر إلى الملك
١٤٢٩	اضطرابات في جامعة باريس
١٤٣٠	وصول البابا إلى روما
١٤٣١	أمثلة على جشع الرومان
١٤٣١	اضطراب الأنواء والبحر
١٤٣١	طرد شعب لى راؤل ونفيه
١٤٣٢	فيضانات البحر والأنهار
١٤٣٢	معجزات في كنيسة لنكولن
١٤٣٣	خلاصة أحداث العام
١٤٣٣	امضاء الملك الشتاء في غسكوني
١٤٣٤	انتخاب هنري ليكسنغتون لأسقفية لنكولن
١٤٣٤	ظاهرة مدهشة في السماء
١٤٣٥	ولاية مخادعة
١٤٣٧	ذهاب بعض المسلمين إلى فرنسا للتعميد
١٤٣٨	وصول غرباء إلى انكلترا
١٤٣٩	مؤامرة في بيون
١٤٣٩	دفن جون هانسارد
١٤٣٩	صقيع لم ينقطع
١٤٤٠	اصلاحات البابا
١٤٤١	الحلم المرعب الذي رآه البابا
١٤٤٣	هزيمة جيش البابا
١٤٤٣	انتخاب أسقف لنكولن
١٤٤٤	موت أسقف كارلآيل
١٤٤٤	موت وليم إيرل فيرير
١٤٤٥	كراهية الصقليين لهنري بن فردريك

١٤٨٩	رغبة الرومان بهدم نوسيرا
١٤٩٠	حصار نوسيرا المخفق
١٤٩٠	ملك انكلترا ينقل جسد أمه
١٤٩١	ذهاب الملك إلى بونتغني للصلوات
١٤٩١	السماح للملك بالسفر خلال فرنسا
١٤٩١	استقباله في جميع أرجاء فرنسا
١٤٩٢	ذهاب الملك الفرنسي إلى استقباله
١٤٩٣	وصول ملك انكلترا إلى باريس
١٤٩٣	اقامته في المعبد القديم
١٤٩٤	اعداد الملك احتفال للفقراء
١٤٩٤	زيارة الملك للأماكن المقدسة في باريس
١٤٩٥	كيف اشترك الملكان بوليمة
١٤٩٦	فخامة الوليمة
١٤٩٦	النبلاء الذين حضروا الوليمة
١٤٩٧	عرض ملك انكلترا نفسه على شعب باريس
١٤٩٨	المحادثات بين الملكين
١٤٩٨	افتراق الملكين
١٤٩٩	اختصار وقائع العام
١٤٩٩	انتظار الملك الريح الطيبة
١٥٠٠	عودة الملك إلى انكلترا
١٥٠١	تعيين هنري وينغهام حافظاً للختم الملكي
١٥٠١	رفض الملك هدية سكان لندن
١٥٠٢	سعي سكان لندن إلى ارضاء الملك
١٥٠٢	مطالبة الملك سكان لندن بدفع ثلاثة آلاف مارك
١٥٠٣	موت آرنولد دو بوي
١٥٠٣	تجريد اليهود من أموالهم
١٥٠٤	الايرل رتشارد يقرض الملك مبلغاً من المال

١٥٠٥	استمرار تساقط الأمطار
١٥٠٥	تنين بحر مدهش
١٥٠٥	فيل في انكلترا
١٥٠٦	ذهاب الملك إلى كنيسة القديس ألبان
١٥٠٦	مقتل أحد الفرسان من أجل ميراثه
١٥٠٧	المعجزات عند قبر روبرت في لنكولن
١٥٠٨	رؤيا البابا الاسكندر
١٥١٠	الرغبة العامة بعقد تحالف مع ملك انكلترا
١٥١٠	عقد البارلمان العظيم في لندن
١٥١٢	الأنواء القاسية
١٥١٢	وفاة وولتر دي غري
١٥١٣	حمل جسده إلى يورك
١٥١٣	جفاف كبير
١٥١٤	معجزات في كنيستي لنكولن وشيكستر
١٥١٤	تعيين رئيس شمامسة لنكولن محل وليم وولف
١٥١٤	تحطيم جيش البابا
١٥١٧	مظالم بلاط البابا
١٥١٨	مراعاة الامتيازات في انكلترا
١٥١٨	الاتهامات ضد روبرت روس وجون بالأويل
١٥١٩	اتهامات رينالد باث للسكوتلنديين
١٥٢٠	فقر بعض الكنائس في انكلترا
١٥٢١	خسوف غير اعتيادي للقمر
١٥٢١	وفاة وارن دي مونتشينسل
١٥٢٢	مرض جون الفرنسي
١٥٢٢	مغادرة جون دي غري للبلاط
١٥٢٢	ذهاب الملك إلى سكوتلندا
١٥٢٤	خلاف بين جامعة باريس والرهبان الدومينيكان

١٥٢٤	مصالحة جون بالأويل مع الملك
١٥٢٥	عودة الملك من سكوتلندا
١٥٢٥	استيلاء الملك على بعض الأموال
١٥٢٦	تكريس وليم كيلكني أسقفاً على إيلاي
١٥٢٦	وصول أسقف طليطلة إلى لندن
١٥٢٧	زواج ابن ملك فرنسا من ابنة ملك قشتالة
١٥٢٨	تبديد الأموال من قبل ملك انكلترا
١٥٢٨	مشورة سيئة من أسقف هيرفورد
١٥٣٠	خيانته غير الاعتيادية
١٥٣١	وصول زوجة ادوارد إلى دوفر
١٥٣٢	الأوضاع التعيسة لمملكة انكلترا
١٥٣٣	منح ادموند ابن ملك انكلترا مملكة صقلية
١٥٣٤	اعاقة الملك انتخاب رئيس أساقفة يورك
١٥٣٤	صلب اليهود لأحد الصبيان
١٥٣٨	شنق عدد من اليهود
١٥٣٨	وصول المعلم روستاند إلى انكلترا من عند البابا
١٥٣٩	البارلمان الذي عقد إثر مهمة روستاند
١٥٤٠	روستاند يدعو إلى حرب صليبية ضد مانفرد
١٥٤١	هدنة في الأرض المقدسة
١٥٤١	مضايقة الملك لرئيس أساقفة يورك
١٥٤١	انسحاب جون دي غري من البلاط
١٥٤٢	رسالة البابا إلى أسقف هيرفورد
١٥٤٣	عقد مجمع في لندن
١٥٤٦	أسقف هيرفورد يسعى إلى اثارة شقاق ديني
١٥٤٧	عودة ادوارد من غسكوني
١٥٤٧	ترتيبات السلام بين أسقف درم وجون بالأويل
١٥٤٨	اصلاح جامعة باريس

١٥٤٩	موت الكاردينال جايل الاسباني
١٥٤٩	غضب الايرل مارشال ضد الملك
١٥٥١	التحاق كثير من الأعوان بهانفرد
١٥٥٢	الاجتماع الثاني للأساقفة أمام روستاند
١٥٥٢	مغادرة أسقف طليطلة انكلترا
١٥٥٤	خصام بين أسقف باث ورئيس رهبان دير غلاستونبري
١٥٥٤	قائمة بأسماء الذين ماتوا في هذه الآونة
١٥٥٥	مختصر لأخبار العام
١٥٥٧	احتفال الملك بعيد الميلاد في وينكستر
١٥٥٩	كسوف الشمس
١٥٦٠	أساقفة انكلترا الذين تمردوا على النائب البابوي
١٥٦١	تدابير من أجل الالتزام بصكوك الامتيازات
١٥٦١	تثبيت صك الملك جون من قبل البابا
١٥٦٣	صك المنحة التي عملها الملك جون
١٥٦٥	تذبذب كبير في القرارات
١٥٦٥	وفاة جون الروماني
١٥٦٦	وفاة وليم اليوركي
١٥٦٦	ارهاق كنيسة روكستر من قبل رئيس أساقفة كانتربري
١٥٦٧	فضيحة اقترفت من قبل الفرنسيسكان
١٥٦٨	اعتقال الشيخ الروماني
١٥٦٨	بارلمان عام عقده الملك الفرنسي
١٥٦٩	الحرب في تورين
١٥٧٠	استدعاء جون أوف دارلنغتون ليكون مستشار الملك
١٥٧٠	منح شرف الفروسية إلى ملك مان
١٥٧١	موت وليم الهولاندي
١٥٧٢	موت كونتسة وارني
١٥٧٢	مهمة وليم أوف هورتون في روما

١٥٧٣	رسالة البابا إلى رئيس رهبان دير القديس ألبان
١٥٧٤	اطلاق سراح السجناء اليهود
١٥٧٤	اجتماع أساقفة انكلترا في لندن
١٥٧٤	استدعاء رؤساء رهبان السسترشيان
١٥٧٦	التماس رئيس رهبان ويردون الرحمة من الملك
١٥٧٧	رسالة البابا لصالح السسترشيان
١٥٧٩	اغلاق الموانىء
١٥٧٩	مبارزة في بلايث
١٥٧٩	رسائل وساطة لصالح طائفة السسترشيان
١٥٨٠	اعتدال البابا في مطالبه
١٥٨١	الفتور العام تجاه البابا
١٥٨١	انتخاب جايل لأسقفية سالسبري
١٥٨٢	انتخاب رالف أوف نورويك لرئاسة أساقفة دبلن
١٥٨٢	سفر رئيس رهبان ويستمنستر
١٥٨٢	مرسوم جديد للملك حول تقليد الفرسان
١٥٨٣	اقامة سلام بين الفلمنكيين والألمان والفرنسيين
١٥٨٣	عاصفة ثقيلة
١٥٨٤	مرسوم في ذكرى الملك أوفا
١٥٨٥	المقاطعات التي كانت تحت حكم الملك أوفا
١٥٨٥	ملحق الملك أوفا بدير القديس ألبان
١٥٨٦	اضطرابات في روما
١٥٨٦	معركة عند سوق بوتولف
١٥٨٧	رسالة البابا إلى ملك انكلترا وملكتها
١٥٨٩	طلب رهبان أبنغدون اذن الملك لانتخاب رئيس للرهبان
١٥٩٠	قدوم جون دي ديا من عند البابا
١٥٩٠	تأكيد اقحام رئيس رهبان وينكستر
١٥٩٠	مكوس جديدة على سكان لندن

١٥٩١	الاستيلاء على ممتلكات روبرت دي روس
١٥٩١	تأسيس السلام بين رئيس رهبان القديس ألبان وويستمنستر
١٥٩٢	تكريس سيوول رئيساً لأساقفة يورك
١٥٩٢	سلام بين أسقف ايلاي ورئيس رهبان رامسي
١٥٩٣	فضيحة في دير الثالوث المقدس في لندن
١٥٩٤	الاعتراف بمانفرد ابناً شرعياً للامبراطور فردريك
١٥٩٥	اطلاق سراح شيخ روما
١٥٩٥	قدوم ملك سكوتلندا وملكتها إلى انكلترا
١٥٩٦	ذهاب ملك انكلترا لاستقبال ملك سكوتلندا وملكتها
١٥٩٧	تقديمات ثمينة من الملك إلى كنيسة القديس ألبان
١٥٩٧	خروج ادوارد لاستقبال الملك
١٥٩٨	وصول أخو ملك اسبانيا إلى انكلترا
١٥٩٨	منح هنتغدون إلى ملك السكوتلنديين
١٥٩٩	هدايا رئيس رهبان وينكستر إلى مائدة البابا
١٥٩٩	جريمة عمدة نورثأمبتون
١٦٠٣	أصل الفريضة المقيتة التي فرضت على الأساقفة
١٦٠٤	الرسالة الشائنة للبابا
١٦٠٦	رفض رئيس رهبان ورهبان ديري درم وغيسبون الخضوع
١٦٠٧	تهديد ملك قشتالة بغزو غسكوني
١٦٠٨	احتلال عمادة يورك
١٦١٠	موت بعض الأساقفة
١٦١١	طلب الملك المال من النبلاء
١٦١٢	انتخاب أسقف لإيلاي
١٦١٢	وضع كنيسة القديس ألبان تحت الحرمان
١٢١٣	فضيحة في دير غلاستونبري
١٦١٤	تثبيت رئيسي أساقفة ودبلن
١٦١٤	جباية العشور من قبل أسقف هيرفورد

١٦٣٥	موت بعض النبلاء
١٦٣٦	جمع رؤساء رهبان السسترشيان
١٦٣٧	موت بعض النبلاء
١٦٣٧	رفض الملك قبول أسقف ايلاي
١٦٣٨	ارسال رسل إلى ملك فرنسا
١٦٣٨	حصول أسقف سالسبري على اذن بالاحتفاظ بموارده
١٦٣٨	الوصاية التي منحت إلى الملكة
١٦٣٩	طائفة رهبانية جديدة
١٦٣٩	تعيين شيخ جديد لروما
١٦٣٩	انتخاب روجر دي مولند لأسقفية شيستر
١٦٤١	وصول رئيس أساقفة ميسينا
١٦٤٢	موت بعض الأساقفة والنبلاء
١٦٤٣	زواج بلدوين ايرل ديفون
١٦٤٣	منح الملك إلى كنيسة القديس ألبان
١٦٤٤	أسماء الملوك القديسين لانكلترا
١٦٤٤	اضطرابات في جامعة اكسفورد
١٦٤٥	عودة رئيس رهبان دير ويستمنستر
١٦٤٥	نهب ممتلكات أسقفية ايلاي
١٦٤٦	ذهاب أسقف ايلاي إلى روما
١٦٤٧	معجزات عند قبر القديس ألبان
١٦٤٧	ارسال مبعوثين إلى ملك فرنسا
١٦٤٨	زيادة عدد وصايات الملكة
١٦٤٨	طائفة جديدة من الرهبان
١٦٤٨	موت مرغريت اخت القديس ادموند
١٦٤٩	عقد بارلمان لوداع الايرل رتشارد
١٦٤٩	استدعاء رئيس أساقفة كانتربري إلى روما
١٦٥٠	مرض أسقف هيرفورد

١٦٥٠	طلب الملك المساعدة لابنه ادموند
١٦٥١	كيف تسلم المتطفلون عمادة يورك
١٦٥١	وصول رئيس أساقفة كولون إلى انكلترا
١٦٥٢	أمر بابوي إلى رئيس رهبان القديس ألبان
١٦٥٣	تقديم الولاء إلى الايرل رتشارد
١٦٥٣	تحصين قلاع نورماندي
١٦٥٤	تقديم الولاء للايرل رتشارد من قبل الألمان
١٦٥٤	الأموال التي بددها الملك
١٦٥٤	مغادرة رئيس أساقفة كولون انكلترا
١٦٥٤	مغادرة الايرل رتشارد انكلترا
١٦٥٥	نقص المؤن بين أتباع الايرل رتشارد
١٦٥٥	إلغاء حكم جائر ضد رئيس رهبان دير القديس ألبان
١٦٥٦	الرسالة التي حصل عليها رئيس رهبان دير القديس ألبان من الايرل رتشارد
١٦٥٦	الربح الذي ابتغي استخراجه من أموال الصرافة
١٦٥٧	مغادرة الايرل رتشارد انكلترا إلى ألمانيا
١٦٥٨	النار الرهيبة التي أحرقت معبد محمد (صلى الله عليه وسلم)
١٦٥٩	النهر الملتهب
١٦٥٩	حصول رهبان بيت لحم على مقر في كمبردج
١٦٦٠	وفاة كاترين ابنة الملك
١٦٦٠	الشكوى التي علمها أسقف روكستر في روما
١٦٦٠	الحملات الويلزية ضد الانكليز
١٦٦١	الحصول على جسد مالكولم ملك السكوتلنديين
١٦٦١	ترميم أسوار لندن
١٦٦١	الخلاف بين سيمون ايرل ليستر ووليم دي بلنسية
١٦٦٢	تحليل رهبان درم
١٦٦٣	إلغاء انتخاب أسقف ايلاي
١٦٦٤	تمتين دفاعات نورماندي

١٦٦٥	وعد أساقفة انكلترا بدفع مبلغ إلى الملك
١٦٦٦	وفاة وولتر أسقف نورويك
١٦٦٦	مرسوم جديد في روما حول الانتخابات الرهبانية
١٦٦٧	استعدادات الملك لحملة إلى ويلز
١٦٦٨	وصول الايرل رتشارد إلى ألمانيا
١٦٦٨	تتويج الايرل رتشارد ملكاً على ألمانيا
١٦٦٩	تعيين جون أوف أفني قهرماناً للملك
١٦٦٩	الخصام بين رهبان دير وينكستر ورهبان غلاستونبري
١٦٧٠	موت موريس فارس ايرلاندا
١٦٧٠	موت روبرت أوف سوثندون
١٦٧٠	استيلاء الويلزيين على قلعة عائدة لايرل غلوستر
١٦٧٠	موت أليس رئيس راهبات كيتباي
١٦٧١	وفاة رئيس رهبان نورويك
١٦٧١	مرض الملك
١٦٧١	مقتل مرافق لوليم دي بلنسية
١٦٧٢	وفاة روجر أوف ويستهام
١٦٧٢	معجزة في كنيسة القديس ألبان
١٦٧٣	مغادرة جامعة باريس لمكانها
١٦٧٣	غارات مدمرة للويلزيين
١٦٧٤	خطاب ألقاه للويلين
١٦٧٥	مرض أسقف هيرفورد
١٦٧٦	اتهام روستاند أمام البابا
١٦٧٦	وصول ملك انكلترا مع جيشه إلى شيستر
١٦٧٧	تثبيت سيمون دي وانتون أسقفاً على نورويك
١٦٧٧	ابتعاد عواطف ملك اسبانيا عن ملك انكلترا
١٦٧٨	عودة مخزية للملك
١٦٧٨	ارسال رسل إلى ملك فرنسا

١٦٧٨	موت نيقولا فارنهام
١٦٧٩	خلاف بين ملكي الدانمارك والنيرويج
١٦٧٩	عودة الملك من ويلز
١٦٨٠	خلع رئيس رهبان دير كليرفو
١٦٨٠	مرسوم جديد في روما بشأن الأساقفة
١٦٨١	عودة هنري بن رتشارد ملك ألمانيا إلى انكلترا
١٦٨٢	الحرمان الكنسي لرئيس أساقفة يورك
١٦٨٢	وصول الملكة إلى كنيسة القديس ألبان
١٦٨٣	خصوبة بيترايس كونتسة بروفانس
١٦٨٣	طغيان التتار
١٦٨٤	دمار الحشيشية من قبل التتار
١٦٨٤	تعيين بطرس دي أوريفالي مستشاراً للملك
١٦٨٤	نبلاء سكوتلندا يتحكمون بالملك والملكة
١٦٨٥	المعارك بين جيمس أودلي والويلزيين
١٦٨٦	ادعاء ملك اسبانيا بملك ألمانيا
١٦٨٧	رسالة ملك اسبانيا إلى ملك انكلترا
١٦٨٩	تحويل منطقة الحدود مع ويلز إلى صحراء
١٦٨٩	مختصر أخبار العام
١٦٩١	احتفال ملك انكلترا بعيد الميلاد في لندن
١٦٩١	وصول أسقف ايلاي إلى انكلترا
١٦٩٢	وفاة وليم هيرون عمدة نورثأمبرلاند
١٦٩٣	اتهامات ضد بعض مواطني لندن
١٦٩٣	وفاة جون أوف أفني
١٦٩٣	تواضع البابا للشيخ برانكليون
١٦٩٥	غضب البابا ضد ملك انكلترا
١٦٩٦	عودة روستاند إلى انكلترا
١٦٩٦	تكريس ثلاثة أساقفة في كانتربري

١٦٩٧	ترتيبات حول المؤن في دير القديس ألبان وعقد اتفاقية
١٧٠١	تثبيت الاتفاقية من قبل الملك
١٧٠٢	من الذي كان وراء تحقيق الاتفاقية
١٧٠٢	عودة روستاند من بلاط روما
١٧٠٣	وصول مبعوث بابوي إلى انكلترا
١٧٠٣	وصول سفن محملة بالقمح إلى انكلترا
١٧٠٤	الطبيعة المدهشة للفصل
١٧٠٥	أوضاع رتشارد ملك ألمانيا
١٧٠٥	وصول توماس أوف سافوي إلى انكلترا
١٧٠٥	الغرامة التي فرضت على سكان لندن
١٧٠٥	انتهاء الهدنة بين الانكليز والويلزيين
١٧٠٦	حشد فرسان انكلترا ضد الويلزيين
١٧٠٦	عقد بارلمان في لندن
١٧٠٨	اجتماع الفرسان للزحف ضد الويلزيين
١٧٠٩	تكريس أسقف كارلآيل
١٧٠٩	وفاة رئيس أساقفة أرماغ
١٧٠٩	اضطرابات رئيس أساقفة يورك
١٧١٠	مرض أسقف هيرفورد
١٧١٠	تخلي ادوارد عن عزبه إلى وليم دي بلنسية
١٧١٠	وصول الراهب الفرنسيسكاني مانسيوتوس من عند البابا
١٧١١	جواب البارلمان للملك
١٧١٢	فرض البابا أمراً خداعاً على ملك انكلترا
١٧١٣	موت رئيس أساقفة تريف
١٧١٣	منح الملك مساعدة مالية
١٧١٤	ارسال سيمون باسليف بمهمة لاستخراج الأموال
١٧١٥	ذهاب سيمون باسليف إلى دير القديس ألبان
١٧١٩	خداع سيمون المتقدم ذكره

١٧٢٠	شق الرهبان الفرنسيسكان طريقهم إلى داخل مدينة القديس ادموند
١٧٢١	اكمال أعمال البارلمان
١٧٢٢	الأنواء غير الموسمية
١٧٢٣	بعثة خاصة إلى الملك الفرنسي
١٧٢٣	تأسيس دير رهباني من قبل جون مانسيل
١٧٢٣	وفاة سيوول رئيس أساقفة يورك
١٧٢٤	أقوال وأفعال رئيس الأساقفة المذكور
١٧٢٦	معجزة الماء الذي تحول إلى خمرة
١٧٢٧	مجاعة كبيرة في انكلترا
١٧٢٧	رسالة ملك اسبانيا إلى ملك ألمانيا
١٧٢٩	عودة رئيس رهبان القديس ادموند من البلاط الروماني
١٧٢٩	البارلمان الذي عقد في اكسفورد
١٧٣٣	الخلاف في روما بين البابا والشيخ برانكليون
١٧٣٤	حصول رئيس رهبان دير رامسي على اقامة السوق في سينت ايف
١٧٣٤	وفاة رتشارد رئيس رهبان دير ويستمنستر
١٧٣٥	موت فيليب رئيس رهبان دير ويستمنستر
١٧٣٦	انتخاب رئيس لأساقفة يورك
١٧٣٦	موت بسبب المجاعة
١٧٣٧	مغادرة إخوة الملك لأمه انكلترا
١٧٣٩	مصادرة مبلغ من المال في دوفر
١٧٣٩	رغبة الويلزيين بالتصالح ◦
١٧٣٩	قبول أهل لندن بالمشاركة بقرارات البارونات
١٧٤٠	تسميم عدد من النبلاء في انكلترا
١٧٤٠	عدم استقرار فولك أسقف لندن
١٧٤١	الكلام القاسي الذي وجهه الملك إلى ايرل ليستر
١٧٤٢	العثور على أوراق مختومة بختم البابا
١٧٤٣	العثور على السم

١٧٤٣	وحشية أسقف وينكستر
١٧٤٤	نقاهة ايرل غلوستر
١٧٤٥	كيف دمر برانكليون بعض حصون قطاع الطرق
١٧٤٥	شكاوى ضد البواتيين
١٧٤٥	السماح للبواتيين بالعودة إلى الوطن عبر فرنسا
١٧٤٦	زيادة المجاعة في انكلترا
١٧٤٧	الإعلان عن صوم
١٧٤٨	وفاة أسقف لنكولن
١٧٤٨	مغادرة مندوب البابا لانكلترا
١٧٤٩	مصادرة أموال أسقف وينكستر
١٧٤٩	قلق ملك فرنسا من أجل إقامة سلام مع انكلترا
١٧٥٠	تعيين أربعة فرسان للبحث في مآسي الفقراء
١٧٥٠	غضب الملك ضد فيليب لوفل
١٧٥٢	إلقاء عمدة نورثأمبتون في السجن
١٧٥٢	وفاة روجر أوف ويكهام
١٧٥٢	وفاة وليم أوف تارنتوم
١٧٥٣	ارسال رسل إلى البابا
١٧٥٣	خيانة ضد الويلزيين
١٧٥٤	تكريس رئيس أساقفة يورك
١٧٥٤	رغبة رئيس أساقفة كانتربري بأداء قداسات في كنيسة القديس ألبان
١٧٥٥	انتخاب أسقف للنكولن
١٧٥٦	تكريس كنيسة سالسبري
١٧٥٦	خلع فيليب لوفل
١٧٥٦	متابعة المراقبة ضد العمد
١٧٥٧	ارسال مندوبين من انكلترا إلى بارلمان كامبري
١٧٥٧	تكريس أسقف لنكولن
١٧٥٨	تتويج مانفرد ملكاً على أبوليا

١٧٩٤	التحالف ضد المستشارين الأشرار
١٧٩٤	طرد الامبراطور بلدوين من القسطنطينية
١٧٩٥	مختصر أخبار العام
١٧٩٥	مغادرة الملك لبرج لندن
١٧٩٦	انسحاب الملك من يمينه
١٧٩٦	خضوع الملك والنبلاء إلى تحكيم ملك فرنسا
١٧٩٧	قرار ملك فرنسا ضد البارونات
١٧٩٧	عودة الملك من البارلمان الفرنسي
١٧٩٨	أعمال روجر مورتيمير ضد البارونات
١٧٩٩	إجراءات البارونات
١٨٠٠	توقف انهيار السلام
١٨٠١	تحصين قلعة ويندسور
١٨٠١	اعطاء قلعة ويندسور إلى الايرل سيمون
١٨٠١	اعطاء صقلية إلى الكونتت شارل
١٨٠٤	زحوف الملك والبارونات
١٨٠٤	رسالة البارونات إلى ملك انكلترا
١٨٠٤	جواب الملك على الرسالة
١٨٠٥	رسالة رتشارد ملك ألمانيا إلى البارونات
١٨٠٦	رفض طلب البارونات
١٨٠٧	استراتيجية سيمون دي مونتفورت
١٨٠٨	المعركة بين بارونات انكلترا والملك
١٨٠٨	رغبة البارونات بالسلام
١٨١٠	مآسي وفواجع انكلترا
١٨١١	وصف العام
١٨١٢	إجراءات سيمون دي مونتفورت
١٨١٢	إجراءات أهل تخوم ويلز
١٨١٢	حرمان البارونات كنسياً

★★★ ★★★ ★★★